Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

جولة في تاريخ
الترك والتركمان
عبر العصور والأزمان

- الجزء الأول-

إعداد الباحث
طارق إسماعيل كاخيا
التركماني

أضنة – تركيا
غرة محرم 1437 هـ \ 14-10-2015 م

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

إهداء 1
تقديم 2
1. **مدخل** 6
لمحة موجزة عن الأعراق البشرية 6
مجموعة الشعوب الألتائية 6
فروع الشجرة الالتائية (التركية) 6
أولا : الأتراك 7
ثانيا : المغول 7
ثالثا : التونغوز (المنشوريون) 7
رابعا : الكوريون 7
خامسا : اليابانيون 7
2. **إمبراطوريات ودول التاريخ التركي القديم** 8
إمبراطورية توكيو Tou - Kue (الغز) 9
إمبراطورية الهون (هيونغ – نو) (Hsiung-nu) 9
دولة الأتراك توبا Topa - Wei 10
إمبراطورية جوان - جوان Guen - Guen (400 - 552 م) 10
إمبراطورية توكيو Tu - kue 11
الآفار Avars (من منتصف القرن 6 - نهاية القرن 8) 12
إمبراطورية الخزر (من أواخر ق 6 – ق 11) 12
الترك البجناك Besheneg (البشناك - البشناق) 13
إمبراطورية الأيغور Uighur 745- 1250 م 13
القبائل التركية التي وردت في المصادر التاريخية والجغرافية العربية 14
3. **بلاد ماوراء النهر (ماوراء نهر جيحون)** 16
إقليم خراسان : 16
الأتراك والعرب : 16
4. **ظهور الدويلات المستقلة عن الخلافة :** 18
نبذة عن بعض كبار القادة الأتراك في جيش الخلافة العباسية 18
الأفشين : 18
إيتاخ : 18
أشناس : 19
بغا الكبير : 19
بغا الصغير : 19
أتامش : 19
وصيف : 19
الدولة الطولونية (254 - 292 هـ) 20
الدولة الإخشيدية (333 - 358 هـ) 21
الدولة الفاطمية (297 - 567 هـ) * حوالي 270 سنة 22

السلاجقة : **23**

الزنـكيون : **23**

البطل الشهير المسلم – نور الدين محمود : 24

البطل الشهير المسلم صلاح الدين الأيوبي : 24

دولة المماليك البحرية الأتراك **24**

قوام الجيش في دولة المماليك 25

علاقة المماليك بالشعب العربي 25

أهم منجزاتها 25

أهم شخصيات هذه الدولة : 25

الدولة الرسولية Rasulids **26**

دولة المماليك البرجية (دولة المماليك الثانية) في مصر **27**

الدولـة السـامانية **27**

الدولـة الغزنوية : **27**

الدولة الخوارزمية **28**

الدولة الكرختائية (القرخطائيون) **29**

الملوك الغوريون **29**

الدولة الأفراسابية أو الإيلك خانية أو القره خانية **29**

إمبراطورية المغول بقيادة جنكيزخان **29**

الفتوحات المغولية : 31

فتوحات جنكيزخان والمغول في أوربا : 31

شخصية الفاتح العظيم جنكيزخان : 33

1 - دينـه : 33

2- قـوانـينه : 33

3 - أخـلاقـه : 33

4 - شكله ومظهره الخارجي : 34

5 - خـلفاء جـنكيزخـان : 35

1- أوكتاي خاقان - قاآن - الخان الأعظم 35

2 - كيوك قا آن 644-647 هجرية ، 1246- 1248م 35

3 - منكو قا آن (1259-1251) 36

4 - قوبيلاي قا آن 1259- 1294م 37

5 – هولاكو خان : 1217- 1265م 37

اشهر قادة المغول في التاريخ: 38

1 - سوبوتاي : 38

2 - جيبي Gebe : 38

3 - تولوي : 38

4 - كيتوبوغا - كتبغا : 38

كيف انـتشر الإسلام في روسيا : 39

دولة تيمورلانك : **39**

السلالات التركية الحاكمة الـهـنـد : **40**

الدول الإسلامية التي حكمت الهند: **40**

1 - دولة المماليك الأتراك في الهند : 40

2 - الدولة الخلجية : 42

3 - دولة أباطرة المغول العظام في الهند : 42

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

آ- ظهير الدين محمد بابر (البطل المؤسس): 899 - 937 هجري 43
ب - نصير الدين محمد همايون بن بابر 937-963 هجرية 44
ج - جلال الدين محمد أكبر (963 - 1013هجري) 44
د - نور الدين محمد جهان كير : 46
هـ - شاه جهان 1037- 1067هـ صـ 208: 46
و- محمد محي الدين (أورنك زيب عالم كير) 1069- 1118 هجرية..... 47

أهم البلاد التي حكمها الترك :..... 49
1 - روسيا والسهوب الروسية تحت الحكم التركي :..... 49
لمحة تاريخية موجزة عن التتار :..... 53
2 - إيـــران تحت الحكم التركي :..... 54
آ - الأخـمـينـيون : 54
ب - الامبرطورية البارثية (Parthia Impire) : من 250 ق.م — 224 م - 464 سنة 55
ج - الامبراطورية الساسانية : من سنة 224--- 651 م 55
د - الحكم العربي والحركات والدول الانفصالية..... 57
1 - الدولة الطاهرية :..... 57
2 - الدولة الصفارية : 253 - 298 هجرية - 867 - 910 م..... 57
3 - الدولة السامانية : 204- 395 هـ / 819 - 1005م 57
4 - الدولة البويهية : 323 - 447هجرية - 934 -1055م..... 58
5 - الدولة الغزنوية : 366 - 582 هـ أي دامت 216 عاما :..... 58
6 - دولة طبرستان 255- 355هجرية 868 - 965 م..... 59
3 - إيران تحت حكم الإمبراطوريات التركية المتعاقبة عليها :..... 59
آ - السـلاجـقـة :..... 59
ب - الـدولة المغـوليـة :..... 61
1 - الدولة الأيلخانية :..... 61
2 - الـدولـة التـيمورية :..... 62
ج - الدولة الصفوية وظهور اسماعيل الصفوي التركماني 62
د - الأفشاريون التركمان يحكمون إيرا ن : 63
هـ - سلالة القاجار Qajars الأتراك 1794- 1925م : 64

الدولة السلجوقية (1037 – 1194).....66

تقديم :..... 66

التاريخ الحربي :..... 67
التأسيس : 67
الحرب مع البويهيين : 69
ألب أرسلان : 70
جلال الدولة ملك شاه :..... 71
الحرب مع البيزنطيين (معركة ملاذكرد و سلاجقة الروم) :..... 72
الحرب مع الصليبيين (الحملة الصليبية الأولى و الحملة الصليبية الثانية) : 73
الانحطاط والسقوط : 75

النظام العسكري :..... 76
تقسيمات ورتب الجيش : 76
تنظيم الجيش :..... 76
قوات الجيش :..... 77
الأسلحة والتحصينات الحربية :..... 77

الدولة والحضارة :..... 77
دعم العلم والعلماء : 77
الحياة المدنية :..... 78

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الفن والثقافة : 79
الوزارة : 80
المدارس النظامية : 80
قائمة السلاطين : 81
سلاجقة كرمان 1041 - 1187 : 81
سلاجقة الشام 1076-1117 : 82
سلاطين وأمراء دمشق : 82
أتابكة حلب : 82
سلاجقة الروم في الأناضول (470 - 708هـ / 1077-1307 م) : 82
طغرل بك 83
ألب أرسلان 83
أرتقيون 86
تاريخ الأرتقيون : 86
قائمة الأمراء في ماردين : 86
قائمة الأمراء في خرتبرت 87
زنكيون 88
تقديم : 88
العمران : 88
الزنكيون في حلب : 88
الزنكيون في دمشق : 89
آق سنقر البرسقي 89
عماد الدين زنكي 89
مدخل : 89
مقدمة : 90
البطل بن البطل : 90
من القيادة إلى الولاية : 90
الأوضاع على الجبهة الشامية : 91
بناء القاعدة الصلبة : 91
رجل المهام الصعبة : 92
فتح الرها : 92
الأبطال لا يقتلون إلا غدرا : 93
الملك العادل : نور الدين زنكي 94
تقديم : 95
الأصول وبداياته : 95
وصول الزنكيون إلى الإمارة : 95
نشأته : 96
إمارة حلب : 96
توسع الإمارة في بلاد الشام والعراق : 96
ضم الرها : 96
ضم دمشق : 97
ضم شيزر : 97
ضم بعلبك : 97
ضم حران : 98

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

ضم قلعة جعبر : 98
ضم الموصل : 98
الحروب الزنكية ضد الصليبيين : 98
قبل الحملة الصليبية الثانية : 99
الحملة الصليبية الثانية : 99
ما بعد الحملة الصليبية الثانية : 101
حروبه مع مملكة بيت المقدس : 101
قلعة بانياس : 101
حروبه مع إمارة طرابلس : 102
حصن عريمة : 102
معركة حصن الأكراد (البقيعة) : 102
فتح حصن المنيطرة وبعض الحصون 103
حربه مع إمارة أنطاكية : 103
معركة أنب : 103
معركة حارم : 104
حربه مع جوسلين الثاني : 104
ضم مصر : 105
الحملة النورية الأولى : 106
الحملة النورية الثانية : 106
الحملة النورية الثالثة : 107
حصار دمياط : 107
إسقاط الدولة الفاطمية : 108
العلاقة مع الإمبراطورية البيزنطية : 108
أهم صفاته الشخصية : 109
حرصه على تطبيق الشريعة : 109
عدله : 109
تدينه وزهده : 110
تثبيته للمذهب السني : 111
في حلب : 111
في مصر : 111
دمشق – الشام : 111
وفاته : 112

أسد الدين شيركوه بن شاذي 112

تقديم : 112
1 - من تكريت إلى الموصل إلى حلب : 113
2 - من عماد الدين إلى نور الدين في حلب : 113
3 - أسد الدين المعلم في دمشق والبلاد الشامية : 113
4 - أسد الدين فاتح الديار المصرية : 114
5 - أسد الدين المرعب : 114
6 - العزيمة الفولاذية : 115
6 - الخيانة العمياء : 115
7 - الفتح الأخير : 115

الملك الناصر أبو المظفر يوسف بن أيوب صلاح الدين الأيوبي 116

تقديم : 116
1 - نسبه ونشأته 117
2 – بدايته 118
3 - تأسيس الدولة في مصر 120
تولي الوزارة وإسقاط الدولة الفاطمية 120

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

سلطان مصر 121
4 - ضم الشام 122
فتح دمشق 122
فتوحات الشام الداخلية 123
الحملة على الحشاشين 125
5 - العودة إلى مصر والغزوات في فلسطين 126
الحرب والهدنة مع بلدوين الرابع 127
6 - القضايا المحلية 128
7 - توسع الدولة 129
فتح أطراف بلاد ما بين النهرين 129
ضم حلب 130
حربه من أجل الموصل 131
8 - الحروب ضد الصليبيين 132
معركة حطين 133
تحرير الساحل الشامي 134
فتح القدس 135
حصار صور وعكا 136
الحملة الصليبية الثالثة 136
9 – وفاته 138
الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين 139
10 – أسرته 139
11 – صلاح الدين في الوعي الأوروبي 140

مماليك مصر: الدولة المملوكية (1517 – 1250) 142

تقديم : 142

أصل المماليك : 143

تربية المماليك : 143

عود على بدأ 145
مماليك الدولة الإخشيدية والفاطمية : 145
مماليك الصالح نجم الدين أيوب : 145

دولة المماليك : 145

تأسيس الدولة المملوكية البحرية : 146

قائمة سلاطين المماليك البحرية 147

قائمة سلاطين المماليك البرجية 147

نظام الدولة المملوكية : 148

قائمة ببعض الألقاب الدارجة في عهد المماليك : 151

أشهر سلاطين المماليك البحرية التركمان 155
أولا : شجر الدر 155
تقديم : 155
1 - إدارتها لشؤون الحرب : 156
2 - توليها العرش : 156
التخلص من توران شاه : 156
المبايعة : 156
تصفية الوجود الصليبي : 156
- المعارضة : 157

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

3 - تنازلها عن العرش : 157
4 - قتل فارس الدين أقطاي : 157
5 - وفاتها : 157
ثانيا : الملك المظفر سيف الدين قطز 158
تقديم : 158
1 - أصله ونشأته : 158
2 - وصايته على الحكم : 158
3 - توليه الحكم : 159
4 - الإعداد للقاء التتار : 159
استقرار الوضع الداخلي : 159
التصالح مع المماليك البحرية : 160
التوحد مع الممالك المحيطة بمصر : 160
حل الأزمة الاقتصادية : 160
5 - قطز في معركة عين جالوت : 161
عند وصول رسل التتار : 161
في أرض المعركة : 162
6 – مقتله : 162
7 - دينار قطز : 164
ثالثا : الملك الظاهر ركن الدين بيبرس العلائي البندقداري الصالحي النجمي 164
تقديم : 164
1 - أصله ونشأته : 164
2 – بزوغه : 165
معركة المنصورة : 165
توران شاه : 165
صراع المماليك : 165
معركة عين جالوت : 166
3 - مقتل قطز : 167
4 - بيبرس السلطان : 167
السياسة الداخلية : 167
- ثورة علم الدين سنجر : 167
- ثورة الكوراني : 167
- إحياء الخلافة العباسية : 167
- ترميم القلاع وطرق الإمداد : 168
- النهضة المعمارية والتعليمية : 168
- إصلاح المساجد والأماكن المقدسة : 168
السياسة الخارجية : 168
- التحالفات : 168
- الجهاد ضد المغول : 169
- الحروب مع الصليبيين (معركة أرسوف 1265) : 169
- حربه مع أرمينية الصغرى : 169
- سقوط إمارة أنطاكية : 170
5 - وفاته : 171
6 – صفاته : 171
7 - مختصر سيرته في كتب التاريخ : 171
رابعا - الناصر محمد بن قلاوون 171
تقديم : 171
1 - ماقبل السلطنة 171
2 - تنصيبه 172
3 - ظهور حسام الدين لاجين وخلع الملك الناصر 173

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

2 - الناصر محمد بن قلاوون (فترة حكم ثانية) 173
1 - عودة الناصر محمد إلى مصر 173
2 - معركة وادى الخزندار 1299..... 174
3 - تحرير جزيرة أرواد وغزو مملكة قليقية 174
4 - قلاقل واضطرابات داخلية 175
5 - معركة شقحب (معركة مرج الصفر) 176
6 - انجازات الناصر محمد ورحيله إلى الكرك 176
3 - الناصر محمد بن قلاوون (فترة الحكم الثالثة) 177
1 - عودة الملك الناصر من الكرك 177
2 - عودة الناصر محمد 178
3 - الانتقام من بيبرس الجاشنكير وسلار..... 178
4 - محاربة الفساد 179
5 - الموقف الداخلي والخارجي..... 179
6 - علاقة مصر بالعالم الخارجي..... 180
7 - الرحالة ابن بطوطة زار مصر في عهد الملك الناصر. 181
8 - الحج 181
9 - المماليك في عهد الناصر محمد 181
10 - وفاته..... 182
11 - بعض أثاره ومنشآته..... 182
أهم معارك المغول في الشام مع المماليك..... 184
أولا - معركة عين جالوت..... 184
تقديم :..... 184
1 - البداية :..... 184
2 – ما قبل المعركة :..... 184
موقف الصليبيين :..... 185
3 - المعركة :..... 185
4 - ما بعد المعركة :..... 186
المماليك : 186
المغول :..... 186
ثانيا - معركة حمص الأولى 187
تقديم :..... 187
1 - البداية..... 187
احتلال حلب : 187
2 - المعركة : 188
ما قبل المعركة :..... 188
خطة المغول العسكرية..... 188
خطة المسلمين العسكرية : 188
3 – ما بعد المعركة : 188
ثالثا - معركة حمص الثانية 189
تقديم :..... 189
1 – البداية : 189
2 – المعركة :..... 189
تقسيم الجيش :..... 189
بداية المعركة :..... 190
خطة أزدمير الحاج :..... 190
3 – النصر : 190
4 - ما بعد المعركة :..... 191
معركة وادي الخزندار 191

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

تقديم : 191
1 - خلفية المعركة : 192
2 - زحف المغول على الشام : 193
تآمر المغول الأويراتية : 193
3 – المعركة 194
4 - دخول المغول دمشق : 195
5 - انسحاب جنود الناصر إلى مصر : 196
6 - إعادة تنظيم الجيش : 196
خامسا - معركة شقحب 197
1 - تقديم : 197
2 - زحف المغول على الشام : 198
3 - المعركة : 198

الدولة الرسولية في اليمن 1229 م – 1454 م 200

تقديم : 200
التسمية 200
الاستقلال عن الدولة الايوبية 200
توحيد اليمن تحت حكمهم 201
تمردات 202
المجاهد علي 202
خلف المجاهد 203
الامتداد الجغرافي 203
الانجازات 203
تميز حكمهم : 204
الملوك : 204
الجيش 205

الحملات الصليبية 206

تقديم : 206
التسمية : 206
السياق التاريخي : 206
الوضع في منطقة الشرق : 207
حاله دول أوروبا الغربية : 207
دوافعها : 208
الدافع الأساسي : 208
الدوافع الدينية : 208
الدوافع الاجتماعية : 208
العلاقة مع الإسلام : 208
التوترات بين روما والقسطنطينية : 209
الحملات الرئيسية : 209
حملة الفقراء أو حملة الشعب : 209
الحملة الصليبية الأولى 209
الحملة الصليبية الثانية 209
معركة حطين : 210

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الحملة الصليبية الثالثة 210
الحملة الصليبية الرابعة 210
الحملات الصليبية الطفولية : 211
الحملة الصليبية الخامسة : 211
الحملة الصليبية السادسة : 211
الحملة الصليبية السابعة : 211
الحملة الصليبية الثامنة : 212
الحملة الصليبية التاسعة 212

تأثيرات الحملات الصليبية : 212

الحروب الصليبية في الذاكرة الإنسانية : 213

معركة أرسوف 1265 214
1 – تقديم : 214
2 – البداية : 214
3 - محاصرة أرسوف وسقوطها 214

الدولة الصفوية 1501 – 1736 216

1 - تقديم 216

2 – البداية 217

إسماعيل الصفوي 217
تقديم : 218
1 - قبل الصفويين 218
2 - المولد والنشأة 219
3 - المذهب الشيعي.. المذهب الرسمي للدولة 219
4 - استدعاء علماء شيعة جبل عامل من لبنان : 219
5 - اعماله الدينية 221
6 - الصفوي في مواجهة الأوزبك 221
7 - الهزيمة أمام العثمانيين في موقعة جالديران 222
8 - ما بعد الهزيمة 222
9 - آثار السقوط والهزيمة : 223

قائمة شاهات الدولة الصفوية 223

تحويل الصفويين إيران من المذهب السني إلى الشيعي 223
تقديم 223
1 - قبل عهد الصفويين 223
2 - أسباب تحول الإيرانيين للمذهب الشيعي 224
3 – أرتباط الايرانيين وعلاقتهم بعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب 224
3 - إسماعيل الأول 224
4 - الأسباب لسياسة إسماعيل التحويلية 225
5 - أساليب تحويل إيران 225
5 – 1 - تدمير مساجد السنة 225
5 - 2 - أجبر الخطباء على شتم الخلفاء الراشدين الثلاثة : 225
5 - 3 - أباح دم أهل السنة ودمر ودنس المقابر والمساجد السنية : 225
5 – 4 - اضطهاد وسجن وأعدام المقاومين السنيين بعناد 225
6 - مصير العلماء السنة والشيعة 226
6 - 1 - العلماء السنة 226
6 – 2 - العلماء الشيعة العرب 226

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

7 - أثر التحويل خارج إيران 226
7 – 1 – أذربيجان 226
7 – 2 – العراق 226
8 - أمور مهمة في عملية التحويل 227
8 – 1 - إسماعيل الثاني 227
8 – 2 - عباس الأول من بلاد فارس 227
8 – 3 - محمد باقر المجلسي 227
8 – 4 - السلطان حسين 227
8 – 5 - نادر شاه 228
8 – 5 – 1 - من أسباب اعتماد سياسة معادية للشيعة : 228
8 – 5 – 2 - الأمور التي أنجزها الشاه نادر لتحقيق سياسته المعادية للشيعة : 228
9 - النتائج التاريخية لسياسة إسماعيل التحويلية 229

الحروب والمعاهدات العثمانية الصفوية 229
1 - تقديم : 229
2 - السلالات التي حكمت فارس خلال القرون الحديثة المُبكرة 229
3 – أهم المعارك والمعاهدات التي حدثت بين الطرفين 230
4 - معركة جالديران (1514) [1] 230
تقديم : 230
1 – البداية 231
2 - الاستعدادات للمعركة 231
2 – 1 - الاستعداد الداخلي 231
2 – 2 - الاستعداد الخارجي 231
3 - المسير إلى جالديران 232
3 -1 - مراسلات السلطان 232
4 – المعركة 232
5 - ما بعد المعركة 233
5 -1 - التوسع ما بعد جالديران 233
6 - آثار المعركة 233
6 – 1 - على العثمانيين 233
6 – 2 - على الصفويين 234
5 - فتح بغداد (1534) 234
تقديم : 234
آثار ونتائج المعركة 234
6 - معاهدة قصر شيرين 234

الدَّوْلَةُ العُثْمَانيَّة : 1299 - 1923 236

تقديم : 237

1 - التاريخ 237
1 – 1 - أصل العثمانيين وموطنهم الأول 237
1 – 2 - قيام الدولة العثمانية (1299 – 1453) : 238
1 – 3 - دور التوسع والقوة (1453– 1683) 241
1 – 3 – 1 - حقبة النمو والازدهار (1453 – 1566) 241
1 – 3 – 2 - حقبة الركود والانتعاشات (1566 – 1683) 243
1 – 4 - دور الركود (1683 – 1827) 245
1 – 5 - دور الأفول والتنظيمات (1828 – 1908) 248
1 – 6 - دور الانحلال وخاتمة الدولة (1908 – 1922) 252
1 – 6 – 1 - الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918) 253

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

1 – 6 – 2 - حرب الاستقلال التركية (1919 – 1922) 254
1 – 6 – 3 - المُدعون بالحق في عرش آل عثمان 255

2 – الاقتصاد 256
2 – 1 – العملة 257
2 – 2 – التجارة :..... 257
2 – 3 - الزراعة والصناعة..... 258

3 - نظام الحكم..... 258
3 – 1 - الجهاز الإداري المركزي..... 258
3 – 2 - الجهاز الإداري المحلي..... 260
3 – 3 - البرلمان والدستور العثماني..... 260

4 - المجتمع والثقافة 262
4 – 1 - البنية الاجتماعية..... 262
4 – 2 – التعليم..... 262
4 – 3 – العبيد..... 263
4 – 4 - العمران 264
4 – 5 - الفنون والآداب..... 265

7 – الديمغرافيا : 266
7 – 1 – اللغة..... 266
7 – 2 – الدين 267
7 – 2 – 1 – الإسلام..... 267
7 – 2 – 2 – المسيحية..... 267
7 – 2 – 3 – اليهودية..... 267
6 - القانون والقضاء 268
مجلة الأحكام العدلية..... 268
7 – الجيش 268
7 – 1 - القوات غير النظامية (1237–1365) 268
7 – 2 - الجيش النظامي الأول (1365 – 1828)..... 269
7 – 3 - الجيش النظامي الثاني (1826 – 1922)..... 269
7 – 4 - البحرية والأسطول..... 269
8 - قائمة السلاطين والخلفاء العثمانيين :..... 270

سلاطين أل عثمان حسب الأدوار التي مرت بها الدولة العثمانية..... 272
دور العروج (1453 – 1299) 272
دور التوسع (1683 – 1453)..... 272
دور الجمود (1827 – 1683)..... 272
دور الأفول (1908 – 1828) 272
دور الانحلال (1923 – 1908)..... 272
1 - سليمان شاه 272
1 - تقديم : 272
2 - ضريح سليمان شاه..... 272
3 - نقل الضريح : تم نقل الضريح مرتين :..... 273
ما مدى أهمية ضريح سليمان شاه بالنسبة للأتراك ؟..... 273
2 – أرطغرل بن سليمان شاه..... 274
1 - تقديم : 274
2 – سيرته..... 274
3 - ارثه التاريخي..... 275
3 - عثمان الأول بن أرطغرل : مؤسس الدولة العثمانية..... 275

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

1 - تقديم 275
2 – أعماله..... 275
3 - أهم الصفات القيادية في عثمان الأول 275
4 - الدستور الذي سار عليه العثمانيون..... 277
4 - أورخان غازي بن عثمان الأول 277
1 - تقديم : 277
2 – عائلته 278
3 – أعماله..... 278
4 - سياسة أورخان الداخلية والخارجية..... 278
5 - العوامل التي ساعدت السلطان أورخان في تحقيق أهدافه..... 279
5 - مراد الأول ابن أورخان غازي..... 279
1 - تقديم 279
2 - تنظيم السلطنة العثمانية..... 279
3 - بداية عهده وأول فتوحاته..... 279
3 – 1 - ضم بلغاريا 280
3 – 2 - فتح الصرب وقهر تمرد ابن السلطان 280
4 - تنظيم فرق الخيالة (السباهي)..... 280
5 - أخلاقه وإيمانه الإسلامي 280
6 – وفاته 281
6 - بايزيد الأول ابن مراد الأول (الصاعقة)..... 281
1 - تقديم : 281
2 – نشأته..... 281
3 – فتوحاته 281
4 - غزوه لأوربا 281
4 – 1 - موقفه من الصرب..... 282
5 - معركة نيقوبولس 282
6 - معركة أنقرة..... 282
7 - محمد الأول أبن بايزيد الأول (محمد جلبي)..... 283
1 - تقديم : 283
2 - حروبه الداخلية :..... 283
3 – وفاته : 285
8 - مراد الثاني ابن محمد الاول 285
1 - تقديم 285
2 - فترة حكمه 285
3 - تخليه عن الحكم للمرة الاولى : 287
4 - تخليه عن الحكم للمرة الثانية..... 287
9 - محمد الفاتح ابن مراد الثاني 288
تقديم :..... 288
1 - بداية حياته..... 289
1 – 1 - إخبار نبي الإسلام عنه..... 289
1 – 2 - مولده ونشأته 289
1 – 3 - اعتلاؤه العرش للمرة الأولى وتنازله عنه :..... 290
2 - الفترة في مانيسا (1446 – 1451)..... 290
3 - اعتلاؤه العرش للمرة الثانية وفتح القسطنطينية 290
3 – 1 - الإعداد للفتح..... 291
3 – 2 - عقد معاهدات..... 292
3 – 3 - الهجوم والغزو لفتح القسطنطينية 292

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

3 – 4 - ما بعد الفتح 294
4 - الفتوحات التالية 295
4 – 1 - فتح بلاد موره ومحاربة المجر 295
4 – 2 - توحيد الأناضول 295
4 – 3 - محاربة أمير الفلاخ 296
4 - 4 – فتح البوسنة والعداء مع البندقية 296
4 – 5 - فتح إمارة قرمان ومحاربة المغول 297
4 – 6 - محاربة البغدان وإنهاء الصراع مع البنادقة 298
4 – 7 - فتح جزر اليونان ومدينة أوترانت وحصار رودوس 299
5 - ترتيبات السلطان الداخلية : 299
5 – 1 - اهتمامه بالمدارس والمعاهد : 299
5 - 2 - اهتمامه بالعلماء 300
5 - 3 - اهتمامه بالشعراء والأدباء 300
5 - 4 - اهتمامه بالترجمة 300
5 - 5 - اهتمامه بالعمران والبناء والمستشفيات 300
5 – 6 - الاهتمام بالتجارة والصناعة 301
5 – 7 - الاهتمام بالتنظيمات الإدارية : 301
5 – 8 - اهتمامه بالجيش والبحرية 302
5 – 9 - اهتمامه بالعدل 302
6 - وفاته وذكراه : 303
10 - بايزيد الثاني ابن محمد الفاتح 304
1 - تقديم : 304
2 - الصراع مع أخيه جم على السلطة 304
3 - موقفه من مماليك مصر : 305
4 - بايزيد الثاني والدبلوماسية الغربية : 305
5 - جهاده وفتوحاته : 305
6 - وقوفه مع مسلمي الأندلس : 306
7 - أعماله الأخرى : 308
8 – وفاته : 308
11 - سليم الأول ابن بايزيد الثاني (القاطع) 309
تقديم : 309
1 - حياته قبل السلطنة : 309
1 – 1 - حكم طرابزون 310
1 – 2 - العصيان على السلطان وتنازله عن المُلك 310
2 - اعتلاؤه العرش ومحاربة إخوته 311
3 - الحملة الصفويّة 311
3 – 1 - خلفيّة النزاع 311
3 – 2 - السبب الرئيسي والاستعداد للحرب 312
3 – 3 - معركة چالديران 312
4 - الحملة المملوكيّة 313
4 – 1 - خلفيّة النزاع 313
4 – 2 - فتح الشام ومعركة مرج دابق : 313
4 – 3 - فتح مصر ومعركة الريدانية 314
4 – 4 - ما بعد الريدانيّة 315
5 - بداية الصدام مع البرتغاليين 316
5 - 1 - خلفيّة النزاع 316
5 – 2 - ضم الجزائر 316

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

5 - ما بعد الفتوحات 317
7 - ترتيبات السلطان الداخلية 318
7 - 1 - الإصلاحات العسكرية..... 318
7- 2 - إصلاح البحريّة..... 318
7 – 3 - العمران والبناء : 318
7 – 4 - اهتمامه بالأدب..... 318
8 - زوجاته وأولاده 319
9 - وفاته وإرثه..... 319
12 - سليمان خان الأول إبن سليم خان الأول (القانوني) 320
تقديم :..... 320
1 – نسبه..... 320
2 - اللقب الكامل..... 320
3 - بداية حياته 321
4 - توليه مقاليد السلطة..... 321
4 – 1 - الحلف مع فرنسا..... 321
5 - ميادين القتال..... 322
5 - 1 - فتح بلجراد..... 322
5 - 2 - فتح جزيرة رودس 322
5 - 3 - فتح بلاد المجر والتصادم مع النمسا..... 323
5 – 4 - الصدام مع الدولة الصفوية..... 323
5 – 5 - حاربة البرتغاليين..... 324
5 – 6 - شمال إفريقيا والبحر المتوسط..... 324
6 - تطوير البحرية العثمانية..... 325
7 - مكائد زوجته خُرَّم سلطان..... 326
8 - التطور الحضاري..... 326
8 – 1 - المنمنمات العثمانية..... 326
9 - القانون والإدارة..... 326
10 – أعماله..... 328
11 – وفاته 328
12 – ذريته..... 328
13 – إرثه 329
14 أماكن على اسمه 330
13 - السلطان سليم الثاني بن سليمان القانوني..... 330
1 – تقديم :..... 330
2 - فاتحة عهده : 330
3 - العلاقات مع فرنسا 331
4 - الأعمال الحربية 331
4 - 1 - محاولة استعادة الأندلس..... 331
4 - 2 - معركة ليبانتو : 332
4 - 3 - فتح تونس والحملة على اليمن..... 332
5 – وفاته 333
14 - مراد الثالث بن سليم الثاني..... 333
1 - تقديم 333
2 - العلاقات الخارجية مع أوروبا..... 333
3 - معركة وادي المخازن 334
4 - تجدد القتال مع إيران..... 334
5 - مقتل الصدر الأعظم واضطراب النظام العسكري :..... 334

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

6 - إعادة صنع منبر مسجد النبي محمد ﷺ 334
15 - محمد الثالث بن مراد الثالث 335
1 - تقديم 335
2 - بداية حكمه 335
3 - توليه عموم الجيش 335
4 - إيمانه الإسلامي 335
5 - ثورة الفراريين 336
6 - ثورة الخيالة 336
16 - أحمد خان الأول بن محمد الثالث 336
1 - تقديم 336
2 – نسبه 336
3 - العلاقات مع الشرق 336
4 - العلاقات مع الغرب 337
5 - العمران في عهد أحمد الأول 337
17 - مصطفى الأول بن محمد الثالث 337
18 - عثمان الثاني بن أحمد الأول 338
1 – تقديم 338
2 - توليه الحكم 338
3 - إعلان الحرب على بولونيا 338
4 - مقتل السلطان 338
19 - مراد الرابع بن أحمد الأول 339
1 - تقديم 339
2 - جلوسه على السلطة 339
3 - ولاية السلطان 339
4 - ثورة الأنكشاريه 340
5 - استتباب الأمن في البلاد 340
5 – 1 - ثورة فخر الدين المعني الثاني 340
5 – 2 - الحرب مع الصفويين 340
6 - وفاة السلطان مراد الرابع 341
7 - من أخباره 341
20 - إبراهيم الأول بن أحمد الأول 342
1 - تقديم 342
2 - تنصيب السلطان إبراهيم 342
3 - السياسة الداخلية 342
4 - فتح جزيرة كريت 342
5 - تمرد الأنكشاريه وخلع السلطان إبراهيم وقتله 343
21 - محمد الرابع بن إبراهيم الأول 343
1 - تقديم 343
2 - تولية السلطان محمد الرابع (فترة النيابه) 343
3 - محمد الرابع يباشر سلطاته (فترة آل كوبريللي) : 344
4 - سقوط قلعة نوهزل النمساوية : 344
5 - فتح كريت 345
6 - الحملة على روسيا 345
7 - حصار فيينا للمرة الثانية : 345
8 - نهاية السلطان محمد اخر الفاتحين (فترة النكبات) : 346
22 - سليمان الثاني بن ابراهيم الاول 346
23 - أحمد الثاني بن إبراهيم الأول 347

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

24 - مصطفى الثاني بن محمد الرابع..... 347
1 – تقديم :..... 347
2 - التفوق العسكري على روسيا وبولونيا : 347
3 - احتدام الصراع العسكري مع أوروبا :..... 347
4 - التراجع العثماني..... 348
25 - أحمد الثالث بن محمد الرابع 349
1 - تقديم 349
2 - العلاقات مع مملكتي السويد وروسيا 349
3 - الحرب مع النمسا والبندقية..... 349
4 – إصلاحاته : 349
5 - الاتجاه إلى الشرق وعزل أحمد الثالث 350
26 - محمود الأول بن مصطفى الثاني 351
1 - تقديم 351
2 - الحرب في أوروبا 351
3 - الحرب بين فرنسا والنمسا : 351
27 - السلطان عثمان الثالث بن مصطفى الثاني..... 351
28 - مصطفى الثالث بن أحمد الثالث 351
1 - تقديم 352
2 - الإصلاحات في عهده..... 352
3 - الحروب المستمرة مع روسيا..... 352
29 - عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث 353
1 - تقديم 353
2 - معاهدة قينارجة 353
3 - ضياع بلاد القرم..... 353
4 – وفاته : 354
30 - سليم الثالث بن مصطفى الثالث..... 354
1 - تقديم 354
2 - بداية عهده 354
3 - الإصلاحات الداخلية 354
4 - الحملة الفرنسية على مصر 355
5 - النظام العسكري الجديد 355
6 - العلاقة مع الدولة السعودية الأولى..... 356
7 - قلاقل البلقان 356
8 - الحلف الإنكليزي الروسي..... 356
9 - عزل الخليفة سليم الثالث 356
10 - البيرقدار يتوجه إلى الأستانة لمعاقبة الثائرين..... 357
31 - مصطفى الرابع بن عبد الحميد الأول 357
1 - تقديم 357
2 - الحرب مع روسيا 357
3 - محاسبة الثائرين 358
32 - محمود الثاني عبد الحميد الأول..... 358
1 - تقديم 358
2 - ولاية السلطان محمود الثاني..... 358
3 - القضاء على الإنكشارية 358
4 - الأخذ بالنظم العسكرية الحديثة 359
5 - إصلاح التعليم..... 360
6 - إصلاحات أخرى 360

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

7 - العلاقة مع الدولة السعودية الأولى..... 360
8 - حرب الاستقلال اليونانية..... 360
9 - اتفاق الدول الكبرى على العثمانيين..... 361
10 - احتلال فرنسا للجزائر وثورة محمد علي..... 361
11- وفاة السلطان 361
33 - عبد المجيد الأول بن محمود الثاني..... 362
1 - تقديم 362
2 – حياته..... 362
2 – 1 - خلافته والمسألة المصرية..... 362
2 – 2 - اتفاقية المضائق..... 363
2 – 3 - نظام إدارة جبل لبنان..... 363
2 – 4 - الإصلاحات المدنية 363
▪ 2 – 4 - 1 - التنظيمات الخيرية 364
▪ 2 – 4 - 1 - 1 - خط كلخانة..... 364
▪ 2 – 4 - 1 - 2 - الخط الهمايوني..... 365
2 – 5 - حرب القرم..... 365
2 – 6 - آثاره العمرانية 365
2 – 7 - السياسة الاقتصادية..... 366
34 – عبد العزيز بن محمود الثاني..... 366
1 - تقديم 366
2 - حياته المبكرة وتوليه الحكم 366
3 - الثورات والقلاقل الأمنية : 367
3 – 1 - ثورة الجبل الأسود : 367
3 – 2 - ثورة الصرب : 367
3 – 2 - ثورة كريت :..... 368
3 – 4 - حادثة سالونيك : 368
3 – 5 - احتجاجات طلاب المعاهد الشرعية في الآستانة..... 368
4 - الإصلاحات الداخلية 369
4 – 1 - مجلة الأحكام العدلية 369
4 – 2 - توحيد الأفلاق والبغدان :..... 369
4 – 3 - فرمان الخديوية المصرية 369
4 – 4 - امتيازات الولاية التونسية : 370
4 – 5 - تعديل معاهدة باريس..... 370
4 – 6 - الإصلاحات القانونية..... 370
5 - ولاية العهد..... 371
5 – 1 - علاقته بالأميرين مراد وعبد الحميد 371
5 – 2 - محاولة تغيير قواعد ولاية العهد 371
6 - إفلاس الدولة..... 372
7 - الزيارات الخارجية :..... 372
8 - الصدور العظام في عهده..... 373
9 - آثاره العمرانية 373
10 - نهاية السلطان 374
10 -1 - لإعداد لخلعه 374
10 – 2 - خلع السلطان 374
10 - 3 - قتله أو انتحاره..... 375
35 - مراد الخامس بن عبد المجيد الأول..... 375
1 - تقديم 376

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

2 - حياته المبكرة 376
3 - ولاية العهد 376
4 – توليته 377
5 - وفاة عمه السلطان المخلوع 377
6 – خلعه 377
36 - عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد الأول 378
1 - تقديم 378
2 - حياته المبكرة وتوليه الحكم 378
3 - فترة حكمه 379
3 – 1 - الدور الأول 379
3 – 2 - ثورة البلقان 379
3 – 3 - الحرب الروسية العثمانية (1877 – 1878) 380
3 – 4 - معاهدة سان ستيفانو 380
3 – 5 - مؤتمر برلين 380
3 – 6 - مذابح الأرمن 380
4 - السلطان واليهود ودور يهود الدونمة 380
5 - الصدور العظام في عهده 381
6 – التعليم 381
6 – 1 - مدرسة العشائر 381
7 – خلعه 382
8 – وفاته 382
9 - السلطان عبد الحميد وزعيم الصهيونية العالمية هرتزل 382
37 - محمد الخامس رشاد بن عبد المجيد الأول 385
1 – تقديم 385
2 - إعادة الدستور 386
3 - الحرب العالمية الأولى 386
38 - محمد السادس وحيد الدين بن عبد المجيد الأول 387
39 - عبد المجيد الثاني بن عبد العزيز الأول 387
1 - تقديم 387
2 - إنزال الغواصة عبد الحميد الثاني 388
3 – خلعه 388
40 - أرطغرل عثمان أوغلو 388
1 – تقديم 388
2 - وفاته 388
قائمة الصدر الأعظم للدولة العثمانية 389
تقديم : 389
أبرز الصدور العظام للدولة العثمانية 396
مسيح باشا 396
هديم علي باشا الخادم 396
سنان باشا الخادم 396
يونس باشا 397
إبراهيم باشا الفرنجي 397
1 - تقديم 397
2 – ألقاب 397
3 - الصعود والأعمال 398
4 - براعته العسكرية 398
5 – الإعدام 399
▪ 5 – 1 - تعاظم النفوذ 399

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

6 - مؤامرات السلطانة خُرَّم 399
- 6 – 1 - أزمة التماثيل 400
- 6 – 2 - إساءة استخدام السلطة 400
- 6 – 3 – المحسوبية 401
- 6 – 4 – الخيانة 401
- 6 – 5 - رحيل الحامية 401
- 6 – 6 - زوجة غيورة 401

7 – المكانة 402
8 – مدفنه 402
أياس محمد باشا 402
تقديم 402
نشأته وصعوده 402
الصدارة العظمى 402
وفاته 402
لطفي باشا 403
تقديم 403
سليمان باشا الخادم 403
رستم باشا 403
تقديم 403
حياته 403
دوره في التخلص من الأمير مصطفى 404
وفاته 404
قرة أحمد باشا 405
تقديم 405
توليه الصدارة العظمى 405
إعدامه 405
صقللي محمد باشا 405
لالا مصطفى باشا 405
عثمان بن أوزديمير باشا 406
يميشجي حسن باشا 407
نصوح باشا 408
معاهدة نصوح باشا 408
خلفية المعاهدة 408
بنود المعاهدة 408
التبعات 408
الداماد بيرم باشا 409
محمد باشا الطيار 410
تقديم 410
بواكير حياته 410
صدارته العظمى 410
مصرعه 410
سلطان زاده محمد باشا 410
تقديم 410
محمد باشا حاكم مصر 411
الصدارة العظمى والوفاة 411
سياوش باشا 411
غازي حسين باشا 411
تقديم 412
غازي حسين حاكماً لمصر 412

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

حرب كريت 412
محمد باشا الكوبريللي 412
تقديم 412
دور عائلة كوبريلي 412
أحمد باشا كوبريلي 413
مولده ونشأته 413
الصدر الأعظم 413
سقوط قلعة نوهزل 413
استكمال فتح كريت 414
حرب بولونيا 414
ملامح شخصية كوبريلي 415
قرة مصطفى باشا 415
تقديم 415
حياته 415
الصدارة 415
معركة فيينا 415
إعدامه 416
أساطير حوله 416
ألماس محمد باشا 416
تقديم 416
بواكير حياته 416
صدارته العظمى 416
معركة زانطة ومصرعه 416
طوبال عثمان باشا 416
تقديم 417
محمد راغب باشا 417
تقديم 417
ترجمته 417
مؤلفاته 417
مكتبة راغب باشا 417
علي باشا السلحدار 417
حسن باشا جزايرلي 418
محمد أمين عالي باشا 418
مدحت باشا 419
تقديم 419
سيرة حياته 419
الحياة السياسية 419
والي بغداد (1869 - 1872) 419
ثورة بغداد سبتمبر 1869 م 420
وفاته 420
عود على بدأ 420
أحمد توفيق باشا 421
تقديم 421
حياته المبكرة 421
صدارته العظمى 422
- الصدارة الأولى 422
- الصدارة الثانية 422
- صدارته الثالثة 422
وفاته 422
بعض القادة العسكريون البارزون في تاريخ الجيوش العثمانية 423

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

خير الدين بربروس..... 423
1 - تقديم 423
2 – حياته..... 423
3 - باش قبودان الأسطول العثماني..... 424
4 - ما تركه وأوصى به خير الدين بربروس قبل موته 425
5 – وفاته 426
درغوث رئيس 426
1 - تقدبم 426
2 - مع سلاطين البحار (الإخوة بربروسا) 426
3 - سقوطه أسيرا في أيدي الصليبيين سنة 1540م..... 426
4 - خير الدين يقود الأسطول العثماني ويحرر طرغود..... 427
5 - طرغود ومهدية 427
6 - في جربة 428
7 - حملة صقلية 428
8 - حملة مالطا / وفتح جوزو 428
9 - حملة طرابلس الغرب / فتح طرابلس وتحريرها من أيدي فرسان مالطا..... 428
10 - موقعة بونزا البحرية..... 429
11 – فتح كاتانيا وكورسيكا 429
12 - طرغود وبيالة باشا (قائد الأسطول العثماني)..... 429
- 12 – 1 - حملة كورسيكا الثانية 430
- 12 - 2 - حملة جزر الباليئار..... 430
13 - موقعة جربة البحرية 430
- الجبهة الاسبانية 430
- الجبهة العثمانية..... 430
- التشكيل العثماني 431
- المعركة 431
- خسائر الصليبيين..... 431
- خسائر العثمانيون..... 431
- 13 - 1 - معركة جربة في التاريخ..... 431
- 13 - 2 - دوريا أسطورة البحرية الصليبية يموت غما وكمدا بعد الهزيمة 431
14 - حملة مالطا الكبرى , واستشهاد طرغود باشا 431
- مالطا وفرسان (رودس) 432
مراد رايس (الأكبر)..... 434
1 - تقديم 434
2 - عمله في البحر 434
3 - حروب شارك فيها..... 435
- بريفيزا 435
- المحيط الهندي..... 435
- قبرص 435
- جزر الكناري..... 435
- مواجهات بلاد الشام..... 435
4 – وفاته 435
أولوج علي باشا..... 435
1 – تقديم..... 435
2 - حياته المبكرة..... 436
عثمان نوري باشا..... 436
القائد العثماني عمر باشا..... 437
مصطفى فوزي جاكماق..... 437

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الباشاوات الثلاثة 438
طلعت باشا 438
أنور باشا 438
أحمد جمال باشا 439
- 1 - تقديم 439
- 2 – سياساته 439
- 2 – 1 - ولاية جمال باشا لبغداد مابين عامي 1911 - 1912 439
- 3 - حرب السفر برلك 439
- 4 - نتائج الحملة..... 439
- 5 - إعدام المثقفين العرب في بيروت ودمشق 440
- 6 – وفاته 440

يوسف العظمة..... 441
1 - تقديم 441
2 – النشأة..... 441
- 2 - 1 – الدراسة..... 441

3 – العمل..... 441
- 3 – 1 - الحرب العالمية..... 441
- 3 – 2 - معركة ميسلون..... 442

4 – استشهاده 442
حسن تحسين الفقير 442
1 - تقديم 442
2 – نشأته..... 442
3 – وفاته 443
بعض العسكريون العثمانيون الذين استشهدوا في الحرب..... 443
حسن الألوباطلي 443
عروج بربروس..... 443
- 1 – تقديم 443
- 2 – نشأته 444
- 3 - قالوا عنه 446

غازي خسرو بيك..... 446
- 1 - تقديم 446
- 2 - النشأة المبكرة 446
- 3 - الحروب والغزوات..... 447
- 4 - إعمار سراييفو 447
- 5 – وفاته 447
- 6 - الجهود العربية في اعادة الترميم..... 447

مؤذن زاده علي باشا 448
- 1 – تقديم 448
- 2 - فتح العثمانيين لقبرص 448
- 3 - معركة ليبانت ومصرعه 448

الضباط بالجيش العثماني وجيش الثورة العربية من آل الاتاسي بحمص : 448
فوزي القاوقجي 449
الجيش العثماني (1826 - 1922) 451
1 - تقديم 451
2 – التاريخ..... 451
3 - الإصلاحات العسكرية 451
3 – 1 - عهد محمود الثاني..... 451
3 – 2 - عهد عبد المجيد الأول 451

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

3 – 3 - عهد عبد الحميد الثاني 452
4 - التشكيلات العسكرية 452
5 – المدفعية 453
6 - الرتب العسكرية 453
سياسيون غير عثمانيون في أواخر العهد العثماني 454
أسعد إسماعيل العظم 454
1 - تقديم 454
2 - إنشائه للمباني 454
▪ اشتهر بالمباني التي أنشأها وقت حكمه والتي ما تزال قائمة إلى الآن، منها : 454
3 - دائرة فلتانة سي 454
4 - أقوال المؤرخين 455
أحمد باشا الجزار 456
1 – تقديم 456
2 – حياته 456
محمد علي باشا 457
تقديم 457
1 - نشأته وقدومه إلى مصر 457
2 - تولّي العرش 458
▪ 2 – 1 - خطر الألفي 458
▪ 2 – 2 - حملة فريزر 459
▪ 2 – 3 - التخلص من الزعامة الشعبية 460
▪ 2 – 4 - مذبحة القلعة 460
3 - فترة خدمة السلطنة 461
▪ 3 – 1 - الحرب الوهابية العثمانية 461
▪ 3 – 2 - ضم السودان 462
▪ 3 – 3 - حرب المورة 463
4 - الحملة على الشام 464
▪ 4 – 1 – أسبابها 464
▪ 4 – 2 – مراحلها 465
▪ 4 – 2 – 1 - المرحلة الأولى 465
▪ 4 – 2 – 2 - المرحلة الثانية 467
5 - بناء الدولة 468
▪ 5 – 1 – عسكريًا 468
▪ 5 – 1 – 1 – الجيش 468
▪ 5 – 1 – 2 – الأسطول 469
▪ 5 – 1 – 3 - التعليم العسكري 469
▪ 5 – 1 – 4 - الصناعات العسكرية 470
▪ 5 – 2 – تعليميًا 470
▪ 5 – 2 – 1 - البعثات العلمية 470
▪ 5 – 2 – 2 - المدارس العليا 470
▪ 5 – 2 – 3 - المدارس الابتدائية 470
▪ 5 – 3 – اقتصاديًا 471
▪ 5 – 3 – 1 – الصناعة 471
▪ 5 – 3 – 2 – الزراعة 471
▪ 5 – 3 – 3 – التجارة 471
▪ 5 – 4 – إداريًا 471
▪ 5 – 4 – 1 - نظام الحكم 471

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

- 5 – 4 – 2 - التقسيم الإداري 471
- 5 – 4 – 3 - النظام المالي..... 471
- 5 – 5 – عمرانيًا 472
- 5 – 6 – اجتماعيًا 472

6 - نهاية محمد علي باشا 472
- 6 – 1 سنواته الأخيرة 472
- 6 – 2 – وفاته 473
- 6 – 3 – إرثه 473

إبراهيم محمد علي باشا..... 474
1 - تقديم 474
2 - الحروب التي خاضها..... 474
- 2 – 1 - الحملة المصرية ضد الدولة السعودية الأولى..... 474
- 2 – 2 - الحرب في السودان..... 474
- 2 – 3 - حرب المورة 474
- 2 – 4 - الحرب المصرية العثمانية الاولى 474
- 2 – 5 - الحرب المصرية العثمانية الثانية 474
- 2 – 6 - الحملة على بلاد الشام 475

3 - تعيينه حاكمًا على مصر 475
بشير الثاني الشهابي..... 475
تقديم..... 475
1 – نشأته..... 476
2 - تولي مقاليد الحكم..... 477
3 - تمرّد وعصيان الشعب..... 477
- 3 – 1 - الأمير يبطش بخصومه..... 478

4 - الحملة الفرنسية على مصر وفلسطين..... 478
- 4 – 1 - موقف الأمير بشير 478
- 4 – 2 - إخفاق الحملة الفرنسية..... 479

5 - سياسة الأمير بشير 479
- 5 – 1 - الصراع بين الأمير والجزار 479
- 5 – 2 - البطش بالشهابيين المنافسين 480
- 5 – 3 - إضعاف الإقطاعيين..... 480

6 - عهد الازدهار الشهابي..... 480
- 6 – 1 - الأمن والقضاء 480
- 6 – 2 – العمران..... 481
- 6 – 3 – الاقتصاد..... 482
- 6 – 4 - الحياة الفكرية..... 482
- 6 – 5 - التنظيم العسكري 483
- 6 – 6 - اعتناق آل شهاب للمسيحية..... 483

7 - اضطرابات عقد 1820 483
- 7 – 1 - ثورة أنطلياس ولحفد 483
- 7 – 2 - خلاف والي عكا ووالي دمشق 484
- 7 – 3 - البطش بالجنبلاطيين 484
- 7 – 4 - الحملة على نابلس 484

8 - الحملة المصرية على بلاد الشام 484
- 8 – 1 - بشير في ظل الحكم المصري..... 485

9 - نهاية الأمير بشير..... 486
- 9 – 1 - إرث الأمير وذكراه 486

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

عبد الله بن سعود بن عبد العزيز بن محمد آل سعود 487
الخديوي إسماعيل..... 487
تقديم..... 487
1 - مولده ونشأته 488
2 - توليه الحكم 488
3 - إنجازات الخديوي إسماعيل..... 488
- 3 – 1 - الإصلاح النيابي 488
- 3 – 2 - الإصلاح الإداري 488
- 3 – 3 - الإصلاح القضائي..... 489
- 3 – 4 - الإصلاح العمراني 489
- 3 – 5 - في المجال الاقتصادي 489
- 3 – 6 - المجال التعليمي والثقافي 489
4 - عزله عن الحكم..... 489
5 – الوفاة 489
جمال الدين الأفغاني..... 490
قديم..... 490
1 – منشأه..... 490
2 - بداية حياته العملية..... 490
3 - رحيله إلى الهند 491
4 - مجيئه مصر لأول مرة..... 491
5 - سفره إلى الأستانة ثم رحيله عنها 492
6 - عودته إلى مصر وإقامته بها..... 492
7 - أثره العلمي والأدبي..... 493
8 - أثره الأخلاقي والسياسي 494
9 - جمال الدين والثورة العرابية..... 494
10 - عمله في أوروبا..... 495
- 10 – 1 - جريدة العروة الوثقى..... 495
- 10 – 2 - جمال الدين ورينان..... 496
- 10 – 3 - جمال الدين ورشفور[عدل]..... 496
11 - عمله في فارس ثم نفيه منها..... 496
12- دعوة جمال الدين ضد الشاه..... 496
13 - شخوصه إلى أوروبا 496
14 - ذهابه إلى الأستانة وإقامته بها 497
15 - مرضه ووفاته..... 497
16 – ضريحه..... 497
جميل صدقي الزهاوي..... 498
1 - تقديم 498
2 – وفاته 499
3 - من مؤلفاته..... 499
أحمد لطفي السيد 500
1 - تقديم 500
2 - أهم مواقفه وإنجازاته..... 500
3 – مؤلفاته..... 500
بطرس غالي..... 501
1 – تقديم..... 501
2 - رئاسته الوزارة 501
- 2 – 1 حكومته..... 501
3 – انتقادات..... 501

4 - اتفاقية تقسيم السودان..... 501
5 - رئيس محكمة دنشواي بالانابة عن ناظر الحقانية..... 502
6 - قانون المطبوعات 1881 502
7 - طرح فكرة تمديد امتياز قناة السويس..... 502
8 - اغتيال بطرس غالى باشا..... 502
عبد الرحمن الكواكبي..... 503
1 – تقديم..... 503
2 – مولده..... 503
3 – نسبه..... 503
4 – العلم..... 504
5 – حياته..... 504
6 – مؤلفاته..... 504
7 – وفاته 505
حسين بن علي الهاشمي (شريف مكة ، ملك الحجاز) 505
1 - تقديم 505
2 – نسبه..... 505
3 - الثورة العربية الكبرى 505
4 - إستسلام الأتراك 506
5 - تطورات في ولائه وحروبه..... 507
▪ 5 – 1 - حروبه في الشام 507
7 – نفيه..... 507
8 – وفاته 507
فيصل الأول بن حسين بن علي الهاشمي 508
تقديم..... 508
1 - حياته ونشأته 508
2 - فيصل وجمال باشا 508
3 - الثورة العربية الكبرى 508
4 - الملك فيصل ملكاً على سورية (1918 - 1920)..... 508
5 - مشاركته في مؤتمر الصلح 509
6 - اتفاقيته مع حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية 510
7 - الملك فيصل ملكاً على العراق (1921 - 1933) 510
8 - وفاته والشكوك حولها..... 511
علي رضا الركابي..... 511
1 - تقديم 511
2 – البداية..... 511
3 - تشكيل أول وزارة سورية..... 512
4 - علي رضا الركابي في الأردن 512
علاء الدين الدروبي 513
1 - تقدبم 513
2 - نشأته تعليمه..... 513
3 - مناصبه السياسية..... 513
▪ 3 – 1 - الوزارة الدروبية..... 513
▪ 3 – 1 – 1 - تشكيل الحكومة 513
4 – اغتياله 513
5 - رد الفعل الفرنسي على اغتياله..... 514
6 – دفنه..... 515
محمد عزة دروزة..... 515
تقديم..... 515

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

1- أسرته 515
2 - تعليمه وثقافته 515
3 - وظائفه وسيرته المهنية 516
- 3 – 1 - في البرق والبريد 516
- 3 – 2 - في التربية والتعليم 516
- 3 - 3 - في الأوقاف 517
4 - نشاطه القومي ضد التتريك 517
5 - نشاطه القومي ضد الاستعمار الغربي ودعوته لتوحيد سورية 517
- 5 – 1 - دوره في المؤتمر الفلسطيني الأول 518
- 5 – 2 - علاقته مع الأمير فيصل بن الحسين 518
- 5 – 3 - دوره في المؤتمر السوري العام 518
- 5 – 4 - علاقته مع الشخصيات القومية الهامة 519
- 5 – 5 - دوره في الثورات الفلسطينية 519
- 5 – 6 - دعوته لقيام الوحدة بين سورية ومصر 520
6 - إنتاجه الفكري 520
- 6 – 1 - حول العروبة والقضايا العربية 521
- 6 – 2 - حول الإسلام والقضايا الإسلامية 521
- 6 – 3 - حول فلسطين 521
- 6 – 4 - كتب عامة وتوثيقية 522
7 - عضويته في المجتمعات الأدبية 522
8 - وفاته وتقديره 522
محمد علي العابد 523
تقديم 523
1 - حياته المبكرة 523
- 1 – 1 - نشأته وتعليمه 523
- 1 – 2 - العمل الحكومي في الدولة العثمانية 523
- 1 – 3 - العمل الحكومي في سوريا 524
2 - الصعود إلى السلطة 524
- 2 – 1 - الانتخابات النيابية 524
- 2 – 2 – انتخابه 524
3 – رئاسته 525
- 3 – 1 – حكوماته 525
- 3 – 2 - العمل الإداري 525
- 3 – 3 - العلاقة مع المفوضية الفرنسية 526
- 3 – 4 - القلاقل الأمنية 526
  - 3 – 4 - 1 - اضطراب حلب 526
  - 3 – 4 - 2 - الإضراب الستيني 526
4 - بعد الرئاسة 527
- 4 – 1 - إرث العابد 527
- 4 – 2 - ثروته 527
هاشم الأتاسي 528
تقديم 528
1 - حياته المبكرة وأوائل نشاطه 528
2 - الانتداب الفرنسي 528
3 - رئيسًا للجمهورية 529
- 3 – 1 - الإضراب الستيني ومعاهدة 1936 529
- 3 – 2 - الحرب العالمية الثانية 530

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

- 3 – 3 - ولايته الثانية 531
4 - السنوات الأخيرة 531
كامل بك دوامة 532
وصفي بك الأتاسي 1880-1932م 533
نجم الدين الدروبي 537
شفيق بك مؤيد العظم 537
1 - تقديم 537
2 - بداية حياته 537
3 - شفيق والسياسة 538
4 - قصة إعدامه 538
سلطان الأطرش 539
تقديم 539
1 - حياة سلطان وتراث العائلة 539
2 - الثورة العربية الكبرى 539
3 - بدايات النضال ضد الفرنسيين 539
4 - الثورة السورية الكبرى 540
- 4 - 1 - المناوشات الأولى 540
- 4 - 2 - انطلاقة الثورة من جبل الدروز 540
- 4 - 3 – الأسباب 540
- 4 - 4 - معركة الكفر وبدايات الثورة 540
- 4 - 5 - نتائج الثورة 541
- 4 - 6 - من ذاكرة الثورة 542
- 4 - 7 - مآثر عن الثورة والثوار 542
5 - النضال ما بعد الثورة السورية الكبرى 542
6 - أيامه الأخيرة 543
7 - وفاة الأطرش 543
عبد الحميد الزهراوي 544

مشايخ وعلماء دين 545
الشيخ أبو السعود أفندي 545
1 - تقديم 545
2 - نسبه ومولده ونشأته 545
3 – وظائفه 545
4 – مؤلفاته 545
محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي 546
تقديم 546
1 - النشأة 546
1 – 1 - نسبه وأسرته 546
1 – 2 - طلب العلم 546
1 - 3 - شيوخه 547
1 – 4 - تلاميذه 547
1 – 5 - عقيدته 547
2 – أعماله 548
2 – 1 - دعوة التوحيد 548
2 – 2 - خروجه من العيينة 548
2 – 3 - تحالفه مع محمد بن سعود 548
2 – 4 - شروط التحالف 548
2 – 5 - التطبيق 549

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

3 - وفاته 549
4 - مؤلفاته 549
5 - منتقدي محمد بن عبد الوهّاب 550
الشيخ مصطفى صبري 550
1 - تقديم 550
2 - نشأته ودراسته 550
3 - المشيخة الإسلامية 550
4 - رحيله عن تركيا 551
5 - آثاره العلمية 551
6 - موقف العقل 551
7 - أقوال العلماء فيه 551
8 – وفاته 551
الشيخ محمد زاهد بن حسن الحلمي الكوثري 552
1 - تقديم 552
2 – مولده 552
3 - حياته ومؤلفاته 552
4 – وفاته 552
الشيخ أبو الهدى الصيادي 553
1 – تقديم 553
2 - من مؤلفاته 553
3 - هل تسبب الشيخ أبو الهدى الصيادي في سقوط الدولة العثمانية 553
الإمام محمد عبده 556
1 - تقديم 556
2 – حياته 556
3 - تعليمه 556
4 - حياته العملية 556
5 - إشتغاله بالسياسة 556
6 - رأيه في التصوف 556
7- حياته بعد الثورة العرابية 556
8 - حياته في القضاء 556
9 - مفتي الديار المصرية 557
10 - نشاطه الاجتماعي 557
11 - استقلال منصب الإفتاء 557
12 - من فتاويه 557
13 – وفاته 557
14 - أهم مؤلفاته 557
15 - من تلامذته 558
16 – رثاؤه 558
أمجد الزهاوي 558
1 - تقديم 559
2 – حياته 559
3 - من إنجازاته 559
4 - معاناته في العراق وهجرته إلى المدينة 560
5 – وفاته 560
6 - كتب ألفت عنه 560
7 - من تلامذة الشيخ 560
محمد رشيد رضا 560
تقديم 561

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

1 - رشيد رضا في قريته..... 561
2 - الاتصال بالأستاذ الإمام محمد عبده 561
3 - رشيد رضا في القاهرة..... 562
4 - مجلة المنار 562
5 - منهجه في الإصلاح..... 562
6 - التربية والتعليم..... 563
7 – مؤلفاته..... 563
8 - وفاة الشيخ 563
9 – أعماله..... 564
إغناطيوس أفرام الأول برصوم 564

حوادث وأحداث أواخر الدولة العثمانية 566
الحملة الفرنسية على مصر 566
تقديم..... 566
1 - أسباب ومطامع الحملة الفرنسية علي مصر 566
2 - الشروع في إعداد الحملة..... 566
3 - قرار الحملة..... 567
4 - تجهيز الحملة..... 567
5 - الاستيلاء على مالطا..... 567
6 - الأسطول الإنجليزي يراقب الحملة 567
7 - وصول الحملة للإسكندرية..... 568
7 – 1 - الطريق إلى القاهرة 569
7 - 2 - نابليون في القاهرة 569
7 - 3 - موقعة أبي قير البحرية وتدمير أسطول الحملة..... 570
7 - 4 - ثورة القاهرة الأولى..... 571
8 - حملة نابليون على الشام (مارس 1799م) 571
8 - 1 - الإستيلاء على يافا وإعدام حاميتها 571
8 - 2 - حصار عكا..... 571
9- العودة إلى مصر 572
9 - 1 - عودة نابليون سراً إلى فرنسا..... 572
10 - انتهاء الحملة الفرنسية 573
11 - نتائج الحملة الفرنسية 573
11 – 1 - النتائج الاجتماعية 573
11 – 2 - النتائج العلمية 573
11 – 3 - النتائج السياسية 574
12 - رصد الحملة الفرنسية وتاريخها 574
13 - خط زمني للحملة الفرنسية على مصر..... 574

الانقلابات على القصر العثماني 1807 - 1808 576
1 - تقديم 576
2 - الأسباب 576
3 - الانقلاب الأول..... 576
4 - مقتل سليم والانقلاب الثاني 576
5 - محاولات الإصلاح والاضطرابات من قبل الإنكشارية..... 576
6 - الأثر على الأحداث التالية..... 576
7 - الواقعة الخيرية..... 577

حرب القوقاز 578
1 - تقديم 578

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

2 - الاحداث تاريخيا 578

حرب القرم 579
1 – تقديم 579
2 - الدولة العثمانية وأطماع روسيا 579
3 - حلقات الصراع 580
4 - الطريق للحرب 580
5 - حرب القرم 581
6 - معاهدة باريس 1856 583
7 - معاهدة باريس - المصالح وصناعة التاريخ 584

قناة السويس 584
تقديم 584
1 - تاريخ القناة 584
1 – 1 - تاريخ القناة القديمة 584
1 – 2 - فكرة حفر القناة 585
1 - 3 - الحفر واستخدام السخرة 586
1 – 4 - افتتاح القناة 586
1 – 4 – 1 - فقرات الحفل 586
1 – 5 - بيع حصة مصر في القناة 587
1 – 6 - محاولة مد امتياز القناة 587
1 – 7 - تأميم القناة 587
1 – 7 – 1 - الرد الاقتصادي 587
1 – 7 – 2 - الرد الدبلوماسي 587
1 – 7 – 3 - الرد العسكري والعدوان الثلاثي 588

حزب تركيا الفتاة 589

ثورة تركيا الفتاة 589

الجمعية العربية الفتاة 589
1 – الأهداف 589
2 - دورها في علم الثورة العربية 589
3 - الأعضاء المؤسسون 590

الانقلاب العسكري العثماني 1913 591
1 – تقديم 591
2 – الأحداث 591
3 – التأثيرات 591
4 – الحوكمة 591

حملة ترعة السويس الأولى 592
1 - تقديم 592
2 - تاريخ الحملة 592
3 - أهداف الحملة 592
4 - نتائج الحملة 592

حملة ترعة السويس الثانية ومعركة رمانة 593
1 – تقديم 593
2 - أهداف الحملة 593
3 - نتائج الحملة 593
3 – 1 - معركة رمانة 593

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الثورة العربية الكبرى 594
1 - تقديم 594
2 – الأسباب 594
3 - سير الأحداث 595
4 - ما بعد الثورة 596
4 – 1 - في سوريا والعراق 596
4 – 2 - في نجد والحجاز 596
4 – 3 - سقوط الشريف حسين 597
5 – المميزات 599
5 – 1 العلم 599
5 – 2 – النشيد 599

اتفاقية فيصل وايزمان 600
1 تقديم 600
2 - نص الاتفاقية 600
3 - حاييم وايزمان 602
3 – 1 - تقديم 602
3 – 2 - حياته 602
3 – وفاته 602

وعد بلفور 603
1 – تقديم 603
2 - ترجمة نص الرسالة : 603
3 - ملاحظات على الوعد 603
4 - تفسيرات المؤرخين 603

لواء إسكندرون 604
1 – تقديم 604
2 – الجغرافيا 605
3 – التاريخ 605
4 – الاقتصاد 606
5 - التوزع السكاني 606

مذابح الأرمن 607
تقديم 607
1 - نبذة تاريخية 607
2 - احتلال المناطق الشرقية من الدولة العثمانية 607
3 - التهجير والإبادة 608
4 - أعداد الموتى 608
5 - ما بعد التهجير 609
6 - الاعتراف الدولي 609
6 – 1 - إنكار المجزرة 610
7 - إحياء الذكرى 610
7 – 1 - النصب التذكارية 610
7 – 2 - ذكرى المجازر 610

مذابح سيفو 611
تقديم 611
1 – التسميات 611
2 – الأسباب 611
3 - الوضع قبل الحرب العظمى 612

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

3 – 1 – أورميا 612
3 – 2 – حكاري 612
3 – 3 - طور عابدين..... 613
4 – المجازر 613
4 – 1 - العمليات في ولاية وان (حكاري) 614
4 – 1 – 1 - المسيرة إلى أورميا..... 614
4 – 2 - المجازر في سعرت..... 614
4 – 3 - مجازر ولاية ديار بكر..... 615
4 – 3 – 1 - مجازر طور عابدين 616
4 – 3 – 2 - معركة آزخ..... 616
4 – 4 - المجازر والمقاومة في أورميا..... 616
4 – 4 – 1 - اغتيال شمعون بنيامين..... 617
4 – 4 – 2 - النزوح إلى العراق 617
5 - التهجيرات اللاحقة وإعادة التوطين..... 618
6 - طرق الإبادة 618
7 - الاعتراف الدولي 619
7 – 1 - إنكار المجازر..... 620
7 – 2 - ذكرى المجازر..... 620

إيالات الدولة العثمانية..... 621
تقديم..... 621
قائمة بالإيالات حسب التسلسل الأبجدي..... 621

أسباب سقوط الدولة العثمانية..... 623
عود سريع على بدأ..... 623
1 - مخالفة منهج الله 623
2 - عدم اتخاذ الإسلام مصدرًا أساسيًا للتشريعات والقوانين والأنظمة التي تسير عليها الدولة ، 624
3 - الحروب الصليبية التي شنت على الدولة 624
4 - توسع رقعة الدولة : 624
5 - التخلف العلمي : 624
6 - كان العثمانيون يكتفون من البلاد المفتوحة بالخراج ، 625
7 - ضعف الدولة العثمانية في أواخر عهدها 625
8 - الحركات الانفصالية والتمردات المحلية :..... 625
9 - الامتيازات التي كانت تمنح للأجانب..... 625
10 - الغرور الذي أصاب سلاطين بني عثمان..... 626
11 - الجيش الإنكشاري :..... 626
12 - تخلف السلاطين عن قيادة الجيش..... 627
13 - احتجاب السلاطين وعدم ممارستهم السلطة بأنفسهم..... 627
14 - تسليم أمور الدولة إلى غير الأكفاء من الناس..... 627
15 - زواج السلاطين بالأجنبيات..... 627
16 - تعدد الزوجات والمحظيات اللواتي..... 627
17 - تفكك روابط الأسرة السلطانية..... 627
18 - قانون قتل الأخوة 627
19 - بقاء أولياء العهد مسجونين في دور الحريم 628
20 - خيانة الوزراء..... 628
21 - وكذلك وصل هذا الحال إلى المؤسسات الدينية :..... 628
22 - تبذير الملوك..... 629
23 - مشكلة الديون :..... 629
24 - العلمانيين و إلغاء الخلافة : 629

24 - 1 - الجمعيات والأحزاب السّرية : 629
24 - 2 - بداية العلمانيين ونهاية الخلافة 630

إيجابيات الدولة العثمانية وصور مشرقة 632
1 - توسيع رقعة الأرض الإسلامية..... 632
2 - الوقوف في وجه الصليبيين على مختلف الجبهات 632
3 - عمل العثمانيون على نشر الإسلام..... 632
4 - إن دخول العثمانيين إلى بعض الأقطار الإسلامية 632
5 - كانت الدولة العثمانية تمثل الأقطار الإسلامية 632
6 - وكانت الخلافة العثمانية تضم أكثر من أجزاء البلاد الإسلامية 632
7 - كانت أوروبا تقابل العثمانيين على أنهم مسلمون لا بصفتهم أتراكاً 632
8 - كانت للعثمانيين بعض الأعمال الجيدة 632
9 - كان للعثمانيين دورهم في أوروبا إذ قضوا على نظام الإقطاع..... 632
10- أن العثمانيين هم الذين أزالوا من خريطة العالم أعتى أمبراطورية صليبية 633
11 - مواقف رائعة مشرقة :..... 633

بعض أئمة وعلماء وعظماء الترك والتركمان 634
مقدمة 634
الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان..... 634
تقديم..... 634
1 - مولده ونسبه 634
2 - نشأته العلمية..... 635
2 – 1 - أسرته والبيئة التي نشأ فيها 635
2 – 2 - توجهه إلى طلب العلم..... 635
2 – 3 - ملازمته لشيخه حماد بن أبي سليمان..... 636
3 - فقهه وأصول مذهبه 636
3 – 1 - القرآن الكريم..... 637
3 – 2 - السنة النبوية 637
3 – 3 - الإجماع..... 637
3 – 4 - القياس..... 637
3 – 5 - الاستحسان 637
3 – 6 - العرف والعادة..... 637
4 - تجارته..... 637
5 - محنته الأولى وذهابه إلى مكة 638
6 - محنته الثانية ووفاته 638
7 - مؤلفاته وأسباب قِلَّتها..... 639
8 - فضله وثناء العلماء عليه..... 639
9 - أخلاقه وصفاته..... 640
9 – 1 - أحد التابعين..... 640
9 – 2 - غزارة العلم..... 641
9 – 3 - الورع وكثرة العبادة..... 641
9 – 4 - الهدوء والوقار 641
9 – 5 - الإخلاص والتواضع 641
9 – 6 - صفته الشكلية..... 641
10 - شيوخه..... 642
11 - تلاميذه..... 642
12 - انتشار المذهب الحنفي عبر التاريخ 642
12 – 1 - إيثار الحنفية بالقضاء في العصر العباسي..... 642
12 - 2 - انتشاره في مصر..... 642

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

12 – 3 - انتشاره في البلاد الإسلامية الأخرى 643
الإمام الذهبي..... 643
تقديم..... 643
1 - المولد والنشأة 643
2 - رحلات الإمام الذهبي وأخذه عن شيوخ عصره..... 644
3 - نشاطه العلمي 644
3 - مؤلفاته..... 645
4 – 1 - أشهر مؤلفاته 645
- 1 - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام 645
- 2 - سير أعلام النبلاء..... 646
5 - وفاته 647
6 - تصانيفه 647
الإمام محمد بن إسماعيل البخاري 648
تقديم..... 648
1 - اسمه ونسبه..... 648
2 – نشأته..... 648
3 - رحلاته العلمية 649
4 - شيوخه وتلاميذه..... 649
5 - كتبه ومصنفاته 650
5 – 1 - في الحديث والفقه..... 650
5 - 2 - في التاريخ والرجال 651
5 – 3 - في التفسير والعقيدة..... 651
6 - مذهبه الفقهي 651
7 - ملامح شخصيته وشمائله..... 651
7 – 1 - صفته الخلقية 652
7 – 2 – عبادته..... 652
7 – 3 - ورعه وتحرّيه..... 652
7 - 4 - كرمه وسماحته 653
7 – 5 - زهده وأدبه..... 653
7 – 6 - نبوغه وحفظه وتقدّمه على أقرانه 653
8 – محنته 654
8 – 1 - مسألة اللفظ بالقرآن..... 655
8 – 2 - مع أمير بخارى..... 655
9 – وفاته 655
10 - ثناء العلماء عليه..... 656
11 - من أقواله..... 656
12 - في الثقافة العامة 657
الإمام المحدّث أحمد بن شعيب النسائي..... 657
1 - تقديم 657
2 – مناقبة 657
3 – شيوخه..... 657
4 – تلامذته..... 658
5 – آثاره..... 658
6 - وفاته..... 658
الإمام المحدّث أبو عيسى محمد الترمذي 659
1 - تقديم 659
2 - مكانته عند الأمة..... 659

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

3 – مؤلفاته 659
4 - شيوخه 659
5 – وفاته 660
حجة الإسلام أبو حامد الغزالي الدوزي (الطوسي) 660
تقديم 660
1 – نسبته 660
2 - ولادته ونشأته 660
3 – تعليمه 661
4 - تدريسه ورحلاته 661
4 - 1 - الغزالي في بغداد 661
4 – 2 - رحلة الغزالي 662
4 – 3 - عودته إلى طوس 662
5 – وفاته 662
6 - الغزالي والفلسفة 663
7 - الغزالي والتصوف 664
7 – 1 - المراحل الفكرية التي مرّ بها الغزالي 664
7 – 2 - استقراره على التصوف 664
7- 3 - كتاب إحياء علوم الدين 664
8 - تلاميذ الغزالي 665
9 - آثار الغزالي 665
9 – 1 - من كتب الغزالي 666
10 - أقوال العلماء فيه 667
الإمام الزّمخشري 668
1 - تقديم 668
2 – اعتزاله 669
3 - ثناء العلماء عليه 669
4 – مؤلفاته 669
5 - من أشهر أشعاره هذه الأبيات : 669
العالم محمد بن موسى الخوارزمي 670
تقديم 670
1 – حياته 670
2 – إسهاماته 671
2 – 1 – الجبر 671
2 – 2 - علم الحساب 671
2 – 3 - علم الفلك 671
2 – 4 – الجغرافيا 672
2 – 5 - مؤلفات أخرى 672
أبو الريحان البيروني (بطليموس المسلمين) 673
1 - تقديم 673
2 – مسيرته 673
3 - علوم البَيْرُوني 673
3 – 1 - في الأدب 674
4 - أهم كتبه 674
الإمام السَّرَخْسِي (شمس الأئمة) 676
1 - اسمه ونسبه 676
2 - مولده ونشأته : 676
3 - شيوخه : 676
4 - تلاميذه : 676

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

5 - مكانته العلمية: 676
6 - محنته: 676
7 - مصنفاته 676
8 - وفاته 677
الإمام محمد بن جرير أبو جعفر الطبري 677
1 - تقديم : 677
1 - 1 - مولده ونشأته 677
1 - 2 - النبوغ والذكاء 678
1 - 3 - حفظ الطبري 678
1 - 4 - ورع الطبري وزهده 678
1 - 5 - عفة الطبري وإباؤه 678
1 - 6 - تواضع الطبري وعفوه 678
1 - 7 – محنته 678
1 - 8 - المجدد الثالث للأمة 678
1 - 9 – تلامذته 679
2 - بعض مؤلفاته 679
3 - من شعره 679
4 - ثناء العلماء عليه 679
5 – وفاته 680
أبو منصور الماتريدي 681
1 - تقديم 681
2 - مشايخه 681
3 - علومه 681
4 - مؤلفاته 681
5 - وفاته 682
الفيلسوف والمعلّم الثّاني أبو نصر محمد الفارابي 682
1 - تقديم 682
2 - حياته وتلمذته 682
3 - إيمانه بوحدة الحقيقة 683
4 - نظريته في الوجود 683
5 - أشهر كتبه 683
6 – مؤلفاته 684
7 – وفاته 685
الشيخ الرئيس أبو علي الحسين ابن سينا 686
تقديم 686
1 - مولده ونشأته 686
2 – حياته 686
3 - طفولة ابن سينا 687
4 – ترحاله 687
5 - فكرُه الفلسفي 687
6 - تعريفه للنفس 687
7 - قصيدته العينية في النفس 687
8 - مؤلفاته ومآثرة 688
8 – 1 - في الفلسفة 688
8 - 2 - في العلوم الآلية 688
8 - 3 - في العلوم النظرية 688
8 - 4 - في العلوم العملية 688

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

8 - 5 - في العلوم الأصلية 688
8 - 6 - في الرياضيات 689
8 - 7 - في الطبيعيات وتوابعها 689
8 - 8 - في الطب 689
8 - 9 - في الموسيقى 690
8 - 10 – وفاته 690
9 - قالوا عنه 691
10 - من أقواله 692
الامام العلامة علاء الدين علي بن عثمان المارديني 692
1 - تقديم 692
2 - مكانته العلمية : 692
3 - مؤلفاته : 694
4 - وفاته : 694
الإمام أحمد بن على الرازى الحنفي 694
1 - تقديم 694
2 - مكانته العلمية ورحلاته 694
3 – شيوخه 695
4 – كتبه 695
5 – وفاته 695
الإمام عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي 696
1 - تقديم 696
2 - أهم كتبه 696
صلاح الدين موسى بن محمد بن محمود 697
علاء الدين أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني 698
أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي 700
تقديم 700
مؤلفاته 700
حامد بن يوسف بن حامد ، ضياء الدين الاسكداري الباندرموي 701
تقديم 701
آثاره 701
محمد بن محمد بن حسين بهاء الدين البلخي (جلال الدين الرومي) 701
تقديم 701
1 - نسبه وحياته 702
2 – تعاليمه 702
3 – أعماله 703
3 – 1 – شعره 703
4 - قصيده أنين الناي 704
4 – 1 – نثره 704
5 - أشهر اقواله 704
6 - تأثير مؤلفاته 705
العالم اللّغوي والمؤرّخ التركماني المشهور محمود الكاشغري 705
الملك المنصور نورالدين بن عمر بن علي التركماني 705
آتيلا الهوني القائد والملك الذي هز عرش الروما 708
1 - تقديم 708
2 - صفاته 709
ركن الدين طغرل بك الأول 711
نادر شاه أفشار (التركماني) 711
1 - تقديم 711

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

2 - مطلع حياته 711
3 - علاقته مع العثمانيين 712
4 - علاقته بروسيا 712
5 - الانتصار على الأفغان 713
6 - علاقته بالإنجليز 714
7 - علاقته مع اليعاربة 714
8 - احتلاله جزر أوال (البحرين حاليا) 714
9 - وفاته 714
محمود الغزنوي أبوالقاسم بن سبكتكين 715
تقديم 715
1 - نشأته وبداية حياته السياسية 715
2 - غزو الهند 716
3 - غزو المولتان 717
3 – 1 - السيطرة على سيستان 717
3 – 2 - السيطرة على خوارزم 717
3 – 3 - السيطرة على غور 717
3 – 4 - السيطرة على كارجيستان 717
4 - محاولة استيلاء إيلك الخان على خراسان 717
5 - غزو قصدار 718
6 - حربه مع بيدا 718
6 – 1 - حروب السلطان محمود الغزنوي الخارجية 719
- 6 – 1 – 1 - حروب السلطان محمود مع السامانيين 719
- 6 – 1 – 2 - السلطان محمود وحروبه مع الكرخانيين 719
- 6 – 1 – 3 - حروب السلطان محمود مع الأغوز 719
- 6 – 1 – 4 - حروب السلطان محمود مع الزياريون 720
- 6 – 1 – 5 - حروب السلطان محمود مع البويهويين 720
- 6 – 1 – 6 - غزو الري 720
- 6 – 1 – 7 - حروب السلطان محمود مع الأفغان 721
- 6 – 1 – 8 - علاقات السلطان محمود مع العباسيين 721
7 – وفاته 721
8 - شكله وصفاته 721
القائد مظفر الدين أبو سعيد كوكبوري 722
مصطفى جواد 722
تقديم 722
1 - ولادته ونشأته 722
2 – تعليمه 722
2 - 1 - المراحل الدراسية الأولى 722
2 – 2 - الدراسات العليا 723
3 - سيرته المهنية 723
4 - شغفه باللغة العربية 723
4 – 1 - من إنجازاته اللغوية 724
4 – 2 - قل ولا تقل 724
5 - كتبه وأبحاثه 725
6 - مما كتب عنه 725
7 – وفاته 726
الشاعر محمد بن الملا سليمان البياتي عملاق الأدب العثماني 726
القصيدة المائية: 727
إمام النحاة أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، الملقب سيبويه 729

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

1 – تقديم 729
2 - سيرته وحياته 729
2 – 1 - شيوخ سيبويه 729
2 – 2 - تلامذة سيبويه 729
2 -3 - آراء العلماء فيه 729
3 – الوفاة 730
أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله (الكسائي) 731
1 - تقديم 731
2 – شيوخه 731
3 – مصنفاته 731
4 – تلاميذه 731
5 – وفاته 731
علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدي البغدادي 731
تقديم 731
1 - اسمه وكنيته 732
2 - مولده ووفاته 732
3 - أصله ونسبته 732
4 - نشأته وسماته 732
5 - سيرته العلمية 732
5 – 1 - مصادره العلمية 732
- 5 – 1 – 1 - عمله بالوراقة 733
- 5 – 1 – 2 – شيوخه 733
5 – 2 – تلاميذه 733
6 – قائمة كتبه المطبوعة 733
7 – أسلوبه 734
8 - مواقف العلماء منه 734
9 - حادثة إحراقه لكتبه 734
أبو محمد عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم بن قتيبة الدينوري 734
1 - تقديم 734
2 – مؤلفاته 735
3 - شيوخه 735
4 - تلاميذه 735
5 - رأي العلماء به 735

مناطق توزيع المواطنين ذو العرقية التركية 737
الجاليات التركية فى البلقان 738
الجاليات التركية فى المشرق العربي 738
الجاليات التركية فى شمال أفريقيا 739

مصطفى كمال أتاتورك 741
تقديم 741
1 - حياته المبكرة 741
2 - مسيرته العسكرية (1905- 1918) 741
2 – 1 - فترة التأهيل 741
2 – 2 - حرب طرابلس الغرب 742
2 – 3 - حروب البلقان 743
2 – 4 - الحرب العالمية الأولى 743
3 - المعركة القومية (1919 - 1923) 744
3 – 1 – التنظيم 744

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

4 – السلام 745
5 - رئاسة الجمهورية (1923 -1938) 745
5 – 1 - السياسة الداخلية 746
5 – 2 - الاحداث السياسية 746
5 – 3 – الاقتصاد 746
5 – 4 - السياسة الخارجية 746
6 - حياته الخاصة 747
6 – 1 - محل ميلاده 747
6 – 2 – اسمه 747
6 – 3 – هواياته 747
6 – 4 - علاقاته الشخصية 747
6 – 5 – وفاته 748
7 – ذِكراه 748
7 – 1 - الليرة التركية 749
8 - التغييرات التي نفذها أتاتورك : 749

حرب الاستقلال التركية 751

الجمهورية التركية 752

تقديم : 752
1 - تاريخ تركيا والدولة العثمانية : 752
2 - جغرافيا تركيا : 752
2 – 1 - المساحة : 753
2 – 2 – الطبيعة : 753
3 - الديموغرافيا : 753
3 – 1 - السكان : 753
3 – 2 - الجاليات : 753
3 – 3 - مستوى الأعمار 753
3 - 4 - اللغة : 754
3 - 5 - الديانة : 754
3 - 6 - الأعياد والعطلات الرسمية : 755
4 - السياسة : 755
4 – 1 - النظام السياسي : 755
4 – 2 - السياسة الخارجية : 755
4 – 3 - العلاقات التركية العربية : 756
4 – 4 - التقسيمات الإدارية : 756
5 - الاقتصاد والبنية التحتية : 756
5 – 1 - الصناعة : 758
5 – 2 - المعادن : 758
5 – 3 - الزراعة : 758
6 - السياحة في تركيا : 758
7 - النقل والمواصلات : 758
7 – 1 - الطرق البرية : 758
7 – 2 - القطارات : 759
7 – 3 - المطارات : 759
7 – 4 - الموانئ : 759
8 – الاتصالات : 759
9 – الثقافة : 759

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

9 - 1 – الرياضة : 760
10 - التعليم في تركيا : 760
10 – 1 - التعليم الابتدائي : 760
10 – 2 - التعليم العالي : 761
قائمة رؤساء تركيا من عام 1923 حتى الآن : 761

جمهورية تركمانستان 763
تقديم : 763
1 - تاريخ تركمانستان : 763
2 - الجغرافيا : 763
2 – 1 – الأرض : 763
2 – 2 – المناخ 763
2 – 3 – التضاريس : 763
3 - السكان : 764
3 – 1 – الإسلام في تركمانستان : 764
3 – 2 - الشيعة في تركمانستان 764
4 - الاقتصاد : 764
4 – 1 – المعادن : 765
4 – 2 – الطاقة : 765
4 – 3 – الزراعة : 765
4 – 4 – الصيد 765
4 – 5 – الصناعة : 765
4 – 6 – الخدمات : 765
4 – 7 – العلاقات الاقتصادية الخارجية : 765
4 – 8 – الدين الخارجي 765
4 – 9 – النشاط البشري : 765
5 - التقسيم الإداري : 765
5 – 1 - مدينة مرو 766
5 – 2 - صحراء قره قوم 766
6 - السياسة : 767
6 – 1 – الانتخابات : 767
7 - الثقافة : 767
7 – 1 - الموسيقى : 767
8 - أسماء أشهر السنة : 767
تغيير أسماء الأشهر وأيام الأسبوع في تركمانستان سنة 2002 767
أسماء أيام الأسبوع الجديدة 768
9 - علم تركمانستان 769
معنى العلم 769
10 - منات تركماني (بالتركمانيّة: Türkmen manady تُركمين مانادي) 769

تركمان سوريا 770
تقديم 770
1 – التاريخ 770
2 - حملات الإستيعاب 770
3 - مناطق تركز التركمان 770
4 – السكان 771
5 - الناحية الاجتماعية 771
6 - الوضع الحالى 771

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

عائلات سورية ذات أصل تركي..... 772
أولاً - في حلب : 772
ثانياً - في حماة : 772
ثالثاً - في حمص : 772
رابعاً - في دمشق : 775
خامساً- في مدينة اللاذقية , وفي مدينة القنيطرة :..... 777

تركمان العراق 778
تقديم..... 778
2 - تاريخ قدومهم إلى المنطقة 778
2 – 1 - في عهد السلاجقة (1055 - 1194)..... 778
2 – 2 - في عهد الدولة العثمانية (1534 – 1918)..... 778
2 – 3 - العصر الحديث (1918 إلى الوقت الحاضر) 779
3 - دراسة إحصائية للسكان 779
3 – 1 - مناطق تركز التركمان في العراق..... 779
3 – 2 – مناطق تركز التركمان في الشتات 779
4 – الثقافة 779
4 – 1 – اللغة..... 779
4 – 2 – الديانة..... 780
5 – التمييز 780
5 – 1 – المذابح..... 780
5 – 1 – 1 - مذبحة 4 مايو 1924 780
5 – 1 – 2 - مذبحة كركوك 1959 780
5 – 2 - حملات الاستيعاب..... 780
5 – 2 – 1 – التعريب 780
5 – 2 – 2 – التكريد..... 781
6 - الوضع الحالي..... 781
7 - الناحية الاجتماعية..... 781
8 - العشائر التركمانية..... 782

أتراك مصر 783
تقديم..... 783
1 - تاريخ قدومهم إلى مصر..... 783
1 -1 - في عهد الدولة الإخشيدية والفاطمية 783
1 - 2 - في عهد الدولة الأيوبية..... 783
1 - 3 - في عهد دولة المماليك..... 783
1 - 4 - في عهد الدولة العثمانية..... 784
1 - 5 - عهد محمد على باشا (1769-1849)..... 784
1 - 6 - عهد الخديوية 784
2 – الثقافة 785
2 - 1 - اللغة 785
2 - 2 - الديانة 785
3 - التعداد السكاني للتركمان والأتراك في مصر..... 785
4 - الناحية الاجتماعية..... 785
4 – 1 - شخصيات تركمانية 786

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

إهداء

إلى الشعب التركي والتركماني المسلم
المدافع والناشر للإسلام
مؤسس الأمبراطوريات
في كل زمان ومكان

هذا الشعب الذي مدحه الباحثون والمؤرخون بقولهم :
تركمان ثلاثة مع خيول ثلاثة قادرون على صنع وتأسيس أمبراطورية

ورحم الله الشاعر المجاهد : عبد الغفار اسماعيل التركماني* حين قال :

نحن شعب التركمان نحن أبطال الزمان
تاجنا عالي المكان مالنا في الخلق ثان

نحن ابطال المتانة نحن إخوان العدالة
ديننا الاسلام فاشهد ربنا ياذي الجلالة

** إقرأ ترجمة الشاعر عبد الغفار إسماعيل في كتابنا : معالم وأعلام من حمص الشام*

تقديم

للباحث والسياسي التركماني : علي أوزتركمان

من هم التركمان عبر تاريخهم الطويل وما أصلهم :

التركمان : هم أفراد العرق التركي الذين تناسلوا من سلالة جدهم الاسطوري أوغوزهان بأحفاده الـ 24 حقيد , وهم أصل الترك ويتواجدون في تركمانستان وتركية وأفغانستان وأزربيجان والعراق وسورية ولبنان وفلسطين والاردن ومصر وليبيا . ويتكلم التركمان اللغة التركمانية , وهي فرع من مجموعة اللغات التركية المنبسقة من اللغات الالطية Altaic Languages

واستخدم تعبير التركمان مرادفا للغز , ولعل هذا التعبير شاع وتعمم عندما بلغ السلاجقة الاوائل مبلغ القوة والسيادة , ووردت لفظة التركمان في (تاريخ سيستان) لمؤلف مجهول من القرن الخامس الهجري , ويبدو أن هذا الكتاب ألف بأقلام ثلاث مؤلفين , وفي ثلاث فترات. وان كلمة التركمان لها علاقتها بدخول السلاجقة إلى منطقة سيستان وذلك عام 428 هـ - 1026 م , وهنا يقصد المؤلف بالتركمان جماعة السلاجقة .

وورد في تاريخ ابن الفضل البهيقي (470 هـ – 1077 م) مع الإشارة إلى السلاجقة , فيدعوهم المؤلف مرة بالتركمان. وأحيانا فرق بينهم وبين السلاجقة , وكذلك يشبر إليهم بالتركمان السلاجقة , وفي مواضع أخرى يكتفي بالقول بالسلاجقة . ومن المحتمل ان المؤلف ميز مجموعة معينة من التركمان (الغر) من جماعات التركمان الآخرين الذين جاء قسم منهم قبل السلاجقة نحو جهة الغرب , وأخرون تدفقوا نحو هذه البلاد بعد الحملات السلجوقية .

وفي كتاب (زين الأخبار) للغريديزي من القرن الحادي عشر الميلادي , يسمي المؤلف جماعات السلاجقة بالتركمان , فنجده يسمي (جغري بك داود) بـ داود التركماني , ومرة أخرى يدعوه بـ (داود) مجردا من أي لقب . كما بسمي (طغرل بك) بـ (طغرل التركماني) , او طغرل وحده دون أن يلحق به أي لقب . فيبدو أن هذا التعريف شاع بقيام السلاجقة الاوائل , واستعمل فيما بعد للدلالة على جميع قبائل الغز , سواء كانوا أتباع السلاجقة أو غيرهم .

وهناك مؤلفون فرقوا بين التركمان والغز. ولعل السبب قي ذلك أن السلاجقة استحسنوا لأتباعهم تعريفا معينا ليميزوا أنفسهم من القبائل الغزية الأخرى الذين جاءوا إلى مناطق الغرب قبل السلاجقة . وكذلك ليميزوا أنفسهم من القبائل المناهضة لهم ,

كذلك ورد تعبير التركمان في كتاب (طبائع الحيوان) المشهور الذي ألفه المروزي حوالي 514 هـ - 1120م حيث تناول فيه قبائل الترك, واطلق اسم التركمان على الغز المسلمين فقط على أساس أنهم الترك الذين اعتنقوا الاسلام . وعندما اشتعلت الحرب بين المسلمين منهم وبين غير المسلمين منهم , انسحبت الجموع الاخيرة نحو منطقة خوارزم وهاجرت إلى منطقة (البجنك) ,

إن أقدم ذكر لتعبير التركمان ورد في كتاب (أحسن التقاسيم) للجغرافي العربي الكبير **المقدسي البشاري** (القرن الرابع الهجري - القرن العاشر الميلادي) , عند وصفه لمدينة (بروكت) و (بلاج) الوافعتين على نهر سيحون . أما رشيد الدين مؤرخ المغول , فشرح هذه الواقعة عندما تدفقت جموع الغز إلى ما وراء التهر وسماهم التاجيك بالتركمان أي شبيهي الترك .

وبالنسبة لمؤلف آخر أن الكلمة مشتقة من (ترك إيمان) , اي الترك المؤمنون , أوالترك الذين اعتنقواالاسلام .

وهناك تفسير آخر وهو أن كلمة تركمان متشكلة من لفظين هما : (ترك) زائد (من) , وكلمة (من) بالتركية تعني البأس والشدة أو تعني التعظيم , (مان) بالتركية أداة تعظيم وتفخيم , فكلمة تركمان تعني التركي الشجاع , وهو الأصح .

وورد أول نزوح للقبائل التركمانية إلى بلاد الشام ونزولهم في دمشق وأطرافها , في كتاب معجم البلدان **للبلاذري** في الصفحة 228 الجزء الخامس حيث قال : فنزل القوافل بدمشق , وهي أقوام من التركمان يقال لهم **بنوا المراق** , كانوا يسكنون دمشق سنة 105 للهجرة الشريفة , الموافق سنة 623 للميلاد ,

ووردت إشارة إلى أوضاع التركمان وبطولاتهم وفتوحاتهم وجهادهم ورباطهم لثغور بلاد الشام في حلب وحماه وإعزاز واللاذقية ودمشق , وأحوال قبائلهم وجيوشهم وأمرائهم , أمثال الأمير **ياروق** الذي بنى محلة الياروقية الكبيرة في مدينة حلب .حيث نزل فيها مع عساكره ورجاله وعمر فيها دورا ومساكن , ومات ياروق هذا في سنة 564 للهجرة الموافق لسنة 1168 للميلاد , وكان من أمراء السلاطين التركمان : شجرة الدر, وعلاء الدين إيبك التركماني , وقطز , والظاهر بيبرس , ونور الدبن الزنكي .

أما الرحال الطبخي المعروف **بابن بطوطة** , فيذكر في الجزء الأول صفحة 99 من كتابه رحلة ابن بطوطة : (... ثم سافرت إلى الجبل الأقرع وهو أعلى جبل في الشام وأول ما يظهر منها إلى البحر , وسكانه التركمان , وفيه العيون والأنهار ,

أما صاحب كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية الجزء الاول صفحة 159 فيذكر المعلومات التالية :

ومن صائب رأي الشهيد أتابك الزنكي وجيده أنه سير جماعة من التركمان الايوانية مع الامير الباروق إلى الشام وأسكنهم بولاية حلب , وامرهم بجهاد الفرنج , وملكهم كل ما استنقذوه وحرروه من البلاد التي للفرنج , وجعله ملكا لهم , فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويراوصونهم وأخذوا الكثير من السواد وسدوا ذلك الثغر العظيم , ولم يزل جميع ما فتحوه قي أيديهم إلى نحو 600 للهجرة الموافق لسنة 1203 للميلاد .

وفي الصفحة 243 من نفس الجزء يستطرد مؤلف الروضتبن ويقول : ثم جمع القائد أسد الدبن إليه العدد الكثير من شجعان التركمان وقاتلوا المشركين ووصلوا إلى بعلبك , واجتمعوا بنور الدين .

وعن أحداث سنة 824 للهجرة الموافق لسنة 1421 للميلاد , يقول مؤلف **شذرات الذهب** في الجزء 4 صفحة 164 . كان **جقمق** من أبناء التركمان أصبح **دويدارا** ثانيا أي (وزيرا) عند الملك **المؤيد** قبل سلطنته , وكان يتكلم يالعربية لا يشك فيه جالسه أنه من أولاد الأمراء , ثم استقر دويدرا كبيرإلى أن قرره (عينه) الملك المؤيد في نيابة الشام , فبنى السوق المعروف بسوق (**جقمق**) , وأوقفه على المدرسة التي بناها قرب الجامع الأموي .

يفصل كتاب وفيات الأعيان في جزءه السادس , الصفحة 117 أخبار **ياروق التركماني** فيقول : هو ياروق بن أرسلان التركماني كان مقداما جليل القدر فى قومه , وإليه تنسب الطائفة الياروقية من التركمان , وكان عظيم الخلفة , هائل المنظر, سكن بظاهر حلب من جهتها القبلية , وبنى شاطئ (**قويق**) فوق تل مرتفع , وبنى هو وأهله وأتباعه أبنية كثيرة مرتفعة , عماءر متسعة عرفت **باليا‌روقية** , وهي شبه القرية , وسكنها هو ومن معه وبنى **سوق الياروقية** , وتوفي في محرم سنة 564 للهجرة الموافق لسنة 1168 للميلاد . **وقويق** نهر صغير يجري بظاهر حلب , يجري في الشتاء والربيع وينقطع في الصيف .

وفي كتاب (**دمشق لؤلؤة الشرق وملكته**) الصادر في باريز لمؤلفه **جيرار دوجرج ,** جاء ما خلاصته : وفي زمن تضعضع السلطة العباسية , ارتبطت دمشق بالدولة الطولونية قبل أن تخضع للدولة الفاطمية , وبعد الفاطميين , بسط السلاجقة سلطتهم على دمشق التي حكمها بعض الاتابكة في شكل شبه مستقل , قاوم **معين الدين** أثر الفرنجة وصد الحصار الذي فرضته قواتهم , وجاء من بعده نور الدين محمود الزنكي فوحد المشرق , وتابعه من بعده صلاح الدين الأيوبي وحرر القدس , فبعد وفاة صلاح الدين قيها عام 1193 للميلاد الموافق لسنة 588 للهجرة تصدعت الدولة الايوبية , واصيبت دمشق بالبلاء العظيم حين سقطت في أيدي المغول , وقد تصدى للمغول قادة مماليك التركمان كل من قطز والظاهر بيبرس في معركة **عين جالوت** , وهزم جيش المغول على يد جيش المماليك . واستمر المماليك في الحكم إلى جاء الفتح العثماني للمنطقة في معركة **مرج دابق** عام 1615 ميلادية بقيادة **ياوز سلبم** الأول ,

وفي ظل السطنة العثمانية وخلال القرن السابع عشر شيدت في بلاد الشام قرى عديدة بجوار طريق الحج , وأسكن فيها التركمان لحماية طريق الحج , وإن التركمان في سورية لا تختلف عن التركمان

في العراق من حيث التاريخ والثقافة واللغة والتشكيلات الفبلية , وقد هاجرت أعداد كبيرة من قبائلهم في فترات متباعدة الى إيران ونركيا والاردن ومصر وليبيا وغيرها من الدول .

شارك التركمان في الدفاع عن بلاد الشام أثناء الحروب الصليبية دفاعا مميتا حتى وصفت تلك الحروب بحروب **الفرنج والتركمان** , وهم المعروفين بفروسيتهم وشجاعتهم ,

وكان من بين قادة جيوش صلاح الدين القائد التركماني البارز **مظفر الدين كوجك ,** أمير دولة الأتابكة في أربيل . وهو زوج شقيقته , وشهد المعركة الكبرى معه في حطين . وقد انضم إلى جيش صلاح الدين فيما بعد القائد التركماني **يوسف زين الدين** أمير أتابكة الموصل في شمال العراق

ولا ننسى القائدين التركمانيين **قطز وظاهر ببرس** الذين يعود إليهما الفضل في طرد المغول من بلاد الشام بعد انتصارهما على المغول في معركة عين جالوت .

وللتركمان مأثر كبيرة في تحرير مدينة **إعزاز** من الفرنج , يقول مؤلف كتاب الروضتين المشار إليه سابقا , الجزء الأول صفحة 243 .... قال : ورد الخبر في الخامس من المحرم من ناحية حلب بأن عسكر التركمان ظفر **بابن جوسلين** صاحب إعزاز وأصحابه , ووقعوا في قبضة الاسر في قلعة حلب , فسر في هذا الفتح كافة الناس, كان ذلك في عهد السلطان **مسعود بن قلبيج أصلان** السلجوقي صاحب **قونية**.

ولا ننسى الدور الكبير الذي لعبه التركمان من ابناء قرى حلب بقيادة **نويران أوغوز** , وتركمان **بولاد دشو** دورا مشرفا في سبيل الاستقلال الوطني من الانتداب الفرنسي , ولهم مآثر مشهورة لدى اهالي منبج لدى وقعة **شيخ يحيى** . إلا أنه لم يتم تدوين ذلك في ظل الانظمة القومية العربية بغية إنكار الوجود التركماني في المنطقة .

وكما هو الحال في الجولان فإن للتركمان دور بارز معروف في المقاومة الشعبية التي ظهرت في الجولان عام 1967 , فقد كان في الجولان 20 قرية تركمانية قبل أن تحتله إسرائيل , فقام العدو الاسرائيلي بطرد معظم سكانه العرب والتركمان ماعدا الدروز.

يعتنق التركمان الدين الإسلامي , المذهب السني الحنفي , ويتميزون بالتدين , والشفافية وعدم التعصب , ويميلون إلى الانفتاح والاندماج في الحياة العامة في المجتمعات التي يعيشون فيها , ويعتبرون الأرض التي يعيشون ويقيمون فيها وطنا لهم يدافعون عنها دفاع الليوث الميمين , والتركمان يولون الاسلام على القومية , وإن كانوا يحبون قوميتهم كأي إنسان أصيل , ولكنهم لايتعصبون لها تعصبا أعمى .

ومن الصفات الأحرى التي يتميز بها التركمان : إحترام الآخرين وحب الضيافة والوفاء والصدق وعدم المهابة من العدو .

وعندما قدم لي الاخ الباحث طارق إسماعيل كاخيا التركماني الحمصي كتابه : جولة في تاريخ الترك والتركمان عبر العصور والأزمان . معتمدا في أساسه على كتاب جولة سريعة في تاريخ الأتراك والتركمان لمؤلفه الدكتور أسامة التركماني الحمصي أيضا , وعلى مواقع متعددة من الأنترنت , فأغنى وأكمل في كتابه هذا مالم يذكره الدكتور أسامه في كتابه , فجزى الله الاخوين الحمصيين الباحثين عنا كل خير . وهنا لابد لي أن أذكر أن نسبة ما لايقل عن 65 % من سكان حمص هم تركمان الأصل , وهناك مثل شعبي حمصي يقول : اللي مانو تركماني يروح يدور على أصلو , ويراد به أن أغلب الأسر الحمصية هي أسر تركمانية كعائلة الباشا الحسيني , والأتاسي , والوفائي , والتركماني , والحسامي , والصوفي , وكاخيا .....إلخ .

وهنا لابد أن أذكر للقارئ أن الدكتور أسامة التركماني هو دكتور طبيب , وأن الباحث طارق إسماعيل كاخيا هو كيميائي كان مدير الإنتاج للمؤسسة العامة للسكر في سورية 1968- 1972 م وهو مؤسس الجمعية الكيميائية في حمص عام 1973 م , وله العديد من المؤلفات الكيميائية والتاريخية والفقهية والعلمية والصناعية , ويدعوه أقرانه بشيخ الكيميائيين العرب , فهما كاتبين موسوعيين كالعلماء التركمان الأوائل أمثال : البخاري ومسلم وابن النفيس والرازي والفارابي والذهبي . أدعو الله أن يطيل بعمريهما ليتحفانا بكتب أخرى

كتبه الباحث والسياسي : علي أوزتركمان

I. مدخل

لمحة موجزة عن الأعراق البشرية

ينقسم البشر - من وجهة نظر قديمة معتمدة على ما جاء في الكتاب المقدس – إلى أقوامٍ مختلفين تناسلوا من جد واحد ، هو نوح ، فالناس اليوم ينتسبون إلى أحد أولاد نوح (عليه السلام) الثلاثة :

* سام : وينسب إليه الساميون (وهم ساكنو الجزيرة العربية ومن نزح عنها في الهجرات السامية القديمة : كالأكاديين والبابليين والآشوريين والكنعانيين وبني إسرائيل ، ثم العرب العاربة والمستعربة ، والبائدة – مثل عاد وثمود وإرم ... – .

* حام : وينتسب إليه الحاميون (الزنوج ، و الأقباط ، والأفارقة عموما) .

* يافث: وينتسب إليه الآريون : الفرس ، والأتراك ، والأوربيون عموما (كاليونان ، والسلتيون ، و السلاف ، الجرمان و...)

وأما التقسيم الحديث ، فيستعين باللغة ، و أحيانا بالدين في تصنيف البشرية فهو كالتالي :

* مجموعة اللغات السامية : (ويتكلمها الساميون قديما وحديثا) تتضمن العربية والآشورية و العبرية والكلدانية و....

* مجموعة اللغات الهندو أوربية : ويتفرع عنها :

ا - الهندو- إيرانية : وتتضمن الفارسية - بلوخستانية - كردية - باشتونية - سنسكريتية .

2 - اللاتينية : (وتتضمن إيطالية – فرنسية - برتغالية.....)

3 - سلافية : (وتتضمن : روسية - بولونية ....)

4 - جرمانية : (إنكليزية - ألمانية - هولندية - سويدية .....)

* مجموعة اللغات الألتائية :

نسبة إلى جبال ألتاي في قلب تركستان وهم من أصول واحدة :

أ - التركية ب - المنغولية جـ - التونغوزية (المنشوريون)

د - اليابانية هـ - الكورية .

* مجموعة اللغات الصينو- تيبتيان Sino- Tabetian :

أ- الصينية ب- التيبتية

* مجموعة اللغات القوقازية : مجموعة لغاتٍ منفصلة بعضها عن بعض تماما (أي ليست من أصل واحد) :

1- القوقازية الشمالية الشرقية (داغستان – شيشان - ...)

2 - القوقازية الشمالية الغربية (الشركسية - أديغا وأباظة)

3- القوقازية الجنوبية : أ – الأرمنية ب- الجيورجية

* اللغات الحامية

مجموعة الشعوب الألتائية

هي مجموعة بشرية كبيرة كانت تستقر قديما في منغوليا وسيبيريا وخاصة حول جبال ألتاي في حياة متشابهة :

1 - وتعتمد إما على الصيد ومخلفاته (وهؤلاء تحديدا من ساكني الغابات السيبيرية الضخمة).

2 - أو الرعي وتربية الماشية وهم سكان السهوب steppes .

حتى اليابانيون كانوا قديما يعيشون في شمالي منغوليا ويحدثنا التاريخ كيف أنهم رحلوا كمجموعة غزاةٍ احتلوا ما عرف اليوم بجزر اليابان ؛ ومنحوها هويتها الحالية .

فروع الشجرة الالتائية (التركية)

أولا : الأتـراك

تنقسم لغتهم إلى أربعة لغات أساسية :
1 - التركية الشمالية الشرقية (الهونية) : لغة الهون والياقوت في سيبيريا الشمالية والشرقية.
2 - التركية الجنوبية الشرقية : الاويغورية والاوزبكية.
3 - التركية الشمالية الغربية : التترية والبلغارية والقبشاق .
4 - التركية الجنوبية الغربية : (لغة الغـز) في تركمانستان - أذربيجان - تركيا .

ثانيا : المغول

تحوي لغاتهم عدة لهجات .. أما اللغات المغولية للقبائل المغولية التي هاجرت إلى بلاد الفتوحات المغولية أيام جنكيز خان مثل (بلاد ماوراء النهر - بعض أجزاء أفغانستان- وروسيا- واذربيجان) فقد ذابت لغتهم في أختها التركية لغة الشعوب في هذه الأقاليم

ثالثا : التونغوز (المنشوريون)

يسكنون سهول منشوريا شمال شرقي الصين وقد خضعت الصين كاملة لحكم المنشوريون بضعة قرون تحت حكم سلالة Khitan (لياؤو- Liao) التونغوزية ؛ ثم وبعد خمسة قرون ، تخضع الصين مجددا لأعظم سلالة ملكية عرفتها.. وهي أسرة كنغ Qing التونغوزية المنشورية من عام 1644 م حتى 1911م وكان عهدهم أرقى العهود الملكية في تاريخ الصين حضارة وقوة وتنظيما.

رابعا : الكوريون

لم يكن لهم شأن كبير في التاريخ القديم ؛ حتى برزت نهضتهم العلمية والتكنولوجية والصناعية في هذا اليوم !

خامسا : اليابانيون

وهم أشهر من أن يعرفوا وأن تـعرف حضارتهم إلى الناس .
اليابانيون كانوا قديما يعيشون في شمالي منغوليا ويحدثنا التاريخ كيف انهم رحلوا كمجموعة غزاة احتلوا ماعرف اليوم بجزر اليابان ومنحوها هويتها الحالية ..
في حين أن سكان اليابان الأصليين هم شعب الاينو AINU ويتكلم الاينو لغة خاصة بهم . ولايزال جزء من المواطنين في اليابان اليوم ينحدرون من هؤلاء .
وكان اليابانيون الغزاة يعتبرونهم مواطنون من الدرجة الثانية حتى القرن التاسع عشر. مثل ذلك تماما فعل الانكلو- ساكسون (وهم جزء من القبائل الجرمانية) حين احتلوا جزيرة بريطانيا وأخضعوا لجبروتهم الشعب الأصلي فيها (السلتيين).

2. إمبراطوريات ودول التاريخ التركي القديم

إن أقدم آثار وجدت للإنسان القديم حسب مكتشفات العلم والتي تعود إلى مئات الآلاف من السنين كانت موزعة في بضع مواضع من العالم القديم ؛ منها مناطق تركستان –قفقاسيا – أواسط إفريقيا – شرق المتوسط ..حيث وجدت آثار سلف الإنسان الأول (النياندرتالي) .

إذن إن منطقة تركستان كانت خزانا خرجت منه كثير من القبائل الرحل المهاجرة ، فمنها- مثلا- هاجرت القبائل الجرمانية قديما مدفوعين هاربين من ضغط القبائل التركية القديمة التي كانت جوالة أيضا في الشمال والشرق من سيبيريا وفي منغوليا وحول جبال ألتاي .

يبدأ التاريخ البشري مع بدء الكتابة – لأول مرة في التاريخ – مع ما تركه السومريون (الأتراك) أصحاب أول حضارة وأعرقها في التاريخ حوالي 35..ق م في جنوب العراق – بلاد ما وراء النهرين – إذ تعد الكتابة المسمارية التي ابتدعوها أقدم كتابة في التاريخ ، وتعد ملحمة جلجامش السومرية أقدم أثر أدبي عرفه التاريخ .

ويقرر علماء اللغات ، الذين درسوا اللغة السومرية – القديمة جدا – دراسة مقارنة مع ما نعرف من لغات اليوم ، أنها لا علاقة لها باللغات السامية ولا الهندو أوربية ، وإنما هي لغة صاقية تشبه اللغة التركية الحالية ؛ ثم إن النقوش والرسوم التي خلفوها كانت ترسم وجوها ذات سحنة تركية مغولية (طورانية).

يقول د : محمد السيد غلاب في كتابه " الجغرافية التاريخية " ص 414:

(("أما عن الجماعات الجنوبية التي تعرف بالسـومرية فقد كانوا جماعات لا نعرف عنهم سـوى أنهم قدموا من الشـرق ، وكانوا يتحدثون لغة شـبيهة باللغة التركية أو المغولية إذ لا يظهر في لغتهم أي تأثير لغوي آخر ..

وقد عاشت هذه الجماعات ، في مرحلة العصر الحجري الحديث ، وتمكنت من تطوير فخارها لدرجة عالية من الجودة و الإتقان حيث أنتجت أنواعا من الفخار الملون ، ...وهؤلاء المزارعون الأوائل الذين وجدت عصيهم المعقوفة ومناجلهم الحجرية في كل المواقع التي تنتمي إليها.. وهم الذين وضعوا بذور المدنية في العراق ، إذ أن عديدا من المراكز المدنية الكبرى التي تظهر هناك في أثناء الفترة التاريخية ترجع بأصولها إلى هؤلاء المستقرين الأوائل.

والسومريون التجار نشروا حضارتهم أيضا إلى الأجزاء الشمالية التي تقع ضمن نفوذ الساميين و إلى الأجزاء العربية في العمق على نهر العاصي الأدنى .")) اهـ

"يعد السومريون من أقدم الأمم التي سكنت بلادالرافدين فقد أقاموا في سهل شنعار عددا من المدن منها أور ، لاكاش ، نيبور ، واستخدموا الكتابة المسمارية والمحراث إلى أن تمكنت العناصر العربية القديمة التي نزحت من شبه الجزيرة العربية وتوطنت بجوار السومريين في شمالي سهل شنعار وتأثرت بهم في إنشاء بعض المدن منها أكاد ، كيش ، بابل .

فإذا نحن استثنينا الحضارة الأقدم في التاريخ – والتي كانت تركية – في بلاد الرافدين ، فإن التاريخ التركي القديم في معظمه لم يخطه الأتراك ، بل كتبته عنهم الإمبراطوريات العظيمة التي -على عظمتها وسلطانها –كانت تخضع لهم إما خضوعا مباشرا بأن تحكم من سلالات تركية حاكمة أو أن تدفع الجزية صاغرة لأباطرة الأتراك العظام . ففي الزمن القديم وقبل الميلاد بقرون يحدثنا مؤرخو الصين (ذلك البلد العظيم بتراثه وحضارته وسلطانه وهيبته .) عن قبائل الهون التركية القوية في شمالي الصين بل الأكثر شهرة في تاريخ العالم بتفوقها الحربي العظيم وبمقاتليها الشجعان وبخاصة الرماة الفرسان (الرماة الماهرين من على ظهور الخيل) ؛ وتعرف في تاريخ الصين باسم هيونغ نو Hesiung-nu ..والتي بسبب الخوف من بطشها ودرءا لغاراتها الخاطفة المدمرة أنشأ الإمبراطور الصيني Chin سور الصين المشهور والذي جدد بناؤه بعد ذلك بعدة قرون من إنشائه الأول .

أسس الهون الأتراك أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ ، فقد امتد سلطانهم من الصين شرقا وحتى اجتازت نهر الراين في ألمانيا غربا ،وقد وصلت هذه الإمبراطورية إلى قمة مجدها تحت حكم الملك العظيم **أتيلا** Attila - ولد عام 406 ومات عام 453 م

في جبهة فارس كان أقرباؤهم (الهون البيض White Huns أو الهياطلة) ، قد أنشؤوا إمبراطورية قوية جدا حكمت تركستان وأفغانستان وشمالي الهند ، وبلغوا من القوة أنهم اجتاحوا الإمبراطورية الفارسية أكثر من مرة ؛بل وكانوا – أحيانا -يخلعون ملكا فارسيا ويضعون مكانه ملكا آخر – ابنه مثلا –

******* **********

هذا عن الهون وهذا كله ليس إلا تاريخ مجموعة قبيلة تركية واحدة فقط ، فالتاريخ يحدثنا عن حلف قبلي تركيٍ آخر أنشأ إمبراطورية قوية جدا وذات شأن عظيم – اسمها في المصادر التاريخية الصينية – :

إمبراطورية توكيو Tou - Kue (الغز)

التي بلغت من القوة والسلطان أنها حكمت شمال الصين وامتدت منه نحو الغرب امتدادا شمل حتى البحر الأسود وماحوله في القرن الثامن ، وقد تركت لنا نقوشا هامة . (هي نقوش أورخون) على شواهد قبرين من ملوكها Bilge & Kul في مركز حكمها ، قرب نهر أرخون في منغوليا، بأحرفٍ (أبجدية) خاصة بهم .

هذه النقوش عدها العلماء الأوربيون ، الذين اكتشفوها في القرن قبل الماضي ، دليلا قويا على التطور الثقافي والأدبي الذي تعكسه بلاغة النص المنقوش عليها بأسلوبه الأدبي المنمق الرائع ! . هذه الإمبراطورية عاشت حوالي أكثر من قرنين من الزمن ، ولكن ترامي أطرافها ، واقتسام أملاكها بين الورثة الشرعيين لها تسبب في انحلال قوتها وسقوط قسم منها ؛ وبقي القسم الآخر إلى ما بعد الفتح الإسلامي إلى الشمال من بلاد ما وراء النهر .

إمبراطورية الهون (هيونغ – نو) (Hsiung-nu)

تقول الموسوعة البيرطانية : ((الإشارة الأولى في السجلات الصينية القديمة للقبائل التركية التي كانت تعيش في منغوليا – شمال الصين – ترجع إلى الألف الثاني قبل الميلاد ، عرفوا باسم هيو Hu ولعبوا دورا هاما في تاريخ الصين القديم ، وقد تأثر بهم الصينيون كثيرا واقتبسوا عنهم سلاح الفرسان ، وترويض الخيول للقتال..وعنهم أخذ الصينيون استخدام السراويل مستبدلين به لباسهم التقليدي الذي كان يعيق حركة الفارس))

((وقبل ميلاد المسيح بخمسة قرون تقريبا برزت قبائل بدوية قوية على حدود الصين الشمالية والغربية في إقليم قانصوه ، عرفت عند المؤرخين الصينيين بهيونغ نو Hsiung – nu ؛ معلومات قليلة ونادرة تلك التي وصلتنا عن مؤسس إمبراطورية الهيونغ - نو سوى أن اسمه **طومان** Tou - man وأنه قتل سنة 209 ق. م ، ثم ورث العرش ابنه الملك **ماوتون** Mao - tun الذي حكم لفترة طويلة (209 - 174 ق م) وفي عهده أصبحت دولة الهونغ- نو قوة عظمى ، وصارت تهديدا جادا للإمبراطورية الصينية)).

كان مركز الإمبراطورية الهائلة في منغوليا ، وكانت تمتد من المحيط الهادئ (بحر الصين) شرقا وحتى أقاصي تركستان (غربا) ، ولأكثر من قرنين من الزمان كانت على صراع متواصل مع الصين ، ولدفع خطرها أنشأ إمبراطور الصين Chin سور الصين العظيم . .

ولأكثر من قرنين من الزمان بقيت إمبراطورية الهون القوة الرئيسية في آسيا المركزية والشرقية ، ولكن ما يكاد يطل عام 48 م حتى تتمزق هذه الإمبراطورية بسبب النزاعات الداخلية المستمرة ، انقسمت إلى قسمين :

1 - القسم الجنوبي : منها بقي في شمال غرب الصين وخضع للسيادة الصينية ، وذاب فيما بعد مع الأكثرية الصينية .

2- القسم الشمالي : حافظوا على كيانهم المستقل ، حتى منتصف القرن الثاني 150م ، حيث خضع بعضهم لجيرانهم قبائل سيان بي Hsien - Pei المغولية .

وهناك مجموعة من الهيونغ نو الشماليين والذين رفضوا البقاء في منغوليا تحت حكم Chih-chih هؤلاء هاجروا من منغوليا باتجاه الغرب تحت إمرة أخيه ومنافسه في الحكم ، وهؤلاء أجداد الهون الأشداء الذين ظهروا في القرن الرابع م في أوربا الشرقية وأخذوا يدكون حدود الامبرطورية الرومانية ، ويغيرون على القبائل الجرمانية التي اضطرت إلى الهجرة نحو الغرب والبلقان هربا من ضغط هؤلاء الهون الأتراك الذين كانوا قد بدؤوا يعيدون مجدهم التليد ، ليؤسسوا إمبراطورية ثانية هائلة الاتساع ابتداء من سنة 37.م لتبلغ أشدها على يد الإمبراطور التركي **روا** - Roa أو Rogela ، ثم لتبلغ أوج عظمتها على يد الفاتح الأشهر في التاريخ القديم **أتيلا** (Attila عاش 406 - 453 م) الذي ورث ملك عمه (روا) والذي خضعت له اثنتين من أعظم الإمبراطوريات في التاريخ وهما : البيزنطية (الشرقية) والرومانية (الغربية) ، والذي أخضع أيضا كثيرا من القبائل الجرمانية الشهيرة ببأسها وجبروتها.

يقول د عمر فروخ : " في الوقت الذي كان الهون يزرعون الرعب في أوربا مابين جبال الأورال في سيبريا وحتى فرنسا تحت قيادة أتيلا ، كان أقرباؤهم (الهياطلة أو الهون البيض) يدمرون الممالك القوية في جنوبي غربي آسيا حيث قضوا على مملكة بخارى 45.م وإمبراطورية غوبطا 500م وهاجموا الإمبراطورية الساسانية مرات عديدة خلال النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي " .

نشير هنا إلى أن الهون كانوا يعتنقون **الديانة الشامانية** (Shamanism) وهي في الأصل ديانة توحيدية ، تؤمن بالإله الواحد السامي ، ولكنها تقدم بعض الطقوس التعويذية لبعض الظواهر الطبيعية التي كانت تخيف الإنسان القديم كالشمس والقمر والرياح والنجوم وهذه الديانة كانت ديانة جميع الأقوام التركية – المغولية قديما , ومنها اشتقت ديانة الشنتو Shinto اليابانية والتي لاتزال هي الديانة السائدة في اليابان إلى اليوم.

دولة الأتراك توبا Topa - Wei

وهم قبيلة تركية قوية كانت تقطن شمالي سور الصين العظيم ، وكان اسمهم الأصلي في التركية **طبغاتش** Tabgatch ، حكموا الصين (من سنة 386 - 535 م) وسماهم الشعب الصيني توبا ، وكانوا معاصرين لدولة جوان – جوان المغولية.. و كانتا متخاصمتين متحاربتين.

أسست هذه القبيلة دولة عظيمة الازدهار في الصين ، وكان أباطرتها أول من أسقط نظام الإقطاع الظالم فيها.. وكان لذلك شأن عظيم في ازدهار الزراعة والاقتصاد ، وقد شجع ملوك هذه السلالة العلوم والفلسفة وحرية الأديان ، وعلى عهدهم انتشرت البوذية إلى جانب الكونفوشية (الدين الصيني القومي) .. ولكن مع مرور الوقت.. وفي نهاية القرن 4 م ، ولانغماس الأسرة المالكة بالعادات الصينية للطبقة الأرستقراطية ، أصبح العديد من أسر الأتراك (توبا) بمن فيهم البيت الإمبراطوري يتبنون ألقابا وأسماء صينية ، حتى لقد مارسوا ضغطا وجهدا في محاولة إعادة كتابة تاريخهم الإمبراطوري محاولين أن يتبرؤوا وأن يتنصلوا من أي شيء يربطهم بأصولهم غير الصينية , وأخيرا بلغ الأمر بهم أن حرموا لغتهم الأصلية (التركية) ، وبدلوا أزياءهم (هندامهم التركي) في سبيل هذه الغاية ؛ وانتحلوا لسلالتهم اسما ملكيا صينيا عريقا في القدم هو سلالة واي Wei .)) . نذكر هنا أن ملوك هذه الدولة (توبا) قد ساعدوا أقرباءهم الترك (توكيو) في ثورتهم الناجحة التي أطاحت بملوك (جوان – جوان) المغول سنة552 م .

إمبراطورية جوان - جوان Guen - Guen (400 - 552 م)

تلفظ أيضا جيوجين (Geugen) وهم شعب مغولي ، كان يلقب حكامهم بالخاقانات ، أنشؤوا إمبراطورية عظيمة حكمت رقعة عظيمة تمتد من سهول منشوريا مرورا بالصين الشمالية وحتى أقاصي

تركستان غربا ، امتد عهدهم قرنا ونصف من الزمان منذ بداية القرن الخامس وحتى منتصف القرن السادس ، وكانت تخضع لهم قبائل توكيو الغز الأتراك .

وكانوا حلفاء للأتراك الهياطلة (Hephttalite) ؛ ولكنهم في نزاع مستمر مع سلالة Wei-Topa التركية.. الذين كانوا يحكمون الصين ،

وهكذا وفي عام 552م قامت قبائل (توكيو) التركية بثورتهم الشهيرة ، وخلعوا عنهم حكم هؤلاء الـ (جوان - جوان) بمساندة ومساعدة من أعدائهم دولة توبا Topa ، وكان لهذه الثورة أهمية تاريخية عظيمة جدا ، إذ تلاها تأسيس الامبرطورية التركية الشهيرة (توكيو - توكيو) وهي إمبراطورية الأوغوز والتي اتخذ شعبها اسم **الترك Turk** كاسم علم لأول مرة في التاريخ . وبسقوط دولة جوان- جوان سيرحل هؤلاء المغول عن موطن دولتهم ، باتجاه سهوب أوراسيا (روسيا حاليا) مصطحبين معهم قسما كبيرا من الأتراك الأويغور، ليشكلوا فيما بعد في القرن السادس إمبراطورية أخرى عظيمة في شمالي القوقاز وفي أوربا الشرقية ، وسيعرفون هناك باسم **الآفار** .

إمبراطورية توكيو Tu - kue

في نهاية القرن السادس م ، تنشأ إمبراطورية تركية هائلة هي إمبراطورية توكيو Tu-kue بالتعاون مع سلالة Topa-wie التركية التي كانت تحكم الصين الشمالية , وتصبح أكبر إمبراطورية في آسيا ومؤسس هذه الدولة هو **الخاقان بومين Bumin** ، الذي مات بعيد تأسيسه للإمبراطورية سنة 552م ، فانقسمت بعده الإمبراطورية إلى قسمين :

القسم الشرقي : ورث الحكم فيه الإمبراطور **موهان** Muhan (ابن Bumin) .حكم من 553-572م (ولد محمد صلى الله عليه وسلم 571 م) متمركزا في منغوليا .

القسم الغربي : وقد ورث الحكم فيه الإمبراطور Ishtemi **إشتامي** (وهو أخو الخاقان بومين) وجعل عاصمته في **إكتاغ** Ektagh (موضع على نهر جو Chu الذي ينبع - اليوم – من الشمال الشرقي لـ قيرقيزستان – ويمر بعاصمتها **بشكاك** Bishkek - ، ثم يتدفق باتجاه الشمال الغربي متوغلا في أراضي كازاخستان غربي **بحيرة بلكاش**).

قام هذا الخاقان بالتحالف مع الساسانيين الفرس ضد الهياطلة الأتراك فدمروا معا هذه الإمبراطورية الشهيرة عام 56.م التي تفتت فيما بعد .

ويرث إشتامي في حكم الامبرطورية الغربية (توكيو) ، الخاقان (**تاردو** Tardu 573- 603 م) وفي عهده تزدهر دولته ازدهارا عظيما ، وتتوسع غربا حتى حدود بيزنطة؛ وبذلك استولت على معظم طريق الحرير التي كانت تعد الطريق التجاري الأهم في التاريخ بين الشرق والغرب .

في هذا الوقت كانت الإمبراطورية التركية الشرقية تعاني من صراعات داخلية وخارجية أضعفتها وأسقطتها لقمة سائغة في حلق الامبرطور الصيني **تاي تسونغ** (تانغ) الذي احتل منغوليا سنة 630 م . ثم هاجم الصينيون الامبرطورية الغربية سنة 659 م تحت قيادة كاوتسونغ Kao-Tsung وأخضعها.. ولكن الأتراك سرعان ما ينتفضون على هذه الأوضاع ، وتتوحد قيادتهم من جديد تحت قيادة **الخاقان إيل تيريش** Elterish الذي حكم 683 -692 م وكان مقره في منغوليا. ثم يؤول الحكم فيها إلى **الخاقان كابغان** Kapghan 692 - 716م .

ثم يخلفه على العرش الأمير **بلغا Bilge** 716- 734م - بمساعدة أخيه الأمير **kul** - فأصبح خاقانا على الأتراك ، وكان قويا مهيبا.. فعرض على الإمبراطور الصيني سوانغ تسونغ HsuanTsung (من سلالة تانغ) أن يقيم معه صلحا مع حسن جوار وتحالف وتعاون ، وعندما رفض الإمبراطور الصيني ، هاجم بلغا Bilge الجيش الصيني الضخم وسحقه ودمره تدميرا ، وأجبر الصينيين على طلب السلام والصلح سنة 721م .

وإذا علمنا أن العرب حققوا أهم انتصاراتهم في آسيا الوسطى (في بلاد ما وراء النهر) في أثناء ولاية قتيبة بن مسلم على خراسان (أي بين عامي 86 - 96 هـ 705-715 م) ، فمعنى ذلك أن الفتوحات

وقعت خلال حكم كابغان 692 -716 م والذي تسميه المصادر العربية (كالطبري) كوربغان ويقولون إنه ابن أخت ملك الصين .

ولكن وللتوضيح من اللبس نؤكد أن الفتوحات الإسلامية لم تشمل من بلاد الأتراك إلا مدنا وأقاليم من بلاد ما وراء النهر ، وهذه الأقاليم كانت في فترة الفتوحات الإسلامية عبارة عن إماراتٍ متفككة ومتفتتة عن دولة الهياطلة التي انهارت كما قلنا سنة 560م . وكانت كل مدينة تقريبا ، لها مملكة خاصة ، تحكم من قبل حاكم تركي مستقل عن الآخر .

وأما عميقا وفي أراضي (إمبراطورية تو كيو) الأخرى ..فالفتح الإسلامي والجيوش العربية لم تتوغل فيها ، بل إن العرب التزموا سياسة الدفاع طوال القرون التالية ، وأقاموا الأسوار والخنادق لمنع ودرء الاعتداءات على تلك الحدود .

الآفار Avars (من منتصف القرن 6 - نهاية القرن 8)

(أي أنها عاصرت الدولة الإسلامية منذ قيامها.. وحتى صدر الدولة العباسية) .

هم شعب أويغوري تركي مع قادة من الآفار (- جوان - جوان) المغوليين ، والذين أقاموا إمبراطورية جديدة في السهوب شمالي بحر قزوين وشمالي القوقاز .ثم انقسم الآفار إلى قسمين رئيسيين بقي أحداهما في أوربا الشرقية ، بينما تحرك الآخر غربا إلى نهر الدانوب Danub واستقر في إقليم داسيا (رومانيا اليوم) ثم ابتدأ بفتوحاته النشيطة..

ففي نهاية القرن 6 م توسعت دولة الآفار (آفار داسيا) من نهر الفولغا شرقا وحتى بحر البلطيق غربا ، وفرضوا جزية هائلة على الإمبراطورية البيزنطية ، وقد بلغت إمبراطوريتهم ذروة مجدها تحت حكم الخاقان Baian فأصبحوا القوة الأعظم في أوربا (وهذا يعاصر تقريبا مولد الرسول صلى الله عليه وسلم) . ولقد كان لهؤلاء أثر كبير في تطور الجغرافيا البشرية لجزء كبير من أوربا ، فبتأثير هؤلاء وتحت ضغط قوتهم الهائلة هاجر كثير من القبائل السلافية إلى مناطق من أوربا الشرقية لم يكونوا قد عرفوها من قبل، ثم استوطنوها منذ ذلك الحين وأصبحت لهم إلى هذا اليوم .

وبعد موت الخاقان البطل (**بايان**) ، ضعفت الامبرطورية من بعده ، وتزلزلوا تحت تأثير الضربات المستمرة من السلاف ، ومن البلغار (وهم أتراك أيضا) ..

ثم جاءت نهايتهم الأخيرة على يد تشارلمان 795- 796 م (الذي كان يعاصر هارون الرشيد وكان بينهما علاقات ودية ومراسلات وهدايا) ثم قام الشعب المورافي في إقليم مورافيا والذي كان من جملة من خضع لهم ، قام بتصيفتهم وإبادتهم ، وأما من نجا من الآفار فقد ذابوا في الأغلبية السلافية في داسيا (رومانيا) .

وأما القسم الأول من الآفار والذي استقر قي أوربا الشرقية ، فقد بقي قسم منه إلى اليوم يعيش في القوقاز (داغستان) ويؤلفون حوالي 3. % من سكان داغستان .

وللمناسبة نذكر أن **الشيخ شامل** - البطل الوطني الشهير والذي ترأس الحركة الوطنية المقاومة للاحتلال الروسي للقوقاز في نهاية القرن 19م- كان من الآفار.

ويبلغ عدد الآفار اليوم ما يقارب 15. ألف إنسان يسكنون داغستان ، ويشكلون الكتلة الرئيسية من الشعب الداغستاني الذي يحوي أكثر من ثلاث جنسيات مختلفة .

إمبراطورية الخزر (من أواخر ق 6 – ق 11)

هم اتحاد قبلي تركي مؤسس بشكل رئيسي من الأوغوز- الغز - التركمان –

وهؤلاء على إثر سقوط دولتهم توكيو - أسسوا امبرطورية عظيمة الشأن ، خطيرة الأثر في التاريخ ، وكانت يمتد سلطانها حول بحر قزوين (الذي يعرف إلى الآن ببحر الخزر) شاملا بلاد القوقاز الشمالي والجنوبي وأرمينيا وجورجيا وشمال البحر الأسود وحتى حدود البلقان – نهر الطونة - ، وكانوا يفرضون جزية على البلغار والرومان – البيزنطيين – ودويلات القوقاز .

تقول الموسوعة الأمريكية أنكارتا : Encarta En.

((إن حضارة الخزر تباهي الحضارات بأنها كانت حضارة إنسانية (للناس كلهم) ومستنيرة ومتسامحة)) .

حكمت دولتهم من القرن 6 -11 م وكانوا وثنيين ولكن في القرن الثامن اعتنق ملكهم الخاقان – Bulan - **بولان** - الدين اليهودي بعد حضوره لجلسة مناظرة بين ثلاثة من علماء الدين الإسلامي والمسيحي واليهودي ، ثم تبعه معظم الشعب الخزري ،

ولهذا أهمية تاريخية كبيرة إذ أن الغالبية العظمى من يهود أوربا الشرقية وألمانيا وروسيا وأمريكا والمجر هم من أصول خزرية ، وعلى ذلك فمعظم اليهود الغربيين الأشكنازيم (85 % من يهود العالم اليوم) هم من أصول تركية خزرية . **فانشتين مثلا وماركس وفرويد** وغيرهم من كبار العلماء اليهود وفلاسفتهم من الخزر أصلا .

تقول موسوعة إنكارتا :

"وبالرغم من اعتناق ملكهم اليهودية هو وكثير من النبلاء من شعبه إلا أن جميع الأديان السماوية والوثنية كانت تتعايش في ظله وظل خلفائه تعايشا سلميا في أقُصى درجات التسامح الديني حتى لقد انتشر في بلاده المبشرون المسلمون والنصارى يدعو كل واحد منهم إلى معتقده بحرية كاملة " .

"وكان الخزر بنائين نهمين للمدن والقصور والقلاع ، ومن أشهر آثارهم عاصمتهم الشتوية الفخمة (ايتيل Ethil) عند مصب نهر الفولغا ، وكذلك قلاع ساركيل Sarkel على نهر الدون Don "

وابتداء من سنة 965 م بدأ الضعف يتسرب إلى هذه الإمبراطورية التي عاشت أكثر من أربعة قرون تحت تأثير الغزوات المكثفة والمتتابعة التي كان يشنها البشناك (الأتراك أيضا) حتى إذا جاء منتصف القرن الحادي عشر سقطت الإمبراطورية الخزرية تحت هجوم الجيوش المتحالفة ضدهم من البيزنطيين والروس وبذلك تفتت الشعب الخزري مهاجرا في الأقاليم المجاورة الآسيوية والأوربية حتى ألمانيا وإسكندنافيا .

الترك البجناك Besheneg (البشناك - البشناق)

قبيلة تركية جاءت من اواسط آسيا ، وطردوا الخزر ودمروا دولتهم ..فتفرق الخزر وتمزقوا شذرا في روسيا والمجر وأوربا الشرقية وحول قزوين – هؤلاء.. سيشكلون ، فيما بعد ، دولا مهمة **كالسلاجقة و الصفويين و العثمانيين** .

أسس البشناق دولتهم على أنقاض دولة الخزر والتي استمرت لمدة قرون من الزمن تفرض الجزية على الممالك التي حولها – ومنهم بيزنطة – التي تحالفت فيما بعد مع قبائل الترك **الكومان** Cuman الذين يعرفون باسم **القبجاق** – ومن هؤلاء كان معظم **المماليك البحرية الأتراك** الذين أسسوا **دولة المماليك بمصر والشام** –.

والغريب العجيب أن الروم البيزنطيين لم يغلبوا البجناك حتى استعانوا عليهم بأناس من جنسهم الذين دمروا دولة البشناك وشردوهم – كما فعل البشناك أنفسهم بالخزر من قبل.. ومن هؤلاء البشناق الأتراك قسم سكنوا – من ضمن ما سكنوا - بلاد البوسنة وأعطوها اسمهم كما يلفظه أهل المجر Besenyo ، أو كما يلفظه اللاتين بيسيني Bisseni.

إمبراطورية الأيغور Uighur 745- 1250 م

عرفت في التاريخ العربي الإسلامي – خطأ - بدولة التغزغز Tokuz- oguz ، وهي إمبراطورية تركية عظيمة ورثت إمبراطورية التغزغز - توكيو Tou-kio (التركية أيضا) وجعلت عاصمتها على نهر قرة بلغاسون Kara palghasun في منغوليا على نهر أورخون .

دامت هذه الإمبراطورية حوالي خمسة قرون (505 سنوات) ابتداء من تأسيسها 745م وهي سنة سقوط دولة الأتراك السابقة توكيو وحتى سنة 125.م حين قضي عليها تماما على يد جيوش جنكيزخان ، فأصبحت جزءا من إمبراطورية المغول الهائلة !

وبشيء من المقارنة نجد أنها عاصرت الدولة الإسلامية منذ أواخر العهد الأموي وحتى قريبا من سقوط الخلافة العباسية ببغداد 1258م

وقد امتدت إمبراطورية الأيغور في أقصى اتساعها من سهول منشوريا شرقا مرورا بمنغوليا وشمالي الصين مرورا بإقليم قانصوه وتركستان الشرقية حتى حدود نهر سرداريا (سيحون غربا) .

في عهد خاقانهم الثالث (ماو - يو Mau - yu وهذا اسمه الصيني) 759- 780 م الذي تحول عن دينه (الشامانية) معتنقا الدين الإيراني المانوية ، (والمانوية : دين ذو مذهب أخلاقي رفيع ، يحرم قتل الإنسان بل وحتى الحيوان ، أوجده الفيلسوف ماني) ، وكان هذا سببا في اغتياله فيما بعد .

زار الرحالة المسلم " **تميم بن بحر**" عاصمتهم (قره بالغاسون) سنة 821 م ؛ ووصفها بعبارات مليئة بالإعجاب بهذه المدينة المحصنة في بلد غني ببساتينه وحقوله وحضارته .

في عام 840 م هاجمت قبائل القرقيز KYRGEZ البدوية (التي كانت تقطن سابقا سيبيريا شمالي منغوليا حول منابع نهر ينيسي) إمبراطورية الأيغور ، وأزاحوها عن منغوليا نهائيا , فتقلصت دولتهم ، وتمركزت في الإقليم الذي يعرف باسمهم اليوم (سنغ يانغ أيغور بالصينية) وهو تركستان الشرقية وهم اليوم خاضعون لحكومة بكين المركزية الشيوعية التي تضطهدهم وتستغل مواردهم الغنية جدا بالمعادن واليورانيوم والذهب والبترول وغيرها , وهم اليوم مسلمون جميعا .

انتشار الإسلام في بلاد الأيغور :

وصلهم الإسلام من جيرانهم الأتراك المسلمين في بلاد ماوراء النهر (سمرقند – بخارى – كاشغر) ولكن الانتشار الكامل الجماعي كان في عهد دولة القره خانيين (القارلوق) - الدولة الأفراسيابية المعاصرة للسامانيين في القرن 4 هجري فقد كان ملوكها شديدي التمسك بالإسلام وشعائره وفروضه ، وكانوا على جانب عظيم من التقوى والصلاح

تقول الموسوعة الأمريكية (إنكارتا) : صحيح أن الأيغور هم اليوم جميعا مسلمون ، ولكنهم قديما عرفوا الشامانية والبوذية ثم المانوية والمسيحية ثم دخلوا الإسلام .

وعنهم يقول د الساداتي ج 2 ص 336 من كتاب تاريخ المسلمين في الهند :

"الأيغور هم أغلب الأتراك الذين وجدهم الغزاة المسلمون من العرب ببلاد ماوراء النهر حين فتحوها في أواخر القرن الأول بقيادة قتيبة بن مسلم .

ويقول أيضا ص337 : "انتشرت الكتابة الأيغورية (وهي أبجدية ترجع إلى أصول صغدية قديمة) بين شعوب آسيا الوسطى انتشارا واسعا ، بعد سقوط دولتهم ، إذ ظلوا – برغم زوال دولتهم سياسيا – يلعبون كأفراد دورا سياسيا وثقافيا كبيرا في دول الترك والمغول ، فمنهم كان مؤدبو الأمراء المغول الذين قاموا على تنشئة أولاد جنكيزخان وتعليمهم وتثقيفهم ، وقد أرخوا للمغول وللدولة التيمورية فيما بعد وعملوا في دواوينهم (أي الوظائف الدبلوماسية)" . ثم يقول:" في بلاد الأويغور هذه عرف العرب المسلمون ورق الكتابة لأول مرة ، ليطلعوا العالم القديم عليه بدورهم من بعد ذلك " .

القبائل التركية التي وردت في المصادر التاريخية والجغرافية العربية

1- الغز (الأوغز) - التغز غز: ويعتقد العرب - خطأ - أنهم الأويغور, علما أن كلمة (تغز غز) تعني بالتركية "قبائل الغز التسعة" !
2- الأويغور.
3 - الكيماك – مؤلفة من القبجاك وغيرها

4- القرلق - الخلج
5- القرغيز
6- البلغار
7- الميجيار – المجر –
8- البجناك - البشناق .

هذا عن القبائل التركية الجوالة التي كانت على حدود ديار الإسلام .

3. بلاد ماوراء النهر (ماوراء نهر جيحون)

وهي جزء مما يعرف اليوم بإقليم تركستان ، وكان هذا الإقليم في فجر التاريخ مسرحا للعديد من القبائل البدوية أقدمها (السيث - خليط إيراني - تركي ؛ كانوا يتحدثون لغة شبيهة بالفارسية).

ثم استعمرت من قبل قبائل يويه – تشيه (Yueh – cheh) الطورانية التي كانت قبلا تعيش في شمال غربي الصين (في إقليم قانصوه) ؛ ثم نزحت عنه إلى هذا الإقليم (ما وراء النهر) وإلى أفغانستان أيضا ، ومع الوقت اصطبغت هذه المناطق بالصبغة التركية المحضة وتشكلت ها هنا دول تركية قوية – مثل دولة الهياطلة - كانت تهديدا دائما للحدود الشرقية للإمبراطورية الفارسية .

وليست الشاهنامة - (وهي ملحمة شعرية فارسية ألفها الفردوسي تمجد الفرس وأبطالهم الذين استبسلوا للدفاع عن وطنهم ضد جيرانهم الأتراك وخاصة البطل التركي الشهير (أفرا سياب) . وإن في أعياد الفرس عيدا كانوا يحيونه قديما في ذكرى صدهم لإحدى غارات الترك عليهم) - سوى ذاكرة شعرية قومية لما كان يمثله التهديد التركي الدائم المخيف للدولة الفارسية قديما .

مع العلم أن الدول التركية التي على تخوم الفرس كانت على الدوام أضعف الدول التركية التي عرفها التاريخ القديم .

ومن هذا الإقليم مع ما يجاوره من إقليم خراسان خرج أعظم شخصيات الثقافة الإسلامية كالبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبوداود والزمخشري وابن سينا والفارابي وابن النفيس الدمشقي المولد ، وابن قتيبة .... (راجع الأعلام للزركلي)

إقليم خراسان :

هو باختصار إقليم تركي قديم وقع تحت حكم الفرس فترة طويلة مما أضفى صبغة فارسية على ثقافته .

يقول الجاحظ عن الشعب الخراساني ، ويروي مدى ارتباطه بالأتراك وامتزاجه بهم :

(إن التركي والخراساني أخوان ، وإن الحيز واحد ، وكلهم خراساني في الجملة ، وإن تميزوا ببعض الخصائص وافترقوا ببعض الوجوه . وإن اختلاف التركي والخراساني ليس كاختلاف العربي والعجمي ولا كاختلاف الرومي والصقلبي ، والزنجي والحبشي ، فضلا عما هو أبعد جوهرا وأشد خلافا ، بل كالاختلاف بين المكي والمدني والبدوي والحضري وكالاختلاف بين الطائي الجبلي والطائي السهلي)

ويقول سهيل زكار في تقديمه لكتاب (العالم الإسلامي في العصر المغولي) :

"عندما قام الإسلام كانت الإمبراطورية الساسانية قد حكمت إيران والجزء الغربي من خراسان حتى مدينة مرو ، وأما في الإقليم الذي يليه أي أراضي خراسان ماوراء شرق مرو وحتى نهر جيحون فقد كانت هناك عددمن الدويلات التركية الصغيرة ، وكذلك الأمر في بلاد ماوراء النهر " .

الأتراك والعرب :

كان أول احتكاك بين العرب والأتراك – إذا نحن استثنينا الأتراك السومريين الموغلين في القدم – هو بسبب الفتوحات الإسلامية في القرنين الأول والثاني الهجريين ، إذ إن العرب بعد أن قضوا على الإمبراطورية الساسانية (الفارسية) وبعد فتح أرمينية تواجهوا مع الأتراك على جبهتين :

1 – في الشرق من إيران (فتح خراسان ثم بلاد ماوراء النهر) مع الهياطلة والأيغور .

2 - وفي جبهة القوقاز مع الخزر التي لم يستطع العرب أن ينفذوا منها ولا أن يتقدموا شبرا واحدا .

أما في الشرق : فقد صادف العرب دويلات تركية مهترئة مفككة – إذ كل مدينة مثل بخارى أو سمرقند أوبلخ , كان عليها ملك قائم بذاته يحكمها ! ..ومع ذلك كانت من أقسى الجبهات وأصعبها حتى على فاتح عظيم هو قتيبة بن مسلم؛ وحتى هذا كان قد استعان بجيش كبيرمن الأتراك الذين أسلموا من قبل في فتوح خراسان على يد الفاتحين المسلمين قبل قتيبة بن مسلم (أشهرهم المهلب بن أبي صفرة) وكان يضع

الأترك في مقدمة جيشه الفاتح لذلك قال له الملك **غوزوك خان** وهو يحاصر مدينة سمرقند : " إنما أنت تقاتلني بإخواني و أهل بيتي ؛ فاخرج إلي في العرب " فغضب لذلك قتيبة ، و ميز العرب من العجم في جيشه ، و أمر العجم باعتزالهم. (عن تاريخ الطبري)

وأما ما وراء نهر سيحون و شماليه فقد كانت لاتزال إمبراطورية توكيو- الغز ومع القبائل التركية التي كانت تتجول في سهوب آسيا سيبيريا وأوربا الشرقية فهؤلاء لم يخضعوا لسلطان أحد – لا العرب ولاغيرهم – بل بقوا على ديانتهم الشامانية ..وهناك وفي هذه الأقاليم بدأيتسرب الإسلام – كدين – ببطء إلى نفوس هؤلاء الأتراك الأحرار عن طريق التجارة والاحتكاك مع أقاربهم الأتراك المسلمين في بلاد ما وراء النهر وخراسان (بخارى - سمرقند – مرو) .

* وأما قبل ذلك فقد اقتصر انتشار الإسلام بين الأتراك على الإقليمين المذكورين يضاف إليهما بعض الأعداد المحدودة من الأطفال الأتراك التي كانت تجلب – بالخطف أو السبي أو البيع من الحدود الشرقية و الشمالية لدار الإسلام على شكل رقيق أبيض ليتم تربيتهم تربية إسلامية وعسكرية وتنظيمية ،وقد بدأت الدولة الأموية بهذا المشروع بشكل محدود وكذلك في صدر الخلافة العباسية حتى إذا كانت خلافة المعتصم بالله ، كان هذا أول من اصطنع جيشا كاملا للخلافة قوامه الأتراك جنودا وقيادة .

* ولذلك يقول د.أحمد العبادي ((على أن استخدام المماليك الأتراك في المجتمع الإسلامي – أي في الجيش والوظائف الديوانية – يرجع إلى ماقبل عهد المعتصم بكثير ، كما يرجع استخدامهم في الوظائف الكبرى بالدولة إلى أوائل أيام العباسيين ، وأوضح الأدلة على ذلك ولاية يحيى بن داود الخرسي – الخراساني – إمارة مصر – 162 وحتى 164هجري من قبل أبي جعفر المنصور ، ويحيى هذا مملوك تركي ..))

* ويذكر الطبري في حوادث 170هـ أن طرطوس عمرت على يد (أبي سليم فرج الخادم) التركي

* وبسبب ذلك وحسدا من العرب الذين أصبحوا يدركون أن الدولة زالت عنهم ، وصارت تحت النفوذ التركي المطلق ؛ فقد حاول بعض سادة العرب أن يثورواعلى الدولة العباسية محاولين إسقاطها من أجل ذلك فقط ؛ فها هو **نصر بن شبث العقيلي** يعلن ثورته على المأمون من سنة 198 - 209 هـ في منطقة الجزيرة السورية، ويلتف حوله كثير من الأعراب ؛ وظل يثير الرعب على ضفتي الفرات 13عاما ،حتى أرسل إليه المأمون جيشا خراسانيا بقيادة طاهر بن الحسين الخراساني، فقضى عليه وعلى ثورته !! وعندما سئل نصر بن شبث عن سبب ثورته قال :

" إنما هو اي في بني العباس ، وإنما أقاتلهم لانحرافهم عن العرب " !

وتأكيدا لذلك ..نذكر هذه الأبيات للشاعر العربي الشهير **دعبل الخزاعي** ؛ وهذا الشاعر كان - في عهد المعتصم وابنه الواثق - على خير حال وحدث أن تولى – مرة - منصبا رفيعا في دولتهم ، وكانت له ضياع وبساتين " إقطاعا له " .. إلا أنه بقي ناقما على بني العباس عموما لتشيعه ، وعلى المعتصم خصوصا لأن أم المعتصم كانت تركية ، ولأنه آثر الأتراك وجعل منهم جند الخلافة ؛ يقول دعبل في هجائه المرير للمعتصم :

ملوك بني العباس في الكتب سبعة ولم تأتنا عن ثامنٍ لهم كتب
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة خيار إذا عدوا وثامنهم كلب
وإني لأعلي كلبهم عنك رفعة لأنك ذو ذنبٍ وليس له ذنب

ثم يقول :

وهمك تركي عليه مهانة فأنت له أم ، وأنت له أب
لقد ضاع ملك الناس إذ ساس ملكهم "وصيف"و"أشناس وقد عظم الكرب

** "وصيف " "وأشناس" هما من أبرز القادة الأتراك في عهد المعتصم .

* وحتى الجاحظ المعاصر لهذه الفترة يؤلف رسالة خاصة يمتدح فيها الجنود الأتراك ويذكر شدة بأسهم وبطولة فرسانهم ؛ وحسن تنظيمهم وهي: " فضل الترك على سائر جند الخلافة " وهنا وللمناسبة

؛نقول : إن معظم الخلفاء العباسيين كانوا أولاد إماء (سرايا - مملوكات) فالمنصور أمه حبشية ، والرشيد أمه رومية ، والمأمون أمه خراسانية ، والمعتصم أمه تركية من الصغد .

* ومنذ ذلك التاريخ فإن العرب كانوا قد زالوا تماما عن المسرح السياسي والعسكري في دولة الإسلام ، ولم يبق للخليفة إلا اسمه على اعتباره رمزا روحيا لدولة الإسلام فقط لا غير ، وحتى هذا الدور سيأتي زمن السلطان العثماني سليم الأول ، فيتنازل له الخليفة العباسي الذي كان يعيش في مصر عالة على المماليك فيها ويصبح الخليفة تركيا .

4. ظهور الدويلات المستقلة عن الخلافة :

- في مصر أسس التركي أحمد بن طولون - (كان أبوه طولون مملوكا تركيا ، وأصبح من كبار القادة العسكريين في جيش الخلافة) - دولة مستقلة لها شأنها وتاريخها وحضارتها .

- وفي بلاد فارس قامت الدولتان: الطاهرية (أسسها طاهر بن الحسين الخراساني) ، والدولة الصفارية (يعقوب بن الليث الصفار الفارسي) .

وللمناسبة نذكر :

فتح عمورية :

يتغنى التاريخ الإسلامي ، بقصة فتح عمورية ، ويذكر للمعتصم (الذي أمه تركية) بأنه حينما بلغه نبأ المرأة المسلمة التي اعتدى عليها جنود بيزنطيون في ثغر زبطرة ، فصاحت مستغيثة : وا معتصماه !! أن النبأ هذا بلغه في ليلة من ليالي سمره، وأنه رمى من كفه الكأس ، وصاح بكل شهامة وبطولة : " لبيك أيتها المرأة المسلمة "

وأعلن النفير العام في الجيش الذي كان كله تركيا من أصغر جندي وحتى أعاظم قادته ؛ وتحرك الجيش الضخم ، وكان في مقدمته : القائد التركي العظيم (أشناس) ، وكذلك البطل التركي (إيتاخ) ، و البطل التركي الشهير (الأفشين) وهم الذين فتحوا عمورية وحرقوها انتقاما لشرف المرأة المسلمة . ولم يكن للمعتصم فيه إلا حضوره في نهاية المعركة تشريفا لها !!

* وفي هذا النصر العظيم المشرف نظم الشاعر الخالد أبو تمام واحدة من أعظم قصائده ،يقول في مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

نبذة عن بعض كبار القادة الأتراك في جيش الخلافة العباسية

الأفشين :

تركي من (أشروسنة) ، من بلاد ماوراء النهر بين فرغانة وسمرقند ، واسمه - خيذر بن كاوس - ، كان من حاشية المعتصم في ولايته على مصر والشام؛ والأفشين لقب ورثه ، لأنه من نسل ملوك أشروسنة ، عرف فيه المعتصم الشجاعة فوثق به ، ثم تسلم قيادة الجيش وسار به سنة 220هـ لحرب بابك الخرمي ، وقد أبلى في حروبه مع بابك بلاء ظيما ،مما رفع منزلته كثيرا عند الخليفة المعتصم ، ثم ولاه على السند. ولما سار المعتصم لغزو عمورية كان الأفشين قائد أحد الجيوش الثلاثة؛ وكان دوره في وقعة عمورية كبيرا فهو الذي تولى حرب - تيوفيل – الإمبراطور البيزنطي وهو الذي هزم الجنود البيزنطيين..اتهمه المعتصم بالطمع في الاستقلال ، فقبض عليه ومات في سجنه ، فبعد موته أخرج من السجن ميتا فصلب بباب العامة ، وأحضرت أصنام زعموا أنها كانت له !!.

إيتاخ :

اشتراه المعتصم سنة 199 هـ ونظرا لتفوقه العسكري جعله المعتصم قائد إحدى الفرق الثلاث في معركة عمورية ، ظل في منصبه مدة خلافة (المعتصم والواثق) وفي زمن الواثق كان يشغل منصب

الحاجب وصاحب البريد ، وقائد الجيوش ، وحين شعر المتوكل بأن نفوذه يشتد ويزداد، فاعتقله سنة 235 هـ وأمر بقتله .

أشناس :

أحد قواد معركة عمورية ، وفي سنة 225هـ وصل أشناس إلى قمة مجده ففي هذه السنة أجلسه المعتصم وتوجه ووشحه ، وأضفى عليه كل مظاهر التعظيم ، ولاسيما في حفل زواج ابنته من الحسن بن الأفشين وقد حافظ أشناس على هذه المكانة العالية في خلافة الواثق الذي توجه وألبسه وشاحين من الجوهر في عام 228هـ.

بغا الكبير :

وهو من القواد الترك الذين بدؤوا حياتهم العسكرية زمن الخليفة المعتصم ، وقد ظهرت مهارته العسكرية منذ أيام هذا الخليفة فقد اشترك في قمع ثورة علوية كبيرة ضد العباسيين بدأت منذ أيام المأمون ،وهي ثورة القاسم بن إبراهيم التي قضى عليها المعتصم بجيش كبير كان على رأسه أشناس وبغا الكبير ، كما اشترك أيضا في غزوة عمورية وأبلى فيها بلاء حسنا وقد استمر نفوذه حتى زمن الخليفة المستعين ، الذي كان مدينا بخلافته (له ولأتامش وبغا الصغير)

بغا الصغير :

الذي اشترك في مقتل المتوكل واستأثر بالسلطان زمن المنتصر والمستعين .

أتامش :

من الذين اشتركوا في تنصيب المستعين وتولى الوزارة له .

وصيف :

وهو زميل إيتاخ ، اشتركا في مبايعة المتوكل بعد وفاة الواثق .

❖ ملاحظات هامة :

لم تكن الخلافة العباسية بدعا بين الدول في تأسيس جيوشها من المماليك الأتراك ، بل كانت جميع الدول - وخاصة في تلك الفترة - تعتمد في تأسيس جيوشها على جنود وضباط من عنصرين مشهورين بالقوة والشجاعة والشكيمة والنظام والإلتزام وهما :

1 - العنصر التركي وهو الأغلب

2 - العنصر السلافي (الصقالبة) وخاصة ما يستجلب من الصرب والبوسنيين والبلغار .

** يقول د. أحمد العبادي في كتاب " قيام دولة المماليك الأولى في مصر وبلاد الشام" :

" فالدولة الطولونية والإخشيدية والفاطمية والصفارية والطاهرية والسامانية فضلا عن غيرها من الدول التركية المسلمة ، كالسلاجقة والخوارزمية و الزنكيين والأيوبيين ....كل هذه الدول كانت تعتمد في تأسيس جيوشها على المماليك ، من الأتراك خاصة ثم من أجناس أخرى كالصقالبة و الزنوج و الديلم .."

* حتى الدولة العربية التي تمركزت في حلب – وهي الدولة الحمدانية – فقد أسس سيف الدولة جيشه في معظمه من المماليك الأتراك (بالشراء) . " نظرا لانعدام القاعدة القبلية لحكم سيف الدولة ، فقد قام بتجنيد عدد كبير من الغلمان الأتراك و الديلم ، مثلما جرت العادة في بغداد..." وأما قومه العرب فلم يشاركوا في جيشه إلا فيما ندر ، وحتى قبيلته تغلب فإنها عندما ألح سيف الدولة بفرض ضرائب عليها لتجهيز الجيوش المسلمة (أي الجهاد بالمال فقط) كان ردهم عليه أن رحلوا بجملتهم (كان يقدر عددهم بـ 12 ألفا) شمالا إلى بلاد الروم وهناك تنصروا وارتدوا عن دينهم !!

وأما عن قصة الحدث الحمراء و هي قلعة من القلاع المسلمة على حدود سيف الدولة مع البيزنطيين ، فهي أشهر من أن تروى – لا بسبب ضخامة هذه المعركة و لكن شعر المتنبي هو الذي رفع من شأنها و كتبها في سجل الخالدين - ارجع إلى ديوانه الجزء الثالث صـ 378 حيث يقدم للقصيدة بما يلي :

"كان سبب هذه القصيدة أن سيف الدولة سار إلى ثغر الحدث ، ولما نزل بها سنة 343هـ ، وصله الخبر بان جيشا روميا كبيرا جاء لقتاله ، فخرج سيف الدولة للقائهم في خمسمائة من غلمانه (مماليكه) الأتراك ، فهزمهم هزيمة منكرة ، فأسر كثيرا وقتل الكثير .فقال المتنبي يمدحه بقصيدته الشهيرة التي مطلعها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

الدولة الطولونية (254 - 292 هـ)

**** مؤسسها (أحمد بن طولون)** : المولود في سامراء سنة 22.هـ كان أبوه طولون مملوكا تركيا أرسله حاكم بخارى (نوح الساماني) كهدية فاخرة للخليفة المأمون سنة 200 هـ ، وتدرج طولون في حياة المماليك في بغداد حتى أصبح رئيسا لحرس الخليفة .

قام طولون بتربية ابنه أحمد تربية عسكرية إسلامية ثقافية أهلته لأن يصبح حاكما على مصر سنة 254هـ (868 م) .

يقول المقريزي (في خططه) : " إن أحمد بن طولون استكثر من شراء المماليك الأتراك حتى بلغت عدتهم في مصر 24 ألف مملوك " ؛ وطبيعي أن يعتمد ابن طولون على المماليك من أبناء جنسه التركي في ولايته " د. أحمد العبادي ص 66

يقول ابن الأثير : صاحب كتاب الكامل في التاريخ ، واصفا أحمد بن طولون : " كان عاقلا حازما كثير المعروف والصدقة ، متدينا يحب العلماء وأهل الدين ، وعمل كثيرا من أعمال البر ومصالح المسلمين ، وهو الذي بنى قلعة يافا وكانت بغير قلعة ، وكان يميل إلى المذهب الشافعي ، ويكرم أصحابه .

قال ابن خلكان في كتاب أعيان الوفيات جـ1 ص 173:" كان أحمد عادلا – جوادا – شجاعا متواضعا – حسن السيرة ويتفقد أحوال الرعية ؛ ورزق حسن الصوت ... وكان يحفظ القرآن الكريم – وكان من أدرس الناس للقرآن ، وبنى الجامع المنسوب إليه في القاهرة ."

كان أحمد بن طولون قاسيا مستبدا في حكمه ، ولكنه كان أيضا يهتم برعيته ، وبخاصة الفقراء والمحتاجين ، وقد أنشأ لهؤلاء المطاعم المجانية ، واهتم اهتماما بالغا بالعلم والعلماء ، وقد بلغ عدة ما أرسله من المساعدة والنفقات إلى فقراء بغداد وعلمائها في مدة ولايته (ألفي ألف ومائتي ألف دينار - 2,200,000 دينار). !!

- ومن آثاره :
  - مسجد ابن طولون الشهير في مصر والذي لايزال آية من آيات الفن المعماري في عهده ، والذي يعرف بمئذنته الملتوية الشهيرة .
  - بنى بيمارستانا , وأنفق عليه بسخاء ، وأقام فيه الأطباء ، وشرط إذا جيء بالمريض أن تنزع ثيابه وتحفظ عند أمين البيمارستان ثم يلبس ثيابا ويفرش له ، ويغدى عليه ويراح بالأدوية و الأغذية والأطباء حتى يبرأ ؛ ولم يكن هذا – الأمر – يجري قبل إمارته هو على مصر ؛ وهو أول من نظر في المظالم من أمراء مصر . توفي أحمد بن طولون سنة 276هـ

**** ورث ملكه ابنه (خمارويه)** [في سنة 276هـ] وهو ابن عشرين سنة !كان على سيرة أبيه ، مهتما بالعمائر والقصور ، وتشجيع العلم والعلماء. وكان شجاعا ، خاض مجموعة من الحروب مع الطامعين في ملكه (لصغر سنه) وخاصة ضد القائد التركي الشهير الأفشين : محمد بن أبي الساج (ت 288هـ) الذي أسس دولة مستقلة له في – أذربيجان – وكون لنفسه جيشا خاصا من المماليك الأتراك (

عرفوا في التاريخ بالأجناد الساجية نسبة إليه) وخرج قاصدا بلاد الشام ففتح شمالها ، واتجه لفتح دمشق ، فوصل إليه - خمارويه – بجيشه التركي أيضا ورده عنها .

- وقد ملك من الفرات حتى بلاد النوبة في جنوب مصر .
- ومما اشتهر به أيضا أنه كان حسن الخط.
- قتله غلمانه غيلة على فراشه وهو بدمشق في 27 ذي القعدة 282هـ ، وحمل تابوته إلى مصر ودفن عند تربة أبيه في سفح جبل المقطم .

** آخر ملوكها هارون بن خمارويه حكم 264-292هـ :

- بويع له وهو صبي صغير .. وبسبب صغره وضعفه ، أرسل إليه الخليفة العباسي – المكتفي بالله جيشا لاستخلاص مصر من بني طولون ، سنة 291هـ ، فحدثت الفوضى في جيشه ، و طعنه أحد جنوده فسقط قتيلا.

** **قطر الندى - جالا :** وهي الأميرة التركية أسماء بنت خمارويه بن أحمد بن طولون . من شهيرات النساء عقلا وأدبا وجمالا . تزوجها الخليفة المعتضد العباسي سنة 281هـ وجهزها أبوها خمارويه بجهاز لم يعمل مثله . توفيت في بغداد ودفنت بقصر الرصافة . [عن الأعلام للزركلي]

** من رجالات هذه الدولة :

- **بدر الحمامي** : ت31.هـ : هو بدر بن عبد الله ، أبو النجيم . قائد تركي الأصل من أمراء الجيش العباسي ، نشأ بمصر وكان من مماليك الطولونيون ؛ وقد قاد جيشهم الذي وجهه (خمارويه) لقتال القرامطة بالشام .

- كان جوادا ، شجاعا، محبا للعلم والعلماء . * [الأعلام للزركلي]

الحمامي : نسبة إلى الحمام الزاجل ، تقال لمن يطيره ، ويرسله في البلاد .

- وممن اشتهر من نسلهم :

1. **خلف الطولوني** : ت 31.هـ : تركي من سلالة الطولونيين . طبيب امتاز بعلم أمراض العيون ومداواتها . * [الأعلام للزركلي]
2. **شمس الدين ابن طولون** (880 - 953هـ) :

- مؤرخ - عالم بالترجمة والفقه - من أهل الصلاح .

قال عنه (الغزي) : "كانت أوقاته كلها معمورة بالعلم والعبادة ، وله مشاركة في سائر العلوم حتى في الطب وتفسير الأحلام "

له كتب كثيرة منها : سيرة ذاتية ضمنها كتابه – الفلك المشحون بأحوال محمد بن طولون – وكتاب الشمعة المضيئة في أخبار القلعة الدمشقية – وكتاب إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين –

الدولة الإخشيدية (333 - 358 هـ)

- مؤسس هذه الدولة هو [محمد بن طغج (طوغوج)] التركي – أصله من سمرقند في تركستان . استقل بحكم مصر سنة 333 هـ ثم تمددت حدود دولته فشملت بعض جهات الشام .في عهده ، استولى (سيف الدولة الحمداني التغلبي) صاحب الموصل على حلب وحمص وقصد دمشق ، ولكن رده عنها " الإخشيد " الذي توفي سنة434هـ.
- ورثه في الملك ابنه (محمود الإخشيدي) ولصغر سنه ، فقد تحكم في أمور الدولة أحد العبيد السود ، الذي أصبح وصيا على العرش الإخشيدي وهو – كافور – الذي خلده المتنبي بهجائه له وحكم من (334 - 356هـ) ثم آل الحكم إلى :
- أبو الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد (357 - 358هـ) – إذ في سنة 358هـ أرسل المعز لدين الله الفاطمي جيشا كثيفا (من المماليك الصقالبة والبربر والترك) بقيادة القائد الشهير (جوهر الصقلي وهو من أصل سلافي - صقلبي) إلى مصر وبلاد الشام ، وجوهر هذا هو الذي بنى مدينة القاهرة وبنى فيها الجامع الأزهر الشريف .

- المهم في هذه الدولة ثلاثة ملاحظات :

1- كانت دولة قائمة في حكمها على المماليك ، وخاصة على الأتراك منهم ، كما كانت دولة الطولونيين قبلها.

2 - كانت دولة سنيـة ، تخطب للخليفة العباسي على منابرها ، رغم استقلالها التام عنه

3 - عاصرت عددا من الدويلات الشيعية :

فالدولة البويهية (الزيدية) : تحكم فارس والعراق.

والحمدانية (الإثنا عشرية) : تحكم في الموصل وحلب وحمص وماحولها .

ودولة القرامطة (الإسماعيلية) في البحرين (الأحساء).

والفاطمية (الإسماعيلية): في المغرب العربي .

الدولة الفاطمية (297 - 567 هـ) * حوالي 270 سنة

وتسمى أيضا الدولة العبيدية نسبة إلى (عبيد الله المهدي) أول خلفائها .

هي دولة سلالةٍ تدعي النسب إلى فاطمة الزهراء كذبا وتضليلا ، فالثابت عن المؤرخين الثقات كابن الأثير , صاحب كتاب الكامل – والذهبي وابن خلكان والقاضي عبد الجبار وحتى بعض أعلام الشيعة كالشريف الرضي ؛ أن مؤسسها انتحل هذا النسب

مايهمنا من أمرها هنا هو اعتمادها في نشأتها وفي وضع أسسها اعتمادا كليا على من تعاطف مع هذه الدعوة الفاطمية الشيعية من قبائل البربر (قبائل كتامة خاصة في شمالي إفريقية) .

بعد قيامها ، اعتمد خلفاؤها اعتماداكبيرا على (المماليك الأتراك ، والزنوج والصقالبة) ، وبخاصة بعد انتقال عاصمة ملكهم إلى القاهرة سنة 362هـ

يقول د. أحمد العبادي / ك. قيام دولة المماليك الأولى / ص 68:

" ويبدوأن الخلافة الفاطمية أكثرت من المماليك الأتراك والصقالبة منذ قيام أول الخلفاء الفاطميين في مصر بدليل اختيار (العزيز) وهو الخليفة الثاني – من هؤلاء وأولئك لمناصب الثقة والقيادة والولاية ... فولى مملوكه (بنجوتكين) التركي قيادة الجيش ، كما ولاه الشام ،

وولى بـشارة الإخشيدي طبرية ، و ولى دنيا الصقلبي ولاية غزة .

ولقد أثار تفضيل الفاطميين للترك والصقالبة عوامل الحسد والغيرة عند المغاربة – البربر- لأن هؤلاء يعدون أنفسهم هم مؤسسو هذه الدولة !! " اهـ

ثم انتهت هذه الدولة ، بقيام الدولة الأيوبية (567 - 648هـ) ، على يد الناصر صلاح الدين سنة 567هـ

وهكذا فإن مصر – مثل باقي دول المشرق العربي – خضعت للحكم التركي المباشر – من خلال أسر تركية حاكمة متعاقبة – [كالدولة الطولونية والإخشيدية ؛ والمماليك البحرية ، ثم العثمانيين وأسرة محمد علي باشا] منذ حكم الطولونيون سنة 254- وحتى 1371هـ (1952م) حين قيام الضباط المصريين (الضباط الأحرار) بثورة يوليو التي وضعت نهاية للحكم الملكي التركي (أسرة محمد علي باشا) .

- أي إن مصر خضعت للحكم التركي المباشر ما يقارب مجموعه ألف عام.

** للاطلاع .. كيف تأسست الدولة الفاطمية :

اجتمع أحد دعاة الشيعة ويدعى " أبو عبد الله الشيعي" في أثناء الحج بمكة المكرمة ، ببعض البربر – من قبيلة كـتامة - ، فوجد لديهم استعدادا عظيما لتقبل الدعوة الفاطمية في بلادهم ، فذهب معهم إلى شمالي إفريقيا ، وهناك نشطوا في بث دعوتهم بين قبائل البربر، وتصاعدت قوتهم وانتشرت دعوتهم ، في أرجاء المغرب العربي (بين البربر المتحمسين لها) ثم لمـا صارت الأمور جاهزة تماما ، استدعى أبو عبد الله

الشيعي (عبيد الله بن محمد) الذي كان يقيم في (سلمية) في سورية ، فنصبوه خليفة ولقب – بالمهدي – سنة 297هـ.

السلاجقة :

وهم شعبة من الأتراك الأوغوز (الغز) - التركمان.. ينتسب هؤلاء إلى سلجوق ، وتعد أول دولة إسلامية تحكم بشكل مستقل تماما ، وقد امتد سلطانهم الهائل من حدود الصين الغربية إلى شواطىء المتوسط . يقول د. شوقي ضيف :

((ثم ورث الحكم عن – طغرل بك – ابنه البطل التركي العظيم (ألب أرسلان) الذي اصطدم معه الإمبراطور البيزنطي – رومانيوس ديجينوس – في معركة من أشهر المعارك في التاريخ وأقساها ، وهي معركة ملاذكرد عام 1071م - 463 للهجرة .

يقول د سهيل زكار في كنابه : تاريخ الدولة العربية – العصر العباسي الثاني ص 208 :

((ولهذا اتجه ألب أرسلان في خمسة عشر ألف فارس من خيرة فرسانه شمالا لمواجهة الجيش البيزنطي الزاحف . واشتبك معه في أرمينية عند موقع اسمه منازكرد (قرب بحيرة وان في تركيا اليوم) فهزمهم شر هزيمة ، ووقع الإمبراطور رومانوس في الأسر.. وكانت هذه أول مرة يسقط فيها امبرطور بيزنطي أسيرا" عند المسلمين .. ولولا هذا النصر الخطير وبعيد التأثير لكانت حملة ألب أرسلان كلها بلا ثمرات ... ونظرا" للأهمية القصوى لهذه المعركة ، ولكونها من معارك التاريخ الفاصلة في عالم العصور الوسطى ، فهي تعدل – إن لم تفق – معركة اليرموك بالنسبة إلى العلاقات الإسلامية – البيزنطية ..)) اهـ.

وكانت هذه المعركة أول تهديد حقيقي يتعرض له العالم المسيحي يومذاك ، فقد شعر النصارى وبخاصة البيزنطيون وحتى البابا أن قدوم هؤلاء السلاجقة إلى بلاد الأناضول واستيطانهم فيها مع وجود هجرات من الغز(التركمان) على شكل مجموعات منفصلة كانت تتمادى في هجراتها غربا عبر الأناضول .. وهكذا وبسبب هذه الهجرات الكثيفة (وحتى قبل قدوم العثمانيين من اواسط آسيا) فإن أذربيجان والأناضول قد أصبحتا تركيتين تماما منذ هذه الفترة ..

وبذلك يعد المؤرخون أن هزيمة البيزنطيين النصارى في الأناضول في المعركة الفاصلة القاصمة – مناذكرد –كانت سببا حقيقيا لتحرك نصارى أوربا العسكري على شكل حملات صليبية والذي لا يعرفه الكثيرون أن الحملة الصليبية الأولى التي قدمت برا عبر الأناضول لم تصل إلى هدفها في بلاد الشام بل بادت جميعها على يد السلاجقة التركمان .

ومن ضباط هذه الدولة وقادتها العسكريين برز أنوشتكين أحد مماليك السلطان السلجوقي ملك شاه الذي أسس دولة لنفسه فيما بعد والتي نمت وتطورت وصارت دولة عظيمة دعيت خوارزم شاه ومن أهم ملوكها أتسز 521-551هجري وله وقائع مع سنجر السلجوقي وامتد ملكهم امتدادا عظيما

حتى بلغ في عهد آخر سلاطينهم محمد خوارزم من حدود الصين ومنغوليا (حيث امبرطورية جنكيز خان قد بدأت بالتشكل والاستعداد للفتوحات فيما بعد التي ستجرف –كالمهل- أمامها كل شيء) إلى بلاد الرافدين ، وحتى الخليفة العباسي نفسه كان يهاب ويخشى ملك خوارزم ، ويتوجس منه بعد أن استنجد به للقضاء على آخر سلاطين السلاجقة في العراق والتخلص من تحكمه به فلما أجابه هذا ، ونفذ ماطلبه وقع الخليفة في شراك هذا القادم الجديد .

الزنـكيون :

هم أتراك أيضا (تركمان) ، وكانوا أتابكة (أي ضباط كبار أوصياء على ورثة الحكم) في دولة السلاجقة الأتراك.

رأس هذه الأسرة - آق سنقر البرسقي –

وهذه الأسرة هي أول من قام من المسلمين بتنظيم أول خطة مدروسة للجهاد ضد الصليبيين،

فقد بدأ الخطوة الأولى البطل – عماد الدين زنكي – ابن آق سنقر ، وتابع مشواره الجهادي بقوة وحماسة وشجاعة في تحرير بلاد الشام والرها ابنه :

البطل الشهير المسلم – نور الدين محمود :

الذي كاد يتم تحرير البلاد من الصليبيين على يديه لولا أن أدركه الموت شابا ، وترك من ورائه ورثة صغارا ، وما كان صلاح الدين الأيوبي إلا ضابطا في جيشه فلما مات نور الدين ، آل إليه الحكم بسبب ظروف تلك الأزمنة وظروف أولاده الصغار كما ذكرنا .

البطل الشهير المسلم صلاح الدين الأيوبي :

هو وأسرته من الأكراد ..

وهي المشاركة الحقيقية الوحيدة لهذا الشعب في إدارة مسرح التاريخ المسلم (في هذه المنطقة حصرا وعبر هذه الأسرة فقط) ، والتي كان منها بعض القادة في جيش الزنكيين ، وأما جيش صلاح الدين نفسه فما كان في معظمه - أفرادا وضباطا - إلا من الأتراك والتركمان .

يقول د أحمد العبادي في كتابه قيام دولة المماليك الأولى ص82 : (وقد سار الأيوبيون على سنة السلاجقة وأتابكتهم – الزنكيين وغيرهم – في الإكثار من شراء المماليك الأتراك واستخدامهم في الجيش).

ثم يقول في ص83 (أخذ صلاح الدين في تكوين جيش قوامه المماليك الأسدية -الأتراك – القدماء وسائره من الأحرار الأكراد ومن المماليك الأتراك الذين اشتراهم بنفسه وسماهم الصلاحية أو القاهرية)

ويتابع في ص87 : (والمهم في ذلك أن المماليك قد بلغوا من القوة والكثرة – في دولة صلاح الدين – مبلغا جعل صلاح الدين يميل لرغبتهم ومشورتهم ، وفي ذلك بيان مدى اعتماد الدولة الأيوبية منذ أيامها الأولى على فئات المماليك الأتراك)

وفي ص93: (ومن هنا يظهر مدى تفوق القوة المملوكية التركية على القوة الكردية في دولة بني أيوب)

وأما العرب فلم يشاركوا في هذه الأحداث ولا في الجهاد ضد الصليبيين بل وللأسف فإن بعض الأسر العربية الحاكمة - آل عمار في طرابلس – و – آل منقذ –في شيزر قاموا بتقديم المساعدات والمعونات والإرشادات للجيوش الصليبية في أثناء توغلها في بلاد الشام شريطة ألا يتعرضوا لأرزاقهم وبساتينهم !!

بل إن البعض (الإسماعيلية) قد اغتالوا عددا من قادة المسلمين مثل (آق سنقر) وعماد الدين زنكي وحاولوا اغتيال صلاح الدين فلم يفلحوا ...

** وقد ورث الدولة أقرباؤه الأيوبيون فتصارعوا بينهم وتنازعوا ومات صلاح الدين ورغم أنه كسر شوكة الصليبيين في بلاد الشام إلا أنه لم يحسن خواتيم الأمور، وبسبب الصلح الذي عقده مع قادتهم تسبب ذلك في إطالة بقائهم قرنا من الزمن.!!

** وأما طرد الصليبيين الحقيقي والنهائي –وهذا للأسف لايعرفه الكثير من المثقفين !!– فقد كان على يد المماليك الأتراك وجيشهم التركي بقيادة بيبرس ومن بعده من السلاطين الأتراك وكان آخرهم الناصر بن قلاوون ..

دولة المماليك البحرية الأتراك

كنا قد تحدثنا أن جيوش صلاح الدين والأيوبيين كانت في معظمها تركية الجنود والقادة ،

وهكذا وفي أثناء الحملة الصليبية الثامنة على مصر التي كان يحكمها الملك الصالح أيوب والذي استورد عددا هائلا من المماليك الأتراك (من القبجاق خاصة وجعل منهم عدة جيشه) ،

مات هذا الملك الأيوبي ، فأخفت خبر موته **زوجته التركية – شجرة الدر** – والتي بعد انتصار المماليك على الصليبيين في مصر وأسر الملك الفرنسي لويس التاسع أصبحت ملكة على البلاد ، وحكمت 8. يوما عام 125.م

ولكن الأعراف العربية الإسلامية لاتقبل بحكم المرأة ، فاضطرت إلى أن تتزوج أحد أبرز ضباطها – **عز الدين أيبك التركماني** -، وأن تتنازل عن الحكم له وهكذا بدأت دولة المماليك الأتراك التي حملت لواء الجهاد ضد الصليبيين والمغول فطردت الصليبيين تماما ووقفت في وجه الزحف المغولي على يد السلطان المظفر **قطز** بقيادة **بيبرس** للجيوش .

قوام الجيش في دولة المماليك

كان الجيش في عهد المماليك البحرية – الأتراك – مؤلفا من الفئات التالية :

1- المماليك السلطانية : وهم من مماليك السلاطين السابقين أو السلطان القائم ، وعرفوا بالجلبان أو الأجلاب وهم الأعظم شأنا في الجيش ، وفيهم إمارة الجيش وضباطه .

2- جند الحلقة من أولاد المماليك من محترفي الجندية ، وكانوا يعرفون بأولاد الناس وهم أحرار ، وهم كثرة الجيش وعامته في الحرب ، وأصحاب حرف وصناعة في السلم (احتياطي الجيش) .

- مماليك الأمراء : وهم يشبهون المماليك السلطانية ، غير أنهم تابعين مباشرة لأمرائهم ، ومنهم تتكون الوحدات الحربية التي يذهب بها الأمراء مع السلطان في حروبه .

علاقة المماليك بالشعب العربي

يقول د على ابراهيم حسن في كتاب تاريخ المماليك البحرية ص24 :

"ومن الغريب أن المماليك عاشوا في أثناء حكمهم لمصركطائفةٍ منفصلة عما حولها ، واحتفظوا بشخصيتهم ، ولم يختلطوا بأي عنصر من عناصر السكان المصرية ، ولم يسمحوا لسكان مصر أو أي جزء من أجزاء مملكتهم بالانخراط في صفوفهم ، ولم يتزوجوا منهم إلا فيما ندر .. ولعل هذا كان ترفعا منهم على أهل البلاد المحكومين ومحافظة على الأرستقراطية التي تؤهل للعرش ."

ثم يقول في نفس الصفحة :" وقصروا أعمال الجندية على أشخاصهم ، وذهبوا إلى مدى أبعد .. فأهل مصر كانوا في عهد المماليك يتولون أحيانا وظائف القلم ، ولم يكن لهم نصيب في الجيش العامل اللهم إلا في بعض الأعمال غير العسكرية كأعمال الأئمة – الفقهاء – والصناع والفعلة والأتباع ".

أهم منجزاتها

1- إحباط الزحف المغولي على مصر وافريقيا على يد البطلين التركيين : قطز ، وقائد جيشه بيبرس ..ولولا فضلهم لامتد الطوفان المغولي شاملا العالم القديم بأسره .

2 - الطرد النهائي و الكامل للصليبيين على يدالبطل التركي بيبرس ثم خلفاؤه من بعده و انتهت العملية الاستئصالية للصليبيين على يد البطل **الناصر محمد بن قلاوون**

3 - النشاط الاقتصادي والعمراني والثقافي الذي شهدته مصر على عهدهم ، حتى غدت بديلا عن بغداد ودمشق بعد سقوطهما في يد المغول ؛ فأصبحت مصر على عهدهم مركز الحضارة الإسلامية.

4 - الإبقاء - ولو بالسيادة الروحية - على الخلافة العباسية التي أصبحت موطنها في القاهرة بدلا من بغداد.

5 - بسبب صلات القربى العرقية بين المغول والأتراك ؛ فقد بدأ يتسرب الدين الإسلامي إلى قلوب المغول الأشداء فأصبحوا فيما بعد من خيرة من شجع وساهم في الحضارة الإسلامية فيما بعد .

أهم شخصيات هذه الدولة :

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

1- شجرة الدر 2- عز الدين أيبك 3- قطز
4 - بيبرس البندقدار 5- قلاوون 6- الناصر محمد بن قلاوون

الدولة الرسولية Rasulids

رأس هذه الدولة هو رسول - محمد بن هارون بن أبي الفتح بن يوحى . وسمي رسولا لأنه كان أمينا في دولة الأيوبيين بمصر ، وكان رسولا لهم في تلك البلاد

أما مؤسس دولتهم في اليمن فهو (عمر بن علي بن رسول) الملقب بالمنصور الرسولي ، حكمت هذه الدولة حضرموت واليمن والحجاز 232عاما ابتداء من 630 -862 هجري ، وكان أول أمره نائبا للأيوبيين على اليمن ثم استقل بدولته

يقول الزركلي في كتابه الأعلام : "كان المنصور الرسولي أحد الدهاة الأجواد الشجعان ، وإن من المؤرخين من يشبه الدولة الرسولية في اليمن بدولة العباسيين في العراق . "

وهم من التركمان الغز ، ولكنهم ورغبة منهم في استمالة الشعب اليمني ، وفي تأكيد استحقاقهم للملك فيهم ، ادعوا النسب القحطاني ، وأنهم من سلالة الغساسنة !! (الغساسنة كانوا ملوكا يمنيين)

تقول الموسوعة البريطانية :

although the family claimeb descant from Qahtan , the legendary patricarch of southern arabs, the Rasulids were of Oguz (Turkmen origin)

ما ترجمته ((الرغم من ادعاء هذه العائلة النسب إلى قحطان (الجد الأسطوري لعرب الجنوب) وأنهم من الغساسنة ، الرسوليون كانوا من الغز (التركمان))) و كان عهدهم عهد رخاء وأمن ونشاط عمراني وثقافي بارز ,

وأهم مايذكر في هذه الدولة :

1- أنه كما فعل الرسوليون حين تنكروا لأصلهم التركماني ، وادعوا أنهم من سلالة الغساسنة القحطانيين (ملوك اليمن في الجاهلية) من أجل التمكين لملكهم في اليمن ؛ كذلك تماما سيفعل الصفويون التركمان - فيما بعد - في انتحالهم نسبا علويا مزيفا ينتهي بفاطمة الزهراء ، لاستمالة شعبهم الفارسي الشيعي .
2- اهتمامها البالغ في تشجيع العلوم والفنون والأداب ، وفي النشاط العمراني البارز ، وليس يقف الأمر عند هذا الأمر بل إن كثيرا من ملوك وأمراء وأميرات هذه الأسرة التركمانية من نبغ في الأدب والفنون والعلوم وسنذكر نبذة عن بعضهم :
3- أشخر ملوكها : المظفر الرسولي : 619 - 694 هجري عاش 74سنة :

وهو ثاني ملوك هذه الدولة – صنعاء – وكانوا يشبهونه بمعاوية في دهائه وحسن تدبيره وسياسة ملكه.

توفي بقلعة تعز قال عنه ابن الفرات (كان جوادا عفيفا عن أموال الرعية ، وحسن السيرة فيهم ، وهو أول من كسا الكعبة من داخلها وخارجها سنة 659هـ بعد انقطاع ورود الكسوة من بغداد سنة 655 بسبب دخول التتار بغداد (ولاتزال على ألوح الرخام داخل الكعبة كتابة تذكارية عن هذا إلى اليوم)

كان له عناية وتبحر في كتب الطب والفنون والحديث ، ولقد ألف كتبا :منها ("المعتمد في الأدوية المفردة – مطبوع) و(المخترع في فنون الصنع -مخطوط)

قال عنه عدوه المطهر بن يحيى حين بلغه نبأ وفاته : (مات التبع الأكبر ، مات معاوية الزمان ، مات من كانت أقلامه تكسر رماحنا وسيوفنا !!) *

* والتبابعة هم ملوك اليمن الأسطوريون الذين تتحدث الأساطير العربية عن فتوحاتهم الخارقة في شرق العالم وغربه !! . ومعاوية هو من هو في الدهاء والذكاء وحسن السياسة .

الجهة الكريمة : توفيت سنة 724هـ :

هي الأميرة الرسولية ماء السماء بنت المظفر الرسولي . وهي أميرة محسنة اشتهرت برعايتها للعلوم ، وقد شيدت في اليمن الكثير من الآثار منها : المدرسة الواثقية في زبيد ، و أنفقت عليها أموالا طائلة ووقفت عليها أوقافا صالحة من أملاكها (عن الأعلام للزركلي)

ومن أشهر من أرخ لهذه الدولة المؤرخ بدر الدين محمد بن حاتم اليماني (ت - 694 هجرية) - المعاصر لها - في كتابه المسمى" السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك الغز باليمن "

دولة المماليك البرجية (دولة المماليك الثانية) في مصر

ملوك هذه الدولة معظمهم من الشراكسة - باستثناء بعضهم فهو من أصل رومي أو جورجي أو تركي - .ومن أشهر ملوكها برقوق – إينال -قانصو الغوري – تومان باي .

لقد تخلفت مصر على أيام دولة المماليك هذه وأصابها الركود الثقافي والعمراني والسياسي .

**وعن المقارنة بين هذين الدولتين المملوكيتين تقول موسوعة إنكارتا :

Egypt proserd under the Bahri Sultanes but succumbed to plague famine and mounting unrest under the Burji .

ماترجمته :" ازدهرت مصر تحت حكم السلاطين البحرية (الأتراك) ولكنها رزحت تحت وطأة المجاعة والفساد ومزيد من عدم الاستقرار وفقدان الأمن تحت حكم السلاطين البرجية (الشراكسة) "

أتينا نحن على ذكر هذه الدولة التي دامت حوالي قرنين من الزمن- رغم أنها ليست دولة تركية – وذلك للأسباب التالية :

- إزالة اللبس القائم في أذهان الناس والذي كان يتسبب بخلط هاتين الدولتين المتتابعتين مع الفارق الكبير بينهما في كل شيء / عسكريا –وسياسيا وثقافيا واقتصاديا / .
- إن دولة المماليك الشراكسة انتهت كدولة قائمة بذاتها بدخول السلطان سليم الأول العثماني ولكن العثمانيين بعد فتح مصر ، تركوا الحكم فيها للبكوات الشراكسة مع إعلان التبعية والخضوع للآستانة ، واكتفى الأتراك بوجود باشا تركي يمثلهم لسلطتهم على مصر وبقي الأمر على ذلك حتى استولى محمد علي باشا على عرش مصر وقضى على معظمهم فيها ..

الدولـة السـامانية

دولـة فارسية السلالة ، سنية المذهب ، نذكر أن جيش هذه الدولة كان كله من الأتراك وحكموا بلاد ما وراء النهر – تركستان - وكانت دولة ازدهر فيها العلم والثقافة والفنون والآداب وخاصة الفارسية منها .

أشهر ملوكها عبد الملك بن نوح السامانى (343- 35. هجرية)

الذي كان قد عين مملوكه التركي (ألبتكين) قائدا عاما حتى إذا توفي عبد الملك مضى هذا إلى غزنة بأفغانستان الحالية وأعلن نفسه أميرا عليها وعاجلته المنية فخلفه ابنه غير أنه لم يلبث أن توفي فقام عليها مملوك ابنه سبكتكين الذي أسس فيما بعد الدولة الغزنوية 366-387 هجري

الدولـة الغزنوية :

ذكرنا بأن مؤسس هذه الدولة هو سبكتكين والذي كان مملوكا وقائدا عظيما في الدولة السامانية أشهر ملوك هذه الدولة التركية هو :

البطل **محمود الغزنوي** وهو من أعظم شخصيات التاريخ الإسلامي قاطبة كان بطلا مغوارا ، وفي الوقت نفسه كان مجلسه موئلا للعلماء والفلاسفة والأدباء ، وعلى عهده وعهد السامانيين من قبله برزت ألمع الأسماء في تاريخ الثقافة الإسلامية كالبيروني وابن سينا والفردوسي الفارسي حيث قدم للسلطان محمود ملحمته الشعرية الشهيرة بالشهنامة.

** والشهنامة ملحمة دخل فيها تهويل الأساطير حيث تروي قصة الصراع البطولي للملوك الفرس في الكفاح ضد الملك التركي المغير - أفراسياب – الذي نكل بالفرس وسامهم الخسف والذل ، ثم تروي الملحمة كيف انتصر الفرس في نهاية المطاف ، وصار يوم تحريرهم عيدا لهم

وهنا يعجب القارئ لأمرين :

1- ملحمة شعرية تمجد نضال الفرس ضد الأتراك ، فيقدمها الفردوسي للسلطان التركي محمود الغزنوي ، ومع ذلك يكافئه عليها على اعتبارها عملا فنيا يستحق التقدير – من الوجهة الثقافية – وبكل تجرد من الهوى .

2- إذا كان (أفراسياب) هذا قد ترك دويا هائلا في قلوب الملوك والشعب الفارسي قديما ، وهو ملك تركي بطل غير أنه لم يبلغ من البطولة وعلو الشأن وسطوة الملك ما بلغه الملوك الأتراك العظام من أمثال تيمورلنك ، وجنكيزخان ، وأتيلا ، ....

فماذا نقول عن هؤلاء ؟! الذين أطنبت وتوسعت الموسوعات البريطانية والأمريكية والإنكارتا في ذكر أمجادهم !!

ونعود إلى السلطان محمود فقد حكم 387-421 هـ وامتد حكمه القوي حتى بلغت رقعة إمبراطوريته من تركستان الشرقية – كان يحكمها الأتراك القرة خطائيون آنذاك كدولة مستقلة – وحتى حدود العراق ، وعلى يديه كان الفتح الإسلامي الحقيقي للهند، وبفضله انتشر الإسلام في ربوع القارة الهندية التي كانت بكرا على المسلمين من قبل .

ملاحظة : إن ما يروى عن فتح محمد بن القاسم الثقفي لم يكن أكثر من غزوات عابرة لإقليم السند (حوض نهر الإندوس والملتان) أي مايدعى اليوم بباكستان فقط ، ولم يكن فتحه ذاك أكثر من مرور عسكري لم يدم ولم يترك أثرا يذكر ، وبقيت الهند عذراء لم يمسسها مسلم حتى جاء البطل محمود الغزنوي فقام باحتلال الهند وتوغل في أعماقها ناشرا الإسلام في ربوعها .

الدولة الخوارزمية

مؤسس هذه الدولة أحد مماليك السلطان ملك شاه ، وهو القائد التركي أنوشتكين حين جعله هذا السلطان واليا على خوارزم سنة 47.هجرية ،

فأسس بها دولة ملوك خوارزم أو خوارزم شاه .. وقد استطاع خلفاؤه فيما بعد الاستقلال الكامل عن السلاجقة.

ومن أشهر ملوكهم **أتسز** 521-551هجرية . وقد تمكن خلفاؤه من القضاء على سلطان السلاجقة في إيران وفرضوا سيطرتهم عليها ..

وكان آخر الملوك الخوارزميين البطل التركي الشهير **جلال الدين منكبرتي** الذي صمد صمودا مشرفا أمام حمم الزحف المغولي الساحق بقيادة جنكيزخان ؛ فقد صاولهم مرات عديدة في مواقع كثيرة وكان مثلا أعلى للبطولة والشجاعة والتضحية ' وظل من سنة 617 – 629 هجرية يحاول في كل مرة استجماع القوى لرد السيل الجارف حتى تفتت جيوشه ، وبينما هو يحاول مرة أن يستجمع القوى والجيوش المسلمة في أذربيجان إذ وقع أسيرا في يد لصوصٍ أكراد ، فاعتقلوه وقيدوه، ثم طعنه أحدهم فقتله !! وخسر المسلمون بقتله بطلا من أبطال التاريخ الإسلامي !.

الدولة الكرختائية (القرخطائيون)

أتراك ، من أصول مغولية (الأرجح انهم من التونغوز) ، كانوا وثنيين وحكاما للصين الشمالية ، وأسسوا امبرطورية عاصمتها بكين ، وكان اسم السلالة الحاكمة هناك / لياؤو/ .

الملوك الغوريون

وهم أتراك نسبوا إلى الإقليم الذي نزلوا فيه أولا وهو إقليم الغور واشتهر منهم البطل الداهية : **غياث الدين الغوري** التركي ، وبانهيار دولتهم في الهند ورث الحكم في دولتهم الضباط المماليك الأتراك كما حدث في الدولة الأيوبية بمصر؛ وأنشأ هؤلاء دولة قوية جاهدت في سبيل الله سبحانه ووقفت في وجه التوسع المغولي لجيوش جنكيزخان والتي لم تكن لترد أوتتراجع .

الدولة الأفراسابية أو الإيلك خانية أو القره خانية

وهي دولة تركية مسلمة ، ورثت السامانيين في بلاد ما وراء النهر ، وكان ملوكها على درجة كبيرة من الصلاح والتقوى ، وعلى عهدهم أيضا نشطت العلوم والفنون والآداب .. لكنها لم تدم طويلا إذ غلب عليهم القره خطائيون .

إمبراطورية المغول بقيادة جنكيزخان

إذا نحن استثنينا قبائل الآفار / جوان جوان / المغولية التي كانت تؤسس دولة قوية في الصين ، وكانت تخضع لهم قبيلة الأتراك الغز / توكيو / ثم تقوض ملكهم بعد ثورة تاريخية هامة قام بها الأتراك مما دفع الآفار بأن يهاجروا غربا شمالي بحر قزوين – الخزر- والقوقاز وأسسوا لأنفسهم دولة مستقلة بذاتها .

فإن المغول كانوا في مواطنهم المعروفة شمالي الصين وفي منغوليا عبارة عن قبائل رحل تتنازع فيما بينها ومع القبائل الأخرى من الأتراك ، ولم يكن لهم تأثير في حركة التاريخ البشري ..حتى بزغ نجم بطلهم التاريخي العظيم – **جنكيزخان** – الذي وحد تحت إمرته قبائل المغول والأتراك ، وابتدأ فتوحه في الصين فأخضع معظمها ، ثم اتـجه غربا ، فدمر الدولة الخوارزمية العظيمة – وكانت في ذروة قوتها – واحتل ممالكها على التتابع : بلاد ما وراء النهر ثم خراسان ثم فارس ..وفي طريقهم.. دمر المغول دولة الإسماعيليين الحشاشين الذين كانوا مصدر ارهاب وخوف ، والذين اغتالوا عددا من قادة ذلك العصر المخالفين لمذهبهم أمثال الوزير السلجوقي (نظام الملك) ثم ابنه من بعده

ولم يدم فرح المسلمين طويلا بهذا الخلاص من الإرهابيين الحشاشين ، حيث تابعت جحافل المغول فتوحاتها ، حتى دخلت بغداد عنوة (656 هجرية) بعد مقاومة باسلة من حامية بغداد ، و قتل المغول الخليفة العباسي ، و قتلوا حاميتها ونكلوا بـبغداد ..

ثم اجتاحوا بلاد الشام ودخلوا دمشق في مارس 1260م - 658هـ وهنا – وفي هذا الوقت - يموت الخاقان الأعظم للمغول (منكوخان) في قراقورم ويستدعى أولاد وأحفاد جنكيز خان إلى مجلس الشورى المغولي – الكوريلتاي – لانتخاب الخان الأعظم الجديد للامبرطورية ، فيرجع هولاكو بمعظم جيشه إلى فارس ، ويترك في بلاد الشام جيشا صغيرا من المغول (10000جندي) بقيادة أحد الضباط الأتراك (من قبيلة النيمان التركية) واسمه **(كيتوبوقا أو كتبغا)**

ومع أن بعض مستشاري كتبغا أشاروا عليه أن لايمضي إلى فتح مصر حتى يعود سيده هولاكو خان ولكن الغرور دفعه بأن يقصد مصر بعشرة آلاف جندي فقط.!

وكانت مصر- وقتئذ - تحت حكم المماليك الأتراك (من القبجاق والخوارزميين) ، وكان هذا الجيش يقاتل بنفس الطريقة ، ثم فوق هذا كانوا أكثر عدة وعددا بكثير من الجيش المغولي الذي فوجيء بكمين أعده له البطل التركي المسلم **بيبرس** مع جيشه التركي المملوكي والقيادة العليا كانت للبطل السلطان

التركي قطز ؛ وينتصر جيش المسلمين المماليك على الجيش المغولي في **عين جالوت** ، ويشيد بهذا النصر العلامة المؤرخ أبوشامة في كتاب الذيل على الروضتين ص 208 :

غلب التتار على البلاد فجاءهم من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدد شملهم ولكل شيءٍ آفة من جنسه

وأنت حين تقرأ عن المغول وعن جنكيزخان في كتب التاريخ المتخصصة وفي الموسوعات العلمية الموثوقة كالموسوعة البريطانية الشهيرة وموسوعة Encarta الأمريكية ستقرأ صورة مغايرة تماما..للصورة الكاذبة التي درستها في المدرسة!!

وستجد نفسك أمام رجل فذ حقا جمع شتات القبائل المغولية والتركية (الرحالة منها) وصنع منهم قوة متحمسة لاترد ، وحمل إلى الشعوب الأخرى – مع قسوته وبطشه – نظاما دقيقا صارما للقوانين ..مع رعاية كاملة متفوقة للعلوم والآداب والفنون ؛وحتى الأديان فالتاريخ لايحفظ لأحد من الفاتحين - من حيث حفاظه على حرية المعتقدات والأديان والفكر (مهما كانت بوذية أومجوسية أونصرانية أومسلمة أو ...) - مثلماحفظ لهؤلاء المغول في تاريخهم وتاريخ حكمهم لشعوب العالم .. لافي وقت جنكيز فقط بل في جميع العهود المتطاولة التي حكم به فيما بعد أولاده وأحفاده ..

وهنا من حق التاريخ العلمي الموضوعي الموثق أن نذكر لجنكيزخان وأولاده وأحفاده من بعده وأن نلخص أهم المميزات لنظام حكمهم :

1- النظام الدقيق الصارم الذي يستند إلى نصوص إلياسا (**اليسق**) والذي ضبط الحياة ضبطا صارما حفظ الأمن في ربوع أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ .
2- تنظيم أعظم وأسرع شبكةٍ بريديةٍ عرفها التاريخ من قبل ! – ربطوا بها الإمبراطورية بأجزائها الفسيحة ، وكذلك ؛ وبجوارها نظمت أسلم وآمن وأعظم خطوط التجارة بحيث ربطت العالم القديم بعضه ببعض .. فأصبحت الصين التي كانت في عزلة قبل المغول أصبحت حاضرة (قوبيلاي – ابن جنكيزخان) الخان الأعظم للمغول وصارت هي وجاراتها على اتصال موثوق مأمون مع أوربا ومع العالم الإسلامي كله .

وكان لهذا دور عظيم في تلاقح الثقافات شرقيها وغربيها في ظلال إمبراطورية المغول ، وأنت تجد هذا واضحا بينا في البعثات الرسولية البابوية من روما إلى خان باليك (بكين حاليا) مقر عاصمة المغول ومنها إلى قرا قورم عاصمتهم في منغوليا ..

3- التسامح الديني العظيم مع جميع الديانات ،السماوية منها وغير السماوية.. وعدها جميعا طرقا مختلفة إلى هدفٍ واحدٍ وهو عبادة الله ! ..

يقول الدكتور السيد الباز العريني في كتابه "المغول"- ص 26: ((ومن خصائص المغول أيضا ، ما اشتهروا به من التسامح الديني .على أن ما جرى من تعليل هذا التسامح، بأنه يرجع إلى ما اشتهر به المغول من عدم الاكتراث بالدين، يعتبر حكما لا يستند إلى أساسٍ متين .))

ويقول أيضا في ص 195 : ((وفي حديث منكو خان إلى الراهب الفرنسي (وليم رو بروك) ما يدل على تسامحه مع سائر الديانات ،إذ قال ليست الديانات إلا كالأصابع الخمسة ليدٍ واحدةٍ...إذ اعتقد منكو بأنه ثمة إله واحد ، يعبده كل فرد كيفما أراد.)) اهـ

4- الرعايا جميعهم متساوون أمام القانون المغولي مهما كانت جنسياتهم أو دياناتهم . والفرص متاحة للجميع في ارتقاء المناصب شريطة الإخلاص لدولة الخان ! و في ذلك يقول د. الصيادي : " كان جنكيزخان يتجنب التعصب ، ورجحان أمةٍ على أمة ..أو دينٍ على دين ، وكان يكرم العلماء والزهاد من كل طائفة ، ويعفيهم من الضرائب "!
5- إكرام العلماء الفلاسفة والمفكرين : فقد كان جنكيزخان – كما مر معنا – يكرم كل مثقف وكل عالم ومفكر وكان يقربهم منه ، وينصبهم كمستشارين له مهما كانت جنسياتهم أو أديانهم وكذلك كان أحفاده وأولاده من بعده ..

و قد اصطفى جنكيزخان لنفسه ثلاثة من كبار حكماء عصره –

أحدهما : صيني من أصلٍ تونغوزي وهو (يي ليو تشو تساي) ،
والثاني : تركي مسلم وهو (محمود يلواج الخوارزمي).
والثالث : أويغوري تركي ، وهو (تاتا تونغا)
وحتى هولاكوخان كان معظم مستشاريه من العلماء المسلمين – فرسا وتركا –
مثل ذلك فعل قوبيلاي خان حين توسم في كل من :
- ماركو بولو(الرحالة الإيطالي الشهير) النبوغ والعبقرية ، ولمس فيه الوفاء قربه إليه واتخذه مستشارا له .، وعهد إليه بالقيام ببعض الأعمال الهامة ..
- والوزيرالمسلم الإيراني الجنسية (أحمد البناكتي) الذي ارتفع شأنه كثيرا في بلاط قوبيلاي البوذي الديانة ، حتى عرف بلقب " السيد الأجل "؛ ولذلك بات يحسده كثير من الأمراء .

وهكذا .. فإنه يمكننا إذن أن نعد دولة المغول كأول دولة علمانية في التاريخ :

1 - إذ هي أول دولةٍ كانت تعزل الدين تماما عن التأثير في السياسة
2 - وهي أول نظام حكمٍ مارس المساواة المطلقة ممارسة كاملة بين أصحاب الديانات والجنسيات المختلفة أمام القانون من حيث الحقوق الكاملة (وأهمها حق تكافؤ الفرص) ، ومن حيث الواجبات والعقوبات.
3 - ثم هي أول دولةٍ غير دينيةٍ في التاريخ (أي لا يوجد في دستورها دين رسمي للدولة هو دين الحاكم ! كما هو شائع معروف قديما وحديثا) .

الفتوحات المغولية :

لم تكن الفتوحات المغولية مجرد غزوات نهب وقتل ؛ بل لقد كانت في حسابات جنكيزخان وتصوراته ، أن يقيم إمبراطورية عظيمة تحكم العالم القديم بأسره وتمزج حضاراته وطاقاته معا ، ويبدو هذا واضحا في تحركاته وتحركات جيوشه في كل صوب فاتحا حاكما منظما لها وفق نظمه وقوانينه ؛ وبما يحفظ تماسكها مع المركز ، و إذن لم تكن فتوحاته غزوا يسلب ثم يرجع إلى دياره .. بل كانت فتحا توسعيا متحمسا مبشرا ..

يقول ا.د.العريني ص 25 من كتاب " المغول " :

((ونجانب الدقة إذا اعتبرنا المغول مجرد شعبٍ همجيٍ مغير ، فالمعروف أن هولاكو أقام مرصدا فلكيا ،على الرغم من أنه استباح بغداد وضربها. وكذلك أنشأ قوبيلاي جامعة في كامبالو(بكين) بعد الاستيلاء على شمال الصين .)) اهـ"

لم يكن المغول يعملون البطش والتدمير حيثما ذهبوا ؛ بل إن كثيرا من البلاد (الاسلامية وغير الاسلامية) التي فتحت سلما ؛ كانت تعامل معاملة حسنة ، وكثيرا ما كانوا يبقون على حكامها الأصليين ماداموا يعلنون خضوعهم للخان و للدولة الفاتحة ويدفعون الجزية المترتبة عليهم ؛ ثم إنهم كانوا قبل أن يفتحوا بلدا أو مدينة كانوا ينذرون أهلها ،(كما كان يفعل الفاتحون المسلمون تماما) :

1 - فإما الاستسلام لدولة المغول مع دفع الجزية ، وبذلك يأمن حاكم هذا البلد على عرشه وعلى شعبه .
2 - أو الحرب .. فإن أبى وقاوم وقارع جيشا بجيش كان جزاؤه - بعد الانتصار عليه - البطش به وبفلول جيشه ، والتنكيل بشعبه الذي سانده أيضا .

ولم يكن هذا المخطط عبثيا بل كان البطش بالمقاومين نوعا من الحرب النفسية الهائلة التي كانت تشل الخصوم وتنذر بالعاقبة .. وكانت هذه طريقة حربية ذكية سهلت كثيرا من الفتوح التي وقعت دون مقاومة !! .

فتوحات جنكيزخان والمغول في أوربا :

تقدمت أول الفتوحات عام 1223م عبر القوقاز الشرقي بقيادة **سبوتاي** و **جيبي Gebe** , وعاثت في عمق روسيا في غزوات عابرة ، ثم رجعوا وانسحبوا بطلب من جنكيزخان .

ولكن في عام 1236م تقدمت الجيوش المغولية التركية باتجاه الغرب بصورة أساسية ، وكان هدفها إخضاع أوربا ، ولتكون هذه الأقاليم أملاك جوجي وأولاده (أكبرهم باتوخان) ، وتقدمت هذه الجيوش إلى الشمال من بحر آرال وبحر الخزر فوصلت أولا إلى بلاد بلغار الفولغا , وفي العام التالي تعرضت الإمارات الروسية لهجوم مغولي ساحق ، أخضع بلاد روسيا , ثم مضت الجيوش المغولية تكتسح أقاليم أوروبا تباعا ساحقة كل مقاومة ، في تحركات تكتيكية عالية التنظيم ؛ وفي ذلك يقول المؤرخ الألماني بيرتولد شبولر: ص 37 من كتاب العالم الاسلامي في العصر المغولي :

" وقد استنتج من سير هذه الحملات أن المغول كانوا يمتلكون خططا حربية رفيعة المستوى للإحاطة بأعدائهم وسحقهم...فالدقة في التحركات على مقياس واسع ، وهي السمة التي امتازت بها تلك الجيوش الآسيوية الجرارة ، توحي بوجود تخطيط عام متقن " اهـ

يقول د. فؤاد الصياد كتاب المغول في التاريخ ص187:

(وبينما كان المغول سائرين على قدم وساق في القارة الأوربية ، إذ بالأنباء ترد إلى أوربا تعلن وفاة الخاقان أوكتاي سنة 939 هـ –1241م واستدعاء القادة الفاتحين باتوخان وسبوتاي لحضور القورليتاي ، والاشتراك في انتخاب الخان الجديد . وبذلك سلمت أقاليم أوربا الغربية من خطر محقق كان ينتظرها على يد هؤلاء المغول).

وهكذا فإن التاريخ لم يذكر فاتحا ولاعبقرية عسكرية تضاهي عبقرية جنكيزخان ، فالتاريخ يحدثنا عن الصدمة التي أحدثتها فتوحاته الواسعة جدا في زمن قياسي رهيب !!.

يقول المؤرخ العربي العظيم ابن الأثير - المعاصر للفتح المغولي \ صاحب كتاب الكامل في التاريخ \ المتوفى سنة 63.هـ - في معرض حديثه عن فتوحات المغول في أذربيجان والكرج (جورجيا حاليا):

((وأدركتهم جنود التتار أي المغول وقد تعب الكرج (أي الجورجيون) من القتال ، فقتل كثير منهم ولم يثبتوا للتتار وهزموا أقبح هزيمة ، وركبهم السيف من كل جانب .. ولقد جرى لهؤلاء التتر مالم يسمع بمثله في قديم الزمان ولاحديثه :

طائفة تخرج من حدود الصين لاتنقضي عليهم سنة حتى يصل بعضهم بفتوحاته إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية ؛ ويجاوزون العراق من ناحية همذان ؛ وتالله لاشك أن من يجيء بعدنا - إذا بعد العهد - ويرى هذه الحادثة مسطورة فسينكرها ويستبعدها ، والحق بيده ، فمتى استبعد ذلك فلينظر أنا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ في أزماننا هذه ، في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة – استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها)) .انتهى من كتاب الكامل جـ1.ص41.

ويقول أيضا في موضع آخر من الكامل :

((ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة (617 هـ)، ذكر خروج التتر إلى بلاد الاسلام : لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها .. فياليت أمي لم تلدني ، وياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ... فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فإن التواريخ لم تتضمن مايقاربها ولا مايدانيها.. ..هذا مالم يطرق الأسماع مثله ، فإن الإسكندر المكدوني الذي اتفق على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة وإنما ملكها في نحو عشر سنين)) .

وهكذا فإن الإمبراطورية المغولية امتدت من كوريا وبحر الصين شرقا وحتى شواطئ البلطيق وصولا إلى مدينة برلين غربا محتلين روسيا وبولونيا وهزموا حتى الألمان في عقر دارهم ودمروا جيشهم ، وكذلك فعلوا ببقية أوربا الشرقية – المجر وجزر البلقان ... – ولولا موت الخان الأعظم أوكتاي المفاجئ لخضعت أوروبا كلها للمغول – في أرجح التوقعات-!!

. وامتدت فتوحاتهم جنوبا إلى القوقاز وأذربيجان وإيران والعراق وبلاد الشام والأناضول . وهكذا فقد كانت أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ قديمه وحديثه ، لا تضارعها في الاتساع والقوة إلا إمبراطوريات

تركية مثلها كـ (إمبراطورية الهون) و (إمبراطورية تيمورلنك) و(إمبراطورية توكيو) في القرن السادس للميلاد .

شخصية الفاتح العظيم جنكيزخان :

يحدثنا شبولر عن شخصية جنكيز خان فيقول صـ 27 : " إن صفات جنكيز خان الفائقة وشخصيته الفذة لا تظهر في انتصاراته العسكرية فحسب ؛ بل في ميادين أخرى ليست أقل أهمية إذ لا يسعنا إلا أن ننظر بإكبار وإعجاب إلى منجزاته كمشرع قانوني ،ومنظم للأمة المغولية .."

ولكن أدق وأجمل ماتقرؤه عن هذا الرجل العظيم (وعن تنظيمه لجيوش إمبراطوريته وعن الجانب الشخصي منه) تجده في كتاب (جنكيزخان إمبراطور الناس كلهم – تأليف هارولد لامب \ ترجمة متري أمين).

1 - دينـه :

رغم أنه كان على ديانة أسلافه القدماء من المغول الأتراك فهو يؤمن بالديانة الشامانية : وهي ديانة قديمة جدا تعبد الإله الواحد السامي ، ولكنها كانت تقدم بعض الطقوس التقديسية لكثير من عوامل الطبيعة ، ففي حوار بين جنكيزخان وبعض العلماء المسلمين بعد أن سيطر على أقاليم الدولة الخوارزمية , سألهم عن حقيقة الإسلام ومبادئه وأركانه ؛ فقيل له : أولها توحيد الله سبحانه وتعالى ، فقال أنا أيضا : أنا أؤمن بالله تعالى وبأنه واحد ؛ وكذلك وافق على بقية أركان الإسلام ماعدا الحج إذ قال : لاداعي لتخصيص مكان بعينه .

ومع ذلك فإن المغول هم أشهر الناس في تاريخ الإنسانية في تسامحهم مع الأديان الأخرى ، بل واحترامها واحترام رعاياها ، وكان جنكيز يحضر بنفسه الحفلات الدينية التي يقيمها الرعايا كل على مقتضى شريعته ..

2- قوانـينه :

اقتضت حياة المغول رغم بساطتها إلى أن تكون لها قوانين جمعت آدابهم وأعرافهم وتقاليدهم المتوارثة ، حتى جاء جنكيزخان ، فأعاد النظر فيها ونبذ بعضها وأبقى بعضا ، وأثبت قوانين جديدة ، وأخرجها بصيغة رسمية وسماها (الياسا أو دزا صاق) ، وأمر بأن يتعلم الأطفال المغول الخط الأيغوري (الأبجدية الأيغورية التركية)

وقد أثبتت هذه القوانين – على قسوتها أحيانا – أنها استطاعت أن تنظم الشعب المغولي وغيره من الشعوب التي خضعت له تنظيما دقيقا ، وبقيت الشعوب تعمل بها مدة قرون بعد ذلك ، وحتى بعض الحكام من المسلمين - كالأيوبيين مثلا والمماليك ومن بعدهم – كانوا يحتكمون إلى شريعة إلياسا دون الشريعة الإسلامية رغم أنهم مسلمون ، إذ كانت هذه الشريعة أصلح مايكون لذلك الزمان وخاصة في البيئات المغولية والتركية لأنها متعلقة بثقافتهم الأصلية .

فالتاريخ يحدثنا أن صلاح الدين نفسه حينما قرر أن يحكم بين مماليكه حكما عادلا يرضونه لجأ إلى ماكان يعرف بقوانين (السياسة) وهي مستمدة أيضا من التقاليد التركية المغولية ولم يحكم بينهم بالشريعة الإسلامية .

يقول د.السيد الباز العريني :

((وما اشتهر جنكيزخان من قدرة على التنظيم والإدارة ، جدير بالاهتمام .. إذ أن الياسا أو اليسق ، ظلت مرجعا في هذه الناحية حتى القرن الرابع عشر الميلادي ...غير أن مابذله هذا القانون للإمبراطورية من نظام دل على كفايته في المحافظة على وحدة الإمبراطورية الشاسعة لمدة 40 عاما بعد وفاته ، وفي تحقيق السيادة لأسرته أجيالا عديدة في الإمارات التي انقسمت عليها الإمبراطورية فيما بعد .

3 - أخـلاقـه :

يقول د . الباز العريني :

" من ناحية أسلوب حياته وبيئته فقد اتصف بروح العدالة ، وبالإدراك السليم ، وبالاتزان الشديد ، وبالمحبة المؤكدة وبتجرده من التهور والاندفاع

وعلى الرغم من أنه سحق كل مشيئة تخالف إرادته ، فأخضع جيشه وشعبه لنظام من الصرامة والشدة ، ما أدى إلى منع الكذب والسرقة ، فلم تعد معروفة فيهم .

وقد كان مثاليا في سخائه ، فمن الروايات ما يشير أن هذا الأمير قد يخلع كل ما يرتديه من ملابس ويجود بها ، وقد يبذل لشخص من الأشخاص الجواد الذي يمتطيه ..

وإلى جانب ما اشتهر فيه من الشدة والعنف ؛ نلمس فيه من الصفات والخلال الكريمة ما يدعو للإعجاب :

1- ارتياعه الفطري من الخونة والخيانة ، فأولئك الذين يظفرون عنده بالمكانة بأن يخونوا ساداتهم وبأن يخونوا الأوطان ، ليس لهم جزاء عنده إلا الإعدام وعلى العكس من ذلك ، فقد حدث في أحوال كثيرة ولاسيما بعد إحرازه النصر على خصومه أن كافأ أو أدخل في خدمته أولئك الذين أخلصوا حتى النهاية لساداتهم الذين كانوا خصوما ألداء له .

2 - تقديره الشديد للشجاعة والبسالة ، وقد أورد رشيد الدين أمثلة على ذلك منها إبداؤه إعجابه الشديد بخصمه العنيد البطل التركي المسلم **جلال الدين خوارزم** شاه عندما حاصرته جيوش جنكيز .. قفز هذا البطل بحصانه ومن جرف عال إلى لجة نهر السند العظيم ليعود فيجمع قواته المقاومة مرة أخرى !!

3 - وتشير الروايات إلى أنه كما تعهد بحماية الضعفاء أو الأيتام ، فقد التزم بالدفاع عنهم دائما وظل طوال حياته صادق الإخلاص لهم ، وكدليل على ذلك ، أنه حين لقي زعيم التانجوت مصرعه لانحيازه الى جانب جنكيزخان في أثناء القتال ضد زعيم النايمان ، تكفل جنكيزخان بأسرته كفالة كاملة ، واختص ابنه بالرعاية حتى أصبح رجلا ، ثم زوجه بابنته وحفظ لهم السلطان.

4 - تقديره للمثقفين والعلماء وأرباب الصناعات والحرف وبخاصة للمثقفين والعلماء (وعلماء الدين بينهم أيضا ولو كانوا من غير دينه) فقد ذكرنا أنه اتخذ لنفسه مستشارين من الحكماء الموالين له ، على اختلاف عناصرهم ودياناتهم ...

5- نشأ تيموجين (جنكيزخان) يتيما من الأب ، وقد عانى مرارة اليتم في مجتمع لايرحم ، وقد تعرض هو وأسرته (وكان عمره 12سنة) للكثير من الأذى وحمل همومهم صغيرا .. وإذا كان شخص ما عصاميا حقا فهو هذا العظيم !! الذي نشأ مستضعفا ..ثم بنى وفي وقت قليل جدا وبإنجاز يحسب من المعجزات أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ .

4 - شكله ومظهره الخارجي :

فقد جاء وصفه في العشر الأخير من عمره على يد المؤرخين اللذين عاصراه وعرفاه – المؤرخ الصيني منغ هونغ والفارسي الجوزجاني- وجاء في وصفهما له : أنه كان يمتاز على قومه بقامته المرتفعة ، وبجبهته العريضة ، ولحيته الطويلة ، ويشير الجوزجاني إلى قوة بدنه وإلى أن عينيه تشبه عيني الهرة . ثم يقول : ما من أحد من أبنائه ولا أحفاده ورث ما اتصف به من مواهب نادرة .

وأخيرا .. تقول عنه الموسوعة الأمريكية Encarta 2..1:

((كان جنكيزخان عبقرية عسكرية وهو من أكبر الفاتحين في التاريخ كله ..وهو من هذه الزاوية يضارع كبار الفاتحين مثل الإسكندر المكدوني ونابليون ؛ وإن كان يمتاز عنهما بأن فتوحاته كانت أكثر جدية وثباتا واستقرارا . وأنه أسس إمبراطورية من أعظم إمبراطوريات التاريخ !)) .

وهكذا..فإن جنكيزخان وقومه وأحفاده وأولاده الذين خلفوه (و ورثوا إمبراطوريته) كما يحدثنا التاريخ العلمي الموضوعي المنصف لم يكونوا مجرد شعب همجي متوحش هاجم جيرانه المتحضرين هجوم الوحش يفترس بلدانهم وشعوبهم ويدمر حضارتهم كما كانت تصوره بعض الكتب المدرسية ، وكما تجد في كتابات بعض المؤرخين المسلمين التي طالما خالطها التهويل والمبالغة والكذب!!..

وسنذكر نبذة عن بعض الملوك / الخانات / من المغول أولاد وأحفاد جنكيزخان ، ونخص بالذكر أشهرهم ؛ ومن له علاقة بالعرب والمسلمين لتتوضح الصورة الحقيقية في التاريخ الموثق ...

5 - خلفاء جنكيزخان :

1- أوكتاي خاقان - قاآن - الخان الأعظم

مات جنكيزخان سنة 624 هـ - آب 1227 م، فقام ابنه الأصغر – **تولوي** - الذي كان كان يرافق أباه الخان الأعظم ، بالوصاية على العرش الإمبراطوري ريثما ينعقد مجلس الشورى المغولي – القوريلتاي – ويتم انتخاب الخان الجديد . وقد امتدت هذه الوصاية عامين من 624 - 626 هجرية وكان جنكيزخان قد أوصى أن يخلفه ابنه **أوكتاي** على العرش .

ولكن بعد موته اجتمع مجلس الشورى لانتخاب الخان الجديد ، وقد حاول أوكتاي أن يرفض استلام العرش ، ورأى هو أن يتنحى عن حقه الموصى به إلى أخيه الأصغر تولوي الذي كان وصيا على العرش كما ذكرنا .. ولكن أصر الجميع على انتخاب أوكتاي خاقانا جديدا على الإمبراطورية ، وذكره بوصية أبيه في هذا الشأن ، فنزل على مشيئتهم في ربيع سنة 626هـ 1229م .

قول عنه د. الصياد ص165 : ((وقع اختيار جنكيزخان على ابنه أوكتاي ليكون ولي عهده وخليفته ، وقد دل هذا الاختيار على حكمة العاهل المغولي جنكيزخان ، وعلى اتساع أفقه وعمق تفكيره ، ونفاذ بصيرته ، إذ أنه لم يغتر بما اشتهر به **تولوي** من مواهب عسكري فذة ، أوبما اتصف به ابنه **جغتاي** من صرامة وبأس يستطيع أن يفيد منها في تحقيق المبادئ التي ينطوي عليها نظام جنكيزخان ، بل وضع أوكتاي نصب عينيه ، لما امتاز به هذا من خصب القريحة وسعة الأفق وسماحة الوجه ، فضلا عن عبقريته وإدراكه السليم ، وكونه محبوبا من قبل الناس)).

وفعلا ساس أوكتاي الإمبراطورية العظيمة أحسن سياسة ، وتحقق الوفاق التام بين أفراد الأسرة المغولية المالكة ، وازدهر العمران ، وأحس الرعايا بالرخاء وفي عهده أيضا ساد النظام الصارم الذي كان قد رسخ قواعده جنكيزخان ، وتابع رسالته في الفتوحات الواسعة ، ففي عهده جهز الجيوش اللازمة وتابع الفتوحات في شمال الصين وإيران وأوربا ..

وبينما كانت جيوشه على حدود ألمانيا وفي قلب أوربا ، وصل نبأ وفاته سنة 639 هجرية -1241م) .

وفي ص189 من نفس الكتاب:

[كان أوكتاي قا آن متصفا بمحاسن الأخلاق ومكارم الصفات ، يحمل بين جنبيه نفسا طيبة خيرة ، وضميرا حيا يقظا . أشاع في رعاياه العدل والإحسان والمروءة ، وقام بعدة إصلاحات في البلاد المغلوبة مما خفف من الويلات التي لاقتها على يد أبيه

وأنشأ لنفسه قصرا شامخا في العاصمة المنغولية الرئيسية قرا قوروم وشمل حاضرته – أورد باليغ – ولهذا الموقع أهمية تاريخية فقد كان دائما موضع حواضر الإمبراطوريات التركية المتعاقبة في التاريخ منذ امبرطورية (هيونغ نو) قبل الميلاد ومرورا بدولة (توكيو) التركية ثم دولة الأيغور التركية أيضا ثم دولة جنكيزخان .

وفي ص192: لقد أجمع المؤرخون الإسلاميون على وصف أوكتاي بالجود والكرم والمروءة ، وقد أطلقوا عليه حاتم آخر الزمان.. ونقلوا عنه حكايات عديدة وأمثلة كثيرة تبرهن على جوده وكرمه وميله للرحمة وبغضه لإراقة الدماء من غير داع .. وكان طيب المعاملة للمسلمين)).

الوصاية على العرش : لما مات أوكتاي خاقان 639هـ ، كان **كيوك** ابنه الأكبر مشغولا مع **سبوتاي** و **باتو** في فتوحات روسيا وبولونيا .. فشرعت أرملته (**توراكينا خاتون**) تباشر مهام الحكم إلى أن ينعقد مجلس الشورى – القوريليتاي – لانتخاب الخان الجديد .. وقد دامت هذه الفترة 4 سنوات 639 - 644 هـ ثم انتخب بعدها ابنه (**كيوك**) بمساعدة والدته الأرملة التي كانت وصية على العرش ، فاستمالت الأمراء المغول ، حتى انتخب ابنها كيوك بأغلبية الأصوات في المجلس .

2 - كيوك قا آن 644-647 هجرية ، 1246- 1248م

كانت أمه توراكينا تركية مسيحية فنشأ الخان الجديد متأثرا بالمسيحية وإن لم يكن نصرانيا، وصار يعطف على النصارى عطفا شديدا ، وجعل اثنين من وزرائه الأقربين من الأتراك المسيحيين من قبيلة – كرايت – التركية المسيحية النسطورية ، فبتأثير هؤلاء جميعا اتصف عهده بارتفاع شأن النصارى في امبرطوريته على حساب المسلمين ، وقد حاول البابا استمالته بإرسال بعثات دبلوماسية تدعوه للتنصر ، فما كان من كيوك خان إلا أن رد على البابا بدعوته هو إلى إعلان تبعيته إلى الامبراطرية المغولية ..!

ويذكر المؤرخ – براون – في كتاب تاريخ الأدب في إيران صـ574 :

" أن اجتماع مجلس الشورى المغولي التي تم فيه انتخاب كيوك قد امتاز بوفرة عدد من حضره من ممثلي الدول الأجنبية والشعوب الخاضعة لنفوذ المغول ، فقد حضره اثنان من الكهنة بعث بهما البابا كممثلين عنه أحدهما (يوحنا بلان كاربين) Plan carpin وقد حاول البابا انشاء تحالف مع المغول ليخدم مآربه المسيحية ، ولكن لم تحقق جهوده النجاح المطلوب "

وحدث في مستهل سنة 1246م أن توترت العلاقة بين كيوك خان وبين ابن عمه **باطوخان بن جوجي** عاهل **القبجاق** ، وكاد الخلاف أن يؤدي إلى القتال غير أن كيوك مات في إبريل 1248م فتولت الوصاية على العرش أرملته **أقول قيميش** Ogul gaimish ابتداء من أبريل 1248م وحتى اجتماع مجلس الشورى المغولي ، وانتخاب **منكوابن تولوي** خانا أعظم للامبرطورية المغولية في يوليو 1251أي مايقارب ثلاث سنين ونيفا .

3 - منكو قا آن (1251-1259)

كان في الثالثة والأربعين من عمره حين تولى العرش ويعتبر أشهرخانات المغول بعد جنكيزخان .

اشتهر بأنه يكره الترف ، وينكر المباذل ، وليس له هواية إلا الصيد ، وحرص على التعلق والتمسك (باليسق) قانون المغول الذي شرعه جنكيزخان .

كان منكو بالغ النشاط ، بارعا في تسيير الإدارة ، شديد التمسك بالعدالة ، متوقد الذكاء، فأعاد بذلك القوة والنشاط إلى ماكان أقامه جنكيزخان من نظم ؛ ووهب الامبرطورية المغولية ، دون أن يتخلى عن خصائص عنصره ، أساليب إدارية قوية ، وجعل منها دولة بالغة القوة .

تأثر منكو في نشاطه بأمه المسيحية النسطورية ولذلك كان يعطف على المسيحيين ويؤثرهم ، وإن كان شديد التسامح مع الديانات الأخرى ، الشامانية والبوذية والطاوية والإسلام وغيرها ... إذ كان منكو مثل جده جنكيزخان يعتقد بأنه ثمة إله واحد يعبده كل فرد كما أراد ، وأن يعتنق المذهب الذي يريد .

وعلى الرغم من تعلق أمه بالمسيحية النسطورية فإن اشتهرت به من تسامح ورجاحة عقل ، حملها على أن تبذل من مالها أوقافا لمدرسة إسلامية في بخارى أنشأتها على نفقتها الخاصة وعينت لها المدرسين ورعت شؤون الطلبة وكانت تتصدق على الفقراء والمساكين من المسلمين طوال حياتها .

أقام الراهب الفرنسيسكاني **رو بروق** في البلاط المغولي في **قراقورم** نحو خمسة شهور ، ومن أهم الوقائع التي شهدها ماحدث في مايو 1254م من مناظرة دينية فلسفية بين المسلمين والنصارى والبوذيين حول العقل وأصل الشر بحضور الخاقان نفسه !! .

وأقبلت البعثات الدبلوماسية من ملوك أوربا وأرمينيا تحاول إقامة العلاقات الودية والتحالفات مع إمبراطور المغول منكو كما كان يحدث مع أسلافه من قبل .

فتوحاته :

في السنة التالية لحكمه ، وجه عنايته نحو الفتح ، والتوسع ، وصمم على فتح البلاد التي لم يتيسر فتحها من قبل ، ولذلك قام بتجهيز حملتين كبيرتين :

الحملة الأولى : بقيادة أخيه الأصغر **هولاكو** وعهد إليه بالقضاء على الإسماعيليين الحشاشين في شمال إيران وقلعة ألموت ، وإخضاع الخليفة العباسي

الحملة الثانية : بقيادة أخيه الأوسط **قوبيلاي** لفتح أقاليم الصين الجنوبية ، ثم استعد منكو قا آن نفسه للسير بحملة أخرى للاستيلاء على بعض الأقاليم الصينية الفسيحة

وفي أثناء الفتوحات ورد النبأ بوفاة الخان منكو قا آن (سنة 1259م) إلى كل من الأخوين قوبيلاي الذي كان مشغولا بفتوحاته في الصين ، وهولاكو في أثناء حملته على الشام .

4 - قوبيلاي قا آن 1259- 1294م

عندما كان منكو قا آن منهمكا بفتوحاته في جنوب الصين ، كان قد ترك أخاه – **أريق بوكا** – نائبا عنه في العاصمة قراقورم ، فلما جاء نبأ وفاته أسرع أريق بوكا فأعلن نفسه إمبراطورا على عرش المغول .

ولكن قوبيلاي أبى عليه ، وبعد نزاع حربي انتزع قوبيلاي عرش المغول ، وأعلن نفسه إمبراطورا على المغول وهو في سن 46 سنة في سنة 1259م

كان قوبيلاي بسبب إقامته الطويلة ونشأته في بلاد الصين ، قد تأثر كثيرا بحضارة الصين وعادات أهلها ، وفي عهده تم فتح الصين والتيبت كاملة ، وعلى عهده بلغت إمبراطورية المغول أقصى اتساعها إلى مختلف أقطار العالم ، فكانت تضم الصين وكوريا والهند الصينية ، والتيبت وشمالي الهند وإيران وآسيا الصغرى وروسيا والقرم وغيرها ..

نهضت الصين على عهده وانبعثت من ركودها في فترة الحرب القاسية ، وأحسن إلى رعيته ، وقام بتشجيع الزراعة واستصلاح الأراضي وأولاها عناية كبيرة ، وأصلح وسائل الري ، فما لبثت أن ازدهرت ورقيت .

اهتم قوبيلاي أيضا بالتجارة ، ومهد الطرق ، وأنشأ طرقا جديدة ممهدة آمنة وأقام عليها حراسة قوية ، فكانت القوافل تروح وتجيء في أمن وسلام واطمئنان . وبذلك راجت التجارة وعم الرخاء أرجاء الإمبراطورية .

وقد نظم قوبيلاي البريد تنظيما دقيقا بلغ الذروة في عهده ، وعني بمحطات البريد وإعدادها خير إعداد لتقوم بمهامها على أكمل وجه وذلك لأهميتها القصوى عسكريا واقتصاديا وسياسيا وإداريا . ويقرر ماركوبولو [الرحالة الشهير الذي زار مع أبيه وعمه بلاد المغول وبقي بها بضعة عشرة سنة] أن دور البريد كانت على عهد قوبيلاي منظمة مرتبة في جميع أنحاء الإمبراطورية .

قام بجمع العلماء و أرباب الحرف والصنائع ، وكان يكرمهم ويحثهم على مواصلة جهودهم ويبذل كل ما بوسعه لإزالة العقبات في طريقهم .

اهتم أيضا بالعمران والتعمير ، وأقام مدينة فخمة بجوار العصمة بكين ، وجلب إليها من كل بلد أشجارا مثمرة وأشأ فيها الحدائق الغناء والبساتين الناضرة ، كما أنشأ عدة قصور كان أهمها قصره الكبير الذي كان غاية الأبهة وآية في فن المعمار .

تغلبت النزعة الإنسانية وحب الخير على قوبيلاي فأنشأ الملاجيء لإيواء العجزة والضعفاء والمسنين .

عرف عنه أنه واسع الأفق ، حر الفكر ، بعيدا عن التعصب ، متسامحا مع جميع الأديان وكان كثيرا ما تعقد المناظرات الدينية بحضرته بين أصحاب الأديان وأرباب المذاهب من شتى الديانات وقد ترجم- بناء على أمرٍمنه- أقسام من القرآن الكريم والإنجيل والتوراة ؛ومن تعاليم بوذا وكانت المناظرات في المسائل الفلسفية التي تتعلق بما وراء الطبيعة تجد ميلا شديدا لديه ، وفي نهاية المناظرات ، كان يشمل المتناظرين جميعا بعطفه ورعايته .

5 – هولاكو خان : 1217- 1265م

عاش 48 سنة وهو الابن الأصغر لتولوي بن جنكيزخان ، ويعد هولاكو من أعظم القادة الفاتحين في التاريخ .

لم يصبح هولاكو خاقانا – إمبراطورا على المغول كلهم ، وإنما أسس فيما بعد فتوحاته في إيران والعراق والشام دولة ذات استقلال نسبي عن العاصمة المغولية ، وذات تبعية اسمية لها ، ولذلك سميت دولته ودولة أبنائه من بعده – **الدولة الإيلخانية** – وهي كلمة مغولية تعني – التابعة للخان – .

سياسته :

يقول د الصيادي في ك المغول في التاريخ ص325 :

" بالرغم ما يحكيه التاريخ عن هولاكو من قسوة وشدة ، فإن هذا العاهل كان يميل إلى تشييد الأبنية ، وتشجيع العلماء والفلاسفة وحثهم على مواصلة البحث والدرس ، إذ كان يخصص لهم الرواتب المجزية ، ويغدق عليهم الهبات ، ويزين مجلسه بحضورهم ، كما كان هو نفسه شغوفا بعلوم الحكمة (الفلسفة) والنجوم والكيمياء ، فلا عجب أن كان يصرف بسخاء في سبيل تقدم هذه العلوم.

وليس أدل على هذا الشغف من أنه عهد إلى العالم الرياضي الفلكي **نصير الدين الطوسي الخراساني المسلم** ببناء مرصد عظيم في مدينة مراغة بإقليم أذربيجان ، أعد ه بأدق الأجهزة المعروفة في زمانه ، سنة 657 للهجرة ، وبناء على أوامر هولاكوخان واهتمام شخصي مباشرمنه . وقد استعان نصير الدين بعدد من العلماء الذين فرغهم هولاكو تفريغا كاملا للعلم ، وأجرى عليهم الرواتب الجزيلة ، ثم إن هولاكو ألحق بهذا المرصد مكتبة عظيمة جدا تبلغ 400 ألف كتاب ، جمعت محتوياتها مما كان قد حصله المغول في فتوحاتهم وخاصة لمدينة بغداد . وأما ما يذكر عن هولاكو (من تدميره لمكتبات بغداد وحرق كتبها ورميها في نهر دجلة الذي ظل ماؤه يجري سوادا" بضعة أيام) ماهو إلا افتراء محض وكذب وبهتان !!

يقول المؤرخ المقريزي (ت 840 للهجرة) في كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج 1 ص421 :

((إلى جانب مهمة المرصد الأساسية ، كان هذا المرصد دارا" للفقهاء والفلاسفة والأ طباء ، بها من كتب بغداد شيء كثير وعليها أوقاف لخدامها))

وكان من نتائج العمل في هذا المرصد أن قدم العالم نصير الدين الطوسي كتابه الشهير في علم الفلك وسماه (**الزيج الايلخاني**) ،وقدمه الى هولاكوخان.

ومع ان هولاكو كان بوذيا" الا أنه كان يعطف على جميع الأديان ،ويؤثر المسيحيين ايثارا"عظيما" تكريما" لزوجته المسيحية التركية (**دقوز خاتون**) وهي حفيدة **طغريل خان ملك قبائل الكيرايت التركية** ، الذي لقبه ملك الصين بـ وانغ خان .

اشهر قادة المغول في التاريخ:

من اشهر القادة المغول في التاريخ والذين يعدون قمما " في البراعة العسكرية و الشجاعة النادرة " :

1 - سوبوتاي :

من أعظم وأشجع وأمضى فاتحي العالم ، عبقرية عسكرية فذة ، كانت له القيادة الفعلية في فتوحات أوربا الشهيرة وكان على يديه فتح كثير من أقاليم الصين ، وإيران والقوقاز ، وأرمينية وغيرها ...

2 - جيبي Gebe :

كان يلقب بالسهم لسرعته ومضائه في الحرب ، وكان ندا" مكافئا لسبوتاي.

3 - تولوي :

الابن الأصغر لجنكيزخان ، وأحد أذكى وأشجع القادة في جيوش المغول ، كان مرشحا" قويا "لعرش المغول ، ولكن حال القدر دون ذلك بوفاته المبكرة .

4 - كيتوبوغا - كتبغا :

من أعظم القادة في جيش هولاكو ؛ يقول عنه المؤرخ المسلم **الشهير ابن تغري بردي** ضمن وقائع سنة 658 للهجرة : (كان كتبغا عظيما عند التتار (المغول) يعتمدون على رأيه وشجاعته وتدبيره . وكان بطلا شجاعا مقداما خبيرا بالحروب وافتتاح الممالك والحصون وهو الذي فتح معظم بلاد العجم والعراق ، وكان هولاكو ملك المغول يثق به ، ويحكى عنه العجائب في حروبه) اهـ

****

ولم تنته السلالة المغولية الجنكيزخانية هنا .. بل انقسمت هنا وهناك وظلت مستمرة في تكوين دول أخرى مع دخول معظمها في الدين الإسلامي ، وكان لذلك ماله من الأثر في إعادة انتعاش الثقافة الإسلامية وازدهارها ولكن هذه المرة بصبغة فارسية أو جغتائية تركية ، وبرزت الفنون الجديدة ..كفن المنمنمات البديع ، وفن زخرفة الكتب، وصناعة تجليدها إلى درجة رفيعة مذهلة .. وكذلك فن العمارة والقبور الملكية بدأنا نرى لمسات الفن المغولي على هذه الفترة تتميز بوضوح ..

كيف انـتشر الإسلام في روسيا :

وعن طريق الأترك الخوارزميين المسلمين انشر الإسلام سريعا إلى أولاد عمهم القبتشاك الأتراك وبتأثير هؤلاء أسلم زعيم القبيلة الذهبية المغولية (**بركة خان**) ومن معه من المغول إسلاما كاملا ، وتحول هذا الملك الذي هو حفيد جنكيزخان نفسه (من ابنه جوجي) إلى بطل متحمس من أبطال المسلمين وقاتل في سبيل عقيدته الجديدة أهله وذويه فتصادم في معارك طاحنة مع هولاكو خان ومن جاء بعده مناصرة للمسلمين وانتقاما لخليفتهم في بغداد !!

****

دولة تيمورلانك :

ويأتي بعد الإلخانيين مباشرة ، فاتح مغولي آخر لكنه مسلم من أمراء قبيلة برلاس التي استوطنت كش وهي قرية قريبة من سمرقند ، وبها نشأ الأمير الشاب (**تيمور**) الذي عرف في التاريخ باسم **تيمورلنك** وعند الأوربيين **تاميرلان** Tamerlane
. وتقول عنه إنكارتا: ((إنه عبقرية عسكرية مذهلة ، وأحد أكبر الفاتحين في التاريخ كله)) . ومع أنه وسع مملكته إلى درجة واسعة جدا تضاهي (شيئا ما) إمبراطورية جنكيزخان ، إلا أنه لم يترك لها نظاما دقيقا يحفظها بعد موته – كما ترك جنكيزخان – وهكذا تفتت إمبراطوريته بعد موته بقليل بسبب النزاعات بين أولاده .
ومع ذلك فإن أهم ماتركه تيمورلنك هي سلالته أفرزت عددا من الملوك المثقفين الأذكياء المحبين للعلم، المولعين بالفن والأدب والثقافة ،
وحسبنا أن نذكر منهم – **شاه روخ** ابن تيمورلنك – الذي يقول عنه المؤرخ بيرتولد شبولر :
" ومع أنه كان صاحب مواهب عسكرية ، إلا أنه كان يميل إلى الاعتدال ومداواة الجروح التي أحدثها والده .. وقد عمل هو وأحد ابنائه – **باي سنقر** – على تشجيع العلوم والفنون وجاء حكمه ليكون منبتا خصبا لفترة انتاج خصبة في الشعر الفارسي وعلم التاريخ .
وكان ابنه (**أولغ بك**) الذي خلفه على العرش هو نفسه عالما بالفلك والرياضيات والعلوم وقد أنشأ مرصدا عظيما أشرف عليه بنفسه ..

ثم آل الأمر في الحكم إلى الأمير **حسين بايقرا** من أحفاد تيمورلنك الذي حارب كثيرا ليستعيد قسما من ميراث أجداده ، وكانت عاصمته – هراة بأفغانستان – وكان هذا أيضا صديقا للعلوم والفنون والآداب وخاصة الفارسية .. وحتى أزال حكمه **الصفويون الأتراك الشيعة** والذين أسسوا دولتهم العظيمة في بلاد فارس وأذربيجان والذين كان حكمهم مظلة للعلوم والفنون والآداب ، وربما لم يجد الشعب الفارسي زمنا – في تاريخه كله – أكثر ازدهارا من الفترة التي كان يحكمها الصفويون .. الأتراك ".اهـ شبولر

ولعل أعظم الآثار التيمورية في تاريخ العالم هي (**السلالة البابرية**) التي أسست أعظم امبرطورية في الهند دامت قرونا ، والتي في ظلها تغلغل الإسلام في ربوع هذه القارة الواسعة حتى أقصى جنوبها البعيد .. عرفت (بالامبرطورية المغولية في الهند) والتي أسسها **ظهير الدين بابر** حفيد البطلين جنكيزخان - من جهة أمه - وتيمورلنك – من جهة أبيه .

يقول د. أحمد الساداتي في كتابه تاريخ المسلمين في القارة الهندية ص9 :

((قامت الدولة المغولية في شبه القارة الهندية في القرن العاشر الهجري فوصلت بالحكم الإسلامي إلى أرقى صوره . وبنفوذ المسلمين إلى أوسع مداه ، وبالعقيدة الإسلامية إلى أقصى درجات ..))

وهكذا ترى أن من أراد أن يقرأ التاريخ التركي ، فليقرؤه عند شعوب العالم المتحضر فهم أدرى بهم وأقدم احتكاكا ومعرفة.. أمثال الشعب الروماني والبيزنطي والجرمان والصينيون والروس والفرس والهنود ، فالمؤرخون من هذه الشعوب هم أصدق وأكثر دقة وأعدل حكما في رواياتهم التاريخية ..

السلالات التركية الحاكمة الـهنـد :

يبدأ تاريخ السلالات التركية الحاكمة في الهند منذ قديم الزمان ، قبل الميلاد بقرون حينما وفدت إلى المنطقة الشمالية من الهند قبائل طورانية جاءت من إقليم قانصوه في شمال غرب الصين تحت اسم قبائل Yueh - chih القوية (التي يختلف العلماء في تحديد هويتها تركية أو إيرانية) فأنشأت إحداها إمبراطورية قوية عرفت باسم Kushan كوشان، والتي كان لها أهمية حضارية وثقافية كبيرة بفضلها انتشرت البوذية إلى الصين وجيرانها ..

ثم حكمت بعد الميلاد إمبراطورية هندية وطنية قوية وحضارية عرفت باسم إمبراطورية غوبطة Gupta وظلت مستمرة حتى دمرها الهياطلة (الأتراك) وأقاموا فيها وفي أفغانستان وفي بلاد ما وراء النهر إمبراطورية قوية جدا بلغت من البأس والهيمنة والسلطان ما جعلها تجتاح الامبرطورية الهندية غوبطة والفارسية الساسانية .

ثم يأتي الفتح الإسلامي ، فيدمر الإمبراطورية الساسانية التي كانت في طور احتضارها بعدما عرفت من شأنها مع جيرانها الهون البيض – الهياطلة – وبعد النزاعات الداخلية المستمرة ..وكان أمرها إلى التفتت والزوال ..

الدول الإسلامية التي حكمت الهند:

1 - دولة المماليك الأتراك في الهند :

يقول المؤرخ شبولر في كتاب (الشرق الإسلامي قبل الغزو المغولي) :

((لم تؤد فتوحات الغوريون إلى تأسيس نظام جديد خاص بهم ضمن حدود الأقاليم التي كانت خاضعة للغزنويين فحسب ، بل قاموا بأعمال توسعية جديدة - فتوحات جديدة – فلم يكد الحاكم الغوري (**غياث الدين محمود**) يوطد أقدامه في الهند حتى شرع في حملةٍ على رأس فرقةٍ مدربة (من المماليك الأتراك) لغزو وادي الكانج الإقليم الواقع في الشمال الشرقي من الهند والبنغال وبسبب الفارق الكبير في مستوى التدريب والقدرة العسكرية كانت النتيجة حاسمة لصالح الغوريون دون أي قيد أوشرط على يد **معز الدين محمود الغوري** التركي ثم البطل التركي **إيبك** والقائد التركي **اختيار الدين محمود** من قبيلة الخلج (بتشديد اللام المفتوحة) التركية - القارلوق – فنجحوا في احتلال دلهي ثم اتجهوا غربا فقضوا على آخر

الممالك البوذية في شمال الهند والبنغال وأصبحت جميعا بلادا إسلامية))". وقد استطاع هذا السلطان بفضل مماليكه الأتراك وعلى رأسهم **قطب الدين أيبك** أن يملك جميع البلاد في شمال الهند وحتى مصبات نهر الكانج ، فيعمها الإسلام ، وتتحول معابدها الهندوكية إلى مساجد ويدفع راجاتها الهندوس الجزية صاغرين .. وكان قطب الدين أيبك رجلا مسلما متمسكا بشروط الإسلام ، ويظهر عداءه الشديد لنظام الطبقات الذي كان سائدا في الهند قبل إسلامها .. وكان يعامل الناس جميعا على أساس المساواة التي ينص عليها الإسلام . وتنسب إليه المنارة الشهيرة في أحد مساجد دلهي الذي بناه وسماه (قوة الإسلام) وأما المنارة فعرفت باسم (قطب منارة) وهي أطول منارة في العالم يبلغ ارتفاعها 100م وتمتاز بنقوشها وزخارفها الإسلامية .

ثم خلفه البطل التركي المملوكي **شمس الدين إلتـتميش** Eltutmish على عرش دلهي ، صهر إيبك السالف الذكر زوج ابنته وبذلك تأسست الدولة المملوكية في الهند .

وهي دولة تركية أيضا ، عاصمتها دلهي .

مؤسسها الفعلي **إلتتميش** الذي أسس دولة قوية في الهند ، حتى أن الخليفة العباسي المستنصر اعترف به سلطانا على الهند وأرسل له الهدايا والخلع سنة 626 هجري ، وقام إلتتميش لأول مرة في تاريخ الهند فسك نقودا جديدة فضية ونقش عليها تماشيا مع أخلاقه الدينية اسم الخليفة العباسي بجوار اسمه ، ويعد ألتتمش أول من ضرب نقودا عربية خالصة في الهند .

وتوفي سنة 634 هجري وورث الحكم عنه ابنته البطلة التركية – **رضية الدين** – التي كانت على حظ وافر من الذكاء ، حفظت القرآن الكريم ، وتفقهت في الدين .. ولما تولت السلطنة لمدة 4 أعوام 634 - 638 دلت على مقدرة عظيمة ، وعقل وافر ، حتى سماها مؤرخو الهند - **ملكة دوران بلقيس جهان** – أي فتنة العالم وترتدي زي الرجال ، وتخرج على رأس جيوشها على ظهر فيل لتقود المعارك بنفسها .

يقول شبولر: ((وهذا النوع من الحكم لم يكن يسمح به العرب ولا الإيرانيون ، ولكنه كان يتفق مع وضع المرأة في المجتمع التركي القديم ، وهذا ما حدث في فترة المماليك في مصر.)) .

وقد تكرر أن كانت وصاية العرش لامرأة مغولية فبعد وفاة أوكتاي خاقان المغول الأعظم تولت العرش بعده زوجته خاتون لمدة أكثر من أربعة أعوام .

مرة أخرى بعد أن مات الخان كيوك يتولى العرش – على سبيل الوصاية – زوجته أيضا (أوكول قيميش) لمدة لاتقل عن عامين كاملين ريثما يتم انتخاب الخاقان الجديد . ومع ذلك تبقى التقليد الإسلامية مانعا للمرأة ، فيتآمر عليها ضباط جيشها المماليك وتقتل سنة 638هجرية ... وبعد فترة قليلة من الاضطراب .

وفي هذا الوقت أيضا يظهر المغول في إقليم السند من جديد ويستولون على مدينة لاهور ويستبيحونها ..وهكذا فقد أصبح الموقف في الهند يستدعي ظهور شخصية قوية فريدة تقبض على زمام الأمور بيد من حديد ، وهي شخصية البطل التركي **الأمير بلبان** أحد مماليك إلتتمش الذي ينحدر من أصل عريق من تركستان .

يقول د الصيادي في كتاب قيام دولة المماليك الأولى ص 33 :

(اشتهر بلبان بشخصية عسكرية صارمة عادلة ، وأول عمل قام فيه هو الحد من طغيان الأرستقراطية المملوكية المحلية المدعوة ، وكذلك ضرب على أيدي المجرمين وقطاع الطرق ، فنظم السبل والمسالك وشيد الحصون والقلاع وأزال أوكار العصابات ، وبذلك استتب الأمن والرخاء في بلاده وقد عني بلبان في هذا الوقت المضطرب بإقامة إدارة منظمة للمخابرات في جميع المدن والثغور على الحدود وكانوا يعرفون بأصحاب الأخبار أوملوك البريد) . وتجلت مواهب بلبان في انتصاره على جيوش المغول التي اقتحمت السند 678 هجرية ؛ فاستحق بذلك لقب (إلق خان) أي الأمير القوي ، وتعود أسباب انتصاراته للاستعدادات العظيمة التي قام بها هذا السلطان .. حتى إنه فقد ابنه الأكبر محمد خان في إحدى الوقائع ضد المغول سنة 684 فحزن عليه كثيرا ومات بعده بسنتين "

2 - الدولة الخلجية :

وهي أسرة تركية استولت على عرش دلهي سنة 689 هجرية تحت زعامة **جلال الدين فيروز شاه** .

وكان لها دور عظيم أيضا في متابعة انتشار الإسلام وخاصة في الهند الوسطى والجنوبية ، وبرز من هذه السلالة بشكل خاص (**علاء الدين الخلجي**) 1290 - 1310 م الذي أظهر تفوقا في القيادة العسكرية والإدارية ، حتى بدى واضحا أن باستطاعة المسلمين أن يستولوا على الهند بأكملها .

ففي المدة الواقعة بين عامي 1305-1311م اخترقت الجيوش الخلجية التركية النصف الجنوبي من شبه القارة الهندية ، وأخضعوا جميع المناطق – ماعدا القليل – لسلطتهم ..

ثم وجد علاء الدين متسعا من الوقت لرعاية العلم والثقافة في بلاطه ، وأنعم على العلماء والأدباء بكثير من المال والعطف وبسخاء حتى ظهر في زمانه أعظم شاعر فارسي في الهند وهو(**أمير خسرو**) 1325م .

ولكن مع الأسف وبعد موته الذي تبعه سلسلة من ثورات القصر استلم السلطة بعدها العبيد المغامرون بينما ذبح أفراد الأسرة الحاكمة جميعا حتى آخر طفل منهم .

.. ثم ظهر في عام 132.م القائد التركي (**تغلق**) وكان متدينا مخلصا ، وذو شخصية قوية فوضع حدا لهذه المهازل ، وانتخب سلطانا وبحكمته رجعت الأمور إلى نصابها ..وورثه ابنه 1325 م محمد الثاني وكان أرعن أحمق جبارا طاغية فكان لعنة على تراث أبيه وكان رديئا على جميع الأصعدة .

حتى خلفه ابن عمه (فيروز) فاسترجع هذا شيئا من الرخاء أثناء حكمه 1351-1388م وذلك نتيجة السياسة الاقتصادية الحكيمة ، فقام بتخفيف الضرائب ، وتقشف في مصاريفه هو وعائلته ، وشجع الزراعة وأنشأ الطرق والأقنية وبدلا من الاهتمام الكثيف في الشؤون العسكرية ، نجده يكرس نشاطه في الفنون المعمارية وخاصة الأسلوب الهندي الإسلامي الذي تطور منذ قرون سالفة وقد ترك لنا آثارا عمرانية بديعة لاتقل في روعتها عن آثار المماليك في مصر)) ص 119 من كتاب . شبولر .

3 - دولة أباطرة المغول العظام في الهند :

وهي إمبراطورية عظيمة ، كانت تشمل القارة الهندية بأكملها من السلاسل الجبلية في أعلاها وحتى أقصى نقطة في رأسها الجنوبي .. وكانت دولة مهيبة الجناب ، رخية الاقتصاد ، محكمة الأوتاد بقيت على قرون ثلاثة منذ أسسها أحد أعظم رجالات التاريخ : (**ظهير الدين محمد بابر**) التركي المغولي حفيد جنكيز خان من جهة أمه ، وحفيد تيمورلنك من جهة أبيه.. وحتى من يقرأ ظروف هذا البطل كيف أسس دولته في الهند ، فسوف تأخذه الدهشة من بطولته وشجاعته وتصميمه .

ورث هذا البطل ملكا غير مستقر، تحيط به العداوات من جمع جيرانه وبخاصة من خان الأوزبك فقد مات أبوه عمر شيخ ميرزا إثر حادث سقوط بالخطأ ، فمات شابا وورث عنه ملك سمرقند وماحولها وعمره 12 سنة فقط (تأمل !!).

وكان الوقت مناسبا لجيرانه الأعداء في تصفية حسابهم من إرث والده الذي مات .. فهاجموه ودمروا ملكه هناك ، فغادر فرغانة في محرم 91. هـ (وعمره آنذاك 23 سنة ورجاله دون 300 رجل) إلى خراسان أولا ملتجئا عند ابن عمه السلطان الشهير برعاية العلم والفن **حسين بايقرا** ..

ولكن تشاء الأقدار أن تسهل له طريقه أن يستقر في كابل وغزنة ويملكها إثر وفاة قريبه السلطان والعالم التركي **ألغ بك بن شاه روخ** بن تيمورلنك.

ثم وفي تطورات لاحقة يصبح التركي **شيباني خان** – خان الأوزبك – أقوى ملك في هذه المنطقة ، وأشدهم سطوة وتخضع لملكه القوي مناطق تركستان ، وجزء كبير من بلاد الأفغان والسند وخراسان..

ومن حسن حظ بابر أن ينشغل شيباني خان السني المتشدد في صراع عنيف مع الشاه التركي إسماعيل الصفوي الشيعي المتعصب الذي كان يضطهد أهل السنة في بلاده .. وينتهي الصراع بمقتل شيباني خان وسقوط ملكه ؛ ثم بضم أراضيه حتى نهر جيحون إلى بلاد الصفويين الأتراك الشيعة ! .

ثم وبعد أحداث مريرة وتجارب له مع الفرس في استعادة بلاد ما وراء النهر .. لم يحالفه فيها الحظ أبدا .. فاتجه بأنظاره إلى بلاد الهند التي كان يحكمها في هذه الفترة أسرة تركية أيضا اشتهرت باسم (**باثان**) وهم السلاطين اللودهيين الذين انتزعوا حكمها من التيموريين ..

ثم تشاء الأقدار فيعود هذا الفاتح التيموري الجديد (بابر) ليؤسس فيها امبرطورية عظيمة شملت القارة الهندية كاملة ، وكان لها تاريخ مرموق، و امتد عمرها أكثر من ثلاث قرون حتى جاء الاستعمار الإنكليزي للهند! .

وهنا نذكر أن العالم الإسلامي في القرون الأخيرة كان مؤلفا من ثلاثة إمبراطوريات تركية عظيمة الشأن في التاريخ .. كانت متزامنة :

1- الامبرطورية العثمانية
2- امبرطورية المغول في الهند
3- الامبرطورية الصفوية في فارس وما حولها .

وإن كانت امبرطورية الأتراك (المغولية في الهند) هي أبرز هذه الدول في رعايتها للعلوم والفنون والثقافة والفنون والثقافة والمعمار .. وكذلك تعد فترة حكم الدولة الصفوية من أعظم عهود الازدهار الفارسي أدبا وعلما وفنونا شتى تحت رعايةٍ تركيةٍ سخيةٍ فائقة ، والمؤرخون الفرس أنفسهم يفتخرون بالعهد الصفوي أيما فخر .

ونعود إلى الدولة المغولية البابرية في الهند فنذكر أهم أباطرتها ، وشيئا عنها :

آ- ظهير الدين محمد بابر (البطل المؤسس): 899 - 937 هجري .

وقد كان رجلا عصاميا حقا ، وذا موهبةٍ عسكريةٍ ممتازة ، ثم فوق ذلك كله ، كان أحد أبرز الأدباء الأتراك في عصره .

تجلت موهبته الأدبية الفذة في سيرته الذاتية التي كتبها بقلمه باللغة التركية الجغتائية وحفظها لنا التاريخ إلى اليوم باسم بابر نامه , وتعد هذه السيرة أثرا أدبيا ممتازا طبقت شهرته الآفاق بما امتازت من أسلوب سلس صادق ، وتعبير أدبي يتناهى في رقته إلى الذروة ..

يقول د أحمد الساداتي في كتاب تاريخ المسلمين في الهند ص5.:

((لايعد ظهير الدين بابر أعظم حكام المسلمين في عصره فحسب ، وفيهم الشاه إسماعيل الصفوي وسليم الأول سلطان العثمانيين ، بل هو كذلك من أقدر الرجال الذين عرفتهم العروش في مختلف العصور ، وأحد أعاجيب الزمان همة وطموحا وصبرا على المكاره)).

((لئن أبقى البادشاه بابر على هيكل الإدارة الهندية عموما ، فقد أدخل عليه – على كل حال – بعض النظم التيمورية .. فكان من مبادىء التيموريين التي ساروا عليها في الهند ألا يسترخي العمال في جمع الخراج والمكوس دون إلحاق الأذى بالناس ، وحض نوابهم على إجراء العدل بين السكان جميعا لا يفرقون بين مسلم وهندوكي .. هذا ، كما أمر بمسح كثير من الأراضي ، وشق كثير من الطرق ليربط بها بين مختلف أجزاء بلاده ، وكان أعظمها تعبيد الطريق الطويل بين كابل وأكرا.. وإقامة منائر به ليهتدي بها السابلة ، ومنازل للمسافرين والدواب ..

ثم يقول الساداتي : ص 64 :

" ولقد خلف بابر وراءه ثروة أدبية في الشعر والنثر ضمت له شهرة الأديب المطبوع ، إلى جانب صيت الجندي الموهوب .

" وفضلا عما حوته سيرته من شعر تركي كثير ، كان ينشده في مناسباته ، فقد ترك ديوانا له بالتركية وأشعارا أخرى كثيرة بالفارسية وألحانا في الغناء والموسيقى . "

وفي ص 66: "ولقد نقلت هذه السيرة إلى الفارسية في نهاية القرن 10 الهجري ، كما نقلت إلى بعض اللغات الأوربية في العصر الحديث ."

وفي ص 70-71 : " ولم يكن بابر في تدوينه لسيرته بدعا بين أفراد أسرته على كل حال ، فقد سبقه إلى ذلك جده الأكبر تيمورلنك ، كما نهج أبناؤه من بعده .. على أنه يتميز عنهم جميعا بتدوينه لسيرته الذاتية بنفسه ، فلم يكن ليأتي لكتاب البلاط بداهة ، وهم يدونون سير سلاطينهم ، أن يذهبوا مذهبه في صراحته وصدقه التي جرى عليها وصدقه الذي التزمه في الغالب .

إن بابرنامه خلدت ذكر صاحبها في عالم الأدب والتاريخ ، كما خلدته حروبه وفتوحاته في عالم الغزاة والمحاربين ، وما من شك في أن هذه السيرة لتعد من المثل الصالحة التي يستلهمها أصحاب الطموح على الدوام .

ب ـ نصير الدين محمد همايون بن بابر 937-963 هجرية

وبعد طريق شاق من الفتن والثورات ، ثبت همايون ملكه في دلهي .

يقول د. الساداتي :

" لم يكن همايون دون أسلافه التيموريين في الشجاعة والجرأة ، فقد شارك أباه في أغلب حروبه وترسم خطاه في التحمل والصبر واحتمال الشدائد ، فلم يفارقه جلده وثباته طيلة محنة المنفى التي بلغت 15عاما

.. وكذلك عرف بشغفه بالفنون والعلوم و الآداب فقد ترك ، فيما ترك ، مكتبة عامرة بالمؤلفات القديمة لايزال بناؤها قائما بـ (دلهي) حتى اليوم ولولا أن القدر سبقه لكان قد أتم بناء المرصد الذي قد شرع ببنائه هناك.

ج ـ جلال الدين محمد أكبر (963 - 1013هجري) .

استلم عرش الهند صغيرا وعمره لايتجاوز الرابعة عشرة ، ويقسم المؤرخون مدة حكمه إلى ثلاثة أقسام :

الفترة الأولى : فترة وصاية الوزير التركماني الشيعي على الحكم .

الفترة الثانية : وهي التي حاول فيها بعض نساء القصر إملاء رغباتهن على السلطان الشاب ، فأقصين الوزير عن مكانته ومنصبه .

الفترة الثالثة : وهي التي انفرد فيها (أكبر) بالأمر كله ، وهي أطول فترة وامتد من عام 969 وحتى وفاته 1013 هجري .

وتعد هذه الفترة كذلك من أزهر عصور الهند التاريخية . ومن أجلها اعتبر المؤرخون الهنود القدامى من هنادكة وغيرهم ، السلطان أكبر أعظم عاهل عرفته الهند منذ أيام (آزوكا)..

كما سلكه المؤرخون المحدثون في مصاف أعاظم الملوك الذين عرفهم العالم في عصره طرا .. ص 128من كتاب تاريخ المسلمين في الهند للدكتور الساداتي.

ويقول أيضا : "ينحدر **أكبر** من أسرة امتازت بالثقافة المتوارثة فيها ، وقد فاضت حياته الطويلة بالنشاط العقلي ، فقد كان قوي الملاحظة كلفا بالمعرفة حديد الذاكرة .. وقد تجاوزت مكتبته الخاصة 24000 كتاب .

وقد تفقه بالعلوم الإسلامية ثم توغل في الحكمة على يد كبار علماء عصره في الهند (الشيخ مبارك ناكوري) ..وحاول أن يمزج نفسه بالهند وشعوبها من مسلمين وهنادكة مزجا عميقا لينقلب هو وبلاده إلى

وحدة لاتنقسم .. فعامل الهندوس معاملة حسنة وتسامح مع جميع المذاهب والأديان تسامحا مطلقا وتابع د الساداتي ص 134 :

(واستمع **أكبر** إلى هؤلاء جميعا في حريةٍ وتسامحٍ ديني مطلق ، وقت أن كانت أوربا تجتاحها موجات مدمرة من التعصب الديني والمذهبي ، فالكاثوليك يفتكون بالبروتستانت في فرنسا ، والعكس صحيح في إنكلترا ، ومحاكم التفتيش تنكل بالمسلمين واليهود في إسبانيا ، ورجال الكنيسة في إيطاليا كانوا يحرقون بتهمة الهرطقة جمهرة من العلماء الذين تدين لهم المدينة والحضارة الحديثة) .

ويتابع في ص 136:

(وأدرك **أكبر** ، قبل أن يأتي الفلاسفة المحدثون بزمن طويل ويقرروا أن المعتقدات الدينية مستقلة تماما عن العقل الصرف) .

ولذلك فإن (أكبر) استحدث لنفسه مذهبا فكريا وفلسفيا ودينيا خاصا، عرف هذا المذهب (بالمذهب الإلهي) والذي يقوم على الإيمان بالله الواحد وتمجيده ، وينادي بوحدة الوجود، وباعتبار جميع المذاهب والأديان طرقا موصلة إلى الحقيقة الواحدة..ولذلك ينبغي أن تحترم جميعا بدون تمييز .. وأن يترك للإنسان حرية تغيير معتقده بعد أن يكتمل نضجه ويبلغ مبلغ الرجال ..

وقرن أكبر إعلان مذهبه هذا بإصدار طائفة من التشريعات الاجتماعية المفيدة ،

1 - فمنع عادة الساتي (وهي أن تحرق الأرملة نفسها بعد وفاة زوجها).

2 - وسمح للأرامل الهنادكة بالزواج وحض الناس على الاكتفاء بزوجة واحدة ، وعلى الابتعاد عن زواج الأقارب ، ومنع زواج الأطفال دون البلوغ .

3 - كما منع تعاطي الشراب وتداوله ، وقصر بيعه للتداوي في متاجر خاصة قريبة من قصره وجعل بها سجلا خاصا يثبت فيه اسم كل مريض واسم أبيه وجده وترخيص الطبيب له .

4 - كما منع استرقاق أسرى الحرب ويعد هذا أنبل ما شرعه ملك .

والحق أن أكبر لم يحاول أن يحمل الناس على مذهبه ؛ مع أنه بحكم اقتداره وقوة ملكه كان يستطيع أن يحمل الناس على الدخول فيه أو على الأقل أن يحمل حاشيته على الدخول فيه الذين لم يستجيبوا لدعوته إلا قليل منهم أدى ذلك إلى إضعاف روح التعصب الديني والمذهبي والعرقي في البلاد .

واستطاع بذلك أن يحقق لبلاده الوحدة السياسية والاجتماعية التي كان يعمل في سبيلها .

وثمة إصلاح آخر بالغ الأهمية في تطور اللغة الفارسية وانتشارها ، حين أمر **أكبر** بتحرير سجلات الدولة كلها بالفارسية ، وجعلها لغة الدولة الرسمية ، فأقبل كثير من عمال الدولة من المسلمين الهنود والهنادكة على تعلم هذه اللغة ، مما أدى إلى رواجها رواجا كبيرا فهي اليوم ثاني لغات العالم الإسلامي انتشارا بعد العربية .

الجيش :

قضى أكبر على نظام الإقطاع ، وصارت الأراضي كلها ملك الدولة ، وأسس جيشا نظاميا عاملا تدفع له الدولة الأجور من خزينتها .

وكانت نواته تتألف من المشاة (حملة البنادق وأرباب السيوف) + المدفعية وكانت لها نصيب كبير من اهتمامه ، وكانت سلاحا متطورا في جيشه .. وإن كان هو بابر أول من أتى بهذا السلاح إلى الهند ، وأغلب خبراء هذا السلاح كانوا أتراكا (من العثمانيين أو الفراغنة (من فرغانة)).

وأما سلاح الفرسان :

فكان القوة الضاربة الرئيسية في الجيش ، وكان أكبر يوالي بنفسه التفتيش عليه وعلى الخيول ، وحظائرها للتأكد من جاهزيتها وإلى جانب ذلك (وحدات الفيلة) قوام كل واحدة منها بين 1.-3.فيلا .

وأخيرا اعتنى أكبر بسلاح البحرية ، وأنشأ له مصانع عدة في لاهور وأحمد آباد وكشمير ..

الحياة الفكرية في عهد أكبر :

الواقع أن الهند لم تعرف من قبل (أكبر) سلطانا مثله ..اجتمع حوله هذا العدد الكبير من رجال العلم والأدب ، واتصلت ندواتهم عنده وبحضرته ، لقوا منه كل إجلال وتقدير ولا أدل على عظيم عناية أكبر بالفنون الجميلة من مخلفات عصره الفنية الرائعة التي يزدان فيها كثير من متاحف العالم الكبرى اليوم

.. وقد وفدت إلى بلاطه جملة من مشاهير الفرس وغيرهم وعلى رأسهم (**مير سيد علي**) ولقوا عنده كل عناية وتشجيع .. وأقام معرضا للفنون مرة كل أسبوع تشجيعا للفنانين ، وإغراء لمشاهيرهم بالقدوم إلى بلاده ..

ولا يستغرب ذلك من عاهل أوتي الأحاسيس الفنية المرهفة ماجعله يصرح بأن التصوير ضرب من العبادة ، وأن للفنان فيما يبدو، طريقته الخاصة للإقرار بوحدانية الخالق المبدع .. وإن مدرسة النقش والزخرفة والتصوير المغولية التي وضع أساسها أكبر لها اليوم صيتها الذائع في علم الفنون على كل حال .. ولم تكن عناية أكبر بالموسيقى دون عنايته بالتصوير والنقش وماتزال الأنغام المغولية وألحانها لها سوق رائجة بالهند إلى اليوم .

حتى إن فنون الهند باعتراف الأوربيين أنفسهم لم تكن في عصر أكبر دون فنون أوربا إن لم تتفوق عليها في بعض نواحيها .

* أخيرا نذكر بأن أكبر كان قوي البنية ، شجاعا مقداما ، لم يتقاعس أبدا عن مشاركة جنده في أعنف المعارك ، أو يتردد (في صيده) في مواجهة أضرى الأسود والنمور ، وكان يستخف بأربعين ميلا يمشيها في اليوم الواحد ، وكان شديد البر بالناس ، عظيم الإحسان إلى الطبقات الفقيرة خصوصا، ومن تواضعه أنه كان يتقبل بنفسه الهدايا البسيطة التافهة من أهل الطبقات الدنيا ويضمها إلى صدره ممتنا ، ومع أنه كان لا يكترث بهدايا الأمراء والأعيان .

* وإلى جانب نظافته الشديدة ، كان بسيط الثياب في الغالب ، فلم يكن يميل إلى التحلي بالجواهر أو بالمشاكل والمشارب .

* وقد تجلت عبقريته في تنظيم حكومة بلاده على اتساع رقعتها ، وبمنهجه في إدارتها ، وفي تسامحه الديني المشهور ، فكانت طريقته في الحكم هي التي خلدته في التاريخ وأذاعت صيته أكثر مما أذاعتها فتوحاته الواسعة ، ولقد أجمع أكثر المؤرخين على أنه أعظم ملك عرفته الهند ، حتى ليسلك كذلك بين أعاظم الملوك في التاريخ طرا ".

- نقلا من كتاب تاريخ المسلمين في الهند – د. الساداتي

د - نور الدين محمد جهان كير :

برغم ما كان ميل هذا الشاب الأمير من ميل للشراب ، فقد كان على درجة كبيرة من الثقافة ، شغوفا بالمعرفة التي نشأه أبوه (أكبر) عليها ، متشبعا بالتسامح المطلق الذي اشتهر به أسلافه السلاطين المغول القدماء .

هذا ، كما كان له مشاركة كبيرة في الدراسات الأدبية والتاريخية ، وإلمام واسع في علوم الحيوان النبات ، وشغف بالغ بالحدائق وتنسيقها وتزويدها بكل نبت جديد لم يعرفه الهند وهو من هذه النواحي يشبه جده بابر .

وبلغ من رسوخ قدمه في الفنون الجميلة ، وبخاصة في فن النقش والتصوير أن يميز نقوش كل فنان بخصائصه في سهولة ويسر ، حتى عندما يشترك جملة منهم في نقش واحد .

هـ - شاه جهان 1037- 1067هـ صـ 208:

وكان شاه جهان حاكما قديرا بلغت الدولة في عهده أوجهها وعلت مكانتها ، ونهج نهج أسلافه في تنظيم الحكومة ، وتميز بالجزم الشديد والحرص على مصالح رعيته وعلى تحقيق العدالة فيهم ، حتى كان لا يتردد في إلحاق العقوبة الشديدة بمن يراه يتراخى في ذلك من عماله ووزرائه .

حتى قال عنه الرحالة الفرنسي تافرنيه : (كان شاه جهان ينظر إلى رعاياه عموما نظرته إلى أبنائه) وبلغ من بر هذا السلطان الذي عرف بتمسكه الشديد بشعائر السنة ، أن داوم على إرسال الهبات من الأموال في كل عام إلى فقراء الحجاز وعلماء الأراضي المقدسة وأشرافها .

وأدى به ذوقه الرفيع ، إلى تزيين الهند بجملة من المنشآت العمرانية الفخمة التي لاتزال آثارها باقية حتى اليوم في أكرا وفي دلهي الجديدة التي يعد هو بحق منشؤها ومجددها والتي جعلها عاصمة ملكه وبنى فيها قصره الكبير

ومن هذه الآثار المسجد الجامع ومسجد اللؤلؤة ، والقلعة الحمراء ، وأروعها جميعا ذلك المثوى الفخم الخالد في تاريخ الفن والوفاء الذي يعرف باسم **تاج محل** الذي استغرق بناءه 22عاما ويعد بكماله وبهائه من بين روائع المعمار في الدنيا كله. والذي صار في التاريخ رمزا للوفاء الزوجي العظيم ، إذ بناه على قبر زوجته العظيمة الوفية وأم أولاده **(ممتاز محل) .**

و- محمد محي الدين (أورنك زيب عالم كير) 1069- 1118 هجرية

اشتهر أورنك زيب منذ شبابه تمسكه الشديد بتعاليم السنة ، حتى لقد قاتل في سبيلها أخاه .وأدى حرصه على أن يصبغ دولته بالصبغة الإسلامية الخالصة إلى أن يتشدد في تنفيذ أحكام الشريعة ، فأبطل الاحتفال بالنيروز وحظر دخول بلاده على أصحاب مذهب الشيعة وغيرهم من أصحاب المذاهب غير السنية ، وأبطل البدع

وأنشأ المساجد بكثرة ، وشجع علوم الدين ، وطفق من بعد ذلك يبعد الهنادكة من مناصب الدولة الكبرى ، ويقلل من عددهم في الدواوين عامة ثم أغلق كثير من مدارسهم ومنعهم من إقامة معابد جديدة لهم .. وكان هذا النهج الذي انتجهه على غير سنة أجداده المتسامحين جدا مع كل العقائد والأديان ، ولعل هذا كان بدافع حماسته الدينية الشديدة وبدافع من النصائح من علماء الدين المسلمين .

يقول د أحمد الساداتي :

" وقف أورنك زيب حياته كلها على إعلاء مكانة السنة ونشر لواء الإسلام خفاقا عاليا ، ومجاهدة عبادة الأوثان .

وبلغ من ورعه أن أبعد الموسيقيين والمطربين عن بلاطه برغم براعته في العزف ، وخير الراقصات بين الزواج والتوبة أو النفي في الأرض ،

كما طوى قلبه على الرحمة البالغة برعاياه ، هذا فضلا عما شهر به من التحلي بالصبر وهدوء النفس في المحن ، والتواضع الشديد الذي أدى به إلى تهديد نائبه في البنغال حين بلغه بأنه يتعالى على الناس .

ويتابع د الساداتي ص246 :

ولقد نشأ منذ شبابه على التمرس في الحكم والاضطلاع بالحرب ووقائعها ، فأصاب نجاحا كبيرا في حكم الدكن وحروبه الشرسة كما ذاع صيته في معارك بلخ وبدخشان مع الأوزبك الأتراك وغيرهم .

ولم يلبس أورنك زيب إلا بسيط الثياب ، ولم يكن يسمح لأحد أبدا أن يغتاب غيره في حضرته ،

وأدى به ورعه إلى كف يده عن بيت المال ، فعاش على ماكان يتكسب به من صنع الطواقي بنفسه ، ومن نسخه للقرآن الكريم بيده بخطي السكست (الرقعة) والنستعليق (صنف من الخط الفارسي) ، وكان له في كتابته ذوق رفيع ، وكان يبعث ببعض النسخ هدية منه إلى الحرمين الشريفين .

ولم يشتغل في حياته بغير علوم القرآن والسنة (الحديث الشريف) في الغالب على تمكنه من الآداب الفارسية وبراعته في النظم الذي عدل عنه حذر الغواية .

وألف بأمره وإشرافه موسوعة مهمة تحمل أقوال أئمة الفقه الحنفي ، وهي المعروفة بالفتاوى الهندية (العالم كيرية) والتي طبعت بمصر عام 1182 أي بعد مضي قرن ونصف على وفاته . وهي من المراجع الشرعية المهمة في الأحوال الشخصية بمصر .

* أخيرا ولم تقتصر العناية بالعلوم والآداب وتشجيعها والمساهمة البليغة فيها على سلاطين وأمراء هذه الدولة المغولية من الرجال ، بل إن كثير من نساء البيت المغولي كن على قدر رفيع من الذكاء والثقافة والفن ، فقد كتبت (**كول بدن بيكيم**) ابنة **بابر** سيرة أخيها السلطان **همايون** تحت عنوان – همايون نامه –

التي تعد مرجعا وثيقا ونصا أدبيا رفيعا في تاريخ ثاني سلاطين المغول .. وكذلك تعد **(زيب النسا)** ابنة **عالم كير** من أشهر شاعرات عصرها باللسان العربي والفارسي في رقة وعذوبة أودعتها ديوانها المشهور – ديوان مخفي – وهكذا .. نرى أن هذه الصفحات المشرقة من التاريخ ما أصحابها إلا أولاد وأحفاد الفاتح التركي تيمورلنك هذا الذي لا يذكره التاريخ ولا يذكر قوته إلا ليلحق بهم قائمة طويلة من النعوت باللا إنسانية والبطش والهمجية وتدمير الحضارات . (انتبه ! كل ماورد في بحث الدولة البابرية منقول حرفيا من كتاب تاريخ المسلمين في الهند –للدكتور أحمد الساداتي –أستاذ في جامعة الإسكندرية) .

****

أهم البلاد التي حكمها الترك :

1 - روسيا والسهوب الروسية تحت الحكم التركي :

ونعني بها المساحات التي كانت تحتلها روسيا (الاتحاد السوفيتي سابقا) ، وهذا فصل مهم أيضا لايعلم عنه كثير من المتعلمين في بلادنا شيئا ، فهم يقرؤون عن روسيا أويسمعون بها كما يسمع بأي بلد أوربي شرقي كبولونيا مثلا .. وهي عند المثقف فيهم لاتعدو أن تكون بلدا لشعب سلافي نصراني أورثوذوكسي !!

والحق أن تاريخ هذا البلد يلخص تقريبا تاريخ الإمبراطوريات التركية العظيمة في التاريخ القديم وفي تاريخ العصور الوسطى ، فالذي لايعرفه الكثيرون أن معظم أراضي الاتحاد السوفيتي سابقا – ماعدا موسكو وما حولها – كانت أراض لشعوب تركية كانت سيدة عليها لعدة آلاف من السنوات لاينازعها في سيادتها أحد ، ثم إن الشعوب السلافية – الروسية منها خاصة كانت في أغلب تاريخها شعوبا مقهورة مستذلة عبر هذا التاريخ الطويل حتى القرن الخامس عشر الميلادي

..ففي التاريخ القديم جدا والذي يرجع إلى ما قبل الميلاد بقرون .. امتدت سيطرة دولة الهون Huns والذين كانوا أول أمرهم جيرانا أشداء للإمبراطورية الصينية والتي كانت تخشى بأسهم وقوتهم وبطشهم ، حتى قام أباطرتهم بإنشاء سور الصين العظيم الذي امتد آلاف الكيلومترات شمالي الصين لدرء هجماتهم وغزواتهم ضدهم .هؤلاء عرفوا في الوثائق الصينية باسم (هيونغ نو) Hisung- nu .

ولكن يبدأ التاريخ في هذه المنطقة بأن أول من سكن هذه الأقاليم شمالي البحر الأسود والقوقاز وشمالي بحر قزوين كانوا شعوبا شبه بدوية ، قوية ، محاربة من أصول إيرانية ، وتتكلم لغات تشبه الفارسية كانت تدعى Cimmerians سيميريان...

ثم تظهر بعدهم (ابتداء من القرن السابع قبل الميلاد) قبائل فتية جديدة هم Scythian السيث وهؤلاء مشهورون بفروسيتهم وبرماتهم الماهرين من فوق خيولهم وهم شعب طوراني شديد البأس في الحرب ، رفيع الشأن فيما أثر عنه من فنون جميلة ، وصناعات يدوية باهرة وخاصة المعدنية منها ، وهؤلاء لا يزالون من حيث تحديد هويتهم موضع جدل عند العلماء ، فبعضهم يرجح أنهم من أسلاف الأتراك (حسب رأي المستشرق بارتولد) وبعضهم يرى أنهم شعوب إيرانية أيضا ولكن ليس هناك من يقطع بشيء .

وهؤلاء السيث -على كل حال - كانوا أول من أسسوا إمبراطورية واسعة قوية في تلك الربوع الواسعة وكانت لهم علاقات مع الإمبراطوريات المجاورة ، فهم كانوا حلفاء للرومان ، ولكنهم تصادموا عدة مرات مع الفرس واحتلوا أقساما من العراق وبلاد الشام عابرين جبال القوقاز .. مصطدمين مع الآشوريين الذين كانوا تابعين للفرس القدماء .. ثم يخضع (السيث) لقبائل هندو- أوروبية ، نصف بدوية ، وهؤلاء عرفوا في التاريخ قبل الميلاد بقرون باسم (السرامطة)Sarmatians .. وابتداء من القرن الثالث ق . م مدوا سيطرتهم على جميع الأقاليم من نهر الفولغا (شرقا) وحتى نهر الفستولا (في بولونيا غربا) ، ومن بحر البلطيق حتى البحرالاسود...وظلوا مهيمنين عليها ..

..حتى هاجمهم القوط (قبيلة جرمانية) من الغرب - في القرن الثالث الميلادي - و أخضعوهم ..

ثم وبعد مائة عام ونيف (في القرن الرابع م) تأتي قبائل الهون الأقوى والأعنف في التاريخ ، فتزلزل هؤلاء وتشتتوا في الآفاق فلم يعد لهم ولا لمن كان قبلهم ذكر .! .ويؤسس الهون أضخم إمبراطورية في العالم القديم تمتد من شمالي الصين (مع احتلال أجزاء منها) وحتى أوربا الشرقية أولا ، ولاتزال قوتهم تتعاظم حتى تبلغ ذروتها في عهد الإمبراطور التركي (**روا** - روجيلا توفي 434 م) وقد أصبحت دولة الهون البدوية أقوى دولة في العالم ، في الوقت الذي كان أولاد عمهم الهون البيض (الهياطلة كما تسميهم العرب) يحطمون الدولة الساسانية وامبرطورية غوبطا في الهند ويخضعونها لهم .

ويموت روا Roa ويرث ملكه العريض ولدا أخيه **بليدا** Bleda **وأتيلا** Attila ثم بعد أن يقع خلاف بين الأخوين ، يقتل فيه بليدا عام 445 م وينفرد بذلك أتيلا بقيادة الهون ويعد أتيلا [عاش 406 - 453 م أي 47 سنة - وحكم من 434 - 453 م] هذا من أعظم قادة التاريخ وأقدر فاتحيه ، فقد كان ذا قيادة قوية وحازمة وشجاعة ، وعلى يديه وصل الهون إلى ذروة مجدهم وخلدهم التاريخ في صفحات لاتنسى .. لقد كان الهون الأتراك وبخاصة تحت قيادة أتيلا العظيم بمثابة زلزال هائل مخيف ، زلزل أوربا كلها ، وفيها الامبرطورية الرومانية المشهود لها بالقوة والغطرسة والهيمنة والعظمة .. فاجتاح الإمبراطورية الرومانية الشرقية أولا ودمر مدنها في البلقان ، فسارعت إلى مصالحته وإرضائه ، وخضعت لجزية مرهقة من الذهب (مقدارها 300 كغ من الذهب سنويا) .

ثم بينما كان أتيلا مشغولا في إخماد بعض التمرد الذي أبدته بعض القبائل البربرية الجرمانية في الشمال ، (مابين العامين 435 – 439 م) توقف الامبراطور البيزنطي عن دفع ما توجب عليه من جزية مستغلا انشغال أتيلا عنه

فلما فرغ أتيلا ..رجع إلى الامبراطورية البيزنطية فلقنها درسا قاسيا سنة 441 م ؛ واجتاح مدنها الواحدة تلو الأخرى وحاصر القسطنطينية ، حتى سارع امبراطورها إلى الخضوع وطلب الاستسلام ، ودفع الجزية مضاعفة جزاء تأخره ومطله في دفع الجزية المترتبة عن السنوات التي خلت .. وهكذا فإن العقاب كان جزية مضاعفة ثلاث أضعاف (أصبحت الجزية 900 كغ من الذهب كل سنة) مع دفع المترتبات عن السنوات السابقة مضاعفا ، إضافة إلى تدمير حصونهم وقلاعهم !!

وأما الامبراطور **فالنـتاين الثالث امبراطور روما** ، فقد تقطعت أوصاله خوفا عندما وردته الأخبار بأن أتيلا قادم إليه في جنوده الذين لايقهرون ، وأصل القصة أن Honoria **(أونوريا)** أخت الامبراطور المذكور كانت في ربيع سنة 450 م ، قد أرسلت خاتمها الخاص إلى البطل أتيلا ، تستنجد به من زواج مرتب لها وهي مرغمة عليه ، وفعلا فإن أتيلا أعلنها خطيبة له ، وأقبل في جنوده الأشداء معلنا أنه سيحتل الإمبراطورية الرومانية الغربية ويقدمها مهرا لها .

وفعلا بدأ بإخضاع القبائل الجرمانية (في الشمال) المشهورة بقوتها ، واستطاع أن يخضد شوكتها وأن يضم بلادهم إلى امبراطوريته بكل بساطة .

ثم اتجه غربا ،واجتاح" غالية " (فرنسا اليوم) سنة451 م ، واحتل عددا من مدنها (مثل أورليان) .

وفي هذه الأثناء استنجد الامبرطور الروماني بالملك تيودوريك الأول ملك القوط الغربيين Visigoth [وهي قبيلة قوية جدا من القبائل الجرمانية التي كانت هاجرت من موطنها تحت ضغط الهون إلى (إسبانيا اليوم وجنوب فرنسا)] وتحالف معه مرسلا إليه أعظم قادة الرومان (إيتيوس) مع جيش حاشد وضع فيه إمكانات روما كلها .. لأنها كانت الفرصة الانتحارية الأخيرة للصمود أمام هذا السيل التركي الجارف إلى جنوب فرنسا..

وهناك وقعت في سهول كاتالونيا Chatalonia قرب مدينة Troyes(في قلب فرنسا..شمال شرق باريس) ، معركة من أشرس المعارك في التاريخ حتى لتقول الموسوعة البريطانية عنها : ((وبعد صراع متوحش عنيف ، تنسحب قوات أتيلا ليلا ، ويسقط ملك القوط قتيلا في المعركة)) .

وتقول عنها موسوعة إنكارتا Encarta الامريكية :

" According to all accounts it was one of the most terrible battles of ancient history"

ماترجمته : "وفقا لجميع الاعتبارات – المقاييس – كانت معركة كاتالونيا واحدة من أعنف معارك التاريخ القديم وأشدها هولا."

فيضطر أتيلا إلى الانسحاب بقواته إثرها – وكانت هذه المرة الوحيدة التي ينهزم فيها أتيلا – ليعود بعدها في عام 452 م بحملة عنيفة على إيطاليا ، فتسقط أمامه مدنها Veronaو Paduaو aquiliaو milan وBergumo تباعا ، ويجتاز جبال الأبانين Appanins الشاهقة الوعرة في شبه جزيرة إيطاليا

قاصدا روما وتقول الموسوعة البريطانية ((ولم يستطع الامبرطورفالنتاين الثالث ، ولا قائده أتيوس نفسه فعل أي شيء لردهم أو إيقاف تقدمهم)) ؛

في حين يخرج إليه بابا روما وقت ذاك Lion-1 فيقدم إليه أموالا طائلة ويحاول إقناعه بالعدول عن متابعة سيره ، وتحت ظروف الوباء الذي كان يعصف بالبلاد خشي أتيلا على جنوده من الأوبئة ، فرجع في عامه هذا (452 م) على أن يعود إليها في عامه القادم .

و تشاء الأقدار فيموت أتيلا سنة 453 م ليلة زفافه على عروسه Hildicoالديكو الجرمانية التي يقال إنها وضعت له السم في شرابه انتقاما منه لقتله إخوتها في إحدى حروب سنة 437 م . ولقد أصبحت هذه الحقيقة التاريخية أساسا لعدد من الملاحم الشعرية الأسطورية في تراث الألمان والإنكليز والفرنسيين والنرويج...

ولكن للأسف لم تعمر هذه الإمبراطورية طويلا بعد موت أتيلا ، إذ يتقاسم أولاده الملك من بعده ، فيدب الضعف وتتسرب الفرقة بين صفوفهم ، وكان هذا نذيرا بسقوط هذه الإمبراطورية التركية الـهائـلة ..

ثم إنه بسبب قلة أعداد الهون الأتراك بالنسبة إلى الشعوب التي كانوا يحكمونها وبسبب ضعف خلفاء أتيلا .. تحللت الإمبراطورية سريعا ، ثم ذاب الهون أنفسهم في محيطهم الكثيف كما ذاب من قبلهم (السيث) وأمثالهم .. وضاعت هويتهم الخاصة مع الزمن ..إلا ما يعتقد من أن قسما من سكان رومانيا اليوم الذين يعرفون باسم Szekler يهبطون في نسلهم من أسلاف الهون القدماء .

ثم لا يأتي القرن السادس الميلادي حتى تستعمر قبائل **الآفار - جوان - جوان** [الأتراك المغول] هذه المناطق (روسيا والمجر) وهؤلاء هاجروا تحت ضغط قيام الامبرطورية التركية الشهيرة Tou kuo - توكيو في شمال الصين تركستان كلها على يد الإمبراطور (بـومين).

ثم تأتي موجة أخرى من القبائل التركية وأهمها **الغز - الأوغوز** في القرن السابع م ويؤسسوا امبراطورية تركية عظيمة الأثر في التاريخ اسمها (امبراطورية الخزر) والتي تحتل معظم روسيا وأوكرانيا والمجر وحتى أقسام واسعة من البلقان والقوقاز كله مع أرمينية وجورجيا وأذربيجان والأقاليم المحيطة ببحر قزوين حتى أطلق اسمهم على هذا البحر الذي كانوا يحيطون به من كل جانب ، فأصبح اسمه - في التاريخ والجغرافيا إلى اليوم - بحر الخزر ودامت إمبراطوريتهم العظيمة والقوية الباهرة من القرن 6 -11 م وقد سبق الحديث عنها ..

ثم يتلوا هؤلاء الخزر أتراك آخرون هم **البشناق** Beshenegs وقد تقدم الحديث عنهم أيضا ؛ وقد ورثوا ملك الخزر واستمرت إمبراطوريتهم حتى دمرها البيزنطيون بالاستعانة بأتراك آخرين هم :

الكومان - القبجاق الذين قدموا حديثا من الاستبس بقوتهم البدوية الشهيرة وفروسيتهم التي لا يشق لها غبار واستمر الأتراك القبجاق يحتلون هذه الأقاليم ، وقد منحوها اسمهم حتى صارت علما للأقاليم شمال بحر قزوين والقوقاز وشمال البحر الأسود حتى قريبا من موسكو والأقاليم المحيطة بنهر الفولغا .

ثم يجتاح هؤلاء القبجاق **مغول جنكيزخان** ، بقيادة سبوتاي وجيبي (على رأس 20.000 فارس) المعروفين ببراعتهما العسكرية الفذة ، وبفتوحاتهما الواسعة والسريعة جدا ، حتى أطلق على جيبي لقب السهم إ ذ إ ن هذين القائدين الظافرين اخترقا بأوامر من جنكيزخان - بعد احتلالهما خراسان وإيران - منطقة القوقاز وحطموا المقاومة المتحدة لشعوب القوقاز التي تآزرت في وجههم (الداغستان والشركس واللان وغيرهم من شعوب جبال قفقاسيا ..)

فسحقوهم ثم انطلقوا في ربوع أوراسيا فبدؤوا بأولاد عمهم القبجاق وحطموا جيشهم ثم أرغموهم على دفع الجزية

ثم اجتاحوا روسيا ودمروا الجيوش الروسية (- 80 ألف مقاتل) وفي غضون أشهر خضعت أوربا الشرقية كلها لجيوش جنكيزخان .

ولكنها كانت في هذه الجولة تقوم بفتوح عابرة استكشافية ، إذ تراجعوا عنها منسحبين بناء على أوامر استدعتهم بالرجوع إليه .. غير أن أهميتها في استطلاع بلاد أوربا وتضاريسها وشعوبها تفوق كل شيء ،

وسيكون لهذه الجولة الأولى الشأن الكبير عندما سيقرر المغول فيما بعد (في عهد أوكتاي بن جنكيزخان) ..فتح أوربا بعد عشرين عاما وضمها نهائيا إلى الإمبراطورية المغولية ضما أكيدا على يد – **باتوخان بن جوجي بن جنكيزخان** – يرافقه القائد العسكري المغولي الفذ سبوتاي مرة أخرى ، ولكن هذه المرة تجتاح الجيوش حتى قسما كبيرا من أقاليم أوربا ، موقعين هزيمة كاسحة لجيوش الألمان المتحدة مع جيوش البولنديون في معركة فاصلة ، وهكذا كانت الجيوش المغولية على أبواب برلين وأوربا الغربية لولا أن تدخل القدر ، فمات في هذه الأثناء الخان الأعظم أوكتاي؛وتوقف الفتح .

يقول د الصيادي ص188 :

"وبينما كان المغول سائرون في فتوحاتهم على قدم وساق في القارة الأوربية إذ بالأنباء ترد إلى أوربا تعلن وفاة أوكتاي سنة 639هجري 1241م واستدعاء باتوخان وسبوتاي لحضور مجلس الشورى المغولي (القورليتاي) والاشتراك في انتخاب الخان الجديد ، وبذلك سلمت أقاليم أوربا من خطر محقق كان ينتظرها على أيدي المغول ".إ هـ

وهكذا تسقط أقاليم روسيا – جميعها - تحت حكم المغول ، الذي يتوارثه فيما بعد أحفاد **باتو بن جوجي** مختلطين اختلاطا وثيقا مع الكبتشاك (القبجاق) الأتراك (وتلعب صلات القربى دورا هاما في ذوبان المغول في هؤلاء الأتراك) فيشكلون مع الوقت ما كان يسمى **القبيلة الذهبية** ثم ماعرف فيما بعد باسم **التتار**في روسيا ، ويدخل هؤلاء معا الإسلام دخولا صحيحا على إثر إسلام ملكهم (**بركة خان**) حفيد جنكيزخان الذي حسن إسلامه ..وبقيت الإمارات الروسية تخضع لحكم هؤلاء التتار (حوالي 3 قرون) وكان الأمراء الروس يتبارون في تقديم ألوان الخضوع والطاعة للتتار ، ويتنافسون فيما بينهم في الإكثار من جلب الضرائب من شعوبهم الروس (السلاف) لتقديمها عربون خضوع لأسيادهم التتار!!.

وتبقى الأمور على هذا الواقع حتى تتفرق دولة القبيلة الذهبية إلى دويلات صغيرة (خانيات) مجزأة متفرقة متنازعة ، ثم تأتي ضربات تيمورلنك القاصمة لقوة التتار .. ويبدأ الروس في تقوية أمرهم شيئا فشيئا حتى تنقلب موازين القوى في روسيا وتصبح الخانيات في موقع الضعيف وبخاصة في عهد الإمبراطور الروسي إيفان الرهيب (الرابع) تقول عنه موسوعة إنكارتا:

"**Ivan IV Vasilyevich** or **Ivan the Terrible** (153.-1584), grand prince of Muscovy (1533-1584) and the first formally proclaimed tsar of Russia (1547-1584). One of Russia's most brutal and notorious rulers"

"كان ايفان الرهيب واحدا من أسوأ الحكام الروس سمعة وأكثرها وحشية ..."

واعتبارا من هذا التاريخ تقريبا يبدأ تاريخ الروس كدولة مستقلة ذات شأن وهيبة بين الدول ، وهكذا .. ومن خلال استقراء تاريخ هذه الأقاليم التي تسمى اليوم روسيا الفيدرالية تجد أن السيادة فيها كانت منذ قديم الزمان إلى الأتراك رغما عن الوجود القديم للأغلبية السلافية في هذه الأقاليم وبخاصة في شمال البحر الأسود وأما الروس – كشعب - فلم يؤسسوا لأنفسهم دولة قومية في هذه المنطقة حتى أواخر القرن الخامس عشر تقريبا!!.

وتبدأ الأحوال هناك بالانقلاب ، ويتحول الأتراك والتتار الذين كانوا سادة الإقليم إلى أقليات مضطهدة دينيا (باعتبارهم مسلمين) بالقياس إلى الأغلبية السلافية الأورثوذكسية , ومضطهدة عرقيا محاولة من روسيا القيصرية لمحو هويتهم ومحقها وإرغامهم على الدخول في الكنيسة الأورثوذكسية ، في مخططات منظمة من السياسة الضريبية التمييزية العنصرية وفي سياسات التهجير والتنكيل بالتتار ..

ثم جاءت البلشفية الشيوعية ذات السياسة الإلحادية (اللادينية) فتابعت مسيرة الاضطهاد والإرهاب ضد الأقلية التركية التتارية وبسياسة التشريد الجماعي فاقتلعوا تتار القرم .. هكذا كشعب كامل .. وقاموا بتهجيره إلى سيبيريا وكازاكستان حيث الطقس لايصلح إلا للحياة البدائية!!.

وهكذا فإن روسيا اليوم والتي تحتوي على أقلية تركية تتارية كبيرة 21 % من مجموع سكان روسيا ، ولكن الهوية التركية لهذه الأقلية هي في خطر شديد هناك ، بعد هذا الاضطهاد الروسي المنظم ضد قوميتهم ، والذي يعمل بجد وتواصل في تبديد هذه الهوية هناك ..

يقول د شبولر ص162 :
" وهكذا نرى أن أحفاد الأتراك المغول الذين حكموا أوربا الشرقية في ماضي الزمان يقتربون من أزمة تهدد وجودهم كأمة ، ولاندري ما ستكون النتيجة ؟!.."

لمحة تاريخية موجزة عن التتار :

التـتار Tatar : كلمة تـتار لفظة لاتينية ومعناها **جهنم** ، كانت تطلق – قديما - منذ القرن الخامس م على مجموعة قبلية تركية صرف (وليست مغولية) ، كانت تعيش في الشمال الشرقي من إقليم منغوليا وحول بحيرة بايكال..وكانوا مشهورين بقوتهم وشدة بأسهم ، ولذلك طالما استعان بهم كثير من أباطرة الصين ضد أعدائهم الشماليين من المنغول والترك .

كان التـتار على عداء دائم مع جيرانهم المنغول ؛ وكانت لهم الغلبة على المغول دوما ..حتى ظهر جنكيز خان (المغولي) ، فأخضع التـتار تماما ثم أدخلهم – كعنصر أساسي - في جيوشه الجرارة .. ولذلك غلب اسمهم الشهير على الفاتحين المغول..

هؤلاء التـتار القدماء يمتون بالقرابة الوثيقة إلى قبائل القبجاق (الكيبشاك) التي كانت في ق 11م قد احتلوا الإقليم المعروف باسمهم (في روسيا).

أما تـتـار اليوم : فهم – في حقيقة الأمر- يمثلون الشعب الذي نتج من اختلاط وانصهار المغول الفاتحين (مغول جنكيز خان) مع الأغلبية التركية من القبجاق .. ويقدر تعدادهم اليوم ب 5 ملايين نسمة .. كلهم من المسلمين السنة (على مذهب أبي حنيفة) .

أغلبهم يعيشون في قلب روسيا على النحو التالي :

1 - أكثر من مليون ونصف تتري من تتار قازان لا يزالون يعيشون في مناطق حوض الفولغا و اورال ..وهم بذلك يشكلون 50 % من سكان جمهورية تتارستان (التي نالت استقلالها إثر استفتاء شعبي جرى سنة 1992 م) ، ويعرفون (بتتار الفولغا) ، وهم الأغنى والأكثر تقدما (صناعيا وتكنولوجيا) من بقية التتار الآخرين في روسيا.

2 - أيضا أكثر من مليون تتري يعيشون اليوم في كازاخستان ، وآسيا الوسطى، في حين لا يشكل تتار سيبيريا أكثر من 200ألف تتري على شكل تجمعات مبعثرة فيها..

3 - أما تتار القرم Crimean Tatars فلهم تاريخهم الخاص ؛ فهؤلاء حافظوا على استقلالهم حتى وقت متأخر،عندما أخضعت بلادهم أخيرا الملكة الروسية كاترين العظيمة سنة 1783م.

** في القرن العشرين : شكل تتار القرم أساس جمهورية القرم السوفييتية سنة 1921م ،وبذلك نالوا شيئا من الاستقلال حـتى سنة 1945م حينما الزعيم السوفييتي (ستالين) اتهم ما يقارب 200 ألف إنسان من تتار القرم بالتعاون مع ألمانيا النازية في فترة الحرب العالمية الثانية .. ولذلك قام بتهجيرهم (جملة واحدة) من أوطانهم إلى اوزبكستان و كازاخستان ..ومنعهم من استعمال لغتهم هناك لتذويبهم وسحق هويتهم وطمس حقهم في العودة إلى ديارهم ..

القبجاق - القفجاق- الكيبشاك Kipchak :

اسمهم بالروسية Polovtsy ، وسماهم البيزنطيون Kuman وكلها نعوت تعني الصفر(أي ذوي اللون الأصفر).

هم تحالف قبلي تركي ، احتل في منتصف القرن 11 م إقليما في السهل الأوراسي (الروسي) يمتد من شمال بحر آرال شرقا وحتى شمال البحر الأسود غربا .

هم أساسا من سلالة التتار الأتراك الذين كانوا يعيشون شمال الصين وحول بحيرة بايكال ؛ ثم هاجروا عبر سيبيريا نحو الغرب خلال القرن 9 م . ثم هاجروا مرة أخرى غربا عابرين نهر الفولغا إلى الإقليم الذي عرف باسمهم فيما بعد (شمال قزوين والقوقاز والبحر الأسود) .

بقي هؤلاء القبجاق سادة هذا الإقليم حتى قدوم جيوش المغول الذين دمروا تحالفهم ثم أدخلوه كرعايا ضمن القبيلة الذهبية (أي القسم الأوربي من امبرطورية جنكيز خان) .

كان هذا الإقليم مصدرا أساسيا للرقيق الأبيض (المماليك) الذي كان تستورده البلاد الإسلامية لبناء جيوش قوية من هذا الشعب المحارب .

ومن هؤلاء القبجاق كان معظم الممالك البحرية الذين لعبوا دورا هاما جدا في التاريخ العربي الإسلامي : فمنهم عدد من أعظم أبطال التاريخ الإسلامي أمثال : **الظاهر بيبرس – فارس الدين أقطاي – المنصور قلاوون – وابنه الناصر محمد بن قلاوون** وغيرهم ...

كان القبجاق يتكلمون إحدى اللهجات التركية ، وقد وصلنا من خلال بعض القسوس الأوربيين الذين عاشوا في ظل دولة القبيلة الذهبية (في القرن 13م) معجم لغوي (قبجاق – لاتيني – فارسي) . وكذلك قام المماليك البحرية بإنشاء معجم (تركي " قبجاق " – عربي) في فترة حكمهم .

2 - إيـــران تحت الحكم التركي :

إيران إقليم واسع جغرافيا ، ومتنوع أيضا يمتد من نهر جيحون (امودايا) وجبال أفغانستان شرقا وحتى أذربيجان وجبال زاغروس غربا ، ومن شواطئ بحر الخزر (قزوين) شمالا وحتى الشواطئ الشرقية للخليج العربي بما فيها إقليم كرمان المجاور لبلاد السند (باكستان اليوم).

استوطنت قبائل آرية هذه المنطقة منذ فجر التاريخ ، وأعطتها اسمها ثم تتالت في هذا الإقليم نشوء سلالات امبرطورية فارسية قوية ، كانت عبر التاريخ القديم إحدى مراكز القوة والعظمة والسلطان في العالم القديم كله.

سكنت الهضبة الإيرانية حوالي 1500 ق.م من قبل القبائل الآرية Aryan Tribes الأكثر أهمية بينها ميدي Medes التي استوطنت شمال غربي إيران والثانية هي Persians – Parsumash الذين جاؤوا من إقليم Parsua الذي يقع غرب بحيرة أورمية Urmea.

آ - الأخـمـينـيون :

أول قائد من قادتهم الذي عرف في التاريخ القديم هو المحارب Hakamanish - Achaemenes الذي عاش حوالي سنة 681 ق.م.

خضع البيرسيان " الفرس " إلى حكم الميدين حتى تمكن من الوصول إلى العرش الفارسي سنة 55. ق.م (سيروس Cyrus العظيم – قورش) الذي أسقط الملوك الميدين ، واحتل مملكة Lydia حوالي 546 ق.م ومملكة البابليين في 539ق.م

و أسس قورش أول إمبراطورية فارسية ،سنة 55.ق .م

خلفه ابنه قمبيزالثاني Cambyses 2 الذي توسعت على عهده الامبرطورية باتجاه الغرب حتى ضم إليه مصر قاهرا الفراعنة المصريين سنة 525ق.م

ثم خلفه داريوس الأول Darius-1 سنة 522 ق.م على العرش ، الذي توسعت امبرطوريته شرقا حتى نهر السند ، وكان عهده عهد رخاء ، وازدهار وتنظيم للامبرطورية ، وفي عهده أمر بحفر قناة تصل نهر النيل إلى البحر الأحمر ، ولذلك فقد استحق لقب" داريوس العظيم " الذي سحق ثورة اليونانيين في آسيا الصغرى ، وأرسل حملة تأديبية لمن والاهم من اليونانيين الأوربيين ولكن قواته هزمت هزيمة منكرة في معركة الماراثون سنة 409 ق.م .

ثم خلفه ابنه Xerxes-1 الذي كانت محاولاته هي الأخيرة في التوسع الإمبراطوري ... و ورثه ابنه Arta - Xerxes-1 الذي قمع ثورة المصريين الذين ثاروا بمساندة وتشجيع من اليونانيين .

ثم تلاها العديد من الثورات ، ولكن الضربة القاصمة لإمبراطورية الأخمينيين كانت من قبل الاسكندر المكدوني ، الذي هزم آخر الملوك الأخمينيين " داريوس الثالث" في سلسلة من المعارك بين 334-331ق.م.

وهكذا خضعت بلاد فارس إلى مملكة الاسكندر العظيمة حتى وفاته سنة 323 ق.م

ثم يؤول عرش فارس إلى أحد الضباط القادة المكدونيين (سلوقس-1 Selucus-1-) الذي قهر مملكة بابل سنة 312 ق.م وضمها إلى فارس مع سورية وآسيا الصغرى إلى إمبراطوريته مؤسسا سلالة يونانية جديدة هم (السلوقيون Seleucids)، وظلت بلاد فارس بعدها أكثر من قرن من الزمن عبارة عن إقليم ملحق ضمن هذه المملكة – السلوقية- العظيمة ؛ وفي حوالي 250 ق.م تأسست امبرطورية إيرانية جديدة وهي :

ب - الامبرطورية البارثية (Parthia Impire) : من 250 ق.م — 224 م - 464 سنة

البارثيون : هم من أحفاد السيث ، الذين تبنوا الزي الميدي واللغة الإيرانية ، هؤلاء كانوا فرسانا أشداء ورماة ماهرين جدا من على ظهور الخيل ، ولذلك ضرب بهم المثل في دقة الرماية ، فقيل : " رمية بارثية - Parthian shoot "

كانوا قديما تابعين للآشوريين ثم الميديين ثم البيرسيانس ثم المكدونيين (حتى نهاية السلوقيين) .

حوالي عام 250 ق.م نجحوا في تأسيس مملكتهم الوطنية المستقلة التي تطورت خلال القرن الأول ق.م فأصبحت امبرطورية واسعة تمتد من الفرات غربا حتى نهر السند شرقا ومن نهر أموداريا – جيحون – شمالا إلى المحيط الهندي جنوبا .

أهم مدنهم سيليوسيا وطيسفون التي كانت عاصمتهم (على الجانب الشرقي من بغداد اليوم)

ابتداء من منتصف القرن الأول ق.م أصبحت بارثيا المنافس القوي لروما ، وقد وقعت بينهما عدة حروب ؛ ولكنهم في سنة 424 م هزموا من قبل أردشير الأول مؤسس الامبرطورية الساسانية .

ج - الامبراطورية الساسانية : من سنة 224--- 651 م

وُسس الدولة هو أردشير الأول (241-224 م) ، قهر الممالك البسيطة المجاورة ، واحتل شمال الهند وأرمينية . في عهده اعتمدت الزرادشتية دينا رسميا للبلاد .

ورثه ابنه سابور الأول عام 241 م الذي قاد حربين متعاقبتين ضد الرومان واحتل العراق وسورية ومساحة كبيرة من آسيا الصغرى .

- جددت الحرب مع روما من قبل (نارسيس) الذي دمر الرومان جيشه سنة 297 م وخسر كثيرا من أراضيه .

- سابور الثاني (309 – 379 م) استعاد خلال حكمه الأقاليم المفقودة في ثلاث حروب متتالية .

- يزدجرد الأول (399 - 420 م) حكم في هدوء وسلام وكان متسامحا مع النصارى في أول حكمه ، ثم اضطهدهم أخيرا .. واستمر هذا الاضطهاد من قبل ابنه ووريثه بهرام الخامس الذي أعلن الحرب على روما سنة 420 م ولكن الروم هزموه سنة422 م ووقع الطرفان معاهدة تكفل لرعاياهما حرية العبادة .

- قرب نهاية القرن الخامس ظهر عدو جديد (الهياطلة) هاجموا بلاد فارس .

إذن ..كانت هذه الإمبراطوريات الفارسية تعيش صراعا مزدوجا :

1- مع جيرانها الغربيين : (اليونان أولا .. ثم البيزنطينيين)

2- ومع جيرانها الشرقيين: (القبائل الطورانية الشديدة البأس ، كالهياطلة مثلا، والتي كانت مصدر قلق دائم لأباطرة الفرس ، حتى صبغت تاريخهم وثقافتهم الشعبية قصص نضالهم وكفاحهم ضد الغزاة الطورانيين .. !

والحقيقة التاريخية أن العلاقة بين الفرس والأتراك لم تكن دائما علاقة عداءٍ وحربٍ ومصارعة ، بل كثيرا ما كان هناك معاهدات تعاون بل وعلاقات مصاهرة بين ملوك هؤلاء وأولئك ، فالتاريخ يحدثنا عن تحالف الأتراك (توكيو) مع الساسانيين ضد الهياطلة ؛ الأمر الذي قاد فيما بعد إلى تدمير هؤلاء ،

وزوال ملكهم ؛ ويحدثنا أيضا عن أن الملك الساساني قباذ الأول هو من أم تركية هي ابنة ملك الترك . وكذلك ابنه ووريثه في الملك خسرو-1 أنو شروان من أم تركية أيضا .

و في الخلاصة سنمر بأهم المراحل التاريخية لهذا الإقليم :

1 - ففي القرن الثالث قبل الميلاد تكتسح جيوش الاسكنر المكدوني بلاد إيران وصولا إلى السند وخراسان وحتى بلاد ماوراء النهر وصولا إلى "سمر قند " مدمرا الإمبراطورية الفارسية ،

2 - ولكن بعد موت الاسكندر السريع ، أسرعت الولايات الشرقية من الإمبراطورية الفارسية في الاستقلال ونشأت بذلك مجموعة من الدويلات الفارسية المفككة دعيت باسم – ملوك الطوائف –

3 - وفي هذه الفترة 128ق.م – 450 م أسست في المنطقة الشرقية من إيران قسم من قبائل Yueh – cheh الطورانية دولة قوية سرعان ما اتسعت مشكلة امبرطورية كبيرة (دولة كوشان) التي امتد سلطانها من شمال الهند والسند وأفغانستان وما وراء النهر.

4 - وفي منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، تنشأ امبرطورية ايرانية جديدة في بلاد فارس ، هي الامبرطورية البارثية (من أصول سيثية) ؛التي تستمر حوالي 500عام

5 - وفي عام 224 م أسس (أردشير الأول) إمبراطورية فارسية دعيت الإمبراطورية الساسانية والتي دام عهدها من تاريخ 224-651 م حين دخول الجيوش الإسلامية وتقويض هذه الإمبراطورية إلى الأبد .

وكانت أحوال هذه الامبرطورية خلال عهدها الطويل تمر بين مد وجزر ، بين عدوين رئيسيين _كما قلنا آنفا- :

1- الروم – البيزنطيين - في الغرب .

2- الأتراك في الشرق وبخاصة منهم الهون البيض (الهياطلة Hephtalite) الذين أسسوا امبرطورية تركية قوية جدا تسيطر على أقسام من شمال الهند وأفغانستان وماوراء النهر وقسما من خراسان وبقية تركستان .

يقول د. فروخ ص 22من الجزء الأول من كتاب العرب والاسلام :

"وفي الوقت الذي كان الهون فيه يزرعون الخوف في أوربا مابين جبال الأورال وحتى قلب فرنسا ، كان أقاربهم الهون البيض يقضون على الممالك في آسيا ، فقد دخلوا بخارى عام 45.م ، وقضوا على مملكتها

ثم انحدروا إلى بلاد فارس (الامبرطورية الساسانية) وكانت تحت حكم كسرى أبرويز الأول (457 - 453) فانهزم هزيمة منكرة ، فقتلوه وأسروا أسرته وخربوا بلاده ، وكذلك لم يصمد أخوه باليش (484 – 488) فدخلوا عليه بجيوشهم وخلعوه ثم ولوا مكانـه الملك الفارسي الساساني **قباذ الأول** (488 – 531 م) ووطدوا له ملكه وقضوا على من حاول التمرر عليه من الفرس سنة 499 م ، وأعادوه إلى عرشه ! .. ثم إن الهياطلة الأتراك هاجموا امبرطورية Gupta في الهند حوالي 500 م وقضوا عليها وضموها إلى امبرطوريتهم ".

* ثم تلاه ابنه خسرو الأول - أنو شروان حكم من (531 م – 579) :

وهو من أم تركية تزوجها أبوه في فترة لجوئه إلى الهياطلة الأتراك ، وكانت فترة حكمه فترة ازدهار وعدل وانتصار **للمانوية** (الدين الأخلاقي العظيم) على **المزدكية** (الشيوعية في المال والنساء وكل شيء) ..

وهكذا فإن الفترة بين القرنين 5 و 6 الميلادي كانت بلاد فارس (رغم وجود الملوك الساسانيين على عروشهم) خاضعين في كثير من الأوقات إلى تدخل جيرانهم الشرقيين الأتراك (الهياطلة) .

وفي نهاية القرن السادس م ، تنشأ امبرطورية تركية هائلة هي امبرطورية توكيو -Tu kio,وتصبح أكبر امبرطورية في آسيا ومؤسس هذه الدولة هو الخاقان Bumin الذي مات بعيد تأسيسه للإمبراطورية سنة 552 م ، وكان مقره في منغوليا.

ثم يؤول الحكم فيها - بعد أمد بعيد - إلى الخاقان كابغان Kapghan (692 -716 م) .

د - الحكم العربي والحركات والدول الانفصالية

وإذا علمنا أن العرب حققوا أهم انتصاراتهم في آسيا الوسطى (بلاد ما وراء النهرين) في أثناء ولاية قتيبة بن مسلم على خراسان أي بين عامي (86 - 96 هجرية - 705-715م) فذلك يعني خلال حكم الخاقان التركي كابغان 692-716م والذي تسميه المصادر العربية (كالطبري) كوربغان ويقولون إنه ابن أخت ملك الصين

ولكن بلاد فارس لم يطل عليها أمد الحكم العربي , فلم يمض ثلث القرن الهجري الثاني ، حتى سقطت الدولة الأموية (سنة 132هـ) ، المتعصبة للعرب تعصبا شديدا .

وبقيت الشعوب التي دخلت الإسلام تعامل معاملة المواطنين من الدرجة الثانية بل معاملة العبيد ، وظل المسلمون من غير العرب (الموالي) يدفعون الجزية للدولة الأموية رغم دخولهم الإسلام حتى زوال ملك بني أمية !!

وكان هذا النهج هو السبب الرئيسي الذي عجل بسقوط دولة الأمويين ، و بقيام الثورة العباسية والتي كانت في حقيقتها ثورة الموالي (المسلمين من غير العرب وبخاصة الخراسانيين منهم) ضد الظلم العربي لهم ، فما كان منهم إلا أن تبنوا الدعاة العباسيين الهاشميين لتأمين غطاء شرعي إسلامي لانتفاضتهم ، بقيادة الخراساني الشهير **"أبي مسلم الخراساني "**، والفارسي **" أبي سلمة الخلال"** مع جيوش من أبناء خراسان

ومع ذلك ، فقد غدر العباسيون بمن أوصلهم إلى عروشهم من زعماء الموالي ، فقتل أبوجعفر المنصور أبا مسلم الخراساني , وقاموا بتصفية أبي سلمة الخلال قبله ، وتتالى غدر العباسيين بوزرائهم المقتدرين الأفذاذ ، فيقوم الرشيد بنكبة البرامكة ، وهم من نبلاء الفرس (من مدينة بلخ الأفغانية) ، وكانوا في سالف الأيام سدنة النوبهار (معبد بوذي في بلخ) ، ثم دخلوا الإسلام ، وأبلوا البلاء الحسن ، وكانوا زمن الرشيد وزمن أبيه من قبله رموزا للذكاء والحكمة والعلم والإدارة والكرم والسخاء ، بل كادوا بما تميزوا به من كريم الخصال أن يكسفوا شمس الخليفة ، ولذلك قرر البطش بهم غدرا وغيرة!! .

ثم لايطول عهد بلاد فارس حتى تبدأ بعض الأسر الفارسية بالانفصال ببعض الأقاليم عن الدولة المركزية في بغداد ، فتبرز حركات ودول انفصالية (ارتدادية) , من أهمها :

1 - الدولة الطاهرية :

التي أسسها طاهر بن الحسين بن رزيك الخراساني في خراسان والتي دامت (205- 259هجري) .

2 - الدولة الصفارية : 253 - 298 هجرية - 867 - 910 م

وهي دولة فارسية مؤسسها يعقوب بن الليث الصفار (الصفار الذي يعمل في صناعة الصفر- النحاس) بدأت في إقليم سجستان جنوب شرق إيران ثم توسعت إلى جزء من خراسان ثم احتل فارس كلها تقريبا وحتى الأهواز ، مما جعل الخليفة العباسي يصمم على التحرك ضده وتحالف مع قوة فارسية جديدة كانت قد بدأت تتأسس في بلاد ما وراء النهر وهي الدولة **السامانية** والتي تنسب إلى **سامان خداه** الفارسي النبيل الذي كان دهقانا لمدينة بلخ والذي أسلم ولما ساعد أحفاده الخليفة المأمون عين اثنين منهم ولاة على سمرقند (نوح بن أسد) وعلى فرغانة (أحمد بن أسد بن سامان خداه) .

3 - الدولة السامانية : 204- 395 هـ / 819 - 1005م

توسعت هذه الدولة حتى داخل السهوب التركستانية وأنشأت دولة قوية (مع تبعيةٍ وإخلاصٍ ذاتيٍ للدولة العباسية) قادرة على الاستقلال تماما ، وفي أيامها عادت الثقافة والأدب الفارسيين إلى الانتعاش والازدهار والنمو ، مع رعاية كاملة للعلوم والفنون ، وفي أيامهم وبسبب من نشاطهم واحتكاكهم القوي مع القبائل التركية التي تتاخمهم على الحدود دخلت أعدادا كبيرة جدا من الأتراك في الإسلام طوعا .

ويعتبر القرن الرابع الهجري (خلال دولة السامانيين) هو الفسحة الزمنية الحقيقية التي دخل فيها الأتراك كشعب كامل في الإسلام وأخذ ينتشر في قبائلهم بسرعة هائلة بدءا من أعظم و أكبر قبائلهم

وهي الغز(أو **الأوغوز - التركمان**) وسيكون لهذا الحدث أثر كبير جدا في تطور التاريخ من بعد ذلك ، فمن هؤلاء الغز ظهرت ثلاثة من أكبر الإمبراطوريات الإسلامية في التاريخ :

أولها : **دولة السلاجقة** ؛ وتلتها ..
دولتان متعاصرتان هما :
دولة الصفويين التي حكمت إيران مدة 3 قرون .
والدولة العثمانية والتي دامت ستة قرون من الزمان (1280- 1924م)

4 - الدولة البويهية : 323 - 447هجرية - 934 -1055م

دولة فارسية شيعية على المذهب الزيدي أسسها بنو بويه (الديلمي الفارسي) الثلاثة (علي – والحسن – وأحمد) وكانوا في خدمة مرداويج بن زيار مؤسس الدولة الزيارية في طبرستان والديلم ، وشيئا فشيئا يستولي هؤلاء على فارس كلها ، وتقع حتى بغداد وخليفتها تحت حكم معز الدولة الشيعي الذي اضطهده واضطهد الخلفاء العباسيين من بعده .

* راجع د. سهيل زكار في " كتاب الدولة العربية في العصر العباسي الثاني ص3 ."

5 - الدولة الغزنوية : 366 - 582 هـ أي دامت 216 عاما :

قلنا إن السامانيين - بشكل خاص - اعتمدوا على الأتراك في تكوين جيوشهم اعتمادا مطلقا ، وهذا ما مهد السبيل لأحد القادة الأتراك و اسمه **سبكتكين** (حكم 366-387م) ، فأسس دولة مستقلة عن السامانيين في أفغانستان ،عاصمتها غزنة ، وقام بالتوسع في خراسان وفارس والهند الشمالية .

ثم خلفه ابنه البطل التركي الشهير فاتح الهند **محمود الغزنوي** (421-387 م) الذي توسعت الدولة على أيامه ، وهو أشهر ملوك هذه الدولة ، وأبعدهم صيتا لمده رقعة الدولة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، ولنهضته الهامة بالعلوم والآداب في عصره.

وبسبب خطأ فادح ارتكبه الأمير الساماني (منصور بن نوح الثاني) في حقه ، حين غدر به في أثناء غيبته عن إمارته في خراسان (وكان أميرا للسامانيين عليها) فعين – منتهزا فرصة غيابه عن خراسان في حروبه مع أخيه في أفغانستان - أحد أتباعه بديلا عنه .. فغضب لذلك محمود أشد الغضب ، ورجع بجيشه فقوض ملك السامانيين الذين غدروا به ، وامتلك بلادهم وضمها إلى ملكه .

وهو أول من تلقب بالسلطان في الإسلام ، واتسع سلطانه حتى شمل خوارزم والكرج (جورجيا) وما وراء النهر وإيران الوسطى والشرقية غير مبق للبويهيين سوى كرمان وفارس .

**يقول د. شوقي ضيف في كتاب تاريخ الأدب العربي \ ج 5 \ :

"ويشتهر محمود بكثرة فتوحه وغزوه في الهند وتمكينه للدين الحنيف في دياره . وهو يعد فاتحها الحقيقي ، أما فتح محمد ابن القاسم الثقفي لها في عهد الوليد بن عبد الملك ، فكان غزوا عابرا أكثر منه فتحا حقيقيا ؛

ومما فتحه في الهند الملتان وكشمير والبنجاب ، وكان يبتغي بفتوحاته هناك نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله عز وجل لا طلبا للمغانم ، كما يزعم بعض المستشرقين ،

واستغل هذه الفتوح الطائلة في عمارة (غزنة) ومدن سلطنته وبناء المساجد الفخمة وفي إحداث نهضة علمية وأدبية كبيرة ، وفيه يقول الشاعر الفارسي الفردوسي مصورا استئثاره بقلوب شعبه وعظمة شأنه وملكه :

((عندما يفطم الصبي ، ويتوقف جريان لبن أمه على شفتيه ، يكون أول ماينطق به ويجري على شفتيه هو لفظ محمود !..

إنه كالفيل بجسده ، ومثل جبريل بروحه

وأما كفه فمزن هاطل ، وأما قلبه فنهر النيل في جريانه

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

، إنه السلطان الملك الكبير الشأن ، الذي جعل الشاة تنهل مع الذئب من حوض واحد في أمان " ا.هـ .

ويخلفه ابنه مسعود (421 - 432هجرية) ويتوسع في فارس محتلا جرجان وطبرستان ، ويقضي فيها على الدولة الزيارية الفارسية .

وفي عهده يبدأ المد السلجوقي حاملا معه التركمان (الغز) من بلاد ما وراء النهر .. وبمصادمات مع متتابعة هؤلاء يكون النصر فيها جميعا للسلاجقة ، فتسقط إيران بيد السلاجقة بقيادة طغرل بك وتتقلص الدولة الغزنوية حتى تقتصر تقريبا على غزنة وشمالي الهند وباكستان لتسقط فيما بعد على يد أتراك آخرين هم الغوريون

6 - دولة طبرستان 255- 355هجرية 868 - 965 م

قامت في طبرستان جنوب بحر قزوين وقد بدأت على شكل ثورة انفصالية ضد العباسيين ، وكان الشعب الطبري الفارسي ينتظر فقط وضع إمام تجتمع عليه الكلمة ، فاستدعوا الإمام الزيدي (**الحسن بن زيد العلوي**) وجعلوه إمامهم وأعلنوا دولة طبرستان ..

على كل حال.. ما قصدناه في ذكر تلك الدول الانفصالية في إقليم إيران ، هو التأكيد على الأمور التالية :

1 - أن الحكم العربي المباشر للإقليم الإيراني انتهى عمليا بسقوط الدولة الأموية كما رأينا.

2 - إن جميع الدول التي ذكرناها أعلاه والتي حكمت أقاليم من إيران كانت تعتمد في تأسيس جيوشها جنودا وضباطا وقادة عسكريين على المماليك الأتراك ، هذه الظاهرة التي كانت قد تفشت في جميع أقاليم العالم الإسلامي منذ بدايات العصر العباسي

3 - جميع هذه الدول التي حكمت إيران كانت فارسية الجنسية ، مسلمة الدين ، تركية الجيش .

4 - الدولة العباسية كانت منذ نشأتها عربية هاشمية (من حيث اسم الخلفاء وجنسيتهم) ، أما من حيث الإدارة المدنية (الوزارات والدواوين ومراكز الثقافة والعلم) فقد أصبحت فارسية وخراسانية أولا ، ثم تركية خالصة في كل شيء تقريبا منذ عهد المعتصم وما بعده .

5 - كانت تلك الدويلات متعاصرة تقريبا ، تحكم أجزاء من إقليم إيران في وقت واحد أو بعهود زمنية متداخلة بعض الشيء ، ولذلك تسمى الدول المتقابلة .

3 - إيران تحت حكم الإمبراطوريات التركية المتعاقبة عليها :

آ - السلاجقة :

وهم طائفة من قبائل الترك (الأوغوز) والتي تسميها العرب في مصادرهم الغز تخفيفا للفظ . بدأ استيلاءهم على خراسان وطرد الغزنويين منها إلى أفغانستان عام هـ429 على يد **طغرل بك** ثم تابع في الاستيلاء على الأقاليم الإيرانية تباعا .. فاعترف به الخليفة العباسي القائم بأمر الله وبدولته السنية الناشئة وأمر الخليفة بأن يذكر اسمه في الخطبة ، وأن يضرب اسمه على النقود ..ثم استنجد به الخليفة ليخلصه من تحكم البويهيين الفرس فيه وإذلالهم له (لأنهم كانوا شيعة إثناعشرية) . ويلبي السلاجقة نداء الخليفة ، فأنجدوه بقيادة طغرل بك نفسه الذي دخل بغداد سنة 477 هجرية في موكب رسمي ، وأجلسه الخليفة معه على العرش ، وخلع عليه الخلع السنـية ، وكان يقوم بالترجمة بينهما الوزير السلجوقي الأديب والشاعر المتكلم **محمد بن منصور الكندري** . واتخذ طغرل بك مدينة الري حاضرة له ، وولى على البلدان إخوته

وأبناءه ، ودانت له العراق كما دانت له إيران كلها وكذلك بلاد ماوراء النهر ، وتوفي في مدينة الري 455 هجرية. بقي أن نذكر أن طغرل كان شجاعا مقداما حريصا على واجباته الدينية .

** وخلفه ابن أخيه البطل التركي المغوار : ألب أرسلان (455 - 465)هـ :
حيث بدأ بالقضاء على كل من ثاروا ضده في الأقاليم (هراة - وماوراء النهر -وفارس وكرمان) وكسر شوكة الفاطميين مستوليا منهم على حلب ودمشق ومكة المكرمة والمدينة المنورة .
" وأعد له الروم جيشا كثيفا قوامه 200,000 جندي يتقدمهم الإمبراطور البيزنطي **رومانوس ديوجينوس** , فأسرع إليهم ألب أرسلان بن جغري بك في 15000مقاتل من صفوة جنوده الأتراك ، والتقى بهم في القرب من مدينة خلاط في موقع أصبح علما في التاريخ اسمه منازكرد (ملاذ كرد) فعصفت جنوده بهذا الجيش الضخم منزلة به هزيمة ساحقة , واستسلم على إثرها الإمبراطور خاسئا ذليلا ، وأخذ أسيرا (وكانت هذه أول مرة.. إمبراطور بيزنطي يقع أسيرا في يد المسلمين !!) .ثم عفا عنه وحرره مقابل فدية كبيرة، وعقد معه معاهدة سلام لمدة 50عاما ؛ يتعهد فيها الإمبراطور أن يسرح جميع أسرى المسلمين ، وأن تكون جيوشه على استعداد دائم لمعونة ألب أرسلان.
وبلغت الدولة السلجوقية شأوا عظيما في عهده ، إذ امتدت من حدود الصين شرقا وحتى بلاد الشام غربا وكان خير معين له في إدارة المملكة الوزير الخراساني الشهير(**نظام الملك**) الذي كان من أعظم رجالات الإدارة السياسية ، وكان عدوا للرافضة والإسماعيلية ، واشتهر بتأسيسه للمدارس النظامية (الجامعات والمعاهد العليا) في بغداد وأصفهان ومرو ونيسابور وبلخ وهراة وطبرستان وعمل على تشجيع الأدباء والشعراء .

** وخلفه ابنه (ملك شاه) (465 - 485 هـ) وعمره 18 سنة .
فساعده الوزير نظام الملك في إدارة الإمبراطورية خير مساعدة ،
وفي سنة 467 هـ أمر ملك شاه بإنشاء المرصد الفلكي العظيم ، ووضع فيه العالم الفلكي الخراساني **عمر الخيام** - ومعه جماعة من العلماء - التقويم الفلكي الذي عرف باسم (التقويم الجلالي) .
وبلغت الدولة السلجوقية أيامه إلى ذروة مجدها ، اتساعا وقوة ومجدا وازدهارا في جميع الأصعدة ، وبلغ من خوف الامبرطور البيزنطي منه أن أرسل إليه ، وهو في مدينة كاشغر(مدينة على حدود الصين) الجزية المفروضة على بلاده !! .
ثم تغتال الحركة الإسماعيلية الباطنية (المعروفة بالحشاشين) الوزير العظيم لملك شاه سنة 485 ويصادف أن يموت ملك شاه بعده بشهر واحد فقط .
** ثم يخلفه ابنه (بركياروق) 485 - 498هجرية؛ ثم أخوه محمد 498 - 511 الذي تابع ملاحقة الإسماعيلية ودمر حصونهم ثم خلفه ابنه محمود 511 -525 وكان أحمق ؛ فدخل في صراعات مع عمه البطل سنقر (سنجر) أمير خراسان المغوار ، فدارت عليه الدوائر ولكن عمه عفا عنه وولاه العراق .
وامتد حكم سنجر أربعين عاما من 513- 551 هـ؛ واستقل عنه في سنة 535 هجرية القائد التركي (أتسيز) مؤسسا دولة خوارزم شاه ،
وحاربه أيضا بعض قبائل الغز فأسروه سنة 548هـ ثم هرب من سجنه ليموت بعيد ذلك سنة 551هجرية؛
وبسرعة كبيرة تنهار الدولة السلجوقية بعد ذلك متجزئة إلى دويلات متعددة وورث الحكم فيها ضباط أتراك أيضا ، كانوا أتابكة عند السلاجقة (أي أوصياء ومربين للأمراء) ' وكلمة (أتابك) كلمة تركية مؤلفة من مقطعين : أتا أي الأب (أو من في مكانته كالعم) وبك : الأمير ؛ وبذلك فالكلمة تعني عم الأمير أو وليه .

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

ب ـ الـدولة المغوليـة :

مادمنا نبحث في تاريخ إيران .. فسوف نختصر ونذكر:

بأن الجيوش المغولية على عهد جنكيزخان كانت قد اجتاحت بلاد المسلمين من حدود الصين وحتى خراسان وأذربيجان والري وهمذان.

وهكذا فقد خضعت إيران للحكم المغولي المباشر منذ سنة 617 هـ وحتى 625هجرية حين توفي جنكيزخان في أثناء فتوحاته في الصين ؛ ثم انتخب ابنه أوكتاي (625 - 639) وجعل عاصمته قراقورم في منغوليا وظلت الامبراطورية المغولية تحكم حكما مركزيا في أيامه كما كانت على عهد أبيه ثم خلفه ابنه كيوك ـ انتخابا ـ وحكم من سنة (639 - 646 هـ) ، ثم يجتمع مجلس الشورى المغولي (قوريلياتاي) فينتخب ابن عمه منكو خان 649هـ , فتابع فتوحاته في بلاد المسلمين محتلا العراق ، وداخلا بغداد 656 هـ متابعا إلى بلاد الشام حتى دمشق

*** على أن أهم ما في هذه الفتوحات المغولية في إيران أمرين اثنين :

1- القضاء على حركة الاسماعيليين الباطنية في شمال إيران التي كان معقلها قلعة ألموت (ألموت الشهيرة) التي كانت تنشر الذعر والخوف في صفوف المسلمين الآمنين بسبب انتهاجها أسلوب الاغتيالات الرهيب وبتدبير المؤامرات المخيفة !!. والتي كان أحد ضحاياها الوزير السلجوقي- نظام الملك – الأديب والعالم ، لأنه كان نصيرا للسنة يحاول نشرها في إيران باستخدام المدارس النظامية (الجامعات).

2- بعد وفاة منكو أخي هولاكو ، انقسمت الإمبراطورية المغولية الأكبر في التاريخ إلى إمبراطوريات تحكم من قبل أحفاد جنكيز مع التبعية الاسمية للخان الأعظم في العاصمة المغولية العظمى (قراقورم)؛ ثم في بكين -خان باليك ؛

وكانت حصة هولاكو خان وأولاده من بعده في إيران وخراسان ، وسميت الدولة الإيلخانية نسبة إلى الكلمة التركية المغولية إيل خان ـ تابع الخان .

1 ـ الدولة الأيلخانية :

وهي الدولة التي أسسها هولاكو خان 664هـ ولقب نفسه ـ إيل خان – ثم ورثها ابنه (أبغا) 666-68.هجرية ؛ وقد أعاد محاولة الاستيلاء على بلاد الشام ومصر ، ولكنه باء بالفشل أمام تصدي الدولة المملوكية البحرية التركية لهم.

ومنذ ذلك الوقت أخذت العلاقات والصلات التي تربط الأيلخانيين (في إيران) ، أباطرة المغول في قراقورم تنفصل ،

وبموت أباقا (أبغا) ينتهي العهد (غير المسلم للمغول في إيران)،

إذ يعتنق أخوه (بوكدار) الذي خلفه على العرش الاسلام ، ولم يمض سوى عام واحد ، إذ تغتاله أيد آثمة ..

ويتولى بعده أخوه (أرغون 681-692) وفي عهده حظي النصارى النسطوريون بعطف واسع ،

ثم يؤول الحكم إلى (غازان ـ قازان 693 -703 هـ) وهو من أشهر الملوك الأيلخانيين في إيران ؛ وهو الذي أتاح لدولة الايلخانيين في إيران والعراق عهدا ذهبيا عظيما ، إذ اعتنق الإسلام ونشره بين قومه المغول نشرا واسعا ، وجعل تبريز عاصمة له ، فأصبحت بعنايته من أجمل المدن الإسلامية وقد بنى فيها رباطا وبيمارستانا ومدارس دينيةٍ، ومرصدا عظيما ، ومكتبة فخمة ، وأنشأ لأصحاب العلوم والفنون ضاحية مؤلفة من 30000 بيت لعلماء الدين والفقهاء والمحدثين والأساتذة والطلاب ،

** وخلفه أخوه (خدا بندا) 703- 716 هـ :

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

فاهتم أيضا بنهضة العلوم والفنون واتـخذ لنفسه عاصمة جديدة بناها بالقرب من قزوين وسماها (السلطانية) واحتفل في بنائها احتفالا واسعا ؛

وبموته يخلفه ابنه (بوسعيد 716 - 736) وعمره يومئذ 12 سنة ، فلم يستطع ضبط البلاد ، وأخذ أبناء عمومته يتناحرون على الولايات والبلدان ، فتجزأ الحكم المغولي في إيران إلى دويلات ..

وتظل البلاد في فوضى الصراعات نحو نصف قرن من الزمان حتى يظهر البطل التركي الفاتح تيمورلنك .

2 - الـدولـة التـيمورية :

مؤسس هذه الدولة تيمورلنك ، وهو أمير قـبلي من قبيلة (برلاس) المغولية - التركية ، وكان أبوه واليا على كش قريبا من سمرقند ونواحيها ..

واستطاع تيمورلنك بذكائه وشجاعته أن يجمع زمام الأمور والسلطة في ما وراء النهر بيده ، ويوحد القوى هناك تحت سيطرته ،

ثم خرج غازيا فاتحا كالسيل الجارف لا يعترضه شيء إلا اجتاحه ودمره ،

فمد سلطانه إلى خراسان سنة 782هـ ولا تأتي سنة 788 هـ حتى كان قد احتل إيران بكاملها ،

ثم يخوض حرب السنوات الخمس 795 - 800 هجرية ؛ فاجتاح أقاليم الخزر وآسيا الصغرى وتكريت ؛ وحاصر بغداد سنة 795هـ.

وفي عام 804 هـ يهزم العثمانيين في معركة طاحنة قرب أنقرة كادت تقضي على الدولة العثمانية الفتية ، ولكن تيمور لنك لايتابع ، فيرجع إلى سمرقند 807 هـ ليعد حملة كبيرة على الصين ، وتسير الحملة بقيادته إلى الصين ، ولكن الموت كان أسبق إليه فمات في (أوترار) في طريقه إلى الصين عن عمر يناهز 71 سنة ، بعد أن حكم امبرطورية ضخمة واسعة مدة 36عاما؛ وملأ عاصمته سمر قند بالعمائر الفخمة .. وضريحه هناك يعد آية من آيات العمارة والفن الرائعة .

** ثم يخلفه ابناه : شاه روخ و ميران شاه ،

وكانت إيران من نصيب **شاه روخ** مع القسم الشرقي للإمبراطورية ؛ الذي جعل عاصمته (هراة) بأفغانستان حتى وفاته 851 هـ

يخلفه ابنه السلطان العالم الفلكي الرياضي (أولغ بك) 851 - 753 هـ وكان راعيا للفنون والأدب الفارسي والعلوم.

ثم يخلفه ابنه (بوسعيد) 854 - 874 هجرية؛ وكان حكمه وطيدا في دياره حتى حدود الهند .

وأعقبه حسين بايقرا 874 - 902 هـ وكان أيضا حفيا بالعلم والعلماء والأدباء والفنون ، وأصبحت سمر قند في أيامه من أعظم مراكز الثقافة الإسلامية.

** ثم لايلبث **شيباني خان** قائد الأوزبك التركماني فيجتاح التيموريين في الشرق ،

** وفي الوقت نفسه يظهر من التركمان (قبيلة الشاة السوداء) التركمانية بقيادة قرا يوسف والذي يستولي على العراق 813هجرية وأذربيجان وغربي إيران ويمتد حكمهم فيها حتى ..

ج - الدولة الصفوية وظهور اسماعيل الصفوي التركماني

907 - 930 هجرية (1501 - 1722 م) - حوالي 221 سنة **:**

الذي استولى على إيران جميعها ؛ وأسس فيها دولته الجديدة وهي الدولة الصفوية ، فجعل دولته التي (امتدت من هراة شرقا وحتى العراق غربا) دولة إيرانية قومية شيعية ، علما بأنه تركي (تركماني) هو وأسرته ومعه القبائل التركمانية التي كانت أساس جيشه القوي ، ورغم أنهم كانوا في بلاطهم لايعرفون غير التركية لسانا ، وكانوا أتراكا في عاداتهم وتقاليدهم ..!!

ولكنهم جلبا لمحبة الشعب الفارسي لحكمهم ، وسعيا لترسيخ ملكهم تبنوا العادات الإيرانية ؛ وقدموا لها الرعاية الكاملة والتشجيع العظيم ، فازدهرت في أيامهم الفنون والآداب الفارسية أيما ازدهار ..

ولنفس السبب ، فقد انتحلوا المذهب الشيعي (الإثني عشري) مذهبا لهم ، وادعوا نسبا علويا مع أنهم في الأصل تركمان ، من المذهب السني الصوفي ، وهم أحفاد **صفي الدين الأردبيلي** الصوفي السني الشهير !!

**وفي هذا تقول الموسوعة البريطانية :

ماترجمته :..Britanica En. 2. ((وإن ما زعمه مؤرخو البلاط الصفوي من أن صفي الدين الأردبيلي كان شيعيا و أنه من سلالة علي .. كذب وتضليل ، لأن صفي الدين نفسه كان تركمانيا سنيا من المذهب الشافعي)).

إذن مؤسس هذه الدولة كما قلنا هو **إسماعيل الصفوي** الذي استولى بعد جهود وكفاح على أقاليم إيران إثر هزيمته لجيش " إمارة الحمل الأبيض - آق قوينلو " السنية التركمانية أيضا .

ودخل تبريزسنة 1501م وأعلن نفسه الشاه إسماعيل الأول ، وأعلن إيران كدولة قومية مستقلة ، و جعل المذهب الرسمي للدولة هو المذهب الشيعي ، وأخذ يعمل على نشره بشدة وحماسة وعنف أيضا مضطهدا رعاياه من السنة .. مما باعد بينه وبين العثمانيين أيضا ؛ ولكن ذلك النهج أعطى لبلاده نوعا من الهوية الدينية والسياسية كانت تفتقد إليها من قبل ، ولازمتها منذ ذلك الحين .

وخلال عشر سنوات من بعد دخوله تبريز ، أسس دولة عظيمة تمتد من هراة شرقا وحتى بغداد غربا ، وخضع معظم العراق له وكذلك جزءا من الأناضول ، حتى أزالها عنهما فيما بعد العثمانيون الأتراك .

**يقول بيرتولد شبولر :

((وهكذا انتهت سلطة ممثلي الحكم المغولي على أراضي إيران ، إذ أن أسرة تيمور لايمكن أن ندعوها مغولية ، فحكمه وحكم أبنائه يمثل الخصائص والمظاهر التركية ، وإن انتصار الأسرة الصفوية عام 1502م لم يغير شيئا من طبيعة الأمور ، فقد كان هؤلاء أيضا من أصل تركي ، وظلت لغتهم مدة قرن من الزمن في بلاطهم في قزوين أولا ثم في أصفهان العاصمة الفارسية الجديدة هي اللغة التركية ، وهكذا قد أجبرتهم العوامل الجغرافية ومصالح شعبهم الفارسي – كما أجبرت الإلخانات من قبلهم - أن يهتموا بالمصالح الوطنية لبلاد العجم .. وهكذا فقد تم على أيديهم توحيد إيران والأراضي الفارسية تحت حكومة ذات قاعدة وطنية مما سبب فتح الطريق نحو انبعاث قومي فارسي !)).

وكان آخر ملوكهم" السلطان **حسين شاه** " الذي كان سيئ المعاملة للسنة ، وانجرف في محاولته الضغط على من تحت حكمه من بلاد الأفغان (السنة) لتحويلهم قسرا إلى شيعة ؛ وهذا ما فجر ضده الأفغان فزحفوا إليه بجيش بقيادة **"مير محمود** " الأفغاني السني ، وأعدموه ..وبذلك وضعوا نهاية للحكم الصفوي ...سنة 1722م .

** ولكن لم تلبث الأمور إلى أن آلت إلى (**نادر قولي** - كولي) الأفشاري الذي عرف بعد تتويجه بـ **نادر شاه**.

* (الأفشار قبيلة من القبائل التركمانية الموجودة في إيران).

د - الأفشاريون التركمان يحكمون إيرا ن :

كان نادرشاه (1747-1688م) في أول أمره قائدا عسكريا عند الصفويين وقد حمل على عاتقه تحرير إيران الشرقية من حكم الأفغان الذين اجتاحوا إيران سنة 1720م

وفي خلال الأحداث يقتل الشاه الصفوي الأخير .. فيتحول الحكم إلى القائد العسكري الأبرز في جيش الصفويين البطل نادر كولي ..

وفي عهده الذي يمتد من 1736-1747م تستعيد إيران - بجيشها التركماني - هيبتها كدولة عظيمة ، بل لقد امتدت رقعتها شرقا فضمت إليها بلاد الأفغان كلها ، مع السند (باكستان) متوغلة أيضا في شمال الهند بمساعدةٍ و تبعيةٍ مخلصةٍ من القسم التركي من قبائل الباشتون وهي قبيلة عبدالي *

* قبيلة عبدالي : (وهي أكبر القبائل الباشتونية) ترجع في أصلها القديم إلى قبائل الهفتاليت (الهياطلة) الأتراك التي سكنت في أو اسط آسيا في أفغانستان مؤسسة إمبراطورية قوية كما ذكرنا سابقا ..

* وفي عام1747 م يتم اغتيال نادرشاه فيخلفه في بلاد الأفغان ، القائد العسكري الفذ **أحمد شاه دراني** (زعيم من زعماء قبيلة عبدالي) الذي أعطى اسمه لهذه القبيلة فهي تعرف اليوم (بالدرانية - العبدالي).

هـ - سلالة القاجار Qajars الأتراك 1794- 1925م :

وأما إيران نفسها فيحكم قسما منها (آل زند) لفترة وجيزة؛

ثم يؤول الحكم إلى القاجاريين (التركمان أيضا) الذين حكموا إيران ابتداء من1794 م حين أزاح **محمد آغا خان** منافسيه واستطاع أن يبسط سلطته على إيران كلها ، مؤسسا دولة جديدة تحت سلالته عاصمتها طهران في موضع قرب المدينة المخربة (الري) ثم ورث الحكم ابن أخيه:

فاث علي شاه (1797- 1834م) :

وفي عهده دخلت إيران حربا مع روسيا القيصرية التي كانت تتوسع قادمة من الشمال القوقازي نحو أذربيجان ذات الأهمية التاريخية للقاجاريين ،

وقد كانت إيران (بمعناها الواسع جدا) تفقد أراضيها تباعا إثر هزائمها مع الروس ،

ففي معاهدة Gulistan في 1813م تنازلت إيران مرغمة عن جورجيا وكثير من شمالي القوقاز في الحرب الأولى ..

ثم وبعد الحرب الثانية عام 1820م أجبرت على توقيع معاهدة توركمانتشي التي تعترف فيها إيران لروسيا على جميع الأقاليم في شمال نهر آراس Aras (إقليم يشمل أرمينيا وأذربيجان)

في عهد محمد شاه (1834- 1848 م) بدأت روسيا تمارس دورا سياسيا في التدخل بشؤون إيران ، وكذلك بريطانيا لحماية مستعمراتها في الهند..

ثم خلفه ناصرالدين شاه (1848-1896 م)

تلاه في الحكم ابنه مظفر الدين شاه 1896- 1906 م حيث تتعرض إيران خلال هذه المدة إلى الضغوط الشديدة والأطماع الاستعمارية المتزايدة من روسيا..

**واعتبارا من 1900م بدأ الشعب يطالب بوجود حياة دستورية تضبط وتحد من سلطة الملك ، وقد نجح في إيجاد برلمان سنة 1905 م ، ووضع دستور للبلاد.

** خلال الحرب العالمية الأولى 1914- 1918م استغلت الأراضي الإيرانية من قبل الجيوش البريطانية والروسية في فتح جبهة شرقية ضد العثمانيين رغما عن حكومة إيران آنذاك. وقد مهدت هذه الأحداث لزيادة التدخل البريطاني...

** مما مهد للقوميين الإيرانيين ومن بينهم الضابط الإيراني **رضا خان بهلوي** ليقوم بانقلابٍ عسكريٍ سنة 1921 م.؛ وبذلك صار الجو مهيئا ليخلع آخر الملوك الأتراك في إيران **(الشاه أحمد)** سنة1925م ، وينصب نفسه ملكا على إيران باسم رضا شاه بهلوي ،

** وبهذا التاريخ يرجع الحكم في إيران إلى الفرس ، بعد أن حكمهم الأتراك أكثر من ألف سنة متصلة غير متقطعة !!

** ويشهد التاريخ بأن العهود التركية قد كانت - في إيران - عموما عهود رخاءٍ وازدهار، وتشجيعٍ للآداب والفنون والثقافة الفارسية .

فالأتراك لم يكونوا ليطمسوا حضارات الشعوب الخاضعة لهم ، بل على العكس من ذلك إذ عرف عنهم دائما أنهم كانوا يفرطون في الرعاية والتطوير والتفعيل لحضارات الشعوب المغلوبة (وقد مرت معنا أمثلة على ذلك كثيرة جدا)

الدولة السلجوقية (1037 – 1194)

العلم

الدولة السلجوقية في أقصى اتساعها عام 1092
بعد وفاة السلطان جلال الدولة ملك شاه

تقديم :

السلاجقة أو **بنو سلجوق** هي سلالة تركية حكمت في أفغانستان وإيران وأجزاء من الأناضول وسورية والعراق والجزيرة العربية ما بين 1038-1157م (ثم حتى 1194 م) المقر : مرو ثم اصفهان .

ينتمي السلاجقة إلى قبيلة "قنق" إحدى العشائر المتزعمة لقبائل الغز التركية . دخلت هذه العشيرة في الإسلام أثناء عهد زعيمها سلجوق سنة 960 م. دخلوا بعدها في خدمة القراخانات (قره خانات) في بلاد ما وراء النهر.

وقام أحفاد سلجوق ، طغرل بك (1038-1063 م) وجغري (1038-1060 م) بتقسيم المملكة إلى نصفين : النصف الغربي وقاعدته اصفهان ، النصف الشرقي وقاعدته مرو. بعد انتصاره على الغزنويين سنة 1040 م بالقرب من دنكان توسعت مملكة طغرل بك إلى الغرب أكثر. ثم ضمت فارس إليها سنة 1042 م بعض الأجزاء من الأناضول، ثم العراق أخيرا سنة 1055 م، بعد القضاء على دولة البويهيين في العراق دخل طغرل بك بغداد في 25 رمضان 447هـ / 23 ديسمبر 1055 م.

أطلق المؤرخون على الفترة التي دخل فيها السلاجقة العراق اسم عصر نفوذ السلاجقة ، حيث كانت بيدهم مقاليد الأمور ولم يبق للخليفة العباسي سوى بعض المظاهر والرسوم. وأعلن طغرل بك نفسه كحام للخلافة العباسية وخلع عليه الخليفة لقب السلطان وشب صراع على الحكم بعد وفاة طغرل بك ولكن لم تلبث الأمور أن هدأت بعد قيام ألب أرسلان بتولي الحكم والقضاء على الثورات. ثم بلغت الدولة أوجها في عهد السلطان ألب أرسلان (1060/1072-63 م) ثم ملك شاه (1072-1092 م) من بعده، كما قام وزيره نظام الملك (1060/1092-65 م)، بإنشاء العديد من المدارس لتثبيت مذهب أهل السنة في المنطقة. واستولى السلاجقة على أرمينيا سنة 1064 م، ثم بسطوا سيطرتهم على الحجاز والأماكن المقدسة منذ 1070م لفترة قصيرة . كما حققوا انتصارا حاسما على البيزنطيين في ملاذ كرد سنة 1071م.

في سنة 1092 م وبسبب كثرة المتسابقين على عرش السلطنة بين أفراد العائلة، أصبحت المملكة السلجوقية ممالك عدة. وتمكن محمود (1105-1118 م) بتوحيدها من جديد إلا أن أمر التقسيم كان محتوما. فقامت مملكة سلجوقية في العراق وإيران ودامت إلى حدود سنة 1194 م. وأخرى في الشرق أقامها السلطان أحمد سنجر (1118-1157 م) والتي لم تعمر طويلا بعده. وكان على خلفائه ومنذ 1135 م الصراع مع جيرانهم. قضى عليهم شاهات خوارزم (خوارزمشاهات) أخيرا سنة 1194 م. فقامت ممالك أخرى للسلاجقة:

- في كرمان (1041-1187 م) ؛ المقر: بردشير، راجع سلاجقة كرمان
- في الشام (1094-1117 م)؛ المقر دمشق ثم حلب ، راجع سلاجقة الشام

- في الأناضول (1308-1077 م)؛ المقر إزنيق (نيقية) ثم قونية، راجع سلاجقة الروم

دولت سلجوقيان (الدولة السلجوقية)
العاصمة : نيسابور - الري - أصفهان
اللغة : اللغة الرسمية الفارسية (لغة البلاط الرسمية) ، العربية (لغة العلم والثقافة والدين) ، التركية الأغوزية (لغة الشعب والجيش)
الدين : الإسلام (أغلبية سنية وأقلية شيعية)
الحكومة : ملكية مطلقة
السلطان طغرل بك (المنشئ) 1063- 1037
أحمد سنجر (آخر ملوك الدولة الموحدة) 1153 - 1118
أحداث تاريخية
- طغرل بك ينشئ الدولة 1037
- قيام الدولة الخوارزمية على أنقاض الدولة السلجوقية 1194 - 1037
- الزوال 1194

السابق	*اللاحق*
الدولة الغزنوية	الدولة الخوارزمية
	سلاجقة الروم
	الدولة الأيوبية
	أتابكة أذربيجان
	بوريون
	زنكيون
	دانشمنديون
	أرتقيون
	سلتغلو

التاريخ الحربي :

التأسيس :

يعود أصل الأتراك إلى قبيلة " قنق " ، وهي إحدى قبائل الغز الثلاثة والعشرين الذين يشكلون فرعا من الأتراك . بدأت هذه القبائل منذ النصف الثاني من القرن السادس الميلادي سلسلة من الهجرات الكبيرة إلى أرض الأناضول لأسباب متعددة، ربما تكون قلة الغذاء والأراضي بشكل رئيسي. لكن أثناء الهجرة استقرت القبيلة لفترة من الزمن في جرجان وطبرستان وعمل أفرادها هناك في خدمة ملك تركي يدعى "بيغو"، وكان منهم سلجوق بن دقاق الذي كان من كبارهم وحصل على رتبة "سباشي" أو "قائد الجيش" عند الملك التركي. لكن بسبب قوة سلجوق وتبعية أفراد القبيلة الكبيرة له وطاعتهم لأوامره، فقد بدأ بيغو يقلق حول سيطرته على الجيش التركي وخشي من سلجوق، حتى أنه بدأ يدبر لقتله. وعندما علم سلجوق بالأمر جمع قبيلته ورحل إلى مدينة خجندة قرب نهر سيحون في حيث كان الحكم الإسلامي سائدا في المنطقة، وهناك أعلن إسلامه وأخذ يحارب الأتراك الوثنيين في منطقة تركستان.

خريطة تقريبية لمدن وسط آسيا وحدود الدولة السلجوقية والدول المجاورة لها في عام 432 هـ عندما اعترف الخليفة العباسي لأول مرة بالدول السلجوقية.

بحلول القرن الخامس الهجري كانت قوة السلاجقة قد تعالت وأصبحوا دولة قوية، مما بدأ يثير قلق السلطان محمود الغزنوي حاكم الدولة الغزنوية في بلاد الهند وفارس. وبسبب هذا قام محمود بشن حملة على السلاجقة عام 415 هـ، انتهت بالقبض على سلطانهم أرسلان بيغو وعدد كبير من أتباعه، وأرسل أرسلان إلى سجن قضى فيه أربع سنوات ثم مات. لكن في عام 419 هـ ثار السلاجقة وخرجوا عن سيطرة محمود، فأرسل إليهم بعض الجنود لكنهم هزموا وتابع السلاجقة سيرهم عبر بلاد ما وراء النهر، فدمروا ونهبوا العديد من المدن، فأرسل إليهم محمود الغزنوي أمير طوس الذي استمر بملاحقتهم سنتين في تلك البلاد. لكن في عام 421 هـ توفي محمود دون أن يقضي على السلاجقة، فسار ابنه مسعود بن محمود إليهم حيث طلبوا الصلح، وبهذا توقف النزاع بين الطرفين لفترة قصير. وما إن سار مسعود إلى الهند لقمع تمرد آخر ثار السلاجقة مجددا، فأرسل إليهم جيشا التقوا معه في نيسابور وهزمهم، ولذا فقد انسحبوا إلى الري فنشبت بينهم وبين مسعود آخر معركة واستطاع أن يهزمهم ويخضعهم.

كل الحروب المذكورة سابقا قادها أتباع أرسلان بيغو الذي قبض عليه محمود الغزنوي على أيامه، لكنهم هزموا بعد حربهم مع مسعود، في حين أتى مكانهم طغرل بك بن ميكائيل - ابن أخي أرسلان - الذي قاد حروب السلاجقة بعد ذلك وقام بتأسيس الدولة السلجوقية. لكن في هذا الوقت وبعد هزيمة أتباع أرسلان كان يريد " **علي تكين** " أن يصبح هو قائد السلاجقة، فاستدعى "يوسف بن موسى بن سلجوق" (ابن عم طغرل) وأكرمه كثيرا وحاول استمالته إلى طرفه لكي يساعده ضد طغرل، لكن عندما علم يوسف بذلك رفض ولم يقبل بمعاونته، وبعد أن يأس **علي تكين** من استمالته قام بقتله. وقد كبر قتل يوسف على طغرل، فجمع عشائره ولبسوا ثياب الحداد وجمع ما استطاع من الترك للثأر، وجمع **علي تكين** جيوشه أيضا، ثم التحم الجيشان وهزم جيش علي . وبعد ذلك استمر طغرل بملاحقته، فجمع علي كل جيوشه وكل من استطاع من الأتراك والتقى مع جيوش طغرل في معركة ضخمة عام 421 هـ هزم فيها طغرل وقتل الكثير من جنده.

بسبب هذه الهزيمة لم يعد طغرل قويا كفاية، فراسل مسعودا بن محمود لما كان ذاك في طبرستان طلبا للصلح، فاستغل مسعود هذه الفرصة وقبض على رسل السلاجقة كي لا يعودوا بأخبار إلى طغرل ثم جمع جيشا جرارا وسار إليهم وفاجأهم فألحق بهم هزيمة كبيرة. لكن بعد انتهاء المعركة بدأ جنود مسعود يتصارعون فيما بينهم على الغنائم ، وصدف في الوقت نفسه أن داودا (معاون طغرل) كان يقول لجنود السلاجقة أن تلك فرصة للإيقاع بجنود مسعود بعد أن انشغلوا بالغنائم والنصر وأحسوا بالأمان ففقدوا تيقظهم، فهاجم السلاجقة مجددا وانتصروا. وخلال هذه المعركة كان مسعود في نيسابور ووصلته أخبار الحرب، فبدأ يخاف منهم وعرض عليهم أن يعطيهم أراضي من دولته لكي يكفوا عن محاربته، لكنهم رفضوا عرضه، فبدأ يرسل إليهم الجيوش لكنهم هزموا الواحد تلو الآخر. استمر مسعود بتجاهل السلاجقة لفترة بعد أن يأس منهم، ثم قرر في النهاية أن يعود إلى محاربتهم وجمع جيشا ضخما، لكن قائد الجيش (

وهو حاجب مسعود) كان جبانا فأغار قليلا على مرو ثم سار مجددا وعاد إليها بعد ذلك فأصاب جنوده التعب واستطاع طغرل هزيمته في سنة 428 هـ ، وبعد هذه المعركة سيطر السلاجقة على خراسان .

استمرت الحرب في السنوات اللاحقة بين الطرفين وبدأ طغرل يغلب، فقلق مسعود وجمع جيشا جرارا واتجه إلى خراسان في العام نفسه والتقى مع الأتراك السلاجقة في معركة حاسمة تعرف بمعركة داندقان هزم فيها مسعود، وحكمت هذه المعركة ببداية حكم السلاجقة ونهاية قوة الغزنويين ، وبعدها توقف مسعود عن المقاومة وأسس السلاجقة إحدى أقوى دول المشرق، والتي يعد عام 429 هـ هو عام تأسيسها الحقيقي .

رسم يظهر اشتباك السلاجقة مع الغزنويين في معركة داندقان.

الحرب مع البويهيين :

قرر السلاجقة من أبناء سلجوق الاتحاد معا تحت زعامة طغرل بك مع مساعدة أخيه داود وعمه موسى بن سلجوق بعد سيطرتهم على الحكم في أرض خراسان خلال عامي 431 و432 هـ، فكان هذا هو قيام الدولة السلجوقية. حتى أنه يقال أن طغرل أعطى لأخيه سهما وقال : " اكسره " ، فكسره ، ثم أعطى له سهمين وثلاثة سهام فكسرهم أيضا، وعندما وصل للأربعة سهام عجز عن كسرها، فقال له طغرل: "إن مثلنا مثل ذلك" (يقصد أنهم ضعيفون عندما يتفرقون) . بدأ طغرل بك بعد قيام دولة السلاجقة بتوسيعها نحو المغرب، ففي عام 433 هـ فتح جرجان وباقي طبرستان فخطب له في كافة أنحائها،[27] ثم سار في عام 434 هـ فحاصر خوارزم وفتحها ثم تابع السير واستولى على طبس ومكران وأطراف كرمان والري، ثم تابع التحرك في العام نفسه فأخذ همذان واتجه شمالا إلى دهستان ثم عاد وعين أمراء على طبرستان وهمذان وحاول إرسال جيش لأخذ كرمان لكنه هزم.[30] بعد ذلك توقف طغرل قليلا عن غزواته، فعاد البويهيون عام 436 هـ واستعادوا همذان،[31] ولذا فقد أرسل طغرل إبراهيما بن ينال إلى فارس عام 437 هـ فاستعاد همذان وغزا بلاد الجبل (غرب إيران والعراق حاليا) وأخذ عدة مدن منها ونهب الكثير، وفي العام نفسه أيضا جاء وباء كبير على الخيل في فارس فهلك 12,000 من خيل البويهيين على حد قول المؤرخين. في العام التالي عاد طغرل بك إلى غزواته فسار بنفسه مع جيشه إلى أصبهان وحاصرها على أمل الاستيلاء عليها، لكنه فشل فتصالح مع أميرها على أن يعطيه مبلغا من المال وعلى أن يخطب له في أصبهان وما حولها. وفي عام 446 هـ فتح أذربيجان، ثم قرر أخيرا عام 447 هـ السير إلى العراق لطرد البويهيين منها. وقد كانت هناك علاقات قوية بين طغرل والخليفة العباسي قبل هذا المسير، فقد بدأ طغرل

مراسلة الخليفة منذ عام 433 هـ، ونال منه الاعتراف بالدولة السلجوقية في العام نفسه، واستمرت علاقاتهما بالتحسن بعد ذلك.

فارس بويهي.

بدأت الدولة البويهية بالتفكك والانحطاط منذ أواخر القرن الرابع الهجري، عندما انشق شرف الدولة عن صمصام الدولة (الذي كان حاكم البويهيين) ، وأخذ منه جزءا كبيرا من فارس وبلاد المشرق، ثم خلفه بعد موته بهاء الدولة الذي تابع الصراع مع صمصام الدولة حتى قتله، ثم نشب صراع بين أبناء بهاء الدولة بدورهم واستمرت أوضاع البيت البويهي بالتدهور. وقد كان هذا النزاع الداخلي في الدولة البويهية لصالح السلاجقة ، والذين راسلهم الخليفة القائم بأمر الله مستنجدا عام 447 هـ بعد أن سيطر البساسيري (أكثر الرجال نفوذا في الدولة البويهية والعباسية آنذاك) على الدولة وأصبح يهدد وجود الخلاف العباسية، فسار طغرل بك إلى بغداد في العام نفسه، وأمر الخليفة العباسي بأن يخطب لطغرل فيها قبل ثلاثة أيام من وصوله، ثم فتح طغرل بغداد في رمضان عام 447 هـ، وهرب منها البساسيري والملك الرحيم (آخر ملوك البويهيين) الذين قبض عليهما لاحقا. وقد أحسن السلاجقة معاملة الخلفاء العباسيين وأقروا المذهب السني في البلاد على عكس البويهيين .

هرب البساسيري من بغداد عند وصول السلاجقة، لذا فأسرع طغرل بك بإرسال جيش إلى نواحي الكوفة لمنعه من الوصول إلى بلاد الشام ، ثم سار بنفسه مع باقي الجيش في التاسع والعشرين من رمضان سعيا وراءه. وفي هذه الأثناء كان البساسيري يعد العدة في واسط لقتال طغرل واستعادة بغداد، لكن جيوش طغرل وصلت إليه والتحمت مع جنوده، فهزم جنوده وهرب البساسيري وحده على فرس، ثم طاردته مجموعة من الغلمان وقتلوه وطيف برأسه في أرجاء بغداد.

ألب أرسلان :

بعد فتح طغرل بك للعراق توقف عن الحرب، وقضى معظم السنوات الباقية من عمره في بغداد، وتزوج هناك من ابنة الخليفة القائم بأمر الله. ثم في الثامن من رمضان عام 455 هـ (1063 م) توفي وعمره سبعون عاما في مدينة الري. لم ينجب طغرلٌ أولادا، ولذا فقد أوصى بأن يحكم من بعده ابن أخيه "سليمان بن داود"، لكن العامة فضلوا ألب أرسلان حاكما لهم فعينه وزير طغرل - عميد الملك الكندري - حاكما للسلاجقة مع أنه كان يود العمل بالوصية. ومع ذلك فعندما تولى ألب أرسلان الحكم عزل عميد الملك ثم قتله، وعين مكانه نظام الملك الذي كان وزيره قبل أن يحكم بزمن طويل، والذي يعد أيضا من أشهر الوزراء في التاريخ الإسلامي.

أسرع ألب أرسلان بتوطيد الحكم في الدولة السلجوقية بعد أن استلمه، فانشغل خلال عامه الأول بمحاربة عدة فتن ظهرت في البلاد. وما إن انتهى من تلك الفتن تحرك في عام 456 هـ متجها إلى أرمينيا

لمحاربة الروم، وعندما وصل إلى أذربيجان التقى بجماعة من المحاربين يقاتلون نصارى المنطقة، فالتحقوا به وعرضوا عليه أن يساعدوه كدليل في تلك البلاد. استمر ألب أرسلان بالسير مع هؤلاء المحاربين حتى وصلوا نقجوان، وهناك توقف لجمع الجنود والسفن استعدادا للغزو، وبعد أن جهز قواته أرسل الجيوش مع ابنه ملكشاة ووزيره نظام الملك. وقد وصل ملكشاة أثناء سيره إلى قلعة للروم ففتحها، ثم وصل إلى "قلعة سرمباري" ففتحها أيضا هي وقلعة أخرى بجانبها أراد تخريبها لكن نظام الملك نهاه عن ذلك، وقد سلما جميع القلاع إلى أمير نقجوان . استمر ملكشاة بالغزو بعد ذلك حتى استدعاه والده، فأخذ الجيوش وسار لفتح المزيد من المدن. وبعد عدة غزوات وصل ألب أرسلان إلى "مدينة آني"، وهي مدينة حصينة حولها نهران ، ويطوقها خندق وراءه سور مرتفع من بقية الجهات، فحاصرها وحاول فتحها لكنه فشل، وبدأ جنوده ييأسون من فتح المدينة. فقرر أرسلان بناء برج خشبي كبير، ملأه بالجنود والرماة ووضع فوقه المنجنيقات، فاستطاعوا هدم السور واقتحام المدينة وهزموا الروم، وملك ألب أرسلان المدينة وعاد من غزوته بعد أن فتح معظم جورجيا وأرمينيا وأغلب الأراضي الواقعة بين بحيرتي أوان وأرومية .

شرع ألب أرسلا ن في عام 462 هـ بغزو بلاد الشام ، فأجبر حاكم الدولة المرداسية - محمود بن صالح بن مرداس - في حلب على الخطبة للخليفة العباسي، وبعث بجيش إلى جنوب الشام فتح الرملة وبيت المقدس الذين كانا تحت سيطرة الدولة الفاطمية. وفي عام 463 هـ سار ألب أرسلان إلى إلى الرها، فقام بردم الخنادق حولها وبحفر الفجوات في أسوارها وبقصفها بالمنجنيقات لمدة شهر لكنه باء بالفشل، فتركها وسار إلى حلب ومعه 4 آلاف جندي. أرسل ألب أرسلان برسول إلى أمير حلب يدعوه إلى طاعة السلاجقة وفتح بوابات المدينة لهم، لكنه استكبر ذلك فبدأ بجمع الجنود وبتجهيز المدينة لمقاومة الحصار. فأتى أرسلان إلى حلب عام 463 هـ وحاصر الأمير محمود بن صالح (والذي لم يتوقع هذا بسبب إعلانه الطاعة للخليفة والسلاجقة) ، لكن بعد مضي شهرين على الحصار عجز ألب أرسلان عن السيطرة على المدينة وبدأ يخشى من تخطيط الإمبراطور البيزنطي لغزو خراسان وأيضا على سمعته من فشله في حصار مدينتين، فعين قائدا مكانه للتفرغ للحصار وسار إلى خراسان لمقاتلة البيزنطيين. لكن عندما علم محمود بهذا أسرع إلى أرسلان وطلب التوصل إلى صلح، فاشترط أرسلان أن يعلن الطاعة والتبعية للعباسيين والسلاجقة وأن يذهب في اليوم إلى معسكره لإعلان ذلك، وهذا ما حدث فأصبحت حلب إمارة سلجوقية. بعد هذا سار ألب أرسلان إلى المشرق لمحاربة البيزنطيين، وترك الجيوش مع بعض القادة وسمح لهم بالمحاربة في بلاد الشام، ففتحوا جبيل ودمشق والرملة وبيت المقدس وطبرية وحاصروا يافا، وكان ذلك بين عامي 463 و465 هـ (ملاحظة : لحروب ألب أرسلان مع البيزنطيين انظر أدناه فقرة "الحرب مع البيزنطيين") .

جلال الدولة ملك شاه :

في عام 465 هـ توفي ألب أرسلان في أرض ما وراء النهر أثناء الحرب وعمره 40 سنة، وأوصى بالحكم بعده لابنه ملكشاه ، فنصب سلطانا للدولة السلجوقية في العام نفسه. لكن ما إن تولى ملكشاه السلطنة حتى انقلب عليه عمه " قاروت بك " ، فأسرع ملكشاه إليه وقابله بالقرب من همذان وهناك اقتتلا فانهزم عمه واستقر الحكم لابن أرسلان. وكانت الدولة في عهده قد اتسعت اتساعا عظيما، فامتدت من كاشغر في أقصى المشرق (حيث توقفت الفتوح الإسلامية) إلى بيت المقدس قرب المغرب ، وبهذا فقد كانت تشمل كامل الجزء الإسلامي من قارة آسيا عدا الجزيرة العربية ودول جنوب شرق آسيا. يقال عن ملكشاه أنه كان من أفضل السلاطين سيرة، وأن القوافل كانت تعبر من أقصى المشرق إلى الشام في عهده آمنة دون التعرض إلى هجوم أو أذى.

أرسل ملكشاه خلال عهده جيوشا مرتين متتاليتين لحصار مدينة حلب والاستيلاء عليها، لكنه فشل ، فتحركت جيوشه (التي يقودها أخوه "تاج الدولة تتش") جنوبا وفتحت حماة. ودمشق وأظهر حاكم حمص الطاعة لها فتركوه حاكما. لكن في عام 472 هـ تغيرت مجريات الأحداث عندما راسل أهل حلب "مسلم بن قريش العقيلي" لكي يخلصهم من محمود المرداسي، فأتى إلى حلب واستولى عليها وأسقط بهذا الدولة المرداسية مقيما مكانها الدولة العقيلية، وقد راسل السلطان السلجوقي وأعلن له الولاء وعرض إرسال مبلغ من المال كل شهر مقابل إبقائه حاكما لحلب فوافق ملكشاه . لكن لاحقا نشأ نزاع بين تتش (الذي ولاه

ملكشاه على بلاد الشام) ومسلم بن قريش (الذي أظهر الطاعة للسلاجقة أيضا) ، وقد قتل مسلم في النزاع وتابع من بعده ابنه ، لكن تتش نجح بانتزاع حلب منه فقرر ابن مسلم تسليم حلب إلى ملكشاه واستدعاه لذلك، فجاء ملكشاه من المشرق وتسلم حلب (التي تركها تتش وعاد إلى دمشق)، وسيطر ملكشاه أيضا خلال هذه الحملة على اللاذقية ومدن أخرى.

رسم للسلطان ملكشاه.

في أواخر القرن الخامس الهجري ظهرت حركة جديدة في المشرق هي جماعة الحشاشين ، والذين استولوا على قلعة ألموت عام 483 هـ، فحاول ملكشاه أن يرسل إليهم دعاة يعدونهم إلى المذهب السني لكنه فشل ، فأرسل في عام 485 هـ جيشا ليحاصر القلعة لكنه هزم مجددا، فقرر السلطان السلجوقي أن يتجاهل هذه الحركة بالرغم من تحذيرات وزيره نظام الملك الكثيرة له . وعلى أي حال فلم يملك ملكشاه وقتا طويلا لمقاومة هذه الحركة، لأنه توفي عام 485 هـ تاركا دولة يتنازعها أولاده فيما بينهم .

الحرب مع البيزنطيين (معركة ملاذكرد و سلاجقة الروم) :

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

رسم يظهر معركة ملاذكرد العظيمة بين السلاجقة والبيزنطيين في عام 463 هـ.

كان مسير طغرل بك إلى أذربيجان عام 446 هـ من أولى غزوات السلاجقة في بلاد البيزنطيين. عندما وصل طغرل إلى مدينة تبريز أطاعه حاكمها وخطب له وقدم له الهدايا، فتركه حاكما لها وتابع سيره إلى أرمينيا، فوصل إلى ملاذكر فحاصرها ونهب ما حولها، لكنها كانت مدينة حصينة فطال حصارها حتى حل الشتاء، فعاد إلى الري وكان يريد متابعة الحصار بعد انتهاء الشتاء، لكنه اضطر عام 447 هـ للعودة إلى العراق وفتح بغداد فلم يتابع غزوته، ويقال أن طغرلا نهب وقتل مقدارا عظيما من الروم خلال غزوته هذه .

في عام 449 هـ نهب السلاجقة ملطية وهزموا قربها القائد البيزنطي " فيلاريتوس "، بينما غزا جيش آخر لهم مدينة قونية والإمبراطور البيزنطي عاجز عن ردعهم. وقد قام ألب أرسلان أيضا بحملة على أذربيجان وأرمينيا سنة 456 هـ. لكن في عام 462 هـ سار الملك البيزنطي "رومانوس الرابع ديوجين جنوبا إلى الشام بعد أن بدأ يحس بتهديد السلاجقة لإمبراطوريته ، فاستولى على مدينة منبج ونهبها وقتل الكثير من سكانها، وهزم صالح بن مرداس وجيوش العرب التي معه. ثم أقام في " أرتح " شرق أنطاكية ، لكن اضطر بعد ذلك بسبب الجوع وقلة الغذاء المتوفر للجيش إلى أن يعود إلى أرمينيا في بلاده.

لم يكتفي الإمبراطور البيزنطي - رومانوس الرابع - بحملته السابقة التي اضطر لإيقافها قبل أن ينتهي من غزوه، ولذا فقد سار عام 463 هـ مع جمع عظيم من الروم البيزنطيين والفرنج والروس والكرج يقال أن عددهم وصل إلى مئتي ألف، فوصل إلى منطقة قرب مدينة ملاذكر. وفي هذه الأثناء كان السلطان السلجوقي ألب أرسلان يقيم في أذربيجان، ووصل إليه نبأ الجيش البيزنطي الضخم الذي يتوجه إلى دولته، فحاول جمع عدد من الجنود بسرعة لكنه لم يستطع، فسار على عجلة من أمره مع ما يملك من عساكر(والذين بلغ عددهم 15 ألفا) باتجاه ملاذكر وأرسل زوجته مع وزيره نظام الملك إلى همذان. وعندما اقترب ألب أرسلان من موقع المعركة أرسل فرقة من الجنود تتقدم الجيش، فالتقت مع فرقة مقدمة جيش البيزنطيين التي بلغ عدد جنودها 10 آلاف، فتقاتلتا وانتصرت فرقة السلاجقة. وعندما التقى الجيشان أرسل أرسلان إلى ملك البيزنطيين يطلب منه المهادنة ، لكنه رد بأنه " لا مهادنة إلا بالري " ، فانتظر السلطان حتى جاء يوم الجمعة عندما يدعو الخطباء بالنصر على المنابر وبدأ القتال . واستطاع السلاجقة محاصرة جيش البيزنطيين وهزمهم، وكانت من أعظم المعارك في تاريخ دولة السلاجقة، وقد سميت بمعركة ملاذكرد . وأدى هذا النصر إلى اكتساح السلاجقة لمعظم باقي الأناضول، وإلى هزيمة البيزنطيين وعجزهم عن مقاومة المد السلجوقي بعد ذلك، وقد ترتب عليه صلح وضعه ألب أرسلان تتوقف الحرب بموجبه لخمسين عاما ويطلق جميع أسرى المسلمين في بلاد الروم ويمد البيزنطيون جيوش السلاجقة بالجنود متى احتاجوا ذلك. وبعد هذه المعركة اجتاح السلاجقة تركيا حتى قاربوا حدود القسطنطينية، فارتعد الإمبراطور البيزنطي وطلب العون من البابا المسيحي، ولاحقا قام هذا الإمبراطور بدعم الحملة الصليبية الأولى لحماية إمبراطوريته . وربما كانت أهم نتائج تلك المعركة استقرار السلاجقة في أرض الأناضول وتأسيسهم لسلطنة سلاجقة الروم.

الحرب مع الصليبيين (الحملة الصليبية الأولى و الحملة الصليبية الثانية) :

في عام 490 هـ (1097م) اجتمعت أربع جيوش أوروبية في الأناضول بهدف غزو الشرق الأدنى وأخذه من المسلمين، وقد دعمهم الإمبراطور البيزنطي بالمؤن والمساعدات وبعض المدد العسكري حتى لكي يطردوا السلاجقة من المنطقة، وأجبر ثلاثة من قواد الجيوش الأربعة على حلف اليمين له بأن يعطوه جميع الأراضي التي يستعيدونها من السلاجقة لأنها كانت تابعة له في السابق. بعد ذلك سارت الجيوش التي قدر عدد جنوها بزهاء 300 ألف جنوبا وحاصرت مدينة نيقية (عاصمة سلاجقة الروم وأهم مدنهم) ، فاستنجد أهلها بالسلطان السلجوقي قلج أرسلان الذي كان يحاصر ملطية ، فتركها وسار بسرعة لإنقاذ المدينة ، لكنه اصطدم بجيش صليبي متأخر عن بقية الجيوش أثناء طريقه واقتتلا في معركة شديدة، ووصل المدد إلى الصليبيين من الجيوش التي كانت تحاصر نيقية فانهزم السلاجقة وانسحبوا. اضطر قلج

أرسلان للاستلام لمصير نيقية بعد هذه المعركة، فتركها وسار بعيدا عنها، وسقطت في أيدي الصليبيين بعد مدة قصيرة، وقد توجه بعد ذلك إلى الدانشمنديين (دويلة أخرى انفصلت عن السلاجقة كانت في نزاع مع سلاجقة الروم) وعقد الصلح معهم مؤقتا للتعاون على مقاومة الصليبيين الذين يهددون كليهما، فاجتمعت قوى الأتراك في الأناضول وسارت معا إلى سهول دوريليوم لمقاومة الصليبيين وصدهم.

في البداية لم يتقدم إلى السهول للقتال سوى جيش واحد من جيوش الصليبيين، ولذا فقد ظن المسلمون أنه هو كامل قوات الصليبيين الموجودة في المنطقة، فبدؤوا القتال وأملوا النصر واقتربوا منه، لكن فجأة ظهر جيشان صليبيان آخران (كانت قد وصلتهم أخبار المعركة في اليوم السابق) والتحما في المعركة فقلبا مجريات الأمور وانهزم المسلمون وخسروا المعركة، وهرب قلج أرسلان تاركا وراءه الكثير من الغنائم للصليبين ، وبعد هذه المعركة توقف عن قتالهم المباشر واستمر بالانسحاب وإخلاء المدن في المنطقة، فاكتسحها الصليبيون بكل سهولة معيدين أراض ضخمة إلى الإمبراطورية البيزنطية، وكانت هذه الموقعة التي حسمت الصراع السلجوقي - الصليبي في الأناضول هي معركة دوريليوم . سار الصليبيون بعد هذه المعركة باتجاه الشام (وهي الجزء الأهم من غزوتهم)، فاستغرقت رحلتهم أربعة شهور عبر الأناضول ثم قرب الشام، عانوا خلالها من الحرارة والجوع وقلة المؤن، وعندما وصلوا أخيرا إلى أرض الشام غزوا مدينة قونية وملكوها (والتي كان السلاجقة قد جعلوها عاصمتهم الجديدة بعد سقوط نيقية) ثم هرقلة ثم اتجهوا إلى أنطاكية التي أصبخت هدفهم الجديد ، وملكوا في طريقهم قيصرية وطرسوس وأضنة (بمساعدة من الأرمن المسيحيين في هذه المدن الذين رحبوا بقدوم الصليبيين) وهزموا عدة جيوش صغيرة للسلاجقة، واجتاحوا الرها أيضا وأسسوا فيها إمارتهم الأولى، وقد هاجم قائد صليبي أثناء المسيرة مدينة سميساط وطرد منها الحامية التركية بمساعدة سكانها الأرمن، لكن سرعان ما عادت الحامية وباغتتهم فقتلت من الأرمن زهاء الألف رجل وبعض فرسان الصليبيين، ومع هذا فقد استعادوا المدينة لاحقا وطرد منها الأتراك وقتل قائدهم. وفي الأثناء التي دارت فيها هذه المناوشات بين فرق من الجيش الصليبي، كان الجيش الصليبي قد وصل أنطاكية بعد مسيرة أربعة شهور، فحاصرها لكنها كانت منيعة وذات أسوار عالية فطال حصارها وصمدت، مما تسبب بانخفاض معنويات الصليبيين وحماسهم، لكن القساوسة المسيحيين نجحوا برفع معنويات الجنود من جديد، ومع استمرار إمدادات الصليبيين ومؤنهم فقد أطالوا الحصار وأنهكوا المدينة، وفي النهاية استطاعوا اقتحامها عام 491 هـ ونهبوها وخربوها وقتلوا الكثير من أهلها، وبذلك سقطت أنطاكية (إحدى أقوى مدن المشرق) في أيدي الصليبيين. ولاحقا حاول المسلمون حصار أنطاكية واستعادتها لكنهم فشلوا، وسرعان ما سقطت القدس أيضا ، فأسس الصليبيون بهذا ثلاث إمارات ومملكة واحدة في الشرق الأدنى (علاوة على اجتياحاتهم الضخمة في الأناضول) ، وهي : إمارة الرها وأنطاكية وطرابلس إضافة إلى مملكة بيت المقدس .

بعد تأسيس الصليبيين لدويلاتهم الأربع ، حشد " كمشتكين بن الدانشمند " (الحاكم الداشمندي) بمعونة أمير سلاجقة الروم جيشا جديدا لملاقاة الصليبيين وسار به إلى أمير أنطاكية المدعو "بوهمند" الذي كان يغزو أحد الحصون، وعندما علم بوهمند بالأمر عاد بسرعة إلى أنطاكية وجمع جيشا ضخم لقتال الأتراك، وسار به إليهم فاقتتلا في معركة شديدة عام 493 هـ هزم فيها الصليبيون واستطاع الأتراك أسر الأمير الأنطاكي بوهمند وقتل الكثير من جنوده. وبعد بضعة شهور من ذلك انطلقت الحملة الصليبية لعام 1101، وكانت هي الأخرى مؤلفة من أربعة جيوش تحركت في ثلاثة أقسام، كان أحدها يضم جيشين من الجيوش الأربع والذين يتألفان بشكل أساسي من اللومبارديين، وقد أصر جنود هذا الجيش على السير شرقا لتحرير بوهمند من الأتراك قبل متابعة السير إلى الجنوب، ومع أن القسم الآخر من الجيش حاول إقناع اللومبارديين بعدم فعل ذلك إلا أنهم أصروا وكادوا يعلنون العصيان فسار الجيش إلى الشرق حتى وصل أنقرة وملكها، فأسرع الأتراك من سلاجقة ودانشمنديين بالاتحاد معا والسير إلى الصليبيين، ودخلوا معهم في عدد من المناوشات بغيت إرهاقهم واستنزاف قواهم، ثم راسلوا أمير حلب ("رضوان السلجوقي") الذي كانوا في خلاف معه سابقا واستدعوه فأتاهم مع جيشه بسرعة قاطعا مئات الكيلومترات. والتحم الجيشان قرب أماسيا عام 494 هـ واستمرت المعركة لمدة يوم استطاع فيه الأتراك أن يهزموا الصليبيين وأن يقتلوا الآلاف منهم، فلم ينجو منهم في النهاية إلا 3 آلاف جندي لاذوا بالفرار إلى القسطنطينية، ويقال

أن حوالي 30 ألفا منهم قتلوا في المعركة، مما أدى إلى إبادة جيشين من الجيوش الصليبية الأربع بالكامل تقريبا. وبعد أن تحمس الأتراك من نصرهم هذا ساروا إلى منطقة بين نيقية وهرقلة حيث كان القسم الثاني من جيش الصليبيين، فحاصروه وهزموه وقتلوا معظمه بينما هرب القائد بالكاد مع بعض الفرسان إلى أنطاكية ، وبعد هذا ساروا إلى آخر أقسام الجيوش الصليبية والذي كان قد عبر القسطنطينية قبل مدة ليست بالطويلة، فحاصروه هو الآخر وأبادوه قاضيين بهذا على كافة جيوش تلك الحملة الصليبية، وربما كان هذا أعظم نصر للسلاجقة والأتراك في الحروب الصليبية.

لم يتوقف السلاجقة عند ذلك، فما إن استتب السلام في الإمبراطورية السلجوقية وانتهت النزاعات الداخلية فيها، اتجه محمد بن بركيارق إلى الجهاد، فوجه الأوامر إلى مودود أمير الموصل وسقمان أمير أرمينيا بالسير بحملة عسكرية كبيرة إلى الصليبيين مباشرة بعد سقوط طرابلس، فاتجهت الحملة إلى الرها وحاصرتها، لكن سرعان ما جاء المدد من بقية الدويلات الصليبية فرفعوا الحصار واتجهوا إلى حران، ثم التقوا لاحقا مع المدد الصليبي قرب نهر الفرات وهزموا قوات الصليبيين وظفروا بهم، وبعد ذلك عادت قوات السلاجقة إلى أراضي الدولة دون غزو الرها، فعادت قوات الصليبيين أيضا إلى دويلاتها. لكن بعد مدة قرر الصليبيون أن يغزو العراق من أجل الوصول إلى بغداد، فبدؤوا بتوسيع أراضيهم بحصار حصن حران، فهب أمير الموصل ومعه سقمان مجددا واشتبكا مع الصليبيين في معركة وهزموهم، وبعد ذلك أعادوا حصار الرها لكنهم فشلوا وانسحبوا، وقد استطاعوا أيضا استعادة بضعة مدن في أنطاكية. واستمرت الحروب طويلا بعد ذلك بين السلاجقة والصليبيين، ومع أن السلاجقة أفلحوا باستعادة العديد من المدن وبمنع استيلاء الصليبيين على العديد غيرها، لكنهم لم يستطيعوا إسقاط أي من الدويلات الأربع التي أسسها الأوربيون في المشرق.

معركة دوريليوم التي حسمت الصراع السلجوقي - الصليبي في الأناضول وتساقطت بعدها المدن السلجوقية في أيدي الصليبيين.

الانحطاط والسقوط :

انتهى عهد قوة الدولة السلجوقية ونفوذها الواسع بموت السلطان ملكشاه عام 485 هـ، والذي كان ثالث سلاطين السلاجقة، ومع أن دولتهم عاشت لأكثر من قرن بعد ذلك إلا أنها كانت متفككة وضعيفة، فسرعان ما بدأت الدولة تنقسم وتتفكك إلى دويلات عدة، فظهرت دول شبه مستقلة عنهم هي بشكل رئيسي سلاجقة العراق والروم والشام وكرمان وخراسان وهم فروع من البيت السلجوقي أسست لها دولا خاصة في المناطق التي كانت تحكمها، وهذا أدى إلى ضعف الدولة وانكسار شوكتها، فضلا عن النزاع الذي نشب بين هذه الدول بهدف توسيع النفوذ، فأضعف الدولة أكثر وشغلها عن مقاومة الغزو الخارجي. بدأت النزاعات الداخلية في دولة السلاجقة عند وفاة ملكشاه ، فخلف ولدين هما بركيارق وأخ أصغر اسمه محمد، وكان الأول في الثالثة عشرة والثاني في الرابعة، لكن أم محمد راسلت الخليفة العباسي وأجبرته على

الاعتراف بابنها وإقامة الخطبة له فنصب سلطانا في عام 485 هـ، وعين أمير لإدارة شؤون الدولة بدلا من السلطان الصغير، بينما زج الأخ الأكبر بركيارق في السجن. لكن بسبب تأييد نظام الملك قبل موته في نفس العام لبركيارق فقد كان له الكثير من الأنصار الذين حرروه من السجن ونصبوه حاكما لأصفهان ، وبعد ذلك حشد كل من بركيارق ووالدة محمد جيشا والتقيا عام 486 هـ فانتصر بركيارق واعترف به الخليفة العباسي سلطانا للسلاجقة عام 487 هـ.

ومع أن الحكم استتب لبركيارق في النهاية، إلى أن الدولة السلجوقية بدأت بالتفكك خلال هذا العهد، فاستقل "قتلمش بن إسرائيل بن أرسلان" بالأناضول منذ عام 470 هـ مؤسسا سلطنة سلاجقة الروم، ولاحقا في عام 487 هـ استقل "تتش بن ألب أرسلان" بالشام ثم "مغيث الدين محمود" بالعراق عام 511 هـ، وهذا مع أن السيطرة العامة على الدولة السلجوقية وعلى الجزء الأكبر مها بقي في أيدي سلاطين خراسان، الذين استمروا حتى عام 552 هـ ، فقد حكم السلطان السلجوقي "سنجر" منذ عام 511 وحتى 552 وقد نجح بإعادة هيبة الدولة وقوة السلاجقة وبتوحيد بلادهم من جديد ، لكن هذا لم يمنع انحطاط الدولة وضعفها بسرعة بعد موته. في الأيام الأخيرة لسنجر، استعان الخليفة العباسي بخوارزم شاه للتخلص من السلاجقة، ووعده بإعطائه كافة أراضيهم إن خلصه منهم، فاكتسح الخوارزميون خراسان والمشرق، وكانت هذه نهاية نفوذ سلاجقة خراسان وكرمان والعراق، وكان حكم سلاجقة الشام قد زال قبل ذلك بمدة طويلة، أما سلاجقة الروم فقد استمروا حتى القرن الثامن الهجري ثم اكتسحهم المغول، وهكذا انتهى عصر الدولة السلجوقية التي كانت إحدى أقوى دول المشرق في التاريخ.

النظام العسكري :

تقسيمات ورتب الجيش :

كانت توجد ثلاثة رتب رئيسية في الجيش السلجوقي، أعلاها هي رتبة "الأمير الحاجب الكبير" الذي يقوم بإدارة الجيوش وتوجيهها وقيادتها، وهو أكثر رجال الدولة نفوذا تقريبا بعد السلطان، ويجب أن يكون الحاجب كبيرا في العمر بحيث لا يقل عمره عن 35 أو 40 عاما من أجل أن يملك خبرة كافية في الإدارة والتنظيم وغيره، ويتولى الحاجب العديد من المهام مثل تحديد الأماكن المناسبة لوقوف الجيش وتزويده بالمؤن وترتيب صفوفه للقتال. يلي الحاجب "القائد العام" أو "الأسفهسلار"، وهو الذي يشكل أداة الاتصال بين الحاجب والمقدمين (قادة الفرق)، كما أنه القائد الأكبر والأهم للجيش، ويمكنه إدارة الجيش وتولي تنظيمه في حيال غياب الحاجب، وقد كانت هذه الرتبة موجودة في الأنظمة العسكرية منذ عهد الغزنويين. أما الرتبة القيادية الأقل في الجيش فهي "المقدم"، وهو الذي يتوالى قيادة الفرق العسكرية، ويمكن أن يكون المقدم "أمير حرس" (من يتولى تنفيذ العقوبات وضبط النظام في الجيش، ويسمى في هذه الحالة "جندر") أو قائد قلعة (ويسمى في هذه الحالة "دزدار") . وكانت هناك أيضا رتب أخرى تتعلق بضبط الجيش والحفاظ على نظامه، مثل "قاضي العسكر" (من يحكم بين العساكر ويعاقبهم على أخطائهم) و"أمير السلاح" (حارس مخازن الأسلحة) وغيرها.

تنظيم الجيش :

كان ينظم الجيش السلجوقي بشكل رئيسي بـ"ديوان عرض الجيش"، والذي يتضمن أسماء الجند ورواتبهم وكافة أحوالهم، وكان يتولى شخص إدارة هذا الديوان يسمى عادة بالعارض، هو الذي يقوم بتنظيمه وتدوين الأسماء وغيره، وكان ديوان الجيش أساسيا جدا للمحافظة على النظام العسكري وإدارة جيوش الدولة. اهتم السلاجقة بإعطاء الجند أرزاقهم والتعجيل بها حرصا على الحفاظ على رضاهم ومن ثم على استقرار الجيش، وقد كان الجنود يعطون المال نقدا في الأيام الأولى للدولة السلجوقية، لكن لاحقا استغنى السلطان ملكشاه عن المال وأصبح يقطع لهم الإقطاعات بدلا من ذلك، وفي كلا الحالتين كان ديوان عرض الجيش هو المسئول عن تنظيم توزيع الرواتب. كما أن توفير المؤن كان جزءا هاما من مهام الديوان، وقد كان يقوم بعض القواد بشراء مؤن لجيوشهم بأنفسهم في بداية العهد السلجوقي، لكن لاحقا ولكي لا

يظلم الجنود سكان الدولة ويأخذوا منهم المؤن غصبا فقد قام نظام الملك بتوزيع مؤن مخصصة للعسكر على مختلف مناطق ومدن الدولة السلجوقية لكي تتزود بها الجيوش متى احتاجت، وساعد هذا في حل مشكلات المؤن وأتاح للديوان إدارة توزيعها بسهولة. أشرف الديوان على تسليح الجيش أيضا، ويقال أن الجيش كان يتضمن - منذ عهد طغرل بك - نجارين وغيرهم لصنع ما يحتاجه العساكر من أسلحة، وكان يتم تزويدهم بالسلاح والعتاد حتى أثناء المعارك والقتال، وكانت توجد مخازن مخصصة لاحتواء أسلحة الجند يحرسها "أمير السلاح" أو "سلاح دار".

قوات الجيش :

تألف الجيش السلجوقي من أعراق متعددة، فقد كان يتضمن أتراكا وأكرادا وعربا وفرسا وديالمة وأرمنا، كما أن قواته كانت تتألف من مشاة وفرسان ورماة، فيتقدم المشاة الجيش وخلفهم الفرسان الذين كانوا يتميزون بمهارتهم في إطلاق السهام أثناء عدو خيولهم. كانت تنقسم قوات الجيش السلجوقي إلى عدة أقسام، منها "الجيش النظامي"، وهو القوات التي تعمل بشكل دائم في خدمة الدولة، وتتألف من العبيد الذين أسروا في المعارك أو أهداهم بعض الملوك للسلاجقة. كانت قبائل الأتراك من العناصر الهامة أيضا، وكثيرا ما كان سلاطين السلاجقة يضطرون لدفع المال لهذه القبائل تجنبا للحروب معها، ومع هذا فقد كانت هامة جدا في تأسيس الدولة السلجوقية واستمراريتها،[58] كما أنه كانت تلتحق بجيوش السلاجقة عند نشوب الحروب القوات الخاصة بالولايات،[64] حيث إن لكل حاكم ولاية قوات خاصة له يستخدمها للدفاع عن منطقته. يمكن أيضا أن تلتحق بالجيوش فرق من المدن المجاورة التي يمر العسكر قربها، أو متطوعون يودون المشاركة في الجهاد، وهؤلاء لم يدونوا ضمن ديوان عرض الجيش السلجوقي. تضمن جيش الدولة قسم الطلائع، وهم فرق من الجند يتقدمون الجيش لكي يستطلعوا مناطق وجود العدو وطبيعتها وكافة المعلومات الأخرى عن مناطق المعارك، ووظيفتهم لا تتضمن الدخول في القتال عادة. وتوجد فرق أخرى تتقدم الجيش تسمى "تشكيلات المنزل"، وظيفتها اختيار المواقع المناسبة لإقامة الجيش وتجهيزها وتهيئتها بكل ما يلزم لذلك من طعام وغيره.

الأسلحة والتحصينات الحربية :

استخدم الجنود السلاجقة أسلحة القتال العادية مثل السيف والرمح والقوس والمقلاع، وكان القوس والسهم من أهم أسلحتهم، فقد اشتهروا بمهارتهم في رمي السهام خاصة من فوق ظهور الخيل، فقد كان الرماة الخيالة يطلقون السهام أثناء عدو خيولهم دون التأثير على دقة إصابتهم، ويقال أنه كان يقذف الرماة السلجوقيون 10 آلاف سهم في المعركة دفعة واحدة. وكانوا يرتدون دروعا واقية للحماية مع خوذ تسمى بـ" البيضة " وتروس في أيديهم لصد ضربات العدو. واستخدموا أيضا كافة أدوات الحصار الثقيلة، بما في ذلك المنجنيقات والأبراج الخشبية (التي يقتحمون بها أسوار العدو) ورأس الكبش (الذي يحطمون به بوابات الحصون) والدبابات وسلالم الحصار، وحصنوا المدن والقلاع ببناء الأسوار المرتفعة وحفر الخنادق العميقة لإعاقة تقدم العدو.

الدولة والحضارة :

دعم العلم والعلماء :

كان يوجد اهتمام كبير بالعلم والعلماء خلال فترة ازدهار الدولة السلجوقية في عهدي ألب أرسلان والسلطان ملكشاه ، حيث كان الوزير نظام الملك يعمل في الدولة خلال حكمهما والذي قام بجهود كبيرة لدعم العلم والأدب. أعطى نظام الملك رواتب منتظمة للعلماء في جميع أنحاء الدولة لتشجيعهم على عملهم، وقد بلغ عدد من يصرف لهم المال 12,000 عالم وأديب، كما اهتم بمجالسة أهل العلم فكانت مجالسه تعج بهم. واهتم أيضا بإنشاء المدارس النظامية، فأسس العديد منها خلال عهد ألب أرسلان في أنحاء العراق وفارس من بغداد والبصرة إلى نيسابور وهراة ، وأسس المكتبات أيضا وملأها بكتب من مختلف مجالات

العلم. حتى أن ابن الجوزي قال عنه أنه "كانت سوق العلم في أيامه قائمة والعلماء في عهده مرفوعي الهامة".

صورة لمنجنيق

الحياة المدنية :

كان السلاجقة في البداية قبائل تعيش في وسط آسيا، ومع أنهم لم يكونوا بدوا أميين في تلك الأيام إلا أنهم سعوا إلى الاستقرار في مكان ما والعيش فيه قبل أن يهاجروا إلى غرب آسيا. في تلك الفترة، عاش السلاجقة في قرى وبلدات بسيطة، باستثناء المناطق التي فرضت عليهم فيها الظروف الطبيعية أن يعيشوا الحياة البدوية. ثم انتقلوا لاحقا للعيش في المدن بعد أن وصلوا إلى الشرق الأوسط وأصبحوا حكام أكبر دولة ، وهذا غير كليا أسلوب حياتهم حيث تركوا عمل الحقول والزراعة وانتقلوا إلى الحياة المدنية.

كانت تنتشر في الأناضول خلال العهد السلجوقي مدن صغيرة تسمى*" الهان"* ، والتي كانت تحاول تقديم جميع الخدمات للمسافرين المارين بها. فهناك كان التجار يأكلون ويستحمون وينظمون سلعهم ويصلحون عرباتهم ويعتنون بحيواناتهم (وربما كان عدد الحيوانات في الهان يقارب ضعف عدد البشر) . الباحثون ليسوا متأكدين بعد من الطريقة التي كانت تنظم بها بلدات الهان لكي تلائم كلا الحيوانات والبشر، لكن يعتقد البعض بأنهم كانوا يفصلون عن بعضهم حيث تمكث الحيوانات في الفناء بينما يجلس المسافرون في حجيرات مجاورة.

ارتدى الرجال السلاجقة سراويلا وقمصانا قماشية ، ومعها سترات مميزة في خياطتها تسمى "اليالما". وكانت القبعات جزءا هاما من زيهم، حيث ارتدوا قبعات بسيطة على شكل قبة مع بعض الزخرفات البسيطة عليها، وتسمى قبعاتهم الشعبية بـ"البويرك"، وكانوا يرتدون قبعات بويرك قماشية في الصيف بينما استبدلوها بأخرى من الفرو في الشتاء. وارتدى السلاجقة الأحزمة أيضا، والتي كانوا يعلقون عليها قوسا وجعبة سهام وفي بعض الأحيان سيفا أيضا، ومن ثم فإنها هامة للجنود. كما كانوا يرتدون أحذية جلدية عالية تصل إلى الركبة، والتي كانت شائعة جدا في المنطقة وتصنع باللونين الأسود والبني عادة.

صورة لبوابة هان "ساري" الذي يعود إلى القرن الثالث عشر الميلادي.

كانت تتألف العائلة السلجوقية من امرأة ورجل وأطفال، ومعهم أحيانا بعض الأقارب يقيمون في نفس المنزل . ومع أن المرأة كانت تكدح في الحقول في المجتمع القروي، إلا أن النساء المدنيات كن يحبسن في بيوتهن بغض النظر عن مكانتهم الاجتماعية. واعتمادا على الحالة الاقتصادية للأسرة كانت ربة البيت إما تقضي يومها في أعمال المنزل الروتينية أو بالإشراف على الخدم الذين يخيطون ويحبكون ويعزفون الموسيقى ويعتنون بطفلها ويقومون بكافة أعمال المنزل الأخرى. لكن وجود المرأة خارج المنزل كان محدودا جدا، حيث لم تكن تستطيع مغادرته إلا في المناسبات الخاصة مثل الأعراس والاحتفالات. كما أن الشباب من السلاجقة لم يستطيعوا رؤية زوجاتهم قبل الزواج أو اختيارهم حتى، بل كانت أم العريس هي من تقوم بهذا، بحيث يتم الأمر بين الآباء فقط.

لكن مع هذا فقد كان من الشائع عمل النساء في العهد السلجوقي في مهنة الطب، بل إنهم كانوا عنصرا هاما لهذا السبب في الجيش وكان دورهم أساسيا وجوهريا في علاج الجنود الجرحى والمصابين.

الفن والثقافة :

بسبب التنقل الطويل للأتراك الذي انتهى بوصولهم إلى أرض الأناضول بعد أن كانوا قبائل في وسط آسيا، فقد اختلطت ثقافتهم وفنونهم وعقيدتهم مع ثقافات الشعوب الأخرى التي قابلوها أثناء هجرتهم، مما يجعل نشأة فنونهم وحضارتهم مبهمة وغير واضحة. لكن في عام 985م حدث تحول في عقيدة السلاجقة عندما غير رئيس الجيش السلجوقي دينه إلى الإسلام، مما تسبب بتغير في فنونهم التي سادت عليها الثقافة الإسلامية، خصوصا بعد تمدد السلاجقة إلى بغداد والجزيرة العربية حيث أصبحوا في قلب العالم الإسلامي وفي مركز ثقافته. تأثر الأتراك والسلاجقة خلال هذه الفترة بالفن والعمارة الإسلاميين، وقاموا أيضا بأخذ بعض الأفكار من الفنانين الصينيين ومزجوها مع فنهم الإسلامي السائد، فتطورت فنونهم أكثر.

زخرف السلاجقة قصورهم برسوم منحوتة وبخطوط زخرفيه متنوعة، وقد طور حرفيوهم في الفنون الخزفية والأشغال المعدنية تقنيات صنع جديدة وزخرفوا أوانيهم الخزفية بنقوش متنوعة (من الملاحم العسكرية إلى دائرة البروج والتقاويم الفلكية) ، وكانوا يصنعون من الخزف أواني الأزهار والشرب والأباريق والسلطانيات وبألوان متنوعة. كانت صناعة القرميد منتشرة أيضا في تلك الأوقات، بل إنه كان أكثر شيوعا بكثير من الخزف، وعلاوة على ذلك فقد شهد عصر السلاجقة أول تقدم كبير في الفن الإسلامي لصناعة القرميد، وكان يستخدم القرميد عندهم في زخرفة المساجد والمصليات ومآذنها صانعين به نقوشا جميلة عليها. وقد أعطى ازدهار السلاجقة الأدبي فرصة لظهور كتب مدهشة وعالية الأهمية من الأعمال العلمية والأدبية، وما زالت هناك العديد من الآثار الباقية للأدب التركي السلجوقي مثل بعض المعاجم اللغوية

والحكايات الملحمية. يمكن - في الفن السلجوقي - ملاحظة ظهور الناس كمواضيع للوحات والأعمال الفنية، ويعتقد الدارسون حاليا أن ما ولد هذا التطور هو تغير فلسفتهم الإنسانية التي تتمثل في التساؤل حول دور الجنس البشري في الكون والرغبة في الحصول على المعرفة وتطوير نظام أخلاقي.

ظل الفن الذي ظهر ونشأ أثناء عهد السلاجقة سائدا في العراق وتركيا تحت حكم سلالة السلاجقة الروم الفرعية (1081 - 1307م) ، لكن بعد الغزو المغولي وسقوط السلاجقة ثم قيام العثمانيين شهد الأدب والفنون تغيرات كبيرة متلاحقة، ولم يبقى الكثير من فن السلاجقة القديم، لكن مع هذا فقد أحيت القبائل الوافدة من وسط آسيا بعد غزو المغول الثقافة والتقاليد التركية في الأناضول حيث استطاع الفن الصمود لمدة أطول .

صورة لجامع أصفهان تظهر فن العمارة السلجوقي.

الوزارة :

كان يتم تقليد الوزير السلجوقي منصبه بإرسال الحاجب أولا لاستدعاء من سيتولى المنصب، ثم يقابل السلطان ويعطى منصبه الجديد بعد مناقشة عن المهام الإدارية التي سيتولاها الوزير. وقد أعطي الوزراء لسلجوقيون الألقاب، بل إن العديد منهم حصلوا على عدة ألقاب، ومن ألقابهم " قوام الدين والدولة " و" ضياء الملك ". عندما كان يتولى شخص الوزارة في العهد السلجوقي كان يمنح منزلا خاصا به على الفور، وكان يحصل على الحق بمرافقة السلطان السلجوقي أثناء تنقله وزياراته للولايات المختلفة إضافة إلى الحق بدخول مجلسه، كما أن الوزير كان في الدولة السلجوقية ثاني أكثر الأشخاص نفوذا في الدولة بعد السلطان مباشرة، حتى أنه كان أعلى نفوذا من الحاجب، فقد أعطي صلاحيات إدارية وسياسية كبيرة وكانت أمور الدولة بيده. من أشهر وزراء السلاجقة الوزير " عميد الملك الكندري " في عهد طغرل بك و" نظام الملك " في عهدي ألب أرسلان وملكشاه.

المدارس النظامية :

تسمى بـ" المدارس النظامية " نسبة إلى أول من أسسها وهو الوزير السلجوقي نظام الملك. جاءت فكرة تأسيس هذه المدارس بسبب اتساع المد الباطني في المشرق خصوصا خراسان والعراق وغيرها من أقاليم تلك البلاد، وقد كان نظام الملك مهتما بنشر المذهب السني والقضاء على الحركة الباطنية، واعتقد أن غزو بلادهم وانتزاع فارس من قبضة البويهيين لم يكن كافيا لذلك. ولذا فقد قرر نظام الملك البدء بإنشاء سلسلة من المدارس التي تعلم الدين حسب تعاليم مذهب السنة ، وبشكل أكثر خصوصا المذهب الشافعي بسبب كون نظام نفسه شافعيا ، فبدأ بتأسيس أولى هذه المدارس في مدينة بغداد عام 457 هـ، وانتهى بناؤها في شهر ذي القعدة عام 459 هـ وحضرها جمع عظيم من سكان بغداد عند افتتاحها، وقد كلف بالتدريس

بها أبو إسحاق الشيرازي . وقد كانت مواقع إنشاء أولى المدارس النظامية هي : بغداد وبلخ ونيسابور وهراة وأصفهان والبصرة والموصل ومرو وطبرستان. صرف نظام الملك مبالغ هائلة في المدارس، وحرص على أن توفر راحة كاملة للطلاب، فخصص سكنا للمدارس لكي يقيم به طلابها، وأعطى كل واحد منهم أربعة أرطال من الخبز كل يوم لإعالته، وبنى في كل مدرسة مكتبة ضخمة تشبع اهتمامات الطلاب، وقيل إن تكاليف بعض هذه المدارس وصلت إلى 10 آلاف دينار، وعدد طلابها وصل إلى 300 طالب. وفضلا عن هذا فقد اهتم نظام الملك بأن يزور بنفسه هذه المدارس دوريا وأن يتأكد من أن أمورها تجري جيدا، فقد زار مثلا في عام 480 هـ مدرسة بغداد واطلع على أحوالها ودرس بها قليلا. كان يشترط لتعيين مدرس في مدرسة نظامية أن يكون شافعيا، وكانت هناك عدة مناصب إدارية في هذه المدارس هي : المدارس (من يلقي الدروس) والنائب (من ينوب عن المدرس في الإلقاء إذا لم يستطع ذاك الحضور) والمعيد (طالب يعيد الدرس للطلاب الآخرين ويساعدهم على فهمه إن تطلب الأمر) . وعندما كان ينهي الطلاب تعلمهم في المدارس كانوا يقدمون طلبا للحصول على " الإجازة " ، وهي وثيقة تشبه الشهادة تثبت أنهم درسوا وتعلموا في هذه المدارس، والتي تتيح لهم لاحقا الالتحاق بوظائف مثل القضاء والإفتاء والتدريس وغيرها.

قائمة السلاطين :

	الحاكم	الحكم
1	ركن الدين طغرل بك بن سلجوق	1063-1037
2	عضد الدولة ألب أرسلان	1072-1063
3	جلال الدولة ملك شاه	1092-1072
4	ناصر الدنيا والدين محمود	1094-1092
5	تتش بن ألب أرسلان	1094-1092
6	ركن الدين بركياروق	1099-1094
7	غياث الدنيا والدين محمد	1104-1099
9	جلال الدين ملكشاه بن بركياروق	1105-1104
10	غياث الدنيا والدين محمد	1118-1105
11	محمود بن محمد بن ملكشاه	1131-1118
12	داود بن محمود	1131-1131
13	مسعود بن محمد بن ملكشاه	1152-1131
14	معز الدين أحمد سنجر	1157-1151

سلاجقة كرمان 1041 - 1187 :

كرمان كانت دولة جنوب بلاد فارس، وسقطت عام 1187, أغلب الظن على يد طغرل الثالث من السلاجقة العظام .

قاورد 1041-1073
كرمان شاه 1073-1074
سلطان شاه 1074-1075
حسين عمر 1075-1084
طوران شاه الأول 1084-1096

إيران شاه 1096-1101
أرسلان شاه الأول 1101-1142
محمد الأول 1142-1156
طغرل شاه 1156 -1169
بهرام شاه 1169-1174
أرسلان شاه الثاني 1174-1176
طوران شاه الثاني 1176-1183
محمد الثاني 1183-1187

سلاجقة الشام 1076-1117 :

أبو سعيد تاج الدولة تتش السلجوقي - سلطان دمشق 1085- 1086
جلال الدولة ملك شاه الأول السلجوقي 1086- 1087
قاسم الدولة أبو سعيد آق سنقر البرسقي 1087-1094
أبو سعيد تاج الدولة تتش السلجوقي *(مرة ثانية)* 1095-1094
فخر الملك رضوان 1095-1113
تاج الدولة ألب أرسلان الأخرس 1113-1114
سلطان شاه 1114-1123

سلاطين وأمراء دمشق :

عزيز بن Abaaq الخوارزمي 1076- 1079
أبو سعيد تاج الدولة تتش السلجوقي 1079-1095
أبو نصر شمس الملوك الدقاق 1095-1104
تتش الثاني 1104
محيي الدين باقتش 1104

أتابكة حلب :

لولو 1114-1117
شمس الهواس يرقتش 1117
عماد الدين زنكي 1128- 114
نور الدين زنكي 1146- 1174

سلاجقة الروم في الأناضول (470 - 708هـ / 1077-1307 م) :

قتلمش 470هـ / 1060م
سليمان بن قتلمش 1077- 1086
داود قليج أرسلان الأول 1092-1107
ملك شاه الثاني 1107- 1116
ركن الدين مسعود 1116- 1156
عز الدين قلج أرسلان الثاني 1156- 1192
غياث الدين كيخسرو الأول 1192 - 1196
ركن الدين سليمان الثاني 1196- 1204
عز الدين قلج أرسلان الثالث 1204- 1205
غياث الدين كيخسرو الأول *(للمرة الثانية)* 1205-1211

عز الدين كيكاوس الأول 1211- 1220
علاء الدين كيقباد الأول 1220-1237
غياث الدين كيخسرو الثاني 1237- 1246
عز الدين كيكاوس الثاني 1246- 1260
ركن الدين قليج أرسلان الرابع 1248- 1265
علاء الدين كيقباد الثاني1249-1257
عز الدين كيكاوس الثاني *(للمرة الثانية)* 1257- 1259
ركن الدين قليج أرسلان الرابع *(للمرة الثانية)* 1257- 1264
غياث الدين كيخسرو الثالث 1265-1282
غياث الدين مسعود الثاني 1282- 1284
علاء الدين كيقباد الثالث 1284-1301 ؟؟
غياث الدين مسعود الثاني *(ثاني مرة)* 1303-1308
ثم تولى المغول الأمر ثم ملوك الطوائف ثم العثمانيون.

طغرل بك

ركن الدين طغرل بك بن سلجوق (990 - 4 سبتمبر 1063 م) كان ثالث حكام السلاجقة قام بتوطيد أركان الدولة السلجوقية وبسط سيطرة السلاجقة على إيران وأجزاء من العراق. اعتلى السلطة في عام 1016 م.

بعد أن هزم خانات بخارى الذين كان يتبع لهم طغرل بك في عام 1025 من قبل محمود الغزنوي اضطر طغرل بك وعمه أرسلان وأخوه جغري أن يغادروا لخوارزم. قام هو وأخوه بالسيطرة على مدن مرو ونيسابور في عام 1028 م ولم تمض مدة من الزمن إلا وسيطر طغرل على منطقة خراسان بأكملها. في عام 1040 م قاد جيش السلاجقة في معركة داندناقان ضد جيوش مسعود ابن محمود الغزنوي. اتجه بعدها طغرل لإيران فأدخلها في حكمه ثم دخل بغداد عام 1055 وأعلن تبعية السلاجقة للخلافة العباسية. في عام 1058 قام بإخماد عصيان الفاطميين حيث ثار الفاطميون (العبيديون) على السلاجقة وسيطروا على القاهرة لفترة وجيزة.

يعد طغرل بك، المؤسس الحقيقي لدولة السلاجقة، التي نشأت على يديه، وهو أول من حمل الراية الحمراء ذات الهلال والنجمة، والذي أصبح فيما بعد علما لتركيا، ومدت سلطانها تحت سمعه وبصره حتى صارت أكبر قوة في العالم الإسلامي، وتوفي سنة (455 هـ/1063 في الري دون أن يترك ولدا يخلفه على الحكم، فشب صراع على السلطة حسمه ابن أخيه ألب أرسلان لصالحه، بمساعدة وزيره النابه نظام الملك.

ألب أرسلان

سلطان السلاجقة العظام

تمثال ألب أرسلان

الفترة 1064 - 1072
تتويج 27 April 1064
الاسم الكامل محمد بن داود جفري
ولادة 1029
توفي عام 1072 عن عمر 43 عام
مكان الوفاة نهر أوكوز تركستان
دفن ميرف - تركستان
السلف طغرل
الخلف مالك شاه الأزل
الأب جفري بيك
اعتقاد ديني **إسلام سني**

عضد الدولة أبو شجاع ألب أرسلان محمد بن جفري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق (1029-15 ديسمبر 1072 م) كان رابع حكام السلاجقة ، ويعني اسم ألب أرسلان **الأسد الثائر** وهو الاسم الذي اكتسبه من مهاراته في القتال وانتصاراته العسكرية.

بعد وفاة طغرل بك المؤسس الحقيقي لدولة السلاجقة سنة 455 هـ /1063 م تولى ألب أرسلان ابن أخيه حكم السلاجقة، وكان قبل أن يتولى السلطنة يحكم خراسان وما وراء النهر بعد وفاة أبيه داود عام 1059 م ، وكان يعاونه دوما وزيره أبو علي حسن بن علي بن إسحاق الطوسي ، المشهور بنظام الملك . استطاع في عهده أن يفتح أجزاء كبيرة من آسيا الصغرى وأرمينيا وجورجيا.

لم يتولى ألب أرسلان بتولى الحكم والرئاسة حتى قامت العديد من الفتن والثورات كان أولها ثورة أخيه سليمان وابن عم أبيه شهاب الدولة قتلمش سنة 456 هـ / 1064م وبعد أن استولى على الري عاصمة الدولة وأعلن نفسه سلطانا . أحبط ألب أرسلان محاولة من عمه بيغو للاستقلال بإقليم هراة سنة 457 هـ / 1065 م وبعد سنوات من العمل الجاد نجح ألب أرسلان في المحافظة على ممتلكات دولته ، وتوسيع حدودها ، ودانت له الأقاليم بالطاعة والولاء ، وقام بإخماد الثورات المتتالية من القبائل التركمانية التي تعيش على السلب والنهب.

وكان ألب أرسلان امتدادا لعمه طغرل في القدرة والكفاءة والمهارة والقيادة، فحافظ على ممتلكات دولته، ووسع حدودها على حساب الأقاليم المسيحية للأرمن وبلاد الروم، وتوج جهوده في هذه الجبهة بانتصاره على الإمبراطور ألكسيوس الأول في معركة ملاذ كرد في ذي القعدة 463هـ / أغسطس 1071 وأسر الإمبراطور ألكسيوس الذي لم يخلص نفسه إلا بفدية كبيرة قدرها مليون ونصف دينار وعقد البيزنطيين صلحا مع السلاجقة مدته خمسون عاما، واعترفوا بسيطرة السلاجقة على المناطق التي فتحوها من بلاد الروم.

قتل بعدها في 10 ربيع الأول 465هـ / 29 نوفمبر 1072 على يد أحد الثائرين عليه، وهو في الثالثة والأربعين من عمره ، وخلفه ابن ملك شاه.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

أرتقيون

الأرتقيون ، بنو أرتق : سلالة تركمانية في جنوب الأناضول ، ديار بكر وشمال الفرات ، حكمت ما بين 1098 م - 1232 م ، (بعض الفروع حتى 1408 م) .
المقر : ماردين وديار بكر.

تاريخ الأرتقيون :

بعد انتصار السلاجقة في معركة ملاذكرد جاء الأرتقيون إلى الأناضول مع القبائل التركية الأخرى. كان مؤسس السلالة " أرتق بن أكسب " حاكما للقدس وفلسطين من قبل السلاجقة عام 1086 م. خلفه أبناؤه سنة 1091 م. قام الفاطميون بطردهم من فلسطين سنة 1098 م. فرت الأسرة إلى شمال العراق وشرق سورية واستطاعت أن تؤسس إمارة جديدة.
أسس "سقمان" 1098 - 1104 م فرعا حكم في ديار بكر وحصن كيفا (1098-1232 م) ، كما قام أخوه الغازي (1104-1122 م) والذي شغل منذ 1101 منصبا مهما لدى دولة العباسيين (متصرف بغداد) . بتأسيس فرع حكم في ماردين وميافارقين (1104-1408 م) ثم فرعا آخر حكم في خرتبرت (هاربوت) (1185-1233 م).
في بدايات عهد حكم الأسرة كانت رسميا تحت سلطة السلاجقة ثم وضعت نفسها تحت سلطة الزنكيين ثم الخوارزمشاهات. لم تعرف دولة الأرتقيون الاستقلال الحقيقي إلا مع ظهور الإمارات الصليبية في بلاد الشام . بلغت الدولة أوجها في عهد نصر الدين محمود (1201-1222 م) في ديار بكر. قضى الأيوبيون سنة 1232 م على هذا الفرع ، ثم جاءت نهاية فرع ماردين على يد الخرفان السود (القراقويونلو) سنة 1408 م.

قائمة الأمراء في ماردين :

	الحاكم	الحكم
1	نجم الدين الغازي السعيد بن أرتق	1104-1122
2	حسام الدين تيمور شاه بن إلغازي	1122-1152
3	نجم الدين ألبي بن تيمور شاه	1152-1176
4	قطب الدين إلغازي الثاني بن ألبي	1176-1184
5	حسام الدين يلق أرسلان بن إلغازي	1184-1185
6	نصير الدين أرتق أرسلان بن إلغازي	1200-1239
7	نجم الدين غازي السعيد بن أرتق أرسلان	1239-1259
8	قرا أرسلان بن غازي	1259-1291
9	شمس الدين داود بن قرا أرسلان	1291-1293
10	نجم الدين غازي الثاني بن قرا أرسلان	1293-1312
11	عماد الدين علي ألبي بن غازي	1312-1312
12	شمس الدين صالح الأول بن غازي	1312-1363
13	أحمد المنصور بن صالح	1363-1367
14	محمود الصالح بن أحمد	1367-1367
15	المظفر داود بن صالح	1367-1376

16	الظاهر عيسى بن داود	1376-1406
17	الصالح الثاني بن داود	1406-1408

قائمة الأمراء في خرتبرت

	الحاكم	الحكم
1	أبو بكر بن قرا أرسلان	1185-1203
2	نظام الدين إبراهيم بن أبي بكر	1203-1223
3	أحمد الخذر بن إبراهيم	1223-1234
4	نور الدين أرتق شاه بن الخذر	1234-1234

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

زنكيون

تقديم :

حكم **الزنكيون** أو **بنو زنكي** في شمال سوريا والعراق ما بين عامي 1127-1174 م (في الموصل) ، وكانت عاصمتهم الأولى حلب، ثم دمشق منذ عام 1154 م.

مؤسس السلالة **آق سنقر**، كان من الجنود المماليك للسلاجقة. كان أتابكا (قائد عسكري) على حلب من قبل القائد السلجوقي **تتش** . أصبح ابنه عماد الدين زنكي (1127-1146 م) واليا على العراق، تمكن بعدها من غزو الموصل عام (1127 م)، حلب عام (1128 م) ومدن أخرى في الشام. بفضل سياسته الحكيمة وحملاته الناجحة ضد الإمارات الصليبية في الشام ، استطاع أن يحكم قبضته على كامل العراق وأجزاء مهمة من الشام. خلفه ابنه نور الدين (1146-1174 م) في بلاد الشام ، تمكن من الاستيلاء على دمشق عام (1154 م). بعد وفاة أخيه سيف الدين (1146-1149 م) ضم بلاد العراق وبلاد الشام إلى دولته. استمر هذا الفرع حتى عام 1262 م.

قاد نور الدين زنكي دولة بنى زنكي إلى أوجها، واتخذ من دمشق عاصمة له تميز عهده بتطور حركة العمران وازدهار اقتصاد الدولة. تمكن من أن يمد حدوده حتى مصر، حيث قضى قائده أسد الدين شيركوه على الخلافة الفاطمية فيها. ثم قام الناصر صلاح الدين الأيوبى بتأسيس الدولة الأيوبية في مصر. ومع وفاة نور الدين زنكي عام 1174 م قام صلاح الدين بضم بلاد الشام إلى دولته في مصر.

قامت فروع عديدة للعائلة غير الموجودة في **دمشق** وحلب كتلك التي في سنجار (1170-1220 م) والجزيرة (1180-1250 م)، قضى عليها الأيوبيون جميعا. استمر فرع الموصل حتى عام 1262 م وأنهى الإلخانات وجودهم نهائيا.

العمران :

حدثت طفرة ونهضة عمرانية في الكثير من البلدان التى حكمها الزنكيون. ومن اهمها الجوامع النورية في حماة وحمص والموصل . والبيمارستان النوري. وأعيد أيضا ترميم الكثير من القلاع والأبواب.

2 - الزنكيون في الموصل :

الترتيب	الحاكم	الحكم
1	عماد الدين زنكي بن آق سنقر	1127-1146
2	سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي	1146-1149
3	قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي	1149-1169
4	سيف الدين غازي الثاني بن قطب الدين مودود	1169-1180
5	عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود	1180-1193
6	نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود	1193-1210
7	عز الدين مسعود الثاني بن نور الدين أرسلان شاه	1210-1218
8	نور الدين أرسلان شاه الثاني بن عز الدين مسعود الثاني	1218-1219
9	ناصر الدين محمود	1219-1233
10	بدر الدين لؤلؤ	1233-1259

الزنكيون في حلب :

الحاكم	الحياة	الحكم

1	العادل نور الدين محمود زنكي	1118-1174	1146-1174
2	الصالح إسماعيل بن نور الدين	1183-....	1174-1183

الزنكيون في دمشق :

	الحاكم	الحياة	الحكم
1	العادل نور الدين محمود زنكي	1118-1174	1154-1174

آق سنقر البرسقي

أبو سعيد آق سنقر البرسقي الغازي(? -487 هـ) الملقب قسيم الدولة سيف الدين؛ صاحب الموصل والرحبة وتلك النواحي.

ملكها بعد أسباسلار مودود، وكان مودود بها وببلاد الشام من جهة السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي فقتل مودود بجامع دمشق يوم الجمعة 12 ربيع الآخر سنة 507 هـ، وكان قد وثب عليه جماعة من الباطنية فقتلوه، وآق سنقر يومئذ شحنه بغداد، كان ولاه إياها السطان محمد في سنة 498 هـ لما استقرت له السلطنة بعد موت أخيه بركياروق. وفي سنة 499 هـ وجهه السلطان محمد لمحاصرة تكريت وكان بها كيقباذ ابن هزاراسب الديلمي المنسوب إلى الباطنية، فأصعد آق سنقر إليه في رجب من السنة المذكورة وحاصره إلى محرم من سنة 500 هـ، فلما كاد أن يأخذها أصعد إليه سيف الدولة صدقة فتسلمها، وانحدر كيقباذ صحبته ومعه أمواله وذخائره، فلما وصل إلى الحلة مات كيقباذ، فلما وصل خبر قتل مودود تقدم السلطان محمد إلى آق سنقر بالتجهيز إلى الموصل والاستعداد لقتال الفرنج بالشام، فوصل إلى الموصل وملكها وغزا، ودفع الفرنج عن حلب وقد ضايقوها بالحصار، ثم عاد إلى الموصل وأقام بها إلى أن قتل.

وهو من كبراء الدولة السلجوقية وله شهرة كبيرة بينهم. قتلته الباطنية بجامع الموصل، وذكر أنهم جلسوا له في الجامع بزي الصوفية، فلما انفتل من صلاته قاموا إليه وأثخنوه جراحا في ذي القعدة، وذلك لأنه كان تصدى لاستئصال شأفتهم وتتبعهم وقتل منهم عصبة كبيرة.

وتولى ولده عز الدين مسعود موضعه ، ثم توفي يوم الثلاثاء 22 جمادى الآخرة سنة 521 هـ؛ وملك بعده عماد الدين زنكي بن آق سنقر.

عماد الدين زنكي

مدخل :

عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله. أبو المظفر الأتابك. الملك المنصور عماد الدين. قائد عسكري وحاكم مسلم ، تركي (تركماني) الأصل حكم أجزاء من بلاد الشام وحارب الصليبيين.

كان أبوه مملوك السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي. ولاه الخليفة المسترشد سنة 516 هـ على الموصل بعد موافقة السلطان محمود ابن السلطان محمد بن ملكشاه وفي سنة 521 هـ ملك حلب بتوقيع السلطان محمود واستولى على (الرحبة) و(الجزيرة الفراتية) وفتح الرها سنة 539 هـ, وكان يحتلها

الصليبيون بزعامة (جوسلان). في عام 541هـ توجه إلى قلعة (جعبر) على نهر الفرات في بلاد الشام وحاصرها وأصبح في إحدى الليالي مقتولا، قتله خادمه وهو راقد على فراشه ليلا، ودفن بصفين، وخلفه ابنه سيف الدين غازي في الموصل وخلفه ابنه نور الدين محمود في حلب ثم في دمشق. كان شديد الهيبة على جنده ورعيته. عظيم السياسة، يحمي الضعفاء، ويخافه الأقوياء. عمر البلاد وكانت قبله خرابا، وأشاع الأمن وقطع دابر اللصوص. كان الناس في زمانه بأنعم عيش. توفي عن 64 عاما

مقدمة :

عندما يحيى الإنسان لهدف ما يجعله نصب عينيه بحيث لا يرى غيره ولا يعمل إلا لتحقيقه ولا يفكر في سواه، يدندن حوله ليل نهار، يسعى للوصول إليه بكل السبل، فإن هذا الإنسان مهما كان حاله يستحق الإعجاب والثناء والتقدير، كيف إذا كان هذا الهدف هو الدفاع عن الأمة الإسلامية وإنقاذ المقدسات الأسيرة وتحرير الأراضي المحتلة، كيف وإذا كان الساعي لتحقيق هذا الهدف السامي هو أول من سعى لتحقيقه؟ وكيف إذا كان معظم من حوله أو حتى كلهم يعمل ضده ويعيقه في هذا السعي الحميد ؟ فهو كالمغرد والطائر وحده في سماء مليئة بالغيوم والكواسر، وبطلنا الذي سنسرد سيرته هو رائد الجهاد الإسلامي ضد الوجود الصليبي بالشام بعد أن ظن الجميع أنهم لن يخرجوا أبدا من بلاد الإسلام، هذا البطل الذي كسر أسطورة الصليبيين الذين لا يقهرون هو البطل العظيم عماد الدين زنكي.

البطل بن البطل :

كان من النتائج الطيبة لاهتمام الوزير العظيم ' نظام الملك ' بالعلم والمدارس وأهل الصلاح خلال وزارته لسلاطين السلاجقة العظام ألب أرسلان وولده ملكشاه ، وحرصه على استعمال الأكفاء وأصحاب الديانة في المناصب الهامة والقيادية، أن سطع نجم العديد من الرجال والأبطال على مستوى عال من الكفاءة والمسئولية وكان لهم الأثر العظيم في حفظ بلاد الإسلام، من هؤلاء القائد ' آق سنقر بن عبد الله التركى ' الملقب بقسيم الدولة وكان له مكانة عظيمة عند السلطان ملكشاه السلجوقى حتى أنه قد جعله واليا على حلب، وقد قتل هذا القائد في دفاعه عن الدولة السلجوقية ضد الخارجين عليها ولم يترك وراءه سوى ولد صغير في العاشرة من العمر هو بطلنا الفذ ورائد الجهاد ضد الصليبيين عماد الدين زنكي.

تولى الأمير كربوقا أمير الموصل تربية عماد الدين زنكي وتعهده بالعناية والرعاية وتعليمه فنون الفروسية والقيادة والقتال، وترقى في سلك الجندية حتى صار مقدم عساكر مدينة واسط ثم ظهرت كفاءته القتالية سنة 517هـ في قتاله مع الخليفة العباسى المسترشد بالله ضد دبيس بن صدقة مما جعل السلطان السلجوقي محمود يرقيه ليصبح قائد شحنة بغداد سنة 521هـ ويعطيه لقب الأتابك أى مربي الأمير، ذلك لأنه توسم فيه الخير والصلاح والنجابة، فعهد إليه بتربية ولديه ألب أرسلان وفروخ شاه.

من القيادة إلى الولاية :

بعد أن أصبح عماد الدين زنكي قائدا، حدث تغير كبير في مجرى الأحداث في منطقة الشام الملتهبة حيث توفى أمير الموصل عز الدين مسعود، وحاول بعض المنتفعين توليه ولده الصغير مكانه، ولكن قاضى الموصل بهاء الدين الشهرزورى ذهب إلى السلطان محمود وطلب منه تعيين أمير قوى وكفء للموصل التي على حدود الشام حيث الوجود الصليبي الكثيف في سواحل الشام منذ ثلاثين سنة والذي أسفر عن قيام أربع ممالك صليبية أنطاكية ـ الرها ـ طرابلس ـ بيت المقدس في الشام هذا غير سيطرة الصليبين علي أغلب بلاد الشام.

بعد تفكير سريع وإمعان نظر عميق قرر السلطان محمود أن يسند ولاية الموصل وأعمالها إلى بطلنا عماد الدين زنكي، الذي لم يجد السلطان محمود أفضل منه لهذه المهمة، وكانت هذه الولاية سنة 521 هجرية، وكان هذا التاريخ إيذانا بعهد جديد في الصراع ضد الصليبيين وفاتحة خير على الأمة كلها.

الأوضاع على الجبهة الشامية :

عندما تولى عماد الدين زنكي الموصل تسنى له أن يرى الأوضاع على الجهة الشامية عن قرب حيث كانت الصورة قاتمة . فالصليبيون قد احتلوا معظم سواحل الشام وأقاموا أربع إمارات صليبية بالشام والجزيرة السورية، أما المدن والحصون التي تحت حكم المسلمين فهي تعانى من الفرقة والاختلاف والتنافر وربما التقاتل فيما بينها، فكل وال على مدينة يتعامل فيها كأنه ملك مستقل عن سائر البلاد، وأغلبهم بل كلهم يتقى شر الصليبيين ويتحاشى الصدام معهم خوفا على ضياع ملكه وانهدام دنياه، مثل ما هو واقع اليوم بين حكام الدول الإسلامية وهذا الخذلان من ولاة الأمصار يسهل للصليبيين مهمتهم وجعل وجودهم في الشام والبلاد الإسلامية يترسخ شيئا فشيئا.

أضف إلى ذلك أن الأمصار الإسلامية كلها تقريبا كانت في حالة فوضى واضطراب، فالخلاف على أشده بين أمراء البيت السلجوقي بعضهم بعضا، كذلك الخلاف بين السلطان مسعود السلجوقي والخليفة العباسي المسترشد بالله على أشده. ومن خلال النظر في هذه الأوضاع كلها قرر عماد الدين زنكي أخذ زمام المبادرة والقيام بعمل لم يسبقه فيه أحد ووضع نصب عينيه هدفا عظيما طالما حلم المسلمون بتحقيقه ولكن يتعد نطاقه الأحلام إلى الحقيقة، قرر البطل تحرير بلاد الشام من الوجود الصليبي .

بناء القاعدة الصلبة :

من البديهيات الأساسية في قتال أي عدو وطرد أي محتل وتحرير أي أرض أن تكون جبهة المقاومة والدفاع واحدة صلبة مجتمعة، إذ كيف يجاهد المسلمون بصف مهترئ ممزق لذا كان أول ما سعى عماد الدين لتحقيقه هو تكوين وبناء القاعدة الصلبة للمسلمين بتوحيد الجبهة الداخلية للأرض الشام، وربما كانت هذه المهمة هي أصعب مرحلة في مراحل الانتصار.

بدأ عماد الدين زنكي بمدينة حلب الهامة في المنطقة الشمالية من بلاد الشام في 1 محرم سنة 522 هجرية أى بعد شهور قليلة من ولايته على الموصل مما يوضح أن هذا الرجل الفذ كان يملك خطة شاملة ورؤية واضحة معدة سلفا لحركته بأرض الشام، ولم يكن ضمة لمدينة 'حلب' بالشيء السهل فلقد ظل محاصرا لها عدة شهور قبل فتحها وكان عليها بعض الطامعين المتغلبين، ثم قام بعدها بضم مدينة 'حماة' في السنة التالية 523 هجرية، ثم ضم مدينة سرجى ودارا ثم حصن الأثارب وكان بيد الصليبيين، ثم انشغل عماد الدين زنكي بالخلافات العنيفة بين الخليفة المسترشد والسلطان مسعود بل تورط فيها وذلك لعدة سنوات، ثم عاد بعدها لهدفه الأسمى وضم عدة قلاع الأكراد الحميدية والهكارية وقلعة الصور وواصل سعيه حتى استقامت له ديار بكر وإقليم الجبال سنة 528 هجرية.

استقامت معظم بلاد الشام لعماد الدين زنكي عدا ما كان بيد الصليبيين ودمشق قلب الشام وحاضرته وقد حاول زنكي ضم دمشق سنة 529 هجرية ولكنه فشل وبقيت خارج سلطته وبقي يخطط ويفكر كيفية الوصول إلى دمشق.

بعد أن تم لعماد الدين زنكي معظم ما أراد من تكوين القاعدة الصلبة، بدأ في العمل الحقيقي والجهاد الأصيل ضد أعداء الأمة المحتلين لمقدساتها، وكان الصليبيون قبل مجيء عماد الدين زنكي يخططون

للاستيلاء على أرض الشام وسوريا كلها ثم مصر بعدها، فلما جاء أسد الشام الجديد صار غاية سعيهم الحفاظ على ما تحت أيديهم.

ولما ازدادت قوة عماد الدين زنكي في حلب وثقلت وطأته على الصليبيين في الشام فكروا في الاستعانة بإمبراطور القسطنطينية 'عمانوئيل' ورغم الاختلاف المذهبى بينهم فهم كاثوليك وهو أرثوذكسي إلا إنهم في النهاية صليبيون فوافق 'عمانوئيل' على نجدتهم.

رجل المهام الصعبة :

أصبحت بلاد الشام في موقف حرج بالغ الخطورة فإمبراطور بيزنطة 'عمانوئيل' جاءها بجيوش جرارة سنة 532 هجرية واخترق أسيا الصغرى ولم يقدر أحد من سلاجقة الروم على إيقافه ودخل إلى سوريا بعد أن استولى على مدينة 'بزاعة' وهى قريبة من حلب فغدر بأهلها بعد أن أعطاهم الأمان فقتلهم وسبى نساءهم وهنا وقعت المنطقة بين مطرقة إمبراطور بيزنطة وسندان الصليبيين الفرنجة بالشام وهنا برز رجل المهام الصعبة.

بعد نظر وتمعن في هذه النازلة العامة قرر عماد الدين زنكي العمل في اتجاهين :

الاتجاه الأول : مناوشة إمبراطور بيزنطة بشن حرب عصابات على معسكره باستخدام المجاهدين المتطوعين في الشام ضد الأعداء بالكر والفر وإظهار القوة والشجاعة وإرسال رسائل تهديد ووعيد لهذا الإمبراطور على الرغم من الفارق الضخم بين القوتين وذلك من أجل إرهاب البيزنطيين ومنعهم من التقدم.

الاتجاه الثاني : إيقاع الخلاف بين البيزنطيين والفرنجة ، فلقد كان عماد الدين زنكي من دواهي العصر ذكاء وفطنة وحدة بصيرة فلقد استغل الخلاف المذهبي بين الأرثوذكس والكاثوليك للتفريق بينهما، فأرسل إلى إمبراطور بيزنطة يخوفه من نكصان الفرنجة للعهود وأنهم يتربصون به فإن فارق مكانه الذي فيه 'قلعة شيزاز' بالقرب من حماة سيتخلفون عن نصرته ثم أرسل إلى الصليبيين الفرنجة يخوفهم من إمبراطور بيزنطة ويقول لهم إن ملك بالشام حصنا واحدا ملك بلادكم جميعا.

نجحت خطة عماد الدين زنكي ووقع الخلاف بين الطرفين وانسحب الإمبراطور من الشام وترك المجانيق وأسلحة كثيرة بحالتها غنمها جيش الشام ، وحرروا أسرى المسلمين، وارتفعت مكانة عماد الدين بين المسلمين وعظمت هيبته في صدور الصليبيين وأثبت للجميع أنه رجل المهام الصعبة. وقد حاول بعدها فتح دمشق ولكنه فشل بسبب حصانتها وقوة حاكمها معين الدين أنر فلم يستطع عماد الدين تحقيق حلمه في أهم مدن الشرق.

فتح الرها :

تقع إمارة الرها في منطقة الجزيرة الفراتية وهى المنطقة الواسعة الواقعة بين نهر الفرات ونهر دجلة، وقد فتحها المسلمون سنة 17 هجرية ، و'الرها' من البلاد التي كان لها خصوصية عند البيزنطيين لأنها إحدى المدن الدينية عندهم وكانت تنتشر بها الكنائس والصوامع، وأيضا لها خصوصية عند المسلمين لكونها على حدود الدولة الإسلامية المشتركة مع الدولة البيزنطية، وكان الخلفاء دائمي الاهتمام بهذه المنطقة، ولكن مع ضعف الخلافة العباسية وخروج كثير من أجزاءها عن سيطرتها تعرضت منطقة الرها للعدوان المتكرر من البيزنطيين.

وعندما انطلقت شرارة الحملات الصليبية احتل الصليبيون 'الرها' وأقاموا بها أول إمارة صليبية في منطقة الجزيرة السورية وذلك سنة 492 هجرية. كان أميرها صليبى اسمه 'جوسلين' ففهم من تحركات عماد الدين زنكي أنه يخطط لفتح الرها فعمد إلى تقوية دفاعاتها والمبالغة في تحصينها وظل مقيما في الرها لا يفارقها أبدا رغم أن زوجته وأولاده بفرنسا ولكنه صبر في فراقهم من أجل الدفاع عن الرها وهكذا يكون عزم الرجال وهمة القادة.

كان عماد الدين زنكي يعرف قدر 'جوسلين' ودهائه وحنكته لذلك وضع خطة في غاية الذكاء فهو كما يقولون [لا يفل الحديد إلا الحديد] فلقد أظهر عماد الدين أنه مشغول بحرب القبائل الكردية التي تسيطر على قلاع كثيرة في منطقة ديار بكر 'جنوب تركيا الآن' ولا تقبل الانضمام لصف عماد الدين زنكي لدواعي عصبية وقبلية ، وبالفعل انطلت هذه الخدعة على 'جوسلين' الذي خفف من شدة التحصينات وتراخى في دفاعاته حتى أنه قد سافر لزيارة أهله في فرنسا ، وكان عماد الدين زنكي قد بث العيون التي ترافع له الأخبار ليل نهار فلما علم مغادرة 'جوسلين' وتراخت الدفاعات ، نادى في معسكر جيشه بالاستعداد للهجوم على الرها.

كان عماد الدين من أشجع الناس وأقواهم وأجراؤهم في القتال لا يجاريه أحد من جنده في ذلك ، وقبل القتال وضع عماد الدين مائدته للطعام وقال [لا يأكل معى على المائدة إلا من يطعن معي غدا باب الرها] وهى كناية عن شدة القتال والشجاعة لأن طاعن الباب يكون أول فارس في الجيش يصل لباب المدينة ولا يفعل ذلك إلا أشجع الناس، فلم يجلس معه على المائدة إلا صبى صغير فقيل له : ارجع ما أنت في هذا المقام، فقال له عماد الدين زنكي القائد المربى القدوة الذي يعرف كيف يحمس الشباب والنشء ويحفز طاقاتهم [دعوه فوالله إنى أرى وجها لا يتخلف عنى] وبالفعل أثمرت هذه الكلمات عن طاقة جبارة عند الصبي فكان أول طاعن وأول بطل في هذه المعركة وفتحت المدينة في 6 جمادى الآخرة سنة 539 هجرية وكان لفتحها رنة شديدة في العالمين الإسلامي والصليبي ، فلقد كان أعظم انتصار حققه المسلمون على الصليبيين منذ دخولهم للشام منذ خمسين سنة، وأعاد ذاكرة الانتصارات لهم وسرت روح جهادية كبيرة عند المسلمين بعدها وعادت لهم الثقة وتغلبوا على الهزيمة النفسية تجاه الصليبيين والتي أقعدتهم عن السعي للتحرير عشرات السنين.

أما الصليبيون فقد نزلت بهم أعظم المصائب وفقدوا أهم إمارة صليبية لهم بالمنطقة، ولقد قاموا بحملتهم الصليبية الثالثة على الشام سنة 543 هجرية لاسترجاع الإمارة ولكنهم فشلوا.

الأبطال لا يقتلون إلا غدرا :

إن الأسود لا يقتلون إلا في الظلام وإن الأبطال لا ينالون إلا بالغدر والخيانة، وتلك هي المأساة الكبيرة التي عانت منها أمة الإسلام على مر عصورها، فكلما ظهر فيها بطل أو قائد أو داعية أو عالم في الشرع أو في فرع من فروع العلوم أو نبغ أحد في أى مجال من المجالات التي ستحقق خيرا ونفعا للمسلمين فإن أعداء الأمة والدين يعملون على إزاحة هذا النابغة بشتى الوسائل إما بالإغراء والاستقطاب أو بالسجن والنفي أو بالقتل والغدر، وثبت الأبطال والأفذاذ الذين قتلوا غدرا طويل وممتد منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم حتى وقتنا الحاضر.

بعد الانتصار في 'الرها' ضاقت السبل على أعداء الإسلام وأصبح كيانهم الصليبي بالشام والذي بنوه في خمسين سنة في خطر حقيقي في ظل وجود هذا الأسد الرابض، وبعد أن أعيتهم الحيل في ميادين القتال وصار ينتصر الأسد عماد الدين زنكي عليهم في كل موطن من الجزيرة الفراتية والشام ، قرروا اللجوء إلى سلاح الغدر والخيانة والأيدي القذرة التي لا تعمل إلا في الظلام.

فكر الصليبيون في كيفية التخلص من عماد الدين زنكي وبعد تفكير وتقليب في من سيقوم بهذه المهمة قرروا إسناد مهمة الاغتيال إلي جماعة معروفة بذلك وبالفعل وفى 6 ربيع الآخر سنة 541 هجرية وقام عماد الدين زنكي يحاصر أحد القلاع المطلة على نهر الفرات واسمها 'قلعة جعبر' قامت مجموعة من الباطنية بالاتفاق مع الصليبيين بعد أن قبضوا الثمن بالتسلل إلى معسكر عماد الدين زنكي واندسوا بين حراسه وفى الليل دخلوا عليه خيمته وهو نائم وقتلوه وهكذا مات البطل وترجل الفارس وحط الراكب بعد حياة طويلة كلها جهاد وكفاح ونصرة للإسلام وأهله وبعد أن أحيا ما كان مندثرا وأعاد ما كان مفقودا ووضع الأساس المتين لمن جاء بعده .

واسمع ما قاله عنه المؤرخون قال ابن الأثير الجزري في وصفه [كان شديد الهيبة في عسكره ورعيته عظيم السياسة لا يقدر القوى على ظلم الضعيف وكانت البلاد قبل أن يملكها خرابا من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنجة -، فعمرها وامتلأت أهلا وسكانا، وكان أشجع خلق الله].

وقال عنه ابن كثير الدمشقي [وقد كان زنكي من خيار الملوك وأحسنهم سيرة وشكلا وكان شجاعا مقداما حازما خضعت له ملوك الأطراف وكان من أشد الناس غيرة على نساء الرعية وأجود الملوك معاملة وأرفقهم بالعامة].

ولعل أكثر ما تميز بع عماد الدين زنكي عن قادة زمانه هو فهمه لحقيقة المشكلات التي تعانى منها الأمة الإسلامية وإحساسه بالمسئولية تجاه أمته وإيثاره لمصلحتها على مصلحته الخاصة وعمله بمقتضى ما يجب عليه وقتها، لذلك فاق ملوك زمانه وعلا ذكره عنهم، ويكفيه فخرا أنه قد خلف ورائه بطلا عظيما مثله وزيادة هو نور الدين محمود.

وقد لقب الناس عماد الدين زنكي بالشهيد لحرصه على طلب الشهادة في كل لقاء مع الأعداء حتى قدرها المولى جل وعلا له في آخر السعي .

الملك العادل : نور الدين زنكي

رسم للملك العادل نور الدين زنكي

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

تقديم :

نور الدين محمود زنكي (11 فبراير 1118 - 15 مايو 1174 / 511 - 569 هـ) وهو أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر. يلقب بالملك العادل، ومن ألقابه الأخرى ناصر أمير المؤمنين، تقي الملوك، ليث الإسلام، كما لقب بنور الدين الشهيد، رغم وفاته بسبب المرض. هو الابن الثاني لعماد الدين زنكي. حكم حلب بعد وفاة والده، وقام بتوسيع إمارته بشكل تدريجي، كما ورث عن أبيه مشروع محاربة الصليبيين. شملت إمارته معظم الشام، وتصدى للحملة الصليبية الثانية، ثم قام بضم مصر لإمارته وإسقاط الفاطميين والخطبة للخليفة العباسي في مصر بعد أن أوقفها الفاطميون طويلا، وأوقف مذهبهم. وبذلك مهد الطريق أمام صلاح الدين الأيوبي لمحاربة الصليبيين وفتح القدس بعد أن توحدت مصر والشام في دولة واحدة. تميز عهده بالعدل وتثبيت المذهب السني في بلاد الشام ومصر، كما قام بنشر التعليم والصحة في إماراته , يعده البعض الخليفة الراشدي السادس .

الفترة	511-569هـ 1118-1147 / م
تتويج	541هـ / ، حلب
الاسم الكامل	نور الدين محمود بن عماد الدين بن آق سنقر الزنكي
ألقاب	الملك العادل ، نور الدين الشهيد
ولادة	511 هـ 1118 / م
توفي	569 هـ 1147 / م (عن عمر 59 سنة)
مكان الوفاة	دمشق
دفن	المدرسة النورية في سوق الخواصين
السلف	عماد الدين زنكي
الخلف	إسماعيل بن نور الدين
نسل	أنجب ولدين وبنت
سلالة	الدولة الزنكية
اعتقاد ديني	مسلم سني

الأصول وبداياته :

وصول الزنكيون إلى الإمارة :

ينتسب نور الدين إلى السلاجقة الأتراك ، فجده آق سنقر بن آل ترغان يعود نسبه إلى قبيلة ساب يوب. كان جده مملوكا للسلطان جلال الدولة ملك شاه ، وكان عسكريا وملاصقا للسلطان.

وفي سنة 480 هـ / 1087 م، أصدر السلطان السلجوقي جلال الدولة ملك شاه أمرا بتعيين آق سنقر على حلب بسبب إخلاصه للسلطان أثناء حروبه، وخشية من أطماع أخيه تتش بن ألب أرسلان في بلاد الشام. كما أوصى سائر الأمراء بطاعته، فسار آق سنقر إلى حلب على رأس جيش كبير، وأقام فيها بعض الوقت ريثما يدبر أمورها ويصلح أحوالها. لكن بعد وفاة جلال الدولة ملك شاه حصل قتال بين تتش بن ألب أرسلان وآق سنقر انتهى بأسر وقتل آق سنقر.

كان عمر عماد الدين زنكي 10 أعوام عند وفاة والده آق سنقر. مكث عماد الدين في حلب عاما واحدا عند مماليك وقادة أبيه، وما لبث أن استدعاه والي الموصل كربوقا بعد استلامه الولاية ليقوم برعايته

لإدراكه مكانة آق سنقر في نفوس التركمان ، وما يكنونه له من ولاء وطاعة. وبقي عماد الدين مواليا لولاة الموصل الذين عينهم السلطان محمد بن ملكشاه، ورافقهم في معاركهم. ثم ولاه السلطان محمود بن محمد على ولاية الموصل سنة 521 هـ / 1127 م، فاستطاع ضم جزيرة ابن عمر وإربل وسنجار والخابور ونصيبين وجزء من ديار بكر، وعبر الفرات فملك منبج وحلب وحماة وحمص وبعلبك، وبذلك نجح في التوسع بإمارته لتشمل مناطق شاسعة.

نشأته :

ولد نور الدين في فجر يوم الأحد من 17 شوال 511هـ، وهو ثاني أولاد عماد الدين زنكي بعد سيف الدين غازي. لا تذكر المصادر التاريخية شيئا عن نشأة نور الدين وشبابه، ولكنها جميعا تؤكد أنه تربى في طفولته تحت رعاية وإشراف والده، وأن والده كان يقدمه على إخوانه ويرى فيه مخايل النجابة. بقي ملازما لوالده حتى وفاته. كان أسمر اللون طويل القامة حسن الصورة لا يوجد في وجهه شعر سوى ذقنه، كما كان حنفي المذهب. يرى بعض المؤرخون الحديثون أنه كان أشعري، في حين يرى آخرون أنه كان متبع للطريقة القادرية، ويرى آخرون أنه وفق بين القادرية والأشعرية. حكم نور الدين محمود حلب في حين حكم سيف الدين غازي الموصل. كان الحد الفاصل بين أملاك الأخوين هو نهر الخابور في الجزيرة السورية.

تزوج نور الدين عام 541 هـ / 1146 م من عصمة الدين خاتون ابنة الأتابك معين الدين أنر حاكم دمشق ، وكتب العقد في دمشق في 23 شوال. أنجب ولدين وبنت ، الأكبر إسماعيل الذي تولى الحكم من بعده، والأصغر أحمد مات طفلا.

إمارة حلب :

كان نور الدين برفقة أبيه حين قتل سنة 541 هـ (الموافق لسنة 1146 م) عند قلعة جعبر، في حين كان أخوه الأكبر سيف الدين مقيما في شهرزور. أخذ نور الدين خاتم والده، وذهب مع جنده إلى حلب فملكها هي وتوابعها في ربيع الآخر 541 هـ (الموافق فيه سبتمبر 1146 م) ، وكان عمر نور الدين زنكي آنذاك ثلاثين عاما.

انقسمت الدولة الزنكية بذلك إلى قسمين، الأول في الموصل والجزيرة وحمص التي سارع إليها سيف الدين غازي لتثبيت حكمه فيها، والثاني في حلب وما جاورها تحت إمرة نور الدين. كما حكم أخوهما نصرة الدين أمير أميران منطقة حران تابعاً لنور الدين، في حين بقي الأخ الرابع قطب الدين مودود تحت رعاية سيف الدين.

توسع الإمارة في بلاد الشام والعراق :

قام نور الدين بضم العديد من المدن والمقاطعات خلال مسيرة حياته على حساب الأسر العربية الحاكمة.

ضم الرها :

بعد وفاة عماد الدين زنكي خضعت الرها إلى حكم سيف الدين غازي، وبقيت في المدينة حامية صغيرة للدفاع عنها. فحاول جوسلين الثاني أمير كونتية الرها استعادة المدينة مستغلا تمردا للأرمن قام بالتحريض عليه بعد وفاة عماد الدين. فخرج على رأس قوة عسكرية متجها إلى الرها وسانده في ذلك

بلدوين حاكم مرعش في حين رفض ريموند الثاني حاكم أنطاكية مساعدته. استطاع جوسلين الثاني الدخول إلى البلدة في ربيع الآخر 541 هـ الموافق شهر سبتمبر من سنة 1146، لكنه لم يستطع دخول القلعة التي احتمت فيها الحامية بسبب قلة عدد قواته وأرسل طالبا المساعدة من إمارتي أنطاكية وطرابلس. أرسلت الحامية طلبا بالمساعدة. فخرج جيشان، جيش من حلب وجيش من الموصل بأمر سيف الدين، لكن الأخير وصل متأخرا.

خرج نور الدين من حلب على رأس جيش تعداده عشرات الآلاف من الفرسان وحاصر قوات جوسلين الثاني في جمادى الآخرة / نوفمبر من نفس العام مما أضطر جوسلين إلى الهرب. طارده نور الدين ووقعت معركة في سميساط ونجح جوسلين الثاني في الفرار بعد انتصار نور الدين. عاقب نور الدين أهالي الرها المتمردين بأن جعلهم نهبا لجيشه وطرد من بقي فيها من الفرنج ، وقد أقر سيف الدين غازي بحكم نور الدين على الرها بعد أن سيطر عليها.

ضم دمشق :

كانت أول محاولة لنور الدين للسيطرة على دمشق في سنة 545هـ (1150م) حين أرسل قواته لهناك لكن مسيرها تأخر بسبب هطول الأمطار فسارع مجير الدين أبق بالاستنجاد بالصليبيين ، فقرر نور الدين فك الحصار عن دمشق بعد أن وعده مجير الدين بأن ينقش اسمه على النقود وأن يدعو له في المساجد. سيطر الصليبيون على عسقلان سنة 548 هـ / 1153م، وانتزعوها من يد الفاطميين واعترضت دمشق بين نور الدين وبينها، وخشي نور الدين على دمشق خاصة بعد أن استطال الصليبيون على دمشق بعد ملكهم عسقلان ووضعوا عليها الجزية واشترطوا عليهم تخيير الأسرى الذين بأيديهم في الرجوع إلى وطنهم. فقام نور الدين بتكليف نجم الدين أيوب الذي كان حاكم بعلبك آنذاك، بكسب بعض القواد في دمشق وبث الشائعات ضمن دمشق وتحريض الشعب على الثورة، حتى ذهب نجم الدين مع بعض من حرسه لمقابلة مجير الدين والذي خشي بدوره من المقابلة ورفضها. فاعتبرها نور الدين إهانة فسير جيشه إلى دمشق. فاستنجد مجير الدين بالصليبيين على أن يعطيهم الأموال ويسلم لهم بعلبك فجمعوا واحتشدوا. في خلال ذلك عمد نور الدين إلى دمشق في محرم سنة 549 هـ (أبريل 1154 م) وكاتب جماعة من أحداثها ووعدهم من أنفسهم فلما وصل ثاروا بمجير الدين ولجأ إلى القلعة. وفتح أحد أبواب دمشق وهو باب شرقي ليدخل نور الدين منه وملك نور الدين المدينة وحاصر مجير الدين في القلعة وبذل له إقطاعا منها مدينة حمص. فسار إليها مجير الدين وملك نور الدين القلعة. ثم عوضه عن حمص ببالس فلم يرضها فرحل إلى بغداد وابتنى بها دارا وأقام بها إلى أن توفي.

ضم شيزر :

تملك شيزر موقع استراتيجي، فهي تقع على الخطوط التجارية بين حلب ودمشق وحمص، رغم ذلك لم يحاول نور الدين ضمها عسكريا. لكن حدث زلزال سنة 552 هـ دمر الحصن وقتل معظم أل منقذ . خشي نور الدين على شيزر من أن تقع تحت أيدي الصليبيين فوقف بجيشه في أطراف البلاد ورمم ما تضرر من أسوارها. وبذلك دخلها بعض أمراء نور الدين ومن ثم دخلها وملكها بعد أن مات جميع آل منقذ الذين اجتمعوا عند أميرها في دعوة فأصابتهم الزلزلة مجتمعين فسقطت عليهم القلعة ولم ينج منهم أحد.

ضم بعلبك :

بعد أن نجح نور الدين في ضم دمشق، أعلن الضحاك بن جندل البقاعي والذي كان تابعا لإمارة دمشق عصيانه على نور الدين. لكن نور الدين لم يقم بأي عمل ضده خوفا منه بأن يستنجد بالصليبيين.

وانتظر ثلاث سنوات حتى عقد اتفاق هدنة مع الصليبيين. وفي سنة 552 هـ / 1154م ضم نور الدين بعلبك دون أي مقاومة من الضحاك.

ضم حران :

كان نصرة الدين الزنكي حاكم حران وخاضعا في نفس الوقت لسلطان نور الدين. استمرت العلاقة هذه حتى سنة 552 هـ حيث ازدادت الطموحات السياسية لنصرة الدين وأراد السيطرة على حلب مستفيدا من مرض نور الدين، ودعم الإسماعيلية له، فقام بالسيطرة على المدينة إلا أن القلعة استعصت عليه. بعد فشل هذه المحاولة قرر نور الدين إخضاع حران لسيطرته المباشرة فقام بحصارها شهرين وسقطت في يده سنة 554 هـ / 1159م ولاذ أخوه بالفرار. إلا أن نور الدين استمال أخوه فيما بعد وشارك معه في حروبه ضد الصليبيين.

ضم قلعة جعبر :

حاول نور الدين ملاينة شهاب الدين العقيلي بعد أن تم أسره من قبل قبيلة بني كلاب وإكرامه أثناء أسره لتسليمه القلعة. لكن رفض شهاب الدين دفع نور الدين إلى محاصرة القلعة لكنه فشل عن فتح القلعة. فلجأ هذه المرة إلى أسلوب الإغراء بأن عرض عليه مناطق غنية وذات موارد زراعية تابعة لحلب إضافة إلى عشرين ألف دينار فوافق شهاب الدين. استلم نور الدين قلعة جعبر سنة 564هـ الموافقة سنة 1168م.

ضم الموصل :

استلم إمارة الموصل قطب الدين زنكي بعد وفاة سيف الدين غازي سنة 554 هـ. شارك مع نور الدين في معظم حروبه وأصبح يخطب له في إمارته طواعية دون كراهية. بعد وفاة قطب الدين استلم الإمارة ابنه سيف الدين غازي الثاني بدلا عن ابنه عماد الدين زنكي الثاني حسب وصية قطب الدين ، وذلك بمساعدة الوزير فخر الدين عبد المسيح بمساعدة الخاتون والدة سيف الدين . استطاع فخر الدين أن يصبح المسيطر والمتحكم بالإمارة. ضاق هذا الأمر على نور الدين فتوجه إلى الموصل على رأس جيشه فضم الأراضي الخاضعة لإمارة الموصل في طريقه مثل الرقة ونصيبين وضرب الحصار على سنجار حتى سقطت وأعطاها لابن أخيه عماد الدين وبدأ بفرض حصار على الموصل حتى استجاب فخر الدين عبد المسيح بتسليم الموصل مشترطا منحه إقطاعا في أي مكان يراه نور الدين مناسبا وببقاء سيف الدين غازي الثاني على إمارة الموصل. وافق نور الدين على ذلك وسيطر على الموصل في سنة 566 هـ.

الحروب الزنكية ضد الصليبيين :

عرين – فتح الرها – بصرى – حصار دمشق – إنب – عنتاب – بانياس – البقيعة – حارم – حملات صليبية على مصر

منبر نور الدين والمعروف بمنبر صلاح الدين.

وضع نور الدين نصب عينيه قتال الصليبيين منذ بداية استلامه لإمارة حلب وإنهاء جميع معاقل الصليبيين في بلاد الشام ، وكان هدفه تحرير القدس، حتى أنه أمر ببناء منبر سنة 563 هـ / 1168م ليضعه في المسجد الأقصى بعد أن يقوم بفتح المدينة وقد صنع هذا المنبر في دمشق بواسطة مهرة الحرفيين من دمشق وحلب. نقل هذا المنبر بالفعل إلى القدس بعد فتحها على يد صلاح الدين الأيوبي ودعي هذا المنبر فيما بعد بمنبر صلاح الدين.

قبل الحملة الصليبية الثانية :

بدأ نور الدين بمقاتلة الصليبيين مباشرة بعد استلامه الحكم وأولى المعارك كانت محاولة الصليبيين استرجاع الرها، والتي انتهت بسيطرة نور الدين على تلك الإمارة. في نفس العام تمرد توتنتاش والي بصرى على معين الدين أنر أمير دمشق والتي كانت تابعة إلى إمارة دمشق. طلب توتنتاش مساعدة الصليبيين في تمرده وتحركت جيوش الصليبيين بناءا على ذلك متجهة إلى دمشق. فما كان من معين الدين إلا أن يطلب المعونة من نور الدين، رغم القلق الذي كان ينتاب معين الدين من أطماع نور الدين في دمشق. أرسل نور الدين الرسل لطلب الزواج من أبنة معين الدين خاتون، ليبث الطمأنينة في قلب الأخير. إلتقى الجيش الحلبي والدمشقي في بصرى واستطاعوا أن يقضوا على التمرد بسرعة. من ثم توجهوا لملاقاة الجيش الصليبي الذي تراجع إلى القدس من دون حدوث أي مواجهة تذكر. حصل نور الدين على مدينة حماة مكافأة له على مساعدته لدمشق.

في سنة 542 هـ سيطر نور الدين على مناطق واسعة في بلاد الشام وخصوصا تلك التابعة لإمارة أنطاكية مثل إرتاح ومابولة وبصرفوت وكفر لاثا والبلاطة وبسرفوت.

الحملة الصليبية الثانية :

تحرك الصليبيين حتى حصارهم لدمشق.

سبب سقوط الرها صدمة لدى الصليبيين، وخشية من سقوط المزيد أصدر البابا إيجين الثالث أمرا بابويا بتجنيد حملة صليبية جديدة. استجاب لهذا الأمر كل من لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا. تحركت جحافل الجيوش الصليبية في صيف سنة 542هـ (1147م) وبلغ تعداد الجيشين الألماني والفرنسي نحو 70 ألف فارس، والتحقت بهم جموع ضخمة من الفلاحين والفقراء.

تحرك الجيش الألماني إلى القسطنطينية سنة 542 هـ / 1147م ومنها إلى نيقية ليبدأ تحركه إلى بلاد الشام. لكنه أصبح عرضة لضربات السلاجقة الروم وخسر عدد كبير من الجنود والعتاد بالإضافة إلى تعرضه للمجاعة والأمراض. أجبر هذا الملك الألماني أن يطلب من ملك فرنسا أن يلتحق بقية جيشه بالجيش الفرنسي، حينما التقى الجيشان في نيقية. ومن ثم انتقل الجيش إلى مدينة أنطاكية بعد أن ترك الملك الألماني الحملة متوجها نحو القسطنطينية بسبب مرض جلدي خطير، وبعد شفاءه توجه إلى القدس مباشرة. قام الملك لويس السابع بإعادة تنظيم الجيش بسبب كثرة هجمات السلاجقة أثناء المسير إلى أنطاكية وسرعان ما غادر أنطاكية متجها نحو القدس.

بعد اجتماع الصليبيين في القدس، تم عقد اجتماع آخر في مدينة عكا برعاية الملكة ميليسندا في 5 ربيع الأول 543 هـ / 24 يونيو 1148م ليقرروا خطة التحرك المستقبلية وليتفقوا على احتلال دمشق. تحركت الجيوش الصليبية بتعداد قدره ستين ألف فارس و 8 آلاف راجل بينهم 4 آلاف رامي نحو دمشق، في 27 ربيع الأول 543 هـ / 15 يوليو 1148م. وصلت هذه الجيوش أسوار دمشق في 1 جمادى الأولى / 19 يوليو 1148م فارضة حصار عليها.

واجهت الحملة الصليبية مقاومة قوية من قبل الجند والشعب الدمشقي. وسرعان ما استنجد معين الدين أنر بسيف الدين غازي وبنور الدين الزنكي ليلتقي الجيشان في حمص. أرسل سيف الدين رسالة إلى معين الدين يطالبه بأن يجعل قادته يحكمون دمشق أثناء الحروب من أجل التحصن بدمشق في حالة هزيمته وفي حالة النصر فإنه لن يحكم دمشق وسيبقيها تحت سيطرة معين الدين، في نفس الوقت أرسل التهديدات إلى قادة الحملة الصليبية. خشي معين الدين من طموح سيف الدين وأخيه نور الدين في السيطرة على دمشق

فأرسل يهدد الصليبيين بتسليم دمشق لهم، وخسارتهم لحليف فيها، وعرض عليهم تسليمهم قلعة بانياس كتعويض لهم، مما أدى إلى تفتت لحمة الصليبيين وقبول هذا العرض الذي عارضه ملك ألمانيا.

بعد أربعة أيام، اضطرت الحملة الصليبية الثانية إلى التراجع بعد المواجهة الشرسة مع الدمشقيين إضافة إلى الخشية من مواجهة جيش الأخوين زنكي، على الرغم من أن تعداد هذه الحملة كان أكبر من الحملة الأولى.

ما بعد الحملة الصليبية الثانية :

توالت حروب نور الدين مع الصليبيين بعد الحملة الصليبية الثانية والتي ما لبثت أن بدأت مباشرة بعد فشل الحملة.

حروبه مع مملكة بيت المقدس :

شهدت العلاقة مع مملكة بيت المقدس تفاوتا كبيرا وكان هناك تنافس كبير على تمدد الرقعة الجغرافية لكلاهما. بعد سقوط عسقلان سنة 548 هـ / 1153م، سارع نور الدين إلى السيطرة على دمشق. كما حصل تنافس كبير بين المملكتين في السيطرة على مصر. كما حصلت هدن قصيرة بين الطرفين امتدت من بضعة أشهر إلى سنتين. يلاحظ أن نور الدين اتجه إلى مهادنة المملكة سنة 550 هـ / 1155م لمدة عام وفي العام التالي، أي 551 هـ/ 1156م، تجددت الموادعة فتم إرسال قطيعة للصليبيين قدرها ثمانية آلاف من الدنانير الصورية، وفي نهاية المعاهدة خرقت عندما هاجم بلدوين الثالث مراعي بانياس، كذلك عقدت معاهدة بين الطرفين لمدة عامين في عام 556 هـ / 1160م وعلى أثر الزلازل التي اجتاحت بلاد الشام عام 566هـ / 1170م اتجه نور الدين إلى عقد هدنة مع عموري الأول، ويضاف إلى ذلك أنه تم عقد هدنة قصيرة مدتها ثلاثة أشهر في عام 568هـ(1173م).

ملك بيت المقدس عموري الأول.

قلعة بانياس :

بعد أن فتح نور الدين قلعة حارم ، عزم على مواجهة بانياس والتي كانت بيد الصليبيين منذ سنة 543هـ / 1149م فتوجه إليها ثم تقدم باتجاه طبريا، مما أدى إلى تراخي الحامية الصليبية المتواجدة في بانياس. ثم التف ليبدأ حصار قلعتها في 29 ذي الحجة من سنة 559 هـ / 28 أكتوبر 1164م. وكان معه أخوه نصير الدين أمير أميران فاصيب بسهم في إحدى عينيه وأخذ الإفرنج في الجمع لمدافعته فلم يستكملوا أمرهم حتى فتحها وشحن قلعتها بالمقاتلة والسلاح. خافه الإفرنج فشاطروه في أعمال طبرية وضرب عليهم الجزية في الباقي ووصل الخبر بفتح حارم وبانياس إلى ملوكهم الذين ساروا إلى مصر.

حروبه مع إمارة طرابلس :
حصن عريمة :

بعد مغادرة معظم أمراء الحملة الثانية بقي الكونت برتراند كونت تولوز ابن الكونت ألفونسو الذي توفي في قيسارية وشاع أن ريموند الثاني كونت طرابلس هو من قام بقتله بسبب الخلاف على إمارة طرابلس. أراد برتراند الانتقام لموت أبيه وأعلن انه الوريث الشرعي لإمارة طرابلس، فقام باحتلال حصن عريمة من بين يدي حاكم طرابلس. حاول ريموند التصدي لحملة برتراند لكن جنوده انهزموا، وطلب ريموند المساعدة من أمراء الصليبيين لكنهم رفضوا، فاضطر بالاستنجاد بمجير الدين أنر، وخصوصا أنه لم يساهم في الحملة الثانية. وافق أنر مساعدته وطلب مساعدة نور الدين ليتوجه الجيشين إلى حصار حصن العزيمة ليتم تدمير الحصن بشكل كامل وأسر الكثير، ومن بين الأسرى الكونت برتراند وأخته الذي لبث في السجن 12 عاما . تختلف المصادر العربية عن المصادر الصليبية فتذكر المصادر الصليبية أن نور الدين تزوج من أخت برتراند وأنجبت منه ابنه الصالح ولا يوجد لمثل هذا في المصادر العربية. كما تذكر بعض المصادر العربية أن من وقع في الأسر هي أم برتراند.

معركة حصن الأكراد (البقيعة) :

حصن الأكراد أو قلعة الحصن.

قام نور الدين سنة 558 هـ (الموافق لسنة 1163م) بتجميع جيوشه والتوجه إلى حصن الأكراد وعسكر في منطقة تدعى البقيعة . تفاجأ جيش نور الدين بظهور رايات الصليبيين في معسكرهم وحاول جنودهم دفعهم لكنهم لم يستطيعوا وكثر القتلى والأسرى في صفوف الجيش حتى وصلوا إلى خيمة نور الدين الذي خرج على عجل من خيمته، ولسرعته ركب خيله وفي رجله شبحة . حاول أحد الصليبيين قتله لكنه قطع الشبحة، وسرعان ما أنقذ نور الدين أحد جنوده بقتل من حاول قتله. انسحب نور الدين إلى حمص، ونصب معسكره على بحيرة قدس ، وأكرم العطاء لجنده. أما الصليبيين فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد هزمهم لنور الدين، لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا: "إنه لم يفعل

هذا إلا وعنده من القوة أن يمنعنا". ثم أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة فلم يجبهم إليها، فتركوا عند الحصن من يحميه، وعادوا إلى بلادهم وتفرقوا.

فتح حصن المنيطرة وبعض الحصون

اتجه الجيش النوري إلى الاستيلاء على حصن المنيطرة في عام 561 هـ / 1165م وغنم الغنائم الوفيرة وفي العام التالي 562 هـ / 1166م تمت مهاجمة المناطق المحيطة بحصن الأكراد، وسلب الغنائم، كذلك تم الاستيلاء على حصن صافيتا وهو من حصون الإمارة المنيعة، ووقع صدام بين الجيش النوري ، وجيش إمارة طرابلس 565 هـ / 1169م فيما عرف بمعركة اللبوة ، وبعد عامين أي في عام 567هـ / 1171م واصل نفس السياسة وتم إرسال القوات لمحاصرة حصن عرقة واستولت عليه في نفس العام.

حربه مع إمارة أنطاكية :
معركة أنب :

قام ريموند الثاني حاكم أنطاكية بعد عام من معركة حصن عريمة بالهجوم على قوات نور الدين المتواجدة قرب أفاميا في سنة 544 هـ (الموافق لسنة 1149 م) ، مما أدى إلى تراجع في جيوش نور الدين. نجح نور الدين في إعادة تجميع قواته ليلتقي بالجيش الصليبي عند قلعة أنب لتتم المواجهة بين جيش نور الدين وجيش ريموند الثاني الذي كان متحالفا مع علي بن وفا زعيم الحشاشين . دهش نور الدين من ضعف جيش ريموند وقد ظن بادئ الأمر أن هناك خديعة. بدأ الهجوم الشامل في 9 صفر/ 29 يونيو من نفس العام على جيش ريموند مم أدى إلى سحق الجيش الصليبي، ورفض ريموند الفرار نظرا للمكانة التي كان يتمتع فيها، وقتل في المعركة بضربة سيف من أسد الدين شيركوه ، وقام نور الدين بإرسال رأس ريموند إلى الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله.

استغل نور الدين حالة التخلخل التي أصابت إمارة أنطاكية ، ليندفع فاتحا معظم القرى والمدن فعمل على الاستيلاء على عدد من الحصون في كل الوادي الأوسط لنهر العاصي، ومنها أزمان وأنب ، وعم ، واجتاح سهل أنطاكية حتى بلغ ميناء السويدية وبذلك قضى على المراكز الصليبية الأمامية الواقعة بين حلب وأنطاكية التابعة لها حتى وصل أبواب أنطاكية . لكنه وجد مقاومة شديدة من أرملة ريموند الثاني كما دفع بالدوين الثالث جيوشه نحو الشمال لتخفيف الحصار عن أنطاكية. ترك نور الدين بعض من جيشه في محاصرة أنطاكية ، واتجه إلى حصن أفاميا ، فخاف أهلها على أنفسهم وأعلنوا استسلامهم بعد أن أمنهم نور الدين على أنفسهم . ولما تناه له أن بالدوين الثالث قد حرك جيشه باتجاه أنطاكية اتفق مع الإمارة المحاصرة على المهادنة على أن تكون ما يقرب من الأعمال الحلبية له وما يقرب من أنطاكية لهم.

رسم لمعركة قلعة أنب.

معركة حارم :

قام عموري الأول ملك مملكة بيت المقدس بتحريك جيوشه لمواجهة أسد الدين شيركوه الذي أرسله نور الدين في مهمة مساعدة الوزير شاور. فخاف نور الدين على أن يسيطر الصليبيون على مصر فقرر مشاغلة الصليبيين في دمشق للتخفيف عن حملة أسد الدين. فقام بتجميع جيش وطالب من أخوه قطب الدين إرسال مدد له كما أرسل إليه كل من فخر الدين قره أرسلان ونجم الدين ألبي قوات أخرى فتجمع لديه جيش كبير. وضرب حصار على مدينة حارم سنة 559 هـ (الموافق لسنة 1164 م)، والتي حاول فتحها في سنة 557 هـ لكنها تمنعت عليه.

في المقابل تجمع عدد كبير من القوات الصليبية لصد هجوم نور الدين مؤلفة من بوهمند الثالث أمير أنطاكية وريموند الثالث أمير طرابلس وجوسلين الثالث ابن جوسلين الثاني. كما انضم إليهم قسطنطينوس كالمنوس حاكم قيليقية وثوروس الثاني وميلخ أمراء مملكة أرمينيا الصغرى. فقرر نور الدين فك الحصار عن حارم والتوجه إلى قرية أرتاح مفضلا أن تكون معركة سهلية. ظن بهيموند الثالث أن جيوش نور الدين لاذ بالفرار فاستعجل الخطى للحاق بجيوش نور الدين ، حتى ابتعد عن بقية جيوشه وجد نفسه محاصرا بقوات نور الدين وهزم ووقع في الأسر. كر نور الدين على بقية جيوش الصليبيين فهزموهم ووقع في الأسر معظم القادة مثل ريموند الثالث وقسطنطينوس كالمنوس أما ثوروس فقد نجح في الفرار الذي كان متوقعا وجود مناورة تركية في ذلك. بعد ذلك توجه إلى حارم وتمكن من السيطرة عليها. كان باستطاعة نور الدين فتح أنطاكية، لكنه خشي من ردة فعل الإمبراطور البيزنطي الذي كان يعتبر نفسه حاميا لهذه المدينة، فانصرف عن هذه الجهة.

حربه مع جوسلين الثاني :

بعد أن فشل جوسلين الثاني في ضم الرها، التجأ إلى حصن تل باشر، وبقي في حالة كر وفر مع نور الدين مما اضطر نور الدين إلى مهادنته أكثر من مرة. في عام 544 هـ / 1149م قرر نور الدين التخلص من هذا الجيب الصليبي وأرسل إليه جيشا. لكن جوسلين علم بذلك فعقد تحالفات مع بعض الحكام الأتراك والأرمن واستطاع إلحاق هزيمة كبيرة بجيش نور الدين.

أثارت هذه الهزيمة نور الدين فعمد إلى إغراء البعض من **التركمان** بالمال والإقطاعات مقابل قتل وأسر جوسلين الثاني . بالفعل نجح هؤلاء بأسر جوسيلين الثاني وذلك أثناء غزوه للتركمان وسبيه لإمرأة واختلاءه بها تحت شجرة فهجم هؤلاء عليه وأسروه واقتادوه إلى نور الدين. تشير بعض المراجع الغربية إلى أن أسر جوسيلين الثاني كان أثناء توجهه إلى حضور اجتماع في أنطاكية ، نتيجة تأخره عن حرسه ووقع بيد بعض التركمان . وكانوا على استعداد لإطلاق سراحه لقاء فدية ثمينة إلا أن نور الدين علم بذلك وأغرى هؤلاء واقتادوه إلى حلب ليقضي بقية حياته في السجن بعد أن فقأت عينيه.

بعد أسره جوسيلين الثاني، تيسر على نور الدين فتح العديد من إقطاعاته مثل عنتاب، وعزاز، قورس والراوندان، وحصن البارة، وتل خالد، وكفر لاثا، وكفر سود، وحصن بسرفوت بجبل بني عليم ودلوك ، ومرعش ، ونهر الجوز ، وبرج الرصاص . وفيما بعد بيعت تل باشر إلى الأمبراطور البيزنطي عمانوئيل كومنينوس سنة 545هـ (الموافق لسنة 1150 م) وما لبثت أن سقطت في يد نور الدين بعد عام .

ضم مصر :

معركة عسقلان بين الصليبيين والفاطميين.

بعد نجاح نور الدين في ضم دمشق وأصبحت عاصمة دولته ومنطلق الحكم وأصبح ملك دمشق وموحد الشام لم يعد أمام الصليبيين للغزو والتوسع سوى طريق الجنوب بعد أن أحكم نور الدين سيطرته على بلاد الشام؛ ولذا تطلع الصليبيون إلى مصر باعتبارها الميدان الجديد لتوسعهم، وشجعهم على ذلك أن الدولة الفاطمية في مصر تعاني الضعف فاستولوا على عسقلان ، وكان ذلك إيذانا بمحاولتهم غزو مصر، مستغلين الفوضى في البلاد، وتحولت نياتهم إلى عزم حيث قام عموري الأول ملك بيت المقدس بغزو مصر سنة 558 هـ / 1163م محتجا بعدم التزام الفاطميين بدفع الجزية له ، غير أن حملته فشلت وأجبر على الانسحاب.

أثارت هذه الخطوة الجريئة مخاوف نور الدين، فأسرع بشن حملات على الصليبيين في الشام حتى يشغلهم عن الاستعداد لغزو مصر، ودخل في سباق مع الزمن للفوز بمصر وضمها لمملكته في الشام ، فأرسل عدة حملات من دمشق تحت قيادة " أسد الدين شيركوه " وبصحبته ابن أخيه الشاب اليافع صلاح الدين الأيوبي ، ابتدأت من سنة 559هـ (الموافق لسنة 1164م) واستمرت نحو خمس سنوات وفشلت عدة مرات بسبب خيانة شاور الوزير الأول للخليفة الفاطمي وتعاونه مع الصليبيين والفساد المتفشي . ولكن أسد الدين لم يتراجع، ففي كل مرة كان يعيد تجهيز جيشه وينطلق من جديد بأوامر نور الدين في دمشق

حتى نجح بعد سباق محموم مع الصليبيين في الظفر بمصر سنة 564هـ (الموافق لسنة 1169م) وتولى شيركوه الوزارة من العاضد لدين الله آخر حكام الفاطميين ، على أنه لم يلبث أن توفي فعين نور الدين زنكي صلاح الدين الأيوبي وزيرا على مصر وضمها لملكه في الشام. كانت شعلة البداية عندما خلع شاور الوزير الفاطمي على يد ضرغام.

الحملة النورية الأولى :

بعد أن خلع شاور من الوزارة ، ذهب إلى نور الدين طالبا منه العون في استعادة الوزارة مقابل أن يدفع له مصاريف الحملة، ويتخلى عن المقاطعات الحدودية، ويدفع ضريبة سنوية تعادل ثلث إيرادات البلد. ولم يتخذ نور الدين القرار إلا بعد أن استخار آيات من القرآن. أرسل نور الدين أسد الدين شيركوه عبر الصحراء، وقام هو بهجوم على بانياس للتمويه على تحركات أسد الدين . سرعان ما طالب ضرغام المساعدة من الملك عموري الأول، لكن أسد الدين سرعان ما عبر السويس وواجهة قوات ضرغام وقتله قبل أن تجهز القوات الصليبية. أعيد تنصيب شاور في سنة 558 هـ / 1164م.

تنكر شاور لوعوده وطالب أسد الدين بالرجوع إلى دمشق، لكن أسد الدين رفض وسيطر على بلبيس، فما كان من شاور إلا أن استعان بعموري الأول واعدا إياه سبع وعشرين ألف دينار وهدايا أخرى. انضمت قوات عموري مع قوات شاور وحاصرت بلبيس لمدة ثلاث أشهر، لكن تدخل نور الدين في الشام وأصداء معركة حارم جعلت الملك عموري الأول يتفاوض على أن يجلي هو وقوات أسد الدين عن مصر.

الحملة النورية الثانية :

كانت لمطالبات الخليفة العباسي في بغداد بالقضاء على التشيع الفاطمي في مصر تأثير كبير على إعداد الحملة النورية الثانية. حيث أعطى نور الدين الإذن لأسد الدين بالتوجه إلى مصر سنة 561 هـ (الموافق 1166 م). تحرك أسد الدين في السنة التالية دون أن يخفي نواياه، ليطلب شاور المساعدة من عموري الأول، الذي استدعى بارونات للتأكيد على الخطر المحدق بالمملكة في حال سيطر نور الدين على مصر. وكان على قوة المملكة كلها المشاركة في القتال وعلى المتخلفين أن يدفعوا عشر إيرادهم السنوي. اتخذ أسد الدين طريقا مغايرا لطريق الصليبيين وعسكر قرب الجيزة. تقابل جيش شاور وعموري في الشمال الشرقي من القاهرة على بعد ميل من أسوار القاهرة، ليتم عقد اتفاق تحالف رسمي بين الطرفين يحصل بموجبه عموري الأول على مبلغ اربعمئة ألف بيزنطية نصفهم في الحال ويوقع هذا الاتفاق العاضد لدين الله في القاهرة.

بعد شهر من تعسكر الجيشين في مقابلة بعضهما البعض نجح عموري من عبور الجزيرة على رأس الدلتا ليفاجئ أسد الدين، والذي وجد أن جيشه قليل العدد فقرر الانسحاب متحركا باتجاه الجنوب وعسكر في الأشمونين ضمن مدينة خمون الفرعونية. حيث لحق به الجيش الصليبي - المصري. بدأ الاشتباك في 24 جمادى الأولى من سنة 562 هـ (الموافق فيه 18 مارس 1167م) . وعلى الرغم من التفوق العددي للجيش الصليبي - المصري استطاع أسد الدين هزيمتهم بأن أوهم جيوش الصليبيين بأن قلب جيشه يتراجع حتى لحقوا بهم وأطبق عليهم من الطرفين. فقد كان جيشه خفيف الحركة بشكل أكثر من الجيش الصليبي – المصري . لينسحب عموري وشاور إلى القاهرة .

توجه أسد الدين إلى مدينة الإسكندرية المعروفة بكرهها لشاور، وفتحت له أبوابها. سرعان ما أعاد عموري الأول وشاور ترتيب الجيش، وعلى الرغم من الخسائر الكبيرة التي لحقت بهم فكان لا يزال جيشهما أكثر عددا من جيش أسد الدين، وضربوا حصارا قاسيا على الإسكندرية. بدأت ملامح المجاعة تلوح في الأفق فقرر أسد الدين التسلل مع حامية إلى خارج الإسكندرية واستخلف صلاح الدين عليها،

متوجها إلى مصر العليا أملا بأن تلحق به جيوش عموري إلا أن شاور أشار بأهمية الإسكندرية، ليستمر الحصار عليها.

ترى المصادر الصليبية أن أسد الدين تسلل من الإسكندرية لما ساءت الأمور فيها، وأنه أرسل في التفاوض على أن يخرج كلا الجيشين من مصر، وعن ألا يعاقب أهالي الإسكندرية للدعم الذي قدموه. كان من أهم أسباب موافقة عموري على هذه الصفقة إغارة نور الدين على إمارة طرابلس ، مما أدى إلى خوف عموري الأول على أراضيهم في الشام. في حين ترى المصادر العربية أن أسد الدين افترق عن صلاح الدين مباشرة بعد الدخول إلى الإسكندرية، وراح يغير على صعيد مصر. حين اشتد الحصار على الإسكندرية تحرك نحوها، فلقفه الصليبيين في الصلح ووافق على ذلك. ليخرج الجيش النوري من مصر في 29 شوال 562 هـ /18 أغسطس 1167م.

الحملة النورية الثالثة :

عقد مجلس للبارونات براعية عموري الأول في القدس للنظر في أمور مصر، نظرا لتخلف شاور من دفع الإتاوة إلى الحامية الصليبية الموجودة في مصر إضافة إلى وجود شائعات تفيد بأن الكامل ابن شاور تقدم للزواج من أخت صلاح الدين. قرر المجمع التحرك نحو مصر ليصل في يوم 26 محرم 564هـ (الموافق فيه 30 أكتوبر من سنة 1168 م) إلى بلبيس . حاول شاور إعادة المعاهدة لكن الملك طلب مليوني دينار إضافيين. قرر شاور المقاومة لكن الجيش الصليبي استطاع دخول قلعة بلبيس بعد أربع أيام وارتكبت مذبحة كبيرة هناك شملت كل من الأقباط والمسلمين. بدأ عموري حصار الفسطاط في 13 نوفمبر، مما دفع شاور إلى حرق الفسطاط وبدأ يهدد بأن سيشعل القاهرة في حال استمر عموري في خطته، كما قام في نفس الوقت بمفاوضة عموري على المبلغ الذي سيدفعه.

عظم حريق الفسطاط على العاضد فأرسل إلى نور الدين طالبا النجدة الذي أرسل أسد الدين إلى مصر. قام شاور بتحذير عموري الأول أثناء المفاوضات من تحرك الجيش النوري باتجاه مصر. فقرر عموري مباغتة جيش أسد الدين عند السويس. لكن أسد الدين أدرك ذلك فاتجه نحو الجنوب متجاوزا الصليبيين. فما كان من عموري إلا الجلاء عن أرض مصر في 2 يناير سنة 1169، ليدخل أسد الدين القاهرة في 7 ربيع الآخر 564 هـ / 8 يناير سنة 1169م وفي 17 ربيع الآخر / 18 يناير ألقي القبض على شاور وأصدر العاضد أمرا بقتله وعين أسد الدين كوزير.

حصار دمياط :

بعد سقوط مصر في يدي نور الدين أرسل الملك عموري رسله لإرسال حملة صليبية جديدة شارحا خطورة الأمر والتغير في ميزان القوى في المنطقة، فاستجاب البابا ألكسندر الثالث وبعث رسائل إلى ملوك أوروبا، لكنها لم تجد أذنا صاغية. في حين نجح الرسول المرسل إلى القسطنطينية بسبب إدراك الإمبراطور عمانوئيل اختلال توازن القوى في المنطقة. فعرض تعاون الأسطول الإمبراطوري مع حملة عموري الأول. الذي وجد الفرصة مناسبة بسبب انشغال نور الدين في الشمال بالخلافات الناتجة عن موت فخر الدين قره أرسلان وعصيان حاكم منبج ومرض أخوه قطب الدين زنكي. إضافة إلى وفاة أسد الدين شيركوه وتعيين صلاح الدين مكانا له والذي كان يراه الملك عموري بالشخص غير المحنك.

نتج عن تأخر الحملة ثلاث أشهر منذ انطلاقها في 13 شوال 564هـ 10(يوليو 1169م) بسبب عدم حماسة الأمراء والبارونات الصليبيين للمعركة بعد المعارك الأخيرة، إلى استعداد صلاح الدين بشكل جيد. فقد استطاع التخلص من حرس قصر العاضد واستبداله بحرس موالين له. ليبدأ حصار دمياط في 1 صفر 565 هـ / 25 أكتوبر 1169م، ليرسل صلاح الدين قواته بقيادة شهاب الدين محمود وابن أخيه تقي

الدين عمر، وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخافة ويقول: "إن تأخرت عن دمياط ملكها الإفرنج، وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا من طاعتي، وساروا في أثري، والفرنج أمامي؛ فلا يبقى لنا باقية".وقال نور الدين في ذلك: " إني لأستحي من الله تعالى أن أبتسم والمسلمون محاصرون بالفرنج ". فسار نور الدين إلى الإمارات الصليبية في بلا الشام وقام بشن الغارات على حصون الصليبيين ليخفف الضغط عن مصر. وقامت حامية دمياط بدور أساسي في الدفاع عن المدينة وألقت سلسلة ضخمة عبر النهر، منعت وصول سفن الروم إليها، وهطلت أمطار غزيرة حولت المعسكر الصليبي إلى مستنقع فتهيئوا للعودة وغادروا دمياط بعد حصار دام خمسين يوما، بعد أن أحرقوا جميع أدوات الحصار. وعندما أبحر الأسطول البيزنطي، هبت عاصفة عنيفة، لم يستطيع البحارة الذين كادوا أن يهلكوا جوعا من السيطرة على سفنهم فغرق معظمهم .

حصار دمياط من قبل الجيش الصليبي.

إسقاط الدولة الفاطمية :

أرسل نور الدين إلى صلاح الدين طالبا إياه بإيقاف الدعاء إلى الخليفة الفاطمي والدعاء إلى الخليفة العباسي في مساجد مصر . ولم يرغب صلاح الدين من الامتثال لهذا الأمر خوفا من النفوذ الشيعي في مصر . وأخذ يراوغ في تأخير الأمر . إلا أن نور الدين هدد صلاح الدين بالحضور شخصيا إلى القاهرة. فاتخذ صلاح الدين الإجراءات الشرطية اللازمة ، لكن لم يتجرأ أحد على القيام بذلك . إلى أن جاء شيخ سني من الموصل زائر وقام في الجامع الكبير وخطب للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله في أول جمعة من سنة 567 هـ / سبتمبر 1171م. لتحذو القاهرة كلها حذوه. في حين كان العاضد لدين الله على فراش الموت مريضا.

العلاقة مع الإمبراطورية البيزنطية :

عاصر نور الدين الإمبراطور عمانوئيل كومنينوس، والذي كان سياسيا محنكا وراغبا في فرض السيطرة على العالم المسيحي. وتمثلت علاقة نور الدين مع الإمبراطورية البيزنطية بالسلام والرغبة في تحييدها عن الصراع مع الإمارات الصليبية. فقد حاول نور الدين استثمار الخلافات القائمة بين الإمبراطورية البيزنطية والإمارات الصليبية. كما احتاج الإمبراطور البيزنطي نور الدين لاستمرار

الصراع مع الإمارات، وبالتالي يطلبون العون منه فلا تغيب سطوته عنهم. إضافة إلى تعزيز علاقة التبادل التجاري بينهم .

حاول نور الدين فض التحالف الذي حصل بين بالدوين الثالث وعمانوئيل في أنطاكية من سنة 554 هـ (الموافق لسنة 1159م) والهادف إلى توجيه جيش مشترك لضرب القوة النورية المتزايدة. عن طريق عقد تحالف مع الإمبراطور البيزنطي ينص على إطلاق نور الدين للأسرى المسيحيين لديه وعددهم ستة آلاف وكانوا معتقلين في حلب منذ الحملة الصليبية الثانية. إضافة إلى تعهد نور الدين في مساعدة الإمبراطور في حروبه ضد سلاجقة الروم. فيما بعد قام نور الدين بإطلاق سراح قسطنطينوس كالمنوس الذي أسره في معركة حارم كبادرة لحسن النية مع الإمبراطورية وعدم كسب العداء معها.

أهم صفاته الشخصية :

حرصه على تطبيق الشريعة :

كان نور الدين محمود يقول : " نحن شرطة الشريعة نمضي أوامرها " وقال أيضا: " نحن نحفظ الطريق من لص وقاطع طريق والأذى الحاصل منهما قريب أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه ، وهو الأصل " . قال عنه ابن كثير : "كان يقوم في أحكامه بالمعاملة الحسنة وإتباع الشرع المطهر.. وأظهر ببلاده السنة وأمات البدعة ".

أمر بإلغاء كل الضرائب والمكوس التي كانت تؤخذ من الشعب وذلك عندما قص عليه وزيره موفق الدين خالد بن محمد بن نصر القيسراني الشاعر أنه رأى في منامه كأنه يغسل ثياب الملك نور الدين، فأمره بأن يكتب مناشير بوضع المكوس والضرائب عن البلاد، وقال له: " هذا تأويل رؤياك ". وكتب إلى الناس ليكون منهم في حل مما كان أخذ منهم، ويقول لهم : " إنما صرف ذلك في قتال أعدائكم من الكفرة والذب عن بلادكم ونسائكم وأولادكم " . وكتب بذلك إلى سائر ممالكه وبلدان سلطانه، وأمر الوعاظ أن يستحلوا له من التجار، وكان يقول في سجوده : " اللهم ارحم المكاس العشار الظالم محمود الكلب ".

عدله :

يقول ابن الأثير في عدل نور الدين : " قد طالعت سير الملوك المتقدمين، فلم أر فيهم بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ، ولا أكثر تحريا منه للعدل ".

وصف ابن الأثير نور الدين بأنه : "كان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف ذلك بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها".

قال ابن الأثير: "وهو أول من ابتنى دارا للعدل، وكان يجلس فيها في الأسبوع مرتين، وقيل: أربع مرات، وقيل: خمس. ويحضر القاضي والفقهاء من سائر المذاهب، ولا يحجبه يومئذ حاجب ولا غيره، بل يصل إليه القوي والضعيف، فكان يكلم الناس ويستفهم منهم ويخاطبهم بنفسه، فيكشف المظالم، وينصف المظلوم من الظالم".

الدولة الزنكية والإمارات والدول المحيطة بها عند نهاية عهد نور الدين زنكي.

كان سبب ذلك أن أسد الدين شيركوه بن شاذي كان قد عظم شأنه عند نور الدين، حتى صار كأنه شريكه في المملكة، واقتنى الأملاك والأموال والمزارع والقرى، وكان ربما ظلم نوابه جيرانه في الأراضي والأملاك العدل، وكان القاضي كمال الدين ينصف كل من استعداه على جميع الأمراء إلا أسد الدين هذا فما كان يهجم عليه، فلما علم نور الدين بذلك ابتنى نور الدين دار العدل تقدم أسد إلى نوابه أن لا يدعوا لأحد عنده ظلامة ، وإن كانت عظيمة، فإن زوال ماله عنده أحب إليه من أن يراه نور الدين بعين ظالم، أو يوقفه مع خصم من العامة، ففعلوا ذلك.

فلما جلس نور الدين بدار العدل مدة متطاولة ولم ير أحدا يستعدي على أسد الدين، سأل القاضي عن ذلك فأعلمه بصورة الحال ، فسجد نور الدين شكرا لله ، وقال : "الحمد لله الذي أصحابنا ينصفون من أنفسهم".

تدينه وزهده :

كان نور الدين يصلي كثيرا بالليل وحكي عنه أنه يصلي فيطيل الصلاة، وله أوراد في النهار، فإذا جاء الليل وصلى العشاء نام ، ثم يستيقظ نصف الليل ، ويقوم إلى الوضوء والصلاة والدعاة إلى بكرة، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة.

قال عنه ابن كثير في البداية والنهاية : " وقد كان رحمه الله حسن الخط كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعا للآثار النبوية، محافظا على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة، محبا لفعل الخيرات، عفيف البطن والفرج، مقتصدا في الإنفاق على نفسه وعياله في المطعم والملبس، حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلا نفقة منه من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا، ولم يسمع منه كلمة فحش قط ، في غضب ولا رضا، صموتا وقورا".

قال ابن الأثير : " لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز مثل الملك نور الدين، ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه، وكانت له دكاكين بحمص قد اشتراها مما يخصه من المغانم، فكان يقتات منها، وزاد امرأته من كراها على نفقتها عليها، واستفتى العلماء في مقدار ما يحل له من بيت المال فكان يتناوله ولا يزيد عليه شيئا، ولو مات جوعا، وكان يكثر اللعب بالكرة فعاتبه رجل من كبار الصالحين في ذلك فقال: إنما الأعمال بالنيات، وإنما أريد بذلك تمرين الخيل على الكر والفر، وتعليمها ذلك، ونحن لا نترك الجهاد".

وكان لا يلبس الحرير، وكان يأكل من كسب يده بسيفه ورمحه. وكان نور الدين يستقرض من الشيخ عمر الملا من الموصل - وكان من الصالحين الزاهدين - في كل رمضان ما يفطر عليه، وكان يرسل إليه بفتيت ورقاق فيفطر عليه جميع رمضان. وكان يدعو قائلا : "اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودا ، من الكلب محمود حتى ينصر"، وكان يدعو أيضا: " إنك يا رب إن نصرت فدينك نصرت ، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر".

تثبيته للمذهب السني :

في حلب :

كان بنو حمدان يعتنقون المذهب الإمامي وقد أضاف سعد الدولة أبو المعالي (356-381 هـ / 944-976م) للأذان عام 367هـ /977 م عبارة *"حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر"* ، واستمر الآذان على ذلك خلال عهود حكم آل مرداس وآل عقيل في حلب. وهناك قلة من الشيعة الإسماعيلية الذين ازداد نفوذهم زمن رضوان بن تتش، لذا كان المذهب الشيعي متغلغلا في حلب. لذلك فقد قام نور الدين بالخطوات التالية :

1. أمر الشيعة بترك حي على خير العمل في الآذان، وأنكر عليهم بشدة الجهر سب الصحابة، وكان ذلك في رجب من عام 543هـ / 1148 م، أي بعد عامين من دخوله حلب واستقراره فيها. فهاج الإسماعيلية وهاجوا ولكن سرعان ما سكنوا خوفا من ردة فعل السلطان.
2. قام بعد ذلك بإبعاد بعض زعماء الشيعة عن حلب ومنهم والد المؤرخ ابن أبي طي .
3. أنشأ المدارس لتدريس العلوم الإسلامية إحداهما حنفية وهي المدرسة الحلاوية (543هـ / 1148م)، واسند بالتدريس فيها إلى برهان الدين أبي الحسن علي بن الحسن البلخي الذي استدعاه من دمشق ، والمدرسة النورية الكبرى والمدرسة النورية الصغرى، أو شافعية مثل المدرسة النفرية النورية (544هـ /1149 م) لتدريس المذهب الشافعي، وتولى التدريس فيها قطب الدين النيسابوري. والمدرسة العصرونية والمدرسة الشعيبية وكليهما مدارس شافعية أيضا.

- أوقف زاويتين بالمسجد الجامع في حلب وخصص إحداهما لفقهاء الحنابلة والأخرى للمالكية.
- أنشأ خوانيق للصوفية وكانت في ذلك العصر مكانا للعبادة.
- كان أول من أنشأ دارا للحديث.

في مصر :

قام صلاح الدين بناء على طلب نور الدين فعزل قضاة الشيعة وألغى مجالس الدعوة وأزال أصول المذهب الشيعي الإسماعيلي. ثم أبطل الأذان بحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر. أمر في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة 565هـ (1169م) بأن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان ثم علي. ثم قطع الخطبة للخليفة الفاطمي وخطب للخليفة العباسي.

دمشق – الشام :

كانت دمشق العاصمة واهم المدن في عهد نور الدين زنكي وقد عني بإنشاء الكثير من المباني والتي تحمل اسمه مثل :

- أنشأ في دمشق مدارس التعليم الشرعي وركز اهتمامه على المذهبين الحنفي والشافعي، فأنشأ للحنفية المدرسة النورية الكبرى والمدرسة النورية الصغرى. كما أنشأ المدارس للمذهبين المالكي والحنبلي.
- بنى أول وأكبر دار للحديث ووكل أمرها إلى الحافظ الكبير ابن عساكر.

- بنى دورا للأيتام لتخريج العلماء وخصص لها الأوقاف الكثيرة.
- بنى العديد من البيمارستانات في جميع المدن.
- رمم سور دمشق وقام بتدعيمه بالأبراج العديدة والمنيعة التي منها "برج نور الدين" جنوب باب الجابية.
- بنى حماما عموميا أصبح يعرف باسم حمام نور الدين، وهو يقع في منطقة البزورية بدمشق، ويعتبر مبناه من أقدم حمامات المدينة.

بيمارستان نور الدين في دمشق.

وفاته :

وقع نور الدين في أوائل شوال من سنة 569 هـ / مايو 1174م بالذبحة الصدرية وبقي على فراش المرض أحد عشر يوما ليتوفى في 11 شوال 569 هـ / 15 مايو 1174م وهو في التاسعة والخمسين من عمره ، ودفن في البيت الذي كان ملازما فيه في قلعة دمشق ، ثم نقل جثمانه إلى المدرسة النورية الواقعة في سوق الخواصين بدمشق .

وقد رثاه العماد الأصفهاني بقصيدة مطلعها :

الدين في ظلم لغيبة نوره	والدهر في غمم لفقد أميره
فليندب الإسلام حامي أهله	والشام حافظ ملكه وثغوره
ما أعظم المقدار في أخطاره	إذ كان هذا الخطب في مقدوره
ما أكثر المتأسفين لفقد من	قرت نواظرهم بفقد نظيره
ما أغوص الإنسان في نسيانه	أو ما كفاه الموت في تذكيره
من للمساجد والمدارس باينا	لله طوعا عن خلوص ضميره
من ينصر الإسلام في غزواته	فلقد أصيب بركنه وظهيره

أسد الدين شيركوه بن شاذي

تقديم :

أسد الدين شيركوه بن شاذى بن مروان بن يعقوب الدونيى، المولود ببلدة 'دوين' على أطراف أذربيجان مع جورجيا سنة 500 هجرية تقريبا وهو كردي الأصل، وشيركوه بالكردية : **أسد الجبل** ، فشير بالكردية : أسد ، وكوه : جبل ، نشأ هو وأخوه نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، بتكريت لما كان أبوهما شاذى 'ومعناها فرحان' نقيب قلعتها، وكان نجم الدين أسن من أسد الدين ، ويغلب على نجم الدين العقل والحكمة والتؤدة، في حين كان أسد الدين كالشهاب الحارق لا يصبر على إساءة أو عدوان أو انتهاك حرمات وهذا ما سينقل حاله من مكان لآخر.

1 - من تكريت إلى الموصل إلى حلب :

التحق أسد الدين وأخوه نجم الدين بخدمة الأمير 'بهروز' قائد شرطة بغداد ، فأقطعهما الأمير 'بهروز' قلعة تكريت، فسارا في الناس سيرة حسنة، ووقعت حادثة سنة 526 هجرية خلاصتها أن أسد الدين ونجم الدين قد ساعدا الأمير البطل 'عماد الدين زنكي' عندما جاء إلى تكريت منهزما في قتاله ضد بعض خصومه بالخلافة، حيث قدم الأخوان لعماد الدين زنكي السفن اللازمة لعبوره هو وجنوده نهر دجلة إلى مدينة 'الموصل' وكان الأمير 'بهروز' على خلاف شديد مع 'عماد الدين زنكي' فلم يعجبه هذا الفعل من أسد الدين ونجم الدين وتربص لهما الدوائر وتحين لهما الفرصة لمعاقبتهما . كثرت التحرشات بنجم الدين وأسد الدين وأهلهم بقلعة تكريت من جانب جنود الأمير 'بهروز' حتى جاءت الفرصة التي يريدها، عندما تعرض أحد الجنود لفتاة من آل أسد الدين في الطريق واشتكت الفتاة لعمها أسد الدين، فنزل لهذا الجندي الماجن وتكلم معه بشدة فرد عليه الجندي بأن سحب عليه السلاح، فتشاجر الرجلان مشاجرة انتهت بمصرع الجندي الماجن فغضب الأمير 'بهروز' وأمر بطرد نجم الدين وأسد الدين وأهليهم من قلعة تكريت وذلك سنة 532 هجرية وفي نفس الليلة التي ولد فيها صلاح الدين يوسف بن أيوب.

قرر الأخوان التوجه إلى أمير الموصل 'عماد الدين زنكي' والالتحاق بخدمته، فسارا إليه فأحسن استقبالهما وشكر صنيعهما معه، وضمهما لأمرائه وقادته وبالغ في إكرامهما وأقطعهما أقطاعا حسنا، وجعل نجم الدين واليا على بعلبك وأسد الدين من مقدمي جيوشه، فعماد الدين زنكي كما قلنا من قبل كان خبيرا بمعادن الرجال، بصيرا بقدراتهم، قادرا على توظيفهم حسب ما يبرزون ويحسنون، فرأى في نجم الدين الرجل الحكيم العاقل القادر على السياسة والقيادة، ورأى في بطلنا أسد الدين القائد العسكري الشجاع القادر على تحويل دفة الحروب بشجاعته وإقدامه.

2 - من عماد الدين إلى نور الدين في حلب :

ظل أسد الدين شيركوه في خدمة عماد الدين زنكي، وخاض معه كل حروبه ضد الصليبيين وكان معه يوم فتح الرها وكان عماد الدين يحبه ويقدره لأنه كان مثله بطلا شجاعا لا يهاب الموت، وظل هكذا حتى كان معه في معسكره ليلة أن قتل عماد الدين سنة 541 هجرية، وعندها قام أسد الدين شيركوه بدور في غاية الأهمية، ذلك أنه حفظ معسكر المسلمين من الهرج والمرج الذي يحدث عادة عند مقتل القائد ثم قام بإعطاء خاتم الملك الخاص بعماد الدين لولده نور الدين محمود زنكي كناية عن خلافته لأبيه الشهيد، ثم قام بحراسة نور الدين محمود حتى وصل سالما أمنا إلى مدينة 'حلب'، فعرف نور الدين هذا الجميل لأسد الدين، وصار من أقرب الناس إليه. ومن ذلك اليوم أصبح أسد الدين شيركوه قائد جيوش نور الدين محمود أمير دمشق والشام الجديد وأصبح أخلص وأقوى أمراء الجيوش الشامية، ورجل المهام الصعبة الذي يعتمد عليه نور الدين محمود في النوازل وصعاب الأمور، وكان له المواقف المشهورة والبطولات المشهورة.

3 - أسد الدين المعلم في دمشق والبلاد الشامية :

في دمشق كان ملك نور الدين زنكي وكان أسد الدين شيركوه بحق الأستاذ الأول والمعلم الحقيقي والمكتشف البارع لقدرات ومواهب ابن أخيه **صلاح الدين يوسف بن أيوب** صلاح الدين الايوبي ، وذلك منذ كان صلاح الدين فتى يافعا حيث رأى فيه شيركوه بعين الخبير الفاحص أن الفتى الصغير يجمع بين عقل وحكمة أبيه نجم الدين أيوب، وشجاعة وفروسية عمه أسد الدين شيركوه، وزهد وورع أميره نور

الدين، وهى خصال ثلاث كفيلة بأن ترشح هذا الفتى لقيادة الأمة فيما بعد. أدرك ذلك كله الأسد المعلم شيركوه في ابن أخيه فتعهده بالرعاية وضمه إليه وتولى تدريبه على فنون القتال وقيادة الجيوش وأساليب إدارة المعارك دفاعا وهجوما، كما تولى تعليمه فنون السياسة والمناورة والمفاوضة، حتى نضج الفتى اليافع وأصبح شابا قويا يصحبه أسد الدين في كل مكان وفي مدن الشام وهو بمثابة الذراع اليمنى له ومن لا يعرفهما يظن أن صلاح الدين هو الابن الوحيد والمقرب لأسد الدين، ولعل تعليم وتدريب صلاح الدين من أهم وأفضل أعمال أسد الدين شيركوه.

4 - أسد الدين فاتح الديار المصرية :

كان أسد الدين شيركوه قائدا من القادة الكبار في دمشق وبحكم خبرته العسكرية الطويلة وبصيرته السياسية لأوضاع العالم الإسلامي وقتها يرى انه لابد من ضم الديار المصرية وضرورة فتحها وإزالة الدولة الفاطمية، واسترجاع بيت المقدس بعد ضياعها بيد الصليبيين سنة 492 هجرية، فلقد كان أسد الدين شيركوه متأثرا بفكرة توحيد العالم الإسلامي ضد الوجود الصليبي، وكان يرى أن النصر على الصليبيين لن يتم إلا بتوحيد الشام ومصر لذلك كان شيركوه دائم الإلحاح على نور الدين ملك دمشق لكي يفتح مصر ونور الدين يرى أن الوقت غير مناسب، فالجيوش مشغولة في قتال البؤر الصليبية في جميع أنحاء الشام ، ولكن نور الدين لم يترك فكرة فتح مصر بالكلية، بل انتظر الفرصة المناسبة.

كانت الأوضاع في مصر شديدة الاضطراب، فالخلاف على أشده بين شاور وضرغام على منصب الوزارة والخليفة العاضد الفاطمي ليس له من الأمر شيء، ولقد انتصر ضرغام على شاور وأخرجه من مصر فذهب مستنجدا بالملك العادل نور الدين محمود وضمن له ثلث إيراد مصر وأمورا أخرى إن هو أعانه على استعادة وزارته المفقودة، فوجد في ذلك نور الدين الفرصة المناسبة لفتح مصر وضمها لملكه في الشام، فكلف قائد جيوشه أسد الدين شيركوه على أن يتوجه إلى مصر لذلك الغرض، ففرح أسد الدين بهذه المهمة وخرج من دمشق في صحبته تلميذه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ومعه ألف رجل فقط وذلك سنة 559 هجرية.

5 - أسد الدين المرعب :

وصل أسد الدين شيركوه على رآس جيش دمشق وبعسكره المكون من ألف رجل فقط إلى مدينة بلبيس حيث اشتبك مع جيش ضرغام وانتصر عليه ، ثم واصل تقدمه إلى القاهرة حتى قضى على ضرغام وأعاد شاور لمنصب الوزارة وأقام هو بظاهر القاهرة انتظارا للوفاء بالعهود والمواثيق مع شاور ولكن شاور غدر به وأمره بالرجوع إلى دمشق وهدده، فما كان من أسد الدين شيركوه إلا أنه دخل مدينة 'بلبيس' وامتنع بها وأرسل إلى شاور بأنه لن يتحرك من مكانه إلا بأمر قائده الملك العادل نور الدين محمود ، وهكذا يكون الجندي الممتثل لأوامر قائده، حتى ولو كان هذا الجندي هو أعظم فرسان زمانه. ولما كان شاور رجل لا يهمه إلا مصالحه الخاصة ومنصبه، فلقد أسرع وأرسل للصليبيين في الشام يستنجد بهم على أسد الدين، وكان الصليبيون منذ أن توجه أسد الدين إلى مصر قد أيقنوا الهلاك إذا فتح الشاميون مصر، فلما جاءتهم استغاثة شاور فرحوا بها وأرسلوا جيوشهم وقد بذل لهم شاور أموالا طائلة من أجل الانتصار على بني دينه وهكذا نرى أهل الدنيا لا يبالون بشيء إلا بدنياهم ولا أي شيء يردعهم عن تحصيل دنياهم.

اجتمعت الجيوش الصليبية مع عساكر شاور الخائن وحاصروا الجيش الشامي وأسد الدين شيركوه في بلبيس ثلاثة أشهر وهو ممتنع بها مع أن سورها قصير جدا يقفزه الفارس بفرسه وليس لها خندق ولا أي تحصينات، ومع ذلك لم يجسروا على اقتحام المدينة من شدة خوفهم من أسد الدين شيركوه الذي ظل يقاتلهم ليلا ونهارا بألف رجل لا غير وهم عشرات الألوف، وفي هذه الفترة أغار نور الدين على أملاك الصليبيين في الشام وفتح تل 'حارم'، فخاف الصليبيون على باقي أملاكهم وراسلوا أسد الدين في الصلح على أن يخرج كل منهم ومن الشاميين إلى بلادهم فوافق أسد الدين.

قديما قالوا 'الفضل ما شهد به الأعداء' فاسمع لهذه الشهادة من أحد الصليبيين الذين شاهدوا أسد الدين شيركوه يوم حصار بلبيس ثم يوم الصلح قال [أخرج أصحابه بين يديه وبقى في أخرهم وبيده عود

من حديد يحمى ساقتهم والمصريون والفرنج ينظرون إليه، فتقدمت منه وقلت له 'أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج، وقد أحاطوا بك وبأصحابك ولا يبقى لكم بقية ؟' فقال شيركوه : ياليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله، كنت والله أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال، والله لو أطاعني هؤلاء 'يعنى جنوده' لخرجت إليكم من أول يوم 'يعنى الحصار' ولكنهم امتنعوا' فقام هذا الصليبي بالتصليب على صدره وقال : كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك والآن فقد عذرناهم.

6 - العزيمة الفولاذية :

رجع أسد الدين شيركوه إلى الشام وهو يتلمظ غيظا على الوزير الخائن في مصر 'شاور' والأوضاع المتردية في الديار المصرية، ويتحرق شوقا لمعاودة الكرة مع الصليبيين وخونة المصريين، وهو ما زال يلح على الملك العادل نور الدين محمود في العودة إلى مصر، حتى وافق نور الدين على ذلك سنة 562 هجرية، وانطلق أسد الدين في جيش يقدر بألفين من المقاتلين. أسرع 'شاور' كعادته وأرسل للصليبيين بالشام يستنجد بهم، فجاءوه بألوف مألفة من أجل إدراك ثأرهم مع أسد الدين وتحقيق مبتغاهم باحتلال مصر، وكان أسد الدين يتحرك بسرعة لخفة جيشه، فوصل إلى الصعيد وفتحه ثم عسكر في منطقة البابين 'قريب من محافظة المنيا الآن' وقد رفعت له الجواسيس الأخبار عن ضخامة الجيش الصليبي ومن معه من عساكر شاور، فعقد اجتماعا مع قادة جيشه فأشاروا جميعا بالرجوع إلى الشام لقلة عددهم وتسليحهم وبعدهم عن أوطانهم، فوقف أسد الدين كالطود العظيم وأصر على القتال واستعان بالله ووافقه ابن أخيه صلاح الدين، ثم قام أسد الدين شيركوه بوضع خطة عسكرية في غاية الذكاء بحيث أن استدرج معظم الجيش الصليبي لقلب الجيش المسلم ثم هجم هو في كتيبة منتقاه من خلاصة الأبطال على مؤخرة الجيش الصليبي، فوضعه في شبه دائرة، وانتصر انتصارا عظيما لم يسمع بمثله في التاريخ كما يقول المؤرخ ابن الأثير. بعد معركة البابين توجه أسد الدين وجنده الشامي إلى الإسكندرية بعد أن استدعاه أهلها الذين أرادوا نصرة إخوانهم المجاهدين الشاميين، ثم ترك بها حامية يقودها صلاح الدين ثم توجه إلى الصعيد لمواصلة الفتح، فانتهز الصليبيون الفرصة وحاصروا الإسكندرية حصارا عنيفا طيلة تسعة أشهر، فعاد الأسد لنصرة أهل الإسكندرية والجيش الشامي بقيادة ابن أخيه صلاح الدين الايوبي، فخاف الصليبيون منه خوفا شديدا جعلهم يطلبون منه الصلح، فاشترط عليهم مغادرة مصر ولا يتملكوا منها قرية واحدة فوافقوا.

6 - الخيانة العمياء :

لم يعلم أسد الدين شيركوه عندما اتفق مع الصليبيين على الخروج من مصر، أن الخيانة والعمالة التي تسرى في دم الوزير الخائن 'شاور' في مصر سوف تدفعه لأن يعقد اتفاقا سريا مع الصليبيين يتعهد فيه بدفع مبلغا من المال سنويا من إيراد البلاد للصليبيين كي ما يتقووا بها على حرب نور الدين في الشام ، لم يكتف الخائن بهذه الفعلة القذرة، بل اتفق معهم على أن يكون للصليبيين حامية من كبار فرسانهم تحرس أبواب القاهرة وذلك سنة 562 هجرية.

لم يكن بقاء هذه الحامية من أجل الحرص على سلامة مصر والمصريين أو السهر على راحتهم ! بل كانت ترصد الأخبار والأحوال تمهيدا لعودة الصليبيين مرة أخرى في الفرصة المناسبة وهو ما حدث بالفعل في أوائل 564 هجرية، عندما أرسلت الحامية الصليبية إلى ملك بيت المقدس الصليبي **'أملريك'** تعرفه أن الأوضاع مهيئة في مصر لدخول القوات الأجنبية. حشد 'أملريك' جيوشه وانطلق إلى مصر بأقصى سرعة وكانت مدينة 'بلبيس' أولى محطاته حيث قام الصليبيون هناك بمجزرة مرعبة لأهل المدينة كلها بحيث لم يتركوا منها أحدا كما هي عادتهم البربرية الوحشية، ثم نزلوا إلى القاهرة وضربوا عليها حصارا شديدا، فأقدم الخائن شاور على فعلة في غاية الحقارة والذلة وأيضا في غاية الغباء السياسي حيث أقدم على حرق القاهرة ليرجع عنها الصليبيون، وظلت النار تأكل القاهرة 54 يوما فأرسل الناس وعلى رأسهم العاضد الفاطمي إلى نور الدين يستغيثون به من الصليبيين والوزير الخائن شاور.

7 - الفتح الأخير :

لقد كان فتح مصر بالنسبة لأسد الدين شيركوه الخطوة الأخيرة في تحقيق حلم حياته بتوحيد العالم الإسلامي في الشام ومصر لطرد العدو الصليبي الجاثم على الأرض المقدسة منذ سبعين سنة، لذلك فإننا نجد أن أسد الدين شيركوه منذ أن قاد الجيش وانطلق من دمشق سنة 559 هجرية وهو لا يفكر إلا لفتح مصر والمعاودة إليها مرة بعد مرة، على الرغم من الأهوال والشدائد التي لاقاها في كل مرة.

وكان أسد الدين مقيما في مدينة 'حمص' عندما جاءته رسالة نور الدين محمود بالقدوم إلى حلب استعدادا لإنقاذ مصر فركب البطل العجوز الذي جاوز الستين فرسه بعد صلاة الفجر وانطلق بأقصى سرعة حتى وصل 'حلب' قبيل الغروب وهذا الأمر لم يتسن لأحد من الناس سوى الصحابة رضوان الله عليهم أن يقطعوا هذه المسافة الطويلة في هذا الوقت الوجيز فسر نور الدين بذلك جدا وجهزه بجيش مكون من ألفي فارس وقام أسد الدين بجمع ستة آلاف فارس آخر من متطوعة الشام لفتح مصر وانطلق أسد الدين يزأر ويرعد ويبرق ويتوعد الصليبيين والخونة المنافقين في مصر. كما قلنا من قبل كان الصليبيون في قمة الخوف والفزع من مجرد ذكر اسم أسد الدين شيركوه، فلقد كان كابوسهم المفزع الذي يقض مضاجعهم، فلما جاءتهم الأخبار بقدوم أسد الدين وجنده الشامي على جناح السرعة أجمعوا أمرهم على الرحيل من مصر بعد أن هزموا بها مرتين من قبل على يد أسد الدين، وبالفعل رحلوا مذعورين هاربين، ودخل أسد الدين المظفر القاهرة فاتحا منتصرا من غير أن يشهر سيفا واحدا هذه المرة، فلقد نصره الله عز وجل بالرعب.

حاول شاور الخائن أن يستدرج أسد الدين لدعوة طعام مسموم ليهلك فيها هو وأصحابه ولكن **الكامل** بن شاور الابن الأكبر لشاور وكان رجلا صالحا مجاهدا نهى أباه عن هذه الفعلة وهدده بأن سيخبر شيركوه وقال كلمته الشهيرة عندما قال له أباه الخائن 'شاور' [والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعا] قال الكامل صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه.

لقي شاور جزاء خيانته وعمالته للصليبيين حيث أمر العضد الفاطمي بإعدامه ، وتولى أسد الدين شيركوه الوزارة في مصر وأخذ في التدبير والعمل من أجل إسقاط الدولة الفاطمية وتوحيد مصر والشام تحت حكم نور الدين محمود خاصة بعد إلحاح الخليفة العباسي المستضيء بالله على ذلك الأمر، ولكن القدر المحتوم والأجل المكتوب جاء لأسد الدين في ميعاده المعلوم فأصيب أسد الدين بذبحة صدرية قتلته في 22 جمادى الأخر 564 هجرية بعد أن حقق مراده وكلل سعيه وجهاده الطويل بفتح مصر، وسبحان الله لقد خاض هذا البطل أكثر من مائة وخمسين موقعة وتعرض للشهادة في كل موطن وسعى لها سعيا حثيثا ولكنه مات على فراشه وصدق الصديق عندما قال [احرص على الموت توهب لك الحياة] .

فلقد كانت سيرة هذا الرجل ترجمة لحياة المجاهد المعتز بدينه وإسلامه ولا يرى له عملا سوى تحرير الأرض المحتلة، والذي كانت أخباره ووقائعه مليء الصدور وصورته مليء العيون وهيبته وقدره في نفوس عدوه كفزع الزلازل والأعاصير والبراكين، فعلى أسد الدين شيركوه الذي ترك لنا مثل هذه السيرة وتخرج من مدرسة بطولته وشجاعته وحلقة جهاده الناصر صلاح الدين.

الملك الناصر أبو المظفر يوسف بن أيوب صلاح الدين الأيوبي

تقديم :

الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين والدنيا يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب الدويني التكريتي (532 - 589 هـ / 1138 - 1193 م)، المشهور بلقب **صلاح الدين الأيوبي** قائد عسكري أسس الدولة الأيوبية التي وحدت مصر والشام والحجاز وتهامة واليمن في ظل الراية العباسية ، بعد أن قضى على الخلافة الفاطمية التي استمرت 262 سنة. قاد صلاح الدين عدة حملات ومعارك ضد الفرنجة وغيرهم من الصليبيين الأوروبيين في سبيل استعادة الأراضي المقدسة التي كان الصليبيون قد استولوا

عليها في أواخر القرن الحادي عشر، وقد تمكن في نهاية المطاف من استعادة معظم أراضي فلسطين ولبنان بما فيها مدينة القدس ، بعد أن هزم جيش بيت المقدس هزيمة منكرة في معركة حطين.

كان صلاح الدين مسلما متصوفا اتبع المذهب السني والطريقة القادرية ، وبعض العلماء كالمقريزي، وبعض المؤرخين المتأخرين قالوا: إنه كان أشعريا ، وإنه كان يصحب علماء الصوفية الأشاعرة لأخذ الرأي والمشورة ، وأظهر العقيدة الأشعرية . يشتهر صلاح الدين بتسامحه ومعاملته الإنسانية لأعدائه ، لذا فهو من أكثر الأشخاص تقديرا واحتراما في العالمين الشرقي الإسلامي والأوروبي المسيحي، حيث كتب المؤرخون الصليبيون عن بسالته في عدد من المواقف، أبرزها عند حصاره لقلعة الكرك في مؤاب، وكنتيجة لهذا حظي صلاح الدين باحترام خصومه لا سيما ملك إنكلترا ريتشارد الأول "قلب الأسد"، وبدلا من أن يتحول لشخص مكروه في أوروبا الغربية ، استحال رمزا من رموز الفروسية والشجاعة، وورد ذكره في عدد من القصص والأشعار الإنكليزية والفرنسية العائدة لتلك الحقبة.

الفترة	567 - 589هـ / 1174– 1193 م
تتويج	567هـ / 1174 م ، القاهرة ، السلطنة الأيوبية
الاسم الكامل	يوسف بن أيوب
ألقاب	الملك الناصر
الولادة	تكريت ، العراق 532 هـ / 1138 - م
توفي	589هـ - 1193 / م (56 – 55) عاما
مكان الوفاة	دمشق ، الجامع الأموي ، دمشق ، سوريا
السلف	نور الدين زنكي
الخلف	الأفضل بن صلاح الدين (الشام) ، العزيز عثمان (مصر)
اعتقاد ديني	مسلم سني

1 - نسبه ونشأته

ولد صلاح الدين في تكريت في العراق عام 532 هـ/1138م في ليلة مغادرة والده نجم الدين أيوب قلعة تكريت حينما كان واليا عليها، ويرجع نسب الأيوبيين إلى أيوب بن شاذي بن مروان من أهل مدينة دوين في أرمينيا ، وقد أختلف المؤرخون في نسب العائلة الأيوبية حيث أورد ابن الأثير في تاريخه أن أيوب بن شاذي بن مروان يرجع إلى الأكراد الروادية وهم فخذ من الهذبانية ، ويذكر أحمد بن خلكان ما نصه: « قال لي رجل فقيه عارف بما يقول، وهو من أهل دوين ، إن على باب دوين قرية يقال لها " أجدانقان " وجميع أهلها أكراد روادية ، وكان شاذي قد أخذ ولديه أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج بهما إلى بغداد ومن هناك نزلوا تكريت ، ومات شاذي بها وعلى قبره قبة داخل البلد »، بينما يرفض بعض ملوك الأيوبيين هذا النسب وقالوا : « إنما نحن عرب ، نزلنا عند الأكراد وتزوجنا منهم".» الأيوبيون نفسهم اختلفوا في نسبهم فالملك المعز إسماعيل الأيوبي صاحب اليمن أرجع نسب بني أيوب إلى بني أمية وحين بلغ ذلك الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب قال : "كذب إسماعيل ما نحن من بني أمية أصلا"، أما الأيوبيون ملوك دمشق فقد أثبتوا نسبهم إلى بني مرة بن عوف من بطون غطفان وقد أحضر هذا النسب على المعظم عيسى بن أحمد صاحب دمشق وأسمعه ابنه الملك الناصر صلاح الدين داود.

وقد شرح الحسن بن داود الأيوبي في كتابه " الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية " ما قيل عن نسب أجداده وقطع أنهم ليسوا أكرادا ، بل نزلوا عندهم فنسبوا إليهم . وقال : "ولم أر أحدا ممن أدركته من مشايخ بيتنا يعترف بهذا النسب".

كما أن الحسن بن داود قد رجح في كتابه صحة شجرة النسب التي وضعها الحسن بن غريب، والتي فيها نسبة العائلة إلى أيوب بن شاذي بن مروان بن أبي علي محمد بن عنترة بن الحسن بن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد العزيز بن هدبة بن الحصين بن الحارث بن سنان بن عمرو بن مرة بن عوف بن

أسامة بن بيهس بن الحارث بن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن قريش .

وكان نجم الدين والد صلاح الدين قد انتقل إلى بعلبك حيث أصبح واليا عليها مدة سبع سنوات وانتقل إلى دمشق، وقضى صلاح الدين طفولته في دمشق حيث أمضى فترة شبابه في بلاط الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي أمير دمشق . إن المصادر حول حياة صلاح الدين خلال هذه الفترة قليلة ومبعثرة، لكن من المعروف أنه عشق دمشق عشقا شديدا، وتلقى علومه فيها، وبرع في دراساته، حتى قال عنه بعض معاصريه أنه كان عالما بالهندسة الإقليدية والرياضيات المجسطية وعلوم الحساب والشريعة الإسلامية ، وتنص بعض المصادر أن صلاح الدين كان أكثر شغفا بالعلوم الدينية والفقه الإسلامي من العلوم العسكرية خلال أيام دراسته . وبالإضافة إلى ذلك ، كان صلاح الدين ملما بعلم الأنساب والسير الذاتية وتاريخ العرب والشعر، فحفظ ديوان الحماسة لأبي تمام عن ظهر قلب، أيضا أحب الخيول العربية المطهمة ، وعرف أنقى سلالاتها دما.

2 – بدايته

كانت الدولة العباسية قد تجزأت إلى عدة دويلات بحلول الوقت الذي ظهر فيه صلاح الدين، في أواسط القرن الثاني عشر، فكان الفاطميون يحكمون مصر ويدعون لخلفائهم على منابر المساجد ولا يعترفون بخلافة بغداد ، وكان الصليبيون يحتلون الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط من آسيا الصغرى إلى شبه جزيرة سيناء ، والأتابكة يسيطرون على شمال العراق وسوريا الداخلية.

خط سير جيش الشام من دمشق إلى مصر ومعاركه مع الفاطميين والصليبيين.

لمع نجم صلاح الدين في سماء المعارك والقيادة العسكرية عندما أقبل الوزير الفاطمي شاور بن مجير السعدي إلى الشام فارا من مصر، وهربا من الوزير ضرغام بن عامر بن سوار المنذري اللخمي الملقب *فارس المسلمين* لما استولى على الدولة المصرية وقهره وأخذ مكانه في الوزارة وقتل ولده الأكبر طيء بن شاور، مستغيثا بالملك نور الدين زنكي في دمشق وذلك في شهر رمضان سنة 558 هـ ودخل دمشق في 23 من ذي القعدة من السنة نفسها، فوجه نور الدين معه أسد الدين شيركوه بن شاذي في جماعة من عسكره كان صلاح الدين، ابن الستة والعشرين ربيعا ، في جملتهم في خدمة عمه وخدمة جيش الشام وهو كاره للسفر معهم ، وكان لنور الدين في إرسال هذا الجيش هدفان؛ قضاء حق شاور لكونه قصده ، وأنه أراد استعلام أحوال مصر فإنه كان يبلغه أنها ضعيفة من جهة الجند وأحوالها في غاية الاختلال فقصد الكشف عن حقيقة ذلك . وكان نور الدين كثير الاعتماد على شيركوه لشجاعته ومعرفته وأمانته فانتدبه

لذلك ، وجعل أسد الدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين مقدم عسكره وشاور معهم فخرجوا من دمشق على رأس الجيش في جمادى الأولى سنة 559 هـ ودخلوا مصر وسيطروا عليها واستولوا على الأمر في رجب من السنة نفسها ، ومن المعروف أن صلاح الدين لم يلعب دورا كبيرا خلال هذه الحملة الأولى ، بل اقتصر دوره على مهمات ثانوية.

ولما وصل أسد الدين وشاور إلى الديار المصرية واستولوا عليها وقتلوا الوزير ضرغام وحصل لشاور مقصوده وعاد إلى منصبه وتمهدت قواعده واستمرت أموره، غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد بالفرنجة عليه فحاصروه في بلبيس ثلاثة أشهر ، وكان أسد الدين قد شاهد البلاد وعرف أحوالها، ولكن تحت ضغط من هجمات مملكة القدس الصليبية والحملات المتتالية على مصر بالإضافة إلى قلة عدد الجنود الشامية أجبر على الانسحاب من البلاد . وبلغ إلى علم نور الدين في دمشق وكذلك أسد الدين مكاتبة الوزير شاور للفرنجة وما تقرر بينهم فخافا على مصر أن يملكوها ويملكوا بطريقها جميع البلاد هناك فتجهز أسد الدين في قيادة الجيش وخرج من دمشق وأنفذ معه نور الدين العساكر وصلاح الدين في خدمة عمه أسد الدين ، وكان وصول أسد الدين إلى البلاد مقارنا لوصول الفرنجة إليها، فاتفقوا مع الفاطميين عليه ، فاشتبكوا في أول معركة كبيرة في صحراء الجيزة، وفي تلك المعركة لعب صلاح الدين دورا كبيرا، حيث كان جيش المصريين والفرنجة يفوق جيش الشام عددا، فرأى شيركوه أن يجعل صلاح الدين على القلب لاعتقاده بأن الفرنجة سيحملون على القلب ظنا منهم أن شيركوه سيكون في القلب ، وتولى شيركوه قيادة الميمنة مع شجعان من جيشه ، وسلمت قيادة الميسرة إلى جمع من القادة الكرد . عند بداية المعركة، حمل الصليبيون على القلب، الذين تقهقروا بانتظام أمام هذا الهجوم، ليطوقهم بعد ذلك شيركوه وجنوده في صورة من صور تكتيك الكماشة . يرى بعض المؤرخين الغربيين أن وعورة الأرض وكثافة الرمال وثقل الجياد الأوروبية والجنود الفرنجة المدرعين ، أسهمت في جعلت الآية تنقلب عليهم ، فهزمهم جيش الشام ، واستطاع صلاح الدين أسر أحد قادة الجيش الصليبي عندما هاجم جناحه ، وهو صاحب قيسارية .

بعد هذا الانتصار، توجه أسد الدين إلى مدينة الإسكندرية المعروفة بكرهها لشاور، وفتحت له أبوابها . سرعان ما أعاد عموري الأول ملك بيت المقدس ، وشاور ترتيب الجيش ، وعلى الرغم من الخسائر الكبيرة التي لحقت بهما فكان لا يزال جيشهما أكثر عددا من جيش أسد الدين ، وضربوا حصارا قاسيا على الإسكندرية. بدأت ملامح المجاعة تلوح في الأفق فقرر أسد الدين التسلل مع حامية إلى خارج الإسكندرية واستخلف صلاح الدين عليها ، متوجها إلى مصر العليا أملا بأن تلحق به جيوش عموري إلا أن شاور أشار بأهمية الإسكندرية ، ليستمر الحصار عليها. ترى المصادر الصليبية أن أسد الدين تسلل من الإسكندرية لما ساءت الأمور فيها ، وأنه أرسل في التفاوض على أن يخرج كلا الجيشين من مصر، وعلى ألا يعاقب أهالي الإسكندرية للدعم الذي قدموه . كان من أهم أسباب موافقة عموري على هذه الصفقة إغارة نور الدين زنكي على إمارة طرابلس ، مما أدى إلى خوف عموري الأول على أراضيه في الشام . في حين ترى المصادر العربية أن أسد الدين افترق عن صلاح الدين مباشرة بعد الدخول إلى الإسكندرية ، وراح يغير على صعيد مصر. حين اشتد الحصار على الإسكندرية تحرك نحوها ، فلقفه الصليبيون في الصلح ووافق على ذلك على أن يخرج جيشا الفرنجة والشام من مصر . ليخرج جيش الشام من مصر في 29 شوال سنة 562 هـ، الموافق فيه 18 أغسطس سنة 1167م.

عاد أسد الدين من دمشق إلى مصر مرة ثالثة، وكان سبب ذلك أن الإفرنج جمعوا فارسهم وراجلهم وخرجوا يريدون مصر نظرا لتخلف شاور عن دفع الإتاوة إلى الحامية الصليبية الموجودة في مصر، إضافة إلى وجود شائعات تفيد بأن الكامل بن شاور تقدم للزواج من أخت صلاح الدين . فلما بلغ ذلك أسد الدين ونور الدين في الشام لم يسعهما الصبر فسارعا إلى مصر، أما نور الدين فبالمال والجيش ولم يمكنه المسير بنفسه للتصدي لأي محاولة من قبل الإفرنج، وأما أسد الدين فبنفسه وماله وإخوته وأهله ورجاله، وسار الجيش. وكان شاور لما أحس بخروج الإفرنج إلى مصر، سير إلى أسد الدين في دمشق يستصرخه ويستنجده فخرج مسرعا وكان وصوله إلى مصر في شهر ربيع الأول سنة 564 هـ، ولما علم الملك عموري الأول بوصول أسد الدين على رأس الجيش من دمشق إلى مصر قرر مباغتته عند السويس ، لكن أسد الدين أدرك ذلك فاتجه نحو الجنوب متجاوزا الصليبيين. فما كان من عموري إلا الجلاء عن أرض مصر في 2

يناير سنة 1169م، ليدخل أسد الدين القاهرة في 7 ربيع الآخر سنة 564 هـ، الموافق فيه 8 يناير سنة 1169م، وأقام أسد الدين بها يتردد إليه شاور في الأحيان وكان وعدهم بمال في مقابل ما خسروه من النفقة فلم يوصل إليهم شيئا ، وعلم أسد الدين أن شاور يلعب به تارة وبالإفرنج أخرى، وتحقق أنه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور فأجمع رأيه على القبض عليه إذا خرج إليه، وفي 17 ربيع الآخر، الموافق فيه 18 يناير، ألقي القبض على شاور وأصدر الخليفة الفاطمي، العاضد لدين الله ، أمرا بقتله وعين أسد الدين كوزير.

3 - تأسيس الدولة في مصر

تولي الوزارة وإسقاط الدولة الفاطمية

كانت مصر قبل قدوم صلاح الدين مقر الدولة الفاطمية ، ولم يكن للخليفة الفاطمي بحلول ذلك الوقت سوى الدعاء على المنابر، وكانت الأمور كلها بيد الوزراء، وكان وزير الدولة هو صاحب الأمر والنهي ، لذا أصبح أسد الدين شيركوه هو الرجل الأول في البلاد، ودام على هذا الحال وصلاح الدين يباشر الأمور مقررا لها لمكان كفايته ودرايته وحسن رأيه وسياسته طيلة شهرين من الزمن ، عندما توفي أسد الدين ، أسند الخليفة الفاطمي الوزارة لصلاح الدين . يذكر المؤرخون ، وفي مقدمتهم عماد الدين الأصفهاني، أنه بعد وفاة شيركوه وانقضاء مدة الحداد ، طالب الزنكيون ، أمراء دمشق ، طالبوا الخليفة الفاطمي بل ضغطوا عليه حتى يجعل صلاح الدين وزيرا له ، وقد قبل الخليفة ذلك على الرغم من المنافسة الحادة التي كانت الدويلات الإسلامية تشهدها في تلك الفترة من الزمن ، للسيطرة على الأراضي العربية ، لشدة ضعف الدولة الفاطمية وقوة الزنكيين وشعبيتهم ، وشعبية صلاح الدين نفسه بين الناس وأمراء الشام، بعد ما أظهره من حسن القيادة والتدبير في المعارك . على الرغم من هذا التأييد، لم يمر تولي صلاح الدين وزارة مصر بسلام، فقد تعرض بعد بضعة أشهر من توليه لمحاولة اغتيال من قبل بعض الجنود والأمراء الفاطميين، وتبين أن المحرض الرئيسي على هذا كان مؤتمن الخليفة الفاطمي وكان خصيا بقصر العاضد لدين الله ، وكان هذا الخصي يتطلع إلى الحكم فيه والتقدم على من يحويه فقبض عليه وأعدم، فحاك أرباب المصالح مؤامرة أخرى، حيث ملأوا صدور 50,000 جندي من فوج الزنوج بالحقد والكره ، وثاروا حمية على الوزير الجديد في القاهرة، لكنه استطاع أن يقمعهم ويكسر شوكتهم، وكانت تلك آخر انتفاضة ضد صلاح الدين تقع في المدينة .

بعد سقوط مصر في أيدي الزنكيين، أرسل الملك عموري رسله لإرسال حملة صليبية جديدة شارحا خطورة الأمر والتغير في ميزان القوى في المنطقة ، فاستجاب البابا إسكندر الثالث وبعث رسائل إلى ملوك أوروبا، لكنها لم تجد أذنا صاغية. في حين نجح الرسول المرسل إلى القسطنطينية بسبب إدراك الإمبراطور عمانوئيل كومنينوس اختلال توازن القوى في المنطقة. فعرض تعاون الأسطول الإمبراطوري مع حملة عموري الأول، الذي وجد الفرصة مناسبة بسبب انشغال الملك نور الدين زنكي في مشاكله الداخلية، إضافة إلى وفاة أسد الدين شيركوه وتعيين صلاح الدين خلفا له والذي كان الملك عموري يراه شخصا غير محنك.

استعد صلاح الدين بشكل جيد، فقد استطاع التخلص من حرس قصر الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله واستبداله بحرس موالين له. وكان ذلك لتأخر الحملة الصليبية ثلاث أشهر منذ انطلاقها في 13 شوال سنة 564 هـ، الموافق فيه 10 يوليو سنة 1169م، بسبب عدم حماسة الأمراء والبارونات الصليبيين للمعركة بعد المعارك الأخيرة التي هزموا فيها، استهل الصليبيون حملتهم بحصار مدينة دمياط في 1 صفر سنة 565 هـ، الموافق فيه 25 أكتوبر سنة 1169م، فأرسل صلاح الدين قواته بقيادة شهاب الدين محمود وابن أخيه تقي الدين عمر، وأرسل إلى نور الدين زنكي يشكو ما هم فيه من المخافة ويقول: « إن تأخرت عن دمياط ملكها الإفرنج ، وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا من طاعتي، وساروا في أثري، والفرنج أمامي؛ فلا يبقى لنا باقية»، وقال نور الدين في ذلك: «إني لأستحي من الله أن أبتسم والمسلمون محاصرون بالفرنج» . فسار نور الدين إلى الإمارات الصليبية في بلاد الشام وقام بشن الغارات على حصون الصليبيين ليخفف الضغط عن مصر. وقامت حامية دمياط بدور أساسي في الدفاع عن المدينة وألقت سلسلة ضخمة عبر النهر، منعت وصول سفن الروم إليها، وهطلت أمطار غزيرة حولت المعسكر

الصليبي إلى مستنقع فتهيؤا للعودة وغادروا دمياط بعد حصار دام خمسين يوما، بعد أن أحرقوا جميع أدوات الحصار. وعندما أبحر الأسطول البيزنطي، هبت عاصفة عنيفة، لم يتمكن البحارة - الذين كادوا أن يهلكوا جوعا - من السيطرة على سفنهم فغرق معظمهم.

لاحق صلاح الدين وجيشه فلول الجيش الصليبي المنسحب شمالا حتى اشتبك معهم في مدينة دير البلح سنة 1170م، فخرج الملك عموري الأول وحاميته من فرسان الهيكل من مدينة غزة لقتال صلاح الدين، لكن الأخير استطاع تفادي الجيش الصليبي وحول مسيرته إلى غزة نفسها حيث دمر البلدة التي بناها الصليبيون خارج أسوار المدينة . تفيد بعض الوثائق أنه خلال هذه الفترة ، قام صلاح الدين بفتح قلعة إيلات التي بناها الصليبيون على جزيرة صغيرة في خليج العقبة في 10 ربيع الآخر 566 هـ، على الرغم من أنها لم تمثل تهديدا للبحرية الإسلامية، إلا أن فرسانها كانوا يتعرضون في بعض الأحيان للسفن والقوارب التجارية الصغيرة.

بعد هذا الانتصار، ثبت الزنكيون أقدامهم في مصر، وأصبح من الواضح أن الدولة الفاطمية تلفظ أنفاسها الأخيرة، فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين طالبا إياه بإيقاف الدعاء إلى الخليفة الفاطمي والدعاء إلى الخليفة العباسي في مساجد مصر. لم يرغب صلاح الدين من الامتثال لهذا الأمر خوفا من النفوذ الشيعي في مصر، وأخذ يراوغ في تأخير الأمر، إلا أن نور الدين هدد صلاح الدين بالحضور شخصيا إلى القاهرة. فاتخذ صلاح الدين الإجراءات الشرطية اللازمة، لكن لم يتجرأ أحد على القيام بذلك، إلى أن جاء شيخ سني من الموصل زائر وقام في المسجد الأزهر وخطب للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله في أول جمعة من سنة 567 هـ، الموافق في شهر سبتمبر من سنة 1171م ، لتحذو القاهرة كلها حذوه، في الوقت الذي كان فيه العاضد لدين الله على فراش الموت مريضا ، ولم يلبث العاضد طويلا حتى فارق الحياة، فأصبح صلاح الدين الحاكم الفعلي في مصر، ليس لأحدٍ فيها كلمة سواه، ونقل أسرته ووالده نجم الدين إليها ليكونوا له أعوانا مخلصين، وبهذا زالت الدولة الفاطمية تماما بعد أن استمرت 262 سنة.

سلطان مصر

الجامع الأزهر، أسسه الفاطميون كمدرسة لنشر الدعوة الإسماعيلية وحوله صلاح الدين الأيوبي إلى مدرسة للسنة بعد توليه مصر عام 1171م، وقضاءه على الدولة الفاطمية والنفوذ الشيعي في البلاد.

أخذ صلاح الدين يقوي مركزه في مصر بعد زوال الدولة الفاطمية، ويسعى من أجل الاستقلال بها، فعمل على كسب محبة المصريين، وأسند مناصب الدولة إلى أنصاره وأقربائه ، وعزل قضاة الشيعة واستبدلهم بقضاة شافعيون ، وألغى مجالس الدعوة وأزال أصول المذهب الشيعي الإسماعيلي . ثم أبطل الأذان بحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر، وأمر في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة سنة 565 هـ، الموافقة سنة 1169م، بأن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون جميعا : أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ، كما أسس مدرستين كبيرتين في الفسطاط هما المدرسة

الناصرية ، والمدرسة الكاملية حتى يثبت مذهب أهل السنة في البلاد، وكانت هاتان المدرستان تلقنا علوم الشريعة وفق المذهبين المالكي والشافعي .

وتخوف نور الدين زنكي من تزايد قوة تابعه صلاح الدين، وكانت العلاقة بينهما على فتور أصلا منذ أن تولى صلاح الدين الحكم في مصر. بدأ هذا التوتر في العلاقة يظهر عندما تأخر صلاح الدين في الخطبة للخليفة العباسي في بغداد، حتى هدده نور الدين بالمسير إليه، وظهر أيضا عندما أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته فلم يجبه إلى ذلك وقال: "أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد". وازداد الخلاف بينهما في سنة 567 هـ، الموافقة سنة 1172م، حتى أصبح وحشة، وذلك عندما اتفقا على حصار قلعتي الكرك ومدينة الشوبك في صحراء الأردن، ورجع صلاح الدين إلى مصر، قبل أن يلتقي بنور الدين، خوفا من أن يعزله الأخير عن مصر، وأن تؤدي السيطرة على القلعتين إلى فتح الطريق أمام نور الدين إلى القاهرة، فانسحب صلاح الدين متذرعا بالأوضاع الخطيرة في مصر، فعظم الأمر على نور الدين، حتى قرر المسير إلى مصر. لما علم صلاح الدين بذلك جمع مقربيه وشاورهم بالأمر فمنهم من نصح بمقاتلة نور الدين إلا أن والده وخاله منعوه من ذلك وطالبه والده بإرسال رسائل الاعتذار والتبرير لنور الدين ، لكن نور الدين لم يقتنع بأي من تلك التبريرات ، وعزم على تسيير حملة إلى مصر لخلع صلاح الدين في أقرب فرصة متاحة.

وفي صيف سنة 1172م ، وردت أنباء تفيد بأن جيشا من النوبيين ترافقه عناصر أرمنية قد بلغ حدود مصر ويحضر لحصار أسوان، فطلب أميرها المعونة العسكرية من صلاح الدين، فأرسل إليه تعزيزات بقيادة شقيقه الأكبر، توران شاه، أرغمت النوبيين على الانسحاب. عاد الجيش النوبي إلى مصر في سنة 1173م، لكنه رد على أعقابه في هذه المرة أيضا، بل تعقبه الجيش الأيوبي حتى بلاد النوبة، وفتح بلدة قصر إبريم . وفي ذلك الوقت، كان نور الدين زنكي لم يتخذ أي خطوة عسكرية تجاه صلاح الدين بعد، لكنه طالبه بإعادة مبلغ 200,000 دينار كان نور الدين قد خصصه لتمويل حملة أسد الدين شيركوه التي نجحت في فتح البلاد والقضاء على النفوذ الصليبي والفاطمي فيها، فدفع صلاح الدين 60,000 دينار، وأرفقها بحمل من أفضل البضائع وبعض الجواهر، إضافة لحصان عربي أصيل، وفيل، واعتبر ذلك وفاء للدين. استغل صلاح الدين فرصة مروره في الأراضي الشامية الصليبية لتوصيل الأموال والهدايا إلى دمشق، وأغار على بعض معاقل البدو في الصحراء ليحرم الصليبيين من فرصة الاستعانة بمتقفي الأثر أو أدلاء محليين يرشدونهم في حال قرروا مهاجمة مصر أو الأراضي الإسلامية المجاورة لهم، وجرى بينه وبين الإفرنج عدة وقعات. وفي أثناء وجود صلاح الدين في الشام، أصيب والده نجم الدين أيوب بحادث أثناء امتطائه جواده، وتوفي في 27 ذي الحجة 568 هـ، بعد أيام قليلة قبل وصول صلاح الدين إلى مصر. وفي سنة 1174م، الموافقة سنة 569 هـ، بلغ صلاح الدين أن رجلا باليمن استولى عليها، وملك حصونها يسمى عبد النبي بن مهدي ، ولما تبين له قوة جيشه وكثرة جنوده، سير صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه إلى اليمن، فقتل ابن مهدي، وأخذ البلاد منه، عندئذ أعلنت الحجاز انضمامها إلى مصر أيضا.

أخذ نور الدين زنكي يجمع جيشا ضخما في ربيع سنة 1174م، في محاولة لخلع صلاح الدين في مصر على ما يبدو، فأرسل رسلا إلى الموصل وديار بكر والجزيرة الفراتية يحثون الرجال ويدعونهم للجهاد، غير أن تلك الحملة لم يكتب لها أن تتم، إذ وقع نور الدين في أوائل شوال من سنة 569 هـ، الموافقة في شهر مايو من سنة 1174م بالذبحة الصدرية وبقي على فراش المرض أحد عشر يوما ليتوفى في 11 شوال سنة 569 هـ، الموافق فيه 15 مايو سنة 1174م، وهو في التاسعة والخمسين من عمره، وبوفاة نور الدين، استحال صلاح الدين سيد مصر الأوحد بشكل فعلي، حيث استقل عن كل تبعية سياسية، ويقال أنه أقسم آنذاك أن يصبح سيفا مسلولا على أعدائه وأعداء الإسلام، وأصبح هو رأس أقوى سلالة حاكمة إسلامية في ذلك العهد، هي السلالة الأيوبية، لذا جرت عادة المؤرخين على تسمية المناطق التي خضعت لسلطانه وسلطان تابعيه بالدولة الأيوبية.

4 - ضم الشام

فتح دمشق

كان نور الدين زنكي قد استخلف ولده الملك الصالح إسماعيل ذي الأحد عشر ربيعا، أميرا على دمشق، وبعد أن توفي نور الدين كان أمام صلاح الدين خياران أحلاهما مر: إما أن يهاجم الممالك الصليبية من مصر ويتركها مفتوحة وعرضة لهجمات بحرية أوروبية وبيزنطية، أو أن ينتظر حتى يستنجد به الملك الصالح خصوصا وأنه ما زال صبيا لا يستقل بالأمر ولا ينهض بأعباء الملك، كذلك كان أمام صلاح الدين خيار حاسم ، وهو أن يدخل دمشق ويسيطر عليها ويتولى شؤون البلاد بنفسه ، ويحضرها لقتال الصليبيين، غير أنه تردد في إتيان الخيار الأخير، بما أنه قد ينظر إليه حينها أنه قد شق عصا الطاعة ونكر المعروف والاحترام المتبادل والثقة التي منحه إياها نور الدين زنكي عندما ولاه قيادة الجيوش بعد وفاة أسد الدين شيركوه، وساعده على تمكين منصبه في مصر، وعندها قد لا ينظر إليه الجنود والناس أنه جدير بقيادة جيش المسلمين . لذا فضل صلاح الدين انتظار دعوة من الملك الصالح ، أو أن ينذره بنفسه من احتمال تصاعد الخطر الصليبي على دمشق.

واختلفت الأحوال بالشام، فنقل الصالح إسماعيل إلى حلب وعين سعد الدولة كمشتكين، أمير المدينة وكبير قدامى الجنود الزنكيين ، وصيا عليه حتى يبلغ أشده ، وسرعان ما طمع كمشتكين بتوسيع رقعة نفوذه حتى تشمل باقي مدن الشام الداخلية والجزيرة الفراتية ، وقرر فتح دمشق، فراسل أمير المدينة ، شمس الدين بن المقدم سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود أمير الموصل وابن عم الملك الصالح إسماعيل، طالبا منه التدخل للمساعدة، لكنه رفض، فكاتب شمس الدين بن المقدم صلاح الدين ، فتجهز من مصر في جيش كثيف وترك بها من يحفظها وقصد دمشق مظهرا أنه يتولى مصالح الملك الصالح. تكون جيش صلاح الدين من 700 خيال ، عبر بهم الكرك وصولا إلى بصرى، وفي أثناء الطريق انضمت إلى الجيش جموع من الكرد والعرب من أمراء وأحرار وبدو "سماهم في وجوههم" كما ورد على لسان صلاح الدين . دخل الجيش دمشق في شهر ربيع الأول من عام 570 هـ، الموافق فيه شهر نوفمبر من سنة 1174م، وأول ما دخل صلاح الدين كان دار أبيه وهي الدار المعروفة بالشريف العقيقي، واجتمع الناس إليه وفرحوا به وأنفق في ذلك اليوم مالا جليلا وأظهر السرور بالدمشقيين ، وصعد القلعة وتسلمها من نائب القلعة الطواشي جمال الدين ريحان بعد 4 أيام من وصوله.

فتوحات الشام الداخلية

استناب صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغتكين على دمشق قبل انطلاقه لضم باقي مدن الشام الداخلية التي استحالت مستقلة عن أي تبعية بحكم الأمر الواقع بعد وفاة نور الدين زنكي، فغنم حماة بسهولة، وعدل عن حصار مدينة حمص لمناعة أسوارها، ثم حول أنظاره نحو حلب وهاجمها بعد أن رفض أميرها "كمشتكين" الخضوع، وخرج الصالح إسماعيل إلى الناس وجعل يخاطبهم ويحثهم ألا يسلموا المدينة إلى جيش غاز، وقد قال أحد المؤرخين الأيوبيين أن كلمات الصالح إسماعيل أمام الناس كانت "كأثر سحر ساحر" على السكان.

راسل كمشتكين شيخ الحشاشين المدعو **رشيد الدين سنان** ، الذي كان على خلاف مع صلاح الدين ويمقته مقتا شديدا بعد أن أسقط الدولة الفاطمية، واتفق معه على أن يقتل صلاح الدين في قلب معسكره، فأرسل كتيبة مكونة من ثلاثة عشر حشاشا استطاعت التغلغل في المعسكر والتوجه نحو خيمة صلاح الدين، إلا أن أمرهم انفضح قبل أن يشرعوا بالهجوم ، فقتل أحدهم على يد أحد القادة، وصرع الباقون أثناء محاولتهم الهرب.

وفي أثناء ذلك، تحرك ريموند الثالث صاحب طرابلس لمهاجمة حمص، وحشد جيشه بالقرب من النهر الكبير الجنوبي، على الحدود اللبنانية السورية الشمالية حاليا، لكنه سرعان ما تراجع عن تحقيق هدفه، لما بلغه أن صلاح الدين قد أرسل فرقة عسكرية كبيرة مجهزة بالعتاد اللازم لتنضم إلى حامية المدينة . وفي غضون هذا الوقت كان أعداء صلاح الدين في الشام والجزيرة الفراتية يطلقون حملات مضادة له ويهجونه كلما سنحت الفرصة، فقالوا أنه نسي أصله ، فهو ليس سوى خادم للملك العادل نور الدين زنكي، بل خادم ناكر للمعروف لا يؤتمن على شيء ، خان سيده ومولاه ونفى ولده من بلاد أبيه إلى بلاد أخرى، وجعل يحاصرها بعد ذلك. فرد صلاح الدين على تلك الحملات الشرسة قائلا أنه لم يحاصر حلب ولم

يحضر إلى الشام منذ البداية إلا لحماية دار الإسلام والمسلمين من الجيوش الصليبية، وليستعيد ما سلب من الأراضي المقدسة، وإن هذه مهمة لا يمكن أن يتولاها صبي لم يبلغ أشده بعد، ويسهل التلاعب به من قبل أصحاب النفوس الخبيثة. وليطمئن الناس أكثر، سار صلاح الدين على رأس جيشه إلى حماة ليقاتل فرقة صليبية أرسلت لفتح المدينة، إلا أن الصليبيين انسحبوا قبل اللقاء بعد أن بلغهم حجم الجيش الأيوبي، فدخل صلاح الدين المدينة بسهولة، وتسلم قلعتها في شهر مارس من سنة 1175م، بعد مقاومة عنيفة من حاميتها.

بعد هذه الأحداث، علم سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل أن صلاح الدين قد استفحل أمره وعظم شأنه، وخاف إن غفل عنه استحوذ على البلاد واستقرت قدمه في الملك وتعدى الأمر إليه، فأنفذ عسكرا وافرا وجيشا عظيما وقدم عليه أخاه عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود وساروا يريدون لقاءه ليردوه عن البلاد، فلما بلغ صلاح الدين ذلك فك الحصار عن حلب في مستهل رجب من السنة عائدا إلى حماة استعدادا للقائهم. وعندما وصل عز الدين مسعود إلى حلب، انضم إلى جيشه عسكر ابن عمه الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، وخرجوا في جمع عظيم، فلما عرف صلاح الدين بمسيرهم سار حتى وافاهم على قرون حماة وراسلهم وراسلوه واجتهد أن يصالحوه فما صالحوه، ورأوا أن ضرب المصاف معه ربما نالوا به غرضهم، والتقى الجمعان عند قرون حماة بقرب نهر العاصي، ووقعت بينهما معركة عظيمة هزم فيها الزنكيون على يد صلاح الدين، وأسرت جماعة منهم، وذلك في التاسع عشر من شهر رمضان من سنة 570 هـ، الموافقة في 23 أبريل من سنة 1175 م، ثم سار صلاح الدين عقيب انتصاره ونزل على حلب مرة أخرى، فصالحه الزنكيون على أخذ معرة النعمان وكفر طاب وبارين.

أعلن صلاح الدين نفسه ملكا على البلاد التي افتتحها بعد انتصاره على الزنكيين، وخطب له أئمة المساجد يوم الجمعة باسم "الملك الناصر"، وضربت الدنانير الذهبية في القاهرة باسمه، وعضد ملكه بالزواج من أرملة نور الدين زنكي المدعوة **عصمة الدين خاتون.** وسرعان ما أصبحت سيادة صلاح الدين على البلاد سيادة مشروعة عندما أسند الخليفة العباسي في بغداد إليه السلطة على مصر والمغرب الأدنى والنوبة والحجاز و تهامة وفلسطين وسوريا الوسطى، وخلع عليه لقب "سلطان مصر والشام".

استمرت الحرب بين الأيوبيين والزنكيين على الرغم من انتصار صلاح الدين في حماة، وحدثت الموقعة الأخيرة بينهما في صيف سنة 1176م. كان صلاح الدين قد أحضر جيوشه من مصر استعدادا للقاء الحاسم، وقام سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بتجنيد الرجال في المناطق التي ما زال يسيطر عليها، في ديار بكر وقرى وبلدات الجزيرة الفراتية. عبر الأيوبيون نهر العاصي متجهين شمالا حتى وصلوا تل السلطان على بعد 24 كيلومترا من حلب ، حيث قابلوا الجيش الزنكي، فاشتبك الجيشان في معركة ضارية، واستطاع الزنكيون دحر ميسرة الجيش الأيوبي، فاندفع صلاح الدين بنفسه تجاه حراس سيف الدين غازي وأعمل فيهم السيف، فتشجع الأيوبيون واندفعوا يمزقون صفوف الجيش الزنكي، فذعر الزنكيون وأخذوا يتقهقرون تاركين في ساحة المعركة الكثير من القتلى، كاد سيف الدين أن يكون من ضمنهم. قتل في المعركة العديد من ضباط الجيش الزنكي وأسر بعضهم الآخر، وغنم الأيوبيون معسكر الزنكيين بما فيه من خيام وأمتعة وخيول وأسلحة، وعامل صلاح الدين الأسرى معاملة كريمة، فمنحهم هدايا وأطلق سراحهم، ثم وزع غنائم المعركة كلها على جنوده، ولم يحتفظ بشيء لنفسه.

سار صلاح الدين بعد انتصاره ليعاود حصار مدينة حلب، وفي أثناء سيره فتح الجيش الأيوبي حصن بزاعة وحصن منبج، ومن ثم توجه غربا لإخضاع حصن أعزاز، وعندما ضرب الجيش الحصار على الحصن، اقتحم بعض الحشاشين المندسين المعسكر واستطاع أحدهم الوصول إلى خيمة صلاح الدين وضربه بسكين على رأسه، فحمته الخوذة غير أن السكين مرت على خده وجرحته جرحا هينا، واستطاع إمساك الحشاش، فصارعه الأخير أرضا وحاول نحره ، لكن صلاح الدين تمكن منه، وأعانه عليه وعلى رفاقه الجنود الأيوبيون وأقاربه وقتلوهم جميعا. كان لمحاولة الاغتيال هذه أثر كبير على صلاح الدين، فقد عزم على القضاء على كمشتكين أمير حلب، الذي سبق وتواطأ مع الحشاشين لقتل صلاح الدين، وأصبح شديد الحذر لا يقابل إلا من يعرفه. يقول أبو شامة المقدسي في كتابه *الروضتين في أخبار الدولتين*:

{ لما فتح السلطان حصن بزاعة ومنبج أيقن من هم تحت سلطتهم بخروج ما في أيديهم من المعاقل، والقلاع ونصبوا الحبائل للسلطان . فكاتبوا سنانا صاحب الحشيشية مرة ثانية، ورغبوه بالأموال والمواعيد، وحملوه على البتاع فأرسل، لعنه الله، جماعة من أصحابه فجاءوا بزي الأجناد، ودخلوا بين المقاتلة وباشروا الحرب وأبلوا فيها أحسن البلاء، وامتزجوا بأصحاب السلطان لعلهم يجدون فرصة ينتهزونها. فبينما السلطان يوما جالس في خيمة، والحرب قائمة والسلطان مشغول بالنظر إلى القتال، إذ وثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينة على رأسه، وكان محترزا خائفا من الحشيشية، لا يترع الزردية عن بدنه ولا صفائح الحديد عن رأسه؛ فلم تصنع ضربة الحشيشي شيئا لمكان صفائح الحديد وأحس الحشيشي بصفائح الحديد على رأس السلطان فسبح يده بالسكينة إلى خد السلطان فجرحه وجرى الدم على وجهه؛ فتتعتع السلطان بذلك .

ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه ، ووضعه على الأرض وركبه لينحره ؛ وكان من حول السلطان قد أدركهم دهشة أخذت عقولهم. وحضر في ذلك الوقت سيف الدين يازكوج، وقيل إنه كان حاضرا، فاخترط سيف وضرب الحشيشي فقتله. وجاء آخر من الحشيشية أيضا يقصد السلطان ، فاعترضه الأمير داود بن منكلان الكردي وضربه بالسيف ، وسبق الحشيشي إلى ابن منكلان فجرحه في جبهته، وقتله ابن منكلان، ومات ابن منكلان من ضربة الحشيشي بعد أيام. وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الأمير علي بن أبي الفوارس فهجم على الباطني، ودخل الباطني فيه ليضربه فأخذه علي تحت إبطه، وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكن من ضربه، فصاح علي : " اقتلوه واقتلوني معه " ، فجاء ناصر الدين محمد بن شيركوه فطعن بطن الباطني بسيفه، وما زال يخضخضه فيه حتى سقط ميتا ونجا ابن أبي الفوارس. وخرج آخر من الحشيشية منهزما، فلقيه الأثير شهاب الدين محمود، خال السلطان فتنكب الباطني عن طريق شهاب الدين فقصده أصحابه وقطعوه بالسيوف.

وأما السلطان فإنه ركب من وقته إلى سرادقه ودمه على خده سائل، وأخذ من ذلك الوقت في الاحتراس والاحتراز، وضرب حول سرادقه مثال الخركاه، ونصب له في وسط سرادقه برجا من الخشب كان يجلس فيه وينام ، ولا يدخل عليه إلا من يعرفه، وبطلت الحرب في ذلك اليوم ، وخاف الناس على السلطان. واضطرب العسكر وخاف الناس بعضهم من بعض، فألجأت إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس ، فركب حتى سكن العسكر }

بعد أن تم النصر وافتتح حصن أعزاز في ذي الحجة من سنة 571 هـ، حول صلاح الدين أنظاره ناحية حلب وضرب الحصار عليها كي يقتص من الأمير كمشتكين، فقاومته الحامية مقاومة شديدة مرة أخرى، ففشل في اقتحام المدينة، غير أنه تمكن من فرض هدنة على كمشتكين والملك الصالح إسماعيل وأبرم حلفا معهما ، وجاء في نص الهدنة أن يحتفظ الزنكيون بمدينة حلب مقابل اعترافهم بسلطان صلاح الدين على كامل الأراضي التي أخضعها، وسرعان ما اعترف أمراء ماردين وجوارها بسيادة صلاح الدين وبملكه على الشام. وعندما انتهت الهدنة أرسل الملك الصالح شقيقته الصغرى الخاتون بنت نور الدين إلى صلاح الدين مطالبة إياه بإعادة حصن أعزاز إلى الزنكيين ، فاستجاب لطلبها ورافقها بنفسه حتى بوابة حلب محملة بهدايا كثيرة.

الحملة على الحشاشين

قلعة مصياف ، إحدى معاقل الحشاشين

، حاصرها صلاح الدين شهر أغسطس عام 1176م ، ولم يتمكن من اقتحامها.

بعد أن تحالف صلاح الدين مع الزنكيين وأبرم معاهدة سلام مع مملكة بيت المقدس، لم يبق له من خطر يهدد دولته إلا طائفة الحشاشين بقيادة **شيخ الجبل رشيد الدين سنان بن سليمان بن محمود،** كانت هذه الطائفة تتبع طريقة الاغتيال المنظم للتخلص من أعدائها ومنافسيها. وكان الحشاشون يمتنعون في سلسلة من القلاع والحصون في عدد من المواقع المشرفة الشاهقة في جبال النصيرية ، ولما عزم صلاح الدين على إبادة طائفتهم وكسر شوكتهم ، أرسل بعض الفرق العسكرية إلى جبالهم ، وأعاد ما تبقى من جنود إلى مصر، وتولى صلاح الدين قيادة الجيش بنفسه ، وضرب الحصار على جميع قلاع الحشاشين خلال شهر أغسطس من عام 1176م، لكنه لم يتمكن من فتح أي منها، ففك الحصار وانسحب بجيشه مدمرا كل المعاقل غير الحصينة التابعة لتلك الطائفة أثناء سيره .

بينما ذكر ابن كثير وابن الأثير أن صلاح الدين حاصر حصنهم مصياف وقتل منهم وسبى ثم شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن يكش، فقبل شفاعته فصالح الحشاشين، ثم كر راجعا إلى دمشق . غير أن بعض المخطوطات العائدة لرشيد الدين سنان نصت على أن صلاح الدين انسحب خوفا على حياته، وإنه كان ينثر الرماد وغبار الطبشور حول خيمته ليلا عندما حاصر قلعة مصياف، ليعرف ما إذا كان الحشاشون يأتون ليلا بالقرب منه، وجعل كل حارس من حراسه يحمل سراجا مضيئا.

أما بالنسبة لرواية صلاح الدين نفسه ، فقد قال فيها أن حراسه لاحظوا لمعان معدن على إحدى تلال مصياف ذات ليلة، ومن ثم اختفى بين خيم الجنود، وأفاد صلاح الدين أنه استيقظ من نومه ليرى شخصا يخرج من الخيمة، وكانت المصابيح فيها قد بعثرت وبقرب سريره عثر على كعك مرقق، وهي العلامة المميزة للحشاشين، وفي أعلى الخيمة وجد رسالة معلقة بخنجر مسموم كتب فيها تهديد له إن لم يغادر الجبال فسوف يقتل. عندئذ صاح صلاح الدين أن سنانا كان في خيمته وغادرها ، وقد جعلته هذه التجربة يدرك عجزه قتال الحشاشين وإفنائهم بسرعة ، فطلب من جنوده أن يراسلوهم كي يبرم حلفا معهم ، فيكون بهذا قد حقق انتصارا آخر، ألا وهو حرمان الصليبيين من حليف مهم.

5 - العودة إلى مصر والغزوات في فلسطين

انسحب صلاح الدين من جبال النصيرية بعد أن لم يتمكن من فتح قلاعها عائدا إلى دمشق، ثم سرح جنوده الشوام وجعلهم يعودون إلى منازلهم للراحة والاستعداد للحروب القادمة ، ثم رحل عن المدينة برفقة حراسه فقط قاصدا مصر، فوصل القاهرة بعد حوالي شهر. كان على صلاح الدين تنظيم كثير من الأمور في الديار المصرية بعد أن غاب عنها حوالي سنتين قضاها في معارك متواصلة في الشام ، وفي مقدمة هذه الأمور تحصين القاهرة وإعادة بناء أقسامها المهدمة ، فأقدم على إصلاح أسوارها وإمداد المزيد منها، كذلك شرع في بناء قلعة القاهرة سنة 573 هـ، التي عرفت فيما بعد بقلعة صلاح الدين والتي أشرف على بنائها

بهاء الدين قراقوش، وبئر يوسف البالغ من العمق 85 مترا . ومن أعمال صلاح الدين الأخرى بناء جسر ضخم في الجيزة ليشكل إحدى خطوط الدفاع الأولية ضد غزو غربي محتمل.

بقي صلاح الدين في القاهرة يشرف على الأعمال العمرانية فيها، فبنى إلى جانب المباني العسكرية بضعة مدارس لنشر العلم ، وتابع إدارة البلاد الداخلية بنفسه ، واهتم بالمؤسسات الاجتماعية التي تساعد الناس وتخفف عنهم عناء الحياة ، وتعهد بالإنفاق على الفقراء والغرباء الذين يلجؤون للمساجد للعيش فيها ، وجعل من مسجد أحمد بن طولون في القاهرة مأوى للغرباء الذين يأتون إلى مصر من بلاد المغرب. يقول ابن المقفع:

{ إن الملك صلاح الدين عامل رعيته في بلاد مصر بخير يعجز الواصف عن وصفه وأرسى العدل وأحسن إلى المصريين وأزال مظالم كثيرة على الناس وأمر بإبطال الملاهي في بلاد مصر وأبطل كل منكر شرير وأقام حدود شريعة الإسلام . وكان يجلس للحكم بين الناس فينصف المظلوم من الظالم ويكون في مجلسه مجموعه من الفقهاء ومشاهير الدولة للنظر في القضايا بين الناس والعمل بما توجبه أحكام الشريعة والحق والعدل } .

وفي شهر جمادى الآخر سنة 573 هـ، الموافق فيه نوفمبر من سنة 1177م، أغار الصليبيون على ضواحي دمشق ، فاعتبر صلاح الدين أن الهدنة مع مملكة بيت المقدس قد نقضت وانتهى أمرها، فجمع الرجال وسار إلى فلسطين ليغير على بعض المواقع الصليبية، فما كان من الصليبيون إلا أن أرسلوا جزء كبيرا من جيشهم إلى مدينة حارم شمال حلب ليحولوا انتباه الأيوبيين إلى تلك الأنحاء ، لكن صلاح الدين استمر بغزاته على بعض المواقع الثانوية في فلسطين بعد أن فرغت من الرجال الذين أرسلوا مع الجيش الصليبي شمالا ثم توجه إلى عسقلان ، التي قال أنها "عروس الشام"، بعد أن رأى أن الوضع مؤات لهكذا تحرك.

يقول المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن الجيش الأيوبي تكون من 26,000 جندي، 8,000 منهم كانوا يشكلون النخبة ، و 18,000 كانوا أرقاء زنوج من السودان. واصل صلاح الدين يغزو المواقع الصليبية الثانوية الواحد تلو الآخر، فهاجم الرملة واللد، وبلغ بوابات القدس.

الحرب والهدنة مع بلدوين الرابع

تحرك ملك بيت المقدس الشاب بلدوين الرابع بن عموري " الأبرص " ، أثناء وجود صلاح الدين على مشارف القدس، وسار بجمع من فرسان الهيكل من مدينة غزة ودخل عسقلان. ووصلت هذه الأنباء إلى صلاح الدين فعاد بقسم من جيشه إلى ضواحي المدينة، لكنه تردد في مهاجمة الصليبيين على الرغم من التفوق العددي للأيوبيين، وذلك لوجود عدد من القادة المهرة المخضرمين في صفوفهم، وكان لهذا التردد في الهجوم أثره الكبير، إذ قام الصليبيون تحت قيادة الملك بلدوين وأرناط آل شاتيون صاحب الكرك بهجوم مفاجئ بتاريخ 25 نوفمبر من سنة 1177م، وأخذوا الأيوبيين على حين غرة وهزموهم في تل الجزر بالقرب من الرملة، وقد حاول صلاح الدين تنظيم صفوف الجيش وحشد الجنود مجددا، لكنهم تشتتوا، وصرع في المعركة جميع حراسه، فرأى الانسحاب إلى مصر وإنقاذ ما تبقى من العساكر

استعد صلاح الدين لمنازلة الصليبيين مجددا بعد عودته إلى مصر، فجمع الجنود والعتاد اللازم، ولم تثبط عزيمته رغم الهزيمة التي لحقت به في فلسطين، بل زادته إصرارا على القتال. وفي ربيع سنة 1178م، نزل الجيش الأيوبي بقرب حمص، وحصلت بضعة مناوشات بينه وبين الجيش الصليبي، وفي شهر ربيع الأول سنة 574 هـ، الموافق فيه شهر أغسطس سنة 1178م، هاجمت فرق صليبية أخرى مدينة حماة والقرى المجاورة وقتلت بعض السكان، لكنها هزمت على يد حامية المدينة وأسر كثير من أفرادها، واقتيدوا إلى صلاح الدين الذي أمر بإعدامهم كونهم "عاثوا فسادا في أرض المؤمنين". أمضى صلاح الدين بقية العام في الشام دون أي يخوض معارك أخرى، لكن الحال لم يدم طويلا على هذا النحو، فقد وصلت صلاح الدين أنباء مقلقة من جواسيسه تقول بأن الصليبيين يخططون لشن حملة عسكرية على سوريا الوسطى، فأمر ابن أخيه عز الدين فروخ شاه بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب، بأن يقف على الجبهة الدمشقية ومعه ألف من الجنود استعدادا لضبط أي هجوم، وألا يلتحم مع الصليبيين في قتال، وإن حصل وتقدموا إلى

المدينة، فعليه الانسحاب وإضاءة المنارات المنصوبة على التلال المحيطة حتى يعلم صلاح الدين بمجيئهم فيلاقيهم بنفسه.

وفي شهر ذي القعدة سنة 574 هـ، الموافق فيه شهر أبريل من عام 1179م، تقدم الصليبيون بقيادة الملك بلدوين نحو دمشق متوقعين مقاومة ضعيفة، وشرعوا في مهاجمة القرى والرعاة في مرتفعات الجولان، فتصدت لهم فرقة عسكرية أيوبية بقيادة فروخ شاه، ثم انسحبت من أمامهم، فتعقبوها حتى جنوب شرق القنيطرة حيث كان الجيش الأيوبي منتظرا، فوقعت معركة كان النصر فيها لصالح الأيوبيين. قام صلاح الدين بتعزيز قواته بعد هذا النصر، فطلب من أخاه الأصغر الملك العادل سيف الدين أبو بكر، أن يرسل إليه 1,500 فارس من مصر لينضموا إلى الجيش في الشام.

بحلول صيف عام 1179م، كان بلدوين الرابع قد أقام حصنا حدوديا سماه المؤرخون المسلمون "حصن مخاضة الأحزان" على الطريق المؤدية إلى دمشق ليؤمنها، وعزم على بناء جسر فوق نهر الأردن هو "معبر يعقوب" (يعرف اليوم باسم جسر بنات يعقوب) ليصل الأراضي الصليبية بسهل بانياس الذي يفصل بين الإمارات الصليبية والأراضي الإسلامية. اعترض صلاح الدين على هذا المشروع واعتبره عملا عدوانيا تجاه المسلمين، وعرض على بلدوين 100,000 قطعة ذهبية مقابل تخليه عن هذا المشروع، لكن الأخير رفض التسوية، فعزم صلاح الدين على مهاجمة الحصن الحدودي وتدميره، ثم سار بجيشه وجعل مركزه بانياس. هرع الصليبيون للقاء المسلمين بعد تلك الخطوة، لكن جيشهم تشتت، حيث تلكأ المشاة في الخلف، واستمر صلاح الدين يستدرجهم بعيدا حتى ما إن تبين له أن الفرصة سانحة وإن الجيش الصليبي منهك، انقض عليهم واشتبك الجيشان في معركة طاحنة انتصر فيها المسلمون، وأسر كثير من كبار الفرسان الصليبيين، ثم تحرك صلاح الدين صوب الحصن وضرب الحصار عليه، ثم دخله فاتحا في 26 ربيع الأول سنة 575 هـ، الموافق فيه 30 أغسطس من سنة 1179م.

وفي ربيع سنة 1180م، وبينما كان صلاح الدين في صفد يحضر لغزو بيت المقدس، راسله الملك بلدوين يعرض فوافق، والواقع أن القحط في ذلك العام كان دافعا أساسيا لكلا الرجلين ليتوقفا عن القتال، حيث ذبلت المحاصيل ولم ينضج منها إلا القليل، فقلت مؤن الجيشين الصليبي والأيوبي، وأصبح يتعذر على أي منهما ضرب حصار على قلعة أو مدينة تابعة للآخر، دون المجازفة بحدوث مجاعة في صفوف الجند. رفض ريموند الثالث صاحب طرابلس الالتزام بالهدنة في بادئ الأمر وأصر على القتال، لكنه سرعان ما رضخ للمعاهدة بعد أن أغار الجيش الأيوبي على إمارته في شهر مايو، وظهر الأسطول الإسلامي بالقرب من مرفأ طرطوس مهددا بالهجوم.

6 - القضايا المحلية

كان صلاح الدين قد حاول التقرب من أمير حصن كيفا المدعو نور الدين محمد الأرتقيوني، عندما عرض التوسط بينه وبين عز الدين قلج أرسلان بن مسعود، سلطان سلاجقة الروم، لإنهاء خلاف قائم، حيث كان الأخير قد طالب نور الدين بإعادة بعض الأراضي التي حصل عليها كهدية زفاف بعد زواجه من ابنته، ثم تبين أنه يسيء معاملتها وأن هدفه من ذلك الزواج لم يكن سوى السيطرة على مزيد من المناطق فحسب، وقد قبل نور الدين وساطة السلطان الأيوبي بينما رفضها قلج أرسلان. وفي شهر يونيو من سنة 1180م، استقبل صلاح الدين الأمير نور الدين محمد وأخاه أبو بكر في محاولة لكسب الود وتوطيد العلاقات مع الأرتقيون تمهيدا لأي مجابهة يحتمل وقوعها بين الأيوبيين وأمراء الموصل والأناضول والملوك الصليبيين، وأرفق كلا الأميرين بهدايا قيل بأن قيمتها تخطت 100,000 دينار. بعد هذا اللقاء، راسل السلطان قلج أرسلان صلاح الدين معلنا قبوله الوساطة ودخوله في الحلف الأيوبي الأرتقيوني، فابتهج صلاح الدين لهذا الخبر لما تضمنه من بشائر إعادة توحيد الأراضي الإسلامية، لكن فرحه سرعان ما تحول إلى غضب عارم، عندما وصلته رسالة من أرسلان يقول فيها أن نور الدين عاد ليسيء معاملة زوجته ابنة سلطان آل سلجوق، فهدد صلاح الدين بالمسير إلى ملطية عاصمة نور الدين ليؤدبه بنفسه ولينهي الخلاف القائم بين حاكمين مسلمين في وقت كان المسلمون فيه بأشد الحاجة لأن يتوحدوا،[95] وفي واقع الأمر فإن صلاح الدين لم يرغب بالمسير إلى نور الدين محمد، ذلك أنه تحالف معه ولم يعد يستطيع أن ينقض هذا

الحلف، وفي الوقت نفسه كان للسلطان قلج أرسلان كامل الحق في الخوف على ابنته والدفاع عنها ومنع استغلالها لغايات سياسية، فجاء خطاب صلاح الدين حادا في سبيل إخافة نور الدين وحثه على الخضوع. ولما تبين لنور الدين محمد أنه لا يقدر على الجيش الأيوبي، خضع لأوامر صلاح الدين وعز الدين قلج أرسلان، ووافق على أن يرسل امرأته إلى أبيها طيلة سنة من الزمن، خصوصا بعد أن جاء في رسالة بعثها إليه صلاح الدين، أنه إن خرق هذا الاتفاق فسوف ينقض صلاح الدين الاتفاقية بينهما.

عاد صلاح الدين إلى القاهرة بداية عام 1181م وترك فروخ شاه ليتولى شؤون الشام أثناء غيابه؛ يقول أبو شامة المقدسي أن صلاح الدين كان ينوي تمضية شهر رمضان في مصر ذلك العام، ومن ثم يذهب للحج في مكة، لكن لأسباب غير واضحة عدل عن حج البيت الحرام، وشوهد في شهر يونيو وهو يتفقد ضفاف النيل. وفي تلك الفترة حدثت بينه وبين البدو بعض الإشكالات، إذ اتهم بعضهم بالإتجار مع الصليبيين، فصادر محاصيلهم وأرغمهم على مغادرة شرق مصر والسكن في غربها، واستولى على ثلثي الأراضي التابعة للإقطاعيين منهم وأعطاها لإقطاعيي الفيوم ليعوضهم عن أراضيهم الخاصة التي هدف أن يجعلها ملكا عاما للدولة، كما حول بعض السفن الحربية على قراصنة الأنهار من البدو الذين كانوا يغيرون على المزارع والقرى المجاورة للنيل وفروعه.[96]

في صيف سنة 1181م، قاد أخو صلاح الدين سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب، في فرقة عسكرية لاعتقال نائب توران شاه في بلدة زبيد باليمن ، حطان بن كامل بن منقذ الكناني الكلبي، لاختلاس العوائد المالية للبلدة التي يتولى أمورها، غير أن صلاح الدين قال أنه ليس هناك من دليل يفيد بصحة ما قيل، وأمر بإطلاق سراحه مقابل 80,000 دينار له شخصيا ومبالغ أخرى لإخوته. كان اعتقال حطان الكناني الكلبي المثير للجدل نتاج استياء بعض المقربين من صلاح الدين من إدارة بلاد اليمن بعد أن غادرها توران شاه؛ فعلى الرغم من أن نائبوه استمروا يرسلون خراج البلاد، إلا أن السلطة الأيوبية على اليمن أخذت تضعف بعض الشيء، حيث برز صراع على السيادة بين عز الدين عثمان صاحب عدن وصاحب زبيد، مما جعل صلاح الدين يقول أنها تكلف الدولة الأيوبية مصاريف كبيرة ولا تعود عليها بالفوائد المرجوة والمتوقعة.

7 - توسع الدولة

فتح أطراف بلاد ما بين النهرين

توفي سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود في 3 صفر سنة 576 هـ، الموافق فيه 28 يونيو من سنة 1180م ، وخلفه شقيقه عز الدين في إمارة الموصل . في 25 رجب سنة 577 هـ، الموافق فيه 4 ديسمبر سنة 1181م، توفي الملك الصالح بن نور الدين زنكي في حلب. قبل وفاته، لما يئس من نفسه استدعى الأمراء فحلفهم لابن عمه عز الدين مسعود بن قطب الدين صاحب الموصل، لقوة سلطانه وتمكنه، ليمنعها من صلاح الدين . رحب بعز الدين في حلب، ولكن تملكه لحلب والموصل كان أمرا يفوق قدراته، لذا تنازل عن حلب لأخيه عماد الدين زنكي، في مقابل سنجار والخابور والرقة ونصيبين وسروج وغير ذلك من البلاد. لم يحاول صلاح الدين استغلال تلك الظروف احتراما للمعاهدة التي عقدها في السابق مع الزنكيين.

وفي 5 محرم سنة 578 هـ، الموافق فيه 11 مايو سنة 1182م، غادر صلاح الدين الأيوبي القاهرة مع نصف الجيش الأيوبي المصري والعديد من المتطوعين إلى الشام. وعندما علم أن القوات الصليبية احتشدت على الحدود لاعتراضه، غير طريقه عبر سيناء إلى أيلة، وهناك لم يلق صلاح الدين أي مقاومة من قوات بلدوين . وعندما وصل إلى دمشق في يونيو، أغار عز الدين فروخ شاه على بلاد طبرية، واحتل دبورية وحابس جلدق، وهو أحد الحصون ذات الأهمية الكبيرة للصليبيين. في يوليو، أرسل صلاح الدين فروخ شاه لمهاجمة كوكب الهوا. وفي أغسطس، شن الأيوبيون هجوما بريا وبحريا للاستيلاء على بيروت؛ وقاد صلاح الدين جيشه في سهل البقاع ، ولما بدا لصلاح الدين أن الهجوم قد يفشل، فضل إيقاف هجومه والتركيز على مهمته نحو في بلاد ما بين النهرين.

دعا مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين وهو أحد أمراء حران، صلاح الدين لاحتلال بلاد الجزيرة، الواقعة شمال بلاد ما بين النهرين. ومع انتهاء الهدنة بينه وبين الزنكيين رسميا في جمادى الأول سنة 578 هـ، الموافق فيه شهر سبتمبر من عام 1182م ، وقبل سيره إلى بلاد الجزيرة، كان التوتر قد ازداد بين الحكام الزنكيين في المنطقة، نظرا لعدم رغبتهم في دفع الجزية لصاحب الموصل . وقبل عبوره الفرات، حاصر صلاح الدين حلب لمدة ثلاثة أيام ، بمجرد أن انتهت الهدنة . وما أن وصل إلى قلعة البيرة قرب نهر الفرات، حتى انضم إليه كوكبري ونور الدين صاحب حصن كيفا، واستولت القوات المشتركة على مدن الجزيرة الواحدة تلو الأخرى، فسقطت الرها تلتها سورج ثم الرقة وقرقيسية ونصيبين . كانت الرقة نقطة عبور هامة والتي كانت في يد قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، الذي سبق وخسر منبج أمام قوات صلاح الدين الأيوبي عام 1176م. لما رأى قطب الدين كبر حجم جيش صلاح الدين، لم يقدم على إبداء أي مقاومة واستسلم على أن يحتفظ بممتلكاته. أثار صلاح الدين الأيوبي إعجاب أهالي المدينة بعدما أمر بإلغاء عدد من الضرائب، حيث قال "إن شر الحكام هم من يسمنون وشعوبهم جياع". من الرقة ، غزا ماكسين ودورين وعرابان والخابور، والتي خضعت جميعها له .

ثم توجه صلاح الدين لغزو نصيبين التي سلمت دون مقاومة. كانت نصيبين بلدة متوسطة الحجم، ليست ذات أهمية كبيرة، لكنها كانت تقع في موقع استراتيجي بين ماردين والموصل ويسهل الوصول إليها من ديار بكر . في خضم هذه الانتصارات، وردت صلاح الدين أخبار تقول أن الصليبيين أغاروا على قرى دمشق. فأجاب « دعهم.. ففي الوقت الذي يهدمون فيه القرى، نستولي نحن على المدن؛ وعندما نعود، سيتعين علينا جمع المزيد من القوة لمحاربتهم». وفي الوقت نفسه ، في حلب ، داهم أميرها الزنكي مدن صلاح الدين في الشمال والشرق، مثل باليس ومنبج وسورج وبوزيع والقرضين، كما دمر قلعته في بلدة أعزاز لكي لا يستخدمها الأيوبيون إن استطاعوا الاستيلاء عليها.

ضم حلب

بعد الموصل اهتم صلاح الدين بضم حلب، فأرسل شقيقه تاج الملوك بوري لاحتلال تل خالد، الواقعة على بعد 130 كيلومتر شمال شرق الموصل، وجهز لحصارها، إلا أن حاكم تل خالد استسلم مع وصول صلاح الدين نفسه في 17 مايو قبل ضرب الحصار. بعد تل خالد، قام جيش صلاح الدين الأيوبي بالتوجه شمالا إلى عينتاب لاحتلالها، ومن ثم العودة سريعا لمسافة 60 كم في اتجاه حلب. وفي 21 مايو، عسكر صلاح الدين خارج حلب، وتمركز بنفسه شرق قلعة حلب، كما طوقت قواته ضاحية بناقسة في الشمال الشرقي وباب جنان في الغرب، وتمركز باقي رجاله بالقرب من المدينة، على أمل فتحها في أقل وقت ممكن.

لم يقاوم عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود لفترة طويلة، حيث لم يكن يحظ بشعبية بين رعاياه، ولرغبته في العودة إلى سنجار المدينة التي كان يحكمها سابقا. عقدت مفاوضات بغرض تبادل الأراضي، على أن يسلم زنكي حلب إلى صلاح الدين الأيوبي في مقابل استعادة سيطرته على سنجار ونصيبين والرقة وسروج، وأن تحارب قوات زنكي إلى جانب جيش صلاح الدين. وبحلول 18 صفر 579 هـ / 12 يونيو 1183 م، أصبحت حلب في أيدي الأيوبيين . لم يعلم أهل حلب بتلك المفاوضات، لذا فوجئوا حين رأوا راية صلاح الدين الأيوبي مرفوعة فوق قلعة حلب. عندئذ، عرض أميران أحدهما عز الدين جردق الصديق القديم لصلاح الدين خدماتهما على صلاح الدين، الذي رحب بذلك. استبدل صلاح الدين القضاء الحنفي بالقضاء الشافعي، مع وعد بعدم التدخل في القيادة الدينية للمدينة. وعلى الرغم من حاجة صلاح الدين للمال، إلا أنه سمح لزنكي بالمغادرة بكل ما استطاع حمله من خزائن قلعة المدينة، وبيع المتبقي لصلاح الدين نفسه.

على الرغم من تردده فيما مضى في إتمام عملية المبادلة، إلا أنه كان واثقا من نجاحه لتيقنه من أن حلب هي "الباب الذي سيفتح له الأراضي" وأن "هذه المدينة هي عين الشام وقلعتها بؤبؤها". بالنسبة لصلاح الدين الأيوبي، كان الاستيلاء على المدينة يمثل له نهاية أكثر من ثماني سنوات من الانتظار، فقد

قال لفروخ شاه "نحن لا نملك إلا الانتظار، وحلب ستكون لنا." فمن وجهة نظره، أنه باستيلائه على حلب سيستطيع الآن تهديد الساحل الصليبي كله.

بعد أن قضى ليلة واحدة في قلعة حلب، سار صلاح الدين إلى حارم بالقرب من أنطاكية الإمارة الصليبية. كانت حارم تحت حكم "سرخك" أحد المماليك صغار الشأن، الذي قدم صلاح الدين الأيوبي له عرضا بمدينة بصرى وأراضٍ في دمشق في مقابل حارم، ولكن عندما طلب سرخك الحصول على المزيد، أرغمته حامية البلدة على الخروج ، حيث تم إلقاء القبض عليه من قبل تقي الدين نائب صلاح الدين الأيوبي بعد مزاعم بأنه كان يخطط للتنازل عن حارم إلى بوهمند الثالث أمير أنطاكية. بعد استسلام حارم، شرع صلاح الدين الأيوبي في ترتيب دفاعات المدينة استعدادا للصليبيين، وأوفد إلى الخليفة وأتباعه في اليمن وبعلبك بأنه سيهاجم الأرمينيين. وقبل أن يهم بالتحرك، كان لا بد من تسوية بعض التفاصيل الإدارية، فقد وافق صلاح الدين الأيوبي على هدنة مع بوهمند في مقابل رد أسرى مسلمين كان يحتجزهم ، ثم ولى علم الدين سليمان بن جندر، وهو الأمير الذي انضم إلى صلاح الدين في حلب، إدارة أعزاز، كما ولى سيف الدين اليزقوج، مملوك عمه أسد الدين شيركوه السابق الذي أنقذه من محاولة اغتيال في أعزاز، إدارة حلب.

حربه من أجل الموصل

مع اقتراب صلاح الدين من الموصل، كان عليه تبرير مسألة الاستيلاء على تلك المدينة الكبيرة. استغاث زنكيو الموصل بالخليفة العباسي الناصر لدين الله في بغداد الذي كان وزيره يفضلهم ، فأرسل الناصر بدر البدر، وهو شخصية دينية رفيعة المستوى، للتوسط بين الجانبين. وصل صلاح الدين إلى المدينة في 10 نوفمبر سنة 1182م، ولم يقبل عز الدين شروطه لأنه اعتبرها خدعة كبيرة، وعلى الفور ضرب صلاح الدين حصارا على المدينة المحصنة جيدا.

بعد عدة مناوشات طفيفة والمأزق الذي وقع فيه أمام الخليفة، قرر صلاح الدين الأيوبي أن يجد طريقة للانسحاب من الحصار دون أن يلحق ذلك ضررا بسمعته، لذا قرر أن يهاجم سنجار التي يحكمها شرف الدين أمير أميران هندوا شقيق عز الدين، مع ترك قوة لمواصلة الحصار، فسقطت سنجار بعد حصار دام 15 يوما في 3 رمضان سنة 578 هـ، الموافق فيه 30 ديسمبر سنة 1182م . لم يلتزم قادة وجنود صلاح الدين بانضباطهم ونهبوا المدينة، وتمكن صلاح الدين بنفسه من حماية حاكم المدينة وضباطه بإرسالهم إلى الموصل. وبعد أن ترك حامية في سنجار، انتظر حتى يجمع جنده من حلب وماردين وأرمينيا لمواجهة عز الدين. توجه صلاح الدين بجيشه للقاء قواته في حران في شهر ذي القعدة من سنة 578 هـ، الموافق فيه شهر فبراير من عام 1183م، وعندما علم عز الدين بقدوم جيش صلاح الدين، أرسل رسله في طلب السلام، وفرق قواته.

وفي 6 ذي القعدة سنة 578 هـ، الموافق فيه 2 مارس سنة 1183م، كتب العادل من مصر إلى صلاح الدين الأيوبي بأن الصليبيين قد طعنوا قلب الإسلام، فقد أرسل صاحب الكرك أرناط آل شاتيون، سفنا من خليج العقبة لمداهمة البلدات والقرى قبالة ساحل البحر الأحمر، وعلى الرغم من أن تلك المحاولة لم تكن هادفة لفرض النفوذ الصليبي على البحر أو للتحكم في طرق التجارة، وكانت مجرد قرصنة، كتب عماد الدين بأن الغارة كانت مقلقة للمسلمين لأنهم لم يكونوا معتادين على الهجمات عبر البحر، وأضاف ابن الأثير بأن السكان لم يعهدوا فرنجيا قط لا تاجرا ولا محاربا.

وقال ابن جبير بأن ستة عشر سفن للمسلمين أحرقها الصليبيون الذين استولوا على سفينة حجاج وقافلة في عيذاب. كما ذكر أيضا أنهم كانوا ينوون مهاجمة المدينة المنورة ونهب قبر النبي محمد. وأضاف المقريزي إلى أن شائعات انتشرت تزعم بأنهم كانوا سينقلون جثمان النبي محمد إلى الأراضي الصليبية، لجعل المسلمين يحجون إليها. ولحسن حظ صلاح الدين الأيوبي، كان العادل قد نقل السفن الحربية من الفسطاط والإسكندرية إلى البحر الأحمر تحت قيادة حسام الدين لؤلؤ قائد الأسطول المصري ، فبدأ بمهاجمة القوات التي هاجمت أيلة وهزمها ، ثم سار لقتال من هاجموا عيذاب ، فأدركهم في ساحل الحوراء (أملج) ودمر معظم سفنهم، فنزلوا إلى البر محاولين الفرار فهزمهم شر هزيمة. أمر صلاح الدين بقتل الأسرى الصليبيين البالغ عددهم 170 مقاتل في عدد من مدن المسلمين.

من وجهة نظر صلاح الدين، كانت الحرب ضد الموصل تسير على ما يرام، لكنه لم ينجح بعد في تحقيق أهدافه وبدأ جيشه يتناقص؛ فقد عاد تقي الدين برجاله إلى حماة، وغادر ناصر الدين محمد بن شيركوه بقواته. شجع ذلك عز الدين وحلفائه على الهجوم. فجمع قواته في حرضم الواقعة على بعد 140 كيلومتر من حران. وفي بداية أبريل، ودون أن ينتظر ناصر الدين، بدأ صلاح الدين وتقي الدين تقدمهم ضد قوات عز الدين، متوجهين شرقا إلى رأس العين دون أن يلقوا مقاومة. وبحلول نهاية أبريل، وبعد ثلاثة أيام من القتال، استولى الأيوبيون على آمد. سلم المدينة نور الدين محمد بن قره أرسلان بخزائنها التي بها 80,000 شمعة، وبرج كامل مملوء بالسهام و1,040,000 كتاب. وفي مقابل إعادته حاكما للمدينة، أقسم نور الدين الولاء لصلاح الدين الأيوبي، واعدا إياه بمساعدته في كل حملاته في الحرب ضد الصليبيين وإصلاح الأضرار التي لحقت بالمدينة. وبسقوط آمد، قرر حاكم ماردين التحالف مع صلاح الدين الأيوبي، وهو ما أضعف تحالف عز الدين.

حاول صلاح الدين الحصول على دعم الخليفة الناصر ضد عز الدين من خلال إرسال رسالة للخليفة يطالبه فيها بمرسوم يعطيه الحق في تملك الموصل والأراضي التابعة لها. حاول صلاح الدين الأيوبي إقناع الخليفة معللا طلبه بأنه في الوقت الذي فتح مصر واليمن وأعادها تحت راية العباسيين، كان الزنكيون في الموصل يؤيدون صراحة السلاجقة (منافسي الخلافة) ، ولم يخضعوا للخليفة إلا وقت حاجتهم إليه. واتهم أيضا قوات عز الدين بعرقلة الجهاد ضد الصليبيين، مشيرا إلى أنهم "لا ينوون القتال فقط، بل ويمنعون الذين يستطيعون ذلك". كما قال صلاح الدين الأيوبي بأنه إنما جاء إلى الشام لقتال الصليبيين وإنهاء بدعة الحشاشين ووضع حد لتخاذل المسلمين. كما وعد أنه إذا أعطيت له الموصل، فسيستولي على القدس والقسطنطينية والكرج وأراضي الموحدين في المغرب، حتى تصبح كلمة الله هي العليا وتطهر الخلافة العباسية العالم وتتحول الكنائس إلى مساجد. وأكد صلاح الدين أن كل هذا من الممكن أن يحدث بمشيئة الله ، وبدلا من طلب الدعم المالي أو العسكري من الخليفة، قال أنه سيغزو أراضي تكريت وداقوق وخوزستان وجزيرة كيش وعمان، وسيعطيها للخليفة.

8 - الحروب ضد الصليبيين

بعد أن نجح صلاح الدين في أن يجمع مصر وسوريا والحجاز وتهامة والعراق في دولة إسلامية موحدة قوية تحيط بمملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية من الشمال والشرق والجنوب، واطمأن إلى وحدتها وتماسكها، انتقل إلى تحقيق القسم الثاني من مخططه السياسي، وهو محاربة الصليبيين وطردهم من البلاد ، وجاءته الفرصة حين تعرض أرناط آل شاتيون صاحب الكرك لقافلة غزيرة الأموال كثيرة الرجال فأخذهم عن آخرهم ونهب أموالهم ودوابهم وسلاحهم، فأرسل إليه صلاح الدين يلومه ويقبح فعله وغدره ويتوعده إن لم يطلق الأسرى والأموال، فلما رفض أرسل صلاح الدين، الذي كان آنئذ في دمشق، إلى جميع الأطراف باستدعاء العساكر لحرب أرناط ، وتوجه بنفسه إلى بصرى، ومنها إلى الأردن ونزل بثغر الأقحوان.

في 9 جمادى الآخرة سنة 579 هـ، الموافق فيه 29 سبتمبر سنة 1183م، عبر صلاح الدين نهر الأردن لمهاجمة بيسان التي وجدها خاوية. وفي اليوم التالي، أضرمت قواته النار في البلدة، وساروا غربا، ليعترضوا تعزيزات الصليبيين من حصني الكرك والشوبك على طول طريق نابلس وأسروا عددا منهم. وفي تلك الأثناء، كانت قوة الصليبيين الرئيسية بقيادة غي آل لوزنيان، قرين ملكة القدس سيبيلا أخت بلدوين، قد تحركت من صفورية إلى العفولة. أرسل صلاح الدين الأيوبي 500 مقاتل لمناوشة قوات الصليبيين، وسار بنفسه إلى عين جالوت. وعندما تقدمت القوات الصليبية، والتي كانت أكبر قوة جمعتها المملكة من مواردها الخاصة، ولكنها كانت لا تزال أقل من قوات المسلمين، تراجع الأيوبيون بشكل غير متوقع إلى عين جالوت. رغم وجود بضع الغارات الأيوبية، بما في ذلك الهجمات على زرعين والطيبة وجبل طابور، لم يشارك الصليبيون بكامل قواتهم في معركة العفولة، التي قاد فيها صلاح الدين رجاله عبر النهر منسحبا ببطء.

ومع ذلك، أثارت المزيد من الهجمات الصليبية غضب صلاح الدين الأيوبي. فقد استمر أرناط آل شاتيون يهاجم القوافل التجارية العائدة للمسلمين وطرق الحج بأسطول في البحر الأحمر، وهو الممر المائي الذي كان من اللازم لصلاح الدين بقائه مفتوحا. وردا على ذلك، بنى صلاح الدين أسطولا من 30 سفينة لمهاجمة بيروت في عام 1182م. هدد رينالد بمهاجمة مدن المسلمين المقدسة مكة والمدينة المنورة، وهو ما رد عليه صلاح الدين بمحاصرة الكرك قلعة أرناط الحصينة مرتين، عامي 1183 و1184، فرد رينالد بنهب قافلة حجيج عام 1185، ووفقا لمؤرخ القرن الثالث عشر الإفرنجي وليم الصوري، فقد قبض أرناط على أخت صلاح الدين في تلك الغارة على القافلة ، وهو ما لم تثبته المصادر المعاصرة ، سواء الإسلامية أو الأوروبية، وذكرت بدلا من ذلك أن أرناط هاجم القافلة، وأن جند صلاح الدين حموا شقيقته وابنها حتى وصلوا دون أي ضرر.

بعد أن استعصى حصن الكرك المنيع على صلاح الدين أدار وجهه وجهة أخرى وعاود مهاجمة عز الدين مسعود بن مودود الزنكي في نواحي الموصل التي كان قد بدأت جهوده في ضمها سنة 1182م، إلا أن تحالف عز الدين مع حاكم أذربيجان ومملكة جبال، والذي أرسل جنوده عبر جبال زاغروس عام 1185م، جعل صلاح الدين يتردد في هجومه. وحينما علم المدافعون عن الموصل، بأن تعزيزات في طريقها إليهم، ارتفعت معنوياتهم وزادوا من جهودهم، وقد تزامن ذلك مع مرض صلاح الدين، لذا ففي شهر مارس من سنة 1186م، تم التوقيع على معاهدة سلام.

معركة حطين

كان المرض قد اشتد على ملك بيت المقدس بلدوين الرابع، في سنة 1185م وما لبث أن توفي في ذلك العام بعد أن سمى ابن شقيقته بلدوين الخامس خلفا له، لكن الأخير ما لبث أن توفي خلال سنة، فتولت العرش والدته سيبيلا، التي ما لبثت أن توجت زوجها الثاني غي آل لوزينيان ملكا، وكان الأخير قد خطط له أن يكون وصي العرش بعد بلدوين الرابع، لكن تحالفه مع أرناط وخرقهما للهدنة مع صلاح الدين ومهاجمتهما لقوافل المسلمين التجارية وقوافل الحجاج، الأمر الذي جعل صلاح الدين يحاصر الكرك، جعلت بلدوين الرابع يعدل عن تسميته خلفا له بعد مماته. وعندما تولى غي عرش بيت المقدس ظهرت الانشقاقات بين الصليبيين وتوسعت، فلم يكن عدد من الأمراء راضيا عن توليه، ومن هؤلاء ريموند الثالث "القمص" صاحب طرابلس، الذي دفعه غيظه إلى مراسلة صلاح الدين ومصادقته واتفق معه ألا يحاربه ولا يرفع عليه سيف، فقال له: «أنني أملك طبريا أنزل عليها وأستولي عليها وأنا أتركها لك فتقوى بها على الفرنجة وتضعف قلوبهم». فذهب صلاح الدين ونزل قريبا من طبريا فسلمها له صاحب طرابلس، وسمع ملك الفرنجة المتوج حديثا ما حدث، فحشد العامة في البلاد مع عساكر الساحل وسار للقاء صلاح الدين، وانضم إليه صاحب طرابلس ليتستر على فعله.

في يوم السبت 25 ربيع الآخر سنة 583 هـ، الموافق فيه 5 يوليو سنة 1187م، نزل الصليبيون قرون حطين، وكان صلاح الدين قد سبقهم إلى هناك وتمركز جيشه في المنطقة العليا منها حيث نبع المياه ، وكانت تجهيزات الفرنجة الحربية الثقيلة هي سبب تأخرهم في الوصول، ولما حصل ووصلوا إلى الموقع كانوا هالكين من العطش لدرجة أنهم شربوا الخمر بدلا من الماء فسكر منهم الكثير، وهاجموا جيش صلاح الدين فقتل من الفريقين عدد من الجنود، وكان الصليبيون متحمسين في البداية للحصول على الماء فهزموا المسلمين في أول النهار ولكن دارت الدوائر في آخر النهار، فإنقض الأيوبيون على الجيش الصليبي ومزقوا صفوفه، واستمرت المعركة ساعات طويلة، وما أن انقشع غبارها حتى تبين مدى الكارثة التي لحقت بالصليبيين، فقد خسروا زهرة شباب جنودهم، وقتل العديد من الفرسان والضباط المخضرمين، ووقع الملك غي آل لوزينيان وأخوه وأرناط صاحب الكرك وغيرهم من كبار الصليبيين بالأسر . أما ريموند الثالث صاحب طرابلس، فقد تظاهر بالهجوم على المسلمين، فمر بين صفوفهم وذهب ولم يرجع كأنه أنهزم ، واتجه إلى مدينة صور ومكث بها.

بعد هذا النصر جلس صلاح الدين في خيمته، وأمر بإحضار الملك غي وأخوه وأرناط، فلما مثلوا أمامه قدم للملك شربة من جلاب وثلج، فشربها وكان على أشد حال من العطش، ثم ناولها لأرناط، فقال

صلاح الدين للترجمان: « إنما ناولتك ، ولم آذن لك أن تسقيه ، هذا لا عهد له عندي»، وذلك كون العادة السائدة كانت أنه لو شرب الأسير أو أكل من مال من أسرة أمن، وكان صلاح الدين قد نذر أنه لو ظفر بأرناط قتله بعد أن قتل من المسلمين خلقا كثيرا. بعد ذلك أمر صلاح الدين بإحضار بعض الطعام للملك غي، وما أن انتهى حتى أمر بإحضار أرناط، وأوقفه بين يديه ثم قال له: « نعم أنا أنوب عن رسول الله في الانتصار لأمته»، ودعاه إلى اعتناق الإسلام، فرفض وقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي محمد، فسل صلاح الدين سيفه ودق عنق أرناط ، وأمسكه الجنود وأخرجوا جثته ورموها على باب الخيمة، ورآه الملك غي يتخبط في دمائه ويلفظ أنفاسه الأخيرة فخاف وشحب لونه معتقدا أنه لاحق به، فاستحضره صلاح الدين وطيب قلبه وقال له :

{ أنا أحدثك حديث الأمراء، لا تخاف يا ملك فلن تموت اليوم، بل تحيا ولو بقي في قومك بقية كنت أملكك عليهم وأساعدك بمالي ورجالي طول أيام حياتك. إن سبب ما فعلته به أن الكرك كانت طريق التجار والمسافرين فكان يعتدى على القوافل بظلم وعنف، وكان ملوك المسلمين نور الدين وغيره يطلبون الصلح معه ليخففوا ضرره على المسلمين، فكان يوافقهم مرة ولا يعتدي على التجار وألف مرة يعتدي. فلما تملكت وحكمت البلاد أرسلت له وهاديته بمال كثير وخلع.. فحلف لرسولي أنه لن يؤذي المسلمين وسيترك التجار بلا ضرر ويمهد لهم الطريق ولن يعتدي أي واحد من أصحابه عليهم، وبعد الصلح بثلاثة أيام عبرت قافلة قاصدة دمشق فساقها بجمالها ورجالها وأموالها وذهب بها إلى الكرك فأسر رجالها وأخذ الأموال فلما عرفت بأمر نقوضه العهد كتمت الغيظ ونذرت لله أنني متى ظفرت به أذبحه واقطع رقبته، فلا تلومني يا ملك. }

ثم استدعى خادمه وسأله أن يحضر شراب فجاء به فأخذه بيده وشرب منه وناوله للملك فشربه وأعطى له ولأصحابه خيمة وجعل عليها حراسا لحراسته واحتفظ به، وأرسله إلى دمشق أسيرا، يرافقه القاضي ابن أبي عصرون، حتى تنتهي الحرب وتفتتح القدس، وأرسل معه أيضا صليب الصلبوت ، وهو الصليب الأعظم عند الصليبيين والذي قيل بأن فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح، وكان يغلف بالذهب واللآلئ والجواهر النفسية، وكان يتقدم الجيش الصليبي على الدوام ، وحملوه معهم يوم حطين، وأودع في قلعة دمشق عند وصوله.

تحرير الساحل الشامي

رأى صلاح الدين ألا يتوجه مباشرة لفتح القدس بعد انتصار حطين، وإنما رأى أنه من الأسلم أن يسير لفتح مدن الساحل ومن ثم الهجوم على القدس، فرحل طالبا عكا وكان نزوله عليها يوم الأربعاء، وقاتل الصليبيين بها بكرة يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة 583 هـ، فأخذها وأنقذ من كان بها من أسرى المسلمين، وكانوا أكثر من 4 آلاف شخص، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر والبضائع كونها كانت المرفأ التجاري الرئيسي للصليبيين ونافذتهم على وطنهم الأم في أوروبا. ثم تفرقت الجنود الأيوبية في الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة، ففتحوا نابلس وحيفا والناصرة وقيسارية وصفورية بعد أن خلا معظمها من الرجال إما لمصرعهم على أرض المعركة أو لوقوعهم في الأسر أو لهربهم من أمام الجيش الأيوبي بعد أن قل عددهم. ولما استقرت قواعد عكا، قسم صلاح الدين أموالها بين أهلها، وأبقى بعض القادة الصليبيين في الأسر وأطلق سراح بعض الجنود، ثم سار يطلب قلعة تبنين، فوصلها يوم الأحد في 11 جمادى الأولى من نفس السنة، فنصب عليها المناجيق وضيق عليها الحصار، وقاومت حاميتها مقاومة عنيفة قبل أن تستسلم ويدخلها الجيش الأيوبي، ثم ارتحل بعد ذلك قاصدا صيدا وتسلمها في اليوم التالي لوصوله.

وفي أثناء توجه صلاح الدين لفتح بيروت في سنة 1187م، لقيه الأمير جمال الدين حجي التنوخي في بلدة خلدة وسار معه لحصار المدينة، فضرب الإثنان عليها الحصار ودخلوها بعد 7 أيام ، وكافأ صلاح الدين الأمير التنوخي على ولائه له وثبته على إقطاعات آبائه وأجداده وزاد عليها حتى شملت منطقة الغرب كلها، الممتدة من جنوبي بيروت حتى أعالي جبل لبنان، وكذلك فعل مع الأمراء الشهابيين في سهل البقاع،

فقد كان هؤلاء يقاتلون الصليبيين طيلة فترة من الزمن انتهت باستيلائهم على حاصبيا وما حولها، فسر صلاح الدين بذلك وولى الأمير منقذ الشهابي على البلاد التي فتحها . وفي أثناء حصار صلاح الدين لبيروت، كانت فرقة عسكرية أيوبية قد استرجعت جبيل من أيدي الصليبيين، ولما فرغ من هذا الجانب رأى أن قصده عسقلان أولى لأن حصارها وفتحها أيسر من حصار صور، فأتى عسقلان وتسلم في طريقه إليها مواقع كثيرة كالرملة والدراوم، وأقام في عسقلان المناجيق وقاتلها قتالا شديدا حتى استسلمت حاميتها، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبرين والنطرون بغير قتال، وهكذا كان صلاح الدين قد استرجع أغلب ساحل الشام، ولم يصمد في وجهه غير مدينتي طرابلس وصور وقسما من إمارة أنطاكية.

فتح القدس

ظل صلاح الدين في عسقلان حتى نظم إدارتها وسلمها إلى أحد مماليكه واسمه علم الدين قيصر، وأعطاه ولاية عسقلان والقطاع الذي حولها ورحل منها وتوجه إلى القدس لفتحها، ووصلها يوم الخميس في 11 رجب سنة 583 هـ، الموافق فيه 20 سبتمبر سنة 1187م، من جهة عين سلوان حتى يكون الماء قريب من جيشه وأمر جنده بمحاصرة المدينة في هيئة دائرية ، وصلى المسلمين على الجبل الذي حولها يوم الجمعة، وزحفوا للقتال بعد الصلاة، ولم يكن في المدينة المقدسة قوة كبيرة لحمايتها من الهجوم الأيوبي، حيث لم يزيد عدد الجنود عن 1400 جندي، أما الباقون فكانوا من الفقراء والأهالي الذين لا خبرة لديهم في القتال وكان باليان بن بارزان فارس من فرسان الفرنجة الكبار يسكن مدينة القدس ويتولى شؤونها منذ أن غادرها الملك غي ، وكان باليان هذا هو صاحب مدينة الرملة، وقاد القتال في ذلك اليوم وانضم إليه الكهنة والشمامسة، وكان ماهرا في إدارة القتال وتوجيه المقاتلين أمام قوات صلاح الدين، وكان خوفه الأكبر أن يقتل المسلمين كل مسيحيي القدس عند دخولهم كما فعل الصليبيون عندما فتحوا المدينة قبل ما يزيد عن قرن من الزمن، فحث السكان أن يدافعوا عن حياتهم ومقدساتهم حتى الرمق الأخير، وعندما أرسل له صلاح الدين أن يسلم المدينة ويطلب الأمان لم يفعل، وأصر على القتال واستمر في الحرب لمدة 14 يوما.

ولما رأى صلاح الدين أن الحرب ستكون شديدة ولم يقدر على احتلال مدينة القدس، أحضر **يوسف البطيط** ، وهو رجل مسيحي أرثوذكسي مقدسي، انتقل إلى مدينة دمشق وسكن فيها وكان له معرفة بأمراء مسلمين وفرنجة ، وكان ممن يعرفهم صلاح الدين، وكان يعرف كذلك أبوه وعمه أسد الدين شيركوه وهم بدمشق في خدمة نور الدين زنكي قبل أن يحكموا مصر، ولما ملك صلاح الدين مصر وحكمها، جاء إليهم ليعمل معهم فاستخدمه الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين وأعطاه عطايا، وسكنا في قصر الخليفة في قاعة باب الذهب في القصر الشرقي بالقاهرة ، واستخدمه صلاح الدين لمراسلة الفرنجة، وكان يعرف أحوال البلاد وأهلها كما كان يعرف كبار فرسان تلك البلاد، فطلب منه أن يتفق مع المسيحيين الأرثوذكس من عرب وروم يوعدهم بالخير والعفو عنهم إذا لم يساعدوا الفرنجة في القتال وأن يسلموا المدينة لصلاح الدين من الجهة التي يسكنون بها في القدس فيهلكوا الفرنجة، الذين رفض صلاح الدين أن يعفي عنهم بحال فتح المدينة، حتى هدد باليان بقتل الرهائن المسلمين، والذين يقدر عددهم بأربعة الآف مسلم، وتدمير الأماكن الإسلامية المقدسة، أي قبة الصخرة والمسجد القبلي، الذان يشكلان المسجد الأقصى، إذا لم يعف صلاح الدين عنهم.

استشار صلاح الدين الأيوبي مجلسه وقبل هذه الشروط ، على أن يتم دفع فدية على كل من فيها مقدارها عشرة دنانير من كل رجل وخمسه دنانير من كل امرأة ودينارين عن كل صبي وكل صبية لم يبلغ سن الرشد، فمن أدى ما عليه في المهلة التي قدرها أربعين يوما، صار حرا. ثم سمح صلاح الدين بعد أن انقضت المهلة لمن لم يستطع الدفع منهم بالمغادرة دون فدية ، ولكن تم بيع معظم المقاتلة منهم عبيدا . دخل صلاح الدين المدينة في ليلة المعراج يوم 27 رجب سنة 583 هـ، الموافق فيه 2 أكتوبر سنة 1187م، وسمح لليهود بالعودة للمدينة ، وهو ما دفع سكان عسقلان من اليهود لاستيطان القدس . وأغلق صلاح الدين كنيسة القيامة بوجه الفرنجة بعد فتح المدينة ، وأمر بترميم المحراب العمري القديم وحمل منبر مليح من حلب كان الملك نور الدين محمود بن زنكي قد أمر بصنعه ليوضع في المسجد الأقصى متى فتح بيت المقدس، فأمر صلاح الدين بحمله من حلب ونصب بالمسجد الأقصى ، وأزيل ما هناك من آثار مسيحية

منها الصليب الذي رفعه الإفرنج على قبة المسجد، وغسلت الصخرة المقدسة بعدة أحمال ماء ورد وبخرت وفرشت ورتب في المسجد من يقوم بوظائفه وجعلت به مدرسة للفقهاء الشافعية، ثم أعاد صلاح الدين فتح الكنيسة وقرر على من يرد إليها من الفرنج ضريبة يؤديها.

وقد ابتهج المسلمون ابتهاجا عظيما بعودة القدس إلى ربوع الأراضي الإسلامية والخلافة العباسية ، وحضر ناس كثيرون ليسلموا على السلطان ومن هؤلاء الرشيد أبو محمد عبد الرحمن بن بدر بن الحسن بن مفرج النابلسي، الشاعر المشهور، فأنشد صلاح الدين قصيدة طويلة من مائة بيت يمدحه ويهنئه بالفتح ، ومما جاء في القصيدة:

هذا الذي كانت الآمال تنتظر ... فليوف لله أقوامٌ بما نذر

هذا الفتوح الذي جاء الزمان به ... إليك من هفوات الدهر يعتذر

تجل علياه عن دح يحيط به ... وصفٌ وإن نظم المداح أو نثروا

لقد فتحت عصيا من ثغورهم ... لولاك ما هد من أركانها حجر

حصار صور وعكا

كان معظم أمراء الفرنجة وفرسانها يذهبون إلى المدن الحصينة التي ما زالت في أيديهم مثل أنطاكية وصور، وكانت الأخيرة يحكمها ملك من ملوك أوروبا هو كونراد مركيز مونفيراتو، ويقول البعض أنه رومي ابن اخت إمبراطور القسطنطينية. وكانت صور أكثر أهمية من الناحية الإستراتيجية من القدس، لذا كان من المتوقع أن يقوم صلاح الدين بفتحها أولا، لكنه فضل استرجاع المدينة المقدسة أولا ليرفع من معنويات المسلمين قبل التوجه لحصار المدينة المحصنة. وقبل حصار صور توجه صلاح الدين بجيشة إلى قلعة صفد وحاصرها سبعة شهور، ولما نفذ الطعام وجاعت الحامية اضطروا أن يسلموا القلعة له وطلب الأمان، وعندما غادرها جنود الفرنجة وفرسانهم ذهبوا إلى صور وكانت كل قلعة أو حصن أو مدينة تطلب الأمان ويسلمونها إلى صلاح الدين، كان الفرنجة يغادرونها إلى صور فقويت بوجود فرسان الفرنجة فيها، فصمدت في وجه صلاح الدين سنة كاملة، أضف إلى ذلك أن المركيز ظل يقوي ويحمي ويدبر احتياجات المدينة طيلة أيام الحصار، حتى دب اليأس إلى فؤاد السلطان، ففك الحصار عنها مؤجلا تحقيق الفتح إلى فرصة قادمة. وفي سنة 1188م أطلق صلاح الدين سراح الملك غي آل لوزينيان وأعاده إلى زوجته سيبيلا، فذهبا ليعيشا في طرابلس، ثم توجها إلى أنطاكية، قبل أن يقررا الذهاب إلى صور، لكن كونراد رفض السماح لهما بالدخول إلى المدينة كونه لم يعترف بشرعية ملكية غي.

وبعد أن انصرف صلاح الدين عن صفد واصل فتح المدن والقلاع ففتح جبلة واللاذقية وحصون صهيون وبكاس والشغر وسرمينية وبرزية ودرب ساك والكرك وكوكب، كما سعى بوهمند الثالث صاحب أنطاكية لمهادنة صلاح الدين لمدة ثمانية أشهر، فقبل صلاح الدين ذلك على أن يطلق بوهمند من عنده من أسرى المسلمين. لما ضجت صور بمن لجأ إليها من الفرنجة، قام بعض رهبانهم وقسسهم بشحن الفرنجة للثأر لفقدان بيت المقدس، فرأوا أن يهاجموا عكا، فجمعوا قواتهم وضربوا عليها حصارا بريا بحريا في 15 رجب 585 هـ الموافق 28 أغسطس 1189م. استنجدت حامية المدينة بصلاح الدين فأرسل إلى عماله وحلفاؤه يطالبهم بالاسراع إلى نجدة المدينة ، فوافاه عسكر الموصل وآمد وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة وحران والرها، كما وافاه أخاه الملك العادل أبي بكر بن أيوب في جند مصر والأسطول المصري بقيادة **حسام الدين لؤلؤ**، فدارت بين الفريقين معارك عظيمة لم يكتب فيها الغلبة لأي من الفريقين.

الحملة الصليبية الثالثة

السلطنة الأيوبية بعد استرجاع بيت المقدس وساحل الشام ، وعند وصول الحملة الصليبية الثالثة.

كانت معركة حطين وفتح القدس سببين رئيسيين لخروج الحملة الصليبية الثالثة، حيث حث البابا غريغوري الثامن ملوك أوروبا على شن حملة صليبية جديدة لاستعادة بيت المقدس ، فكان أول من لبى النداء الإمبراطور الألماني فريدريش بربروسا الإمبراطور الروماني المقدس الذي سار بجيشه برا عبر المجر ورومانيا حتى بلغ القسطنطينية، والتي كان إمبراطورها إسحق الثاني قد تحالف سرا مع صلاح الدين ، ألا يسمح أحدهما لأي قوات بتهديد أراضي الآخر، إلا أنه لم يقوى على منع قوات فريدريش لكثرة عددهم، لكنه لم يسمح بتزويدهم بالمؤن. راسل فريدريش أبناء سلطان سلاجقة الروم قلج أرسلان الثاني وقد كانوا قد حجروا على أبيهم ، للمرور من خلال أراضيهم ، فسمحوا له ، وأرسل قلج أرسلان الثاني يعتذر لصلاح الدين على عدم قدرته على منع الألمان من المرور من أراضيه، فبلغت الرسل صلاح الدين وهو يحاصر عكا.

رغم ذلك، فقد فشلت حملة فريدريش في الوصول إلى الشرق، لطول المسافة وحلول الشتاء على الجيش المرتحل ومقاومة بعض أمراء المناطق التي مرت بها الحملة للجيش الغازي وقلة المؤن، خاصة بعد امتناع إسحق الثاني إمبراطور الروم عن إمدادهم بالمؤن، إضافة إلى غرق فريدريش بربروسا نفسه في أحد الأنهار بالقرب من أنطاكية ، والخلافات التي تبعت وفاته على من يخلفه، وقد أثارت أنباء فشل حملة بربروسا الغبطة في المعسكر المسلم المدافع عن عكا.

لم تتوقف الحملة عند ذلك، بل تصدى لتلك الحملة أيضا ملكان من أكبر ملوك أوروبا في ذلك الوقت هما **ريتشارد الأول "قلب الأسد"** ملك إنگلترا **وفيليب أغسطس** ملك فرنسا، اللذان مولاها بفرض ضريبة خاصة عرفت بعشور صلاح الدين (بالإنگليزية: Saladin tithe؛ وبالفرنسية: Dîme saladine) في إنگلترا وأجزاء من فرنسا، وانضما إلى حصار عكا، التي سقطت في عام 587 هـ، الموافق لعام 1191م، أمام القوات التي يقودها ريتشارد، وأعدم فيها ثلاثة آلاف سجين مسلم منهم نساء وأطفال.

رد صلاح الدين بقتل كل الفرنجة الذين أسرهم بين 28 أغسطس و 10 سبتمبر، وقد كتب بهاء الدين بن شداد "وبينما كنا هناك أحضروا اثنين من الفرنجة الذين تم أسرهم إلى السلطان صلاح الدين، وعلى الفور أمر بقطع رؤوسهم." وفي 15 شعبان سنة 587 هـ، الموافق فيه 7 سبتمبر سنة 1191م، اشتبكت جيوش صلاح الدين مع جيوش الصليبيين بقيادة ريتشارد قلب الأسد في معركة أرسوف التي انهزم فيها صلاح الدين، إلا أن الصليبيين لم يتمكنوا من التوغل في الداخل وبقوا على الساحل، وبقيت الحرب سجال بين الفريقين، وفشلت كل محاولات الفرنجة لغزو القدس.

لجأ الفريقان بعد ذلك إلى الصلح ، وعقدت هدنة في 20 شعبان سنة 588 هـ، الموافق فيه 1 سبتمبر سنة 1192م، لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر تبدأ من ذاك التاريخ، بعد أن أجهدت الحرب الفريقين، التي بموجبها تنحصر مملكة بيت المقدس الصليبية في شريط ساحلي ما بين يافا وصور، وتظل القدس في أيدي المسلمين مع السماح للمسيحيين بالحج إليها . ومع ذلك، كانت علاقة صلاح الدين مع ريتشارد يسودها الاحترام المتبادل والشهامة بعيدا عن التنافس العسكري ، فعندما أصيب ريتشارد بالحمى ، عرض صلاح الدين الأيوبي عليه خدمات طبيبه الشخصي، وأرسل إليه فاكهة مثلجة. وفي أرسوف ، عندما فقد ريتشارد جواده، أرسل إليه صلاح الدين الأيوبي اثنين محله. كما عرض ريتشارد على صلاح الدين فلسطين موحدة للمسيحيين الأوروبيون والمسلمين عن طريق تزويج أخت ريتشارد الأول بأخو صلاح الدين وأن تكون القدس هدية زفافهما ، على أن يكون ما فتحه المسلمون تحت حكم العادل وما بيد الفرنجة تحت حكم أخت ريتشارد، إلا أن الأمر لم يتم. إلا أن الرجلين لم يلتقيا أبدا وجها لوجه وكان التواصل بينهما بالكتابة أو بالرسل.

ولما تم الصلح سار صلاح الدين إلى بيت المقدس وحصن أسوارها، وأدخل كنيسة صهيون داخل أسوارها، وبنى فيها مدرسة ورباطا للخيل وبيمارستان، وغير ذلك من المصالح، وقضى بالمدينة شهر رمضان من سنة 588 هـ، ثم تركها في 5 شوال متوجها إلى دمشق حيث قضى آخر أيامه.

9 – وفاته

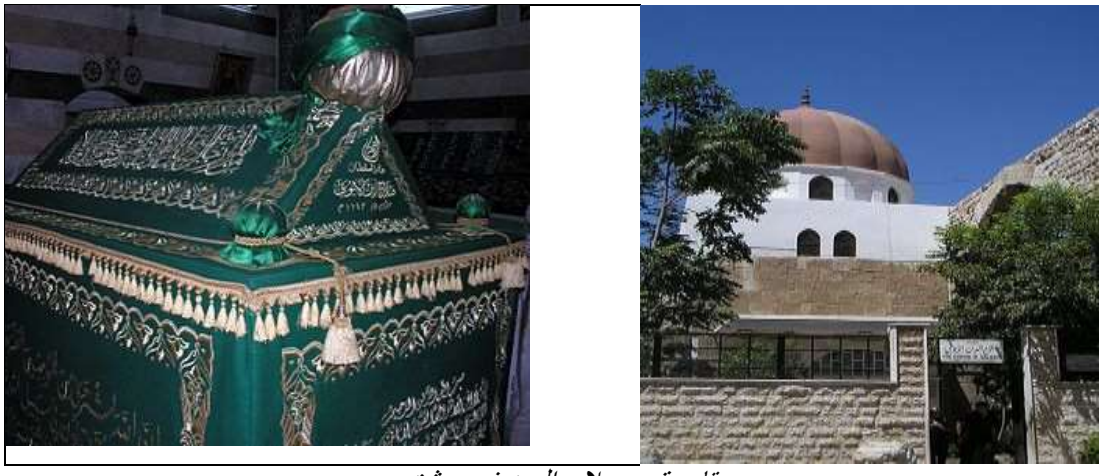

مقام وقبر صلاح الدين في دمشق.

كانت المواجهة مع الملك ريتشارد ومعاهدة الرملة آخر أعمال صلاح الدين، إذ أنه بعد وقت قصير من رحيل ريتشارد، مرض صلاح الدين بالحمى الصفراوية يوم السبت في 20 فبراير سنة 1193م، الموافق فيه 16 صفر سنة 589 هـ، وأصابه أرق فلم ينم الليل إلا قليلا، وأخذ المرض يشتد ويزيد، حتى قال طبيبه الخاص، أن أجل السلطان أصبح قاب قوسين أو أدنى، واستمر المرض يشتد حتى انتهى إلى غاية الضعف، وبعد تسعة أيام حدثت له غشية وامتنع من تناول المشروب ، ولما كان اليوم العاشر حقن دفعتين، وحصل له من الحقن بعض الراحة، لكنه عاد واشتد عليه المرض حتى يأس الأطباء من حاله. توفي صلاح الدين فجر يوم الأربعاء في 4 مارس سنة 1193م، الموافق فيه 27 صفر سنة 589 هـ، فأفجع موته المسلمين عموما والدمشقيين خصوصا ، وبكاه الكثيرون عند تشييعه وقيل إن العاقل حتى كان ليخيل له أن الدنيا كلها

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

تصيح صوتا واحدا من شدة البكاء ، وغشي الناس ما شغلهم عن الصلاة عليه ، وتأسف الناس عليه حتى الفرنج لما كان من صدق وفائه، ودفن بعد صلاة عصر ذلك اليوم في المدرسة العزيزية قرب المسجد الأموي في دمشق، إلى جوار الملك نور الدين زنكي ، وعندما فتحت خزانته الشخصية لم يكن فيها ما يكفي من المال لجنازته ، فلم يكن فيها سوى سبعة وأربعين درهما ناصريا ودينارا واحدا ذهبا، ولم يخلف ملكا ولا دارا ، إذ كان قد أنفق معظم ماله في الصدقات.

في ساعة موته ، كتب القاضي الفاضل، قاضي دمشق، إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب رسالة قال فيها: « ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ﴾﴿إن زلزلة الساعة شيءٌ عظيمٌ ﴾ كتبت إلى مولانا الملك الظاهر أحسن الله عزاءه، وجبر مصابه، وجعل فيه الخلف من السلف في الساعة المذكورة وقد زلزل المسلمون زلزالا شديدا، وقد حضرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر، وقد ودعت أباك ومخدومي وداعا لا تلاقي بعده وقبلت وجهه عني وعنك، وأسلمته إلى الله وحده مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضيا عن الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وبالباب من الجنود المجندة، والأسلحة المعمدة ما لم يدفع البلاء، ولا ما يرد القضاء، تدمع العين، ويخشع القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وأنا بك يا يوسف لمحزونون. وأما الوصايا، فما تحتاج إليها، والأراء، فقد شغلني المصاب عنها، وأما لائح الأمر، فإنه إن وقع اتفاق، فما عدمتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غير ذلك، فالمصائب المستقبلة أهونها موته، وهو الهول العظيم والسلام».

وكان ڤيلهلم الثاني إمبراطور ألمانيا عندما زار دمشق توجه إلى مدفن صلاح الدين ووضع باقة زهور جنائزية على قبره عليها نقش معناه "ملك بلا خوف ولا ملامة، علم خصومه الفروسية الحقيقية"، كما أهدى نعشا رخاميا للضريح إلا أن جثمان صلاح الدين لم ينقل إليه، وبقي في النعش الخشبي، وذلك لأن الإسلام يحرم نبش القبور وإخراج الأموات لأغراض غير شرعية ويصنف ذلك انتهاكا لحرمة القبر، لهذا بقي النعش الهدية في الضريح خاويا إلى اليوم.

الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين

قسم صلاح الدين دولته قبل وفاته بين أولاده وأفراد من عائلته، فجعل إمارة دمشق لابنه الأفضل نور الدين علي، وهو أكبر أولاده، وأوصى له بالسلطنة، وجعل الديار المصرية لولده العزيز عثمان، وإمارة حلب لولده الظاهر غازي غياث الدين، وترك الكرك والشوبك وبلاد جعبر وبلدانا كثيرة قاطع الفرات لأخيه العادل، وحماة لابن أخيه محمد بن تقي الدين عمر، وحمص والرحبة وغيرها لحفيد عمه شيركوه، أسد الدين شيركوه بن ناصر، واليمن بمعاقله ومخاليفه في قبضة السلطان ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخي صلاح الدين. ولم يلبث الخلاف أن دب بين أولاد صلاح الدين، مما جعل عمهم العادل يعزلهم ويقوم بتوحيد البيت الأيوبي تحت رايته. وكما فعل صلاح الدين من قبل، فعل أخوه الملك العادل، فقسم أراضي دولته بين أبنائه وهو على قيد الحياة، ولكن هؤلاء الإخوة لم يكونوا على وفاق بعد وفاة أبيهم، فكانوا يحاربون بعضهم بعضا، بالرغم من أن الصليبيين كانوا يفيدون من هذا الخلاف، وبعدهم جاء أولادهم، فلم يكونوا خيرا من آبائهم في صلاتهم فيما بينهم وبين أبناء عمهم، ولكن واحدا منهم استطاع أن يلمع في ظلام هذا الخلاف، ذلك هو "الصالح أيوب"، حفيد الملك العادل، الذي أعاد توحيد دولة صلاح الدين تحت سلطانه. ولما مات الصالح أيوب تولى ابنه توران شاه السلطنة ، لكن مماليكه ائتمروا به وقتلوه، ثم نصبوا زوجة أبيه "شجرة الدر" سلطانة عليهم، وبهذا زالت الدولة الأيوبية في مصر وقامت مكانها دولة المماليك.

10 – أسرته

وفقا لعماد الدين الأصفهاني ، فقد أنجب صلاح الدين الأيوبي خمسة أبناء قبل مغادرته مصر في عام 1174م. ابنه الأكبر الأفضل ولد في عام 1170م وأنجبت له زوجته شمسة التي اصطحبها معه إلى الشام ولده عثمان، ولد في عام 1172م في مصر، ثم أنجبت طفلا آخر في عام 1177م. بينما ذكر أبو العباس القلقشندي، أن ولده الثاني عشر ولد في مايو سنة 1178م، بينما ذكر الأصفهاني، أن هذا الطفل كان ابن صلاح الدين السابع. كما ولد له مسعود في عام 1175م ويعقوب في عام 1176م، وهذا الأخير من زوجته شمسة. تزوج صلاح الدين من أرملة نور الدين زنكي عصمة الدين خاتون في سبتمبر سنة 1176م،

وانجبت له إحدى زوجاته غازي وداود في عامي 1173م و1178م على التوالي، وأنجبت له أخرى إسحق في عام 1174م وولدا آخر في شهر يوليو من سنة 1182م.[159]

شعار مصر الحالي هو العقاب الذي اكتشف في قلعة صلاح الدين بالقاهرة، وهو ما تطلق عليه الحكومة المصرية "النسر المصري"

بالرغم من أن الدولة التي أسساها صلاح الدين لم تدم طويلا من بعده إلا أن صلاح الدين يعد في الوعي العربي الإسلامي محرر القدس، ومع تصاعد مشاعر القومية العربية في القرن العشرين، ولا سيما في وجود الصراع العربي الإسرائيلي، اكتسبت بطولة صلاح الدين وقيادته أهمية جديدة، فقد كان في تحريره للقدس من الصليبيين مصدر إلهام لمعارضة العرب في العصر الحديث للصهيونية. كما استلهمت شخصيته في الملاحم والأشعار وحتى مناهج التربية الوطنية في الدول العربية، كما ألفت عشرات الكتب عن سيرته، وتناولتها المسرحيات والتمثيليات والأعمال الدرامية. لا يزال صلاح الدين يضرب به المثل كقائد مسلم مثالي واجه أعداءه بحسم ليحرر أراضي المسلمين، دون تفريط في الشهامة والأخلاق الرفيعة.

علاوة على ذلك، كان ينظر إلى وحدة العالم العربي تحت راية صلاح الدين رمزا مثاليا للوحدة الجديدة التي سعى إليها القوميون العرب، بقيادة جمال عبد الناصر. لهذا السبب، أصبح نسر صلاح الدين رمزا لدولة ما بعد الملكية في مصر، واعتمد لاحقا كشعار لعدد من الدول العربية الأخرى مثل العراق وفلسطين واليمن وسوريا. بل إن هناك محافظة في العراق سميت على اسمه ، إضافة إلى جامعة صلاح الدين في أربيل أكبر مدن كردستان العراق.

يوجد عدد قليل من المباني منذ عهد صلاح الدين ما زالت باقية في المدن الحديثة. فقد كان صلاح الدين الأيوبي أول من حصن قلعة القاهرة (1175-1183) مدخلا ذلك الطراز المعماري العسكري إلى مصر الذي لم تعرف قبله سوى القصبات الشمال أفريقية، و نموذج آخر عليه و إن كان أصغر قلعة الجندي في سيناء، والتي تشرف على طريق القوافل الذي يربط مصر بالشرق الأدنى. في تلك القلعة، عثر فريق آثار فرنسي عام 1909م، على عدد من الغرف المقببة الكبيرة المنحوتة في الصخر، بها بقايا متاجر وصهاريج مياه.

كذلك يطلق بعض المسلمين على أولادهم الذكور اسم "صلاح الدين" تيمنا بهذا القائد، على الرغم من أن هذا الاسم كان لقبا للسلطان الأيوبي خلع عليه بعد إسقاطه الدولة الفاطمية وقتاله الصليبيين.

11 – صلاح الدين في الوعي الأوروبي

بالرغم من كون صلاح الدين خصما للأوروبيين، فإنه ظل في الوعي الأوروبي نموذجا للفارس الشهم الذي تتجسد فيه أخلاق الفروسية بالمفهوم الأوروبي، حتى أنه توجد ملحمة شعبية شعرية من القرن الرابع عشر تصف أعماله البطولية. فعلى الرغم من المذبحة التي قام بها الصليبيون عندما احتلوا القدس في عام 1099م، فقد عفا صلاح الدين وسمح للمسيحيين الغربيين بالمغادرة مع بقايا الجيش المسيحي المنهزم، طالما أنهم كانوا قادرين على دفع الفدية التي فرضها عليهم. كما عومل الأرثوذكس (ومنهم مسيحيون عرب) معاملة أفضل لأنهم عادة ما كانوا يعارضون الغزو الأوروبي الصليبي.

بالرغم من الاختلاف في العقيدة فإن القواد المسيحيين امتدحوا صلاح الدين، خصوصا ريتشارد قلب الأسد، الذي يروى أنه قال عنه أنه أمير عظيم وأنه بلا شك أعظم وأقوى قائد في العالم الإسلامي ؛

كما يروى أن صلاح الدين رد بأنه لم يكن هناك قائد مسيحي أشرف من ريتشارد. وبعد معاهدة الرملة، تبادل صلاح الدين وريتشارد الهدايا كرمز للاحترام المتبادل، ولكنهما لم يلتقيا قط وجها لوجه.

قال عنه المؤرخون الأوروبيون أنه "من الحق أن كرمه وورعه وبعده عن التعصب؛ تلك الليبرالية والنزاهة التي كانت النموذج الذي ألهم مؤرخينا القدماء؛ هي ما أكسبه احتراما في سوريا الإفرنجية لا يقل عن الذي له في أرض الإسلام."

وعلى النقيض، ووفقا لبعض المصادر، فخلال الحرب العالمية الأولى، أعلن القائد البريطاني **إدموند ألنبي** بفخر أن " **اليوم انتهت الحروب الصليبية** " رافعا سيفه نحو تمثال لصلاح الدين الأيوبي بعد الاستيلاء على دمشق، وهي العبارة التي لازمت ألنبي طوال حياته، وهو ما احتج عليه بشدة ضد من يصفون غزوه لفلسطين عام 1917م بالحملة الصليبية. وفي عام 1933م، ذكر ألنبي أن أهمية القدس تكمن في أهميتها الاستراتيجية، ولم يكن هناك دوافع دينية لتلك الحملة. كما احتفلت الصحافة البريطانية أيضا باحتلال الشام برسم هزلي لريتشارد قلب الأسد وهو ينظر إلى القدس وكتب تحتها عبارة "أخيرا، تحقق حلمي". وبعد أن دخل الفريق أول الفرنسي **هنري غورو** المدينة في شهر يوليو من عام 1920م، ركل قبر صلاح الدين الأيوبي وهو يصيح "**استيقظ يا صلاح الدين**، قد عدنا تواجدي هنا يكرس انتصار الصليب على الهلال".

مماليك مصر: الدولة المملوكية (1517 – 1250)

فارس مملوكي 1810

خريطة الدولة المملوكية في أكبر اتساعها

تقديم :

المماليك هم سلالة من الجنود حكمت مصر والشام والعراق وأجزاء من الجزيرة العربية أكثر من قرنين ونصف القرن وبالتحديد من 1250 إلى 1517 م.تعود أصولهم إلى آسيا الوسطى. قبل أن يستقروا بمصر , أسسوا في مصر والشام دولتين متعاقبتين وكانت عاصمتهم هي القاهرة : الأولى دولة **المماليك البحرية** ، الذين حاربوا **الصليبيين والمغول** على حد سواء , ومن أبرز سلاطينها عز الدين أيبك وقطز والظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والناصر محمد بن قلاوون والأشرف صلاح الدين خليل الذي استعاد عكا وآخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام ، وهم **سلاطين تركمان** الأصل . ثم تلتها مباشرة دولة **المماليك البرجية** بانقلاب عسكري قام به السلطان الشركسي برقوق الذي تصدى فيما بعد لتيمورلنك واستعاد ما احتله التتار في بلاد الشام والعراق ومنها بغداد . فبدأت دولة المماليك البرجية الذين عرف في عهدهم أقصى اتساع لدولة المماليك في القرن التاسع الهجري. وكان من أبرز سلاطينهم برقوق وابنه فرج وإينال والأشرف سيف الدين برسباي فاتح قبرص وقانصوه الغوري وطومان باي .

كان هؤلاء المماليك عبيدا استقدمهم الأيوبيون ، زاد نفوذهم حتى تمكنوا من الاستيلاء على السلطة سنة 1250 م. كان خطة هؤلاء القادة تقوم استقدام المماليك من بلدان غير إسلامية ، وكانوا في الأغلب أطفالا يتم تربيتهم وفق قواعد صارمة في ثكنات عسكرية معزولة عن العالم الخارجي ، حتى يتم ضمان ولاؤهم التام للحاكم . بفضل هذا النظام تمتعت دولة المماليك بنوع من الاستقرار كان نادرا آنذاك.

قام المماليك في أول عهد دولتهم بصد الغزو المغولي على بلاد الشام ومصر وكانت قمة التصدي في موقعة **عين جالوت** بقيادة السلطان **قطز** . بعدها وفي عهد السلطان بيبرس (1277-1260 م) والسلاطين من بعده ، ركز المماليك جهودهم على الإمارات الصليبية في الشام. قضوا سنة 1290 م على آخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام (عكا) .

أصبحت القاهرة مركزا رئيسا للتبادل التجاري بين الشرق والغرب ، وازدهرت التجارة ومعها اقتصاد الدولة. قام السلطان برقوق (1399-1382 م) بقيادة حملات ناجحة ضد تيمورلنك وأعاد تنظيم الدولة من جديد. حاول السلطان برسباي (1438-1422 م) أن يسيطر على المعاملات التجارية في مملكته، كان للعملية تأثير سيء على حركة هذه النشاطات . قام برسباي بعدها بشن حملات بحرية ناجحة نحو قبرص.

منذ العام 1450 م بدأت دولة المماليك تفقد سيطرتها على النشاطات التجارية. أخذت الحالة الاقتصادية للدولة تتدهور. ثم زاد الأمر سوءا للتقدم الذي أحرزته الدول الأخرى على حسابهم في مجال تصنيع الآلات الحربية.

سنة 1517 م تمكن السلطان العثماني سليم الأول من القضاء على دولتهم. ضمت مصر، الشام والحجاز إلى أراض الدولة العثمانية.

تمتع المماليك خلال دولتهم بشرعية دينية في العالم الإسلامي وهذا لسببين ، تملكهم لأراضي الحجاز والحرمين، ثم استضافتهم للخلفاء العباسيين في القاهرة منذ 1260 م.

العاصمة :	القاهرة
اللغة الرسمية :	العربية
الديانة :	الإسلامية
الحكم :	سلطنة
عمر الدولة	267 سنة
المساحة :	5,000,000 كم^2
لقب رأس الدولة :	السلطان
السكان : / الكثافة السكانية :	40,000,000 نسمة / 8 / كم^2
التأسيس سنة :	1250 م
السقوط سنة :	: 1517 م
أول سلطان :	شجر الدر (1193 - 1174)
العملة :	الدينار المملوكى

أصل المماليك :

كانت تسمية المماليك تشير إلى العبيد البيض الذين يؤسرون في الحروب أو يتم شراؤهم في الأسواق ، وكان الكثير منهم جنود وقادة بالجيش، وما لبثوا أن استولوا على الحكم في نهاية حكم الدولة الأيوبية بمصر. قد كانت فكرة الاستعانة بالمماليك في الشرق الأدنى منذ أيام العباسيين. وأول من أستخدمهم كان الخليفة المأمون (**أمه فارسية**) . ثم استقدم الخليفة العباسي المعتصم بالله (**أمه تركية**) جنود **تركمان** ووضعهم في الجيش كي يعزز مكانته بعد ما فقد الثقة في العرب والفرس التي قامت عليهم الدولة العباسية .

ولقد شجع ذلك الخلفاء والحكام الآخرين في جلب المماليك. واستخدم حكام مصر من الطولونيين والأخشيديين والفاطميين والأيوبيين المماليك . فقد كان أحمد بن طولون (835- 884 م) يشترى مماليك الديلم ، ولقد كانوا من جنوب بحر قزوين ، ووصل عددهم إلي 24 ألف تركي وألف أسود و 7 آلاف مرتزق حر .

كما قام السلطان الصالح أيوب بجلب الأسرى من القفقاس وآسيا الصغرى إلى مصر ، لذا يكون أصل المماليك من الأتراك والروم والأوروبيين والشراكسة , جلبهم الحكام بعد ذلك ليستعينوا بهم . حيث كان كل حاكم يتخذ منهم قوة تسانده ، ودعم الأمن والاستقرار في إمارته أو مملكته.. كما كان المماليك يبايعون الملوك والأمراء ، ثم يدربون على الطاعة والإخلاص والولاء.

تربية المماليك :

كان الصالح أيوب - ومن تبعه من الأمراء - لا يتعاملون مع المماليك كرقيق.. بل على العكس من ذلك تماما.. فقد كانوا يقربونهم جدا منهم لدرجة تكاد تقترب من درجة أبنائهم .. ولم تكن الرابطة التي تربط بين المالك والمملوك هي رابطة السيد والعبد أبدا، بل رابطة المعلم والتلميذ، أو رابطة الأب والابن، أو رابطة كبير العائلة وأبناء عائلته.. وهذه كلها روابط تعتمد على الحب في الأساس، لا على القهر أو المادة.. حتى إنهم كانوا يطلقون على السيد الذي يشتريهم لقب "الأستاذ" وليس لقب "السيد"..

ويشرح لنا المقريزي كيف كان يتربى المملوك الصغير الذي يشترى وهو ما زال في طفولته المبكرة ، فيقول : "إن أول المراحل في حياة المملوك هي أن يتعلم اللغة العربية قراءة وكتابة، ثم بعد ذلك يدفع إلي من يعلمه القرآن الكريم، ثم يبدأ في تعلم مبادئ الفقه الإسلامي، وآداب الشريعة الإسلامية.. ويهتم جدا بتدريبه على الصلاة، وكذلك على الأذكار النبوية، ويراقب المملوك مراقبة شديدة من مؤدبيه ومعلميه، فإذا ارتكب خطأ يمس الآداب الإسلامية نبه إلى ذلك، ثم عوقب"..

لهذه التربية المتميزة كان أطفال المماليك ينشئون عادة وهم يعظمون أمر الدين الإسلامي جدا، وتتكون لديهم خلفية واسعة جدا عن الفقه الإسلامي، وتظل مكانة العلم والعلماء عالية جدا عند المماليك طيلة حياتهم ، وهذا ما يفسر النهضة العلمية الراقية التي حدثت في زمان المماليك، وكيف كانوا يقدرون العلماء حتى ولو خالفوهم في الرأي.. ولذلك ظهر في زمان دولة المماليك الكثير من علماء المسلمين الأفذاذ من أمثال **العز بن عبد السلام والنووي وابن تيمية وابن القيم الجوزية وابن حجر العسقلاني وابن كثير والمقريزي وابن جماعة وابن قدامة المقدسي** رحمهم الله جميعا، وظهرت أيضا غيرهم أعداد هائلة من العلماء يصعب جدا حصرهم..

ثم إذا وصل المملوك بعد ذلك إلى سن البلوغ جاء معلمو الفروسية ومدربو القتال فيعلمونهم فنون الحرب والقتال وركوب الخيل والرمي بالسهام والضرب بالسيوف، حتى يصلوا إلى مستويات عالية جدا في المهارة القتالية، والقوة البدنية ، والقدرة على تحمل المشاق والصعاب..

ثم يتدربون بعد ذلك على أمور القيادة والإدارة ووضع الخطط الحربية، وحل المشكلات العسكرية، والتصرف في الأمور الصعبة، فينشأ المملوك وهو متفوق تماما في المجال العسكري والإداري، وذلك بالإضافة إلى حمية دينية كبيرة، وغيرة إسلامية واضحة.. وهذا كله - بلا شك - كان يثبت أقدام المماليك تماما في أرض القتال..

وكل ما سبق يشير إلى دور من أعظم أدوار المربين والآباء والدعاة ، وهو الاهتمام الدقيق بالنشء الصغير، فهو عادة ما يكون سهل التشكيل، ليس في عقله أفكار منحرفة، ولا عقائد فاسدة، كما أنه يتمتع بالحمية والقوة والنشاط، وكل ذلك يؤهله لتأدية الواجبات الصعبة والمهام الضخمة على أفضل ما يكون الأداء..

وفي كل هذه المراحل من التربية كان السيد الذي اشتراهم يتابع كل هذه الخطوات بدقة، بل أحيانا كان السلطان الصالح أيوب - - يطمئن بنفسه على طعامهم وشرابهم وراحتهم، وكان كثيرا ما يجلس للأكل معهم، ويكثر من التبسط إليهم، وكان المماليك يحبونه حبا كبيرا حقيقيا، ويدينون له بالولاء التام..

وهكذا دائما.. إذا كان القائد يخالط شعبه، ويشعر بهم، ويفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، ويتألم لألمهم، فإنهم -ولاشك- يحبونه ويعظمونه، ولا شك أيضا أنهم يثقون به، وإذا أمرهم بجهاد استجابوا سريعا، وإذا كلفهم أمرا تسابقوا لتنفيذه، وبذلوا أرواحهم لتحقيقه.. أما إذا كان القائد في حالة انفصال عن شعبه، وكان يعيش حياته المترفة بعيدا عن رعيته.. يتمتع بكل ملذات الحياة وهم في كدحهم يعانون ويتألمون، فإنهم لا يشعرون ناحيته بأي انتماء.. بل إنهم قد يفقدون الانتماء إلى أوطانهم نفسها.. ويصبح الإصلاح والبناء في هذه الحالة ضربا من المستحيل..

وكان المملوك إذا أظهر نبوغا عسكريا ودينيا فإنه يترقى في المناصب من رتبة إلى رتبة، فيصبح هو قائدا لغيره من المماليك، ثم إذا نبغ أكثر أعطي بعض الإقطاعات في الدولة فيمتلكها، فتدر عليه أرباحا وفيرة، وقد يعطى إقطاعات كبيرة، بل قد يصل إلى درجة أمير، وهم أمراء الأقاليم المختلفة، وأمراء الفرق في الجيش وهكذا..

وكان المماليك في الاسم ينتسبون عادة إلى السيد الذي اشتراهم.. فالمماليك الذين اشتراهم الملك الصالح يعرفون بالصالحية ، والذين اشتراهم الملك الكامل يعرفون بالكاملية وهكذا..

وقد زاد عدد المماليك الصالحية ، وقوي نفوذهم وشأنهم في عهد الملك الصالح أيوب، حتى بنى لنفسه قصرا على النيل، وبنى للمماليك قلعة إلى جواره تماما.. وكان القصر والقلعة في منطقة الروضة بالقاهرة، وكان النيل يعرف بالبحر، ولذلك اشتهرت تسمية المماليك الصالحية " **بالمماليك البحرية** " (لأنهم يسكنون بجوار البحر) .

وهكذا وطد الملك الصالح أيوب ملكه بالاستعانة بالمماليك الذين وصلوا إلى أرقى المناصب في جيشه وفي دولته، وتولى قيادة الجيش في عهده أحد المماليك البارزين اسمه "**فارس الدين أقطاي**"، وكان الذي يليه في الدرجة هو **ركن الدين بيبرس** ، فهما بذلك من المماليك البحرية..

عود على بدأ

فكرة الاستعانة بالمماليك كما أسلفنا بدت من أيام الخلفاء العباسيين الأوائل . حيث استخدم الخليفة المأمون مماليك من الفرس . ثم جاء الخليفة المعتصم فأتى بالتركمان واستخدمهم في الجيش لكي يعزز مكانته بعد ما فقد الثقة في العرب وفي الفرس الذين قامت عليهم الدولة العباسية، وكانت تلك بداية جديدة شجعت الخلفاء والحكام من بعد لفعل ذات الشيء.

مماليك الدولة الإخشيدية والفاطمية :

عندما قامت الدولة الإخشيدية ، أتى محمد بن طغج الإخشيدي بأتراك الديلم، ووصل عددهم إلى 400 ألف ومنهم حراسه الشخصيين الذين قاربوا 8 آلاف مملوك. أما الفاطميين فقد كانوا محتاجين لجيش كبير ليتقوا به أنفسهم في مصر ويعينهم على التوسع شرقا. فقد كان جيشهم في الأول من المغاربة لكن عند دخولهم مصر أضافوا إليه عساكر ترك وديلم وسودانيين وبربر.

مماليك الصالح نجم الدين أيوب :

كان المماليك مرتزقة معتادون على الحروب، وانضم أكثرهم بنفسه إلى النظام. فعندما جاء السلطان الصالح نجم الدين أيوب في أواخر العصر الأيوبي غير النظام وجعل له شكل آخر. فقد كان الأيوبيون منذ زمن صلاح الدين الأيوبى يجلبوا عسكر مماليك متدربين على الحروب ، حتى زمن الصالح أيوب في قمة صراعاته مع أيوبيي الشام تخلى عنه مماليكه وعسكره من الخوارزمية الذين كانوا يعملون لديه بالأجرة. فاضطر إلى جلب رقيق صغار يربيهم عنده ويدربهم ويصبح ولائهم خالصا إليه بدلا من المرتزقة الكبار الذين تتبدل ولاءاتهم حسب الظروف. وبدأ بشراء مماليك صغار السن وبنى لهم معسكرا وأبراج في جزيرة الروضة واسكنهم هناك فسموا بالمماليك البحرية. وجعل لهم نظام معيشة وتدريب معين، وقد كان شديد العطف عليهم حتى أحبوه وأخلصوا له وقدمهم على الكرد والعرب. وقد انتسبت تلك المماليك إليه وتلقبوا بلقبه، فكان يقال عنهم " **المماليك الصالحية النجمية** "، ويضاف لأسمائهم لقب "الصالحى النجمى"، مثل عز الدين أيبك الصالحى النجمى، والظاهر بيبرس الصالحى النجمى، وقلاوون الصالحى النجمى، وغيرهم.

دولة المماليك :

تعتبر فترة حكم المماليك من الفترات التاريخية المجهولة عند كثير من المسلمين، وذلك قد يكون راجعا لعدة عوامل.. ولعل من أهمها أن الأمة الإسلامية في ذلك الوقت كانت قد تفرقت تفرقا كبيرا، حتى كثرت الإمارات والدويلات، وصغر حجمها إلى الدرجة التي كانت فيها بعض الإمارات لا تتعدى مدينة واحدة فقط!!.. وبالتالي فدراسة هذه الفترة تحتاج إلى مجهود ضخم لمتابعة الأحوال في العديد من الأقطار الإسلامية.

ومن العوامل التي أدت إلى جهل المسلمين بهذه الفترة أيضا : كثرة الولاة والسلاطين في دولة المماليك ذاتها، ويكفي أن نشير إلى أن دولة المماليك الأولى - والمعروفة باسم دولة المماليك البحرية - حكمت حوالي 144 سنة، وفي خلال هذه الفترة حكم 29 سلطانا!.. وذلك يعني أن متوسط حكم السلطان لم يكن يتعدى خمس سنوات.. وإن كان بعضهم قد حكم فترات طويلة، فإن الكثير منهم قد حكم عاما أو عامين فقط!.. أضف إلى ذلك كثرة الانقلابات والاضطرابات العسكرية في فترة حكم المماليك، فقد قتل من السلاطين التسعة والعشرون عشرة، وخلع اثنا عشر!!.. وهكذا كانت القوة والسلاح هي وسيلة التغيير

الرئيسية للسلاطين، وسارت البلاد على القاعدة التي وضعها أحد سلاطين الدولة الأيوبية (قبل المماليك) وهو السلطان "العادل الأيوبي"، والتي تقول : "الحكم لمن غلب"!!..

ولعل من أهم أسباب عدم معرفة كثيرين بدولة المماليك هو تزوير التاريخ الإسلامي، والذي تولى كبره المستشرقون وأتباعهم من المسلمين المفتونين بهم, والذين شوهوا تاريخ المماليك لإنجازاتهم المشرقة والهامة؛ والتي كان منها : وقوفهم سدا منيعا لصد قوتين عاتيتين من قوى الشر التي حاولت هدم صرح الإسلام ، وهما **التتار والصليبيون** ، وكان للمماليك جهاد مستمر ضد هاتين القوتين، وعلى مراحل مختلفة، وظلت دولة المماليك تحمل راية الإسلام في الأرض قرابة ثلاثة قرون، إلى أن تسلمت الخلافة العثمانية راية المسلمين.

تأسيس الدولة المملوكية البحرية :

عند وفاة السلطان الصالح أيوب في المنصورة، وكانت الحرب قائمة ضد الفرنج الصليبيون ويقودهم لويس التاسع ملك فرنسا عند غزوهم دمياط وكانوا متجهين إلى القاهرة، فجلب المماليك إبنه توران شاه من حصن كيفا كي يقود الحرب ويستلم الحكم، وبعد انتهاء معركة المنصورة وأسر لويس التاسع سنة 1250، أساء السلطان الجديد التصرف مع المماليك فاغتالوه عند فارسكور بعد ذلك تسلطنت شجر الدر أرملة الصالح أيوب على عرش مصر بمساندة وتأييد المماليك البحرية وبذلك فقد الأيوبيون سيطرتهم على مصر.

لم يرض كلا من الأيوبيين في الشام في دمشق والخليفة العباسي المستعصم بالله في بغداد بانتزاع عرش الأيوبيين في مصر وتنصيب شجر الدر ورفضا الاعتراف بسلطانها فقام الأمراء الأيوبيون بتسليم الكرك للملك المغيث عمر ودمشق للملك الناصر صلاح الدين يوسف الذي قبض على عدة من أمراء مصر في دمشق فرد المماليك بتجديد حلفهم لشجر الدر ونصبوا **عز الدين أيبك** أتابكا وقبضوا على الأمراء الميالون للناصر يوسف في القاهرة. وبعث المستعصم إلى الأمراء في مصر كتابا يقول: "ان كانت الرجال قد عدمت عندكم, فأعلمونا حتى نسير إليكم رجالا " .

عدم اعتراف كلا من الخليفة العباسى وكذلك الأيوبيين في دمشق بسلطنة شجر الدر قد أربك المماليك في مصر وأقلقهم فراحوا يفكرون في وسائل توفيقية ترضى الأيوبيين والخليفة العباسي وتمنحهم شرعية لحكم البلاد فقرر المماليك تزويج شجر الدر من **أيبك** ثم تتنازل له عن العرش فيرضى الخليفة العباسي بجلوس رجل على تخت السلطنة ثم البحث عن رمز أيوبي يشارك أيبك الحكم اسميا فيهدأ خاطر الأيوبيين ويرضوا عن الوضع الجديد.

تزوجت شجر الدر من أيبك وتنازلت له عن العرش بعد أن حكمت مصر ثمانين يوما بإرادة صلبة وحذق متناهي في ظروف عسكرية وسياسية غاية في التعقيد والخطورة بسبب غزو العدو الصليبي للأراضي المصرية وموت زوجها سلطان البلاد الصالح أيوب بينما الحرب ضد الصليبيين دائرة على الأرض الواقعة بين دمياط والمنصورة. نصب أيبك سلطانا وأتخذ لقب الملك المعز . وفي محاولة لإرضاء الأيوبيين والخليفة العباسي قام المماليك بإحضار طفلا أيوبيا في السادسة من عمره , وقيل في نحو العاشرة من عمره , وسلطنوه باسم **"الملك الأشرف مظفر الدين موسى"** وأعلن أيبك أنه ليس سوى نائبا للخليفة العباسي وأن مصر لا تزال تابعا للخلافة العباسية كما كانت من قبل .

قائمة سلاطين المماليك البحرية .

تسلسل	اسم السلطان	فترة حكمه
1	عصمة الدين أم خليل شجر الدر التركمانية	1250 -1250
2	المعز عز الدين أيبك	1250 -1257
3	المنصور نور الدين علي بن أيبك	1257 -1259
4	المظفر سيف الدين قطزالخوارزمي	1259 -1260
5	الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري	1260 -1277
6	السعيد ناصر الدين محمد بركة قان بن الظاهر بيبرس	1277 -1279
7	العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس	1279 -1279
8	المنصور سيف الدين قلاوون	1279 -1290
9	الأشرف صلاح الدين خليل	1290 -1293
10	الناصر محمد بن قلاوون	1293 -1294
11	العادل زين الدين كتبغا	1294 -1296
12	المنصور حسام الدين لاجين	1296 -1299
13	الناصر محمد بن قلاوون	1298 -1308
14	المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير	1308 -1309
15	الناصر محمد بن قلاوون	1309 -1340
16	المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد بن قلاوون	1340 -1341
17	الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد	1341 -1342
18	الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد	1342 -1342
19	الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد	1342 -1345
20	سيف الدين شعبان بن الناصر محمد	1345 -1346
21	المظفر زين الدين حاجي بن الناصر محمد	1346 -1347
22	الناصر بدر الدين أبو المعالي الحسن بن الناصر محمد	1347 -1351
23	الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد	1351 -1354
24	الناصر بدر الدين أبو المعالي الحسن بن الناصر محمد	1354 -1361
25	المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي بن قلاوون	1361-1363
26	الأشرف زين الدين شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون	1363 -1376
30	المنصور علاء الدين علي بن شعبان	1376 -1381
31	الصالح زين الدين حاجى	1381 -1382

قائمة سلاطين المماليك البرجية

تسلسل	اسم السلطان	الحكم
1	الظاهر سيف الدين برقوق بن أنس اليبغاوى	1382-1399
2	الناصر فرج بن برقوق	1399-1405

3	المنصور عبد العزيز بن برقوق	1405-1405
2-2	الناصر فرج بن برقوق	1405-1412
4	المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي	1412-1421
5	المظفر أحمد بن الشيخ	1421-1421
6	الظاهر سيف الدين ططر	1421-1421
7	الصالح ناصر الدين محمد بن ططر	1421-1422
8	الأشرف سيف الدين برسباي	1422-1438
9	العزيز جمال الدين يوسف بن برسباي	1438-1438
10	الظاهر سيف الدين جقمق	1438-1453
11	المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق	1453-1453
12	الأشرف سيف الدين إينال العلائي	1453-1460
13	المؤيد شهاب الدين أحمد بن إينال	1460-1460
14	الظاهر سيف الدين خشقدم	1460-1467
15	الظاهر سيف الدين بلباي المؤيدي	1467-1468
16	الظاهر تمر بغا الرومي	1468-1468
17	الأشرف سيف الدين قايتباي	1468-1496
18	الناصر محمد بن قايتباي	1496-1497
19	الظاهر قانصوه	1497-1497
18-2	الناصر محمد بن قايتباي	1497-1498
20	الظاهر قانصوه الأشرفي	1498-1500
21	الأشرف جنبلاط	1500-1501
22	العادل طومان باي	1501-1501
23	الأشرف قانصوه الغوري	1501-1516
22-2	العادل طومان بأي	1516-1517

نظام الدولة المملوكية :

بدأ نظام الحكم المملوكي بسلطنة السلطانة شجرة الدر وقد كان هذا الأمر بدعة في تاريخ مصر لم تحدث سوي عهد الملكة كليوباترا السابعة التي ماتت سنة 30 قبل الميلاد. ومن ناحية أخرى أحدث النظام المملوكي تطوير كبير في نظم الحكم على مستوى العالم حيث إن النظام لم يكن قائم على التوريث لكن على اختيار الحاكم وتلك كانت شيء جديد في تاريخ مصر ليست فقط علي مستوي مصر والشرق الأوسط لكن على مستوى العالم في العصور الوسطى .

الدولة المملوكية في أوج عظمتها

الدولة المملوكية كانت منظمة جدا. وأدخل المماليك أساليب جديدة للإدارة ومصطلحات لم تكن موجودة في مصر. على قمة هرم السلطة كان السلطان يرأس الدولة الذي تربع على العرش بتفويض من الخليفة العباسى في بغداد . وعندما حاصر التتار بغداد واحتلوها وقتلوا الخليفة المستعصم ، ولي الظاهر بيبرس خليفة بدلا منه في القاهرة لكي يعطي المماليك الشرعية في الحكم . وبتفويض من الخليفة أصبح السلطان في يده كل شيء ومعه كل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية. لكن كان السلطان يعتمد في ذلك الأمر على قوة مماليكه وولائهم له وقدرتهم على كبح جماح مماليك الأمراء الآخرين.

لذلك تاريخ الدولة المملوكية كان ممتلئ بسلاطين نصبوا نفسهم بعدما تمكنوا من السلطة الفعلية وجعلوا السلطان مجرد لعبة في أيديهم إلي أن يقدروا أن يخلعوه، إما بنفيه أو بقتله لو لم يسالم ويتنحى ، ويتولى أميرهم بدلا منه. مثلما حدث للسلطان السعيد بركة ابن الظاهر بيبرس الذي عزله السلطان قلاوون وولي بدلا منه أخيه الأصغر العادل بدر الدين سلامش ، إلي أن تمكن هو ومماليكه وعزلوه ، وتربع قلاوون على العرش. ومثلما حدث لابنه السلطان الناصر محمد من كتبغا وبيبرس الجاشنكير. وتلك أمور كانت تحدث في العصر المملوكي وكل دول العالم.

لم تكن السلطنة في العصر المملوكي بالتوريث. ومن المؤكد وجود أبناء للسلاطين يورثوا الحكم كالسلطان السعيد بركة وسلامش أنجال الظاهر بيبرس، ومن بعده أولاد وأحفاد السلطان قلاوون، ولكن العادة كانت تحتم أن يجلس أولاد السلاطين إلي أن تهدأ الأمور، وبعد ذلك يتخلعوا ويجلس بدلا منهم أمير قوى، الذي قد كان نائب السلطان والحاكم الحقيقي . الجلوس علي عرش السلطنة لم يكن بالتوريث ولا بالتفويض الشعبي بل كان بالتنافس علي القوة وكثرة المماليك والسلاح والإقطاعيات ، لكن كان عادة بتفويض الأمراء الذين كانوا يجتمعون ويتفقون على تنصيب السلطان، وبطبيعة الحال الأمير الذين كانوا يختاروه كان أقواهم وله أتباع أكثر، أو أضعفهم فيجلسوه على العرش وينظموا بمفردهم شئون البلاد.

الحرس السلطانى **(المماليك السلطانية)** أو الخاصكية كانوا أهم المماليك بالنسبة للدولة السلطانية. وهؤلاء كان السلطان يهتم بهم وينفذ لهم كل ما يريدون، وكان يغدق عليهم بالكثير من الهدايا والهبات، لأن سلطنته وحياته نفسها كات متوقفة عليهم. وكان رئيس الحرس السلطاني يعتبر حاكم مطلق وله مماليكه وقواده وكانوا طبعا يعينوا في مراكز مهمة في السلطنة كوظيفة **الدوادار**، وهو المسئول عن نقل الرسائل بين أنحاء ومدائن السلطنة، وكان يشرف على مراكز البريد والحمام الزاجل (البريد الجوي) وكان معاه ختم السلطان الذي يختم به جميع على الرسائل والمستندات السلطانية، وكان يحكم مصر في وقت غياب السلطان.

والمؤرخ الكبير بيبرس الدوادار كان واحد منهم. وكان من المحتمل أن يكون رئيس الحرس السلطاني داوا دار السلطنة . الدوا دار كان تابع لديوان " أمير القلم " وهو قسم في "ديوان الإنشا" المسئول عن علاقات مصر بالبلاد الأخرى، وكتابة رسائل السلطان لملوك وسلاطين البلدان الأخرى، وكان لكل جواب صيغة متعارف بها بين السلطان وبقية السلاطين وفي حالة ما تكون الرسائل بصيغة أخرى كان السلطان يعرف أنها مغشوشة أو مزورة. وقد كان المؤرخ محيي الدين بن عبد الظاهر أحد رؤساء ديوان الإنشا ، واخترع صيغ كتابة لم تكن تستعمل من قبل لتعارف العامة والطامعين على الصيغ الأخرى.

وإن لم يتولى رئيس الحرس السلطاني مهمة الدوا دار كان يتولى قيادة الجيش ويطلق عليه **أتابك العسكر** أو **الأمير الأكبر**. وكان للقصر رئيس يشرف عليه اسمه " **الأستا دار**" وكان المشرف على مخازن السلاح يعرف بـ **السلح دار** ورئيس الإسطبلات كان بيلقب بـ **أمير آخور.**

كان لكل طبقة من المماليك لباس معين مصنوع من أقمشة باهظة الثمن ومطرزة بالذهب والفضة ، وعندما يخرجوا مع السلطان في المواكب الفخمة كان لكل جماعة أميرها والناس تزاحم لكي تشاهد موكب السلطان.

في العصر المملوكي كات مصر مقسمة على عشرين قسم , وكل قسم يتولاه والي أو أمير. وكان الوالي عبارة عن سلطان للمنطقة التي كان يحكمها. وأهم والي كان والي القاهرة وهذا كان أكبر أمير يحكم القاهرة وضواحيها وكان اسمه والي الشرطة ووالي الحرب.

بعد حوادث الإسكندرية سنة (1365) أصبح في مدينة الإسكندرية والي عظيم الشأن وكان يحل محل السلطان في حالة غيابة عن البلاد هو ورئيس الحرس. وقد كان لقلعة الجبل والي ، مقر الحكم وقصر السلطان، وكان يشرف علي باب المدرج وهو أكبر أبواب القلعة وكان فيه والي باب القلعة.

وعندما توسعت الدولة المملوكية خارج مصر كان يرسل لها ولاة ينوبون عنه في حكم الشام والحجاز واليمن وأفريقية والعراق وكانوا يسمون علي سبيل المثال نائب السلطان في ولاية الشام . وكانوا يختلفون عن نائب السلطان المباشر في القاهرة الملقب بكافل الممالك الشريفة، وكان مركزهم أقل منه ولم يملكوا صلاحياته التي كانت تقريبا نفس صلاحيات السلطان وكان من حقه أن يختم على مستندات الدولة وأن يحرك الجيش بدون غير أمر السلطان.

كانت الدولة المملوكية في مصر من سنة 1250 إلي سنة 1517، المماليك البحرية، وكان معظمهم من أصل تركي حكموا إلي عام 1382، والمماليك البرجية وكان معظمهم من أصل شركسي حكموا من أيام السلطان برقوق إلي عام 1517. طومان باى كان أخر سلاطين الدولة المملوكية عندما فتحت الدولة العثمانية مصر وبدأ عصر الأتراك العثمانيين وأصبحت مصر ولاية عثمانية.

وعندما انتهي عصر المماليك في مصر كتب المؤرخ ابن إياس قصيدة شعر بدايتها تقول :

" نوحوا على مصر لأمر قد جرى .. من حادث عمت مصيبته الورى".

10 - حملات الدولة المملوكية ضد بعض القبائل العربية :

خاضت الدولة المملوكية حروب ومواقع ضد القبائل العربية التي جاءت إلي مصر فيما يعرف بـ **هجرة بني هلال وقبيلة جهينة** وأصبحت مصدر للقلق والإرهاب والخروج على الأمن والنظام وقطع الطريق ونهب المصريين في الصعيد بالذات. تسللت قبيلة بني هلال وقبيلة جهينة في العصر الفاطمي بطلب من الخليفة العباسي في بغداد لكي يشغلوا الدولة الفاطمية لأنها كانت في منازعات وثورات داخلية واستقرت تلك القبيلتان في صعيد مصر وبعض مناطق الوجه البحري كإقليم البحيرة.

لعب بعض عرب هاتين القبيلتين أدوار سيئة في وقت الحملة الصليبية السابعة على مصر (1249-1250) وتسببوا في احتلال دمياط بسهولة في أيدي الصليبيين بعدما وثق فيهم السلطان الصالح أيوب وأجلسهم فيها لكي يحموها فهربوا وتركوها، فغضب الصالح عليهم بعدما خانوا الأمانة وأعدم منهم عددا كبير. وقد تقدم الصليبيين إلي المنصورة بسبب أن دلهم خائن منهم على مخاضة في بحر أشموم طناح واستطاعوا أن يعبروا منها للمعسكر المصري ويهجموا عليه فجأة ، وقتل فخر الدين يوسف القائد العام للجيوش المصرية ، وكانت من المحتم أن يحتل الصليبيون مصر لولا ظهور المماليك في المنصورة ومعهم الأهالي وتصديهم بنجاح للقوات الصليبية المهاجمة.

في عهد السلطان عز الدين أيبك (1250 - 1257) كانت العناصر العربية مصدر تهديد وعدم استقرار لأمن مصر وسلامتها، لكن أيبك أرسل لهم حملات وتبعهم في مديريات الوجه البحرى وقضى على قوادهم وسيطر عليهم وحد من جرائمهم وأعمالهم الفوضوية.

ويحكى المقريزى: "وأمر المعز بزيادة القطيعة على العرب ، وبزيادة الضرائب والمكوس المأخوذة منهم ، ومعاملتهم بالعسف والقهر فذلوا وقلوا"

قائمة ببعض الألقاب الدارجة في عهد المماليك :

(حسب الترتيب الابجدي)

المصطلح	التعريف
أتابك	تعني الأب الأمير وهو أمير الجيوش أي القائد العام للجيش .وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد نائب السلطنة .ويدعى أيضا ""أتابك العساكر"" لم تكن له صلاحيات أمر ونهي.
أجناد الحلقة	جنود من الدرجة الثانية .كان عددهم غفير، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم .بلغ عددهم في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون 11 ألفا . ربما سموا بذلك لأنهم كانوا يحيطون بالسلطان أو بالأعداء .تألفوا من القرانيص والسيفية والمتعممين والعربان والعامة.
استدار	الاستدار كان يشرف على كل بيوت السلطان من مطابخ وحاشية وجاشنكرية ونفقات وكسوة.
استدار الصحبة	أيضا أستادار الصحبة وهو خطأ ، المشرف على المطبخ السلطاني والطعام وخدمة السماط .عادة أمير عشرة.
إسكندر الزمان	من ألقاب السلطان.
أعلام	عدة رايات، منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب ، عليها ألقاب الملك واسمه وتسمى العصابة، وراية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش، ورايات صفر صغار تسمى السناجق.
إقطاع	دخل الأمير أو المملوك من خراج أرض أو بلدة.
أمراء العربان	رؤساء بيوت القبائل من أصول عربية التي وردت على مصر وأقامت بها ، ومنها بنو شاد وبنو عجيل وكانوا يسكنون بالقصر الخراب بقوص ، وأولاد بني جحيش وكانت منازلهم في دروة سرمام ، وأولاد زعازع ، وأولاد قريش (ليست قريش مكة المعروفة) ، وبنو عمر بجرجا، وأولاد غريب بدهروط وغيرها . من أشهر أمراء العربان **خثعم بن نمي** بالوجه البحري.
أمير	مقدم الفرسان .ولكل أمير طبقة تبعا لعدد فرسانه.
أمير آخور	رئيس الإسطبل السلطاني والمشرف على خيله.
أمير خمسة	أمير تحت أمرته خمسة فرسان .أمير من الطبقة الرابعة وهي أقل درجات الإمارة وتوازي درجة كبار الأجناد.
أمير سلاح	حامل سلاح السلطان . وهو مقدم السلاح دارية من المماليك السلطانية ، والمشرف على السلاح خاناه السلطانية.
أمير شكار	مشرف على الجوارح السلطانية من الطيور والصيود.
أمير طبلخاناه	أي أمير تدق الطبول والأبواق على أبوابه .وهو أمير تحت أمرته غالبا أربعين فارس . أمير من الطبقة الثانية .منهم يكون أرباب الوظائف وكبار الولاة.

أمير عشرة	أمير تحت أمرته عشرة فرسان وأحيانا عشرين.أمير من الطبقة الثالثة .منهم يكون صغار الولاة وأرباب الوظائف.
أمير علم	أمير من أمراء العشرات كان يشرف على الطبلخاناه
أمير مجلس	مشرف وحارس على كرسي وسرير السلطان.
أمير مئين	مقدمو الألوف .أمير تحت أمرته مائة أو ألف فارس ممن دونه من الأمراء.و هو أمير من الطبقة الأولى وهي أعلى مراتب الإمارة .منهم يكون النواب وأكابر أرباب الوظائف.
أهوار	جمع هري ، مخازن للغلال والأتبان الخاصة بالسلطان احتياطا للطوارئ الاقتصادية وكانت لا تفتح إلا عند الضرورة.
بابا	اسم كان يطلق على غلمان الطشت خاناه وكانت من ضمن وظائفه الإشراف على قباض اللحم. (أنظر قابض اللحم)
البحرية	طائفة من الجنود يبيتون بالقلعة وحول دهاليز السلطان في السفر لحراسة السلطان . أول من رتبهم وسماهم بهذا الاسم السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب.
بريد جوى	بريد يرسل عن طريق الحمام الزاجل . نظمه وتوسع في استخدامه السلطان الظاهر بيبرس
بنكام الرمل	الساعة الرملية . بنكان معرب إما من الكلمة الفارسية قالب : نسعليق أو من أصل يوناني .
بيت المال	الخزانة العامة
بيمارستان	أيضا مارستان .مستشفى وكان الطب يدرس به كذلك.
تجار الكارمية	فئة من التجار كانت بيدها تجارة البهار الوارد من الهند.
التخت	عرش السلطان
جاشنكير	متذوق مأكل ومشرب السلطان للتأكد من خلوه من السم .
الجاليش	راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر.
جامكية	أجر المملوك أو منحته الشهرية ، كانت تعطى من غلة الوقف.
جاويش	منصب عسكري .أصل اللفظ تركي أو فارسي أو مغولي.
جنائب	جمع جنب ، الخيول التي كانت تتبع السلطان في الحروب لاحتمال الحاجة إليها.
الچتر	بجيم معطشة ومكسورة .أنظر (المظلة السلطانية)
حافظ الأسرار	من ألقاب كاتب السر.
حراقة	نوع من السفن الحربية الخفيفة كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية.
خادم الحرمين الشريفين	من ألقاب السلطان.
خاصكية	أقرب المماليك السلطانية على السلطان .وهم الحرس الشخصي للسلطان .وكانوا يسوقون المحمل الشريف. أو مماليك ينتمون إلى فئة واحدة من المماليك تلتف حول أحد كبار الامراء.
خان	مخزن تجاري يبيع نوع معين من البضائع.

خزندار	تكتب كثيرا خازندار وهو خطأ . مشرف على خزائن أموال السلطان من نقد وقماش وغير ذلك.
خشداشية	مماليك ينتمون إلى نفس الأمير أو السلطان.
خليل أمير المؤمنين	من ألقاب أولاد السلطان.
خند	زوجة السلطان
خواجا	من ألقاب أكابر التجار الأعاجم وهو لفظ فارسي معناه "السيد ."و "الخواجكي "نسبة إليه للمبالغة.
دبندار	ضارب الطبول.
الدهليز	خيمة السلطان التي كان يقيم بها وقت السفر والمعارك .كانت مركز قيادة الجيش في المعارك.
دوادار	حامل دواة السلطان .من وظائفه إبلاغ الرسائل عن السلطان.
رأس البلغاء	من ألقاب أكابر كتاب الإنشاء ككاتب السر.
رأس نوبة	المشرف على المماليك السلطانية .وجرت العادة أن يقوم بالوظيفة أربعة أمراء : مقدم ألف وثلاثة طبلخاناه ممن تحت إمرة كل منهم على الأقل أربعين فارس..
رختوان	جمعها رختوانية .خادم منوط بحفظ الأثاث والعناية به في قصر السلطان . كان من الرختوانية من يخدم في الطشت خاناه.
ركاب دار	حامل الغاشية بين يدي السلطان في المواكب وقت الاحتفالات.
زردخاناه	بيت الزرد لما فيها من دروع وزرد .كان يحفظ فيها السلاح . وهي أيضا السلاح خاناة.
سكرجة	صحن صغير يوضع على المائدة ، وفيه فاتحات الشهية من الطعام.
السناجق	رايات صفر صغار.
شاد الدواوين	مساعد الوزير والمشرف على استخلاص الأموال .عادة يكون أمير عشرة.
شاد الشراب خاناه	المشرف على خاناه السلطانية وما بها من مشروبات وفواكه.
شاد العمائر	المشرف على العمائر السلطانية من قصور ومنازل وأسوار وغيرها مما يطلب السلطان .عادة يكون أمير عشرة.
شعار السلطنة	تنظيم معين لموكب السلطان كسير مماليكه وأمراءه معه ورفع رايات وسناجق سلطانية وما نحو ذلك.
الصاحب	من ألقاب الوزراء . و "الصاحبي "نسبة إليه للمبالغة.
طباق	محل إقامة المماليك المستجدين بقلعة الجبل.
طبلخاناه	بيت الطبل .مخزن الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات .كان يشرف عليها أمير من أمراء العشرات يعرف بأمير علم . طبول متعددة معها أبواق وزمر كانت تدق كل ليلة في قلعة الجبل بعد صلاة المغرب . وتصحب في إسفار السلطان والحروب.
الطشت خاناه	بيت الطشت .فيها يكون الطشت الذي تغسل فيه الأيدي والطشت الذي يغسل فيه القماش .وفيها يكون ملبس السلطان ونعل البيت ومقاعده والسجادات التي يصلي عليها.
العصابة	راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب، عليها ألقاب السلطان واسمه.

علامة سلطانية	رسم توقيع السلطان الذي يضعه على مستندات السلطنة ورسائله
الغاشية	غاشية سرج من أديم مغروزة بالذهب . كانت يحملها "الركاب دارية "بين يدي السلطان في المواكب.
فندق	مكان للإقامة نظير أجر . من أشهر فنادق القاهرة في العصر المملوكي : دار التفاح ، وفندق بلال ، وفندق الصالح .
قابض اللحم	كانت وظيفته توزيع اللحم على المماليك السلطانية.
قرانصة	مماليك تحولوا إلى خدمة أمير أخر أو سلطان جديد.
قلعة الجبل	محل إقامة السلطان وكانت فوق جبل المقطم بالقاهرة.
الكافل	من ألقاب نائب السلطنة.
كافل الممالك الشريفة الإسلامية الأمير الأمري.	لقب نائب السلطنة المقيم بمصر
كشاف	يشرف على الأراضي والجسور ويسمى أيضا كاشف التراب وكاشف الجسور .وهو أيضا جابي الضرائب.
كوسات	صنوجات من نحاس ، كانت يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص .كان يدق بها مرتين في القلعة في كل ليلة , ويدار بها في جوانبها مرة بعد العشاء ، ومرة قبل الفجر . وكان أيضا يدار بها حول خيام السلطان في سفره.
كوسي	(صنوج النحاس) ضارب الكوسات
لسان السلطنة	من ألقاب كاتب السر.
مدورة السلطان	خيمة السلطان التي كان يقيم بها أثناء أسفاره.
مرقدار	خادم بالمطابخ السلطانية
المظلة السلطانية	وتسمى "الچتر"، قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب؛ على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب، كانت تحمل على رأس السلطان في العيدين.
مقدم المماليك	المشرف على المماليك السلطانية .عادة يكون أمير طبلخاناه وله نائب أمير عشرة.
المقصورة	مكان السلطان للصلاة بالجامع مع خاصيته .كانت توجد بجامع قلعة الجبل قرب المنبر.
الملاذي	من ألقاب الوزراء
مماليك سلطانيه	جنود من الطبقة الأولى.أشد مماليك السلطان قربا، وأعظم الأجناد شأنا، وأرفعهم قدرا، وأوفرهم إقطاعا .كانوا فرقة واحدة مؤلفة من عدة فئات هي : الخاصكية ، والأجلاب ، والقرانيص ، والسيفية.
مماليك كتابية	مماليك تحت التدريب يعيشون في الطباق.
منفر	ضارب البوق.
مهتار	مشرف على بيت من البيوت السلطانية كبير على طائفة من غلمان الحواصل كالطشت خاناه والفراش خاناه .وكان يلقب بالحاج وحتى إن لم يكن قد حج البيت.
مهمندار	مستقبل الرسل الواردين وشيوخ العربان وغيرهم . (مهمن بالفارسية تعنى الضيف)

ناظر البيمارستان	يشرف على البيمارستان (المستشفى) المنصوري .وكانت مرتبته عالية .عادة من أكابر أمراء مصر.
نائب الإسكندرية	نائب عن السلطان بالإسكندرية وكان بها كرسي سلطنة .وهو من الأمراء المقدمين يركب في المواكب ومعه أجناد الحلقة.
نائب السلطنة	نائب السلطان المباشر المقيم بالقاهرة ، يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم التقاليد والتواقيع والمناشير، ويستخدم الجند من غير مشاورة السلطان .ويحمل لقب '"كافل الممالك الشريفة الإسلامية الأمير الأمري'" تميزا له عن نواب السلطان في توابع السلطنة بالشام وغيرها.
نائب الوجه البحري	من الأمراء المقدمين في رتبة مقدم العسكر بغزة .مقر نيابته كانت في دمنهور
نائب الوجه القبلي	أعلى من نائب الوجه البحري .مقر نيابته كانت في أسيوط .ويحكم على جميع بلاد الوجه القبلي.
النفير العام	حالة الطوارئ العامة في البلاد وتعلن عند نشوب حرب أو حدوث هجوم خارجي.
نقيب الجيوش	المشرف على تزيين الجنود في عروضهم ومعه يمشي النقباء .وهو الذي يحضر الأمير أو الجندي إلى السلطان أو النائب أو الحاجب في حالة طلبه.
'"هامش'"	'"دار : '"كلمة فارسية تعني '"ماسك .'"وتدخل في كثير من أسماء الوظائف المملوكية مثل "الدوادار" و"الركاب دار" و"الخزندار" '" .خاناه : '"كلمة فارسية تعني '"بيت.'"وتدخل في كثير من أسماء '"الحواصل'" مثل "الطشت خاناه" و"الطبلخاناه '" .شاد : '"صاحب وظيفة تسمى '"الشد .'"وتعنى '"متخصص في'" أو '"متكلم في'"، وتضاف إلى مجالات متعددة مثل شاد العمائر وشاد الدواوين.
والي الفسطاط	يحكم في مصر المدينة
والي القاهرة	يحكم في القاهرة وضواحيها، وهو أكبر ولاة مصر .ويدعى أيضا باسم والي الشرطة ووالي الحرب.عادة أمير طبلخاناه.
والي القرافة	يحكم في القرافة ، وهي مدافن القاهرة والفسطاط
والي القلعة	يشرف على أكبر أبواب قلعة الجبل بالقاهرة (باب المدرج)
والي باب القلة	يشرف على باب القلة (كانت هناك قلة بناها الظاهر بيبرس وهدمها المنصور قلاوون) .

أشهر سلاطين المماليك البحرية التركمان

أولا : شجر الدر

تقديم :

هي شجر الدر أو شجرة الدر، الملقبة بعصمة الدين أم خليل ، تركية الأصل ، كانت جارية اشتراها السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، وحظيت عنده بمكانة عالية حتى أعتقها وتزوجها وأنجبت منه ابنها خليل الذي توفي في 2 من صفر 648هـ مايو 1250م . تولت عرش مصر لمدة ثمانين يوما بمبايعة من المماليك وأعيان الدولة بعد وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، ثم تنازلت عن العرش لزوجها المعز

أيبك التركماني سنة 648هـ 1250 م لعبت دورا تاريخيا هاما أثناء الحملة الصليبية السابعة على مصر وخلال معركة المنصورة.

1 - إدارتها لشؤون الحرب :

توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب في ليلة النصف من شعبان سنة 647هـ والقوات الصليبية تزحف نحو الجنوب على شاطئ النيل الشرقي لفرع دمياط للإجهاز على القوات المصرية الرابضة في المنصورة ، وكانت إذاعة خبر موت السلطان في هذا الوقت الحرج كفيلة بأن تضعف معنويات الجند وتؤثر في سير المعركة.

فأخذت زوجته شجرة الدر موقفا رائعا تعالت فيه على أحزانها وقدمت المصالح العليا للبلاد، مدركة خطورة الموقف العصيب، فأخفت على الناس خبر موته، وأمرت بحمل جثته سرا في سفينة إلى قلعة الروضة بالقاهرة ، وأمرت الأطباء أن يدخلوا كل يوم إلى حجرة السلطان كعادتهم ، وكانت تدخل الأدوية والطعام إلى غرفته كما لو كان حيا، وأستمرت الأوراق الرسمية تخرج كل يوم وعليها ختم السلطان.

وتولت شجرة الدر ترتيب أمور الدولة ، وإدارة شئون الجيش في ميدان القتال، وعهدت للأمير فخر الدين بقيادة الجيش، وفي الوقت نفسه أرسلت إلى توران شاه ابن الصالح أيوب تحثه على القدوم ومغادرة حصن كيفا إلى مصر، ليتولى السلطنة بعد أبيه.

وفي فترة ما بين موت السلطان الصالح أيوب ، ومجيء ابنه توران شاه في 23 ذي القعدة 648 هـ 27 فبراير 1250م وهي فترة تزيد عن ثلاثة أشهر، نجحت شجر الدر بمهارة فائقة أن تمسك بزمام الأمور وتقود دفة البلاد وسط الأمواج المتلاطمة التي كادت تعصف بها، ونجح الجيش المصري في رد العدوان الصليبي وإلحاق خسائر فادحة بالصليبيين، وحفظت السلطنة حتى تسلمها توران شاه الذي قاد البلاد إلى النصر.

2 - توليها العرش :

التخلص من توران شاه :

بعد النصر تنكر السلطان الجديد لشجر الدر، وبدلا من أن يحفظ لها جميلها بعث يتهددها ويطالبها بمال أبيه ، فكانت تجيبه بأنها أنفقته في شؤون الحرب وتدبير أمور الدولة ، فلما اشتد عليها ، ورابها خوف منه ذهبت إلى القدس خوفا من غدر السلطان وانتقامه.

ولم يكتف توران شاه بذلك بل أمتد حنقه وغيضه ليشمل أمراء المماليك ، أصحاب الفضل الأول في تحقيق النصر العظيم وإلحاق الهزيمة بالحملة الصليبية السابعة ، وبدأ يفكر في التخلص منهم غير أنهم كانوا أسبق منه في الحركة وأسرع منه في الإعداد فتخلصوا منه بالقتل على يد أقطاي .

المبايعة :

وجد المماليك أنفسهم في وضع جديد فهم اليوم أصحاب الكلمة الأولى في البلاد ومقاليد الأمور في أيديهم ، ولم يعودوا أداة في يد من يستخدمهم لتحقيق مصلحة أو نيل هدف وعليهم أن يختاروا سلطانا للبلاد ، وبدلا من أن يختاروا واحدا منهم لتولي شؤون البلاد اختاروا شجرة الدر لتولي هذا المنصب الرفيع.

أخذت البيعة للسلطانة الجديدة ونقش اسمها على السكة بالعبارة الآتية "المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة خليل أمير المؤمنين ".

جدير بالذكر أن شجر الدر لم تكن أول امرأة تحكم في العالم الإسلامي، فقد سبق أن تولت رضية الدين سلطنة دلهي ، واستمر حكمها أربع سنوات 634 - 638 هـ الموافق 1236 - 1240 م . وحكمت أروى بنت أحمد الصليحي من سلالة بنو صليح اليمن من تاريخ 492 - 532 هـ الموافق 1098 - 1138 م .

تصفية الوجود الصليبي :

وما أن جلست شجر الدر على العرش حتى قبضت على زمام الأمور وأحكمت إدارة شؤون البلاد ، وكان أول عمل أهتمت به هو تصفية الوجود الصليبي في البلاد وإدارة مفاوضات معه أنتهت بالاتفاق مع الملك لويس التاسع القديس لويس ، كما يسميه قومه الذي كان أسيرا بالمنصورة على تسليم دمياط وإخلاء سبيله وسبيل من معه من كبار الأسرى مقابل فدية كبيرة قدرها ثمانمائة ألف دينار ، يدفع نصفها قبل رحيله والباقي بعد وصوله إلى عكا مع تعهد منه بعدم العودة إلى سواحل البلاد الإسلامية مرة أخرى.

- **المعارضة :**

غير أن الظروف لم تكن مواتية لأن تستمر في الحكم طويلا على الرغم مما أبدته من مهارة وحزم في إدارة شؤون الدولة وتقربها إلى العامة وإغداقها الأموال والإقطاعات على كبار الأمراء ، فلقيت معارضة شديدة داخل البلاد وخارجها ، وخرج المصريون في مظاهرات غاضبة تستنكر جلوس امرأة على عرش البلاد ، وعارض العلماء ولاية المرأة الحكم وقاد المعارضة العز بن عبد السلام لمخالفة جلوسها على العرش للشرع.

وفي الوقت نفسه ثارت ثائرة الأيوبيين في الشام لمقتل توران شاه وأغتصاب المماليك للحكم بجلوس شجر الدر على سدة الحكم ، ورفضت الخلافة العباسية في بغداد أن تقر صنيع المماليك ، فكتب الخليفة المستعصم إليهم : "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا".

3 - تنازلها عن العرش :

ولم تجد شجر الدر إزاء هذه المعارضة الشديدة بدا من التنازل لة عن العرش للأمير عز الدين أيبك أتابك العسكر الذي تزوجته ، وتلقب باسم الملك المعز ، وكانت المدة التي قضتها على عرش البلاد ثمانين يوما.

وإذا كانت شجر الدر قد تنازلت عن الحكم والسلطان رسميا ، وانزوت في بيت زوجها، فإنها مارست بمشاركة زوجها مسئولية الحكم ، فخضع هذا الأخير لسيطرتها، فأرغمته على هجر زوجته الأولى أم ولده علي وحرمت عليه زيارتها هي وابنها ، وبلغ من سيطرتها على أمور السلطان أن قال المؤرخ الكبير " ابن تغري بردي": "إنها كانت مستولية على أيبك في جميع أحواله ، ليس له معها كلام".

4 - قتل فارس الدين أقطاي :

ساعدت شجرة الدر عز الدين أيبك علي التخلص من فارس الدين أقطاي الذي سبب لهم مشاكل عديدة في حكم البلاد والذي كان يعد من أشرس القادة المسلمين في عصره ، كما كانت لكلمته صدى واضح في تحركات الجند بكل مكان.

5 - وفاتها :

غير أن أيبك انقلب عليها بعدما أحكم قبضته على الحكم في البلاد ، وتخلص من منافسيه في الداخل ومناوئيه من الأيوبيين في الخارج ، وتمرس بإدارة شوؤن البلاد ، وبدأ في اتخاذ خطوات للزواج من ابنة "بدر الدين لؤلؤ" صاحب الموصل . فغضبت شجر الدر لذلك وأسرعت في تدبير مؤامرتها للتخلص من أيبك فأرسلت إليه تسترضيه وتتلطف معه وتطلب عفوه فانخدع لحيلتها واستجاب لدعوتها وذهب إلى القلعة حيث لقي حتفه هناك في 23 ربيع الأول 655 هـ 1257م.

أشاعت شجر الدر أن المعز لدين الله أيبك قد مات فجأة بالليل ولكن مماليك أيبك لم يصدقوها فقبضوا عليها وحملوها إلى امرأة عز الدين أيبك التي أمرت جواريها بقتلها بعد أيام قليلة ، فقاموا بضربها بالقباقيب علي رأسها وألقوا بها من فوق سور القلعة ، ولم تدفن إلا بعد عدة أيام .

وهكذا انتهت حياتها على هذا النحو بعد أن كانت ملء الأسماع والأبصار ، وقد أثنى عليها المؤرخون المعاصرون لدولة المماليك ، فيقول "ابن تغري بردي" عنها: "وكانت خيرة دينة ، رئيسة عظيمة في النفوس ، ولها مآثر وأوقاف على وجوه البر، معروفة بها...".

ثانيا : الملك المظفر سيف الدين قطز

تقديم :

الملك المظفر سيف الدين قطز واسمه الحقيقي هو محمود بن ممدود بن خوارزم شاه ولقب بسيف الدين توفي 24 أكتوبر 1260 السلطان المصري ذو الأصل المملوكي ، تولى الملك سنة 657 هـ. يعتبر أبرز ملوك مصر على الرغم أن فترة حكمة لم تدم سوى عاما واحدا؛ لأنه نجح في إعادة تعبئة وتجميع الجيش المصري الذي استطاع إيقاف زحف المغول الذي كاد أن يقضى على الدولة الإسلامية. وهزمهم هزيمة منكرة في معركة عين جالوت ، ولاحق فلولهم حتى حرر الشام.

1 - أصله ونشأته :

كان سيف الدين قطز عبدا لرجل يسمى " ابن الزعيم" بدمشق ثم بيع من يدٍ إلى يد حتى انتهى إلى "عز الدين أيبك" من أمراء مماليك البيت الأيوبي بمصر. وتدرج في المناصب حتى صار قائدا لجند أيبك ، ثم قائدا للجيوش عندما تولى "عز الدين أيبك" السلطنة مع شجرة الدر.

ويروي شمس الدين الجزري في تاريخه عن " سيف الدين قطز": ".. لما كان في رق موسي بن غانم المقدسي بدمشق ، ضربه سيده وسبه بأبيه وجده ، فبكى ولم يأكل شيئا سائر يومه ، فأمر ابن الزعيم الفراش أن يترضاه ويطعمه ، فروى الفراش أنه جاءه بالطعام وقال له : كل هذا البكاء من لطمة ؟ فقال قطز : إنما بكائي من سبه لأبي وجدي وهما خير منه ؛ فقلت: من أبوك ؟ واحد كافر؟ !.. فقال : والله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم ، أنا محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك ، فسكت وترضيته" .

كما يروي أنه أخبر في صغره أحد أقرانه أنه رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وقد بشره بأنه سيملك مصر ويكسر التتار، وهذا يعني أن الرجل كان يعتبر نفسه صاحب مهمة ، وأنه من الصلاح بحيث رأى رسول الله واصطفاه الله بذلك كما أكرمه بالشهادة وادخر شهرته وجزاءه العظيم له في الآخرة لذلك فهو مغمور في الدنيا ، وأن له دورا في صناعة التاريخ ، وتغيير الواقع الأسيف الذي يحيط به من كل جانب . ولا شك أن قطز كان مبعوث رحمة الله ومبعوث العناية الإلهية بالأمة العربية والإسلامية وبالعالم كي يخلص العالم من شر وخطر التتار للأبد ، وكان وصوله لحكم مصر من حسن حظها وحظ العالمين العربى والإسلامي.

تذكر المصادر التاريخية ومنها رواية وا إسلاماه لعلي أحمد باكثير عدة روايات عن أصل قطز فمنهم من يقول إن اسمه الحقيقي هو محمود بن ممدود الخوارزمي ابن أخت السلطان جلال الدين منكبرتي آخر السلاطين الخوارزميين.

واسم قطز أسماه له التتار حيث قاومهم بشراسة خلال اختطافهم وبيعهم له.. ومعنى قطز بلغتهم المغولية " **الكلب الشرس** ". وربما يكون تجار الرقيق هم الذين أعطوه هذا الاسم. قطز من بين الأطفال الذين حملهم التتار إلى دمشق وباعوهم إلى تجار الرقيق.

وقد وصف قطز بأنه كان شابا أشقر، كث اللحية ، بطلا شجاعا عفا عن المحارم ، مترفعا عن الصغائر مواظبا على الصلاة والصيام وتلاوة الأذكار، تزوج من بني قومه ولم يخلف ولدا ذكرا بل ترك ابنتين لم يسمع عنهما الناس شيئا بعده.

2 - وصايته على الحكم :

قام الملك عز الدين أيبك بتعيين قطز نائبا للسلطنة ، وبعد أن قتل الملك المعز عز الدين أيبك على يد زوجته شجرة الدر، وقتلت من بعده زوجته شجر الدر على يد جواري الزوجة الأولى لأيبك ، تولى الحكم السلطان الطفل المنصور نور الدين علي بن عز الدين أيبك ، وتولى سيف الدين قطز الوصاية على السلطان الصغير الذي كان يبلغ من العمر 15سنة فقط.

وأحدث صعود الطفل نور الدين إلى كرسي الحكم اضطرابات كثيرة في مصر والعالم الإسلامي ، وكانت أكثر الاضطرابات تأتي من قبل بعض المماليك البحرية الذين مكثوا في مصر، ولم يهربوا إلى الشام مع من هرب منها أيام الملك المعز عز الدين أيبك ، وتزعم أحد هؤلاء المماليك البحرية ـ واسمه "**سنجر الحلبي**" ـ الثورة ، وكان يرغب في الحكم لنفسه بعد مقتل عز الدين أيبك ، فاضطر قطز إلى القبض عليه وحبسه.. كذلك قبض قطز على بعض رءوس الثورات المختلفة ، فأسرع بقية المماليك البحرية إلى الهرب إلى الشام ، وذلك ليلحقوا بزعمائهم الذين فروا قبل ذلك إلى هناك أيام الملك المعز ، ولما وصل المماليك البحرية إلى الشام شجعوا الأمراء الأيوبيين على غزو مصر ، واستجاب لهم بالفعل بعض هؤلاء الأمراء ، ومنهم "مغيث الدين عمر" أمير الكرك (بالأردن حاليا) الذي تقدم بجيشه لغزو مصر.. ووصل مغيث الدين بالفعل بجيشه إلى مصر، وخرج له قطز فصده عن دخول مصر، وذلك في ذي القعدة من سنة 655 هـ، ثم عاد مغيث الدين تراوده الأحلام لغزو مصر من جديد، ولكن صده قطز مرة أخرى في ربيع الآخر سنة 656 هـ..

كان قطز محمود بن ممدود بن خوارزم شاه يدير الأمور فعليا في مصر ، ولكن الذي كان يجلس على كرسي الحكم سلطان طفل ، فرأى قطز أن هذا يضعف من هيبة الحكم في مصر، ويزعزع من ثقة الناس بملكهم ، ويقوي من عزيمة الأعداء إذ يرون الحاكم طفلا .فقد كان السلطان الطفل مهتما بمناقرة الديوك ، ومناطحة الكباش ، وتربية الحمام ، وركوب الحمير في القلعة ، ومعاشرة الأراذل والسوقة ، تاركا لأمه ومن وراءها تسيير أمور الدولة في تلك الأوقات العصيبة ، وقد استمر هذا الوضع الشاذ قرابة ثلاث سنوات ، على الرغم من تعاظم الأخطار وسقوط بغداد بيد المغول .

وكان من أشد المتأثرين بذلك والمدركين لهذه الأخطار الأمير قطز ، الذي كان يحز في نفسه ما كان يراه من رعونة الملك ، وتحكم النسوان في مقدرات البلاد ، واستبداد الأمراء ، وإيثارهم مصالحهم الخاصة على مصلحة البلاد والعباد.

هنا اتخذ قطز القرار الجريء ، وهو عزل السلطان الطفل نور الدين علي , واعتلاء قطز بنفسه عرش مصر .حدث هذا الأمر في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة 657 هـ ، أي قبل وصول هولاكو إلى حلب بأيام .. ومنذ أن صعد قطز إلى كرسي الحكم وهو يعد العدة للقاء التتار.

3 - توليه الحكم :

عندما تولى قطز الحكم كان الوضع السياسي الداخلي متأزما للغاية, فقد جلس على كرسي حكم في مصر خلال عشرة أعوام تقريبا ستة حكام وهم : الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولده توران شاه, شجر الدر ، الملك المعز عز الدين أيبك ، السلطان نور الدين علي بن أيبك , و سيف الدين قطز. كما كان هناك الكثير من المماليك الطامعين في الحكم, ويقومون بالتنازع عليه . كما كان هناك أزمة اقتصادية طاحنة تمر بالبلاد من جراء الحملات الصليبية المتكررة ، ومن جراء الحروب التي دارت بين مصر وجيرانها من الشام ، ومن جراء الفتن والصراعات على المستوى الداخلي.

فعمل قطز على أصلاح الوضع في مصر خلال أعداده للقاء التتار.

4 - الإعداد للقاء التتار :

استقرار الوضع الداخلي :

قطع قطز أطماع المماليك في الحكم عن طريق توحيدهم خلف هدف واحد، وهو وقف زحف التتار ومواجهتهم , فقام بجمع الأمراء وكبار القادة وكبار العلماء وأصحاب الرأي في مصر، وقال لهم في وضوح :

"إني ما قصدت من السيطرة على الحكم إلا أن نجتمع على قتال التتر، ولا يتأتى ذلك بغير ملك ، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو ، فالأمر لكم ، أقيموا في السلطة من شئتم".

فهدأ معظم الحضور ورضوا بذلك. كما قام قطز بتعيين أمراء من المماليك البحرية، رغم أنه نفسه من المماليك المعزية التي كانت على خلاف مع المماليك البحرية ، فقام بإقرار فارس الدين أقطاي الصغير الصالحي مكانه كقائد للجيش ، حيث وجد فيه كفاءة عسكرية وقدرة قيادية عالية.

التصالح مع المماليك البحرية :

كان هناك خلاف كبير بين المماليك البحرية وبين المماليك المعزية ، عندما قتل سيف الدين قطز بالتدبير مع السلطان المعز ومن ورائه زوجته ، قتل فارس الدين أقطاي اتابك الدولة (وزير الحرب) ووالي الإسكندرية ، و زعيم المماليك البحرية سنة 652 هـ،الامر الذي جعل الامير ركن الدين بيبرس البندقداري يفر الي الشام مقتنعا بانه كان الهدف التالي لمؤامرة شجر الدر مع زوجها السلطان المعز ونائبه قطز . ثم بدأ الخلاف يتفاقم تدريجيا إلى أن وصل إلى الذروة بعد مقتل الملك المعز عز الدين أيبك بواسطة شجر الدر التي دفعتها الغيرة الزوجية لذلك عندما علمت بان السلطان اصطفي له جارية من الحريم , ثم قتل شجر الدر ، ووصل الأمر إلى أن معظم المماليك البحرية ـ وعلى رأسهم القائد ركن الدين بيبرس ـ فروا من مصر إلى مختلف إمارات الشام ، ومنهم من شجع أمراء الشام على غزو مصر مثلما فعل بيبرس مع ملك دمشق الناصر يوسف وملك الكرك والشوبك المغيث عمر، فلما اعتلى قطز عرش مصر , قبل الصلح مع بيبرس الذي أرسل الرسل لقطز كي يتحدا للتصدي لجيوش المغول التي كانت قد دخلت دمشق , وآسرة الناصر يوسف على ملكها.

استقبل قطز المماليك الفارين استقبالا لائقا, كما استقدم ركن الدين بيبرس ، فلما قدم بيبرس إلى مصر، عظم قطز من شأنه جدا ، وأنزله دار الوزارة ، وأقطعه " قليوب " وما حولها من القرى، وعامله كأمير من الأمراء المقدمين ، بل وجعله على مقدمة الجيوش في معركة عين جالوت.

التوحد مع الممالك المحيطة بمصر :

كانت العلاقات مع إمارات الشام الأيوبية متوترة جدا ، وقد فكروا أكثر من مرة في غزو مصر ، ونقضوا الحلف الذي كان بين مصر والشام أيام الصالح أيوب ، واستقطبوا المماليك البحرية عندهم عندما فروا من مصر ، بل إن الناصر يوسف الأيوبي أمير دمشق وحلب كان قد طلب من التتار بعد سقوط بغداد أن يعاونوه في غزو مصر.

سعى قطز إلى الوحدة مع الشام ، أو على الأقل تحييد أمراء الشام ، فيخلوا بينه وبين التتار دون أن يتعاونوا مع التتار ضده. فأرسل قطز رسالة إلى الناصر يوسف الأيوبي يعرض عليه الوحدة ، على أن يكون الناصر يوسف الأيوبي هو ملك مصر والشام ، فإن تشكك الملك الناصر الأيوبي في نية قطز , فيستطيع قطز أن يمده بالقوات للمساعدة في قتال التتار , كما ترك قطز للملك الناصر اختيار قائد الجيش المصري الذي يذهب لنجدته في الشام ، ولكن الناصر الأيوبي رفض ذلك فسقطت كل من حلب ودمشق في يد التتار وفر الملك الناصر الأيوبي إلى فلسطين. بعد فرار الناصر الأيوبي انضم إلى قطز جيش الناصر، فازدادت بذلك قوة الجيش المصري.

راسل قطز بقية أمراء الشام ، فاستجاب له الأمير "المنصور" صاحب حماة ، وجاء من حماة ومعه بعض جيشه للالتحاق بجيش قطز في مصر.

أما المغيث عمر صاحب الكرك ، وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فقد فضلا الحلف مع المغول والخيانة.

وكذلك فإن الملك السعيد حسن بن عبد العزيز صاحب بانياس فقد رفض التعاون مع قطز هو الآخر رفضا قاطعا ، بل انضم بجيشه إلى قوات التتار ليساعدهم في محاربة المسلمين.

حل الأزمة الاقتصادية :

اقترح قطز أن تفرض على الناس ضرائب لدعم الجيش ، وهذا قرار يحتاج إلى فتوى شرعية ، لأن المسلمين في دولة الإسلام لا يدفعون سوى الزكاة ، ولا يدفعها إلا القادر عليها، وبشروط الزكاة

المعروفة ، أما فرض الضرائب فوق الزكاة فهذا لا يكون إلا في ظروف خاصة جدا ، ولابد من وجود سند شرعي يبيح ذلك.

فاستفتى قطز الشيخ **العز بن عبد السلام** فأفتى قائلا :

""إذا طرق العدو البلاد وجب على العالم كلهم قتالهم ، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهازهم بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء وأن تبيعوا مالكم من الممتلكات والآلات ، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه ، وتتساووا في ذلك أنتم والعامة ، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي قادة الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا. "

قبل قطز كلام الشيخ العز بن عبد السلام ، وبدأ بنفسه, فباع كل ما يملك ، وأمر الوزراء والأمراء أن يفعلوا ذلك, فانصاع الجميع , وتم تجهيز الجيش كله.

5 - قطز في معركة عين جالوت :

عند وصول رسل التتار :

بينما كان قطز يعد الجيش والشعب للقاء التتار وصل رسل هولاكو يحملون رسالة تهديد لقطز جاء فيها :

"بسم إله السماء الواجب حقه ، الذي ملكنا أرضه ، وسلطنا على خلقه..الذي يعلم به الملك المظفر الذي هو من جنس " المماليك "..صاحب مصر وأعمالها ، وسائر أمرائها وجندها وكتابها وعمالها ، وباديها وحاضرها ، وأكابرها وأصاغرها..إنا جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غيظه..فلكم بجميع الأمصار معتبر، وعن عزمنا مزدجر..فاتعظوا بغيركم ، وسلموا إلينا أمركم ..قبل أن ينكشف الغطاء ، ويعود عليكم الخطأ..فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن اشتكى..فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد..فعليكم بالهرب ، وعلينا بالطلب.. فأي أرض تأويكم ؟ وأي بلاد تحميكم؟ وأي ذلك ترى ؟ ولنا الماء والثرى ؟ فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من أيدينا مناص فخيولنا سوابق، وسيوفنا صواعق ، ورماحنا خوارق ، وسهامنا لواحق ، وقلوبنا كالجبال ، وعديدنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع ، والجيوش لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يسمع ، لأنكم أكلتم الحرام ، وتعاظمتم عن رد السلام ، وخنتم الأيمان ، وفشا فيكم العقوق والعصيان..فأبشروا بالمذلة والهوان (فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تعملون) (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) ..وقد ثبت أن نحن الكفرة وأنتم الفجرة..وقد سلطنا عليكم من بيده الأمور المدبرة ، والأحكام المقدرة..فكثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم لدينا ذليل ، وبغير المذلة ما لملوككم عينا من سبيل..فلا تطيلوا الخطاب ، وأسرعوا رد الجواب..قبل أن تضرم الحرب نارها ، وتوري شرارها.. فلا تجدون منا جاها ولا عزا ، ولا كتابا ولا حرزا ، إذ أزتكم رماحنا أزا..وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية ، وعلى عروشها خاوية..فقد أنصفناكم ، إذ أرسلنا إليكم ، ومننا برسلنا عليكم"

جمع قطز القادة والمستشارين وأطلعهم على الرسالة ، وكان من رأي بعض القادة الأستسلام للتتار وتجنب ويلات الحرب, فما كان من قطز إلا أن قال :" أنا ألقى التتار بنفسي.. يا أمراء المسلمين ، لكم زمان تأكلون من بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه ، فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته ، وإن الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين عن القتال " ، فتحمس القواد والأمراء لرؤيتهم قائدهم يقرر الخروج لمحاربة التتار بنفسه ، بدلا من أن يرسل جيشا ويبقى هو.

ثم وقف يخاطب الأمراء وهو يبكي ويقول :

"يا أمراء المسلمين ، من للإسلام إن لم نكن نحن"

فقام الأمراء يعلنون موافقتهم على الجهاد ، وعلى مواجهة التتار مهما كان الثمن.

وقام قطز بقطع أعناق الرسل الاربع وعشرين الذين أرسلهم إليه هولاكو بالرسالة التهديدية ، وعلق رءوسهم في الريدانية في القاهرة وابقي علي الخامس والعشرين ليحمل الاجساد لهولاكو . وأرسل الرسل

في الديار المصرية تنادى بالجهاد في سبيل الله ووجوبه وفضائله وكان العز بن عبد السلام ينادى في الناس بنفسه فهب نفر كثير ليكونوا قلب وميسرة جيش المسلمين , اما القوات النظامية من المماليك فكونت الميمنة وأختبأت بقيتها خلف التلال لتحسم المعركة.

في أرض المعركة :

كانت الحرب ضارية.. أخرج التتار فيها كل إمكانياتهم ، وظهر تفوق الميمنة التترية التي كانت تضغط على الجناح الأيسر للقوات المصرية ، وبدأت القوات المصرية تتراجع تحت الضغط الرهيب للتتار ، وبدأ التتار يخترقون الميسرة المصرية ، وبدأ الشهداء يسقطون ، ولو أكمل التتار اختراقهم للميسرة فسيلتفون حول الجيش المصري . كان قطز يقف في مكان عال خلف الصفوف يراقب الموقف بكامله ، ويوجه فرق الجيش إلى سد الثغرات ، ويخطط لكل كبيرة وصغيرة, وشاهد قطز المعاناة التي تعيشها ميسرة المصريين ، فدفع إليها بآخر الفرق النظامية من خلف التلال ، ولكن الضغط التتري استمر.

ذكرت بعض الروايات : لما كان يوم عين جالوت حضر سيف الدين قطز ومعه زوجته **جلنار** المعركة , وجلنار هي ابنة عمه , وابنة جلال الدين ابن خوارزم شاه . وأثناء القتال تمكن التتر من زحزحة صفوف المسلمين حتى إنهم وصلوا إلى خيام المعسكر فضربوا جلنار وهب قطز إليها وهي تلفض أنفاسها الأخيرة فقال (واحبيبتاه .. وازوجاه) فردت عليه وهي على حالها (لا تقل واحبيبتاه بل قل واإسلاماه) ثم فاضت روحها إلى بارئها ونهض قطز من مكانه وانقض على جيش التتر يقتل فيهم وهو يصرخ (الله أكبر .. واإسلاماه) فتحمس المسلمون واشتدوا في قتالهم حتى هزموهم هزيمة منكرة .

وفي المعركة صوب أحد التتار سهمه نحو قطز فأخطأه ولكنه أصاب الفرس الذي كان يركب عليه قطز فقتل الفرس من ساعته ، فترجل قطز على الأرض ، وقاتل ماشيا لا خيل له . ورآه أحد الأمراء المصريين وهو يقاتل ماشيا ، فجاء إليه مسرعا، وتنازل له عن فرسه ، إلا أن قطز امتنع، وقال: " ما كنت لأحرم المسلمين نفعك!!" وظل يقاتل ماشيا إلى أن أتوه بفرس من الخيول الاحتياطية.

وقد لامه بعض الأمراء على هذا الموقف وقالوا له:" لم لم تركب فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك ، وهلك الإسلام بسببك."

فقال قطز: " أما أنا كنت أروح إلى الجنة ، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه ، وقد قتل فلان وفلان وفلان حتى عد خلقا من الملوك (مثل عمر وعثمان وعلي) فأقام الله للإسلام من يحفظه غيرهم ، ولم يضع الإسلام "

6 – مقتله :

يروي ابن خلدون في كتاب " تاريخ ابن خلدون" قصة مقتل الملك المظفر سيف الدين قطز :

"كان البحرية من حين مقتل أميرهم أقطاي الجامدار يتحينون لأخذ ثأره وكان قطز هو الذي تولى قتله فكان مستريبا بهم . ولما سار إلى التتر ذهل كل منهم عن شأنه. وجاء البحرية من القفر هاربين من المغيث صاحب الكرك فوثقوا لأنفسهم من السلطان قطز أحوج ما كان إلى أمثالهم من المدافعة عن الإسلام وأهله فأمنهم واشتمل عليهم وشهدوا معه واقعة التتر على عين جالوت وأبلغوا فيها والمقدمون فيهم يومئذ **بيبرس البندقداري وأنز الأصبهاني وبلبان الرشيدي وبكتون الجوكنداري وبندوغز التركي** . فلما انهزم التتر في الشام واستولوا عليه وحسر ذلك المد وأفرج عن الخائفين الروع عاد هؤلاء البحرية إلى ديدنهم من الترصد لثأر أقطاي فلما قفل قطز من دمشق سنة ثمان وخمسين أجمعوا أن يبرزوا به في طريقهم . فلما قارب مصر ذهب في بعض أيامه يتصيد وسارت الرواحل على الطريق فاتبعوه وتقدم إليه أنز شفيعا في بعض أصحابه. فشفعه فأهوى يقبل يده فأمسكها. وعلاه بيبرس بالسيف فخر صريعا لليدين والفم . ورشقه الآخرون بالسهام فقتلوه وتبادروا إلى المخيم.

وقام دون فارس الدين أقطاي على ابن المعز أيبك وسأل من تولى قتله منكم فقالوا بيبرس فبايع له واتبعه أهل المعسكر ولقبوه بالقاهر . وبعثوا **أيدمر الحلي** بالخبر إلى القلعة بمصر فأخذ له البيعة على من هناك. ووصل القاهر منتصف ذي القعدة من السنة فجلس على كرسيه ولكنه غير لقبه إلى الظاهر خوفا

من شؤم لقب القاهر واستخلف الناس على طبقاتهم وكتب إلى الأقطار بذلك. ورتب الوظائف وولى الأمراء..."

حمل قطز بعد ذلك إلى القاهرة فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقي الدين قبل أن تعمر ثم نقله الحاج قطز الظاهري إلى القرافة ودفن قريبا من زاوية ابن عبود .

وفي رواية أخرى:

عندما إنتهى قطز من حرب التتار وهزيمتهم وتحرير الشام قفل راجعا إلى مصر ولما بلغ بلدة "القصير" من أرض الشرقية بمصر بقي بها مع بعض خواصه ، على حين رحل بقية الجيش إلى الصالحية ، وضربت للسلطان خيمته ، وهناك دبرت مؤامرة لقتله نفذها شركاؤه في النصر ، وكان الأمير بيبرس قد بدأ يتنكر للسلطان ويضمر له السوء ، وأشعل زملاؤه نار الحقد في قلبه ، فعزم على قتل السلطان ، ووجد منهم عونا ومؤازرة ، فانتهزوا فرصة تعقب السلطان لأرنب يريد صيده ، فابتعد عن حرسه ورجاله ، فتعقبه المتآمرون حتى لم يبق معه غيرهم ، وعندئذ تقدم بيبرس ليطلب من السلطان امرأة من سبى المغول فأجابه إلى ما طلب ، ثم تقدم بيبرس ليقبل يد السلطان شاكرا فضله ، وكان ذلك إشارة بينه وبين الأمراء ، ولم يكد السلطان قطز يمد يده حتى قبض عليها بيبرس بشدة ليحول بينه وبين الحركة ، في حين هوى عليه بقية الأمراء بسيوفهم حتى أجهزوا عليه ، وانتهت بذلك حياة بطل عين جالوت.

و تواترت الانباء في مصر عن مقتل قطز وأشاع المتآمرون انه قد قتل متأثرا بجراح اصيب بها أثناء المعركه...فخرج العامه ينتظرون الموكب بترقب فلما تبين لهم خلوه من قائدهم المحبوب قطز وتأكد لهم مقتله ساد الهم والكرب ووحزن الناس عليه حزنا شديدا وأنفض جمعهم سريعا دون احتفال.

ويقول ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة :

" فلما انقضت الوقعة بعين جالوت تبعهم بيبرس هذا يقتل من وجده منهم إلى حمص ثم عاد فوافى الملك المظفر قطز بدمشق وكان وعده بنيابة حلب فأعطاها قطز لصاحب الموصل فحقد عليه بيبرس في الباطن واتفق على قتله مع جماعة لما عاد الملك المظفر إلى نحو الديار المصرية.

والذين اتفقوا معه : بلبان الرشيدي وبهادر المعزي وبكتوت الجوكندار المعزي وبيدغان الركني وبلبان الهاروني وأنص الأصبهاني واتفقوا الجميع مع بيبرس على قتل الملك المظفر قطز وساروا معه نحو الديار المصرية إلى أن وصل الملك المظفر قطز إلى القصير وبقي بينه وبين الصالحية مرحلة ورحل العسكر طالبا الصالحية وضرب دهليز السلطان بها.

واتفق عند القصير أن ثارت أرنب فساق المظفر قطز وساق هؤلاء المتفقون على قتله معه فلما أبعدوا ولم يبق مع المظفر غيرهم تقدم إليه ركن الدين بيبرس وشفع عنده في إنسان فأجابه المظفر فأهوى بيبرس ليقبل يده فقبض عليها وحمل أنص عليه وقد أشغل بيبرس يده وضربه أنص بالسيف وحمل الباقون عليه ورموه عن فرسه ورشقوه بالنشاب إلى أن مات ثم حملوا على العسكر وهم شاهرون سيوفهم حتى وصلوا إلى الدهليز السلطاني فنزلوا ودخلوه والأتابك على باب الدهليز فأخبروه بما فعلوا فقال فارس الدين الأتابك : من قتله منكم فقال بيبرس: أنا فقال: يا خوند اجلس في مرتبة السلطنة فجلس واستدعيت العساكر للحلف وكان القاضي برهان الدين قد وصل إلى العسكر متلقيا للملك المظفر قطز فاستدعي وحلف العسكر للملك الظاهر بيبرس وتم أمره في السلطنة وأطاعته العساكر ثم ركب وساق في جماعة من أصحابه حتى وصل إلى قلعة الجبل فدخلها من غير ممانع واستقر ملكه. "

وذكر المؤرخون أسبابا متعددة لإقدام الأمير بيبرس وزملائه على هذه الفعلة الشنعاء، فيقولون : إن بيبرس طلب من السلطان قطز أن يوليه نيابة حلب فلم يوافق ، فأضمر ذلك في نفسه. ويذهب بعضهم إلى أن وعيد السلطان لهم وتهديدهم بعد أن حقق النصر وثبت أقدامه في السلطة كان سببا في إضمارهم السوء له وعزمهم على التخلص منه قبل أن يتخلص هو منهم ، وأيا ما كانت الأسباب فإن السلطان لقي حتفه بيد الغدر والاغتيال ، وقتل وهو يحمل فوق رأسه أكاليل النصر.

قال الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي عنه في تاريخه - تعالى - بعد ما سماه ونعته قال : وكان المظفر أكبر مماليك الملك المعز أيبك التركماني وكان بطلا شجاعا مقداما حازما حسن التدبير يرجع إلى دين وإسلام وخير وله اليد البيضاء في جهاد التتار فعوض الله شبابه بالجنة ورضي عنه.

وقال قطب الدين اليونيني في تاريخه الذي ذيله على مرآة الزمان بعد ما ساق توجهه إلى دمشق وإصلاح أمرها إلى أن قال : وقتل الملك المظفر قطز مظلوما بالقرب من القصير وهي المنزلة التي بقرب الصالحية وبقي ملقى بالعراء فدفنه بعض من كان في خدمته بالقصير وكان قبره يقصد للزيارة دائما .قال : واجتزت به في شهر رمضان سنة تسع وخمسين وستمائة وترحمت عليه وزرته. وكان كثير الترحم عليه والدعاء على من قتله. فلما بلغ بيبرس ذلك أمر بنبشه ونقله إلى غير ذلك المكان وعفي أثره ولم يعفى خبره - تعالى وجزاه عن الإسلام خيرا - قال: ولم يخلف ولدا ذكرا وكان قتله يوم السبت سادس عشر ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة . قلت : فعلى هذا تكون مدة سلطنة الملك المظفر قطز سنة إلا يوما واحدا فإنه تسلطن في يوم السبت سابع عشر ذي القعدة من سنة سبع وخمسين وستمائة وقتل فيما نقله الشيخ قطب الدين في يوم السبت سادس عشر في القعدة من سنة ثمان وخمسين وستمائة انتهى.

ويقول ابن كثير في " البداية والنهاية " :

"لما عاد قطز إلى مصر تملأ عليه الأمراء مع بيبرس فقتلوه بين القرابي والصالحية ودفن بالقصر، وكان قبره يزار .فلما تمكن الظاهر من الملك بعث إلى قبره فغيبه عن الناس ، وكان لا يعرف بعد ذلك قتل يوم السبت سادس عشر من ذي القعدة رحمه الله."

وفي رواية أحرى : لما قتل ببيرس السلطان قطز , قال قطز لبيبرس وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة : { **لقد استعجلت يابيبرس** } , وطلب من كاتم أسراره أن يفتح وصيته , فإذا به يوصي بالملك والسلطنة من بعده لبيبرس , لأنه أي قطز ليس له ولد ذكر يخلفه , فقد كان لدية ابنتين إثنتين , ورأى بصائب رأيه أنه لا يصلح للملك وقتال الفرنج والمغول ونصرة الاسلام من بعده سوى بيبرس قائد جيوشه وشركيه في النصر بعين جالوت

7 - دينار قطز :

دينار من الذهب بكتابة نسخية باسم المظفر قطز عليه كتابة على كل من الوجه والظهر تحمل اسم السلطان المظفر سيف الدنيا والدين قطز.

كما ورد أنها ضربت في الإسكندرية التي كانت مركزا تجاريا هاما في العصرين الفاطمي والمملوكي.

ثالثا : الملك الظاهر ركن الدين بيبرس العلائي البندقداري الصالحي النجمي

تقديم :

الملك الظاهر ركن الدين بيبرس العلائي البندقداري الصالحي النجمي لقب بـأبو الفتوح. سلطان مصر والشام ورابع سلاطين الدولة المملوكية ومؤسسها الحقيقي ، بدأ مملوكا يباع في أسواق بغداد والشام وانتهى به الأمر كأحد أعظم السلاطين في العصر الإسلامي الوسيط. لقبه الملك الصالح أيوب في دمشق بـ" ركن الدين "، وبعد وصوله للحكم لقب نفسه بالملك الظاهر. ولد بيبرس نحو عام 620 هـ / 1221م ، حقق خلال حياته العديد من الانتصارات ضد الصليبيين وخانات المغول ابتداء من معركة المنصورة سنة 1250 ومعركة عين جالوت انتهاء بمعركة الأبلستين ضد المغول سنة 1277. وقد قضى أثناء حكمه على الحشاشين واستولى أيضا على إمارة أنطاكية الصليبية.

حكم بيبرس مصر بعد رجوعه من معركة عين جالوت واغتيال السلطان سيف الدين قطز من سنة 1260 حيث خطب له بالمساجد يوم الجمعة 6 ذي الحجة 658 هـ / 11 نوفمبر 1260م وتوفي يوم الخميس 27 محرم 676 هـ / 2 مايو 1277 م (عمر 54 سنة) بعد رجوعه من معركة الأبلستين ضد خانات المغول سنة 1277. أحيا خلال حكمه الخلافة العباسية في القاهرة بعد ما قضى عليها المغول في بغداد ، وأنشأ نظما إدارية جديدة في الدولة. اشتهر بيبرس بذكائه العسكري والدبلوماسي ، وكان له دور كبير في تغيير الخريطة السياسية والعسكرية في منطقة البحر المتوسط.

1 - أصله ونشأته :

مختلف في أصله ، فبينما تذكر جميع المصادر العربية والمملوكية الأصلية أنه تركي من القبجاق) كازاخستان حاليا (، فإن بعض الباحثين المسلمين في العصر الحديث يشيرون إلى أن مؤرخي العصر المملوكي من عرب ومماليك كانوا يعتبرون الشركس من الترك ، وأنهم كانوا ينسبون أي رقيق مجلوب من مناطق القوقاز والقرم للقبجاق ، وذكر المقريزي بأنه وصل حماة مع تاجر وبيع على الملك المنصور محمد حاكم حماة لكن ما لم يعجبه وأرجعه ، فذهب التاجر به إلى سوق الرقيق بدمشق وهو في الرابعة عشر من عمره ، وباعه هناك بثمانمائة درهم لكن الذي اشتراه أرجعه للتاجر لأنه كان فيه عيب خلقي في إحدى عينيه (مياه بيضاء) ، فاشتراه الأمير "علاء الدين أيدكين البندقدار". ثم انتقل بعد ذلك إلى خدمة السلطان الأيوبي الملك الصالح نجم الدين أيوب بالقاهرة . وأعتقه الملك الصالح ومنحه الإمارة فصار أميرا. كان بيبرس ضخما طويلا ذا شخصية قوية ، وصوته جمهوري وعيناه زرقاوان ، ويوجد بإحدى عينيه نقطة بيضاء ، وقد يكون سبب زرقة عينيه أن أصله كان مختلطا . كان شعار دولته " الأسد " وقد نقش صورته على الدراهم.

2 – بزوغه :

معركة المنصورة :

برز بيبرس عندما قاد جيش المماليك في معركة المنصورة ضد الصليبيين في رمضان من عام 647 هـ / 1249 م . فقد شن الفرنجة هجوما مباغتا على الجيش المصري مما تسبب بمقتل قائد الجيش "فخر الدين بن الشيخ" وارتبك الجيش وكادت أن تكون كسرة إلا أن خطة معركة أو " مصيدة المنصورة" التي رتبها بيبرس ، القائد الجديد للمماليك الصالحية أو البحرية وبموافقة شجرة الدر التي كانت الحاكمة الفعلية لمصر في تلك الفترة بعد موت زوجها سلطان مصر الصالح أيوب. فقاد الهجوم المعاكس في تلك المعركة ضد الفرنج ، وتسبب بنكبتهم الكبرى في المنصورة . التي تم فيها أسر الملك الفرنسي لويس التاسع وحبسه في دار ابن لقمان .

توران شاه :

بعد وفاة السلطان الصالح أيوب استدعت شجرة الدر ابنه توران شاه من حصن كيفا، ونصبته سلطانا على مصر ليقود الجيش المصري ضد القوات الصليبية الغازية. لكن ما إن انتهت الحرب ، حتى بدأ توران شاه بمضايقة شجرة الدر وظل يطالبها برد أموال ومجوهرات والده ، وفي نفس الوقت توعد وهدد مماليك أبيه واستبعدهم من المناصب ووضع مكانهم أصحابه الذين أتوا معه من حصن كيفا. مما حذا بالمماليك الإسراع في قتله قبل خروج الفرنج من دمياط ، فقتل بمشاركة بيبرس وفارس الدين أقطاي في فارسكور.

وبعد مقتل توران شاه نصب المماليك شجرة الدر سلطانة باعتبارها أرملة السلطان الصالح أيوب وأما ابنه خليل فقد مات صغيرا ، وطلبوا من الأمراء الأيوبيين في الشام الاعتراف بسلطنتها. فرفض أيوبيو الشام هذا التنصيب ، لأن ذلك معناه نهاية دولتهم في مصر، وأيضا لم يوافق الخليفة العباسي المستعصم بالله في بغداد الذي اعترض على ولاية امرأة . فتسلم السلطنة عز الدين أيبك الذي تزوجها لكي يتمكن من الحكم. ولكن الأيوبيين لم يوافقوا على ذلك وتم إرسال جيش إلى مصر بقيادة صاحب حلب ودمشق الناصر يوسف لاحتلالها وتحريرها من المماليك ، ولكنهم هزموا أمام المماليك ، وفروا هاربين إلى الشام مما مكن المماليك من تثبيت حكمهم في مصر.

صراع المماليك :

بعد استتاب الأمر للمماليك في حكم مصر بقيادة السلطان أيبك ، بدأ أمر أقطاي يستفحل ، وأحس السلطان عز الدين أيبك بزيادة نفوذه ، خاصة بعدما طلب من أيبك أن يفرد له مكانا في قلعة الجبل ، ليسكن به مع عروسه, فقرر قتله بالتعاون مع مملوكه سيف الدين قطز والمماليك المعزية ، فاستدرجه إلى قلعة الجبل واغتاله وألقى برأسه إلى المماليك البحرية الذين تجمعوا تحت القلعة مطالبين بالإفراج عنه وكان ذلك سنة 652 هـ / 1254 م. ففر المماليك البحرية من مصر إلى سوريا والكرك وسلطنة الروم السلاجقة وأماكن أخرى، وكان في مقدمتهم بيبرس وقلاوون الألفي وبلبان الرشيدي وسنقر الأشقر الذين فروا إلى دمشق.

فرح الناصر يوسف بما حصل ورحب بهم ، وحاول أن يستخدمهم ضد أيبك. فأرسل الناصر يوسف جيشه للهجوم على مصر وبمساعدة المماليك البحرية الذين معه في هذه المرة ، ولكن ما إن وصل حدود مصر حتى اضطر إلى أن ينسحب ويوافق على شروط أيبك التي كان من ضمنها إبعاد البحرية عن سوريا فرحلوا إلى الكرك . فاستقبلهم صاحب الكرك المغيث عمر أحسن استقبال ، وفرق فيهم الأموال , وحاول الهجوم على مصر بدعم المماليك البحرية ولكنه مني بهزيمة أمام أيبك وكر راجعا وكان ذلك سنة 656 هـ / 1258 م . وإثناء عودة المماليك منهزمين من مصر هاجموا غزة التي تعد تابعة للناصر يوسف ، فهزموا الحامية التي بها وأسروا آمرها ، فقوي أمرهم .

وفي أثناء تحرك البحرية في جنوب الشام ، صادفوا في غور الأردن فرقة الشهرزورية ، التي فرت من العراق تحت ضغط التتار، فاتفقوا معهم وتزوج بيبرس امرأة منهم لتوثيق الاتفاق بالمصاهرة . مما حرك المخاوف عند الناصر منهم ، فحرك عساكره إليهم، فهزم البحرية عسكر الشام ، فركب الناصر بنفسه وبكل جيشه ، ففرت البحرية إلى الكرك والشهرزورية إلى مصر . فتابع تحركه نحو الكرك وحاصرها، فأراد المغيث حل القضية سلميا مع الناصر، فوافق الناصر على شرط تسليمه المماليك، وفي أثناء الحصار شعر بخطورة الموقف أحد مقدمي البحرية ، وربما أذكاهم وأكثرهم أهلية للقيادة - وكان هو الظاهر بيبرس - الذي يعرف بدقة أين يجب أن يكون في كل ظرف ، فتسلل من قلعة الكرك ولجأ إلى الناصر يوسف الذي استقبله وعفا عنه. أما باقي المماليك فقد استلمهم الناصر من المغيث وأودعهم سجن قلعة حلب ، وبقوا فيها حتى احتل التتار حلب وأخذوهم منها .

بعد توجه المغول إلى حلب واستيلائهم عليها وتدميرهم لها، مما أثار موجة من الرعب في قلوب المسلمين وحكامهم، فمنهم من هرب إلى مصر كما فعل صاحب حماة، ومنهم من فضل الاستسلام حقنا للدماء كما فعل حاكم حمص . ولم يبق من المدن المهمة سوى دمشق التي جمع حاكمها الناصر من الجيوش لمواجهة المغول، ثم ما لبث أن انفضت تلك الجيوش من حوله، وذلك بأنه كان محتارا في ما يفعل اتجاه المغول. فما كان من المماليك الرافضين لتصرفاته المترددة إلا أن حاولوا قتله وتولية أخيه الملك الظاهر علي مكانه . فاكتشف الناصر تلك المؤامرة وفر ليلا من المعسكر إلى قلعة دمشق وتحصن بها، فلما علم مماليكه بهربه وافتضاح أمرهم ساروا نحو غزة برفقة بيبرس البندقداري ، ومن غزة اتصل بسلطان المماليك الجديد قطز ، فدعاه للعودة وأقطعه قليوب وأنزله بدار الوزارة وعظم شأنه لديه .

معركة عين جالوت :

عاد لمصر بعد أن ولاه سيف الدين قطز منصب الوزارة عام 1260 ميلادية ليشتركا معا في محاربة المغول الذين كانوا في طريقهم إلى مصر بعد اجتياحهم المشرق الإسلامي ثم العراق وإسقاطهم الدولة العباسية في بغداد. وقد أرسل هولاكو رسلا لقطز يحملون كتابا فيه تهديد ووعيد إن لم يخضعوا له. فعقد سيف الدين قطز اجتماعا مع وجهاء الدولة وعلمائها وتم الاتفاق على التوجه لقتال المغول إذ لا مجال لمداهنتهم. وقد اختلى قطز ببيبرس البندقداري الذي كان أمير الأمراء واستشاره في الموضوع. فأشار عليه بأن : أقتل الرسل، وأن نذهب إلى كتبغا متضامنين. فإن انتصرنا أو هزمنا ، فسوف نكون في كلتا الحالتين معذورين. فاستصوب قطز هذا الكلام ، وقام بقتل رسل المغول . وقد زاد من عزيمة المسلمين وصول رسالة من صارم الدين الأشرفي - وقد وقع أسيرا في يد المغول إثناء غزوهم الشام ثم قبل الخدمة في صفوفهم - أوضح لهم فيها قلة عددهم وشجعهم على قتالهم وأن لا يخافوا منهم . وقد استفاد قطز من رحيل هولاكو إلى فارس على رأس معظم جيشه بعد سماعه بوفاة أخيه الخان الأعظم ، فمن تبقى بالشام من عساكر المغول تحت قيادة كتبغا يتراوح ما بين 10 آلاف إلى 20 ألف رجل . قام سيف الدين قطز بتقسيم جيشه لمقدمة بقيادة بيبرس وبقية الجيش يختبئ بين التلال وفي الوديان المجاورة كقوات دعم أو لتنفيذ هجوم مضاد أو معاكس. فقامت مقدمة الجيش بقيادة بيبرس بهجوم سريع ثم انسحبت متظاهرة بانهزام لسحب خيالة المغول إلى الكمين ، وانطلت الحيلة على كتبغا فحمل بكل قواه على مقدمة جيش المسلمين واخترقه وبدأت المقدمة في التراجع إلى داخل الكمين، وفي تلك الأثناء خرج قطز وبقية مشاة وفرسان الجيش وعملوا على تطويق ومحاصرة قوات كتبغا، فعندئذ استحر القتل ولم يمض كثيرا من الوقت حتى هزم الجيش المغولي وقتل معظمهم بمن فيهم قائدهم كتبغا.

3 - مقتل قطز :

بعد انتصار قطز على المغول في عين جالوت ، ساق ورائهم لتحرير باقي مدن الشام ، فتحررت دمشق وحماة وحمص وأرسل بيبرس ليطرد التتار من حلب ويتسلمها ووعده بنيابتها، فلما طردهم منها وتسلمها المسلمون ، استناب عليها غيره وهو علاء الدين ابن صاحب الموصل ، وكان ذلك سبب الوحشة التي وقعت بينهما فاقتضى قتل السلطان قطز سريعا . فبعد عودة السلطان قطز من معركة عين جالوت منتصرا قاصدا مصر، وصل ما بين الغزالي والصالحية فضرب دهليزه ، وساق خلف أرنب وساق معه بيبرس ومعه الأمراء الذين اتفقوا على قتله ، فشفع بيبرس في شيء فشفعه ، فأخذ يده ليقبلها فأمسكها وحمل عليه الأمراء بالسيوف فضربوه بها ، وألقوه عن فرسه ورشقوه بالنشاب حتى قتلوه. ثم كروا راجعين إلى المخيم وبأيديهم السيوف مصلتة ، فأخبروا خبرهم ، فقال بعضهم من قتله؟ فقالوا: ركن الدين بيبرس ، فقالوا له : أنت قتلته؟ فقال: نعم ، فقالوا أنت الملك إذا .

4 - بيبرس السلطان :

بعد مبايعة بيبرس على ملك مصر أواخر ذي القعدة سنة 658 هـ، دقت الطبول فرحا بذلك، ودخل قلعة الجبل وجلس على كرسيها. وقد لقب نفسه أول مرة بالقاهر، فقال له الوزير : إن هذا اللقب لا يفلح من تلقب به. تلقب به القاهر بن المعتضد فلم تطل أيامه حتى خلع وسملت عيناه ، ولقب به القاهر صاحب الموصل فسم ومات ، فعدل عنه حينئذ إلى الملك الظاهر، ثم شرع في مسك كل من يرى في نفسه الرئاسة من أكابر الأمراء حتى مهد الملك .

السياسة الداخلية :

- **ثورة علم الدين سنجر :**

وقد عمد أولا إلى القضاء على الاضطرابات الداخلية ، وتصفية معارضيه الذين احتجوا على مقتل السلطان قطز ومنهم الأمير علم الدين سنجر الحلبي . وقد استنابه قطز بدمشق ، والذي نادى بنفسه سلطانا على دمشق وركب بشعار السلطنة وأمر بالخطبة له على المنابر وضرب السكة باسمه ، ثم أرسل إلى الأمراء بحلب وحماة بوجوب طاعته. وقد جرد بيبرس بحملة عسكرية ضده ، وقد تمكنت تلك الحملة من القضاء عليه وإعادة دمشق تابعة إلى مصر وذلك بتاريخ 16 صفر 659 هـ / يناير 1261م .

- **ثورة الكوراني :**

تمكن الظاهر بيبرس أيضا من القضاء على التمردات الفاطمية في القاهرة والتي أثارها رجل يدعى الكوراني وهو فارسي الأصل من نيسابور، وكان يهدف إلى قلب نظام الحكم وإرجاع الفاطميين ، وقد نتجت تلك الحركة إلى إعلان العصيان على بيبرس والمسير في شوارع القاهرة ليلا ثم الهجوم على مخازن السلاح والإسطبلات وأخذ ما بها من السيوف والخيل ، إلا أن الظاهر بيبرس تمكن بقواته الخاصة من الإحاطة بالمتمردين والقبض على جميع زعمائهم ومنهم الكوراني ، حيث أقر السلطان بصلبه على باب زويلة بالقاهرة. وبها انتهت جميع محاولات الفاطميين بالتمرد والعودة إلى سدة الحكم .

- **إحياء الخلافة العباسية :**

أراد بيبرس أن يضفي لحكمه نوعا من الزعامة والنفوذ على البلاد الإسلامية ولكي يمنح دولته الفتية نوعا من الشرعية ، فعمد إلى إحياء الخلافة العباسية في القاهرة ليقيلها من الانتكاسة التي أصابتها في بغداد على يد المغول . وعليه فقد أرسل في طلب أحد أبناء البيت العباسي فوصل إلى القاهرة القاسم أحمد في رجب 659هـ / يونيو 1261م ، حيث قوبل بالتكريم والاحترام ، وبعدها بأيام عقد السلطان بيبرس مجلسا عاما بالديوان الكبير بالقلعة واستدعى كل أعيان البلد ، ثم قام السلطان أمام الجميع فبايع الخليفة على العمل بكتاب الله وسنة رسوله وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى الجهاد في سبيل الله ، فتبعه الجميع بالمبايعة ولقب الخليفة **المستنصر بالله** .

بعد نهاية الخليفة الأول المؤلمة واستقدم السلطان بيبرس أخاه (أبي العباس أحمد) وعقد مجلسا لمبايعته للخلافة في القلعة في 9 محرم 661 الموافق 22 نوفمبر 1262 وبايعه بيبرس كما بايع سلفه ، ولقب بالخليفة **الحاكم بأمر الله الأول** وقد عدل عن التفكير بجعل مقر الخليفة في بغداد ، حيث أبقاه في القاهرة بعيدا عن خطر المغول ، وبذلك أحيت الخلافة العباسية للمرة الثانية بالقاهرة ، غير أن الخلافة لم تتدخل في الشؤون المملوكية ، حيث أن السلطة الفعلية في يد الظاهر بيبرس والمماليك من بعده .

- **ترميم القلاع وطرق الإمداد :**

عمد السلطان بيبرس إلى تأمين وصول قواته إلى بلاد الشام بالسيطرة على كل المدن والقلاع الممتدة على الطريق بين مصر والشام وجعلها تابعة له ، وبالأخص حصن الكرك الذي كان تحت سيطرة الملك عمر بن العادل بن الكامل الأيوبي ، الذي لم يقدم فروض الطاعة له ، فاستولى على الحصن وقتل الملك عمر . والتفت أيضا إلى تحصين الأطراف والثغور وعمارة القلاع التي خربها المغول في الشام. وأخذ يزودها بالرجال والسلاح من مصر وبعض مدن الشام القوية . كما عمل على تقوية الأسطول والجيش وأشرف بنفسه على بناء السفن الحربية في دور صناعتها الموجودة في الفسطاط والإسكندرية ودمياط . ولم يكتفي بهذا العمل لتأمين وصول قواته إلى الشام ومنع أي التفاف حولهم من الخلف، بل عمد أيضا إلى التحالف مع بعض القوى المناوئة ليتفرغ للصليبيون .

- **النهضة المعمارية والتعليمية :**

شهد عهده نهضة معمارية وتعليمية كبيرة حيث عمل على إنشاء العديد من المدارس بمصر ودمشق وتعرف المدرسة المصرية بدمشق باسم المكتبة الظاهرية عام 676 هجرية وتضم المدارس مكتبات ضخمة ، كما أنشأ عام 665 هجرية جامعا عرف باسمه إلى اليوم في مدينة القاهرة وهو جامع الظاهر بيبرس والذي ما زال قائما إلي اليوم ، وتعرف المنطقة حوله باسم حي الظاهر. كما عمل بيبرس على إنشاء الجسور والقناطر والأسوار، وحفر الترع والخلجان، وأنشأ مقياس للنيل وغيرها العديد من الأعمال. ونظم البريد وخصص له الخيل ، وبنى كثيرا من العمائر .

- **إصلاح المساجد والأماكن المقدسة :**

اهتم بيبرس بتجديد الجامع الأزهر فأعاد للأزهر رونقه فشن عليه حملات من الترميم والتجميل حتى عاد له جماله ومكانته مرة أخرى ، وأعاد خطبة الجمعة والدراسة إلى الجامع الأزهر بعد أن هجر طويلا ، ونصب أربعة قضاة شرعيين ، واحدا من كل مذهب من مذاهب السنة الأربعة بعد أن كان القضاء مقتصرا على قاضي قضاة شافعي . وفي خارج مصر قام بعدد من الإصلاحات في الحرم النبوي بالمدينة المنورة ، وقام بتجديد مسجد إبراهيم عليه السلام في الخليل ، وزار بيت المقدس يوم الجمعة 17 جمادى الآخرة 661هـ / 1262م ، فقام بتجديد ما قد تهدم من قبة الصخرة , وجدد قبة السلسلة وزخرفها ورتب برسم مصالح المسجد في كل سنة خمسة آلاف درهم . وأنشأ بها خانا للسبيل نقل بابه من دهليز كان للخلفاء المصريين بالقاهرة . وقد زار بيت المقدس في شعبان سنة 664هـ / 1265 م وأجرى عليها تعميرات إضافية . وعمل على إقامة دار للعدل للفصل في القضايا والنظر في المظالم.

السياسة الخارجية :

- **التحالفات :**

ما أن استلم بيبرس الحكم حتى أقبلت الوفود على مصر من كل البقاع ، فقدم إليه وفد من العصفوريين حكام البحرين برئاسة مقدمهم محمد بن أحمد العامري سنة 658 هـ/ 1260م لمباركته على الحكم وطلبوا منه مساعدته للتصدي لهجمات المغول في فارس .

وتحالف بيبرس مع بركة خان زعيم القبيلة الذهبية المغولية وأقام معاهدات وعلاقات ودية مع مانفرد بن فريدريك الثاني الإمبراطور الروماني، كما حالف ملك نابولي وصقلية وملك قشتالة ألفونسو العاشر . وحالف أيضا الإمبراطور ميخائيل الثامن إمبراطور بيزنطة, وحالف أيضا سلطان سلاجقة الروم عز الدين كيكاوس ، وقد كان يبعث بالرسائل والهدايا للآخرين (بركة خان وعز الدين) ويحثهم على محاربة المغول الإلخانات لكف أذاهم عن دولته، كي يتفرغ للصليبيين .

- **الجهاد ضد المغول :**

إن العداء بين المماليك والمغول لم ينقطع منذ وقعة عين جالوت ، إذ ظل مغول فارس يتحينون الفرصة للثأر، وخاصة ابغا ابن هولاكو، الذي واصل سياسة ابيه العدائية تجاه المسلمين ، فيما اتسمت سياسته مع الصليبيين بالود . لكن الظاهر بيبرس وقف لهم دائما بالمرصاد واستطاع أن يكسر شوكتهم ، مما دعا ابغا إلى طلب الصلح ، ولجأ في طلبه إلى الترغيب والتهديد ، لكن بيبرس كان يعلم جيدا أن الصلح مع المغول أمر لا يرضي المسلمين ، وذلك بسبب ما فعلوه في بغداد. ورغم ذلك واصل المغول هجماتهم على الساجور، لكن بيبرس ردهم خائبين ، ثم ما لبثوا أن هاجموا عين تاب ، لكن بيبرس دحرهم ، وهكذا قام بكسر التتار في أخرها عندما تحالف المغول مع سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ، فأعد حملة كبيرة سنة 675هـ ، لغزو سلاجقة الروم . وفي موقعة أبلستين حلت الهزيمة الساحقة بالمغول وحلفائهم من السلاجقة ، وقد فر زعيم السلاجقة بعد أن قتل عدد كبير من رجالة ورجال المغول ، ثم دخل بيبرس قيسارية ، ودعي له على منابرها وقدم له أمراء السلاجقة فروض الولاء والطاعة .

وقيل إن أبغا لما سمع بما فعله بيبرس برجاله في موقعة ابلستين أسرع إلى هناك ليشتد غضبا بما وجده من آلاف القتلى من المغول في حين لم يرى أحدا من السلاجقة ، مما جعلة يأمر بقتل ما يزيد على مائتي ألف من المسلمين السلاجقة. وهكذا نرى أن حروب بيبرس ضد المغول والصليبيين قد أوقفت خطرا كان يهدد الدولة الإسلامية ، إذ استطاع بقوته وحنكته أن يصبح المسيطر في المنطقة ، مما حفظ الحضارة الإسلامية من الضياع .

- **الحروب مع الصليبيين (معركة أرسوف 1265) :**

بعد أن انهى السلطان بيبرس مشاريعه الداخلية، تفرغ للجانب الصليبي، وبدأ العدة للحرب ، مما حدا للصليبيون التفاوض معه أواخر عام 660هـ/1261 م بطلب استرجاع أسراهم وعقد هدنة ، فوافق بيبرس بشرط العودة إلى ما كان عليه الأمر أيام الملك الناصر صلاح الدين وإطلاق الأسرى . غير أن الصليبيين لم يوافقوا . ولكنهم عادوا مرة أخرى عندما قويت شوكته وحرك الجيوش باتجاه حصونهم ، فطلبوا منه الصلح ، فما كان رده إلا أن قال :"لم لا كان هذا قبل حضورنا إلى هذا المكان ؟ ردوا ما أخذتموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين جميعهم فإني لا أقبل غير ذلك" .

فبدأ بيبرس حربه بمهاجمته إقليم الجليل ، ثم الهجوم على عكا واقتحام أبوابها عام 662هـ /1263 م ولكنه لم يتمكن من اقتحامها لحصانتها وكثرة من بها من الصليبيين، فتركها وهاجم بالشهر التالي قيسارية وعثليث . وفي عام 663هـ /1265 م نزل بيبرس بقوات ضخمة إلى غزة ومن هناك إلى قيسارية ففتحها في جمادى الأول (شباط) ، ثم تقدم صوب يافا فدخلها بغير قتال ، لأن الصليبيين فروا منها هاربين. ثم سار نحو عثليث وحررها، وقد كانت بأيدي الصليبيين منذ سنة 614 هـ/1218 م . ثم اتجه صوب أرسوف وضرب عليها حصارا شديدا استمر 40 يوما ، استسلمت بعده المدينة، ومن أرسوف اتجه مرة أخرى صوب عكا ، غير أنه لم يستطع أن يحرر المدينة نظرا لمساندة هيو الثالث ملك قبرص وامتداده بأسطول كبير شمل كل قوة قبرص البحرية. لذا تركها بيبرس وعاد إلى مصر ، ليعاود الكرة على الصليبيين بعد انتهاء الشتاء ، وبدأ عمله أوائل صيف 1266م/ 664 هـ. حيث بدأ بمدينة صفد (مقر الداوية) وتمكن من تحريرها 17 شوال 664هـ / يوليو 1266م , ثم حرر هونين وتبين والرملة . نتيجة لتلك الانتصارات ضعفت معنويات الصليبيين في الشام وسارع البعض إليه يطلبون وده ورضاه مقابل تنازلهم عن نصف غلات المناطق التي تحت سيطرتهم .

- **حربه مع أرمينية الصغرى :**

شجع ضعف الصليبيون الظاهر بيبرس للانتقام من العناصر والدول التي ساعدت المغول في قتل المسلمين وتدمير بلادهم ، خاصة بعد موت هولاكو وانشغل خليفته أباقا في حربهم مع مغول القفجاق ، والذين أعلنوا إسلامهم . وكان على رأس تلك الدول مملكة أرمينيا الصغرى ، وذلك أن ملكهم هيثوم بن قسطنطين بن باساك تحالف مع المغول بشكل مباشر وأمدهم بفرقة من قواته لحرب المسلمين بالشام.

حاول هيتوم اجراء مفاوضات مع بيبرس وترددت السفارات بينهما ، حيث طالب السلطان الظاهر من هيتوم بأن يدخل في طاعته ويؤدي إليه الجزية ، إضافة إلى رغبته في الوصول إلى أسواق الخيل

والبغال والحنطة والشعير والحديد ، أي فتح باب التبادل التجاري بين الشام وبلاد الارمن ، غير أن ملك الأرمن لم يتيسر له تلبية طلب سلطان مصر لخوفه من المغول، وعندما لم تؤدي تلك المفاوضات إلى نتيجة ، اتبع هيتوم سياسة جديدة ضد المماليك في مصر، وهي فرض حصار اقتصادي عليهم ، وذلك بمنع تصدير الأخشاب والحديد من آسيا الصغرى إليهم ، وكان هدفه من وراء ذلك تفويت الفرصة على المماليك في تطوير أسطولهم البحري . لكن عندما أحس هيتوم بإصرار بيبرس على الحرب غادر مسرعا إلى الأناضول حيث كان المغول ، ليستعين بهم في دفع جيش المماليك عن مملكته، لكن أمراء المغول امتنعوا عن المساعدة بحجة أنهم لم يتلقوا أمرا من ملكهم أباقا بذلك. فاضطر إلى الذهاب إلى تبريز سنة 664هـ / 1266م طالبا العون من أباقا ملك إلخانات المغول . واتخذ الجيش الأرمني بقيادة كل من ليو وثوروس ابني هيتوم مواقعه عند دروب جبال طوروس، ويحمي جناحيه فرسان الداوية بقلعة بغراس

استغل المماليك خروج الملك هيتوم ، فزحفوا بجيشهم تحت إمرة المنصور قلاوون والملك المنصور الأيوبي صاحب حماة نحو الشمال ليجتازوا جبل أمانوس بالقرب من سرفندار ليتجنبوا دروب طوروس . بادر الأرمن إلى اعتراض طريق الجيش المصري والشامي إثناء هبوطهم إلى سهل قليقية فدارت معركة رهيبة في 21 ذو القعدة 664 هـ / 24 أغسطس آب 1266م ، أنزل المماليك بالأرمن هزيمة منكرة عند حصن دربساك ، وقتل فيها توروس وأسر ليو. ثم أعقبوا نصرهم هذا بهجوم كاسح على المدن الرئيسية في قيليقية واستولوا على كل ما كان بها ، واستولوا على قلعة للداوية ، فأحرقوها بما فيها من الحواصل ، ثم دخلوا سيس عاصمة المملكة فأخربوها ، وأقاموا في البلاد عشرين يوما يحرقون ويقتلون ويأسرون . ثم توجه الأمير قلاوون بعساكره إلى المصيصة وأضنة وأياس وطرسوس ، فقتلوا وأسروا وهدموا عدة قلاع. وفي نهاية سبتمبر عاد الجيش المنتصر إلى حلب ومعه كما قيل أربعين ألف أسير ومن الغنائم مالا يحصى .

ولم يستطع الملك هيثوم تخليص ابنه إلا بعد أن تنازل للسلطان بيبرس عن العديد من الحصون المهمة ، ومنها دربساك التي تتحكم بطريق إسكندرونة ويكفل الطريق ما بين مملكة قليقية وإمارة انطاكية ، وبهنسا الواقعة بإقليم مرعش والتي تتحكم بطرق المواصلات بين قليقية وفارس ، ويضاف إليها مرزبان ورعبان وشبح الحديد ، قد أدى انتزاع تلك المناطق إلى تجريد مملكة أرمينيا من أسباب دفاعها، وعزلها عن حلفائها الفرنج والمغول

. واشترط بيبرس أيضا لإطلاق سراح هيو، ضرورة إخلاء سبيل الأمير سنقر الأشقر، والذي أسره المغول من حلب بعد أن انتزعوها من يد الناصر يوسف. وقال له في رسالة: " إن غايتنا من الحرب لم تكن الحصول على المال والنوال ، فقد أخذ هولاكو من حلب أحد أصدقائنا ومريدينا أسيرا وهو شمس الدين سنقر الأشقر السمرقندي ، فإن كان هيتوم يريد أن نطلق أبنه من الأسر، فعليه أن يطلب من المغول إطلاق سنقر لنطلق نحن في مقابل ذلك ابنه . فتم الاتفاق على تلك الشروط ، وانعقدت المعاهدة في رمضان 666 هـ / مايو 1268م . وقد أرسل أباقا بعد توسلات هيتوم إليه بسنقر الأشقر سنة 669 هـ / 1271م، وقد كان في نواحي سمرقند ، فأرسله هيتوم بدوره إلى بيبرس مصحوبا بالاحترام والهدايا النفيسة . وفي المقابل بعث بيبرس ليو (أو ليون في مصادر أخرى) إلى أبيه على نفس النحو . وقد خسرت مملكة أرمينيا الصغرى دورها في الشرق الأدنى عقب تلك الأحداث، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك ,

- **سقوط إمارة أنطاكية :**

بدأت الحملة لاسترداد أنطاكية من الصليبيين ، فوصل بجيوشه إليها يوم الثلاثاء 1 رمضان 666هـ/ 15 مايو 1268م، وهناك قسم جيوشه إلى ثلاث فرق وزعها حول المدينة ليحكم حصارها ويمنع وصول المدد إليها من البر والبحر. ولم يستطع الصليبيون المدافعون من المقاومة، بسبب شدة الحصار وقوة المهاجمون، ففتحت المدينة وتمكنت جيوش بيبرس من دخولها وغنموا غنائم كبيرة لا تعد ولا تحصى من الأموال والأسرى . وقد كان سقوط تلك الإمارة الصليبية حدثا مهما في تاريخ الحروب الصليبية ، فقد انقطعت صلة الصليبيين في طرابلس وعكا بأرمينية الصغرى ، وبذلك غدت مصالح الصليبيين في الشام مهددة بشكل مباشر ولم يبق أمامهم سوى مملكة قبرص الصليبية والتي توحدت مع مملكة طرابلس وعكا لأنهم انضموا إلى تاج الملك هيو الثالث ، والذي باشر حكمه بعقد هدنة مع السلطان بيبرس إلى حين وصول

المساعدات من أوروبا . وقد وافق بيبرس على الهدنة لكي يعطي قواته قسطا من الراحة ، خاصة وأن فصل الشتاء قادم ، ويتطلب منه لعودة إلى مصر ليدير بعضا من شؤونها الداخلية . كما حقق انتصارات عديدة على المغول في موقعة البيرة وحران ، ورد هجمات المغول المتتابعة على بلاده ، إلى أن قضى عليهم عند بلدة أبلستين وذلك في عام 675هـ، وبذلك حقق بيبرس ما كان يبتغيه من تأمين لجبهته الخارجية وحدود دولته. وقد دام حكمه حوالي سبعة عشر عاما .

5 - وفاته :

توفي الظاهر بيبرس يوم الخميس 27 محرم من عام 676 هجرية - 2 مايو 1277 ميلادية ودفن في المكتبة الظاهرية في دمشق بعد حكم دام 17 سنة ، تولى من بعده أكبر أولاده ناصر الدين الحكم ، إلا أن أولاد بيبرس لم يدم لهم الحكم طويلا، ثم تولى الحكم المنصور قلاوون.

6 – صفاته :

أهم ما كان يتصف به بيبرس: الشجاعة والإقدام والدهاء ، والكرم وحب الخير والإحسان إلى الفقراء. وإكرام العلماء وسماع نصائحهم والسكوت على مخاشنتهم له في النصح – كما كان يفعل معه عز الدين بن عبد السلام ، والنووي .

وصف بأنه كان يتنقل في ممالكه فلا يكاد يشعر به عسكره إلا وهو بينهم. وقيل عنه أنه ما كان يتوقف عن شيء لبلوغ غايته . كان يعد الوعود الكاذبة ، ويكتب كتبا مزورة، ليحمل فيها قوى الحصون على الاستسلام له. وكان نجاحه يعتمد على تنظيمه وسرعته وشجاعته المتناهية .

7 - مختصر سيرته في كتب التاريخ :

قال الزركلي في (الأعلام): الظاهر بيبرس 625 - 676هـ , بيبرس العلائي البندقداري الصالحي ، ركن الدين ، الملك الظاهر : صاحب الفتوحات والأخبار والآثار. مولده بأرض القبچاق . وأسر فبيع في سيواس ، ثم نقل إلى حلب ، ومنها إلى القاهرة. فاشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار ، وبقي عنده ، فلما قبض عليه الملك الصالح نجم الدين أيوب أخذ بيبرس ، فجلعه في خاصة خدمه ، ثم أعتقه. ولم تزل همته تصعد به في أيام الملك المظفر قطز، وقاتل معه التتار في فلسطين. ثم اتفق مع أمراء الجيش على قتل قطز، فقتلوه، وتولى بيبرس سلطنة مصر والشام سنة 658 هـ . وتلقب بالملك القاهر، أبي الفتوحات . ثم ترك هذا اللقب وتلقب بالملك الظاهر . وكان شجاعا جبارا ، يباشر الحروب بنفسه . وله الوقائع الهائلة مع التتار والافرنج (الصليبيين) وله الفتوحات العظيمة، منها بلاد النوبة ودنقلة ولم تفتح قبله مع كثرة غزو الخلفاء والسلاطين لها. وفي أيامه انتقلت الخلافة إلى الديار المصرية سنة 659 هـ. وآثاره وعمائره وأخباره كثيرة جدا. توفي في دمشق ومرقده فيها معروف أقيمت حوله المكتبة الظاهرية.

رابعا - الناصر محمد بن قلاوون

تقديم :

الملك الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون ، (ولد بالقاهرة في 684 هـ / 1285 - توفى بالقاهرة في 741 هـ / 1341). تاسع سلاطين المماليك البحرية .لقب بـأبو المعالي وأبو الفتح . جلس على تخت السلطنة ثلاث مرات ، من 693 هـ / 1293 إلى 694 هـ / 1294، ومن 698 هـ / 1299 , ومن 709 هـ /1309 م وحتى وفاته في عام 741هـ / 1341 م .

وهو من أبرز سلاطين الأسرة القلاوونية والدولة المملوكية. خاض حروبا ضد الصليبيون والمغول , وحروبا اصلاحية داخلية ضد الفساد . شهدت مصر في فترة حكمه الثالثة نهضة خضارية وعمرانية لم تشهدها من قبل في عهد أي سلطان آخر من سلاطين الدولة المملوكية .

1 - ماقبل السلطنة

أصغر أبناء السلطان المنصور قلاوون، والأخ الأصغر للسلطان الأشرف خليل. ولد بقلعة الجبل بالقاهرة في يوم السبت النصف من المحرم سنة 684 هـ / 24 مارس 1285 م. أمه " **أشلون خاتون** " ابنة الأمير المغولى " **سكناى بن قراجين بن جيغان** " ، الذي وفد إلى مصر مع أخيه " قرمشي بن قراجين " في صيف سنة 675 هـ / 1276، في أيام السلطان الظاهر بيبرس ، وقد تزوجها السلطان قلاوون في عام 680 هـ بعد وفاة أبيها وأنجب منها آخر أبنائه ناصر الدين محمد، وكانت زوجته الوحيدة في يوم وفاته .

في عام 692 هـ / 1292 احتفل السلطان خليل بختان أخيه الأمير ناصر الدين وعدة من أولاد الأمراء، ونصب القبق بالقرب من باب النصر ووزعت الأموال على من أصاب في رميه ونثر الذهب .

نشأ الناصر محمد في قلعة الجبل، مقر السلاطين بالقاهرة، محاطا بالأمراء والنبلاء وأرباب الدولة، فهو ابن السلطان المنصور، وأخو السلطان الأشرف، وأمه بنت أمير من أمراء المغول. تلك البيئة التي نشأ فيها الناصر كانت لها أثرا على شخصيته وطباعه بعدما كبر، حيث توسع في الإنفاق على البنايات الفخمة والمشاريع الحيوية، كما استهواه الغزو والفتح .

2 - تنصيبه

بعد اغتيال السلطان الأشرف خليل في ديسمبر 1293 م اتفق الأمراء على تنصيب أخيه الصغير ناصر الدين محمد، وعلى اخفاء نبأ الاغتيال لبعض الوقت إلى أن تستقر الأمور. فأرسلوا إلى الأمراء في الشام، بتدبير من الأمير سنجر الشجاعى، مكتوب على لسان الأشرف مضمونه: " إنا قد استنبنا أخانا الملك الناصر محمدا وجعلناه ولى عهدنا حتى إذا توجهنا إلى لقاء عدو يكون لنا من يخلفنا " وطلب من أمراء الشام تحليف الناس للملك الناصر محمد، وأن يقرن اسمه باسم الأشرف في الخطبة. فجمع الأمير عز الدين أيبك الأموي، نائب السلطان في دمشق، الأمراء وأرباب الدولة وخطب باسم الملك الأشرف والملك الناصر ولي عهده. واستمر الأمر على هذا النحو إلى أن وصل " مرسوم ناصرى " يأمر بالخطبة للملك الناصر وحده والترحم على أبيه المنصور وأخيه الأشرف .

أحضر الأمراء الناصر محمد، وكان في التاسعة من عمره، ونصبوه سلطانا على البلاد ومعه الأمير زين الدين كتبغا نائبا للسلطنة والأمير سنجر الشجاعى وزيرا ومدبرا للدولة، وبيبرس الجاشنكير أستادر . أصبح السلطان الصغير مجرد دمية في أيدى الحاكمين الفعليين للبلاد كتبغا والشجاعى. لكن كتبغا، وهو مغولى الأصل، والشجاعى كانا في واقع الأمر غريمان متنافسان، وراحت علاقتهما ببعضهما البعض تزداد سوء وتدهورا مع مرور الأيام وتطور الأحداث، فالشجاعى لما رأى انه قد صار مهيمنا على أمور الدولة في وجود طفل على تخت الملك، روادته نفسه على سلطنة نفسه، فراح يرمى الفتن بين الأمراء وكتبغا، وصار يغدق على المماليك البرجية ويغريهم بقتل الأمراء والنيل من كتبغا . فلما علم كتبغا بمخطط الشجاعى جمع بنى جلدته من المغول المقيمين بالقاهرة والأكراد الشهرزورية وحاصر القلعة وقطع عنها الماء . نشب نزاع دموى بين فريق الشجاعى وفريق كتبغا، انتهى بهزيمة الأمير الشجاعى (الذي لعب دورا رئيسيا في تحرير الشام من الصليبيين) بعد أن أكد كتبغا لأم السلطان الناصر وهي تحدثه من فوق السور، أن الصراع الدائر هو نزاع بينه وبين الشجاعى وليس بينه وبين ابنها الملك الناصر مؤكدا لها : " والله لو بقى من أولاد أستاذنا - أي السلطان قلاوون - بنت عمياء، ما خرجنا الملك عنها، وإنما قصدنا مسك الشجاعى الذي يرمى بيننا الفتن " . فاطمئنت أم الناصر وأغلقت أبواب القلعة ليجد الشجاعى نفسه محصورا بين أبواب القلعة المغلقة وقوات كتبغا . وبدأ مماليك الشجاعى يفرون منه وينضمون لفريق كتبغا. طلب الشجاعى الأمان من كتبغا فلم يعطه، فذهب إلى القلعة لإيجاد حل للنزاع الدائر ولكنه قتل عند دخوله القلعة . أو بعد خروجه من عند السلطان الصغير الذي نصحه قائلا :

" يا عمى، أنا اعطيك نيابة حلب ، اخرج روح عنهم واستريح من هذا الحال كله" .

بعد مقتل الشجاعى فتحت أبواب القلعة ودخل كتبغا وأمراءه وأطلقوا سراح أتباعهم الذين كان الشجاعى قد أسرهم وقت النزاع أو قبض عليهم من قبل. وأبعد كتبغا المماليك البرجية التي آزرت الشجاعى إلى ثكنات بعيدة عن القلعة وسجن بعضهم، كما سجن بعض الأمراء من عصبة الشجاعى، وكان بيبرس الجاشنكير من ضمنهم. أقيم الأمير تاج الدين بن الصاحب وزيرا محل الشجاعى ، وسلبت أملاك الشجاعى وقبض على نوابه في الشام .

3 - ظهور حسام الدين لاجين وخلع الملك الناصر

فجأة ظهر في القاهرة حسام الدين لاجين الذي فر وأختفى مع الأمير قرا سنقر بعد اشتراكهما في قتل السلطان الأشرف. ثارت المماليك البرجية، وهي مماليك الأشرف خليل التي أبعدها كتبغا من القلعة، وخرجت إلى الشوارع هائجة تطالب بمعاقبة حسام الدين لاجين على اشتراكه في قتل أستاذهم. وانتهى الأمر بالقبض على المماليك الأشرفيه الغاضبة ومعاقبتها بالسجن والإعدام.

بمقتل الشجاعى وإخماد ثورة الأشرفية توطد وقوي مركز كتبغا فأصبح الحاكم الفعلي للبلاد بلا منازع. وأقنعه لاجين بضرورة ازاحة السلطان الناصر والاستيلاء على العرش قبل أن يقوم مماليك الأشرف، أو الناصر ذاته بعد أن يكبر، بالانتقام منه.

جمع كتبغا الأمراء في دار النيابة وقال لهم: " قد انخرق ناموس المملكة ، والحرمة لا تتم بسلطنة الناصر لصغر سنه " فوافقه الأمراء وحلفوا له، فتسلطن بلقب الملك العادل كتبغا ومعه حسام الدين لاجين نائبا للسلطنة، وأبعد الناصر محمد مع أمه إلى إحدى قاعات القلعة، منهيا بذلك فترة حكمه الأولى التي لم يفعل فيها شيئا يذكره التاريخ سوى الجلوس على تخت السلطنة وبلوغه سن العاشرة. ثم قام حسام الدين لاجين بعد أن تسلطن بإبعاده إلى الكرك.

2 - الناصر محمد بن قلاوون (فترة حكم ثانية)

1 - عودة الناصر محمد إلى مصر

حكم العادل كتبغا البلاد نحو سنتين ثم اضطر في عام 696 هـ / 1296 م للفرار إلى دمشق والتنحي بعدما حاول الأمراء، وعلى رأسهم نائب السلطنة حسام الدين لاجين، قتله في دهليزه أثناء عودته إلى مصر من الشام. ونصب لاجين سلطانا وأبعد الناصر محمد إلى الكرك قائلا له " لو علمت أنهم يخلوك سلطانا وا لله تركت الملك لك، لكنهم لا يخلونه لك. أنا مملوكك ومملوك والدك، أحفظ لك الملك، وأنت الآن تروح إلى الكرك إلى أن تترعرع وترتجل (أى تصبح رجلا) وتتخرج وتجرب الأمور وتعود إلى ملكك " مشترطا على الناصر بأن يوليه دمشق عند عودته واشترط الناصر عليه أن لا يقتله فتعاهدا وغادر الناصر مصر إلى الكرك [5][6]. وفي عام 698 هـ / 1299 م قتل لاجين ونائب سلطنته منكوتمر بعد حكم دام نحو سنتين وشهرين.

بعد مصرع لاجين اجتمع الأمراء، ومعهم الأمير بيبرس الجاشنكير، واتفقوا على إعادة الناصر محمد من الكرك وتنصيبه من جديد سلطانا على البلاد ومعه الأمير طغجي نائبا للسلطنة. إلا أن الأمير كرجي (قاتل لاجين) عاد بعد يوم وأعترض على احضار الناصر محمد قائلا للأمراء :" يا أمراء أنا الذي قتلت السلطان لاجين وأخذت ثأر أستاذي (أي الأشرف خليل)، والملك الناصر صغير ما يصلح، ولا يكون السلطان إلا هذا - وأشار لطغجي - وأنا أكون نائبه، ومن خالف فدونه ". فأيدته المماليك والأمراء الأشرفيه (البرجية)، بينما قرر الأمراء الذين يؤيدون إعادة الناصر انتظار عودة الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح إلى مصر .

في غضون ذلك كان أميران قد قد وصلا إلى الكرك وأخبرا الملك الناصر وأمه بأنه قد تقرر إعادة الناصر إلى منصب السلطنة، وتبع ذلك وصول البريد من مصر يستحث الناصر على الحضور، ففرح الناصر وأمه وقررا المسير إلى مصر.

في 4 جمادى الأولى 698 هـ دخل الناصر القاهرة، وكان عمره حينذاك أربعة عشر عاما، واحتشد الناس لاستقباله في فرحة عارمة واحتفلوا بعودته. جددت البيعة للناصر فصار سلطان البلاد للمرة الثانية ومعه ألأمير سيف الدين سلار نائبا للسلطنة، وبيبرس الجاشنكير أستادرا.

كما حدث للناصر في سلطنته الأولى تكرر في سلطنته الثانية. أصبح دمية في أيدي سلار وبيبرس الجاشنكير اللذان صارا الحاكمان الفعليان للبلاد. تزعم بيبرس الجاشنكير، وكان شركسي الأصل، المماليك البرجية. وتزعم سلار، وكان أويراتي من المغول الوافدية، المماليك الصالحية والمماليك المنصورية. أما المماليك الأشرفية فقد تزعمها الأمير برلغي. كان بيبرس الجاشنكير بمماليكه البرجية أقوى الأطراف، وراح سلار وبرلغي يتنافسان معه على المفاسد وجمع الأموال عن طريق فرض مكوس كانت تعرف باسم " الحمايات ". وهي اتاوة أو رشوة كان الأمراء يفرضونها على الأفراد والتجار في مقابل حمايتهم وتقديم العون لهم في منازعاتهم .

2 - معركة وادى الخزندار 1299

في سنة 699 هـ / 1299 م وردت إلى القاهرة أنباء عن زحف مغولي على الشام يقوده محمود غازان إلخان مغول فارس (الإلخانات) فتوجه الناصر إليها. وفى 8 ربيع الأول اصطدم جيش الناصر بجيش غازان المتحالف مع مملكة أرمينيا الصغرى عند حمص في معركة عرفت باسم معركة وادى الخزندار أو معركة حمص الثالثة. انهزم جنود الناصر وفروا مما أحزنه وأبكاه. ودخل المغول دمشق وسيطروا على الشام، وخطب لغازان على منبر دمشق ثم غادر غازان دمشق بعد أن أقام الأمير قبجق . نائبا عليها تحت حماية نائبه قطلو شاه , عاد جنود الناصر إلى مصر ومعهم عوام من الشام في أسوأ حال . وكان من ضمن الفارين إلى مصر السلطان المخلوع العادل كتبغا الذي عينه السلطان لاجين نائبا على قلعة صرخد. دخل السلطان الناصر قلعة الجبل في 12 ربيع الأول وقد أصابه حزن بالغ وتألم ألما شديدا لهذه الهزيمة الشنعاء ولكنه بدأ ينظم الجيش ويجهز لأخذ الثأر من المغول . وخرج قبجق من دمشق متوجها إلى مصر، فاستولى الأمير أرجواش على دمشق وأعاد الخطبة باسم الملك الناصر بعد انقطاعها مائة يوم . في أثناء فترة اعداد الجيش وصل إلى القاهرة وفد من غازان بطلب الصلح ووافق الناصر. إلا أن طلب غازان للصلح كان، كما يبدو، مجرد مناورة منه لكسب الوقت للتعرف على استعدادات وتحركات الملك الناصر .

طالع تفاصيل : معركة وادي الخزندار قي صفحة 253 من كتابنا هذا

3 - تحرير جزيرة أرواد وغزو مملكة قليقية

أرواد آخر جيوب الصليبيين في الشام

بعد أن حرر الأشرف خليل ساحل الشام في عام 1291 فر بعض فرسان المعبد (الداوية) وبعض الصليبيين إلى جزيرة أرواد القريبة من طرطوس، فتحولت الجزيرة إلى قاعدة صليبية لشن الهجمات على سفن المسلمين وبؤرة تربص بطرطوس وساحل الشام . في أواخر عام 1300 طلب غازان المغولي من أرمن قليقية (مملكة أرمينية الصغرى) وصليبيي جزيرة قبرص القيام بعملية مشتركة ضد المسلمين، فقام الصليبيون في قبرص بشحن مقاتلين من فرسان المعبد والاسبتاريه، وقوات يقودها " امالريك اوف لوزيان " (Amalric of Lusigan) ابن ملك قبرص هيو الثالث (Hugh III)، إلى أرواد . وصلت ألانباء إلى

القاهرة فقرر الناصر بناء شواني لغزو الجزيرة. وفي سبتمبر 1302 أبحر الأمير **كهرداش** من مصر إلى الشام وحاصر أرواد وفتك بالحامية الصليبية وأسر عددا من فرسان المعبد وفر غيرهم إلى قبرص.

في يوم 26 سبتمبر 1302 استسلمت أرواد التي كانت آخر جيب للصليبيين في الشام ودقت بشائر النصر في القاهرة. وكان يوم دق البشائر هو نفس اليوم الذي عاد فيه الأمير **بكتاش** منتصرا على أرمن قليقية . فالأمير بكتاش كان قد خرج، في عدة من الأمراء من بينهم كتبغا، إلى مملكة قليقية الأرمنية بسبب تحالفها مع غازان. انتشرت قوات بكتاش في أرجاء كليكليا وحرقت المحاصيل وأسرت أعدادا من الأرمن وحاصرت عاصمتهم سيس وعاد إلى القاهرة غانما بينما كانت بشائر لتحرير أرواد تدق.

كان طرد الصليبيين من أرواد وتوجيه ضربة لمملكة قليقية انتصارا هاما للمسلمين على فكرة التحالف الصليبي-الأرميني-المغولي التي كان الصليبيون وأرمن قليقية يسعون بكل كد وجهد لتحقيقه. في تلك الفترة ذكر هيتوم الأرميني (Het'um the Armenian) في كتابه مخاطبا بابا الكاثوليك عن أهمية التعاون مع المغول قائلا :

" هذا هو الوقت المناسب لإستعادة الأرض المقدسة بمساعدة المغول ومن الممكن احتلال مصر بدون مصاعب أو مخاطر ". ويشرح في فقرة أخرى :

" يجب طلب شيئين من ملك المغول: أولا أن لايسمح بمرور أى شيءعبر مناطقه إلى أراضي الأعداء، و(ثانيا) أن يرسل رجاله ورسله لإشعال حرب في أراضى ملاطية ويدمر ويخرب منطقة حلب. وعندها نقوم نحن الحجاج وقوات قبرص وأرمينيا بغزو أراضي الأعداء بحرا وبرا. وعلى قواتنا المسيحية أن تحصن جزيرة أرواد إذ أنها تحتل موقعا رائعا لضرب سفن الأعداء وإحداث أضرارا جسيمة بهم " .

4 - قلاقل واضطرابات داخلية

شهدت البلاد في فترة حكم الناصر محمد الثانية اضطرابات وقلاقل كان من أخطرها " وقعة أهل الذمة "، ومشاغبات بعض العربان في البحيرة وصعيد مصر.

بدأت " وقعة أهل الذمة " في شهر رجب 700 هـ / 1301 م عندما توقف وزير ملك المغرب بالقاهرة وهو في طريقه إلى مكة للحج. هال الوزير المغربي رؤية أهل الذمة من الأقباط واليهود يعيشون في ترف ويزينون خيولهم بالحلي الفاخرة في القاهرة، فبكى واشتكى للأميرين سلار وبيبرس الجاشنكير وأثر على نفوس الأمراء ببكائه وطول كلامه. فاجتمع القضاة ببطرك الأقباط وأكابر القساوسة ورؤساء اليهود، وتقرر ألا يستخدم أحد منهم بديوان السلطان ولا بدواوين الأمراء، وألا يركب المسيحيون واليهود والسامرة الخيول والبغال، وأن يلتزموا بعدم ارتداء العمم البيض في مصر والشام. ثم تطور الأمر حين امتدت أيدي العامة إلى كنائس الأقباط بفتاوي تحريضية لبعض الشيوخ. واغلقت الكنائس نحو عام في مصر إلى أن توسط ملك نيقيا البيزنطي وبعض الملوك ففتحت الكنائس . وقد لعبت الحروب الصليبية دورا أساسيا في إشعال نار الفتنة بين المسلمين والمسيحيين المحليين في مصر والشام .

في ذات الوقت وقع في البحيرة صدام دموي بين طائفتين عربيتين هما طائفتا "جابر" و"برديس"، فخرج إليهما الأمير بيبرس الدوادار في عشرين أميرا وطاردهما واستدعى شيوخهما ووفق بينهما. أما في الصعيد، فقد انتهز بعض العربان فرصة انشغال الدولة في حربها مع غازان فأمتنعوا عن دفع الخراج فسير إليهم الوزير سنقر الأعسر الذي قتل عدد من المتمردين وأخذ الإبل والأسلحة وكل خيول الصعيد. إلا أن ذلك لم يؤد إلى الاستقرار بالصعيد حيث استخف العربان بالولاة، وامتنعوا مرة آخرى عن دفع الخراج، وقاموا بفرض إتاوات على التجار في أسيوط ومنفلوط ، وتسموا بأسماء الأمراء واقاموا عليهم كبيرين أحدهما سموه بيبرس والآخر سلار، وأطلقوا سراح المساجين. فاستفتى الأمراء الفقهاء والشيوخ في جواز

قتالهم، فأفتوهم بجواز ذلك . فقام الامراء بمنع السفر إلى الصعيد، واشاعوا أنهم مسافرون إلى الشام ثم حاصروا الصعيد من عدة جهات وأنقضوا على المتمردين وقضوا عليهم .

5 - معركة شقحب (معركة مرج الصفر)

الحليفان غازان إلخان المغول وهيتوم ملك أرمينية الصغرى

في رجب عام 702 هـ / 1303 م قدم البريد إلى القاهرة من حلب بأن غازان على وشك التحرك إلى الشام، فخرج إلى دمشق الأمير بيبرس الجاشنكير على رأس ثلاثة آلاف من الأجناد . أرسل غازان قائده ونائبه **قطلوشاه** إلى الشام بجيش قوامه 80 ألف مقاتل. ولما عرف قطلوشاه أن الناصر لم يخرج من مصر بعد ، وأن ليس بالشام غير العسكر الشامي، توجه تواً إلى حماة .

في يوم السبت الموافق 2 رمضان 702 هـ / 20 أبريل 1303 م ، وصل الناصر محمد إلى عقبة شجورا وبينما الأمراء يستقبلونه ويسلمون عليه وصل خبر بأن جيش قطلوشاه قد أقدم. فارتدى الجنود السلاح، وأتفق الأمراء على محاربته بشقحب تحت جبل غباغب . كان جيش الناصر يضم نحو 200 ألف مقاتل . اصطدم الجيشان وظن البعض أن جيش المسلمين قد هزم بعدأن تجاوز بعض المغول خط ميمنة المسلمين، فانسحب قطلوشاه إلى جبل قريب وصعد عليه وفي ظنه أنه قد انتصر وأن قواته تطارد المسلمين، ولكنه أبصر ميسرة السلطان الناصر فتحير، فلما سأل أحد الأسرى المسلمين وعلم منه أنه من أمراء مصر، أدرك أن السلطان الناصر موجود بجيش مصر في ساحة القتال .

في اليوم الثاني نزل قطلوشاه بمقاتليه فتصدت له المماليك السلطانية وأجبرته على التراجع إلى الجبل. وعلم المسلمون أن قوات قطلوشاه تعاني من العطش، فلما نزل المغول في فجر اليوم الثالث وساروا نحو النهر لم يتعرض لهم المسلمون، ثم حصدوهم عندما بلغوا النهر وقاموا بمطاردة الفارين منهم. لم يعبر الفرات مع قطلوشاه من جنوده إلا عدد قليل. أرسلت بشائر النصر إلى مصر ففرح الناس .

في 23 شوال عاد الناصر إلى القاهرة عاصمة ملكه التي تزينت له من باب النصر ومعه الأسرى ورءوس المغول، ثم زار قبر أبيه الملك المنصور، وصعد إلي قلعة الجبل على الشقق الحرير، وأنعم على الأمراء، وأمر بإحضار سائر مغاني العرب من كل أنحاء مصر، وأقيمت احتفالات كبرى في البلاد .

طالع أيضا : معركة شقحب قي صفحة 261 من كتابنا هذا

6 - انجازات الناصر محمد ورحيله إلى الكرك

في سنة 703 هـ / 1304 م سير الناصر جنوده من القاهرة إلى كليكيا الأرمنية تحت قيادة الأمير بدر الدين بكتاش وانضمت إليهم قوات في الشام، فهاجموا الأرمن وحرقوا مزارعهم وأسروا منهم أعدادا، ثم حاصروا قلعة تل حمدون التي تحصن فيها الأرمن وسلمت إليهم بالأمان . في نفس السنة نقل السلطان الناصر أمه من التربة المجاورة للمشهد النفيسي إلى التربة الناصرية بمدرسته التي اكمل بنائها واضاف مئذنتها في سنة 1303. وأنجبت له زوجته أردكين الأشرفية ولدا سماه عليا، ولقبه بالملك المنصور . ووفد إلى القاهرة نحو مائتي فارس مغولي بنسائهم وأولادهم، وكان من ضمنهم عدة من أقارب غازان وأم الأمير سلار. فاكرمهم الناصر وأنعم عليهم ببيوت للإقامة وإقطاعات. ثم قدم رسل المغول بكتاب وهدية من محمد خدابنده (أولجايتو) الذي جلس على عرش المغول بعد وفاة أخيه محمود غازان. وخاطب الناصر بالأخوة وطلب الصلح وإخماد الفتن وقال في آخر كلامه: " عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم ا لله منه ". فوافق الناصر وأكرم رسله وأرسل إليه هدية .

في سنة 780 هـ / 1309 م أحس الناصر أنه غير قادر على مواجهة سيطرة سلار وبيبرس الجاشنكير عليه وعلى أمور الدولة، فاخبرهما بأنه ذاهب إلى مكة للحج. ولكنه بدلا من الذهاب إلى مكة ذهب إلى الكرك وبقي هناك . لم يقصد الناصر برحيله إلى الكرك التنازل عن العرش، لكنه كان يدرك انه لن يتمكن من الحكم كما يحلو له مادام بيبرس وسلار يسيطران على حياته وعلى شئون الدولة. كما كان يدرك أنهما آجلا أو عاجلا سيسعيان للتخلص منه إما بالخلع أو بالقتل. فكانت خطته أن يبتعد عن مصر وعن عيونهما لبعض الوقت فيتمكن بذلك من الاتصال، بحرية وبدون مراقبة، بأمراء الشام ومؤيديه من أمراء مصر حتى يتمكن بمساعدتهم من التخلص منهما وفرض سيطرته على نفسه وعلى مملكته]. كانت حسبة الناصر صحيحة وتمكن من تنفيذ خطته بنجاح فيما بعد.

عندما رفض الناصر محمد العودة إلى مصر قائلا أن الكرك: " من بعض قلاعي وملكي، وقد عولت على الإقامة بها "، عرض الأمراء السلطنة على الأمير سلار فقال لهم : " وا لله يا أمراء أنا ما أصلح للملك، ولا يصلح له الا أخى هذا "، وأشار إلى بيبرس الجاشنكير فهتف البرجية: " صدق الأمير ". فوافق الأمراء ونصب بيبرس سلطانا على البلاد بلقب الملك المظفر ومعه الأمير سلار نائبا للسلطنه وأقام " بيبرس الجاشنكير " الناصر محمد على نيابة الكرك وكتب إليه قائلا : " أنى أجبت سؤالك فيما اخترته، وقد حكم الأمراء علي فلم تمكن مخالفتهم, وأنا نائبك " .
كانت مدة الملك الناصر في السلطنة الثانية، عشر سنين وأياما .

3 - الناصر محمد بن قلاوون (فترة الحكم الثالثة)

1 - عودة الملك الناصر من الكرك

كان وجود الملك الناصر في الكرك وتحركاته تقلق السلطان بيبرس الجاشنكير. فتحجج بحاجته للمال، بسبب إمكانية مهاجمة خربندا ملك المغول للشام، وطلب منه إرسال كل الأموال والخيول التي أخذها معه من مصر وكل الأموال التي استولى عليها من حاصل الكرك بالإضافة إلى كافة المماليك باستثناء عشرة مماليك لخدمته. وهدده بأنه إن لم يفعل ذلك " خرجت إليه العساكر حتى تخرب الكرك عليه ". فأرسل الناصر إليه نصف المال المطلوب مع رسالة شفهية تعتذر عن عدم إمكانية إرسال كل المطلوب فقنع بيبرس الجاشنكير بذلك.

إلا أن الأمور لم تستقم لبيبرس الجاشنكير الذي لم يكن محبوبا عند المصريين بسبب سؤ الأحوال الاقتصادية والسياسية في البلاد، ففي عهده عم الوباء وانخفض منسوب مياه النيل وارتفعت الأسعار، فراح الناس يطالبون بعودة الناصر محمد ويهزءون من بيبرس ونائبه سلار ويغنون :
" سلطاننا ركين ونائبنا دقين ، يجينا الماء منين. جيبوا لنا الأعرج، يجى الما ويدحرج"
. مع مرور الوقت زاد اضطراب بيبرس الجاشنكير وأصبح أمر الملك الناصر يؤرقه وينغص عليه، فنصحه أمراءه بالقبض عليه، إلا أنه خشى عاقبة اقدامه على فعل ذلك، لكنه أرسل إليه الأمير مغلطاي لياخذ منه الخيل والمماليك، فغضب الملك الناصر وقال له : " أنا خليت ملك مصر والشام لبيبرس، وما يكفيه حتى ضاقت عينه على فرس عندى أو مملوك لى، ويكرر الطلب ؟ ارجع اليه، وقل له والله لئن لم يتركنى والا دخلت بلاد التتر، وأعلمتهم أنى قد تركت ملك أبى وأخى وملكى لمملوكى, وهو يتبعنى ويطلب منى ما أخذته". فلما رد عليه مغلطاي بقلة احترام صاح به : " ويلك! وصلنا إلى هنا؟" وأمر بجره ورميه من سور القلعة، لكنه عفا عنه واكتفى بحبسه بعد أن شفع فيه الأمير أرغون الدوادار، ثم طرده.
كتب الناصر رسائل إلى بعض نواب الشام ومؤيديه من أمراء مصر يستعطفهم ويثيرهم على بيبرس الجاشنكير. فشرح لهم أنه ترك مصر بسبب ضيق اليد والتدخل في شئونه. وأن الملك المظفر يضايقه من حين لأخر بمطالبته بالمال والخيل والمماليك. وقال لهم: " أنتم مماليك أبي وربيتموني. فإما

تردوه عني إلا أسير إلى بلاد التتار". وتعاطف بعض الأمراء مع الناصر محمد وأعلنوا عن تأييدهم له. وأرسل الأمير بهادرآص من دمشق إلى بيبرس يعلمه أن نواب الشام قد مالوا إلى الناصر وأن عليه الخروج إلى الشام. فأجاب بيبرس بأنه لا يخرج لأنه يكره الفتنة وسفك الدماء وأن الخليفة قد كتب بولايته وعزل الملك الناصر، فإما أن يرضى النواب بذلك أو يتنحى.

2 - عودة الناصر محمد

دخل الملك الناصر دمشق في شهر شعبان بتأييد غالبية الأمراء وزينت الشوارع وفرح الناس بقدومه وكثر الدعاء له. وفي يوم الجمعة 12 شعبان احتشد الناس في الميدان للصلاة وخطب له. فلما وصلت الأنباء إلى القاهرة استدعى بيبرس الجاشنكير كل الأمراء واستشارهم، فنصحه بيبرس الدوادار وبهادر آص بخلع نفسه والذهاب إلى الناصر ليستعطفه. فوافق وارسل بيبرس الدوادار إلى الناصر، لكنه أصيب باضطراب في آخر النهار فدخل الخزائن وأخذ ما استطاع من المال والخيل والهجن وفر مع مماليكه فلحقت بهم العامة وراحت تسبهم وتلقيهم بالحجارة إلى أن تمكنوا من الفرار.

وفي صباح اليوم التالي أمر سلار حراس قلعة الجبل بالهتاف باسم الملك الناصر، وفي يوم الجمعة خطب على منابر مصر باسمه واسقط اسم الملك المظفر.

في أول أيام شهر شوال وصل الناصر إلى القاهرة وصلى صلاة العيد بالدهليز، وفي اليوم التالي جلس على تخت الملك للمرة الثالثة. في فترة حكمه الأولى كان الناصر دمية في أيدى العادل كتبغا والشجاعي وفي الفترة الثانية، مع أنه كبر وأصبحت له أعمال يعتز بها، إلا أنه عاش محجورا عليه عن طريق بيبرس الجاشنكيروسلار اللذان كانا يمارسان السلطان الفعلي ويتحكمان في معاشه. أما هذه المرة فقد عاد إلى مصر وقد جاوز سن الطفولة وأصبح في الخامسة والعشرين، وقد صقلته الأحداث وحنكته التجارب . عاد الناصر إلي تخت السلطنة هذه المرة عازما على الانتقام لنفسه ممن أساءوا إليه ومصمما على ألا يترك أحدا يستصغره أو يتآمر عليه.

3 - الانتقام من بيبرس الجاشنكير وسلار

بدأ الناصر ولايته الثالثة بالقبض على عدد من الأمراء وحبسهم بالإسكندرية، وأفرج عن بعض المساجين والأمراء، كان من ضمنهم شيخ الإسلام ابن تيمية والأقوش المنصوري قاتل سنجر الشجاعي. كما جرد عددا من الأمراء إلى دمشق ، وأمر اثنين وثلاثين من مماليكه. ثم بدأ يجهز للانتقام من بيبرس الجاشنكير وسلار.

طلب بيبرس الجاشنكير الأمان من الناصر، ورد الأموال التي كان قد نهبها قبل فراره من القلعة، وقد سلمها بيبرس الدوادار إلى الملك الناصر . إلا أن الناصر أمر بالقبض عليه. رفض بيبرس مقاتلة الرجال الذين أرسلهم الناصر للقبض عليه وقام بتسليم نفسه عند غزة للأمير أسمندر كرجي ، فقام بنقله مقيدا إلى الناصر في قلعة الجبل. فلما مثل بين يدي الناصر عنفه الناصر وراح يذكره بما فعل به ، وبعد أن عدد له اساءاته ختم كلامه قائلا:

" ويلك وزدت في أمري حتى منعتني شهوة نفسي ". فقال بيبرس : " يامولانا السلطان كل ماقلت فعلته، ولم تبق إلا مراحم السلطان ". فقال له الناصر: " يا ركن الدين أنا اليوم أستاذك، وأمس تقول لما طلبت أوز مشوي إيش يعمل بالأوز، الأكل هو عشرون مرة في النهار "، وأمر بإعدامه فخنق ودفن خلف القلعة .

أما سلار فقد طلب من الناصر محمد أن يعفيه من نيابة السلطنة وأن يعينه حاكما على الشوبك ، فاستجاب الناصر مؤقتا، وعين الأمير بكتمر نائبا للسلطنة بدلا منه، وسافر سلار إلى الشوبك وظن أن

الناصر قد عفا عنه. إلا أن بعد مرور بعض الوقت، استدعاه الناصر إلى القاهرة وأمر بحبسه وصودرت أملاكه وممتلكاته، وكان سلار من أغنى الأمراء محبا لجمع المال، فقد بلغت ثروته المصادرة أكثر من خمسين حملا من الذهب والفضة والجواهر واللجم المفضضة والأقمشة المزركشة وغير ذلك. ومات سلار بالسجن ودفن في التربة التي كان قد أنشأها بالقرب من جامع ابن طولون .

في عام 1310 تآمر نائب السلطنة بكتمر الجوكندار والأمير بتخاص المنصوري مع المماليك المظفرية على الإطاحة بالناصر محمد وتنصيب الأمير موسى بن الصالح علي بن السلطان قلاوون سلطانا على البلاد. وقد وافق موسى على الخطة ولكن المؤامرة وصلت إلى علم الناصر محمد بعد أن وشى بهم بيبرس الجمدار أحد المماليك المظفرية، وقبض على موسى وبتخاص ، وأمهل بكتمر الجكندار سنة ثم قبض عليه بتهمة محاولة الاستيلاء على الحكم، وأحل محله الأمير بيبرس الدوادار في نيابة السلطنة .

باع الناصر محمد وخبرته الطويلة مع الأمراء وألاعيبهم جعلته دائما متيقظ ومترقب وشاك في كل صغيرة وكبيرة تصدر عنهم أو عن غيرهم، فكان إذا رأى بادرة خروج أو تمرد قضى عليها في الحال ، لدرجة أنه في عام 738 هـ م / 1338 م نفى الخليفة " المستكفي با لله " ذاته إلى قوص بحجة استخدامه عبارة " يحضر أو يوكل " (أي الناصر) في مستند دعوى شرعية أقامها شخص ضد الناصر وكان الناصر لا يحب هذا الخليفة لمساندته لبيبرس الجاشنكير وتقليده السلطنة من قبل. ويذكر المقريزي أن الناصر :" كان فيه تؤدة، فإذا غضب على أحد من أمرائه أو كتابة أسر ذلك في نفسه ، وتروى فيه مدة طويلة، وهو ينتظر له ذنبا يأخذه ". ويضيف : " حتى لا ينسب إلى ظلم ولا حيف، فإنه كان يعظم عليه أن يذكر عنه أنه ظالم أو جائر أو فيه حيف " .

4 - محاربة الفساد

ببطء ولكن بنظام وحسابات دقيقة أمسك الناصر بزمام الأمور، وانتقم من الأمراء الذين أسؤوا إليه وهو صغير والذين تأمروا عليه وهو كبير بعد عودته إلى مصر. وعمد إلى أخذهم بجرائرهم وليس بالظلم والتلفيق . قام الناصر بإلغاء بعض مناصب الدولة ومنها منصب الوزير في 713 هـ / 1313 م ، وصادر أموال أرباب الدولة الفاسدين الذين كونوا ثرواتهم من الرشاوي واستغلال المناصب ، وأبعد المغول الاويراتية عن مناصب الدولة، وألغى في 715 هـ / 1315 م المكوس الجائرة التي فرضها الأمراء ورجال الدولة على عامة الناس لإثراء أنفسهم وكان هذا جزء من سياسته للحد من نفوذ وقوة الأمراء ، وابطل الرشوة وعاقب عليها .

عين الناصر محمد الأمير ابن الوزيري رئيسا لدار العدل والأوقاف في سنة 713 هـ، وكان الوزيري رجلا أمينا ومعروف بكرهه للفساد والمفسدين وقد كثر الدعاء على الناصر بسببه . وكان الناصر يذهب بنفسه في كل يوم اثنين إلى دار العدل للإصغاء إلى شكاوي عامة الناس من أرباب الدولة والأمراء والموظفين . وأصدر قراراً يمنع النواب من معاقبة المتهمين والإساءة إليهم بدون تصريح منه . ومنع ضرب الناس بالمقارع . وأغلق جب القلعة الذي كان يستخدم سجنا وكانت له سمعة سيئة وتسكنه الخفافيش.

في عام 714 هـ / 1314 م ألغى الناصر منصب نائب السلطان، وأحدث وظيفة " الناظر الخاص "، وفي عام 715 هـ / 1315 م أجرى الروك الناصري الذي أعاد توزيع الإقطاعات وحد من قوة الأمراء . وقد بلغ النظام الإداري في عهد الناصر محمد مبلغا عظيما في الدقة والتنسيق .

5 - الموقف الداخلي والخارجي

في فترة حكم الناصر محمد الثالثة لم تشهد البلاد تهديدات خارجية وذلك بسبب ضعف الصليبيين والمغول نتيجة لهزائمهم المتكررة وخسائرهم الفادحة والتهائهم في صراعاتهم الداخلية.

في سنة 1314 م فتح سيف الدين تنكز نائب الناصر في الشام ملاطية وضمها للسلطنة ، وقامت قوات الناصر بغارات على مملكة كيليكيا (مملكة أرمينية الصغرى) ، وفي سنة 716 هـ / 1316 م أغار

المغول بجيش صغير على حلب ولكن تصدى لهم **التركمان** وقتلوهم ، وأرسلوا أسراهم إلى القاهرة ، ولكن الأمور لم تتطور إلى حروب كبيرة.

أما في مصر فقد نشبت بعض الاضطرابات في الصعيد نتيجة لخروج العربان عن القانون وقطعهم الطريق امتناعهم عن دفع الخراج، ولكن أمكن السيطرة عليها بسهولة . إلا أنه في فبراير 1321 م نشبت مشاحنات بين المسلمين والمسيحيين بعد أن أصيبت بعض الكنائس في نفس الوقت في أنحاء مختلفة من مصر بأضرار، وتبع ذلك نشوب حرائق في بعض المساجد والمباني بالقاهرة وقد أدت تلك الحرائق إلى نشوب حريق هائل. وقبض على بعض المسيحيين أثناء محاولتهم إضرام النار في بعض المباني والمساجد واعترف أحدهم أن البعض اجتمعوا وصنعوا خرق بها نفط وقطران ووزعوها على بعض الناس لإشعال الحرائق انتقاما من الاعتداء على بعض الكنائس. وأمر الناصر باستدعاء البطريرك الذي أدان ماحدث. وقبض على بعض المسلمين وعوقب مثيري الشغب من الطرفين . وقد أدت الهجمة الغربية الصليبية على بلاد المسلمين إلى إثارة الضغائن أحيانا بين المسلمين والمسيحيين المحليين في بلاد المسلمين .

على الرغم من انتعاش الاقتصاد المصري والرخاء الذي عم مصر إلا أنه حدثت بعض الاضطرابات المالية وارتفاع في الأسعار نتيجة لظهور عملات مغشوشة وأخرى تحت الوزن القانوني (زغل) في الأسواق، مما أدى في سنة 724 هـ / 1323 م إلى توقف الناس عن أخذ النقود واغلاق الحوانيت . وتم التعامل بالنقود بالوزن وليس بالعدد . وقد واجه الناصر تلك المشكلة بطرح آلاف العملات في الأسواق لمحاربة العملات المغشوشة، وحددت أسعار جديدة لصرف الدينار.

6 - علاقة مصر بالعالم الخارجي

البابا جون 22 أرسل سفارة إلى الملك الناصر في 1327 م.

في عهد الناصر ارتفعت مكانة مصر في العالم الخارجي وسعت البلاد الإسلامية والمسيحية على السواء لخطب ودها، وأصبحت القاهرة قبلة للمترددين والزوار من شتى الأرجاء . وخطب باسم الناصر على منابر بغداد التي كانت في حوذة مغول فارس، ونقش اسمه على نقودها ، كما خطب ملوك بني رسول في اليمن للناصر وأرسلوا له الهدايا. وخطب للناصر في دولة بني قرمان في آسيا الصغرى، وعلى منابر تونس وطرابلس الغرب وماردين، وقامت علاقات ودية بينه وبين ملوك الهند والصين وملوك غرب أفريقيا. وكان الناصر، ومن ألقابه خادم الحرمين الشريفين ، يشرف على الحجاز و تهامة وينصب أمراء المدينة و مكة . وفي عام 1322 عقد الملك الناصر اتفاقية سلام مع أبو سعيد إلخان مغول فارس .

وكثر وصول السفارات إلى مصر من ملوك أوروبا والعالم المسيحي فوصلت سفارات من بابا الكاثوليك ، وملك فرنسا ، وملك أرجونة ، وإمبراطور القسطنطينية، وإمبراطور الحبشة وغيرهم .

في يونيو 1327 م وصلت إلى القاهرة سفارة من بابا الكاثوليك جون الثاني والعشرين (John XXII) ومعهم هدية ورسالة من البابا يرجو فيها من الناصر حماية المزارات المسيحية في الأراض المقدسة ووقف الحملات على مملكة أرمينية الصغرى. وكانت هذه أول سفارة باباوية تفد إلى مصر منذ عهد السلطان الأيوبي الصالح أيوب . وفي عام 1330 م أرسل فيليب السادس ملك فرنسا إلى القاهرة سفارة ضخمة قوامها 120 رجل، طالبا من الناصر منحه بيت المقدس وبعض المناطق على ساحل الشام، فأهان الناصر رجال السفارة وملكهم، وقال لهم : " لولا أن الرسل لا يقتلون لضربت أعناقكم "، وطردهم من مصر .

يقول ابن إياس عن الناصر : " خطب له في أماكن لم يخطب فيها لأحد من الملوك غيره، وكاتبه سائر الملوك من مسلم وكافر . ويذكر المقريزى عن الناصر في ذات الصدد : " ولم يعهد في أيام ملك قبله

ما عهده في أيامه من مسالمة الأيام له ، وعدم حركة الأعداء برا وبحرا وخضوع جميع الملوك له ومهاداتهم إياه " .

7 - الرحالة ابن بطوطة زار مصر في عهد الملك الناصر.

وكان الرحالة الشهير ابن بطوطة من الذين زاروا مصر في سنة 725 هـ / 1324 م، وهو في طريقه إلى الحج في عهد الناصر محمد وذكر في كتابه تحفة النظار مشيدا به :

" وكان سلطان مصر على عهد دخولي إليها الملك الناصر أبو الفتح محمد بن المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي... وللملك الناصر السيرة الكريمة والفضائل العظيمة. وكفاه شرفا انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين، وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج ، من الجمال التي تحمل الزاد، والماء للمنقطعين والضعفاء، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشي في الدربين المصري والشامي " .

8 - الحج

في عام 718 هـ لحق الناصر محمد بمحمل كسوة الكعبة إلى مكة المكرمة للحج. ودخل مكة بتواضع وذلة ولما دخل الحرم كنس مكان الطواف ومسحه بيده ، ورفض أن يطوف راكبا قائلا : " ومن أنا حتى أتشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم ! والله لا طفت إلا كما يطوف الناس ". وأمر الحجاب بألا يمنعوا الناس من الطواف معه ، فصارالحجاج يزاحمونه وهو يزاحمهم كواحد منهم في مدة طوافه وفي تقبيله الحجر الأسود. وغسل الكعبة بيده، وبالغ في إكرام الحجاج وأحسن إلى أهل الحرمين، وأبطل المكوس من الحرمين وأكثر من الصدقات . وبعد قضاء مناسك الحج توجه إلى المدينة المنورة ودخلها ماشيا وهو حافي القدمين ، ووزع الأموال على الفقراء والمحتاجين. وفي طريق عودته إلى مصر توقف في خليص ليعاين توصيل المياه إلى بركتها حيث كان وهو في مكة قد أمر بملء بركتها بالماء وعين مال لذلك خدمة للحجيج الذين كانوا يجدون شدة من قلة الماء بها أثناء سفرهم .

9 - المماليك في عهد الناصر محمد

بذل الملك الناصر للتجار وفير المال وسيرهم إلى العديد من البلدان لجلب المماليك والجواري. وكانت العادة قبل الناصر أن يسلم المملوك الجديد للطواشي، فيرتبه عند الفقيه ليتعلم الآداب والرمي بالنشاب ثم يترقى مع مرور الأيام ويتدرج في الجامكية (راتب المملوك) والمراكز وكان ذلك بحجة أنه بذلك يعرف مقدار قيمة مركزه الذي وصل إليه بكده وجهده. ولكن في عهد الناصر كان المملوك بمجرد وصوله إلى مصر ينعم عليه بالملابس الفاخرة والحوائص الذهب والخيول والعطايا، وكان الناصر يفعل ذلك لأجل إبهار المملوك بحياته الجديدة وبأستاذه (الناصر) مما يؤدي إلى سرعة تأقلمه. وقد انتشرت في البلدان قصص إنعامات الناصر وعطاياه لمماليكه فكان الناس يبيعون أولادهم وبناتهم وأقاربهم لتجار الناصر كي ينعموا برغد العيش في مصر. وقد بلغ عدد مماليك الناصر اثنى عشر ألف مملوك ، ومع ذلك ، يشير المقريزي، فإن الناصر كان يعرف كل مماليكه ومماليك أبيه قلاوون وأولادهم بأسمائهم . أما الجواري فقد وصل عددهن في بلاط الناصر إلى نحو ألف ومائتي وصيفة .

وشغف الناصر أيضا بتربية الحيوانات والطيور، خاصة الخيول العربية وكانت له معرفة واسعة بالخيل وأنسابها ويعرف أسمائها ومتى اشتراها. وكان عنده يوم وفاته نحو ثلاثة آلاف فرس ، ومائة وعشرين سنقرا ، وثمانين جوقة كلب صيد ، ونحو ثلاثين ألف من الغنم ، وأعداد كبيرة من الإوز .

ومع ذلك، على الرغم من المكانة وكل مظاهر الثراء والرخاء، كان الناصر مقتصدا في لباسه ولا يتزين بالذهب أو الجواهر. ووصف بأنه كان على غاية الحشمة ورياسة النفس لا ينطق بفاحش الكلام في

شدة غضبه ولا في انبساطه، ويخاطب الناس بلطف واحترام ، وكان يكره الخمر ويبعد عن بلاطه الأمراء الذين يحتسونه .

كان الملك الناصر مولع بالعمارة وينفق عليها ببذخ ، وفي فترة حكمه الثالثة شيد في مصر مالم يشيده أي سلطان آخر، وتحولت القرى إلى مدن منفردة . أعاد حفر خليج الإسكندرية ، وأنشأ البساتين **ومزارع قصب السكر** على ضفتيه ، وأنشأ الميدان تحت القلعة وغرس فيه النخل والأشجار، وأنشأ الميدان الكبير على نيل القاهرة وزرع فيه اشجار الفاكهة. وعمر الخانكاة بناحية سرياقوس ، وحفر الخليج الناصري خارج القاهرة حتى أوصله بسرياقس وعمره بالقناطر. وشيد الجسور ومد الترع وأحيا الأراضي في كل أنحاء مصر، وجدد نحو ثلاثين جامع قديم منها الجامع الناصري بالقلعة وجامع المشهد النفيسي . وكانت أغلب عمائره من الحجارة لأنه كان يخشى عليها من الحريق . في عهد الملك الناصر بلغت دولة المماليك البحرية أوج قوتها داخليا وذروة عظمتها دوليا، ونعمت مصر فيه بالهدوء والاستقرار .

10 - وفاته

في يوم العيد عام 741 هـ أحس الناصر بالمرض ولكنه تحامل على نفسه وخرج لصلاة العيد وطلب من قاضي القضاة " عز الدين بن جماعة " أن يوجز في خطبته. ثم صلى وغادر المسجد إلى القلعة قبل أنتهاء الخطبة. وفي اليوم التالي طلب ابنه " أبا بكر " وعهد إليه السلطنة من بعده وأوصاه بالأمراء وأوصى الأمراء به، وحلف الأمراء والخاصكية. وبعد يومين، يوم الخميس 20 ذي الحجة سنة 741 هـ، توفى الملك الناصر وهو في نحو الثامنة والخمسين بعد أن حكم البلاد ثلاث واربعون سنة وثمانية أشهر وتسعة أيام ، من ضمنها نحو اثنين وثلاثين سنة في فترة ولايته الثالثة ، ودفن بعد العشاء مع أبيه قلاوون في القبة المنصورية بالقاهرة وحزن الناس حزنا كبيرا عليه .

ترك السلطان الناصر 14 ولدا وسبع بنات. ولي السلطنة ثمانية من أولاده من 1341 إلى 1361 م، وهم : المنصور أبو بكر، والأشرف كجك، والناصر أحمد، والصالح إسماعيل، والكامل شعبان، والمظفر حاجي، والناصر حسن، والصالح صالح. ومن أحفاده أربعة من 1361 إلى 1382 م، وهم: المنصور محمد ، والأشرف شعبان ، والمنصور علي، والصالح حاجي .

إتفق المؤرخون المسلمون على مكانة الملك الناصر، فيقول المقريزي عنه : " كان الناصر أطول ملوك زمانه عمرا وأعظمهم مهابة " .

ويصفه الجبرتي بأنه : " كان ملكا عظيما جليلا كفؤا للسلطنة ذا دهاء محبا للعدل والعمارة، وطابت مدته وشاع ذكره وطار صيته في الأفاق وهابته الأسود وخطب له في بلاد بعيدة " .

ويقول ابن إياس عنه : " لم يل من أبناء الملوك قاطبة ملك مصر أعظم من الملك الناصر محمد" .

11 - بعض أثاره ومنشآته

المدرسة الناصرية - القاهرة: بدأ انشائها في عهد السلطان العادل كتبغا بجوار القبة المنصورية، وأكملها الناصر محمد واضاف مئذنتها في عام 703 هـ / 1303 في فترة حكمه الثانية. كانت من أجمل مباني القاهرة، وكانت بها خزانة كتب جليلة. بسبب التاريخ المنحوت عليها والذي يشير إلى عهد العادل كتبغا، يبدو أن الناصر وضع اسمه محل اسم العادل كتبغا. وجهتها تضم بوابة من الرخام الأبيض البديع على الطراز القوطي، لأن البوابة قام الأمير سنجر الشجاعي بنقلها إلى القاهرة من إحدى كنائس عكا بعد أن فتحها الأشرف خليل (1291). محراب المدرسة له ملامح هندسية مغولية. كانت المذاهب الأربعة تدرس

في المدرسة. نقل الناصر جثمان أمه إليها ولكن الناصر محمد لم يدفن فيها. قائمة حتى الآن في شارع بين القصرين.

خانقاه سرياقوس - شمال القاهرة: تعرف أيضا بخانقاه الصرفية . بدأ الناصر في تشييدها في عام 723 هـ / 1323 م وافتتحها في عام 725 هـ / 1325 م في فترة حكمه الثالثة كمنتجع ومنطقة ترويحية ومركزا للصوفية بها مائة خلوة لمائة صوفي (الناصر كان من مشجعي الصوفية). نمت المنطقة في السنوات التالية وصارت بلدة يقام بها سوق كبير كل يوم جمعة، ومنطقة ترويحية بها حدائق ومتنزهات وقصور وحمامات. قيل فيها :

" سر نحو سرياقوس وانزل بفنا * أرجائها ياذا النهي والرشد. تلق محلا للسرور والهنا * فيه مقام للتقى والذهد ". موجودة اليوم كقرية تعرف باسم " الخنكاه " ولكن غير موجودة كمنتجع.

جامع الناصر محمد - قلعة القاهرة جامع الناصر محمد - القاهرة: : جامع ملكي بديع شيده الناصر بالقلعة (735 هـ / 1335 م) في فترة حكمه الثالثة، بعد إزالة المسجد الأيوبي القديم حيث كان سلاطين مصر يقيمون الصلاة. مساحته نحو (57.6 × 60 مترا). أعمدته نقلت من المعابد المصرية القديمة بالأشمونين بصعيد مصر . تعد مآذنتاه من المآذن الفريدة والبديعة في القاهرة المملوكية. كان يواجهه الإيوان الكبير (718 هـ / 1318 م) والقصر الأبلق (718 هـ / 1318 م). المسجد لايزال قائما جوار مسجد محمد علي بقلعة القاهرة .

الخليج الناصري : قناة حفرت في سنة 1326م لري المنطقة المحيطة بالقناة ، ولنقل الاحتياجات والبضائع إلى سرياقوس.

القصر الأبلق - القاهرة: شيد في 713 هـ، كان يشرف علي الميدان الكبير، كانت واجهته مكونة من أشرطة حجرية عريضة متوازية ذات لون أسود أو أصفر ولهذا سمى بالأبلق. - غير موجود الآن.

الإيوان الكبير - القاهرة: عرف أيضا بالإيوان الأشرفي، كان قد بناه والده المنصور وجدده أخوه الأشرف خليل. فقام الناصر بتجديده، وأنشأ به قبة عظيمة، ونصب في صدره التخت السلطاني وكان مصنوعا من العاج والأبنوس. كان موقع الإيوان حيث يقوم الآن مسجد محمد علي في قلعة القاهرة.

الميدان الناصري - القاهرة: كان موضعا قديما غامرا بمياه النيل بين مصر والقاهرة، حوله الناصر إلى ميدان وغرس فيه الأشجار وافتتحه في سنة 718 هـ / 1318 م في فترة حكمه الثالثة. كانت تقام به عروض الخيل بالأزياء الفاخرة (كان الناصر شغفا بتربية الخيول). موقعه الآن حي جاردن سيتي بالقاهرة.

خليج الإسكندرية: أعاد الناصر حفر خليج الإسكندرية، وكانت الرمال قد طمرته وتعطلت الملاحة به، أدت إعادة حفر الخليج إلى نمو النشاط التجاري بالإسكندرية وازدياد العمران بها، بالإضافة إلى نمو الزراعة على ضفتي الخليج بينها وبين النيل

أهم معارك المغول في الشام مع المماليك

أولا ـ معركة عين جالوت

تقديم :

معركة عين جالوت وقعت في 25 رمضان 658 هـ / 3 سبتمبر 1260 م ، تعد من أهم المعارك الفاصلة في تاريخ العالم الإسلامي. انتصر فيها المسلمون انتصارا ساحقا على المغول وكانت هذه هي المرة الأولى التي يهزم فيها المغول في معركة حاسمة منذ عهد جنكيز خان. أدت المعركة لانحسار نفوذ المغول في بلاد الشام وخروجهم منها نهائيا وإيقاف المد المغولي المكتسح الذي أسقط الخلافة العباسية سنة 656 هـ 1258 م. كما وأدت المعركة لتعزيز موقع دولة المماليك كأقوى دولة إسلامية في ذاك الوقت لمدة قرنين من الزمان أي إلى أن قامت الدولة العثمانية. وقعت المعركة في منطقة تسمى عين جالوت بين مدينة جنين والناصرة و بيسان ، في شمال فلسطين.

1 ـ البداية :

اجتاح المغول العالم الإسلامي في بدايات القرن السابع الهجري بقيادة جنكيز خان وكان من أول ما واجهوا في طريقهم دولة الخوارزميين في بلاد فارس وما وراء النهرين، فاكتسحوها وخربوا فيها مدنا وقتلوا خلقا كثيرا، بعد ذلك حكم مونكو خان إمبراطورية المغول عام 1251 م . انطلق بعدها المغول بجيش ضخم قوامه 120 ألف مقاتل نحو الشام بقيادة هولاكو معه حلفاؤه من أمراء جورجيا وأرمينيا وابتدئوا بمدينة ميافارقين بديار بكر والتي كان يحكمها الكامل **محمد الأيوبي** ، قاومت ميافارقين المغول مقاومة عنيفة إذ استمد طول الحصار إلى عامين حتى استسلم أهلها بعد نفاذ المؤن وموت معظم السكان وعدم وصول الدعم من المسلمين فدخلوها وارتكبوا مجازر تقشعر منه الجلود حيث قبضوا على الكامل محمد الأيوبي وقطعوا جلده وأعطوه له ليأكله إلى أن مات فقطعوا رأسه وحملوه على أسنة رماحهم تشفيا وانتقاما منه لصموده وبطولته.

اتجه المغول بعدها لمدينة حلب فدخلوها بعد حصارها وعاثوا فيها فسادا خلال 7 أيام ثم توجهوا نحو دمشق في مارس 1260 م/658 هـ . ـ وفي هذا الوقت ـ وصل بالبريد خبر موت الخاقان الأعظم للمغول **منكو خان** في **قراقورم** واستدعي أولاد وأحفاد جنكيز خان إلى مجلس الشورى المغولي (الكوريل تاي Kuriltai) لانتخاب الخان الأعظم الجديد للإمبراطورية ؛ فرجع هولاكو (الذي هو أخو منكو خان) وأحد المؤهلين للعرش بمعظم جيشه إلى فارس ، ليتابع أمور العاصمة المغولية ، وترك في بلاد الشام جيشا من المغول عدده يزيد على عشرين ألف جندي بقيادة أحد أبرز ضباطه **واسمه كتبغا نوين النسطوري** وهو قائد عسكري محنك من قبيلة النايمان التركية. دخل كتبغا بجيشه دمشق في 1 مارس 1260 م / 15 ربيع الأول 658 هـ بعد أن أعطوا الأمان لأهلها ولكنهم خربوها وكان حاكمها الناصر **يوسف الأيوبي** . انطلق المغول بعد السيطرة على دمشق جنوبا في بلاد الشام حتى استولوا على بيت المقدس وغزة والكرك والشوبك بعد أن تحالف حاكمها **المغيث عمر** مع المغول.

كان يحكم دولة المماليك في ذاك الوقت المنصور نور الدين علي بن المعز أيبك وهو صبي صغير يبلغ من العمر15 سنة ، قام السلطان المظفر سيف الدين قطز ـ وهو من المماليك البحرية ـ بخلعه بعد إقناع بقية أمراء ووجهاء الدولة بأنه فعل ذلك للتجهيز والتوحد ضد الخطر المحدق بالدولة المملوكية بشكل خاص والمسلمين بشكل عام . كان الوضع النفسي للمسلمين سيئا للغاية وكان الخوف من التتار مستشريا في جميع طبقات المجتمع الإسلامي وقد أدرك قطز ذلك وعمل على رفع الروح المعنوية لدى المسلمين. استمال قطز منافسيه السياسيين في بلاد الشام وحاول ضمهم إلى صفوفه وكان ممن انضم معه بيبرس البندقداري الذي كان له دور كبير في قتال التتار فيما بعد.

2 – ما قبل المعركة :

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

قبل مغادرة هولاكو من بلاد الشام أرسل رسلا لقطز يحملون كتاب تهديد ووعيد ذكرناه سابقا في الصفحة 209 :

عقد سيف الدين قطز كما قلنا سابقا اجتماعا مع وجهاء الدولة وعلمائها كان من بينهم العز بن عبد السلام وتم الاتفاق على التوجه لقتال التتار إذ لا مجال لمداهنتهم ، وكان العز بن عبد السلام قد أمر أمراء ووجهاء الدولة أن يتقدموا بنفائس أملاكهم لدعم مسيرة الجيش الإسلامي .

وقد اختلى قطز ببيبرس البندقداري الذي كان أمير الأمراء واستشاره في الموضوع. فأشار عليه بقتل الرسل ، والذهاب إلى كتبغا متضامنين . فإن انتصرنا أو هزمنا، فسوف نكون في كلتا الحالتين معذورين . فاستصوب قطز هذا الكلام ، وقام بقتل رسل المغول لإيصال رغبته في قتالهم وأنه جاد بذلك . وقد زاد من عزيمة المسلمين وصول رسالة من صارم الدين **أزبك بن عبد الله الأشرفي** - وقد وقع أسيرا في يد المغول إثناء غزوهم الشام ثم قبل الخدمة في صفوفهم - أوضح لهم فيها قلة عددهم وشجعهم على قتالهم وأن لا يخافوا منهم . فلا شك أن قطز قد أفاد من رحيل هولاكو إلى فارس على رأس معظم جيشه بعد سماعه بوفاة أخيه الخان الأعظم ، فمن تبقى بالشام من عساكر المغول تحت قيادة كتبغا لا يتجاوز الـ 20 ألف رجل .

موقف الصليبيين :

حاول المغول عبر كتبغا النسطوري التحالف مع مملكة بيت المقدس الصليبية ولكن بابا الفاتيكان منع وحرم التحالف مع المغول. ثم أتت حادثة قتل ابن أخي كتبغا بواسطة الفرسان الصليبين بصيدا فاكتسح صيدا عقابا على ذلك. أما الصليبيون في عكا فقد اتجه قطز إلى مسالمتهم ومهادنتهم , واستأذنهم بعبور جيشه الأراضي التي يحتلونها وطلب منهم الوقوف على الحياد من الحرب ما بين المماليك والمغول . وأقسم لهم انه متى تبعه فارس منهم أو رجل يريد أذى عسكر المسلمين إلا رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتر . إلا إن الصليبيين سلموا بأن المسألة هي مسألة وقت ثم يكتسحهم المغول ويدمرونهم كما دمروا غيرهم , فلذلك غضوا الطرف على عبور المماليك أراضيهم ولم يتصدوا لهم . وقد بر على ما بدا أولئك الصليبيين بوعدهم فلم يغدروا بالمعسكر الإسلامي من الخلف .

في 15 شعبان 658هـ / أغسطس 1260 م خرج قطز يسبقه بيبرس البندقداري ليكشف أخبار المغول . واجهت سرية بيبرس طلائع جنود المغول في منطقة قرب غزة ، كان قائد المغول في غزة هو بايدر أخو كتبغا الذي أرسل له كتابا يعلمه فيه بتحرك المسلمين، أخذ بيبرس في مناوشة وقتال المغول حتى انتصر عليهم. اتجه بعدها قطز إلى غزة ومنها عن طريق الساحل إلى شمال فلسطين. في تلك الأثناء اجتمع كتبغا الذي كان في بعلبك بالبقاع مع وجهاء جيشه ، فاستشار الأشرف صاحب حمص والمجير بن الزكي، فأشاروا عليه بأنه لا قبل له بالمظفر حتى يعود سيده هولاكو خان ، ومنهم من أشار إليه -اعتمادا على قوة المغول التي لا تقهر- أن ينطلق لقتالهم . اختار كتبغا أن يتجه لقتالهم فجمع جيشه وانطلق باتجاه جيش المسلمين حتى لاقاهم في المكان الذي يعرف باسم عين جالوت.

3 - المعركة :

التقى الفريقان في المكان المعروف باسم عين جالوت في فلسطين في 25 رمضان 658 هـ / 3 سبتمبر 1260 م .(وقت وصول الجيشين تماما مختلف فيه) . قام سيف الدين قطز بتقسيم جيشه لمقدمة بقيادة بيبرس وبقية الجيش يختبئ بين التلال وفي الوديان المجاورة كقوات دعم أو لتنفيذ هجوم مضاد أو معاكس. وكان قطز قد اجتمع بالأمراء ، فحضهم على قتال التتار وذكرهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق ، وخوفهم وقوع مثل ذلك ، وحضهم على استنقاذ الشام من التتار ونصرة الإسلام والمسلمين ، فضجوا بالبكاء ، وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتار ودفعهم عن البلاد .

قامت مقدمة الجيش بقيادة بيبرس بهجوم سريع ثم انسحبت متظاهرة بانهزام مزيف هدفه سحب خيالة المغول إلى الكمين ، في حين كان قطز قد حشد جيشه استعدادا لهجوم مضاد كاسح ، ومعه قوات الخيالة الفرسان الكامنين فوق الوادي.

وانطلت الحيلة على كتبغا فحمل بكل قواه على مقدمة جيش المسلمين واخترقه وبدأت المقدمة في التراجع إلى داخل الكمين ، وفي تلك الأثناء خرج قطز وبقية مشاة وفرسان الجيش وعملوا على تطويق ومحاصرة قوات كتبغا ، حيث كانت جيوش المسلمين ينزلون من فوق تلال الجليل ، والمغول يصعدون إليهم. ثم هجم كتبغا بعنف شديد إلى درجة أن مقدمة جيش المسلمين ازيحت جانبا ، فاستبسل كتبغا في القتال ، فاندحر جناح ميسرة عسكر المسلمين وإن ثبت الصدر والميمنة ، وعندئذ ألقى السلطان قطز خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته : « واإسلاماه » ، وحمل بنفسه وبمن معه حتى استطاعوا أن يشقوا طريقهم داخل الجيوش المغولية مما أصابها بالاضطراب والتفكك . ولم يمض كثيرا من الوقت حتى هزم الجيش المغولي ونصح بعض القادة كتبغا بالفرار فأبى الهوان والذل وقتل بعض أصحابه وجرت بينه وبين رجل يدعى **العرينان** مبارزة حيث لم يمض وقت طويل عليها حتى سقط كتبغا صريعا مجندلا على الأرض وكان انتصار كبير للمسلمين

. وسجل التاريخ في هذه المعركة تمكن فرسان الخيالة الثقيلة لجيش المسلمين من هزيمة نظرائهم المغول بشكل واضح في القتال القريب ، وذلك لم يشهد لأحد غيرهم من قبل.

نقطة أخرى ظهرت لأول مرة بتلك المعركة وهي المدفعية وإن كانت بالشكل البدائي إلا إنها استخدمت بالمعركة من جانب الجيش المملوكي لتخويف خيل المغول وارباك الخيالة مما ساعد في خلخلة التنظيم العسكري المغولي بالمعركة . هذا السلاح الذي كان قد اكتشفه واخترعة التركي الدمشقي **حسن الرماح** , وهذا السلاح هو الذي ساعد السلطان العثماني **محمد الفاتح** فيما بعد على دك اسوار مدينة القسطنطينية مما ساعد على فتحها

4 - ما بعد المعركة :

المماليك :

بعد المعركة قام ولاة المغول في الشام بالهرب ، فدخل قطز دمشق في 27 رمضان 658 هـ ، وبدأ في إعادة الأمن إلى نصابه في جميع المدن الشامية ، وتعيين ولاة لها. وأستأمن الأشرف صاحب حمص وكان مع التتار وقد جعله هولاكو خان نائبا على الشام كله ، فأمنه الملك المظفر ، ورد إليه حمص ، وكذلك رد حماة إلى المنصور وزاده المعرة وغيرها. وأطلق سلمية للأمير شرف الدين **عيسى بن مهنا بن مانع** أمير العرب ، ، وهرب من بدمشق منهم . فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون فيهم ، ويستفكون الأسرى من أيديهم . وكان قطز قد أرسل بيبرس البندقداري ليطرد المغول عن حلب ويتسلمها ووعده بنيابتها ، فلما طردهم عنها وأخرجهم منها استناب قطز عليها غيره وهو علاء الدين ابن صاحب الموصل . وكان ذلك سبب الوحشة التي وقعت بينه وبين بيبرس واقتضت قتل الملك المظفر قطز .

كانت النتيجة النهائية لهذه المعركة هي توحيد الشام ومصر تحت حكم سلطان المماليك على مدى ما يزيد عن نحو مائتين وسبعين سنة حتى قام العثمانيون بالسيطرة على أراضيهم في عهد سليم الأول .

المغول :

يعد المؤرخون هذه المعركة ونتائجها بداية النهاية للإمبراطورية المغولية إذ لم يهزموا في معركة قط قبلها. كان بركة خان زعيم القبيلة الذهبية في روسيا وابن عم هولاكو خان قد أعلن إسلامه أيام الغزو المغولي لبلاد المسلمين وكان قد تأثر كثيرا لسقوط الدولة العباسية (دولة الخلافة الإسلامية) على يد ابن عمه وكان يتحين الفرصة للانتقام من هولاكو خان

. قام بيركي أو بركة خان - بعد أن تحالف مع السلطان المملوكي الظاهر بيبرس - بتجهيز جيوشه واتجه جنوبا نحو هولاكو الذي عاد من بلاد الشام ، وهزم هولاكو هزائم كبيرة من قبل جيوش بيركي ولم يتمكن من مقاومته.

تذكر بعض المصادر أن هولاكو لم يستطع إرسال كامل جيشه للشام للانتقام من هزيمة جيشه بعين جالوت بسبب بركة خان, فقد أرسل جيشا إلى بلاد الشام ليستعيدها بقيادة إبنه **"يشموط"** إلا أن تلك المحاولات باءت بالفشل ، حيث كان قد أقام حفلا وكان في حالة ثمالة فانتهز جند بيبرس هذه الفرصة

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

فانقضوا على معسكرهم وأفنوهم عن كاملهم وتركوا بعضهم لينقلوا خبر الهزيمة إلى هولاكو ومعهم رأس ابنه فما كان من هولاكو إلا أن قتل بقية الناجين من المذبحة.

دانت أغلب المناطق الشمالية من الإمبراطورية المغولية لبركة خان واستمرت سلالته وهي القبيلة الذهبية في الحكم في روسيا وأواسط آسيا لمدة تزيد عن الـ 200 عاما. أما سلالة هولاكو وهي إلخانات فحكمت لمدة 91 سنة حتى سقوطها عام 1351 م.

ثانيا - معركة حمص الأولى

تقديم :

وقعت معركة حمص الأولى بتاريخ 5 محرم 659هـ / 10 ديسمبر 1260م في عهد السلطان **الظاهر بيبرس** ، ما بين جيش **مغول الإلخانات** وقوات يقودها الملك الأشرف موسى شيركوه صاحب حمص والملك المنصور صاحب حماة **وزامل بن علي** أمير **بني ربيعة**.

1 - البداية

بعد انتصار المماليك بقيادة **قطز** على المغول بمعركة **عين جالوت** أعدم **هولاكو خان** سلطان دمشق الأيوبي وبقية الأمراء **الأيوبيون** الذين عنده كنوع من الانتقام , وبذلك انتهى حكم الأيوبيون **بالشام** وأيضا أوقفت نتيجة المعركة زحف المغول وأخرجتهم خارج الشام.

وبسبب الحرب الأهلية الدائرة ما بين هولاكو وابن عمه **بركة خان** - الذي غضب لتدمير هولاكو **بغداد** فأراد الانتقام لذلك فثارت حرب ما بينهما - لم يستطع هولاكو ان يرسل أكثر من 6,000 جندي بقيادة **بيدرا** إلى الشام للانتقام من هزيمة جيشه ومقتل قائدهم **كتبغا** بعين جالوت واسترداد الشام من **المماليك** ، وكان ذلك في ذو القعدة 658 / نوفمبر 1260. بيد أن تلك القوات المرسلة لم تكن سوى الحاميات المرابطة **بإقليم الجزيرة** .

احتلال حلب :

استغل بيدرا فرصة مقتل السلطان **قطز** ، **وثورة سنجر الحلبي** والي دمشق على مقتله ضد **بيبرس بندقداري**. فجمع الجيوش من المغول الباقين بالجزيرة ومن نجا من عين جالوت ، فشكل جيشا قوامه 6,000 فارس. فدهموا **حلب** فهرب الأمير حسام الدين الجوكندار المقدم بمن معه من العسكر إلى جهة دمشق فلما رأت التتر هروبه دخلوا حلب وملكوها وأخرجوا من فيها من المسلمين إلى قرنبيا قهرا بعائلاتهم وأولادهم وأحاط التتر بهم في ذلك المكان ووضعوا السيف في بعضهم وأطلقوا الباقين فدخلوا حلب في أسوأ حال .

وصل الأمير حسام الدين الجوكندار مع عسكره إلى **حماة** وبها صاحبها الملك المنصور وقام بضيافتهم وهو مستشعر منهم , ثم تقدم التتار إلى جهة حماة فلما قربوا منها رحل الجوكندار والملك المنصور بعسكريهما إلى **حمص** ووصلت التتار إلى حماة ونازلوها فغلقت أبوابها فطلبوا منهم فتح الأبواب وأنهم يؤمنوهم كالمرة الأولى فلم يجيبوهم ولم يكن مع التتر خسروشاه ولم يكن أهل حماة يثقون إلا إليه وأخرجوا لهم شيئا من المأكول واندفعوا عن حماة طالبين لقاء العسكر وجفل الناس بين أيديهم وخاف أهل دمشق خوفا شديدا.

وفي حمص تلقى الملك الأشرف موسى الجوكندار والمنصور، واجتمع بهم ، فوجد أن الجوكندار يريد متابعة هروبه ، فقد "عزم عسكر حلب على التوجه إلى دمشق وقارب المغول حمص ، فلام الملك الأشرف الجوكندار على هذا الرأي ، وقال له : مايقال عنا في البلاد ، وبأي وجه نلقي صاحب مصر وأخذ في تثنيته" .

2 - المعركة :

ما قبل المعركة :

عندما قارب المغول من حمص ، خرج إليهم الملك الأشرف **موسى بن شيركوه** صاحب حمص ، ومعه **الملك المنصور** بجيشه وحامية حلب المملوكية بقيادة **الجوكندار**، وانضم إليهم أمير **بني ربيعة زامل بن علي** في عدة من العربان ، حتى بلغ المجموع لديه 1400 فارس . وكان المغول قد تجاوزوا **الرستن** , والتقوا بفرقة من الإفرنج أرسلتها **الإسبتارية** لتقاتل معهم ، وتابعوا تقدمهم حتى قرب أسوار حمص ، حيث كان الملك الأشرف قد عسكر بقواته شمال قبر **خالد بن الوليد** في حمص . في مكان سمي **بتل النصر**

خطة المغول العسكرية

وضع بيدرا خطة عسكرية تقوم على تكتيك الصدم والخرق بالعمق ، حيث رتب جيشه مستفيدا من قوة اندفاع فرسانه ، ومن تفوقهم العددي الكبير، حيث أن لديه 6,000 فارس، ولما كان تقسيم جيشه هو **التقسيم المغولي المعتاد** ، حيث ينتظم كل ألف مقاتل في فرقة. وجعل الفرق خلف بعضها لتشكل قوة صدم كبرى تتمكن من اختراق دفاع المسلمين، ومن ثم الالتفاف عليهم وتطويقهم.

خطة المسلمين العسكرية :

أما الملك الأشرف فقد وضع خطته لمواجهة التفوق العددي لصالح المغول ، وتقوم على الصمود أمام الصدمة الأولى للمغول بأي ثمن ، فجعل صاحب حماة بالميمنة وعسكر حلب بالميسرة ، أما هو وعسكره فبقي بالقلب . فكان ترتيب الجيشين أشبه ماتكون بالمطرقة والسندان ، فإن سحق المغول المسلمون بالضربة الأولى، فقد نجحت المطرقة (جيشي حلب وحماة). وإن صمد المسلمون فقد نجح السندان .

التقا الجمعان في يوم الجمعة الخامس من محرم 659هـ / 10 ديسمبر 1260م. وبدا أن السندان كان أقوى ، فبعد أن ثبت جيش الأشرف لهجوم المغول ولم يتمكنوا من سحقه، فقد استطاع أن ينطلق لهجوم مضاد ، فانهزم المغول التتار وقتلوا ومزقوا شر ممزق . فقد قتل عدد كبير من فرسان المغول ومن بينهم امراء ومقدمي التتار، حتى إنه قتل منهم أكثر مما قتل في عين جالوت .

وفي نهايات القرن العشرين , وإيقاف الدفن في مقابر حمص المعروفة : (الكتيب وغيرها) , حولت بلدية حمص الأرض التي جرت عليها المعركة للأسف إلى **مفبرة ومكب لقمامة المدينة** . بدلا من تقام عليها بناء بانوراما أو نصب تذكاري , ليذكر الجيل الجديد من أبناء حمص بمآثر الآباء والجدود .

3 – ما بعد المعركة :

بعد هزيمة التتار المغول في تلك الوقعة ، رجعوا إلى حلب التي قد أضحت ملجأ للذين سلموا من المغول في مدن حمص **وحماه وأفامية** ، فحاصروها أربعة أشهر ، وضيقوا عليها الأقوات وقتلوا من الغرباء خلقا كثيرا ، ذلك بأن أخرجوا من كان فيها من الرجال والنساء، ولم يبق فيها إلا من ضعف عن الحركة أو اختبأ خوفا على نفسه ، ثم نادى المغول فيهم : باعتزال أهالي حلب ، فلم يعلم الناس ما يراد بهم ، فظن الغرباء أن النجاة لهم ، وظن الحلبيون أن النجاة لهم ، فاعتزله جماعة من الحلبيين مع الغرباء ، وجماعة من الغرباء مع الحلبيين ، فلما تميز الفريقان أخذوا الغرباء فضربوا رقابهم.

ثم جهز **الظاهر بيبرس** جيشا إلى حلب ليطردهم عنها ، فلما وصل الجيش إلى غزة أرسل فرنجة عكا إلى المغول يخبرونهم بتحرك هذه العساكر نحوهم ، فرحلوا عنها مسرعين بعد حصار دام أربعة أشهر .

أنهت تلك المعركة أولى حملات إلخانات المغول على الشام وإن كان هناك حملات أتت بعدها ولكن لم تدم أي من تلك الحملات بالشام أكثر من سنة. وكذلك تمكن **بيبرس** من توطيد حكمه فقضى على سنجر الحلبي في معركة خارج **دمشق** في 14 صفر 659هـ/ 17 يناير 1261 ، فقضى بذلك على أي مقاومة ، ثم تقرر طرد أمير **الكرك** ،

وكذلك جرى الاتفاق على ابقاء الأشرف أميرا على حمص حتى وفاته (661هـ/ م 1263) ثم أضيفت إلى أملاك السلطنة .
أما أمير حماة وأسرته فظلوا على حكمهم لحماة لمدة ثلاث أجيال نتيجة للعلاقات الودية مع السلطنة المملوكية .

ثالثا ـ معركة حمص الثانية

تقديم :
وقعت معركة حمص الثانية بالقرب من مدينة **حمص** بين **مشهد خالد بن الوليد إلى الرستن (تل النصر اليوم)** بتاريخ 14 رجب 680 هـ / 29 أكتوبر 1281م بين جيش **مغول الإلخانات** ومركزهم في **إيران** وهم جزء من **إمبراطورية المغول** ، وبين **المماليك** بقيادة **المنصور قلاوون**.
وتلك المعركة هي المحاولة الثانية **لأباقا خان** للاستيلاء على الشام مرة أخرى . فبعد هزيمة المغول **بعين جالوت** ثم عند بلدة "أبلستين" بآسيا الصغرى عام 1277 التي صادفت 10 ذي القعدة 675 هجري بقيادة **بيبرس** أيضا. أرسل **أباقا خان** هذه المرة أخوه منكو تيمور بجيش ضخم يقارب ما بين 50 إلى 80 ألفا من المغول وإسناد 30 ألف أجنبي غالبيتهم من **جورجيا** بقيادة ملكهم **ديمتريوس الثاني والأرمن** بقيادة **ليو الثالث** .

1 – البداية :
علم **قلاوون** من أسير مغولى إن المغول يستعدون لغزو الشام بحوالى 80 ألف محارب، فكتب إلى **مصر** وغيرها من البلاد يستدعي الجيوش لأجل اقتراب مجيء التتار ، فقدم الناس عليه ووفدوا إليه من كل مكان ، وجاءته **التركمان والأعراب** وغيرهم ، وكثرت الأراجيف بدمشق، وكثرت العساكر بها. ووصلت التتر صحبة منكو تيمور بن هولاكو إلى **عنتاب** ، وسارت العساكر إلى نواحي **حلب** يتبع بعضها بعضا، فكتب السلطان المنصور إلى سنقر "إن التتار قد أقبلوا ، والمصلحة أن نتفق عليهم ، لئلا يهلك المسلمون بيننا وبينهم ، وإذا ملكوا البلاد لم يدعوا منا أحدا"، فكتب إليه سنقر بالسمع والطاعة ، فانعقد الصلح بينهما في يونيو 1281، واقطع لسنقر **إنطاكية وأفامية** .
وقرر قلاوون عقد هدنة مع الإمارات الصليبية ليأمن جانبهم خلال صراعه مع المغول ، فالمعروف أن **بيبرس** عقد هدنة مع **عكا** سنة 1271 لمدة عشر سنوات ، وعقد قلاوون سنة 1281 هدنة مع بوهمند **أمير طرابلس** ، وبذا يكون قد أمن جانب الصليبيون في معركته القادمة مع المغول . فامتنع الفرنجة عن الانحياز لأي طرف عند مرور قلاوون بجيشه شمالا لملاقاة المغول ، إلا أن الجنود **الإسبتارية بالمرقب** لم يعتبروا أنفسهم داخلين في عقد الهدنة الذي اشتركت فيه **فرسان الرهبان** بعكا ، فانحازت جماعة منهم إلى ملك **أرمينية** .
نازلت التتار **بقلعة الرحبة** في أواخر جمادى الآخرة جماعة من الأعراب ، وكان فيهم ملك التتار **إبغا** ينظر ماذا يفعل أصحابه ، وكيف يقاتلون أعداءه . والسلطان المنصور مخيم بحمص في عساكر من **الأتراك والتركمان** وغيرهم جحفل كثير جدا ، وأقبلت التتار في مائة ألف مقاتل أو يزيدون.

2 – المعركة :
تقسيم الجيش :
وعسكر المغول في مائة ألف فارس وعسكر المسلمين على النصف من ذلك أو يزيد قليلا . والجميع فيما بين مشهد خالد بن الوليد إلى الرستن .

على ميمنة الجيش المغولي **قوات الكرج** ومعهم **ليو الثالث ملك قليقية والإسبتارية** ، وعلى ميسرة الجيش أمراء المغول ويقود منجوتيمور قلب الجيش .

واصطف المسلمون بحيث أخذ صاحب حماة وبعض أمراء المماليك ميمنة الجيش، ووقف العرب بقيادة الأمير شرف الدين عيسي بن مهنا من قبيلة **بني مرة** وآل فضل أبناء ربيعة في أربعة آلاف فارس . وشغل **سنقر الأشقر** مع خيالته **التركمان** الميسرة .

ووقف في الصدر 4 آلاف شركسي برجي ووحدات أخرى منتقاة من المماليك.

واتخذ قلاوون لنفسه موقعا على تلة صغيرة (مكان تل النصر اليوم) يستطيع منها أن يراقب سير المعركة ومعه مئتي مملوك .

ثم بدأت المفارز المغولية تظهر، وتشكل أمام المماليك وحلفائهم جيش من المقاتلة أخذ مساحة ما بين مشهد خالد بن الوليد في حمص إلى الرستن ، أي حوالي 20 كم .

بداية المعركة :

لما كان يوم الخميس رابع عشر رجب التقى الجمعان وتواجه الخصمان عند طلوع الشمس . فهاجم المغول ميمنة الجيش بوحشية عنيفة ، فثبتت الميمنة بعناد كبير امام الهجوم، فانقض هؤلاء بدورهم على المغول ودفعوا ميسرته إلى الصدر . ولكن أثناء ذلك انسحقت الميسرة بقيادة سنقر وهرب باتجاه أسوار حمص ، فاضطربت الميمنة أيضا. وكسر جناح القلب الأيسر وثبت السلطان ثباتا عظيما جدا في جماعة قليلة ، وقد انهزم كثير من عسكر المسلمين ، والتتار ومعهم الأرمن والإسبتارية في آثارهم حتى وصلوا وراءهم إلى بحيرة حمص ووصلوا حمص وهي مغلقة الأبواب ، فقتلوا خلقا من العامة وغيرهم ، ولكن مماليك سنقر استمروا بالهروب بلا توقف باتجاه دمشق ، وهم ينشرون أنباء هزيمة المسلمين، مما خلق جوا من الذعر الرهيب في مؤخرة جيش قلاوون ، وأشرف المسلمون على خطة عظيمة من الهلاك .

ولكن قلب الجيش المملوكي ومعهم السلطان وقف بثبات ، وأمر قلاوون بقرع الطبول ، وهي إشارة على التجمع . فرجعت بعض فلول تتحرك صوب الوسط ، وبدا جليا أن المعركة قد حسمت للمغول .

خطة أزدمير الحاج :

في أثناء ذلك سار الأمير أزدمير الحاج أحد قادة المماليك على حصانه ، وبرفقته بضعة من المقاتلين باتجاه المغول صائحا : أنه يستسلم لرحمة منجو تيمور. وبعد أن اقترب من المغول قال : أنه يرغب في أن يخبر القائد أمرا مهما ، فاصطحب ازدمير ومقاتلوه إلى خيمة الخان . وبمجرد أن رأى أزدمير مونجو تيمور حتى هاجمه وضربه برمحه واسقطه عن حصانه . ففقد مونجو تيمور الوعي من شدة الضربة ، فاعتقد من حوله أنه قد قتل ، تبع ذلك اضطراب رهيب .

وقام مماليك أزدمير بمذبحة حقيقية وهم يحمون قائدهم . وماتوا جميعا من ضربات حرس الخان الشخصيين ، وقد خلق سقوط مونجو تيمور الذعر في صفوف المغول ، وكان المماليك ينتظرون تلك اللحظة ، ثم هاجموا العدو بضراوة ، فارتبك المغول ، فجاءهم الأمير عيسى بن مهنا من ناحية العرض فصدم التتر فأضربت الجيوش لصدمته ، وقتلوا من التتار مقتلة عظيمة جدا ، ولم يعودوا يحتملون وطأة الهجوم وهربوا · هرب قسم باتجاه **حلب** بينما فر الآخر باتجاه **السلمية** والبرية ، والأخرى إلى ناحية حلب والفرات . فأرسل السلطان في آثارهم من يتبعهم .

3 – النصر :

في أثناء ذلك عاد المغول ومعهم الملك ليو الثالث بجيشه ، الذين كانوا يطاردون سنقر ومعهم الكثير من الغنائم غنموها من ضواحي حمص . ولم يجدوا أحدا في ساحة المعركة، وكان السهل ممتلئا بجثث أخوتهم . صدمهم هذا المشهد ، وفي تلك اللحظة كان السلطان وحرسه مختبئين ويمسكون بأعنة الخيل ، وعددهم يقارب الألف ، إذ أن البقية قد تم ارسالهم خلف المغول الفارين . عندما اجتمع البقية من المغول

في ساحة المعركة أعطى السلطان قلاوون الإشارة بالهجوم ، فانقض المماليك على العدو ودارت رحى معركة رهيبة، اجبروهم على الهروب ، وكان ذلك عند الغروب . وقد تحمل المغول خسائر رهيبة ، فمات عدد كبير منهم أثناء الفرار باتجاه ضفاف **الفرات** ، أكثر ممن قتل أثناء المعركة نفسها . واختبأت بقيتهم بين أدغال القصب ، فأشعل المماليك النيران في تلك الأدغال فمات عدد كبير منهم جراء النار والدخان . وكان لزاما على ليو أن يشق طريقه إلى الشمال ، مما كبده خسائر فادحة في الأرواح .

4 - ما بعد المعركة :

كان **أباقا** مشغولا بمحاصرة **قلعة الرحبة** ، فلما بلغه هزيمة أخوه بحمص فر هاربا بجنده . وقد صب جام غضبه على أخيه منجوتيمور، فقال له : "لم لم تمت أنت والجيش بدلا من الهزيمة؟" .

بعدها بعام مات أباقا وخلفه أخوه **أحمد تكودور** الذي غير سياسته بعد إشهار إسلامه وفضل التحالف مع المماليك والمسلمين .

معركة وادي الخزندار

تقديم :

معركة وادي الخزندار ، التي تعرف أيضا بمعركة مجمع المروج ، ومعركة مرج المروج ، ومعركة سلمية ، ومعركة حمص الثالثة ، معركة وقعت في **سوريا** شمال شرق **حمص** دارت رحاها في عام **699 هـ / 1299م** بين **المماليك** بقيادة **الناصر محمد بن قلاوون** ومغول **الإلخانات** بقيادة **محمود غازان** . انتهت بانتصار **المغول** على **المماليك** بسبب صغر حجم جيش الأخير ونقص استعداداته.

ترجع أسباب هذه المعركة إلى بعد هزيمة المغول الفرس في **معركة عين جالوت بفلسطين** على أيدي **المماليك** ورغبتهم بالثأر لهذه الهزيمة ، فجمعوا جيشا عظيما وزحفوا به على **دمشق** واحتلوها وانتهكوا حرمة الناس والمقدسات ، وقتلوا العديد من المدنيين ونادوا بإلخان المغول حاكما على **الشام** ، واستمروا بغزواتهم حتى طردوا جيش المماليك وأعادوه إلى **مصر** بعد أن عجز عن التغلب عليهم.

وبعد هزيمة المماليك ، حاول السلطان إعادة تنظيم الجيش المملوكي والعودة للثأر لهذه الهزيمة النكراء ، ولكن إلخان المغول كان قد سبق وترك دمشق عائدا إلى **فارس** ، فطلب السلطان من الذي خلفه الخضوع له ، فقبل بهذا ، ونودي بالسلطان مجددا حاكما على **الشام**. وبعد ذلك بفترة أرسل إلخان المغول وفدا يطلب الصلح من **السلطان** ، فوافق الأخير عليه . رغم هزيمة المماليك الفادحة إلا أنهم أوقعوا خسائر جسيمة بالجيش المغولي، حيث أن المصادر المملوكية تفيد بأن جيش المغول كان يتألف من 60,000 جندي مغولي و 40,000 جندي **جورجي وأرمني**، إلا أن المماليك قتلوا ما بين 5,000 و 10,000 جندي، بينما قتل المغول 200 جندي مملوكي . تفيد مصادر أخرى أن المغول فقدوا 14,000 جندي بينما فقد المماليك 1,000 جندي فقط ، إلا أن هذه المصادر لا تأخذ بعين الاعتبار خسائر المماليك بعد تراجعهم.

1 - خلفية المعركة :

بعد موت **جنكيز خان** في عام **1227م** قسمت **إمبراطورية المغول** بين أبنائه الأربعة. وكانت الأجزاء التي تهم الدولة المملوكية جزأين هما : الجزء الغربي من دولة جنكيز خان وكان من نصيب حفيده "باتو بن جوجي"، وعرف هذا الفرع باسم **"القبيلة الذهبية"** أو خانات القفجاق وشملت حدودها أجزاء مما يعرف اليوم باسم **روسيا ، أوكرانيا ، مولدوفيا، وكازاخستان** . والجزء الآخر **بلاد فارس** وكان من نصيب "تولوي"، وعرف هذا الفرع باسم دولة **"الإلخانات"** أو مغول فارس.

توسع الإلخانات في **آسيا الصغرى** ، واقتحموا حدود العالم الإسلامي، وفي عام **1258** استولوا بقيادة **"هولاكو"** على **بغداد ودمروها** ، وقتلوا الخليفة **المستعصم بالله** وقضوا على **الخلافة العباسية** ، ثم استولوا على **دمشق** ، وبذلك فقد المسلمون مركزين هامين من مراكز الثقافة في العالم الإسلامي .

أما القبيلة الذهبية في الجزء الغربي ، فقد اعتنقت **الإسلام** ، وصارت عضدا وحليفا للمسلمين في حربهم ضد مغول فارس . بعد الاستيلاء على بغداد ودمشق أرسل هولاكو إلى **سيف الدين قطز** سلطان مصر المملوكي يهدده ويأمره بالخضوع له . فخرج قطز من القاهرة بجند مصر، ومن انضم إليه من عسكر **الشام والعرب والتركمان** ، واصطدم بجيش المغول في **3 سبتمبر** من عام **1260م** وهزمه هزيمة ساحقة في معركة كبرى عرفت باسم **معركة عين جالوت**. بانتصار قطز على مغول فارس تم تحرير **دمشق** من المغول ، وتلاشت **الدولة الأيوبية** نهائيا ، وامتدت الدولة المملوكية الناشئة إلى الشام.

إلا أن معركة عين جالوت لم تنه مطامع مغول فارس في الشام ، بل صار المغول يتربصون ويعدون العدة لأخذ ثأر هزيمتهم على أيدي المماليك . لم يكد يعلم المغول بموت السلطان قطز حتى أغاروا بقيادة "بيدرا" على مدينة **البيرة** وبعد ذلك هاجموا **حلب** واستولوا عليها. أدرك السلطان **بيبرس** الذي خلف قطز خطورة مغول فارس على دولة المماليك والعالم الإسلامي ، فهادن **الصليبيين** وعقد حلفا مع **"بركة خان** بن جوجي" ملك مغول القبيلة الذهبية الذي أشهر إسلامه ، حتى يتفرغ لمواجهة خطر مغول فارس . وتمكن بيبرس من استرداد البيرة ووقف للمغول والصليبيين بالمرصاد.

بعد وفاة الظاهر بيبرس جدد السلطان **قلاوون** ، الذي خلف بيبرس وابنيه **السعيد بركة قان وسلامش** ، الهدنة مع الصليبيين ليتفرغ هو الآخر لمواجهة الخطر المغولي وتمكن من هزيمتهم قرب **حلب** في عام **1280م** ثم هزمهم مرة أخرى هزيمة نكراء عند **حمص** في سنة **1281م** عندما هاجموا الشام بقيادة **"أباقا** بن هولاكو". خلف أباقا بعد وفاته أخوه **"تكودار"** الذي أشهر إسلامه وسمى نفسه أحمد مما أدى إلى

تحسن العلاقات بين مغول فارس والمماليك . إلا أن تحسن العلاقات لم يدم طويلا ، إذ قتل تكودار على يد ابن أخيه "**أرغون** بن أباقا" الذي ولى عرش مغول فارس مكانه في عام **1284م** وعرف بكراهيته وعدائه للمسلمين.

بعد صراعات داخلية بين مغول فارس أطاح "**غازان** بن أرغون" بابن عم أبيه "**بايدو** بن طرقاي" في عام **1295م** ليصبح بذلك سابع إلخانات فارس، وقام بتبديل لقبه من إلخان إلى سلطان.

ونشأ غازان **مسيحيا** وقامت بتربيته "ديسبينا خاتون" زوجة "أباقا"، التي كانت صديقة للصليبيين وعدوة لدودة للمسلمين . إلا أن غازان اعتنق الإسلام وسمى نفسه محمودا، وجعل الإسلام الديانة الرسمية لدولة مغول فارس ، ولكن هذا لم يؤد إلى تلاشي أحقاده على المماليك وأطماعه في السيطرة على بلاد المسلمين. وبقي غازان صديقا وحليفا للصليبيين.

عندما استولى غازان على عرش الإلخانات كان السلطان **العادل كتبغا**، الذي حكم من سنة **1294م** إلى سنة **1295م**، يجلس على عرش المماليك بقلعة الجبل **بالقاهرة**. وكان كتبغا ذاته من أصل مغولي ، وفي عهده وفد إلى الشام ومصر عدد كبير من المغول الوافدية من طائفة الأويراتية. وفيما بين عامي **1296م و1299م** حكم البلاد السلطان **حسام الدين لاجين**، وبعد وفاته نصب الناصر محمد بن قلاوون للمرة الثانية سلطانا على البلاد ، وكان عمره حينذاك أربعة عشر عاما. في عهد السلطان لاجين فر الأميران قبجق المنصوري نائب دمشق وبكتمر السلاح دار إلى المغول وأقاما عند غازان، فلما نصب الناصر سلطانا أغرى قبجق غازان بسهولة الزحف على الشام نظرا لصغر سن السلطان الناصر وانشغال الأمراء في خلافاتهم. فما كاد الناصر محمد يستقر على تخت السلطنة في عام **1299** حتى وردت الأنباء بزحف المغول بقيادة غازان على الشام.

2 - زحف المغول على الشام :

في سنة **699هـ / 1299م** وردت أنباء عن زحف مغولى من **حلب** على **الشام** يقوده **محمود غازان** سلطان مغول فارس ، وأن طلائع المغول قد وصلت إلى البيرة.

جمع الناصر محمد الأمراء للتشاور، واتفقوا على خروج بيبرس الجاشنكير أستادار السلطان إلى حلب على رأس جيش صغير قوامه خمسمائة مملوك ، على أن يلحق به الناصر ببقية الجيش.

في **15 صفر** خرج الناصر من **القاهرة** على رأس جيشه متوجها إلى **دمشق**، وفي صحبته الخليفة العباسي الإمام أحمد الحاكم بأمر الله، والقضاة الأربعة ، وسائر الأمراء.

تآمر المغول الأويراتية :

عند وصول جيش الناصر محمد إلى تل العجول من **غزة** تآمر المغول الأويراتية الذين وفدوا إلى **مصر** وأقاموا فيها في عهد السلطان المخلوع كتبغا، مع بعض المماليك السلطانية على اغتيال الأميرين سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنكير أستادار السلطان بهدف الانتقام وإعادة كتبغا - وهو مغولي الأصل - إلى الحكم . وأفلت بيبرس من القتل بعد أن هاجمه أحد المماليك السلطانية ويدعى برنطاي ولكنه نجا وقتل برنطاي بعد أن تبادرته السيوف. ظن سلار أن المؤامرة قد تمت بمعرفة الناصر فأرسل إلى أمير جاندار يقول :

ما هذه الفتنة التي تريدون إثارتها في هذا الوقت ونحن على لقاء العدو؟ وقد بلغنا أن الأويراتية قد وافقت المماليك السلطانية على قتلنا، وكان هذا برأيك ورأي السلطان، وقد دفع *الله* عنا .إن كان الأمراء كذلك فنحن مماليك السلطان ومماليك أبيه الشهيد ، ونحن نكون فداء للمسلمين وإن لم يكن الأمر كذلك فابعثوا إلينا غرماءنا.

فلما سمع الناصر هذا الكلام بكى ، وأقسم أنه لم يكن يعلم. وأقسم أمير جاندار أيضا وذكر أنه ظن أن السلطان كان هو هدف المتآمرين . وتم الصلح بين أمير جاندار والأمراء البرجية. وقبض على الأويراتية ، فأقروا بما كانوا قد عزموا عليه من **قتل** بيبرس الجاشنكير وسلار وإعادة العادل كتبغا إلى الحكم . و**شنق**

نحو الخمسين من الأويراتية ، ونودي عليهم : "هذا جزاء من يقصد إقامة الفتن بين المسلمين ويتجاسر على الملوك". واتفق بيبرس وسلار على إبعاد بعض مماليك الناصر إلى **الكرك** فأبعدوا بموافقته.

عند بلدة قرتية ، تعرض الجيش لسيل عارم أتلف وأضاع الكثير من منقولات الجنود وهجنهم فتشائموا وتطيروا من ذلك . وبعد السيل خرج **جراد** سد الأفق فزاد تطيرهم وخوفهم.

3 – المعركة

خريطة موقع معركتي وادي الخزندار وشقحب بين المماليك والمغول في عهد الناصر محمد بن قلاوون ومحمود غازان.

في **8 ربيع الأول** وصل الناصر إلى **دمشق** على رأس جيشه ، ووردت الأنباء بالبريد ومع القادمين من **حلب** وغيرها بعبور غازان نهر **الفرات** بجيش ضخم. في **17 ربيع الأول** خرج عسكر دمشق وتبعه الناصر بجيشه ونزلوا **بحمص**، وأرسل الناصر العربان لمعاينة وضع المغول ، فبلغه أنهم يحتشدون عند **سلمية**.

في سحر **18 ربيع الأول** خرج الناصر من حمص لملاقاة المغول. وقد أُمر الجنود بالتخلي عن **الرماح** والاعتماد على **السيوف** والدبوس . ووصل الناصر إلى مجمع المرج -الذي عرف فيما بعد باسم وادي الخزندار- وقام الأمراء بترتيب الجنود وتنظيم الصفوف. وراح الفقهاء يعظون المقاتلين ويقوون عزائمهم حتى بكوا من وقع الكلمات وشدة التأثر .

كانت عدة جيش المسلمين نحو 20 ألف فارس وكان جيش غازان في نحو 100 ألف، وكان يضم قوات متحالفة من مملكة **قليقية** ، المعروفة أيضا بمملكة أرمينية الصغرى.

وقف الأمير عيسى بن مهنا في الميمنة على رأس العربان ، يليه الأمير بلبان الطباخي نائب حلب على رأس عسكر **حلب** و**حماة** . ووقف على رأس الميسرة أقش قتال السبع والحاج كرت نائب طرابلس

والأمير بدر الدين بكتاش في عدة من الأمراء . أما في القلب فقد وقف بيبرس الجاشنكير وسلار وأيبك الخازندار في عدة من الأمراء . ووقف الناصر محمد على بعد مع حسام الدين لاجين الأستادار. وقد اضطر بيبرس الجاشنكير إلى الاعتزال بسبب إصابته بمغص شديد مفاجئ منعه من الثبات على فرسه.

أمر غازان مقاتليه بالثبات وعدم الحركة إلى أن يتحرك هو حتى يتمكنوا من مهاجمة جيش الناصر هجمة رجل واحد. فلما انطلقت طليعة جيش الناصر، المعروفون بالزراقون، **بالنفط** المشتعل تجاه جيش المغول ، لم يتحرك غازان بعكس ما توقع **المسلمون** ، وظل على ثباته حتى اقتربت طليعة المسلمين منه وقد خمدت نيران النفط ، فهجم بجيشه حملة واحدة. انطلقت سهام عشرة آلاف مغولي من رماة النشاب نحو العربان وضغطت ميمنة جيشهم عليهم فولى العربان مدبرين وخلفهم جيش حلب وحماة فهزمت ميمنة جيش المسلمين . أما ميسرة جيش الناصر فقد تمكنت من صدمة ميمنة غازان صدمة قوية فرقت جمعها ودحرتها عن أخرها ، وفقد المغول في تلك الصدمة نحو الخمسة آلاف. وكتب بذلك إلى الناصر محمد فابتهج.

كاد غازان أن يولي الأدبار فاستدعى قبجق نائب دمشق فشجعه وثبته حتى تماسك ونظم صفوفه وحمل حملة واحدة على قلب جيش المسلمين فلم يصمد سلار وسائر الأمراء البرجية وتولوا أمام جيش غازان الذي تبعهم وراح يرمي السهام على أقفيتهم . رأى الملك الناصر جيشه يولي الأدبار وخلفه جيش غازان يمطره بالسهام ، فراح يبكي ويبتهل قائلا : " يارب لا تجعلني كعبا نحسا على المسلمين". لم يبق مع الناصر من المماليك غير اثني عشر مملوكا.

عاد مقاتلو ميسرة جيش المسلمين التي هزمت ميمنة غازان إلى **حمص** بالغنائم بعد العصر، فإذا بهم يرون الأمراء البرجية يولون منهزمين وفي أعقابهم المغول يتبعونهم فبهتوا. إلا أن غازان أمر مقاتليه بالانسحاب خشية أن يكون المسلمون قد نصبوا لهم كمينا فنجوا.

وصل بقية المنهزمون إلى حمص وقت الغروب بلا عتاد ولا سلاح ، بعد ما غنم المغول سائر ما كان معهم ، فصرخ فيهم أهل حمص: "الله الله في المسلمين!"، ثم توجهوا إلى دمشق.

استنادا إلى **المقريزي** قتل في المعركة العديد من الأمراء ، ونحو أربعة عشر ألفا من المغول . وتجدر الإشارة إلى أن المماليك كانوا عادة يحصون عدد الأمراء المقتولين مع عدم الإشارة إلى المقتولين من عوام الجنود والمتطوعين . ويذكر **ابن إياس** أن عدد القتلى من الجانبين كان ضخما.

4 - دخول المغول دمشق :

ما كاد المنهزمون يصلون إلى **دمشق** حتى وصل خبر بقدوم غازان، فسارعوا بمغادرة المدينة. وصل غازان إلى أطراف دمشق بعد أن نهب الخزائن السلطانية وعتاد جيش المسلمين في **حمص** ، فقامت ضجة عظيمة وهرب الناس من المدينة في فزع ، وهرب نحو مائتي سجين من السجون ، ومات من الزحام في الأبواب العديد من الناس، وفر إلى جهة **مصر** كثير منهم . واجتمع من بقي في المدينة **بالجامع الأموي** واتفقوا على إرسال قاضى القضاة بدر الدين محمد والفقيه **تقي الدين أحمد بن تيمية** ، في عدة من شيوخ وقضاة دمشق ، إلى غازان لطلب الأمان ، فذهبوا إليه عند **النبك** ، ومنهم من قبل له الأرض ، وطلبوا منه الأمان عن طريق مترجم ، فقال لهم "قد بعثت إليكم الأمان" وصرفهم ، فعادوا إلى دمشق، وفي يوم الجمعة قرأ الأمير إسماعيل التتري ، الذي حمل الأمان لأهل دمشق، الفرمان . ولم يخطب في مساجد دمشق لأحد من الملوك في ذاك اليوم . بعد يومين دخل غازان دمشق ومعه قبجق نائب دمشق.

رفض الأمير علم الدين سنجر المنصوري نائب قلعة دمشق المعروف بأرجواش الخضوع لغازان وتحصن في قلعة دمشق ، فلما طلب منه قبجق وبكتمر الاستسلام بحجة أن **دم** المسلمين في عنقه رفض وسبهما سبا قبيحا وقال لهما : "إن دم المسلمين في أعناقكم أنتم لأنكم كنتم السبب في مجيء **التتار**". فذهب الأمير إسماعيل التتري إلى قضاة وأعيان دمشق يحذرهم من مغبة عدم استسلام أرجواش وتسليمه القلعة للمغول وهددهم بنهب دمشق وقتل الجميع. فأرسلوا إليه الرسل يطلبون منه الاستسلام فرفض ورد عليهم بالشتائم .

في يوم الجمعة **14 ربيع الآخر** من عام **696هـ** خطب لغازان على **منبر** دمشق بألقابه وهي : "السلطان الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غازان". وقرئ على الناس تقليد قبجق **دمشق** و**حلب** و**حماة** و**حمص** وغيرها ، وولايته للقضاة والخطباء وغيرهم ، ونثرت الدنانير على الناس ففرحوا بها . ونهب المغول وأرمن مملكة قليقية المدن وأحرقوا المساجد والمدارس وقتلوا الناس . قام الأرمن بتخريب الصالحية قرب دمشق ، وقتلوا وأسروا نحو 10,000 من أهلها وفر من تمكن منهم إلى دمشق . وانتهز الأرمن فرصة هزيمة المسلمين فاستولوا على **تل حمدون** وغيرها . وخرج ابن تيمية إلى غازان بتل راهط للشكوى من النهب والتخريب وقتل الناس برغم منح الأمان فلم يتمكن من لقائه لانشغاله بشرب **الخمر** . فاجتمع بالوزيرين سعد الدين ورشيد الدين فنصحاه بدفع المال.

نصب المغول **المنجنيق** على القلعة بالقرب من جامع دمشق الكبير فلما بلغ أرجواش ذلك بعث بعض رجاله فأفسدوا ما وضعه المغول ، ولكن المغول أعادوا وضع المنجنيق وقاموا بحراسته ، وحولوا الجامع إلى حانة ، واستباحوا حرمته وشربوا فيه الخمور وفجروا بنساء المسلمين ، ولم تقم به **صلاة العشاء** في هذا الوقت. فأرسل أرجواش رجلا لقتل المنجنيقي فهجم عليه بسكين وقتله وهو في وسط المغول ، وهرب إلى القلعة . ثم قام أرجواش بهدم وحرق ما حول القلعة لئلا يستتر به المغول.

راح المغول يجبون الأموال من أهل الشام وينقلونها إلى خزانة غازان . فلما انتهت الجباية غادر غازان دمشق إلى **فارس** بعد أن أقام الأمير قبجق نائبا على دمشق ، والأمير بكتمر نائبا على حلب وحمص وحماة ، والأمير الألبكي نائبا على **صفد** و**طرابلس** والساحل تحت حماية نائبه قطلو شاه ، ووعد بالعودة لغزو مصر كاتباً :

"إنا قد تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل ، وفي عزمنا العودة إليها في زمن الخريف ، والدخول إلى الديار المصرية وفتحها".

بعد رحيل غازان استمر نهب وتخريب دمشق وكسر المغول أبواب البيوت ونهبوا ما فيها وأحرقوا الكثير من الدور والمدارس واحترقت المدرسة العادلية. ونهب المغول الأغوار حتى بلغوا **القدس** ، ووصلوا إلى **غزة** حيث قتلوا بعض الرجال في جامعها. ومما قاله الشعراء في فاجعة الهزيمة :

غلاء وغازان وغزوة وغارة وغدر وإغبان وغم ملازم

5 - انسحاب جنود الناصر إلى مصر :

أما في **مصر** فقد تواصل ورود شراذم الجنود ومعهم عوام من الشام في أسوأ حال ، بعد أن انهمرت عليهم أمطار غزيرة في رحلة فرارهم إلى مصر ، واجتيازهم لطرقات موحلة وتعذرت عليهم الأقوات. وكان من ضمن الفارين إلى مصر السلطان المخلوع العادل كتبغا الذي كان السلطان لاجين قد عينه في عهده نائبا على قلعة **صرخد** . وبعد فراره إلى مصر مع الفارين دخل في خدمة الأمير سلار . وعاد السلطان الناصر إلى مصر بعد أن تفرقت العسكر عنه ولم يبق معه إلا بعض خواصه ، ودخل قلعة الجبل في **12 ربيع الآخر** وقد أصابه حزن بالغ وتألم ألما شديدا لهذه الهزيمة الشنعاء التي مني بها.

6 - إعادة تنظيم الجيش :

بدأ الناصر فور عودته إلى **القاهرة** بتنظيم الجيش وتجهيزه لأخذ الثأر من المغول. واستدعى صناع السلاح وجمعت الأموال والخيل والرماح والسيوف من كل أرجاء مصر. ورسم للجنود العائدين بالنفقة فمنحوا أموالا كثيرة أصلحوا بها أحوالهم وجددوا عدتهم وخيولهم . ونودي بحضور الأجناد البطالين ووزعوا على الأمراء .

استدعي مجدي الدين عيسى نائب الحسبة ليأخذ فتوى الفقهاء بأخذ المال من الناس للنفقة على الحرب . فأحضر فتوى قديمة كان السلطان قطز قد استخدمها في أخذ دينار من كل شخص قبل **معركة عين جالوت** . ولكن الشيخ تقي الدين محمد بن دقيق العيد امتنع عن إصدار فتوى بهذا الخصوص قائلا :

« لم يكتب ابن عبد السلام للملك المظفر قطز حتى أحضر سائر الأمراء ما في ملكهم من **ذهب** و**فضة** وحلي نسائهم وأولادهم ورآه . وحلف كل منهم أنه لا يملك سوى هذا. كان ذلك ليس بكاف ، فعند ذلك كتب بأخذ **الدينار** من كل واحد. وأما الآن فيبلغني أن كلا من الأمراء له مال جزيل ، وفيهم من يجهز بناته **بالجواهر** و**اللآلي** ، ويعمل الإناء الذي يستنجي منه في الخلاء من فضة . ويرصع مجاس زوجته بأصناف الجواهر.»

عندئذ تقرر النظر في أموال التجار والأغنياء ، وأخذ ما يمكن أخذه من كل منهم بحسب قدرة كل واحد. فرض على كل فرد من التجار والأغنياء من عشرة دنانير إلى مائة دينار، وطلب من أعيان التجار مالا على سبيل القرض ، فتم جمع مبالغ كبيرة. على الرغم من التكاليف الباهظة والأعداد الكبيرة من نازحي الشام إلا أن ذلك لم يؤثر كثيرا على اقتصاد مصر، ارتفع سعر السلاح ولكن هبطت أسعار الغذاء ولم يحدث نقص في الأسواق.

في غضون ذلك وردت إلى القاهرة أنباء رحيل غازان عن **دمشق** وإقامة قبجق نائبا عليها ، فأرسل الناصر إلى قبجق وبكتمر يدعوهما للولاء له ، فاستجابا له . وخرج قبجق من دمشق متوجها إلى مصر ، فاستولى الأمير أرجواش على دمشق وأعاد الخطبة باسم الملك الناصر بعد انقطاعها مائة يوم . وسار بيبرس الجاشنكير وسلار إلى دمشق وأرسلا العسكر إلى **حلب** فقتلوا من كان فيها من أتباع غازان ، وفر بعضهم إلى غازان وعرفوه بغدر قبجق به . وأقيم العادل كتبغا نائبا على **حماة** ، وخلع على أرجواش وأنعم عليه ، وأقيم قبجق على نيابة **الشوبك**. وزحفت جنود الناصر على **جبل الدروز** وألزموا **الدروز**، بعد أن طلبوا الأمان ، بإعادة العتاد والأموال التي نهبوها من الجنود وقت انسحابهم إلى مصر .

وصل إلى **القاهرة** وفد من غازان بطلب الصلح ووافق الناصر على الصلح ورد على غازان برسالة تقول :

"إذا جنح الملك للسلم جنحنا لها.. والمشاهد لتصافينا يتلوا قوله تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ ، وينتظم إن شاء الله شمل الصلح أحسن انتظام ، ويحصل التمسك من الموادعة والمصافاة بعروة لا انفصال ولا انفصام ، وتستقر قواعد الصلح على ما يرضي الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام".

إلا أن طلب غازان للصلح كان ، كما يبدو ، مجرد مناورة منه لكسب الوقت للتعرف على استعدادات وتحركات الملك الناصر.

في **جمادى الآخرة** عام **702هـ / 1303م** وصلت أخبار من **حلب** بأن جيش المغول أوشك على الزحف على الشام مرة أخرى . فخرج جيش الناصر بجيش مصر وانضم إليه عسكر الشام ، والتقى الجمعان في **2 رمضان** سنة **702هـ** ، الموافق في **20 إبريل** سنة **1303م** قرب **دمشق** ، في معركة تعرف باسم **معركة شقحب** أو معركة مرج الصفر. وهي موضوع حديثنا التالي وفيها أبلي جيش المسلمين بلاء حسنا وانتصر على جيش المغول نصرا كبيرا غسل عار هزيمة وادي الخزندار.

خامسا - معركة شقحب

1 - تقديم :

معركة شقحب أو معركة مرج الصفر، معركة بدأت في 2 **رمضان** سنة 702هـ / 20 إبريل 1303م، واستمرت ثلاثة أيام بسهل شقحب بالقرب من **دمشق** في **سورية**. كانت المعركة بين **المماليك** بقيادة **الناصر محمد بن قلاوون** سلطان **مصر والشام والمغول** بقيادة قتلغ شاه نويان (قطلوشاه) نائب وقائد

محمود غازان إلخان **مغول** فارس (**الإلخانات**). انتهت المعركة بانتصار **المسلمين** ، أنهى طموحات محمود غازان في السيطرة على الشام والتوسع في العالم الإسلامي.

2 - زحف المغول على الشام :

في رجب عام 702هـ / 1303م قدم البريد إلى القاهرة من حلب بأن غازان على وشك التحرك إلى الشام ، فتقرر إرسال الأمير بيبرس الجاشنكير، مع عدة من الأمراء على رأس ثلاثة آلاف من الأجناد. ووصل بيبرس الجاشنكير إلى دمشق في شعبان. وأقبل الناس من حلب وحماة إلى دمشق مذعورين من المغول ، وتأهب أهل دمشق للفرار. فنودي في دمشق أن من خرج منها حل ماله ودمه. وأرسل بيبرس إلى القاهرة مستعجل قدوم الناصر محمد إلى الشام . وأرسل غازان قائده ونائبه قطلوشاه إلى الشام على رأس جيش قوامه 80 ألف مقاتل . ولما عرف قطلوشاه أن الناصر لم يخرج من مصر بعد ، وأن ليس بالشام غير العسكر الشامي ، توجه تواً إلى حماة فلما أبصره عسكر حماة ولوا إلى دمشق حاملين معهم العادل كتبغا في محفة لضعفه . واضطربت دمشق وراح أهلها يرحلون عنها. وبات الناس أول ليلة رمضان في الجامع يضجون بالدعاء إلى الله .

3 - المعركة :

في يوم السبت الموافق 2 رمضان 702هـ/ 20 إبريل 1303م ، وصل الناصر محمد إلى عقبة شجورا ، ففرح الناس وتوجه إليه الأمراء . وبينما الأمراء يستقبلونه وصل خبر بأن جيش قطلوشاه قد أقدم . فلبس الجنود السلاح ، واتفق الأمراء على محاربته بشقحب تحت **جبل غباغب** .

وقف السلطان الناصر في قلب الجيش ، الذي كان يضم نحو 200 ألف مقاتل ، وبجانبه الخليفة والأمراء سلار وبيبرس الجاشنكير وعز الدين أيبك الخازندار وغيرهم من الأمراء . وفى الميمنة وقف الحسام لاجين أستادار (حسام الدين لاجين الرومي) . وعدة من الأمراء , وعلى يمينهم الأمير قبجق بعساكر حماة والعربان . وفى الميسرة وقف عساكر حلب وعلى رأسهم الأمير بكتاش الفخري والأمير قرا سنقر . مشى السلطان والخليفة بجانبه، ومعهما القراء يتلون القرآن ويحثون على الجهاد. وهتف الخليفة :

" يا مجاهدون لا تنظروا لسلطانكم ، قاتلوا عن حريمكم وعلى دين نبيكم عليه الصلاة والسلام " .

انطلق قطلوشاه نحو جيش المسلمين بفرقة تضم 10 آلاف مقاتل ، واصطدم بالميمنة وجرى قتال شديد ، قتل فيه الحسام لاجين أستادار . وكادت الميمنة أن تولي فصاح سلار : " هلك والله أهل الإسلام ". فقام أمراء القلب والميسرة بتعزيز الميمنة وصرخ سلار في بيبرس الجاشنكير والبرجية فأتوه وصدم بهم قطلوشاه ، وقاتل هو وبيبرس الجاشنكير قتالا شديدا إلى أن تمكن من دفع قطلوشاه .

ولما قتل أمراء الميمنة تمكن بعض المغول من اجتياز خطها وصاروا خلف المسلمين فحسب البعض أن الجيش منهزم ففرت النساء والأطفال ، وكانوا قد خرجوا من دمشق عند خروج الأمراء منها. كشف النساء عن وجوههن وأسبلن شعورهن ، وضج الناس بالدعاء، وكادت العقول أن تطيش عند مشاهدة الهزيمة . إلى أن توقف القتال ومال قطلوشاه بمن معه إلى جبل قريب وصعد عليه وفي ظنه أنه انتصر وأن قواته تطارد المسلمين الفارين . ولكنه لما نظر من فوق الجبل رأى ميسرة السلطان الناصر ثابتة وأعلامها تخفق فتحير، وأحضر إليه عدة من أسرى المسلمين فسأل أحدهم وهو الأمير عز الدين أيدمر عن نفسه فرد عليه ايدمر قائلا: " من أمراء مصر " فبهت قطلوشاه لأنه لم يكن يدرى بقدوم السلطان الناصر بجند مصر .

باتت الجنود على ظهور خيولها والطبول تضرب. وراح بيبرس الجاشنكير وسلار وقبجق وكبار الأمراء يدورون طوال الليل على الأمراء والأجناد يرصونهم وينظمونهم ويؤكدون عليهم بضرورة اليقظة والتأهب . ونزل قطلوشاه بمشاته وفرسانه فبرزت له المماليك السلطانية التي استقتلت في القتال وراحت ترمي الجنود المغول بالسهام وتقاتلهم، إلى أن انسحب قطلوشاه إلى الجبل عند منتصف النهار. وعلم المسلمون من بعض أسرى المغول أن قوات قطلوشاه تعانى من العطش ، فلما نزل المغول في فجر اليوم

الثالث من المعركة وساروا نحو النهر لم يتعرض لهم المسلمون ، حتى وصلوا إلى النهر فقام المسلمون بحصدهم حصدا، وطاردوا الفارين منهم، وقامت العامة بمساعدتهم في المطاردة، ولم يعبر الفرات مع قطلوشاه من جنوده إلا عدد قليل. وأرسل المسلمون بالأمير بدر الدين بكتوت إلى مصر ببشارة النصر . وسار الناصر إلى دمشق التي تزينت ومعه الخليفة ، فخرج أهلها يضجون بالدعاء والهناء . وبكى الناس من شدة الفرحة ، ونزل الناصر بالقصر الأبلق وصلى العيد بدمشق ثم غادرها عائدا إلى مصر في الثالث من شوال ودخل القاهرة عاصمة ملكه التي تزينت له من **باب النصر** في الثالث والعشرين من نفس الشهر ، ومعه الأسرى ورؤوس المغول ، ثم زار قبر أبيه الملك المنصور ، وصعد إلي قلعة الجبل على الشقق الحرير، وأنعم على الأمراء ، وأمر بإحضار سائر مغاني العرب من كل أنحاء مصر، وأقيمت احتفالات كبرى في البلاد .

أما قطلوشاه فقد وصلت أنبأ هزيمته إلى **همذان** فوقعت الصرخة عند المغول. وأغتم غازان غما عظيما حتى مرض وسال الدم من أنفه، وأمر بقتل قطلوشاه ثم عفا عنه وبصق في وجهه مع سائر الحضور . ولم يعمر غازان طويلا بعد تلك الهزيمة الماحقة حيث مات مكمودا في 11 مايو 1304 بعد أن حكم مغول الالخانات ثماني سنين وعشرة أشهر .

الدولة الرسولية في اليمن 1229 م – 1454 م

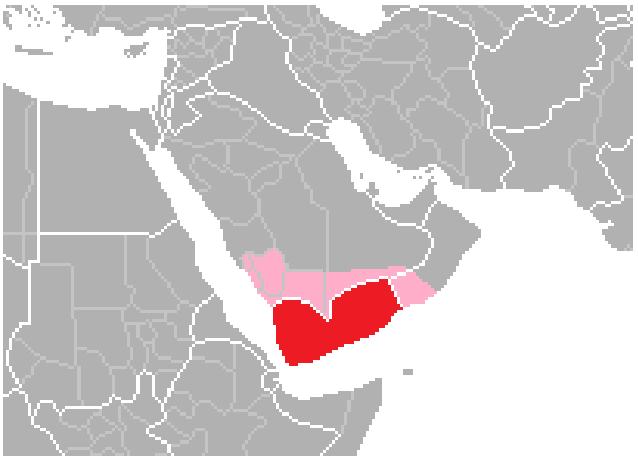

تقديم :

دولة الرسوليين (بنو رسول) عاصمتها تعز . كانت دولة ملكية من سلالة تركمانية مسلمة حكمت بلاد اليمن منذ 1229 حتى 1454 ، بعد أن ترك الأيوبيون المقاطعات الجنوبية لولاتهم في جزيرة العرب.,

وملكها الأول : المنصور عمر بن علي بن رسول - 1229 - 1249

وملكها الأخير : المسعود أبو القاسم بن الأشرف إسماعيل - 1446 - 1454

التسمية

ادعى الرسوليين كما ادعى الصفويون من قبلهم أنهم ليسوا تركمان الأصل وإنما هم عرب أقحاح يرجع نسبهم إلى قبيلة الأزد اليمنية التي نزحت إلى شمال الجزيرة بعد تهدم السد وسادوا في بلاد الشام ، وفي أزمنة لاحقة سكن أحفادهم بلاد التركمان وتكلموا لغتهم ومن هنا جاء الوهم عند البعض فجعلوهم تركمانا . أما الجد القريب للرسوليين فهو محمد بن هارون الذي استوطن العراق ودخل في خدمة أحد خلفاء بني العباس الذي وثق بحكمته وفصاحته فجعله رسوله إلى الشام ومصر حتى غلب عليه لقب رسول فصار علما عليه وعلى أسرته من بعده ، ثم انتقل رسول هذا من العراق إلى الشام ومن هناك إلى مصر، فلما استوثق الحكم للأيوبيين في مصر أدخلوا أبناء رسول في خدمتهم ومكنوهم من اليمن ، فكان في اليمن من بني رسول خمسة صحبهم توران شاه أحدهم المؤسس سالف الذكر نور الدين عمر بن علي بن رسول الذي جاهد مع الأيوبيين في اليمن لتوطيد دولتهم حتى آلت إليه الأمور على النحو الذي مر بنا . وتعد دولة الرسوليين التي اتخذت من تعز عاصمة لها من أطول الدول عمرا في تاريخ اليمن الوسيط إذ استمرت قرنان وثلث القرن ، وحكمها خمسة عشر ملكا أولهم: نور الدين عمر الرسولي وآخرهم المسعود وهو أبو القاسم صلاح الدين بن الأشرف الرسولي ، ويجعل بعض المؤرخين من المؤيد وهو منافس المسعود في الحكم آخر الملوك، لكن كليهما انتهى أمره في العام 858 هـ / 1454 م على يد الطاهريين كما سنرى .

الاستقلال عن الدولة الايوبية

أعلن الرسوليون استقلالهم عن الدولة الأيوبية في مصر في العام 630 هـ/1232م وخطبوا للخليفة العباسي المعاصر لهم بعد أن طلبوا منه أمر نيابة مباشر عنهم في اليمن دون وساطة الأيوبيين، وكانت الخلافة العباسية في نزعها الأخير ولا تملك إلا الموافقة على طلبات من لا يزال يرى في غطائها الروحي أهمية لتوطيد ملكه وهو بالضبط ما احتاج إليه الرسوليون الذين ظلوا على ولاء للخلافة العباسية ويخطبون

في مساجدهم لآخر خلفائها المستعصم دهرا طويلا بعد زوال دولتهم في بغداد عام 656 هـ/ 1258 م على يد المغول، إذ يذكر الخزرجى مؤرخ بني رسول المعاصر والمتوفى عام 812 هـ/1409م أن المستعصم: " هو الذي يدعى له على سائر المنابر إلى وقتنا هذا من سنة ثمان وتسعين وسبعمئة " أي بعد مائة وستة وخمسين عاما من انتهاء الخلافة العباسية ، وربما استمر بعد ذلك وإلى بدايات تصدع الدولة .

توحيد اليمن تحت حكمهم

مؤسس الدولة الرسولية في اليمن فهو الملك المنصور نور الدين عمر ثاني أربعة أبناء لشمس الدين علي بن محمد رسول، وكانت لهم شوكة ومكانة عند بني أيوب. وقد اختار الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل، آخر ملوك الأيوبيين في اليمن نور الدين أتابكا واستنابه على اليمن كله ثم رحل قاصدا مصر، وتوفي في الطريق إليها سنة 626هـ، فاستقل نور الدين بأمر اليمن وتلقب بالملك المنصور، وأخضع صنعاء واتخذ تعز حاضرة له، ثم مد سلطانه إلى أكثر أنحاء البلاد ودانت له حضرموت ومكة المكرمة عام 638هـ، وكانت له وقائع عدة مع أشراف الزيدية وبعض أفراد أسرته من المنشقين تغلب عليهم فيها، ودام حكمه واحدا وعشرين عاما ومات غيلة سنة 647هـ على يد مماليكه في مدينة جند.

بايع قتلة المنصور عمر، ابن أخيه أسد الدين وساروا به إلى زبيد، غير أن ولد المنصور الملك المظفر شمس الدين يوسف تمكن من استعادة زمام الأمور والثأر لأبيه من قتلته، ومن ثم إعادة فتح البلاد من جديد لتمرد أخوته وأبناء عمومته واستقلالهم بما تحت أيديهم ومناوأة الأشراف، وتمكن بعد ثلاث سنين من الصراع من استرداد صنعاء وتعز وحصن دملوة، ودانت له بقية البلاد، غير أن الأشراف ظلوا يناصبونه العداء حينا ويحالفونه حينا آخر مدة حكمه الذي دام سبعا وأربعين سنة، وكانت وفاته سنة 694هـ. وتولى الحكم من بعده ولده الملك الأشرف عمر بن يوسف (694-696هـ) ثم الملك المؤيد هزبر الدين داوود بن يوسف (696-721هـ) بعد وفاة أخيه. وتوالت في عهد هذا الأخير المناوشات وأعمال التمرد في الجبال والسهول، خاض فيها معارك دامية ومدمرة مع خصومه من الأئمة والأشراف والكرد والمماليك والقرامطة، ولحق بالبلاد دمار غير يسير. توفي المؤيد في آخر سنة 721هـ وجلس على كرسي الحكم بعده ابنه الملك المجاهد سيف الدين علي (721-764هـ)، غير أنه سرعان ما وقع ضحية تمرد قاده عمه وأولاد عمه وبعض أمرائه ومماليكه، وظل رهن الإقامة مدة إلى أن نجح بعض أصدقائه في تخليصه وإعادته إلى عرشه سنة 724هـ، ولكنه لم يستعد كامل سلطاته، واستقل بعض أبناء عمومته بما تحت أيديهم وخرج عليه ثلاثة من أولاده وبعض أقاربهم وتمرد عليه العسكر والمماليك فحاول تأديبهم، وظل الأشراف وبعض الأئمة على عصيانهم ومناوشاتهم كلما سنحت لهم الفرص، وعمت البلاد الفوضى والقلاقل لانعدام القوة الرادعة. ولما خرج المجاهد إلى الحج سنة 751هـ أجبر على الذهاب إلى مصر ولم يتمكن من العودة إلى اليمن إلا بعد عام.

توفي الملك المجاهد في عدن وهو يقود حملة لتأديب ابنه المظفر، وحمل جثمانه إلى تعز حيث دفن وخلفه في الحكم ولده الملك الأفضل ضرغام الدين عباس بن علي (764-778هـ)، وثار عليه أخوه الملك المظفر وانضم إلى الأشراف الذين فرضوا سيطرتهم على مناطق كبيرة من اليمن، واستولى بعض العرب على زبيد.

بعد وفاة الأفضل اختار الأعيان والقضاة ولده الملك الأشرف ممهد الدين إسماعيل سلطانا (778-803هـ)، ومع أن الأمور ظلت على نحو ما كانت عليه في عهد والده وجده فقد شهد عهد الأشرف سنوات من الهدوء والاستقرار وحسن الإدارة وهيمنة السلطة على سائر البلاد حتى مكة، ونشطت الحياة الدبلوماسية في زمنه وتبادل الرسائل والهدايا مع ملوك الهند والصين والحبشة ومصر، وسار في الرعية سيرة حسنة حتى اشتهر بلقب الملك العادل، وخلفه ولده الملك الناصر صلاح الدين أحمد (803-827هـ) الذي نهج على سياسة أبيه، وحمل خصومه على الاعتراف به وإطاعته، وانتقض عليه أحد إخوته فسمل الناصر عينيه. غير أن دولته سرعان ما تفككت بعد وفاته وتقلص سلطانها. وتوالى على العرش بعده ستة سلاطين من نسله حكموا مددا قصيرة، لم يكن لبعضهم من الملك إلا الاسم، وهم على التوالي الملك المنصور عبد الله

بن أحمد (827-830هـ) فالملك الأشرف إسماعيل بن أحمد (830-831هـ) الذي خلع عن العرش ومات في السجن، ثم الملك الظاهر يحيى بن إسماعيل (831-842هـ) الذي اجتاح الطاعون البلاد في أواخر عهده (سنة 839هـ) وتولى الملك بعده ابنه الملك الأشرف إسماعيل بن يحيى (842-845هـ) وخلفه ابن عمه الملك المظفر يوسف بن عمر بن إسماعيل (845-854هـ) الذي ثار عليه المماليك وانتهبوا مدينة زبيد، وبايعوا أحد أقربائه فيها، فانتقم منهم السلطان وقتل من أهل المدينة خلقا كثيرا وتفرق أهلها، فلقب بالخاسر. ولم يطل به المقام في زبيد فأخرج منها هو وأولاده سنة 847هـ فأقام بتعز، وفي عهده اشتدت شوكة بني طاهر في لحج الذين ساندوه في صراعه على السلطة. وقام بالأمر في زبيد الملك المسعود أبو القاسم بن الأشرف إسماعيل (847-858هـ) وتوجه منها إلى عدن ودخل لحج، ثم توجه إلى تعز محاصرا لها فاستعان الملك المظفر ببني طاهر ودارت بين الطرفين وقائع متفرقة وعانى السكان منها معاناة عظيمة وحصلت مجاعة وغلاء شديد، واستقل المماليك والعبيد بأمورهم وولوا عليهم الملك المؤيد حسين بن يحيى في آخر سنة 855هـ، وأخفق الملك المسعود في تأديبهم، واستمرت الحرب بينه وبين بني طاهر سجالا إلى أن أيقن بعقم محاولاته فخلع نفسه وخرج من عدن وتوجه إلى مكة المكرمة منفيا. واستولى بنو طاهر على الحكم في اليمن.

تمردات

تمكن الرسوليون وبقيادة مؤسس ملكهم الملك المنصور من توحيد اليمن كله تحت حكمهم ، من حضرموت جنوبا وحتى مكة شمالا، وبسطوا سيادتهم الفعلية على كل جهات اليمن ودخلوا مناطق وحصون لم يستطعها قبلهم الأيوبيون، ودانت لهم القبائل والأسر الحاكمة كالأئمة الزيديين في صعدة وجهاتها وآل حاتم في صنعاء وما حولها. ومع ذلك فقد جابه الرسوليون توثبات قوى مختلفة وأولها تمرد واليهم في صنعاء الأمير أسد الدين لأكثر من مرة رغم العفو المتكرر عنه، ثم جابهوا قوى زيدية بزعامة الإمام المهدي أحمد بن الحسين من جهة ثم بزعامة أبناء وأحفاد الإمام عبد الله بن حمزة وهم من تطلق عليهم المصادر إجمالا لقب الحمزات ، وقد دخل الأئمة الحمزات في حرب تنافسية على السيادة والنفوذ مع الإمام المهدي أحمد بن الحسين وأذيقوا شر الهزائم وخسروا كثيرا من مواقعهم قبل أن يتدخل المظفر الرسولي إلى جانب الحمزات ويمكنهم من النصر فاعترف الأئمة بسيادة الرسوليين على البلاد، كما جابه الرسوليون تمردا من سلطان حضرموت سالم بن إدريس فجهزوا له بعد المراسلات والإعذار حملات برية وبحرية انتهت بهزيمته ومقتله، وبعد المظفر يأتي الملك الأشرف الذي يدخل في حرب قصيرة مع أخيه المؤيد غير المعترف بحكم أخيه. لكن الموت يعاجل الأشرف الرسولي بعد ما يزيد قليلا عن العام ليأتي أخوه المؤيد فيحكم اليمن لخمس وعشرين سنة يتمكن خلالها من ترسيخ هيبة الدولة عبر قضائه على التمردات في المخلاف السليماني بتهامة ومقاومته لوثبات الأئمة الزيديين في الجبال.

المجاهد علي

ويخلف المؤيد ولده المجاهد علي 721 –764هـ/ 1321-1362م الذي يبقى في الحكم ثلاثا وأربعين سنة يجابه فيها أعنف وأعتى التمردات ضد ملكه من مختلف الأطراف ، من داخل بيته وأعوانه ، من جيشه ومن الطامحين في الاستقلال ، تضطره للاستعانة بقوة مملوكية من مصر، لتنقلب هذه القوة عبئا جديدا عليه فيعيدها إلى مصر، بل أنه يتعرض للأسر في مكة في واحدة من حجاته، وينقل إلى مصر ليمكث هناك عاما كاملا، بعده يكرم السلطان المملوكي وفادته ويرده إلى بلاده مكرما ليواصل الحكم والتصدي للصعاب، وقد أظهر المجاهد صمودا وعنادا وبطولة وحنكة في مجابهة المستجدات ، تجعله بحق واحدا من عمالقة الرسوليين، وإن كانت سني حكمه المليئة بالاضطرابات قد أحدثت شرخا في شباب دولتهم وهو الشباب الذي دام قرنا من الزمان احتفظ الرسوليون خلاله باليمن موحدا ومهابا، أما السنوات الأخيرة من حكم المجاهد فقد شهدت تصدعا في وحدة اليمن السياسية ، إذ لم يمت الملك المجاهد إلا وقد تمكن جيل جديد من الأئمة الزيديين في القسم الأعلى من اليمن أمثال المتوكل مطهر بن يحيى وابنه محمد بن المطهر ثم المهدي

علي بن محمد والناصر صلاح الدين وابنه المنصور علي من بناء قوة جديدة لهم مكنتهم في الثلث الأول من القرن الثامن الهجري من السيطرة على القسم الأعلى من اليمن حتى ذمار وسلخه من جسم الدولة الرسولية لتتقوض من جديد أركان الوحدة اليمنية للمرة الثانية بعد الصليحيين.

خلف المجاهد

وخلف المجاهد ابنه الأفضل العباس وجاء بعده الملك الأشرف الثاني ثم الملك الناصر ليعقبه الأشرف الثالث ثم الأشرف الرابع ثم يأتي الملكان المتنافسان المظفر والمفضل ثم يليهم الملك الناصر الثاني ليخلع وليتم تنصيب الملك المسعود آخر ملوك بني رسول ليذهب هو ومنافسه المؤيد.

الامتداد الجغرافي

وفي أزمنة هؤلاء الحكام تميزت فترات حكمهم في المحافظة على مناطق نفوذ الدولة الرسولية وفي القضاء على التمردات المختلفة هنا وهناك في تهامة ومخلاف جعفر (إب) ثم بالقضاء على التمردات داخل البيت الحاكم وهي التي قام بها الإخوان والأعمام ضد بعضهم مستعينين بقوى المماليك والتي حاول الملك الأشرف الثالث التنكيل بهم لإخراجهم من حسابات القوة محرزا بعض النجاح، كما قامت حرب بين الملك الناصر الرسولي وإمام الزيدية على بن صلاح الدين عندما حاول الأخير غزو بلاد رداع التابعة للرسوليين والمحكومة من قبل ولاتهم آل معوضة جدود المؤسسين لدولة بني طاهر فيما بعد، وهم الذين وفدوا على آل رسول أول الأمر عام 817 هـ/1414م ثم عام 842هـ/1438م ، ليأخذوا بعد ذلك في تقوية أنفسهم في جهاتهم، في وقت أخذت فيه الدولة الرسولية تزداد ضعفا جراء المنازعات الأسرية على السلطة وهي التي مزقت دولة الرسوليين بين المتنافسين على السلطة. وكانت آخر المنازعات الحربية هي بين الملك المسعود الذي استطاع استعادة التهائم وعدن ليزحف من هناك إلى تعز لطرد الملك المظفر الثاني منها، وقد استغل مماليك تهامة الحرب بين الملكين ليشددوا قبضتهم على تهامة ولينصبوا الأمير حسين بن الملك الظاهر ملكا ويلقبوه بالمؤيد في العام 855هـ/1451م ، لنجد أنفسنا أمام ثلاثة ملوك رسوليين في وقت واحد يتنازعون الملك والسيادة، وقد شجع هذا التنازع الصريح بين آل رسول ولاتهم وحلفاؤهم من بني طاهر على الطمع في وراثة أسيادهم من بني رسول ، وذلك بدخولهم عدن عام 858هـ/1454م وأسر الملك المؤيد آخر حكام بني رسول ويعتبر البعض أن المسعود هو آخر ملوك بني رسول على أساس أن المؤيد منافس له فقط ومن صنيعة المماليك، لكن المماليك كانوا قد استبدوا بكثير من الأمور وهم الذين خلعوا الملك الناصر الثاني قبل ذلك ونصبوا المسعود ملكا، وعليه يمكن اعتبار المؤيد آخر ملوك بني رسول .

الانجازات

كان بعض سلاطين بني رسول واسع المعرفة، يقدم الأدباء وأهل العلم ويجاريهم في علومهم، ومال معظمهم إلى العمارة وإنشاء المدارس والمساجد والترب وجاراهم في ذلك نساؤهم وجواريهم ومماليكهم وكبار الأمراء والأئمة وشيوخ القبائل. ودرج السلاطين في أيام العز والقوة على أن تكون تعز حاضرتهم ومستودع خزائنهم، وعلى قضاء بعض أوقاتهم في زبيد وعلى ساحل البحر، وتولى إدارة البلاد في عهدهم ولاة يخضعون للسلطان مباشرة، ويدفعون له الخراج وما يفرضه عليهم من أتاوى، وإلى جانب الوالي في كل مدينة كبيرة ناظر أو زمام على ما جرت عليه العادة في مصر. أما الجيش فكان كبيرا نسبيا ويعد نحو ألف فارس وعشرة آلاف راجل ويتألف من البوابين حراس الأسوار والمماليك من الأكراد والغز، ومن المتطوعة والمجندين من العرب ومن أهل البلاد.

وقد تميز حكم بني رسول الطويل الأمد ـ بغض النظر عن التاريخ السياسي الحربي ـ بكثير من الإنجازات المهمة في ميدان العلم والتجارة والزراعة والطب، فقد بنوا المدارس الكثيرة وأجزلوا العطاء للعلماء وكان كثير من ملوك بني رسول علماء وشعراء وأصحاب رأي ومؤلفي كتب في فروع المعرفة المختلفة، ولا تزال مدينة تعز إلى يومنا هذا تتزين بمنجزاتهم العمرانية كجامع المظفر وجامع الأشرفية و

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

مدرسة الأشرفية وحصن تعز المسمى الآن قاهرة تعز، بالإضافة إلى آثار المدارس الفقهية، وفي زمانهم برز العلماء والشعراء في كل فن، وهو سر الإعجاب المتزايد بالدولة الرسولية، التي أخذت في الآونة الأخيرة تلقى من المؤرخين والدارسين عموما اهتماما نرجو أن يكلل بدراسات مستفيضة تليق بمآثر الرسوليين في تاريخ اليمن الوسيط .

تميز حكمهم :

تميز حكم بني رسول الطويل الأمد بكثير من الإنجازات المهمة في ميدان العلم والتجارة والزراعة والطب، فقد بنوا المدارس الكثيرة وأجزلوا العطاء للعلماء وكان كثير من ملوك بني رسول علماء وشعراء وأصحاب رأي ومؤلفي كتب في فروع المعرفة المختلفة، ولا تزال مدينة تعز إلى يومنا هذا تتزين بمنجزاتهم العمرانية كجامع المظفر وجامع الأشرفية ومدرسة الأشرفية وحصن تعز المسمى الآن قاهرة تعز، بالإضافة إلى آثار المدارس الفقهية، وفي زمانهم برز العلماء والشعراء في كل فن، وهو سر الإعجاب المتزايد بالدولة الرسولية.

ولعل أبرز ما يشير إلى سطوع نجم الدولة الرسولية وتبوؤها مكانا لائقا بين أمم عصرها تلك الرسالة التي وجهها مسلمو الصين إلى الملك المظفر يشتكون من تعسف ملك الصين ومنعهم من ختان أولادهم كما يطلب منهم الدين الإسلامي، فمجرد توجيه هذه الرسالة إلى الملك المظفر تفيد أن مسلمي العالم كانوا يرون في الملك الرسولي خليفة للمسلمين يتوجهون إليه بالشكوى، وقد تصرف الملك المظفر بما يتفق ومكانته في نفوس مسلمي الصين، إذ بعث إلى ملك الصين برسالة يطلب فيها منه السماح لمسلمي الصين بممارسة واجب الختان لأبنائهم وبعث إليه بهدية تليق بمقامه، فرفع ملك الصين الحضر على ختان المسلمين لأبنائهم، وهو ما يشير إلى تقدير ملك الصين لمكانة الدولة الرسولية خاصة وأن ملوك الصين المعاصرين للدولة الرسولية قد عدوا أنفسهم سادة على العالمين وأن غيرهم من ملك أو سواه إنما هو عبدٌ لهم كما تبين رواية بهذا المعنى تصف مقابلة وفد بلاد الصين للملك الناصر الرسولي.

الملوك :

م	اسم الحاكم	مدة الحكم هـ	مدة الحكم ميلادي
1	المنصور عمر بن رسول	626 – 647هـ	1229 – 1249م
2	المظفر يوسف بن عمر بن رسول	647 – 694هـ	1249 – 1295م
3	الأشرف عمر بن يوسف بن عمر	694 – 696هـ	1295 – 1297م
4	المؤيد داوود بن يوسف	696 – 721هـ	1297 – 1321م
5	المجاهد على بن المؤيد	721 – 764هـ	1321 – 1363م
6	الأفضل عباس بن المجاهد	764 – 778هـ	1363 – 1376م
7	الأشرف إسماعيل بن العباس	778 – 803هـ	1376 – 1400م
8	الناصر أحمد بن الأشرف إسماعيل	803 – 829هـ	1400 – 1426م
9	المنصور بن الناصر أحمد	829 – 830هـ	1426 – 1427م
10	الأشرف إسماعيل بن المنصور	830 – 842هـ	1427 – 1438م
11	الطاهر يحيى بن الأشرف	842 – 850هـ	1438 – 1446م
12	المسعود أبو القاسم بن الأشرف	850 – 858هـ	1446 – 1454م

الجيش

كانت الدولة الرسولية دولة عسكرية بحتة، لأن طبيعة الحكم الرسولي مبنية على المؤسسة العسكرية، وترتب على ذلك سيطرة القانون العسكري على الحياة الرسمية والعامة ، أمتلكت الدولة الرسولية جيشا قويا، عملت على إعداده تربويا وعسكريا، وحرصت على تحديثه باستمرار من خلال متابعة واقتباس عمليات التحديث التي طرأت على الجيوش التي عاصرت الجيش الرسولي – وخاصة الجيش المملوكي - ، واستدعاء الخبراء والمختصين في المجال العسكري . شكل الجيش عماد الدولة الرسولية وأساسا في بقائها على مسرح الوجود لأكثر من قرنين وربع القرن من الزمان؛ فلولا عناية سلاطين بني رسول بالجيش لما حققوا قوة اقتصادية وسياسية، ولا هيئت لهم الأسباب في قمع التمردات وإخماد الثورات

اتخذت الدولة الرسولية من النهج العسكري أساسا في تعاملها مع القوى الأخرى، فلكي تبرهن على شرعية حكمها، وإظهار كفاءتها ومقدراتها اتخذت من توحيد اليمن، ومن التوسع العسكري، والسيطرة على الأماكن المقدسة هدفا استراتيجيا لإثبات ذلك . حيث امتدت سيطرة الدولة الرسولية في أوج قوتها العسكرية على رقعة كبيرة من الأرض، حيث امتدت حدودها الشرقية إلى عمان حاليا في الشرق وإلى السواحل الغربية للبحر الأحمر-الموازية لليمن - غربا مكة شمالا وبحر العرب وخليج عدن جنوبا .

كان أن اهتمام الرسوليين بالجيش هو نتيجة إدراكهم بأنه الوسيلة والأداة التي يمكن من خلالها بسط النفوذ والسيطرة، واعتبرته أيضا المنفذ الوحيد الذي تستطيع من خلاله بث معتقداتها ومبادئها، والحصول كذلك على مكاسب سياسية واقتصادية تساعد في ديمومة حكمها .

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الحملات الصليبية

تقديم :

الحملات الصليبية أو **الحروب الصليبية** بصفة عامة اسم يطلق حاليا على مجموعة من الحملات والحروب التي قام بها أوروبيون من أواخر القرن الحادي عشر حتى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر (1096 - 1291)، كانت بشكل رئيسي حروب فرسان، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى الذين اشتركوا فيها وتواروا تحت رداء الدين المسيحي وشعار الصليب من أجل الدفاع عنه وذلك لتحقيق هدفهم الرئيسي وهو الاستيلاء على أرض المشرق في الوقت الذي كان فيه الشرق منبع الثروات ولذلك كانوا يخيطون على ألبستهم على الصدر والكتف علامة الصليب من قماش أحمر.

كان السبب الرئيس وراء سقوط البيزنطيين الدمار الذي كانت تخلفه الحملات الأولى المارة من بيزنطة (مدينة القسطنطينية) عاصمة الإمبراطورية البيزنطية وتحول حملات لاحقة نحوها.

كانت الحروب الصليبية سلسلة من الصراعات العسكرية من الطابع الديني الذي خاضه الكثير من أوروبا المسيحية ضد التهديدات الخارجية والداخلية. وقد خاض في الحروب الصليبية ضد المسلمين، وثنية من السلاف ، والمسيحيين الروسية والأرثوذكسية اليونانية ، والمغول ، والاعداء السياسيين للباباوات. كان الصليبيون يأخذون الوعود ويمنحون التساهل.

هدف الحروب الصليبية في الأصل كان احتلال القدس والأراضي المقدسة من المسلمين، وكانت القاعدة التي أطلقت في الأصل استجابة لدعوة من الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية الشرقية لمساعدتهم ضد توسع المسلمين السلاجقة في الأناضول.

مصطلح الحروب الصليبية يستخدم أيضا لوصف حروب معاصرة ولاحقه من خلال القيام بحملات إلى القرن السادس عشر في الأقاليم خارج بلاد الشام. عادة ضد الوثنيين، والزنادقة بحسب المعتقد المسيحي، والشعوب الخاضعة لحظر الطرد لمزيج من الدينية، والاقتصادية، وأسباب سياسية. التناحرات بين المسيحيين والمسلمين على حد سواء لنيل الصلاحيات أدى أيضا إلى التحالفات بين الفصائل الدينية ضد خصومهم، مثل التحالف المسيحي مع سلطنة رومية أثناء الحملة الصليبية الخامسة.

كانت الحروب الصليبية بعيدة المدى السياسي، والاقتصادي، والتأثيرات الاجتماعية، والتي استمر بعضها في الأوقات المعاصرة. بسبب الصراعات الداخلية بين الممالك المسيحية والقوى السياسية، وبعض البعثات الصليبية قد تم تحويلها من الهدف الأصلي، مثل الحملة الصليبية الرابعة ، والتي أسفرت عن تقسيم الإمبراطورية البيزنطية المسيحية بين البندقية والصليبيين . وكانت الحملة الصليبية السادسة أول حملة صليبية دون مباركة البابا .

التسمية :

سمي الصليبيون في النصوص العربية بالفرنجة أو الافرنج وسميت الحملات الصليبية بحروب الفرنجة اما في الغرب فقد سمي الصليبيون بتسميات متعددة كمؤمني القديس بطرس (fideles Sancti Petri) أو جنود المسيح (milites Christ) ، ورأى من كان مندفعا بدافع الدين من الصليبيين انفسهم, على أنهم حجاج، واستخدم اسم "الحجاج المسلحين" لوصفهم في إشارة إلى أن الحجيج لا يحمل السلاح في العادة.وكان الصليبيون ينذرون أو يقسمون ان يصلوا إلى القدس ويحصلوا على صليب من قماش يخاط إلى ملابسهم، وأصبح اخذ هذا الصليب إشارة إلى مجمل الرحلة التي يقوم بها كل صليبي.

وفي العصور الوسطى كان يشار إلى هذه الحروب عند الأوروبيين بمصطلحات تقابل الترحال والطواف والتجواب (peregrinatio) والطريق إلى الأرض المقدسة (iter in terram sanctam) وظهور مصطلح "الحرب الصليبية" أو "الحملة الصليبية" على ما يبدو أول ما ظهر في بحث لمؤرخ بلاط لويس التاسع عشر، لويس ممبور سنة 1675.

السياق التاريخي :

الوضع في منطقة الشرق :

كان الوجود الإسلامي في الأرض المقدسة الأولى بدأ مع الفتح الإسلامي لفلسطين في القرن السابع. ولم يلحظ أي تدخل من هذا بكثير مع الحج إلى الأماكن المقدسة المسيحية أو من الأديرة والطوائف المسيحية في الأراضي المقدسة، وكانت دول أوروبا الغربية أقل اهتماما بفقدان القدس، في العقود والقرون التي تلت ذلك، عن طريق غزوات المسلمين وعدائية أخرى من غير المسيحيين، مثل الفايكنغ، والسلاف، ومع ذلك، فإن نجاحات جيوش المسلمين وضع ضغوطا متزايدة على الإمبراطورية البيزنطيه الأرثوذكسية الشرقية.

من العوامل الأخرى التي ساهمت في هذا التغيير في المواقف الغربية ازاء الشرق حدثت في سنة 1009، عندما أمر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بتدمير كنيسة القيامة هناك اضطهادات أخرى تعرض لها المسيحيون المشرقيون في مصر، وبلاد الشام والعراق منذ عهد الخليفة العباسي التاسع المتوكل على الله الذي اضطهد عموما إلى جانب المسيحيين واليهود جميع من يخالفه في المذهب الشافعي ، مع آن الدين الإسلامي لا يأمر بتدمير الكنائس. وفي عام 1039 سمح خلفه للإمبراطورية البيزنطية بإعادة بناء كنيسة القيامة. وسمح الحج في الأراضي المقدسة قبل وبعد إعادة بناء كنيسة القيامة.

حاله دول أوروبا الغربية :

اصل الحروب الصليبية تكمن في التطورات في أوروبا الغربية في وقت سابق من العصور الوسطى، فضلا عن تدهور حاله الإمبراطورية البيزنطية في الشرق الناجمة عن موجة جديدة من الهجمات التركية المسلمة.

انهيار الأمبراطورية الكارولانجية في أواخر القرن التاسع ، جنبا إلى جنب مع الاستقرار النسبي للحدود المحلية الأوروبية بعد تنصير الفايكنج ، والسلاف ، والمجر، قد أنتجت الكثير من الطبقة المسلحة وبروز الطاقات التي كانت في غير محلها قتال بعضهم بعضا، وارهاب السكان المحليين. حاولت الكنيسة كبح هذا العنف مع حركات السلام والهدنة مع الله، والتي كانت ناجحة إلى حد ما، لكن طبقة المحاربين كانوا يسعون دائما لايجاد منفذ لمهاراتهم، وأصبح فرض التوسع الإقليمي، اقل جاذبيه بالنسبة لقطاعات كبيرة من النبلاء. وكان هناك استثناء واحد هو الاسترداد في اسبانيا والبرتغال، فرسان اسبانيا والبرتغال وبعض المرتزقة من أماكن أخرى في أوروبا في مكافحة الوجود الإسلامي. أعطى البابا إسكندر الثاني بركته لمسيحيي ايبيريا في حروبهم ضد المسلمين.

جردت الحملات الصليبية أيضا غير محاربة الإسلام والمسلمين إذ كان هدفها في البداية أيضا محاربة البابا لمخالفيه ، فقد جاء الصليبيون من شمال فرنسا إلى جنوبها لكي يقاتلوا الهراطقة الألبيجنسيين . فمنذ نهاية القرن الحادي عشر بدأت بوادر المقاومة ضد الكنيسة البابوية في روما وسيطرتها على شئون الحياة الأوربية، وعند نهاية القرن الثاني عشر ذاعت الأفكار التي أخذ **يواقيم الفلورى** Jouchim Flora يدعو لها، وقد لاقت أفكاره الدينية الذيوع بسرعة ملحوظة. وسار يواقيم على نهج سان برنار الذي زعم أن العالم قد دخل عصر المسيح الدجال الذي يسبق قيام القيامة. وعلى حين اكتفى **سان برنار** بإدانة كبار الأساقفة على اعتبار أنهم أسرى الشيطان، فإن يواقيم جعل البابوية نفسها هي المسيح الدجال. وقلب بذلك حق وراثة بابا روما للمسيح رأسا على عقب. وحاز شعبية واسعة لدى جميع الفرق المخالفة ، ونتج عن أفكاره هذه أن ظهرت عصبة جمعت حولها عددا ضخما من الأتباع في جنوب فرنسا تدعى **الكارتاريون** Czthari أي **الأطهار** أو **الألبيجنسيون** نسبة إلى بلدة Albi في مقاطعة تولوز والتي كانت معقلا لهم. وعند نهاية القرن الثاني عشر كان سكان المدن الأثرياء ونبلاء تولوز وبروفانس إما أعضاء في الكنيسة الألبيجانسية وإما من المتعاطفين مع قادتها. وكانت البابوية في روما سنة 1200م ترى في السيطرة الألبيجنسية على جنوب فرنسا سرطان ينهش في جسد العالم المسيحي يجب استئصاله بأي ثمن، لأنها رأت فيها ديانة مختلفة. وتطورت الأحداث بالشكل الذي أدى إلى إعلان بابا روما قرار حرمان على **ريموند السادس** أمير تولوز، وإباحة أراضيه وأملاك الألبيجنسيين، فتحمس لذلك أمراء شمال فرنسا واندفعوا في حملة صليبية سنة 1209 قضت على الأمراء الإقطاعيين في جنوب فرنسا ، واقتسموا إقطاعياتهم . كذلك

يمكن أن نصور الغزو الجزئي الذي قام به **الأنجلو ـ نورمان** لأيرلندا على أنه نمط من أنماط الحروب الصليبية رغم أن ضحاياه كانوا من الكاثوليك.

جاءت بداية الحروب الصليبية في فترة كانت فيها أوروبا قد تنصرت بالكامل تقريبا بعد اعتناق الفايكينج والسلاف والمجر للمسيحية . فكانت طبقة المحاربين الأوروبيين قد أصبحوا بلا عدو لقتاله ، فأصبحوا ينشرون الرعب بين السكان ، وتحولوا إلى السرقة وقطع الطرق والقتال في ما بينهم ، فكان من الكنيسة أن حاولت التخفيف بمنع ذلك ضد جماعات معينة في فترات معينة من أجل السيطرة على حالة الفوضى القائمة . وفي ذات الوقت أفسح المجال للأوربيين للاهتمام بموضوع الأرض المقدسة التي فتحها المسلمون منذ عدة قرون ولم يتسن للأوربيين الالتفات لها لانشغالهم بالحروب ضد غير المسيحيين من الفايكنج والمجريين الذين كانوا يشكلون المشكلة الأقرب جغرافيا سابقا ، وكذلك بدأت الكنيسة تلعب دورا في الحرب الاسترادادية في اسبانيا ، حيث قام البابا إسكندر الثاني عام 1063 بمباركة المحاربين الذاهبين إلى الأندلس ، الأمر الذي لعب دورا كبيرا في تكوين فكرة الحرب المقدسة.

دوافعها :

الدافع الأساسي :

بعد انتصار السلاجقة التركمان على البيزنطيين استنجد البيزنطيون بمسحيي بلاد الغال (فرنسا) على أساس أنهما من نفس الديانة (المسيحية) وكانت الدوافع الاقتصادية والاجتماعية عوامل أساسية للدفاع عن الروم البيزنطيين.

الدوافع الدينية :

كانت دعوة البابا للحروب الصليبية التي بدأها البابا **أوربان الثاني** في نوفمبر 1095 بعقده مجمعا لرجال الدين في مدينة كليرمونت فران الفرنسية، وكان الكثير من الحملات قد بررت بتطبيق "إرادة الرب" عن طريق الحج إلى الأرض المقدسة للتكفير عن الخطايا، وكانت الدعوات تروي عن اضطهاد الحكم الإسلامي للمسيحيين في الأرض المقدسة وتدعو إلى تحريرهم، خصوصا بعد تدمير كنيسة القيامة في ١٨ أكتوبر عام 1009 بأمر الحاكم بأمر الله الفاطمي. وتراجعت هذه الدوافع الدينية مع مرور الوقت لتصل إلى حد تدمير مدينة القسطنطينية المسيحية الشرقية في الحملة الصليبية الأولى والرابعة على أيدي الصليبيين أنفسهم.

الدوافع الاجتماعية :

كان قانون الإرث المطبق في أوروبا ينص على أن يرث الابن الأكبر عقارات والده وعبيده بعد موته، وتوزع المنقولات بين أبنائه، وبسبب هذا القانون نشأت طبقة من النبلاء أو الأسياد الذين لم يكونوا يملكون إقطاعيات ، فشاعت بينهم ألقاب مثل "بلا ارض" و"المعدم" دلالة على عدم ملكيتهم لقطعة أرض ، ورأى الكثير من هؤلاء فرصتهم في الحملات الصليبية للحصول على أراض في الشرق ، ورأى آخرون فيها فرصة لتوسيع أملاكهم بضم أملاك جديدة ، كما كان الفقراء يجدون فيها فرصة لحياة جديدة أفضل ووسيلة تخرجهم من حياة العبودية التي كانوا يعيشونها في ظل نظام الإقطاع السائد في ذلك الوقت. ولا ننسى أيضا رغبة المدن الساحلية الأوروبية تحقيق مكاسب تجارية نظير نقل المحاربين على سفنها ورغبة بعض فرسان أوروبا في التخلص من النظام الإقطاعي الفاسد عن طريق العيش في الشرق وهذا ما يعيد نفسه اليوم

العلاقة مع الإسلام :

كانت العلاقات الخارجية لاوروبا مع المد الإسلامي لا تبعث على الطمأنينة . فالمسلمون الذين كانوا قد قاتلوا البيزنطيين منذ القرن السابع الميلادي قد وصلوا إلى جبال البيرينية في شمال إسبانيا وجنوب

فرنسا بعد أن سيطروا على شمال أفريقيا، فكانت المناطق الأوروبية المتاخمة لحدود دولة الأندلس الإسلامية بشبه جزيرة إيبيريا وجزيرة صقلية تشعر بتهديد السيطرة الإسلامية عليها مما ساهم في تجنيد الأوروبيين بدافع الحماية والدفاع عن مناطقهم.

التوترات بين روما والقسطنطينية :

رأت البابوية في السيطرة على الأرض المقدسة دعما كبيرا لنفوذها، كما رأت أيضا، في السيطرة على الكنيسة الشرقية بالقسطنطينية وسيلة لإعادة توحيد الكنيسة تحت ظلال البابوية، ولعبت العوامل الاقتصادية والتنافسية دورا بدا واضحا في الحملة الصليبية الرابعة. مما أدي إلى التضاؤل المستمر في دفاع الصليبيين عن الإمبراطورية البيزنطية.

الحملات الرئيسية :

يصعب الفصل بين الأحداث التي وقعت في فترة الحروب الصليبية. لكن المؤرخين يقسمون الحملات الصليبية إلى الحملات التالية :

حملة الفقراء أو حملة الشعب :

حملة قام بها الفقراء والاقنان وجمهور قليل من الفرسان ، حيث كان الوعد الكنسي بالخلاص والفوز بالغنائم سببا مقنعا لمغادرة حياتهم البائسة والتوجه إلى تحرير القدس. وهذه الحملة قادها **بطرس الناسك** حتى وصولها إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية . وكانت الجموع تندفع دون توقف ودون انتظار أوامر القيادة ، خلفت وراءها خرابا ونهبا في المجر والصرب واليونان وآسيا الصغرى ، حتى سحقتهم قوات السلاجقة الأتراك في 21 أكتوبر عام 1096 م. وكان عدد الصليبيين 25 ألف رجل.

الحملة الصليبية الأولى

تحركت في أغسطس عام 1096 من اللورين ، طوابير قادها جودفري دي بوبون الرابع، وانضم إليها أتباعه (أخوه الأكبر الكونت يوستاس من بولون وأخوه الأصغر بلدوين من بولون أيضا ، كما أنضم بودوان له بورغ ابن عم غودفري، والكونت بودوان من اينو والكونت رينو من تول) على اثر الدعوة التي انطلقت لها حملة الفقراء، مشت هذه الفصائل على طريق الراين - الدانوب التي سارت عليها قبلهم فصائل الفلاحين الفقراء. حتى وصلت القسطنطينية نهاية عام 1096.

وأسفرت الحملة الأولى عن احتلال القدس عام 1099 وقيام مملكة القدس اللاتينية بالإضافة إلى عدة مناطق حكم صليبية أخرى ، كالرها (اديسا) وإمارة إنطاكية وطرابلس بالشام.

ولعبت الخلافات بين حكام المسلمين المحليين دورا كبيرا في الهزيمة التي تعرضوا لها، كالخلافات بين الفاطميين بالقاهرة ، والسلاجقة الأتراك بنيقية بالأناضول وقتها . وباءت المحاولات لطرد الصليبيين بالفشل كمحاولة الوزير الأفضل الفاطمي الذي وصل عسقلان ولكنه تراجع بعدها أمام العصابات الصليبية التي استكملت السيطرة على بعض البلاد الشامية والفلسطينية بعدها.

الحملة الصليبية الثانية

بدأت الحملة الثانية عام 1147 وانتهت عام 1192. وكانت قد أعقبت فترة من الهدوء، دعا إليها برنارد دي كليرفو، وكان قادتها لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث هوهنشتاوفن إمبراطور الجرمان (ألمانيا) ، وهي أول حملة يشترك فيها الملوك، تعرضت فيها الجحافل الألمانية لضربة قوية تمثلت في الجوع والمرض بعد هزيمة لحقت بها أمام فصائل الخيالة التابعة **لسلطان قونية السلجوقي** جوار **ضورليوم** ، كما منيت القوات الفرنسية بهزيمة خطرة **بجوار خونة** .

أنهك السلاجقة الصليبيين بغاراتهم المتواصلة. وفي 24 يونيو 1147 تلاقى لويس السابع وكونراد الثالث ووصية العرش ميليساندا مع أعيان القدس. ومضوا لحصار دمشق الحصينة ، لان فتحها كان يبشر

بغنائم وفيرة . دام الحصار خمسة أيام (من 23 إلى 27 يوليو) . لكنه فشل . وتخلي ملك القدس بودوان وبارون طبرية عن مطلبهما بعد تدهور موقعهم العسكري بسبب مناورة عسكرية أو لعله برشوة قدمها لهما الوزير الدمشقي معين الدين أنر . وفي عام 491هـ/ 1097م؛ تجمعت قوات الصليبيين في القسطنطينية، وبعد أن تم إعدادها عبرت البوسفور إلى الشام، ودارت بينهم وبين السلاجقة معركة عام 1097م، عند "ضورليوم"، ولكن هزم فيها السلاجقة .

ثم استولى الصليبيون على أنطاكية في شمالي الشام، وأسسوا بها أول إمارة لهم، ثم استولوا على الرها في إقليم الجزيرة الشمالي، وأسسوا إمارتهم الثانية واتجهوا إلى مدينة القدس وبها بيت المقدس . وأمام أربعين ألف مقاتل ، لم يستطع جيش الفاطميين فك حصارهم للمدينة الذي استمر شهرا كاملا، ودخلوها في النهاية في 15 يوليو سنة 1099م، وأقاموا فيها مذبحة قضوا على سكانها جميعا رجالا ونساء وأطفالا وكهولا، واستباحوا مدينة القدس أسبوعا يقتلون ويدمرون حتى قتلوا في ساحة الأقصى فقط سبعين ألفا من المسلمين.

ويذكر أن ريموند القائد الصليبي احتل " معرة النعمان " ، وقتل بها مائة ألفٍ، وأشعل النار فيها، ثم أقاموا دولتهم الكبرى المعروفة باسم مملكة القدس. وفي هذه الحملة ، ظلت بعض مدن الشام الهامة مثل حلب ودمشق في أيدي المسلمين. لقد تم الاستيلاء على القدس، وشعر الصليبيون أنهم حققوا واجبهم الديني باستعادة المدينة المقدسة.

وقد قسم الصليبيون هذا الإقليم إلى أربع إمارات :

إمارة الرها 492هـ/ 1098م، وتشمل أعالي نهري دجلة والفرات، وتقرب حدودها الجنوبية الغربية من حلب، وكانت عاصمتها الرها التي توجد في بعض الخرائط باسم إدريسا .

أما الثانية فهي **إمارة أنطاكية** ، وتقع في الإقليم الشمالي جنوب غرب إمارة الرها .

ثم تليها جنوبا **إمارة طرابلس** وهي تقع في شريط ضيق على الساحل وهي أصغر هذه الإمارات.

أما الرابعة فهي **مملكة القدس** ، وتمتد حدودها الشرقية من قرب بيروت الحالية ، ثم تتبع نهر الأردن حيث تتسع قليلا، وتتجه جنوبا إلى خليج العقبة، وكانت عاصمتها القدس نفسها. وكان لكل إمارة من هذه الإمارات أمير أو حاكم يحكمها، لقد استولوا على القدس، وها هو ذا نصرهم قد تم ، وها هي ذي أوروبا كلها في فرح متزايد، ولكن الخلافات بينهم قد عادت كأشد ما تكون بعد أن تم لهم النصر.

معركة حطين :

في 4 يوليو 1187 وقعت معركة حطين التاريخية والمحورية. حيث انتصر فيها السلطان صلاح الدين الأيوبي سلطان مصر والشام. فحرر القدس في 2 أكتوبر 1187، الأمر الذي دفع بالبابا غريغوري الثامن إلى دعوة الحملة الصليبية الجديدة.

الحملة الصليبية الثالثة

دعا إليها البابا غريغوريوس الثامن ، عام 1187 ردا علي استرداد صلاح الدين للقدس وعودتها للمسلمين.وقاد الجيوش الصليبية ملك فرنسا فيليب اوغست ، وريتشارد "قلب الأسد" ملك إنجلترا، وملك الجرمان (ألمانيا) فريدريك بربروسا. لكن بربروسا غرق في 1190 في نهر اللامس. فتشردت صفوف قواته. أما الفرنسيون والانجليز، فلم ينتهوا من الاستعداد للحملة حتى 1190، وفي الطريق عمل ريتشارد الأول على توسيع نفوذه في صقلية مما وتر العلاقات مع الملك الفرنسي واضعف التحالف بينهما.

قام الصليبيون بحصار عكا التي استسلمت في 12 يونيو 1191. وغادر فيليب عائدا إلى فرنسا، وجرت مذبحة بأمر ريتشارد وتحت قيادته في عكا. بعدها تمت محاولاته لاحتلال مدن أخرى . لكنها باءت كلها بالفشل ، وفي عام 1192.عقد الصلح مع صلاح الدين، واحتفظ الصليبيون بشريط ساحلي يمتد من صور إلى يافا، وسمح صلاح الدين للحجاج والتجار بزيارة مدينة القدس والأماكن المقدسة.

الحملة الصليبية الرابعة

دعا إليها البابا اينوقنتيوس الثالث في 1202. وكانت خطة الصليبيين الأولية تتلخص في دفع القوات إلى مصر , لضرب القوة الإسلامية الكبرى في المنطقة . ثم شن الحرب منها باتجاه القدس . لكن البندقيين الذين تولوا أمر توجيه وتوفير وسائل النقل والغذاء للحملة مقابل 85 الف مارك ذهبي، اثروا في مسار الحملة ووجهوها إلى القسطنطينية عمدا. لأن الصليبيين لم يوفروا المبلغ المتفق عليه . وأسفرت الحملة عن تخريب وتدمير القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ومركز الثقافة الإغريقية العريقة ، ولم تتخذ البابوية إجراءات فعلية تجاه هذا الحدث. وكانت تلك الحملة تمثل انحطاط الحملات الصليبية التي أصبحت فيما بعد بحاجة إلى تبرير مقنع ، بعدما كانت أمرا إلهيا باسم الكنيسة.

الحملات الصليبية الطفولية :

حدثت في حدود عام 1212 وكانت هذه الحركة شبيهة بحملة الفقراء الأولى قبل 1096م ، يختلف حولها المؤرخون لقلة ما كتب عنها.

يرى بعض المؤرخين أن هاتين الحملتين لم تكونا سوى جموعا من الاقنان والفقراء الذين استاءوا من الفشل الذي لاقته الحملات السابقة بقيادة الأسياد ، وان تسميتهم بالحملة الطفولية أو حملة الأطفال جاءت كاستعارة صورية لهذه الجموع . ولم تكن ترتبط حقيقة بكون المشاركين فيها من الأطفال . لكنها تصوير لفظي أصبح فيما بعد وهما تاريخيا. ويرى البعض من المؤرخين أنها كانت حملتين اشترك فيها أعداد كبيرة من الأطفال ، وان لم تقتصر عليهم .

مات العديد من المشاركين بسبب الجوع والظروف القاسية، وتفرقت الجموع وركب بعضهم السفن فوقعوا في أيدي القراصنة وبيعوا كعبيد في أسواق النخاسة. ولم يصل المشاركون في أي من الحملتين إلى الأرض المقدسة.

الحملة الصليبية الخامسة :

سعى البابا اينوشنتيوس الثالث إلى بدء حملة صليبية جديدة عام 1213. فبدأ بحملة وعظ دامت حتى انعقاد المجمع اللاتيني الرابع عام 1215 الذي اتخذ سلسلة من الإجراءات التي تتعلق بتنظيم الحملات الصليبية . تحركت قوات مجرية وجنوب ألمانية بقيادة اندارش الثاني وقوات نمساوية. ووصلت إلى عكا. وتوقفت هناك حتى انضمت إليها قوات ألمانية وهولندية . فتوجهوا إلى مدينة دمياط في شمال شرق الدلتا بمصر علي النيل . واستولوا عليها عام 1219. وتحت الحاج نائب البابا اونوريوس الثالث والقاصد الرسولي بيلاجيوس استكمل الهجوم نحو المنصورة . وفي ذلك الوقت بالذات بدأ فيضان النيل.وفتح المصريون السد علي النهر . وقطع المسلمون طريق التراجع على الصليبيين . وحاصرت قوات المسلمين الصليبيين بأعداد كبيرة . وغرق المئات بمياه الفيضان . ووقع الصلح في 30 أغسطس 1221 لمدة 8 سنوات ، وكان على الصليبيين مغادرة دمياط ، ونفذوا ذلك في أوائل سبتمبر من نفس العام ومنيت الحملة الصليبية الخامسة بالفشل الذريع .

الحملة الصليبية السادسة :

قادها الإمبراطور فريدريك الثاني هوهنشتاوفن الألماني الذي أراد أن يحقق مقاصده دون أن يسحب سيفه من غمده في صيف 1228، ولم تحظ هذه الحملة بمباركة البابوية بل حرم الإمبراطور من الكنيسة لتأخره في تنفيذ نذره بأخذ الصليب . تفاوض فيها فريدريك مع السلطان الكامل مما أسفر في فبراير 1229 عن صلح لمدة 10 سنوات تنازل بمقابله السلطان عن القدس باستثناء منطقة الحرم ، وبيت لحم والناصرة وقسم من دائرة صيدا وطورون (تبنين حاليا) وكانت الحملة الأولى التي لا تبارك انطلاقها البابوية.

الحملة الصليبية السابعة :

أدت الهزيمة التي لحقت بفصائل الصليبيين عام 1244 وخسارتهم التامة للقدس إلى ترتيب الحملة الصليبية السابعة ، فقادها الملك الفرنسي لويس التاسع وتوجه بها إلى مصر واستمرت الحملة بين عامي

1248 و1254، فسيطروا في البدء على دمياط ثم المنصورة، ولكن المسلمين بقيادة الملك المعظم توران شاه نجحوا في تدمير قواتهم وفي حصر بقاياها في المنصورة حتى استسلموا، ووقع لويس في الأسر حتى تم فديه عام 1250 فعاد إلى عكا وبقي فيها 4 سنوات قبل العودة إلى فرنسا بخفي حنين.

الحملة الصليبية الثامنة :

انطلق في هذه الحملة لويس التاسع ملك فرنسا في عام 1270 بعد حوالي 3 سنوات من التأخير، وقد قام بها عدد قليل من البارونات والفرسان الفرنسيون، إذ أن فشل الحملات الجلي وانحطاط سمعتها صدهم عنها ، حتى أن مؤرخ سيرة حياة لويس التاسع الذي رافقه في حملته السابقة رفض الانضمام إليه هذه المرة ، ويروي هذا المؤرخ أن نبأ الحملة الجديدة كان مفاجئا للغاية بالنسبة له شخصيا وبالنسبة للأشخاص الآخرين المقربين من الملك، وانه أذهل البارونات ، وكانت المعارضة مجمع عليها تقريبا واضطر الملك إلى شراء حماسة الأسياد بالمال ، ونذر مع الملك النذر الصليبي أبناءه الثلاثة وبعض تابعي الملك الآخرين، واتفق على أن توجه الحملة نحو تونس .

بدأت المفاوضات مع المستنصر أمير تونس ولما نزل الصليبيون في تونس وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود ، وعندها انضم شارل الأول كونت انجو، الأخ الأصغر للويس وملك مملكة نابولي . واستولوا على قلعة قرطاجا القديمة ، ولكن وباء دب في صفوف الفرسان ، وتوفي على أثره الملك وأفراد العائلة المالكة المرافقة باستثناء فيليب الابن البكر للملك الذي شفي ، وفي نفس يوم وفاة الملك وهو 25 أغسطس 1270 وصل أخاه شارل الأول ، وخاضت قواته برفقة قوات لويس بقيادة خلفه فيليب بضع معارك ناجحة ضد قوات أمير تونس ، وفي أول نوفمبر 1270 وقعت معاهدة صلح مع **المستنصر** ألزمته بدفع جزية مضاعفة إلى ملك الصقليتين ، كما شملت حقوقا تجارية متبادلة ، وبعد 17 يوما من التوقيع ، ركب الصليبيون السفن وغادروا تونس.

الحملة الصليبية التاسعة

وقد حدثت حملات صليبية أخرى غير رئيسية منها :

- الحملة على الهراطقة الالبيجيين في جنوب فرنسا بين عام 1209 و1229،
- الحملة الصليبية على الإسكندرية بين عامي 1365 و1369 بقيادة الملك بطرس الأول ملك قبرص،
- حملة نيقيا عام 1396،

وفي القرن الرابع عشر حدث أكثر من 50 حملة ضد البروسيين الهادينيشيين ومدينة ليتاور نظمها الحاكمون في مناطق ألمانيا، وفي القرن الخامس عشر حدثت 4 حملات صليبية ضد الهوسيين التشيكيين، ومن 1443 إلى 1444 حدثت آخر حملة صليبية ضد الإمبراطورية العثمانية.

تأثيرات الحملات الصليبية :

كان للحملات الصليبية تأثير كبير على أوروبا في العصور الوسطى، في وقت كان السواد الأعظم من القارة موحدا تحت راية البابوية القوية ، ولكن بحلول القرن الرابع عشر الميلادي ، تفتت المبدأ القديم للمسيحية ، وبدأ تطور البيروقراطيات المركزية التي شكلت فيما بعد شكل الدولة القومية الحديثة في إنجلترا وفرنسا وألمانيا وغيرها.

كان تأثر الأوروبيين بالحضارة العربية والإسلامية كبيرا في فترة الحروب الصليبية، ولكن يرى العديد من المؤرخين ان التأثير الأعظم وانتقال المعارف الطبية والمعمارية والعلمية الأخرى كان قد حدث في مناطق التبادل الثقافي والتجاري التي كانت في حالة سلام مع الولايات الإسلامية ، مثل الدولة النورمانية في جنوب إيطاليا ومناطق التداخل العربي- الإسلامي مع أوروبا في الأندلس ومدن الازدهار التجاري في حوض المتوسط كالبندقية وجنوه والإسكندرية ، ولكن ما من شك بتأثر الأوروبيين بالعرب خلال الحملات الصليبية أيضا، فكان تطور بناء القلاع الأوربية لتصبح أبنية حجرية ضخمة كما هي القلاع في الشرق بدلا

من الأبنية الخشبية البسيطة التي كانت في السابق، كما ساهمت الحملات الصليبية في إنشاء المدن - الدول في إيطاليا التي استفادت منذ البدء من العلاقات التجارية والمبادلات الثقافية مع الممالك الصليبية والمدن الإسلامية.

وكان للحملات الصليبية أثارا دموية ، فبالإضافة إلى سفك الدماء في الحروب في الشرق ، كانت الأقليات من غير المؤمنين تعاني الأمرين ، فكان الهراطقة الالبيجيين في جنوب فرنسا واليهود في ألمانيا وهنغاريا قد تعرضوا لمذابح بوصفهم " كفرة " أو " قتلة المسيح " ، وأدى ذلك إلى تنمية التمييز العرقي بين شعوب أوروبا الذي كان تكتل اليهود في أوروبا وعزلهم من نتائجه، الأمر الذي الهم فيما بعد الفكر النازي والفاشي في فترة مراهقة الدول القومية في أوروبا.

الحروب الصليبية في الذاكرة الإنسانية :

يرى المسلمون الحروب الصليبية على أنها كانت حروب بربرية ومارس فيها الصليبيون المسيحيون أبشع المجازر الدموية باسم المسيحية فقتلوا الأطفال والنساء والشيوخ وشقوا بطون الحوامل واهلكوا الحرث والنسل فأذاقهم الله على يد عباده من المسلمين الهزيمة والهوان ، ويرى المسلمون في شخصيات صلاح الدين والظاهر بيبرس أبطالا محررين ، وكذلك يرى الأوروبيون الشخصيات المشاركة في الحروب الصليبية إبطالا مغامرين محاطين بهالة من القداسة ، فيعتبر لويس التاسع قديسا ويمثل صورة المؤمن الخالص في فرنسا، ويعتبر ريتشارد قلب الأسد ملك صليبي نموذجي، وكذلك فريدريك بربروسا في الثقافة الألمانية.

كما ينظر إلى مسمى حملة صليبية في عديد من الثقافات الغربية نظرة إيجابية على أنه حملة لأجل الخير أو لهدف سامي ويعمم المصطلح أحيانا ليتخطى الإطار الديني ، فقد ترد عبارات كـ " بدأ فلان حملة صليبية لإطعام الجياع " ، كما استخدم المصطلح من قبل الرئيس الأمريكي جورج بوش لوصف ما أسماه الحرب على الإرهاب في 16 سبتمبر 2001 في عبارة مثيرة للجدل " This crusade, this war on terrorism is going to take a while." أي "هذه الحملة الصليبية ، هذه الحرب على الإرهاب سيستلزمها وقت " .

والجنرال الانكليزي **اللانبي** عندما دخل دمشق في الحرب العالمية الأولى ووصل إلى قبر صلاح الدين الأيوبي , قال كلمته المشهورة : الآن انتهت الحروب الصليبية يا صلاح الدين .

معركة أرسوف 1265

السبع** شعار **الظاهر بيبرس

1 – تقديم :

معركة ارسوف (**1265**) ، معركة وحصار خاضه السلطان **الظاهر بيبرس** من 21 مارس إلى سقوط مدينة ارسوف في 26 أبريل 1265.

2 – البداية :

بعدما استلم الظاهر بيبرس حكم **مصر** سنة **1260** كان عليه ان يواجه الخطر **المغولى** والخطر **الصليبى** في نفس الوقت. قضى بيبرس عشر سنين كاملة من 1261 إلى 1271 في حرب ضد الصليبيين والمغول **والحشاشين** في الشام وأرمن كيليكيا (**مملكة أرمينيا الصغرى**) . ولم يهزم في أي من تلك المعارك .

في خريف 1264 توغل الصليبيون التابعون **للويس التاسع ملك فرنسا** في ضواحي بيسان، وظهرت تهديدات مغولية في الشام ، فخرج الظاهر بيبرس على رأس **الجيش المصري** من **القاهرة** في بداية سنة 1265، وتظاهر بأنه مشغول برحلة صيد في التلال القريبة من مدينة أرسوف . لكن في يوم 27 فبراير ظهر فجاءه أمام **قيسارية** ففاجئ الصليبيين فيها وحاصر قلعتها إلى أن استسلمت له يوم 4 مارس 1265، وبعد أن منح الأمان للحامية الصليبية الموجودة بها وسمح لها بمغادرة المدينة دخلها وسوى قلعتها بالأرض.

من قيسارية سار بيبرس إلى **حيفا** فهرب سكانها وحاميتها بالمراكب فاستلمها بيبرس ودخلها ودمرها ودمر قلعتها، وبعد حيفا مضى إلى قلعة " عثليت " الضخمة التي كانت بيد **فرسان المعبد** (الداوية) وحاصرها ، لكن فرسان المعبد صمدوا أسبوع فقام بحرق أشجارهم وزرعهم خارج أسوار القلعة وتركها ومضى.

3 - محاصرة أرسوف وسقوطها

زحف بيبرس يوم 21 مارس على أرسوف التي كانت بيد **فرسان الاسبتارية** وكانوا قد ملئوها بالمؤن والمحاربين وكان في قلعتها نحو 270 فارس . وكان بيبرس قد نقل كميات كبيرة من الأخشاب ووضعها حول أرسوف كي يجعل منها سواتر تحمى جيشه. وبعد أن حفر المهندسون أنفاقا وسقفوها بالخشب

سلمت للمقدمين من الأمراء. واشترك بيبرس بنفسه في الحفر ونقل الحجارة ودفع **المجانيق** وفى رمى السهام وحتى في المبارزة وكأنه واحد من العسكر، وبعد أن تمكنت المجانيق أن تهدم الأسوار وتفتح فيها ثغرات بدأ الزحف بدخول المدينة في يوم 6 أبريل 1265. هاجم بيبرس القلعة واستبسل الاسبتارية في الدفاع عنها، ولمدة ثلاثة أيام دكت المجانيق وآلات الحصار أسوار القلعة إلى أن استسلمت بعدما قتل فيها نحو ثلث المحاربين الصليبيين. وطلب قائد القلعة الأمان لمن بقي من العسكر الصليبي، فأعطاهم بيبرس الأمان واستلم القلعة منهم ورفعت رايات بيبرس عليها وسلم الصليبيين سلاحهم وخرجوا في صفوف طويلة وهما مقيدين بالحبال ،

يقول المؤرخ **بيبرس الدوادار** الذي حضر حصار ارسوف أن بيبرس قسم أبراجها على الأمراء لكي يهدموها ونقل الأسرى الصليبيين في الأغلال إلى **الكرك** . تدمير المدن والقلاع بعد استسلامها كان كي لا يعود إليها الصليبيين بعد خروج الجيش المصري منها.

عندما أخذ بيبرس ارسوف رجع بالجيش إلى مصر بعدما علم بأن الصليبيين أرسلوا تعزيزات من **قبرص** إلى **عكا** كي لا يهاجمها ، فاكتفى بالاستيلاء على المناطق المحيطة بعكا مما جعلها مكشوفة . وسهل لمن بعده الاستيلاء عليها ، وهذا ما فعله السلطان **الأشرف خليل** بعد ذلك في **فتح عكا** سنة **1291** والتي كان من الصعب فتحها دون التمهيد الذي قام به بيبرس.

دخل بيبرس القاهرة على رأس جيشه المنتصر ومعه الأسرى الصليبيين وخرج ابنه **الملك السعيد** لاستقباله ، وعبر من **باب زويلة** ودخل **قلعة الجبل** وأنعم على الأمراء وكتب خطاب لصاحبه " **ما نفرد** " ملك صقلية وابن **فريدريك الثانى** يحكى له فيه عن الانتصارات التي حققها.

سقوط ارسوف ومن قبلها قيسارية وحيفا في يد الظاهر بيبرس أصاب الصليبيين بالرعب وأدركوا أن أيامهم في شرق **البحر المتوسط** قد صارت معدودة.

الدولة الصفوية 1501 – 1736

شعار الصفويين

العلم

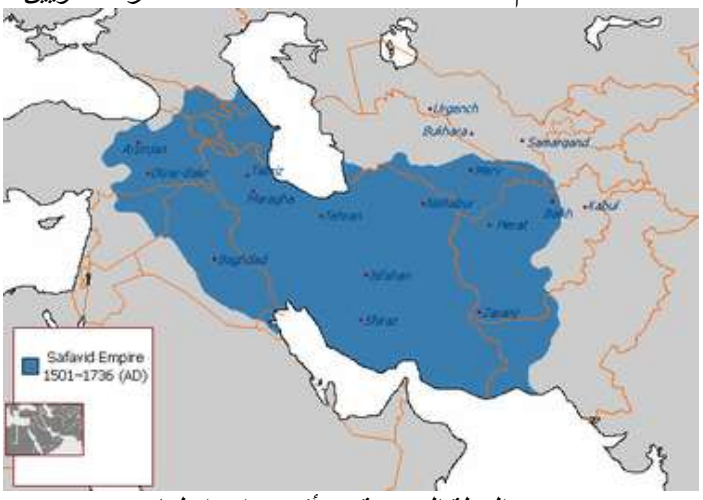

الدولة الصفوية في أقصى امتداد لها

الدولة الصفوية 1501 – 1736	
العاصمة	تبريز، قزوين، إصفهان
اللغة	اللغة الفارسية هي اللغة الرسمية واللغة أذرية هي لغة البلاط ، الشخصيات الدينية ، الجيش
الدين	شيعة إثنا عشرية
الشاه الصفوي الاول	إسماعيل الأول 1501–1524
الشاه الصفوي الاخير	إسماعيل الثالث 1733–1773
1301	أسس الشيخ صفي الدين الأردبيلي (1252-1334م) طريقته الصوفية
1501	تأسيس الدولة الصفوية
1722	استيلاء الهوتاكي الأفغان وسقوط الصفويون
1736	زوال الدولة الصفوية
المساحة	2,850,000 كم^2

1 - تقديم

الصفويون هم سلالة من الشاهات حكمت في بلاد فارس سنوات 1501-1785 م المقر: تبريز: حتى 1548 م ، قزوين : 1548 - 1598 م ، أصفهان: منذ 1598 م.

أسس الشيخ صفي الدين الأردبيلي (1252 - 1334 م) طريقته الصوفية في أردبيل (أذربيجان) سنة 1301 م . وأصبحت أردبيل عاصمة دينية ثم سياسية لأتباعه (مع تحولها إلى حركة سياسية).

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

نجح الصفويون في الوصول إلى الحكم (على بعض المناطق) أثناء زعامة جنيد (1447-1450 م) ثم حيدر (1460-1488 م)، والذين استطاعا إنشاء تنظيم سياسي وعسكري وتكوين وحدات خاصة من الجيش، أو القزلباش (القزل باش أو الرؤوس الحمراء نسبة إلى التاج أو العمامة الحمراء التي يرتديها أتباع الطريقة الصفوية، وتربط العمامة بإثني عشرة لفة تلميحا للأئمة الإثنى عشر).

تولى إسماعيل الصفوي (1487-1524 م) منذ سنة 1494 م زعامة التنظيم. استولى على مناطق غيلان (گيلان) ، واصل سنوات 1499-1501 في توسعه حتى شمل كامل بلاد فارس , قام بطرد القراقويونلو سنة 1507م واستولى على العراق. أقر المذهب الشيعي الإثني عشري مذهبا رسميا للدولة ، حاول أن يسوي بين الفئات التركمانية في الجيش (القزلباش) والفئات من أصول فارسية (الإدارة). انهزم أمام العثمانيين في موقعة جالديران سنة 1514 م. توالت الحروب بينه وبين العثمانيين على الحدود الغربية من البلاد من جهة، وبين الأوزبك (الشيبانيون في بخارى) على الحدود الشرقية من جهة أخرى.

استطاع **طهماسب** (1524 - 1576 م) أن يحيد أعدائه عن طريق سياسته المتوازنة وتسويته للمشاكل الدينية. كما بدأ في عهده تشجيع حركتي الآداب والفنون.

بعد مرحلة اضطرابات عديدة استقر حال الدولة أثناء عهد عباس الأول (1587-1629 م). استولى على أذربيجان سنة 1603 م، ثم شيراز، أرمينية وأجزاء من أفغانستان سنة 1608 م. سنة 23 / 1624 م قام بضم العراق مرة أخرى. داخليا قام بإصلاحات شاملة في الجيش واستعان ببعض من العبيد المسيحيين لقيادة هذا الجيش. عمر مدينة **أصفهان** وجعل منها أهم مدن العالم في تلك الفترة. استطاع أن ينظم التجارة فانتعش اقتصاد البلاد.

بعد موته خلفه على العرش حكام كانوا في الأغلب ضعيفي الشخصية .

عاشت الدولة مجدها الأخير أثناء عهد عباس الثاني (1642-1666 م)، والذي كثف من التبادل التجاري مع الدول الأوروبية عن طريق الشركات التجارية العاملة في المنطقة، كما قام ببعض الإصلاحات الداخلية. قام عام 1648 م بضم أجزء جديدة من أفغانستان إلى دولته.

عرفت اقتصاد البلاد مرحلة تقهقر متسارعة أثناء عهد شاه حسين (1694 - 1722 م) والذي تسبب في إثارة الطائفة السنية بعدما أظهر عدم التسامح في تعامله معهم وتعصبه الشديد للمذهب الشيعي.

سنة 1719 م بدأ زحف الأفغان (**سنيين**) والذين كان يحكمهم الغلزاي (**گلزاي**) على مملكة الصفويين. استولى هؤلاء على أصفهان سنة 1722 م، قاموا بخلع **شاه حسين** ثم أعدموه سنة 1726 م.

سنة 1736 قام الغلزاي بإنشاء حكومة ظل صفوية (يمثلها شاه مجرد من السلطة) . كانت السلطة الحقيقية في بلاد فارس يتقاسمها الزند والأفشريين حتى انتقلت بعدها إلى القاجاريين.

2 – البداية

بعد غزوات المغول الكارثية لإيران في القرن الثالث عشر، وهجرة القبائل المغولية والتركية إليها، فبدأ بالتحول إلى اللغة الفارسية والعمل بتقليد عاداتهم تدريجيا. فظهرت سلالة الإلخانات المنغولية والتي يرجع أصول حكامها إلى سلالة جنكيز خان وحفيده هولاكو خان . فلم يأت أواسط القرن الرابع عشر حتى بدات فارس بالوقوع في براثن الفوضى العارمة فانتشر بها التصوف .

وفي السبعينات من القرن 14 ظهر تيمورلنك الذي أدعى بأنه من سلالة جنكيز خان، والذي أصبح منذ 1360 م أميرا على " كش " (جنوبي سمرقند - أوزبكستان)، وقد ساعدته الأحوال المضطربة في بلاد ماوراء النهر على التمدد والتوسع في آسيا الوسطى

إسماعيل الصفوي

شاه إسماعيل الأول ، مؤسس الدولة الصفوية . صورة أوروبية من العصور الوسطى.

تقديم :

أبو المظفر شاه إسماعيل الهادي الوالي، أو إسماعيل بن حيدر بن الجنيد الصفوي (25 رجب 892 هـ/25 يوليو 1487م - 18 رجب 930 هـ= 23 مايو 1524م) مؤسس الدولة الصفوية في إيران، «إسماعيل الصفوي هو شاه إيران (1501 - 1524) وهو القائد الديني الذي أسس الحكم للصفويين ». وهو سليل عائلة دينية لها تقدير واسع في اردبيل والمناطق المجاورة لها ويرجع بعض المؤرخين اصل الصفويين إلى الإمام الكاظم وبالتالي إلى الإمام علي بن أبي طالب الا ان هذا النسب كان دوما عرضة للطعن , والخلاف بين المؤرخين.

1 - قبل الصفويين

يمثل تاريخ الدولة الصفوية في إيران منعطفا مهما في تاريخها، فبقيامها اتخذت إيران المذهب الشيعي الاثناعشري مذهبا رسميا، وكان لهذا التحول آثاره البعيدة في تاريخ إيران خاصة وتاريخ العالم الإسلامي عامة.

ويعتزالصفويون بالشيخ "صفي الدين الأردبيلي" المولود عام (650 هـ = 1334م)، وهو الجد الخامس للشاه إسماعيل، وكان رجلا نشيطا دائب الحركة والسعي؛ استطاع أن يجذب الأتباع حوله في أذربيجان. ثم انتقل الأمر إلى ابنه، ثم إلى حفيده صدر الدين خواجة علي سياهبوش.

نجح أبناء الأردبيلي وأحفاده في نشر المذهب، والتمكين له بين المحبين والمريدين، وصارت لهم قوة وقدرة على المشاركة في الأحداث السياسية في المناطق التي يقيمون بها، وتحولوا من أصحاب دعوة وشيوخ طريقة إلى مؤسسي دولة لها أهدافها السياسية والمذهبية.

وكانت الأجواء التي تعيشها إيران في أواخر القرن التاسع الهجري من التمزق السياسي وشيوع الفوضى أفضل مناخ استغله الصفويون لجذب المزيد من الأنصار، والتطلع إلى قيام دولة تدين بالمذهب الشيعي. حيث سيطرت على إيران قبيلتان من قبائل التركمان هما قراقويونلو أي أصحاب الخراف السوداء، وآق قويونلو أي أصحاب الخراف البيضاء. وكان القتال مستمر بين تلك القبائل، مما زاد تمزق إيران بعد تعرضها لتدمير المغول ثم لتدمير تيمورلنك.

قتل جد إسماعيل الصفوي الشيخ **جنيد بن إبراهيم** في معركة دارت بينه وبين حاكم شروان السلطان **خليل التركماني** الموالي **للقراقويونلو** عام (10 جمادى الاولى 864هـ \ 4 اذار 1460م) فالتف اتباع الشيخ الجنيد حول ابنه **حيدر** (اب إسماعيل الصفوي) فبدأ يعمل على تنمية قدرات اتباعه واتخذ لهم شعارا

يميزهم وهي قلنسوة حمراء ذات عشرة زوايا دلالة على الائمة الاثنا عشر, فأطلق العثمانيين على كل من يلبس تاج حيدر: **قزل باش** اي : **الرؤس الحمراء** .

غادر الشيخ حيدر اردبيل متوجها إلى ديار بكر حيث التقى هناك **بحسن قوصون** زعيم الآق قويونلو الذي كان يحترم حيدر بن جنيد شديد الاحترام وزوجه من ابنتة حليمة بيكم الملقبة بعلم شاه. وكان حسن قوصون أحد الداعمين والمحبين لحيدر فخسره الصفويين عندما توفي عام 882هـ \ 1477 م وتولى الحكم بعده يعقوب الذي كان معاديا لحيدر. وانتهى الامر بقتل حيدر عام 893هـ \ 1488م في معركة في طبرستان وخلف بعده ثلاثة ابناء هم : **إبراهيم وعلي وإسماعيل**.

2 - المولد والنشأة

ولد إسماعيل الصفوي في (25 رجب 892 هـ / 25 يوليو 1487م) واعتقل هو واخوته وامه بعد مقتل والده وكان عمره عاما واحدا ، وبعد ان قضى هو وعائلته اربع سنين في سجنهم في قلعة **اصطخر** جاء خبر وفاة يعقوب عام 896هـ \ 1491م فاطلق سراحهم ، وعاش بعد وفاة أبيه في كنف **" كاركيا ميرزا "** حاكم **"لاهيجان"** الذي كان محبا للمسلمين الصفويين. ظل إسماعيل الصفوي 5 سنوات تحت سمع هذا الحاكم وبصره، حتى شبّ قويا محبا للفروسية والقتال، قادرا على القيادة والإدارة وهناك خلاف حول اصله بين **عربي أو تركماني أو فارسي** ، إلا أن الوثائق التاريخية المعاصرة له تؤكد انه فارسي صميم .

وفي أثناء هذه الفترة كانت الدولة تعيش فترة صراعات بين أفراد أسرة آق قويونلو التي كانت تحكم فارس آنذاك، وهو ما استغله أنصار الصفويين، وأمّروا عليهم إسماعيل الصفوي، وكان صغيرا لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، لكنه كان مهيأ للقيادة والزعامة بفضل الرعاية التي أحاطه بها حاكم لاهيجان.

تمكن إسماعيل الصفوي وأنصاره من خوض عدة معارك ضد حكام بعض المناطق في إيران والتغلب عليهم، وتساقطت في يده كثير من المدن الإيرانية، وتوج جهوده بالاستيلاء على مدينة "تبريز" عاصمة آق قويونلو، ودخلها دخول الفاتحين، ثم أعلنها عاصمة لدولته.

وبدخول إسماعيل مدينة تبريز تم تتويجه ملكا على إيران، ولقبه أعوانه بأبي المظفر شاه إسماعيل الهادي الوالي، وذلك في سنة (907 هـ = 1502م) وأصدروا العملة باسمه....

3 - المذهب الشيعي.. المذهب الرسمي للدولة

كانت إيران تدين بمذهب السنة ولم يكون فيها سوى أربع مدن شيعية هي: آوه، قاشان، سبزوان، قم. وعقب تتويج إسماعيل الصفوي ملكا على إيران أعلن المذهب الشيعي مذهبا رسميا للدولة عن طريق القوة، فيقول المؤرخ السني قطب الدين النهروالي عن إسماعيل الصفوي "قتل خلقاً كثيراً لايحصون عن الف الف نفس" ويصف المؤرخ الشيعي محسن الامين ذلك "بالكذب الصريح" بينما يقول : واجبار البقية على تغيير مذهبهم . توجهت أنظار إسماعيل إلى منطقة جبل عامل في لبنان التي كانت آنذاك أحد معاقل الشيعة، وفيها الكثير من علمائهم.

4 - استدعاء علماء شيعة جبل عامل من لبنان :

يقول الباحث حسن غريب: "رأى مؤسس الدولة الصفوية – الشاه إسماعيل– أنه من العسير عليه أن يوفر للناس حقيقة المعتقد وترسيخ مبادئه في نفوسهم، ووجد أيضاً أن الكتب غير متوفرة، فعمد إلى ملء الفراغ من خلال استحضار علماء الشيعة من جبل عامل. وقد غادر هؤلاء العلماء إلى إيران بدعوة وبغير دعوة. وفي عهد الملك الصفوي، وأصبحت استمالة علماء جبل عامل للتوجه إلى إيران من السياسات الأساسية للحكومة هناك ، وهكذا استمرت هجرة العلماء العامليين منذ ذلك الحين، وحتى سقوط الحكم الصفوي. لم يستطع علماء الشيعة في جبل عامل مقاومة الإغراءات الصفوية للقدوم إلى إيران، فنصرة المذهب ودعمه وترسيخ دعائمه في إيران احتل لديهم مكانة كبيرة، لكن أسباباً أخرى دفعتهم للهجرة إلى إيران إذ "كان المهاجرون عموماً يجدون في إيران ظروفاً مواتية، والذين تجاوبوا مع الحكومة الصفوية وتضامنوا معها، كانوا يحصلون على عطايا وهدايا، على شكل أملاك وأموال نقدية وعينية".

ومن الأسباب التي شجعت علماء جبل عامل بلبنان للتوجه إلى إيران المكانة الكبيرة التي حصلوا عليها: وقد وصل احترام الملوك من الصفويين للعلماء والفقهاء العامليين – خصوصاً - إلى حد أنهم فوضوا إليهم كافة المهام القضائية في البلاد، ومنحوهم السلطات والصلاحيات اللازمة، فأصبحوا المصدرين والمنفذين للحكام والحدود الشرعية وعقوبات القصاص في كل مدن إيران".

ويقدر صاحب كتاب "هجرة علماء الشيعة" عدد علماء جبل عامل الذين هاجروا إلى إيران في العهد الصفوي بـ (97) عالماً، لم يعد منهم إلى جبل عامل سوى سبعة فقط. أما حسن غريب فيقول إن الذين ذكرتهم كتب التاريخ يبلغ عددهم 63 عالماً، أما من لم يذكر فعددهم كثير.

يعتبر **علي بن عبد العالي الكركي** ، المعروف **بالمحقق الكركي** أو المحقق الثاني أبرز المهاجرين العامليين إلى إيران، فقد هاجر في السنوات الأولى لتأسيس دولة الصفويين، وليس هذا فحسب، بل إنه تبوأ في هذه الدولة منزلة لا تدانيها منزلة، إذ يقول الشاهرودي عن الكركي وتنقله في الأمصار ثم استقراره في إيران: " ثم رحل إلى بلاد إيران هادفاً الترويج للمذهب الشيعي، وقد لقي من السلطان الشاه إسماعيل الصفوي آيات الاحترام والتكريم والتقدير، وأناط إليه الشاه وظائف كثيرة وجعل له مرتباً سنوياً كبيراً ليصرفه في تحصيل العلوم ويفرقه بين الطلاب والمشتغلين بالعلم، كما كان في دولة السلطان الشاه طهماسب الأول، ثاني ملوك السلالة الصفوية، معظماً مبجلاً في جميع أرجاء بلاد إيران، نافذ الكلمة مطاعاً، وعينه الشاه حاكماً في الأمور الشرعية في عموم البلاد، وأعطاه فرماناً "مرسوماً" ملكياً بذلك، وقد بلغ شأنه في تحديد الوظائف والمراتب حتى قيل : إن كل من يعزله الشيخ الكركي لا يعين ثانية، وإن كل من ينصبه الشيخ لا يعزل الا بالتسبيب الواضح منه " .

لم ينته تأثير علماء جبل عامل بعد وفاة الكركي، ذلك أن عدداً من المهاجرين هم أيضاً تبوءوا المراتب العليا في الدولة الصفوية، وساهموا في النهضة الشيعية، نذكر منهم على وجه الاختصار:

كمال الدين درويش محمد بن الحسن العاملي : يوصف بأنه أول من نشر أحاديث الشيعة في عهد الصفوية، وقد فرغ نفسه كلياً للتدريس مبتعداً عن الشأن السياسي خلافاً للكركي.

علي بن هلال الكركي : ترك جبل عامل وذهب إلى النجف والهند ثم إيران "ناقلاً معه مكتبة ضخمة يبلغ تعدادها أربعة آلاف مجلد، حيث خلف أستاذه الكركي في منصب شيخ الإسلام".

حسين بن عبد الصمد الجباعي : قيل إن الشاه طمهاسب كان يأمر واليه في خراسان بأن يحضر ولده – أي ولد الشاه محمد خدابنده – إلى مجلس الشيخ لسماع درسه ووعظه، وبأن ينفذ فتاواه وأحكامه".

بهاء الدين العاملي : وهو ابن حسين بن عبد الصمد الذي سبق ذكره، عيّنه الشاه عباس الكبير شيخاً للإسلام في عاصمته الجديدة "أصفهان"، وهو أعلى منصب ديني رسمي في البلاد، وظل يشغل هذا المنصب حتى وفاته سنة 1030 هجرية، (1621 م)، وأصر الشاه عباس على نقل الجثمان إلى مدينة مشهد ليدفن جوار ضريح الإمام الرضا ثامن الأئمة عند الشيعة الاثنى عشرية، وما يزال قبره مزاراً مشهوداً.

ونشط العاملي في التأليف، وبلغت مؤلفاته من الأهمية بمكان عند الشيعة للحد الذي اعتبروا فيه كتابه "جامع عباسي" أحد أعظم الكتب تأثيراً في تاريخ الشعوب الإسلامية. وكتابه الآخر "خلاصة الحساب" ظل يدرس في المدارس الإيرانية حتى أمد قريب، وكذلك أشعاره بالفارسية. أما كتاباه "زبدة الأصول" و"الفوائد الصمدية" فهما دائران حتى اليوم في الحوزات العلمية، درج عليهما مئات الألوف من طلابها، ويكفي أن نلقي نظرة على قائمة الشروح والحواشي والتعليقات التي وضعت على مختلف كتبه لنتصور وكأنها كانت شغل الناس الشاغل.

محمد بن الحسن الحرّ العاملي ولد سنة 1033 هـ وهو أحد أكبر علماء الدولة الصفوية في مراحلها الأخيرة، وأحد أهم علماء جبل عامل على الإطلاق، هاجر إلى إيران في سنة 1073 هـ، وأعطي منصب شيخ الإسلام وقاضي القضاة في (مشهد)، وفيها توفي سنة 1104 هـ (1692 م).

من مؤلفاته الهامة كتابه "أمل الآمل في علماء جبل عامل" لكن أهمها على الإطلاق هو "وسائل الشيعة إلى تحصل مسائل الشريعة"، وقد ألّفه في مدة 18 سنة، وهو كتاب في الحديث له مكانته الكبيرة عند الشيعة.\

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

ويعتبر الشيعة أن كتاب (وسائل الشيعة) للحر العاملي، وكتاب (الوافي) للفيض الكاشاني، و(بحار الأنوار) للمجلسي، "من أهم ما أضافه العصر الصفوي إلى المكتبة الشيعية، في حقل الدراسات الفقهية والعلوم المهيئة لها".

واعتبروا أن كتب الحديث الثلاثة السابقة (وسائل الشيعة، والوافي، وبحار الأنوار) قد أكملت سلسلة كتب الحديث الأربعة القديمة، ذات القيمة التاريخية لفقه الإمامية وتطوره.

والخلاصة، إن دراسة هجرة علماء لبنان وعلى الأخص منطقة جبل عامل إلى إيران منذ السنوات الأولى لقيام الدولة الصفوية وحتى نهايتها، وتقلدهم أعلى المناصب؛ لا تدع مجالاً للشك في أن العلماء الشيعة العرب وعلى وجه الخصوص اللبنانيون كان لهم التأثير البالغ في التشيع الصفوي، فقد نشروا العلوم الشيعية وألفوا الكتب الكثيرة وأقاموا الحوزات والمعاهد، فالحوزة العلمية في أصفهان مثلاً لم تزدهر إلاّ في عهد العاملي البهائي.

ويؤكد الباحث الإيراني مهدي فرهاني أن علماء جبل عامل ساهموا بتربية جيل من الفقهاء الإيرانيين الذين مارسوا الشأن السياسي في الدولة الصفوية بعد ذلك، وهو ما يجسد ما قام به العامليون من إغناء الفقه الشيعي في أبعاده السياسية.

5 - اعماله الدينية

إضافة اشهد ان عليا ولي الله وحي على خير العمل إلى الاذان

عمل مجالس العزاء في عاشور (الشعائر الحسينيه) , بما فيها من عمل المقتل (وهي عمل مسرحي تجسيدا لواقعه الطف في كربلاء) والتي يصاحبها اللطم والتطبير وذلك لما فيه هذا اليوم من اثر عظيم على قلوب الشيعة, حيث استهوى قلوب الشيعة به,

امر بطباعه شعارات تمجد علي وأله على العمله الصفويه

امر بتطوير قبور ومراقد بعض ائمة الشيعة الاثني عشر وبناء قبب عليها

جعل من قم أكبر مركز ديني للشيعه التي فيها مقام السيده المعصومه,

أصبح مرقد الإمام الرضا في مشهد مزارا يعج بالزوار الشيعة,

6 - الصفوي في مواجهة الأوزبك

بعد أن فرغ إسماعيل الصفوي من تعديل دولته بدأ يوجه همه إلى تدعيم الوحدة السياسية لدولته ، ويعد العدة ليضع يده على كل بلاد فارس، وكان لا بد من الاصطدام بقبائل الأوزبك التي كانت تموج في المناطق الشمالية الشرقية من فارس.

كانت قبائل الأوزبك تعتنق المذهب السني، وتحت زعامة **محمد شيباني** الذي نجح في أن يقيم ملكا على حساب الدولة التيمورية ، وأن يستولى على عاصمتها "سمرقند" وأن يمد سيطرته على "هراة" في مطلع سنة (913 هـ = 1507 م).

وهكذا أصبح الأوزبك وجها لوجه أمام إسماعيل الصفوي، وزاد من الصراع بينهما التراشق المذهبي بينهما، وبلغ من اعتداد محمد شيباني أن أرسل إلى إسماعيل الصفوي يدعوه إلى ترك المذهب الشيعي والعودة إلى مذهب السنة والجماعة ، ويهدده بحرب ضروس في قلب إيران ذاتها، وبهذا أصبح لا مفر من الحرب بينهما.

كان شيباني يتصف بالجرأة والإقدام ، لكنه لم يكن على مستوى عدوه إسماعيل الصفوي في المراوغة والخداع في الحروب، فاستغل إسماعيل ذلك، وجرَّ خصمه إلى معركة كان قد استعد لها تماما، وتمكن من إلحاق هزيمة مدوية به في **"محمود آباد"** -وهي قرية تبعد قليلا عن مرو- وذلك في سنة (916 هـ = 1510 م).

قتل شيباني في المعركة، وبعد مقتله أعمل إسماعيل الصفوي القتل في أهل مرو، وأمضى فصل الشتاء في هراة، وأعلن فيها المذهب الشيعي مذهبا رسميا، على الرغم من أن أهالي هذه المناطق كانت تدين بالمذهب السني.

7 ـ الهزيمة أمام العثمانيين في موقعة جالديران

اتسمت العلاقات بين الدولة الصفوية الناشئة والعثمانيين بالهدوء، وساعد على ذلك أن السلطان بايزيد الثاني الذي تولى بعد محمد الفاتح كان رجلا يحب السلام ويحب الأدب والفلسفة، ويميل إلى دعم العلاقات العثمانية الصفوية، لكنه حين علم أن إسماعيل الصفوي يتمادى في إلحاق الأذى بالسنة، مما جعلهم يهربون إلى الأراضي العثمانية كتب إليه أن يلتزم بالعقل والحكمة في معاملتهم.

ومع تولي السلطان سليم الأول مقاليد الحكم في الدولة العثمانية ازداد التوتر بين الدولتين، وكان سليم الأول ينظر بعين الارتياب إلى تحركات الصفويين، ويخشى من تنامي قوتهم وتهديدهم لدولته؛ فعزم على مهاجمة خصمه وتسديد ضربة قوية قبل أن يستعد للنزال.

جمع السلطان سليم الأول رجال الحرب والعلماء والوزراء في مدينة أدرنة في (19 من المحرم 920 هـ = 16 من شهر مارس 1514 م)، وذكر لهم خطورة إسماعيل الصفوي وحكومته الشيعية في إيران، وأنه اعتدى على حدود الدولة العثمانية، وأنه فصل بدولته الشيعية المسلمين السنيين في وسط آسيا والهند وأفغانستان عن إخوانهم في تركيا والعراق ومصر. ولم يجد السلطان العثماني صعوبة في إقناع الحاضرين بضرورة محاربة الصفويين؛ لأنهم صاروا خطرا داهما يهدد وجود العثمانيين، وخرج بعد 3 أيام من هذا الاجتماع على رأس جيش كبير متجها إلى إيران، ولم ينس وهو في طريقه أن يكتب إلى **"عبيد الله خان"** قائد الأوزبك يذكره بقتل عمه شيباني، ويحثه على الانتقام من إسماعيل الصفوي، ومهاجمة خراسان بمجرد وصول الجيش العثماني إلى إيران، وكان هدف سليم من ذلك أن يجعل إيران بين شقي الرحى من الغرب بهجومه، ومن الشرق بهجوم عبيد الله خان على خراسان.

حين علم إسماعيل الصفوي بقدوم القوات العثمانية ـ وكان مشغولا بإخراج الأوزبك من خراسان ـ عمل على تعطيل وصولها، فأمر بتخريب الطرق والقرى الواقعة في طريق الجيش العثماني؛ الأمر الذي أخّر وصول العثمانيين وأنهك قواهم، لكن ذلك لم يمنعهم من مواصلة السير إلى إيران، والإقامة في **"سيواس"** انتظارا للمعركة الحاسمة.

لم يبد إسماعيل الصفوي حماسا للمعركة، وحاول أن يتجنب ملاقاة العثمانيين باستدراج الجيش العثماني إلى داخل إيران، ليقطع خطوط الإمدادات عليه، لكن سليم الأول كان منتبها لما يدور في ذهن خصمه، فعزم على الإسراع في لقاء الصفويين، وخاصة بعد أن بدأ التذمر يشق طريقه إلى جنود العثمانيين من طول الانتظار وكثرة الانتقال من مكان إلى آخر.

التقى الفريقان في صحراء **جالديران** في شرق الأناضول في (2 رجب سنة 920 هـ = 24 من أغسطس 1514 م) وانتهت المعركة بهزيمة إسماعيل الصفوي هزيمة نكراء، وفراره من أرض المعركة إلى أذربيجان، ووقوع كثير من قواده في الأسر.

وفي (14 من شهر رجب 920 هـ = 5 من سبتمبر 1514 هـ) دخل سليم الأول مدينة تبريز عاصمة الصفويين واستولى على أموال إسماعيل الصفوي وبعث بها إلى إستانبول، ثم قفل راجعا إلى بلاده، مكتفيا بهذا النصر الكبير، غير راغب في اقتفاء أثر إسماعيل الصفوي والتوغل في بلاده.

8 ـ ما بعد الهزيمة

وعلى الرغم من الهزيمة المدوية التي لحقت بإسماعيل الصفوي، فإنها لم تحسم الصراع لصالح العثمانيين، وظل كل طرف يتربص بالآخر وينتهز الفرصة للانقضاض عليه، ونظرا لفداحة خسائر الصفويين؛ فقد حاول إسماعيل الصفوي أن يبرم صلحا مع السلطان سليم الأول، لكن محاولته لم تلق قبولا لدى السلطان العثماني.

وترتب على انتصار سليم الأول أن نهض رؤساء شمال العراق ـ وهم من الشافعية السنة ـ لمساندة العثمانيين. فلم يمض وقت طويل حتى انضمت 25 مدينة للحكم العثماني، على الرغم من الاستحكامات العسكرية التي أقامها الصفويون بها. فتوسع العثمانيون وضموا إليهم ديار بكر وسائر مدن شمال العراق حتى أصبح الجزء الأكبر من أراضي شمال العراق في يد العثمانيين، وأصبح الإيرانيون وجها لوجه أمام العثمانيين، وبات من الصعب على الصفويين التوسع على حساب العثمانيين.

9 - آثار السقوط والهزيمة :

تركت الهزيمة التي لقيها إسماعيل الصفوي آثارا قاسية في نفسه، ولم يكن قد لحقت به هزيمة قبل ذلك. وشغل نفسه بالتفكير في طريقة الانتقام من غريمه سليم الأول، إلا أن المنية عاجلت سليم الأول سنة (926 هـ = 1520م) وهو في طريقه لغزو إيران مرة أخرى.

شجعت وفاة سليم الأول المفاجئة إسماعيل الصفوي على أن تستحكم منه الرغبة في الانتقام من العثمانيين من جديد، غير أن الموت اغتال أمنياته ؛ فمات متأثرا بالسل وعمره سبعة وثلاثون عاما في (18 رجب 930 هـ = 23 مايو 1524م) على مقربة من أذربيجان ودفن في أردبيل إلى جوار أجداده ، وخلفه في الحكم طهماسب الأول.

قائمة شاهات الدولة الصفوية

	الحاكم	الحياة	الحكم
1	إسماعيل الأول	1487-1524	1501-1524
2	طهماسب الأول	1414-1576	1524-1576
3	إسماعيل الثاني الصفوي	....-....	1576-1578
4	محمد خدا بنده	....-....	1578-1587
5	عباس الأكبر	....-....	1587-1629
6	صفي الصفوي	....-....	1629-1642
7	عباس الثاني الصفوي	....-....	1642-1666
8	صفي الثاني الصفوي	....-....	1666-1694
9	سليمان الأول الصفوي	....-....	1666-1694
10	سلطان حسين الأول الصفوي	1668-1726	1694-1722
11	طهماسب الثاني	1704-1740	1722-1732
12	عباس الثالث الصفوي	1732-1740	1732-1736
13	سليمان الثاني الصفوي	1714-1763	1749-1750
14	إسماعيل الثالث الصفوي	1733-1773	1750-1773

تحويل الصفويين إيران من المذهب السني إلى الشيعي

تقديم

تحويل الصفويون لإيران من المذهب السني إلى الشيعي جعل إيران المعقل الرئيسي للشيعة ، ومستودع التقاليد والثقافة الفارسية والوعي الذاتي للقومية الإيرانية والذي يعتبر جسرا لإيران الحديثة.

بتوحيد الصفويون لإيران على أنها دولة مستقلة في سنة 1501م تم اتخاذ المذهب الشيعي الإثني عشري والذي يعرف أيضا بالإمامي مذهبًا رسميًا للدولة ، والذي يعتبر من أهم النقاط في تاريخ الإسلام.

1 - قبل عهد الصفويين

بينما يرى البعض أن سكان إيران كانوا يتبعون المذهب السني الشافعي والحنفي حتى انتصار الصفويين الذين كانوا في البداية شافعيين . الإيرانيون السنة كانوا دائما يعظمون آل محمد . في المقابل كانت توجد أقلية شيعية وعدد قليل نسبيا من علمائهم .

إلى أن البعض ذهب للقول بأن إيران كانت دولة شيعية قبل ظهور الصفويين بسبعمئة عام منذ عهد آل بويه ، وأن الصفويون قاموا بتحويل مذهب إيران بشكل رسمي فقط من المذهب السني إلى المذهب الشيعي . قد ذُكر بأنه كانت هناك مناظرة جمعت بين العلامة **الحلي** وعلماء المذاهب الأربعة بحضور الشاه المغولي **خدابنده** ، وفيها تشيع الشاه وبعث إلى البلاد والأقاليم حتّى يخطبوا بالائمّة الاثني عشر، ويضربوا السكك على أسمائهم وينقشوها على أطراف المساجد والمشاهد منهم.

2 - أسباب تحول الإيرانيين للمذهب الشيعي

كان هناك العديد من الأسباب التي أدَّت إلى تحول الإيرانيين إلى التشيع :

1 - يرى المسلمون أن الفُرس أصحاب عقل وذكاء ، مما يمنعهم من التعصب الباطل والتقليد الأعمى ، فهم أهل تحقيق وتدقيق في أمر الدين والعبادة ، لذلك كانت المجوسية عندهم رخوة ومتزلزلة ، ولهذا السبب أسلمت أكثر بلادهم من غير كره وحرب بعد معركة **القادسية** . وفُتحت من غير مقاومة ، وبعد فتح بلادهم تركوا المجوسية من غير كره وإجبار واعتنقوا الإسلام بالحرية والاختيار، لأنهم عاشروا المسلمين وحققوا حول الإسلام ، وعرفوا حقانيته ، فتمسكوا به وأصبح الإسلام دينهم .

2 - ارتباط الإيرانيين وعلاقتهم **بسلمان الفارسي** وهو منهم ، ثم لسابقته الفاخرة في الإسلام ، ومكانته المرموقة عند النبي، حتى عده من أهل بيته، في الحديث، أن النبي محمد ﷺ قال: « سلمان منا أهل البيت » ولما كان سلمان من شيعة أهل البيت والموالين لآل محمد ﷺ ومن المخالفين لاجتماع السقيفة والخليفة المنتخب فيها، أرشد قومه وهداهم إلى مذهب الشيعة ، ودعاهم إلى التمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم ، وهو ولاية وإمامة أبى الحسن أمير المؤمنين، لأنه شهد يوم الغدير، وبايع عليا بالخلافة ، وسمع أحاديث عديدة من فم النبي الكريم ﷺ في شأن علي وسمع مرارا حديث النبي : من أطاع عليا فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله ، ومن خالف عليا فقد خالفني، ومن خالفني فقد خالف الله (حديث الغدير)

3 – أرتباط الايرانيين وعلاقتهم بعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب

حيث أن أمه هي : شَاهْ زَنَانُ بِنْتُ يَزْدَجِرْدَ وَقِيلَ شَهْرَبَانُويَهْ وَهِيَ ابْنَةُ يَزْدَجِرْدَ بْنِ شَهْرِيَارٍ . وَقِيلَ اسْمُهَا سلافة (فِي بَعْضِ مصادر أَهْلِ السُّنَّةِ) **ابنة كسرى** سبيت هي واختها في زمن أمير المؤمنين الأول عمر رضي الله عنه فتزوجها **الحسين** عليه السلام وتزوج **عبد الله بن أبي بكر** اختها

اشتهر بزين العابدين وهو الإمام الرابع لدى الشيعة بكل طوائفهم ، وله عده ألقاب منها : السجاد , وزين الصالحين , ومنار القانتين.

والأئمة المعصومون عند الشيعة الإثني عشرية هم الأئمة الاثنا عشر من نسل الإمام الأول علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء والذين توارثوا العلم والحكمة عن النبي محمد ﷺ وعلي بن أبي طالب ، وهم حسب اعتقاد الشيعة الاثني عشرية أئمة معصومون في التبليغ عصمة الأنبياء ، وكلامهم تشريعي يعتبر بمثابة الحديث النبوي في تفسير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

والأئمة الإثنا عشر هم : علي · الحسن · الحسين · السجاد · الباقر , الصادق · الكاظم · الرضا · الجواد ,الهادي · العسكري · المهدي

3 - إسماعيل الأول

من سنة 1500 م إلى سنة 1502 م غزا إسماعيل الأول تبريز، أذربيجان، وأرمينيا. قضى عقدا كاملا من الزمن من أجل تعزيز سيطرته على إيران حيث كان الفارسيون ما زالوا يدينون بالمذهب السني

. انتشر جيش إسماعيل الأول في المناطق الوسطى سنة 1504 ثم سيطر على جنوب غرب إيران بين سنة 1505 و1508 ثم سيطر على خراسان الكبرى ومدينة هرات في 1510 . تأسست سلالة الصفويين في البداية على قاعدتين الأولى كانت المذهب الشيعي والثانية العرق الفارسي وكان إسماعيل أكثر تأثيرا على الأول من الثاني وعرف عن حقده على أهل السنة وأنه ليس له حدود منذ سقوط الدولة الفاطمية الشيعية في مصر في سنة 1171 م وهو يهدف إلى انقراض الاعتقاد بالمذهب السني ، ولذلك فإن الخيار لغالبية الفرس كان إما التشيع أو الموت , واستطاع في الأراضي التي سيطر عليها أن يحول أهلها من المذهب السني إلى المذهب الشيعي.

4 - الأسباب لسياسة إسماعيل التحويلية

سعى الصفويون إلى تغيير المذهب المتبع للناس وذلك للأسباب التالية :

أن تكون إيران الصفوية مختلفة عن الدولة العثمانية السنية ذات القوة العسكرية القوية التي تحدها في الغرب وآسيا الوسطى الأوزبكية في الشمال الشرقي .

الصراع الطويل بينهم وبين الإمبراطورية العثمانية والحروب العديدة التي دارت بينهما جعل إسماعيل الأول أكثر إصرارا على خلق هوية مختلفة وخشيتهم من تكوين طابور خامس من السنة الذين سيتعاونون مع العثمانيين .

التحويل للتشيع كان جزءا من عملية بناء أراض من شأن سكانها الإخلاص والولاء للدولة ومؤسساتها وبالتالي تمكين الدولة ومؤسساتها من نشر حكمهم في جميع أنحاء الأراضي .

5 - أساليب تحويل إيران

بدأ إسماعيل الأول في توحيد البلاد وتحويل السكان من المذهب السني إلى المذهب الشيعي والذي كان يتم أحيانا بطرق وحشية . شملت أساليب تحويل إيران :

فرض المذهب الشيعي الدين الرسمي للدولة وإجبار الناس على تغيير مذهبهم .

إنشاء مكتب يكون مسؤولا عن الإشراف على المؤسسات الدينية والأوقاف بغية تحويل إيران إلى المذهب الشيعي الإثني عشري .

5 – 1 - تدمير مساجد السنة

وقد لاحظ **بيريس تومي** السفير البرتغالي في الصين والذي زار إيران في الفترة من 1511 إلى 1512 وقال : { إنه (أي إسماعيل) يقوم بإصلاح كنائسنا ويدمر مساجد السنة }.

5 - 2 - أجبر الخطباء على شتم الخلفاء الراشدين الثلاثة :

أجبر الخطباء في جميع المساجد على شتم الخلفاء الراشدين الثلاثة أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان والذين يعتبرهم مغتصبون لحق الخلافة من علي بن أبي طالب كما سلب جميع ممتلكات السنة وتم توجيهها لتطوير العتبات الشيعية والمؤسسات الدينية كما تم استضافة علماء الدين الشيعة ليحلوا مكان علماء الدين السنة .

5 - 3 - أباح دم أهل السنة ودمر ودنس المقابر والمساجد السنية :

هذا الأمر جعل السلطان العثماني بايزيد الثاني (الذي في البداية هنأ إسماعيل الأول بانتصاراته) ينصح الحاكم الشاب بأسلوب أبوي وقف الإجراءات ضد السنة ومع ذلك كان إسماعيل الأول يزيد من قوة بطشه في نشر المذهب الشيعي بحد السيف متجاهلا نصيحة السلطان العثماني.

5 – 4 - اضطهاد وسجن وأعدام المقاومين السنيين بعناد .

مع إقامة حكم صفوي كان يتم الاحتفال بعيد الغدير في 26 ذي الحجة حسب وجهة نظرهم هو اليوم الذي قام به رسول الإسلام محمد ﷺ بتنصيب ابن عمه علي بن أبي طالب إماما من بعده ، كما يتم الاحتفال في 9 ربيع الأول بمقتل الخليفة عمر بن الخطاب وذلك بصنع دمية على شكل عمر ثم يتم لعنها وطعنها وإهانتها ثم إحراقها. مع تحسن العلاقات بين إيران والدول العربية فإن الأولى قررت عدم الاحتفال رسميا بمقتل عمر ولكن على الصعيد الشعبي ما زال يتم الاحتفال .

في سنة 1501 دعا إسماعيل الأول جميع الشيعة الذين يعيشون خارج إيران للعيش في إيران من التأكيد على حمايتهم من الأغلبية السنية .

6 - مصير العلماء السنة والشيعة

6 - 1 - العلماء السنة

اتخذ الصفويون عدة خطوات في بداية حكمهم ضد العلماء السنة منها منحهم حق الخيار بين اتباع المذهب الشيعي الإثني عشري أو الموت أو النفي . ذبح رجال الدين السنة الذين قاوموا التشيع في إيران خصوصا في مدينة هرات بينما رحل العديد منهم إلى خارج إيران إلى الدول السنية القريبة .

6 – 2 - العلماء الشيعة العرب

بعد الفتح بدأ إسماعيل الأول في تحويل المشهد الديني في إيران عن طريق فرض التشيع الإثني عشري على السكان. لأن معظم السكان كان معتنقا للمذهب السني وعدم وجود الكثير من العلماء الشيعة اضطر إسماعيل الأول إلى جلب واستدعاء علماء شيعة من البلدان العربية مثل جبل عامل في جنوب لبنان ، البحرين ، وجنوب العراق من أجل إنشاء دولة رجال الدين . قدم إسماعيل الأول لهم المال والأرض مقابل الولاء وأن يعلموا الناس المذهب الشيعي الإثني عشري مما شجع بقوة التحول إلى المذهب الشيعي .

للتأكيد على مدى ضعف انتشار المذهب الشيعي في إيران قبل الصفويين . فإن أحد المؤخرين ذكر أنه كان يوجد كتاب واحد ديني شيعي في عاصمة إسماعيل الأول تبريز . ولذلك من المشكوك فيه ما إذا كان إسماعيل الأول وأتباعه قد نجحوا في إجبار الشعب بأكمله في التشيع من دون دعم العلماء الشيعة العرب . دعا حكام الدولة الصفوية علماء الدين الشيعة الفرس إلى دعمهم من أجل توفير الشرعية لحكمهم بلاد فارس .

خلال حكم عباس الأول للدولة الصفوية قام باستدعاء علماء شيعة عرب أكثر مما فعل إسماعيل الأول من أجل بناء المؤسسات الدينية والمدارس الدينية والمشاركة في عمل الحكومة .

7 - أثر التحويل خارج إيران

7 – 1 – أذربيجان

بعد احتلال تبريز، أذربيجان، وأرمينيا في ما بين 1500 م و1502 م أعلن أن الدين الرسمي للأراضي المحتلة هو المذهب الشيعي على الرغم من أن أغلبية سكان هذه الأراضي تدين بالمذهب السني . بعد الإعلان شنت حملة تشيع كبيرة للمسلمين السنة القوقاز . فرض التشيع كان قاسيا خصوصا في شيروان حيث تعرض الكثير من أهل السنة لمذبحة ونتيجة لذلك فقد تحول سكان أذربيجان قسرا إلى المذهب الشيعي في بداية القرن السادس عشر .

7 – 2 – العراق

استولى إسماعيل الأول بشكل هادئ على بغداد في سنة 1508 م وعلى الرغم من ذلك فإن جيوشه قتل بحماس أهل السنة واضطهد حلفائهم . كما أن جيوشه دمرت عدة مواقع هامة للسنة بما في ذلك مقابر **أبو حنيفة النعمان وعبد القادر الجيلاني** . وقرر الصفويون طرد **عائلة الجيلاني** من بلاد الرافدين .

بعد الإعلان عن تشيع العراق أجبر إسماعيل الأول السكان إلى التشيع ونبذ المذهب السني ثم عاد إسماعيل الأول إلى فارس. تسببت هذه الإجراءات الجديدة من قبل الصفويين لقهر السنة العراقيين إلى الغضب والاستياء .

كما قام **طهماسب الأول** إلى نشر المذهب الشيعي بالقوة في بغداد والبصرة اللتان تقعان في وسط وجنوب العراق وأعدم العلماء السنة الذين رفضوا قبول المذهب الشيعي ودمرت المقابر والأضرحة مرة أخرى فيما تم تحويل المساجد الرئيسية فقط للتعبد بالمذهب الشيعي. استمر اضطهاد أهل السنة حتى قام السلطان العثماني سليمان القانوني إلى طرد الصفويين من معظم العراق .

عندما عاد الصفويون بقيادة عباس الأول إلى بغداد مرة أخرى في سنة 1624 فقد ذبحوا الكثير من سكانها السنة .

8 - أمور مهمة في عملية التحويل

8 – 1 - إسماعيل الثاني

شهد عهد إسماعيل الثاني (1576-1578) سياسة مؤيدة لأهل السنة بمساعدة ميرزا مخدوم الشريفي مدير المكتب المسئول عن المؤسسات الدينية والأوقاف حيث حاول فرض سياسة التعايش السلمي مع أهل السنة وعدم معاداتهم ومن أبرز ما قام به وقف قذف عائشة زوج نبي الإسلام محمد ﷺ وعدم شتم الخلفاء الراشدون الثلاثة الأوائل أبوبكر، عمر، وعثمان الذي كان سائدا في بداية الدولة الصفوية. هذا الأمر كان أحد البنود الأساسية للامتثال إلى مطالب الدولة العثمانية من أجل تطبيق بنود معاهدة السلام التي تم توقيعها في أماسيا سنة 1555 كما سعى إلى إضعاف رجال الدين الشيعة والسادة من خلال سحب أراضيهم ومنحها لأهل السنة مما أدى إلى اشتباك جيش الشاه إسماعيل الثاني مع قبيلة **أوستاجلو** وعدد من أمراء قزلباش المتحالفين مع رجال الدين.

هذا الخلاف بين الشاه من جهة والأمراء من جهة أخرى جعل أهل السنة يستغلون هذا الصراع لتحقيق مصالحهم وتقوية موقفهم. يعود سبب توجه الشاه إسماعيل الثاني إلى إضعاف رجال الدين الشيعة إلى أن أهل السنة الفرس ما زالوا أغلبية . من أجل التقرب أكثر من أهل السنة قرر الشاه إسماعيل الثاني تعيين علماء شيعة يسعون للتقارب مع أهل السنة وهما مولانا **ميرزا جان شيرازي , ومير مخدوم لالا** .

8 – 2 - عباس الأول من بلاد فارس

لم يصبح التشيع ذو أغلبية بين سكان فارس حتى مجيء عهد عباس الأول (1587-1629) الذي كان يكره أهل السنة وأجبر السكان على القبول بالتحويل إلى المذهب الإثني عشري . بحلول سنة 1602 أصبح أغلبية بلاد فارس يدين بالمذهب الإثني عشري وبالتالي أصبحت إيران شيعية. اعترض الكثير من السكان على الحكم الصفوي الإجباري مما دفع عباس الأول إلى عدة تغييرات إدارية من أجل زيادة تحويل إيران إلى دولة شيعية إثني عشرية .

8 – 3 - محمد باقر المجلسي

بتوجيه من محمد باقر المجلسي (1616-1698) أحد أهم رجال الدين الشيعة الذي كرس نفسه (بالإضافة لأمور أخرى) للقضاء على أهل السنة في إيران وسعت الدولة الصفوية خلال القرن السابع عشر إلى فرسنة الممارسة والثقافة الدينية الشيعية من أجل تسهيل انتشاره بين السكان السنة في إيران . لقد كان المجلسي هو الوحيد الذي استطاع أن ينشر بنجاح المذهب الشيعي بين الناس .

8 – 4 - السلطان حسين

في عهد السلطان حسين (1694-1722) آخر شاه صفوي قوي شهدت اضطرابات وثورات دينية من أهل السنة . هذه المشاكل ساهمت في زيادة زعزعة استقرار الدولة الصفوية حتى نهايتها وكانت من أبرز العوامل في انهيارها .

بسبب محاولة السلطان حسين نشر التشيع بين أهل السنة في جنوب أفغانستان فقد أقدم الزعيم الغلزائي الأفغاني **مير وايس هوتاك** على قيادة التمرد في ولاية قندهار في سنة 1709. **مير وايس** والأفغان السنة قتلوا المحافظ الصفوي جورج الحادي العشر وأفراد جيشه وحرروا الجنوب الأفغانستاني من الوجود الفارسي فيه وتم الإعلان عن استقلال **قندهار** الذي كان نقطة تحول مهمة حيث أعلن في سنة 1715 غزوه

لإيران. استطاع **محمود ابن مير وايس** الحاق الهزيمة بالصفويين في سنة 1722 في معركة **غولناباد** ثم توجه غربا حتى العاصمة أصفهان واحتلها وأنهى الدولة الصفوية .

8 – 5 - نادر شاه

في عهد الشاه نادر في تطبيق سياسة مناهضة للشيعة. فشل الشاه نادر في إعادة سكان إيران للتعبد بالمذهب السني عن طريق الترويج للتشيع السني واعتباره المذهب الشيغي هو المذهب الخامس بين المذاهب السنية الأربعة . وأن يطلق عليه المذهب الجعفري. هذا المخطط لتطبيق هذا النوع من المذاهب السنية فشل باعتباره دين رسمي للدولة .

8 – 5 – 1 - من أسباب اعتماد سياسة معادية للشيعة :

معظم قوات الشاه نادر تتكون من أفراد أفغانية ، تركمانية ، كردية ، وبلوشية تدين بالمذهب السني والذين كانوا ينفرون من التركمان والفرس الشيعة .

السياسة الدينية الأصلية تهدف إلى إضعاف الشيعة وتعزيز سيادة بلده في الأراضي السنية المحاذية لإيران وجعل التشيع مذهب سني خامس وهذا تم رفضه من قبل الحكام السنة والشيعة على حد سواء .

حاول الشاه نادر إدماج المذهب الشيعي في المذهب السني في محاولة للتقرب من الدولة العثمانية السنية باعتبار أن دولة إيران سنية ولكن الهدف الحقيقي كان الإطاحة بالعثمانيين لتوحيد العالم الإسلامي تحت قيادته .

في سنة 1736 وبعدما تم اختيار نادر من قبل الجمعية شاها فقد قبلوا بسياسته الدينية بعودة إيران إلى المذهب السني. التخلي عن التشيع كان ضروريا لإبرام اتفاقية سلام مع الدولة العثمانية السنية وأيضا تقليص الهيبة الدينية الشيعية للدولة الصفوية وأن يكون هو الأكثر جاذبية للسنة الساكنين في المناطق التي ينوي غزوها. ومع ذلك فقد أثارت سياسته الدينية الاستياء في إيران .

8 – 5 – 2 - الأمور التي أنجزها الشاه نادر لتحقيق سياسته المعادية للشيعة :

تخلى الشاه نادر عن التشيع وأسس بدلا من ذلك مدرسة سنية شيعية مختلطة للانضمام إلى مدارس المذاهب السنية الأربع .

شنق الشاه نادر رجال الدين الشيعة الرئيسيين .

اعتمد في جيشه على تجنيد الأفغان ، الأكراد ، التركمان ، والبلوش السنة والذين يتوافقون مع السياسة الدينية الجديدة أما بالنسبة إلى الفرس فلم يكن الأمر بالنسبة لهم بسيط وأرادوا الاحتفاظ بوضعهم الفريد بين دول العالم الإسلامي .

داخليا منع بعض الممارسات الشيعية خصوصا المتطرفة منها والتي كانت ممارسات اعتيادية في بداية الدولة الصفوية وأصدر تعليمات إلى العلماء بالحفاظ على تبجيل علي بن أبي طالب ولكن من دون وصفه بأنه نائب الله على الأرض لأنها تتسبب في مواجهات مع أصحاب المذهب السني .

في سنة 1736 صرح من قزوين بأنه أصدر مرسوم رسمي يعمم على جميع مدن وقرى الدولة ويتم تنفيذه فورا وذلك فرض وقف الممارسات الشيعية التقليدية التي كان في معظمها إساءة إلى رموز أهل السنة .

قام الشاه نادر بمجهود كبير من أجل تحديد مكان للتشيع في العالم الإسلامي من خلال الاعتراف بالقوى السنية الرئيسية. حاول دمج المذهب الشيعي بالمذاهب السنية ورفض شتم الخلفاء الراشدين الثلاثة أبوبكر، عمر، وعثمان وفرض هذا الأمر في دولته كما حاول أنتزاع اعتراف من الدولة العثمانية بكون المذهب الإثني عشري مذهب سني خامس وأن يتم تغيير مسماه إلى **المذهب الجعفري** نسبة إلى الإمام السادس جعفر الصادق. حاول تغيير أحد أركان المذهب الشيعي وهو الإمامة ولكنه قوبل بالرفض من قبل الدولة العثمانية السنية وعلماء الدين الشيعة .

نفور الشاه نادر من رجال الدين الشيعة جعله يحاول تقريب وجهات النظر بين السنة والشيعة من أجل استعادة المذهب السني في إيران. سحب الكثير من أراضي الأوقاف الشيعية. خوفا على حياتهم المهددة من قبل الدولة هاجر العديد من العلماء الشيعة إلى العراق واستقروا في النجف وكربلاء .

بعد وفاة الشاه نادر والتفكك السريع لدولته فقد استرد التشيع في إيران عافيته بسرعة وأعيدت ممتلكات الأوقاف الشيعية إليه من جديد .

9 - النتائج التاريخية لسياسة إسماعيل التحويلية

كان لسياسة الشاه إسماعيل التحويلية من المذهب السني إلى المذهب الشيعي النتائج التاريخية التالية :

على الرغم من أن التحويل إلى التشيع لم يكن سريعا كما خطط الشاه إسماعيل إلا أن أغلبية الفرس قرروا التحول إلى المذهب الشيعي في نهاية الدولة الصفوية في سنة 1722 ومن ثم فإنه ليس من قبيل المصادفة أن في إيران اليوم تتركز الأقليات السنية في الجماعات العرقية غير الفارسية على الحدود مع الدول السنية الأخرى .

أنشأت الدولة الصفوية حدود العداء بين الشيعة الإثني عشرية والسنة على الرغم من أن الخلافات الفقهية موجودة منذ زمن بعيد ومعترف بها من قبل كلا الجانبين. قبل قيام الدولة الصفوية كان الشيعة متوافقين سياسيا مع السنة فكريا .

أنهى الشاه إسماعيل الإسلام السني في إيران وجعل علماء الدين الشيعة يسيطرون على المؤسسات الدينية .

الحدود الحالية بين إيران من جهة وتركيا وأفغانستان من جهة أخرى نتجت ليس بسبب الاختلاف في نوع الجماعات العرقية في البلدان الثلاثة بل بسبب الاختلاف في المذاهب الإسلامية .

تم التعامل بوحشية مع أهل السنة مما أدى إلى انخراط معظمهم في صفوف المقاومة ضد الدولة الصفوية حتى نهايتها .

استخدام الشيعة لممارسة السيطرة لم يكن ناجحا وتبعه قرون من الصراع بين السنة والشيعة حتى بعد سقوط الدولة الصفوية .

بقيت إيران الدولة الشيعية الوحيدة في وسط بحر الدول السنية. قال مؤرخون إيرانيون معاصرون بأنهم يأسفون لتحويل إيران للتشيع بالقوة الجبرية ولكن هذا الأمر حفظها من احتلالها من قبل الدولة العثمانية .

الحروب والمعاهدات العثمانية الصفوية

1 - تقديم :

الحروب العثمانية الصفوية أو الحروب العثمانية الفارسية . هي الحروب بين الإمبراطورية العثمانية من جهة والدول التي ظهرت في إيران من جهة أخرى وهي الدولة الصفوية ، الدولة الهوتاكية . الدولة الأفشارية ، الدولة الزندية , والقاجاريون في بلاد فارس من القرن 16 إلى 19. ، و بدأ تدريجيا الصراع مع الدولة الفارسية الناشئة ، بقيادة إسماعيل الأول من السلالة الصفوية.

كانت الدولتين متنافستين لدودتين ، وكانت مقسمة أيضا على أسس دينية ، العثمانيين كانوا ممثلين للأسلام السني وإمتداد للخلافة الإسلامية

أما الصفويين فأتخذوا التشيع الاثني عشري وسارت الدولة اللاحقة على أثارهم.

وأعقب ذلك سلسلة من الصراعات العسكرية لقرون حيث تنافست الدولتان عسكريا للسيطرة على شرق الأناضول والقوقاز، وبلاد ما بين النهرين (العراق) .

2 - السلالات التي حكمت فارس خلال القرون الحديثة المُبكرة

الدولة الصفوية (1501–1736)
الدولة الهوتاكية (1722–1729)

الدولة الأفشارية (1736–1796)
الدولة الزندية (1750–1794)
الدولة القاجارية (1785–1925)
بداية القرون الحديثة المتأخرة مع بداية السلالة البهلوية من سنة 1925.

3 – أهم المعارك والمعاهدات التي حدثت بين الطرفين

من بين العديد من المعارك التي حدثت بين الطرفين , تعتبر معركة جالديران في سنة 1514م , وفتح بغداد في سنة 1534 م الأكثر أهمية .

ومن بين العديد من المعاهدات ، عادة ما تعتبر معاهدة زهاب (معاهدة قصر شيرين) في سنة 1639 هي الأكثر أهمية ، كما أنها مرجع للحدود الحالية بين تركيا وإيران والعراق حتى في المعاهدات اللاحقة، كانت هناك إشارات متكررة إلى معاهدة زهاب .

لذا سنتولاهم بشئ من التفصيل .

4 - معركة جالديران (1514) [1]

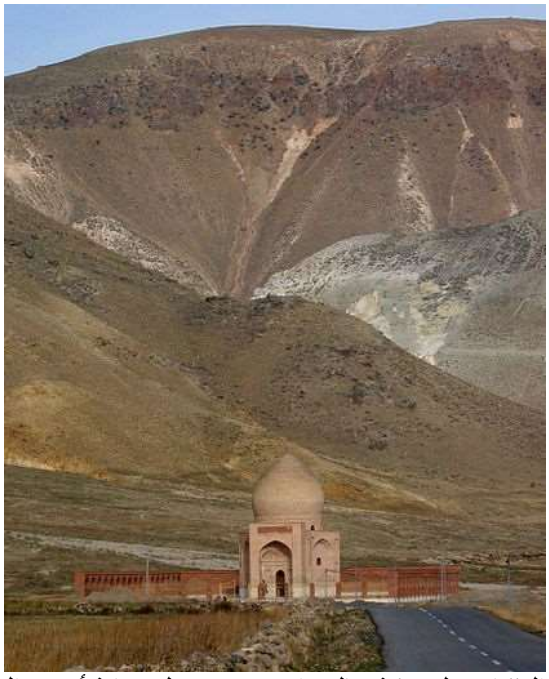

النصب التذكاري لمعركة جالديران وقد بني على حافة أرض المعركة

تقديم :

معركة جالديران هي معركة وقعت في 23 أغسطس 1514 في جالديران بين قوات الدولة العثمانية بقيادة السلطان سليم ياوز الأول ضد قوات الدولة الصفوية بقيادة إسماعيل الأول. انتهت بانتصار القوات العثمانية واحتلالها مدينة تبريز عاصمة الدولة الصفوية، وأدت إلى وقف التوسع الصفوي لمدة قرن من الزمان وجعلت العثمانيين سادة الموقف، وأنهت ثورات الصفويين داخل الإمبراطورية . وترتب على المعركة بالإضافة إلى الاستيلاء على تبريز عاصمة الدولة الصفوية، سيطرة السلطان العثماني على مناطق من عراق العجم وأذربيجان ومناطق الأكراد وشمال عراق العرب ، ثم توجهه صوب الشام حيث أكمل انتصاراته على المماليك حلفاء الصفويين بمعركة **مرج دابق**.

كانت كفة المعركة منذ البداية لصالح الجيش العثماني فقد كانوا أكثر عددا وأفضل تسليحا من الصفويين, وقد أصيب الشاه إسماعيل حتى كاد أن يقضى عليه لولا فراره من المعركة تاركا كل ما يملكه لقمة سائغة لسليم وجنده , كما وقعت زوجته في أسر القوات العثمانية ولم يقبل السلطان أن يردها لزوجها بل زوجها لأحد كاتبي يده انتقاما من الشاه .

1 – البداية

حينما فرض الشاه إسماعيل المذهب الشيعي على شعبه, وأعلنه مذهبا رسميا للدولة في إيران, وكانت ردود الفعل عنيفة خاصة وأن كثيرا من سكان المدن الرئيسية في إيران مثل تبريز كانوا سنة . فقام باستمالة قبائل القزلباش التركية الشبعية المذهب إلى جانبه مما جعلهم عماد جيشه , وهي كانت بالأساس متذمرة من التدابير المالية والإدارية العثمانية بل وهيأت السبيل لحدوث اضطرابات كبيرة في الأناضول مما جعله يعتمد عليهم بالقضاء على جميع معارضيه وفرض المذهب الشيعي بالقوة , فقضى على دولة **آق قويونلو** وقد كانت تشكل حاجزا بينه وبين العثمانيين. فباتت الدويلات الكردية والقبائل التركية في جبال طوروس الصغرى , والأقليات المسيحية في أرمينية كلها من ممتلكات الشاه حسب ادعائهم . حتى احتل بغداد عام 1508 فهدم ما كان فيها من قبور أئمة سنة وذبح جماعة من علمائهم, فسرت شائعة في البلاد التركية بأن مذبحة عظيمة أصابت السنة ببغداد على يد الصفويين .

في هذه الفترة اتسمت العلاقات بين الصفويين والعثمانيين بالفتور، فمنذ بداية تسلم السلطان سليم الحكم وصله سفراء البندقية والمجر ومصر وروسية لتقديم التهاني له وأبرم معهم جميعا هدنة لمدد طويلة ولم يصله سفير من إيران, فأدرك الجميع في هذا الوقت بالذات أن الحرب ستقع بين سليم وخصمه الشاه إسماعيل . وكان سليم الأول ينظر بعين الارتياب إلى تحركات الصفويين، لاسيما بعد إرسال الشاه إسماعيل وفدا ضخما إلى **قانصوه الغوري** سلطان مصر ضم 200 عبد لإبلاغه عن تلك الحرب المتوقعة ودعوته للتحالف معه ضد السلطان سليم , بين له إنه إن لم يتفقا حاربت الدولة العثمانية كلا منهما على حدة وقهرته وسلبت أملاكه , فعزم على مهاجمة خصمه الصفوي وتسديد ضربة قوية قبل أن يستعد للنزال. لذلك أرسل هو الآخر وفدا إلى المماليك دعاهم إلى التحالف, لكن بعد مباحثات طويلة آثر المماليك التزام الحياد , وإن كانوا يميلون لجانب الصفويين.

2 - الاستعدادات للمعركة

2 – 1 - الاستعداد الداخلي

بعدما فرغ السلطان سليم من مشاكله مع إخوته، وعقد الصلح مع جيرانه الأوربيين لا سيما مع المجر. أمر بحصر عدد الشيعة المنتشرين في الولايات المتاخمة لبلاد العجم بشرق الأناضول وقتلهم جميعا ويقال أن عددهم حوالي 40 ألفا من القزلباش ردًا على مجازر الصفويين للسنة بالعراق وتبريز وأذربيجان، وحتى يقضي على أي تمرد قد يحدث مستقبلا.

ثم جمع السلطان سليم الأول رجال الحرب والعلماء والوزراء في مدينة أدرنة في (19 من المحرم 920 هـ = 16 من شهر مارس 1514 م)، وذكر لهم خطورة إسماعيل الصفوي في إيران، وأنه اعتدى على حدود الدولة العثمانية ، وأنه عامل بعنصرية في دولته أهل السنة والجماعة في وسط آسيا والهند وأفغانستان ويجب الذب عن إخوانهم في تركيا والعراق ومصر. ولهذا يرى ضرورة الجهاد ضد الدولة الصفوية . ولم يجد السلطان العثماني صعوبة في إقناع الحاضرين بضرورة محاربة الصفويين، وخرج بعد 3 أيام من هذا الاجتماع على رأس جيش كبير من أدرنة إلى إسطنبول متجها إلى الأناضول الشرقي فتبريز بعد أن أوكل أمر إستانبول لابنه سليمان .

2 – 2 - الاستعداد الخارجي

أراد سليم منذ بداية حكمه الهدوء التام على الجبهة الغربية، وهذا الهدوء تمثل في علاقاته الدبلوماسية المستقرة مع الدول المجاورة له وهم النمسا وهنغاريا وروسيا لم ينس السلطان سليم وهو في طريقه إلى الحرب أن يكتب إلى عبيد الله خان الأوزبك يذكره بقتل عمه شيباني ، ويحثه على الانتقام من إسماعيل الصفوي، ويعلمه عن النوايا بالتحرك صد إيران, ويوصيه بمهاجمة خراسان بمجرد وصول الجيش العثماني إلى إيران، وكان هدف سليم من ذلك أن يجعل إيران بين شقي الرحى من الغرب بهجومه،

ومن الشرق بهجوم عبيد الله خان على خراسان. فكان رد عبيد الله خان على سفارة السلطان بعد أشهر بسفارة أخرى, يعلمه بالموافقة وأنه انتصر على القوات الصفوية في سمرقند .

3 - المسير إلى جالديران

تحرك السلطان سليم على رأس جيش يبلغ عديده مائة وأربعين ألف مقاتل من مدينة "أدرنة" في 22 من المحرم 920 هـ = 19 من مارس 1514 م, فسار بجيشه حتى وصل قونية في 7 من ربيع الآخر 920 = 1 من يونيو 1514 م, فاستراح لمدة ثلاثة أيام، ثم واصل سيره حتى وصل آرزنجان في أول جمادى الآخرة 920 هـ = 24 من يوليو 1514 م، ثم واصل المسير نحو أرضروم، فبلغها في 13 من جمادى الآخرة 920 هـ = 5 من أغسطس 1514. وحين وصل إلى مشارف قيصرية , بعث برسوله إلى **علاء الدولة ذي القادر** حاكم مرعش وألبستان , طالبا منه المساهمة في حرب الصفويين, لكن علاء الدولة اختلق الأعذار في عدم المجيء إليه , متعللا بكبر سنه وإنه لا يستطيع القيام بأي مجهود لكونه تحت الحماية المملوكية . وما إن مضى السلطان في طريقه حتى هاجم علاء الدولة ساقة الجيش بإيعاز من السلطان قانصوه الغوري . وبسبب ذلك ترك السلطان سليم 40 ألفا من جنده ما بين سيواس وقيصرية , للحفاظ على الأمن بالأناضول من أي اختراق قد يحصل من أي جهة من الجهات التي تنافسه, ولحماية مؤخرة الجيش من أنصار الشاه وقوات ذي القادر , مع ذلك فالسلطان لم ينس فعلة ذي القادر فانتقم منه عند عودته .

3 -1 - مراسلات السلطان

قبل وصوله لجالديران أرسل السلطان إلى قانصوه الغوري رسالة فيها تهديد مبطن يخبره بأن الدولة الصفوية غدت قاب قوسين أو أدنى من الزوال . وقد تبادل مع الشاه إسماعيل عدة رسائل. ففي 23 محرم 920 هـ الموافق 19 مارس 1514 أرسل رسالة بالفارسية من إسكدار مع من يدعى قليج بعد أن تحرك قاصدا بلاد فارس , ثم أرسل رسالة أخرى بالفارسية من ازميد في شهر صفر 920 هـ إلى الشاه مفادها :

[...إن علماءنا ورجال القانون قد حكموا عليك بالقصاص يا إسماعيل, بصفتك مرتدا, وأوجبوا على كل مسلم حقيقي أن يدافع عن دينه, وأن يحطم الهراطقة في شخصك, أنت وأتباعك البلهاء, ولكن قبل أن تبدأ الحرب معكم فإننا ندعوكم لحظيرة الدين الصحيح قبل أن نشهر سيوفنا وزيادة على ذلك فإنه يجب عليك أن تتخلى عن الأقاليم التي اغتصبتها منا اغتصابا, ونحن حينئذ على استعداد لتأمين سلامتك] ...

وأرسل مع رسالته خرقة ومسبحة وكشكولا وعصا رمز فرق الدراويش يذكره بأصله, فكان رد إسماعيل شاه على هذا الخطاب بأن أرسل إليه هدية عبارة عن علبة من الذهب مليئة بالأفيون قائلا: أعتقد أن هذا الخطاب كتب تحت تأثير المخدر .

مع ذلك لم يبد إسماعيل الصفوي حماسا للمعركة بسبب التفوق العددي، وحاول أن يتجنب ملاقاة العثمانيين فأرسل إليه بطلب الهدنة وتجديد علاقات السلم والصداقة بين الدولتين , فلم يقبل سليم وقتل الرسول وأرسل إليه برسالة إعلان الحرب بشكل رسمي يقول فيها وباللغة التركية:

[إن كنت رجلا فلاقني في الميدان, ولن نمل انتظارك].

وأرفقها بمجموعة من الألبسة النسائية والعطور وأدوات الزينة وذلك استهزاء بشخص الشاه لتهربه وتقاعسه من المسير إليه ويستعجله بالحرب ، وهو ما حدا بالشاه إسماعيل بقبول التحدي وواعده بجالديران قائلا له : **وأنا أيضا أعد العدة للحرب** .

وبدأت حرب استطلاع بين الطرفين, وبدأ سليم بالتحرك وعسكر في صحراء ياس جمن على مقربة من جالديران, ووصلته الأنباء التي أتت بها عيونه وجواسيسه تقول: إن الشاه إسماعيل الصفوي لا ينوي القتال وإنه يؤخره إلى أن يحل الشتاء كي يهلك العثمانيون بردا وجوعا.

4 – المعركة

أسرع السلطان سليم بالمسير إلى جالديران بعدما علم أن الشاه على وشك الوصول إليها، وقد وصلها في أغسطس 1514 واحتل المواقع الهامة بها واعتلى الأماكن الهضبية فيها، مما مكنه من السيطرة على مجرى المعركة بعد ذلك .

في صبيحة يوم الأربعاء 2 رجب 920 هـ/ الموافق 23 أغسطس 1514 م، كان الطرفان قد أعدا العدة للحرب واصطفا استعدادا لبدء المعركة. وما إن أعلنت ساعة البدء حتى هدرت المدافع العثمانية وتعالت أصوات الجند من كلا الفريقين. وبعد معركة حامية الوطيس، انتصر العثمانيون بمساعدة الطوبجية (رماة البنادق) ، وانكسر جيش القزلباش وسقط أقوى قادته **محمد خان استاجلو** صريعا في أرض المعركة ووقع الكثير من قادته بالأسر، وأسرت أيضا إحدى زوجاته وتسمى **تاجلو خانم** ، فلم يقبل السلطان أن يردها لزوجها بل زوجها لأحد كتابه تشفيًا بالشاه ، وأما الشاه فقد جرح في ذراعه وفر من المعركة متجها صوب تبريز بعد أن أنقذه أحد ضباطه ويدعى **ميرزا سلطان علي** من الأسر، مما حدا السلطان بأمر قائده **أحمد باشا دوقاقين أوغلو** بتعقب الشاه ، الأمر الذي جعله يترك تبريز ويلوذ بخوي . أما من وقع بالأسر من قوات الشاه إسماعيل، فقد أمر السلطان بإعدامهم جميعا، وأن يصنع من رؤوس القتلى هرم لينصب في ساحة المعركة .

وذكر الدكتور حسن كريم الجاف بأن المقاتلين الأكراد كان لهم دورا مهما في المعركة ، وذلك بأن جمعا منهم قد تركوا صفوف الجيش الصفوي وانحازوا إلى العثمانيين بسبب الظلم الذي وقع عليهم على يد قوات القزلباش بسبب انتمائهم للمذهب السني، وقد كافئ السلطان سليم بعد المعركة الأكراد بإعطائهم الحكم الذاتي لمناطقهم ، واعترف بإماراتهم .

5 - ما بعد المعركة

دخل السلطان سليم مدينة تبريز بتاريخ 16 رجب 920 هـ واستولى على خزائن الشاه, ولكنه لم يستطع التقدم أكثر من ذلك, فقد لقي معارضة شديدة من أمراء جيشه, وكان المحرض الأول لهم قاضي عسكر الإنكشارية **جعفر چلبي** , الذي أعدمه السلطان بعد رجوعه إلى الأستانة، وأعدم معه قواد الجيش الذين كانوا سببا في عدم تقدم الجيش ضد الصفويين ، ليكونوا عبرة لمن بعدهم. ورغم ذلك فقد كانت الظروف غير مواتية بسبب قلة المؤن لديه, وخلو تبريز من الأطعمة لجيشه الضخم حيث أحرق جنود القزلباش المنسحبين من المعركة وبأمر من الشاه إسماعيل جميع المؤن والأرزاق والمحاصيل الزراعية في تبريز وضواحيها , ثم حلول فصل الشتاء عليهم، وعدم وجود الألبسة الملائمة لجنده لهذا الفصل . وكذلك أثرت الغارات الليلية التي كان يشنها جنود القزلباش على القوات العثمانية، ودخولهم تبريز لخطف وقتل الجنود العثمانيين , لذلك فقد قرر إخلاء المدينة بعد اسبوع فقط من احتلالها ناقلا معه آلافا من أبرز تجارها وحرفييها وعلمائها إلى الأستانة. وكانت تلك عادتهم وعادة المغول من قبلهم في كل بلدة يحتلونها .

وقد أرسل الشاه اسماعيل وفدا من حاشيته إلى أماسيا حيث يقيم السلطان وحملهم الهدايا النفيسة وكلفهم بعقد اتفاق صلح مع السلطان شريطة ان يتم الإفراج عن زوجته الأسيرة **بهروزة خانم** إلا أن السلطان رد باعتقال الوفد وتزويج بهروزة خانم من أحد رجاله .

5 -1 - التوسع ما بعد جالديران

وترتب على انتصار سليم الأول أن نهض رؤساء كردستان - وكانوا من السنة - لمساندة العثمانيين وأعلنوا ولاءهم له ، ولم يمض وقت طويل حتى انضمت 23 مدينة للحكم العثماني , على الرغم من الاستحكامات العسكرية التي أقامها الصفويون بها, فعقد السلطان معهم اتفاقية صداقة وتحالف وذلك بفضل جهود الشيخ **إدريس البدليسي** والذي نصبه السلطان كمفوض للإدارة الأهلية بتلك الأقاليم كمكافأة لما قدمه من خدمات للسلطنة.

توسع العثمانيون فضموا إليهم أرمينيا وسائر مدن كردستان من ديار بكر وماردين والموصل وسنجار وحصن كيفا والعمادية وجزيرة ابن عمر حتى أصبح الجزء الأكبر من مناطق الأكراد سواء بالعراق أو بإيران في يد العثمانيين، وأصبح الصفويون وجها لوجه مع العثمانيين، فبات من الصعب عليهم التوسع على حساب العثمانيين.

6 - آثار المعركة

6 – 1 - على العثمانيين

مكنت تلك المعركة العثمانيين من التحكم بالطرق الرئيسية الإستراتيجية من الأناضول عبر القوقاز وسوريا وإيران , كما مكنتهم من تنظيم خطوط الدفاع والهجوم لتلك المناطق, وكذلك السيطرة على طرق

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

التجارة العالمية وخاصة الحرير الفارسي من تبريز إلى حلب وبورصة وهو ما در عليهم دخلا مهما من المكوس المفروضة من تلك التجارة, وأخيرا السيطرة على المصدر الرئيسي لتجارة الرقيق في القوقاز الذي أمكنهم أن يضغطوا على المماليك من عدة اتجاهات خلال تلك الفترة المهمة.

أدت معركة جالديران إلى تغيير الاستراتيجية التوسعية العثمانية ، فبعدما كان اهتمامهم منصبا أساسا على أوروبا الشرقية اتجهوا نحو الاهتمام بالمشرق العربي وشمال أفريقيا. وكان من نتائج ذلك أن ضموا البلدان العربية الواحدة تلك الأخرى، في حين ضعف توسعهم في أوروبا.

6 – 2 - على الصفويين

أدت معركة جالديران إلى اهتزاز صورة الشاه بالعراق مما أدى لانضمامها لاحقا للعثمانيين.

وأدى أيضا انسحاب السلطان سليم القسري من تبريز إلى أن يستمر الشاه قويا داخل إيران. فقد استطاع الشاه أن يُلملم قواته, وأن يقوم ببعض المناوشات الخفيفة إبان انشغال السلطان في الشام ومصر.

كان لسياسة الخنق الاقتصادي التي مارسها السلطان سليم ضد الصفويين أن جعلت الشاه يبحث عن حليف قوي , وقد توفر ذلك مع البرتغاليين النشطين بالبحار, فعقد معهم معاهدة عوضته خسارة بعض النقاط الإستراتيجية التي أخذها العثمانيون.

5 - فتح بغداد (1534)

تقديم :

فتح بغداد أو الاستيلاء على بغداد 1534 بقيادة سليمان القانوني سلطان الإمبراطورية العثمانية وأنتزاعها من أيدي الدولة الصفوية تحت حكم شاه طهماسب كانت جزءا من الحرب العثمانية الصفوية من 1532- 1555، التي هي جزء من سلسلة من الحروب العثمانية الفارسية الطويلة.

الإستيلاء تم من دون مقاومة ، حيث أن الحكومة والحامية الصفوية بقيادة **تكلو محمد سلطان خان** (حاكم بغداد الصفوي) هربت وتركت المدينة بدون دفاع.

آثار ونتائج المعركة

كان الإستيلاء على بغداد انجازا كبيرا نظرا للسيطرة على نهري دجلة و الفرات وتجارتها الدولية والإقليمية. وهي تمثل، جنبا إلى جنب مع سقوط البصرة في 1546، خطوة هامة نحو النصر العثماني في نهاية المطاف و حكم الجزء السفلي أيضا من بلاد ما بين النهرين ، و التحكم بمنفذي نهري دجلة والفرات ، وفتح منفذ تجاري في الخليج العربي.

أمضى العثمانيون فصل الشتاء هناك حتى 1535 للإشراف على إعادة بناء المراقد الدينية السنية والشيعية (حيث دمر الصفويين المراقد الأسلامية السنية) ومشاريع الري الزراعية.

عاد سليمان إلى القسطنطينية ، بعد أن تترك حامية قوية. وعلى مدى العقود القليلة المقبلة، عزز العثمانيون سيطرتهم على المنطقة ، و أدرجوها في إمبراطوريتهم حتى تم سقطت في يد الفرس مرة أخرى في 1623 .

6 - معاهدة قصر شيرين

معاهدة **قصر شيرين أو** معاهدة **زهاب** (بالتركية : Kasr-ı Şirin Antlaşması) هي معاهدة وقعت بين بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية في 17 مايو 1639 في قصر شيرين (محافظة كرمنشاه) شرق كركوك .

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

أنهت هذه المعاهدة الحرب التي استمرت بين الجانبين خمسة عشر عاماً في عهد السلطان مراد الرابع العثماني. وعيّنت هذه المعاهدة الحدود بين الجانبين على أساس الوضع الراهن ، آنذاك. فأعطت يريفان في جنوب القوقاز لإيران والعراق للدولة العثمانية.

وقد ظلت حدود معاهدة قصر شيرين معتبرة حتى الوقت الحاضر. وبالرغم من المعاهدة فالخلافات الحدودية لم تنته ، ففي الفترة من 1555 حتى 1918، وقعت الدولتان على ما لا يقل عن 18 معاهدة تتعلق بخلافات حدودية.

الدَّوْلَةُ العُثمَانيَّة : 1299 - 1923

العلم(1844 - 1923)

الشعار(1882 - 1923)

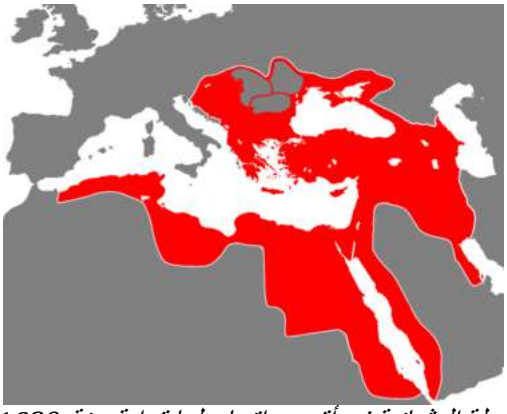

الدولة العثمانية في أقصى اتساع لها قرابة سنة 1680.

الدَّوْلَةُ العُثمَانيَّة : 1299 - 1923	خلافة وراثيَّة - سلطنة
الشعار الوطني	دولت أبد مدت (بالتركية العثمانية " دولة أبدية")
العاصمة	سوغوت (1302 – 1326)
	بورصة (1326 – 1365)
	أدرنة (1365 – 1453)
	الآستانة - إستانبول (1453- 1922)
اللغة	اللغة الرسمية : التركية
	اللغات الإقليمية المعترف بها : اليونانية ، الكردية ، الصربية ، المجرية ، الألبانية ، الأوكرانية
	اللغة الثانية : العربية ، الفارسية
الدين	الإسلام : أكثرية سنيّة وأقلية شيعية,
	أقليات مسيحية كبرى معظمها أرثوذكسية
السلطان المؤسس	عثمان الأول : 1281 – 1326
السلطان الأخير	محمد السادس : 1918 – 1922
الصدر الأعظم الأول	علاء الدين باشا : 1320 - 1331
الصدر الأعظم الأخير	أحمد توفيق باشا : 1920 - 1922
أحداث تاريخية	
- قيام الدولة	1299
- خلوّ سدّة العرش	1402–1414
- الإصلاح الدستوري الأول	1876–1878
- الإصلاح الدستوري الثاني	1908–1918

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

- إلغاء السلطنة	1 نوفمبر 1922
- معاهدة لوزان	24 يوليو 1923
- الزوال	1923

تقديم :

الدَّوْلَةُ العُثْمَانِيَّة (بالتركية العثمانية: دَوْلَتِ عَلِيّهْ عُثْمَانِيّه. بالتركية الحديثة: Yüce Osmanlı Devleti) أو الخِلَافَةُ العُثْمَانِيَّة ، هي إمبراطورية إسلامية أسسها عثمان الأول بن أرطغرل، واستمرت قائمة لما يقرب من 600 سنة ، (من 27 يوليو 1299م حتى 29 أكتوبر 1923م) .

بلغت الدولة العثمانية ذروة مجدها وقوتها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، فامتدت أراضيها لتشمل أنحاء واسعة من قارات العالم القديم الثلاثة : أوروبا وآسيا وأفريقيا، حيث خضعت لها كامل آسيا الصغرى وأجزاء كبيرة من جنوب شرق أوروبا، وغربي آسيا، وشمالي أفريقيا . وصل عدد الولايات العثمانية إلى 29 ولاية ، وكان للدولة سيادة اسمية على عدد من الدول والإمارات المجاورة في أوروبا ، التي أضحى بعضها يُشكل جزءًا فعليًا من الدولة مع مرور الزمن، بينما حصل بعضها الآخر على نوع من الاستقلال الذاتي.

كان للدولة العثمانية سيادة على بضعة دول بعيدة كذلك الأمر، إما بحكم كونها دولاً إسلامية تتبع شرعًا سلطان آل عثمان كونه يحمل لقب "أمير المؤمنين" و"خليفة المسلمين"، كما في حالة **سلطنة آتشيه السومطرية** التي أعلنت ولاءها للسلطان في سنة 1565م؛ أو عن طريق استحواذها عليها لفترة مؤقتة، كما في حالة جزيرة " **أنزاروت** " في المحيط الأطلسي، والتي فتحها العثمانيون سنة 1585م.

أضحت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان الأول " القانوني " (حكم منذ عام 1520م حتى عام 1566م)، قوّة عظمى من الناحيتين السياسية والعسكرية ، وأصبحت عاصمتها القسطنطينية تلعب دور صلة الوصل بين العالمين الأوروبي المسيحي والشرقي الإسلامي، وبعد انتهاء عهد السلطان سالف الذكر، الذي يُعتبر عصر الدولة العثمانية الذهبي، أصيبت الدولة بالضعف والتفسخ وأخذت تفقد ممتلكاتها شيئًا فشيئًا، على الرغم من أنها عرفت فترات من الانتعاش والإصلاح إلا أنها لم تكن كافية لإعادتها إلى وضعها السابق.

انتهت الدولة العثمانية بصفتها السياسية بتاريخ 1 نوفمبر سنة 1922م، وأزيلت بوصفها دولة قائمة بحكم القانون في 24 يوليو سنة 1923م، بعد توقيعها على **معاهدة لوزان**، وزالت نهائيًا في 29 أكتوبر من نفس السنة عند قيام **الجمهورية التركية** ، التي تعتبر حاليًا الوريث الشرعي للدولة العثمانية.

عُرفت الدولة العثمانية بأسماء مختلفة في اللغة العربية ، لعلّ أبرزها هو " الدولة العليّة " وهو اختصار لاسمها الرسمي " **الدولة العليّة العثمانية** "، كذلك كان يُطلق عليها محليًا في العديد من الدول العربية، وخصوصًا بلاد الشام ومصر، " **الدولة العثمليّة** "، اشتقاقًا من كلمة "*عثملى - Osmanlı*" التركية، التي تعني "عثماني".

ومن الأسماء الأخرى التي أضيفت للأسماء العربية نقلاً من تلك الأوروبية: "الإمبراطورية العثمانية" (بالتركية : **Osmanlı İmparatorluğu**) ، كذلك يُطلق البعض عليها تسمية " **السلطنة العثمانية** "، و" **دولة آل عثمان** ".

1 - التاريخ

1 – 1 - أصل العثمانيين وموطنهم الأول

العثمانيون قوم من الأتراك، فهم ينتسبون - من وجهة النظر الأثنيّة - إلى العرق الأصفر أو العرق المغولي، وهو العرق الذي ينتسب إليه المغول والصينيون وغيرهم من شعوب آسيا الشرقية . وكان موطن الأتراك الأوّل في آسيا الوسطى، في البوادي الواقعة بين جبال آلطاي شرقًا وبحر قزوين في الغرب ، وقد انقسموا إلى عشائر وقبائل عديدة منها عشيرة **"قايي"**، التي نزحت في عهد زعيمها **"كندز ألب"** إلى المراعي الواقعة شماليّ غربي أرمينيا قرب **مدينة خلاط** ، عندما استولى المغول بقيادة جنكيز خان على خراسان. إن الحياة السياسية المبكرة لهذه العشيرة يكتنفها الغموض، وهي أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقائق، وإنما كل ما يُعرف عنها هو استقرارها في تلك المنطقة لفترة من الزمن، ويُستدل على صحة هذا القول عن طريق عدد من الأحجار والقبور تعود لأجداد بني عثمان. ويُستفاد من المعلومات المتوافرة أن هذه العشيرة تركت منطقة خلاط حوالي سنة 1229م تحت ضغط الأحداث العسكرية التي شهدتها المنطقة ، بفعل الحروب التي أثارها السلطان **جلال الدين الخوارزمي** وهبطت إلى حوض نهر دجلة.

1 – 2 - قيام الدولة العثمانية (1299 – 1453) :

توفي **"كندز ألب"** في العام التالي لنزوح عشيرته إلى حوض دجلة، فترأس العشيرة ابنه **سليمان،** ثم حفيده **"أرطغرل"** الذي ارتحل مع عشيرته إلى مدينة **إرزينجان،** وكانت مسرحًا للقتال بين السلاجقة والخوارزميين، فالتحق بخدمة السلطان **علاء الدين** سلطان قونية، إحدى الإمارات السلجوقية التي تأسست عقب انحلال دولة السلاجقة العظام ، وسانده في حروبه ضد الخوارزميين ، فكافأه السلطان السلجوقي بأن أقطع عشيرته بعض الأراضي الخصبة قرب مدينة أنقرة.

وظل أرطغرل حليفًا للسلاجقة حتى أقطعه السلطان السلجوقي منطقة في أقصى الشمال الغربي من الأناضول على الحدود البيزنطية، في المنطقة المعروفة باسم **"سوغوت"** حول مدينة **أسكي شهر،** حيث بدأت العشيرة هناك حياة جديدة إلى جانب **إمارات تركمانية** سبقتها إلى المنطقة. علا شأن أرطغرل لدى السلطان بعد أن أثبت إخلاصه للسلاجقة، وأظهرت عشيرته كفاءة قتالية عالية في كل معركة ووجدت دومًا في مقدمة الجيوش وتمّ النصر على يدي أبنائها ، فكافأه السلطان بأن خلع عليه لقب **"أوج بكي"**، أي **محافظ الحدود** ، اعترافًا بعظم أمره. غير أن أرطغرل كان ذا أطماع سياسية بعيدة، فلم يقنع بهذه المنطقة التي أقطعه إياها السلطان السلجوقي، ولا باللقب الذي ظفر به، ولا بمهمة حراسة الحدود والحفاظ عليها؛ بل شرع يهاجم باسم السلطان ممتلكات البيزنطيين في الأناضول ، فاستولى على مدينة أسكي شهر وضمها إلى أملاكه، واستطاع أن يوسع أراضيه خلال مدة نصف قرن قضاها كأمير على مقاطعة حدودية، وتوفي في سنة 1281م عن عمر يُناهز التسعين عامًا، بعد أن خُلع عليه لقب كبير آخر هو **"غازي"**، تقديرًا لفتوحاته وغزواته.

بعد أرطغرل تولّى زعامة الإمارة ابنه البكر **عثمان** ، فأخلص الولاء للدولة السلجوقية على الرغم مما كانت تتخبط فيه من اضطراب وما كان يتهددها من أخطار . أظهر عثمان في بداية عهده براعة سياسية في علاقاته مع جيرانه ، فعقد تحالفات مع **الإمارات التركمانية** المجاورة ، ووجه نشاطه العسكري نحو الأراضي البيزنطية لاستكمال رسالة دولة سلاجقة الروم بفتح الأراضي البيزنطية كافة، وإدخالها ضمن الأراضي الإسلامية، وشجعه على ذلك حالة الضعف التي دبت في جسم الإمبراطورية البيزنطية وأجهزتها، وانهماكها بالحروب في أوروبا، فأتاح له ذلك سهولة التوسع باتجاه غربي الأناضول، وفي عبور الدردنيل إلى أوروبا الشرقية الجنوبية. ومن الناحية الإدارية ، فقد أظهر عثمان مقدرة فائقة في وضع النظم الإدارية لإمارته، بحيث قطع العثمانيون في عهده شوطًا كبيرًا على طريق التحول من نظام القبيلة المتنقلة إلى نظام الإدارة المستقرة، ما ساعدها على توطيد مركزها وتطورها سريعًا إلى دولة كبرى. وقد أبدى السلطان السلجوقي **علاء الدين كيقباد الثالث** تقديره العميق لخدمات عثمان، فمنحه لقب **" عثمان غازي حارس الحدود العالي الجاه ، عثمان باشا"** .

أقدم عثمان بعد أن ثبّت أقدامه في إمارته على توسيع حدودها على حساب البيزنطيين، ففي عام 1291م فتح مدينة **"قره جه حصار"** الواقعة إلى الجنوب من سوغوت، وجعلها قاعدة له، وأمر بإقامة الخطبة باسمه، وهو أول مظهر من مظاهر السيادة والسلطة، ومنها قاد عشيرته إلى بحر مرمرة والبحر الأسود. وحين تغلب المغول على دولة قونية السلجوقية ، سارع عثمان إلى إعلان استقلاله عن السلاجقة

ولقّب نفسه " **پاديشاه آل عثمان**" أي عاهل آل عثمان، فكان بذلك المؤسس الحقيقي لهذه الدولة التركية الكبرى التي نُسبت إليه لاحقًا. وظلّ عثمان يحكم الدولة الجديدة بصفته سلطانًا مستقلاً حتى تاريخ 6 أبريل سنة 1326م، الموافق فيه 2 جمادى الأولى سنة 726هـ، عندما احتل ابنه "**أورخان**" مدينة **بورصة** الواقعة على مقربة من بحر مرمرة ، وفي هذه السنة توفي عثمان عن عمر يناهز السبعين عامًا، بعد أن وضع أسس الدولة ومهد لها درب النمو والازدهار، وخُلع عليه لقب آخر هو " **قره عثمان**"، وهو يعني "عثمان الأسود" باللغة التركية الحديثة، لكن يُقصد به "الشجاع" أو "الكبير" أو "العظيم" في التركية العثمانية.

عُني **أورخان** بتنظيم مملكته تنظيمًا محكمًا، فقسمها إلى سناجق أو ولايات، وجعل من بورصة عاصمةً لها، وضرب النقود باسمه، ونظّم الجيش، فألّف فرقًا من الفرسان النظاميين، وأنشأ من الفتيان المسيحيين الروم والأوروبيين الذين جمعهم من مختلف الأنحاء جيشًا قويًا عُرف بجيش الإنكشارية. وقد درّب أورخان هؤلاء الفتيان تدريبًا صارمًا وخصّهم بامتيازات كبيرة، فتعلقوا بشخصه وأظهروا له الولاء. وعمل أورخان على توسيع الدولة، فكان طبيعيًا أن ينشأ بينه وبين البيزنطيين صراعٌ عنيف كان من نتيجته استيلاؤه على مدينتيّ **إزميد ونيقية**. وفي عام 1337م شنّ هجومًا على القسطنطينية عاصمة البيزنطيين نفسها، ولكنه أخفق في احتلالها. ومع ذلك فقد أوقعت هذه الغزوة الرعب في قلب إمبراطور الروم "**أندرونيقوس الثالث**"، فسعى إلى التحالف معه **وزوجه ابنته**. ولكن هذا الزواج لم يحل بين العثمانيين وبين الاندفاع إلى الأمام ، وتثبيت أقدامهم سنة 1357م في شبه جزيرة **غاليبولي**، وهكذا اشتد الخطر العثماني على القسطنطينية من جديد.

شهد المسلمون في عهد أورخان أوّل استقرار للعثمانيين في أوروبا، وأصبحت الدولة العثمانية تمتد من أسوار أنقرة في آسيا الصغرى إلى **تراقيا** في البلقان، وشرع المبشرون يدعون السكان إلى اعتناق الإسلام. توفي أورخان الأول في سنة 1360م بعد أن أيّد الدولة الفتيّة بفتوحاته الجديدة وتنظيماته العديدة، وتولّى بعده ابنه "**مراد الله**"، **الملقب بمراد الأول**.

كانت فاتحة أعمال مراد الأول احتلال مدينة أنقرة مقر **إمارة القرمان**، وذلك أن أميرها واسمه علاء الدين، أراد انتهاز فرصة انتقال المُلك من السلطان أورخان إلى ابنه مراد لإثارة حمية الأمراء المجاورين وتحريضهم على قتال العثمانيين ليقوضوا أركان ملكهم الآخذ في الامتداد يومًا فيومًا، فكانت عاقبة دسائسه أن فقد أهم مدنه. وتحالف مراد مع بعض أمراء الأناضول مقابل بعض التنازلات لصالح العثمانيين، وأجبر آخرين على التنازل له عن ممتلكاتهم، وبذلك ضمّ جزء من الممتلكات **التركمانية** إلى الدولة العثمانية.

ثم وجّه اهتمامه نحو شبه جزيرة البلقان التي كانت في ذلك الحين مسرحًا لتناحر دائم بين مجموعة من الأمراء الثانويين، ففتح مدينة أدرنة سنة 1362م ونقل مركز العاصمة إليها لتكون نقطة التحرك والجهاد في أوروبا ، وقد ظلت عاصمة للعثمانيين حتى فتحوا القسطنطينية في وقت لاحق، كما تم فتح عدّة مدن أخرى مثل **صوفيا وسالونيك** ، وبذلك صارت القسطنطينية محاطة بالعثمانيين من كل جهة في أوروبا . وفي 12 يونيو سنة 1385م، الموافق فيه 19 جمادى الآخرة سنة 791هـ، التقت الجيوش العثمانية بالقوى الصربية - تساندها قوىً من المجر والبلغار والألبانيين - في إقليم " **قوصوة** "، المعروف حاليًا باسم "**كوسوفو**"، فدارت بين الطرفين معركة عنيفة انتصر فيها العثمانيون، إلا أن السلطان قتل في نهايتها على يد أحد الجنود الذي تظاهر بالموت .

تولّى عرش آل عثمان بعد مراد الأول ابنه **بايزيد**، وعند ذلك كانت الدولة قد اتسعت حدودها بشكل كبير، فانصرف إلى تدعيمها بكل ما يملك من وسائل، وانتزع من البيزنطينيين مدينة **آلا شهر**، وكانت آخر ممتلكاتهم في آسيا الصغرى ، وأخضع البلغار عام 1393م إخضاعًا تامًا. فجزع "**سيگسموند**" ملك المجر من هذا التوسع العثماني، خصوصًا بعد أن تاخمت حدود بلاده مناطق السيطرة العثمانية، فاستنجد بأوروبا الغربية، فدعا البابا "**بونيفاس التاسع**" إلى حملة صليبية جديدة ضد العثمانيين لمنعهم من التوغل في قلب أوروبا، فلبّى الدعوة ملك المجر سالف الذكر، وعدد من أمراء فرنسا وباڤاريا والنمسا وفرسان القديس يوحنا في رودس وجمهورية البندقية ، وقدمت إنگلترا مساعدات عسكرية.

تقابل الجيشين العثماني والأوروبي في 25 سبتمبر سنة 1396م، الموافق فيه 21 ذي الحجة سنة 798هـ، ودارت بينهما رحى معركة ضارية هُزم فيها الأوروبيون وردوا على أعقابهم. حاصر بايزيد

القسطنطينية مرتين متواليتين، ولكن حصونها المنيعة صمدت في وجه هجماته العنيفة ، فارتد عنها خائبًا . ولم ينس بايزيد وهو يوجه ضرباته الجديدة نحو الغرب، أن المغول يستعدون للانقضاض عليه من جهة الشرق ، بقيادة **تيمورلنك** الشهير المتحدّر من سلالة **جنكيز خان**.

لذلك عمل بايزيد على تعزيز مركزه في آسيا الصغرى استعدادًا للموقعة الفاصلة بينه وبين تيمورلنك. وهكذا خف الضغط العثماني على البيزنطيين، وتأخر سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين خمسين سنة ونيفًا, وفي ربيع سنة 1402م، تقدّم تيمورلنك نحو سهل أنقرة لقتال بايزيد، فالتقى الجمعان عند " **جُبق آباد** " ودارت معركة طاحنة انهزم فيها العثمانيون وأُسر السلطان بايزيد وحمله المغول معهم عائدين إلى سمرقند عاصمة الدولة التيمورية ، حيث عاش بقية أيامه ومات في سنة 1403م.

وبعد موت السلطان بايزيد تجزأت الدولة إلى عدّة إمارت صغيرة كما حصل بعد سقوط الدولة السلجوقية ، لأن تيمورلنك أعاد إلى أمراء قسطموني وصاروخان وكرميان وآيدين ومنتشا وقرمان ما فقدوه من البلاد . واستقل في هذه الفترة كل من البلغار والصرب والفلاخ ، ولم يبق تابعًا للراية العثمانية إلا قليل من البلدان. ومما زاد الخطر على الدولة عدم اتفاق أولاد بايزيد على تنصيب أحدهم، بل كان كل منهم يدعي الأحقية لنفسه ، فنشبت بينهم حروب ضارية ،

ولكن النصر كان آخر الأمر من نصيب **محمد بن بايزيد** ، المُلقب **بمحمد الأول أو "محمد چلبي"**، الذي استطاع أن يعيد للدولة بعض ما فقدته من أملاكها في الأناضول.

وبعد محمد الأول تولّى عرش السلطنة العثمانية **مراد الثاني** ، فاستمر بإخضاع المدن والإمارات التي استقلت عن الدولة العثمانية ، وحاصر القسطنطينية، ولكنه لم يُوفق إلى احتلالها. ثم حاول أن يعيد إخضاع البلقان لسيطرته ، ففتح عدّة مدائن وقلاع وحاول أن يضم إليها مدينة بلغراد لكنه فشل في اقتحامها ، فكان هذا الهجوم إنذارًا جديدًا لأوروبا بالخطر العثماني ، فقامت قوات مجرية - وعلى رأسها **يوحنا هونياد** - بالالتحام مع العثمانيين وهزمتهم هزيمة قاسية كان من نتائجها بعث الروح الصليبية في أوروبا، وإعلان النضال الديني ضد العثمانيين.

ولمّا توفي السلطان مراد الثاني ارتقى عرش العثمانيين ابنه **محمد**، فكان عليه بادئ الأمر أن يُخضع ثورة نشبت ضده في إمارة **قرمان** بآسيا الصغرى ، فاستغل الإمبراطور البيزنطي **قسطنطين الحادي عشر** هذا الأمر، وطلب من السلطان مضاعفة الجزية التي كان والده يدفعها إلى البيزنطيين لقاء أسرهم الأمير **أورخان حفيد سليمان بن بايزيد المطالب بالعرش العثماني**.

فاستاء السلطان محمد من هذا الطلب لما كان ينطوي عليه من تهديد بتحريض أورخان هذا على العصيان، فأمر بإلغاء الراتب المخصص له ، وراح يتجهّز لحصار القسطنطينية والقضاء على هذه المدينة في أقرب فرصة ممكنة. وكان أوّل ما قام به في هذا السبيل تشييده عند أضيق نقطة من مضيق البوسفور قلعة " **روملي حصار**" القائمة على بعد سبعة كيلومترات من أبواب القسطنطينية . وعندئذ أرسل الإمبراطور قسطنطين بعثة من السفراء إلى السلطان محمد لتحتجّ لديه على ذلك ، فلم يلقوا منه جوابًا شافيًا ، بل أصرّ على البناء لما في القلعة من أهمية استراتيجية . واستنجد الإمبراطور قسطنطين بالدول الأوروبية فلم تنجده إلا بعض المدن الإيطالية ، أما البابا فقد أبدى استعداده لمساعدة الإمبراطور شرط أن تتحد الكنيستان الشرقية والغربية ، ووافق قسطنطين على المشروع، ولكنّ تعصّب الشعب حال دون تحقيق ذلك.

وكان السلطان قد حشد لقتال البيزنطيين جيشًا عظيمًا مزودًا بالمدافع الكبيرة وأسطولاً ضخمًا، وبذلك حاصرهم من ناحيتيّ البر والبحر معًا. والواقع أن البيزنطيين استماتوا في الدفاع عن عاصمتهم، لكن ما أن مضى 53 يومًا على الحصار حتى كان العثمانيون قد دخلوا المدينة بعد أن هُدمت أجزاء كبيرة من أسوارها بفعل القصف المدفعي المتكرر ،

واشتبكوا مع البيزنطيين في قتال عنيف جدًا دارت رحاه في الشوارع ، وذهب ضحيته الإمبراطور نفسه وكثير من جنوده . حتى إذا انتصف النهار دخل محمد المدينة وأصدر أمره إلى جنوده بالكف عن القتال، بعد أن قضى على المقاومة البيزنطية ونشر راية السلام.

اتخذ السلطان محمد لقب " **الفاتح** " بعد فتح المدينة، وأضاف إليه لقب " **قيصر الروم**"، على الرغم من عدم اعتراف بطريركية القسطنطينية ولا أوروبا الغربية بهذا الأمر، ونقل مركز العاصمة من

أدرنة إلى القسطنطينية التي غيّر اسمها إلى "**إسلامبول**"، أي **مدينة الإسلام أو تخت الإسلام** ، وأعطى للمسيحين الآمان وحرية إقامة شعائرهم الدينية ، ودعا من هاجر منهم خوفًا إلى العودة إلى بيوتهم .

سقطت الإمبراطورية البيزنطية عند فتح المدينة بعد أن استمرت أحد عشر قرنًا ونيفًا، وتابع السلطان محمد فتوحاته في أوروبا خلال السنوات اللاحقة التي أعقبت سقوط القسطنطينية، فأخضع بلاد الصرب وقضى على استقلالها، وفتح بلاد المورة في جنوب اليونان، وإقليم الأفلاق وبلاد البشناق وألبانيا، وهزم البندقية ووحد الأناضول عبر قضائه على إمبراطورية طرابزون الرومية وإمارة قرمان. وقد حاول السلطان محمد أيضًا فتح إيطاليا لكن وافته المنية سنة 1481م ، فانصرف العثمانيون عن هذه الجهة .

1 – 3 - دور التوسع والقوة (1453– 1683)

يُمكن تقسيم هذه الفترة في التاريخ العثماني إلى حقبتين مميزتين: حقبة النمو والازدهار العسكري والثقافي والحضاري والاقتصادي، وهي تمتد حتى سنة 1566م، وحقبة شهدت بأغلبها ركودًا سياسيًا وعسكريًا، وتخللتها فترات إصلاح وانتعاش، وقد دامت حتى سنة 1683م.

1 – 3 – 1 - حقبة النمو والازدهار (1453 – 1566)

بعد موت السلطان محمد الفاتح تنازع ابناه " **جم** " و" **بايزيد** " على العرش. ولكن الغلبة كانت من نصيب بايزيد، ففر جم إلى مصر حيث احتمى بسلطان المماليك "**قايتباي**"، ثم إلى رودس حيث حاول أن يتعاون مع **فرسان القديس يوحنا** والدول الغربية على أخيه، لكن بايزيد استطاع إقناع دولة الفرسان بإبقاء الأمير جم على الجزيرة مقابل مبلغ من المال، وتعهد بأن لا يمس جزيرتهم طيلة فترة حكمه ، فوافقوا على ذلك، لكنهم عادوا وسلموا الأمير إلى البابا " **إنوسنت الثامن** " كحل وسط ، وعند وفاة الأخير قام خليفته بدس السم للأمير بعد أن أجبره الفرنسيون على تسليمهم إياه ، فتوفي في **مدينة ناپولي** ، ونقل جثمانه فيما بعد إلى بورصة ودُفن فيها . اتصف السلطان بايزيد بأنه سلطان مسالم لا يدخل الحروب إلا مدافعًا ، فقاتل جمهورية البندقية بسبب الهجمات التي قام بها أسطولها على بلاد المورة، وحارب المماليك حين قرر السلطان قايتباي السيطرة على إمارة **ذي القدر ومدينة ألبستان** التابعتين للدولة العثمانية ، وعدا ذلك فكان يفضل مجالسة العلماء والأدباء . وفي عهده سقطت **غرناطة آخر** معاقل المسلمين في الأندلس؛ فبعث بعدّة سفن لتحمل الأندلسيين المسلمين واليهود إلى القسطنطينية وغيرها من مدن الدولة ، وفي عهده أيضًا ظهرت سلالة وطنية شيعية في بلاد فارس ، **هي السلالة الصفوية** ، التي استطاعت بزعامة الشاه **إسماعيل بن حيدر**، أن تهدد بالخطر إمبراطورية العثمانيين في الشرق.

وفي أواخر عهد بايزيد دبّ النزاع بين أولاده بسبب من ولاية العهد . ذلك أن بايزيد اختار ابنه **أحمد** لخلافته ، فغضب ابنه الآخر **سليم** ، وأعلن الثورة على والده ، وكان لثورة سليم أسباب سياسية ومذهبية وتجارية وعرقية ، ذلك أن الصفويين كانوا يعملون على نشر المذهب الشيعي في الأناضول على حساب المذهب السني ، وقطعوا طريق التجارة مع الهند والشرق الأقصى، ومنعوا نزوح المزيد من قبائل التركمان من آسيا الوسطى إلى الأناضول وأوروبا الشرقية، وكان الشاه إسماعيل يدعم الأمير أحمد للوصول إلى سدة الحكم ولم يحرك الأخير ساكنًا لمنع التدخل الصفوي في الشؤون العثمانية .

نتيجة لكل ما سلف، ثار سليم على والده وشقيقه ثم استولى على أدرنة، فما كان من بايزيد إلا أن انبرى لقتال ابنه سليم ، فهزمه وقرر نفيه ، لكن الجنود الإنكشارية قاموا بالضغط على السلطان وأرغموه بالتنازل عن العرش لصالح ابنه سليم . وقد مات بايزيد يوم 26 مايو سنة 1512م، الموافق فيه 10 ربيع الأول سنة 918هـ، واختلف المؤرخون على سبب الوفاة.

كان على سليم ، بعد اعتلائه العرش، تثبيت أقدامه في الحكم والتفاهم مع الدول الأوروبية الفاعلة ليتفرغ لأخطر أزمة واجهتها الدولة منذ أعقاب معركة أنقرة، ألا وهي القضية الصفوية ، فأقدم على **قتل إخوته وأولادهم حتى لا يبقى له منازع في الحكم** ، ثم أبرم هدنة طويلة مع الدول الأوروبية المجاورة، وحوّل انتباهه إلى الجبهة الشرقية لمواجهة الصفويين والمماليك .

وكان السلطان سليم يهدف إلى السيطرة على طرق التجارة بين الشرق والغرب، والتوسع على حساب القوى في المشرق، والقضاء على المد الشيعي ، وتوحيد الأمصار الإسلامية الأخرى حتى تكون

يدًا واحدة في مواجهة أوروبا، وخاصة بعد سقوط الأندلس وقيام البرتغاليين بالتحالف مع الصفويين وإنشائهم لمستعمرات في بعض المواقع في جنوب العالم الإسلامي.

وكان الشيعة المقيمون في آسيا الصغرى قد ثاروا على الدولة العثمانية اعتمادًا على تأييد الصفويين، فأخضع سليم هذه الثورة وعمد إلى اضطهاد الشيعة، فذهب ضحية هذه السياسة أربعون ألفًا منهم ، ثم انبرى لقتال الشاه ، فالتقى الفريقان في سهل چالديران والتحما في معركة كبيرة كان النصر فيها لصالح السلطان سليم ، وفرّ الشاه ناجيًا بحياته ، أما سليم فتقدم إلى تبريز عاصمة خصمه الصفوي، فاستولى عليها ورجع عائدًا إلى بلاده .

تقدم العثمانيون، بعد انتصارهم على الصفويين، لإخضاع السلطنة المملوكية ، فنشبت بينهم وبين المماليك معركة على الحدود الشاميّة التركية تُعرف بمعركة **مرج دابق**، انتصر فيها العثمانيون وقُتل سلطان المماليك " **قنصوه الغوري** " ، ثم تابعوا زحفهم نحو مصر والتحموا بالمماليك من جديد في معركة **الريدانية** التي قررت مصير مصر كلها ، وانتصروا عليهم مجددًا ودخلوا القاهرة فاتحين.

وفي أثناء ذلك قدّم شريف مكة مفاتيح الحرمين الشريفين إلى السلطان سليم اعترافًا بخضوع الأراضي المقدسة الإسلامية للعثمانيين ، وتنازل في الوقت ذاته آخر الخلفاء العباسيين، **محمد الثالث المتوكل على الل**ه ، عن الخلافة لسلطان آل عثمان ، فأصبح كل سلطان منذ ذلك التاريخ خليفة للمسلمين، ويحمل لقب **"أمير المؤمنين" و"خليفة رسول رب العالمين"**.

وعند نهاية حملته الشرقية، كان السلطان سليم قد جعل من الدولة العثمانية قوة إقليمية كبرى ومنافسًا كبيرًا للإمبراطورية البرتغالية على زعامة المنافذ المائية العربية . توفي السلطان سليم في 22 سبتمبر سنة 1520م، الموافق فيه 9 شوّال سنة 926هـ، وهو على أهبة الاستعداد لقتال فرسان القديس يوحنا في رودس. فارتقى العرش من بعده ابنه **سليمان**، الذي يُعرف في الشرق باسم **"القانوني"**، ويُعرف في الغرب باسم **"العظيم"**.

والواقع أن الفتوح في الشرق شغلت السلطان سليم طوال أيام حكمه، فكان طبيعيًا أن ينصرف السلطان سليمان إلى ناحية الغرب ليُتم الفتوح التي كان أسلافه قد بدأوها من قبله. واحتل سليمان مدينة **بلغراد** في سهولة، عام 1521م، وعقد العزم على ما كان أبوه السلطان سليم قد شرع يستعد له قبل وفاته، أي الاستيلاء على جزيرة رودس، فتمكن من ذلك في سنة 1523م ، ثمّ ضمّ إلى الأملاك العثمانية القسم الجنوبي والأوسط من مملكة المجر، بعد أن استغل الأوضاع الداخلية المضطربة للمملكة ، والأوضاع الخارجية الملائمة.

اشتبكت الجيوش العثمانية مع نظيرتها المجرية في وادي **موهاج** بالمجر بتاريخ 26 أغسطس سنة 1526م ، في معركة دامت حوالي الساعتين، وانتصر فيها العثمانيون نصرًا كبيرًا وثبتوا أقدامهم في البلاد لفترة طويلة من الزمن، وعين السلطان **"جان زابوليا"** ملك **ترانسلڤانيا** حاكمًا عليها، عندئذ أرسل **فرديناند ملك النمسا** ، وفدًا إلى السلطان يلتمس منه الاعتراف به ملكًا على المجر، فسخر سليمان من الوفد وزجّ أعضاءه في السجن فترة من الزمن، ولمّا أفرج عنهم حمّلهم رسالة إلى الملك ليستعد لملاقاته.

وقاتل سليمان فرديناد بجيش عظيم، فلم يصمد في وجهه، فراح سليمان يتعقبه حتى ڤيينا العاصمة، وهنا ضرب سليمان الحصار على هذه المدينة القائمة في قلب أوروبا، وأحدثت الجنود العثمانية ثغرًا في أسوارها إلا أن الذخيرة والمؤن نفدت منهم، وأقبل فصل الشتاء فقفل السلطان ورجع إلى بلاده.

وفي عام 1532م، عاود سليمان الكرّة، فحاصر ڤيينا من جديد، ولكن التوفيق خانه في حملته الثانية هذه أيضًا، فعقد مع فرديناند صلحًا احتفظ بموجبه بجميع ما استولى عليه من الأراضي المجرية.

وكان مما رغّب سليمان في عقد الصلح اضطراره إلى الالتفات صوب الشرق بعد أن توترت العلاقات بينه وبين **"طهماسب بن إسماعيل الصفوي" شاه فارس**،

وتفصيل ذلك أن عامل بغداد من قبل طهماسب خان مولاه الصفوي وانحاز إلى العثمانيين بناءً على إلحاح الشعب بسبب سياسة التطرف المذهبي التي انتهجها الصفويون، فسار إليه طهماسب يريد تأديبه، فلم

يكن من السلطان سليمان إلا أن اغتنم هذه الفرصة للانقضاض على بلاد فارس، وهكذا احتل تبريز عاصمة الفرس، ثم استولى على بغداد ودخلها في أبّهة بالغة.

حقق العثمانيون أيام السلطان سليمان عدّة فتوحات بحرية مهمة، وذلك بفضل البحّار يوناني الأصل، **خير الدين بربروس**، الذي كان سبق وضمّ الجزائر للدولة العثمانية أيام السلطان سليم . عيّن السلطان سليمان خير الدين هذا أميرًا للبحر عام 1533م، فنهض بالأسطول العثماني نهضة جبارة مكنته من انتزاع تونس من أيدي الإسبان وإخضاعها للسلطة العثمانية ولو لفترة قصيرة من الزمن. وفي سنة 1538م حقق خير الدين للدولة العثمانية نصرًا بحريًا كبيرًا، فقد وفّق إلى إنزال هزيمة قاسية **بأندريا دوريا** الذي كان يقود أساطيل **كارلوس الخامس** ملك إسبانيا والبابا بولس الثالث والبندقية مجتمعة ، وذلك قرب بروزة، الواقعة على خليج آرتا في الشمال الغربي من اليونان.

ومن الفتوح الهامة التي حققها الأسطول العثماني في عهد السلطان سليمان، فتح طرابلس الغرب وتحريرها من الإسبان وفرسان القديس يوحنا على يد القبطان **"طورغول بك"**. توفي السلطان سليمان في 5 سبتمبر سنة 1566م، الموافق فيه 20 صفر سنة 974هـ، وكانت الدولة العثمانية آنذاك قد بلغت أعلى درجات الكمال وأصبح وجودها ضروريًا لحفظ التوازن السياسي في الشرق الأوسط وأوروبا، .

1 – 3 – 2 - حقبة الركود والانتعاشات (1566 – 1683)

يُعتبر عصر سليمان القانوني عصر الدولة العثمانية الذهبي، وما أن انقضى هذا العصر حتى أصاب الدولة الضعف والتفسخ. فقد كان سليم الثاني، خليفة سليمان، سلطانًا ضعيفًا لا يتصف بما يؤهله للقيام بحفظ فتوحات أبيه فضلاً عن إضافة شيء إليها، بالإضافة إلى أنه كان حاكمًا منحلاً خاملاً، وكان ماجنًا سكّيرًا. وما يميّز عهد هذا السلطان هو أن وظيفة الصدر الأعظم أصبحت تجعل من يتقلدها الحاكم الفعلي وقائد الجيوش، فلولا وجود الصدر الأعظم **محمد باشا صقللي** المخضرم في الأعمال السياسية والحربية للحق الدولة الفشل ، لكن حسن سياسة هذا الرجل وعظم اسم الدولة ومهابتها في قلوب أعدائها حفظها من السقوط مرة واحدة.

ومن أعمال محمد باشا صقللي أن أرسل جيشًا كبيرًا إلى اليمن سنة 1569م بقيادة **عثمان باشا** يسانده **سنان باشا** والي مصر، لقمع ثورة الأهالي، وتمكن الجيش من إخماد الثورة، ودخل مدينة صنعاء بعد أن فتح جميع القلاع .

ومن أعمال الصدر الأعظم أيضًا فتح جزيرة قبرص وانتزاعها من أيدي البنادقة.

شنّت الدولة العثمانية في عام 1569م أيضًا حملة على مدينة **أسترخان**، الواقعة على مصب نهر **الڤولغا** في **بحر قزوين** ، بهدف استرداد الإمارة ووضع حد لامتداد روسيا من ناحية الجنوب، خشية أن يؤدي توسعها إلى استيلائها على الطرق التجارية والأسواق الكبرى وإلى هيمنتها على تجارة البلدان الإسلامية ، إلا أن هذه الحملة كان مصيرها الفشل، بسبب امتناع خاقان القرم، **"دولت گراي الأول"**، عن التعاون مع الجيش العثماني وسعيه شخصيًا لأن يقوم بالاستيلاء على أسترخان وقازان، كما تعذر ضرب الحصار على المدينة لأن الروس بنوا قلعة قوية إلى الجنوب منها، على الطريق المؤدية إليها حالت دون تقدم الجيش العثماني.

وفي عهد السلطان سليم الثاني جرت موقعة ليبانتو البحرية التي هزّت صورة البحرية العثمانية والجيش العثماني الذي اعتبره كثيرون لا يُقهر. وتفصيل ذلك أنه بعد ازدياد الخطر العثماني في البحر المتوسط على أوروبا، وخاصة بعد فتح جزيرة قبرص، وبعض المواقع على البحر الأدرياتيكي ، تحالف فيليب الثاني ملك إسبانيا مع البابا بيوس الخامس وجمهورية البندقية لوقف التقدم العثماني باتجاه إيطاليا من جهة، واسترداد جميع المواقع التي فتحوها على حساب أوروبا وبخاصة في شمال أفريقيا، من جهة أخرى. فجمعوا مائتين وثلاثين سفينة وثلاثين ألف جندي، وسلموا لواء القيادة إلى الدون **يوحنا النمساوي**، الذي أبحر إلى خليج پاتراس، أحد فروع البحر الأيوني، وهناك اشتبك الأسطولان العثماني والأوروبي في معركة بحرية طاحنة هي إحدى أكبر المعارك في التاريخ الحديث، أسفرت عن انتصار الأوروبيين وانهزام العثمانيين هزيمة منكرة . ولم تُقعد هذه الحادثة همّة الصدر الأعظم محمد باشا صقللي، بل انتهز فرصة الشتاء وعدم إمكانية استمرار الحرب لتجهيز أسطول جديد، وبذل النفس والنفيس في تجهيزه وتسليحه حتى

إذا أقبل صيف سنة 1572م كان قد تمّ بناء 250 سفينة بما فيها 8 غلايين حديثة، وأعلم الصدر الأعظم البنادقة باستعداده للجولة الثانية ، ففضلت البندقية أن تجنح للسلام ووقعت مع الدولة العثمانية معاهدة بذلك سنة 1573م ، فتفرغ العثمانيون لمحاربة إسبانيا التي عادت لاحتلال تونس، وكذلك هزموا أمير **البغدان** الذي تمرّد على الدولة طلبًا للاستقلال.

توفي السلطان سليم الثاني يوم 12 ديسمبر سنة 1574م، الموافق فيه 27 شعبان سنة 982هـ، وتولّى بعده ابنه مراد الثالث. وفي عهد هذا السلطان تدخلت الدولة العثمانية في انتخاب حليفها **"أتيين باتوري"**، أمير **ترانسلڤانيا**، ملكًا على **بولندا** بعد شغور العرش، وبذا تحولت الحماية العثمانية على بولندا من حماية اسمية إلى حماية فعلية.

وساعد العثمانيون سلطان **مراكش** لإخماد ثورة اندلعت في بلاده، فاصطدموا مع الثوّار والبرتغاليين الذين ساندوهم في موقعة القصر الكبير وانتصروا عليهم وأعادوا السلطان إلى الحكم.

أما أهم ما حصل في عهد السلطان مراد الثالث هو التوسع العثماني في الشرق، على حساب الدولة الصفوية، فبعد وفاة الشاه طهماسب الأول من غير أن يسمي من سيخلفه، تنازع أبناؤه على السلطة، فأرسل الصدر الأعظم محمد باشا صقللي حملة عسكرية إلى بلاد فارس لفتح ما تيسر من مدنها، فضموا إليهم من أملاكها بلاد الكرج، ثم أذربيجان الشمالية، ثم بلاد داغستان.

تعرضت الدولة العثمانية بعد هذه الغزوات لخضّة سياسية عنيفة، عندما تقلّص نفوذ الصدر الأعظم محمد باشا صقللي، ومن ثم قُتل في سنة 1579م، فعمّت الفوضى بعد موته بفعل ضعف حلفائه وتمرّد الإنكشارية، وراح الولاة يتنافسون فيما بينهم على منصب الصدارة العظمى.

وفي عام 1590م أبرم العثمانيون صلحًا مع الصفويين، اعترفوا فيه بما تم ضمه إلى الدولة العثمانية، إضافةً إلى جنوب أذربيجان بما فيها العاصمة تبريز. وبعد إبرام الصلح استتب الأمن على حدود الدولة، إن في الشرق أو في الغرب، فثار الإنكشارية في القسطنطينية وفي الولايات نظرًا لهبوط قيمة أجورهم ، الأمر الذي دفع الصدر الأعظم الجديد، سنان باشا، أن يشغلهم بالحروب مع النمسا في المجر،

ونظرًا لما وصل إليه الإنكشارية من فوضى توالت عليهم الهزائم، وفقدوا بعض القلاع، وعلى الرغم من **أن سنان باشا** استطاع أن يستردها لاحقًا ، إلا أن أمراء الأفلاق والبغدان وترانسلڤانيا استغلوا الموقف وانتصروا على الجيوش العثمانية في بضعة معارك واستردوا منهم بعض المدن . وتوفي السلطان مراد الثالث مساء 19 يناير سنة 1595م، الموافق فيه 8 جمادى الأولى سنة 1003هـ، بعد أن أصيب بداء عياء.

تولّى عرش آل عثمان بعد مراد الثالث ابنه محمد ، الذي خرج عن القاعدة التي استفحلت منذ أيام جده سليم الثاني، وهي تولي الصدر الأعظم قيادة الجيش، فقاد الجيوش بنفسه وخرج لقتال المجر والنمسا، وانتصر عليهم في موقعة كرزت سنة 1596م.

وفي بداية القرن السابع عشر حصلت في الأناضول ثورة داخلية كادت أن تكون عاقبتها وخيمة على الدولة، خصوصًا وأن نار الحروب كانت مشتعلة على حدود المجر والنمسا، وخلاصتها أن قائد إحدى فرق الإنكشارية التي نفيت إلى الأناضول عقابًا لها لعدم ثباتها في موقعة كرزت، ادعى أنه رأى النبي محمد في منامه يبشره بالنصر على العثمانيين، فأعلن العصيان وثار على الدولة وقام بعدد من الفتن إلى جانب شقيقه، ثم مات بعد أن أصيب بجراح في إحدى المعارك ، لكن شقيقه استمر يعصي الدولة إلى أن أعطته ولاية البوسنة ليحارب الأوروبيين حتى هلكت جيوشه عن آخرها في المناوشات المستمرة بينها وبين النمسا والمجر .

وأعقبت هذه الثورة الكبيرة ثورة أخرى في القسطنطينية هي ثورة الخيالة ، الذين طالبوا بتعويضهم عما لحق بهم من أضرار جرّاء الثورة السابقة، فاستعانت الدولة عليهم بجنود الإنكشارية وأدخلتهم في طاعتها مجددًا.

تميزت المدة الممتدة على مدار القرن السابع عشر بمظهر أقل روعة من مظهر مدة القرن السادس عشر بالنسبة للدولة العثمانية ،

فبعد وفاة السلطان محمد الثالث ظهر سلاطين أكثر ضعفًا وانغماسًا في الملذات، على الرغم من بروز بعض الشخصيات القوية منهم، مثل السلطان عثمان الثاني ومراد الرابع، وبعض الوزراء الذين عملوا على صون هيبة وسلطان الدولة، ومن هؤلاء **مراد باشا القبوجي**، الذي كان عونًا وعضدًا للسلطان **أحمد الأول** الذي تولّى وهو لم يتجاوز الرابعة عشر إلا بقليل. وفي تلك الفترة تنازلت الدولة العثمانية عن عراق العجم للدولة الصفوية ، فكانت تلك أول معاهدة تركت فيها الدولة فتوحاتها، وكانت بمثابة فاتحة الانحطاط . وبعد أحمد الأول تولّى أخيه **مصطفى** العرش لثلاثة أشهر فقط ، قبل أن يُعيّن **عثمان الثاني** بدلاً منه ، الذي حدثت في عهده سابقة كانت الأولى من نوعها، وتدل على مدى الانحطاط الذي وصلت إليه الدولة آنذاك، إذ تخاذل الإنكشارية في القتال، فأراد أن يؤدبهم ويستبدل بهم جنودًا جددًا مدربين، فثاروا عليه وقتلوه وأعادوا **عمه مصطفى** إلى الحكم ، وما إن انتشر خبر قتل الخليفة حتى عمت الفوضى والثورات أرجاء الدولة العثمانية ، وقام الولاة يعلنون الاستقلال عن الدولة، فأشار الصدر الأعظم المعين بواسطة الإنكشارية بعزل مصطفى الأول وتعيين ابن أخيه **مراد الرابع**.

استطاع مراد الرابع أن يُطهّر الدولة من بعض الثورات مثل ثورة **أباظة باشا** والي أرضروم ، وثورة قام بها الإنكشارية، وحركة أمير لبنان **فخر الدين المعني الثاني** الاستقلالية ، كما استرجع بغداد وهمدان وتبريز ويريڤان وكامل أذربيجان من الصفويين.

وفي عهد خليفته **إبراهيم الأول**، انتعشت الدولة بعض الانتعاش، فدخل الأسطول العثماني جزيرة كريت من غير أن يلقى مقاومة تذكر ، وبعد هذا العهد عرف العثمانيون فترةً من الضعف والعجز لم ينتشلهم منها إلا المصلح الكبير **"محمد الكوبريللي"** الذي تولّى منصب الصدارة العظمى عام 1656م في عهد **السلطان محمد الرابع** ، فنهض بالدولة نهضة جديدة وطهرها من آفاتها الفتاكة، وهكذا اشتد ساعدها من جديد . وبعد محمد كوبرولي تولّى ابنه **"فاضل أحمد"** ذات المنصب وسار على نهج أبيه، فقامت القوات العثمانية سنة 1663م بهجوم على بلاد المجر وهددت ڤيينا نفسها بالسقوط . وفي سنة 1672م استولى العثمانيون على **أوكرانيا** وكانت تابعة لملك بولندا. وفي 17 يوليو سنة 1683م ، حاصرت جيوش السلطان محمد الرابع ڤيينا للمرة الأخيرة ، ولكنها صُدّت عنها.

1 – 4 - دور الركود (1683 – 1827)

عُزل السلطان محمد الرابع بتاريخ 8 نوفمبر سنة 1687م، الموافق فيه 2 محرم سنة 1099هـ، فعمّت الفوضى بعد عزله، وتوالت الهزائم على الدولة العثمانية، فاحتلت النمسا بلغراد وأجزاء من بلاد الصرب، واحتلت البندقية أجزاء كثيرة من كرواتيا ودلماسيا وأكثر أجزاء المورة. ولم يُنقذ الدولة من تلك المشاكل إلا "مصطفى كوبرولي باشا"، الابن الآخر للمصلح الكبير محمد كوبرولي، فبذل جهده في بث روح النظام في الجنود، وأحسن للنصارى بشكل كبير حتى استمال جميع مسيحيي الدولة، واستطاع استرجاع بلغراد وإقليم ترانسلڤانيا. لكن على الرغم من ذلك، فإن الدولة العثمانية لم تحقق أي فتوحات جديدة وراء الحدود التي رسمها السلطان سليمان القانوني، فكانت حروبها وفتوحاتها خلال هذه الحقبة لاسترداد ما سُلب منها إجمالاً، ففي عهد السلطان مصطفى الثاني، انتصر العثمانيون على بولندا وأجبروا قيصر الروس بطرس الأكبر على فك الحصار عن مدينة آزوف، واستعادوا البوسنة وبعض الجزر في بحر إيجة، لكن الروس ما لبثوا أن عادوا لفتح آزوف، وانتصر النمساويون مرة أخرى على العثمانيين في معركة زانطة، وتحالفوا مع بضعة دول أوروبية ضد الدولة العثمانية وأجبروها على توقيع معاهدة "كارلوڤتش"، التي فقدت فيها مدينة آزوف لصالح روسيا، وما بقي لها من بلاد المجر للنمسا، وأوكرانيا وبودوليا لبولندا، وساحل دلماسيا وبعض جزر بحر إيجة للبندقية.

ملك السويد كارل الثاني عشر، المعروف أيضًا باسم "شارل الثاني عشر". لجأ إلى الدولة العثمانية بعد هزيمته على يد الروس في سنة 1709، في عهد السلطان أحمد الثالث.

إزداد وضع الدولة العثمانية سوءًا خلال السنوات القليلة اللاحقة، ففي أوائل القرن الثامن عشر، وفي عهد السلطان أحمد الثالث تحديدًا، طلبت السويد دعم العثمانيين في حربها ضد الروس، لكن الأخيرة رفضت في بداية الأمر، فمالت كفة الميزان لصالح الروس الذين هزموا السويد وأرغموا ملكها على الفرار ملتجئً إلى بلاد الترك، وعندما قررت الدولة العثمانية خوض الحرب أخيرًا، سنحت لها الفرصة أن تقضي على القيصر بطرس الأكبر، لكن الصدر الأعظم رفع الحصار عنه بعد تلقيه رشوة من خليلة القيصر كاترين. كذلك أجبر العثمانيون على توقيع معاهدة جديدة هي معاهدة "بيساروفتش"، وذلك بعد أن استنجدت البندقية بالنمسا لتجبر الأخيرة العثمانيين على إعادة جزيرة كريت إلى البندقية، واضطرت الدولة في هذه المعاهدة أن تستغني عن بلغراد، ومعظم بلاد الصرب وجزءًا من الأفلاق للنمسا، وأن تظل البندقية مسيطرة على سواحل دلماسيا ، مقابل عودة بلاد مورة للعثمانيين. استرجعت الدولة العثمانية أيضًا بعض المدن التي فقدتها سابقًا لصالح الصفويين ، مثل همدان وتبريز وإقليم لورستان ، لكنهم عادوا وهزموا وتنازلوا عن كل ما أخذوه من الصفويين.

سجّلت هذه المرحلة بداية اليقظة العثمانية بالانفتاح على الغرب ، وبدأت ترجمة بعض المؤلفات الغربية ، وسُمح بإنشاء مكتب للطباعة في العاصمة ، وجرت الاستعانة بمجريّ اعتنق الإسلام ، لبناء المطبعة وتشغيلها . وأخذت وجهة الإصلاح تتجه نحو الاقتباس من الغرب الأوروبي مع المحافظة على الأصول العثمانية الإسلامية ، إذ كانت الحضارة الغربية تتسرب ، بشكل أو بآخر، إلى الدولة ولكن ببطء ، وظهر عدد من المثقفين العلمانيين ، كما وفد إلى البلاد عدد من الخبراء الأجانب الذين وضعوا خبراتهم في خدمة الدولة.

قامت الحرب مجددًا بين روسيا والدولة العثمانية خلال عقد الثلاثينيات من القرن الثامن عشر بسبب احتلال الأخيرة لبولندا بدعم من النمسا ، فاتحدت الدولة العثمانية مع الفرس واستطاعت دحر الجيش الروسي والنمساوي وثأرت لنفسها من النمسا بعد أن أرغمتها على توقيع معاهدة بلغراد التي نصت على عودة بلغراد وما استحوذت عليه النمسا من أراضي الصرب والأفلاق إلى الدولة العثمانية ، وأن تلتزم روسيا بهدم قلاع مدينة آزوف ، وألا تبحر أي سفينة حربية أو تجارية تابعة لها في البحر الأسود .

لكن نيران الحرب عادت لتستعر مجددًا بين الروس والعثمانيين خلال عقد السبعينيات من القرن الثامن عشر، عندما فقد العثمانيون عدة مدن لصالح الإمبراطورية الروسية ، إلى جانب إقليمي الأفلاق والبغدان . وحاول الروس احتلال طرابزون ولكنهم لم يستطيعوا ، ولكنهم استطاعوا لاحقًا فصل القرم عن الدولة العثمانية ،

وقاومت الدولة العثمانية بكل ما أتيح لها من وسائل حتى أجلت الروس عن كثير من المناطق التي احتلوها. وعند هذه النقطة لجأت الإمبراطورية الروسية إلى أسلوب آخر لزعزعة كيان الدولة العثمانية ، هو أسلوب الفتنة الداخلية ، فقامت بإثارة مسيحيي المورة على العثمانيين ، واتجه الأسطول الروسي إلى المورة لدعم الثورة، ولكنه مُني بالهزيمة، ولكن بعض السفن التي أفلتت تمكنت من إحراق جزء كبير من الأسطول العثماني، ثم اتجهت لاحتلال جزيرة " **لمنوس** "، فأجبرتها البحرية العثمانية على التقهقر، وأخمدت الثورة في المورة.

وفي 10 يونيو سنة 1772م، الموافق فيه 9 ربيع الأول سنة 1186هـ، تهادن الفريقان مقابل بعض الامتيازات لصالح روسيا لعلّ أهمها هو حقها في حماية جميع المسيحيين الأرثوذكس في الدولة العثمانية . وفي غضون الحرب العثمانية الروسية ، ظهرت حركتان استقلاليتان عن الدولة العثمانية هي : حركة **علي بك الكبير** في مصر وحركة **الشيخ ظاهر العمر** في فلسطين ، وقد تمكن العثمانيون من القضاء عليها .

ابتدأت محاولات الإصلاح الجدية في عهد **السلطان سليم الثالث** ، الذي يُعد من أوائل المصلحين والروّاد الحقيقيين في التاريخ العثماني كله ، وقد قلّده من جاء بعده، واستهدفت إصلاحاته نواحي الحياة كافة، إدارية وثقافية واقتصادية واجتماعية وعسكرية . كانت ثقافة هذا السلطان أكثر اكتمالاً من ثقافة من سبقه من السلاطين ، إذ تلقّى بعض التدريب على الأفكار الغربية ، كما تلقى تعليمًا خاصًا بالطرق الأوروبية ، واطّلع على كتابات المؤلفين الأوروبيين، ويبدو أنه استوعب الحالة المتدنية للدولة بشكل أفضل من أسلافه. وعندما اعتلى هذا السلطان العرش كانت ثروات البلاد قد وصلت إلى حالة متدنية، وكان العثمانيون قد عادوا للحرب مع روسيا والنمسا، ولم يكن باستطاعة أي سلطان أن يقوم بحملة إصلاحات ورحى الحرب دائرة، لكن جاءت عناية القدر، عندما ظهرت الثورة الفرنسية وانشغل الإمبراطور النمساوي بها، وخاف أن تمتد إلى بلاده، فعقد صلحًا مع العثمانيين أعاد إليهم بموجبه بلاد الصرب وبلغراد.

واجهت السلطان سليم الثالث في بداية حياته السياسية، المشكلات التقليدية القديمة: تفوّق الغرب، والاتجاه المحافظ لشعبه، وكان بطبعه ميالاً للإصلاح بحيث لم يتردد في الأخذ ببعض الأنماط الغربية، بعد أن حصل على معلومات عن المؤسسات المدنية والعسكرية لدول أوروبا الغربية وأسباب تفوقها على العثمانيين. فجاء بفكرة الجنود النظامية ليتخلص من الإنكشارية الذين أصبحوا منبعًا للفتن والهزائم، وأصلح الثغور وبنى القلاع الحصينة لحمايتها وجعل إنشاء السفن على الطريقة الفرنسية ، واستعان بالسويد في وضع المدافع، وترجم المراجع العلمية في الرياضيات والفن العسكري ، كما وضع نظامًا هرميًا للقيادة العسكرية، وأخضع التجنيد لقواعد أكثر صرامة، ووضع نظامًا للجنود المشاة تضمن تعليمات لمساعدة الجنود على التصرف كوحدة، ودُعي هذا النظام " بالنظام الجديد ".

كان من الطبيعي أن تبرز المعارضة لإصلاحات السلطان سليم الثالث العسكرية من جانب المحافظين عند إدراكهم لنتائجها، فنظر الإنكشارية إلى هذه الإصلاحات نظرة ارتياب خاصة بعد فصل السلطان الأسطول والمدفعية عن فرقتهم، فثاروا ومعهم الجنود غير النظاميين وأجبروا الخليفة على إلغاء النظام العسكري الجديد ، ولم يكتفوا بذلك بل عزلوا السلطان وقاموا بقتله لاحقًا بناءً على أمر خليفته ، ويُعتبر سليم الثالث السلطان العثماني الوحيد الذي قُتل بسلاح أبيض .

وكان من أبرز الأحداث التي حصلت في عهد سليم الثالث قيام الحملة الفرنسية على مصر بقيادة **نابليون بونابرت الأول** ، فتحول أعداء الأمس إلى حلفاء والعكس صحيح ، حيث انهارت الصداقة العثمانية الفرنسية التي قامت منذ عهد السلطان سليمان القانوني، وتحالفت روسيا وبريطانيا مع الدولة العثمانية لإخراج الفرنسيين من مصر ، وفي عهده أيضًا تكونت جمهورية مستقلة في اليونان تحت حماية الدولة العثمانية .

وبعد سليم الثالث تولّى مصطفى الرابع عرش آل عثمان، ولم يدم ملكه طويلاً قبل أن تثور الإنكشارية عليه ويقوموا بعزله وتنصيب أخاه محمود بدلاً منه . امتلأ عهد محمود الثاني بأحداث مهمة ، سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي، فنتيجة للضعف الشديد الذي دب في أوصال الدولة العثمانية ظهر فيها اتجاهان :

الاتجاه الأول الذي أرجع ما وصلت إليه الدولة العثمانية من ضعف إلى الابتعاد عن الإسلام ، والذي ما كان للمسلمين أن تقوم لهم قائمة في الأرض إلا بالتمسك به ؛

والاتجاه الثاني الذي يقوم على ضرورة تقليد أوروبا تقليدًا أعمى، لكي يصل العثمانيون إلى ما وصلت إليه من تقدم وازدهار.

وكان من نتيجة الإيمان بالاتجاه الأول أن قامت **الحركة الوهابية** في شبه الجزيرة العربية ، واجتذبت إليها الكثير من أهلها ، ودعت إلى تطهير الإسلام من كامل الشوائب التي تعلقت به عبر القرون . ولما رأى السلطان **محمود** أنه من الضروري قمع هذه الفئة التي يخشى من امتدادها على تفريق كلمة الإسلام، كلّف **محمد علي باشا** ، والي مصر ومؤسس أسرتها الخديوية العلوية، بمحاربتها والقضاء عليها، ففعل ما طُلب منه وأباد الحركة الوهابية ، ثمّ شرع في إصلاح مصر وتنظيمها وفق النظام الأوروبي .

وفي بداية عهد محمود الثاني استقلّت عدّة دول أوروبية عن الدولة العثمانية، وكانت بداية انشقاق أوروبا الشرقية عن الدولة العثمانية عندما ثار الصربيون وطالبوا باستقلالهم، فقمعتهم الدولة العثمانية مرتين، وتعهدت ألا تتدخل في شؤون الصرب الداخلية، وأن تكون السيطرة للعثمانيين في الصرب على القلاع فقط . سرعان ما أعقب هذه الثورة عصيان " **علي باشا** " والي مدينة **يانية** الألبانية ، حيث امتنع عن دفع الخراج واحترام الأوامر التي تُرسل إليه من الآستانة ، فأرسل إليه السلطان جيشًا تمكن قائده من القبض عليه وإعدامه.

وما فتئت المشاكل تنهال على الدولة العثمانية ، فقد ثار اليونانيون طلبًا للاستقلال وهزموا فرقة عسكرية عثمانية أرسلت لقمعهم ، فلم يجد السلطان لإخماد الثورة في اليونان غير محمد علي باشا والي مصر، فاستجاب الأخير لطلبه وأرسل سفنًا حربية محملة بالجنود إلى اليونان ، استطاعت أن تحقق انتصارات كاسحة على الثوّار. غير أن ثورة اليونانيين نجحت، واستطاع الثائرون أن يستقلوا ببلدهم عن الدولة العثمانية بعد المساعدات التي تلقوها من الدول الأوروبية. كذلك كان الأسطول العثماني قد تحطم في معركة ناڤارين عام 1827م، على يد السفن البريطانية والروسية.

1 – 5 - دور الأفول والتنظيمات (1828 – 1908)

تتميز هذه المرحلة بانحدار الدولة العثمانية سريعًا وفقدانها لمعظم ممتلكاتها الباقية في أوروبا، وقيام السلطان محمود الثاني بعدد من الإصلاحات الكبيرة الهادفة لجعل الدولة تواكب أوروبا الغربية في التطور والازدهار. وأوّل ما قام به السلطان محمود الثاني في هذا المجال كان إلغائه لطائفة الإنكشارية بعد أن أصبحت إحدى عوامل تخلّف وتراجع الدولة يقينًا، فاعترض الإنكشارية على ذلك وحاولوا التمرد وتجمعوا في أحد ميادين الآستانة، فحصدتهم المدفعية العثمانية حصدًا.

أعلن السلطان بعد قضائه على الإنكشارية نظامًا جديدًا للجند قلّد فيه الأوروبيين، كذلك قام بعدد من الإصلاحات المدنية مثل إقامة المدارس الحديثة ورفع يد الهيئة الإسلامية عن الإشراف على التعليم ، وإرسال بعثات طلابية إلى الخارج ، واتجه بالبلاد إلى تقليد أوروبا حتى إنه تزيا بزيهم ، واستبدل بالعمامة الطربوش ، والعباءة والجلباب بالبذلة الغربية

أعلنت روسيا الحرب على العثمانيين بعد أن رفضت الدولة العثمانية الاعتراف بقرارات **مؤتمر لندن** الذي نص على استقلال اليونان ، وتمكنت من احتلال البغدان والأفلاق، بل وصلت إلى مدينة أدرنه وهددت الآستانة بالسقوط ، فتدخلت بريطانيا وفرنسا لوقف تقدم روسيا خوفًا على مصالحها في الشرق ، فعُقدت بين الروس والعثمانيين **معاهدة أدرنه** التي نصت على عودة المناطق التي احتلها الروس إلى الدولة العثمانية مقابل تمتع روسيا ببعض الامتيازات وتعويضها عن الخسائر التي تكبدتها في الحرب، واستقلال بلاد الصرب وتسليم ما تحتفظ به الدولة من قلاعها.

وفي أواسط سنة 1830م، ساءت العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا مجددًا، بعد أن نفذت الأخيرة ما كانت تنويه من مدّة، ألا وهو الاستيلاء على **ولاية الجزائر** بدعوى منع تعدي القراصنة المسلمين على مراكبها التجارية ، وبذلك فقدت الدولة العثمانية الجزائر إلى الأبد ، على الرغم من استبسال المقاومة بقيادة **الأمير عبد القادر الجزائري**، الذي اضطر للاستسلام بعد أن دافع عن بلاده مدة سبع عشرة سنة.

استمرت المشاكل تنهال على الدولة العثمانية بعد سقوط الجزائر، وذلك أن والي مصر محمد علي باشا طمع في توسيع رقعة نفوذه بعد أن غدا أقوى ولاة السلطان العثماني في الشرق العربي ، وكان السلطان

محمود الثاني قد وعد محمد علي بأن يوليه على بلاد الشام لقاء خدماته الجليلة التي قدمها للدولة ، لكنه عاد وأخلف وعده ، إذ شعر أن وجود محمد علي في الشام خطرٌ على كيان السلطنة نفسها .

محمد علي باشا، أبرز ولاة الشرق العربي العثماني في أواسط القرن التاسع عشر، وأشهر من أعلن العصيان على الدولة العثمانية في ذلك الوقت.

فقرر محمد علي أن يجتاح بلاد الشام بالقوة ، فوجه جيشه إلى فلسطين وأخضعها، ثم زحف على مدن الساحل اللبناني وفتحها الواحدة تلو الأخرى، وسرعان ما لحقت بها سوريا الوسطى والشمالية ، وامتد زحف الجيش المصري إلى الأناضول حيث هزم الجيش العثماني حديث النشأة في قونية ، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الآستانة، حتى خُيل للعالم في ذلك الوقت أن نهاية الدولة العثمانية أصبحت قريبة . عقب هزيمة قونية ، استنجد السلطان محمود الثاني بالدول الأوروبية للوقوف في وجه الخطر المداهم ، فلم ينجده إلا روسيا ، التي أرسلت 15 ألف جندي إلى الآستانة للدفاع عنها ، فخشيت بريطانيا وفرنسا من امتداد النفوذ الروسي وتوسطت للصلح مع محمد علي ، حيث أقر له السلطان بولاية مصر وجزيرة كريت وفلسطين ولبنان وأضنة ، لقاء نفس الأموال التي كان يؤديها عن الشام الولاة العثمانيون من قبل .

وفي غضون ذلك توسّع النفوذ الروسي في الدولة خصوصًا بعد أن أبرم السلطان معاهدة مع روسيا تعهدت فيها الأخيرة بالدفاع عن الدولة العثمانية لو هاجمها المصريون أو غيرهم . عمل السلطان محمود الثاني في أواخر أيامه على استعادة الشام ومصر، فجمع جيشًا جديدًا، ونشط عملاؤه في الشام يحرضون الشعب للثورة على المصريين ، ثم سار الجيش وقام بهجوم عبر الفرات أسفر عن كارثة نزلت به ، إذ بدده الجيش المصري في معركة **نصيبين** عام 1839م . ولم تصل أنباء هذه الهزيمة إلى السلطان محمود الثاني، إذ توفي قبل ذلك بأيام.

خلف السلطان **عبد المجيد الأول** أباه السلطان محمود الثاني ، وهو صبيّ لم يبلغ الثامنة عشرة من عمره ، وكانت الدولة العثمانية على شفير الانهيار، إذ أصبحت بلا جيش، بفعل خسارة الجيوش العثمانية أمام المصريين، وتشتيت القوى المسلحة، وبلا أسطول، بفعل انضمام الأسطول العثماني طواعية إلى الأسطول المصري في الإسكندرية ، فسارع السلطان الفتي إلى إجراء مفاوضات مع محمد علي ، فاشترط الأخير، لعقد الصلح، أن يكون الحكم في الشام ومصر حقًا وراثيًا في أسرته . وكاد السلطان عبد المجيد يقبل شروط محمد علي لو لم تصله مذكرة مشتركة من الدول الأوروبية الكبرى ، عدا فرنسا ، تطلب إليه بألا يتخذ قرارًا يتعلق بمحمد علي إلا بمشورتهم، ووعدوه بالتوسط بينه وبين محمد علي، فوافق على ذلك .

ثم اجتمعت كل من بريطانيا وروسيا وبروسيا والنمسا وعقدوا اتفاقية صدق عليها العثمانيون ، وعرضوها على محمد علي، وهي تنص على بقاء ولاية مصر وراثية في عائلته ، وولاية عكا مدى حياته ، فرفض محمد علي ذلك وطرد المندوبين الأوروبيين والمندوب العثماني من مصر ، وبناءً على ذلك هاجمت البوارج الحربية البريطانية والنمساوية والعثمانية مدن الساحل الشامي واستطاعت أن تحرز انتصارًا كبيرًا على جيوش محمد علي بقيادة ابنه **إبراهيم باشا** ، وأجبرته على العودة إلى مصر والانكماش فيها، وبذلك عادت الشام إلى ربوع الدولة العثمانية ، وأصبحت سيادة الدولة على مصر سيادةً اسميّة.

توصلت الدول الأوروبية الكبرى ، بعد انتهاء الأزمة العثمانية – المصرية ، إلى عقد اتفاقية جماعية مع الدولة العثمانية ، أُطلق عليها تسمية " **معاهدة المضائق**" أو " اتفاقية لندن للمضائق"، وقد أرست هذه الاتفاقية نظامًا للمضائق العثمانية ظل مطبقًا بدون إدخال تعديلات جوهرية عليه حتى قيام الحرب العالمية الأولى .

حدث في عهد السلطان عبد المجيد عدد من الفتن الداخلية في الولايات العثمانية، وازدادت الدولة ضعفًا على ضعف ، مما زاد من أطماع الدول الأوروبية فيها، فدُعيت باسم " **الرجل المريض** "، وأخذ الأوروبيون يخططون لاقتسام تركتها مستقبلاً.

اتخذت المسألة الشرقية في أواخر القرن الثامن عشر، شكلها الحديث ، وبرزت مع بداية انحسار المد التوسعي العثماني عن أوروبا، ومع اتجاه العثمانيين المتزايد نحو فقدانهم تفوقهم العسكري أمام الدول الأوروبية ، وبخاصة روسيا والنمسا ،

وقد تحكمت بها ثلاثة عوامل هي :

1 ضعف الدولة العثمانية المتزايد .

2 وظهور عدد من القوميات المسيحية الصغيرة في شبه جزيرة البلقان.

3 والفتن الداخلية المستمرة في بعض الولايات،

وقد سمحت جميع هذه العوامل للدول الأوروبية أن تتدخل في الشؤون الداخلية للدولة وتسيرها حسب مصالحها .

ومن أبرز الأحداث التي استغلتها أوروبا للتدخل في الشؤون العثمانية كانت الفتن الطائفية التي وقعت في بلاد الشام خلال عقد الأربعينيات من القرن التاسع عشر، وبلغت ذروتها في جبل لبنان، فتدخلت فرنسا بحجة حماية الكاثوليك وبشكل رئيسي الموارنة، وتدخلت بريطانيا لدعم الدروز، وروسيا لدعم الأرثوذكس،

فوقعت في البلاد مذابح عظيمة تخللتها سنوات قليلة من السلام . كما اتجهت الدولة نحو سياسة نقل أمور الولايات إلى سلطة داخلية فأنهوا حكم مماليك العراق في بغداد والبصرة وآل جليلي في الموصل في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كما قضوا على الإمارات الكردية شبه المستقلة في حكاري وسوران وبادينان إثر ضغط دولي عقب مجازر **بدر خان** في الأربعينيات من نفس القرن.

تُعدّ حرب القرم التي ابتدأت عام 1854م بين روسيا والدولة العثمانية ، من أهم مراحل المسألة الشرقية ، فقد دفعت هذه الحرب بالعلاقات الدولية نحو التأزم، وغيّرت التحالفات السياسية، فوقفت بريطانيا وفرنسا إلى جانب الدولة العثمانية للدفاع عن سلامة أراضيها ضد الروس.

وتتخلص هذه الحرب في أن القيصر الروسي **نيقولا الأول** اعتقد أن بإمكانه أن يطرح قضية إنهاء المسألة الشرقية بشكل جذري وأبدى نيته في اقتسام أملاك الدولة العثمانية ، فعرض على بريطانيا تقسيم الدولة العثمانية بينهما ، فرفضت ، فحاول إغراء فرنسا بنفس الإغراء ، فرفضت أيضًا ، فهددت روسيا باحتلال الأفلاق والبغدان إن لم تعد الدولة العثمانية للإمبراطورية الروسية حق حماية المسيحيين الأرثوذكس الذي فقدته وفق نص معاهدة المضائق ، فلم يعرها السلطان أي اهتمام بعد أن وعدته بريطانيا وفرنسا بالدفاع عن الدولة ضد أي هجوم محتمل ،

فأقدمت روسيا على تنفيذ تهديدها، فتحالف العثمانيون مع بريطانيا وفرنسا والنمسا ومملكة البيمونت بإيطاليا والسويد ، وقصفت أساطيلهم ميناء **سيڤاستوبول** في شبه جزيرة القرم ، وضربت الكثير من قلاعه

بالإضافة للإغارة على الكثير من موانئ روسيا على البحر الأسود ، وتوغلت القوات المتحالفة في أراضي روسيا حتى طلبت الصلح ،

فعُقدت **معاهدة سلام في باريس** أنهت الحرب وأنقذت الدولة العثمانية من الخطر الروسي الذي كان يتهددها، وبات من المنتظر أن تغدوا بلدًا متحدًا يأخذ بركب الحياة الدستورية كما عرفها الغرب ، وتنضم إلى سائر أعضاء المنظمة الدولة على قدم المساواة.

وفي أواخر عهد السلطان عبد المجيد الأول ، نشبت فتنة طائفية كبرى في الشام، وتحديدًا في دمشق وسهل البقاع وجبل لبنان بين **المسلمين والمسيحيين عمومًا ، والدروز والموارنة خصوصًا ،** فوقعت مذابح مؤلمة وبلغ عدد القتلى اثني عشر ألفًا، وكان ممثلو بريطانيا وفرنسا يشجعون الفريقين على الانتقام ويساعدونهم على الثأر، فخشي السلطان أن تؤدي هذه الفتنة إلى تدخل الدول الأجنبية العسكري، فأوعز إلى المسؤولين العثمانيين في بيروت ودمشق بوجوب إخمادها حالاً ، وأوفد في الوقت ذاته وزير الخارجية **فؤاد باشا** الذي عُرف بالدهاء والحزم ، وخوله سلطات مطلقة لمعالجة الموقف ، فقام بمهمته خير قيام وأعدم معظم الذين تسببوا بالمذابح وسجن الباقين ونفى بعضهم وأعاد بعض المسلوبات إلى أصحابها من المنكوبين المسيحيين ، وجمع تبرعات كثيرة أنفقها على ترميم القرى .

وكانت الدول الأوروبية قد ضغطت على السلطان وحملته على القبول بتشكيل لجنة دولية يوكل إليها أمر إعادة الهدوء إلى جبل لبنان ودمشق، وتصفية ذيول الفتنة .

توفي السلطان عبد المجيد يوم 6 يونيو سنة 1861م ، الموافق فيه 17 ذي الحجة سنة 1277هـ، عن أربعين سنة ، بعد أن قام ببعض الإصلاحات الكبيرة في الدولة، أبرزها **فرمانه الشهير** الصادر سنة 1856م ، الذي ساوى فيه بين جميع رعايا الدولة مهما اختلفت عقيدتهم الدينية ، فتحسن وضع المسيحيين بشكل أكبر، وازدادت نسبة المتعلمين منهم، الأمر الذي ساهم في إنعاش اقتصاد الدولة لاحقًا .

بويع السلطان **عبد العزيز الأول** بالخلافة وعرش آل عثمان بعد وفاة أخيه عبد المجيد، ومما يذكر في عهده : **افتتاح قناة السويس** وقيام ثورة في **جزيرة كريت** تم إخمادها. وكان هذا السلطان كثير التجوال في البلاد الخارجية ، فزار مصر وزار فرنسا ، وحاول تقريب روسيا إليه حتى تخافه دول أوروبا ، لكنه عُزل بناءً على فتوى شرعية بسبب تبذيره أموال الدولة ، كما تنص بعض المصادر ، وعُثر عليه ميتًا في غرفته فقيل أنه انتحر وقيل أنه قُتل ، وتولّى بعده ابن شقيقه عبد المجيد الأول **مراد** ، ولم يستمر عهده أكثر من 3 أشهر، وتم عزله بسبب اختلال عقله.

وبعد **مراد الخامس** بويع عبد الحميد الثاني بالخلافة وعرش السلطنة، وفي ذلك الحين كانت البلاد تمر في أزمات حادة ومصاعب مالية كبيرة، وتشهد ثورات عاتية في البلقان تقوم بها عناصر قومية تتوثبّ لتحقيق انفصالها، وتتعرض لمؤامرات سياسية بهدف اقتسام تركة " الرجل المريض ".

ومنذ اليوم الأول لارتقائه العرش ، واجه السلطان عبد الحميد موقفًا دقيقًا وعصيبًا، فقد كانت الأزمات تهدد كيان الدولة، وازدادت سرعة انتشار الأفكار الانفصالية، وأصبح للوطنية معنى جديد أخذت فكرته تنمو وتترعرع في الولايات العثمانية ، ووجد السلطان نفسه مشبع بالثورة والاضطراب . فقد تجددت الثورة في إقليميّ البوسنة والهرسك، واستمرت في بلغاريا، وكان الصرب والجبل الأسود في حالة حرب مع الدولة .

ولهذه الأسباب تدخلت الدول الأوروبية لاستغلال الموقف بغية تحقيق مصالحها بحجة إحلال السلام. فشجعت روسيا والنمسا الصرب والجبل الأسود على حرب العثمانيين، حيث رغبت النمسا بضم البوسنة والهرسك، بينما رغبت روسيا بضم الأفلاق والبغدان وبلغاريا، ووعدت روسيا النمسا والصرب والجبل الأسود بالوقوف بجانبهم إذا قامت حرب بينهم وبين العثمانيين .

وبالفعل قامت الحرب بين الدولة العثمانية وتلك الدول، إلا أن الجيوش العثمانية استطاعت الانتصار ووصلت إلى مشارف بلغراد ، غير أن تدخل أوروبا أوقف الحرب. قدّمت الدول الأوروبية الكبرى لائحة للدولة العثمانية تقضي بتحسين الأحوال المعيشية لرعاياها المسيحيين ، ومراقبة الدول الأوروبية لتنفيذ إجراءات التحسين ،

فرفضت الدولة اللائحة ؛ لأن هذا يعتبر تدخلاً صريحًا في شؤونها، فاستغلت روسيا الرفض واعتبرته سببًا كافيًا للحرب، وفي هذه المرة أطلقت أوروبا العنان لروسيا لتتصرف كيفما تشاء مع

العثمانيين، فاحتلت الأفلاق والبغدان وبلغاريا ووصلت أدرنة وأصبحت على بعد 50 كيلومترًا فقط من الآستانة ، كذلك دخلت جيوشها الأناضول ، وعادت الصرب والجبل الأسود لتعلن الحرب على الدولة العثمانية ، فاضطرت الأخيرة إلى طلب الصلح، وأبرمت معاهدة **سان ستيفانو** مع روسيا ، التي اعترفت فيها باستقلال الصرب والجبل الأسود والأفلاق والبغدان وبلغاريا، ثمّ تمّ تعديل هذه المعاهدة في **مؤتمر عُقد في برلي**ن تمّ بموجبه سلخ المزيد من الأراضي عن الدولة العثمانية.

كشفت قرارات مؤتمر برلين عن ضعف الدولة العثمانية، فاستغلت الكيانات السياسية والقومية هذا الضعف، وقامت بانتفاضات على الحكم المركزي بهدف الحصول على الاستقلال الكامل، ودعمتها أوروبا في سبيل تحقيق ذلك، وهكذا توالت الأزمات السياسية في وجه السلطان عبد الحميد الثاني بعد الحرب العثمانية الروسية ومؤتمر برلين.

إنضمت تونس إلى قائمة الأقاليم التي فقدتها الدولة العثمانية لصالح أوروبا في عهد عبد الحميد الثاني عندما احتلتها فرنسا، ثم لحقتها قبرص التي احتلتها بريطانيا، وأتبعتها بمصر والسودان، بحجة حماية الدولة العثمانية من أي اعتداء .

لعلّ أهم الأحداث التي جرت في عهد عبد الحميد هي **الأزمة الأرمنية وقيام الحركة الصهيونية** ، ويتفق المؤرخون ، المسلمون منهم خاصةً ، أن هذين الحدثين هما ما ساهم في تشويه صورة الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد الثاني.

وتفصيل الأزمة الأرمنية أن الأرمن طالبوا بعد مؤتمر برلين باستقلالهم، خاصة أن السلطان لم يقم بتطوير يُذكر لأوضاعهم، وعملت البعثات التبشيرية الأوروبية والأمريكية على إذكاء الشعور القومي الأرمني، وفي الوقت نفسه اعتقدت الدوائر الحاكمة في الآستانة أن بعض الأرمن يعملون كعملاء لروسيا وبريطانيا، وساورها الشكوك حول ولائهم، ومن ثم نظرت إليهم على أنهم خطر يهدد كيان الدولة ومستقبلها وأمنها . وتصاعد التوتر في بلاد الأرمن، ولم تلبث أن عمّت الاضطرابات، فخرج حوالي 4000 ارمني عن طاعة السلطان في بدليس بعد تأخر الإصلاحات الموعودة ،

فقام العثمانيون بالرد على ثورة الأرمن بأن أرسلوا جيشًا مؤلفًا بمعظمه من **الأكراد** إلى مناطق الثورة حيث دمّروا العديد من القرى الأرمنية وقتلوا كثيرًا من الثوّار ومن ساندهم، فيما أصبح يُعرف باسم " **المجازر الحميدية** "، وتطور العنف ليشمل المسيحيين بشكل عام **كالسريان** كما في مجازر ديار بكر.

أما **الحركة الصهيونية** ، فنشأت بقيادة **ثيودور هرتزل**، ودعت إلى إنشاء وطن قومي ليهود العالم في فلسطين الخاضعة للدولة العثمانية وتشجيع اليهود على الهجرة إليها، فأصدر السلطان عبد الحميد فرمانًا يمنع هجرة اليهود إلى الأراضي المقدسة ، لكنه اضطر في نهاية المطاف إلى التهاون معها تحت ضغط الدول الأوروبية، وخاصةً بريطانيا.

1 – 6 - دور الانحلال وخاتمة الدولة (1908 – 1922)

كانت الأفكار القومية قد تغلغلت بشكل كبير في جسم الدولة العثمانية أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وأنشأ الداعون لهذه المفاهيم المؤسسات والجمعيات التي تحمل أفكارهم، وكان من أهم هذه الجمعيات **جمعية تركيا الفتاة** ، التي تأسست في **باريس** وكان لها فروع أخرى في برلين، وفي أنحاء الدولة العثمانية في سالونيك والآستانة، واستطاعت أن تضع لها قدمًا في الجيش العثماني، وكان لها جناح عسكري عرف **بتنظيم الاتحاد العثماني** وكان لها جناح مدني هو **الانتظام والترقي** ، واتفق الفريقان أن تكون جمعيتهم باسم " **الاتحاد والترقي** ". وامتد نفوذ الاتحاد والترقي في الدولة، فضم إليه الكثير من ضباط الفيلق الأول المسيطر على الآستانة، وكذلك الفيلقين الثاني والثالث المرابطين في الولايات العثمانية الباقية في أوروبا. وقد حاول السلطان عبد الحميد مقاومة هذه الجمعيات ، فنادى وتمسّك بفكرة الجامعة الإسلامية، لكنه فشل أمامهم ، خصوصًا بعد أن سيطروا على أكثر الجيش . فرض الاتحاديون على السلطان إعلان دستور جديد للبلاد يخلف **الدستور الأول** أو " **القانون الأساسي**" الذي أعلنه سنة 1876م، فذعن لمطلبهم وأعلن الدستور، فسيطر الاتحاديون على معظم مقاعد المجالس النيابية، ووجدوا أن السلطان سيكون عائقًا في تحقيق أهدافهم، فعزلوه وولوا أخاه **محمد الخامس** مكانه.

تولّى محمد **"رشاد"** الخامس العرش والدولة في احتضار، ولكنها كانت ما تزال متماسكة، وأصبح الاتحاديون هم الحكام الفعليين للبلاد، أما السلطان فكان مجرّد ألعوبة في أيديهم، وفي ذلك الوقت كانت الدولة قد أضاعت كثيرًا من بلادها في أوروبا، والأفكار القومية تنتشر يومًا بعد يوم، والبلاد في حالة إفلاس بسبب الحروب المتواصلة، والأوروبيون قد تسلطوا على مالية الدولة لاستيفاء ما لهم عليها من ديون.

***مصطفى كمال " أتاتورك "**، رئيس الجمهورية التركية مستقبلاً، إلى جانب بعض المقاومين الليبيين، أثناء الحرب العثمانية الإيطالية.*

وفي نفس السنة لاعتلاء محمد رشاد العرش، سيطرت الإمبراطورية النمساوية المجرية على البوسنة والهرسك، وبعد ثلاث سنوات هاجمت إيطاليا ليبيا، آخر الممتلكات العثمانية الفعلية في شمال أفريقيا، فقاومها العثمانيون بكل طاقتهم، لكنهم لم يستطيعوا شيئًا، فسقطت البلاد بعد سنة من المعارك الشديدة.

ثم جاءت حرب البلقان الأولى التي تولّى كبرها كل من مملكة صربيا ومملكة الجبل الأسود ومملكة اليونان ومملكة بلغاريا، وفقدت فيها الدولة العثمانية ما تبقى لها من ممتلكات في البلقان عدا تراقيا الشرقية ومدينة أدرنة، وانسحب حوالي 400,000 مسلم من سكّان تلك البلاد إلى تركيا خوفًا من ما قد تُقدم عليه جنود العدو .

وفي تلك الفترة ظهرت **النزعة التركية الطورانية** بقوة وعنف، وسعى حزب الاتحاد والترقي إلى **تتريك** الشعوب غير التركية المشتركة مع الأتراك في العيش تحت ظل الدولة العثمانية ، مثل العرب والشركس والأكراد والأرمن .

وفي سنة 1913م عقد **الوطنيون العرب مؤتمرًا في باريس**، واتخذوا مقررات أكدوا فيها على رغبة العرب في الاحتفاظ بوحدة الدولة العثمانية بشرط أن تعترف الحكومة بحقوقهم، كون العرب أكبر الشركاء في الدولة، وطالب هؤلاء أن تُحكم الأراضي العربية حكمًا ذاتيًا وفق نظام اللامركزية، وقد وعد الاتحاديون الزعماء العرب الأحرار بقبول مطالبهم، لكن ذلك لم يتحقق بفعل نشوب الحرب العالمية الأولى.

1 – 6 – 1 - الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918)

انطلقت شرارة الحرب الأولى في 28 يونيو عام 1914م عندما كان الأرشيدوق **فرانز فرديناند** ، وليّ عهد العرش النمساوي المجري يقود سيارته في مدينة سراييفو في البوسنة الخاضعة للنمسا ، فاغتاله أحد القوميين الصرب ، فاعتبرت الإمبراطورية النمساوية المجرية صربيا مسؤولة عن هذا الاغتيال ، فتدخلت روسيا لدعم صربيا مدعومة من فرنسا وتحركت ألمانيا ضدهما ، وما لبثت أن دخلت بريطانيا الحرب بعد ذلك بفترة قليلة، ومن ثم تشكلت الأحلاف، فدخلت الدولة العثمانية الحرب إلى جانب معسكر **دول المحور**، أي **ألمانيا والنمسا وبلغاريا** ، بعد أن فقد العثمانيون الأمل في محاولات التقارب مع بريطانيا وفرنسا، وفشلوا في الحصول على قروض عاجلة منهما لدعم الخزينة ، وعُزلت الدولة سياسيًا بعد حروب البلقان وإيطاليا؛ فلم يكن لهم سوى خيار التقارب مع ألمانيا التي رأت مصلحتها في **" الانتشار نحو الشرق"**.

وفي 10 أغسطس سنة 1914م ، دخلت الدولة العثمانية الحرب بشكل فعليّ ، بعد أن سمحت لبارجتين ألمانيتين كانتا تطوفان البحر المتوسط ، بعبور مضيق **الدردنيل** نحو البحر الأسود هربًا من مطاردة السفن البريطانية .

وخطا الباب العالي خطوة هامة باتجاه الاشتراك بالحرب، حيث أعلن الصدر الأعظم إلغاء الامتيارات الأجنبية، ملبيًا بذلك إحدى المطالب الرئيسية للقوميين الأتراك ، ثم اتخذ خطوة أخرى في طريق التحدي بإغلاقه المضائق بوجه الملاحة التجارية، كما ألغى مكاتب البريد الأجنبية وجميع السلطات القضائية غير العثمانية . بعثت الانتصارات الألمانية الخاطفة على الجبهة الروسية الأمل في نفوس الاتحاديين ، بشأن إمكانية استعادة الأراضي العثمانية المفقودة لصالح روسيا المهزومة، فهاجم الأسطول العثماني الموانئ الروسية في البحر الأسود، وقد شكّل ذلك أمرًا واقعًا زج بالدولة العثمانية في الحرب ،

فأعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية ، واقتدت بها كل من بريطانيا وفرنسا، وردّ السلطان **محمد الخامس** بإعلان الحرب ، ودعا المسلمين إلى الجهاد، إلا أن ذلك لم يتحقق، فأغلب مسلمي العالم كانوا يزرحون تحت نير الاستعمار البريطاني أو الفرنسي، وكانت السلطات الاستعمارية قد جندت بعضًا منهم أيضًا في جيوشها.

خاضت الجيوش العثمانية الحرب على جبهات متعددة من دون استعداد كامل، فعلى **الجبهة الروسية** مُنيت الحملة العثمانية بهزيمة فادحة، حيث فتك القتال والصقيع والوباء **بتسعين ألف** جندي عثماني، وفي الجنوب نزل **البريطانيون** في **الفاو** على **الخليج العربي** واستولوا على العراق، أما **عملية قناة السويس** فجرت قبل الموعد المحدد، وفيها اتفق العثمانيون مع المصريين على قتال البريطانيين ، لكنها أسفرت عن هزيمة العثمانيين وأودت بحياة الكثيرين دون طائل.

وقام أسطول الحلفاء بمهاجمة مضيق الدردنيل في خطوة للاستيلاء على الآستانة وإخراج الدولة العثمانية من الحرب ، وإمداد الجبهة الروسية ، لكن هذا الأسطول الضخم عجز عن اجتياز المضيق وهزم العثمانيون طاقمه هزيمة كبيرة في معركة بريّة ، كانت النجاح الوحيد لهم في مقابل سلسلة من الإخفاقات ، وبرز في هذه المعركة القائد **مصطفى كمال .**

وأثيرت أثناء المعارك، التي اندلعت على الجبهة الشرقية وهجوم الحلفاء في الدردنيل وغاليبولي، قضية الأرمن مرة أخرى، إذ قام الاتحاديون بنقل سكان المناطق الأرمنية في ولايات الشرق وكيليكيا والأناضول الغربية إلى بلاد الشام ، بهدف تأمين حياة السكان المدنيين وحماية القوات المسلحة من خيانة محتملة من جانب العناصر الموالية لروسيا. وكان بعض الأرمن قد تطوعوا في الجيش الروسي ، وقتلوا عددًا من السكان المسلمين في الأناضول الشرقية، ونتيجة لذلك تعرّض المرحلون لعمليات تعذيب وقتل فيما أصبح يُعرف باسم **"مذابح الأرمن"**.

بعد فشل الحملة العثمانية على مصر، جرت اتصالات سريّة بين البريطانيين في مصر **وشريف مكة حسين بن علي الهاشمي** ، وبعض الزعماء العرب ، وتمّ الاتفاق بين الفريقين على أن يثور العرب على الأتراك وينضموا إلى الحلفاء مقابل وعد من هؤلاء **بمنح العرب الاستقلال وإعادة الخلافة إليهم** . وتنفيذًا لهذا الاتفاق أعلن شريف مكة حسين في يونيو سنة 1916م **الثورة العربية** على الأتراك ، فأخرجهم من الحجاز وأرسل قوّاته شمالاً بقيادة ولديه **فيصل وعبد الله** لتشارك القوات البريطانية في السيطرة على بلاد الشام .

وفي غضون ذلك سُحقت المقاومة البلغارية في البلقان، مما أرغم حكومة صوفيا على طلب الهدنة، فأدرك الباب العالي خطورة الموقف، لأن الحرب أضحت قريبة من الأراضي التركية، ويمكن للعدو أن يتغلغل بحريّة في تراقيا الشرقية ويزحف حتى أبواب الآستانة، فأبرم العثمانيون معاهدة **مودروس** مع الحلفاء، خرجوا بموجبها من الحرب .

1 – 6 – 2 - حرب الاستقلال التركية (1919 – 1922)

توفي السلطان محمد الخامس قبل أشهر من انتهاء الحرب، وخلفه أخاه محمد **" وحيد الدين" السادس**. وبعد مرور شهر على توقيع هدنة مودروس، دخلت البحرية البريطانية والفرنسية والإيطالية ثم الأمريكية إلى القرن الذهبي ، وأنزلت قواتها في الآستانة التي حوّلتها إلى قاعدة لنشاط الحلفاء في المنطقة كلها .

سيطر الحلفاء على موانئ البحر الأسود كلها، واقتسموا الأراضي التركية ، فاحتل الفرنسيون مرسين وأضنة ، والإيطاليون أنطاكية وكوشا داسي وقونية ، واحتل اليونانيون القسم الغربي من الأناضول، بالإضافة إلى تراقيا.

كان ردّ الفعل الداخلي لاتفاق الهدنة سلبيًا، فقد رفض الأتراك الخضوع للاحتلال والقبول بمشاريعه، فقامت ثورة وطنية في جميع أنحاء البلاد احتضنتها الحركة الوطنية بزعامة القائد مصطفى كمال، والتي عُرفت باسمه " **الحركة الكماليّة** "، لتواجه خضوع الحكومة لرغبات الحلفاء وتعاون السلطان محمد السادس مع المحتلين، ومحاولات اليونان توسيع المناطق التي احتلتها، وازدياد الثورات الأرمنية. وعقدت الحركة الكمالية مؤتمرات عديدة في طول البلاد وعرضها لاستنهاض الوعي القومي وإنقاذ البلاد من التقسيم، وتشكّلت حكومة وطنية برئاسة مصطفى كمال بهدف إقامة دولة تركية مستقلة ، ألغت جميع القوانين والتعليمات التي أصدرتها الحكومة السابقة، ووضعت السلطان وحكومته خارج إطار القانون . وقد حاول السلطان القضاء على هذه الحركة فلم يُفلح.

السلطان محمد "وحيد الدين" السادس، آخر سلاطين بني عثمان، يغادر البلاد إلى المنفى في سنة 1922.

وفي تلك الفترة فُرضت معاهدة **سيڤر** على السلطان ، التي مزّقت أوصال الدولة، وقد وقّع عليها مرغمًا، في حين رفضتها الحكومة الكمالية، ووضعت مخططًا لإنقاذ تركيا بمعزل عن السلطان.

تمكّن مصطفى كمال بعد جهود مضنية واصطدامات شديدة مع اليونانيين، من الانتصار، فاستعاد كمال الأراضي التي احتلوها، وفرض على الحلفاء توقيع هدنة جديدة اعترفت فيها اليونان بانتصارات تركيا ، فأضحى مصطفى كمال بطلاً قوميًا ، وبرز في الواجهة السياسية في حين ظل السلطان في الظل، فما كان منه إلا أن تنازل عن العرش واعتزل الحياة السياسية، وغادر البلاد على ظهر بارجة بريطانية نقلته إلى جزيرة مالطة، في 17 أكتوبر سنة 1922م، الموافق فيه 27 ربيع الأول سنة 1341هـ.

اعتلى عرش السلطنة العثمانية، بعد تنازل السلطان محمد السادس، وليّ العهد عبد **المجيد الثاني**، وبعد أن أصبح مصطفى كمال سيد الموقف ، وقّع معاهدة **لوزان** مع الحلفاء التي تنازل بمقتضاها عن باقي الأراضي العثمانية غير التركية ، ثم جرّد السلطان من السلطة الزمنية وجعله مجرّد خليفة ، أي أشبه بشيخ الإسلام ، ولكن من غير سلطة روحيّة أيضًا. ثم ألغى الخلافة سنة 1924 وطرد عبد المجيد من البلاد ، وبهذا سقطت الدولة العثمانية فعليًا بعد أن استمرت لما يقرب من 600 سنة، وانهارت معها الخلافة الإسلامية بعد أن استمرت ما يزيد عن ألف سنة .

1 – 6 – 3 - المُدعون بالحق في عرش آل عثمان

عندما طرد مصطفى كمال عبد المجيد الثاني من البلاد ، طرد معه كامل أفراد الأسرة العثمانية وصادر أملاكهم ، فذهب هؤلاء ليعيشوا في المنفى ومنعوا من العودة إلى تركيا. وفي **سنة 1974م** ، أصدر **البرلمان التركي** قرارًا نص على **جواز منح الجنسية التركية للمنفيين المتحدرين من نسل عثمان الأول** ،

وتمّ إعلامهم بذلك عن طريق السفارة التركية في كل بلد يعيشون فيه. يندرج ضمن قائمة المدعين بالحق في العرش العثماني : " **أرطغرل عثمان** " أصغر أحفاد السلطان عبد الحميد الثاني.

Ertuğrul Osmanoğlu
*أرطغرل عثمان " **العثماني الأخير** "*

يشتهر أرطغرل عثمان برفضه حمل الجنسية التركية رغم عرضها عليه عدّة مرّات، قائلاً أنه **"مواطن عثماني"**،

عاد أرطغرل عثمان إلى تركيا في سنة 1992م ، وكانت تلك المرة الأولى التي يدوس فيها أرض وطنه الأم منذ نفيه وأفراد الأسرة الحاكمة في عشرينيات القرن العشرين، وحصل على الجنسية والهوية التركية في سنة 2002 م .

توفي أرطغرل عثمان في 23 سبتمبر سنة 2009 م في إسطنبول عن عمر يناهز 97 عامًا ولم يخلف أولادًا، وبموته لم يتبق أحد من المدعين بالحق في العرش العثماني من الذين وُلدوا في الفترة التي كانت الدولة فيها لا تزال قائمة. كان الأتراك يُلقبون أرطغرل عثمان باسم **"العثماني الأخير"**، ولو قُدّر له أن يحكم بصفته سلطانًا ، لكان أكبر سلاطين الدولة سنًا منذ نشأتها، ولعُرف باسم السلطان أرطغرل الثاني.

2 – الاقتصاد

اعتنى العثمانيون بالعواصم المختلفة لدولتهم عناية خاصة، فجعلوا من مدن بورصة وأدرنة والقسطنطينية مراكز صناعية وتجارية مهمة في الشرق الأوسط وأوروبا الشرقية، بل في العالم عندما بلغت الدولة ذروة مجدها وقوتها، واستقطبوا إليها الصنّاع والحرفيين والتجّار المهرة من مختلف أنحاء الأراضي الخاضعة لهم . ومن أبرز السلاطين الذين عملوا على تنمية الدولة العثمانية من الناحية الاقتصادية: **محمد الفاتح** وخليفته **بايزيد الثاني** وحفيده **سليم الأول**، فخلال عهد هؤلاء السلاطين فُتحت مناطق كثيرة في أوروبا الشرقية والعالم العربي، وكان العثمانيون ينقلون معهم غالبًا أمهر الصنّاع والحرفيين إلى عاصمتهم، كما فعل السلطان سليم الأول عندما فتح تبريز ومن ثم القاهرة،

وفي ذلك العهد أيضًا كان عدد من المسلمين واليهود الأندلسيين قد غادر شبه الجزيرة الأيبيرية بفعل اضطهاد الإسبان لهم بعد سقوط الأندلس، فاستقبلهم العثمانيون وقدموا لهم الكثير من التسهيلات ليستقروا في البلاد ويساهموا في نهضتها الاقتصادية .

نظّم العثمانيون ماليّة دولتهم وخزينتها بشكل أفضل وأكثر فعاليّة من أي دولة إسلامية سابقة، واستمر نظامهم المالي أفضل نظم عصره وفاق جميع النظم المالية لكل الدول من إمبراطوريات وجمهوريات وممالك وإمارات معاصرة حتى القرن السابع عشر، عندما أخذت الدول الأوروبية الغربية تتفوق عليها في هذا المجال.

يُعزى ازدهار الخزينة العثمانية خلال العصر الذهبي للدولة إلى إنشائهم لوزارة خاصة تختص بالأمور المالية للدولة من إنفاق واستدانة وإدانة ، عُرفت لاحقًا باسم **" وزارة المالية"**، وكان يرأسها شخص مختص هو **" الدفتردار"** الذي أصبح يُعرف لاحقًا باسم "وزير المالية" ، وكان لحسن تدبير بعض وزراء المالية أثر كبير في نجاح فتوحات السلاطين وحملاتهم العسكرية، إذ استطاعوا بفضل هؤلاء وسلامة سياستهم المالية التي رسموها للدولة، أن يصرفوا على الجيش ويزودوه بكامل المعدات اللازمة وأحدث أسلحة العصر.

2 – 1 – العملة

كانت العملة العثمانية في بداية عهد الدولة تُعرف باسم **" الغروش "** أو **" القروش "**، وكانت تُسك من معدن **برونز النحاس** ، وفي أواخر عهد الدولة أصبحت **" الليرة "** مرادفًا لاسم العملة العثمانية ، وكان يُضاف إليها اسم السلطان الذي صدرت في عهده ، فكان يُقال " ليرة مجيدية " و" ليرة رشادية " على سبيل المثال. وكانت الليرة العثمانية تساوي مئة واثنين وستين قرشًا، وأطلق عليها العرب اسم **" العثمليّة "**.

كانت الليرات العثمانية عبارة عن **نقود ذهبية** في بادئ الأمر، ثم أصدرت الدولة في عهد الحرب العالمية الأولى **أوراقًا نقدية** لأول مرة في تاريخ البلاد، بسبب المبالغ الطائلة التي أنفقتها على الحرب ، وأكثرت من الكميات التي أنزلتها إلى السوق، فهبطت قيمة هذه العملة بالنسبة للنقد الذهبي والفضي، هبوطًا كبيرًا، ولكن الحكومة كانت تصرّ على اعتبار الليرة الورقية مساوية لليرة الذهبية ، وكانت تجبر الناس على قبضها والتعامل بها.

تعامل أهل اشام في أواخر العهد العثماني أيضًا بالعملة المصرية ، ومنها اكتسبت النقود تسمية **" مصاري "** و**" مصريات "** اللتان لا تزالان تستعملان في بلاد الشام للإشارة إلى النقود.

2 – 2 – التجارة :

بنى العثمانيون الكثير من المراكز التجارية والأسواق الكبيرة والخانات على الطرق الرئيسية للتجارة لينزل فيها التجّار المسافرون والقوافل. وكان هناك مراكز تُجمع فيها البضائع التجارية وتقوّم قيمها وتُثبت أسعارها ، أي كانت تعمل عمل البورصة حاليًا ، وكان يُطلق على هذه المراكز التجارية اسم **" بَدَسْتان "**.

تأسست هذه المراكز أولاً في مدينة بورصه وفي أدرنه ثم انتشرت منهما إلى سائر أرجاء الدولة العثمانية. كانت جميع أنواع السلع والبضائع تباع وتشترى في هذه المراكز التجارية ، وكان بعضها يتخصص في بيع أنواع معينة من البضائع ، مثل المجوهرات أو البُسط أو الأقمشة أو البهارات أو الكتب أو العطورات ، وكان يوجد حول تلك المراكز بياعو الحاجيات اليومية من أغذية أو وقود أو مواد خام .

كانت التجارة الدولية في القرن الرابع عشر بيد البرتغاليين والبنادقة ، وكانت البضائع الثمينة تتجمع في الموانئ، حيث تتم التجارة فيها عن طريق النقل البحري بواسطة السفن . كانت الدولة العثمانية على وعي بأن ازدهار التجارة في أي بلد يساعد على ازدهاره، وتخلفها يعني تخلفه. لذا قامت بإحياء طريق الحرير التاريخي ، وأمّنت بذلك تحول التجارة إلى الطريق البري مرة أخرى . لذا بنت الخانات ومراكز التجارة على الطرق التجارية المهمة ، وأنشأت هذه المراكز في داخل المدن أيضاً . واستطاعت الدولة - بتحقيقها الأمن والأمان للتجارة والتجار في أراضيها الواسعة وتيسير سبل التجارة أمامهم - السيطرة على التجارة الدولية بدءً من القرن الرابع عشر حتى القرن السابع عشر.

كان التجّار في العهد العثماني على نوعين : **التجار المتجولون** ، والتجار **المقيمون في المدن** . فكانت مباني **البدستان** محل عمل التجار المقيمين في المدن ومركزًا لتعيين أسعار البضائع، كما كانت دائرة لاستيفاء الضرائب. وكان الموظفون الرسميون الذين يعيّنون الأسعار ويستوفون الضرائب يقيمون هناك، لذا لم يكن يُسمح بزيادة الأسعار خارج الحد المعقول، أي لم يكن يُسمح بالتعامل بالسوق السوداء . كان أصحاب الحرف المختلفة يعملون في البدستان كعائلة واحدة ، وكانت لهم منظمات ذات تقاليد عريقة ومستقرة مثل **" نقابة الأخوة "**. ولم يكن يؤخذ إلى هذه النقابة من أصحاب المهن من لم يمر بمرحلة

التدريب والتعليم التي تتدرج من مرحلة المتعلم الناشئ أو العامل المبتدئ إلى المتدرب إلى المعلم أو " الأسطة ".

2 – 3 - الزراعة والصناعة

كانت الدولة العثمانية تسيطر على أراض زراعية خصبة جدًا موزعة في جميع أنحائها ، ومنها السهول الخصبة في بلاد الشام، وحوض نهر الدانوب، وحوضيّ دجلة والفرات، ووادي النيل، وسهول آسيا الصغرى وشمال أفريقيا. وقد اشتهرت جميع هذه المناطق في سائر العصور بخصب تربتها ووفرة مياهها وغنى إنتاجها . وكان الإنتاج الزراعي متنوعًا ، فالقمح الحبوب الأخرى كان يُعتمد في إنتاجها على سهول الشام ومصر والأناضول ، وزيت الزيتون كان يُنتج في الشام والأناضول والبلقان. واشتهرت اليونان وسوريا ولبنان وفلسطين وبعض أنحاء شمالي أفريقيا بالفاكهة والأثمار، كالعنب والتين والكرز والخوخ والإجاص والتفاح والدراق والسفرجل واللوز وغير ذلك.

ولم تكن الثروة الحيوانية أقل أهمية من الإنتاج الزراعي، فقد كانت قطعان الغنم الماعز البقر والإبل وجواميس الماء سارحة في هضاب البلقان وآسيا الصغرى وبوادي الشام ووادي النيل . وانتشرت في الكثير من أنحاء الدولة الصناعات الغذائية والمستخرجة من مصادر حيوانية ونباتية ، وأبرزها صناعة الحرير والصوف والصابون.

وفي عصر الدولة الذهبي نشطت الصناعة العسكرية لتلبي حاجة الجيوش الفاتحة، وفي مقدمتها صناعة الأسلحة النارية من بنادق ومسدسات ومدافع، وفي الكثير من الأحيان تولّى هذه الصناعة مهندسون مجريون ونمساويون وفرنسيون وسويديون، وتليها صناعة الأسلحة البيضاء من سيوف ورماح ونبال، وصناعة الدروع. وقد تضائلت أهمية هذه الصناعة مع ازدياد ضعف الدولة وتراجعها مقابل تقدم أوروبا الغربية.

3 - نظام الحكم

اتبع العثمانيون تنظيمًا بسيطًا لدولتهم، حيث ابتكروا جهازين إداريين للحكم: جهاز إداري **مركزي** وجهاز إداري **محلي** ، وكان يتم اتباع هرميّة معينة في كل جهاز منها، وكان السلطان بوصفه حاكم البلاد، وخليفة المسلمين، يقبع على قمّة هذا الهرم .

أخذ العثمانيون بالكثير من العادات العربية والفارسية والبيزنطية في تنظيمهم للأجهزة الإدارية، ودمجوا معها بعض العادات التركية القديمة، وصهروها كلها في بوتقة واحدة مميزة، مما جعل الدولة العثمانية تظهر بمظهر الوريث الشرعي لجميع تلك الحضارات التي سبقتها.

3 – 1 - الجهاز الإداري المركزي

كان الجهاز الإداري المركزي يتكوّن من السلطان وحاشيته، وهؤلاء جميعًا يُعرفون باسم "آل عثمان"، ويُعاونهم في الحكم ما يُعرف باسم " **الديوان** "، وهو جهاز إداري مضمّن يتكوّن من **الصدر الأعظم وأفراد الطبقة الحاكمة**.

ومنصب الصدر الأعظم هو أعلى مناصب الدولة بعد منصب السلطان، وكان من يتبوأ هذا المنصب يلعب دور رئيس الوزراء ورئيس الديوان، ومن صلاحياته تعيين قادة الجيش وجميع أصحاب المناصب الإدارية المركزية أو الإقليمية.

أما الطبقة الحاكمة فكان يُشار إلى أفرادها باسم " **العساكرة** " أو "العسكر"، ومفردها "عسكري"، وهي تشمل :

الدفتردار، أي الشخص المُكلف بالشؤون المالية وحساب موارد الدولة ومصاريفها ؛

الكاهية باشا ، وهو الموظف العسكري الذي يتكلف بتسير الشؤون العسكرية للدولة؛

الشاويش باشا (بالتركية العثمانية: چاويش) وهو موظف ينفذ الأحكام القضائية التي يصدرها القضاة؛ رئيس الكتّاب، وشيخ الإسلام وطبقة العلماء.

كان السلطان العثماني هو صاحب القرار النهائي الفاصل في أغلب الأحيان، وقد استمر الأمر على هذا المنوال حتى عهد السلطان مراد الرابع، عندما ازداد نفوذ الديوان وأخذ السلاطين لا يشاركون في جلساته أكثر فأكثر.

جرت العادة منذ العهد العثماني على إطلاق تسمية " **الباب العالي**" على الحكومة العثمانية، وهي تسمية تعني في الأصل **قصر السلطان** ، ومع مرور الوقت أصبح المقصود بالباب العالي: أعلى سلطة تتجسد في قوة السلطان المستمدة من قوة جيشه.

تعتبر السلالة العثمانية أطول سلالات الأسر الإسلامية الحاكمة عمرًا، وكان رأس الأسرة هو السلطان، وهو في نفس الوقت رأس الدولة، وخليفة المسلمين، وكان يُشار إليه باسم "**پاديشاه**" بمعنى "**ملك الملوك**" أو "**سيّد الملوك**"، وكان يحكم الدولة حكمًا مطلقًا، ولا يقيده إلا حدود الشريعة الإسلامية،

حيث كان **شيخ الإسلام** يتمتع بسلطة عزل السلطان لو ثبت أنه تخطى حدود الشريعة أو أصيب بعاهة عقلية أو جسدية تمنعه من ممارسة عمله والاهتمام بشؤون العباد .

وقد كان السلاطين الأوائل الذين بلغت الدولة في عهدهم ذروة مجدها وقوتها ملتزمين بحدود الشريعة عادةً، أما بعد عهد السلطان سليمان القانوني، أصيب البلاط العثماني بفساد شديد استمرّ حتى تولّي السلطان مصطفى الرابع العرش، فقد حكم خلال هذه المدة ثمانية عشر سلطانًا، لم يكن أحد منهم على مستوى يؤهله لأن يمارس الحكم إلاّ بواسطة وزراء كانوا أحيانًا مثالاً للفساد، وأحيانًا أخرى مشفقين على الدولة من الانهيار، كما كانوا يقومون بإصلاحات تعطي الدولة حيوية تمكنها من إدارة أمورها لسنوات عدّة. كانت الأسرة العثمانية أسرة تركية من الناحية العرقية والإرثية فقط ، وفي واقع الأمر أصبح البيت العثماني في ذروة اتساع الدولة عبارة عن مزيج ثقافي واسع للحضارات والثقافات المجاورة، الأمر الذي جعل العنصر التركي للدولة يفقد هيمنته مع مرور الزمن، وأصبحت الدولة ككل يُشار إليها في أوروبا باسم " **المشرق**".

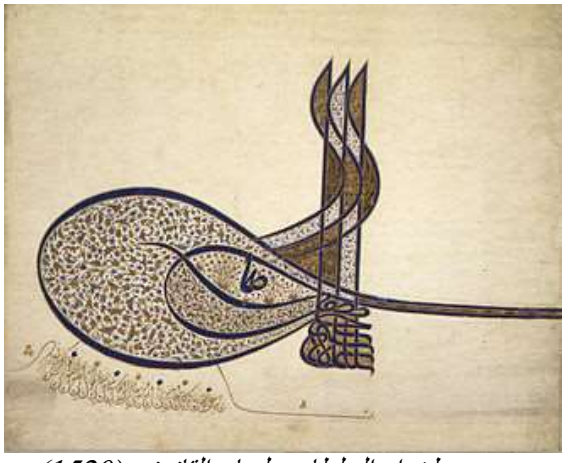

طغراء السلطان سليمان القانوني (1520).

كان لكل سلطان ختم خاص به يُصنع في بداية عهده ويستخدمه لختم الفرمانات والرسائل التي يبعثها للملوك والأباطرة وغيرهم من الحكّام، ويُعرف هذا الختم باسم "**الطغراء**"، وقد تطوّر شكل الطغراء منذ أن ابتدعها السلطان أورخان الأول حتى عهد السلطان سليمان القانوني، عندما اتخذت شكلاً ثابتًا استخدمه باقي السلاطين الذين تلوه.\

استمر السلاطين هم الحكّام الفعليين للدولة منذ عهد مصطفى الرابع حتى عبد الحميد الثاني، عندما أصبح تسيير أمور البلاد بيد **جمعية الاتحاد والترقي** وأصبح السلطان مجرّد أداة في أيديهم يسيرونها كما يشاؤون، وتحوّل لقبه إلى " **سلطان العثمانيين وخليفة المسلمين**"، بعد أن كان لقب السلطان من أطول ألقاب الحكّام في العالم سابقًا، فالسلطان سليمان القانوني مثلاً كان يُلقب *"سلطان السلاطين وبرهان الخواقين وأمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين، متوّج الملوك ظلّ الله في الأرضين وسلطان البحرين وخادم الحرمين الشريفين، ملك الأناضول والروملي وقرمان الروم وولاية ذي القدريّة وديار بكر وكردستان*

وأذربيجان والعجم والشام وحلب ومصر وجميع ديار العرب واليمن وممالك كثيرة أخرى، السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان".

كان لقب "الوزير" هو المستخدم خلال المراحل الأولى للدولة العثمانية. وأوّل من لُقب **بالصدر الأعظم** كان الوزير **"خليل خير الدين باشا"** وزير السلطان مراد الأول. والغرض من اللقب الجديد هو تمييز حامل الختم السلطاني من الوزراء الآخرين. ثم بدأ اللقب الجديد "صدر أعظم" يحل محل اللقب القديم **"وزير أعظم"** تدريجيًا وإن كانا لهما نفس المعنى والرتبة . وخلال التاريخ العثماني ظهرت ألقاب جديدة للصدر الأعظم مثل الصدر العالي والوكيل المطلق وصاحب الدولة والسردار الأكرم والسردار الأعظم والذات العالي. وقد برزت أهمية الصدور العظام بعد عهد السلطان سليمان القانوني، عندما أصبحوا يتولون شؤون الدولة ، ومن أشهرهم آل " **كوبرولي** ". وبعد فترة التنظيمات في القرن التاسع عشر، أصبح من يتولّى منصب الصدر الأعظم يقوم بدور أكبر مما هو في منصب رئيس الوزراء في الملكيات الغربية. وبعد إقرار دستور سنة 1908 أصبح الصدر الأعظم مسؤولاً عن أعماله أمام البرلمان.

3 – 2 - الجهاز الإداري المحلي

نظرًا لاتساع رقعة الدولة فقد قسمها العثمانيون إلى ولايات أو " **إيالات** "، ثم قسموا كل ولاية إلى س**ناجق** أو **مقاطعات** ، وكلّ سنجق إلى **نواح**، وكل ناحية إلى **أحياء وحارات**. وكان حاكم الولاية ، أو الوالي ولقبه " **الباشا** "، تبعًا للحكومة المركزية في الآستانة، في حين كان حاكم السنجق، أو "الحكمدار" ولقبه **"البك"**، تابعًا للباشا، ويساعده ديوان و**"صوباشي"**، أي ضابط أمن؛ وكان حاكم الناحية، ولقبه " **الآغا** " تابعًا للبك ، وكان على رئس كل حي أو حارة **"مختار"** تابع للآغا. وكان الوالي يُعيد شراء منصبه من الصدر الأعظم كل سنة، فكان طبيعيًا أن يعمد إلى ابتزاز ما دُفع من الضرائب الباهظة التي كان يفرضها على الرعيّة ومن الموظفين الخاضعين لسلطته، كما كان طبيعيًا أن يعمد هؤلاء الموظفون بدورهم إلى ابتزاز المال بمختلف الوسائل من أفراد الشعب، وعُرف هذا النظام، أي جباية الضرائب السنوية عن مساحة من الأرض من أهلها من الفلاحين، باسم " **نظام الالتزام** ". كان والي الشام متميزًا عن غيره من الولاة بإضافة منصب **إمارة الحج** عليه، وكانت مهمة "أمير الحج " الإشراف على قافلة الحج الشامي التي تضم حجاجًا من أنحاء بلاد الشام والأناضول والبلقان ، وتأمين ما يلزم لسلامة الحجاج ، من ماء وجنود ودليل خبير بالطريق أو أكثر من دليل، وغير ذلك من الأمور.

كان عدد ولايات الدولة يتفاوت بين الحين والآخر، وفق ما تكسبه أو تفقده من البلدان، أو بسبب دمج بعض الولايات ببعض .

أنشأ العثمانيون خلال بعض الفترات من تاريخهم تقسيمات إدارية محلية جديدة، ففي عهد التوسع والفتوحات أصبحت الدولة تضم ألوية جديدة كان من الصعب ربطها بالعاصمة، فاضطرت إلى ضم عدد منها في ولاية واحدة، وعُين على رأس كل ولاية **أمير أمراء الألوية**، ولقبه " **بكلر بك**".

كذلك أنشأ العثمانيون نظام " **المتصرفية** " خلال فترة أفول نجم الدولة ، بضغط من الأوروبيين، وهذا النظام يهدف من الأساس لحماية الأقليات الدينية المسيحية في الدولة وإعطائها نوعًا من الاستقلال الذاتي، كما في حالة **متصرفية جبل لبنان**، أو لحماية بعض المناطق المقدسة عند أهل الكتاب عمومًا، مثل **متصرفية القدس**. وكان يُعين على رأس المتصرفية موظف عثماني يُعرف باسم " **المتصرّف** "، وفي حالة متصرفية جبل لبنان، فقد كان يجب أن يكون مسيحيًا عثمانيًا غير لبناني أو تركي.

3 – 3 - البرلمان والدستور العثماني

ترجع بداية الحياة الدستورية في الدولة العثمانية إلى عام 1808م، وهو العام الذي تبوأ فيه السلطان محمود الثاني عرش السلطنة، ففي بداية عهده دعا الصدر الأعظم **مصطفى باشا البيرقدار** إلى عقد مجلس استشاري في الآستانة وعرض فيه برنامجًا إصلاحيًا أبرز ما جاء فيه إلزام حكّام الولايات بالولاء للسلطان، وتعهّد الدولة المركزية بالطاعة التامة لقراراته، وحدد الاتفاق العلاقات بين حكّام الولايات بعضهم ببعض، وبالتالي بين موظفي الدولة على أساس ضمانات متبادلة قائمة على العدالة . وكان يمكن لهذا الاتفاق أن يكون أساس دستور حقيقي للدولة العثمانية، إلا أنه لم يعش طويلاً، فالسلطان لم يوقع عليه إلا مرغمًا، حين

رأى نفسه مضطرًا لتصديقه وإصداره، بفعل أنه عدّه انتقاصًا من سلطته، لذا قرر إلغاءه عند سنوح أوّل فرصة ، واستطاع ذلك عندما قُتل البيرقدار، وخلال السنوات التالية أخضع السلطان الولايات العثمانية لحكومة مركزية قوية.

صدرت في عهد السلطان عبد المجيد الأول قوانين إصلاحية عدّة ذات طابع شبه دستوري، مثل منشور **الكلخانة** ومنشور **التنظيمات الخيرية** ، وينظر بعض المؤرخين إلى هذين المنشورين على أنهما وثيقتان دستوريتان لاشتمالهما على مبادئ عامّة في الحكم والإدارة، لكنهما في واقع الأمر لا يُعدان قانونين دستوريين بفعل أنهما لم يقيدا حرية السلطان أو يحدا من صلاحياته، كما أنهما لم يُنشئا المجالس النيابية أو القضائية.

وفي عام 1856م أنشأ السلطان عبد المجيد مجلسًا عُرف باسم **"مجلس أعيان الولايات"** يتكون من عضوين عن كل ولاية ، يختارات من بين أصحاب المعرفة والاحترام، هدفه إبداء الرأي بالإصلاحات الواجب إدخالها على أجهزة الدولة، على أن يُبدي كل منهم وجهة نظهره في ذلك. كانت هذه التجربة الأولى من نوعها في تاريخ الحياة النيابية في الدولة العثمانية، إلا أنها باءت بالفشل لعدم قدرة المندوبين على استيعاب المشكلة برمتها، كما داخلهم الشك في نوايا الحكومة المركزية .

وأنشأ السلطان عبد العزيز الأول في عام 1876م " **مجلس الدولة** " أو " **شوري دولت**"، الذي تميز بطابع شبه دستوري، وشملت اختصاصاته إعداد مشاريع القوانين للدولة وإبداء الرأي للوزارات بالمسائل الخاصة بتطبيق القوانين، كما كان بمثابة محكمة ينظر بالقضايا الإدارية ويُحاكم الموظفين المتهمين بالانحراف. وقد وُصف هذا المجلس بأنه بداية انطلاق لمجلس النواب.

اشتهر السلطان عبد الحميد الثاني أنه أوّل سلطان دستوري في تاريخ الدولة العثمانية، فقد أعلن دستورًا للبلاد بعد أن أقنعه زعيم تكتل " **اتفاق الحمية** " **مدحت باشا** أن الإقدام على هذا العمل يجعل الدول الأوروبية تتوقف عن تدخلها في الشؤون الداخلية للدولة لا سيما وإنه سيُصلح وضع الرعايا المسيحيين في البلقان والشام . تشكلت لجنة عامة برئاسة مدحت باشا ، ولجان فرعية لدرس مشروع الدستور قبل إصداره، وانتهت بعد مداولات طويلة إلى وضع هيكل للنظام البرلماني يقوم على مجلسين : **مجلس شيوخ** ، يُطلق عليه **"مجلس الأعيان"**، و**مجلس نواب** يُطلق عليه **"مجلس المبعوثان"**.

كان الدستور العثماني ينص على تقييد السلطة المطلقة للسلطان وإنه حامي الدين الإسلامي، يتمتع شخصه بحرمة قدسية ، وهو غير مسؤول عن تصرفاته أمام أحد، وحدد الدولة وعاصمتها والحقوق العامّة للرعايا . وانتقص الدستور كثيرًا من سلطات الصدر الأعظم التنفيذية وأعطاها للسلطان.

جعل الدستور للسلطان الحق في تعيين أعضاء **مجلس الأعيان** مدى الحياة، على أن لا تقل سن العضو عن أربعين عامًا ، أما **مجلس المبعوثان** فكان أعضاؤه يعينوا عن طريق إجراء انتخابات عامّة ،

وكان المجلسان يجتمعان كل سنة في دورة عاديّة، تبدأ في الأول من شهر نوفمبر وتنتهي في آخر شهر فبراير، ويحق للسلطان تقديم موعد الدورة أو اختصار مدتها.

كانت الحكومة هي التي تقترح التشريعات الجديدة على البرلمان، أما اقتراحات أعضاء المجلسين فيجب أن تُعرض على السلطان، فإذا وافق عليها يُحيلها إلى البرلمان عن طريق مجلس الدولة الذي يوافق عليها، وينتهي الأمر بصدور موافقة السلطان، أما إذا رفض أحد المجلسين مشروع قانون فلا يعيد النظر فيه في دورة انعقاده نفسها.

الواقع أن الحياة الدستورية، بمعناها الحديث، في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، كانت تجربة فاشلة قُدّر لها الإخفاق، ومرّت بمرحلتين :

بدأت **المرحلة الأولى** بصدور الدستور في 23 ديسمبر سنة 1876م، الموافق فيه 6 ذي الحجة سنة 1293هـ، وانتهت بحل البرلمان وإيقاف العمل بالدستور في 14 فبراير سنة 1878م، الموافق فيه 11 صفر سنة 1295هـ.

وبدأت **المرحلة الثانية** حين قرر السلطان عبد الحميد إعادة العمل بالدستور في شهر يوليو من عام 1908م، واستمرت إلى ما بعد عهده، حيث انتهت في 18 مارس سنة 1920م، الموافق فيه 26 جمادى الآخرة سنة 1338هـ، حين قرر البرلمان إيقاف جلساته إلى أجل غير مسمّى، ثم أصدر السلطان محمد السادس في 11 أبريل من نفس العام قرارًا بحله.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

4 - المجتمع والثقافة

يكاد المؤرخون يُجمعون على أنه لم تكن ثمّة حضارة عثمانية بالمعنى الدقيق للكلمة. فقد كانت الحضارة العثمانية مزيج من حضارات الأمم التي سبقتها وحضارات الأمم التي عاصرتها . فبرز فيها أثر العرب وأثر الفرس من ناحية ، وأثر البيزنطيين وأثر الأوروبيين من ناحية ثانية. والواقع أن خير ما يُمكن أن يُقال في هذا الموضوع هو أن الحضارة العثمانية امتدادٌ للحضارة والخلافة العربية الإسلامية التي بلغت أوجها في العصر العبّاسي، ولكنه امتداد طبعه العثمانيون بطابعهم التركي وطعّموه بكثير من المؤثرات البيزنطية أولاً، ثم بكثير من المؤثرات الأوروبية بعد ذلك.

4 – 1 - البنية الاجتماعية

اتسم العثمانيون بعدم اتباعهم لسياسة هضم القوميات، الأمر الذي ساعد على نمو العصبات الحاكمة وحفظ للقوميات طابعها القومي، فقد وضع السلاطين نظامًا خاصًا عُرف بنظام " **الملل** "، قسموا بمقتضاه الشعوب الخاضعة لهم، ووضعوا كل ملّة أو عصبية تحت حكم زعيم لها هو المسؤول عنها أمام السلطان.

يقول بعض المؤرخين أن هذه السياسة هي أحد الأسباب الرئيسية التي أدّت لضعف الدولة وانفصال بعض القوميات عنها في وقت لاحق، بينما يقول آخرون أن التعددية هي ما كان وراء دوام استمرار الدولة لسنين طويلة.

منح السلاطين بعض الأقليات العرقية والدينية حق الإقامة في ربوع الدولة العثمانية وأعطوهم الأمان وسمحوا لهم بممارسة شعائرهم الدينية بحريّة لقاء الجزية، كما فعل السلطان محمد الفاتح مع اليهود والروم الفنارية عندما دعاهم ليسكنوا القسطنطينية .

طُبعت بعض المدن الكبرى في الدولة العثمانية بطابع ثقافي واجتماعي مختلط كما القسطنطينية، كونها كانت إما مرافئ تجارية مهمة أو عواصم ولايات، أو ذات أهمية دينية، ومن هذه المدن التي ما زالت تحتفظ بطابع عثماني : **سراييڤو ، سكوبيه ، سالونيك ، دمشق ، بغداد ، بيروت ، مكة ، القدس ، والجزائر** ، فلا يزال المرء يُشاهد في هذه المدن عدد من المعالم المعمارية العثمانية الأثرية والحديثة المبنية على هذا الطراز، كما أن العديد من سكان هذه المدن نزح إليها من مناطق أخرى خلال العهد العثماني.

كان للانتماء المجالي تأثير كبير على وضعية ومكانة صاحب منصب ما في الدولة العثمانية، ويتمثل ذلك في ترابية أجهزة الدولة وفيما يخص بروتوكول الإستقبال . **فقاضي الروملي** كان أقرب وأعلى مكانة للسلطان من **قاضي الأناضول** ، وهذان القاضيان هما أول من يدخل على السلطان، يليهما **الصدر الأعظم** ثم **رئيس الكتّاب ورئيس بيت المال** ولا يرى غيرهم. وقد اتبع أسلوب التشريفات هذا بعض الحكّام المحليين وطبقوه كما كان يُطبق في القسطنطينية.

4 – 2 – التعليم

أهملت الدولة العثمانية ، خلال مراحل تاريخها، تنشيط التعليم المدني ، إلا في نطاق المدارس التابعة للهيئة الدينية الإسلامية، وقامت إلى جانب هذه المدارس، مدارس **الملل** بإشراف الطوائف الدينية غير الإسلامية أو البعثات التبشيرية.

ولم يتطور التعليم في الدولة العثمانية إلاّ في بداية عهد السلطان عبد المجيد الأول وباقي السلاطين الذين تلوه ، وأبرزهم عبد الحميد الثاني ، الذي أنشأ المدارس المتوسطة والعليا والمعاهد الفنية لتخريج الشباب العثماني، وإعداده لتولّي المناصب الحكومية والنهوض بالدولة . واهتم السلطان اهتمامًا بالغًا بالمدرسة التي أنشأت عام 1859م على عهد السلطان عبد المجيد الأول ، فأعاد تنظيمها وفق خطة علمية ، وتحديثها بمناهج دراسية جديدة ، وفتح أبوابها للطلاب القائمين في العاصمة ، والوافدين من مختلف الأقاليم العثمانية، حتى غدت مركزًا ثقافيًا هامًا.

وأنشأ السلطان بدءًا من عام 1878م، المدرسة السلطانية للشؤون المالية ، ومدرسة الحقوق ، ومدرسة الفنون الجميلة ، ومدرسة التجارة ، ومدرسة الهندسة المدنية ، ومدرسة الطب البيطري ، ومدرسة الشرطة ، ومدرسة الجمارك ، كما أنشأ مدرسة طب جديدة في عام 1898م .

مدخل جامعة إسطنبول سنة 1900.

وتوّج السلطان عبد الحميد الثاني جهوده في الحقل التعليمي بتطوير "مدرسة إستانبول الكبرى"، التي أنشئت في عهد السلطان محمد الفاتح، وأضحت جامعة إسطنبول، وضمّت، في أول أمرها، أربع كليّات هي : العلوم الدينية ، والعلوم الرياضية ، والعلوم الطبيعية ، والعلوم الأدبية ، وعُدّت مدرستا الحقوق والطب كليتين ملحقتين بالجامعة. وتطلبت المدارس الملكية ، أو المدنية ، بدورها إنشاء عدد من دور المعلمين لتخريج معلمين أكفاء يتولون التدريس فيها ، وكانت أول دار للمعلمين في الدولة أنشئت، في عام 1848م، على عهد السلطان عبد المجيد الأول، وأضحى عددها في عام 1908م، ثمان وثلاثين دارًا منتشرة في العاصمة وحواضر الولايات والسنجقيات ،

وأنشأ السلطان عددًا كبيرًا من المدارس الرشدية التي كانت بمثابة مدارس متوسطة.

ومن الجامعات الكبرى التي تأسست خارج الحدود التركية في أواخر العهد العثماني : **الكليّة السورية الإنجيلية** التي أصبحت **الجامعة الأمريكية** في بيروت ، سنة 1866م، و**جامعة القديس يوسف** ، سنة 1874م، **وجامعة القاهرة** ، سنة 1908م، وغيرها.

يفيد بعض الأدباء والمؤرخين الذين عاصروا أواخر العهد العثماني أن اليوم الدراسي كان يبدأ بتلاوة سورة الفاتحة ، عند المسلمين، والمزمور 23 ، عند المسيحيين، ثم يتلوها عبارة " **عاش مولانا السلطان** " (بالتركية العثمانية : **پاديشاه متشوق يا شاه**) ثم تتلوها ترتيلة تركية.

4 – 3 – العبيد

أحد الخصيان السود على باب دار الحريم في قصر السلطان.

كانت طبقة العبيد تُشكل جزءًا مهمًا لا غنى عنه في المجتمع العثماني، وكانت هذه الطبقة تتألف من الصبية والبنات الأوروبيين الذين يخطفهم القراصنة أو يتم سبيهم خلال المعارك والحروب ، ومن الأفارقة الذين كان يخطفهم تجّار الرقيق من قراهم جنوب الصحراء الكبرى .

ألغى السلطان محمود الثاني تجارة الرقيق الأبيض في أوائل القرن التاسع عشر، فتحرر جميع العبيد من يونانيين وجورجيين وأرمن وشركس ، وأصبحوا مواطنين عثمانيين يتمتعون بسائر الحقوق التي يتمتع بها الأحرار. إلا أن تجارة الرقيق الأسود استمرت قائمة حتى أواخر عهد الدولة العثمانية ، كذلك يفيد بعض المؤرخين أن تجارة الإماء استمرت قائمة حتى سنة 1908م . كان حريم السلطان يتألف بمعظمه من الإماء ، وقد تزوّج بعض السلاطين بآمة أو أكثر مما ملكوا ، مثل السلطان سليمان القانوني ، الذي عشق آمته الأوكرانية المدعوة " **روكسلانا** " عشقًا شديدًا وتزوج بها، فولدت له السلطان سليم الثاني.

وقد حقق بعض العبيد العثمانيين شهرة كبيرة ووصلوا إلى مراكز مهمة ، ومنهم **علي بك الكبير** يوناني الأصل ، الذي كان والي مصر، ثم تمرّد على الدولة العثمانية وسمى نفسه *سلطان مصر وخاقان البحرين* (الأحمر والمتوسط) ، و**أحمد باشا الجزار** بشناقي الأصل، الذي أصبح والي عكا واستطاع صد هجوم نابليون بونابرت على المدينة.

أخذت الدولة العثمانية بنظام الخصاء في قصور السلاطين ، على الرغم من أن الشريعة الإسلامية تحرّم مبدأ الخصاء ، وكان أخذ الدولة بهذا النظام غير الشرعي من الحالات النادرة التي خرجت فيها على الشريعة الإسلامية . بينما يقول مؤرخون آخرون أن العثمانيين كانوا يشترون العبيد الخصيان من خارج حدود الدولة حيث تكون عملية الاخصاء قد أجريت للعبد في صغره ليتم بيعه في سوق النخاسة إلى الملوك والأمراء حيث كان اخصاء العبيد وبيعهم للخدمة في قصور ملوك الدول المختلفة تجارة رائجة في العصور القديمة والوسطى وشطر من العصور الحديثة قبل منع الرق دوليًا.

كانت هناك طائفتان من الخصيان: الخصيان السود وهم المخصيون خصاءً كاملاً، والخصيان البيض وهم المخصيون خصاءً جزئيًا، وكان يُطلق على رئيسهم " **قبو آغاسي**"، في حين كان يُطلق على رئيس الخصيان السود، الذي هو في الوقت نفسه الرئيس الأعلى في القصور السلطانية، "**قيزلر آغاسي**، أي "**آغا البنات**" و"**آغا دار السعادة**"، ووضعت الدولة أنظمة خاصة تُطبق على خدمتهم في القصور السلطانية .

وقام تنافس شديد بين هذين النوعين كان مرده رغبة كل فريق الاستئثار بالنفوذ الأعلى في دوائر القصور السلطانية وفي شؤون الدولة، وقد ارتفع مقام رئيس الخصيان السود نتيجة اتصاله المباشر بالسلطان ووصل إلى المركز الثالث من حيث الأهمية بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام ، وأضحى الوزراء يتملقونه والمستوزرون يتقربون منه. يتحدر اليوم جميع الأتراك من أصل أفريقي من هؤلاء الأشخاص الذين عملوا كرؤساء للخصيان في قصر السلطان.

4 – 4 - العمران

عُني العثمانيون بالناحية العمرانية عناية واضحة، فأقاموا شبكة واسعة من الطرق والجسور في طول الدولة وعرضها مستعينين على ذلك بمهرة الصنّاع البيزنطيين البلغار. ومع أن هذه الشبكة أنشئت ، في المقام الأول ، لأغراض عسكرية ، إلا أنها سهّلت حركة المواصلات العامّة وأسدت إليها خدمة جليلة أيضًا.

كذلك عُني العثمانيون بتشييد المدارس ومعاهد التعليم التي كانت تتسع لسكنى الأساتذة والطلاّب ، وبإقامة المستشفيات والبيمارستانات ودور العجزة ، وبإنشاء المطاعم الشعبية والتكايا للفقراء، والخانات التي كان التجّار الغرباء ينزلون فيها؛ وكذلك عنوا ببناء الحمامات الشعبية، والمكتبات العامّة، والمتاحف والقصور، والمساجد، وبخاصة في الآستانة وعواصم الولايات.

تأثّر النمط العمراني العثماني بالأنماط الفارسية والبيزنطية والإسلامية في بداية عهده، فجاء خليطًا بينها ومطورًا لبعضها، فعلى سبيل المثال، اقتبس العثمانيون القبّة الفارسية من الفرس الساسانيون ، وأدخلوا عليها بعض التعديلات حتى أصبحت سمة بارزة في معظم آثارهم المعمارية . ازدهرت العمارة العثمانية

في عهد التوسع والفتوحات، ثم أصبح النشاط المعماري راكدًا كما الدولة في فترة الركود ، وفي فترة لاحقة أدخل المعماريون أنماطًا معمارية من أوروبا الغربية ودمجوها مع النمط العثماني، ومن هذه الأنماط: الباروكيه ، الروكوكو ، والنمط الإمبراطوري.

مدخل قصر الباب العالي في إسطنبول.

تعتبر بعض المساجد من أبرز آثار العمارة العثمانية ، ومنها : مسجد السلطان محمد الفاتح في إسطنبول ، وقد عهد السلطان محمد ببنائه إلى مهندس يوناني يُدعى **" خريستو دولوس"**، وهو من أروع آثار العمارة العثمانية وأقربها إلى الكمال.

ومسجد السلطان أحمد في إسطنبول أيضًا،

ومسجد السلطان بايزيد الذي يمتاز بفخامة موادّه البنائية وبزخرفته على الطريقة الفارسية.

ومسجد السلطان سليمان القانوني، الذي نافس في جماله آيا صوفيا، والذي عُهد بتشييده إلى المهندس العثماني الشهير **"سنان آغا"**. والواقع أن سنان هذا كان أعظم المهندسين العثمانيين على الإطلاق، فقد أنشأ، بالإضافة إلى هذا المسجد العظيم، عشرات المساجد الأخرى منها مسجد السلطان سليم الثاني، أو مسجد سليمية ، وخمسًا وخمسين مدرسة، وسبعة عشر مطعمًا عموميًا، وثلاثة مستشفيات، وسبعة جسور، وثلاثة وثلاثين قصرًا، وثمانية عشر خانًا، وخمسة متاحف. وقد بلغ من براعة سنان آغا وبعض المهندسين الذين تلوه أنهم دمجوا في تصاميمهم النمط البيزنطي بالنمط الصيني.

4 – 5 - الفنون والآداب

موسيقيون من حلب في أواسط القرن الثامن عشر يعزفون على آلات تركية وعربية هي: (من اليسار إلى اليمين) الدف، التنبور، الناي، الكمانچه، وطبلة النقرة.

اهتمت الطبقة الحاكمة العثمانية بالموسيقى والطرب ، وبلغ من درجة اهتمام بعض السلاطين بالموسيقى والغناء أن نظموا بعض المقاطع الموسيقية بأنفسهم ولحنوها، ومن هؤلاء السلطان سليم الثالث . تتميز الموسيقى العثمانية ، كما معظم السمات الحضارية للعثمانيين، أنها خليط بين الموسيقى البيزنطية والعربية والفارسية، وكانت تُنظم وفق وحدات إيقاعية تُسمى **"أصول"**، ووحدات لحنيّة تُسمى **"مقام"**.

استخدم العثمانيون أدوات موسيقية ابتُكرت في آسيا الوسطى مثل الساز والكمانچه، وأخرى ابتكرها العرب مثل العود والتنبور القانون الناي، ومن ثم أضافوا إليها بعض الأدوات الأوروبية مثل الكمان البيانو.

برز نوعان من الموسيقى في الدولة العثمانية بفعل اتساع رقعة الدولة وبعد الأقاليم عن بعضها البعض : الموسيقى العثمانية التقليدية أو الكلاسيكية ، والموسيقى العثمانية الفلكلورية ؛ وكان هناك أشكل مميزة من الموسيقى العثمانية أبرزها : موسيقى الإنكشارية، وموسيقى الغجر، وموسيقى الرقص الشرقي ، وموسيقى الترك الفلكلورية. وقد اقتبس اليونانيون وبعض الشعوب الأخرى بعض أشكال الموسيقى العثمانية ودمجوها في ثقافتهم.

تأثّر الشعر العثماني بنظيره الفارسي بشكل كبير، وبالشعر العربي إلى حد أقل، وكان لهذا الدمج بين اللغتين العربية والفارسية تأثير كبير في نشأة اللغة التركية العثمانية، وقد استمر الشعراء، وبعض السلاطين العثمانيين، ينظمون الشعر بالفارسية والعربية حتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر، عندما أخذ الأتراك يلجؤون إلى اللغة التركية في نظم الشعر. كان النثر العثماني عبارة عن سرد لأحداث قديمة وقعت بالفعل، واستمر بصفته هذه حتى القرن التاسع عشر عندما تأثّر بالروايات الأوروبية ، وخاصةً الفرنسية ، وأخذ الكتّاب يبتدعون قصصًا خيالة.

أهمل العثمانيون فن التمثيل في بداية عهدهم، واستعاضوا عنه بعروض الدمى المتحركة ، المعروفة باسم **" كركوز وعواظ "**، وقد انتشرت هذه الظاهرة الثقافية في معظم البلدان الشرقية الخاضعة للدولة، ولجأ إليها الناس للترفيه عن أنفسهم طيلة العهد العثماني، واستمرت قائمة في بعض الأماكن لحين ظهور دور السينما ثم المذياع والتلفاز.

7 – الديمغرافيا :

يُشكل احتساب عدد سكان الدولة العثمانية موضع جدال بين المؤرخين، ذلك لأن المصادر الأولى التي تشير لهذه المسألة ضئيلة ومبهمة. ولم تعتمد الدولة العثمانية إحصاءً للسكان باستخدام الأساليب الحديثة حتى سنة 1831م، ولم يظهر الإحصاء الرسمي الأول حتى سنة 1881م ، إلا أن هذه الإحصاءات لا تساعد بالرغم من هذا على تحديد إجمالي عدد السكان، فإحصاء سنة 1831 على سبيل المثال احتسب الرجال فقط دون النساء ولم يُغطِ كافة أنحاء الدولة.

7 – 1 – اللغة

كان هناك لغتين كبيرتين سائدة في الدولة العثمانية :

1 - التركية ، وهي اللغة الأم للأتراك ، وقد تكلّم بها أغلبية سكان الأناضول وتراقيا، بالإضافة إلى المسلمين البلقانيين عدا الألبان وسكان البوسنة، وبطبيعة الحال انتشرت اللغة التركية بين الأشخاص المثقفين من غير الأتراك وبشكل خاص أولئك الموظفين في الدوائر الحكومية. كانت اللغة التركية هي اللغة الرسمية للدولة العثمانية، وتختلف اللغة التركية العثمانية عن اللغة التركية الحديثة ، من ناحية أنها كانت أكثر تأثرًا باللغتين العربية والفارسية، واقتبست منهما مصطلحات عديدة اختفت اليوم من المعجم التركي.

2 - أما ثاني لغة من حيث الأهمية فكانت **اللغة العربية** ، وقد تكلمها سكان المناطق العربية الخاضعة للحكم العثماني، بالإضافة إلى الأتراك وباقي الشعوب المسلمة في الدولة، كونها لغة الدين الإسلامي، غير أن من أتقنها وتكلمها بطلاقة كما العرب كان الطبقة المثقفة أيضًا.

انتشرت بعض اللغات الأخرى على نطاق ضيّق في الدولة العثمانية، ومنها : الفارسية . الكردية ، والصربية ، واليونانية ، والمجرية ، والأرمنية ، والبلغارية ، كذلك كان لبعض الطوائف لغاتها الطقسية الخاصة، مثل السريانية للمسيحيين في سورية , والقبطية لأقباط مصر ، والعبرية بالنسبة لليهود .

اقتبس العرب. وبشكل خاص في بلاد الشام والمصريين عدد من الكلمات التركية وأصبحت تشكل جزءًا من لغة التواصل اليومية في بلادهم،

7 – 2 – الدين

نتيجة اتساع رقعة الدولة العثمانية، فقد ضمت الكثير من أتباع المذاهب والديانات المختلفة، سواء أكانت إبراهيمية أم غير إبراهيمية، فقد عاشت في رُبوعها عدة ديانات مميزة لم توجد في مناطق أخرى من العالم، وفي مقدمتها: اليزيدية (الإيزيدية) والصابئية المندائية والسامرية. سمح العثمانيون لليهود والمسيحيين أن يمارسوا شعائرهم الدينية بحرية تحت حماية الدولة، وفقًا لما تنص عليه الشريعة الإسلامية، وبهذا فإن أهل الكتاب من غير المسلمين كانوا يعتبرون رعايا عثمانيين لكن دون أن يُطبق عليهم قانون الدولة، أي أحكام الشريعة الإسلامية، وفرض العثمانيون، كجميع الدول الإسلامية من قبلهم، الجزية على الرعايا غير المسلمين مقابل إعفائهم من الخدمة في الجيش.

7 – 2 – 1 – الإسلام

كان الإسلام هو الدين الرسمي في الدولة العثمانية، وقد اعتنقته الأغلبية الساحقة من السكان في الولايات الآسيوية والأفريقية، وفي بعض أنحاء البلقان، وفقًا للمذهب السني، وكان هناك أقلية شيعية تنتشر بشكل رئيسي في بعض مناطق العراق كالنجف وبعض أنحاء الشام، كذلك كان هناك نسبة قليلة من الدروز والعلويين في لبنان وسوريا وفلسطين والأناضول.

اتبع عدد من المسلمون العثمانيون الأتراك ، بما فيهم كثير من السلاطين، عدّة طرق صوفية، ومنها الطريقة البكداشية والماتردية والمولوية .

كما ظهرت خلال العهد العثماني حركة عقائدية صوفية كبرى ذات أبعاد سياسية واقتصادية ، وانطوت على محاولة التقريب بين الإسلام والمسيحية واليهودية ، تلك كانت حركة الشيخ **"بدر الدين"**، وهي تتصدر أهم الحركات الدينية والاجتماعية على مدار التاريخ العثماني

7 – 2 – 2 – المسيحية

كانت الملّة الأرثوذكسية أكبر الملل غير الإسلامية في الدولة العثمانية، وقد انقسم أتباعها إلى عدّة كنائس أبرزها كنيسة الروم ، والأرمن ، والأقباط ، والبلغار، والصرب، والسريان، وكانت هذه الكنائس تُطبق قانون جستنيان في مسائل الأحوال الشخصية .

خصّ العثمانيون المسيحيين الأرثوذكس بعدد من الامتيازات في مجاليّ السياسة والتجارة، وكانت هذه في بعض الأحيان بسبب ولاء الأرثوذكسيين للدولة العثمانية. اتبع بعض المسيحيين الخاضعين للدولة العثمانية المذهب الكاثوليكي، لكنهم كانوا يشكلون أقلية طيلة عهد الدولة، وقد انتمت معظم الكنائس الكاثوليكية إلى الفرع الشرقي، وأبرزها: الكنيسة المارونية والكنيسة الآشورية والروم الكاثوليك وغيرها.

كانت علاقة الدولة العثمانية ببعض الكنائس علاقة سلمية أغلب عهدها، فكان الروم الأرثوذكس يذعنون عن طيب خاطر للسلطان طالما لم يتعرض لهم أحد في دينهم، وسمح السلاطين، وأولهم محمد الفاتح، سمحوا للأرمن ببناء كنائسهم داخل حدود الآستانة، فيما كان البيزنطيين يعتقدون أن الأرمن هراطقة ولم يسمحوا لهم بممارسة شعائرهم داخل جدران القسطنطينية، وأعطى العثمانيون للموارنة امتيازًا ميزهم عن سائر الطوائف المسيحية ،

7 – 2 – 3 – اليهودية

سكن اليهود مناطق عديدة من الدولة العثمانية، وقد ازداد عدد اليهود السفارديون بعد سقوط الأندلس، عندما وفدت جموع منهم إلى جانب الأندلسيين المسلمين إلى أنحاء مختلفة من الدولة، وبشكل خاص الآستانة وسالونيك وبعض مدن الشام ومصر، وكان رئيس الطوائف اليهودية يُعرف باسم **"حاخام باشي"** أو **"باشا الحاخامات"**.

يقول بعض المؤرخين أن اليهود العثمانيين لعبوا دورًا في إسقاط الدولة العثمانية عن طريق تعاونهم مع اليهود الأوروبيون والداعين للصهيونية ، كما وساهموا في تشويه صورة الدولة لاحقًا،

ويوضح آخرون أن سياسة الدولة العثمانية كانت تقوم على تشجيع اليهود على الهجرة إلى ممتلكاتها، غير أنها كانت تخشى أن يقيم اليهود دولة لهم في منطقة حول القدس، فيؤدي ذلك إلى فصم بلاد الشام منها، والاستئثار بالمدينة المقدسة.

ساءت علاقة العثمانيين بالعديد من الطوائف غير الإسلامية في أواخر عهد الدولة لأسباب مختلفة، منها بروز الحركات القومية التي تبنتها شعوب غالبًا ما كانت تتعاطف معها بعض الطوائف كونها تنتمي لذات القومية أو المذهب الديني، وعند نشوب الحرب العالمية الأولى ضيّق العثمانيون الخناق على الرعايا المسيحيين منعًا لحصول أي اتصال بينهم وبين أعداء الدولة من البريطانيين والروس والفرنسيين، وخلال هذه الفترة ارتكبت الدولة بضعة أعمال واتخذت بعض الإجراءات التي نجم عنها قتل وتشريد الكثير من المسيحيين واليهود، وقد اعتبر البعض هذه الأعمال مجازر ومذابح هادفة لاضطهاد الأقليات الدينية، فيما اعتبرها آخرون أعمال قد تقوم بها أي دولة في زمن الحرب للحفاظ على أمنها.

6 - القانون والقضاء

مجلة الأحكام العدلية

كانت الشريعة الإسلامية هي أساس القانون العثماني. وفي بادئ الأمر كان "قاضي العسكر" هو رأس الهيئة القضائية. ثم عُيّن إلى جانبه قاضيان آخران أحدهما لأفريقيا والثاني لأوروبا . ولم تكن سلطة قضاة الجيش هؤلاء مقصورة على الشؤون العسكرية، بل تعدتها إلى نواحي القانون بأكمله. وكان هؤلاء القضاة هم الذين يُعينون الموظفين القضائيين والقضاة ونوابهم. وكان يتلو قضاة الجيش في الترتيب "**العلماء الكبار**" وهم قضاة العاصمة، ثم "**العلماء الصغار**" الذين كانوا يتولون القضاء في عشر مدن ثانوية من مدن الولايات كبغداد وصوفيا.

أما قضاة الدرجة الثانية وما دونها فكانوا ينقسمون إلى طبقات ثلاث وهم: المفتشون، والقضاة، ونواب القضاة. وكانت الهيئات القضائية كلها تخضع **لمفتيّ الآستانة** الذي كان يحمل لقب "**شيخ الإسلام**". وكان شيخ الإسلام هذا يُفتي في ما يُرفع إليه من المسائل القضائية، وكثيرًا ما كان السلاطين يستصدرون منه الفتوى كلّما أقدموا على اتخاذ قرار مصيري يتصل بشؤون السلم أو الحرب.

اعتمد السلطان عبد المجيد الأول تدوين القانون المدني العثماني كخطوة من خطواته التنظيمية، فجعل كبار الفقهاء والعلماء يجمعون التشريعات في ما أصبح يُعرف بمجلة **الأحكام العدلية**. تتكون هذه المجلة من ستة عشر كتاب أولها كتاب البيوع وآخرها كتاب القضاء، وكل كتاب يتناول موضوع ومكون من أبواب، وكل باب مكون من فصول.

صدرت المجلة سنة 1882م، وهي تعتبر أول تدوين للفقة الإسلامي في المجال المدني في إطار بنود قانونية، على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان. وهي القاعدة التي بُني عليها القانون المدني في أغلب الدول العربية مثل العراق ومصر والأردن.

7 – الجيش

7 – 1 - القوات غير النظامية (1237–1365)

لم يكن للإمارة العثمانية عند قيامها جيش نظامي تعتمد عليه ، وقد وقع عبء الفتوح الأولى على عاتق المجاهدين ، وكانوا كلهم من الفرسان، فيجتمعون في مكان محدد عن طريق المنادين ثم يخرجون إلى الحرب، فإذا انتهت تفرّقت جموعهم وعاد كل واحد إلى عمله الأساسي .

وقد اعتمد العثمانيون منذ أول ظهورهم في التاريخ، نظامًا إقطاعيًا كان الهدف منه تأمين مصدر ثابت لإمداد جيوشهم بالجند، يغنيهم عن إنشاء جيش نظامي دائم ويُوفر لهم نفقاته، وكان أساس هذا النظام هو إقطاع أو منح المحاربين بعض المقاطعات الزراعية مقابل التزامهم بأن يكونوا دومًا على استعداد للسير إلى الحرب متى يُدعون إليها، مع أعداد من الفرسان من أتباعهم تتناسب ومساحة الإقطاعة الممنوحة لكل منهم، وأن يجهزوهم بكل ما يحتاجون إليه من خيل وسلاح.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

7 – 2 - الجيش النظامي الأول (1365 – 1828)

يُعتبر السلطان **أورخان الأول** مؤسس الجيش العثماني الحقيقي ، فقد أدرك من خلال معاركه حاجته إلى جيش من المشاة يستطيع فتح القلاع واقتحام الأسوار المنيعة، ولا يعرف أفراده حرفة سوى القتال ، فأنشأ أول الأمر جيشًا نظاميًا مؤلفًا من فرق متعددة، كل فرقة منقسمة إلى وحدات تتألف من عشرة أنفار، ومئة نفر، وألف نفر . ثم اختار ألفًا من أسرى الحروب، وأغلبهم من صغار السن، بين السابعة والعاشرة، وضمّ إليهم الأولاد المسيحيين المشردين والأيتام الذين توفي آباؤهم أو أمهاتهم خلال الغزوات والمعارك ، ثم صهر الجميع في بوتقة واحدة، وأنشأهم على الدين الإسلامي وعلى التعلق بشخصه والإخلاص له وللدين والوطن، فكان هؤلاء هم نواة **جيش الإنكشارية** (بالتركية العثمانية : **يكيچرى**؛ أي **الجيش الحديث**) .

كان الإنكشارية لا يعرفون حرفة ولا عمل إلا القتال والحرب، وتألّف الجيش الإنكشاري من ثلاث فرق مختلفة هي : السكمان والجماعة والفرقة ، وكان رئيسه الأعلى يُعرف باسم **"آغا الإنكشارية"**. تكاثر عدد الإنكشارية مع الزمن فبلغ في بعض الأحوال ستين ألفًا ،

وجميع المؤرخون متفقون على إطراء روح النظام التي تميّز بها هؤلاء الجنود في العصر الذهبي للدولة ، فلم يكن عندهم مكان للخمر أو للقمار أو غير ذلك من الآفات التي عرفتها جيوش أوروبا في تلك العهود.

ولكن الفساد ما لبث أن دبّ إلى هذا الجيش مع الزمن، فاعتاد الإنكشارية أن يتمردوا ويطالبوا بالهبات السخية كلما ارتقى العرش سلطان جديد. وقد شكلوا في العهود المتأخرة عقبة كانت تحول دون الإصلاح والتجديد، فأبادهم السلطان **محمود الثاني** عن بكرة أبيهم وألغى جميع أزيائهم وألقابهم.

أنشأ العثمانيون إلى جانب جيش المشاة جيشًا من الفرسان عُرف باسم " **الفرسان السواري** " أو **سپاهى** ، ويُعرفهم معظم الكتّاب العرب باسم " **الفرسان السيباه** "، وقد لعب هؤلاء دورًا كبيرًا في تقدم الفتوح عبر أوروبا، لكنهم أصيبوا بالفساد كما الإنكشارية في أواخر عهدهم، واشتركوا معهم في نفس المصير.

عُني العثمانيون بسلاح المدفعية عناية عظمى، وأنشأوا فرقة خاصة في الجيش هي فرقة المدفعية أو " **الطوبجيّة** ". وكانت المدفعية تتقدم الجيش عند الهجوم، في حين كان الإنكشارية يرافقون طليعة الجيش .

7 – 3 - الجيش النظامي الثاني (1826 – 1922)

بعد أن قضى السلطان محمود الثاني على الإنكشارية، أقدم على إلغاء جميع الفرق العسكرية غير المنتظمة، وأضحى الجيش كله مؤلفًا من جنود منتظمين مسلحين بأحدث الأسلحة وصل تعدادهم بحلول عام 1826م إلى اثني عشر ألف جندي وارتفع هذا العدد إلى خمسة وسبعين ألفًا بحلول عام 1828م.[230] أطلق السلطان على الجيش الجديد اسم "العساكر المنصورة المحمدية"، واستدعى ضباطًا ومهندسين فرنسيين وألمانًا لتدريب أفراده وفق النموذج الأوروبي. وأسس السلطان أكاديمية عسكرية في عام 1834م، وأرسل بعض خريجيها إلى العواصم الأوروبية لاستكمال دراساتهم العليا.[231] استمر الجيش العثماني موجودًا بصفة رسمية حتى قيام الجمهورية التركية، عندما أصبحت جميع القوات العثمانية إلى جانب قوّات مصطفى كمال تُشكل القوات المسلحة التركية.

7 – 4 - البحرية والأسطول

أنشأ العثمانيون أسطولاً بحريًا كبيرًا ساعدهم في كثير من فتوحاتهم البرية والبحرية على السواء. ولعلّ الفضل في تعزيز الأسطول العثماني يعود إلى السلطان محمد الفاتح أولاً، ولمّا تولّى العرش السلطان سليم الأول واصل تعزيز هذا السلاح، ثم جاء سليمان القانوني فزاد عدد سفنه فبلغت ثلاثمئة.

وكان الأسطول العثماني يتألّف من دوارع ثقيلة وطرّادات خفيفة، وكان مزودًا بمدفعية قوية. ولكن الدولة أهملت الأسطول، في أواخر القرن السادس عشر، فتضاءل عدد قطعه ، واقتصر نشاطه على خفر السواحل تقريبًا. وفي عهد الإصلاحات والتنظيمات حاول السلطان محمود الثاني النهوض بالبحرية فبنى سفينة " **المحمودية** " التي كانت طيلة عدة سنوات أكبر سفينة حربية في العالم،

وحاول السلطان عبد العزيز الأول إحياء البحرية العثمانية من جديد وزيادة قطعها، فبنى أسطولاً كان الأكبر في العالم بعد أساطيل بريطانيا وفرنسا، واستحصل من بريطانيا على أوّل غواصة حربية من نوعها . لكن على الرغم من كل ذلك، اعتقد السلطان بأن الأسطول العثماني غير مؤهل ليواجه نظيره الروسي في معركة مباشرة، فأمر بإبقاء السفن داخل مضيق القرن الذهبي، فحُبست طيلة 30 سنة.

8 - قائمة السلاطين والخلفاء العثمانيين :

الحاكم	الحياة	بداية الحكم	نهاية الحكم
عثمان بن أرطغرل	1258 - 1326	1299	1326
أورخان غازي	1284 - 1359	1326	1359
مراد الأول	1326 - 1389	1359	28 يونيو1389
بايزيد الأول الصاعقة	1357 - 1403	28 يونيو1389	20 يوليو1402
محمد الأول السيد	1389 - 1421	20 يوليو1402	20 مايو1421
مراد الثاني (للمرة الأولى)	1402 - 1451	20 مايو1421	أغسطس1444
محمد الثاني الفاتح (للمرة الأول)	1432 - 1481	أغسطس1444	1446
مراد الثاني (للمرة الثانية)	1402 - 1451	1446	3فبراير1451
محمد الثاني الفاتح (للمرة الثانية)	1432 - 1481	3فبراير1451	3مايو1481
بايزيد الثاني	1447 - 1512	20 مايو1481	25 أبريل1512
سليم الأول (أول من حمل لقب خادم الحرمين الشريفين وخليفة المسلمين من آل عثمان)	1466 - 1520	25 أبريل1512	22 سبتمبر1520
سليمان الأول القانوني	1495 - 1566	22سبتمبر1520	6 سبتمبر1566
سليم الثاني	1524 - 1574	6 سبتمبر1566	12 يسمبر1574
مراد الثالث	1546 - 1595	12ديسمبر1574	15 يناير1595
محمد الثالث	1566 - 1603	15 يناير1595	22ديسمبر1603
أحمد الأول	1590 - 1617	22ديسمبر1603	22 نوفمبر1617
مصطفى الأول (للمرة الأولى)	1591 - 1639	22نوفمبر1617	26 فبراير1618
عثمان الثاني	1604 - 1622	26فبراير1618	20 مايو1622
مصطفى الأول (للمرة الثانية)	1591 - 1639	20 مايو1622	10سبتمبر1623
مراد الرابع	1609 - 1640	10سبتمبر1623	9 فبراير1640
إبراهيم الأول فاتح جزيرة كريت	1615 - 1648	9 فبراير1640	8أغسطس1648
محمد الرابع	1642 - 1693	8أغسطس1648	8 نوفمبر1687
سليمان الثاني	1642 - 1691	8 نوفمبر1687	23 يونيو1691
أحمد الثاني	1643 - 1695	23 يونيو1691	6 فبراير1695

مصطفى الثاني	1703 - 1664	6 فبراير 1695	22أغسطس 1703
أحمد الثالث	1736 - 1673	22أغسطس 1703	1 أكتوبر 1730
محمود الأول	1754 - 1696	2 أكتوبر 1730	13ديسمبر 1754
عثمان الثالث	1757 - 1696	13ديسمبر 1754	30 أكتوبر 1757
مصطفى الثالث	1774 - 1717	30 أكتوبر 1757	21 يناير 1774
عبد الحميد الأول	1789 - 1725	21 يناير 1774	7 أبريل 1789
سليم الثالث	1808 - 1761	7 أبريل 1789	29 مايو 1807
مصطفى الرابع	1808 - 1779	29 مايو 1807	28 يوليو 1808
محمود الثاني	1839 - 1785	28 يوليو 1808	1 يوليو 1839
عبد المجيد الأول	1861 - 1823	1 يوليو 1839	25 يونيو 1861
عبد العزيز الأول	1876 - 1830	25 يونيو 1861	30 مايو 1876
مراد الخامس	1904 - 1840	30 مايو 1876	31أغسطس 1876
عبد الحميد الثاني	1918 - 1842	31أغسطس 1876	27 أبريل 1909
محمد الخامس رشاد	1918 - 1844	27أ بريل 1909	3 يوليو 1918
محمد السادس وحيد الدين	1926 - 1861	3 يوليو 1918	1 نوفمبر 1922
عبد المجيد الثاني (أخر خليفة عثماني وبه انتهى عصر الخلافة الاسلامية)	1944 - 1868	3 نوفمبر 1922	3 مارس 1924

سلاطين أل عثمان حسب الأدوار التي مرت بها الدولة العثمانية

دور العروج (1453 – 1299)

عثمان الأول · أورخان الأول · مراد الأول · بايزيد الأول (الصاعقة) · محمد الأول · مراد الثاني · محمد الثاني (الفاتح)

دور التوسع (1683 – 1453)

بايزيد الثاني · سليم الأول (القاطع ·)سليمان الأول (القانوني) · سليم الثاني · مراد الثالث · محمد الثالث · أحمد الأول · مصطفى الأول · عثمان الثاني · مراد الرابع · إبراهيم الأول · محمد الرابع

دور الجمود (1827 – 1683)

سليمان الثاني · أحمد الثاني · مصطفى الثاني · أحمد الثالث · محمود الأول · عثمان الثالث · مصطفى الثالث · عبد الحميد الأول · سليم الثالث · مصطفى الرابع · محمود الثاني

دور الأفول (1908 – 1828)

عبد المجيد الأول · عبد العزيز الأول · مراد الخامس · عبد الحميد الثاني

دور الانحلال (1923 – 1908)

محمد الخامس · محمد السادس · عبد المجيد الثاني

منذ إلغاء الخلافة والدولة العثمانية ، أصبح يوجد رئيس للسلالة من بين أفرادها ومن بين أبناء وأحفاد سلاطينها السابقين وهم :

عبد المجيد الثاني : (1924-1944)
أحمد نهاد : (1944-1954)
عثمان فؤاد : (1954-1973)
محمد عبد العزيز : (1973-1977)
علي فاسيب : (1977-1983)
محمد أورخان : (1983-1994)
أرطغرل عثمان : (1994-2009)
بايزيد عثمان : (منذ 2009)
دوندار علي عثمان : (ولي العهد) منذ (2009).

1 - سليمان شاه

1 - تقديم :

سليمان شاه Süleyman Şah (1178م – 1236 م) ابن كايا ألب ، ووالد أرطغل , وجد عثمان الأول ، مؤسس الدولة العثمانية.

2 - ضريح سليمان شاه

يحكى أن المغول عندما غزوا امبراطورية سليمان شاه بغتة ، فلقي حتفه غرقا عند عبوره نهر الفرات ، توفي سنة 1227 ودفن في المكان المسمى حاليا **ترك مزاري** في **قلعة جعبر** بسوريا. منطقة منبج في محافظة حلب .

الضريح في قلعة جعبر

ضريح سليمان شاه Süleyman Şah Türbesi

وحسب المادة التاسعة من معاهدة أنقرة الموقعة بين تركيا وفرنسا (في عهد الانتداب الفرنسي على سوريا) سنة 1921، تم الاتفاق على أن ضريح سليمان شاه هو تحت السيادة التركية ، وحاليا يعتبر هذا المزار، الأرض الوحيدة ذات السيادة التركية خارج حدود الدولة. يسهر على حماية المزار جنود أتراك.

3 - نقل الضريح : تم نقل الضريح مرتين :

الأولى في سنة 1973 م حيث كانت مياه سد الفرات ستغمر الضريح ، وبعد مفاوضات تركية سورية تقرر نقل الضريح إلى منطقة أخرى مسيجة على شريط من الأرض ناتئ في ماء نهر الفرات قرب قرية **قرة قوزاق** على بعد 25 كم من تركيا داخل محافظة حلب. الأرض المحيطة بالضريح أرض قاحلة ليس فيها سوى بعض القرى المبعثرة هنا وهناك ، وتتولى كتيبة تركية تتمركز قرب الحدود السورية تدوير الوحدات التي تحرس الضريح. كما أنه بني مركز شرطة سوري إلى جانب موقع الضريح،

وفي عام 2010 قررت اللجنة المشتركة لبرنامج التعاون السوري التركي وضع لوحات وشاخصات دلالة للموقع وصيانة الطريق المؤدية إلى الضريح باعتباره مقصدا سياحيا للزوار الأتراك وخلال زيارة الرئيس التركي **عبد الله غل** إلى حلب زار وفد رسمي تركي الضريح وقرر إقامة أعمال صيانة وترميم فيه.

الثاني :

وفي ليلة 21–22 فبراير 2015 نقلت رفات سليمان شاه بسبب المشاكل الأمنية والضرورات العسكرية من ضريحه إلى **قرية أشمة** في محافظة حلب ، في عملية نفذها الجيش التركي داخل الأراضي السورية، عرفت باسم *عملية ضريح سليمان شاه* .

ونقل أيضًا جثماني جنديين كانا دفنا هناك. وكان داعش قد حاصر الضريح عدة مرات وهدد بتفجيره ، وجرت اشتباكات كثيرة لكنها محدودة مع حراسه الأتراك .

4 - ما مدى أهمية ضريح سليمان شاه بالنسبة للأتراك ؟

كان شاه زعيما قبليا تركيا شهيرا عاش في الفترة من 1178 وحتى 1236، ووفقا لكتابات منقوشة على الضريح ، فقد لقي مصرعه في نهر الفرات مع اثنين من رجاله .

وعليها أسس حفيده ، عثمان الأول ، الإمبراطورية العثمانية والتي وصلت في أوج قوتها في القرون التالية وسيطرت على مساحات واسعة من الأراضي عبر جنوب غرب أوروبا والشرق الأوسط وشمال أفريقيا من عاصمتها في القسطنطينية .

وتمثل منطقة ضريح سليمان شاه , هذه المنطقة التابعة لتركيا في الخارج قيمة عاطفية كبيرة للشعب التركي، ولكن في ظل حالة الفوضى التي تجتاح سوريا في السنوات الأخيرة، فإن هذا الموقع يحمل مغزى سياسيا متزايدا.

وكان الرئيس التركي **رجب طيب أردوغان** قد حذر في أغسطس / آب 2012، عندما كان رئيسا لوزراء ، جميع أطراف الصراع في سوريا من أن أي عمل ضد قبر شاه سيعد بمثابة اعتداء على الأراضي التركية وعلى حلف الناتو.

وفي ظل تقارير حول وقوع أربعين جنديا تركيا يحرسون الضريح في حصار لمقاتلي تنظيم " الدولة الإسلامية "، فإن البرلمان التركي وافق استخدام القوة ضد مسلحي التنظيم.

جنود أتراك رفعوا العلم على موقع جديد بالقرب من الحدود التركية
ليكون موقع القبر الجديد والأخير لجد العثمانيين

وقال رئيس الوزراء أحمد داوود أوغلو عن العملية : " وجهنا القوات المسلحة التركية لحماية قيمنا الروحية وسلامة جنودنا . "

2 – أرطغرل بن سليمان شاه

1 - تقديم :

أرطغرل (إضافة إلى لقب غازي) (1191 – 1281) وهو والد عثمان الأول مؤسس الدولة العثمانية، وقائد قبيلة قايي من أتراك الأوغوز. عندما وصل أرطغرل بفرسانه الـ 400 لمساعدة السلاجقة الروم في حروبهم ضد البيزنطيين كان بذلك قد مهد لوضع الأساس للامبراطورية العثمانية .

2 – سيرته

في عام 1227 م أصبح أرطغرل قائداً لجماعة القايي للأتراك الاغوز نتيجة مساعدته للسلاجقة الروم في حروبهم ضد البيزنطيين ، تلقى أرطغرل أراضي في منطقة جبلية بالقرب من أنغرة (الآن أنقرة) من سلطان السلاجقة الأتراك علاء الدين السلجوقي فكان منح أرطغرل هذه الأرض بمثابة هدية في مقابل

أن يخمد أرطغرل بقواته أي ثورة في المنطقة يقوم بها بقايا البيزنطيين أو أي جماعة أخرى ، قام أرطغرل بعد ذلك بضم قرية **سوغت** التي غزاها عام 1231 م إلى الأراضى التي تحت سيطرته مكونتاً إقطاعية خاصة به. أصبحت هذه القرية سوغت عاصمة للإمبراطورية العثمانية عام 1299 م تحت حكم عثمان الأول ابن أرطغرل ، كان لأرطغرل ابنيين اخرين غير عثمان هما ساودي وغندجوز

3 - ارثه التاريخي

في القرن التاسع عشر قامت البحرية العثمانية بتسمية فرقاطة على اسم أرطغرل، وأيضاً مسجد أرطغرل غازي في **مدينة عشق آباد** بدولة تركمانستان .

3 - عثمان الأول بن أرطغرل : مؤسس الدولة العثمانية

1 - تقديم

السلطان عثمان بن أرطُغرل بن سليمان شاه (656 هـ / 1258م - 1326م) الملقب بعثمان الأول هو مؤسس الدولة العثمانية وأول سلاطينها ، وزعيم الأتراك من السلجوقيين في بثنيا عام 1288م ، وإليه تنسب الدولة التي استمرت إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى عام 1919م . شهدت سنة مولده غزو المغول بقيادة هولاكو لبغداد وسقوط الخلافة العباسية.

تولى الحكم عام 687 هـ ودام حكمه من عام 1299 إلى 1324 بعد وفاة أبيه أرطغرل بتأييد من الأمير علاء الدين السلجوقي.

2 – أعماله

لقد تعاقب على إمارة السلطنة العثمانية قبل أن تعلن نفسها خلافة إسلامية سلاطين أقوياء، ويعتبر عثمان بن أرطغرل هو مؤسس الدولة وبانيها، فماذا صنع عثمان :

لقد بدأ عثمان يوسع إمارته فتمكن أن يضم إليه عام 688 هـ قلعة **قره حصا** (القلعة السوداء) أو **أفيون قره حصار**، فسر الملك علاء الدين بهذا كثيراً. فمنحه لقب (**بيك**). والأراضي التي يضمها إليه كافة ، وسمح له بضرب العملة ، وأن يذكر اسمه في خطبة الجمعة.

وفي عام 699 هـ أغارت المغول على إمارة علاء الدين , وقد تمكنوا من قتله، وتولي ابنه غياث الدين مكانه، ثم إن المغول قد قتلوا غياث الدين، ففسح المجال لعثمان إذ لم تعد هناك سلطة أعلى منه توجهه أو يرجع إليها في المهمات ، فبدأ يتوسع ، وإن عجز عن فتح ازميت ، و إزنيق نيقية رغم محاصرتهما ، واتخذ مدينة (يني شهر) أي المدينة الجديدة قاعدة له ، ولقب نفسه **باديشاه آل عثمان**.

واتخذ راية له ، وهي علم تركيا اليوم ، ودعا أمراء الروم في آسيا الصغرى إلى الإسلام، فإن أبوا فعليهم أن يدفعوا الجزية، فإن رفضوا فالحرب هي التي تحكم بينه وبينهم، فخشوا على أملاكهم منه، فاستعانوا بالمغول عليه، وطلبوا منهم أن ينجدوهم ضده، غير أن عثمان قد جهز جيش بإمرة ابنه أورخان غازي الذي قارب الثلاثين من العمر، وسيره لقتال المغول فهزمهم وشتت شملهم . وأكمل الجيش مسيرته واتجه إلى **بورصة** فاستطاع أن يدخلها عام 717 هـ وتعد من الحصون الرومية المهمة في آسيا الصغرى ، وأمن أهلها وأحسن إليهم فدفعوا له ثلاثين ألفاً من عملتهم الذهبية، وأسلم حاكمها (**أفرينوس**) ، فمنحه عثمان لقب بيك ، وأصبح من القادة العثمانيين البارزين. وتوفي عثمان عام 726 هـ، وقد عهد لابنه أورخان بالحكم بعده.

3 - أهم الصفات القيادية في عثمان الأول

1- **الحكمة :** لقد رأى من الحكمة أن يقف مع السلطان علاء الدين ضد النصارى، وساعده في افتتاح جملة من مدن منيعة، وعدة قلاع حصينة، ولذلك نال رتبة الإمارة من السلطان السلجوقي علاء الدين.

2- الإخلاص : عندما لمس سكان الأرضي القريبة من إمارة عثمان إخلاصه للدين تحركوا لمساندته والوقوف معه لتوطيد دعائم دولة إسلامية تقف سداً منيعاً أمام الدولة المعادية للإسلام والمسلمين.

3- الصبر : وظهرت هذه الصفة في شخصيته عندما شرع في فتح الحصون والبلدان، ففتح في سنة 707هـ حصن كته ، وحصن لفكة ، وحصن آق حصار، وحصن قوج حصار. وفي سنة 712هـ فتح حصن كبوه وحصن يكيجه طرا قلوا، وحصن تكرر بيكاري وغيرها، وقد توج فتوحاته هذه بفتح مدينة **بروسة** في عام 717هـ، وذلك بعد حصار صعب وشديد دام عدة سنوات، كان من أصعب ما واجهه عثمان في فتوحاته.

4- الجاذبية الإيمانية : وتظهر هذه الصفة عندما احتك به اقرينوس قائد بروسه واعتنق الإسلام أعطاه السلطان عثمان لقب (بك) وأصبح من قادة الدولة العثمانية البارزين فيما بعد ، وقد تأثر كثير من القادة البيزنطيين بشخصية عثمان ومنهجه الذي سار عليه حتى امتلأت صفوف العثمانيين منهم، بل إن كثيراً من الجماعات الإسلامية انخرطت تحت لواء الدولة العثمانية كجماعة (**غزيا روم**) أي غزاة الروم، وهي جماعة إسلامية كانت ترابط على حدود الروم وتصد هجماتهم عن المسلمين منذ العصر العباسي، وجماعة (**الإخيان**) (أي الإخوان) وهم جماعة من أهل الخير يعينون المسلمين ويستضيفونهم ويصاحبون جيوشهم لخدمة الغزاة ويتولون إقامة المساجد والتكايا والفنادق، وجماعة (**حاجيات روم**) أي حجاج أرض الروم ، وكانت جماعة على فقه بالإسلام ومعرفة دقيقة لتشريعاته، وكان هدفها معاونة المسلمين عموماً والمجاهدين خصوصاً وغير ذلك من الجماعات.

5- عدله : تروى معظم المراجع التركية التي أرخت للعثمانيين أن أرطغرل عهد لابنه عثمان مؤسس الدول العثمانية بولاية القضاء في مدينة قره جه حصار بعد الاستيلاء عليها من البيزنطيين في عام 684هـ، وأن عثمان حكم لبيزنطي نصراني ضد مسلم تركي، فاستغرب البيزنطي وسأل عثمان : كيف تحكم لصالحي وأنا على غير دينك، فأجابه عثمان : بل كيف لا أحكم لصالحك، والله الذي نعبده، يقول لنا : ((إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)) فاهتدى الرجل وقومه إلى الإسلام.

لقد استخدم عثمان العدل مع رعيته وفي البلاد التي فتحها، فلم يعامل القوم المغلوبين بالظلم أو الجوار أو التعسف أو التجبر، أو الطغيان، أو البطش.

6- الوفاء : كان شديد الاهتمام بالوفاء بالعهود ، فعندما اشترط أمير قلعة اولوباد البيزنطية حين استسلم للجيش العثماني، أن لا يمر من فوق الجسر أي عثماني مسلم إلى داخل القلعة التزم بذلك وكذلك من جاء بعده.

7- التجرد : فلم تكن أعماله وفتوحاته من أجل مصالح اقتصادية أو عسكرية أو غير ذلك ، بل كان فرصة تبليغ دعوة الله ونشر دينه .

ولذلك وصفه المؤرخ أحمد رفيق بأنه (كان عثمان متديناً للغاية ، وكان يعلم أن نشر الإسلام وتعميمه واجب مقدس وكان مالكاً لفكر سياسي واسع متين، ولم يؤسس عثمان دولته حباً في السلطة وإنما حباً في نشر الإسلام).

ويقول مصر أوغلو : " لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيماناً عميقاً بأن وظيفته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، وقد كان مندفعاً بكل حواسه وقواه نحو تحقيق هذا الهدف.

لقد كانت شخصية عثمان متزنة وخلابة بسبب إيمانه العظيم بالله واليوم الآخر، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته، ولا سلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقاً لتأييد الله وعونه، ولذلك أكرمه الله بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة، فجعل له مكنة وقدرة على التصرف في آسيا الصغرى من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار، لقد كانت رعاية الله له عظيمة ولذلك فتح له باب التوفيق وحقق ما تطلع إليه من أهداف وغاية سامية.

4 - الدستور الذي سار عليه العثمانيون

كانت حياة الأمير عثمان جهاداً ودعوة في سبيل الله، وكان علماء الدين يحيطون بالأمير ويشرفون على التخطيط الإداري والتنفيذ الشرعي في الإمارة، ولقد حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد، يقول عثمان في وصيته :

[*يا بني : إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين، وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً..*

يا بني : أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود، ولا يغرك الشيطان بجندك وبمالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة.. يا بني : إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء الله رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضات الله جل جلاله..

يا بنى : لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة الحكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا ونموت، وهذا يا ولدي ما أنت له أهل .

واعلم يا بني، أن نشر الإسلام، وهداية الناس إليه، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم، أمانة في عنقك سيسألك الله عز وجل عنها .

يا بني، أنني انتقل إلى جوار ربي، وأنا فخور بك بأنك ستكون عادلاً في الرعية، مجاهداً في سبيل الله، لنشر دين الإسلام..

يا بني، أوصيك بعلماء الأمة، أدم رعايتهم، وأكثر من تبجيلهم، وانزل على مشورتهم، فانهم لا يأمرون إلا بخير..

يا بني، إياك أن تفعل أمراً لا يرضى الله عز وجل، وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة، فانهم سيدلونك على الخير.. واعلم يا بني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله ، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله، وأننا لسنا طلاب جاه ولا دنيا .

يا بني: ليس في الدنيا أحد لا يخضع رقبته للموت ، وقد اقترب أجلي بأمر الله جل جلاله أسلمك هذه الدولة وأستودعك المولى عز وجل، اعدل في جميع شؤونك]

وفي التاريخ العثماني عبارات أخرى من وصية عثمان تقول:

(وصيتي لأبنائي وأصدقائي، أديموا علو الدين الإسلامي الجليل بإدامة الجهاد في سبيل الله. أمسكوا راية الإسلام الشريفة في الأعلى بأكمل جهاد. اخدموا الإسلام دائما، لأن الله عز وجل قد وظف عبداً ضعيفاً مثلي لفتح البلدان، اذهبوا بكلمة التوحيد إلى أقصى البلدان بجهادكم في سبيل الله ومن انحرف من سلالتي عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول الأعظم يوم المحشر....).

لقد كانت هذه الوصية منهجاً سار عليه العثمانيون، فاهتموا بالعلم وبالمؤسسات العلمية ، وبالجيش والمؤسسات العسكرية ، وبالعلماء واحترامهم ، وبالجهاد الذي أوصل فتوحاً إلى أقصى مكان وصلت إليه راية جيش مسلم ، وبالإمارة وبالحضارة.

ونستطيع أن نستخرج الدعائم والقواعد والأسس التي قامت الدولة العثمانية من خلال تلك الوصية.

4 - أورخان غازي بن عثمان الأول

1 - تقديم :

السلطان أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل ثاني سلاطين الدولة العثمانية ، (680 هـ / 6 فبراير 1281 م - 761 هـ / مارس 1361 م) خلف والده عثمان بن أرطغرل 1 محرم عام 627 هـ/(1324 - 1359 م) وعمره ستة وثلاثون عاماً وقد اعتمد على أعوان أقوياء لوضع القوانين وسن الأنظمة أبرزهم :

أخوه الأمير **علاء الدين** الذي نصبه وزيراً له وكذلك **علاء الدين بن الحاج كمال الدين , وقرة خليل جاندارلي** وفي عهده نقلت عاصمة الدولة العثمانية من **اسكي شهر** إلى **بورصة** كما تم سك أول نقد عثماني , وتمكن من انتزاع (أزمير) و(أنقرة) وامتلك (قراصي) وبرغمة ثم حاصر سمندره وإيدوس واستولى عليهما وخاض معركة بيليكانون ضد البيزنطيين وانتصر عليهم وقد دامت فترة حكمه خمسة وثلاثين عاماً.

وعندما زار الرحَّالة المعروف " **ابن بطوطة** " بلاد الأناضول في فترة حكم السلطان أورخان وقابله هناك، قال عنه :

*« إنه أكبر **ملوك التركمان** ، وأكثرهم مالا وبلادا وعسكرا ، وإن له من الحصون ما يقارب مائة حصن ، يتفقدها ويقيم بكل حصن أياما لإصلاح شؤونه .»*

2 – عائلته

خلف سبعة أولاد هم : سليمان باشا وقد توفي في حياة أبيه ، **مراد بك** (مراد الأول الذي خلف أباه) ، إبراهيم بك ، فاطمة سلطانة ، خليل بك، سلطان بك وقاسم بك.

3 – أعماله

أرسله والده لحصار مدينة " بورصة " (مدينة في آسيا الصغرى) ، فحاصر أورخان القلاع المحيطة بها، وظل محاصرا لها قرابة عشر سنوات، ولما تأكد حاكمها أنها أصبحت في قبضة أورخان سلَّمها إليه، فدخلها دون قتال سنة (726 هـ، 1325 م)، ولم يتعرض أورخان لأهلها بسوء مما جعل حاكمها يعلن إسلامه ، فمنحه أورخان لقب "بك" .

في المراحل الأولى من حكمه، ركز أورخان طاقاته على قهر معظم شمال غرب الأناضول. وكانت غالبية هذه المناطق تحت الحكم البيزنطي وفاز بمعركته الأولي في معركة **بيليكانون**

و أهم عمل قام به هو تأسيس جيش الإنكشارية الذي ساعد الدولة العثمانية في استمرار فتوحتها لـ 200 عام كما حرص على تحقيق بشارة الرسول صلى الله عليه وسلم في فتح القسطنطينية ووضع خطة إستراتيجية تهدف إلى محاصرة العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق في آن واحد ولتحقيق ذلك أرسل ابنه وولي عهده سليمان لعبور مضيق الدردنيل والاستيلاء على بعض المواقع في الناحية الغربية.

و في عام 758هـ اجتاز سليمان مضيق الدردنيل ليلا مع أربعين رجلا من فرسان الإسلام ولما أدركوا الضفة الغربية استولوا على الزوارق الرومية هناك وعادوا بها إلى الضفة الشرقية إذ لم يكن للعثمانين أسطول حينذاك حيث لا تزال دولتهم في بداية تأسيسها

وفي الضفة الشرقية أمر سليمان جنوده أن يركبوا الزوارق حيث تنقلهم إلى الشاطئ الأوروبي حيث فتحوا قلعة ترنب وغاليبولي التي فيها قلعة جنا قلعة وأبسالا ورودستو وكلها تقع على مضيق الدردنيل من الجنوب إلى الشمال وبهذا خطى السلطان خطوة كبيرة استفاد بها من جاء بعده في فتح القسطنطينية.

4 - سياسة أورخان الداخلية والخارجية

اهتم أورخان بتوطيد أركان الدولته وتولى الأصلاحية والعمرانية ونظم شؤون الإدارة وقوى الجيش وبنى المساجد وأنشأ المعاهد العلمية وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمون وكانوا يحظون بقدر كبير من الاحترام في الدولة وكانت كل قرية بها كلياتها التي تعلم النحو والتراكيب اللغوية والمنطق والميتافزيقا وغيرها.

و قد أمضى أورخان بعد استيلائه على إمارة **قرة سي** من الروم وذلك سنة 1336 م عشرين سنة دون أن يقوم بأي حروب بل قضاها في صقل النظم المدنية والعسكرية التي أوجدتها الدولة وفي تعزيز الأمن الداخلي وبناء المساجد ورصد الأوقاف عليها وإقامة المنشآت العامة الشاسعة.

وما أن أتم أورخان البناء الداخلي حتى حدث صراع على الحكم داخل الدولة البيزنطية وطلب الإمبراطور **كونتاكوزينوس** مساعدة السلطان أورخان ضد خصمه فأرسل قوات من العثمانيين لتوطيد النفوذ العثماني في أوروبا وفي عام 1358 م أصاب زلزال مدن **تراقيا** فإنهارت أسوار غاليبولي وهجرها

أهلها مما سهل على العثمانين دخولها وما لبثت غاليبولي أن أصبحت أول قاعدة عثمانية في أوروبا ومنها انطلقت الحملات الأولى التي توجت في النهاية بالاستيلاء على كامل جزيرة البلقان.

5 - العوامل التي ساعدت السلطان أورخان في تحقيق أهدافه

* استفادة أورخان من جهود والده عثمان ووجود الإمكانيات المادية والمعنوية التي ساعدت على فتح الأراضي البيزنطية في الأناضول.
* كان العثمانيون يتميزون في المواجهة الحربية التي تمت بينهم وبين الشعوب البلقانية بوحدة الصف ووحدة الهدف ووحدة المذهب الديني وهو المذهب السني.
* التفكك السياسي والانحلال الدين والاجتماعي الذي أصاب الدولة البيزنطية وهذا سهل ضم أقاليم هذه الدولة إلى العثمانيين.
* ضعف الجبهة المسيحية نتيجة لعدم الثقة بين السلطات الحاكمة في الدولة البيزنطية وبلغاريا وبلاد الصرب والمجر ولذلك تعذر في معظم الأحيان تنسيق الخطط السياسية والعسكرية للوقوف ضد العثمانيين.
* الخلاف الديني بين روما والقسطنطينية أي بين الكاثوليكية والأرثوذكسية.
* ظهور النظام العسكري الجديد على أسس عقائدية ومنهجية تربوية وأهداف ربانية وأشرف عليه خيرة قادة العثمانيين..

5 - مراد الأول ابن أورخان غازي

1 - تقديم

السلطان مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل وأمه الأميرة البيزنطية هيلين وهي ذات أصول يونانية ثالث سلاطين الدولة العثمانية، تولى الحكم بعد وفاة أبيه السلطان أورخان سنة 1359م، وكان عمره 36عاما وقتها، واستمر حكمه 31 سنة (1359 - 1389). استولى على مدينة أدرنة عام 1362م وجعلها عاصمته، وهزم التحالف البيزنطي-البلغاري في معركة ماريتزا 1363م وفتح بلاد الصرب بعد معركة قوصوة 1389م وفيها استشهد وخلفه ابنه السلطان بايزيد الأول.

2 - تنظيم السلطنة العثمانية

ولد السلطان مراد الأول عام 726 هـ الموافق عام 1326 توفي (15 يونيو 1361)، وهو العام الذي تولى فيه والده الحكم. وإليه يرجع الفضل بالنقلة النوعية من دويلة عثمانية قبلية إلى سلطنة قوية وتسمى بالسلطان عام 1383 م. أنشأ نظام الديوان للجند والفرسان السباهي. وأنشأ نظام مقاطعتين هما الروملي والأناضول.

3 - بداية عهده وأول فتوحاته

حاول أمير دولة القرمان (علاء الدين) في أنقرة أن يعد جيشا مكونا من جيوش الأمراء المستقلين في آسيا الصغرى لقتال العثمانيين لكنه فوجئ بجيش مراد الأول يحيط بمدينة أنقرة فاضطر لعقد صلح معه يتنازل فيه عن أنقرة. كما زوجه ابنته.

استولى على مدينة **أدرنة** واستغل موقعها الفريد بوقوعها على ثلاثة أنهر وتحصيناتها العسكرية وقربها من مجريات العمليات العسكرية بجعلها عاصمة لسلطنته فبنى فيها دور العلم والمساجد لتنشئة الجيل القادم من العسكريين والقضاة ورجال الدولة المهرة، وكانت أدرنة ثان أهم مدينة بيزنطية بعد القسطنطينية، ثم فتح فيلبة فصارت القسطنطينية محاطة بالعثمانيين واضطر إمبراطورها لدفع الجزية، وبعدها حاول الأمراء الأوروبيون الاستنجاد بالبابا وبملوك أوروبا الغربية ضد المسلمين فلبى البابا النداء وبعث لملوك أوروبا عامة يطالبهم بشن حملة صليبية جديدة ولكن ملك الصرب لم يتوقع الدعم السريع فاستنهض الأمراء المجاورين له وهم أمراء البوسنة والأفلاق (جنوبي رومانيا) وعدد من فرسان المجر واتجهوا نحو أدرنة أثناء انشغال السلطان مراد الأول ببعض حروبه في آسيا الصغرى غير أن جيش العثمانيين أسرع للقائهم

في هجوم ليلي مفاجئ وهزمهم هزيمة منكرة قرب نهر **ماريتزا**، وغرق أميرا الصرب في مياه النهر خلال فرارهما ونجا ملك المجر من الموت بأعجوبة، وكانت هذه المعركة حاسمة حيث ضمنت للإنكشارية لفتح **مقدونيا**.

قام السلطان مراد بتزويج ابنه بايزيد الأول من ابنة أمير كرميان لعقد نوع من الحلف بين الدولتين يستقوي به على أعدائه.

3 – 1 - ضم بلغاريا

أغار الوزير **ديمور طاش باشا** على الصرب والبلغار لتأخرهم في دفع الجزية المتفق عليها، واحتلت صوفيا عام 784 هـ بعد حصار دام ثلاث سنوات وسقطت مدينة **سالونيك** اليونانية الشهيرة ، وحاول أمير البلغار الانضمام لأمير الصرب للهجوم على الدولة أثناء انشغال السلطان في حروبه في الأناضول، ولكن الجيوش العثمانية داهمته واحتلت بعض الأجزاء من بلاده ففر إلى مدينة **نيكوبولي** فهزمه العثمانيون مرة أخرى وأسرته العساكر المسلمة وأخذ السلطان نصف بلاده ، وأعطي أميرها أخير حكما شبه مستقل على النصف الآخر وهكذا خسرت بلغاريا استقلالها عمليا.

3 – 2 - فتح الصرب وقهر تمرد ابن السلطان

تمرد عليه ابنه **ساوجي** بالاتفاق مع ابن إمبراطور القسطنطينية فأرسل إلى ابنه جيشا فقتله وقتل ابن الإمبراطور البيزنطي أيضا.

كان السلطان مراد يتوغل في بلاد البلقان بنفسه فحاول **لازار** ملك الصرب الانضمام للألبانيين ومحاربة العثمانيين فأدركه الجيش قبل وصوله إلى مبتغاه في سهل قوصوه (**كوسوفو**) ، فدارت معركة عظيمة الأهوال بين الطرفين وانحاز صهر لازار إلى جانب المسلمين بفرقته المؤلفة من عشرة آلاف مقاتل فانهزم الصربيون ووقع ملكهم أسيرا بأيدى المسلمين، فقتلوه انتقاما لأفعاله الخسيسة بأسراه من المسلمين، وظل صدى هذه المعركة يتردد في أوروبا لفترة وفقدت الصرب استقلالها،

4 - تنظيم فرق الخيالة (السباهي)

قام الوزير **ديمور طاش باشا** بتنظيم فرق الخيالة التي عرفت باسم **السباهي** (وتعني الفرسان)، واختار الرايات الحمر رمزا لهم، وابتدع نظاما إقطاعيا بحيث يقطع كل فارس من السباهي أراض زراعية يزرعها أصحابها الأصليون ويدفعون للفارس جزءا من الخراج شريطة أن يقيم الفارس في إقطاعه وأن يجهز عددا من الجند على نفقته الخاصة عند الحروب، وكان حجم الأراضي وعدد الجند يحدد برتبة الفارس، وكان لخيالة السباهي دور كبير في العقيدة العسكرية العثمانية في الحروب التي تلت تشكيلهم.

5 - أخلاقه وإيمانه الإسلامي

لم يكن مراد الأول يحارب لسفك الدماء أو شهوة في الملك ومما دلل على ذلك أنه عندما أسر أمير البلغار لم يقم السلطان مراد بإذلاله بل صرف له راتبا وجعله حاكما شبه مستقل على النصف الآخر من بلغاريا، كما عفا عن أمير القرمان الذي كان قد هادن السلطان من قبل، حيث اقتاده ديمور طاش باشا أسيرا بعد أن أعد العدة ليثور على العثمانيين فأعاد له كل بلاده شريطة أن يدفع الجزية محترما مركز علاء الدين كوالد زوجته.

كان يتضرع إلى الله بالدعاء ويؤمن بأن النصر من عنده وكان مما دعا به قبل معركة قوصوه :

(يا الله يا رحيم يا رب السموات يا من تتقبل الدعاء لا تخزني يا رحمن يا رحيم استجب دعاء عبدك الفقير هذه المرة أرسل السماء علينا مدراراً وبدد سحب الظلام فنرى عدونا وما نحن سوى عبيدك المذنبين إنك الوهاب ونحن فقراؤك، ما أنا سوى عبدك الفقير المتضرع، وأنت العليم يا علام الغيوب والأسرار وما تخفي الصدور ليس لي من غاية لنفسي ولا مصلحة ولا يحملني طلب المغنم فأنا لا أطمع إلا في رضاك يا الله يا عليم يا موجود في كل الوجود أفديك بروحي فتقبل رجائي ولا تجعل المسلمين يبؤ بهم الخذلان أمام العدو، يا الله يا أرحم الراحمين لا تجعلني سبباً في موتهم، بل أجعلهم المنتصرين، إن روحي أبذلها فداء لك يا رب إني وددت ولازلت دوماً أبغي الاستشهاد...)

كان من كلماته الأخيرة قبل وفاته :

(لا يسعني حين رحيلي إلا أن أشكر الله إنه علام الغيوب المتقبل دعاء الفقير، أشهد إن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو، لقد أوشكت حياتي على النهاية ورأيت نصر جند الإسلام. أطيعوا ابني يزيد، ولا تعذبوا الأسرى ولا تؤذونهم ولا تسلبوهم وأودعكم منذ هذه اللحظة وأودع جيشنا الظافر العظيم إلى رحمة الله فهو الذي يحفظ دولتنا من كل سوء)

6 – وفاته

قُتل أثناء تفقُّده ساحة معركة قوصوه يوم 19 جمادى الآخرة 791هـ، المُوافق فيه 15 يونيو 1389م. قتله أحد نبلاء الصرب يدعى **ميلوش كابيلوفج** بعد أن أدعى أنه يريد أشهار إسلامه على يد السلطان مراد وخبأ خنجره بداخل ملابسه وقام اليه وكأنه يريد تقبيل يده. وسدد ضربه في صدر السلطان .

وفي رواية أخرى كان السلطان مراد في نهاية المعركة يتفقد القتلى فقام إليه جندي صربي جريح من بين القتلى وطعنه بخنجر فأرداه قتيلا وقتل الجنود العثمانيون القاتل الصربي مباشرة.

6 - بايزيد الأول ابن مراد الأول (الصاعقة)

1 - تقديم :

السلطان بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل ، (ولد عام 1345 وتوفي 8 مارس 1403، رابع سلاطين الدولة العثمانية حكم بين عام 1389 و1402. اعتلى العرش بعد مقتل أبيه السلطان مراد الأول، ومباشرة قضى على أخيه **يعقوب** خنقًا ليمنعه من القيام بانقلاب عليه . لقب باسم **يلدرم** أي **الصاعقة** نظرًا لحركته السريعة بجيوشه وتنقله بين عدة جهات بمنتهى السرعة وخلفه أبنه السلطان محمد الأول جلبي.

2 – نشأته

كان في غاية الشجاعة والحماسة للجهاد في سبيل الله غير أنه امتاز عمن سبقوه بسرعة الحركة وقوة الانقضاض على أعدائه حتى لقب بالصاعقة أو يلدرم باللغة التركية ، وكان مجرد ذكر اسم يلدرم يوقع الرعب في نفوس الأوروبين عمومًا وأهل القسطنطينية خصوصاً. تولى بايزيد الحكم بعد استشهاد أبيه مراد الأول في معركة كوسوفو سنة 791 هـ.

3 – فتوحاته

كانت منطقة الأناضول أو آسيا الصغرى دائماً هي منطقة الانطلاق لأى سلطان جديد ، ذلك لأن هذه المنطقة منقسمة على نفسها لعدة إمارات صغيرة يحكمها أمراء متغلبون على رقاب المسلمين فيها، وقد سعى السلطان مراد الأول لتوحيد الأناضول بعدة وسائل، ولم يكد ينجح في ذلك حتى انفرط العقد مرة أخرى، ثار هؤلاء الأمراء على العثمانيين وسببوا لهم الكثير من المتاعب، وكانت ثوراتهم المتكررة سبباً لصرف جهود العثمانيين عن حرب أوروبا، مما جعل الأوروبيين يلتقطون أنفسهم ويشكلوا تحالفات صليبية متكررة لمحاربة العثمانيين ، وفي سنة 793 هـ استطاع بايزيد أن يضم إمارات منتشا، آيدين وصاروخان دون قتال بناءً على رغبة سكان هذه الإمارات ، وقد لجأ حكام هذه الإمارات إلى إمارة اصفنديار، كما تنازل له أمير القرمان علاء الدين عن جزء من أملاكه بدلاً من ضياعها كلها، وقد أشتهر علاء الدين هذا بالغدر والخيانة وأخبار جرائمه أيام السلطان مراد الأول مشهورة، لذلك فلم يكن مستغرباً على هذا الرجل أن يثور مرة أخرى أيام بايزيد مستغلاً انشغاله بالجهاد في أوروبا حيث قام علاء الدين بالهجوم على الحاميات العثمانية وأسر كبار قادة العثمانيين واسترد بعض الأراضى، فعاد بايزيد بسرعته المعهودة وانقض كالصاعقة على علاء الدين وفرق شمله وضم إمارة القرمان كلها للدولة العثمانية وتبعتها إمارة سيواس وتوقات، ثم شق بايزيد طريقه إلى إمارة اصفنديار التي تحولت لملجأ للأمراء الفارين، وطلب بايزيد من أمير اصفنديار تسليم هؤلاء الثوار فأبى فانقض عليه بايزيد وضم بلاده إليه، والتجأ الأمير ومن معه إلى تيمورلنك.

4 - غزوه لأوربا

4 – 1 - موقفه من الصرب

بعدما فرغ بايزيد من ترتيب الشأن الداخلي والقضاء على ثورات الأناضول، اتجه إلى ناحية أوروبا وبدأ أولى خطواته هناك بإقامة حلف ودي مع الصرب ، حيث أصبت صربيا بمنزلة الحاجز القوى بين الدولة العثمانية وإمبراطورية المجر التي كانت وقتها أقوى الممالك الأوروبية وتلقب بحامية الصليب، وكانت علاقة المجر والصرب متوترة،

عين بايزيد "**اصطفان بن لازار**" ملكًا على الصرب عام 792 هـ مقابل دفع جزية سنوية وتقديم عدد من المقاتلين ينضمون للجيوش العثمانية وقت الحرب، كما أن بايزيد تزوج " **أوليفير** " أخت أصطفان.

كان بايزيد يهدف من محالفته للصرب إلى التفرغ للوسط الأوروبي والقسطنطينية لذلك فقد قام بتوجيه ضربة خاطفة إلى بلغاريا وفتحها سنة 797 هـ ، وأصبحت بلغاريا من وقتها إمارة تابعة للدولة العثمانية ، وفرض بايزيد على إمبراطور بيزنطة **مانويل** عدة شروط منها :

* إنشاء محكمة إسلامية وتعيين قضاة مسلمين بها للفصل في شؤون الرعية المسلمة بها.
* بناء مسجد كبير بها والدعاء فيه للخليفة العباسي ثم السلطان بايزيد في خطبة الجمعة.
* تخصيص 700 منزل داخل المدينة للجالية المسلمة بها.
* زيادة الجزية المفروضة على الدولة البيزنطية.

5 - معركة نيقوبولس

كان سقوط بلغاريا وقبول مانويل للشروط السابقة بمثابة جرس الإنذار القوى لكل الأوروبيين خاصة **ملك المجر سيجسموند , والبابا بونيفاس التاسع** ، فاتفق عزم الرجلين على تكوين حلف صليبى جديد لمواجهة العثمانيين ، واجتهد سيجسموند في تضخيم حجم هذا الحلف وتدويله ، باشتراك أكبر قدر ممكن من الجنسيات المختلفة، وبالفعل جاء الحلف ضخماً يضم مائة وعشرين ألف مقاتل من مختلف الجنسيات مثل : ألمانيا، فرنسا، إنجلترا، إسكتلندا، سويسرا وإيطاليا، ويقود الحلف سيجسموند ملك المجر.

تحركت الحملة الصليبية سنة 800 هجرية، ولكن بوادر الوهن والفشل قد ظهرت على الحملة مبكراً، ذلك لأن سيجسموند قائد الحملة كان مغروراً لايستمع لنصيحة أحد من باقى قواد الحملة، وحدث خلاف شديد على استراتيجية القتال، فسيجسموند يؤثر الانتظار حتى تأتى القوات العثمانية، وباقى القواد يرون المبادرة بالهجوم، وبالفعل لم يستمعوا لرأى سيجسموند وانحدروا مع نهر الدانوب حتى وصلوا إلى مدينة **نيكوبولس** في شمال البلقان.

لم يكد الصليبيون يدخلون المدينة حتى ظهر بايزيد ومعه مائة ألف مقاتل، أسفرت معركة نيكوبوليس عن نصر للعثمانيين كان له الأثر العميق في العالم الإسلامي، ووقعت بشارة الفتح في كل مكان مسلم ، وأرسل بايزيد إلى كبار حكام العالم الإسلامي يبشرهم بالفتح وبالعديد من أسرى النصارى كهدايا وسبايا لهؤلاء الحكام باعتبارهم دليلاً مادياً على روعة النصر،

وأرسل بايزيد إلى الخليفة العباسي بالقاهرة يطلب منه الإقرار على لقب سلطان الروم الذي اتخذه بايزيد دليلاً على مواصلة الجهاد ضد أوروبا حتى يفتحها كلها، ووافق الخليفة على ذلك، وانساح كثير من المسلمين إلى بلاد الأناضول حيث الدولة العثمانية القوية المظفرة.

قد اقسم السلطان بايزيد علي انه لن يتراجع عن غزو أوروبا قبل أن يطعم فرسه الشعير في مذبح القديس بطرس في الفاتيكان... كاد ان يفعل ذلك لولا هجوم تيمور لنك علي مملكته من الشرق

وانتقل إلى الأناضول عام 793 هـ، فضم إمارة " منتشا " وإمارة " آيدين " وإمارة "صاروخان" دون قتال. تنازل له أمير دولة القرمان عن جزء من أملاكه كى يبقى له الجزء الباقى كما فتح مدينة **الأشهر** وهي آخر مدينة كانت باقية للروم في غرب بلاد الأناضول. حاصر القسطنطينية عام 794 هـ وتركها محاصرة واتجه بجيش إلى الأفلاق (جنوب رومانيا) وعقد معاهدة مع حاكمها تقضى بسيادة العثمانيين وبدفع جزية سنوية إلى السلطان. تمرد عليه أمير دولة القرمان علاء الدين فواجهه وهزمه وأخذه وولديه أسرى.

6 - معركة أنقرة

هزم بايزيد الأول أمام جيش تيمورلنك في معركة أنقرة يوم 19 ذو الحجة 804 هـ وأسر هو وولده موسى وحاول الفرار من الأسر ثلاث مرات وفشل فيها كلها، وتوفى في الأسر في 15 شعبان عام 805 هـ وسمح تيمورلنك بنقل جثمانه ليدفن في بورصة، وجاءت وفاته إيذانًا ببدء ما عرف لاحقًا باسم عهد الفترة الذي شهد حربًا أهلية بين أبنائه الأربعة على عرش السلطنة.

7 - محمد الأول أبن بايزيد الأول (محمد جلبي)

1 - تقديم :

هو محمد الأول بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان بن عثمان بن أرطغرل

ولد السلطان محمد الاول عام (781 هـ / 1379م) ، وتولى أمر الأمة بعد وفاة والده بايزيد وعرف في التاريخ (بمحمد جلبي)

كان متوسط القامة ، مستدير الوجه، متلاصق الحاجبين، ابيض البشرة ، أحمر الخدين، واسع الصدر، صاحب بدن قوي، في غاية النشاط وجسوراً ، يمارس المصارعة، ويسحب أقوى أوتار الأقواس . اشترك اثناء حكمه في 24 حرباً واصيب بأربعين جرحا

2 - حروبه الداخلية :

استطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على الحرب الأهلية بسبب ما أوتي من الحزم والكياسة وبعد النظر وتغلب على أخوته واحداً واحداً حتى خلص له الأمر وتفرد بالسلطان وقضي سني حكمه الثماني في إعادة بناء الدولة وتوطيد اركانها ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الثاني للدولة العثمانية.

ومما يؤثر عن هذا السلطان أنه استعمل الحزم مع الحلم في معاملة من قهرهم ممن شق عصا طاعة الدولة فإنه لما قهر أمير بلاد القرمان وكان قد استقل عفا عنه بعد أن أقسم له على القرآن الشريف بأن لا يخون الدولة فيما بعد وعفا عنه ثانية بعد أن حنث في يمينه

وكانت سياسته تهدف الى إعادة بناء الدولة وتقويتها من الداخل ولذلك سالم امبراطور القسطنطينية وحالفه وأعاد إليه بعض المدن على شاطئ البحر الاسود وفي تساليا وصالح البندقية بعد هزيمة اسطوله أمام كليتبولي وقمع الفتن والثورات في آسيا وأوروبا واخضع بعض الامارات الآسيوية التي أحياها تيمورلنك ودانت له بالطاعة والولاء.

وظهر في زمن السلطان محمد شخص يسمى **بدرالدين محمود بن إسرائيل** انتحل صفة علماء الدين الاسلامي وكان في جيش **موسى** اخو السلطان محمد وتولى منصب قاضي العسكر أعلى مناصب الدولة العثمانية وقتئذ ، وكان هذا القاضي قد احتضنه موسى بن بايزيد . ثم لما قتل محمداً أخاه موسى حبس الشيخ مع أهله وعياله ببلدة **أزنيق**

وفي أزنيق - وهي مدينة في تركيا - بدأ الشيخ بدر الدين محمود بن إسرائيل يدعو الى مذهبه الفاسد، فكان يدعو الى المساواة في الأموال ، والأمتعة ، والأديان ، ولايفرق بين المسلم وغير المسلم في العقيدة ، فالناس أخوة مهما اختلفت عقائدهم وأديانهم وهو ماتدعو إليه الماسونية اليهودية ،

وانضم الى هذه الدعوة الباطلة كثير من الاغبياء والجهلة وأصحاب الأغراض الدنيئة وأصبح للمفسد بدرالدين تلاميذ يدعون الى منهجه ومذهبه ومن أشهر هؤلاء الدعاة شخص يسمى (**بير قليجة مصطفى**) وآخر يقال إنه من أصل يهودي هو (**طوره كمال**) واليهود دائماً خلف المؤامرات من زمن النبي صلى الله عليه وسلم وحتى عصرنا هذا.

وشاع أمر هذا المذهب الفاسد وكثر أتباعه وتصدى السلطان محمد جلبي لهذا المذهب الباطل وأرسل أحد قواده على رأس جيش كبير لمحاربة بدر الدين وللأسف قتل القائد **سيسمان** الذي ارسله محمد جلبي على يد الخائن (بير قليجة) وهزم جيشه وأعد السلطان محمد جلبي جيشاً آخر بقيادة وزيره الأول (**بايزيد باشا**) ، فحارب (بير قليجة) وأنتصر عليه في موقعة (**قره بورنو**) وبعدها أقيم حد الحرابة على (بير قليجة مصطفى) امتثالاً لأمر الله الذي يقول : { إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في

الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم } سورة المائدة : آية 33 .

واستمر الشيخ بدرالدين في غيه وظن أنه سيتمكن من البلاد بسبب ماتمر به من حالة تمزق كامل وفوضى ضربت بأطنابها في كل ارجاء البلاد وكان بدر الدين يقول :

(إني سأثور من أجل أمتلاك العالم ، وباعتقاداتي ذات الاشارات الغيبية سأقسم العالم بين مريدي بقوة العلم وسر التوحيد ، وسأبطل قوانين أهل التقليد ومذهبهم، وسأحلل - باتساع مشاربي - بعض المحرما)

وكان أمير الأفلاق (في رومانيا) يدعم هذا المنشق وهذا المبتدع وهذا الزنديق مادياً وعسكرياً وكان السلطان محمد جلبي لهذه الدعوة الفاسدة بالمرصاد وضيق عليها الخناق ، حتى اضطر بدر الدين أن يعبر إلى منطقة دلي أورمان (في بلغاريا الآن)

يقول محمد شرف الدين في مسألة توجه الشيخ بدر الدين إلى دلي أورمان :

(إن هذه المنطقة وما يحيط بها من مناطق هي مأوى الباطنية ، وهي منطقة تعج بأتباع ثورة بابا إسحق التي قامت ضد الدولة العثمانية في منتصف القرن السابع الهجري ، وأن توجه الشيخ بدر الدين إلى هذا المكان وتمكنه من جمع الآلاف المؤلفة من المؤيدين له ولحركته من هذه المناطق لفيه الدلالة الكافية لاختيار الشيخ هذا المكان بالذات).

وفي دلي أورمان بدأت المعونات الأوربية تفد إلى الشيخ ، واتسع نطاق الثورة ضد السلطان العثماني محمد الأول ، ووصلت فلولا المنشقين أعداء الإسلام الصحيح إلى مابين 7 - 8 آلاف مقاتل .

وكان السلطان محمد الأول يتابع الأمور بحذر ويقظة ولم يكن غافلاً عما يفعله الثوار وقام السلطان بنفسه لحرب الشيخ بدر الدين وكان هذا على رأس جيش عظيم في دلي أورمان

.اتخذ السلطان محمد من **سيروز** (في اليونان الآن) مركزاً لقيادته . أرسل السلطان قواته إلى الثوار فهزمتهم، وتوارى زعيمهم بدر الدين الثائر بعد هزيمته، في منطقة دلي أورمان، فراراً من السلطان .

واستطاعت مخابرات السلطان محمد الأول أن تخترق صفوف الثوار وأن تكيد مكيدة محكمة وقع على أثرها زعيم الثوار المبتدع بدر الدين في الأسر .

وعندما قابل السلطان محمد الأول بدر الدين قال له : مالي أرى وجهك قد اصفر؟ أجابه بدر الدين : إن الشمس يا مولاي ، تصفر عندما تقترب من الغروب .

وقام علماء الدولة بمناظرة علمية حرة مع بدر الدين ثم أقيمت محكمة شرعية، وأصدر حكم الإعدام بناء على فتوى العلماء التي استندت إلى توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم *: " من أتاكم وأمركم جميعاً على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه*

." إن المذهب الفاسد الذي كان يدعو إليه " بدر الدين " هو نفس مذهب الماسونية اليهودية المعاصرة) القرن الخامس عشر الهجري / العشرون الميلادي (وهو يقوم على إلغاء الحواجز بين أصحاب العقيدة الإسلامية الصحيحة وأصحاب العقائد الفاسدة، إذ إنه يقول بالأخوة بين المسلمين واليهود والنصارى وعباد البقر والشيوعيين، وهذا يخالف عقيدة الإسلام التي تؤكد أنه لا أخوة بين المسلمين وبين غيرهم من أصحاب العقائد الفاسدة، لأنه كيف يكون هناك أخوة بين من يحاربون الله ورسوله، وبين المؤمنين الموحدين .

كان السلطان محمد الأول محباً للشعر والأدب والفنون وقيل هو أول سلطان عثماني أرسل الهدية السنوية إلى أمير مكة التي يطلق عليها اسم الصرة ، وهي عبارة على قدر معين من النقود يرسل إلى الأمير لتوزيعه على فقراء مكة والمدينة .

وقد أحب الشعب العثماني السلطان محمد الأول وأطلقوا عليه لقب **بهلوان** (ومعناها البطل (وذلك بسبب نشاطه الجم وشجاعته كما أن أعماله العظيمة، وعبقريته الفذة التي قاد من خلالها الدولة العثمانية الى بر الأمان، كما أن جميل سجاياه وسلوكه وشهامته وحبه للعدل والحق جعل شعبه يحبه ويطلق عليه لقب جلبي ايضاً وهو لقب تشريف وتكريم فيه معنى الشهامة والرجولة.

حقيقة إن بعض حكام آل عثمان قد فاقوه شهرة ، إلا أن بالإمكان اعتباره من أنبل حكام العثمانيين - فقد اعترف المؤرخون الشرقيون واليونانيون بإنسانيته واعتبره المؤرخون العثمانيون بمثابة القبطان الماهر الذي حافظ على قيادة سفينة الدولة العثمانية حين هددتها طوفان الغزوات التترية ، والحروب الداخلية ، والفتن الباطنية .

3 – وفاته :

بعد أن بذل السلطان محمد الأول قصارى جهده في محو آثار الفتن التي مرت بها الدولة العثمانية وشروعه في أجزاء ترتيبات داخلية تضمن عدم حدوث شغب في المستقبل وبينما كان السلطان مشتغلاً بهذه المهمام السليمة شعر بدنو أجله دعى **الباشا بايزيد** وقال له:

(عينت ابني مراد خليفة لي فأطعه وكن صادقاً معه كما كنت معي . اريد منكم ان تأتونني بمراد الآن لانني لا استطيع أن أقوم من الفراش بعد. فان وقع الأمر الألهي قبل مجيئه حذاري ان تعلنوا وفاتي حتى يأتي.(

وفاجأه الموت في سنة 824هـ (1421 م) في مدينة أورنة واسلم روحه لخالقه وعمر 43 سنة.

وخوفاً من حصول مالاتحمد عقباه لو عُلم موت السلطان محمد الأول اتفق وزيراه **ابراهيم وبايزيد** على أخفاء موته على الجند حتى يصل أبنه مراد الثاني فأشاعا أن السلطان مريض وارسلا لابنه فحضر بعد واحد وأربعين يوماً واستلم مقاليد الحكم.

ولقد كان السلطان محمد الأول محباً للسلام والعلم والفقهاء ولذلك نقل عاصمة الدولة من أدرنة (**مدينة الغزاة**) الى بروسة (**مدينة الفقهاء**) وكان على خلق رفيع، وحزم متين ، وحلم فريد ، وسياسة فذة في معاملة الأعداء والأصدقاء.

8 - مراد الثاني ابن محمد الاول

(كُجا سُلطان ' السلطان الكبير)

1 - تقديم

السلطان مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل ، عاش بين عامي (يونيو 1404م في أماسيا - 3 فبراير 1451م في أدرنة)، هو سادس السلاطين العثمانيين من 1421م الي 1451م (باستثناء الفترة من 1444م الي 1446م عندما تولى ابنه محمد الثاني الملك).

نشا و ترعرع في أماسيا، واعتلى العرش بعد وفاة والده محمد الأول، أحب العربية فيعد أول من تعلم ومارس فن الخط العربي من سلاطين العثمانيين ، كما أنه كان ينظم الشعر ويتقنه ، و هو والد السلطان محمد الفاتح.

2 - فترة حكمه

تولى السلطنة بعد وفاة أبيه عام 1421م وكان عمره لايزيد على 18 عاما. فترة حكمه تميزت بحروب طويلة الأمد مع مسيحيي البلقان والإمارات التركية في الأناضول. أراد مراد أن يعيد توحيد أملاك السلطنة في الأناضول والتي كان تيمورلنك قد سلخها عن الدولة العثمانية ، حتى يستطيع التفرغ للتوسع في أوروبا كما كان الحال في عهد السلطان بايزيد الأول.

وافتتح أعماله بإبرام الصلح مع أمير القرمان والاتفاق مع ملك المجر على هدنة خمس سنوات ؛ حتى يتفرغ لإرجاع ما شق عصا الطاعة من ولايات آسيا . لكن حدث ما شغله عن هذا العمل ، وذلك أن **إيمانويل الثاني** إمبراطور القسطنطينية طلب منه أن يتعهد له بعدم محاربته مطلقًا ، وأن يسلمه اثنين من إخوته تأمينًا على نفاذ هذا التعهد ، وهدده بإطلاق سراح عمه **مصطفى بن بايزيد**.

ولما لم يجبه مراد الثاني لطلبه ، أخرج مصطفى من منفاه وأعطاه عشرة مراكب حربية تحت إمرة **دمتريوس لاسكاريس** فأتى بها وحاصر مدينة **جاليبولي** فسلمت إلا القلعة، فتركها مصطفى بعد أن أقام

حولها من الجند ما يكفي لمنع وصول المدد إليها، وسار ببقية جيشه قاصدًا أدرنة ، فخرج الوزير **بايزيد باشا** لمحاربته فتقدَّم مصطفى وخطب في العساكر بإطاعته لأنه أحق بالملك من ابن أخيه ؛ فأطاعته الجيوش وقتلت بايزيد باشا قائدهم، فسار مصطفى بعد ذلك لمقابلة ابن أخيه مراد الثاني الذي كان متحصنًا مع من معه من الجنود خلف نهر صغير. وهناك خان مصطفى بعض قواده ، وتركه أغلب جنوده حتى التزم الهروب إلى مدينة جاليبولي ؛ فسلمه بعض أتباعه إلى ابن أخيه مراد الثاني فأمر بشنقه

وبعد ذلك أراد السلطان مراد الانتقام من **إيمانويل الثاني** الذي أطلق سراح عمه مصطفى ليشغله عن فتح القسطنطينية ؛ فسار إليه بخيله ورجله وحاصر مدينته ثم هاجمها في 21 أغسطس سنة 1422م ، وبعد قتال عنيف رجع العثمانيون بدون أن يتمكنوا من فتحها ، وبعدها رفع عنها الحصار لعصيان أخ له يقال له **مصطفى** ، شق عصاه واستعان على أخيه السلطان مراد ببعض أمراء آسيا الصغرى ، لكن لم تلبث هذه الفتنة أن أخمدت بالقبض على مصطفى وقتله مع كثير من محازبيه ، فوقع الرعب في قلوب من ساعده من الأمراء، وتنازل **أمير قسطموني** عن نصف أملاكه للسلطان ، وزوَّجه ابنته سنة 1423م إظهارًا لإخلاصه وولائه.

وأعاد مراد الثاني إلى أملاك الدولة العثمانية ولايات **آيدين وصاروخان ومنتشا** وغيرها من الإمارات التي أعاد تيمورلنك استقلالها إليها، وكذلك استردَّ **بلاد القرمان** بعد أن قتل أميرها **محمد بك** وعين ابنه إبراهيم واليًا عليها مع بعض امتيازات بشرط أن يتنازل عن إقليم **الحميد** ،

وفي سنة 1428م توفي أمير القرمان عن غير عقب ، وأوصى بما كان باقيًا له من بلاده إلى السلطان مراد، وبذلك استردَّ السلطان مراد الثاني جميع ما فصله تيمورلنك عن الدولة العثمانية من البلاد، وصار في إمكانه التفرغ لإعادة فتح ما استقل من البلاد بأوروبا بعد موت بايزيد الأول ، فابتدأ بأن ألزم ملك المجر بالتوقيع على معاهدة تقضي عليه بالتخلي عما يكون له من البلاد على شاطئ نهر الدانوب الأيمن بحيث يكون هذا النهر فاصلًا بين أملاك الدولة العثمانية و المجر .

ولما رأى أمير الصرب " **جورج برنكوفيتش** " أنه لا يقوى على مقاومة الدولة العثمانية قبل أن يدفع جزية سنوية قدرها خمسون ألف دوكا ذهبًا ويقدم للسلطان فرقة من جنوده للمساعدة وقت الحرب ، وأن يزوجه ابنته **مارا** ، وأن يقطع علاقاته مع ملك المجر، وأن يتنازل أيضًا للدولة العثمانية عن بلدة **كروشيفاتس** الواقعة في وسط بلاد الصرب؛ لتجعلها حصنًا منيعًا تأوي إليه جنودها منعًا لحصول الفتن .

وفي سنة 1430م أعاد السلطان فتح مدينة **سلانيك** التي كان تنازل عنها ملك الروم إلى أهالي البندقية بعد أن حاصرها خمسة عشر يومًا.

وبعد ذلك أراد السلطان مراد أن يفتح ما بقي من بلاد الصرب وبلاد ألبانيا (**الأرنئود** أو **الأرناؤوط**) **والفلاخ** (جزء من رومانيا حاليا) قبل أن يعيد الكرَّة على القسطنطينية حتى لا يكون لها من هذه الولايات نصير، فوجه اهتمامه أولًا إلى بلاد ألبانيا فأطاعه سكان **يانيه** وسكان أغلب باقي البلاد بدون كثير عناء مشترطين عدم التعرض لهم في دينهم ولا عوائدهم ، وألزم **"جان كستريو"** (أمير الجزء الشمالي من بلاد ألبانيا) أن يسلم له أولاده الأربعة رهينة على صدقه وولائه ، ثم ضم أملاكه إليه بعد وفاته سنة 1431م .

وفي سنة 1433م اعترف " **فلاد** " أمير **الفلاخ** ، بسيادة الدولة العثمانية عليه تخلصًا من الحرب التي كان لا يشك في وخامة عاقبتها عليه، لكن لم يكن هذا الخضوع إلا ظاهريًا؛ فإنه ما لبث أن ثار هو وأمير الصرب بناءً على تحريض ملك المجر لهما، فحاربهما السلطان وقهرهما، ثم سار إلى بلاد المجر وخرَّب كثيرًا من بلدانها، وعاد منها في سنة 1438م بسبعين ألف أسير على ما يقال .

وفي السنة التالية عصى **"جورج برنكوفتش"** (أمير الصرب) فكانت عاقبة عصيانه أن فتح السلطان مراد مدينة **سمندرية** وهي مدينة واقعة على نهر **الطونة** تبعد 45 كيلومترًا عن **بلغراد** عاصمة الصرب بعد أن حاصرها ثلاثة أشهر، وفرَّ "برنكوفتش" إلى بلاد المجر محتميًا عند ملكها **"آلبير"**، ثم حاصر السلطان مدينة **بلغراد** عاصمة الصرب مدة ستة شهور، ولم يتمكن من فتحها لشدة دفاع من بها من الجنود.

فتركها وأغار على بلاد ترانسيلفانيا (ومعناها البلاد الواقعة في ما وراء الغابات، أطلق عليها أهالي النمسا هذا الاسم لوجود غابات كثيفة تفصلها عنها) وحاصر مدينة **"هرمان ستاد"** التابعة لملك المجر. وكان حاكم هذا الإقليم **هونياد** (**إيوان دي هونيدوارا**) قائد عموم جيوش المجر، فأتى هذا القائد

الشهير على جناح السرعة للدفاع عنها، وانتصر على العثمانيين وقتل منهم عشرين ألف نفس وقتل قائدهم، وألزم من بقي منهم بالرجوع خلف نهر الدانوب.

ولما بلغ السلطان خبر انهزام جيوشه أرسل إليهم ثمانين ألف مقاتل تحت قيادة **شهاب الدين باشا** فهزمه أيضًا هونياد المجري وأخذه أسيرًا في موقعة هائلة بالقرب من بلدة يقال لها **"وازاج"** سنة 1442م. وبعد ذلك سار القائد المجري إلى بلاد الصرب وتغلب على السلطان مراد نفسه في مدينة **نيش**، واقتفى أثره إلى ما وراء جبال البلقان سنة 1443م، وظهر عليه في ثلاث وقائع أخرى. وأخيرًا أبرم السلطان مراد معهم الصلح على أن يتنازل عن سيادته على بلاد الفلاخ ويردَّ إلى أمير الصرب مدائن سمندرية وألاجه حصار، وأن يهادن المجر مدَّة عشر سنوات، وأمضيت هذه المعاهدة في 13 يوليو سنة 1444م.

3 - تخليه عن الحكم للمرة الاولى :

وعقب ذلك توفي أكبر أولاد السلطان واسمه **"علاء الدين"** ، فحزن عليه والده حزنًا شديدًا وسئم الحياة و اراد أن يتفرغ للعبادة ؛ فتنازل عن الملك لابنه **"محمد الثاني"** (**محمد الفاتح**) البالغ من العمر أربع عشرة سنة ، وسافر هو إلى ولاية **آيدين** للإقامة بعيدًا عن هموم الدنيا وغمومها. لكنه لم يمكث في خلوته بضعة أشهر حتى أتاه خبر غدر المجر وإغارتهم على بلاد البلغار غير مراعين شروط الهدنة اعتمادًا على تغرير الكردينال **"سيزاريني"** (**مندوب البابا**) وتفهيمه لملك المجر أن عدم رعاية الذمة والعهود مع المسلمين لا تعدُّ حنثًا ولا نقضًا. ولما ورد عليه خبر هذه الخيانة ونكث العهد قام بجيشه لمحاربة المجر فوجدهم محاصرين لمدينة **وارنة** الواقعة على البحر الأسود ، وبعد قليل اشتبك القتال بين الجيشين فقتل ملك المجر المدعو **"لادسلاس"** وتفرق الجند بعد ذلك ، ولم تفد شجاعة **هونياد** شيئًا . وفي اليوم التالي هاجم العثمانيون معسكر المجر واحتلوه بعد قتال شديد قتل فيه الكردينال "سيزاريني" سبب هذه الحرب ، وتم للعثمانيين الفوز في 12 نوفمبر سنة 1444 .

4 - تخليه عن الحكم للمرة الثانية

رجع السلطان إلى عزلته ، لكنه لم يلبث فيها هذه المرة أيضًا ؛ لأن عساكر الانكشارية ازدروا بملكهم الفتى محمد الثاني وعصوه ونهبوا مدينة أدرنة عاصمة الدولة، فرجع إليهم السلطان مراد الثاني في أوائل سنة 1445م وأخمد فتنتهم . وخوفًا من رجوعهم إلى إقلاق راحة الدولة أراد أن يشغلهم بالحرب فأغار على بلاد اليونان، وساعده على ذلك تقسيم **إيمانويل الثاني** (ملك الروم) بلاده بين أولاده بأن أعطى مدينة القسطنطينية وضواحيها إلى ابنه حنا ، وبلاد مورة وثيبة وجزءًا من ثيساليا لابنه قسطنطين، وهو آخر ملوك الروم.

ولما علم قسطنطين بعزم السلطان مراد على فتح بلاده حصن برزخ **كورنته** وبنى فيه قلاعًا جعلت اجتيازه غير ممكن، لكن سلط عليه السلطان مدافعه (ذكر المؤرخون أن هذا أوَّل استعمال للمدافع في جيوش الدولة العثمانية)* حتى أحدث فيها ثلمًا دخلت منه الجيوش إلى مدينة كورنته ففتحها .

ولم يتمَّ فتح بلاد مورة لازدياد عصيان **إسكندر بك** وإثارته الفتن في بلاد ألبانيا، واكتفى بضرب الجزية على أهلها هذه المرة ، ولما هدأ باله من جهة إسكندر بك عاود الكرة عليها، وإسكندر بك هذا هو أحد أولاد " **جورج كستريو** " (أمير ألبانيا الشمالية) الذين سبق ذكر أخذ السلطان لهم رهينة وضم بلاد أبيهم إليه بعد موته. وكان قد تظاهر بالإسلام، وأظهر الإخلاص للسلطان حتى قربه إليه.

وفي سنة 1443م حينما كان السلطان مشتغلًا بمحاربة هونياد وملك الصرب ألزم **كاتب أول الملك** على أن يمضي له أمرًا بتوجيه إدارة مدينة " **آق حصار**" من أعمال بلاد ألبانيا إليه، وأخذ هذا الأمر بعد أن قتل ممضيه خوفًا من إفشاء سرِّه ، وسار إلى هذا البلد ودخله، وفي الحال استدعى إليه رؤساء قبائل الأرنئود وأظهر لهم مشروعه، وهو استخلاص ألبانيا من يد الدولة العثمانية ، فوافقوه على ما وسوسه لهم وأمدوه بالمال والرجال، فسار معهم وطرد العثمانيين من أغلب بلاد أجداده ، وانتصر على القائد **علي باشا** سنة 1443م.

وساعده على امتداد نفوذه تنازل السلطان مراد واشتغاله بمحاربة المجر، لكن لما تمَّ النصر للسلطان في معركة **فارنا** واستتبَّ الأمن في بلاد اليونان جمع جيش لقمعه ، فقصده بمائة ألف مقاتل واستردَّ منه مدينتين من أهم مدن ألبانيا سنة 1447م، ثم تركه حين بلغه خبر إغارة **هونياد** المجري على بلاد الصرب ليعيد لنفسه ما فقد من الشرف في معركة فارنا، وكان معه في هذه الدفعة أربعة وعشرون ألف رجل منهم عشرة آلاف من الفلاخ،

فاصطدم الجيش العثماني بقيادة السلطان فانتصر عليه السلطان في 17 أكتوبر سنة 1448م ، كما انتصر السلطان مراد الأول على لازار (ملك الصرب) سنة 1389م في هذا الموقع، ثم عاد السلطان مراد الثاني لمحاربة إسكندر بك بألبانيا وحاصر مدينة **قوص أوه**، ولما لم يجد سبيلًا إلى فتحها لضعف جيوشه بسبب هذه الحروب المتواصلة أراد أن يتفق مع إسكندر بك على الصلح بأن يقلده السلطان إمارة بلاد ألبانيا في مقابلة جزية سنوية ، ولما لم يقبل إسكندر بك هذا الاقتراح رفع السلطان الحصار عن المدينة وعاد إلى أدرنة عاصمة ممالكه ليجهز جيوشًا جديدة كافية لقمعه ، لكنه توفي في يوم 9 فبراير سنة 1451م، وتولى بعده ابنه السلطان محمد الفاتح ، ونقلت جثته إلى مدينة بورصة وسنه 49 سنة ومدة حكمه 30 سنة .

*كان الفضل في إختراع هذه المدافع واستعمال البارود فيها للعالم المسلم **حسن الرماح** (إقرأ سيرته في كتابنا هذا)*

9 - محمد الفاتح ابن مراد الثاني

(الفاتح ، أبو الفتوح ، الغازي ، صاحب النبوءة ، أبو الخيرات ، قيصر)

المدفع السلطاني او مدفع السلطان محمد الفاتح , كان يستخدمه فى فتح القسطنطينية ..

تقديم :

السلطان الغازي محمد الثاني الفاتح (بالتركية العثمانية : فاتح سلطان محمد خان ثانى؛ وبالتركية الحديثة : Fatih Sultan Mehmed Han II أو II. Mehmed) والذي عُرف في أوروبا خلال عصر النهضة باسم "*Mahomet II*"، وهو ذات اللفظ الذي كان الأوربيون يلفظون به اسم نبي الإسلام ،

هو سابع سلاطين الدولة العثمانية وسلالة آل عثمان ، يُلقب ، إلى جانب "**الفاتح**"، بأبي الفتوح وأبو الخيرات، وبعد فتح القسطنطينية أضيف لقب " قيصر" إلى ألقابه وألقاب باقي السلاطين الذين تلوه. حكم ما يقرب من ثلاثين عامًا عرفت توسعًا كبيرًا للخلافة الإسلامية.

يُعرف هذا السلطان بأنه هو من قضى نهائيًا على الإمبراطورية البيزنطية بعد أن استمرّت أحد عشر قرنًا ونيفًا، ويعتبر الكثير من المؤرخين هذا الحدث خاتمة العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة ، وعند الأتراك فهذا الحدث هو " **فاتحة عصر الملوك** " (بالتركية : çağ açan hükümdar) .

تابع السلطان محمد فتوحاته في آسيا، فوحّد ممالك الأناضول، وتوغّل في أوروبا حتى بلغراد.

من أبرز أعماله الإدارية دمجه للإدارات البيزنطية القديمة في جسم الدولة العثمانية المتوسعة آنذاك . كان محمد الثاني عالي الثقافة ومحبًا للعلم والعلماء ، وقد تكلّم عدداً من اللغات إلى جانب اللغة التركية ، وهي : الفرنسية ، اللاتينية ، اليونانية ، الصربية ، الفارسية ، العربية ، والعبرية.

1 - بداية حياته

1 – 1 - إخبار نبي الإسلام عنه

نبوءة النبي محمد (ص) حول فتح القسطنطينية، منقوشة على إحدى بوابات آيا صوفيا.

يؤمن المسلمون بأن النبي محمد بن عبد الله (ص) تحدث عن أمير من أفضل أمراء العالم، وأنه هو من سيفتح القسطنطينية ويُدخلها ضمن الدولة الإسلامية، فقد ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل في الحديث رقم 18189:

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَسَمِعْتُهُ أَنَا مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، قَالَ حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ، قَالَ حَدَّثَنِي الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْمَعَافِرِيُّ، قَالَ حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بِشْرٍ الْخَثْعَمِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ

1 – 2 - مولده ونشأته

وُلد محمد الثاني، للسلطان "**مراد الثاني**" و"**هما خاتون**"، فجر يوم الأحد بتاريخ 20 أبريل ، 1429 م ، الموافق في 26 رجب سنة 833 هـ في مدينة أدرنة ، عاصمة الدولة العثمانية آنذاك. عندما بلغ محمد الثاني ربيعه الحادي عشر أرسله والده السلطان إلى **أماسيا** ليكون حاكمًا عليها وليكتسب شيءًا من الخبرة اللازمة لحكم الدولة ، كما كانت عليه عادة الحكّام العثمانيين قبل ذلك العهد. فمارس محمد الأعمال السلطانية في حياة أبيه ، ومنذ تلك الفترة وهو يعايش صراع الدولة البيزنطية في الظروف المختلفة، كما كان على اطلاع تام بالمحاولات العثمانية السابقة لفتح القسطنطينية ، بل ويعلم بما سبقها من محاولات متكررة في العصور الإسلامية المختلفة . وخلال الفترة التي قضاها حاكماً على أماسيا، كان السلطان مراد الثاني قد أرسل إليه عددًا من المعلمين لكنه لم يمتثل لأمرهم ، ولم يقرأ شيئاً، حتى أنه لم يختم القرآن الكريم، الأمر الذي كان يُعد ذا أهمية كبرى، فطلب السلطان المذكور، رجلاً له مهابةٌ وحدّة ، فذكر له المولى " **أحمد بن إسماعيل الكوراني** " ، فجعله معلمًا لولده وأعطاه قضيبًا يضربه به إذا خالف أمره ، فذهب إليه، ودخل عليه والقضيب بيده، فقال : " أرسلني والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمري " ، فضحك السلطان محمد الثاني من ذلك الكلام، فضربه المولى الكوراني في ذلك المجلس ضربًا شديدًا، حتى خاف منه السلطان محمد، وختم القرآن في مدة يسيرة.

هذه التربية الإسلامية كان لها الأثر الأكبر في تكوين شخصية محمد الفاتح، فجعلته مسلمًا مؤمنًا ملتزمًا بحدود الشريعة، مقيدًا بالأوامر والنواهي، معظمًا لها ومدافعًا عن إجراءات تطبيقها، فتأثر بالعلماء الربانيين، وبشكل خاص معلمه المولى **"الكوراني"** وانتهج منهجهم . وبرز دور الشيخ **" آق شمس الدين "** في تكوين شخصية محمد الفاتح وبث فيه منذ صغره أمرين هما : مضاعفة حركة الجهاد العثمانية ، والإيحاء دومًا لمحمد منذ صغره بأنه الأمير المقصود بالحديث النبوي ، لذلك كان الفاتح يطمع أن ينطبق عليه حديث نبي الإسلام.

1 – 3 - اعتلاؤه العرش للمرة الأولى وتنازله عنه :

معركة فارنا.

الإمبراطورية النمساوية المجرية

في 13 يوليو سنة 1444 م، الموافق 26 ربيع الأول سنة 848 هـ، أبرم السلطان مراد الثاني معاهدة سلام مع إمارة قرمان بالأناضول ، وعقب ذلك توفي أكبر أولاد السلطان واسمه علاء الدين، فحزن عليه والده حزنًا شديدًا وسئم الحياة ، فتنازل عن الملك لابنه محمد البالغ من العمر أربع عشرة سنة، وسافر إلى ولاية أيدين للإقامة بعيدًا عن هموم الدنيا وغمومها. لكنه لم يمكث في خلوته بضعة أشهر حتى أتاه خبر غدر المجر وإغارتهم على بلاد البلغار غير مراعين شروط الهدنة اعتمادًا على تغرير الكاردينال "سيزاريني"، مندوب البابا، وإفهامه لملك المجر أن عدم رعاية الذمة والعهود مع المسلمين لا تُعد حنثًا ولا نقضًا.

وكان السلطان محمد الثاني قد كتب إلى والده يطلب منه العودة ليتربع على عرش السلطنة تحسبًا لوقوع معركة مع المجر، إلا أن مراد رفض هذا الطلب . فرد محمد الثاني الفاتح :

« إن كنت أنت السلطان فتعال وقف على قيادة جيشك ورياسة دولتك . وإن كنت أنا السلطان فإني آمرك بقيادة الجيش » .

وبناءً على هذه الرسالة ، عاد السلطان مراد الثاني وقاد الجيش العثماني في معركة فارنا، التي كان فيها النصر الحاسم للمسلمين بتاريخ 10 نوفمبر سنة 1444 م، الموافق في 28 رجب سنة 848 هـ

لم تطل إقامته أكثر من ثلاثة أشهر إذ اضطر للعودة إلى أدرنة قاعدة الدولة حيث استصغر قادة الجيش العثمانيين من الانكشارية السلطان الصغير، إذ عصوا أمره، ونهبوا المدينة، ووصل السلطان فأدب القادة وأشغلهم بالقتال في بلاد اليونان .

2 - الفترة في مانيسا (1446 – 1451)

انتقل السلطان محمد الثاني إلى مانيسا الواقعة بغرب الأناضول بعد ثورة الإنكشارية عليه، وبعد أن جمعهم والده وانتقل لخوض حروبه في أوروبا. ليس هناك من معلومات كثيرة تفيد بالذي قام به السلطان محمد في الفترة التي قضاها في مدينة مانيسا، ولكن يُعرف أنه خلال هذه الفترة ، تزوج السلطان بوالدة ولي العهد ، كما كان يُطلق على زوجات السلاطين، **" أمينة گلبهار"** ذات الجذور اليونانية النبيلة ، من قرية **" دوفيرا "** في **طرابزون،** والتي توفيت بعد ذلك عام 1492 بعد أن أنجبت السلطان **بايزيد الثاني** . تزوج السلطان محمد في هذه الفترة أيضا بزوجته الثانية **" ستّي مكرم خاتون "** الأميرة من سلالة **ذي القدر التركمانية** .

قام محمد الفاتح خلال المدة التي قضاها في مانيسا، بضرب النقود السلجوقية باسمه، وفي أغسطس أو سبتمبر من عام 1449، توفيت والدته، وبعد هذا بسنة، أي في عام 1450، أبرم والده صلحًا مع "اسكندر بك"، أحد أولاد "جورج كستريو" أمير ألبانيا الشمالية الذين كان السلطان مراد الثاني قد أخذهم رهائن وضمّ بلاد أبيهم إليه بعد موته. وكان اسكندر المذكور قد أسلم، أو بالأحرى تظاهر بالإسلام لنوال ما يكنه صدره وأظهر الإخلاص للسلطان حتى قرّبه إليه، ثم انقلب عليه أثناء انشغاله بمحاربة الصرب والمجر، وبعد عدد من المعارك لم يستطع الجيش العثماني المنهك استرجاع أكثر من مدينتين ألبانيتين، فرأى السلطان مصالحة البك ريثما يعود ليستجمع جيشه قوته ثم يعود لفتح مدينة **" آق حصار"**.

3 - اعتلاؤه العرش للمرة الثانية وفتح القسطنطينية

عاد السلطان مراد الثاني إلى أدرنة ، عاصمة ممالكه ليُجهز جيوشًا جديدة كافية لقمع الثائر على الدولة، "اسكندر بك"، لكنه توفي في يوم 7 فبراير سنة 1451، الموافق في 5 محرم سنة 855هـ. وما أن وصلت أنباء وفاة السلطان إلى ابنه محمد الثاني، حتى ركب فوراً وعاد إلى أدرنة حيث توّج سلطانا للمرة الثانية في 19 فبراير من نفس العام ، وأقام جنازة لوالده الراحل وأمر بنقل الجثمان إلى مدينة بورصة لدفنه بها ، وأمر بإرجاع زوجة أبيه الأميرة " **مارا** " الصربية إلى والدها، أمير الصرب المدعو "جورج برنكوفيتش"، الذي زوّجها للسلطان مراد الثاني عندما أبرم معه معاهدة سلام قرابة عام 1428.

عندما تولى محمد الثاني الملك بعد أبيه لم يكن بآسيا الصغرى خارجًا عن سلطانه إلا جزء من بلاد القرمان ومدينة "سينوب" ومملكة طرابزون الروميّة. وصارت مملكة الروم الشرقية قاصرة على مدينة القسطنطينية وضواحيها. وكان إقليم " **موره** " مجزءاً بين البنادقة وعدّة إمارات صغيرة يحكمها بعض أعيان الروم أو الإفرنج الذين تخلفوا عن إخوانهم بعد انتهاء الحروب الصليبية ، وبلاد الأرنؤد وإيبيروس في حمى إسكندر بك سالف الذكر، وبلاد البشناق المستقلة ، والصرب التابعة للدولة العثمانية تبعية سيادية، وما بقي من شبه جزيرة البلقان كان داخلاً تحت سلطة الدولة كذلك.

3 – 1 - الإعداد للفتح

قلعة روملي حصار كما تبدو اليوم، كما يراها الناظر من مضيق البوسفور.

أخذ السلطان محمد الثاني، بعد وفاة والده ، يستعد لتتميم فتح ما بقي من بلاد البلقان ومدينة القسطنطينية حتى تكون جميع أملاكه متصلة لا يتخللها عدو مهاجم أو صديق منافق، فبذل بداية الأمر جهودًا عظيمة في تقوية الجيش العثماني بالقوى البشرية حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون جندي ، وهذا عدد كبير مقارنة بجيوش الدول في تلك الفترة،

كما عني عناية خاصة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة وبمختلف أنواع الأسلحة التي تؤهلهم للغزو الكبير المنتظر، كما أعتنى الفاتح بإعدادهم إعدادًا معنويًا قويًا وغرس روح الجهاد فيهم، وتذكيرهم بثناء النبي محمد على الجيش الذي يفتح القسطنطينية وعسى أن يكونوا هم الجيش المقصود بذلك، مما أعطاهم قوة معنوية وشجاعة منقطعة النظير، كما كان لانتشار العلماء بين الجنود أثر كبير في تقوية عزائمهم.

أراد السلطان ، قبل أن يتعرض لفتح القسطنطينية أن يُحصّن مضيق البوسفور حتى لا يأتي لها مدد من مملكة طرابزون ، وذلك بأن يُقيم قلعة على شاطئ المضيق في أضيق نقطة من الجانب الأوروبي منه مقابل القلعة التي أسست في عهد السلطان بايزيد في البر الآسيوي. ولمّا بلغ إمبراطور الروم هذا الخبر أرسل إلى السلطان سفيرًا يعرض عليه دفع الجزية التي يُقررها ، فرفض الفاتح طلبه وأصر على البناء لما يعلمه من أهمية عسكرية لهذا الموقع ، حتى اكتملت قلعة عالية ومحصنة ، وصل ارتفاعها إلى 82 مترًا، وأطلق عليها اسم " **قلعة روملي حصار**" (بالتركية : Rumeli Hisarı) ، وأصبحت القلعتان متقابلتين، ولا يفصل بينهما سوى 660 مترًا، تتحكمان في عبور السفن من شرقي البوسفور إلى غربه وتستطيع نيران مدافعهما منع أية سفينة من الوصول إلى القسطنطينية من المناطق التي تقع شرقها مثل مملكة طرابزون وغيرها من الأماكن التي تستطيع دعم المدينة عند الحاجة. كما فرض السلطان رسومًا

على كل سفينة تمر في مجال المدافع العثمانية المنصوبة في القلعة ، وكان أن رفضت إحدى سفن البندقية أن تتوقف بعد أن أعطى العثمانيون لها عدداً من الإشارات، فتمّ إغراقها بطلقة مدفعية واحدة فقط.

اعتنى السلطان عناية خاصة بصنع الأسلحة اللازمة لفتح القسطنطينية ، ومن أهمها المدافع ، التي أخذت اهتمامًا خاصًا منه حيث أحضر مهندسًا مجريًا يدعى " **أوربان** " كان بارعًا في صناعة المدافع، فأحسن استقباله ووفر له جميع الإمكانيات المالية والمادية والبشرية. تمكن هذا المهندس من تصميم وتصنيع العديد من المدافع الضخمة كان على رأسها " المدفع السلطاني " المشهور ، والذي ذكر أن وزنه كان يصل إلى مئات الأطنان وأنه يحتاج إلى مئات الثيران القوية لتحريكه، وقد أشرف السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجريبها . ويُضاف إلى هذا الاستعداد ما بذله الفاتح من عناية خاصة بالأسطول العثماني؛ حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة ليكون مؤهلاً للقيام بدوره في الهجوم على القسطنطينية، تلك المدينة البحرية التي لا يكمل حصارها دون وجود قوة بحرية تقوم بهذه المهمة

3 – 2 - عقد معاهدات

عمل الفاتح قبل هجومه على القسطنطينية على عقد معاهدات مع أعدائه المختلفين ليتفرغ لعدو واحد، فعقد معاهدة مع إمارة **غلطة** المجاورة للقسطنطينية من الشرق ويفصل بينهما مضيق القرن الذهبي ، كما عقد معاهدات مع **جنوة والبندقية** وهما من الإمارات الأوروبية المجاورة ، ولكن هذه المعاهدات لم تصمد حينما بدأ الهجوم الفعلي على القسطنطينية ، حيث وصلت قوات من تلك المدن وغيرها للمشاركة في الدفاع عن المدينة.

في هذه الأثناء التي كان السلطان يعد العدة فيها للفتح ، استمات الإمبراطور البيزنطي في محاولاته لثنيه عن هدفه ، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه، وبمحاولة رشوة بعض مستشاريه ليؤثروا على قراره ، ولكن السلطان كان عازمًا على تنفيذ مخططه ولم تثنه هذه الأمور عن هدفه ،

ولما رأى الإمبراطور البيزنطي شدة عزيمة السلطان على تنفيذ هدفه عمد إلى طلب المساعدات من مختلف الدول والمدن الأوروبية وعلى رأسها البابا زعيم المذهب الكاثوليكي، في الوقت الذي كانت فيه كنائس الدولة البيزنطية وعلى رأسها القسطنطينية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية وكان بينهما عداء شديد، وقد اضطر الإمبراطور لمجاملة البابا بأن يتقرب إليه ويظهر له استعداده للعمل على توحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، في الوقت الذي لم يكن الأرثوذكس يرغبون في ذلك . قام البابا بناءً على ذلك بإرسال مندوب منه إلى القسطنطينية، خطب في كنيسة آيا صوفيا ودعا للبابا وأعلن توحيد الكنيستين، مما أغضب جمهور الأرثوذكس في المدينة ، وجعلهم يقومون بحركة مضادة لهذا العمل الإمبراطوري الكاثوليكي المشترك ، حتى قال بعض زعماء الأرثوذكس :

" إنني أفضل أن أشاهد في ديار البيزنط عمائم الترك على أن أشاهد القبعة اللاتينية".

3 – 3 - الهجوم والغزو لفتح القسطنطينية

سعى السلطان، بعد كل هذه الاستعدادات، في إيجاد سبب لفتح باب الحرب ، ولم يلبث أن وجد هذا السبب بتعدي الجنود العثمانيين على بعض قرى الروم ودفاع هؤلاء عن أنفسهم، حيث قُتل البعض من الفريقين.

عمل السلطان على تمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية لكي تكون صالحة لجر المدافع العملاقة خلالها إلى القسطنطينية ، وقد تحركت المدافع من أدرنة إلى قرب القسطنطينية ، في مدة شهرين حيث تمت حمايتها بقسم الجيش حتى وصلت الأجناد العثمانية يقودها **الفاتح** بنفسه إلى مشارف القسطنطينية في يوم الخميس 6 أبريل ، 1453 م ، الموافق 26 ربيع الأول، 857 هـ ، فجمع الجند وكانوا قرابة مائتين وخمسين ألف جندي أي ربع مليون، فخطب فيهم خطبة قوية حثهم فيها على الجهاد وطلب النصر أو الشهادة، وذكّرهم فيها بالتضحية وصدق القتال عند اللقاء، وقرأ عليهم الآيات القرآنية التي تحث على ذلك، كما ذكر لهم الأحاديث النبوية التي تبشر بفتح القسطنطينية وفضل الجيش الفاتح لها وأميره، وما في فتحها من عز للإسلام والمسلمين، وقد بادر الجيش بالتهليل والتكبير والدعاء.

محمد الفاتح يقود جيش المسلمين في حصار القسطنطينية.

وبهذا ضرب السلطان الحصار على المدينة بجنوده من ناحية البر، وبأسطوله من ناحية البحر، وأقام حول المدينة أربع عشرة بطارية مدفعية وضع بها المدافع الجسيمة التي صنعها " أوربان " والتي قيل بأنها كانت تقذف كرات ضخمة من الحجارة إلى مسافة ميل وفي أثناء الحصار اكتُشف قبر " أبي أيوب الأنصاري " الذي استشهد حين حاصر القسطنطينية في سنة 52 هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان الأموي .

السلطان محمد الثاني يُشرف على جرّ السفن برًا إلى داخل مضيق القرن الذهبي.

وفي هذا الوقت كان البيزنطيين قد قاموا بسد مداخل ميناء القسطنطينية بسلاسل حديدية غليظة حالت بين السفن العثمانية والوصول إلى القرن الذهبي، بل دمرت كل سفينة حاولت الدنو والاقتراب. إلا أن الأسطول العثماني نجح على الرغم من ذلك في الاستيلاء على جزر الأمراء في بحر مرمرة . استنجد الإمبراطور قسطنطين ، آخر ملوك الروم، بأوروبا، فلبّى طلبه أهالي جنوة وأرسلوا له إمدادات مكونة من خمس سفن وكان يقودها القائد الجنوي **"جوستنياني"** يُرافقه سبعمائة مقاتل متطوع من دول أوروبية متعددة، فأتى هذا القائد بمراكبه وأراد الدخول إلى ميناء القسطنطينية، فاعترضته السفن العثمانية ونشبت بينهما معركة هائلة في يوم 21 أبريل، 1453 م، الموافق يوم 11 ربيع الثاني، 857 هـ، انتهت بفوز جوستنياني ودخوله الميناء بعد أن رفع المحاصرون السلاسل الحديدية ثم أعادوها بعد مرور السفن الأوروبية كما كانت . حاولت القوات البحرية العثمانية تخطي السلاسل الضخمة التي تتحكم في مدخل

القرن الذهبي والوصول بالسفن الإسلامية إليه، وأطلقوا سهامهم على السفن الأوروبية والبيزنطية ولكنهم فشلوا في تحقيق مرادهم في البداية، فارتفعت بهذا الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة .

بعد هذا الأمر، أخذ السلطان يُفكر في طريقة لدخول مراكبه إلى الميناء لإتمام الحصار برّاً وبحراً، فخطر بباله فكر غريب، وهو أن ينقل المراكب على البر ليجتازوا السلاسل الموضوعة لمنعها، وتمّ هذا الأمر المستغرب بأن مهدت الأرض وسويت في ساعات قليلة وأتي بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم، ثم وضعت على الطريق الممهد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها ، وبهذه الكيفية أمكن نقل نحو سبعين سفينة وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من البيزنطيين .

استيقظ أهل المدينة صباح يوم 22 أبريل وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تسيطر على ذلك المعبر المائي، ولم يعد هناك حاجز مائي بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين، ولقد عبّر أحد المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذا العمل فقال :

« ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج ، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الأسكندر الأكبر».

أيقن المحاصرون عند هذا أن لا مناص من نصر العثمانيين عليهم، لكن لم تخمد عزائمهم بل ازدادوا إقداماً وصمموا على الدفاع عن مدينتهم . وفي يوم 24 مايو سنة 1453م، الموافق 15 جمادى الأولى سنة 857هـ، أرسل السلطان محمد إلى الإمبراطور قسطنطين رسالة دعاه فيها إلى تسليم المدينة دون إراقة دماء، وعرض عليه تأمين خروجه وعائلته وأعوانه وكل من يرغب من سكان المدينة إلى حيث يشاؤون بأمان ، وأن تحقن دماء الناس في المدينة ولا يتعرضوا لأي أذى وأعطاهم الخيار بالبقاء في المدينة أو الرحيل عنها ، ولما وصلت الرسالة إلى الإمبراطور جمع المستشارين وعرض عليهم الأمر، فمال بعضهم إلى التسليم وأصر آخرون على استمرار الدفاع عن المدينة ، فمال الامبراطور إلى رأي القائلين بالقتال حتى آخر لحظة ،

فرد الامبراطور رسول الفاتح برسالة قال فيها إنه يشكر الله إذ جنح السلطان إلى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية أما القسطنطينية فإنه أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس في حياته فإما أن يحفظ عرشه أو يُدفن تحت أسوارها، فلما وصلت الرسالة إلى الفاتح قال :

« حسناً عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر».

عند الساعة الواحدة صباحاً من يوم الثلاثاء 29 مايو، 1453م، الموافق 20 جمادى الأولى سنة 857 هـ بدأ الهجوم العام على المدينة، فهجم مائة وخمسون ألف جندي وتسلقوا الأسوار حتى دخلوا المدينة من كل فج وأعملوا السيف فيمن عارضهم واحتلوا المدينة شيءًا فشيئًا إلى أن سقطت بأيديهم ، بعد 53 يومًا من الحصار. أما الإمبراطور قسطنطين فقاتل حتى مات في الدفاع عن وطنه كما وعد ، ولم يهرب أو يتخاذل .

ثم دخل السلطان المدينة عند الظهر فوجد الجنود مشتغلة بالسلب والنهب ، فأصدر أمره بمنع كل اعتداء، فساد الأمن حالاً . ثم توجه إلى **كنيسة آيا صوفيا** وقد اجتمع فيها خلق كبير من الناس ومعهم القسس والرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، وعندما اقترب من أبوابها خاف المسيحيون داخلها خوفاً عظيماً ، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة إلى بيوتهم بأمان، فأطمأن الناس وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم ، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بأن يؤذن في الكنيسة بالصلاة إعلانًا بجعلها مسجدًا.

وقد أعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم الدينين الذين لهم حق الحكم في النظر بالقضايا المدنية ، كما أعطى هذا الحق لرجال الكنيسة في الأقاليم الأخرى ولكنه في الوقت نفسه فرض الجزية على الجميع . ثم قام بجمع رجال الدين المسيحيين لينتخبوا بطريركًا لهم ، فاختاروا **"جورجيوس كورتيسيوس سكولاريوس"** وأعطاهم نصف الكنائس الموجودة في المدينة ، أما النصف الأخر فجعله جوامع للمسلمين . وبتمام فتح المدينة، نقل السلطان محمد مركز العاصمة إليها ، وسُميت " **إسلامبول** " ، أي " **مدينة الإسلام** " .

3 – 4 - ما بعد الفتح

بعد تمام النصر والفتح، اتخذ السلطان لقب " الفاتح " و" قيصر الروم ")، على الرغم من أن هذا اللقب الأخير لم تعترف به بطركيّة القسطنطينية ولا أوروبا المسيحية. وكان السبب الذي جعل السلطان يتخذ هذا اللقب هو أن القسطنطينية كانت عاصمة الإمبراطورية الرومانية ، بعد أن نُقل مركز الحكم إليها عام 330 بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية ، وكونه هو سلطان المدينة فكان من حقه أن يحمل هذا اللقب. وكان للسلطان رابطة دم بالأسرة الملكية البيزنطية ، بما أن كثيرا من أسلافه ، كالسلطان أورخان الأول، تزوجوا بأميرات بيزنطيات .

وكان السلطان قد أمر بحبس الصدر الأعظم " **خليل جندرلي باشا** "، الذي اتهم أثناء حصار القسطنطينية بالتعامل مع العدو أو تلقيه رشوة منهم لفضح تحركات الجيش العثماني، فحُبس لمدة أربعين يومًا وسُملت عيناه ، ثم حُكم عليه بالإعدام فأعدم .

تُفيد بعض المصادر أن السلطان محمد الفاتح قصد الموقع الذي بُنيت فيه مدينة طروادة في قديم الزمان، بعد 10 سنوات من فتح القسطنطينية، حيث قال أنه انتقم للطرواديين أخيراً، بعد أن قضى على الإغريق، أي البيزنطينين، وغزاهم كما غزوا طروادة.

4 - الفتوحات التالية

4 – 1 - فتح بلاد موره ومحاربة المجر

بعد إتمامه لترتيباته وبناء ما هُدم من أسوار القسطنطينية وتحصينها، أمر السلطان ببناء مسجد بالقرب من قبر أبي أيوب الأنصاري ، جرت العادة فيما بعد أن يتقلد كل سلطان جديد سيف عثمان الغازي الأول في هذا المسجد ، ثم سافر بجنوده لفتح بلاد جديدة، فقصد **بلاد موره** ، لكن لم ينتظر أميراها " **دمتريوس**" و" **توماس**"، أخوا قسطنطين، قدومه، بل أرسلا إليه يُخبرانه بقبولهما دفع جزية سنوية قدرها إثنا عشر ألف دوكا. فقبل السلطان ذلك، وغيّر وجهته قاصدًا بلاد الصرب، فأتى " **هونياد** " الشجاع المجري، الملقب " **بالفارس الأبيض**" ، وردّ عن الصرب مقدمة الجيوش العثمانية ، إلا أن الصرب لم يرغبوا في مساعدة المجر لهم لاختلاف مذهبهم، حيث كان المجر كاثوليكيين تابعين لبابا روما، والصرب أرثوذكسيين لا يذعنون لسلطة البابا بل كانوا يفضلون تسلط المسلمين عليهم لما رأوه من عدم تعرضهم للدين مطلقًا. ولذلك أبرم أمير الصرب الصلح مع السلطان محمد الثاني على أن يدفع له سنويًا ثمانين ألف دوكا ، وذلك في سنة 1454.

وفي السنة التالية أعاد السلطان الكرّة على الصرب من جديد، بجيش مؤلف من خمسين ألف مقاتل وثلاثمائة مدفع ، ومر بجيوشه من جنوب تلك البلاد إلى شمالها بدون أن يلقى أقل معارضة حتى وصل مدينة بلغراد الواقعة على نهر الدانوب وحاصرها من جهة البر والنهر. وكان هونياد المجري دخل المدينة قبل إتمام الحصار عليها ودافع عنها دفاع الأبطال حتى يئس السلطان من فتحها ورفع عنها الحصار سنة 1455. لكن وإن لم يتمكن العثمانيون من فتح عاصمة الصرب إلا أنهم أصابوا هونياد بجراح بليغة توفي بسببها بعد رفع الحصار عن المدينة بنحو عشرين يومًا. ولما علم السلطان بموته أرسل الصدر الأعظم " **محمود باشا**" لإتمام فتح بلاد الصرب فأتمّ فتحها من سنة 1458 إلى سنة 1460.

وفي سنة 1458 فتح السلطان مدينة " **كورنته**" وما جاورها من بلاد اليونان حتى جرّد " **طوماس باليولوج** " أخا قسطنطين من جميع بلاده ولم يترك إقليم موره لأخيه دمتريوس إلا بشرط دفع الجزية. وبمجرّد ما رجع السلطان بجيوشه ثار طوماس وحارب الأتراك وأخاه معاً ، فاستنجد دمتريوس بالسلطان فرجع بجيش عرمرم ولم يعد حتى تمّ فتح إقليم موره سنة 1460 فهرب طوماس إلى إيطاليا ، ونُفي دمتريوس في إحدى جزر الأرخبيل. وفي ذلك الوقت فُتحت جزر **تاسوس والبروس** وغيرها من جزر بحر الروم .

4 – 2 - توحيد الأناضول

وبعد عودة السلطان من بلاد اليونان أبرم صلحًا مع إسكندر بك وترك له إقليما ألبانيا وإيبيروس، ثم حوّل أنظاره إلى آسيا الصغرى ليفتح ما بقي منها، فسار بجيشه دون أن يُعلم أحدًا بوجهته في أوائل سنة 1461، فهاجم أولاً ميناء **بلدة أماستريس**، وكانت مركز تجارة أهالي جنوة النازلين بهذه الأصقاع. ولكون سكانها تجّارًا يُحافظون على أموالهم ولا يهمهم دين أو جنسية متبوعهم ما دام غير متعرّض لأموالهم ولا

أرواحهم، فتحوا أبواب المدينة ودخلها العثمانيون بغير حرب. ثم أرسل إلى " **اسفنديار**" أمير مدينة **سينوب** يطلب منه تسليم بلده والخضوع له. ولأجل تعزيز هذا الطلب أرسل أحد قوّاده ومعه عدد عظيم من المراكب لحصار الميناء، فسلمها إليه الأمير وأقطعه السلطان أراض واسعة بأقليم " **بيثينيا** " مكافأة له على خضوعه. ثم قصد بنفسه مدينة **طرابزون** ودخلها دون مقاومة شديدة وقبض على الملك وأولاده وزوجته وأرسلهم إلى القسطنطينية.

4 – 3 - محاربة أمير الفلاخ

ما أن عاد السلطان إلى القسطنطينية حتى جهز جيشًا لمحاربة أمير الفلاخ المدعو " **فلاد دراكول الثالث المخوزق** "، لمعاقبته على ما ارتكبه من الفظائع مع أهالي بلاده والتعدّي على التجار العثمانيين النازلين بها. فلمّا قرب منها، أرسل إليه هذا الأمير وفدا يعرض على السلطان دفع جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دوكا بشرط أن يُصادق على جميع الشروط الواردة بالمعاهدة التي أبرمت في سنة 1393 بين أمير الفلاخ آنذاك والسلطان بايزيد الأول ، فقبل السلطان محمد الثاني هذا الاقتراح وعاد بجيوشه. ولم يقصد أمير الفلاخ بهذه المعاهدة إلا التمكن من الاتحاد مع ملك المجر " متياس كورفينوس" ومحاربة العثمانيين . فلمّا علم السلطان باتحادهما أرسل إليه مندوبين يسألانه عن الحقيقة، فقبض عليهما وقتلهما بوضعهما على عمود محدد من الخشب ، الذي يُعرف **بالخازوق**. وأغار بعدها على بلاد بلغاريا التابعة للدولة العثمانية وعاث فيها فسادًا، ورجع بخمسة وعشرين ألف أسير، فأرسل إليه السلطان رسلاً يدعونه إلى الطاعة وإخلاء سبيل الأسرى، فلمّا مثل الرسل أمامه أمرهم برفع عمائمهم لتعظيمه، وعند إبائهم طلبه لمخالفته لعوائدهم، أمر بأن تُسمّر عمائمهم على رؤسهم بمسامير من حديد.

فلمّا وصلت هذه الأخبار إلى السلطان محمد استشاط غضباً وسار على الفور بحوالي 60,000 جندي نظامي و 30,000 غير نظامي ، فوصل بسرعة إلى مدينة "**بوخارست**"، عاصمة الأمير، بعد أن هزمه وفرّق جيوشه، لكنه لم يتمكن من القبض عليه لمجازاته على ما اقترفه بحق العثمانيين والبلغار، لهروبه والتجائه إلى ملك المجر، فنادى السلطان بعزله ونصب مكانه أخاه " **راؤول**" لثقته به بما أنه تربّى في حضانة السلطان منذ نعومة أظفاره، وبذا ضُمّت بلاد الفلاخ إلى الدولة العثمانية.

ويُقال أنه عند وصول السلطان محمد إلى ضواحي بوخارست، وجد حول المدينة غابة من الخوازيق التي عُلّقت عليها جثث الأسرى الذين أتى بهم أمير الفلاخ من بلاد بلغاريا، وقتلهم عن آخرهم بما فيهم الأطفال والنساء، وكذلك الجنود العثمانيين الذين كان قد قبض عليهم إثر مناوشة ليلية، وكان عددهم جميعا عشرين ألفاً.

4 - 4 – فتح البوسنة والعداء مع البندقية

في سنة 1462، حارب السلطان بلاد البوسنة لامتناع أميرها " **استيفان توماسفيتش**" عن دفع الخراج ، وأسره بعد معركة هو وولده وأمر بقتلهما، فدانت له جميع **بلاد البشناق** . وأرسل فرمانا إلى الفرنسيسكان من سكان تلك البلاد يُطمئنهم بعدم تعرّض أي منهم للاضطهاد بسبب معتقداتهم الدينية، فقال :

" بسم الله الرحمن الرحيم

أنا السلطان محمد خان الفاتح،

أعلن للعالم أجمع أن ، أهل البوسنة الفرنسيسكان قد مُنحوا بموجب هذا الفرمان السلطاني حماية جلالتي . ونحن نأمر بأن :

لا يتعرض أحد لهؤلاء الناس ولا لكنائسهم وصلبهم !

وبأنهم سيعيشون بسلام في دولتي . وبأن أولئك الذين هجروا ديارهم منهم، سيحظون بالأمان والحرية. وسيُسمح لهم بالعودة إلى أديرتهم الواقعة ضمن حدود دولتنا العليّة.

لا أحد من دولتنا سواء كان نبيلاً ، وزيرا ، رجل دين ، أو من خدمنا سيتعرض لهم في شرفهم وفي أنفسهم !

لا أحد سوف يهدد ، أو يتعرض لهؤلاء الناس في أنفسهم ، ممتلكاتهم، وكنائسهم !

وسيحظى كل ما أحضروه معهم من متاع من بلادهم بنفس الحماية...

وبإعلان هذا الفرمان ، أقسم بالله العظيم
الذي خلق الأرض في ستة أيام ورفع السماء بلا عمد، وبسيدنا محمد عبده ورسوله، وجميع الأنبياء والصالحين أجمعين، بأنه؛ لن نسمح بأن يُخالف أي من أفراد رعيتنا أمر هذا الفرمان ! "

وفي سنة 1464، أراد " متياس كورفينوس " ملك المجر استخلاص البوسنة من العثمانيين، فهُزم بعد أن قُتل معظم جيشه، وكانت عاقبة تدخله أن جُعلت البوسنة ولاية كباقي ولايات الدولة، وسُلبت ما كان مُنح لها من الامتيازات ، ودخل في جيش الإنكشارية ثلاثون ألفاً من شبانها وأسلم أغلب أشراف أهاليها.
هذا وكانت قد ابتدأت حركات العدوان في سنة 1463 بين العثمانيين والبنادقة بسبب هروب أحد الرقيق إلى " **كورون**" التابعة للبندقية ، وامتناعهم عن تسليمه بحجة أنه اعتنق المسيحية دينًا. فاتخذ العثمانيون ذلك سببًا للاستيلاء على مدينة آرغوس وغيرها. فاستنجد البنادقة بحكومتهم، فأرسلت إليهم عدداً من السفن محملة بالجنود، وأنزلتهم إلى بلاد موره، فثار سكانها وقاتلوا الجنود العثمانيين المحافظين على بلادهم وأقاموا ما كان قد تهدم من سور برزخ كورون لمنع وصول المدد من الدولة العثمانية، وحاصروا المدينة نفسها واستخلصوا مدينة **آرغوس** من الأتراك. لكن لما علموا بقدوم السلطان مع جيش يبلغ عدده ثمانين ألف مقاتل، تركوا البرزخ راجعين على أعقابهم، فدخل العثمانيون بلاد موره بدون معارضة كبيرة واسترجعوا كل ما أخذوه وأرجعوا السكينة إلى البلاد. وفي السنة التالية أعاد البنادقة الكرّة على بلاد موره دون فائدة.
وبعد ذلك حاول البابا " **بيوس الثاني**" بكل ما أوتي من مهارة وقدرة سياسية تركيز جهوده في ناحيتين اثنتين :
حاول أولاً أن يقنع الأتراك باعتناق الدين المسيحي، ولم يقم بإرسال بعثات تبشيرية لذلك الغرض وانما اقتصر على إرسال خطاب إلى السلطان محمد الفاتح يطلب منه أن يعتنق المسيحية ، كما اعتنقها قبله قسطنطين الأول وكلوفيس ووعده بأنه سيكفر عنه خطاياه إن هو اعتنق المسيحية مخلصًا، ووعده بمنحه بركته واحتضانه ومنحه صكًا بدخول الجنة .
ولما فشل البابا في خطته هذه لجأ إلى الخطة الثانية، خطة التهديد والوعيد واستعمال القوة، فحاول تأجيج الحقد الصليبي في نفوس النصارى شعوبًا وملوكًا، قادة وجنودًا، واستعدت بعض الدول لتحقيق فكرة البابا الهادفة للقضاء على العثمانيين، ولكن لما حان وقت النفير اعتذرت دول أوروبا بسبب متاعبها الداخلية المختلفة . وعالج المنون البابا بعد هذا بفترة قصيرة، إلا أن تحريضاته كانت قد أثرت في **إسكندر بك الألباني** ، فحارب الجنود العثمانيين وحصل بينهما عدّة وقائع أريقت فيها كثير من الدماء، وكانت الحرب فيها سجالاً. وفي سنة 1467 توفي إسكندر بك بعد أن حارب الدولة العثمانية 25 سنة دون أن تتمكن من قمعه.
ثمّ بعد هدنة استمرت سنة واحدة، عادت الحروب بين العثمانيين والبنادقة وكانت نتيجتها أن فتح العثمانيون جزيرة " **نجر بونت**"، وتُسمى في كتب الترك "**أغريبوس**"، وتُعرف حاليًا باسم " **إيبويا**"، وهي مركز مستعمرات البنادقة في جزر الروم ، وتمّ فتحها في سنة 1470.

4 – 5 - فتح إمارة قرمان ومحاربة المغول

بعد أن ساد الأمن في أنحاء أوروبا، حوّل السلطان أنظاره إلى بلاد **القرمان** بآسيا الصغرى ووجد سبيلا سهلا للتدخل، وهو أن أميرها المدعو " **إبراهيم**" أوصى بعد موته بالحكم إلى أحد أولاده واسمه الأمير **إسحق** ، ولكونه كان لديه إخوة لأب أكبر منه سنا، يرغب كل منهم بالحكم بطبيعة الأمر، تدخل السلطان محمد الثاني وحارب إسحق وهزمه وولى محله أكبر إخوته، وعاد إلى أوروبا لمحاربة اسكندر بك، الذي كان ما زال على قيد الحياة آنذاك، فانتهز الأمير إسحق غياب السلطان وعاود الكرّة على قونية، عاصمة القرمان، لاسترداد ما أوصى به إليه أبوه من البلاد، فرجع إليه السلطان وقهره. وليستريح باله من هذه الجهة أيضا، ضمّ إمارة قرمان إلى بلاده وغضب على وزيره " **محمود باشا** " الذي عارضه في هذا الأمر.

وبعد ذلك بقليل زحف " **أوزون حسن** "، سلطان دولة الخروف الأبيض (بالتركية العثمانية : آق قوينلو؛ بالتركية: Akkoyunlu)، وهو أحد خلفاء تيمورلنك، الذي كان سلطانه ممتدا على كافة البلاد والأقاليم الواقعة بين نهري جيحون والفرات ، وفتح مدينة "**توقات**" عنوة ونهب أهلها . فأخذ السلطان في تجهيز جيش جرّار وأرسل لـ " **داوود باشا** " بكلر بك الأناضول ، و"**مصطفى باشا**" حاكم القرمان، يأمرهما بالمسير لمحاربة **أوزون حسن**ّ، فسارا بجيوشهما إليه وقابلا جيش "أوزون حسن" على حدود إقليم الحميد ، وهزماه شر هزيمة في معركة بالقرب من مدينة " **إرزينجان**" سنة 1471. وبعدها، في أواخر صيف عام 1473، سار إليه السلطان نفسه ومعه مائة ألف جندي وأجهز على ما بقي معه من الجنود بالقرب من مدينة " **گنجه** " ، ولم يعد "أوزون حسن" لمحاربة الدولة العثمانية بعد ذلك، إذ أن هذه المعركة كانت قد قضت على سلطة دولته، ولم يعد للعثمانيين من عدو لجهة الشرق، حتى بروز الشاه " **إسماعيل الصفوي**" والدولة الصفوية في وقت لاحق.

وفي هذه الأثناء كانت الحرب متقطعة بين العثمانيين والبنادقة الذين استعانوا ببابا روما وأمير نابولي، وكان النصر فيها دائماً للعثمانيين، ولم يتمكن البنادقة من استرجاع شيء مما أخذ منهم.

4 – 6 - محاربة البغدان وإنهاء الصراع مع البنادقة

في سنة 1475 أراد السلطان فتح بلاد البغدان، وهي المنطقة الشرقية من رومانيا المتاخمة لحدود روسيا والمعروفة أيضاً باسم " **مولدوفا**"، فأرسل إليها جيشاً بعد أن عرض دفع الجزية على أميرها المسمى " **أسطفان الرابع**" ولم يقبل . وقعت معركة عنيفة بين الطرفين بتاريخ 10 يناير من نفس العام عُرفت بمعركة " **فاسلوي**"، كنية بالمدينة القريبة من الموقع.

وصل عدد الجنود العثمانيين إلى 120,000 جندي، بينما بلغ عدد الجنود البغدان 40,000 جندي، بالإضافة إلى بعض القوات المتحالفة الأصغر حجما وبعض المرتزقة. وبعد قتال عنيف قُتل فيه جنود كثر من الجيشين المتحاربين، انهزم الجيش العثماني وعاد دون فتح شيء من هذا الإقليم .

ويذكر المؤرخون أن " أسطفان الرابع " قال أن هذه الهزيمة التي لحقت بالعثمانيين "هي أعظم هزيمة حققها الصليب على الإسلام". وقالت الأميرة " **مارا**" التي كانت زوجةً للسلطان مراد الثاني ، والد الفاتح ، سابقاً ، لمبعوث بندقي أن هذه الهزيمة هي أفظع الهزائم التي تعرّض لها العثمانيون في التاريخ.

وبذلك اشتهر "أسطفان الرابع" أمير البغدان بمقاومة العثمانيين، فخلع عليه البابا "**سيكستوس الرابع**" لقب " **بطل المسيح** " و" الحامي الحقيقي للديانة المسيحية "

ولما بلغ خبر هذه الهزيمة آذان السلطان عزم على فتح بلاد القرم حتى يستعين بفرسانها المشهورين في القتال على محاربة البغدان . وكان لجمهورية جنوة مستعمرة في شبه جزيرة القرم ، هي مدينة " **كافا**"، فأرسل السلطان إليها أسطولا بحريّا، ففتحها بعد حصار ستة أيام، وبعدها سقطت جميع الأماكن التابعة لجمهورية جنوة. وبذلك صارت جميع شواطئ القرم تابعة للدولة العثمانية ولم يُقاومها التتار النازلون بها، ولذلك اكتفى السلطان بفرض الجزية عليها.وبعد ذلك فتح الأسطول العثماني ميناء **آق كرمان** ومنها أقلعت السفن الحربية إلى مصاب نهر الدانوب لإعادة الكرّة على بلاد البغدان، بينما كان السلطان يجتاز نهر الدانوب من جهة البر بجيش عظيم، فتقهقر أمامه جيش البغدان، على الرغم من صدّه لعدّة هجمات عثمانية بنيرانه، لعدم إمكانية المحاربة في السهول، وتبعه الجيش العثماني حتى إذا أوغل خلفه في غابة كثيفة يجهل مفاوزها، انقض عليه الجيش البغداني، فاشتبك مع قوات الإنكشارية التي هزمته شر هزيمة، في معركة أطلق عليها اسم معركة **الوادي الأبيض** فانسحب "أسطفان الرابع" إلى أقصى شمال غربي بلاده، والبعض يقول أنه لجأ إلى المملكة البولندية، حيث أخذ يجمع جيشا جديدا.

ولم يستطع السلطان محمد فتح الحصون الرئيسية البغدانية بسبب المناوشات الصغيرة المستمرة التي تعرض لها الجيش العثماني من قبل الجنود البغدان، ولانتشار المجاعة ثم الطاعون بين أفراد الجيش ، مما اضطر السلطان لأن يسحب قواته ويعود إلى القسطنطينية دون فتح البلاد.

وفي سنة 1477 أغار السلطان على بلاد البنادقة ووصل إلى إقليم " **فريولي**" بعد أن مرّ بإقليميّ " **كرواتيا** " و" **دالماسيا** "، فخاف البنادقة على مدينتهم الأصلية وأبرموا الصلح معه تاركين له مدينة " **كرويا** "، التي كانت عاصمة "اسكندر بك" الشهير، فاحتلها السلطان ثم طلب منهم مدينة " **إشقودره** "،

ولمّا رفضوا التنازل عنها إليه حاصرها وأطلق عليها مدافعه ستة أسابيع متوالية بدون أن يُضعف قوّة سكانها وشجاعتهم، فتركها لفرصة أخرى وفتح ما كان حولها للبنادقة من البلاد والقلاع حتى صارت مدينة " إشقودره " منفصلة كليّا عن باقي بلاد البنادقة، وكان لا بد من فتحها بعد قليل لعدم إمكان وصول المدد إليها، ولذا فضّل البنادقة أن يبرموا صلحاً جديداً مع السلطان ويتنازلوا عن " إشقودره " مقابل بعض الامتيازات التجارية. وتمّ الصلح بين الفريقين على ذلك وأمضيت به بينهما معاهدة في يوم 28 يناير سنة 1479م، الموافق 5 ذو القعدة سنة 883هـ، وكانت هذه أول خطوة خطتها الدولة العثمانية للتدخل في شؤون أوروبا، إذ كانت جمهورية البندقية حينذاك أهم دول أوروبا لا سيما في التجارة البحرية ، وما كان يُعادلها في ذلك إلا جمهورية جنوة.

4 – 7 - فتح جزر اليونان ومدينة أوترانت وحصار رودوس

بعد أن تم الصلح مع البنادقة، وُجهت الجيوش إلى بلاد المجر لفتح إقليم ترانسلفانيا، فقهرها **"كينيس"** كونت مدينة **"تمسوار"** بالقرب من مدينة **"كرلسبرغ"** في 13 أكتوبر سنة 1476، وقُتل في هذه الموقعة كثير من العثمانيين وارتكب المجر فظائع وحشية بعد الانتصار، فقتلوا جميع الأسرى ونصبوا موائدهم على جثثهم . وفي سنة 1480 فُتحت جزر اليونان الواقعة بين بلاد اليونان وإيطاليا، وبعدها سار أمير البحر **كدك أحمد باشا** بمراكبه لفتح مدينة **أوترانت** بجنوب إيطاليا، التي كان عزم السلطان على فتحها جميعها. ويُقال أنه أقسم بأن يربط حصانه في كنيسة القديس بطرس بمدينة روما، مقر البابا، ففُتحت أوترانت عنوة في يوم 11 أغسطس سنة 1480م، الموافق 4 جمادى الثانية سنة 885هـ.

وفي هذا الحين كان قد أرسل أسطولاً بحرياً آخر لفتح جزيرة **رودوس** ، التي كانت مركز رهبنة القديس " **يوحنا الأورشليمي**" ، وكان رئيسها آنذاك " **بيير دو بوسون**" الفرنسي الأصل، وكانت الحرب قائمة بينه وبين سلطان مصر وباي تونس، فاجتهد في إبرام الصلح معهما ليتفرغ لصدّ هجمات الجيوش العثمانية . وكانت هذه الجزيرة محصنة تحصيناً منيعاً، وابتدأ العثمانيون حصارها في يوم 23 مايو سنة 1480م، الموافق 13 ربيع الأول سنة 885هـ، وظلّت المدافع تقذف عليها القنابل الحجرية تهدّم أسوارها، لكن كان يُصلح سكانها في الليل كل ما تخربه المدافع في النهار ، ولذلك استمر حصارها ثلاثة أشهر حاول العثمانيون خلالها الاستيلاء على أهم قلاعها ، واسمها قلعة **القديس نيقولا**، بدون جدوى. وفي يوم 28 يوليو سنة 1480م، الموافق 20 جمادى الأولى سنة 885هـ، أمر القائد العام بالهجوم على القلعة ودخولها من الفتحة التي فتحتها المدافع في أسوارها، فهجمت عليها الجيوش وقاوم المدافعون بكل بسالة وإقدام. وبعد أخذ وردّ، تقهقر العثمانيون بعد أن قُتل وجُرح منهم كثيرون، ورفع الباقون عنها الحصار.

5 - ترتيبات السلطان الداخلية :

5 – 1 - اهتمامه بالمدارس والمعاهد :

كان السلطان محباً للعلم والعلماء، لذلك اهتم ببناء المدارس والمعاهد في جميع أرجاء دولته، وفاق أجداده في هذا المضمار، وبذل جهوداً كبيرة في نشر العلم وإنشاء دور التعليم، وأدخل بعض الإصلاحات في نظام التعليم وأشرف على تهذيب المناهج وتطويرها، وحرص على نشر المدارس والمعاهد في كافة المدن والقرى وأوقف عليها الأوقاف العظيمة.

وقام بتنظيم هذه المدارس وترتيبها على درجات ومراحل، ووضع لها المناهج، وحدد العلوم والمواد التي تُدرّس في كل مرحلة، ووضع لها نظام الامتحانات الدقيقة للانتقال للمرحلة التي تليها، وكان ربما يحضر امتحانات الطلبة ويزور المدارس ولا يأنف من سماع الدروس التي يلقيها الأساتذة، ولا يبخل بالعطاء للنابغين من الأساتذة والطلبة، وجعل التعليم في كافة مدارس الدولة بالمجان، وكانت المواد التي تدرس في تلك المدارس: التفسير والحديث والفقه والأدب والبلاغة وعلوم اللغة والهندسة ،

وأنشأ بجانب مسجده الذي بناه بالقسطنطينية ثمان مدارس على كل جانب من جوانب المسجد يتوسطها صحن فسيح، وفيها يقضي الطالب المرحلة الأخيرة من دراسته، وألحقت بهذه المدارس مساكن الطلبة ينامون فيها ويأكلون طعامهم ووضعت لهم منحة مالية شهرية، وأنشأ بجانبها مكتبة خاصة وكان يُشترط في الرجل الذي يتولى أمانة هذه المكتبة أن يكون من أهل العلم والتقوى متبحراً في أسماء الكتب

والمؤلفين، وكانت مناهج المدارس تتضمن نظام التخصص، فكان للعلوم النقلية والنظرية قسم خاص وللعلوم التطبيقية قسم خاص أيضاً.

5 - 2 - اهتمامه بالعلماء

قرّب العلماء ورفع قدرهم وشجعهم على العمل والإنتاج وبذل لهم الأموال ووسع لهم في العطايا والمنح والهدايا وكرّمهم غاية الإكرام، ولما هزم " أوزون حسن "، أمر السلطان بقتل جميع الأسرى إلا من كان من العلماء وأصحاب المعارف ليستفاد منهم.

كان من مكانة الشيخ " أحمد الكوراني " أنه كان يخاطب السلطان باسمه ولا ينحني له ، ولا يقبل يده بل يصافحه مصافحة ، وكان لا يأتي إلى السلطان إلا إذا أرسل إليه ، وكان يقول له: "مطعمك حرام وملبسك حرام فعليك بالاحتياط".

وكذلك بالنسبة للشيخ " آق شمس الدين" الذي درّس السلطان محمد الفاتح العلوم الأساسية في ذلك الزمن وهي القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه والعلوم الإسلامية واللغات العربية، والفارسية والتركية وكذلك في مجال العلوم العلمية من الرياضيات والفلك والتاريخ والحرب، وكان الشيخ آق ضمن العلماء الذين أشرفوا على السلطان محمد عندما تولى إمارة "أماسيا" ليتدرب على إدارة الولاية، وأصول الحكم. واستطاع الشيخ آق شمس الدين أن يقنع الأمير الصغير بأنه المقصود بالحديث النبوي: " لتفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش".

وكان الشيخ آق شمس الدين أول من ألقى خطبة الجمعة في مسجد آيا صوفيا. وكان السلطان محمد الفاتح يحب شيخه شمس الدين حباً عظيماً، وكانت له مكانة كبيرة في نفسه وقد بين السلطان لمن حوله - بعد الفتح -: " إنكم تروننني فرحاً، فرحي ليس فقط لفتح هذه القلعة إن فرحي يتمثل في وجود شيخ عزيز الجانب، في عهدي، هو مؤدبي الشيخ آق شمس الدين". وعبّر السلطان عن مهابته لشيخه في حديث له مع وزيره " محمود باشا " ، حيث قال: "إن احترامي للشيخ آق شمس الدين، احترام غير اختياري. إنني أشعر وأنا بجانبه بالانفعال والرهبة".

5 - 3 - اهتمامه بالشعراء والأدباء

كان شاعراً مجيداً مهتماً بالأدب عامة والشعر خاصة ، وكان يصاحب الشعراء ويصطفيهم، واستوزر الكثير منهم ، وكان في بلاطه ثلاثون شاعراً يتناول كل منهم راتباً شهرياً ، وكان مع هذا ينكر على الشعراء التبذل والمجون والدعارة ويعاقب من يخرج عن الآداب بالسجن أو يطرده من بلاده. وكان الفاتح يكتب أشعاره باسم "**عوني**"، ويُعدّ أوّل شاعر سلطاني اتخذ لنفسه اسمًا مستعارًا. وللفاتح ديوان باللغة التركية معظمه في الغزل.

5 - 4 - اهتمامه بالترجمة

أتقن اللغة اليونانية وست لغات أخرى عندما كان بلغ من العمر 21 عاماً، أي في السنة التي فتح فيها القسطنطينية ، وأمر بنقل كثير من الآثار المكتوبة باليونانية واللاتينية والعربية والفارسية إلى اللغة التركية ، ونقل إلى التركية كتاب التصريف في الطب للزهراوي ، وعندما وجد كتاب **بطليموس** في الجغرافيا وخريطة له طلب من العالم الرومي "**جورج أميروتزوس**" وابنه أن يقوما بترجمته إلى العربية وإعادة رسم الخريطة باللغتين العربية واليونانية وكافأهما على هذا العمل بعطايا واسعة ، وقام العلامة **القوشجي** بتأليف كتاب بالفارسية ونقله للعربية وأهداه للفاتح.

كما كان مهتماً باللغة العربية فقد طلب من المدرسين بالمدارس الثماني أن يجمعوا بين الكتب الستة في تدريسهم وبين علم اللغة كالصحاح.. ودعم الفاتح حركة الترجمة والتأليف لنشر المعارف بين رعاياه بالإكثار من نشر المكاتب العامة وأنشأ له في قصره خزانة خاصة احتوت على غرائب الكتب والعلوم، وكان بها اثنا عشر ألف مجلد عندما احترقت.

5 - 5 - اهتمامه بالعمران والبناء والمستشفيات

كان السلطان محمد الفاتح مغرماً ببناء المعاهد والقصور والمستشفيات والخانات والحمامات والأسواق الكبيرة والحدائق العامة ، وأدخل المياه إلى المدينة بواسطة قناطر خاصة. شجع الوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء والأعيان على تشييد المباني وإنشاء الدكاكين والحمامات وغيرها من المباني التي

تعطي المدن بهاء ورونقاً ، واهتم بالعاصمة " إسلامبول " اهتماماً خاصاً ، وكان حريصاً على أن يجعلها " أجمل عواصم العالم" و"حاضرة العلوم والفنون".

كثر العمران في عهد الفاتح وانتشر، واهتم بدور الشفاء، ووضع لها نظاماً مثالياً في غاية الروعة والدقة والجمال، فقد كان يعهد بكل دار من هذه الدور إلى طبيب – ثم زيد إلى اثنين – من حذاق الأطباء من أي جنس كان، يعاونهما كحال وجراح وصيدلي وجماعة من الخدم والبوابين، وكان يُشترط في جميع المشتغلين بالمستشفى أن يكونوا من ذوي القناعة والشفقة والإنسانية، ووجب على الأطباء أن يعودوا المرضى مرتين في اليوم، وأن لاتصرف الأدوية للمرضى إلا بعد التدقيق من إعدادها، وكان يشترط في طباخ المستشفى أن يكون عارفاً بطهي الأطعمة والأصناف التي توافق المرضى منها، وكان العلاج والأدوية في هذه المستشفيات بالمجان ويغشاها جميع الناس بدون تمييز بين أجناسهم وأديانهم.

ولعلّ أبرز أثار السلطان العمرانية هو قصر الباب العالي الذي أمر بالبدء ببنائه قرابة عقد الستينات من القرن الخامس عشر، إضافة إلى مسجده الذي حمل اسمه ، وآيا صوفيا بطبيعة الحال التي أمر بتحويلها من كنيسة إلى مسجد.

آيا صوفيا، المآذن الأربعة تم بنائها بعد فتح القسطنطينية وتحويل الكنيسة إلى مسجد.

5 – 6 - الاهتمام بالتجارة والصناعة

اهتم السلطان محمد الفاتح بالتجارة الصناعة وعمل على إنعاشهما بجميع الوسائل والعوامل والأسباب . وكان العثمانيون على دراية واسعة بالأسواق العالمية ، وبالطرق البحرية والبرية وطوروا الطرق القديمة، وأنشؤوا الجسور الجديدة مما سهل حركة التجارة في جميع أجزاء الدولة، واضطرت الدول الأجنبية لمسايسة الدولة العثمانية ليمارس رعاياها حرفة التجارة في الموانئ المهمة العديدة في ظل الراية العثمانية . كان من أثر السياسة العامة للدولة في مجال التجارة والصناعة أن عم الرخاء وساد اليسر والرفاهية في جميع أرجاء الدولة ، وأصبحت للدولة عملتها الذهبية المتميزة ، ولم تهمل الدولة إنشاء دور الصناعة ومصانع الذخيرة والأسلحة ، وأقامت القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية في البلاد.

5 – 7 - الاهتمام بالتنظيمات الإدارية :

عمل السلطان محمد الفاتح على تطوير دولته ؛ ولذلك سنّ قوانين حتى يستطيع أن ينظم شؤون الإدارة المحلية في دولته ، وكانت تلك القوانين مستمدة من الشريعة الإسلامية.

وضع السلطان الفاتح أنظمة جديدة سار عليها من جاء بعده ، فأطلق على الحكومة العثمانية اسم " **الباب العالي** " وجعل لها أربعة أركان ، هم :الصدر الأعظم وقاضي العسكر والدفتردار والنيشانجي.

شكل السلطان محمد لجنة من خيار العلماء لتشرف على وضع " **قانون نامه** " المستمد من الشريعة الاسلامية , وجعله أساساً لحكم دولته ، وكان هذا القانون مكوناً من ثلاثة أبواب، يتعلق بمناصب الموظفين وببعض التقاليد وما يجب أن يتخذ من التشريفات والاحتفالات السلطانية وهو يقرر كذلك العقوبات والغرامات ، ونص صراحة على جعل الدولة حكومة إسلامية قائمة على تفوق العنصر الإسلامي أياً كان أصله وجنسه ، وقد استمرت المبادئ الأساسية لهذا القانون سارية المفعول في الدولة العثمانية حتى عام 1839م ، الموافق لعام 1255هـ .

اهتم محمد الفاتح بوضع القوانين التي تنظم علاقة السكان من غير المسلمين بالدولة ومع جيرانهم من المسلمين، ومع الدولة التي تحكمهم وترعاهم، وأشاع العدل بين رعيته، وجدّ في ملاحقة اللصوص وقطاع الطرق، وأجرى عليهم أحكام الإسلام، فاستتب الأمن وسادت الطمأنينة في ربوع الدولة العثمانية.

وعندما كانت الدولة تعلن الجهاد وتدعوا أمراء الولايات وأمراء الألوية، كان عليهم أن يلبوا الدعوة ويشتركوا في الحرب بفرسان يجهزونهم تجهيزاً تاماً ، وذلك حسب نسب مبينة ، فكانوا يجهزون فارساً كامل السلاح قادراً على القتال عن كل خمسة آلاف آقجه من إيراد اقطاعه ، فإذا كان إيراد إقطاعه خمسمائة ألف آقجة مثلاً كان عليه أن يشترك بمائة فارس ، وكان جنود الإيالات مؤلفة من مشاة وفرسان، وكان المشاة تحت قيادة وإدارة باشوات الإيالات وبكوات الألوية .

قام محمد الفاتح بحركة تطهير واسعة لكل الموظفين القدماء غير الأكفاء وجعل مكانهم الأكفاء، واتخذ الكفائة وحدها أساساً في اختيار رجاله ومعاونيه وولاته.

5 – 8 - اهتمامه بالجيش والبحرية

تميز عصر السلطان محمد الفاتح بجانب قوة الجيش البشرية وتفوقه العددي، بإنشاءات عسكرية عديدة متنوعة ، فأقام دور الصناعة العسكرية لسد احتياجات الجيش من الملابس والسروج والدروع ومصانع الذخيرة والأسلحة، وأقام القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية، وكانت هناك تشكيلات متنوعة في تمام الدقة وحسن التنظيم من فرسان ومشاة ومدفعية وفرق مساعدة ، تمد القوات المحاربة بما تحتاجه من وقود وغذاء وعلف للحيوان وإعداد صناديق الذخيرة حتى ميدان القتال.

كان هناك صنف من الجنود يسمى ، " **لغمجية** " وظيفته الحفر للألغام وحفر الأنفاق تحت الأرض أثناء محاصرة القلعة المراد الاستيلاء عليها وكذلك **السقاؤون** كان عليهم تزويد الجنود بالماء.

تطورت الجامعة العسكرية في زمن الفاتح وأصبحت تخرج الدفعات المتتالية من المهندسين والأطباء والبيطريين وعلماء الطبيعيات والمساحات، وكانت تمد الجيش بالفنيين المختصصين . استحق معه أن يعده المؤرخون مؤسس **الأسطول البحري العثماني**، ولقد استفاد من الدول التي وصلت إلى مستوى رفيع في صناعة الأساطيل مثل الجمهوريات الإيطالية وبخاصة البندقية وجنوة ، أقوى الدول البحرية في ذلك الوقت.

5 – 9 - اهتمامه بالعدل

إن إقامة العدل بين الناس كان من واجبات السلاطين العثمانيين ، وكان السلطان محمد شأنه في ذلك شأن من سلف من آبائه – شديد الحرص على إجراء العدالة في أجزاء دولته ، ولكي يتأكد من هذا الأمر كان يرسل بين الحين والحين إلى بعض رجال الدين من النصارى بالتجوال والتطواف في أنحاء الدولة ، ويمنحهم مرسوماً مكتوباً يبين مهمتهم وسلطتهم المطلقة في التنقيب والتحري والاستقصاء لكي يطلعوا كيف تساس أمور الدولة وكيف يجري ميزان العدل بين الناس في المحاكم ، وقد أعطى هؤلاء المبعوثون الحرية الكاملة في النقد وتسجيل ما يرون ثم يرفعون ذلك كله إلى السلطان.

كانت تقرير هؤلاء المبعوثين المسيحيين تشيد دائماً بحسن سير المحاكم وإجراء العدل بالحق والدقة بين الناس بدون محاباة أو تمييز، وكان السلطان الفاتح عند خروجه إلى الغزوات يتوقف في بعض الأقاليم وينصب خيامه ليجلس بنفسه للمظالم ويرفع إليه من شاء من الناس شكواه ومظلمته.

اعتنى الفاتح بوجه خاص برجال القضاء الذين يتولون الحكم والفصل في أمور الناس، فلا يكفي في هؤلاء أن يكونوا من المتضلعين في الفقه والشريعة والاتصاف بالنزاهة والاستقامة وحسب بل لا بد إلى جانب ذلك أن يكونوا موضع محبة وتقدير بين الناس، وأن تتكفل الدولة بحوائجهم المادية حتى تسد طرق الإغراء والرشوة، فوسع لهم الفاتح في عيشهم كل التوسعة، وأحاط منصبهم بحالة مهيبة من الحرمة والقداسة والحماية. أما القاضي المرتشي فلم يكن له عند الفاتح من جزاء غير القتل .

كان السلطان الفاتح - برغم اشتغاله بالجهاد والغزوات - إلا أنه كان يتتبع كل ما يجري في أرجاء دولته بيقظة واهتمام ، وأعانه على ذلك ما حباه الله من ذكاء قوي وبصيرة نفاذة وذاكرة حافظة وجسم قوي ، وكان كثيراً ما ينزل بالليل إلى الطرقات والدروب ليتعرف على أحوال الناس بنفسه ويستمع إلى شكاواتهم بنفسه ، كما ساعده على معرفة أحوال الناس جهاز أمن الدولة الذي كان يجمع المعلومات والأخبار التي لها علاقة بالسلطنة وترفع إلى السلطان الذي كان يحرص على دوام المباشرة لأحوال الرعية ، وتفقد أمورها والتماس الإحاطة بجوانب الخلل في أفرادها وجماعاتها.

6 - وفاته وذكراه :

قاد السلطان حملة لم يحدد وجهتها ، لأنه كان شديد الحرص على عدم كشف مخططاته العسكرية حتى لأقرب وأعز قواده. وقد قال في هذا الصدد عندما سئل مرة :

" لو عرفته شعرة من لحيتي لقلعتها " ،

لكن المؤرخون يخمنون بأنها كانت إلى إيطاليا . عرض أهل البندقية على طبيبه الخاص " **يعقوب باشا** " أن يقوم هو باغتياله ، ولم يكن يعقوب مسلما عند الولادة فقد ولد بإيطاليا ، وقد ادعى الهداية ، وأسلم. بدأ يعقوب يدس السم تدريجيا للسلطان، ولكن عندما علم بأمر الحملة زاد جرعة السم .

وتوفى السلطان في يوم 3 مايو عام 1481م، الموافق 4 ربيع الأول سنة 886هـ عن ثلاث وخمسين سنة ، ومدة حكمه 31 عاما، قضاها في حروب متواصلة للفتح وتقوية الدولة وتعميرها، وأتم في خلالها مقاصد أجداده ، ففتح القسطنطينية وجميع ممالك وأقاليم آسيا الصغرى والصرب والبشناق وألبانيا، وحقق كثيرا من المنجزات الإدارية الداخلية التي سارت بدولته على درب الازدهار ومهدت الطريق أمام السلاطين اللاحقين ليركزوا على توسيع الدولة وفتح أقاليم جديدة. ومن مآثره أيضا وضعه أول مبادئ القانون المدني وقانون العقوبات، فأبدل العقوبات البدنية ، أي **العين بالعين والسنّ بالسنّ** ، وجعل عوضها الغرامات النقدية بكيفية واضحة أتمها السلطان سليمان القانوني لاحقا.

وقد انفضح أمر يعقوب فيما بعد، فأعدمه حرس السلطان . وصل خبر موت السلطان إلى البندقية بعد 16 يوما، جاء الخبر في رسالة البريد السياسي إلى سفارة البندقية في القسطنطينية ، واحتوت الرسالة على هذه الجملة " **لقد مات العقاب الكبير**". انتشر الخبر في البندقية ثم إلى باقي أوروبا، وراحت الكنائس في أوروبا تدق أجراسها لمدة ثلاثة أيام بأمر من البابا .

دُفن السلطان في المدفن المخصوص الذي أنشأه في أحد الجوامع التي أسسها في الأستانة، وترك ورائه سمعة مهيبة في العالمين الإسلامي والمسيحي .

وقد أنشأ جسر معلق بين طرفي إسطنبول في القرن العشرين وأطلق عليه اسم " جسر السلطان محمد الفاتح " ، تخليدا لذكراه .

جسر السلطان محمد الفاتح.

10 - بايزيد الثاني ابن محمد الفاتح

1 - تقديم :

بايزيد الثاني بن محمد الفاتح هو ثامن السلاطين العثمانيين، عاش بين عامي 1447 و 1512 ، وتقلد الحكم منذ عام 1481 ، عرف عنه أنه كان يؤلف الشعر، ويؤلف الموسيقى ويتقن فن الخط العربي.

ولد بايزيد في القرن التاسع الهجري، وكان أكبر أولاد أبيه السلطان محمد الفاتح. حكم في عهد أبيه مقاطعة أماسيا. تولى السلطنة بعد أبيه بعد أن نازعه أخوه جم عليها.

حصلت خلافات في عهده بين دولته والدولة المملوكية وتحاربت الدولتان حربا تم إبرام صلح بعدها.

وصلت الفتوحات في عهده لدولة البندقية التي انتصر عليها، فاستنجدت بملك فرنسا والبابا، فقامت حروب صليبية بين الطرفين.

ظهرت في عهده دولة روسيا سنة 886 هـ وأرسلت له سفيرها عام 897 هـ.

أجبر من قبل الإنكشارية في آخر حياته على التنازل عن الحكم لابنه سليم الأول سنة 918 هـ وهي نفس السنة التي توفي فيها.

2 - الصراع مع أخيه جم على السلطة

كان بايزيد أكبر أولاد السلطان محمد الفاتح ، وكان حاكماً في عهد أبيه مقاطعة القرمان ، وكان الولد الثاني للسلطان محمد الفاتح يُدعى (جم) ، والأمير بايزيد هو الذي سيتولى السلطنة بعد وفاة أبيه ، وكلا الولدين كانا بعيدين عن استانبول .

وكانت رغبة الصدر الأعظم **قرماني محمد باشا** في تولية الأمير جم ، لذا فقد أرسل من يخبره بوفاة والده كي يأتي وربما استطاع تسلم الأمر ، غير أن حاكم الأناضول **سنان باشا** أدرك اللعبة فقتل رسول الصدر الأعظم إلى الأمير جم قبل أن ينقل له الخبر ،

وكانت رغبة الانكشارية وعاطفتهم مع الأمير بايزيد فلما أخبروا بما فعل الصدر الأعظم قاموا عليه وقتلوه ونهبوا المدينة ، وأقاموا (**كركود**) نائباً عن أبيه حتى يصل بايزيد إلى عاصمته.

وصل الأمير بايزيد فاستقبله الانكشاريون ، وطلبوا منه العفو على ما فعلوا كما طلبوا منه طلبات نفذها لهم كلها ، وبويع بايزيد سلطاناً ، وتسلم الأمر ، ومع أنه كان محباً للسلم وللاشتغال بالعلم إلا أن أحوال البلد اقتضت أن يترك ما عرف ويتسلم الأمر بشدة.

عندما وصل خبر وفاة السلطان محمد الفاتح إلى ابنه **جم** سار إلى بورصة ، واحتلها عنوة ، ودعا أخاه السلطان بايزيد لتقسيم البلاد بينهما بحيث يستقل جم **بآسيا** ، ويستقبل بايزيد **بأوربا** ، فلم يوافقه السلطان وحاربه ، ودخل بورصة ففر **جم** ، والتجأ إلى المماليك عام 886 حيث بقي عاماً كاملاً عند السلطان **قايتباي** في القاهرة ، وبعدها انتقل إلى حلب ، وبدأ يراسل الأمير **قاسم** حفيد أمراء القرمان ، ووعده بإعادة إمارة القرمان إن تمكن الأمير **جم** أن يحكم الدولة العثمانية ، فسارا معاً للهجوم على قونية لكنهما فشلا فشلاً ذريعاً. وحاول الأمير **جم** المصالحة مع أخيه السلطان على أن يعطيه مقاطعة ، فرفض ذلك السلطان حيث فهم تقسيم الدولة ،

وانطلق الأمير **جم** إلى رهبان جزيرة **رودوس** فاستقبلوه ، غير أن السلطان اتصل بهم ، وطلب منهم إبقاء الأمير **جم** عندهم تحت الإقامة الجبرية مقابل دفع مبلغ من المال من السلطان للرهبان ، وعدم التعرض للجزيرة ما دام حياً فوافق الرهبان على ذلك ، ورفضوا تسليمه إلى ملك المجر ، ثم رفضوا تسليمه إلى إمبراطور ألمانيا ليتخذوه سيفاً يقاتلون به الدولة العثمانية ، ولكنه سلم بعدئذ إلى فرنسا ، ومنها إلى البابا ، ومات عام 900 وهو بهذه الصورة وقد استراح منه السلطان سواء أكان تحت الإقامة الجبرية أم عندما فارق الحياة.

3 - موقفه من مماليك مصر :

وحصلت خلافات مع مصر التي كان لها نفوذ على بعض الإمارات في جنوب الأناضول ، ووقع قتال بين الطرفين غير أن **باي تونس** قد أصلح بينهما ، خوفاً من زيادة القتال بين المسلمين على حين أن النصارى يتربصون الدوائر بالمسلمين ، ويسرون للخلافات التي تحدث بينهم.

4 - بايزيد الثاني والدبلوماسية الغربية :

فشل العثمانيون في فتح بلغراد ، وتوطدت الصلات مع بولونيا عام 895 ، ثم حدث الخلاف بينهما إذ كان كل من الجانبين يدعي الحماية على البغدان ، وقد اعترف أمير البغدان بالحماية العثمانية ، وقاتل معهم البولونيين.

وبدأت الدول تقترب من الدولة العثمانية ، وتطلب عقد الحلف معها للإفادة منها في قتال خصومها ، وخاصة الإمارات الإيطالية ، وقد حارب العثمانيون دولة البندقية ، وانتصروا عليها ، فاستنجدت بملك فرنسا والبابا ، وكانت حرباً صليبية بين الطرفين.

وظهرت **دولة روسيا** عام 886 حيث استطاع دوق موسكو **إيفان الثالث** من تخليص موسكو من أيدي التتار ، وبدأ بالتوسع.

وأدرك الأعداء ، أنهم لا يستطيعون مواجهة القوات الجهادية في حرب نظامية يحققون فيها أطماعهم لهذا لجأوا إلى أسلوب خبيث تستروا به تحت مسمى العلاقات الدبلوماسية لكي ينخروا في عظام الأمة ويدمروا المجتمع المسلم من الداخل ، ففي عهد السلطان بايزيد وصل أول سفير روسي إلى (إسلامبول) عام (898 هـ / 1492 م).

إن وصول السفير الروسي عام (1492م) على عهد دوق موسكو (إيفان) وما تابع ذلك ، وما أعطى له ولغيره من حصانة وامتيازات ، فتح الباب أمام أعداء الأمة الإسلامية لكشف ضعفها ومعرفة عوراتها ، والعمل على إفسادها والتآمر عليها بعد تدميرها وإضعاف سلطان العقيدة في نفوس أبنائها.

وفي عهد بايزيد الثاني في عام (886 هـ) استطاع دوق موسكو (إيفان الثالث) أن ينتزع إمارة (موسكو) من أيدي المسلمين العثمانيين ، وبدأ التوسع على حساب الولايات الإسلامية. ولا يعني ذلك أن السلطان (بايزيد) وقف موقفاً ضعيفاً أمام هذه الظروف ولكن الدولة كانت تمر بظروف صعبة في محاربتها لأعداء الإسلام على امتداد شبه جزيرة الأناضول ، وأوروبا الشرقية كلها ، فانشغلت بها.

5 - جهاده وفتوحاته :

وعلى الرغم من أن ذلك النزاع بين السلطان الجديد **بايزيد** وبين أخيه **جم** قد استغرق من جل وقته ، مما أوقف حركة الفتوحات إلى حدذ ما فترة من الوقت ؛ إلا أن بايزيد استأنف حركة الفتوحات ، حيث كان عهده حافلاً بحروبه على الجهتين : الأوربية، والآسيوية :

فعلى **الجبهة الأوربية** ، استمر بايزيد الثاني على نهج سياسة أبيه في محاولة التوسع في أوربة الشرقية وتثبيت أقدام الدولة العثمانية في هذه المنطقة. وتمكن من السيطرة الكاملة على الهرسك سنة 889هـ / 1484 م ، وعلى عدد من الدوقيات النمسوية (897 - 900هـ / 1492 - 1495م) ، واصطدمت الدولة مع هنغارية، ومع أن القوات العثمانية هزمت قرب فيلاتش Villach، فإنها نجحت في القضاء على القوى الكرواتية سنة 898 هـ / 1493 م ، ووقعت هنغارية معها هدنة لثلاث سنوات.

كما قامت الدولة العثمانية بشن حملة على مولدافية (البغدان) ، شمال غربي البحر الأسود، وكان السلطان نفسه على رأس تلك الحملة فاستولت على عدد من الحصون قوت قبضة العثمانيين على الطريق البرية المؤدية إلى شبه جزيرة القرم، التي كان خانُها التتري تابعاً للدولة العثمانية .

وأثار هذا الأمر بولندة، إذ انتصبت الدولة العثمانية سداً في وجه وصولها إلى البحر الأسود، فدخلت في حرب معها سنة 902 هـ / 1497 م ، تبغي منها ضم مولدافية إليها، إلا أن الدولة العثمانية صدتها، بل استولت على بعض مناطقها سنة 903 هـ / 1495 م ، وانتهت الحرب بعقد هدنة بين الطرفين سنة 906 هـ / 1499 م.

ومن جهة ثانية خاضت الدولة العثمانية حروباً مع دولة البندقية كانت هي الأخرى استمراراً لحروب السلطان محمد الفاتح (الثاني) . فقد هَدَّدت الدولة العثمانية، بوجودها القوى في بحر إيجة وفي شبه جزيرة البلقان، المراكز التجارية للبندقية، على سواحل شبه جزيرة المورة Morea ، وتجارتها في شرقي البحر المتوسط. ولذلك كان الصراع قوياً بين الطرفين، وتزايد، حين فرضت البندقية سيادتها على قبرص سنة 895 هـ / 1489 م . وانضم إلى البندقية في حربها، كل من البابا، وهنغارية سنة 904 هـ / 1499 م. وشجع بايزيد على خوض هذه الحرب باندفاع ، وفاة أخيه جم وقوة الأسطول الجديد الذي أنشأه. وانتهت الحرب بانتصار الدولة العثمانية، وتوقيع البندقية معها صلحاً سنة 908هـ / 1502 م ، نزلت لها فيه عن موانئ ليبانتو Lepanto، وكورون Coron، و نفارين Navarino على سواحل المورة ودورازو Durazzo، في ألبانية على ساحل الأدرياتيك.

أما على **الجبهة الآسيوية** فتشتمل حروب بايزيد الثاني على حربه مع دولة المماليك، وصراعه مع الدولة الصفوية.

فقد اصطدمت الدولة العثمانية ، لأول مرة منذ نشأتها، مع **دولة المماليك** على حدودها الجنوبية. ويرجع ذلك إلى رغبة كل من الدولتين في فرض سيادتها على منطقة كيليكية على طول جبال طوروس، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى، إلى إيواء المماليك لـ « **جم** » أخي السلطان بايزيد ، ومساعدتهم له في هجومه الثاني على أخيه، كما أشير سابقاً. وقد دامت هذه الحرب ست سنوات (890 - 896 هـ / 1485 – 1490 م) وكانت سجالاً، وقد هزم العثمانيون إبّانها في عدة معارك، وأهمها معركة **آغا جيري** Agha cayri قرب أضنة سنة 893 هـ / 1488 م . وانتهت بتوقيع صلح بين الطرفين، عادت بمقتضاه الحدود بينهما إلى ماكانت عليه.

ومع تلك العلاقات العدائية بين الدولتين، فإن السلطان بايزيد قدّم للدولة المملوكية مساعدات حربية كبيرة، حينما تصدت للبرتغاليين الذين أخذوا يهاجمون البلاد العربية والإسلامية المطلة على البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي للسيطرة على الطرق التجارية البحرية العربية.

أما اصطدام السلطان بايزيد الثاني **بالدولة الصفوية** في إيران ، فقد اتخذ في الواقع صورة قمع ثورة **أهلية شيعية** ، في سنة 917هـ / 1511م ، أثار أتباع الشاه إسماعيل الصفوي في جنوب غربي الأناضول ، ثورة شيعية قوية على الحكم العثماني ، ونهبوا **كوتاهية** ، وتقدموا نحو **بروصة** إلا أن الدولة العثمانية تصدت لهم وقضت على الثورة، وقتل قائدها **شاه قولي** كما قتل أيضاً **علي باشا** قائد القوات العثمانية.

6 - وقوفه مع مسلمي الأندلس :

تطورت الأحداث في شبه الجزيرة الأيبرية في مطلع العصور الحديثة ، فأصبح اهتمام الأسبان ينحصر في توحيد أراضيهم ، وانتزاع ما تبقى للمسلمين بها خصوصاً بعد ما خضعت لسلطة واحدة بعد زواج **إيزابيلا** ملكة قشتالة **وفرديناند** ملك أراغون ، فاندفعت الممالك الأسبانية المتحدة قبيل سقوط غرناطة في تصفية الوجود الإسلامي في كل أسبانيا ، حتى يفرغوا أنفسهم ويركزوا اهتمامهم على المملكة الإسلامية الوحيدة غرناطة ، التي كانت رمز للمملكة الإسلامية الذاهبة.

وفرضت أسبانيا أقسى الإجراءات التعسفية على المسلمين في محاولة لتنصيرهم وتضييق الخناق عليهم حتى يرحلوا عن شبه الجزيرة الأيبرية.

نتيجة لذلك لجأ المسلمون إلى القيام بثورات وانتفاضات في أغلب المدن الأسبانية التي يوجد بها أقلية مسلمة وخاصة غرناطة وبلنسية ، وأخمدت تلك الثورات بدون رحمة ولا شفقة من قبل السلطات الأسبانية التي اتخذت وسيلة تعميق الكره والحقد للمسلمين ، ومن جهة أخرى كان من الطبيعي أن يرنوا مسلموا الاندلس بأنظارهم إلى ملوك المسلمين في المشرق والمغرب لإنقاذهم ، وتكررت دعوات وفودهم ورسائلهم إليهم للعمل على إنقاذهم مما يعانوه من ظلم ، وخاصة من قبل رجال الكنيسة ودواوين التحقيق التي عاثت في الأرض فساداً وأحلت لنفسها كل أنواع العقوبات وتسليطها عليهم.

وكانت أخبار الأندلس قد وصلت إلى المشرق فارتج لها العالم الإسلامي. وبعث الملك **الأشرف** في مصر بوفود إلى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بالحرية ، في حين أن أبناء دينه في المدن الأسبانية يعانون أشد أنواع الظلم ، وقد هدد باتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه رعايا المسيحيين ، إذا لم يكن يكف ملك قشتالة وأرغون عن هذا الاعتداء وترحيل المسلمين عن أراضيهم وعدم التعرض لهم ورد ما أخذ من أراضيهم ، ولم يستجيب البابا والملكان الكاثوليكيان لهذا التهديد من قبل الملك الأشرف ومارسوا خطتهم في تصفية الوجود الإسلام في الأندلس .

وجددت رسائل الاستنجاد لدى السلطان العثماني بايزيد الثاني ، فوصلته هذه الرسالة :

(الحضرة العلية ، وصل الله سعادتها ، وأعلى كلمتها ، ومهد أقطارها ، وأعز أنصارها ، وأذل عداتها ، حضرة مولانا وعمدة ديننا ودنيانا ، السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين ، وسلطان الإسلام والمسلمين ، قامع أعداء الله الكافرين ، كهف الإسلام ، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام ، محي العدل ، ومنصف المظلوم ممن ظلم ، ملك العرب ، والعجم ، والترك والديلم ، ظل الله في أرضه ، القائم بسنته وفرضه ، ملك البرين وسلطان البحرين ، حامي الذمار ، وقامع الكفار ، مولانا وعمدتنا ، وكهفنا وغيثنا ، لا زال ملكه موفور الأنصار ، مقرونا بالانتصار ، مخلد المآثر والآثار ، مشهور المعالي والفخار ، مستأثراً من الحسنات بما يضاعف به الأجر الجزيل ، في الدار الآخرة والثناء الجميل ، والنصر في هذه الدار ، ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد ومجرد على أعداء الدين من بأسها ، ما يروي صدور السحر والصفاح ، وألسنة السلاح بأذلة نفائس الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأخاير مفارقة الأرواح للأجساد ، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يقوم الأشهاد) .

وكانت ضمن الرسالة أبيات القصيدة يمدح صاحبها فيها الدولة العثمانية والسلطان بايزيد ، ويدعو للدولة بدوام البقاء.

ثم وصفت القصيدة الحالة التي يعاني منها المسلمون وما تعرض له الشيوخ والنساء من هتك للإعراض وما يتعرض له المسلمين في دينهم حيث استطرد قائلاً :

سلام عليكم من عبيد تخلفوا ... بأندلس بالغرب في أرض غربة
أحاط بهم بحر من الردم زاخر ... وبحر عميق ذو ظلام ولجة
سلام عليكم من عبيد أصابهم ... مصاب عظيم يا لها من مصيبة
سلام عليكم من شيوخ تمزقت ... شيوخهم بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من وجوه تكشفت ... على جملة الأعلاج من بعدة سترة
سلام عليكم من بنات عوائق ... يسوقهم اللباط قهراً لخلوة
سلام عليكم من عجائز أكرهت ... على أكل خنزير ولحم جيفة

ويكرر المسلون ويجددوا الاستغاثة بالدولة العثمانية بعد تقديم هذه الشكوى :

فها نحن يا مولاي نشكو إليكم فهذا الذي نلناه من شر فرقة عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا كما عاهدونا قبل نقض العزيمة وإلا فيجلونا جميعاً عن أرضهم بأموالنا للغرب دار الأحبة فإجلاؤنا خير لنا من مقامنا على الكفر في عز على غير ملة فهذا الذي نرجوه من عز جاهكم ومن عندكم تقضي لنا كل حاجة ومن عندكم نرجو زوال كروبنا وما نالنا من سوء حال وذلة فأنتم بحمد الله خير ملوكنا وعزتكم تعلو على كل عزة فنسأل مولانا دوام حياتكم بملك وعز في سرور ونعمة وتهدين أوطان ونصر على العدا وكثرة أجناد ومال وثروة وثم سلام الله قلته ورحمة عليكم مدى الأيام في كل ساعة

كانت هذه هي رسالة الاستنصار التي بعث بها المسلمون في الأندلس ، لإنقاذ الموقف هناك ، وكان السلطان بايزيد يعاني من العوائق التي تمنعه من إرسال المجاهدين ، بالإضافة إلى مشكلة النزاع على العرش مع الأمير جم ، وما أثار ذلك من مشاكل مع البابوية في روما وبعض الدول الأوروبية ، وهجوم البولنديين على مولدافيا ، والحروب في ترانسلفانيا والمجر والبندقية ، وتكوين التحالف الصليبي الجديد ضد الدولة العثمانية من البابا **جويلس الثاني وجمهورية البندقية والمجر وفرنسا** ، وما أسفر عنه هذا التحالف من توجيه القوة العثمانية لتلك المناطق .

ومع ذلك قام السلطان بايزيد بتقديم المساعدة وتهادن مع السلطان المملوكي **الأشرف** لتوحيد الجهود من أجل مساعدة غرناطة ووقعا اتفاقاً بموجبه يرسل السلطان بايزيد أسطولاً على السواحل التابعة لمملكة أسبانيا ، وأن يجهز السلطان المملوكي حملات أخرى من ناحية أفريقيا ، وبالفعل أرسل السلطان بايزيد أسطولاً عثمانياً إلى الشواطئ الأسبانية ، وقد أعطى قيادته إلى **كمال رايس** الذي أدخل الفزع والخوف والرعب في الأساطيل النصرانية في أواخر القرن الخامس عشر ، كما شجع السلطان بايزيد المجاهدين في البحر بإبداء اهتمامه وعطفه عليهم ، بعد ذلك أخذ العثمانيون يستخدمون قوتهم البحرية في غرب المتوسط بتشجيع من هؤلاء المجاهدين وهذا الذي كان في وسع السلطان بايزيد الثاني فعله.

7 - أعماله الأخرى :

اهتم بايزيد بإنشاء المباني العامة وفعل الخيرات ، فبنى الجوامع والمدارس والعمارات ودور الضيافة والتكايا والزوايا والمستشفيات للمرضى والحمامات والجسور ، ورتب للمفتي ومن في رتبته من العلماء في زمنه كل عام عشرة آلاف عثماني ولكل واحد من مدرسي المدارس السلطانية ما بين سبعة آلاف وألفين عثماني ، وكذلك رتب لمشايخ الطرق الصوفية ومريديهم ولأهل الزوايا كل واحد على قدر رتبته ، وصار ذلك أمراً جارياً ومستمراً ، وكان يحب أهل الحرمين الشريفين مكة والمدينة .

وحدثت في زمانه زلازل عظيمة في القسطنطينية فخرّبت ألفاً وسبعين بيتاً ومئة وتسعة جوامع ، وجانباً عظيماً من القصور وأسوار المدينة ، وعطلت مجاري المياه ، وصعد البحر إلى البر فكانت أمواجه تتدفق فوق الأسوار ، ولبثت تلك الزلزلة تحدث يومياً مدة 45 يوماً ، وما أن سكنت الأمور كلف السلطان 15 ألفاً من العمال بإصلاح ما تهدم.

عاش سبعاً وستين عاماً ، وكان قوي البنية ، أحدب الأنف ، أسود الشعر رقيق الطبع ، محباً للعلوم ، مواظباً للدرس ، وشاعراً أديباً ، ورعاً تقياً ، يقضي العشرة الأخيرة من شهر رمضان في العبادة والذكر والطاعة ، وكان بارعاً في رمي السهام ، ويباشر الحروب بنفسه ، وكان يجمع في كل منزل حلّ من غزواته ما على ثيابه من الغبار ويحفظه ، ولما دنا أجل موته أمر بذلك الغبار فضرب منه لبنة صغيرة وأمر أن توضع معه في القبر تحت خدّه الأيمن ، ففعل ذلك ، وكان مدة ملكه إحدى وثلاثين سنة إلا أياماً.

وكان رحمه الله عالماً في العلوم العربية والإسلامية ، كما كان عالماً في الفلك ، مهتماً بالأدب مكرماً للشعراء والعلماء وقد خصص مرتبات لأكثر من ثلاثين شاعراً وعالماً ، كما كان هو نفسه شاعراً يمتاز شعره بعمق الإحساس بعظمة الله وقدرته .

8 – وفاته :

كان السلطان بايزيد الثاني قد عين أولاده الثلاثة الذين بقوا أحياء على الولايات ، فكان **كركود** والياً على **شرقي الأناضول** ، و**أحمد** على **أماسيا** ، و**سليم** على **طرابزون** ، كما عين حفيده **سليمان بن سليم** على مدينة (كافا) في شبه جزيرة القرم.

وكان **سليم** محارباً طموحاً فأراد أن يكون والياً على بعض المقاطعات في أوربا ليمارس الجهاد ، ويؤيده في ذلك الانكشارية والعسكريون عامة ، ولكن السلطان قد رفض من ابنه ذلك كما رفض الولد ولاية طرابزون ، وانتقل إلى ابنه سليمان في كافا ، ثم جمع جيشاً ، وسار إلى أوروبا وحاول السلطان تهديد ولده الذي أصر على القتال ، ونتيجة حبه للسلم تراجع عن قراره وعينه على بعض المقاطعات الأوروبية عام 916 ، فطمع سليم وسار إلى أدرنه ، وأعلن نفسه سلطاناً عليها ، فحاربه أبوه وهزمه ، وفر إلى القرم ، ثم تدخلت الانكشارية فعفا السلطان عنه ، وأعاده إلى أوروبا ، فسار به الانكشارية إلى استانبول .

أما الأمير **كركود** ، وهو الولد الكبير للسلطان فقد رأى أخاه سليماً يفرض رأيه لذا اتجه إلى مقاطعة صاروخان ، واستلمها دون أمر أبيه ، فحاربه وهزمه قبيل وفاته بقليل.

في 18 صفر 918هـ الموافق 125 أبريل 1512م ترك حكم الدولة لابنه سليم الأول وذلك بدعم من الجيش ، الذي كان ينظر إليه على أنه الأمل المرتجى في بعث النشاط الحربي للدولة العثمانية بصورة أوسع ودفع حركة الفتوحات إلى الأمام ، ولذلك بادر الجيش إلى معارضة والده وطلبوا من السلطان التنازل للأمير سليم عن الحكم ، فوافق واستقال عام 918 ، وانتقل السلطان ليعيش بعيداً عن الحكم فتوفي في الطريق وهو ذاهب إلى **ديمتوقة** فنقل نعشه إلى إسلامبول حيث دفن بجوار جامعه الشريف.

11 - سليم الأول ابن بايزيد الثاني (القاطع)

تقديم :

السلطان الغازي سليم الأوّل القاطع (بالتركية العثمانية غازى ياوز سلطان سليم خان أول؛ وبالتركية الحديثة: Yavuz Sultan Selim Han I أو I. Selim) هو تاسع سلاطين الدولة العثمانية وخليفة المسلمين الرابع والسبعون ، وأوّل من حمل لقب " **أمير المؤمنين**" من آل عثمان.

حكم الدولة العثمانية من سنة 1512 حتى سنة 1520.[3] يُلقب "بالقاطع" أو "الشجاع" عند الأتراك نظرًا لشجاعته وتصميمه في ساحة المعركة، ويُعرف بالغرب بأسماء سلبية، فعند الإنگليز مثلا سمي " **سليم العابس** " (بالإنگليزية: Selim the Grim)، نظرًا لما يقوله بعض المؤرخين بأنه كان دائمًا متجهم الوجه. وعند الفرنسيين عرف باسم **سليم الرهيب** (بالفرنسية: Selim le terrible).

وصل سليم إلى تخت السلطنة بعد انقلاب قام به على والده ، " بايزيد الثاني" ، بدعم من الإنكشارية وخاقان القرم ، ونجح بمؤازرتهم بمطاردة إخوته وأبنائهم والقضاء عليهم الواحد تلو الآخر، حتى لم يبق له منازع في الحكم . وفي عهده ظهرت السلالة الصفوية الشيعية في إيران وأذربيجان، ونشبت بينها وبين العثمانيين حرب ضروس انتصر فيها السلطان سليم ، ومن ثمّ حوّل أنظاره نحو السلطنة المملوكية فغزا أراضيها وقضى عليها نهائيًا بعد أن استمرت 267 سنة.

يتميز عهد السلطان سليم الأول عما سبقه من العهود بأن الفتوحات تحولّت في أيامه من الغرب الأوروبي إلى الشرق العربي ، حيث اتسعت رقعة الدولة اتساعًا كبيرًا لشملها بلاد الشام والعراق والحجاز وتهامة ومصر . وكان من نتيجة فتوحات السلطان سليم أن ازدهرت الدولة العثمانية , وأصبحت إحدى أهم دروب التجارة البريّة : طريق الحرير ودرب التوابل ، تمر في أراضي الدولة ، ولاكتسابها عدد من المرافئ المهمة في شرق البحر المتوسط والبحر الأحمر.

1 - حياته قبل السلطنة :

وُلد **سليم الأول** للسلطان " **بايزيد الثاني** " و" **عائشة گلبهار خاتون** " ، الأميرة من سلالة ذي **القدر التركمانية** ، في 10 أكتوبر سنة 1470م، الموافقة سنة 872 هـ، في مدينة أماسيا على ساحل البحر

الأسود في الأناضول. وهو أحد الأولاد الذكور الثمانية للسلطان بايزيد، الذين توفي منهم خمسة في صغرهم وبقي اثنان إلى جانب سليم هما **كركود** و**أحمد** . وكان هؤلاء الأمراء يختلفون في المشارب والآراء،

فكان "كركود" محبًا للعلوم والآداب والفنون ومشتغلاً بمجالسة العلماء والدراسة، لذا كان يمقته الجيش لعدم ميله للحرب، وكان " أحمد " محبوبًا لدى الأعيان والأمراء، وكان الصدر الأعظم " **علي باشا** " مخلصًا له. أما سليم فكان محبًا للحرب شرس الطباع ومحبوبًا لدى الجند عمومًا والإنكشارية خصوصًا . وخوفًا من وقوع الشقاق بين الأمراء لاختلافهم في وجهات النظر وتباينهم في الآراء، قام السلطان بايزيد بالتفريق بين أبنائه وعيّن "كركود" واليًا على إحدى الولايات البعيدة ، و"أحمد" على أماسيا، وسليمًا على طرابزون.

1 – 1 - حكم طرابزون

تولّى سليم إدارة سنجق طرابزون وهو ما زال في ربيعه الحادي عشر، واستمر يديره بحزم ودراية طيلة 29 سنة، من عام 1481 حتى عام 1510، فعاصر الأيام الأولى لبروز السلالة الصفوية في إيران وأذربيجان، وأدرك أن نفوذ الصفويين المتوسع شيئًا فشيئًا قد يُشكل خطرًا على الدولة العثمانية في المستقبل. أتقن سليم اللعبة السياسية خلال حكمه طرابزون وبرع فيها، فحسّن العلاقات العثمانية مع دول الجوار، وحمل على جورجيا عدّة حملات عسكرية لمعاقبة حكّامها على ما أطلقوه من الدعاية المعادية للعثمانيين، فغزا مدن قارص وأرضروم وأرتڤين الخاضعة للسيادة الجورجيّة، وضمها للدولة العثمانية سنة 1508، وكان من نتيجة ذلك أن اعتنق جميع الجورجيين المقيمين في تلك المدن الإسلام دينًا، وازداد تعلّق الجنود بسليم وإخلاصهم له على ما أظهره من الشجاعة وحسن التنظيم في تلك الحملات. وخلال هذه الفترة تزوّج سليم بوالدة وليّ العهد ، كما كان يُطلق على زوجات السلاطين، "**عائشة حفصة خاتون**" التي اختلف المؤرخون في تحديد أصلها ونسبها، وأنجب منها ولدًا ذكرًا هو " **سليمان** "، في 27 أبريل سنة 1495م، الموافق في أوّل شعبان سنة 900هـ.

1 – 2 - العصيان على السلطان وتنازله عن المُلك

في أواخر عهد السلطان بايزيد أضرم أولاده نار الحروب الداخلية لأسباب متعددة، ولم تخمد إلا بعد وفاته. فقد أقدم السلطان على تعيين الأمير سليمان بن ابنه سليم واليًا على "كافا" من بلاد القرم، فلم يرض سليم بهذا التعيين، بل ترك مقر ولايته وسافر إلى كافا بالقرم، وأرسل إلى أبيه يطلب منه تعيينه في إحدى ولايات أوروبا، فلم يقبل السلطان بل أصرّ على بقائه بطرابزون. وفي ذات الوقت خشي "أحمد" أكبر أولاد السلطان من أن سليمًا يسعى إلى العرش، فاغتنم مسألة انتصاره حديثًا على جيش مكوّن من تحالف **تركماني-صفوي** في آسيا الصغرى، وسار إلى القسطنطينية على رأس جنوده ليستعرض مقدرته العسكرية أمام والده وأشقاءه على حد سواء. وما أن علم سليم بفعل أخيه حتى أثار فتنة في تراقيا وعصى والده جهارًا، وسار بجيش جمعه من قبائل التتار إلى بلاد الروملّي، فأرسل والده جيشًا لإرهابه ، لكنه لمّا وجد من ابنه التصميم على المحاربة وعدم ارتداعه، قبل تعيينه بأوروبا حقنًا للدماء ، وعينه واليًا على مدينتيّ **"سمندريه" و"فيدن"** في الصرب، ورفض السماح لابنه الآخر "أحمد" بالدخول إلى العاصمة خوفًا من أن يُقدم الأخير على خلعه أو قتله ليتولى مقاليد السلطنة.

ولمّا وصل إلى " **كركود** " خبر نجاح أخيه سليم في مسعاه، انتقل إلى ولاية صاروخان واستلم إدارتها بدون أمر أبيه ليكون قريبًا من القسطنطينية عند الحاجة. وفي ذلك الوقت كان السلطان بايزيد قد دعا ديوانه للانعقاد والتشاور في مسألة تنصيب أحد الأمراء خلفًا له ، فاستقر الرأي على تنصيب الأمير " أحمد " سلطانًا ، فغضب سليم ما أن وصله الخبر، وأعلن الثورة على والده، فسار إلى مدينة أدرنة واستولى عليها وأعلن نفسه سلطانًا ، فأرسل والده إليه جيشًا قوامه 40,000 رجل فهزمه في الثالث من أغسطس سنة 1511 وألجأه إلى الفرار ببلاد القرم. وأرسل جيشًا آخر لمحاربة " كركود " بآسيا الصغرى، فهزمه أيضًا وفرّق جيشه، ثم كتب إلى " أحمد " يطلب منه المجيء إلى القسطنطينية فورًا وتولّي مقاليد الحكم ، فدخل المدينة في اليوم التالي وأعلن سلطانًا، ويُقال أن من أشاد بضرورة تنصيب "أحمد" على العرش كان الصدر الأعظم "علي باشا"، الذي لم يؤمن بأحقية سليم أو كركود في خلافة بايزيد.

ثار الإنكشارية في المدينة بعد أن تمّ تنصيب الأمير أحمد على العرش العثماني، ورفضوا الاعتراف به حاكمًا عليهم وطالبوا السلطان بايزيد بالعفو عن ابنه سليم وإعادته إلى ولاية **سمندرية** لشدة تعلقهم به،

واعتقادهم بأنه هو الوحيد المؤهل لدرء الخطر الصفوي عن الدولة العثمانية، لا سيما وأن شاه الصفويين، " **إسماعيل الأول بن حيدر**" ، كان يناصر الأمير أحمد في نضاله للوصول إلى سدّة الحكم،

فخاف الإنكشارية من أن يبدأ الصفويين بالتدخل في الشؤون التركية وينشروا المذهب الشيعي في البلاد كما فعلوا في إيران وأذربيجان، وكان سليم يشاطرهم هذا الخوف ويحمل كرهًا شديدًا للشاه بفعل دعمه لأخيه. وبناءً على إلحاح الإنكشارية، عفا السلطان عن ابنه سليم وسمح له بالعودة إلى ولايته، وفي أثناء توجهه إليها قابله الإنكشارية وأتوا به إلى القسطنطينية باحتفال زائد وساروا به إلى سراي السلطان وطلبوا منه التنازل عن المُلك لولده المذكور، فقبل وتنحّى عن العرش في يوم 25 أبريل سنة 1512م، الموافق في 8 صفر سنة 918هـ ، وتولّى سليم مقاليد الحكم رسميًا في الثالث والعشرين من مايو من نفس السنة.

وبعد أن تنازل بايزيد عن الحكم، سافر للإقامة ببلدة " **ديموتيقا** "، فتوفي في الطريق يوم 26 مايو سنة 1512م، الموافق في 10 ربيع الأول سنة 918هـ ، بهذه العقلية العسكرية والتسلط غير المحدود الذي تمتع به سليم الأول، استطاع أن يصل إلى تخت السلطنة، رغم ما وُضع في وجهه من عوائق.

2 - اعتلاؤه العرش ومحاربة إخوته

أقدم سليم بعد أن تُوّج سلطانًا على توزيع المكافآت على الإنكشارية كما جرت العادة قبل عهده، وزاد من ضرورتها في أيامه أنه لم يكن ليتربع على العرش لولا مساعي هؤلاء وضغطهم على والده. وما أن تولّى سليم مقاليد الحكم حتى أعلن أخاه أحمد العصيان ورفضه الخضوع له، ونصب نفسه حاكمًا على أنقرة، وأرسل ابنه "علاء الدين" فاحتل مدينة بورصة في 19 يونيو سنة 1512، وراسل الوزير "**مصطفى باشا**" يخبره عن عزمه توطيد نفوذه وخلع أخيه ووعده بمنصب كبير إن نقل إليه جميع تحركات سليم ونواياه.

وكان السلطان سليم قد عقد العزم على القضاء على إخوته وأولاد إخوته حتى يهدأ باله بداخليته ولا يبقى له منازعٌ في المُلك، فعيّن ابنه سليمان حاكمًا للقسطنطينية، وسافر بجيوشه إلى آسيا الصغرى، فاقتفى أثر أخيه أحمد إلى أنقرة، ولم يتمكن من القبض عليه لوصول خبر قدومه إليه عن طريق الوزير "مصطفى باشا". لكن علم السلطان بهذه الخيانة فقتل الوزير شر قتلة جزاءً له وعبرة لغيره، ثم ذهب إلى بورصة حيث قبض على خمسة من أولاد إخوته بما فيهم "علاء الدين" سالف الذكر، وأمر بقتلهم جميعًا.

وبعدها توجّه بسرعة إلى صاروخان مقر أخيه "كركود" ففر منه إلى الجبال، وبعد البحث عنه عدّة أسابيع قُبض عليه وقُتل. أما أحمد فجمع جيشًا من محازبيه وقاتل الجنود العثمانية، فانهزم وقُتل بالقرب من مدينة يكي شهر في يوم 24 أبريل سنة 1513م، الموافق في 17 صفر سنة 919هـ.

وبهذا استفرد سليم بالحكم واطمأن خاطره من جهة داخليته، فعاد إلى مدينة أدرنة حيث كان بانتظاره سفراء من قبل جمهورية البندقية ومملكة المجر ودوقيّة موسكو والسلطنة المملوكيّة، فأبرم مع جميعهم هدنة لمدة طويلة بما أن مطامعه كانت متجهة إلى بلاد فارس التي كانت أخذت في النموّ والاتساع في عصر ملكها، الشاه "إسماعيل الأوّل بن حيدر الصفوي".

3 - الحملة الصفويّة

3 – 1 - خلفيّة النزاع

ظهرت السلالة الصفويّة الشيعية في إيران على يد الشاه "إسماعيل الأوّل بن حيدر الصفوي" عام 1499، واستطاعت بزعامته أن تهدد بالخطر إمبراطورية العثمانيين في الشرق، حيث كان إسماعيل قد وسّع من نفوذه وضمّ إلى ملكه عدد من البلدان، فكان قد فتح ولاية شيروان، وجعل مركزه مدينة تبريز سنة 1501، وبعدها فتح العراق العربي وبلاد خراسان وديار بكر سنة 1508، وأرسل أحد قوّاده فاحتل مدينة بغداد. وفي سنة 1510 كان قد ضمّ إلى أملاكه كل بلاد فارس وأذربيجان، وبذلك امتدت مملكته من الخليج العربي إلى بحر قزوين، ومن منابع الفرات إلى ما وراء نهر جيحون.

وكان إسماعيل قد فرض المذهب الشيعي على شعبه، وأعلنه مذهبًا رسميًا للدولة في إيران، وكانت ردود الفعل عنيفة خاصة وأن كثيرًا من سكان المدن الرئيسية في إيران مثل تبريز كانوا سنّة . فقام باستمالة

قبائل **القزلباش التركية علوية المذهب** إلى جانبه مما جعلهم عماد جيشه، وهي كانت بالأساس متذمرة من التدابير المالية والإدارية العثمانية بل وهيأت السبيل لحدوث اضطرابات كبيرة في الأناضول ، مما جعله يعتمد عليهم بالقضاء على جميع معارضيه، وفرض المذهب الشيعي بالقوة، فقضى على دولة الخروف الأبيض وقد كانت تشكل حاجزًا بينه وبين العثمانيين. فباتت الدويلات الكردية والقبائل التركية في جبال طوروس الصغرى، والأقليات المسيحية في أرمينيا كلها من ممتلكات الشاه حسب ادعائهم. وعندما احتل بغداد عام 1508، هدم ما كان فيها من قبور أئمة سنة وذبح أهل السنة ببغداد الذين لم يتحولوا للمذهب الشيعي .

وفي الوقت نفسه اتسمت العلاقات بين الصفويين والعثمانيين بالفتور، فبعد أن تسلّم السلطان سليم الحكم لم يصله سفير من إيران كما باقي الدول، فأدرك الجميع في هذا الوقت بالذات أن الحرب ستقع بين سليم وخصمه الشاه إسماعيل . وكان سليم الأول ينظر بعين الارتياب إلى تحركات الصفويين، لاسيما بعد إرسال الشاه إسماعيل وفدًا ضخمًا إلى قنصوه الغوري سلطان المماليك، ضم 200 عبد لإبلاغه عن تلك الحرب المتوقعة ودعوته للتحالف معه ضد السلطان سليم، حيث بيّن له إنه إن لم يتفقا حاربت الدولة العثمانية كلاً منهما على حدة وقهرته وسلبت أملاكه ، فعزم سليم على مهاجمة خصمه الصفوي وتسديد ضربة قوية قبل أن يستعد للنزال. لذلك أرسل هو الآخر وفدًا إلى المماليك دعاهم إلى التحالف، لكن بعد مباحثات طويلة آثر المماليك التزام الحياد ، وإن كانوا يميلون لجانب الصفويين. أضف إلى ذلك أنه لمّا عصى السلطان سليم وإخوته والدهم السلطان بايزيد الثاني، ساعد الشاه إسماعيل الأمير أحمد على والده ثمّ على أخيه من بعده واستقبل من فرّ من أولاده عنده، فكان هذا سببًا إضافيًا جعل السلطان سليم يعتبر الشاه إسماعيل خصمه الألدّ ويقرر الانتقام منه.

3 – 2 - السبب الرئيسي والاستعداد للحرب

\بعدما فرغ السلطان سليم من مشاكله مع إخوته، وعقد الصلح مع جيرانه الأوروبيين لا سيما مع المجر، سعى لإيجاد سبب للحرب، فأمر بحصر عدد الشيعة المنتشرين في الولايات المتاخمة لبلاد فارس بشرق الأناضول وقتلهم جميعًا، ويُقال إن عددهم كان يبلغ نحو الأربعين ألفًا من القزلباش ردًا على مجازر الصفويين للسنّة بالعراق وتبريز وأذربيجان ، وحتى يقضي على أي تمرد قد يحدث مستقبلاً.

عندئذ هبّ الشاه إسماعيل يُطالب بثأر هؤلاء، وهاجم آسيا الصغرى ، فجمع السلطان سليم رجال الحرب والعلماء والوزراء في مدينة أدرنة بتاريخ 16 مارس سنة 1514م، الموافق في 19 محرم سنة 920هـ، وذكر لهم خطورة إسماعيل الصفوي في إيران، وأنه اعتدى على حدود الدولة العثمانية، وأنه عامل أهل السنة والجماعة بعنصرية في دولته وفي آسيا الوسطى والهند وأفغانستان وإنه يجب الذب عن إخوانهم في تركيا والعراق ومصر. ولهذا يرى ضرورة إعلان الجهاد المقدس ضد الدولة الصفوية. ولم يجد السلطان العثماني صعوبة في إقناع الحاضرين بضرورة محاربة الصفويين، وخرج بعد 3 أيام من هذا الاجتماع على رأس جيش كبير من أدرنة إلى القسطنطينية متجهًا إلى الأناضول الشرقي فتبريز بعد أن أوكل أمر العاصمة لابنه سليمان .

وفي أثناء مسيره، تبادل السلطان سليم والشاه إسماعيل رسائل مفعمة بالسباب مرفقة بعدد من الأغراض هدف كل منهما إلى التأثير على الآخر من خلالها. ولم يبد إسماعيل الصفوي حماسًا للمعركة بسبب التفوق العددي للعثمانيين، وحاول أن يتجنب ملاقاة سليم فأرسل إليه بطلب الهدنة وتجديد علاقات السلم والصداقة بين الدولتين، فلم يقبل سليم وقتل الرسول وأرسل إليه برسالة إعلان الحرب بشكل رسمي يقول فيها وباللغة التركية : « *إن كنت رجلاً فلاقني في الميدان، ولن نمل انتظارك*».[وأرفقها بمجموعة من الألبسة النسائية والعطور وأدوات الزينة وذلك استهزاءً بشخص الشاه لتهربه وتقاعسه من المسير إليه ويستعجله بالحرب،

وكان الشاه عازمًا على سحب العثمانيين إلى الجبال الإيرانية حيث تمكنه طبيعة الأراضي ومشاكل التموين من موازنة القوتين، ولكن ضغط قبائل القزلباش التي أغضبها اتهام العثمانيين لهم بالجبن ومطالبتها له بخوض غمار القتال جعله يقبل تحدي السلطان سليم وواعده بسهل "چالديران" في آذربيجان الغربية قائلاً له: « *وأنا أيضا أعد العدة للحرب*».

3 – 3 - معركة چالديران

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

إقرأ تفاصيل المعركة وأثرها على الطرفين لاحقا من كتابنا هذا

4 - الحملة المملوكيّة

4 – 1 - خلفيّة النزاع

كان لهذه الحملة أسباب عديدة منها الصراع على الحدود بين الدولتين وموقف المماليك من الصفويين وإيوائهم لأمراء عثمانيين فارين من السلطنة العثمانية واستغاثة أهل الشام بالعثمانيين من ظلم المماليك حيث كتبوا رسالة باسم العلماء والفقهاء والقضاة يطلبون من سليم الأول تخليصهم من ظلم المماليك الذي طال المال والنساء والعيال، كما عطلوا تطبيق الشريعة الإسلامية في حكم البلاد، وطلبوا أن يرسل السلطان وزير ثقة ليلتقي بكبار الرجالات ليؤمن ويطمئن قلوب الشعب .

وكان السلطان سليم، في أثناء حملته على الصفويين، قد اتصل بحاكم **مرعش وألبستان** ، **" علاء الدولة "** أمير سلالة **" ذي القدر"** التركمانية التي كانت تسيطر على وادي طوروس من مرعش إلى ألبستان وملطية ، حيث تلتقي منطقة نفوذ المماليك الشراكسة بالفرس ، طالبًا منه المساهمة في حرب الصفويين ، لكن علاء الدولة اختلق الأعذار في عدم المجيء إليه، متعللاً بكبر سنه وإنه لا يستطيع القيام بأي مجهود لكونه تحت الحماية المملوكية. ومإن مضى السلطان في طريقه حتى هاجم علاء الدولة ساقة الجيش بإيعاز من السلطان قنصوه الغوري ،

فأرسل السلطان للغوري يخبره بما فعل علاء الدولة، فرد عليه الغوري بكتاب : " إن علاء الدولة عاص فإن ظفرت به فاقتله "، وفي الوقت نفسه أرسل إلى علاء الدولة يشكره على فعله ويغريه بالاستمرار بتصلبه تجاه العثمانيين.

وبسبب ذلك ترك السلطان سليم 40 ألفًا من جنده ما بين سيواس وقيصرية، للحفاظ على الأمن بالأناضول من أي اختراق قد يحصل من أي جهة من الجهات التي تنافسه، ولحماية مؤخرة الجيش من أنصار الشاه وقوات ذي القدر. كذلك أرسل السلطان إلى قنصوه الغوري، قبل وصوله لچالديران، رسالة فيها تهديد مبطن يخبره بأن الدولة الصفوية غدت قاب قوسين أو أدنى من الزوال . ولم ينس السلطان فعلة علاء الدولة، فانتقم منه عند عودته، وذلك بأن أرسل الصدر الأعظم وابن أخي علاء الدولة **"علي بن شاهسوار"** للقضاء عليه من جهة، ولإتمام السيطرة العثمانية على التخوم الشمالية للشام من جهة أخرى، ولم يعد الصدر الأعظم للسلطان إلا بعد قتل علاء الدولة في أرض المعركة . ولمّا كان علاء الدولة قد اعترف قبل ذلك بسيادة المماليك عليه، فقد بدأ النزاع بين السلطان سليم وبين المماليك الذين كانوا يحكمون آنذاك الشام ومصر.

ومهما يكن من أمر، فقد كانت هناك أسباب للنزاع بين سليم والمماليك أعمق من هذا بكثير. ذلك أن السلطان سليم كان يطمع على ما يظهر في توحيد جميع البلدان السنيّة تحت تاجه، وانتزاع المدينتين المقدستين، مكة والمدينة المنورة، من أيدي المماليك. وقد خشي المماليك سياسة سليم التوسعيّة هذه، فعقدوا المحالفة سالفة الذكر مع الشاه إسماعيل الصفوي.

4 – 2 - فتح الشام ومعركة مرج دابق :

أخذ السلطان سليم بالاستعداد لمحاربة المماليك بكل ما أوتي من قوّة بعد أن تغلّب على أمير سلالة ذي القدر، ولما عرف سلطان المماليك بتأهب سلطان آل عثمان لمحاربته، أرسل إليه رسولاً يعرض عليه أن يتوسط بينه وبين الفرس لإبرام الصلح ، فلم يقبل سليم بهذا الأمر بل طرد السفير بعد أن أهانه ، فلم يجد السلطان " قنصوه الغوري " بدًا من الحرب، فسار إلى مدينة حلب على رأس جيش كبير لكي يكون على استعداد لكل هجوم قد يشنه العثمانيون على الشام. ولم يكد السلطان سليم يعلم باحتشاد المماليك عند حلب حتى عقد ديوانه في القسطنطينية لمشاورته في الأمر، فقرّر الديوان إعلان الحرب على المماليك بعد أن يوفد إليهم سفراء يفاوضونهم في الدخول في طاعة السلطان سليم.

وارتكب قنصوه الغوري غلطة سياسية كبيرة عندما أغلظ معاملة السفراء العثمانيين وأهانهم ردًا على ما فعله سليم مع سفيره، فلم يكن بُدّ من نشوب الحرب بينه وبين السلطان سليم. وبعد هذه الحادثة، سار السلطان سليم بجيشه إلى بلاد الشام قاصدًا مصر ومدينة القاهرة ، مقر السلاطين المماليك .

واتصل السلطان الغوري بنائب دمشق من قبل المماليك، "**جان بردي الغزالي**"، وطلب منه أن يجمع الجيوش في لبنان وسوريا ويسير لملاقاته في حلب، فطلب الغزالي بدوره من أمراء لبنان، وعلى رأسهم " **فخر الدين المعني الأوّل**"، **أمير الشوف**، أن يجمعوا قواتهم ويحضروا إليه. نزل فخر الدين الأول وباقي الأمراء عند رغبة الغزالي، ومشوا إليه على رأس قوّة من الجنود اللبنانيين . تقابل الجيشان، العثماني والمملوكي، بالقرب من مدينة حلب في واد يُقال له " **مرج دابق** "، وهناك نشبت المعركة الحاسمة بين الفريقين التي قررت مصير سوريا كلها، وأبدى المماليك في هذه المعركة ضروبًا من الشجاعة والبسالة، وقاموا بهجوم خاطف زلزل أقدام العثمانيين، وأنزل بهم خسائر فادحة، حتى فكّر السلطان سليم في التقهقر، وطلب الأمان، غير أن هذا النجاح في القتال لم يدم طويلا فسرعان ما دب الخلاف بين فرق المماليك المحاربة، حيث انقلب الغزالي على المماليك، وانضم هو وفخر الدين المعني الأوّل إلى قوّات السلطان سليم ، فقاتلا معه. وبذلك رجحت كفّة العثمانيين على كفّة قنصوه الغوري . وكان لسلاح المدفعيّة الذي عززه العثمانيين وأهمله المماليك كبير الأثر في نصر العثمانيين . وقُتل السلطان الغوري أثناء انسحاب المماليك وعمره ثمانون سنة ، وكان ذلك يوم الأحد في 24 أغسطس سنة 1516م، الموافق في 25 رجب سنة 922هـ.

وبعد هذه الموقعة احتل السلطان سليم بكل سهولة مدن حماه وحمص ودمشق، وعيّن الغزالي واليًا عليها مكافأة له على انحيازه للعثمانيين ، وقابل من بها من العلماء، فأحسن وفادتهم. وفرّق الإنعامات على المساجد وأمر بترميم المسجد الأموي بدمشق. ولمّا صلّى السلطان الجمعة به، أضاف له الخطيب عندما دعا له عبارة " ***حاكم الحرمين الشريفين*** "، لكن سليمًا فضّل استخدام لقب أكثر ورعًا هو " ***خادم الحرمين الشريفين*** "، واستمر باقي السلاطين من بعده يُلقبون به، وتوارثه بعدهم ملوك آل سعود في القرن العشرين.

كذلك استقبل السلطان وفدًا من أمراء لبنان جاء يهنئه بالنصر، وكان في عداد الوفد "**فخر الدين المعني الأوّل" أمير الشوف، و"عسّاف التركماني" أمير كسروان وجبيل، و"جمال الدين الأرسلاني**". فألقى الأمير فخر الدين بين يديّ السلطان سليم خطبة دعا له فيها بالعز والتوفيق وأن يجعل الله عهده عهد إسعاد للأمة الإسلامية. فأعجب السلطان ببلاغة فخر الدين إعجابًا شديدًا، لا سيما وأنه كان يفهم ويتحدث اللغة العربية بطلاقة، فقدّم فخر الدين على سائر الأمراء اللبنانيين ومنحه لقب "**سلطان البر**" وأقرّه على ولاية الشوف وما جاورها، واعترف له بحق سلالته من بعده في أن يحكموها، كما أقرّ باقي الأمراء على مناطقهم. أما الأمراء **التنوخيون** الذين بقوا موالين للمماليك أثناء معركة مرج دابق، فقد عزلهم السلطان سليم عن بلاد الغرب - أي المناطق الساحلية الواقعة بين بيروت وصيدا، وعيّن مكانهم الأمير جمال الدين الأرسلاني. وبذلك ضمت سورية إلى الدولة العثمانية

4 – 3 - فتح مصر ومعركة الريدانية

بعد أن انتصر السلطان سليم على المماليك في سوريا، فُتحت أمامه الطريق نحو فلسطين ومصر. هذا ولما وصل خبر موت السلطان الغوري إلى مصر، انتخب المماليك "**طومان باي**" خلفًا له ، وأرسل إليه السلطان سليم يعرض عليه الصلح بشرط اعترافه بسيادة الباب العالي على القطر المصري، فلم يقبل وقتل المبعوثين العثمانيين ، واستعد لملاقاة الجيوش العثمانية عند الحدود.

وبناءً على هذا، عزم السلطان سليم على قتال طومان باي، فاشترى عدّة آلاف من الجمال وحمّلها مقادير وافرة من المياه ليشرب منها جنده وهم يجتازون الصحراء إلى الأراضي المصرية. والتقت مقدمتا الجيشين عند حدود بلاد الشام حيث هُزمت مقدمة المماليك ، وتابع العثمانيون زحفهم نحو مصر، فاحتلوا مدينة **غزة** على الطريق وساروا عابرين صحراء سيناء حتى وصلوا بالقرب من القاهرة. وكان طومان باي مرابطًا في **الريدانيّة**، وهي قرية صغيرة تقع على الطريق المؤدية إلى القاهرة ، فحفر خندقًا على طول الخطوط الأمامية، ووضع مدافعه الكبيرة وأعد أسلحته وبنادقه وحاول شحذ همة مماليكه وقواته ولكن دون جدوى؛ فقد جبن كثير منهم عن اللقاء حتى كان بعضهم لا يقيم بالريدانيّة إلا في خلال النهار حتى يراهم السلطان، وفي المساء يعودون إلى القاهرة للمبيت في منازلهم. ولم يكن من شأن جيش كهذا أن يثبت في معركة أو يصمد للقاء أو يتحقق له النصر، فحين علم طومان باي وهو في الريدانية بتوغل العثمانيين في البلاد المصرية حاول جاهدًا أن يقنع أمراءه بمباغتة العثمانيين عند **الصالحية** ، وهم في حالة تعب

وإعياء بعد عبورهم الصحراء، لكنهم رفضوا، معتقدين أن الخندق الذي حفروه بالريدانيّة كفيل بحمايتهم ودفع الخطر عنهم ، لكنه لم يغن عنهم شيئاً، فقد تحاشت قوات العثمانيين التي تدفقت كالسيل مواجهة المماليك عند الريدانيّة عندما علمت تحصيناتها، وتحولت عنها، واتجهت صوب القاهرة، فلحق بهم طومان باي .

وفي 22 يناير سنة 1517، الموافق في 29 ذي الحجة سنة 922هـ، التحم الفريقان في معركة هائلة، وعلى الرغم من الخيانة التي بدرت من بعض ضباط المماليك، فقد أبدى سلاح الفرسان المملوكي شجاعة كبيرة في ذلك اليوم، فلم تكد المعركة تبدأ حتى كرّت ثلّة من فرسان المماليك المدججين بالسلاح الكامل على قلب القوّات العثمانية حيث كانت تخفق راية السلطان الخاصة، وكان على رأس الثلّة **طومان باي** نفسه. والواقع أن السلطان سليم لم ينجُ من تلك الهجمة إلا بأعجوبة، فقد أخطأ طومان باي بينه وبين الصدر الأعظم " **سنان باشا الخادم**"، حيث قبض عليه وقتله بيده ظنًا منه أنه السلطان سليم. غير أن ما أقدم عليه سلطان المماليك لم ينفع شيئاً، فذهبت كل جهوده أدراج الرياح أمام المدافع العثمانية، فاضطر طومان باي ومن بقي معه إلى الانسحاب إلى نواحي الفسطاط ، تاركين في ساحة الريدانية آلاف القتلى. وبهذا انتصر السلطان سليم على المماليك واستعدّ لدخول القاهرة، وكان الثمن الذي دفعه كلاً من العثمانيين والمماليك في هذه الحرب باهظًا للغاية، إذ بلغ مجموع خسائر الفريقين من الجنود حوالي 25,000 جندي.

4 – 4 - ما بعد الريدانيّة

وبعد المعركة ببضعة أيام، تحديدًا في يوم 23 يناير سنة 1517، الموافق في 8 محرم سنة 923هـ ، دخل السلطان سليم مدينة القاهرة في موكب حافل وقد أحاطت به جنوده الذين امتلأت بهم شوارع القاهرة ، يحملون الرايات الحمراء شعار الدولة العثمانية، وكُتب على بعضها "*إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا*"، وفي بعضها "*نصرٌ من الله وفتحٌ قريب*". ولم يكد السلطان يهنأ بهذا الفتح حتى باغته طومان باي في " **بولاق** "؛ واشترك معه المصريون في هذه الحملة المفاجئة، وأشعلوا في معسكر سليم الأول النيران، وظن الناس أن النصر آت لا محالة، واستمرت مقاومة المماليك أربعة أيام وليال، وظهروا فيها على العثمانيين، حتى إنه خطب لطومان باي في القاهرة في يوم الجمعة، وكان قد دعي لسليم الأول في الجمعة التي سبقتها،

غير أن هذا الفوز لم يحسم المعركة لصالح طومان باي؛ إذ سرعان ما لجأ الجنود العثمانيون إلى سلاح البنادق ، وأمطروا به من فوق المآذن الأهالي والمماليك، فأجبروهم على الفرار، وفرَّ طومان باي إلى " **البهنا** " التي تقع غربي النيل في جنوب القاهرة. وذهب ضحيّة هذه المناوشات من العثمانيين والمماليك وأهالي المدينة ما يبلغ خمسين ألف نسمة.

ظل طومان باي يعمل على المقاومة بما تيسر له من وسائل، واجتمع حوله كثير من الجنود وأبناء الصعيد حتى قويت شوكته، غير أنه أدرك أن هذا غير كاف لتحقيق النصر، فأرسل إلى سليم يفاوضه في الصلح، فاستجاب له السلطان العثماني، وكتب له كتابًا بهذا، وبعث به مع وفد من عنده إلى طومان باي، إلا أن بعض المماليك هاجموا الوفد وأفنوه عن بكرة أبيه ، فحنق السلطان سليم وغضب غضبًا شديدًا، وخرج لقتال طومان باي بنفسه، والتقى الجيشان قرب قرية " **الوردان** " بالجيزة حيث دارت معركة حامية استمرت يومين وانتهت بهزيمة طومان باي وفراره إلى **البحيرة**. وهنا أعلن السلطان سليم أنه يعفو عمّن يستسلم إليه من المماليك، فاستسلم ثمانمئة من زعمائهم إليه، ولكنه أمر بقتلهم جميعًا.

لجأ طومان باي إلى أحد مشايخ البدو بإقليم البحيرة طالبًا منه العون والحماية فأحسن استقباله في بادئ الأمر، ثم وُشي به إلى السلطان سليم، فسارع بإرسال قوة للقبض عليه فأتت به إليه. وكان السلطان قد أُعجب بشجاعة طومان باي وحزمه على القتال والدفاع عن ملكه على الرغم من كل العوائق ، فلم يفعل شيئا سوى معاتبته واتهامه بقتل أفراد الوفد الذي أرسله إليه للصلح، فنفى طومان باي التهمة عن نفسه، وبرر استمراره في القتال بإن الواجب يُحتم عليه ذلك . وكاد السلطان من شدّة إعجابه بجرأة وشجاعة طومان باي أن يعفو عنه، ولكنه لم يفعل تحت تأثير الوشاة الذين حرّضوا السلطان على قتله بحجة أن لا بقاء لملكه في مصر ما دام طومان باي على قيد الحياة.

عندئذ أمر السلطان بقتل طومان باي شنقًا، فنُفذ أمره في 13 أبريل سنة 1517، الموافق في 21 ربيع الأول سنة 923 هـ **بباب زويله** ، ودُفن الجثمان في القبر الذي كان السلطان الغوري قد أعدّه لنفسه . وبذلك انتهت دولة المماليك وسقطت الخلافة العبّاسية، وأصبحت مصر ولاية عثمانية.

مكث السلطان سليم بالقاهرة نحو شهر زار في خلالها جميع المساجد التاريخية بالمدينة وكل ما بها من الآثار، ووزع على أعيان المدينة العطايا والخلع السنيّة، وحضر الاحتفال الذي يُقام في مصر سنويًا لفتح **الخليج الناصري** عند بلوغ النيل الدرجة الكافية لريّ الأراضي المصرية، ثم حضر احتفال سفر **قافلة الحجاج** التي تُرسل معها كسوة الكعبة إلى مكة المكرمة وأرسل الصرّة المعتاد إرسالها إلى الحرمين الشريفين، من عهد السلطان **محمد " چلبي" الأوّل** ، بقصد توزيعها على الفقراء، وأبلغها إلى ثمانية وعشرون ألف دوكا.

وفيما كان السلطان سليم في القاهرة قدّم إليه شريف مكة ، " **محمد أبو نمي الثاني بن بركات** " ، مفاتيح الحرمين الشريفين كرمز لخضوعه واعتراف منه بالسيادة العثمانية على الأراضي المقدسة الإسلامية؛ وكانت هذه السيادة لسلاطين المماليك من قبل، وهكذا خضعت مكة المكرمة لسيطرة العثمانيين من غير حرب أو قتال .

ومما جعل لفتح وادي النيل أهمية تاريخية عظمى، أن **محمد الثالث " المتوكل على الله "** ، آخر ذريّة خلفاء بني العبّاس، الذي حضر أجداده القاهرة بعد الغزو المغولي لبغداد سنة 1258، وكانت له الخلافة بمصر اسمًا ، تنازل عن حقه في الخلافة الإسلامية إلى السلطان سليم، على الرغم من أن الأخير كان قد أعلن نفسه قبلاً خليفة للمسلمين في دمشق، وسلّمه الآثار النبوية ، وهي **بيرق وسيف وعباءة نبي الإسلام " محمد بن عبد الله "** صبى الله عليه وسلم . ومن ذلك التاريخ حمل كل سلطان عثماني لقب " **أمير المؤمنين"** و **"خليفة المسلمين"**.

وبعد أن أصبح السلطان خليفةً للمسلمين، خلع على نفسه لقب :

ملك البرّين، وخاقان البحرين، وكاسر الجيشين، وخادم الحرمين الشريفين –

ويقصد بهذا، سيطرته على عدد من الدول الآسيوية والأفريقية، وبالتحديد مصر، الأناضول، ومعظم أنحاء الهلال الخصيب، وسيطرته على البحر المتوسط وما يتفرع عنه من بحور، والبحار المتفرعة من المحيط الهندي، وهزيمته للجيوش الصفويّة والمملوكيّة، وحمايته للمدينتين المقدستين عند المسلمين، مكة والمدينة المنورة.

5 - بداية الصدام مع البرتغاليين

5 - 1 - خلفيّة النزاع

نشط البرتغاليون عبر عملياتهم العسكرية البحرية على مدن المغرب العربي الساحلية بالإضافة إلى المحيط الأطلسي، فبعد اكتشافهم لرأس الرجاء الصالح وضع البرتغاليون خطة كبرى هدفت الالتفاف حول العالم الإسلامي عبر المحيط الأطلسي، واقتضت الخطة السيطرة على المضائق المهمة التي تربط العالم العربي بالمحيط الهندي من مثل **مضيق هرمز وباب المندب واليمن وجزيرة هرمز** وغيرها بحيث يتأمن الطريق للمستعمرات البرتغالية في الهند.

أرادت البرتغال من هذه الخطة ضرب اقتصاد مصر وجمهورية البندقية واحتكار التجارة البحرية، وقد عُين " **ألفونسو دي ألبوكيرك** " قائدًا لهذه الحملة البحرية، وقد كان من أفكار ألبوكيرك دخول البحر الأحمر وسرقة قبر النبي محمد ومساومة المسلمين على القدس، بالإضافة إلى محاولة ربط النيل بالبحر الأحمر تمهيدا للهجوم على مصر.

تمكن البرتغاليون من السيطرة على المضائق الحساسة التي تربط العالم الإسلامي بالمحيط الهندي، وبعد سيطرتهم على جزيرة هرمز تكون حلف بين الشاه إسماعيل وألبوكيرك ضد الدولة العثمانية، وأثرت سياسة الاحتكار هذه على النشاط الاقتصادي في دولة المماليك إبان سقوطها فلم تعد البضائع الشرقية تباع وتشترى في مصر بل في لشبونة عاصمة البرتغال، ولم تتمكن السلطنة المملوكية من قهر البرتغاليين لانشغال أسطولها في البحر المتوسط بمحاربة فرسان القديس يوحنا وجيوشها البرية بقمع الاضطرابات الداخلية وصد الجيوش العثمانية.

5 – 2 - ضم الجزائر

وعندما تمكن العثمانيون من مصر في عهد السلطان سليم سارعوا في محاربة البرتغاليين وسار أسطول بحري بقيادة **"مير علي بك"** إلى الساحل الأفريقي واستطاع تحرير **مقديشو** ومدنًا أخرى وأنزل بالبرتغاليين خسائر فادحة.

وفي هذه الفترة كان نجم أحد القباطنة المسلمين، واسمه **"خير الدين بربروس باشا"**، قد سطع. وخير الدين هذا من أصول يونانيّة، كان يعمل وأخاه **"عرّوج"** بالقرصنة ببحر الروم، ثم أسلما ودخلا في خدمة السلطان **"محمد الحفصي" صاحب تونس** واستمرّا في حرفتهما وهي أسر المراكب الأوروبية التجارية وأخذ كافة ما بها من بضائع وبيع ركّابها وملاحيها بصفة رقيق.

وفي ذات يوم أرسلا إلى السلطان سليم إحدى المراكب المأسورة إظهارًا لخضوعهما لسلطانه، فقبلها منهما، وأرسل لهما خلعًا سنيّة وعشر سفن ليستعينوا بها على غزو السفن البرتغالية ومساندة الدولة العثمانية في حربها ضد البرتغال ، فقويت شوكتهما وأقدم خير الدين على الاستيلاء على ثغر مدينة **"شرشال"** بالجزائر، ثم عاد إلى تونس وأرسل إلى السلطان سليم بمصر رسولاً يؤكد لديه إخلاصه وولائه للسدّة السلطانية العثمانية.

أما عرّوج، فبعد أن استولى على مدينة الجزائر وهزم الجيوش الإسبانية التي أرسلها الإمبراطور **"كارلوس الخامس"** المعروف باسم **"شارلكان"**، لمساعدة أمير الجزائر على المقاومة، فتح أيضًا مدينة **"تلمسان"**، وقُتل في محاربة الإسبان بعد ذلك، فحفظ خير الدين المدن المفتتحة حديثًا ومنع الإسبان من السيطرة عليها وقتل أمير الجزائر.

وفي خضم الأحداث أرسل أهل الجزائر رسالة إلى السلطان سليم بمصر باسم الخطباء والفقهاء والعلماء والتجار والأعيان تطلب الانضواء تحت الراية العثمانية والمساعدة للوقوف في وجه الإسبان والبرتغاليين، فسارع السلطان سليم بمنح بربروس لقب **"بكلر بك الجزائر"** وأرسل فرقة من المدفعية وألفي إنكشاري وفتح الباب أمام المتطوعين للذهاب إلى الجزائر لمناصرة أهلها وخص المتطوعين بامتيازات الإنكشارية تشجيعًا لهم كما شرع العثمانيون بإنشاء أسطول بحري ثابت للجزائر، وصكت النقود باسم السلطان سليم الأول، ودعي له على منابر المساجد في خطب الجمعة، وبذا صار هذا الإقليم ولاية عثمانية.

5 - ما بعد الفتوحات

في أوائل شهر سبتمبر سنة 1517، سافر السلطان سليم من القاهرة عائدًا إلى القسطنطينية، التي صارت حينها مقر الخلافة الإسلامية، وكان سفره عن طريق بلاد الشام مصطحبًا معه آخر بني العبّاس، وعيّن الأمير **"خاير بك الجركسي"** واليًا على مصر، والأخير هو أحد أمراء المماليك الذين خانوا طومان باي وانضموا إلى السلطان سليم وعمل لديه سرًا، وكان له دور كبير في انكسار جيش المماليك في مرج دابق والريدانية، حيث بثّ إشاعة أن السلطان " قنصوه الغوري" قُتل أثناء معركة مرج دابق، فتفرّق شمل جيشه ووقعوا لقمةً سائغة للعثمانيين، كذلك كان قد عمل على بث روح الهزيمة ونشر بذور الفتنة بين قواد المماليك في مصر، مما تسبب في سقوط دولتهم بعد معركة الريدانية.

ويروي **ابن إياس** أن لدى خروج سليم الأول من مصر أخذ معه كميات كبيرة من الكنوز والأموال. كما يُروى انه لدى احتلاله للقاهرة نقل أمهر فنانيها وحرفييها إلى الأستانة. وترك السلطان بالمدينة حامية عسكرية لحفظ الأمن تحت قيادة **"خير الدين آغا"** الإنكشاري. وفي أثناء عبور الجيش العثماني لصحراء العريش، التفت السلطان للصدر الأعظم **" يونس باشا"**، الذي كان فتح مصر على غير رأيه، وقال له ما معناه أنه قد أتمّ فتحها خلافًا لرأيه ، فأجابه يونس باشا بأن فتحها لم يعد عليه بشيء إلا قتل نحو نصف الجيش بما أنه سلّمها لخائن كان غرضه التملك عليها لنفسه، فلا يؤمن ولاؤه للدولة. فغضب السلطان من هذا الكلام الموجه إليه بصفة لوم وأمر بقتل الصدر الأعظم في الحال فقُتل ، وكان ذلك في 22 سبتمبر سنة 1517م، الموافق في 6 رمضان سنة 923هـ، وعيّن بدلاً منه **" پير محمد باشا"**، الذي كان معينًا قائممقام السلطان في القسطنطينية أثناء تغيبه في فتح مصر، لثقته به بناءً على ما أظهره من أصالة الرأي في محاربة الشاه إسماعيل.

وفي 6 أكتوبر سنة 1517م، الموافق في 20 رمضان سنة 923هـ، وصل السلطان إلى مدينة دمشق ومكث بها إلى 5 مارس سنة 1518م ، الموافق في 22 صفر سنة 924هـ،[93] ثم سافر إلى مدينة حلب بعد

أن حضر الاحتفال بإقامة الصلاة لأوّل مرّة في المسجد الذي أقامه بدمشق على قبر الشيخ **"محيي الدين بن عربي"** في 5 فبراير من نفس السنة.

وبعد أن أقام بحلب مدة شهرين ارتحل عنها قاصدًا الأستانة، فوصلها في 25 يوليو، الموافق في 15 رجب، وأقام بعد ذلك حفلاً ضخمًا ومولدًا نبويًا في مسجد آيا صوفيا بمناسبة وصول الآثار النبوية إلى العاصمة، وأودعها في جناح خاص في قصر الباب العالي، ثم ارتحل عن العاصمة بعد عشرة أيام إلى مدينة أدرنة ليستريح من عناء السفر، وكان الأمير سليمان معينًا حاكمًا على القسطنطينية طيلة غياب والده، وبعد وصول الأخير بعشرة أيام استأذنه الأمير سليمان بالسفر إلى ولاية صاروخان المعيّن واليًا عليها.

وفي أثناء إقامة السلطان بمدينة أدرنة، وصل إليه سفير من قبل مملكة إسبانيا ليُخابره بشأن حرية زيارة المسيحيين للقدس التي كانت تابعة قبلاً للسلطنة المملوكية، وأصبحت خاضعة للدولة العثمانية، في مقابل دفع المبلغ الذي كان يُدفع سنويًا للمماليك، فأحسن السلطان مقابلته وصرّح بقبوله ذلك إذا أرسل ملكه رسولاً آخر مخولاً له حق إبرام معاهدة مع الباب العالي، وكذلك أتى إليه سفير من قبل جمهورية البندقية ليدفع له خراج سنتين. متأخر الخراج المقرر على البنادقة نظير بقائهم في جزيرة قبرص.

7 - ترتيبات السلطان الداخلية

7 - 1 - الإصلاحات العسكرية

كان للعصيان الذي أظهرته الإنكشارية بعد معركة چالديران ورفضها تتبع أثر الشاه إسماعيل ومن معه إلى الجبال الإيرانية أثر كبير على قرار السلطان سليم بتغيير نظام تعيين ضبّاط هذه الفئة، لا سيما وأن المحرّضين على التمرّد كانوا من كبار الضبّاط وعلى رأسهم قاضي العسكر **"جعفر چلبي"**. وبعد أن قتل السلطان سليم **قاضي العسكر** وجميع من حرّض على هذه الفتنة ، جعل لنفسه حق تعيين قائدهم العام، ولم يكن من بينهم، ليكون له بذلك السيطرة الفعليّة عليهم، وكان النظام السابق يقتضي بتعيين القائد العام من أقدم ضبّاط الإنكشارية.

7- 2 - إصلاح البحريّة

أهمل العثمانيون بناء المرافئ والترسانات البحرية لتصنيع السفن الحربية في مدينة القسطنطينية بعد أن افتتحها جد السلطان سليم، محمد الثاني "الفاتح"، فقد اكتفى الأخير، وابنه بايزيد الثاني من بعده، بأن احتفظا ببعض السفن الحربية في مضيق القرن الذهبي بوصفه مرسى طبيعي للسفن، واقتصر عملها على حماية الشواطئ والمياه الإقليمية من أعمال القرصنة والتعدي .

وفي شهر أغسطس من سنة 1518، عزم السلطان سليم على بناء ترسانة بحرية ضخمة بغية إنشاء أسطول مكوّن من السفن الحربيّة الكبيرة، لمواجهة السفن البرتغالية بعد أن اشتد خطر البرتغال على العالم العربي ومهد الإسلام ، ولاستخدامه في الغزوات البحرية , واختار السلطان مضيق القرن الذهبي لإنشاء المرسى، فعمل المهندسون والمعماريين بكدّ حتى أصبح للعثمانيين أسطول بحري متميز. وأحضر السلطان أمهر القباطنة والملاحين العرب والمماليك لقيادة السفن الجديدة ، لكنه لم يُقدّر له أن يرى ثمار هذا الأسطول، إذ توفي قبل القيام بأي فتوحات أو غزوات بحرية.

7 – 3 - العمران والبناء :

كان للسلطان بضعة إنجازات معماريّة نظرًا لقصر فترة حكمه ولانشغاله بالغزوات والفتوحات طيلة أيامه. بنى السلطان سليم عددًا كبيرًا من المساجد ورمم البعض الآخر، ومن أبرز هذه المساجد: مسجد **فاتح باشا ومسجد ألبستان** في ديار بكر، و**مسجد ابن العربي** في دمشق، **وترميمه للمسجد الأموي**، وبدأ العمل في عهده على بناء مسجد يحمل اسمه ، ولم يكتمل إلا بعد وفاته. كذلك بنى السلطان بضعة مدارس وتكايا وزوايا للمتصوفين، وحوّل أجمل كنائس القسطنطينية إلى مساجد، مع إبقائه على يمين جدّه ، السلطان محمد الفاتح، لبطريرك الروم الأرثوذكس آنذاك، بعدم مس نصف الكنائس الثاني الذي تركه لهم بعد فتح المدينة.

7 – 4 - اهتمامه بالأدب

كان السلطان سليم محبًا للأدب والشعر والتاريخ، ورغم قسوته فإنه كان يميل إلى صحبة رجال العلم، وكان يصطحب المؤرخين والشعراء إلى ميدان القتال ليسجلوا تطورات المعارك وينشدوا القصائد التي تحكي أمجاد الماضي، وفي هذا انعكاس لشخصيته، حيث وصفه عدد من معاصريه أنه **"بطل ملحميّ"**. كان سليم أيضاً شاعرًا متميزًا يتقن اللغات التركية والفارسية والعربية وينظم بها الشعر تحت الاسم المستعار " ***مَهْلَس سليمي***"؛ وما زالت مجموعة من أشعاره بالفارسية باقية حتى اليوم في إسطنبول وفي برلين بعد أن نقلها إلى هناك الإمبراطور " **فيلهلم الثاني**" سنة 1904. وفي إحدى أبرز قصائده، كتب السلطان يقول: « ***إن سجادة تكفي صوفيَين اثنين، ولكن العالَم كله لا يكفي لملكين*** » ، وفي هذا إشارة إلى نزاعه مع الشاه إسماعيل وسلطان المماليك على زعامة الشرق الأوسط.

8 - زوجاته وأولاده

تزوّج السلطان سليم بامرأة واحدة حسب الظاهر، وأنجب منها عدد من الأولاد، . وزوجة السلطان سليم هي **"عائشة حفصة خاتون"** المولودة سنة 1479، ويُرجّح أصلها أنها ابنة **"منكلي گراي الأوّل"، خاقان القرم**.

أنجب السلطان عددًا من الأولاد الذكور بحسب ما تقول بعض المصادر، هم : سليمان ، أورخان ، موسى ، وكركود ، كذلك يُقال بأنه كان للسلطان عدد من البنات ، منهن : " السلطانة خديجة " ، " السلطانة حفصة " ، " السلطانة فاطمة " .

9 - وفاته وإرثه

بعد عودة السلطان سليم من مصر، إنهمك بتجهيز أسطول بحري ضخم لمعاودة الكرّة على جزيرة **رودس** بحرًا بعد أن لم يتمكن جدّه، السلطان محمد الفاتح، من غزوها في أيامه ، ويُقال أيضًا أنه كان يُحضّر لحملة على المجر، كذلك كان يستعد لمحاربة الشاه إسماعيل الصفوي مجددًا بعد أن تحالف مع البرتغاليين ضده وسمح لهم بإقامة مراكز حصينة على الجزر الفارسيّة الواقعة في الخليج العربي. جمع السلطان خمسة عشر ألف جندي من المشاة تحت قيادة " **فرحات باشا** " **بيلر بك الأناضول**، وأرسل إليهم عددًا عظيمًا من المدافع والذخائر، وسار إليهم من القسطنطينية إلى أدرنة لقيادتهم في الحملة.

وفي هذه الفترة أصيب السلطان بمرض عُضال يقول البعض أنه كان الجمرة الخبيثة، ويخمنون أنه أصيب به لشدّة تعرضه للجثث في ساحات المعارك واستنشاق روائح الأجساد المتحللة، بالإضافة إلى سفره إلى بلدان ذات مناخات مختلفة ومتناقضة أشد النقيض وتعرّضه لما في جوّها من أدواء.

ويقول آخرون أن ما أصيب به السلطان لم يكن سوى سرطان جلديّ أصيب به جرّاء تعرّضه الطويل لأشعة الشمس خلال غزواته وسفره على صهوة جواده . وعلى الرغم من ألمه، استمر السلطان بسيره إلى أدرنة لإتمام مشروع فتح رودس ، لكن لم يمهله المنون ريثما يتم ذلك ، فعاجله في رحلته هذه ، وتوفي في يوم 22 سبتمبر سنة 1520م، الموافق في 9 شوّال سنة 926هـ ، في السنة التاسعة لحكمه وحوالي الخمسين من عمره .

وأخفى طبيبه الخاص خبر موته عن الحاشية ولم يبلغه إلا للوزراء، فاجتمع كل من **پير محمد باشا** و**أحمد باشا** و**مصطفى باشا**، وقرروا إخفاء هذا الأمر حتى يحضر الأمير **سليمان** من إقليم صاروخان خوفًا من أن تثور الإنكشارية كما هي عادتهم عند تولّي كل سلطان . فأُرسل إلى سليمان خبر موت أبيه، فقام قاصدًا القسطنطينية ودخلها في يوم 29 سبتمبر، الموافق في يوم 16 شوّال، من نفس السنة،

وبعد ظهر ذلك اليوم وصل الصدر الأعظم **پير محمد باشا** من أدرنة وأخبر عن وصول جثمان السلطان سليم في اليوم التالي. وعند ظهر يوم 30 سبتمبر وصل الجثمان، فخرج السلطان سليمان والوزراء والأعيان لمقابلة النعش خارج المدينة ، ثم ساروا في موكب الجنازة حتى واروا سليمًا التراب على أحد مرتفعات المدينة، حيث كان يبني مسجدًا يحمل اسمه ، وأمر السلطان ببناء مدرسة وعمارة لإطعام الفقراء صدقة على روح والده.

يروي المؤرخون الذين عاصروا السلطان سليم الأوّل أنه كان رجلاً فارع الطول، عريض المنكبين، وذو شارب عظيم . كذلك فقد كان عصبيّ المزاج سريع الغضب وذو شخصيّة ملحميّة كما أبطال الروايات. ويؤخذ عليه ميله لسفك الدماء، فكان سريع الفتك بمن يعارضه ، مسرفًا في قتل خصومه لا

يعرف العفو مطلقًا، فقتل سبعة من وزرائه لأسباب واهية. وكان كل وزير مهددًا بالقتل لأقل هفوة ، حتى صار يُدعى على من يُرام موته بأن يُصبح وزيرًا له .

ويجمع المؤرخون أنه على الرغم من فظاظته، فقد كان سليم الأول فاضلاً ذكيًا، بعيد الغور، وصاحب رأي وتدبير وحزم، وإنه على الرغم من قصر مدة ولايته، فإنه حضّر الدولة العثمانية لتصل أعلى درجات الكمال والازدهار في عهد ابنه سليمان . وهناك مأثورة شهيرة مفادها أن سليم ملأ الخزينة الملكية حتى اتخمت ثم أقفلها بختمه الشخصي، وقال : " إذا استطاع شخصٌ أن يملأ الخزينة أكثر من ذلك، فليقفلها بختمه "، أي بدلاً من ختم سليم، لكن الخزينة ظلت مغلقة بختم الأخير حتى انهيار الدولة العثمانية بعد حوالي 400 سنة. وقد أُطلق اسم هذا السلطان على عدد من المواقع في تركيا وخارجها، مثل مسجد السلطان سليم القاطع في مدينة مانهايم بألمانيا .

12 - سليمان خان الأول إبن سليم خان الأول (القانوني)

تقديم :

سليمان خان الأول بن سليم خان الأول كان عاشر السلاطين العثمانيين وخليفة المسلمين الثمانين ، وثاني من حمل لقب " أمير المؤمنين " من آل عثمان. بلغت الدولة الإسلامية في عهده أقصى اتساع لها حتى أصبحت أقوى دولة في العالم في ذلك الوقت. وصاحب أطول فترة حكم من 6 نوفمبر 1520م حتى وفاته في 7 سبتمبر سنة 1566م خلفاً لأبيه السلطان سليم خان الأول وخلفه ابنه السلطان **سليم الثاني .** عُرف عند الغرب باسم **سليمان العظيم** , وفي الشرق باسم **سليمان القانوني** (في التركية ***Kanuni***) لما قام به من إصلاح في النظام القضائي العثماني. أصبح سليمان حاكمًا بارزًا في أوروبا في القرن السادس عشر، يتزعم قمة سلطة الدولة الإسلامية العسكرية والسياسية والاقتصادية.

قاد سليمان الجيوش العثمانية لغزو المعاقل والحصون المسيحية في بلغراد ورودوس وأغلب أراضي مملكة المجر قبل أن يتوقف في حصار فيينا في 1529م . ضم أغلب مناطق الشرق الأوسط في صراعه مع الصفويين ومناطق شاسعة من شمال أفريقيا حتى الجزائر. تحت حكمه ، سيطرت الأساطيل العثمانية على بحار المنطقة من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر حتى الخليج.

في خضم توسيع الإمبراطورية، أدخل سليمان إصلاحات قضائية تهم المجتمع والتعليم والجباية والقانون الجنائي. حدد قانونه شكل الإمبراطورية لقرون عدة بعد وفاته. لم يكن سليمان شاعراً وصائغاً فقط بل أصبح أيضاً راعياً كبيراً للثقافة ومشرفاً على تطور الفنون والأدب والعمارة في العصر الذهبي للإمبراطورية العثمانية . تكلم الخليفة أربع لغات : العربية والفارسية والصربية الجغائية (لغة من مجموعة اللغات التركية مرتبطة بالأوزبكية والأويغورية).

بعد خرقه لتقليد عثماني ، تزوج سليمان فتاة حريم وهي خُرَّم سلطان (بالتركية : Hürrem Sultan) . تولى ابنهما سليم الثاني خلافة سليمان بعد وفاته في 1566 بعد 46 سنة من الحكم.

يعتبر بعض المؤرخين هذا السلطان أحد أعظم الملوك لأن نطاق حكمه ضم الكثير من عواصم الحضارات الأخرى كأثينا وصوفيا وبغداد ودمشق وإسطنبول وبودابست وبلغراد والقاهرة وبوخارست وتبريز وغيرهم.

1 – نسبه

سليمان الأول بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل .

2 - اللقب الكامل

صاحب الجلالة الامبراطورية السلطان سليمان الأول ،

حاكم بيت عثمان ، سلطان السلاطين ، خان الخانات ، أمير المؤمنين وخليفة رسول الله في الأرض حامي المدن المقدسة الثلاث مكة والمدينة والقدس، امبراطور المدن : القسطنطينية وأندرينوبول وبورصة

ودمشق والقاهرة وأرمينيا كلها والمغريس وبركة والقيروان وحلب وعراق العرب والعجم والبصرة والأحساء وديلان والرقة والموصل وبارثية وديار بكر وقيليقية وولاية إرزوروم وسيفاس وأضنة وكارامان وفان وأرض البربر والحبشة وتونس وطرابلس ودمشق وقبرص ورودوس وكنْدية وولاية موريا وبحر مرمرة والبحر الأسود وشواطئه وأناطوايا وروميليا وبغداد وكردستان واليونان وتركستان وتاتاريا وسيركاسيا ومنطقتي كاباردا وجورجيا وسهل كبشاك وكل بلاد التتر وكيفة والبلاد المجاورة لها والبوسنة وتوابعها ومدينة وقلعة بلغراد وولاية صربيا وقلاعها ومدنها وحصونها وكل ألبانيا وإفلاق وبلاد بغدان كما توابعها وحدودها، وعدة مدن وبلدان أخرى. "

3 - بداية حياته

ولد سليمان في طرابزون الواقعة على سواحل البحر الأسود يوم 6 نوفمبر 1494 لوالدته عائشة حفصة سلطان أو حفصة خاتون سلطان التي ماتت في 1534. حينما بلغ 7، ذهب ليدرس العلوم والتاريخ والأدب والفقه والتكتيكات العسكرية في مدارس الباب العالي في القسطنطينية. استصحب في طفولته **إبراهيم** وهو عبد سيعينه لاحقاً صدراً أعظماً في المستقبل . تولى سليمان الشاب وعمره سبعة عشر سنة منصب والي فيودوسيا ثم ساروخان (مانيسا) ولفترة قصيرة أدرنة .

بعد وفاة والده سليم الأول (1465 – 1520) ، دخل سليمان القسطنطينية وتولى الحكم كعاشر السلاطين العثمانيين . يقدم مبعوث جمهورية البندقية ، بارتلوميو كونتاريني، أقدم وصف للسلطان بعد أسابيع من توليه الحكم فيقول :

:يبلغ من العمر الخمسة والعشرين، طويل ونحيف، وبشرته حساسة. عنقه طويل قليلا، وجهه رقيق ومعقوف الأنف. شارباه متدليان ولحيته قصيرة ومع ذلك له طلعة لطيفة مع بشرة تميل إلى الشحوبة. يقال أنه حكيم ومولع بالدراسة والتعلم وكل الرجال يأملون الخير من حكمه وله عمامة كبيرة للغاية .

يعتقد بعض المؤرخين أن سليمان الشاب كان يكن التقدير للإسكندر الأكبر . حيث تأثر برؤية الاسكندر لبناء إمبراطورية عالمية من شأنها أن تشمل الشرق والغرب، وهذا خلق دافعا لحملاته العسكرية لاحقة في آسيا وأفريقيا، وكذلك في أوروبا.

4 - توليه مقاليد السلطة

تولى السلطان سليمان القانوني بعد موت والده السلطان سليم الأول في 9 شوال 926هـ - 22 سبتمبر 1520م، وبدأ في مباشرة أمور الدولة ، وتوجيه سياستها، وكان يستهل خطاباته بالآية القرآنية :

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾

، والأعمال التي أنجزها السلطان في فترة حكمه كثيرة وذات شأن في حياة الدولة.

في الفترة الأولى من حكمه نجح في بسط هيبة الدولة والضرب على أيدي الخارجين عليها من الولاة الطامحين إلى الاستقلال ، معتقدين أن صغر سن السلطان الذي كان في السادسة والعشرين من عمره فرصة سانحة لتحقيق أحلامهم، لكن فاجأتهم عزيمة السلطان القوية التي لا تلين ، فقضى على تمرد " **جان بردي الغزالي**" في الشام، و" **أحمد باشا** " في مصر، و" **قلندر جلبي**" في منطقتي قونيه ومرعش الذي كان شيعيًا جمع حوله نحو ثلاثين ألفًا من الأتباع للثورة على الدولة.

4 – 1 - الحلف مع فرنسا

كان العداء متبادلا بين ملك فرنسا **فرنسوا الأول** و**شارل الخامس** ملك إسبانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة فكان شارل الخامس بموجب ذلك يحكم أجزاءً شاسعة من أوروبا بما فيها ألمانيا وهولاندا والنمسا والمجر وغيرها، ولأن الملك الفرنسي لم يكن يملك القوة الكافية لمنازلة غريمه ومنازعته على لقب الإمبراطور، حاول التقرب من الدولة العثمانية .

وحدث أن ذهب وفد فرنسي إلى سليمان القانوني يطلب منه مهاجمة بلاد المجر في سبيل تشتيت جيوش **شارل** وإضعافها، واكتفى السلطان بكتاب من طرفه يعد فيه بالمساعدة وكان يريد الاستفادة من هذه الفرصة من أجل تسديد ضرباته لمملكة النمسا وتشديد الخناق على دول أوروبا ، ومما يجدر الإشارة إليه

أن استعانة فرنسا بما لها من قوة وثقل كاثوليكي مسيحي في أوروبا آنذاك بالدولة العثمانية المسلمة يعطي المطلع فكرة عما وصل إليه العثمانيون من قوة وصيت وعالمية في ذلك الزمان.

لقد أثمر هذا الحلف بين الدولتين في إضعاف ممالك شارل الخامس والجمهوريات الإيطالية ، فعلى الرغم أن الفرنسيين لم يستطيعوا الانتصار على الإسبان في الغرب إلا أن شارل خسر أراض عديدة من أوروبا الشرقية ، كما قامت القوات البحرية العثمانية-الفرنسية بقيادة خير الدين بربروس باستعادة مدينة نيس وجزيرة كورسيكا لصالح الفرنسيين كما انتصرت الأساطيل العثمانية على البحرية الإسبانية والإيطالية في مواقع عديدة.

أراد الحلف الفرنسي العثماني غزو إيطاليا بسبب ثراء المدن الإيطالية وازدهار ثقافاتها بالإضافة إلى وجود مقر البابا قائد المسيحية في روما، وبالفعل توجه سليمان الأول بمئة ألف جندي لمهاجمة إيطاليا من الشرق ، وهبط خير الدين بربروس من جهة الجنوب في ميناء أوترانة الإيطالي ، كما تقدم الفرنسيون من جهة الغرب الإيطالي ، وكان الهدف من هذا هو هجوم واحد وكبير من ثلاثة جهات ،

إلا أن توجس الملك الفرنسي من أن يتهم بالردة عن المسيحية من قبل العامة ورجال الدين (لتعاونه عسكريا مع دولة مسلمة) جعله يعلق عملياته العسكرية ويكتفي بمهادنة شارل ، ولو أن الحملة العسكرية المشتركة تمت كما خطط لها لغدت إيطاليا بكاملها ولاية عثمانية.

5 - ميادين القتال

تعددت ميادين القتال التي تحركت فيها الدولة العثمانية لبسط نفوذها في عهد سليمان فشملت أوروبا وآسيا وأفريقيا، فاستولى على بلجراد سنة 927هـ - 1521م وجزيرة رودس سنة 929هـ، وحاصر فيينا سنة 935هـ - 1529م لكنه لم يفلح في فتحها، وأعاد الكَرّة مرة أخرى ولم يكن نصيب تلك المحاولة بأفضل من الأولى . ضم إلى دولته أجزاء من المجر بما فيها عاصمتها بودابست، وجعلها ولاية عثمانية.

وفي إفريقيا، فتحت ليبيا والقسم الأعظم من تونس، وإريتريا، وجيبوتي والصومال ، وأصبحت تلك البلاد ضمن نفوذ الدولة العثمانية .

5 - 1 - فتح بلجراد

بعيد خلافة والده في السلطة، بدأ سليمان سلسلة من المواجهات العسكرية، ومن ضمنها إخماد ثورة دعمها حاكم دمشق في 1521. توجه سليمان بعد ذلك مع صدره الأعظم **بيري محمد باشا** إلى بلجراد وأعد العدة لغزو مملكة المجر ونجح في ما فشل فيه جده الأكبر محمد الثاني حيث كان المجريون الأعداء الوحيدين المتبقين بعد سقوط البيزنطيين والصرب والبلغار الذين يستطيعون ردعه من مواصلة فتوحاته في أوروبا، حاصر سليمان وجيشه بلجراد ودكها بالمدفعية في قصف شنه من جزيرة مجاورة على نهر الدانوب فلم يبق للرجال السبع مئة إلا الإستسلام في 1521 .

انتشر خبر فتح بلجراد كالنار في الهشيم ، أحد أحصن قلاع المسيحيين، وانتشر معه الخوف عبر أوروبا، كما ذكر ذلك سفير الإمبراطورية الرومانية المقدسة :

كان فتح بلجراد أصل عدة أحداث درامية ضربت المجر أبرزها موت الملك **لويس الثاني** وإحتلال بودا وضم ترانسيلفانيا وتدمير مملكة مزدهرة وخوف البلدان المجاورة التي خافت مواجهة المصير نفسه"

.

5 - 2 - فتح جزيرة رودس

أراد العثمانيون فتح جزيرة رودس لموقعها الاستراتيجي في البحر المتوسط ومنعا لأية أساطيل بحرية معادية من العسكرة فيها خلال أوقات الحروب، ولقد استغل السلطان سليمان الأوضاع السياسية التي كانت تمر فيها أوروبا آنذاك من صراعات بين ملوكها وأساقفتها وأمرائها.

عندما أبى رهبان الجزيرة تسليمها إلى العثمانيين، دكت المدفعية العثمانية جدران حصنها المنيع والذي كان يعد أحد أمنع الحصون في العالم في ذلك الحين، ويقال أن القوة البرية العثمانية حفرت ما يقارب 50 سردابا تحت الحصن، وشنوا هجوما على المدينة من تحت الأرض، ولكن القوة المدافعة تفانت في الدفاع عن الجزيرة و ردت هذا الهجوم المفاجئ، كما دافعوا بكل قوة عن حصن جزيرتهم، ويروي أن نساء

رودس كانت تعاون رجالها ورهبانها في الدفاع عن أسوار الجزيرة ، ولما انقطعت الحلول من أمام رئيس الرهبان مع نفاذ مؤنته وذخيرته آثر التسليم في سنة 929هـ.

بعد دخول الخليفة العثماني رودس ظافرا، اختار كبار القساوسة وفرسانهم مغادرة الجزيرة، فاتجهوا إلى مالطا وأقاموا فيها (**وعرفوا بـفرسان القديس يوحنا الأورشليمي أو فرسان مالطا**) ، وحاصرتها البحرية العثمانية في نهاية عهد القانوني ولكن دون أن تفلح في فتح الجزيرة بسبب دخول الحصار فترة الشتاء.

5 - 3 - فتح بلاد المجر والتصادم مع النمسا

تحولت طموحات السلطان القانوني إلى بلاد المجر لاسيما بعد تدهور العلاقات معها , ومع المراسلات التي دارت مع الفرنسيين والذين تقدموا بطلب لدى السلطان لكي يهاجم المجر لإضعاف ملك شارل ورفع شيء من الضغط عن الفرنسيين في الغرب.

حشد سليمان الأول الجيوش وسار بها نحو بلاد المجر عبر بلغراد ، وبعد عدة فتوحات التقى بالجيش المجري في منطقة **موهاكس** وجرت معركة موهاكس الفاصلة سنة 932هـ - 1526م التي انتهت بانتصار العثمانيين وتسلم سلطانهم مفاتيح عاصمة المجر **بود** (**وتعني البلد العالي**) ، ويجدر الإشارة هنا أن بودابست كانت عبارة عن مدينتين منفصلتين آنذاك وهما : **بود** و**بست**. استبسلت المقاومة المجرية لكنها فشلت وأصبح العثمانيون القوة المسيطرة في أوروبا الشرقية. وعندما رأى السلطان جثة لويس الهامدة عبر سليمان عن أسفه قائلا : *قدمت بالفعل مسلحاً إليه ولكن لم تكن نيتي أن يُقتل هكذا وهو لم يذق حلاوة الحياة والملك بعد* .

عند عودة سليمان الأول من بلاد المجر اصطحب السلطان معه الكثير من نفائس البلاد وخاصة كتب كنيسة ماتياس كورفن، وهي كنيسة اعتاد الأوروبيون على تسميتها **بكنيسة التتويج** لأن الملوك الأوروبية كانت تتوج فيها ، وحول المسلمون تلك الكنيسة إلى مسجد وأُضيف إليها النقوش العربية، وأُعيد المسجد كنيسةً عندما خرج العثمانيون من **هنغاريا** وبقيت النقوش العربية حتى يومنا هذا.

في عهد شارل الخامس وأخيه **فيردناند** ، أرشدوق النمسا، أعاد الهابسبورغ احتلالهم لهنغاريا. كرد فعل لذلك ، عاد سليمان مرة أخرى عبر وادي الدانوب وأعاد غزو بودا وشن في الخريف الذي تلاه حصار فيينا. كان ذلك أكثر عمل عثماني طموحاً في أوروبا وأقصاه امتداداً نحو الغرب ولكن انتصر النمساويون بـ 20,000 رجلاً ، بذلك أصبحت الأراضي الهنغارية فيما بعد ساحة حرب بين النمساويين والعثمانين، وكانت الحرب سجالاً بين الطرفين لا تلبث أن تنطفئ حتى تشتعل من جديد، ومالت كفة الانتصار للعساكر العثمانية مما جعل النمسا تدفع الجزية للأستانة في معظم الأوقات، وحاصر السلطان فيينا مرة ثانية ولم يتمكن من فتحها في 1532 فانسحب بجيوشه، وذلك لسوء الأحوال الجوية التي كانت تمنع العثمانيين من نقل معدات حصارهم الثقيلة وبعد المسافة عن حاضرة الخلافة وامتداد خطوط الإمداد الطويلة وراء الجيش . بعد ذلك استمر التنافس العثماني - الهاسبورغي حتى مطلع القرن العشرين .

بحلول أربعينيات القرن السادس عشر، قدم تجدد الصراع في هنغاريا لسليمان فرصة الثأر لهزيمته في فيينا. اقترح بعض النبلاء المجريون أن يتقرب **فرندناند الأول** (1519-1564) ، حاكم النمسا المجاورة، إلى عائلة **لويس الثاني** بالزواج ليكون ملك المجر دون ذكر أن اتفاقات سابقة تسمح للهاسبورغ بالاستيلاء على العرش المجري إذا لم يكن هناك وريث للويس. في الطرف الآخر، التف نبلاء مجريون حول **جون زابوليا** المدعوم من سليمان والذي لم تعترف به القوى المسيحية بأوروبا. في 1541 التقى الهابسبورغ بالعثمانيين في صراع آخر، وحاولوا فرض حصار على بودا. بعد صد جهودهم، ووقوع قلاع نمساوية أخرى في يد العثمانيين اضطر فرديناند وأخوه شارل الخامس إلى توقيع معاهدة مذلّة مع سليمان مدتها خمس سنوات. تخلى فرديناند عن أطماعه في مملكة المجر وأُجبر على دفع فدية سنوية إلى السلطان لقاء أراضٍ مجرية استمر في السيطرة عليها. وفي حركة أكثر رمزية نصت المعاهدة على أن شارل الخامس ليس *إمبراطور* بل مجرد *ملك إسبانيا*، مما جعل سليمان يعتبر نفسه ***القيصر الحقيقي***. بعد إذلال أعدائه الأوروبيين أمّن سليمان للإمبراطورية العثمانية دوراً ريادياً في السياسة الأوروبية.

5 – 4 - الصدام مع الدولة الصفوية

بعد تثبيث حدوده في أوروبا اتجه سليمان نحو آسيا حيث قام حملات كبرى ضد الدولة الصفوية لتندلع بذلك الحرب العثمانية الصفوية (1532 – 1555) ، ويرجع السبب في ذلك لحدثين بارزين ، **الأول** هو مقتل والي بغداد الموالي لسليمان على يد الشاه طهماسب وتعويضه بموالي له و**الثاني** تحالف والي بدليس مع الصفويين ، ابتدأت من سنة 941هـ - 1533م، حيث نجحت الحملة الأولى في ضم تبريز وبدليس إلى سيطرة الدولة العثمانية دون أي مقاومة، حيث ساق الوزير الأول **إبراهيم باشا** الجيوش وضم العديد من الحصون والقلاع في طريقه كقلعتي وان وأريوان، وعمل الوزير الأول على بناء قلعة في تبريز وترك فيها من الحامية المنظمة ما يكفي لحفظ الأمن العمومي في 1534.

وفي شهر سبتمبر من نفس السنة وصل سليمان الأول إلى تبريز واستأنف العمليات الحربية بنفسه ضد الشاه طهماسب الذي كان يتراجع بجيشه عوض المواجهة لكن سوء الطرق وكثرة الأوحال وسوء الأحوال الجوية جعلت نقل المدفعية العثمانية الضخمة أمرا محالا ، فقام الخليفة بتحويل الوجهة نحو بغداد و بالفعل دخلها بعد هروب حاميتها الصفوية في 1535، وقام السلطان عند دخوله بزيارة قبور الأئمة العظام المتواجدة في العراق مما أكد أحقية سليمان في قيادة العالم الإسلامي وحمل شعلة الخلافة من العباسيين .

قام سليمان بحملة أخرى لهزم الشاه في 1548-1549. كالحملات السابقة تفادى طمهاسب المواجهة المباشرة مع الجيش العثماني واختار التراجع فأحرق أرمينيا (منطقة بإيران) فلم يجد العثمانيون مكانا يقيهم من شتاء القوقاز القاسي . أنهى سليمان حملته بمكاسب عثمانية مؤقتة في تبريز وأرمينيا وموقع دائم في محافظة فان وقلاع في جورجيا .

في 1553 بدأ سليمان حملته الثالثة والأخيرة ضد الشاه. بعد خسارة أرضروم في وقت سابق لابن الشاه ، استهل سليمان الحملة باسترجاعها وعبور الفرات العلوي وصولا إلى بلاد فارس . أكمل جيش الشاه خطته التي ترمي التراجع وعدم الاشتباك مع العثمانيين مما أدى إلى حالة جمود فلم يكن هناك لا غالب ولا مغلوب.

في سنة 962هـ - 1555م أجبر السلطان سليمان الشاه طهماسب على الصلح وأحقية العثمانيين في كل من أريوان وتبريز وشرق الأناضول وأمن بذلك بغداد وجنوب بلاد الرافدين ومصبات الفرات ودجلة وأخذ أجزاء من الخليج العربي ووعد الشاه أيضا بوقف هجوماته في الأراضي العثمانية.

5 – 5 - حاربة البرتغاليين

أرسل حاكم مدينة **أحمد آباد** وما حولها رسالة استغاثة إلى الخلافة العثمانية طالبا المساعدة ضد البرتغاليين الذين اجتاحوا بلاده وتمكنوا من السيطرة على أهم ثغورها، فأرسل السلطان خطابا إلى سليمان باشا والي مصر يأمره ببناء عمارة بحرية كبيرة بأسرع ما يمكن وبالفعل قام الوالي ببناء 70 سفينة حربية.

اتجه العثمانيون مواجهين نفوذ البرتغاليين في المحيط الهندي والخليج العربي، أولا نحو **عدن** واحتلوها في 1538 لتشكل قادة لهجوماتهم ضد الممتلكات البرتغالية في الهند . أخفقوا في إسقاط موقع ديو في سبتمبر 1538 لكنهم عادوا إلى عدن وحصنوها بمائة قطعة مدفعية . استولى **أويس باشا** من عدن على اليمن ابتداء من قلعة تعز سنة 953هـ 1546م، ودخلت عُمان والأحساء وقطر تحت نفوذ الدولة العثمانية . بعد إحكام السيطرة على البحر الأحمر بدأ سليمان هجومات على الطرق التجارية للسفن البرتغالية المارة نحو الهند وبدأ حركة تجارية مهمة القرن السادس عشر مع الهند .

تلقى سليمان في 1564 استغاثة من بعثته في **آتشيه** (حاليا في إندونيسيا) تستدعي تدخلا عثمانيا ضد البرتغال. استجاب السلطان وقام بإرسال بعثة العثمانيين إلى آتشيه والتي قدمت لهم الدعم العسكري اللازم للرد .

أدت هذه السياسية إلى الحد من نفوذ البرتغاليين في مياه الشرق الأوسط، كما أغاثت البحرية العثمانية الأقاليم المستغيثة في الهند وآتشيه واستطاع سليمان باشا المذكور أن يسيطر على كافة الحصون التي بناها البرتغاليون.

5 – 6 - شمال إفريقيا والبحر المتوسط

بعد تثبيت أقدامه على أراضي الإمبراطورية، استقبل سليمان أنباء على أن قائد أساطيل شارل الخامس ، **أندريا دوريا**، احتل حصون **كوروني** في **موريا** (حاليا بيلوبونيز) أرق التواجد الإسباني في شرق البحر المتوسط بال سليمان الذي رأى منافسة ضمنية للسيطرة العثمانية في المنطقة. لتأكيد القوة البحرية للعثمانيين في المتوسط، كلف سليمان قائدا بحريا خاصا في شخص **خير الدين بربروس** المعروف لدى الأوروبيين باسم **باربا روسا**. عند توليه منصبه، قام باربا روسا بإعادة بناء الأسطول العثماني ليبلغ عدد سفنه مجموع سفن أساطيل الدول المتوسطية مجتمعة. في 1535 انتصر شارل الخامس على العثمانيين في تونس، ومع الحرب ضد جمهورية البندقية في العام التالي قبل سليمان اقتراحات فرانسوا بالتحالف. في 1538 هزم باربا روس الأسطول الإسباني في معركة **بروزة** وأمن شرق المتوسط للترك لأكثر من 33 سنة حتى الهزيمة في معركة **ليبانتو**.

ضم سليمان أراضي واسعة شرق المغرب. أصبحت الدول البربرية وهي طرابلس وتونس والجزائر ولايات ذاتية الحكم في الإمبراطورية وشكلت طليعة جيش سليمان في صراعه مع شارل الخامس الذي حاول إخراج العثمانيين منها وفشل في 1541.

تتابعت عمليات الجهاد البحري الذي تزعمه هذه الدول في إطار الحرب ضد إسبانيا. لفترة قصيرة أمنت التوسعات البحرية العثمانية سيطرة لها في المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي حتى 1554 حين هزمت الإمبراطورية البرتغالية السفن العثمانية. أخذ البرتغاليون هرمز (في مضيق هرمز) في 1515 وستستمر منافستهم لسليمان للسيطرة على عدن (حاليا في اليمن).

في 1542 بسبب مواجهتهم لعدو واحد هو الهابسبورغ سعى فرانسوا لتجديد التحالف الفرنسي العثماني وباستجابة لذلك بعث السلطان مائة سفينة تحت قيادة باربروس لمساعدة فرنسا في غرب المتوسط. ضرب باربروس شواطئ صقلية ونابولي قبل وصوله إلى فرنسا حيث قدم **تولون** كمقر للبحرية العثمانية. في إطار الحملة هاجم وحاصر باربروس نيس في 1543. بحلول 1544، انتهى التحالف الفرنسي العثماني مؤقتا بسبب السلام بين فرنسوا وشارل الخامس.

في مكان آخر في المتوسط ، أعاد **فرسان القديس يوحنا** تشكيل أنفسهم تحت اسم **فرسان مالطة** في 1530. أثارت أفعالهم ضد سفن المسلمين غضب العثمانيين الذين شكلوا جيشا عظيما لطرد الفرسان من مالطة. غزا العثمانيون مالطة في 1565 وبدأوا حصار مالطة الكبير الذي بدأ في 18 مايو واستمر حتى 8 سبتمبر . في البداية بدت المعارك كإعادة للمعارك في رودوس حيث دمرت عدة مدن في مالطة وقتل نصف الفرسان أثناء القتال لكن سرعان ما وصلت قوة إمداد من إسبانيا نتج عنها 30000 قتيل في صفوف العثمانيين.

6 - تطوير البحرية العثمانية

كانت البحرية العثمانية قد نمت نموًا كبيرًا منذ أيام السلطان بايزيد الثاني، وأصبحت مسؤولة عن حماية مياه البحار التي تطل عليها الدولة، وفي عهد سليمان ازدادت قوة البحرية على نحو لم تشهده من قبل بانضمام "خير الدين بربا روسا" ، وكان يقود أسطولاً قويًا يهاجم به سواحل إسبانيا والسفن الصليبية في البحر المتوسط، وبعد انضمامه إلى الدولة منحه السلطان لقب " **قبودان**".

وقد قام خير الدين - بفضل المساعدات التي كان يتلقاها من السلطان سليمان القانوني - بضرب السواحل الإسبانية ، وإنقاذ آلاف من المسلمين في إسبانيا، فقام في سنة 935هـ - 1529م بسبع رحلات إلى السواحل الإسبانية لنقل سبعين ألف مسلم من قبضة الحكومة الإسبانية.

وقد وكل السلطان إلى خير الدين قيادة الحملات البحرية في غرب البحر المتوسط، وحاولت إسبانيا أن تقضي على أسطوله ، لكنها تخفق في كل مرة وتتكبد خسائر فادحة، ولعل أقسى هزائمها كانت معركة **بروزة** سنة 945هـ - 1538م.

وقد انضم أسطول خير الدين إلى الأسطول الفرنسي في حربه مع الهابسبورج، وساعد الفرنسيين في استعادة مدينة **نيس** 950هـ - 1543م بالإضافة إلى **جزيرة كورسيكا.**

واتسع نطاق عمل الأسطول العثماني فشمل البحر الأحمر، حيث استولى العثمانيون على **سواكن** و**مصوع** ، وأخرج البرتغاليين من مياه البحر الأحمر، واستولى العثمانيون على سواحل الحبشة ؛ مما أدى إلى انتعاش حركة التجارة بين آسيا والغرب عن طريق البلاد الإسلامية>

7 - مكائد زوجته خُرَّم سلطان

أسر المسلمون التتر في القرم في إحدى غاراتهم على الروس فتاة بالغة الجمال تدعى **روكسلان** ، فأهدوها إلى الخليفة الذي اتخذها زوجة له ، وقيل إنها كانت **يهودية روسية**، فعكفت على التدخل في شئون الحكم، فطلبت من الخليفة أن يسمح لليهود الذين طردوا من الأندلس مع المسلمين بالاستيطان في أرجاء الدولة العثمانية ، والذين يطلق عليهم يهود **الدونمة** ، الذين سيكون لهم دور رئيسي فيما بعد في سقوط الخلافة العثمانية.

8 - التطور الحضاري

كان السلطان سليمان القانوني شاعرًا كتب قصائده تحت الاسم الأدبي " **مُحبّي**" وخطاطًا يجيد الكتابة، وملمًا بعدد من اللغات الشرقية من بينها العربية، وكان له بصر بالأحجار الكريمة، مغرمًا بالبناء والتشييد، فظهر أثر ذلك في دولته، فأنفق بسخاء على المنشآت الكبرى فشيد المعاقل والحصون في رودس وبلجراد وبودا، وأنشأ المساجد والصهاريج والقناطر في شتى أنحاء الدولة، وبخاصة في دمشق ومكة وبغداد، غير ما أنشأه في عاصمته من روائع العمارة.

8 – 1 - المنمنمات العثمانية

وظهر في عصره أشهر المهندسين المعماريين في التاريخ الإسلامي، **سنان آغا**، الذي اشترك في الحملات العثمانية، واطّلع على كثير من الطرز المعمارية حتى استقام له أسلوب خاص، ويعد مسجد **سليمان القانوني** أو (**جامع السليمانية**) في إسطنبول الذي بناه للسلطان سليمان في سنة 963هـ - 1557م من أشهر الأعمال المعمارية في التاريخ الإسلامي.

وفي عهده وصل فن المنمنمات العثمانية إلى أوجه. وقد قدّم "**عارفي**" وثائق الحوادث السياسية والاجتماعية التي جرت في عصر سليمان القانوني في منمنمات زاهية، ولمع في هذا العصر عدد من الخطاطين العظام يأتي في مقدمتهم : **حسن أفندي جلبي القره حصاري** الذي كتب خطوط جامع السليمانية ، وأستاذه **أحمد بن قره حصاري**، وله مصحف بخطه، يعد من روائع الخط العربي والفن الرفيع، وهو محفوظ بمتحف "**طوبي قابي**".

وظهر في عهد السلطان سليمان عدد من العلماء، في مقدمتهم: **أبو السعود أفندي** صاحب التفسير المعروف باسم " **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**".

9 - القانون والإدارة

نقش غائر لسليمان يزين مجلس النواب الأمريكي.
وهو واحد من النقوش الثلاثة والعشرين التي تكرم ساني القوانين عبر التاريخ.

غير أن الذي اشتهر به واقترن باسمه هو وضعه للقوانين التي تنظم الحياة في دولته الكبيرة. حيث كان القانون السائد في الإمبراطورية هو الشريعة الإسلامية وكان تغييرها خارج صلاحيات السلطان. حتى ظهر قانون سليمان الذي غطى مجالات القانون الجنائي وحيازة الأراضي والجبايات . جمع فيه جميع الأحكام التي صدرت من قبل السلاطين العثمانيين التسعة الذين سبقوه. وبعد القضاء على الازدواجية والاختيار بين التصريحات المتناقضة ، أصدر مدونة قانونية واحدة ، وراعى فيها الظروف الخاصة لأقطار دولته، وحرص على أن تتفق مع الشريعة الإسلامية والقواعد العرفية .

كانت هذه الإصلاحات في إطار سعي سليمان، بدعم من المفتي **أبو السعود أفندي**، إلى إصلاح التشريع للتكيف مع تغيير الإمبراطورية السريع. حينما وصل القانون إلى شكله النهائي سمي ***القانون العثماني*** (بالتركية : *kanun-i Osmani*) أو قانون السلطان سليمان (بالتركية العثمانية : قانون نامه سلطان سليمان) وبقي جاريا العمل به قرابة ثلاثمئة سنة أي حتى مطلع القرن الثالث عشر الهجري - التاسع عشر الميلادي، كما جعل أكبر الوظائف العلمية وظيفة مفتي ، وقسم جيش الانكشارية إلى ثلاث رتب بحسب سنين خدمتهم.

ولم يطلق الشعب على السلطان سليمان لقب القانوني لوضعه القوانين، وإنما لتطبيقه هذه القوانين بعدالة ، ولهذا يعد العثمانيون الألقاب التي أطلقها الأوروبيون على سليمان في عصره مثل : *الكبير*، *والعظيم*، قليلة الأهمية والأثر إذا ما قورنت بلقب *القانوني* الذي يمثّل العدالة.

قال عنه لورد كينروس : لم يكن قائدا عسكريا عظيما فقط ، رجل سلاح ، كما كان أبوه وجد جده من قبله , بل اختلف عنهم لأنه كان رجل قلم . كان مشرعا عظيما ، يقف أمام قومه كحاكم نبيل المشاعر وناصر للعدالة شهم .

وكان من القوانين التي سنها القانوني أيضا : السماح للانكشارية بخوض الحروب بدون خروج الخليفة على رأسهم ، والسماح للوزارء بتداول شؤون الدولة في وجود الصدر الأعظم على رأسهم مندوبا عن السلطان، وكان من مساوئ القانون الأول أن ضعفت سيطرة السلاطين التي تلته على الانكشارية أما الثاني فقد سمح للدسائس أن تحاك على الدولة وعلى السلطان كالدسيسة التي تسببت في مقتل ابنه البكر مصطفى.

أعطى سليمان اهتماما خاصا لحالة الرعايا، وهم العاملون المسيحيون في أراضي السباهى . حيث عدل *قانون الرعايا* الذي يحكم الجبايات والضرائب التي يدفعها الرعايا ورفع مكانتهم فأصبحوا أحسن من الأقنان إلى حد أن أقنان البلدان المسيحية هاجروا إلى الأراضي العثمانية للاستفادة من الإصلاحات .

لعب السلطان دورا هاما في حماية يهود إمبراطوريته لقرون تالية. في أواخر 1553 أو 1554 وتحت اقتراح من طبيبه المفضل، **موسى حامون الإسباني اليهودي**، أصدر السلطان مرسوما يمنع هجو الدم ضد اليهود .

وعلاوة على ذلك، سن سليمان قانونا جنائيا جديدا وقانون شرطة جديدا، يحث على مجموعة من الغرامات على المخالفات الخاصة، فضلا عن الحد من الحالات التي تتطلب القصاص أو التشويه. في المجال الضريبي، كانت الضرائب مفروضة على عدة سلع ومنتجات منها الحيوانات والمعادن والأرباح التجارية ورسوم الاستيراد والتصدير. بالإضافة إلى الضرائب ، صادر السلطان أراضي وممتلكات المسؤولين الذين لهم سمعة سيئة.

كان التعليم مجالا مهما للسلطان. منحت مدارس المساجد والتي تمولها المؤسسة الدينية تعليما مجانيا لأطفال المسلمين وكانت متقدمة على تلك في الدول المسيحية في ذلك الوقت. في العاصمة، زاد سليمان عدد الكتابات إلى أربعة عشر تعلم الصغار القراءة والكتابة ومبادئ الإسلام. وأمكن للأطفال الذين رغبوا مواصلة تعليمهم الشروع في واحدة من ثمانية *مدارس جامعة*، والتي شملت شعبها قواعد اللغة والميتافيزيقيا والفلسفة وعلم الفلك .

منحت المدارس الجامعة العليا تعليما بدرجة جامعات اليوم، وأصبح خريجوها أئمة أو معلمين. شملت المراكز التعليمية في كثير من الأحيان واحد من المباني العدة المحيطة بباحات المساجد أما المباني الأخرى فكان بها المكتبات وقاعات الطعام والنوافير ومطابخ الحساء والمستشفيات لصالح العامة.

ولم يكن عهد القانوني العهد الذي بلغت فيه الدولة أقصى حدود لها من الاتساع، وإنما هو العهد الذي تمت فيه إدارة أعظم دولة بأرقى نظام إداري.

10 – أعماله

قام سليمان القانوني بالعديد من أعمال التشييد، ففي عصره بنى مدينة السليمانية بالعراق على انقاض قرية قديمة . كما بنى **جامع السليمانية** الذي بناه المعماري سنان ، **والتكية السليمانية** في دمشق ، كما قام بحملة معمارية في القدس من ضمنها ترميم سور القدس الحالي .

كما عرف بسنّه قوانين لتنظيم شؤون الدولة عرفت باسم " **قانون نامه سلطان سليمان**" أي دستور السلطان سليمان، وظلت هذه القوانين تطبق حتى القرن التاسع عشر الميلادي ، وكان ذلك مصدر تلقيبه بالقانوني. ولقد سماه الفرنجه بسليمان العظيم. ويعرف أيضا بلقب سليمان المشرع.

11 – وفاته

توفي سليمان القانوني أثناء حصار مدينة **سيكتوار** في 5 / 6 / 7 سبتمبر حيث سقط من أعلى الحصان و قد مات في تلك اللحظة إلا أن الجنود لم يريدوا أن يخبروا أحدا حتى العودة إلى العاصمة 1566 .

12 – ذريته

شاهزاده مصطفى *الصادق* (1515 – 1553). أكبر أبنائه الذين وصلوا إلى سن البلوغ وولي العهد من 1521 إلى 1553. ولد لسليمان من زوجته الأولى **مهدفران سلطان** واغتيل على طلب من والده في 1553.

الأمير محمد (1521 – 1543) : أكبر أبناءه من خُرَّم سلطان ووالي مانيسا في 1542-1543. قبل موته كان يعتبر الوريث الأوفر حظا لخلافة والده.

محريمة سلطانة (1522 – 1578) : كبرى بناته من خُرَّم سلطان وتزوجت في 1539 **رستم باشا**، وهو جنرال كرواتي عثماني أصبح صدرًا أعظمًا مرتين لاحقا (1544-1553, 1555-1561). كان لها تأثير كبير على السلطة حيث أصبحت **السلطانة الوالدة** بين 1566 و 1578.

سليم الثاني سارخوش (1524 – 1574) : ابنه من خُرَّم سلطان. بعد اغتيال أخوه مصطفى في 1553 أصبح ولي العهد وبعد اغتيال أخوه بايزيد في 1561 أصبح الوريث الوحيد. فخلف والده في 1566 وتزوج نوربانو سلطان (راكيل ناسي 1525 – 1583) في 1545. ولد ابنه الأول مراد في 1546 الذي بدوره أصبح سلطانا.

بايزيد فاكاسي (1525 – 1561) : ابنه من خُرَّم سلطان ومنافس سليم الوحيد لخلافة سليمان وعهد له بعدة مناصب قبل 1559، عندما هزم على يد سليم ولاذ بالفرار إلى المنفى نحو الحاشية الفارسية. اغتيل بناء على طلب من والده في 1561 مع أبنائه الأربعة.

13 – إرثه

عند وفاة سليمان، أصبحت الإمبراطورية العثمانية بقوتها العسكرية وخيراتها الاقتصادية وتوسعاتها أقوى دولة في العالم . وضعت فتوحات سليمان أهم المدن الإسلامية (مكة والمدينة والقدس و القاهرة ودمشق وبغداد) ومقاطعات البلقان (تصل الآن إلى كرواتيا والنمسا) وأغلب أراضي شمال أفريقيا تحت قبضة العثمانيين. ومنحت التوسعات للعثمانيين مكانة مهمة في موازين القوى مما جعل السفير *بسكيك* يحذر من غزو وشيك لأوروبا :

على طرف [الأتراك] نجد موارد إمبراطورية عظيمة، بقوة لاتصد وتعود على النصر وقدرة تحمل للكدح ووحدة وانضباط وتدبير وترقب... هل يمكن أن يكون لنا شك في النتيجة؟... حين سيغزو الترك بلاد فارس ويستقروا فيها، سوف يحلقون فوق رقابنا مدعومين من الشرق بأكمله؛ لن أستطيع البوح بمدى عدم استعدادنا لذلك.

لحد السلطان في مسجد سليمان القانوني.

لم يظهر إرث سليمان في المجال العسكري وحده بل كان الفرنسي جان دي تيفينوت شاهدا بعد قرن على قوة القاعدة الفلاحية للبلاد ورفاهية الفلاحين ووفرة المواد الغذائية الأساسية والتنظيم في حكومة سليمان . بقيت الإمبراطورية قائمة بعد عدة قرون وذلك بسبب الإصلاحات الحكومية والقضائية التي قام بها والتي عرف بها وهو إنجاز تطلب أجيالا من ذريته لقلبه . ترأس سليمان العصر الذهبي الإمبراطورية العثمانية من خلال رعايته الشخصية لقمة إنجازات العثمانيين الثقافية في مجال الهندسة المعمارية والأدب والفن والفقه والفلسفة .

واليوم في أفق البسفور وفي عدة مدن تركية أو مقاطعات عثمانية سابقة لا زالت أعمال معمار سنان المعمارية قائمة. أحد هذه الأعمال مسجد سليمان القانوني مستقر جسد سليمان مدفون في ضريح منفصل ملحق بالمسجد.

14 أماكن على اسمه

مسجد السلطان سليمان في ماريوبول , أكرانيا . الذي بناه رجل الأعمال التركي صالح سيهان المزداد في 2005 وهو مفتوح لإقامة الصلوات الخمس وصلاة الجمعة.

13 - السلطان سليم الثاني بن سليمان القانوني

1 – تقديم :

السلطان سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغل (930 هـ / 28 مايو 1524 م -982 هـ / 12 / 15 ديسمبر1574 م) هو السلطان العثماني الحادي عشر. فترة حكم السلطان سليم الثاني(1566م - 1574م)

يعتقد أن النشاط المبكر لوالدته خُرَّم سلطان ، الزوجة الثانية والأثيرة للقانوني ، كان وراء وصول سليم إلى عرش السلطنة؛ حيث تُتهم بالتورط في إسقاط الصدر الأعظم **إبراهيم باشا** الموالي لولي العهد الشرعي مصطفى وحياكة المؤامرات التي أدت إلى إعدام الأخير، فيما خلت الساحة العثمانية لسليم إثر وفاة شقيقه الأكبر محمد والأصغر جهانكير، وإعدام شقيقه الذي تمرد على تعيينه وليًا للعهد بايزيد

2 - فاتحة عهده :

قام الصدر الأعظم **محمد باشا الصقلي** بإخفاء موت الخليفة القانوني خوفاً من ثورة الانكشارية حتى تسلم سليم الثاني الحكم ، كان ضعيفًا غير متصف بما يؤهله للحفاظ على فتوحات أبيه وضبط الداخلية، فبدأ سليم الثاني سلطنته، بالتوجه فورا إلى إسطنبول حيث جلس على العرش العثماني، بعدها توجه إلى الجبهة النمساوية، فقابل الجيش العثماني العائد من انتصاره على النمساويين يتقدمه نعش العاهل العظيم السلطان سليمان القانوني، وسلم الصدر الأعظم محمد باشا الصقلي على سليم الثاني بسلام السلطنة، وفي **صحراء سيرم** خارج بلجراد ، بايع الجيش العثماني وريث العرش ، بعدها أدى السلطان الجديد وخلفه الجيش صلاة الميت للقانوني ثم نادى خواجه سلطاني " **عطاء الله أفندي**" مربي سليم الثاني في الجيش قائلا: « الصلاة للميت » ، وأقام الصلاة، ،يذكر أن القانوني الذي توفي بعد حصار مدينة "زيغتفار" بالمجر في السابع من سبتمبر عام 1566، قد أوصى بدفن جثمانه في "إسطنبول" ولتحقيق وصيته، تم استخراج أعضائه الداخلية بما فيها القلب ودفنها في "زيغتفار"، وتحنيط جثمانه ليتحمل الطريق إلى "إسطنبول" حيث دفن هناك، ثم قام السلطان "سليم الثاني" ببناء ضريح ومجمع للتعليم الديني في المكان الذي دفنت فيه

أعضاء والده. انطلق الجيش في موكب جنائزي تحيطه ذكرى سليمان القانوني بالهيبة والوقار، وفي مدينة إسطنبول أقيمت مراسم جنائزية ضخمة تليق بالقانوني، وكان لافتا اشتراك الآلاف من أهالي مدينة إسطنبول في حمل جثمان السلطان الراحل إلى مدفنه بمسجد السليمانية عرفانا بالعدل الذي أسبغه على رعيته طوال عهده الطويل. قام ابنه السلطان "سليم الثاني" ببناء ضريح ومجمع للتعليم الديني في المكان الذي دفنت فيه أعضاء والده، وظلت مباني الضريح والمجمع قائمة لمدة 150 عاماً، إلى أن خرجت المنطقة عن سيطرة العثمانيين، ومن ثم تعرضت للتخريب. يذكر أن سليم الثاني أعطى العديد من سلطاته لوزرائه، وعندما امتنع عن إعطاء العطايا للجنود أظهروا العصيان وعدم إطاعتهم لأوامر قادتهم فاضطر إلى العطاء، ويرى البعض أنه لولا هيبة الدولة في السابق وقوة وزيره محمد باشا الصقلي الذي غدا يدير البلاد من خلف الكواليس لسقطت الدولة وكان مما أقدم عليه أن عقد صلحًا مع النمسا يعترف فيه بأملاكها في المجر مقابل دفع جزية سنوية للسلطنة.

3 - العلاقات مع فرنسا

تم تجديد المعاهدات مع بولونيا وفرنسا، واتفقت فرنسا مع الدولة العثمانية على تعيين **هنري دي فالوا** شقيق ملك فرنسا **شارلز التاسع** ملكا على بولونيا (مملكة بولندا) فأصبحت تلك البلاد تحت الوصاية الفعلية للدولة العثمانية حتى عهد **مراد الثالث** الذي جعلها وصاية رسمية تحت حكم والي البغدان ،

وتسيدت فرنسا التجارة في البحر الأبيض المتوسط وبدأت ترسل إرساليات مسيحية كاثوليكية إلى رعاياها في الدولة العثمانية لا سيما في الشام، وبذلك بدأ العمل ضد العثمانيين من الداخل وتربية النصارى على الارتباط بفرنسا ،

ومما يجدر ذكره أن الفرنسيين بدؤوا يظهرون مطامعهم في الشمال الإفريقي مستغلين نتيجة **معركة ليبانتو**، حيث قاموا بتقديم طلب لدى السلطنة العثمانية للسماح لفرنسا ببسط نفوذها على الجزائر بحجة حماية الإسلام والمسلمين مقابل مبلغ مالي تدفعه فرفض الخليفة ذلك ووافق بعد إلحاح على إعطائهم امتيازات تجارية.

4 - الأعمال الحربية

كما جهز **محمد باشا الصقلي** حملة عسكرية لفتح **أستراخان** التي وقعت تحت سيطرة الروس بقيادة **إيفان الرهيب** وأخذوا يقطعون طرق التجارة والحج على أهل **خوارزم وسمرقند وبخارى** وما حولهم من المناطق،

وكانت خطة العثمانيين تقضي بجعل أستراخان قاعدة عسكرية عثمانية للحماية من الروس وإيقاف طموحاتهم التوسعية وحفر قنال تربط بين نهري **الدون والفولجا** مما يسمح للبحرية العثمانية بالنفاذ إلى بحر قزوين ، كما أن احتلال أستراخان سيوفر طريقا مفتوحا لغزو شاه الفرس من الشمال بدلا من الخوض من جهة جبال أذربيجان الوعرة.

تمكن الجيش من حفر ثلث القناة المخطط لها حتى جاء فصل الشتاء مما جعل العمل يتوقف. استعمل العثمانيون سفنا صغيرة محملة بالمدافع للهجوم على أستراخان لكن دون نجاح حقيقي، وبشكل عام تمكنت الحملة من وضع حد لتقدم الروس مؤقتا. لكنها لم تنجح في حسم الصراع الذي سيصبح فيما بعد أحد أسباب ضعف وسقوط الدولة .

4 - 1 - محاولة استعادة الأندلس

قام **بكلر بيك " سيد أسياد "** الجزائر **أولوج علي باشا** بإرسال العتاد والسلاح والمؤونة لمسلمي الأندلس، وكان يتصل بهم سرا على الرغم من كل التضييق الذي لحق بهم، كما رتب معهم للقيام بثورة عارمة في البلاد مستغلا انشغال قوات الإسبان بالحرب المستعرة في الأراضي المنخفضة (هولندا) ، وفي وقت محدد من تلك السنة تجمع 40 مركبا جزائريا مقابل السواحل الإسبانية لإمداد أهل الأندلس بالجند والسلاح والمؤن، لكن انكشاف أحد رجال الثورة الأندلسيين جعل الإسبان متيقظين لنقاط الإنزال التي ستعمد إليها السفن العثمانية، فصد الإسبان معظم محاولات أولوج علي باشا، ومما زاد من مشاكلات هذا النزاع العواصف والأعاصير التي حدثت في البحر المتوسط في ذلك الوقت من السنة مغرقة 32 سفينة جزائرية.

على الرغم مما سلف ذكره من الأهوال فقد تمكن **قلج علي** من إنزال 4000 جندي وكمية كبيرة من السلاح بالإضافة إلى عدد من الخبراء العسكريين العثمانيين لتولي مهمة القيادة البرية على الجبهة الأندلسية، وكاتب دار الخلافة قلج علي يأمره أن يستمر في دعم مسلمي الأندلس بكل همة، واستمر قلج علي يرسل كل ما يستطيع من من مساعدات إلى الأندلس وعزم على الذهاب بنفسه إليها ولكن دنو موعد **معركة ليبانتو** الشهيرة جعل القيادة العثمانية تأمره بالامتناع عن ذلك للمشاركة في المعركة.

4 - 2 - معركة ليبانتو :

تم في عهده فتح قبرص التابعة للبنادقة آنذاك ، كما غزت البحرية العثمانية جزر كريت وظنته وغيرها بدون أن تحتلها واحتلت مدينتين على ساحل البحر الأدرياتيكي، فتوجس أهل البندقية الخوف على أراض إيطاليا ونفوذ البندقية فعقد البابا حلفا بين إسبانيا والبندقية وجنوى ورهبان جزيرة مالطة ، فشكلوا أسطولا من 231 سفينة هاجمت العثمانيين الذين قابلوا هذا الحلف بـ 300 سفينة، وعلى الرغم من مشورة القادة العثمانيين بالتحصن في خليج إحدى الجزر إلا أن القائد الأعلى **مؤذن زاده علي باشا** صمم على ملاقاة عدوه في مياه البحر بقرب الساحل، وانتصر الحلفاء، فقتل مؤذن زاده علي باشا في صراع بين سفينته وسفينة **دون جون** قائد القوى المتحالفة وغنمت رايته العثمانية المطرزة بالذهب، وقتل وأسر العديد من نخبة البحارة المسلمين بالإضافة إلى استيلائهم على 300 مدفع عثماني، وخطب بابا الفاتيكان بهذه المناسبة وشكر دون جون على نصره، وكان هذا النصر نقطة تحول وتفاؤل لدى الأوروبيين حيث حظيت البحرية العثمانية بصيت أنها لا تهزم.

أما في الجانب العثماني فقد تمكن قائد الميسرة أولوج علي باشا (بكلربيك الجزائر) من الاستيلاء على راية سفن رهبان مالطا والحفاظ على عدد كبير من السفن التي كانت معه، وعند عودته إلى إسطنبول لقبه السلطان بالسيف ورقاه إلى منصب قائد القوات البحرية (**قبودان باشا**)، أما محمد باشا الصقلي فدأب يعيد بناء الأسطول البحري بكل ما أوتي من قوة وهمة مستغلا صعوبة الإبحار في فصل الشتاء ، وتبرع سليم الثاني بجزء من قصره لتحويله إلى مكان تبنى فيه السفن وأنفق بسخاء من ماله الخاص ولم يقم بجمع أية أموال إضافية من مواطني الدولة التي كانت تنعم برخاء عجيب في تلك الفترة، وفي أقل من سنة تم تشييد 250 سفينة جديدة ، فارتعدت البندقية من الخبر مما جعلها توافق على دفع غرامة حربية للخلافة العثمانية قدرها 300 ألف دوكا بالإضافة إلى التنازل عن جزيرة قبرص لا سيما بسبب الخلافات التي دبت بين قادة الحلفاء بعد نصرهم مما أدى تفرقهم، ولم تتجرأ أية أمة غربية على منازلة البحرية العثمانية في تلك السنة.

كان من نتائج معركة ليبانتو تخلي العثمانيين عن مشروع استعادة الأندلس كما يجدر بالذكر أن تأثير هذه الموقعة البحرية الهامة في التاريخ كان بخسارة العثمانيين لعدد كبير من خبرائهم البحريين مما صعب عليهم تعويضه فيما بعد ، وظهر ذلك جليا على البحرية العثمانية لاحقا.

4 - 3 - فتح تونس والحملة على اليمن

صدرت أوامر الخليفة بتخليص تونس من الإسبان الذين احتلوا تونس عام (980هـ) فانطلق وزير الحربية **سنان باشا** بجيشه الذي قدم بحرا من إسطنبول مع عدد كبير من القطع البحرية العثمانية لنجدة أهل تونس واستمر حصار المسلمين للإسبان حتى انسحبت القوات الإسبانية وتراجعت إلى حصن منيع جدا عرف باسم **البستيون** فحوصر الحصن حصارا شديدا حتى افتتحه، وكان سنان باشا يشارك جنده مبادرا حيث راح يشارك في أبسط الأعمال كحمل الأتربة والحجارة، حتى إذا تعرف عليه أحد ضباط الجند قال له :

ما هذا أيها الوزير؟ نحن إلى رأيك أحوج منا إلى جسمك ،
فقال له سنان : لاتحرمني من الثواب.

أرسل الصدر الأعظم **محمد باشا الصقلي** جيشا كبير وأمر عليه **عثمان باشا** لردع ثورة في اليمن بإمرة **المطهر بن شرف الدين** ، فدعمه سنان باشا وزير الحرب ووالي مصر بكل ما استطاع جمعه من الأفراد والمواطنين المسلمين في مصر فقضى على الثورة عام 976 هـ ، وكانت اليمن من الأهمية لدى

الخلافة أنها درع أمام تقدم البرتغاليين إلى الحجاز وقاعدة لضرب نفوذ البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي.

5 – وفاته

يذكر المؤرخون المسلمون أنه قضى نحبه بعد انزلاق قدمه أثناء استحمامه في قصر طوب قابي ، إذ توفي بعد ذلك بأيام (يوم 15 ديسمبر 1574) متأثرًا بنزيف دماغي .

يعد سليم الثاني أول سلطان عثماني يولد في إسطنبول، وكذلك أول من يموت فيها منهم ، كما أنه أول سلطان قعد عن قيادة الحملات ، إذ رغم تلقيه تعليمًا رفيعًا إلا أنه ترك أمور الدولة إلى صهره ووزيره الأول الصدر الأعظم **سوكولو محمد باشا**، ومع هذا وقف سليم بذكاء ضد الكثير من قرارات وزيره الأول كما عارض بعضها .

حظي السلطان سليم الثاني بمميزات ، مثل تواضعه وإدراكه لمصلحة الدولة ، و" شاعريته المشهورة " .

14 - مراد الثالث بن سليم الثاني

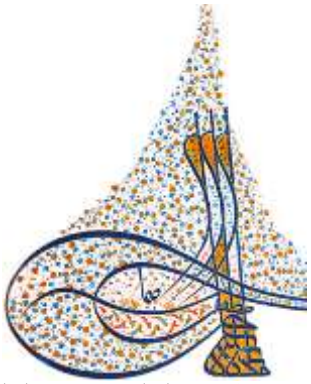

طغراء السلطان مراد الثالث

1 - تقديم

السلطان مراد بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل .

وهو السلطان الثاني عشر من سلاطين الدولة العثمانية. ولد عام 953 هـ / 4 يوليو 1546م وتوفى 15/16 يناير 1595 م وتولى الخلافة عام 982 هـ / 1574 م بعد وفاة أبيه حتى وفاته 1595 م ، وبعد أن تولى السلطة أمر بمنع شرب الخمر، ولكن ثورة الانكشارية أجبرته على ترك هذا القرار، كما قام بقتل إخوته ليأمن على نفسه من النزاع على الملك وكان ذلك قد أصبح عادة تقريبا وخلفه ابنه السلطان محمد الثالث.

2 - العلاقات الخارجية مع أوروبا

أدخل بولونيا (بولندا حاليا) تحت حماية الدولة العثمانية عام 983 هـ، وجدد للدول الأوربية (فرنسا والبندقية) امتيازاتها، وجعل سفير فرنسا مقدما على سائر السفراء الذين تكاثروا على باب السلطنة العثمانية طلبا للامتيازات التجارية ، وتمكنت ملكة الإنجليز **إيزابلا** من استخلاص امتياز تجاري يسمح للسفن التجارية الإنجليزية بأن ترفع العلم الإنجليزي، وقد كانت كل السفن الأوروبية ما عدى سفن جمهورية البندقية تمنع من دخول الموانئ العثمانية إلا في حال رفعت العلم الفرنسي.

3 - معركة وادي المخازن

حدثت ثورة في مراكش اقتتل فيها ابن الحاكم المتوفى مع عمه الحاكم الشرعي الجديد (**أبو مروان عبد الملك**) ، وانتهى الأمر باستعانة الثوار بالبرتغاليين النصارى الذين جيشوا جيشا كبيرا ضم فيه متطوعة من دول أوروبية مختلفة كقشتالة وإيطاليا بالإضافة إلى العساكر البرتغاليين وأسبغ عليه البابا مباركته واتخذت هذه الحملة الصيغة الصليبية ،

بينما طلب سلطان مراكش الجديد المساعدة من الخليفة العثماني، فأرسل هذا الأخير العديد من الخبراء العسكريين وفتح الباب للمتطوعين، وانضمت الجيوش العثمانية إلى الجيش المغربي والتقوا مع البرتغاليين والثوار في موقعة **القصر الكبير** أو **وادي المخازن**، وعلى الرغم من قلة عدد المدفعية العثمانية (34 مدفع) مقارنة بنظيرتها البرتغالية (40 مدفع) ، إلا أن الخبراء العسكريين العثمانيين تمكنوا من أن يشكلوا فعالية من مدافعهم بحيث انتصرت على البرتغاليين والثوار، كما قام الجيش بتدمير الجسر الذي كان يشكل طريق الهروب للجيش الصليبي فغرق الكثير منهم عند محاولتهم الفرار، وقتل **سبستيان** ملك البرتغال وخيرة جنده ، وكان ذلك السبب الرئيسي في خسارة البرتغال موقعها العالمي كقوة عسكرية استعمارية وتجارية احتكرت طرق التجارة مع الهند وسيطرت على المضائق البحرية المهمة لفترة، حيث ضمت البرتغال لإسبانيا التي كانت يحكمها خال الملك القتيل وخسرت استقلالها، وأعيد السلطان الشرعي إلى حكم مراكش ، وكثرت الوفود الأوروبية في البلاط المغربي طلبا لود حكامها في تلك الفترة.

4 - تجدد القتال مع إيران

استغل العثمانيون وفاة طهماسب شاه الدولة الصفوية عام 984 هـ ومقتل ابنه فوجهوا جيشا لاحتلال الكرج ودخلوا عاصمتها تفليس عام 985 هـ ثم أكملوا المسير نحو شيروان في أذربيجان الشمالية فدخلوها عام 986 هـ . طلب العثمانيون من خان القرم أن يساعدهم في محاربتهم للصفويين، إلا أنه رفض، فوجهوا جيوشهم لتأديبه إلا أنها أنهكت في المسير لوعورة الطريق ومناوشة الروس، وحاصرها خان القرم بجيش كبير. قام **عثمان باشا** قائد الجيش العثماني بوعد أخو الخان بالحكم إن هو ساعدهم، فقام بقتل أخيه الخان بالسم ، فدخل عثمان باشا كافا عاصمة الخان، وعند عودته إلى إسطنبول كوفئ بتعيينه صدرا أعظما.

5 - مقتل الصدر الأعظم واضطراب النظام العسكري :

قتل الصدر الأعظم محمد باشا الصقلي والذي شهد عهد أربعة من سلاطين آل عثمان كان أولهم سليم الأول، وكان قتل هذا الرجل الفذ الذي صان البلاد بعد وفاة سليمان القانوني بدسيسة من الحاشية السلطانية ، وتوالى بعدها تنصيب الصدور العظام وعزلهم، ولم يتمكن القادة في البلاد من السيطرة على جنود الانكشارية الذين لم تعجبهم الهدنة بين الفرس والترك، حيث اعتادوا على السلب والنهب فقاموا بثورات عديدة في البلاد التي كانوا معسكرين فيها، ورأى الصدر الأعظم آنذاك **سنان باشا** أن يشغلهم بالحرب مع النمسا ، فتم إرسال عدد كبير منهم إلى المجر، وكانت الحرب سجالا بين الطرفين، ولعل تغيب السلطان عن الخروج على رأس عساكره في المغازي هو ما جعل زمام الانكشارية ينفلت بعد مقتل محمد باشا الصقلي حيث كان هذا الأخير مرهوب الجانب ، يدبر أغلب أمور البلاد ويشرف على المغازي بنفسه. حدثت ثورة قام بها أفراد من أمراء الأفلاق والبغدان وترانسلفانيا وانضموا إلى النمسا فسار إليهم سنان باشا الصدر الأعظم ودخل بوخارست عاصمة الأفلاق ولكن أمير الأفلاق استطاع أن ينتصر في النهاية وانسحب العثمانيون إلى ما بعد نهر الدانوب وخسروا عدة مدن. كان لتلك الأحداث إيذانا ببداية انهيار النظام العسكري العثماني

6 - إعادة صنع منبر مسجد النبي محمد ﷺ

المنبر الموجود حاليًا في المسجد النبوي والذي بناه السلطان مراد الثالث

قام السلطان مراد بإعادة صنع منبر مسجد النبي محمد ﷺ من الرخام ، وزخرف بأروع الزخارف قبل إلى إرساله إلى المدينة المنورة وهو لا يزال موجوداً داخل المسجد النبوي

15 - محمد الثالث بن مراد الثالث

1 - تقديم

السلطان محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل .

هو الخليفة العثماني الثالث عشر من سلاطين الدولة العثمانية، عاش بين عامي (974 هـ/ 26 مايو 1566 م - 1012 هـ/ 21/22 ديسمبر 1603 م)، وأمسك زمام الحكم في 15 يناير 1595 م حتى 22 ديسمبر 1603 م، كان شاعرا. هو ابن جارية بندقية الأصل، اشتراها السلطان مراد واصطفاها لنفسه وكانت ذات أثر كبير في السياسة وخلفه ابنه السلطان أحمد الأول.

2 - بداية حكمه

في بداية حكمه قتل إخوته الذكور كلهم قبل دفن أبيه وترك تسيير شؤون الدولة الداخلية لوزرائه ، فقام عدد من الوزراء ببيع المناصب العسكرية والمدنية وضعفت العملة العثمانية وحدث فساد كبير في ربوع البلاد المسلمة ، وزاد موقف حكومة الخلافة تأزمًا الهزائم التي أخذ الجيش يتجرعها في أقاليم البغدان وترانسلفانيا على يد **ميخائيل الفلاحي** بمساعدة جيش النمسا.

3 - توليه عموم الجيش

بدا واضحا للسلطان أن انزواءه عن قيادة الجيش وتحمل مسؤوليات الحكم بنفسه كان مفتاح ما حل بالبلاد من الفساد فقام بتشجيع من العلماء الذين حوله من مثل الشيخ **سعد الدين أفندي** بقيادة عموم الجيش بنفسه ، فدب في جيوش الدولة الحمية المفقودة والغيرة المنشودة فافتتحت **قلعة أرلو** الصعبة والتي عجز سليمان القانوني عن فتحها ، وقابل الجيوش النمساوية المجرية المعادية في معركة كرزت فحطمها ودمرها وشبه هذا النصر بـمعركة موهاكس الفاصلة وحدث كل ذلك في عام 1005 هـ ، واستمرت المعارك سجالا بين الطرفين دون حسم ، ولم يحدث أن قام سلطان عثماني بقيادة الجيوش بنفسه منذ عهد سليمان القانوني.

4 - إيمانه الإسلامي

كان صاحب إيمان إسلامي كبير، وحدث في المعركة التي تلت فتح **حصن كراي** فرار أغلب أعوانه وكاد السلطان أن يسقط في الأسر فثبته سعد الدين أفندي : (أثبت أيها الملك فإنك منصور بعون مولاك الذي أعطاك وبالنعم أولاك)، فقام وامتطى حصانه ودعا الله أن ينصره على عدوه وانطلق يحارب عدوه فما هي إلا ساعة حتى تم النصر المبين . كان السلطان محمد الثالث يقوم من مقامه عندما يسمع اسم النبي محمد إجلالا واحتراما لمقامه.

5 - ثورة الفراريين

قام تمرد في أيامه في الأناضول أثاره جنود هاربون من **معركة كرزت** كانت الدولة قد نفتهم إلى الأناضول وتلقبوا بالفراريين تحقيرا لهم ، وجاء الثورة في وقت حساس للغاية لانشغال العساكر العثمانية بالحرب في أقاليم المجر إلا أن العثمانيين تمكنوا من محاصرتهم، فاستسلم قائدهم مقابل أن يصبح واليا على **أماسيا** فوافق الخليفة إلا أنه عاد وقام بثورة جديدة فقتل رئيس المتمردين وتولى أخوه **حسن المجنون** (أو دلي حسن) من بعده قيادة الثورة واستطاع هزيمة الجيش الذي أرسلته إسطنبول، فاستمالته الحكومة بالأعطيات وأكثرت من الهدايا وعرض عليه ولاية البوسنة فقبل ، وهدفت الدولة استعماله وجيشه الثائر على الثغور للاستفادة من قوته، وجاء القدر في صف الخليفة حيث هلك جيش المجنون في المناوشات المستمرة مع الجيوش المجرية والنمساوية.

6 - ثورة الخيالة

قامت ثورة أخرى هي ثورة الخيالة (**السباه**) في اسطنبول وذلك لأن الدولة لم تستطع تعويضهم ماليا عما فقدوه من ريع إقطاعاتهم في آسيا بسبب فتنة الفراريين، فاستعانت الدولة بالإنكشارية لتقضي على الثورة وقضت عليها بالفعل بعد أن أفسدوا ونهبوا المساجد وغيرها مما وصلت أيديهم إليها.

توفي في عام 1012 هـ / 1603 م وخلفه ابنه السلطان أحمد الأول.

16 - أحمد خان الأول بن محمد الثالث

1 - تقديم

السلطان أحمد خان الأول (998 هـ / 18 أبريل 1590 م - 1062 هـ / 22 نوفمبر 1617 م) . وهو السلطان العثماني الرابع عشر، كان شاعرا وله ديوان مطبوع ، وصل إلى الحكم عام (1603 - 1617 م). كان عهده عهد حروب وتمردات وثورات ضد دولته .

وأبنائه هما السلطان عثمان الثاني والسلطان مراد الرابع والسلطان إبراهيم الأول.

2 – نسبه

هو أحمد خان الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل

3 - العلاقات مع الشرق

تولى الحكم وهو ابن 14 عاما. كانت نيران الحرب متقدة وحامية الوطيس مع الجيران الإيرانيين، مما شجع بعض القوميات والولايات التي تدور رحا الحرب بقربها على الثورة ، ومنها حركة " **جان بولاد الكردي**" الذي هزم واضطر إلى الفرار إلى إيطاليا **وفخر الدين الدرزي**. قام الصدر الأعظم ذي الثمانين ربيعا **مراد باشا** بالقضاء على كل العصاة والثوار.

قام **الشاه عباس** ملك الصفويين باحتلال عدة مدن تتبع الدولة العثمانية **كتبريز ووان** فاضطر أحمد الأول إلى إجراء صلح مع الصفويين لا سيما بعد وفاة مراد باشا ، وكان أحد شروط الصلح أن يعيد العثمانيون كل ماضمه سليمان القانوني من أراض في تلك الجهات بما فيها بغداد.

4 - العلاقات مع الغرب

عملت حكومة النمساوية الكاثوليكية على التضييق على الهنغاريين الأورثودكس، ممل جعل الهنغاريين يراسلون الدولة العثمانية المسلمة طلبا لعدلها وحريتها لتخليصهم من ظلم واستبداد النمسا، وانتخب الهنغاريون أميرا عليهم، فارتاحت الحكومة العثمانية وأمدهم السلطان بالقوات العسكرية لمواجهة النمسا وتمكنت القوة الهنغارية العثمانية من فتح عدة حصون في زمن قليل .

أما النمسا فبذلت قصارى جهدها لإغراء الهنغاريين ليتركوا المسلمين فتنازلوا لهم عن كل أراض المجر واعترفوا بحاكمهم ملكا على المجر وأميرا على ترانسلفانيا، فنجح دبلوماسيو الهابسبورج بإيقاف التعاون المجري مع العثمانيين ، ونظرا لاستمرار القلاقل الداخلية واستنزاف الجيش على الجبهة الشرقية مع إيران اضطر العثمانيون إلى عقد صلحً في مع النمسا تخلصت فيه النمسا من الجزية السنوية التي كانت تدفعها للدولة العثمانية، أما فرنسا فقد تم تجديد الامتيازات لها بحيث أصبحت تفوق امتيازات الإنجليز والبنادقة، وأعطي ملك فرنسا حق حماية مسيحي القدس وما حولها.

أدخلت هولندا التبغ وطرق أستعماله إلى الدولة العثمانية في عهد الخليفة أحمد الأول، فأصدر المتفتي فتوى بتحريم استعمال التبغ فثارت الانكشارية وعزلت الخليفة ونصبت مكانه أخيه السلطان مصطفى الأول.

جرت في عهده حروب بحرية بين السفن العثمانية وسفن الدول الأوربية وكانت في الأغلب تنتهى لصالح أوروبا.

5 - العمران في عهد أحمد الأول

مسجد السلطان أحمد احد أهم رموز الخلافة العثمانية
وهو يعرف في الغرب باسم المسجد الأزرق لنقوشه الزرقاء الأخاذة.

17 - مصطفى الأول بن محمد الثالث

مصطفى الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل (1591م - 20 يناير 1639م).

وهو السلطان الخامس عشر العثمانى وتولى حكم الدولة العثمانية مرتيين الأولى (1617-1618) والثانية (1622 - 1623)، لم يهتم بشؤون الدولة ولعله لم يكن يدري شيئا عنها، عمل على قتل إخوته أو حجزهم كما كانت العادة المتبعة لدى السلاطين العثمانيين، وفي سنة 1618 عزله ابن أخيه السلطان عثمان الثاني، إلا أنه رجع إلى الحكم مره أخرى بعد أن قتل الإنكشارية عثمان الثاني في سنة 1622 فحكم سنة واحده ثم عزله ابن أخيه السلطان مراد الرابع في سنة 1623 علي يدي الانكشارية وأصحاب الغايات، وقيل أن عقله كان قد وهن وهو عم كلاً من السلطان عثمان الثاني والسلطان مراد الرابع والسلطان إبراهيم الأول.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

18 - عثمان الثاني بن أحمد الأول

1 – تقديم

عثمان الثاني بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل.

وهو السلطان السادس عشر العثمانى بعد أن عزل عمه السلطان مصطفى الأول تولى الحكم (1618 - 1622) وعاش (3 نوفمبر 1604 - 20 مارس/ مايو 1622) , وبعد قتله خلفه عمه مصطفى الأول.وهو شقيق كلاً من السلطان مراد الرابع والسلطان إبراهيم الأول، وهو باني قلعة المعظم الواقعة بين تبوك والعلا

2 - توليه الحكم

خرج على عمه السلطان مصطفى الأول وعزله وأخذ السلطة منه سنة 1618 وتولاها وعمره ثلاثة عشر سنة فقط . أرادت الإنكشارية بهذا استعمال سلطان صغير وضعيف لتنفيذ مآربهم وليغدق عليهم بالعطايا . قام السلطان عثمان بقتل أخيه محمد جريا على العادة السلطانية المؤسفة حتى لا ينازعه أحد الملك ، كما عمل على إضعاف صلاحيات المفتي (أحد العقول التي هندست الثورةعلى مصطفى الأول) ليأمن شره.

3 - إعلان الحرب على بولونيا

تدخلت دولة بولونيا (بولندا حاليا) في شؤون إمارة البغدان ، مما دفع بالسلطان عثمان إلى تجهيز حملة لقهر تلك الدولة وضمها لأملاكه ، ومما عزز عزيمته في ذلك هو أنه أراد أن يفصل بين أملاك الدولة العلية ومملكة روسيا.

عندما انتهت تحضيرات الجيش العثماني، سارت العساكر حتى التقت بالبولونيين في مكان حصين ومنيع في العمق البولوني. هاجم الجيش العثماني الموقع بضرواة وعلى عدة دفعات ولكن بدون فائدة ولعل أبرز ما حصل في هذه الحملة كان مقتل قائد الجيوش البولونية، وانتهى الأمر بعقد الصلح بين الطرفين، فجن جنون الخليفة عثمان الثاني لعدم تأديتهم واجبهم ولتفضيلهم الراحة على الموت في سبيل الله وإجباره على الصلح مع عدوه.

4 - مقتل السلطان

أعطى عثمان توجيهاته بتشكيل جيوش جديدة في الولايات العثمانية الأسيوية وتدريبها على أحدث النظم العسكرية حتى يستعين بهم للقضاء على الإنكشارية واستبدالهم، ولكن أولئك الأخيرين فطنوا للموضوع فلم يمهلوا السلطان أن يتم مشروعه وتوجوا أفعالهم بقتل السلطان لأول مرة في تاريخ الدولة العلية في 20 مايو 1622 بعد حبسه في زنزانة في سجن **Yedi kule** تم خنقه من قبل أربع جلاّدين في زنزانته (جرت العادة أن ينفذ حكم الإعدام خنقا بحق النبلاء الأتراك وهي عادة قديمة في التاريخ التركي) ، وكان عمره ثمانية عشر عاما.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

19 - مراد الرابع بن أحمد الأول

1 - تقديم

مراد الرابع بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل.

هو السلطان العثماني السابع عشر، عاش بين عامي (1021 - 1049 هـ) / (26 يوليو 1612 - 9 فبراير 1640 م). حكم 17 عاما منذ عام 1032 هـ / 1623 م وكان عمره آنذاك 11 عاما. ضمت بغداد للدولة العثمانية في عهده عام 1639 م. كان يجيد العربية والفارسية ، وكان يكتب القصائد تحت اسم **مرادي** و كان موسيقيًا مميزًا.

تولى أمر الخلافة بعد عزل عمه السلطان مصطفى الأول عام 1032 هـ. وتولى الخلافة وهو صغير فسيطر عليه الانكشارية في بداية الأمر. حدث تمرد في بغداد فأرسل الخليفة جيشًا إليها ولكن الصفويين دخلوا بغداد واستولوا عليها، وبعد وفاة الشاه عباس وتولى ابنه الصغير مكانه استغل العثمانيون الفرصة وحاصروا بغداد ولكنهم لم يتمكنوا من اقتحامها.وهو شقيق كلاً من السلطان عثمان الثاني والسلطان إبراهيم الأول.

2 - جلوسه على السلطة

تولى السلطان مراد الرابع عرش الدولة العثمانية ، والأخطار تحدق بها من الداخل والخارج ؛ فقد بويع بالسلطنة بعد عزل عمه السلطان مصطفى الأول في (15 من ذي القعدة 1032هـ = 11 من سبتمبر 1623م)، وكانت فرق الانكشارية تعبث بمصالح البلاد العليا، وتعيث في الأرض فسادًا، حتى إنهم قتلوا السلطان "عثمان الثاني" (1027 - 1031 هـ = 1618 - 1622م)

وكان سلطانًا - على الرغم من صغر سنه - يحاول أن ينهض بالدولة ، ويبث فيها روح الإصلاح ، ويبعث الحياة في مؤسسات الدولة التي شاخت وهرمت، لكن الانكشارية لم تمكنه من ذلك، واعترضت طريقه، وتدخلت فيما لا يعنيها ، ولم يجد السلطان مفرًا من تقليص نفوذهم، وقمع تمردهم، ولو كان ذلك بتصفية وجودهم العسكري، لكنهم كانوا أسبق منه، فأشعلوا ثورة في عاصمة الخلافة في (رجب 1031هـ= مايو 1622م) عرفت في التاريخ بـ" **الهائلة العثمانية** " راح ضحيتها السلطان الشاب الذي لم يجاوز عمره الثامنة عشرة.

وبعد مقتل السلطان ولّوا السلطان مصطفى الأول وكان لا يملك من أمره شيئا، وصارت مقاليد البلاد في يد الانكشارية، وعمّت أرجاء الدولة الفوضى والاضطرابات، وظلت ثمانية عشر شهرًا دون أن تجد يدًا حازمة تعيد للدولة أمنها وسلامتها.

واستمرارًا لهذا العبث قام الانكشارية بعزل السلطان مصطفى الأول وولوا مكانه ابن أخيه السلطان "مراد الرابع بن أحمد الأول"، وكان حدثًا لا يتجاوز الثانية عشرة، فصارت أمه " **كوسم مهبيكر**" نائبة السلطنة ، تقوم بالأمر دونه ، لكن مقاليد الأمور كانت بيد الانكشارية التي علا شأنها وازداد نفوذها، واطمأنت إلى أن السلطنة في يد ضعيفة.

3 - ولاية السلطان

عانت الدولة العثمانية في الفترة الأولى من ولاية السلطان مراد الرابع عدم الاستقرار واستمرار الاضطرابات والفوضى الداخلية التي تجاوزت عاصمة الخلافة إلى أطرافها؛ حيث أشهر والي طرابلس الشام استقلاله، وطرد الانكشارية من ولايته، وفعل الشيء نفسه "**أباظة باشا**" والي "**أرضروم**"، واستولى على أنقرة وصادر إقطاعيات الانكشارية.

وانتهزت الدولة الصفوية هذه الفوضى التي عمّت الدولة العثمانية فاستولت على بغداد، وحاولت الدولة أن تستردها، فبعثت جيشًا يقوده الصدر الأعظم "**حافظ باشا**" فحاصر المدينة في (1033 هـ= 1624م) وضيق عليها الخناق، ولكن دون جدوى فتذمّر الانكشارية، وأجبروا الصدر الأعظم على رفع الحصار والعودة إلى الموصل، ومنها إلى ديار بكر، وهناك ثارت عليه الانكشارية، فعزله السلطان حتى

تهدأ الأوضاع، وعين مكانه "**خليل باشا**" الذي سبق أن تولى هذا المنصب قبل ذلك، لكنه لم يستمر طويلا، وخلفه "**خسرو باشا**" في سنة (1035هـ = 1627م).

وبعد تولّيه الصدارة إتجه إلى أرضروم، ونجح في إجبار أباظة باشا على التسليم، والدخول في طاعة الدولة ، وذلك في سنة (1037هـ= 1629م) لكنه لم يفلح في استرداد بغداد، واضطر إلى رفع الحصار عنها في سنة (1039هـ= 1631م) وفي طريق العودة عزله السلطان مراد الرابع وأعاد حافظ باشا إلى منصب الصدارة مرة أخرى.

4 - ثورة الأنكشاريه

كان خسرو باشا ظلومًا باطشًا ، يستند في سلطانه على جماعة الانكشارية في إستنبول التي يوجهها كما يشاء، فلما عزله السلطان أراد أن يكيد له ، فأوعز إلى رؤساء الانكشارية أن السلطان لم يعزله إلا لوقوفه إلى جانبهم وتعاطفه معهم ، فثارت الانكشارية في العاصمة، وطالبت السلطان بإعادة خسرو باشا إلى منصبه، لكن السلطان رفض مطلبهم، فاشتعلت ثورتهم في (19 رجب 1041هـ= 10 من فبراير 1632)، وقتلوا حافظ باشا أمام السلطان الذي لم يستطع أن يبسط حمايته عليه ، ويدفع عنه أذاهم.

كان السلطان يعلم أن خسرو باشا وراء هذه الثورة؛ فأمر بالقبض عليه، لكنه لم يذعن للأمر ورفض التسليم، وكانت هذه أول مرة في التاريخ العثماني يعترض وزير على أمر سلطاني، لكن القوات المكلّفة بالقبض عليه حاصرته في قصره ، وقتلته في (19 من شعبان 1041 هـ= 11 من مارس 1632م)

وفي اليوم الثاني أشعل الإنكشاريون ثورة هائلة أمام باب سراي السلطان؛ في محاولة لإرهاب السلطان وإفزاعه، لكنه واجه التمرد بالحزم، ورفض مطالبهم، واجتمع بالديوان والعلماء وأعلن أن الفوضى تغلغلت في كيان الدولة، وأن الجيش أصبح لا يحارب، وصار الجندي لا يؤدي واجبه لتدخله في سياسة الدولة، وهدد بأنه لن يتردد في البطش بمن لا يطيعه مهما كان ذلك الشخص.

5 - استتباب الأمن في البلاد

انتهت فترة نيابة السلطانة " **كوسم** " التي دامت نحو تسع سنوات، وأصبح مراد الرابع طليق اليد في إدارة شئون الدولة، بعد أن ضرب بيد من حديد على الثائرين، وقتل كل من ثبت أن له علاقة بالفتنة، فسكنت الثورة واستقرت الأوضاع، وبدأ السلطان في اتخاذ الإجراءات التي تعيد النظام إلى الدولة؛ حتى يفرغ لاستعادة ما فقدته الدولة من أراضيها.

5 – 1 - ثورة فخر الدين المعني الثاني

كان فخر الدين المعني الثاني **أمير الدروز** وأحد الولات في الشام قد أعلن استقلاله عن الخلافة العثمانية. كانت تجربته فريدة من نوعها حيث استفاد من قضائه لـ 5 سنوات منفيا في فلورانسا ليتأثر بالنهضة الإيطالية ويعقد اتفاقات سياسية وعسكرية سرية مع البابا وأمير فلورانسا.

عاد الأمير فخر الدين إلى الأراضي الشامية العثمانية بعد صدور عفو عنه، وتمكن من بسط سيطرته على معظم أراضي لبنان الحديث واتخذ من صيدا مقرا لملكه. عمل على بناء جيش حديث مسلح بالأسلحة الإيطالية كما استقدم خبراء أوروبيين، وجعل لبنة عساكره من الطائفة الدرزية، وفي إحدى مكاتباته لحلفائه الإيطاليين عرض تسليم القدس وقبرص للإيطاليين وحمايتهما في سبيل حصوله على دعم البحرية الإيطالية ومزيد من الدعم العسكري.

انكشفت المكاتبات للسلطان مراد وأراد أن يستأصل شأفته قبل أن يستفحل أمره، ويوقع البلاد والعباد في ما لا تحمد عقباه فأوعز إلى والي دمشق ، فتقدم ذلك الأخير مع جيش فاق جيش الأمير فخر الدين عددا وعدة وخبرة فوقع في الأسر مع ابنيه، وعند وصوله إلى إسطنبول حاول مراد الرابع الإبقاء على حياة أمير الدروز للمنجزات الحضارية التي كان قد خلفها في ولايته والخدمات السياسية التي أداها للأستانة إلا أن قيام ثورة حفيد فخر الدين جعلت الخليفة العثماني يأمر بقتله مع ولديه.

5 – 2 - الحرب مع الصفويين

خرج السلطان بنفسه على رأس حملة كبيرة إلى بلاد فارس في سنة (1045 هـ= 1635م) وكان النظامُ يسود فرق الجيوش البالغة نحو 200 ألف جندي، فأعاد الانضباط، وما كانت عليه الجيوش العثمانية

في أيام سليمان القانوني من ضبط ونظام. واستهل الجيش انتصاراته بفتح مدينة "**أريوان**" في الشمال الغربي من إيران في (25 من صفر 1045 هـ= 10 من أغسطس 1635م) ثم قصد مدينة "**تبريز**" ففتحها في (28 من ربيع الأول 1045هـ= 10 من سبتمبر 1635م)، ولم يواصل الجيش فتوحاته في إيران؛ إذ عاد السلطان إلى بلاده طلبًا للراحة.

وما كاد السلطان يستقر في إسطنبول حتى عاود الصفويون القتال، فاستردوا "أريوان" بقيادة الشاه "**صافي**" بعد حصار لها دام ثلاثة أشهر، واستعادوا مدينة "تبريز" مع أجزاء كبيرة من أذربيجان.

استنفرت هذه الأخبار حماس السلطان الشاب، فخرج في جيش كبير أحسن إعداده، واتجه إلى بغداد، وشرع في حصارها في (8 من رجب 1048 هـ= 15 من نوفمبر 1638م) وكان في المدينة المحاصرة حامية كبيرة تبلغ 40000 جندي، ولم يستطع الشاه الإيراني الاقتراب من الجيش العثماني، واعتمد على قوة جيشه المرابط في المدينة، وأبراج قلعتها الحصينة، لكن ذلك لم يغن عنها شيئا، فسقطت المدينة بعد حصار دام تسعة وثلاثين يومًا، في (18 من شعبان 1048 هـ= 25 من ديسمبر 1638م)، وعادت المدينة إلى الدولة العثمانية بعد أن بقيت في يدي الصفويين خمسة عشر عامًا.

بعد ذلك رغب الشاه الصفوي في الصلح ، وعرض على الدولة العثمانية أن يترك لها مدينة بغداد مقابل أن تترك له مدينة "أريوان"، ودارت المفاوضات بينهما نحو عشرة أشهر، انتهت بعقد الصلح بينهما في (21 من جمادى الأولى 1049هـ= 19 من سبتمبر 1639م).

6 - وفاة السلطان مراد الرابع

وبعد ثمانية أشهر من عودة السلطان مراد الرابع من حملته المظفرة توفي في (16 من شوال 1049 هـ= 9 من فبراير 1640م) وكانت سنه قد تجاوزت السابعة والعشرين بستة أشهر، ولم يترك ولدًا وخلفه أخيه السلطان إبراهيم الأول.

ويُعدّ السلطان مراد الرابع من كبار سلاطين الدولة العثمانية، نجح في إعادة النظام إلى الدولة ، وأعاد الانضباط إلى الجيش ، وأنعش خزانة الدولة التي أُنهكت نتيجة القلاقل والاضطرابات، ومدّ في عمر الدولة نحو نصف قرن من الزمان وهي مرهوبة الجانب، قبل أن تتناوشها أوروبا بحروبها المتصلة.

يؤخذ عليه أنه في سبيل ذلك استعان بكل وسائل البطش والقهر مدة ثماني سنوات، حتى ليقال: إنه قتل عشرين ألفاً في سبيل تأمين النظام في الدولة.

كاد بطشه واستبداده وميله إلى سفك الدماء يقضي على ذرية آل عثمان من الرجال، وكانت هناك عادة سيئة يقوم بها سلاطين آل عثمان منذ عهد السلطان بايزيد الأول، حيث يقدم كل سلطان جديد على قتل إخوته الذكور بعد توليه السلطة، وكان هذا السلطان قد استصدر فتوى تجيز هذا القتل على أسباب المنافسة على الحكم.

وشاء الله أنه كلما ولد ابن للسلطان مراد الرابع توفي بعد فترة، ولم يعش له أي أمير من أولاده حتى يجعله وليًّا، وبلغت الحماقة بمراد الرابع أنه عزم على قتل أخيه إبراهيم، لكن والدته السلطانة كوسم منعته حتى لا تنقرض سلسلة سلاطين آل عثمان، وهكذا نجا إبراهيم من القتل، وأصبح الوحيد من آل عثمان الذي بقي على قيد الحياة، ولو قدر له أن يموت لانقطع النسل من جهة الرجال.

7 - من أخباره

كان مراد الرابع ضخم البنية حيث اشتهر بقوته الجسدية وقدرة تحمله المشاق...ولما كان مولعا بالرياضة ، حيث كان يجلس ويشاهد المباريات الرياضية ،وكان أيضا يشارك في الألعاب الراضية من حين لآخر.

كان السلطان فارسا مميزا وراميا موهوبا يتقن استعمال أنواع كثيرة من البنادق . وكان مرتبطا بأحصنته بشكل كبير، ويهتم اهتماما خاصا بالاسطبلات السلطانية.

و كان مهتما بالأماكن المقدسة، فعندما هطلت أمطار شديدة على مكة في سنة (1639) فأغرقت المسجد الحرام وأرتفعت السيول بمقدار قامتين وأحدث ضررا كبيرا بالمسجد. مان وصلت أخبار السيل الي السلطان حتى عين القاضي **محمد أفندي** والمعماري الشهير **رضوان آغا** لاجراء إصلاحات شاملة بأسلوب فريد

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

20 - إبراهيم الأول بن أحمد الأول

1 - تقديم

إبراهيم الأول بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل. (5 نوفمبر 1615 م - 18 أغسطس 1648م)،

وهو الخليفة العثماني الثامن عشر. جلس السلطان على العرش بعد وفاة أخيه السلطان مراد الرابع في (16 من شوال 1049 هـ – 9 فبراير 1640 م) حتى 12 أغسطس 1648، وكان في الخامسة والعشرين من عمره، وقضى فترة إمارته في عهد أخويه عثمان الثاني ومراد الرابع بعيداً عن أي مهام ، وشاهد مقتل إخوته الأربعة الكبار، وبقي ينتظر مثل مصيرهم ، وهذا جعله عصبياً ومضطرباً لا يستقر على شيء، كما أنه لم يكمل تحصيله العلمي، ولم تتوافر له المهارة العسكرية بسبب العزلة التي فرضت عليه،

وفي بداية حكمه حاول أن يكون مثل أخيه السلطان مراد الرابع، ولكن لم تكن له صفاته؛ فاضطربت أمور الدولة، وتوالى عزل الصدور العظام أو قتلهم، ولأن الدولة كانت قد استعادت هيبتها في عهد سلفه مراد الرابع فإن قصور إمكانات السلطان وضعف سياسته لم تؤثر تأثيراً قوياً في جسد الدولة الكبير.

وشقيق كل من السلطان عثمان الثاني والسلطان مراد الرابع ووالد كل من السلطان محمد الرابع والسلطان سليمان الثاني والسلطان أحمد الثاني وعمه هو السلطان مصطفى الأول، وخلفه في الحكم ابنه السلطان محمد الرابع.

2 - تنصيب السلطان إبراهيم

توفي السلطان مراد الرابع ولم يترك أولادا فذهبت ولاية عهده إلى أخيه إبراهيم الذي كان مسجونا آنذاك ، وعندما اندفعت الحاشية المالكة لتهنئ السلطان الجديد، ظن أنهم يريدون قتله وأنها مكيدة من أخيه لاختبار ولائه ، فرفض الملك وأعرض عنهم وقال لهم بأنه يفضل السجن ولم يصدقهم حتى قابلته أمه ومعها جثة السلطان مراد ، فتيقن من الخبر ورضي أن يتولى سدة الخلافة ، وتقلد سيف عثمان بن أرطغرل في مسجد أبي أيوب الأنصاري ، وكان مما خطب أنه قال : الحمد لله اللهم جعلت عبداً ضعيفاً مثلي لائقاً لهذا المقام اللهم اصلح واحسن حال شعبي مدة حكمي.

3 - السياسة الداخلية

وكان مما ترتب على ضعف السلطان ما عرف بـ" **سلطنة الحريم**"، وهو تدخل سيدات الحرم السلطاني في شئون الدولة، وتغلغل نفوذهن في أجهزة الحكومة، وبلغ تأثيرهن أثرا كبيرا وتمكن الصدر الأعظم **قرة مصطفى باشا** من الوقوف في وجههن والضرب بيد من حديد على المفسدين.

كان السلطان مراد الرابع قد أجرى الكثير من الإصلاحات الداخلية كمحاربة الفساد وترويض الإنكشارية وتحديث الجيش، مما حدا بالخليفة الجديد لإصلاح النظام الاقتصادي وإعادة تنظيمه كما اتجه إلى الاقتصاد في نفقات الجيش والأسطول البحري.

4 - فتح جزيرة كريت

رغم الحالة السيئة التي كانت عليها أجهزة الحكومة، وتغلغل نفوذ نساء القصر؛ فإن الدولة ظلت قوية لم تتأثر كثيرًا بتخبط السلطان، وقام السلطان في وقت تيقظه وانتباهه لتبعات منصبه بغزو جزيرة كريت، وكان استقلالها عن نفوذ الدولة أمرًا يدعو للدهشة؛ فدولة كبرى مثل الدولة العثمانية التي لها أسطول دائم في المحيط الأطلسي تترك جزيرة كريت التي تقع في متناول يدها خاضعةً لجمهورية البندقية.

ونتيجة لهذا قررت الدولة الاستيلاء على جزيرة كريت، فأعلنت الحرب على البنادقة واعتقل كل البنادقة في البلاد، ودأب السلطان إبراهيم على زيارة الترسانة البحرية، والإشراف على الاستعدادات، وأعطى القيادة العليا لمشير البحر الوزير **يوسف باشا**، وتحركت الحملة باحتفال كبير في (5 من ربيع الأول 1055 هـ = 30 إبريل 1645م)، وكانت تضم 106 سفن و300 ناقلة جنود، وما يزيد على 70 ألف جندي، وفي الطريق توقفت في نافارين، ثم وصلت الحملة إلى كريت، وضربت حصارًا حول قلعة "**كانية**"، واستسلمت القلعة على الرغم من تحصينها وقوة دفاعاتها وذلك لعدم وصول أسطول البندقية في الوقت

المناسب، غير أن الحملة لم تتمكن من السيطرة على الجزيرة كلها، وتركت قوة تعدادها 12000 جندي للمحافظة على كانية وحمايتها، ومواصلة فتح الأجزاء المتبقية في الجزيرة، وفي السنة التالية فرض العثمانيون حصارًا حول **"كنديا"** عاصمة الجزيرة، لكن حال دون فتحها تمرد الجنود الإنكشارية.

وفي أثناء الاشتباكات في جزيرة كريت قامت دولة البندقية بالرد على العثمانيين بالإغارة على عدد من ثغور المورة (اليونان) ،

5 - تمرد الأنكشاريه وخلع السلطان إبراهيم وقتله

ازدادت أحوال الدولة سوءاً، واضطربت ماليتها، ونزع الإنكشارية إلى التكتل والتدخل في شئون الدولة، وحاول السلطان إبراهيم أن يقمع الفتنة، ويتخلص من زعماء الإنكشارية بعد أن علا صوتهم، وازداد تدخلهم في شئون الدولة، وتركوا مهمتهم الأصلية في الدفاع عن الدولة ومهاجمة أعدائها إلى التذمر وانتقاض أعمال السلطان، والقيام بالسلب والنهب.

وعندما علم زعماء الإنكشارية بعزم السلطان ، تحركوا سريعًا وأعلنوا ثورتهم، وعاونهم فيها شيخ الإسلام **"عبد الرحيم أفندي"** وبعض العلماء ، واتفق الجميع على عزل السلطان وتولية ابنه **" محمد الرابع"**، ولم يكن قد أتم السابعة من عمره ،

وقعت هذه الثورة في (18 من رجب 1058 هـ = 8 أغسطس 1648م)، وتحقق لها خلع سلطان غير قدير إلى حد كبير، ولا يصلح لتولي مسئولية دولة عظيمة كالدولة العثمانية، غير أن وجوده كان سيمنع – على الأقل - كثيرًا من التصرفات السيئة إذا ما قورن بالنتائج السيئة التي ستترتب على جلوس طفل صغير على عرش دولة كبيرة.

وبعد عشرة أيام من عزله قرر العصاة - الذين قاموا بهذه الفتنة - قتله حين تنادى بعض رجال الدولة بضرورة عودته ، لكن ذلك لم يكن في صالحهم، وكان عمر السلطان حين قتل خنقًا قد بلغ الثالثة والثلاثين ، ودُفن في قبره الموجود في رواق جامع " آيا صوفيا" إلى جانب عمه "مصطفى الأول".

21 - محمد الرابع بن إبراهيم الأول

1 - تقديم

السلطان محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل . عاش (2 يناير 1642 - 1 يونيو 1693) وتولى الحكم (12 أغسطس 1648 - 8 نوفمبر 1687),

هو السلطان العثماني التاسع عشر . وهو شقيق كلا من السلطان سليمان الثاني والسلطان أحمد الثاني وأعمامة كلا من السلطان عثمان الثاني والسلطان مراد الرابع, و خلفه شقيقه السلطان سليمان الثاني. وبعد توليه الحكم أستكمل فتح جزيرة كريت.

2 - تولية السلطان محمد الرابع (فترة النيابه)

كان السلطان محمد الرابع حين جلس على عرش الدولة في السابعة من عمره، فقد ولد في (29 رمضان 1051 هـ / 1 يناير 1642م)، ولما كان صغيرًا فقد تولت جدته "كوسم مهبيكر" نيابة السلطنة، وأصبحت مقاليد الأمور في يديها، واستمرت فترة نيابتها ثلاث سنوات، ساءت فيها أحوال الدولة وازدادت سوءًا على سوء، واستبد الإنكشارية بالحكم، وسيطروا على شئون الدولة، وتدخلوا في تصريف أمورها، ولم يعد لمؤسسات الدولة معهم حول ولا قوة، وقد أطلق المؤرخون على هذه الفترة **" سلطنة الأغوات"**.

وبعد وفاة السلطانة الجدة سنة 1062 هـ / 1651م لم يكن محمد الرابع قد بلغ السن التي تمكنه من مباشرة سلطاته وتولي زمام الأمور، فتولت أمه السلطانة **خديجة تاريخان** نيابة السلطنة ، وكانت شابة في الرابعة والعشرين، اتصفت على صغرها برجاحة العقل واتزان الرأي، ذات رأي وتدبير، تحرص على مصالح الدولة العليا التي أصبحت تعصف بها أهواء الإنكشارية، ولذا شغلت نفسها بالبحث عن الرجال

الأكفاء الذين يأخذون بيد الدولة، ويعيدون إليها هيبتها، وكانت تأمل في أن تجد صدرًا أعظم قديرًا يعتمد عليه السلطان في جلائل الأعمال، حيث توالى على هذا المنصب كثير من رجال الدولة الذين عجزوا عن الخروج بدولتهم من محنتها الأليمة.

وجدت السلطانة الشابة ضالتها المنشودة بعد خمس سنوات من البحث الدءوب في **محمد باشا الكوبريللي**، وهو من أصل ألباني، قوى الشكيمة، ورجل دولة من الطراز الأول، فاشترط لنفسه قبل أن يتولى هذا المنصب الرفيع أن يكون مطلق اليد في مباشرة سلطاته وألا تُغلّ يده ، فقبلت السلطانة هذا الشرط؛ حرصًا على مصالح الدولة، ورغبة في أن يعود النظام والهدوء إلى مؤسسات الدولة وبليبيا الخاضعة للحكم العثماني كانت تعم الفوضي بعهد **الداي عثمان الساقزلي** إلى أن نجح أمر حامية طرابلس **أحمد القرمانالي** وهو ذو أصول لعائلة قادمة من قرمان بالانقلاب والاستيلاءعلي طرابلس الغرب ليؤسس حكم الأسرة القرمانلية اما خارج أسوار مدينة طرابلس فكانت السيطرة فيها لرجال البادية وكان الحاكم الشهير **عبد الرحمن الجبالي** سيد روحة بن عبدالله بن عبد الهادي بن عوكل بن عبيد بن محارب بن عقار الشريف أولاد سالم وله معارك شهيرة مع بن جميل حاكم فزان وسيف النصر الأول والمرامير وكانت تخضع له العربان بالبادية من ساحل الاحامد الي الجبل الأخضر ومقره قصر الجبالي بسرت ومدحه العياشي في رحلة العطش(ماء الموائد 1056 \1064) هجرية بأن قال قهر الاعراب وتوود إليه الاتراك وعم الأمان لطرق القوافل إلى دول جنوب الصحراء والسودان وكان سببا لحقد الجميع عليه.

3 - محمد الرابع يباشر سلطاته (فترة آل كوبريللي) :

باشر كوبريللي عمله في (26 من ذي القعدة 1066 هـ / 15 سبتمبر 1656م)، وأعلن أن السلطان محمد قد بلغ سن الرشد، وانتهت بذلك نيابة السلطانة الوالدة التي دامت خمس سنوات، وتوارت إلى الظل، ولم تتدخل في أمور السلطنة بعد أن اطمأنت أن مقاليد البلاد في يد أمينة، وانصرفت إلى أعمال الخير وتربية ولديها : سليمان وأحمد.

بدأ محمد باشا كوبريللي أعماله بإعادة هيبة الدولة، فضرب على يد الخارجين من الإنكشارية بيد من حديد، وأجبرهم على احترام النظام، والانشغال بعملهم والتفرغ للدفاع عن الدولة وحمايتها باعتبار أن هذا هو عملهم الأساسي ووظيفتهم الأولى، وليس لهم حق التدخل في شئون الدولة، وكان لسياسته الحازمة وميله إلى الشدة والترهيب فيما يتصل بأمور الدولة أثره في انتظام أمور الدولة واستتاب أمنها، ثم كلفه السلطان محمد الرابع بالدفاع عن الدولة أمام الأخطار المحدقة بها، فهزم البنادقة، وأخذ منهم جزيرة " **لمنوس**" وبعض الجزر الأخرى، وكان هؤلاء قد استولوا على هذه الجزر، واحتلوا مضيق الدردنيل، وفرضوا حصارًا بحريًا على الدولة، ومنعوا دخول المواد التموينية إلى إستانبول، فارتفعت الأسعار، وتدهورت الحالة الاقتصادية، ولولا نجاح كوبريللي في فك هذا الحصار لتعرضت الدولة إلى خطر فادح.

4 - سقوط قلعة نوهزل النمساوية :

استمرت صدارة محمد كوبريللي خمس سنوات، نجحت الدولة في أثنائها أن تسترد عافيتها ويعود إليها بعض من هيبتها القديمة على الساحة العالمية، وبعد وفاته سنة 1072 هـ / 1661م أصدر السلطان محمد الرابع أن يتولى **أحمد كوبريللي** منصب الصدارة العظمى خلفًا لأبيه، وكان في السادسة والعشرين من عمره، ويعد أصغر من تولى هذا المنصب في تاريخ الدولة العثمانية، لكنه كان عظيم الكفاءة، متعدد المواهب، على دراية واسعة بالسياسة العالمية، وما إن تولى منصبه حتى أدرك أن جبهة الدولة الخارجية تحتاج إلى جهود كثيرة منه، فترك متابعة أمور الدولة الداخلية إلى **قرة مصطفى باشا**، وتحرك هو إلى إعلان الحرب على النمسا التي انتهزت فرصة انشغال الدولة العثمانية بأمورها الداخلية المضطربة، فاعتدت على حدود الدولة، وبنت عليها قلعة حربية، على الرغم من مخالفة ذلك للمعاهدة المعقودة بينهما، لكنها لم تستجب لنداءات الدولة العثمانية المتكررة.

تحرك الصدر الأعظم من أدرنة على رأس جيش هائل يبلغ نحو 120 ألف جندي، مزودين بالمدافع والذخائر والعتاد، حتى وصل إلى قلعة **نوهزل** الشهيرة، وكانت تقع شمال غرب يودابست، على الشرق من فيينا بنحو 110 كم، ومن براتسلافيا بنحو 80 كم، وكانت بالغة التحصين، فائقة الاستحكامات حتى أصبحت من أقوى القلاع في أوروبا، وما إن وصل كوبريللي إلى القلعة حتى ضرب عليها حصارًا قويًا دام سبعة

وثلاثين يومًا، اضطرت القلعة بعدها إلى طلب الصلح والاستسلام، فوافق الصدر الأعظم، شريطة جلاء الحامية عن القلعة بغير سلاح ولا ذخيرة، فدخلها في 25 صفر 1074 هـ / 28 سبتمبر 1664م،

وبعد استسلام هذه القلعة العظيمة استسلمت حوالي 30 قلعة نمساوية، واضطرت النمسا إلى طلب الصلح، ودفعت للدولة العثمانية غرامات حرب رزمية قدرها 200 ألف سكة ذهبية، وأن تبقى كافة القلاع التي فتحتها الجيوش العثمانية تحت سيادتها، وعاد كوبريللي إلى أدرنة مكللا بالنصر في 2 رمضان 1075 هـ / 17 مارس 1665م.

5 - فتح كريت

لم يكد يمضي سنتان على هذا النصر حتى كلف السلطان محمد الرابع قائده المظفر أحمد باشا كوبريللي باستكمال فتح جزيرة كريت التي فتحها السلطان إبراهيم الأول لكن ظلت قلعة " **كانديه**" وبعض القلاع بالجزيرة تقاوم العثمانيين بسبب المساعدات التي تتلقاها من بلاد أوروبا.

تحرك كوبريللي على رأس أسطول بحري إلى جزيرة كريت، وضرب حصارًا حول كانديه في رمضان 1077 هـ / مارس 1667م ودام الحصار نحو سبعة أشهر صمدت خلالها القلعة ثم عاود الحصار مرة أخرى في 8 محرم 1079 هـ / 18 يونيو 1668م) لكنه طال هذه المرة، حتى تجاوز العامين، وفي النهاية تنازلت البندقية عن كانديه بما فيها من مدافع وأسلحة للدولة العثمانية، وأصبحت كريت تابعة للدولة العثمانية، وقضى كوبريللي وقتًا بعد الفتح في إصلاح القلاع والأسوار والأبنية، ثم غادر الجزيرة في 14 من ذي الحجة 1080 هـ / 5 مايو1670م بعد أن ظل بها ثلاث سنوات ونصف السنة.

في أثناء تولي كوبريللي الصدارة العظمى دخلت بلاد القوقاز جنوبي روسيا في حماية الدولة العثمانية، فلما حاولت بولونيا الاعتداء على بلاد القوقاز استنجدت بالدولة العثمانية التي تحركت على الفور لنجدتها، وأجبرت ملك بولونيا على طلب الصلح.

6 - الحملة على روسيا

نشبت الحرب مع روسيا بسبب الصراع حول أوكرانيا فغادر السلطان محمد الرابع وقرة مصطفى باشا الصدر الأعظم الذي تولى المنصب بعد وفاة كوبريللي في 24 رمضان 1087 هـ 30 أكتوبر 1676م إستانبول على رأس حملة هائلة هي الحملة الأولى لسلطان عثماني على روسيا في 8 ربيع الأول 1089 هـ / 30 مارس 1678م)، حتى بلغت قلعة **جهرين** في أوكرانيا، فضربت حولها حصارًا، وكانت قلعة محصنة، وكان يدافع عنها جيش روسي ضخم يقدر بمائتي ألف جندي، لكن القلعة سقطت بعد اثنين وثلاثين يومًا، وقُتل من الجيش الروسي 20 ألف جندي،

ثم عاود السلطان محمد الرابع حملة ثانية على روسيا بعد عامين من حملته الأولى، لكنها انتهت بعقد معاهدة أدرنة بين الدولتين في 22 محرم 1092 هـ / 11 فبراير 1681م، واتفق الطرفان على أن تقسم أوكرانيا بين العثمانيين والروس، على أن يكون القسم الأكبر من البلاد تحت الحكم العثماني، وأن تستمر روسيا في تقديم الضريبة السنوية إلى بلاد القرم التابعة للعثمانيين، وأن تدفع المبالغ المتراكمة عليها خلال سنوات الحرب مرة واحدة.

7 - حصار فيينا للمرة الثانية :

كانت الدول الأوربية قد تألبت على الدولة العثمانية وأفزعها ما بلغته من قوة، فأخذت تتحرش بها، وكانت النمسا تقف في مقدمة الدول المناوئة لها، فاتخذت الدولة قرارها بتوجيه ضربة قوية للنمسا حتى تكف يدها عن التدخل في شئون المجر التي كانت خاضعة للدولة العثمانية.

وفي 19 رجب 1094 هـ / 14 يوليو 1683م وصل الجيش العثماني بقيادة **قرة مصطفى باشا** إلى فيينا، وضرب عليها حصارًا شديدًا، استمر الحصار شهرين تهدمت في أثنائه أسوار المدينة المنيعة، واستشهد آلاف العثمانيين الطامعين في نيل شرف الفتح، وانزعج البابا بعد أن أدرك خطورة الموقف، وتحركت أوروبا لنداءاته، وجاءت الإمدادات والمساعدات إلى فيينا، واستطاعت أن تعبر جسر " الدونة " إلى المدينة المحاصرة، وكان الإقدام على هذا العمل خطورة كبيرة لأن الجسر كان تحت سيطرة العثمانيين، لكن المكلف بحماية الجسر لم ينسفه عند مرور هذه القوات وتركها تعبر في سلام إلى المدينة، في واحدة

من أكبر الخيانات التي شهدها التاريخ العثماني، ولما نشب القتال انهزم العثمانيون وفكوا حصارهم عن فيينا في 20 رمضان 1094 هـ / 12 سبتمبر 1683م، ودقت كنائس فيينا أجراسها فرحة بهذا النصر، وجاوبتها كافة أجراس العالم المسيحي.

8 - نهاية السلطان محمد اخر الفاتحين (فترة النكبات) :

تلقى محمد الرابع أنباء هذه الهزيمة المدوية ولم يفعل شيءًا سوى أن بعث بمن قتل الصدر الأعظم الكفء قرة مصطفى باشا تحت تأثير بعض الوشاة والكارهين للصدر الأعظم وذلك في 6 محرم 1095 هـ / 25 ديسمبر 1683م ، وأرسل صدره الأعظم سليمان **باشا** على أن يسترد بعض ما فقدته الدولة في المجر، لكنه لم ينجح، وتلقى صدره الأعظم سليمان باشا هزيمة منكرة في سهل **موهاكس** أمام التحالف المقدس في 3 شوال 1098 هـ / 12 أغسطس 1687م.

كان من نتائج الهزائم المتتابعة التي لحقت بالدولة العثمانية في أواخر عهد محمد الرابع أن ثار الجيش في وجهه، وقام بخلعه في 3 محرم 1099 هـ / 8 نوفمبر 1687م بعد أن دامت سلطنته نحو أربعين سنة، وكانت الدولة في تاريخ خلعه قد فقدت كثيرًا من أراضيها للبنادقة والنمساويين، وتولى بعده أخوه سليمان الثاني، ودخلت الدولة العثمانية في عصر توقف الفتوحات .

22 - سليمان الثاني بن ابراهيم الاول

السبطان سليمان الثاني بن ابراهيم بن أحمد (15 أبريل 1642 =1052هـ - 22 يونيو 1691 =1102هـ) , وهو السلطان العثماني العشرون . .

ولد 15 أبريل 1642 في قصر طوپ قپو باسطنبول، وأمضى معظم حياته في القفص، وهو سجن فخم للأمراء العثمانيين داخل قصر طوب قبو لضمان عدم قيامهم بتمرد على السلطان الجالس على العرش. أمه كانت **صالحة ذي العشب** سلطان ، وهي والدة سلطان من أصل صربي.

وتولى الحكم بعد أن خلع الجند أخيه محمد الرابع عام 1687. وحين اقترب الجند منه لدعوته لارتقاء عرش السلطنة، ظن أنهم آتون لقتله، حتى أقنعوه بصعوبة بالغة بالخروج من القفص وامتشاق سيف عثمان، وكان عمره يزيد على أربع وأربعين سنة.

أكثر من عطايا الجند ولم يعاقبهم على ما فعلوه بأخيه فطمعوا فيه وتمردوا عليه وقتلوا قادتهم وقتلوا الصدر الأعظم **سياوس باشا** وسبوا نساءه.

انتهز الأعداء هذه الفوضى فاستردت النمسا كثيرًا من المواقع والمدن وكذلك فعلت البندقية. فقد سقطت بلگراد ترانسلڤانيا والبوسنة والأفلاق في أيدي الحلف المقدس بقيادة النمسا. ثم قام الجيش العثماني بهجوم مضاد ناجح في 30 أكتوبر 1688، بقيادة **ابراهيم پاشا چلبي**.

وتوالت الهزائم فعزل الخليفة الصدر الأعظم وعين في 10 نوفمبر 1689 مكانه **كوپرولو فاضل مصطفى باشا** بن محمد كوبريلى وسار على نهج أبيه وأخيه فحمى الأهالى من تصرفات الجند وأعطى الجنود حقوقهم وعامل المسيحيين معاملة حسنة فأحبه الناس.

وفي 8 يوليو 1690، انتصر العثمانيون في معركتي **گلادوڤا واورسوڤا** بالبوسنة، ثم استعادوا **بلگراد** في 8 أكتوبر 1690، وبذلك استعادوا نهر الدانوب كخط حدودي. وأخمد كوپرولو التمرد البلغاري. وأعاد إمره **ثوكولي** Thököly Imre الزعيم المجرى إقليم ترانسلڤانيا إلى الدولة العثمانية عربوناً للتحالف ضد آل هابسبورگ. وفي محاولة لإعادة الإستيلاء على المجر بُعيد وفاة سليمان الثاني ، في 19 أغسطس 1691، هُزم العثمانيون في معركة **سلانكامن** وقُتِل كوپرولو على يد قوات الامبراطورية النمساوية بقيادة لويس وليام من بادن.

وفي عهده ثار نصارى المورة ضد البندقية وطردوا جيشها من بلادهم. وأخضع خان القرم، وبذا استعاد العثمانيون هيبتهم.

كان سليمان الثاني تقياً ورعاً، يقضي معظم وقته في الصلاة وتفقد أحوال الرعية، معتمداً على الصدر الأعظم في ادارة الشئون الخارجية والدفاع. وقد حكم سليمان الثاني أربع سنوات، قضى آخر سنتين

منهم مريضاً طريح الفراش. وقد توفى الخليفة عام 1691 في إدرنه. ولم ينجب من زوجته خديجة، فتولى مكانه أخوه أحمد الثاني.

23 - أحمد الثاني بن إبراهيم الأول

السلطان أحمد الثاني بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل.(1052 هـ/1643 - 1106 هـ/1695)

وهو الخليفة العثماني الحادي والعشرين . تولى الحكم عام 1106 هـ لمدة 4 أعوام حتى وفاته. كان خطاطا محترفا، فكان يكتب المصاحف بخطه. تولى الحكم بعد أخيه سليمان الثاني الذي يصغره بشهرين عام 1102 هـ. في أيامه توفي الصدر الأعظم مصطفى كوبريلى وهو يجاهد ضد النمسا وتولى بعده **عربجى باشا** وكان ضعيفا.

ضاعت في أيامه البندقية وبعض جزر بحر إيجة. تولى الحكم بعده ابن أخيه مصطفى الثاني بن محمد الرابع.

24 - مصطفى الثاني بن محمد الرابع

1 – تقديم :

السلطان مصطفى الثاني بن محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل. (1106 هـ - 1115 هـ / 6 فبراير1664م - 28 ديسمبر 1703م)

وهوالسلطان العثماني الثاني والعشرين، عاش بين عامي 1664 و1704 م، كان خطاطًا موهوبًا. تولى الحكم بعد وفاة عمه أحمد الثاني عام 1106 هـ وخلفه أخوه أحمد الثالث. ,الاعمام : سليمان الثاني و أحمد الثاني,وأخوه : أحمد الثالث ,عم : عبد الحميد الأول و مصطفي الثالث ,وأولاده : محمود الأول و عثمان الثالث.

2 - التفوق العسكري على روسيا وبولونيا :

كان الخليفة الجديد متصفا بالشجاعة والإقدام فأعلن بعد ثلاثة أيام فقط من توليه العرش العثماني رغبته بقيادة الجيوش بنفسه، وكان هذا العمل الحميد كثيرا ما يؤتي ثماره في العساكر العثمانية ويرفع من انضباطها ويسهل ترويضها، فاستعان بجيوش القوقاز (الشركس) لمحاربة مملكة بولونيا (بولندا) وانتصر عليها في عدة معارك حتى توقف عند حصن **لمبرج** المنيع وتجمد تقدم العثمانيين في تلك المنطقة ،

كما وجه قوته لإنهاء الحصار المضروب على مدينة آزوف من قبل بطرس الأكبر قيصر روسيا وكان القيصر الروسي يأمل أن يحصل على موطئ قدم أو منفذ إلى البحر الأسود ومنه إلى البحر المتوسط استكمالا لوصية بطرس الأكبر الشهيرة التي رسمها لروسيا.

3 - احتدام الصراع العسكري مع أوروبا :

تدفقت الجيوش النمساوية والعثمانية إلى بلاد المجر ورومانيا، وهناك دار الصراع على أشده بين العدوين واستفاد العثمانيون من انشغال إمبراطورية النمسا بحرب مع فرنسا، فافتتح المسلمون **حصن لبا** وانتصر السلطان مصطفى الثاني على الجنرال **فتراني** وأسره في معركة **لوجوس**، فيما استطاعت الجيوش النمساوية إحراز الفوز في معركة بقرب بلغراد لكنه كان فوزا غير حاسما لم يوقف التقدم العثماني الذي واصل زحفه ليحقق نصرا آخر على حاكم ولاية الساكسون الذي قاد الجيوش النمساوية في موقعة **أولاش**.

تولى الأمير **أوجين السافوياني** قيادة الجيوش النمساوية في هذه المرحلة فدأب يخطط و يجتهد لإيقاف سلسلة الانتصارات المجيدة التي جانبت الخليفة مصطفى الثاني، فارتأى أن لا يواجه العثمانيين مباشرة وأخذ يناور بجيوشه ويبتعد عن ملاقاة الانكشارية حتى ظفر بالجيش العثماني وهو يعبر **نهر تيسا** في بلاد المجر (هنغاريا)، فباغتهم وهم غير مستعدين لحماية مواقعهم، حيث أمر بهجوم سريع بتشكيل اتخذ شكل نصف قمر، فقتل الكثير من المسلمين ومات أكثرهم غرقا وقتل الصدر الأعظم **محمد باشا** ولولا تمركز الخليفة مصطفى الثاني على الضفة الأخرى أثناء العبور لسقط أسيرا في أيدي النمساويين،

عرفت هذه المعركة بمعركة **زينتا** نسبة لبلدة صغيرة في يوغوسلافيا سابقا، وترتب على هذه المعركة احتلال البوسنة من قبل جيش امبراطور النمسا، وأصبح أوجين السافوياني بطلا في أوروبا، كما استغل الروس الفرصة فاحتلوا ميناء **آزوف**.

تم تعيين **حسين باشا كوبريللي** صدرا أعظم وكان كمن سلفه من عائلة كوبريلي الشهيرة فأعاد تنظيم قواته وأجبر الأمير أوجين السافوياني على التقهقر وإخلاء البوسنة لمصلحة العثمانيين كما انتصرت البحرية العثمانية مرتين على جمهورية البندقية.

عقدت معاهدة بين الدولة العثمانية والنمسا والبندقية وروسيا وبولونيا بجهود ملك فرنسا لويس الرابع عشر وذلك عام 1110 هـ وتسمت **بمعاهدة كارلوفجة** فقدت من خلالها الدولة العديد من المدن لصالح الدول الأخرى حيث سلمت بلاد المجر وإقليم ترانسلفانيا للنمسا وتنازلت الخلافة عن ميناء آزوف لروسيا وأعطيت البندقية دلماسيا (تقع في كرواتيا) وجزءا من بلاد اليونان، كما أعيد إقليم بودوليا إلى بولونيا (بولندا) بالإضافة إلى أراض واسعة من أكرانيا الحالية، كما اتفقت النمسا على هدنة مع الخلافة العثمانية تدوم ل25 سنة.

مما يجدر بالذكر أنه بعد كارلوفتس لم تعد هناك أى دولة تدفع جزية للدولة العثمانية وبدا واضحا وقوف الدول الأوروبية معا في وجه الدولة العثمانية واستعدادهم لتقسيمها فيما عرف بعد ذلك بالمسألة الشرقية.

4 - التراجع العثماني

كانت كارلوفتس إحدى أقسى المعاهدات في تاريخ العثمانيين، واعتبرت سطورها السوداء بداية انحسار المد الإسلامي في أوروبا وبداية مرحلة التفكك في الدولة العثمانية، وكان من الأسباب التي أدت إلى كارلوفتس ضعف الوازع الديني عند المسلمين وبرود همتهم الجهادية واستمرار ثورات الانكشارية و تعاقب الحملات الصليبية واشتدادها، واتحاد القوى الأوروبية على دولة الخلافة الوحيدة فكانت الحروب تشتعل على ثلاث أو أربع جبهات في نفس الوقت.

بذل الصدر الأعظم كل جهده في إصلاح الداخلية والجندية والمالية والتجديد لإعادة بناء الدولة إلى أن استقال حسين كوبريللى من الصدارة العظمى عام 1114 هـ وثارت الانكشارية على من خلفه واستبدل **برامي محمد باشا** الذي سار على خطى كوبريللي في الإصلاح وإبطال المنكر ومحاربة الرشوة والتضييق على المفسدين فثاروا عليه أيضًا وطلبوا من الخليفة أن يعزله فرفض فعزلوا الخليفة عام 1115 هـ وولوا أخاه أحمد الثالث مكانه وتوفي بعد أربعة أشهر وكان عند وفاته في التاسعة والثلاثين من عمره.

25 - أحمد الثالث بن محمد الرابع

1 - تقديم

السلطان أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل. (1083 هـ / 30 ديسمبر 1673م - 1149 هـ / 1 يوليو 1736م)

وهو السلطان الثالث والعشرون الدولة العثمانية (1703-1730). ولد عام 1083 هـ وتوفى عام 1149 هـ.

تولى الخلافة عام 1115 هـ وكان عمره آنذاك اثنين وثلاثين سنة. وزع على الانكشارية الأعطيات الكثيرة في بداية حكمه وسار مع آرائهم حتى إذا تمكن اقتص من قادتهم .

2 - العلاقات مع مملكتي السويد وروسيا

مني الملك السويدي **شارل الثاني عشر** بهزيمة قاسية على يد الجيش الروسي في موقعة **بولتاوا** أجبرته على اللجوء إلى مدينة **بندر** العثمانية ، وأخذ بتحريض السلطان على محاربة مملكة روسيا، ولكن وزراء أحمد الثالث آثروا السلم ، ولم يفطنوا إلى خطر بطرس الأكبر وخطته التوسعية الطموحة.

بعد مدة من الزمن تم تولية **بلطه جي محمد باشا** أمور الوزارة ، وكان ميالا لقتال الروس، وفعلا أعلن الحرب عليهم وقاد الجيوش بنفسه، وقد كان تعداد جيشه حوالي مئتي ألف مقاتل، وبعد مجموعة من المناورات العسكرية استطاع أن يحاصر الجيش الروسي الذي يقوده بطرس الأكبر بنفسه، ولو استمر الحصار لمدة أطول لأخذ بطرس الأكبر وقادته أسرى وانفرط عقد مملكته .

ولكن وقع الطرفان معاهدة **فلكزن** ، وبموجبها تنازلت روسيا عن بعض الأراضي ، وعرفت تلك المعاهد **بمعاهدة أدرنة** وفيها تنازلت روسيا عن كل أراضيها على البحر الأسود، مقابل إبطال الجزية السنوية التي تدفعها لأمراء القرم حتى لا يتعدوا على قوافلها التجارية.

توالت الأحداث والمعاهدات بين الطرفين حتى خرجت روسيا من كل الثغور والموانئ الموجودة على البحر الأسود، كما صرح الخليفة للتجار الروس بالمرور في أراضى الدولة العثمانية دون دفع أي شيء.

3 - الحرب مع النمسا والبندقية

أراد العثمانيون استعادة شبه جزيرة المورة (اليونان)، فدارت حرب بين العثمانيين وجمهورية البندقية، انتهت بانتزاع الجيوش العثمانية لأغلبية المورة، ولكن البنادقة مالبثوا أن استعانوا بإمبراطورية النمسا وقائدها العسكري الشهير آنذاك أوجين السافوياني.

دارت رحى الحرب بين العثمانيين والنمسا فانتصرت النمسا، وعقدت معاهدة **بساروفتس** ، وأعطت للنمسا الكثير من الأجزاء التي تم الاستيلاء عليها كمدينة بلغراد وجزء كبير من بلاد الصرب وبقيت جزيرة المورة للعثمانيين وكما حظي البنادقة بثغور شاطئ دلماسيا، واتفقت الدولة العثمانية مع روسيا في نفس المعاهدة على الحد من نفوذ ملك بولندا على نبلاء البلاد وعدم جعل منصبه وراثيا، وهدف القيصر من هذا البند إلى إيجاد شيء من العداء بين البولنديين والعثمانيين في سعي متواصل لتحقيق سياسته الكبرى بالتوسع على حساب بولندا والسويد ودولة الخلافة.

4 – إصلاحاته :

لقد كان نجاح التجربة العسكرية لبطرس الأول الروسي محور الحديث في مجالس كبار الوزراء العثمانيين ، الذين كانوا يريدون نقل تجربته إلى الدولة العلية وتحديث الجيش على النظام الأوروبي الغربي ، ووصل الأمر أن الخليفة نفسه قد تأثر بهذا الأمر ، وكانت هذه الحادثة أول بذور رياح التغريب التي اشتدت مع الأيام حتى امتدت لتشمل كل مجالات الحياة في الدولة العلية في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وابتدأ عهد الصراع بين دعاة التغريب ودعاة الحفاظ على الموروث.

عمل **الداماد إبراهيم باشا** (داماد تعني صهر الخليفة) الذي تولى الصدارة العظمى حديثا على الاهتمام بدراسة أسباب التقدم الغربي، فراح يرسل السفراء العثمانيين إلى الغرب وبخاصة إلى النمسا وفرنسا، ولم يكن مهام السفراء سياسية فقط بل التعرف على الطرق العسكرية الحديثة والسياسات الأوروبية والمصانع والمنجزات الحضارية، وكان من العادات الاجتماعية الجديدة التي وفدت على الدولة أن قام الأغنياء والخليفة نفسه ببناء القصور والاسراف في المال وإنشاء الحدائق كما في أوروبا. ظهر حب ورود التوليب في عهد أحمد الثالث وانتشر حبها بين الأغنياء والأعيان الذين أخذوا بالاستكثار من زراعتها وتهجين أنواع جديدة منها.

في عهد الخليفة أحمد الثالث دخلت المطبعة وتأسست أول دار للطباعة في إسطنبول، كما نشطت حركة ترجمة الكتب إلى التركية.

5 - الاتجاه إلى الشرق وعزل أحمد الثالث

أراد العثمانيون تعويض ماخسروه في أوروبا، فاتجهوا شرقا نحو بلاد الفرس فاحتلوا أرمينيا والكرج وغيرها مستغلين الخصومات في الصف الإيراني، وبسبب رغبة السلطان في عقد السلم بين الطرفين ثارت الانكشارية التي أرادت استمرار الحرب كي يستمروا في السلب والنهب وانتهت تلك الأحداث بعزلهم أحمد الثالث.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

26 - محمود الأول بن مصطفى الثاني

1 - تقديم

السلطان محمود الأول بن مصطفى الثاني بن محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل . (1108 هـ / 1696م -1168 هـ/ 1754) عاش (2 أغسطس 1696 - 13 ديسمبر 1754) . وهو السلطان الرابع والعشرين من سلاطين الدولة العثمانية. تولى محمود الأول الحكم بعد عمه أحمد الثالث عام 1143 هـ، وكان عمره آنذاك خمس وثلاثين سنة. وتوفي عام 1168 هـ، وخلفه أخوه عثمان الثالث.

2 - الحرب في أوروبا

قامت حروب بين الدولة العثمانية وروسيا في عهده، على إثرها احتلت روسيا بعض مناطق الدولة العثمانية. في عهده أيضا، انتصرت الدولة العثمانية على الصرب والنمسا، واستردت بلجراد والأفلاق وعددا من الأراضي ، وتعهدت روسيا بعدم بناء السفن في البحر الأسود. الإنجازات العسكرية السالفة جعلت العثمانيين يستعيدون شيئا من هيبتهم بعد معاهدة كارولوفتس التي وقعت في عهد مصطفى الثاني . كما تم عقد اتفاق في عهده مع السويد ضد روسيا عام 1153 هـ بوساطة السفير الفرنسي في الاستانة.

3 - الحرب بين فرنسا والنمسا :

حدثت حرب طاحنة بين فرنسا و النمسا ، كان سببها موت ملك النمسا شارل السادس. تولت بعده **ماريا تيريزا** مقاليد الحكم . حاولت فرنسا عبر سفيرها في إسطنبول إقحام الدولة العثمانية في حلف عسكري معها في هذه الحرب ، بحيث يضرب العثمانيون شرقا والفرنسيون غربا مشتتين القوة النمساوية ، وأبرز الفرنسيون أن نجاح هذا الحلف سيعني عودة أغلب الأراض التي فقدت منذ عهد السلطان سليمان القانوني بما فيها هنغاريا.

لم توافق الخلافة العثمانية على هذا الحلف لعدم تبصر وزرائها بالسياسة الدولية من جهة ، و للرغبة بحق دماء المسلمين من جهة ، والانشغال بعجلة الإصلاحات الداخلية.

27 - السلطان عثمان الثالث بن مصطفى الثاني

السلطان عثمان الثالث بن مصطفى الثاني بن محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل.

أخ السلطان محمود الأول (1110 هـ -2/3 يناير 1699 - 1170 هـ 30 أكتوبر 1757).

وهو السلطان الخامس والعشرين من سلاطين الدولة العثمانية.

تولى الخلافة بعد موت أخيه السلطان محمود الأول، وكان عمره وقتئذ يزيد على السادسة والخمسين. قام بقتل الصدر الأعظم **علي باشا** لسوء تصرفه، وعين **محمد راغب باشا** مكانه، فكان عونًا له.

يقال أن الخليفة عثمان كان يسير متنكرًا في الليل، ويطلع على أحوال الرعية، ويعمل على الإصلاح. توفي سنة 1171 هـ.

28 - مصطفى الثالث بن أحمد الثالث

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

1 - تقديم

السلطان مصطفى الثالث بن أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل.(1129 هـ - 1187 هـ / 1717م - 1774م) .

وهو السلطان السادس والعشرين من سلاطين الدولة العثمانية.. تولى الحكم بعد ابن عمه عثمان الثالث وكان عمره حينذاك 42 عاما.

2 - الإصلاحات في عهده

قام الخليفة بتعيين الوزير **راغب باشا** صدرا أعظما وذلك لما يسر الله لهذا الرجل من معرفة بالبلاد وسعة في الاطلاع، كان الخليفة مصطفى يرى أن الخطر الداهم على الدولة يتمثل في قوة روسيا المتصاعدة ، لذا فقد عمل على إصلاح الجيش العثماني وعقد اتفاقية عسكرية مع بروسيا لمساعدة العثمانيين عند الحاجة في حال اندلاع الحرب مع النمسا أو روسيا، واجتهد راغب باشا في توسيع التجارة البحرية والبرية كما فكر بحفر خليج يربط نهر دجلة بإسطنبول لدفع عجلة التبادل التجاري بين ولايات الدولة المختلفة ولمنع الغلاء والمجاعات في بعض الولايات إلا أن الموت عاجل راغب باشا وحكم على مشروعه بالتوقف، كما أنشأ راغب باشا مكتبة عمومية من مصاريفه الخاصة، وأقام مستشفيات عديدة لحماية الولايات الحدودية العثمانية من الأوبئة التي كانت منتشرة في شرق أوروبا في تلك الأيام.

تمكن الخليفة مصطفى الثالث من الحصول على خدمات **البارون دي توت** المجري، فعمل ذلك الأخير على بناء القلاع على ضفتي الدرنديل وتسليحها بالمدافع الضخمة لصد أي هجوم بحري محتمل على الدرنديل وإسطنبول، وأسس ورشة في الأستانة لصب المدافع فيها ونظم فرق المدفعية بناء على النسق الحديث كما أسس مدارسا لتخريج ضباط المدفعية وأركان الحرب وضباط البحرية على دراية بأساليب الحرب الحديثة، وقد أنهت أول دفعة من ضباط البحرية دراستها بسرعة مثيرة للدهشة وأحرزوا نصرا على الأسطول الروسي الذي كان يحاصر **جزيرة لمنوس** لاتخاذها قاعدة لمحاصرة القسطنطينية بحرا. عرف المركز التعليمي الجديد الخاص بتخريج ضباط البحرية **بجامعة إسطنبول التقنية** İstanbul Teknik Üniversitesi ولا تزال هذه الجامعة قائمة حتى يومنا هذا و قد طرأ عليها كثير من التغيير وتحولت إلى جامعة مدنية وتعد من أفضل الجامعات الهندسية في الشرق الأوسط

من إصلاحاته أيضا أنه كان يتابع أمور الحرب مع روسيا بنفسه ويعد الخطط لذلك وكان ينزل أشد العقوبات بالقادة الذين يخالفون تعليماته العسكرية أو ينهزمون في الجبهات ، حتى ينضبط الجند ويتعظ القادة.

من آثار مصطفى الثالث أيضا أنه كان يبني المدارس ويشيد التكايا، كما أنشأ جامعا على قبر والدته على الضفة الشرقية من إسطنبول وأصلح جامع محمد الفاتح بعد أن زلزلت أركانه زلزلة شديدة.

3 - الحروب المستمرة مع روسيا

قامت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية، وقد كانت الحرب سجالا بين الطرفين فتارة يغير خان القرم على إقليم سربيا الجديدة الروسي وتارة تكسب روسيا بعض المعارك مما جعلها تستولي على بعض المدن العثمانية في رومانيا، وثبت العثمانيون بعدها فأنزلوا الهزائم بالجيش الروسي على يد القائد **عثمان باشا** والذي قلده الخليفة فيما بعد لقب **غازي** على إنجازاته العسكرية في وجه الروس.

واستعرت نيران الحرب في البحر بين الدولتين واصطدمت السفن العثمانية والروسية في أكثر من معركة ، فاستفاد **علي بك الكبير** حاكم مصر من تواجد الأسطول الروسي في المنطقة فعقد حلفا مع روسيا وأعلن ثورته على الدولة العثمانية، وتمكن من التوغل في فلسطين ولبنان وسوريا وكان يحاذي البحر عند مسيره مما جعل الجيش العثماني ينحصر بين نيران السفن الروسية ونيران الجيش المصري وتسبب بهزيمته.

قام **محمد بك أبو الدهب** - أحد مماليك مصر- بقلب حكم علي بك الكبير في مصر مما اضطر هذا الأخير إلى العودة مع 400 جندي من حلفائه الروس إلى مصر والتقى مع جيش أبو الدهب عند الصالحية

في الشرقية، وكان النصر حليف الوالي المملوكي فأسر علي بك الكبير وأربعة من الضباط الروس، وتم تسليمهم جميعا إلى الأستانة.

توفي في سنة 1187 هـ / 1774م، وتولى من بعده أخوه عبد الحميد الأول.

29 - عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث

1 - تقديم

السلطان عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل. (1137 هـ / 1725م - 1203 هـ / 1789م) .

وهو السلطان السابع والعشرين من سلاطين الدولة العثمانية. حكم من عام 1187 هـ حتى 1203 هـ. بقي محجوزا في قصره مدة حكم أخيه مصطفى الثالث حتى تولى الحكم بعد وفاته عام 1187 هـ.

2 - معاهدة قينارجة

في عهده جهزت روسيا حملة عسكرية لاسترداد ماخسرته من هيبة في عهد مصطفى الثالث فهاجمت الجيوش العثمانية عند **فارنا** البلغارية وهزمتها ، وتم الصلح بعد ذلك على استقلال تتار القرم وإقليم بسارابيا ومنطقة قوبان وإعطاء السفن الروسية حرية الملاحة في البحر الأسود والمتوسط وأن تدفع الدولة العثمانية غرامة لروسيا كل سنة وإعطاء روسيا حق حماية النصارى الأرثوذكس من رعايا الدولة العثمانية وتبني كنيسة في اسطنبول، وعرفت المعاهدة باسم معاهدة قينارجة.

وكان هدف روسيا من هذه المعاهدة فتح الطريق لاحتلال بلاد القرم (سواحل أوكرانيا حاليًا وجنوبها) ، وفعلا لم تنقض المعاهدة حتى بدأت روسيا تثير الفتن الداخلية وتختلق الذرائع للتدخل في شئون البلاد وانتهى الأمر بدخول 70 ألف عسكري روسي، فأصبحت القرم من بعد هذا جزءا من روسيا، وكان ذلك في 1774م.

مما يجدر التنويه له هو تفرغ العساكر الروسية للدولة العثمانية تماما، وذلك بسبب الانتصارات التي حققتها روسيا على جيرانها حيث حيدت السويديين وعزلتهم في حدود بلادهم الطبيعية ولم تعد للسويد أية أراضي غير إسكندنافية،

كما اقتسمت روسيا والنمسا وبروسيا مملكة بولندا، وكان هذا مما ابتلي به عبد الحميد الأول في عهده حيث أنه كان يجدر بالسلاطين العثمانيين ووزارائهم الذين سبقوه التنبه لخطر وصية بطرس الأكبر ووضع حد لها والتي تقضي بالتوسع على حساب إضعاف ممالك الثلاث المتاخمة لروسيا (السويد وبولندا والدولة العثمانية) حتى تتفرغ روسيا تماما لقضم الأراضي العثمانية وتحويل إسطنبول إلى عاصمة أرثوذكسية كما كانت أيام بيزنطة.

3 - ضياع بلاد القرم

خرقت روسيا معاهدة قينارجة باحتلالها لبلاد القرم ، فجن جنون العثمانيين وأرادوا إعلان الحرب على روسيا لاسترجاع بلاد القرم، لكن فرنسا نصحت السلطان عبد الحميد بعدم الإقبال على إعلان الحرب بسبب استعداد روسيا المسبق لحرب العثمانيين ولعلم الفرنسيين عن معاهدة عسكرية سرية بين الملكة الروسية وإمبراطور النمسا لقتال العثمانيين في نفس الوقت في حال اندلاع أي حرب روسية عثمانية جديدة ،

لكن الملكة الروسية **كاترينا** استفزت مشاعر الخلافة مجددا في عام 1787م بزيارتها لأراضي القرم حيث كانت قد نصبت لها أقواس النصر المكتوب عليها (الطريق بيزنطة) والمقصود هنا هو طموح روسيا باستعادة ممتلكات الحضارة البيزنطية وإعادة السيطرة الأرثوذكسية على القسطنطينية فأعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا.

ارتبكت القيادة العسكرية الروسية الغير مستعدة للحرب إلا أن ملكة روسيا كتبت إلى **بوتمكين** القائد الروسي للإسراع باحتلال إقليم **أوزي** المتاخم لبلاد القرم قبيل وصول جيش الخلافة وبالفعل دخلتها القوات الروسية،

أما النمسا فقد أعدت العدة وأرسل الإمبراطور **جوزيف الثاني** جيشًا لانتزاع بلغراد فمني الجيش النمساوي بشر هزيمة وتعقبته العساكر العثمانية.

4 – وفاته :

توفي عبد الحميد الأول عام 1203 هـ وخلفه ابن أخيه السلطان سليم الثالث ابن مصطفى الثالث فاستغلت النمسا وروسيا وفاته لتجديد الحروب.

30 - سليم الثالث بن مصطفى الثالث

1 - تقديم

سليم الثالث بن مصطفى الثالث أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل. (1175 هـ / 1761م - 1222 هـ / 1808م)

وهو السلطان الثامن والعشرين من سلاطين الدولة العثمانية. تولى السلطة بعد وفاة عمه عبد الحميد الأول سنة 1203 هـ وكانت المعارك الحربية مستمرة، فأعطى وقته وجهده للقتال، وكان من أصحاب الهمة العالية والمصلحين في عصره.

2 - بداية عهده

حينما ضعفت الجيوش العثمانية، واتحدت الجيوش الروسية والنمساوية تمكنت روسيا من الاستيلاء على الأفلاق والبغدان وبساربيا، واستطاعت النمسا احتلال بلاد الصرب وعاصمتها بلغراد.

ونتيجة لعدم استمرار التحالف النمساوي الروسي، تنازلت النمسا عن الصرب للدولة العثمانية سنة 1205 هـ لتتفرغ للثورة الفرنسية التي أخذت تشعل أوروبا شيئا فشيئا لا سيما مع بروز نجم **نابليون بونابرت** وهزيمته للجيوش الإيطالية والنمساوية مرة تلو الأخرى.

أما روسيا فقد استمرت في حربها، واستولت على بعض المدن وارتكبت جرائم كثيرة. تدخلت إنجلترا وهولندا وبروسيا للصلح بين الطرفين خوفا على مصالحها فكانت معاهدة ياسي عام 1314هـ، وأخذت روسيا بموجبها بلاد القرم نهائيًا مع إقليمي بيسارابيا وأوزي.

كانت البلاد بحاجة لإصلاحات في كافة المجالات لا سيما الحربية حيث أن ضعف سلطات إسطنبول سبب استئثار بعض الولاة بولاياتهم وامتناعهم عن دفع الأموال المتفق عليها للخزينة السلطانية.

3 - الإصلاحات الداخلية

وبعد هدوء القتال على الجبهات انصرف الخليفة للإصلاحات الداخلية فبدأ بتعيين أحد الشبان المدعو **كوشك حسين باشا** قبودانا عاما، وقد كان ملما ودارسا لأحوال أوروبا، فبذل جهده بإخلاص لتنقية الطريق التجارية البحرية من القراصنة ، وأصلح الثغور وأنشأ القلاع عليها، وبنى عدة مراكب حربية على أحدث الأنماط الفرنسية والإنجليزية، وجلب العديد من المهندسين السويديين والفرنسيين المهرة لصب معظم قوالب المدفعية في طوبخانات الدولة ،

كما قام الخليفة بإنشاء سفارات دائمة لدى دول أوروبا الكبرى، واستغل انشغال الأوروبيين بمحاربة حكومة الثورة الفرنسية لتحديث دولته وجيشه، فاستقدم العديد من الخبراء والضباط الفرنسيين لتدريب وتحسين العساكر العثمانية، وكان هذه التحديثات تلقى ردود فعل سلبية جدا من الانكشارية.

عمل كوشك حسين باشا على إصلاح مدارس البحرية والمدفعية (الطوبجية) ، وجهز مكتبة لمدرسة المدفعية وضع فيها أحدث ما سطر عن فن الحرب والرياضيات

عمل سليم الثالث على وضع خطة جادة لتوسيع رقعة التعليم في الدولة، فافتتح العديد من المدارس والمعاهد. وكان رجلا يعفو عند مقدرته فأكثر العفو على من كان يثور على بابه العالي، كما كان يكره الظلم حتى وإن كان على غير المسلمين، ويحارب أهله.

4 - الحملة الفرنسية على مصر

في سنة 1799م 1213هـ دخلت فرنسا مصر بجيشها الذي يقوده **نابليون بونابرت** بدون إعلان الحرب على الدولة العثمانية، وكان قوام الجيش الفرنسي 36000 عسكري من العساكر التي تمرست في المعارك المختلفة بعد خبراتها في الحملة الفرنسية في إيطاليا، بالإضافة إلى 122 عالما في مختلف المجالات لدراسة الأرض المصرية، وكان الهدف الرئيسي من هذه الحملة السيطرة على طريق التجارة الإنجليزي الذي كان يستغل الأراض المصرية لإرسال البضائع الإنجليزية والمؤن والمواد الخام من وإلى الهند.

حاول نابليون أن يخدع الشعب المصري فأعلن بأنه صديق للخليفة العثماني وأنه جاء لطرد المماليك الذين عاثوا في الأرض الخراب، ولم يلبث المماليك أن خسروا أمام بونابرت في معركة الأهرام، ولم يقووا على الوقوف أمام المدفعية الفرنسية الحديثة.

هاجم الأدميرال **نلسون** الإنجليزي الأسطول الفرنسي وأغرقه في معركة **أبي قير**، مما قطع طرق الإمداد على الحملة الفرنسية، كما أن انتشار الطاعون وقدوم فصل الشتاء أجبر نابليون على العدول عن توغله والتوقف على أسوار عكا والعودة إلى مصر.

تعاونت الدولة العثمانية مع إنجلترا وروسيا لإخراج فرنسا من مصر، وأرسل العثمانيون وحلفاؤهم عدة حملات حتى تمكنوا من إجبار الفرنسيين على الجلاء التام.

راسل نابليون دار الخلافة عبر السفير العثماني في فرنسا لإعادة المودة بين البلدين كما كانت قبيل الحرب فوافق السلطان سليم لما كان يرى في ذلك ضمانا لعدم بقاء الإنجليز في مصر، ولقوة فرنسا العسكرية آنذاك، واستمرت الدولة العثمانيين باستقدام الضباط الفرنسيين لتحديث جيشها، أما الفرنسيين فقد حصلوا على تجديد امتيازاتهم التجارية بعد أن كانت قد ألغيت خلال الاحتلال الفرنسي لمصر، كما سمح الباب العالي للسفن الفرنسية بمشاركة السفن الروسية الإبحار في البحر الأسود.

5 - النظام العسكري الجديد

شرع كوشك حسين باشا في تنظيم الجند المشاة على النسق الأوروبي للتخلص من الانكشارية الذين غدوا سبب كل فتنة بالإضافة إلى أنهم أصبحوا عالة على الدولة، وسميت فرق المشاة الجديدة **بالنظام الجديد**. تحصل الانكشارية مع مجموعة للعلماء المتشددين والمعادين للتغيير على فتوى بإبطال النظام الجديد لكونه مستوردا من الغرب، مما أرغم سليم الثالث على الانصياع لهم، فقام كوشك حسين باشا باصطفاء نحو 600 من النظام الجديد الملغي وشكلهم مع مجموعة من الشبان المتطوعة في فوج واحد، وقام بالإنفاق عليهم من جيبه الخاص دون ن يعبأ بالانكشارية الذين راحوا يقفون أمام سراياه مهددين تارة ومستهزئين تارة أخرى.

أبلى فوج القبودان حسين باشا بلاء منقطع النظير عن أقرانه في أثناء حصار عكا من قبل جيوش نابليون مما دفع السلطان سليم إلى إعادة النظام الجديد مرة أخرى، وأمر بتدريب المزيد منهم مستغلا انشغال الانكشارية في محاربة الفرنسيين في مصر، كما أمر بفصل المدفعية عن الانكشارية وتنظيمها على النسق الأوروبي أيضا.

حصلت فيما بعد مناوشات عديدة في الروملي بين الانكشارية وعصابات بلقانية تابعة سريا لروسيا، ولم يتمكن الانكشارية من السيطرة على الوضع، وانفلت زمام الأمر، فأرسل الخليفة بعساكره الجدد لصد هذا البلاء عن العباد، فحظوا بالظفر على العصاة، وعاد الاستقرار للأهالي في البلاد، ففرح السلطان سليم ولم يكتف بإغداق الهبات والأعطيات على جنده بل إنه سطر فرمانا (قرارا) يسري على الولايات التركية والأوروبية، ويقضي بتجنيد جميع الشبان ذوي الـ 25 عاما من الانكشارية والمدنية لضمهم للنظام الجديد فلم يقبل الانكشارية هذا الأمر، فأمر السلطان والي القرمان **عبد الرحمن باشا** الذي كان أحد أكبر المؤيدين للإصلاح أن يأتي بكل قواته إلى الأستانة ومن ثم يتوجه لقمع كل انكشاري معارض، فحدثت صدامات عديدة في البلقان بين الطرفين لكنها لم تحسم الأمر، واضطرت العساكر النظامية الجديدة للعودة إلى الأستانة

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

عندما أحس الخليفة باستفحال الثورة، وانضمام مجموعة من العلماء وعدد من الطلبة إليها، فعزل بعض الوزراء وعين **آغا** الانكشارية صدرا أعظما لتخفيف حدة الثورة في البلاد.

6 - العلاقة مع الدولة السعودية الأولى

بعث الأمير سعود الكبير بن عبد العزيز برسالة سنة 1218 هـ إلى السلطان سليم الثالث بعد أن فتح مكة يطلب فيها منع الطبول والمحمل والزمور إلى البلد المقدس من والي دمشق ووالي القاهرة

7 - قلاقل البلقان

حدثت فتنة في كبيرة في بلاد الصرب (صربيا) سببها وقوع ظلم الانكشارية على أهلها، فعهد السلطان سليم لوالي بلغراد بمحاربة الانكشارية ومجازاة الظالمين، فاستعان الوالي بالسباهي وطرد الانكشارية من بلاد الصرب ورفع ظلمهم، فطلبت العساكر الانكشارية العفو فعفا السلطان عنهم وسمح لهم بالعودة إلى صربيا مجددا.

ما إن عاد الانكشارية إلى بلاد الصرب حتى عادوا للظلم والإفساد، وزاد بهم الأمر حتى قتلوا والي بلغراد نفسه، فأمر الخليفة والي البوسنة بمساعدة الشعب الصربي للقضاء على هذه الفئة الباغية، فتحالف مع من ثار من الصرب حتى تمكن من إقصاء الانكشارية نهائيا عن صربيا.

8 - الحلف الإنكليزي الروسي

نشأ هذا الحلف في سبيل إضعاف الإمبراطور الفرنسي نابليون الذي كانت جيوشه تهيمن على معظم أوروبا، وتلحق الهزائم المتتالية بممالكها الكبرى، فشنت روسيا حربا برية على الدولة العثمانية لاحتلال ولايتي الأفلاق والبغدان (رومانيا حاليا) ، كما عسكرت السفن الإنكليزية أمام الدرنديل.

أما الإنكليز فقد أرسلوا لائحة يطلبون فيها فك الحلف مع فرنسا، وإجلاء الضباط الفرنسيين، والاتحاد مع إنكلترا، ومنح الولايتين الرومانية لروسيا، وتسليم السفن العثمانية، بالإضافة إلى إعلان الحرب على فرنسا، وإلا فإن الأستانة ستتلقى نيران البحرية الإنكليزية. قرن قائد الأسطول الإنجليزي القول بالفعل فاجتاز الدرنديل ودمر كل السفن العثمانية الراسية هناك، ولم يتمكن العثمانيون من إنهاء تحصيناتهم في الوقت المناسب، وعادت البحرية الإنكليزية للانتظار مجددا ليتم تنفيذ طلباتها.

تشاور رجال الدولة العثمانية، ورأوا الإذعان لطلبات الإنكليز فأرسلوا مندوبا إلى الجنرال الفرنسي يطلب منه مغادرة الربوع العثمانية مع من معه من الضباط الفرنسيين، لكن سبستياني أصر على مقابلة الخليفة بنفسه، فأخبر السلطان سليم أن نابليون سيرسل جيوشه المعسكرة على سواحل إيطاليا إلى الأستانة لدعم الموقف، وأن الإنكليز لو رأوا مقاومة من العثمانيين لخافوا على تجارتهم من البوار في الولايات العثمانية.

جهز الملحق الفرنسي مخططا لتحصين الاستانة بالسرعة القصوى، وشكلوا فرقة من 200 عسكري فرنسي لمحاربة الإنكليز وقت الحاجة، ودأب الناس على العمل على التحصينات حتى أنهوها في بضعة أيام، وقد شارك الشيوخ والأطفال والنساء في هذا العمل الذي كان يصل الليل بالنهار، وعملت السفن المتبقية على سد مداخل البوسفور لتأخير الإنكليز، وكان السلطان سليم يشرف بنفسه على سير المشروع. عندما تحقق الأسطول الإنكليزي من ضعف موقفه وقرب نهاية الاستحكامات العثمانية، عاد يجر أذيال الخيبة.

سار الصدر الأعظم مع عساكر النظام الجديد والانكشارية بالإضافة إلى والي البوسنة ومصطفى باشا البيرقدار حاكم مدينة روستجق (روسة حاليا) البلغارية لحرب روسيا، وامتدت هذه الحرب حتى عهد السلطان محمود الثاني.

9 - عزل الخليفة سليم الثالث

توفي مفتي الدولة العثمانية الذي كان من أشد المعضدين للإصلاح، فخلفه رجل كان على عكسه تماما فاتحد مع مجموعة من العلماء والجهال والمنتفعين من رجال الدولة لعزل السلطان، فراحوا يحرضون من انخرط من شبان الانكشارية في السلك العسكري الجديد متحججين أن الملابس النظامية الجديدة هي

أزياء خاصة بالنصارى مخالفة للقرآن الكريم والسنة الشريفة، ولقت سمومهم رواجا عند الجهال والمنتفعين وحصلت فتن عديدة في كثير قلاع الدولة، لم يدر سليم الثالث عنها إلا متأخرا بسبب قيام القائم مقام بتعتيم الصورة عليه.

ابتهل المتآمرون لنجاحهم الجزئي، وتشجعوا على المضي قدما في مخططهم مستغلين سفر الجيوش مع الصدر الأعظم وانشغالها بحرب روسيا، فاجتمعت الجنود الانكشارية مع إخوانهم غير المنتظمين بتدبير المفتي الجديد ومن عاضده من بعض الرجالات في الدولة في منطقة خارج الأستانة، حتى إذا استعدوا دخلوا الأستانة، وقتلوا كل الوزراء والأعيان المؤيدين للإصلاح العسكري والنظام الجديد.

سارع السلطان بعزل وزرائه وتعيين من قد يحاذي رأي الثائرين لإسكاتهم، ولكنه لم يسلم من شرهم، حيث أنهم كانوا يخشون أن يعود لتنفيذ مشاريعه العسكرية الإصلاحية، فأفتى مفتي الدولة العثمانية الجديد بأن أي خليفة يدخل أنظمة الغرب وطرقهم في الدولة، ويجبر رعاياه على اتباعها غير صالح للولاية ، فعزلوه وأسروه، وولي من بعد مصطفى الرابع.

10 - البيرقدار يتوجه إلى الأستانة لمعاقبة الثائرين

حدث في عهد مصطفى الرابع هدنة مؤقتة مع روسيا فسار **مصطفى باشا البيرقدار** على رأس 16 ألف عسكري إلى الأستانة لإعادة السلطان سليم لحكم البلاد، ولكن رجال مصطفى الرابع قتلوا السلطان سليم الثالث ظنا منهم أن ذلك قد يخمد الثورة، إلا أن الثائرين اشتعلوا غضبا، وانتهى الأمر بعزل وقتل مصطفى الرابع، وتولية محمود الثاني.

31 - مصطفى الرابع بن عبد الحميد الأول

1 - تقديم

السلطان مصطفى الرابع بن عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل. (8 سبتمبر 1779 - 15 نوفمبر 1808) كان سلطان الإمبراطورية العثمانية بين عامي 1222هـ/1807 و1223هـ/1808.

وهو السلطان التاسع والعشرين من سلاطين الدولة العثمانية . والده عبد الحميد الأول. وخلال فترة حكم الإصلاحي سليم الثالث، كان مصطفى مفضلاً لدى السلطان. وتولى الخلافة عام (1222هـ) بعد عزل ابن عمه سليم الثالث.

عندما قامت ثورة الانكشارية على سليم الثالث، خدع مصطفى السلطان ودعم الانكشارية الذين خلعوا السلطان القديم، وجعلوا من مصطفى الحاكم الجديد، وكان من نتيجة ذلك أن تفرق عسكر النظام الجديد، ولكن ظل هناك تعاطف مع سليم الثالث. قام الخليفة الجديد بتثبيت من بقي حيا من الوزراء من بعد الأحداث الأخيرة في مواقعهم، كما افتتح مدرسة لتخريج مترجمين أكفاء.

2 - الحرب مع روسيا

عندما وصل خبر عزل السلطان سليم إلى الجبهة عم السرور في صفوف الانكشارية لتخلصهم من مشروع العساكر النظامية الجديدة، لكن الصدر الأعظم **حلمي إبراهيم باشا** لم يشاركهم سرورهم، ولم تبدو عليه بوادر الاستحسان، فقتلته عساكر الانكشارية، وعينوا غيره من من ترتضيه أهواؤهم، وكانت العاقبة وخيمة جدا، ولولا انشغال الروس بمحاربة نابليون في الغرب، وهزيمتهم القاسية بمعركة فريدلند، لمني الجيش العثماني بأكبر هزيمة في تاريخه.

اجتمع القيصر الروسي **ألكسندر الأول** مع نابليون الأول بعد المعركة ، واتفقا على الصلح، وأن على روسيا التوقف عن محاربة العثمانيين، وقبول الفرنسيين كوسيط بين الطرفين، مع إخلاء ولايتي الأفلاق والبغدان من قبل الروس.

يذكر المؤرخ الفرنسي لافاليه أن الروس والفرنسيين اتفقوا سرا على تقسيم الولايات العثمانية الأوروبية بينهما في حال عدم قبول العثمانيين بالوساطة الفرنسية بحيث تحصل فرنسا على اليونان وألبانيا والبوسنة ومقدونيا، وروسيا على بلغاريا والأفلاق والبغدان، بينما يتم ترضية النمسا بإقليم صربيا. ويظهر جليا غدر نابليون بالعثمانيين، بعد أن كانت وعوده لسليم الثالث بالدعم بكافة أشكاله السبب الرئيس لدخول الدولة حربا برية مع روسيا وبحرية مع إنكلترا. قبل العثمانيون بالتوسط الفرنسي، وحصلت هدنة مؤقتة بين الطرفين.

3 - محاسبة الثائرين

اختلف الثائرون الذين كانوا قد أطاحوا بحكومة السلطان سليم في الأستانة. وفي عام 1808 انطلق جيش بقيادة **مصطفى باشا البيرقدار** إلى إسطنبول لإعادة سليم الثالث للحكم، وإعدام الثائرين، مؤيدا من قبل الصدر الأعظم الجديد وغالبية الوزراء، وبالفعل نجح باختراق الأستانة، ومعاقبة رؤوس الثورة، ولم يكاشف البيرقدار أحدا برغبته في إعادة السلطان سليم للحكم، وتظاهر باستعداده للرحيل إلى بلاده **روستجق** في بلغاريا بعدما تم له ما كان قد أعلنه. عندما استمر جند البيرقدار بالتقدم، أمر مصطفى إعدام سليم الثالث وأخ آخر له هو محمود. الأمر الذي سيجعل من مصطفى الذكر الوحيد المتبقي من السلالة الحاكمة، ومنحيا بذلك أي منافس قانوني على العرش كما اعتقد. وقتل سليم وألقيت جثته أمام المنشقين، ولكن تم الإطاحة بمصطفى واستبداله بمحمود الذي نجا من الإعدام بالاختباء. وتم إعدام مصطفى في ذات العام بعد أن حكم ثلاثة عشر شهرا.

32 - محمود الثاني عبد الحميد الأول

1 - تقديم

السلطان محمود خان الثاني عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل. (20 يوليو 1785 – 1 يوليو 1839)

وهو السلطان الثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية ، وهو ابن السلطان عبد الحميد الأول شهد عصرة خطوات إصلاح واسعة، وحاول أن يوقظ الدولة العثمانية، وأن يدفعها إلى ما تستحقه من مكانة وتقدير.

2 - ولاية السلطان محمود الثاني

تقلد السلطان محمود الثاني مقاليد الخلافة العثمانية سنة 1808م وهو في الثالثة والعشرين من عمره، واستقر عزمه على أن يمضي في طريق الإصلاح الذي سلكه بعض أسلافه من الخلفاء العثمانيين، ورأى أن يبدأ بالإصلاح الحربي، فكلف الصدر الأعظم **"مصطفى البيرقدار"** بتنظيم الإنكشارية وإصلاح أحوالهم، وإجبارهم على اتباع التنظيمات القديمة الموضوعة منذ عهد السلطان سليمان القانوني وأُهملت شيئا فشيئا.

3 - القضاء على الإنكشارية

حاول الصدر الأعظم أن يقوم بالمهمة التي كلفه بها السلطان محمود الثاني؛ فقوبل باعتراض من الإنكشارية، وثاروا في العاصمة ثورة عارمة في (رمضان 1223 هـ = 1808م) وحاولوا إرجاع السلطان السابق " مصطفى الرابع " ليكون ألعوبة في أيديهم، وأضرموا النيران في السرايا الحكومية، ومات الصدر الأعظم في هذه الفتنة محترقا وهو يحاول أن يقضي على تلك الفتنة، واضطر السلطان أن يخضع لهم بعد أن أضرموا النار في العاصمة، وكادت النيران تقضي عليها، مؤجلا فكرة التخلّص منهم إلى وقت آخر.

وكان السلطان يرى أن اشتداد نفوذ الإنكشارية قد حطم جهود كل من يحاول الإصلاح من السلاطين السابقين، وأن سرّ نجاح محمد علي باشا في حركته الإصلاحية أنه بدأ بإزالة عقبة مشابهة وهي المماليك فتخلص منهم في الحادثة المعروفة باسم " **مذبحة القلعة** "، وقد تخلص السلطان محمود الثاني من الإنكشارية تماما في سنة (1240 هـ = 1826م).

4 - الأخذ بالنظم العسكرية الحديثة

وجّه السلطان محمود الثاني عنايته إلى بناء فرق عسكرية تأخذ بالنظم الحديثة؛ فأنشأ قوة من سلاح المدفعية على يد ضباط أوروبيين، وكان نجاح هذه القوة في تعلم الفنون العسكرية الحديثة حافزا له في تنظيم قوة أخرى من المشاة على نفس الطريقة.

بدأ السلطان يعمل على إيجاد رأي عام يؤيد ما يتجه إليه من إصلاحات، بإقامة الحفلات الكبرى لأي إنجاز تقوم به قواته، وباستصدار فتوى من كبار مشايخ الدولة بوجوب تعليم فنون الحرب، وضرورة إصلاح الجندية، وإدخال النظام العسكري الحديث في فرق الإنكشارية التي لا يمكنها بما هي عليه الآن الوقوف أمام الجيوش الأوروبية ،

وأحيا السلطان محمود الثاني ما أقامه مصطفى الثالث من مدارس للطوبجية والبحرية والهندسة، وأنشأ مدرسة حربية لتخريج الضباط على غرار المدارس الحربية الأوروبية، ومدارس لتعليم الجند وتدريبهم على نَسَق مدارس الجيش في إنجلترا.

أخذ السلطان بنظام التجنيد الإجباري لأبناء المسلمين، وجعل مدة التجنيد عشر سنوات، وأرسل الضباط في بعثات للخارج على نطاق واسع، واستدعى عددا من الضباط من بروسيا لتدريب القوات الجديدة.
اتجه السلطان إلى إصلاح البحرية، فأعاد فتح مدرسة البحرية التي كان قد أنشأها السلطان مصطفى الثالث، وشرع في بناء ثكنات خاصة لرجال البحرية الذين سُموا أحيانا بـ"**جنود البحر**"، وبنى دارا جديدة للمدرسة البحرية عُنِي بتلاميذها ومدرسيها، وزودها بالأدوات والمكتبة والأجهزة، ثم بنى مدرسة بحرية أخرى قصرها على الطلاب المتفوقين من المدرسة القديمة.

سفينة المحمودية كما تظهر في هذا الرسم، هي أكبر سفينة حربية في العالم لسنوات عديدة يديرها 1280 بحار وتحمل 128 مدفعا موزعين على ثلاثة طوابق، واعتبرت هذه السفينة فخر البحرية العثمانية في تلك الفترة و شاركت في حرب القرم، ولم يقدر لها أن تغرق. هناك مجسم معروض لهذه السفينة في المتحف البحري العسكري في إسطنبول

من أهم إصلاحات محمود الثاني كان العناية بالبحرية العثمانية وإعادة بنائها لا سيما بعد الهزيمة القاسية للأسطول العثماني في معركة نافارين أمام الأساطيل الأوروبية المتحالفة، حيث أدخل أول سفينة حربية تعمل بالبخار في عام 1828م كما أمر نخبة مهندسيه ببناء سفينة المحمودية Mahmudiye ذات الـ 128 مدفع وبقيت هذه السفينة الأضخم في العالم لسنوات عديدة،

كماأعاد فتح المدرسة الهندسية البحرية التي كانت قد أنشئت في قبل في سنة (1208 هـ = 1793م)، وكلما انتهى العمل في بناء قطعة بحرية أُنزلت للبحر في احتفال عظيم، وكان السلطان يُسرّ لإنشاء السفن الجديدة سرورا عظيما ويخلع على طاقمها هباته وهداياه.

5 - إصلاح التعليم

عُنِي محمود الثاني بتنظيم التعليم حيث أنشأ المدارس الابتدائية المسماة " **صبيان مكتبي**" لتعليم الهجاء التركي وقراءة القرآن، ومبادئ اللغة العربية، والمدارس الثانوية "**مكتب رشدية**" لتعليم الرياضيات والتاريخ والجغرافيا، إلى جانب المدارس الملحقة بالمساجد، كما أنشئت مدارس تُعِدّ طلابها للالتحاق بمدارس البحرية والطب والزراعة والهندسة والمدفعية، وكانت المدرسة الإعدادية لمدرسة الطب ملحقة بها.

اعتنى محمود الثاني بمدرسة تعليم اللغات التي أنشئت في عصر السلطان مصطفى الرابع لتخريج المترجمين، وكان يلتحق خريجو هذه المدارس بالسفارات المختلفة. أكثر محمود الثاني من إرسال البعثات العلمية إلى لندن وباريس لتحصيل الفنون والعلوم الحديثة، وكلف سفيره في باريس " **أحمد باشا** " بمرافقتهم وكتابة تقارير عنهم.

ومنها أيضا اهتمامه بالمكتبات حيث قام بتجديد المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة.

6 - إصلاحات أخرى

حاول السلطان إصلاح أجهزة الدولة المركزية بالطريقة الأوروبية، فوضع الأوقاف تحت إشرافه وألغى الأوقاف الصغيرة وضمها إلى أملاك السلطان، وأجرى أول إحصاء للأراضي الزراعية التركية في العصر الحديث، وأدخل تحسينات على شبكة المواصلات، وأنشأ طرقا جديدة وأدخل البرق، وخطوط السكك الحديدية، كما أنشأ جريدة رسمية للدولة.

شهد عصر السلطان محمود نشاطا في حركة العمران ، وصيانة المرافق القديمة التي أصابها الإهمال، فأنشأ في سنة (1241 هـ = 1825م) " **جامع نصرت**" أي جامع النصر في إستانبول، وأعاد تعمير مسجد " آيا صوفيا " وغيره من مساجد العاصمة.

عمل حتى على إصلاح الملابس، حيث استحدث لباسا يشبه اللباس الأوروبي واستبدل العمامة بالطربوش الذي كان يرتديه الرعايا العثمانيون في ولايات الأفلاق والبغدان (قبعة رومانية)، وأجبر موظفي الحكومة المدنيين والعسكريين على ارتداء اللباس الجديد في أماكن عملهم. قام بزيارة الولايات الأوروبية للوقوف على حالها وأخذ على عاتقه تحديث الدولة العلية لتجاري الدول الكبرى من جديد.

7 - العلاقة مع الدولة السعودية الأولى

أمر السلطان محمود خان واليه محمد علي باشا بالقضاء على الدولة السعودية الأولى، حيث أرسله ابنه إبراهيم باشا للقضاء على الدرعية - عاصمة الدولة السعودية . وقد قام إبراهيم باشا بمحاصرة الدرعية وارسال **عبد الله بن سعود** الكبير للأستانة حيث أمر بقتله بعد أن طاف به شوارعها حتى وصلوا به إلى ميدان السلطان بايزيد حيث قتل

8 - حرب الاستقلال اليونانية

استغل اليونانيون انشغال الدولة العثمانية في إخماد إحدى الثورات حتى يهبوا معلنين بداية حرب الاستقلال اليونانية والتي كان أمراؤهم وأغنياؤهم قد أعدوا لها منذ مدة ليست قصيرة، وحظيت بدعم أوروبا التي أرسلت إليهم المال والعتاد والرجال.

أراد السلطان محمود أن يخفف عن جيوشه العبء من جهة وأن يضعف قوة محمد علي باشا (الوالي العثماني في مصر آنذاك) ، فأصدر أمرا لمحمد علي بالتوجه فورا لدعم الحامية العثمانية المتمركزة في اليونان.

اضطر محمد علي للانصياع لأوامر خليفته ، فسير 17 ألف عسكري مصري إلى بلاد اليونان، بالإضافة إلى الأسطول البحري المصري. اجتمع الأسطولان المصري والعثماني عند السواحل اليونانية،

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

وقاد إبراهيم باشا جنوده عبر **ميناء مودون** إلى البر اليوناني وبدا باسترجاع كل المدن المفقودة حتى حرر أثينا.

بعد مشاورات ومناوشات سياسية طويلة بين الدولة العلية والدول العالمية، رفضت الدولة العثمانية تدخل أي دولة في شأن اليونان، كما رفضت أي اقتراح لحل الأزمة، مما سبب ظهور حلف روسي فرنسي إنجليزي كان هدفه فصل اليونان عن جسد الدولة العلية،

فتجمعت أساطيل الدول الثلاثة في ميناء نافارين وقامت بتدمير الأسطولين المصري والعثماني فجأة وبدون إنذار مسبق في معركة نافارين، كما جهزت فرنسا جيشا بريا كبيرا عمل على إعادة احتلال اليونان من قوات محمد علي باشا، والتي تقهقرت بناء على أوامر والي مصر، وانتهى الأمر باستقلال اليونان.

9 - اتفاق الدول الكبرى على العثمانيين

كان من نتائج حرب الاستقلال اليونانية وقوع الحرب بين روسيا والدولة العلية، فحدثت مناوشات كبيرة بين الطرفين انتهت بتقدم الروس ببطء في الأراضي العثمانية، وكان سبب ذلك استخدام العثمانيين للتنظيمات العسكرية الجديدة بدلا من الإنكشارية، لكن هذه الحرب لم تكن قد أمهلت العثمانيين الوقت الكافي لإعداد عدد أكبر من الجيوش النظامية الحديثة وانتهت القصة بهزيمة العثمانيين وسيطرة الروس على مدن عديدة في بلغاريا ورومانيا.

تدخلت الدول الكبرى من جديد، وجرت المناقشات السياسية التي انتهت بانسحاب روسيا من المناطق التي احتلتها مقابل دفع الدولة العثمانية لغرامة حربية كبيرة على ثلاثة دفعات ، بالإضافة إلى استقلال اليونان وإضعاف سلطة الدولة على ولاياتها الأوروبية، وكان الهدف من هذا كله إثقال كاهل الدولة العثمانية فلا تستطيع توفير المال لتحديث جيشها وإعادة بناء أساطيلها البحرية، والتأكد من حدوث القلاقل في البلقان حتى تبقي الدولة العثمانية مستنزفة ماليا وعسكريا، ولإبقاء نافذة للدول الكبرى للتدخل في شؤون الدولة العثمانية مستقبلا.

10 - احتلال فرنسا للجزائر وثورة محمد علي

استغل الفرنسيون ضعف الدولة العثمانية، ولا سيما في الجانب البحري بعد تدمير جزء كبير من أسطولها البحري في معركة نافارين، فقاموا باحتلال ولاية الجزائر التابعة اسميا للدولة العثمانية. حدث ذلك في عام 1830 م ولم تقوى الدولة العلية على فعل شيء فبدأت المقاومة الجزائرية بقيادة الامير **عبد القادر الجزائري**.

كان محمد علي باشا ذا طموح كبير وأراد أن يستبدل السلطنة العثمانية الضعيفة بدولة علوية (نسبة لمحمد علي) حديثة تحقق طموحه الكبير. لم يأبه محمد علي لما كان يدور بين الفرنسيين وجيرانه الجزائريين واستغل ضعف الدولة العثمانية ليباشر في عام 1831 بمحاولة السيطرة على الشام ، وبالفعل تمكن من هزيمة الحامية العثمانية والتقدم إلى ما بعد جبال طوروس وأنزل الهزائم المتوالية في الجيش العثماني حتى وصل إلى مدينة قونية.

أوقف محمد علي باشا زحفه بسبب إبرام روسيا والدولة العلية معاهدة عسكرية تقضي بدفاع الجيش الروسي عن إسطنبول في حالة تقدم قوات محمد علي نحوها، وأرادت روسيا بهذا الحفاظ على السلطنة العثمانية الضعيفة من أن ترثها دولة قوية تقف بوجه تحقيق وصية بطرس الأكبر،

وتدخلت القوى الأوروبية مجددا وتم ترسيم الحدود بين الطرفين وإنهاء الصراع مؤقتا حيث خافت تلك الدول من تنامي قوى محمد علي وروسيا على حساب الدولة العثمانية، لكن الحرب عادت للاشتعال عام 1839 م في معركة **نصيبين** والتي انتهت بانتصار محمد علي مجددا.

11- وفاة السلطان

امتاز السلطان محمود الثاني بالتوجه للغرب العلماني، أنهكته الحروب مع روسيا، وشغلته حروبه مع محمد علي والي مصر الطموح الذي تطلع إلى ضم بلاد الشام إلى ولايته في مصر، ووقعت الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي في سنة (1245 هـ = 1830م).

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

تعرض السلطان للإصابة بعدوى السل ، ولما اشتد به المرض نُقل إلى إحدى ضواحي إستانبول للاستشفاء بهوائها النقي ، ثم لم يلبث أن عاجلته المنية في (19 ربيع الآخر 1255 هـ = 2 يوليو 1839م) وخلفه السلطان عبد المجيد.

33 - عبد المجيد الأول بن محمود الثاني

1 - تقديم

عبد المجيد الأول بن محمود الثاني بن عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل .

(1823 - 1861)، هو خليفة المسلمين الثالث بعد المئة وسلطان العثمانيين الحادي والثلاثين والثالث والعشرين من آل عثمان الذين جمعوا بين الخلافة والسلطنة. تولى السلطنة وله من العمر 16 عامًا وثلاثة أشهر؛

تمكنت الدولة في عهده من الانتصار في حرب القرم، واستعادة سوريا العثمانية من حكم محمد علي باشا، وأدخل إصلاحات عديدة في القوانين العثمانية ، وقوّى سلطة الحكومة المركزية مقابل انحلال الولاة السابق، سيرًا على نهج أسلافه بدءًا من سليم الثالث الإصلاحي؛ بنى قصر **طولمه بهجة**، واتخذه مقرًا لحكمه، كما رمم المسجد النبوي في المدينة المنورة.

2 – حياته

ولد السلطان عبد المجيد الأول في قصر الباب العالي يوم 25 أبريل 1822 كأكبر أولاد السلطان محمود الثاني، وتلقى التعليم الأوروبي وكان يجيد اللغة الفرنسية مع اهتمامه في الأدب والموسيقى الكلاسيكية . وكان من دعاة الإصلاحات مثل والده السلطان محمود الثاني.

2 – 1 - خلافته والمسألة المصرية

تولى عبد المجيد السلطنة وهو يبلغ من العمر ستة عشرة عاماً عام 1839م، بعد وفاة والدهِ ، وكانت أحوال الدولة في غاية الاضطراب حينها، وبعد انتصار جيوش محمد علي باشا في معركة نصيبين ، وانضمام الأسطول العثماني بقيادة **أحمد باشا** إلى محمد علي ورسوّه في ميناء الإسكندرية ، وكانت أولى أعمال السلطان توجيه الصدارة العظمى إلى **خسرو باشا**، وهو والي مصر السابق؛ ثم موافقته في 28 يوليو 1839م، على الاتفاق مع الحلفاء حول **"حل مشترك"** للمسألة المصرية مع الدول الأوروبية، غير أن الخلاف بين فرنسا وبريطانيا قد أعاق التوصل لاتفاق سريع.

في 15 يونيو 1840م، أتفقت الدول الأوروبية مع الباب العالي على إرجاع محمد علي باشا إلى حدود مصر مع احتفاظه بالقسم الجنوبي من بلاد الشام عدا عكا طوال حياته؛ ثم عادت وألغت هذا الاحتفاظ نتيجة رفض محمد علي الانسحاب سلمًا من الولايات السورية العثمانية ،

كما استقرت فرق من جيوش النمسا وروسيا وانجلترا في إسطنبول لحمايتها في حال هجوم جيش إبراهيم باشا على العاصمة .

في بداية أغسطس 1840م، بدأت ثورات وانتفاضات ضد حكم إبراهيم باشا في الشام، وحاصر الأسطول الإنجليزي الساحل السوري، وفي 14 أغسطس انسحب المصريون نحو حصون الداخل وأجبروا على الانسحاب نهائيًا في ديسمبر 1840م. وعين السلطان (**سليمان باشا**) ، حاكمًا عسكريًا للولايات السورية منعًا للانفلات الأمني والاقتتال الطائفي وهجمات البدو على الحضر. كما أجبر (محمد علي) على رد الأسطول العثماني الراسي في الإسكندرية.

في 14 يناير 1841م، أصدر السلطان فرمانًا أولاً بتولية محمد علي على مصر مع وراثة أولاده ، وفرض ربع إيرادات مصر كجزية للباب العالي، وعيّن لجنة مالية لإدارة الاقتصاد المصري؛ كما حدد سقف عدد الجيش المصري بثمانية عشر ألف جندي دون امتيازات خاصة في اللباس أو

الرتب التي يعين السلطان درجاتها العليا، كما أقر الفرمان سلسلة تقييدات أخرى. غير أنه عاد ومنحه في 13 فبراير 1841م، ولاية النوبة ودارفور وكردفان وسنار، وفي 19 أبريل أصدر فرمانًا ثالثًا بناءً على وساطة انجلترا يخفف الشروط السابقة، ومنها التنازل عن ربع الإيرادات مقابل خراج معلوم.

2 – 2 - اتفاقية المضائق

تحت ضغط انكلترا وباتفاق الحلفاء، وموافقة السلطان، أبرم في 13 يوليو 1841 اتفاق المضائق أو " **اتفاق البوغازات** "، والذي ينظم حركة الملاحة البحرية في بحر مرمرة والبوسفور. نصّ الاتفاق على عدم السماح لأي مركب حربي غير عثماني في المرور أو الاستقرار في هذه المنطقة ، وبالتالي ألغيت مفاعيل معاهدة **خوانكار اسكله سي**، القاضية بمنح روسيا حق الملاحة البحرية العسكرية في المنطقة.

2 – 3 - نظام إدارة جبل لبنان

مجازر 1860·

متصرفية جبل لبنان

في عام 1840 انتدلعت اقتتالات طائفية بعد تعدي الدروز على الموارنة في جبل لبنان والبقاع؛ فأصدر السلطان نظامًا خاصًا عرف باسم " **نظام القائم مقاميتين** " بالتفاهم مع دول الحلفاء لإدارة الجبل . لم يفلح النظام المذكور لاسيّما في المناطق المختلطة مثل قضاء الشوف ، فتكررت المجازر عام 1845 فأرسل السلطان فرقًا عسكريًا مخضعة الجبل للحكم العسكري، وأدخل تعديلات على نظام القائم مقاميتين واستحدث مجلس إدارة الجبل المكون من 12 عضوًا.

في عام 1860 تكررت المجازر ووصلت حتى دمشق والجليل ومناطق أخرى، وقضى بنتيجتها 20000 مسيحي، فقام السلطان بتعيين **فؤاد باشا** حاكمًا على الشام مخولاً بصلاحيات استثنائية، لرأب الصدع الذي حصل في المجتمع ولتفادي أي تدخل أوروبي، وقد قاد فؤاد باشا حملة اعتقالات بحق المتورطين بالمذابح ضد المسيحيين، فأعدم رميًا بالرصاص 111 شخصًا، وشنق 57 آخرين ، وحكم بالأشغال الشاقة على 325 شخصًا ونفى 145؛ وكان بعض المحكومون من كبار موظفي الدولة في الشام.

كما قامت فرنسا بنشر قوة مؤلفة من 6,000 جندي لحماية النظام بحسب الأتفاق، تم الاتفاق على أن ترسل دول أخرى قوات إضافية حسب الحاجة. وقد وصف التدخل الفرنسي واحدًا من التدخلات الإنسانية الأولى في تاريخ العالم. وبالرغم من إخماد العثمانيين للاضطرابات قبيل وصول هذه البعثة، فقد تمركز فيلق مشاة فرنسي في سوريا من أغسطس 1860 إلى يوليو 1861. وصف المؤرخون هذا التواجد العسكري بكونها إحدى أول قوات حفظ سلام في التاريخ. كما أفضى بروتوكول القسطنطينية عام 1860 لاستحداث متصرفية جبل لبنان.

2 – 4 - الإصلاحات المدنية

أحرزت الدولة في عهد السلطان عبد المجيد، إصلاحات إدارية وتشريعية هامة، وقد عمل على تقوية الحكومة المركزية بل انحلال الولاة، "وهكذا يتبين الفرق الكبير بالنسبة لسيطرة الدولة على ولاياتها بين أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، فمن حكم سطحي لا مركزي متموج، إلى حكم مركزي متغلغل حتى أتفه الأمور"،

وبنتيجة هذه الإصلاحات تحولت الدولة إلى جهاز أقوى وأكثر كفاءة، وكانت حين وفاته بوضع أفضل مما كانت عليه حين استلمها، وما أعاق الإصلاح فعليًا طبقًا رجال الدين المحافظة ، والمستفيدون من فترة ما قبل الإصلاحات المالية ، واستمرار ثورات الشعوب المسيحية في البلقان. على وجه الخصوص،

قامت طبقة من رجال الدين المسلمين المحافظين، بتكفير الصدر الأعظم **رشيد باشا** لأنهم " **اعتبروا الإصلاح تحديًا لهم وصلاحياتهم وحقوقهم في المجتمع**". بكل الأحوال، فبعد أن استعاد عبد المجيد سوريا العثمانية ، عيّن **محمد نجيب باشا** ليطوف في الألوية والأقضية، ويشرح حقيقة التنظيمات الخيرية، فرفع الناس عرائض شكر للسلطان، وبهذا الخصوص أصدر فرمانه الخاص بسوريا " **لضمان أمن الروح والمال بالنسبة للسكان**".

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

- *2 – 4 - 1 - التنظيمات الخيرية*

أطلق اسم التنظيمات على عملية تحديث الدولة وتمدنها، أي "إعادة بناء الدولة العثمانية الغير قادرة على مواكبة العصر، بدولة التنظيمات التي تنظم علاقة الدولة بالمجتمع على أساس القانون".

صدرت التنظيمات بناءً على ضغط من الموظفين الحكوميين العثمانيين، والتجار المحتكين بالسوق التجارية الخارجية، وأعد **رشيد باشا** وزير الخارجية أول نصوها هو خط **كلخانة**، الذي نصّ للمرة الأولى على توصيف " **مواطنين عثمانيين** " متساوين في الحقوق والواجبات، مساواة تامة، ودون تمييز بسبب الدين أو اللغة أو الجنس؛ ومنح الجميع حرية العبادة، وحماية أرواحهم وأملاكهم، وعدم إنزال عقوبة بأحد إلا بعد محاكمته، وإلغاء بيع الوظائف، والتلزيم في جميع الضرائب، وتعديل السياسة الضريبية والتجنيدية؛ وقد وجد دعاة التنظيمات تطبيقها "**طريقًا وحيدًا لإيقاف تدهور الدولة، وحماية وحدتها واستقلالها**".

- **2 – 4 - 1 - 1 - خط كلخانة**

بعد أن أنفق سلاطين الدولة منذ مطلع القرن التاسع عشر جهدهم في إصلاح الجيش المركزي للدولة ، اتجه السلطان عبد المجيد الأول لإدخال إصلاحات مالية وإدارية، إلى جانب إصلاحات اجتماعية في حقوق المواطنين العثمانيين، وأولى هذه الخطوات كانت خط كلخانة ، وينصف بكونه وثيقة حقوق ، أعلنه السلطان بعد نحو ثلاثة أشهر من توليه السلطة يوم 3 نوفمبر 1839، وتولى إعداده وإذاعته في حفل رسمي الصدر الأعظم **مصطفى رشيد باشا**، من الساحة القائمة أمام **قصر كلخانة** ،

وكان الفرمان معنونًا باسم ***التنظيمات الخيرية*** . وجد بعض المؤرخين أنّ الإصلاحات قامت بها الدولة العثمانية تحت ضغط الغرب وفي محاولة لاستمالته، بكل الأحوال فإن الرغبة في الإصلاح واضحة لدى السلاطين، من ناحية كونها حاجة أكثر من كونها "**إرضاءً للغرب**" كما صرّح عدد من المؤرخين، كما يستدل على ذلك من خلال تعيين الدولة لموظفين خاصين بالطوف على الولايات، في الأرياف والمدن على اختلافها، لمقابلة السكان مباشرة وإفهامهم فحوى فرمان كلخانة ، والإصلاحات اللاحقة، وهو ما " قابله السكان بمنتهى السرور". أما أبرز الإصلاحات التي أدخلت إلى الدولة بموجب الفرمان :

منح مواطني الدولة العثمانية الأمان على النفس، والأملاك، والعرض؛ وضمان الحرية الشخصية؛ ومنع المصادرة والسخرة، وكان الولاة أو الإقطاع في الريف، يلزم السكان بأعمال دون أجر، أو يصادر أجزاءً من أملاكهم؛ و " تمتع الرعايا بذلك بمن فيهم المسيحيون، وأظهروا ما يملكون علنًا، بعد أن كانوا يضطرون لإخفاء ثرواتهم والتظاهر بالفقر" لتعرضهم للمصادرة والسخرة أكثر من سواهم. رغم أن هذه الفقرة لم تطبق بشكل كامل ، إلا أنّ وضعها ومحاسبة مخالفيها، وتقوية الجهاز الإداري للدولة، ساهم بشكل مباشر في إصلاح الدولة ورضا الأهالي.

ضمان حق مواطني الدولة بالمحاكمة قبل تنفيذ أي حكم قضائي، وكان من عادة الولاة، قتل أو نفي أو تسميم بعض مناوئيهم في السلطة دون محاكمة، وهو ما اعبتر من شأنه تقوية لمؤسسة القضاء في وجه الولاة والحكام، أو حتى الإقطاع المحلي في الأرياف .

تحديد طريقة الجندية الإجبارية، وتعيين سقفها بخمس سنوات؛ على أن لا يضر سوق الشبّان للجندية في اقتصاد مناطقهم أو مدنهم من ناحية الزراعة أو التجارة أو انقراض النسل، ولذلك أقر السلطان باختيار الشباب نسبيًا حسب عدد سكان المناطق.

الأمر بزيادة رواتب الموظفين الحكوميين، وفي المقابل تجريم الرشوة " **لأنها السبب الأعظم في خراب الملك** "؛

ومن ثم أدخل السلطان آلية إصلاح إدارية جديدة، لجبي الضرائب والشؤون المالية، وضبط إنفاقها، وهو ما أدى حسب عدد من المؤرخين إلى "تطبيق العدالة في جباية الضرائب، فجمعت بالتساوي ودون تفريق بين أبناء الرعية، بعد أن كان يتهرب من أدائها المتنفذون وأصحاب القبليات؛ ولما أصبحت الضرائب تجبى بالعدل، زاد دخل الدولة المالي، وأصبحت الأموال تصرف في الأمور النافعة، كما أصبحت إيرادات الدولة للمرة الأولى تسجل في سجلات رسمية، ولا تنفق إلا بعد إصدار فرمانات همايونية" .

استحداث مجلس الأحكام العدلية، الذي من وظيفته إعداد مشاريع الفرمانات ليقوم السلطان بإصدارها بتوقيعه، وبالتالي يعتبر مجلس الأحكام العدلية الشكل الأول لمجلس النواب العثماني.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

عيّن السلطان أيضًا مراسيم إذاعة الفرمانات، بكونها من الحجرة الشريفة في قصر السلطنة، وبحضور الوزراء وعلماء المذاهب الأربعة ، وشيخ الإسلام ، ووجوب تبلغيها جميع الولاة وإداريي الدولة للعمل على تنفيذها؛ كما ضمن السلطان أن تكون موضع التنفيذ ومعاقبة مخالفي أحكامها.

- **2 – 4 - 1 - 2 - الخط الهمايوني**

وثيقة الحقوق الثانية التي لا تقل أهمية عن خط كلخانة هي الخط الهمايوني الصادر في 18 فبراير 1856، والذي صدر في أعقاب حرب القرم، وكان محمد علي باشا قد أدخل مواده فعليًا إلى مصر وسوريا قبل ذلك بنحو عقدين، وقد ساهم الخط الهمايوني بصدور وثائق أخرى في الولايات تحمل المغزى نفسه مثل "**عهد الأمان**" الصادر عام 1857 في تونس عن الباي محمد. أعاد فيه السلطان التأكيد على ما ورد في خط كلخانة من المساواة في الحقوق المدنيّة وقال بأن جميع المذاهب والطوائف "ترتبتط بالروابط القلبية المتساوية الماهية في نظر شخصنا الملوكية"، ومحافظًا على الامتيازات التقليدية لغير المسلمين، وحرية ممارسة الشعائر الدينية في العلن، وبناء الكنائس والمعابد والمؤسسات الدينية الأخرى أي المقابر والمدارس والمشافي والأديرة، دون العودة إلى الباب العالي في المناطق المسيحية، وبموافقة السلطان في حال التجديد أو استحداث هذه الأبنية في المناطق المختلطة. وضمن الخط الهمايوني المساواة في المعاملة بين جميع الطوائف،و منع استعمال الألفاظ التي تحطّ من القيمة: "تمحى وتزال إلى الأبد، من المحررات الرسمية، كافة التعبيرات والألفا المتضمنة تحقير جنس لآخر في اللسان أو الجنسية أو المذهب... ويمنع قانونًا استعمال كل وصف أو تعريف يمسّ الشرف أو يستوجب العار بين الناس" والمساواة بين رعايا السلطان في تولي الوظائف العامة، والاستفادة من خدمات الدولة التعليمية، وإنشاء محاكم للفصل في القضايا الجنائية المختلفة، أما القضايا المختصة بالأحوال الشخصية استمرت إحالتها إلى المحاكم المختصة بكل مذهب على حدا؛ ودعا السلطان في الخط لإصلاح السجون ومنع التعذيب، أو أي تصرف معادي للإنسانية.

2 – 5 - حرب القرم

اندلعت حرب القرم نتيجة الخلاف حول رعاية وحماية كنيسة القيامة وسائر المقدسات المسحية في القدس؛ فبموجب الامتيازات والاتفاقيات العثمانية تتولى فرنسا والكنيسة الكاثوليكية مهام الحماية والرعاية في الأماكن المقدسة ؛ غير أن ما طرأ في فوضى في فرنسا إبان الجمهورية الثانية ، مكّن روسيا والكنيسة الأرثوذكسية من إدارة قسم من الأملاك بحكم الأمر الواقع.

حين غدا **نابليون الثالث** امبراطورًا على فرنسا، طالب بالامتيازات القديمة وأقر السلطان له بالأمر في 6 فبراير 1852، ما أثار اعتراض روسيا. ومع انسداد أفق حل سياسي، احتلت ولايتي الأفلاق والبغدان، وهما ولايتين عثمانيتين في أوروبا الشرقية ذاتا أغلبية مسيحية وأرثوذكسية؛ فبدأت الاشتباكات الروسية - العثمانية في 3 نوفمبر 1853 وتزامنًا سيطر العثمانيون على **قلعة القديس نيكولا** في الجانب الروسي من الحدود القفقاسية. ثم تمكنت روسيا من تدمير الأسطول العثماني في واقعة سينوب يوم 30 سبتمبر 1853 عن آخره تقريبًا. في 12 مارس 1854 أبرم العثمانيون اتفاق الدفاع المشترك مع فرنسا وانكلترا، وفي 27 مارس 1854 أعلن نابليون الثالث الحرب رسميًا، ثم في 10 أبريل أعلنتها **الملكة فيكتوريا**.

تركزت المعارك في البحر الأسود والقوقاز، وتمكن الروس من احتلال فارص، والحلفاء من احتلال سيفاستوبول، وبعد نحو عامين من المعارك أقرت اتفاقية باريس عام 1856 السلام والعودة إلى حدود ما قبل الحرب، بما فيها انسحاب روسيا من ولايتي الأفلاق والبغدان، وكذلك حماية فرنسا للأماكن المقدسة.

2 – 6 - آثاره العمرانية

بنى السلطان بدءًا من 1843 وحتى 1856 قصر **دولمة بهجة** ليكون مقر حكمه الجديد . استعمل في البناء الفنون الغربية الحديثة ، وأشرف فنانون ورسامون من إيطاليا وفرنسا في إتمام العمل ، وملأه بتحف متنوعة كعاج الفيلة واللوحات والمنحوتات الإيطالية والفرنسية بالإضافة إلى سجاد من فرو الدببة الرمادية الروسية ، واستعمل عشرات الأطنان من الذهب لتزيينه . ومنذ انتهاء تشييدها أصبحت هذه السرايا مقر حكم الخلافة العثمانية حتى نهايتها عام 1922. ويعتبر هذا القصر من أهم المعالم الأثرية في تركيا. كما قام السلطان بترميم المسجد النبوي وتوسعته وتزينه وإضافة رسوم تركية إلى عمارته، بعدما علم بتصدّع بناءه.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

2 – 7 - السياسة الاقتصادية

أفضت حرب القرم إلى الإنهاك الاقتصادي للدولة العثمانية، ففي 1854 عقدت الدولة أول قرض خارجي لها لتسديد النفقات العسكرية بقيمة 75 مليون فرنك فرنسي، استملت منها 60 مليون، وحسم الباقي كفوائد ؛ وفي عام 1855 أبرم القرض الثاني ومبلغه 125 مليون، وخصص أيضًا لتسديد النفقات العسكرية، وهو ما استمر في عهدي خلفيه عبد العزيز وعبد الحميد الثاني، حتى أعلنت الدولة إفلاسها مرتين .

وكانت سياسة عقد القروض تعني في الواقع انتقاص السيادة العثمانية، واضطرت لأول مرة في تاريخها، لرهن ضرائبها الداخلية لضمان دفع قروضها لأوروبا، فخصصت جزية مصر السنوية ضمانًا لقرض 1854، ومداخيل جمارك أزمير وسوريا ضمانًا لقرض 1895 . وكان لإتفاقية التجارة الحرة مع أوروبا، آثار وخيمة على الصناعات العثمانية المخلية من خلال إعفائها من الجمارك ، وهو ما أدى لكونها أرخص وذات جودة أعلى من نظيرتها المحلية، وهو ما أدى إلى ركود اقتصادي بدءًا من 1861 .

وكان تدهور قيمة القرش العثماني، قد بدأ من عهد السلطان محمود الثاني، إذ فقد القرش 78 % من قيمته خلال عهد السلطانين؛ ويؤخذ على التنظيمات إجمالاً، إهمالها الشأن الاقتصادي بشكل عام، عدا بعض الأمور البارزة، كتأسيس السلطان للبنك العثماني، ليؤدي دور مصرف مركزي للدولة، عام 1856، والذي قام في عهده بإصدار أول عملة ورقية في تاريخ الدولة العثمانية، ويعتبر أول من قام بتنظيم الميزانية العامة للدولة عن طريق التقيّد بتسجيل إيرادات ومصروفات الدوائر المختلفة بقيود محاسبية .

وكان من النتائج الاقتصادية المتضمنة خط كلخانة، أن تحسنت مالية الدولة عن طريق تعيين أشخاص لهم خبرة واسعة في الشؤون المالية، وساهمت العدالة في جمع الضرائب بعد إلغاء طريقة التلزيم، والتشدد في التحصيل الضريبي من جميع المكلفين بعد أن كان يهرب منه **" المتنفذون وأصحاب العصبيات "** ، في ازدياد دخل الدولة، ومن ثم صرفه في مجالات نافعة، لاسيّما مع تنظيم الميزانية، وتسجيل المدخولات والمصروفات في سجل رسمي، وعدم صرف أي مبلغ دون استصدار فرمانات همايونية بذلك.

34 – عبد العزيز بن محمود الثاني

1 - تقديم

عبد العزيز الأول (1830 - 1876) هو خليفة المسلمين الرابع بعد المئة وسلطان العثمانيين الثاني والثلاثين , والرابع والعشرين من آل عثمان الذين جمعوا بين الخلافة والسلطنة. والده السلطان محمود الثاني ، استوى على المُلك بعد وفاة شقيقه عبد المجيد الأول في 25 يونيو 1861، ومكث في السلطة خمس عشرة عامًا حتى خلعه وزراؤه وسائر رجال الدولة في آخر مايو 1876 · وتوفي بعدها بأربعة أيام وقيل انتحر وقيل أيضًا قد قتل.

امتاز عهده بغنى الدولة بالرجال وبكثير من الإصلاحات التي تمت على يد صدريه **محمد أمين عالي باشا** و **فؤاد باشا** ، الذين كسبا شهرة في التاريخ العثماني، ولم تبدأ مشاكل السلطنة بالتفاقم - والذي توّج بإعلان إفلاس الدولة عام 1875 - إلا بعد وفاتهما ؛ كما أنه السلطان العثماني الوحيد الذي قام بزيارات خارجية سياسية إلى مصر وإلى كلٍ من ألمانيا وفرنسا وبريطانيا، ولم يشهد عهده أي حروب خارجية للدولة.

2 - حياته المبكرة وتوليه الحكم

ولد عبد العزيز في 9 فبراير 1830 وقيل 18 فبرايرابنًا ثانيًا للسلطان محمود الثاني والسلطانة **برتونيال** ؛ بعد وفاة والده محمود الثاني أصبح شقيقه الأكبر عبد المجيد سلطانًا في السابعة عشر من عمره، حينها كان عبد العزيز لم يتجاوز العاشرة. تزوج للمرة الأولى عام 1856 من **الجورجية دورونيف قادين** وأنجب منها ثلاثة أولاد على رأسهم يوسف عز الدين ولي عهد الدولة العثمانية خلال حكم محمد الخامس؛ وبعد توليه شؤون السلطنة تزوج للمرة الثانية في ديسمبر 1861 من **آيداديل قادين** ولم ينجب منها سوى طفل واحد؛ وبعد زواجه الثاني بخمس سنوات تزوج عام 1866 السلطانة **حيرانة** وأنجب منها طفلان وفي

عام 1868 تزوج للمرة الرابعة السلطانة **نسرين** وأنجب منها ثلاثة أطفال، ثم في يوليو 1872 تزوج للمرة الخامسة من **نيفين قادين أفندي** وأنجب منها طفلًا واحدًا أيضًا، وأخيرًا تزوج السلطانة **صافيناز** وأنجب منها ثلاثة أطفال، وقد تزوجت صافيناز بعد وفاته السلطان عبد الحميد الثاني، وساق لها المؤرخون دورًا في سياسة الدولة خلال عهديهما.

في 7 يونيو 1861 توجه في الموكب الملكي إلى ضريح أبو أيوب الأنصاري، وهناك تقلد السيف السلطاني وفق العادة المتوارثة مذ أن فتح العثمانيون القسطنطينية، ومنه سار لزيارة قبر السلطان محمد الثاني فاتح اسطنبول ثم قبر والده السلطان محمود الثاني، وكانت أولى فرماناته بإقرار الصدر الأعظم **محمد أمين عالي باشا** في مكانه ، ثم استحدث وسامًا خاصًا أسماه " **الوسام العثماني**" يمنح لمن قدّم خدمات جليلة للدولة ، وقدم وسامه في المرتبة على الوسام المجيدي الذي استحدثه أخيه.

3 - الثورات والقلاقل الأمنية :

على عكس سلفيه محمود الثاني وعبد المجيد الأول وخلفيه مراد الخامس وعبد الحميد الثاني، لم تشهد الدولة العثمانية خلال عهد السلطان عبد العزيز حروبًا خارجية، ولعلّ معاهدة باريس المبرمة عام 1856 ضبطت إيقاع السياسة الخارجية لأوروبا وجنبتها حروبًا جديدة. كذلك فلم تشهد سلطنته فقدانًا لأراضي الدولة وتقلصًا في مساحتها، كما حصل في سائر عهود عصر انحلال الدولة، بل استطاع عبد العزيز الحفاظ على أملاك دولته، أما المناطق التي شهدت ثورات، فقد استطاعت الدولة العثمانية التعامل معها بالحزم والسياسة بحيث لم تؤد لفقدان أملاك وأراض.

3 – 1 - ثورة الجبل الأسود :

منذ أن فتح العثمانيون الجبل الأسود الذي يقع إلى الشمال من ألبانيا لم يتمكنوا من فرض سيطرتهم سوى على المدن الكبرى فيه أما الجبال والقرى المحيطة ظلت شبه مستقلة وذات إدارة محلية بسبب وعورة المسالك وصعوبة المفارز ، وكان الجبل قد أعلن عام 1853 ثورة ضد الباب العالي تمكن القائد العثماني **عمر باشا** من سحقها ،

وفي أعقاب حرب القرم ومؤتمر باريس لعام 1856 طالب حاكم الجبل المحلي الأمير **دانييل** الاعتراف باستقلال الجبل فلم يلق ذلك قبولاً لدى الدول الأوروبية التي نصحته بعقد سلام مع الدولة العثمانية والاعتراف بسيادتها مقابل منحه **رتبة مشير** مع مبلغ سنوي من المال وتوسيع حدود دولته لتشمل أجزاءً من الهرسك أيضًا، فقبل الأمير بعرض أوروبا.

في عام 1860 توفي الأمير دانييل وآل الحكم لابن أخيه الأمير **نيكولا** الذي شجع حركات ثورية ضد الباب العالي في الهرسك وكذلك في الجبل الأسود وأخذ يجمع جيوشًا لإعلان التمرد، فأغار عمر باشا على أراضي الجبل وحاصرها من ثلاث جهات، ثم دخلت قواته الإمارة واضطر الأمير نيكولا إلى توقيع اتفاق استسلام في 30 أغسطس 1862، التي نصّت على بقاء نيكولا حاكمًا للجبل شرط السماح للعثمانيين بناء ما يحلو لهم من حصون لتأمين وضمان السيادة داخل أراضي الإمارة ، لاحقًا سعت الإمبراطورية الروسية وفرنسا لدى الباب العالي للتنازل عن حق بناء الحصون والقلاع داخل أراضي الإمارة، فقبل السلطان عبد العزيز بذلك وأصدر فرمانًا في 2 مارس 1864، انسحب بموجبه الجيش العثماني وهدم القلاع التي كان قد شرع في استحداثها، وأنهى انسحابه في يونيو 1864.

3 – 2 - ثورة الصرب :

فتح العثمانيون بلاد الصرب عام 1389 وظلوا يحكمونها حكمًا مباشرًا حتى سنة 1815، ثم أبرم عام 1830 اتفاق يقضي بتحويلها لإمارة مستقلة تحت سيادة الباب العالي، ثم جاءت معاهدة باريس في 30 مارس 1856 بعد حرب القرم لتنظم العلاقة بشكل أكبر، فنصت أنه من حق الدولة العثمانية أن يكون لها في بلاد الصرب ست قلاع بما فيها **قلعة بلغراد** عاصمة الإمارة ، وفي أعقاب اندلاع ثورة الجبل الأسود حشد العثمانيون جيشًا شعبيًا غير مدرب تدريبًا جيدًا، بهدف ضبط الأمن في صربيا؛ ولكونه جيشًا غير مدرب فقد وقعت عدة مشاجرات بين أهالي الصرب و" **الجيش الشعبي**" تحولت إلى مواجهات دامية، بلغت ذروتها بعد مقتل جندي عثماني في 10 يونيو 1862، وما تبعه من قصف لبلغراد بالمدفعية لمدة أربع ساعات متواليات. تدخل قناصل الدول لإيقاف القصف، ثم وبنتيجة المشاورات اللاحقة بين القناصل

والسلطان عبد العزيز، قبل السلطان عبد العزيز بتخفيض عدد القلاع من ستة إلى أربعة مع احتفاظه بقلعة بلغراد، وتعهد أيضًا بعدم السماح للقواد العثمانيين بالتدخل في الشؤون الداخلية للإدارة مطلقًا وأصدر فرمانًا بذلك في 6 سبتمبر 1862. غير أن اندلاع ثورة كريت وأحوال خزينة الدولة الناضبة مع ضغوط الدول الأوروبية، انتهت في مارس 1867 بقبول السلطان عبد العزيز لاتفاق جديد يقضي بتخلي الدولة عن القلاع الأربعة في بلاد الصرب وجلاء كافة القوات العثمانية عنها، وبذلك لم يبقَ سوى لقب "ملك" على أمير الصرب، يفصلها عن الاستقلال الكامل في أعقاب هذا الفرمان.

3 – 2 - ثورة كريت :

ثورة جزيرة كريت اندلعت أواخر 1866 لرغبة أهالي الجزيرة وهم في الغالب من اليونان الأرثوذكس الانضمام إلى مملكة اليونان، وقد حاولت المملكة المذكورة دعم الثائرين، إلا أن هذا الدعم ظل محدودًا في إطار تقاعس الدول الأوروبية عن الموافقة على سلخ الجزيرة من أملاك الدولة العثمانية. أرسل السلطان موفدًا شخصيًا إلى سكان الجزيرة اسمه **كريدلي محمد باشا** إلا أنه فشل في مهمة تقريب وجهات النظر بين الدولة الثوار، وفي أعقاب استقالة **محمد رشدي باشا** من الصدارة العظمى وإسنادها إلى **محمد أمين عالي باشا** في 11 فبراير 1867، أنهت الدولة مهام كريدلي باشا وأرسلت عوضًا عنه جيشًا كبيرًا بقيادة **عمر باشا** ، الذي سطع نجمه في حرب القرم، كما أرسل **الخديوي إسماعيل** بناءً على طلب السلطان عبد العزيز جيشًا ليساعد في قمع التمرد، فقمع الجيشان المحتجين وأخمدا ثورتهم.

بعد الحسم العسكري، أرسل السلطان صدره الأعظم **عالي باشا** شخصيًا كمندوب سياسي عنه في 14 أكتوبر 1867، وسعى إلى تهدئة خاطر الأعيان بمنحهم رتبًا ونياشين، وبعد أن استتب الأمن أوائل عام 1868 قفل عائدًا إلى اسطنبول . وبنتيجة هذه الثورة انعقد في عام 1869 مؤتمر خاص في باريس للدول الموقعة على اتفاق العام 1856 للتباحث بوضع الجزيرة، وبنتيجة المؤتمر أصدر السلطان في 19 سبتمبر 1869، فرمانًا يقضي بمنح الجزيرة امتيازات تجارية وإعفاءً من الضرائب لمدة سنتين، وإعفاءً من الخدمة العسكرية.

3 – 4 - حادثة سالونيك :

في 5 مايو 1876 وصلت إلى سالونيك فتاة بلغارية أعتنقت الدين الإسلامي ، فلما بلغ الأمر مسيحيي المدينة قبضوا عليها وحاول بعض المسلمين استراجعها ففشلوا، وتحول الأمر إلى فوضى طائفية، اغتيل خلالها قنصلا فرنسا وألمانيا. غضبت أوروبا لمقتل قنصليها ورست سفن الأسطول الفرنسي قبالة سالونيك، وأمن الجند الألمان موكب جنازة حافل للقنصلين، ثم عقد وزراء خارجية روسيا والنمسا وألمانيا اجتماعًا في برلين وأصدروا بيانًا صدقت عليه فرنسا وإيطاليا، طالب خلاله المجتمعون بتعيين مجلس دولي لمراقبة تنفيذ فرمان سلطاني كان عبد العزيز قد أصدره في 12 ديسمبر 1875، ينصّ إلى إصلاح أحوال مسيحيي الدولة، وطالب البيان أيضًا باستكمال تنفيذ الفرمان خلال مدة لا تتجاوز الشهرين، وإلا فإن الدول التي أصدرت البيان ستضطر لاستعمال القوة بهدف تنفيذ أحكام الفرمان السلطاني. لم يقبل السلطان بهذا البيان واعتبره مجحفًا بحقوق دولته ، ولعلمه أيضًا بوجود خلافات بين دول أوروبا حول الحرب وعدم تصديق إنكلترا على البيان .

3 – 5 - احتجاجات طلاب المعاهد الشرعية في الآستانة

في أواخر أبريل 1876 خرجت مظاهرة حاشدة مؤلفة من طلبة العلوم الدينية ورجال الدين والمشايخ بعد أن تجمعت أمام جامع السلطان محمد الفاتح، وسارت زاحفة نحو مبنى وزارة الحربية ثم نحو الباب العالي نفسه، منادية بإسقاط الصدر الأعظم **محمود نديم باشا** وشيخ الإسلام **حسن فهمي أفندي**، وفشل رجال الشرطة في تفريق المتظاهرين لعدم علمهم المسبق بالتظاهرة، كما فشلوا في منعهم من الوصول إلى مبنى الباب العالي حيث يقيم السلطان شخصيًا. أما محمود نديم باشا وحسن فهمي أفندي فقد توارايا عن الأنظار ثم غادرا اسطنبول خوفًا من الشعب الهائج .

قرر المتظاهرون الاعتصام أمام الباب العالي حتى تحقيق مطالبهم، وفي مساء ذلك اليوم عقد السلطان اجتماعًا شارك فيه والدته مع وزير الخارجية ومحافظ اسطنبول، وقاضي عسكر الروم إيلي واثنين من كبار علماء الشريعة للبحث في قضية المتظاهرين . أشارت والدة السلطان باستعمال القوة ضد المتظاهرين، وبضرورة إغلاق المعاهد الدينية وطرد طلابها خارج المدينة مع رفض قاطع لمطالبهم،

غير أن بقية المجتمعين لم يستصوبوا رأيها، واقترحوا على السلطان أخذ الأمور باللين بعد أن شرحوا له الأخطار التي لا بدّ من وقوعها في حال تحولت الحركة إلى ثورة مسلحة في العاصمة، فوافق السلطان وجهة نظرهم، وقال بأنه يرضى بتحقيق مطالب المتظاهرين لمرة واحدة فقط. وأصدر فرمانًا بتعيين **خير الله أفندي** شيخًا للإسلام، ولم يعين **مدحت باشا** صدرًا أعظم - كما كان يطالب من يتظاهر - بل أسند الصدارة العظمى إلى **محمد رشدي باشا**، وقد تفرق الاعتصام في أعقاب ذلك، قبل مرور أربع وعشرين ساعة على بدايته. يذكر أن مدحت باشا كان قد نصح السلطان بالتنازل عن مبلغ خمسة ملايين ليرة عثمانية من ثروته الخاصة لإنفاقها على الإصلاحات الضرورية، والعزوف عن فكرة تولية ابنه **يوسف عز الدين** ولاية العهد، فلم يرضَ السلطان، وكان ذلك من مقدمات خلعه. وتكتسب هذه الحادثة أهمية خاصة لكونها قد وقعت قبل حادثة الخلع بأربعين يومًا فقط.

4 - الإصلاحات الداخلية

4 – 1 - مجلة الأحكام العدلية

وصفت **مجلة الأحكام العدلية** بأنها " **أبرز مؤلف قانوني إسلامي في تاريخ الإسلام**"، وقد " **دلّت على ما لفقه الشريعة من مرونة وتقبل للمعاصرة** "، ويمكن تشبيه المجلة بقانون الأحوال الشخصية أو القانون المدني حاليًا. ترأس اللجنة التي وضعت المجلة **أحمد جودت باشا** والذي استعان بعدد وافر من مشرّعي ذلك العصر، وبعد عمل دؤوب دام سبعة أعوام انتهت اللجنة من وضع ستة عشر مجلدًا من القوانين المستنبطة من المذهب الحنفي، وصدرت عام 1867 لتنظيم مختلف أحوال الزواج والطلاق والإرث والبيع وغيرها، وشكلت أساسًا في تشريعات قوانين الأحوال الشخصية للمسلمين في عدد من الدول كسوريا ولبنان والعراق ومصر..

4 – 2 - توحيد الأفلاق والبغدان :

بموجب معاهدة باريس لعام 1856 فإن لكل من الأفلاق والبغدان إمارة وحكومة ومجلس نواب تحت سلطة الدولة العثمانية، وفي عام 1861 توحدت الإمارتين في إمارة واحدة ومآل العرش إلى الأمير **جان ألكسندر الأول**، وقد اعترف الباب العالي بهذا التوحيد رغم أنه يخالف اتفاق باريس، بحيث يكون لهما حكومة واحدة ومجلس نيابي واحد.

ومن الإصلاحيات الهامة التي وقعت خلال سلطنة عبد العزيز فيما يخصّ الأفلاق والبغدان، قرار الأمير جان ألكسندر الأول ومعه الحكومة ومجلس النواب بأن تكون الأوقاف ملكًا للحكومة وتقوم بتمويل الكنائس والأديرة منها، ما أدى إلى معارضة شديدة من بطريركية الآستانة ، ومع تفاقم الخلاف عرض السلطان عبد العزيز في 14 سبتمبر 1863 مشروع اتفاق ينصّ على دفع مبلغ 840,000 ليرة ذهبية لبطريركية الآستانة تكون فائدة المبلغ السنوية بمثابة تعويض عما ستخسره من أملاك ، وبعد طول مفاوضات بين الأطراف المتنازعة رفع المبلغ إلى 1,500,000 ليرة ذهبية باقتراح من السلطان، ثم أصدر فرمانًا يجيز به تصرفات حكومة الأفلاق والبغدان في 16 ديسمبر 1863، وكذلك مجلس النواب الروماني، وبذلك استقلت الكنيسة في رومانيا استقلالاً إداريًا وماليًا، وقد أرسى الأمير سلسلة إصلاحات أخرى بيد أنه لم يستشر مجلس النواب في سن القوانين واستحداث الضرائب، فضغط الشعب عليه للاستقالة فقدمها عام 1866، وانتخب الأهالي **شارل دي هوهنزولرن** من بروسيا أميرًا للبلاد فصدّق السلطان على الانتخاب.

4 – 3 - فرمان الخديوية المصرية

كانت الدولة العثمانية قد اعترفت عام 1840 بمحمد علي واليًا على مصر وبأن تكون ولاية مصر محصورة بورثته، فرمان السلطان العثماني عبد المجيد الأول كان بضغط من دول الحلفاء إذ كان الباب العالي حينها يميل لخلع محمد علي من ولاية مصر برمتها ولذلك فإن فرمان منح مصر لمحمد علي وورثته جاء مقيدًا لتصرفاته من نواحي كثيرة كالجيش وعقد المعاهدات والإدارة المالية وغيرها.

وبنتيجة العلاقة المميزة بين السلطان عبد العزيز وإسماعيل باشا مذ أن زار إسطنبول بعيد توليته عام 1861، صدر خلال عهد السلطان عبد العزيز ثلاثة فرمانات متعلقة بمصر الأول أولها عام 1866 حصرت خلالها وراثة البلاد بأكبر أولاد إسماعيل باشا، والثاني في 7 يوليو 1867 منح بها حاكم مصر

لقب "**خديوي**" المشتق من اللغة الفارسية بمعنى "**أمير**" إلا أنه لم يستعمل في الدولة العثمانية إلا لحاكم مصر كدلالة على رفعة موقعه ،

وأخيرًا صدر فرمان شامل في 10 يونيو 1873، نظم مختلف نواحي الامتيازات، فأعاد التأكيد أن أكبر أولاد خديوي مصر هو من يرث العرش، فإن لم يوجد فأكبر إخوته الذكور ثم أكبر أولاد إخوته، ليعاد حصر المنصب من جديد بأكبر أولاد الخديوي الجديد. وأعلن في الفرمان ذاته عن إمكانية تعيين مجلس وصاية أو وصي على الخديوي إن كان قاصرًا، وحدد سن البلوغ بثمانية عشر سنة هجرية؛ كذلك فقد مُنحت مصر حكم **سواكن ومصوع** على البحر الأحمر، ومنحت حكومتها حق إصدار القوانين واللوائح التنفيذية لها حسب حاجة البلاد ، وكذلك صلاحية سن الضرائب وتحديد الرسوم الجمركية واحتكار بعض أوجه التجارة وعقد المعاهدات الداخلية والخارجية، وسائر أوجه المعاملات المالية. ومقابل ذلك ، نصّ الفرمان أن الدولة العثمانية تحصل سنويًا على 150,000 كيس ليرات ذهبية، وفي عام 1875 منحت مصر أيضًا حكم **زيلو**.

وحين أراد الخديوي إسماعيل إبرام اتفاق شق قناة السويس بشروط مجحفة بحق المصريين - من ناحية أجور العمال وسيطرة الشركة على أراضي أطراف القناة وترعة مياه عذبة تشق من نهر النيل إلى القناة - رفض الباب العالي التصديق على الفرمان، وبعد أخذ ورد، اتفق على قبول مصر والشركة الفرنسية بشروط الباب العالي بشرط أن تدفع الحكومة المصرية 74 مليون فرنك للشركة المتعهدة تعويضًا عن خسائرها بتنفيذ شروط الباب العالي، وذلك بعد وساطة قام بها الإمبراطور نابليون الثالث.

4 – 4 - امتيازات الولاية التونسية :

تمتعت تونس على الدوام بنوع من الاستقلال الذاتي بسبب بعدها عن الآستانة عاصمة الدولة، ومنذ أن احتلت فرنسا الجزائر عام 1830، كانت تتوثب الفرصة لاحتلال تونس أيضًا. في سبيل ذلك اقترح الصدر الأعظم **محمد أمين عالي باشا** على السلطان إصدار فرمان يقنن الحكم الذاتي لتونس ، ويضيف عليه امتيازات أخرى بهدف تقوية عرى العلاقة معها وقطعًا للطريق أمام فرنسا، فصدر الفرمان في 24 أكتوبر 1871،

ومن أبرز الامتيازات التي تم منحها : حصر ولاية العهد بورثة **باي** البلاد، والسماح للباي باستحداث المناصب والهيئات المدنية والعسكرية وفضّها وإدارتها كما يراه مناسبًا، وإصدار القوانين والتشريعات في بلاده " **طبقًا لقواعد العدل** "، واحتفظ السلطان لنفسه بالخطبة والسكة وببقاء الأعلام والسناجق والمراتب الحربية كما هي في سائر أنحاء الدولة، فضلاً عن إلزامية إرسال الجيش التونسي أيام الحرب للمشاركة في الدفاع عن الدولة، ومبلغ مالي يقتطع سنويًا . وعمومًا فإن بعد هذه الامتيازات بعشر سنوات، تحديدًا في مايو 1881 احتلت فرنسا تونس.

4 – 5 - تعديل معاهدة باريس

في 1870 هزمت بروسيا وروسيا وألمانيا فرنسا، وطالبت الإمبراطورية الروسية في أعقاب ذلك تعديل معاهدة باريس التي عقدت في أعقاب حرب القرم بحيث تزال الشروط التي اعتبرت مجحفة في حق روسيا ، ولمناسبة ذلك انعقد الحلفاء في ألمانيا يوم 13 مارس 1871 وأقرّوا منع السفن الحربية غير العثمانية من المرور من البوغاز مع وجود استثناء بحيث يمكن للسلطان تقديم رخصة للسفن الحربية في غير أحوال الحرب، كما سمحت التعديلات بملاحة السفن التجارية دون قيود في البحر الأسود ومضائق الدردنيل . وقد صدّق السلطان على أعمال هذا المؤتمر ومقرراته.

4 – 6 - الإصلاحات القانونية

وفيرة هي القوانين الأخرى الإصلاحية التي صدرت بجهود السلطان عبد العزيز ومنذ بداية عهده، فقد أصدر في 4 فبراير 1862 قانون إنشاء البنك السلطاني العثماني، وفي 20 أغسطس نشر مجموعة من القوانين الناظمة للتجارة البحرية بعد أن كانت غير منظمة في السابق ، وفي 1 أبريل 1864 أصدر قانون الأحوال الشخصية الخاص بالطائفة اليهودية في الدولة العثمانية، ثم في 8 نوفمبر 1864 أصدر قانون الولايات منح بموجبه مزيدًا من الصلاحيات على قاعدة اللامركزية الإدارية وحاول جاهدًا ضبط الفساد المستشري في أجهزة الحكم المحلية ، وفي 16 يونيو 1867 أصدر القانون الناظم لتملك الأجانب للعقارات في الدولة العثمانية ،

وفي 2 أبريل 1868 أنشأ السلطان مجلس شورى الدولة " **شوراي دولت**" الذي تميز بطابع شبه دستوري، وشملت اختصاصاته إعداد مشاريع القوانين للدولة وإبداء الرأي للوزارات بالمسائل الخاصة بتطبيق القوانين، كما كان بمثابة محكمة ينظر بالقضايا الإدارية ويُحاكم الموظفين المتهمين بالانحراف. وقد وُصف هذا المجلس بأنه بداية انطلاق لمجلس النواب، إلى جانب استحداث محكمة عثمانية عليا هي الأولى من نوعها. وفي 1 يونيو 1868 أصدر أول قانون ناظم للجنسية العثمانية منذ قيام الدولة؛ وفي 4 أبريل 1869 أصدر قانونًا ناظمًا لعمل المحاكم النظامية، كما أصدر عام 1875 قانونًا بإعادة تنظيم القضاء ونقل المحاكم التجارية إلى اختصاص وزارة العدل . يذكر أنه أراد إلغاء وزارة الأوقاف وأصدر فرمانًا بذلك في 21 فبراير 1871 إلا أنه عاد وألغاه؛ ولعلّ أكبر حزمة قوانين إصلاحية صدرت عام 1874 وشكلت أساسًا للدستور العثماني الذي صدر لاحقًا خلال عهد عبد الحميد الثاني لفترة وجيزة ثم عطل ، وقد نصّت قوانين عبد العزيز لعام 1874 على الفصل بين السلطة التنفيذية والقضائية واعتبار أموال جميع العثمانيين وناموسهم وأعراضهم مصونة، والتأكيد على المساواة بين جميع رعايا الدولة. كذلك فقد أنشأ أول سكة حديد في إسطنبول، وأدخل نظام الطوابع البريدية، بالإضافة إلى افتتاح مدرسة ثانوية جديدة عرفت باسم "**غلطة سراي**" 1868 ضمت مختلف قوميات ومذاهب الدولة العثمانية.

أما على الصعيد الحربي فقد اهتمّ عبد العزيز بتحديث الأسطول البحري على وجه الخصوص، وربما يعود السبب في ذلك لما رآه من نظام وانضباط في البحرية البريطانية خلال زيارته بريطانيا، حتى غدا الأسطول العثماني ثالث أكبر أسطول في العالم بعد الإنكليزي والفرنسي. وعلى صعيد الجيش، فقد اشترى أسلحة حديثة من أوروبا، وجدد دار المدفعية المعروفة باسم " **الطوبخانة** " وأدخل نظامات وتنسيقات عديدة في الجيش.

5 - ولاية العهد

5 – 1 - علاقته بالأميرين مراد وعبد الحميد

لم تكن علاقة السلطان عبد العزيز **بالأمير مراد** ولي عهده جيدة ، صحيح أنه لم يقتل أولاد أخيه كما كانت عادة سلاطين آل عثمان الأوائل ، بل اعتقلهم في قصر دولمة بهجة فقط ، وشدد المراقبة عليهم. وفي زياراته الخارجية اصطحب معه ولي عهده الأمير مراد، الذي ذاع صيته في أوروبا لكونه متعلمًا يجيد الفرنسية والعزف على الآلات الموسيقية، حتى أن نابليون الثالث والإمبراطور غليوم قد احتفوا به أشد احتفاء ما سبب اغتياظ السلطان. وبعد عودته إلى اسطنبول ضاعف التضييق على الأمير مراد وشدد مراقبته ومنعه من التجول خارج القصر سيرًا، وسمح له من حين إلى آخر بالتنزه في مركبة مغلقة لا يراه فيها الناس بشرط أن يستحصل على أمر منه في كل مرة يود الخروج فيها، ثم عمد إلى تخفيض نفقاته فاضطر الأمير للجوء إلى المرابين .

وقد كتب لأحد أصدقاءه : "إن الجهل منتشر ويا للأسف بين نسائنا انتشارًا شنيعًا، وربما ترتاب في صحة قولي لو شرحت لك ما يعتيرني من الحزن والانقباض والكره في أثناء وجودي في دائرة الحريم، إن الأوقات التي أقضيها هناك هي عبارة عن عذاب أليم بالنسبة لي وضجر عظيم يكاد يقتل النفس."

على العكس من ذلك فإن علاقة السلطان **بعبد الحميد** كانت قوية للغاية وربما يعود السبب في ذلك لكون والدة السلطان عبد الحميد توفيت وهو صغير، فاعتنت به وربته والدة السلطان عبد العزيز **بروتونيال خانم** ، ولذلك تمتع عبد الحميد بالحرية وبثقة السلطان، وظل يستقبله في قصره في أكثر الأوقات ويباحثه بمختلف شؤون الدولة.

5 – 2 - محاولة تغيير قواعد ولاية العهد

بحسب التقاليد العثمانية التي لم تمس منذ نشوء الدولة عام 1299، فإن العرش ينتقل إلى أكبر أفراد أسرة آل عثمان الذكور، ومنذ أن أصدر عبد العزيز الفرمان القاضي بتطبيق ولاية العهد بأكبر أولاد الخديوي إسماعيل وخلفاءه في مصر وحتى خلعه، وهو يحاول بدعم من صدره الأعظم **محمود نديم باشا** تحقيق القاعدة نفسها لتولية ابنه **يوسف عز الدين** الحكم، إلا أنّ الحركة قد ولدت معارضة قوية في أوساط علماء الدين وأيضًا أسرة آل عثمان، غير أن ما أعاق تطبيقها فعليًا هو الخلافات الروسية - البريطانية حول القضية.

إذ كانت الإمبراطورية الروسية تعضد فكرة ولاية العهد ليوسف عز الدين أما بريطانيا فكانت تود المحافظة على قانون الوراثة كما هو، خصوصًا أن الأمير مراد مدعوم من قبل حركة " **الأحرار العثمانيين**" المطالبين بالإصلاح. وقد وصل التوتر لدرجة أن أرسلت بريطانيا أسطولها من البحر الأبيض المتوسط نحو الدردنيل بعد أن أشيع في الآستانة أن روسيا على وشك إرسال أربعين ألف جندي روسي من أوديسا لإرغام المعارضين على قبول ولاية العهد ليوسف عز الدين، وكان من بين مقدمات تولية يوسف عز الدين أنه ارتقى حتى رتبة مشير وهو لم يتجاوز العشرين من العمر . ويضع المؤرخون إصرار عبد العزيز على تعديل أصول الوراثة حتى أواخر أيام عهده سببًا رئيسيًا من أسباب خلعه.

6 - إفلاس الدولة

مع انخفاض واردات الدولة العثمانية المالية ، وتزايد النفقات خاصة النفقات الحربية إبان الحروب مع محمد علي باشا في بلاد الشام ، والحرب مع مملكة اليونان وحرب القرم، ومنذ عام 1854 وخلال عهد السلطان عبد المجيد الأول، أخذت الدولة العثمانية تقترض من الخارج، واستمرت في هذه السياسة خلال عهد السلطان عبد العزيز، تزامن ذلك مع انخفاض قيمة النقد العثماني وارتفاع عجز موازنة الدولة ، حتى قدرت بخمسة وثلاثين مليون لدى بداية عبد العزيز لحكمه، حتى أخذت الدولة تعمد إلى الاستدانة لدفع أقساط قروضها السنوية.

حاول عبد العزيز إصلاح الوضع باختصار نفقات بلاطه، وألغى نظام الحريم إلا أن الشق كان أوسع من أن يستطيع رتقه. ثم أصدر في 21 يناير 1862 فرمانًا يقضي باستحداث موازنة سنوية للدولة وفق القواعد المحاسبية الحديثة لمقابلة المصروفات بالإيرادات، ثم أصدر فرمانًا آخر في 17 يونيو 1862 يقضي بسحب سندات الديون ودفع 40 % من قيمتها، وتوزيع سندات جديدة بقيمة 60 % منها، وقد اقترضت الدولة العثمانية ثمانية ملايين جنيه استرليني لإتمام العملية، ثم اقترضت ثمانية ملايين أخرى من البنك العثماني بما يشبه الديون الداخلية لإتمام عملية الدفع . شكلت عملية تخفيض قيمة السندات بنسبة 40 % مع اقتصاد السلطان بنفقات القصر ما يكفي من الأموال لسداد الفوائد المرتبة على القروض وبالتالي نجاحًا نسبيًا في حل الأزمة ، لكن في ديسمبر 1865 استحقت السندات ولم يكن لدى الخزينة ما يكفي من الأموال لسداد الفوائد المترتبة، وقد حاولت الدولة الاقتراض من الخارج ففشلت، فاقترضت من البنك العثماني مقابل ضمانات الضرائب، وقسطت عملية الدفع كل ثلاثة أشهر وبذلك استقرت مالية الدولة مؤقتًا. غير أن الانتكاسة عادت مع استمرار الاقتراض، فمنذ حرب القرم وحتى إعلان الدولة لإفلاسها عام 1875، كانت الدولة قد أبرمت أحد عشر قرضًا أغلبهم في عهد عبد العزيز ولذلك وصف من قبل المؤرخين بالمبذر، وقد بلغت قيمة القروض 5300 مليون فرنك فرنسي لم تستلم الدولة منهم سوى 3012 مليون أي 57 % من القيمة الاسمية، إذ حسمت البنوك الفرنسية والإنكليزية الفوائد سلفًا، لضعف الثقة بالاقتصاد العثماني . كما ومما ساهم بتفاقم الأزمة رهن الدولة لإيراداتها الثابتة كضمان لسداد القروض فخصصت الأتاوة السنوية من مصر ضمانًا للقرض المبرم عام 1854 ومداخيل جمارك ولاية سوريا وأزمير ضمانًا للقرض المبرم عام 1855، وفي النهاية اعترف الصدر الأعظم **محمود نديم باشا** في 5 نوفمبر 1875 بإفلاس الدولة مع عجزها عن سداد القروض، فمنحها الدائنون قرضًا جديدًا طويل الأجل مقابل ضمان الضرائب غير المباشرة وضرائب الأغنام وأتاوة مصر .

بلغ دخل الدولة مع نهاية عهد عبد العزيز عام 1867 380 مليون فرنك، يتحتم اقتطاع مبلغ 300 مليون فرنك أقساطًا للضرائب، ليتبقى 80 مليون فقط لكافة مصاريف الدولة لعام كامل، لذلك كانت الدولة مضطرة للعودة إلى الاستدانة بعد حل قضية إفلاسها الأول، فقعدت قرضًا بفائدة 24 % عام 1876 قيمته ثلاثين مليون ليرة، واستمرت في هذه السياسة خلال عهد عبد الحميد الثاني، فأبرمت اثني عشر قرضًا وأعلنت إفلاسها مرتين عام 1879 و1881، وهو ما دفع السلطان لإصدار " **مرسوم محرم** " الذي وحّد ديون الدولة ونقل إدارتها من وزارة المالية العثمانية، إلى مجلس إدارة الدين العام العثماني المكون من أصحاب السندات في مصارف أوروبا.

7 - الزيارات الخارجية :

درج سلاطين آل عثمان على قيادة الجيوش بأنفسهم، وظل معمولاً بهذا التقليد حتى عهد السلطان سليمان القانوني في القرن السادس عشر، ومنذ القرن السادس عشر حين أبطل سليم الثاني هذه العادة وحتى القرن التاسع عشر لم يغادر سلطان عثماني عاصمته الآستانة مطلقًا، وفي عهد السلطان عبد العزيز كُسر التقليد، فزار السلطان مصر عام 1863 ثم زار أوروبا عام 1867، وكان بذلك السلطان العثماني الوحيد الذي قام بجولات وزيارات خارجية ديبلوماسية.

عندما تولى إسماعيل باشا شؤون ولاية مصر سافر إلى اسطنبول شخصيًا وعمل على نسج علاقات طيبة مع السلطان عبد العزيز حين قدّم له فروض الطاعة شخصيًا واقترح عليها خلال الزيارة زيارة السلطان لمصر، وكان آخر سلطان عثماني قد زارها هو سليم الأول عام 1517، فوعده السلطان بتحقيق طلبه. غادر السلطان اسطنبول عن طريق البحر في 3 أبريل 1863 على متن اليخت السلطاني " **فيض جهاد** " بعد أن أناب صدره الأعظم **محمد أمين عالي باشا** إدارة البلاد خلال غيابه، واصطحب معه **فؤاد باشا** وابنه **يوسف عز الدين** وولي عهده **مراد الخامس** وأخيه **عبد الحميد الثاني .**

رست سفينة السلطان في الإسكندرية يوم 7 أبريل حيث استقبله إسماعيل باشا على متن اليخت الملكي في ميناء الإسكندرية، وفي 9 أبريل انتقل بالقطار قاطعًا دلتا النيل الخضراء حتى القاهرة حيث أقام في **قصر الجوهرة** داخل قلعة القاهرة، وقد أعجبه جدًا القطار كما أعجب بالمدن المصرية الغربية النسق، وعمومًا فإن مصر خلال عهد الخديوي إسماعيل كانت تحوي من المؤسسات الزراعية والصناعية والمؤسسات التجارية ومن وسائل النقل بما فيها القطار والطرقات المعبدة ما لم يكن موجودًا في اسطنبول نفسها، لذلك فقد كانت إحدى أهداف الزيارة محاولة الاقتباس من الإصلاح في مصر ومحاولة تطبيقه على سائر أنحاء الدولة . ومن الأمور التي زارها السلطان خلال إقامته شبرا والجيزة وقبر محمد علي باشا والأهرام في 14 أبريل وترأس حفل محمل الحج إلى مكة وختم الزيارة في 16 أبريل، وقد خلع على إسماعيل باشا **سيف الشرف العثماني** وعلى أمه أكبر وسام عثماني فأصبح اسمها " **الوالدة باشا** " ، وقد قامت صداقة متينة بين السلطان وإسماعيل باشا توجت بصدور مرسوم الخديوية المصرية عام 1867.

8 - الصدور العظام في عهده

تعاقب في عهد السلطان عبد العزيز الذي قارب الخمس عشر عامًا اثني عشر وزارة رأسها ثمانية صدور عظام ، أولهم **محمد أمين عالي باشا** ، الذي أبقاه في منصبه مع وزارته المشكلة في عهد سلفه عبد المجيد الأول ، ثم أقاله في نوفمبر 1861 وعين **محمد فؤاد باشا** صدرًا أعظم للمرة الأولى ثم استبدل به **يوسف كميل باشا** في يناير 1863 ، ثم أعيد محمد فؤاد باشا مرة ثانية للصدارة العظمى في يونيو 1863، وحاول العمل على إصلاح الدولة التي كانت على شفا الإفلاس لكنه فشل في ذلك واضطر للعودة إلى الاستدانة من بنوك الغرب . استمرّ محمد فؤاد باشا حتى يونيو 1866 حين وجه عبد العزيز منصب الصدارة إلى **محمد رشدي باشا،** وقد شهدت صدارته قلاقل الجبل الأسود والصرب وتوحيد الأفلاق والبغدان، وقد استقال بداعي السن في 11 فبراير 1867 فعين محمد أمين عالي باشا للمرة الثانية، وقد قمعت في عهده ثورة كريت وسافر بنفسه من إسطنبول إليها ليساهم في رأب الصدع بعد قمع العثمانيين لأهالي الجزيرة، وكذلك أصدر مجلة الأحكام العدلية وامتيازات الخديوية في حكم مصر، وقد توفي محمد أمين عالي باشا في سبتمبر 1871 بعد صدارة طيلة دامت أربع سنوات، فأعقبه فترة من الاضطرابات في إسناد المنصب فأسند أولاً إلى **محمد نديم باشا،** ثم أقيل عام 1872 وعين **مدحت باشا** لشهرين فقط بين يوليو وسبتمبر 1872 إذ كان السلطان معجبًا بقدرته على إدارة الأعمال، ولكن لما رآه شديد الاستقلال في رأيه ولا يقبل تدخلات الباب العالي، عزله ونفاه إلى سالونيك ووجه المنصب ثانية لمحمد رشدي باشا، وبعد أقل من ستة أشهر استبدل **بأحمد أسعد باشا** في فبراير 1873 إلا أنه أقيل سريعًا في مايو 1873، وخلفه **حسين عوني باشا** ثم عاد محمود باشا ثانية في أغسطس 1875، وفي عهده الثاني أشهرت الدولة إفلاسها وثار طلاب المعاهد الدينية في إسطنبول ضده، فعزله السلطان وعينّ محمد رشدي باشا للمرة الرابعة في 12 مايو، وهو آخر صدور عهد عبد العزيز، ففي 30 مايو 1867 خلع السلطان.

9 - آثاره العمرانية

رغم الضائقة المالية التي عاشتها الدولة العثمانية أيام عبد العزيز إلا أنه بنى عددًا من القصور والسرايات، فبنى **سرايا بكلربكي** على ضفة البوسفور في سفح تل بلفوري، وقد شيدت من الرخام الأبيض وكان لها رصيف على الشاطئ ، وكذلك بنى قصر **جراغان** الكائن بين منطقة بشكطاش وأورفة كوري على شكل مستطيل قرب شاطئ البحر أيضًا وقد كلف إنشاؤه مليون ونصف مليون ليرة عثمانية، وقد تحولت إلى مقر لمجلسي الأعيان والمبعوثان العثماني وفيها قضى عبد العزيز ومراد الخامس وكمال أتاتورك أيامهم الأخيرة. كذلك فقد شيّد مسجد جامع في مالطة , واستحدث توسيعات في مجمع قصر يلدز فاستحدث فيه قصر **شيت** وقصر **الجادر وبيوك الما بين**، ووصله بجسر مع قصر جراغان.

رغم ذلك فإن المقر الدائم لحكم عبد العزيز كان قصر دولمة بهجة والذي اتخذه سلفه عبد المجيد الأول مقرًا أيضًا وهو مبني على طراز عربي فهم وذو أثاث مكلف فهو يحوي ثريات ذات 250 شمعة ومرايا بطول 30 مترًا وقد كلفت هذه السرايا ثمانية ملايين ليرة عثمانية . ولم يسكن عبد العزيز في قصر الباب العالي إلا في الاستقبالات الخاصة بالأعياد وتكليف الوزراء وإذاعة القوانين التي كانت تتم من " **غرفة الخرقة الشريفة** " وسائر الاحتفالات الرسمية.

10 - نهاية السلطان

10 -1 - لإعداد لخلعه

على إثر مظاهرات طلاب المعاهد الشرعية في إسطنبول نشأ حزب من الوزراء وعلماء الدين وسائر كبار الموظفين من المدنيين والعسكريين، يطالب بخلع السلطان، وكان يتزعم هذا الحزب **مدحت باشا** بالاشتراك مع وزير الحربية **حسين عوني باشا** ذو السلطة الواسعة في الجيش، ولعل عدم إسناد السلطان منصب الصدر الأعظم لمدحت باشا - كما رام المتظاهرون - أبرز العوامل التي ساهمت في نشوء الحزب ثم نمّوه وتقويه، وعمومًا فإن بين 12 مايو و30 مايو انضم **خليل باشا** و**درويش باشا** وزراء الدولة في الحكومة إلى الحزب المذكور.

ولما أقيل محمود نديم باشا من الصدارة العظمى، رفع إلى السلطان مع كتاب استقالته نصيحة بنقل ثروته الخاصة إلى خارج الآستانة خوفًا من تكرر الاضطرابات الأمنية والاستيلاء عليها، ما أثار الاضطراب والريبة في نفس السلطان، حتى أنه عين محمود نديم باشا مسؤلاً عن نقل ثروته إلى روسيا بالتنسيق مع السفير الروسي **إيغانتيف** ، وقد تمت العملية عن طريق بارجة حربية روسية لعدم الثقة بولاء البوارج العثمانية.

وبينما كان السلطان مشغولاً بإخراج ثروته الخاصة، كان مدحت باشا وأعضاء حزبه يقنعون شيخ الإسلام **خير الله** أفندي بمحاسن خلع السلطان، وبعد مفاوضات لم تطل إذ دامت يومين فقط، قبل شيخ الإسلام إصدار فتوى خلع عبد العزيز، وأبلغ الصدر الأعظم قراره، فأعلن الصدر الأعظم انضمامه هو الآخر للحزب الرامي عزله "رغم أنه لم يمض على حلفانه يمين الإخلاص للسلطان سوى أيام"، في الوقت نفسه عمد الصدر الأعظم لإقناع السلطان بتعيين مدحت باشا وزيرًا للدولة بهدف التخلص من " **معارض قوي**" فأصدر السلطان فرمانًا بذلك، ثم طالبه بالتنازل عن جزء من ثروته لدفع رواتب الجيش المتأخرة لعجز الميزانية عن ذلك - وقال أنها مطالب محتجي الآستانة - فرفض السلطان، وفي اليوم التالي أبلغ الصدر الأعظم أنه ينوي إغلاق المعاهد الدينية ونفي طلابها خارج الآستانة، فاستصوب الصدر رأيه. فقرر الحزب المنادي بالخلع تقريب موعد تنفيذ العملية وحدد في 30 مايو واتفقوا مع سفيري إنجلترا والنمسا، وأعلم الأسطول الإنجليزي بالتدخل لإنقاذ قادة الانقلاب في حال حصل أي طارئ.

10 – 2 - خلع السلطان

مساء الاثنين 29 مايو 1876 توجه **سليمان باشا** رئيس المدرسة الحربية في الآستانة ومعه **رديف باشا** إلى ثكنات الجيش في **كموش صوي** و**طاش قشلة** كما توجه **أحمد باشا** إلى الأسطول العثماني، وأصدر سليمان باشا أمر احتلال طريق بشكطاش المؤدية والحدائق المحيطة بقصر دولمة بهجة ، وفي الوقت نفسه أغلق الأسطول حركة القوارب في البحر قطعًا للمواصلات بين القصر والبحر، وبعد اشتباكات خفيفة مع مخافر الحرس السلطاني سلّم هؤلاء سلاحهم ، وربما كان التهديد بقصف القصر من البحر عاملاً أساسيًا في ذلك . وعلى هذه الشاكلة غدا السلطان محاصرًا، ويذكر أن طلاب المدرسة الحربية الذي احتلوا الطريق

إلى القصر وحدائقه لم يكونوا يعرفون ما يقومون بفعله إلى أن خطب فيهم سليمان باشا وبرر الفعل بتبذير السلطان وإطلاقه يد روسيا في شؤون الدولة.

في الساعة الثالثة من فجر الثلاثاء، دخل سليمان باشا ومعه ثلة من الضباط إلى قصر جراغان حيث كان يقيم **الأمير مراد** ليخبروه بارتقائه العرش ، ونقلوه إلى مبنى وزارة الحربية حيث كان الوزراء في انتظار " **الخليفة الجديد**"، وبعد وصوله وأمام الوزراء وكبار الضباط ونقيب الأشراف وشريف مكة قرأ شيخ الإسلام فتوى خلع السلطان ، وبعد أن تمت قراءة الفتوى أطلقت المدفعية مائة طلقة وطلقة معروفة باسم " **مدافع الجلوس**"

10 - 3 - قتله أو انتحاره

قام رديف باشا بإبلاغ السلطان عبد العزيز نبأ خلعه بعد مبايعة مراد الخامس، وكان عبد العزيز قد استيقظ بعد أن سمع مدافع الجلوس، وقد اعتراه القلق لظلنه أن المدافع تطلق على "العدو" وأن حربًا قد نشبت في إسطنبول، ولم يبد عبد العزيز أي مقاومة بعد أن رأى الجند يحاصرون القصر، غير أن والدته قد انهلت على دريف باشا بقوارص الكلام. وقد غادر عبد العزيز القصر إلى قصر الباب العالي، بزورق يرافقه اثنين من أولاده هما يوسف عز الدين ومحمود جلال الدين، وتبعته زوارق أخرى تحمل أمه ونساءه وجواريه وخدمه، وفي أعقاب مغادرته القصر اتجه موكب مراد الخامس من مبنى وزارة الحربية إلى قصر دولمة بهجة.

قضى السلطان في قصر الباب العالي ثلاثة أيام، ثم أرسل إلى مراد الخامس رسالة يطلب فيها نقله لقصر جراغان لكونه لا يحب قصر الباب العالي، فأجابه السلطان الجديد لطلبه. إلا أنه قد منع من التجول خارج القصر الذي أحيط بثلاث صفوف من الجند، وعند استيقاظه من الليلة الرابعة من بعد خلعه ، طلب قراءة الصحف التركية ثم طلب مقصًا ومرآة ليشذب لحيته كما كانت عادته، ثم طلب من الخدم ووالدته مغادرة الغرفة.

وبحسب الرواية الأولى فإن السلطان إذاك قطع بالمقص عروق يده اليمنى فنزف الدم لمدة لا تقل عن عشرين دقيقة وخرّ السلطان على الأرض لافظاً انفاسه

ترأس حسين عوني باشا التحقيق، وعاونه تسعة عشر طبيبًا بينهم أطباء السلطان وأطباء السفراء والقناصل، وبعد ساعتين من التحقيق أصدروا بيانًا جاء فيه أن سبب الموت هو الانتحار.

الرواية الثانية تقول أن حسين عوني باشا ورديف باشا تخوفا من عودة السلطان المخلوع، فأرسلا أربع رجال إلى القصر، وهو نائم فثبتوه في مكانه، ثم قام أحدهم بأخذ مقص كان بالقرب منه وقطع عروق السلطان ، ثم اتهم مدحت باشا خلال عهد عبد الحميد الثاني بذلك، وأمر السلطان بقتله فقتل في الطائف عام 1883. على أن حسين عوني باشا ومحمد رشدي باشا قد لقيا مصرعهما في 16 يونيو على يد أحد مرافقي الأمير يوسف عز الدين ابن السلطان المخلوع ، بسبب تداول اسميهما في صحف الآستانة على أنهما متورطان في قتله، وقد دفن قرب والده السلطان محمود الثاني.

إن حادثة موت السلطان عبد العزيز الأول تعد من النقاط الحاسمة في التاريخ العثماني، ولم يختلف المؤرخون في تفاصيل قضية كاختلافهم في دقائق وتفاصيل هذه الحادثة التي لا يزال تأكيدها بشكل قاطع غير ممكن، وحتى المؤلفات والوثائق التي نشرت بعد انهيار الدولة في ظل الجمهورية التركية والتي كان يؤمل أن تكشف الستار عما خفي في هذه القضية من أسرار لم تأت بجديد، وإن كانت أغلب الروايات تميل إلى رواية الانتحار. حتى أهل الآستانة وضعوا أغان وقصائد حزينة لما بلغهم مصرع السلطان عبد العزيز وتعاطفوا معه،ومن أبرز تلك القصائد التي تبنت رواية القتل، تلك التي نظمها كمال باشا ومطلعها : كما عرّبها أديب إسحاق مع الحفاظ على وزنها لأصلي فكانت :

خونة للدين والدنيا من قوم يزيد قتلوا عبد العزيز المرتضى فهو شهيد

35 - مراد الخامس بن عبد المجيد الأول

1 - تقديم

مراد الخامس بن عبد المجيد الأول بن محمود الثاني بن عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل. (21 سبتمبر 1840 - 29 أغسطس 1904)

هو خليفة المسلمين الخامس بعد المئة، وسلطان العثمانيين **الثالث والثلاثين** والخامس والعشرين من آل عثمان الذين جمعوا بين الخلافة والسلطنة (30 مايو 1876 - 31 أغسطس 1876). هو شقيق كلاً من: السلطان عبد الحميد الثاني والسلطان محمد الخامس والسلطان محمد السادس، استوى على المُلك بعد خلع عمه عبد العزيز الأول في مايو 1876 وخلفه أخيه السلطان عبد الحميد الثاني، ومكث في السلطة ثلاثة أشهر فقط حين خلعه وزراءه وسائر رجال الدولة في آخر أغسطس 1876 بعد أن طرأ اختلال في قواه العقلية، وبويع أخاه الأصغر عبد الحميد الثاني بالخلافة، ونقل مراد الخامس إلى قصر جراغان حيث تابع حياته فيها كسلطان سابق حتى وفاته عام 1904. كان يحسب على التيار الإصلاحي الذي انتعش داخل الدولة بعد وصوله إلى الحكم خلال فترة حرجة سياسيًا واقتصاديًا في الدولة بعد إعلان إفلاسها، لعلّ انتحار أو اغتيال عمّه عبد العزيز أحد أبرز أحداث سلطنته القصيرة.

2 - حياته المبكرة

ولد السلطان مراد الخامس في 21 سبتمبر 1840 وعيّن له السلطان عبد المجيد الأول فريقًا بارزًا من كبار أساتذة الدولة لتعليمه ، فكان **أدهم باشا** والذي تولى الصدارة العظمى لاحقًا أستاذه في اللغة الفرنسية، كما درس الأدب الفرنسي والأدب التركي على يد الأستاذ **عمر أفندي** والذي علمه أيضًا فنون البلاغة والخطابة في التركية، إلى جانب ميل مراد نحو الكتابة والتأليف بها. وكان له ميل أيضًا نحو الشعر والموسيقى التي تعلمها على يد **غواتلي باشا ولومباردي بك** وكلاهما إيطاليان، وللسلطان عدة مقطوعات على البيانو من تلحيته احتفظ بها غواتلي باشا ولكنها لم تنشر.

يصنف السلطان مراد عمومًا أنه "رجل رومنسي" وبحسب بعض الشهادات أنه كان يصاب "بذهول وكآبة يستلسم فيها ساعات من الزمن إلى الحزن والتفكير". وخلال مرحلة شبابه اهتمّ بالعمارة والبناء إلى جانب اهتمامه بالأدبين الفرنسي والتركي والموسيقى، وأنفق مبالغ طائلة في بناء القصور، سيّما فصره في **كوربغه لي دره** ،

3 - ولاية العهد

بشكل عام، فإن الحياة المستقرة قد انقلبت بعد وفاة السلطان عبد المجيد واستلام عبد العزيز الأول الحكم، إذ لم تكن علاقة عبد العزيز بابن أخيه وولي عهده جيدة للغاية، ووضعه مع أشقاءه قيد الإقامة الجبرية في قصر طولمة بهجة، ثم نقله إلى قصر كوربغه لي دره وقطع علاقته بإسطنبول نهائيًا، وخلال زيارة السلطان عبد العزيز الأول إلى أوروبا اصطحب معه ابنه وابني أخيه مراد وعبد الحميد ضمن الحاشية المرافقة، وقد نال الأمير مراد شهرة في أوساط أوروبا لثقافته العالية وإجادته الفرنسية وقدرته على العزف على الآلات، حتى عبر نابليون الثالث والإمبراطور غليوم صراحة عن إعجابهم بولي العهد ما سبب "حنقًا وغضبًا" لدى عبد العزيز. بعد العودة إلى الدولة، شدد عبد العزيز مراقبة الأمير مراد ومنعه من الخروج سيرًا على الأقدام وسمح له بالتنزه في عربة مغلقة لايراه منها الناس، مع إذن مسبق في كل مرة يود الخروج فيها، ثم عمد إلى تخفيض مستحقاته المالية فاضطر الأمير إلى الاستدانة والاتجاه إلى المرابين.

من أصدقاء الأمير مراد كان محامي فرنسي يقطن في أوغلي بك، ونقل عدد من المؤرخين أن الأمير طلب من المحامي أن يضع له هيكل دستور للدولة لاعتماده حين يصبح سلطانًا؛ كما نقل عن مذكراته خلال فترة ولاية العهد أنه كان يفكر في إلغاء وظيفة آغاوات الحريم ونشر المعارف بين طبقات النساء وإلغاء الأسر والرق، وأنه أراد بدء إصلاح الدولة من السلك التعليمي :

إن طلاب المدارس، المسلمين والمسيحيين وحتى الوثنيين إن وجدوا، يجب أن يجلسوا معًا في المدرسة على مقعد واحد، فيعتادون منذ نعومة أظفارهم حياة الأخوة والائتلاف فلا يعودون ينظرون فيما بعد إلى بعضهم البعض، نظرة العدو اللدود.

4 – توليته

نشأ في الدولة نتيجة سوء إدارة السلطان عبد العزيز حزب من الوزراء وعلماء الدين وسائر كبار الموظفين من المدنيين والعسكريين، يطالب بخلعه بزعامة مدحت باشا بالاشتراك مع وزير الحربية حسين عوني باشا ذو السلطة الواسعة في الجيش، ولعل عدم إسناد السلطان منصب الصدر الأعظم لمدحت باشا كما طالب متظاهر والمعاهد الشرعيّة التي انطلقت أواخر أبريل العامل المباشر الأبرز الذي ساهم في نشوء الحزب ثم نمّوه وتقويه ، وعمومًا فإن بين 12 مايو و30 مايو انضم **خليل باشا** و**دوريش باشا** وزراء الدولة في الحكومة إلى الحزب المذكور.

كان مدحت باشا وأعضاء حزبه يقنعون شيخ الإسلام **خير الله أفندي** بمحاسن خلع السلطان، وبعد مفاوضات لم تطل إذ دامت يومين فقط ، قبل شيخ الإسلام إصدار فتوى خلع عبد العزيز، وأبلغ الصدر الأعظم قراره، فأعلن الصدر الأعظم انضمامه هو الآخر للحزب الرامي عزله "رغم أنه لم يمض على حلفانه يمين الإخلاص للسلطان سوى أيام"،

مساء الاثنين 29 مايو 1876 توجه سليمان باشا رئيس المدرسة الحربية في الآستانة ومعه رديف باشا إلى ثكنات الجيش في كموش صوي وطاش قشلة كما توجه أحمد باشا إلى الأسطول العثماني، وأصدر سليمان باشا أمر احتلال طريق بشكطاش المؤدية والحدائق المحيطة بقصر دولمة بهجة ، وفي الوقت نفسه أغلق الأسطول حركة القوارب في البحر قطعًا للمواصلات بين القصر والبحر، وبعد اشتباكات خفيفة مع مخافر الحرس السلطاني سلّم هؤلاء سلاحهم، وربما كان التهديد بقصف القصر من البحر عاملاً أساسيًا في ذلك. وعلى هذه الشاكلة غدا اليلطان محاصرًا، ويذكر أن طلاب المدرسة الحربية الذي احتلوا الطريق إلى القصر وحدائقه لم يكونوا يعرفوا ما يقوموا بفعله إلى أن خطب فيهم **سليمان باشا** وبرر الفعل بتبذير السلطان وإطلاقه يد روسيا في شؤون الدولة.

في الساعة الثالثة من فجر الثلاثاء، دخل سليمان باشا ومعه ثلة من الضباط إلى قصر جراغان حيث كان يقيم الأمير مراد ليخبروه بارتقائه العرش، ونقلوه إلى مبنى وزارة الحربية حيث كان الوزراء في انتظار " الخليفة الجديد " ، وبعد وصوله وأمام الوزراء وكبار الضباط ونقيب الأشراف وشريف مكة قرأ شيخ الإسلام فتوى خلع السلطان، وبعد أن تمت قراءة الفتوى أطلقت المدفعية مائة طلقة وطلقة معروفة باسم "مدافع الجلوس" وسار المنادين في شوارع الآستانة يخبرون بحادثتي الخلع والارتقاء.

فرمان السلطان الأول وجهه إلى الصدر الأعظم **محمد رشدي باشا** بتثبيته في منصبه مع جميع الوزراء. ناقش السلطان في هذا الفرمان سياسته العامة التي كان يود انتاهجها في الدولة، فقال أنه يود تقييد إدارة الدولة بقوانين واضحة تناسب أصول المجتمع، ومنح الحرية بدون استثناء لجميع المواطنين وقال أن الدولة ستضمن لهم الترقي؛ كما منح السلطان من خزينته الخاصة ستين ألف كيس لدعم خزينة الدولة المتهالكة وكذلك تنازل عن عوائد بعض المصانع التي كانت تابعة مباشرة للباب العالي . السلطان أكد التزامه بالسلم الأهلي وبالمعاهدات الدولية والمواثيق التي تربطه مع "جميع الدول المتحابّة".

5 - وفاة عمه السلطان المخلوع

قام **رديف باشا** بإبلاغ السلطان عبد العزيز نبأ خلعه بعد مبايعة مراد الخامس، وكان عبد العزيز قد استيقظ بعد أن سمع مدافع الجلوس، وقد اعتراه القلق لظلنه أن المدافع تطلق على "العدو" وأن حربًا قد نشبت في إسطنبول ، ولم يبد عبد العزيز أي مقاومة بعد أن رأى الجند يحاصرون القصر؛ وقد غادر عبد العزيز القصر إلى قصر الباب العالي، بزورق يرافقه اثنين من أولاده هما يوسف عز الدين ومحمود جلال الدين، وتبعته زوارق أخرى تحمل أمه ونساءه وجواريه وخدمه، وفي أعقاب مغادرته القصر اتجه موكب مراد الخامس من مبنى وزارة الحربية إلى قصر دولمة بهجة.

6 – خلعه

في 16 يونيو 1876 قام **حسن باشا** أحد أعيان الشراكسة المقيمين في إسطنبول ومن المقربين من السلطان المخلوع عبد العزيز الأول بإطلاق النار على وزير الحربية حسين عوني باشا بعد أن أصدر الأخير قرارًا بنقله إلى بغداد لكونه من المقربين ليوسف عز الدين نجل عبد العزيز. كان حسن باشا قد رفض قرار النقل ثم عاد وقبل به غير أنه وقبل أن يسافر اتجه إلى منزل مدحت باشا حيث كان الوزراء في اجتماع، وطعن حسين عوني باشا وزير الحربية بعدة طعنات من بالخنجر أردته قتيلاً، كما أطلق الرصاص على محمد راشد باشا وزير الخارجية فقتله، وأخيرًا تمكن أحمد باشا قيصرلي من جرح حسن باشا ثم اعتقاله من قبل حرس القصر، وحوكم في المساء ذاته محاكمة عسكرية وأعدم في صباح اليوم التالي في اسطبنول علمًا أنه خلال محاكمته لم يبد أي أسف على قتله وزيري الحربية والخارجية واتهمها بقتل السلطان عبد العزيز.

في أعقاب هذه الحادثة، بدأت إمارات التعب العصبي تظهر على السلطان، حتى وصلت درجة لم يعد معها يقوى على التمييز بين الوزراء ، في الأيام التالية ، اشتدّ المرض على السلطان واستدعي له الطبيب النمساوي **ليدزوروف** الخبير في الشؤون العصبيّة هو ، فأشار إلى استحالة شفاءه من الانهيار العصبي الذي ألمّ به.

فاوض الوزراء أخي السلطان عبد الحميد الثاني حول خلع أخيه وتقليده مهام السلطنة، لكنه آثر التريث عسى أن يشفى. غير أن حالته لم تتحسن، فاجتمع الوزراء والأعيان وشيخ الإسلام خير الله أفندي في 31 أغسطس وخلع في الجلسة السلطان مراد وبويع أخاه. وقد نقل السلطان مراد بعد الخلع إلى قصر جراغان حيث أقام حتى وفاته عام 1904، كان خلالها قيد الإقامة الجبريّة واعتزل الحياة العامة ،

36 - عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد الأول

1 - تقديم

عبد الحميد الثاني هو خليفة المسلمين الثاني بعد المئة والسلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية، والسادس والعشرين من سلاطين آل عثمان الذين جمعوا بين الخلافة والسلطنة و آخر من امتلك سلطة فعلية منهم . تولى الحكم في (10 شعبان 1293هـ - 31 أغسطس 1876) ، وخُلع بانقلابٍ في (6 ربيع الآخر 1327هـ - 27 أبريل 1909)، وُضع رهن الإقامة الجبريَّة حتّى مماته. وخلفه أخوه السلطان محمد الخامس . أطلقت عليه عدة ألقاب منها **"السُلطان المظلوم"**، و **"بالسُلطان الأحمر"**، ويضاف إلى اسمه أحياناً لقب **"غازي"**. وهو شقيق كلاً من: السلطان مراد الخامس والسلطان محمد الخامس والسلطان محمد السادس.

وصل إلى المُلك خلفاً لأخيه السلطان مراد الخامس الذي مكث في السلطة ثلاثة أشهر فقط وأنزله وزراءه بعد أن أصيب بالجنون. شهدت خلافته عدد من الأحداث الهامة، مثل مد سكة حديد الحجاز الذي ربط دمشق بالمدينة المنورة، وسكة حديد بغداد وسكة حديد الروملي وسكة حديد الروملي، كما فقدت الدولة أجزاءً من أراضيها في البلقان خلال حكمه.

2 - حياته المبكرة وتوليه الحكم

ولد عبد الحميد الثاني يوم الأربعاء في شعبان 1258 هـ/21 سبتمبر 1842 في قصر جراغان في الآستانة ابناً للسلطان عبد المجيد الأول والسلطانة " **تيرمُجگان** " الشركسية الأصل، التي ماتت وهو في العاشرة من عمره، فاحتضنته (كبيرة المحظيات) **" برستو هانم"** وتعهدت بتربيته ، فصارت أمه معنوياً وتقلدت مقام السلطانة الأم لمدة ثمان وعشرين سنة عند حكمه. درس الموسيقى في شبابه ودرس الخط وتعلم اللغتين العربية والفارسية، بالإضافة إلى الفرنسية والأدب العثماني والعلوم الإسلامية على يد علماء عصره بدءًا من عام 1266 هـ/1850 م، وأتم دراسة البخاري في علم الحديث، وتعلم السياسة والاقتصاد على يد وزير المعارف ، وذهب عبد الحميد في فترة تولي السلطان عبد العزيز الأول العرش مع وفد

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

عثماني في زيارة إلى مصر ثم إلى أوروبا استغرقت رحلة أوروبا من 21 يونيو إلى 7 أغسطس عام 1867 زار فيها فرنسا وإنكلترا وبلجيكا والإمبراطورية النمساوية المجرية وألمانيا.

كان عبد الحميد يمتهن **النجارة** وقد بدأ شغفه بها على أيام والده السلطان عبد المجيد الأول الذي كان أيضاً شغوفاً بهذه الصنعة وكان إلى جانب والده رجل اسمه خليل أفندي تعلم على يده ومحباً للرياضة والفروسية ويقول في ذلك :

« كنت في شبابي أنزل البحر ،وأسبح جيداً ،وأركب الخيل ،وأستخدم العربة ،وأهوى التجديف واستخدام المراكب الشراعية ،وأمارس الرماية بالطبنجة ،وأخرج إلى الصيد ،وألعب بالسيف».

عرف السلطان بتدينه وتقول أبنته **عائشة** بخصوص هذا الموضوع « كان والدي يؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها، ويقرأ القرآن الكريم ، وفي شبابه سلك مسلك الشاذلية، وكان كثير الارتياد للجوامع لا سيما في شهر رمضان.»

انتسب إلى جمعية العثمانيين الجدد في بداية تأسيسها لكنه تركها بعد أن أكتشف نواياهم المضرة بالدولة.

في 11 شعبان 1293 هـ/31 أغسطس 1876 م توجه في الموكب الملكي إلى ضريح أبو أيوب الأنصاري، وهناك تقلد السيف السلطاني وفق العادة المتوارثة مذ أن فتح العثمانيون القسطنطينية، ومنه سار لزيارة قبر والده السلطان عبد المجيد الأول، ثم ضريح محمد الثاني فاتح اسطنبول، ثم قبر جده محمود الثاني مبيد الانكشارية، ثم قبر عمه عبد العزيز الأول.

3 - فترة حكمه

بويع عبد الحميد الثاني بالخلافة وعرش السلطنة، وفي ذلك الحين كانت البلاد تمر في أزمات حادة ومصاعب مالية كبيرة، وتشهد ثورات عاتية في البلقان تقوم بها عناصر قومية تتوثبّ لتحقيق انفصالها، وتتعرض لمؤامرات سياسية بهدف اقتسام تركة **" الرجل المريض"**. ومنذ اليوم الأول لارتقائه العرش، واجه السلطان عبد الحميد موقفًا دقيقًا وعصيبًا، فقد كانت الأزمات تهدد كيان الدولة، وازدادت سرعة انتشار الأفكار الانفصالية، وأصبح للوطنية معنى جديد أخذت فكرته تنمو وتترعرع في الولايات العثمانية، ووجد السلطان نفسه مشبع بالثورة والاضطراب.

3 – 1 - الدور الأول

دامت هذه الفترة مدت سنة ونصف من 31 أغسطس 1876 م حتى 13 فبراير 1878 م وهذا الدور لم يكن فيه للسُلطان عبد الحميد القول الفصل وإنما كان لمدحت باشا ومن معه واستمر فيه عبد الحميد بمداراتهم، وخلال هذه الفترة استقال رشدي باشا من منصب الصدر الأعظم فعين السلطان مدحت باشا محله، وكانت حركات العصيان قد انتشرت في أرجاء الدولة، وعقد مؤتمر ترسانة الذي كان هدفه الوصول إلى حل بين الدولة العثمانية والمشكلة الصربية بحضور مرخصين من الدولة الأوروبية وروسيا وكرر كبير المرخصين الإنكليز اللورد **سالزبوري** رفضه لحرب روسية عثمانية ، وكذلك القيصر الروسي ألكسندر الثاني مال إلى السلمية، ولكن مدحت باشا ناصر إعلان الحرب على روسيا ولم يبال بالسلطان الذي كان رافضاً . بإصرار من مدحت باشا أعلنت الدولة المشروطية الأولى ونشرت القانون الأساسي، وفي يناير 1877 م اجتمع مجلس المبعوثان وتم التصويت لصالح الحرب، وبعدها بشهرين عزل السلطان عبد الحميد صدره الأعظم مدحت باشا ونفاه إلى الطائف، وفي مارس 1877 م وقع بروتوكول لندن الذي كانت شروطه أخف على الدولة العثمانية من شروط مؤتمر ترسانة وقبل القيصر الروسي البروتوكول ولكنه أصر على إلحاق قضاء نيكشي للجبل الأسود لكن الباب العالي رفض ذلك لمخالفته القانون الأساسي فقامت الحرب الروسية العثمانية التي انتهت بهزيمة الدولة العثمانية. دعت هذه النكبة السلطان عبد الحميد بحل مجلس المبعوثان إلى أجل غير مسمى .

3 – 2 - ثورة البلقان

تجددت الثورة في إقليميّ البوسنة والهرسك ، واستمرت في بلغاريا، وكان الصرب والجبل الأسود في حالة حرب مع الدولة . ولهذه الأسباب تدخلت الدول الأوروبية لاستغلال الموقف بغية تحقيق مصالحها بحجة إحلال السلام. فشجعت روسيا والنمسا الصرب والجبل الأسود على حرب العثمانيين، حيث رغبت

النمسا بضم البوسنة والهرسك، بينما رغبت روسيا بضم الأفلاق والبغدان وبلغاريا، ووعدت روسيا النمسا والصرب والجبل الأسود بالوقوف بجانبهم إذا قامت حرب بينهم وبين العثمانيين . وبالفعل قامت الحرب بين الدولة العثمانية وتلك الدول، إلا أن الجيوش العثمانية استطاعت الانتصار ووصلت إلى مشارف بلغراد، غير أن تدخل أوروبا أوقف الحرب.

3 – 3 - الحرب الروسية العثمانية (1877 – 1878)

قدّمت الدول الأوروبية الكبرى لائحة للدولة العثمانية تقضي بتحسين الأحوال المعيشية لرعاياها المسيحيين، ومراقبة الدول الأوروبية لتنفيذ إجراءات التحسين، فرفضت الدولة اللائحة؛ لأن هذا يعتبر تدخلاً صريحًا في شؤونها، فاستغلت روسيا الرفض واعتبرته سبباً كافياً للحرب ، وفي هذه المرة أطلقت أوروبا العنان لروسيا لتتصرف كيفما تشاء مع العثمانيين، فاحتلت الأفلاق والبغدان وبلغاريا ووصلت أدرنة وأصبحت على بعد 50 كيلومترًا فقط من الآستانة ، كذلك دخلت جيوشها الأناضول ، وعادت الصرب والجبل الأسود لتعلن الحرب على الدولة العثمانية ، فاضطرت الأخيرة إلى طلب الصلح، وأبرمت معاهدة **سان ستيفانو** مع روسيا.

3 – 4 - معاهدة سان ستيفانو

طلب السلطان عبد الحميد من روسيا، على أعقاب حرب 93 ،معاهدة لإيقاف الحرب وهي معاهدة سان ستيفانو، وتنص على أن تعترف الدولة باستقلال الصرب والجبل الأسود والأفلاق والبغدان وبلغاريا، وتنازلت أيضًا عن عدة مدن في آسيا ، ثمّ تمّ تعديل هذه المعاهدة في مؤتمر عُقد في برلين تمّ بموجبه سلخ المزيد من الأراضي عن الدولة العثمانية

3 – 5 - مؤتمر برلين

أقيم مؤتمر برلين 1305 هـ/1887م وبحث بهذا المؤتمر تعديل معاهدة سان ستيفانو التي عقدت بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الروسية، وهذا بسبب معارضة (إنكلترا، فرنسا، ألمانيا، النمسا) لهذه المعاهدة لأنها لا تتفق مع مصالحها الاستراتيجية . فعقدت معاهدة برلين، وكان من أبرز نتائجها، استقلال بلغاريا، و ضم البوسنة والهرسك للنمسا، واستقلال الجبل الأسود والصرب، وضم قارْص وأرداهان وباطوم لروسيا، والموافقة على تحسين أوضاع النصارى في جزيرة كريت. تضمنت المعاهدة 64 مادة.

كشفت قرارات مؤتمر برلين عن ضعف الدولة العثمانية، فاستغلت الكيانات السياسية والقومية هذا الضعف، وقامت بانتفاضات على الحكم المركزي بهدف الحصول على الاستقلال الكامل، ودعمتها أوروبا في سبيل تحقيق ذلك، وهكذا توالت الأزمات السياسية في وجه السلطان عبد الحميد الثاني بعد الحرب العثمانية الروسية ومؤتمر برلين. إنضمت تونس إلى قائمة الأقاليم التي فقدتها الدولة العثمانية لصالح أوروبا في عهد عبد الحميد الثاني عندما احتلتها فرنسا، ثم لحقتها قبرص التي احتلتها بريطانيا، وأتبعتها بمصر والسودان، بحجة حماية الدولة العثمانية من أي اعتداء.

3 – 6 - مذابح الأرمن

تفصيل الأزمة الأرمنية أن الأرمن طالبوا بعد مؤتمر برلين باستقلالهم، خاصة أن السلطان لم يقم بتطوير يُذكر لأوضاعهم، وعملت البعثات التبشيرية الأوروبية والأمريكية على إذكاء الشعور القومي الأرمني، وفي الوقت نفسه اعتقدت الدوائر الحاكمة في الآستانة أن بعض الأرمن يعملون كعملاء لروسيا وبريطانيا، وساورها الشكوك حول ولائهم، ومن ثم نظرت إليهم على أنهم خطر يهدد كيان الدولة ومستقبلها وأمنها. وتصاعد التوتر في بلاد الأرمن، ولم تلبث أن عمّت الاضطرابات، فخرج حوالي 4000 ارمني عن طاعة السلطان في **بدليس** بعد تأخر الإصلاحات الموعودة ،

فقام العثمانيون بالرد على ثورة الأرمن بأن أرسلوا جيشًا مؤلفًا بمعظمه من الأكراد إلى مناطق الثورة حيث دمّروا العديد من القرى الأرمنية وقتلوا كثيرًا من الثوّار ومن ساندهم، فيما أصبح يُعرف باسم " **المجازر الحميدية** "، وتطور العنف ليشمل المسيحيين بشكل عام كالسريان كما في مجازر ديار بكر.

4 - السلطان واليهود ودور يهود الدونمة

لما عقد اليهود مؤتمرهم الصهيوني الأول في (بازل) بسويسرا عام 1315 هـ، 1897 م، برئاسة ثيودور هرتزل (1860 م - 1904 م) رئيس الجمعية الصهيونية، اتفقوا على تأسيس وطن قومي لهم

يكون مقرًا لأبناء عقيدتهم، وأصر هرتزل على أن تكون فلسطين هي الوطن القومي لهم، فنشأت فكرة الصهيونية، وقد اتصل هرتزل بالسلطان عبد الحميد مرارًا ليسمح لليهود بالانتقال إلى فلسطين، ولكن السلطان كان يرفض، ثم قام هرتزل بتوسيط كثير من أصدقائه الأجانب الذين كانت لهم صلة بالسلطان أو ببعض أصحاب النفوذ في الدولة، كما قام بتوسيط بعض الزعماء العثمانيين، لكنه لم يفلح، وأخيرًا زار السلطان عبد الحميد بصحبة الحاخام (**موسى ليفي**) و (**عمانيول قره صو**) ، رئيس الجالية اليهودية في سلانيك ، وبعد مقدمات مفعمة بالرياء والخداع، أفصحوا عن مطالبهم، وقدَّموا له الإغراءات المتمثلة في إقراض الخزينة العثمانية أموالاً طائلة مع تقديم هدية خاصة للسلطان مقدارها خمسة ملايين ليرة ذهبية، وتحالف سياسي يُوقفون بموجبه حملات الدعاية السيئة التي ذاعت ضده في صحف أوروبا وأمريكا. لكن السلطان رفض بشدة وطردهم من مجلسه وقال :

((إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا فلن أقبل، إن أرض فلسطين ليست ملكى إنما هي ملك الأمة الإسلامية، وما حصل عليه المسلمون بدمائهم لا يمكن أن يباع وربما إذا تفتت إمبراطوريتي يوما، يمكنكم أن تحصلوا على فلسطين دون مقابل)) ،

ثم أصدر أمرًا بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين.

عندئذ أدرك خصومه أنهم أمام رجل قوي وعنيد، وأنه ليس من السهولة بمكان استمالته إلى صفها، ولا إغراؤه بالمال، وأنه مادام على عرش الخلافة فإنه لا يمكن للصهيونية العالمية أن تحقق أطماعها في فلسطين، ولن يمكن للدولة الأوروبية أن تحقق أطماعها أيضًا في تقسيم الدولة العثمانية والسيطرة على أملاكها، وإقامة دويلات لليهود والأرمن واليونان ومن أهم الذين وقفوا مع السلطان عبد الحميد في هذا الموضوع نقيب بغداد **عبد الرحمن الكيلاني** ، والذي تؤكد الوثائق انه سافر إلى إسطنبول ،مؤازرا، وهذا مما يحتسب لنقيب بغداد وهو من المقربين لعبدالحميد .

لذا قرروا الإطاحة به وإبعاده عن الحكم، فاستعانوا بالقوى المختلفة التي نذرت نفسها لتمزيق ديار الإسلام، أهمها الماسونية، والدونمة، والجمعيات السرية (الاتحاد والترقي)، والدعوة للقومية التركية (**الطورانية**) ، ولعب يهود الدونمة دورًا رئيسًا في إشعال نار الفتن ضد السلطان .

5 - الصدور العظام في عهده

تعاقب في عهد السلطان عبد الحميد الذي قارب الثلاث والثلاثين عامًا حوالي خمس وعشرين صدرًا أعظم أولهم مدحت باشا

6 – التعليم

6 – 1 - مدرسة العشائر

أهملت الدولة العثمانية، خلال مراحل تاريخها، تنشيط التعليم المدني، إلا في نطاق المدارس التابعة للهيئة الدينية الإسلامية، وقامت إلى جانب هذه المدارس، مدارس الملل بإشراف الطوائف الدينية غير الإسلامية أو البعثات التبشيرية . ولم يتطور التعليم في الدولة العثمانية إلاّ في بداية عهد السلطان عبد المجيد الأول وباقي السلاطين الذين تلوه ، وأبرزهم عبد الحميد الثاني، الذي أنشأ المدارس المتوسطة والعليا والمعاهد الفنية لتخريج الشباب العثماني ، وإعداده لتولّي المناصب الحكومية والنهوض بالدولة. واهتم السلطان اهتمامًا بالغًا بالمدرسة التي أنشأت عام 1859م على عهد السلطان عبد المجيد الأول، فأعاد تنظيمها وفق خطة علمية، وتحديثها بمناهج دراسية جديدة، وفتح أبوابها للطلاب القائمين في العاصمة، والوافدين من مختلف الأقاليم العثمانية، حتى غدت مركزًا ثقافيًا هامًا. وأنشأ السلطان بدءًا من عام 1878م، المدرسة السلطانية للشؤون المالية، ومدرسة الحقوق، ومدرسة الفنون الجميلة، ومدرسة التجارة، ومدرسة الهندسة المدنية، ومدرسة الطب البيطري، ومدرسة الشرطة، ومدرسة الجمارك، كما أنشأ مدرسة طب جديدة في عام 1898م.

مدخل جامعة إسطنبول سنة 1900.

وتوّج السلطان عبد الحميد الثاني جهوده في الحقل التعليمي بتطوير " **مدرسة إستانبول الكبرى**"، التي أنشئت في عهد السلطان محمد الفاتح، وأضحت **جامعة إسطنبول**، وضمّت، في أول أمرها، أربع كليّات هي: العلوم الدينية، والعلوم الرياضية، والعلوم الطبيعية، والعلوم الأدبية، وعُدّت مدرستا الحقوق والطب كليتين ملحقتين بالجامعة.

وتطلبت المدارس الملكية، أو المدنية، بدورها إنشاء عدد من دور المعلمين لتخريج معلمين أكفاء يتولون التدريس فيها، وكانت أول دار للمعلمين في الدولة أنشئت، في عام 1848م، على عهد السلطان عبد المجيد الأول، وأضحى عددها في عام 1908م، ثمان وثلاثين دارًا منتشرة في العاصمة وحواضر الولايات والسنجقيات،

وأنشأ السلطان عددًا كبيرًا من المدارس الرشدية التي كانت بمثابة مدارس متوسطة. ومن الجامعات الكبرى التي تأسست خارج الحدود التركية في أواخر العهد العثماني: الكليّة السورية الإنجيلية التي أصبحت **الجامعة الأمريكية** في بيروت ، سنة 1866م، وجامعة **القديس يوسف** ، سنة 1874م، و**جامعة القاهرة** ، سنة 1908م، وغيرها.

7 – خلعه

تم عزله وخلعه من منصبه في 27 أبريل 1909 وأمضى بقية حياته في سلانيك ، ثم في قصر بكلربكي في الآستانة، وتم تنصيب شقيقه **محمد رشاد** خلفاً له .

8 – وفاته

توفي السلطان بعد أن عاد من المنفى في قصر **بيلارباي** في مدينة استانبول في تاريخ 10 فبراير من عام 1918.

وقام برثاءه الشاعر العراقي **جميل صدقي الزهاوي** ، بقصيدة عن العهد الحميدي قال فيها :

وقد بعث الله الخليفة رحمة	إلى الناس إن الله للناس يرحم
أقام به الديان أركان دينه	فليست على رغم العدى تتهدم
وصاغ النهى منه سوار عدالة	به إزدان من خود الحكومة معصم
وكم لأمير المؤمنين مآثر	بهن صنوف الناس تدري وتعلم
ويشهد حتى الأجنبي بفضله	فكيف يسيء الظن من هو مسلم
سلام على العهد الحميدي إنه	لأسعد عهد في الزمان وأنعم

9 ـ السلطان عبد الحميد وزعيم الصهيونية العالمية هرتزل

استطاع زعيم الحركة اليهودية الصهيونية العالمية (تيودور هرتزل) أن يحصل على تأييد أوروبي للمسألة اليهودية من الدول (ألمانيا، وبريطانيا وفرنسا) وجعل من هذه الدول قوة ضغط على الدولة العثمانية تمهيداً لمقابلة السلطان عبد الحميد، وطلب فلسطين منه .

وكانت الدولة العثمانية تعاني من مشاكل مالية متعددة، إذ كانت الأحوال الاقتصادية في البلاد على درجة من السوء بحيث فرضت الدول الأوروبية الدائنة وجود بعثة مالية أوروبية في تركيا العثمانية للإشراف على أوضاعها الاقتصادية ضماناً لديونها ، الأمر الذي دفع عبد الحميد الثاني أن يجد حلاً لهذه المعضلة.

كانت هذه الثغرة هي السبيل الوحيد أمام هرتزل، كي يؤثر على سياسة عبد الحميد الثاني تجاه اليهود. وفي هذا الصدد يقول هرتزل في مذكراته : (*علينا أن ننفق عشرين مليون ليرة تركية لإصلاح الأوضاع المالية في تركيا .. مليونان منها ثمناً لفلسطين والباقي لتحرير تركيا العثمانية بتسديد ديونها تمهيداً للتخلص من البعثة الأوروبية.. ومن ثم نقوم بتمويل السلطان بعد ذلك بأي قروض جديدة يطلبها.*

لقد أجرى هرتزل اتصالات مكثفة مع المسئولين في ألمانيا والنمسا وروسيا وإيطاليا وإنكلترا وكانت الغاية من هذه الاتصالات هي إجراء حوار مع عبد الحميد الثاني. وفي هذا الصدد فقد نصح **لاندو** منذ 21 شباط 1896م الصديق اليهودي لهرتز أن يقوم بواسطة صديقه **نيولنسكي** رئيس تحرير (بريد الشرق) . وفي هذا المجال يقول هرتزل : (*إن نحن حصلنا على فلسطين ، سندفع لتركيا كثيراً أو سنقدم عطايا كثيرة لمن .. لمن يتوسط لنا. ومقابل هذا نحن مستعدون أن نسوي أوضاع تركيا المالية. سنأخذ الأراضي التي يمتلكها السلطان ضمن القانون المدني، مع أنه ربما لم يكن هناك فرق بين السلطة الملكية والممتلكات الخاصة).*

وقام هرتزل بزيارة الى القسطنطينية وذلك في حزيران عام 1896م ، ورافقه في هذه الزيارة نيولنسكي ، الذي كانت له علاقة ودية مع السلطان عبد الحميد، ونتيجة لذلك فقد نقل بيولنسكي آراء هرتزل الى قصر يلدز، وقد دارت محاورة بين نيولنسكي والسلطان عبد الحميد إذ قال السلطان له : (هل بإمكان اليهود أن يستقروا في مقاطعة أخرى غير فلسطين؟ أجاب نيولنسكي قائلاً : (تعتبر فلسطين هي المهد الأول لليهود، فعليه فإن اليهود لهم الرغبة في العودة إليها) ، ورد السلطان قائلاً : (إن فلسطين لاتعتبر مهداً لليهود فقط، وإنما تعتبر مهداً لكافة الأديان الأخرى). أجاب نيولنسكي قائلاً : (في حالة عدم استرجاع فلسطين من قبل اليهود فإنهم سوف يحاولون الذهاب وبكل بساطة الى الارجنتين).

وقام السلطان عبد الحميد بإرسال رسالة الى هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكي جاء فيها : (انصح صديقك هرتزل، أن لايتخذ خطوات جديدة حول هذا الموضوع ، لأني لااستطيع أن أتنازل عن شبر واحد من الأراضي المقدسة، لأنها ليست ملكي، بل هي ملك شعبي. وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض، وروووها بدمائهم؛ فليحتفظ اليهود بملاييينهم . إذا مزقت دولتي ، من الممكن الحصول على فلسطين بدون مقابل، ولكن لزم أن يبدأ التمزيق أولاً في جثتنا ولكن لا أوافق على تشريح جثتي وأنا على قيد الحياة) .

وفي هذا الصدد يقول عبد الحميد في مذكراته :

(ومن المناسب أن نقوم باستغلال الأراضي الخالية في الدولة، وهذا يعني من جانب آخر، أنه كان علينا أن ننهج إتباع سياسة تهجير خاصة، ولكننا لا نجد أن هجرة اليهود مناسبة، لأن غايتنا هي استيطان عناصر تنتمي الى دين أسلافنا وتقاليدنا حتى لا يستطيعوا من الهيمنة على زمام الأمور في الدولة).

وبعد إخفاق جهود هرتزل في واسطة نيولنسكي ، اتجه هرتزل الى قيصر **وليم الثاني** أمبراطور ألمانيا، ولاسيما أنه كان صديقاً لعبدالحميد ، بالاضافة الى كون وليم الثاني هو الحليف الوحيد للعثمانيين في أوروبا إلا أن مساعيه لم تكلل بالنجاح .

يقول المؤرخ التركي نظام الدين نظيف في كتابه (إعلان الحرية والسلطان عبد الحميد الثاني) : (عندما رد طلب الوفد اليهودي - المسند من قبل الامبراطور وليم- في الحصول على وطن لهم، أي : عندما خاب هرتزل في مسعاه إشتد العداء ضد (يلدز) وهذا ماكان يتوقعه عبد الحميد، لأن اليهود قوم يتقنون العمل المنظم، وكانت لديهم قوى عديدة تضمن لهم النجاح في مسعاهم ، فالمال متوفر لديهم وكانوا يسيطرون على أهم العلاقات التجارية الدولية، وكانت صحافة أوروبا في قبضتهم، فكان في مقدرهم اطلاق العواصف التي يريدونها لدى الرأي العام متى شاءوا).

يردف المؤرخ التركي قائلاً: (بدأوا أولاً بتحريك الصحافة العالمية، ثم أخذوا بتوحيد أعداء عبد الحميد الذين نشأوا في ذلك المجتمع العثماني الخليط، نجد، أنصار المشروطية يتخذون طابعاً منظماً وهجومياً، علماً بأنهم كانوا حتى ذلك الوقت متفرقين ويعملون دون نظام ودون تنسيق، إذ لم يكن صعباً عليهم توحيد أعداء عبد الحميد الذين نشأوا في ذلك المجتمع العثماني الخليط. وقد أخذ (**المشرق الأعظم الماسوني الإيطالي**) على عاتقه هذه المهمة في التوحيد والتنسيق لأنه كان أقرب مركز ماسوني للامبراطورية العثمانية. ولعبت المحافل الايطالية وخاصة محفل (**ريزوتا**) في سلانيك دوراً ملحوظاً).

إزاء هذا الاخفاق قرر هرتزل أن يستخدم وسائل أخرى لاستمالة عبد الحميد الثاني، حيث عرض نفسه عن طريق نيولنسكي خدمته بواسطة القضية الأرمنية وفي هذا الصدد يقول هرتزل : (طلب مني السلطان أن أقوم بخدمة له، وهي أن أؤثر على الصحف الأوروبية ، بغية قيام الأخيرة بالتحدث عن القضية الأرمنية بلهجة أقل عداء للأتراك، أخبرت نيولنسكي حالاً باستعدادي للقيام بهذه المهمة، ولكني أكدت على إعطائي فكرة وافية عن الوضع الأرمني : من هم الأشخاص في لندن الذين يجب أن أقنعهم بما يريدون ، وأي الصحف يجب أن نستميلها لجهتنا وغير ذلك).

وعلى هذا الأساس، فقد نشطت الدبلوماسية الصهيونية لاقناع الأرمن بالتخلي عن ثورتهم. ونتيجة لذلك فقد اتصل هرتزل مع **سالزبوري** والمسؤولين الانكليز بغية استخدامهم للضغط على الأرمن، كما نشط اليهود في مدن أوروبية اخرى مثل فرنسا للقيام بنفس الدور. إلا أن دبلوماسية هرتزل قد أخفقت بسبب عدم تحمس بريطانيا، لأن ذلك كان يعني تأييد سياسة عبد الحميد، الأمر الذي يؤدي في إثارة الرأي العام البريطاني ضد الحكومة. وقد حاول هرتزل لقاء عبد الحميد الثاني ، ولاسيما أثناء الزيارة الثانية للامبراطور وليم الثاني الى القسطنطينية، إلا أن موظفي قصر يلدز منعوه من ذلك. واستمر هرتزل في محاولاته المستمرة حتى تكللت جهوده بالنجاح بعد سنتين (1899 – 1901 م) من الاحتكاك المباشر مع الموظفين الكبار لقصر يلدز من مقابلة عبد الحميد، حيث قابل السلطان لمدة ساعتين وقد اقترح هرتزل قيام البنوك اليهودية الغنية في أوروبا بمساعدة الدولة العثمانية لقاء السماح بالاستيطان في فلسطين، بالإضافة الى ذلك فإنه قد أكد لعبدالحميد أنه سوف يخفف الديون العامة للدولة العثمانية وذلك منذ عام 1881م ، وقد وعد هرتزل عبد الحميد أن يحتفظ بمناقشاته السرية معه.

كان السلطان عبد الحميد في خلال مقابلته مع هرتزل مستمعاً أكثر منه متكلماً وكا يرخي لهرتز في الكلام كي بدفعه أن يتحدث بكل مايخطر في مخيلته من أفكار ومشروعات ومطالب. وقد أدى هذا الأمر الى أن يعتقد هرتزل بأنه نجح في مهمته هذه. ولكنه أدرك في نهاية الأمر بأنه قد أخفق مع عبد الحميد وأنه أخذ يسير في طريق مسدود معه.

وبعد إخفاق جهود هرتزل عند عبد الحميد الثاني، تحدث هرتزل قائلاً: (في حالة منح السلطان فلسطين لليهود ، سنأخذ على عاتقنا تنظيم الأوضاع المالية، اما في القارة الأوروبية فإننا سنقوم بإيجاد حصن منيع ضد آسيا، وسوف نبني حضارة ضد التخلف، كما سنبقي في جميع أنحاء أوروبا بغية ضمان وجودنا) .

وفي الحقيقة كان عبد الحميد يرى أنه من الضروري عدم توطين اليهود في فلسطين ، كي يحتفظ العنصر العربي بتفوقه الطبيعي. وفي هذا الصدد يقول :

(ولكن لدينا عدد كافٍ من اليهود ، فإذا كنا نريد أن يبقى العنصر العربي متفوقاً، علينا أن نصرف النظر عن فكرة توطين المهاجرين في فلسطين وإلا فإن اليهود إذا استوطنوا أرضاً تملكوا كافة قدراتها خلال وقت قصير، ولذا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدين بالموت المحتم).

وكانت الدولة العثمانية تسعي في أحيان كثيرة الى أبعاد اليهود العثمانيين عن أفكار هرتزل والحركة الصهيونية، ومع ذلك فإنها في أحيان أخرى كانت تستخدم لغة التهديد معهم. وفي هذا الصدد أوضح **علي فروخ بك** الوسائل الإعلامية الأجنبية، وبصراحة تامة: (إنه لبعيد من الصواب أن يقوم الصهاينة على خلق صعوبات للحكومة العثمانية، بغية إرغامها على تحقيق مصالحها. ولكن هذه الصعوبات سوف تؤدي في نهاية الأمر الى إلحاق الأذى بوجودهم السلمي والسعيد في الدولة العثمانية... وهذه النقطة واضحة بالنسبة لعلاقة العثمانيين مع رعايا الأرمن، لأن قلة من المتمردين الذين قاموا على ارتكاب الخطأ والحماقة معتمدين الى الإرشاد الميكافلي قد أدى في نهاية الأمر أن يندما على ما فعلوه ، من دون التوصل على أية نتيجة).

وعلى الرغم ، من اخفاق جهود هرتزل عند السلطان عبد الحميد، كتب هرتزل قائلاً : (يجب تملك الأرض بواسطة اليهود بطريقة تدريجية دون ما حاجة الى استخدام العنف، سنحاول أن نشجع الفقراء من السكان الأصليين على النزوح الى البلدان المجاورة بتأمين أعمال لهم هناك مع خطر تشغيلهم في بلدنا إن الاستيلاء على الأرض سيتم بواسطة العملاء السريين للشركة اليهودية التي تتولى بعد ذلك بيع الأرض لليهود. علاوة على ذلك تقوم الشركة اليهودية بالإشراف على التجارة في بيع العقارات وشرائها، على أن يقتصر بيعها على اليهود وحدهم).

وكتب هرتزل قائلاً :

(أقر على ضوء حديثي مع السلطان عبد الحميد الثاني أنه لايمكن الاستفادة من تركيا إلا إذا تغيرت حالتها السياسية أو عن طريق الزج بها في حروب تهزم فيها ، إو عن طريق الزج بها في مشكلات دولية أو بالطريقتين معاً في آن واحد).

إن عبد الحميد كان يعرف أهداف الصهيونية، حيث قال في مذكراته السياسية: (لن يستطيع رئيس الصهاينة هرتزل أن يقنعني بأفكاره وقد يكون قوله : ستحل المشكلة اليهودية يوم يقوي فيه اليهودي على قيادة محراثه بيده، صحيحاً في رأيه، أنه يسعى لتأمين ارض لإخوانه اليهود، لكنه ينسى أن الذكاء ليس كافياً لحل جميع المشاكل .. لن يكتفي الصهاينة بممارسة الأعمال الزراعية في فلسطين بل يريدون أموراً مثل تشكيل حكومة وانتخاب ممثلين، إنني أدرك أطماعهم جيداً، لكن اليهود سطحيون في ظنهم أنني سأقبل بمحاولاتهم. وكما أنني أقدر في رعايانا من اليهود خدماتهم لدى الباب العالي فإني أعادي أمانيهم وأطماعهم في فلسطين).

وعن القدس يقول عبد الحميد الثاني : (لماذا نترك القدس ...إنها أرضنا في كل وقت وفي كل زمان وستبقى كذلك، فهي من مدننا المقدسة، وتقع في أرض إسلامية ، لابد أن تظل القدس لنا).

لقد كان غرض السلطان عبد الحميد في استماعه الى (تيودور هرتزل) معرفة الآتي :

* حقيقة الخطط اليهودية.
* معرفة قوة اليهود العالمية ومدى قوتها.
* إنقاذ الدولة العثمانية من مخاطر اليهود.

وشرع السلطان عبد الحميد في توجيه أجهزة الاستخبارات الداخلية والخارجية لمتابعة اليهود وكتابة التقرير عنهم وأصدر إرادتين سنتين الأولى في 28 يونيو 1890م والأخرى في 7 يونيو 1890م. في الأولى (رفض قبول اليهود في الممالك الشاهانية) والأخرى: (على مجلس الوزراء دراسة تفرعات المسألة واتخاذ قرار جدّي وحاسم في شأنها).

واتخذ السلطان عبد الحميد الثاني كل التدابير اللازمة في سبيل عدم بيع الأراضي الى اليهود في فلسطين ، وفي سبيل ذلك عمل جاهداً على عدم إعطاء أي امتياز للهود من شأنه أن يؤدي الى تغلب اليهود على أرض فلسطين. ولابد في هذه الحالة أن تتكاتف جهود المنظمات الصهيونية بغية إبعاد السلطان عبد الحميد الثاني من الحكم. ويعزز هذا القول هرتزل عندما قال : (إني أفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة ، مادام السلطان عبد الحميد قائماً في الحكم، مستمراً فيه).

وتحركت الصهيونية العالمية، لتدعم أعداء السلطان عبد الحميد الثاني ، وهم المتمردون الأرمن ، والقوميون في البلقان ، وحركة حزب الاتحاد والترقي ، والوقوف مع كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية.

37 - محمد الخامس رشاد بن عبد المجيد الأول

1 – تقديم

السلطان محمد الخامس رشاد بن عبد المجيد الأول بن محمود الثاني عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل.(2 نوفمبر 1844 - 3 يوليو 1918)
.

هو السلطان الخامس والثلاثون لدولة العثمانية تولى الحكم بعد خلع أخيه عبد الحميد الثاني 1909 وكان عمره 65 عاماً وهو شقيق كل من السلطان مراد الخامس وعبد الحميد الثاني ومحمد السادس وعمه السلطان عبد العزيز الأول وابن عمه السلطان عبد المجيد الثاني توفي في 3 يوليو - 1918 وعمره 74 سنة.

2 - إعادة الدستور

أعيد تفعيل الدستور بعد تنصيبه وحصل الاتحاديون على نصر ساحق في الانتخابات النيابية عام 1330 هـ ، فأحكموا قبضتهم على السلطة وقاموا بعمل الكثير من التغييرات على الدولة كان منها الإيجابي والسلبي .

فأما السلبي فكان تزكية القومية التركية تأسيا بالغرب على حساب الرابطة الإسلامية مما سبب سخطا شعبيا كبيرا لعدم المساواة بين القوميات المختلفة بالإضافة إلى التوجه الشبه علماني الذي توجهوه ،

وأما الإيجابي فكان منه الإصلاحات الزراعية بتشجيع الفلاحين على استصلاح الأراضي الزراعية.

كان أيضا من إنجازات حكومة الاتحاد والترقي الإصلاحات العسكرية حيث أنشئت القوات الجوية العثمانية ، كما ازداد التعاون العسكري مع إمبرطورية ألمانيا فاشترى العثمانيون قطعا بحرية عديدة ونظموا جيوشهم على نسق يشبه النسق الألماني وبرزت قيادات عسكرية عثمانية عديدة أمثال **رؤوف بك** و**إسماعيل أنور** و **يوسف العظمة**.

بدأت الحرب الإيطالية الليبية وحاولت إيطاليا احتلال ليبيا فأرسل العثمانيون ما استطاعوا من الجند والقادة والعدة، لكن بعد المسافة عن مركز الخلافة وكثرة عدد الإيطاليين مقارنة بالجيشين العثماني والليبي بالإضافة إلى استعمال إيطاليا للطائرات في الحرب لأول مرة في التاريخ سبب ضعف الموقف العسكري العثماني ثم لم تلبث أن استغلت دويلات البلقان هذه الحرب لتلعن بدورها الثورة على العثمانيين، فاشتعلت حرب البلقان وهزمت الدولة العثمانية على الجبهتين، وكان من نتيجية ذلك استقلال دويلات البلقان عن العثمانيين والاحتلال الإيطالي لليبيا ، مما دعا ناظر الحربية **أحمد باشا مختار** لتقديم استقالته.

تمكن **إسماعيل أنور** في حرب البلقان الثانية من استرداد أجزاء من أراضي إقليم مقدونيا والروملي مستغلا انشغال البلغار بالحرب.

3 - الحرب العالمية الأولى

قامت الحرب العالمية الأولى وانضمت الدولة العثمانية إلى ألمانيا لأنها لم يكن لها أطماع ظاهرة في الدولة العثمانية. كان أبرز ما قام به محمد الخامس إعلان الجهاد مع دخول العثمانيين للحرب. في بداية الأمر صمدت العساكر العثمانية على معظم الجبهات وتمكن العثمانيون من إفشال الغزو البحري الذي قام به الحلفاء على إسطنبول، كما هزموا القوات الفرنسية والإنكليزية في معركة **جاليبولي** وأخذوا يحاولون التقدم باتجاه السويس لدحر الإنكليز من مصر.

لم تفلح هجمات العثمانيين على مصر وراح الإنكليز يضغطون من جهتهم وبدأ العثمانيون يتراجعون ببطء، ولم يكتف الإنكليز بهذا بل استعملوا جيش مستعمرة الهند لغزو العراق ، فتقدم الجيش الهندي الإنكليزي حتى وصل إلى بغداد فحاصرهم العثمانيون وانتصروا عليهم بنصر كبير، لكن الإنكليز عاودوا الكرة مرة أخرى فاحتلوا بغداد.

قاد إسماعيل أنور حملة عسكرية باتجاه القوقاز لاسترجاع قارص وباطوم وغيرها من جهة والضغط على الروس لدعم الألمان والنمسا على الجبهة الشرقية من جهة أخرى، لكن تلك الحملة انتهت

بهزيمة قاسية على المسلمين وكانت العساكر المسلمة تقاتل على جميع الجبهات على الرغم من قلة المؤن والجوع.

حدثت الثورة البلشفية وأعلان البلاشفة انسحاب روسيا من الحرب، إلا أن اشتعال الثورة العربية كان كفيلا بجعل كل الجهود العسكرية العثمانية تتبخر، حيث شاغلت تلك الثورة عددا كبيرا من الجنود العثمانية بحيث زاد عدد الجنود التي وقفت في وجه الثورة العربية عن تلك التي وقفت في وجه الإنكليز !

في النهاية هزمت الدولة العثمانية وحليفتها ألمانيا في الحرب وعاد العثمانييون إلى حدود تركيا الطبيعية، فقدم رجال الاتحاد والترقي استقالاتهم ونفوا إلى ألمانيا.

توفي السلطان محمد الخامس رشاد قبل استسلام الدولة بعدة شهور وتولى بعده أخوه محمد وحيد الدين .

38 - محمد السادس وحيد الدين بن عبد المجيد الأول

السلطان وحيد الدين محمد السادس بن عبد المجيد الأول بن محمود الثاني عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغؤل. (14 يناير 1861 - 16 مايو 1926) .

هو السلطان السادس والثلاثون للدولة العثمانية , حكم بالفترة من 4 يوليو 1918 إلى 1 نوفمبر 1922 بعد وفاه أخيه محمد الخامس رشاد .

استسلمت الدولة بعد توليته بشهور حيث هزمت في الحرب واحتل أعداؤها أكثر أجزاء الدولة باستثناء بعض المناطق. في العام 1919 تم تكليف **مصطفى كمال اتاتورك** من قبله بالتفتيش على الجيوش بالاناضول لتفكيكها في إطار هدنة **مدروس** إلا أن أتاتورك أعلن العصيان في الأناضول ضد رضوخ الخليفة للاحتلال وأسس جيش المقاومة .

أرسل وحيد الدين ما يعرف بجيش الخليفة لقتال المقاومة في العام 1920 لتنتهي المعارك في شهور قليلة بهزيمة جيش الخليفة وانضمام أغلب أفراده إلى مصطفى كمال اتاتورك وتستمر حرب التحرير ضد قوى حلفاء أوروبا لتنتهي بانتصار المقاومة وتحرير تركيا فغادر وحيد الدين إسطنبول هارباً كلاجئ على متن بارجة بريطانية في 17 نوفمبر عام 1922 ليقضي بقية حياته في الريفييرا الإيطالية. وتوفي في مدينة سان ريمو في 16 مايو 1926.

39 - عبد المجيد الثاني بن عبد العزيز الأول

1 - تقديم

السلطان عبد المجيد الثاني بن عبد العزيز الأول بن محمود الثاني بن عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل. (1868 - 1944) .

هو السلطان الخامس والثلاثون للدولة العثمانية كان الخليفة العثماني الأخير. تولى الخلافة من 19 نوفمبر، 1922 حتى 3 مارس، 1924. ولد عبد المجيد الثاني، ابن السلطان عبد العزيز الأول، في 29 مايو، 1868 في إسطنبول. تلقى تعليمه بشكل خصوصي. في 4 يوليو، 1918 أصبح ابن عمه محمد السادس سلطاناً، بينما أصبح عبد المجيد الثاني ولي العهد. في 19 نوفمبر، 1922، انتخبت الجمعية الوطنية التركية عبد المجيد الثاني للخلافة في أنقرة. استقر في إسطنبول في 24 نوفمبر من نفس العام. في 3 مارس، 1924 خلع وطرد من شواطئ تركيا مع بقية عائلته.

2 - إنزال الغواصة عبد الحميد الثاني

11 جمادى الأولى 1304 هـ / 5 فبراير 1887م : الدولة العثمانية تنزل إلى البحر الغوّاصة عبد الحميد- وكان اسمها أولاً " **تحت البحر**" - وأدخلتها ضمن أسطولها الحربي، وكانت هذه أول مرة يستخدم فيها العثمانيون الغواصة .

3 – خلعه

تولى عبد المجيد الثاني حكم الدولة العثمانية بعد أن تم إلغاء نظام السلاطين وتجريد الخليفة من جميع امتيازاته في عام 1340 هـ. وبعد ثلاثة أيام فقط من توليه للخلافة ،

افتتح مؤتمر **لوزان** ووضع الإنكليز أربعة شروط للاعتراف باستقلال تركيا :

* إلغاء الخلافة الإسلامية في البلاد،
* طرد جميع بني عثمان من تركيا،
* مصادرة كافة أملاكهم في الدولة ،
* إعلان تركيا كدولة علمانية.

لكن المؤتمر فشل، فعاد الوفد إلى تركيا ونشأ خلاف بين مصطفى كمال أتاتورك وبجانبه رئيس الوفد مع الجمعية الوطنية وبجانبها رئيس الوزارة، لكن استقالة رئيس الوزارة أتاحت لأتاتورك حلّ الجمعية والسيطرة على الأمور، ولم تستطع الجمعية الوطنية فعل شيء، ثم قام أتاتورك بإعلان الجمهورية وتنفيذ جميع شروط الإنكليز فقبلت إنكلترا بالاعتراف بتركيا وتم إلغاء الخلافة.

بعد أربعة أشهر من ذلك تم طرد عبد المجيد الثاني إلى مدينة **نيس** في جنوب فرنسا، ثم توفي لاحقاً في باريس عام 1944، واضعاً بذلك نهاية لعهد العثمانيين الذي كان آخر خلفائهم الذين حكموا لأربعة قرون .

40 - أرطغرل عثمان أوغلو

1 – تقديم

عثمان أرطغرل عثمان أوغلو بن محمد برهان الدين أفندي بن عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد الأول بن محمود الثاني بن عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل.

يُعرف **بشهزاد أرطغرل عثمان افندي** (18 أغسطس 1912 - 23 سبتمبر 2009). هو أكبر أحفاد أخر السلاطين العثمانيين عبد الحميد الثاني . ولد في إسطنبول بقصر ييلديز. وأبوه هو محمد برهان الدين أفندي . ذهب إلى العاصمة النمساوية فيينا للدراسة وبلغه هناك نبأ سقوط الدولة العثمانية على يد مصطفى كمال أتاتورك عام 1924 . ففضل الهجرة للولايات المتحدة حيث عاش في مدينة نيويورك لمدة تقارب 60 عاماً. . تزوج من **زينب ترزي هانم** ، حفيدة الملك الأفغاني **أمان الله خان**.

كان أرطغرل عثمان أمريكي الجنسية وهو الرئيس الثالث والأربعون لسلالة آل عثمان .

2 - وفاته

بعد أن أعطي الجنسية التركية , عاد إلى تركيا توفي في إحدى مستشفيات إسطنبول في 23 سبتمبر 2009 وذلك بعد إصابته بقصور تنفسي وكلوي على حسب ما جاء في بيان وزارة الثقافة التركية

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

قائمة الصدر الأعظم للدولة العثمانية

تقديم :

منصب الصدر الأعظم في الدولة العثمانية , هو منصب رئيس مجلس الوزراء في العصر الحالي . وكان لبعض الصدور العظام دور كبير في مسيرة الدولة العثمانية . والعديد منهم كان يستلم هذا المنصب لأكثر من مرة . إكتفيا في كتابنا هذا ذكر أسمائهم وتسلسل تاريخ استلامهم للمنصب للمرة الاولى فقط . مع ذكر السيرة الذاتية لمن كان له منهم دور فعال في الحفاظ على مسيرة الدولة العثمانية العلية ,

تسلسل	الصدر الأعظم	بداية الولاية	نهاية الولاية
1	علاء الدين باشا	1320	1331
2	نظام الدين أحمد باشا	1331	1348
3	حاجي باشا	1348	1349
4	سنان الدين يوسف باشا	1349	1364
5	شاندرلي خليل باشا الكبير	1364	1387
6	شاندرلي علي باشا	1387	1406
7	إمام زيد هلال باشا	1406	1413
8	بايزيد باشا	1413	1421
9	شاندرلي إبراهيم باشا الكبير	1421	1429
10	محمد نظام الدين باشا	1429	1439
11	شاندرلي هلال باشا الثاني	1439	1453
12	زاغانوس باشا	1453	1456
13	محمد باشا	1456	1468
14	روم محمد باشا	1468	1469
15	اسحق باشا	1469	1472
16	صديق أحمد باشا	1474	1477
17	كارمنلي محمد باشا	1477	1481
18	داود باشا	1482	1497
19	أحمد باشا البوسني	1497	1498
20	**مسيح باشا**	1499	1501
21	**هديم علي باشا الخادم**	1501	1503
22	كوكا مصطفى باشا	1511	1512
23	دقاقينزاد أحمد باشا	1514	1515

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

24	**سنان باشا الخادم**	1516	1517
25	**يونس باشا**	1517	1517
26	بيري محمد باشا	1518	1523
27	**إبراهيم باشا الفرنجي**	1523	1536
28	**أياس محمد باشا**	1536	1539
29	**لطفي باشا**	1539	1541
30	**سليمان باشا الخادم**	1541	1544
31	**رستم باشا**	1544	1553
32	**قرة أحمد باشا**	1553	1555
33	سميز علي باشا	1561	1565
34	**محمد باشا السلوفاكي**	1565	1579
35	شمسي باشا	1579	1580
36	**لالا كارا مصطفى باشا**	1580	1580
37	كوكا سنان باشا	1580	1582
38	سيواس باشا	1582	1584
39	**أوزدمير أوغلو عثمان باشا**	1584	1585
40	هديم مسيح باشا	1585	1586
41	السردار فريد باشا	1591	1592
42	لالا محمد باشا	1595	1595
43	الداماد إبراهيم باشا	1596	1596
44	يوسف سنان باشا	1596	1596
45	هديم حسن باشا	1597	1598
46	قره محمد باشا	1598	1599
47	**يميشجي حسن باشا**	1601	1603
48	ياووز علي باشا	1603	1604
49	لالا محمد باشا	1604	1606
50	درويش محمد باشا	1606	1606
51	**الداماد نصوح باشا**	1611	1614
53	أوزوك قره محمد باشا	1614	1616
54	الداماد خليل باشا	1616	1619
55	علي باشا	1619	1621

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

56	أورللي حسين باشا	1621	1621
57	ديلوار باشا	1621	1622
58	قره داود باشا	1622	1622
59	ميري حسين باشا	1622	1622
60	مصطفى باشا	1622	1622
61	مراد باشا	1606	1611
62	هديم محمد باشا	1622	1623
63	قره علي باشا	1623	1624
64	محمد باشا الشركسي	1624	1625
65	حافظ أحمد باشا	1625	1626
66	غازي أكرم باشا	1628	1631
67	راغب باشا	1632	1632
68	محمد باشا التابنياسي	1632	1637
69	**بيرم باشا**	1637	1638
70	**محمد باشا الطيار**	1638	1638
71	قره محمد باشا	1638	1644
72	**سلطان زاده محمد باشا**	1644	1645
73	صالح باشا	1645	1647
74	قره موسى باشا	1647	1647
75	أحمد باشا هيزارابير	1647	1648
76	صوفو محمد باشا	1648	1649
77	قره مراد باشا	1649	1651
78	ملك أحمد باشا	1651	1651
79	**سياوش أباظة باشا**	1651	1651
80	محمد باشا	1651	1652
81	أحمد باشا الطرهوني	1652	1653
82	كوكا درويش محمد باشا	1653	1654
83	إيبشيري مصطفى باشا	1654	1655
84	سليمان باشا الأرميني	1655	1656
85	**غازي حسين باشا**	1656	1656
86	**محمد باشا الكوبريللي**	1656	1661

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

87	فاضل احمد باشا كوبرلي	1661	1676
88	**قرة مصطفى باشا**	1676	1683
89	إبراهيم باشا قرللي	1683	1685
90	ساري سليمان باشا	1685	1687
91	سيواس باشا	1687	1688
92	إسماعيل باشا	1688	1688
93	بكري مصطفى باشا	1688	1689
94	فيصل مصطفى باشا كوبرلي	1689	1691
95	علي باشا العربي	1691	1692
96	حقي علي باشا	1692	1693
97	مصطفى باشا بوزكولو	1693	1694
98	سمير علي باشا	1694	1695
99	**ألماس محمد باشا**	1695	1697
100	حسين باشا كوبرلي	1697	1702
101	مصطفى باشا الدلتباني	1702	1703
102	رامي محمد باشا	1703	1703
103	أحمد باشا	1703	1703
104	محمد صديق باشا	1878	1878
105	الدماد حسن باشا	1703	1704
106	حقي أحمد باشا كليكوز	1704	1704
107	محمد باشا البلطيقي	1704	1706
108	الدماد علي باشا	1706	1710
109	نعمان باشا كوبرلي	1710	1710
110	آغا يوسف باشا	1711	1712
111	صلاح سليمان باشا	1712	1713
112	إبراهيم باشا الحقي	1713	1713
113	حقي خليل باشا	1716	1717
114	محمد باشا النيشاني	1717	1718
115	الداماد إبراهيم باشا	1718	1730
116	الداماد محمد علي باشا	1730	1731
117	إبراهيم باشا الكاباكولو	1731	1731

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

118	**طوبال عثمان باشا**	1731	1732
119	علي باشا حكيم أوغلو	1732	1735
120	إسماعيل باشا الجورجي	1735	1735
121	سيّد محمد باشا	1736	1737
122	عبدالله باشا الحلبي	1737	1737
123	يكن محمد باشا	1737	1739
124	إيواز محمد باشا	1739	1740
125	حقي أحمد باشا النيشاني	1740	1742
126	سيد حسن باشا	1742	1746
127	حقي محمد باشا التركي	1746	1747
128	سيد عبد الله باشا	1747	1750
129	الدفتردار محمد باشا	1750	1752
130	كوس بهير محمد باشا	1752	1755
131	نايلي محمد باشا	1755	1755
132	علي باشا النياشيني	1755	1755
133	محمد سعيد باشا	1755	1756
134	**كوكا راغب باشا**	1757	1763
135	توفيق حمزة باشا	1763	1763
136	محمد باشا محسن زادي	1765	1768
137	سلاحدار حمزة باشا	1768	1768
138	محمد أمين باشا	1768	1769
139	علي باشا المولدافي	1769	1769
140	خليل باشا	1769	1770
141	السلاحدار محمد باشا	1770	1771
142	عزت محمد باشا	1773	1775
143	درويش محمد باشا المورللي	1775	1777
144	محمد باشا الديندي	1777	1778
145	كلفت محمد باشا	1778	1779
146	السلاحدار سعيد محمد باشا	1779	1781
147	يكن حقي محمد باشا	1782	1782
148	خليل حميد باشا	1782	1785

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

149	شاهين علي باشا	1785	1786
150	كوكا يوسف باشا	1786	1789
151	محي حسن باشا	1789	1790
152	غازي حسن باشا	1790	1790
153	شريف حسن باشا	1790	1791
154	الدماد ملك محمد باشا	1792	1794
155	يوسف زيدون باشا	1798	1805
156	حافظ إسماعيل باشا	1805	1806
157	إبراهيم حليم باشا	1806	1807
158	مصطفى باشا الشلبي	1807	1808
159	العلمدار مصطفى باشا	1808	1808
160	مسيح باشا	1808	1808
161	علي باشا	1808	1809
162	لاز أحمد باشا	1811	1812
163	خورشيد أحمد باشا	1812	1815
164	محمد أمين رؤوف باشا	1815	1818
165	درويش محمد باشا	1818	1820
166	سيد علي باشا	1820	1821
167	علي باشا البندرلي	1821	1821
168	حقي صالح باشا	1821	1822
169	عبد الله باشا الدالي	1822	1823
170	السلاحدار علي باشا	1823	1823
171	محمد سعيد غالب باشا	1823	1824
172	محمد سليم باشا المولدافي	1824	1828
173	عزت محمد باشا طوبال	1828	1829
177	رشيد محمد باشا	1829	1833
178	خسروف باشا	1839	1841
179	كوكا مصطفى رشيد باشا	1846	1848
180	إبراهيم سليم باشا	1848	1848
181	**محمد أمين عالي باشا**	1852	1852
182	الدماد محمد علي باشا	1852	1853

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

183	مصطفى نايلي باشا	1853	1854
184	كميل باشا القبرصلي	1854	1854
185	محمد رشدي باشا	1859	1860
186	فؤاد باشا	1861	1863
187	يوسف كميل باشا	1863	1863
189	محمود نديم باشا	1871	1872
190	**مدحت باشا**	1872	1872
192	حسين آفاني باشا	1874	1875
193	إبراهيم أدهم باشا	1877	1878
194	أحمد حمدي باشا	1878	1878
195	أحمد توفيق باشا	1878	1878
197	صفوت باشا	1878	1878
198	حيدرين باشا	1878	1879
199	أحمد عريفي باشا	1879	1879
200	محمد سعيد باشا	1879	1880
201	قدري باشا	1880	1880
204	كميل باشا	1885	1891
205	أحمد شقير باشا	سبتمبر 1895	يونيو 1895
206	خليل رفعت باشا	1895	1901
207	محمد فريد باشا	1903	1908
208	حسين حلمي باشا	1909	1909
209	**أحمد توفيق باشا**	1909	1909
210	إبراهيم حقي باشا	1910	1911
211	أحمد مهتر باشا	1912	1912
212	محمود باشا	1913	1913
213	سعيد حليم باشا	1913	1917
214	طلعت باشا	1917	1918
215	أحمد عزت باشا	1918	1918
216	الدماد فريد باشا	1919	1919
217	علي باشا	1919	1920
218	صالح هولسي باشا	1920	1920

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

أبرز الصدور العظام للدولة العثمانية

مسيح باشا

مسيح باشا هو من أصول يونانية بيزنطية ، (توفي في نوفمبر 1501) كان ابن شقيق آخر أباطرة الدولة البيزنطية قسطنطين الحادي عشر بالايولوغوس ، الذي مات ولم يعقّب ذرية، وكان من المحتمل ـ إذا فشل العثمانيون في فتح القسطنطينية ـ أن يكون مسيح أو أخوه الأكبر ـ الذي أُسر معه بعد سقوط القسطنطينية ـ خليفة له على عرش الإمبراطورية، غير أن الصبيين أُسرا ورُبيا كوصيفين في قصر السلطان محمد الفاتح ، وكان مسيح آنذاك في حوالي العاشرة من عمره.

صار مسيح باشا قبودان باشا للبحرية العثمانية بين عامي 1480 و1491، ثم صدرًا أعظم للدولة العثمانية في عهد السلطان بايزيد الثاني بين عامي 1499 و1501.

من الحروب التي خاضها

الحرب العثمانية البندقية (1463 - 1479)

الحرب العثمانية البندقية (1499 - 1503)

هديم علي باشا الخادم

هديم علي باشا الخادم كان رجل دولة عثمانيًا. خادم تعني المخصي (شغل منصب قائم مقام) أو المحافظ بالمعنى الحديث (لروملي ، قاد الجيش العثماني في الحروب العثمانية المملوكية بين عام 1485 - 1491 و لكنه هزم في أضنة عام 1488 .

لقب بالصدر الأعظم بين عامي 1501- 1503 و مرة أخرى بين عامي 1509 - 1511 .

خلال فترة ولايته الأخيرة قاد جيشاً لقمع ثورة **الشاكولاه العلوية** . و لكنه سقط في المعركة بالقرب من سبسطية مع زعيم المتمردين **العلاهين شاكولاه** نفسه

والعلاهيون أو العلويون في تركيا ، ويدعون Alevis (بالتركية *Alevîlik*) هم إحدى الفرق الإسلامية المنشقة عن الإسلام الشيعي الصوفي ، بالرغم من أن بعض علويّي تركيا يدعون أنهم دين مستقل تمامًا عن الإسلام . يعيش العلويون منتشرين في عدة مناطق من تركيا موزعين بين الأعراق: الأتراك، الزازا، الأكراد والعرب.

يؤمن العلويون بعلي بن أبي طالب والأئمة الإثني عشر. وهم يرفضون الكثير من المفاهيم الأساسية الإسلامية كالجنة والنار والصيام والصلاة والحج. ويؤمنون بتناسخ الأرواح . للعلاهيون معابد خاصة بهم تسمّى بيت الجمع (بالتركية "Cem Evi") . وينتشر العلويون في تركيا خاصة وكذلك في أذربيجان وألبانيا وغيرها ، وهم يختلفون عن العلويين النصيرية المتواجدين في سوريا

سنان باشا الخادم

سنان باشا الخادم ، ويعرف أيضًا باسم سنان باشا بوروفنيتش (قُتل في معركة الريدانية في 22 يناير 1517) ، هو سياسي وصدر أعظم عثماني في عهد السلطان سليم الأول.

الأصل والنشأة

كان عبداً مسيحيًا خصياً ، من سنجق البوسنة ، ينتمي إلى أسرة بوروڤينيتش النبيلة من قرية بوروڤينيتشي، غير أن مصدرًا آخر يذكر أنه كان دڤشيرمه من سنجق ألبانيا.

حياته العملية

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

في 1514، كان **باي لرباي** (حاكم حكام) الأناضول. وفي معركة **چلديران** ضد فارس الصفوية كان مسئولاً عن جناح الميمنة. وبعد المعركة عُيّن باي لرباي روملي، وهو المنصب الأعلى مقاماً من منصبه السابق .

مهمته التالية كانت فتح ذو القدريين، في ما هو الآن جنوب تركيا. وقد كان ناجحاً في المهمتين، فعينه سليم الأول صدراً أعظم في 25 أبريل 1516.

كان سنان الصدر الأعظم المفضل للسلطان سليم. وكان له دور فعال في فتح بلاد الشام ومصر. ففي 28 أكتوبر 1516 هزم جيش مماليك مصر في خان يونس ، بالقرب من غزة بفلسطين. وفي العام التالي، قاتل في معركة الريدانية في مصر في 22 يناير 1517.

وحسب تقليد المعارك العثمانية، كان السلطان بشكل شبه دائم يقود قلب الجيش. إلا أن معركة الريدانية كانت استثناءً. فقد قرر سليم الأول أن يدور حول المماليك بنفسه شخصياً، وعيّن سنان لقيادة قلب الجيش. الخطة كانت ناجحة وانهزم المماليك. إلا أنه قبل نهاية المعركة ، أغار فرسان المماليك ، بقيادة السلطان المملوكي طومان باي الثاني ، على قيادة قلب الجيش العثماني وقتلوا سنان ، ظانين أنهم قد قتلوا السلطان العثماني. بعد المعركة عبّر السلطان سليم عن حزنه، قائلاً " لقد كسبنا المعركة وخسرنا سنان .

يونس باشا

يونس باشا هو الصدر الأعظم للدولة العثمانية من 22 يناير 1517 حتى 13 سبتمبر 1517

ويروي ابن إياس أن لدى خروج سليم الأول من مصر وترك السلطان بالمدينة حامية عسكرية لحفظ الأمن تحت قيادة **خير الدين آغا** الإنكشاري . وفي أثناء عبور الجيش العثماني لصحراء العريش ، التفت السلطان للصدر الأعظم " يونس باشا " ، الذي كان فتح مصر على غير رأيه ، وقال له ما معناه أنه قد أتمّ فتحها خلافًا لرأيه ، فأجابه يونس باشا بأن فتحها لم يعد عليه بشيء إلا قتل نحو نصف الجيش بما أنه سلّمها لخائن كان غرضه التملك عليها لنفسه ، فلا يؤمن ولاؤه للدولة . فغضب السلطان من هذا الكلام الموجه إليه بصفة لوم وأمر بقتل الصدر الأعظم في الحال فقُتل وقد دفن يونس باشا داخل الخان الذي عرف منذ ذلك الوقت باسمه في مدينة **خان يونس** بفلسطين

إبراهيم باشا الفرنجي

1 - تقديم

إبراهيم باشا الفرنجي (1493 أو - 1536) هو أول صدر أعظم يعينه سليمان القانوني بعد ارتقائه عرش الدولة العثمانية. اكتسب شهرته من صعوده السريع في الدولة، ودوره إبان ذروة توسعها في عصر القانوني، وظروف إعدامه الغامضة.

ولد إبراهيم لأسرة مسيحية ، قرب مدينة **بارغا** على الساحل اليوناني ، وكان والده بحارًا أو صياد سمك حين أُبعد عن أسرته طفلًا ، إما باختيارها أو باختطافه من قراصنة أو بنظام الدوشيرمة ، ويعتقد أنه بيع لأرملة في ماغنيسيا أحسنت تنشأته وتعلم لديها العزف على الكمان ، قبل أن يؤخذ إلى الأناضول، حيث دأب أولياء العهد العثماني على تلقي تعليمهم .

هناك ، لاحظ العثمانيون فطنة إبراهيم المبكرة ووسامته وشخصيته الجذابة فقربوه إلى مجايله سليمان ابن السلطان سليم الأول الذي اتخذه صديقاً، فيما سمحت العلاقة بين الاثنين لإبراهيم بتلقي تعليمه مع ولي العهد العثماني ، ليكتسب مهارات معرفية منها اللغات المتعددة والثقافة الموسوعية.

تقلد منصب الصدر الأعظم وعمره 28 عامًا وذلك عام ، خلفاً لبيري محمد باشا، الذي كان عينه في 1518 السلطان سليم الأول.

2 – ألقاب

عرف إبراهيم باشا بأسماء متعددة بفضل ألقاب لحقت أو سبقت اسمه ، إما تمييزًا له عن رجالات الدولة والصدور العظام الذين حملوا اسم " إبراهيم باشا "، أو لصفة أو منصب رافق تاريخه.

فقد عرف باسم محمد سليم باشا الفرنجي نسبة إلى أصوله غير العثمانية، كما يظهر في المصادر التاريخية باسم إبراهيم باشا " البارغالي " في إشارة إلى بارغا التي ولد فيها.

بدايات إبراهيم المكللة بالنجاح ، ثم نهايته الدموية على يد سيده ، منحته لقبًا ثالثًا، هو " المقبول المقتول ". وبزواجه من خديجة شقيقة السلطان القانوني، بات إبراهيم يستحق لقبًا إضافيًا هو " **داماد** " الذي يُمنح لصهر السلطان، وأصبح واحدًا من ثلاثة صدور عظام في التاريخ العثماني يحملون اسم " داماد إبراهيم باشا ".

3 - الصعود والأعمال

بارتقائه سدة الحكم عام 1520، بات سليمان القانوني يعزز مكانة صديق صباه إبراهيم، الذي قابل ذلك ببرهنة مستمرة على مهاراته الدبلوماسية وبراعته العسكرية، ما جعله يصعد سريعًا في سلم الحكومة العثمانية، وذلك بدءًا من أول مناصبه المعروفة رئيسًا للغرفة الخاصة للسلطان " خاص أوده باشي " وهي المهمة التي تجعل صاحبها الأقرب شخصيًا إلى السلطان، و"الذي لا يفارقه أبدًا" .

وحتى بعد تعيينه صدرًا أعظمًا للدولة العلية، وهو أهم منصب عثماني بعد السلطان، واصل إبراهيم باشا حصد الألقاب والمناصب، وتوسيع نفوذه في الدولة الآخذة بالتمدد، ما خوله سلطة شبه مطلقة تكاد تقترب من سلطة سيده.

وعسكريًا، شارك إبراهيم باشا في انتصارات الجيوش العثمانية، ورافق السلطان في الحملات التي قادها، في حين تولى بنفسه حملات أخرى كقائد للجيش.

كما انتدبه السلطان للقضاء على تمرد أحمد باشا الخائن واليه على مصر، ولم يعد إبراهيم باشا من هناك إلا بعد أن وضع قوانين جديدة حافظت على استقرار مصر بصفتها أهم الولايات العثمانية في الشرق الإسلامي ؛ حيث بقي فيها لنحو عام (من 30 سبتمبر 1524 وحتى 5 سبتمبر 1525) "ونظمها على النمط العثماني. قلل الضرائب. اجتمع بأصحاب الشكايات من الشعب واستمع إليهم، عمّر جامع عمرو بن العاص فاتح مصر" .

على المستوى الدبلوماسي، حققت جهود إبراهيم باشا مع الغرب المسيحي نجاحًا واضحًا، ما جعله يظهر أمامهم كصانع أساسي في السلطنة العثمانية، وبموجب ذلك بات مسؤولو البندقية يطلقون عليه لقب " إبراهيم العظيم " لاعبين في ذلك على نغمة " سليمان العظيم " وهو الاسم الذي عرف به السلطان سليمان القانوني في أوروبا.

وفي 1533، أقنع إبراهيم باشا شارل الخامس بتحويل المجر إلى دولة تابعة للدولة العثمانية، وفي 1535، أنهى اتفاقًا تاريخيًا مع فرانسيس الأول منحت بموجبه فرنسا امتيازات تجارية داخل الأراضي العثمانية مقابل التحالف معها ضد آل هابسبورغ.

كان هذا الاتفاق آخر أعمال إبراهيم باشا البارزة.

4 - براعته العسكرية

كان إبراهيم باشا قائداً عسكرياً فذاً وهذا يرجع إلى إهتمامه منذ صغره بدراسة الخطط والمهارات العسكرية للإسكندر الأكبر التي نمت فيه أسلوب التكتيكي والإستراتيجي، وكان له الفضل الأكبر في انتصارات العثمانيين ابان حكم سليمان القانوني .

فأثناء التجهيز لفتح بلجراد نصح إبراهيم باشا السلطان ان ينقل الجيش ومعداته عن طريق **نهر طونا** (الدانوب حاليا) بدلا من الطريق البرى حتى لايضطر لدخول الغابات التي يستطيع فيها المجريون القضاء على الجيش العثماني بسهولة، ونجحت الخطة وفوجئ المجريون بالجيش العثماني وقد أصبح على أبواب بلجراد.

ويعتبر إبراهيم باشا هو مهندس معركة موهاكس فقد وضع الخطة التي اكتسح فيها الجيش العثماني الجيش المجرى في ساعة ونصف فقط ومن ثم فتح بودابست. وخلال رغبة السلطان في فتح فيينا نصح إبراهيم باشا السلطان بأن يقوم أولا ببناء مخازن ومستودعات للذخيرة والطعام بطول الطريق نظرا لبعد

المسافة, كما نصحه بأن يبدأ هجومه في نهاية فصل الشتاء حتى يبدأ الحصار في منتصف الربيع حتى يتمكن من فتحها قبل أن يطول الحصار للشتاء، ولم يلتزم السلطان بنصائحه ولذلك لم يتمكن من فتحها .

وقام إبراهيم باشا بقمع تمرد قلندر جلبى في مرعش وأحمد باشا الخائن في مصر. كما قاد الجيش في الحملة ضد الدولة الصفوية وحقق نجاحا واضحا حيث استطاع دخول تبريز عاصمة الشاه واحتلال قلعة "وان" المنيعة وفتح مدينة **"اريوان"** واستكمل مع السلطان الفتح بعد ذلك حتى دخل بغداد. وبالنظر إلى مجمل الأعمال العسكرية التي تمت في عهد القانونى بعد إعدامه لإبراهيم باشا (حوالى 30 عاما) فانها لا تقارن بما حققه إبراهيم باشا أثناء خدمته كصدر اعظم (حوالى 13 عاما) . ويشتهر أن سليمان قد فتح في عهده حوالى 360 قلعة قام إبراهيم وحده بفتح نصفها كأكبر قائد عسكري مسلم من حيث عدد فتوحاته ، كما أن إبراهيم شارك السلطان في فتحه لعدة قلاع أخرى. وكان له عده أهداف أخرى كانت لتتم لولا وفاته أهمها فتح إيطاليا واستخدام الاسطول لفتح الأراضي الجديدة "" **أمريكا** "".

5 – الإعدام

بعد عودة الجيوش العثمانية إلى القسطنطينية قادمة من مواجهتها الأولى مع الدولة الصفوية، أمر السلطان سليمان بإعدام رجله الأول إبراهيم باشا ، الذي عثر عليه ليلة 22 رمضان سنة 942 هجرية ، 5 مارس عام 1536، مخنوقاً في غرفة نومه بقصر الباب العالي، أي بعد 13 عاماً من تعيينه صدراً عثمانياً أعظم.

يذكر المؤرخون أن إبراهيم، قبل إعدامه بسنوات، توسل إلى السلطان أن يتمهل في ترقيته بغية عدم إثارة حسد وزراء ومسؤولي الحكومة الكبار، الأمر الذي قابله السلطان بأن أقسم على ألا يسمح للوشاية أن تأخذ طريقاً بينهما ، وبعدم تعريض صديقه للموت الذي كان، في الدولة العثمانية ، عقوبة معتادة للمسؤول المشتبه في تقصيره أو خيانته.

إلا أن السلطان العثماني حصل على فتوى تجيز له الحنث بقسمه لقاء بناء مسجد في القسطنطينية، وواصل لسبعة ليال تناول طعام السحور مع إبراهيم باشا لوحدهما، مانحاً إياه فرصة الهرب أو حتى أن يقتل السلطان بنفسه . وكشفت رسائل إبراهيم باشا التي كتبها قبل أيام من إعدامه، علمه بنية سيده، وقراره، رغم ذلك، البقاء وفياً للسلطان.

تاريخيًا، يعد إبراهيم باشا واحدًا من 22 صدرًا أعظمًا قضوا نحبهم بأوامر من سلاطينهم وخامس صدر أعظم من حيث مدة البقاء في المنصب دون انقطاع ، غير أن مكانته - قربه الشخصي الذي أمسى عائليًا من السلطان ، ومنصبه - ثم الصلاحيات التي منحت له والأعمال التي أوكلت إليه، مع عدم وضوح الدافع الحقيقي لإعدامه ؛ جعلت المؤرخين يقدمون عدة تفسيرات لنهايته المفاجئة.

- *5 – 1 - تعاظم النفوذ*

يعتقد بعض المؤرخين أن خشية القانوني من تعاظم نفوذ إبراهيم باشا هي السبب الرئيسي لإعدامه ، وهو ما اختصره الشاعر الفرنسي لامارتين بالقول " نهاية حياة إبراهيم لم تكن لأي سبب ، ولا جريمة ، سوى عظمته" .

ففي آخر نشاط عسكري له، كان إبراهيم قائداً أعلى لكافة الجيوش في مواجهة الإمبراطورية الفارسية الصفوية، ووقع بعض الأوامر العسكرية باسم " سر عسكر سلطان" ما عدّ خرقًا بروتوكوليًا وتجاوزًا على المقام السلطاني، و"خشي السلطان أن تكون تلك الأعمال مقدمات لاغتصاب الملك لنفسه" خاصة مع "ازدياد نفوذه على الجند والقوّاد"[6] واتخاذه القرارات منفردًا دون التشاور مع الوزراء .

كما اتهم الصدر الأعظم بطمعه في عرش المجر، بل وبالعرش العثماني نفسه "وهما تهمتان لم يقم عليهما برهان" .

6 - مؤامرات السلطانة خُرَّم

معظم الروايات واراء المؤرخين اكدت على إبراهيم كان ضحية لمؤامرات **"خُرَّم"** وهي ابنة كاهن أرثوذكسي أوكراني ، بيعت كجارية وغدت لاحقًا الزوجة الثانية -والأثيرة- للسلطان سليمان القانوني، ومارست أدوارًا مهمة ضمن ما يعرف بـ"سلطنة الحريم".

ووفقًا للروايات، فإن السلطانة "خُرَّم" سعت لتقويض ثقة السلطان بإبراهيم باشا، خاصة مع دعمه منذ البداية لولي العهد مصطفى النجل الأكبر للسلطان من زوجته الأولى ماه دوران، وإذ لم يكن بوسعها "تحريك وزير أعظم كهذا ضد ولي العهد الشرعي" فقد حاكت "المؤامرات الدقيقة الخفية التي لا تطفو على سطح الماء" كي تتخلص من "وزير أعظم ذي نفوذ. حيث لم يتمكن أي وزير من الذين تلوه، أن يحصل على نفوذ إبراهيم باشا" .

بعد إعدام إبراهيم، وإعدام السلطان أيضًا لولي عهده وابنه الأكبر مصطفى عام 1553، صار التاج العثماني، في نهاية المطاف، إلى **سليم**، ابن "خُرَّم".

- *6 – 1 - أزمة التماثيل*

يعتقد مؤرخون أن إبراهيم ظل محافظاً على روابط مع جذوره المسيحية، وعمد إلى تقريب اليونانيين، وجلب والديه للعيش معه في العاصمة العثمانية؛ ما منح خصومه فرصة ترويج الإشاعات عن تمسكه بمسيحيته وخطورته على الدولة الإسلامية .

كان للتشكيك في عقيدة الصدر الأعظم ما يبرره في نظر بعض المؤرخين الذين لاحظوا أن حرص الصدر الأعظم الديني صار يتدني مع تعاظم قوته، وأن معظم أعماله الإسلامية كانت في آخر عهده، ربما لمواجهة الأقاويل حول ضعف إسلامه.

وتقدم واحدة من الروايات مثالًا لما يمكن أن يؤدي إليه التساهل الديني.

فبعد عودته من الحملة المظفرة في المجر عام 1526، جلب إبراهيم باشا من بودا ثلاثة تماثيل لشخصيات الآلهة الرومانية: أبولو وهرقل وديانا، وأقامها في باحة قصره. بالنسبة للعامة، الذين يطلقون على الصدر الأعظم اسم إبراهيم الفرنجي اعتماداً على أصوله الأوروبية، فإن هذا التصرف يدل على ضعف العقيدة، بل وأخطر من ذلك: تمسكاً بالجذور المسيحية.

وفي ظل حكومة ومجتمع يرفعان شعار الإسلام، فإن لمثل حملات التشكيك هذه خطورة كبرى، بالنظر إلى أن السلطان العثماني، الذي يعد نفسه خليفة للمسلمين، ليس بوسعه احتمال عواقب صدر أعظم مشكوك في عقيدته.

- *6 – 2 - إساءة استخدام السلطة*

يزعم مؤرخون عثمانيون أن إعدام إبراهيم باشا كان بسبب إساءته استخدام السلطة ، ويعتقد أن هذه التهمة ارتبطت على نحو خاص بعمليات الحرب العثمانية الصفوية التي سار إليها أولاً إبراهيم باشا، وكان يرافقه مسؤول الخزانة (إسكندر جلبي) الذي أُعدم بسبب ما قيل إنه فساد في تصريف الأموال، أو أخطاء ارتكبها في الحملة.

قصر إبراهيم باشا الفرنجي في إسطنبول.

ويرجّح هؤلاء أن إبراهيم دفع، ولو متأخراً، ضريبة إعدام إسكندر جلبي، كما أنه بموجب القوانين العثمانية، فإن الصدر الأعظم هو صاحب الكلمة الأولى في عمليات الصرف، ويتحمل بالتالي المسؤولية النهائية لتبذير الأموال. رغم ذلك ثبت أن السبب الحقيقى لتخلص إبراهيم منه هو طمعه بالاستيلاء على مكانه.

- *6 – 3 – المحسوبية*

كانت واحدة من الأخطاء التي اتهم إبراهيم باشا بارتكابها حماية أقربائه اليونايين ورعاية مصالحهم ، والثابت أن الصدر الأعظم لم ينس أصله وعائلته، إذ زاره والده عام 1527، ولاحقًا استضاف أبويه وشقيقيه في الباب العالي ، وقد أسلم والداه .

- *6 – 4 – الخيانة*

اتهم إبراهيم بالتواطؤ مع النمسا "على ما يضر بصوالح الدولة العلية فغضب عليه السلطان. " .

- *6 – 5 - رحيل الحامية*

كانت والدة السلطان سليمان القانوني، **عايشة حفصة سلطان** شخصية ذات حضور قوي في الإمبراطورية العثمانية، ويُعتقد أنها، انطلاقاً من مفهوم " سلطنة الحريم"، كانت توفر حماية لزوج ابنتها خديجة، إبراهيم باشا ؛ وبرحيلها فقد الأخير سندًا مهمًا له وانتهى الأمر بإعدامه .

- *6 – 6 - زوجة غيورة*

كان لإبراهيم باشا زوجة ثانية اسمها **محسنة** وانجب منها بنتان ، وربما كان ضحية لغيرة زوجته الأولى ، **السلطانة خديجة** , شقيقة السلطان ، وخديجة سلطان (hatice sultan) ابنه السلطان سليم الأول , من زوجته عايشه حفصه سلطان , واخت السلطان سليمان القانوني ولدت عام 1496م و توفيت عام 1538م بعد زوجها إبراهيم باشا بعامين .

تزوجت في البداية من ثرى عثماني لكنه كان عقيما ومريضا , وفشل الطب في علاجه وتوفى بعد سنتين من زواجهما.

اثناء حصار رودس اختلف السلطان مع بيرى محمد باشا الصدر الاعظم حول استراتيجية القتال . فما كان من بيرى باشا عند عودتهم للعاصمة إلا أن قدم استقالته , قبل السلطان الاستقالة واستدعى إبراهيم واعتقه وعينه صدراً اعظما وكان عمره 28 عاما . وهكذا تسنى لإبراهيم أن يطلب من السلطان يد اخته , استشار السلطان خديجة التي وافقت على الفور . وافق السلطان على الزواج وطلب من والدته مباشرة اعدادات الزواج.

بناء على أوامر سليمان , تمت اقامة **حفلة زفاف اسطورية** لهما استمرت اسبوعين واستنزفت معظم غنائم الفتح العثماني **لرودوس** , اسهم البذخ الواضح في اثارة غضب الجنود الانكشارية وعامة الشعب واثار الحفل نقمتهم على إبراهيم.

عرفت خديجة سلطان بجمالها وطيبتها وأيضا قوة شخصيتها . كما عرفت بميلها لاعمال الخير وحبها للاستماع للقرآن وتدينها . كما عرف عنها محاولاتها المستمرة لكبح جموح خرم زوجة السلطان وتقليل مشاكلها مع مهد فران سلطان زوجة السلطان الاولى ومع السلطانة الوالدة وذلك دون الاساءة لها . لكن طيبتها في التعامل معها وايقافها للسلطانة الوالدة من اتخاذ أى اجراء نحوها كانتا الدافع لخرم للاستمرار في مكائدها حول الجميع حولها للتخلص منهم لكى لا يبقى غيرها سيدة للقصر ويتسنى لها جعل أحد ابناءها وليا للعهد

بعد تقريبا 8 اعوام من زواج السلطانة خديجة من إبراهيم , تزوج إبراهيم باشا سرا من جاريه في القصر تسمى **محسنة** muhisine كان قد اغرم بها . ويعتقد انها كانت الزوجة الاولى له وانقطع عنها إبراهيم مع زواجه من خديجة لكنه عاد لودها مرة اخرى إلى ان حملت منه وانجبت بنتا . لكن سرعان ماانكشف الامر وصارت مشكلة وبعدها ساءت علاقة إبراهيم بخديجة و بالسلطان وبعدها بعده شهور اعدم إبراهيم باشا . لذلك رجح المؤرخون ان هذا الزواج أحد اسباب اعدامه.

ادى إعدام إبراهيم باشا إلى حدوث جفاء بين السلطان واخته,التي غرقت في حزن عميق ماتت على اثره بعدها بعامين سنة 1538 وعمرها 42 عاما . كما أدى إلى تعاظم نفوذ خُرَّم سلطان بشكل كبير .

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

وكذلك ضعف مركز الأمير مصطفى الصادق الذي ما لبث ان إعدم أيضا بناء على مؤامراتها فاتحاً الباب امام اخيه سليم الثاني ليتولى الخلافة.

7 – المكانة

بإعدامه لإبراهيم ، خسر السلطان سليمان المنظّر الأول والرئيسي له ، والذي عمل منذ البداية على إعلاء صورة القانوني والترويج له بصفته الغازي المظفّر والمنافح عن الإسلام، والفاتح الجديد خلفًا للإسكندر الأكبر، البطل المفضّل لدى السلطان

خروج إبراهيم من المسرح العثماني إبان خلافة السلطان القانوني يختتم الفصل الأول من عهد الأخير، والذي وصلت فيه الدولة إلى أقصى اتساع لها شرقًا وغربًا، وبدا أن "الإدارة الحازمة والثابتة التي ميزت تصريف أمور الدولة منذ عام 1523 إنما تجد تفسيرها في التعاون الوثيق بين العاهل وصدره الأعظم".

ويمكن أن يقدم قصر إبراهيم باشا الذي تحول اليوم إلى متحف للفنون التركية والإسلامية في إسطنبول دلالتين: المكانة التي بلغها الصدر الأعظم، إذ يعد القصر الوحيد بهذا الحجم الذي يبنى لشخص من خارج الأسرة العثمانية، والتصميم الدفاعي الذي يفصح عن حجم العداوات التي كانت تهدد ساكنه.

بمقارنة مكانته هذه مع خلفائه في الصدارة العظمى إبان عهد القانوني، فإنه "حتى تعيين محمد باشا سوكوللو، في أواخر العهد، فإن من شغلوا منصب الصدر الأعظم، رغم كونهم رجالاً قادرين غالباً، هم شخصيات جد باهتة بجانب إبراهيم باشا" ، ولم ينعم أحد منهم بالمكانة التي نعم بها والسلطة التي تمت له .

8 – مدفنه

ظل مدفن الباشا موضع حيرة حتى الآن. فبرغم أن المعلومات المتوفرة حتى الآن أنه في حديقة مسورة صغيرة ملحقة بالفناء الخلفى لقصره إلا أن حقارة القبر وصغر مساحته وعدم دفنه في المقابر السلطانية قد أكثر من الاحتمالات والاقاويل حول مكان دفنه وهي كالاتى :

بارغا : مكان مولده... وذكر البعض أن إحدى وصاياه أن يدفن فيها.

مانيسا : أول مكان قابل فيه السلطان والذي كان تحت حكم الأمير مصطفى ولى العهد وربما كان دفنه هناك بطلب من مصطفى.

أياس محمد باشا

تقديم

أياس محمد باشا (Ayas Mehmed Paşa) - (1483 - 13 يوليو 1539) هو أرناؤوطي المولد ، شغل منصب الصدر الأعظم للدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني، بين عامي 1536 و1539.[2]

نشأته وصعوده

أُخذ أياس محمد باشا في طفولته إلى الآستانة وفقًا لنظام **الدوشيرمة** وأُلحق بالإنكشارية. شارك في معركة جالديران والفتح العثماني للشام ومصر. كان واليًا (بكلربك) للأناضول وحاكمًا لدمشق عامي 1520 و1521، وفي عهد سليمان القانوني صار واليًا على الروملي، ثم صار وزيرًا في أعقاب الفتح العثماني لجزيرة رودس سنة 1522. شارك في معركة موهاج وحصار فيينا والحرب العثمانية في العراق (1534 - 1535).[1]

الصدارة العظمى

في سنة 1536 صعد أياس محمد باشا إلى منصب الصدارة العظمى، عقب إعدام الصدر الأعظم السابق إبراهيم باشا الفرنجي، وظل في منصبه حتى وفاته سنة 1539. من أهم الأحداث التي جرت أثناء صدارته العظمى حملة كورفو (1537) والحرب على آل هابسبورغ في فيينا (1537 - 1540)، وسيطرة العثمانيين بشكل كامل على منطقة فلوره ـ مسقط رأس أياس محمد باشا ـ وتأسيس سنجق **دلفينا**.

وفاته

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

توفي أياس محمد باشا في الآستانة من جرّاء مرض الطاعون في 13 يوليو 1539، ودُفن في جامع أيوب سلطان.

لطفي باشا

تقديم

لطفي باشا بن عبد المعين الألباني (ت نحو 970 هـ / نحو 1562 م) فاضل من وزراء الدولة العثمانية.

صنف (الكنوز في حل الرموز) وهو شرح لأربعين حديثاً جمعها سنة 957 هـ، و(خلاص الأمة في معرفة الأئمة).

كان زوج **شاه سلطان** ابنة السلطان سليم الاول والسلطانه حفصة وشقيقة السلطان سليمان . نشأت فى مانيسا وانجب منها ابنته الوحيدة السلطان اسمهان

حمل الصدارة العظمى من 13 يوليو 1539 إلى أبريل1541.

وفى عام 1541 طلقت **شاه سلطان** زوجها لطفى باشا وتمت الاطاحه به ايضا . قامت ببناء مسجد سنه 1556وتوفيت سنه 1572

وتم تعيين بدله سليمان باشا الخادم

سليمان باشا الخادم

سليمان باشا الخادم (الأرنؤوطي) (توفي عام 1547) كان وحاكما على مصر من 1525 وحتى 1538 وصدر أعظم في الفترة مابين 1541 و 1544 كان قائد حصار **ديو** والسيطرة على **عدن** عام 1539 كان رجل وفي للسلطان حين ازداد العُدْوانُ البرتغالي على الهند والسواحل الآسيوية طَلَبَ الْمُسْلِمُون الهنود النجدَةَ من السُّلطان سُلَيْمَانْ القَانُوْنِيّ لمواجهة الخطر البرتغالي ، فأرسل إليهم حملةً بَحْرِيَّةً سنة 945 هـ/ 1538م , بقيادة والي مصر سُليمان باشا الخادم ،

و تمكّن العثمانيون من صَدِّ الْبُرتغاليين وإيقافهم بعيداً عن حدود المماليك الإسلامية والحدِّ من نشاطهم ، فَتَمَّ تأمينُ سواحلِ البحر الأحمر و اليمن و غيرها، و حماية الأماكن الإسلامية المقدسة من التوسُّع البرتغالي

رستم باشا

تقديم

الصدر الأعظم رستم باشا كرواتي الأصل (1500 – 1561 م) ، وصدر أعظم عثماني ، تزوج من ابنة السلطان سليمان ، يعتبر من مؤرخي الترك ، من مصنفاته : « تواريخ آل عثمان ».

حياته

طبقاً للعادة العثمانية فقد أُخذ رستم باشا من إسرته في صغره لإلحاقه بالإنكشارية في النظام المعروف بإسم الدوشيرمة , ووصل به الحال حتى أصبح سائس للخيول في قصر الباب العالي ، حيث نجح سريعاً في كسب ثقة السلطان ، كما جندته السلطانة **خُرّم** ليصبح أحد عيونها داخل القصر ، وهنا بدأت تظهر قدرات رستم الذي كان يطيع كل أوامرها وينفذ رغباتها ، فسعت خرم خلف ترقيته إستغلالاً لإخلاصه ، فعين "بيكلر بيك" او سيد السادة لأحد السناجق . استمر رستم في توسيع نفوذه وظلت السلطانة خرم تدعمه خصوصاً بعد إعدام إبراهيم باشا "رفيق صبا القانونى والصدر الأعظم وزوج اخته" حتى دخل ديوان

الدولة وأصبح وزيراً . وصاهر رستم السلطان بزواجه بإبنته محريمة عام 1539 م وهى زيجة رحبت بها خُرم ووافقت عليها لما فيها من تقوية لمركز رستم باشا وتأكيداً على إخلاصه لها . وفي عام 1543 وبعد وفاة الصدر الأعظم سليمان باشا الخادم تقلد رستم منصب الصدارة العظمى ، وهنا وصلت ثقة السلطان به لأقصي درجاتها .

دوره في التخلص من الأمير مصطفي

طبقاً للمؤرخين , فقد سعت السلطانة **خُرَم** إلى زحزحة ولي عهد القانونى مصطفى ابنه من زوجته الأولى **ماه دوران** من ولاية العهد رغبة في جعل أحد أبنائها سلطاناً مستقبلياً , واستعانت في ذلك برستم وكونوا حلفاً ضد الأمير . واستخدم رستم في ذلك رجاله داخل الديوان و في القصر لإيصال معلومات كاذبة للسلطان مفادها أن مصطفى يتهيأ للجلوس على العرش وأن الإنكشارية تدعمه في ذلك , واجه السلطان في البداية هذه المؤامرات بالحزم و معلناً ثقته التامة في مصطفى . لجأ رستم باشا إلى الحيلة فقام بتزوير ختم الأمير مصطفى وأرسل بواسطته رسالة إلى شاه الصفويين بإسم مصطفى عارضاً عليه إبرام معاهدة معه مقابل دعمه للوصول للعرش والإطاحة بسليمان , وبمجرد وصول الرد حمله رستم إلي سليمان كدليل على خيانة مصطفى . ولثقة سليمان في رستم فقد اقتنع سليمان تماماً بخيانة إبنه . و أثناء الحملة على الدولة الصفوية عام 1553 م وعندما كان الجيش في إيرجلي وجه رستم الدعوة لمصطفى للإنضمام للجيش وفى ذات الوقت حذر السلطان من أن مصطفى كان قادماً لقتله , غضب سليمان كثيراً لهذه الخيانة فأمر بقتل إبنه حيث قتل خنقاً بخيط من حرير بمجرد دخوله لخيمة والده . ودفن في بورصة.

بعد مقتله , احتجت الإنكشارية وهموا بعمل تمرد وكان مطلبهم الاساسي هو قتل رستم باشا لكن السلطان اكتفى بعزله تهدئة للإضطرابات وعين بدلاً منه **قره أحمد باشا** المقرب من الجيش **وزوج اخته السلطانة فاطمة** . رغب رستم في العودة مجدداً للصدارة العظمى و في سبيل ذلك فقد لجأ إلى تلفيق تهمة **لقره أحمد باشا** بتلقي الرشاوى ليعدمه السلطان في سبتمبر 1555 م ويعيد رستم باشا إلى موقعه مرة اخرى .

وفاته

توفي رستم باشا في عام 1561 م، وخلفه زوج ابنته سميز علي باشا.

يذكر أن رستم باشا كان مرتشياً ويعين الولاة من أوليائه ودافعي الرشاوي، ويلاحظ أن هذه هي نفس التهمة التي أزاح بها خصمه أحمد باشا سابقاً. و كان الناس يتحاكون حول ثروته التى تركها التى قدرت بالآف الأطيان وعدد من القصور والآف العبيد والخيول ومئات المصاحف بعضها مكتوب بماء الذهب ، إلا أنه رغم ذلك فقد أقام عدة مساجد في تركيا و أنشأ بعضها المعماري سنان.

كما كان رغم فساده رجل دولة قدير شديد الطاعة للسلطان (وهى أحد العوامل التي أكسبته ثقته) وشهد عصره الصلح بين الدولة العثمانية والنمسا وفيه اعترف كلاً من سليمان وشارل الخامس بفرديناند أرشيدوقاً يدفع عن المجر جزية سنوية واعترفت فيها النمسا بفتوحات العثمانيين في أوروبا لتنهى 30 عاماً من الصراع بينهم .

جامع رستم باشا في الأستانة.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

قرة أحمد باشا

تقديم

قرة أحمد باشا هو الصدر الأعظم السابع في عهد سليمان القانوني وزوج اخته السلطانة فاطمة . كان من أصل الباني ويعتقد أنه أخذ إلى الاناضول بنظام الدوشيرمة , من ضمن إنجازاته هو استيلاءه على قلعة **تيميشوارا** المجرية في يوليو 1552 م وكانت تحت سيطرة من أحد القادة إسمه **إستيفان** مدعوماً من البابا في روما .

توليه الصدارة العظمى

بناء على دسائس من رستم باشا زوج ابنته بالإضافة إلى زوجته خُرم , اقتنع السلطان سليمان أن إبنه البكر وولي عهده **شاه زاد مصطفى** ينوي التمرد عليه , فقتله ظلماً في 6 أكتوبر 1553 م أثناء الحملة على الدولة الصفوية . غضب الجيش كثيراً من المؤامرة خصوصاً الانكشارية وطالبوا بقتل رستم باشا , لكن السلطان اكتفى بعزله وعين أحمد باشا بدلاً منه تهدئة للإضطرابات خصوصاً مع قرب أحمد باشا من جنود الإنكشارية وقدرته على السيطرة عليهم .

إعدامه

عمل رستم باشا الذي سعى نحو العودة للصدارة العظمى مرة اخرى على تأليب السلطان على أحمد باشا مدعوماً من زوجته السلطانة محرمة وزوجة السلطان خُرم , طبقاً للمؤرخين فقد لفق رستم باشا تهمة الرشوة إلي أحمد باشا , و بدا وكأن الأدلة التى اتهم بيها كانت ملفقة بشكل جيد حتى أن السلطان اقتنع تماما بجريمة أحمد باشا , فأمر بإعدامه حيث أعدم ليلة 29 سبتمبر عام 1555 م بعد استمراره في الصدارة العظمى حوالى السنتين , وأعيد رستم باشا مرة أخرى إلى منصبه مفروضاً بالقوة على الجيش والشعب .

صقللي محمد باشا

صقوللو محمد باشا (1506-1579م) هو سياسي عثماني. أُخذ محمد وهو في صغره ضمن نظام الدوشيرمة لكي ينضم بعدها إلى الإنكشارية. ترقي في مناصب الدولة إلى أن أصبح قائد البحرية العثمانية ثم الصدر الأعظم للدولة لمدة 14 سنة (972-987هـ الموافق 1565-1579م)[1] تحت ثلاث سلاطين; سليمان القانوني، سليم الثاني، مراد الثالث.[2]

وهناك جامع مسمى على اسمه في اسطنبول. وهو واحد من اقوى الصدور العظام في تاريخ الدولة واعتبر عهده بداية بروز سيطرة الصدر الأعظم وانحسار دور السلاطين حيث حافظ على اركان الدولة التي طورها سليمان القانونى في عهد خليفته سليم الثاني الضعيف والذي خول الباشا صلاحيات واسعة وزوجه بابنته , فغدا محمد باشا المدبر الرئيسى في الدولة وتحكم فيها تقريبا وصار يرسم توجهاتها . غدت قوته وهيبته مصدر هام في الحفاظ على الدولة خصوصا من الوزراء والانكشارية ذوى المطامع وكذلك سلطة الحريم .أعد حملة برية محدودة لدعم خاقان القرم في محاولة لفتح أستراخان لإيقاف توسع الروس وللعمل على حفر قناة لربط نهري الدون والفولجا لتمكين السفن العثمانية من النفاذ لبحر قزوين ولكن باءت الحملة بالفشل ربما لسوء تقديرهم لقوة الروس ولدخول فصل الشتاء . هُزمت بحريته في معركة ليبانتو امام الأوروبيين فاعد اسطولا أكبر لضرب البحرية الأوروبية وصل إلى 300 سفينة فخافت الدول الأوروبية ودفعت للعثمانيين غرامة حرب كبيرة . اعدم نتيجة المؤامرات في عهد مراد الثالث ليبدأ عصر جديد في الدولة سمته تحكم الحريم وانتشار فساد الجنود الانكشارية .

لالا مصطفى باشا

لالا قرة مصطفى باشا (1500 – 1580) هو قائد عسكري وصدر أعظم عثماني. كان اللالا ألباني أو بوسني الأصل ، وزوجته هي **فاطمة خاتون**.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

كان قائمقام إيالة مصر عام 1549 م ورقي إلى مستوى **"بيلر بي"** (اي سيد السادة) في دمشق الشام .

كان قائد القوات العثمانية خلال حصار مالطا سنة 1565م وفي فتح قبرص عام 1570م وجورجيا عام 1578م . حمل الصدارة العظمى سنة 1003هـ الموافق 1580م لعده شهور حتى وفاته.عرف بقسوته تجاه أعدائه وانتقامه الشنيع منهم ومثال ذلك ما فعله مع قائد وحامية مدينة **فاماجوستا** أثناء فتح قبرص , حيث أعطاهم الأمان عند استسلامهم لكنه أمر بسلخهم أحياء.

لقب بـ " لا لا " وهي كلمة تركية تعني **المربي** , حيث كان مصطفى باشا مربي الأمير **بايزيد** ابن السلطان سليمان وموضع ثقه من الأمير. نجح سليم شقيق بايزيد ومنافسه على العرش في إقناع مصطفى باشا بخيانة بايزيد حيث سرب له الباشا معلومات عن نية السلطان في تولية الأمير سليم ولاية العهد رسمياً وشجعه على الثورة على السلطان مع وعد بدعمه , غير أنه لم يقدم دعماً فعلياً للأمير لا مادياً ولا عسكرياً وترك الأمير وجيشه فريسة لجيشي الأمير سليم والوزير صقللي محمد باشا مبعوث السلطان مما ألجأ بايزيد للهرب للدولة الصفوية ثم أعُدِمَ وأبنائه لاحقا . توفي عام 1580 م ودفن بجوار مسجد أبو ايوب الأنصاري بإسطنبول وصمم قبره المعماري سنان آغا .

هناك جامعان مسميان باسمه واحده في دمشق والآخر في قبرص.

عثمان بن أوزديمير باشا

يعتبر أوزديمير أوغلو عثمان باشا ، الوزير المهم والقائد الحربي في عهد سليم الثاني، والقائد والصدر الأعظم في عهد مراد الثالث ، بكونه أحد أهم العسكريين العثمانيين إن لم يكن أهمهم أثناء القرن السادس عشر، وقد حصل على تكريم قلما حصل عليه سواه وخلّف سجل انتصارات يصعب تكراره.

دخل عثمان باشا الخدمة العثمانية عبر والده , الذي كان حاكما لليمن لعدة سنوات، وبعد انتهاء حكمه لليمن اتّجه لفتح بلاد الحبشة ، فنجح في فتح بعض أنحائها. أما ابنه عثمان فقد أصبح أميرًا للحج المصري ، ثم عُين بكلربكيا (أميرًا للأمراء) في الحبشة خلفا لأبيه.

انتدبه الوزير العثماني مصطفى باشا والي مصر لقتال **مطهّر بن شرف الدين** في اليمن، فسار على رأس جيش من ثلاثة آلاف مقاتل مارًا بالحجاز ثم إلى مدينة **زبيد** ثم إلى مدينة **تعز** حيث دخلها فاتحا، وهزم الزبيديين عام 976 هجري (1568 م)،

ثم سار لحصار **حصن القاهرية** المنيع فعصت عليه، حتى وصله المدد العثماني بقيادة الوزير سنان باشا ، فبادر الوزير سنان باشا لعقد الصلح مع محمد بن شمس الدين ثم مع مطهر بن شرف الدين من قادة وزعماء اليمن.

جرت عدة حوادث لعثمان باشا، ومنها استدعاء الوزير سنان باشا له لِمقابلته فتباطأ في الاستجابة لطلبه لكونه مساويا له في الرتبة والمقام. وعندما وصل عثمان باشا إلى لقاء الوزير سنان باشا، أظهر الأخير مرسوما سلطانيا بتعيينه حاكما لليمن وباستدعاء السلطان سليم الثاني لعثمان باشا إلى العاصمة استانبول. أحسن السلطان استقباله في إسطانبول، وعيّنه حاكما لإقليم **شروان** عام 1578 م.

سار لفتح بلاد **داغستان** على شاطئ **بحر الخزر** حيث فتحها بعد انتصاره على الأعجام في 9 مايو 1583 م، ثم سار إلى بلاد القرم عبر جبال القوقاز وسهول روسيا الجنوبية حيث استطاع هزيمة **الخان محمد كراي** وقتله بمساعدة من أخيه **إسلام كراي** عام 1584 م ليعود إلى إسطنبول، حيث حظي باستقبالٍ شعبي وسلطاني قل نظيره في التاريخ العثماني.

يفسر هذه التظاهرة التي لا يحظى بها عادة سوى السلاطين، المجد الذي حققه عثمان باشا في غضون ست سنوات منذ التحاقه بالجيش، إذ انتصر في أربعة حروب اتسمت ظروفها بالقسوة، وفتح من إيران، التي كانت تعد الدولة الكبرى الثانية في العالم، مناطق مهمة وواسعة زادت مساحتها على 300 ألف كيلومتر مربع، وأطلق عليه لقب فاتح أذربيجان والقفقاس،

وكان أثناء ذلك قائدًا مهابًا من رجاله، وسياسيًا صريحًا حرر مرة رسالة إلى السلطان العثماني مباشرة متجاوزًا التراتبية الإدارية حذره فيها من احتمال تضرر شرف الدولة بسبب الرجال الذين وصفهم بعديمي الكفاءة، في حال لم يتدارك السلطان الوضع في الجبهة الإيرانية ويرسل إليه بالمزيد من الجند، وقد فعل.

استقبل السلطان مراد الثالث عثمان باشا بصورة خاصة في قصر **"يالي كشك"** واجتمع به منفردًا زهاء 4 ساعات بتاريخ 5 يوليو 1584، وأهداه سيفه المرصع والمعلق في خاصرته ، وخنجره المرصع، كما خلع عليه شارة رأسه السلطانية المكونة من الماسات النادرة. بعد ذلك بعشرين يومًا، في 25 يوليو 1584، عزل السلطان مراد الصدر الأعظم **سياوش باشا** وعين أوزديمير أوغلو عثمان باشا خلفًا له.

لم يطل عثمان باشا المقام في إسطنبول حتى بعد تعيينه صدرًا أعظمًا، حيث غادرها لمواصلة الفتوحات في 15 أكتوبر من نفس عام تعيينه، ووُدع بمظاهرات عارمة وصفها الشاعر حريمي ببيت شعرٍ معناه "هكذا امتلأت الشوارع بالعوام والخواص، لو رميت إبرة ما سقطت على الأرض من كثرة الأشخاص".

سرعان ما ساءت صحة الصدر الأعظم الغازي، ويعتقد أن وراء ذلك اختلاف المناخ بين حر السودان واليمن وصحراء البصرة والأحساء، حيث أولى حروبه، وبرد قفقاسيا حيث قضى سنواته الست قبل تعيينه صدرًا أعظمًا.

لم يتمكن عثمان باشا من ركوب حصانه، وكان يتنقل عبر محفة، وكان لهذا دلالة شؤم لدى الجند الذين اعتادوا خوض المعارك حول قائدهم ممتطيًا **" قرة قايتاس "** وهو جواده العربي الأسود، والشهير، والذي يعني اسمه **" الحوت الأسود"**. كان لهذا الجواد قصص في مخيلة أفراد الجيش ساعدت على تعزيز حماستهم الحربية، إذ ساد الاعتقاد بينهم أن انتصارات عثمان باشا كان وراءها هذا الحصان، كما أن صهيله لم يكن، في اعتقادهم، سوى إشارة للنصر.

في آخر أيامه، كان عثمان باشا يتمتم **" أين أنتِ يا تبريز؟ "**. هذه المدينة التي لم يتنازل الصدر الأعظم عن أمنيته في إعادة احتلالها للمرة الرابعة في تاريخ الدولة العثمانية، كما كانت آخر أحلامه العسكرية المحققة، إذ دخلها في 25 سبتمبر 1585، وفي 27 منه صلى الجمعة في جامع حسن باشا على الأصول السنية ، مكررًا نفس المشهد الذي تسيده السلطان سليم الأول في ذات الجامع قبل 71 عامًا.

وقبل أن يغادرها، وضع عثمان باشا تنظيمات وتحصينات في تبريز ستحافظ على عثمانيتها طوال 18 سنة، وبعد خروجه منها، وفي 28 أكتوبر، بدا أن آخر ما سيسمعه هذا القائد هو انتصار جديد، وقد تحقق ذلك بعد هجوم صفوي ليلي مفاجئ على مؤخرة الجيش العثماني انتهى بهزيمة المهاجمين؛ وفيما كان الجيش يعسكر في ساحل **آجي صو**، توفي عثمان باشا ليلة 30/29 أكتوبر عام 1585 (5 ذي القعدة عام 993 للهجرة).

وضع نعش عثمان باشا على ظهر جواده "قرة قايتاس" الذي كان يمتطيه طوال 30 عامًا، مع وضع السرج بالمقلوب على الطريقة التركية القديمة، وتحرك الموكب الجنائزي صوب **عامد** في ديار بكر حيث دفن القائد وفقًا لوصيته.

يعود عثمان باشا إلى عائلة **كوشتوقا** وينتمي إلى **قبيلة الشابسوغ** الشركسية ، وهو عباسي من جهة الأم ، حيث كانت الأخيرة ابنة أحد الخلفاء العباسيين، وقد فارق عثمان الحياة عن عمر 58 عامًا، تاركًا وراءه أمه وزوجته وابنة واحد

يميشجي حسن باشا

حسن باشا الملقب باليمشجي (ت 1603)، قائد تركي ألباني الأصل ، التحق بخدمة تركيا، وتولى عدة مناصب. نصبه سنان باشا الصدر الأعظم آغا على الانكشارية 1594. عين وزيراً للديوان، وأدخل إصلاحاً على العملة. تولى الصدارة العظمى 1601، وقاد الحملة على المجر، نجح في القضاء على فتنة الفرسان السباهي.

يعتقد أن يمشجي باشا كان ضحية **لكاماريلا** القصر السلطاني، وهي المجموعة المقربة من السلطان العثماني من غير ذوي المناصب، والتي عملت على الإطاحة بيمشجي خشية من تعاظم نفوذه وبتهمة ضلوعه بعلاقات مشبوهة مع الجيش الانكشاري ، وهكذا أقصي الصدر الأعظم من منصبه ثم شنق عام 1603.

نصوح باشا

نقلد الداماد نصوح باشا مهام الصدارة العظمى من ٥ أغسطس 1611 وحتى 17 أكتوبر 1614.
تعود أصوله الألبانية إلى مدينة **كوموتيني** شمالي اليونان اليوم، ولذلك يلقب بالكوموتيني ,
كما يضاف إلى بداية اسمه لقب المصاهرة الفخري "داماد" نظرًا لزواجه من عائشة ابنة السلطان أحمد الأول. يعتقد أن جهوده الإصلاحية كانت أحد الأسباب وراء أمر السلطان أحمد بإعدامه خنقًا .

معاهدة نصوح باشا

معاهدة نصوح پاشا (بالفارسية : عهدنامه نصوح پاشا) ، هي معاهدة وُقعت في 20 نوفمبر 1612، بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية بعد حرب 1603 - 1612 ، ويرتبط اسمها بـ نصوح باشا الصدر الأعظم للسلطان أحمد الأول.

خلفية المعاهدة

كانت الدولة العثمانية مشغولة في الحرب الطويلة ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة، **وثورات جلالي العلوي** في الأناضول، وحين اعتلى **أحمد الأول** عرش السلطنة العثمانية وهو ولدًا في الرابعة عشر من عمره ؛ استغل الصفويون الفرصة لاسترجاع بعض ما فقدوه في معاهدة **فرحات پاشا** التي تلت الحرب السابقة بينهما.

بدأت الحرب بهجوم الصفويين على تبريز، ونجح الشاه "عباس الكبير" وقائد جيشه **وردي خان،** في الاستيلاء على "تبريز"، منهيًا بذلك الحكم العثماني بها، وقد توغل في الأراضي العثمانية بعد أن عجزت الدولة العثمانية عن إيقاف هذا الزحف. وقد توفي في هذا الغزو سرداران (قائدان) للجيش العثماني (كلاهما بأسباب طبيعية في ديار بكر) وهما **جيگالا زاده يوسف سنان پاشا و كويوجو مراد پاشا.**

وقبل الطرفان الصلح، ووقّعا معاهدة عُرفت باسم " **معاهدة نصوح باشا** " في (24 من شعبان 1021هـ = 20 من نوفمبر 1612) ، وانتهت الحرب التي دامت نحو تسع سنوات بين البلدين، وبمقتضى هذه المعاهدة استعادت إيران ما يقرب من 400,000 كم² من الأراضي التي كانت قد استولت عليها الدولة العثمانية من قبل، بما فيها مدينة بغداد.

بنود المعاهدة

توافق الدولة العثمانية على إعادة كل الأراضي التي حصلت عليها بموجب معاهدة فرحات پاشا.
يعاد ترسيم الحدود لما كانت عليه وفق معاهدة أماسيا عام 1555.
وافقت الدولة الفارسية بدورها على دفع جزية سنوية مقدارها 200 حِمل (59000 كيلو غرام) من الحرير.
تغيير طريق الحج الفارسي ليمر عبر سوريا بدلاً من عبر العراق.

التبعات

هذه هي أول معاهدة توافق فيها الدولة العثمانية على التنازل عن أراضي. أول نظير لها على الجانب الأوروبي لن يحدث حتى عام 1699. كانت المعاهدة نجاحاً هائلاً للشاه عباس الصفوي، فوسعت أملاكه وأعادت هيبته. إلا أنه رفض دفع الخراج المتفق عليه، مما أدى إلى اندلاع الحرب مجددا بين الدولتين في عام 1615.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الداماد بيرم باشا

الداماد بيرم باشا (Bayram Paşa) - (توفي قرب أورفة في 26 أغسطس 1638) كان واليًا على مصر بين عامي 1626 و1628، ثم تولى الصدارة العظمى للسلطان مراد الرابع في الفترة من 2 فبراير 1637 إلى وفاته في 26 أغسطس 1638. كان متزوجًا من الأميرة هنزاده، أخت السلطان عثمان الثاني

يحمل حي بيرم باشا في إسطنبول اسمه حتى اليوم وهواحدى أحياء إسطنبول ، بقع على الجهة الأورُبّية من المدينة ، وأكثر أهل الحي هم من البوشناق .

البوشناق أو البشناق Bošnjaci أي البوسنيون هم مسلمو إقليمي البوسنة والهرسك وجوارها ومناطقهم الرئيسية هي البوسنة والهرسك (58%) وإقليم السنجق الواقع بين منطقتي كوسوفو ذاتية الحكم حاليا والجبل الأسود ولايزال السنجق تابعا لصربيا حتى اليوم مع ان سكانه 95% من المسلمين. ويتمتع البشانقة وخاصة في إقليم السنجق بالصلابة والشجاعة والشراسة في مواجهة العنصرية الصربية. ولذلك لم يستطع الصرب القيام بمجازر عرقية فيه خلال الحرب الأهلية.

ينتمى البوشناق في الاصل إلى السلافيين الجنوبيين لكنهم حين اعتنقوا الإسلام قبل وصول الفاتحين العثمانيين بحوالي قرن كامل وانتشر الإسلام بشكل واسع في منطقة البلقان خلال وجود العثمانيين، وبعد المجازر التي حصلت في البوسنة وألبانيا بعد وقوعها تحت حكم الامبراطورية النمساوية بعد فترة من موقعة زنتا 1699 بين العثمانيين والنمسا وروسيا وبولندا هاجر الكثير منهم إلى تركيا الحالية والبلاد العربية جنوب المتوسط واطلق الناس عليهم (البشانقة) أو (البوشناق) نسبة لبلادهم كما هاجر إليها عدد كبير من المسلمين في القوقاز (الشيشان ,الشركس، الأرناؤوط، داغستان، أباظة ,,,) خلال الفترة نفسها .

ويتميز البشناق عن مختلف المسلمين في العالم بان الإسلام جنسيتهم و قوميتهم تمييزا لهم عن العرق السلافي الذي كانوا ينتمون له قبل الإسلام وهذه مسألة فريدة في العالم تقريبا حين تصبح العقيدة : جنسية. ودخولهم في الاسم كاخوتهم الالبان الذين سبقوهم في اعتناق الإسلام قليلا، ويعود ذلك في راي المؤرخين لمرحلة سقوط القسطنطينية 1453 بيد محمد الفاتح ومنذ تلك الأيام أصبح الإسلام ميزتهم وجنسهم الذي فصلهم عن ماضيهم. فعرقهم الجديد أصبح مسلمون بين السلاف. وهم قوم ذوي بأس وشجاعة قبل سقوط البلقان بيد الدولة العثمانية. وبعدها وقد قدموا للخلافة العثمانية مساعدات كبيرة ساهمت في وصولها لأسوار فيينا بل وفتح بولندا 1672 ,ولوصول إلى بحر البلطيق، الأمر الذي أجج حقد الامبراطورية النمساوية وحلفائهم الصرب ودفعهم للانتقام منهم فيما بعد حين وقع العثمانيون معاهدة كارلونز 1699 مع الروس والنمسا وبولندا.

انتقل المسلمون البشناق إلى البلاد الإسلامية بعد معاهدة أدرنة 1829 وهاجروا إلى تركيا الحالية أول الأمر ومنها إلى بلاد الشام والتي كانوا يسمونها مثل اخوانهم من بلاد القوقاز ب **شام شريف** وكانوا يخلعون احذيتهم عند وصولهم لاول بلدة تتكلم العربية فيها، تبركا بها لانها بلاد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم..

ولايزال يعيش في هذه المنطقة عدد كبير منهم سيما في سوريا (حلب حيث استوطنوا فيهااول الأمر وخاصة في بلدة **حريتان** ثم اتجهوا جنوبا إلى حمص، دمشق، حوران،، واستوطن بعضهم بقاع مختلفة من الجولان السوري المحتل حتى اليوم) ولبنان حيث استقروا في المدن الكبيرة (طرابلس، بيروت، صيدا) وفلسطين (نابلس, جنين) والأردن، ثم اتجه فريق منهم نحو مصر فبلاد المغرب ولا تزال حتى اليوم عائلات معروفة (بوشناق) معروفة في تونس والجزائر والمغرب. كما توجد اعداد منهم اتجهت نحو المدينة المنورة وجدة خاصة. ولهم فيها شأن ثقافي وتجاري كما هي أحوالهم في كافة البلاد المسلمة التي لجؤوا لها جميعا وقد ساهموا بقوة في الحياة الثقافية والعلمية والاقتصادية والسياسية حيثما حلوّ

وعدد الشخصيات " **الكبيرة** " التي اثرت في البقاع التي استوطنوها كبير جدا (لايمكن اختصاره الآن) ولعل أشهر شخصية تاريخية عرفتها بلاد الشام : الوالي أحمد باشا بشناق الذي قضى على طموحات نابليون بالوصول لباريس عبر الاستانة من الشرق لا من الغرب. وقد رده على اعقابه في عكا سنة 1799 بمعونة السلطان محمود الثالث وحاميته واستغلاله عداء التجار والذين قدموا له المؤن اللازمة أثناء الحصار

وقد لقب بأحمد باشا الجزار في أجزاء من بلاد الشام. ولاه السلطان بعد الموقعة الشهيرة ولاية دمشق مكافئة على مجهوده الحربي في عكا.

هناك جالية كبيرة تقدر بـ 2 مليون في تركيا بينما تزيد الجالية البوسنية التي أجبرت على الهجرة لمختلف دول أوروبا الغربية وأمريكا وبعض الدول العربية بعد الفظائع العرقية التي شاهدا العالم كله تبث على الهواء عبر شاشات التلفاز لاول مرة في التاريخ، عن مليون بوسنوي.بعد انفراط الاتحاد السوفيتي السابق وموت الرئيس الأخير ليوغسلافيا جوزيف بروز تيتو وتولي السلطة سلوبودان ميلوشيفيتش حصلت عدت حوادث من أعمال التطهير العرقي عبر الجيش الوغسلافي ومليشيات صربية تم انشاؤها لهذا الغرض تزعمها الطبيب النفسي الأمريكي الجنسية الصربي العرقية رادوفان كارادیتش الذي تسلمته قبل فترة قصيرة فقط محكمة العدل الدولية في لاهاي. وارتكبت القوات الصربية مجازر بحق البوشناق كما حصل في مذبحة سربنيتشيا شمال البوسنة في إقليم بيهاتش وغيرها من مدن يوغسلافيا السابقة.يوجد أيضا بعض البوسنيون في مصر في قرية اوليله مركز ميت غمر محافظة الدقهلية ولكن عددهم قليل .

محمد باشا الطيار

تقديم

محمد باشا الطيار Tayyar Mehmed Paşa - (توفي في 24 ديسمبر 1638) هو صدر أعظم عثماني، تولى الصدارة العظمى لفترة وجيزة (من 27 أغسطس إلى 24 ديسمبر 1638) في عهد السلطان مراد الرابع. لقب بالطيار لسرعته في العمليات الحربية.

بواكير حياته

ولد في لاديك قرب البحر الأسود، وعمل كتخدا للصدر الأعظم الداماد نصوح باشا. وبعد وفاة السلطان عثمان الثاني، شارك في تمرد أباظة محمد، غير أنه انقلب عليه في معركة قيصرية سنة 1624، وعُين لاحقًا بكلربك لمنطقة ديار بكر .

صدارته العظمى

أثناء الحرب العثمانية الصفوية (1623 - 1639) ، وبينما كان السلطان مراد الرابع يسعى للاستيلاء على بغداد، توفي الصدر الأعظم بيرم باشا في الطريق إلى بغداد، فعهد السلطان بالصدارة العظمى إلى محمد باشا الطيار، الذي كان آنذاك قائدًا لحامية الموصل .

مصرعه

دام حصار بغداد أكثر من أربعين يومًا، وكان محمد باشا يقود الحصار بحذر تقليلًا للخسائر. غير أن السلطان ـ الذي كان يتعجل فتح المدينة ـ وبخ محمد باشا، فقرر الأخير شن هجوم عام شارك فيه بنفسه في 24 ديسمبر 1638. ورغم نجاح الهجوم، إلا أن محمد باشا لقي مصرعه أثناء القتال ، فحزن السلطان لمصرعه.

وقد كان محمد باشا الطيار ثالث صدر أعظم عثماني يلقى مصرعه أثناء القتال (بعد علي باشا الخادم (قُتل سنة 1511) وسنان باشا الخادم (قُتل سنة 1517)). ومن المفارقات أن أباه أيضًا كان قد قُتل عند أسوار بغداد أثناء حصار العثمانيين لها سنة 1625.

سلطان زاده محمد باشا

تقديم

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

سلطان زاده محمد باشا شغل منصب الصدر الأعظم للدول العثمانية في عهد السلطان إبراهيم الأول. ولد عام 1603 وتوفي في يوليو 1646، وهو حفيد يميشجي حسن باشا.

عُيّن محمد باشا حاكماً على مصر عام 1638، قبل أن يعود إلى العاصمة العثمانية بعد ثلاث سنوات بصفته وزيراً في بلاط السلطان، ثم عُيّن عام 1641 حاكماً على مدينة أوزو الواقعة في أوكرانيا المُعاصرة، ونجح حينها في الاستيلاء على مدينة آزوف الواقعة في غربي روسيا المُعاصرة، والتي كان العثمانيون قد خسروها سابقاً لصالح القوزاق. تبع ذلك تعيينه حاكماً على دمشق عام 1643.

محمد باشا حاكم مصر

عُيّن محمد باشا حاكماً على إيالة مصر عام 1638. وفي فبراير من العام نفسه أمره السلطان مراد الرابع بإرسال 1,500 جندي لمُساندة البعثة العثمانية المُرسلة إلى بغداد. خرجت قوات محمد باشا من مصر في مايو 1638 ولم تعد حتى يونيو 1639 بعد أن نجح العثمانيون في فرض سيطرتهم على المدينة .

شعر محمد باشا بالانزعاج عقب تتويج السلطان الجديد إبراهيم وذلك لعدم تسلمه الهدايا المُعتادة التي كان يحصل عليها حكام المقاطعات بعد تتويج السلاطين، وكان هذا بمثابة دليل على عدم توافق السلطان معه. وبالفعل عزله السلطان عن حكم مصر عام 1640 وجعله حاكماً على ولاية الحجاز الأقل أهمية. كان محمد باشا قد اتُّهم بسرقة الأموال من الخزانة المصرية لكنّه رفض تسديدها، لكنه اضطّر لدفع ما أخذه في نهاية المطاف.

الصدارة العظمى والوفاة

تسلّم محمد باشا منصب الصدر الأعظم عام 1644 بعد أن أُعدم سلفه نتيجة مؤامرات حيكت ضده في قصر السلطان إبان الفترة التي عُرفت بسلطنة الحريم ،

لذا فإنّ مُحمداً كان شديد الحذر في التعامل مع منصبه الجديد مما حدّ من فاعليّته بشكل كبير. فكان مُتملقاً للسلطان لا يرفض له طلباً ولا يُخالف له رأياً. لكنّه على الرغم من ذلك عارض إعلان الحرب على جمهورية البندقية ، لكنّ اعتراضه الحذر لم يؤخذ بعين الاعتبار واندلعت حرب كريت بالفعل عام 1645 واستمرت حتى عام 1669. انتهت هذه الحرب بانتصار العثمانيين، لكنّها كلفت خزينة الدولتين الكثير.

سرّح السلطان إبراهيم محمد باشا من منصبه عام 1645 ليتفرغ لمهمته الجديدة كقائد للجيش في جزيرة كريت مسرح الحرب التي كانت ما تزال في بدايتها، لكنه ما لبث أن توفي في يوليو 1646 .

سياوش باشا

الصدر الأعظم سياوش باشا Siyavuş Paşa عرف باسم الشهرة (أباظة باشا) أكثر من اسمه سياوش. أشغل منصب وزير الحربية في السلطنة العثمانية عام 1636 م. وأصبح عام 1642 م قائدا للبحرية العثمانية. تزوج أبنة السلطان أحمد الأول فأصبح من أصهار (داماد) القصر العثماني. أصبح واليا لمنطقة أرضروم وديار بكر وسيلسترا في عام 1643 م. ثم عينه السلطان محمد الرابع صدرا أعظم للدولة العثمانية في عام 1651م (رمضان 1061هـ).

وقد كان من مآثر أباظة باشا أثناء حكمه إلغاؤه لنظام الآغوات (أي نظام رجال الخدمة المخصيين داخل البلاط العثماني) . ونتيجة لعمله هذا أوغر المفسدون صدر السلطان عليه فأمر بعزله في 15 ذي القعدة 1061هـ 1651م ثم عين واليا للبوسنة ومحافظا لسيلسترا، وجرى تكليفه بمنصب الصدارة العظمى مرة ثانية في 8 جمادى الآخرة عام 1066هـ (1656 م) حيث توفي في مستهل رجب 1066هـ (1656 م) وهو يشغل هذا المنصب الرفيع.

غازي حسين باشا

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

تقديم

غازي حسين باشا (توفي عام 1659) هو قائدٌ عسكري وسياسي عثماني ذو أصولٍ تركية.[1] ولد بالقرب من بورصة ولا يُعرف الكثير عن أوائل حياته. شغل العديد من المناصب في الدولة العثمانية، فكان حاكم مصر (1635 - 1637)،[2][3] وكان كذلك القبطان باشا في عقد الثلاثينيّات، كما أنّه شغل منصب الصدر الأعظم لفترة قصيرة عام 1656. أُعدم غازي حسين في العاصمة العثمانية عام 1659.

غازي حسين حاكماً لمصر

تولى غازي حسين باشا حكم إيالة مصر عام 1635 حتى عام 1637. عُرف عنه القسوة والشدّة وإكثار القتل وأخذ الأموال بغير حق ممّا جعله مكروهاً من الشَّعب،[6] ولكنه في الوقت ذاته كان قائداً عسكرياً قديراً، ونجحت سياساته في تقليل السرقات وحفظ الأمن في مصر. عزله السلطان مراد الرابع عام 1637 وطالبه بإعادة الأموال التي كان قد استولى عليها للخزينة المصريّة لكنّه رفض، فزُجّ به في السجن ولم يخرج إلا بعد أن دفع مبلغاً كبيراً من المال.

حرب كريت

أراد العثمانيون بشدّة الاستيلاء على جزيرة كريت، لكنّهم واجهوا العديد من الصعوبات في سبيل تحقيق ذلك على الرغم من نجاحهم في السيطرة على العديد من مدن وحصون الجزيرة في بداية الحرب مثل **خانية** ، لكنّ العاصمة كاندية نجحت في الصمود أمام مُحاولاتهم المُستمرة. كان غازي حسين باشا أحد القادة العثمانيين في هذه الحرب، ونجح في الاستيلاء على العديد من الحصون مثل **ريثيمنو** وقاد الحصار العثماني على العاصمة كاندية. عيّنه السلطان محمد الرابع في منصب الصدر الأعظم في 28 فبراير 1656، لكنّه لم يتسلم مقاليد السلطة فعلياً، حيث غيّر السلطان رأيه سريعاً وعزله عن منصبه في 6 مارس من العام نفسه قبل حتى أن يعود إلى إسلام بول.

محمد باشا الكوبريللي

تقديم

قُتل السلطان "إبراهيم بن أحمد الأول" في (1085هـ = 1648م) بعد ثورة عارمة هزت أرجاء إستطنبول، قام بها الجنود الإنكشارية، وكثيرا ما كانوا يقومون بمثل هذه الأعمال حين يغضبون على وزير أو سلطان، ولم تكن هيبة السلاطين تردعهم بعد أن تولى على عرش الدولة العثمانية عدد من السلاطين من ذوي القدرات المحدودة والمواهب القليلة والعزائم الخائرة.

وأُجلس على عرش الدولة "محمد الرابع" الابن الأكبر للسلطان إبراهيم، وكان حدثا صغيرا لا يتجاوز السابعة من عمره فتولت جدته "كوسم مهبيكر" نيابةً السلطنة، وأصبح بيدها مقاليد أمور الدولة، وقد استمرت فترة نيابتها ثلاث سنوات، ساءت فيها أحوال الدولة، وسيطر أَغَوَات الإنكشارية على شئون الدولة، متجاوزين مؤسسات الدولة، غايتهم جمع المال والثروة دون نظر إلى مصالح الدولة العليا.

وبعد وفاة السلطانة الجدة في (1062هـ = 1651م) لم يكن عمر السلطان الصغير يسمح له بأن يتولى أمور الحكم، فقامت أمه "خديجة تارخان" بنيابة السلطنة، وكانت امرأة شابة راجحة العقل، ذات رأي وتدبير، شغلت نفسها بالبحث عن الأكْفَاء من الرجال ممن ينهضون بالدولة التي بدأ الضعف يدب في أوصالها، بعد أن تناوشتها الفتن والمؤامرات، وأحدقت بها الأخطار من كل جانب.

ووجدت السلطانة الأم ضالتها المنشودة في محمد باشا كوبريلي، وهو ألباني الأصل قوي الشكيمة وصاحب شخصية قوية، وقبْل أن يتولى المنصب اشترط أن يكون مطلق اليد في الضرب على أيدي أصحاب مراكز القوى في الدولة، وسحق المؤامرات التي قد يدبرها بعض أهل النفوذ، وقبلت نائبة السلطنة هذه الشروط، وكانت هذه أول مرة في التاريخ العثماني التي يضع فيها وزير شروطًا لقبوله منصب الصدارة.

دور عائلة كوبريلي

انتهت نيابة السلطانة الوالدة التي استمرت خمس سنوات، وتولى ابنها محمد الرابع شئون الحكم، وهو في الخامسة عشرة من عمره، وتوارت هي إلى الظل وهي في التاسعة والعشرين من عمرها، ولم

تتدخل في أمور الدولة والشئون السياسية وتفرغت لتربية ولديها سليمان وأحمد، وانصرفت إلى أعمال الخير، وفتحت بذلك لعائلة كوبريلي أن تقوم بدورها التاريخي الذي استمر سبعا وعشرين سنة، فأعادت هذه العائلة للدولة هيبتها كما كانت في عهد سليمان القانوني.

كان محمد باشا كوبريلي على كبر سنه قوي الشخصية والإرادة، عظيم الهمة، يميل إلى الشدة والترهيب فيما يتصل بأمن الدولة وسلطانها، فانتظمت أمور الدولة الداخلية، وضرب على أيدي الإنكشارية وأعادهم إلى احترام النظام والانشغال بعملهم، ومنعهم من التدخل فيما لا يعينهم من شئون السياسة.

وفي الوقت نفسه حقق للدولة بعض الانتصارات الخارجية، فهزم البنادقة وأخذ منهم جزيرة "لمنوس" وجزرا أخرى. وكان البنادقة قد استولوا على هذه الجزر واحتلوا مدخل مضيق الدردنيل، وفرضوا حصارًا بحريًا على الدولة، ومنعوا دخول المؤن والغذاء إلى إستانبول، ولولا نجاح كوبريلي في فك هذا الحصار لتعرضت الدولة إلى خطر فادح.

واستمرت صدارة محمد كوبريلي خمس سنوات أعاد في أثنائها الأمن والاستقرار للدولة، وتُوفي بعدها ودُفن في إستانبول عن ثلاثة وثمانين عاما في (1072هـ = 1661م).

أحمد باشا كوبريلي

قبل وفاة محمد باشا كوبريلي زاره السلطان محمد الرابع ليعوده، وفي هذه الزيارة زود السياسي المحنك السلطان الشاب بوصايا غالية، فنصحه بإبعاد نساء القصر عن التدخل في سياسة الدولة، وقد شاهد بنفسه ما حدث لأبيه من قبل من جراء تلك السياسة، وأوصاه باختيار صدر أعظم يملك القدرة والكفاءة على تصريف أمور الدولة وقيادة الجيوش وإدارة شئون الحرب، وما كان من السلطان إلا أن طلب منه ترشيح من يراه جديرًا بهذا المنصب الجليل؛ فأشار عليه بابنه "أحمد باشا كوبريلي"؛ ثقة منه في كفاءته وموهبته.

مولده ونشأته

ولد أحمد باشا كوبريلي في العاصمة إستانبول سنة (1045هـ = 1635م) وعُني أبوه بتربيته وتعليمه، وأعده ليكون أهلاً للمناصب الرفيعة، ولم يخيّب الولد رجاء أبيه وأمله، فكان ذكيًا موهوبًا، تخرّج في القسم العالي لمدرسة إستانبول.

واشتغل بالتدريس فترة، ثم انصرف إلى السياسة والإدارة، ترشحه مواهبه وإمكاناته العالية؛ فتولى إدارة "أرض روم" في جنوب شرق تركيا، فأحسن إدارتها وضبط أمورها، ثم انتقل في سنة (1071هـ = 1660م) واليًا على الشام، فأصلح أحوالها المختلة ونهض بمرافقها، وأحل الأمن والهدوء بها، ولم يمكث هناك طويلا فقد استلزم مرض أبيه الصدر الأعظم أن يكون بجواره، وأن يقوم عنه ببعض المهام، وكان الوالد يثق في ابنه وكفاءته فقد أعده لمثل هذا اليوم، وهيأه لجلائل الأعمال وعظائم الأمور؛ ولذلك لم يكن عجيبًا أن يأخذ السلطان محمد الرابع بنصيحة صدره الأعظم، وهو يرى ابنه الشاب يحل مكان أبيه المريض في إدارة شئون الدولة بكفاءة ومهارة عالية.

الصدر الأعظم

كان أحمد باشا كوبريلي أصغر من تولى الصدارة العظمى في تاريخ الدولة العثمانية، فلم يتجاوز عمره السادسة والعشرين، لكن هذا العمر الصغير كان مليئًا بالموهبة والنضج الذي يتجاوز السنين الطويلة ويعوض تجارب الأيام، فاتجه إلى الميدان الخارجي ورآه في حاجة إلى جهوده حتى يعيد للدولة هيبتها التي اهتزت بعد سليمان القانوني، وترك متابعة الأمور الداخلية إلى "قرة مصطفى باشا" يتولى أمرها وتدبير شئونها.

وبدأ صدارته بإعلان الدولة العثمانية الحرب على النمسا، وكانت قد انتهزت فرصة سوء الأحوال التي مرت بالعثمانيين، فنقضت معاهدة "سيتفا توروك" المبرمة بين الدولتين، وبنت قلعة حربية على الحدود بينهما، على الرغم من إخطار الدولة العثمانية لها بمخالفة ذلك لبنود المعاهدة.

سقوط قلعة نوهزل

تحرك كوبريلي من أدرنة، وبلغ المجر على رأس جيش كبير يبلغ نحو مائة وعشرين ألف جندي، مزودا بالمدافع والذخائر والمؤن المحملة على ستين ألف جمل وعشرة آلاف بغل، ودخل سلوفاكيا ضاربًا

كل الاستحكامات العسكرية التي كانت في طريقه حتى وصل إلى قلعة "نوهزل" الشهيرة، وهي تقع شمال غرب "بودابست" على الشرق من "فيينا" بنحو 110 كم، ومن "براتسلافيا" بنحو 80 كم، وهذه القلعة بالغة التحصين فائقة الاستحكامات حتى عُدّت أقوى قلاع أوروبا.

بدأ الجيش العثماني في حصار القلعة في (13 من المحرم 1074هـ = 17 من أغسطس 1663م)، ودام الحصار سبعة وثلاثين يومًا، وهو ما اضطر قائد الحامية إلى طلب الاستسلام فوافق الصدر الأعظم، واشترط خروج الحامية دون سلاح أو ذخائر، فأخلوها في (25 من صفر 1074هـ = 28 من سبتمبر 1663م)، وكان لسقوط القلعة المحصنة دوي هائل في أوروبا، وبعدها استسلمت حوالي ثلاثين قلعة نمساوية.

قضى كوبريلي الشتاء في بلجراد، ثم تحرّك في الربيع في (11 من شوال 1074هـ = 7 من مايو 1664م)، مستكملاً فتوحاته التي ألقت الفزع في قلوب ملوك أوربا، ونجح في الاستيلاء على قلعة "يني" في "سرنوار" التي تقع في الجنوب الشرقي من فيينا، وهذه القلعة هي التي تسببت في المشكلة واشتعال الحرب بين الدولتين.

أدت هزائم النمساويين إلى طلب الصلح والعودة إلى المفاوضات؛ حقنًا للدماء وإيثارًا للسلامة، واتفق الفريقان إلى احترام بنود معاهدة "سيتفا توروك"، وأن تدفع النمسا غرامات حرب للدولة العثمانية قدرها 200 ألف سكة ذهب، وأن تبقى كافة القلاع بما في ذلك القلعة التي كانت موضع النزاع تحت سيادة العثمانيين، وبعد انتهاء تلك الحرب التي دامت سنة وأربعة أشهر عاد كوبريلي إلى أدرنه في (2 من رمضان 1075هـ = 17 من مارس 1665م).

استكمال فتح كريت

كان قد مضى على فتح العثمانيين لجزيرة كريت واحد وعشرون سنة، وبقيت "كاندية" وعدة قلاع تقاوم العثمانيين؛ بسبب المساعدات التي كانت تتلقاها تلك القلاع من أوروبا، التي اعتبرت الأمر يخص الكرامة، فوقفت بكل ثقلها خلف تلك الجيوب التي تدافع عن الجزيرة.

تحرك كوبريلي وخرج السلطان في وداعه، وتحرك بأسطول بحري مكون من 167 قطعة بحرية، وشرع في حصار "كاندية" في صباح (29 من رمضان 1077هـ = 62 من مارس 1667م)، ودام الحصار نحو سبعة أشهر، ولم تسقط القلعة، وبذل العثمانيون في حصارها ثمانية آلاف جندي، واستهلكوا 200 ألف قنطار من البارود، لكن القلعة بقيت صامدة، واضطر كوبريلي إلى رفع الحصار، ريثما ينقضي فصل الشتاء، وعسكر بجيشه في خندق تحت الأرض أمام القلعة المحصنة.

وبعد انقضاء الشتاء عاود القائد الماهر حصاره مرة أخرى في (8 من المحرم 1079هـ = 18 من يونيو 1668م)، وطالت مدة الحصار حتى تجاوزت العامين كانت خلالها لا تنقطع الإمدادات العسكرية عن المدينة المحاصرة، لكن ذلك لم ينجح في دفع العثمانيين وإجبارهم على رفع الحصار، ودارت مفاوضات على تسليم المدينة، وفي أثناء ذلك جمعت الأساطيل الفرنسية والبابوية والمالطية جنودها والجرحى وغادرت المدينة، وعقد الطرفان معاهدة في (8 من ربيع الآخر 1080هـ = 5 من سبتمبر 1669م) على تتنازل البندقية عن "كاندية" بما فيها من مدافع وأسلحة للدولة العثمانية، وأصبحت بذلك جزيرة كريت تابعة للدولة العثمانية باستثناء ثلاث قلاع تُركت للبندقية لاستعمالها في الأغراض التجارية.

وقضى كوبريلي بعد إتمام الفتح وقته في إصلاح القلاع والأسوار والأبنية وتجديد المنشآت التي تأثرت بقذائف المدفعية، ثم غادر الجزيرة في (14 من ذي الحجة 1080هـ = 5 من مايو 1670م) بعد أن ظل بها ثلاث سنوات ونصف السنة.

حرب بولونيا

وفي أثناء تولي كوبريلي الصدارة العظمى دخلت بلاد القوقاز جنوبي روسيا في حماية الدولة العثمانية، فلما حاولت بولونيا الاعتداء على بلاد القوقاز استنجدت هذه البلاد بدولة الخلافة العثمانية التي سارعت إلى نجدتها، وخرج على رأس الجيش السلطان محمد الرابع وفتح عددًا من هذه البلاد، واضطر ملك بولونيا إلى طلب الصلح فأجابه السلطان، ووُقِّعت اتفاقية بينهما في (25 من جمادى الأولى 1083هـ = 18 من سبتمبر 1672م) عُرفت باسم معاهدة "بوزاكسي" غير أن هذه المعاهدة رفضها أمراء بولونيا

فاشتعلت الحرب من جديدة دون نصر حاسم، واضطر البولنيون إلى العودة إلى المعاهدة السابقة، وكانت هذه الحرب هي آخر أعمال الصدر الأعظم أحمد كوبريلي.

ملامح شخصية كوبريلي

يعد أحمد باشا كوبريلي واحدًا من أكبر الشخصيات التي تولّت منصب الصدارة العظمى في التاريخ العثماني، ودامت له خمسة عشر عاما متصلة، نجح في أثنائها في إعادة المجد القديم للدولة بفضل ذكائه وكفاءته على الرغم من صغر سنه حين تولى المنصب الكبير.

كان كوبريلي عالما في الفقه والكلام والتاريخ وهذا ما يميزه عن والده، وإن ورث منه عزمه ودهاءه، وكان واضح التفكير وسريع البديهة ينفر من المرائين والثرثارين، يُؤثر العمل على الكلام، ويدع الأعمال تتكلم عن نفسها، وكان غنيا، وقد خصص معظم ثروته للأعمال الخيرية.

وفي أخريات أيامه كان يحب مجالسة أصدقائه في أدرنة، يتبادلون الحديث عن الأدب والشعر والتاريخ، وتكونت لديه مكتبة ضخمة ضمَّت روائع الكتب وأندرها وأنفسها، وعيّن لها أربعة حفاظ أمناء.

ولم تطل الحياة بأحمد باشا كوبريلي فتُوفي عن عمر يناهز واحدًا وأربعين سنة حفلت بجلائل الأعمال، وقضى معظمها مجاهدًا على الثغور، وكانت وفاته في (24 من رمضان 1087هـ = 30 من أكتوبر 1676م)، وتولى بعده زوج أخته "قرة مصطفى" هذا المنصب الجليل.

قرة مصطفى باشا

تقديم

قرة مصطفى باشا صدر أعظم عثماني وصاحب أخر محاولة لفتح فيينا وضمها للدولة العثمانية .

حياته

ولد في مدينة ميرزفون الألبانية وخدم في عهد السلطان محمد الرابع . انتسب لأسرة آل كوبرولو الكبيرة بزواجه من ابنة محمد باشا آل كوبريلي . عين وزيراً في ديوان الدولة , ثم رقي قائداً للبحرية العثمانية في 1663 . شارك في الحرب العثمانية ضد بولندا عام1672 لمهاجمة بولندا لإوكرانيا الواقعة تحت الحماية العثمانية , وحققت الحملة النصر . وبعد وفاة شقيق زوجته الصدر الأعظم فاضل أحمد باشا عينه السلطان صدراً أعظم .

الصدارة

كانت فاتحة أعماله قيادته لحملة ضد ثورة القوزاق التى اجتاحت اوكرانيا وحققت الحملة النصر في البداية , لكن هاجم الروس العثمانيين فتراجعت القوات العثمانية واجبروا على طلب الصلح تنازلت بموجبه الدولة عن اراضي القوزاق لروسيا مقابل احتفاظها بشريط من الأراضي مطل على نهر الدنيبر .

معركة فيينا

أرادت الدولة العثمانية توجيه ضربة قوية للنمسا التى استمرت في التدخل في شؤون المجر , فجمع السلطان محمد جيشه في 1683 وانضمت اليه قوات من مصر والشام والحجاز وخرج على رأسه من أدرنه وانضم إلى الجيش قوات من كافة الولايات المار بها من البوسنة والبانيا وخانية القرم فبلغ حوالى 150 الف مقاتل . وصل الجيش بلغراد فترك السلطان قيادة الجيش لمصطفى باشا الذى اندفع بقواته حتى وصل فيينا يحميها جيش من الهابسبورغ تعتاده 10 الاف مقاتل فقط , فضرب العثمانيين الحصار عليها وتهدمت اسوارها تحت قصف والغام العثمانيين وبدا وكأن سقوطها على بعد ايام . تحرك البابا لحث ملوك اوروبا على انقاذ فيينا فتحرك الجيش البولندى بقيادة الملك يوحنا الثالث سوبياسكي ووصل لأسوار فيينا يوم 11 سبتمبر وباشر فوراً الهجوم على العثمانيين الذين بوغتوا بالهجوم فقد ارتكب مصطفى باشا خطأ فادحاً بتقسيم صفوة قواته في الخنادق لحصار المدينة وإهمال مؤخرة جيشه ,

وحدثت الخيانة في صفوف العثمانيين بسماح خان القرم للقوات الأوروبية بإيصال المساعدات للمدينة المحاصرة وذلك لخلافه مع مصطفى باشا . فهزم الجيش العثماني وانسحب ليلاً تاركاً وراءة من الغنائم ما دهش له الاوروبيون .

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

إعدامه

وردت أنباء الهزيمة الكارثية في فيينا للسلطان الذي فجع لهذه الكارثة وأرسل من يقوم بإعدام قرة مصطفى , فأعدم في بلغراد 25 ديسمبر 1683 بخيط من حرير . ويري مؤرخي المسلمين فيه ضحية لمؤامرات رجال البلاط والحريم للتخلص منه كصدر أعظم قوي .

أساطير حوله

بعد الانسحاب التركي من أسوار فيينا , دخل الاوروبيون المعسكر العثماني ودهشوا لخيم قادة الجيش التى عثروا فيها على السجاجيد المزركشة والنافورات والحوائط المزخرفة والأسَرة المُذهبة . كما عثروا على أجولة من القهوة الخضراء الغير محمصة فأصبحت هذه نواة صناعة القهوة في فيينا

ألماس محمد باشا

تقديم

ألماس محمد باشا Elmas Mehmed Paşa - (1661 - 11 سبتمبر 1697) سياسي عثماني شغل منصب الصدر الأعظم في عهد السلطان مصطفى الثاني، في الفترة من 2 مايو 1695 إلى وفاته في 11 سبتمبر 1697. اشتهر بالوسامة، ومن هنا جاء لقبه "ألماس".

بواكير حياته

كان ألماس محمد باشا تركيًا من **طوغانيورت** (التي تقع بمحافظة قسطموني الحالية في تركيا)، وكان أبوه قبطانًا حربيًا في عهد السلطان محمد الرابع. بدأ العمل في البلاط العثماني بطلب من السلطان، وكان من السياسيين العثمانيين القلائل الذين تبوؤوا مناصب رفيعة في سن صغيرة، ففي عهد السلطان أحمد الثاني عُين نيشانجيًا سنة 1688، ثم عُين وزيرًا سنة 1689.

صدارته العظمى

مرت الدولة العثمانية بسلسلة من الهزائم العسكرية أثناء حرب الحلف المقدس، في أعقاب حصار فيينا الثاني سنة 1683، الذي أعدم على أثره الصدر الأعظم قرة مصطفى باشا .

تعاقب على منصب الصدر الأعظم بعد مصطفى باشا 11 صدرًا أعظم في فترة وجيزة امتدت بين عامي 1683 و1695.

وفي 2 مايو 1695 قام السلطان مصطفى الثاني بتعيين ألماس محمد باشا صدرًا أعظم، فأظهر كفاية بالمقارنة بسابقيه، ونجح ـ مع السلطان ـ في الانتصار على إمبراطورية هابسبورغ في معركتين هما معركة **لوغوس** ومعركة **أولاش**.

إلى جانب مقدرته الحربية، حاول ألماس محمد باشا إصلاح الخزانة العثمانية. وكان الاقتصاد العثماني في القرن السابع عشر يعاني من انخفاض قيمة العملة، فقام محمد باشا بجمع كميات كبيرة من العملات المعدنية (ومنها عملات أوروبية) وسك عملات ذهبية وفضية جديدة باسم السلطان مصطفى الثاني.

معركة زانطة ومصرعه

في 11 سبتمبر 1697، وقعت معركة زانطة التي لقي محمد باشا حتفه فيها. وكان أحد ضباط محمد باشا قد وقع في أسر جيوش الهابسبورغ قبيل المعركة، فعرف منه الأمير **أوجين أمير سافوي** تفاصيل خطة العثمانيين، وتمكن من مباغتة الجيش العثماني أثناء عبوره جسرًا على نهر تيسا. وعبثًا حاول محمد باشا قيادة انسحاب منظم لجيشه الذي أربكته المفاجأة، فقُتل مختنقًا في المعمعة على أيدي جنوده.

وبعد عامين من هذه الهزيمة اضطرت الدولة العثمانية إلى توقيع معاهدة كارلوفجة، التي خسرت بموجبها أراضي المجر.

طوبال عثمان باشا

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

تقديم

طوبال عثمان باشا، يعني "عثمان الأعرج" باللغة التركية، الصدر الأعظم للإمبراطورية العثمانية.

ولد **بالمورة** ، ترعرع في سرايا اسطنبول. في سن السادسة والعشرين ترقى إلى رتبة بايلرباي وأرسل في مهمة مع حاكم مصر. أثناء رحلته، تم اعتقاله من طرف قرصان أسباني بعد معركة أصيب خلالها بجراح في ساقه تركته أعرج طوال حياته، وبسببها لقب بالأعرج. تم اقتياده كعبد إلى مالطا حيث اشتراه قبطان فرنسي من مرسيليا، وقد قام هذا الأخير بعلاج جراحه ومن ثم عتقه وترحيله إلى مصر.

لمع بريقه بعد ذلك في حرب المورة سنة 1715، وارتقى إلى رتبة الصدر الأعظم عام 1731. استطاع بمساعدة الفرنسي بونيفال إدخال النظام الأوروبي في الجيش العثماني.وقد توجت وزارته أيضا بالانتصار على نادر شاه في معركة كوريجان، وباستعادة همذان وطوروس، وبسلام كازبين الذي استعادت الدولة العلية بموجبه إقليم جورجيا من الفرس. أصبح بعد ذلك ضحية دسائس أم السلطان وتم استبعاده سنة 1732.

في عام 1733، تم استدعاؤه مجددا وكلف كقائد عام للجيش العثماني في بلاد فارس ضد نادر شاه حيث تم له النصر في جولجيلك على ضفاف نهر دجلة، الأمر الذي سمح له بتحرير بغداد. لكنه بعد هذا النصر ترك من دون إمدادات من طرف الديوان السلطاني، وهزم في نفس العام قرب كركوك حيث قضى نحبه والسيف في يده.

محمد راغب باشا

تقديم

محمد راغب باشا (1110 - 1176 هـ / 1698 - 1763 م) سياسي عثماني عالم بالعربية وكان الصدر الأعظم لدولة العثمانية.

ترجمته

مولده ووفاته في الأستانة. تدرج في مناصب الدولة من كاتب صغير إلى محاسب للخزينة إلى (مكتوبجي) للصدارة. وعين والياً بمصر سنة 1159-1161 هـ وفتك بالمماليك، ثم والياً بالرقة، فوالياً بحلب (سنة 1168) فوالياً بالشام وأميراً للحج (سنة 1170) وولي منصب (الصدارة العظمى) فبقي فيه ست سنوات وأشهراً، على عهد السلطانين عثمان الثالث ومصطفى الثالث، وتزوج بصالحه سلطان أخت السلطان مصطفى،

وجمع مكتبة حافلة تعرف باسمه، ودفن إلى جوارها (بالآستانة) وفيها مؤلفاته. كان ينظم الشعر باللغات الثلاث: العربية والتركية والفارسية؛ وله في كل منها (ديوان) وخلف آثاراً عمرانية في حلب وغيرها.

مؤلفاته

* (سفينة الراغب ودفينة الطالب - ط) مجموعة أدب وأبحاث، بالعربية، يقال لها (سفينة العلوم).
* (منتخبات - خ) من شعر المتقدمين، وفيها بعض شعره.
* رسالة في (العروض - خ).

مكتبة راغب باشا

مكتبة راغب باشا Ragıp Paşa Kütüphanesi هي مكتبة تقع في الأستانة. أسسها راغب باشا سنة 1762م . تتميز المكتبة بطراز معماري فريد وقاعتها الرئيسية مكساة بكاشي فرفوري مزركش.

تحوي المكتبة على أكثر من 6000 كتاب، وتفتح أبوابها من الساعة التاسعة صباحا حتى الساعة الخامسة مساء ماعدا يوم الاحد. وتتضمن المكتبة جناحا خاصا لكتب الاطفال

علي باشا السلحدار

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الداماد علي باشا السلحدار Silahdar Damat Ali Paşa - (1667 - 5 أغسطس 1716) قائد عسكري وصدر أعظم عثماني. شغل منصب الصدر الأعظم في عهد السلطان أحمد الثالث، في الفترة من 27 أبريل 1713 إلى مصرعه في 5 أغسطس 1716.

لقي علي باشا السلحدار مصرعه أثناء قيادته للجيش العثماني في معركة **بتروفارادين** في 5 أغسطس 1716 ، ودُفن في بلغراد ، ولُقب عقب مصرعه بـ **علي باشا الشهيد** Şehit Ali Paşa .

حسن باشا جزايرلي

الصدر الأعظم حسن باشا جزايرلي بلابيك (أبوشنب) من الأعلام المشهورين في التاريخ العثماني. ولد في القفقاس عام 1715 م وجيء به أسيرا إلى تركيا فتبنته إحدى العائلات الغنية. ولما شب أنخرط فيسلك العسكرية العثمانية وشارك في حرب النمسا. أظهر كفاءته العسكرية والإدارية عندما عين رئيسا لميناء الجزائر حيث اكتسب لقب الجزايرلي. حاول رئيس بكوات الجزائر أن يقتله ليتخلص من منافسته له فهاجر إلى إسبانيا ثم عاد إلى استانبول عن طريق إيطاليا.

- التحق بالبحرية العثمانية عام 1761 م وشارك بفعالية في معارك البحر المتوسط ضد الأسطول الروسي وأحرز عدة انتصارات عليهم فعين قائدا للبحرية وناظرا (أي وزيرا) لها في عام 1770 م

-أصبح قائدا للجيش العثماني في روتشوك عام 1774 م. وأعيد تعيينه قائدا للبحرية مرة أخرى حيث أجرى عدة إصلاحات إدارية .

- في عام 1774 م قمع العصيان الذي حدث في سوريا من قبل **ابي الذهب** وحارب في بلاد الأرناؤوط. وفي عام 1786 م أرسل إلى الإسكندرية لقمع العصيان الذي حصل في مصر وعاد إلى تركيا عام 1787 م[1]

- أرسل قائدا للأسطول العثماني في البحر الأسود عام 1788 م ولما فشل في منع الروس من احتلال قلعة ازوي قام السلطان سليم الثالث بعزله

- عين واليا على الأناضول

- في 29 شعبان 1204 هـ (1789 م) عينه السلطان سليم الثالث صدرا أعظم بعد انتصار الروس على الجيش العثماني في معركة جسر الطبق. وقد بادر الصدر الأعظم الجديد حسن باشا الجزايرلي بالذهاب إلى منطقة **شومينو** لقيادة الجيش العثماني حيث كانت الحرب دائرة مع الروس ولكنه فشل في حربه معهم مما استدعى محاكمته غير أنه توفي فجأة في شومينو في البلقان عام 1790 م

- ومن مآثره العمرانية أنه أنشأ عددا من العيون والأسبلة (مشارب المياه العامة) لينتفع بها الناس في مدينة استطنبول

محمد أمين عالي باشا

محمد أمين عالي باشا Mehmed Emin Âli Paşa - (5 مارس 1815 - 7 سبتمبر 1871) سياسي عثماني، كان المحرك الأساسي لفرمان الإصلاحات الذي صدر سنة 1856، وأحد السياسيين البارزين في الإصلاحات السياسية المعروفة باسم التنظيمات، التي شهدتها الدولة العثمانية في منتصف القرن التاسع عشر.

ولد في إسطنبول، وكان أبوه بائعا. تمكن بفضل إجادته للغة الفرنسية من الالتحاق بالسلك الدبلوماسي العثماني في صدر شبابه، وذلك عندما عُين بدائرة الترجمة سنة 1833. شغل عالي منصب سكرتير السفارة العثمانية في فيينا، ثم تولى لفترة وجيزة منصب وزير الخارجية سنة 1840، ثم نُقل سفيرًا للدولة العثمانية في لندن (1841 - 1844)، ثم عاد وزيرًا للخارجية سنة 1846، في حكومة مصطفى رشيد باشا.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

شغل محمد أمين عالي منصب الصدر الأعظم خمس مرات، وكان عالمًا ولغويًا وندًا قويًا لمعاصريه من سفراء الدول الأوروبية العظمى آنذاك في الدفاع عن مصالح بلاده. كان عالي سياسيًا إصلاحيًا رغم ما كان يتسم به من استبداد بالسلطة، طمح إلى تحويل الدولة العثمانية إلى دولة عصرية وسعى إلى ذلك طول فترة صدارته العظمى.

في سنة 1856، شهد محمد أمين عالي باشا ـ بصفته الصدر الأعظم للدولة العثمانية ـ عقد معاهدة باريس التي أنهت حرب القرم، ووقع على المعاهدة بصفته هذه.

توفي أمين عالي في إسطنبول في 7 سبتمبر 1871، بعد شهور من المرض .

مدحت باشا

تقديم

أحمد شفيق مِدحت بَاشا Ahmet Şefik Mithat Paşa (أكتوبر 1822م اسطنبول - 8 مايو 1884م الطائف الموافق 1238 - 1301 هـ)

سياسي عثماني وإصلاحي ذو توجه موالي للغرب تولى مناصب عديدة منها الصدارة العظمى ووزير العدل وخدم قبلها واليا لولاية بغداد وولاية دمشق وولاية سالونيك.

سيرة حياته

ولد أبو الأحرار مدحت باشا (او أحمد مدحت) ابن حاجى حافظ أشرف أفندى، وشهرته مدحت باشا في اسطنبول عام 1822م ونشأ في بلغاريا حيث كان والده قاضيا على بعض نواحيها وظهرت نجابة مدحت باشا منذ حداثة سنه فحفظ القرآن الكريم وتعلم اللغتين العربية والفارسية إضافة إلى لغته الأصلية التركية لذلك لقب بمدحت نظرا لذكائه ونجابته. كما برع في الخط والكتابة الأمر الذي ساعده في العمل ككاتب في مجلس الصدر الأعظم وهو لم يبلغ العشرين من العمر.

الحياة السياسية

توظف في بدايته في قلم الديوان في الباب العالي، وبدافع من تشجيع رشيد باشا صاحب فكرة حركة التجديد في الدراسة على النمط الأوربي اتخذ فرماني التنظمات بداية شاملة لهذه الحركة التغريبية تعلم مدحت اللغة الفرنسية فحذقها.

عين عام 1860م واليا على نيش فاظهر كفاية فيها, ثم عن واليا على الطوفة عام 1864م لمدة ثلاث سنوات, عاد بعدها إلى إسطنبول ليشغل منصب رئيس شورى الدولة لمدة عام واحد. نقل بعدها واليا على بغداد والخلاف بينه وبين الصدر الأعظم وقتها محمود نديم باشا.

ترك مدحت بغداد وصدر أمر تعيينه واليا على أدرنة, ولكنه في مقابلة له مع السلطان عبد العزيز تمكن من اقناع السلطان عبد العزيز بعزل محمود نديم من الصدارة، ثم أقعنه في نفس المقابلة أنه جدير بهذا المنصب فتم تعيين مدحت باشا صدار أعظم لأول مرة عام 1872م.

تمت محاكمته بأمر من السلطان عبد الحميد الثاني بتهمة الضلوع في اغتيال عمه السلطان عبد العزيز وحكم عليه بالإعدام إلا إن الحكم خفف إلى المؤبد ونفي إلى الطائف حيث مات فيها مخنوقا في ظروف غامضة عام 1884م.

يعتبر مدحت باشا من أشهر الإصلاحيين العثمانيين الذين تبنوا فكرة الإصلاح على الطريقة الأوروبية ولقب بـ "أبي الدستور" و"أبي الأحرار" حيث سعى إلى إعلان القانون الأساسي وظهور البرلمان العثماني عام 1876م.

والي بغداد (1869 - 1872)

تم تعيين مدحت باشا والياً على بغداد في عام 1869 فأخذ على عاتقه مد سيطرة الدولة العثمانية على بلدان الخليج لتشمل الكويت، قطر، والبحرين ويحل النفوذ العثماني المباشر محل السعوديين في الأحساء ونجد .

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

أثار هذا الأمر بريطانيا التي كانت ترغب في الاصطدام مع العثمانيين، لأن ذلك يخرق السلم في البحار، وقد يؤدي إلى تدمير التجارة البريطانية ، إضافة إلى المشكلات السياسية التي ستنجم عن هذه الحرب .

ثورة بغداد سبتمبر 1869 م

في أوائل شهر سبتمبر من عام 1869م -أي بعد انقضاء أربعة أشهر على ولاية مدحت باشا في بغداد- شبت ثورة شعبية في بغداد، وكان السبب المباشر لتلك الثورة هو ما عزم عليه مدحت باشا من فرض التجنيد الإجباري على سكان بغداد. أمر مدحت باشا تشكيل لجان للتجنيد قوامها ضباط عسكريون على أن يعاونهم مختارو المحلات. ويبدو أنه كان واثقاً من طاعة أهل بغداد لوجود القوات الحكومية بالقرب منهم. أصابت القرعة ثلاثمائة مكلف، ولكن هؤلاء رفضوا الإنصياع عندما استدعوا الى الخدمة، وأخذت بوادر النقمة والتحفز تظهر هنا وهناك في بعض المحلات, وكان على رأس المحلات الثائرة محلة باب الشيخ تتلوها محلة قنبر علي. وحمل الكثير من الأهالي أسلحتهم وقاموا بمظاهرة تتقدمهم الطبول وهم يصرخون تحدياً للحكومة، وتوجهت بعض العصابات المسلحة نحو الأسواق تنهب الدكاكين، ثم سارت نحو محلات اليهود والنصارى بغية العبث فيها.

كان مدحت باشا جالساً في مقره قبيل غروب الشمس فسمع اطلاق الرصاص، ولم يكد يتبين جلية الخبر حتى أسرع بنفسه الى ثكنات الجيش فصار يوزع السلاح بيده على الجنود، وأرسل قوة منهم الى محلات اليهود و النصارى وبيوت الأجانب لحمايتها خشية حدوث المذابح. ثم أمر بقطع الجسر ومنع عبور النهر بأية وسيلة، وأرسل قوة من الخيالة لكي تحيط ببغداد وتلقي القبض على كل هارب منها أو داخل اليها بغية النهب.

وركز مدحت باشا اهتمامه على محلتي باب الشيخ وقنبر علي، فوجه الى الأولى منها أربع سرايا من الجنود مع مدفع تحت قيادة اللواء سامح باشا، وكما وجه الى الثانية مثل ذلك تحت قيادة اللواء فيضي باش. والظاهر أن الأهالي أدركوا وخامة العاقبة فتفرقوا قبل أن يطلق الجنود طلقة واحدة. وعندما حل الظلام ألقت الحكومة القبض على مائة وثمانين رجلاً اتهموا بأن لهم ضلعاً في اثارة الجمهور، فمن كان يحترف "الشقاوة" أدخل في سلك التجنيد، أما الباقون فقدموا للتحقيق والمحاكمة.

ثم استدعي بعدئذٍ المكلفون الثلاثمائة الذين كانت القرعة قد أصابتهم فلبوا الدعوة طائعين. وكان ذلك ايذاناً ببدء تطبيق التجنيد الإجباري على العراق كله، فصارت الحكومة تستدعي المكلفين من جميع الألوية ولم يستثن منها سوى ألوية المنتفق والدليم والعمارة باعتبار أن أكثر السكان فيها هم من العشائر الرحالة.

تلقى نافذ باشا قائد الحملة العثمانية على الأحساء وهو بالهفوف دعوة من قاسم بن ثاني حاكم قطر، حيث أراد التخلص من قيود تعهدات أبيه مع الحكومة البريطانية، هذا بالإضافة إلى التخلص من دفع الجزية المفروضة على قبائل قطر لشيوخ البحرين .

رفع الشيخ قاسم بن محمد بن ثاني العلم العثماني على قصر الحكم وقصره الخاص في الدوحة فرحب مدحت باشا بالدعوة، ذلك أنه كان يخشى من محمد بن ثاني الذي كان يعتنق الدعوة السلفية من أن يعمل على شد أزر السعوديين بالإضافة إلى حضوعه للانجليز فعين مدحت باشا قاسم بن محمد بن ثاني قائم مقام قطر في عام 1288 هـ/ يوليو 1871 .

وفاته

نفي إلى الطائف حيث مات فيها مخنوقا في ظروف غامضة عام 1884م

عود على بدأ

وُلد أحمد مدحت باشا في إستطنبول سنة 1237هـ - 1822م وهو ينتمي في الأصل إلى يهود الدونمة، وهي طائفة ظهرت في الدولة العثمانية بعد ادعاء أحد اليهود واسمه «سبتاي زيفي» أنه المسيح الموعود، ثم تظاهر هذا الرجل بالإسلام وأمر أتباعه بنفس التظاهر كي يدمروا الدولة العثمانية من داخلها، فكانوا مسلمين ظاهرًا ويهود صهاينة في الباطن.

انضم مدحت باشا في شبابه إلى المحافل الماسونية التي أسسها اليهود في الدولة العثمانية، ومكَّنه هذا الانضمام من أن يلتحق بالسلك السياسي وزيارة العواصم الكبرى في أوروبا، وانضم لهيئة الصدارة

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

العظمى سنة 1267هـ، وتولى منصب الوزارة سنة 1277هـ، وعُيّن نائبًا في مجلس الدولة ثم حاكمًا على بغداد 1285هـ، ثم واليًا على سلانيك معقل يهود الدونمة والماسونية، ثم وزيرًا للعدل، ثم أصبح رئيسًا لمجلس الدولة وعمل على اختيار 48 نائبًا نصرانيًا من مجموع 117 نائبًا.

أخذت آلة الدعاية الماسونية في الداخل والخارج في الترويج لمدحت باشا ووصفه بحامل لواء الإصلاح والحرية في الدولة العثمانية، وأطلق عليه اسم « **أبو الدستور**» وقد شعر السلطان عبد العزيز بخطورة هذا العميل الماسوني فحاول تقليص نفوذه، ولكن مدحت باشا كان أسرع منه فتآمر عليه هو وأقرانه داخل مجلس الدولة وعزلوه ثم تآمر عليه وقتله بعد عزله بشهرين.

بعد أن قام مدحت باشا بعزل السلطان عبد العزيز ثم قتله، قام بعزل خليفته مراد الخامس، ونصَّب عبد الحميد الثاني سلطانًا على الدولة العثمانية، وهذا كان من سوء طالعه لأنه حسب أن عبد الحميد الثاني لقمة سائغة وسيكون رهن إشارته، ولكنه قد وقع في عرين الأسد كما يقولون، فبعد أن عيَّنه السلطان عبد الحميد الثاني صدرًا أعظم، قام بعزله وطرده بعد أقل من شهرين من توليه منصب الصدارة العظمى، ثم استدعاه عبد الحميد مرة أخرى وجعله واليًا على أزمير، ثم أصدر قرارًا باعتقاله سنة 1299 وذلك بتهمة التخابر مع الدول الأوروبية والتآمر على قتل السلطان عبد العزيز.

واتضح من سير التحقيقات معه أنه كان على صلة مع الإنجليز ومع رئيس وزرائهم اليهودي «دزرائيلي» حيث كان على وشك الاتفاق معه على وضع الدولة العثمانية تحت وصاية إنجلترا وأنه عازم على إعلان الجمهورية في الدولة العثمانية على أن يكون هو أول رئيس للبلاد ثم إمبراطورًا لها، تمامًا مثلما حدث مع نابليون الثالث في فرنسا، وكان إدمانه للخمر والسُكْر والعربدة من أهم أدلة إدانته، إذ شهد عليه الكثيرون بهذه الخطط والنوايا التي أفشاها حالة سكره، كما تمت إدانته في قتل السلطان عبد العزيز.

حاولت الدول الأوروبية جاهدة إنقاذ رقبة عميلها المخلص، ومارست ضغوطًا كبيرة على الدولة العثمانية، ولكنه أدين بجريمتي الخيانة العظمى والقتل وحكم عليه بالإعدام، فضغطت الدول الأوروبية وخاصة إنجلترا بمنتهى القوة لوقف تنفيذ الحكم أو تخفيفه، فصدر حكم بسجنه مدى الحياة، ثم خفف بالنفي إلى الطائف سنة 1300هـ، وهناك أرسل وراءه السلطان عبد الحميد الثاني من يقتص منه جزاءً وفاقًا لجرائمه بحق أمته، فقتل خنقًا كما يفعل مع الخونة والفسقة في 9 جمادى الآخرة 1301هـ.

أحمد توفيق باشا

تقديم

أحمد توفيق باشا (1845 - 1936) سياسي عثماني كان آخر من شغل منصب الصدر الأعظم عام 1922،

ولد في اسطنبول يوم 11 فبراير 1845 وتوفي فيها يوم 8 أكتوبر 1936. إلى جانب شغله منصب الصدر الأعظم لثلاث مرات، وهي ثاني أعلى وظيفة في الدولة العثمانية بعد السلطان، شغل عددًا من المناصب الهامة فكان وزير الخارجية العثمانية لأربعة عشر عامًا خلال سلطنة عبد الحميد الثاني ومحمد السادس، وقد دام مجموع صدارته سنتين وأربع أشهر وتسعًا وعشرين يومًا.

حياته المبكرة

تعود جذور أسرة أحمد توفيق باشا إلى التتار القادمين من القرم، ومن المنحدرين من ذرية الصدر الأعظم السابق إسماعيل حقي باشا. والده إسماعيل باشا كان فريقًا في الجيش العثماني. كوالده انخرط أحمد توفيق باشا في السلك العسكري حتى وصل إلى رتبة ملازم ثان، ولكن بسبب انتكاسات صحيّة خرج من السلك العسكرية انحرط في دائرة الترجمة العسكرية، ثم تحوّل عام 1872 إلى وزارة الخارجية العثمانية وعيّن سفيرًا للدولة العثمانية في إيطاليا والنمسا وروسيا ثم القائم بأعمال السفارة العثمانية في اليونان، وأخيرًا سفيرًا في برلين لمدة عشر سنوات بدءًا من 1885، وهناك تزوج وأنجب خمسة أطفال.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

بعد عودته من برلين عام 1895 عينه عبد الحميد الثاني وزيرًا لخارجية الدولة العثمانية، وقد استمر في المنصب حتى 1908، ثم تم تعيينه عضوًا في مجلس الأعيان العثماني بعد الانقلاب الدستوري لعام 1908 والذي كان يهدف إلى تحويل الدولة العثمانية إلى ملكية دستورية.

صدارته العظمى

- *الصدارة الأولى*

عينّ صدرًا أعظم في 13 أبريل، بعد استقالة حسين حلمي باشا بداعي التقدم في السن وقد تداول اسمه كخليفة له منذ 31 مارس، خلال اضطرابات أمنية شهدتها عدد من مناطق الأناضول، وقد طلب منه الخليفة تشكيل حكومة تتألف من شخصيات معتدلة ومحايدة من أعيان اسطنبول وأضنة. حاولت الحكومة منع حوادث العنف التي أخذت بالتنامي، واقترحت إدخال الجيش لمنع تفاقم العنف في إسطنبول، لكن الحكومة فشلت في ذلك، فطلب منه السلطان تقديم استقالته، وأعاد عهدة الصدارة إلى حسين حلمي باشا. وبعد أن استقال عينّ سفيرًا في لندن عام 1911 وقضى بها حتى 1914 حين اندلعت الحرب العالمية الأولى وما رافقها من سحب للسفير العثماني فيها.

- *الصدارة الثانية*

بعد انسحاب الدولة العثمانية من الحرب العالمية الأولى وتوقيعها هدنة مودروس قدم أحمد عزت باشا الصدر الأعظم استقالته، فكلف أحمد توفيق باشا مهام الصدارة للمرة الثانية، في 11 نوفمبر 1918. في اليوم الثاني من تعيينه، لم يحترم الحلفاء الهدنة، بل قامت أساطيل بحرية بالدخول إلى اسطنبول. ما شكل استياءً عارمًا لدى السلطان محمد السادس. وفي الأيام التالية، دخل الحلفاء إسطنبول نفسها وأعلنوا حل الحكومة والبرلمان ثم أعيد توفيق باشا في 12 يناير ليزاول مهامه كصدر أعظم، ولكن قوات الحلفاء رفضت تعيينه من قبل السلطان وألحت عليه لإقالته، فطلب السلطان منه تقديم الاستقالة مع حكومته، فاستقال في 3 مارس 1919، ولم يمض على صدارته الثانية سوى أقل من ثلاثة أشهر.

خلال مؤتمر باريس للسلام الذي انعقد بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ترأس الوفد العثماني، ووصل باريس في 22 أبريل 1920، وقد أفاد أن الظروف التي رافقت المؤتمر والمفاوضات التي جرت كانت قاسية جدًا، وسعى إلى تخفيف الشروط الموضوعة على الدولة العثمانية لكنه فشل في ذلك، وعاد يوم 11 يونيو 1920، وقد أرسلت الدولة وفدًا آخر برئاسة فريد باشا، وافق على شروط المؤتمر ووقع على معاهدة سيفر.

- *صدارته الثالثة*

في 21 أكتوبر 1920 عينّ صدرًا أعظم للمرة الثالثة، وهي أطول مدة مكث بها في الصدارة إذ جاوزت السنتين، لكنها كانت فترة احتضار الدولة العثمانية بعد اقتصار حدودها على إسطنبول ومناطق أخرى في تركيا، بينما تشكلت حكومة ثانية في أنقرة برئاسة مصطفى كمال أتاتورك. وقد قاد مفاوضات مع حكومة أنقرة لمحاولة الوصول إلى حل وسط ، لكن المفاوضات فشلت. وبعد إعلان النظام الجمهوري في البلاد وإلغاء السلطنة، قدّم استقالته في 4 نوفمبر 1922، و تنحي عن العمل السياسي لكنه رفض مغادرة البلاد.

وفاته

في 8 أكتوبر 1936 توفي أحمد توفيق باشا في حي بشكطاش، ولم يتعرض لأي مسآلة قانونية، وكان بعد صدور قانون 1934 الناظم لأسماء العائلات التركية تحول اسم عائلته إلى " **أوكادي** " ، وقد دفن في إسطنبول.

بعض القادة العسكريون البارزون في تاريخ الجيوش العثمانية

كان سلاطين بني عثمان الأوائل هم الذين يقودون الجيوش بأنفسهم , يعاونهم في ذلك صدورهم العظام , ثم أوكل السلاطين قيادة الجيوش بعد ذلك إلى بعض أبنائهم أو إلى صدورهم العظام الذين كان يضاف إلى أسمائهم لقب الغازي , وكثيرا ما استشهد بعضهم أثناء المعركة . ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

- هديم علي باشا الخادم
- سنان باشا الخادم
- محمد باشا الطيار
- ألماس محمد باشا
- طوبال عثمان باشا
- علي باشا السلحدار
- حسن باشا جزايرلي

ولا بد من خلال التاريخ الطويل للدولة العثمانية أن يبرز الكثير من القادة العسكريين المميزين الذين نذكر بعضهم في كتابنا هذا حسب تسلسل تاريخ قيادتهم

خير الدين بربروس

1 - تقديم

خير الدين بربروس , اسمه الأصلي خضر بن يعقوب لقبه السلطان سليم الأول بخير الدين باشا وعرف لدى الأوروبيين بباربروسا أي ذو اللحية الحمراء . هو أحد أكبر قادة الأساطيل العثمانية وأحد رموز الجهاد البحري ، تولى منصب حاكم إيالة الجزائر ثم عينه السلطان سليمان القانوني كقائد عام لجميع الأساطيل البحرية للخلافة العثمانية

2 – حياته

ولد خير الدين بربروس في حدود سنة 1472م بجزيرة لسبوس أحدى جزر اليونان بعد أخيه عروج رئيس ويعد إبنا لأحد البحارة واسمه يعقوب والذي أنجب أربعة أبناء هم خضر وإسحاق وإلياس وعروج وتعود أصول عائلته إلى ألبانيا وحسب بعض الروايات تقول بأنه تركي .

اشتغل خير الدين في مقتبل عمره بالتجارة مع والده وإخوته ، إذ كان لديه سفينة يتاجر بها بين سلانيك و أغريبوز ، لكنهم تحولوا إلى بحارة ومجاهدين بحريين في مواجهة فرسان القديس يوحنا ، أسر بعد ذلك عروج و قتل إلياس في أحد المعارك لكن خير الدين ساهم في إنقاذ أخيه عروج من الأسر .

توجه عروج وخير الدين نحو جزيرة جربة في تونس سنة 1504م ، وبعدها اتفقا مع أميرها أبي عبد الله محمد بن الحسن الحفصي على أن يمنحهما ميناء حلق الوادي ليجعلوا منه قاعدة لهما مقابل أن يدفعا له خمس الغنائم التي يحوزان عليـها فالتحق بهما إسحاق أيضا.

شرع خير الدين في تنظيم غاراته على سواحل وسفن إسبانيا والبندقية وفرنسا الباباوية وجنوة بالإضافة إلى تعرضه للسفن التجارية والحربية التابعة لكافة الدول الأوروبية التي لا تربطها معاهدة سلام مع الدولة العثمانية أو غيرها من الدول الإسلامية ، فحاز من ذلك على غنائم هائلة ، وأثار الرعب في سائر بلدان البحر المتوسط ، وتمكن من نقل آلاف الأندلسيين عند سقوط الأندلس لسواحل شمال إفريقيا مابين 1504م و 1510م.

اشترك مع أخيه في استعادة مدينة بجاية ، وحماية مدينتي الجزائر وجيجل واستقر هو وأخوه في قاعدته الجديدة في جيجل ثم الجزائر في سنة 1514 م واتخذا الجزائر دارا ومركزا للقوات العثمانية.

أعلن عروج نفسه سلطانا على الجزائر سنة 1516م ، وأخذ هو وخير الدين يزرعان الاستقرار وسيطرا على مناطق عديدة من الجزائر حتى استتب لهما الأمر في التراب الجزائري في مواجهة السلطان الزياني ، فكان بذلك مع أخيه واضعا أسس بناء الجزائر العثمانية التي قدر لها أن تعمر مايجاوز الثلاثمئة سنة ، وتخلى بعدها عروج عن لقب السلطان لصالح الخلافة العثمانية وأرسل بذلك للسلطان سليم الأول الذي وافق وجعل الجزائر محافظة عثمانية ووعد بإرسال جيش من الإنكشارية.

صار خير الدين خلفا لأخيه في حكم الجزائر سنة 1518م بعد استشهاد أخيه عروج في معركة قرب تلمسان ، لكنه وجد نفسه في حاجة إلى دعم رسمي أكبر من الدولة العثمانية ، فأقنع أعيان مدينة الجزائر بإرسال عريضة إلى الخليفة يعرضون فيها رغبتهم في تعيين خير الدين واليا على الجزائر وجعل الجزائر إيالة عثمانية ، فوافقوا على ذلك وأرسلوا وفدا إلى إسطنبول برئاسة أحد العلماء وهو حاجي حسين في أكتوبر 1519 م .

أحسن السلطان سليم استقبال الوفد ، ثم أرسل فرمانا يعلن فيه قبوله لعرض أعيان الجزائر ، وبعث إلى خير الدين بفرمان تعيينه بايلربايا على الجزائر ، كما بعث إليه بالخلعة السلطانية ، والراية مع 2000 جندي من الانكشارية ، وأذن بأن يجمع ما يشاء من المتطوعين من سكان الأناضول لإيفادهم إلى الجزائر وتحقق ذلك ، وبهذا كانت الجزائر أول إيالة تابعة للخلافة العثمانية في شمال إفريقيا ، وقرأت الخطبة باسم السلطان العثماني سليم الأول .

تصدى خير الدين للحملة العسكرية على الجزائر التي قادها ملك صقلية هيكو دي مينكادا في سنة 1519 م ، كما تمكن من الاستيلاء على مدينة القل وبونة (عنابة) قسنطينة ، لكنه اضطر إلى مغادرة الجزائر بعد الثورة التي قادها ابن القاضي بتحريض من سلطان تونس الحفصي الموالي للإسبان سنة 1524م ، فلجأ إلى مدينة جيجل ، إلا أنه تمكن من استعادة الجزائر مرة أخرى بعد ثلاث سنوات .

استطاع خير الدين أن ينقذ مايفوق 70.000 من المهاجرين الأندلسيين ، ونقلهم إلى الجزائر ، فازدهرت المدينة بفضل مهارة الأندلسيين الذين نقلوا إليها فنونهم وصناعاتهم ، وبفضل الغنائم التي كانت تجنيها من غزوات البحر .

تمكن من طرد الإسبان نهائيا من قلعة البينيون التي كانوا يحتلونها قبالة مدينة الجزائر ، وذلك سنة 1530م .

في سنة 1534م عينه السلطان سليمان القانوني قبطان داريا ، وبيلرباي على الجزائر ، فقام بإصلاح دار بناء السفن في إسطنبول وأعد أسطولا كبيرا أغار بثمانين قطعة منه على روجيو ، سبيرلونكا و فودي (Reggio , Sperlonga ,ve Fodi) وغيرها من المدن الممتدة على طول الساحل الإيطالي الجنوبي ، ثم استولى بعد ذلك على تونس بعد فرار سلطانها مولاي الحسن ، لكن الإمبراطور الإسباني شرلكان تمكن من احتلال تونس ، وإعادة مولاي الحسن على العـــرش .

في 1538م استولى بأمر من السلطان سليمان القانوني على 20 جزيرة من الجزر الواقعة على بحر إيجة ، وإلحاقها بالدولة العثمانية .

شعرت الممالك الأوربية برعب شديد من الغارات التي يشنها خير الدين على سواحلها وجزرها وسفنها ، فعقد شرلكان هدنة مع ملك فرنسا فرنسوا الأول ، وتنادت الممالك الأوربية لعقد تحالف صليبي كبير اشتركت فيه أسبانيا والبابا ، والبندقية ، والبرتغال ، فأعدت حملة مكونة من 600 سفينة حربية ، وسفينة دعم ، وسلمت قيادتها إلى أندوريا دوريا ، فاستعد خير الدين لمواجهة التحالف الصليبي بأسطول مكون من 122 سفينة ، ثم اشتبك معه في معركة كبيرة في خليج بروزة ، انتهت بهزيمة ثقيلة للتحالف الصليبي ، واستيلاء خير الدين على 36 سفينـة ، و 2175 أسير . فكان من أهم نتائج هذه المعركة سيطرة العثمانيين على البحر المتوسط .

في 1541م قاد الإمبراطور شرلكان بنفسه حملة كبرى على الجزائر لكنها منيت بهزيمة منكرة ، فقد فيها الإسبان معظم قطع أسطولهم . طلب الملك الفرنسي فرانسوا الأول من الدولة العثمانية التدخل إلى جانبها في حربها ضد أسبانيا ، فقاد خير الدين في 1543 أسطولا مكونا من 110 سفينة ، استولى به على مدينة نيس في أغسطس من السنة نفسها .

3 - باش قبودان الأسطول العثماني

في عام 1533 عيّن السلطان العثماني خير الدين قائدًا عامًا (باش قبودان) للأسطول العثماني.
في عام 1535 طلب الحسن الحفصي مساعدة الإسبان فأرسل شارل الخامس حملة استطاعت الاستيلاء على تونس في نفس العام.
في عام 1538 سحق خير الدين أسطول شارل الخامس في معركة بروزة التي أمنت سيطرة العثمانيين على شرق المتوسط لمدة ال 33 عاما المقبلين.
في عام 1541 أقصى أحمد بن الحسن الحفصي أباه عن حكم تونس لتبعيته للإسبان.
خلال الحرب الإيطالية 1542- 1546، وتحديدا في عام 1544م ، أعلنت أسبانيا الحرب على فرنسا. طلب فرانسوا الأول ملك فرنسا المساعدة من السلطان سليمان العثماني. أرسل السلطان سليمان خير الدين على رأس أسطول كبير وتمركز في مارسيليا التي تنازل عنها الفرنسيين للعثمانيين لمدة 5 أعوام . نجح خير الدين في دحر الإسبان من نابولي والساحل الفرنسي.
على منوال أخيه عروج قام خير الدين بإنقاذ 70.000 مسلم أندلسي مستخدما أسطولا من 36 سفينة في 7 رحلات ووطنهم في مدينة الجزائر مما حصنها ضد الهجمات الإسبانية.

4 - ما تركه وأوصى به خير الدين بربروس قبل موته

قبر خير الدين بربروس

- ترك 30 سفينة حرب كبيرة من نوع كالي (galley) ، التي أنشأها وأثثها وجهزها بدراهمه الخاصة للدولة .
- ترك عبيده الـــ 800 الذين تربوا بصورة ممتازة للسلطان .
- ترك 200 عبد له للصدر الأعظم (داماد رستم باشا) .
- ترك 10,000 ليرة ذهبية إلى ابن أخيه (مصطفى بك بن إسحاق بربروس) .
- ترك 30,000 ليرة ذهبية إلى أوقاف الجامع والقبر والأعمال الخيرية الأخرى التي شيدها في (بشكطاش) .
- ترك كافة أمواله وأملاكه الموجودة في الجزائر إلى خليفته في الجزائر (حسن أغا الطوشي) ربيبه .
- ترك باقي ثروته في استانبول لولده الوحيد (أمير البحار حسن بربروس) صهر (طرغود باشا) . ولم يترك شيء لابنته زوجة (طرغود باشا) لغنى زوجها غناء كبيرا يغنيها عن ثروة أبيها .
- منح مئات من رجاله وخدمه نقودا وأملاكا تؤمن عيشهم مدى الحياة .

- أوصى ابنه (حسن بربروس) بعدم مطالبة (الصدر الأعظم) بالدين الذي كان قد اقترضه من (خير الدين) والبالغ قيمته 210,000 ليرة ذهبية ، كما أوصاه بعدم قبول المبلغ في حالة ما إذا قام (الصدر الأعظم) بدفعه ...

5 – وفاته

توفي خير الدين عن عمر 65 عاما في قصره المطل على مضيق البوسفور بالآستانة وخلفه ابنه حسن آغا في حكم الجزائر. وما زال قبره ماثلا للعيان في إسطنبول.

درغوث رئيس

1 - تقديم

لقب بوحش البحار الضاري وبالملك الغير المتوج للبحر الأبيض المتوسط . كان أحد أفضل جنرالات عصره . البحر المتوسط بأسره بجميع شواطئه و موانيه وجزره ، يشهد بذلك . فلطالما أوجع وأضج مضجع شارلكان ملك إسبانيا . وفيليب ملك إسبانيا كثيرا ما ضاق صدره ولم يهنأ له نوم بسبب أخبار انتصاراته على قواده .

اسمه في المصادر التركية طرغود ، وفي المصادر العربية درغوث ، وفي أخرى طرغول . ولد طرغود في قرية تابعة للواء منتشة (موغلة) في سنة (890 هـ - 1485م)

دخل في البحرية كجندي بحري (لوند) عادي في سن مبكرة جدا تقارب سن الطفولة ، وفي الوقت الذي لفت فيه انتباه السلطان (قرقرود) الأخ الأكبر للسلطان سليم الأول ، كان شابا عمره 25 سنة ملاحا لسفينة.

كان قد اندفع في شبابه إلى حياة البحر بدافع حب المغامرات ، فاشتغل طرغود أولا ملاحا بسيطا ثم مدفعيا ، واشتهر في أعماله كلها واظهر تفوقا ومقدرة ، ثم سرعان ما وجه غزواته ناحية البحار الشرقية للبحر المتوسط باعثا الرعب في سفن البندقية في بحر الأرخبيل ، وسرعان ما انضم إلى الإخوة بربروس وأصبح الذراع الأيمن لخير الدين بربروس . وكان لا يرجع أبدا إلى قاعدته إلا وسفنه محملة بالأسرى والغنائم .

2 - مع سلاطين البحار (الإخوة بربروسا)

أصبح أولا قائدا لسفينة عروج بربروس ثم (خير الدين باشا) ثم أصبح قائدا لقطعة من الأسطول .

قدم خير الدين باشا (عند مجيئه على استانبول لتعيينه قائدا للقوات البحرية) في سنة (941هـ - 1534م) طرغود الذي تعاظمت شهرته ، على السلطان سليمان القانوني كأحد أميرلاته الـ19 ، كان عمره آنذاك 48 سنة - منح القانوني ، طرغود رئيس رتبة لواء بحري وأصبح اسمه في الوثائق العثمانية الرسمية (طرغود جه بك) . قام بإدارة الصاعقة البحرية لسنوات طويلة ، يلي بربروس خير الدين باشا مباشرة من حيث الشهرة . رافق خير الدين بربروس في حملاته وغزواته وكان الساعد الأيمن طوال حياته وكان قائد الاحتياط في الأسطول العثماني في معركة (بروزة البحرية) الخالدة .

3 - سقوطه أسيرا في أيدي الصليبيين سنة 1540م

في سنة (947هـ - 1540م) وفي أثناء إحدى غاراته على جزيرة كورسيكا سقط طرغود أسيرا في يد (جانيتينو دوريا) حفيد دوريا أميرال الأسطول الاسباني . سيق طرغود مكبلا أمام الأميرال الصغير فوق سفينة القيادة ، وكان دوريا الصغير لم يبلغ الرابعة والعشرين من عمره ، واستصغر طرغود هذا القائد وغضب وحنق أن يقع أسيرا في قبضة هذا الفتى الأمرد مكبل الرجلين بالحديد . ولا حظ دوريا الصغير استخفاف طرغود به فقام بضربه بالسياط فضربه ضربا مبرحا وأهينت كرامته وربط بالسواري ، وبقي طرغود في الأسر أربع سنوات مربوطا في مجاديف أندريا دوريا . ظلت حكومة الأستانة تلح على شارل

كوينت في إطلاق سراح طرغود ، وكان السلطان نفسه والوزير الأكبر مهتمين اهتماما بالغا بأمر تخليص طرغود من الأسر. ولكن دون جدوى .

4 - خير الدين يقود الأسطول العثماني ويحرر طرغود

قام (خير الدين بربروس) بقيادة 100 سفينة من سفن الأسطول ورسى أمام سواحل ليقوريا (إيطاليا) ليجبر حكومة جنوة على تسليم طرغود مهددا إياها بضربها ودك مينائها ومهاجمة سفنها إذا امتنعت عن تسليمه . أمام هذا التهديد وخوفا من التعرض لنقمة العثمانيين قام الجنويين بإطلاق سراح طرغود من الأسر ، وعاد البطل إلى أسطوله ورجاله ولم يزده الأسر والضيم الذي لاقاه إلا إصرارا على المضي في عمله دون هوادة أو خوف ، فقام بتكوين أسطولا قوامه 14 سفينة غزا به سواحل نابولي ، ثم طرد الأسبان من سوسة ، والمنسيتر وسفاقص (التونسية) واحتلها وكان يسعى إلى احتلال المهدية ليجعل منها قاعدة لأعماله البحرية.

في سنة (953هـ - 1546م) فقدت الأمة الإسلامية جمعاء أسطورة البحار (رعب البحر المتوسط) قائد أساطيل الإسلام (خير الدين بربروسة) الذي دفن في ضريحه الذي بناه في استانبول مطلا على البحر) وظل الأسطول العثماني كلما خرج للغزو يحي خير الدين رحمه الله بضرب مدافعه كلها وظل هذا الأمر إلى قبل سقوط الخلافة بفترة بسيطة.

وبالرغم من ذلك لم تنكسر شوكة العثمانيين بموت الأسطورة ، وقيد (الله عز وجل) طرغود باشا ليقوم بالأمر من بعده .

الاسطول الحربي للدولة العثمانية

5 - طرغود ومهدية

في فبراير (1550م – 957هـ) خرج طرغود في 36 سفينة واتجه بها نحو المهدية واحتلها دون صعوبة بمساعدة سكانها العرب . كانت قاعدته جزيرة جربة . تمكن من الاستيلاء على أربعة أخماس القطر التونسي وحشر السلطان الحفصي في مدينة تونس وضواحيها . احتل ميناء بنزرت . لكنه أولى اهتماما خاصا بتحصين قلعة مهدية في الجنوب كقاعدة بحرية ، بصورة ممتازة .

كان عروج رئيس قد فتح من قبل مدينة مهدية (مدينة العرش الفاطمية القديمة) . وفشلت كل المحاولات الاسبانية – الحفصية المختلفة حتى (957 هـ - 1550م) في إخراج طرغود من مهدية . كان طرغود في ربيع هذه السنة ، أولا في خليج (بلنسية) ثم في جزر البليئار . وكان في مهدية كل من عيسى رئيس ، وابن أخ طرغود (حصار رئيس) شوهد عند ذلك أسطول (اندريا دوريا) المكون من 47 قطعة أمام مهدية وكان طرغود يقضي الشتاء في جربة. فسقطت المهدية في أيدي أندريا دوريا سنة (957هـ - 1550م.)

قام الصليبيون بذبح معظم سكان المدينة . وأخذوامن بقي منهم وعددهم 7000 كعبيد . أدرك الأسبان بعد ذلك عدم إمكان احتفاظهم بمهدية ،مما جعلهم يقومون بهدم قلعتها من أساسها في بداية سنة (962هـ - 1554م) وانسحبوا عنها . تأثر الديوان الهمايوني من سقوط مهدية وأرسل إلى شارل كوينت رسالة شديدة اللهجة . فأجاب الإمبراطور بأن حربه ضد قرصان وليست ضد الأتراك .

6 - في جربة

في (مارس 1551م – 958هـ) وبعد سقوط المهدية حاول اندريا دوريا القبض على طرغود فقام بضرب جربة وهاجمها بـ 150 سفينة ولكن وبالرغم من أن طرغود لم يكن مستعدا للقتال استعدادا كافيا ، فإنه لم يقف مكتوف اليدين فقام بجمع رجاله واستعان بسكان الجزيرة وأخذ يصب نيران مدافعه على الأسطول الصليبي بعمل لم يكنوا يتوقعوته ، ففي ظلام الليل قام طرغود ببناء قلعة صغيرة في رأس الجزيرة ونصب عليها المدافع وأخذ يصلي أسطول دوريا بنيران مدافعه

. وجد دوريا نفسه في خطر داهم فبعث إلى (نائب الملك في صقلية) طالبا إمداده بأسطوله وطلب الطلب ذاته من ملك نابولي ، فلم يتأخر رؤوس الصليبين في نجدة دوريا وبعثوا بجميع قطع أساطيلهم ورجالهم لمساعدته . كان طرغود عظيما حقا ، فقد كان يتتبع حركت أسطول دوريا وكان واقفا على جميع أسراره ، وكان ينتظر أن يقوم دوريا بحملة قوية عليه في الجزيرة ، فلجأ طرغود إلى حيلة تظهر جليا براعته ومقدرته الفائقة في الشئون الحربية وقام بالانسحاب بأسطوله إلى الناحية الأخرى من الجزيرة بواسطة مزالق مدهونة ولم يستطع دوريا القبض عليه مما أثار دهشته وجنونه مما فعله طرغود به .

في (ربيع 1551م – 958هـ) تم استدعاء طرغود إلى الديوان الهمايوني مع عقدائه السبعة إلى استانبول وكان معهم (قلج علي الذي سيصبح قائد الأسطول العثماني في المستقبل القريب) ، وتم وضع تحت إمرته (90 سفينة حربية – 90 سفينة نقل) وتم تكليفه بالإغارة على سواحل النصارى في البحر المتوسط .

7 - حملة صقلية

قام طرغود بالإغارة على صقلية وقام بإنزال 1500 مقاتل من جنود البحرية واحتل ميناء (أوجتا) على مقربة من شمال (سيرا قوسا) وذلك بعد مقاومة استمرت يومين مما أسفر عن هزيمة القوات الصليبية التي جائت لدعم صقلية بقيادة (دون هيرنان دو فيجا) .

8 - حملة مالطا / وفتح جوزو

في (16يوليو 1551م – 958هـ) قام طرغود بالإغارة على مالطا وقام بالاستيلاء على جزيرة (جوزو) وأسر كافة سكانها البالغ عددهم (7000 شخص) ، واركبوا البواخر ووضعت في الجزيرة حامية عسكرية . في أثناء ذلك حاولت اسبانيا دعم مالطا فهبت عاصفة شديدة أغرقت 8 سفن من الأسطول الأسباني وغرق 1500 اسباني بالقرب من جزيرة (لامبيدوسا)

9 - حملة طرابلس الغرب / فتح طرابلس وتحريرها من أيدي فرسان مالطا

سقطت طرابلس الغرب في أيدي الأسبان في سنة (916هـ1510 - م) ، وظلت بحوزتهم إلى أن قام البابا بالتوسط لدى (شارل كوينت) ملك إسبانيا في إعطائها لـ (فرسان مالطا) ألد أعداء المسلمين تقديرا لجهودهم في الحملات والحروب الصليبية وذلك بعد خروجهم مكللين بعار الهزيمة والخزي من رودس على يد السلطان سليمان القانوني سنة (939هـ -1522م) .

استدعى السلطان سليمان القانوني طرغود إلى اسطنبول وطلب منه فتح طرابلس تحت قيادة (سنان باشا) الذي زوده بأسطول قوي بلغ 120 سفينة ، وأهدى طرغود مصحفا شريفا وسيفا مرصعا ، فقبل

طرغود هذه المهمة الغالية خصوصا لعلمه ما يعانيه أهل طرابلس من قسوة اليوحنيين الحاقدين ، وقام بالتبرع بخمسين سفينة حربية من ممتلكاته الخاصة لدعم الأسطول.

قام سنان باشا وطرغود ببدء الحملة ، في هذه الأثناء استطاع المسلمون العثمانيون السيطرة على غالبية ليبيا بما في ذلك (برقة) ونجحوا في تأسيس قاعدة في (تاجورا) التي تبعد مسافة 20 كم عن طرابلس وظلت تحت ولاية (مراد أغا)

كان قائد (تاجورا) القائد الهمام (مراد أغا) الذي ظل يشن الهجمة تلو الأخرى على المدينة ، وبالرغم من ذلك لم يستطع أخذها من النصارى ، ولكنه ومع ذلك منع وحد من تقدم النصارى إلى الأجزاء الداخلية للبلاد.

بدأت الحملة على طرابلس في أيام 9-10-11 ، وضرب الحصار حول طرابلس بقيادة سنان باشا يساعده طرغود ومراد أغا في إدارة العمليات الحربية ، وظل العثمانيون يقذفون المدينة ليلا ونهارا حتى اضطر الفرسان إلى التسليم بعد أن قذف الله في قلوبهم الرعب والخوف من العثمانيين.

في (15أغسطس1551م 958 – هـ) استطاع طرغود باشا بـ (40 مدفعا – 6000 جندي) الاستيلاء على طرابلس وهزم الفرسان وأجلاهم عنها ، بالرغم من الدفاع المستميت لحاكمها الفرنسي (جاسبر دي فالير) ومعاونه (داشكو سيشي).

ومنذ هذا التاريخ أصبحت طرابلس الغرب ثان إيالة عثمانية بحرية في المغرب الإسلامي ، وتولى إمرتها (مراد أغا) ، ومن بعده طرغود باشا .

10 - موقعة بونزا البحرية

في (28سبتمبر1551م 958 – هـ) أعلن (شارل كوينت) ملك إسبانيا الحرب على فرنسا ، فخرج طرغود من مركز لوائه ببروزة ، وأقلع بأسطول مكون من 112 قطعة بحرية ورسى بـ (بوزولي) ضاحية نابولي الغربية . كان بصحبته السفير الفرنسي (دار مونت) ، وكلف طرغود من الباب العالي بالدفاع عن فرنسا وتقديم الدعم البحري لها ضد اسبانيا) بالرغم من أن طرغود كان يكره الفرنسيين جدا لنكثهم العهود بصفة مستمرة.

نتيجة للتحالف العثماني الفرنسي سار (أندريا دوريا) بأسطوله والتقى بالأسطول العثماني بناحية جزيرة (بونزا) في مياه خليج (جيتا) في (5أغسطس1552م – 960هـ دارت رحى المعركة بين الطرفين ، وظل الأمر كذلك حتى هزم الأسطول الاسباني هزيمة نكراء على أيدي الأسطول العثماني بقيادة طرغود ، من خلال اسر 7 سفن وتدمير العديد من سفن أخرى ، جاء نتيجة ذلك أن قام دوريا بالانسحاب تفاديا لزيادة الخسائر في الأرواح والمعدات.

بعد انتصار بونزا قام طرغود بفتح جزيرة (كابري) المواجهة لنابولي بعد أن سيطر على بحر (تيران) مدة شهرين .ثم في سنة (961هـ - 1553م) فتح طرغود باشا مدينة قفصة التونسية .

11 – فتح كاتانيا وكورسيكا

طرغود يفتح (كاتانيا) ثان جزر صقلية و(كورسيكا) ويبيد 7000مقاتل صليبي ، ويحرر 7000 أسير مسلم) في (1 فبراير1553م – 961 هـ) تم إبرام معاهدة (استانبول) بين الدولة العثمانية وفرنسا والتي بموجبها تم وضع الأسطول الفرنسي تحت قيادة العثمانيين في مقابل المساعدات البحرية العثمانية لفرنسا . على إثر ذلك تم ضم الأسطول الفرنسي إلى أسطول طرغود في بلاد المورة (اليونان حاليا) وارتفع عدد سفنه إلى 150 قطعة بحرية.

قام طرغود بالإغارة على (كاتانيا) بصقلية ، و (باستيا) مركز كورسيكا ، واستطاع الاستيلاء على المدينة والقلعة بعد إبادة الجيش الصليبي المدافع عنها والبالغ عدده (7000 مقاتل) إبادة تامة وقام بتخليص (7000) أسير مسلم كانوا مسجونين في الجزيرة

بعد السيطرة التامة على الجزيرة عاد طرغود إلى استانبول بعد أن سلم الجزيرة للفرنسيين (للأسف) الذين لم يستطيعوا الاحتفاظ بها طويلا فقد قام دوريا باستعادتها في أواخر سنة (1553م961 – هـ) ولم يتمكن الفرنسيين من استعادتها إلا بعد مرور 200 سنة .

12 - طرغود وبيالة باشا (قائد الأسطول العثماني)

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

في سنة (962 هـ - 1554 م) عين بيالة باشا قائدا للقوات البحرية وناظرا للبحرية (قبودان دوريا) برتبة لواء بحري وكان عمره 38 سنة.

- *12 – 1 - حملة كورسيكا الثانية*

خرج بيالة في عام (962هـ - 1554م) بموجب أمر سلطاني لاسترداد كورسيكا مرة أخرى وإعطائها للفرنسيين ، الذين كانوا قد أراقوا الكثير من ماء وجههم حتى يقدم لهم العثمانيون المساعدة .

التقى بيالة باشا بأسطول طرغود ثم أسطول صالح رئيس (والي الجزائر) ، والأسطول الفرنسي بقيادة (دو لاجارد) ، فرسى في ميناء (بومبنينو) الإيطالي فقام بإنزال 3000 جندي وحاصر (كالفي) ، ولكنه غضب على الفرنسيين وجلى عن كورسيكا ولم يتمكن الفرنسيون من أخذها.

في سنة (965هـ - 1557 م) استقال دوريا أسطورة البحرية الصليبية الذي تقدم في السن من قيادة القوات البحرية ، خصوصا بعد تخلي (شارل كوينت) عن العرش وانسحب إلى قصره الكبير في جنوه وأسند قيادة القوات البحرية الاسبانية إلى ابن أخيه (جين دوريا) الذي ذاق العديد من الهزائم المريرة على أيدي البحارة العثمانيون . وفي نفس العام (965هـ - 1557 م) فتح طرغود القيروان .

- *12 - 2 - حملة جزر الباليئار*

في سنة (966هـ - 1558م) التقى بيالة باشا مع طرغود باشا بأسطول مكون من 150 قطعة بحرية واحتل كامل جزر الباليئار.

13 - موقعة جربة البحرية

يوم من أيام الإسلام كذات الصواري أكبر وابرز المعارك البحرية في التاريخ العالمي اكبر معركة بحرية جرت في البحار المفتوحة

في ظل هذه الأحداث المتوالية ، فقد أصبحت إسبانيا مضطرة لإثبات وجودها فوضعت نصب أعينها طرغود باشا وقاعدته الرئيسية بجزيرة جربة هدفا لها.

لكن الوحش كان رابضا نائما وعينيه مفتوحتين ، فقد أتت إليه الأخبار بالاستعدادات الاسبانية ، فقام على الفور بإرسال اللواء البحري (قلج علي) رئيس إلى الديوان باستانبول وأخبرهم بأن النصارى يستعدون تحت إمرة أسبانيا لتجهيز أسطول هائل للقيام بعمل ما وربما كان هدفهم جربة.

- *الجبهة الاسبانية*

يعد الأسطول الاسباني الذي تم تشكيله في ذلك الوقت أعظم أسطول تم تشكيله منذ بروزة من حيث التجهيزات والقادة والأشراف الذين انضموا إليه حيث تكون من : - 200 سفينة حربية - 30000 جندي القيادة البحرية تحت إمرة (جين اندريا دوريا). القيادة البرية تحت إمرة نائب الملك على صقلية (دون جوان دي سيردا). الأسطول البابوي بقيادة الأمير (فلامينو اورسليني) . الأسطول الفرولنسي بقيادة (أندريا جونزاج) . سفن ألمانية – سفن مالطية ، جنوية ، سفن موناكو

خط سير الحملة الصليبية / تحرك الأسطول من صقلية في (10 فبراير 1560م – 986هـ) ونظرا لسوء حالة الجو لم يتمكن من التجمع والوصول إلى جربة إلا في 2 مايو ، وأنزل جنوده في الجزيرة .عندما انزل الأسطول الصليبي قواته البرية تصدت لهم حامية الجزيرة والتي كان عددها (1000 جندي بحري) لمدة خمس أيام متتالية ، فلما تيقنوا من عدم جدوى المقاومة وتفوق الأعداء العددي والتجهيزي قاموا بالانسحاب إلى طرابلس وأخذ الأسبان الجزيرة وشيدوا فيها قلعة عظيمة ووضعوا فيها حامية مكونة من (2200) جندي بقيادة (دون آلفاروا دي ساندي).

- *الجبهة العثمانية*

في نفس الوقت عاد (قلج علي) مع سفينتين حربيتين إلى طرغود ، وفي إثره قام بيالة باشا بتجهيز الأسطول حتى يلحق بالأسبان قبل أن يحاصره طرابلس الغرب. عندما علم الأسبان بتحرك الأسطول العثماني آثروا انتظاره في جربة. خط سير الأسطول العثماني / انطلق بيالة باشا وبرفقته 120 سفينة حربية فضم إليه في الطريق 6 سفن حربية و24 سفينة نقل ، في نفس الوقت أمر بيالة باشا كل من طرغود باشا

في طرابلس ، وحسن باشا (بربروس) في الجزائر أن يكونا على استعداد . في خلال 25 يوما وصل بيالة باشا إلى جربة ورسى على بعد ثلاثة أميال منها والتقى هناك بأمراء البحار وكان عمره وقتها (45 سنة) . تم عقد مجلس بين أمراء البحر ، وتم الاتفاق على تطبيق خطة بربروس التي استعملها في (بروزة) .

- *التشكيل العثماني*

الجناح . تحت قيادة أمير لواء أزميد البحري (أولوج علي)
الاحتياط . - تحت قيادة سيدي علي رئيس (البالغ من العمر 53 سنة)
الأساطيل الخفيفة . - تحت قيادة أمير لواء ميدللي قرقود أوغلو الدين مصطفى رئيس (قائد الأسطول في عهد القانوني في حملته على رودس منذ 39 سنة)
كان عمر طرغود باشا آنذاك (75 سنة)

- *المعركة*

جرت معركة جربة بعد بروزة بـ 21 سنة و7 أشهر و16 يوما ، في يوم (14 مايو 1560م – رمضان 967هـ) ، بالقرب من جزيرة جربة . التقى الطرفين . (المسلمين العثمانيين – أسطول التحالف الصليبي) في معركة ضارية حامية الوطيس ، أظهر فيها الطرفين صبر وشدة وفداء ، ولكن ما هي إلا عدة ساعات حتى هزم المسلمون الصليبيين هزيمة ساحقة ماحقة

- *خسائر الصليبيين*

هلك ما يقرب من 20 ألف جندي صليبي ، ما بين قتيل وغريق وأسير من إجمالي 30 ألف مقاتل ، غير الجدافة . غرق حوالي 70 سفينة صليبية . أسر العثمانيون 21 سفينة حربية ، و26 سفينة نقل وأصابوا بقية السفن الأخرى

- *خسائر العثمانيون*

خسر العثمانيون في هذه الملحمة أقل من 1000 مجاهد وبضع سفن .عندما وصل طرغود باشا إلى موقع المعركة وجد المعركة قد انتهت ، فلم يهدا طرغود باشا إلا وقد قام بمطاردة فلول الأسطول الصليبي في البحر لمدة يومين بـ 12 سفينة حربية فقط ، وكانت هذه المطاردات ناجحة جدا .

- *13 - 1 - معركة جربة في التاريخ*

تعتبر معركة جربة احد اكبر وأبرز المعارك الحربية البحرية في التاريخ العالمي. كما تعتبر اكبر معركة بحرية جرت في البحار المفتوحة سطرها ببطولة وفداء العثمانيون المسلمون الأبطال

- *13 - 2 - دوريا أسطورة البحرية الصليبية يموت غما وكمدا بعد الهزيمة*

سيخلد التاريخ كيف أن (أندريا دوريا) فخر البحرية الصليبية في القرن السادس عشر كان وعمره (94) سنة في قصره الكائن بجنوة ينتظر خبر انتصار ابن أخيه الصغير ، وعندما علم بخبر الهزيمة الساحقة التي مني بها أسطول الشيطان على يد أسطول الرحمن بات طريح الفراش من فوره حتى مات من الغم في (25 نوفمبر 1560م – 968هـ)

14 - حملة مالطا الكبرى , واستشهاد طرغود باشا

مالطا دولة أوروبية ، وهي عبارة عن ثلاث جزر صغيرة جزر مأهولة بالسكان هي: مالطة ،غودش وكمونة، وجزر غير مسكونة . تقع مالطة في البحر المتوسط ، جنوب صقلية في إيطاليا وإلى الشمال من تونس وليبيا. يطلق عليها البعض لقب "سويسرا البحر المتوسط". تقع مالطة جغرافياً ضمن قارة أفريقيا، لكنها سياسياً تقع ضمن قارة أوروبا.

تعد مالطا نقطة إستراتيجية هامة في البحر المتوسط تيسر لمن سيطر عليها سهولة التنقل في البحر المتوسط والسيطرة على الملاحة فيه لموقعها المتميز والاستراتيجي الهام.

- *مالطا وفرسان (رودس)*

تعد طائفة فرسان رودس من أعتى الطوائف الصليبية كرها للإسلام والمسلمين ، وتاريخ الحروب والحملات الصليبية على المشرق الإسلامي يذخر بدمويتهم ووحشيتهم مع المسلمين . كان معقلهم في جزيرة رودس ذات الموقع الجغرافي والاستراتيجي الممتاز والتي لطالما حاول المسلمون منذ ركوبهم البحر السيطرة دون جدوى ، حتى تم فتح الجزيرة على أيدي القانوني القائد في سنة (929هـ - 1522م) بعد حصار شاق وطويل . قام القانوني بإجلائهم عن رودس فظلوا يتنقلون بين العديد من المدن حتى أنعم عليهم طاغوت النصرانية (شارل كوينت) بجزيرة مالطا وجوزو الملاصقة لها لتكون مقرا لهم تقديرا لما قدموه من عظيم خدمات للنصرانية (قتل وتشريد وذبح المسلمين وأكل جثثهم)

قلعة الفرسان بجزيرة رودس

تنبأ لافاليت منذ سنوات بأن العثمانيون إن عاجلا وآجلا أن يقوموا بحملة كبرى على مالطا ، من أجل ذلك فقد قام بتجهيز الجزيرة بتحصينات تفوق تحصينات رودس

تحرك الأسطول العثماني من استانبول في 1) إبريل 1565م – 973هـ) ، بعد أن حيا قبر (خير الدين بربروس) بمدافعه . وصل الأسطول في 19 إبريل ، وأنزل في الجزيرة خلال يومين 20 ألف جندي بعد قيام (صالح باشا وابنه محمد باشا) استطلاعا من البحر لمعرفة أحوال الجزيرة في وقت سابق لوقت الحملة

كان لدى (لافاليت) 10.650 مقاتل كانوا يعتبرون وقتها أجود محاربي نصارى أوروبا ، هذا بالإضافة لاعتماده على الشعب الذي يستتر وراء الصخور ويدافع.

درات معارك دموية استبسل فيها الطرفين حتى آخر رمق وقاتل فيها العثمانيون بضراوة . وفي الهجوم السادس أصيب طرغود باشا بشظية في رأسه ، وجرح بصورة بالغة ، واصطبغت لحيته البيضاء بلون احمر قاني وسقط شهيدا عن عمر يناهز الـ 80 عاما في الصفوف الأمامية للمجاهدين

تقرر نقله ودفنه في طرابلس التي خلصها هو وتلميذه (قلج علي) من ظلم النصارى الحاقدين فدفن بها وقبره الآن بمقربة من البحر بإزاء مسجده الذي ابتناه بها

قبر طرغود باشا بطرابلس

ظلت المعارك دائرة وسقطت قلعة (سانت إيلمو) ، وبرج (كاستيلا) ولكن الإمدادات الأوروبية بدأت ترد على مالطا دون توقف وخسر العثمانيون خسائر فادحة أدت في النهاية إلى رفع الحصار بعد خسارة المسلمون لـ (800 مجاهد) بين شهيد وجريح ومريض وأسير ، وبالرغم من رفع الحصار ورجوع الأسطول العثماني الإسلامي إلا أنهم لم يرحلوا إلا بعد أن قتلوا (8500 جندي نصراني – 260 فارس من فرسان مالطا من جملتهم البالغة 500 كلهم من الأشراف)

غندما توفى خير الدين بربروس ولم تعدم الدولة العثمانية بعده من يقود سفنها البحرية وألويتها إلى طريق النصر ومن يحفظ لها كرامتها في البحر الأبيض المتوسط ، فقد ظهر طرغود في هذا الحوض مظهرا كل يوم صنوفا من المقدرة الحربية والبسالة النادرة ويكتب صفحات خالدة له في تاريخ البحرية العثماتية

سيذكر التاريخ كيف أن طرغود باشا مضى مجاهدا طوال عمره مرابطا في البحر ، في أي وقت وفي أي مكان تجده يهب لنجدة المسلمين وتلبية صرخات استغاثاتهم ، وكان دائما مبغضا للكفر وأهله شوكة توجع ظهورهم وغصة تمزق حلوقهم كانت قصت حياته أسطورة نتحاكى بها نحن المسلمون

تمثال لطرغود باشا فى اسطنبول

مراد رايس (الأكبر)

1 - تقديم

مراد رايس مجاهد بحري عثماني. ولد في جزيرة ألبانيا في القرن السادس عشر. لا يعرف تاريخ ميلاده بالتحديد ولكن يقدر بأن يكون عام 1506 وذلك استنادا إلى تقديرات عمره عند وفاته عام 1609 عن 103 أعوام.

2 - عمله في البحر

بدأ حياته المهنية مبكرا بانضمامه إلى طورغوت رايس . وقد حارب إلى جانب بيري رايس في عدة حملات بحرية. في عام 1534 رافق خير الدين بن يعقوب قائد أساطيل العثمانيين إلى إسطنبول حيث

استقبلهما السلطان سليمان الأول. هناك عينه السلطان قائدا لأسطول عثماني. وأثناء مكوثه في إسطنبول عمد إلى الإشراف على بناء قطع أسطوله في دار صناعة السفن عند القرن الذهبي.

3 - حروب شارك فيها

- *بريفيزا*

شارك طورغوت رايس في كثير من المعارك ولعب دوراً حاسماً في معركة بروزة عام 1538 ضد أسطول الرابطة المقدسة بقيادة أندريا دوريا. تحقق النصر فكافأ السلطان مراد رايس بأن سلمه قيادة الأسطول في المحيط الهندي 1552. وقد اتخذ مدن السواحل السويس وعدن والبصرة مراكز له.

- *المحيط الهندي*

صادف مرة أسطولا للبرتغاليين أكثر عدداً وعدة منه في المحيط الهندي واشتبك معهم في معركة دامت يوما كاملا تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة دون أن يحقق أي منهما النصر. فانسحب كل منهما إلى قواعده. انسحب البرتغاليون إلى غوا في الهند وانسحب هو إلى البصرة. لم يسعد السلطان سليم الأول بهذه النتيجة فأمر بسحب مراد رايس من منطقة المحيط الهندي ووضعه ثانية تحت إمرة " تورغوت رايس " وبقي معه حتى وفاته أثناء حصار مالطا عام 1565.

- *قبرص*

عام 1570 كلف مراد رايس بمنع حشود أساطيل البندقية من التواجد في المثلث بين كريت ورودوس وقبرص، استعدادا لاحتلال جزيرة قبرص التي استطاع في النهاية من إسقاط مدينة فاماغوستا وبالتالي كامل جزيرة قبرص.

- *جزر الكناري*

عام 1585 أبحر مراد عبر مضبق جبل طارق واحتل عدة جزر من مجموعة جزر الكناري ، كما استطاع إلقاء القبض على الحاكم الإسباني في جزيرة لانزاروت Lanzarote الذي أطلق سراحه فيما بعد، بعد أن دفعت فديته.

- *مواجهات بلاد الشام*

كلف مراد رايس بحماية طرق التجارة بين مصر وأنطاليا في منطقة المياه الإقليمية لبلاد الشام التي كانت كثيرا ما تتعرض لهجمات الفرنسيين والبندقيين وفرسان مالطا. وفي عام 1609 تنامى إلى مسامعه عن تواجد أسطول فرنسي مالطي مشترك بقيادة أحد فرسان مالطا يدعى فريسيني Fresine بالقرب من قبرص أتى لمواجهة أسطوله. وكان هذا الأسطول يضم أكبر سفينة حربية في أوروبا روسّا Rossa وتعني الحمراء مجهزة بأكثرمن 90 مدفعا، كان العثمانيون يطلقون عليها لقب جهنم الحمراء.

لم يتردد وأبحر لمواجهتهم، واستطاع تحقيق نصرا مؤزرا والاستيلاء على عشرة من سفن أعدائه بما فيها السفينة روسّا واغتنام 160 مدفعا و2000 بندقية وأسر أكثر من 500 من قواتهم. إلا أن أمير البحر وقد شاخ وأصبح سنه يقارب 103 أعوام أصيب بجروح قاتلة، ولم تنفع محاولات خليل باشا بإرساله بسرعة إلى قبرص.

4 – وفاته

دفن مراد رايس في مسقط رأسه رودوس بناءً على وصيته. وقد بني مسجد وسمي باسمه بالقرب من المقبرة التي دفن فيها. وتفاؤلا به يزور قبره كثير من البحارة الأتراك قبل إبحارهم في مهمات بعيدة. وتكريما لذكراه أطلق اسمه على مجموعة من الغواصات التركية. وكذلك وتكريما له سميت إحدى ولايات الجزائر أيام العهد العثماني باسمه بئر مراد رايس وبقي اسمها حتى اليوم.

أولوج علي باشا

1 – تقديم

أو قيليج علي باشا اسمه الاصلى " جيوفاني ديونيدجى غالليني (1519 - 21 يونيو 1587) من رجال البحر العثمانيين من أصلِ إيطاليِ ، اعتنق الإسلامِ وأصبحَ من رياس البحر العُثمانيين ثم قبودان

بحرى للأسطولِ العُثمانيِ في القرن السادس عشر. عُرِفَ أيضاً بعِدّة أسماء أخرى في البلدانِ المسيحيةِ المطلة على البحر الأبيض المتوسطِ ، كما ظهر في الأدبِ أيضاً تحت أسماءِ مُخْتَلِفةِ . فقد عرفَ في إيطاليا تحت اسم Occhiali ، ودعاه ميجيل دي سرفانتس Uchali في روايته دون كيشوت . كما سماه جون ولف في كتابه "الساحل البربرى" Ali Euldj

2 - حياته المبكرة

ولد اولوج على لاحد رجال البحر الإيطاليين بمدينة كالابريا بجنوب إيطاليا , كانت رغبة والده ان يتلقى تعليما دينيا ولكنه أسر في العام 1536 على يد "على أحمد" أحد رجال خير الدين بارباروس حيث عمل مجدفا على ظهر أحد القوادس . بعد اعتناقه الإسلام وباعتباره من رجال البحر المهرة ترقى اولوج على في الرتبة وبحصوله على المزيد من الغنائم اصبح شريكا في سفينة من سفن الجهاد في الجزائر وفى وقت لاحق وباعتباره من أشجع رياس البحر انضم اولوج على إلى طورغود باشا الذي كان يبث الرعب في قلوب البلدان المسيحية المطلة على البحر المتوسط والذي كان أيضا حاكما لـ طرابلس الغرب .

أعجب أمير البحر بيالى باشا بالنجاحات التي حققها اولوج علي فتم تسليمه حكم جزيرة ساموس في بحر ايجة في العام 1550 وفى العام 1565 تم تعيينه حاكما عاما لمدينة الإسكندرية , وفى نفس العام انضم إلى الأسطول العثمانى المصري المحاصر لـ مالطا . وبعد مقتل طورغود باشا اثناء الحصار تم تعيينه خلفا له في حكم طرابلس الغرب حيث حمل جثمان طورغود وقام بدفنه في طرابلس حيث تم تثبيته حاكما عليها بقرار من السلطان سليمان القانونى الأول . حيث قام في الأعوام اللاحقة بعديد الغارات على سواحل صقلية – كالابريا – نابولى .

عثمان نوري باشا

عثمان نوري باشا (1837- 1900) قائد تركي. حارب في القرم ولبنان وكريت وبلاد العرب، ورقي إلى رتبة " مشير" لانتصاراته في بلاد الصرب 1876. دافع ببسالة عن بلافنا ببلغاريا في الحرب الروسية التركية (1877- 1878) ضد هجمات الجيش الروسي المتكررة التي أكرهت عثمان باشا أخيراً على التسليم. بعد التحقيق الباهر اللذي حققه العثمانيون في البلقان استعدت روسيا لاعلان حرب علي الدولة العثمانية ثم اعتلتها بلا هواده ولا شفقه وانضمت رومانيا الي روسيا وعبرت روسيا ورومانيا نهر الدانوب واستولت علي بعض المدن التابعة للعثمانيين , وعلي بعض النقاط المهمة والمعابر المؤدية الي البلقان وقام السلطان عبدالحميد الثاني بتغيير كبير في قيادات الجيوش العثمانية للتصدي للغزو الروسي ,

حاول الروس الاستيلاء علي مدينة بلفنه اللتي تقع في بلغاريا حاليا وهي من أهم المعابر في البلقان ولكن القائد العثماني الشجاع الغازي (عثمان باشا) تصدي لهم بكل شجاعه,فردهم علي اعقابهم منهزمين , فأعادوا الهجوم مرة اخري بقوات اكثر كثافة و مع ذلك نجح ذلك القائد العثماني الفذ في التصدي للروس مرة اخري مما جعل السلطان العثماني يصدر فرمانا خاصا في الثناء علي قائدنا الفذ .

وامام هذا الصمود حاول الروس التغيير من سياستهم في الاستيلاء علي هذه المدينة واتبعوا سياسة الحصار لها , وحاولوا منع الامدادات من الوصول الي الجيوش العثمانية , وفي الوقت نفسه عززوا قواتهم وحضر القيصر الروسي بنفسه علي المعركة القادمة وانضم امير رومانيا الي روسيا و كان معه 100 الف مقاتل, فأصبحت الكفة العسكرية في صالح الروس حيث تجاوز عددهم 150 الف مقاتل ففرضوا حصارا علي ثلاثة خطوط علي القوات العثمانية ومع ذلك فأن العثمانيين المحاصرين بقيادة عثمان باشا صمدوا صمود الابطال ورغم ان عددهم كان قرابة50 الف مقاتل فأنهم لم يكتفوا بذلك الصمود, بل اعدوا خطة رائعة لهجوم معاكس علي خطوط العدو المحاصر لهم طالبين بذلك ام النصر وفك الحصار او الشهادة الجلية .

و قاد عثمان باشا قواته اللتي انحدرت علي الاعداء وهم يهللون و يكبرون , فسقطت اعداد منهم شهداء علي يدي قوات الروس , ومع ذلك فقد تمكنوا من اختراق الخط الاول للمحاصرين والخط الثاني واستولوا علي المدافع فيه .

اصيب القائد عثمان باشا ببعض الجراح عند الخط الثالث فسرت اشاعه قوية بين جنده بأستشاهده ففت ذلك في عضدهم ,حاولوا الرجوع الي مدينتهم , ولكن بعض قوات الروس اصبح بداخلها , و بذلك اصبح الجند العثمانيون في العراء بين نيران العدو المختلفة فاضطروا الي الاستسلام للقوات الروسية. و كان ذلك سنة 1877م ,

وقد سلم القائد العثماني نفسه وهو جريح الي الروس اللذين كانوا معجبين به ويشيدون بشجاعته واقدامه حتي ان القائد العام للقوات الروسية قام بتهنئة عثمان باشا علي دفاعه الرائع و اعاد له سيفه احتراما لقدراته القتالية و صبره , وارسل عثمان باشا الي روسيا في شهر ديسمبر من نفس العام 1877م , و استقبله القيصر بكل مراسم الاحترام و لم يعامل " عثمان باشا " معاملة الاسير

القائد العثماني عمر باشا

في عام 1855م ، القائد العثماني "عمر باشا" هزم الجيش الروسي في "معركة جوزلوفا" في شبه جزيرة القرم. 11 من شوال 1270هـ = 8 من يوليو 1854م

كما ألحق القائد العثماني عمر باشا هزيمة نكراء بالجيش الروسي في معركة "يركوي" قرب رومانيا، قتل خلالها 6 آلاف جندي روسي.

مصطفى فوزي جاكماق

مصطفى فوزي جاكماق Mustafa Fevzi Çakmak . ولد في 12 يناير عام 1876 وتوفي في 10 إبريل عام 1950 . رئيس هيئة الأركان العامة للقوات المسلحة التركية من 3 مارس 1924 حتى تقاعده في 12 يناير 1944. كان من أهم القادة الذين شاركوا في حرب الاستقلال التركية مع مصطفى كمال أتاتورك.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الباشاوات الثلاثة

الباشاوات الثلاثة (Üç Paşalar) يعرفون كذلك باسم الديكتاتورية الثلاثية وهم كل من :
* وزير الداخلية العثماني طلعت باشا
* وزير الحرب أنور باشا
* وزير البحرية جمال باشا
أعضاء حركة تركيا الفتاة ،
حكم البشاوات الثلاثة الدولة العثمانية بعد انقلاب 1913 وظلوا يديرون السياسية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى.

طلعت باشا

محمد طلعت Mehmet Talât اشتهر باسم طلعت باشا (1874 - 1921) ولد في اديرنة داخل أراضي الامبراطورية العثمانية عمل كموظف في مكتب نلغراف ثم ضابط في البريد, أعتقل سنة 1893 بتهم سياسية وبعد نجاح ثورة تركيا الفتاة سنة 1908 عين عضو في البرلمان عن أديرنة ثم وزيراً للبريد ووزيراً للداخلية وقد ترقى في المناصب وأصبح عضو اللجنة المركزية إلى جانب الزعماء الثلاثة في جمعية الإتحاد والترقي ثم صدرا أعظم للدولة العثمانية عام 1917 و يعد من المسؤلين الرئسيين عن ما يسمى مجازر الأرمن سنة 1915 ،
بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الاولى فر من إسطنبول مع أنور باشا و جمال باشا ، أغتيل لاحقا في برلين عام 1921 على يد ناشط الأرمني سوغومون تهليليان.

أنور باشا

إسماعيل أنور اشتهر باسم أنور باشا (22 نوفمبر 1881 - 4 أغسطس 1922) قائد عسكري عثماني وأحد قادة حركة تركيا الفتاة، ولد في أسطنبول وتخرج من الكلية الحربية ضابطا ليعين في الفيلق الثالث بسلانيك، ثم عين رئيس أركان الفيلق الثالث بمناستر , وأنضم هناك إلى الاتحاد والترقي، شارك في ثورة 1908 ضد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني كما شارك في حرب طرابلس ضد الإيطاليين ثم سافر إلى إسطنبول ليصبح وزيراً للحربية (ناظر الحربية) في الدولة العثمانية.
خلال الحرب العالمية الأولى قاد الجيش الثالث العثماني ضد الروس في معركة ساريقاميش بالقوقاز، ثم تصدى للحملة البريطانية في العراق فقاد القوات العثمانية في العراق ، ونجح في صد هجوم الجيش البريطاني ومنعه من دخول بغداد عام 1916م، ولكنهُ سرعان ما تراجع وأنهزم وأستطاع الأنكليز احتلال بغداد عام 1917م، وقد قتل في بخارى خلال حرب ضد الحكومة البلشقية في وسط آسيا عام 1922.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

أحمد جمال باشا

- *1 - تقديم*

أحمد جمال باشا (1873 - 1922)، قائد الجيش الرابع عثماني ووزيراً للبحرية . عين حاكماً على سوريا وبلاد الشام عام 1915 وفرض سلطانه على بلاد الشام وأصبح الحاكم المطلق فيها. وهو من زعماء جمعية الاتحاد والترقي وقاتل البلغار في مقدونيا واشترك في الانقلاب على السلطان عبد الحميد. وشغل منصب وزير الأشغال العامة بعام 1913 ثم قائدًا للبحرية العثمانية عام 1914.

- *2 – سياساته*

حين عين في منصبه الجديد في بلاد الشام اتبع في بادئ الأمر سياسة المداورة ومحاولة كسب العرب في صف تركيا محاولاً الاستفادة منهم في الحرب العالمية الأولى آنذاك . وقد خطب جمال باشا أول قدومه إلى دمشق في النادي الشرقي عام 1914 م قائلاً :

"يجب عليكم يا أبناء العرب أن تحيوا مكارم أخلاق العرب ومجدهم، منذ شروق أنوار الديانة الأحمدية، أحيوا شهامة العرب وآدابهم حتى التي وجدت قبل الإسلام، ودافعوا عنها بكل قواكم. واعملوا على ترقية العرب والعربية، جددوا مدنيتكم، قوموا قناتكم، كونوا رجالا كاملين"

كانت مهمة جمال باشا الأساسية تجهيز حملة على مصر للقضاء على السيطرة البريطانية ، إلا أنه تلهى عن إعداد الحملة بالعمل على تعزيز سلطته وبسط سيطرته وإقصاء العديد من العناصر الفعالة عن مراكز الإدارة والقرار.

- **2 – 1 - ولاية جمال باشا لبغداد مابين عامي 1911 - 1912**

دامت ولاية جمال باشا حوالي سنة تقريبا. كان جمال باشا عكس سلفه الفريق حسين ناظم باشا لايهتم بالمظاهر الدينية . بل كان يحضر الحفلات التي كانت تقيمها الجالية الأوربية التي كانت تسكن بغداد بين فترة وأخرى , ولم يكن المجتمع البغدادي آنذاك قد الف هذا الأمر من قبل اي والي عثماني سابق .

في اواخر شهر ايلول - سبتمبر قامت إيطاليا بالهجوم على طرابلس الغرب وخرجت المظاهرات في بغداد تنديدا بالهجوم وسارت إلى السراي الحكومي . ولم تخلوا هذه المظاهرات من حادث مأساوي إذ التقى في منطقة باب المعظم موكب محلة باب الشيخ بموكب الحيدر خانه ونشب قتال بين المحلتين نتيجة وجود خلافات سابقة بين المحلتين وانتصر متظاهروا محلة باب الشيخ في هذا القتال .

في سنة 1912 قام حزب الحرية والائتلاف بتأسيس فرع له في بغداد برئاسة السيد مصطفى الواعظ . وقد انضم إلى هذا الحزب المعارض لحزب الاتحاد والترقي الكثير من الشباب المتعلم وقد حاول الوالي جمال باشا باجتذاب السيد مصطفى الواعظ إلى حزب الاتحاد والترقي الحاكم بشتى الطرق ولكنه فشل .

وفي ربيع من سنة 1912 جرت الانتخابات البرلمانية وقد كان الفوز في بغداد من نصيب الاتحاديين على نظرائهم الائتلافيين . قدم جمال باشا استقالته من منصب الوالي بعد تسلم الائتلافيين الحكم في الدولة العثمانية في تموز من ذلك العام وقد غادر جمال باشا بغداد في يوم 17 آب من نفس السنة .

- *3 - حرب السفر برلك*

في عام 1915 م قاد جمال باشا الجيش الرابع التركي لعبور قناة السويس واحتلال مصر. وفي ليل 2 فبراير/ شباط 1915 م اخترق صحراء سيناء التي كانت حينها تفتقر لطرق المواصلات فكانت القوات التركية تصل إلى القناة منهوكة القوى لتحصدها البوارج البريطانية الموجودة في القناة أو القوات البريطانية التي تتحصن على الضفة الغربية للقناة بمدافعها ورشاشاتها ومع أن بعض السرايا القليلة استطاعت اجتياز القناة إلا أن الهجوم فشل فشلاً ذريعاً ولم ينج من الجيش الرابع إلا القليل.

- *4 - نتائج الحملة*

منيت الحملة بالفشل في معركة رمانة على ضفاف قناة السويس في 3 فبراير/ شباط عام 1915 م حيث سقط 1500 جندي عثماني قتلى بنيران مدفعية البوارج البريطانية والفرنسية في قناة السويس . وعلى الرغم من فتوى الجهاد التي أعلنتها الدولة العثمانية، إلا أن الحملة فشلت في إثارة جموع المصريين. وبعد فشل الحملة أرسِل المجندون إلى أوروبا للقتال في الحرب العالمية الأولى.

كان للفشل الذريع لهذه الحملة ومسؤولية جمال باشا المباشرة عن ذلك الفشل، وهو الحاكم العسكري المطلق على سوريا، أن يصبح عصبي المزاج بشكل دائم، حاد الطباع، وصب جام غضبه على القيادات العربية العسكرية والمدنية التي حمّلها مسؤولية إخفاقه، فعمل على استبدال الكتائب العربية في بلاد الشام بكتائب غالبية جنودها من الأتراك، وفصل الضباط العرب البارزين من وظائفهم وأرسلهم إلى مناطق بعيدة، وأخذ باعتقال الزعماء الوطنيين والمفكرين العرب والتنكيل بهم وتعذيبهم ، وقد كانت باكورة هؤلاء إعدام عدد من المناضلين بأحكام عرفية في عدد من المناسبات.

- *5 - إعدام المثقفين العرب في بيروت ودمشق*

قام جمال باشا بإعدام نخبة من المثقفين العرب من مختلف مدن سوريا ولبنان, فقد ساق لهم مختلف التهم التي تتراوح بين التخابر مع الاستخبارات البريطانية والفرنسية للتخلص من الحكم العثماني، إلى العمل على الانفصال عن الدولة العثمانية، وهو ما يقال أنه ما كان يسعى هو بنفسه إليه.

أحال جمال باشا ملفاتهم إلى محكمة عرفية في عاليه في جبل لبنان، حيث أديرت المحاكمة بقسوة وظلم شديدين، وبدون أن تحقق أدنى معايير المحاكمات العادلة والقانونية، صامّاً أذنيه عن جميع المناشدات والتدخلات التي سعت لإطلاق سراحهم, وخصوصاً تلك التي أطلقها الشريف حسين بن علي شريف مكة ، الذي أرسل البرقيات إلى السفاح وإلى السلطان وإلى الصدر الأعظم، وأوفد ابنه الأمير فيصل بن الحسين إلى دمشق، وقابل السفاح ثلاث مرات في مسعى لإيقاف حكم الإعدام دون جدوى .

نفذت أحكام الإعدام شنقاً على دفعتين : واحدة في 21 أغسطس / أب 1915 وأخرى في 6 مايو/ أيار 1916 في كل من ساحة البرج في بيروت ، فسميت ساحة الشهداء، وساحة المرجة في دمشق .

شعرت الدولة العثمانية بنتائج سياسته الفظيعة فنقلته من سوريا وعينت بدلاً منه جمال باشا المرسيني الشهير بالصغير.

- *6 – وفاته*

قُتل جمال باشا في مدينة تبليسي عام 1922 م على يد أرمني يدعى **اسطفان زاغكيان** بسبب انه كان واحدا ممن خططوا لإبادة الارمن ضمن حركة واسعة عرفت بعملية **نيمسيس** أي العقاب طالت جميع المسؤلين عن تلك الإبادة .

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

يوسف العظمة

1 - تقديم

يوسف العظمة اسمه الكامل يوسف بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن إسماعيل باشا آل العظَمة (9 أبريل 1884 – 24 يوليو 1920) قائد عسكري سوري استشهد في مواجهة الجيش الفرنسي الذي قدم لاحتلال سوريا ولبنان حيث كان وزير الحربية للحكومة العربية في سوريا بقيادة الملك فيصل الأول، أتقن العربية والتركية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإنكليزية، في كل عام في ذكرى استشهاده يقام احتفال في مقبرة الشهداء في ميسلون حيث تحمل إليه الأكاليل من مختلف الديار العربية. لم يخلف من الذرية إلا ابنته الوحيدة (ليلى) ، رحلت مع أمها إلى تركيا وأنجبت هناك. ويذكر أن منزله حالياً تحول إلى متحف خاص بمقتنياته.

2 – النشأة

ولد يوسف في حي الشاغورالصمادية بدمشق في منتصف شهر رجب عام 1301 هـ الموافق 9 نيسان 1884 لعائلة دمشقية تركمانية ، توفي والده الذي كان موظف في مالية دمشق عندما كان يوسف في السادسة من عمره . فقام شقيقه الأكبر عبد العزيز بتولي شؤون تربيته والانفاق عليه.

- *2 - 1 – الدراسة*

دخل يوسف المدرسة الابتدائية في الياغوشية ثم انتقل بعدها إلى المدرسة الرشدية العسكرية في جامع يلبغا ضمن حي البحصة عام 1893 ليتابع بعدها انتظامه العسكري في دمشق في المدرسة الإعدادية العسكرية عام 1897 وكان مقرها في جامع تنكز. انتقل بعد ذلك في عام 1900 إلى مدرسة قله لي الإعدادية العسكرية الواقعة على شاطئ البوسفور المضيق بالآستانة - اسطنبول - فأحرز الشهادة الإعدادية في ذلك العام منتقلاً عام 1901 إلى مدرسة حربية شاهانه في الآستانة وتخرج منها عام 1903 برتبة ملازم ثان، وفي عام 1905 أصبح ملازماً أول. ومن ثم انتقل لمدرسة الأركان حرب حيث أتم فيها العلوم والفنون الحربية العالية وحصل على رتبة يوزباشي أركان حرب عام 1324هـ الموافق 1907 وأستلم وسام المعارف الذهبي . و كان يتكلم العربية والتركية والفرنسية والألمانية. وكان متديناً متمسكاً بإسلامه ، مؤدياً لصلاته ، وصيامه ، ومحافظاً على شعائر الإسلام.

3 – العمل

تنقل يوسف في الأعمال العسكرية بين دمشق والآستانة. ففي عام 1908 أرسل إلى الآستانة وعين مدرباً مساعداً لمادة التعبئة في مدرسة الأركان حرب التي تقع في قصر يلدز السلطاني، ثم نقل عام 1909 كرئيس متفوق ضمن صفوف الجيش العثماني في منطقة الروملي على البر الأوروبي. وبعدها تم إرساله في بعثة إلى ألمانيا ليلتحق بمدرسة أركان الحرب العليا من عام 1909 ولمدة سنتين. لكنه أصيب بمرض حاد جداً بسبب طبيعة الجو البارد فعاد إلى الآستانة ليعين ملحقاً عسكرياً في المفوضية العثمانية العليا في القاهرة ومعاوناً للمفوض السامي العثماني.

- *3 – 1 - الحرب العالمية*

وفي عام 1912 كان يعمل ضمن الشعبة الأولى المتفوقة - الأركان حرب - في الآستانة ، لكنه إضطر بعدها إلى التنقل بين قطعات الجيش العسكرية إبان حرب البلقان 1913. وما لبثت أن أندلعت الحرب العالمية الأولى 1914 - 1918 فأرسل رئيساً لأركان حرب الفرقة العشرين ثم الخامسة والعشرين. وكان مقر هذه الفرقة في بلغاريا ثم في النمسا ثم في رومانيا، حيث عمل على مقربة من قائد الجبهات المارشال ماكترون قائد القوى الألمانية المحاربة والذي ضمه إلى هيئة أركان الحرب الألمانية ممثلاً عن الجيش العثماني.

عاد يوسف بعدها إلى الآستانة ليصبح مرافق وزير الحربية العثمانية أنور باشا وليبدأ في التنقل وتفقد الجيوش العثمانية في كل من الأناضول وسورية والعراق، وما لبث أن عين رئيساً لأركان حرب القوات المرابطة في القفقاس بسبب تأزم الأحداث هناك، ثم أصبح رئيساً لأركان حرب الجيش الأول بإسطنبول .

في نهاية تشرين الأول عام 1918 انتهت الحرب العالمية وعاد يوسف العظمة ومنها سافر إلى دمشق عقب دخول الأمير فيصل بن الحسين إليها، فاختاره الأمير فيصل، قبل أن يصبح ملكاً، مرافقاً له،

ثم عينه معتمداً عربياً في بيروت فرئيساً لأركان الحرب العامة برتبة قائم مقام في سوريا. ثم ولّي وزارة الحربية سنة 1920 وأصبح وزيراً للحربية السورية بدمشق، فنظم جيشاً وطنياً سورياً يناهز 10 آلاف مقاتل.

- *3 – 2 - معركة ميسلون*

خرج يوسف العظمة ليتولّى قيادة الجيش في ميسلون في يوم 23 يوليو (1920م= 1338هـ)، واجتمع بالضباط الذين لم يُتِمُّوا تنفيذ أمر تسريحهم، وأبلغهم أن الحرب لا بُدَّ قائمة، وأوعز إلى جميع القوى لتكون على أهبة الاستعداد لصدِّ العدوّ المهاجم، وألقى على قادته فكرة – شفهيًّا - خُطَّته الدفاعية - الهجومية، والتي تتلخَّص في تنظيم خطٍّ دفاعيٍّ في وسط الجبهة على جانبي الطريق (القلب) ، مع فرز وحدات خفيفة إلى يمين ويسار الجبهة لحماية الجناحين (الجناح الأيمن والجناح الأيسر) ، إضافة إلى وضع ألغام محلِّيَّة الصنع على الطرق المُؤَدِّيَة إلى المنطقة . وتمركز العظمة في مركز قيادة الجبهة في أعلى مرتفع يُشرف على الجبهة بكاملها، وبعد أن أدَّى صلاة الصبح ليوم الرابع والعشرين بدأ في الاستعداد لخوض المعركة ، التي استمرَّت حتى الظهر.

في الساعة التاسعة بدأت المعركة عندما بدأت المدفعية الفرنسية في التغلُّب على المدفعية العربية، وبدأت الدبابات الفرنسية بالتقدُّم باتجاه الخطِّ الأمامي العربي في دفاع القلب، وعوّل العظمة على الألغام المدفونة لتُوقِفَ تَقَدُّم هذه الدبابات، إلَّا أنَّ الألغام لم تَقُمْ بعملها ولم تُؤَثِّر، فأسرع إليها يبحث، فإذا بأسلاكها قد قُطعت!

وتمكَّن الفرنسيون من تحقيق النصر؛ نظرًا لكثرة عددهم وقوَّة تسليحهم، على الرغم من استبسال المجاهدين في الدفاع عن الكرامة العربية.

4 – استشهاده

قام الملك فيصل بحل الجيش العربي خضوعاً لتهديد الجيش الفرنسي، رغم معارضة يوسف العظمة. وعندما بلغه أن الفرنسيين أصبحوا على مقربة من دمشق قرر أن يحاربهم دفاعاً عن بلده وقال للملك فيصل آنذاك بيت المتنبي الشهير:« لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم » .

حارب العظمة الفرنسيين بمعركة كبيرة غير متكافئة هي معركة ميسلون التي وقعت في السابع من ذي القعدة الموافق 24 يوليو تموز 1920 بين الجيش العربي بقيادة يوسف العظمة وزير الحربية السوري العربي من جهة ، وبين الجيش الفرنسي الذي جاء ليحتل سوريا بقيادة الجنرال غوابيه غورو .

استشهد العظمة أثنتء المعركة ودفن في مقبرة الشهداء في ميسلون التي تبعد 28 كيلو متراً شمال غرب دمشق. حيث برز في هذه المعركة حوالي ثلاثة آلاف من الجنود المتطوعين بأسلحة قديمة ، في مواجهة تسعة آلاف ضابط وجندي فرنسي، مسلحين بالدبابات والسيارات والمصفحات والطائرات وأحدث الأسلحة الأخرى، وقد قتل مع يوسف العظمة أربعمئة مقاتل عربي.

حسن تحسين الفقير

1 - تقديم

حسن تحسين صالح الفقير (1297 هـ - 1367 هـ = 1880 - 1948 م) قائد عسكري بالجيش العثماني.

2 – نشأته

ولد وتعلم بدمشق وتخرج من المدرسة الحربية في الآستانة سنة 1901 م أصله من عشيرة الفقير ، في جوار مدائن صالح . خاض الحرب العالمية الأولى في الجيش العثماني وحضر معركة ميسلون ومنحه ملك شرقي الأردن لقب (باشا). وتولى قيادة جيش الملك علي بن حسين بجدة ، أيام حصار الجيش السعودي لها.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

وسمي في ذلك الحين وزيراً للحربية. ولما دخلها الملك عبد العزيز آل سعود ، خرج حسن تحسين إلى اليمن، فعهد إليه إمام المملكة المتوكلية اليمنية الإمام يحيى حميد الدين بتنظيم جيشه، فأقام مدة صنَّف في خلالها "كتاب التربية العسكرية" وطبعه في صنعاء.

3 – وفاته

مرض وهو باليمن فعاد إلى دمشق، فتوفي بها عام 1948.

بعض العسكريون العثمانيون الذين استشهدوا في الحرب

حسن الألوباطلي

حسن الألوباطلي أو ألوباتلي حسن أو " حسن طوبال " كما يعرف بالعربية ، هو أحد الجنود الانكشارية وهو أحد أبطال فتح القسطنطينة. ولد عام 831هـ (1428م) في ألوباتلي في كاراكابي غربي مدينة بورصه الشهيرة في تركيا حالياً.

كان حسن طوبال ضخم البنية ومقاتل بارع بطبيعة الحال كما هم بقية القوات الإنكشارية العثمانية والتي كانت تعتبر أفضل قوات في العالم وقتها. وفي 20 جمادى الأولى 857هـ (29 مايو 1453م) وبعد 53 يوم من حصار مدينة القسطنطينية ومحاولات اقتحامها، قام حسن وثلاثين من رفاقة بالصعود على سور مدينة القسطنطينية في عملية بطولية، وصل حسن أولاً ومعه سيف ودرع الراية العثمانية فقط واستشهد 17 من رفاقه ولكنه بقي في أعلى السور يقاتل حتى لحقه الـ 12 الباقين، وفي النهاية استطاع أن يزيح أعلام القسطنطينية وينصب الراية العثمانية أعلى السور.

استشهد حسن طوبال وهو يدافع عن الراية العثمانية تحت وابل من السهام البيزنطية وقد وجد شهيداً مصاباً بـ 27 سهم، وكان لعمليته البطولية مع رفاقه أثر كبير في انتصار القوات العثمانية حيث أن رؤية العلم في قمة السور ألهب حماس الجيش العثماني وبعث اليأس في صفوف المدافعين، وقد انتصر العثمانيون بقيادة السلطان محمد الفاتح في نفس يوم استشهاد حسن طوبال.

لم يعرف عن حسن طوبال أنه تزوج . و كان جندياً إنكشارياً حيث أن الانكشاريين يتربون تربية خاصة على فنون القتال وتشتغل غالب حياتهم في الجهاد والحملات العثمانية .

عروج بربروس

- *1 – تقديم*

عَرُّوج بَرْبَرُوس (1470 - 1518) كان قائدا عثمانيا ومجاهداً بحرياً. ولد في جزيرة لسبوس في اليونان وتوفي في تلمسان بالجزائر اشتغل بالتجارة في مطلع شبابه، إذ كان لديه سفينة يتاجر بها بين سالونيك و وابية. وبعد نجاة أخيه أروج رئيس من أسر فرسان رودس لحق بأخيه أروج بتونس الذي كان قد سبقه إليها. وهناك اتفقا مع أميرها أبي عبد الله محمد بن الحسن الحفصي على أن يمنحهما ميناء حلق الوادي ليجعلا منه قاعدة لهما مقابل أن يدفعا له خمس الغنائم التي يحوزان عليــها.

عُرف لدى الأوربيين بلقب بَارْبَارُوسَّا، أي ذو اللحية الحمراء (من الإيطالية: بَارْبَا أي لحية ، رُوسَّا أي حمراء) ، وأصل هذه التسمية هو أن عروج كان قد علا صيته في غرب البحر الأبيض المتوسط لما كان ينقذ الآلاف من الأندلسيين وينقلهم إلى شمال أفريقيا، فصار هؤلاء يسمونه بَابَا عَرُّوج (بابا أرّوتش) تقديرا له ، فحرّف الإيطاليون ذلك اللقب إلى باربا روسّا.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

- *2 – نشأته*

هو الأخ الثاني في عائلة بربروس بعد إسحاق رئيس . لعب دورا أساسيا في تمهيد الطريق لأخيه خير الدين من بعده في بسط نفوذ الدولة العثمانية بالجزائر . اسمه أروج رئيس ، وكان رفاقه يدعونه باسم أروج بابا على سبيل الاحترام . ولد بجزيرة ميديللي التي استقر بها والده يعقوب آغا الذي كان أحد فرسان السباهية . لا يعرف اسم أمه ولا أصلها ، إلا أن خير الدين ذكر في مذكراته أن أباه يعقوب تزوج من إحدى بنات جزيرة ميديللي المسيحيات بعد استقراره بها . أما تاريخ ميلاده فلا يعرف على وجه التحديد ، غير أنه من المحتمل أن يكون قد ولد في 1470 . فهو أصغر من إسحاق بسنتين وأكبر من خير الدين بسنتين أيضا . عرف هو وأخوه خير الدين باسم : "بربروس " ربما بسبب شقرة لحيته ، أو لأن البحارة الأتراك كانوا يدعونه (بابا عرج) على سبيل الاحترام فحرفت الكلمة إلى اسم بربروس .

اشتغل في مطلع شبابه مع أخيه إلياس بالتجارة البحرية بين مصر والشام وطرابلس الشام والأناضول ، فاكتسب من ذلك ثروة طائلة . لفت انتباه الأمير قورقود أخي السلطان سليم الأول الذي كان واليا على أنطاليا ، ومعروفا بحمايته للبحارة الأتراك ، فلقي منه عناية وعونا خاصين . غير أن المصادر التاريخية لا تشير إلى تاريخ بدء هذه العلاقة بين الشهزادة وأروج رئيس . في إحدى سفراته التجارية إلى طرابلس الغرب اعترض طريقة قراصنة جزيرة رودس ، فاستولوا على سفينته ، وقتلوا أخاه الصغير إلياس ؛ بينما أخذوا عروج رئيس أسيرا معهم. ولم يوافقوا على قبول الفدية الكبيرة التي عرضها خير الدين مصرين على التمسك به أملا في الحصول على مكاسب أكثر . لا تعرف على وجه التحديد المدة التي مكثها عروج رئيس أسيرا في رودوس ، قبل أن يتمكن من الفرار . فقدم إلى أنطاليا لتقديم شكره للأمير قورقود على الجهود التي بذلها لفك أسره. خلال وجوده في أنطاليا عمل مساعدا للقبطان لأحد البحارة الأتراك يدعى علي رئيس ، حيث استأنف رحلاته إلى الإسكندرية . قبل عرض السلطان المملوكي قانصو الغوري بالدخول في خدمته ، فجعله على رأس أسطول صغير . ترك خدمة السلطان الغوري الذي اقترح عليه قيادة الأسطول المملوكي المتوجه إلى المحيط الهندي لمواجهة البرتغاليين ، معتذرا بأنه لا يرغب في العمل خارج مياه البحر المتوسط . قدم على الأمير قورقود في أنطاليا أملا في الفوز بمساعدته فمنحه هذا الأخير سفينة ذات 18 مقعدا ، أغار بها على سواحل رودس ، فغنم من ذلك غنائم كثيرة وعددا كبيرا من الأسرى .

كان فرسان القديس يوحنا يترقبون الفرصة للانقضاض على أروج . فانتهزوا فرصة رسوه بإحدى الموانئ في 1511 وأغاروا على سفينته الراسية واستولوا عليها إلا أن عروج رئيس تمكن من النجاة من الأسر مع رفاقه البحارة راجع عروج رئيس الأمير قورقود الذي كان قد نقل من أنطاليا إلى مانيسا ليقدم له واجب الشكر على الدعم المادي والمعنوي اللذين لقيهما منه. فاستقبله الأمير في ديوانه استقبالا رسميا ، وألبسه الخلعة وأهدى له سفينة أخرى ذات 24 مقعدا . ونصحه بأن يوجه نظره للجهاد في غرب البحر المتوسط على خطى كمال رئيس .

بناء على نصيحة الشهزادة قورقود توجه أروج رئيس إلى السواحل اليونانية فاستولى على سفينتين تجاريتين تابعتين للبندقية ، كانت تحملان 24.000 دوقة ذهبية ، وكميات كبيرة من الأموال المختلفة . ثم عاد إلى مسقط رأسه جزيرة ميديللي مثقلا بالغنائم و285 أسير. فلقي أخويه إسحاق وخير الدين اللذين مضى على فراقه لهما ما يقارب 11 عاما . فباع غنائمه ، وتصدق على فقراء بلده ثم غادر ميديللي متوجها للقاء الشهزادة قورقـود . بادر إلى مغادرة المياه العثمانية في حزيران / يونيو 1512 عندما بلغه جلوس السلطان سليم الأول على عرش الدولة العثمانية ، وإعدامه للشهزادة قرقود ، واعتقال جميع أنصاره . جدد السلطان الغوري دعوته لعروج رئيس بالدخول في خدمته بسبب شدة حاجته الماسة إلى خدمة البحارة الأتراك. فرسى عروج في ميناء الإسكندرية ، ووفد على السلطان الغوري حيث قدم إليه هدايا قيمة . واعتذر له عن عدم قبول خدمته لأنه لا يرغب في التوجه إلى المحيط الهندي . ثم غادر الإسكندرية متوجها إلى تونس ، حيث رسى في سنة 1512 بجزيرة جربة التي غيرت تغيرت مسيرة حياته نهائيا . جعل من جزيرة جربة قاعدة له ، وأسس بها مستودعا لتخزين غنائمه بعد أن خصص قسما منها لرجـاله . ومن هذه القلعة شرع يشن غاراته على السفن الأوربية وسواحلها . اتفق مع سلطان تونس على جعل ميناء جربة قاعدة ينطلق منها في غزواته البحرية على أن يدفع له خمس الغنائم التي يحصل عليها

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

كان مع أروج رئيس حوالي 1000 من البحارة الأتراك ، لكنه كان في حاجة كبيرة إلى عدد أكبر من الرجال نظرا لاتساع دائرة حروبه مع أوربا . إضافة إلى أنه كان في كل مرة يفقد عددا أكبر من الرجال ، الأمر الذي جعله في حاجة ماسة إلى تعويضهم بمن كان يفد عليه من الشباب التركي القادم من الأناضول . وبما أن عدد الوافدين كان محدودا ، فقد كان يبحث عن وسيلة تمكنه من سد هذا النقص الكبير بجمع أكبر عدد من الشباب من الأناضول . ولتحقيق ذلك سعى إلى التقرب من السلطان سليم الأول . لم يلبث عروج رئيس كثيرا في جربة حتى لحق به أخوه خير الدين ، فقوي ساعده به . فاتفقا على المضي معا في مشروعهما الطموح ، وانطلقا يغيران على السواحل والسفن المسيحية . فكان من أثر ذلك أن زادت سطوتهما وتضاعفت ثروتهما إلى حد كبير. قام في 1514 بإغلاق ميناء مدينة بجاية الجزائرية بأربع سفن ، وحاصر قلعتها بمائتين من الأتراك وثلاثة آلاف من البربر ، إلا أنه لم يتمكن من تحريرها نظرا لحصانتها . وفقد في هذا الحصار ذراعه اليسرى وعددا كبيرا من رجاله . في صيف 1515 شفي عروج رئيس تماما من جراحه ، فخرج للغزو برفقة أخيه خير الدين ، فغنم سفينة هولندية ، ثم رسى بجزيرة مينورقة. ومن هناك أغارا على خليج جنوة حيث تمكنا من الاستيلاء على أربع سفن وتحرير عدد كبير من مسلمي الأندلس ونقلهم إلى شمال إفريقيا حيث قاما بتوطينهم هناك .

كان أول اتصال بين الإخوة بربروس بالدولة العثمانية في 1516 وذلك عندما بعث أروج رئيس إلى السلطان سليم مع بيري رئيس بست سفن مثقلة بالهدايا العظيمة ، كافأه وأخاه خير الدين بسيفين مرصعين بالماس ، بالإضافة إلى سفينتين حربيتين محملتين بالمعدات العسكرية التي كان في أمس الحاجة إليها. فسر الأخوان بذلك سرورا عظيما. وتعتبر هذه الاتصالات أول علاقة رسمية بين الإخوة بربروس والدولة العثمانية . في الوقت الذي كانت فيه بعثة بيري رئيس في مقابلة السلطان سليم ، خرج الأخوان في أسطول مكون من 16 قطعة بحرية فاستولوا عدد كبير من السفن الإسبانية ، وأنقذوا عددا من مسلمي الأندلس . وفي طريق عودتهم قاموا بفتح قلعة جيجل الجزائرية ، وجعلوا منها قاعدة لعملياته الحربية . حيث تركوا بها 3 سفن حربية وحامية مكونة من خمسين بحارا تركيا . وهكذا بدا وكأن الحرب ضد إسبانيا لم تعد مجرد حملات يقوم بها قراصنة محترفون ، وإنما هي حرب بين دولتين إحداهما ناشئة يقوم الإخوة بربروس بوضع أسسها والثانية فتية تولت زعامة العالم المسيحي وقيادته في حربه العدوانية على المسلمين في الأندلس وشمال إفريقيا . لم يكتف الإخوة بربروس يشن غاراتهم على السفن والسواحل الإسبانية فحسب ، بل جعلوا إنقاذ مسلمي الأندلس ، وتوطينهم في شمال إفريقيا وطرد الإسبان من سواحل شمال إفريقيا مهمة أساسية لهم . فحازوا بذلك على ثقة الأهالي ، وبدأ الخطباء يدعون لهما بالنصر في خطب الجمعة . في 1516 لحق به أخوه الأكبر إسحاق رئيس قادما من جزيرة ميديللي . حاول عروج رئيس للمرة الثانية فتح قلعة بجاية ، ففرض عليها حصارا شديدا من البر والبحر ، غير أن نفاذ الذخيرة ، وامتناع السلطان الحفصي تزويده بما يحتاجه منها حال دون فتحها تمكن من الاستيلاء على قلعة الجزائر بعد أن استجار به أهلها لتحريرها من الاحتلال الإسباني الذي كان يضرب حولها حصارا بحريا . وأعلن نفسه سلطانا على الجزائر وقرئت الخطبة باسمه بعد السلطان سليم الأول . ثم لم يمض وقت طويل على فتح الجزائر حتى أتبعها بفتح شرشال . وبهذا تمكن الأتراك من فرض سيطرتهم على ثلاث مدن جزائرية هي : جيجل ، ومدينة الجزائر ، وشرشال . بعث السلطان سليم إلى الأخوين عروج و خير الدين بسفينتين حربيتين وأسلحة نارية ومعدات حربية . كما أذن لهما بأن يجمعا ما يحتاجان إليه من الشباب المتطوعين من الأناضول .

قام عروج بتحرير الكثير من القلاع والمدن الجزائرية . التي كان الإسبان يحتلونها مثل : بجاية ، شرشال ، مستغانم ، دلس ، الجزائر ، تنس وغيرها . ثم كلف أخاه خير الدين بإدارة القسم الشرقي من الجزائر بينما تولى هو القسم الغربي منها .

في 1517 تصدى لأول حملة إسبانية لطرد الأتراك من الجزائر . فتصدى لها عروج رئيس بمن معه من الأتراك والأندلسيين والأهالي . الأمر الذي كلف الإسبان خسائر فادحة أجبرتهم على المغادرة مخلفين وراءهم خسائر . بعد أن بسط نفوذه على وسط وشرق الجزائر ، وامتداد نفوذه إلى تونس ؛ قرر أروج رئيس أن التوجه إلى غرب الجزائر . فسار بقواته إلى تلمسان حيث تمكن من إلحاق الهزيمة بالسلطان الزياني الذي كان قد عقد معاهدة تبعية مع الإسبان . فدخل تلمسان واستفتى العلماء في أمر الملك الزياني المتعاون مع الإسبان ، فأفتوه بوجوب إعدامه فأعدمه . في هذه الأثناء كان عروج قد تمكن من الاستيلاء

على جميع المواقع الإسبانية التي كانوا يحتلونها في شرق وغرب الجزائر ماعدا وهران وبجاية . في 1518 تحركت قوات إسبانية من وهران بقيادة مارتين دي أرغوت (Martin de Argote) متوجهة إلى تلمسان حيث يتمركز عروج رئيس . واشتركت القوات الزيانية بآلاف الفرسان من العرب والبربر إلى جانب الإسبان . فتوجه مارتين أولا إلى قلعة القلاع حيث كان إسحاق رئيس الأخ الأكبر لأروج رئيس على رأس حاميتها المكونة من 900 تركي و 2000 عربي . فتصدت الحامية للقوات الإسبانية بضراوة غير أن عدم تكافؤ القوى المدافعة والغازية جعل عرقلة الإسبان ضربا من المستحيل . فاستشهد إسحاق رئيس و 800 من رفاقه . في هذه الأثناء وصلت قوات إسبانية إضافية مكون من 10.000 جندي لمساندة دون مارتين بقيادة غو ماركيسي Gomer Markisi توجهت إلى تلمسان بعد الاستيلاء على قلعة القلاع . فرض دون مارتين على تلمسان حصار شديدا بقواته ، يسانده 35.000 من العرب والبربر الموالين للسلطان الزياني . واستمر الحصار مدة طويلة اختلف في تقديرها ، دون أن يستسلم عروج رئيس ورفاقه . في فجر عيد الفطر من عام 1518 قام الأهالي بهجوم مباغت على قوات عروج رئيس ، فقتلوا عددا من رجاله . فأدرك أروج حينها استحالة الاستمرار في المقاومة بسبب هذا التطور المفاجئ للأحداث . وتمكن من فك الحصار مع عدد من رجاله والانسحاب . قامت فرقة إسبانية بمطاردة أروج ورفاقه ، فأدركتهم بعد ساعتين من خروجه من تلمسان . فأمر أروج رجاله بأن يلقوا ما لديهم من الأموال الثمينة في محاولة لإلهاء الإسبان ، غير أن القائد الإسباني لم تنطل عليه الحيلة فأمر أصحابة بتعقب أروج ورجاله دون الالتفات إلى الأموال الملقاة . بعد مطاردة قصيرة تمكن الإسبان من إدراك البحارة الاتراك المنسحبين مع عروج رئيس ونشبت بينها معركة غير متكافئة انتهت باستشهاد عروج رئيس وجميع من معه . بعد استشهاد عروج رئيس ورفاقه قام الإسبان بقطع رأسه ، وإرساله إلى إسبانيا حيث طافوا به في مدينة قرطبة قبل أن يعلق على كنيستها الكبرى .

- *3 - قالوا عنه*

لقد ملك حب خير الدين وأخيه عروج قلب أهل الجزائر، ويدل على ذلك الرسالة التي بُعثت إلى السلطان العثماني من أهل الجزائر التي أشادوا فيها بجهاد بابا عروج في مدافعة الكفار، وكيف كان ناصرًا للدين، وحاميًا للمسلمين، وتكلموا عن جهاده حتى وقع شهيدًا في حصار الإسبانيين لمدينة تلمسان، وكيف خلفه أخوه المجاهد في سبيل الله أبو التقى خير الدين، وكان له خير خلف فقد دافع عنا، ولم نعرف منه إلا العدل والإنصاف، واتباع الشرع النبوي الشريف، وهو ينظر إلى مقامكم العالي بالتعظيم والإجلال، ويكرس نفسه وماله للجهاد لرضاء رب العباد وإعلاء كلمة الله، ومناط آماله سلطنتكم العالية، مظهرًا إجلالها وتعظيمها، على أن محبتنا له خالصة، ونحن معه ثابتون، ونحن وأميرنا خدّام أعتابكم العالية، وأهالي إقليم بجاية والغرب والشرق في خدمة مقامكم العالي، وإن المذكور حامل الرسالة المكتوبة سوف يعرض على جلالتكم ما يجري في هذه البلاد من الحوادث والسلام

غازي خسرو بيك

- *1 - تقديم*

غازي خسرو بيك أو *غازي هسرو بيك* (1480-1541) هو أشهر أمراء البوسنة والهرسك قاطبة وباني سراييفو الحديثة كما أنه الوحيد في حكام البوسنة الذي أثر أوروبياً وكان لسيرته صدى إقليمي

- *2 - النشأة المبكرة*

ولد غازي خسرو في أحد المناطق اليونانية لأب بوسني وهو فرهاد بك من سلالة عائلة (تومافاتش) الذين كانوا ملوكاً على منطقة البلقان قبل الفتح الإسلامي وأمه هي الأميرة سالجكا بنت السلطان العثماني بايزيد الثاني وقد استشهد والده أثناء معركة تذكر في المراجع البوسنية باسم (معركة عدن) وتوفيت والدته أثناء زيارة لها إلى إسطنبول ودفنت بجوار والدها ونشأ الأمير غازي تحت نظر خاله السلطان أي أنه كان

حفيد السلطان العثماني وابن اخت السلطان العثماني مما أعطاه نوعاً من القدرة على صنع القرار والتصرف في سراييفو دون العودة إلى السلطة المركزية في اسطنبول

- *3 - الحروب والغزوات*

قام غازي خسرو بإنشاء جيش قوي في البوسنه والهرسك يتبع للإمبراطورية العثمانية وفتح به الكثير من المناطق التابعة لبلغاريا والمجر وعندما أصبح خاله سليمان الأول هو السلطان العثماني أعطى الأمير غازي المزيد من الثقة مما جعله أقوى وأكثر استقلالاً في اتخاذ القرارات ومن أهم الغزوات التي قادها بنفسه :

اسم المعركة	الموقع	العام
فتح بلغراد	مملكة الصرب	1527
معركة مهتاشا	كرواتيا	1513
حصار فيينا	مملكة النمسا	1529

- *4 - إعمار سراييفو*

قام الأمير غازي بإعادة بناء مدينة سراييفو بشكلها الحالي وقد استلهم فيه نظام البناء في أغلب المدن الإسلامية كما أسس العديد من المشاريع الضخمة في مدينة سراييفو التي كانت عاصمة لولايته وأهمها :

- جامع غازي خسرو الكبير
- السوق الخيري والأوقاف
- مكتبة غازي خسرو للمخطوطات والكتب الإسلامية
- المدرسة الإسلامية ومدرسة القرآن الكريم
- برج الساعة
- سبيل الماء الخيري
- البنى التحتية في مدينة سراييفو
- ولا زالت جميع هذه الآثار موجودة إلى هذا اليوم وقد تأثر بعضها بسبب الحرب الأهلية في البوسنة
-

- *5 – وفاته*

توفي الأمير غازي بعد اصابته في أحد الغزوات مع الصرب في منطقة الجبل الأسود وتم نقل جثمانه إلى سراييفو والصلاة عليه ودفنه في باحة مسجده الكبير ولا زال ضريحه هناك حتى اليوم وتذكر المراجع بانه لم يتزوج ولم يعقب لانشغاله بالمعارك والتعمير وكانت له شقيقه واحدة اسمها نصل شاه وعندما فتحت شقيقته وصيته وجدت بأنه أوصى بأن توقف جميع أمواله وممتلكاته لأعمال الخير على الرغم من أنه في حياته كان قد أسس أكثر من ثلاث مائة وستون وقفاً مختلفاً بين جامع ومسجد ومدرسة

- *6 - الجهود العربية في اعادة الترميم*

كان هناك عدة جهود من مؤسسات ثقافية وإنسانية دولية وإسلامية وعربية لإعادة إعمار سراييفو إلا أن الجزء الخاص بمنجزات الأمير غازي خسرو بك كان الأكثر جذباً للجهات العربية المانحة فقد قامت المملكة العربية السعودية ممثلة في الهيئة السعودية العليا في البوسنة بإعادة ترميم وإعمار مسجد غازي خسرو بك الكبير كما قامت دولة قطر بإعادة افتتاح وتعمير المكتبة الإسلامية وقد فوجئت الأوساط العربية الثقافية بكم المخطوطات العربية القديمة التي كان الأمير يحتفظ بها في صناديق مختلفة منها مخطوطات نادرة لا تتوافر في الأقطار العربية

مؤذن زاده علي باشا

- *1 – تقديم*

مؤذن زاده علي باشا Müezzinzade Ali Paşa - (توفي في 7 أكتوبر 1571) هو سياسي وقائد بحري عثماني. كان واليًا على مصر بين عامي 1563 و1566، ثم قاد الأسطول العثماني في معركة ليبانت البحرية، حيث قُتل أثناء سير القتال.

كان علي باشا ابنًا لمؤذن، ومن هنا جاء لقبه "مؤذن زاده"، وكان يُعرف بتصوفه وارتدائه الثياب الخشنة، ودأبه على زيارة أضرحة الأولياء في القرافة إبان ولايته على مصر.

- *2 - فتح العثمانيين لقبرص*

شارك علي باشا في غزو قبرص سنة 1570 تحت قيادة لالا مصطفى باشا، حيث قاد لالا مصطفى باشا الهجوم العثماني على الجزيرة (الذي انتهى باستيلاء العثمانيين على الجزيرة من أيدي البنادقة)، بينما توجه علي باشا بأسطوله إلى كريت ثم إلى شبه جزيرة المورة ليمنع أي أساطيل مسيحية من إغاثة الجزيرة المحاصرة.

- *3 - معركة ليبانت ومصرعه*

قاد علي باشا الأسطول العثماني في معركة ليبانت البحرية، التي وقعت في 7 أكتوبر 1571، وقد ائتمنه سليم الأول على " راية الخلفاء " ، وهي راية ضخمة ثمينة خضراء اللون كانت مطرزة بآيات قرآنية مكتوبة بخيوط الذهب.

كان علي باشا محنكًا في الحروب البرية، لكنه كان قليل الخبرة في معارك البحر، وقد أدى فشله في الحفاظ على تماسك أسطوله إلى نجاح القوات المسيحية في اختراق خطوطه في عدة نقاط وعزل سفنه بعضها عن بعض ثم هزيمتها وهي في حالة من التشرذم. وقد نجح العدو في اقتحام سفينة القيادة، وتمكن مرتزق مقدوني من قتل علي باشا بطلقة في رأسه، ثم قام جندي إسباني بقطع رأسه، ليُرفع لاحقًا على رمح. وقد أدى مصرع القائد العثماني وسقوط راية الخلفاء في يد العدو إلى انهيار معنويات العثمانيين وهزيمتهم في المعركة.

الضباط بالجيش العثماني وجيش الثورة العربية من آل الاتاسي بحمص :

1 - أحمد سامي بن ابراهيم بن محمد الأتاسي (1895- 1976): ضابط بالجيش العثماني. هو والسيد سامي بن زكي بن أمين الأتاسي أول من انتحلا السلك العسكري من آل الأتاسي. ولد بحمص وانتسب إلى الكلية الحربية في الأستانة. خاض مع الجيش التركي بقيادة جمال باشا حرب الترعة (حرب قناة السويس) ، حيث قام الجيش العثماني بشن الهجوم عبر القناة على الانجليز. وقع في أسر القوات البريطانية في مصر. قام والده الشيخ ابراهيم أفندي بالضغط على المندوب الفرنسي لنقل ابنه إلى سوريا، فسلمته القوات البريطانية إلى سلطات الانتداب الفرنسية التي أطلقت سراحه. بعد عودته إلى البلاد ترك العسكرية واشتغل بتدريس الرياضيات

2 - سامي بن زكي بن محمد أمين الأتاسي : ضابط بالجيش العثماني. هو وسميه وابن عمه السيد أحمد سامي بن ابراهيم بن محمد الأتاسي أول من انتسبا للسلك العسكري من آل الأتاسي. شارك ضابطا في الجيش العثماني في حرب السويس ووقع بالأسر في أيدي القوات البريطانية. ولما فاوض الشيخ ابراهيم الأتاسي الفرنسيين لإطلاق سراح ابنه أحمد سامي من الانجليز وجدوا ضابطا آخر من آل الأتاسي يسمى بسامي أيضا قد وقع في نفس الأسر، فلما علم الشيخ ابراهيم طلب إطلاق سراح الساميين، وهكذا كان.

3 - الدكتور المجاهد رفعت بن محمد راغب بن محمد أمين الأتاسي (1885-1933): ولد ودرس بحمص ثم رحل إلى الأستانة فتخرج من كلية الطب بها فكان من أوائل الأطباء بحمص. عين رئيسا للأطباء بحلب. اشترك في الحرب العالمية الأولى، ثم ناضل في الثورة السورية. ترجم له الجندي في تاريخ الثورات السورية فكان مما قال: "ولما نشبت الثورة السورية عام 1925م وانتشرت عصابة نظير النشواتي وخيرو الشهلة في حمص كان يجازف بحياته ويقوم بواجبه الانساني حيال المجاهدين فيسعف الجرحى والمرضى منهم، ويعالجهم ويزورهم في الأماكن السرية دون أن يتقاضى منهم أجراً، ولو علمت السلطة الفرنسية بأمره لقضت عليه بالاعدام. كان نبيلاً في شعوره وجريئاً في عقيدته، محباً للخير، قضى حياته

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

في مهنة الطب وخرج من الدنيا دون أن يجمع ثروة كغيره من الأطباء الجشعين، وقد اشتهر بظرفه وطرافة حديثه، فكان درة المجالس .

4 - عمر بن يحيى بن محمد سعيد الأتاسي (ولد عام 1879): ترأس الجيش العربي الهاشمي الذي دخل حمص طاردا الأتراك منها (1918). رئيس بلدية مدينة حمص (1912)، رئيس الحكومة العربية المؤقتة بها (1918)، وقائم مقامها (1918-1919)، ومتصرفها (1920-1921)، ورئيس لجنة الدفاع عن حمص (1919).

5 - الدكتور المجاهد محرم بن عبدالرحمن بن حسن بن محمد سعيد الأتاسي (1297-1376=1881-1956م): جراح عام وضابط بالجيش العثماني. ولد بحمص ودرس فيها ثم تخرج من كلية الطب بالأستانة فكان من أوائل الأطباء الحماصنة. أوفد إلى روسيا للتخصص في الجراحة لصالح الجيش العثماني، وهنالك تزوج من إحدى الأسر الارسطقراطية. عاد إلى الأستانة وشارك ضابطا في الجيش العثماني في حرب القرم ضد روسيا فوقع في الأسر، فك أسره عام 1917م مع الثورة البلشفية وعاد إلى اسطنبول ومارس الطب بها وتوفي هناك ولا تزال أسرته هناك.

6 - المجاهد عبدالوهاب بن عبدالرحمن بن حسن بن محمد سعيد الأتاسي (1296-1374=1880-1954م): البطل المجاهد. ولد بحمص وانتسب للكلية العسكرية بالأستانة، واشترك في معارك اليمن وجناق قلعة جنبا إلى جنب مع جمال باشا. أظهر شجاعة متناهية فكلف بمهمة استكشافية في البوسفور أسفرت عن إصابته فنقل بالطائرة إلى ألمانيا للمعالجة ثم عين بقيادة الأركان الألمانية التركية، وتكريما له أطلق على الجبل الذي وقع فيه جريحا اسم جبل عبدالوهاب في تركية. في العهد العربي كان على رأس القوات العربية التي دخلت حمص مع ابن عمه عمر بك الأتاسي، ثم كلف بتنظيم أول جيش عربي، وتعرض لغضب الفرنسيين لما رفض التعاون معهم في قيادة الدرك فنقموا عليه واتهموه بمحاولة اغتيال الجنرال غورو في طريق القنيطرة فسجن في قلعة دمشق أربعة أشهر عذب فيه، ثم أطلق سراحه فشارك في الثورة السورية فاعتقل خمسة سنين لحيازته أسلحة ومؤازرته للثوار. أنيط به مهمة فتح الممر لمد قساطل الفيجة، ثم عين رئيسا لشعبة تجنيد الصالحية. توفي في دمشق ودفن في جبل قاسيون إلى جانب ابنه الشهيد البطل محيي الدين الأتاسي. ترجم له الجندي في تاريخ الثورات السورية ،

7 - محمد جمال بن محمد توفيق بن محمد نجيب بن محمد أمين الأتاسي (1894-1936): مهندس زراعي درس في الأستانة. شارك في حرب السويس مع الجيش العثماني، ثم عاد إلى حمص واشتغل في حقل علمه.

8 - قائد درك حمص المجاهد ظافر بن محمد صادق بن أمين الأتاسي (ولد عام 1895م): ولد بحمص وتلقى علوم الابتدائية والثانوية وتخرج عام 1911. بدأ حياته العملية بأن توظف عام 1914 في المصرف الزراعي بالسلمية وتقلب في عدة وظائف حتى إعلان النفير العام فانخرط في الجندية برتبة ضابط وبقي مدة أربع سنوات حتى نهاية الحرب العالمية الأولى تاريخ تعيينه قائداً لدرك حمص، وبعد دخول الافرنسيين إلى البلاد السورية عاد إلى التوظيف في المالية فشغل عدة مناصب أشهرها: آمر جباة، مدير مال، رئيس محاسبة الشرطة العامة، مدير مالية جبل الدروز، مدير مالية الفرات، ثم أخيراً مدير مالية محافظة حماة. نال من الأوسمة ميدالية حرب عثمانية وميدالية حرب ألمانية.

فوزي القاوقجي

فوزي القاوقجي (1890-1977) ضابط في الجيش السوري وقائد جيش الإنقاذ خلال حرب 1948 ولد في مدينة طرابلس بالدولة العثمانية. درس في المدرسة الحربية في الأستانة (إسطنبول)، وتخرج ضابطاً في سلاح الخيالة العثماني عام 1912. عمل في خدمة الملك فيصل في دمشق وعمل مسئولا عن حراسة قصر الملك ب دمشق وفي عهد الانتداب الفرنسي أصبح آمرا لسرية الخيالة في حماة اشترك في الثورات السورية ضد المستعمر الفرنسي واسند إليه قيادة الثورة في منطقة غوطة دمشق، وشارك في المعارك ضد الإنجليز خلال الحرب العالمية الأولى في العراق 1914 وفلسطين 1916. لكن النقطة البارزة في حياته كانت توليه قيادة جيش الإنقاذ في فلسطين عام 1947.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

ساعد الملك عبد العزيز آل سعود في تشكيل الجيش السعودي عام 1929 للقضاء على تمرد الإخوان ثم انضم إلى الملك فيصل في العراق في عام 1932 ثم قام بتشكيل قوات متطوعة عربية توجه بها إلى فلسطين عام 1936.

عاش فوزي القاوقجي في دمشق وتميز بشجاعته النادرة وعروبته التي دفعته لخوض المعارك ضد الاستعمار الأوروبي في مجمل المناطق العربية فشارك في الثورات في مناطق مختلفة من سوريا ضد الفرنسيين في العشرينيات وثورة فلسطين 1936 وفي العراق ساهم في ثورة رشيد عالي الكيلاني عام 1941.

تولى قيادة جيش الإنقاذ في فلسطين عام 1947، وجند الكثير من المتطوعين الفلسطينيين بين عامي 1947 و 1948 لقتال المحتلين الإسرائيليين ومن هؤلاء المتطوعين ضباط مشاهير من مؤسسي منظمة التحرير الفلسطينية لاحقاً وجيش التحرير الفلسطيني.

قاد القاوقجي عدداً من المعارك ضد الإسرائيليين، أهمها معركة المالكية والهجوم التي قام به الجيش السوري وقوات لبنانية في حزيران (يونيو) 1948 ضد الإسرائيليين. قدم استقالته بعد اتفاقيات هدنة 1949 بين العرب وإسرائيل. وعاش في دمشق ثم توفى في بيروت عام 1977.

ويعتبر فوزي القاوقجي في الذاكرة الشعبية العربية من أهم المناضلين الابطال في الدفاع عن الدول العربية كافة وعن القضايا العربية يلقى كل التكريم والاحترام كواحد من الابطال في التاريخ العربي الحديث.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الجيش العثماني (1826 - 1922)

1 - تقديم

الجيش العثماني الحديث (1826 - 1922) أمر السلطان محمود الثاني بعد الواقعة الخيرية سنة 1826 بحل قوات الإنكشارية ليحل محلها جيش عثماني حديث على النمط الأوروبي، فتأسس في 1826 وأطلق على الجيش اسم العساكر المحمدية المنصورة المدربة ثم اسم "أوردوي عثماني" أي الجيش العثماني ثم أستقر على اسم "أوردوي همايون" أي الجيش الهمايوني.

2 – التاريخ

بدأت الإصلاحات العسكرية العثمانية في عهد السلطان سليم الثالث الذي تولى الحكم في سنة 1789 فبعد انتهاء الحرب الروسية العثمانية 1887-1892 أمر باستحداث نظام عسكري جديد اسماه النظام الجديد (Nizam-ı Cedid). نتج عن الإصلاحات العسكرية التي شملت على إصلاحات إدارية ومالية جيش نظامي على النمط الأوربي جهز بأسلحة حديثة وزي جديد كما وفرت له موارد ماليه مستقلة. ومع حلول عام 1807 كان الجيش الجديد قد بلغ تعداده 23,000 جندي.

عارضت قوات الإنكشارية الإصلاحات الجديدة وقامت بالتعاون مع رجال الدين بخلع السلطان سليم عام 1807 ليتقلد ابن عمه السلطان مصطفى الرابع مقاليد السلطنة حتى 1808.

3 - الإصلاحات العسكرية

3 – 1 - عهد محمود الثاني

في السلطان محمود الثاني (1808 - 1839) استكملت الإصلاحات العسكرية في الجيش العثماني الأمر الذي تسبب في قيام الأنكشارية بالثورة ضد مشاريع السلطان الهادفة إلى إصلاح الفيالق العسكرية الأنكشارية، ونتيجة لثورة الأنشكارية أمر السلطان محمود قواته من المدفعية بضرب مهاجع الأنشكارية في إسطنبول مما تسبب في مصرغ غالب الأنشكارية، في اليوم التالي أعلن السلطان رسميا في 15 يونيه 1826 م عن حل فيالق الأنشكارية وتأسيس جيش جديد أطلق عليه اسم العساكر المحمدية المنصورة المدربة (Muallem Asakir-i Mansure-i Muhammadiye) بلغ تعداد الجيش الجديد في نهاية عهد السلطان محمود 23,000 جندي كما انشئ حرس إمبراطوري يضم 11,000 جندي إضافة إلى جيش احتياط قوامه 100,000 جندي (1836) اطلق عليه اسم "العساكر الرديفة المنصورة" (Asakir-i Redife-i Mansure) ينتشر في الأقاليم ويكلف بواجبات حفظ الأمن وتطبيق النظام.

3 – 2 - عهد عبد المجيد الأول

في عهد السلطان عبد المجيد الأول تم تغير اسم الجيش إلى "العساكر النظامية السلطانية" (Asakir-i Nizamiye-i Şahane) وتقرر تقسيم الجيش إلى عدة قيادات إقليمية يكون لكل منها قائد برتبة مشير يعين من قبل السرعسكر في اسطنبول أدى هذا الأمر إلى انهاء سيطرة حكام الولايات على القوات العسكرية الواقعة ضمن حدودهم الإقليمية وربط قيادة الجيش مباشرة بإسطنبول، التقسيمات العسكرية العثمانية جاءت كما يلي:[5]

الجيش الأول : يسمى "جيش الحرس الإمبراطوري" (Hassa Ordusu) ينتشر في العاصمة على ضفاف البسفور ومقر قيادته في أسكودار.

الجيش الثاني : يسمى "جيش اسطنبول" (Istanbul Ordusu) ينتشر في شمال غرب الأناضول وتراقيا.

الجيش الثالث: يسمى "جيش الروملي" (Rumeli Ordusu) ينتشر في باقي الأراضي الأوروبية العثمانية ومقر قيادته في موناستير ولاحقا في إشكودرا بألبانيا.

الجيش الرابع: يسمى "جيش الأناضول" (Anadolu Ordusu) ينتشر في شرق الأناضول مقر قيادته في سيفاس.

الجيش الخامس: يسمى "جيش بلاد العرب" (Arabistan Ordusu) ينتشر في سورية والعراق والجزيرة العربية ومقر قيادته دمشق

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الجيش السادس: تشكل عام 1848 ليتولى مسؤولية الدفاع عن العراق والجزيرة العربية بدلا عن الجيش الخامس، مقر قيادته في بغداد.

الجيش السابع : تشكل عام 1869 من الوحدات العسكرية العثمانية المتواجدة في اليمن.

3 – 3 - عهد عبد الحميد الثاني

في ولاية السلطان عبد الحميد الثاني (1876 - 1909) مر الجيش العثماني بالعديد من الإصلاحات العسكرية لاسيما في الفترة التي أعقبت العام 1880 م ،إذ استهل هذه الفترة بالاستفادة من الضباط الألمان وذلك بتعيين كل من الكولونيل كولكر وكومر كمستشارين عسكريين. وقام بتطور مناهج الكلية العسكرية لتوائم النظام الأوروبي.وقد تم تغيير تسمية الكلية العسكرية إلى كلية العلوم الحربية.وتم في هذه الكلية العمل بنظام الدرجات والترقيات المهنية. اتسمت هذه الفترة بالتنظيم الشديد للجيش إلا أن الأمر اختلف كثيرا في السنوات الأخيرة لحكم عبد الحميد خصوصا مع تقليل الميزانية المخصصة للجيش التي كانت تقدر بحوالي 7 ملايين ليرة سنويا من أصل 18.9 مليون ليرة للميزانية الكلية للدولة, الأمر الذي شكل عبئا كبيرا على الدولة.

4 - التشكيلات العسكرية

حشود الجيش العثماني في مرج بن عامر بفلسطين
خلال الحرب العالمية الأولى

كانت القوات العثمانية تتألف من سبعة جيوش يضم كل جيش عثماني وقت السلم قوة بحجم فيلق مؤلف من أربع فرق يضاف إليه وقت الحرب فيلقان من الرديف وفرقة من المستحفظة كذلك يتضمن الجيش قواته الخاصة به من المدفعية والخيالة.

القيادة العسكرية بيد السرعسكر، وهو رئيس الجيش وكذلك وزير الدفاع ورئيس أركان القوة البرية، فقط القوة البحرية والأسطول ليست ضمن صلاحياته. يحمل السرعسكر رتبة مشير، في عام 1908 تغير هذا المسمى إلى اسم ناظر الحربية.

التجنيد إجباري للمسلمين، مدة الخدمة العسكرية ثلاث سنوات للمشاة والبحرية وأربع سنوات للخيالة والمدفعية، ست سنوات احتياط وتسع سنوات رديف وسنتان مستحفظة.

مجموع القوات وقت الصلح 405,000 جندي (1908) يصل العدد وقت الحرب إلى 1,683,000 جندي دون احتساب أفراد الجندرمة (الدرك) والضبطية (الشرطة)، الميزانية السنوية للجيش تبلغ سبعة ملايين ليرة عثمانية (1908).

الجيوش:

- الجيش الأول (إسطنبول)
- الجيش الثاني (أدرنة)
- الجيش الثالث (سالونيك)
- الجيش الرابع (إرزينجان)

- الجيش الخامس (دمشق)
- الجيش السادس (بغداد)
- الجيش السابع (صنعاء)

الفرقة المستقلة:
- فرقة مستقلة (مكة)
- فرقة مستقلة (طرابلس)

5 – المدفعية

يملك الجيش العثماني 1626 مدفعاً متحركاً في 15 لواءً من 271 بطارية مدفعية، إضافة إلى 876 مدفع قلعة موزعين على 146 بطارية.

6 - الرتب العسكرية

- مشير
- فريق أول
- فريق
- ميرلوا (لواء)
- مير آلاي (عميد)
- قائم مقام (عقيد)
- بكباشي (مقدم)
- صاغ (رائد)
- يوزباشي (نقيب)
- ملازم أول
- ملازم ثاني

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

سياسيون غير عثمانيون في أواخر العهد العثماني

أسعد إسماعيل العظم

1 - تقديم

أسعد إسماعيل العظم ، المشهور بأسعد باشا العظم (1701-1757): يقال أنه من مواليد معرة النعمان.

ولي على دمشق. وحكمها لمدة 12 عاما، وكان أميرا لموكب الحج الشامي، حيث كان من أهم شروط تعين وبقاء والي دمشق هو متابعة والحفاظ على موكب الحج (محمل الحج الشامي). تم نفيه إلى كريت، ثم قتل في أنقرة إثر خلاف مع السلطان العثماني. في عهده قام الناس بالثورة بسبب غلاء أسعار الخبز.

2 - إنشائه للمباني

بوابة خان أسعد باشا العظم 1870

- *اشتهر بالمباني التي أنشأها وقت حكمه والتي ما تزال قائمة إلى الآن، منها :*

قصر العظم في حماة عام 1740 م

خان أسعد باشا والذي بدأ بنائه عام 1743 م وانتهى عام 1754 م حيث كان ملك خاص للعظم وهو حاليا ملك مديرية الآثار في دمشق.

قصر العظم في دمشق ، بناه في الجهة الجنوبية من المسجد الأموي عام 1749 م كبيت له، قام بإلزام أهل دمشق بتقديم أجمل ما في بيوتهم من رخام وبلاط وأبواب ونوافذ وكل ما يلزم لبناء القصر. وقد بني القصر في صحن معبد جوبيتر. وادعى بعض المؤرخين إلى أنه بني فوق دار لمعاوية بن أبي سفيان.

كما ينسب إليه بناء حمام الأسعدية، وهو يقع في سوق دمشق القديمة.

3 - دائرة فلتانة سي

جاء في كتاب حوادث دمشق اليومية غداة الغزو العثماني للشام 926-956هـ لابن طولون الصالحي الدمشقي أن العظم أمر بإنهاء وجود الدالاتية (فرقة من الجند) في دمشق، حيث أرسل مناديه ينادي بأن من يبقى بالشام بعد ثلاثة أيام، يصلب، يصادر ماله.

فقام أحدهم بعد فقد رزقه بوضع مكتب على باب مقبرة الباب الصغير في دمشق، لتحصيل ضريبة، بصورة غير نظامية، على الأموات الذين يدفنون في المقبرة. حيث بنى غرفة لهذا الغرض، وصنع خاتما كتب عليه دائرة فلتانة سي وجاء في عهده الوباء الأصفر الكوليرا وقام منادية ينادي الناس إلى الجامع الكبير وتم القاء أحد المطربات من أعلى المئذنه لانها حسب اعتقاده سبب انتشار المرض بسبب ان الناس تتجمع للاستماع لها فأنتشر المرض بين الناس، وأخذ يتقاضى الضريبة على الأموات كل حسب وضعه الاجتماعي قبل وفاته، ومن ثم يسلم أهل المتوفي إيصالا رسميا مختوما بدائرة فلتانة سي. واستمر بضع سنوات حيث أن بعد أن جاء وباء الكوليرا اغتنى الرجل.

و لدى وفاة أحد أقارب العظم، خرج العظم في الجنازة، وعندما دخلت الجنازة المقبرة أوقفهم الرجل ليدفع العظم، إلا أنه لدى عودته إلى سراياه قام بالتأكد من الدفتردار فتحي أفندي، حيث سأله عن هذه الدائرة وانكشف الأمر. تم إحضار الرجل إلى العظم، حيث قال له العظم: عفارم... إبق في محلك، لكن الواردات مناصفة.

4 - أقوال المؤرخين

جاء في أعلام النبلاء للأستاذ محمد راغب الطباع جزء 3 صفحة 334 ما نصه :

"قال ابن ميرو في تاريخه: هو أسعد بن إسماعيل الوزير ابن الوزير، مولود ب معرة النعمان سنة 1117 هجرية (1696 ميلاديه)، صار متسلما لوالده بالمعره وحماة وعوقب مع والده ثم أفرج عنه حين أفرج عن والده وأمر بالذهاب إلى خانية فاستعفى عن الذهاب لعلة كانت به، فعفي عنه وبقي عند عمه سليمان الوزير بطرابلس ثم أنعمت الدولة على عمه المذكور وعليه (بمالكانة) حماة وتوابعها مناصفة وذهب إليها وسار بها سيرة حسنة وعمر بها خانات وحمامات وبساتين ودور ليس لها نظير في البلاد الشامية، ثم أنعمت عليه الدولة بطوخين برتبة (روملي) وصار جرداويا لأمير الحج علي باشا الوزير سنة 1153 هجرية ثم بعد عودته ولي صيدا فضاق بها ذرعا لامور يطول شرحها فاستعفى وطلب حماة منصبا بعد أن كانت مالكانة له فوجهت إليه منصبا ودخلها سنة 1154 وبذل الأموال إلى أن جعلها مالكانة له بعناية الوزير الكبير بكر باشا". وجاء في كتاب ولاة دمشق صفحة 79 ما ملخصه:

"دخل أسعد باشا الشام في شهر شعبان سن 1156 وكان رجلا ذا عقل وتدبير، حج ثلاث حجات وما تعرض لأحد بظلم ولم يقتل أحدا".

وجاء في حوادث دمشق اليومية صفحة 35 مقدمة:

((خلف سليمان باشا في ولاية الشام دمشق ابن أخيه أسعد باشا العظم وكان قبل ذلك حاكما بحماة شأن أكثر الحكام من بني العظم وقد أقام واليا بدمشق أربعة عشر عاما متواليه 1156-1170 هجريه فكان أطولهم حكما، تولى ولاية الشام في ظروف صعبه فالدولة تغتصب أموال عمه وتسجن حريمه واتباعه والدفتردار الفلاقنسي يعينها على ذلك وجند الانكشارية قد علا سلطانهم فوق كل سلطان حتى استبدوا بالناس وأساءوا إليهم في أموالهم وأعراضهم وكرامتهم واستهانوا بالباشا والحرب ضد الدروز وظاهر العمر كانت ولا تزال قائمة، فالحاجة إذن ماسة إلى سيادة النظام. وقدر الباشا أن علة العلل كامنة في اختلال أمر العسكر وخاصة الانكشارية المحلية الذين ازداد رؤسائهم طغيانا حتى استحالوا إلى أشقياء أو (زرباوات) في مصطلح أهل الشام ولكن الباشا لم يستطع معالجة الداء من أساسه فهذا أمر عجزت عنه الدولة نفسها، ولكنه ما زال يسعى سرا إلى أن استصدر من الدولة إذنا بإبادتهم فجمع جموعا من الدالاتية فهاجم بهم القلعة فملكها وكانت الحصن الحصين للإنكشارية وهاجم دور رؤسائهم في حي سوق ساروجا والميدان فأحرقها ونهبها العسكر وملأت جثث القتلى شوارع المدينة فسكنت الشام بعد ذلك وصارت(كقدح اللبن).

نظر المؤرخون إلى اسعد باشا من عدة نواحي وألبسه كل واحد منهم الصفة التي توافق الناحية التي لاحظها فيه :

1- البطش والحزم اللذان أخمد بهما الفتن والشغب.
2- الحلم والرافة اللذان عامل بهما المستضعفين وغير المسلمين.
3- الاستقرار والعمران اللذان هما مقياس الحكم الصالح في ذلك العصر المضطرب.

ان هذه النواحي تدلنا على ان الصفة الأساسية له هي المرونة والتكيف مع الظروف المتغيرة باستمرار فلابد من سلوك طريق البطش والحزم لمنع الفتن والاضطرابات ومتى ما استقر الوضع ظهرت صفات الرجل المسالم الذي يميل إلى الهدوء.

ففي زمن أسعد باشا ساد التسامح والعدل وعومل غير المسلمين معاملة حسنة لم يكونوا يحلمون بها أو يتوقعونها ونستشهد على ذلك بفقرة جاءت في كتاب الخوري ميخائيل بريك الدمشقي حيث يقول في الصفحة 62-63 من كتابه (في اواخر السنة الماضية وابتداء من هذه السنة 1759 ميلادية وقع على النصارى مظالم لا تحصى، يا حيف على نصارى دمشق كانوا كزهور نيسان وايار) ثم يستطرد فيقول (قرأت تواريخ دمشق منذ استلمها الإسلام إلى هذا الزمان فما رأيت تاريخا يخبر بانه صار لهم عز وجاه وسيطرة وسطوة وذكر مثل مدة العشرة سنين الماضية في حكم أسعد باشا العظم فكان اسمه اسعد والسعد بوجهه في هذه السنين).)).

وأما الاستقرار والعمران فيكفي ان تطالع ماكتبه الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه (قصر أسعد باشا العظم في دمشق) وقد ذكر فيه تفاصيل عن حالة البناء وعن موقعه وكيفية انشائه، وما كتبه من المؤلفين عن القصر وعن القيسارية المشهورة (خان أسعد باشا العظم). وكتب التاريخ مليئة بنا أشاده من مدارس ومكتبات وما ذودها من كتب ومخطوطات وترميمه للجامع الأموي وتجديد فرشه وإصلاحه جامع يلبغا وجامع الياغوشية وما بناه من حصون في طريق الحج وما شيده من ترع وخزانات مياه وما أصلح وجدد من طرق ومعابر في تلك السهول والجبال.

أحمد باشا الجزار

1 – تقديم

أحمد باشا الجزار (1734م - 1804م) أو أحمد البوشناقي (أصوله من البوسنة والهرسك الان) الذي حكم ساحل فلسطين والشام أكثر من 30 عاما ولولا وفاته لتولى حكم مصر قبل محمد علي الذي حكم مصر بين عامي 1805م و1848م.

2 – حياته

ولد البوشناقي (الجزار) في البوسنة لأسرة مسيحية عام 1735م وهرب إلى القسطنطينية في مطلع شبابه . وباعه تاجر رقيق للباب العالي حيث اعتنق الإسلام بإرادته، ثم جاء إلى القاهرة مع قافلة عائدة من الحج وانضم لخدمة أحد المسئولين في البحيرة بشمالي مصر وتزوج من امرأة مصرية من أصول حبشية.

بعد أن قتل البدو هذا المسئول انتقم البوشناقي بغارات متوالية على البدو حيث أعد كميناً ذبح فيه أكثر من 70 بدوياً بينهم عدة شيوخ وقادة أقوياء للبدو حين ذاك فاكتسب لقب "الجزار" نظراً لقوتة وعدم تركة لأحياء أو ناجيين خلفة، عدى الأطفال والإناث وكِبار السِن. جاء هذا عليه بالسوء حيث كما جاء في بعض المراجع التاريخية أن البدو انتقموا منه بعد ذلك بقتل زوجتة وإبنته ولكنهم لم يتمكنوا من قتل إبنه "داوود" حيث إنهُ تمكن من الهَرب وكما جاء على لِسان بُناة مسجد أحمد باشا الجزار بمدينة عكة أن "داوود" تعارك مع أبيه أثناء بناء المسجد وعاد إلى القاهرة وأقام مع عائلة أُمه وتزوج هناك.

عمل أحمد باشا الجزار عند علي بك الكبير الذي حكم مصر بين عامي 1768م و1773م بادئاً خدماته لسيده بأن قدم له رؤوس أربعة يكرههم من شيوخ البدو فاستخدمه للتخلص من معارضيه ومنافسيه ومنحه لقب بك. على أثر انقلاب محمد بك أبو الذهب العسكري على حاكمها السابق علي بك الكبير، هرب أحمد باشا الجزّار حين وجد أنه من الصعب مقاومة انقلاب أبو الذهب حين ذاك بسبب تواجد الكثير من الخوّنه داخل النظام فذهب إلى جبل لبنان متغاضياً كرهه للدروز حيث كان يسيطر الأمير يوسف الشهابي زعيم الدروز حاكم ساحل لبنان ومدن حمص وحلب. فكلّفه حفظ بيروت. بنى الجزار سورا قويا حول المدينة من الحجارة الأثرية التي خلفها زلزال 511 م. ثم انقلب على صديقه الأمير يوسف الشهابي. وبمساعدة **ظاهر العمر** حاكم منطقة الجليل بفلسطين والأسطول الروسي، استطاع الأمير الشهابي من

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

استعادة بيروت فما كان من الجزار إلا أن جمع أموالاً وهرب بها عام 1773م وعاد إلى السلطان العثماني الذي فوضه على ولاية صيدا ومنحه لقب "باشا".

أن لقب "الجزار" الذي حمله من مصر ظل علامة عليه إذ سيطر على القوى المحلية والعشائرية بقسوة وجند المرتزقة والمغاربة من تونس والجزائر والألبان والبوسنيين وسعى لتحقيق الحلم بحكم فلسطين وجنوب سورية ولبنان بل طمع في حكم مصر وكان السلطان يراقب توسعاته ونفوذه وطموحاته فحاول أكثر من مرة تنحيته أو نقله إلى ولاية بعيدة مثل البوسنة لكنه كان يرفض فأغراه بالتوجه إلى مصر عام 1784 لمحاربة المملوكين مراد وإبراهيم وكتابة تقرير عن أوضاع البلاد لكنه تجنب الفخ.

نجح في تحقيق الاستقلال بأجزاء من بلاد الشام بدون إعلان هذا الاستقلال عن السلطنة كما أعد للسلطان تقريرا عن كيفية غزو مصر طالب فيه بأهمية ضبط إيرادات مصر ومصروفاتها وأن يكون قائد الحملة قد سبقت له الإقامة في مصر "والمواصفات التي قدمها الجزار لقائد الحملة على مصر وحاكمها المنتظر لا تنطبق إلا على شخصه" كما أكسبه صموده أمام جيوش نابليون شهرة بعد فشل الأخير في حصار عكا.

منذ هزيمة نابليون وعودته من الشام عام 1799م كانت الشام ولبنان وفلسطين تحت سيطرة الجزار بلا منازع أو منافس حيث حكم العصبيات المحلية وحول "أمراء الدروز إلى أدوات للظلم الاقتصادي" لحسابه. كما يسجل أن الفونس جيز القنصل الفرنسي في طرابلس كتب في الخامس من مارس/آذار 1804م عن وصول السعاة من الاستانة إلى طرابلس للحصول على خيول وكانوا يحملون إلى الجزار "فرمان تعيينه واليا على مصر" لكنه توفي يوم 23 أبريل/نيسان 1804م.

محمد علي باشا

تقديم

محمد علي باشا المسعود بن إبراهيم آغا القوللي (بالتركية العثمانية: قوللى محمد على پاشا؛ Kavalalı Mehmet Ali Paşa؛ وبالألبانية: Mehmet Ali Pasha ، المُلقب بالعزيز أو عزيز مصر، هو مؤسس الأسرة العلوية وحاكم مصر ما بين عامي 1805 إلى 1848، ويشيع وصفه بأنه " مؤسس مصر الحديثة " وهي مقولة كان هو نفسه أول من روج لها وأستمرت بعده بشكل منظم وملفت. استطاع أن يعتلي عرش مصر عام 1805 بعد أن بايعه أعيان البلاد ليكون واليًا عليها، بعد أن ثار الشعب على سلفه خورشيد باشا، ومكّنه ذكاؤه واستغلاله للظروف المحيطة به من أن يستمر في حكم مصر لكل تلك الفترة، ليكسر بذلك العادة العثمانية التي كانت لا تترك واليًا على مصر لأكثر من عامين.

خاض محمد علي في بداية فترة حكمه حربًا داخلية ضد المماليك والإنجليز إلى أن خضعت له مصر بالكليّة، ثم خاض حروبًا بالوكالة عن الدولة العلية في جزيرة العرب ضد الوهابيين وضد الثوار اليونانيين الثائرين على الحكم العثماني في المورة، كما وسع دولته جنوبًا بضمه للسودان. وبعد ذلك تحول لمهاجمة الدولة العثمانية حيث حارب جيوشها في الشام والأناضول، وكاد يسقط الدولة العثمانية، لولا تعارض ذلك مع مصالح الدول الغربية التي أوقفت محمد علي وأرغمته على التنازل عن معظم الأراضي التي ضمها.

خلال فترة حكم محمد علي، استطاع أن ينهض بمصر عسكريًا وتعليميًا وصناعيًا وزراعيًا وتجاريًا، مما جعل من مصر دولة ذات ثقل في تلك الفترة، إلا أن حالتها تلك لم تستمر بسبب ضعف خلفائه وتفريطهم في ما حققه من مكاسب بالتدريج إلى أن سقطت دولته في 18 يونيو سنة 1953 م، بإلغاء الملكية وإعلان الجمهورية في مصر.

1 - نشأته وقدومه إلى مصر

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

ولد في مدينة **قولة** التابعة لمحافظة مقدونيا شمال اليونان عام 1769، لأسرة ألبانية. كان أبوه " إبراهيم آغا " رئيس الحرس المنوط بخفارة الطريق ببلده ، مات عنه أبوه وهو صغير السن، ثم لم تلبث أمه أن ماتت فصار يتيم الأبوين وهو في الرابعة عشرة من عمره فكفله عمه " طوسون "، الذي مات أيضًا، فكفله حاكم قولة وصديق والده " الشوربجي إسماعيل" الذي أدرجه في سلك الجندية، فأبدى شجاعة وحسن نظر، فقربه الحاكم وزوجه من امرأة غنية وجميلة تدعى " أمينة هانم " ، كانت بمثابة طالع السعد عليه، وأنجبت له إبراهيم وطوسون وإسماعيل ومن الإناث أنجبت له ابنتين. وحين قررت الدولة العثمانية إرسال جيش إلى مصر لانتزاعها من أيدي الفرنسيين كان هو نائب رئيس الكتيبة الألبانية والتي كان قوامها ثلاثمائة جندي، وكان رئيس الكتيبة هو ابن حاكم قولة الذي لم تكد تصل كتيبته ميناء أبو قير في مصر في ربيع عام 1801، حتى قرر أن يعود إلى بلده فأصبح هو قائد الكتيبة. ووفقًا لكثير ممن عاصروه، لم يكن يجيد سوى اللغة الألبانية، وإن كان قادرًا على التحدث بالتركية.

بعد فشل الحملة الفرنسية على مصر، وانسحابها عام 1801، تحت ضغط الهجوم الإنجليزي على الثغور المصرية، الذي تواكب مع الزحف العثماني على بلاد الشام، إضافة إلى اضطراب الأوضاع في أوروبا في ذلك الوقت. شجع ذلك المماليك على العودة إلى ساحة الأحداث في مصر، إلا أنهم انقسموا إلى فريقين أحدهما إلى جانب القوات العثمانية العائدة لمصر بقيادة إبراهيم بك الكبير والآخر إلى جانب الإنجليز بقيادة محمد بك الألفي. ولم يمض وقت طويل حتى انسحب الإنجليز من مصر وفق معاهدة أميان. أفضى ذلك إلى فترة من الفوضى نتيجة الصراع بين العثمانيين الراغبين في أن يكون لهم سلطة فعلية لا شكلية على مصر، وعدم العودة للحالة التي كان عليها حكم مصر في أيدي المماليك، وبين المماليك الذين رأوا في ذلك سلبًا لحق أصيل من حقوقهم. شمل ذلك الصراع مجموعة من المؤامرات والاغتيالات في صفوف الطرفين، راح ضحيتها أكثر من والٍ من الولاة العثمانيين.

خلال هذه الفترة من الفوضى، استخدم محمد علي قواته الألبانية للوقيعة بين الطرفين، وإيجاد مكان له على مسرح الأحداث، كما أظهر محمد علي التودد إلى كبار رجالات المصريين وعلمائهم ومجالستهم والصلاة ورائهم، وإظهار العطف والرعاية لمتاعب الشعب المصري وآلامه، مما أكسبه أيضًا ود المصريين. وفي مارس 1804، تم تعيين والٍ عثماني جديد يدعى "أحمد خورشيد باشا"، الذي استشعر خطورة محمد علي وفرقته الألبانية الذي استطاع أن يستفيد من الأحداث الجارية والصراع العثماني المملوكي، فتمكن من إجلاء المماليك إلى خارج القاهرة، فطلب من محمد علي بالتوجه إلى الصعيد لقتال المماليك ، وأرسل إلى الآستانة طالبًا بأن تمده بجيش من "الدلاة". وما أن وصل هذا الجيش حتى عاث في القاهرة فسادًا مستوليا على الأموال والأمتعة ومعتديا على الأعراض، مما أثار تذمر الشعب، وطالب زعماؤه الوالي خورشيد باشا بكبح جماح تلك القوات، إلا أنه فشل في ذلك، مما أشعل ثورة الشعب التي أدت إلى عزل الوالي، واختار زعماء الشعب بقيادة عمر مكرم - نقيب الأشراف - محمد علي ليجلس محله. وفي 9 يوليو 1805، وأمام حكم الأمر الواقع، أصدر السلطان العثماني سليم الثالث فرمانًا سلطانيًا بعزل خورشيد باشا من ولاية مصر، وتولية محمد علي على مصر.

2 - تولّي العرش

- *2 – 1 - خطر الألفي*

بعد أن بايعه أعيان الشعب في دار المحكمة ليكون واليًا على مصر في 17 مايو سنة 1805م والذي أقره فيها الفرمان السلطاني الصادر في 9 يوليو من نفس العام، كان على محمد علي أن يواجه الخطر الأكبر المحدق به، ألا وهو المماليك بزعامة محمد بك الألفي الذي كان المفضل لدى الإنجليز منذ أن ساندهم عندما أخرجوا الفرنسيين من مصر. ولم يمض سوى 3 أشهر حتى قرر المماليك مهاجمة القاهرة ، وراسلوا بعض رؤساء الجند لينضموا إليهم عند مهاجمة المدينة. علم محمد علي بما يدبر له، فطالب من رؤساء الجند مجاراتهم واستدراجهم لدخول المدينة. وفي يوم الاحتفال بوفاء النيل عام 1805، هاجم ألف من المماليك القاهرة، ليقعوا في الفخ الذي نصبه محمد علي لهم، وأوقع بهم خسائر فادحة، مما اضطرهم للانسحاب. حينئذ، استغل محمد علي الفرصة، وطاردهم حتى أجلاهم عن الجيزة، فتقهقروا إلى الصعيد الذي كان ما زال في أيديهم.

وفي أوائل عام 1806م، أنفذ محمد علي جيشًا لمحاربة المماليك في الصعيد بقيادة حسن باشا قائد الفرقة الألبانية، الذي اشتبك مع قوات محمد بك الألفي الأكثر عددًا في الفيوم، وانهزمت قوات محمد علي مما أدى إلى انسحابها إلى جنوب الجيزة، ثم فرّت جنوبًا إلى بني سويف من أمام قوات محمد بك الألفي الزاحفة نحو الجيزة. تزامن ذلك مع زحف قوات إبراهيم بك الكبير وعثمان بك البرديسي من أسيوط لاحتلال المنيا، التي كانت بها حامية تابعة لمحمد علي، إلا أن قوات حسن باشا دعّمت الحامية وأوقفت زحف قوات المماليك إلى المنيا.

في تلك الأثناء، صدر فرمان سلطاني بعزل محمد علي من ولاية مصر، وتوليته ولاية سلانيك. أظهر محمد على الامتثال للأمر واستعداده للرحيل، إلا أنه تحجج بأن الجند يرفضون رحيله قبل سداد الرواتب المتأخرة. وفي الوقت نفسه، لجأ إلى عمر مكرم نقيب الأشراف الذي كان له دور في توليته الحكم ليشفع له عند السلطان لإيقاف الفرمان. فأرسل علماء مصر وأشرافها رسالة للسلطان، يذكرون فيها محاسن محمد علي وما كان له من يد في دحر المماليك، ويلتمسون منه إبقائه واليًا على مصر. فقبلت الآستانة ذلك على أن يؤدي محمد علي 4,000 كيس، ويرسل ابنه إبراهيم رهينة في الآستانة إلى أن يدفع هذا الفرض.

بعد أن توجه محمد بك الألفي إلى الجيزة، لم يهاجم القاهرة وإنما توجه إلى دمنهور بناءً على اتفاق سري بينه وبين حلفائه الإنجليز، ليتخذها مركزًا لتجميع قواته، فحاصرها إلا أن أهالي المدينة وحاميتها استبسلوا في الدفاع عنها. وعندما بلغ محمد علي أنباء حصار دمنهور، أرسل جزءًا من جيشه لمواجهة قوات محمد بك الألفي، فوصلت إلى الرحمانية في أواخر شهر يوليو من عام 1806، واشتبكوا مع قوات الألفي بالنجيلة وهي قرية بالقرب من الرحمانية، وتعرض جيش محمد علي للمرة الثانية للهزيمة، وانسحبوا إلى منوف. عاد الألفي لحصار دمنهور، إلا أنه لم يبلغ منها منالاً، فقد طال الحصار فتألّب عليه جنوده متذمرين، مما اضطره لفك الحصار والانسحاب إلى الصعيد. وسرعان ما جاءت محمد علي أنباء وفاة عثمان بك البرديسي أحد أمراء مماليك الصعيد، ثم أنباء وفاة الألفي أثناء انسحابه، فاغتبط لذلك. سرعان ما جرد جيشًا وتولى قيادته لمحاربة المماليك في الصعيد. استطاع جيش محمد علي أن يهزم المماليك في أسيوط، ويجليهم عنها، واتخذ منها مقرًا لمعسكره حيث جاءته أنباء الحملة الإنجليزية.

- *2 – 2 - حملة فريزر*

في إطار الحرب الإنجليزية العثمانية، وجهت إنجلترا حملة من 5,000 جندي بقيادة الفريق أول فريزر، لاحتلال الإسكندرية لتأمين قاعدة عمليات ضد الدولة العثمانية في البحر المتوسط ، كجزء من استراتيجية أكبر ضد التحالف الفرنسي العثماني.

أنزلت الحملة جنودها في شاطئ العجمي في 17 مارس سنة 1807، ثم زحفت القوات لاحتلال الإسكندرية، التي سلمها محافظ المدينة "أمين أغا" إلى القوات البريطانية دون مقاومة، فدخلوها في 21 مارس. وهناك بلغتهم أنباء وفاة حليفهم الألفي، فأرسل فريزر إلى خلفاء الألفي في قيادة المماليك ليوافوه بقواتهم إلى الإسكندرية. وفي الوقت ذاته، راسلهم محمد علي ليهادنهم، إلا أنهم خشوا أن يتهموا بالخيانة، فقرروا الانضمام لقوات محمد علي، وإن كانوا يضمرون أن يسوّفوا حتى تتضح نتائج الحملة ليقرروا مع من ينضموا. قرر فريزر احتلال رشيد والرحمانية، لقطع طريق التعزيزات التي قد تأتي إلى المدينة عبر نهر النيل.

وفي 31 مارس، أرسل فريزر 1,500 جندي بقيادة اللواء "باتريك ويشوب" لاحتلال رشيد، فاتّفقت حامية المدينة بقيادة "علي بك السلانكلي" والأهالي على استدراج الإنجليز لدخول المدينة دون مقاومة، حتى ما أن دخلوا شوارعها الضيقة، حتى انهالت النار عليهم من الشبابيك وأسقف المنازل، وانسحب من نجا منهم إلى أبو قير والإسكندرية، بعد أن خسر الإنجليز في تلك الواقعة نحو 185 قتيل و300 جريح، إضافة إلى عدد من الأسرى. أرسلت الحامية الأسرى ورؤوس القتلى إلى القاهرة، وهو ما قوبل باحتفال كبير في القاهرة.

ولأهمية المدينة، أرسل فريزر في 3 أبريل جيشًا آخر قوامه 2,500 جندي بقيادة الفريق أول ويليام ستيوارت، ليستأنف الزحف على المدينة، فضرب عليها في 7 أبريل حصارًا وضربها بالمدافع، وأرسل ستيوارت قوة فاحتلت قرية "الحمّاد" لتطويق رشيد، ومنع وصول الإمدادات للمدينة. وفي 12 أبريل، عاد محمد علي من الصعيد، واطلع على الأخبار وقرر إرسال جيش من 4,000 من المشاة و1,500 من الفرسان

بقيادة نائبه "**طبوز أوغلي**"، لقتال الإنجليز. صمدت المدينة لمدة 13 يومًا، حتى وصل الجيش المصري في 20 أبريل، مما اضطر ستيوارت إلى الانسحاب. كما أرسل رسولاً إلى النقيب "ماكلويد" قائد القوة التي احتلّت الحمّاد يأمره بالانسحاب، إلا أنه لم يتمكن من الوصول. وفي اليوم التالي، حوصرت القوة المؤلفة من 733 جنديًا في الحمّاد. بعد مقاومة عنيفة، وقعت القوة بين قتيل وأسير. فعاد ستيوارت إلى الإسكندرية ببقية قواته، بعد أن فقد أكثر من 900 من رجاله بين قتيل وجريح وأسير.

تابعت قوات محمد علي زحفها نحو الإسكندرية، وحاصروها. وفي 14 سبتمبر سنة 1807، تم عقد صلح بعد مفاوضات بين الطرفين، نص على وقف القتال في غضون 10 أيام، وإطلاق الأسرى الإنجليز، على أن تخلي القوات الإنجليزية المدينة، والتي رحلت إلى صقلية في 25 سبتمبر. وبذلك تخلص محمد علي من واحد من أكبر المخاطر التي كادت تطيح بحكمه في بدايته.

- *2 – 3 - التخلص من الزعامة الشعبية*

على الرغم من المساعدات التي قدمتها الزعامة الشعبية بقيادة نقيب الأشراف عمر مكرم ، لمحمد علي بدءً بالمناداة به واليًا، ثم التشفع له عند السلطان لإبقائه واليًا على مصر. وبالرغم من الوعود والمنهج الذي اتبعه محمد علي في بداية فترة حكمه مع الزعماء الشعبيين، بوعده بالحكم بالعدل ورضائه بأن تكون لهم سلطة رقابية عليه، إلا أن ذلك لم يدم. بمجرد أن بدء الوضع في الاستقرار النسبي داخليًا، بالتخلص من الألفي وفشل حملة فريزر وهزيمة المماليك وإقصائهم إلى جنوب الصعيد، حتى وجد محمد علي أنه لن تطلق يده في الحكم، حتى يزيح الزعماء الشعبيين. تزامن ذلك مع انقسام علماء الأزهر حول مسألة من يتولى الإشراف على أوقاف الأزهر بين مؤيدي الشيخ عبد الله الشرقاوي ومؤيدي الشيخ "محمد الأمير".

وفي شهر يونيو من عام 1809، فرض محمد علي ضرائب جديدة على الشعب، فهاج الناس ولجأوا إلى عمر مكرم الذي وقف إلى جوار الشعب وتوعد بتحريك الشعب إلى ثورة عارمة ونقل الوشاة الأمر إلى محمد علي. استغل محمد علي محاولة عدد من المشايخ والعلماء للتقرب منه وغيرة بعض الأعيان من منزلة عمر مكرم بين الشعب كالشيخ محمد المهدي والشيخ محمد الدواخلي، فاستمالهم محمد علي بالمال ليوقعا بعمر مكرم. وكان محمد علي قد أعد حسابًا ليرسله إلى الدولة العثمانية يشتمل علي أوجه الصرف، ويثبت أنه صرف مبالغ معينة جباها من البلاد بناء علي أوامر قديمة وأراد يبرهن علي صدق رسالته، فطلب من زعماء المصريين أن يوقعوا علي ذلك الحساب كشهادة منهم على صدق ما جاء به. إلا أن عمر مكرم امتنع عن التوقيع وشكك في محتوياته.

فأرسل يستدعي عمر مكرم إلى مقابلته، فامتنع عمر مكرم، قائلاً "إن كان ولا بد، فاجتمع به في بيت السادات." وجد محمد علي في ذلك إهانة له، فجمع جمعًا من العلماء والزعماء، وأعلن خلع عمر مكرم من نقابة الأشراف وتعيين الشيخ السادات، معللاً السبب أنه أدخل في دفتر الأشراف بعض الأقباط واليهود نظير بعض المال، وأنه كان متواطئًا مع المماليك حين هاجموا القاهرة يوم وفاء النيل عام 1805، ثم أمر بنفيه من القاهرة إلى دمياط. وبنفي عمر مكرم اختفت الزعامة الشعبية الحقيقية من الساحة السياسية، وحل محله مجموعة من المشايخ الذين كان محمد علي قادرًا على السيطرة عليهم إما بالمال أو بالاستقطاعات، وهم الذين سماهم **الجبرتي** " مشايخ الوقت ".

- *2 – 4 - مذبحة القلعة*

بالرغم من أن محمد علي استطاع هزيمة المماليك، وإبعادهم إلى جنوب الصعيد. إلا أنه ظل متوجسًا من خطورتهم، لذا لجأ إلى استراتيجية بديلة وهي التظاهر بالمصالحة واستمالتهم بإغداق المال والمناصب والاستقطاعات عليهم، حتى يستدرجهم للعودة إلى القاهرة. كان ذلك بمثابة الطعم الذي ابتلعه الجانب الأكبر من المماليك، الذين استجابوا للدعوة مفضلين حياة الرغد والترف على الحياة القاسية والمطاردة من قبل محمد علي. إلا أن بعض زعماء المماليك مثل إبراهيم بك الكبير وعثمان بك حسن ورجالهم، لم يطمئنوا إلى هذا العرض، وفضلوا أن يبقوا في الصعيد.

في ديسمبر من عام 1807، تلقّى محمد علي أمرًا سلطانيًا من السلطان العثماني مصطفى الرابع، بتجريد حملة لمحاربة الوهابيين الذين سيطروا على الحجاز، مما أفقد العثمانيين السيطرة على الحرمين الشريفين، وبالتالي هدد السلطة الدينية للعثمانيين. إلا أن محمد علي ظل يتحجج بعدم استقرار الأوضاع الداخلية في مصر، بسبب حروبه المستمرة مع المماليك . لكن بعد تظاهره بالمصالحة مع المماليك، لم يبق

أمام محمد علي ما يمنعه من تجريد تلك الحملة، لذا قرر محمد علي أن يجرّد حملة بقيادة ابنه أحمد طوسون لقتال الوهابيين. كان في تجريد تلك الحملة ورحيل جزء كبير من قوات محمد علي خطر كبير على استقرار أوضاعه في مصر، فوجود المماليك بالقرب من القاهرة، قد يشجعهم على استغلال الفرصة لينقضوا على محمد علي وقواته. لذا لجأ محمد علي إلى الحيلة، فأعلن محمد على عن احتفال في القلعة بمناسبة إلباس ابنه طوسون خلعة قيادة الحملة على الوهابيين، وحدد له الأول من مارس سنة 1811، وأرسل يدعو الأعيان والعلماء والمماليك لحضور الاحتفال. لبى المماليك الدعوة، وما أن انتهى الاحتفال حتى دعاهم محمد علي إلى السير في موكب ابنه. تم الترتيب لجعل مكانهم في وسط الركب، وما أن وصل المماليك إلى طريق صخري منحدر يؤدي إلى باب العزب المقرر أن تخرج منه الحملة، حتى أغلق الباب فتكدست خيولهم بفعل الانحدار، ثم فوجئوا بسيل من الرصاص انطلق من الصخور على جانبي الطريق ومن خلفهم يستهدفهم.

راح ضحية تلك المذبحة المعروفة بمذبحة القلعة كل من حضر من المماليك، وعددهم 470 مملوك، ولم ينج من المذبحة سوى مملوك واحد يدعى " **أمين بك** "، الذي استطاع أن يقفز من فوق سور القلعة. بعد ذلك أسرع الجنود بمهاجمة بيوت المماليك، والإجهاز على من بقي منهم، وسلب ونهب بيوتهم، بل امتد السلب والنهب إلى البيوت المجاورة، ولم تتوقف تلك الأعمال إلا بنزول محمد علي وكبار رجاله وأولاده في اليوم التالي، وقد قُدّر عدد من قتلوا في تلك الأحداث نحو 1000 مملوك.

تعرض محمد علي للعديد من الانتقادات من المؤرخين الغربيين بسبب غدره بالمماليك في تلك المذبحة ، بينما عدها البعض مثل محمد فريد إحدى أفعال محمد علي الحسنة التي خلّص بها مصر من شر المماليك . بتخلص محمد علي من معظم المماليك، انسحب المماليك الذين بقوا في الصعيد إلى دنقلة ، وبذلك أصبح لمحمد علي كامل السيطرة على مصر.

3 - فترة خدمة السلطنة

- *3 – 1 - الحرب الوهابية العثمانية*

ظهر عجز الدولة العثمانية، منذ أوائل القرن التاسع عشر، في إخماد الثورات التي قامت في وجهها، فاستنجدت بولاتها لإخمادها، ومن هذه الثورات التي أقضّت مضاجع الدولة: الثورة اليونانية والحركة الوهّابية في شبه الجزيرة العربية. حقّقت الدعوة الوهّابية نجاحًا في نجد، واحتضنها أمير الدرعية محمد بن سعود بن محمد آل مقرن، وتجاوزتها إلى بعض أنحاء الحجاز واليمن وعسير وأطراف العراق والشام، واستولى الوهابيون على مكة والطائف والمدينة المنورة، حتى بدا خطرها واضحًا على الوجود العثماني في أماكن انتشارها، بل في المشرق العربي والعالم الإسلامي، وأدّت دورًا هامًا في تطور الفكر الإسلامي الحديث، حيث تُعدّ أول حركة إصلاحية سلفية في العصر الحديث، كما أنها أولى الحركات الإصلاحية التجديدية التي ظهرت في الدولة العثمانية.

وشعرت الدولة العثمانية بخطورة تلك الحركة، وأدركت أن نجاحها سوف يؤدي إلى فصل الحجاز وخروجه من يدها، وبالتالي خروج الحرمين الشريفين، ما يفقدها الزعامة التي تتمتع بها في العالم الإسلامي بحكم إشرافها على هذين الحرمين، في وقت كانت قد بدأت تسعى فيه إلى التغلب على عوامل الضعف الداخلية، وتقوية الصلات بينها وبين أنحاء العالم الإسلامي بوصفها مركز الخلافة الإسلامية. شكّلت كل هذه العوامل حافزًا للدولة العثمانية للوقوف في وجه الدعوة الوهّابية ومواجهتها للحد من انتشارها، فحاولت في بادئ الأمر عن طريق ولاة بغداد ودمشق لكنها فشلت، فوقع اختيارها على محمد علي باشا، فأعدّ هذا حملة عسكرية بقيادة ابنه أحمد طوسون دخلت ينبع وبدر، إلا أنها انهزمت في معركة وادي الصفراء. لم يستثمر الوهّابيون انتصارهم في الصفراء، وقبعوا في معاقلهم، ما أعطى طوسون الفرصة لإعادة تنظيم صفوف قواته، كما طلب إمدادات من القاهرة، وأخذ يستميل القبائل الضاربة بين ينبع والمدينة المنورة بالمال والهدايا، ونجح في سياسته هذه التي مهّدت له السبيل لاستعادة المدينة المنورة ومكة والطائف، لكن الوهّابيين عادوا وانتصروا في تَرَبة والحناكية وقطعوا طرق المواصلات بين مكة والمدينة، وانتشرت الأمراض في صفوف الجيش المصري، وأصاب الجنود الإعياء نتيجة شدة القيظ وقلة المؤونة والماء، ما زاد موقف طوسون حرجًا، فرأى بعد تلك الخسائر، أن يلزم خطة الدفاع، وأرسل إلى والده يطلب المساعدة.

قرر محمد علي باشا أن يسير بنفسه إلى الحجاز لمتابعة القتال والقضاء على الوهّابيين، وبسط نفوذ مصر في شبه الجزيرة العربية، فغادر مصر، في 26 أغسطس سنة 1812م، الموافق فيه 17 شعبان سنة

1227هـ، على رأس جيش آخر ونزل في جدة ثم غادرها إلى مكة وهاجم معاقل الوهّابيين، إلا أنه فشل في توسيع رقعة انتشاره، فأخلى القنفذة بعد أن كان قد دخلها، وانهزم ابنه طوسون في تَرَبة مرة أخرى. كان من الطبيعي بعد هذه الهزائم المتكررة ومناوشات الوهّابيين المستمرة لوحدات الجيش المصري، أن يطلب محمد علي باشا المدد من مصر، ولمّا وصلت المساعدات، وفيما كان يتأهب للزحف توفي خصمه سعود في 27 أبريل سنة 1814م، الموافق فيه 6 جمادى الأولى سنة 1229هـ، وخلفه في الإمارة ابنه عبد الله. ويبدو أن هذا الأمير لم يملك قدرات عسكرية تُمكنه من درء الخطر المصري ما أدى إلى تداعي الجبهة الوهّابية ، فصبّت هذه الحادثة في مصلحة محمد علي باشا الذي تمكّن من التغلب على جيش وهّابي في بسل، وسيطر على تَرَبة ودخل ميناء القنفذة، في حين سيطر طوسون على القسم الشمالي من نجد.

خط سير حملة إبراهيم باشا من الحناكية إلى الدرعية.

عند هذه المرحلة من تطوّر المشكلة الوهّابية، اضطر محمد علي باشا أن يغادر شبه الجزيرة العربية ويعود إلى مصر للقضاء على حركة تمرد استهدفت حكمه، وبعد القضاء على هذه الحركة استأنف حربه ضدّ الوهّابيين، فأرسل حملة عسكرية أخرى إلى شبه الجزيرة بقيادة ابنه إبراهيم باشا في 5 سبتمبر سنة 1816م، الموافق فيه 12 شوّال سنة 1231هـ.

تمكّن إبراهيم باشا، بعد اصطدامات ضارية مع الوهّابيين، من الوصول إلى الدرعية وحاصرها، فاضطر عبد الله بن سعود إلى فتح باب المفاوضات، واتفق الطرفان على تسليم الدرعية إلى الجيش المصري، شرط عدم تعرضه للأهالي، وأن يُسافر عبد الله بن سعود إلى الآستانة لتقديم الولاء للسلطان، وأن يردّ الوهّابيون الكوكب الدري، وما بقي بحوزتهم من التحف والمجوهرات التي أخذوها حين استولوا على المدينة المنورة. وعمد إبراهيم باشا، بعد تسلمه الدرعية، إلى هدمها. وهكذا انتهت الحرب الوهّابية التي خاضها الجيش المصري في شبه الجزيرة العربية، وعاد إبراهيم باشا إلى مصر.

- *3 – 2 - ضم السودان*

كانت الحملة التالية في حملات محمد علي هي الحملة التي جردها لضمّ السودان. كانت أهداف محمد علي غير المعلنة من تلك الحملة السعي وراء الذهب والماس الذي تناقل الناس أنه موجود في أصقاع السودان وخاصة سنار، ولاتخاذ جنود سودانيين في الجيش النظامي المصري لما عرف عنهم من صبر وشجاعة وطاعة، والتخلص من بقية جنود الفرق غير النظامية في الجيش المصري التي كانت تثير القلاقل ومصدر متاعب لمحمد علي. أما السبب الظاهري لتلك الحملة، فكان القضاء على البقية الباقية من المماليك الذين فروا إلى دنقلة.

انطلقت الحملة المؤلفة من 4,000 جندي في مراكب نيلية في 20 يوليو سنة 1820، بقيادة إسماعيل باشا ثالث أبناء محمد علي. سارت الحملة جنوبًا، فانحدرت من أسوان إلى وادي حلفا إلى دنقلة ، حيث واجهت المماليك وهزمتهم دون مقاومة تذكر. وفي 4 نوفمبر من نفس العام، واجهت جمعًا من السودانيين بأسلحة بدائية وهزمهم في كورتي. ثم واصل الجيش المصري الزحف، فاستولى على بربر في 10 مارس

سنة 1821، ثم شندي الذي أعلن ملكها نمر استسلامه أمام الجيش الزاحف، ثم استولوا بعد ذلك على أم درمان، فاجتازوها وبالقرب منها أسسوا مدينة الخرطوم لتكون قاعدة عسكرية للقوات المصرية.

وجه بعد ذلك إسماعيل باشا نسيبه محمد بك الدفتردار في حملة لضم كردفان. وفي شهر أبريل من عام 1821، اشتبكت قوات الدفتردار مع قوات محمد الفضل سلطان كردفان في بارا، فانتصر الدفتردار ودخل مدينة الأبيض، ليضم بذلك كردفان للأراضي الخاضعة للسلطة المصرية. سار إسماعيل ببقية جيشه لضم مملكة سنار، فاستولى على مدينة ود مدني، فقدم ملكها الملك "بادي" ولائه للجيش المصري، فدخل المصريون سنار في 12 يونيو 1821.

وفى أثناء وجود الجيش في سنار انتشر المرض بين الجنود، فاضطر إسماعيل إلى طلب المدد من أبيه، فأمدّه بقوات بقيادة أخيه الأكبر إبراهيم باشا، واتفقا على تقسيم العمل بينهما، فكانت مهمة إسماعيل الزحف بجيشه على منطقة النيل الأزرق، بينما اتجه إبراهيم لضم بلاد الدنكا واستكشاف أعالي النيل. فواصل إسماعيل زحفه في منطقة النيل الأزرق حتى وصل إلى فازوغلي في شهر يناير من عام 1822. أما إبراهيم فأكرهه المرض على العودة إلى مصر.

بدأت الثورات تظهر في مختلف المناطق بسبب الازدياد المتواصل في الضرائب التي فرضها المصريون على السودانيين، وما أن وصل إسماعيل باشا إلى شندي في ديسمبر من عام 1822، حتى أمر الملك نمر بالمثول أمامه وبدأ في تأنيبه واتهامه بإثارة القلاقل، ثم عاقبه بأن أمره أن يدفع غرامة فادحة وألف من العبيد، فأظهر الملك نمر الامتثال

ولم تمض أيام حتى دعا إسماعيل باشا وكبار رجاله إلى وليمة ، وبعد أن أثقلهم بالطعام والشراب، أمر بإشعال النار في المكان، وأمر جنوده برمي كل من يحاول الهرب بالسهام والنبال، فمات إسماعيل ورجاله خنقًا وحرقًا. فلما بلغ محمد بك الدفتردار الخبر، زحف إلى شندي وأسرف في القتل والسبي، وتعقّب الملك نمر إلا أنه لم يدركه حيث فر إلى حدود الحبشة. بعد ذلك استقرت الأوضاع في السودان ودان لحكم محمد علي.

- *3 – 3 - حرب المورة*

كانت بلاد اليونان، حتى أوائل القرن التاسع عشر، جزءًا من السلطنة العثمانية، وفي هذه الفترة ظهرت في البلاد بوادر الثورة ضد الحكم العثماني، بفعل أربعة عوامل :

* تطوّر المجتمع اليوناني بفعل الرخاء الاقتصادي الذي نجم عن الحروب النابليونية،
* وانتشار الأفكار الأوروبية وبخاصة أفكار الثورة الفرنسية،
* وردود الفعل الآيلة ضد المركزية العثمانية،
* والتدخل الأوروبي المباشر.

وأخذت الحركات الثورية والجمعيات السياسية السريّة والعلنية تُشكل خطرًا على وحدة الدولة العثمانية بدءً من عام 1820، واتخذت مراكز لها في كل من روسيا والنمسا لتكون على اتصال وثيق بالحكومات الأوروبية من جهة ، وبمنجاة من اضطهاد الحكّام العثمانيين من جهة أخرى.

وكان بعض هذه الجمعيات، مثل " الجمعية الأخوية " تدعو إلى إحياء الإمبراطورية البيزنطية والاستيلاء على العاصمة الآستانة، وإخراج المسلمين من أوروبا ودفعهم إلى آسيا. وقد اتخذت الثورة في إقليم **المورة** بالذات طابعًا دينيًا، رافعة شعارًا هو: الإيمان والحرية والوطن. واجهت الدولة العثمانية مصاعب كبيرة في محاربة الثوّار، نظرًا لكثرة الجزر ولوعورة المسالك التي اشتهرت بها بلاد اليونان، بفعل معرفة اليونانيين كيفية الاستفادة منها استراتيجيًا ضد القوّات العثمانية. وعندما تفاقم خطر الثورة، طلب السلطان محمود الثاني من محمد علي باشا أن يُرسل قواته إلى اليونان لإخضاع الثوّار.

قبل محمد علي باشا القيام بهذا الدور بفعل أن الخطر موجه ضد دولة المسلمين العامّة، المتمثلة بالدولة العثمانية، وضد الإسلام ممثلاً في السلطان العثماني خليفة المسلمين، فأرسل حملة عسكرية بقيادة حسن باشا نزلت في جزيرة كريت وأخمدت الثورة فيها،

كما أرسل حملة أخرى بقيادة ابنه إبراهيم باشا، لإخماد ثورة المورة، ونجح في تنفيذ إنزال على شواطئها بعد اصطدامات بحرية قاسية مع الأسطول اليوناني في عام 1825، وأنقذ الجيش العثماني المحاصر في ميناء كورون، كما حاصر ناڤارين، أهم مواقع شبه الجزيرة. وتمكّن إبراهيم باشا من دخول

هذا الثغر، كما فتح كلاماتا وتريپولستا في شهر يونيو من عام 1825، وطارد الثوّار واستولى على معاقلهم، باستثناء مدينة نوپلي، عاصمة الحكومة الثورية، واستعد للقضاء على آخر معاقل للثوّار في هيدرا وأستبزيا وميناء نوپلي وميسولونغي. وما لبثت الأخيرة أن سقطت في يد الجيش المصري وكانت آخر معقل كبير للثوار.

نتيجة لانتصار الجيش المصري، قام اليونانيون بتحريك الرأي العام الأوروبي لإنقاذ الثورة، فنهضت جماعة من أقطاب الشعراء والأدباء يثيرون الرأي العام في أوروبا بكتاباتهم، ويحثّون الدول الأوروبية على التدخل لصالح الثورة. وفعلاً دعت بريطانيا روسيا للتشاور، بغية الوصول إلى تفاهم حول مستقبل اليونان، وتكلّلت هذه المفاوضات بتوقيع پروتوكول سان بطرسبيرغ، الذي انضمت إليه فرنسا بعد مدة قصيرة، واتفقت الدول الثلاث على حث الباب العالي على عقد هدنة مع اليونانيين، ومنحهم قدرًا من الحكم الذاتي في إطار التبعية الاسمية للسلطان العثماني. لكن سقوط ميسولونغي قلب الأمور رأسًا على عقب، فاتجهت الدول الأوروبية وفي مقدمتها روسيا إلى العنف دعمًا للثوّار، فأرسلت سفنها إلى مياه اليونان لفرض مطالبها بالقوة، ومنع السفن العثمانية والمصرية من الوصول إلى شواطئ هذا البلد، وإرسال الإمدادات إلى الجيشين العثماني والمصري. وحاصرت أساطيل الحلفاء الأسطولين العثماني والمصري في ميناء ناڤارين وضربتهما، بدون سابق إنذار، ودمرتهما تمامًا في 20 أكتوبر سنة 1827م، الموافق فيه 29 ربيع الأول سنة 1243هـ.[62]

عند هذه النقطة من المشكلة اليونانية، كانت وجهات النظر العثمانية والمصرية متفقة على السياسة العامة، إلا أنه بعد تدخل الدول الأوروبية وانتصارها البحري في ناڤارين اختلفت وجهتيّ نظر الجانبين.

فقد رأى محمد علي باشا أن لا فائدة تُرجى من مواصلة القتال، بعد أن فقد أسطوله وانقطعت طريق مواصلاته البحرية مع جيوشه في بلاد اليونان، وأن الحكمة تقضي بفصل السياسة المصرية عن السياسة العثمانية، وقد عجّل في سرعة اتخاذه قرار الانسحاب إرسال فرنسا قوة عسكرية أنزلتها في المورة، وتلقّيه مذكرة من الدول الأوروبية تصرّ فيها على فصل بلاد اليونان واستهداف مصر، إن هو استمر في اتباع السياسة العثمانية.

لذا فضّل محمد علي عزل مصر عن المشكلة اليونانية، وترك أمرها للسلطان. وفي 7 سبتمبر سنة 1828م، الموافق فيه 26 صفر سنة 1244هـ، ابتدأ انسحاب الجنود المصرية من المورة على متن ما بقي من السفن، ولم يبق في اليونان غير ألف ومائتيّ جندي للمحافظة على بعض المواقع ريثما تستلمها الجنود العثمانية، إلا أن القوات الفرنسية قامت بهذه المهمة عوضًا عن القوات العثمانية.

4 - الحملة على الشام

- *4 – 1 – أسبابها*

خرج محمد علي باشا من الحرب اليونانية من دون أن يظفر بفتوح جديدة، ولم يُحقق أي استفادة من الاشتراك فيها، في حين انتهت الحرب مع الوهّابيين ببسط نفوذه على شبه الجزيرة العربية، وأتاح له دخول السودان ضم الجزء المتمم للأراضي المصرية، أما العمل الذي قام به بعد ذلك فكان مسرحه بلاد الشام. كان محمد علي يطمح من كل تلك المساعدات والخدمات التي قدمها للدولة العثمانية أن يمنحه السلطان ولاية من الولايات الكبرى، ولكن السلطان اكتفى بأن أقطع محمد علي جزيرة كريت تقديرًا لخدماته وتعويضًا عن بعض ما فقده في الحرب اليونانية، لكن هذا التعويض لم يكن ذا قيمة، إذ لم يكن من السهل أن تحكم مصر هذه الجزيرة وأن تستفيد منها لاشتهار أهلها بالعصيان والتمرّد، ورأى أن يضم بلاد الشام إلى مصر، يدفعه في ذلك عاملان: سياسي واقتصادي.

أما العامل السياسي فهو اتخاذ بلاد الشام حاجزًا يقي مصر الضربات العثمانية في المستقبل , كما أن بسط نفوذه على هذه البلاد سيُمكنه من تجنيد جيش من سكانها، فيزداد بذلك عدد أفراد جيشه.

أما العامل الاقتصادي، فإنه أراد استغلال موارد بلاد الشام، من الخشب والفحم الحجري والنحاس والحديد التي كانت تفتقر إليها مصر، فضلاً عن أهميتها الاقتصادية بسبب موقعها الجغرافي واتصالها بالأناضول، وعلاقاتها التجارية بأواسط آسيا حيث تمر قوافل التجارة، وبسبب موقعها على طريق الحج إلى البيت الحرام.

والراجح أن محمد علي باشا كان يطمح إلى ضمّ بلاد الشام منذ عام 1810، ويأمل أن يصل إلى حكمها بموافقة السلطان، فطلب من محمود الثاني، في عام 1813، أثناء الحرب الوهّابية، أن يعهد إليه بحكم هذه البلاد بحجة أنه بحاجة إلى مدد منها يعاونه على القتال، فوعد السلطان محمد علي بأن يوليه عليها نظرًا لأن الحرب في شبه الجزيرة كان تؤرق مضجعه وكان يتطلّع إلى القضاء على الوهابيين بسرعة خوفًا من أن تؤدي دعوتهم إلى التفرقة بين المسلمين. ولمّا انتهت الحرب، عاد السلطان وأخلف وعده، إذ شعر أن وجود محمد علي في الشام خطرٌ على كيان السلطنة نفسها. مهّد محمد علي لتنفيذ خطته، بأن أخذ يوطد علاقاته بأقوى شخصين في المنطقة وهما: عبد الله باشا والي عكا، وبشير الثاني الشهابي أمير لبنان، وكلاهما مدين لمحمد علي بالبقاء في منصبه. أما عبد الله باشا فكان محمد علي قد ساعده لدى السلطان، إثر خلافه مع والي دمشق عام 1821، فرضي عنه السلطان وأقرّه على ولاية عكا، كما كان محمد علي قد أمدّه بالمال في معركته ضد والي دمشق.

أما الأمير بشير فكان قد ناصر عبد الله باشا في ذاك الخلاف، وسار على رأس جيشه وحارب والي دمشق وهزمه. وما كادت الدولة العثمانية تطّلع على هزيمة والي دمشق حتى جرّد الباب العالي حملة عسكرية قوية اضطرت الأمير بشير إلى ترك البلاد، والسفر إلى مصر، حيث رحّب به محمد علي، واتفقا على التعاون معًا. ولمّا كان محمد علي على وفاق مع السلطان، فقد استطاع أن يسترضيه ويُلطف موقفه من الأمير بشير، وأن يُعيده إلى إمارته. ونشأت بين الأمير ومحمد علي علاقة وثيقة وصداقة متينة بعد أن جمعهما طموح مشابه، ألا وهو توسيع رقعة بلاد كل منهما، فتعاهدا على السير معًا في سياسة مشتركة. أخذت أهداف محمد علي تتبلور بدءًا من عام 1825 عندما صارح الفريق أول الفرنسي "بوابيه" بأنه سوف يعمد، بعد أن ينتهي من حرب المورة، إلى وضع يده على بلاد الشام بما فيها ولاية عكا، ولن يقف بجيشه إلا على ضفاف دجلة والفرات، وفي بلاد اليمن والجزء الأوسط من شبه الجزيرة العربية. وتتوافق هذه الأفكار مع ما أشيع، نقلاً عنه وعن ولده إبراهيم باشا، بأنه سيكون المدافع عن حقوق الشعوب العربية التي تعيش تحت الحكم العثماني حياة التابع البائس المستضعف، وأضحت السيطرة على بلاد الشام، بدءًا من عام 1829، من الأمور الضرورية في سياسته الإستراتيجية.

تُعد حروب محمد علي باشا في بلاد الشام حروبًا دفاعية وهجومية في آن معًا، أما كونها حروبًا دفاعية فلأن محمد علي باشا كان يعلم أن الدولة العثمانية لا تألُ جهدًا في السعي لاسترداد مركزها في مصر، وأن السلطان محمود الثاني لم يكن صافي النيّة، وأما كونها حروبًا هجومية فلأن هدفه كان أيضًا التوسع.

ويبدو أن محمد علي باشا قد أخذ قرار التصدي للباب العالي ضمن خلفيّات عدّة. فقد آنس في جيشه القوة، ووجد أن الدولة العثمانية في حالة من التدهور والتفكك، وأنها محط أنظار ومؤامرات الدول الأوروبية . وهكذا وقع والي مصر أسير عاملين : أسير نفسه ، إذ رأى أن الباب العالي ظلمه عندما منعه من ولاية الشام، على الرغم من أدائه خدمات جليلة للسلطنة، وأسير اعتقاده أنه أصلح ولاة الشام.

- *4 – 2 – مراحلها*

مرّت الحروب في بلاد الشام بمرحلتين، انتهت المرحلة الأولى باتفاقية كوتاهية ، عام 1833، ورسّخت السيطرة المصرية على الشام، في حين انتهت المرحلة الثانية باتفاقية لندن عام 1840، وقضت بانسحاب الجيش المصري.

- **4 – 2 – 1 - المرحلة الأولى**

تكمن الأسباب المباشرة للحرب في النزاع الداخلي الذي حصل بين محمد علي باشا وعبد الله باشا والي عكا، فقد افتعل محمد علي خلافًا مع والي عكا إذ طالبه بإعادة المال الذي كان قد قدّمه إليه، وإعادة الفلاحين المصريين الفارّين من دفع الضرائب ومن الخدمة في الزراعة، ولمّا ماطل عبد الله باشا في تلبية طلب محمد علي، اتخذ هذه المماطلة ذريعة لاحتلال أراضي الشام. زحف الجيش المصري باتجاه فلسطين في 14 أكتوبر/تشرين الأول سنة 1831م، الموافق 7 جمادى الأولى سنة 1247هـ، تحت قيادة إبراهيم باشا بن محمد علي، وسيطر على مدنها من دون مقاومة تُذكر، باستثناء عكا التي ضرب عليها حصارًا مركزًا برًا وبحرًا حتى لا يأتيها المدد بحرًا فلا يقوى على فتحها، كما حصل لنابليون بونابرت من قبل حين حاصرها سنة 1799. وبينما كانت تقاوم حصار إبراهيم باشا، كان أبناء الأمير بشير، ومعهم جنود

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

مصريون، يسيطرون على صور وصيدا وبيروت وجبيل. ولمّا استعصت عليهم طرابلس أسرع إبراهيم باشا لنجدة حلفائه، ولم تلبث أن سقطت في أيديهم.

اضطربت الدولة العثمانية أمام زحف الجيش المصري، وعدّت ذلك عصيانًا وقامت للتصدي له. واصطدم جيش عثماني، بقيادة عثمان باشا والي حلب، بالجيش المصري في **سهل الزرّاعة** جنوبي حمص، إلا أنه انهزم أمامه. ثم عاد إبراهيم باشا إلى عكا لمواصلة حصارها، فدخلها عنوة في 28 مايو/ أيار سنة 1832م، الموافق فيه 27 ذي الحجة سنة 1247هـ، وأسر عبد الله باشا وأرسله إلى مصر. وتابع القائد المصري زحفه باتجاه الشمال، بعد سيطرته على عكا، فدخل دمشق مع الأمير بشير وجيشه بعد أن قتلا والي المدينة، ورحّب السكان به لأنهم كانوا أقرب إلى الرغبة في تغيير حكامهم بفعل مساوئ الولاة العثمانيين.

جزع الباب العالي لسقوط عكا ودمشق وسيطرة المصريين على جنوب الشام، وخشي السلطان أن يتزعزع مركزه أمام انتصاراتهم، فحشد جيشًا آخر بقيادة السرعسكر حسين باشا ودفعه لوقف الجيش المصري، وإجبار المصريين على الانسحاب من بلاد الشام، وأصدر في الوقت نفسه فرمانًا أعلن فيه خيانة محمد علي باشا وابنه إبراهيم للسلطة الشرعيّة. اصطدم إبراهيم باشا بالجيش العثماني الجديد في معركة حمص وتغلّب عليه في 29 يونيو/ حزيران سنة 1832م، الموافق 10 صفر سنة 1248هـ، وسيطر على حماة ودخل إثر ذلك مدينة حلب، وتأهب لاستئناف الزحف باتجاه الشمال. انسحب حسين باشا شمالاً، بعد خسارته، وتمركز في ممر بيلان وهو أحد الممرات الفاصلة بين بلاد الشام والأناضول، فلحقه إبراهيم باشا واصطدم به وتغلّب عليه، وطارد من بقي من جيشه حتى اضطرهم إلى مغادرة المنطقة عن طريق ميناء الإسكندرونة وسيطر على الممر، كما احتل ميناء إياس، شمالي الإسكندرونة، ودخل ولاية أضنة وطرسوس.

وشجعت هزيمة العثمانيين إبراهيم باشا على مواصلة طريقه، فتقدم في داخل بلاد الأناضول حتى بلغ مدينة قونية، وكان العثمانيون قد تجمعوا ليدافعوا عن قلب السلطنة، ولكن القائد المصري تغلّب عليهم في 20 ديسمبر/ كانون الأول سنة 1832م، الموافق 27 رجب سنة 1248هـ، وأسر قائدهم الصدر الأعظم محمد رشيد باشا. وبهذه الغلبة انفتحت الطريق أمامه إلى الآستانة، حتى خُيّل للعالم في ذلك الوقت أن نهاية السلطنة العثمانية أصبحت قريبة.

عقب هزيمة قونية ساد القلق عاصمة الخلافة، وارتعدت فرائص السلطان الذي خشي من تقدم إبراهيم باشا نحو العاصمة، فاستنجد بالدول الأوروبية للوقوف في وجه الخطر المداهم، فلم ينجده إلا روسيا، إذ كانت بريطانيا منهمكة في شؤونها الداخلية وبالمسألة البلجيكية، وكانت فرنسا تؤيد محمد علي وتتعاون معه، وقد كان في جيشه عدد من القادة الفرنسيين، ووقفت كل من النمسا وبروسيا على الحياد.

أرسلت روسيا عام 1833 أسطولاً بحريًا إلى الآستانة للدفاع عنها، ولم تكد بريطانيا وفرنسا تطلعان على وجود السفن الروسية في مياه الآستانة حتى هالهما الأمر، وشعرتا بالخطر الروسي عليهما، وخشيتا أن تستغل روسيا تداعي الدولة العثمانية لتقوّي مركزها في الممرات البحرية، فسارعتا إلى عرض مساعدتهما على السلطان فيما إذا تخلّى عن المساعدة الروسية. ولكن الروس رفضوا إجلاء سفنهم إلا بعد أن ينسحب المصريون من الأناضول. عندئذ نشط ممثلو بريطانيا وفرنسا في التوسط بين السلطان ومحمد علي، حتى تم تبادل الرسائل بينهما.

واستخدمت فرنسا علاقاتها الوديّة مع مصر لإقناع محمد علي باشا بتسوية خلافه مع السلطان، وأن لا يتشدد في طلباته، وأن يكتفي من فتوحه بسناجق صيدا وطرابلس والقدس ونابلس. رفض محمد علي باشا وجهة النظر الفرنسية، وأصرّ على ضم بلاد الشام وولاية أضنة، وجعل جبال طوروس الحد الفاصل بين الدولة العثمانية وممتلكاته، وأمر ابنه بالتقدم في فتوحه بهدف الضغط على السلطان.

وبذلت فرنسا جهودًا مضنية للتوفيق بين وجهتي النظر، العثمانية والمصرية، وهدّدت، في إحدى مراحل المفاوضات، بقطع العلاقة مع مصر. وأخيرًا توصل الجانبان إلى توقيع اتفاقية كوتاهيه، في 4 مايو/ أيار سنة 1833م، الموافق فيه 14 ذي الحجة سنة 1248هـ، تنازل الباب العالي بموجبها عن كامل بلاد الشام، وأقرّ لمحمد علي باشا بولاية مصر وكريت وكامل سوريا الطبيعية (بما يشمل لبنان وفلسطين وأضنة)، وبولاية ابنه إبراهيم على جدّة. وقد تعهد محمد علي لقاء ذلك، بأن يؤدي للسلطان كل عام الأموال

التي كان يؤديها عن الشام الولاة العثمانيون من قبل. وهكذا جلا إبراهيم باشا عن الأناضول، وانتهت المرحلة الأولى لحروب الشام، وبدا أن الأزمة قد انتهت أيضًا.

- **4 – 2 – 2 - المرحلة الثانية**

لم تكن التسوية ، التي تمّت في كوتاهية، إلا تسوية مؤقتة، إذ أن محمد علي باشا لم يوافق على عقدها إلا خشية من تهديد الدول الأوروبية بحرمانه من فتوحه، ومن جهته وافق السلطان محمود الثاني على عقدها مكرهًا تحت ضغط الأحداث العسكرية والسياسية، وهو عازم على استئناف القتال في ظروف أفضل لاستعادة نفوذه في بلاد الشام ومصر، ولمّا كان التفكير السياسي لكل طرف على هذا الشكل من التناقض، كان لا بد من استئناف الحرب لتقرير النتيجة النهائية.

ونفّذ السلطان سياسة استراتيجية من شقين : إنه راح يُحرّض سكان بلاد الشام ضد الحكم المصري من جهة ، وقام بحشد القوات لضرب الجيوش المصرية وإرغامها على الخروج من البلاد، بمساعدة بريطانيا، من جهة أخرى . وأدرك محمد علي باشا، بعد التطورات السياسية، بأنّ مواقف الدول الأوروبية كانت لغير صالحه، وبأنّ خططه الانفصالية غير قابلة للتحقيق، لكنه لم يفقد الأمل باعتراف السلطنة بالحقوق الوراثية لعائلته في حكم المناطق التي كانت تحت إدارته، وحاول أن ينتهز الفرصة لإجراء محادثات جديدة، فأجرى مباحثات مع مبعوث السلطان، صارم أفندي، في مصر انتهت بالفشل بسبب التصلّب في المواقف.

وهكذا تطورت الأمور السياسية نحو التأزم، وأضحت الحرب بين الجانبين أمرًا لا مفر منه، وجرت الاستعدادات الحربية في الآستانة بشكل نشط ومكثف، وتابعت الدول الأوروبية الميول العسكرية لدى السلطان باهتمام بالغ.

استغل السلطان ثورة سكان بلاد الشام على الحكم المصري ، ودفع بجيش في ربيع عام 1839، بقيادة حافظ باشا، إلى بلاد الشام، وكان ظهوره عند الحدود كافيًا لإيصال الأزمة إلى ذروتها، أما إبراهيم باشا فقد كان يترقب، تنفيذًا لرغبة أبيه في اجتناب كل ما يُظهره بمظهر المعتدي. وبعد أن احتشد الجمعان، أصدر السلطان أمره إلى حافظ باشا بمهاجمة إبراهيم باشا المتحصن في حلب. ويبدو أن محمد علي تملّكه الفرح لتحمّل السلطان وقائده مسؤولية البدء بالعمليات العسكرية المعادية، لذلك أمر ابنه بمهاجمة الجيش العثماني، وكان ذلك في 15 يونيو/ حزيران سنة 1839م، الموافق 2 ربيع الآخر سنة 1255هـ. وفي معركة نسيب (الواقعة شرق عنتاب في الجزيرة الفراتية) ، مُني الجيش العثماني بخسارة فادحة وكارثة حقيقية، إذ كاد الجيش أن يُفنى عن بكرة أبيه، وأسر المصريون نحوًا من خمسة عشر ألف جندي، وغنموا كميات هائلة من الأسلحة والمؤن. وتوفي السلطان محمود الثاني قبل أن يبلغه نبأ الهزيمة.

خلف السلطان عبد المجيد الأول أباه السلطان محمود الثاني، وهو صبي لم يبلغ الثامنة عشرة من عمره ، وسرعان ما سارع إلى إجراء مفاوضات مع محمد علي. فاشترط محمد علي، لعقد الصلح، أن يكون الحكم في الشام ومصر حقًا وراثيًا في أسرته. وكاد السلطان عبد المجيد يقبل شروط محمد علي لو لم تصله مذكرة مشتركة من بريطانيا وروسيا وبروسيا والنمسا، تطلب منه قطع المفاوضات مع محمد علي.

وكانت الدول الأربع قد اتفقت على منع محمد علي، القوي، من أن يحلّ محل السلطنة العثمانية، الضعيفة، في المشرق العربي، الذي تمر فيه طريق بريطانيا إلى الهند. أما فرنسا فقد انفردت في سياستها الشرقية عن الدول الأربع، ورأت أن تستمر في تأييد محمد علي، على أمل أن تضمن لها مقامًا ممتازًا في المنطقة. ولم تلبث الدول الأربع أن عقدت عام 1840 مع الحكومة العثمانية مؤتمرًا في لندن بحث فيه المجتمعون ما دُعي " **بالمسألة الشرقية**"، وأسفر المؤتمر عن توقيع معاهدة التحالف الرباعي. وفي هذه المعاهدة عرضت الدول الأوروبية الأربع على محمد علي ولاية مصر وراثيًا، وولاية عكا مدى حياته. واشترطت هذه الدول أن يُعلن محمد علي قبوله بهذا العرض خلال عشرة أيام، فإن لم يفعل تسحب الدول الأربع عرضها الخاص بولاية عكا. أما إذا لم يُجب في مدة عشرين يومًا فإن الدول الأربع تسحب عرضها كله، تاركةً للسلطان حرية حرمانه من ولاية مصر.

كان محمد علي باشا من جهته مصممًا على التمسك بالبلاد التي فتحها وأقرّته عليها اتفاقية كوتاهيه، وأخذ يراهن على مساعدة فرنسا وعلى حرب أوروبية ينتظرها بين ساعة وأخرى، ولمّا أبلغته السلطنة العثمانية وقناصل الدول الأوروبية في مصر شروط المعاهدة، ترك الأيام العشرة تمر من دون أن يُصدر

أي ردّ رسمي، فأبلغه قناصل الدول الأوروبية، في اليوم الحادي عشر، الإنذار الثاني، وأمهلوه عشرة أيام أخرى، كما أبلغوه أنه لم يعد له الحق في ولاية عكا. ومرّت الأيام العشرة الثانية من دون أن يقبل صراحة تنفيذ بنود الاتفاقية، فعدّ قناصل الدول الأوروبية أن ذلك يعني الرفض، عندئذ أصدر السلطان فرمانًا بخلعه من ولاية مصر. أمام هذا الأمر شرعت الدول الأوروبية باتخاذ إجراءات تمهيدية لتنفيذ تعهداتها، فأمرت بريطانيا أسطولها في البحر المتوسط أن يقطع المواصلات البرية والبحرية بين مصر والشام وضرب موانئ هذه البلاد، وأوعزت إلى سفيرها في الآستانة بإشعال نار الثورة ضد محمد علي في المدن والقرى الشاميّة، كما قطعت الدول الأوروبية الأربع علاقاتها بمصر.

استقبل محمد علي باشا نبأ عزله بهدوء، وأعرب عن أمله بالتغلب على هذه المحنة، ثم جنح للسلم عندما ظهر أمير البحر البريطاني "نابييه" أمام الإسكندرية، مهددًا بلغة الحديد والنار، ورأى أن فرنسا غير قادرة على مقاومة أوروبا كلها، لذلك وقّع اتفاقية مع أمير البحر المذكور وعد فيها بالإذعان لرغبات الدول الكبرى والجلاء عن بلاد الشام بشرط ضمان ولايته الوراثية لمصر، لكن الدولة العثمانية رفضت هذا الشرط بإيعاز من بريطانيا . ساندت فرنسا محمد علي باشا في موقفه، وتشدّدت في ذلك حتى خيف من وقوع حرب أوروبية، عندئذ تدخلت كل من النمسا وبروسيا في هذه القضية وأجبرتا بريطانيا وروسيا على تبني وجهة نظر محمد علي باشا وفرنسا، فاجتاز والي مصر مأزق الخلع وإن أُرغم على الاكتفاء بولاية مصر في المستقبل، وفعلاً أصدر السلطان فرمانًا بجعل ولاية مصر وراثية لمحمد علي باشا، وانتهت بذلك الأزمة العثمانية - المصرية، وجلا المصريون عن الشام.

5 - بناء الدولة

اتجه محمد علي إلى بناء دولة عصرية على النسق الأوروبي في مصر، واستعان في مشروعاته الاقتصادية والعلمية بخبراء أوروبيين ومنهم بصفة خاصة السان سيمونيون الفرنسيون الذين أمضوا في مصر بضع سنوات في ثلاثينات القرن التاسع عشر وكانوا يدعون إلى إقامة مجتمع نموذجي على أساس الصناعة المعتمدة على العلم الحديث. وكانت أهم دعائم دولته العصرية سياسته التعليمية والتثقيفية الحديثة ، حيث كان يؤمن بأنه لن يستطيع أن ينشئ قوة عسكرية على الطراز الأوروبي المتقدم ويزودها بكل التقنيات العصرية وأن يقيم إدارة فعالة واقتصاد مزدهر يدعمها ويحميها إلا بإيجاد تعليم عصري يحل محل التعليم التقليدي.

- *5 – 1 – عسكريًا*

أدرك محمد علي أنه لتحقيق أهدافه التوسعية، كان لا بد له من تأسيس قوة عسكرية نظامية حديثة، تكون بمثابة الأداة التي تحقق له تلك الأهداف. قبل وفي بداية عهد محمد علي، كان الجيش مؤلفًا من فرق غير نظامية تميل بطبيعتها إلى الشغب والفوضى، معظمها من الأكراد والألبان والشراكسة، إضافة إلى تلك القوات جماعات من الأعراب الذين كان الولاة يلجأون إليهم كمرتزقة، وكانت أعمالها لا تتعدى أساليب حرب العصابات والكرّ والفرّ. رأى محمد على أن هذا الجيش لا يعتمد عليه، فبذل جهده في إنشاء جيش يضارع الجيوش الأجنبية في قتالها، وقرر أن يستبدل جنوده غير النظامية بجيش على النظام العسكري الحديث.

- **5 – 1 – 1 – الجيش**

كانت محاولة محمد علي الأولى لتأسيس جيش نظامي عام 1815، عندما عاد من حرب الوهابيين، حيث قرر تدريب عدد من جنود الأرناؤوط الألبان التابعين لفرقة ابنه إسماعيل على النظم العسكرية الحديثة، في مكان خصصه لذلك في بولاق. لم يرق لهؤلاء الجنود ذلك، بسبب طبيعتهم التي تميل إلى الشغب والفوضى، فثاروا على محمد علي وهاجموا قصره ودار بينهم وبين الحرس قتال، استطاع خلاله حرس محمد علي السيطرة على الموقف، إلا أن محمد علي أيقن أنه لا يمكنه الاعتماد على مثل هؤلاء الجند، فأرجأ تنفيذ الفكرة.

لجأ محمد علي مجددًا إلى الحيلة، ففي عام 1820، أنشأ محمد علي مدرسة حربية في أسوان، وألحق بها ألفًا من مماليكه ومماليك كبار أعوانه، ليتم تدريبهم على النظم العسكرية الحديثة على يد ضابط فرنسي يدعى جوزيف سيف جاء إلى مصر وعرض خدماته على محمد علي. وبعد ثلاث سنوات من

التدريب، نجحت التجربة وتخرجت تلك المجموعة ليكون هؤلاء الضباط النواة التي بدأ بها الجيش النظامي المصري.

بعد ذلك، كان أمام محمد علي مشكلة، أنه وبالتجربة ثبت أن الجنود الأتراك والأكراد والألبان والشراكسة لم يعودوا يصلحون ليكونوا عماد جيشه لعدم تقبلهم للاندراج في جيش نظامي، لذا تحجج بحاجته إليهم في تأمين الثغور، وأرسلهم إلى دمياط ورشيد ليخلي القاهرة، وليطمئنهم أرسل معهم بعض أبنائه كقادة لهم، ثم أرسل إلى ابنه إسماعيل ليمده بعشرين ألفًا من السودانيين ليتم تدريبهم على الجندية في معسكرات أعدها لهم في بني عدي، على أيدي الضباط الجدد. إلا أن التجربة فشلت لتفشي الأمراض بين الجنود السودانيين، لاختلاف المناخ، لذا لم يكن أمامه إلا الاعتماد على المصريين. قاوم الفلاحون في البداية تجنيدهم، لأنهم لم يروا مصلحة لهم فيه، واعتبروه عملاً من أعمال السخرة. ولكن وبمرور الوقت تجاوب الفلاحون مع الوضع الجديد، استشعروا تحت راية الجيش بالكرامة وبحياة مأمونة الملبس والمسكن لا يعانون فيها معاناتهم في الزراعة. وبحلول شهر يونيو من عام 1824، أصبح لدى محمد علي ست كتائب من الجند النظاميين، يتجاوز عددهم 25 ألف جندي، فأمر بانتقالهم إلى القاهرة.

بذلك أصبح لمصر جيش نظامي بدأ يتزايد باطّراد حتى بلغ 169 ألف ضابط وجندي في إحصاء تم عام 1833، وإلى 236 ألف في إحصاء تم عام 1839. كما أنشأ محمد علي ديوانًا عرف بديوان الجهادية لتنظيم شئون الجيش وتأمين احتياجاته من الذخائر والمؤن والأدوية، وتنظيم الرواتب. كانت أول مشاركات هذا الجيش في حرب المورة، التي أظهرت ما وصلت إليه العسكرية المصرية، وهو ما جعل لها شأنًا بين القوى العسكرية المعاصرة، وقد اعتمد عليه إبراهيم باشا في حملته على الشام والأناضول

- **5 – 1 – 2 – الأسطول**

عندما شرع محمد علي في حرب الوهّابيين، اقتضت الحاجة إلى بناء سفن لنقل الجنود عبر البحر الأحمر، فشرع في إنشائها في ترسانة بولاق، ثم نقل القطع على ظهور الجمال إلى السويس ليتم تجميعها هناك، وقد اقتصر دور هذا الأسطول في البداية على نقل الإمدادات والتموين طوال سنوات الحملة. وبعد أن أسس الجيش النظامي المصري، وجد أنه من الضروري تأسيس أسطول حربي قوي يعاونه على بسط نفوذه.

اعتمد محمد علي في البداية على شراء السفن من أوروبا، كما تعاقد على بناء سفن أخرى في موانئ أوروبا. ولكن بعد تدمير هذا الأسطول في معركة ناقارين أمام أساطيل إنجلترا وفرنسا وروسيا الأكثر تطوّرًا، لم ييأس محمد علي وأمر في عام 1829 ببناء "ترسانة الإسكندرية"، التي عهد في إدارتها إلى مهندس فرنسي اسمه سريزي. قامت الترسانة بمهمة إعادة بناء الأسطول على الأنماط الأوروبية الحديثة، وقد بلغ عدد السفن الحربية التي صنعت في تلك الترسانة حتى عام 1837، 28 سفينة حربية من بينها 10 سفن كبيرة كل منها مسلح بمائة مدفع، فاستغنت مصر عن شراء السفن من الخارج. ومن شدة اهتمام محمد على بهذه الترسانة كان يزورها باستمرار، وكان يستحث العمال على العمل، ويحضر حفلات تدشين السفن الجديدة.

- **5 – 1 – 3 - التعليم العسكري**

توسّع محمد علي في التعليم العسكري في مصر، فبعد أن أمر ببناء مدرسة الضباط في أسوان ومدرسة الجند في بني عدي، أمر بتأسيس مدارس أخرى في فرشوط والنخيلة وجرجا . كما أسس مدرسة إعدادية حربية بقصر العيني لتجهيز التلاميذ لدخول المدارس الحربية ، يدرس بها نحو 500 تلميذ، لكنها نقلت بعد ذلك إلى أبي زعبل حيث أصبحت تسع نحو 1200 تلميذ.

أضاف محمد علي بعد ذلك، مدرسة للبيادة في الخانقاه، والتي نقلت إلى دمياط عام 1834، ثم إلى أبي زعبل عام 1841، ومدرسة للسواري بالجيزة عام 1831، وأخرى للمدفعية في طره عام 1831 أيضًا. كما أسس مدرسة لأركان الحرب في 15 أكتوبر سنة 1825 بالقرب من الخانقاه، ومدرسة للموسيقى العسكرية . وأنشأ أيضًا معسكر لتدريب جنود الأسطول على الأعمال البحرية في رأس التين. ولإعداد الضباط البحريين، أسس محمد علي مدرسة بحرية عملية على ظهر إحدى السفن الحربية، ولما اتسع نطاقها قسمت إلى فرقتين كل واحدة منها على سفينة.

- **5 – 1 – 4 - الصناعات العسكرية**

رأى محمد علي أنه لكي يضمن الاستقلالية، وحتى لا يصبح تحت رحمة الدول الأجنبية، عليه إنشاء مصانع للأسلحة في مصر. كان مصنع الأسلحة والمدافع في القلعة باكورة هذا التفكير، والذي أسسه عام 1827، وكان ينتج بين 600 و650 بندقية، وبين 3 و4 مدافع في الشهر الواحد. كما كان ينتج سيوف الفرسان ورماحهم وحمائل السيوف واللجم والسروج. وفي عام 1831، أسس محمد علي مصنع آخر للبنادق في الحوض المرصود، كان ينتج 900 بندقية في الشهر الواحد، ثم مصنع ثالث في ضواحي القاهرة، وكانت المصانع الثلاثة تصنع في السنة 36,000 بندقية عدا الطبنجات والسيوف.

- *5 – 2 – تعليميًا*

أدرك محمد علي أنه لكي تنهض دولته، يجب عليه أن يؤسس منظومة تعليمية، تكون العماد الذي يعتمد عليه لتوفير الكفاءات البشرية التي تدير هيئات دولته الحديثة وجيشها القوي. لذا فقد بدأ محمد علي بإرسال طائفة من الطلبة الأزهريين إلى أوروبا للدراسة في مجالات عدة، ليكونوا النواة لبدأ تلك النهضة العلمية. كما أسس المدارس الابتدائية والعليا، لإعداد أجيال متعاقبة من المتعلمين الذين تعتمد عليهم دولته الحديثة.

- **5 – 2 – 1 - البعثات العلمية**

في عام 1813، ابتعث محمد علي أول البعثات التعليمية إلى أوروبا، وكانت وجهتها إلى إيطاليا، حيث أوفد عدد من الطلبة إلى ليفورنو وميلانو وفلورنسا وروما لدراسة العلوم العسكرية وطرق بناء السفن والهندسة والطباعة، ثم أتبعها ببعثات لفرنسا وإنجلترا. كانت البعثات الأولى صغيرة، حيث كان جملة من بعث خلالها لا يتعدى 28 طالبًا، ورغم ذلك فقد لمع منهم عثمان نور الدين الذي أصبح أميرالاي الأسطول المصري ونقولا مسابكي الذي أسس مطبعة بولاق بأمر من محمد علي عام 1821.

إلا أن العصر الذهبي لتلك البعثات، كان مع بعثة عام 1826 التي تكونت من 44 طالبًا لدراسة العلوم العسكرية والإدارية والطب والزراعة والتاريخ الطبيعي والمعادن والكيمياء والهيدروليكا وصب المعادن وصناعة الأسلحة والطباعة والعمارة والترجمة.

تبع تلك الحملة حملة ثانية عام 1828 إلى فرنسا، وثالثة عام 1829 إلى فرنسا وإنجلترا والنمسا، ورابعة تخصصت في العلوم الطبية فقط عام 1832. وشهد عام 1844،

أكبر تلك البعثات العلمية والتي أرسلت إلى فرنسا، وعرفت باسم "**بعثة الأنجال**" لأنها ضمت 83 طالبًا بينهم اثنين من أبناء محمد علي واثنين من أحفاده.

كان إجمالي عدد تلك البعثات تسع بعثات، ضمت 319 طالبًا وبلغ إجمالي ما أنفق عليهم 303,360 جنيه. كما أمر محمد علي بتوجيه ثلاث حملات بقيادة البكباشي سليم القبطان أعوام 1839، 1840، و1841 لاستكشاف منابع النيل. كان لتلك الحملات الفضل الكبير في استكشاف تلك المناطق ومعرفة أحوالها.

- **5 – 2 – 2 - المدارس العليا**

أنشأ العديد من الكليات وكانت يطلق عليها آنذاك " **المدارس العليا** "، بدأها عام 1816، بمدرسة للهندسة بالقلعة لتخريج مهندسين يتعهدون بأعمال العمران. وفي عام 1827، أنشأ مدرسة الطب في أبي زعبل بنصيحة من كلوت بك للوفاء باحتياجات الجيش من الأطباء، ومع الوقت خدم هؤلاء الأطباء عامة الشعب، ثم ألحق بها مدرسة للصيدلة، وأخرى للقابلات عام 1829. ثم أنشأت مدرسة المهندسخانة في بولاق للهندسة العسكرية، ومدرسة المعادن في مصر القديمة عام 1834، ومدرسة الألسن في الأزبكية عام 1836، ومدرسة الزراعة بنبروه عام ومدرسة المحاسبة في السيدة زينب عام 1837، ومدرسة الطب البيطري في رشيد ومدرسة الفنون والصنائع عام 1839، وقد بلغ مجموع طلاب المدارس العليا نحو 4,500 طالب.

- **5 – 2 – 3 - المدارس الابتدائية**

لما تقدمت المدارس العليا واتسع نطاقها ، قرر محمد علي إنشاء " **ديوان المدارس**" عام 1837، وعهد بإدارته إلى بعض أعضاء البعثات العائدين لمصر، لتنظيم التعليم بالمدارس. قرر هذا الديوان توسيع قاعدة التعليم في مصر، فوضع لائحة لنشر التعليم الابتدائي، نصت على ضرورة إنشاء 50 مدرسة ابتدائية،

وهو ما وافق عليه محمد علي، وأمر بإنشائها على أن يكون 4 منها بالقاهرة وواحدة بالإسكندرية تضم كل منها 200 تلميذ، والباقي توزع على مختلف الأقاليم وتضم كل منها 100 تلميذ.

- *5 – 3 – اقتصاديًا*

لكي يحقق محمد علي الاستقلال السياسي، كان في حاجة إلى إنماء ثروة البلاد وتقوية مركزها المالي، لذا عمد إلى تنشيط النواحي الاقتصادية لمصر، واستخدم لتحقيق ذلك عشرات الآلاف من العمال المصريين الذين عملوا في تلك المجالات بالسخرة.

- **5 – 3 – 1 – الصناعة**

بني محمد علي قاعدة صناعية لمصر، وكانت دوافعه للقيام بذلك في المقام الأول توفير احتياجات الجيش، فأنشأ مصانع للغزل والنسيج ومصنعا للجوخ في بولاق ومصنعا للحبال اللازمة للسفن الحربية والتجارية ومصنعا للأقمشة الحريرية وآخر للصوف ومصنعا لنسيج الكتان ومصنع الطرابيش بفوه ، ومعمل سبك الحديد ببولاق ومصنع ألواح النحاس التي كانت تبطن بها السفن، ومعامل لإنتاج السكر، ومصانع النيلة والصابون ودباغة الجلود برشيد ومصنعا للزجاج والصيني ومصنعا للشمع ومعاصر للزيوت. كما كان لإنشاء الترسانة البحرية دورًا كبيرًا في صناعة السفن التجارية.

- **5 – 3 – 2 – الزراعة**

اهتم محمد علي بالزراعة، فاعتنى بالريّ وشق العديد من الترع وشيّد الجسور والقناطر. كما وسّع نطاق الزراعة، فخصص نحو 3,000 فدان لزراعة التوت للاستفادة منه في إنتاج الحرير الطبيعي، والزيتون لإنتاج الزيوت، كما غرس الأشجار لتلبية احتياجات بناء السفن وأعمال العمران. وفي عام 1821، أدخل زراعة صنف جديد من القطن يصلح لصناعة الملابس، بعد أن كان الصنف الشائع لا يصلح إلا للاستخدام في التنجيد.

- **5 – 3 – 3 – التجارة**

بعد أن ازدادت حاصلات مصر الزراعية وخاصة القطن، اتسع نطاق تجارة مصر الخارجية. كما لعب إنشاء الأسطول التجاري وإصلاح ميناء الإسكندرية وتعبيد طريق السويس - القاهرة وتأمينه لتسيير القوافل، دورًا في إعادة حركة التجارة بين الهند وأوروبا عن طريق مصر، فنشطت حركة التجارة الخارجية نشاطًا عظيمًا ،

- *5 – 4 – إداريًا*
- **5 – 4 – 1 - نظام الحكم**

حكم محمد علي مصر حكمًا أوتوقراطيًا مع ميل لاستشارة بعض المقربين قبل إبرام الأمور، إلا أنه اختلف عن الحكم الاستبدادي للمماليك في أنه كان يخضع لنظام إداري بدلاً من الفوضى التي سادت عصر المماليك. فقد أسس محمد علي مجلسًا حكوميًا عرف باسم **"الديوان العالي"** مقره القلعة يترأسه نائب الوالي محمد علي، ويخضع لسلطة هذا الديوان دواوين تختص بشئون الحربية والبحرية والتجارة والشئون الخارجية والمدارس والأبنية والأشغال. كما أسس مجلسًا للمشورة يضم كبار رجال الدولة وعدد من الأعيان والعلماء، ينعقد كل عام ويختص بمناقشة مسائل الإدارة والتعليم والأشغال العمومية. وفي عام 1837، وضع محمد علي قانونًا أساسيًا عرف بقانون " **ا لسياست نامة** "، يحدد فيه سلطات كل ديوان من الدواوين الحكومية.

- **5 – 4 – 2 - التقسيم الإداري**

قسّم محمد علي مصر إلى سبع مديريات أربعة في الوجه البحري وهي الأولى ضمت البحيرة والقليوبية والجيزة والثانية المنوفية والغربية والثالثة الدقهلية والرابعة الشرقية، وواحدة في مصر الوسطى وشملت بني سويف والفيوم والمنيا، واثنتان في مصر العليا الأولى من جنوب المنيا إلى شمال قنا والثانية من قنا إلى وادي حلفا، إضافة إلى خمس محافظات وهي القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط والسويس.

- **5 – 4 – 3 - النظام المالي**

ألغى محمد علي نظام " **الالتزام** " الذي كان يسمح لبعض الأفراد الذين يسمون بالملتزمين بدفع حصص الضرائب على بعض القرى، ويخوّل لهم جمعها بمعرفتهم، مما كان يرهق المزارعين لأنهم عادةً ما كانوا يجبوا تلك الأموال بقيمة أكثر مما دفعوه. إلا أنه استبدل هذا النظام بنظام " **الاحتكار**" الذي جعل

من محمد علي المالك الوحيد لأراضي القطر المصري، وبذلك ألغى الملكية الفردية للأراضي. كما أجهد محمد علي الشعب بالضرائب التي كان يفرضها على الشعب، كلما احتاج لتمويل أحد حملاته أو مشاريعه دون نظام محدد، شملت تلك الضرائب، الضرائب المفروضة على الأراضي والمزروعات والأفراد والماشية. وكما احتكر محمد علي الأراضي والزراعة، احتكر أيضًا الصناعة والتجارة، مما جعل منه المالك الوحيد لأراضي مصر، والتاجر الوحيد لمنتجاتها، والصانع الوحيد لمصنوعاتها.

- *5 – 5 – عمرانيًا*

اهتم محمد علي ببعض النواحي العمرانية التي تخدم دولته الناشئة، فأسس المدن مثل الخرطوم وكسلا، وأقام القلاع للدفاع عن الثغور وعاصمة البلاد ، كما شيّد فنارا لإرشاد السفن في رأس التين بالإسكندرية. وعني أيضًا ببناء القصور ودور الحكومة، وأنشأ دفترخانة لحفظ الوثائق الحكومية، ودار للآثار بعدما أصدر أمرًا بمنع خروج الآثار من مصر، وعبّد الطرق التجارية ونظّم حركة البريد وجعل له محطات لإراحة الجياد.

- *5 – 6 – اجتماعيًا*

تدرّج المجتمع في عهد محمد علي إلى عدة طبقات اجتماعية أعلاها الطبقة الحاكمة التي ضمت أسرة محمد علي وكبار رجاله وموظفي الدولة من المتعلمين في المدارس والمبتعثين للخارج، ثم طبقة العلماء والأعيان فالمزارعين وعمال المصانع والعربان والرقيق من اليونانيين الذين أسروا في حرب المورة والجواري الشركسيات والحبشيات والسودانيات اللاتي كن يخدمن في بيوت الأثرياء. وقد ارتفع تعداد السكان في عهد محمد علي من 2,514,400 نسمة عام 1823، إلى 4,476,440 نسمة عام 1845. وكان محمد علي باشا متسامحًا واسع الأفق في الشؤون الدينية، فقرَّب إليه المسيحيين كما المسلمين، واستعان بهم في حكمه وأدخلهم في حاشيته.

6 - نهاية محمد علي باشا

- *6 – 1 سنواته الأخيرة*

بعد انسحاب الجنود المصرية من بلاد الشام وفصل الأخيرة عن مصر وعودتها لربوع الدولة العثمانية بدعم دولي كبير، وبعدما تبيّن أن فرنسا ليست مستعدة لخوض حرب في سبيل مصر أو واليها، أصيب محمد علي باشا بحالة من جنون الارتياب، وأخذ يُصبح مشوش التفكير شيئًا فشيئًا، ويُعاني من صعوبة في التذكّر، ومن غير المؤكد إن كان هذا نتيجة جهده الذهني خلال حرب الشام، أو حالة طبيعية نتيجة تقدمه بالسن، أو كان تأثير نترات الفضة التي نصحه أطباؤه بتعاطيها منذ زمن لعلاج نفسه من مرض الزحار.

ما زاد حالة محمد علي باشا سوءًا كانت المصائب التي حلّت بمصر وعليه شخصيًا في أواخر عمره ، ففي سنة 1844 تبيّن لرئيس الديوان المالي شريف باشا، أن ديون الدولة المصرية قد بلغت 80 مليون فرنك، وأن المتأخرات الضريبية قد بلغت 14,081,500 قرشًا من الضريبة الإجمالية المقدرة بحوالي 75,227,500 قرش. وتخوّف الباشا من عرض الموضوع على محمد علي لما قد يكون له من وقع شديد عليه، فعرض المسألة على إبراهيم باشا الذي اقترح أن تقوم أحب شقيقاته إلى والده بنقل الخبر، إلا أن ذلك لم يكن له الأثر المرجو، فقد فاق غضب محمد علي ما توقعه الجميع، ولم يهدأ باله ويستكين خاطره إلا بعد مرور ستة أيام.

بعد عام من هذه الحادثة، أصيب إبراهيم باشا بالسل، واشتد عليه داء المفاصل، وأخذ يبصق دمًا عند السعال، فزاد ذلك من هموم محمد علي وحزنه، فأرسل ولده إلى إيطاليا للعلاج، على الرغم من أنه أدرك في قرارة نفسه أن ولده في عداد الأموات، ويتضح ذلك جليًا مما قاله للسلطان عندما زار الآستانة في سنة 1846، حيث عبّر عن خوفه من ضياع إنجازاته بسبب عدم كفاءة أحفاده لتحمّل مسؤولية البلاد والعباد، فقال: « ولدي عجوزٌ عليل، وعبّاس متراخ كسول، من عساه يحكم مصر الآن سوى الأولاد، وكيف لهؤلاء أن يحفظوها؟ » بعد ذلك عاد محمد علي إلى مصر وبقي واليًا عليها حتى اشتدت عليه الشيخوخة، وبحلول عام 1848 كان قد أصيب بالخرف وأصبح توليه عرش الدولة أمرًا مستحيلاً، فعزله أبناؤه وتولّى إبراهيم باشا إدارة الدولة.

- *6 – 2 – وفاته*

جامع محمد علي باشا في قلعة القاهرة، حيث يرقد

حكم إبراهيم باشا مصر طيلة 6 أشهر فقط، قبل أن يتمكن منه المرض وتوافيه المنيّة في 10 نوفمبر/تشرين الثاني سنة 1848، فخلفه ابن أخيه طوسون ، عبّاس حلمي. وبحلول هذا الوقت كان محمد علي باشا يُعاني من المرض أيضًا، وكان قد بلغ من الخرف حدًا لا يمكنه أن يستوعب خبر وفاة ابنه إبراهيم ، فلم يُبلّغ بذلك. عاش محمد علي بضعة شهور بعد وفاة ولده، وتوفي في قصر رأس التين بالإسكندرية بتاريخ 2 أغسطس سنة 1849م، الموافق فيه 13 رمضان سنة 1265هـ، فنُقل جثمانه إلى القاهرة حيث دُفن في الجامع الذي كان قد بناه قبل زمن في قلعة المدينة. كانت جنازة محمد علي باشا معتدلة الحضور والمراسم، ويرجع ذلك بشكل كبير إلى الوالي عبّاس حلمي الذي طالما اختلف في الآراء والمشارب مع جدّه وعمّه إبراهيم ،

- *6 – 3 – إرثه*

إن أكثر النظريات السائدة عند المؤرخين وفي الأوساط العامّة، هي تلك التي تقول أن محمد علي باشا هو " والد مصر الحديثة "، كونه كان الحاكم الأول عليها، والذي استطاع تجريد الباب العالي من سلطته الفعليّة على البلاد، منذ الفتح العثماني لمصر عام 1517. وعلى الرغم من أنه فشل في تحقيق الانفصال التام لمصر عن الدولة العثمانية، إلا أنه وضع أسس الدولة المصرية الحديثة، التي تبلورت بعد وفاته. فمن خلال بناءه لجيش كبير وقوي يُدافع عن بلاده ويوسع رقعتها، أنشأ بيروقراطية مركزية ونظامًا تعليميًا سمح بحصول حراك اجتماعي في المجتمع المصري، وقاعدة اقتصادية واسعة تستند إلى الزراعة والصناعات العسكرية. وقد كان من شأن جهوده وأعماله هذه أن توطّد حكم ذريته لمصر والسودان طيلة 150 عامًا تقريبًا، كانت مصر فيها دولة تتمتع باستقلال ذاتي قانوني في ظل الدولة العثمانية، ومن ثم في ظل الحماية البريطانية.

يرى قسم آخر من الناس، أن محمد علي باشا لم يكن باني مصر الحديثة ، وإنما هو أجنبي غازٍ مثله في ذلك مثل أي محتل آخر لأرض مصر، بدءًا من الفرس في عام 525 ق.م. وحجج أصحاب هذا الرأي تتمثل بعدّة نقاط، منها أن محمد علي لم يتكلم العربية أو يجعلها اللغة الرسمية في بلاطه، وإنما استعاض عنها بالتركية، كما أنه استغل ثروات مصر ومواردها البشرية لتحقيق مآربه الخاصة، وليس لتحقيق مصلحة البلاد وأهلها، وإنه أرهق المصريين بالضرائب وأعمال السخرة والتجنيد الإجباري. ومن أبرز المواضيع التي تجعل البعض يتحفّظ على عهد محمد علي باشا، قصة عزمه على هدم الهرم الأكبر واستخدام أحجاره الضخمة لبناء قناطر جديدة عند رأس دلتا النيل في منطقة شلقان، التي أصبحت فيما بعد

القناطر الخيرية، والتي تراجع عنها بعد أن أقنعه المهندس الفرنسي "لينان" بعدم جدواها. على العموم تعتبر النظرة سالفة الذكر النظرة الأقل قبولاً عند المؤرخين وبالذات العرب منهم.

إبراهيم محمد علي باشا

1 - تقديم

إبراهيم باشا بن محمد علي باشا بن إبراهيم آغا (1789 - 10 نوفمبر 1848)، الابن الأكبر لوالي مصر محمد علي باشا. نصب كقائم على العرش نيابة عن أبيه من 2 مارس حتى 10 نوفمبر 1848. قاد حملة عسكرية على وسط الجزيرة العربية وقضى على الدولة السعودية الأولى.

ولد في نصرتلي، تركيا. كان عضد أبيه القوي وساعده الأشد في جميع مشروعاته، كان باسلًا مقدامًا في الحرب، لا يتهيب الموت، وقائدًا محنكًا لا تفوته صغيرة ولا كبيرة من فنون الحرب، وقام بإنشاء التكية المصرية سنة 1816.

2 - الحروب التي خاضها

- *2 – 1 - الحملة المصرية ضد الدولة السعودية الأولى*

يعتبر من أحسن قادة الجيوش في القرن التاسع عشر، وقد حارب وانتصر في شبه الجزيرة العربية ضد عبد الله بن سعود بالدرعية، ثم أكمل حربه بكلًا من السودان واليونان وتركيا وسوريا وفلسطين. وكانت البداية عندما عينه والده قائدًا للحملة المصرية ضد آل سعود والتي جرت بين 1816 و1819، فقضى على حكمهم، وأسر أميرهم عبد الله بن سعود وأرسله لأبيه محمد علي باشا في القاهرة، فأرسله محمد علي إلى الأستانة، فطافوا به في أسواقها ثلاثة أيام ثم قتلوه، فنال إبراهيم باشا من السلطان مكافأة سخية، ونال أبوه محمد علي باشا لقب خان وهو اللقب الذي لم يحظ به سواه.

- *2 – 2 - الحرب في السودان*

وذهب بين سنتي 1821 - 1822 إلى السودان ليقمع تمرد وقع هناك.

- *2 – 3 - حرب المورة*

كانت اليونان و الجزء من أوروبا الشرقية تابعة للدولة العثمانية منذ القرن 15 الميلادي , فعندما قامت الثورة علي الدولة العثمانية عجز السلطان عن اخمادها , و لذلك طلب من محمد علي باشا -اقوي الولاة في اطار الدولة العثمانية - القضاء علي تلك الثورة . فبعث محمد علي بأبنه الأكبر إبراهيم باشا .. فنجح إبراهيم في القضاء علي الثورة و انهي التمرد .. و اكتسب الجيش المصري خلال تلك الحرب خبرات ميدانية .. و ضم محمد علي جزيرة كريت (مكافأة من السلطان)

- *2 – 4 - الحرب المصرية العثمانية الاولى*

الحرب المصرية العثمانية (1831 - 1833) أو ما يعرف بحروب الشام الأولى وهي تعتبر بمثابة الجزء الأول من الصراع العسكري بين مصر والدولة العثمانية، أثناء حكم محمد على باشا بدأ بمطالبة السلطان العثماني بأن يمنحه ولاية الشام مقابل مساعدته له في حرب الاستقلال اليونانية فاكتفى السلطان بمنحه ولاية جزيرة كريت وهو مالم يرضى به محمدعلي وكانت السبب الرئيسي في اشتعال الحرب بينهما وانتهت بانتصار ابراهيم باشا ووصول نفوذ دولة محمد علي إلى أعالي نهر الفرات.

- *2 – 5 - الحرب المصرية العثمانية الثانية*

في عام 1839م قام السلطان العثماني بتحريك جيشاً لمحاولة إسترداد أراضي الشام التي نجح إبراهيم باشا في فتحها خلال الحرب المصرية - العثمانية الأولى، وكان نتيجة ذلك التحرك أن جهز ابراهيم باشا جيشه وزحف مرة آخرى إلى الاناضول إلى أن دارت معركة نزيب والتي إستطاع ابراهيم باشا بعبقريته العسكرية أن يسحق الجيش العثماني، وهنا أصبحت الامبراطورية العثمانية على وشك الانهيار. وهرعت بريطانيا والنمسا ودول أوروبية أخرى، للتدخل واجبار مصر على قبول معاهدة لندن. ونجحت

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

بريطانيا في إشعال ثورات أهالي الشام ضد الحكم المصري حتى إستعادت الإمبراطورية العثمانية سوريا، وقام حافظ باشا، يرافقه مولتك، بمسيرة الجيش إلى سوريا.

- *2 – 6 - الحملة على بلاد الشام*

ثم عين قائدًا للجيش ضد ثورة اليونانيين الذين خرجوا على الدولة العثمانية للظفر بالاستقلال، فانتزع معاقلهم وأخمد ثورتهم التي ظلت من 1825 ولغاية 1828، ولكن نزول الجنود الفرنسيين بالمورة أجبره على الجلاء عن اليونان. وحين طمع محمد علي في ممتلكات السلطنة العثمانية بالشام أرسله مع جيش قوي ففتح فلسطين والشام وعبر جبال طوروس حتى وصل إلى « كوتاهيه » وذلك بعامي 1832 و1833، وحينما تجدد القتال عام 1839 بين المصريين والأتراك انتصر وهزمهم هزيمة ساحقة في معركة نسيب الفاصلة والتي وقعت في حزيران/ يونيو 1839 وغنم أسلحة كثيرة من العثمانيين، ولكن الدول الأوروبية حرمته من فتوحه وأجبرته على الجلاء عن جميع الجهات التي كان قد فتحها.

3 - تعيينه حاكمًا على مصر

عين بعام 1848 نائبًا عن أبيه في حكم مصر، وكان أبوه في ذلك الوقت لا يزال حيًا، إلا أنه كان قد ضعفت قواه العقلية وأصبح لا يصلح للولاية. ولكنه توفي قبل والده في نوفمبر من العام نفسه. وهناك تاريخان بالنسبة لتعينه واليًا على مصر:

من 2 سبتمبر 1848 إلى أن توفي في 10 نوفمبر 1848.

تولى حكم مصر بفرمان من الباب العالي في مارس 1848 نظرًا لمرض والده. ولكنه لم يعمر أكثر من سبعة أشهر ونصف بعد ذلك وتوفى وهو لم يتجاوز الستين من عمره في نوفمبر 1848 .

بشير الثاني الشهابي

تقديم

الأمير بشير الثاني الشهابي الكبير هو أحد أمراء جبل لبنان من آل شهاب، الذين حكموا المنطقة من سنة 1697 حتى 1842. يُعتبر أحد أشهر الأمراء في تاريخ لبنان وبلاد الشام عمومًا، وأحد أبرز ولاة الشرق العربي في العصور الحديثة، كما أنه آخر الأمراء الفعليين للبنان، إذ أن الأمير الذي تلاه كان مجرد أمير صوري تمّ تعيينه من قبل العثمانيين على عكس الأمراء السابقين الذين كان يختارهم أعيان الشعب. حكم الأمير بشير الثاني جبل لبنان خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر وصولاً حتى منتصف القرن التاسع عشر، وبهذا كان الأمير الثاني الذي حكم لفترة طويلة كهذه، بعد الأمير فخر الدين المعني الثاني.

عاصر بشير الثاني فترة ضعف وعجز الدولة العثمانية وازدياد الأطماع الأوروبية فيها والتدخل في شؤونها.

ومن أبرز الأحداث التي شهدها لبنان في عهده : الحملة الفرنسية على مصر وفلسطين خلال عهد الوالي أحمد باشا الجزار، والحملة المصرية على بلاد الشام والمعارك العديدة التي خاضها الجيش المصري مع الجيش التركي للسيطرة على سوريا الكبرى.

يُقسم المؤرخون تاريخ الأمير بشير الثاني في الحكم إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى (1788 - 1804)، الأمير في عهد أحمد باشا الجزار، وقد امتدت ستة عشر عامًا، وكان موقف الأمير فيها مضطربًا، وخاضعًا لوالي عكا؛

المرحلة الثانية (1804 - 1831)، مرحلة القوة والازدهار، وقد امتدت سبعة وعشرين عامًا، وفيها بلغ الأمير ذروة مجده وقوته، وقد عاصره في هذا الدور في عكا الواليان سليمان باشا ثم عبد الله باشا؛

المرحلة الثالثة (1831 - 1840)، عهد الحكم المصري لبلاد الشام، وقد دامت تسع سنوات، وكان الأمير خلالها متحالفًا مع محمد علي باشا والي مصر ضد الدولة العثمانية، وبانهزام المصريين بنهاية المطاف، غادر الأمير لبنان إلى المنفى وكانت تلك نهاية الإمارة

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

1 – نشأته

هو بشير بن قاسم شهاب، يُعرف بالثاني لأن أول أمير من آل شهاب كان يُدعى بشير أيضا، ويُقال له "الكبير" لأنه يعتبر من أكبر وأعظم أمراء لبنان عبر التاريخ، كما يُعرف عند الإنكليز "بالمالطي" لأنه لجأ إلى جزيرة مالطة، المستعمرة البريطانية عندما انهزم المصريون وانهار حكمهم في لبنان.

كان الأمير ملحم بن حيدر الشهابي، الذي حكم لبنان بين سنتيّ 1729 و1754 قد رشّح الأمير قاسم، ابن أخيه عمر، ليخلفه في الإمارة، ولكن الأميرين أحمد ومنصور، عميّ قاسم، تجاهلا هذا الترشيح وانفردا بالإمارة، فنزح قاسم إلى بلدة غزير في كسروان وأقام فيها.

وفي سنة 1767 توفي قاسم بعد أن ترك ولدًا في شهره الرابع، هو بشير الثاني. ولم تلبث والدته أن تزوجت وأقامت في منطقة الحدث، قرب بيروت، أما بشير فاحتضنته امرأة من آل الشعلاني كانت في خدمة أبيه، فنشأ يتيم الأب، بعيدا عن الأم، فقيرا، على الرغم من جذوره النبيلة. فبشير الثاني بالتالي، هو ابن قاسم بن عمر بن حيدر الشهابي، وحيدر هو ثاني أمراء آل شهاب، وبطل معركة عين دارة التي وقعت سنة 1711 وقضي بها على الحزب اليمني وتمّ توزيع الأراضي بعدها على الأسر اللبنانية الكبرى

قصر فخر الدين في دير القمر كما يبدو اليوم،
كان لا يزال مقر الإمارة اللبنانية عندما انتقل بشير الثاني إلى البلدة.

بعد أن أمضى بشير شطرًا من صباه في منطقة برج البراجنة، في بيت مربيته، بالقرب من الحدث حيث كانت تقيم والدته المتزوجة والتي كان يزورها بين الحين والأخر، انتقل إلى دير القمر، عاصمة الإمارة. وهناك قام ببعض الأعمال التي كلفه بها الأمير في ذلك الوقت، يوسف الشهابي، فكان يشرف على أملاكه ويفضّ الخلافات التي كانت تنشأ بين رجال الإقطاع.

وكانت سلطة الأمير يوسف في ذلك الوقت قد أخذت تضعف، فقد كان الجزار والي عكا، الذي كان لبنان يدفع ضرائبه إلى الدولة العثمانية عن طريقه، يلحّ عليه بطلب المال من جهة ، ورجال الإقطاع يتبرمون من كثرة الضرائب ، ويتلكؤون في تلبية طلبات الأمير يوسف من جهة ثانية. ومالبث بشير الثاني أن لفت انتباه خصوم الأمير يوسف، وأكثرهم من الحزب الجنبلاطي، ورؤوا فيه شخصا مؤهلاً ليحل مكان الأمير حين يكون الوقت مناسبًا، فالتفّوا حوله، ولكنه كان يشعر أنه فقير لا يستطيع النهوض بأعباء الإمارة، وفي مقدمتها توفير الأموال الكافية لإرضاء الجزار.

كان الأمير يوسف قد شعر بتعاظم شخصية بشير والتفاف رجال الإقطاع حوله، فأراد أن يبعده قليلاً عن عاصمة الإمارة، فأوفده في مهمة إلى حاصبيا بجنوب لبنان، حيث كان الأمير يوسف قد قتل أميرًا شهابيًا من وادي التيم، وكان الأمير القتيل ثريًا، فأوفد يوسف بشيرًا إلى حاصبيا سنة 1787 لتقدير تركته. وبينما كان بشير يؤدي مهمته التقى بالأميرة "شمس"، أرملة الأمير القتيل، وكانت ثرية مثل زوجها، فاغتنم

الأمير بشير الفرصة وتزوج منها، وعاد إلى دير القمر بثروة كبيرة, اشترى ببعضها أرض قصر بيت الدين الذي بناه لاحقا، واستعان بالبعض الآخر على تنفيذ خططه السياسية.

2 - تولي مقاليد الحكم

ما كادت سنة 1788 تشرف على نهايتها حتى كان بشير الثاني الشهابي هو الرجل المؤهل لكي يتبوأ إمارة الجبل، فهو الذي كان بوسعه أن يرضي نهم الجزار للمال، ويُرضي الحزب الجنبلاطي وسائر الإقطاعيين الذين كانوا يناوئون الأمير يوسف، ويُرضي الأمير يوسف نفسه الذي شعر بعجزه عن الاستمرار في الحكم، بعد أن دعم انقلابا قام به مماليك الجزار على سيدهم ظنا منه أنه سينجح ويتخلص من سلطان ذلك الوالي عليه، فلما اخفق الانقلاب وجد يوسف نفسه في مأزق، وظن أن وجود الأمير بشير في إمارة الجبل معناه استمرار لحكم الأمير يوسف نفسه واستمرار نفوذه. فتنازل عن الحكم، وانتخب أعيان البلاد بشيرا، وما لبث الأخير أن توجه إلى عكا وعاد منها بعد أن تسلم منصب الولاية رسميّا من الجزار.

كان على الأمير أن يواجه عددا من العقبات، كان في طليعتها مطاردة سلفه الأمير يوسف، هذه المطاردة التي أصر عليها الجزار كي يجعل من الأمير السابق عبرة لمن يُفكر بالتمرد على الولاية، وكان الجزار على دراية بطباع الأمير بشير الشجاعة وقدراته الباكرة، فأعطاه جيشا من المرتزقة الألبان والمغاربة وأمره بطرد الأمير يوسف من الجبل أو القبض عليه واقتياده إلى عكا. كان بشير الثاني عند انتخابه قد وعد قريبه الأمير يوسف بالحماية، ولكنه عاد وأدرك أن سلطته لا يمكن أن تقوى أو تستقر بوجود يوسف إلى جانبه، فقد سبق واعتزل الأخير الحكم عددا من المرّات ثم عاد بعد أن راضى الجزار، وليس هناك ما يمنع أن يعاود الكرّة، ويغتنم أية اضطرابات تحصل ليفعل بقريبه بشير ما فعله بإخوته، أي قتله كي لا ينازعه على الحكم . انطلاقا من هذا انقلب الأمير بشير على وعده وقامت بينه وبين سلفه بضعة مناوشات هرب بنتيجتها الأمير يوسف إلى حوران، وعقد العزم على الانتقام، فاتجه إلى عكا بغض النظر عن الخطر المحدق به، وظهر أمام الوالي مع حبل معقود في رقبته كاستعداد لأن يُشنق، وبدون مقدمات عرض على الجزار أن يُرجعه حاكما على لبنان على أن يقدم جزية سنوية قيمتها 600 ألف قرش، فأعجب الجزار بالاقتراح وكاد أن يوافق ويعفي عن الأمير يوسف.

علم الأمير بشير بالمساومات التي كانت تجري في عكا، فأسرع بنفسه وعرض على الجزار أن يدفع له في السنة الأولى ضعفي ما يقترحه الأمير يوسف، مشترطا أن يُشنق الأخير مع مستشاره "غندور"، فوافق الجزار على هذا الاقتراح ونفذ حكم الإعدام بالأمير يوسف. وبهذا أصبح بشير الثاني الشهابي حاكم لبنان الأوحد ولم يبق له منافس فعلي آخر، وضمن والي عكا إلى جانبه لفترة من الوقت على الأقل.

3 - تمرّد وعصيان الشعب

أثارت حادثة شنق الأمير يوسف بعض اللبنانيين في المتن على الأمير بشير، وانتشرت الثورة ضده في مقاطعات الغرب، والجرد والشحّار، وسرعان ما تحول هذا إلى عصيان عام في لبنان سنة 1790، أي في العام الثاني لحكمه. لم يبق إلى جانب الأمير آنذاك سوى حراس الجزار، الذين كانوا قد ألحقوا به لجمع كمية الأموال الموعودة، ولكن الجزار ما لبث أن استرد حراسه ، بعد أن أعطي بشليك دمشق فتسمى وقتها أميرا للحج وقرر الذهاب إلى مكة المكرمة على رأس قافلة الحجاج، فاضطر الأمير بشير، والحال هذه، إلى الهرب واللجوء إلى "متسلّم" صيدا التركي، فانتخب أعيان الجبل مكانه أميرين من أقربائه هما حيدر وقعدان الشهابيين.

بعد عودته من مكة ، أرسل الجزار جيوشه لمساعدة الأمير بشير، ولكن سكان الجبل وقفوا وقفة واحدة في وجه إعادة بشير إلى الحكم، فدارت بينهم وبين جيش الأمير والجزار معارك لمدة سنتين بقي لبنان خلالها منيعا أمامهم. لكن القدر سمح لوالي عكا أن ينتقم من الجبليين بقسوة ويُعيد الأمير إلى منصبه عنوة،

ففي سنة 1793 عمّ القحط بلاد الشام، وكانت المراكب المحملة بالقمح تفرغ حمولتها في بيروت وبالرغم من أن بعض القرى كانت تعاني من الجوع، إلا أن الباشا منع وصول القمح إلى الجبل، وعندها فقط استوفى الجزار كل ديونه. ولتهدئة الشعب التعيس المعذب والجائع، والذي فقد كل إمكاناته في دفع الجزية والفدية، طلب الجزار من الأمير بشير بأن يغرب عن جبل لبنان لفترة، فالتحق الأخير بقبائل الأنصاريين في شمال لبنان، حيث استطاع من هناك أن يجتذب إلى جانبه حزب الجنبلاطيين . وكان الجزار

في هذه الفترة يُغذي الانقسامات بين الأمراء الشهابيين ويثير النزاع بين الإقطاعيين، فيبتز المال من كل راغب بمنصب الإمارة ويؤلب بعضهم على بعضهم الآخر، واستمر في خطته هذه حتى سنة 1798 عندما أصدر أمرا بإعادة بشير إلى الحكم، فعاد الأمير بشير إلى منصبه بتأييد من الجزار، الذي فسح له المجال للتخلص بنفسه من منافسيه، وبدعم من الجنبلاطيين.

- *3 – 1 - الأمير بيطش بخصومه*

أراد الأمير بشير أن ينتقم من الذين ثاروا عليه، أو ساعدوا خصومه خلال تخليه عن الحكم، فبطش بهم وفي طليعة هؤلاء كان آل نكد، وطارد أبناء الأمير يوسف ونكّل بكل من وقع بين يديه وأنزل بهم ألوان العذاب والإذلال. ولمّا أيقن أبناء الأمير يوسف أن نهايتهم ستكون على يد الأمير بشير، جمعوا أموالا كثيرة، وتوجهوا إلى الجزار راغبين في "شراء" إمارة الجبل.

وأغرت هذه الأموال الجزار، فنسي وعده ودعمه للأمير بشير، وانقلب عليه علنا، وأنعم على أبناء الأمير يوسف بإمارة الجبل من جديد. وما كاد الجزار يفعل ذلك، حتى بلغته أنباء الجيش الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت، الذي نزل أرض مصر، فجزع الجزار جزعا شديدا، وتريث في عزل الأمير بشير، فاستبقى أبناء الأمير يوسف في عكا ريثما تنجلي نتائج الحملة الفرنسية. وارتاح الأمير بشير، بعض الوقت، من تقلبات مزاج الجزار.

4 - الحملة الفرنسية على مصر وفلسطين

تغلب الجيش الفرنسي، بقيادة نابليون بونابرت، على المماليك في مصر، في معركة الأهرام قرب القاهرة. وكانت الجمهورية الفرنسية تقصد من احتلال مصر، السيطرة على طريق بريطانيا إلى الهند آنذاك . ورأت الدولة العثمانية في احتلال بونابرت مصر اعتداءً عليها، ووقف الإنكليز والروس إلى جانب العثمانيين، وعرضوا على الباب العالي المساعدة العسكرية، برّا وبحرا لإخراج الفرنسيين من مصر.

ولما رأى بونابرت تجمّع أساطيل العثمانيين والإنكليز والروس في البحر المتوسط، عزم على مفاجأة الدولة العثمانية باحتلال بلاد الشام قبل أن يستكمل العثمانيون استعداداتهم، فاحتل غزة ويافا والرملة وحيفا ووصل إلى صور في جنوب لبنان، ولكن جنوده لم يستطيعوا اقتحام حصون عكا لمناعتها. وكان أحمد باشا الجزار قد زوّد حاميتها بالمدافع، كما كان الأسطول الإنكليزي بقيادة الأميرال سدني سميث يُساعد رجال الجزار.

- *4 – 1 - موقف الأمير بشير*

عندما تساوت قوى الفريقين، ووقف كل من بونابرت والجزار يتربص بالأخر، التفت كل منهما إلى الأمير بشير، فوجدا فيه مرجّحا لكفة من يُساعده فيما يُقدمه الأمير من رجال ومؤن، فكتب كل منهما إليه :

أما بونابرت فقد طلب إليه المساعدة ووعده بتوسيع حدود إمارته وتخليص بلاد الشام من حكم الجزار المتقلّب الذي دائما ما يخلف بوعوده ويغدر بمن حوله؛

وأما الجزار فأصرّ على الأمير أن يمده بجيش ليقاوم الحملة الفرنسية، ووعده مقابل ذلك بإعادة مدينة بيروت إلى إمارته.

وكان موقف الأمير حرجا للغاية ، فالمعارك لم تكن تنبئ عن نجاح مؤكد لأحد الفريقين، والواقع أنه كان من الصعب على أمير لبنان، أي أمير، أن يتخلص من التورط السياسي عندما تتدخل قوة أجنبية في المنطقة . فالأمير لم يكن ليضمن وفاء الجزار بوعده، فهو قد خلف وعود عديدة من قبل مقابل المال، كما أنه كان يريد أن يعين أبناء الأمير يوسف بدلا من بشير، وليس هناك ما يمنع أن يعاود الكرّة إن انتصر على الفرنسيين، كذلك ليس هناك من ضمانة لنوايا بونابرت تجاه الأمير ولبنان.

سكت الأمير بشير عن الرد على رسالة بونابرت ، وتجاهل المؤن التي زود بعض الأهالي بها الجيش الفرنسي، وردّ على الجزار يعتذر عن تقاعسه في نجدته ، زاعما أن أهل البلاد امتنعوا عن طاعته بعد أن بلغهم أن الجزار عزله عن الحكم ، وولّى مكانه أبناء الأمير يوسف. فكان هذا الاعتذار أشد وقعا في نفس الجزار من الرفض الصريح.

ومن حسن حظ الأمير بشير أن رسالة ثانية بعث بها بونابرت إليه، وقعت في يد "متسلّم" صيدا، فأرسلها إلى رئيسه الجزار، وكان فيها عتاب من بونابرت للأمير بشير، لعدم رده على رسالته الأولى. عندئذ اطمأن والي عكا بعض الاطمئنان إلى سلامة موقف الأمير من الفاتح الفرنسي.

وكان هذا الموقف المحايد الذي التزمه الأمير بشير، موقفا حكيما أنقذ فيه نفسه وبلاده من التورّط بين القوتين المتنازعتين. وكان القائد الفرنسي قد جامل الأمير بشير فأهداه سيفا تاريخيّا، فقدم له الأمير بندقية ثمينة.

عندما اجتاز الجيش العثماني سهل البقاع متوجها إلى عكا لنجدة الجزار، اتصل الأمير بشير بالصدر الأعظم **يوسف باشا ضيا** ، الذي كان يقود الجيش ، وأمده بالرجال والمؤن والهدايا، وطلب إليه التدخل لرفع ظلم الجزار وسطوته عنه، ورغب إليه أن يكون لبنان مستقلا عن ولاية عكا، وأية ولاية أخرى، وأن يخوله الاتصال مباشرةً بحكومة إسطنبول، وإرسال الأموال المجموعة من الضرائب إليها دون وساطة والي عكا، فوعده الصدر الأعظم بتحقيق رغبته.

- *4 – 2 - إخفاق الحملة الفرنسية*

نتيجة مناعة حصون عكا، ووصول النجدات العثمانية إليها، واشتراك الأسطول البريطاني في مساعدة العثمانيين، وشدة وطأة وباء الملاريا ثم الطاعون الذين فتكا بالجنود الفرنسيين فتكا ذريعا، اضطر بونابرت إلى رفع الحصار عن عكا والتراجع إلى مصر سنة 1799، ثم عاد إلى فرنسا عندما بلغه نبأ اضطراب الأحوال في أوروبا، وترك للجنرال كليبر قيادة القوة الفرنسية. ولم تلبث هذه القوة الفرنسية أن انسحبت من مصر سنة 1801 عائدة إلى بلادها، بسبب اضطراب الأحوال الداخلية في فرنسا.

5 - سياسة الأمير بشير

- *5 – 1 - الصراع بين الأمير والجزار*

كان الجزار يُراقب تحركات الأمير بشير واتصالاته ، فلما بلغ الصدر الأعظم حدود مصر، سارع الجزار إلى قطع الطريق على الأمير بشير ورغباته، فاتصل بخصوم الأمير، وأثارهم عليه، وزودهم بالجند والذخيرة، وولّى أبناء الأمير يوسف الحكم وأرسلهم إلى لبنان واحتفظ بأخيهم الأصغر رهينة لديه. اضطر بشير الثاني إزاء هذا الأمر أن يلجأ إلى بلدة الكورة فالهرمل ، وأرسل أفراد أسرته والمخلصين من حاشيته إلى بلدة صليما؛ ومن ثم التحق بهم هناك وبقي فيها لأكثر من سنة، متواريًا عن عيون الجزار والأميرين قعدان وسلمان شهاب، أبناء الأمير يوسف . وبينما كان الأمير يحاول الوصول إلى حوران، بلغته دعوة الأميرال سميث الذي كان في زيارة بيروت وعلم بما حدث للأمير.

كان سدني سميث أميرال الأسطول البريطاني في البحر المتوسط ، قد اطلع على موقف الأمير بشير المحايد من بونابرت وتفهم موقفه وأسباب عدم إقدامه على تقديم المساعدة لأي من الطرفين، فبادل الأمير بالهدايا والرسائل، وأرسل ابن أخته الجريح ليقيم في ضيافته، ريثما يشفى من جراحه، فأحسن الأمير بشير وفادته وأكرمه. وعندما زار الأميرال سميث بيروت، اجتمع بالأمير بشير في قرية عين عنوب، القريبة من المدينة، واستمع إليه يشكو من طغيان الجزار ونكثه بالوعود. وسعى الأميرال سميث لدى الجزار من أجل تحسين علاقاته بالأمير بشير، فوعده الجزار بتأييد الأمير، ولكنه ما لبث أن نكث وعده كعادته، بعد أن غادر الأسطول البريطاني ميناء عكا ، وكان سميث قد اشتكى لسفارة بلاده التي نقلت الشكوى بدورها إلى الصدر الأعظم، يوسف باشا ضيا ، الذي كان قد عبر بلاد الشام مع 100 ألف جندي ووصل حدود مصر.

رحلة الأمير بشير الثاني من طرابلس إلى العريش.

اتجه الأمير بشير إلى طرابلس حيث استقل مركبا إنكليزيّا نقله إلى بلدة العريش في سيناء، وهناك قابل الصدر الأعظم بحضور الأميرال سميث، فعرض الصدر الأعظم أن يمد الأمير بعشرة آلاف جندي لاحتلال لبنان رغما عن الجزار، ولكن الأمير استبعد هذا الاقتراح واكتفى بوعد من الصدر الأعظم بعزل الجزار بعد عودته من مصر، كما وعده الأميرال سميث بمساعدته عسكريّا إذا اعتزم الجزار المقاومة في عكا. وهكذا اتفق الثلاثة على التخلص من الجزار من ناحية، كما أخذ الإنكليز **"يعمقون"** علاقتهم بالإمارة اللبنانية.

ولم يستطع الصدر الأعظم أن يفي بوعده، لأنه مني بالهزيمة أمام الجيش الفرنسي، فلم يعد يقوى على الجزار. أما الأمير بشير، فبعد أن تأكد بأن لا وعود الصدر الأعظم ولا مساعي الإنكليز ولا فرمانات السلطان، تمكنه من استعادة الإمارة المفقودة، قرر تجربة حظه مرة أخرى معتمدا على شوق الناس لحكمه بعد تذمرهم من معاملة بدائله لهم. عاد بشير إلى طرابلس ليجد الاضطرابات تعمّ أرجاء لبنان، فقد أساء أبناء الأمير يوسف معاملة الشعب، فثار الناس عليهم، وكان الجزار يُعين أميرا بعد أمير، فانتشرت الفوضى واضطرب حبل الأمن.

ورأى الأمير بشير أن الفرصة مواتية، من غير أن ينتظر مساعدة من الخارج، فجمع أنصاره وبطش بخصومه وجدد توطيد حكمه. وعندما وجد الجزار ان قوة الأمير بشير تتعاظم، وإن اللبنانيين بأكثريتهم يريدونه حاكما، أعترف به حاكما على البلاد بشرط أن يقدم 400 ألف قرش، ضرائب متأخرة عن السنوات الماضية، ونصف مليون قرش جزية سنوية، وكتب إليه بالولاية سنة 1803.

عمل الأمير على إقرار النظام بالبلاد، ولكن قلقه من تقلّب الجزار لم يزل إلا سنة 1804، عندما توفى الجزار، فانتهى بموته الصراع الطويل بينه وبين الأمير بشير، الذي استراح من والي عكا المتقلب، وانصرف إلى توطيد حكمه وترسيخه، مستندا بذلك إلى بعض الطمأنينة التي شعر بها الشعب عند تولي سليمان باشا، خلف الجزار، ولاية عكا، وإلى علاقته الحسنة مع هذا الباشا الجديد.

- *5 – 2 - البطش بالشهابيين المنافسين*

أمن الأمير بشير جانب الجزار بموته ، وجانب سليمان باشا بإرضائه بالمال، وانصرف إلى تقوية مركزه في الإمارة، وذلك بالتخلص من أقربائه الشهابيين الذين نافسوه أو ناصروا منافسيه على الحكم. وكان في مقدمة هؤلاء أبناء الأمير يوسف الثلاثة، وكان العقاب الذي أنزله بهم قاسيا إذ سمل عيونهم وصادر أملاكهم ومنعهم من الزواج حتى لا يتركوا ذرية . وأقدم سنة 1807 على قتل جرجس باز، وعبد الأحد باز، وكانا مدبرين، أي مستشارين أو وزيرين، لأبناء الأمير يوسف، وقد سعيا في تعكير العلاقات بين الجزار والأمير بشير، ليخدما أبناء الأمير يوسف. وضيّق الأمير بشير على أقربائه من الشهابيين الذين يُحتمل أن يبرز منهم مرشح للإمارة يُخاصم الأمير، وصادر أملاكهم.

- *5 – 3 - إضعاف الإقطاعيين*

رأى الأمير بشير أن الإقطاعيين يقاسمونه الحكم، وأن الولاة العثمانيين يتلاعبون بهم، ويوجهونهم كما يريدون، ويتخذونهم وسيلة للتدخل في شؤون لبنان، فعزم على البطش ببعضهم، والحد من نفوذ بعضهم الآخر، وإرغام الجميع على طاعته. ولكنه لم يكن يملك جيشا يقوى على تنفيذ خطته، فأخذ يغتنم فرصة تذمر الشعب منهم، فجردهم من السلطة القضائية، وضيّق من صلاحياتهم، وهكذا تنكر لهم أتباعهم، وأصبح ولاء الشعب للأمير ولاءً مباشرا.

هكذا فعل الأمير بآل الخازن الذين ساعدوا خصومه، فعزلهم عن حكم كسروان، وآل تلحوق وآل عبد الملك إقطاعيي الغرب الذين كانوا يعارضونه، فصادر أملاكهم وضيّق عليهم، والأمراء الأرسلانيين الذين نكّل بهم . بثّ الأمير بشير بهذا، الرعب في قلوب الأقوياء، فهابه الجميع، وساد الهدوء والسكينة والنظام لسنين طويلة ازدهرت خلالها البلاد في الفترة التي يُطلق عليها البعض **"عهد الازدهار الشهابي"** أو "العهد الزاهر الشهابي".

6 - عهد الازدهار الشهابي

- *6 – 1 - الأمن والقضاء*

قبل أن يتمكن الأمير بشير من القبض على الحكم بيديه، كان السفر شاقا، وكان اللصوص يقطعون الطرق. فلما استتبّ له الأمر، طارد قطّاع الطرق، ولاحق المجرمين وأنزل بهم أشد العقاب، حتى ساد الأمن، واطمأن الناس على حياتهم في السفر، فأخذوا يتنقلون في البلاد ليلا ونهارا من غير خوف. وقد تناقل الناس أخبارا كثيرة عن العقاب الصارم الذي كان يُنزله الأمير بشير بكل من ارتكب جرما، كما أن كتب الرحالة الأجانب الذين زارو لبنان في عهد الأمير، حافلة بقصص الأمن السائدة، وكيف استطاع الأمير أن يُطهر البلاد من الخارجين عن القانون . ومن هذه القصص أن امرأة شكت للأمير أن زوجها قد قُتل،

فما كان من الأمير إلا أن أنذر أهل القرية التي قُتل فيها الرجل بأن عليهم أن يكشفوا القاتل ويسلموه..وإلا أنزل العقاب بعدد من رجال القرية. وفي خلال ساعات معدودة، كان القاتل بين يدي الأمير ينتظر حكمه.

واحتفظ لبنان في عهد الأمير بطابعه التاريخي المميز، وذلك في ترحيبه بكل لاجئ إليه، راغب في الاستقرار في ظل الحرية. فقد دعا الأمير بشير 400 أسرة درزية، كانت تقيم في ضواحي حلب وتعاني ألوانا من الاضطهاد والضغط من جيرانها، دعاها الأمير إلى الإقامة في لبنان وقدّم لها المساعدة ليتمكن أفرادها من الاستقرار وتأمين شؤون عيشهم. وقد اكتسبت بعض هذه الأسر عند إقامتها في لبنان لقب " الحلبي " إشارة إلى حلب موطنها الأول. ونزحت في عهد الأمير بشير، من منطقتيّ حلب ودمشق أسر عديدة من الروم الكاثوليك، وأقامت في دير القمر، وذوق مكايل قرب جونية.

كانت إجراءات العدالة في عهد الأمير بشير تتم على الشكل التالي : يحكم الأمير بالدعاوى الجنائية والسياسية، وبعض الدعاوى التي تقع بين شخصين من طائفتين مختلفتين، ويحكم رجال الدين بالقضايا الدينية ، أما القضايا المدنية التي تخرج عن صلاحيات رجال الدين، فكان يتولاها قضاة مدنيون. وأما القضايا الصغيرة والمخالفات فيحكم بها مخاتير القرى، أي مشايخها. وأراد الأمير أن يكون للبنان قضاء منظم ، فاختار عددا من الشباب المتعلم، وأوفدهم إلى كبار فقهاء العصر، فتخصصوا في الفقه والقانون، ثم تولوا مناصب القضاء المدني.

- *6 – 2 – العمران*

ضاق قصر الأمير في دير القمر بالجند والحاشية، وتضايق الأمير نفسه من الإقامة في دير القمر، وسط أنصار آل باز، الذين قتل زعيميهم، وبين بعض الإقطاعيين المعارضين له، مثل آل نكد حكّام المناصف، وكان بعضهم يقيم في دير القمر. والتقى هذان السببان مع رغبة الأمير الشديدة في أن يكون له قصر يتناسب مع مكانته المتصاعدة وآماله البعيدة. من أجل ذلك عزم الأمير بشير على بناء قصر فخم على الرابية التي كان قد اشتراها، إثر زواجه من "الست شمس"، والتي تقع قرب دير القمر وتشرف عليها.

المدخل الرئيسي لداخل قصر بيت الدين.

استغرق بناء القصر عشر سنوات، وعمل فيه أشهر البنائين اللبنانيين، مثل رستم ويوسف مجاعص من بلدة الشوير، كما اشترك في بنائه عدد من المهندسين الذين استدعاهم الأمير من أوروبا، وعدد آخر من الرخامين من إسطنبول وحلب ودمشق. ولم تعد عين الماء التي كانت تروي بيت الدين كافية للموظفين والجند المقيمين في القصر الجديد، فكان هذا الأمر كارثيّ عليهم، وتناقل الناس هذا الخبر عن مشكلة الماء في القصر، فسمعه رجل مصاب بمرض بعقله، في قرية " شاناي "، فقال "لما لا يُحضرون مياه النبع إلى القصر" فسخر الناس منه، ولكن القصة بلغت مسامع الأمير بشير ومهندسيه، فأخبروه أنها فكرة ممكنة، فكان ذلك الرجل، على الرغم من خفة عقله، قد قدم حلا للمشكلة التي شغلت بال الأمير، فأصبح من الشخصيات المعروفة في لبنان، حيث يرمز إليه الناس باسم "أخوت شاناي".

اشترى الأمير، بعد هذه الحادثة، مياه شلال نبع الصفا وعهد إلى خليل عطية الدمشقي بأن يُشرف على جرها إلى القصر. وقد اشترك شباب البلاد في حفر القناة التي تنقل المياه من نبع الصفا إلى بيت الدين،

فعمل كل رجل يومين في السنة من غير أجر، وعندما وصلت الماء إلى القصر بعد سنتين من بدء العمل، أقيمت حفلات الابتهاج، وأشعلت النيران ليلا، وارتفع الحداء والغناء. وكان قصر بيت الدين، سنة 1815 أفخم قصر في لبنان، ومثالا رائعا للبناء الشرقي في القرن التاسع عشر. وهو يحتوي على عدة أقسام تمّ بناؤها على مراحل، وهي: مركز الإدارة، أو السراي، ودار الحريم، وأجنحة واسعة للموظفين والجند، وفي الجهة الشمالية الشرقية من القصر بنيت الحمامات الرخامية. وأحاط الأمير قصره بالحدائق الجميلة، وجعل أمامه ساحة فسيحة تدعى "الميدان" كانت تُقام فيه حفلات الفروسية، واستعراض الجيش، كما بنى عدد من الإسطبلات التي كانت تعج بمئات من الخيول العربية الأصيلة من البادية السورية والحجاز، ومنها ذرية المهر الأسود الصغير الذي امتلكه بشير عندما كان لا يزال فقيرا يعمل في خدمة الأمير يوسف. وزيّن الأمير قاعات القصر بالرخام والفسيفساء، ونقش على جدرانها نقوشا هندسية جميلة، وزخارف ملونة، وكتب عليها أمثالا وحكما عربية قديمة عن عدل الحكم بين الناس.

وقلّد الأمراء والأغنياء الأمير بشير، فبنوا القصور الجميلة في دير القمر وبيروت وغزير وغيرها من البلدات والمدن. وشمل الاهتمام بالعمران، توسيع الطرق القديمة، وشق الطرق الجديدة، وبناء الجسور وترميمها، وإنشاء الخانات للتجار، وكانت هذه الخانات ذات أبراج تقيم فيها الحاميات المسلحة لوقايتها من غارات اللصوص.

- *6 – 3 – الاقتصاد*

كان انتشار الأمن حافزا على ازدهار الحياة الاقتصادية، بقطاعاتها الثلاثة: الزراعة والصناعة والتجارة. شجع الأمير بشير على زراعة الزيتون، كما شجع على العناية بغابات الزيتون التي تركها الأجداد، وكان للحبوب والفاكهة نصيب وافر من عناية اللبنانيين في مختلف المناطق. أما أشجار التوت فقد كان التنافس في الاهتمام بها عاملا من عوامل انتشار تربية دود القز في القرى والسواحل، وقد حقق الحرير اللبناني شهرةً عالمية منذ عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني.

وكانت المواسم المتتالية تزيد من جودة الحرير، تبعا لازدياد العناية بتربية دود القز، واكتساب الخبرة في تحسين صناعته. وقد تكاثر إقبال التجار الأوروبيين والسوريين والمصريين على شرائه ، حتى غدا موسم الحرير عماد الحياة الاقتصادية في لبنان، بفضل ما يجلب من أموال. ورضي الأمير بشير أن يسدد الفلاحون ما عليهم من ضرائب حريرا بدلا من النقود، وذلك تسهيلا على الفلاحين واعترافا بقيمته.

وكان من الطبيعي أن تنشط الصناعات الزراعية تبعا لازدهار الزراعة، فكثرت مصانع حلج الحرير وتحضيره للنسيج والحياكة، واستمرت مصانع الزيت والصابون في العمل والإنتاج، حسب مواسم الزيتون السنوية، قوة وضعفا. أما الغزل والحياكة فكانا من الصناعات البيتية التي انصرفت النساء إلى إتقانها. وكانت الأواني الخزفية من الصناعات التي انتشرت في المدن والقرى اللبنانية، وكان الحديد من أهم المعادن التي عني اللبنانيون باستخراجها.

وأدى انتشار الأمن وانتعاش الصناعة والزراعة، إلى اتساع الحركة التجارية في لبنان، فكانت السفن الآتية من مرسيليا وجنوة والبندقية وإنكلترا ترسو في المرافئ اللبنانية وخاصة صيدا وبيروت، فتفرغ حمولتها، وتحمل مكانها الحرير والصابون وغيرهما.

- *6 – 4 - الحياة الفكرية*

حفل قصر بيت الدين في عهد منشئه بالأدباء والشعراء، الذين كانوا يعقدون المجالس الأدبية، حيث تُلقى الخطب والقصائد، وتدور المناقشات، وكان الأمير بشير يشهد بعضها. ومن أبرز روّاد قصر الأمير من الأدباء: بطرس كرامة، ونقولا الترك، والشيخ ناصيف اليازجي، وأمين الجندي. وفي عهد الأمير بشير الثاني أنشئ الكثير من المدارس التي أعطت ثمارها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وإلى هذه المدارس يرجع الفضل في إيقاظ النهضة الفكرية التي كان اللبنانيون روّادها.

في السنة الثانية لتولي الأمير بشير تحولت مدرسة عين ورقة من مدرسة للاهوت إلى معهد ثقافي عال، وتقع هذه المدرسة في قرية غوسطا، وقد تخرج منها بعض أعلام الفكر، كالمطران يوسف الدبس المؤرخ، ورشيد الدحداح الصحافي وأمين سر الأمير بشير، والمعلم بطرس البستاني مؤلف " دائرة المعارف "، وأحمد فارس الشدياق، الأديب، وكانت هذه المدرسة تعلّم العربية والسريانية واللاتينية والإيطالية. وفي عهد الأمير بشير جاءت إلى لبنان، البعثة الأمريكية سنة 1823 فأسست مدرستها في بلدة

عبيه قبل أن تنتقل إلى بيروت. وقدمت بعد ذلك البعثة اليسوعية الثانية سنة 1831، وكانت البعثة اليسوعية الأولى قد جاءت قبل ذلك بأكثر من 200 سنة، أي في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني.

وكثُر عدد المطابع في عهد الأمير، فسهلت تداول عدد من الكتب التي ظهرت مطبوعة للمرة الأولى. وكانت المطبعة في القرن التاسع عشر هي الوسيلة الوحيدة لنشر العلم والأفكار على نطاق واسع. ومن بين هذه المطابع: المطبعة الأمريكية التي نُقلت إلى بيروت من مالطة سنة 1834، وكانت تجمع الحروف العربية وتطبعها. وعادت أول بعثة من طلاب الطب أرسلها الأمير إلى معهد قصر العيني بالقاهرة ، وقد مارس أفراد البعثة العائدون مهنة الطب فكانوا طليعة رجال الطب الحديث في لبنان.

- *6 – 5 - التنظيم العسكري*

كان للجيش في عهد الأمراء الشهابيين مهمات متعددة، فقد كان يحمي مركز الإمارة من أطماع المنافسين، وكان يخمد الفتن، وكان أيضا يتولى جباية الضرائب وحفظ الأمن، أي إنه كان يقوم بمهمات الجيش والدرك والشرطة. وقد علّمت التجارب الأمير بشير، أن يعتمد على جيش منظم، لا يقل عدده عن 15 ألف مقاتل. وكان جيشه يتألف من أربع فرق :

خيّآلة "المير": وهم حرس الأمير الخاص، وقد بلغ عددهم 500 فارس يرافقونه في تنقلاته بين القرى والمدن ويُحافظون على حياته، ويقيمون في قصر بيت الدين. وكان الأمير يختارهم من أفضل شباب لبنان بطولة وشجاعة.

الحوّآلة : هم الجنود الذين يحوّلون، أي يقيمون في بيوت المكلفين من سكان القرى والمدن، ولا يُغادرونها إلا بعد دفع الضرائب ولو أقاموا عدة أسابيع.

الجيش النظامي : وكان يتألف من الفرسان والمشاة الذين يرابطون في القلاع والحصون القائمة في الثغور وعلى الطرق لحفظ الأمن.

الفرق المتطوعة : وكانت تساعد الجيش النظامي وتتجمع قبيل إعلان الحرب، وكان يقودها زعماء الإقطاع من أمراء ومقدمين ومشايخ.

وقد أصبح الجيش في عهد الأمير بشير قوة يعتمد عليها الولاة العثمانيون في دعم مركزهم وفرض نفوذهم، وكثيرا ما طلب الولاة إلى الأمير بشير أن يعاونهم في ذلك. ومن المعارك التي خاضها جيش الأمير خارج حدود لبنان معركة دمشق ومعركة سانور. وعندما أضيفت ولاية دمشق إلى سليمان باشا والي عكا سنة 1810، امتنع والي دمشق عن تسليم المدينة إلى الوالي الجديد، فاستنجد سليمان باشا بالأمير بشير، الذي لبّى طلبه وزحف على رأس جيشه، فحارب الوالي المتمرد حتى اضطر إلى الفرار، فتسلّم سليمان باشا منصبه في دمشق.

- *6 – 6 - اعتناق آل شهاب للمسيحية*

في هذا العهد الزاهر اعتنق البعض من الشهابيين المسيحية دينا، وكان من بينهم أبناء الأمير بشير وبشير نفسه بحسب الظاهر، ومما هو متوافق عليه من أسباب تحولهم، هو التأثير الذي خضعوا له من قبل مربيهم ومستشاريهم المسيحيين منذ طفولتهم، وعيشهم في جبل لبنان ذي الأغلبية المسيحية المارونية والدرزية ، فشكلت كل هذه العناصر برودا لعلاقتهم مع دين آبائهم وأجدادهم أي الإسلام . يُقال أن الأمير علي الشهابي، كان أول من اعتنق المسيحية سرّا وذلك في عهد الأمير يوسف واستمر بتأدية الفرائض الإسلامية، كأن يُصلي في المسجد يوم الجمعة، ويصوم شهر رمضان علنا، ولكنه كان أيضا يقيم في قصره قدّاسا يوميّا يخدم فيه راهب كاثوليكي ، ويقول بعض الرحالة، مثل لامارتين الذي زار لبنان سنة 1832، أن دين الأمير كان في واقع الأمر لغزا محيرا، حيث لم يستطع أحد إثبات شيء عليه.

7 - اضطرابات عقد 1820

- *7 – 1 - ثورة أنطلياس ولحفد*

توفي سليمان باشا، والي عكا، سنة 1818، وخلفه عبد الله باشا الذي كان في عهد سابقه على علاقة طيبة بالأمير بشير، وبعد أن حكم عكا، سأله الأمير اللبناني أمر تثبيته في إمارة الجبل، فرد عبد الله باشا بطلب مبالغ طائلة من المال تفوق الضريبة العاديّة، من غير أن يسأل كيف تُجمع. فاضطر الأمير إلى أن يضغط على الشعب ويزيد عليه الضرائب، ولكن الشعب لم يعد يحتمل، فاشتدت النقمة: ففي سنة 1820

رفض أهالي المتن زيادة الضرائب، وانضم إليهم أهالي كسروان، واجتمع الناس في أنطلياس، ودعوا سائر المناطق إلى التحرك ضد الأمير، فأصبحت الحركة عامّة وسُميت **"عاميّة أنطلياس"**. فترك الأمير البلاد إلى حوران، ثم عاد بعد أن هدأت الحالة.

وبعد عودته أرسل ابنه قاسما إلى منطقة جبيل ليجبي الضرائب، فرفض أهالي بلدة **لحفد** الدفع، وأيدتهم القرى المجاورة، ثم انتقلت الحركة إلى كسروان، فسار الأمير بنفسه إلى بلاد جبيل حيث وقعت عدّة معارك هاجم فيها آلاف القرويين معسكر الأمير وهزموه شرّ هزيمة، ولولا استماتة الأمير في الدفاع عن نفسه ووصول الشيخ بشير جنبلاط ، حليفه القديم والوفي، مع 3 آلاف رجل، في اللحظة المناسبة، لما استطاع الأمير بشير حتى النجاة بنفسه، حيث أن القسم الأكبر من قواته سقط ضحية الغضب الشعبي، ولم يبق في خدمته بذلك الوقت سوى ما يُقارب 300 شخص. وقد دعيت هذه الحركة " **عاميّة لحفد** ".

- *7 – 2 - خلاف والي عكا ووالي دمشق*

على أثر خلاف نشب بين عبد الله باشا والي عكا ودرويش باشا والي دمشق، ناصر الأمير بشير عبد الله باشا سنة 1821، وسار على رأس جيشه وحارب والي دمشق وهزمه. وما كادت الدولة العثمانية تطلع على هزيمة والي دمشق حتى جرّد الباب العالي حملة عسكرية قوية اضطرت الأمير بشير إلى ترك البلاد، والسفر إلى مصر، حيث رحب به واليها محمد علي باشا ، واتفقا على التعاون معا.

ولما كان محمد علي في ذلك الوقت ما زال على وفاق مع السلطان، فقد استطاع أن يسترضيه ويُلطف موقفه من الأمير بشير وأن يعيده إلى إمارته. وكان يجمع بين بشير الثاني ومحمد علي طموح كل منهما إلى توسيع رقعة بلاده ، ورغبة كل منهما في الاستقلال عن الدولة العثمانية. وكان كل منهما يضمر النقمة على العثمانيين، فالتقت أهدافهما وتعاهدا على السير معا في سياسة مشتركة ضد الدولة العثمانية.

- *7 – 3 - البطش بالجنبلاطيين*

كان الأمير بشير يستعين في توطيد حكمه بحليفه وصديقه الشيخ **بشير جنبلاط** زعيم الحزب الجنبلاطي، وعندما هرب الأمير إلى مصر، استعمل جنبلاط كل تأثيره لدعم أحد أقارب الأمير المدعو عباس واستصدر له من الباب العالي تكليفا بالحكم، خوفا من تدخلات الباشاوات المباشرة، واتقاءً للنزاعات الداخلية بين الطامحين للإمارة. وعند عودة الامير بشير من مصر، خضع له الجميع عن طيب خاطر، لكنه شعر بالاستياء من تأثير الجنبلاطي الواسع، وسهولة تعيين حاكم جديد في غيابه. وعندما طلب عبد الله باشا مبلغا جديدا من المال حاول الأمير بشير أن يحصل عليه من الشيخ بشير جنبلاط ، فرفض الجنبلاطي دفعه ، واعتبر أن كبريائه قد أهين . وفجأة انقلبت صداقة ثلاثين سنة إلى فتور فعداوة عنيفة، أدت إلى نزاع مسلح في **مرج السمقانية** سنة 1825، وقد هزم في هذه المعركة الشيخ بشير وأنصاره، فهرب إلى حوران، ولكنه اعتقل وأرسل إلى عبد الله باشا في عكا حيث شُنق بسعي من الأمير بشير. أما الأمراء الشهابيون الذين ناصروا الشيخ بشير جنبلاط ، وهم الأمراء: سيد أحمد، فارس، وعباس، فقد وقعوا في يد الأمير بشير؛ فانتقم منهم شر انتقام: سمل عيونهم وقطع أطراف ألسنتهم.

- *7 – 4 - الحملة على نابلس*

امتنع أهالي نابلس سنة 1829 عن دفع الضرائب لعبد الله باشا والي عكا، واعتصم الثائرون منهم في قلعة سانور قرب المدينة، حتى كاد الوالي يعود خائبا، كما حدث للجزار أن تراجع مرارا عن هذه القلعة المنيعة.. من غير أن يقدر على اقتحامها. ولكن عبد الله باشا استنجد بالأمير بشير، فزحف إليه بخمسة آلاف مقاتل وانضموا إلى قوات الوالي البالغ عددها 20 ألف جندي، واستمروا بحصار القلعة وعزلها من مختلف الجهات إلى أن استسلم الثائرون. وكان لهذه التجربة والتجارب التي سبقتها أثر على الأمير اللبناني، إذ أدرك أن جيشه بعدده وتنظيمه، أصبح قوة يمكنها أن تحقق أهدافه البعيدة بالاستقلال، إذا ما تحالف مع حلفاء أقوياء، وكان هذا سببا آخر يجعله يفكر بتقوية أواصر العلاقة بينه وبين محمد علي باشا.

8 - الحملة المصرية على بلاد الشام

مهّد محمد علي لتنفيذ خطته بأن أخذ يوطد علاقته بأقوى شخصين في المنطقة وهما بشير الثاني أمير لبنان وعبد الله باشا والي عكا، وكلاهما مدين لمحمد علي في البقاء بمنصبه. اطمأن محمد علي إلى قوته، وأدرك أن الدولة العثمانية تجتاز مرحلة صعبة من الضعف والعجز، قرر أن يجتاح بلاد الشام بالقوة.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

في خريف سنة 1831 وجّه محمد علي جيشا بقيادة ابنه إبراهيم إلى فلسطين، فأخضعها بمساعدة الأمير بشير. ثم حاصر عكا ووواليها عبد الله باشا، وبينما كانت تقاوم حصار إبراهيم باشا، كان أبناء الأمير بشير ومعهم جنود مصريون، يسيطرون على صور وصيدا وبيروت وجبيل، ولما استعصت عليهم طرابلس أسرع إبراهيم باشا لنجدة حلفائه، ولم تلبث أن سقطت في أيديهم. وبعد سبعة أشهر من الحصار سقطت عكا واستسلم واليها عبد الله باشا، فأرسله إبراهيم باشا أسيرا إلى والده في مصر.

وكانت المرحلة الثانية بعد فتح عكا، الاستيلاء على سوريا الوسطى والشمالية، فتابع الفاتح المصري زحفه نحو دمشق ومعه الأمير بشير وجيشه، فاحتلها. ثم تقدم نحو حمص حيث كان الجيش العثماني يستعد لمجابهته، فاشتبك الفريقان في قتال شديد أسفر عن نصر ساحق لإبراهيم باشا، وسار القائد المصري شمالا فاحتل اللاذقية وأنطاكية وحلب، ثم تابع الزحف حتى بلغ ممر بيلان، بين حلب والإسكندرونة، فدارت معركة أخرى انتصر فيها إبراهيم باشا وحلفاؤه اللبنانيون. وهكذا دانت سوريا الكبرى كلها للفاتح المصري.

- *8 – 1 - بشير في ظل الحكم المصري*

استقبل سكان سوريا ولبنان إبراهيم باشا استقبال المحرر المنقذ من الولاة العثمانيين وظلمهم، واستقبله أنصار الأمير بشير بحماسة وانضموا إلى جيشه، فزودهم بالسلاح، وقد حاربوا تحت لوائه وخاضوا المعارك التي خاضها. أما الحزب الجنبلاطي وبعض الإقطاعيين الذين كانوا يخاصمون الأمير بشير فقد رؤوا فيه خطرا عليهم، إذ أن والده محمد علي كان قد تدخل في مقتل زعيمهم بشير جنبلاط الذي كان والي عكا قد شنقه، لذلك آثر هؤلاء الانضمام إلى العثمانيين، ولما اكتسح إبراهيم باشا بلاد الشام التجأ بعضهم إلى إسطنبول، وبعضهم الآخر إلى قبرص .

وكافأ إبراهيم باشا حليفه بشيرا الثاني على المساعدات التي قدمها إليه أنصاره، فأعاد إليه مكانته السابقة وترك له حرية التصرف في إمارته، فانصرف الأمير بشير إلى إنجاز ما كان قد بدأه ، فتابع ملاحقة خصومه من الإقطاعيين وقضى على نفوذهم وصادر أملاكهم وشرّدهم، وأقام على إقطاعاتهم بعض أنصاره وأقاربه. وفي فترة لاحقة، خلال هذا العهد المزدهر، عمم الأمير بشير التلقيح ضد الجدري، بعد أن عني القائد المصري بالناحية الصحية للبلاد.

بعد استقرار الحكم المصري في لبنان، أخذ إبراهيم باشا يفرض قيودا جديدة وزيادة في الضرائب لم يعهدها الناس من قبل ، كذلك أنشأ نظام السخرة لاستخراج المعادن من قرنايل وصليما ، وفرض التجنيد الإجباري خوفا من عودة الأتراك لاسترجاع بلاد الشام. ولم يكن للبنانيون عهد بمثل هذه الإجراءات الإجبارية، فنفروا ونقموا على إبراهيم باشا وأعوانه، وطالبوا الأمير بشير بالتدخل لوقف هذه الأعمال، ولكن بشير لم يكن في وسعه أن يفعل شيئا، فقد أصبح أداة طيعة في يد إبراهيم باشا يُنفذ سياسته من غير اعتراض. لذلك أصبح الأمير بشير في نظر الشعب مساعدا للباشا في طغيانه.

وفي منتصف سنة 1840 طالب المصريون من الأمير بأن يسترجع من اللبنانيين 16 ألف بندقية كانوا قد تسلموها من المصريين أبان دخولهم بلاد الشام، وذلك لأن إبراهيم باشا كان قد بدأ إعداد الفرق العسكرية تحسبا لمقاومة أي هجوم خارجي أو ثورة داخلية، بعد أن نشط عملاء العثمانيين والأوروبيين في تغذية النقمة ضد الوجود المصري في الشام. وفي مايو 1840 دعا الأمير بشير أهالي دير القمر إلى تسليم سلاحهم تنفيذا لأوامر محمد علي، وكان هؤلاء أوفر أهل الشوف سلاحا؛ لذلك كان البدء بتطبيق هذا الأمر عليهم، يُسهل تطبيقه على سائر المناطق. غير أن أهالي دير القمر رفضوا الإذعان لهذه المطالب وقرروا المقاومة المسلحة، التي ما لبثت أن انتشرت من دير القمر إلى أنحاء لبنان.

وساءت العلاقات بين الأمير بشير وإبراهيم باشا، وكان الأخير يكره الأمير بشير، على العكس من والده محمد علي. فقد تجاهل الأمير أول الأمر هذه الثورة ظنّا منه أنه يستطيع إخمادها متى شاء، وذلك ليُشعر إبراهيم باشا أنه بحاجة إلى الاستعانة به دائما، ولكن ظن الأمير كان في غير محله، فقد أفلت زمام الأمر من يده، بعد أن تعهد عملاء الدول الأوروبية وعملاء العثمانيين هذه الثورة بالتشجيع، والمال والسلاح والمؤن. ولما طالب الأمير الثوار بالتريث والهدوء طالبوه بتحقيق 6 شروط لا يتنازلون عن أي واحد منها، ومن ضمنها إلغاء قرار تجنيدهم في الجيش المصري، وإلغاء السخرة، والعودة إلى نظام الضرائب القديم.

لم يحفل الأمير بشير بمطالب الشعب هذه، فاتهمه اللبنانيون بالأنانية وبخضوعه لسياسة إبراهيم باشا وتخليه عن مصلحة لبنان. والواقع أن الأمير العجوز، الذي كان قد بلغ الثالثة والسبعين، لم يعد يستطع أن يخالف إبراهيم باشا أو يقاومه، فاتخذت الثورة اتجاها جديدا، فأصبح الأمير هدفا من أهدافها.

وهنا لجأ إبراهيم باشا إلى اللين، فطلب من الأمير أن يفاوض الثوار، ولكن هؤلاء أصروا على تحقيق مطالبهم كاملة، واجتمعوا في أنطلياس، وكانوا يمثلون جميع الطوائف، وتعاهدوا على أن يكون فيهم "القول واحد والرأي واحد". وبهذا استمرت المعارك والمناوشات بين الثائرين والجيش المصري، ولم يستطع الأمير بشير أن يعمل شيئا، فزج بعض الذين وقعوا بين يديه من رجال الثورة في السجون وصادر أملاكهم، لكن كل ذلك لم يكن سوى حافزا على متابعة الثورة.

9 - نهاية الأمير بشير

في يوليو 1840 بدأت تظهر على شواطئ لبنان وسوريا البوارج الحربية البريطانية والنمساوية، تمهيدا لقصف المدن بحال لم ينسحب المصريون منها، وكان الأوروبيون يهدفون من وراء ذلك إلى دعم العثمانيين ليعودوا إلى حكم البلاد بدلاً من حلول دولة محمد علي القوية وسيطرتها على المنطقة التي تمر فيها طريق بريطانيا إلى الهند . وفي الوقت نفسه كان عملاء البريطانيين والعثمانيين ينشطون لحث الثائرين على مواصلة المقاومة ضد الأمير بشير والمصريين، وهم يعدونهم بعهد جديد يحقق آمالهم في الرخاء والحرية والاستقلال. ووجه قائد الأسطول الحليف ، الأميرال البريطاني تايير، إنذارًا إلى رئيس أركان الجيش المصري يدعوه فيه إلى تسليم بيروت، ولكن سليمان باشا الفرنساوي، الذي كانت بيروت مقر قيادته، رفض الإنذار. وعلى الأثر أخذت البوارج الحليفة تقصف بيروت وطرابلس وصيدا وصور وجبيل وعكا، وفي الوقت نفسه بدأت قوات عثمانية وبريطانية ونمساوية تنزل على شاطئ جونية ، فانضم إليها عدد من الثوار اللبنانيين.

عندئذ رأى سليمان باشا الفرنساوي أن ينسحب بقواته المصرية من المدن الساحلية إلى **بحرصاف** ، قرب بلدة **بكفيا**، حيث كان إبراهيم باشا يحاول تنظيم جيشه، ولكنه اضطر إلى التراجع إلى البقاع ثم دمشق. وبعد سقوط عكا، أمنع موقع ساحلي، يئس إبراهيم باشا من التغلب على الجيوش العثمانية والأوروبية، فلم يجد بدًّا من أن ينسحب بقواته إلى مصر، تاركًا لوالده محمد علي معالجة الموقف عن طريق المفاوضات.

على إثر نزول القوات الحليفة على ساحل جونية، أيقن الأمير بشير أن المصريين فقدوا سيطرتهم على البلاد، ولكنه لم يتخلّ عنهم حتى في ساعاتهم الأخيرة، حيث أنه لم يقبل أن يخون المعروف والصداقة التي جمعته بمحمد علي، فواصل تعاونه معهم، ورفض دعوة من العثمانيين والبريطانيين بالوقوف إلى جانبهم. فلما انسحب إبراهيم باشا، آثر الأمير مغادرة البلاد، فترك بيت الدين إلى صيدا، حيث نقلته بارجة بريطانية مع أسرته وحاشيته، إلى جزيرة مالطة، المستعمرة البريطانية.

وفي مالطة تلقى الأمير فرمانًا من السلطان العثماني، عبد المجيد الأول، بالعفو عنه، وبالسماح له أن يقيم في أي مكان يشاء خارج لبنان، فأرسل الأمير ابنه أمينًا إلى إسطنبول ليستطلع أحوالها. ولم يلبث الأمير أن انتقل إليها بعد أن أمضى في مالطة 11 شهرًا، وقد غضب الإنكليز لسفر الأمير إلى إسطنبول. وفي سنة 1845 وقعت فتنة في لبنان، فنقل العثمانيون الأمير بشير إلى داخل الأناضول. وعلى أثر اتصالات سفيريّ فرنسا والنمسا بالباب العالي، نُقل الأمير إلى بروسه ثم إلى إسطنبول حيث توفي سنة 1850.

وهكذا انتهت حياة الأمير بشير الثاني، أكبر الأمراء الشهابيين، في منفاه بإسطنبول، كما انتهت من قبل حياة الأمير فخر الدين المعني الثاني ، أكبر الأمراء المعنيين، بمقتله في منفاه بعاصمة السلطنة. حفلت حياة الأمير بشير بالأحداث السياسية والانقلابات الدولية. وفي أواخر سنة 1947، أي بعد سبع وتسعين سنة من وفاة الأمير الشهابي، نقلت الحكومة اللبنانية رفاته من إسطنبول إلى بيت الدين، حيث دفن في قصره قرب ضريح زوجته "الست شمس".

- *9 – 1 - إرث الأمير وذكراه*

لعلّ أخطر الآثار التي خلفها عهد الأمير بشير بعده، هو تدخل الدول الأوروبية، الذي أخفق في حملة بونابرت، ونجح في مقاومة حملة محمد علي واستطاع إعادته إلى مصر وإجباره على الانكماش فيها.

ومنذ سنة 1840 حين عُقدت معاهدة التحالف الرباعي في مؤتمر لندن، أصبحت عبارة "نشر السلام في الشرق" التي وردت في هذه المعاهدة، ذريعة تلوح بها الدول الأوروبية للتدخل في شؤون الشرق العربي. ومنذ سنة 1840 اشتد تدخل بريطانيا وفرنسا في الشؤون اللبنانية والسورية، حتى أصبح هذا التدخل "تقليدا" في الأحداث التي تلت عهد بشير الثاني.

وبتاريخ 13 أغسطس 2009، احتفل المجلس البلدي في غزير، البلدة التي شهدت ولادة الأمير، بإزاحة الستار عن تمثال له، حيث أقام أمسية موسيقية غنائية للأوركسترا الكلاسيكية التابعة لموسيقى قوى الأمن الداخلي، وألقى رئيس بلدية غزير كلمة بهذه المناسبة. كذلك هناك تمثال شمعي للأمير بشير في متحف جبيل للتماثيل الشمعيّة، يمثله وهو في جلسة مع إبراهيم باشا.

عبد الله بن سعود بن عبد العزيز بن محمد آل سعود

الإمام عبد الله بن سعود الكبير بن عبد العزيز آل سعود الابن الأكبر للإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد آل سعود، هو آخر أئمة الدولة السعودية الأولى وآخر حاكم اتخذ من الدرعية عاصمة للمملكه، استمر حكمه اربع سنوات، توالت خلالها حملات والي مصر محمد على باشا وابنه إبراهيم باشا بأمر وتمويل من العثمانيين، التي فشلت تماما أول الامر وتعثرت في ثلاث معارك كبيرة في **تربة البقوم** التي تعتبر العمق الاستراتيجي للدرعية ولنجد عموما، حتى وصلت إلى حدود الدرعية " بعد معركة **بسل الشهيرة** " فحاصرها لمدة سنة كاملة وبعد أن نفذ السلاح والزاد استولى قائد حملة إبراهيم محمد على باشا على نجد عام 1233 هـ / 1817م واسر الإمام عبد الله ابن سعود مع العديد من رجاله وارسلوا من هناك إلى مصر ومنها إلى الاستانة حيث شهر بالامير عبد الله في شوارع استانبول ثلاثة ايام كاملة ثم امر باعدامه شنقا في سنة 1234 هـ / 1818م , مع من معه من رجاله .

كما أعدم في **نجد** العديد من امراء أل سعود وأل وُشيد

وكثيرا من هؤلاء القتلى تم اعدامهم في الدرعيه على يد إبراهيم باشا.

وبذلك سقطت الدولة السعودية الأولى في ايدي العثمانيين بقيادة إبراهيم باشا, الذي نقض الاتفاق الذي أبرم الإمام عبد الله بن سعود ، وهدم الدرعية وامر رجال الدولة السعودية المتبقين ان يهدموا اسوار الدرعية بأيديهم وهم أذلاء.

و بقي الأتراك يسيطرون على نجد إلى ان نشبت حرب بين الدولة العثمانية و دول أوروبا فبدأت القوات العثمانية في نجد تقل فعاد رجل ال سعود **تركي بن فيصل** الذي هرب من الدرعية ابان محاصرتها، وقام ببناء مدينة الرياض لكي تكون عاصمة آل سعود الجديدة، وترك الدرعية المدمره . وعادت الدولة السعودية للظهور ثانية

الخديوي إسماعيل
تقديم

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الخديوي إسماعيل (1245 هـ / 31 ديسمبر 1830 - 1312 هـ / 2 مارس 1895)، خامس حكام مصر من الأسرة العلوية وذلك من 18 يناير 1863 إلى أن خلعه عن العرش السلطان العثماني تحت ضغط كل من إنجلترا وفرنسا في 26 يونيو 1879. في فترة حكمه عمل على تطوير الملامح العمرانية والاقتصادية والإدارية في مصر بشكل كبير ليستحق لقب المؤسس الثاني لمصر الحديثة بعد إنجازات جده محمد علي باشا الكبير.

1 - مولده ونشأته

هو إسماعيل بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا. ولد في 31 ديسمبر 1830م في قصر المسافر خانه بالجمالية ، وهو الابن الأوسط بين ثلاثة أبناء لإبراهيم باشا غير أشقاء وهم الاميرين احمد رفعت ومصطفى فاضل.

اهتم والده ابراهيم باشا بتعليمه ، فتعلم مبادىء العلوم واللغات العربية والتركية والفارسية ، بالاضافة الى القليل من الرياضيات والطبيعة و قد ارسله والده وهو فى سن الرابعة عشر الى فيينا عاصمة النمسا ، لكى يعالج بها من إصابته برمد صديدى، وأيضاً لإستكمال تعليمه ، وقد بقي في فيينا لمدة عامين، ثم التحق بالبعثه المصرية الخامسة إلى باريس لينتظم لينضم إلى تلاميذها ، وكان من بينهم الأمير احمد رفعت (شقيقه) والأميران عبد الحليم وحسين وهما من أبناء محمد على وفى باريس درس علوم الهندسة والرياضيات والطبيعة ، كما أتقن اللغة الفرنسية تحدثاً وكتابة وتأثر بالثقافة والمعمار الفرنسي كثيراً، ثم عاد إلى مصر فى عهد ولاية والده إبراهيم باشا ، وحين توفي ابراهيم خلفه فى الحكم عباس حلمي الأول، وقد كان الأمير إسماعيل يكره إبن عمه عباس (فوالد عباس هو الأمير أحمد طوسون عم إسماعيل) ، فلما تولى الحكم شعر اسماعيل واخوته بكراهية عباس لهم ، ثم مات جده محمد على ، واشتد الخلاف بين اسماعيل وبقية الأمراء بشأن تقسيم ميراث جده ، وسافر اسماعيل وبعض الامراء إلى الاستانة ، وعينه السلطان عبد المجيد الأول عضواً بمجلس أحكام الدولة العثمانية ، وانعم عليه بالبشاوية ، ولم يعد إلى مصر الى بعد مقتل إبن عمه عباس وتولى بعده عمه محمد سعيد ولاية مصر . وعندما عاد إسماعيل من الاستانه لقى من عمه سعيد عطفاً كبيراً ، وعهد اليه برئاسة (مجلس الأحكام) الذى كان أكبر هيئه قضائية فى البلاد في ذلك الوقت ، وأرسله سعيد باشا سنة 1855 فى مهمة سياسية لدى الامبراطور نابليون الثالث بشأن رغبة سعيد باشا من الدول الأوروبية فى توسيع نطاق إستقلال مصر بعد إشتراكها مع الحلفاء فى حرب القرم ، فأدى اسماعيل تلك المهمة بما امتاز به من ذكاء ولباقة ، ووعده نابليون الثالث بتأييد مقترحه فى مؤتمر الصلح بباريس ، ولكنه لم يحقق وعده ، وكذلك قابل البابا (بيو التاسع) ، ثم أرسله سعيد باشا في جيش تعداده 14000 إلى السودان وعاد بعد أن نجح في تهدئة الأوضاع هناك.

2 - توليه الحكم

بعد وفاة محمد سعيد باشا في 18 يناير 1863 حصل على السلطة دون معارضة وذلك لوفاة شقيقه الأكبر أحمد رفعت باشا ومنذ أن تولى مقاليد الحكم ظل يسعى إلى السير على خطى جده محمد علي والتخلص تدريجياً من قيود معاهدة لندن 1840 ، وفي 8 يونيو 1876م أصدر السلطان عبد العزيز الأول فرمان منح فيه إسماعيل لقب الخديوي مقابل زيادة في الجزية، وتم بموجب هذا الفرمان أيضًا تعديل طريقة نقل الحكم لتصبح بالوراثه لأكبر أبناء الخديوي سنًا ، كما حصل في 10 سبتمبر 1872 م على فرمان آخر يتيح له حق الإستدانة من الخارج دون الرجوع إلى الدولة العثمانية، وفي 8 يونيو 1873 م حصل الخديوي إسماعيل على الفرمان الشامل الذي تم منحه فيه إستقلاله في حكم مصر بإستثناء دفع الجزية السنوية وعقد المعاهدات السياسة وعدم حق في التمثيل الدبلوماسي وعدم صناعة المدرعات الحربية .

3 - إنجازات الخديوي إسماعيل

في عهده تمت العديد من الإصلاحات:

- *3 – 1 - الإصلاح النيابي*

تحويل مجلس المشورة الذي أسسه جده محمد علي باشا إلى مجلس شورى النواب، وأتاح للشعب اختيار ممثليه. وافتتحت أولى جلساته في 25 نوفمبر 1866.

- *3 – 2 - الإصلاح الإداري*

وضع تنظيم إداري للبلاد، وإنشاء مجالس محلية منتخبة للمعاونة في إدارة الدولة.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

- *3 – 3 - الإصلاح القضائي*

أصبح للمجالس المحلية حق النظر في الدعاوي الجنائية والمدنية.
حصر اختصاص المحاكم الشرعية في النظر في الأحوال الشخصية.
إلغاء المحاكم القنصلية وتبديلها بالمحاكم المختلطة.

- *3 – 4 - الإصلاح العمراني*

الانتهاء من حفر قناة السويس وإقامة احتفالاتها.
إنشاء قصور فخمة مثل قصر عابدين
إنشاء دار الأوبرا الخديوية.
إنشاء كوبري قصر النيل.
استخدام البرق والبريد وتطوير السكك الحديدية.
إضاءة الشوارع ومد أنابيب المياة.

- *3 – 5 - في المجال الاقتصادي*

زيادة مساحة الأراضي الزراعية.
حفر ترعة الإبراهيمية في صعيد مصر، وترعة الإسماعيلية في شرق الدلتا.
زيادة مساحة الأراضي المنزرعة قطنًا.
إنشاء مصانع، ومن بينها 19 مصنعًا للسكر ومنها (أرمنت والمطاعنه والضبعيه والبلينا وجرجا والمنيا والشيخ فضل والفيوم) .
إصلاح ميناء السويس وميناء الإسكندرية.
بناء 15 منارة في البحرين الأحمر والمتوسط لإنعاش التجارة.

- *3 – 6 - المجال التعليمي والثقافي*

زيادة ميزانية نظارة المعارف.
وقف الأراضي على التعليم.
تكليف الحكومة بتحمل نفقات التلاميذ.
إنشاء أول مدرسة لتعليم الفتيات في مصر، وهي مدرسة السنية (1873).
إنشاء دار العلوم لتخريج المعلمين.
إنشاء دار الكتب.
إنشاء الجمعية الجغرافية ودار الآثار(1875).
ظهور الصحف مثل الأهرام والوطن ومجلة روضة.

4 - عزله عن الحكم

أدت النزعة الإستقلالية للخديوي إسماعيل في حكم مصر إلى قلق السلطان العثماني، بالإضافة إلى أطماع الإستعمارية لكل من إنجلترا وفرنسا لمصر وتحت ضغط كل من قنصلي إنجلترا وفرنسا على السلطان العثماني عبد الحميد الثاني أصدر فرماناً بعزل الخديوي إسماعيل في 26 يونيو 1879م وبُعث إلى مصر عن طريق التلغراف وجاء نص الفرمان الذي ورد من الآستانة كالتالي : (إلى سمو إسماعيل باشا خديوي مصر السابق ، إن الصعوبات الداخلية والخارجية التي وقعت أخيراً في مصر قد بلغت من خطورة الشأن حداً يؤدي استمراره إلى إثارة المشكلات والمخاطر لمصر والسلطنة العثمانية ، ولما كان الباب العالي يرى أن توفير أسباب الراحة والطمأنينة للأهالي من أهم واجباته ومما يقضيه الفرمان الذي خولكم حكم مصر ، ولما تبين أن بقاءكم في الحكم يزيد المصاعب الحالية ، فقد أصدر جلالة السلطان إرادته بناء على قرار مجلس الوزراء بإسناد منصب الخديوية المصرية إلى صاحب السمو الأمير **توفيق باشا** ، وأرسلت الإرادة السنية في تلغراف آخر إلى سموه بتنصيبه خديوياً لمصر ، وعليه أدعو سموكم عند تسلمكم هذه الرسالة إلى التخلي عن حكم مصر احتراماً للفرمان السلطاني) .
وقد سافر إسماعيل بعد ثلاثة أيام إلى نابولي بإيطاليا، ثم انتقل بعدها للإقامة في الأستانة.

5 – الوفاة

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

توفي في 2 مارس 1895 في قصر إميرجان في إسطنبول الذي كان منفاه أو محبسه بعد إقالته.
نحت له تمثال من صنع المثال الإيطالي بييترو كانونيكا، وأزاح الستار عنه الملك فاروق في 4 ديسمبر 1938 في مكانه الأصلي بميدان المنشية أمام الموقع الأول لقبر الجندي المجهول بالإسكندرية إلى أن نقل بعد ذلك، وهو مقام حاليًا في ميدان الخديوي إسماعيل بكوم الدكة بالإسكندرية، وكان التمثال هدية من الجالية الإيطالية بالإسكندرية تقديرًا لاستضافة مصر للملك فيكتور عمانويل الثالث آخر ملوك إيطاليا بعد الاطاحة به عن عرشه.

جمال الدين الأفغاني

قديم

محمد جمال الدين بن السيد صفتر الحسيني أو الأفغاني أو الأسد آبادي (1838 – 1897) ، أحد الأعلام البارزين في النهضة المصرية ومن أعلام الفكر الإسلامي بالنسبة للتجديد.

1 – منشأه

ولد جمال الدين سنة 1839م / 1254 هـ في أسعد آباد (الافغانية) ومن هنا جاء التعريف عنه بالسيد جمال الدين الافغانى ، ووالده السيد صفتر من السادة الحسينية ، ويرتقي نسبه إلى عمر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه ،. ويعتبر جمال الدين الأفغاني من أهم الشخصيات الأفغانية وقد ظهر للمرة الأولى شاباً سواحاً يجعل من الشرق كله وطناً له فيزور بلاد العرب و مصر و تركية و يقيم في الأفغان وهند وفارس ويسافر إلى كثير من عواصم أوروبا. وقد تربي دينيا ليكون مسلما صوفيا ، ولكن عُرف كونه من المسلمين الأصولين ،

كانت لأسرته منزلة عالية في بلاد الأفغان، لنسبها الشريف، ولمقامها الاجتماعي والسياسي إذ كانت لها الإمارة والسيادة على جزء من البلاد الأفغانية، تستقل بالحكم فيه، إلى أن نزع الإمارة منها دوست محمد خان أمير الأفغان وقتئذ، وأمر بنقل والد السيد جمال الدين وبعض أعمامه إلى مدينة كابل، وانتقل الأفغاني بانتقال أبيه إليها، وهو بعد في الثامنة من عمره، فعني أبوه بتربيته وتعليمه، على ما جرت به عادة الأمراء والعلماء في بلاده.

كانت مخايل الذكاء، وقوة الفطرة، وتوقد القريحة تبدو عليه منذ صباه، فتعلم اللغة العربية، والأفغانية، وتلقى علوم الدين، والتاريخ، والمنطق، والفلسفة، والرياضيات، فاستوفى حظه من هذه العلوم، على أيدي أساتذة من أهل تلك البلاد، على الطريقة المألوفة في الكتب الإسلامية المشهورة، واستكمل الغاية من دروسه وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره، ثم سافر إلى الهند، وأقام بها سنة وبضعة أشهر يدرس العلوم الحديثة على الطريقة الأوروبية وتعلم اللغة الإنجليزية ، فنضج فكره ، واتسعت مداركه. وكان بطبعه ميالاً إلى الرحلات، واستطلاع أحوال الأمم والجماعات، فعرض له وهو في الهند أن يؤدي فريضة الحج، فاغتنم هذه الفرصة وقضى سنة ينتقل في البلاد، ويتعرف أحوالها، وعادات أهلها، حتى وافى مكة المكرمة في سنة 1857 م - 1273 هـ، وأدى الفريضة.

2 - بداية حياته العملية

ثم عاد إلى بلاد الأفغان، وانتظم في خدمة الحكومة على عهد الأمير دوست محمد خان المتقدم ذكره وكان أول عمل له مرافقته إياه في حملة حربية جردها لفتح هراة، إحدى مدن الأفغان، وليس يخفى أن النشأة الحربية تعود صاحبها الشجاعة، واقتحام المخاطر، ومن هنا تبدو صفة من الصفات العالية، التي امتاز بها جمال الدين، وهي الشجاعة، فإن من يخوض غمار القتال في بدء حياته تألف نفسه الجرأة ، وخاصة إذا كان بفطرته شجاعاً.

ففي نشأة الأفغاني الأولى، وفي الدور الأول من حياته، تستطيع أن تتعرف على اخلاقه، والعناصر التي تكونت منها شخصيته، فقد نشأ كما رأيت من بيت مجيد، ازدان بالشرف واعتز بالإمارة، والسيادة، والحكم، زمناً ما، وتربى في مهاد العز، في كنف أبيه ورعايته، فكان للوراثة والنشأة الأولى أثرهما فيما

طبع عليه من عزة النفس، التي كانت من أخص صفاته، ولازمته طوال حياته، وكان للحرب التي خاضها أثرها أيضاً فيما اكتسبه من الأخلاق الحربية، فالوراثة والنشأة، والتربية، والمرحلة الأولى في الحياة العملية، ترسم لنا جانباً من شخصية جمال الدين الأفغاني . سار الأفغاني إذن في جيش دوست محمد خان لفتح "هراة"، ولازمه مدة الحصار إلى أن توفي الأمير، وفتحت المدينة بعد حصار طويل، وتقلد الإمارة من بعده ولى عهده شير علي خان سنة 1864م - 1280 هـ.

ثم وقع الخلاف بين الأمير الجديد واخوته ، إذ أراد أن يكيد لهم ويعتقلهم، فانضم السيد جمال الدين إلى محمد أعظم أحد الأخوة الثلاثة، لما توسمه فيه من الخير. أستعرت نار الحرب الداخلية، فكانت الغلبة لمحمد أعظم، وانتهت إليه إمارة الأفغان، فعظمت منزلة الأفغاني عنده، وأحله محل الوزير الأول، وكان بحسن تدبيره يستتب الأمر للأمير، ولكن الحرب الداخلية، مالبثت أن تجددت، إذ كان شير علي لا يفتأ يسعى لاسترجاع سلطته، وكان الإنجليز يعضدونه بأموالهم ودسائسهم، فأيدوه ونصروه، ليجعلوه من أوليائهم وصنائعهم، وأغدق شير علي الأموال على الرؤساء الذين كانوا يناصرون الأمير محمد أعظم، فبيعت أمانات ونقضت عهود وجددت خيانات ، وانتهت الحرب بهزيمة محمد أعظم، وغلبه شير علي، وخلص له الملك.

بقي السيد جمال الدين في كابل لم يمسسه الأمير بسوء، احتراماً لعشيرته وخوف انتفاض العامة عليه حمية لآل البيت النبوي، وهنا أيضاً تبدو لك مكانة الأفغاني، ومنزلته بين قومه، وهو بعد في المرحلة الأولى من حياته العامة، ويتجلى استعداده للإضطلاع بعظائم المهام، والتطلع إلى جلائل الأعمال، فهو يناصر أميراً يتوسم فيه الخير، ويعمل على تثبيته في الإمارة، ويشيد دولة يكون له فيها مقام الوزير الأول، ثم لاتلبث أعاصير السياسة والدسائس الإنجليزية أن تعصف بالعرش الذي أقامه، ويغلب على أمر الأمير، ويلوذ بالفرار إلى إيران لكي لايقع في قبضة عدوه، ثم يموت بها، أما الأفغاني فيبقى في عاصمة الإمارة، ولايهاب بطش الأمير المنتصر، ولايتملقه أو يسعى إلى نيل رضاه، ولاينقلب على عقبيه كما يفعل الكثيرون من طلاب المنافع، بل بقي عظيماً في محنته، ثابتاً في هزيمته، وتلك ظواهر عظمة النفس، ورباطة الجأش، وقوة الجنان.

وهذه المرحلة كان لها أثرها في الإتجاه السياسي للسيد جمال الدين، فقد رأى مابذلته السياسة الإنجليزية لتفريق الكلمة، ودس الدسائس في بلاد الأفغان، وإشعال نار الفتن الداخلية بها، واصطناعها الأولياء من بين أمرائها، ولا مراء في أن هذه الأحداث قد كشفت له عن مطامع الإنجليز، وأساليبهم في الدس والتفريق، وغرست في فؤاده روح العداء للسياسة البريطانية خاصة، والمطامع الاستعمارية الأوروبية عامة، وقد لازمه هذا الكره طوال حياته، وكان له مبدأ راسخاً يصدر عنه في أعماله وآرائه وحركاته السياسية.

3 - رحيله إلى الهند

لم ينفك الأمير شير علي يدبر المكايد للسيد جمال الدين، ويحتال للغدر به فرأى السيد أن يفارق بلاد الأفغان، ليجد جواً صالحاً للعمل، فاستأذنه في الحج، فأذن له ، فسار إلى الهند سنة 1869م - 1285 هـ، وكانت شهرته قد سبقته إلى تلك الديار، لما عرف عنه من العلم والحكمة، ومانالله من المنزلة العالية بين قومه، ولم يكن يخفى على الحكومة الإنجليزية عداءه لسياستها، ومايحدثه مجيئة إلى الهند من إثارة روح الهياج في النفوس، خاصة لأن الهند كانت لا تزال تضطرم بالفتن على الرغم من إخماد ثورة سنة 1857م، فلما وصل إلى التخوم الهندية تلقته الحكومة بالحفاوة والإكرام، ولكنها لم تسمح له بطول الإقامة في بلادها، وجاء أهل العلم والفضل يهرعون إليه، يقتبسون من نور علمه وحكمته، ويستمعون إلى أحاديثه ومافيها من غذاء العقل والروح، والحث على الأنفة وعزة النفس، فنقمت الحكومة منه اتصاله بهم، ولم تأذن له بالاجتماع بالعلماء وغيرهم من مريديه وقصاده، إلا على عين من رجالها، فلم يقم هناك طويلاً، ثم أنزلته الحكومة إحدى سفنها فأقلته إلى السويس.

4 - مجيئه مصر لأول مرة

جاء مصر لأول مرة أوائل سنة 1870م - أواخر سنة 1286 هـ، ولم يكن يقصد الإقامة بها طويلا ؛ لأنه إنما جاء ووجهته الحجاز ، فلما سمع الناس بقدومه، اتجهت إليه أنظار النابهين من أهل العلم ، وحينما وصل إلى مصر زار الأزهر الشريف، واتصل به كثير من الطلبة ، فآنسوا فيه روحاً تفيض معرفة

وحكمة ، فأقبلوا عليه يتلقون بعض العلوم الرياضية ، والفلسفية ، والكلامية ، في البيت الذي نزل به بخان الخليلي، وأقام بمصر أربعين يوماً، ثم تحول عزمه عن الحجاز، وسافر إلى الأستانة.

5 - سفره إلى الأستانة ثم رحيله عنها

وصل جمال الدين إلى الأستانة، فلقي من حكومة السلطان عبد العزيز حفاوة وإكراماً، إذ عرف له الصدر الأعظم **عالى باشا** مكانته ، وكان هذا الصدر من ساسة الترك الأفذاذ، العارفين بأقدار الرجال، فأقبل على الأفغاني يحفه بالاحترام والرعاية، ونزل من الأمراء والوزراء والعلماء منزلة عالية، وتناقلوا الثناء عليه، ورغبت الحكومة أن تستفيد من علمه وفضله، فلم تمض ستة أشهر حتى جعلته عضواً في مجلس المعارف، فاضطلع بواجبه ، وأشار بإصلاح مناهج التعليم ، ولكن آراءه لم تلق تأييداً من زملائه، ولم يكن على وفاق مع شيخ الإسلام **حسن فهمي أفندي**، وفي رمضان سنة 1287 هـ - ديسمبر سنة 1870م، رغب إليه مدير دار الفنون أن يلقي فيها خطاباً للحث على الصناعات ، فاعتذر باديء ذي بدء بضعفه في اللغة التركية، فألح عليه، فأنشأ خطاباً طويلاً كتبه قبل إلقائه ، وعرضه على نخبة من أصحاب المناصب العالية، فأقروه واستحسنوه.

وألقى الأفغاني خطابه بدار الفنون، في جمع حاشد من ذوي العلم والمكانة، فنال استحسانهم، لكن خلافًا حدث بينه وبين شيخ الإسلام، وأصدرت الأستانة أمرها إلى الأفغاني بالرحيل عن الأستانة بضعة أشهر، حتى تسكن الخواطر، ويهدأ الاضطراب، ثم يعود إليها إن شاء، ورغب إليه بعض مريديه أن يتحول إلى الديار المصرية، فعمل برأيهم وقصد إليها.

6 - عودته إلى مصر وإقامته بها

جاء السيد جمال الدين إلى مصر في أول محرم سنة 1288 هـ - مارس سنة 1871م، لا على نية الإقامة بها، بل على قصد مشاهدة مناظرها، واستطلاع أحوالها، ولكن **رياض باشا** وزير إسماعيل في ذلك الحين رغب إليه البقاء في مصر، وأجرت عليه الحكومة راتباً كل شهر، لا في مقابل عمل ، واهتدى إلى الأفغاني كثير من طلبة العلم، يستورون زنده، ويقتبسون الحكمة من بحر علمه، فقرأ لهم الكتب العالية في فنون الكلام، والحكمة النظرية، من طبيعية وعقلية، وعلوم الفلك، والتصوف، وأصول الفقة، بإسلوب طريف، وطريقة مبتكرة. وكانت مدرسته بيته ، ولم يذهب يوماً إلى الأزهر مدرساً، وإنما ذهب إليه زائراً، وأغلب مايزوره يوم الجمعة، وكان أسلوبه في التدريس مخاطبة العقل، وفتح أذهان تلاميذه ومريديه إلى البحث والتفكير، وبث روح الحكمة والفلسفة في نفوسهم، وتوجيه أذهانهم إلى الأدب، والإنشاء، والخطابة ، وكتابة المقالات الأدبية، والاجتماعية، والسياسية، فظهرت على يده نهضة في العلوم والأفكار أنتجت أطيب الثمرات.

وهنا موضع للتساؤل، عما حمل الخديوي إسماعيل إلى استمالته الأفغاني للإقامة في مصر، وإكرام مثواه، ويبدو هذا العمل غريباً، لأن لجمال الدين ماضياً سياسياً ومجموعة أخلاق ومبادئ، ولاترغب فيه الملوك المستبدين، ولم يكن السيد من أهل التملق والدهان، فينال عطفهم ورعايتهم، ويجرون عليه الأرزاق بلا مقابل، ولكن الأمر لايعسر فهمه إذا عرفنا أن في إسماعيل جانباً ممدوحاً من صفاته الحسنة، وهو حبه للعلم، ورغبته في نشره ورعايته، وكانت شخصية جمال الدين العلمية، وشهرته في الفلسفة، أقوى ظهوراً وخاصة في ذلك الحين، من شخصيتة السياسية، فلا غرو أن يكرم فيه إسماعيل العالم المحقق، الذي يفيض على مصر من بحر علمه وفضله، وفي الحق أن إسماعيل لم يكن يقصر في اغتنام الفرصة لتنشيط النهضة العلمية ورعاية العلماء والأدباء، فترغيبه جمال الدين في البقاء بمصر يشبه أن يكون فتحاً علمياً، كتأسيس معهد من معاهد العلم العالية التي أنشئت على يده.

أما آراء الأفغاني السياسية وكراهيته للاستبداد ونزعته الحرة، فلم يكن مثل إسماعيل يخشاها أو يحسب لها حساباً كبيراً، لأنه في ذلك الحين سنة 1871م كان قد بلغ أوج سلطته ومجده، فكان يحكم البلاد حكماً مطلقاً، يأمر وينهى ويتصرف في أقدار البلاد ومصاير أهلها، دون رقيب أو حسيب، وكان مجلس شورى النواب آلة مطواعة في يده، والصحافة في بدء عهدها تكيل له عبارات المديح، وتصوغ له عقود الثناء، ولم يكن سلطانه قد استهدف بعد التدخل الأجنبي، لأن هذا التدخل لم يقع إلا في سنة 1875م، كما رأيت في سياق الحديث، فليس ثمة مايخشى منه إسماعيل، على سلطته المطلقة، من الناحية الداخلية أو الخارجية، حين رغب إلى الأفغاني الإقامة والتدريس في مصر. وقد بدأت النهضة التي ظهرت على يد

السيد، علمية، أدبية، ولم تتطور إلى الناحية السياسية إلا حوالي سنة 1876م، على أنها في تطورها السياسي لم تتجه ضد إسماعيل بالذات، بل اتجهت في الجملة ضد التدخل الأجنبي.

وثمة اعتبار آخر لايفوتنا الإلماح إليه، ذلك أن جمال الدين قد بارح الأستانة، إذ لم يجد فيها جواً صالحاً للنهضة العلمية، والفكرية، وقصد إلى مصر وقد سبقته إليها أنباؤه، ومالقيه في " دار الخلافة " من العنت والاضطهاد،

وكان إسماعيل ينافس حكومة الأستانة في المكانة والنفوذ السياسي، وينظر إليها بعين الزراية، ولايرضى لمصر أن تكون تابعة لتركيا، ولا أن يكون هو تابعاً للسلطان العثماني، وليس خافياً ما كان يبذله من المساعي للانفصال عن تركيا في ذلك الحين، وظهوره بمظهر العاهل المستقل، في المعرض العالمي في باريس سنة 1867م، وفي إغفاله دعوة السلطان إلى حضور حفلات القناة سنة 1869م، وعزمه على إعلان استقلال مصر التام في تلك الحفلات، لولا العقبات السياسية التي اعترضته، ولايغرب عن الذهن ما كان بين الخديوي والسلطان من مظاهر الفتور والجفاء التي كادت تقطع الروابط بينهما، وأخصها فرمان نوفمبر سنة 1869م الذي أصدره السلطان منتقصا من سلطة الخديوي.

ففي هذا الجو هبط جمال الدين مصر مبعداً من الأستانة، فلم يفت ذكاء إسماعيل أن يغتنم الفرصة ليحمي العلم في شخص الفيلسوف الأفغاني، ولايخفى ما لهذا العمل من حسن الأثر وجميل الأحدوثة، إذ يرى الناس فيه أن مصر تؤوي العلماء والحكماء، حين تضيق عنهم "دار الخلافة" وأن عاهل مصر العظيم أحق من السلطان العثماني بالثناء والتقدير لأنه يفسح للعلم رحابه، ويوطئ له في وادي النيل أكنافه. وقد يكون ل"رياض باشا" يد في إكرام وفادة المترجم، ولكن إذا علمنا أن وزراء إسماعيل لم يكونوا يصدرون إلا عن رأيه وأمره، أدركنا أن رياض باشا لم يكن الرجل الذي ينفرد بهذا الصنيع نحو جمال الدين، ومهما يكن واقع الأمر فإن لرياض باشا فضل المشاركة في عمل كان له الأثر البالغ في نهضة مصر العلمية والفكرية والسياسية.

7 - أثره العلمي والأدبي

أقام الافغاني في مصر، وأخذ يبث تعاليمه في نفوس تلاميذه، فظهرت على يده بيئة، استضاءت بأنوار العلم والعرفان، وارتوت من ينابيع الأدب والحكمة، وتحررت عقولها من قيود الجمود والأوهام، وبفضله خطا فن الكتابة والخطابة في مصر خطوات واسعة، ولم تقتصر حلقات دروسه ومجالسه على طلبة العلم، بل كان يؤمها كثير من العلماء والموظفين والأعيان وغيرهم، وهو في كل أحاديثه " لا يسأم " من الكلام فيما ينير العقل، أو يطهر العقيدة أو يذهب بالنفس إلى معالي الأمور، أو يستلفت الفكر إلى النظر في الشؤون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها، وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم، فاستيقظت مشاعر وتنبهت عقول، وخف حجاب الغفلة في أطراف متعددة من البلاد خصوصاً في القاهرة.

فروح جمال الدين كان لها الأثر البالغ في نهضة العلوم والآداب في مصر، ولايفوتنا القول بأن البيئة التي كانت مستعدة للرقي، صالحة لغرس بذور هذه النهضة، وظهور ثمارها، أو بعبارة أخرى أن مصر بما فيها جامع الأزهر، والمعاهد العلمية الحديثة، والتقدم العلمي الذي ابتدأ منذ عهد محمد علي، كانت على استعداد لتقبل دعوة الحكيم الأفغاني، ولولا هذا الاستعداد لقضي على هذه الدعوة في مهدها، ولأخفق هو في مصر كما أخفق في الأستانة، حيث وجد أبواب العمل موصدة أمامه، وهذا يبين لنا جانباً من مكانة مصر، وسبقها الأقطار الشرقية في التقدم العلمي والفكري والسياسي، ويزيد هذه الحقيقة وضوحاً أنك إذا استعرضت حياة جمال الدين العامة، وماتركه من الأثر في مختلف الأقطار الشرقية التي بث فيها دعوته، وجدت أثره في مصر أقوى وأعظم منه في أي بلد من البلدان الأخرى، وفي هذا مايدلك على مبلغ استعداد مصر للنهضة والتقدم، إذا تهيأت لها أسباب العمل ووجدت القادة والحكماء.

حدد الباحثون دوره الهام في إعطاء دفعة قوية للنهضة الأدبية الحديثة في الطرق الأربعة :

إعْدُاد الأجواء المناسبة للنهضة الأدبية بواسطه الإصلاح الدينى والصحوة الإسلامية والوعى القومى.

كتابة مقالات سياسية فى الصحف والجرائد بلغة سهلة تقل فيها الصنعة، والدعوة إلى تحرير الكتابة من التعقيد والتقليد وجعلها في خدمة الفكر لا في خدمة الاسلوب، وبذلك فتح الطريق أمام الكتّاب والأدباء لتطوير الكتابة الأدبية.

إن محمود سامي البارودي كرائد للشعر العربى المعاصر كان من تلاميذ السيد جمال الدين وتأثر بأفكاره تأثيراً شديداً.

إنَّ محمد عبده رائد النثر المعتدل كان من أقرب تلاميذ السيد جمال الدين و كان بدوره قد أثَّر على المنفلوطي والذى يعد رائد النثر العربي الحديث.

8 - أثره الأخلاقي والسياسي

جاء جمال الدين الأفغاني إلى مصر يحمل بين جنبيه روحا كبيرة، ونفساً قوية، تزينها صفات وأخلاق عالية، أنبتتها الوراثة والتربية الأولى، وهذبتها الحكمة والمعرفة، ومحصتها الحياة الحربية التي خاض غمارها في بلاد الأفغان، والتجارب التي مارسها، والشدائد التي عاناها جاء وفيه من الشمم والإباء ما صدفه عن أن يطأ طأ الرأس أو يقيم على الضيم، جاء وفيه من الثبات ما جعله يتغلب على العقبات التي اعترضته في أدوار حياته، فقد رأيت كيف بقي على ولائه للأمير محمد أعظم، رغم ما أصابه من الهزيمة ولم يخضع لخصمه (شير على)، ورحل إلى الهند، فلم تطق السياسة الاستعمارية بقاءه فيها وأقصته عنها، وذهب إلى الأستانة، فلم يعرف التملق والدهان، وجهر بالحق، واستهدف لعداوة شيخ الإسلام، فلم يتراجع ولم ينكص على عقبيه، وانتهى الخلاف بإقصائه عن الأستانة.

فهذه الأخلاق التي جاء بها جمال الدين كانت بلا مراء أقوى مما عرف عن المجتمع، في ذلك العهد، من خفض الجناح، والصبر على الضيم والخضوع للحكام، وليس يخفى ما للشخصيات الكبيرة من سلطان أدبي على النفوس وما تؤثر فيها من طريق القدوة، فالسيد جمال الدين بما اتصف به من الأخلاق العالية، أخذ يبث في النفوس روح العزة والشهامة، ويحارب روح الذلة والاستكانة، فكان بنفسيته ودروسه وأحاديثه، ومناهجه في الحياة، مدرسة أخلاقية، رفعت من مستوى النفوس في مصر، وكانت على الزمن من العوامل الفعالة للتحول الذي بدا على الأمة وانتقالها من حالة الخضوع والاستكانة إلي التطلع للحرية والتبرم بنظام الحكم القديم ومساوئه، والسخط على تدخل الدول في شؤون البلاد.

اسرفت حكومة إسماعيل في القروض، وبدأت عواقب هذا الإسراف تظهر للعيان رغم ما بذلته الحكومة لإخفائها بمختلف الوسائل، وأخذت النفوس تتطلع إلى إصلاح نظام الحكم بعد إذ أحست مرارة الاستبداد وهالتها فداحة القروض التي كبلت البلاد بقيود تدخل الدول.

ويمكننا أن نحدد أواخر سنة 1875 م، وأوائل سنة 1876 م كمبدأ للتدخل الأوربي إذ حدث من مظاهره وقتئذ شراء إنجلترا أسهم مصر في القناة ثم قدوم بعثة المستر " كيف " الإنجليزية لفحص مالية مصر، ثم توقف الحكومة عن أداء أقساط ديونها وما اعقب ذلك من إنشاء صندوق الدين في مايو سنة 1876 م فهذا التدخل كان من الأسباب الجوهرية التي حفزت النفوس إلي التبرم بنظام الحكم، والتخلص من مساوئه، لأن سياسة الحكومة هي التي أفضت إلي تدخل الدول في شؤون مصر وامتهانها كرامة البلاد واستقلالها. ومن هنا جاءت النهضة الوطنية والسياسية، ووجدت مبادئ حكيم الشرق وتعاليمه سبيلاً إلي النفوس، فكانت من العوامل الهامة في ظهور هذه النهضة التي شغلت السنوات الأخيرة من عهد إسماعيل وكانت من أعظم أدوار الحركة القومية.

كان من مظاهر هذه النهضة نشاط الصحف السياسية، وإقبال الناس عليها، وتحدثهم في شؤون البلاد العامة، وتبرمهم بحالتها السياسية والمالية، ثم ظهور روح المعارضة واليقظة في مجلس الشورى، على يد نواب نفخ فيهم جمال الدين من روحه، وعلى رأسهم عبد السلام بك المويلحي (باشا) ، الذي يعد من تلاميذه الأفذاذ ، النائب المصري في دار الندوة، وأخيه إبراهيم (المويلحي) كاتب الضابطة ، وكثر سواد الذين يخدمون افكاره، ويعلون بين الناس مناره، من أرباب الأقلام، مثل الشيخ محمد عبده، وإبراهيم اللقاني، وعلى بك مظهر، والشاعر الزرقاني، وأبي الوفاء القوني في مصر، وسليم النقاش، وأديب إسحاق، وعبد الله النديم في الإسكندرية".

9 - جمال الدين والثورة العرابية

لم يكن جمال الدين الأفغاني مناصراً لإسماعيل، بل كان ينقم منه استبداده وإسرافه، وتمكينه الدول الاستعمارية من مرافق البلاد وحقوقها، وكان يتوسم الخير في توفيق، إذ رآه وهو ولي للعهد ميالاً إلي الشورى ، ينتقد سياسة أبيه وإسرافه ، وقد اجتمعا في محفل الماسونية (والتي لم تكن تبدو كمنظمة سيئة في ذلك الوقت) ، وتعاهدا على إقامة دعائم الشورى.

لكن توفيق لم يف بعهده بعد أن تولى الحكم، فقد بدا عليه الانحراف عن الشورى واستمع لوشايات رسل الاستعمار الأوربي، وفي مقدمتهم قنصل إنجلترا العام في مصر، إذ كانوا ينقمون من جمال الأفغاني روح الثورة والدعوة إلي الحرية والدستور، فغيروا عليه قلب الخديوي، وأوعزوا إليه بإخراجه من مصر، فأصدر أمره بنفيه وكان ذلك بقرار من مجلس النظار منعقداً برآسة الخديوي، وكان نفيه غاية في القسوة والغدر، إذ قبض عليه فجر الأحد الخامس من رمضان سنة 1296 هـ / 24 أغسطس 1879م، وهو ذاهب إلي بيته هو وخادمه الأمين (أبو تراب)، وحجز في الضبطية، ولم يمكن حتى من أخذ ثيابه، وحمل في الصباح في عربة مقفلة إلي محطة السكة الحديدية، ومنها نقل تحت المراقبة إلى السويس، وانزل منها إلى باخرة اقلته إلى الهند ، وسارت به إلي بومباي ، ولم تتورع الحكومة عن نشر بلاغ رسمي من إدارة المطبوعات بتاريخ 8 رمضان سنة 1296 (26 أغسطس سنة 1879م) ذكرت فيه نفي الأفغاني بعبارات جارحة وذكرت عنه أنه "رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا"، وحذرت الناس من الاتصال بهذه الجمعية ،

نفي جمال الدين من مصر، على أن روحه ومبادئه وتعاليمه تركت أثرها في المجتمع المصري وبقيت النفوس ثائرة تتطلع إلي نظام الحكم، وإقامته على دعائم الحرية والشورى فجمال الدين هو من الوجهة الروحية والفكرية أبو الثورة العرابية، وكثير من أقطابها هم من تلاميذه أو مريديه، والثورة في ذاتها هي استمرار للحركة السياسية التي كان لجمال الدين الفضل الكبير في ظهورها على عهد إسماعيل، ولو بقي في مصر حين نشوب الثورة لكان جائزاً أن يمدها بآرائه الحكيمة، وتجاربه الرشيدة، فلا يغلب عليها الخطل والشطط، ولكن شاءت الأقدار، والدسائس الإنجليزية، أن ينفى الأفغاني من مصر، وهي أحوج ما تكون إلى الانتفاع بحكمته وصدق نظره في الأمور.

أقام الأفغاني بحيدر أباد الدكن، وهناك كتب رسالته في الرد على الدهريين، وألزمته الحكومة البريطانية بالبقاء في الهند حتى انقضى أمر الثورة العرابية.

10 - عمله في أوروبا

- *10 – 1 - جريدة العروة الوثقى*

اخفقت الثورة العرابية ، واحتل الإنجليز مصر، فسمحوا للأفغاني بالذهاب إلي اي بلد فاختار الذهاب إلى أوروبا فقصد إليها سنة 1883، وأول مدينة وردها مدينة لندن، وأقام بها أياماً معدودات، ثم انتقل إلي باريس، وكان تلميذه محمد عبده منفياً في بيروت عقب إخماد الثورة، فاستدعاه إلى باريس، فوافاه إليها، وهناك أصدر جريدة (العروة الوثقى) ، وقد سميت باسم الجمعية التي أنشأتها، وهي جمعية تألفت لدعوة الأمم الإسلامية إلى الاتحاد والتضامن والأخذ بأسباب الحياة والنهضة، ومجاهدة الاستعمار، وتحرير مصر والسودان من الاحتلال، وكانت تضم جماعة من أقطاب العالم الإسلامي وكبرائه وهي التي عهدت إلى الأفغاني بإصدار الجريدة لتكون لسان حالها.

اشتركا معاً في تحريرها، وكانت مقالاتها جامعة بين روح جمال الدين، وقلم محمد عبده، فجاءت آيات بينات سمو المعاني، وقوة الروح وبلاغة العبارة، وهي اشبه ما تكون بالخطب النارية، تستثير الشجاعة في نفوس قارئها، وتداني في روحها وقوة تأثيرها أسلوب الإمام علي كرم الله وجهه في خطبه الحماسية المنشورة في نهج البلاغة، واتخذت العروة شعارها إيقاظ الأمم الإسلامية، والمدافعة عن حقوق الشرقيين كافة، ودعوتهم إلى مقاومة الاستعمار الأوربي والجهاد.

وقد ذاع شأنها في العالم الإسلامي وأقبل عليها الناس في مختلف الأقطار، ولكن الحكومة الإنجليزية أقفلت دونها أبواب مصر والهند، وشددت في مطاردتها واضطهاد من يقرؤها، وبلغ بها السعي في مصادرتها أن اوعزت إلي الحكومة المصرية بتغريم كل من توجد عنده العروة الوثقى خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهاً، وأقامت الموانع دون استمرارها، فلم يتجاوز ما نشر منها ثمانية عشر

عدداً. قضى جمال الدين في باريس ثلاث سنوات، كان لا يفتأ خلالها بنشر المباحث والمقالات الهامة في مقاومة اعتداء الدول الأوربية على الأمم الإسلامية، ويراسل تلاميذه في مصر.

- *10 – 2 - جمال الدين ورينان*

جرت له أبحاث مع الفيلسوف إرنست رينان Renan في العالم الإسلامي وأكبر فيه رينان عبقريته، وسعة علمه وقوة حجته، وقال عنه : "قد خُيل إلي من حرية فكره و نبالة شيمه، وصراحته، وأنا أتحدث إليه، أنني أرى وجهاً لوجه أحد من عرفتُهم من القدماء، وأنني أشهد ابن سينا أو ابن رشد، أو أحد أولئك الملاحدة العظام اللذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار."

- *10 – 3 - جمال الدين ورشفور[عدل]*

رآه أيضاً الكاتب الفرنسي رشفور، فقال فيه:السيد جمال الدين من سلالة النبي، ويكاد هو نفسه أن يكون نبياً.

11 - عمله في فارس ثم نفيه منها

ثم أخذ يتنقل بين باريس ولندن إلى أوائل فبراير سنة 1886 (جمادي الأولى سنة 1303 هـ) وفيه ذهب إلى بلاد فارس ثم إلى روسيا.

ولما كان معرض باريس سنة 1889، رجع جمال الدين إليها، وفي عودته منها التقى بالشاه في ميونخ عاصمة بافاريا، فدعاه إلى صحبته إذ كان يرغب في الانتفاع بعلمه وتجاربه، فأجاب الدعوة، وسار معه إلى فارس، وأقام في طهران، فحفه علماء فارس وأمراؤها وأعيانها بالرعاية والإجلال.

استعان به الشاه على إصلاح أحوال المملكة، وسن لها القوانين الكفيلة بإصلاح شئونها، ولكنه استهدف لسخط أصحاب النفوذ في الحكومة، وخاصة الصدر الأعظم، فوشوا به عند الشاه، واسر إليه الصدر الأعظم أن هذه القوانين تؤول إلى انتزاع السلطة من يده، فأثرت الوشايات في نفس الشاه ، وبدأ يتنكر للسيد فاستاذنه في المسير إلى المقام المعروف " بشاه عبد العظيم " على بعد عشرين كيلو متر من طهران، فاذن له، فوافاه به جم غفير من العلماء والوجهاء من انصاره في دعوة الإصلاح، فازدادت مكانته في البلاد،

وتخوف الشاه عاقبة ذلك على سلطانه فاعتزم الإساءة إليه، ووجه إلى " الشاه عبد العظيم " خمسمائة فارس قبضوا عليه وكان مريضاً، فانتزعوه من فراشه واعتقلوه، وساقه خمسون منهم إلى حدود المملكة العثمانية منيفاً، فنزل بالبصرة، فعظم ذلك على مريديه، واشتدت ثورة السخط على الشاه.

12- دعوة جمال الدين ضد الشاه

أقام السيد بالبصرة زمناً حتى أبل من مرضه، ثم أرسل كتاباً إلى كبير المجتهدين في فارس ميرزا محمد حسن الشيرازي، عدد فيه مساوئ الشاه ، وخص بالذكر تخويله إحدى الشركات الإنجليزية حق احتكار التنباك في بلاد فارس، وما يفضي إليه من استئثار الأجانب بأهم حاصلات البلاد، وكان هذا النداء من أعظم الأسباب التي جعلت كبير المجتهدين يفتي بحرمة استعمال التنباك إلى أن يبطل الامتياز، فاتبعت الامة هذه الفتوى ، وامسكت عن تدخينه، واضطر الشاه خوف انتقاض الأمة إلى إلغائه ، ودفع للشركة الإنجليزية تعويضاً فخلصت فارس من التدخل الأجنبي.

فدوره في المجتمعات الشرقية و منها إيران غير مشكوك، حتى قيل: جمال الدين كان المنبه الأول للانقلاب الذي حدث بفارس(ايران) في أواخر القرن الماضي، و...

13 - شخوصه إلى أوروبا

مكث جمال الدين بالبصرة ريثما عادت إليه صحته، ثم رحل إلى لندن، فتلقاه الإنجليز بالإكرام، ودعوه إلى مجتمعاتهم السياسية والعلمية، وحمل على الشاه وسياسته حملات صادقة في مجلة سماها (ضياء الخافقين) ، ودعا الأمة الفارسية إلى خلعه، وقويت دعوته الحرية في إيران، وأشتد السخط على الشاه ناصر الدين إلى أن قتل سنة 1896م، بيد فارسي أهوج، وقيل أن للأفغاني دخلاً في التحريض على قتله، وتولى بعده مظهر الدين، وأستمرت دعوة الحرية التي غرسها جمال الدين في إيران تنمو وتترعرع حتى آلت إلى إعلان الدستور الفارسي سنة 1906م.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

14 - ذهابه إلى الأستانة وإقامته بها

وفيما هو بلندن ورد عليه كتاب آخر بتكرار دعوته فلبى الطلب وذهب إلى الأستانة سنة 1892، وكانت هذه المرة الثانية لوروده هذه المدينة ، والمرة الأولى كانت في عهد السلطان عبد العزيز كما تقدم بيانه، حيث دعاه السلطان عبد الحميد الثاني إلى جواره، وأغلب الظن أنه أراد أن يخدم سياسته في الجامعة الإسلامية باستضافته فيلسوف الإسلام، لكي يظهر للعالم الإسلامي أنه يرعى العلم والعلماء من الأمم الإسلامية كافة ، وقد لبى جمال الدين دعوته، آملاً أن يرشده إلى إصلاح الدولة العثمانية، لأن مقصده السياسي هو انهاض دولة إسلامية أياً كانت إلى مصاف الدول العزيزة القوية ، فسار إلي الأستانه لتحقيق هذا المقصد، وحفه عبد الحميد الثاني بالرعاية والإكرام وانزله منزلاً كريماً في قصر بحي (نشان طاش) ، من أفخم أحياء الأستانة، وأجرى عليه راتباً وافراً، ومضت مدة وجمال الدين له عند السلطان منزلة عالية ؛ ثم ما لبث أن تنكر له ، وأساء به الظن، واستمع إلى الوشايات والدسائس، وكان الشيخ أبو الهدى الصيادي الذي نال الحظوة الكبرى عند مولاة يكره أن يظفر أحد بثقته فوشى بالأفغاني عند السلطان وأوغر عليه صدره فاحيط الأفغاني بالجواسيس يحصون عليه غدواته وروحاته ، ويرقبون حركاته وسكناته. وأمر السلطان بتشديد الرقابة عليه، ومنع أي أحد من الاختلاط به إلا بإرادة سلطانية، فأصبح محبوساً في قصره.

15 - مرضه ووفاته

ظهر في فمه مرض السرطان، فصدرت الإرادة السلطانية باجراء عملية جراحية يتولاها الدكتور قمبور زادة إسكندر باشا كبير جراحي القصر السلطاني، فأجرى له العملية الجراحية فلم تنجح ، وما لبث إلا أياماً قلائل حتى فاضت روحه ،

وكانت وفاته صبيحة الثلاثاء 9 مارس سنة 1897م، وما أن بلغ الحكومة العثمانية نعيه حتى أمرت بضبط أوراقه وكل ما كان باقياً عنده ، وأمرت بدفنه من غير رعاية أو احتفال في مقبرة المشايخ بالقرب من نشان طاش فدفن كما يدفن أقل الناس شأنا في تركيا وتحت مراقبة الدولة

16 – ضريحه

تم نقل جثمانه من تركيا في عام 1944 في موكب إسلامي مهيب إلى بلده أفغانستان، حيث دفن في مدينة كابل ويقع ضريحه حاليا في وسط جامعة كابل .

جميل صدقي الزهاوي

1 - تقديم

جميل صدقي بن محمد فيضي بن الملا أحمد بابان الزهاوي. ولد في بغداد عام 1863م وتوفي بها في 24 فبراير 1936م، و نشأ ودرس على يد أبيه وعلى يد علماء عصره، وعين مدرسًا في مدرسة السليمانية ببغداد عام 1885م، وهو شاب ثم عين عضواً في مجلس المعارف عام 1887م، ثم مديراً لمطبعة الولاية ومحرراً لجريدة الزوراء عام 1890م، وبعدها عين عضواً في محكمة استئناف بغداد عام 1892م، وسافر إلى اسطنبول عام 1896م، فأعجب برجالها ومفكريها ، وبعد الدستور عام 1908م، عين أستاذًا للفلسفة الإسلامية في دار الفنون باسطنبول ثم عاد لبغداد، وعين أستاذاً في مدرسة الحقوق، وعند تأسيس الحكومة العراقية عين عضواً في مجلس الأعيان. ونظم الشعر باللغة العربية واللغة الفارسية، وتميز إنتاج جميل صدقي الزهاوي بالكثرة والتنوع بين الشعر والنثر .

وكان له مجلس يحفل بأهل العلم والأدب، وأحد مجالسه في **مقهى الشط** وله مجلس آخر يقيمه عصر كل يوم في **قهوة رشيد حميد** في الباب الشرقي من بغداد ، واتخذ في آخر أيامه مجلساً في **مقهى أمين** في شارع الرشيد وعرفت هذه القهوة فيما بعد بقهوة الزهاوي، ولقد كان مولعاً بلعبة الدامة وله فيها تفنن غريب، وكان من المترددين على مجالسه الشاعر معروف الرصافي، والأستاذ إبراهيم صالح شكر، والشاعر عبد الرحمن البناء، وكانت مجالسه لا تخلو من أدب ومساجلة ونكات ومداعبات شعرية، وكانت له كلمة الفصل عند كل مناقشة ومناظرة، ولقد قال فيه الشيخ إبراهيم أفندي الراوي وفي قرينه الرصافي:

مقال صحيح إن في الشعر حكمة وما كل شعر في الحقيقة محكم
وأشعر أهل الأرض عندي بلا مرا جميل الزهاوي والرصافي المقدم

كان الزهاوي معروفا على مستوى العراق والعالم العربي وكان جريئاً وطموحاً وصلباً في مواقفه، فاختلف مع الحكّام عندما رآهم يلقون بالأحرار في غياهب السجن ومن ثم تنفيذ أحكام الإعدام بهم فنظم قصيدة في تحيّة الشهداء مطلعها :

على كل عود صاحب وخليل وفي كل بيت رنة وعويل
وفي كل عين عبرة مهراقة وفي كل قلب حسرة وعليل
كأن الجدوع القائمات منابر علت خطباء عودهن نقول

دافع الزهاوي عن حقوق المرأة وطالبها بترك الحجاب (ويقصد به النقاب الذي يخفى معالم الوجه وليس الحجاب بالمفهوم الحالي) وأسرف في ذلك، حيث قال:

اسفري فالحجاب يا ابنة فهر هو داء في الاجتماع وخيم
كل شيء إلى التجدد ماض فلماذا يقر هذا القديم ؟
اسفري فالسفور للناس صبح زاهر والحجاب ليل بهيم
اسفري فالسفور فيه صلاح للفريقين ثم نفع عميم
زعموا ان في السفور انثلاماً كذبوا فالسفور طهر سليم
لايقي عفة الفتاة حجاب بل يقيها تثقيفها والعلوم

وقال أيضا:

مزقي يا ابنة العراق الحجابا أسفري فالحياة تبغي انقلابا
مزقيه وأحرقيه بلا ريث فقد كان حارساً كذابا

وله أبيات أخرى في ديوان (الزهاوي ، طبعة دار الدعوة ، بيروت) أسرف فيها في هجاء العرب ومدح الإنجليز قال فيها :

تبصَّرْ أيها العربي واتركْ ولاءَ الـتـركِ مـن قـومٍ لـئـامِ
ووالِ الإنكليزَ رجال عدلٍ وصدقٍ في الفعالِ وفي الكلامِ

وكتب فيه طه حسين: "لم يكن الزهاوي شاعر العربية فحسب ولا شاعر العراق بل شاعر مصر وغيرها من الأقطار، لقد كان شاعر العقل، وكان معري هذا العصر، ولكنه المعري الذي اتصل بأوروبا وتسلح بالعلم،"

وهناك شارع سمي باسمهِ يقع في منطقة الأعظمية قرب البلاط الملكي وهذا الشارع يربط بين الطريق إلى جامع الإمام الأعظم ومنطقة الوزيرية العريقة في بغداد.

كانت العداوة بينه وبين معروف الرصافي شديدة (حيث قال الرصافي أشياء كثيرة في النيل من الزهاوي) ولكن فرصة مواتية للزهاوي جاءت للرد الصاع صاعين للرصافي عندما سألوه عن رأيه في أحمد شوقي (وهذا مجال لعداوة أخرى) فأجابهم قائلا بلهجته البغدادية :

«هذا شنو أحمد شوقي، ولا شيء! تلميذي معروف الرصافي ينظم شعراً أحسن منه!»

قال عنه المؤرخ الشاعر وليد الأعظمي: ((كان الزهاوي شديد الأعجاب بنفسه محبا للشهرة ويميل إلى مخالفة الناس، ويدعي المعرفة بالعلوم كلها كالفلسفة والفلك والجاذبية والتشريح مما أثار ضجة كادت تودي بحياته، وهو شاعر مكثر، وشعره ثقيل غير سائغ بسبب حشر النظريات العلمية فيه، وكان يحسن اللغة العربية والتركية والفارسية والكردية، وشيئاً من اللغة الفرنسية، وترك عدة دواوين منها (الكلم المنظوم) وديوان (اللباب)، وديوان (الأوشال)، و(الثمالة)، و(رباعيات الزهاوي)، وهي ترجمة لرباعيات الخيام)).

2 – وفاته

توفي الزهاوي في شهر ذي القعدة عام 1354 هـ، 1936م، ودفن بمشهد حافل في مقبرة الخيزران في الأعظمية، وبنيت على قبرهِ حجرة ودفن على مقربة منه علامة العراق الشيخ أمجد الزهاوي ابن أخيه. وكان الشيخ أمجد الزهاوي يبغضه في الله ، ولم يخرج في جنازته عندما توفي.

3 - من مؤلفاته

أخذ الزهاوي العلوم العقلية والنقلية على يد علماء بغداد ونبغ في مختلف المجالات العلمية والفلسفية، وكان نبوغه باللغة العربية والشعر العربي طاغيا على بقية تحصيلاته العلمية. وله مؤلفات علمية وأدبية منها:

دواوين شعره.
الجاذبية وتعليلها.
الظواهر الطبيعية والفلكية.
الخيل وسباتها.
الدفع العام.
الفجر الصادق.

لديه مجموعة من الاشعار الكردية ، اكثرية اشعاره الكردية ذات طابع هجائي كتبت ضد صديقه الشاعر الكردي الكبير، شيخ رضا الطالباني.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

أحمد لطفي السيد

1 - تقديم

أحمد لطفي السيد مفكر وفيلسوف مصري، وصف بأنه رائد من رواد حركة النهضة والتنوير في مصر. وصفه عباس العقاد "بأنه بحق أفلاطون الأدب العربي"

أطلق عليه لقب أستاذ الجيل وأبو الليبرالية المصرية، ولد في 15 يناير 1872 بقرية برقين، مركز السنبلاوين بمحافظة الدقهلية وتخرج من مدرسة الحقوق سنة 1894 م. تعرف أثناء دراسته على الإمام محمد عبده وتأثر بأفكاره. كما تأثر بملازمة جمال الدين الأفغاني مدة في استنبول، وبقراءة كتب أرسطو، ونقل بعضها إلى العربية.

عمل وزيرا للمعارف ثم وزيرا للخارجية ثم نائبا لرئيس الوزراء في وزارة إسماعيل صدقي ونائبا في مجلس الشيوخ المصري ، ورئيسا لمجمع اللغة العربية ، وفي أثناء عمل لطفي السيد كرئيس للمجمع عرض عليه الضباط الأحرار في ثورة 23 يوليو 1952 أن يصبح رئيسا لمصر لكنه رفض ، كما عمل رئيسا لدار الكتب المصرية، ومديرا للجامعة المصرية، كما أسس عددا من المجامع اللغوية والجمعيات العلمية.

2 - أهم مواقفه وإنجازاته

كان أحمد لطفي السيد وراء حملة التبرعات الخاصة بإنشاء أول جامعة أهلية في مصر العام 1908 " الجامعة المصرية " ، والتي تحولت في 1928 إلى جامعة حكومية تحت اسم جامعة فؤاد الأول - جامعة القاهرة فيما بعد.

تبنى أحمد لطفي السيد المفهوم الليبرالي للحرية في أوروبا خلال القرن التاسع عشر مناديا بتمتع الفرد بقدر كبير من الحرية وبغياب رقابة الدولة على المجتمع ومشددا على ضرورة أن يكون الحكم قائما على أساس التعاقد الحر بين الناس والحكام. وهو صاحب القولة الشهيرة الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية . ونادى بتحديد مفهوم للشخصية المصرية رافضا ربط مصر بالعالم العربي أو تركيا أو العالم الإسلامي سياسيا، ويربط بين الجنسية والمنفعة، وكان أهم ما طرحه في هذا الشأن الدعوة إلى القومية المصرية كأساس لانتماء المصريين. كما نادى بتعليم المرأة، وتخرجت في عهد رئاسته للجامعة أول دفعة من الطالبات عام 1932.

طالب باستقلال الجامعة، وقدم استقالته حين تم إقصاء طه حسين عن الجامعة سنة 1932. كما قدم استقالته مرة أخرى حين اقتحمت الشرطة حرم الجامعة عام 1937. كما كان ضد إنشاء المدارس الدينية سواء إسلامية أو إرساليات مسيحية إضافة لرفضه إنشاء المدارس الأجنبية في مصر.

دعى إلى استعمال اللغة العامية المصرية بدلا من العربية الفصحى.

دعوته إلى دراسة الفلسفات اليونانية ، والاقتباس منها ، وتشجيع تلامذته على ذلك. كما ترجم بعض كتب أرسطو إلى العربية.

أسس حزب الأمة المصري صاحب شعار مصر للمصرين في ديسمبر 1907 حيث كان هدف الحزب الرئيسى هو " المطالبة بالاستقلال التام والدستور " . ويعتبر من رواد الليبرالية المصرية، وهو من مؤسسي مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

توفي أحمد لطفي السيد في 5 مارس العام 1963 بالقاهرة . كان سكرتير عام لحزب الامة ويباشر صحيفة (الجريدة) التابعة للحزب

3 – مؤلفاته

للطفي السيد عديد المؤلفات الفكرية منها "صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية"، "تأملات"، "المنتخبات"، "تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع" كما ترجم عدة مؤلفات لأرسطو منها علم الأخلاق إلى نيقوماخوس "، علم الطبيعة"، و"السياسة"، إضافة إلى مذكراته بعنوان "قصة حياتي".

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

بطرس غالي

1 – تقديم

بطرس باشا نيروز غالي (1262 هـ / 1846 - 1328 هـ / 20 فبراير 1910) رئيس وزراء مصر من 12 نوفمبر 1908 إلى 1910. والده نيروز غالي كان ناظرا للدائرة السنية لشقيق الخديوي إسماعيل في الصعيد. تلقى تعليمه في كلية البابا كيرلس الرابع كوزير للخارجية صاغ ووقع على إتفاقية الحكم الثنائي الإنجليزي المصري للسودان عام 1899. وكانت أول خطوة في تقسيم السودان حيث دخل الإنجليز السودان على حساب مصر. تم اغتياله علي يد **إبراهيم ناصف الورداني** في 20 فبراير 1910.

كرئيس وزراء، وافق على تمديد امتياز شركة قناة السويس 40 عاماً إضافية من 1968م إلى 2008م في نظير 4 مليون جنيه تدفع على أربع أقساط. تمكن محمد فريد من الحزب الوطني من الحصول على نسخة من المشروع في أكتوبر 1909 ونشرها في جريدة اللواء، وطالبت اللجنة الإدارية للحزب الوطني بعرض المشروع على الجمعية العمومية، فاضطر المسئولون تحت الضغط إلى دعوة الجمعية التي رفضت المشروع.

2 - رئاسته الوزارة

- *2 – 1 حكومته*

"تشكيل الحكومة من 12 نوفمبر 1908 - 21 فبراير 1910"

الوزير	الوزارة
أحمد حشمت باشا	نظارة المالية
إسماعيل سري	نظارة الأشغال العمومية
بطرس غالي باشا	نظارة الخارجية
حسين رشدي باشا	نظارة الحقانية
سعد زغلول باشا	نظارة المعارف العمومية
محمد سعيد باشا	نظارة الداخلية

3 – انتقادات

توجه له الانتقادات لعدة أسباب مثل محاوله مد امتياز قناة السويس لصالح الاحتلال واعدام فلاحين دنشواي وقانون المطبوعات واتفاقية الحكم الثنائي الإنجليزي المصري للسودان اتهم بمحاباة الإنجليز حين صادق ، كوزير العدل المؤقت ، على أحكام محكمة دنشواي بإعدام 6 فلاحين مصريين قتلوا جنود بريطانيين كانوا قد قتلوا فلاحة مصرية أثناء صيدهم للحمام . مع تنامي الحركة الوطنية بمصر تحت شعار " مصر للمصريين " ، أصبحت سياسات بطرس غالي شديدة الولاء لبريطانيا بؤرة لنقمة الوطنيين المصري....

4 - اتفاقية تقسيم السودان

عندما احتل الإنجليز مصر عام 1882م بعد فشل الثورة العرابية، شهد السودان قيام **الثورة المهدية** التي استطاعت أن تسيطر على السودان، وفي تلك الفترة قرر الإنجليز إعادة السودان إلى سيطرتهم في إطار حملة مشتركة تتحمل تكاليفها الخزانة المصرية، وأن يكون حكم السودان مشتركا بين مصر وبريطانيا، وقد وقع اللورد " كرومر" المعتمد البريطاني في مصر على تلك الوثيقة عن الجانب البريطاني، ووقع عن الجانب المصري "بطرس غالي"، وتم توقيع اتفاق السودان في 19 يناير 1899م). حيث أن جميع سلطات السودان تتمركز في يد الحاكم العام للسودان وهو بريطاني الجنسية. نص الاتفاق على أنه لا

يجوز عزل هذا الحاكم إلا بعد موافقة الحكومة البريطانية، كما أن تشريعات القطر المصري لا تسري على السودان.

بذلك لم يُعط هذا الاتفاق لمصر أي ميزة فعلية من المشاركة مع بريطانيا في إعادة فتح السودان، وتحملت مصر بمفردها تكاليف الحملة، وكانت المسئولية ملقاة على مصر والسلطة في يد بريطانيا. أعطى غالي بريطانيا بموافقته حقا في السودان دون أن تتحمل ثمنه، وأعطاها سلطة واسعة في إدارة السودان دون أدنى مسئولية. كما أن هذا الاتفاق قوض ممتلكات مصر في منطقة خط الاستواء في كل من أوغندا وعدد من الموانئ الموجودة على البحر الأحمر مثل **زيلع وبربرة.**

ذكر اللورد كرومر أن إعادة فتح السودان يُعزى إليه إفلاس الخزانة المصرية، حتى إن مصر باعت في سبيل هذه الحملة البواخر الخديوية وعددا من السرايات والحدائق والأراضي وكل ما استطاعت بيعه للإنفاق على هذه الحملة، ورغم هذه النفقات جاء اتفاق 1899م) ليطيح بهذه النفقات والأرواح التي بذلت ويعطي السودان بلا ثمن لبريطانيا.

5 - رئيس محكمة دنشواي بالانابة عن ناظر الحقانية

لعب بطرس غالي دورا كبيرا في حادثة دنشواي والتي كانت من المحطات الهامة في تاريخ الإنجليز في مصر، وملخصها أن عددا من ضباط الجيش الإنجليزي خرجوا لاصطياد الحمام في قرية دنشواي فأصيبت إحدى السيدات بعيار ناري فقتلت في التو واللحظة واحترق أحد الأماكن التي يتم فيها تخزين القمح، فاستشاط أهالي القرية غضبا وهاجموا هؤلاء الإنجليز ففر البعض وتوفي أحدهم من تأثير ضربة شمس، فعقد الإنجليز محاكمة لعدد من أهالي القرية، ورأس هذه المحكمة بطرس غالي باعتباره قائما بأعمال نظارة الحقانية في (23 نوفمبر 1906م)، وقضت بالإعدام شنقا لأربعة من الأهالي، وبالأشغال الشاقة مددا مختلفة لعدد آخر، وبالجلد خمسين جلدة على آخرين، وتم تنفيذ الأحكام بعد محاكمة استمرت ثلاثة أيام فقط وأمام الأهالي.

6 - قانون المطبوعات 1881

صدر أول قانون للمطبوعات في مصر في (5 محرم 1299 هـ / 26 نوفمبر 1881م) في عهد الخديوي توفيق، لكن هذا القانون لم يتم العمل به حتى اشتد ساعد الحركة الوطنية خاصة بعد حادثة دنشواي وحالة الغضب التي اجتاحت الرأي العام المصري على محاكمة دنشواي، لذا طلب الإنجليز من حكومة بطرس غالي ضرورة عودة قانون المطبوعات مرة أخرى، فأصدر مجلس الوزراء في (4 من ربيع الأول 1327 هـ= 25 مارس 1909م) قرارا بإعادة العمل بقانون المطبوعات الصادر في عهد الخديوي توفيق، وكان الهدف منه مراقبة الصحف ومصادرتها وإغلاقها إذا اقتضى الأمر، وكان هذا القانون لوضع القيود على الأقلام، قام "محمد فريد" زعيم الحزب الوطني بالذهاب إلى الخديوي عباس حلمي في نفس اليوم الذي صدر فيه ذلك القانون بعريضة احتجاج على ما قامت به وزارة بطرس غالي وقامت المظاهرات الرافضة لهذا التضييق والكبت لحريتها.

7 - طرح فكرة تمديد امتياز قناة السويس

كانت هناك فكرة مد امتياز قناة السويس أربعين عاما أخرى، وذلك مقابل مبلغ من المال تدفعه الشركة صاحبة الامتياز إلى الحكومة المصرية إلى جانب نسبة معينة من الأرباح تبدأ من سنة 1338هـ / 1921م حتى 1387هـ / 1968م.

في رمضان1327 هـ / أكتوبر 1909م استطاع محمد فريد الحصول على نسخة من مشروع القانون وقام محمد فريد بنشرها في جريدة اللواء وبدأت حملة من الحركة الوطنية وعلى رأسها الحزب الوطني في تعبئة المصريين ضد هذا القانون، خاصة أن إعطاء الامتياز كان يعني أن تترك الشركة القناة للمصريين سنة 1428هـ/ 2008م وطالبت بعرض مشروع هذا القانون على الجمعية العمومية لأخذ رأيها فيه، وكان معنى ذلك هو حشد الأمة المصرية ضد هذا القانون، وقد وافق الخديوي عباس حلمي على ذلك، وتم تحديد يوم 1 صفر 1328 هـ / 10 فبراير 1910م) لانعقاد الجمعية العمومية و مجلس شورى القوانين لمناقشة المشروع فرفضت الجمعية العمومية المشروع فأضرت الحكومة رفضه.

8 - اغتيال بطرس غالى باشا

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

قام إبراهيم ناصف الورداني عضو الحزب الوطني باغتيال بطرس غالي أمام وزارة الحقانية في الساعة الواحدة ظهرا يوم 11 صفر 1328 هـ / 20 فبراير 1910م، حيث أطلق عليه الورداني ست رصاصات أصابت اثنتان منها رقبته.

أما إبراهيم الورداني فقد كان وقت اغتياله بطرس غالي شابا في الرابعة والعشرين من عمره، ودرس الصيدلة في سويسرا، حيث عاش بها عامين بدءا من سنة 1324 هـ / 1906م، ثم سافر إلى إنجلترا وقضى بها عاما حصل خلاله على شهادة في الكيمياء ثم عاد إلى مصر في ذو الحجة 1326 هـ / يناير 1909م ليعمل صيدلانيا، وكان عضوا في الحزب الوطني، وعندما ألقي القبض عليه قال إنه قتل بطرس غالي لأنه " **خائن للوطن** "، وإنه غير نادم على فعلته.

عبد الرحمن الكواكبي

1 – تقديم

عبد الرحمن أحمد بهائي محمد مسعود الكواكبي (1271 هـ / 1855 – 1320 هـ / 1902م) أحد رواد النهضة العربية ومفكريها في القرن التاسع عشر، وأحد مؤسسي الفكر القومي العربي، اشتهر بكتاب « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد »، الذي يعد من أهم الكتب العربية في القرن التاسع عشر التي تناقش ظاهرة الاستبداد السياسي.

عندما بلغ عبد الرحمن الكواكبي الثانية والعشرين من عمره، الْتحق كمحرر بجريدة «الفرات»، وكانت جريدة رسمية تصدر في حلب، ولكن إيمانه بالحرية وروح المقاومة لديه دفعته لأن يؤسس هو وزميله السيد هشام العطار أول جريدة رسمية عربية خالصة وهي جريدة « الشهباء »، ولم تستمر سوى خمسة عشر عددًا؛ حيث أغلقتها السلطات العثمانية بسبب المقالات النقدية اللاذعة الموجهة ضدها.

وقد اشتغل الكواكبي بالعديد من الوظائف الرسمية، فكان كاتبًا فخريًّا للجنة المعارف، ثم مُحرّرًا للمقالات، ثم صار بعد ذلك مأمور الإجراءات (رئيس قسم المحضرين)، كما كان عضوًا فخريًّا بلجنة القومسيون. وكذلك كان يشغل منصب عضو محكمة التجارة بولاية حلب، بالإضافة إلى توليه منصب رئيس البلدية.

سافر الكواكبي إلى الهند والصين، وسواحل شرق آسيا وسواحل أفريقيا، كما سافر إلى مصر حيث لم تكن تحت السيطرة المباشرة للسلطان العثماني عبد الحميد، وذاع صيته هناك، وتتلمذ على يديه الكثيرون، وكان واحدًا من أشهر العلماء. وقد أمضى الكواكبي سنين حياته مُصْلِحًا وداعيةً إلى النهوض والتقدم بالأمة العربية ومقاومة الاستبداد العثماني، وهو الأمر الذي ضاق به السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ذرعًا، فاستأجر بعض العملاء الذين دسوا للكواكبي السم في فنجان القهوة، ليفارق بعدها الحياة، وذلك في عام 1902م.

2 – مولده

ولد في 23 شوال سنة 1271هـ الموافق 9 يوليو 1855 في مدينة حلب لعائلة لها شأن كبير. والده هو أحمد بهائي بن محمد بن مسعود الكواكبي، والدته السيدة عفيفة بنت مسعود آل نقيب وهي ابنة مفتي أنطاكية في سوريا.

3 – نسبه

ينتسب الكواكبي إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقد روى صاحب النفائح واللوائح من غرر المحاسن والمدائح نسب الأسرة نقلًا عن كتاب « النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » الذي ألفه السيد حسن بن أحمد بن أبي السعود الكواكبي، فجاء فيه أن السيد أحمد هو:

ابن أبي السعود بن أحمد بن محمد بن حسن بن أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن محمد بن أبي يحيى المعروف بالكواكبي قدس سره، ابن شيخ المشايخ والعارفين صدر الدين موسى الأردبيلي قدس سره،

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

ابن الشيخ الرباني المسلك الصمداني صفي الدين إسحاق الأردبيلي ابن الشيخ الزاهد أمين الدين ابن الشيخ السالك جبريل ابن الشيخ المقتدي صالح ابن الشيخ قطب الدين أبي بكر ابن الشيخ صلاح الدين رشيد ابن الشيخ المرشد الزاهد محمد الحافظ ابن الشيخ الصالح الناسك عوض الخواص ابن سلطان المشايخ فيروز شاه البخاري بن مهدي بن بدر الدين حسن بن أبي القاسم محمد بن ثابت بن حسين بن أحمد بن الأمير داود بن علي بن الإمام موسى الثاني بن الإمام إبراهيم المرتضى بن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الحسين السبط الشهيد بن الإمام علي بن أبي طالب

4 – العلم

في مدينة حلب التي كانت تزدهر بالعلوم والفقهاء والعلماء درس الشريعة والأدب وعلوم الطبيعة والرياضة في المدرسة الكواكبية التي تتبع نهج الشريعة في علومها، وكان يشرف عليها ويدرّس فيها والده مع نفر من كبار العلماء في حلب . لم يكتفِ بالمعلومات المدرسية، فقد اتسعت آفاقه أيضاً بالاطلاع على كنوز المكتبة الكواكبية التي تحتوي مخطوطات قديمة وحديثة، ومطبوعات أول عهد الطباعة في العالم، فاستطاع أن يطلع على علوم السياسة والمجتمع والتاريخ والفلسفة وغيرها من العلوم.

5 – حياته

بدأ الكواكبي حياته بالكتابة إلى الصحافة وعين محرراً في جريدة الفرات التي كانت تصدر في حلب ، وعرف الكواكبي بمقالاته التي تفضح فساد الولاة ،

وقد شعر أن العمل في صحيفة رسمية يعرقل طموحه في تنوير العامة وتزويدها بالأخبار الصحيحة، فالصحف الرسمية لم تكن سوى مطلب للسلطة، ولذلك رأى أن ينشئ صحيفة خاصة، فأصدر في حلب صحيفة «الشهباء» عام 1877، وكانت أول صحيفة تصدر باللغة العربية، وسجلها باسم صديقه كي يفوز بموافقة السلطة العثمانية أيامها وبموافقة والي حلب. لم تستمر هذه الصحيفة طويلاً، إذ لم تستطع السلطة تحمل جرأته في النقد.

بسبب حبه للصحافة والكتابة تابع جهاده الصحفي ضد الاستبداد فأصدر عام 1879 باسم صديق آخر جريدة «الاعتدال» سار فيها على نهج «الشهباء» لكنها لم تستمر طويلاً فتوقفت عن الصدور.

بعد أن تعطّلت صحيفتاه «الشهباء» و«الاعتدال»، انكبّ على دراسة الحقوق حتى برع فيها، وعيّن عضواً في لجنتي المالية والمعارف العمومية في حلب، والأشغال العامة (النافعة) ثم عضواً فخرياً في لجنة امتحان المحامين للمدينة.

بعد أن أحس أن السلطة تقف في وجه طموحاته، انصرف إلى العمل بعيداً عنها، فاتخذ مكتباً للمحاماة في حي الفرافرة إحدى أحياء مدينة حلب قريباً من بيته، وكان يستقبل فيه الجميع من سائر الفئات ويساعدهم ويحصل حقوق المتظلمين عند المراجع العليا ويسعى إلى مساعدتهم، وقد كان يؤدي عمله في معظم الأحيان دون أي مقابل مادي، حتى اشتهر في جميع أنحاء حلب بلقب «أبي الضعفاء».

تقلد عبد الرحمن الكواكبي عدة مناصب في ولاية حلب فبعد أن عين عضواً فخرياً في لجنتي المعارف والمالية، عين مديراً رسمياً لمطبعة الولاية ورئيساً فخرياً للجنة الاشغال العامة في حلب وحقق في عهده الكثير من المشاريع الهامة التي أفاد بها حلب والمناطق التابعة لها وفي 1892 عين رئيساً لبلدية حلب.

استمر الكواكبي بالكتابة ضد السلطة التي كانت في نظره تمثل الاستبداد، وعندما لم يستطع تحمل ما وصل اليه الأمر من مضايقات من السلطة العثمانية في حلب، سافر الكواكبي إلى آسيا: الهند والصين وسواحل شرق آسيا وسواحل أفريقيا وإلى مصر حيث لم تكن تحت السيطرة المباشرة للسلطان عبد الحميد، وذاع صيته في مصر وتتلمذ على يديه الكثيرون وكان واحداً من أشهر العلماء.

أمضى الكواكبي حياته مصلحاً وداعياً إلى النهوض والتقدم بالأمة العربية وقد شكل النوادي الإصلاحية والجمعيات الخيرية التي تقوم بتوعية الناس وقد دعا المسلمين لتحرير عقولهم من الخرافات وقد قسم الأخلاق إلى فرعين فرع أخلاقي يخدم الحاكم المطلق وفرع يخدم الرعية أو المحكومين ودعا الحكام إلى التحلي بمكارم الأخلاق لأنهم الموجهون للبشر، ودعا إلى إقامة خلافة عربية على أنقاض الخلافة التركية وطالب العرب بالثورة على الأتراك وقد حمل الحكومة التركية المستبدة مسؤولية الرعية.

6 – مؤلفاته

ألف العديد من الكتب وترك تراثاً ادبياً كبيراً من الكتب منها طبائع الاستبداد وأم القرى كما ألف العظمة لله وصحائف قريش وقد فقد مخطوطان مع جملة أوراقه ومذكراته ليلة وفاته. له الكثير من المخطوطات والكتب والمذكرات التي طبعت. وما زالت سيرة وكتب ومؤلفات عبد الرحمن الكواكبي مرجعاً هاماً لكل باحث.

7 – وفاته

توفي في القاهرة متأثراً بسم دس له في فنجان القهوة يوم الجمعة 6 ربيع الأول لعام 1320 هـ الموافق 13 يونيو 1902 ودفن عند جبل المقطم. رثاه كبار رجال الفكر والشعر والأدب في سوريا ومصر ونقش على قبره بيتان لحافظ إبراهيم :

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى هنا خير مظلوم هنا خير كاتب
قفوا وأقرؤوا أم الكتاب وسلموا عليه فهذا القبر قبر الكواكبي

وقد أقيم مسجد كبير في حي العجوزة بمحافظة الجيزة يحمل اسمه تخليداً لذكراه.

حسين بن علي الهاشمي (شريف مكة ، ملك الحجاز)

1 - تقديم

حسين بن علي الهاشمي مؤسس المملكة الحجازية الهاشمية وأول من نادى باستقلال العرب من حكم الدولة العثمانية. ولد في إسطنبول سنة 1270هـ - 1854م حينما كان والده منفيا فيها فألم باللغة التركية وحصل على اجازات في المذهب الحنفي. عاد إلى مكة وعمره ثلاث سنوات. قاد الثورة العربية الكبرى متحالفا مع البريطانيين ضد الدولة العثمانية لجعل الخلافة في العرب بدل الأتراك في 1916 ولقب بملك العرب.

2 – نسبه

هو حسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون بن محسن بن عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن أبو نمي الثاني بن بركات بن محمد بن بركات بن الحسن بن عجلان بن رميثة بن محمد بن أبو نمي الأول بن الحسن بن علي الأكبر بن قتادة بن ادريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن الحسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد الثائر بن موسى الثاني بن عبد الله الرضى بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن ابي طالب الحسني الهاشمي القرشي.

3 - الثورة العربية الكبرى

كانت لسياسة التتريك الدور الأساسي في اشتعال الثورة. حيث استطاع القوميون الاتراك (**الطورانيون**) الوصول إلى السلطة بقيادة مصطفى كمال أتاتورك الذي قام بمحاربة اللغة العربية وفرض اللغة التركية على العرب، بالإضافة إلى تدهور الوضع الاقتصادي، وما نتج عنها من نهضة عربية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كانت مبادئ الثورة العربية قد وضعت بالاتفاق ما بين الحسين بن علي وقادة الجمعيات العربية في سوريا والعراق في اتفاق شفهي غايته استقلال العرب وإنشاء دولة عربية واحدة، وقد وعدت الحكومة البريطانية العرب من خلال مراسلات حسين مكماهون (1915) بالاعتراف باستقلال العرب مقابل اشتراكهم في الحرب إلى جانب الحلفاء ضد الأتراك والدولة العثمانية .

تكمن بذور هذه الحركة في التطلعات القومية العربية الطامعة ببناء دولة عربية ناهضة، ولتحسين الأوضاع الحضارية والمعيشية والحفاظ على الحضارة العربية، ومن جهة أخرى موقفهم من سياسة قادة الاتراك ومعاداتهم العرب وخصوصا بعد انقلاب جمعيات عربية على الإمبراطورية العثمانية. وقد وجدت هذه الجمعيات في الشريف حسين وأولاده حليفاً لها لتحقيق أهدافها. وكانت اتصالات الشريف حسين بالإنكليز قد بدأت قبل قيام الثورة عندما اجتمع الأمير عبد الله بن الحسين باللورد كيتشنر، المفوض السامي في القاهرة، خلال شهر شباط 1914، حيث اتفق على استمرار الاتصالات بين الطرفين.

تتابعت المفاوضات على شكل مراسلات بين الشريف حسين وبين المعتمد البريطاني في القاهرة، السير هنري مكماهون. تضمنت الرسالة الأولى التي بعثها الشريف حسين نصوص بروتوكول دمشق،

كأساس للتحالف بين بريطانيا والعرب ضد الأتراك، بالإضافة إلى مطالبة بريطانيا بالاعتراف بخليفة عربي للمسلمين. ومن خلال المراسلات المتبادلة (1916-1917) تعهدت بريطانيا بالاعتراف بالاستقلال العربي وتأييده، لكنها في نفس الوقت أبدت بعض التحفظات المخادعة التي ستساعدها لاحقاً على التملص والتهرب من التزاماتها مع العرب، وذلك بغية تحقيق مصالحها في المنطقة العربية الطامعة في توسيع مناطق سيطرتها وإضعاف الدولة العثمانية تمهيداً للحرب العالمية الأولى (1914-1918). اتضح فيما بعد أن كل هذه التعهدات كانت تغطية خدائع واتفاقات سرية، فقد كانت لبريطانيا مخططات مع فرنسا لاقتسام وغزو الأراضي العربية لضمّها إلى الممتلكات الاستعمارية عن طريق اتفاقية سايكس بيكو التي حددت أرض فلسطين كذلك ولاية يهودية تحت الحماية البريطانية.

لم يكن العرب متطلعين حينها على الاتفاقية شبه السرية بين بريطانيا وفرنسا وبضغط صهيوني. كان ذلك كله في نفس الوقت الذي التزمت به بريطانيا بالاعتراف بالمملكة العربية التي تضم المناطق العربية الممتدة من الحجاز والعراق إلى الأردن وسوريا, ودعمها سياسياً وعسكرياً واقتصادياً. ومن المعروف أن الأتراك حاولوا جذب الشريف حسين بعد افتضاح الاتفاقيات السرية بين بريطانيا وفرنسا، إلا أنه استمر في التعاون مع بريطانيا والحلفاء الذين كانوا يمولون جيشه من الخزينة المصرية ، ويزودونه بالسلاح والخبراء مثل **لورانس العرب** .

حينما كانت المراسلات تبلور أسس التحالف بين بريطانيا والعرب كان الوضع صعباً ومتدهوراً للغاية في المشرق العربي، الأمر الذي كان نتيجة غضب غير مبرر من قبل ضابط بالجيش العثماني، جمال باشا (السفاح) ، الذي أعدم كثيرًا من الضباط العرب بعد فشل حملته على قناة السويس ، مما دفع قادة الحركة العربية في المشرق بالضغط على الشريف لاستعجال إعلان الثورة التي انطلقت في العاشر من حزيران - يونيو 1916.

بدأت المعارك الحربية في جدة 13 حزيران، وانهزمت الحامية التركية وسقطت مكة في 9 تموز في عام 1916، وبعد شهرين تقريبا حرر العرب ثغري " الليث " و" المويلح " على البحر الأحمر، وفي 23 أيلول 1916 استسلمت الطائف، وفي 2 محرم 1335هـ - 31 تشرين الاول 1916م بويع الشريف حسين بالملك، وفي الشهر التالي اعترفت به دول التحالف الكبرى مثل إنجلترا وفرنسا وإيطاليا ملكاً على الحجاز.

وفي تموز 1917 سقط ميناء العقبة. وعندما احتل البريطانيون بغداد احتج الحسين ولكن بريطانيا علقت بأنه تدبير عسكري مؤقت وغير مهم سياسيا. وبين عامي 1916-1917 انضم للجيش الشريفي عدد من الضباط الوطنيين من سوريا وفلسطين ممن كانوا في الجيش العثماني وتطوع كثير من عرب المشرق فوصل الجيش الشريفي إلى 70،000 مقاتل، وبعد ذلك حررت بيروت وحلب وحماة وطلس وصيدا وصور وحمص. وفي تشرين الأول تم تأليف الحكومة العربية الأولى في بيروت، ورفع العلم على سرايا بيروت.

تمكنت الثورة من طرد القوات التركية من الحجاز، ومن مناطق في شرق الأردن، وساعدت المجهود الحربي البريطاني عسكرياً وسياسياً في المشرق العربي. اقترب العرب من إقامة الدولة العربية الموحدة في الجزيرة والمشرق، إلا أن بريطانيا كانت قد بدات بتنفيذ مخططاتها في التجزئة والاحتلال والإلحاق،

فقسمت البلاد إلى 3 مناطق عسكرية : جنوبية وتشمل فلسطين تحت الإدارة البريطانية ، وشرقية تمتد من العقبة جنوباً حتى حلب شمالاً تحت إدارة فيصل، وغربية تضم المنطقة الساحلية من سوريا ولبنان؛ من صور جنوباً إلى كليكيا شمالاً تحت الإدارة الفرنسية. وأتبع ذلك بالغزو العسكري الفرنسي وفرض الانتداب البريطاني على فلسطين (وشرق الأردن) والعراق، كما فرض الاحتلال الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان.

4 - إستسلام الأتراك

بعد إستسلام القائد التركي الفريق **غالب باشا** وإتفاقه مع الملك عبد الله الأول بن الحسين بخصوص التسلم والتسليم حضروا إلى قصر الشريف فتن بن محسن بالمليساء وتقرر التسليم هناك وفق سبعة بنود أبرزها :

• تتراجع الطوابير في منتصف الليل إلى الثكنة الكبرى وتترك على الأبواب بعض الغفراء وفي تلك الساعة تتقدم القوات الراكبة العربية بقيادة فهد بن شاكر وسلطان بن راجح وحسين الجودي لتحتل الأبواب وتؤمن السلام والأمن العام.
• يخرج الوالي والقائد والأمراء العسكريون حتى رتبة بكباشي في هذه الليلة إلى قصر شبرا .
• مع الفجر يتقدم القائد سعيد بك ومعه من كان معه ممن ذكرت أسمائهم في مذكرة التسليم , ليضعوا أيديهم على الأسلحة والمدافع الموجودة فتوضع في مخازنها وتمهر بالشمع الأحمر .
• تتكفل القيادة العربية بالإعاشة والتموين .
• تصرف للهيئة المستسلمة معاشات ثلاثة أشهر .
• تنتظر الأوامر بالتوجه حالاً إلى الجهة المقتضية .
• الطوابير تترك تحت قيادة الرؤساء اليوزباشية والملازمين الأولين والملازمين الثانين .

5 - تطورات في ولائه وحروبه

نشبت الحرب العالمية الأولى سنة 1332 هـ - 1914م، وبعد التوجه القومي التركي للدولة العثمانية نصحه ابنه عبد الله بالتفاوض مع البريطانيين للمطالبة بمساعدتهم للانفصال من الدولة العثمانية ولقبول خلافة إسلامية عربية ، فتواصل معه البريطانيون من مصر، وعرضوا عليه خدماتهم من خلال ما عرف بمراسلات حسين مكماهون، فأعلن الثورة العربية الكبرى، في 9 شعبان 1334 هـ - 1916م، ووجه ابنه فيصلاً على رأس جيش كبير إلى سورية فدخلها بمساعدة غير مباشرة من الجيش البريطاني.

▪ *5 – 1 - حروبه في الشام*

بعث ابنه فيصل إلى سورية ليقيم فيها دولة عربية هاشمية ما أثار سخط الفرنسيين ليضربوا سوريا بمعركة ميسلون سنة 1920م واحتلوها، فاستنجد بعض زعمائها بالحسين، فوجه عبد الله ليثأر لأخيه، أو ليجمع على حدود سورية قوة تكون نواة لجيش يقلق الفرنسيين. واقترب منها عبد الله ونزل ببلدة عمَّان ودعاه البريطانيون إلى القدس فاتفقوا معه على أن تكون له إمارة شرقي الأردن، فأقام بعمَّان،. واستفحلت ثورة العراق على البريطانيين، فساعدوا فيصل على تولي عرش العراق، فكان فيصل في شمال الجزيرة العربية وعبد الله في عمَّان. وزار عمَّان سنة 1922، وأعلن نفسه خليفة (الأمر الذي كان حوله نقاش) وعاد إلى مكة ملقباً بأمير المؤمنين.

7 – نفيه

اشتد التوتر بينه وبين ابن سعود، فأقبلت جموع ابن سعود وجيوش حلفائه بقيادة سلطان بن بجاد من نجد وتربة البقوم والخرمة إلى مدينة الطائف، وتفوقوا على جيش الحسين المرابط فيها بعد انضمام خالد بن منصور بن لؤي الهاشمي وتعاونه مع ابن سعود ،واحتلتها. وسرى الذعر إلى مكة، فاتصل بالقنصل البريطاني في جدة الذي أجابه بأن حكومته قررت الحياد. واجتمع بجدة ببعض ذوي الرأي من أهلها ونصحوه بالتخلي عن العرش لأكبر أبنائه علي بن حسين ففعل وذلك لكي يقوم بدعم ابنه من الخارج وهذا ما حصل فعلا فقد ذهب للعقبة وصار يرسل المال لابنه لحرب ابن سعود، كما كان لسادن الكعبة عبد القادر بن محمد الشيبي دور عظيم في تخذيل أهل مكة عنه، واستمالتهم لابن سعود.

وانتقل من مكة إلى جدة سنة 1343 هـ - 1924م، فركب البحر إلى البتراء وكانت ولاية ابنه عبد الله. وأقام عدة أشهر ثم أخبره ابنه بأن البريطانيين يرون أن بقاءه في العقبة قد يعرضه لهجمات ابن سعود. ثم وصلت إلى مينائها مدرَّعة بريطانية، فركبها وهو ساخط إلى جزيرة قبرص سنة 1925 م، وأقام فيها ست سنين، ثم مرض فعاد إلى عمّان بصحبة ولديه فيصل وعبد الله، وبقي فيها حتى توفي ودفن في القدس.

8 – وفاته

توفي سنة 1350 هـ - 1931م، فحمل إلى القدس ودفن فيها.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

فيصل الأول بن حسين بن علي الهاشمي

تقديم

الملك فيصل الأول بن حسين بن علي الهاشمي 20 مايو 1883 - 8 سبتمبر 1933) ثالث أبناء شريف مكة حسين بن علي الهاشمي وأول ملوك المملكة العراقية (1921-1933) وملك سورية (مارس 1920- يوليو 1920).

1 - حياته ونشأته

ينتمي إلى أسرة آل عون الهاشمية ، وولد في مدينة الطائف وتربى مع إخوته بكنف أبيه حسين بن علي الهاشمي وفي رحاب البادية درس فيصل الابتدائية مع أخويه علي بن حسين ملك الحجاز فيما بعد وعبد الله الأول ملك الأردن فيما بعد ، حيث تعلموا اللغة التركية قراءة وكتابة. وقد نشأ مع البدو ليتعلم فصاحتهم وشجاعتهم ويتدرب على حياة الصحراء والتقشف وقسوة المعيشة ، وتعلم أيضا الفروسية والقتال بالسيف والبندقية.

في عام 1896 سافر مع والده الشريف حسين إلى الآستانة عاصمة الخلافة العثمانية بدعوة من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، لكي يكون قريبا منه وتحت مراقبته، واختير عمه شريفاً لمكة رغم أنه يفترض أن يتبوأ هو هذا المنصب.

أقام الجميع في قصر العدالة إقامة جبرية وتم انتداب مدرس خصوصي لتعليمه اللغة التركية مع أخوته الثلاثة أنجال الشريف حسين، وتعلم فيصل في الآستانة اللغات التركية والإنجليزية والفرنسية والتاريخ، وعلمه والده القرآن الكريم. حيث أتقن اللغتين التركية والإنكليزية وبعضا من اللغة الفرنسية. وتزوج هناك من حزيمة ابنة عمه ناصر في عام 1905 وأنجب منها : الملك غازي (1912 – 1939) ملك العراق لاحقا

عاد إلى مكة المكرمة وبقية أسرته في عام 1909 اثر تنصيب والده شريفا على مكة، وتحديداً بعد مجيء جمعية الإتحاد والترقي وخلع السلطان عبد الحميد الثاني،

عينه والده قائدا للسرايا العربية التي تقوم بقمع القبائل العربية المتمردة على السلطة العثمانية, وانتخب فيصل في مجلس " المبعوثان " البرلمان العثماني ممثلا عن مدينة جدة، فعاد إلى الاستانة واكتسب إثناء إقامته هناك خبرة سياسية ومعرفة شاملة بالسياسة التركية ورجالها.

2 - فيصل وجمال باشا

صادف وجود فيصل في دمشق صدور أحكام الإعدام على مجموعة من العرب المتورطين بدعوة دول أوربية لاحتلال بلدهم في بيروت ودمشق بأمر من جمال باشا، فتوسط لدى جمال باشا بأن يعفو عنهم ، إلا أن جمال باشا لم يستجب لذلك التوسط ، فأمر باعدامهم في ساحة المرجة بدمشق وساحة البرج في بيروت في 6 مايو / أيار 1916، فغضب فيصل غضبا شديداً لكنه كتم ذلك الغضب.

ثم تعامل مع جمال باشا بشكل حذر جدا حتى لا يثير شكوكه وارتيابه في حركة التمرد التي كان يخطط لها والده بالتعاون مع بريطانيا . وعلى الرغم من توتر العلاقة بين فيصل وجمال باشا فقد استأذنه فيصل للعودة إلى مكة، فوافق جمال باشا على طلبه. فعاد إليها فيصل قبل قيام الثورة العربية بشهر.

3 - الثورة العربية الكبرى

قام حسين بن علي الهاشمي شريف مكة بإعلان ثورة ضد الدولة العثمانية في يونيو عام 1916 بدعم من بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى. وتمكنت قواته من تفجير خط سكة قطارات الحجاز بمساعدة ضابط المخابرات البريطاني لورنس ، وطردوا الجيش العثماني من مكة والمدينة المنورة والطائف وجدة وينبع والعقبة.

4 - الملك فيصل ملكاً على سورية (1918 - 1920)

دخلت قوات الجيش العربي إلى مدينة دمشق بصحبة الأمير فيصل بن حسين الذي تولى قيادة الجيش الشمالي في مطلع تشرين الأول / أكتوبر من عام 1918، فانسحب منها ومن جميع مدن سوريا الجيش العثماني ، وقوبل دخول فيصل إلى دمشق باستقبال شعبي وعسكري عظيم ، وأيدت جموع الشعب الثورة ، واستجابت لأوامر القيادة العربية.

أعلن الأمير فيصل تأسيس حكومة عربية في دمشق ، وكلف الفريق **علي رضا الركابي** بتشكيل أول حكومة عربية لسورية ولقب بالحاكم العسكري. وعين اللواء **شكري الأيوبي** حاكماً عسكرياً لبيروت **وعين جميل المدفعي** حاكماً على عمّان **وعبد الحميد الشالجي** قائداً لموقع الشام **وعلي جودت الأيوبي** حاكما على حلب.

في 8 مارس / آذار 1920 أعلن المؤتمر السوري العام استقلال سورية العربية تحت اسم المملكة السورية العربية وتتويج الأمير فيصل بن حسين ملكاً عليها بعد سلسلة من المباحثات المكثفة التي أجراها المؤتمر مع أنصاره ، وكان أخوه زيد بن الحسين أول المبايعين له على عرش سورية.

و لكن بموجب اتفاقية سايكس بيكو بين بريطانيا وفرنسا زحفت الجيوش الفرنسية باتجاه دمشق، بعد أن نزلت بالساحل اللبناني، وقامت القوات الفرنسية بتوجيه **بإنذار غورو** إلى الأمير فيصل في 14 يوليو / تموز 1920 بعدم مقاومة الزحف الفرنسي وتسليم الخطوط الحديدية وقبول تداول ورق النقد الفرنسي السوري وتسريح الجيش العربي وإلغاء التجنيد الإجباري، وغير ذلك مما فيه القضاء على استقلال البلاد وثروتها، وذلك خلال أربعة أيام.

تلقى الأمير فيصل الإنذر وتردد ووزارته بين قبول الإنذر أو رفضه ، ثم اتفق أكثرهم على القبول ، وأرسلوا برقية إلى الجنرال غورو بالموافقة على بنود الإنذر، وأوعز فيصل بحل الجيش ، وعارض هذا بشدة وزير الحربية **يوسف العظمة**.

وبينما كان الجيش العربي المرابط على الحدود يتراجع منفضاً حسب الإنذار كان الجيش الفرنسي يتقدم نحو دمشق، وعلم فيصل بأن القوات الفرنسية تزحف بإتجاه دمشق، واستدعى ضابط الارتباط الفرنسي الكولونيل كوس ليستفسر منه الأمر، الذي وعده بالسفر حالاً للتحقيق في الأمر، ثم وفي عصر ذلك اليوم عاد كوس ليقول أن سبب زحف القوات الفرنسية هو أن برقية قبول الإنذر التي أرسلها الملك بالأمس لم تصل إلى الجنرال غورو في الوقت المحدد بل تأخرت نصف ساعة من جراء قطع العصابات خطوط التلغراف.

فعاد فيصل والغى قرار الحل واعلن عن تأليف جيش أهلي يقوم مقام الجيش المنفض في الدفاع عن البلاد ، وتسارع شباب دمشق وشيوخها إلى ساحة القتال في خان ميسلون، قاد هذا الجيش المكون من ثلاثة آلاف مقاتل من المتطوعين وإلى جانبهم عدد يسير من الضباط والجنود وزير حربيته يوسف العظمة بقوات غير متكافئة مع قوات الجيش الفرنسي المزودة بالدبابات والطائرات ، وحارب ببسالة ولكن المعركة لم تدم طويلاً، واستشهد يوسف العظمة ودخلت الجيوش الفرنسية دمشق في 24 يوليو / تموز 1920، وعرفت المعركة فيما بعد **بمعركة ميسلون**.

بعد أحداث معركة ميسلون واحتلال القوات الفرنسية لدمشق غادر فيصل سورية فاتجه إلى حوران ثم إلى حيفا ومنها إلى كومو في إيطاليا ومنها إلى لندن في أكتوبر / تشرين الأول 1920 بدعوة خاصة من العائلة البريطانية المالكة ، وبمغادرته انتهت الملكية في سورية لتبدأ حقبة الانتداب الفرنسي على سورية.

5 - مشاركته في مؤتمر الصلح

عقدت الهدنة العامة بين الحلفاء وألمانيا ، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وبدأت الاستعدادات لعقد مؤتمر فرساي في باريس، عندها استفسرت وزارة الخارجية البريطانية من الجنرال اللنبي في دمشق، ووينغيت في القاهرة، عن رأيهما في توجيه الدعوة إلى الشريف حسين، للمشاركة في المؤتمر، باعتباره مساهماً في المجهود الحربي ، على أن يمثله ابنه الأمير فيصل، فلما أيدا الفكرة قامت بإبلاغ الشريف حسين بالمؤتمر.

تلقى الأمير فيصل برقية من والده الشريف حسين يطلب فيها أن يمثله في مؤتمر الصلح ، فسافر إلى بيروت في 17 نوفمبر 1918 ليغادرها على ظهر بارجة حربية بريطانية برفقة نوري السعيد ورستم حيدر والدكتور أحمد قدري ، وفائز الغصين وتوماس إدوارد لورنس. وعندما وصلت البارجة ميناء مرسيليا الفرنسي في 22 نوفمبر 1918 وجد فيصل نفسه وجهاً لوجه أمام تبدل سياسي مقلق أثار في نفسه بعض المخاوف، هذا التبدل يتلخص بقوله: وقد جبهني الفرنسيون بأقوال يمكن إجمالها بما يلي : إن فرنسا لا تعلم شيئاً عن طبيعة المهمة الرسمية التي سأضطلع بها في المؤتمر، لذا ليس من المرغوب فيه أن أتابع سفري إلى باريس.

وإبقاءً على مظاهر المجاملات والليلقات قضى فيصل في فرنسا عشرة أيام، زار خلالها بعض المدن الفرنسية، وميادين الحرب، وجهت إليه الدعوة أخيراً لزيارة باريس بنتيجة ضغط شديد من بريطانيا، فسافر إليها، واستقبله رئيس الجمهورية بوانكاريه ، وفي مساء يوم9 ديسمبر 1918 غادر فيصل إلى لندن. وأقام فيها حتى 7 يناير 1919 عندما غادرها إلى باريس لحضور المؤتمر , وفي الكلمة التي ألقاها أمام المؤتمر قال : إن العرب يعترفون بالجميل لبريطانيا وفرنسا، ويشكرونهما على ما قدمتاه من عون في سبيل تحرير أوطانهم، والعرب يطالبون الآن أن يفي الحلفاء بالوعود التي قطعوها على أنفسهم.

لم يتمكن فيصل من عرض قضيته أمام المؤتمر إلا في يوم 6 فبراير 1919 م. في حين كان انعقاد المؤتمر في يوم 1 يناير 1919. حيث قدم مذكرة أولى، ثم مذكرة ثانية في يوم 29 فبراير 1919، وجاء فيه قوله:

« جئت ممثلاً لوالدي الذي قاد الثورة العربية ضد الترك تلبية منه لرغبة بريطانيا وفرنسا لأطالب بأن تكون الشعوب الناطقة بالعربية في آسيا من خط الإسكندرونة ديار بكر حتى المحيط الهندي جنوبًا ، معترفًا باستقلالها وسيادتها بضمان من عصبة الأمم. ويستثنى من هذا الطلب الحجاز وهو دولة ذات سيادة ، وعدن وهي محمية بريطانية.وبعد التحقق من رغبات السكان في تلك المنطقة يمكننا أن نرتب الأمور فيما بيننا، مثل تثبيت الدول القائمة فعلاً في تلك المنطقة، وتعديل الحدود فيما بينها وبين الحجاز، وفيما بينها وبين البريطانيين في عدن، وإنشاء دول جديدة حسب الحاجة وتعيين حدودها، وستتقدم حكومتي في الوقت المناسب بمقترحات تفصيلية في هذه النقاط الصغيرة وإني لأستند في مطلبي هذا على المبادئ التي صرح بها الرئيس ولسن (وهي مرفقة بهذه المذكرة) وأنا واثق من أن الدول الكبرى ستهتم بأجساد الشعوب الناطقة بالعربية وبأرواحها أكثر من اهتمامها بما لها هي نفسها من مصالح مادية»

6 - اتفاقيته مع حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية

اتفاقية فيصل ووايزمان التي وقعت من قبل الأمير فيصل بن حسين بن علي مع حاييم وايتسمان رئيس المنظمة الصهيونية آنذاك وأول رؤساء إسرائيل لاحقا في مؤتمر باريس للسلام 1919 م للتعاون بين العرب واليهود في الشرق الأوسط .

وهذه الاتفاقية ستذكر لاحقا مع ترجمة لحاييم ويزمان

7 - الملك فيصل ملكاً على العراق (1921 - 1933)

على إثر ثورة العشرين في العراق ضد الاحتلال البريطاني عقد مؤتمر القاهرة عام 1920 بحضور ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطاني آنذاك للنظر في الوضع في العراق. والذي أعلن عن تغيير الحكومة البريطانية سياستها بالتحول من استعمار مباشر إلى حكومة إدارة وطنية تحت الانتداب ، على إثر تكبد القوات البريطانية في العراق خسائر فادحة.

أعلنت بريطانيا عن رغبتها في إقامة ملكية عراقية، ورشح في هذا المؤتمر فيصل بن حسين بن علي ليكون ملكا للعراق، فتشكل المجلس التأسيسي من بعض زعماء العراق وشخصياته السياسية المعروفة كمثل نوري السعيد باشا، ورشيد عالي الكيلاني باشا، وجعفر العسكري، وياسين الهاشمي وعبد الوهاب النعيمي الذي عرف بتدوين المراسلات الخاصة بتأسيس المملكة العراقية. وأنتخب نقيب أشراف بغداد السيد عبد الرحمن الكيلاني النقيب رئيسا لوزراء العراق والذي نادى بالأمير فيصل ملكاً على عرش العراق.

في 12 يونيو 1921 غادر فيصل ميناء جدة إلى العراق على متن الباخرة الحربية البريطانية نورث بروك، التي وصلت لميناء البصرة يوم 23 يونيو 1921، فاستقبل الأمير فيصل استقبالا رسميا حافلا، وبعدها سافر بالقطار إلى الحلة وزار الكوفة والنجف وكربلاء، ووصل بغداد في 29 يونيو 1921 واستقبله في المحطة السير بيرسي كوكس المندوب السامي البريطاني والجنرال هولدن قائد القوات البريطانية في العراق ورئيس الوزراء العراقي المنتخب عبد الرحمن النقيب.

في 16 يوليو 1921 أذاع المندوب السامي البريطاني السير بيرسي كوكس قرار مجلس الوزراء العراقي بمناداة فيصل ملكا على العراق في ظل حكومة دستورية نيابية، توج الملك فيصل ملكاً على العراق باسم الملك فيصل الأول بعد تصويت حصل فيه على نسبه 96 % من أصوات المجلس. وتم تتويجه في 23 أغسطس من عام 1921، في ساحة ساعة القشلة ببغداد.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

بعد مبايعته ملكا على العراق وفي عام 1930 عقد معاهدة مع بريطانيا، سميت بمعاهدة 1930 أقرت بموجبها بريطانيا استقلال العراق عن التاج البريطاني وإنهاء حالة الانتداب، وضمنت الاتفاقية أيضا بعض التسهيلات لبريطانيا في مجال تسهيل مرور القوات البريطانية في أوقات العمليات الحربية، والتعاون في المجالات الاقتصادية.

8 - وفاته والشكوك حولها

سافر الملك فيصل الأول إلى بيرن في سويسرا في 1 سبتمبر 1933، لرحلة علاج وإجراء فحوص دورية ولكن بعد سبعه أيام أُعلن عن وفاته في 8 سبتمبر 1933، أثر أزمة قلبية ألمت به . وقيل وقتها بأن للممرضة التي كانت تشرف على علاجه لها علاقة بموته حيث شيع بأنها قد سمته بدس السم في الإبرة التي أوصى الطبيب بها. وقد نشرت صحف المعارضة العراقية أن الوفاة لم تكن طبيعية، وشككت في دور بريطانيا في القضاء عليه، ودس السم في شرابه أو في الحقن الطبية التي كانت يحقن بها. وكانت تقارير الأطباء السويسريين قبل وفاته بيومين تؤكد أنه بصحة جيدة ولا يعاني من أمراض خطيرة، ولكن تقرير الوفاة ذكر أن سبب الوفاة هو تصلب الشرايين. وأرجعت الممرضة البريطانية التي كانت ترافقه سبب الوفاة إلى التسمم بالزرنيخ الذي أذيب في الشاي الذي شربه قبل وفاته بست ساعات، خاصة أن الأعراض التي ظهرت عليه في الاحتضار كانت أعراض التسمم بالزرنيخ.و يذكر طبيبه الإنكليزي هاري سندرسن , بأن اخر اقوال فيصل كانت

« لقد قمت بواجبي , فلتعش الامة من بعدي بسعادة , و قوة , و اتحاد »

حُنطت جثته وأُرسلت إلى إيطاليا ومنها إلى ميناء حيفا ومنه إلى عكا ومنها إلى مدينة الرطبة العراقية عن طريق الجو، حيث وصلت بغداد في 15 سبتمبر 1933 ودُفن في المقبرة الملكية في منطقة الأعظمية في بغداد.

تولي أبنه الأكبر غازي الأول عرش العراق في سبتمبر 1933.

علي رضا الركابي

1 - تقديم

علي رضا باشا الركابي (1868 - 25 مايو / أيار 1942) سياسي سوري وأول رئيس وزراء في سوريا وكذلك كان بعد ذلك ثالث رئيس وزراء في الأردن.

عاصر الحكم العثماني، وكان ركناً بارزاً فيه. عندما رحل الأتراك، ونهض الحكم العربي الفيصلي، شكل أول وزارة في تاريخ سورية . وكان له الفضل في تشكيل وزارتين في الأردن، ووضع نظامه المالي والإداري. ودعم الثورة السورية لدى قيامها، تقلب في عدد كبير من المناصب، وعهد إليه بعدد كبير آخر من المسؤوليات والمهام. كان إدارياً حازماً، ونزاهته تعتبر من الأساطير في هذه الأيام. رضا الركابي كان جزءاً من تاريخ سوريا الحديث. غير أنه لم ينل حقه الكافي من الشهرة والدراسة والتحليل.

2 – البداية

ينتمي علي رضا باشا الركابي السياسي السوري إلى أسرة دمشقية. تلقى تعليمه الابتدائي في المدرسة الرشدية العسكرية. وانتقل منها إلى المدرسة الإعدادية. ولأنه كان متفوقاً على جميع أقرانه، وتقديراً لعلامات النبوغ والعبقرية لديه، فقد أرسل من دمشق إلى المدرسة الحربية في الآستانة، حيث درس فيها الشؤون العسكرية. وتخرج منها حاملاً رتبة " رئيس أركان حرب ". بعد تخرجه من المدرسة الحربية عين قائدا للجيش التركي في القدس، ووكيلاً لمتصرفها. عندما أعلن الدستور العثماني، عين رئيساً للشعبة الخاصة في الآستانة. ونقل منها إلى المدينة المنورة، حيث عين محافظاً فيها وقائداً لجيشها، وذلك بعد أن جرت ترقيته إلى رتبة أمير لواء. رحل إلى العراق، حيث تسلم قيادة الجيش في بغداد والبصرة.

عندما أعلنت الحرب العالمية الأولى عام 1914، استشارته الحكومة العثمانية، بين من استشارتهم من قواد جيوشها، بشأن دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب حليفتها الدولة الألمانية، أو عدمه. وكان رأي رضا باشا الركابي، أن تظل الدولة العثمانية على الحياد، لأنه كان مطلعاً على حقيقة وضع الجيش العثماني وأسلحته وعتاده، وضعف إمكانياته. ولأنه أشار بضرورة الحفاظ على الحياد في هذه الحرب

الطاحنة، فقد اعتبر من الانهزاميين والجبناء، فصدر الأمر بتسريحه، وإحالته إلى التقاعد. وكان وراء تسريحه وتقاعده عدد من المسؤولين والضباط المندفعين والمتحمسين لخوض الحرب، إلى جانب الصديقة والحليفة الدولة الألمانية.

عندما عاد الركابي إلى دمشق ، بعد تسريحه، أراد جمال باشا الإفادة من علمه وخبرته، مع حرصه على وضعه تحت رقابته، لذا أمر بتعيينه رئيساً لبلدية دمشق، ورئاسة التحكيمات. وقد آثر الركابي قبول هذين المنصبين، كي يدفع عن نفسه الشبهات. فقد كان الرجل في حقيقته من مؤسسي " جمعية العربية الفتاة " و" جمعية العهد ". وهاتان الجمعيتان كانتا أول من زرع بذور القومية العربية في العهد العثماني.

3 - تشكيل أول وزارة سورية

عقب إعلان الثورة العربية الكبرى، ودخول الجيش العربي دمشق، عين رضا الركابي حاكماً عسكرياً للمنطقة الشرقية. عندما أعلن المؤتمر السوري استقلال سورية في الثامن من اذار/ مارس 1920 وتسلم زمام الحكم الأمير فيصل بن الحسين، ونودي به ملكاً على سورية، عهد إليه بتشكيل أول وزارة عربية، فتسلم الركابي زمام الأمور، وشكل الوزارة، ولقب بالحاكم العسكري. بعد معركة ميسلون غير المتكافئة، ودخول القوات الفرنسية إلى دمشق وانتهاء العهد الفيصلي، رحل رضا الركابي إلى مصر. وانتقل منها إلى الحجاز. وهناك كلفه الشريف حسين بالذهاب إلى الأردن، لمساعدة ولده الأمير عبد الله بتأسيس وإدارة دولة شرقي الأردن.

4 - علي رضا الركابي في الأردن

تم تكليف علي رضا الركابي بتأليف حكومة أردنية جديدة في 10 مارس 1922 بعد استقالة مظهر رسلان . وعمل على وضع القوانين والأنظمة المناسبة للدولة الأردنية الجديدة، ولاسيما في نطاق الأنظمة المالية والجهاز الإداري. وفي الثالث من تشرين الأول 1922 دعاه الأمير عبد الله إلى مرافقته في رحلة إلى لندن، لعقد معاهدة بين الأردن وبريطانيا، وبحث الشؤون العربية هناك.

ومكث الركابي مع الأمير عبد الله بعض الوقت. ثم غادر الأمير لندن واستبقى رئيس وزرائه للاتفاق مع وزارة المستعمرات البريطانية على الشكل النهائي لحكومة الأردن. وقد وفق رضا الركابي بالحصول على موافقة بريطانيا على استقلال المنطقة استقلالاً نيابياً، على أن لا يشملها وعد بلفور المشؤوم بإنشاء الدولة الصهيونية على الأرض الفلسطينية. عاد الركابي بعدها إلى الأردن. ثم نشأ بين الأمير عبد الله وبينه خلاف حول بنود هذا الاتفاق، أدى إلى تقديم استقالته من رئاسة الوزراء.

وفي أوائل عام 1924 دعي رضا الركابي ثانية إلى تشكيل الوزارة في الأردن. فاستجاب لهذه الدعوة، وشكل الوزارة ثانية. وظل في منصبه هذا إلى حزيران من عام 1926، حيث استقال، وانتقل للإقامة بين حيفا والقدس طوال سنتين ولصف السنة. وكان الركابي يوم شكل وزارته، قد أعلن في برنامجه الوزاري، العمل بالصدق والإخلاص في القول والعمل، وتوزيع العدالة بين جميع أفراد الشعب، والمراعاة التامة لشؤون الاقتصاد، والاعتماد على الكفاءات في التوظيف، وقمع بذور الفساد، وكل ما يسيء إلى السمعة. ودعا إلى التعاضد والتكاتف في جميع أمور الإصلاح، وصيانة المنطقة من الأحوال المخلة بالأمن.

وكان الركابي وهو رئيس للوزراء في الأردن، يدعم الثورة السورية بكل إمكاناته سراً، ويذكي روح المقاومة بين صفوف الثوار. ومن أجل هذا، لم يستطع عقب استقالته من رئاسة الوزارة العودة إلى أرض الوطن، بل آثر الإقامة في فلسطين، إلى أن انتهت الثورة، وصدر العفو العام على كل من شارك بالثورة. وكان خلال إقامته في الأرض الفلسطينية، يعيش عيش الكفاف، بسبب فقره وضيق ذات يده. بعد عودته إلى دمشق، ووفاة الملك الهاشمي فيصل الأول، اعتزل الرجل، النزيه ، العمل السياسي ولزم بيته ، ورحل إلى جوار ربه عام 1942، بعد أن عانى من مرض الشلل طويلا .

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

علاء الدين الدروبي

1 - تقدبم

علاء الدين الدروبي (1286هـ / 1870 م – 21 أغسطس 1920 م) هو علاء الدين باشا بن عبد الحميد باشا الدروبي

2 - نشأته تعليمه

ولد علاء الدين بن عبد الحميد باشا الدروبي في حمص سنة 1870 م وتعلمَ فيها، ثم انتقل إلى الآستانة للدراسة. كان علاء الدين الدروبي هو ثالث ثلاثة ذهبوا إلى الآستانة للدراسة العالية في معاهدها (وهم علاء الدين الدروبي ونجم الدين الدروبي وهاشم الأتاسي) ، حيث درسوا الحقوق السياسيبة والأصول الدولية، وتخرج الثلاثة من معهد غلطة كما كان يسمى آنذاك.

3 - مناصبه السياسية

عين علاء الدين الدروبي سفيرًا للباب العالي في البلقان ثم واليًا في مملكة اليمن ثم حاكما للبصرة . بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، عاد الدروبي إلى سورية، واشترك في الوزارة التي شكَّلها هاشم الأتاسي سنة 1920 أيام الملك فيصل الأول وزيرًا للداخلية ، ولمّا غادر فيصل سورية كُلِّف علاء الدين من قبل الفرنسيين في يوليو 1920 بتأليف وزارة جديدة ففعل.

- *3 – 1 - الوزارة الدروبية*

في الرابعة بعد ظهر يوم الأحد 25 يوليو (تموز) عام 1920، دخلت قوات الاحتلال الفرنسي دمشق ، بعد معركة ميسلون التي استشهد فيها وزير الدفاع السوري يوسف العظمة

بعد معركة ميسلون ودخول الجنرال غورو دمشق استقالت وزارة هاشم الأتاسي، فكلّف الملك فيصل علاء الدين الدروبي بتأليف وزارة جديدة (وهي الثالثة في عهد فيصل)، فشكّلها الدروبي محتفظًا بثلاثة من الوزراء السابقين منهم فارس الخوري الذي بقي وزيراً للمالية.

كانت وزارة علاء الدين الدروبي هي أول وزارة تشكل خلال فترة الانتداب ؛ إذ تشكلت يوم 28 يوليو (تموز) 1920 مع بدء الاحتلال الفرنسي وانتهت بمقتل الدروبي يوم 21 أغسطس (آب) 1920 .

يبرر فارس الخوري اشتراكه في هذه الوزارة تحت الاحتلال الفرنسي بقوله :

قبلت أن أشترك مع السيد علاء الدين الدروبي في الحكم لرغبتنا في ألاّ يدخل الفرنسيون دمشق وهي بدون حكومة وطنيّة ، فيفرضوا حكمهم المباشر متذرّعين بهذا الفراغ... وليبقى للبلاد كيانها واستقلالها ولو من الناحية الشكلية

- **3 – 1 – 1 - تشكيل الحكومة**

السيد علاء الدين الدروبي.
السيد عبد الرحمن اليوسف.
السيد جميل الألشي.
السيد عطا الله الأيوبي.
السيد فارس الخوري.
السيد محمد جلال الدين.
السيد بديع المؤيد العظم.
السيد يوسف الحكيم.

4 – اغتياله

بعد يومين من احتلال دمشق (أي يوم الثلاثاء 27 يوليو (تموز) 1920) أذاع قائد الحملة الفرنسية التي احتلت دمشق الجنرال غوابيه بلاغا جرد بموجبه الملك فيصل من سلطة الحكم وفرض غرامة حربية على سورية قدرها 10 ملايين ليرة ذهبية باسم تعويض لفرنسا عن خسائر الحرب، كما حُل الجيش السوري ونُزع سلاحه وطالب بتسليم كبار المذنبين (الوطنيين) ليحاكموا أمام المحكمة العسكرية ، وطلب نزع سلاح الأهالي وفرض عليهم تسليم قوات الانتداب الفرنسي 10 آلاف بندقية.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

وعلى الأثر نشر علاء الدين الدروبي رئيس الوزراء قرارًا يتضمن توزيع هذا المبلغ على المدن والمحافظات السورية. وشرع علاء الدين الدروبي في جمع الغرامة .

كانت السلطات الفرنسية قد أرسلت ـ عقب احتلالها لسورية ـ مفرزة مؤلفة من عشرين جنديا سنغاليًا إلى حوران، غير أن أهل حوران منعوا مجيء هذه القوة وأجبروها على العودة إلى دمشق بنفس القطار الذي قدموا به .

اهتم الفرنسيون لهذا التحدي الذي يحول دون توطيد كيانهم في تلك المنطقة، ورأى الدروبي أن يزور حوران لتهدئة الخواطر، ولإقناع زعمائها بتلبية دعوة الجنرال غورو للبحث معهم في شأن الغرامات التي فرضها على منطقتهم، والاتفاق معهم على كيفية الدفع. غير أن زعماء حوران أبوا الحضور، وكان الوفد يتألف من رئيس الوزراء يرافقه عبدالرحمن باشا اليوسف رئيس مجلس الشورى ، والسيد عطا الأيوبي وزير الداخلية، والشيخ عبد القادر الخطيب، والسيد أحمد الخاني مرافق رئيس الدولة والسيد منير بدر خان.

قبل أن يغادر الوفد دمشق كان الخبر قد وصل إلى شيوخ العشائر في حوران، ويذكر الزعيم السوري الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في مذكراته أن الشيخ فواز البركات الزعبي دعا فور وصول الخبر إليه المجاهدين أحمد مريود ونبيه العظمة والأمير محمود الفاعور للإجتماع في منطقة الأزرق، وتمَّ الاتفاق في الإجتماع على قتل جميع أعضاء الوفد ومصادرة القطار الذي سيحضرهم وتحريكه إلى عمَّان، وتمَّ تكليف عدد من الثوار وشباب العشائر الحورانية لتنفيذ المهمة عند وصول الوفد إلى خربة غزالة .

عندما اتصل خبر هذه الزيارة بمتصرف حوران " أبي الخير الجندي " ، أبرق المتصرف إلى وزير الداخلية يعلمه بأن الشعب الحوراني في هياج ، وأن الوضع الراهن يستوجب تأجيل الزيارة ريثما تهدأ الحالة، ولما علم بإصرار رجال الحكومة على المجيء عززها ببرقية ثانية بين فيها خطورة الحالة، والعدول عن الزيارة مؤقتا. وصلت البرقية الأولى بالفعل إلى وزير الداخلية، أما الثانية فقد تأخر تسليمها ـ لأمر ما ـ دقائق معدودات كان خلالها رجال الحكومة المشار إليهم قد ركبوا القطار في طريقهم إلى درعا.

وما إن وصل القطار الذي يقلُّ رجال الحكومة إلى محطة **خربة غزالة** حتى أمطره الثوَّار وشباب العشائر الحورانية بالرصاص، فقُتل رئيس الحكومة علاء الدين الدروبي على الفور، وهرب رئيس مجلس الشورى عبد الرحمن اليوسف إلى مخفر الشرطة فلحق به الثوار وقتلوه هناك، كما قتل معظم الضباط والجنود الفرنسيين المرافقين للوفد .

5 ـ رد الفعل الفرنسي على اغتياله

عقب الواقعة، وجه الجنرال غورو (المندوب السامي لحكومة الانتداب الفرنسي على لبنان وسوريا،) برقية تعزية إلى أعضاء حكومة دمشق وأسرتي الدروبي واليوسف، هذا نصها :

برقية من فخامة الجنرال غورو المندوب السامي للجمهورية الإفرنسية في سورية وكيليكيا وقائد جيش الشرق العام:

إلى أعضاء حكومة دمشق وأسر علاء الدين الدروبي وعبد الرحمن باشا يوسف.

لقد ساءني أني فوجئت بمصرع علاء الدين بك الدروبي رئيس مجلس الوزراء، وعبد الرحمن بك اليوسف رئيس مجلس الشورى، وإني أعرب لأعضاء حكومة دمشق ولأسرتيهما الكريمتين عن عواطف التعزية الخالصة.

لقي علاء الدين بك الدروبي وعبد الرحمن باشا اليوسف حتفهما إبان قيامهما بمهمة التوفيق الشريفة التي باشرا بها. وإني أواسي جميع الذين كانوا يحبونهما ويجلبون قدرهما من الأهلين والخلان، وأشارك في الأسف سائر من يعملون قدر الخدمات التي قاما بها للبلاد.

..... عاليه - في 21 آب 1920 الجنرال غورو

أثار مقتل الدروبي ومن معه غضب الفرنسيين، فأرسل الجنرال غوابيه ـ قائد الفرقة الثالثة لجيوش الشرق الفرنسية في سوريا ـ في 2 أيلول 1920 إنذارًا شديد اللهجة لشيوخ وأهالي حوران لتسليم ثوَّار عملية خربة غزالة للفرنسيين، ولكن الإنذار الفرنسي قوبل من الثوَّار بتصعيد في عملياتهم ضد المحتلين الفرنسيين .

وقد اعتبرت فرنسا أن المسؤول عما وقع هو الأمير فيصل ، الذي اجتمع بزعماء حوران عندما مر من درعا وحرضهم على الثورة ، واعدًا إياهم أنه لن يتنازل عن عرشه في سورية، وقد أمر غورو حكومة دمشق المعينة من قِبله بفرض غرامات على الحوارنة، وحُددت دية الدروبي بعشرة آلاف ليرة ذهبية، ودية عبد الرحمن اليوسف مثلها، وخمسة آلاف دية المقتول وحيد عبد الهادي، وخمسة آلاف دية كل فرنسي برتبة ضابط وخمسمائة ليرة ذهبية عن كل جندي فرنسي، ومائة ألف ليرة ذهبية غرامة حربية، وإدانة الثوار الذين نفذوا عملية القتل بأعضاء الوفد والحكم عليهم بالإعدام وهم : إبراهيم سليم الزعبي، وشقيقه فرحان سليم الزعبي وفارس أحمد الزعبي وفرحان سليم الزعبي وصلاح المصري ومحمد يوسف الحريري، وقاسم الداغر، وثلاثة غيرهم.

6 – دفنه

بعد مقتل الدروبي نقل جثمانه إلى مسقط رأسه حمص حيث دفن فيها .

محمد عزة دروزة

تقديم

محمد عزة بن عبد الهادي دروزة (21 حزيران 1887 - 26 تموز 1984) مفكر وكاتب ومناضل قومي عربي ولد في نابلس وتوفي في دمشق. إضافة إلى نضاله السياسي، كان أديباً ومؤرخاً وصحفياً ومترجماً ومفسراً للقرآن . هو أحد مؤسسي الفكر القومي العربي إلى جانب ساطع الحصري وزكي الأرسوزي.

اتخذ نضاله شكلاً وحدوياً تجاوز ظروف التجزئة والحدود المصطنعة، فشارك في تأسيس ونشاط الجمعيات والأحزاب الاستقلالية العربية الوحدوية النضالية في سورية الكبرى (قبل تقسيمها من قبل الاستعمار عام 1920)، مثل جمعية العربية الفتاة وحزب الاستقلال العربي وعارض سياسة التتريك . هو أحد أعضاء المؤتمر السوري العام (1919 م) وسكرتير الجمعية التأسيسية ، وأحد واضعي الدستور السوري الأول . أعلن من على شرفة بلدية دمشق في ساحة المرجة استقلال سورية وتأسيس المملكة السورية العربية في 8 آذار عام 1920. قاد العديد من النشاطات المناهضة للانتداب البريطاني على فلسطين وسياسة تقسيم الأراضي العربية، ودعا إلى توحيد سورية ومصر في خمسينيات القرن العشرين. تعتبر سيرته الذاتية تأريخاً لمسيرة الحركة الوطنية النضالية والاستقلالية والوحدوية خلال القرن العشرين.

ترك دروزة أكثر من خمسين كتابًا في علوم شتى تتعلق بالعروبة والإسلام والتاريخ العام، ومنها سلسلة كتب في تاريخ الحركة العربية وأصول القومية العربية والوحدة العربية. تُعد مؤلفاته وبالذات كتاب " الوحدة العربية " من أهم ما كتب عن القومية العربية وعن طرق تحقيق الوحدة العربية.

1- أسرته

نشأ محمد عزة (وتنطق عِزّت) في أسرة من عشيرة " الفريحات " التي تسكن قرية كفرنجة في منطقة عجلون شرق الأردن. ويبدو أن قسماً كبيراً من العشيرة قد هجر القرية في أوائل القرن الحادي عشر الهجري، واتجه بعضهم إلى نابلس .

كان والده عبد الهادي بن درويش دروزة تاجرًا للأقمشة في سوق خان التجار القديم الشهير في المدينة القديمة في نابلس، حيث كان يستورد بضائعه من بيروت ودمشق، كما يُفيد محمد عزة في مذكراته، ويُعتقد أن اسم عائلته مشتق من عمل بعض أجداده بالخياطة.

2 - تعليمه وثقافته

تلقى دروزة تعليمه الأساسي في نابلس حيث حصل على الشهادة الابتدائية في سنة 1900، التحق بعدها بالمدرسة الرشادية (الفاطمية اليوم) ، وهي مدرسة ثانوية متوسطة، وتخرج منها بعد ثلاث سنوات، حاصلاً على شهادتها.

قام دروزة بتثقيف نفسه ، وتغطية جوانب النقص بالقراءة والاطلاع الدءوب للتعويض عن عدم إتمام دراسته، فقرأ ما وقع تحت يديه من كتب مختلفة في مجالات الأدب والتاريخ والاجتماع والحقوق سواءً ما كان منها باللغة العربية أو بالتركية والإنجليزية اللتان كان يجيدهما.ل

أتاح له عمله في مصلحة البريد الاطلاع على الدوريات المصرية المتداولة في ذلك الوقت كالأهرام ومجلة الهلال وجريدة المؤيد وجريدة المقطم ومجلة المقتطف، بحكم مرور هذه المطبوعات عبر البريد لتوزيعها على المشتركين. كانت هذه الدوريات تحمل زاداً ثقافياً متنوعاً وتناقش القضايا الساخنة في ذلك الوقت، ففتحت آفاق الفكر أمام عقل الشاب النابه، ووسعت مداركه، وصقلت مواهبه، وأوقفته على ما كان يجري في أنحاء الدولة العثمانية من أحداث.ل

لم يتلق دروزة العلم على أيدي علماء متخصصين إلا لفترات بسيطة ومتقطعة حضر خلالها دروساً في الفقه على الشيخ مصطفى الخياط في الجامع الصلاحي الكبير بنابلس، ودروساً في الحديث من كتاب صحيح البخاري على الشيخ سليمان الشرابي، وأخرى في النحو والصرف على الشيخ موسى القدومي الذي كان مديراً للمعهد الديني في نابلس حتى عام 1967.

واصل دروزة الاهتمام بالعلم والتعليم خلال أدائه وظيفته، وكان يحمل صندوق كتبه في كل أسفاره وتنقلاته، وصار لا يترك الكتاب من يده في معظم يومه حتى أنه قرأ في فترة لا تتجاوز الثلاثين سنة ألفًا وخمسمائة كتاب ومجلد في مختلف المواضيع من لغة وصرف ونحو وأدب وشعر وقصص وتاريخ وتفسير وسيرة وحديث.

3 - وظائفه وسيرته المهنية

تنقل دروزة مهنياً في ثلاثة مجالات هي البرق والبريد، والتربية والتعليم، والأوقاف، قبل أن يتفرغ للسياسة وبعدها للكتابة.

- *3 – 1 - في البرق والبريد*

لم تمكنه ظروف أسرته المادية من استكمال دراسته ، فالتحق بالعمل الحكومي موظفاً في دائرة البرق والبريد في نابلس عام 1906، ثم انتقل إلى بيروت للعمل في مديرية البرق والبريد سنة 1914، ثم أصبح مديراً لها . رُقِّي مفتشاً لمراكز البرق والبريد المدنية في سيناء وبئر السبع، وظل يترقى في وظائفه حتى أصبح في سنة 1921 سكرتيراً لديوان الأمير عبد الله أمير شرق الأردن، لكنه تركه بعد شهر، واتجه إلى ميدان التعليم.

بدأت محاولات دروزة الأولى في الكتابة أثناء فترة عمله في دائرة البرق والبريد فاتصل بالصحافة، وشارك في تحرير جريدة الإخاء العثماني التي كان يصدرها في بيروت أحمد شاكر الطيبي، وكان يترجم لها فصولاً مما ينشر في الصحف التركية عن أخبار الدولة العثمانية وأحوال الحركة العربية. كان يكتب مقالاً أسبوعياً يتناول موضوعاً اجتماعياً أو وطنياً في جريدة الحقيقة البيروتية، التي كان يصدرها كمال بن الشيخ عباس. كما نشر مقالات في جريدة فلسطين التي كان يصدرها عيسى داود العيسى في يافا، وجريدة الكرمل التي كان يصدرها نجيب نصار في حيفا.

- *3 – 2 - في التربية والتعليم*

عاد دروزة إلى نابلس في تشرين الأول عام 1918 بعد شهر من سقوطها بيد البريطانيين عند نهاية الحرب العالمية الأولى. انتقل إلى ميدان التربية والتعليم، فتولى عام 1921 إدارة مدرسة النجاح الوطنية التي كانت قد تأسست في نابلس عام 1917. تحولت المدرسة على يديه إلى مركز من مراكز الوطنية إلى جانب رسالتها التعليمية والتربوية، فكانت تلقن طلابها حب العرب والعروبة، وتشعل في قلوبهم جذوة الوطنية، وتضع البرامج التي تغذي فيها الاعتزاز بالأمجاد والحضارة العربية والإسلامية.[20] أدت جهوده في السنوات الخمس التي تولى فيها إدارة المدرسة إلى تحسين نظمها وارتقاء مناهجها حتى أصبحت ذات مكانة كبيرة. تجلى أثره في توجهها الوطني، حيث تخرج في عهد رئاسته وتتلمذ على يديه كثير من الشباب الذين كان لهم دور بارز في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية. لعب دروزة في هذه المرحلة دوراً كبيراً في تثقيف طلاب المدرسة، الذين برز منهم قادة فيما بعد مثل سليمان النابلسي رئيس وزراء الأردن. كان من بين طلاب دروزة أكرم زعيتر، الذي أصبح دبلوماسياً ومناضلاً قومياً فيما بعد. ذكر زعيتر أن دروزة

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

كان يلقي درساً أسبوعياً على الطلاب عن مبادئ القومية العربية والمجتمع الحديث، وهذا كان ذا أثر كبير على تطور تفكيرهم وتوسعة آفاقهم.

ظل دروزة ملتزماً بهذا العمل خمس سنوات متصلة، ولم تشغله أعباء المدرسة عن كتابة المقالات الاجتماعية والتربوية، التي كان يمد بها مجلتي الكشاف في بيروت، والمرأة الجديدة في القاهرة، ونشر مقالات سياسية في جريدتي الجامعة العربية والقدس في فلسطين.

- *3 - 3 - في الأوقاف*

انتقل دروزة في سنة 1928 إلى العمل في إدارة الأوقاف الإسلامية، حيث عُين مأموراً للأوقاف في نابلس، ثم رُقّي في سنة 1932 مديراً عاماً للأوقاف الإسلامية في فلسطين،[17][23] وظل يشغل هذا المنصب حتى اندلاع ثورة فلسطين الكبرى سنة 1936. نتيجة لمشاركته في الثورة، أصدرت إدارة الانتداب البريطاني قراراً بعزله من منصبه في سنة 1937 وقراراً آخر بمنعه من العودة إلى فلسطين حيث كان خارجها عند اندلاع الثورة، وكان ذلك نهاية عهد دروزة بالوظائف الحكومية والأهلية

4 - نشاطه القومي ضد التتريك

في بدايات القرن العشرين، كان الجو الثقافي والسياسي في نابلس (التي تعرف بعش العلماء) غنياً ذا حراك دائم بفعل وجود عدد كبير من المثقفين والشخصيات القومية ذات الوزن الكبير مثل عوني عبد الهادي وحافظ بيك طوقان وسليمان النابلسي وإبراهيم القاسم وإبراهيم طوقان وعادل زعيتر وأكرم زعيتر وأسماء أخرى كثيرة ذكرها دروزة في مذكراته. فتحت هذه الأجواء الآفاق أمام دروزة ووجد نفسه في قلب الأحداث.

بدأ محمد عزة دروزة نشاطه السياسي عقب إعلان الدستور العثماني سنة 1908 وكان لم يتجاوز الثانية والعشرين بعد، فقد انتسب في بداية الأمر إلى نادي جمعية الاتحاد والترقي في نابلس ولكنه سرعان ما انفصل عنه بعد أن تبين له أن القائمين عليه تنكروا لوعودهم، وكانوا يهدفون إلى تتريك الأمة العربية والقضاء على لغتها وتراثها.

فسارع مع نفر من أصدقائه في مدينة نابلس إلى تأسيس فرع لحزب الائتلاف والحرية الذي تأسس في الأستانة ليكون معارضاً لأفكار جماعة الاتحاد والترقي ، وتسلم دروزة سكريتيرية هذا الفرع الذي كان له دور ملحوظ في إحباط أحد المشاريع اليهودية الاستيطانية المبكرة في غور نابلس .

أسس عام 1911 مع بعض رجالات نابلس **الجمعية العلمية العربية** وكان هدفها افتتاح مدارس عربية لمواجهة موجة التتريك التي كانت تقودها جمعية تركيا الفتاة . وفي سنة 1912 قام دروزة مع عدد من رفاقه من ذوي الميول القومية بتأسيس فرع لحزب اللامركزية الإدارية المؤسس في مصر والذي كان من جملة أهدافه الاستقلال المحلي عن التبعية العثمانية ومقاومة حملة تذويب العرب ولغتهم. تجمد نشاط هذا الفرع بعد تصاعد قمع السلطة للعرب في عهد جمال باشا السفاح وانضمام الدولة العثمانية إلى محور ألمانيا وإعلان الطوارئ وحالة الحرب.

شارك دروزة في تأسيس معظم الجمعيات والأحزاب العربية الهادفة إلى تحقيق السيادة العربية واستعادة الوحدة السورية والعربية، مثل حركة المطالبة الإصلاحية عام 1912، والمؤتمر العربي الأول سنة 1913، وجمعية العربية الفتاة سنة 1916، والجمعية الإسلامية المسيحية سنة 1917، والنادي العربي.

5 - نشاطه القومي ضد الاستعمار الغربي ودعوته لتوحيد سورية

بعد هزيمة السلطنة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، سقطت سورية بيد الحلفاء، فانتقل دروزة إلى النضال ضد المستعمرين الفرنسيين والبريطانيين وقسمت بموجب اتفاقية سايكس بيكو. لعب دروزة دوراً مفصلياً في الدعوة إلى إعادة توحيد فلسطين وسورية. ففي حزيران عام 1919، وصلت لجنة كينغ-كرين الممثلة للرئيس الأمريكي وودرو ويلسون للإطلاع على رغبات أهل فلسطين. قبل وصول اللجنة، قام دروزة وحافظ بيك كنعان بجهود مكثفة لإقناع بعض الشخصيات المفصلية في فلسطين بضرورة الوحدة مع سورية ورفض فصل فلسطين عنها. اجتمع الاثنان بالشيخ أمين الحسيني وأخيه كامل الحسيني من قادة حزب النادي العربي في القدس، فأعلن الأخيران تأييدهما الفوري للفكرة واقترحا بأن يجتمع النابلسيان بقيادات أخرى من الجيل القديم مثل راغب النشاشيبي وحسام الدين جار الله وعارف الدجاني. تم الاجتماع في بيت النشاشيبي، وعندما علم الحضور بموافقة موسى كاظم الحسيني، أهم قادة الجيل القديم، وافقوا فوراً

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

على فكرة الوحدة السورية. وهكذا وصلت اللجنة إلى يافا وزارت القدس ونابلس وطولكرم وجنين والناصرة وحيفا وعكا وصفد وطبريا.

كانت طلبات العرب هي الوحدة مع سورية بينما طلب اليهود فصل فلسطين وتنفيذ وعد بلفور. كتبت اللجنة في استنتاجاتها في 27 حزيران أنها تؤيد وحدة سورية - فلسطينية تحت الانتداب البريطاني. وهكذا لعب دروزة دوراً محورياً في تهيئة الساحة السياسية الفلسطينية لاستعادة الوحدة مع سورية، ولكن الاستعمار الفرنسي والبريطاني لم يسمح بذلك.

امتد نشاط دروزة القومي الوحدوي إلى حيفا، حيث كان يلقي المحاضرات القومية هناك بدعوة من رفيقه في حزب الاستقلال والقيادي الحيفاوي رشيد الحاج إبراهيم.

- *5 – 1 - دوره في المؤتمر الفلسطيني الأول*

من خلال تنقلاته الوظيفية ، اتصل بكثير من الشخصيات الوطنية والقومية البارزة وقام بتشكيل الجمعيات الوطنية، التي باتت تشكل قاعدة الحركة الوطنية في فلسطين. عمل على تأسيس الجمعية الإسلامية المسيحية التي كان هدفها التوضيح بأن المعارضة للمطامع الصهيونية تأتي من المسلمين والمسيحيين على السواء ، وتولى منصب الأمانة العامة للجمعية. كان دروزة من الداعين إلى توحيد الجمعيات الوطنية التي تعمل في أنحاء فلسطين والتنسيق بين جهودها؛ فعقد المؤتمر الفلسطيني الأول في القدس في كانون الثاني 1919 برئاسة عارف الدجاني، وكان أهم ما صدر عنه التأكيد على المطالب القومية بالاستقلال والوحدة واعتبار فلسطين جزءاً من سوريا، ورفض المطامع الفرنسية وتجديد العلاقات مع بريطانيا على أساس التعاون فقط وعدم قبول أي وعد أو معاهدة جرت بحق البلاد ومستقبلها، وتولى دروزة مع زميل له إعداد مذكرة بخصوص هذا الشأن وتقديمها إلى الحاكم العسكري للبلاد لإرسالها إلى الحكومة في بريطانيا ، وإلى مؤتمر السلم المنعقد في باريس.

- *5 – 2 - علاقته مع الأمير فيصل بن الحسين*

شغل دروزة، إبان عهد الأمير فيصل بن الحسين في دمشق، عضوية الهيئة المركزية لجمعية العربية الفتاة، ثم تولى أعمال السكرتارية فيها، وكان صلة الوصل بين الجمعية من جهة، والأمير فيصل من جهة ثانية، وبين الجمعية والقوى السياسية من جهة أخرى. نتيجة لضيق نطاق العمل التنظيمي لجمعية العربية الفتاة، تأسس حزب الاستقلال العربي، في دمشق، عام 1919، كواجهة سياسية للجمعية، وكان دروزة عضواً مؤسساً فيه، إضافة لنشاطه وبعض رفاقه من الفلسطينيين في تأسيس الجمعية العربية الفلسطينية، كجهاز عمل خاص بالنضال الفلسطيني، له علاقاته مع الحركة الوطنية الفلسطينية، لمقاومة وعد بلفور والمخططات الصهيونية لإقامة وطن قومي يهودي في فلسطين.[12][31] كان من مؤسسي جمعية فتى فلسطين التي سعت للإعداد للعمل المسلح ضد اليهود والإنكليز منذ العام 1919 تقريباً.

عارض دروزة وبعض رفاقه في جمعية العربية الفتاة اتفاق **فيصل - كليمنصو**، الذي تم بعد زيارة فيصل لفرنسا. ودافع عن معارضته تلك داخل الهيئة المركزية للجمعية، فتقدمت تلك الهيئة بمذكرة اعتراض خطية إلى فيصل، صاغها دروزة، فوافق فيصل على هذه المذكرة، كما وافق على إعلان استقلال سوريا بحدودها الطبيعية، وأصدر قراراً بذلك تلبية لتوصية المؤتمر السوري العام في اجتماع في دمشق في 7 آذار عام 1920.

- *5 – 3 - دوره في المؤتمر السوري العام*

ساهم دروزة في تأسيس وأعمال المؤتمر السوري العام الذي انعقد بين أواخر حزيران 1919 وأواخر تموز 1920. شارك دروزة كأحد أربعة مندوبين عن نابلس إلى جانب عادل زعيتر وإبراهيم القاسم عبد الهادي وأمين التميمي، وتمّ اختياره أمينًا عامًا للمؤتمر الذي اختتم بإعلان استقلال سورية الكبرى بحدودها الطبيعية في مواجهة وعد بلفور واتفاقيات التقسيم في سايكس بيكو وأكد أن فلسطين جزء لا يتجزأ من سورية. تلا محمد عزة دروزة هذا القرار على الجماهير المحتشدة أمام مبنى بلدية بدمشق، في 8 آذار 1920، طالاً من شرفة البلدية. وبعد أن أصبح المؤتمر مجلسًا تأسيسيًا، أسهم دروزة في وضع مشروع الدستور السوري الأول.

- *5 – 4 - علاقته مع الشخصيات القومية الهامة*

بنى دروزة خلال نشاطه المتواصل علاقات شخصية وصداقات مع شخصيات مؤثرة مثل هاشم الأتاسي الذي أصبح لاحقاً رئيساً لسورية ورياض الصلح الذي أصبح رئيساً لوزراء لبنان وسعد الله الجابري زعيم حلب ورئيس وزراء سورية عام 1944 ورئيس مجلس نوابها عام 1949 وإبراهيم هنانو قائد الثورة ضد الفرنسيين في شمال سورية، ونوري السعيد الذي أصبح رئيساً لوزراء العراق.

- *5 – 5 - دوره في الثورات الفلسطينية*

انغمس دروزة في النشاط الوطني الفلسطيني منذ أن استقر في نابلس، فشارك بجهود كبيرة في انعقاد المؤتمرات السياسية التي كانت تخطط للحركة الوطنية وتتابع نشاطها. كاستمرار لنشاطه الوحدوي، ساهم عام 1932 بشكل فاعل في إقامة فرع لحزب الاستقلال العربي في فلسطين الذي شكل امتداداً للحزب الأصلي في دمشق، وتولى أمانته العامة منذ تأسيسه وحتى 1947 . شارك في المؤتمرات الفلسطينية وتسلم فيها مناصب فعالة، كما هي حاله في الأحزاب والجمعيات، حتى أصبح علماً من أعلام النضال الوطني العربي ضد الإنكليز والفرنسيين واليهود.

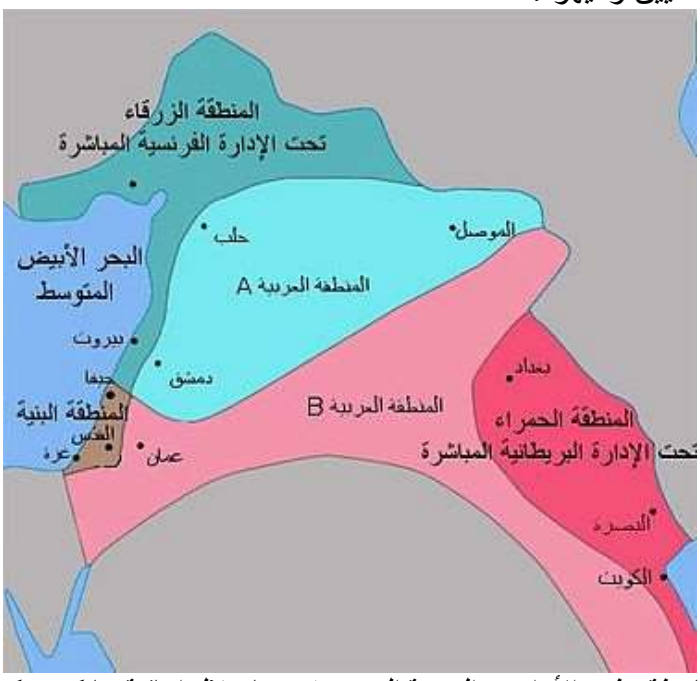

خارطة تظهر الأراضي العربية التي تم تقسيمها خلال اتفاقية سايكس بيكو التي عارضها دروزة والعرب عموماً ونادوا بها دولة واحدة.

كان على رأس المقاومين للسياسة البريطانية ومشاريعها المختلفة، فقام مع رفاقه بحركة مقاطعة الدستور وانتخاب مجلس تشريعي مغلول اليد؛ الأمر الذي ترتب عليه وأد الفكرة وقتلها في مهدها، وقاد مظاهرات مختلفة ضد السياسة البريطانية، وأدى هذا إلى اعتقاله، وتقديمه للمحاكمة، والحكم عليه بالسجن، مثلما حدث له في سنة 1934، وكان دروزة أحد قادة ثورة فلسطين في سنة 1936 التي دعت إلى إضراب عام انتهى بثورة شعبية عارمة ضد الانتداب البريطاني. كان أيضًا من بين الذين طالبوا باعتماد اسم سورية الجنوبية لمنطقة الانتداب البريطاني في بلاد الشام بدلا من اسم فلسطين الذي أصر عليه الإنكليز وفرضوه على العرب.

دعا دروزة إلى اتخاذ إجراءات متصاعدة ضد السلطة البريطانية ما لم تستجب لمطالب البلاد، ولم تجد بريطانيا لمواجهة هذه الثورة بُدّاً من اعتقاله هو وزملائه. أصبح دروزة مسؤولاً عن التخطيط السياسي للثورة عندما تجددت سنة 1937، وصارت تصدر توجيهات الثورة من دمشق حيث كان يقيم دروزة وغيره من القيادات الفلسطينية، ويعيش حياة أشبه بحياة المجاهدين. ظل دروزة في دمشق قائماً على أمر الثورة الفلسطينية حتى اعتقله الفرنسيون بتحريض من الإنكليز في عام 1939، وحوكم أمام محكمة عسكرية فأصدرت عليه حكماً بالسجن في سجن المزة بدمشق، ثم أُفرج عنه سنة 1941 بعد الاحتلال النازي لفرنسا.

عندما غزا الإنكليز مدعومين من الديغوليين سورية، لجأ دروزة إلى تركيا، وقضى هناك أربع سنوات عاد بعدها إلى فلسطين.

بقي دروزة على هذه الحال من النضال والصمود حتى أنشئت جامعة الدول العربية وصارت قضية فلسطين محور نشاطها. فقد أعيد عام 1946 تشكيل اللجنة العربية العليا باسم الهيئة العربية العليا لفلسطين برئاسة مفتي فلسطين محمد أمين الحسيني، واعترفت جامعة الدول العربية بها ممثلة لفلسطين، واختارت دروزة عضواً فيها وممثلاً لها في بيروت ودمشق،[46] على الرغم من اعتراض ممثل إمارة شرق الأردن، صالح جابر، على هذا الأمر.[47] بذل دروزة ورفاقه المناضلون، أكرم زعيتر ومعين الماضي وعوني عبد الهادي جهوداً كبيرة في هذه المرحلة من أجل تنظيم النضال السياسي والعسكري، ولكنه اضطر إلى الاستقالة منها أواسط عام 1947 لخلاف في الرأي دب بينه وبين محمد أمين الحسيني.[48] ومع ذلك استمر يقدم العون للجنة العسكرية التي كانت تخطط للعمل العسكري في فلسطين، وتفتتح معهداً لتخريج ضباط فلسطينيين ومعسكراً لتدريب الجنود. وبقي على هذا النحو من تقديم العون حتى صدر قرار تقسيم فلسطين ونشبت الثورة العربية لإحباطه والإبقاء على عروبة فلسطين. حينذاك شعر دروزة بأن الحكومات العربية لم تخلص للقضية الفلسطينية كما ينبغي أن يكون الإخلاص. كان المرض قد بدأ يهاجمه ويجعل حركته عسيرة، إضافة إلى ثقل سمعه الذي بدأ عام 1944 وتفاقم عام 1949، فاعتزل العمل السياسي الوطني المباشر، واعتكف في منزله في دمشق ليتابع نضاله غير المباشر من خلال الكتابة والدعوة إلى الوحدة العربية ودعم النشاطات الفلسطينية الهادفة إلى تأسيس كيان فلسطيني قادر على القيام بحركة تحرير شعبية، وخصوصاً دعمه منظمة التحرير الفلسطينية وتنظيماتها العسكرية. سجل مذكراته في ستة مجلدات ضخمة، حوت مسيرة الحركة العربية والقضية الفلسطينية خلال قرن من الزمان، لكن معظم هذه المذكرات لم يُنشر قبل عقد الستينيات.

- *5 – 6 - دعوته لقيام الوحدة بين سورية ومصر*

خلال أواسط الخمسينيات من القرن العشرين تم إقرار دستور مصري جديد اعتبر مصر جزءاً لا يتجزأ من الأمة العربية. عندئذ، اعتبر دروزة أن الظروف باتت مهيئة لوحدة بين مصر عبد الناصر وسورية ، واعتبر أن وحدة كهذه ستجذب الأقطار العربية الأخرى إليها في مرحلة لاحقة. آمن دروزة أن مصر بمواردها البشرية والاقتصادية ستتمكن من لعب نفس الدور الذي لعبته بروسيا في الوحدة الألمانية وأن عبد الناصر سيكون بسمارك آخر. يقول دروزة عن عبد الناصر: "منذ الثورة العربية الكبرى، لم يوجد زعيم عربي على مستوى الأحداث سوى جمال عبد الناصر".

6 - إنتاجه الفكري

لم يحل انشغال دروزة بالحركة الوطنية الفلسطينية والمشاركة في قيادتها عن الكتابة والتأليف، فبدأ يؤلف على مستويات مختلفة لكافة القراء وفي مجالات متعددة مثل :

توثيق يوميات الحركة الوطنية والقومية.
تأليف الكتب المدرسية للنهوض بطلاب العلم.
كتابة الروايات الوطنية الهادفة التي تشعل الحماس في نفوس الناشئة
بحث وتوثيق تاريخ العرب والترك واليهود.
بلورة وطرح أفكار حول العروبة والوحدة العربية.
الاجتهاد في تفسير القرآن والكتابة عن السيرة النبوية وبعض القضايا الإسلامية الاجتماعية.

ألف دروزة عشرات الكتب، وبعضها بقي في مرحلة المخطوطات ولم يطبع أو ينشر. إضافة لأهميتها الفكرية، نبعت أهمية كتب دروزة، وخاصة مذكراته الشاملة، من توثيقها للتاريخ الشفهي العربي، والفلسطيني بالذات

- *6 – 1 - حول العروبة والقضايا العربية*

مثلت العروبة قلب اهتمامات دروزة فاهتم بها سياسة وتاريخًا وكتب عن الحركة القومية العربية والقضايا العربية الساخنة. اعتبر دروزة أن الجنس العربي كان ينشد الوحدة السياسية والتاريخية منذ البدء ومن أقدم أزمنة التاريخ. إن مطلب الوحدة القومية، من وجهة نظر دروزة، هو مطلب غائي، سائد يتخطى التاريخ الواقعي ويهيمن عليه. إنه بداهة التاريخ العربي. لكن يتعين إكمالها بوحدة فعلية شاملة قوامها التوحيد السياسي، وهذه ضرورة تاريخية يفرضها الواقع العربي.

كتب دروزة عدداً من الأعمال الموسوعية في مجال تاريخ العرب ربما كان أهمها كتابا "تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار من أقدم الأزمنة" و"العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي" اللذان وثقا وجود وتاريخ العرب في وطنهم الحالي وأجزائه السليبة أيضاً، مثل الأقاليم السورية الشمالية (أضنة ومرسين وماردين وجزيرة ابن عمر واورفة وديار بكر وعنتاب ومرعش) التي كانت جزءا تاريخيا من سورية واعترف بها كذلك في معاهدة سيفر، ولكنها أخضعت لتركيا بموجب معاهدة أنقرة عام 1921 بين تركيا الأتاتوركية وفرنسا، وإقليم عربستان الذي أهدته بريطانيا لشاه إيران عام 1925 ولواء اسكندرون الذي أعطته فرنسا لتركيا عام 1939.

- *6 – 2 - حول الإسلام والقضايا الإسلامية*

خلال وجوده في سجن الفرنسيين بدمشق، تعمق دروزة في دراسة القرآن والإسلام، واعتبر السجن منحة إلهية مكنته من قراءة كل ما وقع بين يديه من كتب دينية. كانت أهم مؤلفاته في هذا المجال:

"الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة"، وطُبع في مجلدين كبيرين. تصدر هذا العمل الكبير مؤلفات دروزة في المجال الإسلامي. أوضح في هذا الكتاب ما احتواه القرآن والسنة النبوية من نظم لمختلف شؤون الحياة، ويمثل هذا المؤلف تحولاً كبيراً في حياة مؤلفه بعد أن استوفى دراسات التاريخ القومي وقضايا المجتمع العربي، حيث أدرك أهمية التماس منهج القرآن والالتزام به لتحقيق أهداف الأمة العربية.

"التفسير الحديث"، صدر في 12 جزءاً بدأ بتأليفها عندما كان لاجئاً في تركيا حيث استفاد من مقتنيات مكتبة بورصة. قام في هذا الكتاب بتفسير القرآن الكريم حسب ترتيب نزول السور.

"سيرة الرسول ، صورة مقتبسة من القرآن". صدر في مجلدين.

وإلى جانب هذه الكتب الثلاثة الكبيرة له مؤلفات إسلامية متنوعة تواجه الاستشراق والتبشير مثل:

"القرآن والمرأة".

"القرآن والضمان الاجتماعي".

"القرآن والمبشرون". المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.

"اليهود في القرآن الكريم". المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.

- *6 – 3 - حول فلسطين*

ظهر تأثير أحداث فلسطين منذ كتابات دروزة الأولى التي اتخذت طابعاً روائياً، فألف دروزة روايات قومية ومسرحيات تمجد العروبة، وتعبّر عن المطامح القومية والرغبة في النهوض، وكانت رواية "وفود النعمان على كسرى أنوشروان" سنة 1911 و"السمسار وصاحب الأرض" (وهي أقرب إلى المسرحية) سنة 1913 أبرز أعماله الروائية. وكان في هذه الأخيرة من أوائل من حذروا من خطورة بيع الأراضي لليهود. ألّف كتباً كثيرة تشرح القضية الفلسطينية أبرزها مذكراته الضخمة التي تُعد أضخم عمل في هذا البابة والتي توثق ما حدث في فلسطين خلال فترة الانتداب . وفيما يلي قائمة بأهم كتبه في هذا المجال:

" مذكرات محمد عزة دروزة". تشمل 4256 صفحة في ستة مجلدات. دار الغرب الإسلامي، بيروت. 1994."، كشفت جوانب غامضة، وأعانت على تفسير بعض القضايا المبهمة في مسيرة العمل الوطني الفلسطيني.

"القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها".

"مأساة فلسطين".

"فلسطين".
"جهاد الفلسطينيين: عبرة من تاريخ فلسطين".
"قضية الغزو الصهيوني".
"في سبيل فلسطين".
"فلسطين والوحدة العربية".
"من وحي النكبة: صفحات مغلوطة ومهملة من تاريخ القضية الفلسطينية".
"فلسطين وجهاد الفلسطينيين في معركة الحياة والموت ضد بريطانيا والصهيونية العالمية 1917-1948": الهيئة العربية العليا لفلسطين. القاهرة. 1959.

- *6 – 4 - كتب عامة وتوثيقية*

تركية الحديثة.
بواعث الحرب العالمية الأولى.
دروس التاريخ المتوسط والحديث.
دروس في فن التربية.
تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم. المكتبة العصرية. بيروت.

7 - عضويته في المجتمعات الأدبية

شغل دروزة عضوية المجلس الأعلى للفنون والآداب في القاهرة سنة 1961، وانتخب مقرراً للجنة التاريخية فيه، إلا أن حالته الصحية حالت دون الاستمرار في هذه العضوية. انتخب في العام نفسه، عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية في القاهرة.[12]

8 - وفاته وتقديره

أجرى محمد عزة دروزة آخر مقابلة صحفية مع الصحافي الفلسطيني محمد مصلح في سنة 1983، وذلك على مدى 8 أيام، وفيها سمح له أن يصوّر كافة مذكراته دون استثناء، ويقول مصلح أنه كان من الجليّ أن صحة دروزة في تراجع مستمر. توفي محمد عزة دروزة في حي الروضة في دمشق يوم الخميس 26 تموز عام 1984، الموافق 28 من شوال سنة 1404هـ.

كان دروزة أحد أهم المفكرين القوميين الأوائل، إضافة إلى ساطع الحصري وزكي الأرسوزي. لم يأخذ محمد عزة دروزة الموقع الذي يستحقه بعد بين كبار الكتاب القوميين العرب بالرغم من مساهمته الكبيرة في وضع أسس الفكر القومي العربي التقليدي (وخاصة في كتابي "الوحدة العربية" و"تاريخ الجنس العربي")، ونضاله الدؤوب ضمن الحركة الوطنية الفلسطينية خلال النصف الأول من القرن العشرين، وإنجازاته الأدبية والفكرية الواضحة.

وربما يعد هذا الحصار الثقافي لدروزة وغيره من المفكرين القوميين مفروضًا ضمن برنامج الأنظمة العربية الحاكمة (وبضمنها قيادة منظمة التحرير الفلسطينية) لمحاربة أي توجه وحدوي والحفاظ على كراسي الحكم في دويلات مبعثرة. لم يكن دروزة نفسه يحب الظهور، ولم يتسلم أية مناصب سياسية حكومية رغم نشاطه السياسي الكثيف وعلاقاته المتشعبة وصداقته لشخصيات مؤثرة. كان يختار دوماً أن يترك الصفوف الأمامية لغيره في الوقت الذي كان يدفع فيه التوجه العام بقوة بعيداً عن التفريط والتنازلات ونحو اتجاه أكثر جذرية ووحدوية في العمل الوطني الفلسطيني، وفي الوقت الذي كان يتجشم فيه المخاطر ويتكبد المشقة، وفي الوقت الذي كان يفني فيه الساعات في العمل الدؤوب ويقضي الأيام في السفر.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

محمد علي العابد

تقديم

محمد علي العابد (1867 - 1939) هو أول رئيس للجمهورية السورية بين 11 يونيو 1932 و21 ديسمبر 1936، وثامن حاكم منذ سقوط سوريا العثمانية، كما أنه أول حاكم لسوريا يتم انتخابه ولا يتم تعيينه . كان العابد يمثل عند انتخابه "الأرستقراطية الدمشقية والمتقدمة في العمر، إذ كان يبلغ عند انتخابه، في السبعين من عمره".

درس العابد في دمشق التي غادرها طفلاً وفي بيروت واسطنبول وباريس، وعمل في وزارة الخارجية العثمانية وعيّن سفيرًا في الولايات المتحدة، وبعد خلع عبد الحميد الثاني لم يعد وعائلته إلى الدولة العثمانية مطلقًا بل تنقلت العائلة في أرجاء أوروبا، حتى نهاية الحرب العالمية الأولى فاستقرّ العابد في مصر قبل أن يعود إلى دمشق بعد بدأ الانتداب. في سياسته كان العابد محايدًا ذو علاقات جيدة مع موالي الانتداب من ناحية ومع الكتلة الوطنية من ناحية ثانية، وهو ما ساهم في وصوله لمقام الرئاسة في 13 يونيو 1932، وكان أول من حمل لقب «رئيس الجمهورية» في سوريا، إذ إن من سبقوه سمّوا رؤساء الدولة لعدم وجود دستور يتبنى النظام الجمهوري. بموجب الدستور فإن ولاية الرئيس تمتد لخمسة سنوات، إلا أنه استقال عام 1936 بداعي السن وتمهيدًا لتدشين حكم الكتلة الوطنية بعد إقرار المعاهدة السورية الفرنسية؛ وقد تتالى خلال رئاسته أربع حكومات.

كان يجيد عدا العربية والتركية كلاً من الفرنسية والإنجليزية والفارسية وعرف عنه ولعه بالأدب الفرنسي وبالعلوم الاقتصادية. عائلة " العابد " من عائلات دمشق الغنية والمرموقة، استقرت في دمشق على يد هولو العابد جد والد العابد، ويعود نسبه لقبيلة الموالي إحدى قبائل سوريا التي استطونتها إبان العهد العباسي . عرف العابد بوصفه "من أغنى رجال سوريا، إن لم يكن أغنى رجل سوري على الإطلاق" في عصره.

1 - حياته المبكرة

- *1 – 1 - نشأته وتعليمه*

ولد محمد علي العابد في دمشق عام 1867؛ عائلته تعتبر جزءًا من الإقطاع أو الطبقة البرجوازية السوريّة الذين شكلّوا الحكم المحلي في ظل الدولة العثمانية؛ وشكل آل العابد مع آل العظم وآل اليوسف، أنسبائه، صفوة المجتمع العربي العثماني في دمشق ؛ لعب جدّه الأكبر عمر آغا دورًا في وأد الفتنة وإغاثة الناجين خلال مجازر 1860، وجده المباشر هولو باشا عيّن متصرفًا في عدد من المناطق والأقضية ومن ثم رئيسًا للمجلس الإداري في ولاية سوريا خلال تسعينات القرن التاسع عشر، أما والده أحمد عزت باشا فكان "السكرتير الثاني" للسلطان عبد الحميد الثاني، وأحد مقربيه القلائل، والملهم بمشروع الخط الحديدي الحجازي، والسوري أو العربي الأكثر نفوذًا في البلاط العثماني حكم السلطان عبد الحميد، وعيّن بعد خلعه عام 1908 في مراتب رفيعة كرئيس محاكم بلاد الشام. في هذه البيئة الأستقراطية، نشأ محمد علي العابد، وتلقى علومه الابتدائية في دمشق ثم انتقل عام 1885 إلى بيروت فأقام بها قسطًا من الزمن وتتلمذ على يد الشيخ محمد عبده ، وانتقل مع أسرته إلى اسطنبول بعد استدعاء والده إليها، فدخل مدرسة غلطة سراي السلطانية، وبعدما أنهى دراسته الثانوية أوفد إلى باريس حيث درس الحقوق، والتشريع الروماني، ومبادئ الفقه الإسلامي؛ ومنها تخرّج عام 1905.

- *1 – 2 - العمل الحكومي في الدولة العثمانية*

بعد تخرجه عاد العابد من باريس إلى اسطنبول حيث عيّن مستشارًا قضائيًا لوزارة الخارجية العثمانية، وبفضل نفوذ والده وقربه من السلطان عبد الحميد الثاني غدا سفير الدولة العثمانية لدى الولايات المتحدة الإمريكية، غير أن عمله كسفير في واشنطن لم تطل واستمرت ستة أسابيع فقط، بسبب الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني يوم 23 يوليو 1908 أنهيت مهامه كسفير، وكذلك أقيل والده من منصبه في اسطنبول الذي غادرها سرًا خوفًا على حياته. لم يعد محمد علي ومعه شقيقاه وزوجته إلى الدولة العثمانية أبدًا، بل انتقل من واشنطن إلى كاليفورنيا ثم نحو أوروبا حيث التقى والده ، وتفرغ لإدارة أملاك العائلة الواسعة في سوريا وخارجها، كما تفرغ للأدب العربي والأدب الفرنسي الذين "شغف بهما". وأنفق العابد فترة الحرب العالمية الأولى على هذه الحال، متنقلاً بين سويسرا، وفرنسا، وإنكلترا، مخالطًا خلال جولاته

عددًا من رجال السياسة والديبلوماسيين الأوروبيين، وهي فرصة قلّما سُنحت لشخصية سورية غير حكومية في ذلك العهد.

بعد نهاية الحرب، انتقل العابد وأسرته إلى مصر وفيها توفي والده، ومنها عاد إلى دمشق مجددًا عام 1920 بعيد سقوط المملكة السورية العربية ، حيث نسج علاقات جيدة مع قادة الانتداب الفرنسي واتهمه محمد كرد علي بوصفه محابيًا للفرنسيين عدوًا لوطنه ؛ وفي حكومة بركات الأولى التي تشكلت في يونيو 1922، وقد تلاه في الحكومة التالية التي تشكلت في 1 يناير 1925 جلال الزهدي.

- *1 – 3 - العمل الحكومي في سوريا*

في 28 يونيو 1922 تم إعلان الاتحاد السوري بين دولة دمشق ودولة حلب ودولة جبل العلويين على أن يكون اتحادًا فيدراليًا كخطوة أولى نحو الوحدة السورية، وقد كان المجلس التأسيسي الذي أنشأه الجنرال هنري غورو، مؤلف من خمسة عشر عضوًا خمس عن كل دولة ويشكل المجلس الهيئة التشريعية العليا في البلاد، وكان بموجب دستور الاتحاد الذي نشره غورو أيضًا من المفترض أن ينتخب أعضاء المجلس إلا أنه تعذر إجراء انتخابات نيابية حينها، عيّن بنفسه أعضاء المجلس، وكان من بين الأعضاء المعينين محمد علي العابد ممثلاً عن دمشق.

في اليوم نفسه الذي أعلن فيه الاتحاد، التأم المجلس الاتحادي في حلب وانتخب بالإجماع صبحي بركات رئيسًا لمدة عام، وقد شكّل بركات حكومته الأولى مسندًا وزارة المالية للعابد أيضًا. شملت البلاد السورية الراحة في أعقاب إعلان الاتحاد، وعادت الثقة بالمعتدلين، وقد مكث العابد وزيرًا للمالية حتى 1 يناير 1925 وخلال وزارته الطويلة تم إقرار اتفاقية "مصرف سورية ولبنان الكبير" ليكون بمثابة مصرف سورية المركزي وإصدار الليرة السورية كعملة له وذلك في 1 أغسطس 1922؛

2 - الصعود إلى السلطة

- *2 – 1 - الانتخابات النيابية*

لم يضطلع العابد بأي عمل سياسي خلال الفترة الممتدة بين عامي 1925 و1932، وكفل له خروجه المبكر من حكومة بركات عدم خسارة تأييد الكتلة الوطنية وفرنسا في الوقت ذاته، وقضى هذه الفترة في الأعمال الخيرية، وعندما أقرّ الدستور السوري عام 1931 قرر العابد الترشح عن المقعد النيابي في دمشق ونال دعم الرئيس الأسبق أحمد نامي ومن أجل ذلك قدم العابد خلال دعايته الانتخابية الكثير من الاعمال الخيرية فقدم إعانة مالية كبيرة لجمعية الإسعاف الخيرية ، كما زار المؤسسات الروحية لمختلف طوائف دمشق، مقدمًا في كل زيارة إعانات مالية لتقوم المساجد والكنائس بتوزيعها على الفقراء والمحتاجين خصوصًا لقرب الأعياد الدينية حينها . وبنتيجة الانتخابات، التي تمت مرحلتها الأولى في ديسمبر 1931، والثانية في يناير 1932، انتخب العابد نائبًا عن دمشق وفق النتائج القطعية التي صدرت في 9 أبريل.

- *2 – 2 – انتخابه*

عقد المجلس النيابي اجتماعه الأول في 7 يونيو، فوّض إليه انتخاب رئيس المجلس وهيئة مكتبه إلى جانب رئيس الجمهورية والتصديق على نتائج الانتخابات النيابية وتحديد مخصصات النواب، لم يكن العمل الحزبي قويًا في سوريا ولذلك كان أغلب النواب من المستقلين ومفروزين على أساس مناطقي :

الكتلة الأولى بزعامة صبحي بركات وحولها أغلب نواب الشمال المعتدلين،

والكتلة الثانية يتزعمها حقي العظم وأغلب نواب الجنوب المعتدلين،

في حين أن ثالث الكتل هي الكتلة الوطنية المؤلفة من 17 نائبًا فقط، يترأسها هاشم الأتاسي.

وبإيحاء من المفوضية الفرنسية، انتخب المجلس في 11 يونيو صبحي بركات رئيسًا له ، ثم جرى انتخاب مكتب المجلس الذي شغله أنصار بركات أيضًا،

وأراد الرئيس بركات الشروع بانتخاب الرئيس مباشرة فانسحب نواب الكتلة، ولم يشأ بركات أن يؤجل الجلسة لصغر حجم الكتلة النيابية الوطنية فعليًا، غير أن الجنرال فيبر ممثل المفوض الفرنسي في دمشق، أصدر وقبل البدء بالانتخاب مرسومًا بتأجيل الجلسة بهدف بلورة اتفاق بين مختلف الكتل النيابية.

كانت المفوضية الفرنسية تدعم وصول حقي العظم إلى رئاسة الجمهورية، وخلال المباحثات بين قادة الكتل النيابية، تم التوصل إلى صيغة تتخلى فيها الكتلة الوطنية عن مرشحها هاشم الأتاسي، لقاء تخلي الفرنسيين عن ترشيح حقي العظم، وانتخاب محمد علي العابد، رئيسًا للجمهورية ؛ وهو ما تم بأغلبية 36

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

صوتًا مقابل 32 صوت لصبحي بركات؛ وانتقل إلى مقر الرئاسة محاطًا بحراسة " الشباب الوطني "، وجرت مراسم تسلّمه الرئاسة في باحة القصر بإطلاق المدفعية سبعة عشر طلقة إيذانًا ببدء العهد الجمهوري، ورفع خلاله العلم السوري الجديد، المستوحى من ألوان علم الثورة العربية الكبرى نفسه، وإنما مع ثلاثة كواكب حمراء في الوسط ، بدلاً من المثلث الأحمر . أما المرشحين المحتملين الآخرين، والذين تداولت الصحافة السورية أسمائهم كانوا كل من أحمد نامي الرئيس السابق للدولة، وإبراهيم هنانو. عمومًا فإن الاتفاق الذي عقد ضمن للمعتدلين منصب رئيس المجلس النيابي، كما اتفق أن تكون الحكومة مناصفة بين الكتلة الوطنية والمعتدلين، على أن يشكلها حقي العظم.

3 – رئاسته

إني أعمل بما توحيه إليّ معرفتي لمصلحة بلدي
— محمد علي العابد.

- *3 – 1 – حكوماته*

أول حكومات عهد العابد كانت حكومة حقي العظم وتألفت من أربع وزراء فقط مناصفة بين الكتلة الوطنية والمعتدلين في 14 يونيو، وقد كان عهد هذه الحكومة هادئًا ولم يكن هناك من يعارض حكم الرئيس العابد خلال العام الأول من حكمه سوى القلة.

وبعد عام في 3 يونيو 1933 استقالة حكومة العظم وتألفت حكومة ثانية برئاسته غير أنها قد خلت من وجوه الكتلة الوطنية فكانت "وزارة انتدابية" بتوافق العابد مع المفوض الفرنسي بونسو في أعقاب قلاقل معاهدة الصداقة والتحالف مع فرنسا؛ وعلى الرغم من خروج الكتلة الوطنية من الحكم، إلا أنها احتفظت بعلاقاتها الجيدة مع العابد، عبر نجيب أرمنازي، كبير أمناء القصر الجمهوري من ناحية، وعيدل جميل مردم، أحد أركان الكتلة الوطنية من ناحية ثانية، فشكل بذلك أرمنازي صلة الوصل بين الكتلة والعابد. دامت حكومة العظم الثانية ما يقرب عامًا كاملاً ،

في يوليو 1933 أنهيت مهام هنري بونصو كمفوض فرنسي سامي في سوريا، وعيّن سفير فرنسا في الصين كونت دامين دو مارتيل خلفًا له ، وعندما وصل بيروت في 12 أكتوبر 1933 عُقد مؤتمر صافيتا من قبل وجهاء الطائفة العلوية طالبوا به بالوحدة والانضمام للجمهورية السورية ، كما شهدت دمشق خلال الفترة ذاتها اعتصامًا قام به شبّان دروز للهدف ذاته.

طال عهد العظم في رئاسة الحكومة ما يقرب السنتين، وقبل أن يبدأ عامه الثالث ومع استمرار القطيعة بين رجال الكتلة والحكومة وتجدد المظاهرات في مختلف المدن السورية المطالبة بإنهاء الانتداب وما عزي من ضعف الحكومة كسبب لذلك، اتفق دي مارتيل مع الرئيس العابد على الإيعاز للعظم بالاستقالة ،

ثم جرى تكليف الرئيس السابق للدولة تاج الدين الحسني برئاسة الوزارة، فشكل في يوم واحد ثالث حكومات العابد، ولم تأخذ حكومته ثقة البرلمان لكنه موقف عن الاجتماع بقرار من المفوض الفرنسي ؛ واستمرت في السلطة عامًا ونصف، وسقطت بنتيجة الإضراب الستيني في فبراير 1936 لتليها حكومة عطا الأيوبي، والتي وصفت في برنامجها بالحيادية والمؤقتة، والهادفة لإجراء انتخابات.

- *3 – 2 - العمل الإداري*

انتهجت الحكومات المتعاقبة خلال عهد العابد، سياسية الترشيد الاقتصادي، وحافظت على الحياد والنزاهة واستطاعت ضمن سياستها هذه تخفيض أصول الديون السوريّة من الدين العام العثماني وذلك من 70 مليون ليرة تركية مستحقة لفرنسا إلى 24 مليونًا ، ولم يفلح أمام هذه الإنجازات الهامة رجال الكتلة في خلق معارضة شعبية قوية للحكومة، فاقتصر الأمر على المعارضة البرلمانية ؛ والتي لم تنفجر إلا على خلفيات سياسية كمعاهدة التحالف والصداقة مع فرنسا .

في مايو 1935 شكلت لجنة مستقلة لوضع قانونين للأحوال الشخصية والتجارة وذلك بهدف إنهاء العمل بمجلة الأحكام العدلية الصادرة عن الدولة العثمانية عام 1876، وقد تداول اعتماد المذاهب الأربعة كمصدر للتشريع فيما يتعلق بالمسلمين بدلاً من حصرها بالمذهب الحنفي، غير أنه ما أعاق العمل فعليًا

كون أغلب القضاة والحقوقيين المعينين بحكم مواقعهم في اللجنة من مناصري الكتلة الوطنية، ولذلك لم يشهد العمل أي جديّة بهدف منع صدور القانون خلال وزارة الشيخ التاج " الانتدابية ".

- *3 – 3 - العلاقة مع المفوضية الفرنسية*

لكونه أول رئيس للجمهورية السورية، فقد منحه الرئيس الفرنسي ألبير فرانسوا لوبرون وسام الجمهورية الفرنسية في أكتوبر 1932، وتسلمه عن طريق المفوض الفرنسي هنري بونسو ؛ أصدر العابد في الفترة ذاتها عفوًا عامًا عن أعمال الشغب التي حصلت خلال الانتخابات النيابية عام 1931، لكن العفو لم يشمل كبار الشخصيات الثورية التي نفيت بعد الثورة السورية الكبرى، والتي لم يشملها أيضًا العفو الأسبق، نتيجة اعتراض المفوضية الفرنسية.

منذ ديسمبر 1932 تولى العابد، تعاونه الحكومة، بموجب الدستور مهمة التفاوض حول معاهدة صداقة وتحالف مع فرنسا وممثلتها المفوضية الفرنسية برئاسة الجنرال بونسو، والتي كان من المفترض أن تنهي الانتداب ، وتحوله إلى معاهدة شبيهة بالمعاهدة العراقية – البريطانية ، غير أنّ فرنسا لم تحذ حذو بريطانيا في معاهدتها، مع العراق، وتصلبت في موافقتها، بينما قبل العابد معظم الشروط الفرنسية، وهو ما خلق فعليًا نقمة الكتلة الوطنية والجماهير التي أضربت وسيّرت مظاهرات، طوال فترة المفاوضات التي استمرت طوال النصف الأول من 1933، وأفضت إلى تأجيل اجتماعات البرلمان خشية رفضه التصديق على معاهدة التحالف والصداقة حين عرضت عليه؛ وقبل ان يتأزم الوضع كان ألبير الأول ملك بلجيكا قد قام في أبريل 1933 بزيارة دمشق وتدمر، ليكون بذلك أول رئيس دولة خارجية رفيعة، يزور سوريا منذ عقود.

في نوفمبر 1933، عرض دي مارتيل نص معاهدة السلم والصداقة بين الجمهورية السورية وفرنسا بعد أن أقرتها الحكومة ودعمها العابد، غير أن البرلمان رفض التصديق عليها وردها بأغلبية 46 نائبًا (أي أكثر من ثلثي المجلس) لأنها لا تحوي على بنود تتعلق بالسيادة والوحدة والاستقلال، فما كان من دي مارتيل إلا أن حلّ دورة المجلس في 24 نوفمبر وأوقف اجتماعاته طول ذاك الفصل التشريعي.

- *3 – 4 - القلاقل الأمنية*
- **3 – 4 - 1 - اضطراب حلب**

في مايو 1934، أدت جولة قام بها رئيس الجمهورية يرافقه رئيس الوزراء، غلى شمال سوريا، لخروج مظاهرات قوية، وتعرّض العابد للسباب والشتيمة في الجامع الأموي بحلب أثناء وجوده فيه، وانتشرت المظاهرات وإضراب الأسواق، وإلقاء القنابل، والمصادمة مع رجال الشرطة في حلب، طوال فترة الزيارة ؛

وقد اعتقل في إثرها أعداد كبيرة من المتهمين بينهم قيادات هامة مثل سعد الله الجابري . في حين هرع محامون من أكل أنحاء سوريا للدفاع عنهم، وتجدد الاضطرابات في ذكرى المولد النبوي. كان العابد قد أصدر عفوًا خاصًا عن المتهم بإطلاق النار على إبراهيم هنانو، الزعيم الحلبي والوطني، وهو ما سبب الاضطرابات ؛ إلى جانب النقمة الشعبية على شخصية رئيس الوزراء الشيخ التاج.

- **3 – 4 - 2 - الإضراب الستيني**

في 21 ديسمبر 1935 نظمت الكتلة الوطنية حفل تأبين لمناسبة ذكرى أربعين وفاة إبراهيم هنانو على مدرج الجامعة السورية ، وأعلن فارس الخوري خلال الحفل " **الميثاق الوطني**"، وبدأت في أعقابه الإضرابات والاضطرابات الأمنية الدامية، بينما عجز العابد ومعه حكومة الشيخ التاج عن قمعها. وقد أغلقت في أعقاب هذه الاحتجاجات مكاتب الكتلة الوطنية في دمشق وحلب واعتقل عدد من قادتها كسعد الله الجابري فردّ الشعب بإضراب شامل دام في دمشق ومدن أخرى ستين يومًا،

واضطر الجيش الفرنسي للانتشار في شوارع المدن الرئيسية وهدد دي مارتيل بقصف دمشق كما حصل عام 1925، وشهدت العراق ولبنان والأردن وفلسطين ومصر مظاهرات مؤيدة للشعب السوري فضلاً عن دعم من بريطانيا، وبنتيجة الضغط الدولي اضطر المفوض الفرنسي لقاء هاشم الأتاسي رئيس الكتلة الوطنية، واتفق معه على تشكيل حكومة جديدة وتشكيل وفد سوري يقوم بالسفر إلى فرنسا للتفاوض حول معاهدة جديدة تضمن حقوق السوريين، وبنتيجة الاتفاق شكلت حكومة الأيوبي وقد شملت وجوهًا محايدة وكانت مهمتها الأساسية إدارة المرحلة الانتقالية .

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

بعد حوالي شهر في 21 مارس غادر وفد الكتلة الوطنية إلى فرنسا ومكثت المفاوضات ستة أشهر حتى سبتمبر، حين أعلن عن الاتفاق بين الوفد والحكومة الفرنسية في 9 سبتمبر ونشرت نصوص مسودة الاتفاق في 22 أكتوبر على أن توقع قبل نهاية العام. ودعا العابد لانتخابات نيابية هي الثانية في تاريخ سوريا فازت بها الكتلة بالأغلبية الساحقة،

وكان من النتائج المباشرة للاتفاق بين الكتلة وفرنسا، عودة ارتباط دولة جبل العلويين ودولة جبل الدروز بالجمهورية السورية في 5 ديسمبر 1936، مقابل احتفاظهما بالاستقلال الإداري والمالي، غير أن نائب جبلة **علي أديب** عضو برلمان حكومة اللاذقية أعلن التنازل عن استقلالها المالي والإداري لتكون "متساوية مع سائر المحافظات السورية"، وأيدّه في ذلك سائر النواب وعيّن مظهر باشا أحد أركان الكتلة الوطنية محافظًا عليها.

افتتح البرلمان الجديد أعماله في 21 ديسمبر 1935 وفي اليوم نفسه أرسل العابد كتاب استقالته إلى المجلس فقبلها، وقد علل العابد سبب استقالته لأسباب صحيّة بينما وجد عدد من المؤرخين أن السبب يرجع لفوز الكتلة الوطنية ، وإنّ كبير أمناء الرئيس نجيب أرمنازي هو من نصحه بالاستقالة بعد إعلان نتائج الانتخابات لإفساح المجال أمام الكتلة الوطنية لإكمال ما بدأت به من تافهم مع فرنسا.

4 - بعد الرئاسة

- *4 – 1 - إرث العابد*

في الجلسة التي قبلت فيها الاستقالة انتخب هاشم الأتاسي رئيسًا، أما العابد فقد غادر سوريا إلى باريس وقيل خوفًا من الاغتيال ، وبقي فيها إلى أن وافته المنية عام 1939 حين نقل جثمانه إلى دمشق ودفن فيها. حاليًا، يوجد شارع راقي باسمه في دمشق بقرب شارع الحمراء يمتاز بوجود بعض الأبنية ذات الطراز المعماري الفرنسي من فترة الانتداب. قيّم المؤرخ والسياسي السوري يوسف الحكيم، شخصية العابد بوصفه كان تمتع بمزايا عالية من العلم والخبرة الاقتصادية والحياة السياسية والاجتماعية فضلاً عن و"مكارم الأخلاق" إلى جانب "التواضع". ويمكن القول عن فترة العابد:

إن فترة محمد العابد كانت أشبه ما يكون بالهدوء الذي جاء بالعاصفة، امتاز عهده بتحدّي القوى الوطنية لسلطة الاحتلال وظهور الكتلة الوطنية الواضح، والتي تقدّمت على حزب الشعب الذي أسسه الدكتور عبد الرحمن الشهبندر عام 1925، والتي استطاعت فيه الكتلة الوطنية تحريك الشارع لإرغام الاحتلال للإذعان للتوقيع على مُعاهدة الاستقلال وبطلان الانتداب الفرنسي، وهو ما لم يتم في عهده.

- *4 – 2 - ثروته*

اشتهر العابد بكونه "أغنى رجل في دمشق، إن لم يكن في سوريا كلّها" في زمانه، وقدرت ثروته بمليون ليرة إنكليزية ذهبية؛ كانت ثروته متوزعة بين أسهم يملكها في قناة السويس، ومجموعة عقارات منتشرة في أوروبا، وأراضي زراعية واسعة بما فيها من قرى في غوطة دمشق لاسيّما في منطقة دوما، وعلى حدائق في حي القنوات، فضلاً عن فندق فيكتوريا، أقدم فنادق دمشق وأشهرها، والذي كان يدرّ دخلاً سنويًا كبيرًا. ثروة العابد المالية كان يحتفظ بها في بنوك أوروبية وأمريكية، وهو ما عرّضه لنقد صحفي شديد بوصفه "بخيل" و"غير وطني" لعدم نقله ثروته إلى داخل السوري، وعدم توسيع استثماراته فيها بالداخل. وحسب ما يذكره المؤرخ فيليب خوري، فإنّ استثماراته في سوريا، لم تتم إلا بعد ضغط من رجال الكتلة الوطنية عليه، لإقناعه بأهمية الاستثمار، فأصبح مساهمًا رئيسيًا في شركة الإسمنت الوطنية إحدى أبرز مشاريع الكتلة الاقتصادية، كما دعم صحيفة الأيام بشراءه حصة فيها بقيمة 5000 جنيه استرليني.

لا يزال قصر محمد علي العابد إلى اليوم في حي ساروجة ضمن دمشق القديمة ويرجع عمره لحوالي 350 عامًا من الآن، ويعود تاريخ اقتنائه لهولو العابد جد والد محمد علي العابد، واعتبر في بداية رئاسته قصرًا جمهوريًا واستمر كذلك ستة أشهر فقط، حين تم الانتهاء من القصر الجمهوري الحالي في منطقة المهاجرين بدمشق. وبعد فاة العابد حوّل القصر عام 1942 إلى سليم اليازجي الذي قام بتحويله إلى مدرسة ثانوية حتى عام 1970، حين تم تأميم المدارس الخاصة في سوريا، وأتبع البناء لملكية وزارة التربية التي حولة البناء كمديرية تربية ، وقد أهمل القصر وأتلفت الكثير من محتوياته وسرق بعضها الآخر سيّما الأسقف العجمية ، وفي عام 1995 استعاد اليازجي ملكيته ، كما تعرض في عام 2006 لحريق قضى على أحد طوابقه.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

هاشم الأتاسي

تقديم

هاشم الأتاسي (1875 - 5 ديسمبر 1960) والملقب أبو الجمهورية ، هو ثاني رئيس للجمهورية السورية لولايتين الأولى بين 21 ديسمبر 1936 و7 يوليو 1939 والثانية من ديسمبر 1949 وقطعها انقلاب أديب الشيشكلي في 24 ديسمبر 1951، غير أنه تابعها من 1 مارس 1954 وحتى 6 سبتمبر 1955، ليكون تاسع حاكم في تاريخ سوريا الحديث.

كما أنه شغل مناصب بارزة في الجمهورية السورية فشكّل الوزارة مرتين، ورأس المؤتمر السوري العام، والجمعية التأسيسية، وكذلك لجنتي وضع الدستور، وانتخب للنيابة عن حمص عدة مرات.

ينتسب الأتاسي لعائلة غنية وعريقة ومعروفة في حمص وقد شغل والده خالد الأتاسي منصب مفتي حمص، درس فيها وفي اسطنبول وعمل في ظل الدولة العثمانية في بيروت وحمص، وكان من المقربين من الملك فيصل الأول خلال المملكة السورية العربية ونشط بعد ذلك خلال الانتداب الفرنسي على البلاد كناشط سياسي بارز مطالب بالاستقلال خصوصًا إثر تأسيسه وزعامته لحزب الكتلة الوطنية التي لعبت دورًا بارزًا في الحياة السياسية السورية قبل 1963.

1 - حياته المبكرة وأوائل نشاطه

ولد هاشم الأتاسي في 6 ديسمبر/ كانون الأول 1875، وتلقى دراسته الابتدائية والثانوية في حمص، ثم انتقل إلى اسطنبول حيث درس الإدارة العامة في الأكاديمية الملكية، وتخرج منها عام 1895. بداية حياته السياسية كانت في الدولة العثمانية عام 1898 حين تم تعيينه موظفًا مرموقًا في ولاية بيروت العثمانية، وبعد نشوب الحرب العالمية الأولى عام 1914 تم تعيينه محافظًا على حمص وحماة وبعلبك ويافا والأناضول، وإن كانت ولايته أشبه بولاية شرفية. بعد الحرب العالمية الأولى عام 1918 وقف الأتاسي في صف الوطنيين المطالبين بالاستقلال عن الدولة العثمانية، وانتخب عضوًا في المؤتمر السوري العام أول برلمان سوري في التاريخ، ضم أقطار بلاد الشام الأربعة في يونيو/حزيران 1919، وانتخب رئيسًا للمؤتمر . في 8 مارس/ آذار 1920 أعلن قيام المملكة السورية العربية وبويع فيصل الأول ملكًا عليها بإجماع أعضاء المؤتمر السوري العام، وكلف الأتاسي رئاسة لجنة صياغة دستور المملكة ، فأقر في يونيو/ حزيران 1920، غير أنه لم يعمل به سوى لفترة قصيرة، بسبب سقوط المملكة.

بعد استقالة حكومة الركابي الثانية، كلّفه الملك فيصل الأول تشكيل الحكومة، فشكلها في 2 مايو/ أيار 1920، وبذلك كان ثاني من شغل منصب رئيس الوزراء في سوريا، غير أن عمر حكومته كان قصيرًا ، وأحداثها متسارعة ، فقد تلقفت الحكومة الإنذار الشهير باسم إنذار غورو ثم قبلته في 13 يونيو، وأعلنت حالة الطوارئ في 15 يونيو/ حزيران وأعلنت تطبيقًا لموافقتها على مبادئ الإنذار حل الجيش السوري في 20 يونيو/ حزيران وهو ما أدى إلى أحداث احتجاج وشغب في دمشق ومدن أخرى فضلاً عن احتلال المحتجين لقلعة دمشق،

وقد استعملت الحكومة الرصاص الحي ما أدى إلى مقتل عشرين متظاهرًا. لم يقتصر الأمر على ذلك ، تذرع هنري غورو قائد الجيوش الفرنسية في الشرق بإنه لم يصله قبول الحكومة بالإنذار، ولذلك زحف إلى دمشق من بيروت في 21 يوليو/تموز والتقى مع بقايا الجيش السوري ومتطوعين في معركة ميسلون يوم 24 يوليو / تموز، وعمومًا فإنه حتى لو لم يحل الجيش، لم يكن قادرًا بعتاده المتواضع مواجهة جيوش فرنسا في الشرق، مطلقًا. دخل الفرنسيون إلى دمشق في 25 يوليو/تموز وانتقلت الحكومة ومعها الملك إلى الكسوة، وقدّمت استقالتها في اليوم نفسه كنتيجة لمعركة ميسلون واحتلال دمشق وتشكلت حكومة برئاسة علاء الدين الدروبي موالية للانتداب، وبعدها بثلاث أيام نفي الملك فيصل وبذلك انتهت المملكة السورية، بعد أن مكث الأتاسي في رئاستها حوالي ثلاث أشهر،[4] رغم ذلك فقد أثبت الأتاسي عن حنكة في الشؤون السياسية، خصوصًا حين عيّن عبد الرحمن الشهبندر المقرب من فرنسا وذو العلاقات البارزة مع ساسة أوروبا بهدف إقامة تحالفات بين المملكة والغرب وكمحاولة لتفادي الانتداب الفرنسي على سوريا، غير أنه قد فشل في مسعاه.

2 - الانتداب الفرنسي

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

في أكتوبر/ تشرين الأول 1927 اجتمع الأتاسي مع عدد من الناشطين البارزين ممن عرف عنهم مقارعة الانتداب الفرنسي على سوريا ومنهم شكري القوتلي وسعد الله الجابري وفارس الخوري وغيرهم، وأعلنوا ميلاد " الكتلة الوطنية " التي اضطلعت بدور بارز في الحياة السياسية السورية حتى 1963، وشكّل حكومات منفردة عدة مرّات خلال مرحلتي الانتداب والاستقلال.

تشكيل الكتلة الوطنية كان ردًا على حزب الشعب، الذي عرف عنه موالاته للفرنسيين وقد ترأسه عبد الرحمن الشهبندر، وكرد أيضًا على قمع الثورة السورية الكبرى التي انطلقت عام 1925 واستطاع الفرنسيون قمعها في أغسطس/ آب 1927 بعد أن زجت مائة وعشرة آلاف جندي فرنسي في سوريا، حيث قال المجتمعون أنه من الممكن نيل استقلال سوريا ووحدتها بالوسائل السلمية بدلاً من المقاومة العنيفة.

وقد شملت الكتلة الوطنية التي أسسها الأتاسي إقطاعيين ومحامين وموظفين وطلاب، أي أنها شملت جميع شرائح المجتمع السوري ، ليس في حدود " الدولة السورية " التي أعلنها الفرنسيون على دمشق وحلب فقط عام 1925 بل أيضًا في اللاذقية والسويداء ومناطق أخرى.

انتخب هاشم الأتاسي رئيسًا للكتلة وعضوًا دائمًا في مكتبها، وبعد مفاوضات تاج الدين الحسني مع المفوض الفرنسي هنري بونسو والتي أفضت لانتخابات جمعية تأسيسية لوضع دستور للبلاد عام 1928 رأس الأتاسي هذه الجمعية، وبالتالي وجهت له مهمة وضع الدستور السوري الثاني، وقد نصّ على كون النظام جمهوريًا برلمانيًا.

خلال الاحتجاجات التي شهدتها سوريا خلال عام 1930 ردًا على عدم نشر الدستور والدعوة لانتخابات نيابية، اعتقل الفرنسيون الأتاسي عدة أشهر ونقلوه إلى جزيرة أرواد؛ وعندما دعا الفرنسيون لانتخابات نيابية في سوريا عام 1932، أسفرت الانتخابات عن فوز الكتلة الوطنية بسبعة عشر مقعدًا من بينهم الأتاسي، غير أن أغلب المؤرخين يرون تلاعبًا قامت به فرنسا في إعلان نتيجة الانتخابات، خصوصًا في حلب حيث سقط إبراهيم هنانو بما وصف " فضيحة الانتخابات " ليفوز نكرات. نتيجة المفاوضات بين الكتل النيابية تم التوصل لاتفاق يقضي بوصول محمد علي العابد رئيسًا للجمهورية كمرشح محايد وتشكيل حكومة مناصفة بين المعتدلين والكتلة الوطنية على أن يرأسها حقي العظم المحسوب على المعتدلين، كذلك فقد انتخب بالتوافق صبحي بركات رئيسًا للمجلس النيابي بواحد وخمسين صوتًا مقابل سبعة عشر للأتاسي.

3 - رئيسًا للجمهورية

- *3 – 1 - الإضراب الستيني ومعاهدة 1936*

في 21 ديسمبر 1935 نظمت الكتلة الوطنية حفل تأبين لمناسبة ذكرى أربعين وفاة إبراهيم هنانو على مدرج الجامعة السورية، وأعلن فارس الخوري خلال الحفل "الميثاق الوطني"، وبدأت في أعقابه الإضرابات والاضطرابات الأمنية الدامية، بينما عجز العابد ومعه حكومة الشيخ التاج عن قمعها. وقد أغلقت في أعقاب هذه الاحتجاجات مكاتب الكتلة الوطنية في دمشق وحلب واعتقل عدد من قادتها كسعد الله الجابري فردّ الشعب بإضراب شامل في دمشق ومدن أخرى دام ستين يومًا، واضطر الجيش الفرنسي للانتشار في شوارع المدن الرئيسية وهدد دي مارتيل بقصف دمشق كما حصل عام 1925، وشهدت العراق ولبنان والأردن وفلسطين ومصر مظاهرات مؤيدة للشعب السوري فضلاً عن دعم من بريطانيا، وبنتيجة الضغط الدولي اضطر المفوض الفرنسي لقاء هاشم الأتاسي رئيس الكتلة الوطنية، واتفق معه على تشكيل حكومة جديدة وتشكيل وفد سوري يقوم بالسفر إلى فرنسا للتفاوض حول معاهدة جديدة تضمن حقوق السوريين، وبنتيجة الاتفاق استقالة حكومة الحسني وتشكلت رابع وآخر حكومات عهد العابد برئاسة عطا الأيوبي في 23 فبراير 1936؛

بعد حوالي شهر في 21 مارس غادر وفد الكتلة الوطنية إلى فرنسا برئاسة الأتاسي وعضوية عدد من أركان الكتلة الوطنية، ومكثت المفاوضات ستة أشهر حتى سبتمبر، حين أعلن عن الاتفاق بين الوفد والحكومة الفرنسية في 9 سبتمبر ونشرت نصوص مسودة الاتفاق في 22 أكتوبر على أن توقع قبل نهاية العام. في مطلع أكتوبر عاد الوفد الوطني من باريس عبر القطار إلى حلب واستقبل فيها استقبالاً شعبيًا حاشدًا هيأه مكتب الكتلة الوطنية وشارك فيه المفوض السامي دي مارتيل والذي وصف المعاهدة بأنها "معجزة القرن العشرين"، وأقيمت الزينة في الشوارع والساحات العامة أيامًا في دمشق وحلب، وسائر

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

المدن السورية ابتهاجًا بعودة الوفد، وفي 22 أكتوبر 1946 ناشد هاشم الأتاسي بيانًا حول نصوص المعاهدة دعا فيه السوريين لخدمة الإنسانية المتمدنة وقال أيضًا :

اليوم يومكم، قفوا وقفة رجل واحد ، وذودوا عن استقلالكم وحريتكم بنضالكم واتحادكم ونبذ أحقادكم فلا يستقيم لهذه الأمة أمرها إلا إذا تراصت صفوفها فإلى التضامن والاتحاد أدعوكم وإلى التضحية استنفركم فهو يوم له ما بعده، والعاقبة للصابرين .

ودعا العابد لانتخابات نيابية هي الثانية في تاريخ سوريا فازت بها الكتلة بالأغلبية الساحقة، وكان من النتائج المباشرة للاتفاق بين الكتلة وفرنسا عودة ارتباط دولة جبل العلويين ودولة جبل الدروز بالوطن الأم في 5 ديسمبر/كانون الأول 1936، مقابل احتفاظهما بالاستقلال الإداري والمالي، غير أن نائب جبلة علي أديب عضو برلمان دولة جبل العلويين أعلن تنازل اللاذقية عن استقلالها المالي والإداري لتكون "متساوية مع سائر المحافظات السورية"، وأيدّه في ذلك سائر النواب وعيّن مظهر باشا أحد أركان الكتلة الوطنية محافظًا عليها . وقد افتتح البرلمان الجديد أعماله في 21 ديسمبر/كانون الأول 1935 وفي اليوم نفسه أرسل العابد كتاب استقالته إلى المجلس فقبلها، وقد علل العابد سبب استقالته بأسباب صحيّة بينما وجد عدد من المؤرخين أن السبب يرجع لفوز الكتلة الوطنية، وعدم تمكن رئيس محايد من الاستمرار إثر فوز الكتلة بأغلبية ساحقة. وفي الجلسة التي قبلت فيها الاستقالة انتخب هاشم الأتاسي رئيسًا، وتشكلت الحكومة الأولى برئاسة جميل مردم ومن أكبر أركان الكتلة الوطنية غير أنها انتقدت بسبب بروز التعصب الحزبي في عملها من خلال توظيف وترفيع الموظفين الكتلويين دون وسواهم.[9]

- *3 – 2 - الحرب العالمية الثانية*

مع نهاية عام 1938 بات واضحًا أن فرنسا لا تود المصادقة على الاتفاقية وذلك خوفًا على ما يكون عليه الوضع في حال نشبت حرب مع ألمانيا تحت قيادة النازية ،

كرد على مماطلة فرنسا بالاستقلال وبعد تعذر إقرار قانون للأحوال الشخصية بين المحافظين وخصومهم والتي تطورت لأعمال عنف فضلاً عن سلخ لواء إسكندرون، وكذلك فإن عبد الرحمن الشهبندر ومعه حزب الشعب وكامل القصّاب ، كانوا قد حشدوا الشارع للتظاهر ضد الكتلة الوطنية وضد حكم الأتاسي .

بتكالب هذه العوامل قدّم الأتاسي استقالته في 7 مايو/أيار 1939 وقال في بيان الاستقالة أن فرنسا تواصل المماطلة حول الاستقلال السوري وسحب كامل الجيوش الفرنسية ، فضلاً عن إعلان لواء إسكندرون دولة مستقلة عام 1938 ثم انسحاب الجيوش الفرنسية منه لتدخلها الجيوش التركية عام 1939، وهو ما يصفه المؤرخون برشوة لتركيا كي تبقى على الحياد خلال الحرب العالمية الثانية التي كانت على الأبواب.

بعد استقالته عاد الأتاسي إلى حمص، ورفض المشاركة في النشاط السياسي معلنًا تقاعده . السنوات اللاحقة لم تكن أبدًا بالمستقرة في سوريا، حيث علق العمل بالدستور وأعيد الحكم الفرنسي العسكري المباشر مع حكومة مديرين برئاسة بهيج الخطيب، كما أن الجيش البريطاني احتلّ سوريا مع قوات جيوش فرنسا الحرة بقيادة شارل ديغول، واستمر الوضع طوال فترة الحرب العالمية الثانية على حاله.

يذكر أن شارل ديغول التقى الأتاسي خلال زيارة قام بها إلى حمص ودعاه للعودة عن استقالته، مؤكدًا أن فرنسا بعد نهاية الحرب تود الاعتراف بكامل استقلال سوريا بعد نهاية الحرب، رفض الأتاسي ذلك وقال أن تجربته في الرئاسة أثبتت أنه لا يمكن الوثوق بفرنسا ،

عمومًا فإنه عام 1941 تمّ تعيين تاج الدين الحسني رئيسًا للجمهورية، وعندما أعيدت الحياة الدستورية وجرت انتخابات نيابية عام 1943 فازت بموجبها الكتلة الوطنية مجددًا، لم يرشح الأتاسي نفسه، بل دعم ترشيح شكري القوتلي أحد زعماء دمشق رئيسًا للجمهورية، وبالتالي عُرف الأتاسي بوصفه رئيسًا وبوصفه صانعًا للرؤساء؛ جاء ذلك خلال فترة تحسن العلاقات بين الكتلة والانتداب مع زيارة المندوب الفرنسي الجنرال كاترو لحمص ولقاءه الأتاسي، وقد شاعت أنباء أن الأتاسي سيعاد انتخابه رئيسًا للجمهورية غير أنه وبعد مشاورات كان أقطابها الأتاسي نفسه والقوتلي وفارس الخوري تم الاتفاق أن يبقى الأتاسي رئيسًا للكتلة الوطنية وأن يكون القوتلي رئيسًا للجمهورية.

خلال الأزمة الحكومية عام 1947 عرض القوتلي على الأتاسي أن يغدو رئيسًا للوزراء بحيث يرأس حكومة وحدة وطنية، اشترط الأتاسي في حال قبوله تشكيل الحكومة الحد من صلاحيات الرئيس التي كانت متزايدة بما لا يتوافق وأحوال الجمهورية النيابية، غير أن القوتلي رفض.

في آذار/ مارس 1949 تمت الإطاحة بالقوتلي على يد رئيس أركان الجيش **حسني الزعيم** في أول انقلاب عسكري في الشرق الأوسط، وقد ترأس الزعيم حكومة عسكرية لمدة أربعة أشهر قبل أن يطيح به انقلاب عسكري آخر في أغسطس/ آب 1949 بقيادة **سامي الحناوي** الذي دعا الأتاسي للعودة عن تقاعده وتشكيل حكومة مؤقتة تشرف على انتخابات من شأنها استعادة الحكم المدني.

امتثل الأتاسي لطلب الحناوي وضم حكومة وحدة وطنية تشمل جميع الأطراف بما فيها حزب البعث العربي الاشتراكي حيث مثله **ميشيل عفلق** بوزارة الزراعة. ثم تمت خلال رئاسته للحكومة صياغة قانون انتخابي جديد، صوتت فيه النساء للمرة الأولى في 15 و16 نوفمبر/ تشرين الثاني 1949، وتكونت جمعية تأسيسية انتخب لرئاستها، ثم رشح لولاية ثانية كرئيس للبلاد.

- *3 – 3 - ولايته الثانية*

انتخب الأتاسي رئيسًا للمرة الثانية بإجماع الأعضاء في ديسمبر 1949، غير أن القلاقل عادت من جديد مع المطالبة بالوحدة مع العراق، وقد تحالف الأتاسي مع حزب الشعب وعين رئيسه **ناظم القدسي** رئيسًا للوزراء، وافتتحت مفاوضات للوحدة مع العراق. كذلك فقد شهدت ولايته الثانية إغلاق الحدود مع لبنان بحجة منع تدفق البضائع اللبنانية التي كانت تغرق السوق السورية.

طوال 1950 كانت مفاوضات الانضمام إلى العراق تسير قدمًا خصوصًا بعد سفر الأتاسي إلى بغداد ولقاءه فيصل الثاني ملكها ، ما أغضب أديب الشيشكلي أحد أبرز قادة الجيش، والذي حذّر الأتاسي من مغبة "استيلاء بغداد على دمشق"، رفض الأتاسي الضغوط العسكرية، فقام الشيكشلي بانقلاب ديسمبر 1949 واعتقل سامي الحناوي وأبرز المتعاطفين مع حزب الشعب، وعدد من الضباط الموالين للعراق في الجيش السوري .

في المرحلة الممتدة بين انقلاب 1949 وانقلاب 1951، كان الشيشكلي صاحب الكلمة العليا في البلاد، والجيش طرفًا في الحياة السياسية، طالب الشيشكلي تعيين **فوزي السلو** وزيرًا الدفاع ، لكونه من المقربين منه، بحيث يضمن عدم تأثير موالي العراق على الحكومة، قبل الأتاسي بشروط الشيشكلي الأولى، ومع ذلك طلب من معروف الدواليبي أحد وجوه حزب الشعب تشكيل الحكومة، وقد رفض الدواليبي منح حقيبة الدفاع لفوزي السلو، وبنتيجة ذلك قام الشيشكلي بانقلاب 1951، واعتقل رئيس الوزراء وجميع أعضاء حزب الشعب وجميع الوزراء ورجال الدولة المؤيدين للأسرة الهاشمية، ثم حلّ البرلمان.

احتجاجًا على ذلك قدم الأتاسي استقالته إلى البرلمان المنحل في 24 ديسمبر 1951، ورفض أن يقدمها للشيشكلي، لكون حكمه غير دستوريًا. وطوال حكم أديب الشيشكلي بين 1951- 1954 قاد الأتاسي معارضة مستترة ضده مؤكدًا أن حكمه غير دستوري. وبتضافر أنصار الكتلة الوطنية وأنصار حزب الشعب - الذين باتا من الأحزاب المحظورة - إضافة إلى مؤيدي الهاشمية ، قامت انتفاضة وطنية من حلب، تلاها انقلاب 1954 بين 24-26 فبراير،

وكرد على ذلك وضع الشيشكلي الأتاسي تحت الإقامة الجبرية، ولم يقم بوضعه في السجن احترامًا لدوره البارز في الحياة السياسية السورية.

في 1 مارس عاد الأتاسي من حمص إلى دمشق وتابع مهامه كرئيس للجمهورية ، كما أعاد مجلس الوزراء ورئيسه معروف الدواليبي، واستعاد أيضًا جميع السفراء والوزراء والبرلمانيين الذين عزلهم الشيشكلي مناصبهم السابقة، وحاول الأتاسي خلال متابعته لولايته الثانية بكل قوته القضاء على كل أثر لديكتاتورية الشيكشلي التي دامت أربع سنوات.

4 - السنوات الأخيرة

قضى الأتاسي سنوات حكمه الأخيرة وله من العمر ثمانون عامًا، يحارب نفوذ ضباط الجيش ويسعى للحد من نفوذ الأحزاب اليسارية التي كانت تتنامى في البلاد إلى جانب الاشتراكية والتعاطف مع الاتحاد السوفياتي، وكذلك جمال عبد الناصر، الذي كان يدعمه عدد من وجوه آل الآتاسي من أمثال جمال

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الأتاسي ونور الدين الأتاسي. واستطاع الأتاسي خلال توليه السلطة تحييد سوريا والحفاظ عليها خارج المعسكر الاشتراكي.

خلافًا لمعظم المفكرين والقادة العرب، كان الأتاسي يعتقد أن جمال عبد الناصر كان صغير السن لقيادة مصر والوطن العربي، وعديم الخبرة فضلاً عن آيديولوجيته الحادة، وعمد الرئيس السوري إلى إجراءات صارمة ضد التيار الناصري في سوريا، ووقع خلاف مع رئيس وزرائه صبري العسلي واتهمه بالسعي لتحويل سوريا إلى "قمر صناعي مصري".

في عام 1955 كان الأتاسي يميل للقبول بحلف بغداد وهو الاتفاقية المرعيّة من قبل الولايات المتحدة وبريطانيا وتهدف إلى احتواء نفوذ الاتحاد السوفياتي في المنطقة، ولكن الضباط الناصريين في الجيش السوري منعوه من القيام بذلك. وخلال الصراع بين العراق الهاشمي ومصر عبد الناصر وقف الأتاسي إلى جانب العراق وتحالف مع نوري السعيد. وبعد أن أقال العسلي عيّن فارس الخوري رئيسًا للوزراء ليكون بذلك السوري المسيحي الوحيد الذي يتولى منصب رئيس الوزراء. وقد أوفد الأتاسي، رئيس وزرائه الخوري إلى مصر، لتقديم احتجاج لدى الحكومة المصرية على "هيمنة عبد الناصر على الشؤون العربية".

انتهت ولاية الأتاسي في سبتمبر/ أيلول 1955 واعتزل الحياة السياسية وعاد إلى حمص حيث أقام في دارته حتى يوم وفاته. في عام 1956 أدين ابنه **عدنان الأتاسي** بالتحالف مع العراق لتدبير انقلاب عسكري للإطاحة بشكري القوتلي الموالي لعبد الناصر، وقد حكم على عدنان بالإعدام بتهمة الخيانة العظمى، لكن احترامًا لوالده تم تخفيف الحكم إلى السجن المؤبد. ويعتقد أن الضباط الذي أداروا المحكمة العسكرية قد أصدورا أحكامًا قاسية انتقامًا من الأتاسي خصوصًا لكونه قد كبح جماح السلطة العسكرية خلال ولايتيه الثانية والثالثة، ومع ذلك فقد رفض زيارة ابنه في السجن.

توفي في حمص يوم 6 ديسمبر/ كانون الأول 1960 خلال سنوات الجمهورية العربية المتحدة، وكانت جنازته الأكبر في تاريخ المدينة وحضرها جمال عبد الناصر إلى جانب كبار المسؤولين في الدولة، وقد تحققت رؤيته للجمهورية العربية المتحدة إذ انفصلت عام 1961 بعد ثلاثة أشهر من وفاته، وقد انتخب اثنان من أفراد أسرته هما لؤي الأتاسي ونور الدين الأتاسي رئيسين للجمهورية من بعده.

قيل عن الأتاسي بأنه رجل " **المبادئ السلمية** " والمؤيد " **للطرق الدستورية** " إلى جانب احترامه لجميع اللاعبين في السياسة السورية، وهو واحد من قلة في الطبقة السياسية السورية من حقبة ما قبل البعث لم ينتقده البعثيون ويشهروا بسيرته بعد وصولهم إلى السلطة عام 1963. وقد نشرت سيرة حياته في سوريا عام 2005 على يد حفيده ، غير أنه لم يترك وراءه أي مذكرات يومية، تؤرخ للمرحلة التي تولى خلالها رئاسة البلاد.

كامل بك دوامة

هو كامل بن نعمان دوامه من أسرة حمصية عريقة . ولد بحمص سنة (1257هـ-1842م) نجح والده في أعماله التجارية في مصر ، ثم انتقل إلى الأستانة واستقدم أسرته للسكن معه هناك ؛ و كان كامل في دور الصبوة ؛ فلما أنهى دروسه الأولية ؛ دخل المدرسة السلطانية و كانت مدتها و قتئذٍ تسع سنوات تعلم فيها اللغات الإنكليزية والفرنسية والروسية واليونانية و لما نال شهادتها بتفوق أدخله والده في المكتب الذي أحدث جديداً لتخريج كبار موظفي الدولة و نال شهادته بعد سنتين ؛ و عندئذٍ أرسله والده إلى باريس فانتسب إلى كلية الفنون ونال شهادتها بعد ثلاث سنوات ، ثم عاد إلى الأستانة فعينته الحكومة العثمانية مدرساً في المدرسة السلطانية ، و منها نقل إلى قائمقامية المرقب ثم إلى قائمقامية صور ، ومنها استدعي لتسلم وظيفة كاتب في المابين .

ونظراً لأسلوب كامل الإنشائي الرفيع في المراسلات فقد استلفت إليه أنظار السلطان عبد الحميد؛ فعينه رئيساً لكتاب المابين حيث بقي مدة / 25 / سنة حاز أبانها على ثقة السلطان التامة لدرجة أنه انتدبه

مفوضاً مطلق الصلاحية لمقابلة قيصر الروس لحل بعض المشاكل العالقة بين الدولتين ، الأمر الذي نجح فيه نجاحاً باهراً وسر منه القيصر . فدعاه لتناول الطعام معه على مائدة الأسرة الخاصة .

ثم انتدبه السلطان مرة ثانية لتفقد أحوال مسلمي الصين ، فقام بما انتدب إليه خير قيام مما أعلى مكانته عند السلطان عبد الحميد حتى أصبحت كلمته لا ترد .

وبهذا التأثير استطاع أن يخدم أبناء وطنه خدمات جلى ؛ إذ أوسع المجال لعدد كبير من مواطنيه الحمصيين لدخول المكاتب العالية في الآستانة مجاناً . و ممن دخلوا بسعيه المكتب الملكي ونالوا شهادته من حمص : هاشم الأتاسي و علاء الدين الدروبي ونجم الدين الدروبي وحكيم دوامه وفارس الفياض وعبد الحميد الحراكي وعبد القادر الحراكي وصبري مراد و سواهم من الشخصيات التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ البلاد السورية والعراقية في النواحي السياسية والإدارية والعلمية . و عين كامل دوامه عضواً في اللجنة الجغرافية العالية في ليشبونة سنة 1896

ومن مزاياه الشخصية : محبته الشديدة للعلم ورغبته الحارة في إيصاله إلى كل من يمت إليه بصلة معرفة ، وبسطة كفه وتواضعه الجم ونزاهته المشهورة . وعندما شعر بدنو أجله لظهور سرطان في أنفه ؛ فضل أن يقضي بقية حياته في مسقط رأسه حمص فجاءَها حيث توفي سنة (1318هـ - 1901م) ودفن فيها .

وصفي بك الأتاسي 1880-1932م

نائب لواء حماة في مجلس المبعوثان ونائب حمص بالمؤتمر السوري وأحد واضعي الدستور العربي الأول ورئيس النادي العربي بحمص.

هو السيد وصفي بك بن نجيب أفندي الأتاسي، من رجالات الرعيل الوطني الأول. ولد في حمص عام 1880م ، وترعرع في بيت العلم والزعامة، فوالده السيد نجيب أفندي كان من كبار اعيان حمص، تولى رئاسة بلدية حمص ورئاسة مجلس معارفها، وكان من العلماء المدرسين، وأخوه السيد توفيق أفندي الأتاسي أحد رواد الصحافة في حمص ومن أعضاء مجلس المعارف المؤسَس لنشر الثقافة والوعي.

أخذ الأتاسي مبادئ العلوم في حمص ودرس في مدارسها، فلما شب رحل إلى الأستانة فالتحق بكلية حقوقها حتى فاز بشهادتها، وذلك برعاية مواطنه الحمصي كامل بك دوامة ، أحد أخصاء السلطان عبدالحميد، والحاصل على أعلى رتبة في قضاء حمص، رتبة بالا الرفيعة التي لا تعلو عليها سوى رتبة الوزير.

وعاد الأتاسي إلى بلاده وقد هيأته دراسته القانونية ليكون من الإداريين والسياسيين المتميزين .

ولما عاد الأتاسي إلى حمص عين مدرسا للتاريخ والحكمة الطبيعية والعلوم المدنية في المدرسة العلمية الإسلامية التي كان قد أنشأها العلامة محمد خالد أفندي الأتاسي عام 1324هجرية (1906م)، وانتخب عضوا في مجلس العمدة الداخلية للكلية، كما عين مديرا ثانيا للمدرسة (كان الأستاذ محمد علي أفندي النملي مديرها الأول) . وتولى الأتاسي بعض المناصب الإدارية قبيل الثورة العربية، وفي نهايات الدولة العثمانية انتخب الأتاسي نائبا في مجلس المبعوثان العثماني في دورته الثانية عن لواء حماة من ولاية سورية مكان نائبها خالد البرازي في حوالي عام 1335هـ (1917م)، فكان ثاني النواب الأتاسيين بعد ابن عم والده السيد العلامة خالد أفندي الأتاسي الذي كان أول نائب للواء حماة في الدورة الأولى من مجلس المبعوثان العثماني عام 1294هـ (1877م). وقد كان الأتاسي من أصحاب الرتب العثمانية لأنه كان يخاطب بالبكوية في وقت مبكر من هذه الفترة قبيل دخول القوات العربية،

ويبدو أن دراسة الأتاسي في الأستانة ومن ثم عودته إليها ممثلا عن ولاية سورية في المجلس النيابي للامبراطورية العثمانية قد أتاحت له التعرف عن كثب على عدد من أحرار العرب وزعمائهم المثقفين من الذين كانت لهم أدوار فعالة في الحركات المناهضة للطورانية ومن ثم في بناء الدول العربية المنفصلة عن الدولة العثمانية، فبعد دخول الجيش الهاشمي العربي مدينة دمشق انتمى الأتاسي إلى حزب العربية الفتاة، والتي سبقه إلى الفوز بعضويتها التأسيسية ابنا عمه السيدان عمر وهاشم. وهنا يجدر بالذكر أن الذين اكتسبوا عضوية الحزب قبيل دخول القوات العربية دمشقا اعتبروا أعضاءً مؤسسين، يحق لهم بذلك معرفة

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

أسماء باقي الأعضاء، وكذلك انتخاب الهيئة الإدارية السنوية، بينما اعتبر من التحق به بعد قيام الحكم العربي أعضاءً عاديين.

إلا أنه بتاريخ 13 أيار (مايو) عام 1920م شُكلت لجنة خاصة استثنت وصفي الأتاسي وقلائل آخرين - وهم يوسف العظمة ، وعادل أرسلان ، وعبدالرحمن الشهبندر، ورشيد رضا، وأمين التميمي، ورضا مردم بك، وعبدالحميد كرامة، وعبداللطيف البيسار، وعارف نكد، وسعيد طليع، وصبحي الطويل، وعمر فرحات، وسامي السراج، ومحمد النحاس، وسعيد منلا، وسليم طيارة، وصالح قمباز- من عضويتهم العادية وأسبغت عليهم لقب الأعضاء المؤسسين

وفي 6 محرم عام 1337 الهجري (11 تشرين الأول سنة 1918م) ليلة انسحاب القوات التركية من مدينة حمص باتجاه الشمال وقبل وصول القوات العربية إلى حمص بقيادة السيد عمر بك الأتاسي، اجتمع أعيان حمص وانتخبوا حكومة عربية مؤقتة لتحل محل الحكومة المنسحبة تجنبا للفوضى والاضطراب، فاختير صاحب الترجمة عضوا لها هو وابن عمه المفتي محمد طاهر أفندي الأتاسي، وقامت هذه الحكومة بالإشراف على أمن المدينة ريثما تصل القوات العربية الفيصلية إلى حمص .

سرعان ما برز نجم وصفي الأتاسي كأحد زعماء البلاد الأحرار، وقد توسم فيه الملك فيصل الهاشمي الحكمة وحب الوطنية وحسن السياسة، فنصبه متصرفا (محافظا) على منطقة حماة عام 1920م . ولما قام أول مجلس نيابي سوري وعربي في حزيران (يونيو) عام 1919م -الشهير بالمؤتمر السوري- انتخب وصفي الأتاسي عضواً فيه نائباً عن أهالي مدينة حمص ، وانتخب ابن عمه هاشم الأتاسي ممثلاً آخر عن حمص ثم رئيسا للمؤتمر، فكان الأتاسيان من أوائل النواب الأتاسيين. ضم المؤتمر السوري أكثر من ثمانين عضواً منتخبين من مناطق سوريا ولبنان والأردن وفلسطين، فكان بذلك أول وآخر مجلس نيابي عربي لبلاد الشام كافة مجتمعة.

ولعل من أهم الأعمال التي كلف بها المؤتمر السوري هو وضع أول دستور للبلاد، وفي تموز من عام 1919م انتخب المؤتمر أعضاء لجنة "القانون الأساسي" في أثناء دورته الأولى فتشكلت من هاشم بك الأتاسي، ووصفي بك الأتاسي، وعزت دروزة، وعبدالقادر الكيلاني، وسعدالله الجابري، وسعيد حيدر، وتيودور أنطاكي، والشيخ عبدالعظيم الطرابلسي، وعثمان سلطان، وابراهيم القاسم عبدالهادي، وانتخب هاشم الأتاسي رئيسا لها في جلستها الأولى، وعزت دروزة سكرتيرا، وبدأت اللجنة على الفور بعقد الاجتماعات في النادي العربي لوضع مواد القانون الأساسي للدولة السورية حتى في أثناء تعليق المؤتمر بين دروتيه، ولما عقد المؤتمر دورته الثانية في آذار 1920، طالبت الحكومة المؤتمر بالإسراع في النظر بمواد القانون، فقامت اللجنة في فترة قصيرة لم تتعد 10 أسابيع بالتدقيق في المواد وعرضتها على اللجنة العمومية للمؤتمر، وبعد نقاشات مكثفة قام المؤتمر بإقرار القانون الأساسي دستورا للبلاد في تموز عام 1920م، وقد تكون من 147 مادة نصت على استقلال سوريا بحدودها الطبيعية، وعلى تنصيب فيصل ملكاً للبلاد، وعلى وراثية الملكية في العائلة الهاشمية .

وهكذا كان وصفي بك الأتاسي أحد واضعي الدستور السوري الأول، بل كان له في وضع الدستور جهد محمود ومداخلات حسنة، إذ كانت تلك المهمة في غاية الصعوبة، فالبلاد كانت حديثة عهد بالاستقلال، وذلك القانون الأساسي كان أول دستور عربي لأول دولة عربية مستقلة، فلم يكن لزعماء البلاد سابق خبرة بوضع الدساتير، وإن كان الكثير منهم من رجال القانون وخريجي مدارس الحقوق، ولوجود تمثيل شامل في المؤتمر لكافة قطاعات شعب بلاد الشام وعقلياته المتفاوتة، فقد انتمى لعضوية المؤتمر العالم الديني، والرجل المسيحي، والقانوني، والمثقف، وكبير العشائر، فكان النقاش يحتدم على مواد الدستور،

وقد أخذ وصفي الأتاسي على عاتقه توضيح وشرح مقررات اللجنة لباقي الأعضاء والدفاع عن المواد أمامهم والرد على أسئلتهم والاستماع إلى اقتراحاتهم وتعليقاتهم، وذلك بالإضافة إلى كونه أحد مقرري الدستور ، وفي نهاية الأمر تم للجنة أن تتوصل إلى وضع دستور أرضى كافة القطاعات وأفراد الشعب وجماعاته، وهو أمر يثير الإعجاب إن علمنا أن واضعيه كانوا حديثي العهد بهذا الأمر الهام الحيوي من نشوء الأمم وتنظيم أمورها.

وقد أثنى محمد عزت دروزة، أحد النواب في المؤتمر السوري، وسكرتير لجنة الدستور، على الأتاسي، فقال في معرض وصفه لبعض أعضاء المؤتمر: "ومنهم وصفي الأتاسي، وكان ذكياً ألمعياً وحدوياً

استقلالياً، وقد تخرج من كلية حقوق الأستانة، وكان حسن الثقافة والكلام والحجاج، وظللنا متواثقين متعاونين عهد المؤتمر، وضمته جمعية الفتاة إليها فكان ذلك من وسائل توثيق الصلة والتعاون، ثم افترقنا بين يدي الاحتلال الفرنسي، ولم يعمر طويلاً حيث وافاه أجله في العشرينات رحمة الله عليه" .

إلى ذلك كان الأتاسي أحد ثلاثة اختيروا لتشكيل لجنة ترتيب المؤتمر، إلى جانب الوطنيين الكبيرين سعدالله الجابري ورياض الصلح. قامت هذه اللجنة باختيار بناء العابد المعروف في ساحة الشهداء لجعل أحد طوابقه مقراً للمؤتمر، وسعى أعضاء اللجنة لتأمين وسائل الاجتماع، من أثاث ومنصات ومكاتب، لأعضاء الحكومة والمؤتمر والصحافة، وجهزوا قاعات اللجان والسجلات، وذلك بعد أن مُنِحوا مخصصات مالية من قبل الحكومة .

وفي الدورة الأولى للمؤتمر (حزيران-4 كانون الأول 1919م) انتخب وصفي الأتاسي عضوا في اللجنة التي أخذت على عاتقها الرد على خطاب الحاكم العسكري ورئيس الحكومة رضا الركابي في 22 تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1919م والتي تألفت أيضا من ابن عمه هاشم بك الأتاسي رئيسا، وسعيد حيدر محررا للمضبطة، وعضوية عبدالقادر الخطيب، وابراهيم هنانو، وسعدالله الجابري، ورياض الصلح، وفوزي البكري، ودعاس جرجس، وعلي العابد، وصلاح الدين الحاج يوسف .

وفي آذار عام 1920 دعا الأمير فيصل المؤتمر إلى الانعقاد مجددا ليشكل دورته الثانية المعروفة بدورة الاستقلال (6 آذار-18 تموز 1920م)، وفي الاجتماع الرسمي الأول لأعضائه في 6 آذار عام 1920م بعد تلاوة خطاب الأمير انعقدت جلسة علنية لانتخاب رئيس المجلس التأسيسي والكتاب والهيئة الإدارية، فانتخب هاشم بك الأتاسي رئيساً للمجلس، ومرعي باشا الملاح ويوسف الحكيم نائبي رئيس، وانتخب ابن عمه وصفي بك الأتاسي عضواً في الهيئة الإدارية التي ضمت أيضا حكمت بك الحراكي مندوب المعرة، وسعدالله الجابري نائب حلب، وتيودور أنطاكي، ومحمد الشريقي، وعبدالرحمن رشيدات، وقد حصل الأتاسي بالمساواة مع محمد الشريقي على أعلى عدد من الأصوات (24 صوتا) .

كما انتخب الأتاسي عضوا في لجنة من تسعة أعضاء ضمت أيضا عزت دروزة، ويوسف الحكيم، وسعدالله الجابري، وعثمان سلطان، لمناقشة مشروع الجواب على خطاب الأمير فيصل في 7 آذار عام 1920م، وانتهت بتقديم المؤتمر قرارا تاريخيا وقع عليه السيد هاشم بك الاتاسي بصفته رئيس المؤتمر وترأس وفدا اختير من قبل المؤتمر لتسليم نص القرار للأمير فيصل، وكان يقضي بالتأكيد على استقلال البلاد استقلالا تاما خالصا من الشوائب بحدودها الطبيعية ويضم فلسطين، وإلغاء جميع احتمالات الانتداب، والتأكيد على الرغبة في الوحدة السياسية مع العراق، وتحديد اليوم التالي، 18 جمادى الآخرة، والثامن من آذار، موعدا لمبايعة الامير فيصل الهاشمي ملكا على البلاد .

إن انتخاب وصفي بك لعضوية المؤتمر السوري نائبا عن حمص، ثم عضوا في هيئته الإدارية، وعضوا في أهم لجانه وهي لجنة القانون الأساسي (الدستور)، وعضوا في اللجان المكلفة بالرد على خطابات الحكومة، يدل على أنه كان على رأس أصحاب القرار وفي مقدمة صانعي الحدث في ذلك العصر، وعلى أنه كان حائزا على محبة وإعجاب إخوانه من الوطنيين أعضاء المؤتمر السوري حتى كلف بهذه المهام واختير لصياغة هذه الوقائع.

وكما جاهد وصفي الأتاسي في سبيل الوحدة الوطنية والحفاظ على كيانها، كان في طليعة المناضلين من أجل استقلالها من الفرنسيين. ولما كان من زعماء حمص والأسرة الأتاسية كان موفودهم في الاجتماعات التي كان يعقدها زعماء الأسر الكبيرة في حمص وحماة والمناطق المجاورة لمباحثة أمر الثورة. ففي عام 1919م أوفد الحماصنة الأتاسي مندوباً عنهم في اجتماع عقده الأعيان في حمص في منزل شيخ عشائر الأحسنة حضره زعماء الدنادشة وأحمد آغا البرازي عن حماة وعبدالمجيد آغا سويدان زعيم حسية وممثلين عن آل الكيلاني والعظم الحمويين وغيرهم من زعماء العشائر والأسر، وتقرر في هذا الاجتماع التعاون من أجل الثورة التي اتخذت من تلكلخ ، عاصمة الدنادشة، مقراً لها، وأن يقوم الحماصنة بتأمين الغذاء والسلاح للثائرين.

وبين العامين 1919 و1920م كان وصفي بك الأتاسي من المؤسسين للجنة الدفاع الوطني في حمص، والتي ترأسها ابن عمه عمر الأتاسي، وكان من الأعضاء المتألقين فيها، يعمل على جمع التبرعات

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

والإعانات المالية لدعم نشاطات اللجنة، ويشارك في التخطيط للثورات والمعارك التي كانت اللجنة تدعمها وتشعل شرارتها، وبالأخص تلك التي قامت في تلكلخ، ومعارك الدفاع عن مدينة حمص .

وفي أوائل عام 1919م أسس الأتاسي النادي العربي في حمص فرعاً للنادي العربي الذي أسسه الأحرار العرب في دمشق في عهد الأمير فيصل الهاشمي، وكان مقره قهوة الفيصل التي كانت لا تزال قائمة حتى الثمانينات من القرن العشرين، وانتخب الأتاسي رئيساً للنادي وكان من أعضائه أديب الموصلي، أنيس الملوحي، سليمان المعصراني، عبدالقادر الجمالي، عبدالكريم الحسامي، عبدالمؤمن الشيخة، فؤاد رسلان، محيي الدين الجندي، نديم الموصلي، هاني السباعي، ياسين زكية، وغيرهم من الوطنيين في حمص، وبعض هؤلاء أصبحو فيما بعد من قادة البلاد ومشاهير ساستها المناضلين ضد الانتداب الفرنسي، وقام أعضاء النادي العربي بالنشاط الوطني فقدموا محاضرات ومسرحيات وطنية استهدفت الاحتلال الفرنسي حتى أغلق الفرنسيون النادي في تموز عام 1920م .

وفي تموز من عام 1925م انضم وصفي بك الأتاسي وغيره من زعماء الحماصنة مثل مظهر باشا رسلان، وصالح أفندي الجندلي، وشكري بك الجندي، وشفيق بك الحسيني، وعبدالكريم بك الدروبي، إلى حزب الشعب الذي أسسه الزعيم المجاهد عبدالرحمن الشهبندر وافتتحوا فرعاً له في تلك المدينة بعد أن اجتمعوا بمندوبي الشهبندر إلى حمص: جميل مردم بك وحسن الحكيم .

ثم شارك وصفي الأتاسي في التخطيط والتدبير للثورة السورية الكبرى عام 1925م، ولما قرر الوطنيون مقاطعة انتخابات عام 1926م كان الأتاسي على رأسهم، فكان من الذين اعتقلوا في حمص، ثم أخذوا إلى تلكلخ ومنها أودعوا جزيرة أرواد مع غيره من أركان الرعيل الأول من الوطنيين أمثال هاشم بك الأتاسي، ومظهر أفندي الأتاسي، ورفيق رسلان، ومظهر رسلان، وراغب الجندي، وشكري الجندي، ونورس الجندي، وسعدالله الجابري، وفارس الخوري، ونجيب الريس، ويحيى خانكان وغيرهم .

ولما تأسست الكتلة الوطنية عام 1928م برئاسة هاشم الأتاسي لخوض انتخابات المجلس التأسيسي انضم وصفي بك الأتاسي إلى صفوف الوطنيين الذين انتسبوا إليها، وكان أحد الموقعين على البيان الذي أعلن فيه الوطنيون عن رغبتهم في الإشتراك بالإنتخابات، وكان أن اكتسحت قائمة الوطنيين الإنتخابات وفازت بأغلبية مقاعد المجلس في نيسان عام 1928م ، إلا أن الأجل وافى الوطني الكبير والمجاهد وصفي الأتاسي عام 1932 م،

ولو أن العمر طال به لكان للأتاسي أن يشارك أعلام أسرته أمثال هاشم وعدنان وفيضي ومكرم الأتاسي وغيرهم في أدوارهم الكبيرة التي لعبوها في الثلاثينات وحتى الستينات من القرن العشرين ،

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

نجم الدين الدروبي

(1873 م – 1945)

كان أحد ثلاثة درسوا في الآستانة وهم علاء الدين الدروبي ونجم الدين الدروبي وهاشم الأتاسي وقد تخرج من معهد غلطة بدرجة علي الأعلى أي بدرجة جيد جدا في العلوم السياسية و حاز رتبة البكوية بكل امتيازاتها. و عين فورا ملحقا للباب العالي في باريس ثم عين واليا لحلب بعد أن تنقل في المدن التركية بالوظائف الإدارية المختلفة، تقلد مناصب إدارية كبيرة في كل من سوريا و تركيا ولبنان بدءا من مأمور بدمشق ثم ولي قائمقاما على جبل سمعان، عنتاب، كليس، جولة مرك، مرجعيون، النبك، السلمية (3 مرات)، الجزيرة (مرتين)، كما عين سفيرا للباب العالي بين الباب العالي وجماعة العرب الذين يطالبون بالانفصال عن الإمبراطورية العثمانية ومن جملتهم عبد الحميد الزهراوي و ذلك للتفاوض معهم. ثم نائبا في مجلس المبعوثان التركي ثم نائبا عن حمص عام 1922 م و كان عضوا في مجلس الشورى بدمشق آخر عام 1920 م و لغاية عام 1923 م ثم نائبا مرة أخرى عام 1928 م و انتدب مع زملائه لوضع الدستور السوري لعام 1928 م .

و كان قد انتدب في عهد حكومة علاء الدين باشا الدروبي لإعادة استتباب الوضع في السلمية التابعة لمدينة حماة وذلك لمركزها الدقيق حيث يتواجد فيها الإسماعيليون والمسلمون السنة معا. فاعتنى بهذا القضاء وخطط شوارعه وجلب له المياه وأنشأ دور الحكومة والبرق والبريد وأنشأ الساحات وبنى قيادة الدرك. توفي رحمه الله في 25 آذار 1944 .

شفيق بك مؤيد العظم

1 - تقديم

شفيق بك العظم أحد رجال الدولة في سوريا ابن المرحوم أحمد مؤيد باشا العظم شهيد السفاح جمال باشا ، ولد بدمشق سنة 1861 وتلقى دراسته في مدرسة عنتورا بلبنان أتقن من اللغات الفرنسية والتركية وألم بالإنكليزية ، وكان أديبا وشاعرا باللغة العربية ، له قلم سيال يستهوي القلوب والعقول معاً، ولسان فصيح يخلب السامعين، ومن حدة ذكائه أنه تعلم التركية وبرع فيها كأحد أبنائها في مدة قصيرة بعد أن تجاوز الثلاثين من عمره . كان شفيق العظم موهوباً ومثقفاً ثقافة عميقة ، ويعد مرجعاً كبيراً في علم الاقتصاد والمال، ولطالما اعتمدت عليه الدولة في قضايا اقتصادية مهمة.

2 - بداية حياته

عين في شبابه بوظائف مختلفة منها مديرية الدفتر الخانقاني بدمشق ومصلحة الجمارك في بيروت وكان في الخامسة والعشرين من عمره آنذاك. ولما سافر والده المرحوم أحمد مؤيد باشا إلى الأستانة والتقى السلطان عبد الحميد الثاني أصدر جلالته ارادته بتعيينه مترجما في المابين ، وفي سنة 1896 عهد إليه بمفوضية الديون العامة في الأستانة . فبقي فيها إلى سنة 1901 م وقد حدث ان عمدت الدولة إلى تمديد الخط الحديدي من رياق إلى حلب واقتضى لها أن تقدم اعتمادا لإدارة الديون العامة كي تكفل (الضمانة الكيلومترية) للخط وعزمت على إحالة جباية أعشار ولايتي سوريا وحلب إلى الإدارة المشار إليها لهذا السبب ثم عقد مجلس من رجال الدولة لإنجاز هذا العمل فدعا المجلس شفيق بك مفوض الديون العامة واستشاره في الموضوع، فرفض الشهيد الموافقة على هذا المشروع غير أن السلطان أقره فيما بعد فاضطر شفيق بك إلى الاستقالة من مفوضية الديون العامة، فما كان من هذه الأدارة التي كان شفيق بك معارضا لها إلا أن قدرت له هذه الشهامة فعينته مفوضا عنها في إدارة حصر الدخان لأن أمور الحصر كانت في جملة الرسوم الستة التي تؤلف موارد الديون العامة المودوعة إليها من قبل الدولة لتسديد مطالبها وقد ابت على

المرحوم وطنيته أن يوافق على احالة اعشارالولايتين إلى إدارة الديون العامة باعتبار أن هذا العمل كان مخلا باعتبار الدولة وقد تخلى عن الوظيفة لهذا السبب. بقي شفيق بك مفوضا لإدارة الديون العامة لدى شركة حصر الدخان حتى إعلان الدستور في سنة 1908

3 - شفيق والسياسة

لما أعلن الدستور لم يرشح نفسه للنيابة فما كان من أبناء المؤيد في دمشق إلا أن رشحوه ونال من الأصوات ما أهله لأن يكون نائبا عن دمشق في المجلس النيابي العثماني ، فقبل النيابة ، واستقال من مفوضية حصر الدخان باختياره لأن القانون لا يجيز اجتماع النيابة مع أي وظيفة ثانية ولأن استقالته من مفوضية الحصر كان موقوفا على موافقة مجلس الديون العامة المؤلف من ممثلي الدول الأجنبية الدائنة ولا سلطة لأحد علي هذا المجلس أجاب المرحوم حينئذ (بماذا أعتذر للذين رشحوني ومنحوني ثقتهم واعتمادهم ؟) .

كان شفيق بك من رجالات البلاد السورية وقد تناولت اسمه دون علم منه مراسلات ومذكرات سفراء فرنسا وانكلترا وقناصلها في مصر وسوريا مع وزارات الخارجية المنسوبة لهاتين الدولتين بسبب مكانته السامية التي أدت إلى ترشيحه من قبل الأحزاب السياسية والجمعية اللامركزية القائمة أثناء الحرب العالمية الأولى لتولي رئاسة الحكومة في سوريا إذا أعلن استقلالها كما دعي لتولي رئاسة المؤتمر الذي عقده زعماء ووجوه البلاد السورية في باريس فاشترط لقبول رئاسة المؤتمر أن يعقد المؤتمر في الأستانة بدلا من باريس وقد أجاب المعترضين على ذلك بقوله (فليفعل بنا الأتراك ما شاؤوا وأرادوا من سجن ونفي وتغريب فنحن وأياهم أبناء دولة واحدة ولابد لهم من أن يتراجعوا وأن يتفاهموا معنا في آخر الأمر وخير لنا أن نغسل ثيابنا فيما بيننا وأن لا ننشرها أمام الأجانب). ولكنهم لم يقبلوا ذلك منه وعقد المؤتمر الذي باء بالفشل في باريس برئاسة عبد الحميد الزهراوي.

إن الأتحاديين ما كان ليخفى عليهم صدق واخلاص شفيق بك وفقا لما كانت تنطوي عليه طبيعة أجداده من إخلاص وتفاني في سبيل الدولة منذ القديم ولكن لهؤلاء من دواعي الانتقام ما جعلهم يتخذون من شهرته وتداول اسمه كما ورد آنفا دون علمه اتهموه فيها بالاشتراك بالجمعيات والأحزاب التي رشحته وبالاتصال بالقناصل والسفراء وأن ينتهزوا الفرصة للإيقاع به ، اما الأسباب التي دعت الاتحاديين للنقمة عليه فهي متعددة أهمها :

1- استياؤهم منه لقيامه بتأسيس جمعية الأخاء العربي بعد إعلان الدستور كحزب يعمل على خدمة مصالح البلاد العربية ضمن كيان الدولة كما هي الحال في جميع المجالس النيابية لدى الأمم الاخرى ولكنهم فسروها على عكس ذلك

2 - صفعه واهانته لطلعت باشا في مجلس النواب العثماني.

3- زواجه – بعد وفاة زوجته الأولى - من نعمت خانم أرملة المشير جواد باشا الصدر الأعظم التي لم يبق من وزراء الاتراك وعظمائهم من لم يخطبها لنفسه فرفضتهم جميعا واقترنت بشفيق بك ولكنها توفيت بعد سنة أثناء ولادتها .

4 - قصة إعدامه

على الرغم من المؤامرات والدسائس التي كانت تحاك له في السر والعلانية، وحرمانه الكثير من حقوقه، إلا أنه كان كثير الاهتمام بحالة الدولة، كثير التفكر في مستقبلها، ومع ذلك فإن إخلاصه لم ينجه من انتقام السفاحين بسبب خلافاته مع طلعت باشا حول القروض التي اقترضتها الحكومة الاتحادية باسم الدولة، ولم تنتفع منها الدولة بشيء. مما أثار أحقاد الاتحاديين عليه، حتى جاء اليوم الذي صفت فيها جماعة الاتحاد والترقي حسابها مع خصومها ومنهم شفيق فسجن في عالية في لبنان، وكان قرار اتهامه بأنه مؤسساً لجمعية الإخاء العربي، وأنه كان على اتصال وتبادل مذكرات مع السفير الفرنسي في الأستانة ومأموري فرنسا السياسيين في مصر وسوريا لأجل إمارة سوريا واستقلال العرب، ودعوة القوى العسكرية الفرنسية إلى المملكة، ثم أسس الرابطة اللامركزية، وثبت أنه بعد العفو العام اشتغل بهذه المسائل واتفق مع زعماء سورية على انسلاخ سورية من جسم الدولة.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

وتقدم شفيق العظم إلى المشنقة برباطة جأش وألقى خطبة بليغة موجزة، بين فيها الغاية الشريفة التي كان يهدف إليها رجال العرب، ثم طلب من الحاضرين قراءة الفاتحة، وكان ذلك يوم السادس من شهر أيار عام 1916 في ساحة الشهداء (المرجة) في دمشق.

سلطان الأطرش

تقديم

سلطان الأطرش والمعروف باسم سلطان باشا الأطرش (5 مارس 1891 – 26 مارس 1982) قائد وطني ومجاهد ثوري سوري درزي . وهو القائد العام للثورة السورية الكبرى 1925، ضد الانتداب الفرنسي، أحد أشهر الشخصيات الدرزية في العصر الحديث عرف بوطنيته وشجاعته ورفضه لتجزئة سورية.

1 - حياة سلطان وتراث العائلة

ولد سلطان باشا الأطرش في قرية **القريا** في محافظة السويداء منطقة **صلخد** في الجمهورية العربية السورية في العام 1888 وتوفي في 26 مارس 1982، لدى عائلة الأطرش الدرزية الشهيرة. والده ذوقان بن مصطفى بن إسماعيل الثاني مؤسس المشيخة الطرشانية 1869، كان مجاهداً وزعيماً محلياً قاد معركة ضارية في نواحي **الكفر** عام 1910، وهي إحدى معارك أبناء الجبل ضد **سامي باشا الفاروقي**، والتي كانت تشنها السلطنة العثمانية على جبل الدروز لكسر شوكته وإخضاعه لسيطرتها، أعدمه الأتراك شنقاً بسبب تمرده عام 1911.

هو كبير إخوته علي ومصطفى وزيد ، تزوج في سن التاسعة عشرة من عمره من ابنة عمه لكنها توفيت بعد فترة قصيرة دون أن يرزق منها أطفالاً و بعد عودته من الخدمة الإجبارية في الجيش العثماني تزوج من ابنة الشيخ إبراهيم أبو فخر من بلدة نجران ورزق منها جميع أولاده الذكور: طلال وفواز ويوسف وجهاد ومنصور وناصر وطلال .

2 - الثورة العربية الكبرى

أدى سلطان الأطرش الخدمة العسكرية في **البلقان** ، ومنذ عودته تابع الاتصال بالحركات العربية بفضل علاقته الدائمة بدمشق، فصارت **القريآ** ملجأ ومعقلاً للفارين من الأتراك وللمناضلين الملتحقين بالثورة العربية في العقبة.

وكان سلطان الأطرش أول من رفع علم الثورة العربية على أرض سورية قبل دخول جيش الملك فيصل، حيث رفعه على داره في القريآ، وكان في طليعة الثوار الذين دخلوا دمشق سنة 1918، بعد أن رفع العلم العربي في ساحة المرجة فوق دار الحكومة بدمشق، منحه الملك (فيصل الأول) لشجاعته لقب (باشا) عام 1918، في الجيش العربي. وقد طرح الفرنسيون عليه الاستقلال في حكم الجبل وتاسيس بلد مستقلة في محافظة السويداء فرفض رفضا قاطعا لسعيه الدؤوب نحو دولة عربية مستقلة بعيدا عن التجزئة والاستعمار.

3 - بدايات النضال ضد الفرنسيين

في تموز 1920، جهز سلطان الأطرش قوات كبيرة لنجدة يوسف العظمة في ميسلون ووصل مع فرسانه إلى **براق** جنوب دمشق، إلا أنه سمع هناك نبأ حسم المعركة وانكسار الجيش العربي واستشهاد القائد يوسف العظمة وزير الدفاع.

عارض سلطان إنشاء الدولة الدرزية عام 1921 وقبل ذلك وبعده عارض بشدة الانتداب الفرنسي، فأرسل رفاقه للحاق بالملك فيصل الأول قبل إن يغادر على الطراد البريطاني في (حيفا) ، برسالة شفهية نقلها **حمد البربور** إلى الملك فيصل الأول مفادها، دعوة الملك إلى السويداء- جبل العرب لإقامة الدولة العربية هناك والاستمرار بالمقاومة. إلا أن جواب الملك فيصل كان: " قل لسلطان، فات الأوان " . ومن بعد أن قال مات الفيصل

4 - الثورة السورية الكبرى

- *4 - 1 - المناوشات الأولى*

في تموز 1922، بدأت علاقة سلطان تسوء مع الفرنسيين بعد اعتدائهم على التقاليد العربية في حماية الضيف، حين اعتقلوا أدهم خنجر وهو لبناني عاملي اشترك في عملية محاولة اغتيال الجنرال غورو وحاول الاحتماء بدار سلطان باشا الأطرش هرباً من الفرنسيين، إلا أنه اعتقل قبل وصوله إلى الدار، وكان سلطان الأطرش خارج قريته يومها.

بعد هذه الحادثة التي اعتبرها سلطان الشرارة الأولى لإكمال مشروع المقاومة، جهز سلطان قوة من رجاله واشتبك مع الفرنسيين في معركة تل الحديد 1922 وكان من نتائجها:

- ذبح فرقة الضابط بوكسان
- محاصرة السويداء
- أسر أربع جنود فرنسيين

لجأت فرنسا إلى خديعة المجلس النيابي الذي طلب من سلطان إطلاق الجنود الفرنسيين مقابل إطلاق سراح أدهم خنجر، ولكنها سرعان ما أرسلت أدهم إلى الإعدام في بيروت ودمرت منزل سلطان الأطرش. لجأ سلطان والثوار إلى الأردن مؤقتاً حيث عادوا بعد سنة إلى الجبل وكان قد اكتسب شعبيةً هائلة. إلا أنه وحتى نهاية حياته كان يشعر بالحسرة على عدم إمكانية إنقاذ الشهيد أدهم خنجر.

- *4 - 2 - انطلاقة الثورة من جبل الدروز*

في عام 1925 انطلقت الثورة من جبل الدروز، الذي سمي جبل العرب بعد انطلاقتها، لأن هدف الثورة الأول كان إقامة الدولة العربية الحرة وتوحيد سورية ساحلاً وداخلاً والاستقلال ورفض الانتداب الفرنسي، لتشمل سورية كلها وجزءاً من لبنان. وقد تولى سلطان باشا الأطرش قيادتها بالإجماع في مؤتمر ريمة الفخور بعد أن شهد العالم معركة المزرعة، التي قضى فيها الثوار على حملة ميشو والتي كان قوامها 13000 جندي، أما الثوار فكان عددهم 400 ثائر. وبعد هذه المعركة المظفرة، التحق الوطنيون الدمشقيون والسوريون والعرب بركبها. وتعد من أهم الثورات ضد الاحتلال الفرنسي بسبب أنها شملت سورية كلها وامتازت بمعارك ضارية بين الثوار والقوات الفرنسية. وكان لها العديد من النتائج الملموسة.

- *4 - 3 – الأسباب*

أسباب الثورة هي الرفض القاطع للانتداب وللتقسيم الطائفي التي قامت به فرنسا في سورية ، حيث قسمت البلاد إلى دويلات طائفية ، فرفع سلطان باشا الأطرش شعار الثورة الشهير: الدين لله والوطن للجميع ، وكان هذا الشعار صفعة في وجه هذا التقسيم الطائفي لسورية.

- *4 - 4 - معركة الكفر وبدايات الثورة*

بدأ سلطان بالتنقل بين قرى الجبل يحرض الأهالي على الثورة ضد الفرنسيين ويستثير النخوات وكانت أول عمليات الثورة العسكرية إسقاط الثوار طائرتين فرنسيتين إحداهما وقعت قرب قرية امتان وأسر طيارها، تجمع الثوار بقيادة سلطان ثم هاجموا صلخد في 20 تموز 1925 وأحرقوا بمساعدة أهلها دار البعثة الفرنسية فانطلقت في اليوم نفسه حمله فرنسية بقيادة نورمان الذي استخف بقدرات الثوار اتجه إلى الكفر وأمر جنوده بالتمركز حول نبعها.

أرسل سلطان إلى نورمان مبعوثاً لينصحه بالانسحاب فأجابه بالرفض وكرر التهديدات بالقبض على سلطان وأعوانه وأنه يمكنه أن يقتل ثلاثة آلاف درزي بالرشاش الذي معه. وقال لهم إذهبوا إلى سلطان وقولوا له أنني بانتظاره على أحر من الجمر في هذا المكان.

بدأت المعركة ظهراً ولم تدم طويلاً. وحالت سرعة الهجوم وهول المفاجأة بين الفرنسيين وأسلحتهم. وبدأ القتال بالسلاح الأبيض ودخل الثوار بين الفرنسيين وقتل نورمان قائد الحملة قضى الثوار على الحملة كلها تقريباً. كانت خسائر الدروز في معركة الكفر 54 شهيداً من بينهم شقيق سلطان الأطرش ، مصطفى الأطرش ويذكر من حضروا المعركة أن خسائر الفرنسيين كانت تقدر بعدة آلاف (يذكر الجنرال أندريا أنه لم ينج من معركة الكفر من الجنود الفرنسيين إلا خمسة)

قاد الأطرش العديد من المعارك الظافرة ضد الفرنسيين كان من أبرزها: معركة الكفر ومعركة المزرعة في 2 و3 آب، 1925، ومعارك الإقليم الكبرى، ومعركة صلخد، والمسيفرة، والسويداء ومعارك أخرى كبد فيها الجيش الفرنسي خسائر هائلة. وفي 23 آب أصدر سلطان باشا الأطرش بيانه الشهير (إلى السلاح) الذي أعلن فيه أهداف الثورة وهي توحيد سورية والاستقلال وإقامة الدولة العربية الحرة.

عرض الفرنسيون على سلطان باشا الأطرش الاستقلال بالجبل وتشكيل دولة مستقلة يكون هو زعيمها مقابل وقف الثورة لكنه رفض بشدة مصراً على الوحدة الوطنية السورية. قامت السلطات الفرنسية بتعذيب السكان في حال تعاونوا مع الثوار، وعند انتهاء ثورة عبد الكريم الخطابي في المغرب العربي، ازداد الضغط على الثوار في سورية، فلجأوا إلى الأزرق في جنوب الأردن، حيث بدأوا بشن الهجوم على القوات الفرنسية انطلاقاً من هناك. إلا أن قوات الانتدابين الفرنسي والبريطاني حاصروا الثوار وقطعوا عنهم الماء نهائياً. بدأ زخم العمليات الحربية يخبو بسبب قلة السلاح لدى الثوار، فعرضت فرنسا عليهم الاستسلام وحكمت بالإعدام على سلطان الأطرش، فرفض الاستسلام ورفض تسليم السلاح وقرر الرحيل بمن معه من رجال إلى ان يعود الاستقلال من خلال اتفاقية عصبة الأمم بخصوص الانتداب فرحل إلى وادي السرحان في الجوف حيث طلب الإذن من الملك عبد العزيز بن سعود بالنزول في دياره وسمح له. وبقي هناك (1927-1932) مع رفاقه (حوالى 300) إضافة للنساء والأطفال، فعاشوا شظف العيش في الصحراء.

وهناك بقي سلطان الأطرش على اتصال بالوطنيين وبكل التحركات السياسية في القضية السورية، ودعا في 29 / 1929/10 إلى مؤتمر عام لبحث القضية السورية وقد حضر هذا المؤتمر، الذي سمي بمؤتمر الصحراء، كل الوطنيين والسياسيين العرب المهتمين بالقضية السورية. وصدر في نهايته مقررات هامة رسمت المسير السياسي للقضية في ما تلى من أحداث.

واستمر في المقاومة المتمثلة برفض الاستسلام. ثم في العام 1932 سمح لسلطان ورفاقه بالدخول للعيش في الكرك وعمان في الأردن ، إلى أن عاد إلى الوطن في 18/ 5 / 1937 بعد إلغاء الحكم بالإعدام وبعد اتفاقية 1936 حيث استقبل استقبالاً شعبياً هائلاً.

- *4 - 5 - نتائج الثورة*

أجبرت الثورة فرنسا على إعادة توحيد سورية بعد أن قسمتها إلى أربع دويلات: دمشق، وحلب، وجبل العلويين، وجبل الدروز

اضطرت إلى الموافقة على إجراء انتخابات فازت فيها المعارضة الوطنية بقيادة إبراهيم هنانو وهاشم الأتاسي.

اضطرت فرنسا إلى عزل مفوضيها الساميين وضباطها العسكريين في سورية وتعيين البدائل عنهم، كما حصل مثلاً مع المفوض السامي (سراي) بعد مهاجمة الثوار لقصر العظم بدمشق، فعينت المسيو (دي جوفنيل)

قصفت دمشق بالطيران لمدة 24 ساعة متواصلة

أرسلت فرنسا أحد أبرز قياديها الجنرال غاملان بعد تزايد قوة الثوار وانتصاراتهم.

أعداد شهداء الثورة السورية الكبرى كما ورد في كتاب « قبسات في جبل العرب والثورة السورية الكبرى عام 1925» وذلك حسب المحافظات السورية

315 شهيد حلب و ادلب.

331 شهيد اللاذقية طرطوس والساحل.

731 شهيد دمشق والغوطتين.

150 شهيد حماة.

250 شهيد حمص و النبك و القلمون.

71 شهيد دير الزور والجزيرة و البوكمال.

34 شهيد درعا.

2064 شهيد جبل العرب.

267 شهيد إقليم البلان, راشيا مجدل شمس، والقرى التي حولها أقارب أهل الجبل من لبنان وفلسطين.

- *4 - 6 - من ذاكرة الثورة*

يُذكر أن المجاهد سلطان كان ومع فرقة من الثوار يعبرون منطقة جبلية وعرة متجهين إلى الأردن، ويقال أنه قد تم نصب كمين لهم من قبل الفرنسيين الذين لم يستطيعوا تتبعهم من دون تغطية لطيرانهم الجوي، وفي ساعةٍ مبكرة فوجئ الثوار بقصف جوي كثيف وعلى حين غرة، فراح المجاهدون ينجون بأرواحهم مختبئين بين الصخور المتناثرة على جانب الطريق، ويذكر أن المجاهد سلطان ظل ممتطياً جواده غير آبهٍ بقصف الطيران الفرنسي وحينما انتهى القصف ظن الثوار أن سلطان قد استشهد، وإلا به من بين الدخان يتراءى على فرسه من بعيد وعلى وقع ذات الخطوات رافماً رأسه وحاضناً بندقيته وكأن قصفاً لم يكن... وما إن رآه الثوار إلا وراحوا يصيحون روح يا بطل الله يحييك... الله أكبر... الله أكبر...

كذلك يُذكر أن المجاهد سلطان الاطرش ومعه مجموعة من قادة الثورة لجأوا إلى الشيخ سلطان بن سطام الطيار شيخ قبيلة ولد علي من عنزة ومن قيادات الثورة لقيادة الثورة من مركز بعيد عن مراكز الفرنسيين. وهذا مما يدل على حنكة وذكاء المجاهد سلطان الاطرش. وقد مكثوا لدى القبيلة بضيافة شيخها مدة ستة أشهر تقريبا حتى اكتشفت القوات الفرنسية امرهم فشنت عملية عسكرية برية باءت بالفشل بعد أن تمكن فرسان القبيلة من اقتحام أحد المدافع الذي كان يتحصن خلفه الجنود الفرنسيون فانهزموا. ليعيدوا الكرة بعد ذلك مزودين بالطائرات. وهي من العمليات العسكرية التي ذكرت بالتفصيل في الارشيف الفرنسي.

- *4 - 7 - مآثر عن الثورة والثوار*

بعد الاستقلال طلبت صحفية ألمانية من القائد العام سلطان باشا الاطرش ان يوجز لها البطولات التي اجترحت خلال الثورة فأجابها: لا يوجد على هذه الأرض حجر الا وقلبته حوافر خيلنا، ولا توجد حفنة تراب لم ترو بدمائنا، ولكل مجاهد فينا قصص كثيرة من قصص البطولة والشهادة والفداء وليست قصة واحدة، ويلزمنا لرويها تاريخاً كاملاً، فكيف يمكن ايجازها.

يروي سلطان باشا الاطرش في كتاب (أحداث الثورة السورية الكبرى كما سردها قائدها العام سلطان باشا الأطرش، دمشق، دار طلاس، ط2 2008) انهم حين وصلوا، ثوار الجبل وثوار الغوطة، لفك أسر النساء والأطفال وكبار السن من أهالي الجولان الذين ساقهم حلفاء الفرنسيين إلى منطقة موحلة تسمى (نقعة جمرا) استعاد ثوار الإقليم معنوياتهم وصاروا يزأرون كالأسود ويفتكون بأعدائهم، ويضيف انه من أكثر المشاهد ايلاماً غوص الأطفال والنساء بالأوحال، وتلوث جروح المصابين بالطين، وان أماً قتلت برصاص الفرنسيين فاقترب منها أحد أقاربها ليأخذ طفلها عن صدرها، فهب ينخي الرجال وينشدهم الأخذ بالثأر وهو يصيح: هذا الطفل يرضع حليباً ممزوجاً بالدم. يذكر ان سبعة من آل علم الدين قضوا في معركة السويداء وهم يتداولون رفع بيرق مدينتهم ولم يسمحوا بسقوطه فسجلوا مأثرة من مآثر البطولة التي لا تمحى.

5 - النضال ما بعد الثورة السورية الكبرى

لم يتوقف نضال سلطان الأطرش بعد الثورة، بل شارك أيضاً بفعالية في الانتفاضة السورية عام 1945 وكان جبل العرب بتوجيه منه أسبق المحافظات السورية في طرد الفرنسيين إذ طوق أبناؤه مراكزهم وأخرجوهم، وذلك كان بقيادة الأمير حسن الأطرش محافظ الجبل آنذاك، وانتقمت فرنسا لنفسها من انقلاب الجبل هذا وتحرير السويداء بقصف دمشق والسويداء وأنحاء من سورية في 29 / 5 /1945 . فكان ذلك بداية خروجهم من سورية، كما دعا في العام 1948 إلى تأسيس جيش عربي موحد لتحرير فلسطين، وبالفعل تطوع المئات من الشباب واتجهوا للمشاركة الفعلية في حرب 1948، واستشهد هناك حوالى 80 شاباً من الجبل.

وأثناء حكم الشيشكلي، تعرض سلطان باشا الأطرش لمضايقات كثيرة نتيجة اعتراضه على سياسة الحكم الديكتاتوري ، فغادر الجبل إلى الأردن في كانون ثاني 1954، عندما عمّ الهياج أنحاء سورية لاسيما بين الطلبة الذين كانوا في حالة إضراب مستمر، واعتقل العديدون بينهم منصور الأطرش أحد أبناء سلطان

الأطرش، فجرت محاولة درزية لإخراجه من السجن أدت إلى اشتباك مسلح ، سرعان ما تحولت إلى معركة في جبل العرب، وعاد الأطرش إلى بلده بعد سقوط الشيشكلي .

أيد سلطان الأطرش الانتفاضة الوطنية التي قادها الزعيم الدرزي كمال جنبلاط في لبنان عام 1958، ضد سياسة كميل شمعون، كما بارك الوحدة العربية التي قامت بين مصر وسورية عام 1958، ووقف بحزم وثبات ضد عملية الانفصال عام 1961.

6 - أيامه الأخيرة

تفرغ سلطان في أواخر حياته للنشاطات الاجتماعية والتنمية في الجبل وقد رفض الأطرش أي مناصب سياسية عرضت عليه بعد الاستقلال. و كان الرئيس الراحل جمال عبد الناصر قد زار سلطان باشا الأطرش في عهد الوحدة في السويداء.

7 - وفاة الأطرش

توفي سلطان باشا الأطرش 26 آذار عام 1982 وحضر جنازته في 1982/3/28 أكثر من نصف مليون شخص. وقد ألقى رئيس الجمهورية العربية السورية حافظ الأسد نظرة الوداع على جثمان سلطان باشا الأطرش في مضافته في القريا مع رجال الدولة السورية يوم السبت في 1982/3/27.

أصدر رئيس الجمهورية حافظ الأسد رسالة حداد شخصية تنعي القائد العام للثورة السورية الكبرى، وأطلق اسمه على ساحة في السويداء. كما أصدر الرئيس حافظ الأسد أمراً بإنشاء صرح يخلد شهداء الثورة السورية الكبرى ويضم رفات قائدها العام في بلدة القريا مقابل دار سلطان باشا الأطرش. وتم تدشينه بمناسبة عيد الجلاء في 17 نيسان 2010.

ويوم تشييعه ، منحه رئيس لبنان آنذاك وسام الأرز اللبناني

كما دشن الرئيس الراحل ياسر عرفات نصبًا تذكاريًا في مدينة رام الله تحية وفاء إلى شهداء الحامية الدرزية التي أرسلها سلطان باشا الأطرش للدفاع عن فلسطين والذين سقطوا قرب نابلس.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

عبد الحميد الزهراوي

عبد الحميد بن محمد شاكر بن إبراهيم الزهراوي ، من زعماء النهضة السياسية في سوريا ومفكر وصحفي وأحد شهداء العرب في ديوان عاليه العرفي. ولد في حمص، وعمل على مقاومة السياسة الحميدية قبل إعلان الدستور العثماني فأصدر جريدة سماها المنير، كان يطبعها على الجلاتين ويوزعها سراً.

سافر إلى الأستانة فساعد في إنشاء جريدة معلومات التركية ؛ فقامت السلطة الحميدية بطرده إلى دمشق، فصار يكتب إلى جريدة المقطم المصرية . لما علم به والي دمشق ناظم باشا أرسله مخفورا إلى الأستانة إلا أن أبا الهدى الصيادي توسط في أمره ، فأعيد إلى مدينة حمص.

بعد صدور الدستور العثماني عام 1327 هـ / 1908 م عاد إلى دمشق وانتخب مبعوثاً عن حماة، اشترك في تأسيس حزب الحرية والاعتدال ، وحزب الائتلاف المناوئين لجمعية الاتحاد والترقي التركية، وأصدر جريدة الحضارة الأسبوعية.

وعند نشوب الحرب العالمية الأولى قبض عليه من قبل السلطات العثمانية، وحكم عليه في "ديوان عالية العرفي" بالموت. نفذ به الحكم شنقاً في دمشق في 6 أيار 1916.

كان من رجال العلم بالدين والسياسة ، وله رسالة " الفقه والتصوف " ، وكتاب " خديجة أم المؤمنين ".

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

مشايخ وعلماء دين

الشيخ أبو السعود أفندي

1 - تقديم

العالم الفقيه محمد محيي الدين محمد بن مصطفى العماد الشهير بلقب أبو السعود أفندي (982 - 898هـ / 1574 - 1493م) قاضي ومفتي عثماني شغل أعلى منصب ديني وعلمي وهو شيخ الإسلام في الدولة العثمانية خلال حكم ثلاث سلاطين ، إضافة إلى منصب مفتي الآستانة مدة ثلاثين عاماً حتى وفاته ، وأشرف على القوانين التي سنها سليمان القانوني - الذي في عهده بلغت الدولة العثمانية أوج قوتها - حيث لم يكن السلاطين العثمانيين يستغنون عن آراء شيوخ الإسلام ومفتي الآستانة وفتاويهم ، ساهمت فتاواه في اتخاذ قرارات خطيرة ومصيرية في الدولة العثمانية.

2 - نسبه ومولده ونشأته

هو محمد بن محيي الدين محمد بن مصطفى العماد، الشهير بأبي السعود أفندي . ولد في أسكليب قرب الآستانة لذا يدعى بـ « الاسكليبي » (989 - 982هـ /1493 - 1574م) .

أبوه محيي الدين محمد من علماء عصره ، ومن خواص أوقاف الزاوية التي بناها السلطان بايزيد الثاني له في الآستانة وأمه بنت أخ العلامة علاء الدين علي القوشجي . نشأ أبو السعود في بيت علم وورع وأجاد اللغة التركية واللغة العربية وكتب بهما الشعر والرسائل واشتهرت كتبه في العالم الإسلامي

3 – وظائفه

قضاء بورصة إبريل 1533.
قضاء الآستانة بعد 6 أشهر في قضاء بورصة.
قضاء العسكر 1537.
مفتي الآستانة وشيخ الإسلام 29 أكتوبر 1545 - 1574 استمر 30 عام.

4 – مؤلفاته

بضاعة القاضي في الصكوك.
ثواقب الأقطار في أوائل منار الأنوار في الأصول.
حسم الخلاف في المسح على الخفاف.
غلطات العوام.
غمرات المليح في أول مباحث قصد العام من التلويح.
الفتاوى.
قانون المعاملات.
معاقد الطراز.
موقف العقول في وقف المنقول.
ميمية (قصيدة).
نهاية الأمجاد على كتاب الجهاد على الهداية للمرغنياتي.
تهافت الأمجاد في فروع الفقه الحنفي.
تحفة الطلاب في المناظرة.
تسجيل الأوقاف.
قصة هاروت وماروت.
رسالة في مسائل الوقوف.
شرح على ألفية ابن مالك ،وبعض الحواشي على تفسير الكشاف.
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود).

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي

تقديم

محمد بن عبد الوهّاب بن سليمان آل مشرف التميمي (1115 - 1206هـ) (1703م - 1791م) عالم دين سني على المذهب الحنبلي يعتبره أتباع دعوته من مجددي الدين الإسلامي في شبه الجزيرة العربية حيث شرع في دعوة المسلمين للتخلص من البدع والخرافات وتوحيد الله ونبذ الشرك.

ولد في العيينة وسط نجد سنة 1115 هـ الموافق من عام 1703. لأسرة ينسب إليها عدد من علماء الدين، كان جدُّه سليمان بن علي بن مشرف من أشهر العلماء في الجزيرة العربية في عصره، وكذلك كان والده عالمًا فقيهًا على مذهب الإمام أحمد بن حنبل وأحد القضاة المعروفين، فقد تولَّى القضاء في عدَّة جهات؛ مثل: العيينة وحريملاء، وكان عمُّه الشيخ إبراهيم بن سليمان من مشاهير العلماء في تلك البلاد.

تعلم القرآن الكريم وحفظه عن ظهر قلب قبل بلوغه عشر سنين وقرأ على أبيه في الفقه، وتذكر مصادر الترجمة أنه كان مشهوراً حينئذ بحدة ذهنه وسرعة حفظه وحبه للمطالعة في كتب التفسير والحديث وكلام العلماء في أصل الإسلام حتى إن أباه كان يتعجب من فهمه ويقول: لقد استفدت من ولدي محمد فوائد من الأحكام.

سافر إلى مكة والمدينة لتحصيل المزيد من العلم عبر منهج التلقي عن مشايخه. والتقى في سفره بالعديد من العلماء، ودرس على يد الشيخ عبد الله بن سيف والشيخ محمد حياة السندي، فأخذ عنهم بقية علومه، ثم توجه إلى الأحساء فأخذ عن شيوخها، وزار البصرة وبغداد؛ حيث اطلّع على علوم التصوف وفلسفة الاستشراق، وأنكر على كثير من العلماء ما سمعه من العلوم التي لا تتفق مع الإسلام - حسب فقهه للإسلام - وشرع في الدعوة إلى العودة إلى الإسلام كما فهمه العرب الأوائل.

توفي في العيينة بسبب مرض ألم به في أول شوال ثم كانت وفاته في يوم الاثنين من آخر الشهر في عام 1206 هـ.

1 - النشأة

1 – 1 - نسبه وأسرته

هو محمد بن عبد الوهّاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن مشرف بن عمر بن معضاد بن ريس بن زاخر بن محمد بن علوي بن وهيب بن قاسم بن موسى بن مسعود بن عقبه بن سنيع بن نهشل بن شداد بن زهير بن شهاب بن ربيعه بن أبي سود بن مالك بن حنظله بن مالك بن زيد مناة بن تميم التميمي. من المشارفه آل مشرف من المعاضيد من فخذ آل زاخر من قبيلة الوهبه من بني حنظلة من قبيلة بني تميم فيقال له (المشرفي) نسبة إلى جده مشرف وأسرته آل مشرف، ويقال: (الوهيبي) نسبة إلى جده وهيب. أما والدته؛ فهي ابنة محمد بن عزاز المشرفي الوهيبي التميمي.

1 – 2 - طلب العلم

انحدر محمد بن عبد الوهّاب من أسرة علمية شهيرة فأبوه عبد الوهّاب بن سليمان كان من الفقهاء وقاضياً في العارض وجده سليمان بن علي كان عالماً وقاضياً وموثقاً شرعياً تولى القضاء أيضاً، وعمه الشيخ إبراهيم وهو ممن تخرج بأبيه وكان يتردد على ما حول العيينة للإفتاء والتوثيق وتولى القضاء في بلدة أشيقر، حفظ محمد بن عبد الوهّاب القرآن الكريم ولم يتجاوز سنه عشرة أعوام وشرع في طلب العلم فقرأ على والده وعمه وتخرج بهما في الفقه وغيره وكان سريع الحفظ والكتابة قوي الإدراك كثير المطالعة شغوفا بها ولاسيما في كتب التفسير والحديث وكلام العلماء في أصل الإسلام. ثم رحل إلى عدد من الأمصار لطلب العلم والحديث والتفقه في الدين فرحل إلى الحجاز وتهامة والبصرة والزبير والأحساء وقرأ على جملة من علمائها، وتحصل على إجازات في الحديث وغيره.

رحل محمد بن عبد الوهّاب في طلب العلم إلى مكة والمدينة والبصرة غير مرة. ولم يتمكن من الرحلة إلى الشام ثم عاد إلى نجد يدعو الناس إلى التوحيد. ولم يثبت أن محمد بن عبد الوهّاب قد تجاوز الحجاز وتهامة والعراق والأحساء في طلب العلم. فتفقه على المذهب الحنبلي وتلقاه على يد والده بإسناد متصل ينتهي إلى الإمام أحمد بن حنبل. كما تلقى علم الحديث النبوي ومروياته الحديثية لجميع كتب السنة كالصحاح والسنن والمسانيد وكتب اللغة والتوحيد وغيرها من العلوم عن شيخيه: العلامة عبد الله الفرضي

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الحنبلي والمحدث محمد حياة السندي وأسانيدهما مشهورة معلومة . ولقد كان لعدد من العلماء السلفيين دور في تشكيل وبناء فكر محمد بن عبد الوهّاب ومنهم الشيخ محمد المجموعي وبعض علماء العراق الآخرين وقد هاجم الشيخ محمد بن عبد الوهّاب ما رآه من المعاصي هناك وعاد غاضباً. ومن علماء الإحساء كان للشيخ ابن عبد اللطيف وهو أحد علماء الأحساء الحنابلة دور في بناء فكر محمد بن عبد الوهّاب الديني. وقد تدارس الشيخ كتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم مما كان له الأثر في انطلاق فكره وحرية آرائه واجتهاده.

وبعد مضي سنوات على رحلته عاد إلى بلدة حريملاء التي انتقل إليها والده بعد أن تعين على العيينة أمير جديد يلقب عثمان بن حمد بن معمر والذي لم يرق له بقاء عبد الوهّاب في القضاء فعزله عنه فغادرها عبد الوهّاب إلى حريملاء وأقام بها وتولى قضاءها. فأقام محمد في حريملاء مع أبيه يدرس علمه.

1 - 3 - شيوخه

كان من شيوخه :

الشيخ عبد الله بن سالم البصري، المكي الشافعي، قارئ صحيح البخاري في جوف الكعبة المشرفة ومصحح كتب الحديث الستة (ت1134 هـ).

الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف، من فقهاء المدينة المنورة (ت1140 هـ).

الشيخ محمد بن حياة بن إبراهيم السندي، من كبار المحدثين في عصره (ت 1163 هـ)، وهو من أخص تلاميذ الشيخ محمد بن عبد الهادي السندي، صاحب الحواشي الشهيرة على المسند والكتب الستة.

الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني الشامي، صاحب المصنف الشهير (كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس) (ت1162 هـ).

الشيخ عبد الله بن فيروز الأحسائي (ت 1175 هـ).

1 – 4 - تلاميذه

أخذ عن محمد بن عبد الوهّاب كثير من أهل الدرعية والواردين عليها، في وقت كانت فيه حاضرة من حواضر العلم في بلاد المسلمين، وممن تتلمذ عليه أبناؤه:

الشيخ حسين بن محمد بن عبد الوهّاب (ت1224 هـ)

الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهّاب (ت1242 هـ)

الشيخ علي بن محمد بن عبد الوهّاب

الشيخ إبراهيم بن محمد بن عبد الوهّاب

حفيده المجدد الثاني للدعوة الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهّاب (1285 هـ)

الشيخ سعيد بن حجي (ت 1229 هـ)

الشيخ عبد العزيز بن حصين (ت1237 هـ)

الشيخ حمد بن معمر (ت1225 هـ)، وغيرهم.

1 – 5 - عقيدته

كان محمد بن عبد الوهّاب عند أتباعه يدعو الناس إلى عقيدة التوحيد ولذلك سمى أتباعه هذه الدعوة بالدعوة السلفية نسبة إلى السلف الصالح. وكانت جل دعوته إعادة الناس إلى تحقيق التوحيد ونبذ الشرك الذي كثر آنذاك مثل التعبد بالقبور والتقرب بالأصنام والأشخاص والبناء على القبور والتعامل بالسحر وغيرها من مظاهر البدع والتي هي تنافي عقيدة التوحيد في دين الإسلام والتي ختمها آخر الأنبياء محمد ﷺ وتبعه بها الخلفاء الأربعة والصحابة والتابعين ومن بعدهم،

ودعوة الناس لنبذ ما يخالفها من الأفكار التي كانت قد تفشت في ذلك العصر من عبادة القبور وغيرها .

ويرى أعداؤه ومنتقدوه أنه أنشأ طائفة أو فكرة متشددة لتفسير الإسلام، ما أدى إلى عدم التهاون مع مخالفيهم في الدين أو في المذهب، بل ضخموا المسائل الفرعية المختلفة فيها إلى درجة التكفير والتفسيق.

يقول في الإيمان ما قاله السلف أنه قول وعمل يزيد وينقص. يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية هذا من عقيدته وليس له في ذلك مذهب خاص. وإنما أظهر ذلك في نجد وما حولها ودعا إلى ذلك ثم جاهد عليه من رفضه وعانده وقاتلهم، وكذلك هو على ما عليه من الدعوة إلى الله وإنكار الباطل والأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر ولكن محمد بن عبد الوهّاب وأنصاره يدعون الناس إلى الحق ويلزمونهم به وينهونهم عن الباطل وينكرونه عليهم ويزجرونهم عنه حتى يتركوه.

2 – أعماله

2 – 1 - دعوة التوحيد

قام محمد بن عبد الوهّاب بدعوة المسلمين للتخلص من البدع والخرافات وتوحيد الله عز وجل. وقد كان كتاب التوحيد أحد مؤلفاته التي ساق فيه الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله. كان على بن عبد الوهّاب محاربة كل هذه البدع والضلالات - حسب رأيه - من خلال غزو هذا الفكر بفكر جديد وكان لفكر ابن تيمية دور عظيم في اتجاهات دعوة التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهّاب وقد تصدى الكثيرون للدعوة في مطلعها.

بدأت الدعوة في لين ورفق من بن عبد الوهّاب بين أتباعه ومريديه وفي بلدته العيينة إلا أنه لقي معارضة شديدة من بعض المذاهب وكَثر أعداءه لاختلاف المصالح. ولكن الشيخ لم يهدأ واستعمل كل الوسائل لنشرها.

2 – 2 - خروجه من العيينة

خرج إلى الدرعية مقر آل سعود. وهناك التقى بأمير الدرعية الشيخ **محمد بن سعود بن محمد آل مقرن** ، الذي استقبل محمد بن عبد الوهّاب فعرض محمد بن عبد الوهّاب دعوته على الأمير محمد بن سعود بن محمد آل مقرن؛ فقبلها، وتعاهد الشيخان على حمل الدعوة على عاتقهم، والدفاع عنها، والدعوة للدين الصحيح، ومحاربة البدع، ونشر كل ذلك في جميع أرجاء جزيرة العرب.

2 – 3 - تحالفه مع محمد بن سعود

خرج محمد بن عبد الوهّاب من العيينة طريداً وكان سبب إخراجه من العيينة هو أن ابن معمر أمير العيينة خاف من حاكم الإحساء أن يقطع عنه المعونة فأخرج محمد بن عبد الوهّاب من العيينة. فتوجه إلى الدرعية وقد افتقد ثقة الأمير وثقة الناس من حوله به وبما يدعو إليه وافتقد المسكن والمكانة ومشى وحيداً أعزل من أي سلاح ليس بيده إلا مروحة من خوص النخيل من العيينة إلى الدرعية . فلما وصل الدرعية قصد بيت ابن سويلم العريني، فلما دخل عليه ضاقت عليه داره وخاف على نفسه من محمد بن سعود بن محمد آل مقرن فوعظه الشيخ وأسكن جأشه وقال :« سيجعل الله لنا ولك فرجاً ومخرجاً. »

ثم انتقل محمد بن عبد الوهّاب إلى دار تلميذ الشيخ ابن سويلم الشيخ محمد بن سويلم العريني وهناك بدأ التزاور بين خصائص أهل العلم من الدرعية ولما اطلعوا على دعوة الشيخ أرادوا أن يشيروا على ابن سعود بنصرته فهابوه فأتوا إلى زوجته موضي بنت محمد بن عبد الله بن سويلم العريني وأخيه ثنيان فأخبروها بمكان محمد بن عبد الوهّاب ووصف ما يأمر به وينهى عنه فاتبعا دعوة الشيخ وقررا نصرته.

دخل محمد بن سعود بن محمد آل مقرن على زوجته فأخبرته بمكان الشيخ وقالت له: «هذا الرجل ساقه الله إليك وهو غنيمة فاغتنم ما خصك الله به» فقبل قولها ثم دخل على أخوه ثنيان وأخوه مشاري فأشارا عليه بمساعدته ونصرته. أراد أن يرسل إليه فقالوا:«سر إليه برجلك في مكانه وأظهر تعظيمه والاحتفال به، لعل الناس أن يكرموه ويعظموه» .

فذهب محمد بن سعود إلى مكان الشيخ ورحب به وأبدى غاية الإكرام والتبجيل وأخبره أنه يمنعه بما يمنع به نساءه وأولاده. وقال له: "أبشر ببلاد خير من بلادك وأبشر بالعزة والمنعة"، فقال الشيخ: "وأنا أبشرك بالعزة والتمكين وهذه كلمة لا إله إلا الله من تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد وهي كلمة التوحيد وأول ما دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم وأنت ترى نجداً وأقطارها أطبقت على الشرك والجهل والفرقة وقتال بعضهم بعض فأرجو أن تكون إماماً يجتمع عليه المسلمون وذريتك من بعدك".

2 – 4 - شروط التحالف

شرط الأمير محمد بن سعود بن محمد آل مقرن على محمد بن عبد الوهّاب شرطين:

* أن لا يرجع عنه إن نصرهم الله ومكنهم.
* أن لا يمنع الأمير من الخراج الذي ضربه على أهل الدرعية وقت الثمار.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

فقال محمد بن عبد الوهّاب: «أما الأول الدم بالدم والهدم بالهدم. وأما الثاني فلعل الله يفتح عليك الفتوحات وتنال من الغنائم ما يغنيك عن الخراج.»

2 – 5 - التطبيق

دخلت الدعوة في إطار التنفيذ ونجحت شيئاً فشيئاً ودخل الناس في دعوة التوحيد ودخل أتباع الشيخ مكة وأرادوا أن يخلصوا الدين من البدع فهدموا كثيراً من القباب الأثرية في مكة كقبة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد وقبة كانت على المكان الذي ولد فيه النبي ﷺ وقبة مولد أبي بكر وعلي . وفي المدينة رفعوا بعض الحلي والزينة الموضوعة على قبر رسول الله ﷺ مما أثار غضب كثير من الناس وبرر غضبهم رغبة من هؤلاء الناس في الحفاظ على معالم التاريخ ولأن قبر الرسول رمز للعاطفة الإسلامية وقوة دولة المسلمين.

ولم يهتم أتباع محمد بن عبد الوهّاب بذلك بل اهتموا بعقيدتهم وإزالة البدع والرجوع إلى الأصول في دينهم. وكان الاهتمام الأكبر بأخلاق الناس وعقيدتهم والشروع في تقويتها وترسيخها وإزالة الرواسب منها.

وفي وقت سيادة الدعوة بقيادة السلفيين قلت المشاكل في مجتمع الجزيرة فانعدمت السرقات وحروب الفجور وشرب الخمور. وأصبحت الطرق أكثر أمناً وأماناً بعد أن كانت مصدر متاعب للناس وحركتهم حيث السطو والسرقات قبل انتشار السلفيين ودعوتهم وأصبحت منطقة الجزيرة بمثابة منطقة جهاد بالنسبة للسلفيين مما أثار انتباه العالم الخارجي لهذه الدعوة الإسلامية الخطيرة الجديدة في ذلك الوقت.

3 - وفاته

في عام 1206 هـ الموافق 1791 توفي محمد بن عبد الوهّاب في العيينة بالقرب من الرياض، قال ابن غنام: «كان ابتداء المرض به في شوال، ثم كان وفاته في يوم الاثنين من آخر الشهر.» ، وكان بلغ من العمر نحو اثنتين وتسعين سنة، وتوفي ولم يخلف مالاً يقسم بين ورثته.

4 - مؤلفاته

أما عن مؤلفاته فهي كثيرة جداً، فقد قام بتأليف عدد من الكتب والرسائل، منها:

* كتاب مختصر الإنصاف والشرح الكبير..
* كتاب مختصر زاد المعاد..
* كتاب الأصول الثلاثة : وهي معرفة الرب، ومعرفة دين الإسلام ، ومعرفة الرسول.
* كتاب التوحيد : وهو من أشهر مؤلفاته ذكر فيه معتقده حول حقيقة التوحيد والشرك ومفاسده.
* كتاب كشف الشبهات: ونستطيع أن نسميه تكملة لكتاب التوحيد، والحقيقة أن جميع كتبه تتعلق بمحور واحد وهو التوحيد.
* كتاب القواعد الأربع: حيث ذكر في هذه الرسالة اعتقاده في بعض مسائل التوحيد.
* كتاب أصول الإيمان : وبين أبواب مختلفة من الإيمان بالأحاديث النبوية. ويظهر أن بعض أولاد الشيخ قد أضاف إليه.
* كتاب فضل الإسلام : وقد وضح فيه معتقده حول مفاسد البدع والشرك، وشروط الإسلام.
* كتاب مسائل الجاهلية : وذكر فيه مئة وإحدى وثلاثين مسألة خالف الرسول صلى الله عليه وسلم فيها معتقدات أهل الجاهلية.
* كتاب السيرة : وهو ملخص من كتاب السيرة لابن هشام.
* كتاب الهدي النبوي : وهو ملخص لكتاب زاد المعاد لابن القيم.
* كتاب شروط الصلاة وأركانها : وقد شرحت هذه الرسالة شروط الصلاة وهي: الإسلام، والعقل، التميز، رفع الحدث وإزالة النجاسة، وستر العورة ودخول الوقت واستقبال القبلة، والنية، وذكرت أركان الصلاة وواجباتها.
* كتاب الكبائر : ذكر فيه جميع أقسام الكبائر، واحدة واحدة، مفصلة في أبواب، وقد دعمت الأبواب كلها بنصوص الكتاب والسنة.

* كتاب نصيحة المسلمين : وهذا كتاب مستقل قد جمع فيه أحاديث تتعلق بجميع نواحي التعليمات الإسلامية.
* كتاب تفسير الفاتحة : وهو تفسير موجز جداً لسورة الفاتحة.
* كتاب تفسير الشهادة : وهو تفسير لكلمة "لا إله إلا الله"، مع ذكر أهمية التوحيد.
* كتاب تفسير لبعض سور القرآن: وهي مجموعة لبعض تعليقاته على آيات وسور مختلفة من القرآن.
* كتاب ستة مواضع من السيرة : وهي رسالة مختصرة توضح ستة أحداث من السيرة النبوية، والمواضع الستة هي:ابتداء نزول الوحي, تعليم التوحيد والرد على الكفار, قصة تلك الغرانيق العلى, ختام أبي طالب, منافع الهجرة وعظاتها, قصة الارتداد بعد وفاة الرسول ﷺ.
* وله عدة رسائل صغيرة أخرى يوجد بعضها في كتاب روضة الأفكار المجلد الأول الفصل الثالث والرابع.

5 - منتقدي محمد بن عبد الوهّاب

واجهت دعوة محمد بن عبد الوهّاب العديد من الإنتقادات في بداياته لكنها لم تتمكن من الحد من أعماله ودعوته، حديثاً ألفت العديد من الكتب تنتقد دعوة محمد بن عبد الوهّاب وتصف مذهبه بالتشدد ، وأصبح أتباعه يوصفون بالوهّابية على الرغم من رفضهم لهذه التسمية بحجة أن دعوة محمد بن عبد الوهّاب لاتختلف عن المذهب الحنبلي.

الشيخ مصطفى صبري

1 - تقديم

مصطفى صبري (12 ربيع الأول 1286 هـ - 7 رجب 1373 هـ) (1869 - 1954)

2 - نشأته ودراسته

ولد الشيخ مصطفى صبري عام 1869 في الأناضول في مدينة **توقاد** التي ينسب إليها. وتعلم منذ نعومة أظفاره عند والده الشيخ أحمد التوقادي وأتم دراسته الأولية في توقاد حيث حفظ القرآن الكريم ثم رحل لطلب العلم الشرعي إلى مدينة **قيسري** ثم توجه بعدها إلى الآستانة وحصل على إجازتين علميّتين.

كان علامات النباهة وتوقد الفكر واضحة في الشاب الفتي ونال إعجاب أساتذته ومشايخه فأصبح من أشهر المدرسين وهو لم يتجاوز 22 سنة من عمره وكان أستاذاً محاضراً في جامع السلطان محمد الفاتح بعد أن اجتاز الامتحان الذي يؤهله لهذه الوظيفة وكان ذلك في العام 1890.

وتخرج على يديه عدد كبير من الطلبة. تم اختياره في 16 يناير 1900 عضواً في ديوان القلم , وهو أمانة السر في دولة الخلافة العثمانية واختارته هيئة كبار العلماء المعروفة بالجمعية العلمية رئيساً لصحيفتها الأسبوعية التي كانت تصدر تحت عنوان **بيان الحق**, ليصبح بعد ذلك عضواً في دار الحكمة وهي هيئة كبار العلماء. تولي الشيخ صبري بعدها تدريس الحديث الشريف في مدرسة السليمانية وأصبح نائباً عن مدينة توقاد في المشروطية الثانية عام 1908.

3 - المشيخة الإسلامية

كان للشيخ مكانة علمية وأدبية واسعة بين معاصريه واستمر في التدريس والوعظ والإرشاد حتى تولى في عهد وزارة الداماد فريد باشا الأول منصب المشيخة الإسلامية وكان ذلك في العام 1919 وذلك بعد صدور الإرادة السلطانية بذلك , وظل الشيخ صبري محتفظاً بمنصبه في الوزارتين المتعاقبتين.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

4 - رحيله عن تركيا

تعرض الشيخ مصطفى صبري للكثير من الضغوطات بعد الأزمات التي حلت في تركيا بعد أن ازداد نفوذ جمعية الاتحاد والترقي في دولة الخلافة العثمانية فاضطر الشيخ إلى الهجرة فزار مصر عام 1923 ومنها إلى لبنان. واستمر في تنقلاته فزار عدداً من الدول الأوروبية وانتقل إلى ضيافة الشريف حسين في مكة المكرمة وعاد إلى مصر سنة 1932 واستقر فيها حتى وفاته عام 1954.

5 - آثاره العلمية

تنوعت اهتمامات مصطفى صبري العلمية فألف العديد من الكتب والمقالات المتخصصة باللغتين العربية والعثمانية (اللغة التركية القديمة) . ومن أهم كتبه على الإطلاق كتاب موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين. وكانت معظم مؤلفاته تحمل صبغة الدفاع عن الدين والوقوف في وجه الأفكار اللادينية, كما كان مصطفى صبري في كتاباته مناهضاً للمبادئ القومية التي تسعى لاستبدال فكرة الجامعة الدينية التي كانت توحد المسلمين تحت الخلافة الإسلامية.

6 - موقف العقل

تضمن كتاب موقف العقل زبدة أفكار مصطفى صبري وآرائه السياسية والعلمية. فهو كتاب غني بالمباحث الفكرية الفلسفية والكلامية الدقيقة والتي تناولت الجوانب النظرية والعلمية. ويهدف الكتاب كما هو واضح من عنوانه إلى الدفاع عن عقائد الإسلام وأصوله الفكرية بأسلوب علمي رصين يدفع الشبه ويقيم الحجج.

كشف مصطفى صبري في كتابه عن العديد من المؤامرات التي حيكت ضد الإسلام على صعيدين متوازيين , وذلك بالمواجهة الحربية التي تعرض لها من خلال هجمات الغربيين , والتحديات الفكرية العقيدية التي تنشر فكر الإلحاد والتحلل الأخلاقي .

وبين صبري أهم عماد في الفكر الإسلامي وهو الدليل العقلي وقارن بين المنهج الإسلامي في المعرفة والمناهج التي اتبعها المثقفون والفلاسفة الغربيون. فبرهن بأن الدليل العقلي مقدم على الدليل التجريبي, وتعمق في مناقشة الأدلة على وجود الله ورد شبه النافين من فلاسفة الغرب.

7 - أقوال العلماء فيه

قال عنه محب الدين الخطيب: " فحل الفحول الصائل الذي يعد فضله أكبر من فضل معاصريه". وقال عنه الشيخ زاهد الكوثري : "قرة أعين المجاهدين". كما مدحه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة قائلاً: "إن كتابه "موقف العقل" هو كتاب القرن بلا منازع".

8 – وفاته

توفي مصطفى صبري في مصر في الثاني من آذار 1954. بمرض الفالج

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الشيخ محمد زاهد بن حسن الحلمي الكوثري

1 - تقديم

محمد زاهد بن حسن الحلمي الكوثري نسبة إلى قرية الكوثري بضفة نهر "شيز" من بلاد القوقاز، وقيل بأنه نسبة إلى أحد أجداده، ينحدر من أصل جركسي من قبيلة الشابسوغ الشركسية العريقة .

2 – مولده

ولد بقرية حاج حسن قريسي القريبة من دوزجه بنحو ثلاثة أميال شرق الأستانة في تركيا، وكان ذلك يوم الثلاثاء 28 من شوال عام 1296 هـ الموافق 14 أكتوبر عام 1878م.

3 - حياته ومؤلفاته

درس الفقه الإسلامي في جامع الفاتح بالآستانة ثم أصبح مَدرّسا فيه ثم أصبح رئيسا للمدرسين فيه وعُيّن وكيلا للمشيخة الإسلامية في دار الخلافة العثمانية .

الا انه اضطر للهجرة إلى مصر بعد استيلاء كمال اتاتورك على الحكم ، حيث استقر فيها عام 1922 م فعيّن موظفا في دار المحفوظات المصرية لترجمة الكتب والوثائق التركية.

كان الشيخ الكوثري من نشطاء الشراكسة القوميّين في استانبول حيث كان من مؤسِّسي جمعية التعاون الشركسية عام 1908 م في استانبول .

له مؤلفات دينية كثيرة قد تزيد على خمسين مؤلفاً ومنها :

(الإشفاق على احكام الطلاق) (تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة ابي حنيفة من الأكاذيب) ورسالة (إحقاق الحق وإبطال الباطل) و(مُغيث الخلق في ترجيح القول الحق) ورسائل في سير وتراجم كل من الإمام زُفر، ابي يوسف القاضي، محمد الشيباني، البدر العيني، الحسن بن زياد، محمد بن شجاع والطحاوي. وله كتاب (التعليقات المهمة على شروط الأئمّة) وتخريج كتاب (التبصرة في الدين)، وتكملة كتاب (السيف الصقيل) للسبكي والعشرات من المقالات المختلفة في المجلات والصحف العربية.

كان مرجِعا في الحديث النبوي الشريف ورِجاله , وحُجّة في المراجع والمكتبات العامة والخاصة في العالم العربي والإسلامي. صحّح الجزء الخاص عن الشراكسة في دائرة المعارف الإسلامية وعلّق عليه وشارك حسن قاسم في كتابة الجزء الخاص بالشراكسة في مؤلفه الكبير (المزارات والآثار الإسلامية في مصر والقاهرة). وضع رسالة مُطوّلة تبحث في تاريخ الشراكسة في مصر وهي ما تزال مخطوطة متداولة بانتظار النشر، وفيها تفنيد للكثير من المُغالطات والتجنّيات التاريخية بشأن دولة السلاطين الشراكسة في مصر.

4 – وفاته

توفي بتاريخ 19 من ذي القعدة 1371 هـ الموافق 11 أغسطس 1952م، عن خمس وسبعين سنة، وأمّ صلاة الجنازة الشيخ عبد الجليل عيسى شيخ اللغة العربية، ودفن قرب قبر أبي العباس الطوسي في قرافة الشافعي .

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الشيخ أبو الهدى الصيادي

1 – تقديم

أبو الهدى الصيادي. (1266- 1328 هـ. 1849 م - 1909 م). اسمه الكامل: محمد بن حسن وادي بن علي بن خزام الصيادي الرفاعي الحسيني ، من علماء الدين البارزين في أواخر عهد الدولة العثمانية، حيث تولّى فيها منصب " شيخ مشايخ الدولة العثمانية " في زمن السلطان عبد الحميد ،

كما تولّى نقابة الأشراف، خاصةً وأن نسبه يرجع إلى آل البيت. وله مؤلفات في العلوم الإسلامية وأخرى أدبية ، ومجال الشعر بشكل خاص . توفي في جزيرة الأمراء (رينيكبو) التي تم نفيه إليها بعد سقوط الدولة العثمانية .

2 - من مؤلفاته

* ضوء الشمس
* بني الإسلام على خمس
* الجوهر الشفاف في طبقات السادة الأشراف
* السهم الصائب لمن أذى أبو طالب
* الفجر المنير
* شفاء صدور المؤمنين في هدم قواعد المبتدعين
* تطبيق حكم الطريقة العلية على الأحكام الشرعية النبوية

3 - هل تسبب الشيخ أبو الهدى الصيادي في سقوط الدولة العثمانية

من الشخصيات الغير تركية التي كان لها شأن عظيم في أواسط عهد السلطان عبد الحميد وأواخره ، الشيخ أبو الهدى الصيادي الذي لعب دورًا مهمًّا في تاريخ الدولة العثمانية، وكان اسمه واسم الشيخ ظافر يترددان على الألسن وعلى رءوس الأقلام في سائر أنحاء الدولة العثمانية مدى ثلاثين عامًا، ولا يزال كل مؤرخ أو مفكر شرقي عاش في الأستانة أو احتك بالحكومة التركية أو المابين يذكر ما كان لأبي الهدى من البأس والبطش والنفوذ في يلديز وفي غير يلديز من دوائر الحكومة العثمانية.

وأصل الرجل من بلدة خان شيخون في جوار حلب في سورية ، ولد ونشأ فيها هو وأبوه الذي لم يكن سوى درويش بسيط يضرب بالدف أحيانًا ويقول : « يا رفاعي يا كيلاني الجوة الجوة.» يقصد القوة! القوة! كما يقول دراويش مصر مدد يا سيدي فلان ...

ولما كان أبو الهدى كثير التمجيد لأبيه بعد موته ، وينسب إليه الكرامات وخوارق العادات والثروة الواسعة والقدرة النادرة على كل شيء، فقد أطلق رجال حاشيته على أبيه اسم « نبي الله حسن »؛ ليكون ذلك الوصف كاملًا شاملًا لكل المناقب الخيالية التي يريد الولد أن ينسبها إلى الوالد.

وكان من الطبيعي أن يتدروش الابن كما تدروش الوالد ولكن بعد أن تعلم علوم الدين، وفي الحق أن جميع معاصري أبي الهدى ومعاشريه عرفوا عنه العلم الواسع في الفقه والحديث والتفسير وأصول الشريعة وعلوم اللغة،

وبالجملة كان عالما لغويًّا وشرعيًّا وكان شديد الذكاء، قوي الذاكرة، وهذا الذكاء الخارق وذلك النبوغ الفطري هما اللذان أقنعاه بعدم فائدة العلم المجرد من الحيلة في مثل الدولة العثمانية وفي مثل العهد الذي عاش فيه ،

فقد أدرك أنه لو رضي بالعلم الشرعي وحده فإنه يموت جوعًا أو يرضى بالكفاف في خان شيخون، ولكن نفس الرجل كانت تصبو إلى المال والمجد والشهرة والنفوذ، ولم يكن يرضى بأدنى عيشة يعيشها عالم عادي، ورأى في وجود السلطان عبد الحميد على العرش فرصة سانحة لظهور مواهبه وبلوغه أمانيه ؛ لأنه فطن بذكائه الخارق أيضًا إلى أن الملك المطلق الصلاحية لا بد أن يكون ذا عقلية خاصة ، ولا بد أن يكون أبدًا في حاجة إلى أدوات وآلات خاصة ولم يكن الشيخ مخطئًا.

ولئن بلغ عزت العابد باشا عند السلطان درجة من النفوذ يُحسد عليها مع عدم تبحره في العلوم وعدم عنايته بأي فن من الفنون التي أتقنها أبو الهدى أو سواه، فقد كانت الفرصة السانحة لأبي الهدى نفسه عظيمة، ومن عجب أن يحدث ذلك في الوقت الذي كان فيه أعاظمُ رجال الشرق الإسلامي، أصحابُ المجد الصحيح وأصحابُ العلم والإخلاص والأفكار الخارقة، إذا بلغوا عتبات السلطان يعاملون معاملة عادية أو جافة حتى يرحلوا أو يستبقيهم السلطان أسرى، أمثال خير الدين التونسي والسيد جمال الدين الأفغاني والسيد عبد الرحمن الكواكبي والسيد عبد العزيز الثعالبي وعبد الله النديم وغيرهم عشرات؛ لأن هؤلاء يحملون فكرة الإصلاح الحق، والإصلاح يقتضي الحرية والإخلاص في النصيحة، ولكن «النغمة» في القصر كانت على عكس ذلك،

وليس معنى هذا أن السلطان أو حاشية السلطان لم تكن تميز الخير من الشر والعدل من الظلم، كلا إنما كان المطلوب هو تنفيذ برنامج الحكم المطلق وإهمال ما عداه، فلا يمكن أن يتقدم في مثل هذا العهد إلا الذين يصلحون لتنفيذ هذا البرنامج أو يساعدون على تنفيذه، أما الفضلاء فلهم زمان آخر وبرنامج آخر، وقد ينظر إليهم حينًا بعين الرضى وحينًا بعين المقت والسخط.

وشد الشيخ أبو الهدى الرحال إلى الأستانة، ولجأ إلى بعض المعاهد الدينية، وتمكن من القرب عن طريق رواية الأحلام السعيدة والرؤى المبشرة لجلالة الخليفة « ظل الله على الأرض خاقان البرين وسلطان البحرين السلطان ابن السلطان ... إلخ»!

وكان باب التصوف والتقوى والصلاح هو الذي دخل منه الشيخ، ويكفي أن يتكهن بأمر يكون قد أعد له عدته أو خدمته الظروف في مطابقته للواقع، حتى يعتقد فيه السلطان ويحل منه المحل الأول؛ فتقطع له الإقطاعات، وتجرى عليه الأرزاق، وتخصص له القصور، وتنهال عليه الأموال والهدايا والنياشين والرتب والألقاب، ويفتح له باب الالتماس في دواوين الحكومة؛ أي الباب العالي،

ومعنى هذا أن يكتب توصيات لرؤساء المصالح تقوم مقام الأوامر، وقد أحصى له كامل باشا الصدر الأعظم في شهر واحد عشرين ألف التماس، نقل خبرها إلى السلطان في شيء من الاحتجاج والغيظ والغيرة على نظام الحكومة الذي يجب أن يقوم على المساواة والعدل من الدواوين، فلم يأبه السلطان لاحتجاج كامل باشا، وكان هذا سببًا في عزله وإسقاط وزارته.

وكان أبو الهدى محسودًا، وكان له أعداء ومزاحمون كثيرون، ولكنه كان يستعمل ذكاءه الخارق في محاربتهم والفوز عليهم، وكان له في ذلك طريقتان :

* الطريقة الأولى بذل المال؛ كان الرجل يحصل على مئات الألوف من الليرات العثمانية في كل شهر من مخصصات وهدايا ومكافآت وعلامة رضى إلخ، ولكنه كان دائمًا مفلسًا، وكان دائمًا يقترض، وكان دائمًا في حاجة للمال؛ لأنه كان نهابًا وهابًا لم يقصده أحد في أمر إلا وأعطاه، وهو بذلك يرمي إلى امتلاك قلوب الرجال، وفعلًا كان له جيش من الأنصار والأعوان والجواسيس والمحسوبين، وكان بعض هؤلاء منتشرين في أنحاء الإمبراطورية العثمانية تنفيذًا لخطط أبي الهدى، وكان رجاله بالطبع يعرفون نقط الضعف والخروق التي تظهر في دروع خصوم مولاهم، فيوافونه بها ويعملون ويقولون ما يأمرهم به بلا تردد، فلا يفوز خصم على سيدهم مطلقًا.

وكان أشد مزاحميه الشيخ أحمد ظافر المدني، وهو أيضًا كان متصوفًا، وكان يعيش في مصر تارةً وفي الأستانة طورًا، وكان محبوبًا عند السلطان؛ لأنه فسر له رؤيا وتكهن له بمسألة فاعتبره الخليفة من الأولياء وأهل الكشف.

* والطريقة الثانية التي كان يلجأ إليها الشيخ أبو الهدى في توطيد مركزه هي احتفاظه دائمًا وأبدًا بسجلات منظمة ومستوفاة بحوادث المملكة ومجريات الأحوال يومًا فيوم تبعًا « للجورنالات »، فقد كان يحفظ التقارير السرية اليومية التي يوافيه بها أتباعه وجواسيسه، كما كان يدوّن في سجلاته أخبار المشاهير وحركاتهم وسكناتهم وأقوالهم واجتماعاتهم وماضيهم وحاضرهم وسائر أحوالهم؛ أي أنها أشبه شيء بصحيفة سوابق متسعة، ودائرة معارف للشخصيات البارزة والمتوسطة التي تعيش في كنف عاصمة الخلافة وتحت لواء « خليفة رسول الله » !

وكان يستعمل هذه المعلومات للدفاع عن نفسه ، فيسرد ما يحتاج إلى سرده مؤيدًا بالتواريخ والأسماء والوقائع وشهادة الشهود.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

كان هذا الرجل نوعًا من الجبرتي، ولكن لا للمصلحة العامة بل لمصلحته الخاصة، وكان عنده من يدون ويقيد كل شاردة وواردة.

وكانت صلاته بالسلطان تتراوح بين الرضى والغضب، ومعنى الرضى أن السلطان يدعو الرجل المرضيَّ عنه كل يوم مرة أو مرات إلى السراي فيبقى ما شاء جلالته، وقد يدوم المجلس ساعة أو ساعتين أو بضع ساعات.

أما إذا غضب الخليفة على أحد هؤلاء الرجال المقربين، فكل شيء من نفوذ الرجل وأرزاقه وأبهته وسلطته في الدواوين تبقى له وتبقى له كرامته واحترامه ومنصبه في الحكومة إن كان له منصب ولا ينقص منه شيء، إلا في مسألتين :

* الأولى لا يُدعى إلى صلاة الجمعة مع السلطان، وهي التي كانت حفلة السلاملك ،

* والثانية لا يُدعى إلى المابين؛ أي لا يحظى بشرف المثول بين يدي السلطان، وهاتان العلامتان كانتا قاصمتين لظهور العظماء، وكان كل منهم يتَّقيها ما أمكن.

ومما تحسن الإشارة إليه أن مسألة العشرين ألف التماس التي شكا منها كامل باشا الصدر الأعظم حدثت في وقت كان أبو الهدى مغضوبًا عليه فيه.

ومدة الغضب كانت تتراوح بين أسبوع وثلاثة أشهر، وأطولها مدة ستة أشهر، قاساها أبو الهدى وذاق فيها العذاب ألوانًا، حتى كان لا ينام الليل، وكان واسع الحيلة يعالج حالات الغضب علاجًا يدل على ذكائه وفطنته، ففي إحدى المرات أرسل مصوغًا وجواهر لترهن في بنك الرهونات، فلم يكد يصل الخبر إلى المسامع الشاهانية , حتى ردت إليه في مساء اليوم نفسه الجواهر المرهونة ومبلغ ألف جنيه ومركبة سلطانية تحمله إلى المابين علامة الرضى.

وفي المرة الثانية ادعى المرض فعادته لجنة من كبار الأطباء، وقررت إجراء عملية وهي خلع ضرسين، وفي عصر اليوم نفسه رضي عنه وجاءته مركبة حملته إلى القصر، وعاد منها يحمل هدايا تُقدر بألوف الجنيهات، وروى ثقة أن الضرسين اللذين خلعا كانا سليمين ولم تكن بهما عاهة، ولم يكن الرجل مصابًا بحمى سوى حمى القلق من سخط السلطان!

وكان الشيخ يتقن التركية، وقيل إنه كان يتكلم الفرنسية ، وكان بحرًا زاخرًا في العربية، وكان ينظم الشعر بسليقته في أي معنى يشاء، وينسبه أحيانًا إلى بعض الأشخاص ليكون الشعر المنتحل دليلًا على صدق روايته ، فإذا وصف مثلًا وليمة خيالية ادعى حدوثها في بيت أبيه، جعل على لسان بعض الشعراء أبياتًا من الشعر تصف البيت والكرم وعدد الأضياف الذين طعموا واستظلوا ونعموا ومرحوا في كنف والده، ويصل به الذكاء الخارق والقدرة على الإثبات أن ينظم قصيدة أخرى ويدعي أن فلانًا الشاعر عارض بها الشاعر الأول فلا يبقى عند أحد شك في صدق روايته.

ويظن بعض الناس أن السلطان عبد الحميد كان من البساطة بحيث يستسلم لأمثال أبي الهدى ويعتقد فيه الولاية، وذهب بعضهم إلى أن السلطان نفسه كان درويشًا ومتصوفًا، وكل هذا خطأ ووهم، والحقيقة هي أن السلطان كان يعرف هؤلاء الناس بصفاتهم الصحيحة، ولكنه كان محتاجًا إليهم؛ لأن عهده كان يحتاج إلى مظاهر الإيهام وجمع الكلمة والتجسس على الرجال في الشرق، ومعرفة حركات الساسة والثائرين والناقمين، فكان الشيخ رئيس قلم الاستعلامات الإمبراطوري مثل الذي في دول أوروبا، ولكنه على الطريقة الشرقية، وكان السلطان عبد الحميد في حاجة لأمثال أبي الهدى في اختراع فكرة كفكرة الجامعة الإسلامية وتغذيتها والترويج لها، كما كان في حاجة لأمثاله في إحباط مشروعات مثل الخلافة العربية.

ويقول ثقة إنه اجتمع عند الشيخ أبي الهدى أربعة وسبعين مؤلفًا مطبوعًا في ذكر مناقبه، كتبها أتباعه ومأجوروه والمحسوبون عليه، في حين أنه لا يوجد إلا أربعة أو خمسة كتب طبعت في هجائه، منها كتاب المسامير، الذي ألَّفه عبد الله النديم وطبع في مصر في مطبعة المؤيد، وكان له قضية وقصة وتاريخ .

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الإمام محمد عبده

1 - تقديم

محمد عبده (1266هـ - 1323هـ) (1849م - 1905م) عالم دين وفقيه ومجدد إسلامي مصري ، يعد أحد رموز التجديد في الفقه الإسلامي ومن دعاة النهضة والإصلاح في العالم العربي والإسلامي ، ساهم بعد التقائه بأستاذه جمال الدين الأفغاني في إنشاء حركة فكرية تجديدية إسلامية في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين تهدف إلى القضاء على الجمود الفكري والحضاري وإعادة إحياء الأمة الإسلامية لتواكب متطلبات العصر.

2 – حياته

ولد محمد بن عبده بن حسن خير الله سنة 1266 هـ الموافق 1849م في قرية محلة نصر بمركز شبراخيت في محافظة البحيرة. **لأب تركمانى** وأم مصرية تنتمي إلي قبيلة (بني عدي) العربية

3 - تعليمه

سنة 1866م التحق بالجامع الأزهر، وفي سنة 1877م حصل على الشهادة العالمية،

4 - حياته العملية

وفي سنة 1879م عمل مدرساً للتاريخ في مدرسة دار العلوم .

5 - إشتغاله بالسياسة

اشترك في ثورة أحمد عرابي ضد الإنجليز رغم أنه وقف منها موقف المتشكك في البداية لأنه كان صاحب توجه إصلاحى يرفض التصادم إلا أنه شارك فيها في نهاية الأمر، وبعد فشل الثورة حكم عليه بالسجن ثم بالنفي إلى بيروت لمدة ثلاث سنوات، وسافر بدعوة من أستاذه جمال الدين الأفغاني إلى باريس سنة 1884م، وأسس صحيفة العروة الوثقى، وفي سنة 1885م غادر باريس إلى بيروت، وفي ذات العام أسس جمعية سرية بذات الاسم، العروة الوثقى.

5 - تأثيره الثقافي

يُعدّ " الإمام محمد عبده " واحدًا من أبرز المجددين في الفقه الإسلامي في العصر الحديث، وأحد دعاة الإصلاح وأعلام النهضة العربية الإسلامية الحديثة؛ فقد ساهم بعلمه ووعيه واجتهاده في تحرير العقل العربي من الجمود الذي أصابه لعدة قرون، كما شارك في إيقاظ وعي الأمة نحو التحرر، وبعث الوطنية، وإحياء الاجتهاد الفقهي لمواكبة التطورات السريعة في العلم، ومسايرة حركة المجتمع وتطوره في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية. وقد تأثر به العديد من رواد النهضة مثل عبد الحميد بن باديس ورشيد رضا وعبدالرحمن الكواكبي.

6 - رأيه في التصوف

يقول: " أنه لم يوجد في أمة من الأمم من يضاهي الصوفية في علم الأخلاق وتربية النفوس وأنه بضعف هذه الطبقة فقدنا الدين " . ويقول : " قد اشتبه على بعض الباحثين في تاريخ الإسلام وما حدث فيه من البدع والعادات التي شوَّهت جماله السبب في سقوط المسلمين في الجهل فظنوا أن التصوف من أقوى الأسباب وليس الأمر كما ظنوا..."

7- حياته بعد الثورة العرابية

وفي سنة 1886م اشتغل بالتدريس في المدرسة السلطانية وفي بيروت تزوج من زوجته الثانية بعد وفاة زوجته الأولى. وفي سنة 1889م / 1306هـ عاد محمد عبده إلى مصر بعفو من الخديوي توفيق، ووساطة تلميذه سعد زغلول وإلحاح نازلي فاضل على اللورد كرومر كي يعفو عنه ويأمر الخديوي توفيق أن يصدر العفو وقد كان، وقد اشترط عليه كرومر ألا يعمل بالسياسة فقبل.

8 - حياته في القضاء

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

وفي سنة 1889م عين قاضياً بمحكمة بنها، ثم انتقل إلى محكمة الزقازيق ثم محكمة عابدين ثم ارتقى إلى منصب مستشار في محكمة الاستئناف عام 1891م.

9 - مفتي الديار المصرية

وفي 3 يونيو عام 1899م / 24 محرم 1317 هـ عين في منصب المفتي، وتبعاً لذلك أصبح عضواً في مجلس الأوقاف الأعلى.

10 - نشاطه الاجتماعي

في 25 يونيو عام 1890م عين عضواً في مجلس شورى القوانين. وفي سنة 1900م / 1318 هـ أسس جمعية إحياء العلوم العربية لنشر المخطوطات، وزار العديد من الدول الأوروبية والعربية.

11 - استقلال منصب الإفتاء

في 3 يونيو سنة 1899م / 24 محرم 1317هـ صدر مرسوم خديوي وقعه الخديوي عباس حلمي الثاني بتعيين الشيخ محمد عبده مفتياً للديار المصرية وهذا نصه :

« صدر أمر عال من المعية السنية بتاريخ 3 يونيو 1899م - 24 محرم 1317 هـ نمرة 2 سايرة، صورته. فضيلة حضرة الشيخ محمد عبده، مفتي الديار المصرية : بناء على ماهو معهود في حضرتكم من العلامية وكمال الدراية، قد وجهنا لعهدكم وظيفة إفتاء الديار المصرية، وأصدرنا أمرنا هذا لفضيلتكم للمعلومية، والقيام بمهام هذه الوظيفة وقد أخطرنا الباشا رئيس مجلس النظار بذلك.»

كان منصب الإفتاء يضاف لمن يشغل وظيفة مشيخة الجامع الأزهر في السابق وبهذا المرسوم استقل منصب الإفتاء عن منصب مشيخة الجامع الأزهر، وصار الشيخ محمد عبده أول مفتي مستقل لمصر معين من قبل الخديوي عباس حلمي وعدد فتاوى الشيخ محمد عبده بلغ 944 فتوى استغرقت المجلد الثاني من سجلات مضبطة دار الإفتاء بأكمله وصفحاته 198، كما استغرقت 159 صفحة من صفحات المجلد الثالث.

12 - من فتاويه

عن الوقف وقضاياه، والميراث ومشكلاته، والمعاملات ذات الطابع المالي والآثار الاقتصادية، مثل البيع والشراء، والإجازة والرهن والإبداع، والوصاية والشفعة والولاية على القصر، والحكر والحجر والشركة وإبراء الذمة، ووضع اليد والديون واستقلال المرأة المالي والاقتصادي، يبلغ عدد فتاواه في ذلك 728 فتوى.

عن مشاكل الأسرة وقضاياها، من الزواج، والطلاق والنفقة والإرضاع والحضانة، والإقرار بالغلام المجهول، وعدد فتاواه في ذلك 100 فتوى.

عن القود والقتل والقصاص، عدد فتاواه في ذلك 29 فتوى.

فتاوى في موضوعات متنوعة ومختلفة، عدد فتاواه في ذلك نحواً من 87 فتوى.

ونلاحظ أن 80 % من الفتاوي تتعلق بمشكلات خاصة بالحياة المالية والاقتصادية وقضاياها.

ظل الشيخ محمد عبده مفتياً للديار المصرية ست سنوات كاملة حتى وفاته عام 1905م.

13 – وفاته

في الساعة الخامسة مساء يوم 11 يوليو عام 1905م / 7 جمادى الأولى 1323 هـ توفى الشيخ بالإسكندرية بعد معاناة من مرض السرطان عن سبع وخمسين سنة، ودفن بالقاهرة ورثاه العديد من الشعراء.

14 - أهم مؤلفاته

* رسالة التوحيد.
* تحقيق وشرح "البصائر القصيرية للطوسي".
* تحقيق وشرح "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" للجرجاني.
* الرد على هانوتو الفرنسي.
* الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية (رد به على إرنست رينان سنة 1902م).

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

* تقرير إصلاح المحاكم الشرعية سنة 1899م.
* شرح نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب
* العروة الوثقى مع معلمه جمال الدين الأفغاني.
* شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني

15 - من تلامذته

* محمد رشيد رضا
* شاعر النيل حافظ إبراهيم الذي قال مرثيته راسما فيها صورة صادقة جياشة لشخصية العالم المخلص وقد أدار حافظ قصيدته على محاور تقوى الإمام وصبره على ما ابتلي به من أذى الحاقدين وموقفه التاريخي في دحض أباطيل المستشرقين وتفسيره للقران الكريم. ففي وصف فضيلة الصبر يقول مخاطبا الإمام:
* الشيخ الشهيد عز الدين القسام والذي كان أول من نادى بالثورة على الإنجليز والصهاينة وتحرير فلسطين من بين أيديهم.
* شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي
* شيخ الأزهر مصطفى عبد الرازق
* شيخ العروبة محمد محيي الدين عبد الحميد
* سعد زغلول
* قاسم أمين
* محمد لطفي جمعة
* طه حسين

16 – رثاؤه

وآذوك في ذات الإله وأنكروا مكانك حتى سودوا الصفحات
رأيت الأذى في جانب الله لذة ورحت ولم تهمم لهم بشكاة

وفي تصوير مقدرة الشيخ على إفحام المستشرقين :

ووفقت بين الدين والعلم والحجا فأطلعت نورا من ثلاث جهات
وقفت لهانوتو ورينان وقفة أمدك فيها الروح بالنفحات
وخفت مقام الله في كل موقف فخافك أهل الشك والنزعات
وأرصدت للباغي على دين أحمد شباة يراع ساحر النفثات

وفي التعبير عن الحزن الذي اعترى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها:

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة وضاقت عيون الكون بالعبرات
ففي الهند محزون وفي اليمن جازع وفي مصر باك دائم الحسرات
وفي الشام مفجوع وفي الفرس نادب وفي تونس ما شئت من زفرات
بكى عالم الأسلام عالم عصره سراج الدياجي هادم الشبهات

أمجد الزهاوي

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

1 - تقديم

أمجد الزهاوي رئيس رابطة علماء العراق، وهو أبو سعيد أمجد بن الإمام محمد سعيد مفتي بغداد بن الإمام محمد فيضي الزهاوي، بن الملا أحمد بن حسن بك بن رستم بن كيخسرو بن الأمير سليمان بن أحمد بك بن بوراق بك بن خضر بك بن حسين بك بن الأمير سليمان الكبير رئيس الأسرة البابانية والذي أنشأ حفيده **إبراهيم باشا بابان** مدينة **السليمانية** وسماها باسم جدهِ سليمان. وهو من ذرية الصحابي خالد بن الوليد المخزومي ،

2 – حياته

ولد أمجد في بغداد عام 1300 هـ، الموافق عام 1882م، وبها نشأ وتعلم القرآن ودرس على أبيه، وعلى يد علماء عصره.

وتخرج من كلية الحقوق ومعهد القضاء العالي بإستانبول عام 1906 م، واشتغل حاكما في الموصل، ثم نقل إلى بغداد.

ومن أشهر أساتذته محمود شكري الآلوسي، وعبد الوهاب النائب، وعباس حلمي أفندي، والعلامة غلام رسول الهندي.

وقد كرس حياته لطلب العلوم الشرعية كالفقه والأصول، وله آراء شرعية وفتاوى مقبولة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

جاب الأقطار وشد الرحال لمختلف الدول الإسلامية في سبيل الدعوة إلى الله.

أنيطت به وظيفة حاكم في محاكم العراق.

ووظيفة رئيس المجلس التمييز الشرعي.

وعمل استاذا في كلية الحقوق وكان يحاضر في دار العلوم العربية والدينية وله كتاب (الوصايا والفرائض).

أنيطت به بعد وفاة مفتي العراق الشيخ قاسم القيسي، مهام الفتوى إلا أنه رفضها .

استقر أواخر أيامه في خدمة العلم والتعليم وكان له مجلسه الخاص في المدرسة السليمانية الذي يختلف إليه فيه مختلف العلماء والأدباء وطلاب العلم، والكل بين سائل ومشتكي ومستفتي فلا يرد طلب وما عرف عنه غير السعي في خدمة الناس وعمل الخير والأخلاص لله. وكان كثير المطالعة يحب البحث والمراجعة لكتبه، حيث يذكر عنه مطالعته للكتب قبل وفاته بساعة.

3 - من إنجازاته

لم يكن الشيخ أمجد ينتمي إلى حركة أو حزب أو كيان، بل كان يحب الكل، ويعمل مع كل من يعمل للإسلام أوينفع المسلمين وكان يساهم مع كل الناس ومع كل الجهات لإنجاز العمل الخيري الإسلامي حتى انه كان يقول ((لست مغفلاً حتى يخدعني أحد أنا اعمل مع كل من يعمل للإسلام))، ولقد أخبر الشيخ أحمد حسن الطه عنه قائلاً : (هو كان معروفاً أنه لا تابع لأحد، لأنه موضع ثقة الكل فصيح القول بإنه كان متبوعاً لا تابعاً، وبأنه يؤيد ما هو حق، ولا يكابر، وكان يرتفع أن يثير قضية جزئية خلافية، ويترك الامر، فإذا سأل الناس أجاب بما هو حق. ثم يضيف الشيخ أحمد قائلاً: ليس هو من الاخوان، لأنه أقدم منهم فكان هو موثقاً للإخوان، (وكان يصف حركة الإخوان المسلمين في مصر، بكونها فتحاً مبيناً)، وسمعته مرة يقول عن الاخوان في العراق (ولكن بعض الاخوان استعجلوا وكسروا الركية فطيرة)).

كان الشيخ عضواً مؤسساً لعدة جمعيات إسلامية مثل جمعية الأخوة الإسلامية، وجمعية رابطة علماء العراق.

كما أنتخب رئيسا لمؤتمر العالم الإسلامي بالإجماع وهو من المؤسسين لرابطة العالم الإسلامي في مكة، وكان كثير الاهتمام بقضايا المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، حيث سافر لمختلف أقطار الدول الإسلامية على نفقته الخاصة مثيرا للهمم وشارحا للمصيبة وجامعا للتبرعات ومحذرا من العاقبة الوخيمة المترتبة على تقصير الحكومات والمسؤولين في البلاد العربية والإسلامية بقضية ساعته وهي قضية فلسطين.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

ترأس ستة جمعيات إسلامية في وقت واحد، فكان يحمل روح الشباب وهو شيخ كبير، ساهم في نشر الوعي الإسلامي والدعوة إلى الإسلام.

4 - معاناته في العراق وهجرته إلى المدينة

كانت الأوضاع السياسية بالعراق في الستينيات تنبئ باقتراب حدوث تغيير سياسي كبير، وكانت إرهاصات حدوث انقلاب عسكري تتزايد، حتى قامت حركة يوليو 1958م، بقيادة **عبد الكريم قاسم** ، وألغيت الملكية وأعلن قيام الجمهورية العراقية. وقد أستقبلت الأوساط السياسية والشعبية هذا الانقلاب بابتهاج شديد سرعان ما تبدد مع صعود الشيوعيين ومحاولتهم الاقتراب من عبد الكريم قاسم الذي رحب بهم في البداية لعدم وجود قاعدة سياسية أو حزبية يتكئ عليها في ممارسة الحكم، إضافة إلى صراعه مع الضباط الوحدويين مثل عبد السلام عارف.

أدى اقتراب عبد الكريم قاسم من الشيوعيين إلى احتقانات سياسية عسكرية كبيرة استغل بعضها أحد قادة الجيش وهو "عبد الوهاب الشواف" للقيام بحركة انقلاب مضادة في الموصل، عرفت بحركة الشواف ساندته فيها القوى المختلفة الرافضة للشيوعية، غير أن فشل الحركة تسبب في حدوث مجازر قام بها الشيوعيون، وكان الشيخ محمد محمود الصواف قد أصدر مجلة "لواء الأخوة الإسلامية" التي وجهت انتقادات حادة للشيوعيين، وعندما ضاقوا بالنقد هاجموا المجلة وأحرقوا مكتبها ومطبعتها بعد 7 أعداد فقط من الصدور.

كانت الحركة الإسلامية تنتقد نظام حكم عبد الكريم قاسم؛ بسبب صعود الشيوعيين، وانتقاص الحزب الشيوعي العراقي لدين الإسلام عقيدة وشريعة، وصدور قانون الأحوال الشخصية رقم 188 لسنة 1959 الذي ألغى كل القوانين الإسلامية المتعلقة بقضايا الأحوال الشخصية، ومنع تعدد الزوجات، وأعطى المرأة حق الطلاق والمساواة في الإرث مع الرجل؛ فوقف الإخوان لهذا القانون بالمرصاد، خاصة بعد أن أصبح لهم وجود سياسي عند حصولهم على حكم قضائي بإنشاء حزب، وتم لهم ذلك في (ذي القعدة 1379 هـ/ أبريل 1960م) وترأسه نعمان عبد الرزاق السامرائي الذي أصدر جريدة "الفيحاء"، وكان نقد الإخوان شديدًا للشيوعيين، وكان لهم دور بارز في إحباط المشروع الشيوعي في العراق، وعند اشتداد طغيان الشيوعية في العراق هاجر الشيخ أمجد إلى المدينة المنورة وسكن فيها مدة من الزمن ثم عاد إلى بغداد.

5 – وفاته

توفي أمجد الزهاوي في يوم الجمعة 15 شعبان 1386 هـ، الموافق 17 تشرين الثاني 1967م، وشيع في موكب مهيب يوم السبت، وحضره أعلام بغداد وسار فيه العلماء والوزراء ووفود من رجالات العشائر العراقية، وطلاب المعهد الإسلامي ولقد أم الناس بالصلاةِ عليه تلميذه الشيخ عبد القادر الخطيب إمام جامع الإمام الأعظم ودفن في مقبرة الخيزران، قرب قبر عمهِ الشاعر جميل صدقي الزهاوي، وألقى كلمة في تأبينه محمد محروس المدرس، ثم تلاه واعظ بغداد العلامة شاكر البدري.

6 - كتب ألفت عنه

كتاب ((الشيخ أمجد بن محمد سعيد الزهاوي - عالِم العالم الإسلامي))، تأليف: كاظم أحمد ناصر المشايخي - مطبعة أنوار دجلة - بغداد.

7 - من تلامذة الشيخ

الشيخ الداعية المفكر محمد أحمد الراشد.

محمد رشيد رضا

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

تقديم

محمد رشيد بن علي رضا ولد 27 جمادى الأولى 1282 هـ/23 سبتمبر 1865 في قرية " القلمون (لبنان) " ، وهي قرية تقع على شاطئ البحر المتوسط من جبل لبنان وتبعد عن طرابلس الشام بنحو ثلاثة أميال ، وتوفي بمصر في 23 جمادى الأولى 1354 هـ / 22 أغسطس 1935م.

كان أبوه "علي رضا" شيخًا للقلمون وإمامًا لمسجدها، فعُني بتربية ولده وتعليمه. حفظ القرآن وتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، ثم انتقل إلى طرابلس، ودخل المدرسة الرشيدية الابتدائية، ثم المدرسة الوطنية الإسلامية بطرابلس التي كانت تهتم بتدريس اللغة العربية والعلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية، وقد أسس هذه المدرسة وأدارها الشيخ حسين الجسر، وكان يرى أنه من الضرورة لرُفي الأمة الجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا على الطريقة الأوروبية الحديثة مع التربية الإسلامية الوطنية.

وحين أُغلقت المدرسة، توثقت صلة رشيد رضا بالشيخ الجسر، واتصل بحلقاته ودروسه، حيث أحاط الشيخ الجسر "رشيد رضا" برعايته، ثم أجازه سنة 1897 لتدريس العلوم الشرعية والعقلية والعربية، وفي الوقت نفسه درس "رشيد رضا" الحديث على يد الشيخ "محمود نشابة" وأجازه أيضًا لرواية الحديث، كما واظب على حضور دروس نفر من علماء طرابلس مثل: الشيخ عبد الغني الرافعي، ومحمد القاوجي، ومحمد الحسيني، وغيرهم.

ويعتبر محمد رشيد رضا مفكراً إسلامياً من رواد الإصلاح الإسلامي الذين ظهروا مطلع القرن الرابع عشر الهجري. وبالإضافة إلى ذلك، كان صحفيا وكاتبا وأديبا لغويا. هو أحد تلاميذ الشيخ محمد عبده. أسس مجلة المنار على نمط مجلة "العروة الوثقى" التي أسسها الإمام محمد عبده، ويعتبر حسن البنا أكثر من تأثر بالشيخ رشيد رضا.

1 - رشيد رضا في قريته

اتخذ الشيخ رشيد رضا من قريته الصغيرة ميدانًا لدعوته الإصلاحية بعد أن تزود بالعلم وتسلح بالمعرفة وصفت نفسه بالمجاهدات والرياضيات الروحية ومحاسبة نفسه وتخليص قلبه من الغفلة وحب الدنيا، فكان يلقي الدروس والخطب في المسجد بطريقة سهلة بعيدة عن السجع الذي كان يشيع في الخطب المنبرية آنذاك ـ ويختار آيات من القرآن يحسن عرضها على جمهوره، ويبسط لهم مسائل الفقه، ويحارب البدع التي كانت شائعة بين أهل قريته.

ولم يكتف الشيخ رضا بمن يحضر دروسه في المسجد، بل كان يذهب هو إلى الناس في تجمعاتهم في المقاهي التي اعتادوا على الجلوس فيها لشرب القهوة والنارجيلة ولم يخجل من جلوسه معهم ووعظهم وحثهم على الصلاة، وقد أثمرت هذه السياسة المبتكرة حين أقبل كثير منهم على أداء الفروض والالتزام بالشرع والتوبة والإقبال على الله ـ كما وبعث إلى نساء القرية من ديدعوهن إلى درس خاص بهن، وجعل مقر التدريس في دار الأسرة، وألقى عليهن دروسًا في الطهارة والعبادات والأخلاق، وشيئًا من العقائد في أسلوب سهل يسير

2 - الاتصال بالأستاذ الإمام محمد عبده

في الفترة التي كان يتلقى فيها رشيد رضا دروسه في طرابلس كان الشيخ محمد عبده قد نزل بيروت للإقامة بها، وكان محكومًا عليه بالنفي بتهمة الاشتراك في الثورة العرابية، وقام بالتدريس في المدرسة السلطانية ببيروت، وإلقاء دروسه التي جذبت طلبة العلم بأفكاره الجديدة ولمحاتة الذكية، وكان الشيخ محمد عبده قد أعرض عن السياسة، ورأى في التربية والتعليم سبيل الإصلاح وطريق الرقي، فركز جهده في هذا الميدان.

وعلى الرغم من طول المدة التي مكثها الشيخ محمد عبده في بيروت فإن الظروف لم تسمح لرشيد رضا بالانتقال إلى المدرسة السلطانية والاتصال بالأستاذ الإمام مباشرة، والتلمذة على يديه، وكان التلميذ النابه شديد الإعجاب بشيخه، حريصًا على اقتفاء أثره في طريق الإصلاح، غير أن الفرصة سنحت له على استحياء، فالتقى بالأستاذ الإمام مرتين في طرابلس حين جاء إلى زيارتها تلبية لدعوة كبار رجالها. وتوثقت

الصلة بين الرجلين وازداد تعلق رشيد رضا بأستاذه وقوي إيمانه به وبقدرته على أنه خير من يخلف "جمال الدين الأفغاني" في ميدان الإصلاح وإيقاظ الشرق من سباته.

حاول رشيد رضا الاتصال بجمال الدين الأفغاني والالتقاء به، لكن جهوده توقفت عند حدود تبادل الرسائل وإبداء الإعجاب وكان جمال الدين في الآستانة يعيش بها كالطائر الذي فقد جناحيه فلا يستطيع الطيران والتحليق وبقي تحت رقابة الدولة وبصرها حتى لقي ربه سنة (1314 هـ = 1897م) دون أن تتحقق أمنية رشيد رضا في رؤيته والتلمذة على يديه.

3 - رشيد رضا في القاهرة

لم يجد رشيد رضا مخرجًا له في العمل في ميدان أفسح للإصلاح سوى الهجرة إلى مصر والعمل مع محمد عبده تلميذ الأفغاني حكيم الشرق، فنزل الإسكندرية في مساء الجمعة (8 من رجب 1315 هـ = 3 من يناير 1898م)، وبعد أيام قضاها في زيارة بعض مدن الوجه البحري نزل القاهرة واتصل على الفور بالأستاذ الإمام، وبدأت رحلة جديدة لرشيد رضا كانت أكثر إنتاجًا وتأثيرًا في تفكيره ومنهجه الإصلاحي.

لم يكد يمضي شهر على نزوله القاهرة حتى صارح شيخه بأنه ينوي أن يجعل من الصحافة ميدانًا للعمل الإصلاحي، ودارت مناقشات طويلة بين الإمامين الجليلين حول سياسة الصحف وأثرها في المجتمع وأقنع التلميذ النجيب شيخه بأن الهدف من إنشائه صحيفة هو التربية والتعليم ونقل الأفكار الصحيحة لمقاومة الجهل والخرافات والبدع وأنه مستعد للإنفاق عليها سنة أو سنتين دون انتظار ربح منها.

4 - مجلة المنار

صدر العدد الأول من مجلة المنار في (22 من شوال 1315 هـ = من مارس 1898م)، وحرص الشيخ رشيد على تأكيد أن هدفه من المنار هو الإصلاح الديني والاجتماعي للأمة وبيان أن الإسلام يتفق والعقل والعلم ومصالح البشر وإبطال الشبهات الواردة على الإسلام وتفنيد ما يعزى إليه من الخرافات.

أفردت المجلة إلى جانب المقالات التي تعالج الإصلاح في ميادينه المختلفة بابًا لنشر تفسير الشيخ محمد عبده، إلى جانب باب لنشر الفتاوى والإجابة على ما يرد للمجلة من أسئلة في أمور اعتقادية وفقهية، وأفردت المنار أقسامًا لأخبار الأمم الإسلامية، والتعريف بأعلام الفكر والحكم والسياسة في العالم العربي والإسلامي، وتناول قضايا الحرية في المغرب والجزائر والشام والهند.

لم تكد تمضي خمسة سنواتٍ على صدور المجلة حتى أقبل عليها الناس وانتشرت انتشاراً واسعاً في العالم الإسلامي واشتهر اسم صاحبها حتى عُرف باسم رشيد رضا صاحب المنار. وعرف الناس قدره وعلمه. وصار ملجأهم فيما يعرض لهم من مشكلات. وجاء العلماء يستزيدون من عمله وأصبحت مجلته هي المجلة الإسلامية الأولى في العالم الإسلامي وموئل الفتيا في التأليف بين الشريعة والعصر.

كان الشيخ رشيد يحرر معظم مادة مجلته على مدى عمرها المديد، يمده زاد واسع من العلم، فهو عالم موسوعي ملم بالتراث الإسلامي، محيط بعلوم القرآن، على دراية واسعة بالفقه الإسلامي والسنة النبوية، عارف بأحوال المجتمع والأدوار التي مر بها التاريخ الإسلامي، شديد الإحاطة بما في العصر الذي يعيش فيه، خبير بأحوال المسلمين في الأقطار الإسلامية.

5 - منهجه في الإصلاح

كتب الشيخ رشيد مئات المقالات والدراسات التي تهدف إلى إعداد الوسائل للنهوض بالأُمة وتقويتها وخص العلماء والحكام بتوجيهاته لإمانه بأنهم بمنزلة العقل المدبر والروح المفكر من الإنسان وأن في صلاح حالها صلاح حال الأُمة وغير ذلك قوله: "إذا رأيت الكذب والزور والرياء والنفاق والحقد والحسد وأشباهها من الرذائل فاشية في أمة، فاحكم على أمرائها وحكامها بالظلم والاستبداد وعلى علمائها ومرشديها بالبدع والفساد، والعكس بالعكس".

اقترح رشيد رضا لإزالة أسباب الفرقة بين المسلمين تأليف كتاب يضم جميع ما اتفقت عليه كلمة المسلمين بكل فرقهم في المسائل التي تتعلق بصحة الاعتقاد وتهذيب الأخلاق وإحسان العمل والابتعاد عن مسائل الخلاف بين الطوائف الإسلامية الكبرى كالشيعة، وإرسال نسخ بعد ذلك من الكتاب إلى جميع البلاد الإسلامية وحث الناس على دراستها والاعتماد عليها.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

كما طالب كذلك بتأليف كتب تهدف إلى توحيد الأحكام، حيث يقوم العلماء بوضع هذه الكتب على الأسس المتفق عليها في جميع المذاهب الإسلامية وبما يتفق مع متطلبات العصر، ثم تُعرض على سائر علماء المسلمين للاتفاق عليها والتعاون في نشرها وتطبيق أحكامها.

6 - التربية والتعليم

كان الشيخ رشيد رضا من أشد المنادين بأن يكون الإصلاح عن طريق التربية والتعليم، وهو في ذلك يتفق مع شيخه محمد عبده في أهمية هذا الميدان، "فسعادة الأمم بأعمالها، وكمال أعمالها منوط بانتشار العلوم والمعارف فيها".

حدد "رشيد رضا" العلوم التي يجب إدخالها في ميدان التربية والتعليم لإصلاح شئون الناس، ودفعهم إلى مسايرة ركب العلم والعرفان، مثل: علم أصول الدين، علم فقه الحلال والحرام والعبادات، التاريخ، الجغرافيا، الاجتماع، الاقتصاد، التدبير المنزلي، حفظ الصحة، لغة البلاد، والخط.

لم يكتف رضا بدور الموجه والناصح، وإنما نزل ميدان التعليم بنفسه، وحاول تطبيق ما يراه محققًا للآمال، فأنشأ مدرسة دار الدعوة والإرشاد لتخريج الدعاة المدربين لنشر الدين الإسلامي، وجاء في مشروع تأسيس المدرسة أنها تختار طلابها من طلاب العلم الصالحين من الأقطار الإسلامية، ويُفضل من كانوا في حاجة شديدة إلى العلم كأهل جاوه والصين، وأن المدرسة ستكفل لطلابها جميع ما يحتاجون إليه من مسكن وغذاء، وأنها ستعتني بتدريس طلابها على التمسك بآداب الإسلام وأخلاقه وعبادته، كما تُعنى بتعليم التفسير والفقه والحديث، فلا خير في علم لا يصحبه خلق وسلوك رفيع، وأن المدرسة لا تشغل بالسياسة، وسيُرسل الدعاة المتخرجون إلى أشد البلاد حاجة إلى الدعوة الإسلامية.

افتتحت المدرسة في ليلة الاحتفال بالمولد النبوي سنة (1330 هـ = 1912م) في مقرها في جزيرة الروضة بالقاهرة، وبدأت الدراسة في اليوم التالي للاحتفال، وكانت المدرسة تقبل في عداد طلبتها شباب المسلمين ممن تتراوح أعمارهم ما بين العشرين والخامسة والعشرين، على أن يكونوا قد حصلوا قدراً من التعليم يمكنهم من مواصلة الدراسة.

غير أن المدرسة كانت بحاجة إلى إعانات كبيرة ودعم قوي، وحاول رشيد رضا أن يستعين بالدولة العثمانية في إقامة مشروعه واستمراره لكنه لم يفلح ـ ثم جاءت الحرب العالمية لتقضي على هذا المشروع فتعطلت الدراسة في المدرسة ولم تفتح أبوابها مرة أخرى.

7 – مؤلفاته

بارك الله في عمر الشيخ الجليل وفي وقته رغم أنشغاله بالمجلة التي أخذت معظم وقته، وهي بلا شك أعظم أعماله، فقد استمرت من سنة (1316هـ == 1899م) إلى سنة (1354 == 1935م)، واستغرقت ثلاثة وثلاثين مجلداً، ضمت 160 ألف صفحةً، فضلاً عن رحلاته التي قام بها إلى أوروبا والآستانة والهند والحجاز، ومشاركته في ميادين أخرى من ميادين العمل الإسلامي.

من أهم مؤلفاته "تفسير المنار" الذي استكمل فيه ما بدأه شيخه محمد عبده الذي توقف عند الآية (125) من سورة النساء، وواصل رشيد رضا تفسيره حتى بلغ سورة يوسف وحالت وفاته ، دون إتمام تفسيره. وله أيضًا: الوحي المحمدي ونداء للجنس اللطيف، تاريخ الأستاذ الإمام والخلافة ، السنة والشيعة ، حقيقة الربا ، مناسك الحج ,

8 - وفاة الشيخ

كان للشيخ رشيد روابط قوية بالمملكة العربية السعودية، فسافر بالسيارة إلى السويس لتوديع الأمير سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود وزوده بنصائحه، وعاد في اليوم نفسه ، وكان قد سهر أكثر الليل ، فلم يتحمل جسده الواهن مشقة الطريق، ورفض المبيت في السويس للراحة، وأصر على الرجوع، وكان طول الطريق يقرأ القرآن كعادته، ثم أصابه دوار من ارتجاج السيارة، وطلب من رفيقيه أن يستريح داخل السيارة، ثم لم تلبث أن خرجت روحه الطاهرة في يوم الخميس الموافق (23 من جمادى الأولى 1354 هـ = 22 من أغسطس 1935م)، وكانت آخر عبارة قالها في تفسيره : " فنسأله تعالى أن يجعل لنا خير حظ منه بالموت على الإسلام".

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

9 – أعماله

* مجلة المنار
* تفسير المنار
* تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
* الوحي المحمدي
* يسر الإسلام وأصول التشريع العام
* الخلافة
* الوهّابيون والحجاز
* محاورات المصلح والمقلد
* ذكرى المولد النبوي
* شبهات النصارى وحجج الإسلام
* نداء للجنس اللطيف
* السنة والشيعة
* حقيقة الربا
* مناسك الحج.

إغناطيوس أفرام الأول برصوم

أغناطيوس أفرام الأول برصوم بطريرك أنطاكية للكنيسة السريانية الأرثوذكسية الـ 120، ولد في 15 جزيران / يونيو عام 1887م في مدينة الموصل العراقية. تلقى تعليمه الأولي في مدرسة الدومينيكان فدرس فيها الآداب الدينية والتاريخ واللغات الفرنسية والتركية ، ولاحقا درس اللغة العربية على يد أساتذة مسلمين ، وبدء دراساته اللاهوتية في دير الزعفران في ماردين – تركيا عام 1905م وأجاد هناك اللغة السريانية وتعلم تاريخها وآدابها.

في عام 1908م رسم كاهنا وبقي مقيما في دير الزعفران بصفة معلم، ثم أوكلت إليه مهمة إدارة شؤون الدير سنة 1911م ولاحقا في ذلك العام قام بعدة زيارات أكاديمية لأديرة وكنائس في تركيا و بلاد الرافدين، وفي سنة 1913م قام برحلة مماثلة للبحث والدراسة في المخطوطات السريانية القديمة المحفوظة في كبرى مكتبات أوروبا.

في تاريخ 20 أيار/ مايو 1918م رسمه البطريرك إغناطيوس إلياس الثالث مطرانا على سوريا باسم مار سويريوس ، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى برز نجمه ليس كرجل دين فقط ولكن كرجل وطني يدعو لوحدة السوريين جميعا في مواجهة الانتداب الفرنسي، فكان انتخابه عام 1919م ليكون ضمن الوفد السوري الذي توجه لحضور مؤتمر الصلح في باريس للمطالبة بحقوق الشعب السوري في ظل الوجود الفرنسي والإنكليزي على أرضه، وفي خضم أحداث المؤتمر علا صوت المطران سويريوس ليس فقط للمطالبة بحقوق الشعب السوري ولكن أيضا للمطالبة بحقوق بقية الشعوب العربية في المنطقة، وكانت تلك الزيارة أيضا فرصة له لدراسة مخطوطات سريانية موجودة في باريس قبل عودته إلى سوريا في شهر أيار/مايو عام 1920م.

بعد ذلك بسنتين وضعت عصبة الأمم سوريا تحت الانتداب الفرنسي وضع ذلك القرار على عاتقه مسؤولية جديدة بإعالة العوائل السريانية النازحة من منطقة كيليكية والتي اقتطعت من سوريا وضُمت للجمهورية التركية الناشئة بعد اتفاق وقعه الأتراك مع الفرنسيين. كما تكفل ببناء عدة كنائس جديدة في وحول مدينة حلب للوافدين الجدد.

قام المطران سويريوس برحلة جديدة أخذته إلى جنيف ولوزان كمبعوث رسولي عن كنيسته لحضور المؤتمر العالمي عن الإيمان في تاريخ 3 إلى 21 آب / أغسطس 1927م. وبعد ذلك أرسل بصفة نائب بطريركي للولايات المتحدة الأمريكية حيث أقام هناك ثلاث كنائس جديدة للسريان المقيمين هناك ورسم لهم كهنة لخدمتهم، كما قام هناك أيضا بإلقاء محاضرات عن اللغة السريانية وآدابها في جامعة شيكاغو.

توفي بطريرك الكنيسة السريانية الأرثوذكسية آنذاك إغناطيوس إلياس الثالث فاختير المطران سويريوس من قبل المجمع المقدس للكنيسة ليكون البطريرك الجديد واستلم هذا المنصب في 30 كانون الثاني/يناير 1933م ليكون لقبه الرسولي مار إغناطيوس أفرام الأول برصوم.

أقام البطريرك الجديد عقب توليه مهامه الجديدة عدة أبرشيات جديدة لكنيسته وأنشأ معهدا لاهوتيا لتخريج الكهنة في مدينة زحلة اللبنانية، كما قام أيضا بنقل المقر البطريركي من دير الزعفران في تركيا إلى مدينة حمص في سوريا وذلك بسبب الظروف القاسية التي واجهها المسيحيون في تركيا في تلك الفترة.

ألف البطريرك إغناطيوس أفرام الأول الكثير من الكتب بلغات مختلفة منها ما نشر ومنها ما بقي مسودات لم تطبع أبرزها كتاب اللؤلؤ المنثور حول تاريخ الكنيسة السريانية الأرثوذكسية وأشهر أعلامها وأديارها.

توفي في تاريخ 23 حزيران / يونيو عام 1957م في ودفن في مدينة حمص.

حوادث وأحداث أواخر الدولة العثمانية

الحملة الفرنسية على مصر

تقديم

الحملة الفرنسية على مصر هي حملة عسكرية قام بها الجنرال نابليون بونابرت على مصر والشام (1798-1801م) بهدف إقامة قاعدة في مصر تكون نواة لامبراطورية فرنسية في الشرق من ناحية ، وقطع الطريق بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند من ناحية آخرى وأيضا لإستغلال مواردها في غزواته في أوروبا ، استمرت الحملة 3 سنوات وفشلت وأسفرت عن عودة القوات الفرنسية إلى بلادها.

1 - أسباب ومطامع الحملة الفرنسية علي مصر

كان لقدوم الحملة الفرنسية على مصر الكثير من الأسباب والدوافع ولعل من المهم أن يتم التعرف على تاريخ العلاقات بين مصر وفرنسا وخاصة منذ أن كانت مصر تحت السيادة العثمانية إذ تؤكد الكثير من الوثائق مدى إهتمام فرنسا بمعرفة الأحوال السياسية والإقتصادية والإجتماعية في مصر قبل قدوم الحملة الفرنسية بفترة طويلة.

ومن الجدير بالذكر أن مصر قد تعرضت لحملتين فرنستين قبل ذلك ولكنهما كانا في إطار الحملات الصليبية ففي عهد الدولة الأيوبية ، كانت الحملتان تقودهما فرنسا، أما الأولى فقد عرفت بالحملة الصليبية الخامسة ، وكانت بقيادة جان دي برس ولكنها فشلت في عام 618 هـ - 1221م، وأما الأخرى فقد عرفت بالحملة الصليبية السابعة، وكانت بقيادة الملك لويس التاسع ومنيت بهزيمة مدوية عام 648 هـ - 1250م وخرجت من مصر.

إلا أن احتلال مصر كانت رغبة قوية لدى فرنسا، وبقيت أملا لسياستها وقادتها ينتظرون الفرصة السانحة لتحقيقها متى سنحت لهم، وفي سبيل ذلك يبعثون رجالهم إلى مصر على هيئة تجار أو سياح أو طلاب ودارسين، ويسجلون دقائق حياتها في تقارير يرسلونها إلى قادتهم، ولما بدأ الضعف يتسرب إلى الدولة العثمانية أخذت فرنسا تتطلع إلى المشرق العربي مرة أخرى، وكانت تقارير رجالهم تحرضهم بأن اللحظة المناسبة قد حان أوانها ولابد من انتهازها.

وكشفت تقارير سانت بريست سفير فرنسا في الأستانة منذ سنة 1768م والبارون دي توت والمسيو (مور) قنصل فرنسا في الإسكندرية ضعف الدولة العثمانية، وأنها في سبيلها إلى الانحلال، ودعت تلك التقارير إلى ضرورة الإسراع باحتلال مصر، غير أن الحكومة الفرنسية ترددت ولم تأخذ بنصائحهم، احتفاظا بسياستها القائم ظاهرها على الود والصداقة للدولة العثمانية.

قامت الجيوش الفرنسية بالهجوم علي مصر عام 1798 م بقيادة نابليون بونابرت، بغرض جعل مصر قاعدة إستراتيجية تكون نواة للإمبراطورية الفرنسية في الشرق، كما تظهر وثيقة شديدة الأهمية عن حلم نابليون بحفر قناة السويس وعدم إضاعة قطرة واحدة من ماء النيل إذا قيد له أن يحكم مصر طويلا، وأن يجعل من مصر قاعدة لإمبراطورية هائلة شرق السويس تمتد حتى إيران وأفغانستان، فأنا لست أقل من الإسكندر الأكبر. رغم حزني الشديد لأن الإسكندر غزا مصر في سن السادسة والعشرين بينما أنا في الثامنة والعشرين.

2 - الشروع في إعداد الحملة

قبل قيام الحملة الفرنسية على مصر، قدم شارل مجالون القنصل الفرنسي في مصر تقريره إلى حكومته في 9 فبراير 1798 م يحرضها على ضرورة احتلال مصر، ويبين أهمية استيلاء بلاده على منتجات مصر وتجارتها، ويعدد لها المزايا التي ينتظر أن تجنيها فرنسا من وراء ذلك.

وبعد أيام قليلة من تقديم تقرير مجالون تلقت حكومة فرنسا تقريرا آخر من - تاليران - وزير الخارجية ، ويحتل هذا التقرير مكانة كبيرة في تاريخ الحملة الفرنسية على مصر، حيث عرض فيه للعلاقات التي قامت من قديم الزمن بين فرنسا ومصر وبسط الآراء التي تنادي بمزايا الاستيلاء على مصر، وقدم الحجج التي تبين أن الفرصة قد أصبحت سانحة لإرسال حملة على مصر وفتحها، كما تناول وسائل تنفيذ

مشروع الغزو من حيث إعداد الرجال وتجهيز السفن اللازمة لحملهم وخطة الغزو العسكرية، ودعا إلى مراعاة تقاليد أهل مصر وعاداتهم وشعائرهم الدينية ، وإلى استمالة المصريين وكسب مودتهم بتبجيل علمائهم وشيوخهم واحترام أهل الرأي منهم ؛ لأن هؤلاء العلماء أصحاب مكانة كبيرة عند المصريين.

3 - قرار الحملة

وكان من أثر التقريرين أن نال موضوع غزو مصر اهتمام حكومة الإدارة التي قامت بعد الثورة الفرنسية، وخرج من مرحلة النظر والتفكير إلى حيز العمل والتنفيذ، وأصدرت قرارها التاريخي بوضع جيش الشرق تحت قيادة نابليون بونابرت في 12أبريل 1798م

وتضمن القرار مقدمة وست مواد، اشتملت المقدمة على الأسباب التي دعت حكومة الإدارة إلى إرسال حملتها على مصر، وفي مقدمتها عقاب المماليك الذين أساءوا معاملة الفرنسيين واعتدوا على أموالهم وأرواحهم، والبحث عن طريق تجاري آخر بعد استيلاء الإنجليز على طريق رأس الرجاء الصالح وتضييقهم على السفن الفرنسية في الإبحار فيه، وشمل القرار تكليف نابليون بطرد الإنجليز من ممتلكاتهم في الشرق، وفي الجهات التي يستطيع الوصول إليها، وبالقضاء على مراكزهم التجارية في البحر الأحمر والعمل على شق قناة برزخ السويس.

4 - تجهيز الحملة

جرت الاستعدادات لتجهيز الحملة على خير وجه، وكان قائد الحملة الجنرال نابليون يشرف على التجهيز بكل عزم ونشاط ويتخير بنفسه القادة والضباط والعلماء والمهندسين والجغرافيين، وعني بتشكيل لجنة من العلماء عرفت باسم **لجنة العلوم والفنون** وجمع كل حروف الطباعة العربية الموجودة في باريس لكي يزود الحملة بمطبعة خاصة بها.

لقد تمت التعمية على الجهة التي يقصدها الأسطول حتى إن الرجال كلهم - تقريبا - والبالغ عددهم مايقارب 36 ألف جندي لم يكونوا يعلمون وجهة الأسطول، وفي بيان له سمات خاصة وجهه نابليون " **لجيش الشرق** " الجديد أشار إليه بأنه مجرد جناح للجيش الفرنسي المعد لغزو إنجلترا، وطلب من البحارة والجنود أن يثقوا به رغم أنه لا يستطيع حتى الآن أن يحدد المهام الموكلة إليهم.

وفى يوم 19 مايو 1798 اقلع أسطول فرنسي كبير من ميناء طولون، وتألفت من نحو 35 ألف جندي، تحملهم 300 سفينة تقودهم سفينة القائد (اوريليان) والتي تعني الشرق، ويحرسها أسطول حربي فرنسي مؤلف من 55 سفينة، وفي طريقها إلى الإسكندرية استولت الحملة على جزيرة مالطة من فرسان القديس يوحنا آخر فلول الصليبيين،

وبلغ الإنجليز أخبار مغادرة نابليون فرنسا وعهدوا إلى نيلسون باقتفاء أثره وتدمير أسطوله، فقصد إلى مالطة ولكنه وجد أن أسطول نابليون غادرها نحو الشرق منذ خمسة أيام، فرجح أنها تقصد مصر واتجه إلى الإسكندرية وبلغها يوم 28 يونيو 1798 فلم يعثر هناك للفرنسيين على أثر وحذر المصريين.

5 - الاستيلاء على مالطا

وفي 9 يونيو ظهر الأسطول الفرنسي إزاء سواحل مالطا، وكانت حكومة الإدارة قد قدمت رشوة لرئيس جماعة فرسان مالطا وذوي الشأن فيهم لتكون مقاومتهم شكلية ونتيجة لهذا استولى الفرنسيون على الحصن المنيع الممول جيدا في هذه الجزيرة بسهولة ولم يفقدوا في سبيله سوى ثلاثة رجال• وتأخر نابليون في الجزيرة أسبوعا ليعيد تنظيم إدارة الجزيرة على نمط الإدارة الفرنسية وكان ألفريد ده ڤينه Alfred de Vigne - الذي سيصبح شاعرا فيما بعد - يومئذ في الثانية من عمره، وقد قدموه لنابليون، فرفعه وقبله، وقال ألفريد - فيما بعد - عندما أنزلني بعناية إلى سطح السفينة، كان قد كسب إلى جانبه، عبداً آخر يضاف إلى عبيده. وعلى أيه حال فإن نابليون ذلك الرجل الشبيه بالإله عانى دوار البحر طوال فترة الإبحار إلى الإسكندرية تقريبا، وفي هذه الأثناء درس القرآن.

6 - الأسطول الإنجليزي يراقب الحملة

وعلى الرغم من السرية التامة التي أحاطت بتحركات الحملة الفرنسية وبوجهتها فإن أخبارها تسربت إلى بريطانيا العدو اللدود لفرنسا، وبدأ الأسطول البريطاني يراقب الملاحة في البحر المتوسط،

واستطاع نيلسون قائد الأسطول الوصول إلى ميناء الإسكندرية قبل وصول الحملة الفرنسية بثلاثة أيام ، وأرسل بعثة صغيرة للتفاهم مع السيد محمد كريم حاكم المدينة وإخباره أنهم حضروا للتفتيش عن الفرنسيين الذين خرجوا بحملة كبيرة وقد يهاجمون الإسكندرية التي لن تتمكن من دفعها ومقاومتها، لكن السيد محمد كريم ظن أن الأمر خدعة من جانب الإنجليز لاحتلال المدينة تحت دعوى مساعدة المصريين لصد الفرنسيين، وأغلظ القول للبعثة فعرضت أن يقف الأسطول البريطاني في عرض البحر لملاقاة الحملة الفرنسية وأنه ربما يحتاج للتموين بالماء والزاد في مقابل دفع الثمن، لكن السلطات رفضت هذا الطلب لتترك الاسطول الإنجليزي للمواجهة مع الحملة في معركة **أبي قير البحرية** والتي انتهت بتدمير قطع الاسطول الفرنسي لتترك الحملة في مصر بلا اتصال بفرنسا

وتَوقُّع بريطانيا أن تكون وجهة الحملة الفرنسية إلى مصر العثمانية دليلٌ على عزمها على اقتسام مناطق النفوذ في العالم العربي وتسابقهما في اختيار أهم المناطق تأثيرا فيه، لتكون مركز ثقل السيادة والانطلاق منه إلى بقية المنطقة العربية، ولم يكن هناك دولة أفضل من مصر لتحقيق هذا الغرض الاستعماري.

7 - وصول الحملة للإسكندرية

وقد وصل الأسطول الفرنسي غرب الإسكندرية عند أبو قير في أول يوليو 1798، وبادر بإنزال قواته ليلاً على البر ثم سير جيشاً إلى الإسكندرية، وأنزلت المراكب الحربية الفرنسية، ونجحت في احتلال المدينة في 2 يوليو 1798م بعد مقاومة من جانب أهلها وحاكمها السيد محمد كريم دامت ساعات وظل يتقهقر ثم اعتصم بقلعة قايتباى ومعه مجموعة من المقاتلين، وأخيراً أستسلم وكف عن القتال، ولم يكن بد من التسليم ودخل نابليون المدينة، وأعلن بها الأمان .

وفى 6 سبتمبر 1798 اصدر نابليون بونابرت أمرا بتنفيذ عقوبة الإعدام في السيد محمد كريم " **بميدان الرميلة** " في القاهرة. ووجّه نابليون في اليوم ذاته نداءً إلى الشعب المصري، وأصدرت الحملة نداء إلى الشعب بالهدوء والتعاون وأن نابليون قد اعتنق الإسلام وأصبح صديق وحامي الإسلام.

وراح نابليون يذيع منشورا على أهالي مصر تحدث فيه عن سبب قدومه لغزو بلادهم وهو تخليص مصر من طغيان البكوات المماليك الذين يتسلطون في البلاد المصرية، وأكد في منشوره على احترامه للإسلام والمسلمين، وبدأ المنشور بالشهادتين وحرص على إظهار إسلامه وإسلام جنده ، وشرع يسوق الأدلة والبراهين على صحة دعواه، وأن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون، فقال: "إنهم قد نزلوا روما وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحث المسيحيين على محاربة المسلمين"، وأنهم قد قصدوا مالطة وطردوا منها فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يعتقدون أن الله يطلب منهم مقاتلة المسلمين

وبهذا يكون قد استولى نابليون على أغنى إقليم في الإمبراطورية العثمانية وطبقاً للبروباجندا الحربية ادعى أنه " **صديقاً للسلطان العثماني** " وادعى أيضا أنه قدم إلى مصر " للاقتصاص من المماليك " لا غير، باعتبارهم أعداء السلطان، وأعداء الشعب المصري وهذه رسالة نابليون بونابرت الذي دعاه المؤرخين المسلمين الجنرال علي إلى شعب مصر:

" بسم الله الرحمن الرحيم، لا اله الا الله وحده ولا شريك له في ملكه...

ايها المشايخ والأئمة...قولوا لأمتكم ان الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون وإثبات ذلك انهم قد نزلوا في روما الكبرى وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحّث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطا وطردوا منها الكواللييرية الذين كانوا يزعمون ان الله يطلب منهم مقاتلة المسلمين، ومع ذلك فإن الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني..أدام الله ملكه...أدام الله إجلال السلطان العثماني أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية "

وأدرك نابليون قيمة الروابط التاريخية الدينية التي تجمع بين المصريين والعثمانيين تحت لواء الخلافة الإسلامية فحرص ألا يبدو في صورة المعتدي على حقوق السلطان العثماني فعمل على إقناع

المصريين بأن الفرنسيين هم أصدقاء السلطان العثماني، غير أن هذه السياسة المخادعة التي أراد نابليون أن يخدع بها المصريين ويكرس احتلاله للبلاد فلم ينخدعوا بها وقاوموا الاحتلال.

7 – 1 - الطريق إلى القاهرة

معركة الأهرام، لويس فرانسوا، البارون لوجين، 1808.

وفي مساء يوم 3 يوليو 1798 م زحفت الحملة على القاهرة، وسلكت طريقين أحدهما بري وسلكته الحملة الرئيسية؛ حيث تسير من الإسكندرية إلى دمنهور فالرحمانية، فشبراخيت، فأم دينار (على مسافة 15 ميلاً من الجيزة)،

وأما الطريق الآخر فبحري وتسلكه سفن الأسطول الخفيفة في فرع رشيد لتقابل الحملة البرية قرب القاهرة.

وتكشف وثائق عن توصيف دقيق بقلم نابليون نفسه لبعض المعارك الحربية مثل معركة الرحمانية (رقم4626 بتاريخ20 يوليو1799) ولم يكن طريق الحملة سهلاً إلى القاهرة فقد لقي جندها ألوانا من المشقة والجهد، وقابلت مقاومة من قبل أهالي البلاد؛ فوقعت في 13 يوليو 1798 م أول موقعة بحرية بين سفن المماليك والفرنسيين عند شبراخيت، وكان جموع الأهالي من الفلاحين يهاجمون الأسطول الفرنسي من الشاطئين غير أن الأسلحة الحديثة التي كان يمتلكها الأسطول الفرنسي حسمت المعركة لصالحه ، واضطر "مراد بك" قائد المماليك إلى التقهقر إلى القاهرة.

ثم التقى "مراد بك" بالفرنسيين عند منطقة إمبابة في 21 يوليو 1798 م في معركة أطلق عليها الفرنسيون **معركة الأهرام** ، وهناك قال لجنوده (إن كان لنا أن نثق في ذاكرة نابليون) : "إن أربعين قرنا تتطلع إليكم"

ومرة أخرى واجه الفرنسيون هذا الهجوم بطلقات المدافع والبنادق والحراب المثبتة فقتل سبعون فرنسياً وألفٌ وخمسمائة مملوك ، وغرق كثيرون منهم في النيل في أثناء هروبهم الطائش، وفي 22 يوليو أرسلت السلطات العثمانية في القاهرة مفاتيح المدينة إلى نابليون مما يعني الاستسلام، وفي 32 يوليو دخل نابليون المدينة البهية من غير أن يواجه مقاومة.

وبالرغم من أن القوات المصرية كانت كبيرة لكن تسليحها لا يضاهي التسليح الفرنسي الحديث ؛ فلقيت هزيمة كبيرة وفر "مراد بك" ومن بقي معه من المماليك إلى الصعيد، وكذلك فعل شيخ البلد "إبراهيم بك"، وأصبحت القاهرة بدون حامية، وسرت في الناس موجة من الرعب والهلع خوفًا من الفرنسيين.

7 - 2 - نابليون في القاهرة

دخل نابليون مدينة القاهرة تحوطه قواته من كل جانب، وفي عزمه توطيد احتلاله للبلاد بإظهار الود للمصريين وبإقامة علاقة صداقة مع الدولة العثمانية، وباحترام عقائد أهالي البلاد والمحافظة على تقاليدهم وعاداتهم؛ حتى يتمكن من إنشاء القاعدة العسكرية، وتحويل مصر إلى مستعمرة قوية يمكنه منها توجيه ضربات قوية إلى الإمبراطورية البريطانية.

وفي اليوم الثاني لدخوله القاهرة وهو الموافق 25 يوليو 1798 م أنشأ نابليون ديوان القاهرة وهو ديواناً استشارياً من تسعة من كبار المشايخ والعلماء ويرأسه الشيخ عبد الله الشرقاوي. لحكم مدينة القاهرة ، وتعيين رؤساء الموظفين، غير أن هذا الديوان لم يتمتع بالسلطة النهائية في أي أمر من الأمور،

وحتى نعرف غرض نابليون من هذا الديوان يظهر في وصيته لكليبر التي يقول فيها (إذا أردت أن تحكم مصر طويلا فعليك باحترام مشاعر الناس الدينية واحترام حرمات منازلهم) كما كان الغرض من مجلس القاهرة هو تفعيل الحياة المدنية بالمفهوم الحديث ومشاركتها جنبا إلى جنب مع الإدارة والسلطات الحاكمة في البلاد، وهو أحد الأفكار الهامة التي صاحبت الثورة الفرنسية من ضرورة تفعيل دور المجتمع والمشاركة المجتمعية في الإدارة والحكم، وهو قائم على أفكار المفكر والعالم الاجتماعى جان جاك روسو ونظريته المعروفة باسم نظرية العقد الاجتماعى والتي تقوم على أن العلاقة بين الإدارة والشعب تقوم على وجود عقد افتراضى بين الشعب من ناحية والحاكم والإدارة، التي من مقتضياتها زيادة المشاركة المجتمعية في الإدارة والحكم، وبالتالى فقد كانت المجالس النيابية هي إحدى المقتضيات الأساسية والمفردات الدارجة بشكل أساسا والتي واكبت الفترة ابان الثورة الفرنسية وما واكبها من أفكار وحراك فكرى وسياسى في فرنسا وفي كثير من دول العالم فيما بعد،

ومن الجدير بالذكر وجود وثيقة رقم 3618 بتاريخ 4 نوفمبر1798 يوقع فيها بونابرت علي قرار عسكري بأن تدفع فرنسا رواتب شيوخ الديوان، وهم الشيخ إسماعيل البراوي والشيخ يوسف الموصلي والشيخ عبد الوهاب الشبراوي والشيخ سليمان الجوسقي والشيخ أحمد الشرقاوي. ويبدو أن هؤلاء لم يكونوا قد انضموا إلي علماء الديوان في تكوينه الأول.

ومن القاهرة أصدر أوامره بأن تدار أمور مصر عن طريق دواوين عربية مكونة من المشايخ والعلماء يكون لها رأياً استشارياً للإدارة ، لتعاون الإدارة في الحكم وهو انعكاس للأفكار الفرنسية والتي واكبت الثورة الفرنسية وكان لها صدى كبير في فرنسا في حينه واستمر فيما بعد وكان بداية المشاركة المجتمعية في الحكم في فرنسا والعالم.

ومنع جنوده من السلب والنهب وحمى حقوق الملكية الموجودة والذي تثبته عشرات الرسائل والأوامر بإعدام المجرمين وقطاع الطرق في القاهرة ، وأيضا إعدام جنود فرنسيين ثبت إجرامهم في حق الأهالي ، لكنه استمر في تحصيل الضرائب التي فرضها المماليك الغزاة على أهل البلاد لتمويل جيشه ، وجلس مع الزعماء المحليين واعترف باحترامه للشعائر الإسلامية وإعجابه بالفن الإسلامي، وشهد ألا إله إلا الله ،

أصبح نابليون بونابرت حاكما مسلما اسمه " **بونابردي باشا** "، وكان يطلق عليه المسلمون اسم علي نابليون بونابرت ، وكان يتجوّل وهو مرتدي الملابس الشرقية والعمامة والجلباب. وكان يتردد إلى المسجد في أيام الجمعة ويسهم بالشعائر الدينية التقليدية بالصلاة، وطلب مساعدة المسلمين له ليعم الرخاء والازدهار مصر، وعقد اجتماعاً مع علماء الحملة لوضع الخطط للقضاء على الطاعون وإدخال صناعات جديدة وتطوير نظم التعليم المصري وتحسين القوانين المعمول بها، وإنشاء خدمات بريدية ونظام مواصلات، وإصلاح الترع وضبط الري وربط النيل بالبحر الأحمر.

وفي يوليو سنة 1799م نظم المعهد العلمي المصري من علماء مصر وعلماء الحملة، وكان العلماء هم الذين أعدوا الأربعة والعشرين مجلداً ضخماً التي مولتها ونشرتها الحكومة الفرنسية بعنوان وصف مصر (1809 - 1828) Description de L`Egypte، وأحد هؤلاء العلماء لا نعرف إلا أن اسمه بوشار وجد في سنة 1799 في مدينة تبعد عن الإسكندرية ثلاثين ميلاً **حجر رشيد** عليه نقوش بلغتين وثلاثة خطوط (الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية القديمة) وقد مكنت هذه الكتابات توما يونج (Thomas Young) عام 1814م وجان - فرنسوا شامبليون عام 1821م من وضع أسس منهج ترجمة النصوص الهيروغليفية ففتحوا بذلك أمام أوروبا " الحديثة " أبواب حضارة مصر القديمة المركبة والناضجة بشكل يدعو إلى الدهشة ، و بذلك يكون اكتشاف حجر رشيد من أهم النتائج العلمية لحملة نابليون على مصر .

7 - 3 - موقعة أبي قير البحرية وتدمير أسطول الحملة

عندما ترك نابليون أسطوله في الإسكندرية متجهاً إلى القاهرة كان قد أمر (وفقاً رواية نابليون) نائب الأدميرال فرنسوا-بول بروى Francois-Paul Brueys أن يفرغ كل حمولته من المواد اللازمة للجنود ومن ثم يبحر بأقصى سرعة ممكنة إلى كورفو Corfu التي كان الفرنسيون قد استولوا عليها، كما أمره بضرورة اتخاذ الإجراءات كلها لتجنب تدخل البريطانيين، لكن سوء الأحوال الجوية آخر إبحار بروي Brueys، وفي أثناء فترة التأخير هذه رسا بأسطوله في خليج أبي قير القريب ، وهناك في 13 يوليو سنة 1798 رآه نيلسون وهاجمه بسرعة، وبدت القوتان البحريتان المتواجهتان متكافئتين: فالقوات البحرية الإنجليزية قوامها 41 سفينة حربية وسفينة بصاريين ، والقوات البحرية الفرنسية قوامها 31 سفينة حربية وأربع فرقاطات ، لكن البحارة الفرنسيين كان الحنين إلى العودة إلى بلادهم قد ازداد ولم يكونوا متدربين بما فيه الكفاية ، أما البحارة البريطانيون فقد كان البحر هو وطنهم الثاني ألفهم وألفوه ، وبالتالي فإن تنظيمهم الأسطول البريطاني أكثر تفوقاً وبراعتهم البحرية وشجاعتهم سادت طوال النهار والليل لأن المعركة الدامية استمرت حتى فجر الأول من أغسطس.

ففي مساء يوم 1 أغسطس انفجرت سفينة القيادة (التي بها بروى) التي بها 120 بندقية، وقتل كل من كان على متنها تقريبا بمن فيهم اللواء بحري نفسه، وكان يبلغ من العمر خمسة وأربعين عاما، ولم تستطع الهروب سوى سفينتين فرنسيتين، وبلغت خسائر الفرنسيين ما يزيد على 1750 قتيلاً و1500 جريح

، أما خسائر البريطانيين فكانت 812 قتيلاً و276 جريحاً (بمن فيهم نيلسون) ، و التي تعرف بمعركة أبوقير البحرية .

والجدير بالذكر أن تلك المعركة مع معركة **طرف الغار** التي قامت عام 1805م هما آخر محاولتين قامت بهما فرنسا النابليونية لتحدي السيادة الإنجليزية على البحار، وعندما وصلت أخبار هذه النكسة الكاسحة إلى نابليون في القاهرة أيقن أن فتحه لمصر غدا بلا معنى ، فالمغامرون المرافقون له قد أحيط بهم الآن براً وبحراً وما من سبيل لوصول العون الفرنسي إليهم، وأنهم سرعان ما سيصبحون تحت رحمة أهل البلاد المعادين، والبيئة غير المواتية.

7 - 4 - ثورة القاهرة الأولى

وتضاعفت الأزمات على نابليون وجيشه ، فلا يكاد يمر يوم بلا هجمات يشنها البدو أو العثمانيين أو المماليك غير المؤتلفين مع سادتهم الجدد (القوات الفرنسية) ، وفي 22 أكتوبر عام 1798 قام سكان القاهرة بثورة على الفرنسيين فأمر نابليون بقمع الثائرين، وتخلى نابليون لفترة عن دور الفاتح المتسامح ، فأمر نابليون بأن تقوم المدافع الموجودة على جبل المقطم بضرب القاهرة فدكت متاريس وتحصينات الثوار ثم أمر بضرب الأزهر لكونه مركز الثورة ودخلت الخيول الفرنسية الأزهر الشريف وقتل الجنود كل من وجوده أمامهم وتم حرق الكتب وبعد أن رأى شيوخ الأزهر هذا الوضع الكارثي توسلوا إلى نابليون حتى يأمر بوقف القمع فوافق .

8 - حملة نابليون على الشام (مارس 1799م)

عندما سمع نابليون أن العثمانيون يعدون جيشاً لاستعادة مصر صمم على مواجهة التحدي فأعدّ ثلاثة عشر ألفا من رجاله إلى الشام ، وانطلق في 10 فبراير سنة 1799 واستولى على العريش وأتم عبور صحراء سيناء ويبين لنا خطاب كتبه نابليون في 27 فبراير بعض جوانب هذه المحنة فكتب (حرارة وعطش وماء غير عذب تعتريه ملوحة، وأحيانا لا ماء أبداً لقد أكلنا الكلاب والحمير والجمال) ووجدوا في غزة - ويا لسعادتهم - بعد معركة قاسية - خضراوات طازجة وبساتين ذوات فواكة لا مثيل لها، تجدر الإشارة إلى رسالة تهنئة بتاريخ 26 فبراير 1799 تحت رقم 4262 **للجنرال مينو** علي قيامه بإلقاء خطبة الجمعة كمسلم في مسجد غزة في أثناء حملته علي الشام ، ويقول له : إن أفضل الطرق للحفاظ علي السلم في مصر هو تبني عقيدة الإسلام أو علي الأقل عدم معاداتها واجتذاب ود شيوخ الإسلام ليس فقط في مصر بل في سائر العالم الإسلامي.

8 - 1 - الإستيلاء على يافا وإعدام حاميتها

تفشي الطاعون بين جنود نابليون

وفي 3 مارس توقفت القوات الفرنسية أمام مدينة يافا ذات الأسوار والسكان المعادين وحصن يدافع عنه مايزيد عن 4000 مقاتل تركي من ذوي البأس ، فأرسل نابليون يعرض عليهم شروطاً، لكنهم رفضوها، وفي 7 مارس أحدث المهندسون العسكريون الفرنسيون في أسوار المدينة ثغرة اندفع الجنود خلالها فقتلوا من قاومهم من السكان وسلبوا المدينة، وأرسل نابليون، " يوجين دي بوهارنيه " لإعادة النظام في المدينة فعرض حق الخروج الآمن لكل من يستسلم ، وسلم جنود الحصن أسلحتهم حتى لا يلحق الفرنسيون مزيداً من الدمار في المدينة، وسيقوا أسرى إلى نابليون، فرفع يديه فزعاً وتساءل : " ماذا يمكنني أن أعمل معهم؟" فلم يكن نابليون يستطيع أن يأخذ 4000 أسير معه في مسيرته تلك فالرجال الفرنسيون بذلوا قصارى جهدهم ليجدوا الطعام والشراب لأنفسهم، ولا يمكنه تدبير عدد كاف من الحراس لاصطحاب هؤلاء الأسرى ليسجنوا في القاهرة، وإذا هو أطلق سراحهم فما الذي يمنعهم من حرب الفرنسيين ثانية فعقد نابليون اجتماعاً عسكرياً وسألهم عن رأيهم في هذه المشكلة، فكان رأيهم أن أفضل حل هو قتل هؤلاء الأسرى طعناً بالحراب لتوفير الذخيرة.

8 - 2 - حصار عكا

وواصل الغزاة مسيرتهم، وفي 18 مارس وصلوا إلى مدينة عكا شديدة التحصين، وكان يقود المقاومة الجزار باشا يساعده أنطوان دي فيليبو - الذي كان زميلا لنابليون في الدراسة في بريين، وحاصر الفرنسيون المدينة دون مدافع حصار ذلك أن مدافع الحصار التي كان قد تمَّ ارسالها من الإسكندرية بحراً

استولى عليها أسطول إنجليزي بقيادة السير وليم سدني Sir William Sidney وسلمها إلى حصن المدينة (عكا) وراح يزود حاميتها بالطعام والمواد اللازمة في أثناء الحصار.

وفي 20 مايو بعد أن قضى الفرنسيون شهرين أمام أسوار المدينة وتكبدوا خسائر فادحة أمر نابليون بالعودة إلى مصر، وقد ذكر نابليون بعد ذلك متفجعا: "إن فيليبو Phélipppeau جعلني أتراجع عن عكا Acre، فلولاه لأصبحت سيد مفتاح الشرق ولأمكنني الذهاب إلى القسطنطينية واستعادة الإمبراطورية الشرقية".

وفي سنة 1803م ذكر لمدام دى ريموسا Rémusat" (لقد مات خيالي عند عكا، لن أسمح لها أبداً بالتداخل معي مرة أخرى).

9- العودة إلى مصر

معركة أبو قير البرية

كانت العودة إلى مصر على طول الساحل في أيام نحسات متوالية، لقد كان الجيش أحيانا يقطع مسيرة تصل إلى إحدى عشرة ساعة يوميا بين آبار لا يشرب ماؤها في معظم الحالات يسمم البدن ولا يكاد يطفئ عطشا. وطلب نابليون من أطباء الحملة تدبير جرعات مميتة من الأفيون للقضاء على المصابين بأمراض لا شفاء لها ، لكن الأطباء رفضوا وسحب نابليون اقتراحه، وأمر بالتخلي عن ركوب الخيل وتركها للمرضى وجعل من نفسه قدوة لضباطه بسيره على قدميه تاركا حصانه المريض . وفي 14 يونيو دخل الجيش الفرنسي المنهك مدينة القاهرة دخول المنتصر وعرض سبعة عشر علما من أعلام الأعداء وستة عشر أسيرا تركيا ، كدليل أن الحملة قد حققت نصرا يدعو للفخر • وكان دخولهم القاهرة بعد رحلة شاقة قطعوا فيها 300 ميل في ستة وعشرين يوما.

وفي 11 يوليو أنزلت مائة سفينة على ساحل خليج أبي قير جيشاً عثمانياً لطرد الفرنسيين من مصر فخرج نابليون من القاهرة متجها شمالاً على رأس أفضل جنوده وانقض على الجيش العثماني ودارت معركة أبي قير البرية في 25 يوليو 1799م فألحق به هزيمة منكرة حتى إن كثيرين من العثمانيين فضلوا الاندفاع إلى البحر ليموتوا غرقى بدلاً من مواجهة الفرسان الفرنسيين المندفعين بعنف.

9 - 1 - عودة نابليون سراً إلى فرنسا

ومن الصحف الإنجليزية التي أرسلها سيدني سميث Sidney Smith إلى نابليون علم - وبالدهشته - أن التحالف الأوربي الثاني قد طرد الفرنسيين من بروسيا (ألمانيا حالياً) ، وأعاد الاستيلاء على إيطاليا كلها تقريباً من الألب إلى كالابريا، إن صروح انتصاراته كلها قد انهارت عبر سلسلة من الكوارث من الراين وبو Po إلى أبي قير وعكا، والآن من خلال هزائم مخزية وجد نفسه وجيشه الذي هلك جانب كبير منه وقد حوصروا في ممر يحيط به الأعداء، حيث يمكنهم محق الفرنسيين في غضون وقت قليل.

وفي نحو منتصف شهر يوليو تلقى من حكومة الإدارة أمراً كان قد أرسل له في 26 مايو، مؤداه أن يعود إلى باريس فوراً، فصمم على العودة إلى فرنسا، ونظم نابليون الأمور العسكرية والإدارية في القاهرة وعين **كليبر** المعارض ليكون على رأس ما تبقى من حلم فرنسا ضم مصر إليها ويعود نابليون بطريقة ما رغم الحصار البريطاني (ليشق طريقه إلى السلطة ، وليعزل القادة المخطئين الذين سمحوا بضياع مكاسبه كلها في إيطاليا بهذه السرعة) ، أما كليبر فعندما علم بتكليف نابليون له بقيادة الحملة غضب غضباً شديداً فقد كانت الخزانة خاوية بالإضافة إلى كونها مدينة بستة ملايين فرنك، فقد كانت هناك متأخرات للجنود وصلت قيمتها إلى أربعة ملايين فرنك، وكان عدد الجنود الفرنسيين يتناقص يوماً بعد يوم وكذلك معنوياتهم ، بينما أهل البلاد المقاومون يزدادون قوة ويتحينون الفرصة للقيام بثورة أخرى، وكان من الممكن في أي وقت أن ترسل السلطنة العثمانية وبريطانيا العظمى قوات عسكرية إلى مصر يمكنها - بمساعدة أهل البلاد - عاجلاً أم آجلاً إجبار الفرنسيين على التسليم، وكان نابليون يعلم ذلك كله ولم يكن يستطيع تبرير مغادرته مصر إلا بالقول إنه مطلوب في باريس ولديه أمر بالعودة،

على أن أشد هذه الوثائق إثارة هي الوثائق الأخيرة التي وقعها قبل رحيله عن مصر، ومنها وصيته للجنرال كليبر رقم4758 بتاريخ 22أغسطس 1799 ثم وثائق أخرى تثبت أنه كان ينوي بعد عودته إلي فرنسا إرسال تعزيزات وجيش جديد لمصر، لكن استسلام مينو في الإسكندرية في يوليو 1801 قضي نهائياً

علي حلمه وعندما كان يودع جنوده رفع صوته قائلا:" إذا حالفني الحظ ووصلت إلى فرنسا فلا بد أن ينتهي حكم هؤلاء الثرثارين الحمقى"، ولا بد من إرسال الدعم لهؤلاء الفاتحين المحاصرين. ولم يصل هذا الدعم أبداً (ومما يذكر أن نابليون كان قد وعد - في وقت سابق - أن يقدم لكل جندي من جنوده ستة هكتارات من الأرض بعد أن يعودوا ظافرين إلى بلادهم).

وكانت الفرقاطتان مويرو Muiron وكارير Carre`re قد أفلتتا من الإبادة التي ألحقها الأسطول البريطاني بالأسطول الفرنسي في أبي قير، فأرسل نابليون أمراً بتجهيزهما في محاولة منه للوصول إلى فرنسا، وفي 12 أغسطس عام 1799م، ركب السفينة مويرو Muiron ومعه كل من بورين Bourrienne وبرتوليه Berthollet ومونج Monge، وتبعهم الجنرالات لان Lannes وموراMurat ودينو Denon وغيرهم السفينة كارير Carréreوبسبب الضباب وحسن الحظ أفلتت السفينتان من مراقبة جواسيس نيلسون وأسطوله، ولم يستطع نابليون ومن معه التوقف في مالطا لأن البريطانيين المنتصرين كانوا قد استولوا على هذا الموقع الحصين في 9 فبراير، وفي 9 أكتوبر رست السفن إزاء فريجو Fréjus وجدف نابليون ومساعدوه حتى الشاطئ عند سان رافائيل St.Raphae`l والآن إما أن يكون " القيصر أو لا أحد " aut Caesar aut nullus.

من أقوال نابليون حول مصر والاسلام:

1. في مصر لو حكمت لن أضيع قطرة واحدة من النيل في البحر، وسأقيم أكبر مزارع ومصانع أطلق بها إمبراطورية هائلة، ولقمت بتوحيد الإسلام والمسلمين تحت راية الإمبراطورية ويسود العالم السلام الفرنسي.
2. في مصر قضيت أجمل السنوات، ففي أوروبا الغيوم لا تجعلك تفكر في المشاريع التي تغير التاريخ، أما في مصر فإن الذي يحكم بإمكانه أن يغير التاريخ.
3. لو لم أكن حاكما علي مصر لما أصبحت إمبراطورا علي فرنسا.
4. الرسول محمد ، بني إمبراطورية من لا شيء.. من شعب جاهل بني أمة واسعة.. من الصحاري القفر بني أعظم إمبراطورية في التاريخ.
5. الإسلام كالمسيحية تفسدهما السياسة ويلعب القائمون عليهما بالنار إذا تخطوا حدود أماكن العبادة لأنهم يتركون مملكة الله ويدخلون مملكة الشيطان.
6. حلمي تجسد في الشرق بينما كاد يتحول إلي كابوس في الغرب.

10 - انتهاء الحملة الفرنسية

وبعد مقتل كليبر على يد **سليمان الحلبي** تسلم الجنرال جاك فرانسوا مينو وبعد أن أظهر أنه أسلم وسمي عبد الله جاك مينو ليتزوج من امرأة مسلمة كانت تسمى زبيدة ابنة أحد أعيان رشيد. ولكن فشلت القوات الفرنسية في مقاومة الجيوش القادمة من بريطانيا والدولة العثمانية، فقام الجنرال مينو بعد ذلك بتوقيع اتفاقية التسليم مع الجيش البريطاني وخروجهم بكامل عدتهم من مصر على متن السفن الإنجليزية ، لتنتهي بذلك فترة من أهم الفترات التي شهدتها مصر. فكذلك انتهت الحملة النابليونية عن البلاد, بعد أن اثرت على المسألة الشرقية وحولتها إلى مسألة أوروبية.

11 - نتائج الحملة الفرنسية

11 – 1 - النتائج الاجتماعية

1- تعرف المصريون على الحضارة الغربية بمزاياها ومساوئها

2- عرف المصريون بعض الإنظمة الإدارية عن الفرنسيين ومن بينها سجلات المواليد والوفيات وكذلك نظام المحاكمات الفرنسي ،

11 – 2 - النتائج العلمية

1- كتاب وصف مصر : رافقت الحملة الفرنسية مجموعة من العلماء في شتى مجال العلم في وقتها أكثر من 150 عالما واكثر من 2000 متخصص من خيرة الفنانين والرسامين والتقنيين الذي رافقوا القائد الفرنسي نابليون بونابرت في مصر خلال أعوام 1798/ 1801. من كيميائيين وأطباء وفلكيين إلى آخره ،

وكانت نتيجة لمجهودهم هو كتاب وصف مصر وهو عبارة عن المجموعة الموثقة تضم 11 مجلداً من الصور واللوحات مملوكة لمكتبة الإسكندرية و9 مجلدات من النصوص من بينها مجلد خاص بالأطالس والخرائط اسهم بها المجمع العلمي المصري وقام هؤلاء العلماء بعمل مجهد غطى جميع أرض مصر من شمالها إلى جنوبها خلال سنوات تواجدهم وقاموا برصد وتسجيل كل أمور الحياة في مصر آنذاك وكل ما يتعلق بالحضارة المصرية القديمة ليخرجوا إلى العالم 20 جزءا لكتاب وصف مصر وتميز الكتاب بصور ولوحات شديدة الدقة والتفاصيل. ويعتبر هذا الكتاب ألان أكبر وأشمل موسوعة للأراضي والآثار المصرية كونها أكبر مخطوطة يدوية مكتوبة ومرسومة برسوم توضيحية قتميزت بالدراسة العميقة الدارسين والأكاديميين الذين رافقوا نابليون فيما نشر الكتاب بين عامي 1809 / 1829. كما تشتمل هذه المجموعة على صور ولوحات لأوجه نشاط المصري القديم للآثار المصرية وأيام الحملة نفسها التاريخ الطبيعي المصري بالإضافة إلى توثيق كل مظاهر الحياة والكنوز التاريخية والفنية والدينية المصرية وتسجيل جميع جوانب الحياة النباتية والحيوانية والثروة المعدنية آنذاك. وقد أصدرت مكتبة الإسكندرية (نسخة رقمية) من هذا الكتاب (وصف مصر) على أقراص مضغوطة.

2 - فكرة حفر قناة السويس : حيث اقترح علماء الحملة توصيل البحرين الأحمر والمتوسط فيما يعرف الآن باسم " **قناة السويس**", ولكن الفكرة لم تنفذ وذلك بسبب اعتقاد خاطئ بان البحر الأحمر أعلى في المستوي من البحر المتوسط.

3 - فك رموز حجر رشيد : حيث استطاع شامبليون فك رموز حجر رشيد واكتشاف أسرار اللغة المصرية القديمة, وقد ساعد فك رموز اللغات المصرية القديمة (الهيروغليفية – الهيراطيقية - الديموطيقية) من معرفة اسرار الحضارة الفرعونية.

4 - اكتشاف الحضارة المصرية القديمة وقيام العلماء الفرنسيين بتأليف كتاب وصف مصر الذي يصف مصر منذ قيام الحضارة الفرعونية إلى خروج الحملة من مصر.

5 - خريطة القطر المصري : حيث قامت الحملة برسم أول خريطة دقيقة لمصر .

11 – 3 - النتائج السياسية

1- لفتت الحملة الفرنسية على مصر أنظار العالم الغربي لمصر وموقعها الإستراتيجي وخاصة إنجلترا، مما كان لهذه النتيجة محاولة غزو مصر في حملة فريزر 19 سبتمبر 1807م الفاشلة على رشيد بعد أن تصدى لها المصريون، بعد ذلك بسنوات قلائل.

2- إثارة الوعي القومي لدى المصريين ولفت انتباههم إلى وحدة أهداف المحتل على اختلاف مشاربهم ألا وهو امتصاص خير البلاد.

12 - رصد الحملة الفرنسية وتاريخها

لعل من أبرز من تتبع الحملة الفرنسية على مصر هو الشيخ **عبد الرحمن الجبرتي**، والذي يعد كتابه هو المرجع الأساسي لتلك الفترة من تاريخ مصر؛ فقد ذكر كل الحوادث بالتفصيل.

13 - خط زمني للحملة الفرنسية على مصر

1798

19 مايو : مغادرة الأسطول الفرنسي من ميناء طولون

11 يونيو : الاستيلاء على مالطا

1 يوليو : الوصول إلى الإسكندرية

21 يوليو : معركة إمبابة المعروفة بمعركة الأهرام، وانتصار بري للقوات الفرنسية

1 و2 أغسطس : معركة النيل، وانتصار الأسطول الانجليزي على الاسطول الفرنسي الراسي في خليج أبو قير

10 أغسطس : معركة الصالحية

21 أكتوبر : ثورة القاهرة الأولى.

1799

7 مارس : حصار يافا
18 مارس: حصار عكا
8 أبريل: معركة الناصرة
11 أبريل : معركة قانا
16 أبريل : بونابرت يساند قوات كليبر وينجح في هزيمة القوات العثمانية عند سفح جبل طابور.
20 مايو: حصار عكا، وانسحاب القوات الفرنسية بعد ثمانية هجمات
25 يوليو : معركة أبي قير البرية، والانتصار الفرنسي
23 أغسطس: بونابرت يقلع على ظهر الفرقاطة ميرون ويتخلي عن القيادة لكليبر

1800
24 يناير : كليبر يعقد اتفاقية العريش مع الأدميرال البريطاني سيدني سميث
فبراير: القوات الفرنسية تبدأ في الانسحاب، لكن الأدميرال البريطاني جورج إلفينستون يرفض الاعتراف ببنود الاتفاقية.
20 مارس : معركة هليوپوليس، كليبر يحقق آخر انتصاراته ضد جيش من 30,000 من العثمانيين.
21 أبريل : كليبر يخمد ثورة القاهرة الثانية
14 يونيو: سليمان الحلبي يقتل كليبر في حديقة قصره بالقاهرة، ويتولى مينو القيادة بدلا منه.
3 سبتمبر: البريطانيون يستولون على مالطا من الفرنسيين

1801
8 مارس : البريطانيون ينزلون بالقرب من أبو قير
21 مارس: معركة الإسكندرية، هزيمة الفرنسيون، وتمترس الجيش الفرنسي تحت قيادة مينو عند الإسكندرية استعدادا لحصار الإسكندرية.
31 مارس: وصول القوات العثمانية إلى العريش
19 أبريل : القوات البريطانية والعثمانية تستولى على فورت جوليان عند رشيد بعد أربعة أيام من القصف، وتعيد فتح الملاحة عبر نهر النيل.
27 يونيو : الجنرال بليار يستسلم في القاهرة
31 أغسطس: انتهاء حصار الإسكندرية بعد استسلام مينو
سبتمبر : البريطايون يسمحون لآخر جندي فرنسي بالعودة إلى بلدهم

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الانقلابات على القصر العثماني 1807 - 1808

1 - تقديم

تشير الانقلابات على القصر العثماني في عامي 1807 - 1808 إلى مجموعة من الانقلابات وحركات التمرد لعزل أو استعادة العرش لثلاثة من سلاطين الدولة العثمانية والتي حدثت نتيجة لمحاولات الإصلاح من سليم الثالث.

2 - الأسباب

تدهورت أحوال الدولة العثمانية بحلول بدايات القرن التاسع عشر وفقدت الكثير من الأراضي التي حكمتها على مدار القرن السابق. وعلى الرغم من ذلك، فإن تهديد جنود الإنكشارية المحافظين والتقليديين وقوات النخبة الخاصة بالسلطان أدى إلى منع إجراء الإصلاحات بواسطة حكام أكثر تحررًا.

وفي 1789، توفي السلطان عبد الحميد الأول ، فتولى ابن أخيه ، سليم الثالث ، العرش وهو ابن خليفة عبد الحميد. لقد استمد سليم ، والذي كان ملحنًا على قدر من الموهبة ومناصرًا لحركة التحديث، أفكاره بدرجة معينة من الثورة الفرنسية , والذي بلغت جهوده في التغريب ذروتها مع تجنيد القوات النظامية الجديدة في 1805. وقد أدت الإصلاحات ، وخاصةً التجنيد، إلى إغضاب جنود الإنكشارية وغيرهم من العناصر المحافظة ، الذين قاموا بالتظاهر وقتل دعاة الإصلاح.

3 - الانقلاب الأول

في 29 مايو، 1807، قام جنود الإنكشارية بقيادة زعيم المتمردين **مصطفى كاباكجي** بعزل سليم واستبداله سريعًا بابن عمه **مصطفى الرابع** ، الذي قام بسجن سلفه (ابن عمه) وسط ارتياح في القصر الملكي . وعفا مصطفى عن المتمردين وتحالف مع جنود الإنكشارية، وقام بتسريح جيش سليم المكون مؤخرًا .

4 - مقتل سليم والانقلاب الثاني

مع ذلك، أصبح أليمدار **مصطفى باشا** وهو حاكم روسه ذو النفوذ متحررًا من قيود السلطان مصطفى وقام بالتخطيط لإسقاطه . وأدت جهوده إلى ثورة ثانية في 1808. وتم قتل المسجون سليم وفقًا لأوامر مصطفى ، ولكن قام **محمود** ، وهو أخو مصطفى ووريثه بالهرب من احتمال القتل . وفي الوقت نفسه ، أحاطت قوات التمرد بالقصر، حيث قام مصطفى وحاشيته بالسخرية منهم ، حتى أنهم قاموا بعرض جثة سليم على المتمردين، وذلك في محاولة بلا طائل لردعهم . فاقتحم المتمردون القصر على أية حال، وقاموا بالقبض على مصطفى وإعلان تولي محمود الحكم.

5 - محاولات الإصلاح والاضطرابات من قبل الإنكشارية

بينما تم سجن سليم بالقصر، قام بتدريس أفكار الإصلاح إلى محمود ، الذي قام باستكمال الإصلاحات التي أوقفها الانقلاب الإنكشاري في 1807. ثم قام محمود بتعيين أليمدار مصطفى باشا في منصب كبير الوزراء ، وهو زعيم التمرد الذي أدى إلى توليه الحكم، وأدت الإصلاحات التي قاما بتنفيذها إلى إغضاب جنود الإنكشارية مرة أخرى.

في محاولة لإخافة محمود، قام جنود الإنكشارية بتنظيم ثورة قصيرة وقاموا بقتل الوزير, مما دفع السلطان إلى إلغاء الإصلاحات وتسريح الجيش، والتي تم تنفيذها وفقًا لنموذج إصلاحات سليم من جديد.

6 - الأثر على الأحداث التالية

تمكن محمود من تولي الحكم لعدد أكبر من العقود على الرغم من إغضابه لجنود الإنكشارية في وقت سابق. وبحلول عام 1826، أصبح أقل خوفًا من جنود الإنكشارية وفي **الواقعة الخيرية** ، كما يدعي

بعض المؤرخين، استطاع التسبب في تمرد الوحدة عن قصد. فقام بدعوة قواته النظامية وباستخدام القوات المدفعية لقصف مقرات جنود الإنكشارية دمر قدرة قوات النخبة على القتال. وقام بالقبض على الناجين وإعدامهم بعد ذلك بوقت قصير. ثم قام محمود بمتابعة الإصلاحات العسكرية والاجتماعية دون الخوف من حدوث انقلاب، والتي على الرغم من تحديثها للدولة إلا أنها لم تمنع تدهورها.

7 - الواقعة الخيرية

الواقعة الخيرية أو مذبحة الإنكشارية هي مذبحة جرت بعد ثورة الإنكشارية بإسطنبول في 14 - 15 يونيو عام 1826. بعد أن تنبه الإنكشارية لنية السلطان محمود الثاني إنشاء جيش نظامي حديث ، ثاروا في مدينة إسطنبول، ولكن في تلك المرة وقف معظم الجيش والأهالي ضدهم، وأجبرت السباهية (وحدات الفرسان) الموالية للسلطان الإنكشارية على التراجع إلى ثكناتهم، ثم أطلقت المدفعية 15 طلقة على ثكناتهم، موقعة بهم خسائر فادحة. تم إعدام أو عزل الناجين. وبعد سنتين قام السلطان محمود الثاني بمصادرة آخر ممتلكات الإنكشارية. أصبحت الحادثة تسمى بالواقعة الخيرية، وبذلك تخلص السلطان من الانكشارية الذين كانوا سبباً في قوة الدولة العثمانية في بداية عهدها، وأيضاً كانت من أسباب انهيارها.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

حرب القوقاز

(الغزو الروسي للقوقاز)
1817 - 1864

الموقع	شمال شرق القوقاز (إنغوشيا ، داغستان , الشيشان)
النتيجة	استسلام القائد الامام شامل سيطرة روسيا علي شمال شرق القوقاز
المتحاربون	
الإمبراطورية الروسية	الامامة القوقازية
القادة	
القيصر نيقولا الأول القيصر الكسندر الأول القيصر ألكسندر الثاني ألكسي يرمولوف ميخائيل فورونتسوف	الإمام شامل الملا محمد غازي
الخسائر	
حوالي 4000	حوالي 5000

1 - تقديم

حرب القوقاز من 1817 - 1864 ، والمعروف أيضا باسم الغزو الروسي للقوقاز أو الغزوة (الحرب المقدسة) لمسلمي القوقاز الشمالية، كان غزو القوقاز من قبل الإمبراطورية الروسية التي انتهت بضم مناطق شمال القوقاز لروسيا. تتألف من سلسلة من العمليات العسكرية التي تشنها روسيا التي تسعى إلى التوسع جنوبا ضد المناطق والجماعات القبلية في القوقاز بما في ذلك الشيشان ، داغستان ، القراشاي والشركس (الأديغة ، أبخازيا والوبخ)

الأقاليم الأخرى في القوقاز (جورجيا ، أرمينيا وأذربيجان) أدرجت في الامبراطورية الروسية في أوقات مختلفة في القرن 19 نتيجة الحروب الروسية مع الإمبراطورية العثمانية وبلاد فارس.

2 - الاحداث تاريخيا

شارك بالحرب ثلاثة من القياصرة : الكسندر الأول، نيقولا الأول وألكسندر الثاني. بالإضافة الي القادة ألكسي بتروفيتش يرمولوف في 1816-1827، ميخائيل فورونتسوف في 1844-1853 وألكسندر برايتنسكي في 1853-1856. بالأضافة الي الكتاب ميخائيل ليرمونتوف وليو تولستوي الذي اكتسب الكثير من الخبرة والمعرفة كان لها الاثرالأكبر في كتابة كتاب الحرب والسلام ، بالأضافة الي الشاعر الروسي الكسندر بوشكين صاحب قصيدة سجين القوقاز (1821).

صاحب بداية الغزو الروسي مقاومة شرسة. انتهت الفترة الأولى بالتزامن مع وفاة الكسندر الأول . ومن المستغرب تحقيق الغزو نجاحا قليلا ، خصوصا بالمقارنة مع النصر الروسي على جيش نابليون.

خلال 1825-1833 لم يكن هناك نشاط يذكر، حيث شاركت روسيا في الحروب مع تركيا وبلاد فارس. بعد نجاحات كبيرة في كلا الحربين، استأنفت روسيا القتال في القوقاز. والتقت مرة أخرى مع المقاومة، لا سيما عن طريق الملا محمد غازي وحمزة بك والحج مراد والإمام شامل.حيث قادوا القوقازيين من 1834 حتى اعتقالهم عام 1859.

في عام 1845، حققت قوات الامام شامل النجاح الأكثر دراماتيكية عندما شنت القوات الروسية هجوما كبيرا بقيادة الأمير فورونتسوف ، خلال حرب القرم، وتوصل الروس الي هدنة مع شامل ولكن القتال استؤنف في 1855. الحرب في القوقاز انتهت أخيرا بين 1856-1859، وذللك عندما قوي الجيش الي 250000 انهارت 'المقاومة.

انتهت الحرب في الجزء الشرقي من شمال القوقاز في عام 1859 عندما ألقي القبض من قبل الروس علي الامام شامل الذي استسلم وقام بمبايعة القيصر وانتقل للعيش في وسط روسيا . واستأنفت الحرب في الجزء الغربي من شمال القوقاز ولكن مع الشركس (الأديغة، أبخازيا والوبخ). أعلن انتهاء الحرب ببيان من القيصر في 2 يونيو 1864،.

طويت صفحة مأساوية في تاريخ الشعوب الأصلية في القوقاز وخاصة الشركس وتم نقل السكان من المسلمين الي الإمبراطورية العثمانية.

حرب القرم

(أكتوبر 1853 - فبراير 1856)

1 – تقديم

حرب القرم (Kırım Savaşı) أو الحرب الشرقية . هي حرب قامت بين الإمبراطورية الروسية والدولة العثمانية في 4 أكتوبر 1853، واستمرت حتى 1856م. ودخلت مصر وتونس وبريطانيا وفرنسا الحرب إلى جانب الدولة العثمانية في 1854م التي كان قد أصابها الضعف، ثم لحقتها مملكة سردينيا التي أصبحت فيما بعد (1861م) مملكة إيطاليا. وكان أسبابها الأطماع الإقليمية لروسيا على حساب الدولة العثمانية وخاصة في شبه جزيرة القرم التي كانت مسرح المعارك والمواجهات ، وانتهت حرب القرم في 30 مارس 1856م بتوقيع اتفاقية باريس وهزيمة الروس.

2 - الدولة العثمانية وأطماع روسيا

اتسمت العلاقات بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية بقدر كبير من العداء والدموية ، فمنذ سيطرة القياصرة على الحكم في روسيا ، امتلك الروس حزمة من الأطماع التوسعية في أن تكون روسيا دولة كبرى على مسرح السياسة الأوربية والدولية ، واختلطت هذه الأطماع في بعض الأحيان بعواطف دينية متعصبة ، متمثلة في حماية الأرثوذكس في العالم ، والسيطرة على القسطنطينية التي فتحها السلطان محمد الفاتح ، وكذلك السيطرة على الأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين.

وأدرك الروس أن تحقيق هذه الأطماع المتشابكة لن يتم إلا بالقضاء على الدولة العثمانية ، خاصة في منطقتي آسيا الوسطى والبلقان ، والسعي إلى تقسيم الأملاك العثمانية بين الدول الكبرى، تمهيدا لوصول روسيا إلى المياه الدافئة، وهو الحلم الذي ظل يراود الروس فترة طويلة من الزمن، وأدرك الروس أن ذلك لن يتحقق إلا بوجود قدر من التوافق بين روسيا والدول الأوربية الكبرى.

وبسبب هذه الأطماع الروسية فضلاً عن حالة الضعف العثمانية التي كانت تغري الدول الكبرى بالتدخل في شؤونها. وقعت عشرات الحروب بين العثمانيين والروس، استغرقت أكثر من ثلاث قرون.

ورأت فرنسا وبريطانيا في هذه الحروب الطويلة والعنيفة بين الجانبين تحقيقا لمصالحهما، من حيث إضعاف روسيا وردعها عن التدخل الفاعل والنشط في السياسة الأوروبية، وإبعادها عن المنافسة في المجال الاستعماري، وكذلك إضعاف الدولة العثمانية التي تتمدد أملاكها في 3 قارات تمهيدا لتقسيمها بطريقة لاتؤثر على التوازن في السياسة الدولية.

والمعروف أن الدولة التي كانت تقف حائلا دون تقسيم الدولة العثمانية والقضاء عليها في ذلك الوقت هي بريطانيا، التي رأت أن القضاء على " رجل أوروبا المريض " (المصطلح الذي كان يطلق على الدولة العثمانية آنذاك) فيه تهديد لمصالحها وأمن مستعمراتها في الهند، ويعني أيضا هدم دولة تقف سدا

منيعا أمام الأطماع الروسية، والحيلولة دون وصول الروس إلى المياه الدافئة ومن ثم مزاحمة بريطانيا في أماكن نفوذها.

أما فرنسا فقد كانت ذات سياسة متغيرة، ولم تكن يتملكها نفس الخوف من الدور الروسي مثلما هو الحال في بريطانيا، ولعل هذا ماحصر النفوذ الفرنسي (نسبيا) في الحصول على بعض الامتيازات من العثمانيين لحماية مصالحها ورعاياها.

3 - حلقات الصراع

كان القيصر الروسي نيقولا الأول متعصبا دينيا، ويدرك أن حركة التجديدات والإصلاحات داخل الدولة العثمانية سوف تنعكس بصورة أو بأخرى على الأطماع والنفوذ الروسي خاصة في منطقة البلقان، لأن تقوية الدولة العثمانية تعني ألا تصل روسيا إلى المياه الدافئة. ورأى نيقولا أن نجاح العثمانيين في توطيد علاقتهم ببريطانيا سياسة شريرة تتبعها الدولة العثمانية للإضرار بالمصالح الروسية، ولذا قرر أن يختم حياته بتأديب الدولة العثمانية، لكنه أدرك أن قيامه بهذا السلوك المعادي ضد العثمانيين لن يتم بدون موافقة بريطانيا، ولذا عقد القيصر لقاء مع السفير البريطاني في مدينة سانت بطرسبرغ الروسية، وتناول اللقاء عرضا روسيا باقتسام الدولة العثمانية أو على الأقل تقليم أطرافها.

أرادت بريطانيا أن تنصب مصيدة بعناية لإيقاع روسيا في حرب ضد الدولة العثمانية لاستغلال هذه الحرب في توجيه ضربة عنيفة لروسيا تدفعها للارتداد خلف حدودها مرة أخرى، وتحجبها عن الظهور على مسرح السياسة الأوروبية ولذا أطلعت بريطانيا العثمانيين على حقيقة النوايا الروسية السرية.

لم يستوعب نيقولا الأول المتعصب دينيا حقيقة أن تقف دولة مسيحية مثل بريطانيا مع العثمانيين ضد روسيا المسيحية، وكان تقديره للموقف أنه سيقاتل الدولة العثمانية بمفردها، وأنه سيحقق انتصارا سهلا عليها، يمكنه من انتزاع ولو بعضا من المكاسب كالتي حققتها روسيا في " معاهدة أونكيار سكلسي " التي وقعتها روسيا مع الدولة العثمانية في (21 صفر 1249 هـ 8 يوليو 1833م) ، ونصت على إغلاق المضايق التركية أمام جميع السفن الحربية، بينما سمحت للأسطول الروسي بدخول مضيق البوسفور للدفاع عن الأستانة ، وبذلك تحررت روسيا من كثير من التهديدات البريطانية والفرنسية في البحر الأسود.

ولم تغب فرنسا عما يجري حيث كانت تعتبر بريطانيا أكبر منافس استعماري لها في العالم، وتحالف لندن مع الدولة العثمانية دونها يعني تمكن بريطانيا من تحقيق كثير من الأطماع الاستعمارية في الدولة العثمانية على حساب المطامع الفرنسية ولذا قررت باريس أن تبني موقفها بالتحالف مع بريطانيا. وأدرك الفرنسيون أن دخول بريطانيا الحرب لمساندة العثمانيين يحتم على باريس أن تدخل هي الأخرى إلى تلك الحرب، حتى لا تستحوذ بريطانيا على الموقف الأقوى في السياسة العالمية.

4 - الطريق للحرب

حين رأت الدولة العثمانية التنافس بين الدول الكبرى على إدارة الأماكن المقدسة للمسيحيين في فلسطين عملت على حفظ التوازن بين هذه الدول، لكن ضغوط بعض الدول الكبرى، جعلت العثمانيين يمنحون بعض الدول امتيازات خاصة، فقام السلطان العثماني بمنح امتيازات جديدة عام (1268هـ 1852م) للكاثوليك (الذين كانت فرنسا تمثلهم)، وهو مايعني أنه خضع للضغوط الفرنسية.

تسبب هذا الموقف في استياء روسي من السلطان العثماني، ووجدت روسيا فيه ذريعة ومبررا يتيح لها حرب الدولة العثمانية، معتمدة على البعد الديني وحماية المسيحيين الأرثوذكس.

أرسل القيصر الروسي بعثة دبلوماسية إلى إستانبول رأسها السفير الروسي فوق العادة **"منشكوف"** الذي كان يشغل منصب وزير البحرية ، للتفاوض مع السلطان العثماني في قضية الأماكن المقدسة، والحصول على امتيازات للرعايا الأرثوذكس في الدولة العثمانية، إلا أن مسعى هذه السفارة الحقيقي كان السعي إلى إيجاد المبرر لحرب الدولة العثمانية.

طلب منشكوف من العثمانيين تنحية الرهبان الكاثوليك، وأن يكون الرهبان الأرثوذكس هم أصحاب الكلمة العليا في الأماكن المقدسة المسيحية بالقدس، بحيث تكون لهم حرية التصرف بمفتاح كنيسة المهد في بيت لحم وبالنجم الذي وضعه الأرثوذكس في المكان المفترض لولادة المسيح ، وأن يكون للأرثوذكس

الولاية على قبر مريم العذراء في الجسمانية ، وإصدار الأمر بإنشاء القبة الكبرى لكنيسة القيامة من قبل بطريركية الروم الأرثوذكس بواسطة الحكومة العثمانية وبمساعدتها دون إشراك الكاثوليك أو غيرهم من المسيحيين، كذلك طلب عقد اتفاقية تعلن بوضوح أن جميع المسيحيين في الديار المقدسة تحت الحماية الروسية، وطالب أيضا بتنحية وزير الخارجية العثماني فؤاد أفندي من منصبه بسبب علاقاته الوثيقة مع الدول الغربية.

أدركت بريطانيا أن تجاوب الباب العالي مع المطالب الروسية معناه زيادة النفوذ الروسي على حسابها، ولذا استدعت بريطانيا أبرز دبلوماسيها وهو السير ستراتفورد لإحباط هذه المساعي الروسية.

كما أرسلت فرنسا بعض وحدات من أسطولها إلى المياه العثمانية، وبدأت باريس ولندن تعملان على تحويل مهمة منشكوف من كونها خلافا مذهبيا بين الكاثوليك والأرثوذكس إلى كونها خلافا سياسيا بين العثمانيين والروس، ولهذا شجع السفير البريطاني في الأستانة الدولة العثمانية على الوقوف في وجه الأطماع الروسية، مؤكدا للأستانة وقوف فرنسا وبريطانيا إلى جانب العثمانيين في أي حرب قادمة مع الروس.

نجحت الدبلوماسية البريطانية في إقناع السلطان العثماني باستصدار فرمان للتجاوب مع المطالب الروسية فيما يتعلق بالأماكن المقدسة في القدس، وبذلك ضيعت بريطانيا على روسيا حجة الخلاف المذهبي لتصعيد لهجة العداء مع الدولة العثمانية.

أغرى قبول السلطان العثماني للمطالب الروسية منشكوف على أن يعلن بصلف واضح عن طبيعة مهمته في الأستانة، وتقدم بمطالب جديدة منها ضرورة إعلان استقلال الجبل الأسود.

ناقشت البريطانيون مع السلطان العثماني مطالب منشكوف الجديدة، وحثته على رفضها، فأرسل الباب العالي العثماني إلى منشكوف يعلمه بأن مطالبه ماهي إلا اعتداء صريح على حقوق السلطان العثماني، وتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية، وخروج على مهمته التي انتهت بصدور فرمان بخصوص الرهبان الكاثوليك في القدس، ورفض الباب العالي تغيير الأوضاع في البلقان إلا بعد التباحث وموافقة الدول الكبرى.

أثار الرفض العثماني غضب منشكوف، وأرسل بدوره رسالة تحمل صفة الإنذار إلى حكومة الأستانة، طلب فيها أن يعترف السلطان العثماني لروسيا بحق حماية الأرثوذكس حماية مطلقة وغير مقيدة (وكان عددهم في الدولة العثمانية حوالي 10 ملايين نسمة) ، وأعطى الدولة العثمانية مهلة للرد على مذكرته تنتهي في (2 شعبان 1269 هـ 10 مايو 1853 م)، وأمام الرفض العثماني رحل منشكوف من الدولة العثمانية مستصحبا معه جميع العاملين في السفارة الروسية في إستانبول، وبذلك قُطعت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين استعدادا للحرب.

5 - حرب القرم

قبر أحد ضحايا حرب القرم من العسكريين العثمانيين
في مسجد خان جامعي بمدينة إيفباتوريا

بدأت الحرب العثمانية الروسية في (4 شوال 1269هـ 3 يوليو 1853م) ، وكان مسرحها الأول في أوروبا بمنطقة البلقان، حيث قام حوالي 35 ألف جندي روسي باحتلال رومانيا التي كانت تابعة آنذاك للدولة العثمانية، وأبلغت روسيا الدول الأوروبية أنها لن تدخل في حرب شاملة ضد الدولة العثمانية، وأن مافعلته إجراء وقائي لحين اعتراف السلطان العثماني بحقوق الأرثوذكس في كنيسة القيامة في القدس، وأنها سوف تنسحب فور هذا الاعتراف.

قامت الدولة العثمانية وروسيا بحشد قوات ضخمة على جبهات القتال، وعلى جبهتي الدانوب والقوقاز، واستطاع القائد العثماني عمر باشا أن يلحق هزيمة كبيرة بالروس على نهر الدانوب، وأن يدخل رومانيا. وفي جبهة القوقاز ساند الزعيم الشيشاني الإمام شامل القوات العثمانية أثناء القتال ضد الروس.

أرادت الدولة العثمانية دفع بريطانيا وفرنسا إلى دخول الحرب إلى جوارها، ودبرت إرسال مجموعة من قطع الأسطول البحري العثماني القديمة إلى ميناء سينوب على البحر الأسود، وهي تدرك أن هذه السفن لابد أن يهاجمهما الروس ، وبالفعل هاجم الروس هذه السفن وتم إغراقها جميعا، واستشهد حوالي ألفي جندي عثماني، وأثارت هذه المعركة قلقا في الأوساط في لندن وباريس، وحذرت الصحافة في العاصمتين من الخطر الروسي.

عرض الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث الوساطة لإنهاء القتال بين العثمانيين وروسيا، إلا أن القيصر الروسي رفض ذلك، خاصة بعد انتصارات عمر باشا في رومانيا، وقال نيقولا الأول: "أشعر أن يد السلطان على خدي"، فبادر نابليون الثالث بالاتفاق مع بريطانيا ضد القيصر، وقبلت لندن العرض الفرنسي بحماسة شديدة، وغادر سفيرا لندن وباريس مدينة سانت بطرسبرغ الروسية في 8 جمادى الأولى 1270 هـ 6 فبراير 1854 م،

وتم عقد معاهدة إستانبول في 13 جمادى الآخرة 1270 هـ 12 مارس 1854 م، بين الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا، ونصت على ألا تعقد أي دولة من هذه الدول صلحا منفردا مع روسيا، وأن يتفاهم قواد الدول الثلاث في الحرب ضد روسيا، وأن تكون الوحدات الإنجليزية والفرنسية والسفن التابعة لهما في إستانبول خاضعة للقوانين العثمانية.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على روسيا في 28 جمادى الآخرة 1270 هـ 27 مارس 1854 م، ونشبت معارك ضخمة في عدة جبهات أثناء حرب القرم، إلا أن أهم هذه المعارك كانت معركة سيفاستوبول التي خاضتها الدول الثلاث للقضاء على القوة البحرية الروسية في البحر الأسود، حيث كان القاعدة البحرية لروسيا في شبه جزيرة القرم (حاليا في أوكرانيا) واستمرت المعركة قرابة العام، قُتل خلالها حوالي 35 ألف قتيل، وعدد من القادة الكبار من كلا الجانبين، حتى انتهى الأمر بسيطرة الدول الثلاث على الميناء في 22 من شعبان 1271هـ 9 مايو 1855م.

في هذه الأثناء توفي القيصر الروسي **نيقولا الأول** ، وخلفه في الحكم ابنه **ألكسندر الثاني** الذي شعر بعدم قدرة بلاده على مواصلة الحرب، فقرر التفاوض للسلام، خاصة بعد المذكرة التي تقدمت بها النمسا لروسيا وحذرتها فيها من أن دولا أوروبية أخرى قد تدخل الحرب ضدها.

6 - معاهدة باريس 1856

بعد توقف حرب القرم نشر السلطان العثماني عبد المجيد في 12 من جمادى الآخرة 1272 هـ 18 فبراير 1856 م، فرمانا عُرف باسم المرسوم الهمايوني للإصلاحات، والذي اعترف بمجموعة من الحقوق للأقليات الدينية في الدولة العثمانية، وكان هدفه الحقيقي محاولة الدولة العثمانية كسب الرأي العام الأوروبي إلى جانبها أثناء المفاوضات لتوقيع معاهدة باريس.

اعترف الفرمان بالمساواة بين جميع رعايا الدولة العثمانية من مسلمين ومسيحيين، وجرّم استخدام تعبيرات تحقر المسيحيين، ونصّ على تجنيد المسيحيين في الجيش العثماني، وإلغاء الجزية، على أن يدفع المسيحيون غير الراغبين في الخدمة العسكرية بدلا نقديا، وأن يمثل المسيحيون في الولايات والأقضية تبعا لأعدادهم في تلك المناطق.

وافتتح مؤتمر باريس في 19 جمادى الآخرة 1272 هـ 25 فبراير 1856 وتم توقيع معاهدة باريس بعد 34 يوما من افتتاح المؤتمر في 23 رجب 1272هـ 30 مارس 1856م، وتضمنت عدة نقاط مهمة، منها :

* حرية الملاحة في نهر الدانوب.
* تشكيل لجنة دولية للإشراف على ذلك.
* إعلان حياد البحر الأسود : وكانت هذه المادة كارثة بالنسبة لروسيا حيث أجبر هذا النص روسيا على سحب سفنها الحربية من هذا البحر ونقلها إلى بحر البلطيق، وبالتالي أصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية من الناحية الفعلية وليس القانونية.
* واعترفت المعاهدة بالاستقلال الذاتي لكل من ولايتي الأفلاق والبغدان (رومانيا حالياً) ضمن الدولة العثمانية ،
* وأن يتم احترام استقلال الدولة العثمانية وعدم التدخل في شؤونها الداخلية مقابل تعهدها بتحسين أحوال الرعايا المسيحيين في البلقان،
* واعترف السلطان العثماني بالمساواة التامة بين جميع رعاياه على اختلاف مذاهبهم وأديانهم.

وأعلنت الدولة العثمانية قبول مبدأ التحكيم في حالة وقوع خلاف بينها وبين غيرها من الدول، وكان هذا النص مهما في القانون الدولي الناشئ.

* وقررت المعاهدة إعادة ميناء سيواستوبول لروسيا، كما احتفظ العثمانيون بحق حماية الأراضي الصربية، ووعدت الدول الكبرى بالعمل على حل أي خلاف ينشأ بين الصرب والعثمانيين.
* وثبتت معاهدة باريس امتيازات فرنسا في الأماكن المقدسة المسيحية دون غيرها من الدول، وأضفت عليها الطابع الحقوقي الدولي، حيث إن الامتيازات في السابق كانت نابعة من التعاقد الثنائي بين الدولة العثمانية ذات السيادة على هذه الأماكن وبين فرنسا منفردة.

كان لهذه المعاهدة آثارها على الدولة العثمانية، حيث وقعت بعض المصادمات الطائفية في بعض المناطق في الدولة كما أن هذه المعاهدة عطلت الوجود الروسي في البحر الأسود قرابة 15 عاما، حتى تمكن القيصر ألكسندر الثاني من إنهاء معاهدة باريس سنة 1287هـ 1870 م، أثناء الحرب البروسية-الفرنسية.

7 - معاهدة باريس - المصالح وصناعة التاريخ

كان لمعاهدة باريس التي عقدتها الدولة العثمانية بعد حرب القرم التي استمرت حوالي 3 سنوات أهمية خاصة في التوازن على الساحة الدولية بين الدول الكبرى، فهي من المعاهدات التي صاغت الوجه السياسي لأوروبا خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وكانت مدخلا مهما لتطوير القانون الدولي حيث كانت بداية الفصل بين العقائد الدينية والعلاقات الخارجية، وانتقلت بالقانون الدولي من الحيز الأوروبي الذي كان يعبر في الأساس عن مجموعة من الأعراف غير الملزمة لغير الأوروبيين إلى إشراك الدولة العثمانية في هذا القانون الدولي.

وتكمن أهمية هذه المعاهدة في أنها كشفت بجلاء أن المصالح هي التي تصنع الأحداث ومن ثم تصنع التاريخ ، فالتحالفات لاتصاغ وفق العقائد الدينية بقدر ماتصاغ وفق المصالح التي تحققها تلك العقائد، ولذا كانت أطر التحالفات واسعة ومرنة وقابلة للتحرك مع تغير المصلحة، وتلك قصة طويلة دامية كشفتها بجلاء معاهدة باريس.

قناة السويس

تقديم

قناة السويس هي ممر مائي اصطناعي ازدواجي المرور في مصر، يبلغ طولها 193 كم وتصل ما بين البحرين الأبيض والأحمر، وتنقسم طولياً إلى قسمين شمال وجنوب البحيرات المرّة ، وعرضياً إلى ممرين في أغلب أجزائها لتمسح بعبور السفن في اتجاهين في نفس الوقت بين كل من أوروبا وآسيا ، وتعتبر أقصر ممر بحري بين القارتين وتوفر نحو 15 يوماً في المتوسط من وقت الرحلة عبر طريق رأس الرجاء الصالح.

بدأت فكرة إنشاء القناة مع قدوم الحملة الفرنسية على مصر عام 1798، وفكر نابليون في شق القناة إلا أن الفكرة باءت بالفشل، وفي عام 1854 أستطاع **ديلسبس** في إقناع الخديوي **سعيد** وحصل على موافقة الباب العالي، والذي قام الخديوي سعيد بموجبه بمنح الشركة الفرنسية امتياز لمدة 99 عام ، استغرق بناء القناة 10 سنوات (1859 - 1869)، وساهم في عملية الحفر ما يقرب من مليون عامل مصري، مات منهم أكثر من 120 ألف أثناء عملية الحفر على إثر الجوع والعطش والأوبئة والمعاملة السيئة، وتم افتتاح القناة في عام 1869 في حفل مهيب وبميزانية ضخمة ، وفي عام 1905 حاولت الشركة تمديد حق الامتياز 50 عاماً إضافية إلا أن المحاولة فشلت لاحقاً، وفي يوليو عام 1956 قام الرئيس عبد الناصر بتأميم قناة السويس، والذي تسبب لاحقاً في إعلان بريطانيا وفرنسا بمشاركة إسرائيل الحرب على مصر ضمن العدوان الثلاثي والذي انتهى بإنسحابهم.

1 - تاريخ القناة

1 – 1 - تاريخ القناة القديمة

يعد المصريين القدماء أول من شق قناة لربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر عن طريق نهر النيل وفروعه وكانت أول قناة أنشأها **سنوسرت الثالث** أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة عام 1874 ق.م.، ثم أهملت وأعيد افتتاحها عدة مرات تحت عدة أسماء منها: قناة سيتي الأول عام 1310 ق.م.، فقناة دارا الأول عام 510 ق.م.، ثم قناة بطليموس الثاني عام 285 ق.م.، وقناة الرومان في عهد الإمبراطور

تراجان عام 117، وقناة أمير المؤمنين عام 640، بعد الفتح الإسلامي لمصر على يد عمرو بن العاص، وظلت 150 عاماً إلى أن أمر الخليفة العباسي **أبو جعفر المنصور** بردم القناة التي كانت تصل بين الفسطاط والسويس، وسدها من ناحية السويس، منعاً لأي إمدادات من مصر إلى أهالي مكة والمدينة الثائرين ضد الحكم العباسي،

1 – 2 - فكرة حفر القناة

عقب اكتشاف البرتغالي **فاسكو دا غاما** لطريق رأس الرجاء الصالح ، تضرر اقتصاد وتجارة مصر المملوكية واقتصاد البندقية ونابولي وجنوة بشكل بالغ ، فما كان من أمراء البندقية إلا أن وفدوا على مصر عام 1501 ليعرضوا على السلطان الغوري فكرة الاستغناء عن طرق القوافل واستبدالها بالنقل عبر النيل بحفر قناة تصل بين البحرين الأحمر والأبيض، إلا أن ظروف مصر وصراعها مع العثمانيين في ذلك الوقت والذي انتهى باحتلالهم للقاهرة سنة 1517 لم يسمح بإنشاء مشروع بهذا الحجم، ومات المشروع حتى اقترحه الفيلسوف الألماني الشهير **لايبيتز** على الملك لويس الرابع عشر في إطار مشروع شامل لغزو مصر، ولكن الملك لويس لم يُرِد إغضاب الباب العالي في الأستانة من ناحية، ولأن أحلامه التوسعية كانت في أوروبا.

وعندما قامت الثورة الفرنسية دخلت في صراعات مسلحة دموية مع ممالك أوروبا ؛ أرادت فرنسا قطع طريق المستعمرات البريطانية في الهند باحتلال مصر فقامت الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798. أعطت حكومة الديركتوار التي كانت تحكم فرنسا أمراً مباشراً لنابليون بونابرت بالقيام بحملة لحفر قناة تربط بين البحرين ولذا كانت تسمى قناة البحرين . فخرج نابليون من القاهرة ومعه مجموعة من المهندسين يرأسهم مهندس يدعي **لوبير** لمعاينة الموقع هندسياً عند السويس والبدء في الحفر. إلا أن لوبير أقنع نابليون بالعدول عن المشروع لأنه اكتشف أن مستوى البحر الأحمر أعلى من مستوى البحر الأبيض ، مما سيتسبب في غرق مصر كلها ،

عاد نابليون إلى القاهرة دون أن يحقق هدفه. وذلك حتى تولى المشروع مجموعة من المهندسين من خريجي مدرسة البوليتكنيك الشهيرة وكانوا مفتونين بعظمة نابليون ويطلق عليهم اسم السان سيمونيين وأتوا إلى مصر في عصر محمد علي سنة 1832 وحصلوا على إذن منه بالذهاب إلى الموقع من جديد وتبين لهم أن البحرين مستويان وأن مهندس نابليون أخطأ الحساب والتقدير، إلا أن محمد علي رفض فكرة حفر القناة إلا بشرطين :

أولهما أن تضمن القوى العظمى حيادية القناة، وبالتالي استقلال مصر، وثانيهما أن تمول القناة بالكامل من الخزانة المصرية، مما أظهر حنكة وبُعد نظر محمد علي باشا في مسألة القناة، إلا أن الشرطين قوبلا بالرفض.

فرديناند دي لسبس.

عقب عودة نابليون إلى فرنسا عام 1801 بعد فشل حملته على مصر التي استمرت 13 شهراً، أرسل دبلوماسياً اسمه ماتيو دي لسبس إلى مصر لاختيار والي لمصر موالي لفرنسا يحكمها بعد أن قام الإنجليز باختيار البرديسي، فوقع اختيار ماتيو دي لسبس على محمد علي الضابط الألباني القريب من شيوخ الأزهر فاصطفاه وقدم له المشورة والمساعدة وهو ما لم ينساه محمد علي، وعندما مات ماتيو دي لسبس جاء ابنه الشاب فرديناند دي لسبس كقنصل مساعد لبلاده فرنسا في الإسكندرية واستقبله محمد علي بحفاوة كبيرة وعرض عليه أن يعمل في القصر مربياً ومعلماً لابنه محمد سعيد باشا وعلى إثر ذلك توطدت عرى الصداقة بين الدبلوماسي الفرنسي والأمير.

وبعد أن جاء سعيد باشا إلى سُدة الحُكم، في وقت كانت أسرة دي لسبس تعاني الفقر والعزلة منذ سقوط إمبراطورية نابليون، فما كان من دي لسبس إلا أن ركب أول سفينة متجهة للإسكندرية ليصلها في 7 نوفمبر 1854 ويلتقي بصديقه الذي أصبح خديوي مصر في 11 نوفمبر، وهناك عرض دي لسبس مشروع حفر القناة على سعيد باشا الذي قبل فوراً ما رفضه والده وكأن سعيداً أراد أن يعبر عن امتنانه لصديقه القديم الذي كان يقدم له الأكل الذي حرمه منه والده داخل القصر.

1 - 3 - الحفر واستخدام السخرة

تم حفر القناة عن طريق سواعد نحو مليون فلاح مصري ممن أجبروا على ترك حقولهم وقراهم لكي يشقوا الصحراء في أجواء من المرض والإهانة، وذلك في وقت وصل فيه عدد سكان مصر لأقل من 4 ملايين فيما يعرف بالسخرة والتي مات خلالها أكثر من 120 ألف مصري أثناء عملية الحفر على إثر الجوع والعطش والأوبئة والمعاملة السيئة، ومعظمهم لم يستدل على جثمانه ودفن في الصحراء أو تحت مياه القناة.

1 – 4 - افتتاح القناة

في 25 أبريل 1859 دشن دي لسبس حفر القناة في عهد الخديوي سعيد، وانتهى العمل بها بعد عشر سنوات في عهد الخديوي إسماعيل الذي سافر إلى أوروبا في 17 مايو 1869 لدعوة الملوك والأمراء ورؤساء الحكومات ورجال السياسة والعلم والأدب والفن لحضور حفل افتتاح القناة الذي عزم أن يقيمه في 17 نوفمبر 1869. وبعد أن عاد الخديوي إلى مصر بدأ في الإعداد للحفل الكبير فاستخدم 500 طاه وألف خادم ليكونوا في خدمة الضيوف، وطلب من دي لسبس أن يقوم بالاستعدادات لضيافة ستة آلاف مدعو.

وفي يوم 15 أكتوبر 1869 بدأ المدعون بالقدوم ضيوفاً على مصر في بورسعيد مقر الحفل، والتي ضاقت أرجاؤها بالمصريين القادمين من جميع أنحاء مصر لمشاهدة فعاليات الافتتاح، بإيعاز من الخديوي إلى مديري الأقاليم ليرسل كل منهم جماعة من الأهالي بنسائهم وأطفالهم وأدواتهم البيتية وركوبهم، فانتشروا على طول القناة، أعراب، وسودانيين وفلاحين، وصعايدة تعبيراً عن كافة طوائف الشعب المصري.

فيما سافر الخديوي مع حاشيته ووزيريه **نوبار باشا وشريف باشا** إلى الإسكندرية حيث استقل يخته المحروسة وأبحر إلى بورسعيد ، ورأى الخديوي السفن قادمة من جميع أطراف العالم تحمل ضيوفه الحاضرين على نفقته الخاصة، واصطفت أساطيل الدول في مرفأ بورسعيد ومن ضمنها الأسطول المصري وقد انتشرت على ضفاف القناة قوات الجيش المصري للحفاظ على نظام الاحتفال. وانطلقت طلقات المدافع مدوية احتفالا بوصول الضيوف واحدا تلو الآخر.

بدأت الفعاليات بحفلة دينية بعد ظهر يوم 16 نوفمبر 1869، وأقيمت ثلاث منصات خشبية كبيرة على شاطئ البحر مكسوة بالحرير والديباج ومزينة بالأعلام ومفروشة بأثمن السجاجيد ونشرت في أرجائها الرياحين والورود وصفت فيها الكراسي،

فخصصت منصة الوسط للضيوف وعلى رأسهم مضيفهم خديوي مصر، وخصصت المنصة اليمنى للعلماء المسلمين في مقدمتهم الشيخ السقا والشيخ العمروسي والشيخ المهدي العباسي مفتي الديار المصرية، فيما خصصت المنصة اليسرى لأحبار الدين المسيحي ورجال الإكليروس وعلى رأسهم المنسيور كورسيا أسقف الإسكندرية والمنسيور باور الرسول البابوي. ونصب على الشاطئ الآسيوي خيالة بورسعيد وعلى الشاطئ الإفريقي المظلات البديعة لجماهير المدعوين .

1 – 4 – 1 - فقرات الحفل

دوت المدافع متتابعة من كل الجهات إيذاناً ببدء الحفل الديني. ووقف شيخ الإسلام محاطاً بالعلماء وتلا ما تيسر من القرآن الكريم ثم دعا الله أن يختص هذا العمل العظيم بعنايته ورعايته وأن يهيئ له النجاح في كل زمان.

ثم تقدم المنسيور كورسيا يحوطه رجال الإكليروس وتلا صلاة حارة دعا الله فيها أن يكلأ هذا العمل ويباركه بروح من عنده.

ثم تقدم المسيو باور وألقى بصوت جهوري وبعبارة فرنسية بليغة خطاباً وجهه إلى الخديوي أولا خصه فيه بآيات الشكر والثناء على قيامه بهذا العمل العظيم الذي أدى إلى تصافح الشرق والغرب.

وعند المساء مدت الموائد متتابعة لستة آلاف مدعو وبها أشهى الأطعمة والأشربة، حتى إذا حلت الساعة الثانية بدت الأنوار والزينات على ضفتي القناة كأنها ضياء الصباح. وظهر يخت الخديوي المحروسة في حلة من الأنوار وأخذ يطلق مدفع بين دقيقة وأخرى والموسيقى تدوي بنغمات الفرح والسرور

وانقضى الليل واختتمت الحفلة بالألعاب النارية. وعند شروق شمس صباح يوم 17 نوفمبر كانت السفن تمر في قناة السويس .

1 – 5 - بيع حصة مصر في القناة

في عام 1875 مرت مصر بأزمة مالية طاحنة اضطر معها الخديوي إسماعيل إلي بيع حصة مصر من أسهم القناة لبريطانيا بمبلغ 100 مليون فرنك في 25 نوفمبر 1875. وبذلك حلت الحكومة البريطانية محل المصرية في ملكية شركة قناة السويس. ولكن الأزمة المالية لم تنفرج، وأرسلت الدول الدائنة لجنة لفحص الحالة المالية في مصر لتصفية الديون التي تدين بها مصر لدول نادي باريس و كان مؤمن علي هذه الديون بأرباح مصر التي تمثل 15 % من شركة قناة السويس. فقررت اللجنة بيع حصة مصر من الأرباح نظير مبلغ 22 مليون فرنك. و بذلك خسرت مصر حصتها من أسهم القناة وحصتها في الأرباح في ظرف 6 سنوات من افتتاح القناة.

1 – 6 - محاولة مد امتياز القناة

في عام 1910 تقدمت شركة قناة السويس البحرية بطلب للحكومة المصرية لمد امتياز شركة قناة السويس الذي كان سينتهي في 17 نوفمبر 1968 لمدة 40 سنة أخرى تنتهي عام 2008، وأيدت الحكومة البريطانية الممثلة لسلطة الاحتلال في مصر مد الامتياز خصوصاً وقد بدأت الحركة الملاحية بالقناة تتضاعف حتى بلغت عام 1889 ضعف ما كانت عليه عام 1881 وتضاعفت مرة أخرى عام 1911، و كانت البضائع البريطانية تمثل 6،78 % من مجموع البضائع المارة بالقناة."

ولكن الحركة الوطنية المصرية بقيادة **محمد فريد** قادت هجوماً كاسحاً علي طلب المد وقلبت الرأي العام ضده، وقام **إبراهيم الورداني** باغتيال رئيس الوزراء بطرس غالي باشا سنة 1910 بسبب سعيه نحو مد امتياز القناة، وقام الاقتصادي المصري **طلعت حرب** بتأليف كتاب عن قناة السويس ليوضح الحقائق للعامة والخاصة عن تاريخ القناة وكيف ضاعت حصص مصر من الأسهم والأرباح وخسائرها حتى 1909،

وإزاء الضغط الشعبي كلفت الجمعية العمومية (مجلس النواب) طلعت حرب باشا وسمير صبري باشا بكتابة تقرير عن الموضوع، وبالفعل قدموا تقريرهم للجمعية ووضحوا فيه خسائر مصر المالية المتوقعة في حالة تمديد الامتياز الحالي بالشروط السالف ذكرها، وبناءً علي هذا التقرير رفضت الجمعية العمومية عرض تمديد امتياز شركة قناة السويس وبقي الامتياز قائما بشروطه.

1 – 7 - تأميم القناة

في 26 يوليو 1956 أعلن جمال عبد الناصر، قرار تأميم شركة قناة السويس، بعد أن سحبت الولايات المتحدة عرض تمويل السد العالي بطريقة مهينة لمصر، ثم تبعتها بريطانيا والبنك الدولي . قدمت بريطانيا على إثر القرار احتجاجاً رفضه جمال عبد الناصر على أساس أن التأميم عمل من أعمال السيادة المصرية. فقامت هيئة المنتفعين بقناة السويس بسحب المرشدين الأجانب بالقناة لإثبات أن مصر غير قادرة على إدارة القناة بمفردها، إلا أن مصر أثبتت عكس ذلك واستطاعت تشغيل القناة بإدارة مصرية صرفة

1 – 7 – 1 - الرد الاقتصادي

كان أول رد على قرار تأميم شركة قناة السويس، قيام كلاً من فرنسا وإنجلترا بتجميد الأموال المصرية في بلادهما ، فيما قامت الولايات المتحدة بتجميد أموال شركة القناة لديها، وبلغ مجموع الأموال المصرية التي تقرر تجميدها في إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة ما يزيد على القيمة المالية لشركة قناة السويس ، كما قررت الولايات المتحدة وقف تقديم أي مساعدة مالية أو فنية لمصر،

1 – 7 – 2 - الرد الدبلوماسي

تمثل الرد الدبلوماسي في محاولة تعبئة الرأي العام الدولي ضد مصر، وإقناعه بأن تأميمها لشركة قناة السويس هددت السلام والأمن في منطقة الشرق الأوسط ، ولتلافي كل هذه المخاطر اجتمع كل من وزير خارجية فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة ، وأصدروا في 2 أغسطس 1956 بياناً يتضمن أن قرار التأميم الصادر من جانب الحكومة المصرية يهدد حرية الملاحة في القناة ، ويهدد الأمن فيها ، وفي ذلك

مخالفة لأحكام اتفاقية القسطنطينية ، لذلك يرون ضرورة إقامة مؤتمر تدعى إليه الدول المنتفعة بالقناة ، وهي الدول التي وقعت على معاهدة القسطنطينية ، ودول أخرى باعتبارها من مستخدمي القناة،

أعلن رئيس وزراء إنجلترا في مجلس العموم ، إنشاء هيئة باسم **هيئة المنتفعين** سيكون لها طابع مؤقت وستكون مسئوله عن تنسيق المرور في القناة ، وتحصيل رسوم المرور. وانعقد في لندن مؤتمر فيما بين 19 و21 سبتمبر، لوضع القانون الأساسي لتلك الهيئة ، ورفضت مصر ذلك . وأمام فشل السياسة الاستعمارية في تحقيق مآربها عن طريق الضغط الدبلوماسي، دبرت لاستعمال القوة العسكرية.

1 – 7 – 3 - الرد العسكري والعدوان الثلاثي

قامت كل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بتدبير مؤامرة ثلاثية على مصر أطلق عليها المصريون **العدوان الثلاثي** وأطلق عليها الغرب **حرب السويس** ، على إثرها بدأ هجوم إسرائيلي مفاجئ يوم 29 أكتوبر 1956، وفي 31 أكتوبر هاجمت بريطانيا وفرنسا مصر وبدأت غاراتها الجوية على القاهرة، وعلى منطقتي القناة والإسكندرية. وأصبحت مصر تحارب في جبهتين، جبهة إسرائيل على الحدود، وجبهة الاستعمار البريطاني الفرنسي في الداخل، الذي يهدد باحتلال القناة . فأصدر جمال عبد الناصر الأوامر بسحب جميع القوات المصرية من صحراء سيناء إلى غرب قناة السويس ، وتُركت وحدات انتحارية لتواجه اليهود في سيناء . وبدأت عملية غزو مصر من جانب القوات البريطانية والفرنسية من بورسعيد، التي تم ضربها بالطائرات والقوات البحرية ، ولكنها لم تستسلم.

وحركت مقاومة بورسعيد الضارية للقوات البريطانية والفرنسية العالم ضدهما. واتخذت الدول العربية موقفاً منددا بالعدوان وقامت بنسف أنابيب البترول، ومنعوا وصوله إلى بريطانيا وفرنسا، واتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا في 2 نوفمبر بإيقاف القتال ،

جمعية الاتحاد والترقي

جمعية الاتحاد والترقي (İttihad ve Terakki Cemiyeti) تأسست في بادئ الأمر تحت اسم " جمعية الاتحاد العثماني " İttihad-ı Osmanî Cemiyeti في 1889 من قبل طلبة طب بينهم "إ برهيم ساتروفا " و" عبدالله جودت ".

هي حركة معارضة و" أول حزب سياسي " في الإمبراطورية العثمانية. تحولت إلى منظمة سياسية على يد " بهاء الدين شاكر " ولتضم أعضاء تركيا الفتاة في 1906 خلال فترة انهيار الإمبراطورية العثمانية.

في نهاية الحرب العالمية الأولى سيق معظم أعضائها إلى المحاكم العرفية على يد السلطان محمد السادس ليتم سجنهم.

وصلت إلى سدة الحكم في الدولة العثمانية بعد تحويل السلطنة إلى ملكية دستورية وتقليص سلطات السلطان آنذاك عبد الحميد الثاني في انقلاب 27 أبريل 1909.

تم اعدام بعض من أعضاء المنظمة بعد محاكمة بتهمة محاولة اغتيال أتاتورك في 1926، في حين أن الأعضاء الباقين قاموا بممارسة العمل السياسي كأعضاء في الأحزاب السياسية.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

حزب تركيا الفتاة

تركيا الفتاة أو الأتراك الشباب (Jön Türkler) هو اتحاد لمجموعات عديدة مؤيدة لإصلاح الإدارة في الإمبراطورية العثمانية. أدت الحركة إلى الحقبة الدستورية الثانية بواسطة ثورة تركيا الفتاة. في عام 1889 بدأت الحركة في صفوف الطلاب العسكريين وامتدت بعدها لتشمل قطاعات أخرى، وكانت بدايتها كممانعة للسلطة المطلقة للسلطان عبد الحميد الثاني .

عند تأسيس جمعية الاتحاد والترقي في 1906، ضمت الجمعية معظم أعضاء تركيا الفتاة. بنت الحركة واقعا جديدا للانشقاقات التي صاغت الحياة الثقافية، السياسية والفنية للإمبراطورية العثمانية في الفترة الأخيرة قبل إلغائها.

حكم الباشاوات الثلاثة المنتمين لتركيا الفتاة الإمبراطورية العثمانية منذ التحول عام 1913 وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى، وكرد فعل للحركة تم إنشاء الجمعية العربية الفتاة على يد مجموعة من الطلاب العرب في باريس عام 1909.

ثورة تركيا الفتاة

ثورة تركيا الفتاة هي ثورة قادتها حركة تركيا الفتاة في عام 1908 ادت إلى خلع السلطان عبد الحميد الثاني وتنصيب اخيه محمد الخامس ، كما اعادت العمل بالدستور العثماني الذي علق عبد الحميد الثاني العمل به عام 1878،

عرفت الفترة التي تلي ثورة عام 1908 بـ " **المشروطية الثانية** " والتي مهدت فيما بعد لسقوط الدولة العثمانية.

الجمعية العربية الفتاة

1 – الأهداف

الجمعية العربية الفتاة هي جمعية سياسية قومية عربية سرية أنشأها مجموعة من الطلاب العرب في باريس عام 1909م. أثرت هذه الجمعية على الفكر القومي العربي ومهدت للمؤتمر العربي في باريس عام 1913.

كانت أهداف الجمعية في البدء هي المطالبة بالحقوق العربية في الدول تحت الحكم العثماني آنذاك ومنها حقوق اجتماعية وقومية. نشأت الجمعية كرد على جمعية الاتحاد والترقي التركية التي كانت تدعو إلى التتريك.

بعد الإعدامات التي طالت أعضاءها في سوريا على يد الوالي العثماني جمال باشا السفاح ، طالبت الجمعية بالحكم الذاتي في الأقاليم العربية ثم ما لبثت أن طالبت بالاستقلال التام لكافة الأقاليم العربية.

2 - دورها في علم الثورة العربية

كان بعض الشباب المنتمي إلى المنتدى الأدبي العربي الذي تأسس في الأستانة قد صمم راية تمثل القومية العربية عام 1909 تتألف من أربعة ألوان : الأبيض والأسود والأخضر والأحمر، وأضافوا إليها بيتاً من الشعر لصفي الدين الحلي :

بيض صنائعنا سود وقائعنا خضر مرابعنا حمر مواضينا

وكانت الراية تتكون من ثلاثة أجزاء ؛ الثلث الأعلى أسود والثلث الأسفل أبيض والثلث الوسط أخضر ومثلثين أحمرين في كل جانب ، ونقش بيت الشعر على الراية.

إتخذ قرار اعتماد الراية سابقة الذكر كعلم لجمعية العربية الفتاة أثناء اجتماع في مكاتب جريدة المفيد في بيروت في آذار من العام 1914، وذلك كعلم يجمع ألوان الرايات العربية المختلفة ، منها اللون الأسود للدولة العباسية والأبيض للأموية والأخضر للخلافة الراشدة.

قبل قيام الثورة العربية الكبرى وفي عام 1915 كان الشريف عبد الله بن الشريف حسين في دمشق وانضم إلى الجمعية ثم نقل العلم معه إلى الحجاز حيث اعتمد كعلم للثورة بعد إزالة أبيات الشعر وأحد المثلثين الأحمرين . وقد نشر القرار في جريدة القبلة في مكة يوم 9 شعبان 1335 هـ وصادف الذكرى الأولى لقيام الثورة.

3 - الأعضاء المؤسسون

تأسست الجمعية على يد سبعة من الطلاب :

* عوني عبد الهادي من فلسطين
* رفيق التميمي من فلسطين
* محمد البعلبكي من لبنان
* محمد عزة دروزة من فلسطين
* جميل مردم بك من سوريا
* توفيق السويدي من العراق
* محمد رستم حيدر من لبنان

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الانقلاب العسكري العثماني 1913

1 – تقديم

أدى انقلاب 1913 في الدولة العثمانية (في 23 يناير 1913) ، المعروف أيضًا بـ انقلاب الباب العالي، إلى الإطاحة بالصدر الأعظم كامل باشا من السلطة واستبدال وزير الحربية ، ناظم باشا ، بأنور باشا. وقد أنهى ذلك مؤتمر لندن للسلام بفاعلية ، ومثّل نقطة هامة في تقدم الحكومة العثمانية تجاه المركزية.

2 – الأحداث

في حين قررت بالفعل المجموعة المقربة من جمعية الاتحاد والترقي (CUP) القيام سابقًا بانقلاب لإنهاء محاكمة الجمعية من قبل الحكومة العثمانية ، كانت المناسبة القريبة هي التهديد المباشر بأن على الحكومة الإذعان لطلب القوى العظمى بتسليم مدينة أدرنة إلى بلغاريا.

في 23 يناير عام 1913، دخلت مجموعة من الضباط أثناء اجتماع مجلس الوزراء وأطلقوا النار على وزير الحربية ناظم باشا مما أودى بحياته ، وأجبر كامل باشا على الاستقالة .

3 – التأثيرات

كان من أبرز تأثيرات الانقلاب تعزيزه لحركة الإصلاح . وعلى الرغم من التعارض من حيث المبدأ على مد الحكم الذاتي المحلي ليشمل المحافظات ، إلا أنه بدا أن جمعية الاتحاد والترقي تميل للتصالح معهم من أجل تمديد أكبر للنظام الملي.

4 – الحوكمة

استبدل الانقلاب في الأساس السلطة الفعلية للسلطان بحكومة الديكتاتورية الثلاثية المعروفة باسم الباشاوات الثلاثة : وزير الداخلية محمد طلعت باشا ، ووزير الحربية إسماعيل أنور باشا ، ووزير البحرية أحمد جمال باشا.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

حملة ترعة السويس الأولى

1 - تقديم

حملة ترعة السويس الأولى (28 / 1 / 1915 – 3 / 2 / 1915) هي حملة عسكرية شنتها الدولة العثمانية على القوات البريطانية في مصر في أثناء الحرب العالمية الأولى للاستيلاء على قناة السويس، لكن بعد فشلهم في ذلك أرسل الرجال للقتال في أوروبا.

2 - تاريخ الحملة

بدأت الحملة في 28 يناير/ كانون الثاني عام 1915 وانتهت بانسحاب العثمانيين في 3 شباط / فبراير من العام نفسه، حيث قام العثمانيون بإرسال جيش قوامه 20.000 جندي بقيادة **جمال باشا** والعقيد الألماني **كريس فون كرسنشتاين** . فتصدت لهم القوات البريطانية بقيادة **جون ماكسويل** بجيش قوامه 30.000 جندي.

ارتأت السلطات التركية، في ظل الظروف التي فرضتها الحرب العالمية الأولى، تعيين قائد كبير يفرض سلطته القوية على منطقة بلاد الشام ومصر التي كانت قد خضعت للإنكليز، فعينت عام 1915 واليا جديدا على سوريا خلفا للوالي **خلوصي بك** ، هو أحمد جمال باشا الملقب بالسفاح.

وأحمد جمال باشا هو قائد عسكري عثماني ومن زعماء جمعية الاتحاد والترقي، ومن المشاركين في الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني، وقد شغل منصب وزير الأشغال العامة وقائد البحرية العثمانية، قبل أن يصبح الحاكم المطلق في سوريا وبلاد الشام.

وقد خطب جمال باشا أول قدومه إلى دمشق في النادي الشرقي عام 1914 قائلا :

"يجب عليكم يا أبناء العرب أن تحيوا مكارم أخلاق العرب ومجدهم، منذ شروق أنوار الديانة الأحمدية، أحيوا شهامة العرب وآدابهم حتى التي وجدت قبل الإسلام، ودافعوا عنها بكل قواكم. واعملوا على ترقية العرب والعربية، جددوا مدنيتكم، قوموا قناتكم، كونوا رجالا كاملين"

3 - أهداف الحملة

الهدف المعلن لحرب **السفر برلك** كان تحرير قناة السويس من الاحتلال البريطاني. أما الهدف الحقيقي، فكان قطع طرق المواصلات بين بريطانيا ومستعمراتها الآسيوية وخاصة الهند. وتجنيد الرجال لإرسالهم للقتال في أوروبا.

كانت مهمة جمال باشا الأساسية تجهيز حملة على مصر للقضاء على السيطرة البريطانية، إلا أنه قبض على زمام السلطة بيد من حديد، واعتمد سياسة البطش، وتلهى عن إعداد الحملة بالعمل على تعزيز سلطته وبسط سيطرته وإقصاء العناصر العربية عن مراكز الإدارة والقرار.

وفي عام 1915 قاد جمال باشا الجيش **الرابع التركي** لعبور قناة السويس واحتلال مصر. وفي ليل 2 فبراير/ شباط 1915 اخترق صحراء سيناء التي كانت حينها تفتقر لطرق المواصلات فكانت القوات التركية تصل إلى القناة منهوكة القوى لتحصدها البوارج البريطانية الموجودة في القناة أو القوات البريطانية التي تتحصن على الضفة الغربية للقناة بمدافعها ورشاشاتها ومع أن بعض السرايا القليلة استطاعت اجتياز القناة إلا أن الهجوم فشل فشلا ذريعا ولم ينج من الجيش الرابع إلا القليل.

4 - نتائج الحملة

منيت الحملة بالفشل في 3 فبراير/ شباط عام 1915 حيث سقط 1500 جندي عثماني قتلى بنيران مدفعية البوارج البريطانية في قناة السويس. وعلى الرغم من فتوى الجهاد التي أعلنتها الدولة العثمانية ، إلا أن الحملة فشلت في إثارة جموع المصريين . وبعد فشل الحملة أرسل المجندون إلى أوروبا للقتال في الحرب العالمية الأولى.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

كان للفشل الذريع لهذه الحملة ومسؤولية جمال باشا المباشرة عن ذلك الفشل، وهو الحاكم العسكري المطلق على سوريا، أن يصبح عصبي المزاج بشكل دائم، حاد الطباع ، وصب جام غضبه على القيادات العربية العسكرية والمدنية التي حملها مسؤولية إخفاقه ، فعمل على استبدال الكتائب العربية في بلاد الشام بكتائب غالبية جنودها من الأتراك، وفصل الضباط العرب البارزين من وظائفهم وأرسلهم إلى مناطق بعيدة، وأخذ باعتقال الزعماء الوطنيين والمفكرين العرب والتنكيل بهم وتعذيبهم حتى الموت ، وقد كانت باكورة هؤلاء إعدام عدد من المناضلين بأحكام عرفية باطلة في عدد من المناسبات.

حملة ترعة السويس الثانية ومعركة رمانة

1 – تقديم

حملة ترعة السويس الثانية: هي شنتها الدولة العثمانية بالتحالف مع ألمانيا في 27 يوليو/ تموز عام 1916 م بإرسال جيش قوامه 18,000 جندي بقيادة العقيد الألماني كريس فون كرسنشتاين

2 - أهداف الحملة

الهدف المعلن للعثمانيين كان تحرير قناة السويس من الاحتلال البريطاني , أما الهدف المعلن مع القوات المركزية (ألمانيا) فكان قطع طرق المواصلات بين بريطانيا ومستعمراتها الآسيوية.

3 - نتائج الحملة

3 – 1 - معركة رمانة

منيت معركة رمانة بالفشل على ضفاف قناة السويس في 3 أغسطس/ آب عام 1916 م حيث سقط 9200 جندي عثماني قتلى. وقد شارك مع القوات العثمانية عدد كبير من الجنود والضباط العرب من بلاد الشام واستشهد عدد كبير منهم ومن الشهداء الشهيد مصطفى حسن شهاب من مدينة طولكرم في فلسطين .

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الثورة العربية الكبرى

(يونيو 1916 - سبتمبر 1918)

1 - تقديم

الثورة العربية الكبرى، هي ثورة مسلحة ضد الخلافة العثمانية، بدأت في الحجاز، حينما أطلق الشريف حسين طلقه واحدة من بندقيته ، وذلك قبل فجر يوم التاسع من شعبان 1334هـ - 2 يونيو 1916 في مكة المكرمة . وكان لدوي تلك الطلقة صدى في جدة والطائف والمدينة . وامتدت الثورة ضد العثمانيين بعد إخراجهم من الحجاز حتى وصلت سوريا العثمانية ، وإسقاط الخلافة العثمانية فيها ، وفي العراق ؛ وذلك نتيجة للسياسة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى، والتي تمثلت بالتجنيد الإجباري ، ومصادرة الأملاك والأرزاق ، ومن ثم مجاعة 1915، والسياسة القمعية لجمال باشا السفاح ، الحاكم العسكري للولايات السورية العثمانية، إلى جانب تراكمات العلاقة المعقدة بين العرب ، والأتراك منذ أواسط القرن التاسع عشر، وحتى مؤتمر باريس عام 1913.

هدفت الثورة ، كما نصّ عليها في ميثاق دمشق ، وفي مراسلات الحسين مكماهون التي استندت إلى الميثاق ، على خلع طاعة الدولة العثمانية ، وإقامة دولة عربية ، أو إتحاد دول عربية يشمل الجزيرة العربية – نجد والحجاز على وجه الخصوص – وسوريا الكبرى – عدا ولاية أضنة التي اعتبرت ضمن سوريا في ميثاق دمشق – مع احترام " مصالح بريطانيا في جنوب العراق " – وهي المنطقة الجغرافية التي تبدأ في بغداد وتنتهي في ساحل الخليج.

تمكن جيش الثورة العربية الكبرى بقيادة **فيصل بن الحسين**، وبالتعاون مع مسلحي القبائل، من تحقيق إنتصارات عسكرية، وكسر الجيش العثماني على طول خط القتال الممتد من المدينة المنورة وحتى دمشق؛ وتمكن بعد تجاوزه **العقبة** ، تسريع تقدمه مع دخول الجيش البريطاني بقيادة الجنرال **إدموند ألنبي** من سيناء إلى فلسطين ومنها على طول الخط الساحلي حتى لواء إسكندرون ؛ وفي آخر سبتمبر 1918 انسحب العثمانيون من دمشق، وقبلوا في **هدنة مودروس** ، ثم نهائيًا في **معاهدة سيفر** التنازل عن أملاكهم في نجد، والحجاز، وسوريا، والعراق، وكيليكيا، ومصر.

في مرحلة ما بعد الإنتصار العسكري للثورة ، فقد اتجه الرأي لإقامة إتحاد أو تحالف دول عربية بدلاً من دولة عربية واحدة، على أن يرأسها هاشميون ، فيكون الحسين ملكًا لنجد والحجاز، وفيصل ملكًا لسوريا ، وعبد الله ملكًا للعراق ؛ إلا أنّ عداء الفرنسيين لفيصل، واحتلالهم سوريا ، منعه من تحقيق غايته ، فتوّج ملكًا على العراق، وتمكّن عبد الله من انتزاع تاج الأردن بوصفه " سوريا الجنوبية " وما فتأ يطالب بمشروع سوريا الكبرى حتى وفاته ،

وأما الشريف حسين، فذالت مملكته في الحجاز عام 1926 ضمن مشروع المملكة العربية السعودية.

اعتبرت الثورة العربية الكبرى، أحد أبرز تجليات القومية العربية بشكلها المعاصر، وختام مرحلة النهضة العربية في القرن التاسع عشر، وشكلت على لحظة مفصلية في تاريخ المنطقة، ووعيها، ولا تزال ألوان علم الثورة العربية الكبرى، أساس أعلام عدد كبير من الدول العربية، والحركات السياسية فيها .

2 – الأسباب

كانت لسياسة التتريك الدور الأساسي في اشتعال الثورة. حيث استطاع القوميون الاتراك (الطورانيون) الوصول إلى السلطة بقيادة **مصطفى كمال اتاتورك** الذي قام بمحاربة اللغة العربية وفرض اللغة التركية على العرب. وتردي الوضع الاقتصادي، والنهضة العربية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

كانت مبادئ الثورة العربية قد وضعت بالاتفاق ما بين الحسين بن علي وقادة الجمعيات العربية في سوريا والعراق في اتفاق شفهي غايته استقلال العرب وإنشاء دولة عربية واحدة، وقد وعدت الحكومة البريطانية العرب من خلال مراسلات حسين مكماهون (1915) بالاعتراف باستقلال العرب مقابل اشتراكهم في الحرب إلى جانب الحلفاء ضد الأتراك.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

3 - سير الأحداث

تكمن بذور هذه الحركة في التطلعات القومية العربية والرغبة في بناء دولة عربية ناهضة ، تنقل العرب من عصر الانحطاط والتخلف إلى الارتقاء الحضاري، ومن جهة أخرى موقفهم من سياسة قادة الاتراك ومعاداتهم العرب وخصوصا بعد انقلاب جمعيات عربية على الإمبراطورية العثمانية. وقد وجدت هذه الجمعيات في الشريف حسين وأولاده حليفا لها في أهدافها. وكانت اتصالات الشريف حسين بالإنكليز قد بدات قبل قيام الثورة عندما اجتمع الأمير عبد الله بن الحسين باللورد **كيتشنر**، المفوض السامي في القاهرة، خلال شهر شباط 1914، حيث اتفق على استمرار الاتصالات بين الطرفين، تتابعت المفاوضات على شكل مراسلات بين الشريف حسين وبين المعتمد البريطاني في القاهرة السير **هنري مكماهون .**

تضمنت الرسالة الأولى التي بعثها الشريف حسين نصوص بروتوكول دمشق ، كأساس للتحالف بين بريطانيا والعرب ضد الاتراك، بالإضافة إلى مطالبة بريطانيا بالاعتراف بخليفة عربي للمسلمين. ومن خلال المراسلات المتبادلة (1916-1917) تعهدت بريطانيا بالاعتراف بالاستقلال العربي وتأييده، كما أبدت بعض التحفظات التي تساعدها على التملص والتهرب من التزاماتها مع العرب، وذلك بغية تحقيق مصالحها ومطامعها في المنطقة العربية.

ففي الحقيقة كل هذه التعهدات كانت تغطية للخداع البريطاني على العرب، فقد كانت لبريطانيا مخططات مع حليفتها فرنسا لاقتسام الأراضي العربية لضمها إلى الممتلكات الاستعمارية عن طريق اتفاقية **سايكس بيكو** وأيضا إقامة **وطن قومي يهودي** في أرض فلسطين تحت الحماية البريطانية، وذلك في الوقت نفسه الذي التزمت فيه بالاعتراف بدولة الاستقلال العربي التي تضم فلسطين.

ومعروف أن الاتراك حاولوا جذب الشريف حسين بعد افتضاح الاتفاقيات السرية بين بريطانيا وفرنسا، واستمر في التعاون مع بريطانيا والحلفاء الذين كانوا يمولون جيشه من الخزينة المصرية ، ويزودونه بالسلاح والخبراء مثل الضابط الجاسوس البريطاني **لورانس العرب**.

وفي الوقت الذي كانت فيه المراسلات تبلور أسس التحالف بين بريطانيا والعرب كان الوضع صعباً ومتدهوراً في المشرق العربي، حيث صب جمال باشا السفاح جام غضبه على الضباط العرب، وأعدم كثيرًا منهم بعد فشل حملته على قناة السويس، مما دفع قادة الحركة العربية في المشرق بالضغط على الشريف للتعجيل في إعلان الثورة وتم ذلك في العاشر من حزيران-يونيو 1916.

بدات المعارك الحربية في جدة 13 حزيران ، وانهزمت الحامية التركية وسقطت مكة في 9 تموز في عام 1916 ، وبعد شهرين تقريبا حرر العرب ثغري " الليث " و" المويلح " على البحر الأحمر، وفي 23 أيلول 1916 استسلمت الطائف ، وفي تموز 1917 سقط ميناء العقبة، وعندما احتل البريطانيون بغداد احتج الحسين ولكن بريطانيا علقت أنه تدبير عسكري مؤقت وغير مهم سياسيا.

وبين عامي 1916-1917 انضم للجيش الشريفي عدد من الضباط العرب من سوريا وفلسطين ممن كانوا في الجيش العثماني وتطوع كثير من عرب المشرق فوصل الجيش الشريفي إلى 70،000 مقاتل ، وبعد ذلك حررت بيروت وحلب وحماة وطلس وصيدا وصور وحمص. وفي تشرين الأول تم تأليف الحكومة العربية الأولى في بيروت، ورفع العلم على سرايا بيروت.

تمكنت الثورة من طرد القوات التركية من الحجاز، ومن مناطق في شرق الأردن، وساعدت المجهود الحربي البريطاني عسكريا وسياسيا في المشرق العربي. اقترب العرب من إقامة الدولة العربية الموحدة في الجزيرة والمشرق، إلا أن بريطانيا بدات تنفذ مخططاتها في التجزئة والاحتلال والإلحاق،

فقسمت البلاد إلى 3 مناطق عسكرية :

جنوبية وتشمل فلسطين تحت الإدارة البريطانية ،

وشرقية تمتد من العقبة جنوبا حتى حلب شمالا تحت إدارة فيصل،

وغربية تضم المنطقة الساحلية من سوريا ولبنان؛ من صور جنوبا إلى كليكيا شمالا تحت الإدارة الفرنسية.

واتبع ذلك بالغزو العسكري الفرنسي وفرض الانتداب البريطاني على فلسطين (وشرق الأردن) والعراق، كما فرض الاحتلال الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان.

4 - ما بعد الثورة

4 – 1 - في سوريا والعراق

احتلت فرنسا دمشق في أعقاب معركة ميسلون، وأنهت حكم المملكة السورية العربية. بالنسبة لعبد الله ، ابن الشريف حسين، عرض عليه وزير المستعمرات البريطاني ونستون تشرشل قيام دولة في الأردن تحت حكمه فوافق. فوصل إلى معان عام 1920 ومن ثم إلى عمّان عام 1921، وتمكن في الفترة الواقعة ما بين 28 و30 مارس 1921 من تأسيس إمارة شرق الأردن.

أما اخوه ، فيصل بن الشريف حسين، فتم تعيينه ملكا على العراق. فعلى إثر ثورة العشرين في العراق ضد الاحتلال البريطاني عقد مؤتمر القاهرة عام 1920 بحضور ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطاني للنظر في الوضع في العراق. والتي اجبرت الحكومة البريطانية لتغيير سياستها بالتحول من استعمار مباشر إلى حكومة إدارة وطنية تحت الانتداب، بعد تكبد القوات البريطانية في العراق خسائر فادحة.

أعلنت بريطانيا عن رغبتها في إقامة ملكية عراقية ، ورشح في هذا المؤتمر فيصل بن الحسين ليكون ملكا للعراق، تشكل المجلس التأسيسي من بعض زعماء العراق وشخصياته السياسية المعروفة ، بضمنها نوري السعيد باشا ، ورشيد عالي الكيلاني باشا ، وجعفر العسكري ، وياسين الهاشمي **وعبد الوهاب النعيمي** الذي عرف بتدوين المراسلات الخاصة بتأسيس المملكة العراقية. وانتخب نقيب أشراف بغداد السيد عبد الرحمن الكيلاني النقيب رئيسا لوزراء العراق والذي نادى بالأمير فيصل الأول ملكاً على عرش العراق.

في 12 يونيو 1921 غادر فيصل ميناء جدة في الحجاز متوجها إلى العراق على متن الباخرة الحربية البريطانية نورث بروك ، وفي 23 يونيو 1921 رست الباخرة في ميناء البصرة ، فاستقبل الأمير فيصل استقبالا رسميا حافلا، وبعدها سافر فيصل بالقطار إلى الحلة وزار الكوفة والنجف وكربلاء، ووصل بغداد في 29 يونيو 1921 واستقبله في المحطة السير بيرسي كوكس المندوب السامي البريطاني والجنرال هولدن قائد القوات البريطانية في العراق ورئيس الوزراء العراقي المنتخب عبد الرحمن الكيلاني وكان برفقه فيصل من جدة إلى بغداد مجموعه من ثوار ثورة العشرين الذين ذهبوا إلى الحجاز حاملين تواقيع ومضابط عدد كبير من وجهاء العراق وشيوخهم يدعونه فيها للحضور كملك على العراق، باعتباره أحد أنجال الشريف حسين.

4 – 2 - في نجد والحجاز

بدلا من أن يحاول الشريف حسين بحل المشاكل بدبلوماسية أو لياقة سياسية، راح يطالب البريطانيين بسلسلة من المطالب جعلت البريطانيين يبتعدون عنه مؤقتا. وفي رسالة مفككة وغير مترابطة موقعه من ابنه فيصل، ربط فيها الشريف حسين الحركة الوهابية من ناحية، والبلشفية (الروسية) والحركات التخريبية في آسيا من ناحية أخرى. وادعى بانه ليس متشددا، وانما "حرض على قتل الوهابيين، مهما كان نجاح الوسائل الاخرى". ومن طلباته من البريطانيين في تلك الرسالة :

1- التجنيد العاجل، سأبدأ فيه فورا.

2 - احتلال بريطانيا العظمى شاطئ الأحساء.

3 - تقوم بريطانيا العظمى على وجه السرعة بارسال قوة عسكرية إسلامية إلى الحجاز برغم جميع الصعوبات.

4- يجب إرسال طائرات إلى الخرمة قبل التعزيزات الأخرى، لمنع وقوع اية كوارث أخرى.

5- يجب ابلاغي بالتطورات الجارية في مسألة استيراد الدبابات. فمتى تصل الدبابات إلى مصر؟ وتاريخ ارسالها إلى جدة. وبيان بالقوة العاملة عليها.

6- تجميع كل معدات الحرب في مستودع خاص حتى لا يترتب على ذلك أي تأخير في قيام الحملة. وانا اقترح ان من الضروري إرسال المؤن والتدعيمات بصورة متدرجة وعلى فترات قصيرة.

ثم كتب الشريف حسين للبريطانيين يقول "ان مسألة الخرمة تعود إلى ابن سعود، ومن السهل حلها على النحو التالي :

يتعين على بريطانيا العظمى قطع العلاقات مع ابن سعود." (برقية الشريف حسين إلى ابنه الأمير فيصل - مكتب السجلات العامة، مخطوطات وزارة الخارجية، مجلد 4144، وثيقة 10448) ، وربط الشريف حسين هذا الحل بالتهديد بالاستقالة ما لم تنفذ " التوصية " وتضغط بريطانيا على ابن سعود. وبعد عام، اصر على تقديم استقالته، مما جعل أحد كبار المسؤولين في وزارة الخارجية البريطانية يرفق ملاحظة قائلا "في نفس الوقت، اصبحت تهديدات الملك حسين المستمرة بالاستقالة رتيبة وربما كان من الأفضل ان نوافق له على ما يريد ونسأله عمن يود تعيينه خليفة له".

واخذ المكتب السياسي البريطاني في بغداد تهديداته بالاستقالة على محمل الجد، وقال المكتب السياسي "استقالة الملك حسين، ربما يكون أفضل ما يمكن عمله على المدى البعيد، فربما تسهل انسحاب ابن سعود، وقد تؤدي إلى تسوية الخلافات بين نجد والحجاز لأن السبب الرئيسي في كل الموقف الحالي هو اللقب الذي يحمله الملك حسين" (المكتب السياسي، بغداد، 14 يونيو 1919، مكتب السجلات العامة مجلد 4146 وثيقة 90222).

ورغم التهديدات بالاستقالة، حاول البريطانيون التعامل معه بايجابية ونصحت الحكومة البريطانية ابن سعود بكلمات قوية تماما، انه ما لم يسحب اخوانه من الحجاز، فان استمرار احتلاله لتلك المناطق يمكن تفسيره بانه "اتخذ موقف العداء المباشر منها" (من وزير الداخلية إلى المفوض المدني، بغداد، 30 مايو 1919، مجلد 4146 وثيقة 83242 من مخطوطات وزارة الخارجية) واخذت الحكومة البريطانية الترتيبات اللازمة لارسال العديد من الطائرات إلى الحجاز. ومع ذلك ادرك المراسلون الموجودون أن الطائرات لن تحل المشكلة. وقال "ويلسون" "ان مسألة إرسال طائرات تكر جنمي تعبيرا عن اهتمامنا بمساعدة الملك حسين، وبرغم اني لا اصدق ان طلعات الطيران قادرة على وقف ما بين 20،000، إلى 30،000 من الاخوان الذين هم على درجة عالية من التشدد الديني. وقد يؤثر وصول الطائرات على سكان المدن، وقد يغري العرب المترددين بالانضمام إلى الأمير عبد الله" (برقية من اللواء اللنبي إلى وزارة الخارجية، مجلد 4146، وثيقة 86805)

وبعد وصول ابن سعود إلى الطائف، اجتمع وجهاء الحجاز في جدة، وقرروا ان يتخلى الملك حسين عن الحكم لابنه عليا آملين ان يفتح هذا باب الصلح. .

ومع تكرار حديثه عن الاستقالة، ومع ما آلت إليها الامور، ترك الحكم لابنه عليا عام 1343 هـ على ان يقوم بدعم ابنه من الخارج، حيث انه وبتعيين بريطاني أصبح ابنه فيصل بن حسين ملكا على سوريا، (وحينما اعترضت فرنسا تم تعيينه ملكا على العراق)، وعبد الله تم تعيينه ملكا على امارة شرق الأردن. فرأى انه من الأفضل ان يدعم ابنه عليا من الخارج، وذهب إلى العقبة وصار يرسل المال لابنه ويحرضه على ابن سعود الذي كان لسادن الكعبة **عبد القادر الشيبي** وغيره الكثير من أهل مكة دور في دعم ابن سعود وتسهيل دخوله مكة بسلام، حيث عين خالد بن لؤي أميرا عليها.

وبعد ذلك عام 1925 م، 1344 هـ، ومع كثرة المعارضين له في الداخل وحصار جدة من الحارج، وبعد محاولات استخدام الاعلام ضد اتباع ابن سعود، ومحاولات سياسية وعسكرية وغيرها، ادرك علي بن حسين انه لن يستطيع الصمود وقرر تسليم جدة بعد أن ضمن عبد العزيز بن سعود سلامة الجميع .

فاتصل علي بن حسين بالقنصل البريطاني لتنسيق التسليم، وذلك عام 1344 هـ ، حيث تسلم ابن سعود الحكم، وعمل على سلامة الجميع وتعهد بانه من يرغب من العسكريين الاجانب فله الرحيل إلى وطنه الأصلي.

أقام الشريف حسين عدة أشهر ثم أخبره ابنه بأن البريطانيين يرون أن بقاءه في العقبة قد يعرضه لهجمات ابن سعود. بعدها وصلت إلى مينائها مدرَّعة بريطانية، ركبها وهو ساخط إلى جزيرة قبرص سنة 1925 م ، وأقام فيها ست سنين، ثم مرض فعاد إلى عمّان بصحبة ولديه فيصل وعبد الله ، وبقي في عمان حتى توفي ودفن في القدس.

4 – 3 - سقوط الشريف حسين

زار الشريف حسين عمَّان سنة 1922، وأعلن نفسه خليفة (الأمر الذي كان حوله نقاش حيث رفضه مسلمين الهند ومصر وغيرهم وعاد إلى مكة ملقباً بأمير المؤمنين. ويقول الشيخ محمد رشيد رضا

الحسيني الحسني في كتاب " الوهابيون والحجاز" انه كان لديه اهتمام كبير بالالقاب ، ورغبة جامحة بالتسمي بالخليفة على الرغم من عدم التقيد بكثير من أحكام الشريعة.

كان أغلبية سكان الخرمة لا زالوا يؤمنون بمبادئ وافكار الدولة السعودية الأولى. وعدد كبير من سكانهم الحضر راحوا يؤيدون ابن سعود. في مطلع 1917 كان خالد بن لؤي الهاشمي قد حذر ابن سعود من أن الشريف حسين قد قرر استعادة الخرمة وطرد زعامتها. وفي العام التالي ارسل اربع حملات إلى الخرمة حملات جميعها باءت بالفشل، لكنها أججت الرأي العام بين السكان ضد الشريف حسين . لكن كان ابن سعود يطلب منهم الصبر إلى ان يأتي الوقت المناسب سياسيا، وذلك لضمان الانتصار السياسي وليس العسكري فقط ، وكذلك وجود ما يشغلهم من ناحية مدينة حائل.

وكانت أغلب قوات الشريف حسين منشغلة بحصار المدينة المنورة. لكن بعد سقوط المدينة بوقت قصير، ارسل الشريف عبد الله برقية إلى ابن سعود يبلغه فيها بانتصاره، واخبره فيها بان انشغالهم مع الاتراك في المدينة منعهم من ترتيب شؤونهم ومع ذلك فان الذين حاولوا افساد القبائل وتخريبها حسب تعبيره سوف يتم محاسبتهم .

وردا على تلك الرسالة ارسل ابن سعود أكد فيها للشريف عبد الله انه لا يريد سوى السلام. وأنه يريد الوصول إلى تفاهم . خاصة وانه يعرف دعم الإنجليز لهم . أما الشريف عبد الله فكان رده على دعوة ابن سعود للسلام والتحكيم في رسالة عبر فيها عن " أحر تحياته لابن سعود، ولابنائه وللاخوان " وقال " اني اخوكم الصادق، ومستعد لسعادتكم ما تأمرون.. ولا يجوز ان تفرق بينكم وبين والدي أمور البادية التي لا أهمية لها.. وكيف يمكن ان يحدث خلاف بين رجلين كبيرين بخصوص تربه والخرمة والبادية ؟ ها انا متوجه إلى مكة فارجو ان ترسلوا أحد رجالكم وان ارتأيتم ان يكون أحد ابخالكم فذلك أولى، وانا كفيل النجاح بحسين المخلاف والاتفاق مع سيدي الوالد "

فارسل ابن سعود إلى الشريف عبد الله رسالة قال فيها :

"لقد تحقق عندي خلاف ما أخبرتني سابقا، اي انك عائد إلى مكة المكرمة، والظاهر انك مهاجم تربة والخرمة، وذلك مخالف لما ابديتموه للعالم الإسلامي عموما، والعربي خصوصا. واعلم رعاك الله ان اهل نجد لا يخذلون اخوانهم وان الحياة في سبيل الدفاع عنهم ليست بشيء. نعم. وان عواقب البغي وخيمة. خير لك اذن ان تعود إلى عشيره. وانا ارسل لك أحد ابنائي او اخوتي للمفاوضة فتتم الامور ما يرغب به الفريقان ان شاء الله" .

وكان قد وعد البريطانيين بعدم الهجوم على حلفائهم، وحتى لا يقال انه اخلف وعده، وحتى لا يخيف البريطانيين منه ومن اتباعه وحتى لا يستعديهم بدون مصلحة سياسية، ارسل إلى ممثل بريطانيا في جدة، انه يحترم هذه الاتفاقية، لكنه لن يكون مسؤولا إذا ما قام الشريف حسين بالعدوان. وقال "رجال القبائل التابعين لي لن يقوموا باي تحرش او عدوان الا بعد ان يكون هو قد قام بالشيء نفسه وتصبح تصرفاته مع أهل نجد مناقضة للقانون والمنطق، نظرا لأن سفك الدماء ونهب الممتلكات كان مستمرا برغم كتاباتي له بان يسنحب إلى حدوده."

ووصل ابن سعود إلى تربه وانشأ فيها معسكرا، وارسل إلى مختلف القبائل والقرى المجاورة يطلب من زعمائها الحضور إلى تربه خلال ستة أيام، والا فان عبد الله وقواته سوف ينزلوا بهم الخراب والدمار. ثم جاءت رسالة من الشريف عبد الله يقول فيها بثقة وتحدي "اخبر الخوارج، ومن لف حولهم في القرنين بما جرى، قل لهم اننا سنكفيهم مؤنة القدوم إلى تربة. قل لهم ما جائنا تربة من أجل تربة والخرمة فقط، سنصوم في الخرمة ان شاء الله وسنعيد عيد الاضحى في الأحساء." وعقب استلام الرسالة تعالت صيحات الناس من القبائل والاخوان بصرخات الحرب. وبدلا من الخوف والانصياع اللذان كان يتوقعهما عبد الله منهم، راحوا يصيحون "هبت هبوب الجنة وين أنت يا باغيها.. اياك نعبد.. واياك نستعين!" خاصة وان ابن سعود كان يطلب من الناس الصبر حتى يكون النصر العسكري مقترن بنصر سياسي، وكان لابن سعود ما اراد.

وقبل صلاة العشاء بساعة بدأوا مسيرتهم في اتجاه معسكر عبد الله. وكان عبد الله، كعادته قد نام في فراشه وسمح لمعسكره وجنوده النوم دون اتخاذ اي احتياطيات. وفي ضوء النصر السهل المرتقب الذي كان يتوقعه، زادت غطرسة الشريف عبد الله أكثر فأكثر حتى انه أمر بقطع رأس اي من البدو يحضر اليه

رسالة تقول ان ابن سعود والاخوان قد بدأوا في الهجوم، وقد وضع ابن سعود الجيش في ثلاث مجموعات، مجموعة الخيالة، ومجموعة بقيادة خالد بن لؤي ومجموعة بقيادة قائد الاخوان ابن بجاد. وانتصروا في المعركة ومنع الخيالة الجنود من الهرب. ولم يستطع الهرب سوى عبد الله وقليل من الضباط معه وهم في ملابس النوم.

وقبل الاطاحة بجيش الشريف حسين في تربة، كان قد ارسل بقائمة مطالب إلى ابن سعود عن طريق البريطانيين، وهدد بانه يستم الهجوم ما لم يتم تنفيذ تلك المطالب. ومنها تسريح جميع جيوش الاخوان، وخاصة الموجودة في الغطفط والارطاوية، ومنع اي اتصال بين هذين المكانين وبين قبيلة عتيبة. تأثر الملك حسين من سقوط تربة، ومنع التعامل التجاري مع النجديين ومنعهم دخول الحجاز لأداء الحج. وكان هذا يحدث كثيرا حيث ان الاشراف منعوا الكثير ممن قبل بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ورفض ما يرونه عبادة قبور، منعوا من الحج لمدة نصف قرن تقريبا، من قيام الدولة السعودية الأولى.

5 – المميزات

5 – 1 العلم

ونشرت جريدة " القبلة " بيانًا رسميًا برفع العلم العربي ذي الألوان الأربعة ابتداء من 10 يونيو 1917 وهو يوم الذكرى السنوية الأولى للثورة. وقال البيان أن العلم الجديد يتألف من مثلث أحمر اللون تلتصق به ثلاثة ألوان أفقية متوازية هي الأسود في الأعلى متبوعًا بالأخضر في الوسط والأبيض في الأسفل. وتشير الألوان الأفقية المرفوعة إلى شعارات رفعها العرب قديما (الأسود : الدولة العباسية) (الأخضر: الدولة الفاطمية) (الأبيض : الدولة الأموية) ؛ أما المثلث الأحمر فيشير إلى (دوله الاشراف الهاشمية). وقد جمع العلم في ألوانه رموز الاستقلال والتاريخ العربي في كل الأزمنة، واستمر العلم حتى عام 1964.

5 – 2 – النشيد

يا علمي - يا علمي
يا علم العرب أشرق واخفق - في الأفق الأزرق يا علم
من نسيج الأمهات في الليالي الحالكات يا علم يا علم
لبنيهن الأباة كيف لا نفديك؟ كل خيط فيك
دمعة من جفنهن خفقة من صدرهن - قبلة من ثغرهن يا علم
يا علمي - يا علمي
يا علم العرب أشرق واخفق - في الأفق الأزرق يا علم
سر إلى المجد بنا وابن منا الوطنا - قد حلفنا للقنا حلفة ترضيك أننا نسقيك
من دماء الشهداء من جراح الكبرياء - عشت للمجد سماء يا علم
يا علمي - يا علمي
يا علم العرب اشرق واخفق - في الأفق الأزرق يا علمي

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

اتفاقية فيصل وايزمان

1918 فيصل مع وايزمان يرتديان الباس العربي

1 تقديم

اتفاقية فيصل - وايزمان ، وقعت من قبل فيصل الأول ابن حسين بن علي الهاشمي مع حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية في مؤتمر باريس للسلام 1919م يعطي بها لليهود تسهيلات في إنشاء مجتمع للتعايش في فلسطين والإقرار بوعد بلفور.

2 - نص الاتفاقية

إن الأمير فيصل ممثل المملكة العربية الحجازية والقائم بالعمل نيابة عنها والدكتور حاييم وايزمن ممثل المنظمة الصهيونية والقائم بالعمل نيابة عنه ، يدركان القرابة الجنسية والصلات القديمة القائمة بين العرب والشعب اليهودي ويتحقق أن أضمن الوسائل لبلوغ غاية أهدافهما الوطنية هو في اتخاذ أقصى ما يمكن من التعاون سبيل تقدم الدولة العربية وفلسطين ولكونهما يرغبان في زيادة توطيد حسن التفاهم الذي بينهما فقد اتفقا على المواد التالية :

1 - يجب أن يسود جميع علاقات والتزامات الدولة العربية وفلسطين أقصى النوايا الحسنة والتفاهم المخلص وللوصول إلى هذه الغاية تؤسس ويحتفظ بوكالات عربية ويهود معتمدة حسب الأصول في بلد كل منهما.

2 - تحدد بعد اتمام مشاورات مؤتمر السلام مباشرة الحدود النهائية بين الدول العربية وفلسطين من قبل لجنة يتفق على تعيينها من قبل الطرفين المتعاقدين.

خريطة تبين حدود الدولة اليهودية التي تقرر إنشاءها في إتفاقية فيصل وايزمان في مؤتمر باريس للسلام 1919م ، والمسميات اليهودية لمناطق الدولة اليهودية ومدنها

3 - عند إنشاء دستور إدارة فلسطين تتخذ جميع الإجراءات التي من شأنها تقديم أوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرخ في اليوم الثاني من شهر نوفمبر سنة 1917.

4 - يجب أن تتخذ جميع الإجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين على مدى واسع والحث عليها وبأقصى مايمكن من السرعة لاستقرار المهاجرين في الأرض عن طريق الاسكان الواسع والزراعة الكثيفة . ولدى اتخاذ مثل هذه الإجراءات يجب أن تحفظ حقوق الفلاحين والمزارعين المستأجرين العرب ويجب أن يساعدوا في سيرهم نحو التقدم الاقتصادي.

5 - يجب أن لا يسن نظام أو قانون يمنع أو يتدخل بأي طريقة ما في ممارسة الحرية الدينية ويجب أن يسمح على الدوام أيضا بحرية ممارسة العقدية الدينية والقيام بالعبادات دون تمييز أو تفصيل ويجب أن لا يطالب قط بشروط دينية لممارسة الحقوق المدنية أو السياسية.

6 - إن الأماكن الإسلامية المقدسة يجب أن توضع تحت رقابة المسلمين.

7 - تقترح المنظمة الصهيونية أن ترسل إلى فلسطين لجنة من الخبراء لتقوم بدراسة الإمكانيات الاقتصادية في البلاد وأن تقدم تقريرا عن أحسن الوسائل للنهوض بها وستضع المنظمة الصهيونية اللجنة المذكورة تحت تصرف الدولة العربية بقصد دراسة الإمكانيات الاقتصادية في الدولة العربية وأن تقدم تقريرا عن أحسن الوسائل للنهوض بها وستستخدم المنظمة الصهيونية أقصى جهودها لمساعدة الدولة العربية بتزويدها بالوسائل لاستثمار الموارد الطبيعية والإمكانيات الاقتصادية في البلاد.

8 - يوافق الفريقان المتعاقدان أن يعملا بالاتفاق والتفاهم التامين في جميع الأمور التي شملتها هذه الاتفاقية لدى مؤتمر الصلح.

9 - كل نزاع قد يثار بين الفريقين المتنازعين يجب أن يحال إلى الحكومة البريطانية للتحكيم وقع في لندن ، إنجلترا في اليوم الثالث من شهر جانفي سنة 1919 \ 3 يناير 1919

3 - حاييم وايزمان

3 – 1 - تقديم

يعتبر حاييم وايزمان (27 نوفمبر 1874 - 9 نوفمبر 1952) أشهر شخصية صهيونية بعد **تيودور هرتزل** . لعب الدور الأهم في استصدار **وعد بلفور** نوفمبر 1917 وطور طريقة متقدمة في التخمر الصناعي ساعدت في إنتاج كميات كبيرة الأسيتون.

والأسيتون مهم للغاية لإنتاج ال ـ بيرأسيتون وهي مادة متفجرة شديدة ودافعة قوية واعطى بريطانيا تركيبها لتستخدمها في الحرب العالمية الاولى مما زاد من اهتمام بريطانيا به . كان رئيسا للمنظمة الصهيونية العالمية منذ عام 1920 حتى عام 1946 ثم انتخب أول رئيس لدولة إسرائيل 1949.

3 – 2 - حياته

ولد في مدينة موتال في روسيا ، 27 نوفمبر 1874 وكان نشيطا في الحركة الصهيونية منذ بدايتها . شارك عام 1903 في تأسيس الكتلة الديمقراطية التي نادت بالصهيونية العالمية ، في عام 1904 هاجر إلى بريطانيا حيث حصل على شهادة جامعية في الكيمياء من جامعة مانشستر.

ساهم في المناقشات التي أدت إلى صدور " وعد بلفور" عام 1917. وفي الرابع من حزيران (يونيو) عام 1918 التقى مع الأمير فيصل ، الذي أصبح بعد ذلك ولفترة قصيرة ملكا على سوريا وبعد ذلك على العراق، وتحدث معه عن التعاون اليهودي العربي. ترأس وايزمان اتحاد النقابات الصهيونية " الهستدروت "، واعتبر رجل الارتباط الأساسي مع حكومة بريطانيا بين عامي 1921 و1946 مع توقف قصير بين عامي 1931 و1935. أيد قرار تقسيم فلسطين، وكان يميل إلى انضمام إسرائيل إلى اتحاد شرق أوسطي.

الرئيس الأول لإسرائيل -- 17 فبراير 1949 - 9 نوفمبر 1952

3 – وفاته

توفي حاييم وايزمان يوم 9 نوفمبر عام 1952 في إسرائيل في بلدة ريهوفوت وقد خلفه إسحاق بن زفي.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

وعد بلفور

1 – تقديم

وعد بلفور أو تصريح بلفور Balfour Declaration هو الاسم الشائع المطلق على الرسالة التي أرسلها آرثر **جيمس بلفور** بتاريخ 2 نوفمبر 1917 إلى اللورد **ليونيل وولتر دي روتشيلد** يشير فيها إلى تأييد الحكومة البريطانية إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

حين صدر الوعد كان تعداد اليهود في فلسطين لا يزيد عن 5 % من مجموع عدد السكان. وقد أرسلت الرسالة قبل شهر من احتلال الجيش البريطاني فلسطين . يطلق المناصرون للقضية الفلسطينية عبارة " **وعد من لا يملك لمن لا يستحق** " لوصفهم الوعد.

2 - ترجمة نص الرسالة :

وزارة الخارجية
في الثاني من نوفمبر/ تشرين الثاني سنة 1917
عزيزي اللورد روتشيلد

يسرني جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالته ، التصريح التالي الذي ينطوي على العطف على أماني اليهود والصهيونية ، وقد عرض على الوزارة وأقرته :

"إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى إقامة مقام قومي في فلسطين للشعب اليهودي، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد آخر ."

وسأكون ممتناً إذا ما أحطتم الاتحاد الصهيوني علماً بهذا التصريح.

---- المخلص آرثر جيمس بلفور

3 - ملاحظات على الوعد

1 ـ صيغة الوعد واضحة تماماً هنا إذ تُوجَد هيئة حكومية (حكومة جلالـة الملك) تؤكد أنها تنظر بعين العطف إلى إنشـاء وطن قومي سيضم " الشعب اليهودي "، أي أنه اعترف باليهود لا كلاجئين أو مضطهدين مساكين، كما أن الهدف من الوعد ليس هدفاً خيرياً ولكنه هدف سياسي (استعماري) . كما أن هذه الحكومة التي أصدرت الوعد لن تكتفي بالأمنيات وإنما سوف تبذل ما في وسعها لتيسير تحقيق هذا الهدف. هذا هو الجوهر الواضح للوعد.

2 ـ ثم تبدأ بعد ذلك الديباجات التي تهدف إلى التغطية، فالوعد لن يضر بمصالح الجماعات غير اليهودية المقيمة في فلسطين ولا بمصالح الجماعات اليهودية التي لا تود المساهمة في المشروع الصهيوني، بل تود الاستمرار في التمتع بما حققته من اندماج وحراك اجتماعي. وسنلاحظ أن الديباجات تتسم بكثير من الغموض إذ أن الوعد لم يتحدث عن كيفية ضمان هذه الحقوق.

4 - تفسيرات المؤرخين

الأسباب التي يوردها بعض المؤرخين (الصهاينة أو المتعاطفون مع الصهيونية) لتفسير إصدار بريطانيا لوعد بلفور. فهناك نظرية مفادها أن بلفور قد صدر في موقفه هذا عن إحساس عميق بالشفقة تجاه اليهود بسبب ما عانوه من اضطهاد وبأن الوقت قد حان لأن تقوم الحضارة المسيحية بعمل شيء لليهود، ولذلك، فإنه كان يرى أن إنشاء دولة صهيونية هو أحد أعمال التعويض التاريخية. ولكن من الثابت تاريخياً أن بلفور كان معادياً لليهود، وأنه حينما تولى رئاسة الوزارة البريطانية بين عامي 1903 و1905 هاجم اليهود المهاجرين إلى إنجلترا لرفضهم الاندماج مع السكان واستصدر تشريعات تحد من الهجرة اليهودية لخشيته من الشر الأكيد الذي قد يلحق ببلاده.

وقد كان لويد جورج رئيس الوزراء لا يقل كرهاً لأعضاء الجماعات اليهودية عن بلفور، تماماً مثل تشامبرلين قبلهما ، والذي كان وراء الوعد البلفوري الخاص بشرق أفريقيا. وينطبق الوضع نفسه على الشخصيات الأساسية الأخرى وراء الوعد مثل جورج ميلنر وإيان سمطس ، وكلها شخصيات لعبت دوراً أساسياً في التشكيل الاستعماري الغربي.

ويرى بعض المؤرخين أن إنجلترا أصدرت الوعد تعبيراً عن اعترافها بالجميل لوايزمان لاختراعه مادة الأسيتون اللازمة لصناعة المتفجرات أثناء الحرب العالمية الأولى

وهناك نظرية تذهب إلى أن الضغط الصهيوني (واليهودي) العام هو الذي أدَّى إلى صدور وعد بلفور، ولكن من المعروف أن أعضاء الجماعات اليهودية لم يكونوا كتلة بشرية ضخمة في بلاد غرب أوروبا، وهم لم يكونوا من الشعوب المهمة التي كان على القوى العظمى أن تساعدها أو تعاديها، بل كان من الممكن تجاهلهم. ويمكن القول بأن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا مصدر ضيق وحسب، ولم يكونوا قط مصدر تهديد. أما الصهاينة فلم تكُن لهم أية قوة عسكرية أو سياسية أو حتى مالية (فأثرياء اليهود كانوا ضد الحركة الصهيونية). ولكل هذا، لم يكن مفر من أن تكون المطالب الصهيونية على هيئة طلب لخدمة مصالح إحدى الدول العظمى الإمبريالية.

لواء إسكندرون

1 – تقديم

لواء إسكندرون، يُعتبر في سوريا المحافظة الخامسة عشر، رغم كونه منذ 1939، تابعًا لتركيا، ويسميه بعض المؤرخين أمثال ستيفن لونغريج " الألزاس واللورين السورية ". كانت منطقة إسكندرون تابعة لولاية حلب ضمن سوريا العثمانية، مشكلة مرفأها على البحر؛ ومثلت في المؤتمر السوري العام، ورغم اعتبارها دولة مستقلة في أعقاب صدور مراسيم التقسيم، غير أنه أعيد ربطها بالدولة السورية عام 1926 بجهود الرئيس أحمد نامي ، وعاصرت إطلاق الجمهورية السورية الأولى عام 1938 .

قامت فرنسا " بخطوة غير مسبوقة واستفزازية " إذ أعادت منح اللواء حكمًا ذاتيًا مع بقاءه مرتبط من ناحية شكلية بالجمهورية السورية، ثم أعادت إلغاء هذا الرباط الشكلي؛ وفي العام التالي، 1939، انسحبت فرنسا بشكل نهائي، في حين دخلت اللواء قوات تركية، وقامت بضمه وإعلانه جزءًا من الجمهورية التركية تحت اسم " **هتاي** "؛ وهو ما يعتبر مخالفة لصك الانتداب الذي يلزم الدولة المنتدبة بالحفاظ على أراضي الدولة المنتدب عليها.

غالبية سكان اللواء كانت من عرب سوريا الموزعين بين السنة ، والعلويين، والمسيحيين العرب ، والأرمن ، تتجاوز نسبة تركمان سوريا فيه 39.4 % حسب إحصاءات 1939.

بعد سلخ اللواء ، نزحت إلى دمشق، وحلب، وحمص، واللاذقية، أعداد كبيرة من عرب اللواء وأرمنه، مع استثناء صغير لبلدة كسب الأرمنية التي كانت تابعة للواء، فعدّلت المفوضية الفرنسية الحدود، بحيث تتبع محافظة اللاذقية.

أفضى سلخ اللواء لانطلاق احتجاجات 1939 التي أفضت للإطاحة بحكومة جميل مردم، ثم استقالة الرئيس هاشم الأتاسي نفسه ؛ في السنوات التالية اعتبر اللواء أرضًا محتلة، وساهم هذا الاعتبار في إبقاء سوريا خارج مشاريع على مستوى المنطقة مثل حلف بغداد لكون تركيا عضوًا فيه، توترت العلاقة مع تركيا مجددًا عام 1957، لدرجة استدعاء الأسطول المصري إلى اللاذقية للدفاع في حال اندلاع حرب ؛ ولم يحدث على مستوى الحكومات المتعاقبة أي اعتراف بشرعية كون اللواء جزءًا من تركيا إلا بإشارة عرضية قام بها بشار الأسد عام 2004.

في سوريا الإنتيكية ، كانت أنطاكية عاصمة اللواء، عاصمة سوريا ومركزها، ومقر بطريرك أنطاكية، الرأس المحلي للكنيسة السورية بشقيها البيزنطي والسرياني، ومنه خرجت شخصيات بارزة على مستوى العالم مثل إغناطيوس الإنطاكي، ويوحنا فم الذهب،

أما في سوريا المعاصرة فقد خرجت مجموعة من الشخصيات التي لعبت دورًا هامًا على الصعيد المحلي مثل رئيس الدولة صبحي بركات ، والمفكر زكي الأرسوزي ، والشاعر سليمان العيسى.

2 – الجغرافيا

تبلغ مساحة اللواء 4800 كيلومتر مربع، يطل على خليجي اسكندرون والسويدية في الزاوية الشمالية الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، ويتوسط شريطه الساحلي رأس الخنزير الذي يفصل بين الخليجين المذكورين. أهم مدنه أنطاكية وإسكندرونة وأوردو والريحانية والسويدية أرسوز.

اللواء ذو طبيعة جبلية، وأكبر جباله أربعة: جبال الأمانوس وجبل الأقرع وجبل موسى وجبل النفاخ، وبين هذه الجبال يقع سهل العمق. أما أهم أنهاره فهي: نهر العاصي الذي يصب في خليج السويدية ونهر الأسود (الذي يصب في بحيرات سهل العمق) ونهر عفرين (يصب في بحيرات سهل العمق أيضاً)

3 – التاريخ

وصل العرب المسلمون بزحفهم العسكري عام 16 هـ إلى جنوب جبال طوروس وضموا المنطقة الجنوبية من اللواء إلى حكمهم.

في العهد العثماني كان اللواء سنجقًا تابعًا لولاية حلب.

عام 1915 احتوت مراسلات الشريف حسين مع مكماهون على إشارات واضحة بتبعية المناطق الواقعة جنوب جبال طوروس إلى الدولة العربية الموعودة (تعيين للحدود الشمالية للدولة على خط يقع شمال مرسين ـ أضنة الموازي لخط 37 شمالاً الذي تقع عليه مدن البيرة وأورفة وماردين وفديان وجزيرة ابن عمر وعمادية، حتى حدود إيران).

مع بدء الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان تبع اللواء ولاية حلب.

كان لواء اسكندرون في اتفاقية سايكس بيكو داخل المنطقة الزرقاء التابعة للانتداب الفرنسي بمعنى أن المعاهدة اعتبرته سورياً وهذا يدل على أن هذه المنطقة هي جزء من سوريا.

في معاهدة سيفر عام 1920 اعترفت الدولة العثمانية المنهارة بعروبة منطقتي الاسكندرون وقيليقية (أضنة ومرسين) وارتباطهما بالبلاد العربية (المادة 27).

كان اللواء جزءا من المملكة السورية العربية التي قامت عقب نهاية الحرب العالمية الأولى وسقطت بيد الاحتلال الفرنسي في معركة ميسلون.

بعد توحيد الدويلات السورية التي شكلها الانتداب الفرنسي، ضُم لواء الاسكندرون إلى السلطة السورية المركزية.

في 29 أيار 1937 أصدرت عصبة الأمم قراراً بفصل اللواء عن سورية وعُين للواء حاكم فرنسي.

في 15 تموز 1938 دخلت القوات التركية بشكل مفاجئ للرأي العام السوري إلى مدن اللواء واحتلتها ، وتراجع الجيش الفرنسي إلى أنطاكية وكانت مؤامرة حيكت بين فرنسا وتركيا، أخذت بموجبها فرنسا ضمان دخول تركيا إلى صف الحلفاء في الحرب العالمية الثانية.

في عام 1939، أشرفت الإدارة الفرنسية على استفتاء حول الانضمام إلى تركيا فاز فيه الأتراك وشكك العرب بنتائجه وخصوصا أن الاتراك لعبوا بالاصوات لصالحهم، وكانت تلك المؤامرة حيكت علينا، وابتدأت سياسة تتريك اللواء وتهجير السكان (العرب) سكان الأرض الاصليين إلى بقية الوطن السوري، ونشأت مشكلة الأراضي، حيث سرقت كل أراضي السوريين الزراعية في تلك المنطقة دون أن تدفع تركيا أموالاً للعرب المتضررين ثم قامت تركيا بتغيير كافة الأسماء من العربية وهي اللغة الأصلية إلى التركية وهي لغة الدولة المحتلة، وظل هذا الأمر مصدراً للتوتر الشديد في العلاقات بين تركيا وسوريا طيلة سبعة عقود وإلى يومنا هذا. واليوم يشكل العرب الأغلبية في أغلب محافظات الاسكندرون (من أصل اثنتي عشرة قطعة قسمتها تركيا كي تصبح عودتها إلى سوريا أصعب).

كان الإجراء الفرنسي بإعطاء اللواء إلى تركيا مخالفاً لصك الانتداب نفسه، حيث نصت المادة الرابعة من صك الانتداب على إلزام الدولة المنتدبة باحترام وحدة البلاد الموكلة إليها والحفاظ على سلامة أراضيها، وهو ما لم يتقيد به الفرنسيون. قامت فرنسا بغض النظر عن دخول عشرات الآلاف من الأتراك إلى اللواء بغرض الاستفتاء، حيث أملت بأن يساهم ذلك في دخول تركيا إلى جانب الحلفاء في الحرب على ألمانيا النازية. كما قامت تركيا بنشر جيشها داخل اللواء وطرد معظم سكانه من العرب والأرمن .

قاطع العرب الاستفتاء الذي أجرته السلطات الفرنسية المحتلة، وأعطى هذا غلبة كبيرة للأتراك من حيث عدد المسجلين للاستفتاء سنة 1938

يسكن الإقليم حالياً حوالي مليون نسمة، ولا يوجد أي تعداد للنسبة العربية من سكانه بسبب السياسة التركية القمعية للأقليات القومية ، ويشكو سكان الإقليم العرب من القمع الثقافي واللغوي والعرقي الذي تمارسه تركيا عليهم والتمييز ضد الأقلية العربية لصالح العرق التركي في كل المجالات وهو متابعة نحو التتريك الكامل للواء. وهناك تواصل مستمر في مناسبات خاصة كالأعياد بين سكان اللواء وبين أقربائهم في الأراضي السورية المجاورة. وما زالت سوريا تعتبر لواء الاسكندرون جزءا من ترابها الوطني، مع أن بعض الأطراف والهيئات مثل قناة (بلدنا) تضع الخارطة السورية بدون لواء الاسكندرون، وموقع سانا يضع يظهر اللواء على الخارطة باللون الرمادي. ما زالت الخرائط السورية تظهر لواء اسكندرون على أنه منطقة سورية محتلة. عام 1998 وبعد أزمة سورية تركية كادت تتفجر صراعاً عسكرياً، تم التوصل إلى تسوية سياسية في اتفاقية أضنة تخلت على أثرها سوريا عن دعمها لحزب العمال الكردستاني، كما تم الاتفاق على تأجيل أمر اللواء لوقت لاحق.

المصادر السورية نفت أي تخل عن لواء الاسكندرون، إلا أنها أعلنت أن المصلحة السورية تقضي بتأجيل القضايا الخلافية والتطلع إلى التعاون الاقتصادي السياسي مع تركيا في المرحلة الراهنة، وبالرغم من ذلك ظلت الأوساط الشعبية في سوريا تطالب به.

4 – الاقتصاد

تعد مدينة الاسكندرونة من أهم الموانئ البحرية التي تعتمدها تركيا لتصدير النفط، كما يعتمد لواء الاسكندرون على السياحة نظراً لاحتوائه على مدن تاريخية إلى جانب الطبيعة الخلابة. أما في الزراعة، فيشتهر اللواء بالقطن، الحبوب، التبغ، المشمش، التفاح، البرتقال والزيتون. كما يشهد حركة صناعية في قطاع النسيج والزجاج.

5 - التوزع السكاني

التوزع العرقي - الديني في لواء إسكندرون، لعام 1939

المجموعة	العدد	النسبة
تركمان - سنّة	75,900	39.4 %
عرب - علويون	54,800	28.5 %
أرمن - مسيحيون	23,600	12.3 %
عرب - سنّة	20,400	10.6 %
عرب - مسيحيون	14,300	7.4 %
أكراد - سنّة	1800	0.9 %
شركس - سنّة	1100	0.6 %
يهود	500	0.3 %

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

مذابح الأرمن

تقديم

مذابح الأرمن (Ermeni Soykırımı) وتعرف أيضا باسم المحرقة الارمنية والمذبحة الارمنية أو الجريمة الكبرى، تشير إلى القتل المتعمد والمنهجي للسكان الأرمن من قبل الامبراطورية العثمانية خلال وبعد الحرب العالمية الأولى، وقد تم تنفيذ ذلك من خلال المجازر وعمليات الترحيل، والترحيل القسري وهي عبارة عن مسيرات في ظل ظروف قاسية مصممة لتؤدي إلى وفاة المبعدين. يقدّر الباحثين ان اعداد الضحايا الأرمن تتراوح ما بين 1 مليون و 1.5 مليون نسمة . مجموعات عرقية مسيحية أخرى تم مهاجمتها وقتلها من قبل الإمبراطورية العثمانية خلال هذه الفترة كالسريان والكلدان والآشوريين واليونانيين وغيرهم، يرى عدد من الباحثين ان هذه الأحداث، تعتبر جزء من نفس سياسية الإبادة التي انتهجتها الإمبراطورية العثمانية ضد الطوائف المسيحية.

ومن المعترف به على نطاق واسع ان مذابح الارمن تعتبر من جرائم الإبادة الجماعية الأولى في التاريخ الحديث ، والباحثون يشيرون بذلك إلى الطريقة المنهجية المنظمة التي نفذت من عمليات قتل هدفها القضاء على الأرمن ، وتعتبر مذبحة الأرمن ثاني أكبر قضية عن المذابح بعد الهولوكست . وكلمة الإبادة الجماعية قد صيغت من أجل وصف هذه الأحداث.

توجد اليوم العديد من المنشآت التذكارية التي تضم بعض رفات ضحايا المذابح، ويعتبر يوم 24 نيسان من كل عام ذكرى مذابح الارمن، وهو نفس اليوم التي يتم فيه تذكار المذابح الآشورية وفيه تم اعتقال أكثر من 250 من أعيان الأرمن في إسطنبول . وبعد ذلك، طرد الجيش العثماني الأرمن من ديارهم، وأجبرهم على المسير لمئات الأميال إلى الصحراء من ما هو الآن سوريا ، وتم حرمانهم من الغذاء والماء، المجازر كانت عشوائية وتم مقتل العديد بغض النظر عن العمر أو الجنس، وتم اغتصاب والاعتداء الجنسي على العديد من النساء . اليوم أغلبية مجتمعات الشتات الارمني نتيجة الإبادة الجماعية.

جمهورية تركيا ، الدولة التي خلفت الإمبراطورية العثمانية ، تنفي وقوع المجازر التي تؤكدها الأمم المتحدة ؛ وفي السنوات الأخيرة وجهت دعوات متكررة لتركيا للاعتراف بالأحداث بأنها إبادة جماعية. حتى الآن، فقد اعترفت عشرون دولة رسميا بمذابح الارمن بأنها إبادة جماعية ، ومعظم علماء الإبادة الجماعية والمؤرخين يقبلون بهذا الرأي.

1 - نبذة تاريخية

عاش الارمن منذ القرن الحادي عشر في ظل إمارات تركيا متعاقبة كان اخرها الإمبراطورية العثمانية، وقد اعترف بهم العثمانيون كملة منفصلة كاملة الحقوق. وبحلول القرن التاسع عشر أصبحت الدولة العثمانية أكثر تأخرا من غيرها من الدول الأوروبية حتى أنها لقبت بـ -" **رجل أوروبا العجوز**". وقد نالت خلال هذه العديد من الشعوب التي نالت استقلالها منها كاليونان والرومانيون والصرب والبلغار. كما ظهرت حركات انفصالية بين سكانها العرب والأرمن والبوسنيين مما أدى إلى ردود فعل عنيفة ضدهم..

يتهم عبد الحميد الثاني بكونه أول من بدأ بتنفيذ المجازر بحق الأرمن وغيرهم من المسيحيين الذين كانوا تحت حكم الدولة العثمانية . ففي عهده نفذت المجازر الحميدية حيث قتل مئات الآلاف من الأرمن واليونانيين والآشوريين لأسباب اقتصادية ودينية متتعدة. بدأت عمليات التصفية بين سنتي 1894-1896 وهي المعروفة بالمجازر الحميدية. كما قام عبد الحميد الثاني بإثارة القبائل الكردية لكي يهاجموا القرى المسيحية في تلك الأنحاء.

قام أحد أفراد منظمة الطاشناق بمحاولة فاشلة لاغتيال السلطان عام 1905 بتفجير عربة عند خروجه من مسجد, ولكن السلطان عفا عنه. أدت هذه الحادثة والأنقلاب على حركة تركيا الفتاة في 1908 إلى مجازر أخرى في قيليقية كمجزرة أضنة التي راح ضحيتها حوالي 30,000 أرمني .

2 - احتلال المناطق الشرقية من الدولة العثمانية

مع نشوب الحرب العالمية الأولى تطلعت العديد من الشعوب التي كانت خاضعة لسيطرة الدولة العثمانية عليها في نيل الاستقلال وتشكيل بلد قومي لها وكان الارمن من ضمن هذه الشعوب التي كان لها تطلعات بإنشاء وطن قومي وفي عام 1915 م قامت جيوش الامبراطورية الروسية بالزحف نحو الدولة العثمانية واحتلت جوله ميرك ونيروه وفرشين التي تقع حاليا في جنوب شرق تركيا واتجهت القوات الروسية بعد احتلالها هذه المناطق إلى مدينة العمادية. وفي أوائل شهر ايار من سنة 1916 زخفت القوات الروسية بقيادة الجنرال جيورونزبوف نحو بلدة راوندوز تصحبها اربعة افواج من المتطوعين الارمن والنساطرة · وفي الثالث عشر من الشهر نفسه احتلت هذه القوات للبلدة وقامت القوات الروسية تساندها الوحدات الارمنية والنساطرة باحتلال بلدة خانقين وقد قامت **القوات الارمنية بقتل خمسة آلاف** من اهالي **راوندوز وخانقين والمناطق المجاورة** لهما بسبب كون هذه المناطق قد انحازت لجانب الدولة العثمانية في تصدي الهجوم الروسي على هذه المناطق وقد قامت هذه القوات بمصادرة كل المواشي والمحاصيل الزراعية وقد استمر احتلال القوات الروسية والارمنية للمنطقة إلى قيام ثورة أكتوبر في روسيا في عام 1917 م [30]. وقد أدى انتشار أخبار المجازر التي قامت بها الوحدات الارمنية التي كانت تحت امرة الجيش الروسي بالمناطق الكردية إلى نزوح السكان من بلدة **فان** وماجاورها إلى المناطق الجنوبية كالعمادية وزاخو ودهوك والموصل وغيرها من المدن والمناطق الامنة

3 - التهجير والإبادة

خريطة تشرح سير عمليات الإبادة الأرمنية.

خلال فترة الحرب العالمية الأولى قام الأتراك بالتعاون مع عشائر كردية بإبادة مئات القرى الأرمنية شرقي البلاد في محاولة لتغيير ديموغرافية تلك المناطق لاعتقادهم أن هؤلاء قد يتعاونون مع الروس والثوار الأرمن . كما اجبروا القرويين على العمل كحمالين في الجيش العثماني ومن ثم قاموا بإعدامهم بعد انهاكهم . غير أن قرار الإبادة الشاملة لم يتخذ حتى ربيع 1915, ففي 24 نيسان 1915 قام العثمانيون بجمع المئات من أهم الشخصيات الأرمنية في إسطنبول وتم اعدامهم في ساحات المدينة.

بعدها أمرت جميع العوال الأرمنية في الأناضول بترك ممتلكاتها والانضمام إلى القوافل التي تكونت من مئات الالآف من النساء والأطفال في طرق جبلية وعرة وصحراوية قاحلة. وغالبا ما تم حرمان هؤلاء من المأكل والملبس. فمات خلال حملات التهجير هذه حوالي 75 % ممن شارك بها وترك الباقون في صحاري بادية الشام .

4 - أعداد الموتى

يتفق معظم المؤرخين على أن عدد القتلى من الأرمن تجاوز المليون. غير أن الحكومة التركية وبعض المؤرخين الأتراك يشيرون إلى مقتل 300,000 آلاف أرمني فقط ، بينما تشير مصادر ارمنية إلى سقوط أكثر من مليون ونصف أرمني بالإضافة إلى مئات الآلاف من الآشوريين / السريان / الكلدان واليونان البنطيين .

5 - ما بعد التهجير

بسبب هذه المذابح هاجر الأرمن إلى العديد من دول العالم من ضمنهم أرمن سوريا، لبنان، مصر ، العراق. ولا يزال الأرمن يحيون تلك الذكرى في 24 أبريل \ نيسان من كل عام. وحتى الآن لا تعترف دولة تركيا بهذه المذبحة.

عندما دخل الإنجليز إلى إسطنبول محتلين في 13 تشرين الثاني من سنة 1919، أثاروا المسألة الأرمنية ، وقبضوا على عدد من القادة الأتراك لمحاكمتهم غير أن معظم المتهمين هرب أو اختفى فحكم عليهم بالإعدام غيابيا ، ولم يتم إعدام سوى حاكم **يوزغت** الذي أثم بإبادة مئات الأرمن في بلدته.

6 - الاعتراف الدولي

ردا على استمرار إنكار الإبادة الجماعية للأرمن من قبل الدولة التركية، دفع ذلك العديد من الناشطين في مجتمعات الشتات الأرمني من أجل الاعتراف الرسمي من الإبادة الجماعية للأرمن من مختلف الحكومات في جميع أنحاء العالم. وقد اعتمد 20 بلدا و 42 ولايات أمريكية قرارات الاعتراف بالإبادة الأرمنية كحدث تاريخي ووصف الأحداث بالإبادة الجماعية. في 4 مارس 2010، صوتت لجنة من الكونغرس الاميركي بفارق ضئيل بأن الحادث كان في الواقع إبادة جماعية؛ في غضون دقائق أصدرت الحكومة التركية بيانا تنتقد "هذا القرار الذي يتهم الأمة التركية بجريمة لم ترتكبها".

المنظمات الدولية التي اعترفت رسميا بالإبادة الأرمنية تشمل : الامم المتحدة ، البرلمان الأوروبي ، مجلس أوروبا ، مجلس الكنائس العالمي ، منظمة حقوق الإنسان ، جمعية حقوق الإنسان التركية ، جمعية الشبان المسيحيين ، واتحاد اليهود الاصلاحيين .

الدول التي اعترفت رسميا بالإبادة الأرمنية تشمل :

الأرجنتين ، أرمينيا ، بلجيكا ، كندا ، تشيلي ، قبرص ، فرنسا ، اليونان ، إيطاليا ، لتوانيا ، لبنان ، هولندا ، بولندا ، روسيا ، سلوفاكيا ، السويد ، سويسرا ، أوروغواي ، الفاتيكان ، فنزويلا ، البرازيل , بلغاريا , جمهورية التشيك , ألمانيا , لوكسمبورغ ، سوريا والنمسا

المناطق أو المحافظات التي تعترف بالإبادة الأرمنية تشمل :

اقليم الباسك واقليم كتالونيا في إسبانيا ، اقليم القرم في أوكرانيا ، نيوساوث ويلز وجنوب أستراليا في أستراليا ، كيبك في كندا ، و 42 ولاية في الولايات المتحدة الاميركية.

في عام 1997 أصدرت الجمعية الدولية لعلماء الإبادة الجماعية (IAGS) قرارًا يعترف بالإجماع بالمجازر العثمانية بحق الأرمن بأنها إبادة جماعية

وفي 5 أكتوبر 2007 أصدرت الجمعية الدولية لعلماء الإبادة الجماعية ثلاثة اعتراف تشمل أيضًا مذابح آشورية والمذابح بحق اليونانيين البنطيين التي قامت بها الدولة العثمانية على أنها إبادة جماعية. وأطلقت الرابطة الدولية لعلماء الإبادة الجماعية أن الحملة العثمانية التي قام بها الأتراك ضد الأقليات المسيحية في الإمبراطورية بين عامي 1914 و1923 هي إبادة جماعية.

في يوم 15 يونيو 2005 أقر البرلمان الألماني قرارًا: "يكرم فيه ذكرى ضحايا العنف والقتل والطرد في صفوف الشعب الأرمني من قبل وأثناء الحرب العالمية الأولى". القرار الألماني ينص أيضا: "إن البرلمان الألمان يعبر عن استيائه من تصرفات حكومة الإمبراطورية العثمانية بشأن تدمير شبه كامل للمجتمعات الأرمنية في الأناضول، وكذلك عن الدور المخزي للرايخ الألماني في عدم مواجهة طرد والإبادة

المنظمة ضد الأرمن. فالنساء والأطفال والمسنين في فبراير عام 1915 كانو قد ارسلوا في مسيرات الموت باتجاه الصحراء السورية."

وان لم يعترف القرار بالأحداث بشكل رسمي في ألمانيا كعميلة إبادة جماعية، إلا أن القرار ذو اهمية كونه أيضًا يقدم أيضا اعتذار عن المسؤولية الألمانية في عدم التدخل.

لعبت بعض القبائل الكردية دورًا في الإبادة الجماعية، كما كانت أداة هامة تستخدمها السلطات العثمانية لتنفيذ عمليات القتل . في الآونة الأخيرة أعترف وأعتذر عدد من المثقفين الأكراد والأحزاب الكردية الرئيسية مثل الحزب الشعبي الديموقراطي في تركيا، والحزب الديمقراطي الكردستاني، وحزب العمال الكردستاني، بإسم أسلافهم على عمليات القتل والفظائع والتهجير تجاه الأرمن والآشوريين من قبل القبائل الكردية خلال عهد الإمبراطورية العثمانية.

وكان البابا فرنسيس أحيا في أبريل 2015، الذكرى المئوية لمقتل نحو 1.5 مليون أرمني حسب المصادر الأرمنية في العام 1915 ووصفها بأنها « أول إبادة جماعية في القرن العشرين ى»، أثناء قداس في روما في حضور بطريرك كيليكيا للأرمن الكاثوليك **نرسيس بيدروس الـ 19 تارموني**، ورئيس ارمينيا سيرج سركسيانن. وتطرق البابا في بداية القداس الذي أقيم في « كاتدرائية القديس بطرس » إلى « المذبحة العبثية التي وقعت قبل قرن وتلتها النازية والستالينية ». وقال: « من الضروري بل من الواجب أن نحيي ذكراهم، فكلما خفتت الذكرى يدفع الشر الجراح إلى التقيح »، مشيراً إلى أن «إخفاء أو إنكار (وقوع) الشر يجعل الجراح تستمر في النزيف من دون تضميدها» .

6 – 1 - إنكار المجزرة

عقد الأحكام التي نفذتها المحاكم العسكرية التركية بين السنوات 1919-1920 بحق القادة العثمانيين المشاركين في المذابح اعترفت الدولة العثمانية سنة 1919 في الإبادة الجماعية للأرمن (المعروفة آنذاك باسم "جرائم حرب")، وحكم على الجناة حتى الموت. ومع ذلك، في عام 1921، خلال انبعاث الحركة الوطنية التركية، أعطي العفو عن الذين تثبت إدانتهم. بعد ذلك، فإن الحكومات التركية المتعاقبة، بقيادة مصطفى كمال أتاتورك، اعتمدت سياسة الإنكار .

ومع اعتماد سياسة الإنكار اعتمدت المصادر والراوية التركية انكار وجود مذابح يحق الأرمن وأن سبب وفاة الأرمن كان ظروف الحرب والتهجير.

وفي عام 1985م نشر 69 مؤرخاً أميركياً أهمهم **برنارد لويس** بياناً ينفي وقوع أي عملية تطهير عرقي للأرمن من قبل الأتراك ،

في سنة 2005 تم تمرير الفقرة 301 في القانون التركي يجرم فيه الأعتراف بالمذابح في تركيا.

7 - إحياء الذكرى

7 – 1 - النصب التذكارية

هناك أكثر من 135 نصب تذكاري، موزعة على 25 بلدا، احياء لذكرى الإبادة الجماعية للأرمن.

في عام 1965، في الذكرى 50 للإبادة الجماعية، وبدأ احتجاج جماعي على مدار 24 ساعة في يريفان مطالبين الاعتراف بالإبادة الأرمنية من قبل السلطات السوفيتية. تم الانتهاء من النصب التذكاري بعد ذلك بعامين، متحف الإبادة الارمنية يقع فوق الخانق هرازدان في يريفان. شاهده طوله حوالي 44 متر ويرمز إلى النهضة الوطنية للارمن. تم وضع اثني عشر بلاطة في شكل دائرة، وهو ما يمثل 12 مقاطعة في تركيا فقدت في يومنا هذا. في مركز الدائرة هناك شعلة ابدية. في 24 نيسان، يأتي مئات الآلاف من الناس سيرا على الاقدام إلى نصب الإبادة الجماعية ويتم وضع الزهور حول الشعلة الابدية.

نصب تذكاري اخر تم تفجيره، في مدينة الفوتيفلي، فرنسا، بالقرب من باريس، في 3 أيار 1984، من قبل المنظمة التركية الذئاب الرمادية بقيادة **عبد الله جاتلى** ، والتي دفعت من قبل وكالة الاستخبارات التركية.

7 – 2 - ذكرى المجازر

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

يتذكر الأرمن يوم تذكار المذبحة بـ 24 نيسان من كل عام، وهو نفس اليوم التي يتم فيه تذكار المذابح الآشورية وفيه تم اعتقال أكثر من 250 من أعيان الأرمن في إسطنبول.

في 24 نيسان 2015 أحي الأرمن الذكرى المئوية لمذابح الأرمن، حيث دقت الكنائس الأرمينية في العالم، أجراسها 100 مرة في الساعة 19:15 بتوقيت **يريفان**، وذلك رمًزا لوقوع مجازر الأرمن منذ 100 عام، في 1915 علي يد الإمبراطورية العثمانية. وأقيم حفل غنائي كبير في ميدان الجمهورية بوسط العاصمة الأرمينية يريفان . كما حضرت مراسم إحياء الذكرى المئوية لمذابح الأرمن وفود مختلفة من دول العالم وكان من بينهم الرئيسان **الفرنسي فرانسوا أولاند والروسي فلاديمير بوتين** . كما أقامت بطريركية اللأرمن في إسطنبول بحضور أرمن إسطنبول لأول مرة بشكل رسمي ذكرى مذابح الأرمن.

مذابح سيفو

تقديم

مذابح سيفو وتعرف كذلك **بالمذابح الآشورية** أو **مذابح السريان** ، تطلق على سلسلة من العمليات الحربية التي شنتها قوات نظامية تابعة للدولة العثمانية بمساعدة مجموعات مسلحة شبه نظامية استهدفت مدنيين آشوريين / سريان/ كلدان أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى . أدت هذه العمليات إلى مقتل مئات الآلاف منهم كما نزح آخرون من مناطق سكناهم الأصلية بجنوب شرق تركيا الحالية وشمال غرب إيران.

لا توجد إحصائيات دقيقة للعدد الكلي للضحايا، غير أن الدارسين يقدرون أعداد الضحايا السريان / الآشوريين بين 250,000 إلى 500,000 شخص . كما يضاف إلى هذا العدد حوالي مليوني أرمني ويوناني بنطي قتلوا في مذابح مشابهة معروفة بمذابح الأرمن ومذابح اليونانيين البونتيك.

لكن على عكسهما ، لم يكن هناك اهتمام دولي بمجازر سيفو، ويعود السبب إلى عدم وجود كيان سياسي يمثل الآشوريين في المحافل الدولية. كما لا تعترف تركيا رسمياً بحدوث عمليات إبادة مخطط لها.

بدأت هذه المجازر في سهل أورميا بإيران عندما قامت عشائر كردية بتحريض من العثمانيين بالهجوم على قرى آشورية فيه ، كما اشتدت وطأة المجازر بسيطرة العثمانيين عليه في كانون الثاني 1915. غير أن عمليات الإبادة لم تبدأ حتى صيف 1915 عندما دفعت جميع آشوريي جبال حكاري إلى النزوح إلى أورميا كما تمت إبادة وطرد جميع الآشوريين / السريان/ الكلدان من ولايات **فان وديار بكر ومعمورة العزيز**.

1 – التسميات

عرفت هذه المجازر بعدة تسميات محلية لعل أهمها "***سيفو***" وهي لفظة سريانية تعني " **السيف** " في إشارة إلى طريقة قتل معظم الضحايا. كما عرفت سنة 1915 وهي السنة التي بدأت بها المجازر في منطقة طور عابدين بـ -" ***شاتو د سيفو***"، أي " **عام السيف** ". وسميت المجازر كذلك بالأدبيات السريانية بـ " مجازر الشعب الآشوري / السرياني ".

تعرف هذه الحوادث في تركيا شعبيا باسم "Süryani Katliamı" أو "Süryani Soykırımı" بمعنى "المذابح الآشورية / السريانية " بينما تذكر المصادر الغربية المجازر تحت تسميتي "Seyfo" و- "Assyrian Genocide". وبالرغم من ذلك فإن هناك من يعمم جميع المجازر التي تمت في أواخر عهد الدولة العثمانية ضد أقلياتها المسيحية واضعا إياها تحت مسمى واحد على أساس أنها لم تكن تفرق بين مسيحييها في انتماءاتهم العرقية.

2 – الأسباب

أعطى الباحثون عدة أسباب لعمليات الإبادة التي نفذها العثمانيون بحق الأقليات المسيحية بالأناضول ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر. غير أن معظمهم يتفق على يقين القادة العسكريين بأن أي ثورة أو حرب ستؤدي إلى انفصال أجزاء واسعة من الإمبراطورية مثلما حدث في دول البلقان بمنتصف القرن التاسع عشر حين نالت معظم تلك الدول استقلالها. كما أدت محاولات تتريك الشعوب القاطنة ضمن الدولة إلى ردود فعل معارضة أدت إلى انتشار الفكر القومي المعارض لهذه السياسة كالعربي والأرمني والآشوري ، ما أدى إلى أستعمال العثمانيين للعنف في محاولة لدمج تلك الشعوب في بوتق تركي.

بدأت أولى عمليات الإبادة على نطاق واسع سنة 1895 أثناء ما سمي بالمجازر الحميدية عندما قتل مئات الآلاف من الأرمن والآشوريين في مدن جنوب تركيا وخاصة بأضنة وآمد وذلك بعد اتهام الأرمن بمحاولة اغتيال السلطان عبد الحميد الثاني . غير أن السبب الرئيسي من وراء المجازر التي حلت بالآشوريين / السريان هي خشية العثمانيين من انضمامهم إلى الروس والثوار الأرمن وخصوصا بعد فشل حملة القوقاز الأولى في شتاء 1914.

يعتقد المؤرخون أن السبب الرئيسي وراء التورط الكردي في المجازر هو الانسياق وراء حزب تركيا الفتاة الذين حاولوا إقناع الأكراد أن المسيحيين الموجودين في تلك المناطق قد يهددون وجودهم . وبالرغم بعض المجازر التي اقترفها الجيش العثماني ضد مدنيين أكراد في بايازيد وألاشكرت ، إلا أن سياسة الترحيب والترغيب دعت معظم العشائر الكردية إلى التحالف مع الأتراك . كما استغلت ميليشيات كردية شبه نظامية فرصة الفوضى في المنطقة لفرض هيمنتها وهاجمت قرى آشورية وسريانية من أجل الحصول على غنائم .

3 - الوضع قبل الحرب العظمى

شكل الآشوريون / السريان / الكلدان إحدى الأقليات الدينية والعرقية الهامة ضمن الدولة العثمانية، وبالرغم من تواجدهم في مراكز عواصم الولايات العثمانية كالموصل وحلب وآمد إلا أن معظمهم عاش في قرى عديدة في منطقة تمتد من أورميا شرقا إلى ماردين غربا. حيث عاشوا جنبا إلى جنب مع الأكراد والأرمن. ويقدر الباحثين أن عدد المشارقة (الآشوريين والكلدان) تراوح مع بين 400,000 - 500,000 نسمة. كما شكل السريان المغاربة (السريان الأرثوذكس والكاثوليك) عددا مماثلا. ما يجعل عددهم الكلي 700,000 - 1,000,000. وقد انقسموا بحسب مناطق تواجدهم إلى ثلاثة أقسام :

3 – 1 – أورميا

تقع هذه شمال غرب إيران حاليا، بالرغم من كونها اسميا تتبع القاجاريون إلى أنها كانت تقع بشكل فعلي تحت نفوذ الإمبراطورية الروسية. أصبحت مدينة أورميا إحدى أكثر المناطق تطورا حيث شهدت تأسيس جريدة " زهريرا دبهرا "، سنة 1849 والتي تعتبر أول جريدة ناطقة بالسريانية . كما نشط في تلك المنطقة عدة إرساليات مسيحية منذ عشرينات القرن التاسع عشر عملت على إنشاء المطابع ونشر الصحف بهدف تحويل سكانها المسيحيين والذين تبعوا كنيستي المشرق الآشورية والكنيسة الكلدانية الكاثوليكية إلى الأرثوذكسية الشرقية والبروتستانتية . وبالرغم من تحول أعداد ضئيلة جدا إلى تلك الطوائف إلا أن تأثير تلك الإرساليات كان عميقا جدا في المنطقة أدت لحدوث نهضة ثقافية بانتشار الصحافة والتعليم بين سكانها المسيحيين.

3 – 2 – حكاري

مجازر بدر خان

اعتبرت هذه المنطقة من أكثر المناطق وعورة في الدولة العثمانية وتمتد من دهوك جنوبا حتى وان شمالا ، وتمتعت بحكم ذاتي بحكم وعورتها وصعوبة اجتياحها من قبل جيوش نظامية. معظم سكانها كانوا من أتباع كنيسة المشرق الآشورية، واتصف سكانها بنزعة عشائرية وكان يقود كل عشيرة شخص يدعى " **مالك** " وهؤلاء بدورهم يدينون بالولاء لزعيمهم الروحي بطريرك كنيسة المشرق الذي ينحدر من عائلة *شمعون* ويتخذ من " **كنيسة مار شليطا** " ببلدة **قدشانس** بجنوب تركيا مركزا له.

بحلول القرن التاسع عشر بدأت الإمارات الكردية تحاول فرض سيطرتها على هذه المنطقة فقام الأمير الكردي **محمد الراوندوزي** بعدة مجازر استهدفت المسيحيين واليزيديين في مناطق برواري وسنجار كما حاول فرض الديانة الإسلامية بالقوة على المناطق التي استولى عليها، كما قام بمجازر استهدفت غير المسلمين من المسيحيين واليزيديين في مناطق حكاري وبوهتان، كما تعاظمت سلطته واستولى على مناطق الجزيرة الفراتية في وقت كان فيه العثمانيون مشغولين بحملة محمد على باشا في سوريا. غير أن السلطان العثماني سرعان مع أرسل جيوشه فأسقط إمارة سوران الكردية وفرض السيطرة العثمانية على تلك المناطق .

أثار نشاط الإرساليات البروتستانية في المنطقة في اربعينات القرن التاسع عشر ريبة القبائل الكردية فشهدت مناطق سهل نينوى وبرواري سلسة من المجازر بقيادة أمير إمارة بوهتان الكردية **بدر خان** أدت لمقتل عشرات الآلاف من المسيحيين وتدمير العديد من القرى في مناطق العشائر الآشورية. أدى ضغط القوة الغربية من أجل وقف المذابح إلى تدخل الباب العالي على مضض فسقطت فبذلك آخر الإمارات الكردية.

3 – 3 - طور عابدين

مجازر ديار بكر (1895)

كانت هذه المنطقة أهم مراكز تجمع السريان الأرثوذكس كما شهدت تحول البعض منهم إلى الكثلكة فانتشر السريان الكاثوليك كذلك وخصوصا في ماردين. بعكس آشوريي حكاري، لم يكن للسريان في طور عابدين نزعات استقلالية غير أن ما أقلق السلطات العثمانية هو الفرق الكبير في مستويات التعليم بين مسيحيي تلك المناطق ومسلميها ما حذا بالعثمانيين إلى إصدار قرارات تقضي بإغلاق المدارس المسيحية ما لم تكن مفتوحة بفرمان رسمي . وصل المطاف بالسلطات العثمانية في سنة 1884 إلى إصدار قانون يقضي بكون الباب العالي هو من يقرر فتح مدارس في المناطق من عدمها .

تعرضت ولاية ديار بكر بأكملها إلى سلسلة من المجازر سنة 1895 قلصت عدد مسيحييها. وبلغ عدد سكان سنجق ماردين قبيل بداية الحرب العالمية الأولى حوالي 200،000، شكل المسيحيون حوالي خمسي عدد سكانه. كما أصبحت نسبة الأكراد حوالي 50 % من عدد سكان طور عابدين البالغ حوالي 45,000.

4 – المجازر

تلقى **مار شمعون الحادي والعشرون بنيامين** الزعيم الروحي لكنيسة المشرق الآشورية وبطريركها وعودا قبيل دخول الدولة العثمانية إلى الحرب العالمية الأولى بفتح مدارس وتطوير مناطق تركز الآشوريين في حكاري في حالة موافقته على الوقوف حيادا في أي حرب مستقبلية ضد روسيا . وفعلا لم ينضم الآشوريون إلى الروس والثوار الأرمن خلال بدء العمليات العسكرية خريف 1914, حتى أن بطريرك كنيسة المشرق أرسل رسائل إلى رعاياه طلب فيها منهم الولاء لحكامهم المحليين العثمانين وعدم مجابهة الميليشيات التابعة لها.

وبفشل الهجوم الأول للعثمانيين في جبهة القوقاز باتجاه باطومي، قرر هؤلاء أن الطريقة الوحيدة في تحقيق انتصارات في تلك الجبهة تكمن في تغيير الواقع الديمغرافي في المرتفعات الأرمنية وذلك بإبادة وترحيل سكانها الأرمن . غير أن عمليات التصفية لم تشمل الأرمن فحسب

ففي 12 تشرين الثاني 1914 أعلن السلطان محمد الخامس الجهاد على " **أعداء الإسلام** " ، وصادق شيخ الإسلام العثماني على هذه الدعوة بإعلان فتوة الجهاد في 14 تشرين الثاني. وبالرغم من فشل العثمانيون الأولي غير أنهم تمكنوا في يوم رأس السنة 1915 من اختراق الدفاعات الروسية في إيران دون مقاومة تذكر والسيطرة على تبريز وأورميا.

في نفس هذه الفترة في حكاري بدأت المليشيات الكردية العاملة بأمرة العثمانيين بعمليات إبادة شملت قرى أرمنية وآشورية على حد سواء، وخلالها تم نهب وقتل سكان القرى الآشورية / الكلدانية في مقاطعتي ألباق وغاوار الواقعتين جنوب **بحيرة وان** . كما قام العثمانيون باعتقال أعيان السريان في مناطق

" بشكالي " شمالي حكاري وأجبروهم على العمل كحمالين لدى الجيش العثماني كما قاموا بقتلهم بعد انتهاء المهمة الموكلة لهم .

في 15 نيسان 1915 بعث السفير الألماني "فانغنهايم" ببرقية إلى المستشار الألماني يخبره فيها أن مسيحيي **وان** تعرضوا لـ -" **إبادة شاملة** " بتواطؤ من السلطات المحلية.

غير أن العامل الذي حسم دخول الآشوريين الحرب كان اعتقال أخ البطريرك، **هرمز شمعون،** أثناء دراسته في إسطنبول حيث نقل إلى الموصل واستعمل كرهينة فطلب الأتراك من البطريرك عدم تلبية دعوات زعماء العشائر الآشورية بالتحالف مع الروس فرد عليهم بأن حياة رعيته أهم من حياة أخوه . فأعدم هرمز شمعون بالموصل ، ورد البطريرك بالرضوخ لضغوط رؤساء العشائر وأعلن الحرب على الدولة العثمانية في 10 أيار 1915.

4 – 1 - العمليات في ولاية وان (حكاري)

بالرغم من وعود الروس بدعم آشوريي حكاري إلا أنهم لم يرسلوا سوى 400 من الخيالة القوساق الذين أبيدوا من قبل الميليشيات الكردية قبل وصولهم إلى جبال حكاري. فالتجأ الآشوريون بقيادة شمعون بنيامين إلى أعالي الجبال حيث كان من الصعب على الجيوش النظامية اختراقها . غير أن الأتراك أبقوا قواتهم في المناطق المحيطة بها لعلمهم أن ثلوج تشرين سترغم الآشوريين على النزول. يروي البطريرك في رسالة موجهة إلى القيادة الروسية الوضع في جبال حكاري :

بعد شهر من المعارك مع الأكراد، أرسل مهدي باشا حاكم الموصل العثماني وحدات عثمانية مزدوة بمدافع ثقيلة. فقاموا باحتلال قرانا وحرقها... يعيش الآشوريون الآن في قمم الجبال بـ - " تياري " و " تخوم ا" مرورا بـ - " ديز "، وهم يموتون بسبب نقص الغذاء. ليست لدينا أي عتاد والأتراك يحاصروننا، لقد نفذت خياراتنا.

4 – 1 – 1 - المسيرة إلى أورميا

علم شمعون بنيامين أن حلول الشتاء سيعني الإبادة الشاملة لرعيته، فسافر إلى إيران حيث حاول إقناع الروس بإرسال قوة ثانية لمساندة المحاصرين الآشوريين، غير أن هؤلاء أعلموه باستحالة الأمر ونصحوه بعدم العودة إلى حكاري لأن هذا سيعني مقتله ، غير أنه سرعان ما عاد وتمكن من قيادة معظم المحاصرين في طريق وعر لم يحسب العثمانيون حسابه إلى أورميا فوصل حوالي 50,000 منهم إلى سهل أورميا واستقروا في بلدات سالماس وأورميا، وهلك الآلاف جوعا وتعبا أثناء عبورهم الجبال الممتدة بين حكاري وأورميا .

بعد أن اتضح للعثمانيين أن سكان الجبال تمكنوا من الفرار قاموا بالهجوم على القرى المسيحية الواقعة في السهل الفاصل بين مرتفعات حكاري **وبحيرة وان** غير أنهم انسحبوا غربا بعد أن ثبت الروس سيطرتهم على مدينة **وان** في صيف 1915.

4 – 2 - المجازر في سعرت

بالرغم من فرار العديد من سكان قرى حكاري الجبلية ، لقى سكان المدن والسهول الواقعة في مرتفعات أرمينيا مصيرا مختلفا. فبعد هزيمتهم أمام الروس في **وان** بنيسان 1915, انسحبت الخيالة الحميدية المكونة من ميليشيات كردية شبه نظامية إلى **سعرت** حيث قامت في حزيران 1915 باعتقال جميع الرجال الكلدان في البلدة وسلب بيوتهم بأمر من حاكمها **حلمي باشا** .

ويروي شهود عيان كيف قام المهاجمون بتعرية المعتقلين من من ملابسهم وقتلهم بالسلاح الأبيض . بعد عدة أيام صدرت أوامر بترحيل ما تبقى من نساء وأطفال من سعرت وسبعين قرية مسيحية بتلك المنطقة ، فسيروا مسافة 100 كم بصحبة خيالة كردية إلى ماردين وقبل وصولهم إليها أرسل حاكمها **بدري باشا** برقية طلب فيها من الخيالة تصفية جميع من معهم من الأطفال والنساء . فجلبوا إلى وادي يعرف باسم **واويلا** حيث قام الخيالة معززين بمئات الرجال والنساء الأكراد من القرى المجاورة بقتل معظمهم بالسيوف والخناجر والحجارة ولم يسلم منهم إلا من تظاهر بالموت .

وفي نفس الوقت توجهت قوات **جودت باشا . وخليل باشا** التي كانت متمركزة في حكاري إلى قرى سنجق سعرت حيث تواجد حوالي 60,000 مسيحي معظمهم من الكلدان والسريان الأورثوذكس وقاموا بإبادة جميع سكان القرى المسيحية.

ويروي رافايل دي نوغاليس مينديز، وهو ضابط فنزويلي كان يحارب بإمرة العثمانيين كيف أن المجازر كان قد خطط لها مسبقا من قبل السلطات العثمانية فلدى وصوله إلى سعرت يروي دي نوغاليس ما شاهده :

رافايل دي نوغاليس مينديز بلباس عسكري عثماني ،
وهو مرتزقة فنزويلي خدم كضابط في الجيش العثماني أثناء الحرب العالمية الأولى

كان بالإمكان مشاهدة آثار المجازر في التلال المطلة على الطريق الرئيسي، والتي غطت سفوحها الكئيبة آلاف الجثث شبه العارية والمدمية، ملقية في كوم أو متعانقة خلال شهقات الموت الأخيرة. تمكنت مع رجالي من دخول سعرت بصعوبة لتراكم الجثث التي اعترضت سبيلنا في الطريق. وهناك شاهدنا كيف قام بعض سكانها بمرافقة الشرطة المحلية بسلب بيوت المسيحيين. لدى وصولنا إلى السراي التقينا بالحكام المحليين الذين كانوا مجتمعين بجودت باشا ومن حديثهم استنتجت أن المجزرة تم التخطيط لها البارحة من قبل جودت باشا شخصيا.

ويروي دي نوغالس كذلك أنه لدى حديثه مع **محمد رشيد باشا** والي ديار بكر، ابلغه الأخير أنه استلم أوامر الإبادة من خلال برقية من طلعت باشا وزير الحرب تحتوي على ثلاث كلمات : أحرق - دمر - أقتل (Yak – Vur - Öldür).

4 – 3 - مجازر ولاية ديار بكر

ذكر جوزيف نعيم ، وهو قسيس كلداني نجى في مجازر الرها في كتابه "هل ستفنى هذه الأمة , أن عمليات الترحيل القسرية بدأت خلال آذار 1915, حين وصلت المدينة قوافل المرحلين الأرمن من الأرياف المحيطة بها وهم في حالة مزرية. بينما بدأت عمليات الإبادة بالشهر اللاحق وطالت جميع المسيحيين بدون أستثناء . حيث قاموا بجمع بعض الذكور الآشوريين / السريان ابتداء من عمر السادسة عشر وقاموا بتعذيبهم وقتلهم في ساحات المدينة. ثم قاموا بتصويرهم على أساس أنهم أتراك تم قتلهم من قبل المسيحيين .

أما في مركز الولاية **آمد** (دياربكر) فقد قامت السلطات بداية باعتقال وإعدام الآلاف من أعيانها الأرمن والسريان على يد واليها محمد رشيد باشا قبل أن يقوموا بتصفية وترحيل البقية. ويقدر عدد القتلى بها من السريان بما بين 70,000 إلى 100,000.

4 – 3 – 1 - مجازر طور عابدين

خلال شهر حزيران 1915 بدأت القوات بالهجوم على القرى السريانية بمنطقة الجزيرة الفراتية. ففي 10 حزيران وقعت مذبحة ماردين وما حولها، وفي 14 حزيران هوجمت نصيبين. أما في نصيبين فقد رفض حاكمها التركي نوري باشا دخول الجيش بها لعلمه أن هذا سيؤدي لوقوع مذبحة. عندها أمر محمد رشيد باشا والي ديار بكر باغتياله ، فوقعت بعدها في الحادي والعشرون من نفس الشهر مجزرة بمديات.

وبعد عودته من سعرت التقى خليل باشا ببعثة يقودها ناجي باشا ومدعومة بمستشارين عسكريين ألمان لعل أهمهم **شوبنر- ريختر**، والذي أصبح لاحقا أحد مؤسسي الحزب النازي بألمانيا ، كانت مهمة هذه البعثة تنسيق العمليات في طور عابدين . بالرغم من أفكاره العنصرية إلا أن شوبنر- ريختر غالبا ما اعترض على سياسة الإبادة التي اتخذها القادة الأتراك، كما تبين من مراسلاته مع القيادة العليا ببرلين. لاقت هذه البعثة مقاومة شديدة لدى محاولتها دخول بلدات آزخ وعين وردو وباصبرين السريانية، ما دعا القادة العثمانيين إلى تسميتها بـ - " **انتفاضة مديات** ". وبالرغم من حشد أعداد متزايدة من القوات العثمانية في محاولة دخول تلك البلدات إلى أن فشلها المستمر في ذلك جلب إليها انتباه كبرى القيادات العسكرية ومنها الجنرال الألماني **فون در غولتز** أهم القادة الألمان الناشطين في الدولة العثمانية. فأرسله أنور باشا على رأس فيلق من الجيش الثالث العثماني لإخضاع المنطقة، وبعد عدة معارك فشل العثمانيون والألمان في دخول كلا من آزخ وعين وردو. فتم الاتفاق على وقف لإطلاق النار بين الطرفين.

في 29 تشرين الأول أرسل ناجي باشا برقية جاء فيها أن السريان في الجزيرة وديار بكر ومديات ثاروا وبدأوا بمذابح ضد المسلمين. كما طلب تزويده بفيلق إضافي ومدفعية ثقيلة . وخلال الاسابيع اللاحقة التقى بأعيان آزخ وطلب منهم تسليم اسلحتهم وترك ممتلكاتهم لترحيلهم. كما طلب من شوبنر- ريختر الضغط على الألمان من أجل إرسال المزيد من القوات لحصار البلدات السريانية. غير أن الأخير لم يقتنع بالحجج التي ساقها ناجي باشا بل أنه لم ينظر إلى الوضع القائم كعصيان بل كـ - " محاولة شرعية " من السريان لحماية أنفسهم من المصير الذي لاقاه الأرمن . ولكي لا يتم اتهام الألمان بارتكاب مجازر بحق المسيحيين العثمانيين، طلب من جميع القادة الألمان الانسحاب من طور عابدين ووضع رجالهم تحت تصرف قادة أتراك.

4 – 3 – 2 - معركة آزخ

في 7 تشرين الثاني رفض ناجي باشا مقابلة وفد أعيان آزخ وامر قواته المعززة بالخيالة والمدفعية الثقيلة بالهجوم على البلدة. وخلال الهجوم الأولي فشل الأتراك في اقتحام القرية وقتل ضابط تركي بالإضافة إلى العديد من الجنود أثناء محاولتهم تسلق أسوارها . كما لم ينجح قصف البلدة بالمدفعية في إخضاعها، وباءت محاولات حفر خنادق تحت أسوارها بالفشل .

في رسالة موجهة إلى المستشار الألماني **بتمان هولفيغ** يشرح فيها الوضعية في منطقة طور عابدين، عبر السفير الألماني في إسطنبول عن قناعة قائد القوات الألمانية في الدولة العثماني بأن ما يحدث ليس انتفاضة بل محاولة من السريان الذين تحصنوا بمناطق جبلية وعرة بين ماردين ومديات لتجنب مصير الأرمن. كما نقل عن القنصل الألماني في الموصل رغبة واليها بوقف العمليات العسكرية ضدهم .

استمر الحصار على آزخ وقام الأتراك باستدعاء الآلاف من قواتهم المتمركزة في الموصل وسوريا لإخضاع البلدة . غير أن نقطة التحول في المعركة كانت في ليلة 13-14 تشرين الثاني، عندما تسللت مجموعة من " **فدائيي يسوع** "، وهي مجموعة قتالية شكلها سريان آزخ ، إلى معسكر الأتراك وبدأوا بقتل الجنود وهم نائمون فدب الذعر بينهم وسارعوا بإطلاق النار على بعضهم بعضا في خضم الفوضى التي وفرت أعداد كبيرة منهم تاركة أسلحتها الثقيلة غنيمة لأهالي البلدة، فسارع ناجي باشا إلى عقد الصلح معهم.

4 – 4 - المجازر والمقاومة في أورميا

بالرغم من كون منطقة أورميا تحت حكم القاجاريين إلا أن وقوعها في منطقة النفوذ الروسي وقربها من الحدود العثمانية جعلها من أهم الأهداف التي حاول العثمانيون الأستحواذ عليها خلال شتاء 1914. فشلت هذه الحملة في البداية غير هجوما ثانيا في رأس السنة حقق نتائج غير متوقعة فتمكن

العثمانيون من التغلغل بشمال إيران وسيطروا على أورميا وتبريز. شن الروس هجوما مضادا في ربيع 1915 تمكنوا خلاله من استعادة تلك المناطق إضافة حتى أنهم وصلوا إلى بحيرة **وان** بحلول الصيف.

تعرضت القرى الآشورية المحيطة شرقي بحيرة أورميا إلى مجازر من قبل العثمانيين خلال فترة سيطرتهم عليها ، ففي كانون الثاني 1915 دخلت قوة عثمانية بقيادة " **كشلي خان** " **بلدة غولباشان** ، والتي كانت إحدى أكثر بلدات المنطقة ازدهارا، وقاموابتدميرها ولم ينج من سكانها سوى المئات. وفي **خوسروفا** قام العثمانيون بجمع حوالي 7,000 نسمة من سكان القرى المجاورة وذبحم مع سكان البلدة، وفي " **حفتفان** " تم قطع رأس 750 من الرجال بعدها قام الأكراد بترحيل 5,000 من نساء البلدة معهم. وتم حرق 200 شخصا في " **كنجار** " . كما حدثت مجازر في كل من " غيوغتابي " و" آدا " ، بالإضافة إلى قرى آشورية / كلدانية أخرى , كما قام العثمانيون قبيل انسحابهم بجمع الذكور الآشوريين في بلدة سلماس بحجة أحصائهم، حيث قاموا بقطع رؤوسهم.

لم تشهد أورميا خلال الفترة بين صيف 1915 أي تاريخ سيطرة الروس عليها وحتى 1917 عمليات عسكرية تذكر. غير أن الوضع تغير في ربيع 1917 عندما بدأ الروس بالتقهقر تحت وطء القلاقل الداخلية في روسيا نفسها والضغط الألماني على جبهتها الشرقية فقاموا بسحب قواتهم من جبهتها الجنوبية فتبعهم الآلاف من الآشوريين والأرمن مخافة تكرار المجازر العثمانية. وهنا مرة أخرى وجد الآشوريون أنفسهم محاصرين من قبل الأكراد والعثمانيين، بيد أنهم كانوا أكثر تنظيما وعدة هذه المرة . فقاموا بالاتصال بالبريطانيين الذين كانوا قد دخلوا بغداد في 8 آذار 1917، في محاولة لفتح خطط إمدادات يمتد من بغداد إلى القوقاز. فشكل جيش آشوري من جناحين : شرقي بقيادة **آغا بطرس**، وغربي تحت أمرة **أخ شمعون بنيامين** .

وفي حزيران 1917 قاد شمعون بنيامين مقاتليه مخترقا الحدود العثمانية واشتبكوا مع الميليشيات الكردية في "مرغاوار" و"ترغاوار" (سهل غاوار) في حكاري وانتصروا عليهم. ومكثوا في تلك القرى المدمرة عدة أيام قاموا خلالها بجمع عظام ضحايا مجازر 1915 ودفنها. ومن ثم هاجموا القائد الكردي " **سوتو**" في معقله بـ - " أورامار " غير أنه تمكن من الفرار، كما تقدمت البعثة واستولت على " أتروش " و" أربوش " . غير أن هدفهم الرئيسي كانت قلعة " شال " المركز الرئيسي لـ " سوتو " فتمكنوا من السيطرة عليها وإحراقها .

أدت ثورة تشرين الأول الروسية إلى انهيار كامل للجيش الروسي الجنوبي، وبعد محاولات فاشلة من قبل شمعون بنيامين للاتصال بالعاهل القاجاري من أجل ملء الفراغ الذي تركه الروس في سهل أورميا ، نشبت معارك بين المسيحيين والمسلمين للسيطرة على أورميا انتهت بانتصار الآشوريين في شباط 1918 فشكلوا حكومة مدنية لتسيير أمور تلك المناطق.

4 – 4 – 1 - اغتيال شمعون بنيامين

لم تطل سيطرة الآشوريين على الأمور في سهل أورميا، حيث استغل **سمكو شيكاك** أحد أبرز قادة الأكراد في إيران فرصة اختفاء النفوذ الروسي والتركي بها في محاولة لإرساء سلطته فيها . فدعى البطريرك الآشوري الذي دأب على تفقد أحوال المدن الواقعة تحت سيطرته ، إلى زيارته في معقله **بسلماس** وقام باغتياله . ويروي جون جوزيف، أحد مؤرخي تلك الفترة، حادثة اغتياله :

عادت الفوضى إلى المنطقة مرة أخرى. فدعا سمكو بإيعاز من حاكم تبريز مار شمعون إلى مشاورات ودي ة. فاستقبله برحابة وقبّله لدى مغادرته ، ثم أمطر البطريرك ومرافقيه بوابل من الرصاص ، هكذا كانت التقاليد في حوليات الغدر في الشرق.

أدى مقتل الرجل الذي قاد الآشوريين خلال فترة المجازر في حكاري إلى توجيه ضربة معنوية قوية لهم. وانتقم آشوريو حكاري بقتل المسلمين في "دلمان" و"سلماس" وفر "سمكو" بعدها إلى "خوي" مع رجاله فقتلوا مسيحييها.

4 – 4 – 2 - النزوح إلى العراق

بعد سقوط **وان** بيد العثمانين التجأ 20,000 من سكانها الأرمن إلى " سلماس " بعد أن لاحقهم " نوري باشا ". وبحلول صيف 1918 بدأ البريطانيون باحتلال شمال بلاد فارس، وطلبوا من الآشوريين والأرمن دعم القوات البريطانية المتواجدة في " ساين قالا ". فانطلق آغا بطرس إلى *سوج بولاق* حيث

اشتبك مع قوة كردية وتركية فردها إلى راوندوز. غير أن نشوب خلافات بين جنوده الآشوريين والأرمن وبدلا من وضع رجال لمراقبة *سوج بولاق* في حالة عودة الأتراك المهزومين، زحف بكامل قوته إلى *ساين قالا* لملاقاة البريطانيين ليكتشف أن هؤلاء انسحبوا بعد تأخر الآشوريين . وأثناء غياب بطرس آغا الطويل انتشرت إشاعات أن تلك القوة قد أبيدت من قبل العثمانيين ووصلت أخبار عن تقدم الأتراك والأكراد ما دعا العديد من سكان أورميا الآشوريين إلى النزوح جنوبا باتجاه مناطق سيطرة البريطانيين، فقتل العديد منهم بعد أن لاحقهم الأكراد والأتراك وانتشرت الأوبئة كالتيفوئيد والحصبة والملاريا، وسقط الآف منهم على قارعة الطرق بعد أن انهكهم التعب. بينما أبيد من فضل البقاء في أورميا وعلى رأسهم **توما أودو** البطريرك الكلداني بالمدينة . ويقدر عدد الذين قضوا في هذه المسيرة بأكثر من 17,000 آشوري.

قام البريطانيون لاحقا بنقل اللاجئين الآشوريين إلى مخيمات اقيمت لهم في بعقوبة بسبب انتشار مجاعة في إيران ومن ثم الحبانية.

5 - التهجيرات اللاحقة وإعادة التوطين

بعد انتصار الأتراك في حرب الأستقلال التركية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك، قاموا بترحيل آخر من تبقى من السريان والأرمن في مناطق الجزيرة العليا وقيليقية وقد هاجر معظم هؤلاء إلى مدن سوريا الشمالية وخاصة حلب فتضخم عدد سكانها.

ويروي الشيخ كامل الغازي في كتابه *نهر الذهب في تاريخ حلب* أن نسبة الأرمن فيها ارتفعت من بضعة عوائل إلى حوالي ربع سكان حلب كما شكل السريان نسبة كبيرة فارتفعت نسبة المسيحيين فيها إلى أكثر من 40 %. كما قام النازحون السريان / الآشوريين من ماردين ونصيبين بالاستيطان بمدينة القامشلي على في الجهة السورية المقابلة لنصيبين. بالإضافة لذلك نزح أغلب السريان الكاثوليك إلى بيروت فعاشوا بالبداية بمخيمات بالقرب فيما أصبح لاحقا حي *السريان* ولم يحصلوا على الجنسية اللبنانية حتى سنة 1971.

عاد معظم الآشوريين الذين فروا من أورميا سنة 1918 إلى ديارهم بعد أن استقر الوضع هناك بسيطرة الحكومة الإيرانية عليها وموافقتها بمضض على عودة النازحين إليها. كما عاد معظم الآشوريين الذين هجروا من مناطق **برواري** الواقعة ضمن حدود المملكة العراقية إلى قراهم هناك، غير أن هجمات العشائر الكردية المتالية أجبرتهم على الرحيل فاستقروا نهائيا في المدن الكبرى كبغداد والموصل والبصرة . غير أن معظم النازحين تشكلوا من آشوريي حكاري التي رفضت تركيا دعوات آغا بطرس لاستقبالهم أثناء الاتفاق على معاهدة لوزان . كما بائت محاولات توطينهم في منطقة " **بردوست** " بكردستان العراق بالفشل، وتم رفض مقترحات بتوطينهم في كندا. فتم الاتفاق على توطين بعضهم في مناطق جنوبي محافظة دهوك حاليا. غير أن الجيش العراقي سرعان ما دمر معظم تلك القرى وقتل حوالي 3,000 آشوري فيما عرف بمجزرة سميل سنة 1933 بعد انتشار إشاعات عن رغبتهم بتكوين كيان مستقل . فانتقل حوالي 15,000 إلى سوريا حيث استقروا في عدة قرى على ضفاف نهر الخابور بمحافظة الحسكة.

6 - طرق الإبادة

تم استخدام العديد من الطرق في قتل المدنيين، وقد كان استخدام السلاح الأبيض الأكثر شيوعا لكونه غير مكلف ومنه انحدر اسم المجازر بالسريانية. ويروى أنه في بداية المجازر في آمد (ديار بكر) أعتقل حوالي الألف من أعيان البلدة من الأرمن والسريان / الكلدان في بتهمة حيازة أسلحة وبعد أن جمع مبلغ مالي مقابل إطلاق سراحهم قرأ عليهم المفتي خبر الصفح عنهم، وبعد أن سيقوا في شواع البلدة وضعوا في عوامات خشبية على نهر دجلة ليتم إيقافهم في ملتقى نهر بطمان بدجلة جنوبي المدينة حيث عروا من ملابسهم وذبحوا ورمت جثثهم بالنهر . كما قامت السلطات بأخبار أهاليهم بوصولهم سالمين إلى الموصل. وقد قام العثمانيون بهذه العملية عدة مرات حتى أنه يروى أن أهالي الموصل كانوا يشاهدون وصول العوامات الخشبية الفارغة متبوعة بجثث المقتولين طافية على النهر، فقام القنصل الألماني هناك بالاحتجاج لدى والي الموصل غير أن الأخير ألقى اللوم على والي ديار بكر جودت باشا . حاولت السلطات بعدها

إجبار بطريرك المدينة على الأرمن توقيع وثيقة ترجيء وفات الأعيان لأسباب طبيعية غير أنه رفض، فقاموا بقلع أسنانه ونتف لحيته وتم اغتصاب زوجته وقتلها ثم فقأوا عينيه ودقوا مسمارا بجبينه.

أثناء مجازر نصيبين وجزيرة ابن عمر الثانية في آب 1915 اقتيد الرجال إلى وادي بعيد وتم ذبحهم بعد تخييرهم بين الموت ودخول الإسلام. فقتلوا خلال يومين 800 رجلا. بعد يومين أرسلت بقية العوائل في عوامات خشبية، وبأعالي النهر تم التقاطهم في قرية كردية وتم اغتصاب النسوة وقتلهن ورمي جثثهن بالنهر.

تعتبر قرية **قرة باش** شمال شرق آمد من أولى القرى السريانية التي تم إبادة سكانها بشكل شبه كامل. فبحد أن تم تجميع جميع قطع الأسلحة فيها، دخلها مجموعة من خمسين رجلا وقاموا بجمع الرجال بها وقتلهم بعدها قام مسؤولان من حركة تركيا الفتاة بتحريض سكان قرية كردية مجاورة بالهجوم على قرة باش واعدين إياهم بالغنائم مقابل إبادة سكانها. وبالفعل هوجمت القرية في أيار 1915 فنهبت المنازل وأحرقت كما قام المهاجمون باغتصاب النسوة وقتلهن .

لاحقا، تم استهداف قرية " **قابية** " ، فالتجأ سكانها إلى كنيسة " مور قرياقوس " ، فتم جمع الرجال وربطهم وحرقهم في حضائر بينما اغتصبت النسوة في الكنيسة وقتلن بالفئوس.

كما وبالرغم من صدور قرار يعفو عن جميع غير الأرمن من المسيحيين. فإنه لدى ترحيل قافلة من النساء والأطفال باتجاه ماردين قام **رشيد باشا** بإيقافها في قرية " غوليكه " وجمع 800 طفل في أحد المباني وقام بإشعال النار فيه شخصيا.

7 - الاعتراف الدولي

لم تحض مذابح سيفو باهتمام رسمي كبير، وهو نقيض ماحصل أثناء وقوع مذابح الأرمن. ونقل عن المؤرخين الآشوريين أن مثل هذه الحادثة لم تتم بسبب عدم تكوين كيان سياسي يمثل الآشوريين / السريان / الكلدان في المحافل الدولية في القرن العشرين. وفي تلك الحالة ، فإن المذابح التي حدثت لهم في الأناضول تم ربطها مذابح الأرمن. غير أن السنوات الأخيرة شهدت اعترافا من دول ومنظمات بالمجازر التي حدثت للآشوريين / السريان علنا.

في كانون الأول 2007 أصدر المؤتمر الدولي لدارسي الإبادات ، وهي المنظمة الأكاديمية الرئيسية دوليا في مواضيع الإبادات العرقية ، وثيقة صوت عليها بالإجماع تدعوا إلى الاعتراف بالمجازر الآشورية، وأعلن فيها ما يلي :

بحيثية كون إنكار الإبادة الجماعية هي المرحلة النهائية في فعل الإبادة الجماعية، وتكريس الإفلات من العقاب لمرتكبي جرائم الإبادة الجماعية، وتمهيد الطريق لجرائم إبادة جماعية في المستقبل؛

ولما كانت الإبادة الجماعية ضد الأقليات العثمانية خلال وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى تصور عادة على أنها حرب إبادة ضد الأرمن حصريا، وغياب الاعتراف بجرام الإبادة المتماثلة نوعيا ضد مسيحيي الأقليات العرقية الأخرى في الإمبراطورية العثمانية؛

فليكن واضحا أن المؤتمر الدولي لدارسي المذابح يعتبر الحملات العثمانية ضد الأقليات المسيحية في الإمبراطورية ضمن عامي 1914 و1923 جرائم إبادة جماعية ضد الأرمن والآشوريين واليونانيين الأناضوليين والبنطيين.

وعلاوة على ذلك فليكن واضحا أن المؤتمر يطالب الحكومة التركية بالاعتراف بالإبادات الجماعية ضد هذه الأقليات، كما يطالب المؤتمر بنشر اعتذار رسمي والقيام بخطوات جدية من أجل تعويض المتضررين.

وفي عام 2008 قرر البرلمان السويدي الاعتراف بالمجازر ضد الآشوريين / السريان/ الكلدان كجرائم إبادة.

كما قامت شخصيات ومؤسسات كردية بالاعتذار عن دور الأكراد في مجازر الأرمن والآشوريين واليونان . وأصدر البرلمان الكردي في المنفى بيانا جاء فيه :

لقد تم التخطيط والإعداد للإبادة من قبل ، كما تم استخدام الخيالة الحميدية المكونة من عشائر كردية للقيام بالإبادة التي لم يكن التاريخ يعلم بها بعد. خلال هذه المجازر قتل الملايين من الأرمن والآشوريين / السريان، كما تم ترحيل ملايين آخرين من أراضيهم إلى كافة أصقاع المعمورة...

اليوم ، في الذكرى 82 للمجازر التي حلت بالشعب الآشوري / السرياني والشعب الأرمني، نشاركهم الحزن، ونلقي باللوم وندين بشدة الدولة العثمانية ومن تعاون معها من بعض العشائر الكردية.

7 – 1 - إنكار المجازر

تعتبر تركيا وأذربيجان الدولتان الوحيدتان اللتان تنكران حدوث مجازر في عهد الدولة العثمانية . فبحسب الدولة التركية لم تكن هناك خطة منظمة لإبادة الأرمن والآشوريين في اراضيها. كما تعتبر أن الأعداد مبالغ بها وأن الجيش العثماني لم يكن له يد في قتل المدنيين وقد وقع 69 من الأكاديميين الأمريكيين أبرزهم برنارد لويس على بيان موجه للكونغرس الأمريكي سنة 1985 يحثه فيه على عدم الأعتراف بالمذابح العثمانية ضد مواطنيها المسيحيين ,

تختصر أسباب نقص أعداد المسيحيين في تركيا بحسب رأي مشككي المجازر في التالي :

الصراع الطائفي والعرقي : كانت للكراهية المتبادلة بين الأرمن والأكراد الدور الأكبر في حدوث مجازر بين المسيحيين والمسلمين في تلك النواحي. كما قام مسلمون باعمال القتل بعد أن رفع مسيحيو الدولة العثمانية شعار " فليسقط الهلال " بحسب ما وردته صحيفة تركية سنة 1896.

المجاعة : العديد من الضحايا سقطوا نتيجة المجاعة التي شملت أجزاء من أوروبا والشرق الأوسط بنهاية الحرب، والتي تسبب بها الحصار الذي فرضه الحلفاء على واردات القمح إلى الدولة العثمانية وقيام هؤلاء بالاستيلاء على محاصيل الفلاحين في سوريا لاستخدامها في تموين جنودها.

قامت الحكومة التركية بتبني قرار " إهانة الهوية التركية " في 1 حزيران 2005، والذي يجعل الاعتراف بحدوث مجازر في عهد الدولة العثمانية جريمة يعاقب عليها القانون.

في صيف 2011 تم كشف النقاب عن كتاب مدرسي في تركيا عن السريان وفيه يتم إنكار حدوث أي مجازر بحقهم خلال الحرب العالمية . يذكر الكتاب أن السريان طعنوا تركيا في الظهر وتحالفوا مع الروس , وأنهم لا زالوا " **عملاء بيد الدول الغربية** ".

7 – 2 - ذكرى المجازر

يعتبر يوم 24 نيسان من كل عام ذكرى مجازر سيفو، وهو نفس اليوم التي يتم فيه تذكار مجازر الأرمن وفيه تم اعتقال أكثر من 250 من أعيان الأرمن في إسطنبول. كما يحتفل كذلك بيوم 7 آب بذكرى المجازر الآشورية في الحرب العالمية الأولى ومجزرة سميل على حد سواء.

ويتم ازاحة الستار عن نصب تذكارية لتذكار المجازر كما حدث في أرمينيا وأستراليا وفرنسا والسويد والولايات المتحدة وغيرها من دول المهجر التي تحوي على كثافة سكانية عالية نسبيا من الآشوريين / السريان / الكلدان.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

إيالات الدولة العثمانية

تقديم

الإيالة في التقسيم الإداري العثماني كانت تشكل المستوى الإداري الأولي (الأعلى) بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر. كان يرأس الإيالة **باشا** . ظل نظام الإيالات ساريًا إلى أن تم استبداله بنظام الولايات.

كانت الدولة العثمانية مقسمة آنذاك إلى ايالات ، والايالات إلى سناجق ، والسناجق إلى أقضية ، والأقضية إلى نواح ، والنواحي إلى قرى.

قائمة بالإيالات حسب التسلسل الأبجدي

1	إيالة الإحساء
2	إيالة أدرنة
3	إيالة أرضروم
4	إيالة اسطنبول
5	إيالة أضنة
6	إيالة أغر
7	إيالة الأناضول
8	إيالة أنقرة
9	إيالة أوزو
10	إيالة أويوار
11	إيالة آيدين
12	إيالة البصرة
13	إيالة بغداد
14	إيالة بودا
15	إيالة بودوليا
16	إيالة البوسنة
17	إيالة تشلدير
18	إيالة تمشفار
19	إيالة تونس
20	إيالة الجزائر
21	إيالة جزائر بحر إيجة
22	إيالة الحبشة
23	إيالة حلب
23	إيالة دمشق
25	إيالة ديار بكر
26	إيالة ذو القدر
27	إيالة الرقة
28	إيالة الروم
29	إيالة الروملي
30	إيالة زيكتوار
31	إيالة سالونيك
22	إيالة سيلسترا

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

33	إيالة شهرزور
34	إيالة صيدا
35	إيالة طرابزون
36	إيالة طرابلس الشام
37	إيالة طرابلس الغرب
38	إيالة فيدين
39	إيالة قارص
40	إيالة قبرص
41	إيالة القرمان
42	إيالة قسطموني
43	إيالة كافا
44	إيالة كريت
45	إيالة كنيجة
46	إيالة مصر
47	إيالة مناسطير
48	إيالة المورة
49	إيالة الموصل
50	إيالة نيش
51	إيالة نوغاي
52	إيالة الهرسك
53	إيالة هودافيندیغار
54	إيالة واراد
55	إيالة وان
56	إيالة يانينة
57	إيالة اليمن

أسباب سقوط الدولة العثمانية

عود سريع على بدأ

الدولة العثمانية : 699 - 1343 هـ

العثمانيون من شعب الغز التركي ، وأصلهم من بلاد التركستان ، نزحوا أمام اكتساح جنكيز خان لدولة خوارزم الإسلامية ، بزعامة سليمان الذي غرق أثناء عبوره نهر الفرات سنة 628 هـ فتزعم القبيلة ابنه أرطغرل الذي ساعد علاء الدين السلجوقي في حرب البيزنطيين فأقطعه وقبيلته بقعة من الأرض في محاذاة بلاد الروم غربي دولة سلاجقة الروم . وهذه الحادثة حادثة جليلة تدل على ما في أخلاقهم من الشهامة والبطولة.

ويعتبر عثمان بن أرطغرل هو المؤسس الأول للدولة العثمانية ، وبه سميت ،عندما استقل بإمارته سنة 699 هـ وأخذت هذه الإمارة على عاتقها حماية العالم الإسلامي ، وتولت قيادة الجهاد ، وأصبحت المتنفس الوحيد للجهاد ، فجاءها كل راغب فيه...

وفي عام 923 هـ انتقلت الخلافة الشرعية لسليم الأول بعد تنازل المتوكل على الله أخر خليفة عباسي في القاهرة...

وبهذه العاطفة الإسلامية المتأججة في نفوسهم ممتزجة بالروح العسكرية المتأصلة في كيانهم ، حملوا راية الإسلام ، وأقاموا أكبر دولة إسلامية عرفها التاريخ في قرونه المتأخرة... وبقيت الحارس الأمين للعالم الإسلامي عدة قرون ، وأطلقت على دولتهم اسم (بلاد الإسلام) وعلى حاكمها اسم (سلطان) وكان أعز ألقابه إليه (الغازي) أي:المجاهد. وحكمت بالعدل بالعمل بالشرع الإسلامي في القرون الأولى لتكوين هذه الدولة...

نعم : إن العثمانيين الذين تبوأوا منصباً في عهد سلاطينهم الفاتحين ووسعوا رقعة بلاد الإسلام شرقاً وغرباً واندحرت الأطماع الصليبية أمامهم وحقق الله على أيديهم هزيمة قادة الكفر والتآمر على بلاد المسلمين وارتجفت أوروبا خوفاً وفزعاً من قادتهم أولئك كانت الروح الإسلامية عندهم عالية . . وكانت روح الانضباط التي يتحلى بها الجندي عاملاً من عوامل انتصاراتهم وهي التي شجعت محمد الثاني على القيام بفتوحاته .

وكانت غيرتهم على الإسلام شديدة وكثر حماسهم له لقد بدأوا حياتهم الإسلامية بروح طيبة وساعدتهم الحيوية التي لا تنضب إذ أنهم شعب شاب جديد لم تفتنه مباهج الحياة المادية والثراء ولم ينغمس في مفاسد الحضارات المضمحلة التي كانت سائدة في البلاد التي فتحوها ولكنهم استفادوا منها فأخذوا ما أفادهم وكانت عندهم القدرة على التحكم والفتح والانتصار وقد أتقنوا نظام الحكم وخاصة في عصر الفاتح ، إذ كان هناك نظام وضع لاختيار المرشحين لتولى أمور الدولة بالانتقاء والاختيار والتدريب والثقافة كما كانوا يشددون في اختيار من تؤهله صفاته العقلية والحسية ومواهبه الأخرى المناسبة لشغل الوظائف وكان السلطان رأس الحكم ومركزه وقوته الدافعة وأداة توحيده وتسييره وهو الذي يصدر الأوامر المهمة والتي لها صبغة دينية وكان يحرص على كسب رضاء الله وعلى احترام الشرع الإسلامي المطهر فكان العثمانيون يحبون سلاطينهم مخلصين لهم متعلقين بهم فلم يفكروا لمدة عدة قرون في تحويل السلطة من آل عثمان إلى غيرهم .

ولكن الأمور لم تستمر على المنهج نفسه والأسلوب الذي اتبعوه منذ بزوغ نجمهم في صفحات التاريخ المضيء فقد بدأ الوهن والضعف يزحف إلى كيانهم .

ويرجع بعض الباحثين هذه الأسباب الى :

1 - مخالفة منهج الله .

فالدولة العثمانية منذ أن قامت كانت العاطفة الإسلامية جياشة قوية ، فلما تبعتها التربية الإسلامية والتدريب السليم للنظام العسكري الجديد كانت القوة وكان الفتح وكان التوسع ، فلما ضعفت التربية الإسلامية

زادات أعمال السلب والنهب والفسق والفجور واستمر الانحراف وظهرت حركات العصيان وفقدت الدولة هيبتها بسبب انصراف السلاطين إلى ملاذاتهم

2 - عدم اتخاذ الإسلام مصدرًا أساسيًا للتشريعات والقوانين والأنظمة التي تسير عليها الدولة ،

فكثرت إصدار التشريعات والقوانين الوضعية فيما سمي بالتجديدات وذلك بسبب الضغوط الأوروبية...

3 - الحروب الصليبية التي شنت على الدولة

والتي لم تنقطع منذ ظهورها إلى يوم انهيارها والكلام هنا يطول ويكفي التلميح إلى الحملة الفرنسية على مصر والحملة الفرنسية على الجزائر والتوسع الروسي في بلاد قفقاسيا وتهجير سكانها من داغستان وشاشان وشراكس عام 1282 هـ . والحملة الإنكليزية على مصر وعدن واستيلاء الطليان على طرابلس الغرب .

والدليل على ذلك : عندما اندحر الجيش العثماني في حرب قناة السويس أمام الجيش الانكليزي في الحرب العالمية الاولى وقف الجنرال الانكليزي **اللمبي** أمام قبر صلاح الدين الايوبي في دمشق قائلا : الأن انتهت الحروب الصليبية ياصلاح الدين .

وكذلك عندما دخل الجيش الافرنسي دمشق بعد معركة ميسلون . وقف الجنرال الافرنسي **غورو** أمام قبر صلاح الدين الايوبي في دمشق قائلا : الأن انتصر الصليب على الهلال ياصلاح الدين

أما المناوشات والغزوات العسكرية والحركات الانفصالية التي أشعلتها الصليبية العالمية في ممتلكات العثمانيين في أوروبا فهي من الأهمية بمكان إذ لم يخل عهد سلطان منها

4 - توسع رقعة الدولة :

شغلت الدولة في أوج قوتها وتوسعها مساحة من الأرض تزيد عن أربعة عشر مليونا من الكيلومترات والأمر يختلف عما هو علية في وقتنا الحاضر إذ أن سياسة دفة الحكم في عهد كانت مواصلاته وسائلها الدواب والعربات وبريدها يستغرق الشهور الطويلة والسنين ، وقد تحصنت بالحواجز الطبيعية من أنهار وبحار وجبال وغيرها .

وان إعلان الحركات المتمردة والعصابات المتكررة فيها يكون في غاية السهولة كما أن إخمادها يكون في غاية الصعوبة .

ولم تحتفظ الدولة بتماسكها على الرغم مما أصابها من زلازل ونكبات طيلة عدة قرون إلا بفضل عامل الدين ورابطة العقيدة على الرغم من ظهور من استهان بها ورفع رأسة هنا وهنالك ولكن لم يتجرأ على إعلان بترها أو إلغائها إذ أن رابطة العقيدة أهم عامل حاسم في كيان الأمم وقد استطاعت تلك الرابطة أن تجمع بين الترك والعرب والكرد والشركس والشاشان والداغستان وغيرهم لقرون طويلة حتى قام أعداء هذا الدين وفرقوا شتات الأمة الواحدة بإثارة العصبية الإقليمية

5 - التخلف العلمي :

وهو الذي لا يزال قائماً حتى اليوم وعلى الرغم من مرور ما يقارب من قرن على الحركة العلمانية الكمالية التي عزته إلى التمسك بالدين .

العثمانيين قد جاءوا إلى بلاد الأناضول بدواً ولم يتحضروا بل شغلتهم الحروب ولم ينصرفوا إلى العلم بسبب الانشغال بالفتوحات والحروب المستمرة في كل الجبهات ، ولم يسمح لهم الأوروبيون بالالتفات إلى العلم ولا إلى التخطيط لذا استمروا في طبيعة البداوة فأبدوا انتصارات وقدموا خدمات ،

وحينما انهزمت الدولة عام 1188 هـ . الموافق 1774 م انتبهت قليلاً وبدأ **سليم الثالث** بالإصلاح وإنشاء المدارس الجديدة وكان هو نفسه يعلّم في مدرسة الهندسة وألف جيشاً حديثاً حتى ثار عليه الجيش القديم وأغتاله .

وقد مكن ذلك التخلف الغرب من التفوق المادي فاخترع الأسلحة الحديثة ووسائل الصناعة وبدأ عصر الآلة والبخار والكهرباء . فظهروا على المسلمين بعد أن كانت لهم الغلبة ولم يتورعوا في استخدام ما توصلوا إليه من أسلحه الدمار والخراب ضدهم وحاولوا التشكيك في عقيدتهم وتاريخهم ، ولو أن صلابة الروح بقيت كما كانت سابقاً لما تمكن أعداء هذا الدين من أهله كما يتمكنون منهم اليوم فقد كانت حروبهم الصليبية تباعاً ولم تتوقف أبدا ولكنهم يصطدمون بصخرته المنيعة الصلبة فتتحطم حملاتهم وتتبعثر جيوشهم وتذهب مكائدهم أدراج الرياح .

6 - كان العثمانيون يكتفون من البلاد المفتوحة بالخراج ،

ويتركون السكان على وضعهم القائم من العقيدة واللغة والعبادات ، إذ يهملون الدعوة والعمل على نشر الإسلام وإظهار مزايا الإسلام من المساواة والعدل والأمن وانسجامه مع الفطرة البشرية

7 - ضعف الدولة العثمانية في أواخر عهدها

جعل الدول الأوروبية تتآمر عليها فأثاروا ضدها الحركات الانفصالية السياسية والدينية ، كما استغل دعاة القومية والصهيونية هذا الضعف مما جعلهم يقومون بحركات لتقويض هذه الدولة

8 - الحركات الانفصالية والتمردات المحلية :

نتيجة للتفوق الصليبي قامت أوروبا بحبك المؤامرات ضد المسلمين ودفعوا الدمى المصطنعة من طلاب الزعامة وغذوا أوكار الحاقدين والجهلة وشجعوا على العصيان .

وأصبح سفراء الدول الغربية يتدخلون في الشؤون الداخلية والسياسية الخارجية للدولة...حتى وصل الأمر بهم أن هددوا الدولة العثمانية بقطع العلاقات لدولهم إذا قامت الدولة بأي إجراء انتقامي ..خاصة لدول البلقان..

أما في جهات الشرق فكان خصوم العثمانيين التقليديين يشعلون الثورات بين الحين والآخر ، ولعل أهم الحركات الانفصالية التي أضعفت الدولة كانت حركة محمد علي باشا في مصر . والثورة العربية بقيادة الحسين شريف مكة

9 - الامتيازات التي كانت تمنح للأجانب

اعتباطاً بسخاء وكرم لا مبرر لهما بل كانت تمثل التفريط بحق الوطن ، فقد منحت الدولة العثمانية ، وهي في أوج عظمتها وسلطانها ، امتيازات لدول أجنبية جعلتها شبه شريكة معها في حكم البلاد . ولا سببا لهذا لهذا الاستهتار ألا الجهل وعدم تقدير الأمور قدرها الحقيقي وتقدير قوة ودهاء الدول التي منحت هذه الامتيازات والعاقل لا يستهين بعدوه مهما كان صغيراً وضعيفاً .

وهي من التساهلات التي يمكن أن تعد أخطاء نظراً لنتائجها التي ظهرت بعد حين وقد منحت تلك الحقوق للأجانب أولاً ثم لبعض السكان المحليين فيما بعد وقد أراد السلطان سليمان القانوني أن يعيد الطريق التجاري إلى البحر المتوسط بعد أن تحولت إلى رأس الرجاء الصالح وذلك بإعطاء امتيازات وعقد معاهدات مع الإيطاليين ثم الفرنسيين والإنكليز ليشجعهم على الإبحار عن هذه الطريق ولكن أولئك الصليبيون جميعاً كانوا يبدون للسلطان رغبتهم في التحول ويعملون على الكيد له في الخفاء . هذه الاتفاقيات ظنها السلطان سليمان لا قيمة لها ما دامت القوة بيده حيث يلغيها متى شاء ويمنحها متى أراد والواقع أن الضعف الذي أصاب الدولة قد جعل من هذه الاتفاقيات قوة لهؤلاء الأجانب أولاً ولرعاياهم النصارى من سكان ومواطني الدولة العثمانية ثانياً . وكانت الامتيازات في البدء بسيطة ولكن نجم عنها تعقيدات كثيرة فيما بعد

وقد حولت الامتيازات إلى اتفاقات ثنائية فأصبح بإمكان السفن الفرنسية دخول الموانئ العثمانية تحت حماية العلم الفرنسي ومنح الزوار حرية زيارة الأماكن المقدسة والإشراف عليها وحرية ممارسة الطقوس الدينية هناك . ثم أصبحت مع مرور الزمن وكأنها حقوق مكتسبة ثم توسعت وشملت بعض السكان المحليين كالإعفاء من الضرائب والاستثناء من سلطة المحاكم الشرعية العثمانية والتقاضي في محاكم

خاصة سموها المحاكم المختلطة وقد لعبت دورا كبيرا فيما بعد . وأصبح لروسيا مثلاً بموجب معاهدة كينارجي حق بناء كنيسة باستنبول وحق حماية النصارى التابعين لمذهبها الأرثوذكسي من رعايا الدولة ،

وفي عهد السلطان عبد المجيد تقرر منح أهالي لبنان حكومة مستقلة تحت سيادة الدولة العثمانية يكون حاكمها نصراني ويكون للباب العالي حماية مؤلفة من 300 جندي فقط ترابط على الطريق الموصل بين دمشق وبيروت ، وبذلك تشجعت أقليات أخرى ، وطالب النصارى في البوسنة بتحريض أجنبي الحصول على امتيازات فقاومتهم الدولة ولكنهم لم يركنوا للهدوء وازدادوا من عصيانهم بدعم أوروبا لهم . لقد ساعدت الامتيازات على إشعال بؤر الفتن وأربكت الدولة وشغلتها عهوداً طويلة واتخذت ذريعة لتدخل الدول بحجة حماية الرعايا وبالتالي الاحتلال والعدوان .

10 - الغرور الذي أصاب سلاطين بني عثمان

الذين فتحت لهم الأرض أبوابها على مصراعيها يلجونها كما يشاءون . وإن من يقرأ كتاب الملك سليمان القانوني إلى ملك فرنسا لايجد فيه ما يشبه كتاب ملك إلى ملك أو إمبراطور عظيم إلى ملك صغير او حتى إلى أمير ، بل يجده وكأنة كتاب سيد الى مسود ومن يطالع صيغ المعاهدات ، في أوج عظمة الدولة ، وما كان يضفى فيها على سلاطين بني عثمان من ألقاب يكادون يشاركون بها الله تعالى في صفاته بينما تكون ألقاب الأباطرة والملوك عادية ، أقول إن من يطالع صيغ هذه المعاهدات يدرك إلى أي حد بلغ بهؤلاء السلاطين الجهل والغرور

11 - الجيش الإنكشاري :

هو الجيش الذي أنشأه **السلطان أورخان** باختيار أفراده من أبناء البلاد الأوروبية المفتوحة وتلقينهم مبادئ الدين الإسلامي ووضعهم في ثكنات عسكرية خاصة وتدريبهم على فنون الحرب والقتال . ولقد أبلى ذلك الجيش بلاء حسنا في كافة المعارك التي خاضها العثمانيون إبان قوتهم فكانوا يندفعون كالأسود في ساحات القتال وكان لهم الفضل في ترجيح كفة النصر في المعركة الحاسمة يوم فتح القسطنطينية وغيرها من المعارك الشهيرة . ثم مع مرور الزمن بدأ الوهن يتسرب إلى صفوفهم عندما عاشوا بين المدنيين وكثرت تعدياتهم بصفتهم العسكر المختص بهم السلطان.

فما اختلط الجند بأهل المدن إلا وقد فسدت طبيعتهم وتغيرت أخلاقهم وتبدلت مهمتهم وأصبح البلاء في وجه الحكم منهم والعداء للسكان من أعمالهم وصاروا يتدخلون في شؤون الدولة وتعلقت أفئدتهم بشهوة السلطة وانغمسوا في الملذات والمحرمات وشق عليهم أن ينفروا في أوقات البرد الشديد ونظروا إلى العطايا السلطانية ومالوا إلى النهب والسلب حين غزو البلاد . فأثاروا الاضطرابات يريدون الحروب ولو كان جحيمها يصب فوق رؤوسهم ليواصلوا نهب البلاد المفتوحة، وأصبحوا ينقضون العهود ويخرقون الهدنة للذين تمت معهم عن طريق السلطان..

وبذلك نسوا الغاية التي وجدوا من أجلها . لقد كانت فاتحة أعمال السلطان مراد الثالث عام 982هـ. هي إصدار أمر بمنع شرب الخمور فهاجوا وماجوا حتى اضطروه لإباحته ضمن شروط لخوفه من نقمتهم.

وهكذا فإن الجيوش لا تهزم إلا حينما تترك عقيدتها ولا تلتزم بمبادئها . إن وثوب الانكشارية إلى مركز القيادة في الدولة العثمانية جعلها في حالة خطيرة من الفوضى فصاروا هم الأمرون والناهون والسلطان ألعوبة بأيديهم فظهر الفساد وضاعت البلاد . ثاروا في استانبول والقاهرة وبودا ، يطالبون بإشعال الحروب حينما اقتضت المصلحة ألا تكون هناك حروباً . وقد أشار سنان باشا عام 997 هـ . إلى إشعالها بمحاربة المجرمين تحت إلحاح شديد من قبلهم وكانت النتيجة انهزام والي بودا العثماني ومقتل حسن باشا والي الهرسك وسقوط عدة قلاع عثمانية بأيدي النمسا . وفي عام 1027 هـ .

حاول السلطان عثمان إبادتهم بإعداد العدة لحشد جيوش جديدة في ولايات آسيا الصغرى وتدريبها وتنظيمها ولما حاول ذلك خلعوه وقتلوه وأعادوا مصطفى الأول الذي خلعوه عام 1032 هـ .

واستمر الانكشارية في عهد السلطان مراد الرابع سنوات عشر سائرين في طريق الضلال سادرين في غيهم وطغيانهم فهم الذين نصبوه فالأمر والنهى يجب أن يكون لهم ما دام رأس الدولة بأيديهم . وهم الذين قاموا بقتل السلطان إبراهيم الأول خنقاً حينما حاول التخلص منهم ، وهم الذين اربكوا الدولة إذ

وضعوها في حالة من الفوضى بقتلهم السلاطين وتولية أولادهم الصغار السن من بعدهم كالسلطان محمد الرابع ، فقام الإفرنج باحتلال أجزاء من البلاد فاضطر الصدر الأعظم والعلماء إلى عزله . ثم ثار الانكشارية في عهد السلطان سليمان الثاني ودخلت جيوش الأعداء بعضاً من أراضي الدولة واحتلتها . وخلع الانكشارية السلاطين مصطفى الثاني ، أحمد الثالث ، مصطفى الرابع ، إلى أن قيض الله للسلطان محمود الثاني عام 1241 هـ . التخلص منهم فقد هيأ لذلك وسلط عليهم المدفعية فدمرتهم وانتهى أمرهم .

12 - تخلف السلاطين عن قيادة الجيش

كما ان السلاطين العثمانيين تعوّد أغلبهم بعد عهود المجد والقوة أن لا يقودوا الجيوش بأنفسهم وتركوا الأمر لقواد قد يكون بعضهم غير كفء فانهزموا في مواقع كثيرة وتضاءل الحماس والحمية الدينية لغياب السلطان عن مركز قيادة الجيش كما كان يحدث سابقاً .

13 - احتجاب السلاطين وعدم ممارستهم السلطة بأنفسهم

فقد كان سلاطين آل عثمان حتى السلطان سليم الأول يديرون الجكم يأنفسهم , ويتولون قيادة الجيش بأنفسهم ، فيبعثون الحماسة والحمية في صدور الجنود ، ثم صار السلاطين يعهدون بالقيادة إلى ضباط والاتكال على وزراء ربما يكونون غير ذي كفء .

14 - تسليم أمور الدولة إلى غير الأكفاء من الناس

إذ كان طباخ القصر وبستانية وحاطبة والخصي والخادم يصلون إلى رتبة رئاسة الوزارة أو القيادة العامة للجيش . فماذا ينتظر من جاهل أن يفعل ؟

15 - زواج السلاطين بالأجنبيات

وتسلط هؤلاء الأجنبيات على عواطف أزواجهن وتصريفهم في سياسة بلادهن الأصلية وتحكمهن بمقدرات الدولة . فكم من الملوك قتلوا أولادهم أو إخوانهم بدسائس زوجاتهم وارتكبوا أعمالاً تضر بمصلحتهم إرضاءً لزوجاتهم .

16 - تعدد الزوجات والمحظيات اللواتي

كان الأجانب والحكام يقدمونهن هدية للسلطان كأنهن السلع أو التحف واللواتي كان السلاطين إذا رأوا كثرتهن في قصورهم يهدونهن أحيانا إلى قادتهم أو خواصهم على سبيل التكريم . وكان من البديهي أن يحصل بين أولاد الأمهات وأمهات الأولاد ، سواءً أكانت الأمهات زوجات أو محظيات ، تحاسد وتباغض يؤديان إلى قتل السلاطين أولادهم وإخوانهم والى أمور غير معقولة ومقبولة عقلاً وشرعاً .(وسوف نوضح ذلك أكثر في النقطة التالية)

17 - تفكك روابط الأسرة السلطانية

بسبب كثرة النساء حتى أصبحت عادة قتل السلطان إخوانه أو أولاده ، يوم يتولى العرش ، أمراً معروفاً ومألوفاً . وكأنه يضحي بخراف احتفاء بهذا اليوم من غير أن يشعر بوخز ضمير أو لسعة ألم .

18 - قانون قتل الأخوة

أما العادة السيئة الأليمة وهي عادة قتل السلاطين لابنائهم وإخوانهم وهي المنافية للإنسانية وإن وجدت لها مبررات واهنة فقد أودت بأرواح الأطفال والأبرياء بلا ذنب ، سوى خوف المنازعة في الملك فيما بعد وحرمت الأمة من رجال قد يكون منهم أفذاذا وعباقرة ، فحل محلهم رجال احتلوا مناصب رفيعة في الدولة وفي قيادة الجيوش من بلاد أوروبا العثمانية تظاهر بعضهم الإسلام وأبطن الكفر وعاد بالدمار والهزيمة إلى البلاد.

تمثل هذا الإجراء العرفي الذي اختطه بايزيد الأول ، وتحول على يد محمد الفاتح إلى قانون ثابت ، ومفاد هذا القانون الإجازة للسلطان المتولي للعرش أن يقدم على تصفية الأمراء المنافسين وذلك بالاتفاق

مع هيئة العلماء... وهذه سياسة قوامها تغليب المصلحة السياسية العليا للدولة المتمثلة بحفظ وحدة كيانها السياسي في مواجهة ما يترتب على اعتماد مبدأ وراثة الملك من إختلالات تكوينية توفر المناخ المناسب لا تجاه تفكيك كيان الدولة عند انتقال السلطة من الأب إلى الأبناء.

وبعد قرن من الزمان جرى استبداله بقانون آخر قضى بالتخلي عن سياسة التصفية الجسدية والاكتفاء بسياسة **سجن جميع الأمراء** ـ عدا أبناء السلطان الحاكم ـ في مقاصير خاصة ومنعهم من كل اتصال بالعالم الخارجي.

ثم تعرض هذا القانون لتعديل .. حيث أوجب قانون جديد : إلزامية انتقال العرش حين خلوه إلى أكبر الأحياء من الذكور من الأسرة العثمانية . لقد ترتب على تنفيذ هذا القانون وخلال قرن ونيف إلى اعتلاء الأخوة والأعمام وأولاد العم منصب السلطان وهم غالبتهم من سجناء الأقفاص ، وبالتالي فقد تبوأ مركز السلطان أفراد يفتقدون أبسط شروط هذا المركز...

ولذا فقد كان أفراد الأسرة السلطانية يعيشون في خوف مستمر ويتربص بعضهم بالبعض الآخر الدوائر ولا يبالون بأن يشقوا عصا الطاعة في وجه السلطان سواءً أكان أخاً أم أباً أم ابناً وذلك ليس حباً بالسيطرة فقط بل لإنقاذ أعناقهم أحياناً من الغدر .

19 - بقاء أولياء العهد مسجونين في دور الحريم

فلا يرون من الدنيا شيئاً ولا يعلمون شيئاً ، وكثيراً ما كانوا لا يتعلمون شيئاً أيضا لأنهم لم يكونوا يدرون إلى ما سيصيرون فإما أنهم سيذهبون ضحية مؤامرة قبل أن يصلوا إلى العرش وإما أنهم يصلون لى العرش لكي يجدوا فئة من الناس تسيطر عليهم وتتحكم بهم أو يسحبون عن العرش ويقتلون أو تسيرهم نساء القصر أو يسيرهم جهلهم .

20 - خيانة الوزراء

إذ أن كثيرًا من الأجانب المسيحيين كانوا يتظاهرون بالإسلام ويدخلون في خدمة السلطان ويرتقون بالدسائس والتجسس حتى يصلون إلى أعلى المراتب ، وقد أبدى السلطان عبد الحميد استغرابه من وفرة الأجانب الذين تقدموا إلى القصر يطلبون عملاً فيه حتى ولو بصفة خصيان وقال : لقد وصلني في أسبوع واحد ثلاث رسائل بلغة رقيقة يطلب أصحابها عملاً في القصر حتى ولو حراساً للحريم ، وكانت الأولى من موسيقى فرنسي والثانية من كيميائي ألماني والثالثة من تاجر سكسوني . وعلق السلطان على ذلك بقولة : من العجب أن يتخلى هؤلاء عن دينهم وعن رجولتهم في سبيل خدمة الحريم . فهؤلاء وأمثالهم كانوا يصلون إلى رئاسة الوزارة ،

ولذا فقد قال خالد بك مبعوث أنقرة في المجلس العثماني بهذا الصدد : لو رجعنا إلى البحث عن أصول الذين تولوا الحكم في الدولة العثمانية وارتكبوا السيئات والمظالم بأسم الشعب التركي لوجدنا تسعين في المائة منهم ليسوا اتراكاً .

21 - وكذلك وصل هذا الحال إلى المؤسسات الدينية :

فبعد انخراط شيخ الإسلام داخل منطق السلطة غدا باستطاعته أن يستثمر ما تتيحه السلطة من إمكانيات ووسائل فعالة بغية حيازة الثروات ، وتوريث المناصب...لقد أدّت هذه الوضعية إلى ضمور شرعية هذا المركز سواء في نظر مراكز القوى الأخرى أو في نظر قوى المجتمع المختلفة.ففي مطلع القرن الثامن عشر 1703 م حصلت انتفاضة شعبية في استانبول ضد شيخ الإسلام لاحتكاره الوظائف العليا لعائلته وقد أدّت الانتفاضة إلى عزل شيخ الإسلام ومن ثم إعدامه...

فتسرب الفساد إلى طبقة العلماء ، حيث كانوا يأتون في الرتبة الثانية في الدولة بعد السلطان. ...

وكان القضاء لا يسير إلا بالرشوة. ما حصل من تفكك وتفسخ للهئيات الإسلامية أصبح موضوعًا ينبغي إصلاحه والتصدي لسلبياته المختلفة ، فقد جاء في الرسالة الإصلاحية **لقوجي بيك** الموجهة إلى السلطان مراد الرابع عام 1630 م جملة من التنبيهات الكاشفة لوضعية هذه المؤسسة وما يخترقها من نقاط اختلال متعددة الأوجه. فقد جاء في هذه الرسالة :

حسب القوانين القديمة في زمن السلاطين الأسلاف ، كان الشخص الذي يحتل منصب المفتي أولاً ومنصب قاضي عسكر الروملي أو الأناضول يتم اختياره من بين الأشخاص الأكثر علمًا والأشد إيمانًا بالله . وطالما كان المفتي يقوم بواجباته لم يكن ليخلع من منصبه أبدًا ؛ لأن هذه الدرجة هي الأعلى في العلوم ، والاحترام الواجب تجاهها مختلف عن سواه.وقديمًا كان المفتون ،عداء عن كونهم مصدر العلم ، لا يخفون الحقيقة أبدًا عن السلاطين...ولكن العلم انطفأ حاليًا.والقوانين قلبت... ومؤخرًا فإن منصب المفتي قد أعطي لأناس ليست لهم الكفاءة بالتضاد مع القوانين والأعراف التي كانت متبعة سسابقًا ، وكذلك الأمر بالنسبة لقضاة العسكر.وبيع المناصب انتقلت عدواة إلى الملازمين الذين ليسوا إلا كتاب بسطاء وإلى غيرهم من الأشخاص الذين يصيرون بواسطة المال مدرسين وقضاة ...

22 - تبذير الملوك

حتى بلغت نفقات القصور الملكية في بعض الأحيان ثلث واردات الدولة

23 - مشكلة الديون :

التي أقرضتها الدول الأوروبية للدولة العثمانية بسبب كثرة الانفاقات على الإصلاحيات.وفائدتها التي أصبحت أضخم من قيمة القروض . وفخ الديون منهج أنتهجه الأوروبيون لنصبه ضد الدول الإسلامية منذ القرن التاسع عشر ميلادي .

وفخ الاقتراض من الدول الأوروبية (اقتراض ربوي طبعًا) وما يسببه الربا من دمار لهذه الدول الإسلامية.

هذه الأسباب هي التي قضت على الدولة العثمانية أنزلتها من شامخ عزها إلى حضيض المذلة والهوان . وإن من يدرس ، بإنعام نظر ، كل سبب من هذه الأسباب المذكورة آنفاً ويرى مدى تأثيره الواسع في المحيط الدولي لا يعجب من انهيار هذه الدولة العظيمة تحت سياط هذه الضربات بل يعجب كيف استطاعت أن تعيش ستمائة سنة وهي تتحمل هذه الضربات القاسية ، ولكنها عاشت بفضل اختلاف أعدائها على تقسيمها فيما بينهم وبفضل إيمان أهلها وتمسكهم .

24 - العلمانيين و إلغاء الخلافة :

وهناك باحثون ومؤرخون أخرون ذو ميول اسلامية لهم رأي أخر حيث يقولون :

نحن لا ننكر أن ثمة جهلاً وبدعًا وأخطاء وغباء في أواخر عهد الخلافة العثمانية التي أصبحوا يسمونها **بالرجل المريض** ، ولكن هذا شيء وتغيير النظام الإسلامي وجلب النظام الغربي الوضعي شيء آخر،

وقد كانت الصهيونية وراء هذا الهدم وذلك لأن السلطان (عبد الحميد) رفض أن يحقق أطماعها في فلسطين وقد وصل يهود الدونمة إلى مناصب عالية في دولة الخلافة ، وكان هؤلاء يظهرون الإسلام ويبطنون اليهودية ومنهم (**مدحت باشا**) الصدر الأعظم وهو ابن حاخام مجري !! كما كان منهم جمهرة الصحفيين الذين كانوا يغطون تطور الأحداث بقلم مزيف الوقائع ، ويظهرون للناس أن عبد الحميد مستبد ظالم زير نساء ،

24 - 1 - الجمعيات والأحزاب السّرية :

ونذكر منها على سبيل المثال جماعة **يهود الدونمة** الذين التجئوا للبلاد العثمانية بعد الاضطهاد في الأندلس ونظموا أنفسهم محتفظين بعقائدهم متكيفين مع الوضع الجديد بإعلانهم الإسلام ظاهرياً ، فكانوا عوناً للصليبية على المسلمين وأداة تدمير في الأخلاق والدين وكانوا وراء حركات التمرد والثورات المسلحة ضد الدولة حتى انتهى بهم المطاف إلى قلب نظام الحكم في عهد السلطان عبد الحميد الثاني وفرض أحكام الكفر والابتعاد بالدولة شيئاً عن جادة الإسلام الصحيح .

قامت بعض الجمعيات بحركات ضد السلطان عبد الحميد ، تحت أسماء مختلفة أهمها حركة تركيا الفتاة ، وحركة الاتحاد والترقي التي اكتسبت كثيرًا من الأنصار، وانضم إليها أعضاء جمعية تركيا الفتاة ، واتخذوا من جنيف مركزًا لقيادة الجمعية ، وأنشأوا في باريس جريدة تمثل أراء الجمعية أسموها الميزان.

وهذا الحزب : حزب الاتحاد والترقي الذي شمل بعض اليهود في عضويته فقد ورط البلاد في حروب ونزاعات وأرغم قادته المسيطرون عليه الدولة على الانخراط في الحرب العالمية الأولى بعد أن قضوا على حكم عبد الحميد الذي أراد تقويم الانحراف ، وتبنوا الأفكار التي فرقت بين أبناء الدولة المسلمين وكانت الماسونية بالطبع من وراء تلك الجمعيات السّرية تحيك الدسائس والمؤامرات وتقيل عثراتها وتدعم قادتها . .

ومع بداية القرن العشرين انتشرت جمعيات سرية كثيرة ، وخاصة في سالونيك ، باسم الوطن والحرية، تتعاون مع جمعية الاتحاد والترقي، لمعارضة الحكومة العثمانية، وتمكنت هذه الجمعيات أخيرًا من الثورة سنة 1326 هـ وإسقاط السلطان عبدالحميد 1327 هـ

(وكانت البداية لهذا الاقتراح من مصطفى كمال ، فقد بدأ بتهديد ووعيد... وبهدم الخلافة انفصلت الدولة وتنظيماتها وأشكالها ومسارها عن الدين لأول مرة في تاريخ الإسلام... فوقف أتاتورك يقول وهو يفتتح جلسة البرلمان التركي عام 1923 م : **نحن الآن في القرن العشرين لا نستطيع أن نسير وراء كتاب تشريع يبحث عن التين والزيتون**)

كما كان للماسونية دور كبير في الترتيب لهدم الخلافة ، تقول دائرة المعارف الماسونية (إن الانقلاب التركي الذي قام به الأخ العظيم مصطفى كمال أتاتورك أفاد الأمة فقد أبطل السلطنة وألغى الخلافة وأبطل المحاكم الشرعية وألغى دين الدولة الإسلام. أليس هذا الإصلاح هو ما تبتغيه الماسونية في كل أمة ناهضة فمن يماثل أتاتورك من رجالات الماسون سابقا ولا حقا؟

24 - 2 - بداية العلمانيين ونهاية الخلافة

فقد قام الاتحاديون بتوجيه الدولة وجهة قومية لادينية ، ولما احتل الإنجليز استانبول (الآستانة) وأصبح المندوب السامي البريطاني والجنرال هارنجتون (القائد العام لقوات الحلفاء في استانبول) هما أصحاب السيادة الفعلية ظهر مصطفى كمال باشا بمظهر المنقذ لشرف الدولة . ولد عام 1299هـ كان والده كما يقول (مصطفى كمال) : رجلا ضائع الفكر يقاوم علماء الدين ويؤيد الأفكار التي تتسرب من الغرب وتشبث بها . فنشأ ابنه على ذلك وتأثر بأفكار نامق كمال ذو الآراء الملتزمة ، وطالع العديد من الكتب عن الثورة الفرنسية وازداد إعجابه بنابليون قام بتأليف جمعية سرية . الوطن في دمشق . ففشلت .فانضم إلى جماعة الاتحاد والترقي في سالونيك . اكتسب الكثير من طبائع الغرب وبهرت أنظاره وافتتن بحضارة ومعاييرها الفنية والاجتماعية . واهتم بحرية الجنس والعلاقات بين الرجل والمرأة . وفي عام 1377هـ / عين قائداً لأحد الجيوش في فلسطين حيث قام بإنهاء القتال مع الإنجليز فوراً وبصورة تامة وسمح للعدو بالتقدم شمالاً دون مقاومة وسحب قواته شمالاً بعد حلب حسب مخطط متفق عليه .

لقد قام مصطفى كمال باستثارة روح الجهاد في الأتراك ، ورفع القرآن ، ورد اليونانيين على أعقابهم ، في موقعة سقاريا عام 1921م ، وتراجعت أمامه قوات الحلفاء بدون أن يستعمل أسلحته ، وأخلت أمامه المواقع ولعلها كانت بداية الطعم لإظهار شخصية مصطفى كمال ، وجعلها تطفو على السطح تدريجياً فقد ابتهج العالم الإسلامي وأطلق عليه لقب الغازي الذي كان ينفرد به سلاطين آل عثمان الأول ، ومدحه الشعراء وأشاد به الخطباء . فأحمد شوقي قرنه بخالد بن الوليد في أول بيت من قصيدة مشهورة :

الله أكبر كم في الفتح من عجب = يا خالد الترك جدد خالد العرب

فكان الناس إذا قارنوا كفاح مصطفى كمال المظفر ، باستسلام الخليفة القابع في الآستانة ، مستكينا لما يجري عليه من ذل ، كبر في نظرهم الأول ، بمقدار ما يهون الثاني . وزاد سخطهم على الخليفة ما تناقلته الصحف بإهداره دم مصطفى كمال واعتباره عاصياً متمرداً . ولم يكن مصطفى كمال في نظرهم إلا بطلا مكافحا يغامر بنفسه لا ستعادة مجد الخلافة ، الذي خيل إليهم أن الخليفة يمرغه في التراب تحت أقدام الجيوش المحتلة. ولكنه لم يلبث غير قليل حتى ظهر على حقيقته ، صنيعه لأعداء الإسلام من اليهود والنصارى وخاصة إنجلترا ، التي رأت أن إلغاء الخلافة ليس بالأمر الهين ، وإن ذلك لايمكن أن يتم دون اصطناع بطل .

وفي عام 1341هـ / 1923م أعلنت الجمعية الوطنية التركية قيام الجمهورية في تركيا ، وانتخبت مصطفى كمال أول رئيس لها وفصل بذلك بين السلطة والخلافة ، وتظاهر بالاحتفاظ مؤقتا بالخلافة .

فاختير عبد المجيد بن السلطان عبد العزيز خليفة ، بدلا من محمد السادس الذي غادر البلاد على بارجة بريطانية إلى مالطة ، ولم يمارس السلطان عبد المجيد أي سلطات للحكم . وفي عام 1342هـ / 1924م قدم مصطفى كمال أعظم هدية للغرب ، وهي إلغاء الخلافة ، التي كانت في اعتبار المسلمين جميعا عقدة الصلة والرابطة الوثيقة ، بحسبانها قوة خاصة لهم في مواجهة الغزو الغربي ، والصهيوني ثم الشيوعي . وأخراج السلطان عبد المجيد من البلاد ، وأعلن دستورا جديدا لتركيا ، وبدأ حكم كمال أتاتورك كرئيس للجمهورية التركية رسميا . فأثار بذلك موجة من الاستياء الشديد عمت العالم الإسلامي . فشوقي الذي مدحه سابقا بكى الخلافة ، وهاجم مصطفى كمال في عنف ، لا يعدله إلا تحمسه له بالأمس ، فيقول :

بكت الصلاة وتلك فتنة عابث بالشرع عربيد القضاء وقاح
أفتى خز عبلة وقال ضلالة وأتى بكفر في البلاد بواح

وبسقوط الخلافة بدأت تركيا تنقل بقوة على يد أتاتورك إلى الأنسلاخ من العالم الاسلامي بإعلان علمانية الدولة ، وتغير كل الرموز الاسلامية ،مثل إلغاء الشريعة الاسلامية وإحلال القنون السويسري محلها ، وإعلان سفور المرأة بدلاًعن الحجاب ، وإلغاء الأوقاف الاسلامية ، وكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتنية بدلاً من الحروف العربية ، وبالتالي فقد تم مسخ الروح الإسلامية في تركيا ، ويسعى أتاتورك إلي اللحاق بذيل الحضارة الغربية.

ولقد أثر سقوط الخلاقة الإسلامية في مارس 1924م ، ومن قبله فصل الخلافة عن السلطة العام 1922م جدلاً واسعاً في الأوساط الفكرية ، مابين مؤدي لسقوط الخلافة ، ومعارض لها ، فالتوجه العلماني يرى ان سبيل التقدم يتحقق في سقوط الخلافة ، في حين ان التيارالأصلاحي يرى النهضة الامة الأسلامية لايمكن أن يتحقق في سقوط الخلافة

وبعد أن ذُكرنا أسباب السقوط والسلبيات ، حسب أراء مختلف الباحثين والمؤرخين فلا بد من ذكر الايجابيات

إيجابيات الدولة العثمانية وصور مشرقة .

1 - توسيع رقعة الأرض الإسلامية

إذ فتح العثمانيون القسطنطينية وتقدموا في أوروبا مما عجز المسلمون من قبلهم منذ أيام معاوية t وساروا فيها شوطاً بعيداً حتى وقفوا على أبواب فيينا وحاصروها أكثر من مرة

2 - الوقوف في وجه الصليبيين على مختلف الجبهات

فقد تقدموا في شرقي أوروبا ليخففوا الضغط عن المسلمين في الأندلس كما انطلقوا إلى شمال البحر الأسود ودعموا التتار ضد الصليبيين من الروس هذا فضلاً عن التصدي للإسبان في البحر المتوسط والبرتقاليين في شرق إفريقيا والخليج ، ولم يوفقوا في حملاتهم وذلك يرجع لعدم تكاتف المسلمين والتفافهم حولهم .

3 - عمل العثمانيون على نشر الإسلام

وشجعوا على الدخول به ، وقدموا الكثير في سبيل ذلك وعملوا على نشره في أوروبا وعملوا على التأثير في المجتمعات التي يعيشون بينها .

4 - إن دخول العثمانيين إلى بعض الأقطار الإسلامية

قد حماها من بلاء الاستعمار الذي ابتلت به غيرها في حين أن المناطق التي لم يدخلوها قد وقعت فريسة للاستعمار .

5 - كانت الدولة العثمانية تمثل الأقطار الإسلامية

فهي مركز الخلافة ، لذا كان المسلمون في كل مكان ينظرون إلى الخلافة وإلى الخليفة نظرة احترام وتقدير ، ويعدون أنفسهم من أتباعه ورعاياه ، وبالتالي كانت نظرتهم إلى مركز الخلافة ومقرها المحبة والعطف وكلما وجد المسلمون أنفسهم في ضائقة طلبوا الدعم من مركز الخلافة كما كان الخلفاء .

6 - وكانت الخلافة العثمانية تضم أكثر من أجزاء البلاد الإسلامية

فهي تشمل البلاد العربية كلها باستثناء المغرب إضافة إلى شرقي إفريقيا وتشاد وتركيا وبلاد القفقاس وبلاد التتار وقبرص وأوروبا بحيث وصلت مساحتها حوالي 20 مليون كيلومتر مربع .

7 - كانت أوروبا تقابل العثمانيين على أنهم مسلمون لا بصفتهم أتراكاً

وتقف في وجههم بحقد صليبي وترى فيهم أنهم قد أحيوا الروح الإسلامية القتالية من جديد ، أو أنهم أثاروا الجهاد بعد أن خمد في النفوس مدة من الزمن ، وترى فيهم مداً إسلامياً جديداً بعد أن ضعف المسلمون ضعفاً جدياً وتنتظر أوروبا قليلاً لتدمرهم ، والأتراك العثمانيون حالوا بينهم وبين المد الصليبي في الشرق والغرب الإسلامي ، الأمر الذي جعل أوروبا تحقد على العثمانيين وتكرههم .

8 - كانت للعثمانيين بعض الأعمال الجيدة

تدل على صدق عاطفتهم وإخلاصهم مثل عدم قبول النصارى مع الجيش وإعفاء طلبه العلم الشرعي من الجندية الإلزامية ، وكذلك إصدار المجلة الشرعية التي تضم فتاوى العلماء في القضايا كافة وكذلك احترام العلماء وانقياد الخلفاء للشرع الشريف والجهاد به وإكرام أهل القرآن وخدمة الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى .

9 - كان للعثمانيين دورهم في أوروبا إذ قضوا على نظام الإقطاع

وأنهوا مرحلة العبودية التي كانت تعيشها في أوروبا حيث يولد الفلاح عبداً وينشأ كذلك ويقضي حياته في عبودية لسيده مالك الأرض وأهتم السلاطين بتقديم الصدقات والعطايا للموطنين .

10- أن العثمانيين هم الذين أزالوا من خريطة العالم أعتى أمبراطورية صليبية .

هى الأمبراطورية البيزنطية ، وفتحوا عاصمتها سنة 857 هـ.

11 - مواقف رائعة مشرقة :

أ - أول صلاة في جامع (بايزيد) عندما أكتمل بناء جامع بايزيد وتم فرشه ، جاء يوم افتتاحه بالصلاة فيه ، ولكن من سبقوم بإمامة المصلين في هذه الصلاة ؟ أيؤم الناس الإمام المعين لهذا الجامع ؟ أم شيخ الإسلام ؟ أم أحد العلماء المعروفين ؟

لم يكن أحد يعلم ذلك ، وكان الجميع في انتظار من يتقدم إلى الإمامة. وبعد انتظار بسيط شاهد المصلون السلطان (بايزيد الثاني) وهو يتقدم للإمامة بكل هدوء ، ثم يكبر لصلاة الجماعة

ب – وقوف السلطان عبد الحميد بشدة أمام المطامع الصهيونية في فلسطين ، حيث رفض رفضًا قاطعًا السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين . رغم ما قدمت له الصهيونية العالمية من وعود

بعض أئمة وعلماء وعظماء الترك والتركمان

مقدمة

كما نعلم أنّه تظهر لكل شعب في كل عصر من العصور وفي كل مكان من الأمنكة علمائه وشيوخه وعظمائه وعباقرته وأطباءه ومفكّروه وقادته وحكماؤه وزعماؤه وشعراؤه وأدباؤه ونحو ذلك.

وللشعب التركماني كذلك النّصيب الأوفر في مثل هذه الشّخصيّات سواء في العدد أوبمميزات أكثر، وبفضل هؤلاء إستطاعت الشّعوب التركمانية أن تبني حضاراتها في كل العالم الإسلامي وحتى الأوروبي وكذلك من تأسيس دول عديدة متقدمة ومتطورة وقويّة ولعصور مختلفة ولزمن طويل بفضل عدالتها وعدم ظلمها للشعوب ، وكتب التاريخ خير شاهد على ذلك.

وقيما يلي سوف نبين سيرة بعضهم من بين الآلاف من الشّخصيات التركمانية العظيمة على مدار التاريخ

الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان

تقديم

أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفيّ (80 - 150 هـ / 699 - 767 م) فقيه وعالم مسلم ، وأول الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة ، وصاحب المذهب الحنفي في الفقه الإسلامي . اشتهر بعلمه الغزير وأخلاقه الحسنة، حتى قال فيه الإمام الشافعي: « من أراد أن يتبحَّر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة »، ويُعد أبو حنيفة من التابعين، فقد لقي عدداً من الصحابة منهم أنس بن مالك، وكان معروفاً بالورع وكثرة العبادة والوقار والإخلاص وقوة الشخصية. كان أبو حنيفة يعتمد في فقهه على ستة مصادر هي: القرآن الكريم، والسنة النبوية، والإجماع، والقياس، والاستحسان، والعُرف والعادة.

وُلد أبو حنيفة بالكوفة ونشأ فيها ، وقد كانت الكوفة إحدى مدن العراق العظيمة ، ينتشر فيها العلماء أصحاب المذاهب المختلفة ، (وكانت مدينة تسكنها **عائلات تركمانية** في حينه) . وقد نشأ أبو حنيفة في هذه البيئة الغنية بالعلم والعلماء ، فابتدأ منذ الصبا يجادل مع المجادلين ، ولكنه كان منصرفاً إلى مهنة التجارة ، فأبوه وجده كانا تاجرين، ثم انصرف إلى طلب العلم، وصار يختلف إلى حلقات العلماء، واتجه إلى دراسة الفقه بعد أن استعرض العلوم المعروفة في ذلك العصر، ولزم شيخه حماد بن أبي سليمان يتعلم منه الفقه حتى مات حماد سنة 120هـ، فتولى أبو حنيفة رئاسة حلقة شيخه حماد بمسجد الكوفة ، وأخذ يدارس تلاميذه ما يُعرض له من فتاوى ، تلك الطريقةَ الفقهيةَ التي اشتُق منها المذهب الحنفي.

وقعت بالإمام أبي حنيفة محنتان :

المحنة الأولى في عصر الدولة الأموية ، وسببها أنه وقف مع ثورة الإمام **زيد بن علي** ، ورفض أن يعمل عند والي الكوفة يزيد بن عمر بن هبيرة، فحبسه الوالي وضربه، وانتهت المحنة بهروبه إلى مكة عام 130هـ ، وظل مقيماً بها حتى صارت الخلافة للعباسيين ، فقدم الكوفة في زمن الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور.

أما المحنة الثانية فكانت في عصر الدولة العباسية ، وسببها أنه وقف مع ثورة الإمام **محمد النفس الزكية** ، وكان يجهر بمخالفة المنصور في غياباته عندما يستفتيه، وعندما دعاه أبو جعفر المنصور ليتولى القضاء امتنع ، فطلب منه أن يكون قاضي القضاة فامتنع، فحبسه إلى أن توفي في بغداد سنة 150هـ ، ودُفن في مقبرة الخيزران في بغداد، وبني بجوار قبره جامع الإمام الأعظم عام 375هـ .

1 - مولده ونسبه

ولد الإمام أبو حنيفة بالكوفة سنة 80 من الهجرة النبوية ، الموافقة لسنة 699 من الميلاد، على رواية الأكثرين التي يكاد يجمع عليها المؤرخون . وأبوه : هو ثابت بن النعمان بن زوطى بن ماه ،

وهناك خلاف في تحديد أنتماءه العرقي ، حيث توجد روايات متعددة ، منها أنه من أصل فارسي عند المؤرخين الفرس , ومنها إنه من أصل عربي عند المؤرخين العرب , ومنها إنه من أصل تركي عند المؤرخين الأتراك وهو الأغلب . بؤيد ذلك أن التركمان والأتراك والعثمانيون جميعهم على المذهب السني الحنفي

2 - نشأته العلمية

2 – 1 - أسرته والبيئة التي نشأ فيها

نشأ أبو حنيفة بالكوفة وتربى بها، وعاش أكثر حياته فيها، متعلماً ومجادلاً ومعلماً، ولم تُبين المصادر حياة أبيه وحاله وما كان يتولاه من الأعمال ، ولكن قد يُستنبط منها شيء من أحواله، فقد يستفاد منها أنه كان من أهل اليسار والغنى، وأنه كان من التجار، وأنه كان مسلماً حسن الإسلام .

ولقد روي أن علياً بن أبي طالب دعا **لثابت** عندما رآه بالبركة فيه وفي ذريته، ويؤخذ من هذا أنه كان مسلماً وقت هذه الدعوة ، وقد صرحت كتب التاريخ بأن ثابتاً ولد على الإسلام، وعلى ذلك يكون أبو حنيفة قد نشأ أول نشأته في بيت إسلامي خالص ، وذلك ما يقرره العلماء جميعاً .

ولقد كانت الكوفة وهي مولد أبي حنيفة إحدى مدن العراق العظيمة في ذلك الوقت، وفي العراق الملل والنحل والأهواء ، وقد كان العراق موطناً لمدنيات قديمة ، كان السريان قد انتشروا فيه وأنشأوا لهم مدارس به قبل الإسلام ، وكانوا يدرسون فيها فلسفة اليونان وحكمة الفُرس، كما كان في العراق قبل الإسلام مذاهب نصرانية تتجادل في العقائد ، وكان العراق بعد الإسلام مزيجاً من أجناس مختلفة وفيه اضطراب وفتن ، وفيه آراء تتضارب في السياسة وأصول العقائد، ففيه الشيعة ، وفي باديته الخوارج ، وفيه المعتزلة ، وفيه تابعون مجتهدون حملوا علم من لقوا من الصحابة ، فكان فيه علم الدين سائغاً مورداً، وفيه النحل المتنازعة والآراء المتضاربة.

فتحت عين أبي حنيفة فرأى هذه الأجناس ، ونضج عقله فانكشفت له هذه الآراء، وابتدأ منذ الصبا يجادل مع المجادلين، ولكنه كان منصرفاً إلى مهنة التجارة، ويختلف إلى الأسواق ولا يختلف إلى العلماء إلا قليلاً، حتى لمح بعض العلماء ما فيه من ذكاء وعقل علمي، فضن به ، ولم يرد أن يكون كله للتجارة ، فأوصاه بأن يختلف إلى العلماء كما يختلف إلى الأسواق.

ويروى عن أبي حنيفة أنه قال : مررت يوماً على الشعبي وهو جالس فدعاني، فقال لي: « إلى من تختلف؟ »، فقلت: « أختلف إلى السوق » ، فقال : « لم الاختلاف إلى السوق، اختلف إلى العلماء »، فقلت له: « أنا قليل الاختلاف إليهم » ، فقال لي: « لا تغفل ، وعليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء، فإني أرى فيك يقظة وحركة »، قال: « فوقع في قلبي من قوله ، فتركت الاختلاف إلى السوق ، وأخذت في العلم ، فنفعني الله بقوله ».

2 – 2 - توجهه إلى طلب العلم

انصرف أبو حنيفة إلى العلم بعد نصيحة الشعبي، وصار يختلف إلى حلقات العلماء، وكانت حلقات العلم في ذلك العصر ثلاثة أنواع: حلقات للمذاكرة في أصول العقائد، وهذا ما كان يخوض فيه أهل الفرق المختلفة، وحلقات لمذاكرة الأحاديث النبوية وروايتها، وحلقات لاستنباط الفقه من الكتاب والسنة، والفتيا فيما يقع من الحوادث.

وقد ذكرت المصادر عدة روايات عن أبي حنيفة تدل على أنه عندما تفرغ لطلب العلم اتجه إلى الفقه بعد أن استعرض العلوم المعروفة في ذلك العصر، واختار أولاً علم الكلام والجدل مع الفرق، ثم انصرف عنه إلى الفقه. وهذه رواية قد رُويت من عدة طرق إحداها عن أبي يوسف صاحب أبي حنيفة أن أبا حنيفة سُئل: « كيف وُفقت إلى الفقه؟»، فقال: «أخبرك، أما التوفيق فكان من الله، وله الحمد كما هو أهله ومستحقه، إني لما أردت تعلم العلم جعلت العلوم كلها نصب عيني، فقرأت فناً فناً منها، وتفكرت عاقبته وموضع نفعه، فقلت آخذ في الكلام، ثم نظرت، فإذا عاقبته عاقبة سوء ونفعه قليل، وإذا كمل الإنسان فيه لا يستطيع أن يتكلم جهاراً ورمي بكل سوء ويقال صاحب هوى، ثم تتبعت أمر الأدب والنحو، فإذا عاقبة أمره أن أجلس مع صبي أعلمه النحو والأدب، ثم تتبعت أمر الشعر، فوجدت عاقبة أمره المدح والهجاء، وقول الكذب وتمزيق الدين، ثم تفكرت في أمر القراءات، فقلت: إذا بلغت الغاية منه اجتمع إلي أحداث يقرؤون

علي، والكلام في القرآن ومعانيه صعب، فقلت: أطلب الحديث، فقلت: إذا جمعت منه الكثير أحتاج إلى عمر طويل حتى يُحتاج إلي، وإذا احتيج إلي لا يجتمع إلا الأحداث، ولعلهم يرمونني بالكذب وسوء الحفظ فيلزمني ذلك إلى يوم الدين، ثم قلبت الفقه، فكلما قلبته وأدرته لم يزدد إلا جلالة، ولم أجد فيه عيباً، ورأيت الجلوس مع العلماء والفقهاء والمشايخ والبصراء والتخلق بأخلاقهم، ورأيت أنه لا يستقيم أداء الفرائض وإقامة الدين والتعبد إلا بمعرفته، وطلب الدنيا والآخرة إلا به، ومن أراد أن يطلب به الدنيا طلب به أمراً جسيماً، وصار إلى رفعة منها، ومن أراد العبادة والتخلي لم يستطع أحد أن يقول: تعبد بغير علم، وقيل إنه فقه وعمل بعلم ».

تثقف أبو حنيفة إذن بالثقافة الإسلامية كلها التي كانت في عصره، فقد حفظ القرآن على قراءة عاصم ، وعرف قدراً من الحديث، وقدراً من النحو والأدب والشعر، وجادل الفرق المختلفة في مسائل الاعتقاد وما يتصل به، وكان يرحل لهذه المناقشة إلى البصرة، وكان يمكث بها أحياناً سنةً لذلك الجدل، ثم انصرف بعد ذلك إلى الفقه ، واتجه إلى دراسة الفتيا على المشايخ الكبار الذين كانوا في عصره، ولزم واحداً منهم، أخذ عنه وتخرج عليه، ولقد كانت الكوفة في عهده موطن فقهاء العراق، كما كانت البصرة موطن الفرق المختلفة ومن كانوا يخوضون في أصول الاعتقاد، وقد كانت تلك البيئة الفكرية لها أثرها في نفسه، حتى قال: « كنت في معدن العلم والفقه، فجالست أهله ولزمت فقيهاً من فقهائهم ».

2 – 3 - ملازمته لشيخه حماد بن أبي سليمان

لزم أبو حنيفة حماد بن أبي سليمان، وتخرج عليه في الفقه، واستقر معه إلى أن مات، وإن حماداً قد مات في سنة 120هـ، فكأنه مات وأبو حنيفة في الأربعين من عمره، وعلى ذلك فإن أبا حنيفة لم يستقل بالدراسة إلا وهو في سن الأربعين، وقد بلغ أشده في الجسم والعقل معاً،

وقد روي عن أبي حنيفة أنه قال عن صلته بشيخه حماد: « صحبته عشر سنين، ثم نازعتني نفسي الطلب للرياسة، فأردت أن أعتزله، وأجلس في حلقة لنفسي، فخرجت يوماً بالعشي وعزمي أن أفعل، فلما دخلت المسجد ورأيته لم تطلب نفسي أن أعتزله، فجئت وجلست معه، فجاءه في تلك الليلة نعي قرابة له قد مات بالبصرة وترك مالاً، وليس له وارث غيره، فأمرني أن أجلس مكانه، فما هو إلا أن خرج حتى وردت علي مسائل لم أسمعها منه، فكنت أجيب وأكتب جوابي، ثم قدم فعرضت عليه المسائل، وكانت نحواً من ستين مسألة، فوافقني في أربعين وخالفني في عشرين، فآليت على نفسي ألا أفارقه حتى يموت، فلم أفارقه حتى مات».

وكان مع ملازمته لشيخه حماد قد لاقى غيره من الفقهاء والمحدثين، وكان يتتبع التابعين أينما كانوا وحيثما ثقفوا.

جلس أبو حنيفة وهو في الأربعين من عمره في مجلس شيخه حماد بمسجد الكوفة، وأخذ يدارس تلاميذه ما يعرض له من فتاوى، وما يبلغه من أقضية، ويقيس الأشياء بأشباهها، والأمثال بأمثالها، حتى وضع تلك الطريقة الفقهية التي اشتُق منها المذهب الحنفي.

3 - فقهه وأصول مذهبه

رُوي عن الإمام أبي حنيفة أنه قال: « آخذ بكتاب الله تعالى ، فإن لم أجد فبسنة رسول الله ﷺ، فإن لم أجد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ أخذت بقول الصحابة، آخذ بقول من شئت منهم وأدع قول من شئت منهم، ولا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبي وابن سيرين والحسن وعطاء وسعيد بن المسيب - وعدَّد رجالاً- فقوم اجتهدوا، فأجتهد كما اجتهدوا».

وقال سهل بن مزاحم: « كلام أبي حنيفة أخذٌ بالثقة وفرارٌ من القبح، والنظر في معاملات الناس وما استقاموا عليه وصلح عليه أمورهم، يمضي الأمور على القياس، فإذا قبح القياس أمضاها على الاستحسان، ما دام يمضي له، فإذا لم يمض له رجع إلى ما يتعامل المسلمون به، وكان يؤصل الحديث المعروف الذي قد أجمع عليه، ثم يقيس عليه ما دام القياس سائغاً، ثم يرجع إلى الاستحسان أيهما كان أوفق رجع إليه».

هذه النقول وغيرها تدل على مجموع المصادر الفقهية عند الإمام أبي حنيفة، فهي: القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، والإجماع، والقياس، والاستحسان، والعُرف والعادة.

3 – 1 - القرآن الكريم

القرآن الكريم عند الإمام أبي حنيفة هو المصدر الأول والأعلى في مسائل الفقه، لأنه الكتاب القطعي الثبوت، لا يُشك في حرف منه، وأنه ليس يوازيه ولا يصل إلى رتبته في الثبوت إلا الحديث المتواتر، لذلك لا يرى نسخ القرآن الكريم بخبر الآحاد من السنة ، وإنما يعمل بها ما أمكن، وإلا ترك السنة الظنية للكتاب القطعي.

3 – 2 - السنة النبوية

لا يجعل الإمام أبو حنيفة السنة النبوية في رتبة واحدة، بل يُقدم مثلاً السنة القولية على الفعلية، لجواز أن يكون الفعل خصوصية للنبي ، ويُقدم السنة المتواترة على خبر الآحاد عند التعارض وعدم إمكان الجمع بينهما، بل إنه يترك العمل بخبر الآحاد إذا خالف قاعدة شرعية مأخوذة من نص القرآن أو السنة.

3 – 3 - الإجماع

فما أجمع عليه أصحاب الرسول وما اختلفوا فيه لا يخرج عن أقوالهم إلى أقوال غيرهم، والإجماع: هو اتفاق الأئمة المجتهدين في عصر من العصور بعد انتقال الرسول عن الدنيا على حكم شرعي، والإجماع عند الإمام أبي حنيفة حجة معمول به.

3 – 4 - القياس

وهو إلحاق فرع بأصل فيه نص بحكم معين من الوجوب أو الحرمة، لوجود علة الحكم في الفرع كما هي في الأصل. والإمام أبو حنيفة يُقدم السنة ولو كان حديثاً مرسلاً على القياس، كما يقدم الحديث الضعيف على القياس.

3 – 5 - الاستحسان

وهو طلب الأحسن للاتباع الذي هو مأمور به ، وقد بان أن الاستحسان عند الإمام أبي حنيفة ليس اتباعاً للهوى ولا حكماً بالغرض، ولكنه اختيار أقوى الدليلين في حادثة معينة

3 – 6 - العرف والعادة

وهو ما استقر في النفوس من جهة العقول، وتلقته الطباع السليمة بالقبول ،

والأصل في اعتبار العرف دليلاً شرعياً قول ابن مسعود: « ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن » ، ويكون العرف دليلاً حيث لا دليل شرعي من الكتاب والسنة، أما إذا خالف العرف الكتاب والسنة كتعارف بعض التجار التعامل بالربا ، فهو عرف مردود لأنه محادٌّ للشريعة ومخالف لها.

4 - تجارته

نشأ أبو حنيفة في بيت من بيوت أهل اليسار والغنى، فأبوه وجده كانا تاجرين، ويغلب على الظن أن تجارتهما كانت في الخز (وهو نوع من الأقمشة) ، وهي تجارة تدر على صاحبها الخير الوفير، وأخذ أبو حنيفة عنهما هذه التجارة، فنشأ أول نشأته يختلف إلى السوق، ولا يعكف على الاستماع إلى العلماء، ثم اتجه إلى العلم، ولكنه لم ينقطع عن التجارة، بل استمر تاجراً إلى أن مات، وكان له شريك يظهر أنه أعانه على الاستمرار في طلب العلم وخدمة الفقه ورواية الحديث.

اتصف أبو حنيفة التاجر بصفات تجعله مثلاً كاملاً للتاجر المستقيم، فقد كان ثري النفس لم يستولِ عليه الطمع الذي يفقر النفوس، ولعل منشأ ذلك أنه نشأ في أسرة غنية فلم يذق ذل الحاجة، وكان عظيم الأمانة شديداً على نفسه في كل ما يتصل بها، وكان سمحاً قد وقاه الله شح نفسه، وكان بالغ التدين شديد التنسك عظيم العبادة يصوم النهار ويقوم الليل. فكان لهذه الصفات أثرها في معاملاته التجارية، حتى كان غريباً بين التجار، وحتى شبهه كثيرون في تجارته بأبي بكر الصديق.

كما كان أبو حنيفة حريصاً أن يكون مظهره كمخبره حسناً، فكان كثير العناية بثيابه ، يختارها جيدة ، وكان حسن الهيئة كثير التعطر.

ويُروى أنه قد جاءته امرأة بثوب من الحرير تبيعه له ، فقال: « كم ثمنه؟ »، فقالت : « مئة »، فقال : « هو خير من مئة ، بكم تقولين؟ »، فزادت مئة مئة حتى قالت : «أربعمئة»، قال: « هو خير من ذلك »، قالت : « تهزأ بي » ، قال: « هاتي رجلاً يقوّمه » ، فجاءت برجل، فاشتراه بخمسمئة .

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

ويُروى أنه بعث شريكه حفص بن عبد الرحمن بمتاع ، وأعلمه أن في ثوب منه عيباً ، وأوجب عليه أن يبين العيب عند بيعه ، فباع حفص المتاع ونسي أن يبين ، ولم يعلم من الذي اشتراه ، فلما علم أبو حنيفة تصدق بثمن المتاع كله.

5 - محنته الأولى وذهابه إلى مكة

عاش أبو حنيفة 52 سنة من حياته في العصر الأموي ، و18 سنة في العصر العباسي، فهو قد أدرك دولتين من دول الإسلام.

ويُروى أنه لما خرج زيد بن علي زين العابدين على هشام بن عبد الملك سنة 121هـ كان أبو حنيفة من المؤيدين للإمام زيد ، قال أبو حنيفة : « ضاهى خروجه خروج رسول الله ﷺ يوم بدر » ، ويُروى أنه قال في الاعتذار عن عدم الخروج معه : « لو علمت أن الناس لا يخذلونه كما خذلوا أباه لجاهدت معه لأنه إمام حق ، ولكن أعينه بمالي، فبعث إليه بعشرة آلاف درهم ». وانتهت ثورة الإمام زيد بقتله سنة 132هـ، كما قتل ابنه يحيى في خراسان، وابنه عبد الله بن يحيى في اليمن. ولقد كان لزيد بن علي منزلة في نفس أبي حنيفة، وكان يُقدِّره في علمه وخلقه ودينه، وعدَّه الإمام بحق، وأمده بالمال، ثم رآه يُقتل بسيف الأمويين، ثم يُقتل من بعده ابنه، ثم من بعده حفيده، فأحنقه كل ذلك.

كان يزيد بن عمر بن هبيرة والي الكوفة آنذاك، فأرسل إلى أبي حنيفة يريد أن يجعل الخاتم في يده ، ولا ينفذ كتاب إلا من تحت يد أبي حنيفة ، فامتنع أبو حنيفة عن ذلك، فحلف الوالي أن يضربه إن لم يقبل، فنصح الناسُ أبا حنيفة أن يقبل ذلك المنصب، فقال أبو حنيفة: « كيف أقبل وهو يريد مني أن يُكتب دمُ رجل يُضرب عنقُه وأختم أنا على ذلك الكتاب، فوالله لا أدخل في ذلك أبداً » ، فحبسه صاحب الشرطة، وضربه أياماً متتالية ، ثم أمر الوالي بتخلية سبيله ، فركب دوابه وذهب إلى مكة ، وكان هذا في سنة 130هـ. ولقد وجد في الحرم المكي أمناً ، فعكف على الحديث والفقه يطلبهما بمكة التي ورثت علم ابن عباس، وظل مقيماً بمكة حتى صارت الخلافة للعباسيين ، فقدم الكوفة في زمن أبي جعفر المنصور.

6 - محنته الثانية ووفاته

استقبل أبو حنيفة عهد العباسيين بارتياح ، فقد رأى اضطهاد الأمويين لبني علي بن أبي طالب وأهل بيت النبي محمد ، واستمر على ولائه للدولة العباسية لمحبته لآل البيت جميعاً، ولقد كان الخليفة أبو جعفر المنصور يدنيه ويعليه ويرفع قدره ويعطيه العطايا الجزيلة، ولكنه كان يردها ولا يقبل العطاء ،

ولم يُعرف عن أبي حنيفة أنه تكلم في حكم العباسيين حتى نقم عليهم أبناء علي بن أبي طالب ، واشتدت الخصومة بينهم ، وقد كان ولاء أبي حنيفة لبني علي، فكان طبيعياً أن يغضب لغضبهم، وخصوصاً أن من ثارا على أبي جعفر هما **محمد النفس الزكية** بن عبد الله بن الحسن، وأخوه **إبراهيم** بن عبد الله بن الحسن، وكان أبوهما عبد الله ممن اتصل به أبو حنيفة اتصالاً علمياً ، وقد كان عبد الله وقت خروج ولديه في سجن أبي جعفر، ومات فيه بعد مقتل ولديه.

كان موقف أبي حنيفة من خروج محمد النفس الزكية على المنصور شديداً، فقد كان يجهر بمناصرته في درسه، بل وصل الأمر إلى أن ثبط بعض قواد المنصور عن الخروج لحربه . وكان هذا العمل في نظر المنصور من أخطر الأعمال على دولته، لأن أبا حنيفة تجاوز فيه حد النقد المجرد والولاء القلبي إلى العمل الإيجابي ، فأراد المنصور أن يختبر طاعة أبي حنيفة وولاءه له ، وقد كان يبني بغداد آنذاك ، فأراد أن يجعله قاضياً، فامتنع أبو حنيفة .

كان أبو حنيفة بعد مناوأة بني علي للمنصور وإيذائه لهم وقتله لرؤوسهم لا يرتاح إلى دولته ، وقد استطاع أن يدرأ عنه أذاه ، وانصرف إلى العلم ، ولكن كان من وقت لآخر يقول بعض الأقوال، أو تكون منه أمور تكشف عن رأيه فيه وفي دولته ، ومن ذلك أن أهل الموصل كانوا قد انتفضوا على المنصور، وقد اشترط المنصور عليهم أنهم إذا انتفضوا تحل دماؤهم له، فجمع المنصور الفقهاء وفيهم أبو حنيفة، فقال: « أليس صح أنه عليه السلام قال: «المؤمنون عند شروطهم »، وأهل الموصل قد شرطوا ألا يخرجوا علي، وقد خرجوا على عاملي، وقد حلت لي دماؤهم » ، فقال رجل: «يدك مبسوطة عليهم، وقولك مقبول فيهم، فإن عفوت فأنت أهل العفو، وإن عاقبت فبما يستحقون»، فقال لأبي حنيفة: « ما تقول أنت يا شيخ؟ ألسنا في خلافة نبوة وبيت أمان؟»، قال: « إنهم شرطوا لك ما لا يملكونه ، وشرطت عليهم ما ليس لك،

لأن دم المسلم لا يحل إلا بأحد معان ثلاثة ، فإن أخذتهم أخذت بما لا يحل، وشرط الله أحق أن توفي به »، فأمرهم المنصور بالقيام فتفرقوا ثم دعاه وقال: « يا شيخ، القول ما قلت ، انصرف إلى بلادك ولا تُفتِ الناس بما هو شين على إمامك فتبسط أيدي الخوارج ».

وعندما دعا أبو جعفر المنصور أبا حنيفة ليتولى القضاء امتنع، فطلب منه أن يَرجع إليه القضاة فيما يشكل عليهم ليفتيهم فامتنع ، فأنزل به العذاب بالضرب والحبس، وأخرج من السجن على أن يلزم الباب ، ومُنع من التدريس والاتصال بالناس . وقد اتفق الرواة على أنه لم يجلس للإفتاء والتدريس بعد ذلك ، إذ إنه مات بعد هذه المحنة أو معها ،

توفي أبو حنيفة لإحدى عشرة ليلةً خلت من جمادى الأولى سنة 150هـ . وقيل توفي في اليوم الذي وُلد فيه الإمام الشافعي، وكانت وفاته في بغداد ، ودفن في مقبرة الخيزران، وقبره هناك مشهور يُزار، وصحَّ أن الإمام لما أحس بالموت سجد ، فمات وهو ساجد. وقد أوصى أبو حنيفة أن يُدفن في أرض طيبة لم يجر عليها غصب ، وألا يدفن في أرض قد اتُّهم الأميرُ بأنه غصبها، حتى يُروى أن أبا جعفر عندما علم ذلك قال : « من يعذرني من أبي حنيفة حياً وميتاً »، وشيعت بغداد كلها جنازة فقيه العراق، والإمام الأعظم، ولقد قُدِّر عدد من صلوا عليه بخمسين ألفاً، حتى لقد صلى أبو جعفر نفسه على قبره بعد دفنه.

7 - مؤلفاته وأسباب قِلَّتها

لم يكن عصر الإمام أبي حنيفة عصر تأليف وتدوين بالمعنى المعروف فيما بعد، بمعنى أن يخلو العالم إلى نفسه فيكتب أو يملي الأشياء الكثيرة ، فلم يكن أبو حنيفة قد فرغ نفسه للتأليف والإملاء ، والتدريس شغله عن التأليف، وهو فوق ذلك مرجع طلاب العلم وشُداته، يقصدونه من الكوفة والبصرة وداني البلاد وقاصيها، لذا لم تكن لأبي حنيفة تآليف كثيرة تتناسب مع مكانته العلمية العظيمة.

ولقد ثبت عن الإمام أبي حنيفة أنه ألف في علم الكلام كتابي " الفقه الأكبر" و" الفقه الأوسط "، وكتاب " العالم والمتعلم "، وكتاب " الرسالة " إلى مقاتل بن سليمان صاحب التفسير، وكتاب " الرسالة " إلى عثمان البتي فقيه البصرة، وكتاب " الوصية " وهي وصايا عدة لأصحابه.

وشُغل عن رواية الحديث بفقه الحديث وفهمه وجمع نصوصه وكان أبو حنيفة أول من صنف في الحديث النبوي الشريف مرتباً على أبواب الفقه.

8 - فضله وثناء العلماء عليه

قال وكيع بن الجراح وهو شيخ الإمام الشافعي: « كان أبو حنيفة عظيم الأمانة، وكان يؤثر رضا الله تعالى على كل شيء، ولو أخذته السيوف في الله تعالى لاحتملها».

وقال الإمام الشافعي: سئل مالك بن أنس : « هل رأيت أبا حنيفة وناظرته ؟ »، فقال: « نعم ، رأيت رجلاً لو نظر إلى هذه السارية وهي من حجارة ، فقال إنها من ذهب لقام بحجته ».

وقال الإمام الشافعي: «من أراد الحديث الصحيح فعليه بمالك، ومن أراد الجدل فعليه بأبي حنيفة، ومن أراد التفسير فعليه بمقاتل بن سليمان» . وقال: «من أراد أن يتبحر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة ، كان أبو حنيفة ممن وُفق له الفقه ».

وقال الإمام أحمد بن حنبل: « إن أبا حنيفة من العلم والورع والزهد وإيثار الآخرة بمحل لا يدركه أحد، ولقد ضُرب بالسياط لِيَلِيَ للمنصور فلم يفعل ، فرحمة الله عليه ورضوانه ».

كما كان الإمام أحمد كثيراً ما يذكره ويترحم عليه ، ويبكي في زمن محنته . وقال أبو بكر المروزي: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول : « لم يصح عندنا أن أبا حنيفة رحمه الله قال : القرآن مخلوق » ، فقلت: « الحمد لله يا أبا عبد الله، هو من العلم بمنزلة»، فقال: «سبحان الله! هو من العلم والورع والزهد وإيثار الدار الآخرة بمحل لا يدركه فيه أحمد، ولقد ضُرب بالسياط على أن يلي القضاء لأبي جعفر فلم يفعل».

وقال عبد الله بن المبارك: «رأيت أعبد الناس، ورأيت أورع الناس، ورأيت أعلم الناس، ورأيت أفقه الناس، فأما أعبد الناس فعبد العزيز بن أبي روّاد، وأما أورع الناس فالفضيل بن عياض، وأما أعلم الناس فسفيان الثوري، وأما أفقه الناس فأبو حنيفة»، ثم قال: «ما رأيت في الفقه مثله».

وعن محمد بن أحمد بن يعقوب قال: حدثني جدي قال: أملى علي بعض أصحابنا أبياتاً مدح بها عبد الله بن المبارك أبا حنيفة:

رأيت أبا حنيفة كل يوم — يزيد نبالة ويزيد خيراً
وينطق بالصواب ويصطفيه — إذا ما قال أهل الجور جوراً
يقائس من يقايسه بلب — فمن ذا تجعلون له نظيراً
كفانا فقهُ حماد وكانت — مصيبتنا به أمراً كبيراً
فردَّ شماتة الأعداء عنا — وأبدى بعده علماً كثيراً
رأيت أبا حنيفة حين يؤتى — ويُطلب علمه بحراً غزيراً
إذا ما المشكلات تدافعتها — رجال العلم كان بها بصيراً

كما أثنى الشيخ أبو زكريا السلماسي على أبي حنيفة فقال :

أما أبو حنيفة فله في الدين المراتب الشريفة، والمناصب المنيفة، سراج في الظلمة وهَّاج، وبحر بالحكم عجَّاج، سيد الفقهاء في عصره، ورأس العلماء في مِصره، له البيان في علم الشرع والدين، والحظ الوافر من الورع المتين، والإشارات الدقيقة في حقيقة اليقين، مهَّد ببيانه قواعد الإسلام، وأحكم بتبيانه شرائع الحلال والحرام، وصار قدوة الأئمة الأعلام، سبق الكافة منهم إلى تقرير القياس والكلام، وغدا إماماً تُعقد عليه الخناصر، ويشير إليه الأكابر والأصاغر، انتشر مذهبه في الآفاق، وعُدّ من الأفراد بالاتفاق، فضله وافر، ودينه ثابت، وعَلَمُه في مراده للمجد ثابت ، اسمه النعمان وأبوه ثابت

وقال الإمام أبو يوسف: « كانوا يقولون : أبو حنيفة زينة الله بالفقه والعلم، والسخاء والبذل، وأخلاق القرآن التي كانت فيه ».

وقال الإمام سفيان الثوري: « ما مقلت عيناي مثل أبي حنيفة ».

وقال يحيى بن سعيد القطان (إمام الجرح والتعديل): « إن أبا حنيفة -والله- لأعلم هذه الأمة بما جاء عن الله ورسوله ».

وقال إسحاق بن أبي إسرائيل: ذَكر قومٌ أبا حنيفة عند ابن عيينة فتنقَّصه بعضُهم، فقال سفيان: «مه! كان أبو حنيفة أكثر الناس صلاة، وأعظمهم أمانة، وأحسنهم مروءة».[70]

وقال صدقة المقابري : لمَّا دُفن أبو حنيفة في مقابر الخيزران سمعت صوتاً في الليل ثلاث ليال :

لقد زان البلاد ومن عليها — إمام المسلمين أبو حنيفة
فما بالمشرقين له نظير — ولا بالمغربين ولا بكوفة
ويأتيكم بإسناد صحيح — كآيات الزبور على الصحيفة

9 - أخلاقه وصفاته

اتصف أبو حنيفة بصفات تجعله في الذروة العليا بين العلماء، منها :

9 – 1 - أحد التابعين

يُعد الإمام أبو حنيفة تابعياً من التابعين، قال أبو حنيفة: «لقيت من أصحاب رسول الله ﷺ سبعة وهم: أنس بن مالك، وعبد الله بن جزء الزبيدي، وجابر بن عبد الله، ومعقل بن يسار، وواثلة بن الأسقع، وعائشة بنت عمر، وعبد الله بن أنيس، رضي الله عنهم».

وقد روى الإمام جلال الدين السيوطي عن الشيخ ولي الدين العراقي أنه قال: «الإمام أبو حنيفة لم يصح له رواية عن أحد من الصحابة، وقد رأى أنس بن مالك، فمن يكتف في التابعي بمجرد رؤية الصحابي يجعله تابعياً، ومن لم يكتف بذلك لا يعده تابعياً».

ويُروى عن أبي حنيفة أنه قال: «سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»».

9 – 2 - غزارة العلم

كان الإمام أبو حنيفة صاحب علم غزير، وقد شهد له العلماء بذلك ، قال الإمام محمد بن إدريس الشافعي : « من أراد أن يتبحر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة، كان أبو حنيفة ممن وُفق له الفقه ». وقال: « الناس عيال على أبي حنيفة في القياس والاستحسان ».

وقيل للقاسم بن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود: «ترضى أن تكون من غلمان أبي حنيفة؟»، قال: «ما جلس الناس إلى أحد أنفع من مجالسة أبي حنيفة».

ورُوي عن عبد الله بن المبارك أنه قال: « لولا أن الله عز وجل أعانني بأبي حنيفة وسفيان، كنت كسائر الناس ».

9 – 3 - الورع وكثرة العبادة

عُرف عن أبي حنيفة أنه كان ورعاً كثير العبادة، قال مسعر بن كدام : « دخلت ذات ليلة المسجد، فرأيت رجلاً يصلي فاستحليت قراءته، فقرأ سبعاً فقلت يركع، ثم قرأ الثلث ثم النصف، فلم يزل يقرأ القرآن حتى ختمه كله في ركعة، فنظرت فإذا هو أبو حنيفة».

وقال يحيى بن نصر: « ربما ختم أبو حنيفة القرآن في رمضان ستين مرة ».

وقال عبد الله بن المبارك: «قدمت الكوفة فسألت عن أورع أهلها فقالوا: أبو حنيفة».

وقال يزيد بن هارون: «كتبت عن ألف شيخ حملت عنهم العلم، ما رأيت والله فيهم أشدَّ ورعاً من أبي حنيفة ولا أحفظ للسانه».

9 – 4 - الهدوء والوقار

كان أبو حنيفة ضابطاً لنفسه، مستولياً على مشاعره، لا تعبث به الكلمات العارضة، ولا تبعده عن الحق العبارات النابية، وكان يقول: « اللهم من ضاق بنا صدره، فإن قلوبنا قد اتسعت له ».

ويُروى أنه قال له بعض مناظريه: « يا مبتدع يا زنديق » ، فقال: « غفر الله لك ، الله يعلم مني خلاف ذلك ، وإني ما عدلت به مذ عرفته ، ولا أرجو إلا عفوه ، ولا أخاف إلا عقابه » ، ثم بكى عند ذكر العقاب ، فقال له الرجل: « اجعلني في حل مما قلت » ، فقال : « كل من قال في شيئاً من أهل الجهل فهو في حل ، وكل من قال في شيئاً مما ليس في من أهل العلم فهو في حرج ، فإن غيبة العلماء تُبقي شيئاً بعدهم ».

وروى الحسن بن إسماعيل بن مجالد عن أبيه، قال: كنت عند الرشيد إذ دخل عليه أبو يوسف، فقال له هارون : « صف لي أخلاق أبي حنيفة »، قال: « كان والله شديد الذب عن حرام الله ، مجانباً لأهل الدنيا ، وطويل الصمت دائم الفكر، لم يكن مهذاراً ولا ثرثاراً، إن سُئل عن مسألة عنده منها علم أجاب فيها ، ما علمته يا أمير المؤمنين إلا صائناً لنفسه ودينه ، مشتغلاً بنفسه عن الناس لا يذكر أحداً إلا بخير » ، فقال الرشيد : « هذه أخلاق الصالحين».

9 – 5 - الإخلاص والتواضع

كان أبو حنيفة مخلصاً في طلب الحق، وكان لإخلاصه لا يفرض أن رأيه هو الحق المطلق الذي لا يشك فيه، بل كان يقول: « قولنا هذا رأي، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا ». وقيل له: « يا أبا حنيفة، هذا الذي تفتي به هو الحق الذي لا شك فيه »، فقال: « والله لا أدري لعله الباطل الذي لا شك فيه ».

وكان أبو حنيفة لإخلاصه في طلب الحق يرجع عن رأيه إذا ذَكر له مناظرُه حديثاً لم يصح عنده غيره ولا مطعن له فيه ، أو ذكرت له فتوى صحابي كذلك.

9 – 6 - صفته الشكلية

قال أبو نعيم بن دكين: « كان أبو حنيفة جميلاً، حسنَ الوجه، حسنَ اللحية، حسنَ الثوب ». وقال أبو يوسف: « كان أبو حنيفة ربعة من الرجال، ليس بالقصير ولا بالطويل، وكان أحسن الناس منطقاً، وأحلاهم نغمةً، وأبينهم عما تريد ».

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

وقال عمر بن جعفر بن إسحاق بن عمر بن حماد بن أبي حنيفة: «إن أبا حنيفة كان طويلاً تعلوه سمرة، وكان لَبَّاساً حسنَ الهيئة كثيرَ التعطر، يُعرف بريح الطيب إذا أقبل وإذا خرج من منزله قبل أن تراه ».

10 - شيوخه

شيوخ الإمام أبي حنيفة كثيرون لا يسع ذكرهم ، ومن شيوخه : الليث بن سعد، ومالك بن أنس إمام دار الهجرة. وعطاء بن أبي رباح ، وهو أكبر شيخ له وأفضلهم على ما قال، والشعبي، وطاووس، وجبلة بن سحيم، وعدي بن ثابت، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج، وعمرو بن دينار، وأبي سفيان طلحة بن نافع، ونافع مولى ابن عمر، والقاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، ومحارب بن دثار، وعلقمة بن مرثد، وعبد العزيز بن رفيع، وحماد بن أبي سليمان وبه تفقه، وسماك بن حرب، وعبد الملك بن عمير، وأبي جعفر الباقر، وابن شهاب الزهري، ومحمد بن المنكدر، وعطاء بن السائب، وهشام بن عروة، وخلق سواهم.

11 - تلاميذه

حدَّث عن الإمام أبي حنيفة خلقٌ كثير منهم: أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم ، وأبو الهذيل زفر بن الهذيل العنبري، وإبراهيم بن طهمان عالم خراسان، وأبيض بن الأغر بن الصباح المنقري، وأسد بن عمرو البجلي، وإسماعيل بن يحيى الصيرفي، والحسن بن زياد اللؤلؤي، وحفص بن عبد الرحمن القاضي، وابنه حماد بن أبي حنيفة، وحمزة الزيات وهو من أقرانه، وداود الطائي، وعبد الله بن المبارك، وعبد الله بن يزيد المقرئ، ومحمد بن الحسن الشيباني، ويوسف بن خالد السمتي، وغيرهم كثير.

12 - انتشار المذهب الحنفي عبر التاريخ

يُسمى المذهبُ الحنفي مذهبَ أهل الرأي، وهو أقدم المذاهب الأربعة ، وصاحبه هو الإمام أبو حنيفة النعمان، وقد نشأ المذهب الحنفي بالكوفة موطن الإمام أبي حنيفة، ثم تدارسه العلماء بعد وفاة شيخه ببغداد، ثم شاع من بعد ذلك وانتشر في أكثر البقاع الإسلامية، فكان في مصر والشام وبلاد الروم والعراق وما وراء النهر، ثم اجتاز الحدود فكان في الهند والصين، حيث لا منافس له ولا مزاحم، ويكاد أن يكون هو المنفرد في تلك الأصقاع إلى الآن.

ويقال لأصحاب المذهب الحنفي أهل الرأي، لأن الحديث كان قليلاً بالعراق، فاستكثروا من القياس ومهروا فيه. ورُوي أن أصحاب أبي حنيفة الذين دونوا مذهبه أربعون رجلاً منهم: أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، وأبو الهذيل زفر بن الهذيل العنبري، وأن أول من كتب كتبه أسد بن عمرو.

12 – 1 - إيثار الحنفية بالقضاء في العصر العباسي

لما تولى هارون الرشيد الخلافة، ولى القضاء أبا يوسف صاحب أبي حنيفة، وذلك بعد سنة 170هـ، وأصبحت تولية القضاء بيده، فلم يكن يولي ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر (إلى أقصى عمل إفريقية) إلا من أشار به ، وكان لا يولي إلا أصحابه والمنتسبين إلى مذهبه، فاضطرت العامة إلى أحكامهم وفتاواهم، وفشا المذهب في هذه البلاد فشواً عظيماً، حتى قال ابن حزم: « مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرئاسة والسلطان: الحنفي بالمشرق ، والمالكي بالأندلس ».

12 - 2 - انتشاره في مصر

كان أهل مصر لا يعرفون المذهب الحنفي حتى وَلَّى الخليفة المهدي قضاءها لإسماعيل بن اليسع الكوفي سنة 146هـ، وهو أول قاضٍ حنفي بمصر، وأول من أدخل إليها المذهب الحنفي، وكان من خير القضاة .

إلا أن القضاء بها لم يكن مقصوراً على الحنفية ، بل كان يتولاه الحنفيون تارة، والمالكيون أو الشافعيون تارة أخرى ، إلى أن استولى عليها الفاطميون، وأظهروا مذهب الشيعة الإسماعيلية، وولوا القضاة منهم، فقوي هذا المذهب بالدولة، وعمل بأحكامه، إلا أنه لم يَقض على المذاهب السنية في العبادات، لأنهم كانوا يبيحون للرعية التعبد بما يشاؤون من المذاهب.

ثم لما قامت الدولة الأيوبية بمصر، وكان من سلاطينها شافعية، قضوا على التشيع فيها، وأنشأوا المدارس للفقهاء الشافعية والمالكية. وكان نور الدين الشهيد حنفياً، فنشر مذهبه ببلاد الشام، ومنها كثرت الحنفية بمصر، وقدم إليها أيضاً عدة فقهاء منهم من بلاد المشرق، فبنى لهم صلاح الدين الأيوبي المدرسة

اليوسفية بالقاهرة، وما زال مذهبهم ينتشر ويقوى، وفقهاؤهم يكثرون بمصر، إلا في آخر هذه الدولة. وأول من رتب دروساً أربعة للمذاهب الأربعة في مدرسة واحدة هو الصالح نجم الدين أيوب في مدرسته الصالحية بالقاهرة سنة 641هـ. ثم فشا هذا النوع من المدارس في الدولتين التركية والجركسية ، وحدث في الأولى جعْلُ القضاة أربعة، فعاد الحنفية إلى القضاء بعد انقطاعهم عنه مدة الفاطميين، والاقتصار مدة الأيوبيين على نواب منهم ومن المالكية والحنابلة عن القاضي الشافعي.

ثم لما فتح العثمانيون مصر حصروا القضاء في الحنفية ، وأصبح المذهب الحنفي مذهب أمراء الدولة وخاصتها، ورغب كثير من أهل العلم فيه لتولي القضاء، إلا أنه لم ينتشر بين أهل الريف (الوجه البحري) والصعيد انتشاره في المدن ولم يزل كذلك إلى اليوم.

12 – 3 - انتشاره في البلاد الإسلامية الأخرى

أما بدء دخول المذهب الحنفي في سائر البلاد الإسلامية فكان في القرن الرابع الهجري، وقد كان المذهب الحنفي هو الغالب على أهل صنعاء وصعدة باليمن، والغالب على فقهاء العراق وقضائه، وكان منتشراً بالشام، تكاد لا تخلو فيه قصبة أو بلد من حنفي، وربما كان القضاء منهم ، وكان المذهب الحنفي في إقليم الشرق أي خراسان وسجستان وما وراء النهر وغيرها، إلا في بلاد منها كان أهلها شافعية ، وكان أهل جرجان وبعض طبرستان من إقليم الديلم حنفية. وكان غالباً على أهل دبيل من إقليم الرحاب الذي منه الران وأرمينية وأذربيجان وتبريز، وموجوداً في بعض مدنه بلا غلبة. وكان غالباً على أهل القرى من إقليم الجبال، وكثيراً في إقليم خوزستان المسمى قديماً الأهواز، وكان لهم به فقهاء وأئمة كبار. وكان بإقليم فارس كثير من الحنفية . وكانت قصبات السِّند لا تخلو من فقهاء حنفية، كما أن أهل سجستان كانوا حنفية، وكان ملوك بنجالة بالهند جميعاً حنفية.

الإمام الذهبي

تقديم

شمس الدين الذهبي (مواليد 673 هـ / 748 هـ - توفي 1274م / 1348م) محدث وإمام حافظ . جمع بين ميزتين لم يجتمعا إلا للأفذاذ القلائل في تاريخنا، فهو يجمع إلى جانب الإحاطة الواسعة بالتاريخ الإسلامي حوادث ورجالاً، المعرفة الواسعة بقواعد الجرح والتعديل للرجال ، فكان وحده مدرسة قائمة بذاتها.

والإمام الذهبي من العلماء الذين دخلوا ميدان التاريخ من باب الحديث النبوي وعلومه ، وظهر ذلك في عنايته الفائقة بالتراجم التي صارت أساس كثير من كتبه ومحور تفكيره التاريخي .

لم تعرف المكتبة العربية مؤرخًا غزير الإنتاج ، متنوع التأليف مثل الإمام الذهبي، وقد بلغت مؤلفاته التاريخية وحدها نحو مائة وخمسين كتابًا، بعضها يتجاوز المجلدات ذوات العدد. ولا تقتصر هذه المؤلفات على عصر معين أو فئة محددة أو تنظيم واحد، بل تتجاوز ذلك كله لتشمل جميع عصور الإسلام.

سمع بدمشق، ومصر، وبعلبك، والإسكندرية. وسمع منه الجمع الكثير، وكان شديد الميل إلى رأي الحنابلة، وله تصانيف في الحديث، وأسماء الرجال؛ قرأ القرآن، وأقرأه بالروايات، وقد بلغت مؤلفاته التاريخية وحدها نحو مائتي كتابًا، بعضها مجلدات ضخمة.

1 - المولد والنشأة

ولد أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي في كفر بطنا قرب مدينة دمشق في ربيع الآخر 673 هـ الموافق لشهر أكتوبر 1274م. نشأ في أسرة كريمة **تركمانية الأصل** ، سكنت مدينة ميافارقين من أشهر مدن ديار بكر، ويبدو أن جد أبيه قايماز قضى حياته فيها . يعمل والده في صناعة الذهب ، فبرع فيه وتميز حتى عُرف بالذهبي ، وكان رجلا صالحًا محبًا للعلم ، فعني بتربية ولده

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

وتنشئته على حب العلم. وكان كثير من أفراد عائلته لهم انشغال بالعلم، فشب الوليد يتنسم عبق العلم في كل ركن مته .

وفي سن مبكرة انضم إلى حلقات تحفيظ القرآن الكريم حتى حفظه وأتقن تلاوته. ثم اتجهت عنايته لما بلغ مبلغ الشباب إلى تعلم القراءات وهو في الثامنة عشرة من عمره، فتتلمذ على شيوخ الإقراء في زمانه كـجمال الدين أبي إسحاق إبراهيم بن داود العسقلاني المتوفى سنة 692 هـ الموافقة لسنة 1292م، والشيخ جمال الدين أبي إسحاق إبراهيم بن غال المتوفى سنة 708 هـ الموافقة لسنة 1308م، وقرأ عليهما القرآن بالقراءات السبع، وقرء على غيرهما من أهل هذا العلم حتى أتقن القراءات وأصولها ومسائلها. وبلغ من إتقانه لهذا الفن وهو في هذه السن المبكرة أن تنازل له شيخه محمد عبد العزيز الدمياطي عن حلقته في الجامع الأموي حين اشتد به المرض. في الوقت الذي كان يتلقى فيه القراءات مال الذهبي إلى سماع الحديث الذي ملك عليه نفسه، فاتجه إليه، واستغرق وقته، ولازم شيوخه، وبدأ رحلته الطويلة في طلبه.

2 - رحلات الإمام الذهبي وأخذه عن شيوخ عصره

كانت رحلاته الأولى داخل البلاد الشامية، فنزل بعلبك سنة 693 هـ الموافقة لسنة 1293م، وروى عن شيوخها، ثم رحل إلى حلب وحماة وطرابلس والكرك ونابلس والرملة والقدس، ثم رحل إلى مصر سنة 695 هـ الموافقة لسنة 1295م, وسمع من شيوخها الكبار، على رأسهم ابن دقيق العيد المتوفى سنة 702 هـ الموافقة لسنة 1302م وبدر الدين ابن جماعة المتوفى سنة 733 هـ, وذهب إلى الإسكندرية فسمع من شيوخها، وقرأ على بعض قرائها المتقنين القرآن بروايتي ورش وحفص، ثم عاد إلى دمشق.

وفي سنة 698 هـ الموافقة لسنة 1298م رحل الإمام الذهبي إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وكان يرافقه في هذه الرحلة جمع من شيوخه وأقرانه، وانتهز فرصة وجوده هناك فسمع الحديث من شيوخ مكة والمدينة.

رغم أن تركيز الإمام الذهبي الرئيسي انصبّ على الحديث، فقد درس النحو والعربية على الشيخ ابن أبي العلاء النصيبي، وبهاء الدين بن النحاس إمام أهل الأدب في مصر، واهتم كذلك بدراسة المغازي والسير والتراجم والتاريخ العام.

في الوقت نفسه اتصل بثلاثة من شيوخ العصر وترافق معهم، وهم:

* شيخ الإسلام ابن تيمية ولد في 661 هـ والمتوفى سنة 728 هـ الموافقة لسنة 1327م،
* جمال الدين أبي الحجاج المزي المولود سنة 654 هـ والمتوفى سنة 739 هـ الموافقة لسنة 1338م
* القاسم البرزالي المزداد سنة 665 هـ الموافقة لسنة 1267م والمتوفى سنة 739 هـ الموافقة لسنة 1339م.

وقد جمع بين هؤلاء الأعلام طلب الحديث، وميلهم إلى آراء الحنابلة ودفاعهم عن مذهبهم. ويذكر الإمام الذهبي أن البرزالي هو الذي حبب إليه طلب الحديث.

3 - نشاطه العلمي

بعد أن أنهى الإمام الذهبي رحلاته في طلب العلم والاخذ عن ما يزيد عن الألف من العلماء، اتجه إلى التدريس وعقد حلقات العلم لتلاميذه، وانغمس في التأليف والتصنيف، وبدأت حياته العلمية في قرية " كفر بطنا " بغوطة دمشق حيث تولى الخطابة في مسجدها سنة 703 هـ الموافقة لسنة 1303م وظل مقيمًا بها إلى سنة 718 هـ الموافقة لسنة 1318م. وفي هذه القرية ألف الإمام الذهبي خيرة كتبه. وتعد الفترة التي قضاها بها هي أخصب فترات حياته إنتاجًا، ثم تولى مشيخة دار الحديث بتربة أم صالح، وكانت هذه الدار من كبريات دور الحديث بدمشق، تولاها سنة 718 هـ الموافقة لسنة 1318م بعد وفاة شيخها كمال الدين بن الشريشي، واتخذها سكنًا له حتى وفاته، ثم أضيفت إليه مشيخة دار الحديث الظاهرية سنة 729 هـ الموافقة لسنة 1228م ومشيخة المدرسة النفيسية سنة 739 هـ الموافقة لسنة 1338م بعد وفاة البرزالي، ومشيخة دار الحديث والقرآن التنكزية في السنة نفسها.

أتاحت له هذه المدارس أن يدرس عليه عدد كبير من طلبة العلم، ووفد عليه لتلقي العلم كثيرون من أنحاء العالم الإسلامي بعد أن اتسعت شهرته وانتشرت مؤلفاته، ورسخت مكانته لمعرفته الواسعة بالحديث

وعلومه والتاريخ وفنونه، فكان مدرسة قائمة بذاتها، تخرج فيها كبار الحفاظ والمحدثين. وتزخر كتب القرن الثامن الهجري بمئات من تلاميذ الذهبي النجباء، وحسبه أن يكون من بينهم: الحافظ ابن كثير وعبد الوهّاب السبكي صاحب طبقات الشافعية الكبرى، وصلاح الدين الصفدي، وابن رجب الحنبلي وغيرهم.

3 - مؤلفاته

ترك الإمام الذهبي إنتاجًا غزيرًا من المؤلفات بلغ أكثر من مائتي كتاب، شملت كثيرًا من ميادين الثقافة الإسلامية ، فتناولت القراءات والحديث ومصطلحه ، والفقه وأصوله والعقائد ، غير أن معظم مؤلفاته في علوم التاريخ وفروعه ، ما بين مطول ومختصَر ومعاجم وسير. وثلث هذا العدد مختصرات قام بها الإمام الذهبي لأمهات الكتب التاريخية المؤلفة قبله ، فاختصر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، وتاريخ دمشق لابن عساكر، وتاريخ نيسابور لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، وتاريخ مصر لابن يونس، وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة ، والتكملة لوفيات النقلة للمنذري، وأسد الغابة لابن الأثير.

وإلى جانب هذه المختصرات له كتب في التاريخ والتراجم مثل :

* الطب النبوي . (هذا الكتاب قمت بتحقيقه وطباعة مختصر عنه)
* تذكرة الحفاظ
* ميزان الاعتدال في نقد الرجال
* معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار
* المعين في طبقات المحدثين
* ديوان الضعفاء والمتروكين
* العبر في خبر من عبر
* المشتبه في أسماء الرجال
* دول الإسلام
* المغني في الضعفاء

4 – 1 - أشهر مؤلفاته

أشهر كتبه كتابان هما :

- *1 - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*

وهو أكبر كتب الإمام الذهبي وأشهرها، تناول فيه تاريخ الإسلام من الهجرة النبوية حتى سنة 700 هـ الموافقة لسنة 1300م وهي فترة مدتها سبعة قرون، رغم تناول البعض التاريخ البشري كاملا كالحافظ ابن كثير في كتابه البداية والنهاية, والنويري في كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب ولكن اتساع النطاق المكاني الذي شمل العالم الإسلامي بأسره ميزه بالإضافة إلى أسبقيتة على تلامدتة كابن كثير. وتضمن هذا العمل الفذ الحوادث الرئيسية التي مرت بالعالم الإسلامي، وتعاقب الدول والممالك، مع تراجم للمشهورين في كل ناحية من نواحي الحياة دون اقتصار على فئة دون أخرى، ويبلغ عدد من ترجم لهم في هذا الكتاب الضخم أربعين ألف شخصية، وهو ما لم يتحقق في أي كتاب غيره.

وأبدع الإمام الذهبي في انتهاج الأسلوب الخبري وهو ليس من أساليب المنهجة سابقا حيث قال في مقدمة كتابه :

أما بعد فهذا كتاب نافع إن شاء الله ، ونعوذ بالله من علم لا ينفع ومن دعاء لا يسمع، جمعته وتعبت عليه واستخرجته من عدّة تصانيف ، يعرف به الإنسان مهمّ ما مضى من التاريخ، من أوّل تاريخ الإسلام إلى عصرنا هذا من وفيات الكبار من الخلفاء والقراء والزهاد والفقهاء والمحدّثين والعلماء والسّلاطين والوزراء والنّحاة والشّعراء، ومعرفة طبقاتهم وأوقاتهم وشيوخهم وبعض أخبارهم بأخصر عبارة وألخص لفظ، وما تمّ من الفتوحات المشهورة والملاحم المذكورة والعجائب المسطورة، من غير تطويل ولا استيعاب، ولكن أذكر المشهورين ومن يشبههم، وأترك المجهولين ومن يشبههم، وأشير إلى الوقائع الكبار، إذ لو

استوعبت التراجم والوقائع لبلغ الكتاب مائة مجلّدة بل أكثر، لأنّ فيه مائة نفس يمكنني أن أذكر أحوالهم في خمسين مجلّداً.

وقد ارجع الإمام الذهبي الفضل إلى أصحابه فذكر المراجع التي رجع إليها ونهل منها حيث قال في مقدمة الكتاب :

وقد طالعت على هذا التأليف من الكتب مصنّفات كثيرةً، ومادّته من :دلائل النبوة للبيهقي، وسيرة النّبيّ صلى الله عليه وسلم لابن إسحاق، ومغازيه لابن عائذ الكاتب، والطبقات الكبرى لمحمد بن سعد كاتب الواقدي، وتاريخ أبي عبد الله البخاري، وبعض تاريخ أبي بكر أحمد بن أبي خيثمة، وتاريخ يعقوب الفسوي، وتاريخ محمد بن المثنى العنزي وهو صغير، وتاريخ أبي حفص الفلاس، وتاريخ أبي بكر بن أبي شيبة، وتاريخ الواقدي، وتاريخ الهيثم بن عدي، وتاريخ خليفة بن خياط، والطبقات له، وتاريخ أبي زرعة الدمشقي، والفتوح لسيف بن عمر، وكتاب النسب للزّبير بن بكّار، والمسند للإمام أحمد، وتاريخ المفضل بن غسان الغلابي، والجرح والتعديل عن يحيى بن معين، والجرح والتعديل لعبد الرحمن بن أبي حاتم . ومن عليه رمز فهو في الكتب الستة أو بعضها، لأنّني طالعت مسودّة تهذيب الكمال لشيخنا الحافظ أبي الحجّاج يوسف المزي ,وقد طالعت أيضاً عليه من التواريخ التي اختصرتها :تاريخ أبي عبد الله الحاكم، وتاريخ أبي سعيد بن يونس، وتاريخ أبي بكر الخطيب، وتاريخ دمشق لأبي القاسم الحافظ، وتاريخ أبي سعد بن السمعاني، والأنساب له، وتاريخ القاضي شمس الدين بن خلكان، وتاريخ العلاّمة شهاب الدين أبي شامة، وتاريخ الشيخ قطب الدين بن اليونيني، وتاريخه ذيل على تاريخ مرآة الزمان للواعظ شمس الدين يوسف سبط ابن الجوزي وهما على الحوادث والسّنين. وطالعت أيضاً كثيراً من :تاريخ الطبري، وتاريخ ابن الأثير، وتاريخ ابن الفرضي، وصلته لابن بشكوال، وتكملتها لابن الأبار، والكامل لابن عدي، وكتباً كثيرة وأجزاء عديدة .

ويتميز الكتاب باحتوائه مادة واسعة في التاريخ السياسي والإداري والأحوال الاقتصادية للدولة الإسلامية، انتقاها من مصادر كثيرة ضاع معظمها فلم تصل إلى أيدينا.

ويصور الكتاب الحياة الفكرية في العالم الإسلامي وتطورها على مدى سبعة قرون، ويبرز المراكز الإسلامية ودورها في إشعاع الفكر ومساعدة الناس، وذلك من خلال حركة العلماء وانتقالهم بين حواضر العلم المعروفة وغير المعروفة، واتساع الحركة في وقت دون آخر؛ الأمر الذي يظهر مدى ازدهار المراكز الثقافية أو خمول نشاطها.

ويبين الكتاب من خلال ترجمته لآلاف العلماء وعلى مدى القرون الطويلة التي تعرض لها اتجاهات الثقافة الإسلامية وعناية العلماء بعلوم معينة، ويكشف عن طرائقهم في التدريس والإملاء والمناظرة، ودور المدارس في نشر العلم والمذاهب الفقهية في أنحاء العالم الإسلامي. وأسلوب الإمام الذهبي في تأليف هذا الكتاب تبعه فيه الكثيرون ولعل من المتاخرين منهم الجبرتي في كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار, حيث وضح تأثره بالأسلوب الخبري في الرواية.

- *2 - سير أعلام النبلاء*

وهذا الكتاب هو ثاني أضخم أعمال الإمام الذهبي بعد كتابه تاريخ الإسلام وهو كتاب عام للتراجم (*وهي الكتب التي تهتم بذكر الأشخاص فقط وتاريخهم*) التي سبقت عصره، وقد رتب تراجمه على أساس الطبقات التي تعني فترة زمنية محددة، وقد جعلها عشر سنوات في كتابه تاريخ الإسلام فيذكر الحوادث سنة بعد سنة، ثم يذكر في نهاية الطبقة تراجم الوفيات من الأعلام مع الالتزام بترتيبها على حروف المعجم. في حين جعل الطبقة في سير أعلام النبلاء عشرين سنة، ومن ثم اشتمل الكتاب على خمس وثلاثين طبقة.

ولم يقتصر الإمام الذهبي في كتابه على نوع معين من الأعلام، بل شملت تراجمه فئات كثيرة، من الخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء والقادة والقضاة والفقهاء والمحدثين، واللغويين والنحاة، والأدباء والشعراء، والفلاسفة. غير أن عنايته بالمحدثين كانت أكثر، ولذا جاءت معظم تراجمه من أهل العناية بالحديث النبوي دراية ورواية. كما اتسع كتابه ليشمل تراجم الأعلام من مختلف العالم الإسلامي، دون أن تكون له عناية بمنطقة دون أخرى، أو عصر دون آخر.

وقد عني الإمام الذهبي في كتبه بجرح وتعديل الرجال، طبقا لمنهج هذا العلم لتبيان أحوال رجال الحديث لمعرفة صحيح الحديث من سقيمه. وقد بلغ الذهبي مكانة مرموقة في هذا الفن، ويشهد على ذلك كتابه النفيس : ميزان الاعتدال. وهذا الأسلوب استعمله الإمام الذهبي في تراجمه، حتى وإن كان أصحابها من غير أهل الحديث أو ممن لا علاقة لهم بالرواية، وهو من الأساليب التي تفرد بها الإمام الذهبي في تناول التراجم وهو ما أظهر تأثراً شديداً بيحى بن معين وعلي بن المديني إمامي الجرح والتعديل.

وامتلأ كتابه السير بكل أنواع النقد، فلم يقتصر على مجال واحد من مجالاته، فعني بنقد المترجمين، وبيان أحوالهم، وانتقاد الموارد التي نقل منها، ونبه إلى أوهام مؤلفها.

ويجب الانتباه إلى أن كتاب سير أعلام النبلاء ليس مختصرًا لتاريخ الإسلام، وإن كانت كل التراجم الموجودة في السير سبق أن تناولها الإمام الذهبي في تاريخ الإسلام تقريبًا، فثمة فروق يلحظها المطالع للكتابين، فتراجم الصدر الأول في السير أغزر مادة من مثيلاتها في تاريخ الإسلام، كما أنه ضمّن السير مجموعة من الكتب التي أفردها لترجمة البارزين من أعلام الإسلام، مثل أبي حنيفة وأبي يوسف، وسعيد بن المسبب وابن حزم، وهذه المادة لا نظير لها في كتابه تاريخ الإسلام. ويبدأ الكتاب بالصحابي أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وتنتهى بقليج قان ابن الملك المعز أيبك.

5 - وفاته

تبوأ الإمام الذهبي مكانة مرموقة في عصره تجد صداها فيما ترك من مؤلفات عظيمة وفي شهادة معاصريه له.

ولعل من أبلغ تلك الشهادات ما قاله تلميذه تاج الدين السبكي: "محدث العصر، اشتمل عصرنا على أربعة من الحفاظ، بينهم عموم وخصوص: المزي والبرزالي *والذهبي* والشيخ الوالد، لا خامس لهؤلاء في عصرهم. وأما أستاذنا *أبو عبد الله* فبصر لا نظير له، وكنز هو الملجأ إذا نزلت المعضلة، إمام الوجود حفظًا، وذهب العصر معنى ولفظًا، وشيخ الجرح والتعديل..."، وهذا الكلام ليس فيه مبالغة من تاج الدين السبكي، خاصة أنه كان من أكثر الناس انتقادًا لشيخه.

وظل الإمام الذهبي موفور النشاط يقوم بالتدريس في خمس مدارس للحديث في دمشق، ويواصل التأليف حتى كلّ بصره في أخر حياته، حتى فقد الإبصار تماماً، ومكث على هذا الحال حتى تُوفي ليلة الإثنين 3 ذو القعدة 748 هـ الموافق لـ 4 فبراير 1348م.

6 - تصانيفه

* التاريخ الكبير؛ ثم الأوسط ، المسمى: بالعبر؛ والصغير، المسمى: بدول الإسلام؛ وتاريخه من أجل التواريخ.

وقف الشيخ كمال الدين بن الزملكاني على تاريخ الإسلام له جزءا بعد جزء، إلى أن أنهاه مطالعة، فقال: هذا كتاب جليل؛ وتاريخه المذكور: عشرون مجلدا؛

* سير أعلام النبلاء ، 25 مجلداً.
* طبقات القراء.
* طبقات الحفاظ ، مجلدين.
* ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، ثلاث مجلدات.
* المثبت في الأسماء والأنساب ، مجلد.
* نبأ الرجال ، مجلد.
* تذهيب التهذيب ، مجلد.
* تجريد أسماء الصحابة ، مجلدان.
* اختصار سنن البيهقي ، خمس مجلدات.
* تنقيح أحاديث التعليق لابن الجوزي.
* المستحلي اختصار المحلي.
* المقتنى في الضعفاء.
* اختصار المستدرك للحاكم، مجلدان.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

* اختصار تاريخ الخطيب ، مجلدان.
* توقيف أهل التوفيق على مناقب الصديق ؛ مجلد.
* نعم السمر في سيرة عمر؛ مجلد.
* التبيان في مناقب عثمان ؛ مجلد.
* فتح الطالب في أخبار علي بن أبي طالب؛ مجلد.
* معجم أشياخ الذهبي، وهو ألف وثلاثمائة شيخ.
* اختصار كتاب الجهاد لابن عساكر، مجلد.
* ما بعد الموت ، مجلد.
* هالة البدر في عدد أهل بدر.

الإمام محمد بن إسماعيل البخاري

(أمير المؤمنين في الحديث)

تقديم

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (13 شوال 194 هـ - 1 شوال 256 هـ / 20 يوليو 810 م - 1 سبتمبر 870 م) . أحد كبار الحفّاظ الفقهاء من أهم علماء الحديث وعلوم الرجال والجرح والتعديل والعلل عند أهل السنة والجماعة ، له مصنّفات كثيرة أبرزها كتاب الجامع الصحيح ، المشهور باسم **صحيح البخاري** ، الذي يعتبر أوثق الكتب الستة الصحاح والذي أجمع علماء أهل السنة والجماعة أنه أصح الكتب بعد القرآن الكريم . وقد أمضى في جمعه وتصنيفه ستة عشر عاماً .

نشأ يتيماً وطلب العلم منذ صغره ورحل في أرجاء العالم الإسلامي رحلة طويلة للقاء العلماء وطلب الحديث وسمع من قرابة ألف شيخ ، وجمع حوالي ستمائة ألف حديث. اشتهر شهرة واسعة وأقرّ له أقرانه وشيوخه ومن جاء بعده من العلماء بالتقدّم والإمامة في الحديث وعلومه ، حتّى لقّب بأمير المؤمنين في الحديث.

وتتلمذ عليه كثير من كبار أئمة الحديث كمسلم بن الحجاج وابن خزيمة والترمذي وغيرهم، وهو أول من وضع في الإسلام كتاباً مجرّداً للحديث الصحيح . ومن أوّل من ألّف في تاريخ الرجال . امتُحن أواخر حياته وتُعصّب عليه حتى أُخرج من نيسابور وبخارى فنزل إحدى قرى سمرقند فمرض وتوفيّ بها.

1 - اسمه ونسبه

هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري. وقد اختلف المؤرخون حول أصله فأخذ بعضهم : كأبي الوليد الباجي ، والخطيب البغدادي ، والنووي ، وابن ناصر الدين ، والذهبي ، وغيرهم أن جدّه المغيرة كان **تركيا** أسلم على يد والي بخارى : **يمان المسندي البخاري الجعفي** . فانتمى إليه بالولاء ، وأصبح الجعفي نسباً له ولأسرة البخاري .وأخذ بعضهم كابن عساكر ، وابن حجر العسقلاني ، وتاج الدين السبكي ، وزين الدين العراقي ، وابن تغري ، وغيرهم . أن جدّه الأكبر هو الأحنف الجعفي أصله عربي من الجعفيين .

2 – نشأته

ولد الإمام البخاري في بخارى ليلة الجمعة الثالث عشر من شوال سنة 194 هـ ، وتربّى في بيت علم حيث كان أبوه من العلماء المحدّثين، واشتهر بين الناس بسمته وورعه ، ورحل في طلب الحديث وروى عن مالك بن أنس وحماد بن زيد كما رأى عبد الله بن المبارك . وتوفيّ والإمام البخاري صغير .

فنشأ البخاري يتيماً في حجر أمه ، وروى المؤرخون أن بصره أصيب وهو صغير فرأت أمه إبراهيم عليه السلام في المنام فقال لها : « يا هذه قد رد الله على ابنك بصره لكثرة بكائك ولكثرة دعائك » فأصبح وقد رد الله عليه بصره .

ومال البخاري إلى طلب العلم وحفظ الأحاديث وتحقيقها وهو حديث السنّ، فدخل الكتّاب صبيًا فأخذ في حفظ القرآن الكريم وأمهات الكتب المعروفة في زمانه ، حتى إذا بلغ العاشرة من عمره ، بدأ في حفظ الحديث ، والاختلاف إلى الشيوخ والعلماء ، وملازمة حلقات الدروس ، وبالإضافة إلى حفظ الحديث فإنه كان حريصاً على تمييز الأحاديث الصحيحة من الضعيفة ومعرفة علل الأحاديث وسبر أحوال الرواة من عدالة وضبط ومعرفة تراجمهم وإتقان كلّ ما يتعلّق بعلوم الحديث عموماً . ثم حفظ كتب عبد الله بن المبارك ووكيع بن الجراح وهو ابن ست عشرة سنة ، وفي تلك السنة حوالي عام 210 هـ خرج من بخارى راحلًا إلى الحج بصحبة والدته وأخيه أحمد ، حتى إذا انتهت مناسك الحج رجعت أمه مع أخيه إلى بلدها ، بينما تخلف البخاري لطلب الحديث والأخذ عن الشيوخ، فلبث في مكة مدّة ثم رحل إلى المدينة النبوية وهناك صنّف كتاب التاريخ الكبير وعمره ثماني عشرة سنة .

3 - رحلاته العلمية

تعددت رحلات الإمام البخاري العلمية للأخذ عن الشيوخ، والرواية عن المحدّثين، فزار أكثر البلدان والأمصار الاسلامية في ذلك الزمان للسماع من علماءها. وابتدأ طلبه للعلم في بلده بخارى بعد خروجه من الكتّاب، فسمع من شيوخ بلده، ثم توسع ورحل إلى الأقاليم المجاورة ليسمع من شيوخها، فرحل إلى بلخ، ومرو، والريّ وهراة ونيسابور. وكان عمره أول مرة دخل نيسابور خمس عشرة سنة. قال الحاكم النيسابوري: « أول ما ورد البخاري نيسابور سنة تسع ومائتين، ووردها في الأخير سنة خمسين ومائتين، فأقام بها خمس سنين يحدث على الدوام.» ثم ارتحل إلى الحجاز فدخل مكة ثم رحل إلى المدينة النبوية فاستقرّ بها مدّة، ثم انطلق في الأمصار حتى شملت رحلاته أغلب الحواضر العلمية في وقته. فرحل إلى العراق فدخل بغداد وواسط والكوفة والبصرة وبالشام : دمشق وحمص وقيسارية وعسقلان كما رحل إلى مصر.

4 - شيوخه وتلاميذه

أتاحت للإمام البخاري رحلاته الكثيرة وتطوافه الواسع في الأقاليم لقاء عدد كبير من الشيوخ والعلماء، حتى بلغوا أكثر من ألف رجل. قال البخاري: «كتبت عن ألف وثمانين نفسا ليس فيهم إلا صاحب حديث.» . ولم يكن البخاري يروي كل ما يأخذه أو يسمعه من الشيوخ بل كان يتحرى ويدقق فيما يأخذ، فقد سئل مرة عن خبر حديث فقال: « يا أبا فلان تراني أدلس؟! تركت أنا عشرة آلاف حديث لرجل لي فيه نظر »

وقد اهتمّ العلماء بذكر شيوخ البخاري فسمّاهم بعض العلماء ورتّبهم على الأقطار ورتّبهم بعضهم حسب الطبقة، ورتّبهم بعضهم حسب عدد الروايات، ورتّبهم بعضهم على حروف المعجم.

ومن أهم وأبرز شيوخ البخاري الذين أثّروا في تكوينه العلمي ومنهجه الحديثي: **علي بن المديني** ، وهو من أكثر الشيوخ الذين تأثر بهم البخاري، قال: « ما استصغرت نفسي عند أحد إلا عند علي ابن المديني. » وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه، ويحيى بن معين، والفضل بن دكين .

تتلمذ على البخاري وسمع واستفاد منه عدد كبير جداً من طلّاب العلم والرواة والمحدّثين، قال أبو علي صالح بن محمد جزرة : « كان محمد بن إسماعيل يجلس ببغداد وكنت أستملى له ، ويجتمع في مجلسه أكثر من عشرين ألفا »

ومن أبرز تلاميذ الإمام البخاري :

* الإمام **مسلم بن الحجاج** ، صاحب كتاب **صحيح مسلم** ، ثاني أصح الكتب المصنّفة عند أهل السنّة والجماعة بعد صحيح البخاري
* ابن خزيمة

* أبو عبد الرحمن النسائي
* أحمد بن سلمة النيسابوري
* أبو عيسى الترمذي
* أبو بكر بن أبي الدنيا
* جعفر بن محمد النيسابوري
وغيرهم الكثير وهم أكثر من أن يُحصوا

ولم يقتصر الانتفاع من البخاري على التلاميذ بل شملت شيوخه ، قال البخاري: « ما قدمت على أحد إلا كان انتفاعه بي أكثر من انتفاعي به. » وقد أدرك هذا الامتياز أساتذته الكبار وقدّروه حتى منذ صغره . ومن أعيان من روى عن الإمام البخاري :

* من شيوخه : عبد الله المسندي ، وعبد الله بن منير ، ومحمد بن خلف بن قتيبة ، وغيرهم.
* من أقرانه : أبو حاتم الرازي ، وأبو زرعة الرازي ، وأبو بكر بن أبي عاصم ، وإبراهيم بن إسحاق الحربي، وغيرهم.

5 - كتبه ومصنفاته

صنّف الإمام البخاري وألّف كتباً كثيرة، وقد هيّأه للتأليف والكتابة وأعانه عليها ذكاؤه الحاد، وسعة حفظه، وذاكرته القوية، ومعرفته الواسعة بالحديث النبوي وأحوال رجاله من تعديل وتجريح ، وخبرته التامّة بالأسانيد من صحيح وضعيف . وقد وصلنا بعض كتبه وطُبعت بينما لا يزال بعضها مفقوداً . وجُلّ مصنّفاته وكتبه لا تخرج عن السُنّة والحديث وعلومه من رواية ودراية ورجال وعلل. ومن هذه المصنّفات:

5 – 1 - في الحديث والفقه

* **الجامع الصحيح :** والمشهور باسم صحيح البخاري، أشهر مصنّفاته وأشهر كتب الحديث النبوي على الإطلاق عند أهل السنة والجماعة. مكث في تصنيفه وترتيبه وتبويبه ستة عشر عامًا. قال البخاري في سبب تصنيفه للكتاب: «كنت عند إسحاق ابن راهويه، فقال: لو جمعتم كتابًا مختصرًا لصحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع هذا الكتاب.» وقد جمع فيه البخاري حوالي 7593 حديثاً حسب عدّ محمد فؤاد عبد الباقي، اختارها الإمام البخاري من بين ستمائة ألف حديث يحفظها.[9] حيث أنه كان مدقِّقًا في قبول الرواية، واشترط شروطًا خاصة دقيقة في رواية راوي الحديث، وهي أن يكون معاصرًا لمن يروي عنه ، وأن يسمع الحديث منه، أي أنه اشترط الرؤية والسماع معًا، هذا إلى جانب وجوب اتصاف الراوي بالثقة والعدالة والضبط والإتقان والورع. وقد روى المؤرخون أن البخاري لمّا فرغ من تصنيف كتاب الصحيح عرضه على عدد من أكابر علماء عصره مثل أحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، ويحيى بن معين، فشهدوا له بصحة ما فيه من الحديث، روي عن مسلمة بن قاسم قال: «سمعت من يقول عن أبي جعفر العقيلي قال: لما ألف البخاري كتابه في صحيح الحديث عرضه على علي بن المديني ويحيى بن معين وأحمد بن حنبل وغيرهم فامتحنوه فكلمهم قال له كتابك صحيح إلا أربعة أحاديث. قال العقيلي: والقول فيها البخاري وهي صحيحة.» ثم تلقته الأمة بعدهم بالقبول باعتباره أصح كتاب بعد القرآن الكريم. وأقبل العلماء على كتاب الجامع الصحيح واعتنوا به عناية فائقة بالشرح والتعليق والدراسة في مصنّفات كثيرة جداً. قال محمد يوسف البنوري: «أضحى كالشمس في كبد السماء بلغ إلى أقصى القبول والمجد والثناء، فانتهض أعيان الأمة وأعلام العلم في كل عصر من أقدم العصور إلى اليوم لشرحه والتعليق عليه، وتلخيصه، واختصاره أو ترتيبه، وتأليف أطرافه، أو شرح تراجمه، أو ترجمة رجاله، أو بيان غريبه، أو وصل مرسله، وتعليقاته أو مبهمه، وإبراز فوائده، ولطائفه، حديثًا وفقهًا وعربية وبلاغة ووضعًا وترتيبًا وتوزيعًا وتبويبًا حتى في تعديد حروفه وكلماته وما إلى ذلك.»

* الأدب المفرد : بوّبه في عدّة مواضيع تُعنى بتهذيب الأخلاق وتقويم السلوك.

رفع اليدين في الصلاة : وساق فيه كثيراً من الروايات والأحاديث التي تبين أن رفع اليدين في الصلاة سُنّة ثابتة. وردّ على من أنكر ذلك.

* القراءة خلف الإمام : أورد فيه الأدلة التي تُثبت وجوب قراءة القرآن للمأموم في الصلاة، وردّ على المخالفين في هذه المسألة.
* كتاب الهبة: وهو مفقود. ذكره ورّاقه محمد بن أبي حاتم .
* المسند الكبير: وهو مفقود. ذكره تلميذه محمد بن يوسف الفربري على ما نقله حاجي خليفة .
* المبسوط: وهو مفقود. صنّفه البخاري قبل الجامع الصحيح وجمع فيه جميع حديثه على الأبواب، ثم نظر إلى أصحّ الحديث على ما يرسِمه فأخرجه بجميع طرقه. ذكره أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي.
* الوحدان: ذكر فيه الصحابة الذين رُوي عنهم حديث واحد فقط. ذكره ابن حجر العسقلاني وحاجي خليفة.
* الفوائد: وهو مفقود. ذكره الترمذي في سننه.
* العلل: وهو مفقود. ذكره ابن منده.

5 - 2 - في التاريخ والرجال

* التاريخ الكبير: وهو موسوعة كبرى في التراجم، رتب فيه أسماء رواة الحديث على حروف المعجم، وقد اقترب فيه البخاري من استيعاب أسماء من رُوي عنهم الحديث من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى زمنه.
* التاريخ الأوسط: بدأه بقصة الهجرة إلى الحبشة، وطرف من السيرة النبوية في المرحلتين المكية والمدنية وترجم لمن توفي من الصحابة في عهد النبي محمد، ثم المتوفين في عهد الخلفاء الراشدين، ثم تكلّم على الرواه وأخبارهم ووفياتهم إلى زمنه.
* التاريخ الصغير: وهو خاصّ بالصحابة ، وهو أوّل مصنّف في ذلك.
* الكُنى : وغالب من أورده البخاري في هذا الكتاب من الرواة الذين اشتهروا بكناهم ولم تُعرف أسمائهم.
* الضعفاء الصغير: ذكر فيه الضعفاء من الرواة وترجم لهم بتراجم قصيرة مقتضبة.
* الضعفاء الكبير: توسّع فيه في ترجمة الضعفاء من الرواة كما زاد عدد المترجم لهم.

5 – 3 - في التفسير والعقيدة

* التفسير الكبير: وهو مفقود. قال تلميذه محمد بن يوسف الفربري أنه صنّفه في فربر. وذكره ابن حجر العسقلاني وحاجي خليفة.
* خلق أفعال العباد: بيّن فيه الفرق بين كلام الله وكلام العِباد وأن كلام الله صفة من صفاته وليس بمخلوق . وردّ على المعتزلة والجهمية.

6 - مذهبه الفقهي

اختلف العلماء في تعيين مذهب الإمام البخاري الفقهي. فنسبوه إلى مذاهبهم. وللعلماء في ذلك ثلاثة أقوال :

أنه من الحنابلة، حيث ذكره ابن أبي يعلى في كتابه طبقات الحنابلة ، وقال ابن القيّم: «البخاري ومسلم وأبو داود والأثرم وهذه الطبقة من أصحاب أحمد . »

أنه من الشافعية : فذكره تاج الدين السبكي في كتاب طبقات الشافعية الكبرى،

أنه مجتهد مستقلّ ، ولم يكن مقلّداً لأي من مذاهب الأئمة الأربعة المشهورة، وهو ما رجّحه عدد كبير من العلماء من المتقدّمين والمعاصرين. قال ابن تيمية: « أما البخاري؛ وأبو داود فإمامان في الفقه من أهل الاجتهاد. » وقال الذهبي:« كان إماما حافظا حجة رأسا في الفقه والحديث مجتهدا من أفراد العالم.»

7 - ملامح شخصيته وشمائله

روى المؤرخون كثيراً من الروايات والأحداث التي تدُلّ على صفات الإمام البخاري وشمائله من ورع وإخلاص وصدق وسماحة وكرم وتواضع وحُسن عبادة وغير ذلك من كريم الأخلاق، فكان البخاري مُكثرا من الصلاة طويل القيام بها، وكان يخشع بحيث لا يشغله شيء عن صلاته، وكان كثير القراءة للقرآن بحيث يختم كل يوم ختمة أو أكثر، كما حجّ عدّة مرّات. وكان حريضاً على التورّع في جرح الرواة وترك الغيبة بحيث أنه يختار كلمات لا يمكن أى شخص أن يؤاخذ بها المجروح، ومن كلماته: تركوه، أو أنكره الناس، وأشدها عنده أن يقول: منكر الحديث . ومن أبلغ ما يقول في الرجل المتروك أو الساقط: فيه نظر، أو: سكتوا عنه. ولا يكاد يقول فلان كذاب

كما كان كريماً سمحاً زاهداً في الدنيا كثير الإنفاق على الفقراء والمساكين، وخاصة من تلاميذه وأصحابه. بالإضافة إلى ما تمتّع بن من القدرة الكبيرة على الحفظ والإتقان وتقدّمه وتفوّقه في الحديث وعلومه بشهادة أقرانه وشيوخه .

7 – 1 - صفته الخلقية

ما وصلنا عنه هو ما رواه أبو أحمد بن عدي الجرجاني في صفته فقال: «سمعت الحسن بن الحسين البزاز ببخارى يقول: رأيت محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة شيخا نحيف الجسم ليس بالطويل، ولا بالقصير.»

7 – 2 – عبادته

كان الإمام البخاري عابداً مكثراً شديد الخشوع في صلاته، حتى إذا دخل في الصلاة لا يشغله عنها شيء ولا يلهيه عنها شاغل أو صارف فروى محمد بن أبي حاتم قال: « دُعي محمد بن إسماعيل إلى بستان بعض أصحابه ، فلما حضرت صلاة الظهر صلى بالقوم، ثم قام للتطوع فأطال القيام، فلما فرغ من صلاته رفع ذيل قميصه، فقال لبعض من معه : انظر هل ترى تحت قميصى شيئا ؟ فإذا زنبور قد أبره (لسعه) ، وقد تورم من ذلك جسده ، وكان آثار الزنبور في جسده ظاهرة فقال له بعضهم : كيف لم تخرج من الصلاة في أول ما أبرك؟ فقال : كنت في سورة فأحببت أن أتمها. »

كما كان يؤم أصحابه في رمضان وكان كثير القراءة للقرآن في الصلاة كما في كلّ الأوقات، قال محمد بن خالد المطوّعي: « حدثنا مسبح بن سعيد قال : كان محمد بن إسماعيل البخاري إذا كان أول ليلة من شهر رمضان يجتمع إليه أصحابه فيصلي بهم فيقرأ في كل ركعة عشرين آية وكذلك إلى أن يختم القرآن

كما كان حريصاً على قيام الليل واتباع السنّة النبوية ، قال محمد بن أبي حاتم: « كان يصلى فى وقت السحر ثلاث عشرة ركعة يوتر منها بواحدة.»

كما كان متفكّرا في القرآن متدبّرا له كما وصفه الإمام الدارمي فقال: « محمد أبصر مني، ومحمد بن إسماعيل أكيس خلق الله ، إنه عقل عن الله ما أمر به ونهى عنه في كتابه وعلى لسان نبيه، إذا قرأ محمد القرآن شغل قلبه وبصره وسمعه وتفكر في أمثاله وعرف حرامه من حلاله.»

كما كان جامعاً بين العلم والعبادة حيث روى أبو أحمد بن عدي الجرجاني قال: « سمعت عبد القدوس بن همام يقول سمعت عدة من المشايخ يقولون حول محمد بن إسماعيل البخاري تراجم جامعه بين قبر النبي صلى الله عليه وسلم ومنبره وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين.»

7 – 3 - ورعه وتحرّيه

كان الإمام البخاري حريصاً على حقوق الناس متحرّياً لرد الحقوق إلى أصحابها، فمن ذلك ما رواه محمد بن أبي حاتم قال: « ركبنا يوما إلى الرمي ، ونحن بفربر، فخرجنا إلى الدرب الذي يؤدي إلى الفُرْضة ، فجعلنا نرمي ، وأصاب سهم أبي عبد الله (البخاري) وتد القنطرة الذي على نهر ورادة، فانشق الوتد. فلما رآه أبو عبد الله نزل عن دابته، فأخرج السهم من الوتد، وترك الرمي. وقال لنا: ارجعوا. ورجعنا معه إلى المنزل، فقال لي: يا أبا جعفر، لي إليك حاجة، تقضيها؟ قلت: أمرك طاعة. قال: حاجة مهمة، وهو يتنفس الصعداء. فقال لمن معنا: اذهبوا مع أبي جعفر حتى تعينوه على ما سألته. فقلت: أية حاجة هي؟ قال لي: تضمن قضاءها؟ قلت: نعم، على الرأس والعين. قال: ينبغي أن تصير إلى صاحب القنطرة، فتقول له: إنا

قد أخللنا بالوتد، فنحب أن تأذن لنا في إقامة بدله، أو تأخذ ثمنه، وتجعلنا في حل مما كان منا. وكان صاحب القنطرة حميد بن الأخضر الفربري. فقال لي: أبلغ أبا عبد الله السلام، وقل له: أنت في حل مما كان منك، وقال جميع ملكي لك الفداء، وإن قلت: نفسي، أكون قد كذبت غير أني لم أكن أحب أن تحتشمني في وتد أو في ملكي . فأبلغته رسالته، فتهلل وجهه ، واستنار، وأظهر سرورا ، وقرأ في ذلك اليوم على الغرباء نحوا من خمس مائة حديث ، وتصدق بثلاث مائة درهم. »

بالإضافة إلى ما اشتهر عنه من كره الغيبة، قال: « ما أغتبت أحدا قط منذ علمت أن الغيبة تضر أهلها.» وحرصه على ألا يكون بينه وبين أحد من الناس أية مظلمة

وكان متورّعا إذا وعد أوفى بوعده وأنفذ الأمر حتى وإن كان هذا لا يزال في نيّته، قال الخطيب البغدادي: « كان حُمِلَ إلى محمد بن إسماعيل بضاعة أنفذها إليه فلان، فاجتمع التجار بالعشية فطلبوها منه بربح خمسة آلاف درهم، فقال لهم : انصرفوا الليلة. فجاءه من الغد تجار آخرون فطلبوا منه تلك البضاعة بربح عشرة آلاف درهم ، فردهم وقال : إني نويت البارحة أن أدفع إلى أولئك ، ولا أحب أن أنقض نيتي. فدفعها إليهم.»

7 - 4 - كرمه وسماحته

كان الإمام البخاري مفرط الكرم وافر الصدقة وخصوصاً على المحتاجين من التلاميذ وطلبة العلم فذكر ابن ناصر الدين أنه ورث من أبيه مالاً وفيراً ووكّل أناساً للتجارة به ، فكان ينفق منه بسخاء فيتصدق منه بالكثير ويبر الطلبة ويحسن إليهم . وكان يحبّ إخفاء ذلك ولا يحبّ أن يتكلم الناس به ، فروي أنه مرة ناول رجلاً من الطلبة صرةً فيها ثلاثمائة درهم خفيةً ، فأراد الرجل أن يدعو له فقال له البخاري: « ارفق، واشتغل بحديث آخر كيلا يعلم بذلك أحدٌ.»

وقال محمد بن أبي حاتم: « كان يتصدق بالكثير، يأخذ بيده صاحب الحاجة من أهل الحديث، فيناوله ما بين العشرين إلى الثلاثين، وأقل وأكثر، من غير أن يشعر بذلك أحد.»

وكان يكافيء بسخاء من يصنع له معروفاً مهما قلّ، فروي أنه كانت له قطعة أرض يكريها كل سنة بسبع مائة درهم . فكان ذلك المكتري ربما حمل منها إلى البخاري قثاة أو قثاتين ، لأن البخاري كان معجبا بالقثاء النضيج ، وكان يؤثره على البطيخ أحيانا، فكان يهب للرجل مائة درهم كل سنة لحمله القثاء إليه أحياناً وبالإضافة إلى إنفاقه على التلاميذ وطلبة العلم ،

7 – 5 - زهده وأدبه

مع كون الإمام البخاري ذا مال كثير فإنه كان متقشّفاً زاهداً في أمور الدنيا وكان قليل الأكل جداً ، قال محمد بن أبي حاتم: «كان أبو عبد الله ربما يأتي عليه النهار، فلا يأكل فيه رقاقة ، إنما كان يأكل أحيانا لوزتين أو ثلاثا.

وكان من كثرة إنفاقه للمال في الصدقة وطلب العلم أنه قد تمر عليه أيام لا يجد ما يأكله، ومع ذلك لا يطلب من أحد شيئاً، فروى ابن ناصر الدين أنه نفدت نفقته مرّة فجعل يأكل من نبات الأرض ولا يخبر أحداً بذلك وبلغ من شدة زهده وحرصه أنه لم يمنعه حتى المرض من ذلك ،

واتّصف الإمام البخاري بالآداب العالية والأخلاق الحميدة فمن ذلك ما رواه محمد بن منصور قال: « كنا في مجلس أبي عبد الله محمد بن إسماعيل، فرفع إنسان من لحيته قذاة، فطرحها على الأرض. قال: فرأيت محمد بن إسماعيل ينظر إليها وإلى الناس، فلما غفل الناس رأيته مد يده ، فرفع القذاة من الأرض، فأدخلها في كمه. فلما خرج من المسجد رأيته أخرجها فطرحها على الأرض.»

وكان قليل الكلام وكلّ شغله في العلم ولا يشتغل في أمور الناس

ومن أدبه أنه كان يتجنّب ما يؤذي غيره فكان لا يأكل الكراث والبصل وما يشبههما لئلا يتأذى الناس من الرائحة.

7 – 6 - نبوغه وحفظه وتقدّمه على أقرانه

إن من أبرز ما تميّز به الإمام البخاري هو ذكاؤه الوقّاد وقوة حفظه الاستثنائية ، وكان يأخذ الكتاب من العلم فيطلع عليه اطلاعة فيحفظ عامة أطراف الحديث من مرة واحدة.

وقد رُزق قوة الحفظ من صغره فكان وهو صبي لا يزال في مقتبل العمر يحفظ سبعين ألف حديث ويعرف تاريخ رواته وأخبارهم، قال سليمان بن مجاهد « كنت عند محمد بن سلام البيكندي فقال لي: لو جئت قبل لرأيت صبيًّا يحفظ سبعين ألف حديث. قال فخرجت في طلبه فلقيته، فقلت: أنت الذي تقول أنا أحفظ سبعين ألف حديث؟ قال: نعم وأكثر، ولا أجيبك بحديث عن الصحابة والتابعين إلا من عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم، ولست أروي حديثًا من حديث الصحابة والتابعين إلا ولي في ذلك أصل أحفظه حفظًا عن كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم.»

وكان معروفاً بذلك بين أقرانه من طلبة العلم حتى كانوا يجلسون إليه ويسألونه عن الحديث، قال محمد بن أبي حاتم: « سمعت إبراهيم الخواص مستملي صدقة يقول : رأيت أبا زرعة كالصبي جالسا بين يدي محمد بن إسماعيل يسأله عن علل الحديث.» وقد شهد له شيوخه بذلك من صغره وكانوا يأخذون منه ويستفيدون، قال محمد بن أبي حاتم: « سمعت محمد بن إسماعيل يقول : قال لي محمد بن سلام : انظر في كتبي فما وجدت فيها من خطأ فأضرب عليه، كي لا أرويه ، ففعلت ذلك.»[

وكان محمد بن سلام البيكندي كتب عند الأحاديث التي حكم البخاري بصحّتها : رضي الفتى، وفي الأحاديث الضعيفة: لم يرض الفتى. فقال له بعض أصحابه : « من هذا الفتى؟ » فقال: « هو الذي ليس مثله ، محمد بن إسماعيل.»

وقال عبد الله بن يوسف التنيسي للبخاري: « يا أبا عبد الله أنظر في كتبي وأخبرني بما فيها من السقط. فقال : نعم.» وكان محمد بن يحيى الذهلي أحد أبرز شيوخه يسأله عن الأسامي والكنى والعلل، والبخاري يمر فيه كالسهم، كأنه يقرأ قل هو الله أحد.

وقد أراد عدد من طلاب العلم والمشايخ في عدد من البلدان اختبار البخاري وسبر قوة حفظه وتثبّته، فروى الخطيب البغدادي بسنده عن حاشد بن إسماعيل قال: « كان أبو عبد الله محمد بن إسماعيل يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام فلا يكتب حتى أتى على ذلك أيام، فكنا ، نقول له : إنك تختلف معنا ولا تكتب فما معناك فيما تصنع؟

فقال لنا إنكما قد أكثرتما على وألححتما، فأعرضا علي ما كتبتما فأخرجنا ما كان عندنا فزاد على خمسة عشر ألف حديث ، فقرأها كلها عن ظهر القلب حتى جعلنا نحكم كتبنا على حفظه ، ثم قال : أترون أني أختلف هدرا وأضيع أيامي؟ فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد.»

ومن أشهر الروايات في ذلك ما رواه أبو أحمد بن عدي الجرجاني قال : « سمعت عدة مشايخ يحكون أن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر وإسناد هذا المتن لمتن آخر ودفعوا إلى عشرة أنفس إلى كل رجل منهم عشرة أحاديث وأمروهم إذا حضروا المجلس يلقون ذلك على البخاري وأخذوا الموعد للمجلس فحضر المجلس جماعة من أصحاب الحديث من الغرباء من أهل خراسان وغيرها ومن البغداديين فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب إليه رجل من العشرة وسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال البخاري لا أعرفه فسأل عن آخر فقال البخاري لا أعرفه ثم سأل عن آخر فقال لا أعرفه فما زال يلقي بمثله واحدا بعد واحد حتى فرغ من عشرته والبخاري يقول لا أعرفه فكان الفهماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون الرجل فهمنا ومن كان منهم غير ذلك يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الفهم

فلم يزل يلقي عليه واحدا بعد واحد حتى فرغ من عشرته والبخاري يقول لا أعرفه ثم انتدب الثالث إليه والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من الأحاديث المقلوبة والبخاري لا يزيدهم على لا أعرفه . فلما علم البخاري أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول منهم فقال أما حديثك الأول فهو كذا وحديثك الثاني فهو كذا والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة فرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه وفعل الآخرين مثل ذلك ورد متون الأحاديث كلها إلى أسانيدها وأسانيدها إلى متونها فأقر له الناس بالحفظ والعلم وأذعنوا له بالفضل.»

8 – محنته

امتُحِن الإمام البخاري مرّتين ، الأولى كانت مع شيخه محمد بن يحيى الذهلي على رأس جماعة من الفقهاء والمحدّثين في عصره، حيث اتّهِم البخاري بمسألة القول باللفظ بالقرآن وهل هو مخلوق، وكانت هذه المحنة واحدة من أسباب محنته الثانية مع حاكم بخارى خالد بن أحمد الذهلي.

8 – 1 - مسألة اللفظ بالقرآن

نشأت مسألة القول بخلق القرآن في أواخر عهد الخليفة العبّاسي المأمون، واستمرت طيلة عهد المعتصم والواثق، وبقيت في أوائل عهد المتوكل، وسبّبت فتنةً عظيمة بين أهل السنة والمعتزلة، واندلعت نارها وعمّ خطرها. حيث تمكّن المعتزلة الذين برزوا في عهد المأمون والتفّوا حوله كبشر المريسي وثمامة بن الأشرس وأحمد بن أبي دؤاد من إقناع الخليفة باعتناق الاعتزال وحمله على القول برأيهم أن القرآن مخلوق، وتمكّن القاضي أحمد بن أبي دؤاد أن يغري الخليفة بحمل الناس على هذا القول فكتب المأمون إلى أمراء الأمصار أن يمتحنوا علماء الأمة بهذه المسألة، فمن أجاب فقد سَلِمَ من الأذى، ومن خالف كان جزاؤه الأذى والتنكيل .

وامتُحن بذلك أئمة كبار كأحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وأبو خيثمة زهير بن حرب، والنضر بن شميل وأحمد بن نصر الخزاعي الذي قُتل ويوسف بن يحيى البويطي الذي مات في السجن وغيرهم، فصبر بعضهم ورفض أن يقول بخلق القرآن فعُذّب بعضهم وحُبس بعضهم وقُتل البعض وأجابه بعضهم. وشغلت هذه الفتنة المسلمين نحو خمس عشرة سنة إلى أن انتهت في زمن المتوكل .

وقد أصاب البخاري طرفٌ من هذه الفتنة ، قال أبو أحمد بن عدي الجرجاني: « ذكر لي جماعة من المشايخ أن محمد بن إسماعيل لما ورد نيسابور واجتمع الناس عليه حسده بعض من كان في ذلك الوقت من المشائخ لما رأى من إقبال الناس عليه فقال لأصحاب الحديث إن محمد بن إسماعيل يقول اللفظ بالقرآن مخلوق فامتحنوه فلما حضر الناس مجلس البخاري قام إليه رجل فقال يا أبا عبد الله ما تقول في اللفظ بالقرآن مخلوق هو أو غير مخلوق فأعرض عنه البخاري ولم يجبه ثلاثا فالتفت إليه البخاري في الثالثة فقال القرآن كلام الله غير مخلوق وأفعال العباد مخلوقة والامتحان بدعة فشغب الرجل وشغب الناس وتفرقوا عنه . » غادر البخاري نيسابور بعد هذه الحادثة درءاً للمفاسد ووأداً للفتنة وإيثاراً للسلامة في دينه . وصنف في ذلك كتاب (أفعال العباد) .

ونصر ابن القيّم مذهب البخاري في المسألة وصرّح بأن البخاري أعلم بهذه المسألة وأولى بالصواب فيها من جميع من خالفه .

8 – 2 - مع أمير بخارى

توجّه الإمام البخاري عائداً إلى بلدته بخاري بعد خروجه من نيسابور، فاستقبله الناس هناك بحفاوة وإكرام بالغين. قال أحمد بن منصور الشيرازي: « سمعت بعض أصحابنا يقول : لما قدم البخاري بخاري نصب له القباب على فرسخ من البلد، واستقبله عامة أهل البلد ونثر عليه الدنانير والدراهم والسكر الكثير.» فمكث مدّة يحدّث في مسجده، فسأله أمير بخارى خالد بن أحمد بن خالد أن يحضر إلى منزله ويقرأ كتبه على أولاده فامتنع البخاري من ذلك لئلا يحابي ناساً دون آخرين ، فراسله أن يعقد مجلسا لأولاده لا يحضره غيرهم فامتنع عن ذلك أيضا وَقَالَ: لا يسعني أن أخص بالسماع قوما دون قوم»

وقال لرسول الامير: أنا لا أذل العلم ولا أحمله إلى أبواب الناس، فإن كانت لك إلى شيء منه حاجة فأحضرني في مسجدي أو في داري، فإن لم يعجبك هذا فأنت سلطان فامنعني من المجلس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة إني لا أكتم العلم لقول النبي صلى الله عليه وسلم: " من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار".» فبقى في نفس الأمير من ذلك وكان هذا سبب الوحشة بينهما ، وأمره الأمير بعد ذلك بالخروج من بخارى، فخرج منها

9 – وفاته

بعد المحنة التي حصلت للإمام البخاري مع أمير بخارى توجّه بعدها إلى خرتنك، وهي قرية من قرى سمرقند على فرسخين منها ، وكان له بها أقرباء فنزل عندهم . فأقام مدة من الزمن فمرض واشتد مرضه. وقد سُمع ليلةً من الليالي وقد فرغ من صلاة الليل يدعو ويقول في دعائه: « اللهم إنه قد ضاقت علي الأرض بما رحبت ، فاقبضني إليك.» ودعا بدعوات ثم اضطجع، فسال منه من العرق شئ لا

يوصف. فما سكن منه العرق إلى أن أدرجناه فى ثيابه.. فلما دفناه فاح من تراب قبره رائحة غالية فدام على ذلك أياماً، ثم علت سوارى بيض فى السماء مستطيلة بحذاء قبره فجعل الناس يختلفون ويتعجبون

وكانت وفاته ليلة عيد الفطر السبت 1 شوال 256هـ عند صلاة العشاء وصلي عليه يوم العيد بعد الظهر ودفن، وكان عمره آنذاك اثنين وستين سنة . وقبره معروف إلى الآن وله ضريح مشهور في سمرقند.

ضريح الإمام البخاري في سمرقند

10 - ثناء العلماء عليه

كان البخاري موضع تقدير من شيوخه وأقرانه فتحدثوا عنه بما هو أهله وأثنوا عليه، قال النووي: «واعلم أن وصف البخاري، رحمه الله، بارتفاع المحل والتقدم فى هذا العلم على الأماثل والأقران، متفق عليه فيما تأخر وتقدم من الأزمان، ويكفى فى فضله أن معظم من أثنى عليه ونشر مناقبه شيوخه الأعلام المبرزون، والحُذَّاق المتقنون.» وكذلك غيرهم ممن عاصره أو جاء بعده، فمن أقوال العلماء فيه:

قال أحمد بن حنبل: « ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل البخاري.»

وقال قتيبة بن سعيد: « يا هؤلاء، نظرت في الحديث وفي الرأي، وجالست الفقهاء والزهاد والعباد، فما رأيت منذ عقلت مثل محمد بن إسماعيل.»

وقال أبو حاتم الرازي : « محمد بن إسماعيل أعلم من دخل العراق.»

وقال محمد بن أبي حاتم: «سمعت محمود بن النضر أبا سهل الشافعي يقول: دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة ورأيت علماءها فكلما جرى ذكر محمد بن إسماعيل فضلوه على أنفسهم.»

وقال الترمذي: « لم أر أحدا بالعراق، ولا بخراسان، في معنى العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد كبير أحد أعلم من محمد بن إسماعيل.»

وقال الذهبي: « البخاري شيخ الإسلام وإمام الحفاظ. كان رأسًا في الذكاء، رأسا في العلم، ورأسًا في الورع والعبادة.» وقال: « كان من أوعية العلم، يتوقد ذكاء، ولم يخلف بعده مثله.»

وقال ابن كثير: «أبو عبد الله البخاري الحافظ، إمام أهل الحديث في زمانه، والمقتدى به في أوانه، والمقدم على سائر أضرابه وأقرانه.»

11 - من أقواله

« ما وضعت في كتابي الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين.»

«لا أعلم شيئا يُحتاج إليه إلا وهو في الكتاب والسنة.»

« ما جلست للحديث حتى عرفت الصحيح من السقيم وحتى نظرت في عامة كتب الرأي وحتى دخلت البصرة خمس مرات أو نحوها فما تركت بها حديثًا صحيحًا إلا كتبته إلا ما لم يظهر لي.»
« ما أردت أن أتكلم بكلامٍ فيه ذكر الدنيا إلا بدأت بحمد الله والثناء عليه.»
«أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحدا.»

12 - في الثقافة العامة

كان من مكانة الإمام البخاري الكبيرة أن اطلق اسمه تكريماً على عدد كبير من المساجد والمدارس والمعاهد وغيرها من الصروح في مختلف دول العالم. ومنها مسجد مؤسسة البخاري في كوالالمبور، ماليزيا . وغيرها من المساجد في مدن العالم كالزقازيق وطنطا وبورسعيد والمدينة النبوية ووهران والدمام والخبر ووجلجولية وغيرها. ومن المعاهد : معاهد البخاري الأزهرية للغات في القاهرة ومعهد الإمام البخاري للدراسات الإسلامية في عكار. ومعهد الإمام البخاري في بوسطن ومعهد البخاري في مينيابولس. وغيرها من المدارس الابتدائية والثانوية المنتشرة في أرجاء العالم.

الإمام المحدّث أحمد بن شعيب النسائي

1 - تقديم

أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار النسائي (214 هـ - 303 هـ) ، (829 م – 915 م) القاضي وأحد أئمة الحديث النبوي الشريف صاحب السنن الصغرى والكبرى.

ولد سنة 214 هـ في **نسا** من بلاد خراسان قديماً و تقع في تركمانستان حالياً ، ونشأ منذ صغره على التحصيل العلمي والسعي وراء المعرفة ، ورحل في سبيل ذلك إلى العديد من البلاد منها الحجاز، العراق، الشام، وعدة مناطق بالجزيرة العربية ومصر. وبعد أن حدثت فتنة حول ما كان يؤلفه من كتب حول صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم سافر مع تلميذه إبراهيم بن محمد بن صالح بن سنان إلى القدس وسمع من الكثيرين بهذه الأقطار.

قال الحاكم: كان النسائي أفقه مشايخ مصر في عصره وأعرفهم بالصحيح والسقيم من الآثار وأعرفهم بالرجال.

إلى جانب اشتغاله بتحصيل العلم كان النسائي مجتهدا في العبادة مكثرا من الطاعة حتى قيل أنه كان : يصوم يوما ويفطر يوما ، كما عرف عنه أنه كان مجاهدا شجاعا متمرسا بالحرب وأساليب القتال، خرج مع أمير مصر غازيا فوصفوا من شهامته وشجاعته واقامته السنن المأثورة في فداء المسلمين ، كما قيل أنه شغل مناصب هامة في الأمور الدنيوية بجانب مكانته الدينية منها أنه عين أميرا لحمص.

2 – مناقبة

قال ابن عدي: سمعت منصور الفقيه وأحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي يقولان: أبو عبد الرحمن إمام أئمة المسلمين. وقال محمد بن سعد البارودي: ذكرت النسائي لقاسم المطرز، فقال: هو إمام أو يستحق أن يكون إماما. وقال أبو علي النيسابوري: النسائي إمام في الحديث بلا مدافعة. وقال أبو الحسين بن المظفر: سمعت مشائخنا بمصر يعترفون لابي عبد الرحمن النسائي بالتقدم والامامة ويصفون من اجتهاده في العبادة بالليل والنهار ومواظبته على الحج والجهاد واقامته السنن المأثورة واحترازه عن مجالس السلطان وان ذلك لم يزل دأبه إلى ان استشهد -

3 – شيوخه

من أشهر من أخذ عنهم واستفاد من علمهم :

* الشيخ قتيبة بن سعيد الذي ارتحل إليه في سن الخامسة عشرة وأقام عنده سنة
* محمد بن إسماعيل البخاري المشهور بالبخاري.
* مسلم بن الحجاج المشهور بالإمام مسلم.
* أبو عيسى محمد الترمذي المشهور بالترمذي.
* أبو داود.
وغيرهم من كبار الرواة ، رحمهم الله.

4 – تلامذته

أما من أخذوا عنه فهم كثيرون أشهرهم :
* أبو القاسم الطبراني
* أبو جعفر الطحاوي
* أبو علي الحسين بن محمد النيسابوري ، الشهير بالنيسابوري،
وغيرهم...

5 – آثاره

ترك النسائي آثارا من أشهرها :
* السنن الكبرى
* السنن الصغرى ويعرف كذلك بالمجتبى
* كتاب تهذيب خصائص الإمام علي
* فضائل الصحابة
* كتاب المناسك
* عشرة النساء
* المنتقى من عمل اليوم والليلة
* فضائل القرآن
* كتاب العلم
* كتاب النعوت والأسماء والصفات
* الإمامة والجماعة
* كتاب الوفاة (وفاة النبي صلى الله عليه وسلم)

6 - وفاته

روى الذهبي وابن خلكان والمقريزي وغيرهم، أن النسائي خرج من مصر إلى دمشق والمنحرف بها عن **الامام علي** كثير ، فصنف كتاب تهذيب خصائص **الإمام علي** رجاء أن يهديهم الله عز وجل ، فسئل عن فضائل معاوية فأمسك ! فضربوه في الجامع على خصيتيه وداسوه حتى أُخرج من الجامع ، فخرج قاصدا مكة ، ومات في الرملة بفلسطين .

يكاد يكون إجماع المؤرخين ، على أنه توفي يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من صفر، سنة ثلاث وثلاثمائة.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الإمام المحدّث أبو عيسى محمد الترمذي

1 - تقديم

التِّرْمِذِي ، أبوعيسى (209 هـ - 279 هـ) = (824 م – 892 م) . هو محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك ، السلمي الترمذي ، أبو عيسى. مصنّف كتاب الجامع. حافظ ، علم ، إمام ، بارع .

ولد في ترمذ وهي مدينة جنوب أوزبكستان وكانت سابقاً موصولة مع مدينة هرات الأفغانية . واختُلف فيه ، و أصبح ضريرا في كِبره بعد رحلته وكتابته العلم .

طاف البلاد وسمع خلقاً كثيراً من الخراسانيين، والعراقيين، والحجازيين، وغيرهم. كان يُضرب به المثل في الحفظ. هذا مع ورعه وزهده . صنّف الكثير، تصنيف رجل عالم متقن. ومن تصانيفه : كتابه الشهير الجامع المعروف بسنن الترمذي ؛ وغيرها.

2 - مكانته عند الأمة

قال ابن الأثير في تاريخه: كان الترمذي إماما حافظا له تصانيف حسنة منها الجامع الكبير وهو أفضل الكتب.

قال ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب : كان مبرزا على الأقران آية في الحفظ والإتقان.

قال المزي في التهذيب بأنه : الحافظ صاحب الجامع وغيره من المصنفات، أحد الأئمة الحفاظ المبرزين ومن نفع الله به المسلمين.

قال الذهبي في الميزان : الحافظ العالم صاحب الجامع ثقة مجمع عليه ولا التفات إلى قول أبي محمد بن حزم في الفرائض من كتاب الإيصال أنه مجهول فإنه ما عرف ولا درى بوجود الجامع ولا العلل له.

ذكره ابن حبان في الثقات وقال فيه : كان محمد ممن جمع وصنف وحفظ والإمام الترمذي صاحب لجامع من الأئمة الستة الذين حرسوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصبحت كتبهم في عالم السنة هي الأصول المعتمدة في الحديث ومن الذين نضر الله وجوههم لأنه سمع حديث رسول الله فأداه كما سمعه.

3 – مؤلفاته

للترمذي العديد من المؤلفات منها ما هو موجود نذكر:

* سنن الترمذي : وهو المؤلف الذي اشتهر به ومكنه من لقب الإمام ، وقد قال الترمذي عن صحيحه : صنفت هذا المسند الصحيح وعرضته على علماء الحجاز فرضوا به وعرضته على علماء العراق فرضوا به, وعرضته على علماء خراسان فرضوا به ومن كان في بيته هذا الكتاب فكأنما في بيته نبي ينطق.
* الشمائل المحمدية (أو شمائل النبي صلى الله عليه وسلم) .
* الجرح والتعديل.

ومنها ما هو مفقود مثل :

* كتاب العلل الكبرى.
* كتاب التفسير.
* كتاب التاريخ.
* كتاب الأسماء والكنى.

4 - شيوخه

عاش أبو عيسى لتحصيل الحديث، وشد الرحال إليه أينما كان، واشترك الترمذي مع أقرانه الخمسة أصحاب الكتب المعتمدة ، وهم الإمام البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه في تلقي العلم على يد تسعة شيوخ ، وهم : محمد بن بشار بن بندار، ومحمد بن المثنى، وزياد بن يحيى الحساني، وعباس بن عبد

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

العظيم العنبري، وأبو سعيد الأشج عبد الله بن سعيد الكندي، وعمرو بن علي القلانسي، ويعقوب بن إبراهيم الدورقي، ومحمد بن معمر القيسي، ونصر بن علي الجهضمي.

5 – وفاته

توفي الإمام الترمذي في بلدته بوغ في رجب سنة 279 هـ وقد أصبح *الترمذي* أعمى في آخر عمره.

حجة الإسلام أبو حامد الغزالي الدوزي (الطوسي)

تقديم

أبو حامد محمد الغزّالي الطوسي النيسابوري الصوفي الشافعي الأشعري ، أحد أعلام عصره وأحد أشهر علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري ، (450 هـ - 505 هـ / 1058م - 1111م) . كان فقيهاً وأصولياً وفيلسوفاً ، وكان صوفيّ الطريقةِ ، شافعيّ الفقهِ إذ لم يكن للشافعية في عصره مثلَه ، وكان سنّيّ المذهب على طريقة الأشاعرة في العقيدة ، وقد عُرف كأحد مؤسسي المدرسة الأشعرية السنّيّة في علم الكلام، وأحد أصولها الثلاثة بعد أبي الحسن الأشعري ، (وكانوا الباقلاني والجويني والغزّالي) .

لُقّب الغزالي بألقاب كثيرة في حياته، أشهرها لقب " **حجّة الإسلام** " ، وله أيضاً ألقاب مثل: زين الدين، ومحجّة الدين ، ومفتي الأمّة ، وبركة الأنام ، وإمام أئمة الدين.

كان له أثرٌ كبيرٌ وبصمةٌ واضحةٌ في عدّة علوم مثل الفلسفة، والفقه الشافعي، وعلم الكلام، والتصوف، والمنطق، وترك عدداً من الكتب في تلك المجالات. ولد وعاش في طوس، ثم انتقل إلى نيسابور ليلازم أبا المعالي الجويني (الملقّب بإمام الحرمين) ، فأخذ عنه معظم العلوم، ولمّا بلغ عمره 34 سنة، رحل إلى بغداد مدرّساً في المدرسة النظامية في عهد الدولة العباسية بطلب من الوزير السلجوقي نظام الملك . في تلك الفترة اشتُهر شهرةً واسعةً، وصار مقصداً لطلاب العلم الشرعي من جميع البلدان، حتى بلغ أنه كان يجلس في مجلسه أكثر من 400 من أفاضل الناس وعلمائهم يستمعون له ويكتبون عنه العلم . وبعد 4 سنوات من التدريس قرر اعتزال الناس والتفرغ للعبادة وتربية نفسه، متأثراً بذلك بالصّوفية وكتبهم، فخرج من بغداد خفيةً في رحلة طويلة بلغت 11 سنة ، تنقل خلالها بين دمشق والقدس والخليل ومكة والمدينة المنورة، كتب خلالها كتابه المشهور **إحياء علوم الدين** كخلاصة لتجربته الروحية ، عاد بعدها إلى بلده طوس متخذاً بجوار بيته مدرسةً للفقهاء، وخانقاه (مكان للتعبّد والعزلة) للصوفية.

1 – نسبته

هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزّالي الطوسي النيسابوري ، من **أصل تركماني** , يُكنّى بأبي حامد لولد له مات صغيراً ، ويُعرَف بـ " الغزّالي " نسبة إلى صناعة الغزل، حيث كان أبوه يعمل في تلك الصناعة ، ويُنسب أيضاً إلى " الغَزَالي " نسبة إلى بلدة غزالة من قرى طوس، وقد قال عن نفسه: « النّاس يقولون لي الغزّالي ، ولستُ الغزّالي ، وإنّما أنا الغَزَالي منسوبٌ إلى قرية يُقال لها غزالة » .كما يُعرف بـ" **الطوسي**" نسبة إلى بلدة طوس الموجودة في خراسان ، والتي تعرف الآن باسم مدينة مشهد موجودة في إيران .

2 - ولادته ونشأته

ولد الغزّالي عام 450 هـ الموافق 1058، في "الطابران" من قصبة طوس، وهي أحد قسمي طوس ، وقد كانت أسرته فقيرة الحال، إذ كان أباه يعمل في غزل الصوف وبيعه في طوس، ولم يكن له أبناء غيرَ أبي حامد ، وأخيه أحمد والذي كان يصغره سنّاً . كان أبوه مائلاً للصوفية ، لا يأكل إلا من كسب يده ، وكان يحضر مجالس الفقهاء ويجالسهم، ويقوم على خدمتهم، وينفق بما أمكنه إنفاقه ، وكان كثيراً يدعو الله

أن يرزقه ابنا ويجعله فقيهاً، فكان ابنه أبو حامد، وكان ابنه أحمد واعظاً مؤثراً في الناس . ولما قربت وفاة أبيهما، وصّى بهما إلى صديق له متصوّف، وقال له: « إن لي لتأسفاً عظيماً على تعلم الخط وأشتهي استدارك ما فاتني في وَلَديّ هذَيْن فعلّمهما ولا عليك أن تنفذ في ذلك جميع ما أخلّفه لهما»، فلما مات أقبل الصوفيّ على تعليمهما حتى نفد ما خلّفهما لهما أبوهما من الأموال، ولم يستطع الصوفيّ الإنفاق عليهما، عند ذلك قال لهما: « اعلما أنّي قد أنفقت عليكما ما كان لكما وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما به وأصلح ما أرى لَكمَا أن تلجئا إِلَى مدرسة كأنكما من طلبة الْعلم فَيحصل لَكمَا قوت يعينكما على وقتكما»، ففعلا ذلك وكان هو السبب في علو درجتهما، وكان الغزاليّ يَحكي هذا ويقُول: « طلبنا الْعلم لغير الله فأبى أن يكون إِلّا لله ».

3 – تعليمه

ابتدأ طلبه للعلم في صباه عام 465 هـ ، فأخذ الفقه في طوس على يد الشيخ أحمد الراذكاني، ثم رحل إلى جرجان وطلب العلم على يد الشيخ إسماعيل بن سعدة وقد علّق عليه **التعليقة** (أي دوّن علومه دون حفظ وتسميع) ، وفي طريق عودته من جرجان إلى طوس، واجهه قطّاع طرق، حيث يروي الغزالي قائلاً: « قطعت علينا الطريق وأخذ العيّارون جميع ما معي ومضوا فتبعتهم فالتفت إليّ مقدّمهم وقال : ارجع ويحك وإلا هلكت! فقلت له : أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد علي تعليقتي فقط فما هي بشيء تنتفعون به. فقال لي : وما هي تعليقتك : فقلت : كتبت في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها. فضحك وقال : كيف تدّعي أنّك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلّم إليّ المخلاة ». بعد ذلك قرّر الغزالي الاشتغال بهذه التعليقة ، وعكف عليه 3 سنوات من 470 هـ إلى 473 هـ حتى حفظها.

وفي عام 473 هـ رحل الغزّالي إلى نيسابور ولازم إمام الحرمين أبو المعالي الجويني (إمام الشافعية في وقته، ورئيس المدرسة النظامية) ، فدرس عليه مختلف العلوم، من فقه الشافعية، وفقه الخلاف، وأصول الفقه، وعلم الكلام، والمنطق، والفلسفة، وجدّ واجتهد حتى برع وأحكم كل تلك العلوم، ووصفه شيخه أبو المعالي الجويني بأنه: « بحر مغدِق » . وكان الجويني يُظهر اعتزازه بالغزالي، حتى جعله مساعداً له في التدريس، وعندما ألف الغزالي كتابه " **المنخول في علم الأصول** " قال له الجويني: « دفنتني وأنا حيّ، هلّا صبرتَ حتى أموت؟ ».

4 - تدريسه ورحلاته

عندما تُوفي أبو المعالي الجويني سنة 478 هـ الموافق 1085، خرج الغزالي إلى "العسكر" أي "عسكر نيسابور"، قاصداً للوزير نظام الملك (وزير الدولة السلجوقية)، وكان له مجلس يجمع العلماء، فناظر الغزالي كبار العلماء في مجلسه وغلبهم، وظهر كلامه عليهم، واعترفوا بفضله، وتلقوه بالتعظيم والتبجيل . كان الوزير نظام الملك زميلاً للغزالي في دراسته، وكان له الأثر الكبير في نشر المذهب الشافعي الفقهي، والعقيدة الأشعرية السنّي، وذلك عن طريق تأسيس المدارس النظامية المشهورة، والتي قبل الغزالي عرض نظام الملك بالتدريس في المدرسة النظامية في بغداد، وكان ذلك في جمادى الأولى عام 484 هـ الموافق 1091، ولم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره.

4 - 1 - الغزالي في بغداد

وصل الغزالي إلى بغداد في جمادى الأولى سنة 484 هـ ، في أيام الخليفة المقتدي بأمر الله العباسي، ودرّس بالمدرسة النظامية حتى أُعجب به الناس لحسن كلامه وفصاحة لسانه وكمال أخلاقه. وأقام على التدريس وتدريس العلم ونشره بالتعليم والفتيا والتصنيف مدّة أربعة سنوات، حتى اتسعت شهرته وصار يُشدّ له الرّحال، ولُقّب يومئذٍ بـ " الإمام " لمكانته العالية أثناء التدريس بالنظامية في بغداد، ولقّبه نظام الملك بـ "زين الدين" و"شرف الأئمة". وكان يدرّس أكثر من 300 من الطلاب في الفقه وعلم الكلام وأصول الفقه ، وحضر مجالسه الأئمة الكبار كابن عقيل وأبي الخطاب وأبي بكر بن العربي ، حيث قال أبو بكر بن العربي: « رأيت الغزالي ببغداد يحضر درسه أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم » ،

انهمك الغزالي في البحث والاستقصاء والردّ على الفرق المخالفة بجانب تدريسه في المدرسة النظامية، فألّف كتابه " **مقاصد الفلاسفة** " يبيّن فيه منهج الفلاسفة ، ثمّ نقده بكتابه " **تهافت الفلاسفة** " مهاجماً الفلسفة ومبيّناً تهافت منهجهم . ثمّ تصدّى الغزالي للفكر الباطني (وهم الإسماعيلية) الذي كان منتشراً في وقته والذي أصبح الباطنيون ذوو قوّة سياسية ، حتى أنّهم قد اغتالوا الوزير نظام الملك عام 485 هـ الموافق 1091، وتُوفي بعده الخليفة المقتدي بأمر الله ، فلما جاء الخليفة المستظهر بالله ، طلب من الغزالي أن يحارب الباطنية في أفكارهم ، فألّف الغزالي في الردّ عليهم كتب " **فضائح الباطنية** " و " **حجّة الحق** " و" **قواصم الباطنية** ".

4 – 2 - رحلة الغزالي

بعد خوض الغزالي في علوم الفلسفة والباطنية، عَكَف على قراءة ودراسة علوم الصوفية، وصحب الشيخ الفضل بن محمد الفارمذي (الذي كان مقصداً للصوفية في عصره في نيسابور، وهو تلميذ أبو القاسم القشيري) . فتأثر الغزالي بذلك، ولاحظ على نفسه بعده عن حقيقة الإخلاص لله وعن العلوم الحقيقية النافعة في طريق الآخرة، وشعر أن تدريسه في النظامية مليء بحب الشهرة والعُجُب والمفاسد، عند ذلك عقد العزم على الخروج من بغداد، يقول عن نفسه :

ثم لاحظت أحوالي ، فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من الجوانب، ولاحظت أعمالي - وأحسنها التدريس والتعليم - فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة، ولا نافعة في طريق الآخرة. ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أني على شفا جرف هار، وأني قد أشفيت على النار، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال.. فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة 488 هـ .وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة إلي، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتة. ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب

فكان خروجه من بغداد في ذي القعدة سنة 488 هـ، وقد ترك أخاه أحمد الغزّالي مكانه في التدريس في النظامية في بغداد. وقد خرج إلى الشام قاصداً الإقامة فيها، مُظهِرَاً أنه متّجه إلى مكة للحجّ حذراً أن يعرف الخليفة فيمنعه من السفر إلى الشام . فوصل دمشق في نفس العام ، ومكث فيها قرابة السنتين لا شغل له إلا العزلة والخلوة، والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق. فكان يعتكف في مسجد دمشق، يصعد منارة المسجد طول النهار، ويغلق على نفسه الباب ، وكان يكثر الجلوس في زاوية الشيخ نصر المقدسي في الجامع الأموي والمعروفة اليوم بـ " **الزاوية الغزالية** " نسبةً إليه.

بعد ذلك رحل الغزالي إلى القدس واعتكف في المسجد الأقصى وقبة الصخرة. ثم ارتحل وزار مدينة الخليل في فلسطين، وما لبث أن سافر إلى مكة والمدينة المنورة لأداء فريضة الحج، ثم عاد إلى بغداد، بعد أن قضى 11 سنة في رحلته ، ألّف خلالها أعظم كتبه "**إحياء علوم الدين**"، وقد استقر أمره على الصوفية.

4 – 3 - عودته إلى طوس

بعد قرابة 11 سنة من العزلة والتنقّل ، عزم الغزّالي على العودة إلى بغداد، فكان ذلك في ذي القعدة سنة 499 هـ، ولم يدم طويلاً حتى أكمل رحلته إلى نيسابور ومن ثمّ إلى بلده طوس، وهناك لم يلبث أن استجاب إلى رأي الوزير فخر الملك للتدريس في نظامية نيسابور مكرهاً، فدرّس فيها مدة قليلة، وما لبث أن قُتل فخر الدين الملك على يد الباطنية، من ثمّ رحل الغزالي مرة أخرى إلى بلده طابران في طوس، وسكن فيها، متخذاً بجوار بيته مدرسة للفقهاء وخانقاه (مكان للتعبّد والعزلة) للصوفية، ووزّع أوقاته على وظائف من ختم القرآن ومجالسة الصوفية والتدريس لطلبة العلم وإدامة الصلاة والصيام وسائر العِبَادات ،

5 – وفاته

بعد أن عاد الغزّالي إلى طوس، لبث فيها بضع سنين، وما لبث أن تُوفي يوم الاثنين 14 جمادى الآخرة 505 هـ، الموافق 19 ديسمبر 1111م ، في " الطابران " في مدينة طوس، ولم يعقب إلا البنات. روى أبو الفرج بن الجوزي في كتابه " الثبات عند الممات "، عن أحمد (أخو الغزالي): « لما كان يوم الإثنين وقت الصبح توضأ أخي أبو حامد وصلّى، وقال: "عليّ بالكفن"، فأخذه وقبّله، ووضعه على عينيه وقال: "سمعاً وطاعة للدخول على الملك"، ثم مدّ رجليه واستقبل القبلة ومات قبل الإسفار» . وقد سأله قبيل الموت بعض أصحابه:، فقالوا له: أوصِ. فقال: « عليك بالإخلاص » فلم يزل يكررها حتى مات.

وقد رثى أبو المظفر الأبيوردي الغزّالي حين مات إذ قال :

بَكَى على حجَّة الْإِسْلَام حِين ثوى ... من كل حَيّ عَظِيم الْقدر أشرفه
مضى فأعظم مَفْقُود فجعت بِهِ ... من لَا نَظِير لَهُ فِي النَّاس يخلفه

وقال فيه أيضاً القاضي عبد الملك بن أحمد بن محَمّد بن المعَافى :

بَكَيْت بعيني واجم الْقلب واله ... فَتى لم يوال الْحق من لم يواله
أَبَا حَامِد مُحي الْعُلُوم وَمن بَقِي ... صدى الدّين وَالْإِسْلَام وفْق مقاله

6 - الغزالي والفلسفة

كانت الفلسفة في عصر أبي حامد الغزالي قد أثرت في تفكير الكثيرين من أذكاء عصره وسلوكهم، وأدى ذلك إلى التشكيك في الدين الإسلامي والانحلال في الأخلاق، والاضطراب في السياسة، والفساد في المجتمع . فتصدّى أبو حامد الغزالي لهم بعد أن عكف على دراسة الفلسفة لأكثر من سنتين، حتى استوعبها وفهمها، وأصبح كواحد من كبار رجالها،

يقول عن نفسه: « ثم إني ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة، وعلمت يقيناً أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم.. فشمرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب.. ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريباً من سنة أعاوده وأردده وأتفقد غوائله وأغواره، حتى اطّلعت على ما فيه من خداع، وتلبيس وتحقيق وتخييل، واطلاعاً لم أشك فيه»،[38] وألّف في ذلك كتابه "مقاصد الفلاسفة" مبيّناً منهجهم. ثم بعد ذلك وصل إلى نتيجته قائلاً: «فإني رأيتهم أصنافاً، ورأيت علومهم أقساماً وهم - على كثرة أصنافهم - يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين، وبين الأواخر منهم والأوائل، تفاوت عظيم، في البعد عن الحق والقرب منه ».

تناول الغزالي الفلسفة بالتحليل التفصيلي، وذكر أصنافهم وأقسامهم، وما يستحقون به من التكفير بحسب رأيه، وما ليس من الدين، بذلك اعتُبر الغزالي أول عالم ديني يقوم بهذا التحليل العلمي للفلسفة، وأول عالم ديني يصنّف في علومهم التجريبية النافعة، ويعترف بصحة بعضها . إذ قسّم الغزالي علوم فلاسفة اليونان إلى العلوم الرياضية، والمنطقيات، والطبيعيات، والإلهيات، والسياسات، والأخلاقيات، وكان أكثر انتقاد الغزالي وهجومه على الفلاسفة ما يتعلق بالإلهيات، إذ كان فيها أكثر أغاليطهم بحسب الغزالي، وقد كفّر الغزالي فلاسفة الإسلام المتأثرين بالفلسفة اليونانية في 3 مسائل، وبدّعهم في 17 عشر مسألة، وألّف كتاباً مخصوصاً للرد عليهم في هذه ال 20 مسألة سمّاه " تهافت الفلاسفة "، وفيه هاجم الفلاسفة بشكل عام والفلاسفة المسلمون بشكل خاص ، ويُقال إنه قضى على الفلسفة العقلانية في العالم العربي، منذ ذلك الوقت ولعدة قرون متواصلة . فجاء بعده ابن رشد فرد على الغزالي في كتابين أساسيين هما " فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال "، ثم " تهافت التهافت ".

وبحسب الباحثين فإن الغزالي يُعدّ في كثير من نظرياته النفسيّة والتربوية والاجتماعية صاحب فلسفة متميّزة، وهو في بعض كتبه أقرب إلى تمثيل فلسفة إسلامية، وأنه فيلسوف بالرغم من عدم كونه يريد ذلك، وهذا ما صرّح به كثيرون من العرب والغربيين، حتى قال الفيلسوف المشهور رينان: « لم تنتج الفلسفة العربية فكراً مبتكراً كالغزالي » ،

7 - الغزالي والتصوف

7 – 1 - المراحل الفكرية التي مرّ بها الغزالي

قبل أن يستقر أمر الغزالي على التصوف، مرّ بمراحل كثيرة في حياته الفكرية، كما يرويها هو نفسه في كتابه المنقذ من الضلال، فابتدأ بمرحلة الشكّ بشكل لا إرادي، والتي شكّ خلالها في الحواس والعقل وفي قدرتهما على تحصيل العلم اليقيني، ودخل في مرحلة من السفسطة غير المنطقية حتى شُفي منها بعد مدة شهرين تقريباً . ليتفرّغ بعدها لدراسة الأفكار والمعتقدات السائدة في وقته،

يقول: « ولما شفاني الله من هذا المرض بفضله وسعة جوده، أحضرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق :

المتكلمون : وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر.

والباطنية : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم، والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.

والفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان.

والصوفية : وهم يدعون أنهم خواص الحضرة، وأهل المشاهدة والمكاشفة»،

ويتابع ويقول: « فابتدرت لسلوك هذه الطرق، واستقصاء ما عند هذه الفرق مبتدئاً بعلم الكلام، ومثنياً بطريق الفلسفة، ومثلثاً بتعلّم الباطنية، ومربعاً بطريق الصوفية ».

فعكف على دراسة علم الكلام حتى أتقنه وصار أحد كبار علمائهم، وصنف فيه عدة من الكتب التي أصبحت مرجعاً في علم الكلام فيما بعد مثل كتاب " الاقتصاد في الاعتقاد "، إلا أنه لم يجد ضالته المنشودة في علم الكلام، ورآه غير واف بمقصوده، يقول عن نفسه : « فلم يكن علم الكلام في حقي كافياً، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً ».

بعد ذلك توجّه لعلم الفلسفة ودرسها وفهمها، ثم نقدها بشدة بكتابه تهافت الفلاسفة. ثم درس بعدها الباطنية فردّ عليهم وهاجمهم. ليستقر أمره على علم التصوف.

7 – 2 - استقراره على التصوف

بعد تلك المراحل بدأ اهتمام الغزالي يتّجه نحو علوم التصوف، فابتدأ بمطالعة كتبهم مثل: قوت القلوب لأبي طالب المكي، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد وأبي بكر الشبلي وأبي يزيد البسطامي. كما أنه كان يحضر مجالس الشيخ الفضل بن محمد الفارمذي الصوفي، والذي أخذ عنه الطريقة ، فتأثر بهم تأثراً كبيراً، حتى أدّى به الأمر لتركه للتدريس في المدرسة النظامية في بغداد، واعتزاله الناس وسفره لمدة 11 سنة، تنقل خلالها بين دمشق والقدس والخليل ومكة والمدينة المنورة، كتب خلالها كتابه المشهور في التصوف إحياء علوم الدين، وكانت نتيجة رحلته الطويلة تلك أن قال :

وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به أني علمتُ يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق.

7- 3 - كتاب إحياء علوم الدين

كان من أشهر مؤلفات الغزّالي في التصوف كتابه إحياء علوم الدين، والذي قد حاز شهرةً وانتشاراً ما لم يقاربه أي كتاب من كتبه الأخرى ، حتى صارت نسخه المخطوطة مبثوثة في مكتبات العالم .

وقد امتدح الكتاب غير واحد من علماء الإسلام، مثل ما قاله عبد الرحيم العراقي المحدث الذي خرّج أحاديث الإحياء، حيث قال عنه: « إنه من أجل كتب الإسلام في معرفة الحلال والحرام، جمع فيه بين ظواهر الأحكام، ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل، ولم يتبحر في اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل، بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن، ومرج معانيها في أحسن المواطن، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه، وسلك فيه من النمط أوسطه»،

وقال غيره : « من لم يقرأ الإحياء فليس من الأحياء »،

كما أُلّف الكثير من الكتب في شرح واختصار الإحياء والدفاع عنه ، مثل كتاب "الإملاء على مشكل الإحياء" والذي ألفه الغزالي نفسه للرد على من انتقده في عصره، وكذلك كتاب "إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين" للزبيدي، و"تعريف الأحياء بفضائل الإحياء" لعبد القادر العيدروس،

وكذلك "المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار" لعبد الرحيم العراقي. أما الاختصارات، فقد اختصره أخوه أحمد الغزّالي في كتاب "لباب الإحياء"، و"منهاج القاصدين" لابن الجوزي،ويعد بعض الباحثين كتاب الغنية للشيخ عبد القادر الجيلي ، مختصرا للأحياء كونه كتب على نفس المنهجية والنفس ، وغيرها الكثير.

سبب تسمية الكتاب **بإحياء علوم الدين** هو القناعة التي وصل لها الغزالي بأن العلم والفقه الحقيقي هو الذي ينعكس على سلوك الإنسان نتيجة يقينه بأن الآخرة خيرٌ من الأولى، وهو بذلك يذم ما يسمى علوماً دينية وتبنى على الإغراق في التفاصيل الفقهية وترتيب المناظرات والفوز بها، وقد قسم الكتاب إلى أربع أجزاء بعد مقدمة عن العلم والتفريق بين أنواعه.

ربع العبادات كالصلاة والزكاة والحج موضحاً لبعض التفاصيل الدقيقة المتعلقة بأثر العبادات هذه على قلب الإنسان

ربع العادات كالزواج والعمل لاكتساب الرزق

ربع المهلكات كالغرور والتكبر وحب الدنيا والجاه والإفراط شهوتي الطعام والجنس وجعلهما باباً واحداً

ربع المنجيات بدأه بالتوبة وأن حقيقتها معرفة الله ثم الخجل منه فالندم والاعتذار ، ثم تكلم عن الصبر والخوف من الله وعبادة التفكر.

معظم ما كتبه الغزالي في الإحياء يبدأ عادة بشرح واستدلال بآية من القرآن الكريم ثم بحديث ثم بأخبار الصحابة ثم بأخبار الصالحين

8 - تلاميذ الغزالي

كانت مدرسة الغزالي تضم عشرات التلاميذ الأذكياء، وقد أثّر الغزالي تأثراً كبيراً في جمهور كبير من تلاميذه، وذكر الزبيدي منهم :

أبو النصر أحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الخمقدي، توفي سنة 544 هـ، وتفقّه في طوس على الغزالي.

أبو منصور محمد بن إسماعيل بن الحسين العطاري، الواعظ في طوس والملقّب بـ "جندة"، توفي 486 هـ، وتفقّه في طوس على الغزالي.

أبو الفتح أحمد بن علي بن محمد بن برهان، وكان حنبلياً، ثم تفقّه على الغزالي، وكام يدرّس في المدرسة النظامية علوم شتى، ودرّس إحياء علوم الدين للطلاب، توفي 518 هـ.

أبو سعيد محمد بن أسعد التوقاني، توفي 554 هـ.

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي، الملقّب بـ "المهدي".

أبو حامد محمد بن عبد الملك الجوزقاني الإسفراييني، تفقّه على الغزالي في بغداد.

محمد بن يحيى بن منصور، وهو من أشهر تلامذته، تفقه على الغزالي، وشرح كتابه الوسيط.

أبو بكر بن العربي، القاضي المالكي، وهو من حمل كتابه إحياء علوم الدين إلى المغرب العربي عند عودته من رحلته المشرقية عام 495 هـ.

أحمد بن مَعَدّ بن عيسى بن وكيل التجيبي الداني الأُقْلِيشي، لم يكن له لقاء مباشر مع الغزالي، فإن أخذه وروايته لمؤلفات الإمام، كانت عن طريق شيخيه أبو بكر بن العربي وعبَّاد بن سَرْحَان المَعَافِرِي.

عبدالقادر الجيلاني ، بعض المصادر والدراسات تؤكد لقاءه بالغزالي وجلوسه بين يديه ، وقد تعاصرا في بغداد لمدة 17 عاما وهناك تشابه في سيرتهما

9 - آثار الغزالي

ألّف الإمام الغزّالي خلال مدة حياته (55 سنة) الكثير من الكتب في مختلف صنوف العلم، حتى أنه قيل: إن تصانيفه لو وزعت على أيام عمره أصاب كل يوم كتاب

وبسبب شهرة الغزالي وتصانيفه ، نُسبت إليه الكثير من الكتب والرسائل، وأصبح من الصعب تحديد صحة نسبتها إليه.

9 – 1 - من كتب الغزالي

هذا ثبت بأهم الكتب المنسوبة للغزالي:

في العقيدة وعلم الكلام والفلسفة والمنطق :

- الاقتصاد في الاعتقاد.
- بغية المريد في مسائل التوحيد.
- إلجام العوام عن علم الكلام.
- المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى.
- المعارف العقلية ولباب الحكمة الإلهية.
- القانون الكلي في التأويل.
- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.
- فضائح الباطنية.
- حجّة الحق، في الرد على الباطنية.
- قواصم الباطنية.
- مقاصد الفلاسفة.
- تهافت الفلاسفة.
- معيار العلم في فن المنطق.
- محك النظر في المنطق.
- ميزان العمل.

في علم الفقه وأصوله وعلم الجدل:

- التعليقة في فروع المذهب.
- البسيط في الفروع.
- الوسيط ، في فقه الإمام الشافعي.
- الوجيز، في فقه الإمام الشافعي.
- فتاوى الغزالي.
- غاية الغور في دراية الدور ،
- المستصفى في علم أصول الفقه.
- المنخول في علم الأصول.
- تهذيب الأصول.
- المباديء والغايات.
- شفاء الغليل في القياس والتعليل.
- القسطاس المستقيم.
- أساس القياس.
- المنتحل في علم الجدل.
- مآخذ الخلاف.
- لباب النظر.
- تحصين المآخذ في علم الخلاف.
- جواب مفصل الخلاف.

في علم التصوف:

- إحياء علوم الدين.
- الإملاء على مشكل الإحياء.
- بداية الهداية.
- أيها الولد.
- أسرار معاملات الدين.
- روضة الطالبين وعمدة السالكين.
- الأربعين في أصول الدين.
- مدخل السلوك الي منازل الملوك.
- ميزان العمل.
- كيمياء السعادة ، (وقد كتبه بالفارسية وتُرجم إلى العربية)
- زاد الآخرة ، (وقد كتبه بالفارسية وتُرجم إلى العربية)
- مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علاّم الغيوب.
- سر العالمين وكشف ما في الدارين.
- منهاج العابدين.
- منهاج العارفين.
- معارج القدس في مدارج معرفة النفس.
- مشكاة الأنوار.
- الرسالة اللدنية.
- الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين.

متنوعات :

- المنقذ من الضلال.
- المضنون به على غير أهله.
- المضنون به على أهله.
- جواهر القرآن ودرره.
- حقيقة القرآن.
- الحكمة في مخلوقات الله.
- التبر المسبوك في نصحية الملوك.
- القصيدة المنفرجة.
- شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل.

10 - أقوال العلماء فيه

كان أبو حامد الغزالي عند جمهور المتقدمين حجّة الإسلام ومجدد القرن الخامس الهجري، ومحيي علوم الدين، وكان من أقوال مَن أثنى عليه ومدحه:

شيخه أبو المعالي الجويني : الغزالي بحر مغدق.

الذهبي : الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي، الغزالي، صاحب التصانيف والذكاء المفرط.

ابن الجوزي: صنف الكتب الحسان في الأصول والفروع، التي انفرد بحسن وضعها وترتيبها، وتحقيق الكلام فيها.

تاج الدين السبكي : حجة الإسلام ومحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام، جامع أشتات العلوم، والمبرز في المنقول منها والمفهوم، جرت الأئمة قبله بشأو ولم تقع منه بالغاية، ولا وقف عند مطلب وراء مطلب لأصحاب النهاية والبداية.

ابن النجار: أبو حامد إمام الفقهاء على الإطلاق ورباني الأمة بالإتفاق، ومجتهد زمانه وعين أوانه، وكان شديد الذكاء، قوي الإدراك، ذا فطنة ثاقبة، وغوص على المعاني.

أبو الحسن الشاذلي: إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبي حامد.

أبو العباس المرسي: إنا لنشهد له بالصديقية العظمى.

ابن العماد الحنبلي: الإمام زين الدين حجة الإسلام، أبو حامد أحد الأعلام، صنف التصانيف مع التصون والذكاء المفرط والاستبحار في العلم وبالجملة ما رأى الرجل مثل نفسه.

ابن كثير: كان من أذكياء العالم في كل ما يتكلم فيه.

أبو بكر ابن العربي: كان أشهر من لقينا من العلماء في الآفاق، ومن سارت بذكره الرفاق لطول باعه في العلم، ورَحب ذراعه، الإمام أبو حامد بن محمد الطوسي الغزالي.

أسعد الميهني: لا يصل إلى معرفة علم الغزالي وفضله إلا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله.

عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي : أبو حامد الغزالي حجة الإسلام والمسلمين، إمام أئمة الدين، من لم تر العيون مثله لساناً وبياناً ونطقاً وخاطراً وذكاءً وطبعاً.

تلميذه محمد بن يحيى : الغزالي هو الشافعي الثاني.

الأسنوي : الغزالي إمام باسمه تنشرح الصدور وتحيا النفوس، وبرسمه تفتخر المحابر وتهتز الطروس، وبسماعه تخشع الأصوات وتخضع الرؤوس. وهو قطب الوجود والبركة الشاملة لكل موجود وروح خلاصة أهل الإيمان والطريق الموصلة إلى رضا الرحمن يتقرب إلى الله به كل صديق ولا يبغضه إلا ملحد أو زنديق.

تلميذه الشيخ أبو العباس الأقليشي المحدّث الصّوفي، مدحه ومدح كتاب إحياء علوم الدين في قصيدة طويلة جاء فيها :

أبا حامد أنت المخصص بالمجدِ ... وأنت الذي علمتنا سنن الرشدِ
وضعت لنا الإحياء تحيي نفوسنا ... وتنقذنا من طاعة النازغ المردي
فربع عباداته وعاداته التي ... يعاقبها كالدر نظم في العقدِ
وثالثها في المهلكات وإنه ... لمنج من الهلك المبرح والبعدِ
ورابعها في المنجيات وإنه ... ليسرح بالأرواح في جنة الخُلّدِ
ومنها ابتهاج للجوارح ظاهر ... ومنها صلاح للقلوب من الحقدِ

الإمام الزّمخشري

1 - تقديم

أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري من **أصل تركماني** . ولد في زَمَخْشَر يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة 467 هـ / 1074 م، وتوفي[1] - - ليلة عرفة سنة 538 هـ / 1143 م في جرجانية خوارزم ، بعد رجوعه من مكة. يقول السمعاني في ترجمته : "برع

في الآداب، وصنف التصانيف، وَرَدَ العراق وخراسان، ما دخل بلدا إلا واجتمعوا عليه، وتتلمذوا له، وكان علامة نسابة".

2 – اعتزاله

كان الزمخشري معتزلياً في الأصول (العقيدة) ، حنفياً في الفروع (الفقه) ، وكان يجاهر بمذهبه (الاعتزال)، ويدونه في كتبه، ويصرح به في مجالسه. وقد بذل الزمخشري مجهوداً كبيراً في تفسيره في سبيل تفسير الآيات القرآنية على مقتضى مذهب الاعتزال وأصوله الخمسة، وهي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

3 - ثناء العلماء عليه

و قد اشتهر الزمخشري في عصره، ومدحه الشعراء والأدباء، وطلب العلماء أن يعطيهم الإجازة في رواية كتبه. ومن لطيف ذلك أن الحافظ أبا الطاهر السِلَفي كتب إليه من الإسكندرية يستجيزه ، وكان الزمخشري مجاوراً بمكة، فكتب إليه جواباً طويلاً يقول في مطلعه : ((ما مثلي مع أعلام العلماء إلا كمثل السُّها (نجم صغير) مع مصابيح السماء.. والجهام الصُفر والرّهام (المطر الخفيف) مع الغوادي (المطر الغزير) الغامرة للقيعان والآكام ، ..)) . ويظهر في هذا المقطع مدى تواضعه وبعده عن الاعتداد بالنفس .

4 – مؤلفاته

الزمخشري إمام كبير في الحديث، والتفسير، والنحو، والبلاغة. وصاحب تآليف عظيمة في كل ذلك. ومن مؤلفاته:

في اللغة والبلاغة **:** أساس البلاغة ، والمستقصى في الأمثال، والفائق في غريب الحديث، ومقدمة الأدب وهو قاموس من العربية للفارسية، والقسطاس في علم العروض.

في النحو: المفصل، والأنموذج، والمفرد المؤلف.

في الحديث : مشتبه أسامي الرواة.

في التفسير : تفسير الكشاف المشهور. **واسمه الكامل** : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.

في الفقه : الرائض في علم الفرائض

في الزهد : أطواق الذهب في المواعظ، وكتاب النصائح.

في الجغرافيا : كتاب الامكنه والجبال والمياه.

في الأدب : له مقامات يطلق عليها مقامات الزمخشري: تتكون من مقدمة، وخطبة، وخمسين مقالة.

في **المقدمة** قدم نصائح لمن يتناول الكتاب بالتأني في قراءته والوقوف علي كل لفظ وتفهم المعاني الواردة. كما نصح بألا يقدم الكتاب إلا لعالم أو متدين أو أديب . كذلك طلب ممن يريد نسخ الكتاب أن ينسخه بخط جيد وأن يضع عليه اسم المؤلف كما طلب الدعاء له بالرحمة والرضوان . وفي **الخطبة** صنع مدخلا للمقامات وجعلها أساسها هو نصيحة نفسه وذلك عندما أصابه مرض في شهر رجب سنة 512 هـ فأخذ عهدا علي نفسه إن شفاه الله من المرض، أن يسلك مسلك الجد وأن يبتعد عن السلاطين والأمراء ويقلع عن مدحهم والتماس العطايا منهم، وفي آخر الخطبة أخذ العهد علي نفسه أن يتعلم علوم القرآن والحديث والعلوم الشرعية. أما المقامات فقد نوع موضوعاتها بين الحكمة والوصايا والأدب والتاريخ

إلى غير ذلك من الكتب القيمة.. وأشهر كتبه على الإطلاق هما : تفسير الكشاف ، وأساس البلاغة.

5 - من أشهر أشعاره هذه الأبيات :

سهري لتنقيح العلوم ألذّ لي = من وصل غانيةٍ وطول عناق
و تمايلي طرباً لحل عويصةٍ = أشهى وأحلى من مدامة ساقي
و صرير أقلامي عبى أوراقها = أحلى من الدوكاء والعشاق *
و ألذّ من نقر الفتاة لدفها = نقري لأنفي الرمل عن أوراقي

أأبيت سهران الـدجى وتـبـيته = نوماً وتبغي بعد ذاك لحاقي؟؟

وهي تدل على أنه كان عزيز النفس ، محباً للعلم ، مقبلاً على شأنه .
** الـدوكاء والعشاق : نـغمتان موسيقيتان*

العالم محمد بن موسى الخوارزمي

تقديم

أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي عالم تركماني مسلم يكنى باسم الخوارزمي وأبو جعفر . قيل أنه ولد حوالي 164هـ 781م , وقيل أنه توفي 232 هـ أي (847 م) . يعتبر من أوائل علماء الرياضيات المسلمين حيث ساهمت أعماله بدور كبير في تقدم الرياضيات في عصره . اتصل بالخليفة العباسي المأمون وعمل في بيت الحكمة في بغداد وكسب ثقة الخليفة إذ ولاه المأمون بيت الحكمة كما عهد إليه برسم خارطة للأرض عمل فيها أكثر من 70 جغرافيا ، وقبل وفاته في 850 م/232 هـ كان الخوارزمي قد ترك العديد من المؤلفات في علوم الفلك والجغرافيا من أهمها *كتاب* **الجبر والمقابلة** الذي يعد أهم كتبه وقد ترجم الكتاب إلى اللغة اللاتينية في سنة 1135م وقد دخلت على إثر ذلك كلمات مثل **الجبر** *Algebra* **والصفر** *Zero* إلى اللغات اللاتينية.

كما ضمت مؤلفات الخوارزمي كتاب الجمع والتفريق في الحساب الهندي، وكتاب رسم الربع المعمور، وكتاب تقويم البلدان، وكتاب العمل بالأسطرلاب، وكتاب "صورة الأرض " الذي اعتمد فيه على كتاب المجسطي لبطليموس مع إضافات وشروح وتعليقات، وأعاد كتابة كتاب الفلك الهندي المعروف باسم "السند هند الكبير" الذي ترجم إلى العربية زمن الخليفة المنصور فأعاد الخوارزمي كتابته وأضاف إليه وسمي كتابه "السند هند الصغير".

وقد عرض في كتابه (حساب الجبر والمقابلة) أو (الجبر) أول حل منهجي للمعادلات الخطية والتربيعية. ويعتبر مؤسس علم الجبر ، قدمت ترجمات اللاتينية عن حسابه على الأرقام الهندية ، النظام العشري , نقح الخوارزمي كتاب الجغرافيا لطليموس وكتب في علم الفلك والتنجيم.

كان لإسهاماته تأثير كبير على اللغة. " فالجبر" ، هو أحد من اثنين من العمليات التي استخدمهم في حل المعادلات التربيعية.

كان مسؤولا بشكل أساسي عن نشر نظام ترقيم الهندي في جميع أنحاء الشرق الأوسط وأوروبا. وترجم اللاتينية إلى Algoritmi de numero Indorum. من الخوارزمي، أتت الكلمة اللاتينية Algoritmi ،التي أدت إلى مصطلح "الخوارزمية". واسمه هو أصل الكلمة أسبانية guarismo والبرتغالية algarismo وهما الاثنان بمعنى " **رقم** ".

1 – حياته

حسب بعض الروايات فقد انتقلت عائلته من مدينة خوارزم في إقليم خراسان الإسلامي (والتي تسمى '' **خيوا** '' في العصر الحالي، في جمهورية أوزبكستان) إلى بغداد في العراق. وأنجز الخوارزمي معظم أبحاثه بين عامي 813 و833 في دار الحكمة، التي أسسها الخليفة المأمون . حيث أن المأمون عينه على رأس خزانة كتبه ، وعهد إليه بجمع الكتب اليونانية وترجمتها. وقد استفاد الخوارزمي من الكتب التي كانت متوافرة في خزانة المأمون فدرس الرياضيات ، والجغرافية ، والفلك ، والتاريخ ، إضافةً إلى إحاطته بالمعارف اليونانية والهندية. ونشر كل أعماله باللغة العربية، التي كانت لغة العلم في ذلك العصر.

بدأ الخوارزمي كتابه (الجبر والمقابلة) بالبسملة . وتُجمع الموسوعات العلمية - على أنه عربي ، في حين تشير مراجع أخرى كالموسوعة البريطانية تذكر أنه "عالِم مسلم" من دون تحديد قوميته.

2 – إسهاماته

ساهم الخوارزمي في الرياضيات ، والجغرافيا ، وعلم الفلك ، وعلم رسم الخرائط، وأرسى الأساس للابتكار في الجبر وعلم المثلثات . له أسلوب منهجي في حل المعادلات الخطية والتربيعية أدى إلى ***الجبر***، وهي كلمة مشتقة من عنوان كتابه حول هذا الموضوع، *(المختصر في حساب الجبر والمقابلة)*.

أعتمدت بعض أعماله على علم الفلك الفارسي والبابلي، والأرقام الهندية، والرياضيات اليونانية.

نظم الخوارزمي وصحح بيانات بطليموس عن أفريقيا والشرق الأوسط. من كتبه الرئيسية *كتاب* "صورة الأرض"، الذي يقدم فيه إحداثيات الأماكن التي تستند على جغرافية بطليموس ولكن مع تحسن القيم للبحر الأبيض المتوسط وآسيا وأفريقيا. كما كتب أيضا عن الأجهزة الميكانيكية مثل الأسطرلاب ، والمزولة.

وساعد في مشروع لتحديد محيط الأرض، وفي عمل خريطة للعالم للخليفة للمأمون، وأشرف على 70 جغرافي.

في القرن الثاني عشر انتشرت أعماله في أوروبا ، من خلال الترجمات اللاتينية، التي كان لها تأثير كبير على تقدم الرياضيات في أوروبا.

2 – 1 – الجبر

(الكتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة) هو كتاب رياضي كتب حوالي عام 830 م. ومصطلح *الجبر* مشتق من اسم إحدى العمليات الأساسية مع المعادلات التي وصفت في هذا الكتاب. ترجم الكتاب للاتينية تحت اسم *Liber algebrae et almucabala* . وتوجد نسخة عربية فريدة محفوظة في أوكسفورد ترجمت عام 1831 . وتوجد ترجمة لاتينية محفوظة في كامبريج.

ومما كتبه المستشرقون لتاريخ الرياضيات قولهم :

« "ربما كانت أحد أهم التطورات التي قامت بها الرياضيات العربية بدئت في هذا الوقت بعمل الخوارزمي وهي بدايات الجبر، ومن المهم فهم كيف كانت هذه الفكرة الجديدة مهمة، فقد كانت خطوة ثورية بعيدا عن المفهوم اليوناني للرياضيات التي هي في جوهرها هندسة ، الجبر كان نظرية موحدة تتيح الأعداد الكسرية والأعداد اللا كسرية، والمقادير هندسية وغيرها، أن تتعامل على أنها "أجسام الجبرية"، وأعطت الرياضيات ككل مسار جديد للتطور بمفهوم أوسع بكثير من الذي كان موجودا من قبل، وقدم وسيلة للتنمية في هذا الموضوع مستقبلا. وجانب آخر مهم لإدخال أفكار الجبر وهو أنه سمح بتطبيق الرياضيات على نفسها بطريقة لم تحدث من قبل." »

2 – 2 - علم الحساب

الإنجاز الثاني للخوارزمي كان في علم الحساب، توجد الآن الترجمة اللاتينية له ولكن فقدت النسخة العربية الأصلية. تمت الترجمة على الأرجح في القرن الثاني عشر بواسطة أديلار الباثي، الذي ترجم أيضا الجداول الفلكية في 1126.

كانت المخطوطات اللاتينية بلا عنوان، ولكن يشار إليها بأول كلتمين تبدا بها : Dixit algorizmi أو (هكذا قال الخوارزمي) ، أو *Algoritmi de numero Indorum* (الفن الهندي في الحساب للخوارزمي)"، وهو الاسم الذي أطلقه بالداساري بونكومباني على العمل في 1857. العنوان الأصلي العربية ربما كان " كتاب الجمع والطرح ووفقا للحساب الهندي"

عمل الخوارزمي الحسابي كان هو مسؤول عن إدخال الأرقام العربية على أساس نظام الترقيم الهندي العربي المطور في الرياضيات الهندية، إلى العالم الغربي. مصطلح "الخوارزمية" مستمد من ألجورسم، أسلوب الحساب بالأرقام الهندية والعربية الذي وضعه الخوارزمي. كلا من كلمتي "خوارزمية" و"ألجوريسم" مستمدين من الأشكال اللاتينية لاسم الخوارزمي *Algoritmi* و*Algorismi* على التوالي.

هو الذي عالج موضوعات الجبر مستقلة عن نظرية الاعداد وموضوعات الحساب أيضاً. هو الذي ادخل الصفر إلى الاعداد لتكون الاعداد الطبيعية.

2 – 3 - علم الفلك

زيج السند هند هو عمل يتألف من حوالي 37 فصل حول حسابات الفلكية وحسابات التقويم و 116 جدول متعلق بالتقويم، والبيانات الفلكية والتنجيمية، وكذلك جدول لقيم جيب الزاوية. وهذا هو أول زيج من

العديد من الزيجات العربية التي تستند على الأساليب الفلكية الهندية المعروفة باسم السند هند. أحتوى العمل على جداول لحركات الشمس، والقمر وخمسة كواكب معروفة في ذلك الوقت. ومثل هذا العمل نقطة تحول في علم الفلك الإسلامي. حتى الآن، أعتمد علماء الفلك المسلمين على منهج بحث أولي، وهو ترجمة أعمال الآخرين، وتعلم المعرفة المكتشفة بالفعل. ومثل عمل الخوارزمي بداية طريقة غير تقليدية في الدراسة والحسابات.

قام الخوارزمي بعدة تحسينات هامة لنظرية وبناء المزولات، التي ورثها من الحضارة الهندية والإغريقية. وعمل جداول لهذه الآلات التي اختصرت الوقت اللازم لإجراء حسابات معينة. كانت مزولته عالمية، وكان يمكن ملاحظتها من أي مكان على الأرض. ومنذ ذلك الحين، وضعت المزولات في كثير من الأحيان في المساجد لتحديد وقت الصلاة . مربع الظل، هي أداة اخترعها أيضا الخوارزمي في القرن التاسع في بغداد وأستخدمت لتحديد الارتفاع الخطي لجسم ، بالاشتراك مع العضادة لملاحظات الزاوي.

أخترع الخوارزمي أيضا أول أداة ربعية وأداة قياس الأرتفاع في بغداد في القرن التاسع الميلادي ، كما اخترع أيضا أداة الربع المجيب الذي كانت تستخدم للحسابات الفلكية. وأخترع أيضا أول الربع الحراري لتحديد دائرة عرض، في بغداد، ثم مركز تطوير الربعيات. وكان يستخدم لتحديد الوقت (وخاصة أوقات الصلاة) من خلال مراقبة الشمس أو النجوم . كانت أداة *الربعية* أداة عالمية، وهي أداة رياضية مبتكرة اخترعها الخوارزمي في القرن التاسع وعرفت فيما بعد باسم *(الربعية القديمة)* في أوروبا في القرن الثالث عشر. ويمكن استخدامها في أي دائرة عرض على الأرض وفي أي وقت من السنة لتحديد الوقت من الارتفاع من الشمس. وكان هذا ثاني أكثر أداة الفلكية تستخدم على نطاق واسع خلال القرون الوسطى بعد الأسطرلاب. وأحد استخداماتها الرئيسية في العالم الإسلامي هو تحديد أوقات الصلاة.

2 – 4 – الجغرافيا

ثالث عمل رئيسي للخوارزمي هو كتاب صورة الأرض "وكتاب عن ظهور الأرض" / . وهو نسخة منقحة وكاملة من كتاب الجغرافيا لطليموس، الذي يتألف من قائمة من 2402 إحداث لمدن وغيرها من المعالم الجغرافية التالية للمقدمة العامة.

ليس هناك سوى نسخة واحدة موجودة من كتاب صورة الأرض ، محفوظة في مكتبة جامعة ستراسبورغ. والترجمة اللاتينية محفوظة في المكتبة الوطنية لإسبانيا في مدريد. العنوان الكامل *للكتاب* هو *كتاب مظهر الأرض، ومدنها، والجبال والبحار، وجميع الجزر والأنهار، كتبه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي، وفقا لمقالة جغرافية كتبها الجغرافي بطليموس.*

يفتح الكتاب مع قائمة بخطوط العرض ودوائر الطول، وذلك من أجل " مناطق الطقس"، أي في مناطق خطوط العرض، في كل منطقة جوية، بترتيب خطوط الطول. هذا النظام الممتاز يتيح أن نستنتج الكثير من خطوط العرض وخطوط الطول .

2 – 5 - مؤلفات أخرى

العديد من المخطوطات العربية في برلين وإسطنبول وطشقند والقاهرة وباريس تحتوى على مواضيع أكيدة أو محتمله للخوارزمي. تتضمن مخطوطة إسطنبول ورقة عن الساعات الشمسية، التي ورد ذكرها في *كتاب الفهرس.* أوراق أخرى، مثل واحدة عن تحديد اتجاه مكة المكرمة، عن علم الفلك الكروي.

تناول نصين اهتماما بحساب مسافة عرض الصباح وهم *(معرفة ساعة المشرق في كل بلد)*، و*(معرفة السمت من قبل الارتفاع)*.، كما ألف أيضا كتابين عن بناء واستخدام الأسطرلاب. ذكرهم ابن النديم في كتابه (فهرس الكتب العربية) وهم (كتاب المزولات) و(كتاب التاريخ)، ولكن الكتابين فقدوا.

كما أدخل استخدام النظام العددي الذي نستخدمه حاليا، والتي حل محل النظام الروماني القديم. ومن مؤلفاته أيضا ***مفاتيح العلوم*** .

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

أبو الريحان البيروني (بطليموس المسلمين)

1 - تقديم

أبو الريحان محمد بن أحمد البَيْرُوني (5 سبتمبر 973 - 13 ديسمبر 1048) عالم تركماني مسلم . كان رحّالةً وفيلسوفًا وفلكيًا وجغرافيًا وجيولوجيًا ورياضياتيًا وصيدليًا ومؤرخًا ومترجمًا لثقافات الهند. وصف بأنه من بين أعظم العقول التي عرفتها الثقافة الإسلامية ، وهو أول من قال إن الأرض تدور حول محورها ، صنف كتباً تربو عن المائة والعشرين. وكان أشعري المذهب

تأثر بـ : محمد بن عبد الله ، أرسطو، بطليموس ، براهما غوبتا ، أبو بكر الرازي ، أبو سعيد السجزي ، منصور بن عراق، ابن سينا

كما تأثر به كل من : عمر الخيام ، الخازني ، زكريا القزويني

2 – مسيرته

ولد في ضاحية **كاث** عاصمة خوارزم في أوزبكستان في شهر سبتمبر حوالي سنة (362 هـ،973 م رحل إلى جرجان في سن الـ 25 حوالي 388 هـ 999 م حيث التحق ببلاط السلطان أبو الحسن قابوس وشمجير شمس المعالي ونشر هناك أولى كتبه وهو : (الآثار الباقية ، عن القرون الخالية) وحين عاد إلى موطنه التحق بحاشية الأمير **ابي العباس مأمون بن مأمون خوارزمشاه** الذي عهد إليه ببعض المهام السياسية نظرا لطلاقة لسانه وعند سقوط الإمارة بيد محمود بن سبكتكين حاكم عزنة عام 407 هـ الحقه مع طائفة من العلماء إلى بلاطه ونشر ثاني مؤلفاته الكبرى (تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولةٍ في العقل أو مرذولة) كما كتب مؤلفين آخرين كبيرين هما (القانون المسعودي) ، (التفهيم لأوائل صناعة التنجيم) توفي سنة 440 هـ، 1048م) وأطلق عليه المستشرقون تسمية **بطليموس العرب**.

والبيروني بلغة خوارزم تعني الغريب أو الآتي من خارج البلدة ،

رافق السلطان محمود الغزنوي في أكثر غزواته لشمال غرب الهند ومع ابنه السلطان مسعود من بعده ، حيث تعلم اللغة السنسكريتية إلى جانب إتقانه الفارسية والعبرية والسريانية إضافة للعربية.

3 - علوم البَيْرُوني

كان عالم رياضيات وفيزياء وكان له أيضا اهتمامات في مجال الصيدلة والكتابة الموسوعية والفلك والتاريخ. سميت فوهة بركانية على سطح القمر باسمه إلى جانب 300 اسم لامعا تم اختياره لتسمية الفوهات البركانية على القمر ومنهم الخوارزمي وأرسطو وابن سينا . ولد في خوارزم التابعة حاليا لأوزبكستان والتي كانت في عهده تابعة لسلالة السامانيين في بلاد فارس درس الرياضيات على يد العالم منصور بن عراق (970 - 1036) وعاصر ابن سينا (980 - 1037) وابن مسكويه (932 - 1030)

أكّد البيروني قبل كوبرنيكوس (الذي ينسب إليه بأنه أول من قال عن حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس (بخمسمائة عام ، ويقول بشكل واضح وصريح: ليست الشمس هي سبب تفاوت الليل والنهار بل إنّ الأرض ذاتها هي التي تدور حول نفسها وتدور مع الكواكب والنجوم حول الشمس .

كتب البيروني العديد من المؤلفات في مسائل علمية وتاريخية وفلكية وله مساهمات في حساب المثلثات والدائرة وخطوط الطول والعرض، ودوران الأرض والفرق بين سرعة الضوء وسرعة الصوت ،هذا بالإضافة إلى ما كتبه في تاريخ الهند . اشتهر أيضا بكتاباته عن الصيدلة والأدوية كتب في أواخر حياته كتاباً أسماه " الصيدلة في الطب " وكان الكتاب عن ماهيات الأدوية ومعرفة أسمائها.

يقول المستشرق ساخو : بأن البيروني امتلك أعظم عقلية عرفها التاريخ، وهذا العبقري الفذ من ألمع وأبرز مفكري الحضارة العربية الإسلامية، كتب في الرياضيات والفلك والجغرافيا والفيزياء والفلسفة والطب والشريعة والأدب واللغة، فترك ما يقارب مائة مؤلف .

ربما كان البيروني أول من أشار إلى وجود الجاذبية حين قال :

« إن الأجسام تسقط على الأرض بسبب قوى الجذب المتمركزة فيها »

وهذا التعبير فتح الآفاق لنيوتن ليعطيه معنى أكثر شمولية بقوله:

« كل جسم في الكون يؤثر بقوة جذب على جسم آخر ومقدار هذه القوة يتناسب طردياً مع حاصل ضرب الكتلتين وعكسياً مع مربع المسافة بينهما »

وهو أول من وضع معادلة رياضية لاستخراج مقدار محيط الأرض وعُرفت **بقاعدة البيروني.**

3 – 1 - في الأدب

رغم اهتمامه بالعلوم التطبيقية ، إلا أنه أسهم في الأدب أيضًا ؛ فكتب *شرح ديوان أبي تمام*، و*مختار الأشعار والآثار*. كما كان صاحب مؤلَّفات عديدة في الفلسفة، مثل: *كتاب المقالات والآراء والديانات*، و*مفتاح علم الهند*، و*جوامع الموجود في خواطر الهنود*، وغيرها.

4 - أهم كتبه

* تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة.

هو أهم وأوسع كتاب وصلنا في وصف عقائد الهندوكيين، وشرائعهم وعاداتهم في أنكحتهم وأطعمتهم وأعيادهم، ونظم حياتهم، وخصائص لغتهم.

* الإستيعاب في تسطيح الكرة
* التعليل بإجالة الوهم في معاني النظم
* التفهيم لأوائل صناعة التنجيم
* تجريد الشعاعات والأنوار
* الجماهر في معرفة الجواهر

قام البيروني في هذا الكتاب بوصغ الجواهر والفلزات وهو من أوائل من وضع الوزن النوعي لبعض الفلزات والأحجار الكريمة وذكر أن الكثير من الجواهر الثمينة متشابهات في اللون وقد وصف الأحجار الكريمة مثل الياقوت واللؤلؤ والزمرد والألماس والفيروز والعقيق والمرجان والجست وهو الكوارتز وغيرها من الأحجار الكريمة وذكر أيضا الفلزات مثل الزئبق والذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص.

* التنبيه في صناعة التمويه
* الآثار الباقية عن القرون الخالية
* في النجوم والتاريخ مجلد وهو كتاب مفيد ألفه لشمس المعالي قابوس وبين فيه التواريخ التي تستعملها الأمم والاختلاف في الأصول التي هي مباديها
* الإرشاد في أحكام النجوم
* الاستشهاد باختلاف الأرصاد

وقال أن أهل الرصد عجزوا عن ضبط أجزاء الدائرة العظمى بأجزاء الدائرة الصغرى فوضع ها التأليف لإثبات هذا المدعي.

* الشموس الشافية
* العجائب الطبيعية والغرائب الصناعية
* القانون المسعودي

في الهيئة والنجوم ألفه لمسعود بن محمود بن سبكتكين (محمود الغزنوي) في سنة إحدى وعشرين وأربعمائة حذا فيه بطلميوس في المجسطى وهو من الكتب المبسوطة في هذا الفن.

* كتاب الأحجار
* مختار الأشعار والآثار
* استخراج الأوتار في الدائرة بخواص الخط المنحني فيها

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الإمام السَّرَخْسِي (شمس الأئمة)

1 - اسمه ونسبه

أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل السَّرَخْسِي نسبة إلى سَرَخْس بفتح السين والراء بلد عظيم بخرسان , وهي مدينة قديمة بين مَرْو ونيسابور،

وسَرَخْس اسم رجل من الذعار في زمن كيكاوس سكن هذا الموضع وعمّره وأتمّ بناءه ذو القرنين ، فتحها **عبد الله بن حازم السلمي** الأمير من جهة **عبد الله بن عامر بن كربز** زمن **عثمان بن عفان** رضي الله عنه.

2 - مولده ونشأته :

ولد في سرخس ، وانتقل إلى **أوزكند** وهي بلدة في ما وراء النهر من نواحي فرغانة وانتقل إلى بلاط خاقانها لكنه ما لبث أن ألقي به في السجن سنة 466 هـ لأنه أفتى بأن زواج الخاقان بعتيقته قبل أن تمضي عدّتها حرام فقضى في السجن 15 عاماً .

3 - شيوخـه :

تفقه علي شمس الأئمة أبي محمد عبد العزيز بن أحمد الحلواني ولقب يلقبه وكان إماما فاضلا فقيها أصوليا مناظرا يتوقّد ذكاء لزم شمس الأئمة وتخرج به حتى صار في النظر فرد زمانه وواحد أقرانه وأخذ في التصنيف والتعليق وناظر وشاع ذكره ، .

4 - تلاميذه :

من تلامذته أبو بكر محمد بن إبراهيم الحصيري المتوفى سنة 500هـ ، وأبو عمرو عثمان بن على بن محمد بن علي البيكندي ، ولد ببخارى في شوال سنة 465هـ ، وتوفي في شوال سنة 552هـ ، وأبو حفص عمر بن حبيب .

5 - مكانته العلمية :

حكي عنه أنه كان جالساً في حلقة الاشتغال فقيل له حكي عن الشافعي – رحمه الله – أنه كان يحفظ ثلاثمائة كرّاس فقال حفظ الشافعي ذكّاة ما أحفظ . فحسب ما حفظه فكان اثني عشر ألف كرّاس وله عدة مصنفات كلها معتمد عليها .

6 - محنته :

ألقي به في السجن سنة 466هـ ، لأنه أفتى بأن زواج الخاقان بعتيقته قبل أن تمضي عدّتها حرام فقضى في السجن 15 عاماً وفي السجن أملى المبسوط في خمسة عشر مجلدا وأملى شرح السير الكبير للشيباني في مجلّدين فلما بلغ كتاب الشروط أطلق سراحه فذهب إلى مرغينان في ربيع الأوّل سنة 480هـ وأتم شرح السير الكبير في جمادى الأولى من السنة نفسها .

قال في المبسوط عند فراغه من شرح العبادات هذا آخر شرح العبادات بأوضح المعاني ، وأوجز العبارات ، إملاء المحبوس عن الجمعة والجماعات،

وقال في آخر كتاب الطلاق ، هذا آخر كتاب الطلاق المؤثر من المعاني الدقاق، أملاه المحبوس عن الانطلاق المبتلى بوحشة الفراق، مصليا على صاحب البراق ، صلى الله عليه وآله وصحبه أهل الخير، والساق، صلاة تتضاعف وتدوم إلى يوم التلاق، كتبه العبد الربي علي السقاق ،

وقال في آخر كتاب العتاق انتهى شرح العتاق من مسائل الخلاف والوفاق،أملأه المستقبل للمحن بالاعتناق المحصور في طرق من الآفاق حامدا للمهيمن الرزاق ، ومصليا على حبيب الخلاق ، ومرتجى إلى لقائه بالأشواق وعلى آله وصحبه خير الصحب والرفاق

وقال في آخر شرح الإقرار، انتهى شرح كتاب الإقرار المشتمل من المعاني ما هو سر الأسرار، و إملأ المحبوس في موضع الأشرار مصليا على النبي المختار.

7 - مصنفاته

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

- المبسوط في الفقه في نحو خمسة عشر مجلدا ،إملاء من خاطرته من غير مطالعة كتاب ولا مراجعة تعليق
- كتاب في أصول الفقه جزآن ضخمان ، (مطبوع)
- شرح السير الكبير في جزأين ضخمين ، أملاهما وهو مسجون في الجب فلما وصل إلى باب الشروط حصل الفرج ، فأطلق فخرج في آخر عمره فأكمل إملاءه بعد خروجه ، (مطبوع)
- شرح مختصر الطحاوية
- شرح الجامع الصغير للأمام محمد
- شرح الجامع الكبير للأمام محمد
- شرح الزيادات له.
- شرح زيادات الزيادات له أيضاً
- شرح كتاب النفقات للخصَّاف
- شرح أدب القاضي للخصَّاف
- أشراط الساعة
- الفوائد الفقهية
- كتاب الحيض

8 - وفاته

توفي رحمه الله سنة 490 هـ ، كما وقيل سنة 483 هـ ، و الله أعلم

الإمام محمد بن جرير أبو جعفر الطبري

1 - تقديم :

محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، (224 هـ - 310 هـ - 839 – 923 م) ، إمام من أئمة المسلمين من أهل السنة والجماعة. مؤرخ ومُفسر وفقيه مسلم صاحب أكبر كتابين في التفسير والتاريخ . وكان مجتهداً في أحكام الدين لا يقلد أحداً، بل قلده بعض الناس وعملوا بأقواله وآرائه. يعتبر من أكثر علماء الإسلام تأليفًا وتصنيفًا.

1 - 1 - مولده ونشأته

وُلِد الطبري في طبَرِستان في مدينة آمل ، عام 224 هـ، نشأ الطبري بآمل، وتربى في أحضان والده وغمره برعايته، وتفرس فيه النباهة والذكاء والرغبة في العلم فتولى العناية به ووجَّهه منذ الطفولة إلى حفظ القرآن الكريم ، كما هي عادة المسلمين في مناهج التربية الإسلامية ، وخاصةً أن والده رأى رؤيا تفاءل بها خيرًا عند تأويلها. فقد رأى أبوه رؤيا في منامه أن ابنه واقف بين يدي الرسول ومعه مخلاة مملوءة بالأحجار، وهو يرمي بين يدي رسول الله ، وقصَّ الأب على مُعَبِّرٍ رؤياه فقال له : " إن ابنك إن كبر نصح في دينه ، وذبَّ عن شريعة ربه " . ويظهر أن الوالد أخبر ولده بهذه الرؤيا وقصها عليه عدة مرات؛ فكانت حافزًا له على طلب العلم والجد والاجتهاد فيه والاستزادة من معينه، والانكباب على تحصيله ثم العمل به، والتأليف فيه ؛ ليدافع عن الحق والدين . وظهرت على الطبري في طفولته سمات النبوغ الفكري ، وبدت عليه مخايل التفتح الحاد والذكاء الخارق والعقل المتقد، والملكات الممتازة، وأدرك والده ذلك فعمل على تنميتها وحرص على الإفادة والاستفادة منها؛ فوجَّهه إلى العلماء ومعاهد الدراسة، وساعده على استغلال كل هذه الطاقات دون أن يشغله بشيء من شئون الحياة ومطالبها، وخصص له المال للإنفاق على العلم

والتعلم، وسرعان ما حقق الطبري أحلام والده، وزاد له في آماله وطموحه.وقد حرص والده على إعانته على طلب العلم منذ صباه، ودفعه إلى تحصيله، فما كاد الصبي الصغير يبلغ السن التي تؤهله للتعليم، حتى قدمه والده إلى علماء آمل، وشاهدته دروب المدينة ذاهبًا آيبًا يتأبط دواته وقرطاسه. وسرعان ما تفتح عقله ، وبدت عليه مخايل النبوغ والاجتهاد، حتى قال عن نفسه: "حفظت القرآن ولي سبع سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثماني سنين، وكتبت الحديث وأنا في التاسعة".

1 - 2 - النبوغ والذكاء

كان الطبري موهوب الغرائز، وقد كان ذو ذكاء خارق، وعقل متقد، وذهن حاد، وحافظة نادرة، وهذا ما لاحظه فيه والده، فحرص على توجيهه إلى طلب العلم وهو صبي صغير، وخصص له موارد أرضه لينفقها على دراسته وسفره وتفرغه للعلم . ومما يدل على هذا الذكاء أنه رحمه الله حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، وصلى بالناس وهو ابن ثماني سنين، وكتب الحديث وهو ابن تسع سنين.

1 - 3 - حفظ الطبري

كان الطبري يتمتع بحافظة نادرة، ويجمع عدة علوم، ويحفظ موضوعاتها وأدلتها وشواهدها، وإن كُتُبه التي وصلتنا لأكبر دليل على ذلك، حتى قال عنه أبو الحسن سري بن المغلس : " والله إني لأظن أبا جعفر الطبري قد نسي مما حفظ إلى أن مات ما حفظه فلان طول عمره.

1 - 4 - ورع الطبري وزهده

كان الطبري على جانبٍ كبير من الورع والزهد والحذر من الحرام ، والبُعد عن مواطن الشُّبَه ، واجتناب محارم الله تعالى، والخوف منه، والاقتصار في المعيشة على ما يَرِدُهُ من ريع أرضه وبستانه الذي خلَّفه له والده.

قال ابن كثير : " وكان من العبادة والزهادة والورع والقيام في الحق لا تأخذه في ذلك لومة لائم،... وكان من كبار الصالحين". وكان الطبري زاهدًا في الدنيا، غير مكترث بمتاعها ومفاتنها، وكان يكتفي بقليل القليل أثناء طلبه للعلم، وبما يقوم به أوده، ويمتنع عن قبول عطايا الملوك والحكام والأمراء .

1 - 5 - عفة الطبري وإباؤه

كان الطبري عفيف اللسان، يحفظه عن كل إيذاء، وكان متوقفًا عن الأخلاق التي لا تليق بأهل العلم ولا يؤثرها إلى أن مات، ولما كان يناظر مرة داود بن علي الظاهري في مسألة ، فوقف الكلام على داود ، فشق ذلك على أصحابه ، فقام رجل منهم ، وتكلم بكلمة مَضَّة وموجعة لأبي جعفر، فأعرض عنه، ولم يرد عليه، وترفَّع عن جوابه، وقام من المجلس، وصنَّف كتابًا في هذه المسألة والمناظرة.

1 - 6 - تواضع الطبري وعفوه

كان الطبري شديد التواضع لأصحابه وزواره وطلابه، دون أن يتكبر بمكانته، أو يتعالى بعلمه، أو يتعاظم على غيره، فكان يُدعى إلى الدعوة فيمضي إليها، ويُسأل في الوليمة فيجيب إليها . وكان لا يحمل الحقد والضغينة لأحد، وله نفس راضية، يتجاوز عمن أخطأ في حقه، ويعفو عمن أساء إليه .

ومع كل هذا التواضع، وسماحة النفس، والعفو والصفح، كان الطبري لا يسكت على باطل، ولا يمالئ في حق، ولا يساوم في عقيدة أو مبدأ؛ فكان يقول الحق، ولا تأخذه في الله لومة لائم، ثابت الجنان، شجاع القلب، جريئًا في إعلان الصواب مهما لحق به من أذى الجهال، ومضايقة الحساد، وتخرصات الحاقدين.

1 - 7 – محنته

تعرض الطبري لمحنة شديدة في أواخر حياته بسبب التعصب المذهبي، فلقد وقعت ضغائن ومشاحنات بين ابن جرير الطبري ورأس الحنابلة في بغداد **أبي بكر بن داود** أفضت إلى اضطهاد الحنابلة لابن جرير، وكان المذهب الحنبلي في هذه الفترة هو المسيطر على العراق عامةً وبغدادَ خاصةً ، وتعصب العوامّ على ابن جرير ورموه بالتشيّع وغالوا في ذلك . حتى منعوا الناس من الاجتماع به ، وظل ابن جرير محاصرًا في بيته حتى تُوفّي.

1 - 8 - المجدد الثالث للأمة

يرى البعض أن ابن جرير الطبري هو المجدد الثالث للأمة مصداقاً لقول رسول الله ((إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)).

1 - 9 – تلامذته

كان الطبري أحد أبرز العلّامات في عصره، وقد حضر مجالسه العديد من أبرز علماء عصره وتتلمذوا على يده، ومن هؤلاء أحمد بن كامل القاضي، ومحمد بن عبد الله الشافعي، ومخلد بن جعفر، وأحمد بن عبد الله بن الحسين الجُبْني الكبائي، وأحمد بن موسى بن العباس التميمي، وعبد الله بن أحمد الفرغاني، وعبد الواحد بن عمر بن محمد أبو طاهر البغدادي البزاز، ومحمد بن أحمد بن عمر أبو بكر الضرير الرملي، ومحمد بن محمد بن فيروز، وخلق كثير غيرهم.

2 - بعض مؤلفاته

- تفسير الطبري (المسمى بجامع البيان عن تأويل آي القرآن) .
- تاريخ الطبري (تأريخ الأمم والملوك).
- كتاب آداب النفس الجيدة والأخلاق النفيسة.
- اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الإسلام.
- صريح السنة (يوضح فيه مذهبه وعقيدته .
- الفصل بين القراءات.
- آداب القضاة.
- آداب النفوس.
- آداب المناسك.
- تهذيب الآثار
- فضائل أبي بكر وعمر ما.
- ذيل المذيل.

3 - من شعره

إذا أعسرت لم يعلم رفيـقي وأستغني فيستغني صديــقي
حيائي حافظ لي ماء وجهــي ورفقي في مطالبتي رفيــقي
ولو أني سمحت ببذل وجهــي لكنت إلى الغنى سهل الطريق

4 - ثناء العلماء عليه

قال عنه الإمام النووي : أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل الطبري.

قال عنه ياقوت الحموي : " أبو جعفر الطبري المحدِّث ، الفقيه ، المقرئ ، المؤرِّخ ، المعروف ، المشهور.

قال عنه الخطيب البغدادي : "كان أحد أئمة العلماء، يُحكم بقوله، ويُرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظًا لكتاب الله، عارفًا بالقراءات كلها، بصيرًا بالمعاني، فقيهًا في أحكام القرآن، عالمًا بالسنن وطرقها: صحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم قل أن ترى العيون مثله...، عارفًا بأيام الناس وأخبارهم.

قال عنه أحمد ابن خلكان : العلم المجتهد عالم العصر صاحب التصانيف البديعة كان ثقة صادقا حافظا رأسا في التفسير إماما في الفقه والإجماع والاختلاف علامة في التاريخ وأيام الناس عارفا بالقراءات وباللغة وغير ذلك.

قال ابن الأثير : أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ وفي تفسيره ما يدل على علم غزير وتحقيق وكان مجتهدًا في أحكام الدين لا يقلد أحدًا بل قلده بعض الناس وعملوا بأقواله وآرائه وكان أسمر، أعين، نحيف الجسم، فصيحًا.

قال الذهبي : " الإمام الجليل ، المفسر أبو جعفر، صاحب التصانيف الباهرة... من كبار أئمة الإسلام المعتمدين. كان ثقة حافظًا صادقًا، رأسًا في التفسير، إمامًا في الفقه والإجماع والاختلاف، عَلاَّمةً في التاريخ وأيام الناس، عارفًا بالقراءات واللغة، وغير ذلك. وفي موضع اخر قال: الطبري له كتاب التفسير، لم يصنف أحد مثله".

قال عنه القفطي : "" العالم الكامل، الفقيه، المقرئ، النحوي، اللغوي، الحافظ، الإخباري، جامع العلوم، لم يُرَ في فنونه مثله، وصنف التصانيف الكبار،[27] منها تفسير القرآن الذي لم يُرَ أكبر منه، ولا أكثر فوائد".

قال ابن خزيمة : "ما أعلم على الأرض أعلم من محمد بن جرير".

قال عنه ابن تغري بردي : "وهو أحد أئمة العلم، يُحكم بقوله، ويُرجع إلى رأيه، وكان متفننًا في علوم كثيرة، وكان واحد عصره".

قال ابن تيمية : وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري, فإنه يذكر مقالات السلف, بالأسانيد الثابتة, وليس فيه بدعة, ولا ينقل عن المتهمين.

قال السيوطي : " الإمام أبو جعفر، رأس المفسرين على الإطلاق، أحد الائمة، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظاً لكتاب الله ، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن ، عالماً بالسنن وطرقها، صحيحها وسقيمها، ناسخها ومنسوخها، عالماً بأحوال الصحابة والتابعين، بصيراً بأيام الناس وأخبارهم . وفي كتاب اخر قال : الطبري وكتابه أجلُّ التفاسير وأعظمها... فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط، فهو يفوقها بذلك".

5 – وفاته

توفي الطبري وقت المغرب عشية يوم الأحد 26 من شهر شوال سنة 310 هـ، الموافقة لسنة 923 م كما نصّت المصادر التاريخيّة, وعاش الطبري راهبًا في محراب العلم والعمل حتى جاءته الوفاة.

قال الخطيب البغدادي وابن عساكر: " اجتمع في جنازتة من لا يحصيهم عددًا إلا الله، وصُلِّي على قبره عدة شهور ليلاً ونهارًا ، ودُفِن في أضحى النهار من يوم الاثنين غد ذلك اليوم في داره الكائنة برحبة يعقوب ببغداد . ورثاه خلق كثير من أهل الدين والأدب ".

وعندما سمع أبو بكر بن دريد بوفاته رثاه بقصيدة أولها :

لن تستطيع لأمر الله تعقيبا فاستنجد الصبر أو فاتبع الخوبا

وكذلك عندما سمع أبو سعيد ابن الأعرابي بوفاته رثاه بأبيات منها:

قام ناعي العلوم اجمع لما قام ناعي محمد بن جرير

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

أبو منصور الماتريدي

1 - تقديم

هو أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي ، والماتريدي نسبة إلى **ماتريد** ، وهي محلة بسمرقند فيما وراء النهر. ولم تذكر المراجع سنة ميلاده بالتحديد ولكن يمكن القول إنه ولد في عهد المتوكل الخليفة العباسي .

والإمام الماتريدي من علماء أهل السنة والجماعة ، وهو إمام المدرسة الماتردية التي يتبعها غالبية أتباع المذهب الحنفي في العقيدة.

وكان الإمام الماتريدي والإمام أبو الحسن الأشعري الإمامين الجليلين الذين حررا عقيدة الاشاعرة والماتريدية بالأدلة النقلية والعقلية ، وقد لقب الماتريدي بـ" إمام الهدى " و" إمام المتكلمين " وغيره من الألقاب وهي ألقاب تظهر مكانته في نفوس مسلمي عصره ومؤرخيه. ورغم ذيوع اسمه واشتهاره واشتهار فرقة الماتريدية المنسوبة إليه فقد كان المؤرخون الذين كتبوا عنه قلة.

ولد في بيت من البيوت التي شغفت بالعلوم الدينية، فنشأ وتعلم علوم الدين منذ صغره، ولم يتقاعس لحظة في الدعوة إلى مذهب أهل السنة والدفاع عنه والتمسك به، ولم يفتر عزمه عن الاشتغال بعلم الكلام والتأليف فيه ونصب الأدلة والحجج والبراهين.

2 - مشايخه

إن المراجع لم تذكر إلا القليل من مشايخه الذين تلقى علومه عنهم إلا أنهم جميعًا يصل سندهم في العلم إلى الإمام الجليل أبي حنيفة النعمان، وقد ذكر صاحب " الجواهر المضيئة " أن الماتريدي تخرج بأبي نصر أحمد بن العباسي بن الحسين العياضي، وتفقه على أبي بكر أحمد الجوزجاني ونصير بن يحيى البلخي، ومحمد بن مقاتل الرازي.

أما أبو نصر العياضي وأبو بكر الجوزجاني فقد تفقها على الإمام أبي سليمان موسى بن سليمان الجوزجاني، وهذا الأخير تفقه على صاحبي أبي حنيفة: أبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن الشيباني الذين تفقها على أبي حنيفة. وأما نصير البلخي ومحمد بن مقاتل الرازي فقد تفقّها على الإمامين أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي، وأبي مقاتل حفص بن سلم السمرقندي الذين تفقها على الإمام أبي حنيفة كذلك.

3 - علومه

وأما علومه فقد دارت حول تأويل القرءان الكريم وأصول الفقه وعلم الكلام وما يتعلق به، وقد درس العلوم العقلية، كما درس العلوم النقلية درسًا متقنًا عميقًا، ووقف على دقائقها حتى صار إمامًا مبرزًا في الفقه والتأويل وعلم الكلام.

وبعد أن نال القسط الوفير من الثقافة والعلم انصرف إلى التدريس والتثقيف، فصنّف وألّف وكرّس حياته لحماية الإسلام ونصرة عقيدة أهل السنة والجماعة حتى وصفه العلماء بأنه كان إمامًا جليلاً، مناضلاً عن الدين، موطدًا لعقائد أهل السنة، قطع المعتزلة وذوي البدع في مناظراتهم، وخصمهم في محاوراتهم إلى أن أسكتهم.

4 - مؤلفاته

كان للإمام أبي منصور الماتريدي العديد من المؤلفات، منها ما كان في علم الكلام والعقيدة، ومنها ما كان في أصول الفقه، ومنها ما كان في تأويل القرأن.

أما في **علم الكلام** فله عدة مصنفات منها كتاب "التوحيد"، وكتاب "المقالات"، وكتاب "الرد على القرامطة"، و"بيان وهم المعتزلة"، و"رد الأصول الخمسة لأبي محمد الباهلي" و"أوائل الأدلة للكعبي" و"رد كتاب وعيد الفساق للكعبي" و"رد تهذيب الجدل للكعبي" وغيرها.

وأما في **علم أصول الفقه** فقد ذكرت كتب الطبقات وكتاب "كشف الظنون" كتابين في أصول الفقه هما: "الجدل"، وكتاب "مأخذ الشرائع في أصول الفقه" وجاء في "بدائع الصنائع" في أثناء استنباط أوقات الصلوات الخمس من قوله تعالى :

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

{ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشيًا وحين تُظهرون } [سورة الروم / أية 17 - 18]

وأما مؤلفات الإمام الماتريدي في **تأويل القرآن** فمنها كتاب " **تأويلات الماتريدي في التفسير**" ، وتوجد نسخ من هذا الكتاب في تركيا والهند وألمانيا والمدينة المنورة ودمشق والمتحف البريطاني وطشقند.

وقد وصف الإمام عبد القادر القرشي المتوفى سنة سبعمائة وخمس وسبعين للهجرة هذا الكتاب بقوله: "هو كتاب لا يوازيه فيه كتاب بل لا يدانيه شيء من تصانيف من سبقه في ذلك الفن".

وجاء في نسخة مكتبة " خدابخش " في الصحيفة الأولى : إن كتاب التأويلات المنسوب إلى الشيخ الإمام أبي منصور الماتريدي كتابٌ جليل القدر، عظيم الفائدة في بيان مذهب أهل السنة والجماعة في أصول التوحيد، ومذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله في أصول الفقه وفروعه على موافقة القرءان" ا.هـ.

ومن تصانيف الإمام أبي منصور الماتريدي كتاب " **شرح الفقه الأكبر**" وهو كتاب يُعرف محتواه من عنوانه ، فقد تناول كتاب " الفقه الأكبر" لأبي حنيفة بالشرح والإيضاح والتفسير.

5 - وفاته

ذكر صاحب كتاب "كشف الظنون" أن الإمام الماتريدي توفي سنة ثلاثمائة وثلاث وثلاثين للهجرة . وذكر عبد الله القرشي في " الفوائد البهية " بأنه توفي كذلك في سنة ثلاثمائة وثلاث وثلاثين للهجرة، وأن قبره بسمرقند.

الفيلسوف والمعلّم الثّاني أبو نصر محمد الفارابي

1 - تقديم

أبو نصر محمد الفارابي (ولد عام 260 هـ/874 م وتوفي عام 339 هـ / 950 م) فيلسوف أتقن العلوم الحكمية ، وبرع في العلوم الرياضية ، زكي النفس ، قوي الذكاء، متجنباً عن الدنيا، مقتنعاً منها بما يقوم بأوده ، يسير سيرة الفلاسفة المتقدمين ، وكانت له قوة في صناعة الطب وعلم بالأمور الكلية منها، ولم يباشر أعمالها، ولا حاول جزئياتها.

اسمه الكامل هو أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان ، **تركي** من مدينة **فاراب** ، وهي مدينة في بلاد ما وراء النهر من بلاد الترك في أرض خراسان مما يعرف اليوم بتركستان , وكان أبوه قائد جيش

2 - حياته وتلمذته

عكف في مسقط رأسة على دراسة طائفة من مواد العلوم والرياضيات والآداب والفلسفة واللغات وعلى الأخص التركية وهي لغته الأصلية بجانب معرفته للغات العربية والفارسية واليونانية.

ثم خرج من بلده حوالي سنة 310 هـ , وهو يومئذ يناهز الخمسين ، قاصداً العراق ، حيث أتم دراساته . فيما بدأ فيه في مسقط رأسه وأضاف إليه مواد أخرى كثيرة ، فدرس في حرّان الفلسفة والمنطق والطب على الطبيب المنطقي المسيحي يوحنا بن حيلان ، ودرس في بغداد الفلسفة والمنطق على أبي بشر متى بن يونس ، وهو مسيحي كان حينئذ من أشهر مترجمي الكتب اليونانية ومن أشهر الباحثين في المنطق ، ودرس في بغداد كذلك العلوم اللسانية العربية على ابن السراج ، وأتيح له فيها أيضاً دراسة الموسيقى وإتمام دراساته في اللغات والطب والعلوم والرياضيات ، ولا غرابة أن يتتلمذ في هذه السن المتقدمة ، فقد كان دأب العلماء في هذه العصور ، يطلبون العلم من المهد إلى اللحد.

كان الفارابي مولعاً بالأسفار في طلب العلم ونشره والإحاطة بشئون الجماعات ، فانتقل من العراق إلى الشام حوالي سنة 330 هـ حيث اتصل **بسيف الدولة بن حمدان** الذي عرف له فضله ، وأكرم وفادته ،

وعاش في كنفه منقطعاً إلى التعليم والتأليف ، وكان في أثناء إقامته بالشام يتنقل بين مدنها وخاصة بين حلب (عاصمة الحمدانيين) ودمشق التي كانت في حوزتهم تارة وتخرج أخرى ، وقد سافر مرة من الشام إلى مصر ، وكان ذلك على الراجح سنة 338 هـ ثم رجع منها إلى دمشق حيث وبقي فيها حتى وفاته سنة 339 هـ عن عمر 80 عاما

وقد آثر الفارابي حياة الزهد والتقشف فلم يتزوج ، ولم يقتن مالاً ، ولم يشأ أن يتناول من سيف الدولة إلى أربعة دراهم في اليوم - كما يذكر كثير من الرواة - ينفقها فيما احتاج إليه من ضروري العيش ، وقد اكتفى بذلك قناعة منه , ويروى أنه قد بلغ به التقشف أنه كان يسهر الليل للمطالعة والتصنيف مستضيئاً بقنديل الحارس ، لأنه لم يكن يملك قنديلا خاصاً ، وأنه قد بقي على ذلك أمداً طويلا.

وكان يؤثر العزلة والوحدة ليخلو إلى التأمل والتفكير ، وكان طول مدة إقامته بدمشق ، كما يقول ابن خلكان في « وفيات الأعيان » يقضي معظم أوقاته في البساتين وعلى شواطئ الأنهار ، فلا يكون إلا عند مشتبك رياض ، حيث يؤلف بحوثه ويقصد إليه تلاميذه ومساعدوه .

ووضع عدة مصنفات وكان أشهرها كتاب حصر فيه أنواع وأصناف العلوم ويحمل هذا الكتاب إحصاء العلوم . يعود الفضل اليه في ادخال مفهوم الفراغ إلى علم الفيزياء.

تأثر به كل من ابن سينا وابن رشد.سمي الفارابي " المعلم الثاني " نسبة للمعلم الأول أرسطو والإطلاق بسبب اهتمامه بالمنطق لأن الفارابي هو شارح مؤلفات أرسطو المنطقية.

3 - إيمانه بوحدة الحقيقة

كان يعتقد أن الحقيقة الطبيعية الفلسفية واحدة وليس هناك حقيقتان في موضوع واحد بل هناك حقيقة واحدة وهي التي كشف عنها أفلاطون وأرسطو، وبرأيه أن كل الفلسفات التي تقدم منظومة معرفية ينبغي أن تحذو حذو أفلاطون وأرسطو. ولكن بين أفلاطون وأرسطو تناقض أساسي وكان الفارابي يعتقد أن فلسفة أفلاطون هي عين فلسفة أرسطو ووضع كتاب (الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون وأرسطو) أفلاطون وأرسطو كلاهما يبحثان في الوجود من جهة علله الأولى، وكان يعتقد في كتابه أنه لا فرق

4 - نظريته في الوجود

وهنا تبدو النظرية التي تسمى **بالصدور والفيض** وهي أبرز ما يميز الفارابي فهو يميز بين نوعين من الموجودات :

* الموجود الممكن الوجود
* الموجود الواجب الوجود

هناك موجودات ممكنة الوجود كثيرة ، لكن موجود واحد واجب الوجود.

5 - أشهر كتبه

1 - آراء المدينة الفاضلة

يبحث عن خير المدن الممكنة على الأرض بالنسبة للبشر، وقضية الكاتب هي قضية السعادة التي يطلبها جميع الناس .

ويقسم الكتاب إلى قسمين :

قسم يبحث فيه الفارابي نظرية الوجود ونرى فيها التمييز بين الممكن والواجب ،

القسم الثاني خاص بالمدينة وآراء أهل الجماعة الفاضلة القسم الأول يقابله القسم الثاني والمدن المضادة للمدينة الفاضلة. يبني الفارابي المدينة على غرار الوجود بأسره، فكما للوجود مبدأ أعلى كذلك المدينة الفاضلة لها مبدأ أعلى وهو الرئيس . والفارابي يقول أن القصد في المدينة الفاضلة الإبانة عن الجماعة التي تسود فيها السعادة والمدينة الفاضلة هي التي يطلب جميع أهلها السعادة والمدن المضادة يطلب فيها أهلها أشياء مضادة .

المدينة الجاهلة : عكس المدينة الفاضلة، يطلب أهلها السعادة الآتية من النفس الغضبية والشهوانية.

المدينة الفاسقة : هي التي عرف أهلها المبادئ الصحيحة وتخيلوا السعادة على حقيقتها ولكن أفعالهم مناقضة لذلك.
المدينة المبدلة : أيضا مضادة للمدينة الفاضلة ويكون السلوك فيها فاضل ثم يتبدل.
المدينة الضآلة : ويعتقد أهلها في الله والعقل الفعال آراء فاسدة واستعمل رئيسها التمويه والمخادعة والغرور ويصّور الله والعقل الفعال تصوير خاطئ وكانت سياسته خداع وتمويه

2 ـ كتاب الموسيقى الكبير
3 ـ الجمع بين رأي الحكيمين ـــ حاول فيه التوفيق بين أفلاطون وأرسطو
4 ـ التوطئة في المنطق
5 ـ السياسة المدنية
6 ـ احصاء العلوم والتعريف بأغراضها
7 ـ جوامع السياسة
8 ـ رسالة الفصوص.

6 – مؤلفاته

بلغت مؤلفات الفارابي من الكثرة ماجعل المستشرقون يخصصون لها مجلداً ضخماً. ولكن لم يصل إلينا حالياً من هذه المؤلفات إلا أربعون رسالة ، منها اثنتان وثلاثون رسالة وصلت إلينا في أصلها العربي ، وست رسائل وصلت إلينا مترجمة إلى العبرية ، ورسالتان مترجمتين إلى الاتينية.
وقد طبع نصف مؤلفاته التي وصلت إلينا في أصلها العربي في ليدن وحيدر آباد والقاهرة وبيروت وغيرها ، ولايزال باقيها مخطوطاً.

في الفلسفة

- كتاب الجمع بين رأي الحكيمين
- كتاب الخرافة الكبير
- كتاب الواحد والوحدة
- كتاب الجوهر
- كتاب الزمان
- كتاب المكان
- كتاب الخلاء
- كتاب العقل والمعقول
- كتاب التوطئة في المنطق
- كتاب منطق الفارابي

في الموسيقى

- كتاب صناعة علم الموسيقى
- كتاب الموسيقى الكبير

في المنطق

- كتاب الأخلاق إلى نيقوماخوس
- كتاب العلم الطبيعي
- كتاب الآثار العلوية
- رسالة النفس والعالم

في السياسة والاجتماع

- كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة
- كتاب السياسات المدنية
- كتاب جوامع السياسة

في العلوم

- إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها

في التصنيف

- كتاب « المقولات » (قاطيغورياس)
- كتاب « القول الشارح » (القضايا والتعريف)
- كتاب « أنا لوطيقا الأولى والثانية » (تأليف القياس المنطقي)
- كتاب « طوبيقا » (الجدل)
- كتاب « سفسطيا » (السفسطة)
- كتاب « ريطوريقا » (الخطابة)
- كتاب « بوطيقا » (أي الشعر)

7 – وفاته

يذكر معظم المؤرخين أن الفارابي قد توفي بدمشق في شهر رجب سنة 339 هـ ، وأن الملك سيف الدولة قد صلى عليه في أربعة عشر أو خمسة عشر من خواصه ، وأنه قد دفن بظاهر دمشق خارج الباب الصغير ، ويدل كلامهم على أنه قد توفي وفاة طبيعية.

الشيخ الرئيس أبو علي الحسين ابن سينا

تقديم

ابن سينا هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا ، عالم وطبيب مسلم من بخارى ، اشتهر بالطب والفلسفة واشتغل بهما. ولد في قرية **أفشنة** بالقرب من بخارى (في أوزبكستان حالياً) من أب من مدينة بلخ (في أفغانستان حالياً) وأم قروية. ولد سنة 370 هـ (980 م) وتوفي في مدينة **همدان** (في إيران حاليا) سنة 427 هـ (1037م). عُرف باسم الشيخ الرئيس وسماه الغربيون بأمير الأطباء وأبو الطب الحديث في العصور الوسطى .

وقد ألّف 200 كتابا في مواضيع مختلفة، العديد منها يركّز على الفلسفة والطب. ويعد ابن سينا من أول من كتب عن الطبّ في العالم ولقد اتبع نهج أو أسلوب أبقراط وجالينوس. وأشهر أعماله **كتاب القانون في الطب** الذي ظل لسبعة قرون متوالية المرجع الرئيسي في علم الطب، وبقي كتابه (القانون في الطب) العمدة في تعليم هذا الفنّ حتى أواسط القرن السابع عشر في جامعات أوربا ويُعد ابن سينا أوَّل من وصف التهاب السَّحايا الأوَّليّ وصفًا صحيحًا، ووصف أسباب اليرقان ، ووصف أعراض حصى المثانة ، وانتبه إلى أثر المعالجة النفسانية في الشفاء . **وكتاب كتاب الشفاء**.

1 - مولده ونشأته

ولد في قرية **افشنا** قريبة من بخارى من أب بلخي ، وكان والده شيعياً إسماعيلياً، كما قال ابن سينا، وقد كان يحضر اجتماعاته السرية ويعقد بعضها في بيته ، ويحرص على حضور ابن سينا وأخيه لتلك الاجتماعات ، وكان ابن سينا مُهتماً بها ومُواظباً على حضورها. رحل إلى مدينة بُخارى وهناك التحق ببلاط السلطان **نوح بن منصور الساماني**، الذي اسند إليه متابعة الأعمال المالية للسلطان.

في بخارى بدأ ابن سينا رحلة تلقي العلوم , حيث حفظ القرآن بأكمله وعمره لم يتجاوز العاشرة، ثم تلقي علوم الفقه والأدب والفلسفة والطب. ويُذكر أن ابن سينا درس على يد عالم بُخاري متخصص بعلوم الفلسفة والمنطق اسمه " **أبو عبد الله الناتلي** " وهو من الفلاسفة ، فأحسن إليه والده واستضافه وطلب إليه أن يلقِن ابنه شيئا من علومه ، فما كان من هذا العالم إلا أن تفرَغ لتلميذه ، وأخذ عليه دروساً من كتاب المدخل إلى علم المنطق المعروف باسم « **إيساغوجي** ».

وكان **الناتلي** اشد ما يكون إعجاباً من تلميذه " ابن سينا " حين وجده يجيب على الأسئلة المنطقية المحورية إجابات صائبة تكاد لا تخطر على بال معلمه . واستمر ابن سينا مع معلمه إلى أن غادر هذا المعلم بلدة بخارى . بدأ نبوغ ابن سينا منذ صغره, إذ يحكي أنه قام وهو لم يتجاوز الثامنة عشر بعلاج السلطان نوح بن منصور الساماني، وكانت هذه هي الفرصة الذهبية التي سمحت لابن سيناء بالالتحاق ببلاط السلطان ووضعت مكتبته الخاصة تحت تصرف ابن سينا.

2 – حياته

في حديث لابن سينا وهو يترجم سيرته الذاتية التي رواها تلميذه أبو عبيدة الجوزجاني حيث يقول « إن أبي كان رجلاً من أهل (بلخ) وأنتقل إلى (بخارى) في أيام (نوح بن منصور) وأشتغل بالتصرف وتولى العمل في أثناء أيامه بقرية يقال لها : (**خرميثن**) من ضياع بخارى وهي من أمهات القرى، وبقربها قرية يقال لها : **أفشنة** ، وتزوج أبي منها بوالدتي، وقطن بها وسكنها وولدت له بها ، وولد أخي ثم انتقلنا إلى بخارى وأحضرت معلم القرآن ، ومعلم الأدب ، وأكملت العشر من العمر، وقد أتعبت على القرآن، وعلى كثير من الأدب ، حتى كان يقضي مني العجب...» .

كان ابن سينا متوقد الذكاء، امتاز بمواهبه الفذة، وعبقريته الأهابة في تعلم القرآن والأدب وهو ابن عشر سنين وتعلم حساب الهند، واشتغل بالفقه وتردد على إسماعيل الزاهد، حتى ألف طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على الوجه الذي جرت عادة القوم به ، ثم ابتدأ كتاب إيساغوجي على الناتلي وأحكم المنطق، و كتاب إقليدس، وانتقل إلى المجسطي، قرأها جميعاً على نفسه ، وفهمها ، وأستمر على طريقته يعلم نفسه ويثقفها، ويقول : « وصارت أبواب العلوم تتفتح علي ، ثم رغبت في علم الطب ، وصرت

اقرأ الكتب المصنفة فيه ، وعلم الطب ليس من الأمور الصعبة ، فلا جرم أني برّزت فيه في أقل مدة... وتعهدت المرضى ، فانفتح علي من أبواب المعالجات من التجربة ما لا يوصف ».

لقد كان الشيخ الرئيس متفائلاً في جميع مراحل حياته يعتقد أن العالم الذي نعيش فيه أحسن العوالم الممكنة وكان شديد الارتباط بموطنه الأصلي، فهو لم يغادر موطنة رغم اضطراب حياته فيها، وهو بذلك يخالف الفارابي (الذي كان يجول البلاد دون التقيد بأي رابطة طبيعية أو اجتماعية).

3 - طفولة ابن سينا

ولد الشيخ الرئيس عام 370 هـ في قرية أفشنة ثم انتقل مع عائلته إلى بخارى قاعدة الدولة السامانية (وهي مدينة من بلاد ماوراء النهر، فتحها قتيبة بن مسلم الباهلي، سنة 90 هـ) في أيام نوح بن منصور .مما أتاح له فرصاً أكبر من العلم والتعليم.

4 – ترحاله

كان ابن سينا محباً للترحال لطلب العلم ، رحل إلى **خوارزم** وهناك مكث عشر سنوات ثم تنقل بين البلاد ثم ارتحل إلى **همدان** وهناك مكث تسع سنوات ثم توفي هناك.

5 - فكرُه الفلسفي

يعتبر الفكر الفلسفي لأبي علي ابن سينا امتداداً لفكر لفارابي وقد أخذ عن الفارابي فلسفته الطبيعية وفلسفته الإلهية أي تصوره للموجودات وتصوره للوجود وأخذ منه على الأخص نظرية الصدور وطوّر نظرية النفس وهو أكثر ما عني به . وكان يقول بنفس المبادئ التي من قبله نادى بها الفارابي : بأن العالم قديم أزلي وغير مخلوق ،

6 - تعريفه للنفس

أهمية ابن سينا الفلسفية تكمن في نظريته في النفس وأفكاره في فلسفة النفس ، ومقدمات ابن سينا في النفس هي مقدمات أرسطية .

فالنفس عند ابن سينا ثلاث : نباتية / حيوانية / إنسانية.

مبادئ النفس النباتية : تنمو وتتوالد وتتغذى ولا يفعل النبات أكثر من ذلك.

مبادئ النفس الحيوانية : تدرك الجزئيات (مثلا يدرك أن إنسان أمامه) يتحرك بالإرادة أي فيه إرادة توجهه (مثلا الأسد بإرادته ممكن أن يقفز على إنسان ويبتلعه) .

مبادئ النفس الإنسانية : تدرك الكليات ، اختيار فكري أي الحرية الفكرية التي نتوجه لها للاختيار من بين بدائل مختلفة.

7 - قصيدته العينية في النفس

والتي يقول أول أبياتها :

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع

محجوبة عن كل مقلة عارف ... وهي التي سفرت ولم تتبرقع

وصلت على كره إليك ، وربما ... كرهت فراقك ، وهي ذات تفجع

أنفت وما أنست ، فلما واصلت ... ألفت مجاورة الخراب البلقع.

المسألة غامضة عند ابن سينا ولكن ربما قصيدته العينية هي التي تعبر أكثر من غيرها عن رأي ابن سينا في المسائل الثلاث . قصيدته مكونة من أربعة أقسام :

يشير ابن سينا في قسمها الأول من أين جاءت النفس ويقول أنها جاءت من محل أرفع أي من فوق وأتت رغما عنها وكارهة لذلك ، ثم تتصل بالبدن وهي كارهه لكنها بعد ذلك تألف وجودها بالبدن، وتألف البدن لأنها نسيت عهودها السابقة كما يقول في قصيدته ،

إذن فهو يقول هبطت النفس من مكان رفيع، كرهت وأنفت البدن، ثم ألفته واستأنسته، ثم رجعت من حيث أتت وانتهت رحلتها والآن في القسم الأخير من القصيدة يبدأ ابن سينا يتساءل لماذا؟ فيجيب أنها هبطت لحكمة إلهية ، هبطت لا تعلم شيء لتعود عالمة بكل حقيقة ولكنها لم تعش في هذا الزمن إلا فترة.

8 - مؤلفاته ومآثرة

8 – 1 - في الفلسفة

الإشارات والتنبيهات : الذي ذهب فيه مذهب أرسطو ، فهو مؤسس الاتجاه الفلسفي وذهب ابن سينا مذهب الفلاسفة من أمثال الفارابي أبي نصر الفيلسوف ، الذي له مذاهب في ذلك يخالف المسلمين والفلاسفة من سلفه الأقدمين، وأعاد تلك الفكرة ابن سينا ونصره ، وقد رد عليه الغزالي في تهافت الفلاسفة في عشرين مجلساً له

لا شك أن صحبته لفلاسفة الباطنية (أبو عبد الله النائلي الذي علمه بصغره) قد أثرت في تفكير ابن سينا ، وهيأته للدور الذي لعبه في تنشيط تيار الفلسفة

الشفاء

وهو في أربعة أقسام : المنطق ، الرياضي ، الطبيعي ، الالهي يعتبر موسوعة كبرى في العلوم الطبيعية وما بعد الطبيعة اشتهرت في القرن العاشر الميلادي . أراد ابن سينا أن يغطي به كل ما شملته علوم ما بعد الطبيعة في ذلك الوقت. ويبين ابن سينا الغرض من هذا الكتاب فيقول: " فإن غرضنا في هذا الكتاب الذي نرجو أن يمهلنا الزمان إلى ختمه، ويصحبنا التوفيق من الله في نظمه ، أن نودعه لباب ما تحققناه من الأصول في العلوم الفلسفية المنسوبة إلى الأقدمين... وتحريت أن أودعه أكثر الصناعة، وأن أشير في كل موضع إلى موقع الشبهة وأحلها لإيضاح الحقيقة بقدر الطاقة. واجتهدت في اختصار الألفاظ جدا ومجانبة التكرار أصلا إلا ما يقع خطأ أو سهوا. ولا يوجد في كتب القدماء شيء يعتد به إلا وقد ضمناه كتابنا هذا، وقد أضفت إلى ذلك ما أدركته بفكري وحصلته بنظري وخصوصا في علم الطبيعة وما بعدها"

النجاة في المنطق والالهيات

يتطرق ابن سينا في كتابه هذا إلى علم المنطق والطبيعيات ، ثم الهندسة والحساب ، وبعضا من علم الفلك ، ليختمه بالعلم الإلهي وسبل النجاة في الحياتين الدنيا والآخرة .

8 - 2 - في العلوم الآلية

تشتمل على كتب المنطق ، وما يلحق بها من كتب اللغة والشعر والعلوم والطب، ومن آثاره اللغوية.

8 - 3 - في العلوم النظرية

تشتمل على كتب العلم الكلّي ، والعلم الإلهي ، والعلم الرياضي ، والطب النفسي

8 - 4 - في العلوم العملية

وتشتمل على كتب الأخلاق ، وتدبير المنزل ، وتدبير المدينة ، والتشريع.

8 - 5 - في العلوم الأصلية

فروع وتوابع، فالطب مثلاً من توابع العلم الطبيعي ، والموسيقى وعلم الهيئة من فروع العلم الرياضي .

كتب الطب :

أشهر كتب ابن سينا الطبية **كتاب القانون في الطب** الذي ترجم وطبع عدّة مرات: والذي ظل يُدرس في جامعات أوروبا حتى أواخر القرن التاسع عشر. ومن كتبه الطبية أيضاً : كتاب الأدوية القلبية ، وكتاب دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية ، وكتاب القولنج ، ورسالة في سياسة البدن وفضائل الشراب ، ورسالة في الفصد ، ورسالة في الأغذية والأدوية .

ولإبن سينا أراجيز طبية كثيرة منها : أرجوزة في التشريح ، وأرجوزة المجربات في الطب , والألفية الطبية المشهورة التي ترجمت وطبعت.

وكتاب القانون في الطب ، جمع فيه ما عرفه الطب القديم وما ابتكره هو من نظريات واكتشفه من أمراض، وقد جمع فيه أكثر من سبعمائة وستين عقارا مع أسماء النباتات التي يستحضر منها العقار.

بحث ابن سينا في أمراض شتى أهمها السكتة الدماغية ، التهاب السحايا والشلل العضوي ، والشلل الناجم عن إصابة مركز في الدماغ ، وعدوى السل الرئوي ، وانتقال الأمراض التناسلية ، والشذوذ في تصرفات الإنسان , والجهاز الهضمي . وميز مغص الكلى من مغص المثانة وكيفية استخراج الحصاة منهما كما ميز التهاب البلورة (غشاء الرئة) والتهاب السحايا الحاد من التهاب السحايا الثانوي.

8 - 6 - في الرياضيات

مختصر اقليدس
مختصر المجسطي
مختصر علم الهيئة
مختصر الارتماطيقي
رسالة الزاوية
رسالة في بيان علّة قيام الأرض في وسط السماء ، طبعت في (جامع البدائع) ، في القاهرة سنة 1917

8 - 7 - في الطبيعيات وتوابعها

رسالة في إبطال أحكام النجوم
رسالة في الأجرام العلوية وأسباب البرق والرعد
رسالة في الفضاء
رسالة في النبات والحيوان

قانون الحركة الأول " الجسم الساكن يبقى ساكنا والجسم المتحرك يبقى متحركا مالم تؤثر عليه قوة خارجية " والذي نسبه لنفسه اسحاق نيوتن .

8 - 8 - في الطب

في لفتة إنسانية فإن ابن سينا لما نبغ في الطب قام بعلاج المرضى تأديا وبالمجَان، لا تكسُبا أو لجمع المال ؛ وذلك حبًّا للخير والاستفادة بالعلم، وقد واتته فرصة عظيمة عندما نجح في علاج الأمير **نوح بن منصور** وهو في **السابعة عشرة من عمره** ، ذلك الأمر الذي عجز عنه مشاهير الأطباء، فنال بذلك شهرة عظيمة ، كما جعل أمراء هذا البيت يُنعِمون عليه ، ويفتحون له دور كتبهم ؛ ليعبَّ منها علمًا غزيرًا لم يتوفر ولم يتحصَّل لغيره ،

استطاع الشيخ الرئيس ابن سينا - بفضل ما منَّ به الله عليه من العقل والعلم وسعة الاطّلاع والولع الشديد بالمعرفة - أن يُقدم للإنسانية أعظم الخدمات والاكتشافات والابتكارات التي فاقت عصرها بالقياس إلى إمكانات ذلك العصر ومدى ما وصلت العلوم فيه آنذاك، وبالأخصِّ في جانب الطب ؛ فإليه يرجع الفضل في اكتشاف العديد من الأمراض التي ما زالت منتشرة حتى الآن ؛ إذ إنه أول من كشف عن طفيلة (الإنكلستوما) ، وسماها في كتابه (القانون في الطب) في الفصل الخامس الخاص بالديدان المعوية : الدودة المستديرة ، ووصفها بالتفصيل لأول مرة، وتحدَّث عن أعراض المرض الذي تُسببه .

ثم إنه تطرَّق إلى بعض أنواع الديدان الطفيلية التي تعيش بعيدًا عن القناة الهضمية ؛ مثل: ديدان العين، التي تُفَضِّل منطقة العين، وديدان الفلاريا المسبِّبَة لداء الفيل ، فتراه يقول عن الأخير : " هو زيادة في القدم وسائر الرِّجْل على نحو ما يعرض في عروض الدوالي فيغلظ القدم ويكثفه " .

وكان ابن سينا صاحب الفضل في علاج القناة الدمعية بإدخال مسبار معقَّم فيها ! وابن سينا هو الذي أوصى بتغليف الحبوب التي يتعاطاها المريض ،

كما كان لابن سينا باع كبير في مجال الأمراض التناسلية ؛ فوصف بدقَّة بعض أمراض النساء؛ مثل: الانسداد المهبلي , والإسقاط ، والأورام الليفية . وتحدَّث عن الأمراض التي يمكن أن تُصيب النفساء ؛ مثل : النزيف ، واحتباس الدم ، وما قد يسبِّبه من أورام وحميات حادَّة ، كما تعرَّض – أيضًا - للذكورة والأنوثة في الجنين, وعزاها إلى الرجل دون المرأة، وهو الأمر الذي أكَّده مؤخَّرًا العلم الحديث .

كما كشف ابن سينا - لأوَّل مرَّة أيضًا - طرق العدوى لبعض الأمراض المعدية كالجدري والحصبة ، وذكر أنها تنتقل عن طريق بعض الكائنات الحية الدقيقة في الماء والجو، وقال: " إن الماء يحتوي على حيوانات صغيرة جدًّا لا تُرى بالعين المجرَّدة ، وهي التي تسبِّب بعض الأمراض" . وهو ما أكَده (فان ليوتهوك) في القرن الثامن عشر والعلماء المتأخرُون من بعده، بعد اختراع المجهر.

ويُظهر ابن سينا براعة كبيرة ومقدرة فائقة في علم الجراحة؛ فقد ذكر عدَّة طرق لإيقاف النزيف ؛ سواء بالربط ، أو إدخال الفتائل ، أو بالكي بالنار، أو بدواء كاوٍ، أو بضغط اللحم فوق العرق . كما تحدَّث عن كيفية التعامل مع السِّهام واستخراجها من الجروح، وحذَّر المعالجين من إصابة الشرايين أو الأعصاب عند إخراج السهام من الجروح ، كما نبَّه إلى ضرورة أن يكون المعالج على معرفة تامَّة بالتشريح .

وقد تُرجمت كتب ابن سينا في الطب إلى اللاتينية ومعظم لغات العالم ، وظلَّت حوالي ستة قرون المرجع العالمي في الطب ، واستُخدمت كأساس للتعليم في جامعات فرنسا وإيطاليا جميعًا .

- كتاب الأدوية القلبية
- كتاب دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية
- كتاب القولنج
- رسالة في سياسة البدن وفضائل الشراب
- رسالة في تشريح الأعضاء
- رسالة في الفصد
- رسالة في الأغذية والأدوية

أراجيز طبية

- أرجوزة في التشريح
- أرجوزة المجربات في الطب
- الألفية الطبية المشهورة التي ترجمت وطبعت
- لإبن سينا باع في الشعر العربي وله ديوان منشور ويمكن الإطلاع على ديونه من هنا ديوان ابن سينا في بوابة الشعراء

8 - 9 - في الموسيقى

- مقالة جوامع علم الموسيقى
- مقالة في الموسيقى
- ومقالات أخرى

8 - 10 – وفاته

صورة داخلية من الضريح تظهر قبر ابن سينا في همدان ، إيران

أصاب جسده المرض واعتلّ ، حتى قيل إنه كان يمرض أسبوعاً ويشفى أسبوعاً، وأكثر من تناول الأدوية ، ولكنّ مرضه اشتدّ ، وعلم أنه لا فائدة من العلاج ، فأهمل نفسه وقال : " إن المدبر الذي في بدىء عجز عن تدبير بدني ، فلا تنفعنّ المعالجة "، واغتسل وتاب ، وتصدق بما لديه من مال للفقراء ، وأعتق غلمانه طلباً للمغفرة . وبدأ بختم القرآن كل ثلاثة أيام).

توفي في يونيو 1037 ميلادية ، الموافق لشهر رمضان المبارك، في سن الثامنة والخمسين من عمره ، ودفن في همدان إيران . لما توفي كان يُعد أحد عباقرة الفلسفة في الإسلام، وفي الطب وضع مصاف جالينوس حيث أطلق عليه لقب "جالينوس الإسلام"، وبسبب شهرته الواسعة فقد تسابق للإحتفال بذكره عدة شعوب، والأتراك هم أول من احتفلوا بذكراه ، عندما أقاموا عام 1937 مهرجاناً ضخماً بمناسبة مرور تسعمئة سنة على وفاته ،

ثم حذا حذوهم العرب والفرس حيث أقيم مهرجان للإحتفال به في كل من بغداد عام 1952 وفي طهران 1954،

وفي عام 1978 دعت منظمة اليونسكو كل أعضائها للمشاركة في احتفال احياء ذكرى مرور ألف عام على ولادة ابن سينا وذلك اعترافاً بمساهماته في مجالي الطب والفلسفة ، وبالفعل فقد استجاب كل أعضاء المنظمة وشاركوا في الاحتفال الذي أقيم عام 1980 في دمشق . ألف ابن سينا 276 مؤلفا، كلها كتبت بالعربية باستثناء بضع مؤلفات صغيرة كتبها باللغة الفارسية. إلا أنه وللأسف فقد فقدت أكثر هذه المؤلفات ولم تصل إلينا. ويوجد حاليا 68 مؤلفا منتشرا بين مكتبات الشرق والغرب.

9 ـ قالوا عنه

تمثال ابن سينا في أنقرة

البروفسور جورج سارطون " ابن سينا أعظم علماء الإسلام ومن أشهر مشاهير العالميين" " وإن فكر ابن سينا يمثل المثل الأعلى للفلسفة في القرون الوسطى"

السير ويليام أوسلر يقول عن كتاب القانون لابن سينا " إنه كان القرآن الكريم الطبي لأطول فترة من الزمن"

يقول الدكتور خير الله في كتابه القيم الطب العربي "ويصعب علينا في هذا العصر أن نضيف شيئاً جديداًإلي وصف ابن سينا لأعراض حصى المثانة السريرية"

أوبرفيك يقول عن ابن سينا "ولقد كانت قيمته قيمة مفكر ملأ عصره... وكان من كبار عظماء الإنسانية على الإطلاق"

10 - من أقواله

المستعد للشيء تكفيه أضعف أسبابه.

الوهم نصف الداء ، والاطمئنان نصف الدواء ، والصبر أول خطوات الشفاء

احذروا البطنة ، فإن أكثر العلل إنما تتولد من فضول الطعام

العقل البشري قوة من قوى النفس لا يستهان بها

الامام العلامة علاء الدين علي بن عثمان المارديني

المشهور بابن التركماني

1 - تقدبم

هو علي بن عثمان بن إبراهيم بن مصطفى المارديني الحنفي قاضي القضاة الامام العلامة الحافظ علاء الدين المعروف بـ **ابن التركماني** ولد سنة ثلث وثمانين وستمائة **.** وسمع من خلائق منهم الأبرقوهي والدمياطي وابن القيم وابن الصواف وشهاب المحسني ، وقد تفقه عليه غير واحد من العلماء الاجلاء , فقد روى عنه الشيخ الحافظ أبو الفضل العراقي الذي سمع عليه صحيح البخاري وهو من مشايخ الحافظ عبد القادر القرشي ,

2 - مكانته العلمية :

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

كان رحمه الله إماما في الفقه والتفسير والحديث والأصول والفرائض والحساب والشعر أفتى ودرَّس وأفاد وصنف وجمع المجاميع المفيدة , ولا جرم ففقد نشأ رحمه الله في بيئة علمية وبيت أصيل كريم يشع نورا وعلما ورياسة وفيه يقول االشيخ محي الدين عبد القادر القرشي ت 775: الإمام ابن الإمام أخو الإمام ووالد الإمامين اهـ فأبوه هو الإمام عثمان بن إبراهيم بن مصطفى التركماني ولد سنة 660 وتفقه على مذهب الحنفية فبرع حتى شرح الجامع الكبير في عدة مجلدات وأقراه بالمدرسة المنصورية دروساً وكان ينظر في أوقافها نيابة عن الناظر التركي قرأت بخط البدر النابلسي قرأت عليه قطعة صالحة من الروضة في أصول الفقه للشيخ الموفق في مجلس دروسه بالمنصورية وكان سمع من الابرقوهي والدمياطي وغيرهما وحدث قرأ عليه ولداه علاء الدين وأخوه تاج الدين وكان فاضلاً جميل المحاضرة حسن المذاكرة فصيح العبارة , وكان فقيها من العارفين بالتفسير انتهت إليه رياسة الحنفية بالديار المصرية . كما في الأعلام للزركلي

وأخوه : أَحْمد بن عُثْمَان بن إِبْرَاهِيم بن مصطفى بن سُلَيْمَان المارديني الأَصْل الْمَعْرُوف بِابْن التركماني الْحَنَفِيّ القَاضِي تَاج الدّين أَخُو الْعَلامَة عَلَاء الدّين الَّذِي ولي الحكم اسْتِقْلَالا ولد فِي أَوَاخِر ذِي الْحجَّة سنة 681 وَسمع من الدمياطي وَابْن الصَّواف وَغَيرهمَا وَحدث واشتغل بأنواع الْعُلُوم ودرس وَأفْتى وصنف وناب فِي الحكم وَكَانَ مَوْصُوفا بالمروءة وَحسن المعاشرة وَقَالَ جمال الدّين المسلاتي كتبت عَنهُ من فَوَائده وعد لَهُ سَبْعَة عشر تصنيفاً فِي الْفِقْه وَالْأُصُول والعربية وَالْعرُوض والمنطق والهيئة وَله كَلَام على أَحَادِيث الْهِدَايَة وغالبها لم يكمل وَالْكثير مِنْهَا ينْسب لِأَخِيهِ وَله نظم وسط وَله شرح الْجَامِع الْكَبِير وتعليقة على المحصل وعَلى الْخُلَاصَة وَكتب الْخط الْحسن وَمَات فِي أَوَائِل جُمَادَى الأولى سنة 744 ذكره الذَّهَبِيّ فِي المعجم الْمُخْتَص فَقَالَ من عُلَمَاء الْقَاهِرَة ارتحل بولده فسمعا من ابْن الشّحْنَة وعلقت عَنهُ وَكَانَ مولده سنة بضع وَثَمَانِينَ وَسمع من الذَّهَبِيّ رَفِيقًا للذهبي وَذكره فِي مُعْجَمه الْكَبِير وَكتب عَنهُ حِكَايَة

وولده : عبد الله بن علي بن عثمان بن إبراهيم بن مصطفى بن سليمان المارديني الأصل المعروف بابن التركماني الحنفي جمال الدين أبو محمد ابن علاء الدين ولد سنة 719 وسمع من الواني والختني وغيرهما واشتغل ودرس وأفتى وحدث ودرس بالكاملية نزل له عنها القاضي عز الدين ابن جماعة ودرس في التفسير بالجامع الطولوني واستمر إلى ان مات مطعوناً في شهر رمضان سنة 769

قال ابن رافع كان محسناً لطائفته وقال ابن حبيب كان وافر الوقار لطيف الذات مقدماً عند الملوك رحمه الله تعالى كان عارفاً بالأحكام لين الجانب شديداً على المفسدين متواضعاً مع أهل الخير وسد أبواب الريب وامتنع من استبدال الأوقاف وصمم على ذلك ولم يخلف بعده مثله خصوصاً من الحنفية

وحفيده : محمد بن عبد الله بن علي بن عثمان بن إبراهيم بن مصطفى صدر الدين ابن التركماني ولد جمال الدين ابن علاء الدين. ولي القضاء للحنفية استقلالاً هو وأبوه وجده، وَكَانَ مولده فِي رابع شهر رجب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة واشتغل ومهر وناب فِي الحكم عن والده، ونشأ نشأة حسنة، وولي القضاء بعد السراج الهندي فِي رابع عشر شهر رجب سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وَقَدْ أكمل الثلاثين، فلم تطل مدته.

وكان حسن الصورة والسمت، فصيحاً وقوراً مهيباً، ولما ولي عرف الناس أن شيوخ العجم حسدوه لما مات أبوه وعين للقضاء، فإنهم اجتمعوا وقالوا: لا نرضى بِهِ لأنه حَدَث السن قليل العلم والمعرفة بالشروط، فولي السراج الهندي، فلما مات واستقر هَذَا ظَهَر من سيرته خلاف مَا وصفوه، واغتبط الناس بِهِ وأحبوه وعدوه من حسنات الدهر، وَكَانَ ينظم الشعر أحياناً واتفق أنه أصابه رمد فقال :

أفِرُّ إِلَى الظلامِ بِكُلِّ جهْدِي ... كَأَنَّ النورَ يَطلُبُني بِدَينِ
وَمَا لِلنّور من كَلَب ولكن ... أراه حقيقةً مطلوبَ عَيْنِي

ولما حضرته الوفاة أوصى أن يكتب عَلَى قبره :

إن الفقير الذي أمسى بحُفرته ... نزيل رب كثير العفو سَتَّارِ
يوصيك بالأهل والأولاد تحفظهم ... فهم عِيَال عَلَى معروفك السَّارِي

ورثاه شهاب الدين ابن العطار بقوله:

وفـاتك صدر الـدين قاضي قضاتنا ... قَد اغبر من زهر العلوم أَنيقُهُ
وقطّب بعد الضحك وجهاً وكيف لا ... يُـقَطِّـبُ والنعمان مات شقيقهُ

وبهذا يظهر صحة مقالة القرشي رحمه الله , ويظهر أن هذا الإمام علاء الدين له مكانة كبيرة في العلم والقضاء وكما قال الله تعالى : ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم

3 - مؤلفاته :

لـه تآليف حسنة مفيدة منها :

1 - مختصر ابن الصلاح
2 - تخريج أحاديث الهداية
3 - وله قصيدة مدح بها الجاولي الدويدار : أولها :
إذا شغل البرية فيك فاها ... فكلي عنك بالخيرات فاها
4 - المنتخب في علوم الحديث
5 - والمؤتلف والمختلف
6 - وكتاب الضعفاء والمتروكين
7 - وكتاب الجوهر النقي في الرد على البيهقي
8 - واختصر المحصل في الكلام
9 - وله سعدية في أصول الفقه
10- ومختصر الهداية وسماه الكفاية
11- وشرح الهداية ولم يكمله
12- وكتاب بهجة الأريب مما في كتاب الله العزيز من الغريب
13- وله مقدمات في عدة فنون

وقد أجمع كل من له خبرة بتصانيفه على حسنها وفوائدها وتميزها عن غيرها .
توليه القضاء : ولي القضاء في شوال سنة 748 ونزل بخلعته إلى منزل القاضي زين الدين البسطامي الذي كان قبله فلما رآه بهت واستمر علاء الدين في الوظيفة إلى أن مات

4 - وفاته :

وقد وكانت وفاته بالطاعون العام بعد ارتفاعه فِي عاشر المحرم سنة خمسين وسبعمائة.

الإمام أحمد بن على الرازى الحنفي

المشهور بالجصاص

1 - تقديم

هو : أبو بكر أحمد بن على الرازى الجصاص. أما لفظ الجصاص فنسبة إلى العمل بالجص ذكر ذلك السمعاني

ولد الإمام الجصاص في مدينة **الري** والتي ينسب لها بالرازى . وكانت سنة ولادته سنة خمس وثلاثمائة 305 هـ.و قد مكث بها حتى سن العشرين حيث رحل إلى بغداد

2 - مكانته العلمية ورحلاته

حاز الإمام مكانة علمية سامقة بين علماء الأمة عموما, وعلماء الحنفية خصوصا. وقد انتهت إليه رياسة المذهب الحنفي ببغداد ودخل بغداد سنة خمس وعشرين بعد الثلاثمائة ثم خرج إلى الأهواز ثم عاد إلى بغداد ثم خرج إلى نيسابور مع الحاكم النيسابوري برأي شيخه أبي الحسن الكرخي ومشورته فمات الكرخي وهو بنيسابور .

3 – شيوخه

من شيوخه الذين سمع منهم وتتلمذ على أيديهم أولاً فأول :
أبي الحسن الكرخي الذي تأثر به الجصّاص في الورع والزهد
أبي سهل الزجاج
عبد الباقي بن قانع عنه أخذ الحديث
أبوحاتم الرازي
أبو سعيد الدارمي عثمان بن سعيد الدارمي صاحب المسند

4 – كتبه

- شرح الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني
- شرح الجامع الصغير لمحمد بن الحسن الشيبانى
- شرح المناسك لمحمد بن الحسن الشيبانى
- شرح مختصر الفقه للطحاوي
- شرح آثار الطحاوى
- مختصر اختلاف الفقهاء للطحاوى
- شرح ادب القاضي للخصاف
- شرح مختصر الكرخي
- شرح الأسماء الحسنى
- جوابات المسائل
- أحكام القرآن
- أصول الفقه

5 – وفاته

توفى في يوم الأحد سابع ذى الحجة سنة سبعين وثلاثمائة 370 هـ. عن خمس وستين سنة.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الإمام عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي

المشهور بـ (الإمام النّسفي)

1 - تقديم

هو : عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ، أبو البركات (ت. 710هـ- 1310م) من فقهاء الحنفية , ولقب بحافظ الدين. ظهر في مدينة نسف ، أوزبكستان. ، مفسر، متكلم ، أصولي، أحد الزهاد المتأخرين والعلماء العاملين ، من أهل **إيذَج** (بلدة بين خوزستان وأصبهان) ووفاته فيها ، ونسبته إلى « **نسف** » من بلاد ما وراء النهر بين جيحون وسمرقند.

تتلمذ لشيوخ كثيرين ، وتفقه ببلاده على الوجيه الرازي ، وعلى شمس الأئمة الكردري والسراج الثقفي ، والزين البدواني ، وروى الزيادات عن أحمد بن محمد العتابي، وسمع منه الصِغْنَاقِي، وحج وظهرت فضائله ، ورحل إلى بغداد ، له وجاهة في كل دولة.

كان واسع العلم ، كثير المهابة ، رأساً في الفقه والأصول ، بارعاً في الحديث وعلومه، ليس له نظير في زمانه ، وكان يتعصب للصوفية الموحدة .

2 - أهم كتبه

له تصانيف مفيدة منها :

اعتماد الاعتقاد

تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل

كتاب كشف الأسرار

كنز الدقائق

« مدارك التنزيل وحقائق التأويل » في التفسير، وقد عُرف به، « وهو كتاب وسط في التأويلات ، جامع لوجوه الإعراب والقراءات، متضمن لدقائق علم البديع والإشارات، حافل بأقاويل أهل السنة والجماعة، خالٍ من أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل »، اختصره النسفي من تفسير « الكشاف » للزمخشري، غير أنه ترك ما فيه من الاعتزال، وضمنه ما اشتمل عليه من النكات البلاغيـة، والمحسنات البديعية، والكشف عن المعاني الدقيقة الخفية، وأورد فيه ما أورده الزمخشري في تفسيره، من الأسئلة والأجوبة ،

وله « كنز الدقائق » في فروع الحنفية ، لخص فيه الوافي بذكر ما عم وقوعه، حاوياً مسائل الفتاوى والواقعات ، واعتنى به العلماء والفقهاء فأكثروا عليه الشروح منها: شرح الإمام فخر الدين أبي محمد عثمان بن علي الزيلعي وسماه « تبيين الحقائق لما فيه ما اكتنز من الدقائق » والعلاّمة زين العابدين بن نجيم المصري (ت921هـ) وسماه: « البحر الرائق في شرح كنز الدقائق » وصل فيه إلى آخر كتاب الدعوى، ونظمـه ابن الفصيح أحمد بن علي الهمداني وسماه « مستحسن الطرائق » وغيرها كثير.

وله «المنار» في أصول الفقه، وهو متن جامع مختصر، وهو فيما بين كتبه المبسوطة والمختصرة، أكثرها تناولاً وأقربها تداولاً، وهو مع صغر حجمه، ووجازة نظمه، بحـر محيط بدرر الحقائق، وكنز أودع فيه نقود الدقائق ،

اختلف في وفاته ، قيل 701هـ، وقيل 710هـ.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

صلاح الدين موسى بن محمد بن محمود

المعروف بقاضي زاده

صلاح الدين موسى بن محمد بن محمود المعروف بقاضي زاده الرومي ، فلكي رياضي ، ولد في بروسة (إحدى المدن التركية) في النصف الثاني من القرن الثامن للهجرة، وتوفي في سمرقند ، واختلف المؤرخون في تقدير سنة وفاته ، ويرجح تاريخ وفاته بعد سنة 840هـ / 1436 -1437م.

عُرف « بقاضي زاده » التي تعني باللغة العربية « ابن القاضي » ، فقد كان أبوه وجده قاضيين ، أي نشأ في أسرة عريقة بالعلم والمعرفة ، وتعلم أسس العلوم على علماء عصره، فقد تعلم الهندسة من أستاذه **علي شمس الدين منلا فناري**.

سافر قاضي زاده إلى خراسان وبلاد ما وراء النهر في أواخر القرن الثامن للهجرة طلباً للعلم، فدرس الرياضيات والفلك على يد علماء تلك البلاد وتفوق بهما، وانتشرت سمعته حتى وصلت إلى أمير البلاد **محمد تورغي أولغ** (1394 - 1449 م) - حفيد تيمور - الذي كان مولعاً بالفلك والرياضيات ، فاستدعى أولغ بك العالم قاضي زاده وعينه أستاذاً له، فعمل الأستاذ على زرع روح حب المعرفة في نفس الأمير، مما دفع الأمير أولغ بك إلى تأسيس مدرسة عالية ، وكلف قاضي زاده إدارتها ، وتدريس الطلاب ومدرسي المدرسة. تميّز منهجه التربوي بالمحافظة على كرامة العلماء والأساتذة وعلى استقلاليتهم. وكان ممّن يعملون للعلم فقط من دون أي غاية أخرى، ولم يؤمن بالتنجيم فكان لايراه علماً يستحق الاعتناء أو الدرس . ساعد قاضي زاده وغياث الدين جمشيد الكاشي (ت833 هـ/1429-1430م) **أولغ بك** على بناء المرصد في سمرقند وتزويده بالآلات، والقيام بالبحوث الفلكية في المرصد، وتوفي غياث الدين قبل بدء عملية الرصد، وتوفي قاضي زاده قبل إتمامه، فأكمل الرصد **علي القوشجي.**

حظي قاضي زاده بتقدير واحترام العلماء، فكانوا يحضرون دروسه مع طلابه ومع الأمير ذاته، وقد وصفه الأمير أولغ بك في مقدمة زيجه بأنه « أعلم العلماء، وعنوان الفضيلة والفطنة، الوفي لمسلك الحق، الهادي إلى درب الإمعان في النظر، مولانا صلاح الملّة والدين موسى الشهير بقاضي زاده رحمة الله عليه ورضوانه».

استفاد من علم قاضي زاده مباشرة أو بطريق غير مباشر مجموعة من العلماء والأساتذة اللاحقين له، الذين نشروا العلم في الممالك العثمانية منهم : علاء الدين علي بن محمد الفَنَوْشَجي (ت 879هـ)، وفتح الله الشيرواني (ت 855هـ)، ومحمد بن إبراهيم بن حسن النكساري (ت901هـ)، ولطف الله التوقاني (ت904هـ)، وسنان الدين يوسف (ت891هـ) ، ومصطفى بن خليل - والد طاش كبري زاده (ت935هـ) ، ومحمود بن محمد بن قاضي زاده الشهير بميرم جلبي (ت931هـ) وغيرهم، أي استطاع العالم قاضي زاده الرومي تأسيس مدرسة علمية قوية وواسعة، مما يدل على مكانته العلمية الرفيعة.

أبدع قاضي زاده في الرياضيات والهيئة (الفلك)، ووضع مؤلفات عديدة من أهمها شرح لكتاب «الملخص في الهيئة للجغميني»، ويعدّ طاش كبري زاده في كتابه «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» في موضوعات العلوم كتاب «الملخص في الهيئة» من المختصرات المشهورة في علم الهيئة ،

ويصنف كارلو نلّينو Carlo Nallino الكتاب ضمن النوع الأول من كتب العرب الفلكية والمتضمنة الكتب الابتدائية على صفة مدخل إلى علم الهيئة الموضح فيها مبادئ العلم بالإجمال ومن دون البراهين الهندسية. ويضيف نلّينو بأن كتاب »الملخص في الهيئة« طبع مع شرح قاضي زاده الرومي في أوربا سنة 1286هـ / 1869م، ثم مع شرح قاضي زاده وحواشٍ عليه لمحمد عبد الحليم اللكْنَوي بمدينة لَكْنَوْ (في الهند) سنة 1290هـ / 1873م وبمدينة دِهْلي سنة 1316هـ / 1898م، ونقل إلى اللغة الألمانية سنة1311هـ/ 1893م، وشرح كتاب «أشكال التأسيس في الهندسة للسمرقندي»، ويعد طاش كبري زادة كتاب »أشكال التأسيس« من أكثر كتب علم الهندسة اختصاراً وأحسنها، ويشير إلى شرح قاضي زاده الرومي، وشارك قاضي زاده في تأليف «زيج أولغ بك» الذي يتألف من أربع مقالات: الأولى في معرفة التواريخ، وهي على مقدمة وخمسة أبواب، والثانية في معرفة الأوقات والطالع في كل وقت، وهي اثنان وعشرون باباً، والثالثة في معرفة سير الكواكب ومواضعها، وهي ثلاثة عشر باباً، والرابعة في الأعمال النجومية، ويعد حاجي خليفة الزيج أحسن الزيجات وأقربها إلى الصحة، طبع الزيج لأول مرة في لندن سنة

1650م، ونشرت جداوله بالفرنسية سنة 1847م، ثم تتالت الدراسات والبحوث على الزيج الذي ظل معتمداً فترة طويلة، وفي «رسالة الجيب» يشير حاجي خليفة إلى هذه الرسالة، ويصفها طوقان بأنها رسالة ذات قيمة علمية تبحث في حساب جيب قوس ذي درجة واحدة.

ولقاضي زاده مجموعة أخرى من المؤلفات منها: رسالة في استخراج خط نصف النهار وسمت القبلة، وحاشية على كتاب « المجسطي »، وشرح «التذكرة النصيرية» في الهيئة ، وشرح كتاب « ملخص في الهندسة » لمحمود بن محمود الخوارزمي، ورسالة في «الجهة»، ورسالة حول نسبة ارتفاع أعظم الجبال إلى قطر الأرض كنسبة سبع عرض شعيرة إلى ذراع ، وشرح حكمة العين.

يعد قاضي زاده الرومي من علماء الرياضيات والفلك المتميزين في الحضارة العربية الإسلامية ، فقد وضع مؤلفات مهمة ، وشارك في الأبحاث العلمية التطبيقية، وأسس مدرسة علمية تابعت الأبحاث والتأليف ونشر المعرفة والعلم في أرجاء الامبراطورية الإسلامية لفترة طويلة

علاء الدين أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني

هو ابو بكر بن مسعود بن أحمد ، علاء الدين . من أئمة الحنفية . كان يسمي (ملك العلماء) منسوب الي **كاسان** (أوقاشان ، أو كاشان) بلدة بتركستان ، حيث ولد فيها . وهي بلدة حدد جغرافيو المسلمين موقعها بوراء الشاش أو وراء النهر من بلاد الترك ، ووصفوها بأنها قلعة حصينة، وهي اليوم مدينة قازان Kazan في جنوبي شرق أوزبكستان، ولا تبعد كثيراً عن مدينة بخارى التي تقع في شمالها الشرقي والتي أقام بها عالمنا واشتغل فيها بطلب بالعلم على شيخه الإمام **علاء الدين محمد بن أبي أحمد السمرقندي** ، وقرأ عليه معظم تصانيفه مثل : التحفة في الفقه الحنفي، وشرح التأويلات في تفسير القرآن العظيم، وغيرهما من كتب الأصول، وسمع منه الحديث، ومن غيره وبرع في علمي الأصول والفروع، وزوّجه شيخه السمرقندي بابنته **فاطمة** الفقيهة العالمة ،

وقيل إن سبب تزويجه بابنة شيخه أنها كانت من حسان النساء وتفقهت على أبيها وحفظت كتاب التحفة الذي ألفه والدها، وطلب الزواج بها جماعة من ملوك السلاجقة فامتنع والدها ، ولما جاء الكاساني ولزم والدها ودرس على يديه وبرع في علم الأصول والفروع وصنف كتاب البدائع في شرح كتاب شيخه " التحفة " ، وعرضه على شيخه فازداد فرحا به وزوجه ابنته وجعل مهرها منه ذلك ، فقال الفقهاء في عصره: شرح تحفته وزوجه ابنته،

وكان زوجها الكاساني ربما يعرض له شيء من الوهم في الفتيا فترده إلى الصواب وتعرفه وجه الخطأ فيرجع إلى قولها، وكانت تفتي وكان زوجها يحترمها ويكرمها وكانت الفتوى أولا يخرج عليها خطها وخط أبيها فلما تزوجت الكاساني صارت الفتوى تخرج وعليها خط الثلاثة خطها وخط والدها وخط زوجها.

تقول كتب التاريخ أنه بعد أن أصبح عالماً يشار إليه بالبنان غادر بخارى مع زوجته إلى " **بلاد الروم** " وهو اللفظ الذي يطلقه مؤرخو الحقبة المسلمون على مملكة السلاجقة التي بسطت نفوذها على جزء كبير مما يعرف اليوم بتركيا ، ويمت ملوكها بوشائج القربى لقبائل وسط شرق آسيا ، وكان ملكها السلطان **مسعود بن قليج أرسلان السلجوقي** وعاصمته **قونية** ، وكانت بينه وبين **نور الدين زنكي** في حلب علاقات وثيقة وتعاون مضطرد لطرد الصليبيين من هذه البقاع ، ولقي الكاساني من لدنه كل احترام وتقدير

بعث السلطان مسعود الإمام الكاساني رسولا إلى نور الدين حيث لقي في نفسه قبولاً واحترمه وأكرمه ، أكرم نور الدين الشهيد الإمام الكاساني وولاه التدريس بالمدرسة الحلاوية المعروفة بمسجد السراجين ، وفوضها إليه . كان الكاساني حريصاً على تعليم العلم ونفع الطلبة ، وكان فقيهاً عالماً صحيح الاعتقاد ، كثير الذم للمعتزلة وأهل البدع ، وصنف كتباً في الفقه والأصول منها كتابه في الفقه الحنفي الذي وسمه ببدائع الصنائع في ترتيب الشرائع رتبه أحسن ترتيب وأوضح مشكلاته بذكر الدلائل في جميع المسائل ،

ومنها كتابه الذي وسمه **بالسلطان المبين في أصول الدين**

بقي الكاساني في حلب سنوات مديدة فقد قدمها وهو قوي البنية متماسك الجسم وتوفي فيها وقد أقعده المرض ، يقول عنه النقيب السديد داود بن علي البصراوي: كان الشيخ علاء الدين الكاساني لا يركب إلا الحصان ويقول : لا يركب الفحل إلا الفحل ، وكان له رمح لا يفارقه وكان شجاعاً ، وكان هذا مستغرباً من الشيخ العلامة لأن المتعارف عليه آنذاك أن يركب الفقهاء البغال أو الحمير تواضعاً ، وكانت الخيول من مركوب الأمراء والجنود.

كان الإمام الكاساني من العلماء الذين جمعوا بين الحديث والفقه والتفسير، وكان الكاساني حاضر الحجة قوياً في المناظرة , ولا عجب في ذلك في ذلك فبلاد وراء النهر كانت مجمع المحدثين وعلماء الحديث ، وكان في تدريسه يبتغي وجه الله عز وجل وهداية الناس إلى الخير وما فيه صلاح دينهم ودنياهم .

وكان الشيخ الإمام الكاساني يقول : لا شيء أرضى عند الله من هداية العباد إلى سبيل الرشاد ، والإبانة لهم عن المرضي من الاعتقاد ، وهو اعتقاد السنة والجماعة إذ به ينال خير الدارين وسعادة المحلين ، فمن تمسك به فقد اتبع الهدى، ومن حاد عنه فقد ضل وغوى.

من أهم مؤلفات الإمام الكاساني كتابه العظيم في الفقه (بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع) والذي يتميز باللغة السهلة الفهم وإيراد الشواهد الحديثية لما يورده من الأحكام الفقهية ، وقد صدرت طبعته الأولى في سبع مجلدات كبار في القاهرة في عام 1327 هجرية

الكتاب في أصله شرح لكتاب تحفة الفقهاء الذي ألفه أستاذه علاء الدين السمرقندي المتوفى سنة 539 ، وهو والد زوجته فاطمة الفقيهة العالمة التي ذكرنا سبب زواجه منها،

وقد بدأت هذه العالمة الجليلة والسيدة الفاضلة سنة حسنة بأن جعلت للفقهاء إفطاراً في رمضان بالمدرسة الحلاوية فقد ذكر داود بن علي أحد فقهاء الحلاوية بحلب إنها هي التي سنت الفطر في رمضان للفقهاء بالحلاوية ، وأنه كان في يديها سواران فأخرجتهما وباعتهما وعملت بالثمن الفطور كل ليلة واستمر الأمر على ذلك .

انتفع بعلم الإمام الكاساني أثناء وجوده في حلب علماء كثيرون من أبناء حلب ومن قاصديها من البلاد الإسلامية ذكرت كتب التاريخ بعضهم ، فمنهم **أحمد بن محمود الغزنوي** الذي صنف في الفقه والأصول كتبا حسنة مفيدة

ومنهم **خليفة بن سليمان بن الخوارزمي** الأصل الحلبي الدار والمولد الذي قرأ الفقه بحلب على الإمام الكاساني، ثم رحل إلى بلاد العجم وتفقه بها، ثم عاد إلى حلب وتوفي بها

ومنهم **محمد بن أحمد الموصلي الحلبي** الذي ولد بالموصل ، ودرس الفقه على مذهب أبي حنيفة بحلب على الإمام الكاساني ، ومات بحلب

ومنهم **محمد بن سعيد الحلبي** المعروف بابن الركابي ، تفقه بحلب على الكاساني وعلى الإمام علي الهاشمي ، وكان فقيهاً أديباً صاهره الشيخ أبو حفص بن قسام واستنابه في التدريس بالمدرسة الجردكية التي أسسها الأمير عز الدين جرديك ، ومات بحلب

ومنهم **محمد بن يوسف بن الخضر الحلبي** ويعرف بقاضي العسكر، ولد بحلب ونشأ بها وتفقه على والده يوسف وعلى العلامة الكاساني، ثم صار بدوره أستاذاً تفقه عليه الصاحب كمال الدين ابن العديم مؤرخ حلب ، ومات بحلب

ومنهم **شمس الدين نجا بن سعد** الذي تفقه بحلب على الإمام الكاساني ودرس بمدرسة بصرى وكتب بخطه نسخة البدائع من خط شيخه بيضها في سبع مجلدات وهي وقف بالمدرسة الإشبيلية.

توفي الإمام علاء الدين الكاساني بعد ظهر يوم الأحد عاشر رجب سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وذكر ضياء الدين محمد بن خميس الوكيل المعروف بابن المغربي أنه حضر الشيخ علاء الدين الكاساني عند موته، فشرع في قراءة سورة إبراهيم حتى انتهى إلى قول القرآن : " يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة " فخرجت روحه عند فراغه من قوله: " في الآخرة ". دفن في مقبرة يبدو أنها كانت مخصصة للحنفية، داخل مقام إبراهيم ظاهر حلب في قبة من شماليه إلى جانب زوجه فاطمة بنت علاء الدين السمرقندي ، ومحرر على بابها :

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بعمارته مولانا الملك الظاهر غياث الدنيا والدين أبو الفتح غازي ابن الملك الناصر خلد الله ملكه في سنة أربع وتسعين وألف.

أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي

تقديم

هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي (364 - 450 هـ / 974 - 1058 م) أكبر قضاة آخر الدولة العباسية ، صاحب التصانيف الكثيرة النافعة، الفقيه الحافظ، من أكبر فقهاء الشافعية والذي ألّف في فقه الشافعية موسوعته الضخمة في أكثر من عشرين جزءًا.

تعلم على يد علماء منهم الحسن بن علي بن محمد الجبلي المحدث، ومحمد بن عدي بن زُحَر المقريء، ومحمد بن المعلى الأزدي، وجعفر بن محمد بن الفضل البغدادي وأبو القاسم عبد الواحد بن محمد الصيمري القاضي بالبصرة أبو حامد أحمد بن أبي طاهر الإسفراييني ببغداد.

ولد الماوردي في البصرة عام 364 هجرية ، لأب تركي , يعمل ببيع ماء الورد فنسب إليه فقيل " الماوردي " . وأم تركمانية .

ارتحل به أبوه إلى بغداد ، وبها سمع الحديث، ثم لازم واستمع إلى أبي حامد الإسفراييني. عمل بالتدريس في بغداد ثم بالبصرة وعاد إلى بغداد مرة أخرى. كان يعلم الحديث وتفسير القرآن . لقب عام 429 هـ بأقضى القضاة ،

نشأ الماوردي، معاصرا خليفتين من أطول الخلفاء بقاء في الحكم: الخليفة العباسي القادر بالله ، ومن بعده ابنه القائم بأمر الله الذي وصل الضعف به مبلغه حتى إنه قد خطب في عهده للخليفة الفاطمي على منابر بغداد.

كان الماوردي ذا علاقات مع رجال الدولة العباسية كما كان سفير العباسيين ووسيطهم لدى بني بويه والسلاجقة . بسبب علاقاته هذه يرجح البعض كثرة كتابته. ومن كتبه في هذا المجال :

- أدب الدنيا والدين
- الأحكام السلطانية
- قانون الوزارة. أما كتبه الأخرى فمنها:
- سياسة أعلام النبوة
- تفسير القرآن "النكت والعيون"

وقد نال الكتاب الأخير عناية المفسرين المتأخرين ونقلوا عنه ، كابن الجوزي في زاد المسير، والقرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن . اتهم الماوردي بالاعتزال ، لكن انتصر له تلميذه الخطيب البغدادي فدافع عنه ودفع عنه الادعاء . توفي في يوم الثلاثاء سلخ شهر ربيع الأول من سنة 450 هـ ، ودفن من الغد في مقبرة باب حرب ، وكان قد بلغ 86 سنة، وصلى عليه الإمام الخطيب البغدادي.

مؤلفاته

من أهم مؤلفاته غير ماذكر ما يلي :

- كتاب الحاوي الكبير، في فقه الشافعية في أكثر من عشرين جزءًا.
- كتاب نصيحة الملوك.
- كتاب قوانين الوزارة وسياسة الملك.
- كتاب التفسير.
- كتاب الإقناع ، وهو مختصر كتاب الحاوي.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

- كتاب أدب القاضي.
- كتاب أعلام النبوة.
- كتاب تسهيل النظر.
- كتاب في النحو.
- كتاب الأمثال والحكم..

حامد بن يوسف بن حامد ، ضياء الدين الاسكداري البانذرموي

تقديم

هو حامد بن يوسف بن حامد ، ضياء الدين الاسكداري البانذرموي . هو فقيه حنفي ومتصوف نقشبندي البَانْدَرْمَوي (1111 - 1172 هـ / 1700 - 1758 م) ولد ونشأ **بالأستانة** وقام برحلة إلى سوريا ومصر لطلب العلم ، ثم عاد فسكن **باندرمة** بجنوب بحر مرمرة وبها وفاته.

آثاره

يقول البندرماوي إنه ألف ثمانين كتابا

ولكن لم يصلنا من آثاره سوى بضع كتب : « جامع الفهارس » و « تخريج أحاديث شرعة الإسلام » و « تعريفات الفحول في الأصول » و « شهود الفرائض » و « مخلفات حكماء اليونان في معرفة الميزان » و « مهمات الكافي في العروض والقوافي » و « شهود كتاب في حدود علم الآداب » و « عقود الفرائض في حدود العقائد ». و « عقود الدرر في حدود علم الأثر » وهو معجم مصطلحات الحديث . وهو أول كتاب صنف في هذا المجال، جمع المؤلف فيه 167 اصطلاحا على الترتيب الهجائي من 18 كتابا.

محمد بن محمد بن حسين بهاء الدين البلخي (جلال الدين الرومي)

تقديم

محمد بن محمد بن حسين بهاء الدين البلخي (604 هـ - 672 هـ = 1207 - 1273 م) عرف أيضا باسم **مولانا جَلَال الدِّين الرُّومي** : شاعر، عالم بفقه الحنفية والخلاف وأنواع العلوم، ثم متصوف وصاحب الطريقة المولوية المنسوبة إليه .

ولد في **بلخ** وانتقل مع أبيه إلى بغداد ، في الرابعة من عمره، فترعرع بها في المدرسة المستنصرية حيث نزل أبوه. ولم تطل إقامته فان أباه قام برحلة واسعة ومكث في بعض البلدان مددا طويلة ، وهو معه ، ثم استقر في قونية سنة 623 هـ في عهد دولة السلاجقة الأتراك ، وعرف جلال الدين بالبراعة في الفقه وغيره من العلوم الإسلامية، فتولى التدريس بقونية في أربع مدارس، بعد وفاة أبيه سنة 628 هـ ثم ترك التدريس والتصنيف والدنيا وتصوّف سنة 642 هـ أو حولها ، فشغل بالرياضة وسماع الموسيقى ونظم الأشعار وإنشادها.

تركت أشعاره ومؤلفاته الصوفية والتي كتبت باللغة الفارسية تأثيرا واسعا في العالم الإسلامي وخاصة على الثقافة الفارسية والأردية والبنغالية والتركية ، وفي العصر الحديث ترجمت بعض أعماله إلى كثير من لغات العالم ولقت صدا واسعا .

حين وفاته في عام 1273م ، دفن في مدينة قونية وأصبح مدفنه مزارا إلى يومنا ، وبعد مماته قام أتباعه وإبنه **سلطان ولد** بتأسيس الطريقة المولوية الصوفية والتي اشتهرت بدراويشها ورقصتهم الروحية الدائرية التي عرفت بالسماع والرقصة المميزة.

1 - نسبه وحياته

ولد في منطقة بلخ في خراسان وما يعرف حالياً بأفغانستان في 6 ربيع الأول 604 هـ الموافق لـ 30 سبتمبر 1207م . وحينها " كانت بلخ تابعة لأمبراطورية الخوارزم الخرسانية . وكانت عائلته تحظى بمصاهرة البيت الحاكم في " خوارزم " . كانت أمه **مؤمنة خاتون** ابنة خوارزم شاه علاء الدين محمد. وكان والده **بهاء الدين ولد** يلقب بسلطان العارفين لما له من سعة في المعرفة والعلم بالدين والقانون والتصوف.

عند قدوم المغول ، هاجرت عائلته هربا إلى نيسابور ، حيث التقى الرومي هناك بالشاعر الفارسي الكبير **فريد الدين العطار** ، الذي أهداه ديوانه **أسرار نامه** والذي أثر على الشاب وكان الدافع لغوصه في عالم الشعر والروحانيات والصوفية ، ومن نيسابور سافر مع عائلته وهناك لقب بجلال الدين ، ثم تابعوا الترحال إلى سوريا ومنها إلى مكة المكرمة رغبة في الحج. وبعدها، واصلوا المسير إلى الأناضول واستقروا في **كارامان** لمدة سبع سنوات حيث توفيت والدته . وتزوج الرومي **بجوهر خاتون** وأنجب منها ولديه : سلطان ولد وعلاءالدين شلبي . وعند وفاة زوجته تزوج مرة أحرى وأنجب إبنه أمير العلم شلبي وأبنته ملكة خاتون.

في عام 1228م توجه والده إلى قونية عاصمة السلجوقيين بدعوة من **علاء الدين كيقباذ** حاكم الأناضول واستقروا بها حيث عمل الوالد على إدارة مدرستها ، تلقى جلال الدين العلم على يدي والده ، ويدي الشيخ سيد برهان الدين محقق من بعد وفاة والده لمدة 9 سنوات ينتهل علوم الدين والتصوف منه ، وفي عام 1240م توفي برهان الدين فانتقل الرومي إلى مزاولة العمل العام في الموعظة والتدريس في المدرسة و خلال هذه الفترة ، توجه الرومي إلى دمشق وقضى فيها أربع سنوات حيث درس مع نخبة من أعظم العقول الدينية في ذلك الوقت ، بمرور السنين تطور جلال الدين في كلا الجانبين ، جانب المعرفة وجانب العرفان.

في عام 1244م وصل إلى مدينة قونية الشاعر **شمس الدين تبريزي** ، باحثا عن شخص يجد فيه خير الصحبة وقد وجد في الرومي ضالته ، ولم يفترق الصاحبان منذ لقائهما حتى إن تقاربهما ظل دافعا لحسد الكثيرين على جلال الدين لاستئثاره بمحبة القطب الصوفي التبريزي ، وفي عام 1248م اغتيل التبريزي ولم يعرف قاتله ,

حزن الرومي على موت التبريزي وحبه العميق له فاض بأشعار وموسيقى ورقصات تحولت إلى ديوان سماه ديوان شمس الدين التبريزى أو الديوان الكبير.

وحتى مماته كان الرومي يقدم المواعظ والمحاضرات إلى مريديه ومعارفه وللمجتمع ، ووضع معظم أفكاره في كتب بطلب من مريديه وتوفي في 17 ديسمبر 1273م ودفن إلى قبر بجانب قبر والده وسمى أتباعه هذه الليلة بالعرس وما زالو يحتفلون بهذه الليلة إلى الآن .

2 – تعاليمه

متحف مولانا جلال الدين الرومي في قونية ، تركيا .

كان جلال الدين مسلما مؤمناً بتعاليم الإسلام السمحة لكنه استطاع جذب اشخاص من ديانات وملل أخرى وذلك بسبب تفكيره المرن المتسامح ، فطريقته تشجع التساهل اللامتناهي مع كل المعتقدات والأفكار ، كما كان يدعو إلى التعليل الإيجابي ، ويحث على الخير والإحسان وادراك الأمور عن طريق المحبة ، وبالنسبة اليه والى أتباعه فإن كل الديانات خيرة وحقيقية بمفاهيمها ، لذلك كانوا يعاملون المسلمين والمسيحيين واليهود معاملة سواسية .

وككل الصوفيين آمن الرومي بالتوحيد مع حبه لله عز وجل هذا الحب الذي يبتعد عن الإنسان ، والإنسان في مهمة ايجاده والعودة اليه ، وبطلب من مريديه وضع الرومي أفكاره ومبادئه في كتاب سماه **المثنوي** الذي استعمل فيه حياكته خيوط من قصص يومية وإرشادات قرآنية وحكمة من خبرته لينسج كتابا ثمينا ممتلئ بمعان عميقة منتقاة بحذر وعناية.

كان الرومي يستعمل الموسيقى والشعر والذكر كسبيل أكيد للوصول إلى الله عز وجل فالموسيقى الروحية بالنسبة له ، تساعد المريد على التركيز على الله بقوة لدرجة أن المريد يفنى ثم يعود إلى الواقع بشكل مختلف ، ومن هذه المنطلق تطورت فكرة الرقص الدائري الذي وصلت إلى درجة الطقوس ، وقد شجع الرومي على الإصغاء للموسيقى فيما سماه الصوفية السماع فيما يقوم الشخص بالدوران حول نفسه فعند المولويين التنصت للموسيقى هي رحلة روحية تأخذ الإنسان في رحلة تصاعدية من خلال النفس والمحبة للوصول إلى الكمال ، والرحلة تبداء بالدوران التي تكبر المحبة في الإنسان فتخفت أنانيته ليجد الحق الطريق للوصول إلى الكمال. وحين يعود المريد إلى الواقع ، يعود بنضوج أكبر وممتلئ بالمحبة ليكون خادما للغيره من البشر دون تمييز أو مصلحة ذاتية.

بعد وفاته حول ابنه **سلطان ولد** تعاليم الرومي إلى سلوك للمريد والذي عُرف بالطريقة المولوية وانتشرت هذه الطريقة في مختلف أصقاع العالم الإسلامي ولاقت صدى واسع في العالم الغربي في العصر الحديث.

3 – أعماله

تصنف أعمال الرومي إلى عدة تصانيف وهي: الرباعيات ، ديوان الغزل ، مجلدات المثنوي الستة ، المجالس السبعة و رسائل المنبر '

3 – 1 – شعره

- مثنويه المعاني : وهي قصائد باللغة الفارسية والذي يسميه بعض المتصوفة بالكتاب المقدس الفارسي . ويعتبره كثيرون من أهم الكتب الصوفية الشعرية.

- الديوان الكبير : أو ديوان شمس التبريزي والذي كتبه في ذكرى موت صاحبه العزيز وملهمه في طريق التصوف والشعر. وكتب فيه أكثر من أربعين بيت شعر وخمسين قصيدة نثرية.

- **الرباعيات** : وهي منظومة طبعت في إسطنبول ، و تبلغ 1659 رباعياً ، أي 3318 بيتاً .

4 - قصيده أنين الناي

قصيدة لجلال الدين الرومي ترجمة زهير سالم عن الفارسية بتصرف

أنصت إلى الناي يحكي حكايته
ومن ألم الفراق يبث شكايته
ومذ قطعت من الغاب ، والرجال والنساء لأنيني يبكون
أريد صدراً مِزَقاً مِزَقاً برَّحه الفراق
لأبوح له بألم الاشتياق..
فكل من قطع عن أصله
دائماً يحن إلى زمان وصله..
وهكذا غدوت مطرباً في المحافل
أشدو للسعداء ، وأنوح للبائسين
وكلٌ يظن أنني له رفيق
ولكن أياً منهم (السعداء والبائسين) لم يدرك حقيقة ما أنا فيه !!
لم يكن سري بعيداً عن نواحي ، ولكن
أين هي الأذن الواعية ، والعين المبصرة ؟ !!
فالجسم مشتبك بالروح ، والروح متغلغلة في الجسم..
ولكن أنى لإنسان أن يبصر تلك الروح ؟
أنين الناي نار لا هواء
فلا كان من لم تضطرب في قلبه النار
نار الناي هي سورة الخمر، وحميا العشق
وهكذا كان الناي صديق من بان
وهكذا مزقت ألحانه الحجب عن أعيننا..
فمن رأى مثل الناي سماً وترياقاً ؟!
ومن رأى مثل الناي خليلاً مشتاقاً ؟!
إنه يقص علينا حكايات الطريق التي خضبتها الدماء
ويروي لنا أحاديث عشق المجنون
الحكمة التي يرويها، محرمة على الذين لا يعقلون،
إذ لا يشتري عذب الحديث غير الأذن الواعية

4 – 1 – نثره

كتاب فيه ما فيه : وهو كتاب فيه إحدى وسبعون محاضرة ألقاها الرومي على صحبه في مناسبات مختلفة. وهو من تجميع مريديه وليس من كتابته هو .

المجالس السبعة : وهو تجميع لمواعظ ومحاضرات ألقاها في سبع مناسبات مختلفة تتناول مواضيع عن القرآن والحديث الشريف. وتتضمن أشعار فريد الدين عطار وسنائي وللرومي نفسه. وقد قدم هذه المحاضرات بطلب من أشراف القوم مثل صلاح الدين زغرب

الرسائل: وهي رسائل كتبها بالفارسية إلى مريديه ومعارفه ورجال دولة وتأثير. وهي تدل على اهتمام الرومي وانشغاله بمعارف مريديه وما أصبح له من تأثير كبير عليهم.

5 - أشهر اقواله

مَنْ لا يركض إلى فتنة العشق يمشي طريقا لا شيء فيه حي .
إنك قد رأيت الصورة ولكنك غفلت عن المعنى .
هكذا أود أن أموت في العشق الذي أكنه لك ، كقطع سحب تذوب في ضوء الشمس .
ارتق بمستوى حديثك لا بمستوى صوتك ، فالمطر الذي ينميّ الأزهار وليس الرعد .

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

6 - تأثير مؤلفاته

كانت لمؤلفات جلال الدين البلخي التأثير الكبير في الأدب الفارسي والتركي والأوردي كما أثر في التصوف. تمت ترجمة العديد من مؤلفات جلال الدين البلخي إلى اللغات العالمية المعاصرة ومن ضمنها اللغات الأوربية. كما غنى نجوم موسيقى بوب غربيون مثل مادونا ترجمات اشعار الرومي لتعظيمه قوة الحب ، واعتقاده في الفائدة الروحية للموسيقى والرقص.

العالم اللّغوي والمؤرّخ التركماني المشهور محمود الكاشغري

محمود بن الحسين بن محمد الكاشغري (1008 - 1102) عالم ومؤرخ تركي من مدينة كاشغر من علماء القرن الحادي عشر، اختص بأنساب الترك ولغاتهم ، ألف كتبه بالعربية ومنها " ديوان لغات الترك " طبع بالأستانة في 3 مجلدات سنة 1333هـ ، وهو مسلم من ترك القارلوق توفي سنة 1102م.

والده حسين كان واليا على **بارسغان** وتربطه علاقة مع خانات القراخان ، أما والدته بيبي رابية البصري فهي من أصول عربية.

ولد الكاشغري في منطقة **كاشغر** في تركستان الشرقية وهاجر منها إلى العراق , خلال إقامته في بغداد قام الكاشغري بكتابة كتابه **ديوان لغات الترك** في عام 1072م وأنهاه في 12 فبراير 1074م ، وقام بمراجعته أربع مرات ، وقد استغرقت هذه الفترة عامين كاملين إلي أن أنجزه بشكله النهائي عام 1076 م. وقد قام بإهداء انجازه إلي نجل الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله ، الأمير أبو القاسم عبد الله.

الملك المنصور نورالدين بن عمر بن علي التركماني

((يستطيع ثلاثة أتراك أو تركمان ، معهم ثلاثـة أسياف , وثلاثة أفراس , وقـدر طعام ، تأسيس إمبراطورية))

الأتراك والتركمان مشهورون في التاريخ في بناء الدول والإمبراطوريات. سواء قبل الإسلام أو بعد تشرفهم باعتناق الدين الحنيف والجهاد في سبيل الله تحت رايته ، ومن يتصفح التاريخ يندهش، ولا يستطيع إلا ان يقف إجلالا واحتراما أمام عبقرية هذا الشعب العظيم في بناء الدول والإمبراطوريات التي حكمت نصف العالم لما يزيد على ثمان قرون . فلا نريد في هذه العجالة ان نعدد أسماء هذه الدول والإمبراطوريات التي امتدت من منغوليا مرورا بإمبراطورية قبلاي خان في الصين إلى إمبراطورية الشاه على اكبر في الهند إلى طهماسب ودولة السلجوقيين وقرة قوينلو وآق قوينلو والاتابكة والمماليك في مصر والإمبراطورية العثمانية.

وقد حكم الأتراك من الجزائر ومصر في الشمال الأفريقي إلى اليمن في جنوب الجزيرة العربية والبحرين والجزيرة العربية كاملة والعراق وإيران والهند وأفغانستان ونصف روسيا ومن اسطنبول في القارة الأوروبية إلى أسوار فيينا ، لمئات السنين.

فبعد إسقاط الإمبراطورية العثمانية في العشرينات من القرن الماضي، منع على الأمة التركية التوحد حالها حال الأمة العربية ، فهاتان الأمتان تكالبت وتتكالب عليهما القوى الحاقدة على الإسلام تمنعهما من الوحدة والتوحد بين دولها وأقطارها المنتشرة .

فالأمة التركية بنفوسها التي تتجاوز 400 مليون والتي تشغل مساحة تمتد من بلاد البلقان شمال البحر الأسود وتمتد إلى الشيشان وداغستان وتترستان إلى أذربيجان وقيرغيزستان وتركمانستان وطاجكستان وأوزبكستان إلى شمال منغوليا وشمال شرق أفغانستان وشمال غرب الصين (في الصين وحدها يوجد حوالي 100 مليون تركماني مسلم من قبيلة اوغور وما زالت لغتهم التركمانية تكتب بالأحرف العربية وتقديرا من ماوتسي تونغ لهم ، ثبت لغتهم التركمانية على العملة الصينية وبالحروف العربية) .

الملك نورالدين بن عمر بن علي بن رسول بن هارون بن أبي الفتح التركماني ، هو مؤسس الدولة الرسولية في اليمن ، وأحد الدهاة الاجواد الشجعان. ملك عادل ، أديب فارس ، مجاهد وسياسي داهية أسس ملكا دام 232 عاما.

الملقب بالملك المنصور. أختلف النسابون في نسب الرسوليين، فمنهم من يرفعه إلى جبلة بن أيهم الغساني. والغساسنة فرع من قبيلة الازد اليمنية التي نزحت الى شمال الجزيرة بعد تهدم السد (سد مأرب) وسادوا في بلاد الشام وفي أزمنة لاحقة سكن أحفاد ابن الايهم بلاد التركمان وتكلموا لغتهم ومن هنا جعلهم بعض النسابة تركمانا. أما الجد القريب للرسوليين فهو محمد بن هارون الذي استوطن العراق ودخل في خدمة الخليفة العباسي المستنصر بالله الذي وثق بحكمته وفصاحته فجعله رسوله إلى الشام ومصر حتى غلب عليه كنية الرسول فصار لقبا له ولأسرته من بعده إضافة إلى لقبهم الأصلي التركماني الذين اشتهروا به ولم يتنازلوا عن حتى إبان حكمهم لأكثر من قرنين من الزمان ، فالأتراك أو التركمان لم يتعاملوا مع إخوانهم العرب بعد اعتناقهم الدين الإسلامي الحنيف من المنطلق العرقي الشوفيني الضيق وإنما جندوا أنفسهم لخدمة الإسلام والمسلمين والدفاع عن أراضيهم ومقدساتهم والجهاد في سبيل الله لدفع شر الغزاة المحتلين الطامعين ،

فان التركمان هم الذين قضوا على جحافل التتر والمغول عندما غزوا الشام وفلسطين والحقوا بهم شر هزيمة في معركة (عين جالوت) بالرغم من ان التتر والمغول هم من القبائل التركية التي تنحدر منها التركمان أيضا فصرخ بوجههم **القائد قطز** وناد بأعلى صوته **واسلاماه !** ولم يناد واتركاه أو تركماناه . ان سبب اختيار الخليفة المستنصر العباسي، برأينا، لمحمد بن هارون التركماني ، هو بالإضافة إلى فصاحته وحكمته ، هو إجادته للغة التركمانية ، لغة الزنكيون التركمان ملوك الشام ومصر.

ولد مؤسس الدولة الرسولية ، نورالدين عمر بن علي رسول الغساني التركماني بمصر ونشأ أديبا فاضلا فارسا. كان حسن الاتصال ببني أيوب, ولما استوثق الحكم للأيوبيين في مصر ادخلوا أبناء الغساني التركماني في خدمتهم ومكنوهم من اليمن . فدخل اليمن بصحبة توران شاه خمسة من بني رسول التركماني احدهم بطلنا نور الدين عمر بن علي رسول الغساني التركماني. ولما دخل الأيوبيون اليمن كان نور الدين عمر بن علي الرسولي التركماني مع الملك المسعود ابن الملك الكامل فقلده المسعود أعمالا كثيرة ظهرت فيها كفاءته,

ولما توجه الملك المسعود إلى مصر جعل نورالدين عمر نائبا عنه في اليمن. ثم سار المسعود إلى مكة وتوفي فيها سنة 626هـ الموافق لعام 1228 للميلاد، ثم استولى نور الدين عمر المنصور الرسولي على اليمن وأظهر النيابة عن الأيوبيين إلى أن أعد جيشا ضخما واستقل باليمن سنة 630هـ الموافق لعام 1232 للميلاد وتلقب بالملك المنصور وضربت السكة باسمه . وبهذا أسس الملك المنصور نور الدين عمر بن علي الرسولي الغساني التركماني دولة استمرت تحكم كامل الجزيرة العربية لمدة 232 عاما أي من العام 626-858 للهجرة والموافق للعام 1229-1454 للميلاد.

أقام أول الأمر في (**جند**) ثم اتخذ تعز عاصمة لملكه . أمر بالخطبة للخليفة العباسي المستنصر بالله بالرغم من ان الخلافة العباسية كانت في النزع الأخير، وكان الدافع لهذا الأمر في رأينا الأول لإضفاء الشرعية الروحية على ملكهم والثاني الولاء والوفاء لمقر الخلافة الإسلامية الشرعية في بغداد ، ومن الطريف ان مساجد اليمن تحت الحكم الرسولي التركماني ظلت تخطب لآخر خلفاء بني العباس المستعصم ، بعد سقوط بغداد عام 656 للهجرة الموافق للعام 1258 للميلاد على يد المغول .

ويذكر الخزرجي، مؤرخ بني الرسول التركماني (ان المستعصم هو الذي يدعى له على سائر المنابر الى وقتنا هذا في سنة ثمان وتسعين وسبعمائة) أي لفترة 142 عاما بعد انتهاء الخلافة العباسية في بغداد . هذا هو الوفاء التركماني في أروع صورها !!. وهل هناك مقارنة بين هذا الوفاء وبين خيانة ابن العلقمي الذي كان وزيرا للمستعصم.

تعد دولة الرسوليين من أطول الدول عمرا في تاريخ اليمن الوسيط إذ استمرت 232 عاما، وحكمها خمسة عشرة ملكا أولهم الملك المنصور نورالدين عمر بن على الرسولي التركماني وآخرهم المسعود أبو القاسم صلاح الدين بن الاشرف الرسولي التركماني. ويجعل بعض المؤرخين من المؤيد شقيق المسعود ومنافسه في الحكم آخر الملوك ، لكن كليهما انتهى أمره في العام 858 للهجرة الموافق لعام 1454 للميلاد على يد الطاهريين.

جهز نور الدين عمر حملة إلى الحجاز فاستولى على مكة وتوابعها وتم له ملك ما بينها وبين حضرموت وانتظم له ولبنيه ملك الحجاز واليمن ، ويشبه المؤرخين الدولة الرسولية باليمن بدولة العباسيين في العراق.

تمكن الرسوليون بقيادة مؤسس ملكهم المنصور نور الدين عمر التركماني من توحيد اليمن كله تحت حكمه ، من حضرموت جنوبا وحتى مكة المكرمة شمالا وبسط سيادته الفعلية على كل الجهات ودانت له القبائل والأسر كالائمة الزيديين في صعدة وجهاتها وآل حاتم في صنعاء وما حولها. ومع ذلك فقد واجه الرسوليين الثورات وانتفاضات وتمردات مختلفة ، لأسباب سياسية ومذهبية ، كثورة الأمير أسد الدين في صنعاء وانتفاضة الزيديين بزعامة الإمام المهدي احمد بن الحسين وهو من أحفاد الإمام عبد الله بن حمزة (المشهورون بالحمزات) وقف الملك المظفر الرسولي التركماني الى جانب قبيلة الحمزات وتمكن من إحراز النصر على المتمردين .

بعد وفاة الملك المظفر خلفه شقيقه الملك الاشرف " إسماعيل " (778 - 803 هجرية)، الذي حكم لمدة عام واحد فقط ليخلفه شقيقه المؤيد الذي حكم الدولة الرسولية لخمس وعشرين عاما، تمكن خلال حكمه من ترسيخ هيبة الدولة وقضائه على التمردات والانتفاضات ومقاومته لوثبات الأئمة الزيديين في الجبال . خلفه ولده المجاهد"علي بن داود " (721 - 764 هجرية الموفق لعام1321-1362 ميلادية) ليحكم ثلاثا وأربعين سنة جابه فيها اعنف واعتى التمردات ضد ملكه. وقد اظهر الملك المجاهد صمودا وعنادا وبطولة وحنكة في مجابهة المستجدات والمؤامرات والدسائس ضده وضد ملكه يعتبر المؤرخون المـلك المجـاهد **علي بن داود** بحق واحدا من عمالقة الرسوليين التركمانيين .

تميز حكم الملك المنصور نور الدين عمر بن علي التركماني ومن بعد أولاده وأحفاده بكثير من الإنجازات المهمة في ميدان العلم والتجارة والزراعة والطب. فقد بنوا المدارس الكثيرة وأجزلوا العطاء للعلماء. وكان كثير من ملوك بني رسول التركماني علماء وشعراء وأصحاب رأي ومؤلفو كتب في مختلف العلوم، ولا تزال شواهد وشواخص من منجزاتهم العمرانية شاهد الى يومنا هذا كجامع المظفر وجامع الاشرفية وحصن تعز. وأغتيل الملك المنصور نور الدين عمر الغساني التركماني عام 647 للهجرة الموافق لعام 1249 للميلاد على يد احد خدمه في قصره.

وقد شهدت هذه الدولة رخاء اقتصادياً وثقافياً كبيراً ، لعبت فيها النساء أدواراً سياسية واقتصادية هامة . والذي يؤكد تركمانية هذه الأسرة الكريمة هو دور النساء في الدولة التي أسسها الملك المنصور نور الدين عمر، اذا كان من المعروف تدخل النساء التركمانيات في شؤون الحكم ،

فمن ضمن النساء آلاتي لعبن أدواراً سياسية هامة : **الدار الشمسي** , ابنة الملك المنصور نور الدين عمر , أول ملوك هذه الدولة , والتي اشتهرت بذكائها وقوتها السياسية أيضاً. ثم السيدة **جيهات صلاح** والتي سيطرت على الحكم كونها زوجة الملك نور الدين عمر ومكنت ابنها من سدة الحكم عام 722 للهجرة الموافق لعام 1322 للميلاد , وفي عام 777 للهجرة الموافق لعام 1376للميلاد لعبت جيهات دوراً بارزاً في إحكام قبضة ولدها على قيادة اليمن . والي جانب الأنشطة السياسية التي لعبتها النساء الرسوليات التركمانيات , فقد تمكن من خلال ثرواتهن الخاصة وروحهن الحضارية من وقف وبناء المساجد , والمـدارس، ونوا فير المياه العامة , و إعادة ترميم الكثير من المعالم الأثرية .

ويقول المؤرخون أن أكثر من ثلث المباني المتبقية في مدينتي زبيد وتعز، كان بناؤها على نفقة نساء الدولة الرسولية. لقد كانت للدولة الرسولية مكانتها وهيبتها الدولية، ولعلى قصة الرسالة التي بعث بها مسلمو الصين توضح ذلك.

وجه مسلمو الصين إلى الملك الظافر " *عامر بن عبد الوهاب الرسولي التركماني* " (894 - 923 هجرية) رسالة يشتكون من تعسف إمبراطور الصين ومنعه المسلمين من ختان أولادهم حسب الشريعة الإسلامية وطلبوا منه التدخل لدى الإمبراطور لرفع الحظر عن ممارساتهم لشعائرهم الإسلامية. وقد تصرف الملك المظفر بحكمة و شجاعة، يحسده عليها حكام هذا الزمان . تصرف وبما يتفق ومكانته لدى نفوس مسلمي الصين (جميع مسلمي الصين من التركمان الاغوز) فبعث رسالة إلى إمبراطور الصين يطلب منه السماح لمسلمي الصين بممارسة واجباتهم الدينية الشرعية بختان أولادهم حسب الشريعة الإسلامية وممارسة شعائرهم الدينية بحرية ، وبعث إليه بهدية تليق بمقامه. فرفع إمبراطور الصين الحظر على ختان المسلمين لأبنائهم وممارسة شعائرهم الدينية بحرية وبدون قيود، وهو ما يشير إلى تقدير إمبراطور الصين لمكانة الدولة الرسولية المسلمة، خاصة وان أباطرة الصين في ذلك الزمان كانوا يعتبرون أنفسهم سادة العالم وان غيرهم من ملوك أو سواهم إنما هم عبيد لهم ، بالضبط كما يفعل إمبراطور هذا الزمان ، ولكن هل لدى احد من ملوك هذا الزمان شجاعة الملك الرسولي التركماني المظفر ليقول للإمبراطور فوق عينك حاجب

آتيلا الهوني القائد والملك الذي هز عرش الروما

إمبراطورية الهونيين ، مع خطوط الحدود السياسية الحاليةِ

1 - تقديم

أتيلا الهوني ملك هوني عاش بين عامي (395 - 453 م) كان آخر حكام الهون وأقواهم وأسس في إقليم روسيا وأوروبا إمبراطورية كبيرة الاتساع ، عاصمتها في ما يسمى هنغاريا اليوم . امتدت إمبراطوريته من نهر الفولغا شرقا وحتى غرب ألمانيا غربا . فرض الجزية على الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) بعد أن غزا مدن البلقان مرتين، وحاصر القسطنطينية في اجتياحه الثاني لبيزنطة وفشل الحصار. وفي عهده زحف الهون إلى فرنسا حتى مدينة **أورليانز** وحاصرت جيوشه مدينة **باريس** . نتيجة لكل ذلك ، أسرع الإمبراطور الروماني الغربي **فالنتينيان الثالث** بجيش من عاصمته في عام 452 م

وشكل ضد أتيلا تحالفاً عسكرياً عظيماً من الرومان وكثير من القبائل الجرمانية وخاصة القوط الغربيين أملاً في إيقاف زحف جيوشه نحو جنوب فرنسا ، وفعلاً وقعت معركة شرسة بين أتيلا والتحالف الروماني-الجرماني ضده في معركة من أعظم معارك التأريخ القديم وهي **معركة شالون** خسر فيها أتيلا وانسحب هو وقواته من المعركة.

بعد شهور من حملته هذه مات أتيلا في ليلة زفافه على عروسه **الجرمانية هيلديكو** ، مما أثار اعتقادات في عروسه الجرمانية أن تكون قد دست له سماً في شرابه ولا سيما أنها كانت سبية من إحدى حملاته على الجرمان في الشمال.

بعد عام على وفاة أتيلا ، هزم الهون أمام القبائل الجرمانية في معركة **نيداو** في عام 469 وبعد هذه المعركة انهارت الإمبراطورية الهونية بشكل كامل.

2 - صفاته

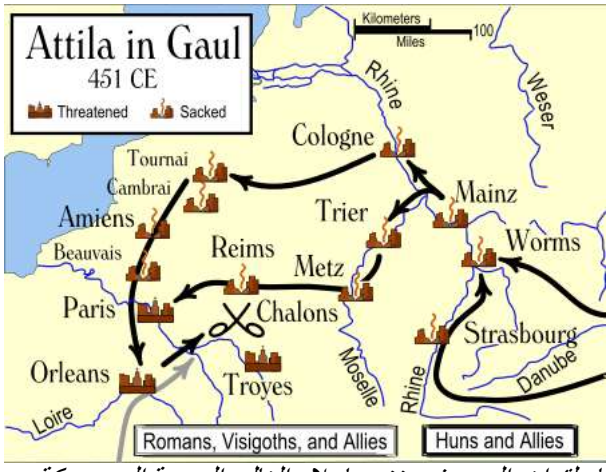

المسار العام لقوات الهون في غزوها بلاد الغال, المؤدية إلى معركة سور شالون

.

كان أتيلا جباراً متغطرساً في قوله ، يقلب عينيه ذات اليمين وذات الشمال ، يظهر في حركات جسمه ما تنطوي عليه نفسه من قوة وكبرياء . وكان في الحق محباً للقتال ، ولكنه يتمهل فيما يقدم عليه من أعمال، وكان عظيماً فيما يسدي من نصح، غفوراً لمن يرجو منه الرحمة، رؤوفاً بمن يضع نفسه تحت حمايته. وكان قصير القامة، عريض الصدر، كبير الرأس، صغير العينين، رقيق شعر اللحية قد وخطه الشيب. وكان أفطس الأنف، أدكن اللون، تنم ملامحه على أصله.

وكان يختلف عن غيره في أنه يعتمد على الختل أكثر من اعتماده على القوة. وكان يحكم شعبه باستخدامه خرافاته لتقديس ذاته العليا ، وكان يمهد لانتصاراته بما يذيعه من القصص المبالغ فيها عن قسوته ، حتى لقد سماه أعداؤه المسيحيون " بسوط الله " ، وارتاعوا من ختله ارتياعاً لم ينجهم منه إلا القوط .

وكان أمياً لا يستطيع القراءة أو الكتابة ، ولكن هذا لم ينقص من ذكائه الفطري. ولم تكن أخلاقه كأخلاق المتوحشين، فقد كان ذا شرف، وكان عادلاً، وكثيراً ما أظهر أنه أعظم كرماً وشهامة من الرومان . وكان بسيطاً في ملبسه ومعيشته، معتدلاً في مأكله ومشربه، يترك الترف لمن هم دونه ممن يحبون التظاهر بما عندهم من آنية فضية وذهبية، وسروج ، وسيوف وأثواب مزركشة تشهد بمهارة أصابع أزواجهم ،

وكان قصره بيتاً خشبياً ضخماً أرضه وجدرانه من الخشب المسوى بالمسحج ، ولكنه يزدان بالخشب الجميل الصقل والنحت، فرشت فيه الطنافس والجلود ليتقي بها البرد، وكانت عاصمة ملكه قرية كبيرة أغلب الظن أنها كانت في مكان بودابست الحالية ؛ وقد ظل بعض المجريين حتى هذا القرن يطلقون على هذه المدينة إتزلنبرج Etzelnburg أي مدينة أتلا.

يعده البعض أقوى رجل في أوروبا في عصره فكان ثيودوسيوس الثاني إمبراطور الدولة الشرقية ، وفلنتنيان إمبراطور الغرب يعطيانه الجزية يشتريان بها السلام، ويتظاهرون أمام شعوبهما بأنها ثمن لخدمات يؤديها أحد أقيالها . ولم يكن أتيلا ، وهو قادر على أن ينزل إلى الميدان جيشاً قوامه خمس مئة ألف مقاتل ، يرى ما يحول بينه وبين السيادة على أوروبا كلها وبلاد الشرق بأجمعها .

ففي عام 441 عبر قواده وجنوده نهر الدانوب ، واستولوا على سرميوم Sirmium، وسنجديونوم Singidiunum (بلغراد حاليا) ونيسوس Naissus (نيش حاليا) وسرديكا Sardica (صوفيا حاليا) ، وهددوا القسطنطينية نفسها. وأرسل ثيودوسيوس الثاني جيشاً لملاقاتهم ، ولكنه هزم ، ولم تجد الإمبراطورية الشرقية بداً من أن تشتري السلم برفع الجزية السنوية من سبع مئة رطل من الذهب إلى ألفي رطل ومائة.

وفي عام 447 دخل الهون تراقية ، وتساليا ، وسكوذيا (في جنوبي روسيا) ونهبوا سبعين مدينة وساقوا آلافاً من أهلها أرقاء. وأضيفت السبايا إلى أزواج المنتصرين ، ونشأ من ذلك جيل اختلطت فيه دماء الفاتحين والمغلوبين ترك آثاراً من الملامح المغولية في الأقاليم الممتدة من الشرق حتى بافاريا ، وخلفت غارات الهون بلاد البلقان تخريباً دام أربعة قرون ، وأتى على نهر الدانوب حين من الدهر لم يعد فيه كما كان طريق التجارة الرئيسي بين الشرق والغرب ، واضمحلت لهذا السبب المدن القائمة على شاطئيه.

ولما أن استنزف أتيلا دماء الشرق بالقدر الذي ارتضاه ولى وجهه نحو الغرب وتذرع لغزوه بحجة خلاصتها أن **هونوريا** Honoria أخت **فلنتنيان الثالث** كانت قد نفيت إلى القسطنطينية بعد أن اعتدى على عفافها أحد رجال التشريفات في قصرها . وتلمست هونوريا أية وسيلة للخلاص من النفي فلم تر أمامها إلا أن تبعث بخاتمها إلى أتيلا وتستجيره ليساعدها في محنتها ، واختار الملك الداهية ، الذي كانت له أساليبه الخاصة في الفكاهة ، أن يفسر إرسال الخاتم بأنه عرض منها للزواج بها ، فطالب من فوره بهونوريا وبنصف الإمبراطورية الغربية بائنة لها ، ولما احتج وزراء فلنتنيان على الطلب أعلن أتيلا الحرب. هذا هو السبب الظاهري ، أما السبب الحقيقي فهو ان **مرسيان** الإمبراطور الجديد في الشرق أبى أن يستمر على أداء الجزية وان فلنتنيان قد حذا حذوه.

وفي عام 450 زحف أتيلا ومعه نصف مليون رجل على نهر **الراين** ، ونهبوا **تريير ومتز** وأحرقوها وقتلوا أهلها. فقذف ذلك الرعب في قلوب **غالة** كلها فقد علموا أن الغزاة ليس على رأسهم جندي متمدين كقيصر ، بل كان الزاحف عليهم هو الهوني الرهيب ، سوط الله المبعوث لعذاب المسيحيين والوثنيين على السواء .

وجاء ثيودريك الأول ملك القوط المعمر لينقذ الإمبراطورية من محنتها وانضم إلى الرومان بقيادة إيتيوس ، والتقت الجيوش الضخمة في حقول **كاتالونيا** بالقرب من **ترويس**، ودارت بينها معركة من أشد معارك التاريخ هولاً، جرت فيها الدماء انهاراً، حتى ليقال إن 162.000 رجل قد قتلوا فيها من بينهم ملك القوط ؛ وانتصر الغرب في هذه المعركة نصراً غير حاسم ، فقد تقهقر أتيلا بانتظام ، وأنهكت الحرب الظافرين ، أو لعلهم كانوا منقسمين على أنفسهم في خططهم ، فلم يتعقبوا أتيلا وجنوده ولهذا غزا إيطاليا في العام التالي.

ركن الدين طغرل بك الأول

ركن الدين طغرل بك بن سلجوق (385 - 455 هـ / 995 - 1063 م) كان ثالث حكام السلاجقة قام بتوطيد أركان الدولة السلجوقية وبسط سيطرة السلاجقة على إيران وأجزاء من العراق . اعتلى السلطة في عام 1016 م.

بعد أن هزم خانات بخارى الذين كان يتبع لهم طغرل بك في عام 1025 من قبل محمود الغزنوي اضطر طغرل بك وعمه أرسلان وأخوه جغري أن يغادروا لخوارزم. قام هو وأخوه بالسيطرة على مدن مرو ونيسابور في عام 1028 م ولم تمض مدة من الزمن إلا وسيطر طغرل على منطقة خراسان بأكملها. في عام 1040 م قاد جيش السلاجقة في معركة **داندانـاقان** ضد جيوش مسعود ابن محمود الغزنوي. اتجه بعدها طغرل لإيران فأدخلها في حكمه ثم دخل بغداد عام 1055 وأعلن تبعية السلاجقة للخلافة العباسية. في عام 1058 قام بإخماد عصيان الفاطميين حيث ثار الفاطميون (العبيديون) على السلاجقة وسيطروا على بغداد لفترة وجيزة.

يعد طغرل بك ، المؤسس الحقيقي لدولة السلاجقة ، التي نشأت على يديه ، وهو أول من حمل الراية الحمراء ذات الهلال والنجمة ، والذي أصبح فيما بعد علمًا لتركيا ، ومدت سلطانها تحت سمعه وبصره حتى صارت أكبر قوة في العالم الإسلامي، وتوفي سنة (455 هـ/1063 في **الري** دون أن يترك ولداً يخلفه على الحكم ، فشب صراع على السلطة حسمه ابن أخيه **ألب أرسلان** لصالحهِ ، بمساعدة وزيره النابه نظام الملك.

نادر شاه أفشار (التركماني)

1 - تقديم

نادر شاه أفشار (التركماني) ويعرف كذلك باسم " نادر قُلي بك " أو "تَهْماسْپ قلي خان" (6 أغسطس 698 - 19 يونيو 1747) شاه إيران من 1736 إلى 1747، ومؤسس الأسرة الأفشارية التي حكمت إيران . كان أول أمره من قطاع الطرق ثم جمع رجاله ورأى من مصلحته العمل كقائد عسكري لطهماسب الثاني آخر الشاهات الصفويين، ويصفه بعض المؤرخين بأنه كان *نابوليون بلاد الفرس* أو *الإسكندر الثاني* . كان له الفضل في حركة المقاومة العسكرية لتحرير إيران من الاحتلال الأفغاني الذي قامت به قبيلة الگلزاي الأفغانية (ذات الأصول البشتونية) منطلقاً من مدينة " مشهد ".

وبعد نجاحه انتهى به الأمر إلى أن نصب نفسه شاهاً (1736-1747) وأخذ اسم نادر شاه . ينحدر نادر شاه من قبيلة أفشار التركمانية من شمال فارس ، التي أمدت الدولة الصفوية بالقوة العسكرية منذ عهد إسماعيل الصفوي.

يعتبر نادر شاه واحداً من أكبر الغزاة الفاتحين في تاريخ إيران الحديث حيث قام عام 1737 م بالاستيلاء على أفغانستان وبعض الأجزاء من وسط آسيا - خانات خيوة - ثم قاد حملة (1738-1739) إلى الهند ، تمكن فيها من الاستيلاء على دلهي في 21 مارس 1738، حيث نهب دلهي واستولى على مجوهرات عرش الطاووس . انتصر في معارك ضد الأفغان , العثمانيين , الروس والمغول. نادر تمثل خطى الفاتحين العظام من وسط آسيا , جنگيز خان وتيمور , فحاول أن يقلد إنجازاتهم العسكرية وخصوصاً لاحقاً في حكمه – فظاعاتهم .

انتصارات نادر شاه جعلت منه لفترة وجيزة أقوى حاكم في الشرق الأوسط, إلا أن امبراطوريته ما لبثت أن تفككت بسرعة بعد اغتياله في 1747.

2 - مطلع حياته

في 1706-8 ثار أفغانيو قندهار بقيادة مير (أمير) فايز وطردوا الفرس. وغزا ابنه مير محمود فارس ، وخلع الحاكم الصفوي حسيناً، ونصب نفسه شاهاً. وقد دعم الدين سلاحه، لأن الأفغانيين كانوا يتبعون المذهب السني، ويكفرون الفرس المتشيعين.

وقتل محمود في سورة غضب ثلاثة آلاف من حرس حسين وثلاثمائة من أشراف الفرس ، ونحو مائتي طفل اشتبه في أنهم استنكروا قتل آبائهم. وبعد راحة طويلة قتل محمود في يوم واحد (7 فبراير 1725) جميع الأحياء من أفراد الأسرة المالكة خلاً حسيناً واثنين من أبنائه الصغار.

ثم التاث عقل محمود، فقتله وهو لا يزال في السابعة والعشرين ابن عمه أشرف (22 أبريل 1725) الذي نادى بنفسه شاهاً. وهكذا بدأ سفك الدماء الذي هد كيان فارس في ذلك القرن.

واستنجد طهماسب بن حسين بروسيا وتركيا، فاستجابت بالاتفاق على اقتسام فارس فيما بينهما (1725). ودخل جيش تركي فارس واستول على همدان وقزوين والمراغة، ولكن هزمه أشرف قرب كرمانشاه. وكان الجنود الأتراك يفتقرون إلى الحماسة، فقد تساءلوا أي سبب يدعوهم لمقاتلة الأفغانيين، وهم أخوة لهم سنيون على شاكلتهم، ليردوا الصفويين الشيعيين إلى الحكم. وتصالح الأتراك مع أشرف ولكنهم احتفظوا بالأقاليم التي فتحوها (1727).

وبدا أن أشرف قد غدا الآن في أمان، ولكن ما مضي عليه عام حتى تحدى سلطانه المغصوب الدخيل ظهور رجل فارسي مغمور انقض على العدو في بضع سنين، فحقق انتصارات من أروع وأفظع ما سجله تاريخ الحروب قاطبة. وقد ولد هذا المقاتل واسمه نادر قيلي (أي عبد الله) في خيمة بشمال شرقي إيران (1686) وكان يعين أباه على رعي ما يملكان من قطعان الغنم والماعز، ولم يتح له من التعليم غير ما لقنته الحياة الشاقة المحفوفة بالمخاطر. فلما بلغ الثامنة عشرة وخلف أباه كبيراً لأسرته اختطفه هو وأمه المغيرون الأزبك وحملوهما إلى خيوة حيث باعوهما عبيداً. وماتت الأم في ذل السر، ولكن نادراً هرب وأصبح زعيماً لعصابة لصوص، واستولى على كالات ونيشابور ومشهد، وأعلن ولاءه وولاء هذه المدن للشاه طهماسب، وتعهد بطرد الأفغانيين من فارس ورد عرش فارس إلى طهماسب. وقد أنجز هذا كله في حملات متلاحقة (1729-30) ورد طهماسب إلى عرشه، فعين نادراً سلطاناً على خراسان وسيستان وكرمان ومازندران.

3 - علاقته مع العثمانيين

وما لبث القائد المظفر أن شرع في استرداد الأقاليم التي استولت عليها تركيا. فاستطاع بهزيمة الترك هزيمة فاصلة في همدان (1731) أن يخضع العراق وأزربيجان لحكم الفرس. ثم نمى إليه نبأ تمرد في خراسان، فرفع الحصار عن أروان وزحف ألفاً وأربعمائة ميل عبر العراق وإيران ليحاصر هراة ، ونزل طهماسب بشخصه أثناء ذلك إلى ساحة القتال ضد الترك فخسر كل ما كسبه نادر، ونزل عن جورجيا وأرمينيا لتركيا نظير تعهد الترك بمساعدته ضد روسيا (1732). فأسرع نادر قافلاً من الشرق وأنهى المعاهدة، وخلع طهماسب وسجنه ، وأجلس على العرش غلاماً لطهماسب لم يجاوز عمره ستة أشهر باسم الشاه عباس الثالث ، ونادى بنفسه وصياً على الصبي، وأرسل إلى تركيا إعلاناً بالحرب.

ثم زحف على الترك بجيش عدته ثمانون ألف مقاتل جندهم بالإقناع أو بالإرهاب. وعلى مقربة من سامراء التقى بجيش عرمرم من الترك يقودهم **توبال عثمان** من محفته لبتر ساقيه. وأطلقت النار مرتين على جوادي نادر أسفله ، وفر حامل علمه ظناً منه أنه قتل، وانقلبت عليه فرقة عربية كان يعتمد على معونتها، وهكذا كانت هزيمة الفرس هزيمة نكراء ماحقة (18 يوليو 1733) . ولكنه لملم فلول جيشه في همدان، وجند آلافاً جدداً، وسلحهم وأطعمهم، ثم كر على الترك وبطش بهم في ليلان في مذبحة رهيبة لقي فيها توبال عثمان حتفه. ثم اندلعت ثورة أخرى في جنوب غربي فارس، فشق نادر طريقه من الغرب إلى الشرق، وهزم الزعيم المتمرد فانتحر. وفي عودته عبر فارس والعراق، التقى بثمانين ألف تركي في بغاوند (1735)، وهزمهم هزيمة نكراء أكرهت تركيا على إبرام صلح نزلت بمقتضاه لفارس عن تفليس وجوندة وأروان.

4 - علاقته بروسيا

لم ينس نادر أن بطرس الأكبر هاجم فارس في 1722-23، واستولى على أقاليم جيلان وأستراباد ومازندران على بحر قزوين، وعلى مدينتي دربند وباكو. وكانت روسيا قد ردت الأقاليم الثلاثة لفارس (1732) لانشغالها في جهات أخرى. فهدد نادر الآن (1735) بالتحالف مع تركيا ضد روسيا إن لم تنسحب من دربند وباكو. وعليه سلمت إليه المدينتان، ودخل نادر أصفهان دخول الفاتح الظافر الذي أعاد بناء قوة فارس. فلما مات الصبي عباس الثالث (1736) مختتماً بموت ملك الصفويين، جمع نادر بين الواقع والمظهر، وارتقى العرش باسم نادر شاه.

وكان يؤمن بأن الخلافات الدينية بين تركيا وفارس تعمل على نشوب الحروب المتكررة، لذلك أعلن أن فارس ستتخلى منذ الآن عن بدعة التشيع وترتضي السنية مذهباً لها. فلما أدان زعيم الشيعة هذه الخطوة شنقه نادر بكل هدوء مستطاع. ثم صادر أوقاف قزوين الدينية ليفي بنفقات جيشه لأن فارس على حد قوله مدينة لجيشها أكثر مما هي مدينة لدينها . ثم إذ شعر بالحنين إلى الحرب، فأشرك معه في الملك ابنه رضا قلي ،

وكان قدره المقدور أنه لو سرح جيشه فربما يعيث فساداً في الأرض ويشق عليه عصا الطاعة، ولو أبقى عليه جيشاً عاملاً فلزام عليه أن يكسوه ويطعمه، وكانت النتيجة التي خلص إليها أن الحرب أرخص له من السلم إذ استطاع خوضها على ساحة غريبة. فمن ترى يكون هدفه الآن؟ وتذكر غارات الأزبك على شمال شرقي فارس، وكيف باعوه عبداً، وكيف ماتت أمه في رقها.

ففي 1740 قاد جيشه زاحفاً على أزبكستان، ولم يكن لأمير بخاري لا القوة ولا الميل للوقوف في وجه نادر، ومن ثم فقد أذعن، وأدى تعويضاً ضخماً، ووافق أن يكون نهر سيحون كما كان في القدم الحد بين أزبكستان وفارس. وكان أخاه خيوه قد أعدم مبعوث نادر، فقتل نادر هذا الخان، وأطلق سراح آلاف من العبيد الفرس والروس (1740).

كان نادر بكل شخصيته مقاتلاً استغرقت الحرب عقله كله، فلم يعد فيه ذرة من الرغبة في الحكم والإدارة. وبات السلام عنده عبئاً ثقيلاً لا يطيقه. وجعلته الغنائم والأسلاب إنساناً جشعاً بخيلاً بدلاً من أن يكون جواداً كريماً. فحين ملأت خزائنه كنوز الهند أعلن تأجيل دفع الضرائب في فارس ثلاث سنين، ثم عدل عن رأيه وأمر بجمع الأموال كما كانت تجمع من قبل، وأفقر جباته فارس كما لو كانت بلداً مغلوباً. ثم خامرته الظنون بأن ابنه يتآمر على خلعه، فأمر بأن تفقأ عيناه. وقال له ابنه رضا قلي " إنك تفقأ عيني بل عيني فارس" . وبدأ الفرس يمقتون منقذهم كما تعلم الروس من قبلهم أن يمقتوا بطرس الأكبر. وأثار الزعماء الدينيون عليه بغض أمة طعنت في إيمانها الديني. فحاول أن يخمد التمرد المتعاظم بإعدام المتمردين بالجملة، حتى لقد بنى أهراماً من جماجم ضحاياه. وفي 20 يونيو 1747 اقتحم خيمته أربعة رجال من حرسه وهجموا عليه، فقتل اثنين منهم، ولكن الآخرين صرعاه. وتنفست فارس كلها الصعداء.

وهوت من بعد البلاد إلى درك من الفوضى أسوأ مما تردت فيه أيام سيطرة الأفغانيين. فطالب نفر من خانات الأقاليم بالعرش، وتلا ذلك مباراة في التقتيل والاغتيال. وقنع أحمد خان بتأسيس مملكة أفغانستان الحديثة . أما شاه رخ - الرجل الوسيم اللطيف الرحيم - فقد سملت عيناه بعد اعتلائه العرش بقليل، فتقهقر ليحكم خراسان حتى 1796. وخرج كريم خان منتصراً من الصراع، وأسس الأسرة الزندية (1750) التي احتفظت بسلطانها حتى 1794. واختار كريم شيراز عاصمة لملكه ، وزينها بالمباني الجميلة، وساد جنوبي فارس تسعة وعشرين عاماً من نظام وسلام لا بأس بهما. فلما مات جعل التطاحن على السلطة يتخذ من جديد صورة الحرب الأهلية ، وعادت الفوضى تضرب أطنابها من جديد.

5 - الانتصار على الأفغان

قاد جيشاً من 100.000 مقاتل ليفتح به أفغانستان والهند. وضرب الحصار عاملاً كاملاً حول قندهار. فلما استسلمت له (1738) كان كريماً رحيماً مع المدافعين عنها، حتى أن جيشاً من الأفغانيين انضوى تحت لوائه وظل وفياً له إلى يوم مماته. ثم زحف على كابول مفتاح ممر خيبر، وهناك أعانته الغنائم التي ظفر بها على رفع الروح المعنوية في جيشه. وكان محمد شاه ، إمبراطور الهند المغولي، يأبى أن يصدق إمكان الغزو الفرس للهند، وكان أحد ولاته قد قتل مبعوث نادر إليه، فعبر نادر جبال الهملايا، واستولى على بشاور، وعبر السند، وزحف على دلهي حتى لم يعد بينه وبينها سوى ستين ميلاً قبل أن يهب

جيشه محمد لمقاومته والتقى الجيشان الهائلان على بطاح كرنال (1739) ، واعتمد الهنود على فيلتهم، أما الفرس فقد هاجموا هذه الحيوانات الصبورة بكرات النار، فانقلبت الفيلة هاربة وأشاعت الفوضى في جيش الهنود، وقتل منهم عشرة آلاف، وأسر عدد زاد على القتلى،

ويروي نادر أن محمد شاه جاءه يلتمس الرأفة " أمام حضرتنا السماوية ". وفرض عليه القائد المنتصر تسليم دلهي وكل ثروتها القابلة للنقل تقريباً، والتي تقدر بـ 87.500.000 جنيه ، بما فيها عرش الطاووس الأشهر، الذي كان قد صنع (1628-35) لشاه جيهان في أوج سطوة المغول. وقتل بعض جنود نادر في شغب أحدثه الأهالي، فانتقم بالسماح بجيشه بذبح 100.000 من الوطنيين في سبع ساعات. واعتذر عن هذه الفعلة بتزويج ابنه نصر الله من ابنة محمد. ثم زحف قافلاً إلى فارس لا يعوقه عائق بعد أن أثبت أنه أعظم الفاتحين قاطبة منذ تيمور لنك.

6 - علاقته بالإنجليز

كانت علاقته مرتبطة بشركة الهند الشرقية البريطانية التي حاولت تجديد الامتيازات التي كانت تحصل عليها لتصدير الحرير والمنتجات الفارسية إلى أوروبا. بيد أن علاقة نادر شاه بالشركة لم تكن على ما يرام بسبب الإتهامات التي وجهتها الحكومة الفارسية إلى الشركة البريطانية بوقوفها إلى جانب الدولة العثمانية خلال الغزو الفارسي للبصرة عام 1733. لكن لم تلبث علاقات نادر شاه بالشركة أن تحسنت بعد ذلك، نتيجة لحاجة نادر شاه إلى الخبرة البريطانية في بناء السفن. وقد منح نادر شاه الشركة إمتيازاً خاصاً خفضت بموجبه الرسوم الجمركية التي تدفعها الشركة للسلطات الفارسية حتى ألف تومان. غير أن العلاقة لم تستمر بسبب اغتيال نادر شاه في السادس عشر من يونيو عام 1747.

7 - علاقته مع اليعاربة

نشأت خلافات بين القبائل العمانية بين هناوية وغافرية حنيها قام سيف بن سلطان اليعربي بطلب العون من حاكم فارس نادر شاه وجد نادر شاه في تلك الاستغاثة فرصة لتحقيق حلم فارسي قديم بالسيطرة على مسقط فجهز حملة بحرية مؤلفة من أربع سفن كبيرة وسفينتين متوسطتين وعدد من المراكب الصغيرة أبحرت من بوشهر في مارس 1737 وهي تحمل خمسة آلاف راجل وألفاً وخمسمائة فارس بقيادة لطيف خان . وقد حطت الحملة رحالها في جلفار حيث انضم إليها هناك سيف الثاني ومناصروه· زحف الجميع نحو البريمي ثم عبري ، لكن لم تستطع الحملة تجاوز ذلك الموضع إلى الداخل لشدة المقاومة وفتك الأوبئة وانشغال نادر شاه عن نجدتها بحربه مع قندهار . لكن تعزيزات بقيادة تقي خان نقلتها سفن هولندية انضمت إلى تلك القوات في فبراير 1738 مما مكنها من استئناف زحفها . قاوم سيف الثاني اليعربي الفرس بعد أن أستدعاهم لدعمه ضد التمرد، إلا أن نادر شاه عاد فأرسل حملة أخرى عام 1154 هـ، استطاعت أن تدخل المدن العمانية كلها عدا صحار .

8 - احتلاله جزر أوال (البحرين حاليا)

احتل جزر أوال (البحرين حاليا) هازماً حكامها وسكانها العرب.

9 - وفاته

حاول داخلياً أن يتبنى مذهباً للدولة يوفق بين الشيعة والسنّة . لكنه قتل سنة 1747 على يد أحد قواده . لم يتمكن خلفاءه من الحفاظ على مملكته وانحصر ملك حفيده - الأعمى - شاه رخ (1748-1796) في خراسان حتى سنة 1796 حين قضى الزندية (وهم من اللور أو الكرد) على المملكة نهائياً وأسس بعدهم القاجار أسرة حاكمة جديدة هي سلالة أبناء أغا محمد خان قاجار التي حكمت إيران حتى عام 1924.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

مقبرة نادر شاه , مزار سياحي في مشهد

محمود الغزنوي أبوالقاسم بن سبكتكين

القائد التركماني فاتح بلاد الهند

تقديم

محمود بن سبكتكين (ولد في 2 نوفمبر 971 م - وتوفي في 30 إبريل 1030م) ، وقد لقب بسيف الدولة ، ويمين الدولة ، وأمين الملة ، والغازى وبطل الإسلام وفاتح الهند ومحطم الأصنام ويمين أمير المؤمنين وأشتهر بالسلطان محمود الغزنوى وقد حكم الدولة الغزنوية في الفترة من عام 998م إلى 1030م في زمن الخلافة العباسية، وقد أرتفعت الدولة الغزنوية إلى الأوج في قليل من الزمن بفضل همته وحسن قيادته. وقد استطاع أن يوسع حدود مملكته حتى امتدت من بخارى وسمرقند إلى كوجرات وقنوج وشملت أفغانستان وبلاد ما وراء النهر وسجستان وخراسان وطبرستان وكشمير وجزءاً كبيراً من الولايات الواقعة في الشمال الغربي من الهند . حتى إذا كانت سنة 1030 م (421 هـ) أدركته الوفاة ، وبعد ذلك بسبع سنين انتقل ملكه العريض فعلياً إلى أيدي السلاجقة. إلا أن دولته التي أسسها لم يتم القضاء عليها تهائيا إلا في سنة 582 هـ عندما استولى الغوريون على آخر ممتلكاتها في الهند .

كان محموداً الغزنوي نصيراً كبيراً للأدب والفنون . كان يعيش في عهده كثير من العلماء والشعراء، منهم: ابن سينا وأبو الريحان البيروني وأبو الفتح البستي والعسجدي والفردوسي والبيهقي والفرخي والمنوجهري والعنصري والكسائي والدقيقي والغضائري.

1 - نشأته وبداية حياته السياسية

ولد محمود الغزنوي في 2 أو 14 نوفمبر عام 971 م في بلخ التي في بخارى، وكان والده قائدًا عسكريًا يُسمى سبكتكين ، أما أمه فكانت تنسب إلى أصل فارسي من منطقة زابلستان . ولهذا السبب كان الشعراء يخاطبون السلطان محمود من آن لأخر بمحمود الزابولي . وقد بدأ السلطان محمود بتولي الإدارة في سن الشباب وكان أول عمل له خارج مدينة غزنة ، هو إدارة منطقة زمين دفر. وقد نجح الحاكم الساماني بالقضاء على تمرد حاكم خراسان في عام 994م بمساعدة جنود سبكتكين ، وعلى إثر هذا لقبه الحاكم الساماني بناصر الدين والدنيا. أما هو فقد أطلق على نفسه لقب سيف الدولة.

بعدما مات سبكتكين وأنتشر خبر وفاته ، جاء ابنه الصغير إسماعيل إلى بلخ وأعلن نفسه حاكمًا للدولة الغزنوية وذلك لوصية والده ، ولكن محمود الغزنوي الذي كان في نيسابور في هذا الوقت كان أكثر خبرة وتجربة وقوة من إسماعيل . ولأن محمود كان أكبر من إسماعيل وأحق بالحكم منه، عرض على إسماعيل أن يترك الحكم ويتولى خرسان وبلخ، إلا أن إسماعيل لم يوافق، حتى وقعت بينهما معركة حربية

في مارس 998م وأنتصر فيها جيش محمود الغزنوي، ولجأ إسماعيل إلى حصن، ثم قُتل بعدها بسبعة أشهر.

2 - غزو الهند

أول ما فعله محمود الغزنوي فور توليه الحكم وحلفه اليمين، هو عقد معاهدة مع جيرانه الشماليين من الكراخانيين. وبدأ على إثر تلك المعاهدة في حروبه باتجاه الهند. وقد قام بما يقرب من سبع عشرة معركة ضد الهنود في الفترة من 1001م إلى1027م. وكان الهدف الرئيسي لتلك الحروب هو نشر الإسلام،

وقد خرج السلطان محمود في أول حرب له إلى الهند في سبتمبر سنة ألف. وقد سيطر وقتها على عدة قلاع هندية .

وفي ثاني حملة له إلى الهند خرج في جيش مكون من 15 ألف بالخيول ، وقد وقعت المعركة بينه وبين جيبال في 27 نوفمبر 1001م ، وانتصر فيها ، وغنم فيها غنائم كثيرة كانت الفيلة من ضمنها.

وقد كانت حملته الثالثة إلى منطقة بهتيا التي لم تدعمه في حملته الثانية، وقد كانت تلك المنطقة تحت قيادة باجي راي، وعندما هُزم باجي راي في تلك المعركة أصبحت تلك المنطقة في يد الغزنويين.

وفي عام 1006 كانت حملته الرابعة ضد أبو الفاتح داود زعيم حركة الباطنية، وقد استولى على ملتان والبنجاب.

وقد توقفت حملات محمود الغزنوي إلى الهند فترة من الزمن أثناء انشغاله بحروبه في الشمال مع الكراخانيين، وعندما علم صوبحال والي ملتان استغل هذا الوضع وارتد عند الإسلام وعاد إلى الهندوسية دينه القديم. وقد علم محمود الغزنوي بهذا في يناير 1008م، وعلى الفور قام بحملته الخامسة إلى الهند وأعاد ملتان إلى حكمه مرة أخرى.

وكانت حملته السادسة إلى الهند في 31 ديسمبر 1008م لإخضاع الرجا (معناها أمير عند الهنود) الذين رفضوا الإسلام في أنحاء البنجاب. وقد أتم هذه الحمله بالنصر في أغسطس / سبتمبر 1009م، وأخضع المناطق الشمالية، وقلت سيطرة الأمراء الهنود على ولاياتهم.

وقد كانت حملته السابعة نحو الهند لتوقيع اتفاقية تجارية.

ثم خرج في حملته الثامنة في أكتوبر 1010، وفي تلك المرة لم يواجه أية صعوبات وضم ملتان تحت حكمه بشكل قطعي.

أما حملته التاسعة فكانت إلى *سلط رنجا* التى في منطقة *ناندانا*. وقد هزم الأمراء الذين لم يرغبوا في أن يكونوا تابعين له في ناندانا. وعلى أصداء انتصارات محمود الغزنوي بدأ الدين الإسلامي ينتشر في شمال الهند.

كانت حملات محمود الغزنوي في الهند إلى مدينة *زان ور* التي في تبعد عن شمال دلهي نحو 150 كم. وقد كانت تلك المدينة مقدسة بالنسبة للهنود، وفيها العديد من الأصنام، ومن أهمهم وأكبرهم صنم يُسمى *شكراص فامي*. وكان سبب قيام الحملة العاشرة في أكتوبر - نوفمبر 1014م، لهدم هذا الصنم ، وجمع الغنائم ، وبعد انتصاره في تلك المعركة أخذ الصنم إلى غزنة ليراه الغزنويين هناك.

وكانت حملته الحادية عشر في أواخر عام 1015م،

أما الثانية عشر فكانت في 1018م، وقد جاءه من تركستان نحو 20 ألف شخص ليشتركوا في جيشه تطوعاً، وليزيد بذلك تعداد جنوده . ولم تقف أي قوة أو مقاومة في وجه محمود الغزنوي حتى توسعت أراضيه ووصل إلى أغرة.

وقد قام بحملته الرابعة عشر في أكتوبر 1021م، واتجه نحو كشمير التي لم يستطع دخولها من قبل أو السيطرة عليها، إلا أنه بسبب شدة البرودة في الشتاء لم يستطع السيطرة على قلعة لوكهوت.

كانت الحملة الخامسة عشر في عام 1022 إلى قلعة قلين جار التى كان قد هزم أميرها من قبل، ولكنه لم يدخل تحت طاعة محمود الغزنوي بشكل قاطع، إلا أنه ربطها بالجزية ولم يستولى عليها، وعاد إلى غزنة في مارس - إبريل 1023.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

وكانت حملته السادسة عشر من أهم الحملات التى عرفت في التاريخ، وكانت إلى صومنت. وقد وقعت صومنت في يد الغزنوي بعدما حاصرها في 8 أكتوبر 1026م، ثم قام بإزالة صنم شيفا المقدس عندهم، وأذن في معبده.

وقد كانت أخر حروب الغزنوي السبعة عشر في الهند عندما هاجمه *الجاتيين* أثناء عودته من غزو صومنت ، ولكنه قام بهزيمته، وتوسع في تلك الحملة حتى وصل إلى نهر الغانج، وألقى أساس حكم الأتراك الذي سيستمر لسنوات عديدة في الهند.

3 - غزو المولتان

سبب غزو محمود للمولتان هو أنّ ملكها أبا الفتوح كان ملحدًا، فدعا شعبه إلى الإلحاد واستجابوا له، ولكن نهر سيحون لم يسمح له بالعبور إلى المولتان، فأرسل محمود رسالةً إلى إلى أندبال (وهو ملك دولةٍ تقع بين الدولة الغزنوية والمولتان) يطلب منه فيها الإذن بعبور بلاده إلى المولتان لكن أندبال لم يجبه، فقرَّر أن يجمع بين الغزوتين، وغزا محمودٌ بلاد أندبال ولاحقه من بلدٍ إلى بلدٍ حتى وصل إلى حدود كشمير.

وعندما سمع أبو الفتوح بالأمر أدركَ أنه لا يستطيع الوقوف في وجه محمود وقتاله فأَرسل أمواله إلى سَرَنْديب (جزيرة سريلانكا) ، ثم وصل محمودٌ إلى المدينة فقاتله أهلها فحاصرهم حتى فتحوا له المدينة من تلقاء أنفسهم ، ثم غَرَّمهم بعشرين ألف درهمٍ عقوبةً للعصيان.

3 – 1 - السيطرة على سيستان

كانت توجد منازعات على كرسي الحكم في سيستان في عهد دولة الصفاريين، وقد قاموا بدعوة محمود الغزنوي ليكون حاكما لهم، وقد خرج محمود الغزنوي في طريقه إليهم في نوفمبر 1002، وفي 21 ديسمبر أصدر أوامر جديدة عليهم ، وضمهم تحت حكمه، وفي أثناء الحفل الذي أقامه الخليفة قام مجموعة من الثوار بالتمرد ضد الخليفة، وبناء عليه قام الغزنوي بإخماد هذ التمرد ، وعين أخوه نصر لحكم تلك المنطقة.

3 – 2 - السيطرة على خوارزم

كان محمود الغزنوي يريد في كل فرصة متاحة له السيطرة على خوارزم، وفي عام 1017 قام بتحقيق ذلك عندما عقد معاهدة سلام مع حاكمها وأصبحت تابعة له. وقد قُرأت الخُطبة باسم محمود الغزنوي هناك، وقد أدى هذا إلى حدوث نزاعات بين قواد الجيش في خوارزم، ولهذا حدث تغير في عرش الحكم في 17 مارس 1017. وقد خرج الكرخانيين للسيطرة على العرش، إلا أن الغزموي قام بهزيمة المتمردين في 3 يوليو 1017، ودخل كهنه غرغانج وأصبح حاكما عليها، مما اضطر الكرخانيين للقبول بهذا الوضع مجبرين.

3 – 3 - السيطرة على غور

قام محمد شهاب الدين الغوري بالخروج من طاعة الغزنويون بعد وفاة سبكتكين الذي كان قد سيطرة على تلك المنطقة ولاية غور من قبل. وهذه المنطقة يطلق عليها أحيانًا *مَندِش*. وعليه فإن محمود الغزنوي قام بحملةٍ في 1011 لإعادتها إلى حظيرة الدولة الغزنوية من جديد، وعندما علم الغوريون بذلك تشتتوا في الجبال لِعلمهم بعدم قدرتهم على هزيمة الغزنوي، وحتمية خسارتهم. وبعدها بسنوات قام بعدة حملات للسيطرة عليها، وفي عام 1020 أرسل إبنه مسعود للسيطرة على القلاع الباقية فيها، ونجح في جعل تلك المنطقة تابعة لحكمه بشكل قطعي.

3 – 4 - السيطرة على كارجيستان

قام محمود الغزنوي بإرسال سفير إلى حاكم كارجيستان في عام 999، وطلب منه أن ينضم إلى الدولة الغزنوية. وقد قبل حاكم كارجيستان وقتها طلب الغزنوي، وقُرأت الخُطبة باسمه. وعندما تغير هذا الوالي لم يعترف الوالي الجديد بقوة الغزنوي وتفوقه، وعندما علم الغزنوي بهذا قام بإرسال قواد جيشه ووالٍي معه إلى كارجيستان، وكنتيجة لتلك الحركة الناجحه أصبحت كارجيستان تحت سيادة الغزنوين بالمعنى التام في 1012. وقد تُوفي الأمير الذي أعلن تمرده في السجن في 1015- 1016.

4 - محاولة استيلاء إيلك الخان على خراسان

بعد أن استقرّ ملك خراسان لمحمود وملك ما وراء النهر لإيلك خان تصالحا واستقرَّت أمورهما، لكن إيلك الخان كتم كرهه لمحمود حتى ذهب إلى المولتان حين أرسل جيشه بقيادة سباشي تكين بينما اتجه أخوه جعفر تكين مع مجموعةٍ من الأمراء إلى بلخ. وكان ذلك في سنة 396 هـ. كان محمود قد وضع " أرسلان الجاذب " حاكماً لحين عودته وأوصاه أن ينسحب إلى غزنة في حال هاجمه أحد الجيوش، فذهب إلى غزنة حين وصل خبر جيوش إيلك الخان وحينها استولى سباشي تكين على هراة وأقام فيها وأرسل من يحتلُّ نيسابور.

في تلك الأثناء كان محمود قد خرج من الهند وفي طريقه إلى خراسان فأنفق الأموال على جيشه لتقويته وجاء ببعض المحاربين من قبائل الأتراك، وسار محمودٌ إلى بلخ والتي فيها جعفر أخ إيلك الخان واسترجعها ولكن جعفر هرب إلى ترمذ ، وبعد ذلك أرسل محمود جيشه إلى هراة، فذهب سباشي إلى مرو لكي يعبر النهر هرباً من جيش محمود فقابله التركمان الغزية فهزمهم وقتل منهم الكثير ثمّ سار إلى أَبِيورد، وظلّ محمود يطاردهم حتى وصل سباشي إلى جرجان فأخرجه أهلها منها فعاد إلى خراسان وهناك قبض محمودٌ على أخيه وأسره ولكنه هرب.

وفي تلك الأثناء أرسل إيلك الخان أخاه جعفر إلى بلخ لكي يلهي محمود عن مطاردة سباشي، لكن محمود لم يكترث له وتابع مطاردته حتى هرب سباشي من خراسان، وحينها عاد محمود إلى بلخ وقاتل جعفر وهزمه شرّ هزيمة وسُلِّمت خراسان إليه.

كان إيلك الخان مصرّاً على الاستيلاء على خراسان ولذلك فقد راسل قدرخان بن بغراخان ملك الختن وقد كانت توجد قرابةٌ بينهما، ثم جاء قدرخان إلى إيلك الخان وعبرا معاً النهر إلى خراسان، وقد وصل خبر هجومهما إلى محمود وهو في طخارستان فذهب على عجلٍ قبل وصولهما إلى بلخ، فبدأ يستعد للحرب وجمع الأتراك الغزِية والخلج والهند والأفغانية والغزنوية وذهب وعسكر في مكانٍ فسيحٍ جيّدٍ للحرب.

ووصل إيلك وقدرخان وتقاتلوا مع محمودٍ حتى الليل، واستمرّ القتال في اليوم التالي وأخذ محمودٌ يبتهل بالدعاء إلى الله للنصر في المعركة، ثم انتصر في المعركة وردّ إيلك الخان وهزمه شر هزيمة.

5 - غزو قصدار

كان محمود قد صالح ملك قصدار على مبلغٍ من المال يدفعه ملكها إلى محمود كل فترة، لكن عندما وجد ملك قُصدار بلاده محصّنة توقف عن دفع المال، بالإضافة إلى أنه كان قد تحالف مع إيلك الخان فقرّر محمود السير إليه، ولكن قبل أن يذهب محمود إليه حدثت مشكلةٌ بينه وبين إيلك الخان وتوقّف التحالف فسار محمود إليه على الفور في سنة 402 هـ، وترك غزنة في جمادى الأول وأعلن أنه ذاهبٌ إلى هراة للتمويه لكنه غير طريقه بسرعةٍ باتجاه قُصدار، وحاصر محمود قُصدار في الليل وطوّقها فاستسلم ملكها في الصباح عندما أدرك أن محمود قد وصل وحاصر بلاده، وأخذ محمود منه ما تراكم عليه من المال لكنه تركه حاكماً على قُصدار.

6 - حربه مع بيدا

عندما فتح محمود قنوج (وهي ولايةٌ هندية) هرب ملكها رآي قنوج (ورآي هو لقب الملك كالخليفة والقيصر) منه ، وحينه أرسل إليه بيدا (وهو من أعظم الملوك الهنود ومملكته تسمى كجوراهة) يؤنّبه على تسليم بلاده للمسلمين والهرب منها ، ودخلا في معركةٍ قُتل فيها قنوج ومعظم جنوده ، وهزم بيدا معظم الملوك الهنود الآخرين الذين فرّوا من محمود ووضعهم تحت رحمته ووعدهم بإعادة بلادهم إليهم، فغضب محمودٌ وسار إلى بيدا وهزمه وغنم منه وعاد إلى غزنة.

ثم سار وعبر نهر كنك ثم تابع سيره، وحينها وصلت إليه أخبارٌ عن ملكٍ هنديٍ يسمّى تروجنبال، فسار إليه حتى التقيا على جانبي نهر من الأنهار فهزمه محمود، فطلب الأمان ولكن محمود لم يقبل بذلك إلا في حال أسلم تروجنبال فهرب إلى بيدا، ولكن أثناء طريقه إلى هناك قتله بعض الهنود ممّن رافقوه، وبعد ذلك أخذ الكثير من ملوك الهند يراسلون محمود ويُظهرون له الطاعة.

بعد ذلك سار محمودٌ إلى مدينة باري وغزاها ودمّرها، وسار مجدّداً يبحث عن "بيدا"، ثم لحقه بيدا والتقيا معاً في معركةٍ عظيمة قرب أحد الأنهار، وقد كان مع بيدا 55000 فارسٍ و185000 مقاتلٍ و750

فيل، واقتتلوا في المكان حتى الليل، ولكن في اليوم التالي وجد محمود أنّ جنود بيدا قد هربوا كلٌّ منهم في اتجاهٍ مختلفٍ وتفرّقوا في المنطقة وقد تركوا الأموال والأسلحة، فغنمها محمودٌ ثم سار إلى جنود بيدا فقتل معظمهم لكن بيدا نجا بعد أن قُتلت جيوشه.

6 – 1 - حروب السلطان محمود الغزنوي الخارجية

- *6 – 1 – 1 - حروب السلطان محمود مع السامانيين*

قام السامانيون باحتلال خرسان أثناء إنشغال محمود الغزنوي بالحرب ضد أخيه إسماعيل على العرش في عام 998، وفي تلك الأثناء أعلن منصور الثاني أنه لن يُعيد خرسان التى قام باحتلالها إلى محمود الغزنوي. وعلى إثر هذا قام الغزنوي بالتوجه نحو نيسابور. وفي تلك الفترة لم يرغب الغزنوي في مهاجمة والي خرسان بيكتوزون والذي أتى منصور الثاني لمساعدته ومعه قوات فائق، ورضي بالإنتظار لتفويت الفرصة على الكرخانيين الذين إقتربوا من ما وراء النهر. وقد قام فائق ومعه بيتوزون بعزل منصور الثاني لعدم ثقتهم فيه ، وجلبوا مكانه عبد المليك بن نوح الذي كان في عُمر صغير وقتها.

وقد قام الغزنوي بهزيمة الإتحاد الذي قام به بيكتزون وفائق ومعهم أبو القاسم السيمجوري في 16 مايو 999. وسيطر على خرسان من جديد، وعين أخوه نصر واليا عليها. وفي تلك الأثناء استفاد الكرخانيون من وضع السامانيين الذين دب فيهم الضعف وقاموا بإسقاط الدولة السامانية، وقد حقق ذلك للغزنوي أن أصبحت دولته مستقلة بشكل تام، وسقطت تبعيتها لإي دولة.

- *6 – 1 – 2 - السلطان محمود وحروبه مع الكرخانيين*

كانت العلاقات بين الغزنويين والكرخانيين ودية في عهد ناصر بن على، وقد استمرت تلك العلاقات الودية بينهما بتزوج محمود الغزنوي من إبنة ناصر بن على في 1001. إلا أن تلك العلاقة لم تدم طويلا بسبب رغبة ناصر بن على بالسيطرة على كل الأراضي المتبقة من السامانيين، وقد قام ابن على بإرسال جيش إلى خرسان في الوقت الذي كان فيه الغزنوي يحارب في الهند. وعندما علم الغزنوي بهذا قام بتقوية جيشة بالخلاجيين والأفغان، وقام بإبعاد قوات ابن على عن المدينة في سبتمبر -أكتوبر 1006. إلا أن ابن علي لم يتراجع، وفي 5 يناير 1008، قام بالتقدم نحو 20 كم طوليا في بلخ، وإلتقى الجيش الكرخاني بجيش الغزنويين ولم يستطع الكرخانيين مهاجمة الجيش الغزنوي بسبب وجود الفيلة أمامه، وفقدوا قدرتهم على تبادل الإصطدام. وكان هذا أخر أمل كبير قام به الكرخانيين للسيطرة على خرسان.

حدثت نزاعات بين الكرخانيين على العرش، وقد استولى أبو منصور أرسلان خان على العرش، ولم يختر أن تسير الأمور بشكل جيد مع محمود الغزنوي. إلا أن يوسف قادر خان بدأ بصراع جديد على العرش، وطلب المساعدة من الغزنوي. وبينما كان الغزنوي في يحارب في الهند، رأى المتصارع على الحكم أن هذا موقف جيدا للسيطرة على خرسان، وأنشئا جيشا متحدا من الكرخانيين، إلا أن الغزنوي قام بهزيمة هذ الجيش في 1019-1020 وعاد مرة أخرى إلى الهند.

قام أبو منصور بالإنسحاب من على العرش ليوسف قادر خان، وطلب يوسف خان المساعدة من الغزنوي مرة أخرى لمواجهة أخوته. ولكن تلك المرة قُبل طلبه، وتقابل مع المتنافسين على الحكم في سمرقند في مارس-إبريل 1025، وعقد بينهم إتفاقاً. وعندما علم يوسف خان بهذا هرب، وكذا تم تجنب النزاعات المستمرة على العرش في دولة الكراخانيين.

- *6 – 1 – 3 - حروب السلطان محمود مع الأغوز*

الأغوز هم مجموعة من التركمان ، يتكونون من أربعة ألاف خيمة، وتابعين أرسلا يابغو. وقد طلبوا الإذن من السلطان محمود للعبور من خرسان بدلا من العبور من بلاد ما وراء النهر لإنهم يعانون من العبور من تلك المنطقة. وقد فكر الغزنوي أنه يمكنه أن يستفيد من القوة العسكرية لتلك المجموعة، فسمح لهم بالمرور من نهر جيحون على الرغم من مخالفة أرسلان جاذب والي طوس. إلا أن الأغوز كانوا يُقِعُون المدن التى يمرون بها في ظروف إقتصادية صعبة. وفي عام 1028 إرتفعت نسبة شكوى السكان الأصليين منهم إلى السلطان محمود. وعلى إثر هذا أرسل السلطان محمود أرسلان جاذب إلى الأغوز. إلا أن أرسلان لم يستطع حل المشكلة، وعند إتهامه بالفشل، أوضح أن قوة الأغوز قد زادت وأنهم يتفوقون على جيش ولايته ، ودعى محمود الغزنوي بشخصة لمحاربتهم.

وعلى الرغم من مرض محمود الغزنوي إلا أنه تحرك إلى طوس في 1028، واتحد مع جيش جازب، وأوقع الهزيمة بالأغوز. وقد قُتل قسم كبير من الأغوز في تلك المعركة، أما القسم الباقي فقد عاش جزء منهم في الجبال وهرب جزء أخر منهم إلى كرمان، وقد تمت ملاحقة الأغوز في الداخل والخارج حتى موت السلطان محمود ليتم تنظيف البلاده منهم.

- *6 – 1 – 4 - حروب السلطان محمود مع الزياريون*

كانت توجد بين الغزنويين والزياريين الذي حكموا طبرستان وهيركانيا علاقة جيدة. وفي عام 1012 تمرد الجيش وعزل قابوس بن وشكمير وحل مكانه. وقد خرج دارا أخو الحاكم قابوس بن منوتشهر الملقب *بفلك المعالي* ضده، وقد دعمه محمود الغزمنوي وأعطاه الإذن باللجوء في بلده. وعندما وصل قابوس خبر خروج أخيه دارا للذهاب إلى الغزنوي، قام على الفور بإعلان أنه تابع للغزنوي ووعده بدفع 50 ألف دينار كل سنة كجزية ليتمكن من البقاء في الحكم. وكان من آن لأخر يرسل الجنود إلى جيش محمود. وقد ظن قابوس أن منطقته في خطر شديد بعدما سيطر الغزنوي على الري، وقام بقطع طريق ذهاب الغزنوي ليحمي أراضيه. هذا التصرف الذي ظن قابوس أنه بإمكانة أن يُعيق حركة الغزنوي، دفع في مقابله جزية قدرها 500.000 دينار في عام 1029. وبعدما مات قابوس جاء خلفه إبنه أنشوروان، وليعترف الغزنويون به دفع 500,000 دينار.

- *6 – 1 – 5 - حروب السلطان محمود مع البويهويين*

كانت العلاقات بين السلطان محمود والبويهيون علاقات ودية حتى عام 1012، عندما بدأت النزاعات على العرش، ولم يفوت الغزنوي مثل تلك الفرصة من يده. وقد طلب أبو الفوارس من محمود الغزنوي أن يساعده ليسيطر على عرش البويهيين، وقد وفر جواب محمود لهذا الطلب أن أعاده حاكم من جديد على كرمان. وبعد فترة فسدت العلاقات بين أبو الفوارس الذي يسيطر على شيراز وقائد القوات الغزنوية أبو سعيد. وعليه فقد سحب الغزنوي دعمه لإبو الفوراس. وقد هُزم أبو الفوارس وهرب من الجيش الغزنوي في كرمان.

وعلى الجانب الأخر، فقد طلب حاكم الري الذي حصل على حكم البويهيين المساعدة من الغزنوي في عام 1028، لإنه لم يكن مطمئنا للجيش، وقد قبل الغزنوي طلبه وأعاده إلى حكم الري مرة أخرى في عام 1029.

- *6 – 1 – 6 - غزو الري*

كانت الري من ضمن الدولة البويهية التي كان يحكمها مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه، وقد كان حاكماً فاسداً ولم يستطع إدارة الدولة جيداً ولذلك فقد كانت أمه تتولّى هذا الأمر، وعندما ماتت أمه وبدأت تتدهور الأوضاع في الدولة، حينها أخذ يراسل محمود ويخبره عن تدهور الأوضاع في الدولة ويستنجد فيه (وقد كان ذلك في سنة 420 هـ)، فأرسل محمود جيوشه إلى الرَّي، وحين وصل مجد الدولة إليهم قبضوا عليه وأخذوه أسيراً إلى غزنة (بأوامرٍ من محمود)، وعندما قُبض على مجد الدولة سار محمود إلى الري ووصلها في ربيع الآخر من سنة 420 هـ، وقد أخذ من أملاك مجد الدولة مليون درهمٍ ومن الجواهر ما يساوي نصف مليون درهم.

حين وصل محمود جاء إلى مجد الدولة وقال له : أما قرأت شاهنامه (تاريخ الفرس)، وتاريخ الطبري؟ فقال: بلى. فقال له محمود: ما حالك حال من قرأها، أما لعبت الشطرنج؟ فقال: بلى. فقال محمود: فهل رأيتَ شاهاً يدخل على شاه ؟ فقال : لا. فقال محمود: فما حملك على أن سلمت نفسك إلى من هو أقوى منك؟ بعد ذلك صلب محمود الكثير من الباطنية الذين كانوا مثل مجد الدولة وأحرق كتب الفلسفة والتنجيم، ثم سار إلى "منوجهر بن قابوس" والذي كان قد أفلت منه سابقاً، واستمرّ يلاحقه من مكانٍ إلى مكانٍ حتى مات، وحين وليَ ابنه أنوشروان، وقد أخذ منه محمود جزيةً نصف مليون دينار وأصبح يخطب لمحمود في معظم بلاد الجبل التي تمتد حتى أرمينيا، ووضع ابنه مسعود حاكماً للرَّيّ بينما توجه هو إلى أصبهان (التي يحكمها علاء الدولة) وفتحها ووضع لها حاكماً، ثم ثار أهلها وقتلوا حاكمها فعاد إليها وقتل من أهلها خمسة آلاف شخصٍ ووضع عليها حاكماً جديداً ثم عاد إلى الرَّي وأقام بها.

- *6 – 1 – 7 - حروب السلطان محمود مع الأفغان*

كان الأفغان يعيشون في المنطقة الجبلية التي بين غزنة ونهر السند، وقد كانوا يقومون بالغارت من آن لأخر، ويضربون القوافل التي تمر بين خرسان والهند. وفي عام 1019 توجه الغزنوي باتجاه شرق مدينة كابل إلى الأفغان الذين يعبدون الأصنام هناك، وقد ضمهم إلى حظيرة دولته، وتحولوا إلى الإسلام.

- *6 – 1 – 8 - علاقات السلطان محمود مع العباسيين*

إعترف الخليفة العباسي أبو العباس أحمد القادر بالله بالسلطان محمود غازي كخليفة، بينما لم يعترف به السامانيين. وقد أرسل الخليفة العباسي العديد من الهدايا إلى السلطان محمود نظرًا لجهوده في نشر الإسلام والغزوات التى قام بها في أراضي الهنود الذي يعبدون الأصنام. وقد منحه العديد من الألقاب المختلفة.

كانت العلاقات التى بين السلطان محمود والكراخانيين قد فسدت عندما أراد السلطان الغزنوي السيطرة سمرقند التابعة للغزنويين، إلا أن العلاقات قد فسدت مرة أخرى في 1023-1024، عندما إشتبه السلطان محمود في إتباعهم للدولة الفاطمية. وعلى الرغم من كل تلك الأحداث فقد أنشأ السلطان الغزنوي دولة سُنِية في مواجهة الشيعة والدولة البويهية. وقد قام بصَّك النقود باسمه. وقد أرسل الهدايا إلى بغداد بعد الحروب التى كان ينتصر فيها.

7 – وفاته

قبر السلطان محمود الغزنوي

أمضى السلطان محمود أغلب حياته في الجهاد والغزو، وبالأخص غزواته إلى الهند التى أنهكته جدًا. وكانت سببًا في مرضه. وعلى الرغم من مرضه لم يكن يستمع أبدًا إلى الأطباء. وقد عين نائبا له للقيام بالأعمال الضرورية، ويعتقد معظم المؤرخون أن السلطان محمود أُصيب بالسل.

وقد عين السلطان محمود نائبا له في مدينة بلخ في 1029-1030. وعاد إلى غزنة بسبب هواء تلك المدينة فقط . ولم يستطع أن يسترد عافيته في غزنة وتفي في 30 إبريل 1030. في التاسعة والخمسين من عمره.

وقد عاشت الدولة الغزنوية ألمع فتراتها في عهده ، ثم بدأت بالضعف ودخلت مرحلة السقوط بعد معركة داندقان.

8 - شكله وصفاته

اشتهر محمودٌ بين الناس بأنه عاقلٌ وديّنٌ وخيرٌ وعنده الكثير من العلم والمعرفة وكان يهتم بالعلماء ويستضيفهم، وكان عادلاً ويُحسن إلى رعيّته ويغزو ويُجاهد كثيراً في سبيل نشر الاسلام ، أما شكله فقد كان حسن الوجه ذو عينين صغيرتين وشعرٍ أحمر.

القائد مظفر الدين أبو سعيد كوكبوري

الذي قاد الجيش التركماني في الحروب الصليبية
وألحق بالصليبيين هزائم في أكثر من معركة ولقب بالذئب الأزرق

مظفر الدين أبو سعيد كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين بن محمد (27 محرم 549هـ / 1153 - 8 رمضان 630هـ / 1232م) حاكم إربل في عهد صلاح الدين الأيوبي.

وكان قد دخل في طاعة صلاح الدين دون حرب كما تزوج أخته.

شارك "مظفر الدين" في معظم الحروب التي خاضها صلاح الدين ضد الصليبيين بدءًا من فتح "حصن الكرك" سنة 580هـ / 1184 م من صاحبه " أرناط " الذي كان كثيرا ما يتعرض للقوافل التجارية بالسلب والنهب.

كما تولى قيادة جيوش الموصل والجزيرة في معركة حطين

ويذكر أنه الذي أوحى بفكرة إحراق الحشائش التي كانت تحيط بأرض المعركة حين وجد الريح في مواجهة الصليبيين كما يذكر التاريخ نجاح خطته ووضوح أثرها في هزيمة الجيش الصليبي.

وقد أوصى ببلاده إلى الخليفة العباسي المستنصر

مصطفى جواد

تقديم

مصطفى جواد، علّامة ومؤرخ لغة عربية عراقي . يُعَد أحد عمالقة اللغة العربية البارزين في العراق الذين خدموا اللغة العربية وأسّسوا قواعدها. كان معلما ومربيا ورائدا وأديبا وفنانا وفيلسوفا وعبقريا.

وبالرغم من كونه **تركمانيا** ، إلا أنه خدم اللغة العربية أكثر من لغته الأم التركمانية، وقال كلمته المشهورة " **جئت لأعلم العرب لغتهم** ". وكتب العديد من الأبحاث عن اللغة العربية وله مؤلفات حول سُبُل تحديث اللغة وتبسيطها. واشتهر لدى عامة الناس بسبب برنامجه التلفازي والإذاعي اللغوي الشهير " قل ولا تقل " ، الذي تم إصداره لاحقا في كتاب.

1 - ولادته ونشأته

وُلِد مصطفى بن جواد بن مصطفى بن إبراهيم البياتي ، بمحلة شعبية اسمها القشلة (عقد القشل) في الجانب الشرقي من بغداد عام 1904 لأبوين تركمانيين من عشيرة صارايلو وهي من البيات . كان والده خيّاطا يدعى "جواد مصطفى إبراهيم" وأصل أسرته من دلتاوه ، قضاء الخالص في محافظة ديالى (لواء ديالى سابقا) لذلك كان يوقع مقالاته وقصائده المُبَكِّرة باسم "مصطفى جواد الدلتاوي" ثم حذف هذه النسبة بعد ذلك. انتقل مع والده إلى دلتاوه وعمل بالفلاحة في صباه ثم عاد إلى بغداد وأكمل دراسته الابتدائية هناك.

2 – تعليمه

2 - 1 - المراحل الدراسية الأولى

درس العلوم الابتدائية في دلتاوه حيث تعلم في الكتاتيب ثم في المدارس فأصبح قارئا للقرآن الكريم وحافظا له. وبعد وفاة والده جواد في دلتاوه في أوائل الحرب العالمية الأولى، عاد ابنه مصطفى إلى بغداد مسقط رأسه بعد الاحتلال البريطاني وأكمل بقية دراسته الابتدائية في المدرسة الجعفرية. حيث كان شقيقه "كاظم بن جواد" من أدباء بغداد في التراث الكلاسيكي وهو الذي أسهم ببناء قاعدة العشق اللغوي في شقيقه الأصغر. اذ كلّفه شقيقه بدراسة النحو ومعاني الكلمات وأعطاه قاموسا في شرح مفردات العربية وأوصاه بأن يدرخ (يحفظ) عشرين مفردة في اليوم الواحد، ودرخ أكثر من عشرين حتى نشأت فيه حافظة مؤدرخة. كما كان لشقيقه صلة تعارف مع مدير المدرسة الجعفرية الشيخ "شكر البغدادي" (1855-1938) الذي بدوره ألزم التلميذ مصطفى جواد بحفظ الأجرومية في النحو فحفظها في ثلاثة أيام. دُهِش الشيخ شكر وأهداه

كتاب "شرح قطر الندى" فأتقن مضامينه أمام الشيخ. وشاع أمره بين طلاب المدرسة الجعفرية لذا أُطلِق عليه لقب "العلّامة النحوي الصغير". وانتقل لاحقا إلى مدرسة باب الشيخ.

أكمل دراسته خلال الفترة (1921-1924) في دار المعلمين العالية عام 1924، وفي هذه الدار وجد اثنين من أساتذته يعتنيان بموهبته وهما "طه الراوي" (1890-1946) حيث أهداه كتاب المتنبي لما وجده يحفظ له قصيدة طويلة بساعة واحدة بصوت شعري سليم بأوزانه، وأستاذه الآخر ساطع الحصري حيث أهداه قلما فضيا بعد أن وجد قابلية تلميذه تتجاوز مساحة عمره إلى أقصى الحدود، وكان أساتذته يقولون له: "أنت أفضل من أستاذ!" فهو يكمل عجز البيت الشعري إذا توقف عن ذكره، ويحلل القصيدة ويتصيد الأخطاء ويشخص المنحول بقدرة استقرائية غير مستعارة من أحد.

2 – 2 - الدراسات العليا

حصل على بعثة لتطوير دراساته في باريس فقضي سنة كاملة في القاهرة لتعلم الفرنسية وهناك التقى رواد الثقافة طه حسين وعباس محمود العقاد وأحمد حسن الزيات وباحثهم وجادلهم في أخطائهم ولم يذعنوا لأنهم كما يقول مصطفى جواد "مدارس وقدرات" ولا يجوز انتقادهم. سافر إلى فرنسا خلال الفترة (1934-1939) وأكمل دراسة الماجستير والدكتوراه في جامعة السوربون في الأدب العربي فنالها عن أطروحته "الناصر لدين الله الخليفة العباسي". نشبت الحرب العالمية الثانية فعاد إلى بغداد سنة 1939 قبل أن يناقش الرسالة وعاد معه الدكتور ناجي معروف، والدكتور "سليم النعيمي"، وهما مثله كانوا بانتظار مناقشة الرسالة.

أفاد ذاكرته التراثية في باريس من ملازمته لمجلس الميرزا "محمد القزويني" ومكتبته التراثية فنسخ منها عشرات المحفوظات العربية النادرة، وعشرات مثلها من المكتبة الوطنية الفرنسية، ومهمة النسخ هذه ساعدته على اتساع خياله التراثي وإرجاع الفرع الذي قرأه في الكتب الحديثة إلى الأصل الذي هو في الكتب الأولى وهذه المراجعة والمذاكرة مع الذات تمهد له الطريق لاكتشاف المزيد من حقائق اللغة التراثية وتجعل ذهنه ذهنا مقارنا حيوي التخريج.

3 - سيرته المهنية

بعد تخرجه من دار المعلمين العالية، مارس مهنة التعليم في المدارس مدة تسع سنوات (1924-1933) متنقلا بين البصرة والناصرية وديالى والكاظمية، حيث تم تعيينه معلما للمدارس الابتدائية.

عمل مدرسا في معهده الذي تخرج منه وفي كلية التربية التي ورثت المعهد بعد تأسيس جامعة بغداد. في عام 1962، انتدب للتدريس في معهد الدراسات الإسلامية العليا وعُيِّن عميدا للمعهد المذكور بعد عام.

تم تعيينه كاتبا للتحرير في وزارة المعارف ونقل بعد ذلك معلما في المدرسة المأمونية ببغداد، ومنها نقل إلى المدرسة المتوسطة الشرقية ببغداد. تعرف خلال هذه المدة على الأب أنستاس الكرملي فلازمه وكتب في مجلته "لغة العرب". كما شغل منصب المشرف على الأساتذة الخصوصيين الذين أشرفوا على تدريس وتثقيف الملك فيصل الثاني ملك العراق. وهو أحد الأصدقاء المقربين للسيد رشيد عالي الكيلاني وكان على صلة طيبة به خصوصا أنهما بالأصل من لواء ديالى .

كتب الكثير من الأبحاث والكتب عن اللغة العربية وكيفية تحديثها وتبسيطها. وله العديد من المؤلفات المشتركة ومقالات ودراسات منشورة لم تجمع بعد، كما واصل النشر والكتابة والبحث والتنقيب والتخصص في اللغة وتاريخها فألف وحقق ما يثريها ويعمق من معرفتها والتمعن بها، باذلا جهوده في الإحاطة بها رغم معاناته من مرض القلب وقام بتدريس اللغة لأكثر من خمس وأربعين سنة.

4 - شغفه باللغة العربية

لما اكتشف المفتشون أنه أكثر قابلية منهم في طرق التدريس (وبفصحى لا مثيل لها) توجه إلى تدريس المتوسطة، وخلال تسع سنوات في التعليم قرأ المطولات في الشعر والتاريخ والتراث، وكانت مكتبته ترافقه حيثما حل، وفي هذه الحقبة ذاتها نشر أبحاثه اللغوية في الدوريات المحلية والعربية ولا سيما تلك الصادرة في مصر ولبنان، وطبع كتابين في التحقيق التراثي. أخذ يتردد أثناء عطلاته على مجالس

بغداد ويدخل معارك أدبية حول فنه الذي ما فارقه (التصحيح اللغوي) الذي ألزمه بأن يدرخ كثيرا ويعلل الدرخ ويقرنه بمزيد من الأسانيد والشواهد مما أتاح لذاكرته بأن تتوسع بخزن المتراكم طبقة فوق طبقة.

خلال سنة 1925 تعرف على العلّامة اللغوي الأب **أنستاس الكرملي** وكان للكرملي مجلس أدب ولغة في الكنيسة اللاتينية يؤمه أدباء الدرجة الأولى في بغداد، وفي جلسته الأولى أثار مصطفى جواد معركة حامية حول العامية والفصحى، وكان يبزهم في الأدلة والبراهين، فمال إليه الكرملي منذ لحظته الأولى قائلا: "أريدك يا أخ اللغة أن تحضر مجلسي كل أسبوع". عند حضوره في الأسبوع الثاني كلفه الكرملي بأن يهندم مكتبته على التنظيم العصري وكانت من خيرة مكتبات بغداد، فنظمها وجعل لها فهارس وأخرج منها العابث والمكرر، ثم اقترح عليه الكرملي الكتابة في مجلته الشهيرة لغة العرب، فكتب أبحاثا لغوية ونقدا في التراث اللغوي وزاوية خاصة بـ"التصويبات اللغوية" وهذه جعلته على اللأسنة بين أخذ ورد وجدل وانتقاد وكانت معاركه تسمع في القاهرة وبلاد الشام، وهذه وحدها جعلته يمتد في الذاكرة اللغوية وجعلته أيضا أن يكون سيدا في إرجاع ما يشاع بأنه فصحى إلى العامية وبالعكس وكان الكرملي مثله سيدا في اللغة العربية ومثله تعرض لخصومات جيرانه التي أرادت أن تبطش به لولا دفاع مصطفى جواد عن جواهره وإنجازاته في لغة العرب، وكتب مقالة بحق الكرملي في مجلة السياسة المصرية في الثلاثينيات كان بها ينهي خصومة الكرملي، وهو القائل على قبره :

ياسائرا ، ووجيب القلب صاحبه ... لنا ببغداد من بين القسوس أب
أب عزيز وذو علم ومعرفة ... قضى السنين بشوق العلم يكتسب

4 – 1 - من إنجازاته اللغوية

* إعداد قواعد جديدة في النحو العربي كبدائل لقواعد نحوية قديمة.
* إعداد قواعد وقوانين جديدة في تحقيق المخطوطات التراثية.
* إنزال الفصحى إلى العامة بأسلوبه السلس ذي الجرس الأنيس.
* تنبيه أساتذة الجامعات إلى اعتماد لغة سليمة في أبحاثهم.
* تعليم الباحثين طريقة الاستناد إلى الشواهد شعرا ونثرا .

4 – 2 - قل ولا تقل

عرف العراقيون مصطفى جواد من خلال برنامجه الإذاعي الناجح " قل ولا تقل " ؛ أي قل الصحيح وانبذ الخطأ الشائع . كان برنامجا لغويا شيقا وكان يتابعه الصغار والكبار. قام مصطفى جواد من خلال ذلك البرنامج بتبسيط اللغة العربية للمستمع العام وللمختص اللغوي وبحرفة الكتابة في آن واحد.

طبع له من هذا الموضوع جزآن (1970-1988) وربما استعار عنوان كتابه من الدراسات اللغوية الفرنسية التي شاعت في أثناء دراسته في جامعة باريس. ابتدأ بنشر موضوعه منذ عام 1943 في مجلة "عالم الغد" فكان يذكر أولا الصحيح أو الفصيح ويشفعه بالغلط أو الضعيف، وكان يرتب ذلك على حروف المعجم. أما الأسباب التي دعته إلى تأليف موضوعه "قل ولا تقل" فهي :

* استهانة طبقة من المترجمين باللغة العربية، وقد امتاز منهم بهذا الإثم اللغوي مترجمو البحوث العسكرية.
* أن كثيرا من الكتاب والشعراء يكتبون كلما غير مشكول، واللحن في غير المشكول لا يظهر، وبعضهم يكسر المفتوح ويفتح المضموم وينون الممنوع من الصرف ويكسر المضموم.
* إفساد اللغة من قبل طبقة من الممثلين.
* كثرة الأغلاط في (تحريرات) الدوائر ودواوين الحكومة ولا سيما في الإعلانات والتعليمات.
* كثرة الأغلاط عند مترجمي الأفلام السينمائية. والهدف الرئيس وراء صيحاته ليس طعن من يخطيء، إنما يريد أن ينبه على الغلط ويذكر الصواب.
* انتقاده للمصريين أن الخطأ خطأهم، ويقول في ذلك : "ليست اللغة ميراثا لهم وحدهم فيعملوا بها مايشاؤون من عبث وعيث."

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

5 - كتبه وأبحاثه

ترك خلفه كنزا ثمينا من آثاره ومؤلفاته المختلفة في شتى ميادين المعرفة بلغت مجموعها 46 أثرا، نصفها مطبوع ونصفها الآخر ما زال مخطوطا، وأشهر المخطوط كتابه الكبير "أصول التاريخ والادب" ويقع في 24 مجلد ومازالت موجودة لدى ولده المهندس جواد مصطفى جواد. وله العديد من المؤلفات المشتركة ومقالات ودراسات منشورة لم تجمع بعد وكتب مترجمة عن الفرنسية. بلغت كتبه المطبوعة عشرين كتابا بين تأليف وتحقيق ونقد، وبلغت كتبه الخطية أكثر من عشرة كتب. ونقد شعره مرارا لأنه شعر علماء يغلب فيه المنطق على الوجدان، أما مقالاته في المجلات فتقدر بألف مقالة تتركز في علم التحقيق وعلم المخطوطات والتاريخ والآثار العباسية والنقد اللغوي. بالإضافة لكونه من عباقرة اللغة العربية وموسوعة معارف في البلاغة والسير والأخبار والآثار، كان مؤرخا معروفا، وله مصادر تاريخية موثوقة يرجع إليها الباحثين والمهتمين في شؤون التاريخ. فكانت حياته الثقافية حافلة بالإبداعات في البحث والتنقيب والتخصص في اللغة وتاريخها فألف وحقق ما يثريها ، باذلا جهوده في الإحاطة بها وتدريسها لأكثر من خمس وأربعين سنة.

من مؤلفاته :

"الحوادث الجامعة" أول كتاب صدر له (1932)
"سيدات البلاط العباسي." (1950)
"المباحث اللغوية في العراق" (1960)
"سيرة أبي جعفر النقيب" (1950)
"خارطة بغداد قديما وحديثا" (مع الدكتور أحمد سوسة وأحمد حامد الصراف)
"دليل خارطة بغداد" (مع الدكتور أحمد سوسة)
"دليل الجمهورية العراقية" لسنة (1960) (مع محمود فهمي درويش وأحمد سوسة)
"الأساس في الأدب" (مع أحمد بهجت الأثري وكمال إبراهيم)
"دراسات في فلسفة النحو والصرف واللغة والرسم" (1968)
"قل ولا تقل" (1969)
"قصة الأمير خلف" (مترجمة عن الفرنسية)
"رحلة أبي طالب خان" الرحالة الهندي المسلم للعراق وأوروبا عام 1799 (طبع سنة 1970)
"دليل خارطة بغداد المفصل" (مع الدكتور أحمد سوسة) مطبعة المجمع العلمي العراقي (1958)
"جاوانية القبيلة الكردية المنسية" المجمع العلمي العراقي
"رسائل في النحو واللغة" آخر كتاب طبعه (1969)
"مستدرك على المعجمات العربية" كتاب خطي
"الشعور المنسجم" ديوان شعر
"الضائع في معجم الأدباء" أعادت دار المدى بدمشق نشر الكتاب بتقديم الدكتور عناد غزوان، تلميذه الوفي له

6 - مما كتب عنه

كتب تلميذه الدكتور عناد غزوان يقول :

"يقف مصطفى جواد علما بارزا من أعلام النهضة العربية في ثقافتنا وحضارتنا وفكرنا وتاريخنا الإنساني. فقد كان عاشقا طبيعيا للحقيقة، مخلصا لها، مترصدا إخلاصه فيها، عائما بها ولذاتها. تلك الحقيقة هي حبه العميق للغة العربية لغة الحضارة والفكر الإنسانيين. كان موسوعة معارف، في النحو والخطط والبلدان والآثار، (أعانه على ذلك حافظة قوية وذاكرة حادة، ومتابعة دائمة، حتى غدا في ذلك مرجعا للسائلين والمستفتين، فنهض بما لا ينهض به العصبة أولو القوة. فكان أمة كاملة في رجل. وعالما في عالم، ومدرسة متكاملة قائمة بنفسها) ... كان قد استمد قدرته الفائقة في الدرس والبحث والاجتهاد الفردي من بيئته وأساتذته ومجالس العلماء الذين التقاهم واطلع على مكتباتهم العامرة بمصادر اللغة والأدب العربي

والتاريخ الإسلامي فضلا عن موهبته النادرة في الاستقراء واستنباط الاحكام واستقراء الرأي، تلك الموهبة التي صيرها اجتهاده الذاتي وجده المتواصل موسوعة علمية ليس من السهل مضاهاتها،يفخر بها البحث العلمي اصالة وابتكارا وإبداعا".

7 – وفاته

توفي في 17 ديسمبر عام 1969 في بغداد التي ولد فيها عن عمر ناهز الخامسة والستين بسبب مرض عضال لازمه سنواته الأخيرة. سار في تشييعه رئيس الجمهورية العراقية أحمد حسن البكر وأقيمت في الذكرى الأربعينية لوفاته حفلة تأبينية كبرى حضرها مندوب عن رئيس الجمهورية وعدد كبير من الوزراء والمسؤولين وشعراء الدول العربية والإسلامية وجمهور غفير من أصدقائه وطلابه ومحبيه، ثم نظمت وزارة الثقافة والإعلام معرضا يضم مخلفاته وآثاره الشخصية والعلمية افتتح يوم 25 مارس 1970.

الشاعر محمد بن الملا سليمان البياتي عملاق الأدب العثماني

الشاعر، هو محمد بن الملا سليمان البياتي المنسوب إلى بغداد، حيث قضى ردحا من عمره . والمشهور أنه عاش في "كربلاء "ومات بها ودفن فيها .وكان مشتغلا بإشعال القناديل والشموع في الصحن الحسيني .فقد عاش حياة متواضعة مع اشتهاره في الآفاق وهو حي

.ولادته تسبق سنة 1480 م ، بدليل قصيدة بالفارسية نظمها للأمير" ألوند"، من أمراء دولة" أَقْ قُويُنْلُو "التركمانية في بلاد العراق وما جاورها .وإذ إن وفاة هذا الأمير كانت في سنة 910 هـ 1504 / م ، فلابد أنه كان شابا عندئذ في سنه العشرين ، فسنة ولادته تقدر كما مرّ آنفا -.أما وفاته ففي عام الطاعون مصابا بها سنة 963) هـ 1555 م

استظل بظل ثلاث دول عاصرها هي دولة : أَقْ قُويُنْلُو "والدولة الصفوية ثم الدولة العثمانية .وقد عين السلطان سليمان القانوني راتبًا له ، وله مراسلات مع السلطنة بشأنه

.و" فضولي "هو مَخْلَصه الشعري على عادة شعراء الترك في اتخاذ مَخْلَص لهم .يقول الشاعر إنه تلقب بهذا المخلص حتى ينفرد به لانصراف الشعراء عنه لدلالته المتواضعة .

فإن مفهومه بالتركية هو : الزائد الذي لا نفع منه. ولكن للاسم معنى بالضد يدل على زيادة الفضائل والمكارم ، وهي مما يحوزه الشاعر بجدارة .فإنه كان متواضعا في حياته، منصرفا عن بهارج الدنيا وترف الحياة وحب المقام، مع اكتسائه بفضائل العلوم النقلية والعقلية من فقه وكلام وحديث وطب وفلك، زيادة على إمارته للشعر بالتركية والفارسية .ومن منظوماته ديوانه بالتركية، وديوانه بالفارسية، وديوان مجنون ليلى بالتركية (الذي يزيد على ثلاثة آلاف بيت، وديوانٌ مثنوي بالتركية من 444 بيتًا، وديوان" ساقي نامَه "من 327 بيتًا من الشعر التصوفي، وترجمة شعرية لأربعين حديثًا .ومن تآليفه" حديقة السعداء "في واقعة كربلاء، و"مطلع الاعتقاد في معرفة المبدأ والمعاد "في العقائد (بالعربية) .

هو من أعظم شعراء الترك والعجم .كما يعَدّ من شعراء العرب .و شعره بالعربية يشوبه التكلف والاصطناع ، وهو دون شعره التركي والفارسي بأشواط . فقد بلغ فيهما الذروة ، حتى عده العلامة " حسين مجيب المصري " في كتابه " فضولي البغدادي "، أمير على الشعر التركي

و"فضولي " شاعر ملتزم، يسند شعره بالعلم والفن .يقول في مقدمة ديوانه الفارسي" :إن الشعر بغير علم جدارٌ من غير أساس، وغايته ألاّ يُعتَد به ."ويقول في بيت له" : إن من يرفع كلامه يرفعه بالصدق .وإن قَدْر الكلام بقَدْر أهله ."شعره عابق بالتصوف، ومعمور بالعلم، ومشحون بالعشق والعاطفة وخطاب القلب .مضطرب بالهجر والجفاء وغير متنعم بالوصل واللقاء .يرفع العشق في أحاسيسه الإنسانية إلى مدارج تصوفية ا رقية، حتى يَعُدّ بعض الباحثين ديوانه في" مجنون ليلى"، شعرا صوفيا .إن المعاني

وأسلوب التعبير عنها، متلازمان في الأدب وفي الشعر خاصة .ومن قوة الشعر، التعبير عن معنى رائقٍ، بإفادةٍ موجزة وبليغة، في صور من الكلام مبتدعة ومركبة.

و"فضولي "خير من جمع هذه الشؤون في شعره .بل يكاد أن يرفع المعاني إلى العلياء في كل بيت من أبيات شعره . فمِثْلُه قليل وعزيز في التاريخ.

القصيدة المائية:

هذه القصيدة عروضية و"نعتية ."و"النعت "غرض من أغراض الشعر التركي، يعني مدح النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد ألزم الشاعر فيها نفسه بحرف الراء رَويا ، يتبعه كلمة" صُوْ) " الماء . (فالتزم بصعب لا يُلزمه، ليصعد بقوة القصيدة.

ترجمة القصيدة المائية :

1 الماء ، دع الماء لا تهرقه دمعًا على نيران قلبي .الماء، كل الماء، يقصر عن هذا اللهيب.

2 والماء ، هل لونه هو الذي في القبة الدوارة ، أم الذي في الأفلاك بحر من ماء عيني ؟

3 والماء يشقق الصخر شروخًا بمر الزمان ...فهل عجبٌ إن تفتت قلبي بسيوف نظرك، نشوانًا ؟

4 والماء يشربه الجريح متوجسًا حذرا .وقلبي الجريح متوجس حذر، أن ينطق ببنت شفة عن سنان أهدابك .

(يشفق الشاعر أن ينطق بشيء عن أهداب عين الحبيب وإن كانت أسنتها الجارحة كالماء له ، وهو الجريح .كخشية الجريح أن يشرب الماء حتى لا يزيد نزفه فيهلك) .

5 والماء إن سقى ألف جنة ، ما تفتحت عن وردة كوجهك، فلا تَشْقَ يازارع عبثًا، ودع الرياض غرضًا للسيول !

(يعني لا جدوى من سقاية الزرع وإن سالت سيولاً إن كان القصد مضاهاة الجمال في الزهور، وقد تفتحت أجمل الورود طرا) .

6 والماء الأسود حتى إن تَقَطّر على عين المحرر (فأعماها) لطول تأمله في خطوطك، كما يتقطر (الحبر) في القلم ، فإن خطه الغباري الدقيق يستعصي أن يضاهي دقيق ملامحك

(الماء الأسود الذي يذهب البصر . والخط الغباري هو نوع من أدق الخطوط كتابة)

7 والماء ما ضاع سدى ، حتى إن سقى الشوكَ رجاءَ الوردِ .فلست أبالي، إذن، مهما بلت جفوني لعارض من خاطرك .

(يعني أن البكاء على الحبيب ليس هباءً، وإن لم يبلغ الباكي الم ا رد .كما أن الماء لا يذهب سدى ما دام الورد رجاء).

8 والماء إن يرو العليل في ظلمة الليل، تكن صدقة .فتصدق ولا تحرم قلبي العليل في يوم الغم من سيف نظرك . (يحسب الإنعام بالنظر، وإن كان حديدا كالسيف، ريا يروي ظمأه في بلوى الفراق ، كما يرتوي العليل الظامئ الساهربأوجاعه) .

9 والماء ، ما ضرك يا قلبي أن تطلبه لي مرة في هذه الصحراء؟ !فاستدع يا قلب في الهجر نباله، فيسكن شوقي إلى وصله .!

(هنا أيضًا، يستجلب نبال الحبيب في الهجر ويطلبها، كالماء في هجير الصحارى).

10 والماء يستسيغه النبيه، والخمر يستسيغه السكران .وإن الزهاد طلاب الكوثر، وأنا مشتاق إلى شفاهك!

11 والماء ينساب في مسالكه إلى ربوع رياضك بلا كلل ..فأظنه عاشقًا لذاك السرو البهي القويم.

12 والماء هذا غريمي ، فلأ كنْت رابًا في طريقه مانعًا إياه عن تلك الربوع . حتى أحوزها حصرا.

13 والماء، قدموه إلى يد الحبيب في جرة، تصنعوها من ترابي، إن مت يا أخلاّئي، فمرادي أن أقبل يديه، إذ لم أبلغ مرادي ! حين يمس الحبيب الجرة .

14 والماء تراه مُقبّلاً أذيال ثوب السرو، واقعًا على أقدامه، متوسلاً به ...لأن السرو زاه وشامخة، لتوسل القُمريّ به . (هنا يسمو بالحبيب ويجعله عزيزا عن الوصول، مهما توسل القمري .ففي عزه لتوسل المحبين إليه، يقبّل الماء أذيال أثوابه ويسيل ذائبا تحت قدميه ويتواضع له).

15 والماء عساه أن ينقذ البلبل، إذ يختلط بمزاج غصن الورد ...فإن الورد يهوى امتصاص دم البلبل في لونه. (يعني أن الماء قد يخفف من غلواء الورد المستمد لونه من دم العندليب بالسريان في مزاج الغصن) .

16 والماء في طهر طينتك نورٌ لأهل العالم، واقتداءٌ لطريق الأحمد المختار صلى الله عليه وسلم.

17 والماء أغرق نار الشر بمعجزات سيد البشر وبحر دُر الاصطفاء.

18 والماء تفجر من جلمود الصخر بمعجزة ، ليخلّد نضارة روضة النبوة.

19 والماء أكفأ ألف ألف بيت نارٍ للكفار، إعجازه في العالم بحر محيط مديد.

20 والماء تفجر من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم للأنصار يوم الشدة، في إعجازٍ من يسمع به يعض الأصابع عجبًا.

21 والماء إن يذقه عدوٌ له، يكن سم أفعى، وإن يرتشف خليلٌ له سُمّ أفعى يكن ماء السرمدية وإكسير الحياة.

22 والماء المرفوع إلى وجهه بكف الوضوء، كل قطرةٍ منثورةٍ منه ألفُ بحرٍ للرحمة، متلاطمِ الأمواج.

23 والماء هيمانٌ، لا يفتأ يسيح في الأرض أعمارا متواصلةً ، يرطم رأسه بالأحجار، حجرا حجرا ، متلهفًا لتراب أقدامك .

(مع عموم المعنى، فقد ينصرف إلى نهرَي دجلة والفرات النابعين من فجاج الجبال في تركيا .ثم يسيحان حتى يلتقيان في شط العرب الذي يصب في الخليج .فكأنهما يريدان أن يبلغا تراب جزيرة العرب، موطىء قدم الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا ينالان المرام ، مع إصرارهما في السيلان آمادًا طويلةً . ويعزز البيت الذي يليه هذا المعنى .

24 والماء لن يرجع القهقري عن مأواك وإن فُتتَ فَتاتًا .فمرامه أن يشع نو را في كل ذرة من تراب مأواك.

25 والماء يشربه السكران دواءً يعالج ذهول عقله . كذلك يداوي الخطاة آثامهم بذكر نعتك (مناقبك) وِردًا لهم.

26 والماء لهف الصادي، المتشقق شفتاه عطشًا .كذاك لهفي إليك يا حبيب الله، يا خير البشر.

27 والماء الفياض من قطر نداك، يا بحر الكرامة، أوفت الثوابت والسيا رات في ليلة مع راجك.

28 والماء إن ابتغاه للتجديد معمار مرقدك ، ففيض الزلال يصب أبدًا من معين نورك.

29 والماء رجائي أن يُرش من غمام إحسانك ، على نارٍ يلهبه خوفُ الجحيم حريقًا من الغم، في قلبي المشتعل.

30 والماء في مطر نيسان يغدو لآلئ . كذلك صارت كلمات " فضولي " جواهر بيمن نعتك (مدحك) .

31 والماء ، أرجو أن يهبه عين وصلك لهذا الظمآن .فإن رجائي ألا أُحرم يوم الحشر . (استلهامًا من أسطورة تقول بأن قطرة مطر الربيع تغدو لؤلؤة).

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

إمام النحاة أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، الملقب سيبويه

1 – تقديم

سيبويه (148 هـ - 180 هـ / 765 - 796م : إمام النحاة ، وأول من بسّط علم النحو . أخذ النحو والأدب عن الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب وأبي الخطاب الأخفش وعيسى بن عمر، وورد بغداد، وناظر بها الكسائي، وتعصبوا عليه ، وجعلوا للعرب جعلا حتى وافقوه على خلافه . من آثاره : كتاب سيبويه في النحو.

2 - سيرته وحياته

ولد سيبويه في سنة 148 هـ ، في قرية البيضاء في بلاد فارس . نشأ سيبويه بالبصرة بعد أن رحلت أسرته من بلاد فارس إليها ، ومعنى سيبويه رائحة التفاح ، وقيل بل لأنه كان شابا نظيفا جميلا أبيضا مشربا بحمرة كخدود لون التفاح وذلك يقال له سيبويه لان التفاح سيب .

اتجه إلى دراسة الفقه والحديث على حَمَّادُ بن سَلَمة البصري، ثم اتجه إلى تعلم النحو.

2 – 1 - شيوخ سيبويه

من أشهر شيوخه حماد بن سلمة ، ثم عمد سيبويه إلى إمام العربية وشيخها الخليل بن أحمد الفراهيدي؛ لينهل ويتعلم منه عن حبٍّ وعزيمة وقوة إرادة، فصار يلازمه كالظلِّ حتى لقد بدا تأثره الكبير بشيخه هذا على طول صفحات كتابه الوحيد وعرضه في رواياته عنه، واستشهاداته به.

ولم يكتف سيبويه بشيخه الخليل بن أحمد في علوم النحو والعربية، فأخذ العلم عن يونس بن حبيب، وعيسى بن عمر وغيرهم. فتنوعت ثقافته، وتوسعت معرفته بعلم النحو والصرف، وتبوأ مكانة علمية متميزة ، ثم رحل إلى بغداد ، والتقى بالكسائي شيخ الكوفيين، ووقعت بينهما مناظرة في النحو وقد تغلب فيها الكسائي على سيبويه ، غير أن سيبويه لم يبق في بغداد بعد هذه المناظرة عاد إلى فارس ، ولم يعد إلى البصرة.

2 – 2 - تلامذة سيبويه

لأن القدر لم يمهله طويلاً حيث تُوُفِّي في ريعان شبابه ، فلم يكن لسيبويه تلاميذ كثيرون، وكان من أبرز من تتلمذوا على يديه ونَجَم عنه من أصحابه : أبو الحسن الأخفش، وقُطْرب ويقال : إنه إنما سمِّي قطربًا لأن سيبويه كان يخرج فيراه بالأسحار على بابه، فيقول له : إنما أنت قطرب ليل . والقُطْرب : دويبة لا تزال تدبُّ، ولا تفتر.

2 -3 - آراء العلماء فيه

قال عنه ابن عائشة : "كنا نجلس مع سيبويه النحوي في المسجد، وكان شابًّا جميلاً نظيفًا، قد تعلق من كل علم بسببٍ ، وضرب في كل أدب بسهمٍ ، مع حداثة سنِّه وبراعته في النحو.

قال معاوية بن بكر العليمي : "عمرو بن عثمان قد رأيته وكان حدث السن، كنت أسمع في ذلك العصر أنه أثبتُ مَن حمل عن الخليل ، وقد سمعته يتكلم ويناظر في النحو، وكانت في لسانه حُبْسة ، ونظرتُ في كتابه فرأيت علمه أبلغَ من لسانه".

قال الأزهري : كان سيبويه علامة حسن التصنيف جالس الخليل وأخذ عنه ، وما علمت أحدا سمع منه كتابه لأنه احتضر شابا، ونظرت في كتابه فرأيت فيه علما جما.

قال الذهبي : إمام النحو ، حجة العرب ، الفارسي ، ثم البصري. قد طلب الفقه والحديث مدة، ثم أقبل على العربية، فبرع وساد أهل العصر، وألف فيها كتابه الكبير الذي لا يدرك شأوه فيه. قيل فيه مع فرط ذكائه حبسة في عبارته ، وانطلاق في قلمه.

قال المبرد : " لم يُعمل كتاب في علم من العلوم مثل كتاب سيبويه ؛ وذلك أن الكتب المصنَّفة في العلوم مضطرة إلى غيرها، وكتاب سيبويه لا يحتاج مَنْ فَهِمَه إلى غيره".

قال محمد بن سلام : "كان سيبويه النحوي غاية الخلق في النحو وكتابه هو الإمام فيه".

قال ابن النطاح : "كنت عند الخليل بن أحمد فأقبل سيبويه فقال : مرحبا بزائر لا يمل ، فقال أبو عمر المخزومي وكان كثير المجالسة للخليل : ما سمعت الخليل يقولها لأحد إلا لسيبويه".

قال ابن كثير : "وقد صنف في النحو كتابا لا يلحق شأوه وشرحه أئمة النحاة بعده فانغمروا في لجج بحره ، واستخرجوا من دره ، ولم يبلغوا إلى قعره".

قال أبو إسحاق الزجاج : " إذا تأملت الأمثلة من كتاب سيبويه تبينت أنه أعلم الناس باللغة".

قال الجاحظ في كتاب سيبويه : "لم يكتب الناس في النحو كتابا مثله وجميع كتب الناس عليه عيال".

قال صاعد الأندلسي: "لا أعرف كتابًا أُلِّف في علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم، وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب، أحدها: المجسطي لبطليموس في علم هيئة الأفلاك ، والثاني : كتاب أرسطوطاليس في علم المنطق ، والثالث: كتاب سيبويه البصري النحوي؛ فإن كل واحد من هذه لم يشذّ عنه من أصول فنِّه شيء إلا ما لا خطر له".

3 – الوفاة

قبر سيبويه في شيراز.

توفي في قرية البيضاء بشيراز، وقد اختلف المؤرخون في السنة التي توفي فيها وأرجح الأقوال إنه توفي سنة 180هـ. ثمة خلاف في سبب وفاته، فقيل: إنه مات غماً بالذَّرَب، وهو الدّاء الذي يَعرِضُ للمعدة، فلا تهضم الطعام، ويَفسُدُ فيها ولا تُمْسِكه، يُروى أنه ذَرِبتْ معدته فمات. قيل إنه تمثَّل عند الموت بهذين البيتين :

يـؤَمِّل دنـيا لتـبـقـي لــه ... فمات المؤمِّلُ قبل الأملْ
حثيثًا يروّي أصولَ النخيل ... فعاش الفسيلُ ومات الرجلْ

يقال : إنه لما احتضر وضع رأسه في حجر أخيه ، فدمعت عين أخيه ، فاستفاق فرآه يبكي فقال :

وكنّا جميعا فرّق الدهر بيننا ... إلى الأمدِ الأقصى ومن يأمنُ الدهرا

وقد رثاه خلق كثير من أهل الدين والأدب ، ورثاه الزمخشري بقوله :

ألا صلى الاله صلاة صدق ... على عمرو بن عثمان بن قنبر
فـان كـتـابـه لـم يـغـن عـنه ... بـنـو قـلـم ولا أبـنـاء مـنـبـر

قال الأصمعي : قرأت على قبر سيبويه بشيراز هذه الأبيات ، وهي لسليمان بن يزيد العدوي :

ذهـب الأحبة بعد طول تـزاورٍ ... ونأى المزار فأسلمـوك وأقشعـوا
تركوك أوحش ما تكونُ بقفرة ... لـم يـؤنسوك وكـربـة لـم يدفعـوا
قَضَى القضاءُ وصرتَ صاحبَ حفرةٍ ... عنك الأحبة أعرضوا وتصدَّعوا

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله (الكسائي)

1 - تقديم

أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الكسائي ولد في إحدى قرى الكوفة. (119 هـ/737 م) . كان إمام الكوفيين في اللغة والنحو، وسابع القراء السبعة. ويعد المؤسس الحقيقي للمدرسة الكوفية في النحو.

2 – شيوخه

حدث عن جعفر الصادق ، والأعمش ، وسليمان بن أرقم . وأخذ النحو عن الخليل بن أحمد، وسافر في بادية الحجاز ونجد مدة للعربية ولزم معاذا الهراء، فأصبح مثالا يحتذى به في علمه بفنون اللغة وقواعدها، وصار إمام نحاة الكوفة ، وبلغ عند هارون الرشيد منزلة عظيمة، وأدب ولده الأمين ، ونال جاها وأموالا. ومن أشهر تلاميذه في النحو هشام بن معاوية ويحيى الفراء.

أخذ القراءة عرضا عن حمزة الزيات أربع مرات، وإليه انتهت رئاسة الإقراء في الكوفة بعد وفاته ، روى عنه القراءات أبو عمر الدوري، وأبو الحارث الليث بن خالد وهما راوياه، ونصير بن يوسف الرازي ، وقتيبة بن مهران الأصبهاني، وأحمد بن أبي سريج، وأحمد بن جبير الأنطاكي، وأبو حمدون الطيب ، وعيسى بن سليمان الشيزري ويحيى الفراء وخلف البزار.

3 – مصنفاته

للكسائي عدد من التصانيف من أشهرها : معاني القرآن ومقطوع القرآن وموصوله، وكتاب في القراءات، وكتاب النوادر الكبير وكتاب النوادر الأصغر، ومختصر في النحو، وكتاب اختلاف العدد وكتاب قصص الأنبياء وكتاب الحروف وكتاب العدد وكتاب القراءات وكتاب المصادر وكتاب الهجاء وغيرها.

4 – تلاميذه

روى عنه القراءات أبو عمر الدُّوري ، وأبو الحارث الليث بن خالد ، ونصير بن يوسف، وقتيبة بن مهران، وأحمد بن سريج ، وأبو عبيد ، ويحيى الفراء ، وخلف بن هشام، وغيرهم . وأما راوياه فهما الليث ، وحفص الدوري .

5 – وفاته

عاش الكسائي 70 سنة، وتُوفِّي بالري - جنوب شرقي طهران - سنة 189هـ/ 805م.

علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدي البغدادي

تقديم

أبو حيان التوحيدي (310 - 414 هـ / 922 - 1023 م) فيلسوف متصوف ، وأديب بارع ، من أعلام القرن الرابع الهجري ، عاش أكثر أيامه في بغداد وإليها ينسب.

وقد امتاز أبو حيان بسعة الثقافة وحدة الذكاء وجمال الأسلوب، فهو رجل موسوعي الثقافة ، سمي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء , كما امتازت مؤلفاته بتنوع المادة، وغزارة المحتوى؛ فضلا عما تضمنته من نوادر وإشارات تكشف بجلاء عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والسياسية للحقبة التي عاشها ، وهي - بعد ذلك - مشحونة بآراء المؤلف حول رجال عصره من سياسيين ومفكرين وكتاب.

وجدير بالذكر أن ما وصلنا من معلومات عن حياة التوحيدي - بشقيها الشخصي والعام - قليل ومضطرب ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون ظنا وترجيحا؛ أما اليقين فلا يكاد يتجاوز ما ذكره أبو حيان بنفسه

عن نفسه في كتبه ورسائله، ولعل هذا راجع إلى تجاهل أدباء عصره ومؤرخيه له، وهو موقف أثار استغراب ياقوت الحموي وحدا به إلى التقاط شذرات مما أورده التوحيدي في كتبه عن نفسه وتضمينها في ترجمة طويلة نسبيا شغلت عدة صفحات من معجمه، ولم يكتف بهذا بل لقبه أيضا بشيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء؛ ربما كنوع من رد الاعتبار لهذا الأديب.

1 - اسمه وكنيته

هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي البغدادي ، كنيته " أبو حيان ", وهي كنية غلبت على اسمه فاشتهر بها حتى أن ابن حجر العسقلاني ترجم له في باب الكنى.

2 - مولده ووفاته

كانت ولادة أبي حيان في بغداد سنة 310 هجرية؛ أما وفاته فكانت في شيراز سنة 414 هجرية وفي هذين التاريخين خلاف .

ومما يروى عن بعض أصحاب أبي حيان أنه لما حضرته الوفاة كان بين يديه جماعة من الناس فقال بعضهم لبعض : (اذكروا الله فإن هذا مقام خوف وكل يسعى لهذه الساعة) ثم جعلوا يذكرونه ويعظونه ، فرفع أبو حيان رأسه إليهم وقال : (كأني أقدم على جندي أو شرطي !!! إنما أقدم على رب غفور) ومات من ساعته.

3 - أصله ونسبته

اختلفت الآراء وتعددت حول أصل أبو حيان ، فقيل أن أصله من شيراز وقيل من نيسابور .

وكذلك اختلف في نسبته إلى التوحيد، فقيل سببها أن أباه كان يبيع نوعا من التمر العراقي ببغداد يطلق عليه " التوحيد " وهو الذي عناه المتنبي حين قال :

يترشفن من فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيدِ

وقيل : يحتمل أن يكون نسبة إلى التوحيد لأنه معتزلي والمعتزلة يلقبون أنفسهم بـأهل العدل والتوحيد وممن مال إلى هذا الرأي ابن حجر العسقلاني نقله عنه جلال الدين السيوطي وفيه نظر؛ لأن نسبة التوحيدي إلى المعتزلة أمر مشكوك فيه ،

4 - نشأته وسماته

نشأ أبو حيان في عائلة من عائلات بغداد الفقيرة يتيما ، يعاني شظف العيش ومرارة الحرمان؛ لا سيما بعد رحيل والده، وانتقاله إلى كفالة عمه الذي لم يجد في كنفه الرعاية المأمولة، فقد كان يكره هذا الطفل البائس ويقسو عليه كثيرا.

وحين شب أبو حيان عن الطوق، امتهن حرفة الوراقة، ورغم أنها أتاحت لهذا الوراق الشاب التزود بكم هائل من المعرفة جعل منه مثقفا موسوعيا إلا أنها لم ترضِ طموحه ولم تلّبِ حاجاته فانصرف عنها إلى الاتصال بكبار متنفذي عصره من أمثال ابن العميد والصاحب بن عباد والوزير المهلبي غير أنه كان يعود في كل مرة صفر اليدين، خائب الآمال، ناقما على عصره ومجتمعه.

هذه الإحباطات الدائمة، والإخفاقات المتواصلة؛ انتهت بهذا الأديب إلى غاية اليأس فأحرق كتبه بعد أن تجاوز التسعين من العمر، وقبل ذلك فّر من مواجهة ظروفه الصعبة إلى أحضان التصوف عساه يجد هنالك بعض العزاء فينعم بالسكينة والهدوء.

ولعل سر ما لاقاه أبو حيان في حياته من عناء وإهمال وفشل يعود إلى طباعه وسماته؛ حيث كان مع ذكائه وعلمه وفصاحته واسع الطموح، شديد الاعتداد بالنفس، سوداوي المزاج ... إلى غير ذلك من صفات شخصية وضعت في طريقه المتاعب وحالت دون وصوله إلى ما يريد.

5 - سيرته العلمية

يظهر أبو حيان التوحيدي من خلال كتبه كمثقف متنوع المصادر واسع الاطلاع، على وعي بالحركة الثقافية واتصال ببعض رموزها في عصره؛ كما يظهر كأديب يمتاز أسلوبه بالترسل والبعد عن المحسنات البديعية.

5 – 1 - مصادره العلمية

- *5 – 1 – 1 - عمله بالوراقة*

شكل عمل أبي حيان التوحيدي ردحا كبيرا من حياته في نسخ الكتب وبيعها رافدا أساسيا من روافده المعرفية؛ فقد جعلته القراءة المستمرة لما ينسخ - بحكم حرفته - على اتصال دائم بثقافة عصره، وعلى وعي بنتاجات العصور السابقة على عصره في مجالات الفكر والعلم والأدب والعلوم الأخرى، وهكذا عادت عليه هذه الحرفة بالنفع المعرفي إضافة إلى نفعها المادي رغم أنه كثيرا ما تذمر منها في كتبه.

- *5 – 1 – 2 – شيوخه*

من بين من تتلمذ على يدهم التوحيدي :

أبو سعيد السيرافي: أخذ عنه النحو والتصوف

أبو زكريا يحيا بن عدي المنطقي : أخذ عنه الفلسفة

علي بن عيسى الرماني: أخذ عنه اللغة وعلم الكلام

أبو حامد المروزي

ونقل الحافظ الذهبي عن ابن النجار قوله : "سمع (يعني أبا حيان) جعفرا الخلدي، وأبا بكر الشافعي، وأبا سعيد السيرافي، والقاضي أحمد بن بشر العامري".

5 – 2 – تلاميذه

نقل الحافظ الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء عن ابن النجار قوله : "روى عنه: علي بن يوسف الفامي، ومحمد بن منصور بن جيكان، وعبد الكريم بن محمد الداوودي، ونصر بن عبد العزيز الفارسي، ومحمد بن إبراهيم بن فارس الشيرازي". وأبو سعد عبد الرحمن بن ممجة الاصبهاني ،

6 – قائمة كتبه المطبوعة

الإمتاع والمؤانسة : وهو من الكتب الجامعة وإن غلب عليه الطابع الأدبي.

وهذا الكتاب هو ثمرة لمسامرات سبع وثلاثين ليلة نادم فيها الوزير أبا عبد الله العارض. كتبها لصديقه أبي الوفاء المهندس أبي الوفاء المهندس ، تقلب فيها الكلام وتنوع من أدب إلى فلسفة إلى شعر إلى مجون إلى فلك إلى حيوان إلى مشاءت ثقافة تلك العصرأن تأخذنا فهو أشبه بموسوعة غير مرتبة ودائرة معارف لا نظام فيها وبالإضافة إلى قيمة الكتاب الأدبية، هو أيضا يتفرد بنوادر لم يوردها غيره كما يكشف - وعلى امتداد ثلاثة أجزاء عن بعض جوانب الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية لتلك الأيام.

البصائر والذخائر : وهو عبارة عن موسوعة اختيارات ضخمة ، تقع في عشرة أجزاء ، انتخبها أبو حيان من روائع ما حفظ وسمع وقرأ. وقد بلغ تعداد اختيارات الكتاب سبعة آلاف وتسعا وسبعين اختيارا حسب النسخة المطبوعة منه

والكتاب لا يقتصر على الاختيارات ولا تكمن قيمته فيها فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى قيمة ما أضافه التوحيدي إلى تلك الاختيارات من آراء وتعليقات حملت الكثير وكشفت عن الكثير..

الصداقة والصديق : وهو عبارة عن رسالة أدبية تشتمل على الكثير من أخبار الأدب المتعلقة بموضوع الصداقة والأصدقاء، كما تشتمل على شيء من آراء أبي حيان التوحيدي وإلماحات إلى حياته، ومن ذلك قوله متحدثا عن نفسه : " فلقد فقدت كل مؤنس وصاحب، ومرافق ومشفق، ووالله لربما صليت في الجامع، فلا أرى جنبي من يصلي معي، فإن اتفق فبقال أو عصار، أو نداف أو قصاب، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني بصنانه، وأسكرني بنتنه، فقد أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخلق، مستأنساً بالوحشة، قانعاً بالوحدة، معتاداً للصمت، ملازماً للحيرة، محتملاً للأذى، يائساً من جميع من ترى".

الهوامل والشوامل : وهو عبارة عن كتابين في كتاب واحد، حيث تمثل الهوامل أسئلة بعث بها التوحيدي إلى مسكويه، والشوامل هي إجابات مسكويه عن أسئلة التوحيدي.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

أخلاق الوزيرين : ويسمى أيضا مثالب الوزيرين : وهو كتاب نادر في موضوعه، جمع فيه أبو حيان مشاهداته ومسموعاته عن الوزيرين : ابن العميد والصاحب بن عباد وكان قد اتصل بهما فحرماه ومنعاه ولم يجد عندهما ما كان يؤمله من حظوة وصلة وإكبار.

الإشارات الإلهية : وهو عبارة عن خواطر ومناجيات صوفية بعيدة في أسلوبها عن أساليب المتصوفة المعروفة.

7 – أسلوبه

حذى أبو حيان التوحيدي حذو الجاحظ في أسلوبه الأدبي ، حيث كتب بلغة مباشرة بعيدة عن التكلف، وأولى المعنى غاية اهتمامه، فهجر السجع والمحسنات البديعية الأخرى، ومال إلى الإطناب التعليل والتقسيم وكثرة الاستشهاد بالنوادر والأخبار، كما مال إلى أسلوب الكتابة الساخرة وإن بدت سخرية مرة في كثير من الأحيان.

8 - مواقف العلماء منه

يعد أبو حيان أحد الشخصيات المثيرة للجدل حتى الآن، فما زال الناس فيه بين مادح وقادح، ولعل تباين تلك المواقف يعود في جانب منه إلى شخصية الرجل، كما يعود في جانب آخر إلى ما نسب إليه أو تبناه هو من آراء ومواقف.

9 - حادثة إحراقه لكتبه

جاء في كتاب بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للإمام جلال الدين السيوطي، أن أبا حيان لما انقلبت به الأيام رأى أن كتبه لم تنفعه وضن بها على من لا يعرف قدرها، فجمعها وأحرقها، فلم يسلم منها غير ما نقل قبل الإحراق.

أبو محمد عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم بن قتيبة الدينوري

1 - تقديم

أبو محمد عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم بن قتيبة الدينوري (213 هـ -15 رجب 276 هـ / 828 م - 13 نوفمبر 889 م) أديب فقيه محدث مؤرخ عربي. له العديد من المصنفات أشهرها عيون الأخبار، وأدب الكاتب وغيرها.

ولد في بغداد وسكن الكوفة ثم ولى قضاء الدينور فترة فنسب إليها، وتعلم في بغدادا على يد مشاهير علمائها، فأخذ الحديث عن أئمته المشهودين وفي مقدمتهم إسحاق بن راهويه، أحد أصحاب الإمام الشافعي، وله مسند معروف. وأخذ اللغة والنحو والقراءات على أبي حاتم السجستاني، وكان إمامًا كبيرا ضليعا في العربية، وعن أبي الفضل الرياشي، وكان عالما باللغة والشعر كثير الرواية عن الأصمعي، كما تتلمذ على عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي، وحرملة بن يحيى، وأبي الخطاب زياد بن يحيى الحساني، وغيرهم.

بعد أن اشتهر ابن قتيبة وعرف قدره اختير قاضيا لمدينة الدينور من بلاد فارس، وكان بها جماعة من العلماء والفقهاء والمحدثين، فاتصل بهم، وتدارس معهم مسائل الفقه والحديث.

عاد بعد مدة إلى بغداد، واتصل بأبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير الخليفة المتوكل، وأهدى له كتابه أدب الكاتب. استقر بن قتيبة في بغداد، وأقام فيها حلقة للتدريس ومن أشهر تلاميذه: ابنه القاضي أبو جعفر أحمد بن قتيبة، وأبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه، وعبيد الله بن عبد الرحمن السكري، وغيرهم.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

قال عنه ابن خلكان في وفيات الأعيان : «كان فاضلاً ثقة، سكن بغداد وحدث بها عن إسحاق بن راهويه وأبي إسحاق إبراهيم بن سفيان بن سليمان بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن زياد بن أبيه وأبي حاتم السجستاني... وتصانيفه كلها مفيدة».

2 – مؤلفاته

تأويل غريب القرآن (طبع بتحقيق السيد أحمد صقر).
غريب الحديث.
عيون الأخبار.
مشكل القرآن.
مشكل الحديث.
تأويل مختلف الحديث.
عبارة الرؤيا.
كتاب المعارف.
الأشربة ، نشرها المستشرق أرتوركي.
إصلاح الغلط (وهو إصلاح غلط أبي عبيد).
كتاب التقفية.
كتاب الخيل.
كتاب إعراب القراءات.
كتاب الأنواء.
كتاب المسائل والأجوبة.
كتاب الميسر والقداح وغير ذلك.
الشعر والشعراء
كتاب المعاني الكبير.
أدب الكاتب
الإمامة والسياسة. وطبع هذا الكتاب عدة طبعات في مصر وبيروت وتوجد منه نسخ خطية في مكتبات لندن وباريس وبدار الكتب المصرية

3 - شيوخه

نذكر منهم والده مسلم بن قتيبة، وأحمد بن سعيد اللحياني صاحب أبي عبيد، ومحمد بن سلام الجمحي، واسحاق بن راهويه، ويحيى بن أكثم القاضي ،و أبو حاتم السجستاني، وعبد الرحمن ابن أخي الاصمعي، والشاعر المعروف دعبل بن علي الخزاعي، وإبراهيم بن سفيان الزيادي، واسحاق بن إبراهيم بن محمد الصواف، ومحمد بن يحيى بن أبي حزم القطيعي البصري ،و أبو الخطاب زياد بن يحيى الحساني، وشبابة بن سوار، والعباس بن الفرح الرياشي، وأبو سهل الصفار، وأبوبكر محمد بن خالد بن خداش، وأبو سعيد أحمد بن خالد الضرير، والأديب المعتزلي المشهور صاحب التصانيف السائرة أبو عثمان الجاحظ، وأبو يعقوب اسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد البصري.

4 - تلاميذه

منهم ابنه القاضي أحمد، وابن درستويه الفسوي، وأبو سعيد الهيثم الشاشي، وقاسم بن أصبغ بن يوسف بن ناصح اليابي، وأبوبكر المالكي وإبراهيم بن محمد بن أيوب الصائغ، وأحمد بن حسين بن إبراهيم الدينوري.

5 - رأي العلماء به

قال ابن النديم في الفهرست (ص 85) : كان صادقاً فيما كان يرويه، عالماً باللغة، والنحو، وغريب القرآن ومعانيه، والشعر، والفقه؛ كثير التصنيف والتأليف.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

وقال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (10 /170) : كان ثقة ديّناً فاضلاً، وهو صاحب التصانيف المشهورة.

وقال أبو البركات الأنباري في نزهة الألباء (ص 209) : كان فاضلاً في اللغة والنحو والشعر؛ متفنّناً في العلوم.

وقال ابن الجوزي في المنتظم (102/5) : كان عالماً ثقة ديّناً فاضلاً، وله التصانيف المشهورة.

وقال القفطي في انباه الرواة (144/2) : كان ثقة ديّناً فاضلاً.

وقال ابن خلِّكان في وفيات الأعيان (42/3) : كان فاضلاً ثقة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة في تفسير سورة الإخلاص (ص 252) : يُقال هو لأهل السنّة مثل الجاحظ للمعتزلة، فإنه خطيب السنّة كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة.

وقال الذهبي في تذكرة الحفّاظ (633/2) : ابن قتيبة من أوعية العلم، لكنه قليل العمل في الحديث، فلم أذكره. وقال في الميزان (503/2) : صاحب التصانيف صدوق قليل الرواية. وقال في السير (298/13) : كان رأساً في علم اللسان العربي والأخبار.

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (48/11) : صاحب المصنّفات البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمّة نافعة.

وقال مسلمة بن قاسم - نقله ابن حجر في اللسان 358/3 - : كان لغويًّا كثير التأليف، عالماً بالتصنيف، صدوقاً من أهل السنّة، يُقال : كان يذهب إلى قول إسحاق بن راهويه. وقال نفطويه - نقله ابن حجر في اللسان 358/3 -

مناطق توزيع المواطنين ذو العرقية التركية

التعداد الكلي : 70~83 مليون نسمة
مناطق الوجود المميزة
تركيا 55,500,000 - 60,500,000
قبرص الشمالية 300,000
الجاليات التركية فى البلقان
بلغاريا 588,000-800,000
اليونان 120,000-130,000
جمهورية مقدونيا 77,959
البوسنة والهرسك 50,000
كوسوفو 40,000
رومانيا 28,226-80,000
الجاليات التركية فى الشرق الأوسط
سوريا 750,000-1,500,000
الجزائر600,000-3,300,000
العراق 500,000-3,000,000
تونس 500,000-2,400,000
مصر 100,000-1,500,000\
لبنان 50,000-80,000
السعودية 200,000
الأردن 60,000
ليبيا 50,000
الجاليات التركية فى اوروبا
ألمانيا 3,500,000-4,000,000
فرنسا 500,000-1,000,000
بريطانيا 500,000
هولندا 400,000-500,000
النمسا 350,000-500,000
بلجيكا 200,000
سويسرا 120,000
السويد 100,000-150,000
الدنمارك 70,000
الجاليات التركية فى اسيا
كازاخستان 300,000
روسيا 600,000-3,300,000
أذربيجان 200,000
قرغيزستان 200,000
الجاليات التركية فى باقى دول العالم
الولايات المتحدة 500,000
أستراليا 300,000
كندا 50,000-100,000

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

الجاليات التركية فى البلقان

أماكن التواجد	عام تواجدهم	اسم المجتمع التركي	الأوضاع الجارية
البوسنة والهرسك	1463	أتراك البوسنة	وأظهر التعداد البوسنى عام 1991 أن هناك أقلية من 267 تركي. لكن التقديرات الحالية تشير إلى أن هناك بالفعل 50،000 الأتراك الذين يعيشون في البلاد.
بلغاريا	1396	أتراك بلغاريا	في عام 2011 تعداد البلغاري، التي لم تتلق ردا بشأن العرق من مجموع السكان، 588318 شخص، أو 8.8 ٪ من تحديد انتمائهم العرقي كما نصبوا أنفسهم التركية ؛ في حين أن آخر تعداد للسكان في كامل سجلت تعداد 2001 746664 الأتراك، أو 9.4٪ من السكان .تقديرات أخرى تشير إلى أن هناك 750،000 لتصل إلى حوالي 1 مليون تركي في البلاد
كرواتيا	1526	اتراك كرواتيا	وفقا للتعداد السكانى في كرواتيا عام 2001 أن الأقلية التركية بلغت 300تركي.وأكثر التقديرات الأخيرة اشارت أن هناك 2،000 الأتراك في كرواتيا.
اليونان	1523	أتراك الدوديكانيز	يعيش نحو 5،000 تركي في جزر دوديكانيز رودس وكوس.
جمهورية كوسوفو	1389	أتراك كسوفو]	هناك ما يقرب من 50،000 من الكوسوفيين الأتراك الذين يعيشون في كوسوفو معظمهم في ماموشا، بريزرن ، و بريشتينا.
جمهورية مقدونيا	1392	أتراك مقدونيا	ينص الإحصاء المقدوني للتعداد السكانى عام 2002 أن هناك 77,959 تركي مقدوني، وتشكيل حوالي 4٪ من مجموع السكان وتشكل أغلبية في مركز جوبا وبلاسنيكا . ومع ذلك ، تشير التقديرات الأكاديمية التي كانت في الواقع بين عدد 170،000-200،000 . وعلاوة على ذلك، فقد هاجر حوالي 200،000 المقدونية الأتراك إلى تركيا خلال الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية بسبب الاضطهاد والتمييز.
الجبل الأسود	1496	أتراك الجبل الأسود	وفقا لتعداد عام 2011 كان يوجد104 تركياً في الجبل الأسود . غالبيتهم تركوا ديارهم وهاجروا إلى تركيا في 1900.
دوبروجا , رومانيا	1388	أتراك رومانيا	وفقا لتعداد عام 2011 الرومانية كان هناك 28،226 من أتراك رومانيا مقيمون في البلاد [15].ومع ذلك، تشير التقديرات إلى أن الأعداد التي أشارت إليها الدراسات بين 55،000 و 80،000.
تراقيا الغربية , اليونان	1354	أتراك تراقيا الغربية	الحكومة اليونانية عمدا تشير إلى المجتمع به "مسلمين اليونان" أو "الهيلينيين المسلمين" وتنفي وجود أقلية التركية في تراقيا الغربية، في الجزء الشرقي من شمال اليونان ، وكانت التقديرات السكانية اشارت بوجود الاتراك ما بين 120،000-130،000،ولكن التقديرات الحديثة اشارت بلغ عددهم 150،000. كما أن ما بين 300،000 إلى 400،000 هاجروا إلى تركيا منذ عام 1923.

الجاليات التركية فى المشرق العربي

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

أماكن التواجد	عام تواجدهم	اسم المجتمع التركي	الأوضاع الجارية
العراق	1534	تركمان العراق	عادة ما يطلق على الأتراك الذين يقطنون العراق "تركمان العراق" وذلك بسبب العديد من الهجرات التركية إلى العراق في وقت مبكر من القرن 7. و اندمج معظم نسل اليوم من هؤلاء المهاجرين مع السكان العرب المحليين. و في عهد السلطان سليمان القانوني غزا العراق في 1534، تلاها استيلاء السلطان مراد الرابع لبغداد في عام 1638، تدفق أعداد كبيرة من الأتراك استقروا في المنطقة. وهكذا، فإن معظم تركمان العراق اليوم هم أحفاد الجنود العثمانية والتجار وموظفي الخدمة المدنية الذين نقلوا إلى العراق خلال فترة حكم الإمبراطورية العثمانية
الأردن	1516	أتراك الأردن	توجد أقلية صغيرة من حوالي 5،000 شخص في البلاد هم أحفاد العثمانيين الأتراك<
لبنان	1516	أتراك لبنان	بلغت عددهم في لبنان حاليا حوالي 80،000 قدم الأتراك إلى المنطقة برفقة السلطان سليم الأول أثناء حملته في طريقه لمصر .و يعيش معظم أحفاد هؤلاء الأتراك في عكار وبعلبك . واستمرت الهجرة العثمانية التركية مؤخرا عندما فقدت الدولة العثمانية سيطرتها على جزيرة كريت، في اليونان حالياً . وبعد عام 1897 عندما فقد العثمانيون السيطرة على الجزيرة، أرسلت الدولة العثمانية السفن لحماية أتراك كريت في الجزيرة، ومعظمهم استقر في أزمير ومرسين، ولكن تم إرسال البعض منهم أيضا إلى طرابلس، لبنان .
سوريا	1516	تركمان سوريا	غالبا ما يسمى الأتراك في سوريا "تركمان سوريا" و تاريخ تواجدهم في سوريا اتت بسبب الهجرات التركية المختلفة إلى سوريا في بداية القرن 7. و معظم نسلهم اليوم من هؤلاء المهاجرين وعاشوا جنبا إلى جنب مع السكان العرب المحليين. في عام 1516 غزا السلطان سليم الأول سوريا وكانت المنطقة جزءا من الإمبراطورية العثمانية حتى عام 1918. وبالتالي، خلال 402 سنة من الحكم العثماني التركي، هاجر الأتراك من الأناضول إلى سورية لعدة قرون، ووضع أنفسهم كمجتمع كبيرة. اليوم، هناك حوالي 1.5 مليون تركي يعيشون في سوريا الذين ما زالوا يتحدثون التركية، على الرغم من ويعتقد أن حوالي 2 مليون آخرين استيعابهم داخل السكان العرب.

الجاليات التركية فى شمال أفريقيا

أماكن التواجد	عام تواجدهم	اسم المجتمع التركي	الأوضاع الجارية
الجزائر	1517	تركمان الجزائر	التقديرات الخاصة بالمجتمع التركي الجزائري تختلف بشكل كبير، وفقا للسفارة التركية في الجزائر هناك ما بين 600،000 إلى 2 مليون شخص من أصل تركي يعيشون في الجزائر. وقد اقترح الفريق أكسفورد للأعمال أن الأفراد ذوى الأصول التركية يشكلون 5٪ من مجموع سكان في الجزائر وذلك ما يمثل نحو 1.7 مليون نسمة . ولكن تقديرات أخرى

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

			للدولة أشارت أن أتراك الجزائر يشكلون نسبة 10-25٪ من سكان الجزائر، حيث تم تسميتهم باسم ال (كول اوغلو) و ذلك بالتركية أي " أبناء المجندين" العثمانية.
مصر	1517	تركمان مصر	عادة ما يطلق على الاشخاص ذوى الأصول التركية في مصر بأتراك مصر وتاريخ تواجدهم ذلك منذ أيام الخليفة العباسي" المأمون "والذي حكم من سنة 198هـ إلى 218هـ، وأخيه" المعتصم ."ففي فترة حكمهما استجلبا أعداداً ضخمة من الرقيق عن طريق الشراء، واستخدموهم كفرق عسكرية. لكن كانت أعدادهم محدودة إلى حدٍّ ما، وفي عهد الملك الصالح أيوب، فاعتمد على العنصر التركي في إكثاره من المماليك، وبذلك تزايدت أعداد المماليك، وخاصة في مصر, وبعد الفتح العثمانى لمصر عام 1517. حيث قدمت بعض العائلات التركية كموظفين و جنود في الجيش العثماني. وقد انخرطت هذه العائلات التركية مع المصريين حيث بلغت التقديرات عام 1898 إلى 100,000 تركي مصري . فإن معظم الأفراد ذوى الأصول التركية اليوم هم أحفاد الجنود العثمانية والتجار وموظفي الخدمة المدنية الذين نقلوا إلى مصر خلال فترة حكم الإمبراطورية العثمانية حيث يمثلون 1.5 مليون نسمة .
ليبيا	1551	أتراك ليبيا	في عام 1936 كان هناك 35،000 تركي يعيشون في ليبيا، ويشكلون حوالي 5٪ من مجموع السكان في ذلك الوقت.
تونس	1574	أتراك تونس	يقدر الافراد ذوى الاصل التركي حوالى 25٪ من سكان تونس.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

مصطفى كمال أتاتورك

تقديم

مصطفى كمال أتاتورك (بالتركية : Mustafa Kemal Atatürk) (ولد في 19 مايو 1881 - توفي 10 نوفمبر 1938) قائد الحركة التركية الوطنية في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وأوقع الهزيمة على اليونانيين في الحرب التركية اليونانية عام 1922 ، وبعد انسحاب قوات الحلفاء من الأراضي التركية جعل عاصمته مدينة أنقرة ، وأسس جمهورية تركيا الحديثة ، فألغى الخلافة الإسلامية وأعلن علمانية الدولة.

أطلق عليه اسم الذئب الأغبر، واسم أتاتورك (أبو الأتراك) وذلك للبصمة الواضحة التي تركها عسكريا في الحرب العالمية الأولى وما بعدها وسياسيا بعد ذلك وحتي الآن في بناء نظام جمهورية تركيا الحديثة.

1 - حياته المبكرة

مصطفى كمال أتاتورك هو ابن لأب يدعى **علي رضا افندي** المولود في كوجاجيك عام 1839 ؛ تنتمى عائلته لإحدى العشائر التركية التي هاجرت إلى الاناضول في القرن الرابع عشر والخامس عشر ، ثم استقرت في سلانيك وهناك عمل "علي رضا افندي " موظف في الجمارك .

وفى عام 1871 ، تزوج "علي رضا أفندي " بالسيدة " زبيدة " ابنة لعائلة ريفية ؛ قد ولدت في لانكاداس التي تقع غرب سالونيك في عام 1857 . ولد مصطفى كمال اتاتورك - ذلك الأبن الريفي – في سلانيك عام 1881 ميلادياً . كان لديه خمسة اشقاء هم فاطمة ، وعمر ، وأحمد ، ونجية ، ومقبولة ، توفوا جميعاً في سن صغير عدا مقبولة.

عند بلوغ مصطفى كمال السن الدراسي التحق بمدرسة شمس افندي

وفى عام 1888 فقد والده ، فقبع بجانب أخيه حسين - الأخ الغير شقيق من أمه – في مزرعة " رابلا " منغمساً في أعمال المزرعة ، تاركاً تعليمه ؛ ومن ثم قررت والدته العودة إلى سالونيك وأن يُكمل اتاتورك تعليمه هناك . وفي سلانيك تزوجت زبيدة هانم بموظف جمرك يدعى "رجب بيه"

.التحق مصطفى كمال اتاتورك بالمدرسة الرشدية المدنية بسالونيك ، تلك المدرسة العلمانية رمز البيوقراطية .

وفى عام 1893 التحق بمدرسة الرشدية العسكرية ، - رغم اعتراض والدته - حيث اعجابه بزى العسكرى للتلاميذ في مدرسة محى الدين . وفى هذه المدرسة لقبه معلم الرياضيات " مصطفى صبرى بيه " باسم كمال ؛ ذلك اللقب الدال على النضخ والكمال . كما كان لمعلم اللغة الفرنسية (ناقى الدين بيه) اثر عظيم في تبلور الفكر الحر لمصطفى كمال اتاتورك -.

كان مصطفى كمال اتاتورك يرغب في الالتحاق بمدرسة القللى الثانوية العسكرية ، إلا انه التحق بالمدرسة الرهبانية الثانوية العسكرية بتوصية حسن بى الضابط السلانيكى الذي كان بمثابة أخ أكبر له .وفى الفترة مابين عام 1896 حتى عام 1899، تلك الفترة التي قبعها فى تلك المرسة ، كان لمعلم التاريخ " محمد توفيق بيه" اثر عظيم عليه ؛ حيث احاطته بكل مايثير شغفه نحو معرفة التاريخ . وفى عام 1897 بدءت حرب بين الدولة العثمانية واليونان فأراد مصطفى كمال التطوع فيها لكن ذلك لم يتحقق ؛ لكونه طالب في المرحلة الثانوية وسنه لم يتخط السادسة عشر عاما .انهى المرحلة الثانوية بتفوق ؛ حيث احتل المركز الثاني على مستوى المدرسة . وفى الثالث عشر من مارس 1899، التحق بالمدرسة الحربية وفى الحادي عشر من يناير 1905 تخرج برتبة رئيس اركان حرب مواصلا التعلم في مدرسة اركان حرب (الاكاديمية الحربية)

2 - مسيرته العسكرية (1905- 1918)

2 – 1 - فترة التأهيل

أُرسل مصطفى كمال رئيس الأركان إلى الجيش الخامس القائم بالعاصمة دمشق وذلك عقب تخرجه من اجل التَدَرُّب. وهناك أثناء التدريب كان له دور رئيسي في صفوف المدفعية والفرسان وسلاح المشاة. كان يعمل في الجيش الخامس تحت رئاسة لطفى مفيد بى وأول تدريب له تم في الكتيبة الثلاثين للسلاح الفرسان . وفى ذلك الوقت كان مصطفى كمال شديد الاهتمام بالثورات المتعددة الناشبة في سوريا على اعتبار كونه ضابط بالأركان تحت التَدَرُّب ، وعلى اثر أحد هذه الحروب اكتسب خبرة كبرى.وبعد أربعة أشهر من ردعه للثورات ، عاد إلى دمشق. وفى شهر أكتوبر من عام 1906 ذهب إلى سالونيك دون تصريح من الجيش ؛ وذلك بعد تأسيسه لجمعية الوطن والحرية مع الرائد لطفى بى ، و د / محمود بى ، و لطفى مفيد بى ، و الطبيب العسكرى مصطفى جنتكين ، أقام هناك فرع جديد للجمعية . وبعد مدة عاد إلى يافا بمعاونة حسن بى الذي كان بمثابة أخ له ، كما أنه توسط له لدى أحمد بى ؛ حيث عرض عليه أن يرسل مصطفى كمال إلى بروسبى القائمة على الحدود المصرية . وبالفعل عُين في بروسبى. وبعد فترة أرسل مرة آخرى إلى دمشق للتَدَرُّب في سلاح المدفعية . وفى العشرين من يونيو 1907 أصبح نقيب ذو خبرة عالية . أما في الثالث عشر من أكتوبر من العام نفسه عُين قائد للجيش الثالث .

وفى فبراير من عام 1908 انضم لجمعية الاتحاد والترقى ؛ وذلك عند وصوله إلى سالونيك وعلمه بإنضمام فرع جمعية الوطن والحرية إلى جمعية الاتحاد والترقى . اما في الثاني والعشرين من يونيو من العام نفسه عُين رئيس مفتشى الطرق الحديدية للمنطقه الشرقية الرومانية .عقب اعلان المشروطية في الثالث والعشرين من يوليو عام 1908 أُرسل من قبل جمعية الاتحاد والترقى إلى غرب طرابلس إحدى بلدان ليبيا في نهاية عام 1908 وذلك من اجل بحث المشاكل الاجتماعية والسياسية ودراسة الاوضاع الأمنية . وهناك بث (بعث) في الليبين افكار ثورة 1908 ، وسعى في كسب الأجناس الآخرى القاطنين هناك إلى سياسة جون ترك . وبجانب هذه المهمة السياسية اهتم أيضاً بالوضع الأمنى لشعب المنطقة . درّب العساكرعلى خطط تكتيكية حديثة بإعتباره قائد الحامية العسكرية ببنى غازي ، وذلك من خلال الأعمال الحربية التي كانت تنفذ خارج البلدة.وأثناء فترة التمرين حاصر منزل الشيخ منصور ذلك المتمرد ووضعه تحت سيطرته كى يكون عبرة لكافة القوى المعارضة للنظام في المنطقة.بالإضافة لذلك بدء الجيش الاحتياطى في تنفيذ خطة لحماية أهالى المنطقة وما يحيط بها من مناطق ريفية .

في الثالث عشر من يناير 1909 صار رئيس اركان حرب لفرقة رديف بسالونيك، وفى الثالث عشر من ابريل 1909 صار رئيس اركان حرب للوحدات العسكرية الأولى المتصلة بجيش الحركة الذي توجه إلى استانبول في التاسع عشر من ابريل من العام نفسه بقيادة الميرالاى محمود شوكت باشا ، الذي توجه إلى هناك بعد اجتيازه (عبوره) مدينتى سالونيك وادرنة ؛ لقمع عصيان الحادي والثلاثين من مارس الذي بدء مع عصيان الكتيبة الثانية والرابعة للقناصة والتى تطورت احداثها بتدخل قوات آخرى . وفيما بعد تقلد مناصب عدة منها رئاسة اركان حرب الجيش الثالث ، و رئاسة مركز التدريبات العسكرية بالجيش الثالث نفسه ، و رئاسة اركان حرب الفيلق الخامس ، و رئاسة سلاح المشاة الثامن والثلاثين

وفيما بين الثاني عشر والثامن عشر من ديسمبر لعام 1910 ، بُعث مصطفى كمال اتاتورك إلى مناورات بيجارديا التي نظمت في فرنسا .وهناك لم يستقل طائرة قط ؛ بتحذير من قائده حتى إذا دُعى للقيام بذلك . فتلك الطائرة التي لم يركبها سقطت على الارض ومات كل من كان بداخلها . ويرى بعض الكتاب أن موقفه هذا له علاقة بتصرفه الحذر الكائن عقب الحادث الذي عايشه في مناورات بيجارديا . وعقب عودة مصطفى كمال إلى اسطنبول، تقلد منصب في مركز قيادة الجيش هناك وذلك في السابع والعشرين من ديسمبر عام 1911.

2 – 2 - حرب طرابلس الغرب

بدءت حرب طرابلس الغرب بهجوم الإيطاليين على منطقة طرابلس في التاسع والعشرين من ديسمبر عام 1911، وفى السابع والعشرين من نوفمبر عام 1911 شارك في هذه الحرب المقدم مصطفى كمال اتاتورك بصحبة ضباط اخرين أمثال الرائد انور بى، وفؤاد، ونورى ، والرائد فتحى . حيث تحرك مصطفى كمال ومجموعته إلى بنى غازي ، مروراً بالقاهرة والإسكندرية . وفى التاسع عشر من اكتوبرفى العام نفسه مرض مصطفى كمال بعد مدة من انتقاله من الإسكندرية ، وفى الثاني والعشرين من ديسمبر

حقق النصر بالقرب من " طبرق " . وأثناء الاعتداء العسكرى الذي شُن في درنة في السادس عشر والسابع عشر من يناير عام 1912، اصيب مصطفى كمال في عينه وظل شهراً في المستشفى يتلقى العلاج . وفى السادس من مارس عُين رئيساً لقيادة ادرنه . على الرغم من مباحثات السلام التي بدءت في شهر ديسمبر من العام نفسه واستمرار الحروب الأهلية والصراعات ، عاد مصطفى كمال وباقى الضباط إلى اسطنبول مع ايمانهم ورغبتهم في تحقيق السلام وذلك بسبب اعلان دولة " كارا داغ " شن الحرب على الدولة العثمانية في الثامن من أكتوبر ، و أيضاً بدء حرب البلقان .

2 – 3 - حروب البلقان

مع اندلاع حرب البلقان، انطلق مصطفى كمال إلى استانبول في الرابع والعشرين من أكتوبر عام 1912.في الرابع والعشرين من نوفمبر عام 1912عُين مدير للفرقة البحرية بمضيق البحر الأبيض الذي يتواجد في مركز بوليار. وهناك وفى هذه الحرب انهزم الجيش العثماني في مواجهة الجيش الرابع البلغارى الذي يرئسه الجنرال " ستيلان جوجيف كوفاجيف" وفى حرب البلقان الثانية التي بدءت في يونيو عام 1913 احتلت الوحدات العسكرية التي يرئسها الجنرال " ستيلان جوجيف كوفاجيف" على ديماتوكا و ادرنه .

2 – 4 - الحرب العالمية الأولى

وفى تلك الأثناء في الثامن والعشرين من يوليو عا م 1914 بدءت الحرب العالمية الاولى ودخلت الدولة العثمانية في الحرب منذ التاسع والعشرين منذ أكتوبر 1914 .وفى العشرين من يناير عام 1915 عُين مصطفى كمال قائدا للفرقة 19 التي كانت ستؤسس في منطقة تك فور داغ بقيادة الفيلق الثالث . ظلت الفرقة 19 فرقة احتياطية في منطقة "اجا آبط " بقرار من قيادتها وذلك في الثالث والعشرين من مارس عام 1915.

في الخامس والعشرين من ابريل عام 1915 اندلعت حرب تشاناك قالا بسبب التصريحات التي اعلنها ائتلاف الدول تجاه جلى بولو ياردم ادا وبناء على هذا النجاح نال تقدير المشير اوتوليمان فون سان درس قائد الجيش الخامس ، و حصل على رتبة اميرالاى في الحادي من يونيه عام 1915[31]. عقب الهجوم الذي شنه الانجليز على مدينة "سوفلا كورفاز" في شهر اغسطس، قام "اوتوليمان " بتسليم قائدهم في مساء الثامن من الشهر نفسه ذلك القائد المحتل لمنطقة "آنافارتالار".وفى التاسع والعاشر من اغسطس احرز نصراً لهذه المنطقة .وعقب ذلك النصر توالت انتصارات آخرى ؛ حيث الانتصار في موقعة "كريتش تابا" في السابع عشر من اغسطس، و الانتصار في معركة "آنافارتالار" في الحادي والعشرين من الشهر نفسه . صورت صحافة استانبول للعامة أن كلاً من الميرالاى مصطفى كمال بى و روشن اشرف بى هما بطلا معركة" آنافارتالار".

في الرابع عشر من يناير عام 1916 عُين قائد الفيلق السادس عشر ، ذلك الفيلق الذي أُرسل من "جلى بولو" إلى "ادرنا". وخلال الشهرين الذان قبعا فيهما في "ادرنا" عمل على تمويل الفيلق واسترداد قواه وتدريبه .وفى السادس عشر من فبراير قامت القوات العسكرية الروسية الموجودة على الجبهة الشرقية بصد هجوم الجيش الثالث العثماني ، والاستيلاء على ارذروم ، اما في الثالث عشر من مارس احتلت مدن آخرى مثل "بليتس – موش- فان- هاككارى ". في الخامس عشر من مارس أُرسل الفيلق الثالث إلى ديار بكر برئاسة العقيد مصطفى كمال لدعم الجيش الثالث . حمل مصطفى كمال على عاتقيه مسئولية كبرى نظراً لرتبته ، وأثناء تواجده في ديار بكر في الحادي من ابريل 1916 حصل على رتبة فريق كترقية ، ونال لقب باشا . اصدر مصطفى كمال امراً بالتراجع التكتيكى (وفقاً لخطه تكتيكية) . وبهجوم مفاجيء حرر منطقة موش من احتلال القوات الروسية وحقق السيادة الاستراتيجية للقوات العسكرية العثمانية ؛ ولاحراز هذا النصر على جبهة كافكاس نال مصطفى كمال ميدالية السيف الذهبية . وفى شهر اغسطس حرر منطقتى موش وبليتس من الاحتلال كاملاً (بشكل تام) . أثناء تواجد مصطفى كمال في ديار بكر، اصدر امراً بشن انقلاب ضد حكومة يعقوب جميل ، و كان هذا الأمر بمثابة القضاء على الحرب. فالطريق الوحيد للتحرر هو الضغط على حكومة بابى على وتغير وكيل القائد الأعلى ووزير الحربية وذلك بإحداث

انقلاب ضد الحكومة وجعل مصطفى كمال وكيل القائد الأعلى ووزير الحربية في آن واحد . واخبر أحدهم انور باشا بتلك المؤامرة ، وبناءً على ذلك قُتل يعقوب جميل رمياً بالرصاص .

ويذكر مصطفى كمال في مذكراته التي سردها ل"فالح رفقى آتاى" رئيس إحدى الفرق العسكرية في ذللك الوقت : "شُنق يعقوب جميل ؛ والسبب أنه قال لاسبيل للتحرر طالما انى لست وكيل القائد الأعلى ووزير الحربية ، ولهذا قمت بمعاقبته كأول عمل اقوم به عند ذهابى إلى استانبول. ليتنى رجل تبوء رئاسة السلطة من قبل هذا وأمثاله ، لكنى لم اكن هذا الرجل" .

وفى يونيو عام1918 ذهب إلى فينا وكارل سباد متلقياً العلاج هناك .اما في الثاني من اغسطس عاد إلى استانبول وذلك اثر وفاة السلطان محمد رشاد واعتلاء السلطان وحيد الدين محمد السادس العرش. وفى الخامس عشر من الشهر نفسه أُرسل إلى الجبهة الفلسطينية بإعتباره قائد الجيش السابع وعقب ذلك صار المرافق العسكرى للسلطان .وفى العشرين من ديسمبر عام 1918 أعرب مصطفى كمال باشا عن رغبته في عقد هدنة ، موضحاً ذلك في تلغراف أرسله إلى ناجى بى المرافق العسكرى للسلطان وحيد الدين محمد السادس معلناً فيه أن جماعة جيوش يلدرم لن تبقى الدرع الاساسى في الحرب بالإضافة إلى رغبته في أن يوكل نفسه في الحكومة الجديدة وزيراً للحربية ونائب للقائد الاعلى. وعقب ذلك في السادس من أكتوبر تخلى عن قيادة الجيش السابع.

في التاسع عشر من ديسمبر شنت قوات الأحتلال البريطانية بقيادة ادمُند آالِنبى هجوماً ؛ مما اثقل العبء على الجيش الثالث أحد جيوش جماعة يلدرم . وفى الحادي من أكتوبر استولوا على الشام ، وفى الخامس والعشرين من الشهر نفسه احتلوا حلب أيضاً . ردع مصطفى كمال الجيوش البريطانية في حلب ونجح في انشاء خط دفاع . في الثلاثين من أكتوبر عام 1918 وقّع هدنة مندروس ، وفى ظهيرة اليوم التالى أقام مسيرة . وبتطبيق المادة التاسعة عشر من عقد صلح مندورس ،كُلف مصطفى كمال باشا برئاسة مجموعة جيوش يلدرم بعد أن نُزعت رئاستها من قائدها السابق اتوليمان فون ساندرس إلا أن في السابع من نوفمبر أُلغى الجيش السابع ومجموعة جيوش يلدرم . وفى العاشر من أكتوبر عام1918 انطلق من اضانة إلى استانبول تاركاً قيادة وحدات يلدرم العسكرية إلى نهاد باشا قائد الجيش الثاني، وفى الثالث عشر من نوفمبر وصل إلى محطة حيدر باشا القائمة في استانبول.وأثناء عبوره من حيدر باشا إلى استانبول رآى الاساطيل الحربية للعدو في المضيق ، فقال عبارته الشهيرة " سيعودون بخفى حنين " (سيعودون كما جاؤا) . اصدر فتحى بى برفقة كلاً من احمد عزت باشا واحمد توفيق باشا جريدة المنبر ذات الرأى المعارض وذلك لمباشرة الأوضاع السياسية.

3 - المعركة القومية (1919 - 1923)

3 – 1 – التنظيم

في الثاني من فبراير عام 1919 أُرسل جمال باشا المرسينلى إلى الاناضول لتنظيم الجيوش العثمانية في الجبهة الشرقية ؛ وذلك وفقاً لبنود الهدنة . أمروا الاتراك الموجودين على الجبهة الشرقية بالتسليح . وبناءً على ذلك شرعوا في اتخاذ الاجراءات اللازمة .

كلف السلطان وحيد الدين محمد السادس مصطفى كمال باشا بقمع الاحتجاجات محددة الاهداف ضد قوات الاحتلال ، و حماية المسيحيين قاطني الولايات الست وذلك بإعطائه كافة الصلاحيات

وفى التاسع عشر من مايو 1919 تحرك مصطفى كمال إلى سامسونا مع كلاً من رفعت بى ومحمد عارف و هُسرف بى . وعقب صلح مندروس بدءت انتفاضات منظمة في الاناضول على هيئة مليشيات وطنية . وفى الثاني والعشرين من يونيو من العام نفسه اعلن مصطفى كمال مع روؤف بى وكاظم كارابكير باشا ورفعت بى وعلى فؤاد باشا "أن الشعب سينال استقلاله بالثبات والعزم " وذلك ما نُشر في آماسيا . شارك في مؤتمر الدفاع عن حقوق مدن الشرق ؛ ذلك المؤتمر الذي نُظم في ارضروم من قبل كاظم كارابكير باشا .وباصرار اعضاء المؤتمر استقال عن منصب قيادة الجيش العثماني و تبوء رئاسة المؤتمر. ولتطبيق قرارات مؤتمر سيفاس الذي انعقد فيما بين الرابع والحادي عشر من ديسمبر 1919 ، تشكلت هيئة نيابية وتولى مصطفى كمال رئاستها . اما في السابع والعشرين من الشهر نفسه انتشر هذا الخبر في ارجاء الاناضول و لقى حفاوة كبيرة. وفى الثالث والعشرين من ابريل عام 1920 أُفتُتح المجلس القومى التركى

في انقرا وذلك بسبب قمع نواب المجلس العثماني من قبل قوات الاحتلال في مارس من العام نفسه ، واعتقال سفراء النوايا الحسنة . وقع الاختيار على مصطفى كمال باشا لرئاسة الحكومة والمجلس بإعتباره سفير ارضروم.

4 – السلام

انتهت حرب الاستقلال بميثاق لوزان الذي عُقد في الرابع والعشرين من يوليو عام 1923 [51]. أصبح هذا الميثاق قيد التنفيذ بميثاق سفر ، وطبقاً لنصوص ميثاق لوزان أُسست الجمهورية التركية . وعقب الصراع القومى ظهر في تركيا ادارة يرئسها زعيمين .

الغى مجلس الشعب التركي الخلافة العثمانية في الحادي من نوفمبر عام 1922 ، وبذلك قضت على الكيان القانونى لحكومة استانبول حيث اقصاء فهد الدين عن العرش. أثناء لقاءٍ صحفى مع " عزمت هونكار " في قصره في السادس عشر من يناير عام 1923 ، طُرح عليه قضية الأكراد التي تناولها الكاتب الصحفى احمد امين بى بجريدة الوقت ، فرد -بحذر لانه لم يكن على علم بالوضع الخاص للأكراد – قائلاً" بإعتبار أن الجنس الكردى جنس قائم بذاته ، وطبقاً لنصوص القانون الاساسى لدينا فإنهم يشكلون حكماً ذاتى محلى . في الثامن من ابريل عام 1923 حدد مصطفى كمال اتاتورك قواعد دستور"دوكوز عمدة " واسس الحزب الشعبى التي كانت حجر الاساس للنظام الجديد . كان للحزب الشعبى الحق في المشاركة في انتخابات المجلس الثانى الذي عُقد في ابريل. حدد مصطفى كمال مرشحى الحزب بصفته الرئيس العام له . تبوء فتحى بى منصبى رئيس الوزراء ، ووزير الداخلية في نفس اليوم من الخامس والعشرين من أكتوبر لعام 1923 ، إلا أنه اشار إلى أنه ترك منصب وزير الداخلية . احتل أيضاً على فؤاد باشا رئاسة المجلس في اليوم نفسه ، إلا أنه انفصل عن منصبه لتعينه مفتش للجيش . حصل نائبى الشعب المعارضين لمصطفى كمال الانتخابات التي عقدت لهاتين المقعدين . فتم اختيار رؤوف بى لمنصب رئاسة المجلس الثانى ، وسابط بى لمنصب رئاسة وزارة الداخلية. في السادس والعشرين من أكتوبر لعام 1923 طلب مصطفى كمال – الذي لم يسعد من هذا الوضع – من رئيس الوزراء فتحى بى أن يُقيل الحكومة بإستثناء رئيس اركان حرب فوزى باشا ، كما أمر بعدم قبول المستقيلين في اى منصب حتى لو تم اختيارهم مرة آخرى . وبالتالى ظهرت ازمة في الحكومة . وأعلن أن أعضاء مجلس الوزراء الجدد سيتم اختيارهم يوم التاسع والعشرين من أكتوبر. وطبقاً لهذه التطورات قرر مصطفى كمال حل الوضع من جذوره ؛ ففى ليلة الثامن والعشرين من أكتوبر لعام 1923 دعا عصمت باشا وبعض الشخصيات إلى اجتماع في تشانكايا واعرب قائلاً " سنُعلن اقامة الجمهورية غداً " ،وبعد انصراف المدعوين ابقى عصمت باشا واعدوا معاً لائحة من شأنها احداث تغير في تشكيل القانون الاساسى .

وفى يوم الاثنين التاسع والعشرين من أكتوبر عام 1923 عقد في مقر الحزب الشعبى اجتماع لمناقشة كيفية تأسيس مجلس وزراء. وعندما فشلت المساعى لحل المشكلة ، اضطر مصطفى كمال عرض افكاره ، فأوضح أن الطريق الآمن لعبور هذه الأزمة هو تغير الدستور. قدم مصطفى كمال للحزب الشعبى خطة من شأنها اعلان الجمهورية.وبعد قبول رئاسة الحزب الخطة (المشروع) عقدت اللجنة العامة للمجلس الشعب التركى اجتماعاً في الساعة السابعة إلا الربع من مساء اليوم نفسه .وفى الساعة العاشرة والنصف من مساء الاثنين التاسع والعشرين من أكتوبر لعام 1923 أُعلنت الجمهورية التركية وسط تصفيق نواب مجلس الشعب وهتافات تحيا الجمهورية التركية .

5 - رئاسة الجمهورية (1923 -1938)

انتخب مصطفى كمال - نائب مدينتى بالا وأنقرة – كأول رئيس للجمهورية التركية بتصويت 158 نائب ممن شاركوا في الانتخابات الرئاسية التي تمت عقب الاعلان الجمهوري. اجرى اتاتورك عدة تغيرات جذرية من شأنها إيصال تركيا إلى مستوى الحضارة المعاصرة . وطبقاً لدستور 1924 ، تبوء مصطفى كمال منصب رئاسة الجمهورية ثلاث فترات آخرى (1927- 1931-1935) وذلك بعد أن أُختير من قبل المجلس الشعب التركى كرئيس في التاسع و العشرين من أكتوبر عام 1923 . وفى فترة رئاسة اتاتورك

توالى عصمت انونو ، و فتحى اوكيار ، و جلال بايار على منصب رئاسة الوزراء. كان عصمت انونو هو اكثر من ظل في هذا المنصب اطول فترة ، و اككثر من شكل حكومات .
وتشُكلت في ظل رئاسة اتاتورك ثمانية حكومات للجمهورية التركية

5 – 1 - السياسة الداخلية

"كانت كافة شئون الدولة تحت رقابة مصطفى اتاتورك ؛ لذا كان دائم السفر .

5 – 2 - الاحداث السياسية

عقب اعلان الجمهورية ، اسس (رؤوف بى - كاظم كرابكير باشا - رفعت باشا - على فؤاد باشا) عدا مصطفى كمال - هؤلاء الاعضاء الأربع للكادر الخماسى الذي بدء الصراع القومي - الحزب الراقى الجمهورى . تم اغلاق ذلك الحزب مع اعلان حالة الطوارى " الاحكام العرفية " على إثْر حادث الشاب (ثورة الشيخ سعيد - ثورة الشرق) الذي تم في مارس 1925 .....

وفى المؤتمر الثاني للحزب الشعبى الجمهورى الذي عُقد في انقرا فيما بين الخامس عشر والعشرون من أكتوبر عام1927 ، القى خطبة توضح تأسيس الجمهورية ، وحرب الاستقلال . تلك الخطبة التي تضمنت مفهوم حرب الاستقلال من الناحية الحربية ، شكلت اساس للرؤية الرسمية المتعلقة بالصراع القومى الخاص بالجمهورية التركية ، بالاضافة إلى أنها حملت خصيصة الحرب الكلامية تجاه القادة العسكرين والسياسين تلك الحرب التي شنها ونفذها (رؤوف بى - كارابكير بى مع مصطفى كمال لاشعال فتيل الصراع القومى . وفى عام 1927 تقاعد عن العسكرية برتبة مشير . وبتعديل الدستور تم حذف كافة النصوص الدينية من المادة السادسة والعشرين من الدستور التي تنص على أن الإسلام هو دين الدولة ، كما أنها تحدد مهام ومسئوليات المجلس الشعب التركى ، بالاضافة إلى نزع كلمة الله من اليمين الجمهورى.

وفى برنامج الحزب الشعبي الجمهورى لعام 1931 ، تم اعلان ذلك كأحد العناصر الأساسية للحزب العلمانى . في الثاني عشر من اغسطس عام 1930 أُسس الحزب الجمهورى الحر تكريماً لفتحى بى الصديق المقرب لمصطفى كمال باشا، بهدف تحقيق حياة ديمقراطية وتقديم اقتراحات لحكومة عصمت باشا ، ثم قام بضم اخته مقبولة هانم وصديق الطفولة والدراسة نورى بى لعضوية الحزب . إلا أنه في السابع عشر من نوفمبر عام 1930 تم غلق الحزب نتيجة لتخوف المتشددين من استغلالهم للحزب واستهداف الحزب لمصطفى كمال . قبل خوض هذه التجربة الديمقراطية ، اقر قانون عقاب عسكرى معتقداً أن تدخل الجيش في السياسة سيُلحق الضرر بالشأن الديمقراطى .

وطبقاً للمادة 148 من هذا القانون ، تم منع كل من انتسب إلى الجيش من المشاركة في المظاهرات أو الاجتماعات السياسية أو من ان يكون عضواً داخل حزب سياسى ، كما مُنع أيضاً من التواجد في الندوات ذات المقاصد السياسية ، كتابة مقالات سياسية ، إلقاء خطب سياسية . وفى المؤتمر الذي عُقد في التاسع والعشرين من أكتوبر عام1933 بمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيس الجمهورية التركية ، عُرض على المجتمع التركي وعلى العالم اجمع البنية الأساسية لهذه المنظمة ، بالاضافة إلى الحديث عن المستقبل .

بعد أن انتصر الأتراك على اليونانيين في معركة سقاريا سنة 1345هـ ، أصبح مصطفى كمال أتاتورك بطل الأمة القومي، والمتحكم الفعلي في البلاد، وأنصاره يسيطرون على مجلس النواب والمجالس المحلية

5 – 3 – الاقتصاد

عهد اتاتورك – في ظل رئاسته – حقوق الملكية لكافة المواطنين وليس للاقطاعين فحسب ، بالإضافة إلى أنه في الفترة مابين عام 1923 حتى عام 1938 عمل على تنمية متوسط الاقتصاد التركى بمعدل 7.5 % سنوياً فارتفع الدخل القومى لتركيا من 3.62 وحدة لكل ألف حتى 6.52 وحدة لكل ألف . وفى هذه الفترة – أي فترة رئاسة مصطفى كمال اتاتورك – أصبحت تركيا إحدى الدول الأكثر ازدهاراً على مستوى العالم .

5 – 4 - السياسة الخارجية

في ظل رئاسة اتاتورك كان يُخيم على الوضع السياسى قضايا هامة أبرزها : قضية الموصل ، و تبادل الاسرى مابين تركيا واليونان ، وتركيا عضو في الجمعية القومية ، وكان اتاتورك يتبع في سياسته الخارجية مبدأ الواقعية ، فكان ذكى و ثاقب الرأى، لكنه لم يكن محب للمجازفة. فكان مبدائه " نحن اَناس نعلم قدرُنا وليس هناك مايكبح طموحاتنا .اعتنق اتاتورك الفكر الذي يرتسمه الميثاق القومى مقابل التيارات الإسلامية ، و التركية ، والطورانية. تمسك اتاتورك باتفاقية لوزان - التي تم توقيعها في الرابع والعشرين من يوليو عام 1923 - بإعتبارها عصر مميز حيث أنها تبرز حدود الجمهورية التركية بشكل واسع ، كما أنها تمنح امتيازات على المستوى الاقتصادى لا يمكن التنازل عنها. وبالنظر في عبق التاريخ يتبين أهمية تمسك اتاتورك بإتفاقية لوزان ، حيث أنها الاتفاقية الوحيدة التي لازالت سارية منذ تلك الفترة وحتى الآن ، كما أن الاجراءات التي طبقها اتاتورك على السياسة الخارجية تحمل صفة قومية تماماً ، فهي ذو خصيصة أساسية يُحتذى بها حتى يومنا هذا .ظل اتاتورك - الذي تربى في وسط عسكرى منذ مرحلة التعليم الوسطى ، والذي شارك في العديد من الحروب - يسعى نحو تحقيق السلام ... ويتبين ذلك بوضوح خلال مقولته " نحن نرى أن أول وأهم شرط لتطور الوضع السياسى الدولى هو توحيد الامم حول مبدأ تحقيق السلام .

6 - حياته الخاصة

6 – 1 - محل ميلاده

ولد مصطفى كمال في منزل مكون من ثلاثة طوابق به ثلاث حجرات مزين بالون الوردى ، ذلك المنزل القاطن في شارع اصلاح خان – حى كوجا قاسم باشا ، الآن اصبح هذا المنزل متحف عظيم .

6 – 2 – اسمه

تكثر الاقوال المختلفة حول انتساب لقب كمال إلى اسم مصطفى ؛ فيقول عاطف انان" أن مصطفى كمال مُنح هذا اللقب من قبل معلم الرياضيات مصطفى افندى لما رأى فيه من نضجٍ وكمال. وفيما بين عام 1922 حتى عام 1934 أُلقب مصطفى كمال بمصطفى كمال المحارب أو الغازىً فحسب ، كما أنه لقب نفسه باتاتورك اي" سلف الاتراك"، وذلك طبقاً لقانون رقم 2587 الصادر من قبل مجلس الشعب التركي في الرابع والعشرين من نوفمبر عام 1934 ، وطبقاً لنفس القانون لايجوز استحواز لقب اتاتورك او استخدامه. واسم كمال في اللغة العثمانية يأتى بمعنى الحصن العظيم.

6 – 3 – هواياته

كان مصطفى كمال عاشق للسباحة وركوب الخيل والرقص وسماع الموسيقى والقراءة. كان يسعد بلعب الطاولة والبلياردو، كما كان يهتم بألعاب القوى والمصارعة والاغانى الشعبية الرومانية . كان يعتنى بكلبه فوكس وحصانه الذي لقبه باسم سقاريا. كان له مكتبة غنية بالكتب القيمة . كان كثيراً ما يدعوا الاصدقاء ورجال العلم والفنانين ورجال الدولة إلى قصر تشانكايا ، مجتمعين على مائدة الطعام لبحث مشاكل الدولة . كان يهتم بلباسه نظيفاً مُهندماً . كان مولع بالطبيعة ؛ فكثيراً ما كان يذهب إلى مزرعة غابات اتاتورك مُشاركاً في الأعمال التي تُقام هناك والتي من شأنها تطوير الزراعة للأفضل . كان يعلم اللغة الفرنسية بدرجة جيدة ، أما ادراكه للغة الألمانية كان ضعيفاً .

6 – 4 - علاقاته الشخصية

كان لديه كما قلنا سابقا خمسة اشقاء هم فاطمة ، وعمر ، وأحمد ، ونجية ، ومقبولة ، توفوا جميعاً في سن صغير عدا مقبولة

كان لمصطفى كمال عدة أبناء بالتبنى منهم عبد الرحيم تونجاك ، وصبيحة جوك تشن ، ففى عام 1916 العام الذي نالت فيه بلتس استقلالها من الاحتلال الروسى على يد الميرالاى مصطفى كمال قائد الفيلق السادس عشر ، تبنى عبد الرحيم الذي بقى وحيداً بعد أن فقد كل افراد عائلته في الحرب . ارسل مصطفى كمال عبد الرحيم إلى استانبول حتى يتلقى الرعاية بجانب والدته زبيدة هانم واخته مقبولة .. أما صبيحة جوتشن فكانت أول امرآة تركية تعمل بمهنة الطيران ، بل كانت أول امرآة تصبح قائد سلاح الطيران في الحرب على مستوى العالم .

أتاتورك في لقاء مع الملك عبد الله الأول بن الحسين

6 – 5 – وفاته

بدءت الحالة الصحية لاتاتورك في التدهور منذ عام 1937 . وبعد مضى عاماً اكتشف أنه يعانى من تشمع الكبد ، والأدوية التي قدمها له كلاً من الأطباء الاتراك والاجانب لم تجدى عليه نفعاً .توفى اتاتورك – مؤسس الجمهورية التركية ورئيسها الأول – في اسطنبول بقصر دولما باهتشا في صباح يوم الاربعاء العاشر من نوفمبر عام 1938.شُيعت جنازته حتى انقرة بموكب عظيم و وُضِع جثمانه في مقبرة بمتحف اتنوجرافيا بانقرا بمراسم حافلة تمت في انقرة في الحادي والعشرين من نوفمبر عام1938 .وبعد خمسة عشر عاماً في العاشر من نوفمبر عام 1953 دُفن في مقبرةٍ بالمزار التذكارى الخالد (آنت كابير) الذي أُسس خصيصاً له . وفى وصيته يُقر بإنه منح جل عمره للحزب الشعبى الجمهورى ومجمع التاريخ التركى والمجمع اللغوى .كما اوصى بأن تعيش مقبولة آتادن في تشانكايا ومنح منزلاً واموالاً لصبيحة جوكتشن بالإضافة إلى مساعدته لأبناء عصمت انونو عن طريق ارسالهم لاكمال دراستهم بالخارج .

7 – ذِكراه

تتمتع تركيا بوجود العديد من الأعمال التي تُخلد ذكرى اتاتورك منها : ميناء اتاتورك الجوى ، و استاد اتاتورك للاولمبياد ، و سد اتاتورك ، و كوبرى اتاتورك ، و جامعة اتاتورك ، و مزرعة اتاتورك ..الخ ..... تتواجد النصب التذكارية لاتاتورك في كافة المدن التركية وبلداتها ، كما يتواجد تمثال لاتاتورك ،او تمثال نصفى ،او قناع له عند مدخل المؤسسات الحكومية . وبجانب هذا تبدو في كافة غُرف ذوى المقامات العُليا وفى كثير من مكاتب العمل ، تمثال نصفى لاتاتورك ، او قناع له ، او صوره ، او صحُف ، او مقالم خاصة به . بالاضافة لذلك نجد كثير من المواطنين يمتلكون اشياء خاصة أيضا باتاتورك ومن ذلك : دبوس شعار ، او كارت يحمل توقيع اتاتورك، او دبوس رباط عنق ، او خاتم .

بالاضافة لذلك تتواجد صورة اتاتورك على غلاف الكتب الدراسية بكافة مراحل التعليم الاساسي ، كما تتواجد صورته في كافة الصفوف الدراسية . وبجانب هذا يُدرس كيفية الاخلاص لاتاتورك وثوراته في كافة مراحل المنظومة التعليمية ، إمَا كدرس منفصل بذاته او جزء من بعض الدروس.

التاسع عشر من مارس هو عيد قومى يُحتفل به كل عام في الجمهورية التركية ، وجمهورية قبرص الشمالية ، و وفى سفارات تركيا ، بإعتباره عيد الشباب والرياضة الذي يُقام احياءً لاتاتورك . وفى يوم العاشر من نوفمبر -الذي يمثل ذكرى وفاة اتاتورك - في الساعة التاسعة والخمس دقائق صباحاً - ساعة وفاة اتاتورك - يقف جموع الشعب دقيقة حداد عند وكالات الجمهورية التركية وجمهورية قبرص الشمالية والسفارات ، وتتوقف المركبات

وفى عام 1936 سميت لعبة باسم اتابار تخليداً لاتاتورك ،تلك لعبة شعبية خاصة بمنطقة آرتيفن وأُشتهرت منذ القدم باسم ارتيفن بار . بالاضافة لذلك وُضعت نصب تذكارية في مختلف بلاد العالم لاحياء ذكرى مصطفى كمال اتاتورك . فعلى سبيل المثال تُرى تلك النصب التذكارية في أستراليا - جانبرا ، وفى رومانيا - بُكرَش ، وفى عاصمة شيلى سانتيجو.

7 – 1 - الليرة التركية

في فترة الجمهورية ، طُبعت أولى الأوراق المالية في انجلترا عام 1927 . وفى هذا العام كانت العلامة المائية لصورة اتاتورك تظهر على الليرة ذى قيمة واحد ونصف ليرة حتى ذى قيمة العشر ليرات . اما النقود الآخرى فكان يوجد عليها العلامة المائية لاتاتورك ، وصورته أيضاً . وفى عام 1937 كانت صورة اتاتورك قابعة على كافة النقود المتداولة ذات الاحرف الاتينية . إلا أن عقب اختيار عصمت انونو كرئيس للجمهورية لأول مرة، نزع صور اتاتورك من النقود ووضع صوره بدلا منها . لكن بتطبيق قانون 1951 تم ايقاف طبع صور الاشخاص الذين على قيد الحياة على النقود و طُبعت صورة اتاتورك على الوجه الامامى لكافة النقود التركية . وبالاضافة لهذا تظهر صورة اتاتورك بارزة على الوجه الامامى للعملات الذهبية .

8 - التغييرات التي نفذها أتاتورك :

1 نوفمبر 1922: إلغاء منصب سلطان الدولة العثمانية.
13 أكتوبر 1923: أنقرة هي عاصمة.
29 أكتوبر 1923: إعلان قيام الجمهورية التركية.
3 مارس 1924: إلغاء منصب الخليفة في الدولة العثمانية.
3 مارس 1924: توحيد التعليم
1924: قانون عطلة نهاية الأسبوع (أسبوع العمل : من الاثنين إلى الجمعة تصبح أيام العمل)
1924: إغلاق المدارس الدينية
1924: دمج التعليم
الاعتراف بحق المرأة في التصويت والترشح للانتخابات (1930 للبلدية والأحياء 1933، 1934 للبرلمان)
1925: التوقيت والتقويم (تقويم ميلادي، التوقيت الأوروبي)
25 نوفمبر 1925: تغيير أغطية الرأس واللباس
30 نوفمبر 1925: إغلاق الأديرة الدينية ونزل الدراويش.
1 مارس 1926: إدخال قانون العقوبات الجديد على غرار قانون العقوبات الإيطالي.
4 أكتوبر 1926: إدخال القانون المدني الجديد على غرار القانون المدني السويسري.
31 مايو 1927: إنشاء السكك الحديدية التركية
1 يناير 1928: انشاء الاتحاد التركي للتعليم لدعم الأطفال ذوي الاحتياج المالي والمساهمة في الحياة التعليمية.
1 نوفمبر 1928: تبني الأبجدية اللاتينية للغة التركية بدلاً من العربية.
1928: افتتاح المدارس الوطنية.
1931: إنشاء الجمعية التاريخية التركية لبحث التاريخ.
12 يوليو 1932: إنشاء اتحاد اللغة التركية لتنظيم اللغة التركية.
31 مايو 1933: تنظيم التعليم الجامعي
21 يونيو 1934: القانون المتعلق بالأسماء العائلية .
26 نوفمبر 1934: إلغاء الألقاب وتبني كنية رسمية ٠ قانون الألقاب.
5 ديسمبر 1934: حقوق سياسية كاملة للمرأة ، بالتصويت والانتخاب.
5 فبراير 1937: إدراج مبدأ العلمانية في الدستور.

حرب الاستقلال التركية

دخول القوات التركية إلى إزمير

حرب الاستقلال التركية ؛ 19 مايو 1919 - 29 أكتوبر 1923) كانت مقاومة عسكرية وسياسية قادها القوميون الأتراك ضد تقسيم قوات الحلفاء للإمبراطورية العثمانية بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى . بلغت الحركة الوطنية التركية ذروتها في الأناضول بعد تشكيل الجمعية الوطنية الكبرى التي عبأت الموارد بنجاح تحت قيادة مصطفى كمال. بعد القيام بحملات عسكرية لصد الهجمات اليونانية والأرمينية والفرنسية ، أجبر الثوار الأتراك الحلفاء على التخلي عن معاهدة سيفر والتفاوض على معاهدة لوزان في تموز / يوليو 1923، والسماح للأتراك بتشكيل جمهورية تركيا في الأناضول وتراقيا الشرقية في أكتوبر 1923 وضم جزء من الأراضي العربية السورية عرف باسم الأقاليم السورية الشمالية. تأسيس الحركة الوطنية التركية أدى إلى نهاية العهد العثماني.

الجمهورية التركية

علم الجمهورية التركية

تقديم :

تركيا (بالتركية : Türkiye) تعرف رسمياً بجمهورية تركيا هي دولة يقع الجزء الأكبر منها في جنوب غرب آسيا وجزء آخر صغير في جنوب شرق أوروبا . يقع مضيقا البوسفور والدردنيل وبحر مرمرة - التي تصل البحر الأسود ببحر إيجة وتصل آسيا بأوروبا - في أراضيها مما يجعل موقعها إستراتيجيا ومؤثرا على الدول المطلة على البحر الأسود. يحدها جورجيا وإيران وأرمينيا وأذربيجان شرقا ، العراق وسوريا والبحر المتوسط جنوبا مع حدود بحرية مع وقبرص ، بحر إيجة واليونان وبلغاريا غربا، البحر الأسود شمالا. هي عضو في منظمة التعاون الاقتصادي للبحر الأسود.

كانت تركيا مركزا للحكم العثماني حتى عام 1922 م إلى أن تم إنشاء الجمهورية التركية عام 1923 على يد مصطفى كمال أتاتورك.

1 - تاريخ تركيا والدولة العثمانية :

كانت تركيا مركزًا للحكم العثماني حتى عام 1922م ، ولقد تفككت الدولة السلجوقية فتكونت السلطنة العثمانية فيها بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر وأخذت بالتوسع حتى سيطرت على الإمبراطورية البيزنطية وبلغاريا وصربيا إلى أن توقف توسعها إثر هزيمة بايزيد الأول (يلدرم) الصاعقة عام 1402 م ، تلت هذه الهزيمة فترة اضطرابات وقلائل سياسية. استعادت الدولة توازنها وتواصلت سياسة التوسع في عهد مراد الثاني، ثم محمد الفاتح، والذي استطاع أن يدخل القسطنطينية سنة 1453م ، وينهي التواجد البيزنطي في المنطقة. ثم مرت الدولة العثمانية بمراحل تدهور وانحطاط تلتها بعض مراحل النمو والازدهار الذي لم يلبث سوى القليل من الزمن حتى أستمر وضع الدولة في الانحلال. وأعلنت التنظيمات سنة 1839م، وهي إصلاحات على الطريقة الأوروبية . وأنهى السلطان عبد الحميد الثاني ، هذه الإصلاحات ، نتيجة لذلك استعدى على السلطان كل القوى الوطنية في تركيا. وفي سنة 1922م ، تم خلع آخر السلاطين محمد السادس

وأخيرا ألغى مصطفى كمال أتاتورك الخلافة نهائيا في العام 1924 م بعد أن ألغي السلطنة في العام 1922. وشهدت تركيا بعد الحرب العالمية الأولى حركة قومية قادها مصطفى كمال أتاتورك أي (أب الأتراك) ، وأعلن تركيا الجمهورية فتولى رئاستها عام 1923م ، حتى وفاته عام 1938م ، وقد تمكن من استبدال المبادئ الإسلامية بأعراف قومية علمانية واستبدل الكتابة في تركيا من العربية إلى اللاتينية. ثم خلفه من بعده في الحكم (عصمت انينو) حتى عام 1950م ، وسيطر الحكم المدني على البلاد حتى عام 1973م ، وحكم العسكر بعد هذا التاريخ فأدى ذلك إلى وضع غير مستقر فاندلعت أعمال العنف عام 1980م ، وتعاني الحكومة التركية من معارضة الأكراد والأرمن حيث أن الأكراد يمثلون بين 20 - 25 مليون نسمة ، وفي عام 1991م ، سمح الرئيس التركي أوزال بلجوء الأكراد إلى الأراضي التركية إثر ثورتهم في العراق وفي عام 1993م ، أصبحت (تسلنو تشيلر) أول رئيسة للوزراء في تركيا.

2 - جغرافيا تركيا :

صورة فضائية لتركيا

2 – 1 - المساحة :

تبلغ مساحة أراضي تركيا 779,452 كم ويقع 97 % منها في قارة آسيا والباقي في أوروبا. يطل غرب تركيا علي بحر إيجة وجنوبها علي البحر المتوسط وسوريا وقبرص وشمالها علي البحر الأسود. تقاسمها الحدود ثمان دول منها العراق وسوريا.

2 – 2 – الطبيعة :

يوجد بتركيا مصادر عديدة للمياه العذبة كالأنهار والبحيرات. وأكثر من ثلث مساحتها هي أراضٍ زراعية وتغطي الغابات أكثر من ربع أراضيها. ويوجد بها جبال عديدة أعلاها جبل أرارات (5137 متر) . وتتحكم تركيا بعدة جزر معظمها في بحر إيجة والبحر المتوسط ، أهمها جزيرة أمروز (279 كم مربع) .

3 - الديموغرافيا :

3 – 1 - السكان :

يبلغ عدد سكان الجمهورية التركية حوالي 72 مليون نسمة حسب إحصاءات عام 2008. التركيبة السكانية لتركيا معقدة ومكونة من عشرات الأعراق ، التي يرجع أسباب تشكيلها إلى عهد الدولة العثمانية، حيث كانت مناطق نفوذها تشمل أراضي واسعة في آسيا، أوروبا وأفريقيا وتحكم العديد من الشعوب. لا يوجد إحصاءات رسمية لعدد السكان حسب الأعراق، لأن الحكومة التركية ترى في تركيا بلدا لكل الأتراك بغض النظر عن أصولهم العرقية ، الذي لا يلقى القبول من كل الأقليات وخاصة الأكراد. حسب تقديرات في هذا الصدد ، يشكل الأتراك أكبر تشكيلة عرقية للسكان (حوالي 66 %) ، يليهم الأكراد (30 %) ، ثم الزازا (وهم فرع من الأكراد يتكلمون لهجة خاصة بهم من اللغة الكردية) (2 %) ، فالعرب (1 %) ، الشركس (0،5 %) والجورجيون (0،5 %) . هناك أقليات أخرى : أرمن، يونان، آشوريون / لسريان الكلدان ويونانيون بنطيون وبوسنيون وألبان وشيشانيون وبلغار ولازيون وغيرهم . تعد الأقليات القرمية ، التتارية، الأذرية، الغاغازية، الأوزبكية، القرغيزية، التركمانية، الكازاخية أقليات تركية .

3 – 2 - الجاليات :

هناك جاليات تركية كبيرة في المهجر، تتركز معظمها في دول الاتحاد الأوروبي، حيث يشكل الأتراك على سبيل المثال أكبر جالية أجنبية في ألمانيا، يبلغ تعدادها ما يقارب الأربعة ملايين نسمة. هناك جاليات تركية كبيرة أيضا في الولايات المتحدة وكندا وأستراليا.

3 – 3 - مستوى الأعمار

أعمار فئات الأتراك (2000)

0 — 4	6,033,346
5 — 9	6,449,363
10 — 14	6,615,428
15 — 19	6,693,554
20 — 24	6,390,252
25 — 29	5,845,812
30 — 34	5,450,131
35 — 39	4,759,742
40 — 44	3,899,599
45 — 49	3,210,416
50 — 54	2,453,379
55 — 59	2,062,228
60 — 64	1,872,635
65 — 69	1,513,508
70 — 74	1,098,952
75 — 79	720,935
80+	597,397

3 - 4 - اللغة :

اللغة الرسمية هي اللغة التركية ، ويتحدث بها حوالي 77 % من سكان البلاد. اللغة الكردية (حوالي 20 %)، حوالي 2 % ما زالوا يتكلمون اللغة العربية بين الأتراك ذوي الأصول العربية . اللغات الأخرى هي لغات الأقليات المتواجدة في البلاد : الآرامية، الأرمنية، الألبانية، الجورجية، اليونانية، اللازية والشركسية. هناك عدة لهجات للغة التركية، تختلف بحسب المنطقة المتداولة بها. اللغات الإنجليزية والألمانية والفرنسية منتشرة وخاصة بين الطبقة العليا وفي المدن الكبرى وفي المناطق السياحية . تنتشر اللغة الألمانية بين الطبقة العاملة، التي عملت يوما ما في ألمانيا.

3 - 5 - الديانة :

تركيا دولة علمانية حيث لا يوجد دين رسمي للدولة كما أن الدستور التركي يؤمن حرية المعتقد والدين . يدين غالبية سكان تركيا بالإسلام ، تذكر مراكز بحثية بأن نسبة المسلمين في تركيا تتراوح بين 97 % إلى 98 % من السكان. ويعتقد أن ما بين (85 - 90 %) منهم يتبعون الطائفة السنية، بينما يتبع ما بين (10 - 15%) طائفة شيعة العلويون . كما يدين حوالي 0.1 % بالمسيحية وخاصة الأرثوذكسية ، و 0،04 % باليهودية. وهناك قلة من يزيديين ومانويين وصابئة المندائية وغيرهم.

نص المادة 24 من دستور عام 1982 يشير إلى أن مسألة العبادة هي مسألة شخصية فردية . لذا لا تتمتع الجماعات أو المنظمات الدينية بأي مزايا دستورية. هذا الموقف وتطبيق العلمانية بشكل عام في تركيا نبع من الفكر الكمالي، الذي ينسب لمؤسس تركيا الحديثة كمال أتاتورك الداعي للعلمانية وفصل الدين عن الدولة .

المنشآت الإسلامية ورجال الدين يتم إدارتهم من قبل دائرة الشؤون الدينية (Diyanet İşleri Bakanlığı) التي تأسست العام 1924، والتي تقوم بإدارة وصيانة وإنشاء نحو 75.000 مسجد مسجل حول البلاد. لا يتم دعم منظمات الديانات الأخرى بشكل رسمي ، ولكنهم في المقابل يتمتعوا بإدارة ذاتية وحرية العمل.

3 - 6 - الأعياد والعطلات الرسمية :

1 يناير رأس السنة الميلادية
23 أبريل العيد الوطني
1 مايو عيد العمال
19 مايو عيد الشباب
30 أغسطس عيد الانتصار
29 أكتوبر يوم الجمهورية
1 محرم رأس السنة الهجرية
12 ربيع الأول المولد النبوي الشريف
27 رجب الإسراء والمعراج
1 شوال عيد الفطر
10 ذو الحجة عيد الاضحى

4 - السياسة :

4 – 1 - النظام السياسي :

تتمتع الجمهورية التركية بنظام سياسي شبيه بالأنظمة الديمقراطية الغربية، التي تنقسم عامة إلى جهاز تشريعي، وتنفيذي، وقضائي. ولقد تبنت البلاد الحياة الديمقراطية بعد تطبيق دستور عام 1982 وبعد سنوات من الحكم العسكري. يشكل المجلس القومي التركي أو البرلمان (Türkiye Büyük Millet Meclisi) الجهاز التشريعي . يتكون المجلس من 550 نائب ، يتم انتخابهم كل خمس سنوات مباشرة من الشعب. وكل مواطن تركي مقيم في تركيا له حق الانتخاب ابتداء من سن الثامنة عشرة ، لذا لا يستطيع الملايين من الأتراك المغتربين المشاركة في الانتخابات.

أعلى سلطة سياسية في البلاد هي سلطة رئيس الدولة ، الذي يتم انتخابه كل سبع سنوات من قبل البرلمان . لا يسمح بإعادة انتخاب الرئيس حسب الدستور.

يوكل رئيس الدولة رئيس الحزب المنتصر بالانتخابات النيابية مهمة تشكيل الحكومة، لكي يصبح بدوره رئيس الحكومة ، بعدها يقوم رئيس الدولة بالموافقة أو رفض أعضاء الحكومة .

المحكمة الدستورية هي أعلى محكمة تركية. تقوم المحكمة بفحص مدى مطابقة القوانين المشرعة من البرلمان مع بنود الدستور . تم في عام 2005 انتخاب **تولاي توكو** (Tülay Tuğcu) لتكون أول امرأة ترأس أعلى محكمة في البلاد.

4 – 2 - السياسة الخارجية :

تحاول تركيا الانضمام لعضوية الإتحاد الأوروبي منذ تأسيس الإتحاد في عام 1993. حصلت تركيا رسمياً على صفة دولة مرشحة للانضمام عام 1999 وبدأت مفاوضات العضوية عام 2004. ومسألة انضمام تركيا للإتحاد قسمت الأعضاء الحاليين في الإتحاد إلى معارض ومؤيد.

ويقول المعارضون بأن تركيا هي ليست دولة أوروبية وإنما جزء من الشرق الأوسط وآسيا وأنها سياسياً واقتصادياً وثقافياً لا تلبي الشروط الأدنى للعضوية وستكون عبئ على الإتحاد.

بينما يقول المؤيدون بأن العضوية ستمنع انتشار الفكر المتشدد في منطقة الشرق الأوسط ، والذي قد يوقع تركيا في يوم من الأيام تحت سيطرة المتشددين، أيضا بأن لدى تركيا أراضي زراعية شاسعة وأيدي عاملة كبيرة ستفيد الاقتصاد الأوروبي.

ومن الناحية الإيجابية التي نتجت عن نية تركيا الانضمام للإتحاد وفرض الإتحاد شروط لبدء مفاوضات العضوية هي تقليص سيطرة الجيش على مجريات الحياة السياسية في البلاد، ونمو الحريات وحقوق الإنسان وخاصة فيما يتعلق بحقوق الأقليات كالأقلية الكردية. كما حاولت تركيا جاهدة في الفترة

الأخيرة حل مشكلة قبرص ، التي قامت باحتلال الجزء الشمالي منها عام 1974 تحت ذريعة حماية حقوق المواطنين الأتراك هناك.

4 – 3 - العلاقات التركية العربية :

تميزت العلاقات التركية العربية بالتوتر منذ أيام حكم الإمبراطورية العثمانية لمعظم البلاد العربية . بعد تقسيم ملكية الدول العربية بين الدول الاستعمارية وانهيار الإمبراطورية العثمانية، ولقد حاولت تركيا منذ نشأة الجمهورية التركية في بداية القرن التركيز على علاقاتها مع الغرب وخاصة أوروبا والولايات المتحدة. كما ساهمت سياسات تركيا المائية والزراعية وبناء العديد من السدود في مشروع جنوب شرق الأناضول على نهري دجلة والفرات، اللذان هم عصب الحياة في العراق وسوريا، والتدخل العسكري التركي في شمال العراق، إلى المزيد من التوتر السياسي وخاصة مع العراق. كادت أن تؤدي مسألة إقليم إسكندرون المتنازع عليه مع سوريا واتهام تركيا لسوريا بدعم حزب العمال الكردستاني المحظور إلى نشوب نزاع عسكري بين البلدين .

بعد وصول الأحزاب الإسلامية المعتدلة إلى سدة الحكم في السنوات الأخيرة ، تحاول تركيا تحسين علاقاتها بجيرانها وخاصة العرب منهم. احتجت تركيا مرارا على سياسة إسرائيل الاستيطانية والعمليات العسكرية القاسية ضد المدنيين الفلسطينيين.كما وتقوم تركيا بلعب دور الوسيط بين سوريا وإسرائيل عبر المفاوضات الغير مباشرة والتي تقام على أراضيها . وفي سنة 2009 شهدت العلاقات السورية التركية في السنوات الماضية تطوراً كبيراً ومهماً على أصعدةٍ عديدة، ولاسيما السياسية منها والاقتصادية، والسياحية، ولعلَّ أبرزها توقيع اتفاقية التجارة الحرة السورية التركية، والكثير من الاتفاقات والتفاهمات التي خلقت بين البلدين أفضل العلاقات، وقد قامت جامعة حلب بمنح رئيس الوزراء التركي السيد رجب طيب أردوغان شهادة الدكتوراه ، تقديراً لمواقفه الرائعة حيال القضايا العربية، ولاسيما موقفه المُشرّف تجاه العدوان الإسرائيلي على غزّة ، والموقف الأروع في المنتدى الاقتصادي العالمي في دافوس ، وقتما تصدّى لعنجهيّة الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز، وانسحب من المؤتمر احتجاجاً على التعاطف والتمادي والانحياز الذي أبرزته إدارة المؤتمر مع الرئيس الإسرائيلي.

اعتباراً من ساعات صباح يوم الجمعة 18 / 9 / 2009 بدا تنفيذ قرار الغاء سمة الدخول (الفيزا) بين البلدين حيث يستطيع اي من شعبي البلدين الدخول للبلد الأخرى بجواز سفر فقط دون وجوب الحصول على سمة دخول من القنصلية التابعة للبلد الأخر . والآن بالإضافة إلى الغاء الفيزا بين تركيا واليمن بعد زيارة الرئيس التركى عبد الله جول لصنعاء في فبراير 2011 . وتشهد العلاقات السورية التركية تطورات كبيرة في السنوات الأخيرة في كافة المجالات, وذلك من خلال التنسيق السياسي المستمر بين قيادتي البلدين, وارتفاع حجم التبادل الاقتصادي إلى مستويات قياسية تجاوزت 2 مليار دولار.

4 – 4 - التقسيمات الإدارية :

منطقة ايجه
منطقة البحر الأسود، تركيا
منطقة وسط الأناضول
منطقة شرق الأناضول
منطقة مرمره، تركيا
منطقة البحر الأبيض المتوسط، تركيا
منطقة جنوب شرق الأناضول

5 - الاقتصاد والبنية التحتية :

تتركز مراكز الصناعة والتجارة التركية حول منطقة مدينة إسطنبول وفي باقي المدن الكبرى وخاصة في الغرب. هناك فرق كبير في مستوى المعيشة والحالة الاقتصادية بين الغرب الصناعي والشرق الزراعي. يعتبر القطاع الزراعي أكبر قطاع من حيث تشغيل العمالة ، حيث تبلغ النسبة حوالي 40 % من

مجمل قوى العمل في البلاد، ولكنه ينتج ما نسبته حوالي 12 % فقط من الناتج القومي. القطاع الصناعي ينتج حوالي 29،5 %، قطاع الخدمات حوالي 58،5 % من الناتج القومي لتركيا. يعمل في قطاع الصناعة 20،5 %، في قطاع الخدمات 33،7 % من مجمل عدد الأيدي العاملة.

جبال ملح باموكاله (قلعة القطن)

تم إنشاء اتحاد جمركي بين تركيا والاتحاد الأوروبي منذ عام 1996، حيث تبلغ نسبة صادرات تركيا إلى الاتحاد الأوروبي حوالي 51،6 % من مجمل صادراتها.

في الفترة ما بين 1945 إلى بداية الثمانينات، اتبعت الحكومة سياسة اقتصادية تركز على الاقتصاد الداخلي. حاولت من خلالها حماية الشركات المحلية عن طريق فرض قيود على الشركات والواردات الأجنبية . تعرقلت حركة الصادرات في هذه الفترة بفعل البيروقراطية والفساد المنتشر، كما نقصت الإيرادات المالية الحكومية اللازمة لتحسين الصناعة وتحديثها واستيراد البضائع والمواد الخام اللازمة لها. الجزء الأكبر من القطاع العام التركي كان غير منظم بشكل فعال. أيضا، تم استغلالهم من الساسة لأغراض سياسية واجتماعية. على سبيل المثال تم فرض رسوم بيع موحدة على منتجات بعض شركات القطاع العام، وتم استعمال بعضهم كملجأ لتوظيفهم العاطلين عن العمل في وقت لم تكن تلك الشركات في حاجة إلى عمالة جديدة. في أغلب الأحيان اضطرت الحكومة عادة لصرف أكثر مما هو مخطط له في الخطط الخمسية ، وكانت النتيجة دائما لصالح المصروفات وليس العائدات. استمر عجز الميزانية في التصاعد وزادت نسبة التضخم ومعهم الدين الخارجي للدولة، مما أدى إلى انخفاض قيمة العملة التركية، حيث أصبح في بعض السنوات من المعتاد الحصول على نسب تضخم ذو خانتين مئوية.

ساعد الوضع السياسي الداخلي الغير مستقر والمشاكل العسكرية في قبرص والمناطق الكردية لزيادة مصاريف الدولة وتعجيز الاقتصاد. في الستينات ، زادت نسبة الأتراك العاملين في الخارج بشكل كبير، إلى أن أصبحوا في منتصف السبعينات يشكلون بضعة ملايين، وأصبحوا يساهموا في تنمية الاقتصاد التركي بشكل غير مباشر من خلال تحويلاتهم.

برغم كل هذه الصعاب كان النمو الاقتصادي التركي مستقر ويمكن وصفه بشكل عام بأنه عالي، حيث بلغ على سبيل المثال نسبة 6،7 % في الخمسينات، و 4،1 % في السبعينات.

مع تنحية الحكم العسكري للبلاد عام 1982، دخلت تركيا مرحلة سياسية واقتصادية جديدة، ركزت فيها الدولة على الصادرات وأزالت القيود على الواردات وفتحت الباب للاستثمار الأجنبي. قامت الحكومة في السنوات التالية بتشجيع خصخصة القطاع العام ودعمت القطاع الخاص.

عانت البلاد في 1994، 1999 و2001 أزمات اقتصادية حادة مما أدى إلى انهيار الليرة التركية إلى أدنى مستوياتها وزيادة نسبة التضخم بشكل كبير. ساعدت الظروف الاقتصادية السيئة على انهيار الحكومات عدة مرات، ولأول مرة عام 2004 تم خفض نسبة التضخم إلى نسبة مئوية ذو خانة مئوية واحدة (من نسبة تضخم حوالي 150 % في 1994 / 1995 إلى 9،4 % في 2004). تحسن الاقتصاد تدريجيا،

نمت ثقة المستثمرين بالتعديلات التي أقرتها الحكومة وزاد الأمل في دخول البلاد الاتحاد الأوروبي كعضو كامل بعد حصولها رسميا على صفة دولة مرشحة للانضمام عام 1999.

بدأ تطبيق تداول العملة الجديدة الليرة التركية الجديدة (Yeni Türk Lirası) منذ الأول من كانون الثاني/ يناير 2005 ، لكي تحل تدريجيا محل العملة القديمة (الليرة التركية) . بلغ الناتج القومي بالنسبة للفرد 4172 دولار أمريكي في 2004، كما بلغت القوة الشرائية موزعة على الفرد 7400 دولار أمريكي. بلغ الناتج القومي حوالي 200 مليار دولار أمريكي في 2004، ونسبة دين خارجي تبلغ 134،4 مليار دولار في عام 2002 أي ما نسبته 78 % حسب الناتج القومي. وتصنف تركيا ضمن الأسواق الناشئة التي تتميز اقتصاد ديناميكي ومتنوع وزيادة عدد سكنها وارتفاع نسبة الشباب فيها.

5 – 1 - الصناعة :

أهم الصناعات في تركيا هي المنسوجات ، المواد الغذائية والمشروبات، الكهربائيات، السيارات والكيماويات.

5 – 2 - المعادن :

أهم الثروات المعدنية المتواجدة على الأراضي التركية هي الفحم الحجري ، الفحم النباتي ، الحديد ، الرصاص ، الخارصين (التوتياء) ، النحاس والفضة. كما أن تركيا تعد من أكبر منتجي معدن الكروم في العالم . هناك احتياطات نفط صغيرة في جنوب شرق البلاد.

5 – 3 - الزراعة :

يشكل القطن ، الشاي ، التبغ ، الزيتون ، العنب ، الحمضيات ، الفاكهة ، الخضروات ، الحبوب والشعير أهم المحاصيل الزراعية في البلاد. تركيا هي من أكبر منتجي البندق في العالم .

6 - السياحة في تركيا :

تشكل السياحة أحد أهم أعمدة الاقتصاد التركي وخاصة في العقود الأخيرة. وذكرت وكالة الأنباء التركية في تقرير لها أن عدد السائحين الوافدين إلى تركيا بلغ 30,929,192 سائح في 2008. مدخلين إلى البلاد دخلا بقيمة 21.9 مليار دولار أمريكي. يشتهر الساحل الجنوبي بجمال طبيعته وشواطئه الطويلة لدرجة أنه يعرف باسم الريفيرا التركية تشبها بالريفيرا الفرنسية ، بالإضافة إلى العديد من المناطق السياحية الأخرى.

7 - النقل والمواصلات :

تتمتع تركيا بموقع مهم بين قارتي آسيا وأوروبا يعطي أهمية كبيرة لقطاع المواصلات من الجهة الاقتصادية. أدخل قطاع الطرق على سبيل المثال على الدولة ما مجموعه حوالي 1،4 مليار دولار (1999) من رسوم وضرائب مطبقة على استخدام الطرق خاصة الدولية منها. تتركز الحركة البرية على الطرق، بينما تستخدم السكك الحديدية لمسافات معينة وعادة لنقل البضائع. تبلغ نسبة الاستثمار الحكومي في قطاع المواصلات والاتصالات ما نسبته 27،3 % من نسبة الاستثمار الحكومي العام، مما يدل على أهمية هذا القطاع، و ما نسبته 14 % من الناتج القومي الإجمالي للدولة حسب إحصاءات عام 2000.

7 – 1 - الطرق البرية :

يبلغ مجموع الطرق البرية 413،724 كم، منها 1،800 كم طرق سريعة و 62،000 كم طرق عادية و 350،000 كم ما يسمى بطرق قروية. أهم الطرق البرية هي تلك التي تربط إسطنبول بأنقرة (O 4 –) ، طريق غازي عنتاب - أضنة (O - 52) ، الطرق الساحلية (O - 31 و O - 32) الذي تربط ازمير بالمدن الساحلية الجنوبية وطريق ازمير - مانيسا. تم نقل 89،2 % من مجموع حركة البضائع على الطرق في عام 2000. تستخدم حركة الحافلات لنقل الركاب بين المدن للمسافات المتوسطة والطويلة.

7 – 2 - القطارات :

يبلغ طول السكك الحديدية 10،500 كم، منها 20 % كهربائي. هناك خط حديدي سريع بين إسطنبول وأنقرة.

7 – 3 - المطارات :

الخطوط الجوية التركية (Turkish Airlines) هي شركة الطيران الرسمية التي تملكها الدولة، تأسست عام 1933. تم في بداية التسعينات السماح بإنشاء شركات طيران خاصة ، منها أونور اير (Onur Air) ، أطلس جت (Atlas Jet) وصن اكسبرس (Sun Express) . هناك 38 مطار في تركيا ، منها 14 مطار دولي أهمها مطار أتاتورك الدولي في إسطنبول. هناك 156 ميناء بحري في تركيا، حيث بلغت حركة البضائع فيها 10،444،163 طن. يملك الاسطول التجاري 888 سفينة شحن.

7 – 4 - الموانئ :

أهم موانئ البلاد متواجدة في إسطنبول وازمير وأضنة. هناك حركة نقل بحرية مكثفة بين جزئي إسطنبول الآسيوي والأوروبي وحركة بضائع مهمة بين المدن التركية المطلة على البحر الأسود وروسيا وأوكرانيا ورومانيا وبلغاريا وبين المدن المطلة على البحر المتوسط وقبرص واليونان.

8 – الاتصالات :

شركة الاتصالات التركية (Türk - Telekom) هي المالك والمشغل الوحيد لخطوط الاتصالات الأرضية. هناك خطط حكومية لخصخصة شركة الاتصالات. يقدر عدد المشتركين بخطوط الهاتف النقالة بأكثر من عشرين مليون مستخدم. توجد عدة شركات خاصة مشغلة لخطوط الهاتف النقالة منها turkcel ، aveya .

9 – الثقافة :

الثقافة والتقاليد في تركيا متنوعة جدا وهي مزيج من ثقافات مختلفة من التركية اوغوز، الأناضول ، العثمانية (التي كانت في حد ذاتها استمرار كل من الثقافات اليونانية والرومانية والثقافات الإسلامية والثقافة الغربية ، والتي بدأت مع تغريب العثمانية والإمبراطورية لا تزال مستمرة حتى اليوم . هذا المزيج بدأ أصلا نتيجة لقاء الأتراك وثقافتهم مع تلك الشعوب الذين كانوا في طريقهم أثناء هجرتهم من آسيا الوسطى إلى الغرب.

كما تحولت تركيا بنجاح من الإمبراطورية العثمانية السابقة على أساس الدين إلى الدولة القومية الحديثة مع الفصل القوي جدا بين الدين والدولة ، وتبع ذلك زيادة في وسائل التعبير الفني . خلال السنوات الأولى للجمهورية ، استثمرت الحكومة كمية كبيرة من الموارد في الفنون الجميلة ، مثل المتاحف والمسارح ودور الأوبرا والهندسة المعمارية. العوامل التاريخية المتنوعة تلعب دورا هاما في تحديد هوية التركية الحديثة. الثقافة التركية هي نتاج للجهود الرامية إلى أن تكون "الحديثة" دولة غربية، مع الحفاظ على القيم التقليدية الدينية والتاريخية.

الموسيقى التركية هي كذلك مزيج من هذا القبيل من التأثيرات الثقافية، والتي كانت نتيجة للتفاعل بين الدولة العثمانية والعالم الإسلامي مع أوروبا، مما يسهم في مزيج من التركية والإسلامية والتقاليد الأوروبية في العصر الحديث .

تأثر الأدب التركي بشدة بالأدب الفارسي والأدب العربي والأدب الأوربي خلال العصر العثماني ، على الرغم من قرب نهاية الدولة العثمانية ، وحتى بعد فترة التنظيمات ، فهو مزيج وصراع وتداخل بين الثقافات مع الحفاظ على التقاليد ، خذ على سبيل المثال ، أعمال **أورهان باموك** ، الحائز على جائزة نوبل في الأدب 2006 .

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

العناصر المعمارية التي كانت موجودة في تركيا هي أيضا شواهد على المزيج الفريد من التقاليد التي أثرت على المنطقة على مدى قرون. بالإضافة إلى العناصر البيزنطية التقليدية الموجودة في أجزاء عديدة من تركيا والعديد من التحف المعمارية العثمانية في وقت لاحق، مع مجموعة رائعة من مزيج من التقاليد المحلية والإسلامية، التي يمكن العثور عليها في جميع أنحاء تركيا. ويعتبر على نطاق واسع المعمار سنان كأعظم مهندس الفترة الكلاسيكية في العمارة العثمانية. منذ القرن 18، وقد تأثرت العمارة التركية على نحو متزايد في الاساليب الغربية، ويمكن أن نرى هذا ولا سيما في إسطنبول حيث يتم جنبا إلى جنب المباني والقصور Dolmabahçe سيراجان بجانب العديد من ناطحات السحاب الحديثة، وكلها تمثل تقاليد مختلفة.

9 - 1 – الرياضة :

الرياضة الأكثر شعبية في تركيا هي كرة القدم. واشهر أندية تركيا هي جلطة سراي وفناربخشة وبشيكتاش . في عام 2000 فاز جلطه سراي بكأس الاتحاد الأوروبي وكأس السوبر الأوروبي. وبعد عامين وصل المنتخب التركي لنهائيات كأس العالم 2002 في اليابان وكوريا الجنوبية، بينما في 2008 المنتخب الوطني وصل إلى الدور نصف النهائي من كأس الأمم الأوروبية 2008. واستضاف ملعب أتاتورك الأوليمبي في إسطنبول عام 2005 نهائي دوري أبطال أوروبا، في حين أن ملعب سوكرو ساراكوغلو في إسطنبول استضاف نهائي كأس الاتحاد الأوروبي 2009.

من الرياضات الرئيسية الأخرى أيضاً كرة السلة والكرة الطائرة . استضافت تركيا في نهائيات بطولة الأوروبية 2001 ونهائيات بطولة العالم 2010 لكرة السلة، وفازت بالمركز الثاني في كلتا البطولتين ، ووصلت إلى الدور قبل النهائي من الدوري الأوروبي وSuproleague في عامي 2000 و 2001. من أشهر لاعبي كرة السلة التركي محمد اوكور , وهدايت توركوغلو . وفاز فريق الكرة الطائرة النسائية التركي ، Eczacıbaşı كاللاعبة Vakıfbank Sigorta وغونيس أتشيبادم وفنربخشه ، بالعديد من الألقاب والميداليات البطولة الأوروبية.

ومن الرياضة التقليدية الوطنية الشعبية التركية güreş yağlı المصارعة الحرة والمصارعة اليونانية الرومانية منذ العهد العثماني . وقد فاز المصارعون الأتراك على العديد من مصارعي العالم وأوروبا , كما حصلوا على العديد من ألقاب البطولة الأولمبية سواء على المستوى الفردي أو الوطني كفريق واحد.

ورياضة رفع الأثقال رياضة تركية ناجحة . وحصل رافعوا الإثقال التركيون ، ذكورا وإناثا، على بطولات وأرقام قياسية عالمية في الدورة الأولمبية . خذ مثالاً على ذلك كاللاعب نعيم سليمان أوغلو الذي حقق وخليل موتلو مكانة أسطورية باعتباره واحدا من القلائل في رفع الأثقال الذي أحرز ثلاث ميداليات ذهبية في ثلاث دورات اولمبية.

رياضة السيارات هي رياضة شعبية أخرى. أدرج رالي تركيا للتقويم العالمي للراليات الاتحاد الدولي للسيارات في عام 2003، ، وأدرج في سباق الجائزة الكبرى التركي لسباقات الفورمولا وتقويمية واحدة في 2005. أهمية رياضة السيارات السنوية الأخرى الأحدث التي تجري في سباق إسطنبول بارك وتشمل الدائرة الكبرى للدراجات النارية الجائزة الكبرى لتركيا، والاتحاد الدولي للسيارات في العالم جولة بطولة العالم للسيارات، سلسلة ال GP2 وسلسلة لو مان . من وقت لوقت إسطنبول وانطاليا المضيف أيضا المحطة التركية للزوارق السريعة سباقات F1 البطولة، في حين أن المحطة التركية لريد بل الجوي سباق بطولة العالم، وهو سباق المنافسة الهواء، ويأخذ مكان فوق القرن الذهبي في إسطنبول. ركوب الأمواج والتزلج على الجليد، التزلج، بالمظلات وغيرها من الرياضة المتطرفة أصبحت أكثر شعبية في كل عام.

10 - التعليم في تركيا :

10 – 1 - التعليم الابتدائي :

حوالي 25 % من سكان تركيا هم في سن التعليم الإجباري، الذي ارتفع من سن الخامسة لحد سن الثامنة عشرة في عام 1997. بعد ذلك يدخل الطلاب مرحلة ثانوية تتكون من أربع سنوات. أصبح بإمكان

طلاب المدارس ابتداءا من العام الدراسي 2005/2004 اختيار لغة أجنبية ثانية. يعاني النظام التعليمي المدرسي التركي بشكل عام من نقص في الموارد والميزانية وكثرة طلاب المدارس.

الهوة الاقتصادية بين الشرق والغرب في تركيا تعكس نفسها على الوضع التعليمي لسكان هذه المناطق. على سبيل المثال هناك صفوف مدارس في المناطق الشرقية تحتوي على خمسين طالب في الصف الواحد. تبلغ نسبة التسجيل المدرسي حوالي 93 % من مجمل عدد السكان تحت هذه الفئة. تبلغ نسبة الأمية بين الرجال 6 % وبين النساء 18 % من مجموع عدد السكان حسب إحصاءات عام 2000.

10 – 2 - التعليم العالي :

هناك 53 جامعة حكومية و 24 جامعة خاصة معترف بها في البلاد. يدرس حوالي مليونين طالب في الجامعات التركية، وهم بذلك يشكلوا 28 % من مجمل عدد الطلاب المؤهلون للدراسة الجامعية. يبلغ تعداد طاقم التدريس الجامعي حوالي 77،100. يتم مراقبة وإدارة التعليم العالي من قبل مجلس التعليم العالي (YÖK) ، الذي تم إنشاءه عام 1981. يجب على الطالب الراغب في تكملة تعليمه الجامعي في تركيا في أحد الجامعات الحكومية تأدية امتحان قبول للجامعات ونجاحه فيه، إلى جانب درجته في امتحان الشهادة الثانوية، ذلك يحدد الجامعة والتخصص التي سيدرسه. هناك حوالي 16 ألف طالب أجنبي يدرسوا في تركيا، معظمهم يأتي من دول آسيا الوسطى، المتأثرة بالثقافة التركية.

مع أن معظم سكان تركيا مسلمون ، هناك حظر حكومي على ارتداء الحجاب في المدارس والجامعات التركية والدوائر الحكومية. تم تطبيق هذا القانون امتدادا للفكر الكمالي الداعي للعلمانية ولجعل المدارس والجامعات خالية من التأثير الديني على الأقل من الناحية الشكلية. هناك معارضة لهذا القانون وخاصة من السكان المحافظين الذين يرون فيه تقييدا لحريتهم الدينية التي يشملها الدستور التركي وتم نقاش هذا الموضوع مرارا.

قائمة رؤساء تركيا من عام 1923 حتى الآن :

الترتيب	الاسم	بداية الحكم	نهاية الحكم	الخلفية السياسية
1	مصطفى كمال أتاتورك	29أكتوبر1923	10نوفمبر1938	حزب الشعب الجمهوري
2	مصطفى عصمت إينونو	11نوفمبر1938	22مارس1950	حزب الشعب الجمهوري
3	محمود جلال بايار	22مايو1950	27مايو1960	الحزب الديمقراطي
4	كمال إثنين	27مايو1960	10أكتوبر1961	العسكرية
5	جمال كورسل	10أكتوبر1961	28مارس1966	العسكرية
6	جودت صوناي	28مارس1966	28مارس1973	العسكرية
7	تكين أري بورون	29مارس1973	6 ابريل1973	فترة انتقالية
8	فخري قوروترك	6 أبريل1973	6 أبريل1980	العسكرية
9	إحسان صبري جاغليانكيل	6 أبريل1980	12سبتمبر1980	فترة انتقالية
10	كنعان أورن	12سبتمبر1980	9 نوفمبر1982	العسكرية
11	كنعان أورن	9نوفمبر1982	9 نوفمبر1989	العسكرية
12	توركوت أوزال	9نوفمبر1989	17أبريل1993	حزب الوطن الأم
13	بولات كيندوروك	17أبريل1993	16مايو1993	فترة انتقالية
14	سليمان دميرل	16مايو1993	16مايو2000	حزب الطريق القويم

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

15	أحمد نجدت سيزر	16مايو2000	28 أغسطس2007	السلطة القضائية
16	عبد الله غل	28 أغسطس2007	10 أغسطس2014	حزب العدالة والتنمية
17	رجب طيب أردوغان	11أغسطس2014	حتى الآن	حزب العدالة والتنمية

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

جمهورية تركمانستان

تقديم :

تركمانستان (بالتركمانية : *Türkmenistan*) هي إحدى دول آسيا الوسطى , كانت إحدى الجمهوريات التابعة للاتحاد السوفيتي ، وكانت تعرف باسم الجمهورية التركمانية السوفيتية الاشتراكية ، وفي عام 1991 تفكك الاتحاد السوفيتي، فأصبحت تركمانستان دولة مستقلة .

تغطي الأراضي التركمانية مساحة 488,100 كم²، وتحدها أفغانستان من الجنوب الشرقي، وإيران في الجنوب والجنوب الغربي، وأوزبكستان من الشرق والشمال الشرقي، وكازاخستان من الشمال والشمال الغربي وبحر قزوين من الغرب، وهو البحر الوحيد الذي تطل عليه تركمانستان.

تمتلك تركمانستان رابع أكبر احتياطي للغاز الطبيعي . وهي غنية في الموارد الطبيعية في بعض المناطق ، وتغطي صحراء قره قوم معظم أنحاء البلاد.

حتى وقت قريب كانت الحكومة التركمانية تحكم بنظام الحزب الواحد ، ووجهت العديد من الاتهامات للنظام الحاكم بأنَّهُ لا يطبق أبسط قواعد الديمقراطية ، وذلك إبان حكم الرئيس **صابر مراد نيازوف** الذي كان رئيساً للبلاد مدى الحياة ، ويلقب نيازوف بالتركمانباشي (بالتركمانية: *Türkmenbaşy* ، أي زعيم التركمان) حتى توفي فجأة في الحادي عشر من ديسمبر 2006. وانتخب **قربان قولي بردي محمدوف** رئيساً جديداً للبلاد في 11 فبراير 2007.

1 - تاريخ تركمانستان :

جمهورية تركمانستان كانت تابعة لإمبراطورية جنكيزخان في القرن 13 , وفي قرن 14 دخلت بيد تيمولنغيون وفي القرن 15 جرت حرب طاحنة بين خان بوخاري وخان هيفا اما جنوب تركمانستان كان بيد الصفويين الإيرانيين وفي عام 1740 كان قسم الأكبر من تركمانستان بيد الإيرانيين في زمن الشاه نادير، وفي القرن 18 بقيت تحت سيطرة هيفا وبوخارة. و في عام 1881 دخلت تركمانستان تحت سيطرة روسيا القيصرية وبعد الثورة الشيوعية (البولشفية) عام 1917 أخذت استقلالها من المحتلين وفي 30 نيسان 1918 منح لتركمانستان حكم ذاتي ضمن الاتحاد السوفيتي السابق وفي عام 1924 أصبحت إحدى الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ، وبعد انهيار السوفييت حصلت على استقلالها في 27 أكتوبر 1991.

2 - الجغرافيا :

2 – 1 – الأرض :

تتكون الأراضي التركمانية من هضبة تبدأ من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي حيث تنحدر إلى صحراء قره قوم (أي الرمال السوداء) وهي سهل رملي فسيح تغطية الكثبان الرملية. وتمتد في القسم الشمالي من السفوح الغربية لجبال (كوجي داغ) حيث حدودها مع إيران. وتمثل السلاسل الجبلية الوحيدة بها ولوجود عدد من الأنهار بمنطقة تركمانيا أثره في تخفيف حده الجفاف . فيجري بها قسم من نهر جيحون (أمودايا) وتصلها بعض الأنهار المنحدرة في أفغانستان وإيران مثل نهر هري ونهر مرغاب - وتقع عليه مدينة مرو ذات الشهرة في التاريخ الإسلامي - ومن إيران نهر هاري رود .

2 – 2 – المناخ

مناخ تركمانستان صحراوي متطرف بارد في الشتاء تصل درجة الحرارة أحياناً إلى ما دون الصفر. حار في الصيف . غير أن الجهات المرتفعة تعتدل حرارتها صيفاً.وتسقط عليها أمطار قلية ولكنها أفضل من القسم الصحراوي في وسط البلاد وشماله.

2 – 3 – التضاريس :

معظم الأرض صحراء منبسطة. وتمتد صحراء قرا قوم في المنطقة الوسطى، كما تمتد سلسلة جبال كوبيتداج بطول الحدود الجنوبية مع إيران . ويبلغ ارتفاع أعلى قمة 3,139 مترا، وتعتبر منطقة جبال كوبيتداج من المناطق المنكوبة بالزلازل.

3 - السكان :

غالبية سكان تركمانستان من التركمان ، مع وجود أقليتين كبيرتين هما الأقلية الأوزبكية ، والأقلية الروسية . كما توجد أقليات صغيرة أخرى من الكازاخ ، والتتار، والأوكرانيين ، والأرمينيين ، والأذريين ، والبلوش .

3 – 1 – الإسلام في تركمانستان :

غالبية سكان تركمانستان مسلمون سنة ينتمون للمذهب الحنفي حيث أنهم يشكلون حوالي 83 % حسب مركز بيو للدراسات . كما يشكل المسيحيون التابعون للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية حوالي 5 % من سكان البلاد ، غالبيتهم من الأقلية الروسية .

الأقليات الأخرى تشمل البهائيين ، ووجود البهائية في تركمانستان قديم ، فقد دخلت البهائية منذ أن نشأت في إيران . والشيعة الإثني عشرية غالبيتهم من الأقلية الآذرية التي تعيش في تركمانستان ،

مسجد أرطغرل غازي في العاصمة عشق آباد.

3 – 2 - الشيعة في تركمانستان

يبلغ عدد الشيعة في تركمانستان : 13400 طبقا لآخر التقديرات , وأهم أماكن تواجدهم **:** عشق آباد وقره كوم و بئر علي

في الوقت الحالي يأخذ التشيع في تركمانستان منحى جديدا حيث يتم إرسال عدد من الطلاب للدراسة في حوزة قم العلمية الكبرى لتجاورهم مع إيران وعدم ابتعادهم كثيرا عن مرقد الإمام الرضا (40 كيلومتر تقريبا تفصل مدينة مشهد عن الحدود التركمانية) ويقوم الطلاب بعد عودتهم بالتدريس في المدارس الدينية التي تأسست بدعم الحكومة ، كما تقام الشعائر الحسينية بصورة مستمرة وبحضور بعض الشخصيات ذات الوزن السياسي الكبير في الدولة. وللشيعة في تركمانستان 16 مسجدا و 10 حسينيات تقام فيها مختلف العبادات والأنشطة الدينية الأخرى كما تقام الندوات في المراكز الثقافية لكل من إيران والعراق وسوريا في عشق آباد وإرسال المدرسين والمحاضرين والخطباء لتعليم العلوم الدينية والفقهية المختلفة. وكما الحال في أوزبكستان، نجح شيعة تركمانستان في الوصول إلى بعض المناصب السياسية في البلاد ، ومن أمثلتهم (**مرتضى كراروف**) الذي كان وزيرا للداخلية بين عامي 1994 - 1996 و(**أكبر سبطييف**) أحد المستشارين الشخصيين للرئيس صابر مراد نيازوف .

4 - الاقتصاد :

لا يزال يعتمد الاقتصاد التركماني على التخطيط المركزي وتحكم الدولة. وتمثل صناعة النفط والغاز الطبيعي والحديد والنسيج أهم الصناعات في البلاد . تبلغ القوة العاملة في البلاد حوالي 2.32 مليون

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

تقديرات (2004) ، وأدت سياسة تقليل العمالة الحكومية التي بدأت عام 2003 إلى زيادة معدلات البطالة إلى أن بلغت 60 % من مجموع القوى العاملة.

4 – 1 – المعادن :

الذهب والفضة واليورانيوم والتنجستن والملح والبنتونايت والجبس.

4 – 2 – الطاقة :

تركمانستان مكتفية ذاتيا من النفط والغاز رغم البنية التحتية القديمة وقلة الصيانة، ويقدر احتياطي النفط بنحو 600 مليون برميل والغاز الطبيعي بنحو 100 تريليون قدم مكعب ، وتأتي في الترتيب الخامس عشر على مستوى العالم.

4 – 3 – الزراعة :

تمثل 24.4 % من إجمالي الدخل المحلي ، والقطن من أهم المحاصيل . كما تضاعفت المساحات المزروعة بالحبوب والقمح بصفة أساسية إلى ثلاثة أضعاف بعد الحقبة السوفيتية. ومع ذلك فإن معظم الأراضي الزراعية رديئة الجودة وتحتاج إلى ري ، ولم تلب بنية الري التحتية وسياسات استغلال الأرض هذه الحاجة.

4 – 4 – الصيد

قطاع الصيد لا يعتد به ويعتمد إلى حد كبير على سمك الرنجة أو الإسبرط من بحر أزوف.

4 – 5 – الصناعة :

تمثل 33.9 % من إجمالي الدخل المحلي، وأهم الصناعات معالجة الوقود والنسيج المعتمد على القطن والأغذية والآلات وتشكيل المعادن . وقد أدى اكتمال مصنع للحديد والصلب - مولته تركيا - إلى زيادة إنتاج الصلب الخام .

4 – 6 – الخدمات :

تمثل 41.7 % من إجمالي الدخل المحلي، ويخضع النظام المالي لسيطرة الدولة الكاملة. ويضم قطاع البنوك 12 بنكا وطنيا يشرف عليها البنك المركزي. وتحتكر شركة تأمين وحيدة تديرها الدولة معظم قطاع التأمين.

4 – 7 – العلاقات الاقتصادية الخارجية :

معظم العلاقات الاقتصادية الخارجية بين تركمانستان والعالم الخارجي متعلقة بالنفط والغاز الطبيعي والقطن والمنسوجات . وتعتبر الولايات المتحدة أهم شريك في هذا المجال، تليها روسيا والصين واليابان.

4 – 8 – الدين الخارجي

الدين الخارجي : بلغ عام 2000 حوالي 5 مليار دولار أميركي.

4 – 9 – النشاط البشري :

نشاط السكان ينصب على الزراعة والرعي , وتقوم الزراعة على مشروعات الري. ويصل مجموع الأراضي الزراعية ستمائة ألف هكتار تزرع على العديد من القنوات والعاملون في الزراعة قرابة ثلث مليون . وأهم المحاصيل الحبوب والقطن . وتشكل الأغنام أهم حيوانات الثروة الرعوية. ويستخرج البترول قرب بحر قزوين . والإنتاج السنوي يفوق ستة عشر مليون طنً . من الغاز الطبيعي كميات تصل إلى ثلاثة ملايين.

5 - التقسيم الإداري :

تُقَسِّم الأراضي التركمانية إلى 5 ولايات (بالتركمانية : *Welayat*) ، كما تقسم الولايات لأقضية تعرف بـ " إتراب " (بالتركمانية : *Etrap*) .

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

آخال - بلخان - داشوغوز - لباب - مرو

الولاية	مركز الولاية	المساحة	السكان (إحصاء2005)
ولاية آخال	عشق آباد	97,160 كم ^{2}	939,700
ولاية بلقان	بلخان آباد	139,270 كم ^{2}	553,500
ولاية داشوغوز	داشوغوز	73,430 كم ^{2}	1,370,400
ولاية لباب	تركمان آباد	93,730 كم ^{2}	1,334,500
ولاية مرو	مرو	87,150 كم ^{2}	1,480,400

5 – 1 - مدينة مرو

مرو عاصمة منطقة ماري في تركمانستان ويقدر عدد سكانها 123,000 نسمة ، تقع مدينة مرو على ضفاف نهر المرغاب . والمدينة عبارة عن واحات في صحراء قرا قوم وتعد المدينة حاليا وفقا لليونسكو من مواقع التراث العالمي ويقال انها كانت أكبر مدن العالم في القرن الثاني عشر الميلادي.

ذاع صيت المدينة في التاريخ الإسلامي كأحد مراكز الجهاد في بلاد ما وراء النهر، كما تكتسب أهمية أخرى كذلك في الأدب العربي حيث يضرب العرب بأهلها الأمثال في البخل فحين يقول العربي أنك من اهل مرو فهو يرمي إلى انك بخيل ، دخل أهلها في الإسلام بعدما فتحت على يد **الأحنف بن قيس** .

في بعض التقاليد الهندية تعتبر مدينة مرو الموطن الأصلي للآريون . بين عامي 1145 - 1153 اعتبرت أكبر مدينة في العالم من عدد السكان حيث فاق عدد السكان 200,000 نسمة. المدينة الحديثة أنشأت في عام 1884 كمركز إداري للجيش الروسي. وتطورت عن طريق الاتحاد سوفييتي كمركز للمنتجات القطنية من خلال الاستعمال الواسع لهندسة الري . في عام 1968, تم اكتشاف احتياطات هائلة من الغاز الطبيعي على بعد 20 كيلومتر غرب المدينة.

تعتبر المدينة رابع أكبر المدن في تركمانستان , وأكبر مركز صناعي , للغاز الطبيعي وصناعات القطن , المصدرين المحليين للتصدير . وهي مركز تجاري للقطن والقمح وجلود الحيوانات والصوف.

5 – 2 - صحراء قره قوم

صحراء قرا قوم شرق قزوين

صحراء قره قوم هي صحراء تقع في آسيا الوسطى في شرق بحر قزوين تغطي 70 % من أراضي تركمانستان وتلبغ مساحتها 350,000 كم مربع ويشهد معدل سقوط الأمطار في المنطقة انخفاضاً كبيراً فنادراً ما تمطر خلال مدة عقد.

6 - السياسة :

روح نامة

الروح نامه (رسالة الروح) هو كتاب ألفه رئيس تركمانستان صابر مراد نيازوف ويدرس هذا الكتاب في كافة المراحل الدراسية في تركمانستان وارتقى إلى درجة الكتب المقدسة عند التركمانستانيين وهو على غرار الكتاب الأخضر في ليبيا

معنى كلمة **روح** هو (الروح) , و معنى كلمة **نامه** في اللغات الهندو - فارسية هو رسالة. ترجم كتاب روح نامة إلى أكثر من 20 لغة . والجدير بالذكر أن تركمانباشي يدعي أن النبي نوح أنزل الروح نامة عليه

6 – 1 – الانتخابات :

الرئيس الحالي هو بيردوف محمدوف وقد تم انتخابه بعد وفاة الرئيس صابر مراد نيازوف . وقد عرف التركمانباشي بحكمه المستبد ، وقد عين نفسه رئيساً مدى الحياة ، وقد توفي في 21 ديسمبر 2006. في 11 فبراير 2007 جرت انتخابات فاز فيها محمدوف بأغلبية 89 % .

7 - الثقافة :

7 – 1 - الموسيقى :

تشتهر تركمانستان بموسيقاها الريفية والتي تشارك في ألحانها وإيقاعاتها الموسيقى الريفية لآسيا الوسطى وهي متأثرة بالموسيقى التركية والموسيقى الأذرية .

8 - أسماء أشهر السنة :

تغيير أسماء الأشهر وأيام الأسبوع في تركمانستان سنة 2002

في 10 أغسطس 2002 صدر في تركمانستان قانون بتغيير أسماء أشهر السنة وأسماء أيام الأسبوع ، و قد اختيرت الأيام البديلة لتدل على رموز من الثقافة التركمانية كما هي موصوفة في كتاب روح نامه . منذ صدور القانون تستخدم الأسماء الجديدة في وسائل الإعلام المملوكة للدولة ، كما تستخدمها غالبا المطبوعات الصادرة بغير اللغة التركمانية ، خاصة تلك الموجهة إلى الناطقين بالروسية في تركمانستان ، تصاحبها أحيانا الأسماء القديمة بين قوسين ، إلا أن الأسماء القديمة لا تزال الجارية في الحديث.

في 23 أبريل 2008 أذيع أن مجلس وزراء تركمانستان قد ناقش العودة إلى الأسماء القديمة للأشهر وأيام الأسبوع ، و قد استرجعت في يوليو 2008 . كانت الأسماء القديمة مستعارة من الروسية ، و فيما يلي الأسماء التي استبدلت بها في 2002:

الشهر	الاسم القديم	الاسم الجديد	بالأحرف العربية	إيضاح
يناير	يانوار	Türkmenbaşy	تركمانباشي	اللقب الذي تلقب به نيازُف ، رئيس الدولة ومؤلف روح نامه ،
فبراير	فيورال	Baýdak	بيدق	الراية ، يوم العلم التركمانستاني يحتفل به في هذا الشهر يوم ميلاد نيازُف
مارس	مارت	Nowruz	نوروز	الشهر الذي يحتفل به برأس السنة الفارسية ، و هو جزء من الثقافة التركمانية
أبريل	أبريل	Gurbansoltan	گوربان سُلطان	"الحاجة گوربان سُلطان Gurban soltan Eje " هي أم نيازُف
مايو	ماي	Magtymguly	مگتمگولو	مخدومقلي فراغي Magtymguly Pyragyشاعر تركماني يعده نيازُف أحد أعظم المربين الروحيين للتركمان
يونيو	إيون	Oguz Khan	أوگوز	"أغوز خان Oguz Khan "طبقا لكتاب روح نامه هو مؤسس الأمة التركمانية
يوليو	إيول	Gorkut	گركوت	بطل ملحمة گركوت أتا 'التركمانية بالفروسية
أغسطس	أوگست	Alp Arslan	ألب أرسلان	مؤسس الدولة السلجوقية ، وهو تركماني طبقا لكتاب روح نامه
سبتمبر	سنتيابر	Ruhnama	روح نامه	كتاب نيازُف الذي قصد به أن يكون دليل روحيا للأمة التركمانية
أكتوبر	أكتوبر	Garaşsyzlyk	تعني الاستقلال	يُحتفل بيوم الاستقلال التركماني في أكتوبر
نوفمبر	نويابر	Sanjar	أحمد سنجر	آخر حكام السلاجقة
ديسمبر	ديكابر	Bitar aplyk	پيتارابلق	"الحياد"، أعلنت تركمان دولة محايدة ويحتفل بيوم الحياد في ديسمبر

أسماء أيام الأسبوع الجديدة

اليوم	الاسم القديم	الاسم الجديد	بالأحرف العربية	إيضاح
السبت	Şenbe	Ruh gün	روح گون	يوم الروح
الأحد	Ýekşenbe	Dynç gün	دنتش گون	يوم الراحة
الاثنين	Duşenbe	Baş gün	باش گون	اليوم الرئيسي
الثلاثاء	Sişenbe	Ýaş gün	ياش گون	اليوم الصغير
الأربعاء	Çarşenbe	Hoş gün	خوش گون	اليوم الجميل
الخميس	Penşenbe	Sogap gün	ثوگاب گون	يوم العدل
الجمعة	Anna	Anna gün	أنّا گون	

ملاحظة :أضيفت اللاحقة التركمانية گون (gün) إلى الاسم الفارسي

9 - علم تركمانستان

علم تركمانستان

في 19 شباط - فبراير من سنة 1992 أعتمد أول علم لجمهورية تركمانستان بعد نيلها الاستقلال عن الاتحاد السوفيتي في 27 تشرين الأول من سنة 1991

معنى العلم

اللونين الأخضر والأحمر يعدان من الألوان التاريخية للشعب التركمانستاني ويرمز اللون الأخضر كذلك إلى الدين الإسلامي السائد في البلاد بينما ترمز النجوم الخمسة الموجودة على العلم التركمانستاني إلى المناطق أو المحافظات الخمسة الموجودة في جمهورية تركمانستان وهي **آخال ، بلكان ، داش‌أوغوز ، لباب , ومرو** .

يرمز الهلال الموجود في العلم إلى الأمل المشرق لمستقبل البلاد. أما التصاميم الخمسة للسجاد الموجودة على الشريط الأحمر في العلم التركمانستاني فترمز إلى القبائل الخمسة الكبرى وهي : **Teke , Yomut , Arsary , Chowdur و Saryk** (لاتوجد لها مسميات باللغة العربية) .

10 - منات تركماني (بالتركمانيّة: Türkmen manady *تُركمين مانادي*)

هي العملة الرسميّة لتركمانستان رمزها (**TMT**) يصدرها مصرف تركمانستان المركزي ، المنات تركمانيستاني , الواحد مقسّم لمئة تيني (بالتركمانيّة: teňňe) ، أصدر أول مرة في تشرين الثاني عام 1993 لتحل مكان الروبيل السوفياتيّ

تركمان سوريا

تقديم

أتراك سوريا أو تركمان سوريا (Suriye Türkleri) هم مواطنون سوريون من أصل تركي . وقد عاشوا وأجدادهم في سوريا منذ العهد السلجوقى والعثماني وحتى الوقت الحاضر.

خلال ثورة الشعب السوري ضد نظام البعث وأل الأسد ، انضم تركمان سوريا إلى ثورة الشعب هذه ضد قوات بشار الأسد والقوات الداعمة من إيران الشيعية وحزب الله اللبناني الشيعي . ثم التوحيد تحت هيئة إدارية واحدة ؛ وهى الجمعية التركمانية السورية. وإقامة الجناح العسكري للجمعية التى تتمثل فى كتائب التركمان السورية ، التي تهدف لحماية المناطق التركمانية والسكان ومنع التغيرات الديموغرافية في المناطق المأهولة بالسكان التركمان.

1 – التاريخ

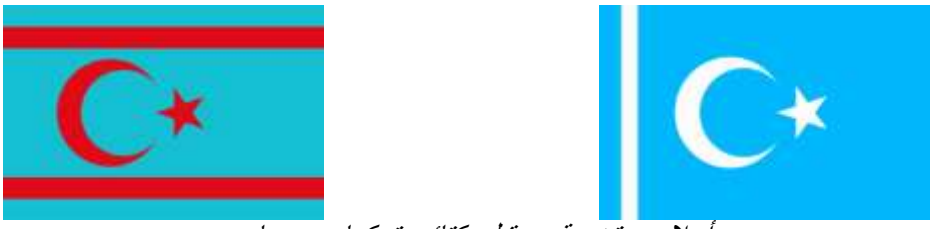

أعلام مستخدمة من قبل كتائب تركمان سوريا .

في أواخر القرن الـ 11، ضمت أراضى سوريا لأول مرة من قبل الأتراك السلاجقة. بعد أن تم تقسيم الدولة السلجوقية إلى أربعة أجزاء ، أنشأ توتش دولة سلاجقة الشام في 1079 وهو أخ السلطان ملك شاه السلجوقي . حكمت سوريا من قبل سلاجقة سوريا حتى عام 1117م ، وبعد ذلك حكم المنطقة كلاً من الارتقيون ، الزنكيون والأيوبيون والمماليك . و تم ضم سوريا إلى الاراضى العثمانية في 1516 من قبل السلطان العثماني سليم الأول، الذي هزم المماليك في معركة مرج دابق قرب حلب في شمال سوريا.
وفقا لسجلات سكان الإمبراطورية العثمانية في 1518، بلغ مجموع سكان محافظة حلب 54,276 ، منهم 36,217 ينتمون إلى التركمان.

2 - حملات الإستيعاب

سياسة الاستيعاب التي طُبقت على تركمان العراق ، قد بلغت ذروته في عهد نظام صدام حسين ، لكن تم تطبيقها على التركمان السوريين مبكراً . حيث تم حرمانهم من كافة الحقوق القومية والثقافية ، ليست لديهم مدارس لتعليم أطفالهم لغتهم الأم ، في حين تم منح الطوائف الأخرى الحقوق فى تعليم لغتهم . ولم يسمح لهم بإنشاء الجمعيات الثقافية والاجتماعية والرياضية ورفض طلبها أكثر من مرة
من خلال تشريعات الإصلاح الزراعي في عام 1958 فقد المجتمع التركمانى الزراعي الغالبية العظمى من أراضيهم ، وخاصة في محافظة حلب ، التي نقلت لاحقا إلى غير التركمان .

3 - مناطق تركز التركمان

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

كما أعيد توزيع توطين سكان القرى التركمانية من قبل الإمبراطورية العثمانية لحماية المدن خوفا من الاضطرابات وأعمال الشغب التي تسببت فيها القبائل البدوية وغيرها في القرى في محافظة اللاذقية وحلب وحمص وحماة والجولان. واليوم هناك 523 قرية تركمانية في سوريا.

وبالقرب من حماة وحمص ، هناك عدد من القرى : كالحولة ، وعقرب ، وطلف . والسمعليل وكفرام التي يبلغ عدد سكانها التركمان الأغلبية ،

4 – السكان

جاء التركمان إلى سوريا في عدة موجات من الهجرة. واعتمد كلاً من السلاجقة والمماليك الذين يعيشون في المنطقة على التركمان في جيوشهم ، وتكون فى دمشق طبقة من العائلات الارستقراطية من التركمان .

لا توجد تقديرات واضحة لعدد التركمان في سوريا. وتقول عدة مصادر أن عددهم ما بين 750،000 و 1،500،000، في حين أعلن المجلس الوطني التركماني أن عدد التركمان في سوريا 3.5 مليون.

5 - الناحية الاجتماعية

تأثير التركمان والأتراك في الحياة الاجتماعية السورية واضح وجلي ، من خلال استخدام المفردات اللغوية التركية في اللهجة العامية ، وتأثر الفلكلور التركماني بثقافة وتراث تلك الشعوب والتأثير بها وبالإضافة إلى بعض العادات والتقاليد التركية التي أصبحت جزءا من الحياة اليومية في البلاد.

6 - الوضع الحالى

نظراً للحرب الدائرة بسوريا بين قوات نظام البعث السوري وقوات الجيش الحر ، استغل حزب الاتحاد الديمقراطي ذو التوجهات الكردية الوضع القائم بسوريا بتهجير التركمان والعرب من كافة أنحاء البلاد الحدودية السورية وقام باحتلالها المقاتلون الأكراد اتباع الحزب الكردي ، حيث قامت القوات الكردية بطرد نحو 5 آلاف شخص من قرية (حمام تركمان الشمالي) بعد تجميعهم في إحدى مدارس القرية وإنذارهم بالخروج بنفس الذريعة وهي الدواعي الأمنية " ، حيث أن عدد المهجرين من قريتى حمام التركمان وتل أبيض وصل إلى ما يقرب من 10 آلاف شخص". ذلك لغرض تكوين دويلة كردية داخل الاراضى السورية.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

عائلات سورية ذات أصل تركي

أولاً - في حلب :

عائلة **المدرّس** ، ومنهم الفنان الشهير فاتح المدرّس . **عائلة كاخيا (كيخيا)** ومنهم السيد **رشدي كيخيا** الذي كان رئيساً لمجلس النواب . **ومرعشلي ، قوجة ، ماردیني** (علماً أن بعض الأسر التي تحمل اسم ماردیني هم من الكرد) **وإزميرلي . و كَرَزون** (قره أوزون : أوزون وتعني الطويل ، وقره : و تعني أسود وكثيراً ما تستعمل كلمة " قره " في التركية بمعنى القويّ الشديد . **قوجة** : ومنهم الدكتور المهندس بدر الدين قوجة الاستاذ في جامعة حلب .**آل حمدي** و منهم الأستاذ أحمد حمدي مترجم الكتاب العظيم " الأوغوز " عن التركية ، **آل مصطفى** و منهم الأستاذ الكاتب " فاروق مصطفى " مترجم كتاب " إسكان العشائر في عهد الامبراطورية العثمانية " **آل باكير ، والتركماني وتوركماني** ومنهم **العماد حسن توركماني . آل البابي ، البالي الغُزي** ومنهم : كامل البالي الغزي صاحب كتاب : نهر الذهب في تاريخ حلب . **عبد الرحمن الكواكبي** : تركماني الأصل ، أصله من أردبيل ، يعود في نسبه إلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي السني رأس الأسرة الصفوية التركمانية التي تشيَّعَتْ ثم حكمَتْ إيران . وأسرة الكواكبي - كبني عمّهم الصفويين – ينتحلون نسباً مزوّراً ينتهي إلى فاطمة الزهراء (ع) عن طريق ابنها الحسين .

ثانياً - في حماة :

آل العظم : و هم الأسرة التركمانية الشهيرة التي قدمت من قونية واستقروا أولاً في معرة النعمان ومنها ومع صعود نجمهم في النصف الثاني من العهد العثماني توزعوا في حماة و دمشق و لبنان بحكم استلامهم لمناصب عثمانية رفيعة .**آل الشرابي** : وهي عائلة كبيرة ذات جذور تركية تنتسب إلى عثمان باشا بن درويش باشا الذي قطن حماة في مطلع العهد العثماني ، وشغل مناصب عسكرية و إدارية مهمة ، وترك ذرية كبيرة و مهمة في مدينة حماة وقام بالأعمال العمرانية الكثيرة ، مثل خان عثمان باشا ، وحمام العثمانية وجامع وناعورة أوقفها على هذه الأملاك ، فكانت هذه العائلة في القرن التاسع عشر قد رسّخت نفوذها في مجتمع مدينة حماة وتزاوجت مع الطبقة العليا فيه ، و مما يستدعي الانتباه في هذه الأسرة هو تحوّلها مع الوقت واتجاهها نحو العلم الديني والتصوّف على الطريقة السعدية ، فكانت لهم الزاوية السعدية وهي من أوقاف شيخهم محمد الشرابي . كما دخل عدد من أفرادها في سلك الإدارة العثمانية .

آل الشيشكلي (الجيجكلي) : و هي عائلة تركمانية برز منها كثير من القادة العسكريين والآغاوات . بنت هذه العائلة مجدها على الخدمات العسكرية والتزام الضرائب والإقطاعات . وتعود فترة ظهورها في حماة إلى أوائل العهد العثماني في بلاد الشام ، ولهم أولاد عمومة في معرة النعمان يعرفون **بآل الغُزّي** وفي أنطاكية **بآل المعصرجي** . وأشهر من برز في هذه الأسرة الرئيس السوري الأسبق العقيد أديب الشيشكلي

آل السرّاج : أسرة تركية الأصول كانت ذات جذور عسكرية عثمانية. فالسرّاج هي وظيفة عسكرية في العهد العثماني تشابه إلى حد ما وظيفة الجندي المرافق لأحد الضباط الكبار . ومنهم الموسيقار والمطرب الفنان نجيب السرّاج .

آل الأظن (الأوزون) : وكلمة أوزون في التركية تعني " الطويل ". كان منهم عدد من الآغاوات مثل : " محمد آغا الأظن " الذي حاز الأراضي الواسعة في مدينة حماة ، وقد عُيّن متولّياً على أوقاف جامع السلطان في حي الدباغة بحماة عام 1871 م . وهناك أسر تركمانية أخرى في حماة ، نذكر منها : **عائلة كوجان وقاروط** (أصلها قاوورْت) و**قِبّش** (أصلُها إيبش) **وكوجك** (كوجوك) **وقوجة وخورشيد وأرشيد وقندقجي و الباك وكوجاك و الطرون** (طورون)

ثالثاً - في حمص :

معظم التركمان في حمص سكنوا ما يسمى في حمص بحيّ " **باب التركمان** " وهو حي نشأ منذ فتح السلطان سليم الأول العثماني لبلاد الشام ، فإثر دخوله مدينة حمص فاتحاً أسكن في ذلك الحي عدداً من الأسر التركمانية التي قدمت معه ، وأمر بسد باب السور المجاور لهذا الحي بأعماره بالحجارة إعلاناً منه بأن العثمانيين سيكونون آخر الفاتحين لمدينة حمص وبأنه لن يجرؤ أحد بعدهم على دخول بلاد الشام ! ولذلك عُرِفَ هذا الباب في حمص بـ " **الباب المسدود** ."

أهم هذه العائلات التركمانية في حمص : أسرة **"الحسيني"** التركماني ، وهي أسرة تنتسب إلى الأستاذ الشيخ "حسين أفندي التركماني" الذي سكن حي باب التركمان وكان إمام مسجد ومعلماً ومحفظاً للقرآن الكريم ، وقد أنجب هذا الرجل الصالح ولداً نجيباً اسمه " مصطفى " الذي سرعان ما تفوّق في تعليمه وأخلاقه واشتهر بخطّه الجميل الأنيق فذاع صيته بين رجالات الدولة العثمانية بحمص ، فبدؤوا بإسناد عدد من الوظائف الإدارية المهمة إليه..ثم تدرّج في المناصب العثمانية بحمص حتى كان أول حمصيّ ينال " رتبة الباشاوية " وهي أعلى رتبة عثمانية . وقد برز من هذه الأسرة الفاضلة عدد كبير من النابغين والنابهين حسبنا أن نذكر منهم طبيب الأطفال الشهير " الدكتور فاروق الحسيني " وكان أحد أبرز أطباء الأطفال لا في حمص وحدها بل في سورية . والدكتور عناد الحسيني .

وأعظم ما يذكر لهذه الأسرة الكبيرة العريقة أنها كانت و لا تزال تعتزّ بتركمانيتها في حين تنصّلت عائلات أخرى أقلّ منها شأناً من أصولها التركمانية وانحشرت حشراً في أنساب العرب

أسرة **" الوفائي " و " العطائي "** : فرعان من أصل واحد ينتسبون إلى جدّهم العالم "عمر بن يوسف البقراصي التركماني" (ت - 1739م) وهو صاحب جامع " النخلة أو جامع البقراصي " وهي أيضاً من أكرم العائلات الحمصية مكانة وأخلاقاً ، وقد نبغ منهم كثير من علماء الدين و العلم ، نذكر منهم الشيخ عمر وابنه الشيخ المؤرّخ عبد الهادي الوفائي و منهم أيضاً الشيخ نديم الوفائي الذي عرف بمدرسته الخاصة و كان مثالاً للتوجيه التربوي والعلمي الراقي . ومنهم الأستاذ الشهير " راغب الوفائي" الذي كان علماً من أعلام " الرياضيات والحساب " و كان مديراً لمديرية التربية في مدينة حمص . والعالم الفيزيائي " رفعت الوفائي " الذي صنع محطة للإذاعة باسم محطة إذاعة حمص في أوائل الخمسين من القرن العشرين , وله العديد من المخترعات الفيزيائية وخاصة في مجال الكهرباء .

آل الأتاسي : من أصول تركمانية . قدم رأس أسرتهم الشيخ الصوفي علي الأتاسي من تركيا - مع دخول العثمانيين إلى سورية - إلى مدينة حمص في القرن 10هـ . ولكن أول مجدهم يرجع إلى جدهم الشيخ أحمد بن خليل حفيد علي الأتاسي ذلك الشيخ الصوفي الذي حالفه الحظ فعيَّنه السلطان سليمان القانوني في منصب مفتي حمص .

وقد جاء في كتاب المحبي (خلاصة الأثر) في ترجمة الشيخ أحمد بن خليل بن علي الأتاسي ما يلي :

" هو أحمد بن خليل بن علي التركماني في الأصل المعروف بالأطاسي ، وكانت وفاته سنة 1004هـ / 1515م ". وكان من هذه الأسرة كثير من علماء الإفتاء والقضاة كانت تعيّنهم الآستانة لا في حمص وحدها بل في أنحاء شتى من الدولة العثمانية . وقد كان من هذه الأسرة ثلاثة ممن نالوا منصب رئاسة الجمهورية السورية وهم : الزعيم الوطني الشهير هاشم الأتاسي والفريق لؤيّ الأتاسي والدكتور نور الدين الأتاسي .

آل كاخيا أو كاخي أو كيخي أسماء مترادفة , وهم زعماء التركمان في تركيا وسورية . ولهم أبناء عم في اللاذقية باسم **كيخيا** . وهاجر قسم منهم إلى الأرجنتين في أوائل القرن الماضي . ومن أبرزهم في حمص وعميد أسرتهم المجاهد المرحوم **إسماعيل كاخيا** الذي حارب مع الجيش العثماني أثناء الحرب العالمية الأولى ضد الإنكليز في بير السبع بفلسطين . كما ساهم مع والده **خليل كاخيا** في الدفاع عن حمص حين دخول الجيوش الفرنسية حمص عن طريق تلكلخ في عشرينيات القرن الماضي . ومن أبناءه : العميد الركن إبراهيم كاخيا الذي اشترك في حرب حزيران 1967 وحرب تشرين عام 1973 ثم قام بالتدريس في كلية الأركان في سورية , والمدرس عبد الرحيم كاخيا , وعالم الكيمياء طارق كاخيا , ومن بناته المحسنة المرحومة طرفة كاخيا التي تبرعت ببناء جناح في مشفى البر بحمص .

ومن أسر حمص التركمانية الأصل : **آل رفاعي إسماعيل العثمان** : الذين قدم جدهم إسماعيل من قرية البرج من أعمال حماه في بدايات القرن التاسع عشر إلى حمص , واشتهر من أبناءه عثمان , ومن أبناء عثمان رفاعي وباكير , لذلك اشتهرت العائلة باسم إسماعيل العثمان للتمييز بينها وبين آل إسماعيل من أسر أخرى , أو باسم العثمان أو باسم باكير أو الباكير .

وممن اشتهر منهم **رفاعي إسماعيل العثمان** , وكان في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من ضباط الجيش العثملي , وهو ذو شخصية قوية مميزة , فهو يتقن العربية والتركية قراءة وكتابة وتحدثاً , وكان في فترة من خدمته العسكرية ياوراناً - مرافقاً - لجمال باشا , ثم في أواخر العهد العثملي قائداً لمنطقة دوما , وكانت سلطته تمتد من دوما شمال دمشق إلى البريج جنوب حمص وإلى جزء كبير من بادية الشام . وعند خروج الأتراك من سورية ودخول الجيش الانكليزي دمشق بقيادة الجنرال **اللمبي** وقد بلغ به الكبر عاد إلى حمص وسكن في بيت زوجته الحمصية من آل البيطار بباب السباع الذين منهم **عبد الجليل أبو أديب البيطار** المعروف , ومات في أواخر النصف الأول من القرن الماضي , ودفن بمقبرة باب السباع وعمره قد قارب المائة عام أو يزيد .

وممن اشتهر منهم ابن أخيه **حسن بن سعيد العثمان** الذي كان قائدا لخيالة الحرس الجمهوري أيام رئيس الجمهورية الشيخ تاج , وقائدا لسرية الدرك في سراي حمص عام 1945 وأبى الاستسلام للقوات الفرنسية , وبقي محاصراً مع عناصره من رجال الدرك الأشاوس عدة أيام بدون طعام أو شراب رافضين تنكيس العلم السوري من دار الحكومة التي كان موقعها آن ذاك محل بناء الميتمين الإسلامي والمسيحي في شارع السرايا الآن مقابل بناء مديرية الآثار والمتاحف (البلدية سابقاً) . مات في حمص فقير الحال , غني النفس , رحمه الله . (اقرأ سيرته في كتاب السجل الذهبي لرجال الدرك) .

ومن أبناءه المجاهد والشاعر **عبد الغفار حسن إسماعيل** , الذي دافع هو ورفاقه الدرك في قلعة دمشق عن دمشق ضد الفرنسيين في ثورة الاستقلال عام 1945 م , وأصيب بطلق ناري في فخذه . وله أكثر من ديوان شعر معظمها في الحماسة والجهاد , أتمنى على أولاده طباعتها ونشرها .

آل الصوفي و " **بلّي الصوفي** أصلها بالي الصوفي " : و هم أيضاً من أهم وأبرز الأسر التركمانية في حمص و قد نبغ منهم عدد من الأذكياء و علماء الدين . نذكر منهم الشاعر الحمصي المرحوم عبد الباسط الصوفي . وأخيه الشاعر الساخر إسماعيل الصوفي , والمهندس نهاد الصوفي , وأبو راغب الصوفي وأولاده , ومن أولاده الدكتور في الشريعة الإسلامية الدكتور أحمد الصوفي .

ولهم أولاد عم في اللاذقية منهم اللواء محمد الصوفي الذي تولى منصب رئيس الأركان في الجيش العربي السوري .

آل سراس : وهم تركمان سكنوا في القرن التاسع عشر في قرية الزرزورية التابعة لحمص , ثم انتقلوا إلى حمص , وبرز منهم الكثير في الطب والتجارة , ومنهم الطبيب **مروان سراس** , وأستاذ الجغرافية **كامل أبو بديع سراس** , الذي كان له دور في حرب الاستنزاف عام 1973 , وأبدى من الشجاعة التي ورثها عن أجداده , وظل يقاتل رغم إصابته بقذيفة إسرائيلية في كتفه .

آل الطظقلي " الطوزوقلي " : وهم من التركمان من عشيرة " الطوزوق " التي كانت قاطنة في شمالي حماة ، ومنهم الشيخ الصوفي الشهير " أحمد الطظقلي " الذي كان أستاذاً لكثير من أعظم علماء حمص و مفتيها .

آل الدالاتي (في حمص) : تركمان وجدهم **حسين دالاتي** باني جامع وسبيل الدالاتي في أول سوق الحميدية بحمص ، والدالاتية : هم فئة من جنود الدولة العثمانية كانت في أصولها مكونة من خليط من التركمان والكرد والصرب والكروات وغيرهم وعرف قائدهم بـ" دالي باشا ".. ولذلك تجد هذا الكنية في جميع المدن السورية على أن عائلة " الدالاتي" المعروفة في مدينة حمص هم من فضلاء التركمان من عشيرة الطوزوق .

آل الرئيس (ويعرفون أيضاً **بآل قريعي**) ومنهم علامة حمص الشيخ " **طاهر الرئيس**" الذي كان كثيراً ما يقول" : اللي ما نو تركماني في حمص يروح يدوّر على أصلو !"

ومثله في المكانة و الوجاهة الشيخ **سليم خلف** وهو تركماني طوزوقلي أيضاً قطن مدينة حمص و دفن فيها . وولده الشيخ **أبو النصر خلف** .

آل عساف الحماصنة المسلمون السنة منهم فقط فهناك أسرة أخرى مسيحية من صدد تحمل اسم عساف (تنتسب هذه العائلة إلى آل عساف وهم من أمراء التركمان وكانوا قد حكموا تحت الولاء للدولة العثمانية مساحات واسعة كانت تشمل بيروت وطرابلس امتداداً إلى تلكلخ وجزء من حمص وحماة و كان أشهرهم الأمير منصور عساف .

ونذكر على سبيل الإحصاء بقية الأسر الحمصية التركمانية الجذور :

قندقجي ، السطلي ومنهم كثير من النابهين و الأساتذة الجامعيين ومنهم الأستاذ عبد الحفيظ السطلي ، **آل الترك ، التركماني ، الشرفلي ، شمسي باشا ، الأمين ، وبالي** . وكذلك أسرة **النكدلي ومامیش , ومحْلي** ومنهم الدكتور ساطع محلي ، **والخزندار، وكيشي** ومنهم الساعاتي المشهور عبد الهادي كيشي , وولده الساعاتي البارع أبو زاهر كيشي , وحفيده طبيب العيون النطاسي البارع فاروق كيشي . **والطرزي ، والجوخدار** (الحماصنة منهم فقط) ، **ورمضون** ومنهم المجاهد عبد الكريم رمضون . **وحاميش** , وغيرهم الكثير الكثير .

رابعاً ـ في دمشق :

آل العمادي : أسرة تركية دينية عظيمة الجاه قدمت من مدينة بخارى في تركستان (أزبكستان اليوم) ، وسكنت مدينة دمشق منذ أوائل العهد العثماني، فلما نزلوا في دمشق وتولوا فيها مناصب قضاء وفتيا أصابتهم حمى الرغبة في الانتساب إلى آل البيت النبوي ، فزعموا للناس أنهم وإن قدموا من بخارى إلا أنهم ينتسبون إلى الحسين بن علي بن أبي طالب!!! ومثلهم في كل ما ورد :

آل المرادي : الذين يرجع أصلهم إلى مدينة سمرقند. وهم زعماء الطريقة النقشبندية في دمشق ، وكان منهم عدد كبير من القضاة و المفتين وأصحاب الوجاهة والزعامة ! جاء جد آل المرادي إلى مدينة دمشق في حدود عام 1658م \ 1096 هـ . وكان قبل ذلك قد أقام في استانبول عدة سنوات ، وأنشأ في العاصمة هناك علاقات واسعة مع السلطان والوزراء !.

آل العظم : أتراك . أصلهم من قونية في تركيا ، أول من دخل بلاد الشام من هذه الأسرة جدهم "إسماعيل باشا العظم" ، انتقل أبوه إلى بغداد ، وجاء هو إلى دمشق فسكنها وأعقب ثلاثة من الأولاد هم :

- سعد الدين باشا (في حماة) ومنه آل العظم هناك .
- أسعد باشا العظم (في دمشق) و منه آل العظم هناك ، وهو صاحب الخان والقصر الأثريين البديعين . و كان أشهر من تولى ولاية دمشق للعثمانيين .
- إبراهيم باشا (في معرة النعمان) و منه آل العظم هناك .

آل العظمة : كان اسمهم آل التركماني وبرز منهم الزعماء والتجار وكبار الملاّك. وكان أجدادهم من أمراء التركمان . فجدهم الأعلى حسن بك التركماني 1040 هـ/ 1630م قدم من قونية (في تركيا) إلى دمشق ، وغدا زعيماً للقوات اليرلية ، وبنى داراً عظيمة في أول الميدان .

" عائلة العظمة "" إذن هي عائلة تركمانية كبيرة عريقة أسسها **حسن بك** عندما قدم من قونية إلى دمشق ، فيما بعد عانت هذه العائلة من التضييق والتهميش بعد قمع انتفاضة كان قد قادها أحد أجدادهم (و كان قائداً للقوات الانكشارية اليرلية في دمشق ، وكانت عائلتهم وأتباعهم وحدهم يشكلون ربع القوات اليرلية في دمشق) في خضم الصراع على النفوذ بين فرقتي الانكشارية : اليرلية (المحلية) وقوات القابي قول (الغريبة عن الشام) ، إلى أن عادت عائلة التركماني إلى الظهور بعد عدة عقود باسم جديد هو آل العظمة .

قال **خير الدين الزركلي** في "موسوعة الأعلام" : " وآل العظمة من الأسر المعروفة في سورية. استوطنت دمشق في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة ، ونبغ منها ضباط و إداريين وفضلاء". وبرز من

هذه العائلة عدد كبير من الزعماء والتجار وكبار الملاّك. وتوارثت عائلة العظمة لقب (بيك) . قدمت هذه العائلة العديد من الشخصيات في مجالات مختلفة، منهم :

* الشهيد يوسف العظمة وزير حربية * أحمد مظهر العظمة وزير وأديب وداعية *عادل العظمة وزير ،مجاهد * نبيه العظمة وزير ومجاهد * بشير العظمة طبيب ، رئيس وزراء * ياسر العظمة ناقد وفنان كوميدي *عزيز العظمة كاتب مغترّب * نذير العظمة أديب مغترّب * كنان العظمة موسيقار .

آل مردم بك :

أسرة تركية عريقة في المجد ؛ يرجع آل مردم بك في أصولهم إلى جدهم الأعلى القائد التركي " **لالا مصطفى باشا** " فاتح جزيرة قبرص ، و الذي كان أولاً وزيراً ومربياً لأولاد السلطان ، ثم والياً على دمشق ما بين العامين (1563 -1569 م) ، و هو صاحب " جامع لالا مصطفى باشا " الأثري المشهور بدمشق . ومما ينسب إليهم من معالم دمشق الأثرية " خان مردم بك " الذي كان قائماً في العهد العثماني ، وخان لالا مصطفى باشا الذي كان قائماً في سوق الهال القديم بدمشق ثم هدم عام 1928م . ومنهم الشاعر **خليل مردم بك** هو مؤلف النشيد الوطني السوري : " حماة الديار عليكم سلامْ ." وكان في أخريات أيامه رئيساً لمجمع اللغة العربية بدمشق .

آل القباني (آق بيق) : وهي أسرة الشاعر الكبير نزار القباني . أصل هذه الأسرة ينحدر من **أكرم بك آقبيق** الذي كان ياوَر (مستشار السلطان سليمان القانوني. ومن أبرز أجدادهم في دمشق هو **شادي بك آقبيق** الذي بنى المدرسة الشابكية للعلوم الدينية مع جامع كبير ، وأوقف لهما أوقافَ حي القَنَوات بأجمعها ؛ أُقِّب هذا الرجل في عهده بالقبَّاني لأنه كان يملك قبّان باب الجابية نسبة إلى القبابين التي كانت بذلك التاريخ ملكاً لفريق من العائلات في كل حي من أحياء دمشق . وقد جاء في كتاب " دفاتر شامية عتيقة " للأستاذ أحمد ايبش في هامش صـ 170شرح عن أصل كنية آل القباني (آق بيق) ما يلي :

" الكنية AK- biyik : تركية ومعناها : "ذو الشوارب البيض". أُطلقتْ على جدّ العائلة في القرن الخامس عشر ، وهو متصوّف مشهور في مدينة بورصة (في تركيا).. كان من مريديه (تلامذته) السلطان العثماني محمد الفاتح نفسه. ويروى أن الشيخ آق بيق دَاده dede AK-biyik ، كما كان يدعى بالتركية ، بَشّرَ السلطانَ المذكور بفتح القسطنطينية ليلة 29 أيار 1453 م ، فتمّ له ذلك الفتح العظيم ، وعاد السلطان فقبّل يد الشيخ . هذا و قد هاجر فرع من العائلة إلى دمشق في القرن 18 الميلادي ، وبقوا فيها إلى اليوم ".

وننبه هنا إلى أنه توجد في دمشق عائلة شامية أخرى تحمل لقب القباني و لكنها عربية ولا تمتّ بالقرابة إلى عائلة القباني (آقبيق) ومنهم الطبيب الشهير صبري القباني صاحب مجلة" طبيبك " وابنه جراح القلب الشهير الدكتور سامي

أسرة إيبش : هي أيضاً أسرة تركية عظيمة ترتبط بعلاقات قرابة ومصاهرة متبادلة مع عائلة آقبيق ، وهي تعود في أصولها أيضاً إلى مدينة " بورصة " في تركيا ثم توطنت في ديار بكر ، وكان جدّ عائلتهم "ايبش آغا " ياوَراً (مرافقاً) للسلطان إبراهيم خان الأول 1640- 148 م . وبرز من هذه الأسرة عدد من النابهين لعل أبرزهم :

"نوري بن أحمد أفندي إيبش" ، وكلمة إيبش في التركية الدارجة هي تصغير وتحبّب من كلمة "إبراهيم" ، وابنه الأستاذ المؤرّخ المحقّق "أحمد إيبش" صاحب الكتب التاريخية والآثارية المهمة

آل القوّتلي : من أسرة ثرية ذات أصل تركي - على الأرجح - جاءت من بغداد ونزلت دمشق منذ حوالي ثلاثة قرون . وكلمة (قوتلي) هي نسبة إلى الكلمة التركية (قُوَا والجمع منها قُوَات) وتعني الدلو أو القفة : وهي نوع مدوّر من القوارب المطلية بالقار لا يزال يستعمل في أنهار العراق ، واللام والياء هي صيغة النسبة في لغة الأتراك ، فالمنسوب إلى أورفة مثلاً هو أورفلي . فلعل أجدادهم كانوا من صانعي هذه الزوارق ,

آل البزم : من الأسر الدمشقية الشهيرة ذات الأصول التركية ، ومنهم شاعر الشام :محمد بن محمود بن سليم البزم (1887 -1955 م) .

الفنان المرحوم **نهاد قلعي** : دمشقي ، تركي الأصل من جهة أبويه ، أصل كنية أبيه " حقّي"، ولكن غلبت عليه كنية جدته " القلعي " وكانت تركيةً أيضاً .

الفنان الكوميدي **عبد اللطيف فتحي** : هو شامي من أسرة تركية جاءت منذ وقت قريب من استانبول ، ونزلت في حي " ساروجة " و هو حيّ من أحياء دمشق كانت تسكنه الأسر الأرستقراطية التركية الأصول ، حتى بات يعرف عند الدمشقيين بـ " استانبول الصغيرة " ! . ويشبهه في ذلك " حي الميدان " و حي " القنوات " بدمشق الذي تشكل من كثير من العائلات الأرستقراطية التركية .

آل "حقي" : أسرة شامية من أصل تركي قريب العهد ، قدمت الأسرة من مدينة "طرسوس" في تركيا واستوطن قسم منهم في حمص والقسم الأكبر في دمشق ، وقد نبغ كثير من هذه العائلة فكان منهم الأساتذة الجامعيين ومن أشهرهم الدكتور **إبراهيم حقي** أستاذ التوليد والأمراض النسائية في جامعة دمشق . و المؤرّخ المحقّق الكبير المرحوم الدكتور **إحسان حقي** الذي حقَّقَ كتاب" تاريخ الدولة العلية العثمانية – تأليف المحامي التركي الأصل المصري المولد محمد فريد بك" بجهد علمي مميَّز أضاف مزايا كثيرة إلى الكتاب وأغناه بالحواشي القيّمة و الملحقات المفيدة والخرائط العثمانية مترجماً لها عن التركية مما جعل هذا الكتاب أهم المراجع التاريخية العربية للدولة العثمانية حتى يومنا هذا . و منهم الأديب و الدبلوماسي الشهير " بديع حقي "، ومنهم أيضاً المخرج السوري المبدع "هيثم حقي ." وعالم الكيمياء " وفائي حقي " .

آل السفرجلاني : أسرة تركية من الأسر الشهيرة بالفضل والتقوى والتجارة، وأصل كنيتهم " آل الشلبي "، وكانت لهم مشيخة مشهد السفرجلاني في الجامع الأموي .

آل سكّر (في حي الميدان) فقد كان أحد أجدادهم و هو عبد القادر باشا (ت1902م) رئيساً لبلدية إزمير في تركيا وكان قبل ذلك تاجراً موسراً ، و من هذه الأسرة خرج عدد من أعلام السياسة و الجهاد ضد الفرنسيين (وهم غير آل سكر الرفاعي الذين سكنوا الصالحية) .

و من الأسر التركية التي استوطنت دمشق : الشوربجي و ماردیني (هناك أسرة أخرى شامية من أصل كردي) واستانبولي و قلعجي و الخربوطلي و الجلبي وخلوصي والترزي والطرزي والجوخدار والدكدك والآمدي والأورفلي والمرعشلي والقلطقجي وعرنوس .

خامساً- في مدينة اللاذقية , وفي مدينة القنيطرة :

نرجو من الإخوة التركمان في اللاذقية وغيرها من المدن السورية أن يُمدّونا بأسماء أهم العائلات السورية ذات الأصول التركية على غرار ما أوردنا هنا و يا حبذا أن تذكر - المراجع العلمية أو الوثائق الشرعية المثبتة لهذه الأصول - في حال توفرها.

تركمان العراق

علم الجبهة التركمانية العراقية.

تقديم

تركمان العراق هم جماعة عرقية تنحدر من قبائل الغز من الأوغوز الأتراك . حيث يقيمون بشكل أساسى في شمال العراق في مدن كركوك وجلولاء والسعدية وسليمان بيك وامرلي وطوز خورماتو وكفري وتلعفر وبغداد . ويشاركون في علاقات ثقافية ولغوية وثيقة مع تركيا ·وهم من سلالات من موجات مختلفة من الهجرة التركية لبلاد الرافدين.

الموجة الأولى من الهجرة تعود إلى القرن السابع عندما تم تجنيد جنود بلغ عددهم 1،000 تركماني في جيوش المسلمين مع عبيد الله بن زياد ، ومعظم نسل اليوم من هؤلاء المهاجرين الأوائل الذين اختلطوا مع السكان العرب المحليين حيث اباءهم تركمان واماتهم عربيات.

كانت **الموجة الثانية** من المهاجرين الأتراك أيام الدولة السلجوقية ;

وكانت **الموجة الثالثة** ، وهي أكبر موجة للمهاجرين التركمان إلى العراق في عهد السلطان سليمان القانوني عام 1534 وما بعد ، وبالتالي ، فإن جزء من تركمان العراق اليوم هم أحفاد الجنود العثمانية والتجار وموظفي الخدمة المدنية الذين نقلوا إلى العراق خلال فترة حكم الدولة العثمانية .

بعد إنشاء الجمهورية التركية في عام 1923، أراد تركمان العراق من تركيا ضم ولاية الموصل إليها لتصبح جزء موسع من الجمهورية التركية . حيث نظرا لنهاية نظام الخلافة العثمانية ، وجد تركمان العراق أنفسهم تحت تمييز عنصرى متزايد عن طريق سياسات الأنظمة المتعاقبة القمعية ، ومن المتفق عليه أن أتراك العراق هم ثالث أكبر جماعة عرقية في العراق. وفقا لتعداد عام 1957، حيث يشكل العرب أكبر عرقية تليها الأكراد (13 ٪) ثم تركمان العراق (9 ٪) .

2 - تاريخ قدومهم إلى المنطقة

ظهور الشعوب التركية في العراق بدأت لأول كما مرّ معنا في القرن السابع الميلادي واستمرت موجات متعاقبة من الهجرة في ظل حكم الأتراك السلاجقة ، ثم في ظل حكم الدولة العثمانية .

2 – 1 - في عهد السلاجقة (1055 - 1194)

الموجة الثانية من التركمان نزوحهم إلى العراق في عهد الدولة السلجوقية . حيث حدثت هجرة واسعة النطاق للتركمان للعراق عام 1055 مع غزو سلطان طغرل بك ، الحاكم الثاني من سلالة السلاجقة، الذى قام بإصلاح طريق الحج إلى مكة المكرمة. وعلى مدى 150 سنة ، شكل الأتراك السلاجقة مجتمعات كبيرة من التركمان على طول الطرق الأكثر أهمية في شمال العراق، وخاصة تلعفر، اربيل، كركوك، ومندلي .

2 – 2 - في عهد الدولة العثمانية (1534 – 1918)

عندما هزم سليمان القانوني الصفويين عام 1534، في بغداد وجنوب العراق . شجع العثمانيون طوال فترة حكمهم الهجرة التركية من الأناضول إلى العراق ، وتوطينهم على طول شمال العراق ، كما تم جلب علماء الدين أيضا لنشر المذهب السنى الحنفي .

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

2 – 3 - العصر الحديث (1918 إلى الوقت الحاضر)

وعقب إنشاء الجمهورية التركية في عام 1923، أراد تركمان العراق من تركيا ضم ولاية الموصل لتصبح جزءا موسعا من الدولة التركية . حيث تمتع تركمان العراق بحياة خالية من المتاعب نسبيا في ظل نظام الحكم العثماني ,

وبعد زوال الحكم العثماني ، شارك تركمان العراق في انتخابات الجمعية التأسيسية، وكان الغرض من هذه الانتخابات إضفاء الطابع الرسمي على معاهدة 1922 مع بريطانيا والحصول على دعم لصياغة الدستور وصدور 1923 لقانون الانتخابات . وجعل تركمان العراق مشاركتهم في العملية الانتخابية مشروطة من حيث المحافظة على الطابع التركي في إدارة كركوك والاعتراف باللغة التركية كلغة رسمية .إلا انهم حرموا آنذاك من هذا الوضع في دستور عام 1925،

3 - دراسة إحصائية للسكان

يشكل تركمان العراق ثالث أكبر جماعة عرقية في العراق . ووفقا للإحصاء العراقي عام 1957 كان هناك 567000 تركماني من أصل مجموع سكان العراق البالغ 6.3 مليون أي حوالي 9 ٪ من مجموع سكان العراق .

3 – 1 - مناطق تركز التركمان في العراق

يمتد مناطق تركزهم من جلولاء والسعدية وكفري شرقا , إلى سليمان بيك وامرلي وطوز خورماتو إلى كركوك إلى تلعفر في الشمال الغربي قرب الموصل وايضا في بدرة وآل العزيزية في محافظة الكوت في منتصف شرق العراق . و اكثر اماكن تواجدهم في شمال العراق، في كركوك والموصل واربيل . ويعيش ما لا يقل عن 100000 تركمانى عراقي في السعدية وجلولاء وكفري ويعيش ما لا يقل عن 180000 تركمانى عراقي حاليا في مدينة كركوك ، وهناك أيضا ما لا يقل عن 250000 يعيشون في اربيل، 300000 في بغداد، 100000 يعيشون في الموصل، و227000 في منطقة تلعفر. و يشكلون أيضا جزءا كبيرا من سكان بدرة في محافظة الكوت .

3 – 2 – مناطق تركز التركمان في الشتات

معظم المهاجرون التركمان العراقيين بعيشون في تركيا تليها ألمانيا والدنمارك والسويد . إضافة تشكيل تجمعات صغيرة في كندا والولايات المتحدة واستراليا واليونان ، والمملكة المتحدة .

4 – الثقافة

4 – 1 – اللغة

تعتبر اللهجة التي يتحدث بها معظم التركمان العراقيون وسيطة بين الهجة الأذرية , والاناضول التركية ، ولهجات ديار بكر وأورفا في جنوب شرق تركيا . العديد من التركمان العراقيين يتقنون أكثر من لغة إلى جانب اللغة العربية ولغتهم الأم , إضافة إلى اكتساب اللغة الكردية في أحيائهم عن طريق الجيران أو عن طريق الزواج.

. في عام 1997 ، اعتمد المجلس التركماني العراقي في المادة الثالثة من مبادئه على « إن اللغة الرسمية المكتوبة من التركمان هو اللغة التركية ، وأبجديتها هي الأبجدية اللاتينية الجديدة » .

لهجة تركمان العراق فإنها غالبا ما تسمى " التركمانية" ، ولكن لا ينبغي الخلط بينها وبين اللغة التركمانية في تركمانستان.

يتحدث اهالي تلعفر بلغة تركية قريبة من لهجة "الجاغاتاي" التركية اما اهالي مدينة الطوز فلهجتهم أذرية تنحدر من لهجة الفرس الأذريون في إيران.

بينما يتحدث تركمان السعدية وجلولاء والعظيم وسليمان بيك بلهجة تركمانية فريدة.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

4 – 2 – الديانة

الغالبية العظمى من تركمان العراق يعتنقون الدين الإسلامي وينقسمون إلى قسمين: السنة (حوالي 50 ٪) والشيعة (حوالي 50 ٪).

ينحدر التركمان السنة من التركمان الأوائل المهاجرين والسلاجقة والعثمانيين الذين حكموا العراق طيلة قرون طويلة منذ العهد العباسي اما التركمان الشيعة فينحدرون من الفرس الأذريون الذين جاءوا للعراق في العهد الصفوي ولهم لهجة مختلفة ، في العصر الملكي الهاشمي كان يتم تصنيف التركمان الشيعة على انهم اتراك او فرس يتحدثون اللغة التركية وتم اعتبارهم تركمان في العصر الجمهوري.

5 – التمييز

قد تغير وضع التركمان العراقيين عن كونهم ممثلى الطبقات الإدارية والتجارية للدولة العثمانية إلى أقلية تتعرض للتمييز على نحو متزايد . منذ زوال الدولة العثمانية صار التركمان العراقيين ضحايا العديد من المجازر , وازداد التمييز في ظل حزب البعث ضد تركمان العراق أصبحوا ضحايا سياسات التعريب من قبل الدولة ، والتكريد من قبل الأكراد . وبالتالي ، فإنهم عانوا درجات مختلفة من القمع والاستيعاب التي تراوحت من الاضطهاد السياسي والنفي إلى الإرهاب والتطهير العرقي .

5 – 1 – المذابح

5 – 1 – 1 - مذبحة 4 مايو 1924

في عام 1924، كان يُنظر إلى تركمان العراق كبقايا للدولة العثمانية ، ولذلك ، فإن التركمان العراقيون الذين يعيشون في منطقة كركوك صار ينظر إليهم أنهم أصبحوا يشكلون تهديدا لاستقرار العراق، لا سيما وأنهم لم يدعموا صعود الملك فيصل الأول على العرش .

تم استهداف التركمان العراقيين من قبل البريطانيين بالتعاون مع عناصر عراقية أخرى ، و من هذه العناصر كانت قوات الليفي الآشوريون الذي لجأوا إلى العراق من منطقة هكاري في تركيا . شرارة الصراع كان خلاف بين جندي ليفي وصاحب متجر تركماني عراقي الذي كان تبريراً كافيا لبريطانيا للسماح بمهاجمة تركمان العراق ، مما أدى إلى قتل نحو 200 شخص .

5 – 1 – 2 - مذبحة كركوك 1959

جاءت مذبحة كركوك عام 1959 بافتعال من الحكومة العراقية وذلك بالسماح للحزب الشيوعي العراقي ، الذي كان أغلبه من الاكراد في كركوك إلى حد كبير، لاستهداف تركمان العراق . حيث قام الجنود الأكراد من اللواء الرابع من الجيش العراقي بقذف المناطق السكنية التركمانية العراقية ، وتدمير أكثر من 120 منزل , وأستشهاد 79 تركماني عراقي ونحو 130 قد جرحوا .

5 – 2 - حملات الاستيعاب

5 – 2 – 1 – التعريب

في عام 1980، اعتمدت حكومة صدام حسين سياسة استيعاب أقلياتها . بسبب برامج الحكومة إعادة توطين مواطنيها ، تم نقل الآلاف من التركمان العراقيين من ديارهم التقليدية في شمال العراق وحل محلهم عرب ، في محاولة لتعريب المنطقة . وعلاوة على ذلك، تم تدمير العديد من القرى التركمانية العراقية والبلدات لإفساح الطريق للمهاجرين العرب، الذين وعدوا بأرض حرة وحوافز مالية.

وهكذا، شهدت الموجة الأولى من التعريب , حبث تحركت العائلات العربية من وسط وجنوب العراق إلى كركوك للعمل في التوسع في صناعة النفط . وأنشئت مساكن عربية جديدة في المدينة وتغيير التوازن الديموغرافي العام في المدينة حيث استمرت الهجرات العربية .

تشير عدة قرارات رسمية إلى أن التركمان العراقيين كان التركيز عليهم بشكل خاص من خلال عملية الاستيعاب خلال نظام البعث. على سبيل المثال، أصدرت الاستخبارات العسكرية العراقية تعليمات 1559 في 6 مايو 1980 بطلب ترحيل المسؤولين التركمان العراقيين من كركوك ، وإصدار التعليمات التالية : "تحديد الأماكن التي يعمل بها المسؤولين التركمان في المكاتب الحكومية من أجل ترحيلهم إلى

المحافظات الأخرى في النظام لتفريقهم ومنعهم من التركيز في هذه المحافظة كركوك ". بالإضافة إلى ذلك، في 30 أكتوبر من عام 1981، أصدر مجلس قيادة الثورة قانونا 1391، الذي أذن بترحيل التركمان العراقيين من كركوك مع الفقرة 13 مشيرا إلى أن "هذا التوجيه يهدف خصيصا المسؤولين والعمال من التركمان والاكراد الذين يعيشون في كركوك".

بالتالي، يعتبر التطهير العرقي عنصرا من عناصر السياسة البعثية التي كانت تهدف إلى الحد من تأثير تركمان العراق في كركوك شمال العراق . وتركمان العراق الذين بقوا في مدن مثل كركوك خضعوا لسياسات الاستيعاب المستمرة ؛ فقد تم تغيير أسماء المدارس والأحياء والقرى والشوارع والأسواق وحتى المساجد بأسماء الأصل التركي إلى الأسماء المنبثقة من حزب البعث . فضلا عن ذلك ، تم هدم العديد من القرى التركمانية العراقية والأحياء في كركوك ببساطة، لا سيما في عام 1990.

5 – 2 – 2 – التكريد

تشكيل إقليم كردستان في عام 1991 خلقت عداء شديد بين الأكراد والتركمان العراقيين ، و صار التركمان ضحايا التكريد . ادعى الأكراد بحكم الأمر الواقع السيادة على الأرض ، وبالتالي شكل إقليم كردستان تهديدا لبقاء التركمان العراقيين من خلال استراتيجيات تهدف إلى القضاء عليهم أو استيعابهم

واشتد ّالتوتر بين الاكراد والتركمان العراقيين من قبل الحزب الديمقراطي الكردستاني وتم إضفاء الطابع المؤسسي للاتحاد الوطني الكردستاني باعتباره القوى السياسية المهيمنة للمنطقة ، ومن وجهة نظر التركمان العراقيين، فإن ذلك الحزب سعى إلى تهميشهم من مواقف السلطة وإستيعاب ثقافتهم بهوية كردية السائدة على الجميع .

قام تركمان العراق في 24 ابريل عام 1995 بتشكيل جبهة سياسية جديدة من الأحزاب التركمانية تحت إسم **الجبهة التركمانية العراقي** . بعد أن توترت وتدهورت العلاقة بينهم وبين الحزب الديمقراطي الكردستاني

في مارس 2000 قام الحزب الديمقراطي الكردستاني بمهاجمة مكاتب الجبهة التركمانية العراقية في اربيل ، مما أسفر عن مقتل اثنين من حراسه ، والخلافات مستمرة بين الطرفين إلى وقتنا هذا .

6 - الوضع الحالي

بالرغم من كون تركمان العراق قادرين على الحفاظ على لغتهم ، لكن تم استيعاب التركمان العراقيين اليوم بسرعة إلى عامة السكان ولم يعدوا منظمين عرقياً .

برز تركمان العراق كقوة سياسية رئيسية في الجدل الدائر حول الوضع المستقبلي لشمال العراق ومنطقة الحكم الذاتي الكردية. وبخاصة الاقتراح بضم كركوك إلى حكومة إقليم كردستان .

وفى 30 يناير 2006 قال الرئيس العراقي جلال طالباني ، أن " الأكراد يعملون على خطة لمنح الحكم الذاتي لتركمان العراق في المناطق التي يشكلون فيها الأغلبية في الدستور الجديد يقيمون بصياغتة بإقليم كردستان العراق". غير أن ذلك لم يحدث أبدا, كما أن سياسات التكريد بواسطة الحزب الديمقراطي الكردستاني والإتحاد الوطني الكردستاني بعد عام 2003 (مع غير الأكراد) أدت إلى مشاكل خطيرة بين الأعراق.

انتخب ما بين عشرة إلى اثني عشر فردا تركمانياً في الجمعية الوطنية الانتقالية العراقية في يناير عام 2005، بما في ذلك خمسة على لائحة الائتلاف العراقي الموحد، وثلاثة من الجبهة التركمانية العراقية ، وإما اثنين أو أربعة من التحالف الوطني الكردستاني.

7 - الناحية الاجتماعية

تأثير التركمان ، في الحياة الاجتماعية العراقية واضح وجلي، من خلال استخدام المفردات اللغوية التركية في اللهجة العامية ، وتأثر الفلكلور التركماني بثقافة وتراث تلك الشعوب والتأثير بها وبالإضافة

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

إلى العادات والتقاليد التركمانية التي أصبحت جزءً من الحياة اليومية في البلاد، وان معظم المأكولات والحلويات اللذيذة تركمانية المنشأ والمواصفات والاسم.

8 - العشائر التركمانية

البيات : عبارة عن مجموعة عشائر تركمانية عربية كردية مختلطة كانت تسكن في منطقة البيات وكل من سكن فيها لقب البياتي استوطنوا في واسط ومندلي واطراف بغداد وعلى امتداد جبال حمرين. وقد خدم البيات الدولة العثمانية التي بسطت سلطتها على العراق واختلطوا بالعشائر العربية وتصاهروا واستعرب أكثر بيوتاتهم وظهر منهم شخصيات تأريخية وادبية وسياسية هامة.

قره غول: عشيرة تركمانية نزحت من موطنها وسط الأناضول باتجاه العراق منتصف القرن الخامس عشر الميلادي لتستقر وسط العراق ضواحي بغداد مقر الوالي العثماني.

الدايني:عشيرة تركمانية ترجع بأصولها إلى المماليك الذين حكموا العراق قرابة (200) عام. سكن أجدادهم مناطق ديالى و الفرات الأوسط . أشهرهم السيد (علي الدايني) السياسي و المفكر الكبير أيام الحكم الملكي في العراق.

رناؤط :عشيرة تركمانية (البانية) سكنت في الخالص عام 1722

العسكري:عشيرة تركمانية ترجع بنسبها إلى جدهم الأكبر (محمد باشا) سكن ومن بعد أحفاده مدينة كركوك ليعرفوا بمرور الزمن بعائلة (العسكري) التركمانية ينتمي لها الفريق جعفر العسكري وزير الدفاع في أول حكومة وطنية في العراق عام 1921م والفريق سليمان العسكري و اللواء تحسين العسكري.

الخالدي: يقال بأنهم من أحفاد القائد التركماني (خالد الشاطر) أكبر قادة الدولة الأموية إلى جانب الحجاج الثقفي و اليه يعود الفضل الأول والأخير بأستيطانهم في (واسط) و ضواحيها قبالة بلاد فارس ويقال أنهم من أحفاد القائد التركماني (خالد بك بن كتخدا رستم) من قادة الحملة العثمانية لفتح النمسا عام (1690)م والعشيرة تعتبر فرع من قبيلة (بايندر) التركمانية أستقرت في ولاية (سيواس) التركية قبيل نزوحها إلى الشام و العراق. للعشيرة تواجد اليوم في مدن (الموصل – قزلرباط – الدموني).

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

أتراك مصر

تقديم

أتراك مصر و يعرفون أيضاً باسم **تركمان مصر** , هم أتراك العرقيه الذين عاشوا في مصر منذ قدوم الطولونيون والإخشيديون ومن ثم المماليك والعثمانيين ، وبعض هذه العائلات التركمانية قدمت كموظفين في عهد الدولة العثمانية أو في الجيش العثماني. واشتهر منهم سياسيين وكتاب ومفكرين كثيرون وقامت على اكتاف كثير منهم حركة النهضة المصرية في النصف الأول من القرن العشرين.

1 - تاريخ قدومهم إلى مصر

ظهور الشعوب التركية في مصر بدأت لأول مرة في القرن السابع الميلادي عندما استقل أحمد بن طولون بحكم مصر عن الدولة العباسية كان يشترى مماليك الترك من جنوب بحر قزوين.[5] واستمر الاهتمام بشراء غلمان المماليك في ظل حكم السلاطيين الايوبيين الذين تولى مناصب المسؤوليات العسكرية والإدارية في عهد السلطان نجم الدين أيوب.[6] وفى عهد حكم المماليك استكثروا من شرائهم لمماليك الترك حتى صاروا هم المكون الاساسى للجيش في مصر و الشام. علاوة على ذلك، مع توسع الإمبراطورية العثمانية، حيث تم فتح مصر من قبل سليم الأول عام 1534.

1 -1 - في عهد الدولة الإخشيدية والفاطمية

عندما قامت الدولة الإخشيدية، محمد بن طغج الإخشيدي أتي بتركمان من الديلم ويقدر عددهم بثمانية آلاف مملوك. لقد احتاج الفاطميون إلي جيش كبير يساعدهم علي الحروب ويعينهم علي التوسع في الشرق. كان جيشهم الأول من المغاربة وعرب المغرب وإفريقية وذلك عند دخولهم مصر وزودوا عليه عسكر من الترك والديلم والسودانيين والبربر.

توسع السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب في شراء المماليك واستعان بهم ضد منافسيه الأيوبيين في الشام واسكنهم معه في جزيرة الروضة الواقعة في نيل القاهرة واسماهم " المماليك البحرية " نسبة إلى سكنتهم وسط بحر النيل أو لقدومهم من وراء البحر

1 - 2 - في عهد الدولة الأيوبية

عندما أصبحت السلطة في يد الأيوبيين أخذوا يشترون المماليك بكميات عظيمة وذلك لخوض حروبهم مع الصليبيين تارة ومع أنفسهم تارة أخرى. ولكن عندما تولى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب حكم مصر أخذ في شراء الغلمان الصغار وذلك ليدربهم علي امتشاق الحسام والرمح وليجعل في نفوسهم الطاعة له وبنى لهم معسكرات وبراج في جزيرة الروضة في القاهرة وأسكنهم اياها وكذلك جعل منهم فرقة لقلعة الجبل. وعمل لهم نظام تدريب خاص ومعيشة خاصة، فأصبح له ولائهم وحبهم وإخلاصهم. والذي أوعز إلي السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بهذا الأمر هو تمرد عسكره الأيبوبيين عليه في المعارك، وكذلك كثرة نفقات العسكر الخوارزمية المرتزقة الذين غالوا في نفقاتهم وأجورهم.

أخذ السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب في بناء قلعة الروضة ووضع بها المماليك الخاصة التي سميت باسم المماليك البحرية.وانتسب المماليك البحرية بالسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فكانوا يلقبون باسم "المماليك الصالحيه النجميه".

1 - 3 - في عهد دولة المماليك

فبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي عام 1193م، تصدعت الدولة الأيوبية، وأصيبت دمشق بالبلاء العظيم قبل أن تسقط في أيدي المغول .وقد تصد للمغول قادة مماليك التركمان كل من قطز وظاهر بيبرس في معركة عين جالوت وهزم جيش المغولي على يد جيش المماليك. استمر المماليك في الحكم وقاموا بشراء عدد أكبر من الغلمان الاتراك و اصبحوا المكون الاساسى للجيش بفرقه المختلفة كما شهد العصر المملوكي ما لم يشهده عصر إسلامي سابق من حركة واسعة في البناء والتعمير، فامتلأت مصر بالمساجد

والمدارس والمنشآت العسكرية والمدافن التي لا تزال معظم آثارها قائمة في القاهرة والإسكندرية. إلى أن جاء الفتح العثماني للمنطقة في معركة الريدانية عام 1517م بقيادة ياووز سليم الأول.[8]

1 - 4 - في عهد الدولة العثمانية

قدم التركمان إلى مصر كعائلات و ضباط بالجيش العثماني وموظفين بمؤسسات الدولة وتطورت أوضاعهم وأخذت مسارين مُختلفين: الأول أنصهار جزء كبير منهم في المجتمع المصري سواء كانوا من طبقاته الفقيرة أم الطبقات المتوسطة أم من الفئات والنخب الإدارية، ومن أبرزهم أمير الشعراء أحمد شوقى، والكاتب يحيى حقي أما المسار الثاني فانضوى فيه مُلاك الأراضي والأبعديات الواسعة والمشاركون بشكل فعال في الحياة السياسية للبلاد. كما أن الغالبية من سكان مدينة العريش هم من أصل تركي، ويعرفون الآن بالعرايشية، ويسكنون ضواحي المدينة المختلفة ولهم أفرع ونسباً وصهراً بينهم وبين العائلات الأخرى المتواجدة بالمدينة.

1 - 5 - عهد محمد على باشا (1769-1849).

كانت فئة الإداريين فى الادارة المدنية والعسكرية التى أقامها محمد على باشا تتشكل من أفراد عائلته و من الرعايا العثمانيين المتحدثين بالتركية ذوى الخبرة والكفاءة ممن دعاهم إلى مصر عند الحاجة أو وفدوا عليها بقصد تحسين ظروف المعيشة والعمل، واستعان بهم على بناء الإدارة الحديثة. فقد كان يستخدم عددا كبيراً من المماليك بإختلاف أصولهم القوقازية و التركية. و هؤلاء كانوا معدودين من الترك، لأنهم تربوا على العادات و التقاليد التركية، و تزيوا بزى الترك، و كانوا فضلاً عن ذلك يتحدثون التركية بلهجات و درجات مختلفة. كان يبلغ عدد التقديرات حينذاك خمسمائة مملوك، وكان من بينهم من تم تعيينه فى وظائف مدنية وعسكرية، أو تولى وظيفة التربية و التدريس لأبناء عائلة محمد على باشا.

لكن كبار رجال الحكم والإدارة فى عهد محمد على باشا كانوا من الأتراك. ولأن قسماً من هؤلاء الأتراك كانوا مرتبطين برباط المصاهرة بعائلة الوالى أو العائلات القريبة إليه فيكون من الطبيعى ثقته بهم كبيرة، وأن يتولوا الوظائف الحساسة فى الداخل والخارج بكل اطمئنان. مما أدى إلى تغير تركيب المجتمع المصرى فى عهد محمد على باشا. فالمتنفذون المحليون فى عهد المماليك الذين سيطروا على مصر لعدة قرون فقدوا ما بإيديهم من قوة وإلى الأبد، وحل محلهم أعضاء عائلة محمد على باشا والكثيرون ممن قاموا على خدمته. فالموظفون الذين يتحدثون التركية ممن وفدوا بكثرة مع عائلتهم للتوظيف فى دوائر الباشا وكانت أعدادهم تبلغ المئات والالاف أحياناً قد شكلوا عنصراً داخل المجتمع المصرى. وهؤلاء الأشخاص من ذلك القطاع قد شرعوا فى الإقامة الدائمة فى مصر بعد أن حصلوا على مساحات من الأراضى فى أواسط 1830م، فتعلموا العربية وبدأوا يستخدمونها فى حياتهم اليومية، وتصاهروا مع المصريين، واقاموا القصور والدور فى القاهرة والأسكندرية بدلاً من استانبول وإزمير. وهذة الفئة التى شكلت الطبقة الأرستقراطية الجديدة صاحبة الأطيان فى مصر.

1 - 6 - عهد الخديوية

أهم التشريعات القانونية التى أدت إلى اندماج الأتراك مع المصريين برباط واحد هو قانون المواطنة الأول الذى صدر عام 1899م ثم جرى تعديلة فى شهر يونية من العام التالى فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى. وتقول المادة الأولى منه:

« يتمتع بحق المواطنة المصرية كل من توطن القطر المصرى قبل أول يناير 1848م وحافظ على محل إقامتة فيه، وأفراد الرعايا العثمانيين المولودون فى مصر ويقيمون فيها ويقبلون دخول القرعة العسكرية المصرية سواء بأدائهم الخدمة العسكرية أو دفع البلية عنها. »

وفى المدة الثانية:

« والرعايا العثمانيون المتوطنون فى القطر المصرى منذ أكثر من 15 سنة. »

وبعد قيام الانجليز بعزل الخديوى عباس حلمى عام 1914م وتنصيب حسين كامل باشا بدلاً منه بلقب سلطان ، ثم قيامهم عقب وفاته بتنصيب فؤاد سلطاناً فى البداية ثم ملكاً بعد ذلك، حافظت الأحكام السابقة فى قوانين المواطنة المختلفة التى صدرت على وجودها؛ وصدر فى عام 1926م قانون أعطى حق المواطنة المصرية للرعايا العثمانيين المقيمين فى مصر منذ الخامس من نوفمبر 1914م. وهذا يعنى أن

حق المواطنة الممنوح للأتراك الذين يعيشون فى مصر منذ اليوم الذى كانت فيه ولاية تابعة للدولة العثمانية قد ظل سارياً حتى بعد انتهاء علاقتها الرسمية بالدولة العثمانية نفسها.

بعد قيام الجمهورية التركية فى عام 1923م وإقامة علاقات دبلوماسية بين الجمهورية التركية و المملكة المصرية باعتبارهما دولتين مستقلتين، حصل قسم من الأتراك المقيمين فى مصر على حق المواطنة التركية، بينما تجنس القسم الآخر بالجنسية المصرية بناءً على القانون الذى صدر عام 1926م.

2 – الثقافة

2 - 1 - اللغة

طبيعة اللغة التركية المستخدمة فى الجهاز الإدارى فى مصر فى عهد حكم العائلة العلوية وعلى الرغم من انها فى الاساس نفس اللغة المستخدمة فى نفس المجال فى استانبول إلا أنها اكتسبت مع مرور الوقت صبغة محلية فى مصر وأصبحت لهجه محكية من أتراك مصر. فإن الكلمات ذات الأصل العربى المستخدمة بكثرة فى تركية استانبول قد استخدمت بعينها فى تركية مصر. وإلى جانب ذلك فإن هناك كلمات عربية مستخدمة بمعان مختلفة فى الإستعمال التركى قد دخلت الإدارة العربية بمعان لا تعرفها المعاجم العربية. والمثال على الألفاظ المستخدمة فى تركية مصر بمعان أخرى غير المعانى المستخدمة فى تركية استانبول:

كلمة « مراجعت » بتركية استانبول تعنى "التوجه بالطلب" أما بتركية مصر تعنى "المراجعة".

كلمة « توقيف » بتركية استانبول تعنى "الأعتقال" أما بتركية مصر تعنى "التوقيف عن العمل" .

وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى وقيام الانجليز بانتزاع مصر رسمياً من الدولة العثمانية و تحويلها إلى مستعمرة بريطانية انتهى تماما الوضع الرسمى للغة التركية كلغة رسمية فى السراى و معظم الادارات المصرية.[17] وبالتالى بدأت تتراجع اللغة التركية بين الأتراك المصريين و زاد اهتمامهم باللغة العربية التى يحكى بها عامة المصريين.

2 - 2 - الديانة

الغالبية العظمى من الاتراك والترك المصريين يعتنق الدين الإسلامى على المذهب السنى.

ينحدر الترك من أصول مماليك القبجاق والتركمان أما الاتراك ينحدروا من الاراضى العثمانية فى الأناضول والروملى.

3 - التعداد السكاني للتركمان والأتراك في مصر

لا توجد إحصائية رسمية حسب التصنيف العرقي للسكان في مصر في الوقت الحالي إلا أن الاعتقاد سائد من خلال الدراسة الاجتماعية والعرقية للتكوين السكاني للمجتمع المصري عبر تاريخهم الطويل في هذه المنطقة قرابة 1000 عام, لكن تدُل بعض الإحصائيات المتعلقة بتعداد الاتراك في عهد الدولة المملوكية بلغ من 5 الاف إلى 10الاف. و تعداد الأتراك العثمانيين في مصر في عام 1833م كان يتراوح بين عشرة إلي ثلاثين ألفاً.

تتواجد أغلب العائلات المصرية التي لها أصول تركية في مصر في القاهرة والإسكندرية و العريش ومحافظات الدلتا، ومنهم عائلات في الصعيد جاءوا إلى مصر كجنود و ضباط في الكتائب العثمانية التى أرسلت إلى مصر لطرد الفرنسيين من البلاد.

4 - الناحية الاجتماعية

تأثير التركمان والأتراك في الحياة الاجتماعية المصرية واضح وجلي، من خلال استخدام المفردات اللغوية التركية في اللهجة العامية فقد تأثر المصريون بالأتراك في ملبسهم وزيهم وعاداتهم في تناول الطعام، ويمكننا أن نرى العديد من الأمثلة على هذا التأثر في آداب المعاشرة التي أصبحت جزءا من الحياة اليومية في البلاد. وبالإضافة إلى العادات والتقاليد التركية التي أصبحت جزءً من الحياة اليومية في البلاد، وان معظم المأكولات والحلويات الذيذة تركية المنشأ والمواصفات والاسم.

Tarek Kakhia. http://tarek.kakhia.org

4 – 1 - شخصيات تركمانية

احمد تيمورأديب مصري بارز الذي اهتم بتراث مصر الثقافى وحافظ عليه أديب مصري بارز.

محمود تيمور كاتب قصصي كما نال إنتاجه القصصي جائزة مجمع اللغة العربية بمصر سنة (1366هـ = 1947م)، وما لبث أن عُيِّن عضوا فيه عام (1368هـ = 1949م). وحصل على جائزة الدولة للآداب سنة (1369هـ = 1950م)، وجائزة "واصف غالي" بباريس سنة (1370هـ = 1951م)، ومُنِح جائزة الدولة التقديرية في الأدب سنة (1382هـ = 1963م) من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب. و هو ابن الاديب احمد تيمور.

يحيى حقى كاتب وروائي مصري و في يناير عام 1969 على جائزة الدولة التقديرية في الآداب

محمد فريد بك سياسي وحقوقي مصري، أنفق ثروته في سبيل القضية المصرية. وأنشأ أول نقابة للعمال سنة 1909 من أشهر ما كتب: "تاريخ الدولة العلية العثمانية".

عدلي يكن باشا سياسي مصري، تولى رئاسة وزراء مصر ثلاث مرات بين أعوام 1921 و1930 وكان وزير المعارف قبلها كما أسس حزب الأحرار الدستوريين في أكتوبر 1922.

علي بهجت بن محمود بن علي أغا عالم بالتاريخ والآثار، يرجع إليه الفضل في استخراج آثار الفسطاط بالقاهرة (1274 - 1342 هـ = 1858 - 1924 م).

وحيد فريد (1919 - 1998) مصور سينمائي مصري من الكبار لقب بـ "شيخ المصورين".

مصطفى لطفى المنفلوطى أديب مصري نابغ في الإنشاء والأدب.

توفيق الحكيم كاتب وأديب مصري، من رواد الرواية والكتابة المسرحية العربية ومن الأسماء البارزة في تاريخ الأدب العربي الحديث.

حافظ إبراهيم شاعر مصري ذائع الصيت. عاصر أحمد شوقي ولقب بشاعر النيل وبشاعر الشعب.

أحمد شوقي شاعر مصري يعد من أعظم شعراء العربية في جميع العصور و لقب بـ "أمير الشعراء".

زكريا أحمد موسيقي مصري أحد عمالقة الموسيقى العربية.

محمد عبده عالم دين و فقيه و مجدد إسلامي مصري ، يعد أحد رموز التجديد في الفقه الإسلامي و من دعاة النهضة والإصلاح في العالم العربي والإسلامي و تم تعينه كمفتى للديار المصرية في 3 يونيو عام 1899م